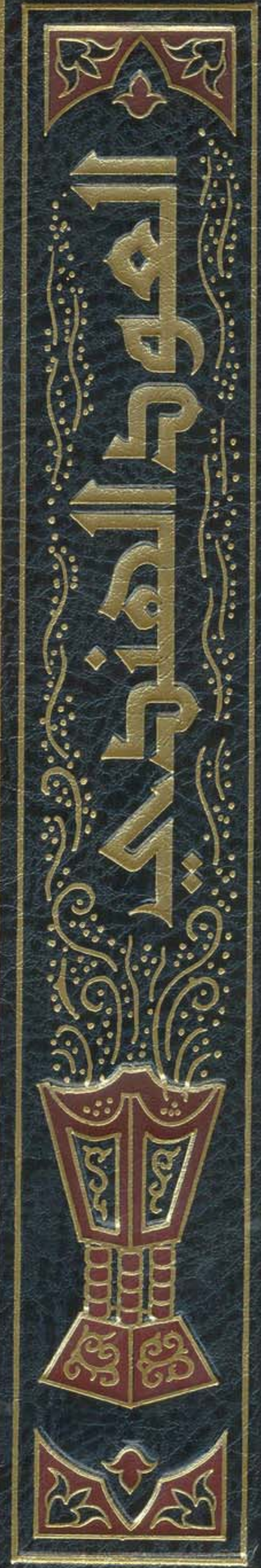
العود الهندي

عن أمالي في ديوان الكندي

مجالس أدبية في ديوان المتنبي

تأليف علامة حضرموت ومفتيها
السيد عبد الرحمن بن عبيد الله السقاف
رحمه الله تعالى

الجزء الأول



دار المنهاج

العُودُ الهِنْدِيّ

عَنْ أَمَالِيَّ في ديوان الكِنْدِيّ

مجالس أدبية في ديوان المتنبي

تأليف

علّامة حضرموت ومُفتيها

السيّد عبد الرحمن بن عُبيد الله السقّاف

رحمه الله تعالى

عُنِيَ بِهِ

محمد مصطفى الخطيب

بمُساهمة

اللجنة العلمية بمركز دار المنهاج للدراسات والنشر

المجلد الأول

دار المنهاج

بسم الله الرحمن الرحيم

العُودُ الهِنْدِيّ

عَنْ أَمَالِيَّ في دِيوَانِ الكِنْدِيّ



لبنان ـ بيروت ـ فاكس : ٧٨٦٢٣٠

الطَّبعَة الثَّانية

١٤٣١هـ ـ ٢٠١٠م

دار المنهاج للنشر والتوزيع

لصاحبها عمر سالم باجخيف

وفقه الله تعالى

المملكة العربية السعودية ـ جدة

حي الكندرة ـ شارع أبها تقاطع شارع ابن زيدون

هاتف رئيسي 6326666 ـ الإدارة 6300655

المكتبة 6322471 ـ فاكس 6320392

ص. ب 22943 ـ جدة 21416

ISBN: 978 - 9953 - 498 - 48 - 5



www.alminhaj.com

E-mail: info@alminhaj.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أضواء على الكتاب

بقلم / الدكتور محمد عبد الرحمن شميلة الأهدل

أَحمدُكَ ٱللَّهُمَّ ، وأَستَمنِحُكَ ٱلسَّدادَ ، وأُصلِّي وأُسلِّمُ على ٱلمبعوثِ بجوامِعِ ٱلكَلِمِ ، مَنْ مَدَّت عليه ٱلفصاحَةُ رِواقَها ، وَشَدَّت بهِ ٱلبلاغَةُ نِطاقَها ، ابنِ ٱلذَّبيحينِ ، وخيرِ ٱلثَّقلينِ ، وعلىٰ ٱلآلِ ٱلغُرِّ ٱلميامينِ ، وصحابتِهِ ٱلدُّعاةِ ٱلمجاهدينَ ، وٱلتَّابعينَ لَهم في كُلِّ عَصرٍ وحين .

وبعدُ :

فإنِّي لا أَقصدُ بهٰذِهِ ٱلكلماتِ كَشفَ ٱلنِّقابِ عَنِ ٱلمزايا ٱلمتألِّقَةِ في سماءِ ٱلبيانِ ٱلَّتي تتلألأُ بها صفحاتُ هٰذا ٱلسِّجلِّ ٱلأَدبيِّ ٱلحافِلِ بٱلدَّقائِقِ ٱلأَدبيَّةِ ، ولَم أُعنَ بتوصيفِ مواهبِ ٱلمؤلِّفِ وبلاغتِهِ ٱلهاشميَّةِ ، ولَم أَصمُدْ إلىٰ بَقْرِ محتوياتِ كتابهِ علىٰ ٱلنَّحوِ ٱلاستقرائِيِّ ٱلَّذي يمنحُ ٱلمتأَهِّلَ ٱلحكمَ ٱلصَّائِبَ علىٰ هٰذا ٱلسِّفرِ ، ووضعِهِ في مرتبتِهِ ٱلأَدبيَّةِ ٱللاَّئِقَةِ ؛ فقدِ ٱضطلعتْ بذلكَ ٱلمقدِّمَةُ ٱلرَّائِعَةُ ٱلَّتي نسجَ خيوطَها ٱلمحقِّقونَ .

وَعِندَ جُهينَةَ ٱلخبرُ ٱليقينُ

نعم ، لقد نعِمْتُ بمطالَعَةِ أَجزاءٍ منهُ ، ومتَّعتُ ٱلفكرَ في رياضِها ، وٱستنشقْتُ شذىٰ أَدبيَّاتها ، وأَفَدتُ مِن جواهرِها ٱلمكنونَةِ ، وقطَفتُ من أَزاهيرِها ٱلبَسَّامَةِ كُلَّ معنىً بديعٍ .

فَٱجتمعَ لي بتصفُّحِ هـٰذهِ ٱلأَجزاءِ ٱلاستفادَةُ ٱلعلميَّةُ ، وٱلابتهاجُ ٱلرُّوحيُّ ، ٱلممزوجَانِ بٱلإِمتاعِ ٱلأَدبيِّ ، فكانَ لِزاماً أَن تتمخَّضَ تلكَ ٱلمطالعةُ عَن سَيَلانِ أَحاسيسي بنعوتِ ٱلإِعجابِ بهـٰذا ٱلسِّفْرِ ٱلبديعِ .

لذلكَ أَعنقَتْ يراعتي في ميدانِ ٱلإِشادَةِ بٱلقيمةِ ٱلأَدبيَّةِ لهـٰذا ٱلسِّفْرِ ٱلممتعِ ٱلمفيدِ .

سَقَوْنِيْ وَقَالُوا لاَ تُغَنِّيْ وَلَوْ سَقَوْا جِبَـالَ حُنَيْـنٍ مَـا سَقَـوْنِـيْ لَغَنَّـتِ

وإِذَا كانَتِ ٱلكتابَةُ تَنُمُّ عَنْ وُجهةِ ٱلكاتِبِ ، وٱلمؤلِّفُ يُفصِحُ عَن قُدرةٍ جامِعِهِ ، وينبىءُ عن معارِفِهِ ، ويحدِّدُ مكانتَهُ ٱلعلميَّةَ . . فإِنَّنا بنظرةٍ فاحصةٍ في هـٰذا ٱلكتابِ نَجزِمُ مطمئِنِّينَ بأَنَّ ٱلفلسفةَ ٱلأَدبيَّةَ ٱلَّتي نحاها هـٰذا ٱلإِمامُ ٱلعَلَمُ ، وٱلتَّنوُّعَ ٱلَّذي ٱصطفاهُ . . لَيَشهدانِ بعُلُوِّ كَعبِهِ في مختلِفِ ٱلمعارِفِ ، ورُسوخِ قَدمِهِ في ٱلإِحاطَةِ ببنتِ عدنانَ ، وٱلتَّشبُّعِ بلطائِفِها ، وٱلهيمنَةِ علىٰ دقائِقِها ؛ فقد أَهدت إِلىٰ هـٰذا ٱلسَّيِّدِ ٱلعبقريِّ كنوزَها ، وٱستسلَمَت لَهُ شوارِدُها وأَوابدُها ، هـٰذا إِضافةً إِلىٰ ما تميَّزَ بهِ مِنْ حسنِ ٱختيارٍ لما يبهجُ ٱلأَنْفُسَ مِنْ أَدبيَّاتٍ ، وما تنتشِطُ بهِ ٱلأَفكارُ مِنَ ٱلفكاهاتِ .

أَمَّا تلكَ ٱلمباحِثُ ٱلعويصَةُ ، ذاتُ ٱلمسالِكِ ٱلضَّيِّقَةِ ، ٱلَّتي يطرحُها علىٰ ٱلبساطِ ٱلشَّرعيِّ ، ثُمَّ يرسِلُ عليها أَشعَّةَ تحقيقاتِهِ ، ويضعُ ٱلهناءَ علىٰ ٱلنَّقْبِ . . فإِنَّها منثورَةٌ في ثنايا هـٰذا ٱلكتابِ ، وإِلىٰ أَدنىٰ مِنها أَهمِّيَّةً يرحلُ ٱلمتفقِّهونَ ، ولا غرو . . فهوَ إِمامُ وقتِهِ ، ومُفتي قُطرِهِ ، ما رأَىٰ في عصرِهِ مثلَ نفسِهِ ، إِلاَّ أَنَّ كُلَّ أَحدٍ يُؤْخَذُ مِنْ قولِهِ ويُرَدُّ . . إِلاَّ مَنْ عُصِمَ .

ومعَ أَنَّ ٱلمؤلِّفَ قد جمعَ في كتابِهِ بينَ ٱلجدِّ وٱلهزلِ ، ومَزَجَ ٱلمعرفَةَ بٱلإِمتاعِ . . إِلاَّ أَنَّهُ لم يُلْحَقْ شأْوُه في نمطِهِ ، ولم يَسبقْ أَحدٌ إِلىٰ طريقتِهِ ، أَلَم يُلَفِّعْ كتابَه بِمرطِ ٱلجودَةِ ، ويحلِّيهِ بزينَةِ ٱلإِتقانِ ؟!

ولذا سالَتْ مِنْهُ حلاوةُ ٱلجدَّةِ علىٰ قُربِ ٱلعهدِ .

وأمَّا ما روَّح بهِ ٱلمؤلِّفُ علىٰ ٱلنُّفوسِ لهَزْم جيوشِ ٱلسَّآمَةِ . . فليست إلاَّ مفاكهاتٍ يتسامَرُ بأمثالِها ٱلفضلاءُ ، ويَستملحُ لطائِفَها ٱلكبراءُ ، مِمَّا لا يأنَفُ ٱلمحتشمونَ مِنَ ٱلمُسامَرةِ بأضرابِها ، وهي طريقَةُ ٱلألِبَّاءِ ، ومُتَنَفَّسُ ٱلأُدباءِ في كُلِّ عصرٍ ومِصرٍ .

وهو بذلكَ لم يُقارِفْ ما يُخلُّ بٱلمروءَةِ ، ولَم يوضِعْ في فحش المُجونِ ، ولَم يصطدمْ بما يهزُّ ٱلآدابَ ٱلشَّرعيَّةَ ، بَلِ ٱتَّسمَتْ مفاكهاتُهُ بٱلملاحَةِ ، وٱنتظمَتْ في سِلكِ ٱلإمتاعِ وٱللَّطافَةِ ، ومِثلُ هـٰذا ٱلقَدرِ يستعذبُهُ ٱلعلماءُ ، ويَتَنَدَّرُ بِخِفَّتِهِ ٱلفُقهاءُ ، ويَلهَجُ بهِ عُشَّاقُ ٱلطُّرَفِ وٱلمُلَحِ ، وقلَّ أَن يخلوَ كتابٌ أدبيٌّ مِن هـٰذه ٱلمتعَةِ وتلكَ ٱلمؤَانَسَةِ .

وإنِّي علىٰ يقينٍ تامٍّ بأَنَّ هـٰذا ٱلسِّفْرَ ٱلبِكرَ سيتربَّعُ بعدَ نشرِهِ علىٰ مَنصَّةِ ٱلقَبولِ ، وسيكونُ مَنهلاً عذباً مِن مناهِلِ ٱلأدَبِ .

وَٱلْمَنْهَلُ ٱلْعَذْبُ كَثِيْرُ ٱلزِّحَامْ

بَل سيكونُ مرجِعاً وثيقاً لِمَنْ يُعنىٰ بقواعِدِ ٱلنَّقدِ ، أَو يَهمُّهُ ٱلوقوفُ على نُكَتِ ٱلبلاغَةِ ، وطُرُقِ ٱلفصاحَةِ .

وما ذلكَ إلاَّ لما حواهُ مِنْ أَدَبٍ جَمٍّ ، وتِبيانٍ لدقائِقِ ٱلفصحاءِ ، وإبرازٍ لمحاسِنِ ٱلموهوبينَ مِنَ ٱلشُّعراءِ ، وٱلإتيانِ بٱلأشباهُ وٱلنَّظائِرِ مِنَ ٱلمعاني ٱلَّتي تَواطأَ ٱلبلغاءُ علىٰ نظمِها في سِمطِ ٱلدُّرَرِ ، وٱلمقارنَةِ ٱلعادِلَةِ بينَ تلكَ ٱلنَّظائِرِ ، وما أَبرزَتْهُ تحويراتُهم مِنْ حُسنٍ أَو إساءَةٍ ، ولئِنْ أَطلقتُ في نعتِهِ عِنانَ ٱلكلامِ . . فما مرامي إلاَّ أَنْ أبلُغَ بهِ ما يستحقُّ مِنَ ٱلمكانَةِ ، ولاسيَّما وهوَ لم يَقرعْ مِنْ قَبلُ آذانَ ٱلمتأَدِّبينَ ، ولَم يصافح أذهانَ ٱلمعنيِّينَ بٱلنَّقدِ ٱلأدبيِّ ، فليسَ

صنيعي هـٰذا خروجاً عَنْ حَدِّ ٱلاعتدالِ ، ولا وقوعاً في ثَبَجِ ٱلغلوِّ .

بَل لا أَجدُني مبالغاً إِنِ ٱعترفتُ بأَنَّ قَلَمي لَم يَقوَ علىٰ ٱلإِفصاحِ عن كُلِّ خِصِّيْصَةٍ فيهِ ، ولَم يثبْ بَياني إِلىٰ تِبيانٍ جديدِهِ ، ولَم يَخُضْ فِكري فيما ٱفترعَهُ ٱلمؤلِّفُ مِن أَبكارِ ٱلفوائِدِ ، ٱلَّتي هي من نسجِ طبعِهِ ، وسَبْكِ فهمِهِ ، وصوغِ ذهنِهِ .

ولعلَّ في مقدِّمَةِ ٱلنَّاشِرِ ما يرفَعُ ٱلأَستارَ عَن تلكَ ٱلخصائِصِ جميعِها ، بيدَ أَنَّ ٱلَّذي يستدعيني ٱلمَقامُ أَنْ أَستهدفَهُ في هـٰذهِ ٱلأَحرف ، وأُميطَ عنه لثامَ ٱلحقيقةِ . . هوَ ٱلإِعلامُ بما يقاسيهِ ٱلأَدَبُ ٱلعربيُّ في ٱلعصرِ ٱلحاضِرِ مِن جفاءٍ ، وما يعانيهِ مِن قَطيعةٍ مِن بني جِلدَتِهِ ، سواءٌ في ذلكَ شعرُهُ ونثرُهُ ، وجِدُّهُ وهزلُهُ ، وقديمُهُ وجديدُهُ ، بَل رُبَّما وقفَ ذُو طبع غليظٍ وحسٍّ متبلِّدٍ يهدمُ عمداً مآثِرَ ٱلشِّعرِ عامَّةً ، فتراهُ يتابعُ ٱلاستغفارَ وٱلاستنكارَ معاً إِنْ صكَّ سمعَهُ بيتُ شعرٍ ترَنَّم بهِ أَديبٌ ، أَو تمثَّلَ بهِ أَريبٌ ، أَوِ ٱستدعتْهُ حادِثَةٌ ، وهـٰذا خلافُ ما عليهِ ٱلقومُ .

وكثيراً ما نسمعُ في مسامراتِنا مَنْ يتأَفَّفُ مِن إِنشادِ ٱلأَشعارِ ، ويعتصِمُ بِنَصِّ ٱلتَّنزيلِ ٱلحكيمِ ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ [الشعراء : ٢٢٤ـ٢٢٦] ، ثُمَّ ينقطعُ نَفَسُهُ فلا يتابعُ ٱلاستثناءَ ٱلَّذي يرفَعُ ٱلملامَ عَنْ مُؤْمني ٱلشُّعراءِ ، فيكونُ صنيعُ هـٰذا ٱلمُستشهدِ بنصٍّ مبتورٍ شبيهاً بمَن يقرأُ : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴾ [الماعون : ٤] ويَقِفُ ، وكِلا ٱلوقفينِ مَذمومٌ شرعاً .

وقد نتجَ عن هـٰذا ٱلعِداءِ وتلكَ ٱلجفوَةِ هـٰذا ٱلانكماشُ ٱلملحوظُ في ٱلحركَةِ ٱلأَدبيَّةِ ، وإِيجادُ سَدٍّ متينٍ بينَ ٱلنَّاشئَةِ وتُراثِهمُ ٱلأَدبيِّ .

وأَعانَ علىٰ تقويَةِ هـٰذا ٱلسَّدِّ ذلكَ ٱلهزالُ ٱلبيِّنُ ٱلَّذي يَنْخَرُ في معارفِ

ٱلخرِّيجينَ مِنَ ٱلنَّاحيةِ ٱللُّغويَّةِ ، وحُقَّ لنا أَنْ نتمثَّلَ بقولِ ٱلأَوَّلِ (ضِغثٌ علىٰ إِبالَةٍ)[1] فٱستحكمَ ٱلدَّاءُ ، وعَزَّ ٱلدَّواءُ .

ولستُ ملزماً هنا بسردِ مزايا ٱلأَدَبِ بسائِرِ فنونِهِ ؛ ففي ٱلمقدِّمةِ ما يكفي ويَشفي ، وفي صحيحِ ٱلأَخبارِ ما يدحضُ هـٰذا ٱلاستنكارَ .

بيدَ أَنِّي أَذكرُ موقفاً خالداً مِن مواقفِ ٱلفاروقِ رضيَ ٱللهُ عنهُ ؛ فقد خرجَ علىٰ ٱلمسلمينَ في مسجدِ رسولِ ٱللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم ، وقامَ فيهم مُستفهماً ، فقالَ : أيُّكم يعرفُ هـٰذا ٱلحرفَ ؟ ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ ﴾ [النحل : ٤٧] ما ٱلتَّخوُّفُ ها هنا ؟

فأَرَمَّ ٱلقومُ ، فقامَ شيخٌ مِن أُخرياتِ ٱلمسجدِ فقالَ : أَنا أَعرفُ ذلكَ ، اَلتخوُّفُ ها هنا : ٱلتَّنَقُّصُ ، فقالَ لهُ عمرُ : أَوَ يَعرِفُ ٱلعربُ ذلكَ ؟ فقالَ لَهُ : نعم ، يقولُ شاعِرُنا :

تَخَـوَّفَ ٱلـرَّحْـلُ مِنْهَـا تَـامِكـاً قَـرِداً   كَمَـا تَخَـوَّفَ عُـوْدَ ٱلنَّبْعَـةِ ٱلسَّفَـنُ[2]

ـ (تخوَّفَ) : تنقَّصَ . (ٱلتامِكُ) : ٱلسَّنامُ . (ٱلقَرِدُ) : كثيرُ ٱلشَّعَرِ . و(ٱلنَّبعةُ) : شجرةٌ تُتَّخَذُ مِنها ٱلسِّهامُ . و(ٱلسَّفَنُ) : ٱلمبراةُ ـ فقالَ أَميرُ ٱلمؤمنينَ :

(عليكم بأَشعارِ ٱلعربِ ؛ فإِنَّ فيها معرفَةَ كلامِ ربِّكُم) . أَو قالَ نحو هـٰذا .

وهناكَ صِنفٌ مِنَ ٱلفضلاءِ تظهرُ عليهم سِماتُ ٱلاحتشامِ إِذا ترامت إِلىٰ مسامِعِهم نوادرُ يتروَّحُ بنسيمها ٱلمتأَدِّبونَ من هَجيرِ ٱلحياةِ ؛ إِذ تتجهَّمُ وجوهُهم

---

(١) **الضِّغثُ** : القبضة من الحشيش . **الإِبالة** : الحزمة من الحطب . وهو مثل عربي ، معناه : مصيبة على أخرىٰ .

(٢) يصفه بأَنَّه مِن كثرةِ أَسفارِهِ علىٰ ناقتِهِ . تنقَّصَ رحلُها مِن سنامِها كما تتنقَّصُ ٱلسّهمَ ٱلمبراةُ .

إِن باسطَهم أَحدٌ بمزحٍ مُؤْنِسٍ ، أَو طرفةٍ لطيفَةٍ ، ويَعُدُّونَ هـٰذا ٱلهزلَ سخفاً يَصفعُ قَفا ٱلأَلِبّاءِ ، وهَذراً يَستتِرُ منهُ أُولو ٱلحشمَةِ بسجافِ ٱلمروءَةِ ، حتَّىٰ وإِن كانَ مَزحاً لم يرتعْ في حمأَةِ ٱلفُحشِ ، ولَم يَكْلَمْ جسمَ ٱلحياءِ ، ولم يَسبح في يَمّ ٱلمجونِ ٱلممجوجِ .

وقد غابَ عن هـٰؤلاءِ أَنَّ ٱلتَّرويحَ عنِ ٱلأَنفُسِ بما هو مباحٌ . . فيهِ ٱستجمامٌ للفكرِ مِنْ عناءِ ٱلجدِّ ، وٱستملاحٌ يهفو إِليهِ ٱلطَّبعُ ، وتفكُّهٌ بٱلممتعِ مِنَ ٱلنَّوادِرِ ، ومجلبةٌ لطيبِ ٱلخاطِرِ ، ومؤانَسةٌ تبعثُ علىٰ ٱلصَّفاءِ .

وَتِلْكَ شَكَاةٌ ظَاهِرٌ عَنْكَ عَارُهَا

ولا يزالُ ٱلأَكابرُ في كلِّ عَصرٍ ومصرٍ يتعشَّقونَ هـٰذا ٱلفنَّ ٱللَّطيفَ ، وطالَما جنحوا إِلىٰ مَلاحَتِهِ ، وٱلارتشافِ مِن دَنِّهِ .

وها هو ٱلوزيرُ أَبو عبدِ ٱللهِ ٱلحسينُ بنُ أَحمدَ بنِ سعدانَ ، ٱلمتوفَّىٰ مقتولاً سنةَ (٣٧٥هـ) قالَ للإِمامِ ٱلعلاَّمَةِ أَبي حيَّانَ ٱلتَّوحيديِّ[1] :

(تعالَ حتَّىٰ نجعلَ ليلتَنا هـٰذه مجونيَّةً ، ونأْخُذَ مِنَ ٱلهزلِ بنصيبٍ وافرٍ ؛ فإِنَّ ٱلجدَّ قَد كدَّنا ، ونالَ مِن قُوانا ، وملأَنا قَبضاً وكرباً) ، فٱندفعَ هـٰذا ٱلإِمامُ يُسامِرهُ بأَخبارِ ٱلمُجّانِ ، وأَحوالِهم في ذلكَ ٱلزَّمانِ .

ولا زالَ ٱلعلماءُ ـ علىٰ تنوُّعِ ٱختصاصاتِهم ـ يستملحونَ ٱلأَخذَ بطرَفٍ من هـٰذا ٱلبابِ ، ولم يرموا ٱلمؤَلِّفينَ في هـٰذا ٱلبابِ بٱلعظائِمِ .

وها هو أَحدُ أَئِمَّةِ ٱلشَّافعيَّةِ يملي في حلقةِ درسِهِ علىٰ أَتباعِهِ حينَ سُئِلَ : (هل يُقتَلُ ٱلحرُّ بٱلعبدِ ؟) وهيَ مسأَلَةٌ خلافيَّةٌ أَعرقَ ٱلخلافُ فيها مِنَ ٱلقِدَمِ ، فأَجابَ مترنِّماً :

---

(١) « الإمتاع والمؤانسة » (٢/ ٥٠) .

خُـذُوْا بِـدَمِـيْ هَـٰذا ٱلْغَـزَالَ فَـإِنَّـهُ رَمَـانِـيْ بِسَهْمَـيْ مُقْلَتَيْـهِ عَلَـىٰ عَمْـدِ
وَلاَ تَقْتُلُـــوْهُ إِنَّمَـــا أَنَـــا عَبْـــدُهُ وَفِيْ مَذْهَبِيْ لاَ يُقْتَلُ ٱلْحُرُّ بِٱلْعَبْدِ

فجمعَ رحمهُ ٱللهُ تعالىٰ بينَ ٱللُّطفِ ، وجميلِ ٱلسَّبكِ ، وإصابَةِ ٱلغَرَضِ ، وٱلجزم بٱلحُكم يزهو في حُلَلِ ٱلملاحَةِ ويَنضَحُ بوابلٍ مِنَ ٱلرِّقَّةِ . بَلْ ما تحرَّجَ ٱلإمامُ ٱلشَّافِعِيُّ حينَ رَفَعَ إِليهِ شابٌّ سُؤَالَهُ قائلاً :

سَلِ ٱلْعَالِمَ ٱلْمَكِّيَّ هَلْ فِيْ تَزَاوُرٍ وَضَمَّـــةِ مُشْتَـــاقِ ٱلْفُـــؤَادِ جُنَـــاحُ

لَم يتحرَّجِ ٱلإمامُ مِنْ إجابَتِهِ ، فقالَ لَهُ مجيباً :

فَقُلْـتُ مَعَـاذَ ٱللهِ أَنْ يُـذْهِـبَ ٱلتُّقَـىٰ تَـــلاَصُـــقُ أَكْبَـــادٍ بهـــنَّ جِـــرَاحُ

ولولا خشيةُ أَن تطولَ ذُيولُ هـٰذهِ ٱلأَحرفِ ، ويَؤُوبَ ٱلتَّقديمُ بَطيناً . . لأَعنقتُ في هـٰذا ٱلميدان مَليّاً .

بَل إِنَّ بعضَ ٱلأُدباءِ ٱلمتقدِّمينَ لَم يَتحرَّجْ مِن روايةِ أَشعارِ ٱلمجونِ في مؤَلَّفاتِهِ ، وجُلُّها موغلٌ في ٱلإِفحاشِ ؛ إِبرازاً لاقتدارِ شعراءِ ٱلمجونِ علىٰ إِيرادِ ٱلمعاني ٱللَّطيفَةِ ، وٱلتَّشبيهاتِ ٱلبديعةِ ؛ إِذْ غَدَتْ منتظمةً في سِلكِ ٱلملاحَةِ وٱلبلاغَةِ ، فرجَّحوا أَنَّ قيمتَها ٱلأَدبيَّةَ تسترُ بِثَوبِها ٱلسَّابغِ فُحشَها ، وحسنَ نَسيجِها يُغطِّي قُبحَها :

وَتَحْتَ ٱلرَّغْوَةِ ٱللَّبَنُ ٱلصَّرِيْحُ

بيد أَنَّ صنيعَهم هـٰذا محلُّ نظر ، ومثالاً علىٰ ذلكَ ٱلعلاَّمةُ ٱلمحقِّقُ مُحَمَّدٌ محيي ٱلدِّينِ عبدُ ٱلحميدِ لمَّا أَجمعَ ٱلعزمَ علىٰ تحقيقِ « يتيمةِ ٱلدَّهرِ في محاسِنِ أَهلِ ٱلعصرِ » للأَديبِ ٱلمؤرِّخ أَبي منصورٍ عبدِ ٱلملكِ بنِ مُحَمَّدِ بنِ إِسماعيلَ ٱلثَّعالبيِّ ٱلنَّيسابوريِّ ٱلمتوفَّىٰ سنة (٤٢٩هـ) ، وهيَ مشحونةٌ بأَشعارِ ٱلخلاعَةِ

والمجونِ . . قالَ : (وَلٰكنَّا لَم نَشَأْ أَنْ نحذفَ شيئاً مِمَّا في هٰذا الكتابِ مِنَ المجونِ كما يفعلُ بعضُ النَّاسِ مِنَ النَّاشرينَ ؛ تحرُّجاً منهم وتأثُّماً زَعموا ، وحِرصاً علىٰ مكارِمِ الأَخلاقِ ظَنُّوا ؛ لأَنَّا لا نُؤَلِّفُ كتاباً نختارُ فيهِ ما نَشاءُ ، وندعُ ما نشاءُ ، وإنَّما نحقِّقُ نصّاً قَيَّدَهُ صاحبُهُ في زَمَنٍ كانَ النَّاسُ فيهِ أَشَدَّ تحرُّجاً مِن هٰذا الزَّمَنِ الَّذي نعيشُ فيهِ . . إلىٰ أَن قالَ :

(واللهُ يعلَمُ أَنَّنا لا نَقِلُّ عن هٰؤلاءِ ـ المتأَدِّبينَ الَّذين يفسدونَ كُتُبَ النَّاسِ ـ تحرُّجاً مِنَ المجونِ ، ولا حِرصاً علىٰ مكارِمِ الأَخلاقِ[1] ، وإنَّما الغَرَضُ مِن نشرِ الكتابِ في رأْينا إنَّما هوَ أَن نَدُلَّ قُرَّاءَ الأَدَبِ العربيِّ علىٰ الحياةِ الأَدبيَّةِ ، والحياةِ الاجتماعيَّةِ والسِّياسيَّةِ في هٰذهِ الحقبةِ الَّتي كانَ الشُّعراءُ يعيشونَ فيها ، وأَنْ نضعَ بينَ أَيديهمُ النُّصوصَ الَّتي تدلُّهم على ما يتوجَّهونَ إليهِ مِن مناحي البحثِ)[2] .

فإذا كانَتْ هٰذهِ الحالُ في المجونِ المَمْجوجِ شرعاً . . فإنَّا نَبرَأُ إلىٰ اللهِ تعالىٰ مِنْ أَنْ نَصِمَ أَديباً كبيراً وعالماً نِحريراً باللَّومِ ، أَو نغمزَهُ بالخروجِ عَن دائِرَةِ الآدابِ الشَّرعيَّةِ ، وهوَ لم يَزبُر في سفرِهِ هجراً ، ولَم يرتَعْ في حمأَةِ المجونِ ، وما غرضُ هٰذا الشَّيخِ العلاَّمَةِ إلاَّ شحذُ ذِهنِ القارئِ ، ودفعُ سآمَةِ الجِدِّ ، ومحوُ عَنَتِ كَدِّ الأَفكارِ في المعاني الدَّقيقَةِ ؛ ليعودَ إلىٰ جدِّهِ مرتاحَ الفكرِ خفيفَ الرُّوحِ ، مُتجدِّدَ النَّشَاطِ .

ودارُ المنهاجِ قدِ اضطلعَتْ مشكورَةً باستخراجِ جواهِرِ التُّراثِ مِنْ أَعماقِ المكتباتِ المخطوطَةِ ، ودأَبَتْ علىٰ إبرازِ كُنوزِنا الثَّمينَةِ تتهادىٰ في حُلَلِ

---

(١) كذا في الأَصلِ .
(٢) المقدمة لـ« يتيمة الدهر » (١ / ٥) .

ٱلتَّحقيقِ ، وها هيَ ٱليومَ تُهدي إلىٰ عُشَّاقِ ٱلأَدَبِ ٱلعربيِّ هـٰذا ٱلسِّفْرَ ٱلنَّافِعَ ، وسوفَ ترحبُ بهِ ٱلمكتبةُ ٱلعربيَّةُ ، وتبتسِمُ لَهُ لغةُ ٱلضَّادِ .

وبعدُ :

فإِنَّ هـٰذا ٱلكتابَ غزيرُ ٱلمعاني ، رفيعُ ٱلأُسلوبِ ، عَزيزُ ٱلمباحِثِ ، رقيقُ ٱلحواشي ، بطينُ ٱلمحتوىٰ ، عظيمُ ٱلفائِدَةِ ، جمعَ بين ٱلمتانَةِ وٱلحلاوَةِ ، وٱلسُّهولَةِ وٱلجزالَةِ ، وٱلغوصِ لانتقاءِ ٱلجواهِرِ ٱلثَّمينَةِ ، كيفَ لاَ ومُؤَلِّفُهُ فردُ دهرِهِ ، وشمسُ عصرِهِ ، ومفتي قطرِهِ .

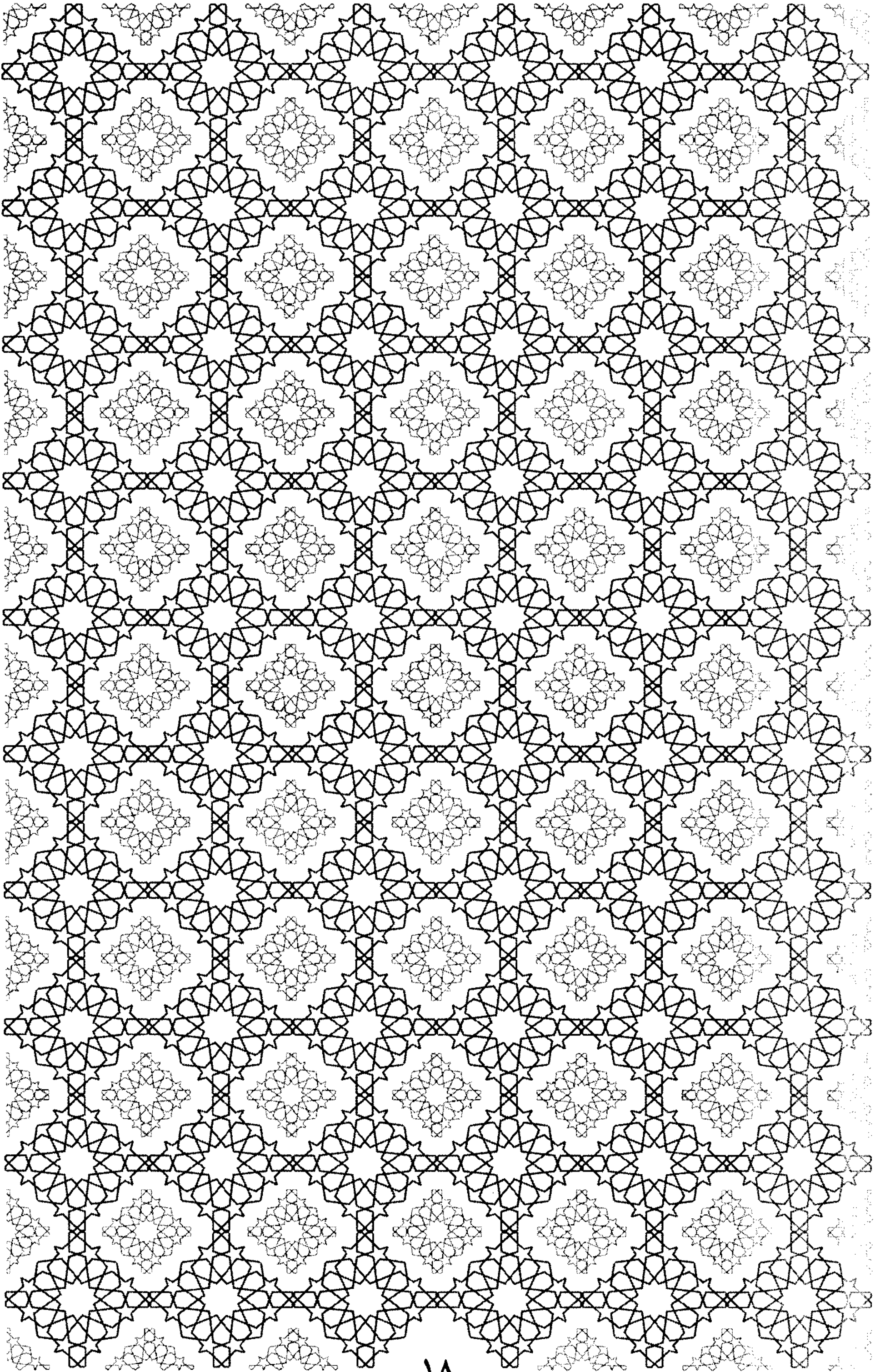
كتبه أبو عبد الباري عجلاً خجلاً

الدكتور محمد عبد الرحمن شميلة الأهدل

في ١٥/٨/١٤٢٢هـ

* * *

مقدّمة التحقيق



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تمهيد

بقلم/ محمد مصطفى الخطيب

الحمدُ للهِ ٱلعليمِ ٱلعلاَّمِ ، ٱلرَّحيمِ ٱلرَّحمـٰنِ ، أَنزلَ ٱلقرآنَ ، خَلَقَ ٱلإِنسانَ ، عَلَّمَهُ ٱلبيانَ .

وٱلصَّلاةُ وٱلسَّلامُ علىٰ نبيِّهِ ٱلهادِ ، أَفصحِ مَن نطقَ بٱلضَّادِ ، وعلىٰ آلهِ وصحبهِ ذوي ٱلرَّأْيِ وٱلسَّدادِ .

أَمَّا بعدُ :

فقد قيلَ : راوِحوا ٱلقلوبَ ساعةً فساعةً ؛ فإِنَّها إِذا كَلَّتْ . . عَمِيَتْ .

فكما أَنَّ ٱلجسدَ يتعبُ ويطلُبُ ٱلرَّاحةَ ، فكذلكَ ٱلرُّوحُ وٱلنَّفْسُ ، وخصوصاً في هـٰذهِ ٱلأَيَّامِ ٱلَّتي كثُرَتْ فيها ٱلمشاغِلُ وٱلمنغِّصاتُ ، وصارَتِ ٱلحاجَةُ مُلِحَّةً إِلىٰ ما يُستأْنَسُ بهِ ويُستروَحُ إِليهِ بما لا يخرجُ عنِ ٱلإِطارِ ٱلشَّرعيِّ .

ولولا أَنَّ ٱلإِنسانَ مِن حينٍ لآخرَ يسمعُ كلاماً حسناً يميِّزُهُ بعينِ عقلِهِ ، أَو أَنَّهُ يرىٰ مَنظراً جميلاً يَراهُ بعينِ رأْسِهِ ، ثُمَّ ينعكِسُ ذلكَ إِيجاباً علىٰ مِرآةِ فِكرِهِ . . لَتكالَبَتْ عليهِ ٱلهمومُ وٱلغمومُ ، وَلَعَلَتْهُ ٱلكآبَةُ وٱلحزْنُ .

وقد أَوضحَ هـٰذا ٱلمعنىٰ ٱلشاعرُ في قولِهِ :

أَفِدْ طَبْعَكَ ٱلْمَكْدُوْدَ بِٱلْهَمّ راحةً بحزمٍ وعلله بِشَيْءٍ مِنَ ٱلْمَزْحِ

وَلَـٰكِـنْ إِذَا أَعْطَيْتَـهُ ٱلْمَـزْحَ فَلْيَكُـنْ بِمِقْدَارِ مَا تُعْطِي الطَّعَامَ مِنَ ٱلْمِلْحِ

هذا هو المِقياسُ .

وكتابُنا هـٰذا كٱلواحةِ لِطُلاَّبِ ٱلعلمِ ؛ فمؤَلِّفُهُ مِنَ ٱلعلماءِ ٱلبارزينَ وهوَ مَن هوَ في ٱلعالَمِ ٱلإسلاميِّ . . ولعلَّهُ مِن حُسنِ ٱلحظِّ وٱلطَّالعِ أَنْ يُؤَلِّفَ عالِمٌ مثلُهُ كتاباً في هـٰذا ٱلفنِّ .

ومِنْ مقاصِدِ طباعةِ هـٰذا ٱلكتابِ أَنْ يكونَ حافزاً ومساعِداً لحفظِ ٱلشَّواهِدِ ٱلشِّعريَّةِ ، وٱلقَصَصِ ٱلأَدبيَّةِ وٱلأَمثالِ ٱلحِكَميَّةِ . . ٱلَّتي يُستأْنَسُ بها ، ويعذُبُ إيرادُها عندَ ٱلمناسبَةِ ، بَل وبِها تقوىٰ ٱلحُجَّةُ . . كما أَنَّ في بعضِ ٱلقصَصِ ٱلعِظةَ وٱلعبرَةَ ، كيفَ وٱلخالقُ سبحانَهُ يَقولُ ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ [هود : ١٢٠]؟!

وَإِذا عِلمنا ذلكَ . . فنقُولُ : إِنَّ ٱلإِسلامَ ورسولَهُ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم قد أَوجدا لنا ٱلطريقَ وٱلخلاصَ من معاناة الروح ، وتعب النفس ، وبينوا لنا كيفية صفاء القلب ، فجعَلوا ٱلطَّريقَ إِلىٰ تسليةِ ٱلرُّوحِ مباحاً ، ولـٰكِنَّهم وَضَعوا لها ضوابطَ .

فهـٰذا ٱلنَّبيُّ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم كانَ يمزَحُ ولـٰكِنَّهُ ما كانَ لِيقولَ غيرَ ٱلحقِّ .

فنراهُ عندَما تأْتي إِليهِ ٱلعجوزُ وتقولُ لهُ : ادعُ ٱللهَ أَنْ يجعلَني مِن أَهلِ ٱلجنَّةِ يقولُ لها : « **يَا أُمَّ فُلاَنٍ . . إِنَّ ٱلجَنَّةَ لاَ تَدْخُلُهَا عَجُوزٌ** » فَوَلَّتِ ٱلمرأَةُ وهيَ تبكي ، فقالَ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم : « **أَخْبِرُوهَا أَنَّهَا لاَ تَدْخُلُ ٱلْجَنَّةَ وَهِيَ عَجُوزٌ ، إِنَّ ٱللهَ تَعَالَىٰ يَقُولُ** : ﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴾ [الواقعة : ٣٥ـ٣٧] » .

وجاءَتْهُ ٱمرأَةٌ أُخرىٰ ، فقالَت : يا رسولَ ٱللهِ . . احمِلني علىٰ بعيرٍ ،

فقالَ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم : « **احْمِلُوْهَا عَلَىٰ ٱبْنِ ٱلْبَعِيْرِ** » ، فقالَتْ ما أَصنعُ بهِ ما يحمِلُني؟! فقالَ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم « **هَلْ مِنْ بَعِيْرٍ إلاَّ ٱبْنُ بَعِيْرٍ** » فكانَ يمزحُ معَها .

وكذلكَ ٱلأَئِمَّةُ ٱلأَعلامُ ما كانوا لِيَخرجوا عَنِ ٱلطَّرِيقِ ٱلَّتي رسمَها لهم سيِّدُ ٱلأَنام صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم فهٰذا الإمام ٱبنُ عبَّاسٍ رضيَ ٱللهُ عنهُما كانَ يقولُ ـ إِذا أَكثَروا عليهِ في مسائِلِ ٱلقرآنِ وٱلحديثِ ـ : خُذوا في ٱلشِّعرِ وأَخبارِ ٱلعَربِ .

ونرىٰ ٱلإِمامَ عمرَ بنَ عبدِ ٱلعزيزِ يحثُّ علىٰ تعلُّمِ ٱلأَدَبِ قائلاً :

إِنَّ في ٱلمحادَثَةِ تلقيحاً للعقولِ ، وترويحاً للقلوبِ ، وتسريحاً لِلْهَمِّ ، وتنقيحاً للأَدَبِ .

وأَنشدَ أَبو نُوَاسٍ :

أُرَوِّحُ ٱلْقَلْبَ بِبَعْضِ ٱلْهَزْلِ   تَجَاهُلاً مِنِّيْ بِغَيْرِ جَهْلِ
أَمْزَحُ فِيْهِ مَزْحَ أَهْلِ ٱلْفَضْلِ   وَٱلْمَزْحُ أَحْيَاناً جَلاَءُ ٱلْعَقْلِ

وقَد كانَ أَصحابُ رسولِ ٱللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم يمزحونَ بحضْرَتِهِ ولا يُنكِرُ عليهم شيئاً مِن ذلكَ .

روىٰ ٱلبُخاريُّ في « ٱلأَدَبِ ٱلمفرَدِ » : كانَ أَصحابُ رسولِ ٱللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم يتبادَحونَ ـ يترامون ـ بِٱلبِطِّيخِ ، فإِذا كانَتِ ٱلحقائِقُ . كانوا هُمُ ٱلرِّجالَ .

ورُوي أَنَّ رجلاً أَتىٰ برجُلٍ إِلىٰ عليِّ ٱبنِ أَبي طالبٍ فقالَ : إِنَّ هٰذا زعمَ أَنَّهُ ٱحتلمَ علىٰ أُمِّي فقالَ : أَقِمهُ في ٱلشَّمسِ وٱضرِبْ ظلَّهُ ٱلحدَّ .

هٰذا وقد ينفعُ ٱلمِزاحُ في بعضِ ٱلأَحيانِ ويُنجي مِنَ ٱلشَّدائِدِ فقد حُكِيَ : أَنَّ

بعضَهم أَهدىٰ لِلحجّاج تيناً قبلَ أَوانِهِ ؛ ليأْخُذَ منهُ ٱلجائِزَةَ ، فلمَّا قَرُبَ مِن دارِ ٱلحجّاجِ . . إذا بٱلشُّرطِيِّ قد أَقبلَ ومعهُ طائِفَةٌ مِنَ ٱللُّصوصِ وقد هربَ منهُم واحدٌ فأَخذَ ٱلشُّرطِيُّ صاحبَ ٱلتِّينِ عوضاً عنهُ ، وقرنَهُ معهم ، فلمَّا عرضَه علىٰ ٱلحجَّاجِ . . أَمرَ بضربِ أَعناقِهِم ، فلمَّا قُدِّمَ صاحبُ ٱلتِّينِ . . صاحَ : أَيُّها ٱلأَميرُ . . لستُ منهُم فقالَ : ما شأْنُكَ؟ فقصَّ عليهِ ٱلقِصَّةَ فقالَ : إنَّا للهِ وإِنَّا إِليهِ راجعونَ ، كادَ ٱلملعُونُ يهلكُ ظُلماً ، ثُمَّ قالَ : ما تريدُ مِنَ ٱلجائِزَةِ؟ فقالَ : أَيُّهَا ٱلأَميرُ . . أُريدُ فأْساً . قالَ : وما تصنعُ بِها؟ قالَ : أَقطَعُ بِها جِذعَ ٱلشَّجرةِ ٱلَّتي عرَّفَتْ بيني وبينَكَ . فضحِكَ ٱلحجَّاجُ وأَجازَهُ جائِزَةً سنيَّةً .

وٱلكتابُ ٱلَّذي بينَ أَيدينا . . هوَ كتابٌ مِنَ ٱلأَدَبِ ٱلرَّفيعِ ؛ فقد ٱستطاعَ مؤَلِّفُهُ بما ٱمتازَ بهِ مِنَ ٱلذَّكاءِ ٱلوَقَّادِ . . أَن يقسمه إلى أبواب وفصول ، حتَّىٰ يصلَ إِلىٰ فكرةٍ واضحة ومعنىً محدَّدٍ ، فلا تسمع بمعنى من معاني ٱلشَّجاعَةِ ، وٱلشَّهامَةِ ، وٱلإِيثارِ ، وٱلفداءِ ، وٱلمحبّةِ ، وٱلوفاءِ ، وٱلتَّضحيَةِ عندَ ٱلعربِ . . إلاَّ وتجدُ له فصلاً يتحدث عنه في هذا الباب يبرزُهُ مؤَلِّفُهُ في أَحسنِ صورةٍ ، معَ ما يتعلَّقُ بهِ مِنَ ٱلجانِبِ ٱلشَّرعيِّ . . ولذلكَ رُبَّما تجدُ موضوعاً ما وقد انتقل بهِ ٱلمؤَلِّفُ مِنَ ٱلجانِبِ ٱلشِّعريِّ إِلىٰ ٱلجانِبِ ٱلشَّرعيِّ ، فتجدُهُ يغوص في ٱلتَّفسيرِ وٱلحديثِ وٱلتَّاريخِ بطريقَةٍ فريدَةٍ ، تستطيعُ من خلالها أَنْ ترىٰ ٱلموضوعَ ٱلواحِدَ مِنْ زوايا متعدِّدَةٍ ، ولهـٰذا فنحنُ محظوظونَ بهـٰذا ٱلمؤَلَّفِ . . . وفي هـٰذا ٱلعصرِ بٱلذَّاتِ .

وفي تركيزنا علىٰ ٱلمِزاحِ في واقعِ حياتِهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم إِضاءَةٌ لجانبٍ مِن جوانبِ ٱلأَدَبِ ٱلكثيرةِ ؛ حيثُ إِنَّ ٱلأَدَبَ فَنٌّ مِنَ ٱلفنونِ ، يشملُ أَنواعاً كثيرةً .

مِنها : ٱلمزاحُ .

ومنها : ٱلكلامُ ٱلنَّثريُّ ٱلبليغُ .

ومنها : ٱلشِّعْرُ .

أَمَّا إِذا أَردنا ٱلحُكمَ ٱلشَّرعيَّ لِكُلِّ نوعٍ مِن هـٰذا ٱلفنِّ . . فعلينا أَنْ نلجأَ إِلىٰ ٱلمشرِّعِ ٱلحكيمِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم .

فأَمَّا ٱلنَّوعُ ٱلأَوَّلُ : فقد تكلَّمنا عنه بما فيهِ كفايَةٌ للموضوعِ .

وأَمَّا ٱلنَّوعُ ٱلثَّاني : فقد سأَلَ رسولُ ٱللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم عمرَو بنَ ٱلأَهْتَم عَنِ ٱلزِّبرقانِ بنِ بدرٍ ، فقالَ عمرٌو : مُطاعٌ في أَدْنَيْهِ ، شديدُ ٱلعارِضَةِ ، مانعٌ لِما وراءَ ظهرِهِ .

فقالَ ٱلزِّبرقانُ : وٱللهِ يا رسولَ ٱللهِ . . إِنَّهُ ليعلمُ مِنِّي أَكثرَ مِمَّا قالَ ، ولـٰكِنَّهُ حَسَدَني شَرَفي .

فقالَ عمرٌو : أَمَّا لَئِن قالَ ما قالَ . . فوٱللهِ ما علمتهُ إِلاَّ ضَيِّقَ ٱلصَّدرِ ، زَمِرَ ٱلمروءَةِ ، أَحمقَ ٱلوالدِ ، لئيمَ ٱلخالِ ، حديثَ ٱلغنىٰ .

فلمَّا رأَىٰ أَنَّهُ خالَفَ قولُهُ ٱلآخِرُ قولَهُ ٱلأَوَّلَ ، ورأَىٰ ٱلإِنكارَ في عيني رسولِ ٱللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم . . قالَ : يا رسولَ ٱللهِ . . رضيتُ . . فقلتُ أَحسنَ ما علمتهُ ، وغضِبتُ . . فقلتُ أَقبحَ ما علمتُ ، وما كذبتُ في ٱلأُولىٰ ، ولقد صدقتُ في ٱلأُخرىٰ .

فقالَ رسولُ ٱللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم عندَ ذلكَ : « **إِنَّ مِنَ ٱلْبَيَانِ لَسِحْراً** » .

وأَمَّا ٱلنَّوعُ ٱلأَخيرُ : فنراهُ أَحياناً يشدِّدُ في ٱلمنعِ فيقولُ : « **لأَنْ يَمْتَلِىءَ جَوْفُ أَحَدِكُمْ قَيْحاً . . خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمْتَلِىءَ شِعْراً** » ، ويقولُ : « **لأَنْ يَكُوْنَ جَوْفُ ٱبْنِ آدَمَ مَمْلُوْءاً قَيْحاً . . خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَكُوْنَ مَمْلُوْءاً شِعْراً** » .

بينما نراهُ في ٱلحين ٱلآخرِ يقولُ : « إِنَّ مِنَ ٱلشِّعْرِ حِكْمَةً » .

وكذلك فإِنَّ الإِسلامَ لَم يُهمِلِ ٱلشِّعرَ بَلْ أَعادَ له مكانتَهُ ، وأَذكىٰ جَذْوتَهُ علىٰ لسانِ سيِّدنا رسولِ الله صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم حينما قالَ لحسَّانَ : « اهْجُ ٱلْمُشْرِكِيْنَ ؛ فَإِنَّ رُوْحَ ٱلْقُدُسِ مَعَكَ » . بَل إِنَّهُ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم قد نصبَ لحسَّانَ منبراً في ٱلمسجدِ .

ثُمَّ ما كانَ فتحُ (مكَّةَ) إلاَّ استجابةً لأَبياتٍ حَرَّكتِ ٱلحبيبَ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم حين أَنشَدَهُ عمرو بنُ سَالمٍ الخزاعيُّ [مِنَ ٱلرَّجز] :

يَا رَبِّ إِنِّـيْ نَـاشِـدٌ مُحَمَّـدَا ... حِلْـفَ أَبِيْـهِ وَأَبِيْنَـا ٱلأَتْلَـدَا
إِنَّ قُـرَيْشـاً أَخْلَفُـوْكَ ٱلْمَـوْعِـدَا ... وَنَقَضُـوْا مِيْثَـاقَـكَ ٱلْمُـؤَكَّـدَا
وَقَتَّلُـوْنَـا رُكَّعـاً وَسُجَّـدَا[1]

فٱهتزَّ صلواتُ ٱللهِ عليه قائِلاً : « نُصِرْتَ يَا عَمْرَو بْنَ سَالِمٍ . . نُصِرْتَ يَا عَمْرُو » .

وَلا يغيبُ عن أَحدٍ أَنَّ النَّبيَّ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم أَجازَ ببردَتِهِ ٱلشَّريفَةِ مَن أَباحَ دَمَهُ ولو كانَ متعلِّقاً بأَستارِ ٱلكعبةِ . . حينمَا أَنشدَهُ مفتتحاً بصريحِ ٱلغزلِ [مِنَ ٱلبسيطِ] :

بَـانَـتْ سُعَـادُ فَقَلْبِـيْ ٱلْيَـوْمَ مَتبُـوْلُ ... مُتَيَّـمٌ إِثْـرَهَـا لَـمْ يُفْـدَ مَكْبُـوْلُ[2]
وَمَـا سُعَـادُ غَـدَاةَ ٱلْبَيْـنِ إِذْ رَحَلُـوْا ... إِلاَّ أَغَنُّ غَضِيْضُ ٱلطَّرْفِ مَكْحُوْلُ[3]
هَيْفَـاءَ مُقْبِلَـةً عَجْـزَاءَ مُـدْبِـرَةً ... لاَ يُشْتكَـىٰ قِصَـرٌ مِنْهَـا وَلاَ طُـوْلُ[4]

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٣٩٤) .

(٢) متبول : أَسقمه الحبُّ وأَضناهُ . ولم يُفْدَ : لم يخلص من الأَسرِ . مكبولٌ : مقيَّدٌ .

(٣) الأَغنُّ : الظبي الصغير الذي في صوته غُنَّةٌ . **غضيضُ ٱلطَّرفِ** : فاترُهُ .

(٤) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٥٠٤) .

وهكذا احتضنَ الإسلامُ هذهِ المادَّةَ الشَّاعريَّةَ العلميَّةَ ؛ ليجعلَ منها تاجاً على غُرَّةِ ذلكَ العصرِ . . بعد أَن توَّجَها بتاج كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ثُمَّ بتاجِ ينابيعِ الحِكَمِ النَّبويَّةِ الشَّريفَةِ ، وَأَينعَت هذهِ الثَّمرةُ في صدرِ الإسلامِ علىٰ لسانِ الصَّحبِ الكرامِ ، أَمثالِ حسَّانَ بنِ ثابتٍ ، وكعبِ بنِ زُهيرٍ ، وعبدِ اللهِ بنِ رواحةَ ، والخنساءِ ، وغيرهم . . وإنْ كَانَ مِنْ أَمثالِ لبيدِ بنِ ربيعة أَنِ استثقلَ نفسَهُ أَنْ يتكلَّم بالشِّعرِ بعدَ أَن فاضَتْ في روحِهِ محبَّةُ كتابِ اللهِ وسُنَّةُ نبيِّهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم .

والقولُ الحقُّ في الشِّعرِ هوَ قولُ اللهِ تعالىٰ : ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء : ٢٢٤ـ٢٢٧] .

وعن عائِشَةَ رضيَ اللهُ عنها قالَتْ : سُئِل رَسولُ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم عَنِ الشِّعرِ فقالَ : « **هُوَ كَلَامٌ فَحَسَنُهُ حَسَنٌ ، وَقَبِيْحُهُ قَبِيْحٌ** » .

وإذا علمنا هذا . . فلا أَروعَ ولا أَحلىٰ مِنَ الأَدبِ ؛ لفكِّ عُقَدِ النَّفسِ وتسليَتِها بما يفيدُها ، وهوَ الحَلُّ الأَمثلُ في هذهِ الأَيَّامِ ، فلنعقِد فصلاً خاصّاً حولَ مفهومِ الأَدبِ العربيِّ وأَدوارِهِ الَّتي مَرَّ بها .

* * *

ٱلأَدَبُ ـ مفهومه وتاريخه

كلمةُ (أدب)[١] مِنَ ٱلكلماتِ ٱلَّتي تطوَّرَ معناها بتطوُّرِ حياةِ ٱلأُمَّةِ ٱلعربيَّةِ ، مِن دَورِ ٱلبَداوَةِ إِلىٰ أَدوارِ ٱلمَدَنِيَّةِ وٱلحضارَةِ ، وقدِ ٱختلفَتْ عليها معاني متقاربَةٌ ، حتَّىٰ أَخذَتْ معناها ٱلَّذي يتبادَرُ إِلىٰ أَذهانِنا ٱليومَ وهوَ :

الكلامُ ٱلإِنشائِيُّ ٱلبَليغُ ، ٱلَّذي يُقصَدُ بِهِ ٱلتَّأْثيرُ في عواطِفِ ٱلقُرَّاءِ وٱلسَّامعينَ ، سواءٌ أَكانَ شِعراً أَم نثراً .

وإِذا ما عدنا إِلىٰ ٱلمُعجمِ ٱلعربيِّ للبحثِ عَنْ معنىٰ كلمةِ (أدب) . . فإِنَّنا نجدُ لفظَ (آدِب) بمعنىٰ ٱلدَّاعي إِلىٰ ٱلطَّعامِ ، ومِن ذلكَ (ٱلمَأْدُبَةُ) بمعنىٰ ٱلطَّعامِ ٱلَّذي يُدعىٰ إِليهِ ٱلنَّاسُ .

وٱشتقُّوا مِنْ ذلكَ (أَدُب يأدُب) بمعنىٰ صنعَ مأدُبةً ، أو دَعا إِليها .

وهـٰكذا فأَصلُ ٱلأَدَبِ ٱلدُّعاءُ ، وبهـٰذا ٱلمعنىٰ وَرَدَتْ في ٱلشِّعرِ ٱلجاهليِّ ؛ فقد جاءَ علىٰ لسانِ طرفةَ بنِ ٱلعبدِ [مِنَ ٱلرَّملِ] :

نَحْـنُ فِـيْ ٱلْمَشْتَـاةِ نَـدْعُـو ٱلْجَفَلَـىٰ   لاَ تَـــرَىٰ ٱلآدِبَ فِيْنَـــا يَنْتَقِـــرْ[٢]

ومعَ مرورِ ٱلزَّمَنِ ٱنتقلَتْ دِلالَةُ ٱلكَلِمَةِ مِنْ معناها ٱلحِسِّيِّ إِلىٰ معناها

---

(١) اقتبسنا هذه المقدمة من كتاب « تاريخ الأدب العربي » للدكتور : شوقي ضيف ، و« تاريخ الأدب العربي » للأستاذ : أحمد حسن الزيات .

(٢) الجَفَلىٰ : الدعوة العامة . ينتقر : أي يدعو دعوة خاصة وينتقي .

ٱلمُجَرَّدِ ، شأْنُها في ذلكَ شأْنُ بقيَّةِ ٱلكلماتِ ٱلمعنويَّةِ ، ٱلَّتي تُستَخدَمُ أَوَّلاً في معنىً حسيٍّ حقيقيٍّ . . . ثُمَّ تخرجُ منهُ إِلىٰ معنىً ذِهنيٍّ مَجازيٍّ .

جاءَ في « تاجِ ٱلعروسِ » (الأَدَب) محرَّكَةً : ٱلَّذي يتأَدَّبُ بهِ ٱلأَديبُ مِنَ ٱلنَّاسِ ، سُمِّيَ بهِ ؛ لأَنَّهُ يُؤَدِّبُ ٱلنَّاسَ إِلىٰ ٱلمحامِدِ ، وينهىٰ عَنِ ٱلقبائِحِ .

وبهـٰذا ٱلمعنىٰ ٱلتَّهذيبيِّ وَرَدَتْ في حديثِ ٱلنَّبيِّ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم إذ يقولُ : « **أَدَّبَنِيْ رَبِّيْ فَأَحْسَنَ تَأْدِيْبِيْ** » .

وقد حافظَتِ ٱلكلمةُ علىٰ معناها ٱلتَّهذيبيِّ في عصرِ بني أُميَّةَ ، وأُضيفَ إِليها معنىً ثانٍ جديدٌ ، وهوَ معنىً تأْديبيٌّ ؛ فقد وُجدَ طائِفةٌ مِنَ ٱلمعلِّمينَ تُسمَّىٰ بـ (ٱلمؤَدِّبينَ) ، كانوا يُعلِّمونَ أَولادَ ٱلخلفاءِ ٱلشِّعرَ وٱلخُطَبَ ، وأَخبارَ ٱلعربِ وأَنسابَهم ، وأَيَّامهم في ٱلجاهليَّةِ وٱلإِسلامِ .

وأَتاحَ هـٰذا ٱلاستخدامُ لكلمَةِ (أَدب) أَنْ تُصبِحَ مقابلةً لكلمَةِ (ٱلعلمِ) ٱلَّذي كانَ يُطلَقُ حينئذٍ علىٰ ٱلشَّريعَةِ ٱلإِسلاميَّةِ ، وما يَتَّصِلُ بها مِن دراسَةِ ٱلفقهِ وٱلحديثِ وتفسيرِ ٱلقرآنِ ٱلكريمِ .

وفي ٱلعصرِ ٱلعبَّاسيِّ تقاربَ ٱلمعنيانِ ـ ٱلتَّهذيبيُّ وٱلتَّعليميُّ ـ في ٱستخدامِ ٱلكلمةِ ؛ فقد سَمَّىٰ ٱبنُ ٱلمُقفَّعِ رسالَتينِ لهُ تَتَضمَّنانِ ضروباً مِنَ ٱلحِكَمِ وٱلنَّصائحِ ٱلخُلُقيَّةِ وٱلسِّياسيَّةِ بٱسمِ « ٱلأَدَبِ ٱلصَّغِيْرِ » و« ٱلأَدَبِ ٱلكبيرِ » .

ولَم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتَّىٰ صارتِ ٱلكلمَةُ تُطلَقُ علىٰ معرفَةِ أَشعارِ ٱلعربِ وأَخبارِهِم ، وقد أُلِّفتْ كُتُبٌ بهـٰذا ٱلمعنىٰ ، سمَّوها كُتُبَ أَدَبٍ ، مثلَ « ٱلبيانِ وٱلتَّبيِيْنِ » للجاحظِ ٱلمتوفَّىٰ سنةَ (٢٥٥هـ) .

ومثلُهُ كتابُ « ٱلكاملِ في ٱللُّغَةِ وٱلأَدَبِ » للمبرِّدِ ٱلمتوفَّىٰ سنةَ (٢٨٥هـ) ، جاءَ في مقدِّمَةِ هـٰذا ٱلكتابِ : (هـٰذا كتابٌ أَلَّفناهُ ، يجمعُ ضُروباً مِنَ ٱلآدابِ ،

ما بينَ كلامٍ منثورٍ ، وشِعرٍ مرصوفٍ ، ومَثَلٍ سائرٍ ، وموعظَةٍ بالغَةٍ ، واختيارٍ مِن خُطبَةٍ شريفَةٍ ورسالَةٍ بليغَةٍ)[1] .

ومثل كتابِ « ٱلكامِلِ » كتابُ « عُيونِ ٱلأخبارِ » لابنِ قُتَيبَةَ ٱلمتوفَّىٰ سنةَ (٢٧٦هـ) ، و« ٱلعِقدِ ٱلفريدِ » لابن عبدِ ربِّهِ ٱلمتوفَّىٰ سنةَ (٣٢٨هـ) ، و« زَهرِ ٱلآدابِ » للقيروانيِّ ٱلمتوفَّىٰ سنةَ (٤٥٣هـ) . وغيرِها .

هـٰذا ولَم تقفِ ٱلكلمَةُ عندَ هـٰذا ٱلمعنىٰ ٱلتَّعليميِّ ٱلخاصِّ بصناعتَي ٱلنَّظمِ وٱلنَّثرِ وما يتَّصِلُ بهما مِنَ ٱلمُلَحِ وٱلنَّوادِرِ ؛ فقد ٱتَّسعتْ أَحياناً لتشملَ كُلَّ ٱلمعارِفِ غيرَ ٱلدينيَّةِ ٱلَّتي تَرقىٰ بِٱلإِنسانِ مِنْ جانبَيهِ ٱلاجتماعيِّ وٱلثَّقافِيِّ .

وبهـٰذا ٱلمعنىٰ نجدُها عندَ (إِخوانِ ٱلصَّفا) في ٱلقرنِ ٱلرَّابعِ للهجرَةِ ؛ فقد دَلُّوا بها في رسائِلِهِم إِلىٰ جانِبِ علومِ ٱللُّغَةِ وٱلبيانِ وٱلتَّاريخِ وٱلأَخبارِ . . علىٰ علومِ ٱلسِّحرِ وٱلكيمياءِ وٱلحسابِ وٱلمُعاملاتِ وٱلتِّجاراتِ .

ولا نصلُ إِلىٰ ٱبنِ خلدونَ ٱلمتوفَّىٰ سنةَ (٨٠٨هـ) حتَّىٰ نجدَها تُطلَقُ علىٰ جميعِ ٱلمعارِفِ دِينيَّةً وغيرَ دِينيَّةٍ ، يقولُ ٱبنُ خلدونَ :

ٱلأَدَبُ هوَ حفظُ أَشعارِ ٱلعربِ ، وٱلأَخذُ مِن كُلِّ علمٍ بِطرفٍ .

وعلىٰ ٱلعمومِ أَخذَتِ ٱلكلِمَةُ تدلُّ منذُ أَواسطِ ٱلقرنِ ٱلماضي علىٰ معنيينِ ٱثنينِ :

أَوَّلاً : معنىً عامٌّ : يتناولُ كُلَّ ما يُكتبُ في ٱللُّغَةِ ، سواءٌ كانَ عِلماً أَم فلسفَةً أَم أَدَباً خالِصاً ؛ فكلُّ ما ينتجُهُ ٱلعقلُ وٱلشُّعورُ يُسمَّىٰ أَدباً .

ثانياً : معنىً خاصٌّ : يشملُ ٱلأَدَبَ ٱلخالِصَ ٱلَّذي لا يُرادُ بهِ مُجرَّدُ ٱلتَّعبيرِ

---

(١) الكامل (١/٢) .

عَن معنىً مِنَ ٱلمعاني ، بل يُرادُ بهِ أَيضاً أَنْ يكونَ جميلاً بحيثُ يؤَثِّرُ في عواطِفِ ٱلقارىءِ وٱلسَّامِعِ ، علىٰ نحوِ ما هوَ معروفٌ في صناعتَي ٱلشِّعرِ وفنونِ ٱلنَّثرِ .

* * *

تاريخُ ٱلأَدَبِ :

إنَّ ٱلاختلافَ في تعريفِ (ٱلأَدبِ) يقودُ إِلىٰ ٱلاختلافِ في ٱلمقصودِ مِن (تاريخِ ٱلأَدَبِ) ، وفي ٱلمجالِ ٱلَّذي تدورُ فيهِ مباحِثُ ٱلتَّأْريخِ ٱلأَدبيِّ .

فإِذا أَخذنا بما قالَهُ ٱبنُ خلدونَ مِن أَنَّ ٱلأَدَبَ هوَ : (حفظُ أَشعارِ ٱلعربِ ، وٱلأَخذُ مِن كُلِّ علمٍ بطرفٍ) . . كانَ علىٰ ٱلمؤرِّخِ ٱلأَدَبيِّ أَنْ يُؤَرِّخَ للحياةِ ٱلعقليَّةِ وٱلشُّعوريَّةِ للأُمَّةِ ٱلعربيَّةِ ؛ لأَنَّ ٱلأَخذَ مِن كُلِّ علمٍ بطرَفٍ يَعني : إغناءَ ٱلأَدَبِ بعلومِ ٱلعربيَّةِ (نحو ـ صرف ـ بلاغة . . . إلخ) ، وبٱلعلومِ ٱلشَّرعيَّةِ (حديث ـ تفسير . . . إلخ) ، وبٱلعلومِ ٱلإنسانيَّةِ (فلسفة ـ اجتماع . . . إلخ) .

فهٰذهِ ٱلعلومُ كلُّها ترفدُ ٱلأَدَبَ ، وتعينُ علىٰ فهمِهِ . ولعلَّ أَهمَّ مَن أَرَّخَ لأَدبنا بهٰذا ٱلمعنىٰ (بروكلمان) في كتابِهِ « تاريخُ ٱلأَدَبِ ٱلعربيِّ » .

وإِذا أَخذنا بٱلقولِ ٱلَّذي يقولُ : (ٱلأَدَبُ كلامٌ جميلٌ يُؤَثِّرُ في ٱلنَّفسِ) . . كانَ علىٰ مُؤَرِّخِ ٱلأَدَبِ أَن يَقصُرَ مباحِثَهُ علىٰ دراسَةِ ٱلأَدَبِ ، شعرِهِ ونثرِهِ ، فيعرِفَ موضوعاتِهِ ، ويلاحِقَ تطوُّرَهُ ، ويبرزَ ملامِحَهُ وسماتِهِ في كُلِّ عصرٍ مِنَ ٱلعُصورِ ، وكانَ عليهِ أَن يُلِمَّ بشخصيَّاتِهِ دراسةً وتحليلاً ؛ ليكشفَ عمَّا تأَثَّروا بهِ مِن أُمورِ ٱلثَّقافَةِ وٱلسِّياسةِ وٱلعقيدَةِ .

* * *

تقسيماتُ تاريخِ ٱلأَدَبِ وعصورِهِ :

اتَّجهَ معظمُ مؤرِّخي ٱلأَدَبِ ٱلعربيِّ في تقسيمِهِ إِلىٰ أَعصُرٍ تعادِلُ ٱلأَعصُرَ ٱلتَّاريخيَّةَ وٱلسِّياسيَّةَ ، فجعلوا ٱلأدوارَ ٱلَّتي مرَّ بها تاريخُ ٱلأَدَبِ خمسةَ أَدوارٍ ، وهي :

١ـ **العصرُ ٱلجاهليُّ** : نهايتُهُ ظهورُ ٱلإِسلامِ وعمرُهُ قرنٌ ونصفٌ .

٢ـ **عصرُ صدرِ ٱلإِسلامِ** : بدايتُهُ ظهورُ ٱلإِسلامِ ،ونهايتُهُ سقوطُ ٱلدَّولَةِ ٱلأُمويَّةِ سنةَ (١٣٢هـ) .

ومِنَ ٱلمؤرِّخينَ من يقسمُ هٰذا ٱلعصرَ إِلىٰ قسمينِ .

أ ـ عصرُ صدرِ ٱلإِسلامِ : وهوَ إِلىٰ نهايةِ عصرِ ٱلخلفاءِ ٱلرَّاشدينَ .

ب ـ عصرُ ٱلدَّولَةِ ٱلأُمويَّةِ .

٣ـ **العصرُ ٱلعبَّاسيُّ** : أَوَّلُهُ سقوطُ بني أُميَّةَ ، وآخرُهُ سقوطُ (بغدادَ) بأَيدي ٱلتتار (٦٥٦هـ) .

٤ـ **عصرُ ٱلدُّوَلِ ٱلمُتتابعَةِ** : أَوَّلُهُ سقوطُ (بغدادَ) ، ونهايتُهُ نزولُ ٱلحملَةِ ٱلفرنسيَّةِ بـ (مصرَ) سنة (١٢١٣هـ) .

٥ـ **عصرُ ٱلنَّهضَةِ ٱلحديثَةِ** : ٱلَّذي يمتدُّ إِلىٰ أَيَّامِنا هٰذهِ .

وٱلَّذي يخصُّنا في كتابِنا هٰذا هوَ : ٱلعصرُ ٱلعبَّاسيُّ ٱلَّذي نشأَ فيهِ ٱلمتنبِّي ، فلنعقِد لهُ فصلاً خاصّاً مستعينين بٱللهِ .

* * *

العصرُ ٱلعبَّاسيُّ :

عصرُ ٱلدَّولَةِ ٱلعبَّاسيَّةِ هوَ عصرُ ٱلإِسلامِ ٱلذَّهبيُّ ، ٱلَّذي بلغَ فيهِ ٱلمسلمونَ مِنَ ٱلعمرانِ وٱلسُّلطانِ ما لم يبلغوهُ مِن قبلُ ولا من بعدُ .

أَثمرَتْ فيهِ ٱلفنونُ ٱلإِسلاميَّةُ ، وزَهَتِ ٱلآدابُ ٱلعربيَّةُ ، ونُقِلَتِ ٱلعلومُ ٱلأَجنبيَّةُ ، ونضجَ ٱلعقلُ ٱلعربيُّ ، فوجدَ سبيلاً إِلىٰ ٱلبحثِ ، ومجالاً للتَّفكيرِ .

وملوكُ هـٰذهِ ٱلدَّولَةِ ينتمونَ إِلىٰ ٱلعبَّاسِ عمِّ ٱلنَّبيِّ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم ، ٱنتزعوا ٱلخلافَةَ قَسراً مِنْ يدِ ٱلأُمويِّينَ بمعونَةِ ٱلفرسِ ، وأَقاموا عرشَها بـ (ٱلعراقِ) ، وتبوَّأَهُ منهم سبعةٌ وثلاثونَ خليفةً في خمسةِ قرونٍ وبعضِ ٱلقرنِ ، حتَّىٰ ثلَّ ذلكَ ٱلعرشَ (هولاكو) سنةَ (٦٥٦هـ) ، وما زالتْ حضارَةُ ٱلدَّولَةِ وآدابُها تهبطُ بهبوطِها ، حتَّىٰ سقطَتْ بسقوطِها .

وتختلفُ هـٰذهِ ٱلدَّولةُ عَنِ ٱلدَّولَةِ ٱلأُمويَّةِ بأَحوالٍ سياسيَّةٍ وعمرانيَّةٍ ، كانَ لها ٱلأَثَرُ ٱلظَّاهِرُ في أَدَبِ ٱللُّغَةِ .

فٱلدَّولَةُ ٱلأُمويَّةُ : كانَت عربيَّةً خالصَةً ، تعصَّبَتْ للعربِ ولغتِهم وآدابِهم ، وجعلَتْ قاعدَتها (دمشقَ) علىٰ حدودِ باديَتِهم .

وكانَ جنودُها وقوَّادُها وكُتَّابُها وسائِرُ عمَّالِها مِنَ ٱلعربِ ، فلم يحدُث في أَدبِ ٱللُّغَةِ تأْثيرٌ إِلاَّ ما ٱقتضاهُ ٱلتَّحضُّرُ وٱتِّساعُ ٱلعمرانِ .

أَمَّا ٱلدَّولةُ ٱلعبَّاسيَّةُ : فقدِ ٱصطبغَتْ بصِبغَةٍ فارسيَّةٍ ؛ لأَنَّ ٱلفرسَ هُمُ ٱلَّذينَ أَوجدوها وأَيَّدوها ، فٱتَّخذَتْ قصبتَها (بغدادَ) ـ أَقرَبَ ٱلأَمصارِ إِلىٰ بلادهِم ـ وأَطلقَ ٱلخلفاءُ أَيدي ٱلموالي في سياسَةِ ٱلدَّولَةِ فٱستقلُّوا بشؤُونها ، وٱستبدُّوا بأُمورِها ، وكالوا للعربِ مِنَ ٱلحقارَةِ وٱلمهانَةِ صاعاً بصاعٍ .

فضعفتِ ٱلعصبيَّةُ ٱلعربيَّةُ ، وعلا صوتُ ٱلشُّعوبيَّةِ ، ونتجَ مِن ذلكَ دخولُ

ٱلعناصِرِ ٱلفارسيَّةِ وٱلتُّركيَّةِ وٱلسُّريانيَّةِ وٱلرُّوميَّةِ وٱلبربريَّةِ في تكوينِ ٱلدَّولَةِ ، وتمازُجُهم بٱلتَّزاوُجِ وٱلتَّناسُلِ ، وٱختلاطُ ٱلمدنيَّةِ ٱلآريَّةِ بٱلمدنيَّةِ ٱلسَّاميَّةِ ، ولكلٍّ مِنها لُغةٌ وأَخلاقٌ وعاداتٌ وٱعتقاداتٌ أَثَّرَتْ في ٱلأُخرىٰ .

ناهيكَ بما ٱمتازَتْ بهِ هٰذهِ ٱلدَّولَةُ مِن إِطلاقِ ٱلحريَّةِ في ٱلدِّينِ وتعدُّدِ ٱلفِرَقِ[1] ، وشيوعِ ٱلمقالاتِ ٱلمختلفَةِ في ٱلإِلحادِ وٱلسِّياسةِ ، وتكاثُرِ ٱلجواري وٱلغِلمانِ ، وٱلاسترسالِ في ٱلخلاعَةِ وٱلمجونِ ، وٱلتَّأَنُّقِ في ٱلطَّعامِ وٱللِّباسِ ، وٱلتَّنافُسِ في ٱلبناءِ وٱلرِّياشِ .

وكُلُّ ذلكَ لَهُ أَثرٌ بيِّنٌ في ٱللُّغَةِ وآدابِها ، وسنعقِدُ ٱلفصلَ ٱلتَّالي للدِّلالَةِ علىٰ ذلكَ .

* * *

أَثرُ ٱلفتوحِ وٱلسِّياسةِ وٱلحضارَةِ في ٱللُّغَةِ :

فَتَحَ ٱلمسلمونَ في أَواخِرِ ٱلدَّولَةِ ٱلأُمويَّةِ أَكثرَ ٱلمعروفِ حينئِذٍ مِنَ ٱلدُّنيا ٱلقديمةِ .

فٱمتدَّ ملكُهُم مِنَ (ٱلهندِ) و(ٱلصِّينِ) شَرقاً إِلىٰ (جبالِ بيرانس) غَرباً ، وٱنبسطَ سلطانُهم علىٰ تلكَ ٱلشُّعوبِ ، وٱستولىٰ دينُهم علىٰ ٱلأَفئِدَةِ ، ولغتُهم

---

(١) نجمَتْ في ٱلأُمَّةِ ٱلإِسلاميَّةِ مِن غيرِ أَهلِ ٱلسُّنَّةِ فرقٌ كثيرةٌ ، يُكفِّرُ بعضُها بعضاً ، وٱنشعبَتْ كُلُّ فرقَةٍ إِلىٰ فِرَقٍ متعدِّدَةٍ ، ترىٰ كُلُّ واحدَةٍ مِنها ٱلحقَّ معها دونَ ٱلأُخرىٰ .

ومِنْ أَشهَرِ هٰذهِ ٱلفِرَقِ : ٱلمعتزلَةُ وهم عشرونَ فرقةً ، وٱلشِّيعةُ وهمُ ٱثنتانِ وعشرونَ ، وٱلخوارجُ وهُم سبعُ فِرَقٍ .

وكُلُّ أُولٰئِكَ : منهم جبريَّةٌ ، ومنهم مشبِّهَةٌ . . . ولِكلِّ شُعبةٍ لَقَبٌ تُعرفُ بهِ .

علىٰ ٱلألسنَةِ ، فأَسلمتْ هـٰذهِ ٱلأُمَمُ ٱلمختلِفَةُ ، وٱمتزجَتْ تلكَ ٱلعناصِرُ ٱلمتباينَةُ .

وسارعوا إلىٰ تعلُّمِ ٱللُّغَةِ ٱلعربيَّةَ وٱلتَّكلُّمِ بِها ؛ تقرُّباً مِنَ ٱلفاتِحِ ، وٱستدراراً للرِّزقِ ، وتفقُّهاً في ٱلدِّينِ ، فكثُرَ ٱللَّحنُ ، وسرَتْ عدواهُ إلىٰ ٱلباديَةِ ، وقد كانَ قاصراً علىٰ ٱلحاضرَةِ .

وبقيَ داءُ ٱلعُجمَةِ يستفحلُ بينَ ٱلعامَّةِ وٱلصُّنَّاعِ ، بٱلرَّغمِ مِن محاربَةِ ٱلأئِمَّةِ وأُولي ٱلأمرِ لهـٰذا ٱلوباءِ بتدوينِ علومِ ٱللِّسانِ ، وتقبيحِ ٱلعامِّيَّةِ ، ومَقْتِ ٱلمتكلِّمينَ بها ، حتَّىٰ نشأَ في كلِّ إقليمٍ لغةٌ عامِّيَّةٌ مُؤَلَّفَةٌ مِنَ ٱلعربيَّةِ ، ومِن لغةِ ٱلإقليمِ ٱلوطنيَّةِ .

وقدِ ٱتَّسعَتْ دائِرَةُ ٱللُّغَةِ بما ٱقتضاهُ تمدُّنُ ٱلدَّولَةِ ، ونقلُ ٱلعلومِ عَنِ ٱلفارسيَّةِ وٱلهنديَّةِ وٱليونانيَّةِ مِنَ ٱلمُصطلحاتِ ٱلعلميَّةِ ، وٱلألفاظِ ٱلإداريَّةِ وٱلسِّياسيَّةِ وٱلاقتصاديَّةِ وٱلمنزليَّةِ .

وكانَ لـ (دارِ ٱلحكمَةِ) ٱلَّتي أَنشأَها ٱلمأْمونُ ٱلفضلُ ٱلأَكبرُ في تهذيبِ ٱلكُتبِ ٱلمُترجَمَةِ ، وتوحيدِ ٱلأَسماءِ ٱلمُعَرَّبَةِ .

ثُمَّ رقَّتِ ٱلألفاظُ ؛ لانغماسِ ٱلقومِ في ٱلحضارَةِ ، وإخلادِهِم إلىٰ ٱلتَّرَفِ ، وإيثارِ ٱلموالي لِلكَلِمِ ٱلسَّهلِ وٱلأُسلوبِ ٱللَّيِّنِ ؛ لأَنَّهُم حذَقُوا ٱللُّغَةَ بٱلدِّراسَةِ وٱلصَّنعةِ ، لا بٱلتَّلقينِ وٱلطَّبعِ .

وٱقتبستِ ٱلعربيَّةُ مِنَ ٱلفارسيَّةِ غيرَ ٱلألفاظِ كثيراً مِنَ ٱلأَساليبِ .

١ـ كٱلتَّبجيلِ في ٱلخطابِ .

٢ـ وٱلاحتشامِ معَ ٱلمخاطَبِ .

٣ـ وإسنادِ ٱلشَّيءِ إلىٰ ٱلحضرَةِ وٱلجَنابِ وٱلمجلِسِ .

٤ـ وإِحداثِ ٱلأَلقابِ وٱلنُّعوتِ للخلفاءِ وٱلوزراءِ وٱلكُتَّابِ وٱلقُوَّادِ ، كـ : (ٱلسَّفاحِ وٱلرَّشيدِ وذي ٱلرِّئاستينِ وركنِ ٱلدَّولَةِ . . . إِلخ) .

٥ـ وٱلإِسهابِ في ٱلعهودِ وٱلرَّسائِلِ .

٦ـ وتأْديَةِ ٱلمعنىٰ ٱلواحدِ بأَلفاظٍ كثيرةٍ ، وجُمَلٍ مترادِفَةٍ .

وغير ذلكَ مِمَّا زانَ ٱللُّغَةَ مِنْ جهَةٍ وشانَها مِنْ جهَةٍ أُخرىٰ .

وما زالتِ ٱللُّغَةُ تتَّسِعُ وتنمو باتِّساعِ ٱلمُلكِ ، وتقدُّمِ ٱلعلمِ ونموِّ ٱلحضارَةِ ، وتنتشرُ وتسمو في حِمىٰ ٱلدِّينِ وظِلِّ ٱلخلافَةِ وسُلطانِ ٱلعربِ ، حتَّىٰ خلافَةِ ٱلمُتَوكِّلِ علىٰ ٱللهِ سنةَ (٢٣٢هـ) ؛ إِذِ ٱستفحَلَ أَمرُ ٱلأَتراكِ ٱلَّذينَ جلبَهُمُ ٱلمعتصِمُ مِنَ (ٱلتُّركستانِ) ، فأَخذوا يغالبونَ ٱلعرَبَ ، ويواثبونَ ٱلفرسَ ، ويغتصبونَ ٱلسُّلطانَ .

وكانَ ٱلأَمرُ للموالي بعدَ غلبَةِ ٱلمأمونِ ـ وهُم شيعَةٌ ـ فجاءَ ٱلمتوكِّلُ فعضَدَ ٱلأَتراكَ ، ونصرَ ٱلسُّنَّةَ .

فتقاتَلَ ٱلعنصرانِ ، وتناضَلَ ٱلمذهبانِ ، وٱبتغىٰ كُلٌّ منهُما ٱلفَلَجَ وٱلفوزَ بقهرِ ٱلعربِ ، وكبتِ ٱلخلفاءِ ، حتَّىٰ ذهبَ جلالُ ٱلخلافَةِ مِنَ ٱلنُّفوسِ ، وزالَتْ هيبَتُها مِنَ ٱلقلوبِ ، فٱستشرفَ ولاةُ ٱلأَطرافِ إِلىٰ ٱلاستقلالِ .

وبدأَ بنو بويهِ فوضَعوا أَيديَهُم سنةَ (٣٣٤هـ) علىٰ شؤُونِ ٱلدَّولَةِ في (بغدادَ) ، وٱمتدَّ نفوذُهم إِلىٰ جُلِّ ٱلممالِيكِ ٱلشَّرقيَّةِ ٱلإِسلاميَّةِ ، فأَخذَ سلطانُ ٱلعربِ وٱلعربيَّةِ يتراجَعُ في ٱلشَّرقِ ، وهَبَّ أَحفادُ ٱلأَكاسِرَةِ ، وأَبناءُ ٱلدَّهاقينِ يستردُّونَ مجدَ أَجدادِهم ، ويطارِدونَ ٱللُّغةَ ونفوذَها في بلادِهم .

وطَلبوا إِلىٰ شعرائِهم مِنْ أَمثالِ (ٱلدَّقيِّ وٱلفردوسيِّ)(١) أَنْ يُجدِّدوا مفاخرَ

---

(١) أَلَّفَ ٱلفردوسيُّ كتاباً سمَّاهُ : « شاه نامه » ، وهوَ ستُّونَ أَلفَ بيتٍ مِنَ ٱلشِّعرِ ، يشتملُ علىٰ=

ٱلأَسلافِ بتأْليفِ ٱلمنظوماتِ ٱلقصصيَّةِ ، وٱلأَناشيدِ ٱلقوميَّةِ .

ومِنَ ٱلعجيبِ أَنْ تَمَّ لَهُم ذلكَ سريعاً ؛ فإِنَّ ٱلمتنبِّيَ ـ وهوَ مِن رجالِ ٱلقرنِ ٱلرَّابعِ ـ يقولُ وقد زارَ (شِعبَ بوَّانَ) من بلادِ ٱلفرسِ :

مَغَانِيْ ٱلشِّعْبِ طِيْباً فِيْ ٱلْمَغَانِيْ ... بِمَنْـزِلَـةِ ٱلـرَّبِيْـعِ مِـنَ ٱلـزَّمَـانِ
وَلٰكِـنَّ ٱلْفَتَـىٰ ٱلْعَـرَبِـيَّ فِيْهَـا ... غَـرِيْـبُ ٱلْـوَجْـهِ وَٱلْيَـدِ وَٱللِّسَـانِ
مَـلَاعِـبُ جِنَّـةٍ لَـوْ سَـارَ فِيْهَـا ... سُلَيْمَـانٌ لَسَـارَ بِتَـرْجُمَـانِ

ثُمَّ ٱقتدىٰ بٱلفرسِ في ذلكَ ٱلأَتراكُ وٱلأَكرادُ .

ولٰكنَّ ٱلعربيَّةَ بقيَتْ في حِمىٰ ٱلقرآنِ تدافعُ سيلَ ٱلفارسيَّةِ وٱلتُّركيَّةِ ٱلجارِفَ .

وقد عزَّ ٱلنَّصيرُ مِن أَهلِها ، حتَّىٰ غلَبَ ٱلتَّتارُ علىٰ (بغدادَ) فغُلِبَتْ علىٰ أَمرِها ، وخضعَتْ لقانونِ ٱلطَّبيعَةِ ٱلقاهرةِ بعدما خلَّفت في تلكَ ٱلبلادِ شرائعَ وعلوماً وآداباً لَم تقوَ علىٰ محوِها ٱلأَيَّامُ .

* * *

= تاريخِ ٱلفُرسِ ، وهوَ قرآنُ ٱلقومِ ، وقد أَجمعَ فصحاؤُهم علىٰ أَنَّهُ ليسَ في لغتِهم أَفصحَ منهُ .

ترجمة
أبي الطيّب المتنبّي
٣٠٣-٣٥٤هـ

بقلم/ محمد مصطفىٰ الخطيب

نشأتُهُ وحياتُه :

أَبو ٱلطَّيِّبِ أَحمدُ بنُ ٱلحسينِ ٱلمُتَنبِّي ، وُلِدَ بـ(ٱلكوفةِ) من أَبوينِ فقيرَينِ .

كانَ أَبوهُ سقَّاءً بٱلكوفةِ ، ثُمَّ سافرَ بهِ وهو صغيرٌ إِلىٰ (ٱلشَّامِ) متنقِّلًا مِنَ ٱلباديَةِ إِلىٰ ٱلحاضرَةِ ، يُسلِمُهُ إِلىٰ ٱلمَكاتِبِ ، ويُردِّدُهُ في ٱلقبائِلِ ، ومخايلُهُ نواطِقُ بفضلِهِ ، ضوامِنُ لنُجحِهِ . . حتَّىٰ تُوُفِّيَ أَبوهُ ، وقد ترعرَعَ ٱلشَّاعِرُ ، ونالَ حظَّهُ مِن علومِ ٱللُّغَةِ وٱلأَدبِ ، فأَخذَ يضربُ في ٱلأَرضِ ؛ ٱبتغاءً للرِّزقِ وٱكتساباً للمجدِ .

وكانَ ٱلمُتنبِّي منذُ نشأَتِهِ كبيرَ ٱلنَّفْسِ ، عاليَ ٱلهِمَّةِ ، طَموحاً إِلىٰ ٱلمجدِ ، بلغَ مِن كِبَرِ نفسِهِ أَن دعا إِلىٰ بيعتِهِ بٱلخلافَةِ وهو لَدْنُ ٱلعودِ ، حديثُ ٱلسِّنِّ .

وحينَ كادَ يتمُّ ٱلأَمرُ . . تأَدَّىٰ خبرُهُ إِلىٰ والي ٱلبلدةِ . . فأَمرَ بحبسِهِ ، فكتبَ إِليهِ مِنَ ٱلسِّجنِ قصيدةً [مِنَ المتقاربِ] :

أَمَالِكَ رِقِّي وَمَنْ شَأْنُهُ ... هِبَاتُ اللُّجَيْنِ وَعِتْقُ ٱلْعَبِيْدْ
دَعَوْتُكَ عِنْدَ انقِطَاعِ ٱلرَّجَا ... ءِ وَٱلْمَوْتُ مِنِّيْ كَحَبْلِ ٱلْوَرِيْدْ
دَعَوْتُكَ لَمَّا بَرَانِيْ ٱلْبِلَىٰ ... وَأَوْهَنَ رِجْلَيَّ ثِقْلُ ٱلْحَدِيْدْ

فأَطلقَهُ .

ولٰكنَّ حُبَّ ٱلرِّياسَةِ لَم يَزَلْ مُتمكِّناً مِنْ قلبِهِ إِلىٰ أَنْ أَخلقَ بُردَ شبابِهِ ، وتضاعَفَ عقودُ عُمُرِهِ .

وفي سنة (٣٣٣هـ) ٱدَّعىٰ ٱلنُّبُوَّةَ في (ٱلشَّامِ) ، وفتَنَ شِرذمةً مِنَ ٱلنَّاسِ بقوَّةِ أَدَبِهِ ، وسحرِ بيانِهِ .

ولمَّا سُئِلَ عَنِ ٱلنَّبيِّ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم . . قالَ إِنَّهُ بشَّرَ بمَجيئي ، وأَخبرَ بنبوَّتي ؛ فقالَ : « لا ، نبيٌّ بَعدي » ، وأَنا ٱسمي في ٱلسَّماءِ (لا) .

وصنَّفَ كلاماً عارضَ بهِ ٱلقرآنَ ، فلمَّا ٱشتَهرَ أَمرُهُ . . قَبَضَ عليهِ لؤلؤٌ أَميرُ حِمصَ ، نائبُ ٱلإِخشيديَّةِ ، فأَوثقَهُ ، ثُمَّ أَطلقَهُ بعدَ أَنِ ٱستَتابَهُ وَتفرَّقَ عنهُ أَصحابُهُ .

فطَفِقَ يَتجشَّمُ أَسفاراً أَبعدَ مِن آمالِهِ ، ولا زادَ إِلَّا صبرُهُ ، ولا عُدَّةَ إِلَّا بأْسُهُ ، كمَا يتجلَّىٰ ذلكَ في مِثْلِ قولِهِ [مِنَ ٱلطَّويلِ] :

وَحِيدٌ مِنَ ٱلخُلَّانِ فِي كُلِّ بَلْدَةٍ ... إِذَا عَظُمَ ٱلمَطْلُوبُ قَلَّ ٱلمُسَاعِدُ

وقولِهِ [مِنَ ٱلخفيفِ] :

ضَاقَ صَدْرِيْ وطَالَ فِي طَلَبِ ٱلرِّزْ ... قِ قِيَامِيْ وَقَلَّ عَنْهُ قُعُوْدِيْ
أَبَداً أَقْطَعُ ٱلبِلَادَ وَنَجْمِيْ ... فِيْ نُحُوْسٍ وَهِمَّتِيْ فِيْ سُعُوْدِ

ولَمْ يَزَلْ هٰكذا حتَّىٰ ٱتَّصلَ بأَبي ٱلعشائرِ ـ والي (أَنطاكيَةَ) مِنْ قِبَلِ سيفِ ٱلدَّولَةِ ـ وٱمتدَحَهُ فأَكرَمَ مثواهُ ، وقدَّمَهُ إِلىٰ سيفِ ٱلدَّولَةِ ، وعرَّفَهُ بمنزلتِهِ مِنَ ٱلشِّعرِ وٱلأَدَبِ .

فَضَمَّهُ ٱلأَميرُ إِليهِ ، وحَسُنَ موقِعُهُ عندَهُ ، فسلَّمَهُ إِلىٰ ٱلرُّوَّاضِ فعلَّموهُ ٱلفروسيَّةَ ، وٱلطِّرادَ ؛ حتَّىٰ لا يفارِقَهُ في ٱلحربِ ولا في ٱلسِّلْمِ .

ودرَّت لَهُ أَخلافُ ٱلدُّنيا علىٰ يَديهِ ، حتَّىٰ كانَ مِن قولِهِ فيهِ [مِنَ ٱلطَّويلِ] :

تَرَكْتُ ٱلسُّرَىٰ خَلْفِيْ لِمَنْ قَلَّ مَالُهُ وَأَنْعَلْتُ أَفْرَاسِيْ بِنَعْمَاكَ عَسْجَدَا
وَقَيَّدْتُ نَفْسِيْ فِيْ هَوَاكَ مَحَبَّةً وَمَنْ وَجَدَ ٱلإِحْسَانَ قَيْداً . . تَقَيَّدَا

ولَم يَزَلْ معَهُ في حالٍ حَسنَةٍ حتَّىٰ حَدَثَتْ بينَهما جفوةٌ ، ففارَقَهُ إِلىٰ (مصرَ) في سنة (٣٤٦هـ) .

ومدحَ كافوراً ٱلإِخشيديَّ وأَبا شجاعٍ .

وأقامَ في (مصرَ) خمسَ سنينَ يرقُبُ ٱلفرصَةَ مِن كافورٍ فيصعَدُ ٱلمجدَ علىٰ كاهِلِهِ .

فما هو إِلَّا أَن قالَ [مِنَ ٱلطَّويلِ] :

أَبَا ٱلْمِسْكِ هَلْ فِيْ ٱلْكَأْسِ فَضْلٌ أَنَالُهُ فَإِنِّـيَ أَغْنَىٰ مُنْذُ حِيْنٍ وَتَشْرَبُ

وقالَ [مِنَ ٱلطَّويلِ] :

وَهَلْ نَافِعِيْ أَنْ تُرْفَعَ ٱلْحُجْبُ بَيْنَنَا وَدُوْنَ ٱلَّذِيْ أَمَّلْتُ مِنْكَ حِجَابُ
وَفِيْ ٱلنَّفْسِ حَاجَاتٌ وَفِيْكَ فَطَانَةٌ سُكُوْتِيْ بَيَانٌ عِنْدَهَا وَخِطَابُ

حتَّىٰ أَوجَسَ كافورُ منهُ خِيفةً ؛ لتعاليهِ في شعرِهِ ، وطموحِهِ إِلىٰ ٱلمُلْكِ ، فزوىٰ عنهُ وجهَهُ ، فهجاهُ ، وقَصَدَ (بغدادَ) .

ولم يمدحِ ٱلوزيرَ ٱلمُهلَّبيَّ ؛ لأَنَّهُ كانَ يترفَّعُ عن مدحِ غيرِ ٱلملوكِ ، فشقَّ ذلكَ علىٰ ٱلوزيرِ ، فأَشلىٰ عليهِ شعراءَ (بغدادَ) فنالوا من عِرضِهِ ومن شِعرِهِ .

ولـٰكنَّهُ لَم يُجِبْهم ، وذَهَبَ قاصداً (أَرَّجانَ) ؛ لزيارَةِ ٱلفضلِ بنِ ٱلعميدِ ، فكتبَ إِليهِ ٱلوزيرُ ٱلصَّاحِبُ بنُ عبَّادٍ يستزيرُهُ بـ(أَصبهانَ) ؛ طامعاً أَن يمدحَهُ . . فلَم يُقِمْ لهُ وزناً ، وأَمَّ عَضُدَ ٱلدَّولةِ بـ(شيراز) .

فأُوغِرَ عليهِ قلبُ ٱلصَّاحبِ ، وأَخذَ يَتَتَبَّعُ هفواتِهِ ـ وهو أَعلمُ ٱلنَّاسِ بحسناتِهِ ـ وشَنَّ عليهِ هو وأَشياعُهُ حرباً قَلَميَّةً ، وأَلَّفَ ٱلكتبَ في نقدِهِ ، ورمَوهُ بالسَّرقَةِ والخروجِ عَنِ ٱلأَساليبِ ٱلعربيَّةِ ، وهو لا يأبَهُ لهم ؛ ذهاباً بنفسِهِ وإِعجاباً بشعرِهِ .

ولمَّا حَصَلَ عندَ عَضُدِ ٱلدَّولَةِ . . أَسبغَ عليهِ نعمتَهُ ، ووصلَهُ بثلاثَةِ آلافِ دينارٍ وخيولٍ وثيابٍ .

ثُمَّ دَسَّ مَنْ يسأَلُهُ : أَينَ هـٰذا ٱلعطاءُ مِن عطاءِ سيفِ ٱلدَّولَةِ ؟ فقالَ لهُ : هـٰذا أَجزلُ . . لـٰكنَّهُ مُتكلَّفٌ ، وسيفُ ٱلدَّولَةِ يُعطي طبعاً .

فغضِبَ عليهِ عضدُ ٱلدَّولَةِ مِن ذلكَ ، فجهَّزَ عليهِ فاتِكاً ٱلأَسديَّ ، ولمَّا بلغَهُ مغادَرَةُ ٱلمُتنبِّي لبلادِ فارسَ ، وعلمَ ٱجتيازَهُ بجبلِ ديرِ ٱلعاقولِ . . تتبَّعَ أَثرَهُ .

وكانَ أَبو ٱلطَّيِّبِ قد مَرَّ بأَبي نصرٍ مُحَمَّدٍ ٱلحلبيِّ ، فأَطلَعَهُ علىٰ حقيقةِ ٱلأَمرِ ، وما ينويهِ فاتكٌ مِنَ ٱلشَّرِّ لَهُ ، ونصحَهُ بأَن يَصْحَبَ معهُ مَن يَستأْنِسُ بهِ في ٱلطَّريقِ .

فلَم يزدَدْ إِلَّا أَنَفَةً وعناداً ، وأَبىٰ أَنْ يصحبَ معهُ أَحداً قائِلًا : أَنَا والجُرازُ[1] في عُنُقي فَما بي حاجةٌ إِلىٰ مُؤْنِسٍ . ثُمَّ قالَ : وٱللهِ لا أَرضىٰ أَن يتحدَّثَ ٱلنَّاسُ بأَنَّني سِرتُ في خفارَةِ غيرِ سَيفي .

فحذَّرَهُ أَبو ٱلنَّصرِ كثيراً ، فما كانَ منهُ إِلَّا أَنْ أَجابَ :

---

(١) الجُرازُ : السيف .

أَبنَجْوِ ٱلطَّيرِ تُخَوِّفُني؟ ومِن عبيدِ ٱلعَصا تخافُ عَلَيَّ ؟!! وٱللهِ لَو أَنَّ مِخْصَرتي هٰذهِ ملقاةٌ علىٰ شاطىءِ ٱلفراتِ ، وبنو أَسَدٍ معطَّشون لخَمسٍ ، وقد نظروا ٱلماءَ كبطونِ ٱلحيَّاتِ . . ما جَسَرَ لَهم خُفٌّ ولا ظِلفٌ أَنْ يَرِدَهُ ، معاذَ ٱللهِ أَن أَشغلَ فكري بهم لحظةَ عينٍ .

فقالَ لَهُ أَبو نصرٍ : قُلْ : إِن شاءَ ٱللهُ .

فقالَ : هي كلمةٌ مقولَةٌ ، لا تَدفَعُ مَقضياً ، ولا تستجلِبُ آتياً .

ثُمَّ رَكِبَ وسارَ ، فلقيَهُ فاتِكٌ في ٱلطَّريقِ فقتَلَهُ وقتلَ معَهُ ولدَهُ مُحَسِّداً وغلامَهُ مُفلحاً .

وكانَ مقتَلُهُ في (٢٨) رمضان سنة (٣٥٤هـ) .

* * *

شعره :

المُتنبِّي شاعرٌ مِن شعراءِ ٱلمعاني ، وَفَّقَ بينَ ٱلشِّعرِ وٱلفلسفَةِ ، وجعلَ أَكثَرَ عنايتِهِ بٱلمعنىٰ ، وأَطلقَ ٱلشِّعرَ مِنَ ٱلقيودِ ٱلَّتي قَيَّدَهُ بها غيرُهُ مِنَ ٱلشُّعراءِ ، وخَرَجَ بهِ عَنْ أَساليبِ ٱلعربِ ٱلتَّقليديَّةِ ، فهوَ إِمامُ ٱلطَّريقَةِ ٱلابتداعيَّةِ في ٱلشِّعرِ ٱلعربيِّ .

ولقد حَظِيَ في شعرِهِ بٱلحِكَمِ وٱلأَمثالِ ، وٱختصَّ بٱلإِبداعِ في وصفِ ٱلقتالِ ، وٱلتَّشبيبِ بٱلأَعرابيَّاتِ ، وإِجادَةِ ٱلتَّشبيهِ ، وإِرسالِ ٱلمَثَلَيْنِ في ٱلبيتِ ٱلواحِدِ ، وحُسْنِ ٱلتَّخلُّصِ ، وصِحَّةِ ٱلتَّقْسِيمِ ، وإِبداعِ ٱلمديحِ ، وإِيجاعِ ٱلهجاءِ .

وأَخَصُّ ما يميِّزُ ٱلمُتنبِّيَ بروزُ شخصيَّتِهِ في شعرِهِ ، وصدقُ إِيمانِهِ برأْيِهِ ، وقُوَّةُ ٱعتدادِهِ بنفسِهِ ، وصِحَّةُ تعبيرِهِ عَنْ طبائِعِ ٱلنَّفْسِ ، ومشاغِلِ ٱلنَّاسِ ،

وأَهواءِ ٱلقلوبِ ، وحقائِقِ ٱلوجودِ ، وأَغراضِ ٱلحياةِ .

لذلكَ كانَ شِعرُهُ في كُلِّ عصرٍ مَدداً لكُلِّ كاتِبٍ ، ومَثَلًا لكُلِّ خاطِبٍ .

* * *

نموذجٌ مِن بديعِ شعرِهِ :

قالَ يشكو ٱلزَّمانَ [مِنَ ٱلبسيطِ] :

لَمْ يَتْرُكِ ٱلدَّهْرُ مِنْ قَلْبِيْ وَلَا كَبِدِيْ ... شَيْئاً تُتَيِّمُهُ عَيْنٌ وَلَا جِيْدُ
يَا سَاقِيَيَّ أَخَمْرٌ فِيْ كُؤُوْسِكُمَا ... أَمْ فِيْ كُؤُوْسِكُمَا هَمٌّ وَتَسْهِيْدُ ؟
أَصَخْرَةٌ أَنَا؟ مَا لِيْ لَا تُغَيِّرُنِيْ ... هَٰذِيْ ٱلْمُدَامُ وَلَا تِلْكَ ٱلأَنَاشِيْدُ ؟
إِذَا أَرَدْتُ كُمَيْتَ ٱللَّوْنِ صَافِيَةً ... وَجَدْتُهَا وَحَبِيْبُ ٱلنَّفْسِ مَفْقُوْدُ
مَاذَا لَقِيْتُ مِنَ ٱلدُّنْيَا ؟ وَأَعْجَبُهَا ... أَنِّيْ بِمَا أَنَا بَاكٍ مِنْهُ مَحْسُوْدُ

وقالَ [مِنَ ٱلوافرِ] :

نَصِيْبُكَ فِيْ حَيَاتِكَ مِنْ حَبِيْبٍ ... نَصِيْبُكَ فِيْ مَنَامِكَ مِنْ خَيَالِ
رَمَانِيْ ٱلدَّهْرُ بِٱلأَرْزَاءِ حَتَّىٰ ... فُؤَادِيْ فِيْ غِشَاءٍ مِنْ نِبَالِ
فَصِرْتُ إِذَا أَصَابَتْنِيْ سِهَامٌ ... تَكَسَّرَتِ ٱلنِّصَالُ عَلَىٰ ٱلنِّصَالِ
وَهَانَ فَمَا أُبَالِيْ بِٱلرَّزَايَا ... لأَنِّيْ مَا ٱنْتَفَعْتُ بِأَنْ أُبَالِيْ

وقالَ [مِنَ ٱلخفيفِ] :

صَحِبَ ٱلنَّاسُ قَبْلَنَا ذَا ٱلزَّمَانَا ... وَعَنَاهُمْ مِنْ أَمْرِهِ مَا عَنَانَا
وَمُرَادُ ٱلنُّفُوْسِ أَصْغَرُ مِنْ أَنْ ... نَتَعَادَىٰ فِيْهِ وَأَنْ نَتَفَانَىٰ
غَيْرَ أَنَّ ٱلْفَتَىٰ يُلَاقِيْ ٱلْمَنَايَا ... كَالِحَاتٍ وَلَا يُلَاقِيْ ٱلْهَوَانَا
وَلَوَ ٱنَّ ٱلْحَيَاةَ تَبْقَىٰ لِحَيٍّ ... لَعَدَدْنَا أَضَلَّنَا ٱلشُّجْعَانَا
وَإِذَا لَمْ يَكُنْ مِنَ ٱلْمَوْتِ بُدٌّ ... فَمِنَ ٱلْعَارِ أَنْ تَمُوْتَ جَبَانَا

وقالَ [مِنَ ٱلطَّوِيلِ] :

وَأَتْعَبُ خَلْقِ ٱللهِ مَنْ زَادَ هَمُّهُ وَقَصَّرَ عَمَّا تَشْتَهِي ٱلنَّفْسُ وُجْدُهُ
فَلَا مَجْدَ فِيْ ٱلدُّنْيَا لِمَنْ قَلَّ مَالُهُ وَلَا مَالَ فِيْ ٱلدُّنْيَا لِمَنْ قَلَّ مَجْدُهُ
وَفِيْ ٱلنَّاسِ مَنْ يَرْضَىٰ بِمَيْسُوْرِ عَيْشِهِ وَمَرْكُوْبُهُ رِجْلَاهُ وَٱلثَّوْبُ جِلْدُهُ

وقالَ [مِنَ ٱلطَّوِيلِ] :

وَأَظْلَمُ أَهْلِ ٱلظُّلْمِ مَنْ بَاتَ حَاسِداً لِمَنْ بَاتَ فِيْ نَعْمَائِهِ يَتَقَلَّبُ

ومِن أمثالِهِ ٱلسَّائِرَةِ [مِنَ ٱلبسيطِ] :

مَا كُلُّ مَا يَتَمَنَّىٰ ٱلْمَرْءُ يُدْرِكُهُ تَجْرِيْ ٱلرِّيَاحُ بِمَا لَا تَشْتَهِيْ ٱلسُّفُنُ

ومِنها أيضاً [مِنَ ٱلوافرِ] :

وَلَمْ أَرَ فِيْ عُيُوْبِ ٱلنَّاسِ عَيْباً كَنَقْصِ ٱلْقَادِرِيْنَ عَلَىٰ ٱلتَّمَامِ

ومِنها أيضاً [مِنَ ٱلطَّوِيلِ] :

أَعَزُّ مَكَانٍ فِيْ ٱلدُّنَىٰ سَرْجُ سَابِحٍ وَخَيْرُ جَلِيْسٍ فِيْ ٱلأَنَامِ كِتَابُ

ومِنها [مِنَ ٱلطَّوِيلِ] :

وَمَنْ لَمْ يَمُتْ بِٱلسَّيْفِ مَاتَ بِغَيْرِهِ تَعَدَّدَتِ ٱلأَسْبَابُ وَٱلْمَوْتُ وَاحِدُ

ومِنها [مِنَ ٱلكاملِ] :

وَٱلظُّلْمُ مِنْ شِيَمِ ٱلنُّفُوْسِ فَإِنْ تَجِدْ ذَا عِفَّةٍ فَلِعِلَّةٍ لَا يَظْلِمُ
ذُوْ ٱلْعَقْلِ يَشْقَىٰ بِٱلنَّعِيْمِ بِعَقْلِهِ وَأَخُو ٱلْجَهَالَةِ فِيْ ٱلشَّقَاوَةِ يَنْعَمُ
وَٱلْهَمُّ يَخْتَرِمُ ٱلْجَسِيْمَ نَحَافَةً وَيُشِيْبُ نَاصِيَةَ ٱلصَّغِيْرِ وَيُهْرِمُ

* * *

ترجمة مؤلف الكتاب(١)
السيد عبد الرحمن بن عبيد الله السقاف
رحمه الله تعالى

بقلم/ محمد بن أبي بكر باذيب

المسرد النسبي :

هو : عبد الرحمن بن عبيد الله بن محسن بن علوي بن سقاف بن محمد بن عمر بن طه بن عمر بن طه بن عمر الصافي ابن عبد الرحمن بن محمد بن علي ابن الشيخ الكبير عبد الرحمن السقاف بن محمد (مولىٰ الدويلة) ابن علي بن علوي ابن الإمام الأستاذ الأعظم الفقيه المقدم محمد بن علي بن محمد (صاحب مرباط) ابن علي (خالع قسم) ابن علوي (صاحب بيت جبير) ابن محمد (مولىٰ الصومعة) ابن علوي (صاحب سمل) ابن عبيد الله ابن المهاجر إلىٰ الله أحمد بن عيسىٰ بن محمد (النقيب) ابن علي (العريضي) ابن جعفر (الصادق) ابن محمد (الباقر) ابن علي (زين العابدين) ابن الإمام الشهيد السبط الحسين ابن أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب وابن سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء البتول ابنة سيدنا رسول الله محمد بن عبد الله ﷺ .

نسبٌ تحسب العلا بحلاه   قلدتها نجومها الجوزاءُ(٢)

المولد والمنشأ :

كان مولد نابغة حضرموت في السابع والعشرين من شهر رجب سنة ١٣٠٠هـ في

---

(١) هذه الترجمة اقتطفت من ترجمة حافلة موسعة للسيد السقاف . . هي قيد الإعداد والجمع والمراجعة وستصدر في كتاب مستقل إن شاء الله تعالىٰ . .

(٢) البيت مِنَ الخفيف .

المحل المسمىٰ (عَلَمْ بَدْر)[1] بمدينة سيؤن إحدىٰ أشهر المدن الحضرمية .

ونشأ مترجَمُنا نشأة صالحة في كنف أسرته . . وهي إحدىٰ الأسر المرموقة المشهورة بالعلم والكرم . . وظهر منها علماء كبار وأعلام أفذاذ كانوا ولا زالوا بهجة العصر وزينة الوقت . . فاجتمع للمتَرْجَم طِيبُ النِّجار وشَرَفُ الدار . . فوالده العابد الصالح العالم الآتي ذكره لاحقاً وجده السيد الجليل الزعيم المصلح الحبيب محسن بن علوي السقاف المتوفىٰ سنة ١٢٩١هـ . . الرجل الذي ملأت شهرته ربوع الوادي في عصره وكانت له مواقف سياسية واجتماعية مشهورة . . إلىٰ جانب زعامته الدينية والروحية . .

شيوخه :

أولهم والده السيد عبيد الله الرجل الصالح العابد الزاهد الورع كانت ولادته في ١٢٦١هـ ووفاته في ١٣٢٤هـ وكان والده يصطحبه إلىٰ رحاب شيخه الإمام الرباني العلامة عيدروس بن عمر الحبشي صاحب الغرفة المتوفىٰ بها سنة ١٣١٤هـ فأخذ عنه أخذاً تاماً وهو دون سن البلوغ وكان تأثره وتعلقه به قوياً للغاية . .

وكان ابتدأ تعلمه القرآن الكريم وقراءته علىٰ يد المعلم الصالح الشيخ عبد القادر بن عبد الله باحميد ، وقرأ النحو وما تعلق به علىٰ العلامة المتفنن الشيخ محمد بن محمد باكثير (ت١٣٥٥هـ) ، وقرأ الفقه وحقق مسائله علىٰ شيخه العلامة الفقيه مفتي سيؤن السيد علوي بن عبد الرحمن بن علوي السقاف (ت١٣٢٨هـ) .

وله جمع كبير من الشيوخ لا تتسع هذه العجالة لذكرهم . .

ولقد كانت الاستعدادات الفطرية والمواهب الذاتية لدىٰ المترجم له كبيرة جداً . . فقد رزقه الله عقلاً صافياً وفكراً نيراً وقريحة وقادة . .

وكان قوي الذاكرة سريع الاستحضار والبديهة . . يغوص في العلم ومسائله حتىٰ يستخرج اللآلي والدرر . . وما مصنفاته إلا شاهدة علىٰ صحة هذا القول وهذه

---

(١) أصل هذه الكلمة أو المسمىٰ هو (علي بن بدر) وإنما حرِّفت عن أصلها لكثرة تداولها . . ويبدوا أنه كان مسمىٰ لأحد أمراء آل كثير في الماضي .

الدعوىٰ . . فنظرة علىٰ « صوب الركام » أو « العود الهندي » ترد طَرْف الناظر حسيراً مملوءاً بالإعجاب والإكبار . .

حتىٰ إنه ـ رحمه الله تعالىٰ ـ يقول : كنت أيام شبابي أحياناً أضع يدي علىٰ الصفحة اليسرىٰ خوفاً من أن تقع عيني عليها ويسبق حفظي لها . . !

وقد قال عنه الشيخ حمد الجاسر :

ففضلًا عما لأسرته في (حضرموت) من المكانة وعلو المنزلة في نفوس أهل تلك البلاد . . بلغ مرتبةً من العلم أهّلته بينهم لأَنْ يحل أرفع المقامات ، فعُرف بعالم (حضرموت) ومفتي الديار الحضرمية وكان ذا نفوذ قوي في الشؤون العامة في تلك البلاد ، وصلة قوية بحكام أقاليمها ، وإسهام بارز في السعي لتوحيد أجزائها واستقلالها ، ورفع كابوس الاحتلال البريطاني الذي كان جاثماً عليها . كما كان قوي الصلة بإمام (اليمن) يحيىٰ حميد الدين ، بحيث كان يرجع إليه في معالجة بعض القضايا العامة المتعلقة بالخلافات التي تقع بين حكام تلك البلاد ، كما يتضح من إشارات وردت في بعض كتبه . انتهى[1] .

بهذه العبارات التي أوردها الشيخ الجاسر رحمه الله تعالىٰ فقد لخص لنا صفحات وصفحات من سيرة هذا الرجل . . فلقد كان له المواقف المذكورة والجهود المشكورة . . وصولات وجولات تركنا التوسع فيها للترجمة الموسعة التي ستصدر عنه إن شاء الله تعالىٰ . .

ولابأس أن نذكر في هذه اللمعة موقفاً له مع الملك عبد العزيز آل سعود رحمه الله تعالىٰ . .

فلقد كانت له مواقف رجولية وبطولية كان فيها المتحدثَ الناصح والخبير بالشؤون السياسية وأمور الإصلاح فمما دار بينهما في مجلس عقد في موسم حج عام ١٣٥٢هـ . . ما حكاه ابن عبيد الله بنفسه حيث يقول :

---

(١) مجلة العرب العددان ٥/٦ ، السنة ٢٦ تاريخ ذي القعدة وذي الحجة ١٤١١هـ .

(. . ولما اجتمعت أنا بابن السّعود في ذلك العام ، بدأني بالحديث عن قضية الصلح بينه وبين إمام اليمن ، فكان موافقاً لما تحدث به إليَّ ابن الوزير سواءً بسواءٍ ، وقال لي الملك عبد العزيز : إنني لما أبرقت إلىٰ ولدي فيصل بالجلاء عن الحديدة أجابني : بأن الانتحار أهون عليه من ذلك ، فأجبته : بأن انتحارك لا يقلل من عدد أبنائي وقد نيّفوا علىٰ الأربعين ، ثم هو هيّن عليَّ في سبيل حقن دماء المسلمين . . هذا نص كلامه لي بمرأىٰ من ولده فيصل ومسمع)[1] .

وهكذا كانت تحركاته الواسعة داخل هذه الدائرة ، علت به إليها همته ، وحملته عزيمته ونيته . . وهنا يبرز لنا سؤال يفرض نفسه في هذا المقام : وهو بأي صفة كان يتكلم هذا الإمام مع الملوك والزعماء في السياسة والحروب وكأنه واحد منهم ؟ وكيف يتبادلون معه الأحاديث السياسية وكأنه خبير أو مستشار وهو لا يمثل دولة ؟ وليس له صفة سياسية ؟! إنه ولا شك يمثل دولة العلم ، إنها قوة الشخصية الممتلئة بالعلم والإيمان ، وبالحيوية والروح النورانية المكتسبة منذ الصغر من نظرات شيوخه العارفين[2] .

مؤلفاته :

صنف ابن عبيد الله مصنفات تشهد له بالبراعة وعلو الكعب . . وسنتحدث عن هذه المصنفات كدلائل وشواهد للجوانب العلمية التي حظي بها مترجمنا . . وكذلك لننفض الغبار عن الكنوز العظيمة التي خلفها الرجل . . عسىٰ ولعل أن تتاح الفرصة لنشرها وإظهارها . . ليعم النفع والانتفاع بها . .

أولاً ـ مصنفاته الفقهية :

١ ـ كتاب (صوب الركام في شؤون القضاء والأحكام) مجلدان وهو مطبوع .

٢ ـ حاشية علىٰ كتاب (فتح الجواد بشرح الإرشاد) .

---

(١) السيد عبد القادر الخرد من مقدمته علىٰ كتابه (صوب الركام) .

(٢) المصدر السابق .

٣ـ حاشية علىٰ كتاب (منهاج الطالبين) للإمام محيي الدين النووي رحمه الله .

٤ـ حاشية علىٰ التحفة . . أي تحفة المحتاج بشرح المنهاج .

ثانياً ـ مصنفاته في الحديث :

١ـ (بلابل التغريد فيما أفدناه أيام التجريد) ـ يقع في ثلاث مجلدات .

قال عنه الأستاذ الزركلي : هو أشبه بكتب الأمالي في ثلاثة أجزاء .

وقد صنفه أيام تدريسه للتجريد الصريح للجامع الصحيح (مختصر صحيح البخاري) للإمام العلامة الزبيدي الشرجي .

٢ـ حاشية علىٰ الشمائل النبوية للإمام الترمذي .

ثالثاً ـ مصنفاته التاريخية :

١ـ كتاب (بضائع التابوت في نتف من تاريخ حضرموت) يقع في ثلاث مجلدات ضخام قال عنه الزركلي مثنياً علىٰ كتاب (البضائع) المذكور : وأتىٰ فيه بعلم غزير في تاريخ حضرموت وبيوتها وحكامها وأعلامها إلىٰ استطرادات في فنون مختلفة من أدب وحديث وفقه ، إلىٰ وثائق سياسية ومعاهدات وملحوظات[1] .

٢ـ « إدام القوت » أو « معجم بلدان حضرموت » :

وهو الكتاب الذي قام الشيخ حمد الجاسر ـ رحمه الله ـ بنشره في مجلة « العرب » طوال خمس سنوات . . وهو كتاب يعنىٰ بتاريخ بلدان حضرموت مع ذكر لبعض أعيانها وقد اختصره من كتاب (بضائع التابوت) .

رابعاً ـ مؤلفاته الأدبية والنقدية :

الحديث عن الجانب الأدبي النقدي عند ابن عبيد الله حديث يطول ويطول . . فمن ذا يطاول قريع البلغاء وكبير الأدباء . . وحسبنا قبل أن ندلج إلىٰ وصف وذكر

---

(١) الأعلام : ٣/ ٣١٥ .

مصنفاته الأدبية التي أحدها كتابنا هذا (العود الهندي) الذي نتشرف بنشره.. أن نبين إن استطعنا أننا أمام رجل غير عادي.. رجل صاحب فكر حر وذهن صافي وفهم صحيح وذكاء وقاد إلىٰ غير ذلك من الصفات التي قلما تجتمع في رجل.. انظر معي إلىٰ حسن استنباطاته ودقة فهمه ما جاء في مقدمة ديوانه حيث أنه فهم من قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ أنها تدل علىٰ فضيلة الشعر وعلو مقامه بعكس مفهوم المفسرين فيها..

قال رضي الله عنه: ومن أنصع الأدلة علىٰ تفضيله ـ أي: الشعر ـ صرف سيد البشر ﷺ عن سبيله، لأنه وإن كان الذكر علياً والفكر جلياً، ويستحيل أن يشبه بلاغة القرآن غيره، فإنه لا يمكن التشكيك إلا به.. عند من قل خيره، فلو كان عليه السلام شاعراً لكان للشبهة مجاز، فكونه أمياً لا يقرضه أبلغ في الإعجاز، وأما ما ينسب إلىٰ الشعر من المذام، فراجع إلىٰ العلة التي انتشرت بأهله كالجذام، وهي التكسب القبيح بالغلو في المديح، وقد صاننا الله عن ذلك فالساحة براء.. وبيننا وبين الذل ـ إلا الله وحده ـ سبل وعرة وأرض عراء.. إلخ.

كذلك تأمل معي المجلس الأول من كتابنا هذا والذي يدور حول بيتي المتنبي [مِنَ ٱلخفيف]:

بأبي من وددته فافترقنا ... وقضىٰ الله بعد ذاك اجتماعا
فافترقنا حولًا ولما التقينا ... كان تسليمه عليّ وداعا

فيا ترىٰ.. ما السبب الداعي للبدء بالكلام علىٰ هذين البيتين؟! ولِمَ شِعرُ الفراق هو المقدم عند ابن عبيد الله.. إن لذلك سبباً يرجع إلىٰ حسن استنباطه أيضاً.. إنه الاستنباط الذي انطلق من قاعدة قوية هي هذه الشخصية الفذة لتحلق في أفق عالية لم يصل إليها أحد.. ولتوضيح ذلك لننظر إلىٰ هذا الحوار الذي دار بين ابن عبيد الله وشيخه العلامة النابغة السيد أبي بكر بن عبد الرحمن بن شهاب الدين رحمه الله..

لقد دار ذلك الحوار بين الشيخ وتلميذه، وكان مداره حول اختيار أحسن مواضيع الشعر وأيها أبلغ تأثيراً في النفوس.

(قال الشيخ « ابن شهاب » : أحسنها الغزل والنسيب ، ولهذا كان شعراء العرب يقدمون النسيب والغزل في قصائدهم . .

فاستوقفه تلميذه « ابن عبيد الله السقاف » قائلاً :

أما أنا . . فالذي أراه أن أحسن مواضيعه المؤثرة : شكوىٰ الفراق . . ولي دليل علىٰ ذلك من كتاب الله تعالىٰ .

فسأله شيخه : ما هو دليلك ؟

فأجابه : دليلي عليه من سورة يوسف ، قوله تعالىٰ لنبيه ﷺ : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ . . ﴾ وسورة يوسف كلها محتوية علىٰ شكوىٰ الفراق .

فاستحسن الشيخ « ابن شهاب » هذا الجواب من تلميذه النجيب النابغة وقبّل بين عينيه) .

أعتقد أن الحوار لا يحتاج إلىٰ أي تعليق . . فلقد قطعت جهيزة قول كل خطيب . . وإنما أردنا بإيرادنا لهذين الاستنباطين التمهيد للقارىء الكريم . . للانطلاق والتحليق في أجواء كتابنا هذا . . نعود إلىٰ متابعة ذكر مؤلفاته الأدبية والنقدية :

١ ـ « العود الهندي عن أماليَّ في ديوان الكندي » .

وهو كتابنا الذي نقدمه للقارىء الكريم . . قال عنه الشيخ حمد الجاسر :

(يعد كتاب « العود الهندي » من أحفل كتب الأدب بالفوائد والفرائد من الأشعار والأخبار ، مما يدل علىٰ ما يتصف به مؤلفه من سعة الاطلاع ، مع رحابة الصدر في إيراد ما قد يتحاشىٰ البعض من إيراده من النكت والنوادر ، وقد يسوق بعد ما يورد من الشواهد طرائف من الشعر أو القصص الحديثة) . .

وقال الشيخ الجاسر أيضاً في موضع آخر :

(ومع أن السيد السقاف لم يتلق العلم ـ فيما علمت عنه ـ خارج الجزيرة ، إلا أن المرء حين يطالع أحد مؤلفاته ككتابه عن المتنبي . . يعجب من سعة اطلاعه ، وقوة استحضاره للشواهد والنصوص عند الحاجة ، وسرعة بديهته) .

لقد اختار المؤلف تسمية كتابه هذا بـ « العود الهندي » ذلك المندل الزكي الرائحة ليتناسب مع كلمة (الطيّب) في كنيته المتنبي ، وكأنه يستنشق أريج أشعاره .

كما جعل لهذا الكتاب « مجالس » بدل « أبواب » أو « فصول » لأن الأشعار تتناسب معها مجالس الأدب والشعر ، وكأنه تخيل نفسه في مجالس مع المتنبي يستوحي ويستلهم من أشعاره الخالدة التي لا زالت الأقلام تأتي بالجديد والمفيد في فهمها وتحليلها ، لأنها أشعار في غاية البلاغة والجزالة وقوة السبك في صياغة شعرية لم يأت أحد بمثلها إلىٰ المعاني التي تفرد بالكثير منها .

فتناول في مجالسه ـ هذه ـ جل مواضيع شعر المتنبي من : غزل ، ومديح ، وفخر ، ورثاء وفراق ووفاق وغيرها .

وما دمنا نتكلم علىٰ اسم الكتاب فلا بأس أن نعرج إلىٰ نسبة المتنبي إلىٰ كندة :

أطلق ابن عبيد الله علىٰ كتابه الذي تذوق فيه ونقد بعض أبيات شاعر العربية الكبير المتنبي اسم « العود الهندي » ليوافق سجعة اللقب الذي أطلقه علىٰ المتنبي وهو « الكندي » . إن الذين ترجموا للمتنبي أجمعوا أنه ولد بمحلة بالكوفة تسمىٰ « محلة كندة » وهذه المحلة كانت خطة من خطط الكوفة نزلها في الصدر الأول جماعة من بطون كندة فسميت بهم .

فقد كان أهل اليمن وحضرموت يشكلون تعداداً قدره ستة آلاف دار في سنة ٣١٤هـ نصيب كندة منها ثلاثة آلاف بيت[١] .

وقد تحدث الشيخ محمود شاكر عن هذه المحلة وتطرق إلىٰ الحديث عن نسب أبي الطيب المتنبي في كتابه (المتنبي) فليرجع إليه من أراد التوسع في الأمر . .

٢ـ ديوان ابن عبيد الله :

ديوان حافل بأصناف وألوان القصائد وأرقها وأعذبها وأجزلها . .

---

(١) المتنبي : محمود شاكر ص١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣ .

طبع الديوان في رمضان ١٣٧٨هـ تحت نظر وتصحيح الشيخ حسنين مخلوف ومراجعة السيد حسن بن عبد الرحمن ابن المؤلف ـ رحمهما الله ـ وجاء مع فهارسه في ٥٥٢ صفحة . وتوجد مجموعة أخرىٰ من شعره لم تأخذ طريقها للنشر بعد . . وتقع في حوالي ٥٠٠ صفحة وهو يعد الجزء الثاني لا يزال مخطوطاً . .

وهو فعلًا كما قال عنه الشيخ حسنين مخلوف : ديوان شعر وعلم وأدب وتاريخ وسِيَر ودين وأخلاق .

٣ـ « معارضة البردة » : طبعت بعدن سنة ١٣٦٧هـ .

٤ـ « الرحلة الدوعنية » : وهي عبارة عن رحلة منظومة . . وقد قام ابن عبيد الله بهذه الرحلة سنة ١٣٦٠هـ . . وهي تعد من روائع أدب الرحلات .

٥ـ « النجم المضي في نقد عبقرية الشريف الرضي » ، ويسمىٰ « مفتاح الثقافة » : اطلع عليه الزركلي فوصفه قائلًا : « انتقد به بعض ما جاء في « عبقرية الرضي » للدكتور زكي مبارك في جزء لطيف » . وهو مخطوط ويقع في مجلد متوسط .

٦ـ « النقد العلمي الذوقي في الجواب عن أبيات شوقي » :

وهو جزء لطيف يقع مخطوطاً في ٣٢ صفحة ومطبوعاً في ٢٢ صفحة .

خامساًـ محاضراته وخطبه :

كان ابن عبيد الله السقاف ـ رحمه الله تعالىٰ ـ خطيباً بارعاً مفوهاً مصقعاً . . ومع ما ترىٰ له من المؤلفات إلا أنه يُذْكَر أنه في الخطابة أعظم منه في الكتابة . . فسبحان المعطي الوهاب . . وله مجموعة لابأس بها من الخطب الجُمَعية أو في مناسبات أخرىٰ قيل إنها جمعت في مجلد . ولنذكر في هذه العجالة بعض محاضراته :

١ـ محاضرة « تحقيق الفرق بين العامل بعلمه وغيره وما يتصل بذلك من حد الولاية وحكم الإلهام » . طبعَهُ بمصر سنة ١٣٥٥هـ في ٣٢ صفحة بتقريظ العلامة أحمد المطاع الصنعاني .

٢ـ كلمة عن العدالة والمساواة :

ألقاها في درسه بسيؤن في ٩ ربيع الثاني سنة ١٣٧٢هـ . . بعد أن سئل عن حكم الإسلام في ذلك ، وكانت علىٰ البديهة ارتجالًا بدون تحضير سابق!!

٣ـ كلمة حول « تحديد الملكية » :

وهي رد علىٰ مقال للشيخ محمد عرفة نشر بمجلة الأزهر . . وتاريخها ١٦ ربيع الثاني ١٣٧٢هـ .

سادساً ـ الردود :

نذكر منها :

١ـ « النجم الدري في الرد علىٰ السيد سالم الجفري » .

٢ـ « نسيم حاجر في تأكيد قولي عن مذهب المهاجر » .

٣ـ « السيف الحاد لقطع الإلحاد » : طبع بعدن في شعبان ١٣٦٩هـ في ١٣٨ صفحة . وهو رد علىٰ كتاب « توحيد الأديان » للأستاذ حسين الصافي من أهالي جيزان ، وقد رجع الصافي عن كتابه بعد ذلك[١] .

تلاميذه :

سنذكر منهم ما تسمح بهم هذه العجالة فمنهم :

١ـ ابنه السيد الأديب الشاعر الأستاذ حسن بن عبد الرحمن . . المولود سنة: (١٣٣٥هـ) والمتوفىٰ سنة: (١٤٠٦هـ) . كان والده شديد العناية به وكتب معظم مصنفاته ومنها هـٰذا الكتاب « العود الهندي » من أجله كما في مقدمته . وللسيد حسن ديوان شعر حكمي طبع مؤخراً .

٢ـ ابنه الآخر السيد عبد القادر (قيدان) بن عبد الرحمـٰن . . ولد بسيون وتوفي

---

(١) أخبرني بهـٰذا تلميذ المترجم السيد جعفر بن محمد السقاف .

مهاجراً في سورابايا سنة: (١٣٩٩هـ) وهو أكبر أبنائه ، كان فاضلاً أديباً ، درس في مدرسة النهضة بسيون وكان له نشاط أدبي في مهجره. . رحمهما الله .

٣ـ السيد علوي بن عبد الله بن حسين بن محسن بن علوي السقاف [١٣١٥هـ ـ١٣٩١هـ] عالم نحرير فقيه محقق. . أجمع عليه أهل عصره واعتبروه زعيماً مخلصاً كما أجمعوا علىٰ أنه الثاني في الفقه بعد شيخه العلامة ابن عبيد الله . .

٤ـ السيد محمد بن شيخ المساوىٰ المتوفىٰ سنة ١٤٠٥هـ بسيؤن .

كان من تلامذة ابن عبيد الله النجباء النوابغ ، نشأ مجداً في الطلب حتىٰ بزَّ الأقران ، وشغل وظيفة كبرىٰ بمدرسة النهضة العلمية بسيؤن وكان يقوم ببعض الدروس العلمية بمسجد طه .

٥ـ السيد سالم بن علوي بن عبد الرحمن خرد المتوفىٰ بجدة سنة ١٣٩٨هـ . وهو العالم الشاعر الحافظ لكتاب الله الخطيب المصقع الكثير السعي لخير الناس الصريح في آرائه الجريء في إبداء معلوماته مع رحابة صدر ولطف معشر وقد أفرده بالترجمة ابنه السيد عبد القادر خرد في كتاب سماه (هذا أبي) .

٦ـ السيد العلامة محمد بن سالم بن حفيظ

المولود في ١٣٣١هـ والذي اختطفه الشيوعيون الملاحدة في ذي الحجة ١٣٩١هـ .

كان عالماً نزيهاً صادعاً بالحق. . كان يتردد علىٰ ابن عبيد الله واستفاد منه . .

٧ـ السيد عبد القادر بن سالم « الروش » السقاف المتوفىٰ بسيؤن في ١٤١٥هـ .

دَرَس في مدرسة النهضة العلمية بسيؤن وتخرج منها ثم درّس فيها ، وكان مواظباً علىٰ حضور مجالس شيوخه عظيم الرغبة في الطلب والتحصيل والبحث والمطالعة رحل في شبابه إلىٰ مكة المكرمة وأقام بها مدة لازم فيها شيخه السيد العالم الرباني عيدروس بن سالم البار وأخاه أبا بكر بن سالم .

٨ـ ومنهم خاتمة العقد ومسك الختام الإمام الجليل والحبر النبيل السيد الخليفة السند إمام العصر الحبيب عبد القادر بن أحمد السقاف. . وكان من المترددين علىٰ

مجالس ابن عبيد الله وأفاد من علمه وأدبه شيئاً جماً. . وكان يقول دائماً : إن النساء عجزن أن يلدن مثل ابن عبيد الله .

وهناك كثيرون وكثيرون جداً. . ونذكر منهم :

٨ـ العلامة القاضي مبارك باحريش التريمي .

٩ـ السيد جعفر بن محمد السقاف .

ـ السيد الداعية الإمام أحمد مشهور الحداد [١٣٢٥هـ ـ ١٤١٦هـ] .

ـ السيد علي بن عبد الله بن حسين « القاضي » السقاف .

ـ السيد محسن بن علوي السقاف .

ـ السيد الشاعر صالح بن علي الحامد .

وليعذرنا من لم تتسع هذه النبذة المختصرة لذكرهم. . وإن شاء الله تعالىٰ في ترجمة ابن عبيد الله الموسعة سنذكر الكثير والكثير الطيب عن ذلك وعن غيره .

وفاته :

لم يزل علىٰ حالة مرضية ، وطريقة سوية ، شعلةً بل شمساً تضيء وتنير في ظلمات الجهل. . فلقد كان رحمه الله جبلًا من جبال العِلْم. . حتىٰ توفي صباح الأربعاء ٢٦ جمادىٰ الآخرة سنة ١٣٧٥هـ فأصيب الناس بالذهول الشديد والحيرة والارتباك لوفاة هذا العَلَم. .

وما كان قيس هَلْكُه هَلْكُ واحدٍ ... ولكنه بنيان قومٍ تهدّما[1]

وقد أقيمت بعد وفاته مجالس العزاء في حضرموت وأندونيسيا وكينيا وغيرها من بلدان العالم الإسلامي وقد رُثِيَ بقصائد شعرية نكتفي منها بأبيات من مرثاة تلميذه الشاعر صالح بن علي الحامد [مِنَ ٱلكاملِ] :

بكت الطروس عليك والأقلام ... والشرق ناح عليك والإسلام

نعت المكارمُ حظَّها وتنكست ... من أجل رزئك للعلا أعلام

---

(١) البيت من الطويلِ .

وغـدا نهـارك للفجيعـة قـاتمـاً ... فكـأنمـا أغشـىٰ عليـه ظـلامُ
والشمـس عبرىٰ فـي السمـاء كـأنمـا ... غطـىٰ محيـاهـا الحـزيـن لثـامُ
ويكـىٰ عليـك العلـم والعليـاء والـ ... ـشِّيَـمُ العلـىٰ والنقـض والإبـرام
ورثـاك رواد المعـارف والهـدىٰ ... فـاليـوم بعـدك كلهـم أيتـام
قـدر المصيبـة عنـد قـدر مصـابهـا ... ولـذاك أرزاءُ العظـامِ عظـام
كم مـوقـف لـك في الخطـابة خـالـد ... حمـدت بـراعتـه لـك الأقـوام
لهفي علىٰ الروح الخفيفة كم ورت ... فينـا المسـرة والـزمـان غـلام
تغـذو المجـالـسَ بهجـةً وفكـاهـة ... فكـأن بهجتهـا عليـك لـزام
لا يعجـب الأقـران كيـف سبقتهـم ... فـي كـل مـا قعـدوا إليـه ورامـوا
أسرعتَ في كسب الجميل وأبطؤوا ... وسهـرتَ فـي طلـب الكمـال ونـامـوا
فجمعـتَ أوصـاف الكمـال وإنمـا ... يغشـىٰ الخسـوفُ البـدْرَ وهـو تمـام
فعلـىٰ الخطـابـة والبـلاغـة بعـده ... وعلـىٰ النبـوغ تحيـة وسـلام
فـاذهـب فـإنـك خـالـد بـالـذكـر مـا ... مضـت القـرون وكـرت الأعـوام

وإلىٰ هنا يقف القلم في ترجمة هذا العلم. . والمقصود أن نذكر تعريفاً ميسراً ، والمعروف كما قيل لا يعرَّف. . وحسب الإنسان أن ينظر في كتاب الأعلام للزركلي هذا الكتاب المشهور في التراجم. . فإننا نجد أن ترجمة أي علم فيه لا تتجاوز سطوراً وعندما أراد أن يذكره الزركلي في كتابه وكان الزركلي رحمه الله قد اجتمع بابن عبيد الله وعرفه واتصل به. . فإنه قد ذكره في عمودين[1]. . وما ذاك إلا لأهمية الرجل. . والخواطر تتدافع. . ونسأل الله أن يتقبل منا. . وأن يغفر لنا ما شط به القلم. . والله أعلم.

* * *

---

(١) « الأعلام » : ٣/ ٣١٥ـ٣١٦ ، وتقع الترجمة في (٤٣) سطراً ، في عمود ونصف ، وهي طويلة جداً بالنسبة لغيرها من تراجم كبار الأعلام .

وصف النسخة الخطية

اعتمدنا في تحقيقِ هٰذا الكتابِ علىٰ نسخةٍ خَطِّيَّةٍ نفيسةٍ ، بخطِّ المؤَلِّفِ رحمه الله تعالىٰ .

وهي مسوَّدةُ الكتابِ الأَصليَّة ، كانَ رحمَهُ ٱللهُ قد بيَّضَ الكتاب وأَرسله إِلىٰ (مصرَ) ليُطبع هناك . . فلم يُطبَع ولم تُرجع له المبيَّضةُ ، فاضطرَّ رحمه الله تعالىٰ لإِعادةِ النَّظر في المسَوَّدة ـ التي بين أيدينا ـ وإِضافة ما قد فاته ، وتصحيحِ ما أَخطأَ فيه .

وقد ظهر ذلكَ جليّاً بحيثُ كُتِبَتِ ٱلإِضافاتُ بلونٍ مُغايرٍ ، ونجدُه في بعضِ الأَماكنِ قد حكَّ وشطب .

تقع هٰذه النُّسخةُ في (٥١٦) صفحة ، وسطورها بين (٢٨) و(٣٠) سطراً ، وكلماتُ السَّطرِ بين (١٠) و(١٣) كلمة .

خطها نَسْخي مستعجل ، وضعت أَبيات المتنبِّي الَّتي تخصُّ موضوعاً معيناً يُبنىٰ عليه البحثُ بلونٍ أَحمر .

وقد فَرَغَ من كتابتها في (١٧) جمادى الأُولىٰ (١٣٥٢ هـ) .

وهٰذه النُّسخة من مقتنيات زوج ٱبنة المؤلِّف السَّيِّدِ محسن بن علويٍّ السَّقَّافِ حفظه الله تعالىٰ .

* * *

منهج تحقيق الكتاب

ـ نسخُ المخطوطِ .

ـ مقابلةُ المنسوخِ على المخطوطِ .

ـ ترقيمُ الكتابِ ، وترصيعُ أَحرُفِهِ بالحركاتِ الإعرابيَّةِ ، وضبطُ القافيةِ المشدَّدةِ بشدَّةٍ وسكونٍ (ـّْ) ؛ لتدُلَّ على أَنَّ الحرفَ مشدَّدٌ ، مثل : (نبيّْ) .

ـ عدمُ فكِّ إدغامَ الحرفِ المشدَّدِ إذا كانَ مِنَ البحرِ المدوَّرِ ؛ الَّذي يكونُ مشترَكاً بينَ آخِرِ الصَّدرِ وأَوَّلِ العَجُزِ ، وجعلُ الحرفَ المشدَّد تارةً بآخِرِ الصَّدرِ وتارةً بأَوَّلِ العجُزِ .

ـ تقسيمُ الكتابِ إلى فقراتٍ لتسهُلَ مطالعتُهُ .

ـ عنونةُ الكتابَ بعنواناتٍ مناسبةٍ ، وجعلُها على هامشِ الكتابِ .

ـ تخريجُ الآياتِ القرآنيَّةَ .

ـ تخريجُ أَكثرِ الأَحاديثِ النَّبويَّةِ القوليَّةِ والفعليَّةِ .

ـ ردُّ معظمِ الآثارِ والأَخبارِ والقصصِ إلى مظانِّها مِنْ كتبِ الأدبِ والعربيَّةِ والتَّاريخِ .

ـ تخريجُ الأَشعارِ وإحالتُها إلى دواوينِ قائِليها إنْ كانَ الدِّيوانُ متوفِّراً لدينا ، وإِنْ لَمْ يكُنْ متوفِّراً . أَحلنا إلى أُمَّاتِ كتبِ الأَدبِ والعربيَّةِ .

ـ جعلنا التَّخريجَ ضمنَ متنِ الكتابِ بينَ معكوفتينِ [] ؛ وذلكَ تخفيفاً للكتابِ مِنَ ثِقَلِ الحواشي .

ـ بحَّرنا ٱلأَبياتَ ٱلشِّعريَّةَ عقِبَ تخريجها ضمنَ ٱلمعكوفتين .

ـ خرَّجنا أَبياتَ ٱلمتنبِّي مِنْ شرحِ ٱلعُكبَريِّ بذكرِ رقمِ ٱلجزءِ وٱلصَّفحةِ .

ـ جعلنا ٱلأَبياتَ ٱلَّتي جعلَها ٱلمصنِّفُ مطلَعاً لبحثٍ معيَّنٍ في رأسِ صفحةٍ بخطٍّ مغايرٍ .

ـ ميَّزنا كلمَتَي (قالَ النَّاظِمُ) و(قولُهُ) حيثُ أَرادَ بها ٱلمتنبِّي بحرفٍ مغايرٍ ، تمييزاً لأَشعارِ ٱلمتنبِّي عَنْ أَشعارِ غيرِهِ .

ـ شرحنا ٱلكلماتِ ٱلغامضةَ وٱلمبهمةَ شرحَ مفرداتٍ ، وفي بعضِ الأَحيانِ ذكرنا ٱلمعنىٰ ٱلعامَّ للبيتِ إِذا كانَ مبهماً .

ـ أَخذنا مِنْ كتبِ ٱلأَدبِ فنقلنا عنها بعضَ ٱلقصصِ وٱلأَخبارِ ٱلَّتي أَشار إِليها ٱلمؤَلِّفُ ولَمْ يذكُرْها ، أَو ذكَرَها بٱختصارٍ فكمَّلْناها .

ـ قمنا بإِتمامِ بعضِ ٱلقصائدِ ٱلعذبةِ .

ـ أَضفنا في بعضِ ٱلمواضعِ ما ٱرتأَينا أَنَّ ٱلنَّصَّ لا يقومُ إِلَّا بهِ ، وجعلناهُ بينَ معكوفتينِ [] .

* * *

خاتمة

ومعَ ٱلانتهاءِ مِنَ ٱلعملِ ٱلدَّؤوبِ في هٰذا ٱلكتابِ . . لا بُدَّ للإنسانِ مِنْ أَنْ يقفَ وقفتينِ بسيطتينِ :

أَمَّا ٱلأولىٰ :

فمَعَ ٱللهِ عزَّ وجلَّ : فأقولُ :

يا ربِّ . . عقلي عاجزٌ عنِ ٱلتَّفكيرِ . . ولساني عاجزٌ عنِ ٱلتَّعبيرِ . . وقلمي عاجزٌ عنِ ٱلتَّسطيرِ .

فيا إلـٰهي وسيِّدي ومولاي . . لكَ ٱلحمدُ علىٰ ما أنعمتَ بِهِ عليَّ .

أَينَ كانت قُدرتي عندما كنتُ في ٱلحشا ، تطعمني أَنتَ وتسقيني؟!

أَم أَينَ كنتُ عندما تفضَّلتَ عليَّ وهديتني إلىٰ ٱلطَّريقِ ٱلَّذي أَسلكُهُ للوصولِ إليكَ؟!

أَم أَينَ كنتُ عندما تفضَّلتَ وتكرَّمتَ عليَّ وجعلتني مُسلماً؟!

أَم أَينَ كنتُ عندما نوَّرتَ قلبي وهديتني عقلاً أُميِّزُ بهِ بينَ ٱلخيرِ وٱلشَّرِّ؟!

ما ٱلفضل ٱلَّذي لي علىٰ غيري حتَّىٰ وهبتني كلَّ هٰذهِ ٱلنِّعمِ؟!

لا فضلَ لي ، لا حول لي !!

ولـٰكنَّهُ كرمُكَ وجودُكَ ومَنُّكَ ، فيا ربِّ تمِّم وأَدِمْ كرمَكَ وجودَكَ وفضلَكَ .

ويا ربِّ . . عرِّفنا نعمكَ بدوامِها ، ولا تعرِّفنا ٱلنِّعمَ بزوالها .

لك ٱلحمد وٱلشُّكرُ علىٰ ذلكَ يا ربَّ ٱلعالمين .

وأَمَّا الوقفةُ ٱلثانيةُ :

فمَعَ حديثِ سيِّدي رسولِ ٱللهِ ﷺ حيثُ يقولُ : « مَنْ لَمْ يَشْكُرِ ٱلنَّاسَ . . لَمْ يشْكُرِ ٱللهَ » .

وعليهِ : أتقدَّمُ بٱلشُّكرِ لكلِّ مَنْ ساهمَ في إنجازِ هٰذا ٱلعملِ ٱلضَّخمِ ، سواءٌ كانَ مِنْ قريبٍ أو مِنْ بعيدٍ .

فأتقدَّم بٱلشُّكرِ لوالديَّ ٱللَّذينِ يسَّرا لي سبيلَ طلبِ ٱلعلمِ ، وسهِرا عليَّ ٱللَّياليَ حتَّىٰ وصلتُ إلىٰ ما وصلتُ إليه .

وأتقدَّمُ بٱلشُّكرِ لشيوخي ٱلَّذينَ ربَّوني وأدَّبوني بأدبِ ٱلإسلامِ ، جزاهُمُ ٱللهُ عنِّي كلَّ خيرٍ .

وكذلكَ أتقدَّمُ بٱلشُّكرِ للإخوةِ ٱلَّذينَ بذَلوا قُصارىٰ جهدهم لإنجاح هذا ٱلعملِ . . ليخرُجَ ٱلكتابُ بأبهىٰ حُلَّةٍ ، وأبهجِ مظهرٍ .

وكذلكَ أتقدَّمُ بٱلشُّكرِ للجنودِ ٱلمجهولينَ ٱلَّذين تعبوا في هٰذا ٱلعملِ ، ولا أخصُّ منهُم أحداً وأجرُهُم علىٰ ٱللهِ .

وفي ٱلختامِ :

إنْ يكُنْ مِنْ خيرٍ . . فمِنَ ٱللهِ ، وإنْ يكُنْ مِنْ سوءٍ . . فمِنْ نفسي .

ورحمَ ٱللهُ مَنْ أهدىٰ إليَّ عيوبي ؛ فٱلإنسانُ ضعيفٌ ، وٱلمرءُ قويٌّ بأخيهِ .

وصلواتُ ربِّي وسلامُهُ علىٰ مَنْ قالَ : « كُلُّ ٱبْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ ، وَخَيْرُ ٱلخَطَّائِيْنَ . . ٱلتَّوَّابُوْنَ » .

ورحمَ ٱللهُ مَنْ قالَ [مِنَ ٱلطَّويلِ] :

فَلَا بُدَّ مِنْ عَيْبٍ فَإِنْ تَجِدَنَّهُ ... فَسَامِحْ وَكُنْ بِٱلسَّتْرِ أَعْظَمَ مُفْضِلِ

فَمَنْ ذَا ٱلَّذِيْ مَا سَاءَ قَطُّ وَمَنْ لَهُ ٱلْـ ... ـمَحَاسِنُ قَدْ تَمَّتْ . . سِوَىٰ خَيْرِ مُرْسَلِ

* * *

كلمة شكر

الحمد لله الذي خلق الإنسان وعلمه البيان. . والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان. .

وبعد :

ومع الانتهاء من خدمة هٰذا الكتاب. . فهناك مواقف يشعر فيها المرء بأن السكوت كلام وعدم الكتابة كتابة. . فما عسىٰ أن يكتب مثلي بين يدي هذا الكتاب .

وما دفعني للكتابة الآن. . إلَّا تسطير الشكر إلى من شارك في إخراج هٰذا الكتاب وخصوصاً من تفضلوا بقراءة الكتاب قبل الطبع وأفادوا الكتاب بقراءتهم كثيراً تصحيحاً وتعليقاً أَخُصُّ منهم :

الدكتور محمد عبد الرحمن شميلة الأهدل الذي قرأ الكتاب كاملًا جزاه الله خيراً وأخيراً أتحفنا بكلمة قيمة وضعناها أول الكتاب. .

وكذلك الدكتور بكري شيخ أمين الذي تفضل بقراءة بعض أجزاء متفرقة من الكتاب جزاه الله خير الجزاء. .

وأخيراً. . فإننا نرحب بآراء القراء الكرام وانطباعاتهم. . وحتى انتقاداتهم. . فنحن نريد الخير لأمتنا. . من خلال ما يوفقنا الله لنشره وإظهاره. . ورحم الله من أهدىٰ إلينا عيوبنا. . ونسأل الله أن يتقبلنا وأن يتقبل أعمالنا وأن يجعلها شاهدة لنا لا شاهدة علينا .

وإلى صفحات الكتاب. .

الناشر

صورة المخطوطة المستعان بها

(١) العود الهندي عن أمالي في ديوان الكندي [illegible]
تأليف وخط العلامة مفتي الديار الحضرمية الحبيب عبد الرحمن بن عبيد الله

بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد

حمد الله مستحق الحمد، والصلاة والسلام على نبيه وآله من بعده
فهذه مجالس في ديوان المتنبي كتبناها من عفو الخاطر
ولسان القلم، بلا إعنات روية، ولا إرهاق فكرة
ولا كد قريحة، ولا إتعاب خاطر، ولا جناية على العين؛
أردنا بها أن [illegible] الفكر من معاناة الفقه
لم نقصد بها التأليف، ولم نسلك بها سبيل التصنيف
وإنما نعمد لما بين أيدينا من شرح العكبري فنلم به
ولا نحضر ساعة القراءة كتابًا سواه، ثم نعوج على
خزانة الحفظ مما علق بها من مسائل النظر في الأدب
فنضيفه إليه بلا تنسيق، ولا ترصيف، ولا ترتيب
ولا تصنيف، ومتى مر بنا شيء أو تذكرناه [illegible]
[illegible] منها [illegible] بها مثل [illegible]
وكان العزم قويًا على مواصلة العمل [illegible]
فانعكس [illegible] واستوثق [illegible] وما ذكرناه يمهد العذر
للنقص والزيادة، والتحريف في الرواية، ولا بدع إن
كثر الغلط لأنا لم نعتمد المراجعة [illegible] التبييض
في بعض نقطه، ولا [illegible] إن فاتت [illegible] نسبة
ولا إيراده لأنه لم [illegible] إذ التصنيف [illegible]
المخصوص بالتنقيح [illegible] على صحة الطريقة، وإنما [illegible]

راموز الورقة الأولى من النسخة الخطية

راموز الورقة الأخيرة من النسخة الخطية



العُودُ الهِنْدِيّ

عَنْ أمالِيَّ في ديوان الكِنْدِيّ

مجالس أدبية في ديوان المتنبي

تأليف

علامة حضرموت ومفتيها

السيد عبد الرحمن بن عبيد الله السقاف

رحمه الله تعالى

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

[مقدمة المؤلف]

أمَّا بعدُ :

حمداً للهِ مستحِقِّ الحمدِ ، والصلاةُ والسلامُ علىٰ نبيِّهِ وآلِهِ مِنْ بعدِ .

فهٰذِهِ مجالسُ في « ديوانِ المتنبِّي » ، كتبناها مِنْ عفوِ الخاطِرِ ، ولسانِ القلمِ ، بلا إعناتِ رويَّةٍ ، ولا إرهاقِ فِكْرٍ ، ولا كَدِّ قريحةٍ ، ولا إتعابِ خاطِرٍ ، ولا جنايةٍ علىٰ العينِ ، أردنا بها الإحماضَ[(١)] وإجمامَ الفِكْرِ[(٢)] مِنْ معاناةِ الفقهِ ، لَمْ نقصِد بها التأليفَ ، ولَمْ نسلُكْ بها سبيلَ التصنيفِ ، وإنَّما نعمِدُ لِمَا بينَ أيدينا مِنْ « شَرح العُكْبَرِيِّ »[(٣)] ، فنُلِمُّ بهِ ، ولا يحضرُنا ساعةَ القراءةِ كتابٌ سواهُ ، ثمَّ

---

(١) الإحماضُ : الإفاضةُ فيما يُؤنِسُ منَ الكلام والأخبار لما فيها من مُلَحٍ وحكايات .

(٢) إجمام الفكر : إراحتهُ وصلاحهُ ونشاطهُ .

(٣) العُكْبَرِيُّ : هو أبو البقاء عبد الله بن الحسين ، العُكْبَرِيُّ الأصلِ ، البغداديُّ المولد والدار النحوي الضرير . و(عُكْبَرا) التي ينسب إليها بُليدة على (دجلة) . . ولد سنة(٥٣٨ هـ) ، وتوفي سنة (٦١٦ هـ) بـ(بغداد) .

قرأ علوم الدين والعربية على كبار مشيخة عصره بـ(بغداد) . . حتى حاز السبق في العربية والفقه الحنبلي والحساب والفرائض وصار فيها من الرؤساء المتقدمين، كان ثقة صدوقاً، غزير الفضل، كثير المحفوظ، حسن الخلق، متواضعاً، رقيق القلب، ومؤلفاته زادت على الأربعين منها : «إملاء ما من به الرحمن في إعراب وجوه القراءات في القرآن» و«إعراب الحديث» و«شرح =

نَعُوجُ لِمَا بقيَ بِخزانةِ الحِفظِ ، ممَّا عَلِقَ بها مِنْ سالفِ النظرِ في الأدبِ، فنضيفُهُ إليهِ بلا تنسيقٍ ولا ترصيفٍ، ولا ترتيبٍ ولا تصفيفٍ، ومتىٰ مرَّ بنا شيءٌ أَو تذكَّرناهُ ـ وهوَ يُناسِبُ موضعاً منها ـ ألحقناهُ بهامشِ المسوَّدَةِ[1].

مِنْ أَمثلةِ ذلكَ : ما ذكرناهُ في أَثناءِ المجلسِ السادسِ ، ممَّا ٱتَّفقَ لنا بـ(مِنىً) ، سنةَ (١٣٥٤هـ) ، وكانَ العزمُ قويّاً علىٰ مواصلةِ العمـلِ ، غيـرَ أَنَّ القـارىءَ مـلَّ ، فـٱنعكـسَ الأَمـلُ ، وٱستنـوقَ الجَمَلُ[2] ، وممَّا ذكرناهُ يتمهَّدُ العذرُ للنقصِ والزيادةِ ، والتحريفِ في الروايةِ[3] ، ولا بدعَ إِنْ كَثُرَ الغلطُ ؛ لأَنَّا لَمْ نعتمدِ ٱلمراجعةَ لَهُ قـطُّ ، إِلاَّ مـعَ التبييـضِ فـي بعـضِ نقـطٍ ، ولا محـاسبـةَ إِنْ قلَّـتِ ٱلمناسبةُ ، ولا إِيرادَ إِنْ لَمْ يعذُبِ ٱلاستطرادُ ؛ إِذِ ٱلتصنيفُ هوَ

= ديوان المتنبي» المسمىٰ : «التبيان في شرح الديوان»، وهي المعتمدة من المؤلِّف ومن فريق التحقيق في ضبط شعر المتنبي . . وبالله التوفيق .

(١) المُسوَّدةُ: الصحيفةُ تكتبُ أَوَّلَ كتابةٍ، ثُمَّ تُنَقَّحُ وتُحرَّرُ وتُبيَّض، وسُمِّيت : مسوَّدةً؛ لأنَّ الكاتبَ يُسوِّدُها بالشطبِ هنا مرَّةً وهناكَ مرَّةً أُخرىٰ إلى أن يستقرَّ بهِ الأَمرُ فينقلُها علىٰ صحيفةٍ أُخرىٰ تسمَّىٰ : (المُبَيَّضَة).

(٢) ٱستنوقَ الجملُ : أَي صارَ كالناقةِ ، مثلٌ يُضربُ للرجلِ يكونُ في حديثٍ أَو صفةِ شيءٍ ثمَّ يَخلِطُهُ بغيرِه وينتقلُ إليه .
وأَصلُهُ : أَنَّ طرفةَ بنَ العبدِ كانَ عندَ بعضِ الملوكِ ، والمُسَيَّبُ بنُ عَلَسٍ ينشدُهُ شعراً في وصفِ جَمَلٍ ، ثمَّ حوَّلَهُ إلى وصفِ ناقةٍ ، فقالَ طرفةُ : (قد ٱستنوقَ الجملُ) .

(٣) وبتوفيق الله تعالىٰ فقد عدنا إلىٰ غالب المصادر، وضبطنا النُّصوص ما أَمكنَ، وإذا ٱقتضىٰ الحال أوردنا من المصدر ما يُحقِّق به قصد القصَّةِ، أو الأَبيات، أو المناسبة . . وسيرىٰ القارىء الكريم ذلك في ثنايا الكتاب . اهـ الناشر .

المخصوصِ بالنِّيْقَةِ[1] ، لا ما كانَ علىٰ هـٰذِهِ الطريقةِ ، وإنَّها معَ الارتجالِ ، وعدمِ الاتِّساعِ في المجالِ . . لَوِعاءُ طُرَفٍ وأَدبٍ ، ونُكَتٍ ونُخَبٍ ، وجِدٍّ وهَزَلٍ ، ووقشٍ وجَزلٍ[2] ، وما ذاك بقليلٍ مِنْ مثلي علىٰ كثرةِ إضاعتِهِ ، وقلَّةِ بضاعتِهِ[3] .

وقد بيَّضتُها لولدي حَسَنٍ ـ باركَ اللهُ فيهِ ، وفي إخوانِهِ وأَبيهِ ـ رجاءَ أَنْ تكونَ لَهُ فاتحةَ تهذيبٍ ، ولائحةَ تأديبٍ ، وسميراً وجليساً ، وخليطاً وأَنيساً ، ولئنِ ٱتَّخذَها نجيّاً . . فلن يكونَ بها شقيّاً ؛ إِذْ هيَ أَيسرُ مؤونةً ، وأَكثرُ معونةً ، وأَخفُّ روحاً ، وأَكثرُ فتوحاً ، وأَجملُ قشرةً ، وأَحسنُ عِشرةً مِنْ أُولـٰئكَ الخُلطاءِ ، الذينَ ما منهم إِلاَّ مَنْ غُذِيَ مِنَ ٱللُّؤْمِ بِلَبَانٍ ، وحضرَ شرُّهُ في كلِّ إِبَّانٍ[4] ، واللهُ الموفِّقُ والمستعانُ[5] .

* * *

(١) النِّيْقَةُ ، يقالُ : تَنَوَّق فلانٌ في مَطعمِهِ وملبسِهِ وأُمورِهِ : إذا تجوَّدَ وبالغَ ، والنِّيْقُ : أَرفعُ موضعٍ في الجبل .

(٢) الوَقْشُ : صغارُ الحطبِ الذي تُشَيَّعُ بهِ النارُ ، والجزلُ : ما عَظُمَ مِنَ الحطبِ ويَبِسَ . والمرادُ : أَنَّها حوت من أَنواعِ الكلامِ سَهْلِهِ وصَعْبِهِ .

(٣) هذا من تواضعه رحمه الله تعالى، وإلا فإنه قلَّ في المتأخرين مثله جمعاً وحفظاً.

(٤) إبَّانٌ : إِبَّانُ الشيءِ ـ بالكسرِ والتشديدِ ـ : وَقْتُهُ .

(٥) وردَ في ذيل صفحة المخطوطِ : (تنبيهٌ : كنتُ بيضتُ هـٰذِهِ « الأَمالي » ، حَسَبَما ذكرتُ في الخُطبةِ ، ثمَّ بعثتُ بها إِلىٰ (مصرَ) ؛ لتطبعَ بمعرفةِ الفاضلَينِ الشيخينِ : أَحمدَ باغفَّارٍ ، وعليِّ باكثيرٍ ، فلم يتيسَّرِ ٱلطبعُ ، ولم يرجعِ ٱلكتابُ ، فٱحتجتُ إِلىٰ ٱستئنافِ العنايةِ ، معَ إعادةِ النظرِ في المراجعِ ؛ إِذْ كانتْ حاضرةً بخلافِها عندَ الأَوَّلِ ، فجاءَ وفيهِ نقصٌ وفضلٌ ، وصحَّةُ روايةٍ ونضلٌ ـ أي : ضعف ـ فليُعلَمْ ذلِكَ ، وباللهِ التوفيقُ) .

المجلس الأوّل

[قالَ أَبو الطيّبِ المتنبّي في « العُكبَريّ » ٢/ ٢٧٩ مِنَ الخَفيفِ] :

بِأَبِيْ مَنْ وَدِدْتُهُ فَافْتَرَقْنَا	وَقَضَىٰ ٱللهُ بَعْدَ ذَاكَ ٱجْتِمَاعَا
فَٱفْتَرَقْنَا حَوْلاً وَلَمَّا ٱلْتَقَيْنَا	كَانَ تَسْلِيمُهُ عَلَيَّ وَدَاعَا

يقولُ : أَفدي بوالدِي الحبيبَ الذي ودِدْتُهُ فَٱفترقنا ، وقضىٰ اللهُ الاجتماعَ بعدَ ذلكَ الافتراقِ ، غيرَ أَنّها لَمْ تطُلْ مدَّةُ الاجتماعِ الثاني ، بل كانت متّصلةً بالوداعِ . حلاوة اللقاء كمر النسيم

ولا معابةَ عليهِ في الاقتصارِ علىٰ أَبيهِ لتفديةِ محبوبهِ ؛ لأَنَّ ٱلعذرَ ممهَّدٌ بضيقِ الوزنِ ، وإلاَّ فقد جمعَ رسولُ اللهِ ﷺ لسعدٍ ما بينَ أَبويهِ الشريفينِ في يومِ أُحُدٍ ، فقالَ لهُ : « ٱرْمِ فِدَاكَ أَبِيْ وَأُمِّيْ »[1] . دفع العتاب عن المتنبي

ومنهُ أَخذَ النواويُّ في « أَذكارِهِ » [ص/ ٥٨٧] أَنْ لا بأْسَ أَنْ يقولَ الإنسانُ لآخَرَ : جُعِلتُ فِداكَ ، أَو فِداكَ أَبي وأُمّي ، ولولا كثرةُ الأدلَّةِ فيهِ . . لكانَ قياساً معَ الفارقِ ، غيرَ أَنَّ الأَصلَ عدمُ الخصوصيّةِ ، كما في « الفتح » [١٠/ ٥٦٩] ، وقدِ ٱستوعبَ ما فيهِ مِنَ جواز التفدية

(١) أَخرجَهُ البخاريُّ (٢٩٠٥) ، ومسلمٌ (٢٤١١) .

ٱلأدلَّةِ ٱبنُ أَبي عاصمٍ[1] في أَوَّلِ كتابِهِ : « آدابُ الحكماءِ »[2] وجزمَ بجوازِ ذلكَ .

رد دليل منع التفدية

ولا حجَّةَ علىٰ المنعِ ، فيما رواهُ مباركُ بنُ فَضَالةَ[3] : أَنَّ ٱلزبيرَ دخلَ علىٰ رسولِ اللهِ ﷺ وهوَ شاكٍ ، فقالَ : كيفَ تجدُكَ جَعلَني اللهُ فِداكَ؟ فقالَ : « مَا تَرَكْتَ أَعْرَابِيَّتَكَ بَعْدُ »[4] ؛ لأَنَّهُ لا يقاومُ الأَحاديثَ الصحيحةَ[5] ، ولأَنَّهُ ليسَ فيهِ تصريحٌ بٱلمنعِ . وغايةُ ما فيهِ الإشارةُ إِلىٰ تركِ الأَولىٰ فيما يليقُ بمخاطبةِ المريضِ .

وقدْ ترجمَ البخاريُّ باباً للتفديةِ[6] .

وقـوع العتـاب علـى المتنبي

وإِنَّما المعتِبَةُ علىٰ الناظمِ مِنْ حيثُ اللفظُ :

كراهة التكرار

أَوَّلاً : في تكريرِهِ (ٱفترقنا) في البيتينِ بصيغةٍ واحدةٍ مِنْ غيرِ كبيرِ فائدةٍ ، فإِنَّهُ لا يَسلَمُ مِنَ ٱلاستثقالِ والكراهةِ .

متـى يكـون العطـف قبيحاً

وثانياً : في عطفِهِ لفظةَ (ٱفترقنا) مِنَ ٱلبيتِ الثاني علىٰ ما قبلَها ، معَ أَنَّها مسوقةٌ للتفسيرِ ، والواجبُ الفصلُ حينئذٍ ، كما

---

(١) هو أحمد بن عمرو بن الضحاك الحافظ الكبير المتوفى سنة : (٢٨٧ هـ) .
(٢) أحد مصنفاته التي تزيد على الثلاث مئة .
(٣) أي : عن الحسن كما في «الفتح».
(٤) « فتح الباري » (١٠/٥٦٩) .
(٥) كقولِ سيِّدِنا أَبي طلحة عندما عثَرتْ بالنبيِّ ﷺ ناقتُهُ : (يا نبيَّ اللهِ ، جعلني اللهُ فداكَ ، هَلْ أَصابَكَ مِنْ شيءٍ) عند البخاريِّ (٦١٨٥) ، وكقولِ سيِّدِنا أبي بكر للنبيِّ ﷺ : (بِأَبي أَنْتَ وأُمِّي طِبْتَ حيّاً وميْتاً) عند البخاريِّ (٣٦٦٧) وغيرِه ممّا يصعبُ حصرُهُ .
(٦) انظر «صحيح البخاريِّ» ، كتابَ الأدبِ ، ١ـ بابُ قولِ الرجلِ : فِداكَ أَبي وأُمِّي (١٠٣) . ٢ـ بابُ قولِ الرجلِ : جعلني اللهُ فِداكَ (١٠٤) .

في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ﴾ [طه : ١٢٠] .

أَو قولِهِ ـ تقدَّستْ أَسماؤُهُ ـ : ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ * ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا﴾ [يس : ٢٠ـ٢١] .

وإِنَّما وَجَبَ الفصلُ ؛ لأَنَّ العطفَ يقتضي التغايُرَ الكُلِّيَّ بينَ المُتعاطفَينِ ، وليسَ بٱلموجودِ .

روعة التكرار في مكانه

وقد وقعَ في نظيرِهِ مِنَ ٱلتَّكرارِ ٱمرؤُ ٱلقيسِ ، لـكنْ معَ السلامةِ مِنْ مذمَّةِ الوصلِ في غيرِ محلِّهِ ، وذلكَ حيثُ يقولُ [في « ديوانه » ٨٧ مِنَ الطَّويلِ] :

تَقَطَّعُ أَسْبَابُ ٱللُّبَانَةِ وَٱلْهَوَىٰ ... عَشِيَّةَ جَاوَزْنَا حَمَاةَ وَشَيْزَرَا[1]

عَشِيَّـةَ جَـاوَزْنَـا حَمَـاةَ وَشَيْـزَرَا ... أَخُوْ ٱلْجَهْدِ لاَ يَلْوِيْ عَلَىٰ مَنْ تَعَذَّرَا

كثرة التفدية عند المتنبي

وقدْ أَكثرَ الناظمُ في « ديوانِهِ » مِنَ التفديةِ ؛ فمنها قولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٢/ ٣٨٠ مِنَ البسيطِ] :

[لَبَّيْ نَدَاكَ لَقَدْ نَادَىٰ فَأَسْمَعَنِيْ] ... يَفْدِيْكَ مِنْ رَجُلٍ صَحْبِيْ وَأَفْدِيْكَا

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٢/ ٣٨٥ مِنَ الوافِرِ] :

فِدىً لَكَ مَنْ يُقَصِّرُ عَنْ مَدَاكَا ... فَـلاَ مَلِـكٌ إِذَنْ إِلاَّ فَـدَاكَـا

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٣/ ١٠٨ مِنَ الطويلِ] :

فَدَتْكَ مُلُوْكٌ لَمْ تُسَمَّ مَوَاضِياً ... فَإِنَّكَ مَاضِيْ ٱلشَّفْرَتَيْنِ صَقِيْلُ[2]

---

(١) اللُّبَانَةُ : الحاجة من غير فاقة ، ولكن من نهمة . حماة وشيزر : بلدان معروفان في بلاد الشام .

(٢) المعنىٰ : فدتكَ ملوكٌ ، ترومُ مشابهتَكَ ، ولم تسمَّ سُيوفاً مَواضِيَ ، فتماثلَكَ =

وقولُهُ [في «العُكْبَريّ» ١/٣١٨ مِنَ الخفيفِ] :

فَٱسْقِنِيْهَا فِدىً لِعَيْنَيْكَ نَفْسِيْ   مِنْ غَزَالٍ وَطَارِفِيْ وَتَلِيْدِيْ[(١)]

وقولُهُ [في «العُكْبَريّ» ٤/٣٨ مِنَ البسيطِ] :

رُوَيْدَ حُكْمَكِ فِيْنَا غَيْرَ مُنْصِفَةٍ   بِٱلنَّاسِ كُلِّهِمِ أَفْدِيْكِ مِنْ حَكَمِ

وقولُهُ [في «العُكْبَريّ» ٢/ ١٥٥ مِنَ الطويلِ] :

مُفَـدّىً بِـآبَـاءِ ٱلـرِّجَـالِ سَمَيْـدَعـاً   هُوَ ٱلْكَرَمُ ٱلْمَدُّ ٱلَّذِيْ مَا لَهُ جَزْرُ[(٢)]

وقولُهُ [في «العُكْبَريّ» ٢/ ٢٨٦ مِنَ الطويلِ] :

يُفَـدُّوْنَـهُ حَتَّـىٰ كَـأَنَّ دِمَـاءَهُـمْ   لِجَارِيْ هَوَاهُ فِيْ عُرُوْقِهِمُ تَقْفُوْ[(٣)]

وقولُهُ [في «العُكْبَريّ» ١/ ١٨٦ مِنَ الطويلِ] :

وَأَيُّ قَبِيْـلٍ يَسْتَحِقُّـكَ قَـدْرُهُ   مَعَدُّ بْنُ عَدْنَانٍ فِدَاكَ وَيَعْرُبُ

وقولُهُ [في «العُكْبَريّ» ٤/ ٥٥ مِنَ الطويلِ] :

فِدىً مَنْ عَلَىٰ ٱلْغَبْرَاءِ أَوَّلُهُمْ أَنَا   لِهَـٰذَا ٱلأَبِيِّ ٱلْمَاجِدِ ٱلْجَائِدِ ٱلْقَرْمِ[(٤)]

= في اسمكَ ، وتعادلَكَ في قدرتِكَ ؛ فإنَّكَ السيفُ اسماً وحقيقةً وتلقُّباً ، وحدُّكَ ماضي الشفرتينِ ، صقيلُ الصفحتينِ .

(١) الطريفُ : ما استُحدثَ عندكَ مِنْ مالٍ . والتليدُ : ما كان عن إرث من الآباء . وبينهما طباق.

(٢) السَّمَيْدَعُ : السيدُ الكريمُ ، والجمعُ : سَمَادعُ . المدُّ: زيادةُ الماءِ. الجزرُ: نقصانُهُ.

(٣) والمعنى: أنَّهم من محبَّتهم لهُ يُفدُّونَهُ، فكأنَّ هواهُ جرىٰ أوَّلاً في عروقِهم قبلَ الدم، ثمَّ تبعَهُ الدَّمُ .

(٤) الجائدُ : الفاعلُ ، مِنْ جادَ يجودُ . القرمُ : السَّيِّدُ .

وقولُهُ [في «العُكْبَرِيِّ» ٤/ ٩١ مِنَ الطويلِ] :

فَعِشْ لَوْ فَدَىٰ ٱلْمَمْلُوْكُ رَبّاً بِنَفْسِهِ   مِنَ ٱلْمَوْتِ لَمْ تُفْقَدْ وَفِي ٱلأَرْضِ مُسْلِمُ

وقولُهُ [في «العُكْبَرِيِّ» ٤/ ١٣٧ مِنَ الطويلِ] :

فِدىً لأَبِي ٱلْمِسْكِ ٱلْكِرَامُ فَإِنَّهَا   سَوَابِقُ خَيْلٍ يَهْتَدِيْنَ بِأَدْهَمِ

وقولُهُ [في «العُكْبَرِيِّ» ١/ ٥٦ مِنَ الطويلِ] :

فَدَيْنَاكَ مِنْ رَبْعٍ وَإِنْ زِدْتَنَا كَرْبَا   [فَإِنَّكَ كُنْتَ ٱلشَّرْقَ لِلشَّمْسِ وَٱلْغَرْبَا]

وقولُهُ [في «العُكْبَرِيِّ» ١/ ٤٧ مِنَ الطويلِ] :

فَدَيْنَاكَ أَهْدَىٰ ٱلنَّاسِ سَهْماً إِلَىٰ قَلْبِيْ   وَأَقْتَلَهُمْ لِلدَّارِعِيْنَ بِلاَ حَرْبِ(١)

وقولُهُ [في «العُكْبَرِيِّ» ١/ ٧٠ مِنَ الطويلِ] :

أَلاَ مَا لِسَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْيَوْمَ غَاضِبَا   فَدَاهُ ٱلْوَرَىٰ أَمْضَىٰ ٱلسُّيُوْفِ مَضَارِبَا

وقولُهُ [في «العُكْبَرِيِّ» ١/ ٩١ مِنَ البسيطِ] :

وَلَيْتَ عَيْنَ ٱلَّتِيْ آبَ ٱلنَّهَارُ بِهَا   فِدَاءُ عَيْنِ ٱلَّتِيْ آبَتْ وَلَمْ تَغِبِ(٢)

---

(١) المعنى: فديتك يا أقصد العالمين سهماً إلى قلبي، يا من عينه تصيب بلحظها ولا تخطىء، ويا أقتل الناس لأهل الدروع من غير حرب.

(٢) هكذا في «المخطوطِ»، ويكونُ المعنى على هذهِ الروايةِ: ليتَ عينَ الشَّمسِ فداءُ عينِ هذهِ المرأةِ الَّتي رَجعت ولم تَغِبْ.

ولكن في «الديوانِ» :

وَلَيْتَ عَيْنَ ٱلَّتِيْ آبَ ٱلنَّهَارُ بِهَا   فِدَاءُ عَيْنِ ٱلَّتِيْ زَالَتْ وَلَمْ تَؤُبِ

فيكونُ المعنى على هذهِ الروايةِ: ليتَ عينَ الشَّمسِ فداءُ عينِ هذهِ المرأةِ التي فارقت ولم تَعُدْ.

ولعلَّهُ هوَ الصوابُ؛ لأنَّ القصيدةَ قالها المتنبيُّ في رثاءِ أُختِ سيفِ الدولةِ عندما توفِّيت. واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ١/ ١٢٢ مِنَ الكاملِ] :

بِأَبِيْ ٱلشُّمُوْسُ ٱلْجَانِحَاتُ غَوَارِبَا ... ٱللاَّبِسَاتُ مِنَ ٱلْحَرِيْرِ جَلاَبِبَا

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ١/ ١٦٩ مِنَ الطويلِ] :

أَفْدِيْ ظِبَاءَ فَلاَةٍ مَا عَرَفْنَ بِهَا ... مَضْغَ ٱلْكَلاَمِ وَلاَ صَبْغَ ٱلْحَوَاجِيْبِ(١)

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٢/ ١٨٨ مِنَ البسيطِ] :

يَفْدِيْ بَنِيْكَ - عُبَيْدَ ٱللهِ - حَاسِدُهُمْ ... بِجَبْهَةِ ٱلْعَيْرِ يُفْدَىٰ حَافِرُ ٱلْفَرَسِ(٢)

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٢٠٢ مِنَ الكاملِ] :

لَوْ جَادَتِ ٱلدُّنْيَا فَدَتْكَ بِأَهْلِهَا ... [أَوْ جَاهَدَتْ كُتِبَتْ عَلَيْكَ حَبِيْسَا](٣)

وغيرُ ذلكَ .

التفدية عند البحتري

ويعجبُني قولُ البُحتريِّ [في « ديوانهِ » ١/ ٣٤ مِنْ مجزوءِ الكاملِ] :

نَفْسِيْ فِدَاؤُكَ إِنَّ حَظِّـ ... ـيَ كَوْنُ نَفْسِيَ فِيْ فِدَائِكْ

وقولُهُ [في « ديوانهِ » ٢/ ٧٥٦ مِنَ الطويلِ] :

بِأَنْفُسِنَا ، لاَ بِٱلطَّوَارِفِ وَٱلتُّلْدِ ... نَقِيْكَ ٱلَّذِيْ تُخْفِيْ مِنَ ٱلشَّكْوِ أَوْ تُبْدِيْ

بِنَا - مَعْشَرَ ٱلْعَافِيْنَ - مَا بِكَ مِنْ أَذىً ... فَإِنْ أَشْفَقُوْا مِمَّا أَقُوْلُ فَبِيْ وَحْدِيْ

---

(١) يريدُ : تفضيلَ العربيّاتِ ، وأَنَّهُنَّ فصيحاتٌ لا يمضغنَ الكلامَ ، ولا يصبِغْنَ حواجبهنَّ كعادةِ نساءِ الحَضَرِ .

(٢) العَيْرُ : الحمار .

(٣) المعنىٰ : لو كانتِ الدُّنيا ذاتَ جودٍ وكرمٍ . . لفدتكَ بأَهلِها ، وأَبقتكَ خالداً . ولو كانَت غازيةً مجاهدةً . . لكانت وَقفاً عليكَ .

ودخلَ كُثيِّرُ عزَّةَ يعودُ عبدَ العزيزِ بنَ مروانَ ، فقالَ [في « ديوانهِ » ٣١١ مِنَ الكاملِ] :

فداء كثير لعبد العزيز بن مروان

وَنَعُوْدُ سَيِّدَنَا وَسَيِّدَ غَيْرِنَا   لَيْتَ ٱلتَّشَكِّي كَانَ بِٱلْعُوَّادِ
لَوْ كَانَ يُقْبَلُ فِدْيَةٌ لَفَدَيْتُهُ   بِٱلْمُصْطَفَىٰ مِنْ طَارِفِي وَتِلَادِي(١)

وقبلَ ذلكَ يقولُ قُسُّ بنُ ساعدةَ في رثاءِ أخويهِ ـ اللَّذينِ بُنيَ لهُ مسجدٌ بجوارِ قبريهِما يترهَّبُ فيهِ ـ مِنْ جملةِ أبياتٍ [كما في « الأغاني » ١٥/٢٣٨ مِنَ الطويلِ] :

فداء قس بن ساعدة لأخويه

فَلَوْ جُعِلَتْ نَفْسٌ لِنَفْسٍ وِقَايَةً   لَجُدْتُ بِنَفْسِي أَنْ تَكُوْنَ فِدَاكُمَا(٢)

وقالَ متمِّمٌ [مِنَ الطويلِ] :

فداء متمم لأخيه

فَلَوْ أَخَذَتْ مِنِّي ٱلْمَنِيَّةُ أَنْفُسِي   فَدَيْتُكَ مِنْهَا بِٱلسَّوَامِ وَبِالأَهْلِ(٣)

---

(١) المصطفىٰ : المختار والمصفَّىٰ .

(٢) قالَ رجلٌ : يا رسولَ اللهِ ، لقد رأيتُ مِن قسٍّ عجباً ، قالَ : « وَمَا رَأَيْتَ ؟ » قالَ : بينا أنا بجبلٍ يقالُ لهُ : سِمعانُ في يومٍ شديدِ الحرِّ . . إذا أنا بقسِّ بنِ ساعدةَ تحتَ ظلِّ شجرةٍ عندَ عينِ ماءٍ ، وعندهُ سباعٌ ، كلَّما زأرَ سبعٌ مِنها علىٰ صاحبهِ . . ضربهُ بيدهِ ، وقالَ : كُفَّ حتَّىٰ يشربَ الذي وردَ قبلكَ ، قالَ : ففزعتُ ، فقالَ : لا تخف .
وإذا أنا بقبرينِ بينهما مسجدٌ ، فقلتُ لهُ : ما هـٰذانِ القبرانِ ؟ قالَ : هـٰذانِ قَبرا أخوَينِ كانا لي فماتا ، فاتَّخذتُ بينهما مسجداً أعبدُ اللهَ جلَّ وعزَّ فيهِ حتَّىٰ ألحقَ بِهِما ، ثمَّ ذكرَ أيّامَهما ، فبكىٰ عليهما ، ثم أنشأَ يقولُ :
خَلِيْلَيَّ هُبَّا طَالَمَا قَدْ رَقَدْتُمَا   أَجِدَّكُمَا لاَ تَقْضِيَانِ كَرَاكُمَا
أَلَمْ تَعْلَمَا أَنِّي بِسِمْعَانَ مُفْرَدٌ   وَمَا لِيَ فِيْهِ مِنْ حَبِيْبٍ سِوَاكُمَا
القصيدةَ . فقالَ النبيُّ ﷺ : «يَرْحَمُ ٱللهُ قُسَّاً ، إِنِّي لأَرْجُوْ أَنْ يُبْعَثَ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ أُمَّةً وَحْدَهُ» . أخرجه ضمن حديث طويل ابن شاهين عن ابن عباس رضي الله عنهما ، كما ذكر الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالىٰ في ترجمة قسٍّ من «الإصابة» (٥/٢٨٦) .

(٣) السَّوَامُ والسَّائِمُ بمعنىً : وهوَ المالُ الراعي اهـ .

التفدية عند الصوفية

وكم في التفديةِ الواقعيةِ مِنْ حكاياتٍ جاءَتْ عنِ السادةِ الصوفيّةِ بسلاسلِ الذهبِ مِنَ ٱلأسانيدِ ، لا أُطيلُ بذكرِها ، معَ إيماني بها وللهِ الحمدُ .

فداء آدم لداوود

ويزيدُني طُمأنينةً ما أخرجَهُ الحاكمُ [في « المستدركِ » ٢/٣٢٥] علىٰ شرطِ مُسلمٍ ، وصحَّحهُ ، وأقرَّهُ الذهبيُّ : (أنَّهُ لمَّا عُرِضتْ علىٰ آدمَ ذرِّيَّتُهُ . . أعجبَهُ وبيصٌ[1] ما بينَ عَينَي داوودَ ، فسأَلَ عن عُمُرِهِ ، فقيلَ : ستُّونَ سنةً ، فقالَ : يا ربِّ ، زدهُ مِنْ عُمُري أربعينَ ، فقالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : إذاً يُكتَبُ ويُختَمُ ، فلا يُبدَّلُ ، فلمَّا ٱنقضىٰ عُمُرُ آدمَ . . جاءَهُ مَلَكُ الموتِ يقبِضُ روحَهُ ، فقالَ : أوَلَمْ يبقَ مِنْ عُمُري أربعونَ ؟ فقالَ لهُ : أوَلَمْ تجعلْها لابنِكَ داوودَ ؟! قالَ : فَجَحَدَ . . فجحَدَتْ ذُرِّيَّتُهُ ، ونسيَ . . فنسيَتْ ذُرِّيَّتُهُ ، وخَطِىءَ . . فخطِئَتْ ذرِّيَّتُهُ) .

فداء زيد بن الدثنة للنبي ﷺ

وممَّا يتَّصلُ بهِ : أنَّ قريشاً لمَّا قَدِمَتْ بزيدِ بنِ الدَّثِنَّةِ للقتلِ . . قالَ لهُ أبو سفيانَ : أنشُدُكَ اللهَ يا زيدُ ، أتحبُّ أنَّ مُحمَّداً عندَنا الآنَ تُضرَبُ عنقُهُ مكانَكَ ، وأنتَ في أهلِكَ ؟ قالَ : لا واللهِ ، ما أُحبُّ أنَّ مُحمَّداً في مكانِهِ تصيبُهُ شوكةٌ تؤذيهِ ، وإنِّي جالسٌ في أهلي ، ثمَّ قتلوهُ[2] .

---

(١) وَبيصٌ : بريقٌ .

(٢) قصَّةُ سيِّدنا زيدِ بنِ الدَّثِنَّةِ معَ قريشٍ يومَ الرجيعِ أخرجها البخاريُّ في « صحيحه » (٣٠٤٥) ، أمَّا سؤالُ أبي سفيانَ لزيدٍ وجوابُهُ لهُ . . فأخرجهُ ٱبن إسحاقَ في « المغازي » ، كما في « سيرة ٱبن هشامٍ » (٣/ ١٧١) .

نماذج من فداء الصحابة له

وقد وقاهُ ﷺ سبعةٌ مِنَ ٱلأنصارِ يومَ أُحُدٍ ، حتَّىٰ رُزِقُوا الشهادَةَ أَجمعينَ(١) .

ووقاهُ أَيضاً عليهِ [الصَّلاةُ] والسَّلامُ طلحةُ بنُ عُبيدِ اللهِ يومئذٍ ، حتَّىٰ شَلَّتْ يدُهُ(٢) .

وما زالتِ ٱلصحابةُ ـ رضوانُ ٱللهِ عليهم ـ تقولُ لهُ عليهِ السلامُ : نحورُنا دونَ نحرِكَ ، وصدورُنا دونَ صدرِكَ(٣) .

وفداهُ عليُّ ٱبنُ أَبي طالبٍ ـ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ ـ بنفسِهِ ليلةَ الهجرةِ ، وباتَ معَ ذلكَ رخيَّ البالِ ، متلفِّعاً ببُردِهِ علىٰ فراشِهِ ، حتَّىٰ يُروىٰ أَنَّ اللهَ جَلَّ شأنُهُ باهىٰ بِهِ الملائكةَ .

وقدْ أَخذَ مِنْ هٰذا الفضلِ بالنصيبِ الأَوفىٰ الصِّدِّيقُ ، ليالِيَ الهجرةِ والغارِ .

وكانَ أَبو طالبٍ يفديهِ ببنيهِ ، كلَّما نامَ بادلهُ بأَحدِ أَبنائِهِ في مرقدِهِ ، طيلةَ ليالي الشِّعبِ .

الأيام الحلوة تمر مسرعة عند المتنبي

ثُمَّ إِنَّ معنىٰ الشطرِ الأَخيرِ مِنَ البيتينِ متكرِّرٌ في « ديوانِ الناظمِ » ، فمنهُ قولُهُ [في « العُكبَريّ » ٢/٢٣٨ مِنَ الطويلِ] :

فَمَا جَلَسَتْ حَتَّىٰ ٱنْثَنَتْ تُوسِعُ ٱلْخُطَا   كَفَاطِمَةٍ عَنْ دَرِّهَا قَبْلَ تُرْضِعِ(٤)

---

(١) ذكرَ ٱبنُ سعدٍ في « الطبقات » (٢/ ٤٢) بإسنادِهِ أَنَّ العصابةَ التي ثبتَتْ مع النبيِّ أَربعةَ عشرَ رجلاً ؛ سبعةٌ مِنَ المهاجرينَ فيهم أَبو بكرٍ الصديقُ رضيَ اللهُ عنهُ ، وسبعةٌ منَ الأَنصارِ .

(٢) أخرجَ الخبرَ البخاريُّ (٣٨١١) .

(٣) ذكرَ ذلكَ البخاريُّ (٣٨١٢) .

(٤) أي : هي في سرعةِ توديعها كَمَن فطمت ولدَها قبلَ أَنْ تُرضعَهُ .

ولا يبعدُ عنهُ قولُهُ [في « العُكْبَرِيّ » ٢/٦٩ مِنَ الطويلِ] :

تَفَضَّلَتِ ٱلأَيَّامُ بِٱلْجَمْعِ بَيْنَنَا ... فَلَمَّا حَمِدْنَا لَمْ تُدِمْنَا عَلَىٰ ٱلْحَمْدِ

وكذلك عند الشعراء كل شيء يهون من أجل الحبيب

وهوَ مشترَكٌ بينَ الشعراءِ .

قالَ العَكَوَّكُ [في « ديوانهِ » ٧٦ مِنَ الرَّمَلِ] :

كَابَدَ ٱلأَهْوَالَ فِيْ زَوْرَتِهِ ... ثُمَّ مَا سَلَّمَ حَتَّىٰ وَدَّعَا(١)

وقالَ كُشَاجِمٌ [في « ديوانهِ » ٢٦٧ مِنَ الكاملِ] :

لَمْ أَسْتَتِمَّ عِنَاقَهُ لِقُدُوْمِهِ ... حَتَّىٰ ٱبْتَدَأْتُ عِنَاقَهُ لِوَدَاعِهِ

وقالَ ابنُ الأحنفِ [في « ديوانهِ » ٢٣١ مِنَ الخفيفِ] :

سَأَلُوْنَا عَنْ حَالِنَا كَيْفَ أَنْتُمْ ؟ ... فَقَرَنَّا وَدَاعَنَا بِٱلسُّؤَالِ
مَا حَلَلْنَا حَتَّىٰ ٱفْتَرَقْنَا فَمَا نَفْـ ... ـرِقُ بَيْنَ ٱلنُّزُوْلِ وَٱلارْتِحَالِ

وقالَ أبو الشِّيْصِ [في « ديوانهِ » ٥٣ مِنَ السَّريعِ] :

يَا حَبَّذَا ٱلزَّوْرُ ٱلَّذِيْ زَارَا ... كَأَنَّهُ مُقْتَبِسٌ نَارَا
نَفْسِيْ فِدَاءٌ لَكَ مِنْ زَائِرٍ ... مَا حَلَّ حَتَّىٰ قِيْلَ قَدْ سَارَا

ولا يخرجُ عنهُ قولُ أبي عبادةَ البُحتريِّ [في « ديوانهِ » ١/٥٢٩ مِنَ الطويلِ] :

كَفَىٰ حَزَناً أَنَّا عَلَىٰ ٱلْوَصْلِ نَلْتَقِيْ ... فُوَاقاً فَتَثْنِيْنَا ٱلْعُيُوْنُ إِلَىٰ ٱلصَّدِّ(٢)
فَلَوْ تُمْكِنُ ٱلشَّكْوَىٰ لَخَبَّرَكَ ٱلْبُكَا ... حَقِيْقَةَ مَا عِنْدِيْ وَإِنْ جَلَّ مَا عِنْدِيْ

---

(١) المكابدةُ: المعاناةُ والمقاساةُ.

(٢) الفواقُ : الفترةُ بين وقتي الحلاب ، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴾ [صَ : ١٥] .

سيدنا إبراهيم الخليل الإمام في ذلك

وكلُّهُ مِنْ صُنعِ الخليلِ إبراهيمَ عليهِ السلامُ ، فإنَّهُ يطوي ٱلبِيدَ ـ كما في « الصحيح » [البخاري (٣٣٦٤)] ـ مِنْ (فلسطينَ) إلىٰ (الحجازِ) ؛ ليُطالعَ تَرِكَتهُ[1] ، ثُمَّ لا يلبثُ أَنْ يعودَ مِنْ فورِهِ .

أيهما الأسعد نظام الملك أم البستاني؟!

وفي « طبقاتِ ٱبنِ السبكيِّ » [٤/٣٢١] : أَنَّ نظامَ المُلْكِ ٱستقبلَ ولدَهُ ، وفِلْذَةَ كبدِهِ غَداةَ يوم مرجعِهِ مِنْ سفرِ دراستِهِ ، وودَّعَهُ مِنَ ٱلعشيِّ إلىٰ موضعِ عملِهِ ، ثُمَّ بَكىٰ ، ورأىٰ أَنَّ البستانيَّ أَسعدُ حالاً منهُ ، يأكلُ مِنْ عملِ يدِهِ ، ويتمتَّعُ بأَهلِهِ وولدِهِ .

ابن حجاج وسرعة عزله عن عمله

وممَّا ينخرِطُ مِنَ النوادرِ في هـٰذا السلكِ : أَنَّ بعضَ الأُمراءِ قلَّدَ ٱبنَ حجَّاجٍ عملاً ، خرجَ إليهِ يومَ الخميسِ ، فتبعَهُ كتابُ العزلِ في يومِ الأَحدِ ، فقالَ [في « يتيمةِ الدهرِ » ٣/ ٩٤ مِنْ مجزوءِ الكاملِ] :

يَـا مَـنْ إذَا نَظَـرَ ٱلْهِـلاَ لُ إِلَـىٰ مَحَاسِنِـهِ سَجَـدْ
وَإِذَا رَآتْـهُ ٱلشَّمْـسُ كَـا دَتْ أَنْ تَمُـوْتَ مِـنَ ٱلْحَسَـدْ
يَـوْمَ ٱلْخَمِيْـسِ بَعَثْتَنِـي وَصَـرَفْتَنِـي يَـوْمَ ٱلأَحَـدْ
مَـا قَـامَ عَمْـرٌو فِـيْ ٱلْـوِلاَ يَـةِ قَـائِمـاً حَتَّـىٰ قَعَـدْ

تولية الرشيد لجعفر بن يحيى وعزله

وقبلَ ذلكَ ، الرشيدُ عقدَ لجعفرِ بنِ يحيىٰ علىٰ (خُراسانَ) ، فهنَّأَتْهُ الشعراءُ ، ومنهم أَشْجَعُ بقولِهِ [في « ديوانهِ » ٨٠ و ٢٢٩ مِنَ المتقاربِ] :

تُـرِيْـدُ ٱلْمُلُـوْكُ مَـدَىٰ جَعْفَـرٍ وَلاَ يَصْنَعُـوْنَ كَمَـا يَصْنَـعُ
وَلَيْـسَ بِـأَوْسَعِهِـمْ فِـيْ ٱلْغِنَـىٰ وَلَـٰكِـنَّ مَعْـرُوْفَـهُ أَوْسَـعُ

---

(١) تَرِكَتُهُ : ابنهُ إسماعيل عليه السلام وأمه هاجر . كما جاء في القرآن : ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ ﴾ [إبراهيم : ٣٧] .

فَقُـلْ لِخُـرَاسَـانَ تَحْيَـا فَقَـدْ   أَتَاهَا ٱبْنُ يَحْيَىٰ ٱلْفَتَىٰ ٱلأَرْوَعُ

ثُمَّ بدا للرشيدِ ، فعزلَهُ عنها ، فوَجَمَ جعفرٌ ، فقالَ أَشجعُ [في « ديوانهِ » ١٩٦ مِنَ السَّريعِ] :

أَضْحَتْ خُرَاسَانُ تُعَزَّىٰ بِمَـا   أَخْطَأَهَا مِنْ جَعْفَرِ ٱلْمُرْتَجَىٰ
كَـانَ ٱلـرَّشِيْـدُ ٱلْمُعْتَلِي أَمْـرُهُ   وَلَّـىٰ عَلَـىٰ مَشْـرِقِهَـا ٱلأَبْلَجَـا
ثُـمَّ أَرَاهُ رَأْيُـــهُ أَنَّـــهُ   أَمْسَىٰ إِلَيْـهِ مِنْهُـمُ أَحْـوَجَـا[1]

تَوليته ﷺ لسعد وعزله يوم الفتح

ولا ننسىٰ معَ هٰذا ما كانَ مِنْ سرعةِ عزلِهِ ﷺ لسعدِ بنِ عبادةَ عن الرايةِ يومَ الفتحِ ، وجعلِ اللواءِ إِلىٰ ٱبنهِ قيسِ بنِ سعدِ بنِ عبادةَ[2] .

ما القول الفصل في هذه المسألة

وبعدُ : فما يذكرُهُ الشعراءُ مِنْ تقليلِ وقتِ الوصالِ ، وتقارُبِ حينِ النزولِ مِنْ حينِ الارتحالِ :

ـ إِمَّا أَنْ يكونَ حقيقةً ، كما ذكرنا عنِ ٱلخليلِ عليهِ السلامُ .

ـ وإِمَّا أَنْ يكونَ علىٰ سبيلِ المجازِ ؛ لأَنَّ مدَّةَ الوصلِ قصيرةٌ عندَ المُحِبِّ ، علىٰ حدِّ قولِ الناظمِ [في « العُكْبَرِيّ » ٢/ ٥٩ مِنَ الطويلِ] :

نَسِيْتُ وَمَا أَنْسَىٰ عِتَاباً عَلَىٰ ٱلصَّدِّ   وَلاَ خَفراً زَادَتْ بِهِ حُمْرَةُ ٱلْخَدِّ[3]
وَلاَ لَيْلَـةً قَصَّـرْتُهَـا بِقَصُـورَةٍ   أَطَالَتْ يَدِيْ فِي جِيْدِهَا صُحْبَةَ ٱلْعِقْدِ

والبيتُ الثاني هوَ الذي أُريدَ ، وهوَ مِنْ قولِ المجنونِ [في « ديوانهِ » ٢٩٢ مِنَ الطويلِ] :

---

(١) القصة في « الأغاني » (١٨/ ٢٣٤) .
(٢) الخبر عند ابن سعد في «الطبقات» (٢/ ١٣٥) ، وكذا عند ابن سيد الناس في « عيون الأثر » (٢/ ١٧١) .
(٣) الخَفَرُ : الحياءُ .

وَيَوْمٍ كَظِلِّ ٱلرُّمْحِ قَصَّرْتُ ظِلَّهُ   بِلَيْلَىٰ فَلَهَّانِي وَمَا كُنْتُ لاَهِيَا

معانـي القصيرة والمقصورة

والقصيرةُ والقصورةُ تحتملُ عدَّةَ معانٍ ؛ لأنَّهُ :

١ـ قصر الخطو

ـ إمَّا أَنْ يكونَ المرادُ منها : قِصَرَ الخطوِ ، ومنهُ قولُ القُحَيفِ العُقيليِّ [مِنَ الطويلِ] :

سَقَىٰ وَرَعَىٰ ٱللهُ ٱلأَوَانِسَ كَٱلدُّمَىٰ   إِذَا قُمْـنَ جُنْـحَ ٱللَّيْـلِ مُعْتَجِـرَاتِ
إِذَا مِسْـنَ قُـدَّامَ ٱلْبُيُـوْتِ عَشِيَّـةً   قِصَارَ ٱلْخُطَىٰ يَرْفُلْنَ فِيْ ٱلْحِبَرَاتِ[(١)]
دَعَوْنَ بِحَبَّاتِ ٱلْقُلُوْبِ فَأَسْرَعَتْ   إِلَيْهِـنَّ بِـٱلأَهْـوَاءِ مُبْتَـدِرَاتِ

وقولُ أَبي العتاهيةِ [في « ديوانهِ » ٦١٢ مِنَ المتقاربِ] :

بَدَتْ بَيْنَ حُوْرٍ قِصَارِ ٱلْخُطَىٰ   تُجَـاهِـدُ بِـٱلْمَشْـيِ أَكْفَـالَهَـا

ويدخلُ فيهِ كلُّ ما يأتي في ثِقَلِ الروادفِ ، وعِظَمِ المآكمِ ، عندَما تنتهي إِليهِ النوبةُ إِنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

قصر الخطو مذموم في الرجال

وعلىٰ ٱستحسانِهِ في النساءِ ، فهوَ مذمومٌ في الرجالِ ، إذا جاوزَ الحدَّ الذي رسمَهُ لقمانُ في قولِهِ لِولدِهِ : ﴿ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ ﴾ [لقمان : ١٩] ، ولا سيَّما إذا ٱنتهىٰ إِلىٰ ٱلتماوتِ الممقوتِ فاعلُهُ .

٢ـ قصر النظر

ـ وإمَّا أَنْ يكونَ المرادُ منها : قَصْرَ النظرِ ، علىٰ حدِّ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴾ [صٓ : ٥٢] .

ومنهُ قولُ قيسِ بنِ ذَرِيحٍ [في « ديوانهِ » ٨٨ مِنَ الطويلِ] :

أَذُوْدُ سَوَامَ ٱلطَّرْفِ عَنْكِ وَمَا لَهُ   عَلَىٰ أَحَدٍ إِلاَّ عَلَيْكِ طَرِيْقُ[(٢)]

---

(١) مِسْنَ : تبخترنَ، وكذلك : يَرْفُلْنَ. الحِبَرات ـ جمعُ حِبرةٍ ـ : وهوَ ثوبٌ من قطنٍ أَو كِتَّانٍ أَو حريرٍ مخططٌ ، يُصنَعُ بـ(اليمنِ) ، ترتديه النِّساءُ .

(٢) أذودُ : أمنعُ وأدفعُ . أسامَ إليه ببصرهِ : رماهُ به .

٣ـ لزام الخدور

ـ وإمَّا أَنْ يكونَ معناهُ : لِزامَ الخُدورِ ، ومنهُ قولُهُ جلَّ شأنُهُ : ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ [الرحمٰن : ٧٢] .

وقالَ كُثَيِّرٌ [في « ديوانهِ » ٣٦٩ مِنَ الطويلِ] :

وَأَنْتِ ٱلَّتِيْ حَبَّبْتِ كُلَّ قَصِيْرَةٍ إِلَيَّ وَلَمْ تَشْعُرْ بِذَاكَ ٱلْقَصَائِرُ
عَنَيْتُ قَصِيْرَاتِ ٱلْحِجَالِ وَلَمْ أُرِدْ قِصَارَ ٱلْخُطَىٰ ، شَرُّ ٱلنِّسَاءِ ٱلْبَحَاتِرُ(١)

وهٰذا لا يُخالِفُ ما سبقَ عنِ ٱلقُحَيفِ ؛ لِفَرْقِ ما بينَ البابينِ ؛ إِذِ ٱلمرادُ قِصَرُها ثَمَّ مِنَ ٱلروادِفِ ، وهنا المذمومُ قِصَرُها مِنَ ٱلقماءَةِ(٢) .

وقالَ أَبو قيسِ بنُ الأَسْلتِ [كما في «الأغاني» ١٧/ ١٣٣ مِنَ الطويلِ] :

وَيُكْرِمُنَهَا جَارَاتُهَا فَيَزُرْنَهَا وَتَعْتَلُّ عَنْ إِتْيَانِهِنَّ فَتُعْذَرُ
وَلَيْسَ بِهَا أَنْ تَسْتَهِيْنَ بِجَارَةٍ وَلَٰكِنَّهَا مِنْ ذَاكَ تَحْيَا وتَخْفَرُ
وَإِنْ هِيَ لَمْ تَبْرُزْ لَهُنَّ أَتَيْنَهَا نَوَاعِمَ بِيْضاً مَشْيُهُنَّ التَّأَطُّرُ(٣)

أنشدونا بيتاً خفِراً

وعنِ ٱلهيثمِ بنِ عديٍّ ، قالَ : كُنَّا جلوساً عندَ صالحِ بنِ حسَّانَ ،

---

(١) القصائرُ ـ جمعُ قصيرةٍ ـ: وهيَ المرأةُ المحبوسةُ المحجوبةُ المصونةُ في البيتِ لا تُتركُ أَن تَخرُجَ . قصيراتُ الحجالِ : الحَجَلةُ ، مثلُ القبَّةِ تُزيَّنُ بالثياب والأسرةِ والستورِ . البحاتِرُ ـ جمعُ بُحتُرةٍ ـ : وهي المرأة القصيرةُ المجتمعةُ الخَلْقِ . والمراد : أنها حبَّبت إليهِ كلَّ آمرأةٍ مقصورةٍ في خِدرها لا القصيرةَ في خَلْقِها .

(٢) القماءَةُ ، يقال : قَمَأَتِ الماشيةُ : سَمِنَت . قال الشاعر[من الطّويل]:

تبينَ لي أنَّ القماءةَ ذِلَّةٌ وأنَّ أَعزّاءَ الرجالِ طيالُها

(٣) تخفَر ـ من الخَفَرِ بالتحريك وسلف ـ : شدَّةُ الحياءِ . التأَطُّرُ : التثنّي في المشي .

فقالَ : أَنشِدونا بيتاً خَفِراً في ٱمرأةٍ خَفِرَةٍ ، فقلنا قولَ الأَعشىٰ [في «ديوانه» ٣٠٠ مِنَ البسيط] :

كَأَنَّ مِشْيَتَهَا مِنْ بَيْتِ جَارَتِهَا　　مَرُّ ٱلسَّحَابَةِ لاَ رَيْثٌ وَلاَ عَجَلُ

فقالَ : هـٰذِهِ خرَّاجَةٌ ولاَّجَةٌ ، لـٰكنَّ المقبولَ قولُ ابن الأَسْلتِ ، وأَنشدَ الأَبياتَ[١] .

العتبي والنساء الأعرابيات

وقالَ العتبيُّ : خرجتُ إِلىٰ (ٱلمِرْبَدِ)[٢] ، فإِذا بأَعرابيٍّ غَزِلٍ ، فمِلْتُ إِليهِ ، وذكرتُ النساءَ ، فتنفَّسَ ، ثُمَّ قالَ : يا ٱبنَ أَخي ، إِنَّ مِنْ كلامِهِنَّ لَمَا يقومُ مَقامَ العذبِ علىٰ الظمأ ، فقلتُ : كيفَ نساؤُكُم ؟ فقالَ [مِنَ الكامل] :

رُجُحٌ وَلَسْنَ مِنَ ٱللَّوَاتِي بِٱلضُّحَىٰ　　لِـذُيُـوْلِهِـنَّ عَلَـىٰ ٱلطَّـرِيْـقِ غُبَـارُ
يَأْنَسْنَ عِنْدَ بُعُوْلِهِنَّ إِذَا خَلَوْا　　وَإِذَا هُمُوْا خَرَجُوْا فَهُنَّ خِفَارُ

وقولُهُ : (لَسْنَ . . . لِذُيُوْلِهِنَّ عَلَىٰ ٱلطَّرِيْقِ غُبَارُ) كنايةٌ عن ملازمةِ البيوتِ ؛ لأَنَّهُم كثيراً ما يَقصِدونَ نفيَ المحكومِ عليهِ بٱنتفاءِ صفتِهِ ، كما دلَّ عليهِ سياقُ البيتِ .

نفي المحكوم عليه بانتفاء صفته

مثاله من القرآن

وكما في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ [البقرة : ٢٧٣] ، فإِنَّهُ ليسَ المعنىٰ إِثباتَ السؤالِ ، ونفيَ الإِلحافِ عنهُ ، وإِنَّما ٱلغرَضُ نفيُ السؤالِ مِنْ أَصلِهِ .

---

(١) كما في «الأغاني» (١٧/ ١٣٠) وهي :

وَيكـرِمُهـا جـاراتهـا فيـزرنَهـا　　وتعتـلُّ عـن إتيـانهـنَّ فتُعـذَرُ
وليـس لهـا أن تستهيـن بجـارةٍ　　ولكنهـا منهـنَّ تَحيـا وتخفَـرُ

(٢) المِربد : قالَ الأصمعيُّ : كلُّ شيءٍ جلست بهِ الإبلُ والغنمُ ؛ ولهذا قيلَ : مِربَدُ النَّعَمِ الذي بـ(المدينةِ) ، وبهِ سُمِّيَ مِربدُ (البصرة) ، وهوَ المقصودُ هنا .

مثاله من السنة

وكما في قولِهم عن مجلسِهِ عليه السلام : (لا تُنْثَىٰ فَلَتاتُهُ)[1] ، فلا يُفهَمُ منهُ أَنَّ هناكَ فَلَتاتٍ تُطوىٰ ولا تروىٰ ، ولَـٰكنَّ المرادَ أَنْ لا فَلَتاتَ أَصلاً .

مثاله من الشعر

ومنهُ قولُ كعبِ بنِ سعدٍ الغنويِّ [في «خزانةِ الأدبِ» ١٠/٤٣٥ مِنَ الطويلِ] :

أَخِيْ مَا أَخِيْ لاَ فَاحِشٌ عِنْدَ بَيْتِهِ ... وَلاَ وَرِعٌ عِنْـدَ ٱللِّقَـاءِ هَيُـوْبُ

فقد قصدَ فيهِ إِلىٰ نفيِ الفُحْشِ بتّاً ، لا بقيدِ ما كانَ منهُ عندَ بيتِهِ .

قول ابن الأثير في هذه المسألة

ولقد أَسرفَ علىٰ نفسِهِ أَبو الفتحِ ٱبنُ الأَثيرِ [الجزري] ؛ إِذ قالَ في مثلِ هـٰذا ٱلمبحثِ[2] : مكثتُ زمناً أَطوفُ علىٰ أَقوالِ الشعراءِ ؛ لأَظفرَ بما يجري هـٰذا ٱلمجرىٰ ، فلَم أَجد إِلاَّ قولَ ٱمرىءِ القيسِ [مِنَ الطويلِ] :

عَلَـىٰ لاَحِـبٍ لاَ يَهْتَـدِيْ بِمَنَـارِهِ ... [إِذَا سَافَهُ ٱلْعَوْدُ ٱلنُّبَاطِيُّ جَرْجَرَا][3]

وَلِي فيهِ بيتٌ مِنَ ٱلشِّعرِ ، وهوَ [في «المثل السائر» ٢/ ٦٢ مِنَ الكاملِ] :

أَدْنَيْنَ جِلْبَابَ ٱلْحَيَاءِ فَلاَ يُرَىٰ ... لِذُيُوْلِهِنَّ عَلَىٰ ٱلطَّرِيْقِ غُبَارُ

رد المؤلف عليه

إِذْ لَم يَزِدْ بهـٰذا الانتحالِ علىٰ أَنْ فضَحَ نفسَهُ بما يضيقُ عنهُ ذَرعاً ، بشهادةِ التنافُرِ بينَ القسمينِ في بيتِهِ ، وتناسُبِهِما في بيتِ الأَعرابيِّ .

---

(١) أخرجهُ الطبرانيُّ في «الكبير» (٢٢/ ١٥٤) . وقوله : (لا تُنْثَىٰ فلتاته) . الفَلَتاتُ ـ جمعُ فَلْتَةٍ ـ : الزلاّتُ ؛ أي : لم يكُن في مجلسهِ زلاَّتٌ فتُحفظَ وتُحكىٰ .

(٢) في «المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر» ٢/ ٦٢ .

(٣) لاَحِبٌ : طريقٌ واضح .

أَمَّا الشواهدُ الشعريَّةُ عليهِ : فستأتي أَوَّلَ المجلسِ الثالثِ ، بمناسبةِ قولِهِ [في « العُكْبَرِيّ » ١/ ٣٠٤ مِنَ المنسَرِحِ] :

يُعْطِـيْ فَـلاَ مَطْلُـهُ يُكَـدِّرُهَـا ... بِهَـا وَلاَ مَنُّـهُ يُنَكِّـدُهَـا

تشبيه ليلة القرب وليل الصد وكثرته عند الشعراء

ثُمَّ ما زالَ الشعراءُ يُشبِّهونَ ليلةَ القُربِ بفِترِ الضبِّ ، وإبهامِ القَطاةِ[١] ، كما يَستعيرونَ لِلَيلِ الصدِّ ظلَّ الرُّمحِ ، وما أَشبهَ ذلكَ .

قالَ جريرٌ [في « ديوانه » ٢/ ٩٦٤ مِنَ الطويلِ] :

وَيَـوْمٍ كَـإِبْهَـامِ ٱلْقَطَـاةِ مُـزَيَّـنٍ ... لَدَيَّ صِبَاهُ غَالِبٍ لِيَ بَاطِلُهْ

وقالَ الوليدُ بنُ يزيدَ [في « ديوانه » مِنَ البسيطِ] :

لاَ أَسْأَلُ ٱللهَ تَغْيِيْراً لِمَا صَنَعَتْ ... نَامَتْ وَقَدْ أَسْهَرَتْ عَيْنَيَّ عَيْنَاهَا

فَاللَّيْلُ أَطْوَلُ شَيْءٍ حِيْنَ أَفْقِدُهَا ... وَٱللَّيْلُ أَقْصَرُ شَيْءٍ حِيْنَ أَلْقَاهَا

وقالَ آخرُ [مِنَ الخفيفِ] :

لَيْلَـةٌ كَـادَ يَلْتَقِـيْ طَـرَفَـاهَـا ... قِصَـراً وَهِـيَ لَيْلَـةُ ٱلإِجْتِمَـاعِ

وقالَ غيرُهُ [مِنَ الوافرِ] :

ظَلَلْنَـا عِنْـدَ دَارِ أَبِـيْ نُعَيْـمٍ ... بِيَـوْمٍ مِثْـلَ سَـالِفَـةِ ٱلـذُّبَـابِ[٢]

وقالَ ٱبنُ الأَحنفِ [في « ديوانه » ١٢٠ مِنَ السَّريعِ] :

ٱلْيَـوْمُ مِثْـلُ ٱلْحَـوْلِ حَتَّـىٰ أَرَىٰ ... وَجْهَـكِ وَٱلسَّـاعَـةُ كَـٱلشَّهْـرِ

---

(١) يُضرَبُ المثَلُ في الأَشياءِ القصيرةِ التي هي كالخيالِ بفِتْرِ ـ شِبْرِ ـ الضَّبِّ ، وإبهامِ القطاةِ؛ لأنَّها لا فِتْرَ له، ولا إبهام لها أصلاً .

(٢) سالفةُ الذبابِ : عُنقُ السيفِ ، والمعنى : يومهم قصير كقصر عنق السيف .

وقالَ الصِّمَّةُ بنُ عَبدِ اللهِ [في « ديوانه » ٧٩ مِنَ الوافرِ] :

شُهُـوْرٌ يَنْقَضِيْـنَ وَمَـا شَعَـرْنَـا ... بِـأَنْصَـافٍ لَهُـنَّ وَلاَ سِـرَارِ[١]

فَـأَمَّـا لَيْلُهُـنَّ فَخَيْـرُ لَيْـلٍ ... وَأَقْصَـرُ مَـا يَكُـوْنُ مِـنَ النَّهَـارِ

وقدْ يشبِهُهُ قولُ ٱبنِ الروميِّ [في « ديوانه » ٤/١٤٧٣ مِنَ الطويل] :

سَقَـىٰ ٱللهُ أَوْطَـاراً لَنَـا وَمَـآرِبـاً ... تَقَطَّـعَ مِـنْ أَقْـرَانِهَـا مَـا تَقَطَّعَـا

لَيَـالِـيَ أَنسَتْنِـيْ حِسَـابَ زَمَـانِهَـا ... بُلَهْنِيَةٌ أَقْضِيْ بِهَا ٱلْحَوْلَ أَجْمَعَا[٢]

وقالَ الفقيهُ الشافعيُّ أَسعدُ بنُ يحيىٰ السِّنجاريُّ [في « وفيات الأعيان » ٢١٦/١ مِنَ السَّريع] :

للهِ أَيَّـــامِــيْ عَلَـــىٰ رَامَـــةٍ ... وَطِيْـبُ أَوْقَـاتِـيْ عَلَـىٰ حَـاجِـرِ

تَكَـادُ بِـٱلسُّـرْعَـةِ فِـيْ مَـرِّهَـا ... أَوَّلُهَـــا يَعْثُـــرُ بِـــٱلآخِـــرِ

تمثل السيدة عائشة بشعر متمم بن نويرة

ولا يخرجُ عنهُ قولُ مُتمِّمِ بنِ نويرةَ [في « المفضَّليَّاتِ » ١١٧٧/٣ مِنَ الطويل] ـ وقد تمثَّلتْ بهِ عائشةُ عندَ قبرِ أَخٍ لها[٣] ـ :

وَكُنَّـا كَنَـدْمَـانَـيْ جَـذِيْمَـةَ حِقْبَـةً ... مِنَ ٱلدَّهْرِ حَتَّىٰ قِيْلَ لَنْ نَتَصَدَّعَا[٤]

---

(١) السرار ـ سَرَرُ الشهر ، بالتحريك ـ : آخرُ ليلةٍ منه .

(٢) البُلَهْنِيَةُ : الرَّخاءُ وسَعَةُ العيش .

(٣) تمثلت بهما السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ عند قبر أخيها عبد الرحمن ٱبن أبي بكر الصديق رضي الله عنهم. انظر: « الأغاني » (١٧/ ٣٦١) .

(٤) نَدماني جَذيمة : هما عقيل ومالك ابنا فالج ، وجَذِيمة : هو ابن مالك الأسدي أول ملوك الحيرة ، ولهما معه قصة حاصلها كما في « الأغاني » (١٥/ ٣٠٢) :

أنَّ جَذِيمةَ قالَ يوماً لجلسائه : قد ذُكِرَ لِي غلامٌ لخميٌّ مقيمٌ في أَخوالِهِ مِنْ =

فَلَمَّا تفَـرَّقْنَـا كَـأَنِّـيْ وَمَـالِكـاً   لِطُوْلِ ٱجْتِمَاعٍ لَمْ نَبِتْ لَيْلَةً مَعَا

وهُما مِنْ قصيدةٍ لهُ شاعرةٍ محرِّكةٍ ، يقولُ فيها [في « المفضَّليَّاتِ » ١١٨٧/٣ـ١١٨٨ من الطويل] :

وَمَا وَجْـدُ أَظْـآرٍ ثَـلاَثٍ رَوَائِـمٍ   رَأَيْنَ مَجَرّاً مِنْ حُوَارٍ وَمَصْرَعَا[1]

= إيادٍ ، لَهُ ظَرْفٌ ولبٌّ ، فلو بعثتُ إليه يكونُ في نُدمائي ، ووليَّتُهُ كأسي والقيام بمجلسي . . كانَ الرأيَ ؟ فأيَّدوهُ ، فبعثَ إليه ومكثَ عندَهُ مدَّةً طويلةً ، ثمَّ أَشرفَتْ عليهِ يوماً رَقاشِ أُختُ جَذِيمةَ ، فلم تزلْ تُراسلهُ حتَّىٰ ٱتَّصلَ بينَهُما ، ثمَّ قالت لهُ : يا عدي ، إذا سقيتَ القومَ . . فٱمزِج لهُم ، وٱسقِ أخي صِرفاً ، فإذا أخذتْ منهُ الخمرُ فٱخطِبني إليه ، فإنَّهُ يزوِّجكَ ، وأَشهِدِ القومَ عليهِ إنْ هوَ فعلَ ، ففعلَ الغلامُ ذلكَ وٱنصرفَ إليها بٱلخبر ، فقالت : عرِّسْ بأهلكَ ، ففعلَ ، فلمَّا أصبحَ . . غدا مُضرَّجاً بِالخَلوق ، فقالَ لهُ جَذِيمةُ : ما هٰذه الآثارُ يا عدي ؟! قالَ : آثارُ العُرسِ ، قالَ : أَيُّ عُرسٍ ؟!! قالَ : عرسُ رَقاشِ ، فغضِبَ جَذِيمةُ ، وهَرَبَ عديٌّ ، فطلبه جَذِيمةُ فلم يدركهُ ، وسجنَ أُختَهُ في قصرِهِ ، واشتملت على حملٍ فولدت غلاماً وسمَّتهُ عَمراً ، وربَّتْهُ حتَّىٰ كَبِرَ ، ثمَّ دخلَ على خالِهِ الملكِ بأبهىٰ حُلَّةٍ ، فأَحبَّهُ حبّاً شديداً ، وقرَّبَهُ إليه . ثمَّ إنَّ الجنَّ ٱختطفتهُ ، فلَمْ يزل جَذِيمةُ يبحثُ عنهُ فلم يسمَع لهُ بخبرٍ .

ثمَّ أقبلَ رجُلانِ ـ هما عقيل ومالك ابنا فالج ـ يريدانِ الملكَ بهديةٍ ، فنزلا علىٰ ماءٍ فبينا هما يأكلانِ إذ أقبلَ رجلٌ أشعثُ أغبرُ فناولاهُ شيئاً فأكلَهُ ، ثمَّ سألاهُ عَنِ ٱسمهِ ، فقالَ : إنْ تُنكراني أو تُنكرا نسبي فإنَّني عَمروٌ وعديٌّ أَبي ، فقاما إليه ، فحسَّنا هيئتَهُ ، وقالا : ما كُنَّا لنهدي إلىٰ الملكِ هديةً أنفسَ عندَهُ مِنِ ٱبنِ أُختهِ ، فبشَّرا ٱلملكَ بهِ ، فسُرَّ سروراً عظيماً ، وقالَ لهُما : ٱحكُما ، فلكُما حُكمُكُما ، قالا : منادمتُكَ ما بقيتَ وبقينا ، فمكثا عندَهُ أربعينَ سنةً علىٰ تلكَ الحالِ ، حتَّىٰ قُتِلَ الملكُ علىٰ يدِ الزَّبَّاءِ في قصَّةٍ لا حاجة لذكرِها .

(١) أظْآر ـ جمعُ ظِئْرٍ ـ : وهي المرضعةُ لغير ولدها من الناس والإبلِ . الروائمُ ـ جمع رائِمٍ ـ : وهي الناقةُ العاطفةُ على ولدِها . المجرُّ : أحشاءُ الحوارِ . والحُوارُ : ولد الناقةِ من حينِ يرضعُ إلى أن يفطمَ ويفصلَ .

يُذَكِّرْنَ ذَا ٱلبَثِّ ٱلحَزِينَ بِبَثِّهِ ... إِذَا حَنَّتِ ٱلأُولَىٰ سَجَعْنَ لَهَا مَعَا
بِأَوْجَعَ مِنِّيْ يَوْمَ فَارَقْتُ مَالِكاً ... وَقَامَ بِهِ ٱلنَّاعِيْ ٱلرَّفِيْعُ فَأَسْمَعَا

وبعدَها البيتانِ ، ثُمَّ قالَ [في « المفضّليّاتِ » ٣/١١٧٨] :

وَإِنْ تَكُنِ ٱلأَيَّامُ فَرَّقْنَ بَيْنَنَا ... فَقَدْ بَانَ مَحْمُوْداً أَخِيْ حِيْنَ وَدَّعَا
لَقَدْ كَفَّنَ ٱلمِنْهَالُ تَحتَ رِدَائِهِ ... فَتَىً غَيْرَ مِبْطَانِ ٱلعَشِيَّاتِ أَرْوَعَا

ويأتي ما يشبِهُها في تحريكِ الأشجانِ ، وإثارةِ البلابلِ ، عندَ شرحِ قولِهِ [في « العُكْبَريّ » ٢/٢٣٦ مِنَ الطويل] :

وَلَوْ حُمِّلَتْ صُمُّ ٱلجِبَالِ ٱلَّذِيْ بِنَا ... [غَدَاةَ ٱفْتَرَقْنَا أَوْشَكَتْ تَتَصَدَّعُ]

مِنْ آخرِ المجلسِ الخامسَ عشرَ إِنْ شاءَ ٱللهُ تعالىٰ .

وقالَ ٱبنُ ميَّادةَ [في « ديوانه » ٢٠٦ مِنَ الطويل] :

كن صياد فرص تَمَتَّعْ بِذَا ٱليَوْمِ ٱلقَصِيْرِ فَإِنَّهُ ... رَهِيْنٌ بِأَيَّامِ ٱلدُّهُوْرِ ٱلأَطَاوِلِ

وقالَ أبو تمَّامٍ [في « ديوانه » ٣/ ١٥١-١٥٢ مِنَ الكامل] :

مَرَّتْ لَنَا أَعْوَامُ وَصْلٍ بِٱلحِمَىٰ ... فَكَأَنَّهَا مِنْ قِصَرِهَا أَيَّامُ
ثُمَّ ٱنْثَنَتْ أَيَّامُ هَجْرٍ بَعْدَهَا ... فَكَأَنَّهَا مِنْ طُوْلِهَا أَعْوَامُ
ثُمَّ ٱنْقَضَتْ تِلْكَ ٱلسُّنُوْنَ وَأَهْلُهَا ... فَكَأَنَّهَا وَكَأَنَّهُمْ أَحْلَامُ

وأَصلُ المعنىٰ مِنْ قولِ ٱمرىءِ القيسِ [في « ديوانه » ١٥١-١٥٢ مِنَ الطويل] :

وَلَيْلٍ كَمَوْجِ ٱلبَحْرِ أَرْخَىٰ سُدُوْلَهُ ... عَلَيَّ بِأَنْوَاعِ ٱلهُمُوْمِ لِيَبْتَلِيْ
فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَمَطَّىٰ بِصُلْبِهِ ... وَأَرْدَفَ أَعْجَازاً وَنَاءَ بِكَلْكَلِ[1]

(١) ناءَ : حَطَّ . الكلكلُ : الصدرُ من كل شيءٍ .

أَلاَ أَيُّهَا ٱللَّيْلُ ٱلطَّوِيلُ أَلاَ ٱنْجَلِ بِصُبْحٍ وَمَا ٱلإِصْبَاحُ مِنكَ بِأَمْثَلِ
فَيَا لَكَ مِنْ لَيْلٍ كَأَنَّ نُجُومَهُ بِكُلِّ مُغَارِ ٱلفَتْلِ شُدَّتْ بِيَذْبُلِ(١)

والأخيرُ مِنْ قولِ خالِهِ مُهَلْهِلٍ [مِنَ الوافرِ] :

فَإِنْ يَكُ بِٱلذَّنَائِبِ طَالَ لَيْلِي فَقَدْ أَبْكِي مِنَ ٱللَّيْلِ ٱلْقَصِيرِ(٢)
كَـأَنَّ ٱلْجَـدْيَ فِـي مَثْنَـاةِ رَبْـقٍ أَسِيـرٌ أَوْ بِمَنْـزِلَـةِ ٱلأَسِيـرِ(٣)

والثاني هوَ ٱلَّذِي أَعني .

وقالَ حُنْدُجٌ ٱلمُرِّيُّ [في « ديوانه » مِنَ البسيطِ] :

لَيْلٌ تَحَيَّرَ مَا يَنحَطُّ فِيْ جِهَةٍ كَأَنَّهُ فَوْقَ مَتْنِ ٱلأَرْضِ مَشْكُوْلُ
نُجُـوْمُـهُ رُكَّـدٌ لَيسَـتْ بِـزَائِلَـةٍ كَأَنَّمَا هُنَّ فِيْ ٱلْجَوِّ ٱلْقَنَادِيْلُ(٤)
مَا أَقْدَرَ ٱللهَ أَنْ يُدْنِيْ عَلَىٰ شَحَطٍ مَنْ دَارُهُ ٱلْحَزْنُ مِمَّنْ دَارُهُ صُوْلُ(٥)

تنوع المتأخرين في هذا الموضوع

ثُمَّ تعاورتهُ أَيدي المتأخِّرينَ ، فتنوَّعوا فيهِ ، وكانَ الإمامُ ٱلرافعيُّ كثيراً ما يُنشِدُ لغيرِهِ [مِنَ البسيطِ] :

وَٱللهِ مَـا سَهَـرِيْ إِلاَّ لِبُعْـدِهِـمِ وَلَوْ أَقَامُوْا لَمَا عُذِّبْتُ بِٱلسَّهَرِ
عَهْدِيْ بِهِمْ وَرِدَاءُ ٱلْوَصْلِ يَجْمَعُنَا وَٱللَّيْلُ أَطْوَلُهُ كَٱللَّمْحِ بِٱلْبَصَرِ
وَٱلآنَ لَيْلِيَ إِذْ ضَنُّوْا بِزَوْرَتِهِمْ لَيْلُ ٱلضَّرِيْرِ فَنَوْمِيْ غَيْرُ مُنْتَظَرِ

---

(١) مُغارُ الفتل : الحبلُ المفتولُ جيِّداً . يذبُل : جبلٌ في بلادِ نجدٍ .
(٢) الذَّنائِبُ : موضعٌ بنجدٍ ، قال ابن بري : هو على يسار طريق مكَّة .
(٣) مَثناةُ ربقٍ : حبل تربط به صغار الغنم والمعز .
(٤) رُكَّد ـ جمعُ راكدٍ ـ : وهُوَ الثابتُ الذي لا يتحرَّكُ .
(٥) الحَزْنُ : طريق بين المدينة وخيبر . صُولُ : مدينة في بلاد الخزر ، في نواحي باب الأبواب .

وقالَ بعضُ أَهلِ الأَندلسِ[1] :

وَمُرْتَجَّةِ ٱلأَعْطَافِ أَمَّا قَوَامُهَا فَلَـدْنٌ وَأَمَّـا رِدْفُهَـا فَـرَدَاحُ[2]

أَلَمَّتْ فَصَارَ ٱللَّيْلُ مِنْ قِصَرٍ بِهِ يَطِيْرُ وَمَا غَيْرُ ٱلسُّرُوْرِ جَنَاحُ

وَبِـتُّ وَقَـدْ زَارَتْ بِـأَنْعَمِ لَيْلَـةٍ تُعَانِقُنِي حَتَّىٰ ٱلصَّبَاحِ صَبَاحُ

عَلَىٰ عَاتِقِي مِنْ سَاعِدَيْهَا حَمَائِلٌ وَفِي خَصْرِهَا مِنْ سَاعِدَيَّ وِشَاحُ

وقالَ ٱبنُ زيدونَ ـ مِنْ أَبياتٍ يودِّعُ بها وَلَّادةَ مطلعَ الفجرِ مِنْ ليلةِ وصلٍ ـ [في « ديوانه » ١٢ مِنَ الرَّمَل] :

إِنْ يَطُـلْ بَعْـدَكَ لَيْلِـيْ فَلَكَـمْ بِـتُّ أَشْكُـوْ قِصَـرَ ٱللَّيْـلِ مَعَـكْ

وقالَ [في « ديوانه » ٥ مِنَ البسيط] :

حَـالَـتْ لِبَيْنِكُـمُ أَيَّـامُنَـا فَغَـدَتْ سُوْداً وَكَانَتْ بِكُمْ بِيْضاً لَيَالِيْنَا

وقالَ أَبو عبادةَ [البُحتريُّ في « ديوانه » ٢/ ١٢٥٧ مِنَ السَّريع] :

طَـوَّلَ هَـٰذَا ٱللَّيْـلَ أَنْ لاَ كَـرَىٰ يُرِيْكَ مَنْ تَهْوَىٰ وَأَنْ لاَ هُجُوْعْ

وقالَ [في « ديوانه » ٣/ ١٤٩٠ مِنَ الطويل] :

لَقَاسَيْنَ لَيْلاً دُوْنَ (قَاسَانَ) لَمْ تَكَدْ أَوَاخِرُهُ مِنْ بُعْدِ قُطْرَيْهِ تُلْحَقُ[3]

وقالَ ٱلمعرِّيُّ [في « سَقْطِ الزَّنْدِ » ٢٣٠ـ٢٣١ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَيْلَيْنِ : حَالٍ بِٱلْكَوَاكِبِ جَوْزُهُ وَآخَرُ مِنْ حَلْيِ ٱلْكَوَاكِبِ عَاطِلُ

---

(١) وهو ابن الزقاق كما في «نفح الطيب» (٤/ ٢٩٨) مِنَ الطويل .

(٢) اللَّدْنُ : اللَّيِّنُ من كلِّ شيءٍ ، والأُنثىٰ لَدْنةٌ : ريَّةُ الشباب ناعمةٌ . وامرأةٌ رداحٌ : عجزاءُ ثقيلةُ الأوراكِ تامَّةُ الخَلْقِ .

(٣) قاسان ـ ويقالُ : قاشان وكاشان ـ : بلدٌ في (إيران) ، بينَ (قُمَّ) و(أَصفهانَ) .

كَأَنَّ دُجَاهُ ٱلْهَجْرُ وَٱلْفَجْرُ مَوْعِدٌ   بِوَصْلٍ وَضَوْءُ ٱلصُّبْحِ حِبٌّ مُمَاطِلُ
قَطَعْتُ بِهِ بَحْراً يَعُبُّ عُبَابُهُ   وَلَيْسَ لَهُ إِلاَّ ٱلتَّبَلُّجُ سَاحِلُ(1)

وقالَ ٱلوأواءُ الدِّمشقيُّ [في « ديوانه » ٧٦ مِنَ ٱلوافرِ] :

وَلَيْلٍ مِثْلِ يَوْمِ ٱلْبَيْنِ طُوْلاً   إِذَا أَفَلَتْ كَوَاكِبُهُ تَعُوْدُ
بَدَائِعُ نَوْمِهَا فِيْهِ ٱنْتِبَاهٌ   فَأَعْيُنُهَا مُفَتَّحَةٌ رُقُوْدُ(2)

وقالَ أيضاً [في « ديوانهِ » ٨٦ مِنَ ٱلوافرِ] :

وَلَيْلٍ مِثْلِ يَوْمِ ٱلْحَشْرِ طُوْلاً   كَأَنَّ ظَلاَمَهُ لَوْنُ ٱلصُّدُوْدِ
بَيَاضُ هِلاَلِهِ فِيْهِ سَوَادٌ   كَإِثْرِ ٱللَّطْمِ فِيْ بِيْضِ ٱلْخُدُوْدِ(3)

وقالَ عليُّ بنُ ٱلخليلِ [مِنَ الطَّويلِ] :

يَقُوْلُوْنَ طَالَ ٱللَّيْلُ وَٱللَّيْلُ لَمْ يَطُلْ   وَلَكِنَّ مَنْ يَهْوَىٰ مِنَ ٱلشَّوْقِ يَسْهَرُ
أَنَامُ إِذَا مَا ٱللَّيْلُ مَهَّدَ مَضْجَعِيْ   وَأَفْقِدُ نَوْمِيْ حِيْنَ أُجْفَىٰ وَأُهْجَرُ
فَكَمْ لَيْلَةٍ طَالَتْ عَلَيَّ لِصَدِّهَا   وَأُخْرَىٰ أُلاَقِيْهَا بِوَصْلٍ فَتَقْصُرُ

وقالَ آخرُ [مِنَ ٱلبسيطِ] :

سَهِرْتُ لَيْلاَتِ وَصْلٍ فَرْحَةً بِهِمُ   وَلَيْلَةَ ٱلْهَجْرِ كَمْ قَضَّيْتُهَا سَهَرَا
إِذَا تَقَضَّىٰ زَمَانِيْ كُلُّهُ سَهَراً   فَمَا أُبَالِيْ أَطَالَ ٱللَّيْلُ أَمْ قَصُرَا

---

(١) الليلان : هما الليلُ وفرسهُ الأدهمُ الذي يشبهُ الليلَ بسوادِهِ . حالٍ : أي ليلٍ حالٍ من الحلية ، وحليةُ الليل : نجومُها . جوزهُ : وسطهُ . عاطلٌ : ليسَ حالياً ، وهو فرسهُ الأدهم . التبلُّجُ : إشراقُ الصبح .

(٢) في « الديوان » : (يدافعُ نومَها) بدل (بدائع نومها) .

(٣) في « الديوان » : (يَقَقِ الخدود) بدل (بيض الخدود) . واليَقَقُ : شديد البياضِ ناصعهُ .

تفنن المتنبي في هذا الموضوع وكثرته عنده

والمعنىٰ متكررٌ عندَ الناظمِ بكثْرةٍ ؛ فمنهُ قولُهُ [في « العُكْبَريّ » ٢/ ٣٦٤ مِنَ الخفيفِ] :

قَصَّرَتْ مُدَّةَ ٱللَّيَالِيْ ٱلْمَوَاضِيْ　　فَأَطَالَتْ بِهَا ٱللَّيَالِيْ ٱلْبَوَاقِيْ

وقولُهُ [في « العُكْبَريّ » ١/ ٥٨ مِنَ الطَّويلِ] :

ذَكَرْتُ بِهِ وَصْلاً كَأَنْ لَمْ أَفُزْ بِهِ　　وَعَيْشاً كَأَنِّيْ كُنْتُ أَقْطَعُهُ وَثْبَا

وقولُهُ [في « العُكْبَريّ » ١/ ١٤٠ مِنَ الوافرِ] :

وَمَا لَيْلٌ بِأَطْوَلَ مِنْ نَهَارٍ　　يَظَلُّ بِلَحْظِ حُسَّادِيْ مَشُوْبَا

وقولُهُ [في « العُكْبَريّ » ٣/ ٩٥ مِنَ الطَّويلِ] :

لَيَالِيَّ بَعْدَ ٱلظَّاعِنِيْنَ شُكُوْلُ　　طِوَالٌ وَلَيْلُ ٱلْعَاشِقِيْنَ طَوِيْلُ(١)

وقولُهُ [في « العُكْبَريّ » ٢/ ٢٦٨ مِنَ الكاملِ] :

اَلنَّوْمُ بَعْدَ أَبِيْ شُجَاعٍ نَافِرٌ　　وَٱللَّيْلُ مُعْيٍ وَٱلْكَوَاكِبُ ظُلَّعُ(٢)

وقولُهُ [في « العُكْبَريّ » ٢/ ٧٢ مِنَ المنسَرِحِ] :

مَا بَالُ هَـٰذِي ٱلنُّجُوْمِ حَائِرَةً　　كَأَنَّهَا ٱلْعُمْيُ مَا لَهَا قَائِدْ

وقولُهُ [في « العُكْبَريّ » ٢/ ١١٨ مِنَ البسيطِ] :

مِنْ بَعْدِ مَا كَانَ لَيْلِيْ لاَ صَبَاحَ لَهُ　　كَأَنَّ أَوَّلَ يَوْمِ ٱلْحَشْرِ آخِرُهُ

وقولُهُ [في « العُكْبَريّ » ٢/ ١٣٥ مِنَ الكاملِ] :

تُدْمِيْ خُدُوْدَهُمُ ٱلدُّمُوْعُ وَتَنْقَضِيْ　　سَاعَاتُ لَيْلِهِمُ وَهُنَّ دُهُوْرُ

---

(١) الشُّكولُ ـ جمعُ شكلٍ ـ : وشكلُ الشيءِ مثلُهُ . وجمعُ القلَّةِ : أشكال . وأتىٰ هاهنا بجمعِ الكثرةِ ؛ لأنَّهُ أبلغُ في شكوىٰ الحالِ .

(٢) الظُّلَّعُ : العرجُ ، وقصدَ : أنَّ النجومَ بطيئةُ السيرِ .

وقدْ غَبَّرَ أَبو نُوَاسٍ في وجوهِ الشُّعراءِ ٱلقائلينَ في ٱلموضُوعِ بقولِهِ [مِنَ ٱلخفيفِ] :

لَسْتُ أَدْرِي أَطَالَ لَيْلِيَ أَمْ لاَ كَيْفَ يَدْرِي بِذَاكَ مَنْ يَتَقَلَّىٰ
إِنْ تَفَرَّغْتُ لِاسْتِطَالَةِ لَيْلِيْ وَلِرَعْيِ ٱلنُّجُومِ كُنْتُ مُخِلاًّ

المعتمد وإحدى حظاياه

ومصداقُهُ ما حُكيَ : أَنَّ ٱلمعتمدَ بنَ عبَّادٍ ودَّعَ حظاياهُ مِنْ (قُرْطُبَةَ) ، لمَّا عزمَ بهنَّ إِلىٰ (إِشبيليَّةَ) ، وما زالَ يسايرُهُنَّ ، وهوَ مذهوبُ العقلِ مِنْ أَوَّلِ اللَّيلِ ، حتَّىٰ برقَ الفجرُ ، فأَفاقَ مِنْ غشيتِهِ ، ورجعَ ، وقالَ في ذلكَ [كما في « ديوانه » ٣٦ مِنَ الكامل] :

سَايَرْتُهُمْ وَٱللَّيْلُ أَغفَلَ ثَوْبَهُ حَتَّىٰ تَبَدَّىٰ لِلنَّوَاظِرِ مُعْلِمَا
فَوَقَفْتُ ثَمَّ مُوَدِّعَاً وَتَسَلَّمَتْ مِنِّيْ يَدَا ٱلإِصْبَاحِ تِلْكَ ٱلأَنْجُمَا

وقدْ سَنَحَ لي بمناسبةِ ذِكْرِ الوداعِ أَنْ أَتكلَّمَ علىٰ بعضِ ما جاءَ فيهِ ، ثُمَّ رَأَيتُ في الفرصِ الآتيةِ ما هوَ بهِ أَمسُّ ، فأَخَّرْتُهُ إِليها .

* * *

ولنختمِ المجلسَ بأَبياتٍ ثلاثةٍ للناظمِ تتَّصلُ بما نحنُ فيه ، وهيَ ممَّا قالَ في أَيَّامِ صِباهُ[1] :

---

(١) وهي مطالع الأبيات الثلاثة الآتية .

[قالَ أَبو الطيِّبِ المتنبِّي في « العُكْبَرِيِّ » ٤/ ١٨٥ مِنَ البسيط]

أَبْلَىٰ ٱلْهَوَىٰ أَسَفاً يَوْمَ ٱلنَّوَىٰ بَدَنِيْ	وَفَرَّقَ ٱلْهَجْرُ بَيْنَ ٱلْجَفْنِ وَٱلْوَسَنِ

الهوى المتلف

يقولُ : إِنَّ الهوىٰ أَتلفَ بَدَنَهُ يومَ الفراقِ ، مِنْ شدَّةِ الأَسفِ ، وأَكثرُ الشعراءِ يدَّعونَ ذلكَ ، وهوَ مقبولٌ ؛ إِذْ قَلَّ مَنْ سَلِمَ مِنَ البَيْنِ ومرارتِهِ ، ولم يَشْكُ مِنَ ٱلبُعدِ وحرارتِهِ ، وأَيُّ عينٍ لم تذرِفْ ؟! بل كلُّ نفسٍ مفارقةٌ ، وإِنْ لم تعرِفْ .

[قالَ أبو الطيِّبِ في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ٣٤٢ مِنَ المتقارِب] :

فَـوَاحَسْـرَتَـا مَـا أَمَـرَّ ٱلْفِـرَاقَ وَأَعْلَـقَ نِيْـرَانَـهُ بِـٱلْكُبُـوْدِ

هوَ الذي ينطوي بهِ مِنَ الأَفراحِ بساطُها ، ويتقطعُ مِنَ ٱلقلوبِ نياطُها ، ويكثُرُ مِنَ ٱلعقولِ ٱختلاطُها ، فلا كَبِدَ إِلاَّ تفتَّتَ علىٰ ذاهبٍ ، غيرَ أَنَّ للناسِ فيما يعشقونَ مذاهبَ [كما قيل مِنَ الطويل] :

وَأَيُّ ٱمْرِىءٍ يَخْلُوْ مِنَ ٱلْحُبِّ قَلْبُهُ أَلَمْ تَرَهُ حَتَّىٰ ٱلْجَمَادُ بِهِ ٱهْتَزَّا
وَلَـٰكِنَّهُـمْ شَتَّـىٰ فَمِـنْ هَـابِـطٍ بِـهِ إِلَىٰ ٱلدَّرَكِ ٱلأَدْنَىٰ وَمِنْ صَاعِدٍ عِزَّا
وَلاَ عِزَّ إِلاَّ فِيْ هَوَىٰ ٱللهِ وَحْدَهُ وَحُبِّ ٱلَّذِيْ هَانَتْ بِهِ ٱللاَّتُ وَٱلْعُزَّىٰ

حقيقة العشق

وقدِ ٱختلفوا في تعريفِ الهوىٰ ، وٱختلفتْ عباراتُهُم ، وتفاوتَتْ إِشاراتُهُم ، وكلٌّ يشيرُ إِلىٰ ذلكَ الجمالِ ، وحَسْبُكَ أَنَّهُ ٱجتمعَ بحضرةِ يحيىٰ بنِ خالدٍ ثلاثةَ عشرَ حكيماً ، فسأَلهُم عن حقيقةِ العشقِ ، فكُلٌّ أَتىٰ بما عندَهُ ، وكانَ فيهِم أَبو الهُذيلِ ، فقالَ :

العشق أوله لعب وآخره عطب

أَيُّها الوزيرُ ، العشقُ يختِمُ علىٰ النواظرِ ، ويطبعُ علىٰ الأفئدةِ ، مرتعُهُ الأَجسامُ ، ومشرعُهُ في الأَكبادِ ، وصاحبهُ متصرِّفُ الظنونِ ، متفنِّنُ الأَوهامِ ، لا يصفو لهُ مرجوٌّ ، ولا يسلَمُ لهُ مدعوٌّ ، تُسرعُ إِليهِ النوائبُ ، وتحلو لهُ المصائبُ ، وهوَ جُرعةٌ مِنْ نقيعِ الموتِ ، ونَقعَةٌ مِنْ حِياضِ الثُّكلِ ، غيرَ أَنَّهُ مِنْ أَريحيَّةٍ تكونُ في الطبعِ ، وطلاوةٍ توجدُ في الشمائِلِ . اهـ .

كمون الحب في الحشا

وهوَ ـ بالحقيقةِ ـ وصفٌ لبعضِ أَعراضِهِ ، لا لهُ ، وإِنَّما أَشارتْ إِلىٰ وصفِهِ الأَعرابيَّةُ بقولِهَا [كما في «مصارع العشاق» ١/ ١٧٥] : جَلَّ عن أَنْ يخفىٰ ، وخفيَ عن أَنْ يُرىٰ ، فهوَ كامنٌ في الأَحشاءِ ، كمونَ النارِ في الزنادِ ، إِنْ قدحتَهُ . . ورىٰ[1] ، وإِنْ تركتَهُ . . توارىٰ .

وسيعادُ هٰذا أَوائِلَ المجلسِ التاسعِ قُبيلَ قولِهِ [في « العُكبَرِيِّ » ١/ ٣١٥ مِنَ الخفيف] :

يَتَرَشَّفْنَ مِنْ فَمِي رَشَفَاتٍ هُنَّ فِيهِ أَحْلَىٰ مِنَ ٱلتَّوْحِيدِ[2]

الهجر ينفي النوم من العيون

وقولُهُ : (وَفَرَّقَ ٱلْهَجْرُ بَيْنَ ٱلْجَفْنِ وَٱلْوَسَنِ) كذلكَ مِنَ ٱلإِغراقِ الذي لا بأسَ لهُ ، وهوَ متداولٌ كسابقِهِ ، إِلاَّ أَنَّهُ أَقلُّ ابتذالاً ، وأَحسنُ منالاً منهُ قولُ الوزيرِ المُهلَّبيِّ [مِنَ الطويل] :

تَصَارَمَتِ ٱلأَجْفَانُ لَمَّا صَرَمْتَنِي فَمَا تَلْتَقِي إِلاَّ عَلَىٰ عَبْرَةٍ تَجْرِي

---

(١) ورىٰ الزَّنْدُ : خرجت نارُهُ .

(٢) وللبيتِ روايةٌ أُخرىٰ هي في «الديوانِ» :

. . . . هُنَّ فِيهِ حلَاوَةُ ٱلتَّوْحِيدِ

وقالَ بشَّارٌ [في « ديوانه » ٣/ ٢٤٩ مِنَ الوافر] :

جَفَتْ عَيْنِيْ عَنِ ٱلتَّغْمِيْضِ حَتَّىٰ … كَـأَنَّ جُفُـوْنَهَـا عَنْهَـا قِصَـارُ

وأَخذَهُ التِّهاميُّ ، فقالَ [في « ديوانه » ٤٧٠ مِنَ الكامل] :

قَصُرَتْ جُفُوْنِيْ أَمْ تَبَاعَدَ بَيْنُهَا … أَمْ مُقْلَتِـيْ خُلِقَـتْ بِـلاَ أَشْفَـارِ

وممَّا يُنظَرُ إِليهِ مِنْ بعيدٍ : ما تغنَّتْ بهِ جاريةُ عبدِ اللهِ بنِ جعفرِ بنِ أَبي طالبٍ ، لابنِ أَبي عتيقٍ ـ رضوانُ اللهِ عليهم ـ وهوَ [مِنَ الكامل] :

بِهَوَاكَ صَيَّرَنِيْ ٱلْعَذُوْلُ نَكَالاَ … وَرَأَىٰ ٱلسَّبِيْلَ إِلَىٰ ٱلْمَقَالِ فَقَالاَ

وَنَهَيْتَ نَوْمِيْ عَنْ جُفُوْنِيْ فَٱنْتَهَىٰ … وَأَمَرْتَ لَيْلِيْ أَنْ يَطُوْلَ فَطَالاَ

تكرار هـٰذا المعنى عند المتنبي

والمعنىٰ متكرِّرٌ في « دِيوانِ » الناظمِ ؛ منهُ قولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٣/ ٢٣ مِنَ المتقارب] :

كَـأَنَّ ٱلْجُفُـوْنَ عَلَـىٰ مُقْلَتِـيْ … ثِيَـابٌ شُقِقْـنَ عَلَـىٰ ثَـاكِـلِ

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٤/ ٢٢٠ مِنَ البسيط] :

قَدْ عَلَّمَ ٱلْبَيْنُ مِنَّا ٱلْبَيْنَ أَجْفَانَا … تَدْمَىٰ وَأَلَّفَ فِيْ ذَا ٱلْقَلْبِ نِيْرَانَا

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ١٤٨ مِنَ الطويل] :

فَـإِنَّ نَهَـارِيْ لَيْلَـةٌ مُـدْلَهِمَّـةٌ … عَلَىٰ مُقْلَةٍ مِنْ بَعْدِكُمْ فِيْ غَيَاهِبِ

بَعِيْدَةِ مَا بَيْنَ ٱلْجُفُوْنِ كَـأَنَّمَـا … عَقَدْتُمْ أَعَالِيْ كُلِّ جَفْنٍ بِحَاجِبِ

المحب لا يعرف الراحة

وصدقَ واللهِ ، فمَنْ نالَهُ مِنَ ٱلحبيبِ شفونُهُ[1] . . يستحيلُ أَنْ تصطلحَ جفونُهُ ، ومَنْ ظهرَ لدىٰ ٱلمعشوقِ ذنبُهُ . . فلنْ يستقرَّ بهِ

---

(١) شَفِنَهُ : نظر إليه بمؤخِرِ عينيهِ بُغضةً أو تعجُّباً . وقيل : نظره نظراً فيه اعتراض .

جنبُهُ ، ومَنْ بَعُدَ عنهُ ريحانُهُ . . فلا بِدعَ أَنْ يطولَ آمتحانُهُ[1] .

هُوَ ٱلْحُبُّ فَٱسْلَمْ بِٱلْحَشَا مَا ٱلْهَوَىٰ سَهْلُ ... فَمَـا ٱخْتَـارَهُ مُضْنـىً بِـهِ وَلَـهُ عَقْـلُ

نَصَحْتُكَ عِلْماً بِٱلْهَوَىٰ وَٱلَّذِيْ أَرَىٰ ... مُخَالَفَتِيْ فَٱخْتَرْ لِنَفْسِكَ مَا يَحْلُوْ

إِذَا شِئْتَ أَنْ تَحْيَا سَعِيْداً فَمُتْ بِهِ ... شَهِيْداً وَإِلاَّ فَٱلْغَرَامُ لَهُ أَهْلُ[2]

* * *

(١) الهوىٰ : مَقامٌ مِنْ مقاماتِ الحُبِّ ، ودرجةٌ أَعلى في سُلَّمِ ٱرتقائِه ، فإذا وقعَ فيه المرءُ . . فلا مهربَ لهُ ، ولا منجاةَ ولا مخرجَ ، فالهوىٰ كلمةٌ نلمحُ فيها معنىٰ السقوط (هوىٰ يهوي) ، والذي يهوي : ٱمرؤٌ سقطَ الزمامُ مِنْ يدِهِ ، فأَصبحتْ نفسُه مطيَّةً جامحةً ؛ لذلكَ لا بدَّ للعقلِ أَن يسودَ العاطفةَ ، ويلجِمَ النفسَ لتقفَ عندَ حدودِ اللهِ سبحانهُ وتعالى ، حينئذٍ تَنعَم النفسُ بهدأَةِ الطمأنينةِ وراحةِ السكينة . ويرحم الله القائل [من البسيط] :

دَعِ ٱلتَّغَـزُّلَ فِـيْ دَعْـدٍ فَكُـلُّ هَـوَىً ... يَهْوِيْ بِصَاحِبِهِ فِيْ بُؤْرَةِ ٱلنَّدَمِ

(٢) الأبيات لابنِ الفارضِ في « ديوانه » مِنَ الطويل .

[قالَ أَبو الطيِّبِ في « العُكْبَرِيِّ » ٤/ ١٨٦ مِنَ البسيط] :

رُوْحٌ تَـرَدَّدُ فِـيْ مِثْـلِ ٱلْخِـلاَلِ إِذَا	أَطَارَتِ ٱلرِّيْحُ عَنْهُ ٱلثَّوْبَ لَمْ يَبِنِ[1]
كَفَىٰ بِجِسْمِي نُحُوْلاً أَنَّنِيْ رَجُلٌ	لَـوْلاَ مُخَـاطَبَتِيْ إِيَّاكَ لَـمْ تَـرَنِـيْ

في البيت سؤالان

في البيتِ الثاني سؤالانِ :

الأول: ما هو المصدر المؤول؟

أَحدُهُما : أَنَّ (أَنَّ) المفتوحةَ مِنْ قولِهِ : (أَنَّنِيْ رَجُلٌ) تحتاجُ إِلىٰ أَنْ تُسْبَكَ بمصدرٍ ، فما تقديرُهُ ؟

وقد أَجابَ الشارحُ [العُكبَرِيُّ] : بأَنَّهُ كفىٰ بجسمي نحولاً ٱنتفاءُ رؤيتي لولا مُخاطبتي .

الثاني: الاسم الظاهر بمثابة الغائب فكيف الضمير

والثاني : أَنَّ الأَسماءَ الظاهرةَ مِنْ قبيلِ الغائبِ ، فكانَ الأَوفقَ أَنْ يقولَ : (أَنَّنِيْ رَجُلٌ لولا مخاطبتهُ إِيَّاكَ لم ترهُ) .

وأَطالَ الشارحُ في الجوابِ ، والحاصلُ : أَنَّهُ مِنْ جنسِ قولِهِ جلَّ شأنُهُ : ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ [النمل : ٥٥] ، فالخطابُ في ﴿تجهلونَ﴾ غيرُ مناسبٍ لقومٍ ، وإِنَّما هوَ أَنيسٌ بقولِهِ : ﴿أَنتم﴾ .

الشواهد عليه

ومثلُهُ قولُ الشاعرِ [مِنَ الطويل] :

أَأَكْـرَمُ مِـنْ لَيْلَـىٰ عَلَـيَّ فَتَبْتَغِـيْ ... بِهِ ٱلْجَاهَ أَمْ كُنْتُ ٱمْرَأً لاَ أُطِيْعُهَا

فقدْ أَعادَ مِنْ (أُطِيعُها) ضميرَ متكلِّمٍ وِفاقاً لـ(كنتُ)، ولم يُعِدْ

---

(١) الخِلالُ : العودُ الدقيقُ الذي لا يُرى .

ضميرَ غائبٍ وِفاقاً (لامرئٍ) ، والبيتُ لقيسِ بنِ المُلَوَّحِ [في « شرحِ شواهدِ المُغني » ١/ ٢٢١] ، أَو لابنِ الدُّمَيْنَةِ [في « ديوانه » ٢٠٦] ، أَو للصِّمَّةِ بنِ عبدِ اللهِ القشيريِّ [في « ديوانِه » ١١٣] ، علىٰ ٱختلافِ الرواةِ في ذلكَ ، وقدْ أَوردهُ ٱبنُ هشامٍ شاهداً علىٰ ٱشتراطِ ٱلصفةِ لِمَا وُطِّىءَ بهِ مِنْ خبرٍ ، أَو ، صفةٍ ، أَو حالٍ ، وقبلَهُ [في « ديوان الصِّمَّة » ١١٣] :

وَنُبِّئْتُ لَيْلَىٰ أَرْسَلَتْ بِشَفَاعَةٍ إِلَيَّ فَهَلاَّ نَفْسُ لَيْلَىٰ شَفِيْعُهَا

قصة الصمة وريا

وكانَ مِنْ خَبرِها [كما في «الأغاني» ٦/ ١٢] : أَنَّ الصِّمَّةَ بنَ عبدِ اللهِ ـ علىٰ روايةٍ أَنَّها لهُ ـ كانَ يهوىٰ ٱبنةَ عمٍّ لهُ تسمَّىٰ رَيَّا ، فخطبَها إِلىٰ عمِّهِ ، فزوَّجَهُ علىٰ خمسينَ مِنَ ٱلإِبلِ ، فجاءَ إِلىٰ أَبيهِ ، فسأَلَهُ ، فساقَ عنهُ تسعاً وأَربعينَ ، فقالَ : أَكمِلْها ، فقالَ : هوَ عمُّكَ ، وما يناظرُكَ في ناقةٍ ، فقالَ : واللهِ ما قالَ هـٰذا إِلاَّ ٱستخفافاً بٱبنتي ، واللهِ لا أَقبلُها إِلاَّ كُمَّلاً ، فلجَّ عمُّهُ ، ولجَّ أَبوهُ ، فقالَ : واللهِ ما رأَيتُ أَلأَمَ منكُما ، وأَنا أَلأَمُ منكُما إِنْ أَقمتُ معكُما ، فرحلَ إِلىٰ (الشامِ) ، فلقيَ الخليفةَ ، فأُعجبَ بهِ ، وفرضَ لهُ ، وأَلحقَهُ بالفرسانِ ، فكانَ يتشوَّقُ إِلىٰ (نجدٍ) ، ويحِنُّ إِليها ، وكانَ هـٰذا ٱلشعرُ فيما قالَهُ . كذا رأَيْتُهُ ، وهو لا يلتئِمُ معَ البيتينِ ، وإِنَّمَا يلتئِمُ معَ ما سيأَتِي عنهُ في المجلسِ الثاني .

رد المؤلف على الشارح

إِذنْ : ففي البيتِ الذي نتكلَّمُ عليهِ نوعٌ مِنَ ٱلالتفاتِ البديعِ ، ثُمَّ قالَ الشارحُ : إِنَّهُ مِنْ قولِ الأَخطلِ [في « ديوانه » ١٥٤ مِنَ الطويل] :

ضَفَادعُ فِيْ ظَلْمَاءِ لَيْلٍ تَجَاوَبَتْ فَدَلَّ عَلَيْهَا صَوْتُهَا حَيَّةَ ٱلْبَحْرِ

وليسَ كذلكَ .

أصل بيت المتنبي

وإنَّما أَصلُهُ قولُ الأَعشىٰ [في « ديوانه » مِنَ الطويل] :

فَلَـوْ أَنَّ مَـا أَبْقَيْـنَ مِنِّـيْ مُعَلَّـقٌ   بِعُوْدِ ثُمَامٍ مَا تَأَوَّدَ عُوْدُهَا(١)

وقدْ تلاعبَ بهِ الناظمُ حتَّىٰ أَذالَهُ ، فمِنْ ذلِكَ قولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٤/٢٨ مِنَ الكامل] :

وَخَيَالُ جِسْمٍ لَمْ يُخَلِّ لَهُ ٱلْهَوَىٰ   جِسْماً فَيُنْحِلَهُ ٱلسَّقَامُ وَلاَ دَمَا(٢)

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ١/١٤٩ مِنَ الطويل] :

وَلَوْ قَلَمٌ أُلْقِيتُ فِيْ شَقِّ رَأْسِهِ   مِنَ ٱلسُّقْمِ مَا غَيَّرْتُ مِنْ خَطِّ كَاتِبِ

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٤/٥١ مِنَ الطويل] :

بَرَانِيْ ٱلسُّرَىٰ بَرْيَ ٱلْمُدَىٰ فَرَدَدْنَنِيْ   أَخَفَّ عَلَىٰ ٱلْمَرْكُوْبِ مِنْ نَفَسِيْ جِرْمِيْ

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٣/٢٢٣ مِنَ الوافر] :

بِجِسْمِيْ مَنْ بَرَتْهُ فَلَوْ أَصَارَتْ   وِشَـاحِيْ ثَقْـبَ لُـؤْلُـؤَةٍ لَجَـالاَ

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٢/٣٦٣ مِنَ الخفيف] :

حُلْتِ دُوْنَ ٱلْمَزَارِ فَٱلْيَوْمَ لَوْ زُرْ   تِ لَحَالَ ٱلنُّحُوْلُ دُوْنَ ٱلْعِنَاقِ

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٣/٢٥٢ مِنَ الكامل] :

دُوْنَ ٱلتَّعَـانُقِ نَـاحِلَيْـنِ كَشَكْلَتَـيْ   نَصْبٍ ، أَدَقَّهُمَا وَضَمَّ ٱلشَّاكِلُ(٣)

---

(١) الثُّمامُ : نبتٌ معروفٌ في البادية ، ولا تأكلهُ النَّعَمُ إلا في الجُدُوبةِ . تأَوَّدَ عودُها تأَوُّداً : إذا تثنىٰ .

(٢) في «العكبري» : (لَحْمًا) بدل (جِسْمًا) ، ولعله الصواب.

(٣) الشَّكلةُ : أَرادَ هنا التي تكونُ في الإعرابِ وهيَ الفتحةُ ، وهيَ من قولِهم : شَكَلْتُ الدابَّةَ ؛ أي : ضبطتُها ، والشكلةُ تضبطُ الحروفَ ، وضمَّ الشاكلُ : =

وقولُهُ [في «العُكْبَرِيّ» ١/ ١٤ مِنَ الكامل] :

وَشَكِيَّتِي فَقْدُ ٱلسَّقَامِ لأَنَّهُ ... قَدْ كَانَ لَمَّا كَانَ لِيْ أَعْضَاءُ

وقولُهُ [في «العُكْبَرِيّ» ٤/ ١٩٢ مِنَ البسيط] :

كَتَمْتُ حُبَّكِ حَتَّىٰ مِنكِ تَكْرِمَةً ... ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ فِيْكِ إِسْرَارِيْ وَإِعْلَانِيْ

لأَنَّهُ زَادَ حَتَّىٰ فَاضَ عَنْ جَسَدِيْ ... فَصَارَ سُقْمِيْ بِهِ فِيْ جِسْمِ كِتْمَانِيْ(١)

وقدْ أَلَمَّ في هٰذا بقولِ قيسِ بنِ المُلَوَّحِ [في «ديوانه» ٢٩٤ مِنَ الطويل] :

لَقَدْ كُنْتُ أَعْلُوْ حُبَّ لَيْلَىٰ فَلَمْ يَزَلْ ... بِيَ ٱلنَّقْضُ وَٱلإِبْرَامُ حَتَّىٰ عَلَانِيَا

ذوبان النفس في العشق ليس حكراً على أحد

وهوَ مِنَ ٱلمعاني المشترَكةِ ، وقد تداولهُ المولَّدونَ ، فمنهُ قولُ المجنونِ [في «ديوانه» ٨٠ مِنَ الطويل] :

أَلاَ إِنَّمَا غَادَرْتِ يَا أُمَّ مَالِكٍ ... صَدًى أَيْنَمَا تَذهَبْ بِهِ ٱلرِّيْحُ يَذْهَبِ

وقولُ المُؤَمَّلِ [مِنَ السّريع] :

يَكَادُ جِسْمِيْ مِنْ نُحُوْلِ ٱلـ ... ـضَّنَا تَحْمِلُهُ أَنْفَاسُ عُوَّادِيْ

وقولُ خالدٍ الكاتبِ [مِنَ البسيط] :

غَدَا خَلِيْلُكِ نِضْواً لاَ حَرَاكَ بِهِ ... لَمْ يَبْقَ مِنْ جِسْمِهِ إِلاَّ تَوَهُّمُهُ(٢)

= الكاتبُ ، يريد بالضمِّ : القربَ ، ولم يُرِدِ الضم الذي في الإعراب الذي يسمى رفعاً .

(١) في «العكبري» : (كَأَنَّهُ) بدل (لأَنَّهُ).

(٢) النِّضْوُ : البعيرُ المهزولُ ، وقد يستعملُ في الإنسانِ .

وقولُ ٱبنِ المعتزِّ [مِنَ البسيط] :

مُسَهَّدٌ خَانَهُ ٱلتَّفرِيْقُ فِيْ أَمَلِهْ ... أَضْنَاهُ سَيِّدُهُ ظُلْماً بِمُرْتَحَلِهْ
فَرَقَّ حَتَّىٰ لَوَ ٱنَّ ٱلدَّهْرَ قَادَ لَهُ ... حَتْفَاً لَمَا أَبْصَرَتْهُ مُقْلَتَا أَجَلِهْ

وقولُ ٱبنِ دُريدٍ [مِنَ السّريع] :

إِنِّيْ ٱمْرُؤٌ أَبْقَيْتَ مِنْ جِسْمِهِ ... يَا مُتْلِفَ ٱلصَّبِّ وَلَمْ يَشْعُرِ
صَبَابَةً لَوْ أَنَّهَا قَطْرَةٌ ... تَجُوْلُ فِيْ عَيْنَيْكَ لَمْ تَقْطُرِ

وما أَحسنَ قولَهُ : (لَوْ أَنَّهَا قَطْرَةٌ) إلخ ، كما لا أَقبحَ مِنْ تعليقِهِ البيتَ الثاني بالأَوَّلِ ، وحشوهِ بقولِهِ : (يَا مُتْلِفَ الصَّبِّ) ؛ فإِنَّهَا ظُلماتٌ بعضُها فوقَ بعضٍ، لولا ما تتنفَّسُ بِهِ مِنْ ذلكَ الفجرِ الصادقِ.

ما هذه الخفة؟! وقالَ بعضُهُم [مِنَ الطويل] :

وَلَوْ شِئْتُ فِيْ طَيِّ ٱلْكِتَابِ لَزُرْتُكُمْ ... وَمَا شَعَرَتْ بِيْ أَحْرُفٌ وَسُطُوْرُ

وقالَ ٱبنُ العميدِ [مِنَ ٱلكاملِ] :

القذى الذي لا يؤذي لَوْ أَنَّ مَا أَبْقَيْتِ مِنْ جِسْمِيْ قَذىً ... فِيْ ٱلْعَيْنِ لَمْ يَمْنَعْ مِنَ ٱلإِغْفَاءِ

وأَغارَ الوأواءُ الدمشقيُّ علىٰ أَوَّلِ البيتينِ اللَّذينِ نحنُ بسبيلِهِما ، فقالَ [في « ديوانه » ١٨٩ مِنَ الوافر] :

وَمَا أَبْقَىٰ ٱلْهَوَىٰ وَٱلشَّوْقُ مِنِّيْ ... سِوَىٰ رُوْحٍ تَرَدَّدُ فِيْ خَيَالِ
خَفِيْتُ عَلَىٰ ٱلنَّوَائِبِ أَنْ تَرَانِيْ ... كَأَنَّ ٱلرُّوْحَ مِنِّيْ فِيْ مَحَالِ

وقالَ آخرُ [مِنَ الطويل] :

بَرَانِيْ ٱلْهَوَىٰ بَرْيَ ٱلْمُدَىٰ وَأَذَابَنِيْ ... صُدُوْدُكَ حَتَّىٰ صِرْتُ أَنْحَلَ مِنْ أَمْسِ
فَلَسْتُ أُرَىٰ حَتَّىٰ أَرَاكَ وَإِنَّمَا ... يَبِيْنُ هَبَاءُ ٱلذَّرِّ فِيْ أَلَقِ ٱلشَّمْسِ

وقدْ قضىٰ الشارحُ بالتفضيلِ لهٰذينِ البيتينِ ، وحكمُهُ مقبولٌ بالنسبةِ للثاني ، ومردودٌ بالنسبةِ للأَوَّلِ .

تأيد المؤلف للشارح في بعض ورده لبعض

وقالَ الصنوبريُّ [مِنَ الخفيف] :

ذُبْتُ حَتَّىٰ مَا يُسْتَدَلُّ عَلَىٰ أَنِّـ ـيَ حَيٌّ إِلاَّ بِبَعْضِ كَلاَمِيْ

وقالَ الخابزأَرُزِّي [مِنَ السريع] :

ذُبْتُ مِنَ ٱلشَّوْقِ فَلَوْ زُجَّ بِيْ فِـيْ مُقْلَـةِ ٱلنَّـائِـمِ لَـمْ يَنْتَبِـهْ
قَدْ كَانَ لِيْ فِيْمَا مَضَىٰ خَاتَمٌ وَٱلْيَـوْمَ لَـوْ شِئْـتُ تَمَنْطَقْـتُ بِـهْ

أعذب الشعر أكذبه

وهوَ مِنْ معاصري الناظمِ ، وبينَ بيتيهِ مِنَ التفاوتِ ما لا يخفىٰ ؛ إِذْ كيفَ يتمنطقُ مَنْ يكونُ القذىٰ أكبرَ منهُ .

وقدْ أغارَ الوالدُ أبو بكرِ بنُ شهابٍ ـ رحمه اللهُ ـ علىٰ الثاني منهُما ، ولٰكنَّهُ أحسنَ الاتباعَ ، وذلكَ حيثُ يقولُ [مِنَ البسيط] :

لَدْنُ ٱلْقِوَامِ دَقِيْقُ ٱلْخَصْرِ خَاتَمُهُ لَوْ شَاءَ مِنْ غَيْرِ تَكْلِيْفٍ يُمَنْطِقُهُ

وقدْ سبقَ إِلىٰ أصلِ المعنىٰ ، حبيبُ بنُ أوسٍ ، في قولِهِ [في « ديوانه » ٣/ ١١٥ مِنَ الطويل] :

السابق في المعنى أبو تمام

مِنَ ٱلْهِيْفِ لَوْ أَنَّ ٱلْخَلاَخِيْلَ صُيِّرَتْ لَهَا وُشُحاً جَالَتْ عَلَيْهَا ٱلْخَلاَخِلُ

وقدْ تفوَّقَ في المعنىٰ سلطانُ العاشقينَ ، وأفرغَهُ في عِدَّةِ قوالبَ ، منها قولُهُ [في « ديوانه » ٨ مِنَ الرَّمَل] :

سلطان العاشقين وإبداعه في هذه المسألة

كَهِـلاَلِ ٱلشَّـكِّ لَـوْلاَ أَنَّـهُ أَنَّ ، عَيْنِيْ عَيْنَـهُ لَـمْ تَتَـأَيْ(١)

---

(١) هلالُ الشكِّ : الذي لم تَثبت رؤيتُهُ . أَنَّ : مِنَ الأنينِ . عيني : باصِرَتي . عينُهُ : ذاتُهُ . لم تتأَي : لم تقصدْ .
=

وقولُهُ [في « ديوانه » ٣٧ مِنَ الطويل] :

كَأَنِّيْ هِلاَلُ ٱلشَّكِّ لَوْلاَ تَأَوُّهِيْ ‏ ‏ ‏ خَفِيْتُ فَلَمْ تُهْدَ ٱلْعُيُوْنُ لِرُؤْيَتِيْ

وقولُهُ [في « ديوانه » ١٣٧ مِنَ الطويل] :

خَفِيْتُ ضَنىً حَتَّىٰ لَقَدْ ضَلَّ عَائِدِيْ ‏ ‏ ‏ وَكَيْفَ تَرَىٰ ٱلْعُوَّادُ مَنْ لاَ لَهُ ظِلُّ

وقولُهُ [في « ديوانه » ١٧٣ مِنَ الطويل] :

تَحَكَّمَ فِيْ جِسْمِيْ ٱلنُّحُوْلُ فَلَوْ أَتَىٰ ‏ ‏ ‏ لِقَبْضِيْ رَسُوْلٌ ضَلَّ فِيْ مَوْضِعٍ خَالِيْ

وقولُهُ [في « ديوانه » ١٤٤ مِنَ البسيط] :

وَحَبَّـذَا فِيْـكَ أَسْقَـامٌ خَفِيْـتَ بِهَـا ‏ ‏ ‏ عَنِّيْ ، تَقُوْمُ بِهَا عِنْدَ ٱلْهَوَىٰ حُجَجِيْ

وقولُهُ [في « ديوانه » ١٦٤ مِنَ الطويل] :

خَفِيْتُ ضَنىً حَتَّىٰ خَفِيْتُ عَنِ ٱلضَّنَىٰ ‏ ‏ ‏ وَعَنْ بُرْءِ أَسْقَامِيْ وَبَرْدِ أُوَامِيْ(١)

وقولُهُ [في « ديوانه » ١٥٢ مِنَ الكامل] :

أَخْفَيْتُ حُبَّكُمُ فَأَخْفَانِيْ أَسَىً ‏ ‏ ‏ حَتَّىٰ لَعَمْرِيْ كِدْتُ عَنِّيْ أَخْتَفِيْ

وقولُهُ [في « ديوانه » ٤٩ مِنَ الطويل] :

فَلَوْ هَمَّ مَكْرُوْهُ ٱلرَّدَىٰ بِيْ لَمَا دَرَىٰ ‏ ‏ ‏ مَكَانِيْ وَمِنْ إِخْفَاءِ حُبِّكِ خُفْيَتِيْ

ويعجبني قولُ ٱبنِ زيدونَ [في « ديوانه » ٢٥٨ مِنَ البسيط] :

لَوْ شَاءَ حَمْلِيْ نَسِيْمُ ٱلصُّبْحِ حِيْنَ جَرَىٰ ‏ ‏ ‏ وَافَـاكُـمُ بِفَتـىً أَضْنَـاهُ مَـا لاَقَـىٰ

= والمعنىٰ : أنهُ صارَ في خفائهِ كهلالِ الشكِّ ، فلولا أنينُهُ لم يهتدَ إليهِ .

(١) الأُوَامُ : شدَّةُ العطشِ وحرارتُهُ ، وقيل : أن يَضِجَّ العطشانُ .

وقولُ الآخرِ [مِنَ الخفيفِ] :

قَـدْ سَمِعْتُـمْ أَنِينَـهُ مِـنْ بَعِيْـدٍ   فَاطْلُبُوْا ٱلشَّخصَ حَيْثُ كَانَ ٱلأَنِيْنُ

وقولُ لسانِ الدين ٱبنِ الخطيبِ [في « ديوانه » ١/ ٣٩٥ مِنَ الطَّويلِ] :

فَلَوْلاَ أَنِيْنِيْ مَا ٱهْتَدَىٰ نَحْوَ مَضْجَعِيْ   خَيَـالُكُـمُ بِـاللَّيْـلِ حِيْـنَ يَـزُوْرُ

وجُلُّ ما في الموضوعِ مِنَ ٱلغُلُوِّ ٱلذي ينبو عنهُ السمعُ ، ولا يقبلُهُ الخاطرُ ، إلاَّ ما كانَ عنِ ٱلسادةِ الصوفيَّةِ ؛ فإنَّهُ لا بأْسَ بهِ ، ووجهُهُ أَنَّها تتلاشىٰ جِسمانيَّتُهُم ، وتتغلَّبُ عليهِمِ ٱلروحانيَّةُ ، وينفكُّونَ عن قيودِ المادَّةِ ، ويطيرونَ بنفوسِهِم إلىٰ حيثُ شاؤوا ، ممَّا قُسِمَ لهُم أَنْ يدخلوهُ مِنْ عوالمِ القُدْسِ، علىٰ حَسَبِ مراتِبِهِم، وتفاوتِ درجاتِهِم. المقبول من الغلو هو الذي يصدره الصوفية

وقدْ قالَ بعضُهم [مِنَ الطويلِ] :

نَحَلْتُ فَلَوْ عُلِّقْتُ فِيْ رِجْلِ ذَرَّةٍ   لَطَارَتْ وَلَمْ تَشْعُرْ بِأَنِّي تَعَلَّقْتُ

ولهٰذا قصَّةٌ ، حاصلُها : أَنَّ جماعةً مِنَ ٱلصوفيَّةِ كانوا علىٰ سماعٍ ليلةً ، فطرقَهُم شخصٌ عظيمُ الهامةِ ، طويلُ القامةِ ، عليهِ هيئةُ السفرِ ، فقالَ : ما هٰذا ؟ قالوا : سماعٌ ٱجتمعَ عليهِ الإِخوانُ ، فقالَ : إِنْ أَذنتُم لي . . دخلتُ ، فألفىٰ الحادي يقولُ [مِنَ الطويلِ] : سماع الصوفية

خَلِيْلَيَّ لاَ وَٱللهِ مَا ٱلْقَلْبُ سَالِمٌ   وَإِنْ ظَهَرَتْ مِنِّيْ شَمَائِلُ صَاحِ

وَإِلاَّ فَمَا بَالِيْ وَلَمْ أَشْهَدِ ٱلْوَغَىٰ   أَبِيْـتُ كَـأَنِّـيْ مُثْخَـنٌ بِجِـرَاحِ

فطَرِبَ ، وركضَ برجلِهِ الأَرضَ ، ورمىٰ للحادي ما كانَ علىٰ رأسِهِ ، ثُمَّ ٱندفعَ الحادي يقولُ [مِنَ البسيطِ] :

يَا بَانَةَ ٱلجِزْعِ لَوْلاَ رَنَّةُ ٱلْحَادِيْ   لَمَـا تَنَقَّلْـتُ مِـنْ وَادٍ إِلَـىٰ وَادِ

وَلاَ سَلَكْـتُ بِنَعْمَـانِ ٱلأَرَاكِ وَلاَ   شَرِبْتُ مِنْ مَائِهِ مَا يُنْعِشُ ٱلصَّادِيْ

فصَعِقَ الشيخُ ، وتَدَلَّهَ[1] ، ورمىٰ جميعَ ما كانَ عليهِ مِنَ ٱلثيابِ ، وبقيَ عُرياناً ، ثُمَّ غنَّىٰ ٱلحادي بالبيتِ المُشارِ إليهِ ، في جملةِ أَبياتٍ ذهبتْ عن حِفظي ، فصاحَ الشيخُ صيحةً خرجتْ فيها رُوْحُهُ .

ومن العشق ما قتل

ونظيرُها ما حكاهُ ٱبنُ دقيقِ العيدِ في مجلسِ درسِهِ بجامعِ ٱبنِ طولونَ : أَنَّهُ حضرَ سماعاً غنَّىٰ فيهِ مُغنٍّ بقولِ ٱبنِ الخيَّاطِ [في « ديوانه » ١٧٠ـ١٧١ مِنَ الطويل] :

خُذَا مِنْ صَبَا نَجْدٍ أَمَاناً لِقَلْبِهِ   فَقَـدْ كَـادَ رَيَّـاهَـا يَطِيْـرُ بِلُبِّـهِ
وَإِيَّـاكُمَـا ذَاكَ ٱلنَّسِيْـمَ فَـإِنَّـهُ   إِذَا هَبَّ كَانَ ٱلْمَوْتُ أَيْسَرَ خَطْبِهِ
وَفِيْ ٱلرَّكْبِ مَطْوِيُّ ٱلضُّلُوْعِ عَلَىٰ جَوىً   مَتَـىٰ يَـدْعُـهُ دَاعِ ٱلْغَـرَامِ يُلَبِّـهِ

قالَ : وفي القوم فقيرٌ أَخذَ يقولُ : لبيكَ ، لبيكَ ، ويصيح ، ورفعَ رأسَهُ ، فإذا هوَ مَيْتٌ .

حكم ابن الأثير على بيت

قالَ ٱبنُ ٱلأَثيرِ [في «ٱلمثلِ السَّائرِ في أَدبِ ٱلكاتبِ والشَّاعرِ»: ٣٤٦/٢] : وفي هـٰذِهِ ٱلقصيدةِ بيتٌ يزعمونَ أَنَّهُ مخترَعٌ ، وهوَ [في « ديوانِ ٱبنِ ٱلخيَّاطِ » ١٧١] :

أَغَارُ إِذَا آنَسْتُ فِيْ ٱلْحَيِّ أَنَّةً   حِـذَاراً عَلَيْـهِ أَنْ تَكُـوْنَ لِحِبِّـهِ

والحالُ أَنَّهُ مِنْ قولِ ٱلمتنبِّي [في « ٱلعُكْبَرِيِّ » ٦/١ مِنَ ٱلكامِلِ] :

لَوْ قُلْتَ لِلدَّنِفِ ٱلْمَشُوْقِ فَدَيْتُهُ   مِمَّـا بِـهِ . . لأَغَـرْتَـهُ بِفِـدَائِـهِ[2]

---

(١) تدلَّهَ : ذهب فؤاده من العشق أو نحوه .
(٢) الدَّنِف : الذي ٱشتدَّ مرضهُ وأشرف على الموتِ . وأغرته : من الغَيرة . وفي =

أَقولُ : وقدْ سبقَ إِليهِ ٱلعبَّاسُ بنُ ٱلأَحنفِ في قولِهِ [في « ديوانهِ » ٣٤ مِنَ ٱلكامِلِ] :

لَـمْ أَلْـقَ ذَا شَجَـنٍ يَبُـوْحُ بِحُبِّـهِ ... إِلاَّ حَسِبْتُـكِ ذَلِـكَ ٱلْمَحْبُـوْبَـا
حَذَراً عَلَيْكِ وَإِنَّنِيْ بِكِ وَاثِقٌ ... أَنْ لاَ يَنَالَ سِوَايَ مِنْكِ نَصِيْبَا

لماذا لم يصعق الصحابة من السماع؟

فإِنْ قالَ قائلٌ : إِذا كانَ ٱلموتُ علىٰ مثلِ تلكَ ٱلحالِ كمالاً . . فهلاَّ كانَ هناكَ أَصحابُ رسولِ ٱللهِ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ، ورضيَ عنهُم ، وهُم خيرُ ٱلقرونِ[1] ؟

= «الديوان» : (ٱلْحَزِيْنِ) بدلَ (ٱلْمَشُوْقِ). ولكن ابن الأثير قال :
(دخلت مدينة دمشق فوجدت جماعة من أدبائها يلهجون ببيت من شعر ابن الخياط في قصيدة له أولها: خذا من صبا نجد أماناً لقلبه ، ويزعمون أنه من المعاني الغريبة وهو :

أَغـار إذا آنسـت فـي الحـي أَنَّـةً ... حـذَاراً عَلَيْـهِ أَنْ تَكُـوْنَ لِحُبِّـهِ

فقلت لهم : هذا البيت مأخوذ من شعر أبي الطيب في قوله :

و قلـت للـدنـف المشـوق فـديتـه ... ممـا بـه لأغـرتـه بفِـدائـه

وقول أبي الطيب أدق معنى ، وإن كان قول ابن الخياط أرق لفظاً ، ثم إني أوقفتهم على مواضع كثيرة من شعر ابن الخياط قد أخذها من شعر المتنبي) .
« المثل السائر » (٢/ ٣٤٦) .

(١) إِنَّ للهِ في خلقِهِ وعبادِهِ مقاماتٍ وأحوالاً تختلفُ مِن عبدٍ لآخرَ ، فالعبدُ صاحبُ الحالِ يتقلَّبُ حالُهُ حَسَبَمَا يشاهدُ وحَسَبَمَا يفتحُ اللهُ عليهِ .
وأمَّا صاحبُ المقام: فإِنَّهُ ثابتٌ كالأوتادِ ، راسخٌ كالجبالِ ، لاَ يتزعزعُ ولاَ يتغيَّرُ حالُهُ أَبداً مهما رَأَى وشاهدَ ، وفي النهايةِ يتغير الحالُ ويبقى المقامُ ، وهؤلاءِ هُمُ الجَمُّ الغفيرُ مِنَ الصحابةِ رِضوانُ اللهِ عليهِم ، وهم كما قالَ الشاعرُ [من الخفيف] :

تِــهْ غَــرَامــاً فَلِلْغَــرَامِ رِجَــالُ ... وَأَبْكِ مَا شِئْتَ يَوْمَ قَوْمُكَ شَالُوا=

بل صعق بعضهم عند سماع سورة الإنسان

قلنا : أخرجَ الطَّبرانيُّ [في «الأوسطِ» ٢/ ١٦١] **، وابنُ مردويهِ ، وابنُ عساكرَ : (أنَّ بعضَ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ قضىٰ عندَ سماعِ سورةِ الإنسانِ ساعةَ نزولِها) .**

وأخرجهُ أحمدُ أيضاً بصورةٍ لا تبعُدُ عنها .

قوا أنفسكم ناراً

وصحَّ عنِ ابنِ عبَّاسٍ : أنَّهُ لمَّا نزلتْ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾ [التحريم : ٦] **. . تلاها رسولُ اللهِ ﷺ ذاتَ ليلةٍ ، أو يومٍ ، فخرَّ فتىً مغشياً عليهِ ، فوضعَ النبيُّ صلى الله عليهِ وآلهِ**

= ربَّما عَهْدَهُمْ عَلَيْكَ أَطَالُوا ... وتَمَلْمَلْ يَوْمَ الْوَدَاعِ كَئِيباً

ربَّ قَولٍ تَرُدُّهُ الأَفْعَالُ ... وتَجَرَّدْ عَنْ طَوْرِ كَوْنِكَ فِيهِمْ

دُونَ قَلْبٍ فَلِلْهَوىٰ أَهْوَالُ ... لا تَكُنْ فِيْ الْغَرَامِ رَبَّ لِسَانٍ

واسْتَمِيلُوا مَعَ الشَّرَابِ فَمَالُوا ... عَرْبَدَ الْقَومُ عِنْدَ نَهْلَةِ كَأْسٍ

وَكَأَنَّ الشَّرَابَ مَاءٌ زُلالُ ... وشَرِبْنَا الْكُؤُوسَ حَتَّىٰ تَنَاهَتْ

هُمْ رِجَالٌ شَكْلاً وَمَعْنىً جِبَالُ ... إنَّ فِيْ الْعَاشِقِيْنَ مِنَّا رِجَالاً

بِثَبَاتٍ وَزَالَتِ الأَحْوَالُ ... صَارَعَتْهُمْ أَحْوَالُهُمْ فَاسْتَقَرُّوا

ومِنَ الصحابةِ مَن يكونُ صاحبَ حالٍ : فتراهُ حيناً يهيمُ في محبوبهِ عزَّ وجلَّ ، فيطلبُ مِنْهُ ـ سبحانَهُ ـ دوامَ الوِصالِ معَ دوامِ الحياةِ . بينَما نراهُ في الحينِ الآخرِ يشتدُّ عليهِ الحالُ ، فيفضِّلُ الموتَ على الحياةِ ، وربَّما صُعِقَ وهوَ على تلكَ الحالِ ، لشدَّةِ ما يشاهدُ مِنَ الأنوارِ الربَّانيَّةِ والحضرةِ القدسيَّةِ الرحمانيَّةِ .

ومِنْ أبرزِ المظاهرِ التي تدلُّنا علىٰ تبدُّلِ الأحوالِ . . ذلكَ العارفُ باللهِ سلطانُ العاشقينَ ـ رحمةُ اللهِ عليهِ ـ فنراهُ حيناً يقولُ :

عَذِّبْ بِمَا شِئْتَ غَيْرَ الْبُعْدِ عَنْكَ تَجِدْ ... أَوْفَىٰ مُحِبٍّ بِمَا يُرْضِيْكَ مُبْتَهِجِ

وخُذْ بَقِيَّةَ مَا أَبْقَيْتَ مِنْ رَمَقٍ ... لاَ خَيْرَ فِيْ الْحُبِّ إِنْ أَبْقَىٰ عَلَىٰ الْمُهَجِ

ثمَّ نراهُ ماشياً في السوقِ وهوَ يعطي الأطفالَ الصغارَ قِطَعاً مِنَ الحلوىٰ ، ويقولُ : ادعوا لعمِّكُمُ الكذَّابِ .

وسلَّم يدَهُ علىٰ فؤادِهِ ، فإِذا هو يتحرَّكُ ، فقالَ : « يَا فَتَىٰ ، قُلْ لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ ٱللهُ » ، فقالَها ، فبشَّرَهُ بالجنَّةِ ، وماتَ مِنْ ذلكَ[1] .

الأول يتلو والثاني يموت

وصحَّ : أَنَّ منصورَ بنَ عمَّارٍ تلاَ هـٰذِهِ ٱلآيَةَ ، فسمعَها فتىً يصلِّي ، فتفطَّرتْ مرارتُهُ ، ووقعَ ميِّتاً[2] .

باح للنبي ﷺ ومات

وأَخرجَ الحاكمُ في « المستدرك » [٢/٥٣٦] ، وٱبنُ أَبي الدنيا [في «الخائفين»] ، عن سهلِ بنِ سعدٍ : (أَنَّ فتىً مِنَ ٱلأَنصارِ دخلتْهُ خشيةٌ مِنَ ٱلنارِ ، فكانَ يبكي مِنْ ذِكْرِها ، فذُكِرَ للنبيِّ صلى الله عليهِ وآلهِ وسلَّم ، فجاءَهُ إِلىٰ بيتِهِ ، فلمَّا دخلَ عليهِ . . ٱعتنقَهُ ، وخرَّ مَيْتاً) .

وأكثرهم راسخون كالجبال

ثُمَّ لا يُؤثِّرُ السماعُ ذلكَ التأْثيرَ ، فيمَنْ بلغَ وقارَ الجبالِ مِنَ ٱلصحابةِ ، وإِنْ غلبَهُمُ ٱلخشوعُ ، وٱستولىٰ عليهِمُ ٱلخضوعُ ، وفاضتْ مِنْ محاجرِهِمُ ٱلدموعُ ، وإِنَّما يبلغُ ذلكَ الحدَّ فيمَنْ خفَّ نسيمُهُ ، ولم يَصِلْ إِلىٰ ما كانَ عليهِ سيِّدُ البشرِ ، وكُمَّلُ أَصحابِهِ ، مِنْ نهايةِ الثباتِ والوقارِ .

رفقاً بالقوارير

ومنهُ تعرفُ سِرَّ قولِهِ ﷺ لأَنجشةَ : « رُوَيْدَكَ يَا أَنْجَشَةُ ، رِفْقاً بِٱلْقَوَارِيرِ »[3] ، فإِنَّما أَمرَهُ بالرفقِ بالنساءِ لِضَعفِهِنَّ ، معَ رِقَّةِ عواطفِهِنَّ ، وصفاءِ قلوبهِنَّ .

الرجل أقوى

أَمَّا الرجالُ : فقدْ وَكَلَهُم إِلىٰ ما أَعطاهُمُ ٱللهُ مِنَ ٱلقوَّةِ والجلادَةِ ، وكم ٱنشقَّتْ بِالوَجْدِ جيوبٌ ، وذابَتْ قلوبٌ ، وسالَتْ نفوسٌ .

---

(١) أخرجه الحاكم في « المستدرك » (٢/ ٣٨٢) .

(٢) ذكرَها الذهبيُّ في « السيرِ » (٩/ ٩٧) مطوَّلةً ، وكذلكَ أبو نُعيم في « الحليةِ » (١/ ٣٢٨ـ٣٢٩) .

(٣) ذكره الحافظ في « فتح الباري » (١٠/ ٥٩٤) .

همّـام والإمـام عليـه السلام

وقَدْ صَعِقَ همَّامٌ مِنْ خطبةِ أَميرِ المؤمنينَ في وصفِ المتقينَ ، حتَّىٰ فاضَتْ روحُهُ ، فقالَ لهُ قائلٌ : ما بالُكَ يا أَميرَ المؤمنينَ ؟ فقالَ ـ كـرَّمَ اللهُ وجهَـهُ ـ : (إِنَّ لِكُـلِّ أَجـلٍ وقتـاً لا يعـدوهُ ، وسبباً لا يتجاوزُهُ ، فمهلاً لا تَعُدْ لمثلِها ، فإِنَّما نَفَثَ الشيطانُ علىٰ لسانِكَ)[1] .

السبب في الموت عشقاً

وإِنَّما زجرَهُ عن ذلكَ ؛ لأَنَّهُ لا يلزمُ مِنْ موتِ العاميِّ بوعظِ العالمِ أَنْ يموتَ ذلكَ العالمُ لوعظِ نفسِهِ ؛ لأَنَّ ٱنفعالَ الأَوَّلِ بضعفِ نفسِهِ ، وضيقِ حَوْصَلَتِهِ . أَشدُّ بكثيرٍ مِنِ ٱنفعالِ العارفِ الذي لا تحرِّكُهُ العواصفُ ، ولا تزعزعُهُ القواصفُ ، ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾ [النمل : ٨٨] .

---

(١) ذكره في « نهج البلاغة » (٢٢٧) .
ونذكرُ مقطعاً مِنَ الخطبةِ التي نوَّهَ عَنها الشيخُ المؤلِّفُ فنقولُ : قالَ الإمامُ رَضي اللهُ عنه ـ وهوَ يصفُ عبادَ اللهِ المتقينَ ـ :
يعفو عمَّنْ ظَلَمَهُ ، ويعطي مَن حرمهُ ، ويصلُ مَن قطعهُ ، بعيداً فحشُهُ ، ليِّناً قولُهُ ، غائباً منكرُهُ ، حاضراً معروفُهُ ، مقبلاً خيرُهُ ، مُدْبراً شرُّهُ ، في الزَّلازلِ وَقورٌ ، وفي المكارهِ صَبورٌ ، وفي الرخاءِ شَكورٌ ، لا يحيفُ علىٰ مَن يُبْغِضُ ، ولا يأْثمُ فيمن يحبُّ ، يعترفُ بالحقِّ قبلَ أن يُشْهَد عليهِ ، لا يضيعُ ما ٱستُحفِظَ ، ولا ينسىٰ ما ذكرَ ، ولا ينابزُ بالأَلقابِ ، ولا يضارُّ بالجارِ ، ولا يشمتُ بالمصائبِ ، ولا يدخلُ في الباطلِ ، ولا يخرجُ مِنَ الحقِّ .
إِنْ صمتَ لَم يغمَّهُ صمتُهُ ، وإِن ضحكَ لَم يَعْلُ صوتُهُ ، وإِنْ بُغِيَ عليهِ صبرَ حتَّىٰ يكونَ اللهُ هوَ الذي ينتقمُ لهُ ، نفسهُ منهُ في عناءٍ ، والناسُ منهُ في راحةٍ ، أَتعبَ نفسَهُ لآخرتِهِ ، وأَراحَ الناسَ مِن نفسِهِ ، بُعْدُهُ عمَّن تباعدَ عنهُ زهدٌ ونزاهةٌ ، ودنوُّهُ ممَّن دَنا منهُ لينٌ ورحمةٌ ، ليسَ تباعدُهُ بكبرٍ وعظمةٍ ، ولا دنوُّهُ بمكرٍ وخديعةٍ . فَصَعِقَ همَّامٌ عندها صعقةً كانَت فيها نفسُهُ .

ويُذكرُ: أنَّ واعظاً يقالُ لَهُ: الأكوعُ، كانَ يلحقُهُ في ٱلوعظِ حالٌ، وتُحمَلُ بينَ يديهِ ٱلجنائزُ، وكانَ لامرأةٍ شابَّةٍ ولدٌ أبيضُ السَّريرةِ، منوَّرُ ٱلقلبِ، فكانتْ تحميهِ عن حضورِ مجلسهِ، حتَّىٰ ٱنفلتَ عليها ذاتَ مرَّةٍ، فشهدَهُ، فماتَ، فما كانَ منها إلاَّ أَنْ أَمهلَتْهُ، ثُمَّ ٱستقبلَتْهُ في يومِ حفلةٍ، وقالَتْ [مِنَ ٱلمتقارِبِ]: الأكوع: والبادي أظلم

أَتَهْـدِيْ ٱلأَنَـامَ وَلاَ تَهْتَـدِيْ ... أَلاَ إِنَّ ذَلِـكَ لاَ يَنْفَـعُ
فَيَا حَجَرَ ٱلشَّحْذِ حَتَّىٰ مَتَىٰ ... تَسُـنُّ ٱلْحَـدِيْـدَ وَلاَ تَقْطَـعُ
أَمَا تَسْتَحِيْ مِنْ خُشُوْعِ ٱلْقُلُوْ ... بِ وَقَسْوَةِ قَلْبِـكَ يَـا أَكْـوَعُ

فمَا كانَ مِنَ الشَّيخِ إلاَّ أَنْ لبَّىٰ مُطيعاً، وخرَّ عن كُرْسيِّهِ صريعاً، فقالتْ: هٰذِهِ بتلكَ، وٱلبادي أَظلَمُ، أَو ما يُشبِهُ ذلكَ؛ فالرِّوايةُ بٱلمعنىٰ، وٱلعهدُ بٱلقصَّةِ ـ مِنْ شرحِ ٱلقصيدةِ للعلاَّمةِ ٱبنِ ٱلأميرِ ـ بعيدٌ.

وأَخرجَ ٱلحاكمُ: أَنَّ ٱبنَ وهبٍ ماتَ مِنْ سماعِ حديثٍ في ٱلأَهوالِ[1]. موت ابن وهب

ولمَّا سمعَ النُّوريُّ حادياً يقولُ [في «الرسالة القشيرية» (٣٣٨) مِنَ ٱلكامِلِ]: موت النوري

ما زِلْتُ أَنْزِلُ مِنْ وِدَادِكَ مَنْزِلاً ... تَتَحَيَّـرُ ٱلأَلْبَـابُ دُوْنَ نُـزُوْلِـهِ

.. ٱندهشَ وغابَ، وسكِرَ وطابَ، ووقعَ في أَجَمَةِ قَصَبٍ

(١) أخرجه ابن رجب الحنبلي في «التخويف من النار» (١/ ٣٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٣٢٤).

جُذَّ[1] ، وبقيتْ أُصولهُ مثلَ ٱلمُدىٰ ، أخذَ يجيءُ فيها ويروحُ ، ويكرِّرُ ٱلبيتَ ، والدَّمُ يسيلُ منهُ ، حتَّىٰ ماتَ رحمةُ ٱللهِ عليهِ .

عبد الله بن طاهر والجارية الشاعرة

ويُحكىٰ : أنَّ عبدَ ٱللهِ بنَ طاهرٍ ٱستعرضَ جاريةً أعجبَتْهُ ، فٱستنطقَها ، فإذا هيَ شاعرةٌ ، فقالَ لها : أجيزي[2] [مِنْ مُخلَّعِ ٱلبسيطِ] :

بَعِيْـدَ وَصْـلٍ طَـوِيْـلَ هَجْـرٍ جَعَلْتُـهُ فِـيْ ٱلْهَـوَىٰ مَـلاَذَا

فقالتْ مُسرعةً :

فَعَـاتَبُـوْهُ فَـزَادَ شَـوْقـاً فَمَـاتَ عِشْقَـاً فَكَـانَ مَـاذَا

فٱشتراها ، فماتتْ مِنَ ٱلغدِ .

الجاحظ وغريقي العشق

والحوادثُ في مثلِ هـٰذا وراءَ ٱلعَدِّ ، ومِنْ أَلطفِها : ما ذكرَهُ أبو عُثمانَ ٱلجاحظُ ، قالَ : أرادني ٱلمتوكِّلُ ٱلعبَّاسيُّ لتأديبِ بعضِ ولدِهِ ، فلمَّا رآني . . ٱستبشعَ منظري ، فصرفَني بعشَرَةِ آلافِ درهمٍ ، فركبتُ معَ محمَّدِ بنِ إبراهيمَ في حَرَّاقتِهِ[3] ، فأمرَ بٱلغناءِ ، فغنَّتْ عوَّادةٌ ، وقالتْ [مِنَ ٱلخفيفِ] :

كُـلَّ يَـوْمٍ قَطِيْعَـةٌ وَعِتَـابُ يَنْقَضِيْ دَهْرُنَا وَنَحْنُ غِضَابُ
لَيْتَ شِعْرِيْ أَنَا خُصِصْتُ بِهَـٰذَا دُوْنَ ذَا ٱلْخَلْقِ أَمْ كَذَا ٱلأَحْبَابُ

---

(1) جُذَّ : قُطعَ .
(2) الإِجازةُ في الشعرِ : أنْ يأتيَ شاعرٌ بشطرِ بيتٍ أو بيتٍ تامٍ فينظِمَ شاعرٌ آخرُ في وزنِهِ ومعناهُ ما يكونُ بهِ تمامُهُ .
(3) الحَرَّاقةُ : ضربٌ مِنَ السُّفنِ ، فيها مرامي نيرانَ .

ثُمَّ غنَّتِ الطَّنبوريَّةُ بإشارتِهِ ، وقالتْ [مِنْ مجزوءِ الكامِلِ] :

وَارَحْمَتَا لِلْعَاشِقِيْنَا   مَا إِنْ أَرَىٰ لَهُمُ مُعِيْنَا
كَمْ يُهْجَرُوْنَ وَيُصْرَمُوْ   نَ وَيُقْطَعُوْنَ فَيَصْبِرُوْنَا

قالتِ ٱلعوَّادةُ : فيصنعونَ ماذا ، فهتكَتِ الطَّنبوريَّةُ السِّتْرَ ، وبرزَتْ كأَنَّهَا فلقةُ قمرٍ ، وقالتْ : يصنعونَ هٰكذا ، وألقتْ بنفسِها في ٱلماءِ ، وعلىٰ رأسِ محمَّدٍ غلامٌ لا ينقصُ عنها جَمالاً ، فنظرَ إليها تتدافعُها ٱلأمواجُ ، وقالَ :

أَنْتِ ٱلَّتِيْ أَغْرَقْتِنِيْ   بَعْدَ ٱلْقَضَا لَوْ تَعْلَمِيْنَا

وألقىٰ نفسَهُ علىٰ إثْرِها ، فرأيناهُما علىٰ بُعدٍ متعانقينِ ، ثمَّ غاصا ، وكانَ آخرَ ٱلعهدِ بهما ، فٱنكسَفَ محمَّدٌ ، وهالَهُ ٱلأمرُ ، وعظُمَتْ عليهِ الرَّزيَّةُ ، وقالَ : لتُحدِّثُنِّي بما يُسلِّيني ، أو لأُلحِقنَّكَ بهِما ، فذكرتُ يزيدَ بنَ عبدِ ٱلمَلكِ ، وقدْ قعدَ للمظالمِ ، ومرَّتْ عليهِ بينَ ٱلقِصصِ رُقعةٌ فيها : إنْ رأىٰ أميرُ ٱلمؤمنينَ أنْ يُخرِجَ إليَّ جاريتَهُ (نَعمىٰ) حتَّىٰ تُغنيني ثلاثةَ أصواتٍ . . فعَلَ ، فٱغتاظَ ، وأمرَ بقتلِهِ ، ثُمَّ ٱنثنىٰ ، وأمرَ بإدخالِهِ ، فقالَ لهُ : ما حملَكَ ؟ قالَ : الثِّقةُ بحِلمِكَ ، وٱلاتِّكالُ علىٰ عفوكَ ، فأجلسَهُ ، حتَّىٰ خرَجَ النَّاسُ ، فأمرَ بٱلجاريةِ ، فأُخرِجتْ ، ومعها عُودُها ، فقالَ لها ٱلفتىٰ : غنِّي بهٰذا [مِنْ شعرِ ٱمرىءِ ٱلقيسِ في « ديوانهِ » ١٤٧ مِنَ الطَّويلِ] :

لا خير في عشق بلا موت

أَفَاطِمَ مَهْلاً بَعْضَ هَـٰذَا ٱلتَّدَلُّلِ   وَإِنْ كُنْتِ قَدْ أَزْمَعْتِ صَرْمِيْ فَأَجْمِلِي

فغنَّتْهُ ، ثُمَّ قالَ لهُ يزيدُ : ٱقترحْ ، فقالَ : غنِّي بهٰذا [مِنَ البسيطِ] :

تَأَلَّقَ ٱلْبَرْقُ نَجدِيًّا فَقُلْتُ لَهُ   يَا أَيُّهَا ٱلْبَرْقُ إِنِّيْ عَنْكَ مَشْغُوْلُ

فغنَّتْهُ ، فقالَ لهُ يزيدُ : قُلْ ، قالَ : تأمرُ لي برِطلٍ مِنَ ٱلشرابِ ، فما ٱستتمَّ شربَهُ حتَّىٰ قامَ إِلىٰ أَعلىٰ قُبَّةٍ ليزيدَ ، ورمىٰ بنفسِهِ ، فٱنتثرَ دماغُهُ ، فقالَ يزيدُ : إِنَّا للهِ وإِنَّا إِليهِ راجعونَ ، أَوَظَنَّ الأَحمقُ أَنِّي أُخرِجُ إِليهِ جاريَتِي ، ثُمَّ أَرُدُّها ، خُذوا يا غلمانُ بيدِها ، وٱحملوها إِلىٰ أَهْلِهِ ، معَ ما يُعَزِّيهِم عنهُ مِنَ ٱلمالِ ، فلمَّا توسَّطتِ ٱلدارَ . . نظرتْ إِلىٰ بئرٍ هناكَ ، فجذبتْ يدَها منهُم ، وقالتْ [مِنَ السّريع] :

مَنْ مَاتَ عِشْقاً فَلْيَمُتْ هَـٰكَذَا   لاَ خَيْـرَ فِـيْ عِشْـقٍ بِـلاَ مَـوْتِ

قالَ أَبو عثمانَ [الجاحظ] : فسُرِّيَ عن محمَّدٍ ، وأَجزلَ صِلتي ، ولهَـٰذهِ القصَّةِ تمامٌ يأتي أَوَّلَ المجلسِ السابعِ .

أَقولُ : وفي هـٰذا تصديقٌ للخنساءِ في قولِها [من « ديوانها » ٥٠ مِنَ الوافر] :

وَلَـوْلاَ كَثْـرَةُ ٱلْبَـاكِيْـنَ حَـوْلِـي   عَلَـىٰ إِخْـوَانِهِـمْ لَقَتَلْـتُ نَفْسِـيْ

وتكذيبٌ لابنِ الروميِّ في قولِهِ [مِنَ الخفيف] :

لَيْسَ تَأْسُوْ جُرُوْحُ غَيْرِيْ جُرُوْحِيْ   مَا بِهِم مَا بِهِمْ وَمَا بِيَ مَا بِيْ

وفي « تزيينِ ٱلأَسواقِ »[1] العجبُ العُجابُ مِنْ ذلكَ ، وفي تراجمِ الصوفيَّةِ الكثيرُ الطيِّبُ منهُ .

لا تستعجل ما هو لك

وبقولِ العوَّادةِ ٱلسالفِ ، وهو : (كُلُّ يَوْمٍ قَطِيْعَةٌ وَعِتَابُ) إِلىٰ آخرِهِ ، تذكَّرتُ قولَ الأَوَّلِ [مِنَ الكامل] :

وَلَقَدْ عَلِمْتَ فَلاَ تَكُنْ مُتَجَنِّياً   أَنَّ ٱلصُّدُوْدَ هُوَ ٱلْفِرَاقُ ٱلأَوَّلُ

---

(١) لداود الأنطاكي، متداول.

حَسْبُ ٱلأَحِبَّةِ أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَهُمْ   رَيْبُ ٱلْمَنُوْنِ فَمَا لَنَا نَسْتَعْجِلُ

وقولَ سعيدِ بنِ حميدٍ [في «ديوانه» مِنَ الكامل] :

أَقْلِلْ عِتَابَكَ فَٱلْبَقَاءُ قَلِيْلُ   وَٱلدَّهْرُ يَعْدِلُ تَارَةً وَيَمِيْلُ

وَلَعَلَّ أَيَّامَ ٱلْحَيَاةِ قَصِيْرَةٌ   فَعَلاَمَ يَكْثُرُ عَتْبُنَا وَيَطُوْلُ ؟!

وقولَ معنِ بنِ أَوسٍ [في «ديوانه» مِنَ الطويل] :

لَعَمْرُكَ مَا أَدْرِيْ وَإِنِّيْ لأَوْجَلُ   عَلَىٰ أَيِّنَا تَغْدُو ٱلْمَنِيَّةُ أَوَّلُ

وَإِنِّي أَخُوْكَ ٱلدَّائِمُ ٱلْعَهْدِ لَمْ أَحُلْ   أَبَارَاكَ خَصْمٌ أَوْ نَبَا بِكَ مَنْزِلُ ؟

وقولَ الأعرابيِّ [مِنَ الطويل] :

فَأَكْرِمْ أَخَاكَ ٱلدَّهْرَ مَا عِشْتُمَا مَعاً   كَفَىٰ بِٱلْمَمَاتِ فُرْقَةً وَتَنَائِيَا

وقولَ الطُّغرَّائيِّ [مِنَ الطويل] :

رُوَيْدَكُمُ لاَ تَسْبِقُوْا بِقَطِيْعَتِيْ   صُرُوْفَ ٱللَّيَالِيْ إِنَّ فِيْ ٱلدَّهْرِ كَافِيَا

وقولَ سليمانَ بنِ عبدِ الملكِ في كتابِ شفاعةٍ إِلىٰ أَخيهِ الوليدِ ، بشأْنِ يزيدَ بنِ المهلَّبِ : فواللهِ يا أَميرَ المؤمنينَ ، ما تدري ما بقائي وبقاؤُكَ ، ولا متىٰ يُفرِّقُ الموتُ بيني وبينَكَ ، فإنِ ٱستطاعَ أَميرُ المؤمنينَ ـ أَدامَ اللهُ سرورَهُ ـ أَنْ لا يأْتيَ علينا أَجلُ الوفاةِ إِلاَّ وهوَ لي واصلٌ ، ولحقِّي مُؤَدٍّ ، وعن مَساءَتِي نازعٌ . . فليفعلْ ، إِلىٰ آخرِ الكتابِ . (كتاب سليمان بن عبد الملك إلى أخيه)

وقولَ الناظمِ [في «العُكْبَرِيّ» ٢/١٤٨ مِنَ الطويل] :

ذَرِ ٱلنَّفْسَ تَأْخُذْ وُسْعَهَا قَبْلَ بَيْنِهَا   فَمُفْتَرِقٌ جَارَانِ دَارُهُمَا ٱلْعُمْرُ(١)

---

(١) بينِها : بُعدِها . جارانِ : الروحُ والجَسَدُ .

وقولهُ [في « العُكبَريّ » ١٤٩/٣ مِنَ الخفيف] :

وَصِلِينَا نَصِلْكِ فِيْ هَـٰذِهِ ٱلدُّنْـ ـيَـا فَـإِنَّ ٱلْمُقَـامَ فِيْهَـا قَلِيْـلُ

إذ لا تشرب تظماً

وقالَ بشَّارٌ شيخُ ٱلمتأخِّرينَ [في « ديوانه » ٣٠٩/١ مِنَ الطويل] :

إِذَا كُنْتَ فِيْ كُلِّ ٱلأُمُورِ مُعَاتِباً صَدِيْقَكَ لَمْ تَلْقَ ٱلَّذِي لاَ تُعَاتِبُهْ
فَعِشْ وَاحِداً أَوْ صِلْ أَخَاكَ فَإِنَّهُ مُقَـارِفُ ذَنْـبٍ مَـرَّةً وَمُجَـانِبُـهْ
إِذَا أَنْتَ لَمْ تَشْرَبْ مِرَاراً عَلَىٰ ٱلْقَذَىٰ ظَمِئْتَ وَأَيُّ ٱلنَّاسِ تَصْفُوْ مَشَارِبُهْ ؟

وقالَ الرَّضيُّ [في « ديوانه » ٧٦٩ـ٧٧٠ مِنَ الطويل] :

وَكَمْ صَاحِبٍ كَٱلرُّمْحِ زَاغَتْ كُعُوْبُهُ أَبَىٰ بَعْدَ طُوْلِ ٱلْغَمْزِ أَنْ يَتَقَوَّمَا[1]
كَعُضْوٍ رَمَتْ فِيْهِ ٱللَّيَالِيْ بِفَادِحٍ وَمَنْ حَمَلَ ٱلْعُضْوَ ٱلأَلِيْمَ . . تَأَلَّمَا
صَبَرْتُ عَلَىٰ إِيْلاَمِهِ خَوْفَ نَقْصِهِ وَمَنْ لاَمَ مَنْ لاَ يَرْعَوِيْ كَانَ أَلْوَمَا
أَرَاكَ عَلَىٰ قَلْبِيْ وَإِنْ كُنْتَ عَاصِيَا أَعَزَّ مِنَ ٱلْقَلْبِ ٱلْمُطِيْعِ وَأَكْرَمَا
حَمَلْتُكَ حَمْلَ ٱلْعَيْنِ لَجَّ بِهَا ٱلْقَذَىٰ فَلاَ تَنْجَلِيْ يَوْماً وَلاَ تَبْلُغُ ٱلْعَمَىٰ
إِذَا ٱلْعُضْوُ لَمْ يُؤْلِمْكَ إِلاَّ قَطَعْتَهُ عَلَىٰ مَضَضٍ لَمْ تُبْقِ لَحْماً وَلاَ دَمَا

والكلامُ في الاستصلاحِ يَطلُبُ تفصيلاً مُقنِعاً نوفيهِ حقَّهُ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ في أَصلحِ المواطنِ لهُ .

صعقة أمير المؤمنين عمر لسماع القرآن

ولئِنْ قَلَّ بالوجدِ الموتُ في الصدرِ الأوَّلِ . . فكثيرٌ مَنْ يَصعقُ لسماعِ القرآنِ ؛ منهُم عمرُ بنُ الخطَّابِ ، فلقدْ يَمرضُ مِنَ الآيةِ ، حتَّىٰ يُعادَ .

---

(١) الغَمْزُ : العصر باليدِ ؛ أي : التليين .

ولقدْ كانَ جَدِّي المُحسنُ بنُ علويٍّ مِنْ أرقِّ الناسِ عاطفةً ، وأسلمِهم ذوقاً ، وإنْ كانَ لَيقومُ بالآيةِ مِنَ القرآنِ يُكرِّرُها ، حتَّىٰ يصبحَ بينَ القلبِ الواجفِ ، والدمعِ الذارفِ ، وسمعَهُ الفاضلُ الأريبُ السيِّدُ شيخُ بنُ محمَّدٍ الحبشيُّ ـ كما أخبرني ـ يترنَّحُ ليلةً بقولِ الحدَّادِ [في « ديوانه » ٤٧٤ مِنَ الكامل] : المحسن بن علوي ورقة قلبه

وَلَّىٰ الزَّمَانُ وَوَلَّتِ الأَيَّامُ فَعَلَىٰ المَنَازِلِ وَالنَّزِيلِ سَلامُ

ويردِّدُهُ إلىٰ أنْ كادَ يُغشىٰ عليهِ ، وبينا هوَ سائرٌ في بعضِ الأزقَّةِ ، إذ سمعَ منشداً ينشدُ قصيدةَ القطبِ الحدَّادِ ، المستهلَّةَ بقولِهِ [في « ديوانه » مِنَ الطويل] :

تَفِيضُ عُيُونِي بِالدُّمُوعِ السَّوَاكِبِ وَمَا لِيَ لاَ أَبْكِي عَلَىٰ خَيْرِ ذَاهِبِ

فألقىٰ عصاهُ تحتَ جبهتِهِ ، ولم يزلْ يُذري الدموعَ ، حتَّىٰ سقطَ مغشيّاً عليهِ .

وحدَّثني الفاضلُ الوجيهُ السيِّدُ حسنُ بنُ محمَّدِ بنِ إبراهيمَ بلفقيهِ ، عمَّنْ حضرَ مواراةَ سيِّدِنا عبدِ اللهِ بنِ عمرَ بنِ يحيىٰ ، وكانَ يوماً مشهوداً ، لم يتأخَّرْ عنهُ أحدٌ مِن رجالاتِ (حضرموتَ) ، وهيَ إذْ ذاكَ بهِم ملآنةٌ ، قالَ : إنَّهُم لَمَّا انصرفوا مِنْ دفنِهِ . اجتمعوا في بيتِهِ ، فأنشدَهُم بعضُ الحُداةِ بقصيدةِ الحدَّادِ المشارِ إليها ، فلا تَسلْ عمَّا حَصلَ مِنَ النشيجِ ، وارتفعَ مِنَ الضجيجِ ، وسالَ مِنَ العَبَراتِ ، وتصاعدَ مِنَ الزفراتِ ، حتَّىٰ لقدْ كادتْ تُحملُ الجنائزُ . مواراة عبد الله بن عمر

وكذلكَ كانَ والدي المغفورُ لهُ عبيدُ اللهِ بنُ محسنٍ صحيحَ الشوقِ ، سليمَ الذوقِ ، غزيرَ الدمعةِ ، طويلَ الفكرةِ ، كلُّ آيةٍ عبيد الله بن محسن

تهزُّهُ ، وكلُّ صادحةٍ تُطرِبُهُ ، وكثيراً ما يمرُّ في مجالسِهِ مرورَ السهمِ ، ولا سيَّما في إشاراتِ القومِ ، فأَتمثَّلُ لهُ بالبيتِ يصيبُ محزَّهُ ، فيَذوبُ وَجْداً ، ويأخذُهُ حالٌ شديدٌ جِدّاً .

الحداد وقوله: ولى الزمان

وعلىٰ ذكرِ قولِ القطبِ الحدَّادِ : (وَلَّىٰ الزَّمَانُ) إلىٰ آخرِهِ . . . أَقولُ : إِنَّهُ بيتٌ يكادُ يضيءُ مِنْ غيرِ زيتٍ ، ذكرتُ بهِ مطلعَ قصيدتينِ لفحلينِ مِنْ أُمراءِ القريضِ[1] :

أَحدُهُما : أَبو نُوَاسٍ في قولِهِ [في « ديوانه » ٥٢١ مِنَ الكامل] :

يَا دَارُ مَا فَعَلَتْ بِكِ ٱلأَيَّامُ ؟! لَـمْ تُبْـقِ فيْـكِ بَشَـاشَـةً تُسْتَـامُ

والثاني : هوَ الباروديُّ في قولِهِ [في « ديوانه » ٥٣٧ مِنَ الكامل] :

ذَهَـبَ ٱلصِّبَـا وَتَـوَلَّـتِ ٱلأَيَّـامُ فَعَلَىٰ ٱلصِّبَا وَعَلَىٰ ٱلزَّمَانِ سَلاَمُ

ولنْ تنظرَ فيهما مليّاً ، حتَّىٰ يتبيَّنَ لكَ الفرقُ جليّاً ؛ إِذْ بيتُ الحدَّادِ أَجملُ شارةً ، وأَعذبُ إِشارةً ، وأَصفىٰ زُجاجةً ، وأَنصعُ دِيباجةً ، وأَرقُّ طبعاً ، وأَعذبُ وضعاً ، أَوَلا ترىٰ عَروضَهُ ٱستوفىٰ مدحَ الماضي ، وذمَّ الحاضرِ ، بما لا تضبطُهُ العبارةُ ، ولا يدخُلُ تحتَ الحدِّ ؟! وإِنَّما هوَ مِنْ جنسِ قولِهِ جلَّ شأنُهُ : ﴿ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ [طه : ٧٨] .

وقولِ الشاعرِ [مِنَ الرَّجَز] :

يَحْمِلْـنَ كُـلَّ سُـؤْدَدٍ وَفَخْـرِ يَحْمِلْنَ مَا نَدْرِيْ وَمَا لاَ نَدْرِي

---

(١) القريضُ : الشِّعْر .

وذاكَ ما عجزَ عن أَقلِّهِ حكيمُ الشعراءِ ، صاحبُ (المعرَّةِ) ، بشهادةِ قولِهِ [مِنَ الخفيف] :

كَمْ أَرَدْنَا ذَاكَ ٱلزَّمَانَ بِمَدْحٍ　　فَشُغِلْنَا بِذَمِّ هَـٰذَا ٱلزَّمَانِ

ولـٰكنَّ الحدَّادَ لم يشغلْهُ هـٰذا عنِ ٱلآخَرِ ، بلْ أَصابَ الغَرَضينِ بسهمٍ واحدٍ ، وما زالتِ ٱلأُدباءُ رافعةَ العقيرةِ بٱلثناءِ علىٰ قولِ أَبي تمَّامٍ [في « ديوانه » ٢/١٦٦ مِنَ الكامل] :

لاَ أَنْتِ أَنْتِ وَلاَ ٱلدِّيَارُ دِيَارُ　　خَفَّ ٱلْهَوَىٰ وَتَقَضَّتِ ٱلأَوْطَارُ

وإِنَّما هوَ بعضُ معنىٰ قولِ الحدَّادِ : (وَلَّىٰ ٱلزَّمَانُ وَوَلَّتِ ٱلأَيَّامُ) ؛ لأَنَّهُ إِذا ولَّىٰ ٱلزمانُ الطيِّبُ بعمومِهِ ، وولَّتْ أَيَّامُ الأَحبابِ بخصوصِها ـ المرادُ كلُّ هـٰذا مِنْ شطرِ البيتِ . . فقدِ ٱنقضىٰ ٱلهوىٰ ، وخفَّتِ ٱلأَوطارُ ، ولم يبقَ ما يقتضي لُزومَ الديارِ ، ومواقفةَ الآثارِ ؛ إِذْ لا هيَ ديارُ الأَحبابِ ، ولا هُم سكَّانُها ، فالميزانُ راجحٌ ، والفضلُ في بيت الحدَّادِ واضحٌ ؛ إِذْ ليسَ في بيتِ الحَكَميِّ[1] سوىٰ دارٍ واحدٍ ، يسأَلُهُ سؤالاً تقريريّاً ، ينحصِرُ معناهُ في أَنَّ الأَيَّامَ مَحَتْ بشاشتَهُ بأَسرِها ، إِنْ تأَوَّلنا بأَنَّهُ مِنْ نفيِ الشيءِ بإِيجابِهِ ، أَو إِلاَّ ٱلنزرَ الذي لا يُستامُ منها ، إِنْ لم نجعلْهُ منهُ ، وهوَ معنىً ضئيلٌ ، إِلىٰ ما لا يخفىٰ مِنِ ٱستثقالِ لفظةِ : (تُستامُ) ، وعدمِ الحاجةِ إِليها .

وأَمَّا بيتُ ٱلبارودِيِّ : فصورةٌ مصغَّرةٌ مِنْ بيتِ ٱلحدَّادِ ، وكأَنَّما هوَ مأْخوذٌ منهُ معَ التَّقصيرِ ، فهوَ دونَهُ بتفاوتٍ كبيرٍ في ٱلمعنىٰ ؛ إِذِ ٱلبارودِيُّ لا يَحِنُّ إِلاَّ إِلىٰ نزواتِ الصِّبا وخطواتِهِ ، بقرينةِ ذِكرِهِ لهُ في

(١) أَي : أَبي نواسٍ الشاعر .

ٱلقسمينِ ، وأتفِهْ بذلكَ مِنْ مَبكيٍّ عليهِ في جانبِ بيتِ ٱلحدَّادِ ، ثُمَّ هل تجدُ لأَحدِ ٱلبيتينِ شيئاً ممَّا لبيتِ ٱلحدَّادِ ـ فوقَ ٱتِّساعِ ٱلمعنىٰ ، وبُعدِ ٱلمرمىٰ ـ مِنْ هيبةِ ٱلنَّسجِ ، وروعةِ ٱللَّفظِ ، ومائيَّةِ ٱلأُسلوب ، فإنَّهُ يكادُ يَقطُرُ ماءً ، وينصَعُ رُواءً[1] ، ويَستحلبُ الدَّمعَ ، ويَدخُلُ علىٰ ٱلقلبِ قبلَ السَّمعِ ، إلىٰ بُعدٍ عنِ التَّعمُّلِ ، وبراءَةٍ عنِ التَّكلُّفِ ، وتناسُبِ ظاهرٍ بينَ ٱلأَيَّامِ والزَّمانِ ، وٱلمنازلِ والنَّزيلِ ، فهٰذا هوَ السِّحرُ ٱلحلالُ ، وٱلعذبُ الزُّلالُ ، وٱلمَطمعُ ٱلمؤنِسُ ، والسَّهلُ ٱلممتنِعُ ، ثُمَّ إنَّ ٱلباروديَّ لَمْ يأخُذْ بيتَهُ إلاَّ مِنْ قولِ ٱبنِ ٱلمعتزِّ [في « ديوانهِ » مِنَ ٱلخفيفِ] :

أَخَـذَتْ مِـنْ شَبَـابِـيَ ٱلأَيَّـامُ   وَتَـوَلَّـىٰ ٱلصِّبَـا عَلَيْـهِ ٱلسَّـلَامُ

ومعَ ذلكَ ، فلَمْ يُحسِنِ ٱلاتِّباعَ ، وبيتُ ٱلحدَّادِ هوَ الرَّاجحُ علىٰ ٱلجميعِ ، ولا نِزاعَ .

حديث الشوق في الآخرين

وإذِ ٱنتهىٰ بنا حديثُ الشَّوقِ إلىٰ هُنا . . فلا نُدحَةَ لنا عن ذِكْرِ أَمثلةٍ سمعتُ بها في ٱلأخيرِ ؛ لنُلحِقَ التَّالِدَ بِالطَّارِفِ :

يا قرة العين

منها : أَنَّ بعضَ ٱلأَئِمَّةِ زوَّجَ ٱبنَهُ مِنِ ٱبنةِ أَخيهِ ، فٱنتسجَ بينَهُما مِنْ صادقِ ٱلحبِّ ، ما لا يتَّسعُ للمزيدِ ، غيرَ أَنَّ ٱلإمامَ سيَّرَ ٱبنهُ بإِثرِ ذلكَ إلىٰ موضعِ عملِهِ ، وبقيتِ ٱلمرأةُ بقاعدةِ ٱلمَلِكِ ، فكانَ يُطالِعُها بأشواقِهِ ، وتجيبُهُ بمثلِ ذلكَ ، وكانَ مِنْ عادةِ ٱلإمامِ أَنْ يَقيلَ يومَ ٱلجُمُعةِ بمنزلِ ولدِهِ ، فعثرَ منهُ مرَّةً علىٰ قصيدةٍ ، يشتكي لزوجِهِ

(١) الرُّواءُ : المنظرُ الحسنُ .

ٱلبُعدَ ، ويتوجَّعُ مِنَ ٱلفِراقِ ، ويصفُ ما عندَهُ مِنَ ٱلاحتراقِ ، يقولُ فيها [مِنَ ٱلبسيطِ] :

يَا قُرَّةَ ٱلْعَيْنِ يَا نُوْرَ ٱلْبَصِيْرَةِ يَا شَقِيْقَةَ ٱلرُّوْحِ يَا مَنْ لاَ أُسَمِّيْهَا

فرَقَّ لهُ أبوهُ ، ورسمَ بوصولِهِ ، ولٰكنْ بعدَ ما سبقَ السَّيفُ ٱلعَذَلَ ، ولَمْ يُبقِ ٱلحبُّ علىٰ الرَّمقِ ، فلمَّا كانَ ليلةَ وصولِهِ . . ٱشتدَّ الشَّوقُ ، فطارتِ ٱلروحُ إلىٰ فوقٍ ـ وللهِ درُّ الَّذي يقولُ [مِنَ ٱلوافرِ] : ابرح الشوق

وَأَبْرَحُ مَا يَكُوْنُ ٱلشَّوْقُ يَوْمَاً إِذَا دَنَـتِ ٱلـدِّيَـارُ مِـنَ ٱلـدِّيَـارِ

وقالَ التِّهاميُّ [في « ديوانِهِ » ٢٥٨ مِنَ الطَّويلِ] :

بَكَيْـتُ فَحَنَّـتْ نَـاقَتِـيْ فَـأَجَـابَهَـا صَهِيْلُ جَوَادِيْ حِيْنَ لاَحَتْ دِيَارُهَا

و(كـانَ ﷺ إذا أبصـرَ درجـاتِ ٱلـمـدينـةِ . . حـرَّكَ دابَّتَـهُ مِـنْ حُبِّها)(١) ، فهوَ أصلُ ٱلمعنىٰ في ذلكَ ـ ولم يدخُلِ ٱلأميرُ بلَدَهُ إلاَّ وروحُهُ خامدةٌ ، وجُثَّتُهُ هامدةٌ ، ولمَّا ٱتَّصلَ بٱلمرأةِ نعيُهُ . . شخصَ بصرُها وبرقَ ، وٱصفرَّ جبينُها وعرقَ ، وكانتِ ٱلقاضيةُ .

ومنها : أَنَّ الشَّيخَ حُسينَ زايدٍ الشَّاعرَ ، ٱليافعيَّ ، ٱلمشهورَ ، ٱلقريبَ ٱلعهدِ بـ(حضرموتَ) . . كانَتْ لَهُ ٱمرأةٌ مَلَكَتْ عقلَهُ ، وغلَبَتْ هواهُ ، وملأَتْ رِضاهُ ، فبينَا هوَ معها يوماً علىٰ قهوةٍ . . قالَ : أَتمنَّىٰ عليكِ أُمنيَّةً ، أُحبُّ أَنْ توافقيني عليها ، قالتْ : نَعَمْ ، قالَ : كائنةً ما كانَتْ ؟ قالتْ : نَعَمْ ، وأَخذَ عهدَها بذلكَ ، فقالَ : ٱصنعي ٱلقهوةَ عُريانةً ، فٱستقالَتْهُ ، فلَمْ يَقبلْ ، ففعلَتْ ، ولمَّا أَدَّتِ الشيخ حسين زايد وصنَّاعة القهوة

---

(١) أورده الحافظ في « فتح الباري » (٣/ ٦٣٠) .

ٱلوظيفةَ . . قالَتْ : وأَنا أَتمنَّىٰ عليكَ أَمراً ، أَفتُعطِينيهِ ؟ قالَ : نَعَمْ . قالَتْ : كائناً ما كانَ ؟ قالَ : نَعَمْ ، وأَخذتْ عليهِ ميثاقاً غليظاً ، قالَتْ : تُطلِّقُني بالثَّلاثِ في ٱلحالِ ، ولَمَّا فشِلَ في ٱلمراجعةِ ، ولَجَّتْ في التَّصميمِ . . لَمْ يَسعْهُ إِلاَّ ٱلوفاءُ بما ٱقتطعَهُ علىٰ نفسِهِ ، وإِنْ كانَ فيهِ حتفُهُ ، ثُمَّ خرجَ هائِماً علىٰ وجهِهِ ، وأَشارَ علىٰ أَخيهِ أَنْ يتزوَّجَها إِذا حلَّت ، فٱمتثلَ ، وبعقبِ ذَلكَ جاءَ لتهنئةِ أَخيهِ ، فدخلَتْ هيَ ، وأَلقتْ جانبَ السِّتْرِ ، فأَنشدَها أَبياتاً مِنْ شعرِهِ ٱلحُمينيِّ ، يزعُمُ فيهِ : أَنَّهُ رآها وإِيَّاهُ مجتمعَيْنِ علىٰ شربِ قهوةٍ في فراشٍ واحدٍ ، فأَجابتهُ مِنْ بحرِهِ وقافيتِهِ بما يقطعُ أَمَلَهُ ، ويخيِّبُ رجاءَهُ ، وكانَ ذلكَ في حينِ ذهابِ أَخيهِ لبعضِ شغلِهِ ، ومُذْ زوَّدتْهُ ٱليأسَ ٱلحاضرَ . . ٱستولاَهُ الضَّعفُ ، وزارَهُ السَّقامُ ، ولزمتْهُ ٱلعِلَلُ ، وٱشتملَ عليهِ ٱلفِراشُ ، ولمَّا ٱستعرَ بهِ ٱلأَلمُ ، وٱستحرَّ بهِ ٱلوجْدُ ، ونهكَهُ ٱلمرضُ . . طلبَ مِنْ أَخيهِ وصولَ ٱلمرأَةِ ؛ ليستحلَّها ، ويطلبَ ٱلعفوَ منها ، ورُبَّما خطرَ ببالِهِ ما خطرَ ببالِ مجنونِ عامرٍ في قولِهِ [مِنْ « ديوانهِ » ٢٤٩ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَوْ شَهِدَتْنِيْ حِيْنَ تَأْتِيْ مَنِيَّتِي ... جَلاَ سَكَرَاتِ ٱلْمَوْتِ عَنِّيْ ٱبْتِسَامُهَا

أَو قولِ ٱلأَعشىٰ [في « ديوانهِ » ١٥٢ مِنَ السَّريعِ] :

لَوْ أَسْنَدَتْ مَيْتاً إِلَىٰ نَحْرِهَا ... عَاشَ وَلَمْ يُنْقَلْ إِلَىٰ قَابِرِ

فَأَشارَ عليها أَخوهُ بالذَّهابِ ، فٱمتنعتْ ، وقالَت لَهُ : أَولىٰ لكَ أَنْ لاَ تفعلْ ، فأَلَحَّ عليها ، وبمجرَّدِ دخولِها علىٰ حُسينٍ . . ٱزدهرتْ عيناهُ ، كأَنَّهُما سِراجانِ ، وٱستأْذنَها أَنْ يضعَ رأْسَهُ علىٰ فخِذِها ،

فَأَذِنَتْ ، ولِحينِ ما وضعَهُ فاضتْ نفسُهُ ، ولم ينفعْهُ ما سبقَ عنِ ٱلأَعشىٰ وٱلمجنونِ ، بلْ كانَ ٱلأَمرُ كما قالَ غيرُهُما [مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَمَّا رَأَتْنِي فِيْ ٱلسِّيَاقِ تَعَطَّفَتْ عَلَيَّ وَعِنْدِيْ مِنْ تَعَطُّفِهَا شُغْلُ

أَتَتْ وَحِيَاضُ ٱلْمَوْتِ بَيْنِيْ وَبَيْنَهَا وَمَنَّتْ بِوَصْلٍ حِيْنَ لاَ يَنْفَعُ ٱلْوَصْلُ

وقالَ جريرٌ [في « ديوانِهِ » ٢/ ٦٦١ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا مَا رَجَا ٱلظَّمْآنُ وِرْدَ شَرِيْعَةٍ ضَرَبْنَ حِيَالَ ٱلْمَوْتِ دُوْنَ ٱلشَّرائِعِ

ثُمَّ حرَّكوها ، فإِذا هيَ يابسةٌ .

ربما قتل الشيخ ابن زامل في هذا الطريق

وٱختلفتِ ٱلروايةُ عَنِ ٱلشيخِ عليِّ بنِ زاملٍ باجِرَيٍّ : فقدْ ذُكِرَ موتُهُ وموتُ محبوبتِهِ في تلكَ السبيلِ . والأُخرىٰ : أَنَّ العوامرَ قتلوهُ ، ولمَّا لُفَّ في مِلحفتِهِ . . أَصابتْها شرارةٌ ، فٱشتعلتْ ناراً ، وٱحترقَ ، ومِنَ ٱلقصَّةِ تَعرِفُ ما كانَ عليهِ القومُ مِنَ ٱلشهامةِ ، وكرمِ الطباعِ .

عاشقة ابن عمها كيف تموت

وبها ذكرتُ ما رويَ عن سعيدِ بنِ عبدِ اللهِ : أَنَّ فتاةً مِنَ ٱلعربِ عَلِقَتْ بٱبنِ عمٍّ لها عاقلٍ ، أَديبٍ ، فجعلتْ تُكثِرُ الاختلافَ عليهِ ، حَتَّىٰ خَلا لها وجهُهُ ، فتعرَّضتَ لهُ ، فصرفَها ، فتغيَّرَ حالُها ، وٱعتلَّتْ ، ولم يزلْ بها المرضُ حتَّىٰ سقطَتْ علىٰ الفراشِ ، فأَخبرتهُ أُمُّهُ بِشأْنِها ، فقالَ : عُوديها ، وقُولي لها : ما شأْنُكِ ؟ فقالتْ : وَجَعٌ في فؤادي ، هوَ أَصلُ العلَّةِ ، قالتْ : فإِنَّ ٱبني يسأَلُكِ عنها ، فتنفَّستْ ، وقالتْ [مِنَ الطويلِ] :

يُسَائِلُنِيْ عَنْ عِلَّتِيْ وَهْوَ عِلَّتِيْ عَجِيْبٌ مِنَ ٱلأَنْبَاءِ جَاءَ بِهِ ٱلدَّهْرُ

فأَخبرتهُ بحالِها ومقالِها ، فقالَ : أَتحبُّ أَنْ أَصيرَ إِليها ، أَو تصيرَ

إِليَّ ، فعرضتْ عليها ذلكَ أُمُّهُ ، فقالتْ [مِنَ الطويل] :

وَيُبْعِدُنِي عَنْ قُرْبِهِ وَلِقَائِهِ   فَلَمَّا أَذَابَ ٱلْجِسْمَ مِنِّيْ تَعَطَّفَا
فَلَسْتُ بِآتٍ مَوْضِعاً فِيْهِ قَاتِلِيْ   بِحَسْبِيْ سِقَاماً أَنْ أَمُوْتَ تَلَهُّفَا

ولمْ تزلْ لِما بها حتَّىٰ ماتتْ .

يخرج روحه من نفسه ليعطيها لصديقه

ومنها : ما بلغني أَنَّ ٱثنينِ مِنَ ٱلحُمومِ[1] ، كانَ بينَهُما وِدٌّ وإِخاءٌ ، فزارَ أَحدُهُما ٱلآخرَ مرَّةً علىٰ بُعدِ الدارِ ، وشَحْطِ المزارِ ، وعليهِ آثارُ الضنىٰ ، فسألَهُ عمَّا بهِ فكتمَ ، حتَّىٰ أَلحَّ عليهِ ، فقالَ : إِنِّي ٱستعرضتُ النساءَ في قَدمتي ٱلأُولىٰ عليكَ ، فٱفتتنتُ بواحدةٍ منهنَّ ، صيَّرني هواها إِلىٰ ما رأَيتَ ، قالَ : هلْ تعرفُها لو رأَيتَها ؟ قالَ : نَعَمْ ، فمرَّ بهِ علىٰ ٱلنساءِ ، فأَشارَ إِليها ، فقالَ لهُ : طِبْ نفساً عنها ، وقَرَّ عيناً بزواجِها ، ولم يزلْ يُعلِّلُهُ ، ويستمهِلُهُ ، حتَّىٰ أَعرسَ لهُ بها ، وزفَّها إِليهِ ، ولمَّا ٱحتملَها إِلىٰ قومِهِ . . أَخبرتْهُ أَنَّها كانتْ زوجةَ صاحِبِهِ ، وأَنَّهُ كانَ مُحبّاً لها ، ولم يطلِّقها إِلاَّ إِيثاراً لهواهُ ، فسُقِطَ في يدِهِ[2] ، وأَعظمَ ٱلأمرَ ، وشاءَ أَنْ يطلِّقها ، لولا أَنَّها ٱشتملَتْ منهُ علىٰ ولدٍ ، وأَيقنَ بالهلاكِ إِنْ هوَ فارقَها ، ثُمَّ زارَ صاحبَهُ بإِثرِ ذلكَ ، فأَلفاهُ رهينَ ٱلفراشِ ، فسأَلَهُ عَن علَّتِهِ ، وهلْ لها مِن دواءٍ ؟! فقالَ : لقدِ ٱستوصفتُ الأَطباءَ مِنْ أَهلِ باديتِنا ، وكلُّهم أَشارَ عليَّ بما لا يمكنُ وجودُهُ ، قالَ : ما هوَ ؟ قالَ : دمُ طفلٍ يكونُ وحيدَ أَبويهِ يذبحانِهِ بأَيديهِما ، فلمَّا رجعَ إِلىٰ ٱمرأَتِهِ . . قالَ لها : قدْ

---

(١) قبيلةٌ مِنْ قبائلِ (حضرموتَ) .
(٢) سُقِطَ في يدِهِ : ندمَ .

علمتِ ما أثقلنِي بهِ صاحبي مِنَ ٱلمِنَّةِ ، وأقدَرني ٱللهُ علىٰ مكافأتِهِ ، وشرحَ لها الحديثَ ، فذهبا بالولدِ ، ولمَّا قابلا الرجلَ . . ذبحاهُ ، وأفرغا عليهِ دمَهُ ، كما وصفَ لهُ ٱلأطباءُ في العلاجِ ، فتماثلَ ، ثُمَّ برأ .

هٰذا ما حدَّثني بهِ جماعةٌ مِنَ ٱلعوامرِ والحمومِ ، واللهُ أعلمُ بحقيقةِ الحالِ . ولا شكَّ أنَّهُ مِنَ ٱلنكارةِ والأشنوعةِ والفظاعةِ بالدرجةِ الفاحشةِ ، ولٰكنْ للوفاءِ هِزَّةٌ مِنْ حيثُ كانَ ، فلا حرجَ أنْ أُعجبنا بهِ مِنْ هٰذهِ الجهةِ ، كما قرَّرناهُ عندَ ذكرِ مقتلِ أبي جهلِ بنِ هشامٍ ، مِنْ كتابِنا : « بلابلُ التغريدِ » .

هل انت تذبح ابنك لتشفي خراج الملك؟!!

وشبيهٌ بهٰذهِ مِنْ ناحيةٍ : ما رأيتُهُ في بعضِ الكتبِ : أنَّ ملكاً ظهرَ فيهِ خُرَّاجٌ أعيىٰ ٱلأطباءَ علاجُهُ ، حتَّىٰ جاءَهُ أحدُ النصَّابينَ منهُم ، فقالَ : لا يفيدُ فيهِ إلاَّ دمُ صبيٍّ بلغَ العاشرةَ ، يذبحُهُ أبواهُ بينَ يديكَ ، بحيثُ يقعُ دمُهُ علىٰ ٱلخُرَّاجِ ، واتَّفقَ أنَّ رجلاً كلَّما بلغَ أحدُ أبنائِهِ العاشرةَ . . هلكَ ، وكانَ لهُ ٱبنٌ علىٰ رأسِها ، فلمَّا سمعَ بما جعلَهُ الملكُ مِنَ ٱلمالَ الجزيلِ لِمَنْ يبذُلُ ولدَهُ في هٰذي ٱلسبيلِ . . قالَ لامرأتِهِ : قدْ علمتِ مِنَ ٱلعادةِ التي لا تتخلَّفُ أنَّ هٰذا ٱلولدَ لا بُدَّ أنْ يموتَ عَمَّا قليلٍ ، فلأنْ نربحَ بهِ هٰذهِ الثروةَ الضخمةَ . . خيرٌ لنا مِنْ أنْ يذهبَ ضياعاً ، فوافقتهُ ، وتقدَّما بهِ إلىٰ الملكِ ، ولمَّا أعتزما ذبحَهُ بينَ يديهِ . . ضحِكَ الصبيُّ ، فقالَ لهُ المَلِكُ : ممَّ تضحَكُ علىٰ ما أنتَ فيهِ ؟ فقالَ : إنَّ أحَنَّ الناسِ علىٰ ٱلصبيِّ أبوهُ وأُمُّهُ وسلطانُهُ ، وإذا كانَ الثلاثةُ يرتكبونَ منِّي هٰذا ٱلأمرَ الذي تقشعرُّ منهُ الأبدانُ . . فكيفَ يرحمُهُم جبَّارُ ٱلسماءِ ؟! فٱرتاعَ الملكُ لقولِهِ ، وٱنفجرَ جرحُهُ ، وأمرَ بالكفِّ عنهُ ، ودَفَعَ لهُمُ المالَ ، وعاشَ

الولدُ ، وعوفيَ الملكُ ، والعهدةُ علىٰ الراوي .

أرى جسداً عليلاً وعينين صحيحتين

ويتَّصلُ بحديثِ الحُموميِّ : ما ذكرَهُ عبدُ الملكِ بنُ عُميرٍ ، قالَ : كانَ أَخَوانِ في ثقيفٍ مِنْ بني كُنَّةَ ، بينَهُما مِنَ ٱلوُدِّ ما لا يعلمُهُ إِلاَّ ٱللهُ ، كلٌّ منهُما يرىٰ ٱلآخرَ عِدْلَ نفسِهِ ، فٱتَّفقَ أَنْ سافرَ الأكبرُ ، وٱعتمدَ علىٰ ٱلأصغرِ في حفظِ تركتِهِ ، وقضاءِ حاجةِ أَهلِهِ ، فبينا هوَ في دارِ أَخيهِ . . إذ مرَّتْ زوجُهُ ـ وكانتْ مِنْ أَجملِ البشرِ ـ فوقعَ في قلبِهِ حبُّها ، وجعلَ لونُهُ يتغيَّرُ ، وجسمُهُ يذوبُ ، حتَّىٰ قدِمَ أَخوهُ ، فسأَلَهُ عن حالِهِ ، فقالَ : لا شيءَ ، فدعا لهُ الأَطباءَ ، فعَيَوا بأَمرِهِ ، ما سِوىٰ الحارثِ بنِ كَلَدَةَ ؛ فإِنَّهُ قالَ : أَرىٰ عينينِ صحيحتينِ ، وما أَرىٰ ما بهِ إِلاَّ مِنَ ٱلعشقِ ، وسأَسقيهِ شراباً ، وسَيَبِينُ إِنْ كانَ عاشقاً ، فجعلَ يسقيهِ ، فلمَّا أَخذَهُ الشرابُ . . ٱهتاجَ ، وٱستهلَّ بأَبياتٍ تدُلُّ علىٰ صدقِ ما تفرَّسَهُ الحارثُ ، غيرَ أَنَّهُ أَجملَ ، ولم يعيِّنْ ، فقالَ لهُ الأَخُ : أَنتَ طبيبُ العربِ ، فما الحيلةُ في التعيينِ ، حتَّىٰ نقضيَ غرضَهُ ؟ قالَ : سَأُعيدُ عليهِ الشرابَ ، حتَّىٰ يُسَمِّيَ ، فلمْ يزلْ يكرِّرُهُ عليهِ ، حتَّىٰ سمَّىٰ المرأَةَ ، فطلَّقَها أَخوهُ ليتزوَّجَها ، فقالَ المريضُ : عليَّ كذا وكذا إِنْ تزوَّجتُها ، ولم يزلْ حتَّىٰ قضىٰ قتيلَ الغرامِ[1] .

المتنبي والرمادي

وخاتمةُ المجلس : أَنَّ لبيتِ الناظمِ الذي نحنُ بسبيلِهِ . . **قصَّةً حاصلُها** : أَنَّهُ لمَّا سمعَ بقولِ الرماديِّ يمدحُ أَبا عليٍّ القاليَّ [في «ديوانه» ١١١ مِنَ الكامل] :

فِيْ أَيِّ جَارِحَةٍ أَصُوْنُ مُعَذِّبِيْ سَلِمَتْ عَنِ ٱلتَّعْذِيْبِ وَٱلتَّنْكِيْلِ

---

(١) « المستقصىٰ في أمثال العرب » (١/ ٣٩) .

.. قالَ : إنْ سلمَ منْ داءِ الحَلاَقِ[1] .. فليجعلْهُ في ٱستِهِ .

فٱنتهتْ مقالتُهُ للرماديِّ ، وكانَ قد سمعَ بقولِهِ [مِنَ ٱلبسيطِ] :

كَفَىٰ بِجِسْمِيْ نُحُوْلاً أَنَّنِيْ رَجُلٌ [لَوْلاَ مُخَاطَبَتِيْ إِيَّاكَ لَمْ تَرَنِيْ]

فقالَ : ما أَشبهُهُ حينئذٍ بالضرطةِ ، فإِنَّها تُسمعُ ولا تُرىٰ ، والبيتانِ صحيحانِ ، غيرَ أَنَّ مَنْ تكلَّفَ الانتقادَ .. لم يَعْوَزْ إِليهِ الطريقَ ، إِمَّا سهلاً وإِمَّا وَعْراً ، إِمَّا سَميناً وإِمَّا غثّاً ، كصنيعِ الرَّجُلينِ في البيتينِ ، وقدْ يكونُ الرماديُّ إِنَّما ٱنتقدَ قولَ الناظمِ الآتي عن قريبٍ وهوَ [مِنَ البسيط] :

وَضَاقَتِ ٱلأَرْضُ حَتَّىٰ صَارَ هَارِبُهُمْ إِذَا رَأَىٰ غَيْـرَ شَـيْءٍ ظَنَّـهُ رَجُـلاً

والأَوَّلُ أَشبَهُ ، والحفظُ يخونُ ، واللَّفظُ يزيدُ وينقصُ .

واللهُ أَعلمُ

* * *

(١) الحَلاقُ : المنيَّةُ ، والمعنىٰ : أَنَّهُ إن بقيَ علىٰ قيدِ الحياةِ بَعدَما أَصابهُ مِنَ العذابِ .. فَليجعلْ حبيبَهُ في ٱستِهِ .

المجلس الثاني

[قالَ أَبو الطيِّب المتنبِّي في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ٢٩٤ مِنَ المنْسَرِح]:

أَهْلاً بِدَارٍ سَبَاكَ أَغْيَدُهَا أَبْعَدَ مَا بَانَ عَنْكَ خُرَّدُهَا[1]

عادة الشعراء البكاء على الأطلال

جرتْ عادةُ الشعراءِ بالسلامِ علىٰ ديارِ الأَحبابِ ، والدعاءِ لآثارِهِم بالسُّقيا ، وما أَشبهَ ذلِكَ ، فقالَ امرؤُ القيسِ [في « ديوانه » مِنَ الطويل] :

أَلاَ عِمْ صَبَاحاً أَيُّهَا ٱلطَّلَلُ ٱلْبَالِي [وَهَلْ يَعِمَنْ مَنْ كَانَ فِي ٱلْعُصُرِ ٱلْخَالِي]

وقالَ القُطاميُّ [في « ديوانه » ٢٣ مِنَ البسيط] :

إِنَّا مُحَيُّوكَ فَٱسْلَمْ أَيُّهَا ٱلطَّلَلُ وَإِنْ بَلِيتَ وَإِنْ طَالَتْ بِكَ ٱلطِّيَلُ

اقتداء المتنبي بهم

وقدْ أَحبَّ الناظِمُ أَنْ يَتسمَّتَ آثارَهُم ، كما في قولِهِ [في «العُكْبَرِيّ» ١/ ٥٦ مِنَ الطويل] :

فَدَيْنَاكَ مِنْ رَبْعٍ وَإِنْ زِدْتَنَا كَرْبَا فَإِنَّكَ كُنْتَ ٱلشَّرْقَ لِلشَّمْسِ وَٱلْغَرْبَا

---

(١) الأغيَدُ : الناعم .

وقولِهِ [في « العُكْبَريّ » ٢/٣٧٧ مِنَ البسيط] :

فَعِمْ صَبَاحاً لَقَدْ هَيَّجْتَ لِيْ شَجَناً ... وَارْدُدْ تَحِيَّتَنَا إِنَّا مُحَيُّوكَا[١]

وقولِهِ [في « العُكْبَريّ » ٤/٣٦ مِنَ البسيط] :

فَمَا أَمُرُّ بِرَسْمٍ لاَ أُسَائِلُهُ ... وَلاَ بِذَاتِ خِمَارٍ لاَ تُرِيقُ دَمِي

مخالفته لهم

غيرَ أَنَّهُ غايرَهُم في قولِهِ [في « العُكْبَريّ » ٢/٢٤٩ـ٢٥٠ مِنَ الوافر] :

مُلِثَّ ٱلْقَطْرِ أَعْطِشْهَا رُبُوعَا ... وَإِلاَّ فَٱسْقِهَا ٱلسُّمَّ ٱلنَّجِيْعَا[٢]

أُسَائِلُهَا عَنِ ٱلْمُتَدَيِّرِيْهَا ... فَلاَ تَدْرِيْ وَلاَ تُذْرِيْ دُمُوْعَا[٣]

ولقد بالغَ المعرِّيُّ في قولِهِ [في « سقطِ الزندِ » ١٩٦ مِنَ الطويل] :

تَحِيَّةُ كِسْرَىٰ فِي ٱلسَّنَاءِ وَتُبَّعٍ ... لِرَبْعِكَ لاَ أَرْضَىٰ تَحِيَّةَ أَرْبُعِ[٤]

شرح المطلع

والناظِمُ في البيتِ ٱلذي نتكلَّمُ عليهِ يدعو للدارِ بأَنْ تكونَ مأهولةً ، وكانَ الواجبُ أَنْ يقولَ : (أَهْلاً لِدَارِ) ؛ لِيَتَّضِحَ معنىٰ الدعاءِ للدارِ ؛ لأَنَّ مِنْ معاني (اللامِ) بيانَ المدعوِّ لهُ ، كما في قولِهِم : (سَقْياً لَهُ) .

---

(١) عِمْ صباحاً : كلمةُ تحيَّةٍ . وفي «الديوان» : (طَرَباً) : بدل (شَجَناً) .

(٢) في «الديوان» و«العكبري» : (السُّمَّ ٱلنَّقِيْعَا) بدل (السُّمَّ النَّجِيْعَا) . المُلِثُّ : الدائم المقيم . النجيعُ ، يُقالُ : نَجَعَ فيه الدواءُ وأَنجعَ : إذا عَمِلَ .

(٣) المُتَدَيِّرِيْهَا : أي متَّخذِيْها داراً ، والأَصلُ : المتديرينَ فيها ، فأَضافَ إلى الضميرِ .

(٤) السناءُ : الرفعةُ . تُبَّعُ : مِنْ ملوكِ اليمنِ ، جمعُهُ تَبَابِعَةٌ : سُمُّوا بذلِكَ ؛ لأَنَّهُ يتبعُ بعضُهم بعضاً ، كلَّما هلكَ واحدٌ . . قامَ مَقامَهُ آخر متابعاً لَهُ على مثلِ سيرتِهِ . وتُبَّعٍ معطوفٌ على كسرىٰ ، أي تحيةُ كسرى وتُبَّعٍ . . لرَبْعِكَ .

أَمَّا (ٱلباءُ) : فلا معنىٰ لها ، وإِنْ تكلَّفَ الشارحُ في تأويلِها .

وأَمَّا قولُهُ : (أَبْعَدَ مَا بَانَ عَنْكَ خُرَّدُهَا) . . فـ (الخُرَّدُ) : جمع خَريدةٍ ، وهيَ البِكرُ التي لَمْ تُمَسَّ . و (أَبْعَدَ) : أَفْعَلُ تفضيلٍ .

ومعناه : أَنَّ أَهلَ ٱلدارِ قد بَعُدوا كلُّهم ، غيرَ أَنَّ ٱلخُرَّدَ أَبعَدُ . ثُمَّ لا يخلو أَنْ يُريدَ وصفَهُم بٱلبُعدِ حالَ الإقامةِ ، وفيهِ نظرٌ ؛ لأَنَّ وصفَ الرجالِ بٱلبُعدِ قد يُفهَمُ منهُ الإشارةُ إِلىٰ تَحِلَّهِم[1] ، أَو حالَ ٱلارتحالِ ، وهوَ حينئذٍ ظاهِرٌ ؛ لأَنَّهُم وإِنْ تحمَّلوا معاً ، فأَوَّلُ مَنْ يُقدَّمُ النساءُ ، ثُمَّ يزدنَ بُعداً بالغَيرةِ والصيانةِ ، وكثيراً ما يوجدُ ذِكرُ بُعدِهِنَّ في أَفانينِ القولِ ، كما هوَ مُكرَّرٌ في « ديوانِهِ » منهُ قولُهُ [في « العُكبَريّ » ١/ ٢٢٥ مِنَ الكامل] : صيانة المرأة عند العرب

سِرْبٌ مَحَاسِنُهُ حُرِمْتُ ذَوَاتِهَا ... دَانِيْ ٱلصِّفَاتِ بَعِيْدُ مَوْصُوْفَاتِهَا

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٤/ ١١١ مِنَ الطويل] :

دِيَـارُ ٱللَّـوَاتِـيْ دَارُهُـنَّ عَـزِيْـزَةٌ ... بِطُوْلِ ٱلْقَنَا يُحْفَظْنَ لاَ بِٱلتَّمَائِمِ[2]

وهوَ مِنْ قولِ الطِّرِمَّاحِ [في « ديوانهِ » ٣٥٠ مِنَ الطويل] :

وَمَا مُنِعَـتْ دَارٌ وَلاَ عَـزَّ أَهْلُهَـا ... مِنَ ٱلنَّاسِ إِلاَّ بِٱلْقَنَا وَٱلْقَنَابِلِ[3] قريب المرأى بعيد المنال

وقولُهُ ـ أَعني الناظِمَ ـ [في « العُكبَريّ » ١/ ١١١ مِنَ البسيط] :

---

(١) التَّحِلَّةُ : الإقامة .

(٢) في «الديوان» : (بِطُوْلىٰ) بدل (بطُوْلِ) ، وهو مؤنث أطول ، من إضافة الصفة إلى الموصوف .

(٣) القنابلُ ـ جمعُ قَنْبَلةٍ ـ : وهي الطائفةُ مِنَ الناسِ ومِنَ الخيلِ ، قيلَ : ما بينَ الثلاثينَ إلىٰ الأربعينَ .

بَيْضَاءَ تُطْمِعُ فِيمَا تَحْتَ حُلَّتِهَا ... وَعَزَّ ذَلِكَ مَطْلُوباً إِذَا طُلِبَا
كَأَنَّهَا ٱلشَّمْسُ يُعْيِي كَفَّ قَابِضِهِ ... شُعَاعُهَا وَيَرَاهُ ٱلطَّرْفُ مُقْتَرِبَا

وقولُهُ [في « العُكبَرِيّ » ٣/ ٧٥ مِنَ البسيط] :

مَتَى تَزُرْ قَوْمَ مَنْ تَهْوَىٰ زِيَارَتَهَا ... لاَ يُتْحِفُوكَ بِغَيْرِ ٱلْبِيضِ وَٱلأَسَلِ[1]

تكرار هذا المعنى عند الشعراء

وقالَ كُثيِّرٌ [في « ديوانهِ » ٩٧ مِنَ الطويل] :

كَأَنِّي أُنَادِي صَخْرَةً حِينَ أَعْرَضَتْ ... مِنَ ٱلصُّمِّ لَوْ تَمْشِي بِهَا ٱلعُصْمُ زَلَّتِ[2]

وقالَ الطِّرِمَّاحُ [في « ديوانهِ » ٤٣٥ مِنَ الطويل] :

تَرَاهَا عُيُونُ ٱلنَّاظِرِينَ إِذَا بَدَتْ ... قَرِيباً وَلاَ يَسْطِيعُهَا مَنْ يَرُومُهَا

وقالَ ٱبنُ الأَحنفِ [في « ديوانهِ » ٢٢١ مِنَ المتقاربِ] :

هِيَ ٱلشَّمْسُ مَسْكَنُهَا فِي ٱلسَّمَا ... فَعَزِّ ٱلْفُؤَادَ عَزَاءً جَمِيلاً

وقالَ ٱبنُ عُيينةَ [مِنَ الطويل] :

فَقُلْتُ لأَصْحَابِي: هِيَ ٱلشَّمْسُ ضَوْؤُهَا ... قَرِيبٌ وَلَكِنْ فِي تَنَاوُلِهَا بُعْدُ

ولا يخرجُ عنهُ قولُ جريرٍ [مِنَ الكامل] :

حُورٌ حَرَائِرُ مَا هَمَمْنَ بِرِيبَةٍ ... كَظِبَاءِ مَكَّةَ صَيْدُهُنَّ حَرَامُ
يُحْسَبْنَ مِنْ لِينِ ٱلْحَدِيثِ زَوَانِياً ... وَيَصُدُّهُنَّ عَنِ ٱلْخَنَا ٱلإِسْلاَمُ

---

(١) البيضُ : السيوفُ . والأَسَلُ : الرماحُ . قالَ الشاعر :
نَخْنَخَ زَيْدٌ وَسَعَلْ ... لَمَّ رَأَىٰ وَقْعَ ٱلأَسَلْ
(٢) الصُّمُّ ـ جمعُ صَمَّاءَ ـ : وهيَ الصخرةُ الصلبةُ . العُصْمُ ـ جمعُ أَعصمَ ـ : والأعصمُ مِنَ الظباءِ والوعولِ : الذي في ذراعيهِ بياضٌ .

وما أَحسنَ قولَهُ معَ نظرِهِ إِلىٰ ما نحنُ فيهِ مِنْ قريبٍ [مِنَ الطويل] :

وَأَدْنَيْتِنِــيْ حَتَّــىٰ إِذَا مَــا سَبَيْتِنِــيْ ... بِقَوْلٍ يُحِلُّ ٱلْعُصْمَ سَهْلَ ٱلأَبَاطِحِ

تَجَافَيْتِ عَنِّيْ حِيْنَ لاَ لِيَ حِيْلَةٌ ... وَخَلَّفْتِ مَا خَلَّفْتِ بَيْنَ ٱلْجَوَانِحِ

وفيهِ نَظَرَ إِلىٰ قولِهِ جَلَّ شأنُهُ : ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ ﴾ [الحشر : ١٦] .

وفي معناهُ قولُ ٱمرأَةِ ٱبنِ الدُّمَيْنَةِ [في « ديوانهِ » ٤٢ مِنَ الطويل] :

وَأَنْتَ ٱلَّذِي أَخْلَفْتَنِيْ مَا وَعَدْتَنِيْ ... وَأَشْمَتَّ بِيْ مَنْ كَانَ فِيْكَ يَلُوْمُ

وَأَبْـرَزْتَنِـيْ لِلنَّـاسِ ثُـمَّ تَـرَكْتَنِـيْ ... لَهُمْ غَرَضاً أُرْمَىٰ وَأَنْتَ سَلِيْمُ

فَلَوْ أَنَّ قَوْلاً يَكْلِمُ ٱلْجِسْمَ قَدْ بَدَا ... بِجِسْمِيَ مِنْ قَوْلِ ٱلْوُشَاةِ كُلُوْمُ

وقالَ ٱلعبَّاسُ بنُ ٱلأَحنفِ [في « ديوانهِ » ٨٤ مِنَ البسيط] :

أَبْكِي ٱلَّذِيْنَ أَذَاقُوْنِيْ مَوَدَّتَهُمْ ... حَتَّىٰ إِذَا أَيْقَظُوْنِيْ لِلْهَوَىٰ رَقَدُوْا

وَٱسْتَنْهَضُوْنِيْ فَلَمَّا قُمْتُ مُنْتَصِباً ... بِثِقْلِ مَا حَمَّلُوْنِي عَنْهُمُ قَعَدُوْا

لقاءٌ وعتاب

وقالَ بعضُهُم [في «الأغاني» ٢/٥٣] : بينا أَنا وصديقٌ لي مِنْ قريشٍ . . إِذا بظِلِّ نسوةٍ في القمرِ ، فسمعتُ واحدةً تقولُ : أَهوَ هوَ ؟ فقالتِ ٱلأُخرىٰ : نَعَم ، فدنت منِّي ، وقالت : قُل لصاحبِكَ [مِنَ البسيط] :

لَيسَتْ لَيَالِيْكَ فِيْ خَاخٍ بِعَائِدَةٍ ... كَمَا عَهِدْتَ وَلاَ أَيَّامُ ذِيْ سَلَمِ(١)

(١) خاخٌ : ٱسمُ مَوْضِعٍ بينَ الحرمينِ ، وقد ورد ذكره في حديث علي عند البخاري (٤٨٩٠) وغيره : أنَّ النبي ﷺ أرسله والزبير والمقداد وقال: «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة . . . » الحديث.

فلم يَحِرْ جواباً ، فقلتُ عنهُ [مِنَ الطويل] :

فَقُلْتُ لَهَا : يَا عَزُّ كُلُّ مُصِيبَةٍ   إِذَا وُطِّنَتْ يَوْماً لَهَا ٱلنَّفْسُ ذَلَّتِ

فدعتني إلىٰ بيتِها ، وقالت : ما أَفظَّ جوابَكَ ، وبكت ، وشكت ما أَضرَّ بها مِنْ هوىٰ صاحبي ، فدعوتُهُ لها ، فعاتبَتْهُ طويلاً ، ثُمَّ تمثَّلَت بأَبياتِ ٱمرأَةِ ٱبنِ الدُّمَيْنَةِ ، ثُمَّ سكتت ، فقالَ الفتىٰ [مِنَ الطويل] :

غَدَرْتِ وَلَمْ أَغْدُرْ وَخُنْتِ وَلَمْ أَخُنْ   وَفِـيْ دُوْنِ هَـٰذَا لِلْمُحِـبِّ عَـزَاءُ
جَزَيْتُكِ ضِعْفَ ٱلْوُدِّ ثُمَّ صَرَمْتِنِيْ   فَحُبُّـكِ فِـيْ قَلْبِـيْ أَذىً وَشَقَـاءُ

فقالَتْ [مِنَ الطويل] :

تَجَاهَلْتَ وَصْلِيْ حِيْنَ لَجَّتْ عَمَايَتِيْ   فَهَلاَّ صَرَمْتَ ٱلْحَبْلَ إِذْ أَنَا مُبْصِرُ
وَلِيْ مِنْ قُوَىٰ ٱلْحَبْلِ ٱلَّذِيْ قَدْ قَطَعْتَهُ   نَصِيْـبٌ وَإِذْ رَأْيِـيْ جَمِيْـعٌ مُـوَفَّـرُ
وَلٰكِنَّمَـا آذَنْـتَ بِـٱلْهَجْـرِ بَغْتَـةً   وَلَسْتُ عَلَىٰ مِثْلِ ٱلَّذِيْ جِئْتَ أَقْدِرُ

فقالَ ٱلفتى [مِنَ الطويل] :

لَقَدْ جَعَلَتْ نَفْسِيْ ـ وَأَنْتِ ٱجْتَرَمْتِهِ   وَكُنْتِ أَحَبَّ ٱلنَّاسِ ـ عَنْكِ تَطِيْبُ[1]

فبكت ، ثُمَّ قالت : أَما وقد جعلتْ نفسُكَ تطيبُ . . فما فيكَ بعدَها خيرٌ ، والسلامُ .

وقالَ قيسُ بنُ المُلَوَّحِ [في « ديوانِه » مِنَ الطويل] :

وَمَنَّيْتِنِـيْ حَتَّـىٰ إِذَا مَـا رَأَيْتِنِـيْ   عَلَىٰ شَرَفٍ لِلنَّاظِرِيْنَ قَرِيْبِ
صَدَدْتِ وَأَشْمَتِّ ٱلْعَدُوَّ بِقُرْبِنَا   أَثَابَكِ يَا لَيْلَىٰ ٱلْجَزَاءَ مُثِيْبِيْ

(١) ٱجترمَ : قطعَ .

ما أصعب الفطام بعد الرضاع

وممّا يُنسَبُ إلىٰ سيفِ الدولةِ قولُهُ [« في ديوانهِ » مِنَ الطويل] :

تَجَنَّىٰ عَلَيَّ ٱلذَّنبَ وَٱلذَّنبُ ذَنبُهُ ... وَعَاتَبَنِي ظُلماً وَفِي شِقِّهِ ٱلْعَتْبُ
وَأَعْرَضَ لَمَّا صَارَ قَلْبِيْ بِكَفِّهِ ... فَهَلاَّ جَفَانِي حِيْنَ كَانَ لِيَ ٱلْقَلْبُ

الباذلات المانعات

وَأَنشدَ الأَصمعيُّ لِبعضِ الأَعرابِ [مِنَ الطويل] :

ومُسْتَخْفِيَاتٍ لَيْسَ يَخْفَيْنَ زُرْنَنَا ... يُسَحِّبْنَ أَذْيَالَ ٱلصَّبَابَةِ وَٱلدَّلِّ
جَمَعْنَ ٱلْهَوَىٰ حَتَّىٰ إِذَا مَا مَلَكْنَهُ ... نَزَعْنَ وَقَدْ أَكْثَرْنَ فِيْنَا مِنَ ٱلْقَتْلِ
مَرِيْضَاتِ رَجْعِ ٱلطَّرْفِ خُرْسٍ عَنِ ٱلْخَنَا ... تَـأَلَّفْـنَ أَهْـوَاءَ ٱلْقُلُـوْبِ بِـلاَ بَـذْلِ
مَوَارِقَ مِنْ خَتْلِ ٱلْمُحِبِّ عَوَاطِفِ ... بِقَتْلِ أُوْلِي ٱلأَلْبَابِ بِٱلْجِدِّ وَٱلْهَزْلِ (١)
يُعَنِّفُنِـي ٱلْعُـذَّالُ فِيهِـنَّ ، وَٱلْهَـوَىٰ ... يُحَذِّرُنِي مِنْ أَنْ أُطِيْعَ ذَوِيْ ٱلْعَذْلِ

وقالَ المجنونُ [في « ديوانهِ » ١٨٣ مِنَ الطويل] :

يُعَرِّضْنَ بِٱلدَّلِّ ٱلْمَلِيْحِ وَإِنْ يُرِدْ ... جَنَاهُنَّ مَشْغُوْفٌ فَهُنَّ مَوَانِعُ

وقالَ ٱبنُ ميّادةَ [في « ديوانه » ١٦٣ــ١٦٤ مِنَ الطويل] :

مَـوَانِـعُ لاَ يُعْطِيْـنَ حَبَّـةَ خَـرْدَلٍ ... وَهُنَّ دَوَانٍ فِيْ ٱلْحَدِيْثِ أَوَانِسُ
وَيَكْرَهْنَ أَنْ يَسْمَعْنَ فِيْ ٱللَّهْوِ رِيْبَةً ... كَمَا كَرِهَتْ صَوْتَ ٱللِّجَامِ ٱلشَّوَامِسُ (٢)

الكانزات الباخلات

وأَملىٰ أَبو بكرٍ الأَنباريُّ في بعضِ مجالِسهِ أَبياتاً في بحرِها ، وقافيتِها ، وبعضِ معناها ، وهيَ :

وَبِٱلْقَرْيَةِ ٱلْبَيْضَاءِ إِنْ زُرْتَ أَهْلَهَا ... مَهاً مُهْمَلاَتٍ مَا عَلَيْهِنَّ سَائِسُ
خَرَجْنَ لِحُبِّ ٱلرَّيْبِ مِنْ غَيْرِ رِيْبَةٍ ... عَفَائِفُ بَاغِيْ ٱللَّهْوِ مِنْهُنَّ آيِسُ

---

(١) يقال : مرقَ السهمُ من الرميةِ : إذا نفذَ إلىٰ الجانبِ الآخرِ .
(٢) الشوامس : من شَمَسَ الفرس : إذا منع ظهرهُ .

عمر بن أبي ربيعة وعبد الملك بن مروان

ويروى : أنَّ عبدَ المَلِكِ بنَ مروانَ ٱستقبلَ عُمرَ بنَ أَبي ربيعةَ ، فقالَ لهُ : لقد عَلِمَتْ قريشٌ أَنَّكَ أَطولُها صبوةً ، وأَبعدُها توبةً ، أَمَا لَكَ في نساءِ قريشٍ ما يكفيكَ عن نساءِ بني عبدِ مَنافٍ ؟ أَلستَ القائِلَ [كما في « ديوانه » ٢٠٧ـ٢٠٨ مِنَ الطويل] :

نَظَرْتُ إِلَيْهَا بِٱلْمُحَصَّبِ مِنْ مِنىً ... وَلِيْ نَظَرٌ ـ لَوْلاَ ٱلتَّحَرُّجُ ـ عَارِمُ(١)

فَقُلْتُ : أَصُبْحٌ أَمْ مَصَابِيحُ رَاهِبٍ ... بَدَتْ لَكَ خَلْفَ ٱلسَّجْفِ أَمْ أَنْتَ حَالِمُ(٢)

بَعِيْـدَةُ مَهْـوَىٰ ٱلْقُـرْطِ إِمَّـا لِنَـوْفَـلٍ ... أَبُوْهَا وَإِمَّا عَبْدُ شَمْسٍ وَهَاشِمُ(٣)

فقالَ : يا أَميرَ المؤمنينَ ، إِنَّ بعدَ هٰذا قولي [كما في « ديوانه » ٢٠٩] :

طَلَبْنَ ٱلْهَوَىٰ حَتَّىٰ إِذَا مَا وَجَدْنَهُ ... صَدَرْنَ وَهُنَّ ٱلْمُسْلِمَاتُ ٱلْكَرَائِمُ

فٱستحيا منهُ عبدُ المَلِكِ ، ووصلَهُ ، وقضىٰ حوائجَهُ .

الكاسيات العاريات

وقالَ آخرُ في ٱلمعنىٰ [مِنَ الطويل] :

تَعَطَّلْـنَ إِلاَّ مِـنْ مَحَـاسِـنِ أَوْجُـهٍ ... فَهُنَّ حَوَالٍ فِيْ ٱلصِّفَاتِ عَوَاطِلُ(٤)

كَوَاسٍ عَوَارٍ صَامِتَاتٌ نَوَاطِقٌ ... بِعِـفِّ كَـلاَمٍ بَـاخِـلاَتٌ بَـوَاذِلُ

بَـرَزْنَ عَفَـافـاً وَٱحْتَجَبْـنَ تَسَتُّـراً ... وَشِيْبَ بِحَقِّ ٱلْقَوْلِ مِنْهُنَّ بَاطِلُ

فَذُو ٱلْحِلْمِ مُرْتَادٌ وَذُوْ ٱلْجَهْلِ طَامِعٌ ... وَهُـنَّ عَـنِ ٱلْفَحْشَـاءِ حِيْـدٌ نَـوَاكِـلُ

---

(١) عارمٌ : خارجٌ عن القصد .
(٢) السَّجْفُ والسِّجْفُ : السترُ .
(٣) بعيدة مهوى القُرط : كناية عن طول عنقها .
(٤) حَوَالٍ : صاحباتُ حليةٍ . عواطلُ : خالياتٍ مِنَ الحلي .

ولَمْ ينسَ حظَّهُ البُحتريُّ مِنْ هـٰذا ٱلمعنىٰ ، في مثلِ قولِهِ [في « ديوانهِ » ١١٥٠ مِنَ الكامل] :

مِنْ كُلِّ مُرْهَفَةِ ٱلْقَوَامِ غَرِيْرَةٍ جُعِلَتْ مَحَاسِنُهَا هَوىً لِلأَنْفُسِ
تَبْدُوْ بِعَطْفَـةِ مُطْمِـعٍ حَتَّـىٰ إِذَا شُغِلَ ٱلْخَلِيُّ ثَنَتْ بِصَدَّةِ مُؤْيِسِ

الكلام الحق

ولـٰكنَّ الباري عزَّ شأْنُهُ يقولُ : ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾ [الأحزاب : ٣٢] .

إذا كنت ريحاً فقد واجهت إعصاراً

وبَصُرَ بعضُهُم بأمرأَةٍ فتَّانةٍ علىٰ ضفَّةِ (الرُّصافةِ) ، فقالَ : يَرحمُ اللهُ أَبا ٱلجَهْمِ ، فقالت لَهُ : يَرْحمُ اللهُ أَبا ٱلعلاءِ .

أَرادَ : قولَ عليِّ بنِ ٱلجَهْمِ [في « ديوانهِ » ٢٢٠ مِنَ الطويل] :

عُيُوْنُ ٱلْمَهَا بَيْنَ ٱلرُّصَافَةِ وَٱلْجِسْرِ جَلَبْنَ ٱلْهَوَىٰ مِنْ حَيْثُ أَدْرِيْ وَلاَ أَدْرِيْ

وَأَرادتْ : قولَ أَبي العلاءِ ـ وهوَ موضعُ المناسبةِ ـ [مِنَ الطويل] :

فَيَا دَارَهَا بِٱلْخَيْفِ إِنَّ مَزَارَهَا قَرِيْبٌ وَلَـٰكِنْ دُوْنَ ذَلِكَ أَهْوَالُ

أبو نواس يأكل الفتاة بعينيه ووقوعه في شر أعماله

وذكرَ أَبو نُوَاسٍ : أَنَّ سماءً[1] أَصابتهُم في طريقِ الحجِّ ، فخرجَ يتنزَّهُ في بعضِ غياضِ العربِ ، حَتَّىٰ رُفِعَ لَهُ بيتٌ ، فإذا فيهِ عجوزٌ عندَها فتاةٌ مبرقعةٌ ، سحرَتْهُ بعينَيها ٱلنجلاوينِ[2] ، فٱستسقاها الماءَ مرَّتينِ ، فقالتِ ٱلعجوزُ [مِنَ الطويل] :

هُمَا ٱسْتَسْقَيَا مَاءً عَلَىٰ غَيْرِ ظَمْأَةٍ لِيَسْتَمْتِعَا بِٱللَّحْظِ مِمَّنْ سَقَاهُمَا

---

(١) السماءُ : المطرُ .
(٢) النَّجَلُ : سعةُ شَقِّ العينِ .

ـ ومِنْ هـٰذا أَخذَ البُرَعيُّ قولَهُ [في « ديوانهِ » ١٢٢ مِنَ الكامل] :

مَا ٱلْمَاءُ مِنْ طَلَبِيْ وَلَـٰكِنْ رُبَّمَا　　مَدَّتْ بِهِ فَتَنَالُ مِنْ يَدِهَا يَدِيْ ـ

فلمَّا رأَتْهُ العجوزُ يكادُ يأكلُ بعينِهِ ٱلفتاةَ . . قالت [مِنَ الطويل] :

فَمَا لَكَ مِنْهَا غَيْرَ أَنَّكَ نَاكِحٌ　　بِعَيْنَيْكَ عَيْنَيْهَا ، فَهَلْ ذَاكَ نَافِعُ ؟

فقالَ [مِنَ الطويل] :

فَإِنْ لَمْ يَكُنْ إِلاَّ تَعَلُّلُ سَاعَةٍ　　قَلِيْلاً فَإِنِّيْ نَافِعٌ لِيْ قَلِيْلُهَا

ولمَّا ٱستباهُ لحظُها ، وٱستهواهُ لفظُها . . قالَ ـ يستطعمُها السُّفُورَ ـ [مِنَ المتقارب] :

إِذَا بَارَكَ ٱللهُ فِيْ مَلْبَسٍ　　فَلاَ بَارَكَ ٱللهُ فِيْ ٱلْبُرْقُعِ

يُرِيْكَ وُجُوْهَ ٱلدُّمَىٰ غِرَّةً　　وَيَكْشِفُ عَنْ مَنْظَرٍ أَفْظَعِ

فنزعتْ بُرقُعَها ، فإذا وجهٌ يستحي ٱلقمرُ مِنْ جمالِهِ ، ذكَرَ مِنْ حُسْنِهِ ما لا يحضرُني لفظُهُ ، فقالَ عندَ ذلِكَ [مِنَ الطويل] :

عَلَىٰ وَجْهِ مَيٍّ مَسْحَةٌ مِنْ مَلاَحَةٍ　　وَتَحْتَ ٱلثِّيَابِ ٱلْعَارُ لَوْ كَانَ بَادِيَا

فما كانَ منها إلاَّ أَنْ أَخذَتْها هِزَّةٌ ، وخلَعتْ ما كانَ عليها مِنَ ٱلثيابِ ، ووقفتْ عُريانةً ، قالَ : فإذا صدرٌ كأَنَّهُ صفيحةُ مرمَرٍ ، فيهِ نَهدانِ كأَنَّهُما حُقَّا عاجٍ[1] ، ثُمَّ أَتىٰ في وصفِ أَعضائِها ، بما ذهبَ

---

(١) الحُقُّ والحُقَّةُ ـ بالضم ـ : وعاءٌ منحوتٌ مِنَ الخشبِ والعاجِ وغيرِ ذلكَ ، ممَّا يصلحُ أَنْ ينحتَ منهُ . قال الشاعر :

وَصَدْرٍ مُشْرِقِ ٱللَّوْنِ　　كَأَنَّ ثَدْيَاهُ حُقَّانِ

عن حفظي أكثرُهُ ـ وهوَ موجودٌ في « ديوانه » ـ عندَ ذلِكَ قالَ [مِنَ الطويل] :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْمَاءَ يَخْبُثُ طَعْمُهُ وَإِنْ كَانَ لَوْنُ ٱلْمَاءِ أَبْيَضَ صَافِيَا

فما كانَ منها إِلاَّ أَنْ قطعَتْ أَملَهُ ، وزوَّدَتْهُ اليأسَ .

وبعقِبِ رجوعِهِم تعرَّضَ لها ، فألفاها بينَ أَربعٍ لا تنقصُ عنها واحدةٌ منهُنَّ في ٱلحُسْنِ والجَمالِ ، فبقرَت لهُنَّ حديثَها معهُ علىٰ مسمَعٍ منهُ ، فعاتبنَها في إِعراضِها عنهُ ، معَ تعلُّقِهِ بهواها ، وقُلْنَ لها : ما يَضرُّكِ أَنْ تُنَوِّلِيهِ ، وما معكِ إِلاَّ مَنْ يسترُ عليكِ ؟! ولو أَنَّهُ عَلِقَ بإحدانا هواهُ . . لَما كانَ لها أَنْ تُخيِّبَ رجاءَهُ ، فطمعَ فيها ، وواعدتْهُ إِلىٰ غارٍ ، دلَّتْهُ عليهِ ، فما هيَ إِلاَّ ساعةٌ ، ودخلَ عليهِ عبدٌ أَسودُ ينعظُ بمثلِ ذراعِ البَكرِ[1] ، فولَّىٰ هارباً ، وما نجا فيما يقولُ إِلاَّ بنفسِهِ بعدَ لأْيٍ ما ، وما أَحسبُهُ صادقاً في دعوىٰ السلامةِ ، بلْ صرَّحَ ٱبنُ عبدِ ربِّهِ في « عِقْدِهِ »[2] بِعَدَمِها ، وما كانَ إِلاَّ عُرضةَ ذلك ، ويا طالَما شَهَرَتْهُ عِنَانُ وغيرُها بمثلِ ذلِكَ .

وبما أَنَّ جُلَّ أَشعارِ الحكايةِ مِنْ كلامِ ذِي ٱلرُّمَّةِ . . فلا بُدَّ أَنَّ لَهُ قضيَّةً مِنْ نوعِها ، ثُمَّ رأَيتُ ٱبنَ خَلِّكانَ ذكرَها بٱختصارٍ[3] ، وذكرَ قصة ذي الرمة ومي

---

(١) ينعظُ بمثل ذراع البكر : يُحركُ بِذَكَرٍ كأنهُ من طولهِ ذراعُ الفتيِّ منَ الإبلِ .

(٢) وهو الكتاب الشهير : «العقد الفريد» .

(٣) ذكرَ ٱبنُ خلكانَ في « وفياتِ الأعيانِ » (٤/ ١٢) : أَنَّ ذَا الرُّمَّةَ لمْ يرَ ميَّةَ قطُّ إلاَّ في برقعٍ فأَحبَّ أَن ينظرَ إِلىٰ وجهِهَا فقالَ [من الوافر] :

جَـزَىٰ ٱللهُ ٱلْبَـرَاقِـعَ مِـنْ ثِيَـابٍ عَـنِ ٱلْفِتْيَـانِ شَـرّاً مَـا بَقِيْنَـا
يُـوَارِيْـنَ ٱلْمِـلاَحَ فَـلاَ نَـرَاهَـا وَيخْفِيْـنَ ٱلْقِبَـاحَ فَيَـزْدَهِيْنَـا=

قولَهُ في ٱلبُرقعِ [مِنَ الوافر] :

جَزَىٰ ٱللهُ ٱلْبَرَاقِعَ مِنْ ثِيَابٍ ... عَنِ ٱلْفِتْيَانِ شَرّاً مَا بَقِينَا
يُوَارِينَ ٱلْمِلاَحَ فَلاَ نَرَاهَا ... وَيُخْفِينَ ٱلْقِبَاحَ فَيَزْدَهِينَا

وائل بن قاسط ووادي السباع

وبينا وائلُ بنُ قاسطٍ بوادٍ في طريقِهِ إلىٰ (ٱلرَّقَّةِ) . . إذْ بَصُرَ بأَسماءَ بنتِ دريمٍ ٱلقضاعيَّةِ ، وكانتِ ٱمرأَةً حَسَّانةً ، فيها بقيَّةٌ مِنَ ٱلشبابِ ، فهمَّ بها حينَ رآها مسفرةً ، فقالت : واللهِ ، لئنْ قصدتَني بسوءٍ . . لأَدعونَّ أَسبُعِي ، فقالَ : ما أَرىٰ في الوادي أَحداً ، فصاحتْ ببنيها : يا كلبُ ، يا ذيبُ ، يا فهدُ ، يا سرحانُ ، يا نَمِرُ ، يا حمارُ ، يا ضَبُعُ . . . إلىٰ آخرِها ، فسالَ الوادي رجالاً عِشرينَ ، جاؤوا يتعادَونَ بالسيوفِ ، كما قيلَ [مِنَ البسيط] :

سَالَتْ عَلَيْهَا شِعَابُ ٱلْحَيِّ حِينَ دَعَتْ ... أَنْصَارَهَا بِوُجُوهٍ كَالدَّنَانِيرِ

فقالتْ لهُم : أَكرموا ضيفكُم ، ولم تكشفْ لهُمُ ٱلحديثَ ، وإلاَّ . . لتوزَّعوا لحمَهُ ، فعقروا ، وقالَ : ما أَرَىٰ هـٰذا الواديَ إلاَّ واديَ السباعِ ، فأُطلِقَ عليهِ مِنْ يومِئذٍ .

= فَنزعتِ ٱلبرقعَ عَن وجهها ، وكانت باهرةَ الحسنِ ، فلمَّا رآها مسفرةً . . قالَ :
عَلَىٰ وَجْهِ مَيٍّ مَسْحَةٌ مِنْ مَلاَحَةٍ
البيتَ المتقدِّمَ ، فنزعتْ ثيابَهَا ، وقامَت عريانةً ، فقالَ :
أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْمَاءَ يَخْبُثُ طَعْمُهُ
البيتَ المتقدمَ ، فقالتْ لهُ : أَتحبُّ أَنْ تذوقَ طعمَهُ ؟ قالَ : إي واللهِ ، فقالت لهُ : تذوقُ الموتَ قبلَ أَن تذوقَهُ .
وذكرَ الأصفهانيُّ في « الأغاني » (١٨/ ٣٠) : أَنَّ هذهِ الأبياتِ منحولةٌ عَلَىٰ ذي الرُّمَّةِ وليست لهُ . والله أعلم بالصواب.

وفيهِ كانَ قتلُ الزبيرِ بنِ العوَّامِ مُنصَرفَهُ مِنْ حادثةِ الجَمَلِ ، وقدْ ذكرَهُ في شعرِهِ سُحَيمُ بنُ وَثيلٍ الرياحيُّ ، فقالَ [مِنَ الطويل] :

مَرَرْتُ عَلَىٰ وَادِي ٱلسِّبَاعِ وَلاَ أَرَىٰ   كَوَادِي ٱلسِّبَاعِ حِيْنَ يُظْلِمُ وَادِيَا

وجـــوب التحفـــظ والحيطة علىٰ النساء

وعلىٰ ذكرِ عِفَّةِ النساءِ وبُعدِهِنَّ نقولُ : إنَّهُ لا يمكنُ للإنسانِ أَنْ يَكِلَهُنَّ إلىٰ ما يثقُ بهِ فيهنَّ مِنْ ذلِكَ ، فإنَّ البعيدَ يقرُبُ بالاحتيالِ ، والعُصْمَ تَسهُلُ بالاستنزالِ[1] ، وقد قالَ بعضُهُم [مِنَ الكامل] :

عُسْـرُ ٱلنِّسَـاءِ إِلَـىٰ مُيَـاسَـرَةٍ   وَٱلصَّعْبُ يَسْهُلُ بَعْدَ مَا جَمَحَا

وقالَ أخو خثعمَ [مِنَ الطويل] :

وَآلَـتْ يَمِيْنـاً كَـالـزُّجَـاجِ رَقِيْقَـةً   وَمَا حَلَفَتْ إلاَّ لِتَحْنَثَ مِنْ أَجْلِي

زوج الشهـداء عـاتكـة بنت زيد

وبهـٰذا ذكرتُ قولَ عاتكةَ بنتِ زيدِ بنِ عَمرِو بنِ نُفيلٍ في رثائِها لبعضِ أزواجِها [كما في « خزانةِ الأدبِ » (١٠/ ٣٨٠) مِنَ الطويل] :

فَآلَيْتُ لاَ تَنفَكُّ عَيْنِيْ حَزِيْنَةً   وَآلَيْتُ لاَ يَنْفَكُّ جِلْدِيَ أَغْبَرَا

فاستأذنَ عليها أميرُ المؤمنينَ عليُّ ابنُ أبي طالبٍ صبيحةَ بنائِها علىٰ أميرِ المؤمنينَ عُمرَ بنِ الخطَّابِ ، وقالَ لها : أينَ قولُكِ : (فآليْتُ . . . إلىٰ آخرِهِ)؟ فقالتْ : مَا أكثرَ ما تنفسخُ عزائِمُ الرجالِ ، فضلاً عن عزائِمِ النساءِ ، أو ما يقرُبُ مِن هـٰذا المعنىٰ .

وكانتْ تحتَ عبدِ اللهِ ابنِ أبي بكرٍ الصدِّيقِ ، فقُتلَ عنها مِنْ سهمٍ

---

(١) العصم، هو: الغزال، والمقصود : أن المرأة ينبغي التحفظ عليها، ويكفي في ذلك أن سيدنا زكريا لم يكل سيدتنا مريم وهي في المحراب عن السؤال ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ وهي من هي، من سيدات العالمين عفة وطهارة.

رُمِيَهُ في (الطائِفِ) فتزوَّجها زيدُ بنُ الخطَّابِ ، فقُتلَ عنها بـ (اليمامةِ) ، ثُمَّ كانتْ تحتَ عُمرَ بنِ الخطَّابِ ، فقُتلَ وهيَ عندَهُ ، ثُمَّ تزوَّجها الزبيرُ بنُ العوَّامِ ، فقتلَهُ ٱبنُ جرموزٍ ، وهيَ في عصمتِهِ ، ثُمَّ خطبَهَا عليٌّ ، فقالتْ : أَضِنُّ بٱبنِ عمِّ رسولِ اللهِ عنِ ٱلقتلِ ، ولٰكنَّها تزوَّجتْ بٱبنِهِ الحسينِ ـ كما رُوِيَ ـ فقُتلَ عنها ، فكانَ أَهلُ ٱلمدينةِ يقولونَ بَعدُ [كما في «الطبقات» ٣/١١٢] : مَنْ أَرادَ الشهادةَ . . فليتزوَّجْ بعاتكةَ . وفي أَحاديثِها لطائِفُ ، وفي أَخبارِها نوادرُ ، وفي أَشعارِها بدائِعُ ، وبحسبِنا في هٰذا ٱلموضعِ ما أَشرنا إِليهِ .

كما تدين تدان

وأَولىٰ ما يتوسَّلُ بهِ المرءُ لتحصينِ أَهلِهِ . . التَّلَزُّمُ بالعفافِ في نفسِهِ ، وللهِ دَرُّ الخزاعيِّ ، أَو مسكينِ الدَّارِميِّ في قولِهِ [مِنَ السّريع] :

مَـا أَحْسَـنَ ٱلْغَيْـرَةَ فِـيْ حِيْنِهَـا ... وَأَقْبَـحَ ٱلْغَيْـرَةَ فِـيْ كُـلِّ حِيْـنْ
حَسْبُـكَ مِـنْ تَحْصِيْنِهَـا ضَمُّهَـا ... مِنْـكَ إِلَـىٰ خُلْـقٍ كَـرِيْـمٍ وَدِيْـنْ
لاَ تَطَّلِـعْ مِنْـكَ عَلَـىٰ عَـوْرَةٍ ... فَيَتْبَـعَ ٱلْمَقْـرُوْنُ حَبْـلَ ٱلْقَـرِيْـنْ

وفي ٱلحديثِ : « عِفُّوْا تَعِفَّ نِسَاؤُكُمْ »[1] .

وقالَ بعضُهُم [الشافعيُّ في « ديوانهِ » مِنَ الكامل] :

عِفُّوْا تَعِفَّ نِسَاؤُكُمْ فِيْ ٱلْمَحْرَمِ ... وَتَجَنَّبُـوْا مَـا لاَ يَلِيْـقُ بِمُسْلِـمِ
إِنَّ ٱلـزِّنَـا دَيْـنٌ إِذَا أَقْـرَضْتَـهُ ... كَانَ ٱلْوَفَاءُ مِنَ أَهْلِ بَيْتِكَ فَٱعْلَمِ

فالفسادُ دَينٌ يؤخذُ بهِ مِنْ أَهلِ الزاني وذرِّيَّتِهِ لا محالةَ ، ولو كانوا أَحمىٰ مِنْ جَبَهاتِ الأُسودِ ، وأَمنعَ مِنْ عُقبانِ الجوِّ ، والأَخبارُ في

(١) أخرجهُ عن عائشة الصديقة الطبرانيُّ في « الأوسط » (٢/ ٨) مطولاً .

ذلِكَ كثيرةٌ ، والعِيانُ يؤكِّدُها ، واللهُ غيورٌ علىٰ عبادِهِ ، وهوَ العدلُ في أَحكامِهِ[1] .

العفة حتى في النوم

كانَ ٱبنُ سيرينَ يقولُ : ما غشيتُ ٱمرأةً قطُّ في نومٍ ولا يقظةٍ ، غيرَ أُمِّ عبدِ اللهِ ، وإِنِّي لأَرىٰ المرأةَ لا تحِلُّ لي في المنامِ ، فأَصرفُ نظري .

الشعراء في هذا الموضوع

فأَلَمَّ بهِ الناظمُ في قولِهِ [في « العُكْبَرِيِّ » ١/٢٦٨ مِنَ الطويل] :

يَـرُدُّ يَـداً عَـنْ ثَـوْبِهَـا وَهْـوَ قَـادِرٌ وَيَعْصِيْ ٱلْهَوَىٰ فِيْ طَيْفِهَا وَهْوَ رَاقِدُ

وقالَ المعرِّيُّ [في « سقطِ الزندِ » ٦٧ مِنَ الطويل] :

كَرِيْمٌ حَلِيْمُ ٱلْجَفْنِ وَٱلنَّفْسِ لاَ يَرَىٰ إِذَا هُوَ أَغْفَىٰ مَا يَرَىٰ ٱلنَّاسُ فِيْ ٱلْحُلْمِ

وقالَ [في « سقطِ الزندِ » ٥٩ مِنَ الطويل] :

مَضَىٰ طَاهِرَ ٱلْجُثْمَانِ وَٱلنَّفْسِ وَٱلْكَرَىٰ وَسُهْدِ ٱلْمُنَىٰ وَٱلْجَيْبِ وَٱلذَّيْلِ وَٱلرُّدْنِ[2]

وقالَ ٱبنُ طَباطَبا [مِنَ الكامل] :

يَقَظَـاتُـهُ وَمَنَـامُـهُ شِـرَعٌ كُـلٌّ بِكُـلٍّ مِنْـهُ مُشْتَبِـهُ
إِنْ هَـمَّ فِـيْ حُلُـمٍ بِفَـاحِشَـةٍ زَجَـرَتْـهُ عِفَّتُـهُ فَيَنْتَبِـهُ

ولٰكنَّ التِّهاميَّ خضعَ لبعضِ القولِ ؛ إِذْ يقولُ [في « ديوانِهِ » ٣٣٦ مِنَ البسيط] :

---

(١) لِما أخرج ابن النجار في «ذيل تاريخ بغداد» عن أنس : «من زنىٰ . . زني به ولو بحيطان داره» .

(٢) الكَرَىٰ : النومُ ، ونقيضُهُ : السُّهْدُ ، وقولُهُ : سُهْدِ المنىٰ : أَي أَنَّه إِذا سَهِرَ في أَمرٍ يتمناهُ . . لَمْ يسهر إِلاَّ فيما لا تبعةَ لَهُ . الرُّدْنُ : ٱلكُمُّ .

إِنِّيْ لأَصْرِفُ نَفْسِيْ عَنْ مَحَاسِنِهَا   تَكَرُّماً وَأَكُفُّ ٱلْكَفَّ عَنْ لَمَمِ[1]
وَلاَ أَهِـمُّ وَلِـيْ نَفْـسٌ تُنَـازِعُنِـيْ   أَسْتَغْفِرُ ٱللهَ، إِلاَّ سَاعَةَ ٱلْحُلُمِ

الضيف الأعمى

نزلَ خارجيٌّ علىٰ بعضِ إخوانِهِ منهُم مستتراً مِنَ ٱلحَجَّاجِ ، فشخَصَ المنزولُ عليهِ لبعضِ شأنهِ ، وقالَ لزوجِهِ : يا ظبيا ، ٱستوصي بضيفي خيراً ، وكانتْ مِنْ أَحسنِ الناسِ وجهاً ، ولمَّا عادَ بعدَ شهرٍ . . قالَ لها : كيفَ كانَ ضيفُكِ؟ قالتْ : ما أَشغلَهُ بالعمىٰ عنْ كلِّ شيءٍ ، وكانَ أَطبقَ جفنيهِ حتَّىٰ لا يراها ، إلىٰ أَنْ عادَ زوجُها[2] .

* * *

(١) قال الشيخ عبد القادر القصاب الديرعطاني في مواعظه :
من كفَّ فكَّهْ ، وفكَّ كفَّهْ . . فذبابُ الشرِّ عنهُ كفَّهْ .

(٢) كذا في «المستطرف» (٢/ ٣٤٩) .

[قال أبو الطيِّبِ المتنبِّي في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ٢٩٥ مِنَ المنسرح]:

ظَلْتَ بِهَا تَنْطَوِيْ عَلَىٰ كَبِدٍ ... نَضِيْجَةٍ فَوْقَ خِلْبِهَا يَدُهَا

(الخِلبُ) : غشاءُ القلبِ[١] ، أَو الكبدِ .

شرح المطلع

قالَ الشارحُ : وجعلَ اليدَ نضيجةً ، وأَضافَها إِلىٰ ٱلكبدِ ؛ لأَنَّها دامَ وضعُها علىٰ الكبدِ ، فأَنضجَتْها بما فيها مِنَ ٱلحرارةِ ، فلهٰذا جازَ إِضافتُها إِليها ، والعربُ تسمِّي الشيءَ بٱسمِ غيرِهِ إِذا طالَتْ صحبتُهُ لهُ ، والإِضافةُ أَهونُ . اهـ .

رأي المؤلف

وأَقولُ : إِنَّهُ أَصابَ في بعضٍ ، وأَخطأَ في آخرَ ، أَمَّا ٱلذي أَصابَ فيهِ : فتوجيهُ إِضافةِ اليدِ إِلىٰ الكبدِ بطولِ الملابسةِ والصحبةِ .

وأَمَّا الذي أَخطأَ فيهِ : فزعمُهُ أَنَّ الناظمَ جعلَ اليدَ نضيجةً ، والحالُ أَنَّهُ لمْ يتعرَّضْ لها بنضجٍ ولا غيرِهِ ، وإِنَّما تعرَّضَ للكبدِ ، فجعلَها نضيجةً ، وهوَ المعقولُ ، والمحزونُ كثيراً ما يضعُ يدَهُ علىٰ كبدِهِ ؛ خَشيةَ الانفطارِ ممَّا يجدُهُ مِنْ حرارةِ الوجدِ ، ومثلُهُ كلُّ مَنْ فوجِئَ بعظيمٍ يُهيلُ ، ولِما فيهِ مِنَ ٱلفوائدِ يقولُ جلَّ ٱسمُهُ لموسىٰ : ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ [القصص : ٣٢] .

اصطلام النار في الأكباد

وقالَ أبنُ الدُّمَيْنَةِ [في « ديوانِهِ » مِنَ الطويل] :

عَشِيَّةَ أَثْنِيْ ٱلبُرْدَ ثُمَّ أَلُوْثُهُ ... عَلَىٰ كَبِدِيْ مِنْ خَشْيَةٍ أَنْ تَقَطَّعَا

---

(١) وفي التنزيل : يسمَّى شَغَافاً، قال تعالى : ﴿قد شغفها حباً﴾ [يوسف : ٣٠].

وقالَ [في « ديوانهِ » ١٥ مِنَ الطويل] :

لِيَهْنِكِ إِمْسَاكِيْ بِكَفِّيْ عَلَىٰ ٱلْحَشَا ... وَرَقْرَاقِ دَمْعِيْ رَهْبَةً مِنْ مَطَالِكِ

وقالَ الصِّمَّةُ بنُ عبدِ اللهِ القشيريُّ [في « ديوانهِ » ٩٦ مِنَ الطويل] :

وَأَذْكُرُ أَيَّامَ ٱلْحِمَىٰ ثُمَّ أَنْثَنِيْ ... عَلَىٰ كَبِدِيْ مِنْ خَشْيَةٍ أَنْ تَقَطَّعَا

وقالَ عمرُ ٱبنُ أَبي ربيعةَ في كتابٍ منهُ إِلىٰ الثريَّا [في « ديوانهِ » ٤٩٠ مِنْ مَجْزوءِ الوافر] :

فَيُمْسِكُ قَلْبَهُ بِيَدٍ ... وَيَمْسَحُ عَيْنَهُ بِيَدِ

وقالَ معاذُ بنُ كُليبٍ [مِنَ الطويل] :

فَقَدْ طَالَ إِمْسَاكِيْ عَلَىٰ ٱلْكَبِدِ ٱلَّتِيْ ... بِهَا مِنْ هَوَىٰ لَيْلَىٰ ٱلْغَدَاةَ صُدُوْعُ

وقالَ ٱبنُ ميَّادةَ [في « ديوانهِ » ١٣٣ مِنَ الطويل] :

عَشِيَّةَ أَثْنِيْ بِٱلرِّدَاءِ عَلَىٰ ٱلْحَشَا ... كَأَنَّ ٱلْحَشَا مِنْ دُوْنِهِ أُسْعِرَتْ جَمْرَا

وغنَّىٰ ٱلمهديَّ في قصَّةِ تطفُّلِهِ بقطعةٍ يقولُ فيها [مِنَ البسيط] :

لَهُ يَدٌ تَسْأَلُ ٱلرَّحْمَـٰنَ عَافِيَةً ... مِمَّا بِهِ وَيَدٌ أُخْرَىٰ عَلَىٰ كَبِدِهْ

وقالَ عبدُ الصمدِ بنُ المُعَذَّلِ [مِنَ السّريع] :

مُكْتَئِبٌ ذُوْ كَبِدٍ حَرَّىٰ ... تَبْكِيْ عَلَيْهِ مُقْلَةٌ عَبْرَىٰ

يَرْفَعُ يُمْنَاهُ إِلَىٰ رَبِّهِ ... يَدْعُوْ وَفَوْقَ ٱلْكَبِدِ ٱلْيُسْرَىٰ

وقالَ بعضُ الفقهاءِ عندَ خروجِهِ إِلىٰ ٱلحجِّ مِنْ (بغدادَ) ، كما ذكرَهُ ٱبنُ خلِّكانَ [في «وفيات الأعيان» ٣/ ٢٦٠ مِنَ الطويل] :

مَدَدْتُ إِلَىٰ ٱلتَّوْدِيْعِ كَفّاً مَرِيْضَةً ... وَأُخْرَىٰ عَلَىٰ ٱلرَّمْضَاءِ فَوْقَ فُؤَادِيْ

فَلاَ كَانَ هَـٰذَا ٱلْيَوْمُ آخِرَ عَهْدِنَا ... وَلاَ كَانَ ذَا ٱلتَّوْدِيعُ آخِرَ زَادِي

تكرار هذا المعنى عند المتنبي

وقدْ تكرَّرَ المعنىٰ في « ديوانِ الناظمِ » غيرَ أنّي لا أذكرُ منهُ إلاَّ ما أشارَ إليهِ الشارحُ ، وهوَ قولُهُ [في « العُكبَريّ » ٢/٣٦ مِنَ الخفيف] :

فِيهِ أَيْدِيكُمَا عَلَىٰ ٱلظَّفَرِ ٱلحُلْـ ... ـوِ وَأَيْـدِي قَـوْمٍ عَلَـىٰ ٱلأَكْبَـادِ

بيت للمؤلف في الموضوع

وممَّا أبرَّ في الموضوعِ قولي مِنْ قصيدةٍ [في « ديوان المؤلف » ق ٤٢ مِنَ الطويل] :

وَيَهْفُو بِقَلْبِيْ ٱلْوَجْدُ لَوْلاَ تَدَاوَلَتْ ... يَمِيْنِـي فِـيْ إِمْسَـاكِـهِ وَشِمَـالِـيْ

اختلاف الإشارات في التعبير

ورُبَّما وضعتِ ٱلمرأةُ يدَها علىٰ رَأْسِها ، أَو علىٰ وجهِها مِنَ ٱلخجَلِ ، أَوِ ٱلوجلِ ، ومنهُ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ [الذاريات : ٢٩] .

الملك المتواضع

وقالَ رجلٌ مِنْ بني العنبرِ، وكانَ مملَّكاً ، ورأتْهُ زوجُهُ يطحَنُ لضيفِهِ [مِنَ الطويل] :

تَقُـولُ وَصَكَّـتْ وَجْهَـهَـا بِيَمِيْنِهَـا ... أَبَعْلِيَ هَـٰذَا بِٱلرَّحَا ٱلْمُتَقَاعِسِ ؟!

لا حياء في تعلم أمور الدين

وفي « الصحيحِ » : أَنَّ ٱمرأَةً سَأَلَتْ رسولَ اللهِ ﷺ : هَلْ علىٰ المرأَةِ مِنْ غُسلٍ إِذا هيَ ٱحتلَمتْ ؟ فغطَّتْ أُمُّ سَلَمَةَ وجهَها ، وقالتْ : أَوَتحتلمُ المرأَةُ ؟ فقالَ لها رسولُ اللهِ ﷺ : « تَرِبَتْ يَمِيْنُكِ ، وَبِمَ يُشْبِهُهَا وَلَدُهَا ؟! » ، ثُمَّ قالَ للسائِلةِ : « نَعَمْ ، إِذَا رَأَتِ ٱلْمَاءَ »(١) . أَو ما يقرُبُ مِنْ هـٰذا السياقِ .

والكلامُ في ماءِ المرأةِ إيجاباً وسلْباً وصفةً . . لا يليقُ بالاستطرادِ

(١) رواه عن أم سلمة البخاري (٢٨٢) في الغسل، ومسلم (٣١٣) في الحيض .

في هٰذا المجلسِ لاقتضائِهِ التطويلَ ، فلهُ مكانُهُ ، ورأَيتُ فيهِ مِنْ زمانٍ تأليفاً للسيِّدِ أَحمدَ الحُسينيِّ المصريِّ .

النساء واختلاف التعبير عند الفزع

ويروىٰ : أَنَّ فزَعاً أَدركَ نساءً ثلاثاً ، فوضعتْ يدَها إِحداهُنَّ علىٰ ثديها ، والأُخرىٰ علىٰ بطنِها ، والثالثةُ علىٰ رَكَبِها[1] ، فقالَ بعضُ أَهلِ الأَزكانِ[2] : أَمَّا الأُولىٰ : فمرضعٌ ، وأَمَّا الثانيةُ : فحُبلىٰ ، وأَمَّا الثالثةُ : فبِكرٌ . فكانَ كما قالَ .

* * *

(١) الرَّكَبُ ـ بالتحريكِ ـ : العانةُ ، وقيلَ : منبِتُها ، وقيلَ : هو ما انحدرَ عَنِ البطنِ فكانَ تحتَ الثُّنَّةِ ، وفوقَ الفَرْجِ .
(٢) أَهلُ الأزكانِ : أَهلُ الفِراسةِ .

[قال أبو الطيِّبِ المتنبّي في « العُكْبَريّ » ١/ ٢٩٦ منَ المنْسرِح]:

يَا حَادِيَيْ عِيسِهَا وَأَحْسَبُنِيْ	أُوْجَدُ مَيْتاً قُبَيْلَ أَفْقِدُهَا
قِفَا قلِيْلاً بِهَا عَلَيَّ فَمَا	أَقَلَّ مِنْ نَظْرَةٍ أُزَوَّدُهَا

يقولُ لحُداةِ عيسِها : قفوا بها عليَّ قليلاً ؛ لأتزوَّدَ منها نظرةً ، وقدِ اعترضَ بينَ النداءِ والمنادىٰ بقولِهِ : (وأحسبُني أموتُ قُبيلَ تحرُّكِكُمْ بها) ، وهٰذا يُؤيِّدُ احتمالَ وصفِهِ حينَ الارتحالِ ، والجملةُ المعترضةُ المذكورةُ مأخوذةٌ مِنْ قولِ العربيِّ [منَ الخفيف] : شرح المطلع

لَيْسَ بَيْنَ ٱلْحَيَاةِ وَٱلْمَوْتِ إِلاَّ أَنْ يَرُدُّوا جِمَالَهُمْ فَتُزَمَّا[1]

وقدْ سمعَهُ عليُّ بنُ جعفرٍ مِنْ جاريتِهِ الشطباءِ ، فطرِبَ ، وصاحَ ، وقالَ : يا سبحانَ اللهِ! ما هٰذهِ العجلةُ ؟ ألا يُوكونَ قِربةً[2] ، ألاَ يعلِّقونَ سُفرةً[3] ، ألاَ يسلِّمونَ علىٰ جارٍ[4] ؟! لِمَ العجلة؟

والمعنىٰ متكرِّرٌ عندَ الناظمِ ؛ منه قولُهُ [في « العُكْبَريّ » ١/ ٣٢٧-٣٢٨ منَ الكامِلِ] : الشعراء والموت من الفراق

ٱلْيَوْمَ عَهْدُكُمُ فَأَيْنَ ٱلْمَوْعِدُ؟ هَيْهَاتَ لَيْسَ لِيَوْمِ عَهْدِكُمُ غَدُ

---

(١) زَمَّ البعيرَ : إذا ألبَسَهُ الزمام ، وهوَ اللجامُ .

(٢) الوكاء : الخيط الذي يشد به الكيس وغيره .

(٣) السُّفرَةُ : طعامٌ يُتخذُ للمُسافرِ ومنهُ سُمِّيَتِ السفرةُ التي يوعىٰ فيها الطعام مجازاً .

(٤) كذا في « الأغاني » (٢٤/ ٣٥٨) .

ٱلْمَوْتُ أَقْرَبُ مِخْلَباً مِنْ بَيْنِكُمْ   وَٱلْعَيْشُ أَبْعَدُ بَعْدَكُمْ لاَ تَبْعَدُوْا(١)

ولقدْ أَجادَ الحِلِّيُّ في قولِهِ [في « ديوانه » ٦١٧ منَ الطويل] :

قِفِيْ وَدِّعِيْنَا قَبْلَ وَشْكِ ٱلتَّفَرُّقِ   فَمَا أَنَا مَنْ يَحْيَا إِلَىٰ حِيْنِ نَلْتَقِيْ

وَأَلَمَّ بِهِ البُرَعيُّ في قولِهِ [في « ديوانه » ١٤١ منَ الكامل] :

أَعِدِ ٱلْوَدَاعَ فَمَا أَرَاكَ تَرَانِيْ   [وَأَطِلْ بُكَاكَ لِبَيْنِ أَهْلِ ٱلْبَانِ]

استيقاف العيس عند الشعراء

وما أكثرَ ٱستيقافَ العيسِ للتزوُّدِ بالنظرِ حينَ الوداعِ في أشعارِ العربِ ، منهُ قولُ عمرِو بنِ كُلثومٍ [في « ديوانه » ٧٨ منَ الوافر] :

قِفِيْ قَبْلَ ٱلتَّفَرُّقِ يَا ظَعِيْنَا   نُخَبِّرْكِ ٱلْيَقِيْنَ وَتُخْبِرِيْنَا

وقولُ القُطاميِّ [في « ديوانه » ٣١ منَ الوافر] :

[قِفِيْ] قَبْلَ ٱلتَّفَرُّقِ يَا ضُبَاعَا   وَلاَ يَكُ مَوْقِفٌ مِنْكِ ٱلْوَدَاعَا
قِفِيْ فَادِيْ أَسِيْرَكِ إِنَّ قَوْمِيْ   وَقَوْمَكِ لاَ أَرَىٰ لَهُمُ ٱجْتِمَاعَا

وقولُ قيسِ بنِ الخَطيمِ [في « ديوانه » ٥٣ـ٥٤ منَ المنسرح] :

رَدَّ ٱلْجِمَالَ ٱلْخَلِيْطُ فَٱنْصَرَفُوْا   مَاذَا عَلَيْهِمْ لَوَ ٱنَّهُمْ وَقَفُوْا(٢)
لَوْ وَقَفُوا سَاعَةً نُسَائِلُهُمْ   رَيْثَ يُضَحِّيْ جِمَالَهُ ٱلسَّلَفُ(٣)

أول من قال لفظة (السلف)

وأَوَّلُ ما سُمِعَتْ لفظةُ (السَّلَفِ) ٱلتي أَكثرَ الناسُ منها الآنَ مِنْ

---

(١) في «الديوانِ» و«العُكبَريِّ» : (أَبْعَدُ مِنكُمُ) بدلَ (أَبْعَدُ بَعْدَكُمْ) .
(٢) **الخليط** : المخالطُ لهم في الدارِ .
(٣) **يضحّي** : من الضحَاء وهو أن ترعى الإبل ضحىً . **السَّلَفُ** : القومُ الذين يتقدّمونَ الظُّعُنَ في السيرِ .

هٰذا الشعرِ ، ثُمَّ من قولِهِ ﷺ بعدَ مُواراةِ عثمانَ بنِ مظعونٍ : « نِعْمَ ٱلسَّلَفُ »[1] .

تفسير السلف

وفي بابِ الأَذانِ مِنْ « حاشيةِ البجيرميِّ علىٰ فتحِ الوهَّابِ » تفسيرُ السَّلَفِ بالصحابةِ ، والخَلَفِ بمَنْ بعدَهُمْ ، وقالَ بعضُهُم : السلفُ مَنْ قبلَ الأَربعِ مئةٍ ، والخَلَفُ مَنْ بَعدَهُمْ .

وفي بابِ الجماعةِ منها : أَنَّ السلفَ هُم أَهلُ القرونِ الثلاثةِ الأُوَلِ ، والخَلَفُ مَنْ بعدَهُم .

والبيتانِ مِنْ كلمةِ شاعرةٍ لقيسٍ ، وكانَ رجلاً شجاعاً ، جميلَ المنظرِ ، برَّاقَ الثنايا ، ما رأَتْهُ حليلةُ رجلٍ قطُّ إِلاَّ ذهبَ عقلُها ، وتمنَّتْ أَنْ يكونَ لها قِياضاً عن صاحبِها ، وكانَ يقسِمُ أَيَّامَهُ ثلاثاً ، يوماً : يحكُمُ بينَ قومِهِ ، ويوماً : ينشدُ شعرَهُ ، ويوماً : ينظرُ في المرآةِ إِلىٰ جمالِهِ .

وقالَ ٱبنُ الدُّمَيْنَةِ فيما نحنُ بسبيلِهِ [في « ديوانهِ » ١٣ منَ الطويل] :

قِفِي قَبْلَ وَشْكِ ٱلْبَيْنِ يَا ٱبْنَةَ مَالِكِ ... وَلاَ تَحْرِمِينَا نَظْرَةً مِنْ جَمَالِكِ
قِفِي يَا أُمَيْمَ ٱلْقَلْبِ نَقْضِ لُبَانَةً ... وَنَشْكُوْ ٱلْهَوَىٰ ثُمَّ ٱفْعَلِيْ مَا بَدَا لَكِ[2]

طلبُ وجيه

قالَ حبيبٌ [أبو تمّام في « ديوانهِ » ٢٤٢ منَ الكامل] :

مَا فِيْ وُقُوْفِكِ سَاعَةً مِنْ بَاسِ ... تَقْضِـيْ ذِمَـامَ ٱلأَرْبُـعِ ٱلأَدْرَاسِ

قالَ أَبو عبادةَ [منَ الخفيف] :

مَا عَلَىٰ ٱلرَّكْبِ مِنْ وُقُوْفِ ٱلرِّكَابِ ... فِيْ مَغَانِيْ ٱلصِّبَا وَرَسْمِ ٱلتَّصَابِيْ

---

(١) ومثله في دعاء الميت: «واجعله لنا سلفاً» قيل: هو من سلف المال، كأنه قد أسلفه وجعله ثمناً للأجر والثواب الذي يجازى على الصبر عليه.
(٢) اللُّبَانَةُ : الحاجةُ .

ولئنْ خرجَ هٰذان عنْ خصوصِ الاستيقافِ يومَ الرحيلِ . . فقد دخلا في عمومِهِ الشاملِ ؛ لقولِ ذِي الرُّمَّةِ [منَ الوافر] :

تَمَامُ ٱلْحَجِّ أَنْ تَقِفَ ٱلْمَطَايَا ... عَلَىٰ خَرْقَاءَ وَاضِعَةَ ٱللِّثَامِ

نرجو من الله تعالى

وقالَ البغداديُّ [ابن زريقٍ في « ديوانه » منَ البسيط] :

وَٱعْطِفْ عَلَيَّ ٱلْمَطَايَا سَاعَةً فَعَسَىٰ ... مَنْ شَتَّ شَمْلَ ٱلْهَوَىٰ بِٱلْبَيْنِ يَجْمَعُهُ

وقالَ الأندلسيُّ [إسماعيل بن محمد الشقندي في «نفح الطيب» ٣/ ٢٣٣ منَ البسيط] :

اسْتَوْقِفِ ٱلرَّكْبَ قَدْ لاَحَتْ لَكَ ٱلدَّارُ ... وَٱسْأَلْ بِرَبْعٍ تَنَاءَتْ عَنْهُ أَقْمَارُ

لاَ خَفَّفَ ٱللهُ عَنِّيْ بَعْدَ بُعْدِهِمُ ... فَإِنَّنِيْ سِرْتُ وَٱلأَحْبَابُ مَا سَارُوْا

ما سبب التفات المسافر العربي؟

ومِنْ مذاهبِ العربِ : ٱلتفاتُ المسافرِ رجاءَ العودِ .

قالَ شاعرُهُم [منَ الطويل] :

تَلَفَّتُّ أَرْجُوْ رَجْعَةً بَعْدَ نِيَّةٍ ... فَكَانَ ٱلْتِفَاتِيْ زَائِداً فِيْ بَلاَئِيَا

ومنهُ قولُ الشريفِ الرضيِّ [في « ديوانهِ » منَ الكامل] :

وَلَقَدْ مَرَرْتُ عَلَىٰ طُلُوْلِهِمُ ... وَرُسُوْمُهَا بِيَدِ ٱلْبِلَىٰ نُهْبُ

فَوَقَفْتُ حَتَّىٰ ضَجَّ مِنْ لَغَبٍ ... نِضْوِيْ وَلَجَّ بِعَذْلِيَ ٱلرَّكْبُ

وَتَلَفَّتَتْ عَيْنِيْ وَمُذْ خَفِيَتْ ... عَنِّيْ ٱلطُّلُوْلُ تَلَفَّتَ ٱلْقَلْبُ

وقيلَ : إِنَّهُ لم يقصدِ ٱلتفاؤُلَ للرجوعِ ؛ إِذْ لا فائدةَ فيهِ ، وقدْ صارتْ نُهْباً بيدِ البِلىٰ ، وإِنَّما حملَهُ عليهِ فَرْطُ الوجْدِ ، وأَلَمُ التحسُّرِ .

وقد مرَّ بعضُهُم بديارِ الشريفِ الرضيِّ ، فتمثَّلَ بالأَبياتِ ؛ إِذْ رآها خاويةً علىٰ عُروشِها ، وعليها سِمَةُ الشرَفِ ، وأَثارَةُ العِزِّ ، وهوَ لا يدري بصاحبِ الديارِ ، ولا بأَنَّهُ قائلُ الأَبياتِ ، فكانَ مِنْ بدائعِ الاتِّفاقِ . من بدائع الاتفاق

وقالَ الصِّمَّةُ بنُ عبدِ اللهِ القشيريُّ [في « ديوانه » ٩٤ منَ الطويل] : أنت مسكين يا صمة

تَلَفَّتُّ نَحْوَ ٱلْحَيِّ حَتَّىٰ وَجَدْتُنِيْ وَجِعْتُ مِنَ ٱلإِصْغَاءِ لِيْتاً وَأَخْدَعَا(١)

مِنْ قصيدةٍ لهُ فخمةِ اللفظِ ، منقَّحَةِ المعنىٰ ، قالَها حينَ تعنَّتَ عليهِ عمُّهُ وردَّهُ عن بنتِهِ ريَّا ، وكانَ قدْ جمعَ الإبلَ المعَيَّنَةَ لجَهازِها ، فلمَّا آيسَهُ عمُّهُ . . أَطلقَ عُقُلَها ، وضرَبَها ، فعادَ كلُّ بعيرٍ إِلىٰ أَهلِهِ ، فقالتْ مخطوبَتُهُ : ما رأَيتُ كاليومِ رجلاً ضيَّعَهُ قومُهُ(٢) !

ومطلعُ القصيدةِ [في « ديوانه » ٩٤ منَ الطويل] :

حَنَنْتَ إِلَىٰ رَيَّا وَنَفْسُكَ بَاعَدَتْ مَزَارَكَ مِنْ رَيَّا وَشَعْبَاكُمَا مَعَا

ويأتي بعضُها في غضونِ هـٰذهِ المجالسِ بحَسَبِ المناسباتِ ، وهيَ مِنْ أَعذبِ الشعرِ وأَشجاهُ ، وقد مرَّ في المجلسِ الأَوَّلِ ما يشيرُ إِلىٰ بعضِ هـٰذا .

وقالَ آخرُ [منَ الطويل] :

لَحَظْنَاهُمُ حَتَّىٰ كَأَنَّ عُيُونَنَا بِهَا لَقْوَةٌ مِنْ شِدَّةِ ٱللَّحَظَانِ(٣)

---

(١) اللِّيْتُ : صفحةُ العنقِ . الأَخدعانِ : عرقانِ خفيَّانِ في موضعِ الحجامةِ مِنَ العنقِ .

(٢) « ديوان الحماسة » (٢/ ٦٢) .

(٣) اللَّقْوَةُ : داءٌ يكونُ في الوجهِ يَعْوَجُّ منهُ الشِّدْقُ .

الألم ساعة الوداع عند الشعراء

وأَمَّا ٱلشكايةُ مِنْ أَلَمِ النوىٰ ساعةَ الوداعِ : فممَّا لا يُحصىٰ كثْرَةً في أَشعارِهِم ، ومنهُ قولُ ٱمرىءِ القيسِ [في « ديوانهِ » ١٤٤ منَ الطويل] :

كَـأَنِّـيْ غَـدَاةَ ٱلْبَيْـنِ يَـوْمَ تَحَمَّلُـوْا لَدَىٰ سَمُرَاتِ ٱلْحَيِّ نَاقِفُ حَنْظَلِ(١)

وهوَ متكرِّرٌ عندَ الناظمِ ؛ منهُ قولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٢/ ٢٣٥ منَ الطويل] :

حُشَاشَةَ نَفسٍ وَدَّعَتْ يَوْمَ وَدَّعُوْا فَلَـمْ أَدْرِ أَيَّ ٱلظَّـاعِنَيْـنِ أُشَيِّـعُ

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٤/ ٧ـ٨ منَ الكامل] :

قَدْ كُنْتَ تَهْزَأُ بِٱلْفِرَاقِ مَجَانَةً وَتَجُـرُّ ذَيْلَـيْ شِـرَّةٍ وَعُـرَامِ(٢)
لَيْسَ ٱلْقِبَابُ عَلَىٰ ٱلرِّكَابِ وَإِنَّمَا هُنَّ ٱلْحَيَاةُ تَرَحَّلَتْ بِسَلاَمِ(٣)
مُتَلاَحِظَيْنَ نَسُحُّ مَاءَ شُؤُوْنِنَا حَذَراً مِنَ ٱلرُّقَبَاءِ فِيْ ٱلآكَامِ(٤)
أَرْوَاحُنَا ٱنْهَمَلَتْ وَعِشْنَا بَعْدَهَا مِنْ بَعْدِ مَا قَطَرَتْ عَلَىٰ ٱلأَقْدَامِ

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٢/ ٢٥٩ منَ الكامل] :

أَرَكَـائِـبَ ٱلأَحْبَـابِ إِنَّ ٱلأَدْمُعَـا تَطِسُ ٱلْخُدُوْدَ كَمَا تَطِسْنَ ٱلْيَرْمَعَا(٥)

---

(١) غداةَ البينِ : صبيحةَ الفراقِ . السَّمُرَاتِ : شجرٌ في الحي ، جمع سَمُرة . ناقف الحنظل : أشقُّ الحنظل فَتدمعُ عينايَ ؛ لشدةِ مرارتهِ ؛ لأنَّ مَن يَشُقُّهُ يَجدُ أثرَ مرارتهِ في حلقهِ وأنفهِ وعينيهِ .

(٢) المَجَانةُ : الخلاعةُ . الشِّرَّةُ : الحدَّةُ والنشاطُ . العُرَامُ : الشدَّةُ والقوَّةُ والشراسةُ .

(٣) القبابُ : الهوادجُ . الركابُ : الإبلُ .

(٤) السَّحُّ : السكبُ المتتابع . الشؤونُ ـ جمعُ شَأْنٍ ـ : وهو مجرىٰ الدمعِ . الآكامُ ـ جمعُ أَكَمةٍ ـ : وهي القُفُّ مِنْ حجارةٍ واحدةٍ ، وقيلَ : هو دونَ الجبالِ ، وفي «الديوان» : (نَسُحُّ) بدل (نَسُح) ، و(ٱلأَكْمَامِ) بدل (ٱلآكَامِ) .

(٥) وَطَسَ الشيءَ : كسرَهُ ودقَّهُ . اليَرْمَعُ : حجارةٌ بيضٌ صغارٌ رخوةٌ .

فَٱعْرِفْنَ مَنْ حَمَلَتْ عَلَيْكُنَّ ٱلنَّوَىٰ   وَٱمْشِيْنَ هَوْناً فِيْ ٱلأَزِمَّةِ خُضَّعَا[1]
قَدْ كَانَ يَمْنَعُنِيْ ٱلْحَيَاءُ مِنَ ٱلْبُكَا   فَـٱلْيَـوْمَ يَمْنَعُـهُ ٱلْبُكَـا أَنْ يَمْنَعَـا

والأخيرُ مِنْ خالصِ الشعرِ ، ومختارِ الكلامِ ، وكنتُ أظنُّهُ مِنْ مخترعاتِهِ ، حَتَّىٰ رَأَيْتُ أَبا ذؤيبِ الهُذليَّ سبقهُ إِلَىٰ بعضِهِ في قولِهِ [في « ديوانه » ١٤٦ منَ الكامل] :

وَلَقَـدْ أَرَىٰ أَنَّ ٱلْبُكَـاءَ سَفَـاهَـةٌ   وَلَسَوْفَ يُوْلَعُ بِٱلْبُكَا مَنْ يُفْجَعُ

وٱقتفاهُ ٱبنُ مُطَيرٍ ، حيثُ يقولُ ـ مِنْ كلمةٍ لهُ مؤنَّقةٍ ـ [في « ديوانه » ٤٩ منَ الطويل] :

وَكُنْتُ أَذُوْدُ ٱلْعَيْنَ أَنْ تَرِدَ ٱلْبُكَا   فَقَدْ وَرَدَتْ مَا كُنْتُ عَنْهُ أَذُوْدُهَا

ولا يبعدُ عنهُ قولُ كُثيِّرٍ [في « ديوانه » ٩٥ منَ الطويل] :

وَمَا كُنْتُ أَدْرِيْ قَبْلَ عَزَّةَ مَا ٱلْبُكَا   وَلاَ مُوْجِعَاتِ ٱلدَّهْرِ حَتَّىٰ تَوَلَّتِ

وقولُ المجنونِ [منَ الطويل] :

وَأَبْكَيْتُمَانِيْ وَسْطَ صَحْبِيْ وَلَمْ أَكُنْ   أُبَالِيْ دُمُوْعَ ٱلْعَيْنِ لَوْ كُنْتُ خَالِيَا

ويأتي بعضُ ما يشبِهُهُ في شرحِ قولِهِ [في « العُكبَريّ » ١/٣٠٨ منَ المنسرح] :

أَصْبَـحَ حُسَّـادُهُ وَأَنْفُسُهُـمْ   يُحْـدِرُهَـا خَـوْفُـهُ وَيُصْعِـدُهَـا

وقُبيلَ قولِهِ [في « العُكبَريّ » ٤/ ٣٤ منَ الطويل] :

فَثِـبْ ـ وَاثِقـاً بِـٱللهِ ـ وِثْبَـةَ مَـاجِـدٍ   يَرَىٰ ٱلْمَوْتَ فِيْ ٱلْهَيْجَا جَنَىٰ ٱلنَّحْلِ فِيْ ٱلْفَمِ

---

(١) الأَزِمَّةُ ـ جمعُ الزِّمام ـ : وهو الحبلُ الذي يجعلُ في البُرَةِ والخشبةِ ، وفي عنقِ البعيرِ .

وفي الموضوعِ قولُهُ [في «العُكْبَرِيّ» ١/ ٢٢٥ منَ الكامل] :

يَسْتَاقُ عِيْسَهُمُ أَنِيْنِي خَلْفَهَا تَتَوَهَّمُ الزَّفَرَاتِ رَجْعَ حُدَاتِهَا[١]

وقولُهُ [في «العُكْبَرِيّ» ١/ ٢٤٦ منَ الكامل] :

لَمَّا تَقَطَّعَتِ الْحُمُوْلُ تَقَطَّعَتْ نَفْسِيْ أَسىً وَكَأَنَّهُنَّ طُلُوْحُ[٢]

وَجَلاَ الْوَدَاعُ مِنَ الْحَبِيْبِ مَحَاسِناً حُسْنُ الْعِزَاءِ وَقَدْ جُلِيْنَ قَبِيْحُ

وقولُهُ [في «العُكْبَرِيّ» ٢/ ١١٥ منَ البسيط] :

وَكَاتِمُ الْحُبِّ يَوْمَ الْبَيْنِ مُنْهَتِكٌ وَصَاحِبُ الدَّمْعِ لاَ تَخْفَى سَرَائِرُهُ

وقولُهُ [في «العُكْبَرِيّ» ٢/ ١٦٢ منَ الكامل] :

قَدْ كُنْتُ أَحْذَرُ بَيْنَهُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَوْ كَانَ يَنْفَعُ حَائِناً أَنْ يَحْذَرَا[٣]

وقولُهُ [في «العُكْبَرِيّ» ٢/ ١٩٤ منَ الكامل] :

إِنْ كُنْتِ ظَاعِنَةً فَإِنَّ مَدَامِعِيْ تَكْفِيْ مَزَاوِدَكُمْ وَتُرْوِيْ الْعِيْسَا[٤]

---

(١) في «الديوان» : (زَجْرَ) بدل (رَجْعَ) . الحُداة : هم المغنُّونَ خلفَ الإبلِ .

(٢) الطُّلُوحُ ـ جمعُ طَلْحٍ ـ : وهي شجرةٌ حجازيَّةٌ ، جَناتُها كجناةِ السَّمُرَةِ ، ولها شوكٌ أَحْجَنُ ، ومنابِتُها بطونُ الأوديةِ ، وهيَ أعظمُ العِضَاهِ شوكاً ، وأصلبُها عوداً ، وأجودُها صَمْغاً ، والطلح أيضاً : الموز .

(٣) المعنى : كنت أحذر فراقهم قبل وقوعه ولكن الهالك لا ينفعه الحذر ، وفي «الديوان» : (خَائِفًا) بدل (حَائِنًا) والصواب ما هو مثبت .

(٤) مَزَاوِدَكم ـ جمع مِزْوَدٍ ـ : وهو وعاءٌ يجعلُ فيهِ الزادُ ، أو وعاءُ الماءِ الذي يُتزوَّدُ للسفرِ ، وهو المرادُ هنا . وفي «الديوان» و«العكبري» : (مَزَادَكُمْ) بدل (مَزَاوِدَكُمْ) .

وقولُهُ [في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ٢٩٥ منَ الوافر] :

نَظَرْتُ إِلَيْهِمُ وَٱلْعَيْنُ شَكْرَىٰ   فَصَارَتْ كُلُّهَا لِلدَّمْعِ مَاقَا[1]

وقولُهُ [في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ٣٠٧ـ٣٠٨ منَ الطويل] :

وَلَمْ أَرَ كَٱلأَلْحَاظِ يَوْمَ رَحِيْلِهِمْ   بَعَثْنَ بِكُلِّ ٱلْقَتْلِ مِنْ كُلِّ مُشْفِقِ
أَدَرْنَ عُيُوْناً حَائِرَاتٍ كَأَنَّهَا   مُرَكَّبَةٌ أَحْدَاقُهَا فَوْقَ زِئْبَقِ
عَشِيَّةَ يَعْدُوْنَا عَنِ ٱلنَّظَرِ ٱلْبُكَا   وَعَنْ لَذَّةِ ٱلتَّوْدِيْعِ خَوْفُ ٱلتَّفَرُّقِ

وقولُهُ [في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ٣٤١ منَ الطويل] :

هُوَ ٱلْبَيْنُ حَتَّىٰ مَا تَأَنَّىٰ ٱلْحَزَائِقُ   وَيَا قَلْبُ حَتَّىٰ أَنْتَ مِمَّنْ أُفَارِقُ[2]
وَقَفْنَا ومِمَّا زَادَ بَثّاً وُقُوفُنَا   فَرِيْقَيْ هَوىً: مِنَّا مَشُوْقٌ وَشَائِقُ

وقولُهُ [في « العُكبَرِيِّ » ٣/ ٢٢١ـ٢٢٢ منَ الوافر] :

بِقَائِيْ شَاءَ لَيسَ هُمُ ٱرْتِحَالاَ   وَحُسْنَ ٱلصَّبْرِ زَمُّوْا لاَ ٱلْجِمَالاَ
تَوَلَّوْا بَغْتَةً فَكَأَنَّ بَيْناً   تَهَيَّبَنِيْ فَفَاجَأَنِيْ ٱغْتِيَالاَ
كَأَنَّ ٱلْعِيْسَ كَانَتْ فَوْقَ جَفْنِيْ   مُنَاخَاتٍ فَلَمَّا ثُرْنَ سَالاَ

وقولُهُ [في « العُكبَرِيِّ » ٣/ ٢٣٤ منَ الكامل] :

حِدَقُ ٱلْحِسَانِ مِنَ ٱلْغَوَانِيْ هِجْنَ لِيْ   يَوْمَ ٱلْفِرَاقِ صَبَابَةً وَغَلِيْلا[3]

---

(١) العينُ الشكرىٰ : الممتلئةُ بالدمعِ . المَاقُ : طرفُ العينِ مِمَّا يلي الأنفَ وهو مخرجُ الدمعِ مِنَ العينِ .
(٢) تأنّىٰ : تمهَّلَ وترفَّقَ. الحَزَائقُ : الجماعةُ مِنَ الناسِ .
(٣) الغليلُ والغُلَّةُ : شدَّةُ العطشِ وحرارتُهُ .

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيّ » ٤/ ٢٢٠ منَ البسيط] :

قَدْ عَلَّمَ ٱلْبَيْنُ مِنَّا ٱلْبَيْنَ أَجْفَانَا   تَدْمَىٰ وَأَلَّفَ فِيْ ذَا ٱلْقَلْبِ أَحْزَانَا

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيّ » ٤/١٩٦ منَ الكامل] :

بِنَّـا فَلَـوْ حَلَّيْتَنَـا لَـمْ تَـدْرِ مَـا   أَلْـوَانُنَـا مِمَّـا ٱمْتُقِعْـنَ تَلَـوُّنَـا(١)
أَفْـدِيْ ٱلْمُـوَدِّعَـةَ ٱلَّتِـيْ أَتْبَعْتُهَـا   نَظَـراً فُـرَادَىٰ بَيْـنَ زَفْـرَاتٍ ثُنَـا

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيّ » ١/ ٣٤٢ منَ المتقارب] :

فَـوَاحَسْـرَتَـا مَـا أَمَـرَّ ٱلْفِـرَاقَ   وَأَعْلَـقَ نِيْـرَانَـهُ بِـالْكُبُـوْدِ

ويعجبُني قولُ بعضِهِم في شكوىٰ الفِراقِ [منَ الخفيف] :

إِنَّ يَـوْمَ ٱلْـوَدَاعِ قَطَّـعَ قَلْبِـيْ   قَطَّـعَ ٱللهُ قَلْـبَ يَـوْمِ ٱلْـوَدَاعِ

وقولُ الآخرِ [منَ الكامل] :

وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّهُمْ نَذَرُوْا دَمِيْ   أَوَلِيْ دَمٌ يَوْمَ ٱلْفِرَاقِ يُرَاقُ ؟!

وقولُ ٱبنِ الفارضِ [في « ديوانِهِ » ١٥٢ منَ الكامل] :

وَبِمَا جَرَىٰ فِيْ مَوْقِفِ ٱلتَّوْدِيْعِ مِنْ   أَلَمِ ٱلنَّوَىٰ شَاهَدْتُ هَوْلَ ٱلْمَوْقِفِ

وقولُ ٱبنِ عبدِ ربِّهِ [في « ديوانِهِ » ١٤٠ منَ الخفيف] :

وَدَّعَتْنِـيْ بِـزَفْـرَةٍ وَٱعْتِنَـاقِ   ثُمَّ قَالَتْ مَتَىٰ يَكُوْنُ ٱلتَّلَاقِيْ؟
إِنَّ يَـوْمَ ٱلْفِـرَاقِ أَفْظَـعُ يَـوْمٍ   لَيْتَنِـيْ مِـتُّ قَبْـلَ يَـوْمِ ٱلْفِـرَاقِ

(١) حلَّيتنا: وصفتنا. امتُقِعَ: تغيَّرَ لونُهُ مِنْ حُزنٍ أَو فزعٍ أَو حياءٍ. وفي «الديوان»: (بِتْنَا) بدل (بِنَّا)، و(ٱسْتُفِعْنَ) بدل (ٱمْتُقِعْنَ). ومعنى البيت: تفرَّقنا، فلِعِظَم ما نالنا من ألم الفراق، لو أردت أن تصفنا.. ما قدرت؛ لتغيُّر أوصافنا، فكنت لا تدري بأي لون تصفنا.

ومِنْ أَرقِّ ما فيهِ ، وأَبعثِهِ للأَشجانِ ، وتحريكِهِ للبلابلِ : قولُ [ٱبْنِ] اللَّبَّانَةِ في توديعِ المعتمدِ بنِ عبَّادٍ ، وهوَ [منَ البسيط] :

تـوديـع ابـن اللبـانـة للمعتمد بن عباد

تَبْكِيْ ٱلسَّمَاءُ بِدَمْعٍ رَائِحٍ غَادِيْ ... عَلَىٰ ٱلْبَهَالِيْلِ مِنْ أَبْنَاءِ عَبَّادِ
عَلَىٰ ٱلْجِبَالِ ٱلَّتِيْ هُدَّتْ قَوَاعِدُهَا ... وَكَانَتِ ٱلأَرْضُ مِنْهُمْ ذَاتَ أَوْتَادِ
عِرِّيْسَةٌ دَخَلَتْهَا ٱلنَّائِبَاتُ عَلَىٰ ... أَسَاوِدٍ مِنْهُمُ فِيْهَا وَآسَادِ(١)
وَكَعْبَةٌ كَانَتِ ٱلآمَالُ تَخْدِمُهَا ... وَٱلْيَوْمَ لاَ عَاكِفٌ فِيْهَا وَلاَ بَادِيْ
يَا ضَيْفُ أَقْفَرَ بَيْتُ ٱلْمَكْرُمَاتِ فَخُذْ ... فِيْ ضَمِّ شَمْلِكَ وَٱجْمَعْ فَضْلَةَ ٱلزَّادِ
لَمَّا دَنَا ٱلْوَقْتُ لَمْ تُخْلَفْ لَهُ عِدَةٌ ... وَكُلُّ شَيْءٍ بِمِيْقَاتٍ وَمِيْعَادِ
إِنْ يُغْلَبُوْا فَبَنُوْ ٱلْعَبَّاسِ قَدْ غُلِبُوْا ... وَقَدْ خَلَتْ قَبْلَ حِمْصٍ أَرْضُ بَغْدَادِ
نُسِيْتُ إِلاَّ غَدَاةَ ٱلنَّهْرِ يَوْمَ غَدَوْا ... فِيْ ٱلْمُنْشَآتِ كَأَمْوَاتٍ بِأَلْحَادِ
وَٱلنَّاسُ قَدْ مَلَؤُوْا ٱلْعِبْرَيْنِ وَٱعْتَبَرُوْا ... وَأَرْسَلُوْا ٱلدَّمْعَ حَتَّىٰ فَاضَ فِيْ ٱلْوَادِيْ(٢)
حَانَ ٱلْوَدَاعُ فَضَجَّتْ كُلُّ صَارِخَةٍ ... وَصَارِخٍ مِنْ مُفَدَّاتٍ وَمِنْ فَادِيْ
سَارَتْ سَفَائِنُهُمْ وَٱلنَّوْحُ يَتْبَعُهَا ... كَأَنَّهَا إِبِلٌ يَحْدُوْ بِهَا ٱلْحَادِيْ
كَمْ سَالَ فِيْ ٱلْمَاءِ مِنْ دَمْعٍ وَكَمْ حَمَلَتْ ... تِلْكَ ٱلْقَطَائِعُ مِنْ أَفْلاَذِ أَكْبَادِ

وفي وصفِ ذلِكَ اليومِ بعينِهِ يقولُ ٱبنُ حَمْدِيْسَ [في « ديوانهِ » ٢٦٩ منَ الطويل] :

وَلَمَّا رَحَلْتُمْ بِٱلنَّدَىٰ فِيْ أَكُفِّكُمْ ... وَقُلْقِلَ رَضْوَىٰ مِنْكُمُ وَثَبِيْرُ(٣)

---

(١) العِرِّيسَةُ : مأوى الأسد .
(٢) العِبَرين : طَرَفا النهر .
(٣) قلقلَ : اضطرب . رضوى : اسمُ جبلٍ بـ(المدينةِ) ، و ثبيرُ : اسمُ جبلٍ بين (مكةَ) و(منى)، ومنه قيل: أشرق ثبير كما نغير .

رَفَعْتُ لِسَانِيَ بِالْقِيَامَةِ قَدْ دَنَتْ فَهَـٰذِي ٱلْجِبَالُ ٱلرَّاسِيَاتُ تَسِيرُ

وقد نظرَ فيهِ إلىٰ قولِ ٱبنِ المعتزِّ في رِثاءِ ٱبنِ الفراتِ [في « ديوانه » ٣٢٦ منَ السّريع] :

هَـٰذَا أَبُو ٱلْعَبَّاسِ فِيْ نَعْشِـهِ قُومُوْا ٱنْظُرُوْا كَيْفَ تَسِيرُ ٱلْجِبَالْ

وأَغارَ عليهِ الناظمُ في قولِهِ [في « العُكْبَرِيّ » ١٢٩/٢ منَ الكامل] :

مَا كُنْتُ آمُلُ قَبْلَ نَعْشِكَ أَنْ أَرَىٰ رَضْوَىٰ عَلَىٰ أَيْدِيْ ٱلرِّجَالِ تَسِيْرُ

ومَنِ ٱلذي لا تهيجُ أَشجانُهُ ، ولا تضطربُ أَحزانُهُ ، ولا تضطرمُ نيرانُهُ عندَما يسمعُ قولَ ٱبنِ درَّاجٍ ، وقد عزمَ علىٰ المسيرِ ، وخنقَهُ وزوجَهُ الشهيقُ والزفيرُ [في « ديوانهِ » ٢٥٠ منَ الطويل] : ابن درّاج وزوجته

تُـرَاجِعُنِـيْ عَهْـدَ ٱلْمَـوَدَّةِ وَٱلْهَـوَىٰ وَفِيْ ٱلْمَهْدِ مَبْغُوْمُ ٱلنِّدَاءِ صَغِيْرُ(١)
عَيِـيٌّ بِمَـرْجُـوْعِ ٱلْخِطَـابِ وَإِنَّـهُ بِمَوْقِعِ أَهْوَاءِ [ٱلنُّفُوْسِ] خَبِيْرُ

وقولَ ٱبنِ زُرَيقٍ [البغداديِّ في « ديوانهِ » منَ البسيط] : لله درك يا ابن زريق

وَكَمْ تَشَبَّثَ بِيْ يَوْمَ ٱلرَّحِيْلِ ضُحىً وَأَدْمُعِـيْ مُستَهِـلاَّتٌ وَأَدْمُعُـهُ
وَكَـمْ تَشَفَّـعَ بِـيْ أَلاَّ أُفَـارِقَـهُ وَلِلضَّـرُوْرَاتِ حَـالٌ مَـا يُشَفِّعُـهُ

ولا نبخسُ الشيخَ البُرعيَّ حقَّهُ مِنَ الرقَّةِ والعذُوبَةِ في أَمثالِ قولِهِ [في « ديوانهِ » ١١١ منَ الكامل] :

بِأَبِيْ مُوَدِّعَةٌ تَخَافَتَ صَوْتُهَا خَوْفَ ٱلرَّقِيْبِ وَعَيْنُهَا تَتَمَالاَ
قَالَتْ: تُوَدِّعُنَا ، فَقُلْتُ لَهَا: نَعَمْ قَالَتْ : فَتَنْسَانَا ، فَقُلْتُ لَهَا : لاَ

---

(١) البَغْمُ : الصوتُ الرخيمُ .

وقالَ شيخُنا العلاَّمةُ أبو بكرِ بنُ شهابٍ مِنْ قصيدةٍ تخلَّصَ فيها إلى مدحِ جدِّي ٱلمُحسنِ [منَ الوافر] :

وَلَمْ أَنسَ ٱلْوَدَاعَ وَمَا جَرَىٰ لِيْ ... غَـدَاةَ ٱلْبَيْـنِ إِذْ عَـزَّ ٱلْمَقَـامُ
بَكَتْ خَوْفَ ٱلنَّوَىٰ وَبَكَيْتُ قَهْراً ... دَمـاً فَبِهَـا وَبِـيْ لَعِـبَ ٱلْغَـرَامُ
تَبُثُّ إِلَـيَّ شَكْـوَاهَـا فَـأَشْكُـوْ ... إِلَيْهَـا وَٱلـدُّمُـوْعُ لَهَـا ٱنْسِجَـامُ
وَقَالَتْ لِيْ: أَتَرْجِعُ عَنْ قَرِيْبٍ ؟ ... فَقُلْـتُ : نَعَـمْ وَلِلـدَّهْـرِ ٱحْتِكَـامُ

وكمْ لي فيهِ مِنْ مثيرِ غرامٍ ، ومدجَّجٍ ضرامٍ ، منهُ قولي [في « ديوان المؤلف » ٥٢٥ منَ الطويل] : قصيدة للمؤلف في الموضوع

تَذَكَّرْتُ شَرْقِيَّ ٱلْحِمَىٰ مَنْبِتَ ٱلأَثْلِ ... وَمَا أَصْعَبَ ٱلذِّكْرَىٰ عَلَىٰ ذِيْ ٱلْوَفَا مِثْلِي[1]
مَشَـارِفُ مَـا فِيْهِـنَّ لِلْعَيْـنِ مَنْظَـرٌ ... يَرُوْقُ سِوَىٰ شَيْءٍ مِنَ ٱلسِّدْرِ وَٱلنَّخْلِ
فَمَا زَرْعُهَا زَاكٍ وَلاَ ثَمَّ قَاطِنٌ ... بِهَا غَيْرُ شَاكٍ قِلَّةَ ٱلأَمْنِ وَٱلْعَدْلِ
وَلَٰكِنَّ فِيْهَا نَشْأَتِيْ وَوِلاَدَتِيْ ... وَخَلَّفْتُ فِيْهَا صِبْيَتِيْ وَبِهَا أَهْلِي
فَمَـا فِـي بِـلاَدِ ٱللهِ أَرْضٌ كَمِثْلِهَـا ... لَدَيَّ عَلَىٰ تِلْكَ ٱلْمَخَاوِفِ وَٱلأَزْلِ[2]
وَلَمْ أَنسَ فِيْ يَوْمِ ٱلْوَدَاعِ مَوَاقِفاً ... لَوَاعِجُهَا فِيْ ٱلْقَلْبِ أَشْوَىٰ مِنَ ٱلثُّكْلِ
تُـرَاجِعُنِـيْ فِيْهَـا ٱلْهَـوَىٰ أُمُّ شَـادِنٍ ... وَأَجْفَانُهَا تَجْرِيْ وَأَشْجَانُهَا تَغْلِي[3]
وَتَلْـوِيْ بِلِيْتَيْهَـا مَخَـافَـةَ طِفْلَـةٍ ... تَرَىٰ مَا بِهَا مِنْ حَسْرَةِ ٱلْبَيْنِ أَوْ طِفْلِ
تَصُـدُّ لإِيْهَـامِ ٱلأُطَيْفَـالِ تَـارَةً ... وَتُقْبِـلُ أَحْيَـانـاً بِفَـوَّارَتَـيْ وَبْـلِ[4]

---

(١) الأَثْلُ : نوعٌ من أجود الشجر .
(٢) الأَزْلُ : الضيقُ والشدَّةُ .
(٣) الشَّادنُ : من أولاد الظباء الذي قويَ وطلعَ قرناهُ وٱستغنىٰ عن أُمِّهِ .
(٤) فوَّارتا الوبل : المراد بهما العيونُ الدَّامعةُ .

وَيَمْنَعُهَا سَوْقَ ٱلْمَقَالِ نَشِيجُهَا   سِوَىٰ كَلِمَاتٍ سَاقَطَتْهَا عَلَىٰ رِسْلِ
تَقُولُ إِلَىٰ أَيْنَ ٱلسُّرَىٰ بَعْدَمَا تَرَىٰ   فَلَيْسَ لَنَا ذَرْعٌ عَلَىٰ فُرْقَةِ ٱلشَّمْلِ
فَقُلْتُ : قَرِيباً تَنْطَوِي شُقَّةُ ٱلنَّوَىٰ   وَيُعْقِبُهَا مِنْ فَضْلِهِ ٱللهُ بِٱلْوَصْلِ

الخلاف في شأن التوديع

ثُمَّ إِنَّ الأُدباءَ علىٰ ٱختلافٍ في شأنِ التوديعِ :

١ـ عصفور باليد أفضل من عشر على الشجر

فمنهُم : مَنْ أَحبَّهُ لتقريبهِ مِنَ ٱلعناقِ والاتِّصالِ ، كما قالَ الناظمُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٢/ ٦٠ منَ الطويل] :

وَمَنْ لِيْ بِيَوْمٍ مِثْلِ يَوْمٍ كَرِهْتُهُ   قَرُبْتُ بِهِ عِنْدَ ٱلْوَدَاعِ مِنَ ٱلْبُعْدِ

وقالَ الأندلسيُّ [إبراهيم الحجاري في «نفح الطيب» ٣/ ٤١١ منَ الطويل] :

لَئِنْ كَرِهُوْا يَوْمَ ٱلْوَدَاعِ فَإِنَّنِيْ   أَهِيْمُ بِهِ وَجْداً لأَجْلِ عِنَاقِهِ
أُصَافِحُ مَنْ أَهْوَاهُ غَيْرَ مُرَاقَبٍ   وَسِرُّ ٱلتَّلاَقِيْ مُوْدَعٌ فِيْ فِرَاقِهِ

وأَنشدَ ٱلمبرِّدُ [منَ الخفيف] :

مُتِّعَا بِٱلْفِرَاقِ يَوْمَ ٱلْفِرَاقِ   مُسْتَجِيْرَيْنِ بِٱلْبُكَا وَٱلْعِنَاقِ
وَأَظَلَّ ٱلْفِرَاقُ فَٱلْتَقَيَا فِيْـ   ـهِ فِرَاقٌ أَتَاهُمَا بِٱتِّفَاقِ
كَيْفَ أَدْعُوْ عَلَىٰ ٱلْفِرَاقِ بِحَتْفٍ   وَغَدَاةَ ٱلْفِرَاقِ كَانَ ٱلتَّلاَقِيْ

وهيَ أَبياتٌ باردةٌ متكلَّفةٌ .

٢ـ درء المفاسد مقدم على جلب المصالح

ومنهُم : مَنْ كرهَهُ لإفضائِهِ إِلىٰ الاحتراقِ ، ومبلغِ الروحِ التَّراقِ ، وبسطُ ما فيهِ يُفضي إِلىٰ الإملالِ ، فلندعْهُ إِلىٰ فُرصةٍ أُخرىٰ .

المحب شقي على كل الأحوال

وقالَ الحماسيُّ [في «ديوان الحماسة» ٢/ ١٢٤ منَ الوافر] :

وَمَا فِيْ ٱلأَرْضِ أَشْقَىٰ مِنْ مُحِبٍّ   وَإِنْ وَجَدَ ٱلْهَوَىٰ حُلْوَ ٱلْمَذَاقِ
تَرَاهُ بَاكِياً فِيْ كُلِّ وَقْتٍ   مَخَافَةَ فُرْقَةٍ أَوْ لاشْتِيَاقِ

فَيَبْكِـيْ إِنْ نَـأَوْا شَـوْقـاً إِلَيْهِـمْ   وَيَبْكِي إِنْ دَنَوْا خَوْفَ ٱلْفِرَاقِ

وقدْ نظرَ إليهِ الناظمُ في قولِهِ [في « العُكْبَرِيِّ » ٣/ ٢٦٦ منَ المنسرح] :

وَاحَـرَبَـا مِنْـكِ يَـا جِـدَايَتَهَـا   مُقِيمَةً فَاعْلَمِيْ وَمُرْتَحِلَهْ!(١)

وقولِهِ [في « العُكْبَرِيِّ » ٢/ ٣٠٤ منَ الطويل] :

وَبَيْنَ ٱلرِّضَا وَٱلسُّخْطِ وَٱلْقُرْبِ وَٱلنَّوَىٰ   مَجَالٌ لِدَمْعِ ٱلْعَاشِقِ ٱلْمُتَرَقْرِقِ(٢)

ويعجبُني قولُ بعضِهِم [منَ الطويل] :

حَبِيْبِيْ غَداً لاَ شَكَّ فِيْهِ مُوَدَّعُ   فَوَٱللهِ مَا أَدْرِيْ بِهِ كَيْفَ أَصْنَعُ
فَيَا يَوْمُ لاَ أَدْبَرْتَ هَلْ لَكَ مَحْبِسٌ   وَيَا غَدُ لاَ أَقْبَلْتَ هَلْ لَكَ مُدْفِعُ ؟
إِذَا لَـمْ أُشَيِّعْـهُ تَقَطَّعْـتُ حَسْـرَةً   وَوَاكَبِـداً إِنْ كُنْـتُ مِمَّـنْ يُشَيِّـعُ

وقالَ الناظمُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٤/ ١٤٨ منَ الوافر] :

وَفَـارَقْـتُ ٱلْحَبِيْـبَ بِـلاَ وَدَاعٍ   وَوَدَّعْـتُ ٱلْبِـلاَدَ بِـلاَ سَـلاَمِ

وقالَ مِهْيَارٌ [منَ الكامل] :

صُلْبُ ٱلْحَصَاةِ يَثُوْرُ غَيْرَ مُزَوَّدٍ   مِـنْ أَهْلِـهِ وَيَسِيْـرُ غَيْـرَ مُـوَدَّعِ

الاقتناع باليسير من المحبوب عند الشعراء

وأمَّا الاقتناعُ باليسيرِ مِنَ ٱلمحبوبِ : فإنَّهُ كثيرٌ في الأَشعارِ ؛ منهُ قولُ الناظمِ [في « العُكْبَرِيِّ » ٣/ ٣ منَ الوافر] :

---

(١) الحَرَبُ: الهلاكُ . الجِدَايَةُ ـ بفتحِ الجيمِ وكسرِهَا ـ : الذَّكرُ والأُنثىٰ مِنْ أَولادِ الظِّباءِ . والمعنىٰ : أَنَّهُ يندبُ حظَّهُ مِنْ ظبيةِ هٰذهِ الدارِ ؛ لأنَّها إذا أقامتْ منعتْهُ مِنَ الوصولِ إليها ، والسفرُ حائلٌ بينهُ وبينها ، فقربُها وبعدُها سِيانِ .

(٢) المترقرقِ : الذي يجولُ في العينِ ولا ينحدرُ . وفي «الديوان» : (ٱلْمُقْلَةِ) بدل (ٱلْعَاشِقِ) .

وَجُـوْدَكَ بِـالْمُقَـامِ وَلَـوْ قَلِيْـلاً فَمَـا فِيْمَـا تَجُـوْدُ بِـهِ قَلِيْـلُ[1]

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيّ » ٢/ ١٣٤ منَ الكامل] :

وَقَنِعْـتُ بِـاللُّقْيَـا وَأَوَّلِ نَظْـرَةٍ إِنَّ الْقَلِيْـلَ مِـنَ الْحَبِيْـبِ كَثِيْـرُ

وقالَ ابنُ الطَّثْرِيَّةِ [في « ديوانهِ » ٩٧ منَ الطويل] :

أَلَيْـسَ قَلِيْـلاً نَظْـرَةٌ إِنْ نَظَـرْتُهَـا إِلَيْكِ ؟ وَكَلاَّ لَيْسَ مِنْكِ قَلِيْلُ

وقالَ ابنُ أَبي ربيعةَ [في « ديوانهِ » ٢٧٥ منَ الخفيف] :

لَيْتَ حَظِّيْ كَطَرْفَةِ الْعَيْنِ مِنْهَا وَكَثِيْـرٌ مِنْهَـا الْقَلِيْـلُ الْمُهَنَّـا

أَوْ حَـدِيْـثٍ عَلَىٰ خَـلاَءٍ يُسَلِّـيْ مَـا يُجَنِّـيْ الْفُـؤَادَ مِنْهَـا وَمِنَّـا

كَبُـرَتْ رُبَّ نِعْمَـةٍ مِنْـكِ يَـوْمـاً أَنْ أَرَاهَـا قَبْـلَ الْمَمَـاتِ وَمِنَّـا

وقالَ ذو الرُّمَّةِ [في « ديوانه » ٢/ ٩١٣ منَ الطويل] :

فَإِنْ لَمْ يَكُنْ إِلاَّ تَعَلُّلُ سَاعَةٍ قَلِيْـلاً فَـإِنِّـيْ نَـافِـعٌ لِـيْ قَلِيْلُهَـا

وقالَ ابنُ مُطَيْرٍ [في « ديوانه » ٥٤ منَ الطويل] :

كَلاَمُكِ ـ يَا سَلْمَىٰ ـ وَإِنْ قَلَّ نَافِعِيْ فَلاَ تَحْسَبِيْ أَنِّيْ وَإِنْ قَلَّ حَاقِرُهْ

وقالَ إِسحاقُ المَوْصِليُّ [في « معجم الأُدباءِ » ٦/ ٤٠ منَ الخفيف] :

إِنَّ مَـا قَـلَّ مِنْـكِ يَكْثُـرُ عِنْـدِيْ وَكَثِيْـرٌ مِمَّـنْ تُحِـبُّ قَلِيْـلُ

وقالَ أَبو نصرٍ الميكاليُّ [منَ الوافر] :

قَلِيْـلٌ مِنْـكِ يَكْفِيْنِـيْ وَلَـكِـنْ قَلِيْلُـكِ لاَ يُقَـالُ لَـهُ قَلِيـلُ

---

(١) أي: وجُدْ جودك.

وقد تنوَّقَ[1] فيهِ سلطانُ العاشقينَ ، فقالَ [في « ديوانهِ » ٤٧ منَ الطويل] :

عند سلطان العاشقين

وَمُنِّيْ عَلَىٰ سَمْعِيْ بِـ(لَنْ) إِنْ مَنَعْتِ أَنْ ... أَرَاكِ فَمِـنْ قَبْلِـيْ لِغَيْـرِيَ لَـذَّتِ[2]

وقالَ [في « ديوانهِ » ١٥٧ منَ الخفيف] :

ذَابَ قَلْبِـيْ فَـأْذَنْ لَـهُ يَتَمَنَّـا ... كَ وَفِيْـهِ بَقِيَّـةٌ لِـرَجَـاكَـا
وَإِذَا لَـمْ تُنْعِشْ بِـرَوْحِ ٱلتَّمَنِّـيْ ... رَمَقِيْ وَٱقْتَضَىٰ فَنَائِـيْ بَقَـاكَـا
أَبْـقِ لِـي مُهْجَـةً لَعَلِّـيَ يَـوْمـاً ... قَبْلَ مَوْتِيْ أَرَىٰ بِهَا مَنْ رَآكَا
أَوْ مُرِ ٱلْغُمْضَ أَنْ يَمُرَّ بِجَفْنِيْ ... فَكَـأَنِّـيْ بِـهِ مُطِيْعـاً عَصَـاكَـا[3]

وقالَ [في « ديوانهِ » ٥٦ منَ الطويل] :

وَلِيْ مِنْكِ كَافٍ إِنْ هَدَرْتِ دَمِيْ وَلَمْ ... أُعَـدَّ شَهِيْـداً عِلْـمُ دَاعِـيْ مَنِيَّتِـيْ

الروذباري والشاب الطريح

وفي ترجمةِ الرُّوذَباريِّ المتوفَّىٰ سنةَ : (٣٢٠ هـ) مِنْ « طبقاتِ ٱبنِ السبكيِّ » [٣/٤٩] : أَنَّهُ مرَّ بشابٍّ طريحٍ فقالوا : إِنَّهُ ٱجتازَ بهٰذا القصرِ وجاريةٌ تغنِّي وتقولُ [من مجزوء الرَّمَل] :

كَبُـرَتْ هِمَّـةُ عَبْـدٍ ... طَمِعَـتْ فِـي أَنْ تَـرَاكَـا
أَوَمَـا يَكْفِـيْ لِعَيْنِـيْ ... أَنْ تَـرَىٰ مَـنْ قَـدْ رَآكَـا

---

(١) تنوَّق فلانٌ في أُمورِهِ : إذا تجوَّدَ وبالغَ وأَحكمَ .

(٢) للبيت نكتة لطيفة : وهي أن ابن الفارض طلب منها أن تقول له : لن تراني ؛ لأن هذا فيه وعد بأن يراها في المستقبل ، حيث إن النفي بـ (لن) يفيد النفي في الحال فقط ، وعكسه رأي المعتزلة : فإنها تفيد عندهم النفي على التأبيد . وهو مذهب باطل ، والله أعلم .

(٣) الغُمْضُ : النَّوْمُ .

ومِنَ ٱلغاياتِ في هٰذا الباب قَوْلُ ٱبنِ ٱلدُّمَيْنَةِ [في « ديوانه » منَ الطويل] :

رَضِيتُ بِسَعْيِ ٱلْوَهْمِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي ٱلْوَصْلِ مِنْهُ نَصِيبُ

وقالَ آخرُ [منَ الطويل] :

قِفِي نَوِّلِينِي نَظْرَةً إِنْ نَظَرْتُهَا إِلَى ٱلْحَوْلِ تَكْفِينِي عَنِ ٱلْمَاءِ وَٱلزَّادِ

وهو مثلُ قولِ الناظمِ [في « العُكْبَرِيّ » ٢/٤٧ منَ الخفيف] :

هَٰذِهِ ٱلنَّظْرَةُ ٱلَّتِي نَالَهَا مِنْـ ـكَ إِلَى مِثْلِهَا مِنَ ٱلْحَوْلِ زَادُهْ

امرأة في الطواف

وقالَ بعضُهُم [كما في « المستطرف » ١/٤٤٢] : رأيتُ ٱمرأَةً مستقبلةً البيتَ في ٱلموسمِ ، وهيَ على غايةٍ مِنَ ٱلنحافةِ والضُّرِّ ، رافعةً يديها تدعو ، فقلتُ لها : هل لكِ مِنْ حاجةٍ ؟ قالت : حاجتي أَنْ تُنادي في الموقفِ بقولي [منَ الخفيف] :

تَزَوَّدَ كُلُّ ٱلنَّاسِ زَاداً يُقِيمُهُمْ وَمَالِيَ زَادٌ وَٱلسَّلَامُ عَلَى نَفْسِي

ففعلتُ ، فَإِذَا أَنا بفتىً منهوكِ القوىٰ ، يقولُ : أَنا وٱللهِ الزادُ ، فمضيتُ بهِ إِليها ، فما زادوا علىٰ النظرِ والتباكي ، ثُمَّ قالتْ لهُ : ٱنصرفْ مصاحباً ، فقلتُ : ما علمتُ أَنَّ ٱلتقاءَكُما يكونُ قاصراً علىٰ هٰذا ، فقالتْ : أَمسكْ يا فتىٰ ، أَما علمتَ أَنَّ ركوبَ العارِ ودخولَ النارِ شديدٌ ؟! .

وقالَ بعضُهُم [منَ الطويل] :

أُقَلِّبُ طَرْفِي فِي ٱلسَّمَاءِ تَرَدُّداً لَعَلِّي أَرَىٰ ٱلنَّجْمَ ٱلَّذِي أَنْتَ تَنْظُرُ

وَأَسْتَعْرِضُ ٱلرُّكْبَانَ مِنْ كُلِّ وِجْهَةٍ   لَعَلِّيْ بِمَنْ قَدْ شَمَّ عَرْفَكَ أَظْفَرُ[1]
وَأَسْتَقْبِلُ ٱلأَرْوَاحَ عِنْدَ هُبُوْبِهَا   لَعَلَّ نَسِيْمَ ٱلرِّيْحِ عَنْكَ يُخَبِّرُ

وقالَ كُثيِّرُ عزَّةَ [في « ديوانِهِ » ٤١٩ منَ الطويل] :

وَإِنِّيْ لأَرْضَىٰ مِنْكِ يَا عَزَّ بِالَّذِيْ   لَوَ ٱبْصَرَهُ ٱلْوَاشِيْ لَقَرَّتْ بَلاَبِلُهْ[2]
بِلاَ ، وَبِأَنْ لاَ أَسْتَطِيْعُ ، وَبِالْمُنَىٰ   وَبِالْوَعْدِ ، وَٱلتَّسْوِيْفِ قَدْ مَلَّ آمِلُهْ
وَبِالنَّظْرَةِ ٱلْعَجْلَىٰ ، وَبِالْحَوْلِ يَنْقَضِيْ   أَوَاخِـرُهُ مَـا نَلْتَقِـيْ وَأَوَائِلُـهْ

وقالَ جَحْدَرٌ [في « خزانةِ الأدبِ » ١١/ ٢٠٩ منَ الوافر] :

أَلَيْسَ ٱللَّيْـلُ يَجْمَـعُ أُمَّ عَمْـرٍو   وَإِيَّـانَـا فَـذَاكَ بِنَـا تَـدَانِـيْ ؟
نَعَمْ ، وَأَرَىٰ ٱلْهِلاَلَ كَمَا تَرَاهُ   وَيَعْلُـوْهَـا ٱلنَّهَـارُ كَمَـا عَـلاَنِـيْ

ويأتي ما يتعلَّقُ بهِ عندَ شرحِ قولِهِ [في « العُكْبَرِيِّ » ٣/ ١٦٤ منَ البسيط] :

يُجَـنُّ شَـوْقـاً فَلَـوْلاَ أَنَّ رَائِحَـةً   تَزُوْرُهُ مِنْ رِيَاحِ ٱلشَّرْقِ مَا عَقَلاَ

مِنَ ٱلمجلسِ السابعِ .

وعندَ قولِهِ [في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ٣١٩ منَ الخفيف] :

أَيَّ يَـوْمٍ سَـرَرْتَنِـيْ بِـوِصَـالٍ   لَـمْ تَـرُعْنِـيْ ثَـلاَثَـةً بِصُـدُوْدِ

أواخرَ المجلسِ التاسعِ .

* * *

---

(١) العَرْفُ : الريحُ ، طيِّبَةً كانتْ أَوْ خبيثةً ، يُقَالُ : ما أَطْيَبَ عَرْفَهُ .
(٢) الوَاشِي : النَّمَّامُ . البَلابِلُ : شدَّةُ الهمِّ والوَسْوَاسِ في الصُّدُورِ .

[قالَ أَبو الطيِّبِ المتنبِّي في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ٢٩٧ منَ المنسرح]:

بَانُوا بِخُرْعُوبَةٍ لَهَا كَفَلٌ يَكَادُ عِنْدَ ٱلْقِيَامِ يُقْعِدُهَا[١]

المرأة ممدوحة بكبر العجيزة

يقولُ : ذهبوا بشابَّةٍ بَضَّةٍ[٢] لها كَفَلٌ ، يكادُ يُقعدُها ما عليهِ مِنْ كثرةِ اللحمِ ، وهٰذا أَيضاً يُؤَيِّدُ الاحتمالَ الثاني ، وهوَ : وصفُهُم حالَ الارتحالِ ، والمرأَةُ ممدوحَةٌ بِكِبَرِ العجيزةِ ، وقد تكرَّرَ عندَهُ ، فمنهُ قولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٣/ ٢١٠ منَ المنسرح] :

تكرر المعنى عند المتنبي

يَجْذِبُهَا تَحْتَ خَصْرِهَا عَجُزٌ كَأَنَّهُ مِنْ فِرَاقِهَا وَجِلُ

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٣/ ٢٣٤ منَ الكامل] :

تَشْكُو رَوَادِفَكِ ٱلْمَطِيَّةُ فَوْقَهَا شَكْوَىٰ ٱلَّتِي وَجَدَتْ هَوَاكِ دَخِيلَا[٣]

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٢/ ١١٧ منَ البسيط] :

أَعَارَنِي سُقْمَ جَفْنَيْهِ وَحَمَّلَنِي مِنَ ٱلْهَوَىٰ ثِقْلَ مَا تَحْوِي مَآزِرُهُ

جزء من حديث أم زرع

وفي حديثِ أُمِّ زرعٍ : (عُكُومُها رَدَاحٌ)[٤] ، وقد فسَّرَهُ

(١) الخُرْعُوبَةُ : الشَّابَّةُ الحسنَةُ الجسيمةُ في قَوَامٍ ، وقال اللِّحْيَانِي : هيَ الرقيقةُ العظمِ ، الكثيرةُ اللحمِ ، الناعمةُ .
(٢) البَضَّةُ ، يقالُ : امرأَةٌ باضَّةٌ وبَضَّةٌ كثيرةُ اللحمِ .
(٣) الرَّوَادِفُ ـ مفردُهُ الرِّدْفُ ـ : وهوَ الكَفَلُ والعَجُزُ ؛ لأَنَّهُ يردُفُ الإنسانَ ويكونُ خلفَهُ .
(٤) أخرجه عن عائشة البخاري (٥١٨٩) في النكاح .

بعضُهم : بٱنتفاجِ العجيزةِ[1] ، وفيهِ أيضاً : (فَوَجَدَ ٱمْرَأَةً لَهَا ٱبْنَانِ مِثْلُ ٱلصَّقْرَيْنِ يَلْعَبَانِ مِنْ تَحْتِ خَصْرِها بِرُمَّانَتَيْنِ)[2] ، وقد قيلَ : إِنَّ ٱلمرادَ بالرمَّانِ الحقيقةُ ، وأَنَّهُما يلعبانِ بِهما ، فلا يمسَّانِ ظهرَها ؛ لارتفاعِهِ بعِظَمِ المآكمِ .

حلم معاوية رضي الله عنه

وكانتْ هندُ ٱبنةُ عتبةَ مَضْرِبَ المثلِ في ذلكَ ، حتَّىٰ لقد جوعِلَ[3] بعضُهُم علىٰ أَنْ يذكرَها لمعاويةَ ، فضربَ علىٰ عجيزتِهِ وهوَ يصلِّي ، وقالَ : ما أَشبهَها بعجيزةِ أُمِّكَ ، فلمَّا سلَّمَ.. قالَ لهُ : ما لكَ ولها ؟ إِنَّما كانَ يليها أَبو سفيانَ . وحملَهُ معَ ذلكَ ، وكساهُ ، ولٰكنْ ـ واللهُ أَعلمُ بصحَّةِ ذلكَ جميعِهِ ـ دسَّ مَنْ يحمِلُهُ علىٰ ٱلتحرُّشِ بزيادٍ ؛ ليشيطَ بدمِهِ ، فذهبَ إِلىٰ (العراقِ) ، وسأَلَ زياداً عنْ أُمِّهِ ، وهوَ يخطُبُ ، فقالَ لهُ : يخبرُكَ عنها هـٰذا ، وأَشارَ إِلىٰ شرطيٍّ ، ذهبَ بهِ ، وٱحتزَّ الذي فيه عيناهُ .

الأحنف يقطع يد رجل بحلمه وذكائه

وبهـٰذِهِ ذكرتُ ما رواهُ غيرُ واحدٍ : أَنَّ رجلاً جاءَ إِلىٰ الأَحنفِ بنِ قيسٍ ، فلطَمَ وجهَهُ ، فقالَ : ما شأْنُكَ يا ٱبنَ أَخي ؟ وما دعاكَ إِلىٰ هـٰذا ؟! قالَ : آليتُ أَنْ أَلطِمَ سيِّدَ العربِ مِنْ بني تميمٍ . قالَ : لَمْ تَبَرَّ يمينُكَ ؛ فما أَنا بسيِّدِها ، إِنَّما ذلكَ حارثةُ بنُ قدامة ، فذهبَ ٱلرجلُ ، فلطَمَ حارثةَ ، فقامَ إِليهِ حارثةُ بالسيفِ ، فقطعَ يمينَهُ ، فبلغَ الأَحنفَ ، فقالَ : أَنا ـ وٱللهِ ـ قَطعتُها[4] .

---

(١) يقالُ ٱمرأَةٌ نُفُجٌ : إذا كانت ضخمةَ الأَردافِ والمآكِمِ .
(٢) طرف من حديث عائشة السالف .
(٣) جوعِلَ : أي أُعطيَ جُعلاً ، وهوَ المالُ المؤدَّىٰ للإنسانِ ليفعلَ شيئاً .
(٤) القصة في « المستطرف » (٢/ ٢٠٢) .

السبب في كون كبر العجيزة ممدوحاً

وأَرادَ معاويةُ أَنْ يعبثَ بإحدىٰ فُضلياتِ العربِ ، وعيَّرَها بثديها وكَفَلِها ، فقالتْ : إِنَّما كانَ يُضربُ المثلُ في كِبَرِ هٰذينِ بأُمِّكَ ، فقالَ لها : إِنَّا لم نَقُلْ لكِ إلاَّ خيراً[1] !! إذا كَبُرَ ثديُ المرأَةِ . . رُوِيَ ولدُها ، واتَّسعَ صدرُها ، وإذا انتفجَ كَفَلُها . . حَسُنَ مجلسُها . قالتْ : أَوَذَاكَ ؟!!

الثريا وانتفاج عجزها

وأَخرجَ الأَصفهانيُّ بسندِهِ [كما في « الأغاني » ١/ ٢٢٥] : أَنَّ الثريَّا كانتْ تصُبُّ جرَّةَ ماءٍ علىٰ بدَنِها ، وهيَ قائمةٌ ، فلا يُصيبُ ظاهرَ فخذَيها شيءٌ منهُ ؛ لارتفاعِ عجُزِها .

وفيها أَو في عائِشةَ بنتِ طلحةَ يقولُ ابنُ أَبي ربيعةَ [كما في « الأغاني » ١٧/ ١٣٣ منَ الطويل] :

تَنُوءُ بِـأُخْـرَاهَـا فَـلأْيـاً قِيَـامُهَـا وَتَمْشِي الْهُوَيْنَا عَنْ قَرِيبٍ فَتَبْهَرُ[2]

أخت الحجاج تنذر أن تعتمر ماشية

ويُروىٰ : أَنَّ زينبَ ابنةَ يوسفَ ، أُختَ الحجَّاجِ ، نذرتْ أَنْ تعتمرَ ماشيةً مِنَ (الطائفِ) إنْ شُفِيَ أَبوها مِنْ شَكْوٍ أَلَمَّ بِهِ ، ثُمَّ لم تصل (مكَّةَ) [إلاَّ] علىٰ شهرٍ ؛ مِنْ سِمَنِها وامتلائِها ، وتَجاذُبِ أَطرافِها وروادِفِها ، وفي وجهِها ذلكَ يقولُ النُّمَيريُّ [منَ الطويل] :

تَضَوَّعَ مِسْكاً بَطْنُ نَعْمَانَ إِنْ مَشَتْ بِـهِ زَيْنَـبٌ فِـيْ نِسْـوَةٍ خَفِـرَاتِ[3]

---

(١) أي : كنّا نمزحُ معك ، ولم نتكلم لك الكلام الصحيح بكلامنا ذاك ، ولكنا سنقول لك الحقيقة والخير وهو : أن المرأة إذا كبر ثديها . . .

(٢) تَنُوءُ : نَاءَ بحملِهِ : نهضَ بجهدٍ ومشقَّةٍ ، والمرأةُ تَنُوءُ بها عَجيزَتُهَا ؛ أي : تُثقِلُهَا ، وهي تنوءُ بعجيزتها ، أي تنهضُ بها مُثقَلَةً . اللأْيُ : بُطْءُ القيامِ . البُهْرُ : الإعْيَاءُ .

(٣) تضوَّعَ : فاحَ . خفراتٌ : حييَّاتٌ ، محفوظاتٌ من الفساد .

يُخَبِّبْنَ أَطْرَافَ ٱلْبَنَانِ مِنَ ٱلتُّقَىٰ   وَيَخْرُجْنَ جُنْحَ ٱللَّيْلِ مُعْتَمِرَاتِ
وَلَمَّا رَأَتْ رَكْبَ ٱلنُّمَيْرِيِّ أَعْرَضَتْ   وَكُـنَّ مِـنَ أَنْ يَلْقَيْنَـهُ حَـذِرَاتِ

وفي ذلكَ خبرٌ طويلٌ .

وممَّنْ ٱشتهرَ بذلكَ ضُباعةُ ٱبنةُ عامرِ بنِ صعصعةَ ، كما وصفَها بعضُ الصحابةِ ، وقد رآها وهوَ غلامٌ يافعٌ تطوفُ بالبيتِ عُريانةً .

وحديثُ ذلكَ : أَنَّ عبدَ ٱللهِ بنَ جُدعانَ . . خطبَها ، وكانتْ عندَ رجلٍ مِنْ قُريشٍ ، فخببها عليهِ[1] ، وأَشارَ عليها أَنْ تتجنَّىٰ وتطلُبَ منهُ ٱلطلاقَ ، فأَجابَها علىٰ شرطِ أَنْ لا تتزوَّجَ عبدَ ٱللهِ بنَ جُدعانَ ، فإِنْ خانتْ . . فعليها أَنْ تنحرَ مئةَ بَدَنةٍ ، وتنسجَ لهُ ثوباً في طولِ ما بينَ ٱلأَخشبينِ ، وتطوفَ بٱلبيتِ ضحىً متجرِّدَةً عنِ ٱلثيابِ ، فقَبِلَتْ برأْيِ مِنْ عبدِ ٱللهِ بنِ جُدعانَ ، ولمَّا ٱنقضتْ عِدَّتُها . . تزوَّجَها ، وأَعطاها البُدْنَ ، فنُحرتْ ، ونسجَ لها إِماؤُهُ ثوباً في ذلكَ الطولِ ، بعثتْ بهِ لزوجِها الأَوَّلِ ، وطلبَ مِنْ قريشٍ أَنْ تُخَلِّيَ لهُ المطافَ ساعةً مِنْ نهارٍ ، فطافَتْ عُريانةً ، ولم يكُنْ للمسجدِ جدارٌ إِذْ ذاكَ . قالَ الراوي : فكنتُ فيمَنْ بقيَ حولَ الكعبةِ لصغرِ سِنِّي ، فلمْ أَرَ أَحسنَ منها مقبلةً ولا مدبرةً ، وإِنَّ رَكَبَها وكَفَلَها لمرتفعانِ ، تقولُ في طوافِها [منَ الرَّجَزِ] :

ٱلْيَـوْمَ يَبْـدُوْ بَعْضُـهُ أَوْ كُلُّـهُ   أَخْثَمَ مِثْلَ ٱلْعَقْبِ بَادٍ ظِلُّهُ[2]

---

(١) خبَّبها : أفسدها، وفي الحديث عن أبي هريرة عند أبي داوود (٥١٧٠)، والحاكم (٢/ ١٩٦) وصححه: «من خبب على امرىء زوجته أو مملوكه فليس منا» .

(٢) الفرج الأخثمُ : منتفخٌ قصيرُ السَّمْكِ خنَّاقٌ ضَيِّقٌ، والشطر الآخر يروىٰ: =

إِنَّما قالتْ : (بَعْضُهُ) ؛ لأَنَّها سترتْ بيديها [بعضَهُ] ٱلآخرَ .

ومنهن نائلة الكلبية

وكانتْ نائِلةُ الكلبيَّةُ ٱبنةُ ٱلفُرافِصةِ ممَّنْ تدخُلُ تحتَ الوصفِ .

الشعراء في هذا الموضوع

ونقلَ ٱلسيوطيُّ ، عَنِ ٱلأَصمعيِّ ، وأَبِي عمرٍو ، وغيرِهِما : أَنَّهُ أَحسَنُ ما قيلَ في وصفِ ٱمرأةٍ عجزاءَ خميصةٍ قولُ أَبي وَجْزَةَ السعديِّ [منَ الكامل] :

أَدْمَاءُ فِيْ وَضَحٍ يَكَادُ رِدَاؤُهَا ... يَعْرَىٰ وَيَصْنَعُ مَا أَحَبَّ إِزَارُهَا[1]

وفي الموضوعِ يقولُ عَمرو بنُ كُلثومٍ [في « ديوانِهِ » ٨٠ منَ الوافر] :

وَمَـأْكَمَـةٍ يَضِيْـقُ ٱلْبَـابُ عَنْهَـا ... وَكَشْحٍ قَدْ جُنِنْتُ بِهِ جُنُوْنَا[2]

وقالَ عروةُ بنُ الوردِ[3] [منَ الكامل] :

أَبَتِ ٱلرَّوَادِفُ وَٱلثُّدِيُّ لِقُمْصِهَا ... مَسَّ ٱلْبُطُوْنِ وَأَنْ تَمَسَّ ظُهُوْرَا

وقالَ النابغةُ الذُّبيانيُّ [في « ديوانِهِ » ٢٣٥ منَ البسيط] :

تَلُـوْثُ بَعْـدَ ٱفْتِضَـالِ ٱلْبُـرْدِ مِئْـزَرَهَـا ... لَوْثاً عَلَىٰ مِثْلِ دِعْصِ الرَّمْلَةِ ٱلْهَارِي[4]

وقالَ حسَّانُ [في « ديوانِهِ » ٢٩ منَ الكامل] :

وَتَكَادُ تَكْسَلُ أَنْ تَجِيءَ فِرَاشَهَا ... فِيْ لِيْنِ خَرْعَبَةٍ وَحُسْنِ قَوَامِ

= ومـا بـدا منـه فـلا أُحِلُّـهُ

(١) أدماء : سمراء .

(٢) الكَشْحُ : ما بينَ الخاصرةِ إلى الضِّلعِ الخلفيِّ .

(٣) البيت في « ديوان عمر ابن أبي ربيعة » (٤٩٢) .

(٤) تَلُوْثُ : تمشي ببطءٍ لسمنِها . الدِّعْصُ : كثيبٌ مِنَ الرملِ مجتمعٌ .

وقالَ هدبةُ بنُ الخشرمِ [في « ديوانهِ » ١١٧ منَ الطويل] :

خَرَجْنَ بِأَعْنَاقِ ٱلظِّبَاءِ وَأَعيُنِ الْـ ـجَآذِرِ وَٱرْتَجَّتْ لَهُنَّ ٱلرَّوَادِفُ[١]

وقال توبةُ بنُ الحميرِ الخفاجيُّ [في « ديوانهِ » ٤٢-٤٣ منَ الطويل] :

أَمُخْتَرِمِي رَيْبُ ٱلْمَنُوْنِ وَلَمْ أَزُرْ كَوَاعِبَ مِنْ هَمْدَانَ بِيْضاً نُحُورُهَا

تَنُوْءُ بِأَعْجَازٍ ثِقَالٍ وَأَسْوُقٍ خِدَالٍ وَأَقْدَامٍ لِطَافٍ خُصُوْرُهَا[٢]

وقالَ نُصَيْبٌ [منَ البسيط] :

وَذِيْ رَوَادِفَ لاَ يُلْفَىٰ ٱلإِزَارُ بِهَا يُلْوَىٰ وَلَوْ كَانَ سَبْعاً حِيْنَ يَأْتَزِرُ

وقالَ ابنُ ميَّادَةَ [في « ديوانهِ » ١٧١ منَ الطويل] :

حَرَامِيَّةٌ أَمَّا مَلاَثُ إِزَارِهَا فَوَعْثٌ وَأَمَّا خَصْرُهَا فَلَطِيْفُ[٣]

وقالَ العَرْجِيُّ ـ وَهُوَ عبدُ اللهِ بنُ [عمرَ بنِ] عمرِو بنِ عثمانَ بنِ عفَّانَ ـ [في « ديوانهِ » ١٥٥-١٥٦ منَ الطويل] :

أُسَائِلُ عَنْ أَسْمَاءَ فِيْ ٱلسِّجْنِ جَارَهَا لَعَمْرُ أَبِيْهَا إِنَّنِيْ لَمُكَلَّفُ

مِنَ ٱلْبِيْضِ ، أَمَّا مَا يُوَارِي إِزَارُهَا فَفَعْمٌ وَأَمَّا مَا عَلاَهُ فَمُرْهَفُ[٤]

وقالَ أَبو دُلامةَ [منَ الطويل] :

وَقَدْ حَاوَلَتْ نَحوِيْ ٱلْقِيَامَ لِحَاجَةٍ فَأَثْقَلَهَا عَنْ ذَلِكَ ٱلْكَفَلُ ٱلنَّهْدُ

---

(١) الجآذِرُ ـ جمعُ الجُؤذُرِ ـ : وهي البقرةُ الوحشيَّةُ ، أو ولدُ البقرَة .

(٢) الخَدْلُ : هوَ ٱمتلاءُ الساقِ وٱستدارتُها كأنَّما طُويت طيّاً .

(٣) الحراميَّةُ : نسبة لبني حَرام . ملاثُ الإزار : الموقع الذي يشدُّ عليه الإزار وهو العجز والكفل . الوعثُ : العسرُ المرتفع .

(٤) الفَعْمُ والأفعمُ : الممتلىءُ ، وقيلَ : الفائضُ ٱمتلاءً .

وقالَ أَبو العتاهيةِ [في « ديوانهِ » ٦١٢ منَ المتقارب] :

بَـدَتْ بَيْـنَ حُـوْرٍ قِصَـارِ ٱلْخُطَـا ... تُجَـاهِـدُ بِـالْمَشْـيِ أَكْفَـالَهَـا

وقالَ الحارثُ بنُ خالدٍ المخزوميُّ [في « ديوانهِ » ٦٨ منَ الكامل] :

غَـرْثَـانُ سِمْـطُ وِشَـاحِهَـا قَلِـقٌ ... رَيَّـانُ مِـنْ أَرْدَافِهَـا ٱلْمِـرْطُ[(١)]

وما أَحسنَ قولَ القُطامِيِّ لَوْ أَرادَ النساءَ [في « ديوانهِ » ٢٦ منَ البسيط] :

يَمْشِينَ هَوْناً فَلاَ ٱلأَعْجَازُ خَاذِلَةٌ ... وَلاَ ٱلصُّدُوْرُ عَلَىٰ ٱلأَعْجَازِ تَتَّكِلُ[(٢)]

مساجلة المؤلف مع رجل من (اليمن)

وقدْ نظرتُ أَنا إِلىٰ بيتِ عروةَ بنِ الوردِ السابقِ في قصيدةٍ ، سببُها أَنَّهُ وردَ (حضرموتَ) رجلٌ يتشاعرُ مِنَ (ٱليمنِ) ، فهابَهُ الناسُ ، حتَّىٰ ضمَّنا وإِيَّاهُ مجلسٌ ٱضطرُّونا فيه للمباراةِ ، وعيَّنوا البحرَ والقافيةَ والموضوعَ ، فجئتُ في نحوِ ساعةٍ وربعٍ بأَربعينَ بيتاً . قلتُ في (ريمِ صنعا) منها [في « ديوانِ المؤلف » ٥٠٦ منَ الطويل] :

يَسِـرْنَ ٱلْهُـوَيْنَـا عَـانَـةً بَعْـدَ عَـانَـةٍ ... قِصَارَ ٱلْخُطَىٰ أَرْدَافُهُنَّ قُيُوْدُهَا[(٣)]

تَدَاخَلُ مِنْ فَرْطِ ٱلْحَيَا فِيْ رِيَاطِهَا ... فَتَأْبَىٰ لَهَا أَرْدَافُهَا وَنُهُوْدُهَا[(٤)]

وجاءَ هوَ بأَربعةٍ وعشرينَ بيتاً لا تَسْفُلُ ولا تَعلو ، غيرَ أَنَّها ٱنعقدَتْ بعدَهُ مجالسُ نُدعىٰ فيها إِلىٰ المباراةِ ، ويُقترحُ البحرُ

---

(١) غرثانُ : جوعان . ووشاحٌ غرثانُ : لا يملؤُهُ الخصرُ . المِرْطُ ـ جمعُهُ مروطٍ ـ : وهو كساءٌ مِنْ خزٍّ أَو صوفٍ أَو كتانٍ أَو غيرهِ يُؤتزرُ بهِ . والمرأَةُ التي مرطُها ريَّانُ ـ أَيْ ممتلىءٌ ـ كنايةٌ عَنْ ضخمِ روادِفها .

(٢) ومراد القطامي النوق .

(٣) العانةُ : الجماعة ، وأَصلها القطعة من حمرِ الوحش .

(٤) رياطُها ـ جمعُ ريطةٍ ـ : وهيَ الملاءَةُ التي كلُّها قطعةٌ واحدةٌ ونسجٌ واحدٌ .

والقافيةُ ، وفي كُلِّها يُحيلُ ، ونقولُ ، ومَنْ رَنا بعينِ المَعدِلَةِ . . عرفَ أَنَّنِي أَحسنتُ ٱلاتِّباعَ ، فكانَ لي الحقُّ في ٱلأَخذِ بخلافِ ٱلنّاظمِ فقدْ أَغارَ علىٰ بيتِ ٱبنِ الوردِ ، فأَغثَّ ولَمْ يجيءْ إِلاَّ بٱلباردِ ٱلنَّاقصِ ٱلثّقيلِ ، وذلكَ حيثُ يقولُ [في « العُكبَرِيّ » ٢/ ٢٥١ منَ الوافر] :

تُـرَفِّـعُ ثَـوْبَهَـا ٱلأَرْدَافُ عَنْهَـا فَيَبْقَىٰ مِنْ وِشَاحَيْهَا شَسُوْعَا[1]

سؤال عبد الملك بن مروان للأخطل عن تمنيه قول قصيدة لأحد الشعراء

وعلىٰ ذكرِ بيتِ القُطاميِّ أَقولُ : إِنَّهُ مِنْ قصيدةٍ لهُ جزلةٍ بديعةٍ ، يُحكىٰ : [كما في « الأغاني » ١١/ ٢٦ و ٢٤/ ٤٩] أَنَّ عبدَ الملكِ بنَ مروانَ قالَ للأَخطلِ : هلْ تُحبُّ أَنَّ لكَ شِعرَ أَحدٍ مِنَ ٱلعربِ قياضاً بشعرِكَ ، أَو تحبُّ أَنَّكَ قلتَهُ ؟ قالَ : لا واللهِ ، إِلاَّ أَنّي وَدِدْتُ أَنِّي قلتُ أَبياتاً قالها رجلٌ مِنّا ، كانَ مغدفَ القناعِ[2] ، قليلَ السماعِ ، قصيرَ الذراعِ ، قالَ وما هيَ ؟ فأَنشدَهُ [مِنْ قولِ القُطاميِّ في « ديوانهِ » ٢٣ـ٢٤ منَ البسيط] :

إِنَّا مُحَيُّوْكَ فَٱسْلَمْ أَيُّهَا ٱلطَّلَلُ وَإِنْ بَلِيْتَ وإِنْ طَالَتْ بِكَ ٱلطِّيَلُ
لَيْسَ ٱلْجَدِيْدُ بِهِ تَبْقَىٰ بَشَاشَتُهُ إِلاَّ قَلِيْـلاً وَلاَ ذُوْ خِلَّـةٍ يَصِـلُ

مِنها [في « ديوان القُطاميِّ » ٢٥ـ٢٦] :

يَمْشِينَ رَهْواً فَلاَ ٱلأَعْجَازُ خَاذِلَةٌ وَلاَ ٱلصُّدُوْرُ عَلَىٰ ٱلأَعْجَازِ تَتَّكِلُ
يَتْبَعْنَ سَامِيَةَ ٱلْعَيْنَيْنِ تَحْسَبُهَا مَجْنونَةً أَو تَرَىٰ مَا لاَ تَرَىٰ ٱلإِبِلُ

---

(١) الوشاحانِ : قلادتانِ تتوشحُ بهما المرأةُ ، ترسلُ إحداهما على الجانبِ الأيمنِ ، والأخرى على الأيسرِ . والشَّسُوْعُ : البعيدُ .

(٢) أي : مُرسَلَ القناع . أغدفَ عليهِ ستراً : أَرسلَهُ .

وَٱلنَّاسُ مَنْ يَلْقَ خَيراً قَائِلُوْنَ لَهُ ... مَا يَشْتَهِيْ وَلأُمِّ ٱلْمُخْطِىءِ ٱلْهَبَلُ(1)
قَدْ يُدْرِكُ ٱلْمُتَأَنِّي بَعْضَ حَاجَتِهِ ... وَقَدْ يَكُوْنُ مَعَ ٱلْمُسْتَعْجِلِ ٱلزَّلَلُ

ومنها ـ وهوَ مِنْ حرِّ القولِ وخالصِ المدحِ ـ [كما في « ديوانِ القُطاميِّ » ٢٩ـ٣٠] :

أَهْلُ ٱلْمَدِيْنَةِ لاَ يَحْزُنْكَ حَالُهُمُ ... إِذَا تَخَطَّأَ عَبْدَ ٱلْوَاحِدِ ٱلأَجَلُ
أَمَّا قُرَيْشٌ فَلَنْ تَلْقَاهُمُ أَبَداً ... إِلاَّ وَهُمْ خَيْرُ مَنْ يَحْفَىٰ وَيَنْتَعِلُ
مَنْ صَالَحُوْهُ رَأَىٰ فِيْ عَيْشِهِ سَعَةً ... وَلاَ أَرَىٰ مَنْ أَرَادُوْا ضَرَّهُ يَئِلُ(2)

وفيها بيتٌ يشبِّهُ فيهِ الآثارَ بٱلكِتَابِ مسَّهُ البلَلُ ، نظرَ فيهِ إِلىٰ قولِ لبيدٍ [في « ديوانهِ » ٢٩٩ منَ الكامل] :

وَجَلاَ ٱلسُّيُوْلِ عَنِ ٱلطُّلُوْلِ كَأَنَّهَا ... زُبُرٌ تُجِدُّ مُتُوْنَهَا أَقْلاَمُهَا(3)

وإِلىٰ قولِ طَرَفَةَ [في « ديوانهِ » ٦ منَ الطويل] :

لِخَوْلَةَ أَطْلاَلٌ بِبُرْقَةِ ثَهْمَدِ ... تَلُوْحُ كَبَاقِي ٱلْوَشْمِ فِيْ ظَاهِرِ ٱلْيَدِ(4)

وكانَ الشعبيُّ حاضراً ، فقالَ : إِنَّ لِلقُطاميِّ أَحسنَ منها ، وأَنشدَ قولَهُ [في « ديوانهِ » ١٠٥ منَ الكامل] :

طَرَقَتْ جَنُوْبُ رِحَالَنَا مِنْ مُطْرِقِ ... مَا كُنْتُ أَحْسَبُهُ قَرِيْبَ ٱلْمُعْنَقِ

حتَّىٰ أَتىٰ إِلىٰ آخرِها ، فتحرَّكَ عبدُ الملكِ وٱهتزَّ ، وقالَ : هٰذا

(١) الهَبَلُ : الثُّكل .
(٢) يَئِلُ : ينجو ، ومنه الموئل وهو الملجأ .
(٣) الزُّبُرُ : الكتب .
(٤) بُرْقَةُ ثَهْمَدٍ : موضعٌ معروفٌ في بلادِ العربِ ، وقد ذكرهُ الشعراءُ .

ـ واللهِ ـ الشعرُ ، ثكلتِ ٱلقُطاميَّ أُمُّهُ ، فٱنكسرَ الأَخطلُ ، وقالَ للشعبيِّ : إِنَّ لكَ فنوناً في الكلامِ ، وإِنَّما لنا فنٌّ واحدٌ ، فإِنْ رأيتَ ألاَّ تحملَني علىٰ أكتافِ قومِكَ . . فَأَدَعُهُمْ حَرَضاً[1] ، قالَ الشعبيُّ : لا أَعرضُ لكَ في شيءٍ مِنَ ٱلشعرِ بعدَ هٰذا .

تعليق المؤلف على القصة

وعندي : أَنَّ القصيدةَ ٱلَّتي ٱختارَها الأَخطلُ أَجزَلُ وأَفحلُ ، إِلاَّ أَنَّ فيها مِنْ صريحِ المدحِ لسائِرِ قريشٍ ما يثقلُ هضمُهُ علىٰ عبدِ المَلِكِ ، ويسهلُ غمطُهُ[2] علىٰ الشعبيِّ ، ولا حجَّةَ في سكوتِ الأَخطلِ ووقوفِهِ بموقفِ العاجزِ عَنِ ٱلانفصالِ ؛ لمكانِ الهيبةِ ، وإِيثارِ المصانعةِ ، وٱتِّباعِ مراضي السلطانِ .

وقولُ القُطاميِّ : (قَدْ يُدْرِكُ ٱلْمُتَأَنِّيْ . . الخ) ، مأخوذٌ مِنْ قولِ عَدِيِّ بنِ زيدٍ العبّاديِّ [كما في « خزانةِ الأدبِ » ١/ ٣٥١ منَ السَّريع] :

قَـدْ يُـدْرِكُ ٱلْمُبْطِـىءُ مِـنْ حَظِّـهِ وَٱلْخَيْرُ قَدْ يَسْبِقُ جُهْدَ ٱلْحَرِيْصْ

وبيتُ عديٍّ مأخوذٌ مِنْ قولِ جُمانَةَ الجُعْفِيِّ [كما في « خزانةِ الأدبِ » ١/ ٣٥١ منَ الطويل] :

وَمُسْتَعْجِلٍ وَٱلْمُكْثُ أَدْنَىٰ لِرُشْدِهِ وَلَمْ يَدْرِ فِيْ ٱسْتِعْجَالِهِ مَا يُبَادِرُ

وقالَ ٱبنُ الروميِّ في عكسِ المعنىٰ [كما في « ديوانِهِ » ٣/ ١١٤٧ منَ البسيط] :

عَيْبُ ٱلأَنَاةِ ـ وَإِنْ سَرَّتْ عَوَاقِبُهَا ـ أَنْ لاَ خُلُوْدَ وَأَنْ لَيْسَ ٱلْفَتَىٰ حَجَرَا

---

(١) الحَرَضُ : الهلاكُ والفسادُ . قال تعالى : ﴿ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا ﴾ [يوسف : ٨٥] .
(٢) الغمطُ : الاستحقارُ .

رواية أخرى للقصة

وفي القصَّةِ روايةٌ غيرُ هٰذهِ ، وهيَ : أَنَّ القُطاميَّ وردَ (دمشقَ) في أَيَّامِ الوليدِ ، فقيلَ لهُ : إِنَّهُ بخيلٌ لا يُعطي الشعراءَ ، وقيلَ بلْ قَدِمَها في أَيَّامِ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ ، فقيلَ لهُ : إِنَّ الشعرَ لا يَنفُقُ عندَهُ ، فٱمتدحَ عبدَ الواحدِ بنَ سليمانَ بقصيدتِهِ تلكَ ، فأَعطاهُ ثلاثينَ ناقةً موقَّرَةً بُرّاً وتمراً وثياباً ، فكانَ ذلكَ أَوَّلَ ما حرَّكَ مِنَ ٱلقُطاميِّ ، ورفعَ من ذِكرِهِ .

رواية أخرى في القصيدة المتمناة

ويروىٰ : أَنَّ الأَبياتَ ٱلَّتي تمنَّاها الأَخطلُ ليستْ مِنْ تلكَ ، وإِنَّما هيَ قولُهُ [كما في « ديوانِ القُطاميِّ » ٨ منَ البسيط] :

يَقْتُلْنَنَا بِحَدِيثٍ لَيْسَ يَعْلَمُهُ ... مَنْ يَتَّقِينَ وَلاَ مَكْنُونُهُ بَادِيْ
فَهُنَّ يَنْبِذْنَ مِنْ قَوْلٍ يُصِبْنَ بِهِ ... مَوَاقِعَ ٱلْمَاءِ مِنْ ذِيْ ٱلْغُلَّةِ ٱلصَّادِيْ[1]

وإِنَّها لعرضةُ ذلكَ نصاعةً وفصاحةً وبلوغَ مَرمىً وإِصابةَ محزٍّ ، وهيَ مِنْ قصيدةٍ يمدحُ بها زُفَرَ بنَ الحارثِ ، وقد مَنَّ عليهِ وأَكرمَهُ يقولُ فيها [في « ديوانِ القُطاميِّ » ٨٤ـ٨٨] :

إِنِّيْ وَإِنْ كَانَ قَوْمِيْ لَيْسَ بَيْنَهُمُ ... وَبَيْنَ قَوْمِكَ إِلاَّ ضَرْبَةُ ٱلْهَادِيْ
مُثْنٍ عَلَيْكَ بِمَا ٱسْتَبْقَيْتَ مَعْرِفَتِيْ ... وَقَدْ تَعَرَّضَ مِنِّيْ مَقْتَلٌ بَادِيْ
فَلَنْ أُثِيبَكَ بِٱلنَّعْمَاءِ مَشْتَمَةً ... وَلَنْ أُكَافِىءَ إِصْلاَحِي بِإِفْسَادِ
وَمَا نَسِيْتَ مَقَامَ ٱلْوَرْدِ تَجْعَلُهُ ... بَيْنِيْ وَبَيْنَ حَفِيفِ ٱلْغَابَةِ ٱلْعَادِيْ
إِذِ ٱلْفَوَارِسُ مِنْ قَيْسٍ بِشِكَّتِهِمْ ... حَوْلِيْ شُهُوْدٌ وَقَوْمِيْ غَيْرُ شُهَّادِ[2]

---

(١) ذو الغلة الصادي : العطشانُ شديدُ العطشِ .
(٢) الشِّكَّةُ : السلاحُ ، وقيلَ : ما يلبسُ مِنَ السلاحِ .

إِذْ يَعْتَرِيْكَ رِجَالٌ يَسْأَلُوْنَ دَمِيْ وَلَـوْ أَطَعْتَهُـمْ أَيْتَمْـتَ أَوْلاَدِيْ
نَفْسِيْ فِدَاءُ بَنِيْ أُمِّيْ هُمُ خَلَطُوْا يَـوْمَ الْعَـرُوْبَـةِ أَوْرَاداً بِـأَوْرَادِ[1]
فِيْ الْمَجْدِ وَالشَّرَفِ الْعَالِيْ ذَوِيْ أَمَلٍ وَفِـيْ الْحَيَـاةِ وَفِـيْ الأَمْـوَالِ زُهَّـادِ
مَارَيْتُ قَوْماً هُمُ شَرٌّ لإِخوَتِهِمْ مِنِّيْ عَشِيَّةَ يَجْرِيْ بِالدَّمِ الْوَادِيْ

منها :

تَفْـرِيْهِـمُ لَهْـذَمِيَّـاتٌ تَقُـدُّ بِهَـا ما كَانَ خَاطَ عَلَيْهِمْ كُلُّ زَرَّادِ[2]

* * *

(١) يومُ العَروبةِ ـ بفتحِ العينِ وضمِّها ـ : الجمعةِ .
(٢) اللَّهذميَّاتُ ـ جمعُ لَهْذَمٍ ـ : ويقالُ سيفٌ لَهْذَمٌ : حادٌّ ، وكذلِك السنانُ والنابُ . تَقُدُّ : تقطعُ . الزَّرَّادُ : صانع الدروع .

[قالَ أَبو الطيِّب المتنبِّي في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ٢٩٨ منَ المنسرح]:

يَا عَاذِلَ ٱلْعَاشِقِيْنَ دَعْ فِئَةً	أَضَلَّهَا ٱللهُ كَيْفَ تُرْشِدُهَا
بِئْسَ ٱللَّيَالِيْ سَهِدْتُ مِنْ طَرَبٍ	شَوْقاً إِلَىٰ مَنْ يَبِيْتُ يَرْقُدُهَا

نصيحة لمن يعذل العاشقين

يقولُ في البيتِ الأَوَّلِ : يا عاذلَ العاشقينَ علىٰ عشقِهم ، دَعْ عنكَ لومَهم ، فإِنَّكَ لا ترشدُهم ، وقد أَضلَّهمُ ٱللهُ ، وأَصلُ المعنىٰ موجودٌ بكثرةٍ ، ولا سيَّما في « ديوانِ سلطانِ العاشقينَ » ، فقدْ تصرَّفَ فيهِ ما شاءَ ، فمنهُ قولُهُ [في « ديوانِهِ » ١٢٤ منَ الكامل] :

يَا عَاذِلَ ٱلْمُشْتَاقِ جَهْلاً بِٱلَّذِي	يَلْقَىٰ مَلِيّاً لاَ بَلَغْتَ نَجَاحَا
أَتْعَبْتَ نَفْسَكَ فِيْ نَصِيحَةِ مَنْ يَرَىٰ	أَنْ لاَ يَرَىٰ ٱلإِقْبَالَ وَٱلإِفْلاَحَا
إِنْ رُمْتَ إِصْلاَحِيْ فَإِنِّي لَمْ أُرِدْ	لِفَسَادِ قَلْبِيْ فِيْ ٱلْهَوَىٰ إِصْلاَحَا

وقولُهُ [في « ديوانِهِ » ١٣٧ منَ الطويل] :

وَفِيْ حُبِّهَا بِعْتُ ٱلسَّعَادَةَ بِٱلشَّقَا	ضَلاَلاً وَعَقْلِيْ عَنْ هُدَايَ بِهِ عَقْلُ

وقولُهُ [في « ديوانِهِ » ١٦٢ منَ الطويل] :

وَمِنْ أَجْلِهَا طَابَ ٱفْتِضَاحِيْ وَلَذَّ لِيْ	ٱطِّرَاحِيْ وَذُلِّيْ بَعْدَ عِزِّ مَقَامِيْ
وَفِيْهَا حَلاَ لِيْ بَعْدَ نُسْكِيْ تَهَتُّكِيْ	وَخَلْعُ عِذَارِيْ وَٱرْتِكَابُ أَثَامِيْ

شرح البيت الأول من المطلع

ثُمَّ إِنْ كانَ الناظمُ يتوهَّمُ أَنَّ العشقَ ضلالٌ بسائرِ أَنواعِهِ . فقد أَخطأَ ؛ لأَنَّهُ لا يُذَمُّ ما لَمْ يُفضِ إِلىٰ الحرامِ ، بل ربَّما تدرَّجَ بهِ المرءُ

في السلوكِ إلىٰ سبيلِ السعادةِ ، كما قلتُ [في « ديوان المؤلف » ١٦٥ من البسيط] :

لِلهِ فِـيْ ٱلْحُـبِّ سِـرٌّ لاَ يُكَيِّفُـهُ ٱلـ إِنسَانُ مَا دَامَ فِيْ ذَا ٱلْقَالَبِ ٱلطِّيْنِيْ
وَفِيْـهِ لِلْمَـرْءِ بِـٱلتَّـوْفِيْـقِ مَـدْرَجَـةٌ إِلَىٰ ٱلسَّعَادَةِ فِيْ ٱلدُّنْيَا وَفِيْ ٱلدِّيْنِ

«من عشق فعف» ومدى الاحتجاج به

ولولا ما أكثروا فيهِ مِنْ شأنِ سويدِ بن سعيدٍ . . لصحَّ ما يدورُ عليهِ مِنْ طُرُقِهِ ، وهوَ حديثُ : « مَنْ عَشِقَ فَعَفَّ فَكَتَمَ فَمَاتَ . . فَهُوَ شَهِيْدٌ »[١] ، ولـٰكنْ رواهُ الزبيرُ بنُ بكَّارٍ ، فقالَ : حدَّثنا عبدُ المَلِكِ بنُ عبدِ العزيزِ بنِ المَاجشُونِ ، عَن عبدِ العزيزِ بنِ أَبي حازمٍ ، عن أَبي نَجيحٍ ، عنْ مجاهدٍ ، عَنِ ٱبنِ عبَّاسٍ ، عَنِ ٱلنبيِّ ﷺ أَنَّهُ قالَ : « مَنْ عَشِقَ وَكَتَمَ وَعَفَّ وَصَبَرَ . . غَفَرَ ٱللهُ لَهُ ، وَأَدْخَلَهُ ٱلْجَنَّةَ »[٢] ، وكذلكَ رواهُ لعائِذِيهِ محمَّدُ بنُ داوودَ ، لـٰكن بسندٍ فيهِ

(١) أخرجه عن ابن عباس الخطيب في «تاريخ بغداد» في ترجمة محمد بن داوود الأصبهاني كما في «المقاصد الحسنة» (١١٥٣)، وقد أطنب في ذكر طرقه والكلام عليه وأجاد، وقد ألّف فيه جزءاً أبو الفيض الغماري سمّاه: «درء الضعف عن حديث من عشق فعفّ». وأما سويد بن سعيد فقيل فيه: متروك، منكر الحديث؛ فلذلك ضعفوه.

(٢) قال المناوي عن سنده في «فيض القدير» (٨٨٥٣): إسناده صحيح وقد ذكره ابن حزم في معرض الاحتجاج وقال: رواته ثقات ـ وسيعرج المصنف على ذلك ـ. وقد غلط في هذا الطريق بعض الرواة فأدخل إسناداً في إسناد، وقال ابن القيم: هذا الحديث والذي قبله كل منهما موضوع ولا يجوز كونه من كلام المصطفى ﷺ وأطال، لكن انتصر الزركشي لتقويته فقال: أنكره ابن معين وغيره على سويد لكنه لم ينفرد به وساق سند المؤلف. ويقال إن أبا الوليد الباجي رحمه الله تعالى نظم فيه [من الوافر]:

إذا مـات المحـبُّ جـوىً وعشقـا فتلـك شهـادة يـا صـاح حقّـا=

سويدُ بنُ سعيدٍ ، ثُمَّ أَنشدَهُم لنفسِهِ بعدَ أَنْ رواهُ لهُم قولَهُ [منَ البسيط] :

أُنْظُرْ إِلَىٰ ٱلسِّحْرِ يَجْرِيْ فِيْ لَوَاحِظِهِ وَٱنْظُرْ إِلَىٰ دَعَجٍ فِيْ طَرْفِهِ ٱلسَّاجِيْ(١)
وَٱنْظُرْ إِلَىٰ شَعَرَاتٍ فَوْقَ عَارِضِهِ كَـأَنَّهُـنَّ نِمَـالٌ دَبَّ فِـيْ عَـاجِ

وأَنشدَ أَيضاً لنفسِهِ [منَ الخفيف] :

مَا لَهُمْ أَنْكَـرُوْا سَـوَاداً بِخَدَّيْـ ـهِ وَلاَ يُنْكِـرُوْنَ وَرْدَ ٱلْغُصُـوْنِ
إِنْ يَكُنْ عَيْبَ خَدِّهِ مَنْبَتُ ٱلشَّعْـ ـرِ فَعَيْبُ ٱلْعُيُوْنِ شَعْرُ ٱلْجُفُوْنِ

فقالَ لهُ : نفطويهِ ـ وكانَ لهُ صديقاً ـ أَنكرتَ القياسَ في الفقهِ ، وأَثبتَّهُ في الغزَلِ ؟! قالَ : غلبةُ الهوىٰ ، ومَلَكَةُ الوجدِ دَعَوَا إِليهِ .

وقد ذكرَ الحديثَ ٱبنُ حزمٍ في معرضِ الاحتجاجِ ، فقالَ [منَ الوافر] :

فَإِنْ أَهْلِكْ هَوَىً أَهْلِكْ شَهِيْداً وَإِنْ تَمْنُـنْ بَقِيْـتُ قَـرِيْـرَ عَيْـنِ
رَوَىٰ هَـٰـذَا لَنَـا قَـوْمٌ ثِقَـاتٌ نَأَوْا بِٱلصِّدْقِ عَنْ كَذِبٍ وَمَيْنِ

وللقومِ فيهِ كلامٌ معروفٌ يُؤخَذُ مِنْ مَراجعِهِ ، إِذْ لا حاجةَ إِلى الإِسهابِ ، ويأتي لونٌ منهُ أَوَّلَ المجلسِ التاسعِ .

ولقد أَحسنَ أَبو الأَسودِ الدؤَليُّ ، وأَجملَ وأَجادَ ، إِذْ قالَ في أَهلِ البيتِ [في « ديوانه » ١٥٤ منَ الوافر] :

فَـإِنْ يَـكُ حُبُّهُـمْ رُشْـداً أُصِبْـهُ وَلَسْتُ بِمُخْطِىءٍ إِنْ كَانَ غَيَّا

وما هوَ في شيءٍ مِنَ ٱلتشكُّكِ ، ولـٰكنَّهُ مِنْ بابِ قولِهِ تقدَّستْ

= رواهُ لنـا ثقـاتٌ عـن ثقـاتٍ عن الحَبْرِ ابنِ عباسٍ يرقىٰ

(١) الدَّعَجُ : شدةُ سوادِ العينِ معَ سِعَتها . وطرفٌ ساجٍ : ساكنٌ .

أسماؤهُ : ﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبا : ٢٤] .

شرح البيت الثاني من المطلع

وأمَّا البيتُ الثاني : فقد قالَ الشارحُ إِنَّ أَصلَهُ : (بئسَ ٱللَّيَالِي لَيَالٍ سهرتُها مِنْ طَرَبِي شوقاً إِلىٰ مَن يَبِيتُ يَرقُدُ فيها)

حذف المخصوص بالذم

وأقولُ : أَمَّا حذفُ المخصوصِ بالذمِّ : فجائزٌ عندَ العلمِ بهِ مِنَ ٱلقرينةِ ، ومنهُ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ [الأنفال : ٤٠] ، و﴿ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص : ٣٠] ، وسواءٌ كانتِ ٱلقرينةُ لفظيَّةً أَو معنويَّةً ، وإِن ٱقتصرَ في «الخلاصةِ» علىٰ بعضِ أَفرادِ الأُولىٰ في قولِهِ [في باب : (نعم وبئس) ، منَ الرَّجَزِ] :

وَإِنْ يُقَدَّمْ مُشْعِرٌ بِهِ كَفَىٰ كَٱلْعِلْمُ نِعْمَ ٱلْمُقْتَنَىٰ وَٱلْمُقْتَفَىٰ

بلْ كثيراً ما يُحذفُ الفاعلُ معهُ لها [أي : للقرينة] ، كما في الحديثِ الصحيحِ الناسخِ لوجوبِ غُسْلِ الجمعةِ ، وهوَ : « مَنْ تَوَضَّأَ يَوْمَ ٱلْجُمُعَةِ . . فَبِهَا وَنِعْمَتْ ، وَمَنِ ٱغْتَسَلَ . . فَٱلْغُسْلُ أَفْضَلُ »(١) .

تقديرُهُ : ونعمتِ ٱلخَصلةُ الوضوءُ خَصلةً ، أَو ما يشبهُ ذلك .

حذف عائد الصلة

وأَمَّا حذفُ عائِدِ الصفةِ : فإِنَّهُ كثيرٌ ، ومنهُ قولُ ٱمرىءِ القيسِ [في « ديوانهِ » ٩٦ منَ المتقاربِ] :

فَأَقْبَلْتُ زَحْفاً عَلَىٰ ٱلرُّكْبَتَيْنِ فَثَوْبٌ لَبِسْتُ وَثَوْبٌ أَجُرْ(٢)

---

(١) أخرجَهُ عن سمرة بن جندب أبو داوودَ (٣٥٣) ، والتِّرمذيُّ (٤٩٧) وحسَّنهُ ، وٱلنَّسائيُّ (١٣٨٠) ، وٱبنُ ماجه (١٠٩١) .

(٢) هذا البيت من شواهد العربية ، وهو أنه يجوز الابتداء بالنكرة (ثوب) إذا كان المقصود بها التنويع .

الرد على الشارح

وأَمَّا قولُهُ : كانَ الوجهُ أَنْ يقولَ : (يرقدُ فيها) بدلاً مِنْ (يرقدُها) . . فغلَطٌ ، وقد قالَ تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [المزمِّل : ١ـ٢] .

وقالَ ٱمرؤ القيسِ [كما في « ديوانهِ » ١١٦ منَ الطويل] :

فَإِمَّا تَرَيْنِيْ لاَ أُغَمِّضُ سَاعَةً ... مِنَ ٱللَّيْلِ إِلاَّ أَنْ أُكِبَّ وَأَنْعَسَا

والأَمرُ أَغنىٰ عَنِ ٱلتدليلِ بعدَ قولِهم في المتونِ : إِنَّ كلَّ وقتٍ يقبلُ النصبَ علىٰ الظرفيَّةِ مُبهماً كانَ أَو مُخصَّصاً بوصفٍ ، أَو عددٍ ، أَو إِضافةٍ ، بل إِنَّ ما فعلَهُ الناظمُ هوَ الأَولىٰ ؛ لِما فيهِ مِنَ ٱلإِشارةِ إِلىٰ ٱستغراقِ المحبوبةِ الليلَ بالرقادِ ، وهوَ شاهدُ النعمةِ ، ودليلُ الترفِ ، وقد قالَتْ أُمُّ زرعٍ : (فَعِندَهُ أَقُوْلُ فَلاَ أُقَبَّحُ ، وَأَرْقُدُ فأَتصَبَّحُ)[1] ، فلا معابةَ علىٰ الناظمِ في شيءٍ مِنَ ٱلمحذوفاتِ الأَربعةِ ٱلَّتي ذكرَها الشارحُ ، وإِنَّما العيبُ عليهِ مِنْ جهةِ المعنىٰ ، فلو أَنَّهُ كانَ صحيحَ الهوىٰ . . لَمَا تبرَّمَ بما لحقَهُ مِنَ ٱلتعذيبِ فيهِ ، وللهِ دَرُّ ٱبنِ مُطَيرٍ في قولِهِ [في « ديوانهِ » ٦٠ منَ الطويل] :

البلوى المحببة

وَحُبُّكِ بَلْوَىٰ غَيْرَ أَنْ لاَ يَسُرُّنِيْ ... وَإِنْ كَانَ بَلْوَىٰ أَنَّنِيْ لَكِ مُبْغِضُ
إِذَا أَنَا رِضْتُ ٱلنَّفْسَ فِيْ حُبِّ غَيْرِهَا ... أَتَــىٰ حُبُّهَــا مِــنْ دُوْنِهَــا يَتَعَــرَّضُ
فَيَا لَيْتَنِيْ أَقْرَضْتُ جَلْداً صَبَابَتِيْ ... وَأَقْرَضَنِيْ صَبْراً عَلَىٰ ٱلشَّوْقِ مُقْرِضُ

الكلام عن ديوان ابن الفارض

أَمَّا « ديوانُ ٱبنِ الفارضِ » : فمنْ فاتحتِهِ إِلى خاتمتِهِ في

---

(١) سلف قريباً . ومعنى: أرقد فأتصبح: أي أنام إلى وقت الضحى، وهو من علامات أهل الدلال، وليس من شأن أصحاب الجِدِّ والهمة .

أستعذابِ العذابِ مِنَ ٱلأحبابِ ، مِنْ ذلكَ قولُهُ [في « ديوانهِ » ١٤٤ من البسيط] :

أَمْسَيْتُ فِيْكَ كَمَا أَصْبَحْتُ مُكْتَئِباً ... وَلَمْ أَقُلْ جَزَعاً : يَا أَزْمَةُ ٱنْفَرِجِيْ

وقولُهُ [في « ديوانهِ » ١٥٦ منَ الخفيف] :

وَبِمَا شِئْتَ فِيْ هَوَاكَ ٱخْتَبِرْنِيْ ... فَٱخْتِيَارِيْ مَا كَانَ فِيْهِ رِضَاكَا

وقولُهُ [في « ديوانهِ » ٥٠ منَ الطويل] :

وَكُلُّ أَذىً فِي ٱلْحُبِّ مِنْكَ إِذَا [بَدَا] ... جَعَلْتُ لَهُ شُكْرِيْ مَكَانَ شَكِيَّتِيْ

وَمَا حَلَّ بِيْ مِنْ مِحْنَةٍ فَهُوَ مِنْحَةٌ ... وَقَدْ سَلِمَتْ مِنْ حَلِّ عَقْدِ عَزِيْمَتِيْ

وقولُهُ [في « ديوانهِ » ١١٩ منَ الكامل] :

هَلاَّ نَهَاكَ نُهَاكَ عَنْ لَوْمِ ٱمْرِىءٍ ... لَـمْ يُلْـفَ غَيْـرَ مُنَعَّـمٍ بِشَقَـاءِ

وقولُهُ [في « ديوانهِ » ٣١ منَ الكامل] :

أَمْسَىٰ بِنَارِ جَوىً حَشَتْ أَحْشَاءَهُ ... مِنْهَـا يَـرَىٰ ٱلإِيْقَـادَ لاَ ٱلإِنْقَـاذَا

وقولُهُ [في « ديوانهِ » ١٣٥ منَ الطويل] :

وَتَعْذِيبُكُمْ عَذْبٌ لَدَيَّ وَجَوْرُكُمْ ... عَلَيَّ بِمَا يَقْضِيْ ٱلْهَوَىٰ لَكُمُ عَدْلُ

وقولُهُ [في « ديوانهِ » ١٢ـ١٨ منَ الرَّمَل] :

بَلْ أَسِيئُوْا فِيْ ٱلْهَوَىٰ أَو أَحْسِنُوْا ... كُـلُّ شَـيْءٍ حَسَـنٌ مِنْكُـمْ لَـدَيْ

أَيُّ تَعْـذِيْـبٍ سِـوَىٰ ٱلْبُعْـدِ لَنَـا ... مِنْكِ عَذْبٌ حَبَّذَا مَا بَعْدَ أَيْ

وقولُهُ [في « ديوانهِ » ٣٥ـ٤١ منَ الطويل] :

تُبِيْحُ ٱلْمَنَايَا إِذْ تُتِيْحُ لِيَ ٱلْمُنَىٰ ... وَذَاكَ رَخِيْـصٌ مُنْيَتِـيْ بِمَنِيَّتِـيْ

وَمَا غَدَرَتْ فِيْ الْحُبِّ أَنْ هَدَرَتْ دَمِيْ　　بِشَرْعِ الْهَوَىٰ لَـٰكِنْ وَفَتْ إِذْ تَوَفَّتِ
وَكَـمْ رَامَ سِلْـوَانِـيْ هَـوَاكِ مُيَمِّمـاً　　سِـوَاكِ وَأَنَّـىٰ عَنْـكِ تَبْـدِيْـلُ نِيَّتِـيْ
وَقَالَ : تلاَفَ مَا بَقِيْ مِنْكَ قُلْتُ : مَا　　أُرَانِــيَ إِلاَّ لِلتَّـــلاَفِ تَلَفُّتِـــيْ
إِبَائِيْ أَبَىٰ إِلاَّ خِلاَفِيَ نَاصِحاً　　يُحَاوِلُ مِنِّيْ شِيْمَةً غَيْرَ شِيْمَتِيْ

والأَخيرُ هوَ صدرُ بيتٍ لأَبي عبادةَ [في « ديوانهِ » منَ الطويل] عجزُهُ : (وَتَطْلُبُ مِنِّيْ مَذْهَباً غَيْرَ مَذْهَبِيْ) ، ولٰكنَّ موقعَهُ مِنْ بيتِ الشيخِ أَمكنُ وأَعذبُ ، فهوَ بهِ أَحقُّ ، والناظِمُ كثيراً ما يدّعي أَنَّهُ معشوقٌ مُتمنِّعٌ كما في قولِهِ [في « العُكْبَريّ » ٢/٣٠٦ منَ الطويل] :

التناقض عند المتنبي

وَأَشْنَبَ مَعْسُوْلِ الثَّنِيَّاتِ وَاضِحٍ　　حَمَيْتُ فَمِيْ عَنْهُ فَقَبَّلَ مَفْرِقِيْ[(١)]

وذاتَ المرَّاتِ يعترفُ بأَنَّهُ مبغوضٌ مفروكٌ[(٢)] ؛ فيقولُ [في « العُكْبَريّ » ٣/ ٣٦٢ منَ البسيط] :

وَا حَـرَّ قَلْبَـاهُ مِمَّـنْ قَلْبُـهُ شَبِـمُ　　وَمَنْ بِجِسْمِيْ وَحَالِيْ عِنْدَهُ سَقَمُ[(٣)]

ويقولُ [في « العُكْبَريّ » ١/ ١٧٦ منَ البسيط] :

أَنْتَ الْحَبِيْبُ وَلَـٰكِنِّيْ أَعُوْذُ بِهِ　　مِنْ أَنْ أَكُوْنَ مُحِبّاً غَيْرَ مَحْبُوْبِ

ويقولُ [في « العُكْبَريّ » ٤/ ٨١ منَ الطويل] :

وَلَمَّـا الْتَقَيْنَـا وَالنَّـوَىٰ وَرَقِيبُنَـا　　غَفُوْلاَنِ عَنَّا ظَلْتُ أَبْكِي وَتَبْسِمُ

---

(١) الأَشْنَبُ : الثغرُ البَراقُ ، ويقالُ : المُحَدَّدُ الواضحُ الأَبيضُ .
(٢) مفروكٌ : لا يَحظىٰ عِندَ النساءِ .
(٣) الشَّبِمُ : الباردُ ، والشَّبَمُ : البَرْدُ .

ويقولُ [في « العُكْبَرِيّ » ٤/ ٥٠ منَ الطويل] :

جَفَتْنِي كَأَنِّي لَسْتُ أَنْطَقَ قَوْمِهَا　　وَأَطْعَنَهُمْ وَالشُّهْبُ فِي صُورَةِ الدُّهْمِ[1]

ويقولُ [في « العُكْبَرِيّ » ٤/ ٢٧١ منَ المنسرح] :

تَبُلُّ خَدَّيَّ كُلَّمَا ابْتَسَمَتْ　　مِنْ مَطَرٍ بَرْقُهُ ثَنَايَاهَا

وهٰذا يحتملُ معنيينِ ؛ لأنَّهُ إمَّا أَنْ يكونَ المرادُ : أَنَّهُ يبكي كلَّما ضحكَتْ . . فيكونُ كقولِهِ : (. . ظَلْتُ أَبْكِي وَتَبْسِمُ) وإمَّا أَنْ يكونَ معناهُ : أَنَّ لعابَها يسيلُ ، وأنَّها تتفلُ في وجهِهِ ، وكِلاهما لا يلتئِمُ معَ قولِهِ قبلَ ذلكَ [في « العُكْبَرِيّ » ٤/ ٢٧٠ منَ المنسرح] :

فَقَبَّلَتْ نَاظِرِي تُغَالِطُنِي　　وَإِنَّمَا قَبَّلَتْ بِهِ فَاهَا

وفي أَخبارِ امرئِ القيسِ : أَنَّهُ كانَ مُفَرَّكاً يُفتَنُ بجمالِهِ ومقالِه النساءُ بادياً ، ثُمَّ يكرهنَهُ بعدَ المخالطَةِ ، فيحتملُ أَنَّ الناظِمَ مِثلُهُ ، أَو أَنَّهُ لمَّا كانَ كبيراً في صدرِهِ . . أَحبَّ أَنْ يتمثَّلَ بهِ فيما زانَ وفيما شانَ ، حتَّىٰ لو دخلَ جُحْرَ ضَبٍّ لدخلَهُ[2] ، وكثيراً ما تُزيِّنُ لهُ الأُحموقَةُ القبيحَ ، كما ستأتي مُثُلُهُ في هٰذِهِ المجموعةِ إِنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ ، أَو أَنَّهُ لَمَّا لَمْ يكُنْ لَهُ قدمٌ راسخٌ في الحُبِّ . . قاسَ حالَهُ معَ النساءِ علىٰ حالِ ممدوحِيهِ ، فإِنَّ شأنَهُم كما وَصَفَ يُقبِلونَ عليهِ بدءاً ، ويُعرِضونَ عنهُ عوداً .

امرؤ القيس كان مفركا

---

(١) الشُّهْبُ : الخيلُ التي يخالطُها البياضُ والسوادُ . الدُّهمُ : السُّودُ . والمعنىٰ : أَنَّها تغيَّرتْ أَلوانُها مِنَ الدماءِ والعَجاجِ .

(٢) أخذ المصنف هذا اللفظ من حديث أبي سعيد الخدري عند مسلم (٢٦٦٩) وفيه : «لتتبعن سَنَنَ الذين من قبلكم شبراً بشبرٍ وذراعاً بذراعٍ، حتى لو دخلوا في جُحر ضب لاتبعتموهم» .

التناقض العجيب

والبيتُ ٱلَّذي نحنُ بسبيلِهِ ناظرٌ إِلىٰ قولِ أَبي نُوَاسٍ [« الأغاني » ٦/٣٢٦ منَ الطويل] :

شَكَوْنَا إِلىٰ أَحْبَابِنَا طُوْلَ لَيْلِنَا فَقَالُوْا لَنَا مَا أَقْصَرَ ٱللَّيْلَ عِنْدَنَا

ولا يبعدُ عنهُ قولُ العربيِّ ، وقَدْ تمثَّلَ بهِ أَميرُ المؤمنينَ ـ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ ـ في خطبتِهِ الشقشقيَّةِ[1] [« نهج البلاغة » ١٥ منَ السريع] :

شَتَّانَ مَا يَوْمِي عَلَىٰ كُوْرِهَا وَيَــوْمُ حَيَّــانَ أَخِــيْ جَــابِــرِ

عمر بن أبي ربيعة وعائشة بنت طلحة

وقالَ عمر ٱبنُ أَبي ربيعةَ يذكرُ عائِشةَ ٱبنةَ طلحةَ بنِ عُبيدِ اللهِ [في « ديوانه » ٩٤ـ٩٥ منَ الطويل] :

رَأَتْ رَجُلاً أَمَّا إِذا ٱلشَّمْسُ عَارَضَتْ فَيَضْحَىٰ وَأَمَّا بِٱلْعَشِيِّ فَيَخْصَرُ[2]
أَخَا سَفَرٍ جَوَّابَ أَرْضٍ تَقَاذَفَتْ بِــهِ فَلَــوَاتٌ فَهْــوَ أَشْعَــثُ أَغْبَــرُ
وَأَعْجَبَهَا مِنْ عَيْشِهَا ظِلُّ غُرْفَةٍ وَرَيَّانُ مُلْتَفُّ ٱلْحَدَائِقِ أَخْضَرُ
وَوَالٍ كَفَاهَا كُلَّ شَيْءٍ يَهُمُّهَا فَلَيْسَتْ لِشَيْءٍ آخِرَ ٱللَّيْلِ تَسْهَرُ

فيُروىٰ [كما في « الأغاني » ١/٩٢] : أَنَّ حالاً أَسهرَها ليلةً مِنْ زوجِها ، فقالت : ليْتَ ٱبنَ أَبي ربيعةَ يَرىٰ ليلتي هـٰذِهِ حتَّىٰ يرجعَ عَنْ بعضِ قولِهِ .

حال العاشق والمعشوق عند الشعراء

وقالَ عنترةُ [في « ديوانهِ » ١٩ منَ الكامل] :

تُمْسِيْ وَتُصْبِحُ فَوْقَ ظَهْرِ حَشِيَّةٍ وَأَبِيْتُ فَوْقَ سُرَاةِ أَدْهَمَ مُلْجَمِ[3]

---

(١) شقشقَ الكلامَ : أَخرجهُ أَحسنَ مخرجٍ .
(٢) يضحىٰ : يتعرَّضُ للشمسِ . يخصَرُ : يصيبه البرد .
(٣) الحَشِيَّةُ : الفِراشُ المحشو .

وقالَ [منَ الكامل] :

أبكِيْ ويَضحَكُ مِنْ بُكَايَ ولَنْ ترَىٰ عَجَباً كَحَاضِرِ ضَحْكِهِ وَبُكَائِيْ

وقالَ قيسُ بنُ المُلَوَّحِ [منَ الطويل] :

فَوَاكَبِداً مِنْ حُبِّ مَنْ لاَ يُحِبُّنِيْ وَمِـنْ زَفَـرَاتٍ مَـا لَهُـنَّ فَنَـاءُ

وَقالَ [منَ البسيط] :

أَطَعْتُهَا وَعَصَيْتُ ٱلنَّاسَ كُلَّهُمُ فِيْ أَمْرِهَا وهَوَاهَا وَهْيَ تَعْصِيْنِيْ

وقالَ نصيبٌ [منَ الكامل] :

وَذَكَـرْتُ مَـنْ رَقَّـتْ لَـهُ كَبِـدِيْ وَأَبَـىٰ فَلَيْـسَ تَـرِقُّ لِـيْ كَبِـدُهْ

وقالَ أَبو عبادةَ [منَ الخفيف] :

وَمِنَ ٱلضَّيْمِ فِيْ هَوَىٰ ٱلْبِيْضِ عِنْدِيْ أَنْ يَـوَدَّ ٱلْمَبْتُـوْلُ مَـنْ لاَ يَـوَدُّهْ

وَفي المجلسِ الأَوَّلِ ذَروٌ مِنَ ٱلقولِ في طولِ الليلِ ، ومنهُ قَولُ بشَّارٍ [في « ديوانهِ » ٤/ ١٦٦ منَ الرَّمَل] :

لَمْ يَطُلْ لَيْلِيْ وَلَـٰكِنْ لَمْ أَنَمْ وَنَفَىٰ عَنِّيْ ٱلْكَرَىٰ طَيْفٌ أَلَمّْ
وَإِذَا قُلْـتُ لَهَـا : جُـوْدِيْ لَنَـا خَرَجَتْ بِٱلصَّمْتِ عَنْ لاَ وَنَعَمْ
نَفِّسِـيْ يَـا عَبْـدُ عَنِّـيْ وَٱعْلَمِـيْ أَنَّنِـيْ يَـا عَبْـدُ مِـنْ لَحْـمٍ وَدَمْ
إِنَّ فِـيْ بُـرْدَيَّ جِسْمـاً نَـاحِـلاً لَـوْ تَـوَكَّـأْتِ عَلَيْـهِ لانْهَـدَمْ
خَتَـمَ ٱلْحُـبُّ لَهَـا فِـيْ عُنُقِـيْ مَوْضِعَ ٱلْخَاتَمِ مِنْ أَهْلِ ٱلذِّمَمْ

وَأَخطأَ أَبو معاذٍ [بشَّارٌ] في قولِهِ : (خَرَجَتْ بِٱلصَّمْتِ عَنْ لاَ وَنَعَمْ) ، وَما أُوتيَ إِلاَّ مِنْ جَهْلِهِ بِحَديثِ مُسلمٍ [١٤٢١ في النكاح عن ابن عباس] : «إِنَّ إِذْنَ ٱلْبِكْرِ صُمَاتُهَا». رد على بشار بن برد

وقالَ بعضُهُم [منَ الطويل] :

تَعالَوْا أَعِينُوْنِي عَلَىٰ ٱللَّيْلِ إِنَّهُ   عَلَىٰ كُلِّ عَيْنٍ لاَ تَنامُ طَوِيْلُ

فَلَمْ يشعر بعدَ أُمَّةٍ[1] مِنَ ٱلزمانِ إلاَّ بطارقٍ يَقرعُ بابَهُ مِنْ نصفِ ٱللَّيلِ ، فٱنتبهَ فَزِعاً مرعوباً ، وقالَ لهُ : ما شَأْنُكَ ؟! قالَ : أنتَ دعوتني بقولِكَ : (تَعالَوا أَعِينُوْنِي . . . إلى آخرِ البيتِ) ، فقالَ لَهُ : يا ٱبنَ أخي ، أبطأتَ بالإجابةِ حتَّىٰ جاءَ اللهُ بالفرجِ .

وإنَّما قالَ ٱبنُ الفارضِ [في « ديوانهِ » ١٤٤ منَ البسيط] :

أَمْسَيْتُ فِيْكَ كَمَا أَصْبَحْتُ مُكْتَئِباً   [وَلَمْ أَقُلْ جَزَعَاً: يَا أَزْمَةُ ٱنْفَرِجِيْ]

الأصل اجتماع الهموم على العشاق بالليل ومذاهب الشعراء في ذلك

لأنَّ الأَصلَ ٱجتماعُ الهمومِ علىٰ المحبِّينَ باللَّيلِ ، وقَدْ تتفرَّقُ عنهم نهاراً بِما يُمارسونَ مِنَ ٱلخلقِ وَالأشغالِ ، كما قالَ قيسُ بنُ الملوَّحِ أَوِ ٱبنُ الدُّمينَةِ [في « ديوانِ ٱبنِ الدُّمَيْنَةِ » ٨٨ منَ الطويل] :

أُقَضِّيْ نَهارِيْ بِٱلْحَدِيْثِ وَبِٱلْمُنَىٰ   وَيَجْمَعُنِيْ وَٱلْهَمَّ بِٱللَّيْلِ جَامِعُ

نَهَارِيْ نَهَارُ ٱلنَّاسِ حَتَّىٰ إِذَا بَدَا   لِيَ ٱللَّيْلُ هَزَّتْنِيْ إِلَيْكِ ٱلْمَضَاجِعُ

لَقَدْ ثَبَتَتْ فِيْ ٱلْقَلْبِ مِنْكِ مَحَبَّةٌ   كَمَا ثَبَتَتْ فِيْ ٱلرَّاحَتَيْنِ ٱلأَصَابِعُ

وقَدْ سبقَ إلىٰ أَصلِهِ ٱمرؤُ القيسِ في قولِهِ [في « ديوانهِ » ١٥٢ منَ الطويل] :

أَلاَ أَيُّهَا ٱللَّيْلُ ٱلطَّوِيْلُ أَلاَ ٱنْجَلِ   بِصُبْحٍ وَمَا ٱلإِصْبَاحُ مِنْكَ بِأَمْثَلِ

---

(١) أُمَّةٍ: حينٍ، أو نسيانٍ، من أَمِهَ يأمَهُ أمَهاً ؛ أي : نسي، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ [يوسف: ٤٥].

وَأَخذَهُ الطِّرمَّاحُ فقالَ [في « ديوانهِ » ٩٦ منَ الطويل] :

أَلاَ أَيُّهَا ٱللَّيْلُ ٱلطَّوِيْلُ أَلاَ ٱصْبِحِيْ ... بِفَجْرٍ وَمَا ٱلإِصْبَاحُ مِنْكَ بِأَرْوَحِ

وقالَ جميلُ بنُ مَعْمَرٍ في عكسِ مَا سبقَ عَنْ ٱبنِ الدُّمَيْنَةِ [في « ديوانهِ » ٥١ منَ الطويل] :

أَظَـلُّ نَهَـارِيْ مُسْتَهَـامـاً وَيَلْتَقِـيْ ... مَعَ ٱللَّيْلِ رُوْحِيْ فِيْ ٱلْمَنَامِ وَرُوْحُهَا

وقالَ ذُو الرُّمَّةِ [في « ديوانهِ » منَ الطويل] :

أَنِيْنٌ وشَكْوَىٰ بِٱلنَّهَارِ طَوِيْلَةٌ ... عَلَيَّ وَمَا يَأْتِيْ بِهِ ٱللَّيْلُ أَبْرَحُ

وقلتُ في رثاءِ ولدي بَصْرِي [كما في « ديوان المؤلف » ق/٩٥ منَ الطويل] :

فَقُلْتُ : ٱتْرُكِيْنَا نُطْفِ بَعْضَ ٱلْتِهَابِنَا ... بِغَزْرٍ مِنَ ٱلآمَاقِ فِيْ ٱللَّيْلِ إِذْ يَسْرِيْ

يَطُـوْلُ نَهَـارِي بِـٱلتَّجَلُّـدِ وَالـدُّجَـىٰ ... بِهِ مِنْ بُرُوْدِ ٱلدَّمْعِ شَيْءٌ مِنَ ٱلْقَصْرِ

وَمِنْ أَبلغِ مَا قيلَ في طولِ ٱللَّيْلِ قولُ النابغةِ [الذُّبيانيِّ في «ديوانهِ» ٤٦ منَ الطويل] :

فَبِـتُّ كَـأَنِّـيْ سَـاوَرَتْنِـيْ ضَئِيْلَـةٌ ... مِنَ ٱلرُّقْشِ فِيْ أَنْيَابِهَا ٱلسُّمُّ نَاقِعُ(١)

وقولُهُ [في « ديوانهِ » ٥٥ منَ الطويل] :

تَقَاعَسَ حَتَّىٰ قُلْتُ : لَيْسَ بِمُنْقَضٍ ... وَلَيْسَ ٱلَّذِيْ يَرْعَىٰ ٱلنُّجُوْمَ بِآيِبِ

وأَرادَ بـ (ٱلَّذِيْ يَرْعَىٰ ٱلنُّجُوْمَ) : الفجرَ ، وهيَ كنايةٌ عجيبةٌ ،

---

(١) ضَئِيْلَةٌ : الحيَّةُ الدقيقةُ ، قليلةُ اللحمِ . الرقشُ : المنقَّطةُ . ناقعٌ : ثابتٌ عتيدٌ كامنٌ .

وقالَ عليُّ بنُ هشامٍ [منَ السريع] :

لاَ أَظْلِمُ ٱللَّيْلَ وَلاَ أَدَّعِي ... أَنَّ نُجُومَ ٱللَّيْلِ لَيْسَتْ تَغُوزْ

لَيْلِي كَمَا شَاءَتْ فَإِنْ لَمْ تَجُدْ ... طَالَ وَإِنْ جَادَتْ فَلَيْلِي قَصِيرْ

قالَ الحرَّانيُّ [منَ البسيط] :

جَاءَتْ تُسَائِلُ عَنْ لَيْلِي فَقُلْتُ لَهَا ... وَسَوْرَةُ ٱلْهَمِّ تَمْحُو سَوْرَةَ ٱلْجَذَلِ(١)

لَيْلِي بِكَفَّيْكِ فَٱغْنَيْ عَنْ سُؤَالِكِ لِيْ ... إِنْ بِنْتِ طَالَ وَإِنْ وَاصَلْتِ لَمْ يَطُلِ

أبلغ من قال في طول الليل

ويُروىٰ عَنْ ثعلبٍ أَنَّهُ كانَ يقولُ : كُلُّ مَنْ تكلَّمَ في طولِ الليلِ لمْ يبلُغِ ٱلذُّروةَ مِنَ ٱلإِجادةِ سوىٰ خالدِ الكاتبِ ، فقد جاوزَ الغايةَ ، إذْ يقولُ [منَ المتقارب] :

رَقَدْتِ وَلَمْ تَرْثِ لِلسَّاهِرِ ... وَلَيْلُ ٱلْمُحِبِّ بِلاَ آخِرِ

وَلَمْ تَدْرِ بَعْدَ ذَهَابِ ٱلرُّقَا ... دِ مَا صَنَعَ ٱلدَّمْعُ بِٱلنَّاظِرِ

وقالَ التِّهاميُّ [منَ الطويل] :

أَبَا ٱلْفَضْلِ طَالَ ٱللَّيْلُ أَمْ خَانَنِي صَبْرِيْ ... فَخُيِّلَ لِيْ أَنَّ ٱلْكَوَاكِبَ لاَ تَسْرِيْ

وقالَ ٱبنُ زُريقٍ [البغداديُّ في « ديوانه » منَ البسيط] :

لاَ يَطْمَئِنُّ بِجَنْبِي مَضْجَعٌ وَكَذَا ... لاَ يَطْمَئِنُّ بِهِ مُذْ غِبْتِ مَضْجَعُهُ

وَمَنْ يُقَطِّعُ قَلْبِي ذِكْرُهُ وإِذَا ... جَرَىٰ عَلَىٰ قَلْبِهِ ذِكْرِيْ يُقَطِّعُهُ

وَهُوَ خلافُ بيتِ ٱلنّاظمِ ٱلَّذي نحنُ بسبيلِهِ غيرَ أَنَّ « ديوانَهُ » لا يخلو مِمَّا يشبهُهُ كقولِهِ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٢٨٣ منَ الطويل] :

هَرَاقَتْ دَمِيْ مَنْ بِيْ مِنَ ٱلْوَجْدِ مَا بِهَا ... مِنَ ٱلْوَجْدِ بِيْ وَٱلشَّوْقُ لِيْ وَلَهَا حِلْفُ

---

(١) سَوْرةُ الشيءِ : شدتهُ وحِدَّتهُ وهياجهُ . الجَذَلُ : الفرحُ .

وهو بالرقىٰ أشبهُ منهُ بالأشعارِ ، وحاصلُ معناهُ قولُ الآخرِ [مِنَ المنسرحِ] :

وَجِدَتْ بِيْ مِثْلَ مَا وَجِدْتُ بِهَا ... فَكِـلاَنَـا مُغْـرَمٌ دَنِـفُ

ولا يبعدُ عنهُ قولُ الأوَّلِ ، وفيهِ لابنِ عائِشةَ غناءٌ ، وهُوَ[1] [منَ المنسرحِ] :

وَارَحْمَتَا لِلْغَرِيْبِ فِيْ ٱلْبَلَدِ ٱلنَّا ... زِحِ مَـاذَا بِنَفْسِـهِ صَنَعَـا

فَـارَقَ أَحْبَـابَـهُ فَمَـا ٱنْتَفَعُـوْا ... بِـٱلْعَيْشِ مِنْ بَعْدِهِ وَلاَ ٱنْتَفَعَـا

وقالَ البهاءُ زهيرٌ [من مجزوء الكامل] :

يَـا لَيْـلُ مَـا لَـكَ آخِـرُ ... كَـلاَّ وَلاَ لِلشَّـوْقِ آخِـرُ[2]

لِـيْ فِيْـكَ أَجْـرُ مُجَـاهِـدٍ ... إِنْ صَـحَّ أَنَّ ٱللَّيْـلَ كَـافِـرُ

وقالَ أبو العتاهيةِ [في « ديوانه » ٥٤١ـ٥٤٢ منَ البسيط] :

إِنَّ ٱلْمُحِـبَّ إِذَا شَطَّتْ مَنَازِلُـهُ ... عَنِ ٱلْحَبِيْبِ بَكَىٰ أَوْ حَنَّ أَوْ ذَكَرَا

وَٱللَّيْلُ أَطْوَلُ مِنْ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ عَلَىٰ ... عَيْـنِ ٱلشَّجِـيِّ إِذَا مَـا نَـوْمُـهُ نَفَـرَا

* * *

---

(١) جاءَ في هامش المخطوط: ذكرَ ٱبنُ خَلِّكانَ [كما في «وفيات الأعيان» ٣/٣٥٦]: أنَّهُ لمَّا نُزعَتْ ثيابُ عليِّ بنِ الجَهْمِ بعدَ موتِهِ. . وُجِدَتْ فيها رُقعةٌ مكتوبٌ عليها هـٰذانِ ، لـٰكنَّهُ لا يصحُّ أَنْ تكونَ لابنِ الجهمِ ، ويكونُ فيها غناءٌ لابنِ عائِشةَ ؛ لتقدُّمِ هـٰذا علىٰ ٱبنِ الجهمِ بكثيرٍ .

(٢) وقد ورد هذا البيت أيضاً بلفظ:

يـا لَيْـلُ طُـلْ أَوْ لاَ تَطُـلْ ... إِنِّـي عَلَـىٰ ٱلحـالَيْـنِ صَـابِـرْ

[قالَ أَبو الطيِّب المتنبِّي في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ٣٠١ منَ المنسرح] :

لاَ نَاقَتِيْ تَقْبَلُ ٱلرَّدِيفَ وَلاَ	بِٱلسَّوْطِ يَوْمَ ٱلرِّهَانِ أُجْهِدُهَا

شرح المطلع

يقولُ: إنَّ ناقتَهُ لا تقبلُ الرديفَ، ولا تحتاجُ إلىٰ أن تُساقَ بالسوطِ، وإنَّما يعني: نعلَه، ولو قالَ لا تقبلُ الانفرادَ.. لكانَ أَولىٰ بالمحاجاةِ؛ إذْ لا تكونُ النعلُ إلاَّ مَشفوعةً ؛ كَمَا قالَ الآخرُ [منَ الطويل] :

رَواحِلُنَا سِتٌّ وَنَحْنُ ثَلاثَةٌ نُجَنِّبُهُنَّ ٱلْمَاءَ فِيْ كُلِّ مَنْهَلِ

خصائص النعال وأصل معنى بيت المتنبي

فهوَ مِنْ خَصائِصِها ، بخلافِ غيرِها مِنَ ٱلنوقِ ، فكثيراً مَا تعجزُ عَنِ ٱلارتدافِ ، ويقالُ إنَّ أَصلَ المعنىٰ قولُ عنترةَ [في « ديوانهِ » ٣٣ منَ الكامل] :

فَيَكُوْنُ مَرْكَبُكَ ٱلْقَعُوْدَ وَرَحْلُهُ وَٱبْنُ ٱلنَّعَامَةِ يَومَ ذَلِكَ مَرْكَبِي

أَرادَ بـ (ٱبنِ النَّعامةِ) عرقاً يكونُ في باطنِ القدمِ ، يعني : أَنَّهُ راكبٌ أَخْمَصَهُ[١] .

وقالَ أَبو نُوَاسٍ [في « ديوانهِ » ٥٨٥ منَ الطويل] :

إِلَيْكَ أَبَا ٱلْعَبَّاسِ مِنْ بَيْنِ [مَنْ] مَشَىٰ عَلَيْهَا ٱمْتَطَيْنَا ٱلْحَضْرَمِيَّ ٱلْمُلَسَّنَا[٢]

---

(١) الأخمص: الموضع المنخفض من باطن القدم. قال القاضي عياض رحمه الله [من الوافر]:

وممـا زادنـي شـرفـاً وتيهـاً وكـدت بـأخمصـي أطـأ الثـريّـا
دخـولـي تحت قـولـك يـا عبـادي وأن صَيَّـرْتَ أحمـد لـي نبيّـا

(٢) الحضرميُّ المُلَسَّنُ : النعلُ الذي فيهِ طولٌ ولطافةٌ علىٰ هيئةِ اللسانِ ، أَو النعلُ=

قَلاَئِصُ لَمْ تَعْرِفْ حَنِيْناً عَلَىٰ طَلىً ... وَلَمْ تَدْرِ مَا قَرْعُ ٱلْفَنِيْقِ وَلاَ ٱلْهَنَا(1)

ابن المطرز والشريف الرضـي والجـواب المفحم

ومَرَّ ٱبنُ المطرِّزِ ـ الشاعرُ ، وفي رجلِهِ نعلٌ باليةٌ ـ علىٰ الشريفِ الرضيِّ ، فقالَ : أنشدني قصيدتَكَ ٱلَّتي مِنْها قولُكَ [منَ الطويل] :

إِذَا لَـمْ تُبَلِّغْنِـيْ إِلَيْـكِ رَكَـائِبِـيْ ... فَلاَ وَرَدَتْ مَاءً وَلاَ رَعَتِ ٱلْعُشْبَا

ففعلَ ، حَتَّىٰ ٱنتهىٰ إِلىٰ هـٰذا البيتِ ، فقالَ لَهُ : أَهـٰذِهِ ركائِبُكَ؟! وأَشارَ إِلىٰ نعلِهِ ، فقالَ : لَمَّا صارَتْ هِباتُ مولانا إِلىٰ مثلِ قولِهِ [منَ الخفيف] :

فَخُذِ ٱلنَّوْمَ مِنْ جُفُوْنِيْ فَإِنِّيْ ... قَدْ خَلَعْتُ ٱلْكَرَىٰ عَلَىٰ ٱلْعُشَّاقِ

عادَتْ ركائِبي إِلىٰ مَا ترىٰ ، فإِنَّكَ قَدْ خلعْتَ مَا لا تملكُ علىٰ مَنْ لا يقبلُ ، فأَعجبَهُ كلامُهُ وأَجازَهُ .

كاد المتعل ان يكون راكباً

وقالتِ ٱبنةُ الخُسِّ في محاجاتِها المشهورةِ : كادَ المتعلُ يكونُ راكباً .

وفي الثالثةِ والأَربعينَ مِنْ «مقاماتِ الحريريِّ»(2) ما يتَّصلُ بالموضوعِ .

وفـود أبـي الشمقمـق على يزيد بن المزيد

وقالَ أَبو الشمَقْمَقِ ـ وقَدْ وفدَ إِلىٰ (اليمنِ) علىٰ يزيدَ بنِ المزيدِ ـ [منَ الكامل] :

= الذي جُعلَ طرفُ مقدَّمِها كطرفِ اللسانِ .

(1) قلائصُ ـ جمعُ قلوصٍ ـ : وهي الناقةُ الشابَّةُ الفتيَّةُ . الفنيقُ : الفحلُ المكرَّمُ مِنَ الإِبلِ الذي لا يُركبُ ولا يُهانُ لكرامتِهِ عليهم . الهناءُ : القَطِرانُ ، ويقالُ : هَنَأَ الإِبلَ إِذا طلاها بالقَطِرانِ .

(2) اسم هذه المقامة : المقامة البكرية .

رَحلَ ٱلْمُطِيَّ إِلَيْكَ طُلاَّبُ ٱلنَدَىٰ ... وَرَحَلْتُ نَحْوَكَ نَاقَةً نَعْلِيَّهْ
إِذْ لَمْ يَكُنْ لِيْ يَا يَزِيْدُ مَطِيَّةٌ ... فَجَعَلْتُهَا لَكَ فِيْ ٱلسِّفَارِ مَطِيَّهْ
تَخْدِيْ أَمَامَ ٱلْيَعْمَلاتِ وَتَعْتَلِيْ ... فِيْ ٱلسَّيْرِ تَتْرُكُ خَلْفَهَا ٱلْمَهْرِيَّهْ(1)
مِنْ كُلِّ طَاوِيَةِ ٱلصُّوَىٰ مُزْوَرَّةٍ ... قَطْعاً لِكُلِّ تَنُوفَةٍ دَوْسِيَّهْ(2)
فَإِذَا رَكِبْتُ بِهَا طَرِيقاً لاَحِباً ... تَنْسَابُ تَحْتِيْ كَانْسِيَابِ ٱلْحَيَّهْ
لَوْلاَ ٱلشِّرَاكُ لَقَدْ خَشِيْتُ جِمَاحَهَا ... وَزِمَامُهَا مِنْ أَنْ تَمَسَّ يَدَيَّهْ
تَنْتَابُ أَكْرَمَ وَائِلٍ فِيْ بَيْتِهَا ... حَسَباً وَقُبَّةُ مَجْدِهَا مَبْنِيَّهْ
أَعْنِيْ يَزِيْداً سَيْفَ آلِ مُحَمَّدٍ ... فَرَّاجَ كُلِّ شَدِيْدَةٍ مَخْفِيَّهْ
يَوْمَاهُ: يَوْمٌ لِلْمَوَاهِبِ وَٱلنَّدَىٰ ... خَضِلٌ وَيَوْمُ دَمٍ وَخَطْفُ مَنِيَّهْ(3)
وَلَقَدْ أَتَيْتُكَ وَاثِقاً بِكَ عَالِماً ... أَنْ لَسْتَ تَسْمَعُ مِدْحَةً بِنَسِيَّهْ(4)

فقالَ لهُ يزيدُ : صدقتَ ، وأَطلقَ عليهِ ألفَ دينارٍ .

وممَّا يُعزىٰ للكسائيِّ قولُهُ للرشيدِ [منَ الكامل] :

قُلْ لِلْخَلِيْفَةِ مَا تَقُوْلُ لِمَنْ ... أَمْسَىٰ إِلَيْكَ بِحُرْمَةٍ يُدْلِيْ
مَا زِلْتُ مُذْ صَارَ ٱلأَمِيْرُ مَعِيْ ... عَبْدِيْ يَدِيْ وَمَطِيَّتِيْ نَعْلِيْ

---

(1) اليَعْمَلاتُ ـ جمعُ اليَعْمَلَةِ مِنَ الإبلِ ـ : وهي النجيبةُ المعتملةُ المطبوعةُ على العملِ .
المَهْرِيَّةُ : إبلٌ نجائبُ تسبقُ الخيلَ ، منسوبةٌ لقبيلة مُهرة بن حيدان .

(2) الصُّوى : الطريق الوعر . مُزْوَرَّةٍ : معوجة، وأراد أن حذاءه عندما يسير إلى الأمير يسبق جميع الخيول السريعة . التنوفةُ : القفرُ مِنَ الأَرضِ . الدوسيَّةُ : الدَّوْسُ شدَّةُ الوطءِ بالأقدام ، ومِنْ هـٰذا يقالُ : طريقٌ مَدُوْسٌ .

(3) الخَضِلةُ : النعمةُ والرفاهيةُ .

(4) بنسيّه : أي بنسيئةٍ ، وهوَ الدَّينُ المؤجَّلُ .

وحجَّ بعضُ نُسّاكِ أَرضنا ماشياً ، فسُئِلَ : مِنْ أَيِّ الظهرِ رَكوبُكَ ؟ من أي الظهر ركوبك
فقالَ : ذلولٌ ، كنَّىٰ بها عَنِ الأَرضِ مِنْ قولِهِ جلَّ شأنُهُ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا ﴾ [الملك : ١٥] .

وعلىٰ ذكرِ النعلِ . . أَقولُ : بينا أَنا أُطالعُ مرَّةً في كتابٍ للنبهانيِّ مِنْ عهدٍ بعيدٍ . . إِذا بهِ يقولُ في ليلةِ الإِسراءِ [منَ الطويل] : وجهة نظر المؤلف في بعض أبيات النبهاني

عَلَىٰ رَأْسِ هَـٰذَا ٱلْكَوْنِ نَعْلُ مُحَمَّدٍ سَرَتْ فَجَمِيْعُ ٱلنَّاسِ تَحْتَ ظِلاَلِهِ[١]
لَدَىٰ ٱلطُّوْرِ مُوْسَىٰ نُوْدِيَ ٱخْلَعْ وَأَحْمَدٌ عَلَىٰ ٱلْعَرْشِ لَمْ يُؤْمَرْ بِخَلْعِ نِعَالِهِ

فلمْ يعجبني الكلامُ ، وٱطَّرحتُ الكتابَ ، ولمَّا كانَ الليلُ . . رأَيتُ النبهانيَّ ، أَو بعضَ محبِّيهِ فيما يرىٰ النائمُ ، فٱعترضْتُ قولَهُ وأَوسعتُهُ ردّاً ، وقلتُ لَهُ : إِنَّ الأَليقَ بمدحِ نبيِّنا ﷺ هوَ ما أَقولُ ، وأَنشدتُهُ [منَ الطويل] :

يَقُوْلُوْنَ : إِنَّ ٱلْمُصْطَفَىٰ لَيْلَةَ ٱلسُّرَىٰ إِلَىٰ ٱلْعَرْشِ لَمْ يَعْزِمْ بِخَلْعِ نِعَالِهِ
وَهَـٰذَا مُحَالٌ لاَ يَلِيْقُ بِحَالِ مَنْ تَـوَاضُعُـهُ للهِ أَسْنَـىٰ خِـلاَلِـهِ

في منامٍ طويلٍ ، لا حاجةَ إِلىٰ ٱستيعابِهِ ، إِذْ قدِ ٱستوفيتُهُ معَ ما يتعلَّقُ بهِ منَ ٱلبحثِ في كتابي « بلابلِ التغريدِ » ، ومنهُ أَنَّهُ مأمورٌ بما أَدَّبَ اللهُ بهِ موسىٰ عليهما [الصَّلاة و] السلام بنصِّ قولِهِ جلَّ ذكرُهُ : ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام : ٩٠] . ولئنِ ٱعترضَ بأَنَّ موسىٰ لَمْ يؤمرْ بخلعِ النعلِ إِلاَّ لنجاستِهِ . . فجوابُهُ : أَنَّهُ

(١) قال أحدهم في نحو هـٰذا المعنى : (وَنَعْلٍ مَتَىٰ نَخْضَعْ لِهَيْبَتِهَا نَعْلُو) .

قولٌ لا يعوَّلُ عليهِ ، وأمَّا الصلاةُ في النعالِ . . فهيَ مِنَ ٱلرُّخصِ ، كما قالَ ٱبنُ دقيقِ العيدِ ، لا مِنَ ٱلمستحبَّاتِ .

أمره ﷺ بمخالفة اليهود بالصلاة بالنعال

قالَ الحافظُ ٱبنُ حجرٍ [في « الفتح » ١/٤٩٤] : وروىٰ الحاكمُ [في « المستدرك » ١/٣٩١] وأبو داوودَ [في « سننه » (٦٥٢)] مِنْ حديثِ شدَّادِ بنِ أَوسٍ : « خَالِفُوْا ٱلْيَهُوْدَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُصَلُّوْنَ فِيْ نِعَالِهِمْ وَلاَ خِفَافِهِمْ » ، فيكونُ ٱستحبابُ ذلكَ مِنْ جهةِ قصدِ المخالفةِ المذكورةِ ، وورَدَ في كونِ الصلاةِ في النعالِ مِنَ ٱلزينةِ المأمورِ بأَخذِها في الآيةِ حديثٌ ضعيفٌ جدّاً ، أَوردَهُ ٱبنُ عديٍّ في « الكاملِ » ، وٱبنُ مردويهِ في « تفسيرِه »[1] ، مِنْ حديثِ أَبي هريرةَ . انتهىٰ .

استحباب قلع النعل لدخول (مكة)

وقدْ صرَّحَ فقهاؤُنا بٱستحبابِ نزعِ النعلِ لدخولِ (مكَّةَ) وهوَ ممَّا يَرُدُّ كلامَ النبهانيِّ ، وهٰذا كلُّهُ مِنْ حيثُ الفقهُ .

وأَمَّا مِنْ حيثُ الروايةُ : فقدِ ٱعترفَ هوَ نفسُهُ بأَنَّهُ لَمْ يُرِدْ ما يدلُّ عليهِ ، وللهِ درُّ المعرِّيِّ في قولِهِ [كما في « سقطِ الزندِ » ١٥٩ منَ البسيط] :

يَا شَاكِيَ ٱلنُّوَبِ ٱنْهَضْ طَالِباً حَلَبَا ... نُهُوْضَ مُضْنىً لِحَسْمِ ٱلدَّاءِ مُلْتَمِسِ[2]

وٱخْلَعْ حِذَاءَكَ إِنْ حَاذَيْتَهَا وَرَعاً ... كَفِعْلِ مُوْسَىٰ كَلِيْمِ ٱللهِ فِيْ ٱلْقُدُسِ

ويتَّصلُ به كثيرٌ ممَّا يأْتي في الآثارِ مِنَ ٱلمجلسِ الحادي عشرَ .

تلوُّن المتنبي وتغيره في أشعاره

ثُمَّ إِنَّ الناظِمَ كثيرُ التلوُّنِ في أَحوالِهِ ، فتارةً يتصعلَكُ ويتفقَّرُ

---

(١) أورده عنه ابن كثير في «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٢١٠) عن أنس مرفوعاً أنها نزلت في الصلاة بالنعال ، وقال : لكن في صحته نظر . والله أعلم .

(٢) النُّوَبُ : المصائبُ .

ويعترفُ بالرجلَةِ ، كما في البيتِ ، وكما في قولِهِ [في « العُكْبَريّ » ١/ ١٢٥ منَ الكامل] :

وَحُبِيْتُ مِنْ خُوْصِ ٱلرِّكَابِ بِأَسْوَدٍ مِنْ دَارِشٍ فَغَدَوْتُ أَمْشِيْ رَاكِبَا[1]

و(الدارشُ) : جلدٌ أسودُ تصنعُ منهُ الأحذيةُ ، وقولِهِ [في « العُكْبَريّ » ١/ ١٤٠ منَ الوافر] :

وَلَمَّـا قَلَّـتِ ٱلإِبِـلُ ٱمْتَطَيْنَـا إِلَىٰ ٱبْنِ أَبِيْ سُلَيْمَانَ ٱلْخُطُوْبَا

وقولِهِ [في « العُكبري » ٣/ ٢١١ منَ المنسرح] :

وَمَهْمَـهٍ جُبْتُـهُ عَلَـىٰ قَـدَمِـيْ تَعْجَزُ عَنْهُ ٱلْعَرَامِسُ ٱلذُّلُلُ[2]
بِصَـارِمِـيْ مُـرْتَـدٍ، بِمَخْبُـرَتِـيْ مُجْتَزِىءٌ، بِٱلظَّلَامِ مُشْتَمِلُ[3]

وقولِهِ [في « العُكبَري » ١/ ٣٤٦ منَ المتقارب] :

وَقَـدْ كَـانَ مَشْيُهُمَـا فِـيْ ٱلنِّعَـالِ فَقَدْ صَارَ مَشْيُهُمَا فِيْ ٱلْقُيُوْدِ

وقولِهِ [في « العُكْبَريّ » ٤/ ٢٩٠ منَ الطويل] :

وَغَيْـرُ كَثِيْـرٍ أَنْ يَـزُوْرَكَ رَاجِـلٌ فَيَـرْجِـعَ مَلْكـاً لِلْعِـرَاقَيْـنِ وَالِيَـا

---

(١) حُبيتُ : أُعطيتُ. خُوصُ الركابِ : الإبلُ المتعبةُ. والمعنى : أُعطيت بدلَ الإبلِ خفاً أسودَ أمشي فيهِ.

(٢) المَهْمَهُ : المفازةُ البعيدةُ والطريق ، والجمعُ المَهَامِهُ ، ومنه قول الشاعر :
ومَهْمَـــهٍ مغبـــرة أرجـــاؤه كـــأن لـــون أرضـــه سمـــاؤه
جُبْتُهُ : قَطَعْتُهُ ، ومنه : ﴿ جَابُوا ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴾ [الفجر: ٩] . العرامِسُ : النوقُ الصلابُ الشديدةُ . الذُّلُلُ : المذلَّلةُ بالعملِ ، المروَّضةُ بالسيرِ ، وهي جمعُ ذَلولٍ .

(٣) المعنىٰ : أنا مرتدٍ بسيفي ، متقلِّدٌ بهِ ، مكتفٍ بعِلْمي ، لم أَحتجْ إلىٰ دليلٍ يدلُّني ويهديني الطريقَ ، لابسٌ ثوبَ الظلامِ ، مشتملٌ بهِ كما يشتملُ الرجلُ بثوبِهِ .

وقولِهِ [في « العُكْبَرِيّ » ٣/ ٢٧٦ منَ البسيط] :

لاَ خَيْلَ عِنْدَكَ تُهْدِيْهَا وَلاَ مَالُ ... فَلْيُسْعِدِ ٱلنُّطْقُ إِنْ لَمْ تُسْعِدِ ٱلْحَالُ

بينا هوَ كذلكَ . . إِذَا بهِ يتطاولُ تارةً أُخرىٰ ، ويقولُ [في « العُكْبَرِيّ » ١/ ٢٧٠ من الطويل] :

وَتُسْعِدُنِيْ فِيْ غَمْرَةٍ بَعْدَ غَمْرَةٍ ... سَبُوْحٌ لَهَا مِنْهَا عَلَيْهَا شَوَاهِدُ(١)

ويقولُ [في « العُكْبَرِيّ » ١/ ٣٦ منَ الخفيف] :

وَلَقَدْ أَفْنَتِ ٱلْمَفَاوِزُ خَيْلِيْ ... قَبْلَ أَنْ نَلْتَقِيْ وَزَادِيْ وَمَائِيْ

ويقولُ [في « العُكْبَرِيّ » ١/ ٣٨ منَ المتقارب] :

إِذَا فَزِعَتْ قَدَّمَتْهَا ٱلْجِيَادُ ... وَبِيْضُ ٱلسُّيُوْفِ وَسُمْرُ القَنَا

ويقولُ [في « العُكْبَرِيّ » ١/ ١٧٣ منَ البسيط] :

وَجَدْتُ أَنْفَعَ مَالٍ كُنْتُ أَذْخَرُهُ ... مَا فِيْ ٱلسَّوَابِقِ مِنْ جَرْيٍ وَتَقْرِيْبِ

ويقولُ [في « العُكْبَرِيّ » ٢/ ١٥١ منَ الطويل] :

عَلَيَّ لأَهْلِ ٱلْجَوْرِ كُلُّ طِمِرَّةٍ ... عَلَيْهَا غُلاَمٌ مِلْءُ حَيْزُوْمِهِ غِمْرُ(٢)

وقولُهُ : (مَلْءُ حَيْزُوْمِهِ غِمْرُ) مِنْ قولِ ٱمرىءِ القيسِ : (تَحَمَّلَ فِيْ ٱلقُلُوْبِ حَنَقًا) .

---

(١) السَّبُوحُ : الفرسُ الشديدُ الجري ، والبيت من شواهد البلاغة .

(٢) الطِّمِرَّةُ : الفرسُ العاليةُ المشرفةُ . الحيزومُ : الصدرُ . الغِمْرُ : الحِقْدُ . والمعنىٰ أنَّهُ يقولُ : أنا كفيلٌ بخيلٍ فرسانُها هؤلاءِ .

وقولِ ربيعةَ بنِ مقرومٍ الضبيِّ [في « خزانةِ الأدبِ » ٨/٤٣٦ منَ الكامل] :

وَأَلَدَّ ذِيْ حَنَقٍ عَلَيَّ كَأَنَّمَا ... تَغْلِيْ عَدَاوَةُ صَدْرِهِ فِيْ مِرْجَلِ

ويقولُ الناظمُ أيضاً [في « العُكْبَرِيِّ » ١/١٧٩ منَ الطويل] :

وَعَيْنِيْ إِلَىٰ أُذْنَيْ أَغَرَّ كَأَنَّهُ ... مِنَ ٱللَّيْلِ بَاقٍ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَوْكَبُ(1)

ويقولُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٤/٢٨٥ منَ الطويل] :

وَجُرْداً مَدَدْنَا بَيْنَ آذَانِهَا ٱلْقَنَا ... فَبِتْنَ خِفَافاً يَتَّبِعْنَ ٱلْعَوَالِيَا

ويقولُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٢/٢٣ منَ الطويل] :

وَفِيْ ٱلنَّاسِ مَنْ يَرْضَىٰ بِمَيْسُوْرِ عِيْشَةٍ ... وَمَرْكُوْبُهُ رِجْلاَهُ وَٱلثَّوْبُ جِلْدُهُ

ويقولُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٤/٣٩ منَ البسيط] :

لَيْسَ ٱلتَّعَلُّلُ بِٱلآمَالِ مِنْ أَرَبِيْ ... وَلاَ ٱلْقَنَاعَةُ بِٱلإِقْلاَلِ مِنْ شِيَمِيْ

لا مجد إلا بمال

وقد أَلَمَّ في هٰذا ، وفي قولِهِ : (فَلاَ مَجْدَ فِيْ ٱلدُّنْيَا لِمَنْ قَلَّ مَالُهُ) بقولِ قيسِ بنِ سعدِ بنِ عبادةَ [في « البيان والتبيين » ١/٥٩٦] : اللهمَّ هَبْ لي حمداً ومجداً ، لا حمدَ إلا بفعالٍ ، ولا فعالَ إلاَّ بمالٍ ، اللَّهمَّ إنَّ القليلَ لا يُصْلِحُني ، ولا أَصلُحُ عليهِ .

تعريض الحمداني بالمتنبي ثم نفي المؤلف الذم عنه

وما أظنُّ أبا فراسٍ الحمدانيَّ في قولِهِ [في « ديوانهِ » ١٩٦ـ١٩٧ منَ الكامل] :

وَتَعَافُ لِيْ طَمَعَ ٱلْحَرِيْصِ أُبُوَّتِيْ ... وَمُرُوْءَتِيْ وَقَنَاعَتِيْ وَعَفَافِيْ

مَا كُلُّ مَا فَوْقَ ٱلْبَسِيْطَةِ كَافِياً ... فَإِذَا قَنِعْتَ فَكُلُّ شَيْءٍ كَافِ

---

(1) المعنىٰ : أَنَّهُ كانَ ينظرُ إلى أُذني فرسِهِ ، وذلكَ أَنَّ الفرسَ أَبصرُ شيءٍ ، فإذا حَسَّ بشخصٍ مِنْ بعيدٍ نصبَ أُذنيهِ نحوَهُ . . فيعلمُ الفارسُ أَنَّهُ أَبصرَ شيئاً ، ثُمَّ وصفَ فرسَهُ بأَنَّهُ قطعةُ ليلٍ في وجهِهِ كوكبُ .

إلاَّ ويُعرِّضُ بالناظِمِ ، ويشيرُ إلى قولَيْهِ السابقَينِ ، ولكنْ نفى عنهُ الذمَّ كلَّ النفي ما أَشرنا إليهِ مِنْ دُعاءِ قيسٍ ، والثاني مِنْ أَبياتِ الحمدانيِّ ، هوَ مِنْ قولِ أَبي ذؤَيبٍ [في « ديوانه » ٥٦ منَ الكامل] :

وَٱلنَّفْسُ رَاغِبَةٌ إِذَا رَغَّبْتَهَا وَإِذَا تُرَدُّ إِلَىٰ قَلِيلٍ تَقْنَعُ

عودة على تناقض المتنبي

وبينا صاحبُنا يعترفُ بقلَّةِ العَدِّ ، ويشتكي مِنْ صُفُورَةِ اليدِ ، ويقولُ [في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ٢٧٠ منَ الطويل] :

أَهُمُّ بِشَيْءٍ وَٱللَّيَالِي كَأَنَّهَا تُطَارِدُنِيْ عَنْ كَوْنِهِ وأُطَارِدُ
وَحِيْدٌ مِنِ ٱلْخُلاَّنِ فِيْ كُلِّ بَلْدَةٍ إِذَا عَظُمَ ٱلْمَطْلُوْبُ قَلَّ ٱلْمُسَاعِدُ

ويقولُ للمغيثِ العِجْليِّ [في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ١٢٠ منَ البسيط] :

لَمَّا أَقَمْتَ بِأَنْطَاكِيَّةَ ٱخْتَلَفَتْ إِلَيَّ بِٱلْخَبَرِ ٱلرُّكْبَانُ فِيْ حَلَبَا
فَسِرْتُ نَحْوَكَ لاَ أَلْوِيْ عَلَىٰ أَحَدٍ أَحُثُّ رَاحِلَتَيَّ ٱلْفَقْرَ وَٱلأَدَبَا

إذا بِهِ ينتفشُ دماغُهُ ، ويمتلىءُ فراغُهُ ، ويعقصُ أَنفَهُ ، ويمدُّ إلى النجومِ كفَّهُ ، ولا يستحيْ أَنْ يقولَ للمغيثِ في نفسِ القصيدةِ [في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ١٢٠ـ١٢١ منَ البسيط] :

وَإِنْ عَمِرْتُ جَعَلْتُ ٱلْحَرْبَ وَالِدَةً وَٱلسَّمْهَرِيَّ أَخاً وَٱلْمَشْرَفِيَّ أَبَا[١]
بِكُلِّ أَشْعَثَ يَلْقَىٰ ٱلْمَوْتَ مُبْتَسِماً حَتَّىٰ كَأَنَّ لَهُ فِيْ قَتْلِهِ أَرَبَا
قُحٍّ يَكَادُ صَهِيْلُ ٱلْخَيْلِ يَقْذِفُهُ عَنْ سَرْجِهِ مَرَحاً بِٱلْعِزِّ أَوْ طَرَبَا[٢]
فَٱلْمَوْتُ أَعْذَرُ لِيْ وَٱلصَّبْرُ أَجْمَلُ بِيْ وَٱلْبَرُّ أَوْسَعُ وَٱلدُّنْيَا لِمَنْ غَلَبَا

---

(١) عَمِرتُ : عشتُ طويلاً .
(٢) القحُّ : الخالصُ .

فَانظُر كيفَ يطمعُ في المُلكِ الكبيرِ ، وما يجدُ ما يتبلَّغُ بهِ مِنْ ناقةٍ أَو بعيرٍ ، فما أَشبهَهُ إِذنْ بخالدِ بنِ سدوسٍ ٱلنبهانيِّ ، إِذ أَغارَتْ بنو جديلةَ علىٰ ٱمرئِ ٱلقيسِ ، وأَخذوا إِبلَهُ ، وهو في جوارِهِ ، فقالَ لهُ : أَعطني رواحلَكَ ؛ لأَلحقَ القومَ ، فأَرُدَّ الإِبلَ ، ففعلَ ، وركبَ خالدٌ حتَّىٰ أَدركَهم ، فقالَ : يا بنيْ جديلةَ ، أَغَرْتُمْ علىٰ إِبلِ جاري! قالوا : ما هوَ لكَ بجارٍ ، قالَ : بلىٰ ، وهـٰذه رواحلُهُ معي ، قالوا : أَكذلكَ؟ قالَ : نعم ، فأَنزلوهُ عنها ، وأَخذوها فوقَ الإِبلِ ، فعادَ خالدٌ ينفضُ مذْرَوَيْهِ[1] ، قالَ لامرئِ القيسِ : لا تخفْ فسأَردُّ عليكَ الجميعَ ، فقالَ ٱمرؤُ القيسِ [في « ديوانهِ » ١٧٤ منَ الطويل] :

امرؤ القيس وخالد السدوسي والابل المسروقة

وَدَعْ عَنْكَ نَهْباً صِيحَ فِيْ حَجَرَاتِهِ   وَهَاتِ حَدِيْثاً مَا حَدِيْثُ ٱلرَّوَاحِلِ[2]

ولا يصحُّ أَنْ يُعتذرَ عنهُ بما سبقَ مِنْ قولِهِ [في « العُكْبَرِيِّ » ٤/ ٢٩٠ منَ الطويل] :

نفي العذر عن المتنبي في تناقضه

(وَغَيْرُ كَثِيْرٍ أَنْ يَزُوْرَكَ رَاجِلٌ . . إِلىٰ آخرِهِ) لفرقِ ما بينَ الحالينِ ؛ إِذْ هوَ ثَمَّ طالبٌ وهُنا فاخرٌ .

ويقولُ الناظِمُ أَيضاً [في « العُكْبَرِيِّ » ٤/ ٤٤ منَ البسيط] :

---

(١) المِذْرَوَانِ : الجانبانِ مِنْ كلِّ شيءٍ ، تقولُ العربُ : جاءَ فلانٌ يضربُ أَصْدَرَيْهِ ، ويَهُزُّ عطفَيْهِ وينفضُ مِذْرَوَيْهِ ، وهما منكباهُ .

(٢) القصة في « مجمع الأمثال » (١/ ٢٦٨) ، و« جمهرة الأمثال » (١/ ٤٥٢) .
النهبُ : السلبُ وانتهاز الفرص لاختطاف الأشياء . حَجَرَاتُهُ : نواحيهِ ، والمعنىٰ : دع عنك حديث إبلي التي سطا عليها هؤلاء اللصوص ولكن هات حدثني عن ذهاب رواحلك ، وكيف مكنتهم من أخذها ، يا سيِّئَ الجوار ، ويا ضعيف الدفع عن الجار ؟! .

مِيْعَادُ كُلِّ رَقِيْقِ ٱلشَّفْرَتَيْنِ غَداً وَمَنْ عَصَىٰ مِنْ مُلُوْكِ ٱلْعُرْبِ وَٱلْعَجَمِ(1)

ويقولُ [في العُكْبَرِيِّ ، ٤/ ٤١ منَ البسيط] :

لأَتْرُكَنَّ وُجُوْهَ ٱلْخَيْلِ سَاهِمَةً وَٱلْحَرْبُ أَقْوَمُ مِنْ سَاقٍ عَلَىٰ قَدَمِ(2)
وَٱلطَّعْنُ يُحْرِقُهَا وَٱلزَّجْرُ يُقْلِقُهَا حَتَّىٰ كَأَنَّ بِهَا ضَرْباً مِنَ ٱللَّمَمِ(3)

ويقولُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٢/ ١٥٧ منَ الطويل] :

وَجَنَّبَنِي قُرْبَ ٱلسَّلاَطِيْنِ مَقْتُهَا وَمَا يَقْتَضِيْنِي مِنْ جَمَاجِمِهَا ٱلنَّسْرُ

ويقولُ [في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ٣٧٣-٣٧٤ منَ الطويل] :

سَأَطْلُبُ حَقِّيْ بِٱلْقَنَا وَمَشَايِخٍ كَأَنَّهُمُ مِنْ طُوْلِ مَا ٱلْتَثَمُوْا مُرْدُ(4)
ثِقَالٍ إِذَا لاَقَوْا خِفَافٍ إِذَا دُعُوْا كَثِيْرٍ إِذَا شَدُّوْا قَلِيْلٍ إِذَا عُدُّوْا
إِذَا شِئْتُ حَفَّتْ بِيْ عَلَىٰ كُلِّ سَابِحٍ رِجَالٌ كَأَنَّ ٱلْمَوْتَ فِيْ فَمِهَا شَهْدُ

ويقولُ [في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ١٩٣ منَ الطويل] :

نُصَرِّفُهُ لِلطَّعْنِ فَوْقَ حَوَادِرٍ قَدِ ٱنْقَصَفَتْ فِيْهِنَّ مِنْهُ كِعَابُ(5)

ومهما ٱعتذرنا للناظمِ ـ في تقلُّبِهِ بينَ الجزرِ والمدِّ ، والصَّعرِ وضَرَعِ الخدِّ(6) بأَنَّ الإنسانَ عُرضةُ ذلكَ ، ولهٰذا كانَ أكثرُ حلفِهِ ﷺ

---

(1) رقيقُ الشفرتينِ : السيفُ الذي رقَّتْ مضاربُهُ بكثرةِ الصقلِ .
(2) ساهمةٌ : متغيِّرةُ الوجوهِ من هولِ ما ترىٰ .
(3) اللممُ : الجنونُ .
(4) أرادَ أنهمْ مجربونَ ، فلذلكَ جعلهم مشايخَ ، وأراد أنهم لا يفارقونَ الحربَ ، فلهذا لا يفارقهم اللثام ، فكأنهم مُرْدٌ لعدم رؤيته لحاهم .
(5) الحوادِرُ: الغليظُ السمينُ مِنَ الخيلِ .
(6) الصَّعَرُ: إمالة الخدِّ ، وهو كناية عن التكبر ، والشموخ ، والترفع ؛ تهاوناً =

بمقلِّبِ القلوبِ(١) ـ فإنَّا لا نقدِرُ أَنْ نُؤَلِّفَ بينَ ما سمعْتَ مِن هَفْوِ ٱلدعاوي الطويلةِ العريضةِ وبينَ قولِهِ [في «العُكْبَرِيّ» ٣/ ٣٤٤ منَ الخفيف] :

لَيتَ أَنَّا إِذَا رَكِبْتَ لَكَ ٱلْخَيْـ ... ـلُ وَأَنَّا إِذَا نَزَلْتَ ٱلْخِيَامُ

اختلاف الأحوال والواردات على العارفين

وَإِلاَّ . . فٱلعارِفونَ ـ وهُمْ مَنْ هُمْ ـ تضطرِبُ أَحوالُهُم ، وتتلوَّنُ أُمورُهُم ، أَلا ترىٰ إِلىٰ الشرفِ ٱبنِ الفارضِ بينا هوَ يقولُ ، وفي السماءِ أَنفُهُ ، وعلىٰ ناصيةِ الثريَّا كفُّهُ [في «ديوانهِ» ١٦٩ منَ الكامل] :

وَإِذَا سَأَلْتُكَ أَنْ أَرَاكَ حَقِيقَةً ... فَٱسْمَحْ وَلاَ تَجْعَلْ جَوَابِيَ لَنْ تَرَىٰ

إِذا به يتضاءَلُ ويذوبُ ، وينكسِرُ ويتوبُ ويقولُ [في «ديوانهِ» ٤٧ منَ الطويل] :

وَمُنِّيْ عَلَىٰ سَمْعِيْ بِلَنْ إِنْ مَنَعْتِ أَنْ ... أَرَاكِ فَمِنْ قَبْلِيْ لِغَيْرِيَ لَذَّتِ

ويقولُ [في «ديوانهِ» ١٥٧ منَ الخفيف] :

ذَابَ قَلْبِيْ فَأْذَنْ لَهُ يَتَمَنَّا ... كَ وَفِيْهِ بَقِيَّةٌ لِرَجَاكَا

ويقولُ [في «ديوانهِ» ١٤٧ منَ البسيط] :

وَٱرْحَمْ تَعَثُّرَ آمَالِيْ ، وَمُرْتَجِعِيْ ... إِلَىٰ خِدَاعِ تَمَنِّيْ ٱلْوَعْدِ بِٱلْفَرَجِ

= بالمنظور إليه، قال تعالىٰ : ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ [لقمان: ١٨] . ضَرَعُ الخَدِّ : إذلالهُ .

(١) ولفظه: «يا مقلِّب القلوب» رواه عن ابن عمر البخاري ، وأبو داوود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه، ومن دعائه ﷺ كما في حديث أم سلمة عند ابن السني (٦٦٣): «يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك».

وبينا هوَ يقولُ [في « ديوانهِ » ١٥٣ منَ الكامل] :

وَإِنِ ٱكْتَفَىٰ غَيْرِيْ بِطَيْفِ خَيَالِهِ   فَأَنَا ٱلَّذِيْ بِوِصَالِهِ لاَ أَكْتَفِيْ

.. إِذَا بِهِ يقولُ [في « ديوانهِ » ١٢٦ منَ الكامل] :

وَأَبِيْتُ سَهْرَانَاً أُمَثِّلُ طَيْفَهُ   لِلطَّرْفِ كَيْ أَلْقَىٰ خَيَالَ خَيَالِهِ

وهوَ خيرٌ مِنْ قَوْلِ النَّاظِمِ [في « العُكْبَرِيِّ » ٣/ ٥٣ منَ الكامل] :

إِنَّ ٱلْمُعِيْدَ لَنَا ٱلْمَنَامُ خَيَالَهُ   كَانَتْ إِعَادَتُهُ خَيَالَ خَيَالِهِ[1]

وبينا ٱلشَّرفُ ٱبنُ ٱلفَارضِ أيضاً يقولُ [في « ديوانهِ » ١٤٥ منَ البسيط] :

عَذِّبْ بِمَا شِئْتَ غَيْرَ ٱلْبُعْدِ عَنْكَ تَجِدْ   أَوْفَىٰ مُحِبٍّ بِمَا يُرْضِيْكَ مُبْتَهِجِ

ويقولُ [في « ديوانهِ » ١٤٤ منَ البسيط] :

أَمْسَيْتُ فِيْكَ كَمَا أَصْبَحْتُ مُكْتَئِباً   وَلَمْ أَقُلْ جَزَعاً : يَا أَزْمَةُ ٱنْفَرِجِيْ[2]

ويقولُ [في « ديوانهِ » ١٥٦ منَ الخفيف] :

وَبِمَا شِئْتَ فِيْ هَوَاكَ ٱخْتَبِرْنِيْ   فَٱخْتِيَارِيْ مَا كَانَ فِيْهِ رِضَاكَا

.. إِذْ بَطَلَ ٱختيارُهُ ، وعِيلَ ٱصطبارُهُ ، وبكأَتْ دَرَّتُهُ[3] ، ولانَتْ مِرَّتُهُ ، وصارَ يقولُ [في « ديوانهِ » ١٥٨ منَ الخفيف] :

بِٱنْكِسَارِيْ بِذِلَّتِيْ بِخُضُوْعِيْ   بِٱفْتِقَارِيْ بِفَاقَتِيْ بِغِنَاكَا
لاَ تَكِلْنِيْ إِلَىٰ قُوَىٰ جَسَدٍ خَا   نَ فَإِنِّيْ أَصْبَحْتُ مِنْ ضُعَفَاكَا

---

(١) المنام : فاعل المعيد؛ أي : إن الذي يعيد المنامُ لنا خيالَهُ .
(٢) الجزعُ : عدمُ الصبرِ .
(٣) بكأتْ : قلَّت .

وقامَ أَحدُ المُلحدينَ يطعنُ في القرآنِ بما ظاهرُهُ التناقضُ مِنْ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ * وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ [المرسلات : ٣٥ـ٣٦] ، وقولِهِ جلَّ ذِكرُهُ : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ [النبأ : ٣٨] معَ أَمثالِ قولِهِ تقدَّست أَسماؤُهُ : ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ [الصافات : ٢٧] .

دفع الإشكال بما ظاهره التناقض في القرآن الكريم

وأَجابُوا عَن ذلِكَ : بأَنَّ المنفيَّ مِنَ الكلامِ . . النافعُ ، وبأَنَّ اليومَ طويلٌ تختلفُ فيهِ الأَحوالُ ، فتارةً : يُمنعونَ عَنِ التكلُّمِ لتلاطُمِ الأَهوالِ ، وأُخرىٰ : يُؤْذَنُ لهُمْ فيهِ للتبكيتِ والتقريعِ ، فالاعتراضُ مدفوعٌ مِنْ أَصلِهِ ، وإِنَّما يكونُ التعارضُ مَعَ اتِّحادِ الزمانِ .

المتنبي جزوع منوع

والناظِمُ يَلْبَسُ لكلِّ حالةٍ لَبُوْسَها ، إِذْ لا يزالُ يعاني مِنَ الأَيَّامِ نعمتَها وبُؤْسَها(١) ، غيرَ أَنَّا لَمْ نَرَهُ في الخيرِ إِلاَّ مَنُوعاً ، وفي الشرِّ إِلاَّ جَزوعاً(٢) ، بعيداً مِنْ قولِ العربيِّ [منَ البسيط] :

لاَ مُتْرَفاً إِنْ رَخَاءُ الْعَيْشِ سَاعَدَهُ وَلَيْسَ إِنْ عَضَّ مَكْرُوْهٌ بِهِ خَشَعَا

ومِنْ قولِ حاتمٍ [في « ديوانهِ » ٥٢ منَ الطويل] :

عُنِيْنَا زَمَاناً بِالتَّصَعْلُكِ وَالْغِنَىٰ كَمَا الدَّهْرُ مِنْ أَيَّامِهِ الْعُسْرُ وَالْيُسْرُ
فَمَا زَادَنَا شَأْواً عَلَىٰ ذِي قَرَابَةٍ غِنَانَا وَلاَ أَزْرَىٰ بِأَحْسَابِنَا الْفَقْرُ(٣)

---

(١) لعلَّه أخذه من قول الشافعيِّ :
البسْ لكلِّ حالةٍ لبوسَها إمّا نعيمَها وإمَّا بؤسَها
(٢) اقتبس أسلوبه من قوله تعالىٰ : ﴿ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ [المعارج : ٢٠ـ٢١] .
(٣) شأواً : بُعْداً . أزرىٰ : عابَ .

وقولِ ٱبنِ عبدلِ الأَسديِّ [في « الأغاني » ٢/ ٨٤٤ منَ الطويل] :

وَإِنِّـي لأَسْتَغْنِـي فَمَـا أَبْطِـرُ ٱلْغِنَـىٰ وَأَبْذُلُ مَيْسُورِي لِمَنْ يَبْتَغِي قَرْضِي[1]

وَأُعْسِـرُ أَحْيَـانـاً وَتَشْتَـدُّ عُسْـرَتِـي وَأُدْرِكُ مَيْسُورَ ٱلْغِنَىٰ وَمَعِي عِرْضِي

وقولِ كُثيِّرٍ [في « ديوانهِ » ٢٣٩ منَ الطويل] :

إِذَا قَلَّ مَالِيْ زَادَ عِرْضِيْ كَرَامَةً عَلَيَّ وَلَمْ أَتْبَعْ دِقَاقَ ٱلْمَطَامِعِ[2]

وقولِ الآخرِ [منَ الطويل] :

وَكَمْ أَزْمَةٍ لِلدَّهْرِ أَلْقَتْ جِرَانَهَا عَلَيَّ فَلَمْ تَكْشِفْ مَذَلَّتُهَا سَتْرِي[3]

كرم نفس أبي فراس الحمداني

وإنِّي لكثيراً مَا أَعجبُ لأَبي فراسٍ ، وأَستَدِلُّ علىٰ أُكرومتِهِ وَطيبِ أُرومتِهِ[4] بقولِهِ وهوَ في غياباتِ السجنِ [في « ديوانهِ » ٢٤٦-٢٤٧ منَ الطويل] :

أَيَضْحَـكُ مَـأْسُـورٌ وَتَبْكِـيْ طَلِيْقَـةٌ وَيَسْكُتُ مَحْزُوْنٌ وَيَنْدُبُ سَالِيْ ؟!!

لَقَدْ كُنْتُ أَوْلَىٰ مِنْكِ بِٱلدَّمْعِ مُقْلَةً وَلَـٰكِنَّ دَمْعِيْ فِيْ ٱلْحَوَادِثِ غَالِيْ

عند الامتحان يكرم المرء أو يهان

ولا نعدمُ مِنْ كلامِ الناظمِ ما يشبهُهُ غيرَ أَنَّهُ في حالِ السَّعَةِ ، وهـٰذا يقولُهُ في حينِ الضيقِ ، وكذلكَ الحرُّ الكريمُ ، والعربيُّ الصميمُ لا تجدُهُ أَشدَّ ما يكونُ إِلاَّ عندَ ٱنقطاعِ الأَسبابِ ، وٱستغلاقِ الأَبوابِ ، كَما أَطلنا البحثَ فيهِ مِنْ كتابنا « بلابلُ التغريدِ » .

---

(١) البطرُ : الطغيانُ عندَ النعمةِ .
(٢) لَمْ أَتبعْ دِقَاقَ المطامعِ : أَي لَمْ أَتبعِ المطامعَ الدقيقةَ الصغيرةَ التي يدفعُ إِليها الفقرُ أَحياناً .
(٣) الجِرَانُ : الثقلُ .
(٤) الأُرُوْمَةُ ـ بفتحِ الهمزةِ وضَمِّها ـ : الأَصلُ ، والجمعُ أُرُوْمٌ .

وحالُهُ ﷺ أكملُ الأحوالِ في ذلكَ ، ولهٰذا ٱشتدَّ خوفُهُ ، وكَثُرَ إلحاحُهُ علىٰ ربِّهِ يومَ العريشِ ، والمهاجرونَ والأنصارُ بينَ يديهِ تدورُ حَمَالِيقُهمْ[1] أمثالَ الحيَّاتِ . — الحاحه ﷺ علىٰ ربه يوم العريش

وثَبَتَ جأشُهُ ، وذهَبَ إيحاشُهُ يومَ الغارِ ، ويومَ حنينٍ ، ويومَ أُحُدٍ ، وَقَدِ ٱصفرَّتِ ٱلجباهُ ، ويَبِسَتِ ٱلشفاهُ ، وغارَتِ ٱلعيونُ ، وظُنَّتِ ٱلظنونُ . — ثباتة جاشه في الغار

وهَلْ سمعْتَ بشدَّةٍ أَعظمَ مِنْ شدَّتِهِ ، وقد ظَنَّ أَنَّ عَمَّهُ سيُسلِمُهُ إلىٰ قريشٍ ؛ إنْ لَمْ يُجبْهُ إلىٰ خَصلةٍ ممَّا عَرَضَ عليهِ ، فقالَ : « وَٱللهِ لَوْ وَضَعُوا ٱلشَّمْسَ فِي يَمِينِي ، وَٱلْقَمَرَ فِي شِمَالِي ، عَلَىٰ أَنْ أَتْرُكَ هَـٰذَا ٱلأَمْرَ حَتَّىٰ يُظْهِرَهُ ٱللهُ ، أَوْ أَهْلِكَ دُونَهُ ، مَا فَعَلْتُ »[2] . — والله يا عم لو وضعوا الشمس

وهل بلغتْكَ رِقَّةٌ أَعظمُ مِنْ رِقَّتِهِ يومَ فتحِ (مكَّةَ) ؛ إذ دخلَها علىٰ رَحْلٍ مُطأطِئاً رأسَهُ ، حتَّىٰ ليَكادُ يَمَسُّ مُقدَّمَ رَحلِهِ ، مُردِفاً خلفَهُ عبداً في سوادِ الغرابِ ، وخلفَهُ ثمانيةُ آلافِ سيفٍ مُنتضاةٍ ، ومكَّنَهُ اللهُ مِنْ — تواضعه ﷺ عند فتح (مكة)

---

(١) وهذا تعبيرٌ فيهِ كنايةٌ عن شدَّةِ هولِ الموقفِ الذي كانَ يمرُّ فيهِ الصحابةُ آنَ ذاكَ ، والحِملاقُ : باطنُ أجفانِ العينِ ، وحملقَ الرجلُ : إذا ٱنقلبَ حملاقُ عينيهِ مِنَ الفزعِ .

أخرج عن ابن عباس البخاري في «صحيحه» (٢٩١٥) في كتاب الجهاد والسير ، أن رسول الله ﷺ قال وهو في قبة يوم بدر: « اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك ، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم » فأخذ أبو بكر بيده فقال: حسبك يا رسول الله ، فقد ألحت على ربك ، وهو [يثب] في الدرع ، فخرج وهو يقول: ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ [القمر : ٤٥ـ٤٦] يعني من المرارة .

(٢) « السيرة النبوية » (٢/ ١٠١) .

رقابِ أعدائِهِ الَّذينَ فعلوا بهِ الأفاعيلَ ، فما كانَ منهُ إلاَّ أنْ جمعَهُم حولَ البيتِ ، وقالَ : « مَا تَرَوْنِي فَاعِلاً بِكُمْ ؟ » ، فقالوا : إنْ تُعَذِّبْ.. فقد أسأنا ، وإنْ تعفُ.. فخيرُ ٱبنِ وَخَيْرُ أَخٍ ، فقالَ لهم : « لاَ أَقُوْلُ لَكُمْ إلاَّ كَمَا قَالَ ٱلْعَبْدُ ٱلصَّالِحُ : لاَ تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ، يَغْفِرُ ٱللهُ لَكُمْ »[1] أو ما يقرُبُ مِنْ هـٰذا المعنىٰ[2] .

سؤال عن عفوه وعن شدته

وهاهنا سؤالٌ وهو : كيفَ عفا ﷺ عن قريشٍ ، وقتلَ ما بينَ الصلاتينِ سبعَ مئةٍ مِنَ ٱليهودِ ، لَمْ تأخذْهُ بِهِمْ رأفةٌ ، ولَمْ تعطِفْهُ عليهِمْ رحمةٌ ، معَ أنَّهُ أشفقُ الناسِ بالناسِ ، ومعَ أنَّ ذنبَهُم لَمْ يَكُنْ مِثلَ ذنوبِ قريشٍ[3]؟

والجوابُ : أنْ لا هوادةَ عندَهُ ، وقد قتلَ الفريقينِ ، إلاَّ أنَّ قريشاً لمَّا كانوا أهلَ كَرَمٍ ، وبُعْدَ هِمَمٍ ، وطهارةَ شِيَمٍ.. كانَ قتلُهم بالعفوِ ، وأمَّا اليهودُ : فإنَّهُم لمَّا ٱشتملوا علىٰ اللُّؤْمِ ، وٱندمجوا علىٰ الخِسَّةِ بآيةِ أنَّ ذنبَهُم كانَ الغدرُ.. لَمْ يكُنْ ليصلِحَهُمُ الحِلْمُ ، ولا ليتداركَهُمُ العفوُ ، لا جَرَمَ ٱضطرَّ إلىٰ قتلِهم بٱلسيفِ ، وقد قالَ ٱبنُ المعتزِّ [منَ الكامل] :

ضَرَّابُ هَامِ ٱلرُّوْمِ مُنْتَقِماً وَفِيْ ... أَعْنَاقِهِمْ مِنْ جُوْدِهِ أَعْبَاءُ
لَوْلاَ ٱنْبِعَاثُ ٱلسَّيْفِ وَهُوَ مُسَلَّطٌ ... فِيْ قَتْلِهِمْ قَتَلَتْهُمُ ٱلنَّعْمَاءُ

---

(١) كما في سورة يوسف عليه السلام [الآية : ٩٢] .
(٢) قصة دخوله ﷺ على الصفة والهيئة المذكورة في « السيرة النبوية » (٤/ ٢٤) ، ولكنه لم يذكر أنه ﷺ كان مردفاً عبداً . والله أعلم .
(٣) « ٱبن هشام » (٣/ ٢٥٩) .

إلاَّ أَنَّ عليهِ مؤَاخذتينِ :

اعتراض المؤلف على ابن المعتز

إحداهُما : أَنَّ الإحسانَ ذِمَّةٌ ، فلا يليقُ بالكريمِ أَنْ يؤذيَ غَذِيَّ نعمتِهِ .

والأُخرىٰ: أَنَّهُ لا يُصارُ إلىٰ القتلِ بالسيفِ إلاَّ عندَ تعذُّرِهِ بِالنَّعْمَاءِ، وإلاَّ كانَ الحِلمُ أَلْيَقَ ، والعفوُ أَجدرَ ، كمَا فعلَ رسولُ اللهِ ﷺ .

الصفح عند الشعراء

وقالَ أَبو عبادةَ [في « ديوانهِ » منَ الطويل] :

صَفُوْحٌ عَنِ ٱلْجَانِيْ وَصَفْحَةُ سَيْفِهِ إِذَا هِيَ لَمْ تَقْتُلْهُ فَٱلصَّفْحُ قَاتِلُهُ

ووضَّحهُ أَبو الطيِّبِ في قولِهِ [في « العُكْبَرِيّ » ١/ ٢٨٨ منَ الطويل] :

وَمَا قَتَلَ ٱلأَحْرَارَ كَٱلْعَفْوِ عَنْهُمُ وَمَنْ لَكَ بِٱلْحُرِّ ٱلَّذِيْ يَحْفَظُ ٱلْيَدَا

إِذَا أَنْتَ أَكْرَمْتَ ٱلْكَرِيْمَ مَلَكْتَهُ وَإِنْ أَنْتَ أَكْرَمْتَ ٱللَّئِيْمَ تَمَرَّدَا

وَوَضْعُ ٱلنَّدَىٰ فِيْ مَوْضِعِ ٱلسَّيْفِ بِٱلْعُلاَ مُضِرٌّ كَوَضْعِ ٱلسَّيْفِ فِيْ مَوْضِعِ ٱلنَّدَىٰ

وقولِهِ [في « العُكْبَرِيّ » ٤/ ١٣٦ منَ الطويل] :

وَأَحْلُمُ عَنْ خِلِّيْ وَأَعْلَمُ أَنَّهُ مَتَىٰ أَجْزِهِ حِلْماً عَلَىٰ ٱلْجَهْلِ يَنْدَمِ

وقولِهِ [في « العُكْبَرِيّ » ٤/ ١٨٥ منَ الكامل] :

يَا مَنْ يُقَتِّلُ مَنْ أَرَادَ بِسَيْفِهِ أَصْبَحْتُ مِنْ قَتْلاَكَ بِالإِحْسَانِ

وقولِهِ [في « العُكْبَرِيّ » ١/ ٣٧٩ منَ الطويل] :

وَيَصْطَنِعُ ٱلْمَعْرُوْفَ مُبْتَدِئاً بِهِ وَيَمْنَعُهُ عَنْ كُلِّ مَنْ ذَمُّهُ حَمْدُ

وقولِهِ [في « العُكْبَرِيّ » ٣/ ٣١٠ منَ الكامل] :

لاَ يَشْهَرُوْنَ عَلَىٰ مُخَالِفِهِمْ سَيْفاً يَقُوْمُ مَقَامَهُ ٱلْعَذْلُ

وفي البحثِ طولٌ وفَّيْناهُ حقَّهُ في « بلابلِ التغريدِ » .

عود على بدء

ولنعُدْ إلىٰ ما يتَّصلُ بتناقضِ الناظِمِ ، فنقولُ :

الأصمعي وبراذين الخلفاء

حُكيَ : أنَّ الأصمعيَّ رُئيَ علىٰ حمارٍ أَعجفَ ، فقيلَ لهُ : تركبُ هٰذا بعدَ براذينِ الخلفاءِ ؟ فقالَ [منَ الكامل] :

وَلَمَّا أَبَتْ إلاَّ ٱنصِراماً لِوِدِّهَا وَكَدَّرتِ ٱلْمَاءَ ٱلَّذِيْ كَانَ صَافِيَا
شَرِبْنَا بِرِنْقٍ مِنْ هَوَاهَا مُكَدَّرٍ وَلَيْسَ يَعَافُ ٱلرَّنْقَ مَنْ كَانَ صَادِيَا

الضرورات تبيح المحظورات

وَللنّاظمِ فيما يقربُ منَ ٱلأخيرِ قولُهُ [في « العُكْبَريّ » ٢/ ٢٨١ منَ المنسرح] :

غَيْرَ ٱخْتِيَارٍ قَبِلْتُ بِرَّكَ بِيْ وَٱلْجُوْعُ يُرْضِيْ ٱلأُسُوْدَ بِٱلْجِيَفِ

ومثلُهُ قولُ بعضِهم [من مجزوء الكامل] :

خُذْ مَا أَتَاكَ مِنَ ٱللِّئَا مِ إِذَا نَأَىٰ أَهْلُ ٱلْكَرَمْ
فَٱلأُسْدُ تَفْتَرِسُ ٱلْكِلاَ بَ إِذَا تَعَذَّرَتِ ٱلْغَنَمْ

ابن الرومي يطلب حاجة لا يتوقع قضاءها

وسأَلَ ٱبنُ الروميِّ حاجةً مِنْ بعضِ الرؤَساءِ ، فقضاها لَهُ ، وما كانَ يتوقَّعُ ذلكَ منهُ ، فقالَ [منَ الطويل] :

سَأَلْتُكَ فِيْ أَمْرٍ فَجُدْتَ بِبَذْلِهِ عَلَىٰ أَنَّنِيْ مَا خِلْتُ أَنَّكَ تَفْعَلُ
وَأَلْزَمْتَنِيْ بِٱلْبَذْلِ شُكْراً وَإِنَّهُ عَلَيَّ مِنَ ٱلْحِرْمَانِ أَدْهَىٰ وَأَعْضَلُ
وَمَا خِلْتُ أَنَّ ٱلدَّهْرَ يَثْنِيْ بِصَرْفِهِ إِلَىٰ أَنْ أَرَىٰ فِيْ ٱلنَّاسِ مِثْلَكَ يُسْأَلُ
لَئِنْ سَرَّنِيْ مَا نِلْتُ مِنْكَ فَإِنَّهُ لَقَدْ سَاءَنِيْ إِذْ أَنْتَ مِمَّنْ يُؤَمَّلُ

ابتسام الأيام بعد عبوسها

وفيما يليقُ بموضوعِ البيتِ الَّذي نتكلَّمُ فيهِ ، يقولُ ٱبنُ الروميِّ أَيضاً في أَبي الصقرِ [في « ديوانهِ » ٢/ ١٦٣٨ منَ الوافر] :

غَـدَا يَعْلُـوْ ٱلْجِيَـادَ وَكَـانَ يَعْلُـوْ ... إِذَا مَا ٱسْتَفْرَهَ ٱلسِّبْتَ ٱلرِّقَاقَا[1]
أَعِنَّتُهَـا ٱلشُّسُـوْعُ فَـإِنْ عَـرَاهَـا ... حِفَـاءُ ٱلْكَـدِّ أَنْعَلَهَـا طِـرَاقَـا
فَـزُوِّجَ بَعْـدَ فَقْـرٍ مِنْـهُ نُعْمَـىٰ ... أَرَانِـيَ ٱللهُ صُبْحَتَهَـا طَـلاَقَـا

رجل خفيف الحِمل

وقالَ آخرُ [منَ الخفيف] :

أَتُرَانِي أُرَىٰ مِنَ ٱلدَّهْرِ يَوْماً ... وَبِمِلْكِـيْ مَطِيَّـةٌ غَيْـرَ رِجْلِـيْ
وَإِذَا كُنْـتُ فِـيْ أُنَـاسٍ فَقَـالُـوْا ... قَـرِّبُوْا لِلـرَّحِيْـلِ قَـرَّبْـتُ نَعْلِـيْ
حَيْثُمَـا كُنْـتُ لاَ أُخَلِّـفُ رَحْـلاً ... مَـنْ رَآنِـيْ فَقَـدْ رَآنِـي وَرَحْلِـيْ

اللهم مثلنا أو مثلهم

وكانَ لبعضِ الفقراءِ مِنْ متأخِّري أَهلِ بلادِنا جيرانٌ أَغنياءُ ، فكانَ يقولُ مِنْ آخرِ الليلِ : (اللَّهمَّ مِثْلَنا أَو مِثْلَهُم) ؛ يريدُ أَنْ يفتقروا مثلَهُ أَو يثرىٰ مثلَهُم ، وكأَنَّما أَخذَهُ من قولِ بعضِهِم ، وهوَ مِنْ مَناسِبِ الموضوعِ [منَ المتقارب] :

تَسَامَىٰ ٱلرِّجَالُ عَلَىٰ خَيْلِهِمْ ... وَرِجْلِـيَ مِـنْ بَيْنِهِـمْ حَـافِيَـهْ
فَـإِنْ كُنْـتَ حَـامِلَنَـا رَبَّنَـا ... وَإِلاَّ فَـأَرْجِـلْ بَنِـيْ ٱلـزَّانِيَـهْ

لم يذهب إلا الفضول

وذكروا : أَنَّ بعضَهُم رأَىٰ أَحَدَ بني هشامِ بنِ عبدِ المَلِكِ ، وعلىٰ ظهرِهِ قِرْبَةٌ ، فقالَ لَهُ : بعدَ الخلافةِ تكونُ علىٰ هـٰذا الحالِ؟! قالَ : لَمْ يذهبْ إلاَّ الفضولُ!!

فخر الدولة ابن المعتمد يتعلم الصياغة

ورأَىٰ ٱبنُ ٱللَّبَّانةِ فخرَ الدولةِ ٱبنَ المعتمدِ بنِ عبَّادٍ ، وقد جلسَ

---

(١) ٱستفرَهَ : تخيَّرَ الجيدَ . السِّبتُ : النعالُ المصنوعةُ مِنَ الجلدِ المدبوغِ . الرقاقُ : كنايةٌ عن الجديدِ مِنَ النعالِ ؛ لأنها لا رقعة فيها .

في السوقِ ليتعلَّمَ الصياغةَ ، وهوَ ينفُخُ الفحمَ بالقصبةِ ، فقالَ [كما في « نفح الطيب » ٤/ ٩٧ منَ البسيط] :

شَكَاتُنَا لَكَ يَا فَخرَ ٱلْعُلاَ عَظُمَتْ ... وَٱلرُّزْءُ يَعْظُمُ فِيْمَنْ قَدْرُهُ عَظُمَا
طُوِّقْتَ مِنْ نَائِبَاتِ ٱلدَّهْرِ مُخْنِقَةً ... ضَاقَتْ عَلَيْكَ وَكَمْ طَوَّقْتَنَا نِعَمَا
صَرَفْتَ فِيْ آلَةِ ٱلصَّوَّاغِ أُنْمُلَةً ... لَمْ تَدْرِ إِلاَّ ٱلنَّدَىٰ وَٱلسَّيْفَ وَٱلْقَلَمَا
يَدٌ عَهِدْتُكَ لِلتَّقْبِيْلِ تَبْسُطُهَا ... فَتَسْتَقِلُّ ٱلثُّرَيَّا أَنْ تَكُوْنَ فَمَا
يَا صَائِغاً كَانَتِ ٱلْعَلْيَا تُصَاغُ لَهُ ... حُلْياً وَكَانَ عَلَيْهِ ٱلْحُلْيُ مُنْتَظِمَا
لِلنَّفْخِ فِيْ ٱلصُّوْرِ هَوْلٌ مَا حَكَاهُ سِوَىٰ ... هَوْلُ رِئَاتُكَ فِيْهِ تَنْفُخُ ٱلْفَحَمَا
وَدِدْتُ إِذْ نَظَرَتْ عَيْنِيْ إِلَيْكَ بِهِ ... لَوَ انَّ عَيْنِيَ تَشْكُوْ قَبلَ ذَاكَ عَمَىٰ
مَا حطَّكَ ٱلدَّهْرُ لَمَّا حطَّ عَنْ شَرَفٍ ... وَلاَ تَحَيَّفَ مِنْ أَخلاَقِكَ ٱلْكَرَمَا
لُحْ فِيْ ٱلْعُلاَ كَوْكَباً إِنْ لَمْ تَلُحْ قَمَراً ... وَقُمْ بِهَا رَبْوَةً إِنْ لَمْ تَقُمْ عَلَمَا
وَٱصْبِرْ فَرُبَّتَمَا أُحْمِدْتَ عَاقِبَةً ... مَنْ يَلْزَمِ ٱلصَّبْرَ يَحْمَدْ غِبَّ مَا لَزِمَا
وَٱللهِ لَوْ أَنْصَفَتْكَ ٱلشُّهْبُ لانْكَسَفَتْ ... وَلَوْ وَفَىٰ لَكَ دَمْعُ ٱلْعَيْنِ لانْسَجَمَا
أَبْكَىٰ حَدِيْثُكَ ـ حَتَّىٰ ٱلدُّرَّ ـ حِيْنَ غَدَا ... يَحْكِيْكَ رَهْطاً وَأَلْفَاظاً وَمُبْتَسَمَا

تغير احوال أم جعفر البرمكي

ودخلَتْ أُمُّ جعفرٍ البَرمكيِّ ـ في يومِ عيدٍ ـ علىٰ بعضِ الهاشميِّينَ ، فقالوا لها : صِفِي لنا حاليكِ ، قالت : لا أَزيدُكُم علىٰ أَنَّهُ مضىٰ عليَّ مثلُ اليومِ في العامِ الماضي وعلىٰ رأسي مئةُ وصيفةٍ ، وعندي مئةُ ألفِ دينارٍ ، وأنا أَعُدُّ وَلَدِي مُقصِّرًا في حَقِّي ، واليومَ أَطلبُ درهماً أَتبلَّغُ به في عيدي .

قصة عجيبة على تغير الأحوال

وقالَ محمَّدُ بنُ يزيدَ الشاعرُ : دعاني الفضلُ بنُ يحيىٰ ذاتَ ليلةٍ إلىٰ دارٍ لهُ واسعةٍ مؤثَّثةٍ بأَجمَلِ الرياشِ ، وإذا هيَ غاصَّةٌ بالعلماءِ

والشعراءِ والأُمراءِ والْخاصَّةِ والأَعيانِ ، وأُخرِجَ مولودٌ عن يمينِ الفضلِ ، فقُرِىءَ القرآنُ حتَّىٰ ٱنتهَوا مِنَ ٱلخَتمةِ ، فقامَ الشعراءُ والخطباءُ ، ونُثرتِ الدنانيرُ ولَمْ يحضرني غيرُ قولي [منَ الطويل] :

وَنَفْرَحُ بِٱلْمَوْلُوْدِ مِنْ آلِ بَرْمَكٍ   وَلاَ سِيَّمَا إِنْ كَانَ مِنْ وَلَدِ ٱلْفَضْلِ
وَيُعْرَفُ فِيْـهِ ٱلْخَيْـرُ حَـالَ وُجُوْدِهِ   بِسِيْمَا ٱلْعُلاَ وَٱلْمَجْدِ وَٱلْجُوْدِ وَٱلْبَذْلِ

فأَمرَ لي بعشَرَةِ آلافِ دينارٍ ، وقالَ : خُذها يا محمَّدُ ، فهيَ أَوَّلُ حقِّكَ ، فخرجتُ وأَنا مِنْ أَشدِّ الناسِ فرحاً ، وتأَثَّلْتُ المالَ والعَقَارَ ، ونَعُمَ عَيشي ، وطابَ لي زماني ، ثُمَّ لَمْ تَطُلِ ٱلأَيَّامُ حتَّىٰ حَلَّتْ بِهِمُ النازلةُ . ودخلتُ ٱلحَمَّامَ بعدَ ذلكَ ، فأَشارَ قيِّمُهُ علىٰ صبيٍّ حَسَنِ الوجهِ مِنَ ٱلخَدَمِ أَنْ يَدْلُكَ بدني ، فتذكرتُ البرامكةَ وأَيَّامَهم ؛ لأَنَّهُم سببُ نعمتي ، فأَنشدتُ البيتينِ ، فٱندهشَ الصبيُّ ، وسالَتْ دموعُهُ ، وسقطَ مغشيّاً عليه ، فظننتُ بهِ الجنونَ ، وعاتبْتُ القيِّمَ ، ولمَّا أَفاقَ ، وسأَلناهُ عَنْ أَمرِهِ . . ٱمتنعَ ، وبعدَ الإلحاحِ قالَ : أَنا ذلكَ المولودُ الَّذي أَنشدتَ فيهِ الشعرَ ، وقد صرْتُ إِلىٰ ما ترىٰ ، فعرضتُ عليهِ أَنْ أَنزِلَ لَهُ عَنْ جميعِ مالي ؛ إِذ لا وارثَ لي علىٰ أَنْ أَعيشَ ما بقيَ مِنْ حياتي في كنفِهِ ، فأَبىٰ ، وقالَ : معاذَ اللهِ أَنْ أَرزأَكَ شيئاً ممَّا خوَّلكَ أَبي ، وكانَ آخرَ عهدي بهِ .

النعمان بن بشير يخطب الرقة ابنة النعمان بن المنذر

ولمَّا جاءَ النعمانُ بنُ بشيرٍ يخطبُ الرَّقَّةَ ٱبنةَ النعمانِ بنِ المنذرِ . . ردَّتْهُ ، وقالتْ له : كبرتَ عَنِ النكاحِ ، وإِنَّما أَرَدْتَ بنكاحي الفخرَ ؛ لتقولَ : أَخذتُ مملكةَ النعمانِ ، وتزوَّجتُ بنتَهُ ، فقالَ لها : صِفي لنا ما رأَيتِ ، فأَنشدَتْ [منَ الطويل] :

فَبَيْنَا نَسُوْسُ ٱلنَّاسَ وَٱلأَمْرُ أَمْرُنَا   إِذَا نَحْـنُ فِيْهَـا سُـوْقَـةٌ نَتَنَصَّـفُ

فَـأُفٍّ لِـدُنْيَـا لاَ تَـدُوْمُ بِحَـالَـةٍ تُقَلَّـبُ تَـارَاتٍ بِنَـا وَتُصَـرِّفُ

موسى بن نصير وتغير حاليه

ويُروىٰ : أنَّ موسىٰ بنَ نصيرٍ فاتحَ (الأندلسِ) كانتْ تُرفَعُ لَهُ الذخائرُ ، فيرمي بالذهبِ والفضَّةِ ، ولا يلتقطُ إلاَّ ما كانَ مِنَ الجواهرِ المُثْمِنَةِ ، ثُمَّ آلَ بـهِ الحـالُ إِلىٰ أَنْ صارَ يتسوَّلُ[1] بـ (الطائفِ) ، وإذا وقعَ لَهُ الدرهمُ . سُرَّ بهِ ، حتَّىٰ مَلَّهُ حبيبُهُ ، وباعدَهُ قريبُهُ ، وماتَ علىٰ ذلكَ .

زوجة ملك تطلب الصدقة

ولا حاجةَ للبُعدِ في ٱستخراجِ العبرةِ ، وقد رأَيتُ زوجَ آخرِ ملوكِ آلِ عثمانَ تطلبُ الصدقةَ في (سنكافورةَ)[2] ، فسبحانَ مَنْ لا يزولُ ملكُهُ .

القصر الخَرِب

ورأَيتُ قصرَ الأَميرِ الخطيرِ عبدِ اللهِ بنِ عليٍّ العَوْلَقيِّ خراباً يباباً في (حيدرَ أَبادَ الدَّكَن) [منَ الطويل] :

أَمْسَىٰ خَلاَءً وَأَمْسَىٰ أَهْلُهُ ٱحْتَمَلُوْا أَخْنَىٰ عَلَيْهِ ٱلَّذِيْ أَخْنَىٰ عَلَىٰ لُبَدِ[3]

مَعَ مَا كانَ عليهِ مِنَ ٱلثروةِ وضخامةِ المُلْكِ ، وما بٱلعهدِ مِنْ قِدَمٍ ؛ فإِنَّما كانتْ وفاتهُ سنةَ : (١٢٨٤هـ) ، ولَمَّا ٱقتربَ أَجلُهُ . . قالَ لِمَنْ حضرَهُ : ٱعلموا أَنِّي تركتُ لولدي محسنٍ عشرينَ أَلفَ أَلفِ

---

(١) وسببه : أنه لم يؤخِّرْ فتح (الأندلس) ليكون في عهد ولي العهد ، وهكذا الأيام .

(٢) أي : (سنغافورة) البلد المعروفة .

(٣) أخنى عليه : أهلكه . لُبَدٌ : تزعمُ العربُ أَنَّ لقمانَ هو الذي بعثتهُ عادٌ في وفدِهَا إلى الحرمِ يستسقي لها فَلما أهلكوا . . خُيرَ لقمانُ بين بقاء سبع بعرات سمرٍ من أظبٍ عفرٍ في جبلٍ وعرٍ لا يمسها القطرُ أو بقاءِ سبعةِ أنسرٍ كلما هلكَ نسرٌ . . خلفَ بَعْدَهُ نسرٌ ، فاختار النسور ، فكان آخر نسوره يسمى لبداً ؛ لبقائهِ ، لأنه لَبِدَ فبقي لا يذهب ولا يموت ، ومنه المثل : طالَ الأبدُ على لبدَ .

رُوبيَّةٍ نقداً ، فضلاً عمَّا سوىٰ ذلك مِنَ ٱلعقارِ والأثاثِ والمجوهراتِ ، ثُمَّ إنْ كانَ فحلاً . . فلنْ يحتاجَها ، وإنْ كانَ فَسْلاً[1] . . فلنْ تنفعَهُ [مِنَ الطَّويلِ] :

فَأَضحَوْا حَدِيْثاً كَالْمَنَامِ وَمَا ٱنْقَضَىٰ   فَسِيَّانِ مِنْهُ يَقْظَةٌ وَمَنَامُ

وما كانَ أَحقَّهُ بقولِ بعضِهِم [مِنَ الكامل] :

يَا مَنْزِلاً عَبَثَ ٱلزَّمَانُ بِأَهْلِهِ   فَأَبَادَهُمْ بِتَفَرُّقٍ لاَ يَجْمَعُ
أَيْنَ ٱلَّذِيْنَ عَهِدْتُهُمْ بِكَ مَرَّةً   كَانَ ٱلزَّمَانُ بِهِمْ يَضُرُّ وَيَنْفَعُ ؟!

وقولِ الآخرِ [مِنَ البسيط] :

بِٱللهِ رَبِّكَ كَمْ قَصْرٍ مَرَرْتَ بِهِ   قَدْ كَانَ مَلآنَ بِٱللَّذَّاتِ وَٱلطَّرَبِ
نَادَىٰ غُرَابُ ٱلْمَنَايَا فِيْ جَوَانِبِهِ   وَصَاحَ مِنْ بَعْدِهِ بِٱلْوَيْلِ وَٱلْحَرَبِ[2]

الصاحب ودار ابن العميد

ويُحكىٰ [كما في « وفيات الأعيان » ٥/ ١١٠] : أَنَّ الصاحبَ بنَ عبَّادٍ مرَّ بدارِ ٱبنِ العميدِ بعدَ وفاتِهِ ، فقالَ [مِنَ الخفيف] :

أَيُّهَا ٱلرَّبْعُ لِمْ عَلاَكَ ٱكْتِئَابُ   أَيْنَ ذَاكَ ٱلْحِجَابُ وَٱلْحُجَّابُ ؟
أَيْنَ مَنْ كَانَ يَفْزَعُ ٱلدَّهْرُ مِنْهُ   إِنَّهُ ٱلْيَوْمَ فِيْ ٱلتُّرَابِ تُرَابُ
قُلْ بِلاَ رَقْبَةٍ وَدُوْنَ ٱحْتِشَامِ   مَاتَ مَوْلاَيَ فَٱعْتَلاَنِيْ ٱكْتِئَابُ

اعجب لصَرْفِ الدهر

قالَ ٱبنُ خلِّكانَ [في « وفيَّاتِ الأعيانِ » ٥/ ١١٠] : ومثلُ هٰذهِ الحكايةِ ما ذكرهُ عليُّ بنُ سليمانَ ، قالَ : رأيتُ بـ(الرَّيِّ) دارَ قومٍ لم يبقَ منها إلاَّ رسمُ البابِ مكتوبٌ عليهِ [مِنَ المنسرحِ] :

---

(١) الفَسْلُ مِنَ الرجالِ : الرَّذْلُ النَّذْلُ الذي لا مروءةَ لهُ .
(٢) الحَرَبُ : الهلاكُ .

اِعْجَبْ لِصَرْفِ ٱلدُّهُوْرِ مُعْتَبِراً فَهٰـذِهِ ٱلـدَّارُ مِـنْ عَجَـائِبِهَـا
عَهْـدِيْ بِهَـا وَٱلْمُلُـوْكُ زَاهِيَـةٌ قَـدْ سَطَـعَ ٱلنُّـوْرُ مِـنْ جَـوَانِبِهَا
تَبَـدَّلَـتْ وَحْشَـةً بِسَـاكِنِهَـا مَا أَوْحَشَ ٱلدَّارَ بَعْدَ صَاحِبِهَا

قصر ابن سبكتكين

واجتازَ بعضُ الأفاضلِ بقصرِ ابنِ سُبُكْتِكَيْنَ بعدَ موتِهِ ، وقد تشعَّثتْ فأنشدَ [منَ الطويل] :

عَلَيْـكَ سَـلاَمُ اللهِ مِـنْ مَنْـزِلٍ قَفْـرِ فَقَدْ هِجْتَ لِيْ شَوْقاً قَدِيْماً وَمَا تَدْرِيْ
عَهِدْتُكَ مِنْ شَهْرٍ جَدِيْداً وَلَمْ أَخَلْ صُرُوْفَ ٱلرَّدَىٰ تُبْلِيْ مَغَانِيْكَ فِيْ شَهْرِ[1]

وما أَحسنَ قولَ بعضِهم [منَ البسيط] :

إِنْ شِئْتَ أَن لاَ تَرَىٰ صَبْراً لِمُصْطَبِرٍ فَٱنْظُرْ عَلَىٰ أَيِّ حَالٍ أَصْبَحَ ٱلطَّلَلُ

ويأتي ما يتَّصلُ بهٰذا في شرحِ قولِهِ [في « العُكْبَرِيِّ » ٢/ ٣٣٤ منَ الكامل] :

أَيْـنَ ٱلأَكَـاسِـرَةُ ٱلْجَبَـابِـرَةُ ٱلأُلَـىٰ كَنَزُوْا ٱلْكُنُوْزَ فَمَا بَقِيْنَ وَلاَ بَقُوْا ؟

أمير (كابل)

وَأَذكرُ في الكتابِ[2] أَميرَ (كابُلَ) الَّذي بحثَ عَنْ حَتْفِهِ بِظِلْفِهِ[3] ، وجدعَ مارِنَ أَنفِهِ بكفِّهِ[4] ، وباءَ بالصفقةِ الخاسرةِ ، وضيَّعَ الدنيا والآخرةَ ، فبعدَ أَنْ كانَ يغبطُهُ مَنْ رآهُ ، أَو سمعَ بنعمتِهِ . . تبرَّأَ مِنَ الإسلامِ ، فطُرِدَ عَنِ ٱلمُلْكِ ، وسُلِبَ المالَ ،

---

(١) القصة في « وفيات الأعيان » ٥/ ١٧٦ .
(٢) هذا اقتباس حسن تكرر في القرآن الكريم .
(٣) بظلفه : بقدمه ، وقال أحدهم بمعناه :
إلـى حتفـي مشـىٰ قـدمـي أرى قـدمـي أراق دمـي
(٤) قالت الزباء : (لأمرٍ ما جَدَعَ قصيرٌ أنفَهُ) ، فضربت مثلاً .

وصارَ يرثي لَهُ كلُّ مَنْ رآهُ ، ولَعَذابُ الآخرةِ أَشَدُّ وأَبقى[1] .

محمد علي باشا وأمان الله

ومع هٰذا فقد أَخبرني الفاضلُ الثقةُ السيِّدُ عبدُ اللهِ بنُ عبدِ الرحمٰنِ بن طاهرٍ ، عَنْ محمَّدِ عليٍّ باشا بنِ توفيقٍ باشا خدَيْويِّ (مصرَ) السابقِ : أَنَّهُ قالَ : بينا أنا أَتمشَّىٰ في (باريزَ)[2] . . إِذ جاءَ أَمانُ اللهِ ـ وهُوَ وليُّ عهدِ دولتهِ ـ في أَتباعِهِ وحَشَمِهِ بأَلبستِهِمُ ٱلوطنيَّةِ وشعائرِهِمُ ٱلإِسلاميَّةِ فٱستلْفَتُوا ٱلأَنظارَ ، وملَؤُوا ٱلصدورَ ، وٱستحقُّوا ٱلإِعجابَ ، وكانوا موضعَ ٱلاحترامِ ، وزادَ ٱلطِّينَ بِلَّةً أَنْ دخلَ وقتُ ٱلمغربِ . . فٱستهلَّ مؤَذِّنُهُ ثُمَّ أَقامَ ، ودخلُوا في ٱلصَّلاةِ ، فبادرَتْ رجالُ ٱلحكومةِ بٱلحرسِ ؛ لمنعِ ٱلنَّاسِ عَنِ ٱلمرورِ بين أَيديهِم ؛ ٱحتراماً لهم ولدينهِم ، فصاروا حديثَ ٱلنَّوادي ، ومحلَّ ٱستحسانِ ٱلقومِ وإِعظامِهِم ، قالَ محمَّدُ عليٍّ : فلا تسلْ عمَّا داخلَني مِنْ حَسَدٍ لَهُم ، وٱنكسارٍ في نفسي ، وٱحتقارٍ لِزيي ٱلإِفرنجيِّ ، مع أَنَّ بلادي أَعظمُ سلطاناً من بلادِهِم ، وما رفعهم إِلاَّ ٱلتَّمسُّكُ بتقاليدِ بلادِهِم ودينِهِم .

ثُمَّ أُرجِعُ النظرَ في حالِ أَمانِ اللهِ خانٍ وصيورِ أَمرِهِ ، فلقد ٱتَّضعَ مِنْ حيثُ ٱرتفعَ ، وٱندفعَ مِنْ حيثُ ٱنتفعَ ، نعوذُ باللهِ مِنْ عثراتِ

---

(١) ونحو قول الآخر:

أخـذت بـالجمـة رأسـاً أزعـرا ... وبـالثنـايـا الـواضحـات الـدردرا
وبـالطـويـل العمـر عمـراً حيـدراً ... كمـا اشتـرى المسلـم إذ تنصـرا

الأزعر: قليل الشعر. الدردر: مغارز أسنان الطفل. الحيدر : القصير. المتنصر: هو جبلة بن الأيهم ارتدَّ بعد إسلامه ، وعاد إلى كفره.

(٢) أي : (باريس) عاصمة (فرنسا).

ٱلشَّورِ[1] ، ومن ٱلحَوْرِ بعد ٱلكَوْرِ[2] .

ركب النميري

ثُمَّ إِنِّي ذكرتُ بتعاظمِ الناظمِ عَنْ غيرِ حقيقةٍ قولَ النُّمَيْرِيِّ [منَ الطويل] :

وَلَمَّا رَأَتْ رَكْبَ ٱلنُّمَيْرِيِّ أَعْرَضَتْ ... وَكُـنَّ مِـنَ أَنْ يَلْقَيْنَـهُ حَـذِرَاتِ

فقدْ أَحفاهُ السؤَّالَ عبدُ المَلِكِ بنُ مروانَ عَنْ ذلكَ الرَّكْبِ ، فقالَ لَهُ : لا واللهِ ما هوَ إلاَّ أَتانٌ ضالعٌ .

الجيش الكبير

وقولَ ليلىٰ لأَبيها : أَرأَيتَ قولَ أَبيْكَ [منَ الطويل] :

بجَيْشٍ تَظَلُّ ٱلبُلْقُ فِيْ حُجُرَاتِهِ ... بِيَثْرِبَ أُخْرَاهُ وَبِالشَّامِ قَادِمُهْ

كَمْ كانَ عددُهُ ؟ قالَ : أَنا وإِيَّاهُ وأَخوكِ فلانٌ ومعنا أَتانانِ .

ابن الحجام

وقولَ ٱبنِ الحَجَّامِ[3] [منَ المنسرح] :

أَنَا [ٱبْنُ] مَنْ دَانَتِ ٱلرِّقَابُ لَهُ ... مَـا بَيْـنَ مَخْزُوْمِهَـا وَهَـاشِمِهَـا

تَـأْتِـيْ إِلَيْـهِ ٱلأَنَـامُ طَـائِعَـةً ... يَـأْخُـذُ مِـنْ مَالِهَـا وَمِـنْ دَمِهَـا

ابن الفوال

وقولَ ٱبنِ الفوَّالِ[4] [منَ الطويل] :

أَنَا ٱبْنُ ٱلَّذِيْ لاَ يُنْزِلُ ٱلدَّهْرُ قِدْرَهُ ... وَإِنْ نَزَلَتْ يَوْماً فَسَوْفَ تَعُوْدُ

---

(١) الشَّورُ : الرأيُ بالحضرمية ، وكأنه مأخوذ من المشورة.

(٢) الحورُ بعدَ الكورِ : النقصان بعد الزيادة .
وهو من دعائه ﷺ الثابت من حديث عبد الله بن سرجس عند مسلم (١٣٤٣) والترمذي (٣٤٣٩)، والنسائي (٥٥٠٠) ، وابن ماجه (٣٨٨٨) وغيرهم. وفيه رواية بالنون (بالكون) بدل الراء ، فمعنى الكور: اللَّف والجمع، والكون: الوجود والاستقرار.

(٣) الذي يحجم الناس.

(٤) الذي يبيع الفول.

وقالَ ٱبنُ خلِّكانَ [في «وفيّات الأعيانِ» ٧/ ٥٧] : قالَ عَوْنُ بنُ الزَّرِعِ : حدَّثني مَنْ رأىٰ بـ (الشامِ) قبراً مكتوباً عليهِ : لا يغترَّنَّ أحدٌ بٱلدنيا ؛ فإنِّي ٱبنُ مَنْ كانَ يُطلِقُ الريحَ إذا شاءَ ، ويحبِسُها إذا شاءَ ، وبإزائِهِ قبرٌ مكتوبٌ عليهِ : كذبَ الماصُّ بظْرَ[1] أُمِّهِ لا يظنُّ أحدٌ أنَّهُ ٱبنُ سليمانَ بنِ داوودَ عليهما السلامُ ، إنَّما هو ٱبنُ حدَّادٍ يجمعُ الريحَ في الزِّقِّ ، ثُمَّ ينفخُ بها الجمرَ ، قالَ : فما رأيتُ قبرينِ قبلهما يتشاتمانِ . القبران المتشاتمان

والكلامُ في النعلِ يطولُ ، وقد أُفرِدَتْ بٱلتأليفِ . وفي «حاشيتي» علىٰ «الشمائِلِ» جملةٌ صالحةٌ مِنهُ ، في ضمنِهِ قولُ «التحفةِ» : ووردَ : «أمشوا حفاةً»[2] وفي روايةٍ أنَّهُ ﷺ مشىٰ حافياً ، وقد يؤخذُ منهُ ندبُ الحَفاءِ في بعضِ الأحوالِ بقصدِ ٱلتواضعِ ، حيثُ أَمِنَ مُؤْذِياً وتنجيساً ، ولو ٱحتمالاً ، ويؤيِّدُهُ ندبُهُ لنحوِ دخولِ (مكَّةَ) بهٰذهِ الشروطِ . انتهى . الكلام على النعل

ومِنْ محاسنِ الشريعةِ ، وٱعتنائِها بٱلعدلِ : كراهةُ المشي في نعلٍ واحدةٍ .

ومِن ممادحِ العربِ رقَّةُ النعالِ ، كما في قولِهِ [النابغةِ الذُّبيانيِّ في «ديوانِهِ» منَ الطويل] : من الممادح رقة النعال

رِقَـاقُ ٱلنِّعَـالِ طَيِّـبٌ حُجُـزَاتُهُـمْ ... يُحَيَّوْنَ بِٱلرَّيْحَانِ يَوْمَ ٱلسَّبَاسِبِ[3]

---

(١) البظر : الشفر ، وهو بطرف فرج المرأة.

(٢) ثبت عن أبي هريرة عند البخاري (٥٨٥٥)، ومسلم (٢٠٩٧) قوله ﷺ: «لا يمشِ أحدكم في نعل واحدة، لينعلهما جميعاً، أو ليخلعهما جميعاً».

(٣) الحجزةُ : العشيرةُ يحتجز بها ، أي يُمتنَعُ . ورجلٌ طيِّبُ الحجزة عفيفٌ . السباسبُ : أيّامُ السَّعانينِ ، وهو عيدٌ للنصارىٰ ، وفي الحديثِ : «إنَّ اللهَ =

ومنها لبس السبتية

ولُبْسُ السِّبْتِيَّةِ منها ، كَما قالَ عنترُ [في « ديوانهِ » ٦٥ منَ الكامل] :

بَطَـلٍ كَـأَنَّ ثِيَـابَـهُ فِـي سَـرْحَـةٍ يَحْذَىٰ نِعَالَ ٱلسِّبْتِ لَيْسَ بِتَوْأَمِ[١]

والسِّبْتُ : جلودُ البقرِ المدبوغةِ ٱلَّتي لا تقربُها الكلابُ إِذَا ٱبتلَّت ؛ لإِتقانِ دَبْغِها .

رقة النعل كناية عن سلامتها

وأَمَّا رِقَّةُ النعلِ : فكنايةٌ عَنْ سلامتِها مِنَ الرقاعِ ؛ لأَنَّهم ملوكٌ لا تُخصَفُ نعالُهم ، وإِنَّما تخصفُ نعلُ من يُكثِرُ المشيَ ، ومِثْلُهُ قولُهُم : (فلانٌ مُسمَّطُ النعلِ) ؛ يعنونَ أَنْ نعلَهُ طبقةٌ واحدَةٌ غيرُ مخصوفةٍ . قالَ المرارُ الفقعسيُّ [منَ الوافر] :

وَجَدْتُ بَنِيْ خَفَاجَةَ فِيْ عَقِيْلٍ كِـرَامَ ٱلنَّـاسِ مُسْمَطَـةَ ٱلنِّعَـالِ

* * *

= تعالىٰ أَبدلَكم بيوم السباسبِ يومَ العيدِ » .

(١) مدحَهُ بأَربعِ خصالٍ كرامٍ : إِحداها : أَنَّهُ جعلَهُ بطلاً شجاعاً ، الثانيةُ : أَنَّهُ جعلَهُ طويلاً ، شبَّهه بالسَّرْحَةِ ؛ وهي : شجرٌ عظامٌ طوالٌ ، الثالثةُ : أَنَّهُ جعلَهُ شريفاً ؛ للُبسه نِعالَ السِّبتِ ، الرابعةُ : أَنَّه جعلَهُ متفرداً لا مثيل له .

المجلس الثالث

[قالَ أبو الطيِّب المتنبِّي في « العُكْبَريِّ » ١/ ٣٠٤ منَ المنسرح]:

لَـهُ أَيَـادٍ عَلَـيَّ سَـابِقَـةٌ   أُعَـدُّ مِنهَـا وَلاَ أُعَـدِّدُهَـا

شرح المطلع

الأَيادي : جمعُ يدٍ ، وهي النِّعْمَةُ ؛ لأنَّها الَّتي تُجمعُ هٰذا الجمعَ بخلافِ الجارحةِ ، فإنَّها لا تُجمعُ عليهِ ، وزعمَ بعضُهم أنَّها تُجمعُ عليهِ أيضاً ، وذكروا لهُ أَمثلةً لا يحضرنيْ مِنْها الآنَ شيءٌ .

الروايات في المطلع

أمَّا قولُهُ : (أُعَدُّ) فيروىٰ بفتحِ الهمزةِ [أَعُدُّ] ، وهوَ مِنْ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [إبراهيم : ٣٤] ، ويُروىٰ بضمِّها مبنيَّةً للمفعولِ ، ونائبُ الفاعلِ مستترٌ تقديرُهُ (أنا) ؛ يعني : أنَّ نفسَهُ معدودةٌ مِنْ جملةِ نِعَمِ الممدوحِ ، فهو كقولِ شاعرِ الحماسةِ [منَ السريع] :

لاَ تَنْتَفِنِّـي بَعْـدَ أَنْ رِشْتَنِـي   فَـإِنَّنِـي بَعْـضُ أَيَـادِيْكَـا

تلاعب المتنبي في معنى الجود

وقد تلاعبَ بهٰذا المعنىٰ في « ديوانِهِ » فقالَ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٣٨٠ منَ البسيط] :

مَا زِلْتَ تُتْبِعُ مَا تُوْلِيْ يَداً بِيَدٍ   حَتَّىٰ ظَنَنْتُ حَيَاتِيْ مِنْ أَيَادِيْكَا

وقالَ [في « العُكبَريّ » ٤/ ٢٠٥ منَ الكامل] :

فَٱغْفِرْ فِدىً لَكَ وٱحْبُنِي مِنْ بَعْدِهَا ... لِتَخُصَّنِي بِعَطِيَّةٍ مِنْهَا أَنَا

وقالَ [في « العُكبَريّ » ١/ ٣٤٧ منَ المتقارب] :

وَفِي جُودِ كَفِّكَ مَا جُدْتَ لِي ... بِنَفْسِي وَلَوْ كُنْتُ أَشْقَىٰ ثَمُودْ

أن تكون واحدة من حسنات ممدوحك عند الشعراء

وقالَ العتابيُّ [منَ البسيط] :

مَا زِلْتُ فِي غَمَرَاتِ ٱلْمَوْتِ مُطَّرَحاً ... يَضِيقُ عَنِّي وَسِيعُ ٱلرَّأْيِ مِنْ حِيَلِي

فَلَمْ تَزَلْ دَائِباً تَسْعَىٰ بِلُطْفِكَ لِي ... حَتَّىٰ ٱنْتَزَعْتَ حَيَاتِي مِنْ يَدَيْ أَجَلِي

وقالَ غيرُهُ [منَ البسيط] :

رَدَدْتَ مَالِيَ وَلَمْ تَبْخَلْ عَلَيَّ بِهِ ... وَقَبْلَ مَالِيَ قِدْماً قَدْ حَقَنْتَ دَمِي

وقالَ أبو تمَّامٍ [منَ البسيط] :

رَدَدْتَ رَوْنَقَ وَجْهِي فِي صَحِيفَتِهِ ... رَدَّ ٱلصِّقَالِ بَهَاءَ ٱلصَّارِمِ ٱلْخَذِمِ

وَمَا أُبَالِي وَخَيْرُ ٱلْقَوْلِ أَصْدَقُهُ ... حَقَنْتَ لِي مَاءَ وَجْهِي أَوْ حَقَنْتَ دَمِي

وقالَ [منَ الطويل] :

عَطَاؤُكَ لاَ يَفْنَىٰ وَتَسْتَغْرِقُ ٱلْمُنَىٰ ... وَتَبْقَىٰ وُجُوهُ ٱلرَّاغِبِينَ بِمَائِهَا

مصعب بن الزبير وجوده على بعض من حاربه

ويُروىٰ [كما في «تاريخ بغداد» ١٣/ ١٠٦] : أَنَّ مصعبَ بنَ الزبيرِ أَمرَ بقتلِ أَحدٍ مَنْ حاربَهُ معَ المختارِ ، فقالَ : أَترضىٰ أَنْ أَتعلَّقَ بِكَ يومَ القيامةِ ، وأَنتَ علىٰ ما نرىٰ مِنْ هـٰذا الجمالِ الباهرِ ، وأَقولُ : سَلْ مصعباً فيمَ قَتَلنِي ؟ فقالَ : أَطلِقوهُ ، قالَ : ٱجعل ما وهبتَ لِي مِنْ عُمُري في عيشٍ طيِّبٍ ، فأَمرَ لَهُ بمئةِ أَلفٍ ، قالَ : بأَبي أَنتَ وأُمِّي ، أُشهِدُكَ أَنَّ نصفَها لقيسِ الرُّقياتِ ؛ لقولِهِ فيكَ [في « ديوانهِ » ٩١ منَ الخفيف] :

إِنَّمَا مُصْعَبٌ شِهَابٌ مِنَ ٱللَّـ ـهِ تَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ ٱلظَّلْمَاءُ

فضحكَ مصعبٌ ، وقالَ : لقد ألطفتَ ، وإنَّ فيكَ لموضعاً للصنيعةِ ، وأمرَ لقيسٍ بخمسينَ ألفاً ، وتركَ مئتَهُ بحالِها .

إجارة معن بن زائدة على الخليفة المهدي

ويُحكىٰ [كما في «المستطرف» ١/٣٠١] : أنَّ بعضَ الشيعةِ سعىٰ للخروجِ في أيَّامِ الدولةِ العباسيَّةِ ، فجعلَ الخليفةُ فيهِ مئةَ ألفِ درهمٍ ، فأخذَهُ رجلٌ مِنْ (بغدادَ) ، فمرَّ بهِ معنُ بنُ زائدةَ ، فقالَ : يا أبا الوليدِ أجرْني . . أجارَكَ اللهُ ، فقالَ معنٌ للرجلِ : خَلِّ عنهُ ، فقالَ : إنَّهُ طُلْبَةُ أميرِ المؤمنينَ ، قالَ : خَلِّ سبيلَهُ ، فأبىٰ ، فخَلَّصَهُ مِنْهُ قهراً ، وأردفَهُ خلفَ بعضِ أعوانِهِ ، وذهبَ الرجلُ للخليفةِ ، فاستدعىٰ مَعْناً ، ولمَّا حضرَ . . قالَ لَه : أتجيرُ عليَّ ؟! قالَ : نعمْ ، قتلْتُ في طاعتِكُم خمسةَ عشرَ ألفاً بـ (حضرموتَ) في يومٍ واحدٍ[1] ، فما تروني أهلاً لأنْ أُجيرَ واحداً عَلَّقَ بي رجاءَهُ ؟ فاستحيا الخليفةُ ، ثُمَّ قالَ : قَدْ أجرنا مَنْ أجرتَ يا أبا الوليدِ ، قالَ : إنْ رأىٰ أميرُ المؤمنينَ أن يصلَ جاري ، فأمرَ لهُ بخمسينَ ألفَ درهمٍ ، فقالَ معنٌ : إنَّ ذنبهُ عظيمٌ ، وينبغي أنْ تكونَ صلاتُ الخلفاءِ علىٰ قدرِ الجرائمِ ، فقالَ : قد جعلتُها مئةَ ألفٍ ، فرجعَ معنٌ إلىٰ منزلِهِ ، ودفعَ المالَ للرجلِ ، وحذَّرَهُ مِنْ مساخطِ الملوكِ .

إبراهيم بن سليمان يستجير عند رجل قد قتل أباه

ولَمَّا أفضتِ الخلافةُ إلىٰ بني العبَّاسِ . . اختفىٰ بنو أُميَّةَ حتَّىٰ أخذوا مِنَ السفَّاحِ الأمانَ ، فحضرَ عندَهُ إبراهيمُ بنُ سليمانَ بنِ عبدِ المَلِكِ ، وكانَ عالماً أديباً ، فسألَهُ السفَّاحُ عن أعجبِ ما مرَّ بهِ في تغيُّبِهِ ، قالَ :

---

(١) وفي «المستطرف» : خمسة آلاف.

بينا أَنا بـ (الحِيرةِ) . . نظرتُ الأَعلامَ السودَ خارجةً مِنَ (الكوفةِ) ، فوقعَ لي أَنّها تريدُني ، فخرجتُ متنكِّراً ، حتَّىٰ أَتيتُ (الكوفةَ) لا أَعرفُ أَحداً ، فتحيَّرتُ ، ثُمَّ ظهرَ لي بابٌ واسعٌ ، وإِذا رجلٌ وسيمٌ حسنُ الهيئَةِ ، فقالَ لي : مَنْ أَنتَ ؟ قلتُ : غريبٌ خائِفٌ مستجيرٌ بكَ ، قالَ : ٱدخُلْ ، ولكَ الأَمانُ ، فدخلتُ ، وأَكرمَ مثوايَ ، وَلَمْ يسأَلني عَنْ شيءٍ مِنْ أَمرِي ، ورأَيْتُهُ يركبُ في كُلِّ غداةٍ ، فسأَلْتُهُ ، فقالَ : ذُكِرَ لي أَنَّ إِبراهيمَ بنَ سُليمانَ مختفٍ بهـٰذا الطرَفِ ، وقد قتلَ أَبي صبراً[1] ، فأَنا أركبُ في طلبِ ثأري منهُ ، فأَيقنتُ أَنَّ القدرَ ساقني إِلىٰ الهلاكِ ، وسأَلْتُهُ عَنِ ٱسمِ أَبيهِ ، حتَّىٰ عرفْتُ صحَّةَ ما يقولُ ، فقلْتُ لَهُ : قد وجبَ حقُّكَ عليَّ ، وإِنَّ منهُ أَنْ أَدُلَّكَ علىٰ خصمِكَ ، أَلاَ وإِنَّهُ الذي يكلِّمُكَ ، فٱفعلْ ما تحبُّ ، فقالَ : أَحسبُ الزمانَ أَضرَّ بكَ ، فأَحببتَ الراحةَ مِنَ ٱلحياةِ ، فقلتُ : كلاَّ ، ولـٰكنْ صدقتُكَ ، فلمَّا ٱستيقنَ الأَمرَ . . ٱربدَّ[2] وجهُهُ وتغيَّرَ لونُهُ ، وٱحمرَّتْ عيناهُ ، وأَطرقَ مليّاً ثُمَّ قالَ : أَمَّا أَنتَ ستلقىٰ أَبي عندَ حَكَمٍ عدلٍ ، يأخذُ بثأرِهِ مِنكَ ، وأَمَّا أَنا فلا أَخفِرُ ذمَّتِيْ ، ولـٰكنْ لا آمنُ عليكَ نفسي ، فإِنْ شئتَ أَنْ تنصرفَ آمناً إِلىٰ حيثُ تحبُّ ، وأَعطانِيْ أَلفَ دينارٍ ، فٱعتذرتُ إِليهِ مِنْ قَبولِهِ ، وٱنصرفتُ ، فهـٰذا أَكرمُ رجلٍ رأَيتُهُ بعدَ أَميرِ المؤمنينَ .

وفاء الحارث بن عباد للمهلهل بعد قدرته عليه

وَأَقولُ : إِنَّ في تأَخُّرِ معرفةِ إِبراهيمَ بصاحبِ الدارِ لَنوعاً مِنَ ٱلنظرِ . والقصَّةُ أَشبهُ بقصَّةِ الحارثِ بنِ عبَّادٍ ، وقَدْ قَدَرَ علىٰ

(١) القتلُ صبراً : هوَ أن يُحبَسَ ويُرمىٰ حتَّىٰ يموتَ .
(٢) اربدَّ وجهه : تغيرَ منَ الغضبِ وصارَ كلونِ الرمادِ .

مهلهلٍ ، وهو لا يعرفُهُ ، وطلبَ منهُ أَنْ يدلَّهُ علىٰ مهلهلٍ بشرطِ الأَمانِ ، فاْستعرَفَ عليهِ ، فجزَّ ناصيتَهُ ، وأَطلقَهُ ، وهُوَ قاتلُ اْبنهِ بُجَيْرٍ ، وقالَ في ذلكَ [مِنَ الخفيفِ] :

لَهْفَ نَفْسِيْ عَلَىٰ عَدِيٍّ وقَدْ أَسْـ ـقَبَ لِلْمَوْتِ وَاْحْتَوَتْهُ اْلْيَدَانِ[1]

وعَدِيٌّ هوَ اْسمُ المهلهلِ .

إلاَّ أَنَّ صاحبَ إِبراهيمَ مَنَّ مِنْ غيرِ شرطٍ بخلافِ الحارثِ ، وقصَّةُ اْبنِ زائدةَ أَيَّامَ اْختفائِهِ مِنْ بني العبَّاسِ معَ الجندي الَّذي أَمسكَهُ ، ثُمَّ مَنَّ عليهِ وصغَّرَهُ في نفسهِ مشهورةٌ .

المهلب يعفو عمن يريد قتله

وظفرَ المهلَّبُ بخارجيٍّ يُريدُ اْغتيالَهُ ، فقالَ لَهُ : قد ثبَتَ كيدُكَ لنا ، فاْختر أَيَّ قِتلَةٍ تريدُ ، قالَ : سيفٌ ماضٍ لا يَنْبُوْ ، أَو عطفةُ كريمٍ تحتقرُ الضغائِنَ ، قالَ : هل فيكَ موضعٌ للصنيعةِ؟ قالَ لَهُ : سينظرُ اْلأَميرُ ما يَسرُّهُ بعدَ التجربةِ ، قالَ : فإِنَّها عطفةُ كريمٍ يحتقرُ الذنوبَ ، فخلَّىٰ سبيلَهُ ، وأَكرمهُ ، فكانَ بعدَ ذلكَ مِنْ أَوثقِ أُصحابهِ عندَهُ .

لا ابرح حتى اعرف حديثك مع المأمون

وذُكِرَ : أَنَّ المأمونَ اْستقدمَ رجالاً مِنَ (اْلشامِ) بعقبِ فتنةٍ اْشتعلَتْ فيها ، ثُمَّ اْعتقلَهُم ، ودفعَ أَكبرَ المتَّهمينَ في إِثارَتِها لبعضِ خاصَّتِهِ ؛ ليأْخذَهُ بأَنواعِ العذابِ ، حتَّىٰ يتفرَّغَ لقتلهِ ، فأَخذَ الرجلُ يُسائِلُ أَسيرَهُ عَنِ (اْلشامِ) وأَهلِها ، وقالَ لَهُ : ما فعلَ فلانٌ ، لصديقٍ لَهُ بها؟ قالَ : وما عِلمُكَ بهِ ، قالَ : لا أَقدرُ علىٰ مكافأَتِهِ ، وما نعمتي وحياتي إلاَّ مِنْ حسناتِهِ ، فلقد أَهدرَ الخليفةُ دمي بإِثرِ حوادثَ ظُنَّتْ بي فيها الظنونُ ، ولُصِقَتْ بي فيها التُّهمُ ، فلجأْتُ إِليهِ

---

(١) أسقبَ : قرُبَ .

عَنْ غيرِ سابقٍ معرفةٍ ، فأكرمَ مثواي ، وحقنَ دمي ، وحفظَ عليَّ ماءَ وجهي ، ثُمَّ جهَّزني بأحسنِ الجهازِ ، كسا وحملَ ، وأغنىٰ وأقنىٰ ، ثُمَّ سالمَتْني الأيّامُ ، وصارَتْ بي إلىٰ ما ترىٰ ، ولوَدِدْتُ أنّي أظفرُ بهِ . . فأُكافِئَهُ ببعضِ ما طوَّقني مِنَ النعمِ ، وأسدىٰ إليَّ مِنَ المننِ ، فقالَ الأسيرُ : لقد أظفرَكَ اللهُ بمطلوبِكَ مِنْ غيرِ بحثٍ ولا تعبٍ ، قالَ : وأينَ هو؟ قالَ : نجيُّكَ ، وما زالَ يستعرفُ إليهِ بالذكرياتِ . . حتَّىٰ أثبتهُ معرفةً ، فأطلقَ وثاقَهُ ، وعرضَ عليهِ الذهابَ ، والتحكُّمَ في أموالِهِ ، فقالَ : لا أضرُّكَ بنفعي ، ولٰكنِ ائتني بعبدي فلانٍ حتَّىٰ أُوصيَهِ إلىٰ أهلي ، وتلكَ أكبرُ مكافأةٍ ، فقالَ : لا واللهِ ، حتَّىٰ أُبلِغَكَ مأمنَكَ ، وأُوصلَكَ إلىٰ أهلِكَ قريرَ العينِ ، معَ ما يُغنيكُم طولَ الحياةِ ، فقالَ : لا أبرحُ حتَّىٰ أعرفَ حديثَكَ معَ المأمونِ ، فإنْ نجوْتَ كانَتْ نجاتي ، وإلاَّ وَقيتُكَ بنفسي ، ثُمَّ إنَّ المأمونَ سألَ صاحبَهُ عن أسيرِهِ . . فأخبرَهُ بقصَّتِهِ ، فاغرورقَتْ عيناهُ ، وقالَ : قد وجبَتْ علينا مكافأتُهُ ؛ لأنَّ وجودَ مثلِهِ قليلٌ ، وأكبرُ شيءٍ عدمُ إيثارِهِ السلامةَ والانطلاقَ علىٰ نجاتِكَ ، ثُمَّ استدعاهُ ، وبالغَ في إكرامِهِ ، وإسباغِ الإلطافِ عليهِ ، وصرَفَهُ موفورَ الكرامةِ ، وجعلَهُ موضعَ سرِّهِ وأمانتِهِ بـ(الشامِ) ، فكانَتْ كُتُبُهُ تَرِدُ علىٰ المأمونِ بعدَ ذلكَ فيطالعُ بها صاحبَهُ .

ولإبراهيمَ بنِ المهديِّ في أيّامِ اختفائهِ ما لا يقلُّ مِنْ وجهٍ عنها .

النعمان بن المنذر ويوم بؤسه

ويتَّصلُ بها حديثُ النُّعمانِ وصاحبِهِ شريكِ بنِ عمرٍو معَ الطائيِّ الذي قدَّمَ نفسَهُ للقتلِ وفاءً بوعدِهِ ، فكانَ مِنْ بركةِ ذلكَ إبطالُ النُّعمانِ لعادتِهِ السيِّئةِ في يومِ بؤسِهِ[1] .

---

(١) وكانَ مِن أمرِهِ : أنَّ النعمانَ بنَ المنذرِ جعلَ لنفسِهِ يومينِ ، يومَ بؤسٍ : مَن=

. . . .

= صادفهُ فيهِ . . قَتَلهُ وأرداهُ ، ويومَ نعيمٍ مَن لقيَهُ فيهِ . . أحسنَ إليهِ وأغناهُ ، وكانَ هناكَ رجلٌ طائيٌّ ، قد رماهُ حادثُ دهرهِ بسهامِ فاقتِهِ وفقرِهِ ، فأخرجتْهُ الفاقةُ مِن محلِّ استقرارِهِ ليرتادَ شيئاً لصبيتِهِ وصغارِهِ ، فبينَما هوَ كذلكَ . . إذ صادفَهُ النعمانُ في يوم بؤسهِ ، فلمَّا رآهُ الطائيُّ . . علمَ أنَّهُ مقتولٌ ، وأنَّ دمَهُ مطلولٌ ، فقالَ : حيَّا اللهُ الملكَ ، إنَّ لي صبيةً صغاراً ، وأهلاً جياعاً ، وقد أرقتُ ماءَ وجهي في حصولِ شيءٍ مِنَ البُلغةِ لَهم ، وقد أقدَمني سوءُ الحظِّ علىٰ الملكِ في هٰذا اليومِ العبوسِ ، وقد قربتُ مِن مقرِّ الصبيةِ والأهلِ ، وهُم علىٰ شفا تلفٍ مِن الجوعِ ، ولَن يتفاوتَ الحالُ في قتليَ بينَ أوَّلِ النهارِ وآخرِهِ ، فإنْ رأىٰ الملكُ أنْ يأذنَ لي في أنْ أُوصلَ إليهم هٰذا القوتَ ، وأوصيَ بهم أهلَ المروءَةِ مِن الحيِّ ؛ لئَلاَّ يهلِكوا ضَياعاً ، ثمَّ أعودَ إلىٰ الملكِ ، وأُسلِّمَ نفسي لنفاذِ أمرِهِ .

فلمَّا سمعَ النعمانُ صورةَ مقالِهِ ، وفهمَ حقيقةَ حالِهِ ، ورأىٰ تلهُّفَهُ على ضياعِ أطفالِهِ . . رقَّ لهُ ، ورثىٰ لحالهِ ، غيرَ أنَّهُ قالَ لهُ : لا آذنُ لكَ حتَّىٰ يَضمنَكَ رجلٌ معَنا ، فإنْ لَم ترجِع . . قتلناهُ ، وكانَ شريكُ بنُ عديِّ بنِ شرحبيلَ ـ نديمُ الملكِ ـ معَه ، فالتفتَ الطائيُّ إليهِ ، ومدحَهُ ، وتدخَّلَ عليهِ بأبياتٍ . . فقالَ شريكٌ : أَصلحَ اللهُ الملكَ ، عليَّ ضمانُهُ .

فمرَّ الطائيُّ مسرعاً ، وصارَ النعمان يقولُ لشريكٍ : إنَّ صدرَ النهارِ قد ولَّىٰ ولَم يرجعْ ، وشريكٌ يقولُ : ليسَ للملكِ عليَّ سبيلٌ حتَّىٰ يأتيَ المساءُ ، فلمَّا قربَ المساءُ . . قالَ النعمانُ لشريكٍ : قد جاءَ وقتُكَ ، قُمْ فتأهَّبْ للقتلِ ، فقالَ شريكٌ : هٰذا شخصٌ قد لاحَ مقبلاً ، وأرجو أن يكونَ الطائيَّ ، فإن لم يكن . . فأمرُ الملكِ ممتثَلٌ ، قالَ : فبينمَا هُما كذلكَ وإذ بالطائيِّ قدِ اشتدَّ عدوهُ في سيرِهِ مسرعاً ، حتَّىٰ وصلَ فقالَ : خشيتُ أن ينقضيَ النهارُ قبلَ وصولي .

ثمَّ وقفَ قائماً ، وقال : أيُّها الملكُ . . مُرْ بأمركَ . فأطرقَ النعمانُ ثمَّ رفعَ رأسهُ ، وقالَ : واللهِ ما رأيتُ أعجبَ منكُما ، أمَّا أنتَ يا طائيُّ : فما تركتَ لأحدٍ في الوفاءِ مقاماً يقومُ فيهِ ، ولا ذِكراً يفتخرُ بهِ ، وأمَّا أنتَ يا شريكُ : فما تركتَ لكريمٍ سماحةً يُذكَرُ بها الكرماءُ ، فلا أكونُ أنَا ألأمَ الثلاثةِ ، ألاَ وإنِّي قد=

يعود إلى السجن بعد ما خرج منه وفاءً لمن هرَّبه

ونظيرُها في زمانِنا : أنَّ بعضَ اليافعيِّينَ ٱرتكبَ في (المُكَلاَّ) جريمةً توجبُ قتلَهُ ، فأعتقلَهُ السلطانُ ، فطلبَ مِنَ ٱلسجَّانِ أنْ يجمعَهُ بالجليلِ السيِّدِ حُسينِ بنِ حامدٍ ، ففعلَ ، فأستعطفَهُ لِيُطلِقَهُ ليلةً ليوصيَ ، ويؤدِّيَ ودائِعَهُ ، ويُخبرَ أَهلَهُ بدفائِنِ أَموالِهِ قريباً مِنَ (ٱلشَّحْرِ) علىٰ شرطِ أَنْ يعودَ في الليلةِ الثانيةِ ، فأخذَ عهدَهُ ، وأَطلقَهُ علىٰ ذلكَ ، وكانَ أَعداءُ السيِّدِ حسينٍ مِنْ بطانةِ السلطانِ غالبِ بنِ عوضٍ يراقبونَ ذلكَ ، فأخبروهُ ، فعاتبَ السيِّدَ حسيناً ، فأنكرَ إِطلاقَهُ ، وٱتَّعدوا علىٰ أَنْ يُفتِّشوا عنهُ في السجنِ مِنَ ٱليومِ الثاني ، ولمَّا كانَ الليلُ . . عادَ إِلىٰ مكانِهِ منهُ ، وجاءَ السلطانُ علىٰ وعدِهِ ، فألفاهُ كما قالَ السيِّدُ حسينٌ ، فعادَ علىٰ أَصحابِهِ بٱللاَّئِمةِ ، وأَوسعَهُم توبيخاً ، ولٰكنَّ السيِّدَ حسيناً شرحَ لَهُ القصَّةَ بعدَ أَنْ هدأَتْ عنهُ سَوْرَةُ غضبِهِ ، فأَطلقَهُ ، وعفا عنهُ ، وليسَتْ هٰذهِ بٱلقليلةِ مِنْ بلادِنا علىٰ فسادِ الزمانِ ، وتنكُّرِ الأَيَّامِ ! فللَّهِ الحمدُ والمنَّةُ .

عودٌ على شرح المطلع

وقولُ الناظمِ : (وَلاَ أُعَدِّدُهَا) مناسبٌ للمعنىٰ الأَوَّلِ ، وهو

= رفعتُ يومَ بؤسي عنِ الناسِ ، ونقضتُ عادَتي ؛ كرامةً لوفاءِ الطائيِّ ، وكرمِ شريكٍ . فقالَ الطائيُّ [من الكامل] :

وَلَقَدْ دَعَتْنِيْ لِلْخِلاَفِ عَشِيْرَتِيْ ... فَعَدَدْتُ قَوْلَهُمُ مِنَ ٱلإِخْلاَلِ
إِنِّيْ ٱمْرُؤٌ مِنِّيْ ٱلْوَفَاءُ سَجِيَّةٌ ... وَفِعَالُ كُلِّ مُهَذَّبٍ مِفْضَالِ

فقالَ لهُ النعمانُ : ما حملكَ علىٰ الوفاءِ وفيهِ إتلافُ نفسكَ ؟! فقالَ : ديني ، فَمن لا وفاءَ فيهِ . . لا دِينَ لهُ .

فأحسنَ إليهِ النعمانُ ، ووصلَهُ بما أغناهُ ، وأعادَهُ مكرَّماً إلىٰ أهلهِ ، وأنالَهُ ما تمنَّاهُ .

انظر « المستطرف » (١/ ٤٢٩) .

ناظرٌ إلىٰ قولِهِ ﷺ: « سُبْحانَكَ! لاَ نُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَىٰ نَفْسِكَ »(1) . وهو كثيراً ما يتأثَّرُ السُّنَّةَ والقرآنَ ، ويستخرجُ منهُما ما يجعلُهُ في غيرِ مكانِهِ ، وهوَ القائلُ [في « العُكْبَرِيّ » ٢/ ٣٨٨ منَ الوافر] :

وَقَدْ حَمَّلْتَنِي شُكْراً طَوِيلاً ... ثَقِيلاً لاَ أُطِيقُ بِهِ حِرَاكَا

ولهُ [في « العُكْبَرِيّ » ٣/ ٨١ من البسيط] :

وَقَدْ وَجَدْتَ مَكَانَ ٱلْقَوْلِ ذَا سَعَةٍ ... فَإِنْ وَجَدْتَ لِسَاناً قَائِلاً فَقُلِ

ولهُ [في « العُكْبَرِيّ » ١/ ١١٩ منَ البسيط] :

مَحَامِدٌ نَزَفَتْ شِعْرِي لِيَمْلأَهَا ... فَآلَ مَا ٱمْتَلأَتْ مِنْهُ وَلاَ نَضَبَا

ولهُ [في « العُكْبَرِيّ » ٢/ ٢٦٧ منَ الكامل] :

وَمَتَىٰ يُؤَدِّي شَرْحَ حَالِكَ نَاطِقٌ ... حَفِظَ ٱلْقَلِيلَ ٱلنَّزْرَ مِمَّا ضَيَّعَا

ولهُ [في « العُكْبَرِيّ » ٢/ ١٢٦ منَ الطويل] :

لَهُ مِنَنٌ تُفْنِي ٱلثَّنَاءَ كَأَنَّمَا ... بِهِ أَقْسَمَتْ أَنْ لاَ يُؤَدَّىٰ لَهَا شُكْرُ

وغيرُ ذلك .

* * *

(1) أخرجه عن عائشة الصديقة مسلم (٤٨٦)، وابن خزيمة (١/ ٣٢٩).
وأخرجه عن علي المرتضى أبو داوود (١٤٢٧)، والترمذي (٣٥٦٦)، والنسائي (١٧٤٧)، وتمامه: «اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك» .

[قالَ أبو الطيِّبِ المتنبِّي في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ٣٠٤ منَ المنسرح]:

يُعْطِي فَلاَ مَطْلُهُ يُكَدِّرُهَا بِهَا وَلاَ مَنُّهُ يُنَكِّدُهَا

شرح المطلع

الضمائِرُ في (يُكَدِّرُهَا) و (بِهَا) و (يُنَكِّدُهَا) تعودُ إِلىٰ الأَيادي ٱلمذكورةِ في البيتِ قبلَهُ .

نفي الشيء بنفي صفته والشواهد عليه

يقولُ : إِنَّهُ يعطي الأَياديَ التي لا يكدِّرُها المطلُ ، ولا ينكِّدُها المَنُّ ، وليسَ المرادُ أَنَّ هناكَ مطلاً ومَنّاً غيرَ أَنْ لا تكديرَ ولا تنكيدَ منهُما ، ولٰكنَّ المرادَ نفيُ المَطلِ والمنِّ البَتَّةَ علىٰ حدِّ ما سبقَ في المجلسِ الأَوَّلِ مِنْ قولِ ٱمرىءِ القيسِ [منَ الطويل] :

عَلَىٰ لاَحِبٍ لاَ يَهْتَدِيْ بِمَنَارِهِ [إِذَا سَافَهُ ٱلْعَوْدُ ٱلنُّبَاطِيُّ جَرْجَرَا]

إِذْ لَمْ يُرِد : أَنَّ لَهُ مناراً لا يهتدي بِهِ ، ولٰكنَّهُ عمدَ إِلىٰ نفيِ المنارِ مِنْ أَصلِهِ .

ومثلُهُ قولُ الآخَرِ[1] في وصفِ مفازةٍ [في « خزانةِ الأدب » ١٠/ ١٩٢ منَ السريع] :

لاَ يُفْزِعُ ٱلأَرْنَبَ أَهْوَالُهَا وَلاَ تَرَىٰ ٱلضَّبَّ بِهَا يَنْجَحِرْ

وقد ذكرَهُ الزمخشريُّ في « الكشَّافِ » [١/ ٦٣٩ـ٦٤٠] عندَ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ﴾ [آل عمران : ١٥١] ، وقالَ : (فإِنْ قُلتَ : كأَنَّ

(١) وهوَ : عمرُو بنُ أَحمرَ .

هناكَ حُجَّةً حَتَّىٰ نزَّلَها تعالىٰ ، فيصحُّ لَهمُ الإشراكُ . . قلْتُ : لَمْ يَغنِ أَنَّ هناكَ حُجَّةً إلاَّ أَنَّها لَمْ تنزِلْ عليهم ؛ لأَنَّ الشِّركَ لا يستقيمُ أَنْ تقومَ عليهِ حُجَّةٌ ، وإِنَّما المرادُ نفيُ الحُجَّةِ ونزولُها جميعاً) ، وذكرَ عجزَ البيتِ . فإِنَّهُ لَمْ يُرِد : أَنَّ بها أَرنباً لا تَفْزَعُ ، وضبّاً لا يَنْجَحِرُ ، وإِنَّما أَرادَ : نفيَ الحيوانِ رَأساً ، وهٰذا ممَّا يتنافسُ فيهِ أَهلُ البيانِ ، ويسمِّيهِ البديعيُّونَ : (نفيَ الشيءِ بإيجابهِ) ، وفسَّرهُ ٱبنُ رشيقٍ وٱبنُ أَبي الإِصبعِ[1] وغيرُهُما بأَنَّهُ : (الكلامُ الذي ظاهرُهُ إِيجابُ الشيءِ ، وباطنُهُ نفيُهُ) .

ومنهُ قولُهُ جلَّ ذكرهُ: ﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ﴾ [مريم : ٦٢] ، فليسَ المرادُ ـ علىٰ أَصحِّ الأَقوالِ ـ : أَنَّ في الجنَّةِ لغواً إلاَّ أَنَّهُم لا يسمعونَهُ ، ولٰكنَّ المرادَ : نفيُ اللغوِ مِنْ أَصلِهِ ، ومعاذَ اللهِ أَنْ يكونَ فيها لَغوٌ أَو غولٌ[2] .

ومنهُ قولُ زهيرٍ [منَ الطويل] :

بِأَرْضٍ خَلاَءٍ لاَ يُسَدُّ وَصِيدُهَا   عَلَيَّ وَمَعْرُوفِي بِهَا غَيْرُ مُنْكَرِ[3]

فأَثبتَ لَها وَصيداً ، وأَرادَ : أَنْ ليسَ لها وصيدٌ يُسَدُّ عليهِ .

ومنهُ قولُ الزُّبيرِ بنِ عبدِ المطَّلبِ يَذْكُرُ عميلةَ بنَ السَّبَّاقِ بنِ عبدِ

---

(١) ٱبن أَبي الإِصبع : هو عبد العظيم بن عبد الواحد العدواني البغدادي المصري ، شاعر أديب توفي سنة : (٦٥٤ هـ) .

(٢) غول : ما ينشأ عن الخمر من صداع أو سكر . قال تعالىٰ : ﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا ﴾ [مريم : ٦٢] و : ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ ﴾ [الصافات : ٤٧] .

(٣) الوَصِيدُ : فِنَاءُ الدارِ والبيتِ . قال عزَّ وجلَّ : ﴿ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ﴾ [الكهف : ١٨] .

الدارِ ، وكانَ لهُ نديماً [منَ الطويل] :

صَبَحْتُ بِهِمْ طَلْقاً يُرَاحُ إِلَىٰ ٱلنَّدَىٰ إِذَا مَا ٱنْتَشَىٰ لَمْ تَحْتَضِرْهُ مَغَافِرُهُ
ضَعِيفاً بِحَثِّ ٱلْكَأْسِ قَبْضُ بَنَانِهِ كَلِيلاً عَلَىٰ وَجْهِ ٱلنَّدِيمِ أَظَافِرُهُ

فظاهرُ كلامِهِ : أَنَّهُ يَخمِشُ وجهَ النديمِ ، إلاَّ أَنَّهُ لا يؤذيهِ ؛ لِكَلَّةِ أَظفارِهِ ، وما أَرادَ إلاَّ أَنَّهُ لا يعربدُ ، ولا يَمَسُّ وجهَ النديمِ بشيءٍ أَصلاً .

وقالَ أَبو زيدٍ يصفُ فرساً [منَ الكامل] :

مُتَغَلِّقٌ أَنْسَاؤُهَا عَنْ قَانِىءٍ كَٱلْقُرْطِ صَاوٍ غُبْرُهُ لاَ يُرْضَعُ[(١)]

فإِنَّهُ لَمْ يُرد : أَنَّ هناكَ لَبناً لا يُرضعُ ، وإِنَّما أَرادَ : أَنْ لا لَبنَ لَها حتَّىٰ يرضعَ .

وقالَ أَبو كبيرٍ الهُذليُّ يصفُ هضبةً [في « ديوان الهُذليِّينَ » ٢/ ٩٦ـ٩٧ منَ الكامل] :

وَعَلَوْتُ مُرْتَقِباً عَلَىٰ مَرْهُوبَةٍ حَصَّاءَ لَيْسَ رَقِيبُهَا فِي مَهْمَلِ
عَيْطَاءَ مُعْنِقَةٍ يَكُونُ أَنِيسَهَا وُرْقُ ٱلْحَمَامِ جَمِيمُهَا لَمْ يُؤْكَلِ[(٢)]

---

(١) في «اللسان» (١٥/ ٣٢١) البيت لأبي ذؤيب، والنسا : عرق يخرج من الورك فيستبطن الفخذين، ثم يمر بالعرقوب حتى يبلغ الحافر، فإذا سمنت الدابة انفلقت فخذاها بلحمتين عظيمتين وجرى النَّسا بينهما واستبان. القانىءُ: الأحمرُ. الصاوي: اليابس. الغُبْرُ: بقية اللبن في الضرع.
والمعنى: شبَّه الضرع بقرط المرأة ولم يرد أن هناك بقية لبن لا يرضع، إنما أراد أنه لا غُبْرَ هناك فيهتدي إليه .

(٢) العيطاءُ : الطويلةُ العُنُقِ . المُعْنِقَةُ : الطويلة . الجميمُ : ما نهضَ وٱنتشرَ مِنَ النباتِ ؛ وهو ما طالَ بعضَ الطولِ ولَمْ يتمَّ ؛ أَي : لا يَرقى فيها راقٍ ولا راعٍ =

يريدُ : أَنْ ليسَ بها جميمٌ حتَّىٰ يؤكَلَ ، كما يدلُّ علىٰ ذلكَ قولُهُ في البيتِ الأَوَّلِ (حَصَّاءَ) ؛ وهي التي لا نبتَ فيها .

ومنهُ قولُ ذي الرُّمَّةِ [في « ديوانه » ١/ ٤٤ منَ البسيط] :

لاَ تُشْتَكَىٰ سَقْطَةٌ مِنْهَا وَقَدْ رَقَصَتْ   بِهَا ٱلْمَفَاوِزُ حَتَّىٰ ظَهْرُهَا حَدِبُ[(١)]

فإِنَّهُ لَمْ يُرِدْ : أَنَّ لها سقطةً ، لـٰكنَّهُ لا يُشتكىٰ منها ، وإِنَّما أَرادَ : نفيَ السقوطِ رأْساً .

ومنهُ قولُ مسلمِ بنِ الوليدِ [منَ البسيط] :

لاَ يَعْبَقُ ٱلطِّيبُ خَدَّيْهِ وَمِفْرَقَهُ   وَلاَ يُمَسِّحُ عَيْنَيْهِ مِنَ ٱلْكُحُلِ

فالمرادُ : نفيُ الطِّيبِ والكحلِ مِنْ أَصلِهما ، لا نفيُ العبَقِ والمسحِ فقط .

ومثلُهُ : قولُ الناظمِ [في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ١٦٩ منَ البسيط] :

أَفْدِيْ ظِبَاءَ فَلاَةٍ مَا عَرَفْنَ بِهَا   مَضْغَ ٱلْكَلاَمِ وَلاَ صَبْغَ ٱلْحَوَاجِيْبِ
وَلاَ بَرَزْنَ مِنَ ٱلْحَمَّامِ مَائِلَةً   أَوْرَاكُهُنَّ صَقِيْلاَتِ ٱلْعَرَاقِيْبِ[(٢)]

فظاهِرُ الكلامِ : نفيُ بُروزِهِنَّ مِنَ الحمَّامِ علىٰ تلكَ الهيئَةِ ، والمرادُ : عدمُ دخولِهنَّ الحمَّامَ أَصلاً ، فإِنهُنَّ بَدَوِيَّاتٌ كظِباءِ الفلاةِ ، لا يعرِفْنَ شيئاً مِنْ ذلِكَ .

= ولا أَحدٌ فيأكُلَ جميمَها . وُرْقُ الحمام : الحمامُ الخُضْرُ ؛ وهيَ التي فيها سوادٌ وغبرةٌ . والعربُ تطلقُ الخضرةَ على السوادِ .

(١) السَّقْطَةُ : العثرةُ والفترةُ . حتَّىٰ ظهرُها حَدِبٌ : أي قد تقوَّسَ مِنَ الهُزَالِ .

(٢) العراقيبُ ـ جمعُ عرقوبٍ ـ : وهوَ ما يكونُ عندَ الكعبِ .

السبب في تكثير الأمثلة على هذه المسألة

وإنَّما أكثرتُ مِنَ الأمثلةِ ؛ لقولِ ٱبنِ الأثيرِ السابقِ في المجلسِ الأوَّلِ : إنَّه طافَ علىٰ أقوالِ الشعراءِ فلَم يجد منها شيئاً حتَّىٰ ٱضطرَّ إلىٰ ما نبَّهنا عليهِ مِنَ الاختلاسِ ، والحالُ أنَّها علىٰ طرفِ ذراعهِ ، فسبحانَ مَنْ لا يسهو .

الخلاف في الوعد

ثُمَّ ٱختلفَ القومُ في شأنِ الوعدِ :

١ـ صنف أحبه قبل العطية

فمنهُمْ : مَنْ أَحبَّهُ قبلَ العطيَّةِ ؛ ليحلوَ موقعُها ، وتكملَ بها اللذَّتانِ : (لذةُ الإعطاءِ ، ولذةُ الإنجازِ) ، فإنَّ النفسَ إذا تعلَّقتْ بٱلشيءِ . . حصلَ لها وَلْوَلَةٌ لا تزولُ إلاَّ بحصولِهِ ، وتلكَ الولولةُ لا تَحُطُّ مِنْ قدرِ العطيَّةِ إذا كانَ الوعدُ حقّاً ، وكانَ صاحبُهُ مناطَ الثقةِ ،

من أصحاب هذا المذهب يحيى بن خالد

وعلىٰ هـٰذا الرأيِ : يحيىٰ بنُ خالدٍ ، فقد كلَّمَهُ منصورُ بنُ زيادٍ في حاجةٍ لرجلٍ ، فقالَ : عِدْهُ قضاءَها ، قالَ منصورٌ : فقلتُ لهُ : أَصلحكَ اللهُ ، وما يدعوكَ إلىٰ العِدَةِ مَعَ القدرةِ ؟ قالَ : هـٰذا قولُ مَنْ لَمْ يعرِفْ مواقعَ الصنائعِ مِنَ ٱلقلوبِ ، فإنَّ الوعدَ تَطَعُّمٌ ، والإنجازَ إطعامٌ ، وليسَ مَنْ فاجأَهُ الطعامُ كمَنْ وجدَ رائحتَهُ ، وتَمَطَّقَ بهِ ، وتطعَّمَهُ ، ثُمَّ قُرِّبَ إليهِ ، فدعِ الحاجةَ تُختمُ بالوعدِ ؛ ليكونَ بها عندَ المُصطَنعِ إليهِ حُسْنُ موقعٍ ، ولُطْفُ محلٍّ ، فإنَّها إذا لَمْ يتقدَّمْها موعدٌ يُنتَظَرُ بهِ نُجحُها . . لَمْ يتجاذبِ النفسَ سرورُها .

ومنهم ابو مسلم الخولاني

وقالَ أَبو مسلمٍ الخولانيُّ : أَوقعُ المعروفِ في القلوبِ ، وأَبردُهُ علىٰ الأَكبادِ . . معروفٌ منتَظَرٌ بوعدٍ لا يُكدِّرُهُ مَطْلٌ .

ومنهم المهدي

وقالَ المهديُّ [من مجزوء الكامل] :

اَلْـوَعْـدُ أَحْسَـنُ مَـا يَكُـوْ ... نُ إِذَا تَقَـدَّمَـهُ ضَمَـانُ

وقالَ غيرُهُ [منَ الرجز] :

حَلاوَةُ ٱلْفَضْلِ بِوَعْدٍ يُنْجَزُ   لاَ خَيْرَ فِي ٱلْعُرْفِ كَنَهْبٍ يُنْهَزُ(١)

شاهده من القرآن الكريم

وقد يتأكَّدُ هذا بأمثالِ قولِهِ جلَّ ذكرُهُ لموسىٰ وهارونَ : ﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا ﴾ [يونس : ٨٩] ، فإنهُ لَمْ يظهر أثرُ الإجابةِ ـ كما يُروىٰ ـ إلاَّ بعدَ أربعينَ سنةً .

وقالَ الإمامُ الرازيُّ في تأخُّرِ ظهورِ أثرِ الرؤيا الحَسَنةِ : (إنَّ مِنْ رحمةِ اللهِ الإعلامَ بالخيرِ متقدِّماً علىٰ ظُهورِهِ بزمانٍ طويلٍ ، حتَّىٰ تكونَ البهجةُ بتوقُّعِ حصولِهِ أكثرَ وأتمَّ) . انتهىٰ بمعناهُ .

علىٰ أنَّهُ لا يبعدُ أنْ يكونَ الرَّيثُ في المواعيدِ الإلٰهيَّةِ بالدنيا مِنَ الامتحانِ الذي يَحسُنُ مِنَ اللهِ لا مِنَ الخَلْقِ فيما بينهُم .

ومنهم الحارثي

وقالَ الحارثيُّ [منَ الطويل] :

وَمَا رَوْضَةٌ دَارِيَّةٌ أَسَدِيَّةٌ   مُنَمْنَمَةٌ زَهْرَاءُ ذَاتُ ثَرىً صَعْدِ

بِأَحْسَنَ مِنْ حُرٍّ تَضَمَّنَ حَاجَةً   لِحُرٍّ فَأَوْفَىٰ بِالنَّجَاحِ مَعَ الْوَعْدِ

وكذلك ابن رشيق

وقالَ ابنُ رشيقٍ [في « ديوانهِ » ١٥٠ منَ السريع] :

أَحْسَنْتَ فِيْ تَأْخِيرِهَا مِنَّةً   لَوْ لَمْ تُؤَخَّرْ لَمْ تَكُنْ كَامِلَهْ

وَكَيْفَ لاَ يَحْسُنُ تَأْخِيرُهَا   بَعْدَ يَقِيْنِيْ أَنَّهَا حَاصِلَهْ

وَجَنَّةُ ٱلْفِرْدَوْسِ يُدْعَىٰ بِهَا   آجِلَةً لِلْمَرْءِ لاَ عَاجِلَهْ

٢ـ الصنف الثاني عكسهم واستدلالهم على ذلك

وذهبَ آخرونَ إلىٰ خلافِهِ ، وأنَّهُ لا يحسنُ الاستنادُ إلىٰ المواعيدِ إلاَّ عندَ عدمِ القدرةِ ، وقد يدلُّ لَهُ هَديُهُ ﷺ (فقد كانَ لا يرُدُّ سائلاً ، وإنْ لَمْ يجِدْ شيئاً . . وعدَ) .

---

(١) العُرْفُ : المعروف . والمرادُ : أنَّهُ لا خيرَ في معروفٍ يؤخذُ كالنهبِ والسرقةِ .

وقولُهُ : « اللَّهُمَّ إِنِّيْ أَسأَلُكَ مِنْ فَجْأَةِ الْخَيْرِ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فَجْأَةِ الشَّرِّ »[١] ولا يخرجُ عنهُ قولُهُ : « أَبَىٰ اللهُ أَنْ يَرْزُقَ عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ إِلاَّ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ »[٢] .

أصحاب هذا المذهب كثر

ولا يدخلُ تحتَ الحصرِ ما فيهِ مِنْ أَقوالِ الشعراءِ . منهُ قولُ عبدِ اللهِ بنِ مصعبٍ الزبيريِّ [منَ الطويل] :

وَأَنْجَزَ خَلْقَ اللهِ مِنْ قَبْلِ وَعْدِهِ ... أَرَاحَكَ مِنْ مَطْلٍ وَمِنْ طُوْلِ كَدِّهِ

تكرار هذا المعنى بكثرة عند المتنبي

وقد تكرَّرَ عندَ الناظمِ منهُ قولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ٣٦٩ منَ المتقارب] :

وَمَـالٍ وَهَبْـتَ بِـلاَ مَـوْعِـدٍ ... وَقِرْنٍ سَبَقْتَ إِلَيْهِ الْوَعِيْدَا[٣]

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ٣٤٣ منَ المتقارب] :

لَقَدْ حَالَ بِالسَّيْفِ دُوْنَ الْوَعِيْدِ ... وَحَالَتْ عَطَايَاهُ دُوْنَ الْوُعُوْدِ

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ٣٤٨ منَ البسيط] :

مُحَمَّدُ بْنَ زُرَيْقٍ مَا نَرَىٰ أَحَداً ... إِذَا فَقَدْنَاكَ يُعْطِيْ قَبْلَ أَنْ يَعِدَا

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ٣٧٧ منَ الطويل] :

تَـوَالَـىٰ بِـلاَ وَعْـدٍ وَلٰكِـنَّ قَبْلَـهُ ... شَمَائِلَهُ مِنْ غَيْرِ وَعْدٍ لَهَا وَعْدُ

---

(١) أورده عن أنس الهيثمي في « مجمع الزوائد » (١٠/ ١١٥) وقال : رواه أبو يعلى وفيه يوسف بن عطية متروك ، والسيوطي في « الجامع الصغير » (١/ ٩١) .

(٢) أخرجه عن أبي هريرة القضاعيُّ في « مسند الشهاب » (١/ ٣٤١) وذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (٥٨) وأطال في عزوه ، ولا يفرح له بسند مقبول .

(٣) القِرْنُ ـ بالكسر ـ : هوَ الكفءُ في الشجاعةِ والمماثلُ ، والقَرْنُ ـ بالفتح ـ : هوَ مثلُكَ في السِّنِّ . والمرادُ الأوَّلُ .

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيّ » ٤/ ٣٠ مِنَ الكامل] :

نَصَرَ ٱلْفَعَالَ عَلَىٰ ٱلْمِطَالِ كَأَنَّمَا   خَالَ ٱلسُّؤَالَ عَلَىٰ ٱلنَّوَالِ مُحَرَّمَا[1]

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيّ » ٣/ ١٨٨ منَ الطويل] :

وَحَالَتْ عَطَايَا كَفِّهِ دُوْنَ وَعْدِهِ   فَلَيْسَ لَهُ إِنْجَازُ وَعْدٍ وَلاَ مَطْلُ

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيّ » ٣/ ٢٧٧ منَ البسيط] :

وَٱجْزِ ٱلأَمِيْرَ ٱلَّذِيْ نُعْمَاهُ فَاجِئَةٌ   مِنْ غَيْرِ قَوْلٍ وَنُعْمَىٰ ٱلنَّاسِ أَقْوَالُ

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيّ » ٢/ ٢٨ منَ الطويل] :

وَوَعْدُكَ فِعْلٌ قَبْلَ وَعْدٍ لأَنَّهُ   نَظِيْرُ فَعَالِ ٱلصَّادِقِ ٱلْقَوْلِ وَعْدُهُ

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيّ » ٢/ ١٨٣ منَ الخفيف] :

كُلَّمَا جَادَتِ ٱلظُّنُوْنُ بِوَعْدٍ   عَنْكَ جَادَتْ يَدَاكَ بِالإِنْجَازِ

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيّ » ٣/ ٢٩٧ منَ الطويل] :

وَأَهْدَتْ إِلَيْنَا غَيْرَ قَاصِدَةٍ بِهِ   كَرِيْمَ ٱلسَّجَايَا يَسْبِقُ ٱلْقَوْلَ بِالْفِعْلِ

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيّ » ٣/ ٨٧ منَ البسيط] :

أَنْتَ ٱلْجَوَادُ بِلاَ مَنٍّ وَلاَ كَدَرٍ   وَلاَ مِطَالٍ وَلاَ وَعْدٍ وَلاَ مَذَلِ[2]

وربَّمَا دخلَ بعضُ هٰذهِ الأبياتِ بتأويلٍ في القسمِ الأوَّلِ ، ولا مُشاحَّةَ في ذلكَ ، فالخطبُ يسيرٌ .

---

(١) الفَعَالُ ـ بفتحِ الفاءِ ـ : الفِعلُ الجميلُ .

(٢) المَذَلُ : الفترةُ والضجرُ .

الشعراء وهذا المعنى

وقالَ البُحتريُّ [في « ديوانه » ١/ ٥٧٤ منَ البسيط] :

يُمْضِيْ ٱلْمَنَايَا دِرَاكاً ثُمَّ يُتْبِعُهَا ... بِيْضَ ٱلْعَطَاءِ وَلَمْ يُوْعِدْ وَلَمْ يَعِدِ

وقالَ [في « ديوانهِ » ١/ ٥٥٧ منَ البسيط] :

رَطْبُ ٱلْغَمَامِ إِذَا مَا ٱسْتُمْطِرَتْ يَدُهُ ... جَاءَتْ مَوَاهِبُهُ قَبْلَ ٱلْمَوَاعِيْدِ

وقالَ المعرِّيُّ [في « سقطِ الزندِ » ١٢٩ منَ الطويل] :

فَيَا أَحْلَمَ ٱلسَّادَاتِ مِنْ غَيْرِ ذِلَّةٍ ... وَيَا أَجْوَدَ ٱلأَجْوَادِ مِنْ غَيْرِ مَوْعِدِ

وقالَ آخرُ [منَ الطويل] :

عَلَىٰ عُدَوَاءِ ٱلدَّارِ جَاءَتْ هِبَاتُهُ ... بِلاَ عِدَةٍ مِنْ قَبْلِ ذَاكَ وَلاَ مَنِّ(١)

فَأَوْلَيْتُهُ شُكْرِيْ وَلَٰكِنَّ بِرَّهُ ... لَدَيَّ ٱلْهَنِيْءُ ٱلْجَمُّ مِنْ فَوْقِ مَا أُثْنِيْ

وأنصعُ مِنْ ذلكَ كلِّهِ قولُ أبي تمَّامٍ [في « ديوانهِ » ١/ ٢٩٣ منَ الطويل] :

يَرَىٰ ٱلْوَعْدَ أَخْزَىٰ ٱلْعَارِ إِذْ هُوَ لَمْ تَكُنْ ... مَوَاهِبُهُ تَأْتِيْ مُقَدَّمَةَ ٱلْوَعْدِ

فَلَوْ كَانَ مَا يُعْطِيْهِ غَيْثاً لأَمْطَرَتْ ... سَحَائِبُهُ مِنْ غَيْرِ بَرْقٍ وَلاَ رَعْدِ

وقالَ القاضي ظهيرُ الدينِ [منَ البسيط] :

جوْدُ ٱلْكَرِيْمِ إِذَا مَا كَانَ عَنْ عِدَةٍ ... وَقَدْ تَأَخَّرَ لَمْ يَسْلَمْ عَنِ ٱلْكَدَرِ

إِنَّ ٱلسَّحَائِبَ لاَ تُجْدِيْ بَوَارِقُهَا ... نَفْعاً إِذَا هِيَ لَمْ تُمْطِرْ عَلَىٰ ٱلأَثَرِ

كلمة رشيقة للخابزأرزي

وقالَ الخَابزأرزيُّ في كلمةٍ رشيقةٍ لابأسَ بٱستيفائِها ؛ لعذوبتِها علىٰ ما فيها ممَّا سننبِّهُ عليهِ [منَ الطويل] :

خَلِيْلَيَّ هَلْ أَبْصَرْتُمَا أَوْ سَمِعْتُمَا ... بِأَكْرَمَ مِنْ مَوْلَىً تَمَشَّىٰ إِلَىٰ عَبْدِ ؟!

---

(١) عُدَوَاءِ الدَّارِ : الدورُ البعيدةُ النائيةُ ، والعُدَوَاءُ : البعدُ .

أَتَىٰ زَائِراً مِنْ غَيْرِ وَعْدٍ وَقَالَ لِيْ: ... أُجِلُّكَ عَنْ تَعْلِيْقِ قَلْبِكَ بِالْوَعْدِ
فَمَا زَالَ نَجْمُ الْوَصْلِ بَيْنِيْ وَبَيْنَهُ ... يَدُوْرُ بِأَفْلَاكِ السَّعَادَةِ وَالسَّعْدِ
فَطَوْراً عَلَىٰ تَقْبِيْلِ نَرْجِسِ نَاظِرٍ ... وَطَوْراً عَلَىٰ تَعْضِيْضِ تُفَّاحَةِ الْخَدِّ

ملاحظة المؤلف عليها من حيث المعنى

والَّذي نُلاحظهُ مِنْ حيثُ المعنىٰ : بطلانَ الاستفهامِ الإنكاريِّ في قولهِ : (. . هَلْ أَبْصَرْتُمَا أَو سَمِعْتُمَا) بِمَا كانَ مِنْ هديهِ ﷺ في زيارتهِ لأصحابهِ وأخدامهِ ، حتَّىٰ لقد زارَ غلاماً نَخَّاماً[1] مِنَ اليهودِ .

ملاحظته عليها من حيث اللفظ

ومِنْ حيثُ اللَّفظُ : جَمْعُهُ بينَ السَّعادةِ والسَّعدِ ، وهل هُما إلاَّ كشيءٍ واحدٍ ؟ وجاءَ في الخبرِ: أنَّ (عِدَةُ الكَرِيْمِ دَيْنٌ)[2]، و: أنَّ (لَيُّ الْوَاجِدِ ظُلْمٌ)[3] .

وَمِنْ كلامِهِم : إنَّ المسؤولَ حُرٌّ حتَّىٰ يَعِدَ .

وجوب الوفاء بالوعد

ومِنْ ثَمَّ ذهبَ أكثرُ الأئِمَّةِ إِلىٰ القولِ بوجوبِ الوفاءِ بالوعدِ ، وهل بَيْعُ العُهْدَةِ[4] المعروفُ بأرضِنا إلاَّ مبنيٌّ عليهِ ؟ وإنِّي لأعجبُ مِنَ الإمامِ الشَّافعيِّ ؛ إذْ لا يقولُ بوجوبهِ مع صحَّةِ الأحاديثِ فيهِ ، وكثرةِ الوعيدِ في الخُلْفِ !

---

(١) النخّامُ : المصابُ بالسعالِ .
(٢) يقال في الأمثال السائرة: الوعدُ عندَ الحرِّ دَينٌ.
(٣) أخرجه بنحوه عن الشريد أبو داوود (٣٦٢٨)، والنسائي (٤٦٨٩) و(٤٦٩٠)، وابن ماجه (٢٤٢٧)، وابن حبان (٥٠٨٩) بإسناد حسن ، ونحو معناه حديث أبي هريرة عند البخاري (٢٢٨٧) ومسلم (٤٦٨٨) بلفظ « مَطْلُ الغنيِّ ظُلمٌ ».
(٤) ويسمَّى أيضاً بيع الإقالة: وهو مستجمع لشروط الصحة، إلا أن المشتري يعدُ البائع أنه إذا جاء بمثل الثمن له . . أقاله وردَّ عليه المبيع.

وفاء سيدنا أبي بكر عداته ﷺ

وقد وفّىٰ أبو بكرٍ ٱلصِّدِّيقُ سائرَ عِدَاتِهِ ﷺ مِنْ بيتِ ٱلمالِ ، ولو لَمْ تكُنْ دَيناً لازماً . . لَمَا سدَّدَها منهُ . ودعوىٰ ٱلخصوصيَّةِ بهِ ﷺ لابدَّ لها مِنْ دليلٍ .

وفاء عدات سعيد بن العاص

وما كانَ دَينُ سعيدِ بنِ العاصِ ٱلَّذي بِيْعَ فيهِ دارُهُ مِنْ معاويةَ بثلاثِ مئةِ ألفٍ إلاَّ مِنْ هـٰذا ٱلقبيلِ . منهُ صكٌّ لبعضِ قريشٍ لا يؤْبَهُ لَهُ ، سأَلوْهُ عَنْ سببهِ ، فقالَ : مشيتُ معهُ مرَّةً إلىٰ دارِهِ حتَّىٰ بلغَها ، فقالَ : ما حاجتُكَ؟ قلتُ : لا شيءَ إلاَّ أنّني رأَيْتُكَ تمشي وحدَكَ ، فأَحببْتُ أنْ أَصِلَ جناحَكَ ، فكتبَ لِيْ هـٰذا الصكَّ ، وٱعتذرَ بعُسْرَةِ إذْ ذاكَ ، فقالَ لَهُ عمرُو بنُ سعيدٍ : لا جرمَ ، لا تأْخُذْها إلاَّ بٱلوافيةِ ، ولا تبرح مكانَكَ حتَّىٰ تقبضَها(١) .

قصيدة شاعرة لبعض شعراء الحماسة

وللهِ درُّ بعضِ شعراءِ الحماسةِ(٢) في قولِهِ [في « شرحِ حماسةِ أَبي تمَّامٍ » ٢/ ٩٢٣ـ٩٢٥ مِنَ الطويل] :

مَوَاعِيْدُهُمْ صِدْقٌ إِذَا مَا تَكَلَّمُوْا ... بِتِلْكَ ٱلَّتِيْ قَدْ سُمِّيَتْ وَجَبَ ٱلْفِعْلُ

وهو مِنْ كلمةِ شاعرةٍ تقتضي الجزالةُ ٱستيفاءَها وهيَ :

إِلَىٰ هَضْبَةٍ مِنْ آلِ شَيْبَانَ أُفْرِغَتْ ... لَهَا ٱلذِّرْوَةُ ٱلْعَلْيَاءُ وَٱلْكَاهِلُ ٱلْعَبْلُ(٣)
إِلَـىٰ ٱلنَّفَرِ ٱلْبِيْـضِ ٱلَّـذِيْـنَ كَـأَنَّهُـمْ ... صَفَائِحُ يَوْمَ ٱلرَّوْعِ أَخْلَصَهَا ٱلصَّقْلُ
إِلَـىٰ مَعْـدِنِ ٱلْعِزِّ ٱلْمُـؤَيَّـدِ وَٱلنَّـدَىٰ ... هُنَاكَ هُنَاكَ ٱلْفَضْلُ وَٱلْخُلُقُ ٱلْجَزْلُ

---

(١) راجع القصَّةَ كاملة في « الأغاني » (١/ ٣٩) .
(٢) وهوَ : خَلَفُ بنُ خليفةَ مولىٰ قيسِ بنِ ثعلبةَ .
(٣) الكاهلُ : أصلُ العنقِ ، وهوَ الحاركُ . العَبْلُ : الغليظُ ، وهذا مثلٌ لشرفِهم وعلوِّهم .

عِذَابٌ عَلَىٰ ٱلأَكْبَادِ مَا لَمْ يَذُقْهُمُ ... عَدُوٌّ وَفِي ٱلأَفْوَاهِ أَسْمَاؤُهُمْ تَحْلُوْ
عَلَيْهِمْ وَقَارُ ٱلْحِلْمِ حَتَّىٰ كَأَنَّمَا ... وَلِيدُهُمُ مِنْ أَجْلِ هَيْبَتِهِ كَهْلُ
إِذَا ٱسْتُجْهِلُوْا لَمْ يَعْزُبِ ٱلْحِلْمُ عَنْهُمُ ... وَإِنْ آثَرُوْا أَنْ يَجْهَلُوْا كَثُرَ ٱلْجَهْلُ
هُمُ ٱلْجَبَلُ ٱلأَعْلَىٰ إِذَا مَا تَنَاكَرَتْ ... مُلُوْكُ رِجَالٍ أَوْ تَخَاطَرَتِ ٱلْبُزْلُ(١)
أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْقَتْلَ غَالٍ إِذَا رَضُوْا ... وَإِنْ غَضِبُوْا فِيْ مَوْطِنٍ كَثُرَ ٱلْقَتْلُ
بُحُوْرٌ تُلاَقِيْهَا بُحُوْرٌ غَزِيْرَةٌ ... إِذَا غَضِبَتْ قَيْسٌ وَإِخْوَانُهَا ذُهْلُ(٢)

ابن الزبعرى يمدح بني عبد مناف

وقالَ ٱبنُ ٱلزِّبعرىٰ يمدحُ بني عبدِ منافٍ في حديثٍ لا حاجةَ بنا إلىٰ ٱلاستطرادِ بهِ [كما في «شعرِ ٱبنِ ٱلزِّبعرىٰ» ٥٤ منَ ٱلكاملِ] :

يَا أَيُّهَا ٱلرَّجُلُ ٱلْمُحَوِّلُ رَحْلَهُ ... هَلاَّ نَزَلْتَ بِآلِ عَبْدِ مَنَافِ
ٱلْخَالِطِيْنَ فَقِيْرَهُمْ بِغَنِيِّهِمْ ... حَتَّىٰ يَعُوْدَ فَقِيْرُهُمْ كَٱلْكَافِيْ
وَٱلْقَائِلِيْنَ بِكُلِّ وَعْدٍ صَادِقٍ ... وَٱلظَّاعِنِيْنَ لِرِحْلَةِ ٱلإِيْلاَفِ(٣)

الحطيئة يمدح آل شماس

وقالَ ٱلحطيئةُ يمدحُ آلَ شمَّاسِ بنِ لَؤَيٍّ [كما في «ديوانه» منَ ٱلطويلِ] :

أُوْلَئِكَ قَوْمٌ إِنْ بَنَوْا أَحْسَنُوْا ٱلْبِنَا ... وَإِنْ عَاهَدُوْا وَفَّوْا وَإِنْ عَقَدُوْا شَدُّوْا
وَإِنْ قَالَ مَوْلاَهُمْ ـ عَلَىٰ جُلِّ حَادِثٍ ... مِنَ ٱلدَّهْرِ ـ رُدُّوْا فَضْلَ أَحْلاَمِكُمْ رَدُّوْا
أَقِلُّوْا عَلَيْهِمْ ـ لاَ أَبَا لأَبِيْكُمُ ـ ... مِنَ ٱللَّوْمِ أَوْ سُدُّوْا ٱلْمَكَانَ ٱلَّذِيْ سَدُّوْا

---

(١) تناكرتْ : تجاحدتْ . تخاطرتْ : حركتْ أذنابَها . البُزْلُ : حسانُ الإبلِ . والمعنىٰ : أنهمْ بلغوا الذروةَ العُليا مِنَ المكارمِ والشجاعةِ والدهاءِ قولاً وفعلاً على عكسِ غيرِهِمْ .
(٢) قيسٌ وذُهل : ابنا ثعلبةَ ، مِنْ بكرِ بنِ وائلٍ . وشيبانُ مِنْ ذُهلِ بنِ ثعلبةَ .
(٣) كما ذكرها تعالى بسورة مخصوصة .

وقالَ أيضاً [في « ديوانه » ٢٥ـ٢٦ منَ البسيط] :

قَـوْمٌ إذَا عَقَـدُوا [عَقْـداً] لِجَـارِهِـمُ   شَدُّوا ٱلْعِنَاجَ وَشَدُّوا فَوْقَهُ ٱلْكَرَبَا(١)
أُولَـٰئِـكَ ٱلأَنْـفُ وَٱلأَذْنَـابُ غَيْـرُهُـمُ   وَمَنْ يُسَاوِي بِأَنْفِ ٱلنَّاقَةِ ٱلذَّنَبَا(٢)

ويُروىٰ للحَسَنِ السبطِ رضوانُ ٱللهِ عليهِ [منَ البسيطِ] :

وَلاَ أَقُـوْلُ نَعَـمْ يَـوْمـاً فَـأُتْبِعُهَـا   خُلْفاً وَلَوْ ذَهَبَتْ بِٱلْمَالِ وَٱلْوَلَدِ

فأَخذَهُ بعضُهُم ، وقالَ [منَ الرَّمَل] :

لاَ تَقُـوْلَـنَّ إِذَا مَـا لَـمْ تُـرِدْ   أَنْ تُتِمَّ ٱلْوَعْدَ فِيْ شَيْءٍ : نَعَمْ
فَـإِذَا قُلْـتَ : نَعَـمْ فَـٱصْبِرْ لَهَـا   بِـوَفَـاءِ ٱلْعَهْـدِ إِنَّ ٱلْخُلْـفَ ذَمْ

وقالَ ابنُ أَبي حاتِمٍ [منَ الطويل] :

إِذَا قُلْتَ فِيْ شَيْءٍ : نَعَمْ فَأَتِمَّهُ   فَإِنَّ نَعَمْ دَيْنٌ عَلَىٰ ٱلْحُرِّ وَاجِبُ
وَإِلاَّ فَقُلْ : لاَ ، تَسْتَرِحْ وَتُرِحْ بِهَا   لِئَلاَّ يَقُوْلَ ٱلنَّاسُ : إِنَّكَ كَاذِبُ

وقالَ أَبو عبادةَ [في « ديوانه » ٢/٦٩٩ منَ الكامل] :

عَجِلٌ إِلَىٰ نُجْحِ ٱلْفَعَالِ كَأَنَّمَا   يُمْسِيْ عَلَىٰ وِتْرٍ مِنَ ٱلْمَوْعُوْدِ(٣)

---

(١) يقول : إذا عَقدوا عقداً لجارهمُ . . وفوا بهِ وأحكموهُ ، وكنىٰ عن ذلكَ بالعِناجِ ، والعِنَاجُ : حبلٌ يشدُّ تحت الدلو ويتصل طرفاه من أعلاها بما يتصل به أذناها . الكَرَبُ : الحبلُ الذي يشدُّ في وسطِ خشبةِ الدلو فوقَ الرشاءِ ليقويه .

(٢) أنفُ الناقةِ : قَصدَ بهِ بغيضاً وأَهلَ بيتهِ ، وكانوا يعيَّرونَ بهِ في الجاهليَّةِ ، فلمَّا قالَ الحطيئةُ هذا البيت . . صار مدحاً لهم . والأذناب : قصد بها الزبرقانَ وأهلَ بيتهِ .

(٣) الوَتْرُ : الثأرُ .

وقالَ [في «ديوانه» ٢/٧٥٩ منَ الطويل] :

كَأَنَّ سَنَاهَا بِالْعَشِيِّ لِصُبْحِهَا ... تَبَسُّمُ عِيسَىٰ حِينَ يَلْفِظُ بِالْوَعْدِ

وقالَ [في «ديوانِهِ» ٣/ ٢٠١٢ منَ الطويل] :

إِذَا وَعَـدَ ٱرْفَضَّـتْ عَطَـاءً عِـدَاتُـهُ ... وَأَعْرِفُ مِنْهُمْ مَنْ يَحُزُّ وَلاَ يُدْمِي[1]

وقالَ [في «ديوانه» ٢/ ٨٢٣ منَ الكامل] :

شُكْراً لأَنْعُمِهِ ٱلْجِسَامِ وَلَمْ تَضِعْ ... نِعَمٌ مَـلأْنَ لَـهُ ٱلْبِلاَدَ مَحَـامِـدَا

يُوْلِيْكَ فَضْلاً صَدْرُ قَاصِيهِ ٱلْغِنَىٰ ... بِعَوَائِدٍ قَدْ كُنَّ أَمْسِ مَوَاعِدَا[2]

وقالَ [في «ديوانه» ٣/ ١٥٣١ منَ الطويل] :

مَوَاهِبُ أَعْدَادُ ٱلأَمَانِيْ وَبَعْدَهَا ... عِدَاتٌ يَكَادُ ٱلْعُوْدُ مِنْهُنَّ يُوْرِقُ

وفي عكسِهِ يقولُ بشَّارُ بنُ بردٍ ، وقد وعدَهُ خالدُ بنُ برمكٍ بجائزةٍ ، فتأَخَّرَتْ [في «ديوانه» ٤/ ٨٩ منَ الطويل] :

أَظَلَّتْ عَلَيْنَا مِنْكَ يَوْماً غَمَامَةٌ ... أَضَاءَ لَهَا بَرْقٌ وَأَبْطَا رَشَاشُهَا

فَلاَ غَيْمُهَا يُجْلَىٰ فَيَيْأَسَ طَامِعٌ ... وَلاَ غَيْثُهَا يَأْتِيْ فَتَرْوَىٰ عِطَاشُهَا

أبو العتاهية وعمر بن العلاء

وٱمتدحَ أَبو العتاهيةِ عُمرَ بنَ العلاءِ بقولِهِ [في «ديوانِهِ» ٦٠٥ـ٦٠٦ منَ الكاملِ] :

إِنِّيْ أَمِنْتُ مِنَ ٱلزَّمَانِ وَرَيْبِهِ ... لَمَّـا عَلِقْـتُ مِـنَ ٱلأَمِيْـرِ حِبَـالاَ

لَوْ يَسْتَطِيْعُ ٱلنَّاسُ فِيْ إِجْلاَلِهِ ... لَحَـذَوْا لَـهُ حُـرَّ ٱلْـوُجُـوْهِ نِعَـالاَ

---

(١) ارفضَّتْ : تفرَّقَت وذهبَت . العِداتُ ـ جمع العِدَةِ ـ : وهي الوعد .

(٢) المعنىٰ : أنَّ مَنْ يرجعُ من عندِهِ . . يرجعُ متحققَ الوعودِ بعطايا صيَّرتهُ غنياً .

إِنَّ ٱلْمَطَـايَـا تَشْتَكِيـكَ لأَنَّهَـا قَطَعَـتْ إِلَيْـكَ سَبَاسِباً وَرِمَـالاَ
فَـإِذَا وَرَدْنَ بِنَـا وَرَدْنَ مُخِفَّـةً وَإِذَا صَدَرْنَ بِنَا صَـدَرْنَ ثِقَـالاَ

فرسمَ لَهُ بسبعينَ أَلفاً ، فتأَخَّرَتْ ، فكتبَ إِليهِ [في « ديوانه » ٥٥٧ منَ الطويل] :

أَصَابَتْ عَلَيْنَا جُودَكَ ٱلْعَيْنُ يَا عُمَرْ فَنَحْنُ لَهَا نَبْغِي ٱلتَّمَائِمَ وَٱلنُّشَرْ
أَصَابَتْكَ عَيْنٌ فِيْ سَخَائِكَ صُلْبَةٌ وَيَا رُبَّ عَيْنٍ صُلْبَةٍ تَقْطَعُ ٱلْحَجَرْ
سَنَرْقِيْكَ بِٱلأَشْعَارِ حَتَّىٰ تَمَلَّهَا فَإِنْ لَمْ تُفِقْ مِنْهَا رَقَيْنَاكَ بِٱلسُّوَرْ

وقالَ أَيضاً [في « ديوانه » ٥٦٨ـ٥٦٩ منَ البسيط] :

يَا ٱبْنَ ٱلْعَلاَءِ وَيَا ٱبْنَ ٱلْقَرْمِ مِرْدَاسِ إِنِّيْ ٱمْتَدَحْتُكَ فِيْ صَحْبِيْ وَجُلاَّسِيْ(١)
أُثْنِـيْ عَلَيْـكَ وَلِـيْ حَـالٌ تُكَـذِّبُنِـيْ فِيْمَـا أَقُـوْلُ فَـأَسْتَحْيِـيْ مِـنَ ٱلنَّـاسِ
حَتَّـىٰ إِذَا قِيْـلَ مَـا أَوْلاَكَ مِـنْ مِنَـنٍ طَأْطَأْتُ مِنْ سُوْءِ حَالِيْ عِنْدَهَا رَاسِيْ

فأَمرَ حاجبَهُ أَنْ يعجِّلَ لَهُ بدفعِ المالِ ، وقالَ : لا تُدخِلْهُ عليَّ حتَّىٰ يقبضَها ؛ فإِنِّي مستحٍ منهُ .

وقد جرتْ للعلاَّمةِ ٱبنِ المقريِّ قضيَّةٌ مِنْ نوعِها مستوفاةٌ في « ديوانِهِ » .

وقالَ محمَّدُ بنُ يزيدَ الأُمويُّ لعيسىٰ بنِ فرخانَ شاه يعاتبُهُ [منَ الهزَجِ] :

لَقَـدْ كُنْـتُ أُرَجِّيْـكَ لِمَـا أَخْشَـىٰ مِـنَ ٱلـدَّهْـرِ
فَقَـدْ أَصْبَحْـتَ مِـنْ أَوْكَـ ـدِ أَسْبَـابِـيْ إِلَـىٰ ٱلْفَقْـرِ

---

(١) القَرْمُ : سيِّدُ القومِ . قال الشاعر كما في شواهد العربية :
إلـى الملِـكِ القـرمِ وابـنِ الهُمـام وليـثِ الكتيبـةِ فـي المـزدَحَـمْ

وَقَدْ أَفْنَيْتُ مَا أَفْنَيْـ تُ فِي شُكْرِكَ مِنْ عُمْرِي
مَوَاعِيدٌ كَمَا أَخْبَتْ سَرَابَ ٱلْمَهْمَهِ ٱلْقَفْرِ
فَمِنْ يَوْمٍ إِلَىٰ يَوْمٍ وَمِنْ شَهْرٍ إِلَىٰ شَهْرِ
لَعَلَّ ٱللهَ أَنْ يَصْنَعَ لِي مِنْ حَيْثُ لاَ أَدْرِي

دعبل وبعض الأمراء

ووقفَ دِعبِلُ الخزاعيُّ ببعضِ أُمراءِ (الرَّقَّةِ) ، فقالَ : إنِّي لا أَقولُ كما قالَ صاحبُ معنٍ [في «تاريخ بغداد» ١٣/ ٢٣٩ منَ الوافر] :

بِأَيِّ ٱلْخُلَّتَيْنِ عَلَيْكَ أُثْنِي فَإِنِّي عِنْدَ مُنْصَرَفِي مَسُوْلُ
أَبِٱلْحُسْنَىٰ وَلَيْسَ لَهَا ضِيَاءٌ عَلَيَّ فَمَنْ يُصَدِّقُ مَا أَقُوْلُ
أَمِ ٱلأُخْرَىٰ وَلَسْتَ لَهَا بِأَهْلٍ وَأَنْتَ لِكُلِّ مَكْرُمَةٍ فَعُوْلُ

ولٰكنِّي أقولُ [كما في « ديوانِ دِعبِل » ٢٢٠ـ٢٢١ منَ الكامل] :

إِنْ قُلْتُ : أَعْطَانِي كَذَبْتُ وَإِنْ أَقُلْ : ضَنَّ ٱلأَمِيرُ بِمَالِهِ .. لَمْ يَجْمُلِ
وَلأَنْتَ أَعْلَمُ بِٱلْمَكَارِمِ وَٱلْعُلاَ مِنْ أَنْ أَقُولَ : فَعَلْتَ مَا لَمْ تَفْعَلِ
فَٱخْتَرْ لِنَفْسِكَ مَا أَقُولُ فَإِنَّنِي لاَ بُدَّ مُخْبِرُهُمْ وَإِنْ لَمْ أُسْأَلِ

قالَ لَهُ : قاتلَكَ اللهُ ، وأَمرَ لَهُ بعشرةِ آلافِ درهمٍ .

الضيف يخبر أهله

وقد سبقَ إِلىٰ المعنىٰ حاتمٌ في قولِهِ [منَ الكامل] :

وَٱعْلَمْ بِأَنَّ ٱلضَّيْفَ مُخْبِرُ أَهْلِهِ بِمَبِيتِ لَيْلَتِهِ وَإِنْ لَمْ يُسْأَلِ

ونحنُ ذاكروهُ بما يتعلَّقُ بهِ في غيرِ هٰذا الموضعِ إِنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

من روائع البحتري في الاستهزاء والهجاء

وممَّا يستحقُّ أَنْ يُذكَرَ بالإعجابِ ـ وإِنْ خلا عَنِ التصريحِ بالاقتضاءِ ، فلنْ يكونَ إلاَّ مِنْ أَجلِهِ ، وهو موضعُ المناسبةِ ـ قولُ البحتريِّ [في « ديوانهِ » ٣/ ١٩٧٩ ـ ١٩٨١ منَ الطويل] :

وَأَصْيَـدَ إِنْ نَـازَعْتُـهُ ٱللَّحْـظَ رَدَّهُ كَلِيْلاً وَإِنْ رَاجَعْتُهُ ٱلْقَوْلَ جَمْجَمَا[1]
ثَنَاهُ ٱلْعِدَا عَنِّيْ فَأَصْبَحَ مُعْرِضاً وَأَوْهَمَهُ ٱلْوَاشُوْنَ حَتَّىٰ تَوَهَّمَا
وَقَدْ كَانَ سَهْلاً وَاضِحاً فَتَوَعَّرَتْ رُبَـاهُ وَطَلْقـاً وَاضِحـاً فَتَجَهَّـمَـا
أَلَسْتُ ٱلْمُـوَالِـيْ فِيْـكَ غُـرَّ قَصَـائِـدٍ هِيَ ٱلأَنْجُمُ ٱقْتَادَتْ مَعَ ٱللَّيْلِ أَنْجُمَا ؟
وَلَـوْ أَنَّنِـيْ وَقَّـرْتُ شِعْـرِيْ وَقَـارَهُ وَأَكْرَمْتُ مَدْحِيْ فِيْكَ أَنْ يُتَهَضَّمَا[2]
لأَكْبَرْتُ أَنْ أُوْمِيْ إِلَيْكَ بِإِصْبَعٍ تَضَـرَّعُ أَوْ أُدْنِـيْ لِمَعْـذِرَةٍ فَمَـا
وَكَانَ ٱلَّذِيْ يَأْتِيْ بِهِ ٱلدَّهْرُ هَيِّناً عَلَيَّ وَلَوْ كَانَ ٱلْحِمَامَ ٱلْمُقَدَّمَا
وَلَـٰكِنَّنِيْ أُغْلِيْ مَحَلِّيَ أَنْ أُرَىٰ مُـدِلاً وَأَسْتَحْيِيْـكَ أَنْ أَتَعَظَّمَـا
وَقَـدْ كُنْـتُ أَرْجُـوْ أَنْ أَؤُوْبَ مُمَلَّكـاً فَأَصْبَحْتُ أَرْجُوْ أَنْ أَؤُوْبَ مُسَلَّمَا[3]

من روائع ابن الرومي في الموضوع

فهـٰذا واللهِ ٱلشِّعرُ يتفجَّرُ ٱلحَجَرُ لمسِّهِ ، وتهتزُّ ٱلقلوبُ لجرسِهِ ، ولا يقصرُ عنهُ قولُ ٱبنِ ٱلرُّوميِّ يُعاتبُ أبا ٱلصَّقرِ [كما في « ديوانه » ٢/ ٥١٨ـ٥٢٠ منَ الطويل] :

عَقِيْـلَ ٱلنَّـدَىٰ أَطْلِـقْ مَـدَائِـحَ جَمَّـةً خَوَاسِيَ حَرَّىٰ قَدْ أَبَتْ أَنْ تُسَرَّحَا[4]

---

(١) الأَصْيَدُ : الرجلُ يرفع رأسَهُ كبراً ، وقيلَ للملكِ : أَصْيَدُ ؛ لأنَّهُ لا يلتفِتُ منَ الزهوِّ يمنياً ولا شمالاً . جمجمَ : لَم يبيِّنْ كلامَهُ .
(٢) يُتهضَّمُ : يُظلمُ ويُغتصبُ حقُّهُ .
(٣) أؤوبُ : أعودُ وأرجعُ .
(٤) الإبلُ المخيَّسةُ : هيَ الإبلُ المحبوسةُ للنحرِ أو القسْمِ ولم تُطلَقْ ، وفي البيتِ كنايةٌ ظاهرةٌ وهيَ جعلهُ المديحَ الذي هوَ أغلىٰ الكلامِ كالإبلِ التي هي أغلىٰ شيءٍ عندَ العربِ . حَرَّىٰ ـ فَعْلَىٰ من الحرِّ ـ : وهيَ تأنيثُ حرَّانَ ، وهما للمبالغةِ ، يريدُ أنَّها لشدَّةِ حرِّها قد عطشَت ويَبِسَتْ منَ العطشِ ، ومنهُ طرف الحديثِ : « في كُلِّ ذاتِ كبدٍ حرَّىٰ أجرٌ » رواه عن مخوَّل البهزي ابن حبان في «الإحسان» (٥٨٨٢) بسند ضعيف .

وَكُنتَ مَتَىٰ تُنْشَدْ مَدِيحاً ظَلَمْتَهُ ... يَكُنْ لَكَ أَهْجَىٰ كُلَّمَا كَانَ أَمْدَحَا
عَذَرْتُكَ لَوْ كَانَتْ سَمَاءٌ تَقَشَّعَتْ ... سَحَائِبُهَا أَوْ كَانَ رَوْضٌ تَصَوَّحَا[1]
وَلٰكِنَّهَا سُقْيَا حُرِمْتُ رَوِيَّهَا ... وَعَارِضُهَا مُلْقٍ كَلاَكِلَ جُنَّحَا[2]
فَيَا لَكَ بَحْراً لَمْ أَجِدْ فِيهِ مَشْرباً ... عَلَىٰ أَنَّ غَيْرِي وَاجِدٌ فِيهِ مَسْبَحَا

غيرَ أَنَّ الأَوَّلَ أفخمُ وأَملأُ للفمِ ، فما أَبدعَهُ مِنْ قولٍ يَعزُّ علىٰ الفصحاءِ في ميدانِهِ الجولُ .

الشعراء في هذا الميدان

وقالَ البحتريُّ أَيضاً فيما يشبهُ ما نحنُ فيهِ [كما في « ديوانه » ٤/ ٢٤٢٢ منَ البسيط] :

يُطِيْلُ تَسْوِيفَ وَعْدِيْ ثُمَّ يُخْلِفُهُ ... عَمْداً وَيَمْطُلُ دَيْنِيْ ثُمَّ يَلْوِيْهِ[3]

وقالَ [منَ الطويل] :

لَئِنْ غَرَّنِي مَطْلُ ٱلْبَخِيلِ لِقَبْلَهُ ... غُرِرْتُ بِإِسْعَافِ ٱلْخَيَالِ ٱلَّذِيْ يَسْرِيْ

وقالَ الناظمُ [في « العكبري » ٢/ ٤١-٤٢ منَ البسيط] :

أَمْسَيْتُ أَرْوَحَ مُثْرٍ خَازِناً وَيَداً ... أَنَا ٱلْغَنِيُّ وَأَمْوَالِيْ ٱلْمَوَاعِيْدُ[4]
إِنِّي نَزَلْتُ بِكَذَّابِيْنَ ضَيْفُهُمُ ... عَنِ ٱلْقِرَىٰ وَعَنِ ٱلتَّرْحَالِ مَحْدُوْدُ
جُوْدُ ٱلرِّجَالِ مِنَ ٱلأَيْدِيْ وَجُوْدُهُمُ ... مِنَ ٱللِّسَانِ فَلاَ كَانُوْا وَلاَ ٱلْجُوْدُ

---

(١) أنقشعَ الغيمُ والسحابُ : إذا كشفتْهُ الريحُ . تصوَّحَ الروضُ : إذا تمَّ يبسُهُ .
(٢) الكَلاكِلُ : الجماعاتُ .
(٣) مَطَلَ : سوَّفَ الوعدَ مرَّةً بعدَ أُخرىٰ . لَوَىٰ : بمعنىٰ مَطَلَ .
(٤) أَرْوَحَ : منَ الراحةِ .

وأبطأَ رجلٌ بوعدِهِ لأَبي ٱلعتاهيَةِ فقالَ [منَ المنسرح] :

لاَ جَعَـلَ ٱللهُ لِـيْ إِلَيْـكَ وَلاَ   عِنْـدَكَ مَـا عِشْـتُ حَـاجَـةً أَبَـدَا
مَـا جِئْـتُ فِـيْ حَـاجَـةٍ أُقَـرِّبُهَـا   إِلاَّ تَثَـاقَلْـتَ ثُـمَّ قُلْـتَ غَـدَا

وقالَ بشَّارٌ فيما يشبهُ الكلامَ [في « ديوانه » ٤/٢١١-٢١٢ منَ الطويل] :

وَلاَ تَبْخَلاَ بُخْلَ ٱبْنِ قَزْعَةَ إِنَّهُ   مَخَافَةَ أَنْ يُرْجَىٰ نَدَاهُ حَزِيْنُ
إِذَا جِئْتَهُ فِيْ حَاجَةٍ سَدَّ بَابَهُ   فَلَـنْ تَلْقَـهُ إِلاَّ وَأَنْـتَ كَمِيْـنُ

وقالَ كُثيِّرٌ [في « ديوانه » ٥٠٧ منَ الوافر] :

لَـوَ انَّ ٱلْبَـاخِلِيْـنَ وَأَنْـتِ مِنْهُـمْ   رَأَوْكِ تَعَلَّمُـوْا مِنْـكِ ٱلْمِطَـالاَ

وقالَ [في « ديوانه » ١٤٣ منَ الطويل] :

قَضَىٰ كُلُّ ذِيْ دَيْنٍ فَوَفَّىٰ غَرِيْمَهُ   وَعَزَّةُ مَمْطُوْلٌ مُعَنًّىٰ غَرِيْمُهَا(١)

العبد الموفَّق هو الذي يعمل ما يرضي سيده

فيُحكىٰ [كما في « الأغاني » ٩/٣٦] : أَنَّهُ كانَ لكُثيِّرٍ عبدٌ يبيعُ لهُ الطِّيْبَ منَ النِّساءِ ، وَيَنسَؤُهُنَّ بٱلثمنِ ، فجاءَ يتقاضاهُنَّ ، فَأَدَّيْنَهُ إِلاَّ واحدةً ، لَمْ يعرِفْها لمكانِ البُرقُعِ ، فتمثَّلَ ببيتِ مولاهُ هـٰذا ، فقُلْنَ لَهُ : أَتدري مَنْ هـٰذهِ ؟! قالَ : لا ، قُلنَ لهُ : إِنَّها عَزَّةُ ، قالَ : أُشهِدُكُمْ أَنَّها في حِلٍّ مِمَّا عندَها ، وأَخبرَ مولاهُ فسُرَّ بصنيعِهِ ، وأَعتقَهُ .

فتوى في الحب

ويُحكىٰ [كما في « الأغاني » ٩/٣٦] : أَنَّ عزَّةَ دخلَتْ علىٰ أُمِّ البنينِ ، فقالتَ لها : ما الدَّيْنُ الذي يتقاضاكِ كُثيِّرٌ ؟ قالتْ : قُبْلَةٌ وعدتُهُ إِيَّاها ، قالتَ : أَنجزيهِ ما وعدْتِ ، وإِثمُ ذلكَ عليَّ .

---

(١) المعنَّىٰ ـ مِنَ العناءِ ـ : وهو المشقَّةُ والتعبُ .

فكانتْ أُمُّ البنينِ تبكي كلَّما ذكرَتْ فتواها هٰذهِ لِعَزَّةَ ، وأَعتقتْ فيها رِقاباً ، وتصدَّقَتْ .

شر الآفات البخل

وقالَ بعضُهُمْ [منَ الطويل] :

فَإِنْ تُجْمَعِ ٱلآفَاتُ فَٱلْبُخْلُ شَرُّهَا   وَشَرٌّ مِنَ ٱلْبُخْلِ ٱلْمَوَاعِيْدُ وَٱلْمَطْلُ

لا شيء أفضل من الصراحة

وَسَأَلَ بعضُهُمْ عَدِيَّ بنَ حاتمٍ حاجةً ، فصرَّحَ بٱلمنعِ ، فقالَ لهُ : كأنَّكَ لَمْ تكُنْ مِنْ حاتمٍ ؟! فقالَ عديٌّ : إنْ لَمْ أَكُنْ في الشطرِ الثاني . . فإنِّي منهُ في الأَوَّلِ ، يعني قولَهُ [في « شرح ديوان حاتم » ٥١ منَ الطويل] :

أَمَــاوِيَّ إِمَّــا مَــانِــعٌ فَمُبَيِّــنٌ   وَإِمَّا عَطَاءٌ لاَ يُنَهْنِهُهُ ٱلزَّجْرُ(١)

وصف لبخيل

وقالَ أَعرابيٌّ : فلانٌ لهُ وعدٌ عاقِبَتُهُ المَطلُ ، وثمرتُهُ الخُلْفُ ، ومحصولُهُ اليأسُ .

اول من اخلف المواعيد

وقالَ الثعالبيُّ : أَوَّلُ مَنْ أَخلفَ المواعيدَ ، ولَمْ يَفِ بشيءٍ منها : إِسماعيلُ بنُ صُبَيحٍ ، كاتبُ الرشيدِ ، وما كانتِ الرؤساءُ قبلَهُ تعرفُ ٱلمواعيدَ الكاذبةَ .

دواء ينفع مع اللئيم الحريص

وٱشتهرَ أَحدُ اللِّئامِ بشدَّةِ الحِرصِ ، حتَّىٰ أَيسَ منهُ المكِدُّونَ ، فتذاكروا غِلْظَةَ كَبِدِهِ ، وتحجُّرَ يدِهِ ، فقالَ أَحدهُمْ : أَنا لَهُ ، فقالوا : لَنْ تَقدِرَ منهُ علىٰ شيءٍ ، وخاطَروهُ(٢) ، فغدا علىٰ بابِهِ يقرعُهُ قرعاً شديداً ، حتَّىٰ أَضجَرَهُ ، وآلىٰ أَنْ لا ينصرِفَ إلاَّ بنوالٍ

---

(١) يُنهنِهُهُ : يكفُّهُ .

(٢) التخاطر : التراهن ، وسمي الرهان : مخاطرةً؛ لما فيه من احتمال فَقْدِ ما يكون فيها أو سلامته .

أَو وعدٍ ، فوعدَهُ بدانِقٍ إلىٰ سَنةٍ ، فبكَّرَ إليهِ مِنَ الغدِ ، وأقلقَ راحتَهُ ، وقال له : ٱحْسُبْ فقد مضىٰ مِنَ السنةِ يومٌ ، ولَمْ يزلْ يباكرُهُ بمثلِ ذٰلكَ . . حتَّىٰ ضَيَّقَ عليهِ أنفاسَهُ ، فرأىٰ التخلُّصَ بدفعِ الدانِقِ أهونَ عليهِ ، فنقدَهُ إِيَّاهُ ، فٱستحقَّ الخطرَ علىٰ أصحابِهِ ، ومَا أَظنُّهُ ٱهتدىٰ لهٰذِهِ الحيلةِ إلاَّ مِنْ حيثُ فتحَ لهُ بابَها شيخُ (المعرَّةِ) في قولِهِ[في « سقط الزند » ١٦٥ منَ الكامل] :

إِنَّ ٱلْبَخِيلَ إِذَا يُمَدُّ لَهُ ٱلْمَدَىٰ   فِيْ ٱلْجُوْدِ هَانَ عَلَيْهِ وَعْدُ ٱلسَّائِلِ

الوعد في الحب

أَمَّا ٱقتناعُ المحبِّينَ بٱلمواعيدِ : فإِنَّهُ حديثٌ آخرُ ، ومنهُ قولُ سلطانِهِمْ [في « ديوان ابن الفارض » ١٣٨ منَ الطويل] :

عِـدِيْنِـيْ بِـوَصْـلٍ وَٱمْطُلِـيْ بِنَجَـازِهِ   فَعِنْدِيْ إِذَا صَحَّ ٱلْهَوَىٰ حَسُنَ ٱلْمَطْلُ

وقولُهُ [في « ديوانه » ١١ منَ الرَّمَل] :

أَوْعِـدُوْنِـيْ أَوْ عِـدُوْنِـيْ وَٱمْطُلُـوْا   حُكْمُ دِيْنِ ٱلْحُبِّ دَيْنُ ٱلْحِبِّ لَيْ[١]

الكمُّون والمواعيد

ويأتِي ما يتعلَّقُ بهِ فِي فرصةٍ أنسبَ لهُ مِنْ هٰذهِ إِنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ ، وما أدري أصحيحٌ ما يقالُ : إنَّ ٱلكَمُّوْنَ يعيشُ بٱلمواعيدِ أَمْ لا[٢] ؟ ففي ذلكَ ينشدونَ [منَ البسيط] :

---

(١) أَوْعِدُوْني : هدِّدوني ، منَ الوعيدِ . عِدُوني : منَ الوعدِ ، يريدُ : أنَّ حُكمَ دِينِ الحبِّ يُحلِّلُ المماطلةَ في أداءِ دَينِ المحبِّ . قال الشاعر :

وإنـي وإن أوعـدتـه أو وعـدتـه   لمخلف إيعادي ومنجز موعدي

(٢) يقال : إنَّ الكمُّونَ عندما لا يبقىٰ ماء لسُقياهُ يقولون له : سنسقيك غداً ، فيغنيه هذا الكلام عن السُّقيا ، قال الشاعر :

فَأَصْبَحْتُ كَٱلْكَمُّوْنِ مَاتَتْ عُرُوْقُهُ   وَأَغْصَـانُـهُ مِمَّـا يُمَنُّـوْنَـهُ خُضْـرُ

وفي المثل ببلاد الشام : بالوعد يا كمون .

يَا لَيْتَنِيْ كُنْتُ كَمُّوْناً بِمَزْرَعَةٍ إِنْ فَاتَهُ ٱلسَّقْيُ أَغْنَتْهُ ٱلْمَوَاعِيْدُ

التكيد والمن في العطاء في أصدق الكلام

وأمَّا قولُهُ : (وَلاَ يُنَكِّدُهَا) . . فناظرٌ إلىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ إلى آخر الآيات [البقرة : ٢٦٢ـ٢٦٤] .

ووجهُ مناسبةِ قولِهِ : ﴿والله غني﴾ لِمَا قبلَهُ أَنَّ اللهَ يتلقَّىٰ الصدقةَ بيدِهِ كَما فِي « الصَّحِيحَيْن »[1] ، وإِنَّما ينالُهُ مِنْ عبادِهِ التقوىٰ ، واللهُ أَعلمُ بمرادِهِ .

التكيد والمن في العطاء عند الشعراء

وقالَ الحطيئةُ [في « ديوانه » ٤١ منَ الطويل] :

وَإِنْ كَانَتِ ٱلنَّعْمَاءُ فِيْهِمْ جَزَوْا بِهَا وَإِنْ أَنْعَمُوْا لاَ كَدَّرُوْهَا وَلاَ كَدُّوْا

وقالَ الأعشىٰ يمدحُ المنتشرَ [منَ البسيط] :

مَنْ لَيْسَ فِيْ خَيْرِهِ مَنٌّ يُكَدِّرُهُ عَلَىٰ ٱلصَّدِيْقِ وَلاَ فِيْ صَفْوِهِ كَدَرُ

وقالَ القطاميُّ [في « ديوانِهِ » ٣٨ منَ الوافر] :

فَلَـمْ أَرَ مُنْعِمِيْـنَ أَقَـلَّ مِنَّـا وَأَكْرَمَ عِنْدَمَا ٱصْطَنَعُوْا ٱصْطِنَاعَا

مِنَ ٱلْبِيْضِ ٱلْوُجُوْهِ بَنِيْ نُفَيْلٍ أَبَتْ أَخْلاَقُهُـمْ إِلاَّ ٱتِّسَـاعَـا

---

(١) وذلكَ في الحديثِ الذي رواهُ البخاريُّ في (الزكاة) (١٤١٠) ومسلمٌ في (الزكاةِ) (١٠١٤) عَن أَبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ عن رسولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قالَ : « مَن تصدَّقَ بعدلِ تمرة مِن كسبٍ طيِّبٍ ـ ولاَ يقبلُ اللهُ إِلاَّ الطيِّبَ ـ فإن اللهَ يتقبلها بيمينهِ ثم يربِّيها لصاحبها كما يُرَبِّي أَحدُكُم فلُوَّهُ أَو قَلوصَهُ ، حتَّى تكونَ مثلَ الجبلِ » واللفظ للبخاري .

وقولُهُ : (أَقَلَّ مِنَّا) شبيهٌ بما مَرَّ القولُ فيهِ مِنْ نَفْيِ الشيءِ بإيجابِهِ ، والمرادُ : عدمُ المَنِّ ، كما في قولِهِمْ عَنْ وصفِهِ ﷺ : (كانَ يُقِلُّ اللَّغْوَ) ؛ إِذِ المرادُ منهُ : أَنَّهُ لا يقولُ لغواً أبداً .

وقالَ جريرٌ يمدحُ بني أُميَّةَ [منَ البسيط] :

أَعْطَوْا هُنَيْدَةَ يَحْدُوْهَا ثَمَانِيَةٌ ... مَا فِيْ عَطَائِهِمُ مَنٌّ وَلاَ سَرَفُ

وقالَ الأخطلُ [في « ديوانهِ » ١٧٢ منَ البسيط] :

بَنِـيْ أُمَيَّـةَ نُعْمَـاكُـمْ مُجَلِّلَـةٌ ... تَمَّـتْ فَـلاَ مِنَّـةٌ فِيْهَـا وَلاَ كَـدَرُ

وقالَ أبو قابوسٍ يمدحُ يحيىٰ بنَ خالدٍ البرمكيَّ [منَ البسيط] :

يَنْسَىٰ ٱلَّذِيْ كَانَ مِنْ مَعْرُوْفِهِ أَبَداً ... إِلَىٰ ٱلرِّجَالِ وَلاَ يَنْسَىٰ ٱلَّذِيْ يَعِدُ

لا تنس حاجتي أيها الأمير

وقالَ رجلٌ لمسلمِ بنِ قريشٍ : لا تنسَ حاجتِي أَيُّها ٱلأَميرُ ، قالَ : لنْ أَنساها إلاَّ إذا قضيتُها .

وقالَ أبو عبادةَ [في « ديوانه » ٣/ ١٣٩٧ منَ الطويل] :

كَرُمْتَ فَمَا كَدَّرْتَ نَيْلَكَ عِنْدَنَا ... بِمَنٍّ وَلاَ أَتْبَعْتَ وَعْدَكَ بِٱلْخُلْفِ

تكرار هذا المعنى عند المتنبي

وأكثرَ الناظمُ في المعنىٰ فمنهُ قولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٤/ ٦٥ منَ المنسرح] :

تَظُـنُّ مِـنْ فَقْـدِكَ ٱعْتِـدَادَهُـمُ ... أَنَّهُـمُ أَنْعَمُـوْا وَمَـا عَلِمُـوْا

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ١٧٣ منَ البسيط] :

إِلَىٰ ٱلَّذِيْ تَهَبُ ٱلدَّوْلاَتِ رَاحَتُهُ ... وَلاَ يَمُنُّ عَلَىٰ آثَارِ مَوْهُوْبِ(١)

---

(١) الدّولاتُ : تعريضٌ بسيفِ الدولةِ ، يريدُ : أَنَّهُ ملكٌ عظيمٌ تصلُ عطاياهُ إلىٰ الدولاتِ .

وقولُهُ ـ وقد تقدَّمَ ـ [في « العُكْبَريّ » ٣/ ٨٧ منَ البسيط] :

أَنتَ ٱلْجَوَادُ بِلاَ مَنٍّ وَلاَ كَدَرٍ وَلاَ مِطَالٍ وَلاَ وَعْدٍ وَلاَ مَذَلِ[1]

وقولُهُ [في « العُكْبَريّ » ٣/ ٢٥٨ منَ الكامل] :

سَتَرُوا ٱلنَّدَىٰ سَتْرَ ٱلْغُرَابِ سِفَادَهُ فَبَدَا وَهَلْ يَخْفَىٰ ٱلرَّبَابُ ٱلْهَاطِلُ[2] ؟

وقالَ بعضُ الهاشميِّينَ : كانتْ أُمُّ جعفرِ البرمكيِّ تزورُنا ـ وهيَ امرأةٌ جزْلةٌ ـ فسألْتُها يوماً عَنْ حالِ ولديها : (الفضلِ وجعفرٍ) ، قالتْ : لا أَزيدُكَ علىٰ واقعةٍ لهما وهما طفلانِ : عادَ يحيىٰ إلىٰ البيتِ بعدَ فراغهِ مِنْ شُغْلِ السلطانِ ، فقالَ لجعفر : بلَغني أنَّكَ تلعبُ الشطرنجَ ، قالَ : نعم ، قالَ : فهل لكَ أَنْ تلعبَ معَ أَخيكَ؟ قالَ : نعم ، فٱعتذرَ الفضلُ ، فقالَ يحيىٰ : أَتلعبُ معهُ عَلىٰ المُقامرَةِ ، وأنا في جانبِهِ؟ قال : نعم ، فٱمتنعَ الفضلُ وٱستحيا ، فٱنصرفَ ، فترىٰ أَنَّ جعفراً أَخطأَ مِنْ جهاتٍ ، وعزمَ اللهُ للفضلِ بالثباتِ . أم جعفر البرمكي تصف أولادها

ولمّا ظنَنَّا أَنَّها قضَتْ لهُ علىٰ جعفرٍ . . قالَتْ : فخلوتُ بجعفرٍ ، وقلتُ لهُ : تعرفُ أَنَّ أَباكَ يكرَهُ اللعِبَ ، وقد صارحتَهُ بأَنَّكَ تلعبُ! قالَ : ذاكَ أَهونُ عليَّ مِنْ أَنْ أَكْذِبَهُ . قلتُ لهُ : وحَرَصتَ علىٰ أَنْ تُخَجِّلَ أَخاكَ بغَلَبَتِهِ! قالَ : أَعرفُ تفوُّقَهُ عليَّ ، ولو ضَعُفَ . .

---

(١) المَذَلُ : الفترةُ والضجرُ .

(٢) سَفِدَ يَسفَدُ سفاداً : هو نَزْوُ الذكرِ على الأنثىٰ ، يقالُ ذلك في التيسِ والبعيرِ والثورِ والطيرِ والسباعِ . والربابُ : غيمٌ يتعلَّقُ بأَسافلِ السحاب إذا كثُرَ ماؤهُ . والمعنىٰ : أنَّهم يكتمونَ معروفَهم كما يكتمُ الغرابُ سفادَهُ ، ثُمَّ ذلكَ لا يُكتَمُ كما لا يخفىٰ السحابُ الهاطلُ .

لانغلبْتُ لهُ . قلتُ : وأَكبرُ مِنْ ذلكَ كلِّهِ رضاكَ بالمُقامرةِ! قالَ : ما حملني عليها إلاَّ أَنَّ الرشيدَ أَعطاني دواةً مِنَ ٱلجوهَرِ ، ورأَيتُ أَخي يستحسنُها ، وكرهْتُ أَنْ يرىٰ لي مِنَّةً عليهِ إِنْ أَنا أَهديتُها لهُ ، فأَحببْتُ أَنْ يَأخذَها بالغَلَبَةِ ؛ لتكونَ أَهنأَ لهُ . قلتُ لهُ : وقاصِمَةُ الظَّهْرِ ، رضاكَ بمغالبَةِ أَبيكَ!! قالَ : قد عرفْتِ جوابَها مِنِ ٱنْغِلابي لا محالةَ ، وإِنَّما أَرَدْتُ تشجيعَ أَخي علىٰ اللعِبِ حتَّىٰ يستأثِرَ بالدَّواةِ ، فصبرْتُ للجُرأَةِ علىٰ أَبي مِنْ أَجلِ ذلِكَ . قالَ الهاشميُّ : فقلتُ لَها : أَكانَ ذلكَ وقد بلغا الحُلُمَ؟ قالتْ : أَينَ يُذهَبُ بكَ؟! أَما قلتُ لكَ : إِنَّهما طفلانِ ، إِنَّ الصبيَّ إِذا بَلَغَ عشراً لَمْ نُمَكِّنْهُ أَنْ يتبسَّمَ بمحضرِ الرجالِ .

أصبحت بيوتنا كالأسواق

وأَقولُ : إِنَّ آخرَها ليسَ بأَكبرَ ممّا رُويَ عَنْ بعضِ أَجدادِنا العلويِّينَ أَنَّهُ قالَ : جئْتُ وأَنا في التاسِعَةِ مِنْ عُمُري ، وأُمِّي تُسبِّحُ الضُّحىٰ ، فرأَيتُ ما ٱرتفعَ لهُ صوتي قليلاً بالضحكِ ، فما ٱنفتلَتْ أُمِّي مِنْ صلاتِهَا.. إلاَّ وقد بَلَّتْ خِمارَها بالدموعِ تسترجعُ ، وتقولُ : لقد أَصبحَتْ بيوتُنا شبيهةً بالأَسواقِ ، وما كانَ يُسمَعُ فيها إلاَّ ذِكْرُ اللهِ ، وتلاوةُ القرآنِ ، فقالتْ لي أُختي مريمُ : هل لكَ في التوبةِ؟ قلتُ : نَعم ، وتبتُ علىٰ يدها ، وأَخذْتُ ميثاقي علىٰ أَنْ لا أَعودَ إِلىٰ مثلِها ، وبقيَ الخدَمُ سنَةً يُؤَنِّبوني ، ويقولونَ : توبةٌ مقبولةٌ .

مديح البرامكة

ولقد صدقَ أَشجعُ في قولِهِ عَنِ ٱلبرامِكةِ عامَّةً ، وعَنْ جعفرٍ خاصَّةً [في « ديوانه » ٢٢٠ منَ الكامل] :

سَادَ ٱلْبَرَامِكَ جَعْفَرٌ وَهُمُ ٱلأُولَىٰ ... بَعْدَ ٱلْخَلاَئِفِ سَادَةُ ٱلإِنْسِ

وصدقتُ أنَا في قولِي عَنْ لَهاميمِ[1] السابقينَ مِنْ العلويِّينَ [في «ديوان المؤلف» ٢٢٦ منَ الطويل] :

قصائد للمؤلف في مدح العلويين

مَلاَئِكَةٌ فِيْ سَمْتِهِمْ وَلَدَىٰ ٱلْوَغَىٰ ... لُيُوْثٌ لَهُمْ فِيْ ٱلْمَشْرِفيَّةِ أَخْيَاسُ
عَلَيْهِـمْ مِـنَ ٱلْبَـارِيْ وَقَـارٌ لأَنَّهُـمْ ... بِأَرْوَاحِهِمْ فِيْ حَضْرَةِ ٱلْقُدْسِ جُلاَّسُ[2]

وقولي [كمافي «ديوان المؤلف» ١٢١ منَ الطويل] :

وَمَنْ دَرَجُوْا عَنْ وَكْرِهِمْ مِنْ أَئِمَّةٍ ... بِبَـأْسِ مُلُـوْكٍ فِـيْ لِبَـاسِ مَـلاَئِـكِ
نُجُوْمُ ٱلْهُدَىٰ مِنْ بَأْسِهِمْ يَنْمَحِيْ ٱلرَّدَىٰ ... وَتَعْنُوْ ٱلْعِدَا مِنْ فَتْكِهِمْ فِيْ ٱلْمَعَارِكِ[3]

وقولي [كما في «ديوان المؤلف» ٢٥١ منَ الطويل] :

لَيَالِيَ كَانَ ٱلْحَيُّ يَزْهُوْ بِجيْرَةٍ ... لَهُمْ حِلْيَةُ ٱلتَّقْوَىٰ إِلَىٰ رِقَّةِ ٱلطَّبْعِ
مَرَاجِيْحُ سَبَّاقُوْنَ فِيْ ٱلْمَجْدِ لَمْ يُرِدْ ... بِهِمْ [رَبُّهُمْ] لِلْعَالَمِيْنَ سِوَىٰ ٱلنَّفْعِ[4]

في كثيرٍ مِنْ أَمثالِ ذلكَ .

أبلغ ما روي في تعاظم السائل وسماحة المسؤول

ومِنْ أَبلغِ ما سمِعنا في تعاظُمِ السائلِ ، وسماحةِ نَفْسِ المسؤولِ ، ما ذُكرَ عَنْ بعضِهِم ـ وأَظنُّهُ المهلَّبَ بنَ أَبي صُفرةَ بعدَ ذهابِ دولتِهِ ، وزوالِ نعمتِهِ ـ : أَنَّهُ تحمَّلَ أَلفَ بعيرٍ في الإِصلاحِ ،

---

(١) لهاميم ـ جمعُ لِهميم ـ : وَهوَ السابقُ الجوَادُ .

(٢) في «الديوان» (٢٢٦) :

مَـلاَئِكَـةٌ فِـيْ سَمْتِهِـمْ وَلَـدَىٰ ٱلْـوَغَـىٰ ... لُيُـوْثُ ٱلشَّـرَىٰ وَٱلْمَشْـرَفِيَّـاتُ أَخْيَـاسُ
عَلَيْهِـمْ مـنَ ٱلْبَـارِيْ ٱلْـوَقَـارُ وَكَيْـفَ لاَ ... وَهُمْ بِٱلنُّهَىٰ فِيْ حَضْرَةِ ٱلْقُدْسِ جُلاَّسُ

الشَّرىٰ : جبيلٌ بـ(تهَامَةَ) كثيرُ السباعِ . المشرفياتُ : سيوفٌ معروفةٌ . أخياسُ : ملتفة ، وأصله الشجرُ الملتفُّ .

(٣) تعْنُوا : تخضعُ .

(٤) مراجيحُ : حلماءُ .

فقصدَ مَلِكَ (العراقِ) ، وهوَ ٱلكوثرُ بنُ ٱلصَّعرِ ـ فيما إخالُ ـ وقالَ لهُ : الأملُ أوقفني ببابِكَ ، وحُسْنُ الظنِّ ساقني إليكَ ، وكما لَمْ أَصُنْ وجهي عَنْ سؤالِكَ . . صُنْ وجهَكَ عَنْ رَدِّي ، وأنهىٰ لَهُ القصَّةَ ، وأنشدَ [منَ الوافر] :

وَكُنْـتُ خَبَـأْتُ آمَـالِـيْ لِيَـوْمٍ فَهَـٰذَا ٱلْيَوْمُ يَـوْمُـكَ وَٱلسَّـلاَمُ
وَكُنْـتُ أُطَـالِـبُ ٱلـدُّنْيَـا بِحُـرٍّ فَـأَنْـتَ ٱلْحُـرُّ وَٱنْقَطَـعَ ٱلْكَـلاَمُ

فٱهتزَّ ، وأمرَ لهُ بها وبمثلِها معها ، فقالَ : أمَّا هيَ . . فمقبولةٌ ؛ لأنَّها المَطلَبُ ، وأمَّا الباقي . . فلا حاجَةَ لي فيهِ ، وليسَ الذي أعطيتَني بأفضلَ مِنَ ٱلذي أعطيتُكَ ـ يعني ماءَ وجهِهِ ـ فما كانَ مِنَ ٱلأميرِ إلاَّ أَنْ نزلَ عَنْ تكرمتِهِ ، وأقعدَ المهلَّبَ عليها ، وتوسَّلَ إليهِ بضراعةٍ وإلحاحٍ أَنْ لا يردَّ عطيَّتَهُ ، وأَنْ لا يقمأَهُ[1] بعدَمِ قَبولها ، ففعلَ وما كادَ .

مديح المتنبي لطاهر بن الحسين وجلوس الممدوح بين يدي الشاعر

ولا يبعدُ عنها ما كانَ مِنْ طاهرِ بنِ الحُسينِ ، فإنَّ الناظمَ ٱمتدحَهُ بطلبٍ مِنْ أَبي محمَّدِ بنِ طُغْجٍ ، ثُمَّ ركبَ إليهِ هوَ وإيَّاهُ ، فنزلَ طاهرٌ عَنْ سريرِهِ ، وأجلسَ الناظمَ علىٰ مرتبتِهِ ، ثمَّ أنشدَهُ القصيدةَ المُستهلَّةَ بقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ١٤٧/١ منَ الطويل] :

أَعِيْدُوْا صَبَاحِيْ فَهْوَ عِنْدَ ٱلْكَوَاعِبِ [وَرُدُّوْا رُقَادِيْ فَهْوَ لَحْظُ ٱلْحَبَايِبِ][2]

فخلعَ عليهِ خِلَعاً نفيسةً ، قالَ بعضُ مَنْ حضرَ : ما رأيتُ ولا سمعتُ أَنَّ شاعراً جلسَ الممدوحُ بينَ يديهِ مستمعاً لمدحِهِ سوىٰ ما كانَ مِنْ طاهرٍ مَعَ أَبي الطيِّبِ .

---

(١) يقمأه : يُصغره .
(٢) الكواعبُ ـ جمعُ كاعبٍ ـ : وهي الجاريةُ التي قد علا نهدها .

العفة في السؤال وحفظ ماء الوجه

وما أَحسنَ قولَ أَبي تمَّامٍ [في « ديوانهِ » ٢/ ٣٥٣ منَ البسيط] :

مَا مَاءُ كَفِّكَ إِنْ جَادَتْ وَإِنْ بَخِلَتْ مِنْ مَاءِ وَجْهِيَ إِنْ أَفْنَيْتُهُ عِوَضُ[1]

وقولَهُ [في « ديوانهِ » ١/ ١٦٢ منَ البسيط] :

أَعْطَىٰ وَنُطْفَةُ وَجْهِي فِي قَرَارَتِهَا تَصُونُهَا ٱلْوَجَنَاتُ ٱلْغَضَّةُ ٱلْقُشُبُ[2]
لاَ يَكْرُمُ ٱلظَّفَرُ ٱلْمُعْطَىٰ وَإِنْ حَصَلَتْ بِـهِ ٱلـرَّغَـائِـبُ حَتَّـىٰ يَكْـرُمَ ٱلطَّلَـبُ

وقالَ أَبو عُبادةَ [في « ديوانهِ » ٤/ ٢٠٩٤ منَ الطويل] :

وَمَا خَطَرِيْ دُوْنَ ٱلْغِنَىٰ إِنْ بَلَغْتُهُ سُؤَالاً وَلاَ عِرْضِي نَظِيْرُ ٱلدَّرَاهِمِ

وقالَ مهيارٌ [في « ديوانهِ » ٣/ ٣٤٦ منَ الطويل] :

تَنَفَّسْتُ عَنْ عَتْبٍ فُؤَادِيَ مُفْصِحٌ بِهِ وَلِسَانِيَ لِلْحِفَاظِ يُجَمْجِمُ[3]
وَفِيْ فِيَّ مَاءٌ مِنْ بَقَايَا وِدَادِكُمْ كَثِيْراً بِهِ مِنْ مَاءِ وَجْهِيْ أَرَقْتُمُ

جابر عثرات الكرام

ويُحْكَىٰ : أَنَّ بعضَ الكرامِ أَملقَ في ٱلعهدِ الأُمويِّ ، وٱرتكبتْهُ ٱلديونُ فقبعَ في كِسْرِ بيتِهِ ، ولَمْ يشعُرْ في إِحدىٰ الليالي إِلاَّ بطارقٍ يقرعُ بابَهُ ، وفي يَدِهِ خمسةُ آلافِ دينارٍ دفعَها إِليهِ ، فسأَلَهُ عَنِ ٱسمِهِ ، فلَمْ يزدهُ علىٰ أَنْ قالَ لَهُ : أَنا جابرُ عثراتِ الكرامِ ، فقضىٰ الرجلُ دينَهُ ، وأَصلحَ شأْنَهُ ، وتجهَّزَ للوفادةِ علىٰ الخليفةِ ، فولاَّهُ تلكَ النـاحيـةِ ، وأَمـرَهُ أَنْ يـأْخُـذَ سَلَفَـهُ بمـا عندهُ ، وأَنْ ينـاقشَـهُ

---

(١) ماءُ الوجه : رَونقُهُ ؛ أَي: إِنَّ كَرامتي أَعظمُ مِن أَخلاقِكَ في حالتي الدفعِ والمنعِ .

(٢) النطفةُ : الماءُ القليلُ ، استعارَها لماءِ الوجهِ . القرارةُ : المطمئنُّ مِنَ الأَرضِ . الغَضَّةُ : الطريَّةُ . القشُبُ : البِيضُ .

(٣) الحفاظُ : المنعةُ والإِباءُ . يجمجمُ : لا يبيِّنُ الكلامَ مِن غيرِ عِيٍّ

الحسابَ ، فسدَّدَ المعزولُ ما في جرائِدِهِ ، غيرَ أنَّهُ عجزَ عَنْ خمسةِ آلافِ دينارٍ ، فأودعهُ السجنَ مِنْ أَجلِها ، فأَرادتْهُ ٱمرأَتهُ علىٰ أَنْ يستعرِفَ للأَميرِ ، فلَمْ يرضَ ، فما كانَ منها إلاَّ أَنْ ركبتْ إِليهِ بعدَ هدأَةٍ مِنَ الليلِ ، وقالتْ لهُ : تدري مَنْ في سجنِكَ؟ قالَ : فلانٌ ، قالتْ : إِنَّهُ لَفلانٌ ، وإِنَّهُ لَجابرُ عثراتِ الكرامِ ، فٱضطربَ ، وٱسترجعَ ، وكادَ أَنْ يُغشىٰ عليهِ ، وذهبَ مِنْ ساعتِهِ ، وأَطلقَ وثاقَهُ بيدِهِ ، ورفعَ قدرَهُ ، وأَكرمَ مثواهُ ، وطالعَ الخليفةَ بٱلحالِ ، فأستسنىٰ[1] قيمتَهُما ، وبالغَ في الإِنعامِ عليهما ، وأَبقىٰ العملَ شركةً بينهُما في تلكَ الناحيةِ ، فعاشا أَرغدَ عيشٍ وأَهناهُ ، فرحمةُ اللهِ علىٰ أَهلِ الجودِ وٱلوَفَاءِ ، وأَنَّىٰ بهمْ الآنَ[2] ؟!

كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ ٱلْحَجُوْنِ إِلَىٰ ٱلصَّفَا　　　[أَنِيْسٌ وَلَمْ يَسْمُرْ بِمَكَّةَ سَامِرُ][3]

غَاضَ ٱلْوَفَاءُ وَفَاضَ ٱلْغَدْرُ وَٱنْفَرَجَتْ　　　مَسَافَةُ ٱلْخُلْفِ بَيْنَ ٱلْقَوْلِ وَٱلْعَمَلِ[4]

الخلف أقبح من البخل

وقالوا : إِنَّ ٱلخُلْفَ أَقبحُ مِنَ البخلِ ؛ لاشتمالِهِ علىٰ ثلاثٍ مِنَ ٱلمذامِّ : الكذبُ ، واللؤمُ ، وتخييبُ الأَملِ .

---

(١) استسنىٰ ـ مأخوذٌ مِنَ السناءِ ـ : وهو الرفعةُ . وأَسناهُ : رفعَ قيمته .

(٢) قال بهذا المعنى أحدهم :

مـات الـرجـال ومضـوا وانقضـوا　　　ومـاتـتْ معَهـم تلـك الكـرامـاتُ

وخلَّفـونـي فـي قـومٍ ذَوي بُخُـلٍ　　　لو أبْصَروا طَيْفَ ضيفٍ في الكرَىٰ ماتوا

وقال آخر :

رأى الصيفَ مكتوباً على باب دارِهِ　　　فصحَّفَهُ ضيفاً فماتَ من الذعرِ

(٣) البيت من الطويل .

(٤) هذا البيت من « لامية العجم » وهو من الطويل .

وقالَ زيادٌ الأعجمُ [في « شعره » ١٦١ من مجزوء الكامل] :

لِلهِ دَرُّكَ مِنْ فَتَىً   لَوْ كُنْتَ تَفْعَلُ مَا تَقُولْ
لاَ خَيْرَ فِي كَذِبِ ٱلْجَوَا   دِ وَحَبَّذَا كَذِبُ ٱلْبَخِيلْ

كيف كانت البطيخة؟؟

ومِنْ أقبحِ ما ذكروا في ٱلْمَنِّ : أَنَّ رجلاً أهدىٰ بِطِّيْخَةً إِلىٰ الأعمشِ ، فلاقاهُ في اليومِ الثاني ، وقالَ لهُ : كيفَ كانتِ البِطِّيْخَةُ يا أَبا محمَّدٍ؟! فقالَ : طيِّبةٌ ، فأعادَ عليهِ القولَ ثانياً ، فقالَ لهُ : إِنْ كففتَ وإلاَّ قِئْتُها .

أبو الهذيل والدجاجة المهداة

وأَنَّ أَبا الهذيلِ أهدىٰ إِلىٰ أُستاذٍ لهُ دجاجةً ، فجعلها تاريخاً لكلِّ كبيرٍ وصغيرٍ مِنْ شأنِهِ ، فيقولُ : جاءَ الأميرُ يومَ أَهديْتُ الدجاجةَ ، وماتَ القاضي بعدَ إِهداءِ الدجاجةِ بعشرةِ أيَّامٍ ، وهٰكذا .

وما أَحسنَ قولَ البُحتريِّ [في « ديوانه » ١/ ٥١٠ منَ الخفيف] :

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يُنَاكِدُ حَتَّىٰ   إِنَّ فَنَّا مِنَ ٱلنَّسِيئَةِ نَقْدُهْ(١)

وقولَ الناظمِ [في « العُكْبَرِيّ » ٤/ ٢٣٦ منَ البسيط] :

وَتَغْضَبُوْنَ عَلَىٰ مَنْ نَالَ رِفْدَكُمُ   حَتَّىٰ يُعَاقِبَهُ ٱلتَّنْغِيْصُ وَٱلْمِنَنُ

وهوَ أَحدُ معاني قولِهِ [في « العُكْبَرِيّ » ١/ ١٨٥ منَ الطويل] :

وَأَظْلَمُ أَهْلِ ٱلظُّلْمِ مَنْ بَاتَ حَاسِداً   لِمَنْ بَاتَ فِيْ مَعْرُوْفِهِ يَتَقَلَّبُ

---

(١) النسيئةُ : التأخيرُ، والدَّينُ المؤجل ومنه قول ابن عوف: ما بعت نسيئة ولا احتقرت ربحاً .

وقالَ شاعرُ (المعرَّةِ) [في « سقطِ الزندِ » ١٥٧ منَ البسيط] :

وَدَعْ أُنَاساً إِذَا أَجْدَوْا عَلَىٰ رَجُلٍ رَنَوْا إِلَيْهِ بِعَيْنِ ٱلْمُغْضَبِ ٱلْحَنِقِ[1]

* * *

(١) أَجدوا على رجلٍ : أَنعموا عليهِ ، مِنَ الجِدَا ، وهوَ العطاءُ . رَنا : أَدامَ النظرَ . الحَنِقُ : الحاقِدُ .

[قالَ أَبو الطيِّب المتنبِّي في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ٣٠٨ منَ المنسرح] :

أَصْبَــحَ حُسَّــادُهُ وَأَنْفُسُهُــمْ يُحْدِرُهَا خَوْفُهُ وَيُصْعِدُهَا

صفات الخائف

لا يُنكَرُ أَنَّ سَحْرَ[١] ٱلخائفِ كلَّما ٱنتفخَ . . تصعَّدَ النَّفَسُ ، وكلَّمَا خلا . . ٱنحدرَ ، ومِنْ لازمِ ٱلانتفاخِ الضغطُ علىٰ القلبِ ، حتَّىٰ ربَّما بلغَ الحَنْجَرَةَ ، كما في الذِّكْرِ الحكيمِ[٢] . وأَصلُ المعنىٰ مِنْ قولِهِ ﷺ : « نُصِرْتُ بِٱلرُّعْبِ »[٣] .

ماذا يعمل الخوف

ولمَّا سُئِلَ أَميرُ المؤمنينَ [عليٌّ رضي الله عنه] عمَّا غرسَ لهُ الهيبةَ في القلوبِ . . قالَ : (إِنِّي أَعمدُ إِلىٰ الجَبانِ فأَصرعُهُ ، ثمَّ لا أَنثني إِلىٰ الشجاعِ إِلاَّ وقد ذهبَ نصفُهُ) ، وهوَ في هـٰذا هاضمٌ لنفسهِ ، وإِلاَّ . . فالأَمرُ مِنْ فوقِ ذلكَ .

صور من شجاعة الإمام علي عليه السلام

ولمَّا ٱرتدَّ عمرُو بنُ معدِيكربَ الزبيديُّ معَ مَنِ ٱرتدَّ مِنْ (مذحجٍ) . . وجَّهَ النبيُّ ﷺ خالدَ بنَ سعيدِ بنِ العاصِ ، وخالدَ بنَ الوليدِ ، وعليهم عليٌّ ٱبنُ أَبي طالبٍ ، فيُروىٰ أَنَّهُ لمَّا بلغَ عَمْراً قُرْبُ

---

(١) السَّحْرُ : الرِّئَةُ ، تقول عائشة رضي الله عنها : (قبض رسول الله ﷺ بين سَحري ونحري) .

(٢) كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ ﴾ [الأحزاب : ١٠] ، وقوله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ ﴾ [غافر : ١٨] .

(٣) رواهُ عن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رضيَ اللهُ عنهُما البخاريُّ (٣٣٥) ، وفي الباب : عَن أَبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ عند مسلمٍ (٥٢٣) .

مكانِهِمْ . . أَقبلَ في جماعةٍ مِنْ قومِهِ ، وقالَ : دعوني آتي هٰؤلاءِ القومِ ؛ فإِنّي لَمْ أُسَمَّ لأَحدٍ قطُّ إِلاَّ هابَني ، فلمّا دَنا منهُمْ . . قالَ : أَنا أَبو ثورٍ ، أَنا عمرُو بنُ معدِيكربَ ، فأبتدرَهُ عليٌّ وخالدٌ [رضي الله عنهما]، كلاهما يقولُ لصاحبِهِ : دعني وإِيّاهُ ، ويفديهِ بأَبيهِ وأُمِّهِ ، فقالَ عمرٌو عندَ ذلكَ : العربُ تفزعُ منّي ، وأَراني جَزْراً لهٰؤلاءِ ، فأنصرفَ عنهُمْ ، ثمَّ رجعَ إِلىٰ الإِسلامِ(١) .

ومِنْ هٰذا أَخذَ مهيارٌ الديلميُّ قولَهُ [في « ديوانهِ » ٤/ ٣٢ منَ الكامل] :

وَإِذا رَأَوْكَ تفَرَّقَتْ أَرْوَاحُهُمْ ... فكَأَنَّمَا عَرَفَتْكَ قَبْلَ ٱلأَعْيُنِ

فَإِذَا أَرَدْتَ بِأَنْ تَفُلَّ كَتِيبَةً ... لاَقَيْتَهَا فَتَسَمَّ فِيهَا وَٱكْتَنِ

وفي الجزءِ الثالثِ (ص ١٢٨) مِنْ « شرح نهجِ البلاغةِ » : أَنَّهم اجتمعوا بموضعٍ يقالُ لهُ : (كَسْرٌ) فأقتتلوا هناكَ ، وصمدَ(٢) عمرٌو لعليٍّ ، فعاينَ منهُ ما لَمْ يحتسبْهُ ، ففرَّ مِنْ بينِ يدهِ هارباً بحشاشةِ نفسهِ ، وفرَّ معهُ رؤَساءُ (مذحجٍ) وفرسانُهُمْ ، وغَنِمَ المسلمونَ أَموالَهُمْ ، وسُبِيَتْ في ذلكَ اليومِ ريحانةُ أُختُ عمرٍو .

وقولُهُ : بموضعٍ يقالُ لهُ : (كَسْرٌ) لاَ يبعدُ أَنْ يكونَ المرادُ بهِ

---

(١) في « شرح النهج » (١٢/ ١٢٠) قريبٍ مِن هذا اللفظ ، ولكنَّ الذي يناسبُ موضوعَنا هوَ ما جاءَ في « شرحِ النهجِ » (١٠/ ٢٥٩) أَنَّ سيدَنا عمرَ بنَ الخطَّابِ كتبَ إِلىٰ عمروِ بنِ معديكربَ ـ وهوَ شجاعُ العربِ الذي تضربُ فيهِ الأَمثالُ ـ في أمرٍ أَنكرهُ عليهِ :
أَمَا واللهِ : لئن أَقمتَ علىٰ ما أَنتَ عليهِ . . لأَبعثنَّ إِليكَ رجلاً تستصغرُ معهُ نفسكَ ، يضعُ سيفَه علىٰ هامتِكَ ، فيخرجُه مِن بينِ فخذيكَ . فقالَ عمروٌ ـ لمَّا وقفَ علىٰ الكتابِ ـ : هدَّدني بعليٍّ واللهِ .
(٢) صَمَدَ لَهُ : ثَبَتَ لَهُ .

(كَسْرَ قُشَاقِشَ) الذي مِنْ قُراهُ الآنَ (هَينن) ؛ فإِنَّ أَرضَ (مذحج) ليستْ بالبعيدةِ منهُ ، إِذْ مياهُها تصبُّ إِلىٰ (حضرموتَ) .

ويقربُ ذلكَ أَنَّ فَرْوةَ بنَ مُسَيْكٍ المراديَّ كانَ أَساءَ السيرةَ ، وطلبَ المددَ مِنْ رسولِ الله ﷺ ، ولن يستجيشَهُ إِلاَّ وهُمُ الغازونَ ، واللهُ أَعلمُ بحقيقةِ الحالِ .

خوف المحارَب من الاسم عند الفرزدق

ثمَّ ذكرْتُ أَنَّ الفرزدقَ سبقَ إِلىٰ المعنىٰ إِذ يقولُ في رثاءِ مخلدِ بنِ يزيدِ بنِ المهلَّبِ [في « ديوانه » ١/ ١٩٣ منَ الطويل] :

أَبُوْكَ ٱلَّذِيْ تُسْتَهْزَمُ ٱلْخَيْلُ بِٱسْمِهِ ... وَإِنْ كَانَ فِيْهَا قِيْدُ شِبْرٍ مُطَرَّدِ[1]

وَقَـدْ عَلِمُـوْا إِذْ شَـدَّ حَقْـوَيْـهِ أَنَّـهُ ... هُوَ ٱللَّيْثُ لَيْثُ ٱلْغَابِ لاَ بِٱلْمُعَرْبِدِ[2]

تكرار هذا المعنى عند المتنبي

والمعنىٰ الذي نحنُ فيهِ متكرِّرٌ عندَ الناظمِ ، فمنهُ **قولُهُ** [في « العُكْبَريِّ » ٢/ ٣٦٤ منَ الخفيف] :

طَاعِنُ ٱلطَّعْنَةِ ٱلَّتِيْ تُذْعِرُ ٱلْفَيْـ ... ـلَقَ بِٱلذُّعْرِ وَٱلدَّمِ ٱلْمُهْرَاقِ[3]

وقولُهُ [في « العُكْبَريِّ » ٣/ ٢٤٣ منَ الكامل] :

تَلَفُ ٱلَّذِيْ ٱتَّخَذَ ٱلْجَرَاءَةَ خُلَّةً ... وَعَظَ ٱلَّذِيْ ٱتَّخَذَ ٱلْفِرَارَ خَلِيْلاَ

وقولُهُ [في « العُكْبَريِّ » ٣/ ١٣٩ منَ الخفيف] :

مَـا مَضَـوْا لَـمْ يُقَـاتِلُـوْكَ وَلَـكِـ ... ـنَّ ٱلْقِتَالَ ٱلَّذِيْ كَفَاكَ ٱلْقِتَالاَ

---

(١) **قِيد** : قدر . **مُطرَّدٌ** : طويل تام . والمعنى : أنها تخاف من ذكر اسمه ولو كان بينها وبينه المسافات الشاسعة .

(٢) **العِربيدُ** : هي الحيةُ التي تنفخُ ولا تؤذي، ومنهُ اشتقَ اسمُ **المُعَربِدِ** : للرجلِ السكيرِ الشريرِ . والمعنىٰ : أنَّ ممدوحهُ ممَّنْ إذا قالوا فَعلوا .

(٣) **الفيلَقُ** : هوَ الجيشُ . **الذُّعْرُ** : الخوفُ والفزَعُ .

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيّ » ٣/ ٢٤٣ منَ الكامل] :

سَمِعَ ٱبْنُ عَمَّتِهِ بِهِ وَبِحَالِهِ فَنَجَا يُهَرْوِلُ مِنْكَ أَمْسِ مَهُوْلاَ

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيّ » ٢/ ٣٦٦ منَ الخفيف] :

بَعَثُوْا ٱلرُّعْبَ فِيْ قُلُوبِ ٱلأَعَادِيْ فَكَأَنَّ ٱلْقِتَالَ قَبْلَ ٱلْقِتَالِ

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيّ » ٣/ ٣٦٥ منَ البسيط] :

قَدْ نَابَ عَنْكَ شَدِيْدُ ٱلْخَوْفِ وَٱصْطَنَعَتْ لَكَ ٱلْمَهَابَةُ مَا لاَ تَصْنَعُ ٱلْبُهَمُ[١]

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيّ » ٣/ ٢٩٣ منَ الطويل] :

فَإِنْ تَكُ مِنْ بَعْدِ ٱلْقِتَالِ أَتَيْتَنَا فَقَدْ هَزَمَ ٱلأَعْدَاءَ ذِكْرُكَ مِنْ قَبْلِ

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيّ » ٣/ ٥٩ منَ الكامل] :

وَيُمِيتُ قَبْلَ قِتَالِهِ وَيَبَشُّ قَبْـ ـلَ نَوَالِهِ وَيُنِيلُ قَبْلَ سُؤَالِهِ

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيّ » ٣/ ١٤١ منَ الخفيف] :

أَبْصَرُوْا ٱلطَّعْنَ فِيْ ٱلْقُلُوْبِ دِرَاكًا قَبْلَ أَنْ يُبْصِرُوْا ٱلرِّمَاحَ خَيَالاَ

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيّ » ٣/ ١٩٨ منَ الخفيف] :

فَهُمُ لاتِّقَائِهِ ٱلدَّهْرَ فِيْ يَوْ مِ نِزَالٍ وَلَيْسَ يَوْمَ نِزَالِ[٢]

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيّ » ٣/ ١١٦ منَ الطويل] :

فَخَافُوْكَ حَتَّىٰ مَا لِقَتْلٍ زِيَادَةٌ وَجَاؤُوْكَ حَتَّىٰ مَا تُرَادُ ٱلسَّلاَسِلُ[٣]

---

(١) البُهَمُ ـ جمعُ بُهمَةٍ ـ : وهمُ الأبطالُ الذينَ تناهَتْ شجاعتُهمْ .
(٢) النِّزَالُ : المحاربةُ والنزولُ إلىٰ ٱتّقاءِ الأعداءِ .
(٣) المعنى : أَبدوا من مخافتكَ مَا يزيدُ على القتلِ، وجاؤوكَ طائعينَ، حتى إنَّكَ لا =

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٤/ ٥٦ منَ الطويل] :

لَقَدْ حَالَ بَيْنَ ٱلْجِنِّ وَٱلإِنْسِ سَيْفُهُ ... فَمَا ٱلظَّنُّ بَعْدَ ٱلْجِنِّ بِٱلْعُرْبِ وَٱلْعُجْمِ

وَأَرْهَبَ حَتَّىٰ لَوْ تَأَمَّلَ دِرْعَهُ ... جَرَتْ جَزَعاً مِنْ غَيْرِ نَارٍ وَلاَ فَحْمِ

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ٣٦٢ منَ الوافر] :

وَلَكِنْ هَبَّ خَوْفُكَ فِيْ حَشَاهُمْ ... هُبُوْبَ ٱلرِّيْحِ فِيْ رِجْلِ ٱلْجَرَادِ

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٣/ ١٧٠ منَ البسيط] :

فَقَدْ تَرَكْتَ ٱلأُلَىٰ لاَقَيْتَهُمْ جَزَراً ... وَقَدْ قَتَلْتَ ٱلأُلَىٰ لَمْ تَلْقَهُمْ وَجَلاَ(١)

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٢/ ٢٥٧ منَ الوافر] :

إِذَا مَا لَمْ تُسِرْ جَيْشاً إِلَيْهِمْ ... أَسَرْتَ إِلَىٰ قُلُوْبِهِمُ ٱلْهُلُوْعَا

والقصيدةُ التي مُسْتَهَلُّهَا (أَرَاعَ كَذَا كُلَّ الأَنَامِ هُمَامُ) تدورُ حولَ هـٰذا المعنىٰ .

جبن الأخطل وقصته مع الجحاف

وذكرْتُ بهِ : أَنَّ الأخطلَ ٱستفزَّهُ القربُ مِنَ الخليفةِ ، فقالَ للجَحَّافِ وكانَ حاضراً [في « ديوانهِ » ٤٢٦ منَ الطويل] :

أَلاَ سَائِلِ ٱلْجَحَّافَ هَلْ هُوَ ثَائِرٌ ... بِقَتْلَىٰ أُصِيْبَتْ مِنْ سُلَيْمٍ وَعَامِرِ ؟(٢)

فقالَ الجحَّافُ [منَ الطويل] :

بَلَىٰ سَوْفَ نُبْكِيْهِمْ بِكُلِّ مُهَنَّدٍ ... وَنُبْكِيْ عُمَيْراً بِٱلرِّمَاحِ ٱلشَّوَاجِرِ

= تحتاجُ في أسرهمْ إلىٰ السلاسلِ .

(١) الجَزَرُ : ما أُلقيَ للسباعِ ، ويقالُ : (ما كانوا إلاَّ جزراً لسيوفِنا) أي : الذينَ نقتُلُهم فنلقيهِمْ للسباعِ .

(٢) الجَحَّافُ : من السُّلَمِيِّيْنَ أعداءِ بني تغلبَ ، ولهُ يومُ البشرِ الذي أوقعَ بالتغلبيِّيْنَ شرَّ وقعةٍ .

فانخزلَ الأخطلُ ، وكأنَّما كانَ في نشوةٍ فأفاقَ ، وأخذتْهُ ٱلحُمَّىٰ مِنَ الفَرَقِ ، فقالَ له عبدُ الملكِ : ماذا عليكَ وأنتَ في جِوارِي؟ قالَ : هَبْكَ أجرتني في اليقظَةِ ، فمن يُجيْرُني مِنهُ في المنام ؟ وكانَ عارفاً بشدَّةِ بأسهِ ، وأصابهُ قلَقٌ أقضَّ مضجعَهُ ، ونغَّصَ عيشَهُ ، حتَّىٰ أَوقعَ الجَحَّافُ وقعتَهُ المشهورةَ بِبني تغلبَ رهطِ الأخطلِ ، فقالَ الأخطلُ [في « ديوانهِ » ٢٧٢ منَ الطويل] :

لَقَدْ أَوْقَعَ ٱلْجَحَّافُ بِٱلْبِشْرِ وَقْعَةً ... إِلَى اللهِ مِنهَا ٱلْمُشْتَكَىٰ وَٱلْمُعَوَّلُ[1]
لَئِـنْ لَـمْ تُغَيِّـرْهَـا قُـرَيْـشٌ بِمِثْلِهَـا ... يَكُنْ عَنْ قُرَيْشٍ مُسْتَمَازٌ وَمَرْحَلُ[2]

قالَ عبدُ الملكِ : إلىٰ أينَ إذنْ؟ قالَ الأخطلُ : إلى ٱلنَّارِ ، قالَ عبدُ الملكِ : أَولىٰ لكَ ، أَمَا وَاللهِ لَو قلتَ غيرهَا.. لم تطرِفْ عيناكَ[3] .

إلى أين أبا ليلى؟

وقولُ ٱلأخطلِ إِلىٰ ٱلنَّارِ عكسُ قولِ ٱلنّابغةِ ٱلجعديِّ إِلىٰ ٱلجنَّةِ ، حينَ قالَ [في « ديوانهِ » ٧١ منَ الطويل] :

بَلَغْنَا ٱلسَّمَاءَ مَجْدُنَا وَجُدُوْدُنَا ... وَإِنَّا لَنَبْغِيْ فَوْقَ ذَلِكَ مَظْهَرَا

فقالَ لهُ رسولُ اللهِ ﷺ : « إلىٰ أينَ يا أَبا ليلىٰ ؟ » قالَ : إلىٰ الجنَّةِ ، قالَ لهُ النبيُّ [ﷺ] : « فَنَعَمْ إذاً »[4] ، وهـٰذا مِنْ قصيدةٍ لَهُ

---

(١) المُعَوَّلُ : الاعتمادُ والمفزَعُ .
(٢) مُستَمازٌ : مِن (ماز) رَحَلَ وانتقلَ مِنْ مكانٍ إلى آخرَ .
(٣) تنظر القصة في « الأغاني » (١٢/ ٢٤٠) .
(٤) أورد الخبر بنحوه عن النابغة الهيثمي في « مجمع الزوائد » (٨/ ١٢٦) وقال: رواه البزار وفيه يعلىٰ بن الأشدق وهو ضعيف.
ولفظه عنده: =

منقَّحةِ اللفظِ ، جزلةِ المعاني إلاَّ أنَّها تداخلَتْ معَ قصيدةٍ لزُفرَ بنِ الحارثِ في بحرِهَا وقافيتِهَا ، وأَوَّلُها [في « ديوانِ النابغةِ الجعدي » ٨٧ منَ الطويل] :

تَذَكَّرْتُ وٱلذِّكْرَىٰ تُهَيِّجُ لِلْفَتَىٰ وَمِنْ عَادَةِ ٱلْمَحْزُوْنِ أَنْ يَتَذَكَّرَا
وَإِنِّيْ لأَسْتَشْفِيْ بِرُؤْيَةِ جَارِهَا إِذَا مَـا تَلَقِّيْهَـا عَلَـيَّ تَعَـذَّرَا

مِنها :

حَسِبْنَا زَمَاناً كُلَّ بَيْضَاءَ شَحْمَةً لَيَالِيَ إِذْ نَغْزُوْ جُذَاماً وَحِمْيَرَا
إِلَىٰ أَنْ لَقِيْنَا ٱلْحَيَّ بَكْرَ بْنَ وَائِلٍ ثَمَـانُـوْنَ أَلْفـاً دَارِعِيْـنَ وَحُسَّـرَا
فَلَمَّا قَرَعْنَا ٱلنَّبْعَ بِٱلنَّبْعِ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ أَبَتْ عِيْدَانُهُ أَنْ تَكَسَّرَا
سَقَيْنَاهُمُ كَأْسَاً سَقَوْنَا بِمِثْلِهَا وَلٰكِنَّنَا كُنَّا عَلَىٰ ٱلْمَوْتِ أَصْبَرَا
بِنَفْسِـيْ بِـأَهْلِـيْ عُصْبَـةً سَلَمِيَّـةً يُعِدُّوْنَ لِلْهَيْجَا عَنَاجِيْجَ ضُمَّرَا(١)
وَنُنْكِـرُ يَـوْمَ ٱلـرَّوْعِ أَلْـوَانَ خَيْلِنَـا مِنَ ٱلطَّعْنِ حَتَّىٰ نَحْسَبُ ٱلْجَوْنَ أَشْقَرَا(٢)
وَقَالُوْا لَنَا : أَحْيُوْا لَنَا مَنْ قَتَلْتُمُ لَقَدْ جِئْتُمُ أَمْراً مِنَ ٱلْقَوْلِ مُنْكَرَا
وَلَسْنَا نَرُدُّ ٱلرُّوْحَ فِي جِسْمِ مَيِّتٍ وَلَـٰكِنْ نَسُلُّ ٱلرُّوْحَ مِمَّنْ تَنَشَّرَا
مَلَكْنَا فَلَمْ نَكْشِفْ قِنَاعاً لِحُرَّةٍ وَلَمْ نَسْتَلِبْ إِلاَّ ٱلْحَدِيْدَ ٱلْمُسَمَّرَا
وَلَو أَنَّنَا شِئْنَا سِوَىٰ ذَاكَ أَصْبَحَتْ كَـرَائِمُهُـمْ فِيْنَـا تُبَـاعُ وَتُشْتَـرَىٰ

= علونـا العبـاد عفـةً وتكـرمـا وإنا لنرجو فوق ذلك مظهراً

(١) سلميَّةً : مِنْ بني سَلَمٍ . العناجيجُ ـ جمعُ عنجوجٍ ـ : وهو الرائعُ مِنَ الخيلِ . الخيل الضمَّر : التي ضُمِّرَ بطنها، وهي من أسرع أنواع الخيل .

(٢) الجونُ : الأَسودُ .

منها :

وَلاَ خَيْرَ فِي حِلْمٍ إِذَا لَمْ تَكُنْ لَهُ ... بَوَادِرُ تَحْمِي صَفْوَهُ أَنْ يُكَدَّرَا
وَلاَ خَيْرَ فِي جَهْلٍ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ ... حَلِيْمٌ إِذَا مَا أَوْرَدَ الأَمْرَ أَصْدَرَا
أَتَيْنَا رَسُوْلَ اللهِ إِذْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ ... وَيَتْلُوْ كِتَاباً كَالْمَجَرَّةِ نَيِّرَا

فيُروىٰ [في «مجمع الزوائد» ٨/١٢٦] : أَنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ لهُ : «لاَ يَفْضُضِ اللهُ فَاكَ» . فعاشَ مئةً وستينَ سنةً ، لم يُثْغَرْ لهُ سِنٌّ[1] .

الجبن حتى في النوم

وما أَظنُّ أَشجعَ السلميَّ إلا ناظراً إلى ما جرىٰ للأخطلِ مِنَ الجحَّافِ ، حيثُ يقولُ للرشيدِ مِنْ كلمةٍ لهُ خالصةٍ [في «ديوانه» ٢٥٣ منَ الكامل] :

وَعَلَىٰ عَدُوِّكَ يَا ابْنَ عَمِّ مُحَمَّدٍ ... رَصَدَانِ ضَوْءُ الصُّبْحِ وَالإِظْلاَمُ
فَإِذَا تَنَبَّهَ رُعْتَهُ وَإِذَا غَفَا ... سَلَّتْ عَلَيْهِ سُيُوْفَكَ الأَحْلاَمُ

المتنبي وهـٰذا المعنى

وَلَمْ ينسَ حظَّهُ الناظمُ مِنْ هـٰذا المعنىٰ إِلاَّ أَنَّهُ يغثُّ تارةً كما في قولِهِ [في «العُكْبَرِيّ» ١/ ٣٦٤ منَ الوافر] :

يَرَىٰ فِي النَّوْمِ رُمْحَكَ فِيْ كُلاَهُ ... وَيَخْشَىٰ أَنْ يَرَاهُ فِيْ السُّهَادِ

ويجيدُ أُخرىٰ كما في قولِهِ [في «العُكْبَرِيّ» ٤/ ٤٤ منَ البسيط] :

مَنْ لَوْ رَآنِيَ مَاءً مَاتَ مِنْ ظَمَإٍ ... وَلَوْ مَثَلْتُ لَهُ فِي النَّوْمِ لَمْ يَنَمِ

وقولِهِ [في «العُكْبَرِيّ» ٤/ ٤٥ منَ الوافر] :

إِذَا امْتَلأَتْ عُيُوْنُ الْخَيْلِ مِنِّيْ ... فَوَيْلٌ فِي التَّيَقُّظِ وَالْمَنَامِ

---

(١) لَمْ يُثْغَرْ : لَمْ يُكسرْ، أو لم يسقط .

وقولِهِ [في «العُكْبَرِيّ» ٢/٢٢٩ منَ البسيط] :

يُقَاتِلُ ٱلْخَطْوَ عَنْهُ حِيْنَ يَطْلُبُهُ ... وَيَطْرُدُ ٱلنَّوْمَ عَنْهُ حِيْنَ يَضْطَجِعُ

وقولِهِ [في «العُكْبَرِيّ» ٣/٨٣ منَ البسيط] :

وَكُلَّمَا حَلَمَتْ عَذْرَاءُ عِنْدَهُمْ ... فَإِنَّمَا حَلَمَتْ بِٱلسَّبْيِ وَٱلْجَمَلِ(١)

وقالَ السريُّ الرَّفَّاءُ [في «ديوانه» ٢٤٥ منَ البسيط] :

تَرُوْعُ أَحْشَاؤُهُ بِٱلْكُتْبِ وَهْوَ لَهَا ... خَوْفَ ٱلرَّدَىٰ وَرَجَاءَ ٱلسِّلْمِ يَسْتَلِمُ

لاَ يَشْرَبُ ٱلْمَاءَ إِلاَّ غَصَّ مِنْ حَذَرٍ ... وَلاَ يُهَوِّمُ إِلاَّ رَاعَهُ ٱلْحُلُمُ

المعري في الموضوع

وألَمَّ بهِ شاعرُ المعرَّةِ إلاَّ أنَّهُ غيَّرَ الموضوعَ، فقالَ [في «سقط الزند» ١١١ منَ البسيط]:

وَأَنْتَ مَنْ لَوْ رَأَىٰ ٱلإِنْسَانُ طَلْعَتَهُ ... فِيْ ٱلنَّوْمِ لَمْ يُمْسِ مِنْ خَطْبٍ عَلَىٰ خَطَرِ

ابو الهيذام ورثاؤه لأخيه

وقتلَ الرشيدُ أخاً لأبي الهيذامِ ، فجاءَ في رثيهِ بما يشبهُ قولَ الجحّافِ إذْ يقولُ [منَ الطويل] :

سَأَبْكِيْكَ بِٱلْبِيْضِ ٱلرِّقَاقِ وَبِٱلْقَنَا ... فَإِنَّ بِهَا مَا يَطْلُبُ ٱلْمَاجِدُ ٱلْوَتْرَا

وَلَسْتُ كَمَنْ يَبْكِيْ أَخَاهُ بِعَبْرَةٍ ... يُعَصِّرُهَا فِيْ جَفْنِ مُقْلَتِهِ عَصْرَا

وَإِنَّا أُنَاسٌ مَا تَفِيْضُ عُيُوْنُنَا ... عَلَىٰ هَالِكٍ مِنَّا وَإِنْ قَصَمَ ٱلظَّهْرَا

وَلَكِنَّنَا نَشْفِيْ ٱلْفُؤَادَ بِغَارَةٍ ... تَلَهَّبُ مِنْ قُطْرَيْ جَوَانِبِهَا جَمْرَا

عبد الله بن أبي ربيعة ورثاؤه لعثمان بن عفان رضي الله عنه

وقبلَ ذلكَ يقولُ عبدُ اللهِ ٱبنُ أَبي ربيعةَ أخو عيَّاشٍ عندما بلغَهُ مقتلُ عثمانَ [ابن عفان رضي الله عنه منَ الطويل] :

سَأَبْكِيْ أَبَا عَمْرٍو بِكُلِّ مُهَنَّدٍ ... وَبِيْضٍ [لها فِيْ ٱلدَّارِعِيْنَ فُلُوْلُ]

---

(١) ذكرَ الجملَ مع السبي؛ لأنَ العربَ تحمِلُ السبايا على الجمالِ .

ثُمَّ لَمْ يزدْ علىٰ أَنْ خرجَ بمَنْ معهُ فلمَّا قربَ مِنْ (مكَّةَ) . . سقطَ عَنْ راحلتِهِ وماتَ .

عبد الملك بن مروان ينهى ولده عن البكاء

وممّا قالهُ عبدُ الملكِ بنُ مروانَ ـ عندَ موتهِ ـ للوليدِ ، وقد رآهُ يبكي عندَ رأسِهِ ، يشجِّعهُ ، وينهاهُ عَنِ ٱلبكاءِ ، وحنينِ النساءِ لنفسهِ أَو متمثِّلاً [منَ الطويل] :

بَنُوْ ٱلْحَرْبِ لاَ نُعْنَىٰ بِشَيْءٍ نُرِيْدُهُ وَلَسْنَا عَلَىٰ مَا أَحْدَثَ ٱلدَّهْرُ نَجْزَعُ
جِلاَدٌ عَلَىٰ رَيْبِ ٱلزَّمَانِ فَلَنْ تَرَىٰ عَلَىٰ هَالِكٍ عَيْناً لَنَا ٱلدَّهْرَ تَدْمَعُ

هيبة سيدنا ابن عباس من سيدنا عمر رضي الله عنهم

وكانَ ٱبنُ الخطَّابِ عظيمَ الهيبةِ ، ولهـٰذا لم يقدرِ ٱبنُ عباسٍ علىٰ إظهارِ قولِهِ في العَولِ حتَّىٰ ماتَ ، فقيلَ لَهُ : هلاَّ قلْتَ هـٰذا في حياةِ عمرَ؟! قالَ : (هِبْتُهُ ، وكانَ ٱمْرأً مَهيباً)[1] .

من هيبة سيدنا عمر رضي الله عنه تضع المرأة حملها

ويُروىٰ : أَنَّهُ ٱستدعىٰ ٱمرأةً ليسأَلَهَا عَنْ أَمرٍ ، وكانَتْ حاملاً ، فلشدَّةِ هيبتِهِ أَلقتْ ما في بطنِهَا ميْتاً ، فٱستفتىٰ أَكابرَ الصحابةِ ، فقالوا : لا شيءَ عليكَ ، قالَ لَهُ عليٌّ : إِنْ كانوا راقبوكَ فقد غشُّوكَ ، وإِنْ كانَ هـٰذا جُهْدَ رأْيِهِم فقد أَخطؤوا ، عليكَ غُرَّةٌ[2] ، فرجعَ عمرُ والصحابةُ إِلىٰ قولِهِ[3] .

نهيه النساء عن رفع الصوت

ومِنْ ذلكَ سكوتُ النساءِ لمّا دخلَ ، وأَصواتُهُنَّ عاليةٌ عندَ

---

(١) أخرجه عن زفر ، البيهقيُّ في « الكبرىٰ » (٦/ ٢٥٣)، وابن حزم في «المحلى» (٩/ ٤٦٣)، وعبد الرزاق في «المصنف» (١٠/ ٢٥٤ و٢٥٨) والعول: زيادة في سهام المسألة ونقص في مقاديرها .
(٢) الغُرَّةُ : ديةُ الجنينِ ؛ وهي عبدٌ أو أمةٌ ، وتقدَّرُ بنصفِ عشرِ الديةِ الكاملةِ ، والديةُ الكاملةُ: مئةٌ مِنَ الإبلِ .
(٣) أخرجه البيهقي في « الكبرىٰ » (٦/ ١٢٣) .

رسولِ اللهِ ﷺ ، فقالَ لَهُنَّ : (يا عدوّاتِ أنفسهِنَّ ، أَتَهَبْنَنِي ، وَلاَ تَهَبْنَ رسولَ اللهِ؟ قلْنَ : أَنتَ أَفظُّ وأَغلظُ)[1] .

الاستهزاء بالجبان عندما يهدد

وفي عكسِ معنىٰ البيتِ الذي نتكلَّمُ فيهِ ، يقولُ جريرٌ [في « ديوانهِ » ٩١٦ منَ الكامل] :

زَعَمَ ٱلْفَرَزْدَقُ أَنْ سَيَقْتُلُ مَرْبَعاً أَبْشِرْ بِطُوْلِ سَلاَمَةٍ يَا مَرْبَعُ[2]

وقالَ غيرهُ [منَ الوافر] :

تَــوَعَّــدَنِــيْ لِتَقْتُلَنِــيْ نُمَيْــرٌ مَتَىٰ قَتَلَتْ نُمَيْرٌ مَنْ هَجَاهَا ؟

وقالَ [منَ البسيط] :

قَدْ هَبَّتِ ٱلرِّيْحُ طُوْلَ ٱلدَّهْرِ وٱخْتَلَفَتْ عَلَىٰ ٱلْجِبَالِ فَمَا نَالَتْ رَوَاسِيْهَا

وقالَ ٱبنُ أَبي عيينةَ [منَ الكامل] :

فَدَعِ ٱلْوَعِيْدَ فَمَا وَعِيْدُكَ ضَائِرِيْ أَطَنِيْنُ أَجْنِحَةِ ٱلذُّبَابِ يَضِيْرُ ؟

شجاعة بني عبد المطلب

وكتبَ معاويةُ إلى عليٍّ يتهدَّدُهُ ، فأَجابَهُ بما معناهُ ـ إنْ أخطأْتُ لفظَهُ ـ [في « نهج البلاغة » ٣٣٣] : وذكرْتَ أَنَّهُ ليسَ لِيْ ولأَصحابي عندَكَ إلاَّ السيفُ ، فلقد أَضحكْتَ بعدَ ٱستعبارٍ[3] ، متىٰ أَلفيْتَ بني عبدِ المطلبِ عَنِ ٱلهيجاءِ ناكلينَ ، وبالسيوفِ مخوَّفينَ ، لَبِّثْ قليلاً يلحقِ

(١) أخرجه عن سعد ٱبن أبي وقاص رضي الله عنه البخاري (٣٢٩٤) في بدء الخلق .

(٢) مَربعُ : لقبُ راويةِ جريرٍ المسمَّىٰ (وَعْوَعَةَ) ، وهو مِنْ بني أَبي بكرِ بنِ كلابٍ ، وكانَ نفَّرَ بأَبي الفرزدقِ وضربَهُ ، فيقالُ : إِنَّهُ ماتَ في تلكَ العِلَّةِ ، فحلفَ الفرزدقُ ليقتلَنَّهُ .

(٣) الاستعبارُ: البكاءُ.

ٱلهيجا حَمَلٌ[1] ، وأنا مُرْقِلٌ[2] نحوَكَ في جحفلٍ مِنَ ٱلمهاجرينَ والأنصارِ ، قد صَحِبَتْهُم ذريَّةٌ بدريَّةٌ ، وسيوفٌ هاشميَّةٌ ، عَرَفْتَ مواقعَ نصالِهَا في أَخيْكَ وخالِكَ وجدِّكَ ، وما هِيَ مِنَ ٱلظالمينَ ببعيدٍ .

قصة امرىء القيس مع قتلة أبيه

ولمَّا أكثرَ ٱمرؤُ القيسِ الوعيدَ في قتلِ أَبيهِ . . قَدِمَ عليهِ قبيصةُ بنُ نعيمٍ في أَشياخِ بني أَسدٍ ، يراجعونَهُ في خطبِ أَبيهِ ، فقالَ قبيصةُ [في «جمهرة خطب العرب» ١/٣٦ و«الأغاني» ٩/١٢٤] :

أَمَّا بعدُ : فإِنَّكَ مِنَ ٱلمحلِّ والقدرِ والمعرفةِ بتصاريفِ الدهرِ بحيثُ لا تَحتاجُ إِلىٰ تذكيرِ مذكِّرٍ ، ولا تبصيرِ مجرِّبٍ ، ولكَ مِنْ سؤددِ منصبِكَ وشرفِ أَعراقِكَ وَكرمِ أَصلِكَ . . مَحْتِدٌ[3] يَحمِلُ علىٰ إِقالةِ العثرةِ ، وٱغتفارِ الزلَّةِ ، وإِنَّ الهِمَمَ لا تتجاوزُ إِلىٰ غايةٍ إِلاَّ رجعَتْ إِليكَ ، فوجدَتْ عندكَ مِنْ فضيلةِ الرأيِ ، وبصيرةِ الفهمِ ، وكرمِ الصفحِ ، ما يُطوِّلُ رغباتِهَا ، وقد كانَ ما كانَ مِنَ ٱلخطبِ الجليلِ ، الذي عمَّتْ مصيبَتُهُ العربَ ، ولَمْ تُخَصَّ بهِ (كندةُ) دونَنا ؛ للشرفِ البارعِ كانَ لحجرٍ ، ولو يُفدىٰ هالكٌ بنفسٍ . . لَمَا بَخِلَتْ بِها كرائِمُنا علىٰ مثلِهِ ، ولٰكنْ مضىٰ بهِ سبيلٌ لا يرجعُ آخرُهُ علىٰ أَوَّلِهِ ، وَأَحمدُ الحالاتِ أَنْ تطلبَنَا في إِحدىٰ ثلاثِ خِلالٍ :

إِمَّا : أَنْ تختارَ مِنْ بني أَسدٍ أَشرفَها بيتاً ، وأَبعدَها صِيْتاً ، فَقُدْنَاهُ

---

(١) لَبِّثْ قليلاً يلحق الهيجا حمل : مثلٌ عربي ؛ يعني : انتظر حتى يتلاحق الشبان ، والهيجاء : الحرب ، وحمل : قال في «التاج» : هو ابن سعدانة الصحابي ، وفي «المحكم» : هو ابن بدر . قلت : وفيه نظر . اهـ كلام الزبيدي رحمه الله .

(٢) مُرْقِلٌ ، يقال : أَرقَلَ القومُ إِلىٰ الحربِ أَسرعوا .

(٣) المحتدُ : الأَصلُ وٱلطبعُ .

إليكَ بِنِسْعَةٍ[1] ، يذهبُ معَ شَفَراتِ حسامِكَ ، ونقولُ : عظيمٌ ٱمتُحِنَ بمَهْلِكِ عزيزٍ لَهُ ، فلَمْ تُسْتَلَّ سخيمةُ صدرِهِ إلاَّ بمكنتِهِ مِنَ ٱلانتقامِ .

وإمَّا : فداءٌ بما يَروحُ علىٰ بني أَسَدٍ مِنْ نَعَمِها ، فهي أُلوفٌ تكونُ فداءً ، رُجِعَتْ بهِ ٱلقضبُ إلىٰ أجفانِها .

وإمَّا : أَنْ توادِعَنا إلىٰ أَنْ تَضعَ الحواملُ ، وتُسْدَلَ الأُزُرُ ، وتُعقَدَ الخُمُرُ فوقَ الراياتِ .

فما كانَ مِنِ ٱمْرِىءِ القيسِ إلاَّ أَنْ أَطرقَ ساعةً ثُمَّ رفعَ رأسَهُ ، وقالَ : لقد علمَتِ ٱلعربُ أَنْ لا كفؤَ لحُجرٍ بدمٍ ، وأَنِّي لَنْ أَعتاضَ بهِ جملاً ، ولا ناقةً ، فأكتسبَ بهِ سبَّ الأَبَدِ ، وفتَّ العَضُدِ . وَأمَّا النظرةُ : فقد أَوجبَتْهَا الأَجنَّةُ في بطونِ الأُمَّهاتِ ، ولَنْ أَكونَ سبباً لِعَطَبِها ، وستعرفونَ طلائعَ (كندةَ) بعدَ ذلكَ ، تحملُ في القلوبِ حَنَقاً[2] ، وفي الأَسنَّةِ عَلَقاً [منَ المتقاربِ] :

إِذَا جَالَتِ ٱلْحَرْبُ فِي مَأْزِقٍ   تُصَافِحُ فِيْهِ ٱلْمَنَايَا ٱلنُّفُوْسَا

أَتقيْمونَ أَم تنصرفونَ؟ قالوا : بل ننصرفُ بأَسوأِ الاختيارِ ، وأَبلىٰ الاجترارِ بمكروهٍ وأَذيَّةٍ ، وحربٍ وبليَّةٍ ، وقالَ قبيصةُ يتمثَّلُ [منَ الطويلِ] :

لَعَلَّكَ إِنْ تَسْتَوْخِمِ ٱلْوِرْدَ إِنْ عَدَتْ   كَتَائِبُنَا فِي مَأْزِقِ ٱلْحَرْبِ تَمْطُرُ

فقالَ ٱمرؤُ القيسِ : لاَ واللهِ ، ولٰكنْ أَستعذبُهُ ، فرويداً ينفرجُ لَكَ دُجَاهَا عَنْ فرسانِ (كندةَ) وكتائبِ (حِمْيَرَ) ، ولقد كانَ غيرُ

---

(١) النِّسْعُ : حبلٌ يُضفَرُ على هيئةِ أَعِنَّةِ النعالِ تُشَدُّ بهِ الرحالُ .

(٢) الحَنَقُ : شدَّةُ الاغتياظِ .

هـٰذا أَولىٰ بي ؛ إِذْ كنْتُ نازلاً بربعي ، ولـٰكنَّكَ قُلتَ فأَوجبتَ) .

تعليق المؤلف على القصة

وفي هـٰذا الكلامِ مِنَ ٱلجزالةِ والعذوبةِ ما يأْخذُ بمجامعِ القلوبِ إِلىٰ مَا يُشَفُّ عنهُ مِنَ ٱلسؤددِ الضخمِ ، والكرمِ الخالصِ ، والشمائلِ الراقيةِ ، والهممِ العاليةِ ، والنفوسِ القويَّةِ ، وٱحترامِ الأَرواحِ البريئةِ ، وغيرِ ذلكَ ، ومِنَ ٱلأعاجيبِ قولُ الشارحِ : إِنَّ البيتَ الذي نحنُ بسبيلِهِ شبيهٌ بقولِهِ [في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ٣٣٥ منَ الكامل] :

تعليق المؤلف على العكبري في شرح المطلع

أَبْدَىٰ ٱلْعِدَاةُ بِكَ ٱلسُّرُوْرَ كَأَنَّهُمْ ... فَرِحُوْا وَعِنْدَهُمُ ٱلْمُقِيْمُ ٱلْمُقْعِدُ

وما هو في شيءٍ مِنْ ذاكَ ؛ لأَنَّهُ لا يكونُ كذاكَ إِلاَّ لو أَرادَ المقيمَ المقعِدَ مِنَ ٱلخوفِ ، وإِنَّما أَرادَ المقيمَ المقعِدَ مِنَ ٱلحزنِ ؛ كما تشهدُ بهِ فحوىٰ الطباقِ ، فهو مِنْ جنسِ قولِ سويدِ بنِ أَبي كاهلٍ [منَ الرَّمَل] :

وَيُحَيِّيْنِي إِذَا لاَقَيْتُهُ ... وَإِذَا يَخْلُوْ لَهُ لَحْمِيْ رَتَعْ

وقولِ سَدِيْفٍ [منَ الخفيف] :

ذُلُّهَا أَظْهَرَ ٱلتَّوَدُّدَ مِنْهَا ... وَبِهَا مِنْكُمْ كَحَزِّ ٱلْمَوَاسِيْ

وقولِ المعرِّيِّ [في « سقط الزند » ٢٣٤ منَ الوافر] :

وَيُظْهِرُ لِيْ مَوَدَّتَهُ مَقَالاً ... وَيُبْغِضُنِيْ ضَمِيْراً وَٱعْتِقَادَا

وقولِ الناظمِ [في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ٣٦٣ـ٣٦٤ منَ الوافر] :

فَلاَ تَغْرُرْكَ أَلْسِنَةٌ مَوَالٍ ... تُقَلِّبُهُنَّ أَفْئِدَةٌ أَعَادِيْ
فَإِنَّ ٱلْمَاءَ يَجْرِيْ مِنْ جَمَادٍ ... وَإِنَّ ٱلنَّارَ تَخْرُجُ مِنْ زِنَادِ

* * *

[قال أبو الطيِّب المتنبِّي في « العُكْبَرِيّ » ١/ ٣١٠ منَ المنسرح]:

قَدْ أَجْمَعَتْ هَـٰذِهِ ٱلْخَلِيْقَةُ لِيْ	أَنَّكَ يَا ٱبْنَ ٱلنَّبِـيِّ أَوْحَـدُهَـا
وَأَنَّكَ بِٱلأَمْسِ كُنْتَ مُحْتَلِماً	شَيْـخَ مَعَـدٍّ وَأَنْـتَ أَمْـرَدُهَـا

أمّا البيتُ الأوّلُ : فقلَّما تجدُ شاعراً إلاَّ يدَّعي لممدوحهِ التفرُّدَ ، ادعاء التفرد للمدوح عند المتنبي

ومنهُ قولُهُ لشجاعِ بنِ محمَّد الطائيِّ [في « العُكْبَرِيّ » ١/٣٣٦ منَ الكامل] :

كُنْ حَيْثُ شِئْتَ تَسِرْ إِلَيْكَ رِكَابُنَا فَٱلأَرْضُ وَاحِدَةٌ وَأَنْتَ ٱلأَوْحَدُ

وقولُهُ لَهُ [في « العُكْبَرِيّ » ٣/ ١٨٤ منَ الطويل] :

إِلَىٰ وَاحِدِ ٱلدُّنْيَا إِلَىٰ ٱبْنِ مُحَمَّدٍ شُجَاعِ ٱلَّذِيْ للهِ ثُمَّ لَهُ ٱلْفَضْلُ

وقولُهُ لبدرِ بنِ عمَّارٍ [في « العُكْبَرِيّ » ١/ ٣٧٢ منَ المتقارب] :

فَـأَنْـتَ وَحِيْـدُ بَنِـيْ آدَمٍ وَلَسْـتَ لِفَقْـدِ نَظِيْـرٍ وَحِيْـدَا

وقولُهُ لعُبيدِ اللهِ بنِ يحيىٰ [في « العُكْبَرِيّ » ٢/ ٣٧٩ منَ البسيط] :

فَكُنْ كَمَا أَنْتَ يَا مَنْ لاَ شَبِيْهَ لَهُ فَكَيْفَ شِئْتَ فَمَا خَلْقٌ يُدَانِيْكَا

وقولُهُ لابنِ العميدِ [في « العُكْبَرِيّ » ٢/ ٥١ منَ الخفيف] :

جَمَـعَ ٱلـدَّهْـرُ حَـدَّهُ وَيَـدَيْـهِ وَثَنَـائِـيْ فَـٱسْتَجْمَعَـتْ آحَـادَهُ

وقولُهُ لَهُ [في « العُكْبَرِيّ » ٢/ ١٦٧ منَ الكامل] :

أَنْتَ ٱلْوَحِيْدُ إِذَا ٱرْتَكَبْتَ طَرِيْقَةً وَمَنِ ٱلرَّدِيْفُ إِذَا رَكِبْتَ غَضَنْفَرَا ؟

وقولُهُ لكافورٍ [في «العُكْبَرِيّ» ٤/ ٢٤٦ منَ الطويل] :

قَضَىٰ اللهُ يَا كَافُورُ أَنَّكَ أَوَّلٌ ... وَلَيْسَ بِقَاضٍ أَنْ يُرَىٰ لَكَ ثَانِي

وقولُهُ لَهُ [في «العُكْبَرِيّ» ٢/ ٢٧ منَ الطويل] :

وَمَا زَالَ أَهْلُ ٱلدَّهْرِ يَشْتَبِهُوْنَ لِيْ ... إِلَيْكَ فَلَمَّا لُحْتَ لِيْ لاَحَ فَرْدُهُ

وقولُهُ لَهُ [في «العُكْبَرِيّ» ١/ ١٩٩ منَ الطويل] :

جَرَىٰ ٱلْخُلْفُ إِلاَّ فِيْكَ أَنَّكَ وَاحِدٌ ... وَأَنَّكَ لَيْثٌ وَٱلْمُلُوْكَ ذِئَابُ

وقولُهُ لابنِ كيغلغ [في «العُكْبَرِيّ» ٢/ ١٢١-١٢٢ منَ البسيط] :

مَنْ قَالَ لَسْتَ بِخَيْرِ ٱلنَّاسِ كُلِّهِمِ ... فَجَهْلُهُ بِكَ عِنْدَ ٱلنَّاسِ عَاذِرُهُ[1]

أَوْ شَكَّ أَنَّكَ فَرْدٌ فِيْ زِمَانِهِمُ ... بِلاَ نَظِيْرٍ فَفِيْ رُوْحِيْ أُخَاطِرُهُ

وقولُهُ في عضدِ الدولةِ [في «العُكْبَرِيّ» ٤/ ٢٥٦ منَ الوافر] :

فَـإِنَّ ٱلنَّاسَ وَٱلدُّنْيَا طَرِيْقٌ ... إِلَىٰ مَنْ مَا لَهُ فِيْ ٱلنَّاسِ ثَانِي

وقولُهُ فِيْ يومِ الأَضحىٰ لسيفِ الدولةِ [في «العُكْبَرِيّ» ١/ ٢٨٦ منَ الطويل] :

فَذَا ٱلْيَوْمُ فِيْ ٱلأَيَّامِ مِثْلُكَ فِيْ ٱلْوَرَىٰ ... كَمَا كُنْتَ فِيْهِمْ أَوْحَداً كَانَ أَوْحَدَا

وقولُهُ لَهُ [في «العُكْبَرِيّ» ٤/ ١١ منَ الكامل] :

وَإِذَا ٱمْتَحَنْتَ تَكَشَّفَتْ عَزَمَاتُهُ ... عَنْ أَوْحَدِيِّ ٱلنَّقْضِ وَٱلإِبْرَامِ

وقولُهُ لَهُ في رثاءِ ولدِهِ [في «العُكْبَرِيّ» ٣/ ٥٠ منَ الطَّويلِ] :

وَيَلْقَىٰ كَمَا تَلْقَىٰ مِنَ ٱلسِّلْمِ وَٱلْوَغَىٰ ... وَيُمْسِيْ كَمَا تُمْسِيْ وَحِيْداً بَلا مِثْلِ

---

(١) في المخطوط : غَادِرُهُ .

وقولُهُ في بستانٍ لبعضِهِم [في « العُكْبَرِيّ » ٢/ ١١ مِنْ مَجزوءِ الكاملِ] :

وَإِذَا رَجَعْتَ إِلَىٰ ٱلحَقَا ... ئِقِ فَهْيَ وَاحِدَةٌ لأَوْحَدْ

وقولُهُ في فرسِ بدرِ بنِ عمَّارٍ [في « العُكْبَرِيّ » ٣/ ٢٤١ مِنَ الكاملِ] :

فِيْ سَرْجِ ظَامِئَةِ ٱلفُصُوْصِ طِمِرَّةٍ ... يَأْبَىٰ تَفَرُّدُهَا لَهَا ٱلتَّمْثِيْلا[1]

شدة انتقاد المؤلف على المتنبي: إسرافه في المدح

في كثيرٍ مِنْ أَمثالِهِ ، فكأنَّما التفرُّدُ حِلْيَةٌ بيدِهِ ، يقلِّدُها جِيْدَ كُلِّ مَنْ يُنيطُ بهِ أَملَهُ ، ويُعلِّقُ فيهِ رجاءَهُ ، وما ذاكَ إلاَّ لأَنَّهُ يَكيلُ المدحَ جُزَافاً ، ويُسرفُ فيهِ إِسرافاً ، ولولا ذلكَ . . لَمَا ٱحتاجَ إِلىٰ مثلِ قولِهِ [في « العُكْبَرِيّ » ٤/ ٢١٣ مِنَ البسيط] :

مَدَحْتُ قَوْماً وَإِنْ عِشْنَا نَظَمْتُ لَهُمْ ... قَصَائِداً مِنْ إِنَاثِ ٱلْخَيْلِ وَٱلْحُصُنِ

ولو أَنَّهُ ٱستثنىٰ في بعضِ القولِ أَو علَّقَ . . لانْحَفَظَ لَهُ خَطُّ الرجعةِ ، ولٰكنَّهُ قطعَهُ علىٰ نفسِهِ ، فقد هجا كافورَ بعدَ قولِهِ لَهُ [في « العُكْبَرِيّ » ١/ ٢٠٠ مِنَ الطويل] :

وَإِنَّ مَدِيْحَ ٱلنَّاسِ حَقٌّ وَبَاطِلٌ ... وَمَدْحُكَ حَقٌّ لَيْسَ فِيْهِ كِذَابُ

ثناء سيدنا عمر رضي الله عنه على ابن أبي سلمى

وقد أَثنىٰ ٱبنُ الخطَّابِ علىٰ زهيرِ ٱبنِ أَبي سُلمىٰ ، بِأَنَّهُ لا يُعاظِلُ[2] الكلامَ ، ولا يمدحُ أَحداً إِلاَّ بما فيهِ علىٰ حدِّ ما يُروىٰ مِنْ قولِهِ [مِنَ البسيط] :

---

(١) الطِّمِرَّةُ : الفرسُ الوثَّابةُ ، وقيلَ : المرتفعةُ ، وظامِئَةُ الفصوصِ : عطاشٌ ، ليست برهلةٍ رخوةٍ ، وكذا خيولُ العربِ .

(٢) يُعَاظِلُ ، العِظَالُ في القوافي : التضمينُ . ورُوِيَ عَنْ عمرَ بنِ الخطَّابِ : أَنَّهُ قالَ لقومٍ مِنَ العربِ : (أَشعرُ شعرائِكمْ مَنْ لم يُعَاظِلِ الكلامَ) أَي : لَمْ يحملْ بعضَهُ على بعضٍ ، ولَمْ يتكلَّمْ بالرجيعِ مِنَ القولِ ، ولَمْ يكرِّرِ اللفظَ والمعنىٰ .

وَإِنَّ أَحْسَـنَ بَيْـتٍ أَنْـتَ قَـائِلُـهُ بَيْتٌ يُقَالُ إِذَا أَنْشَدْتَهُ صَدَقَا

إن من البيان لسحراً

ومِنْ هنا قضي لَهُ بالتفضيلِ علىٰ الشعراءِ أَجمعَ ، وما أَحسنَ ما تخلَّصَ بهِ عمرُو بنُ الأَهتمِ ، وقد رأَىٰ النبيَّ ﷺ يشمئِزُّ مِنْ تناقضِ قولِهِ في الزبرقانِ بن بدرٍ ؛ إِذْ مدحَهُ بادئاً ، ثُمَّ ذمَّهُ ثانياً ، فإِنَّهُ قالَ : لقد صدقْتُ في ٱلأُولىٰ ، ولم أَكذبْ في ٱلثّانيةِ ، ولـٰكنَّا قومٌ إِذَا رضينَا . . ذكرنا أَحسنَ مَا نجدُ ، وإِذا غضبْنَا . . جئْنَا بأَقبحِ ما نعلمُ ، فقالَ ﷺ : « إِنَّ مِنَ ٱلْبَيَانِ لَسِحراً »[1] ، أَو ما هـٰذا معناهُ ، أَو ما يقربُ منهُ ، ومَنْ لا حرجَ لهُ مِنَ ٱلدِّينِ ، ولا زِمامَ عندهُ مِنَ ٱلمروءةِ ، ولا رقيبَ عليهِ مِنَ ٱلضميرِ ، وكانَ ٱلحاملُ لَهُ علىٰ ٱلمدحِ مجرَّدَ ٱلطَّمعِ ، أَو ٱلملقِ . . فلَنْ يكونَ ما يأَتي بهِ إِلاَّ كَذِباً صريحاً ، وغلوّاً قبيحاً ؛ ولهـٰذا قالَ ٱبنُ عبدِ ٱلسَّلامِ في « قواعدِهِ »[2] ، كما نقلَهُ ٱبنُ

سبب الكذب في المديح

(١) أخرجه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما البخاري (٥١٤٦) في النكاح ، والقصة كما في «جمهرة خطب العرب» (١/ ١٦٥):
أن رسول الله ﷺ سأل عمرو بن الأهتم عن الزبرقان بن بدرٍ، فقال عمرو: مطاعٌ في أذينة، شديد العارضة، مانعٌ لما وراء ظهره.
فقال الزبرقان: والله يا رسول الله. . . إنه ليعلم مني أكثر مما قال ولكنه حسدني شرفي.
فقال عمرو: أما والله لئن قال ما قال، فوالله ما علمته إلا ضيق الصدر، زمن المروءة، أحمق الوالد، لئيم الخال، حديث الغنىٰ.
فلما رأى أنه خالف قولُهُ الآخر قولَهُ الأوّلَ، ورأى الإنكار في عيني رسول الله ﷺ. . قال: يا رسول الله. . رضيت فقلت أحسن ما علمت، وغضبت فقلت أقبح ما علمت، وما كذبت في الأولى، ولقد صدقت في الأخرى، فقال رسول الله ﷺ عند ذلك: «إن من البيان لسحراً» .
(٢) وتمام اسمه: «قواعد الأحكام في مصالح الأنام».

حجرٍ في « تحفتِهِ » : لا تكادُ تجدُ مدَّاحاً إلاَّ رَذْلاً ، ولا هجَّاءَ إلاَّ نَذْلاً .

المؤلف وهذا الزمان

وأَكبرُ مِنْ ذلكَ ما ٱبتُلِيَ بهِ ذُنَابَى[1] ٱلبلادِ مِنْ إهانةِ ٱلأَدبِ ، وبذلِ ٱلمديحِ لِمَن لا يستحقُّهُ ، وكثيراً ما يعتقدُ ٱلمادحُ عكسَ ما يقولُ ، فتراهُ يمدحُ بلسانِهِ مَنْ يذمُّهُ بقلبِهِ ، ويتلوَّنُ أَلواناً ، ويتَّخذُ لكلِّ حالةٍ وجهاً ولساناً [منَ الطويل] :

وَأَقْتَلُ شَيْءٍ رُؤْيَةُ ٱلْعَيْنِ ظَالِماً   يُسِيْءُ وَيُتْلَىٰ فِيْ ٱلْمَحَافِلِ حَمْدُهُ

إعجابه بأشراف النفوس

وإنَّهُ ليعجبني ترفُّعُ ٱبنِ أَبي ربيعةَ وجميلٍ والفرزدقِ وأَضرابِهِم مِنْ أَشرافِ النفوسِ .

شرف الفرزدق

قالَ يزيدُ بنُ المهلَّبِ : ما رأَيْتُ أَشرفَ نفساً مِنَ ٱلفرزدقِ ، مدحني سُوْقةً ، وهجاني مَلِكاً .

تلون المتنبي

وإنَّ المتنبِّي علىٰ ما عندَهُ مِنَ البأْوِ[2] وَالزُّهوِّ ، ومعَ قولِهِ [في «العُكبريِّ» ٢/ ١٤٩ منَ الطويل] :

إِذَا ٱلْفَضْلُ لَمْ يَرْفَعْكَ عَنْ شُكْرِ نَاقِصٍ   عَلَىٰ هِبَةٍ فَٱلْفَضْلُ فِيْمَنْ لَهُ ٱلشُّكْرُ

أبو تمام يمدح ابن الزيات فيرد مديحه عليه

. . لكثيراً ما يَخضعُ في القولِ ، ويُلَيِّنُ الجانبَ ، ويُسِفُّ[3] إلىٰ الأَرضِ ، وما ذلكَ مِنْ تناقضهِ بغريبٍ ، وما كانَ أَحقَّهُ في بعضِ

---

(١) الذُّنَابَىٰ : الأَتباعُ .

(٢) البَأْو : العظمةُ والكِبْرُ والفخرُ .

(٣) أَسَفَّ الطائرُ والسحابةُ وغيرُهما : دنا مِنَ الأرضِ . والطائرُ يُسِفُّ : إذا طار على وجهِ الأرضِ .

أَطوارِهِ بما فعلَ ٱبنُ الزيَّاتِ[1] معَ حبيبٍ [أبي تمام] ، (فقد ٱمتدحهُ بقصيدةٍ سائرةٍ بعقبِ ما ٱمتدحَ بعضَ السقَّاطِ ، فوقَّعَ ٱبنُ الزيَّاتِ علىٰ ظهرِ قصيدةِ حبيبٍ لَهُ بهـٰذا [منَ الطويل] :

رَأَيْتُكَ سَمْحَ ٱلْبَيْعِ سَهْلاً وَإِنَّمَا ... يُغَالِيْ إِذَا مَا ضَنَّ بِٱلشَّيْءِ صَاحِبُهْ
فَأَمَّا إِذَا هَانَتْ بَضَائِعُ بَيْعِهِ ... فَيُوْشِكُ أَنْ تَبْقَىٰ عَلَيْهِ بَضَائِعُهْ
هُوَ ٱلْمَاءُ إِنْ أَجْمَمْتَهُ طَابَ وِرْدُهُ ... وَيَفْسُدُ مِنْهُ أَنْ تُبَاحَ مَشَارِعُهْ[2]

ويقالُ [في « الأغاني » ٢٣/ ٤٦٢] : إِنَّ أَبَا تمَّامٍ أَجابَهُ عَنْ ذلكَ بقصيدةٍ يحتجُّ بها عليهِ ، ويعتذرُ مِنْ مدحِ غيرِهِ إِليهِ[3] ، منها [في « ديوانه » ١/ ١٦٤ـ١٦٥ منَ البسيط] :

أَمَّا ٱلْقَوافِيْ فَقَدْ حَصَّنْتُ غُرَّتَهَا ... فَمَا يُصَابُ دَمٌ مِنْهَا وَلاَ سَلَبُ
مَنَعْتُ إِلاَّ مِنَ ٱلأَكْفَاءِ أَيِّمَهَا ... إِذْ كَانَ مِنْكَ عَلَيْهَا ٱلْعَطْفُ وَٱلْحَدَبُ[4]

---

(١) ابنُ الزيَّات : هوَ محمدُ بنُ عبدِ الملكِ بنِ أَبَانَ ، وزيرُ المعتصمِ والواثقِ ، قويٌّ ، حازمٌ داهيةٌ .
(٢) أورد الأصبهاني القصة في « الأغاني » (٢٣/ ٦٢) .
(٣) ولكنَّ الأَبياتَ التي قالَها أَبو تمَّامٍ لابنِ الزيَّاتِ هيَ كما في « الأغاني » (٢٣/ ٦٢) :

أَبَا جَعْفَرٍ إِنْ كُنْتُ أَصْبَحْتُ شَاعِراً ... أُسَامِحُ فِيْ بَيْعِيْ لَهُ مَنْ أُبَايِعُهْ
فَقَدْ كُنْتَ قَبْلِيْ شَاعِراً تَاجِراً بِهِ ... تُسَاهِلُ مَنْ عَادَتْ عَلَيْكَ مَنَافِعُهْ
فَصِرْتَ وَزِيْراً وَٱلْوَزَارَةُ مَكْرَعٌ ... يَغَصُّ بِهِ بَعْدَ ٱللَّذَاذَةِ كَارِعُهْ
وَكَمْ مِنْ وَزِيْرٍ قَدْ رَأَيْنَا مُسَلَّطاً ... فَعَادَ وَقَدْ سُدَّتْ عَلَيْهِ مَطَالِعُهْ
وَللهِ قَوْسٌ لاَ تَطِيْشُ سِهَامُهَا ... وَللهِ سَيْفٌ لاَ تُفَلُّ مَقَاطِعُهْ

(٤) الأَيِّمُ : التي لا زوجَ لها . الحَدَبُ : الإِشفاقُ .

وَلَوْ عَضَلْتُ وَلَمْ أُنْكِحْ عَقَائِلَهَا ... وَلَمْ يَكُنْ لَكَ فِيْ أَطْهَارِهَا أَرَبُ[1]

كَانَتْ بَنَاتِ نُصَيْبٍ حِيْنَ ضَنَّ بِهَا ... عَلَىٰ ٱلْمَوَالِيْ وَلَمْ تَقْنَعْ بِهَا ٱلْعَرَبُ[2]

ولا شكَّ أنَّهُ عذرٌ بأُمّ دَوٍّ ، فقد تموتُ الحرَّةُ ولا تأكلُ بثديَيْها[3] ، وذَكَرتُ بهذا - والشيءُ يُذْكَرُ بما يشبهُهُ ، ولو مِنْ بعيدٍ -

---

(١) عَضْلُ المرأةِ عن الزواج : منعُها وحبسُها عنهُ . أَطْهَارُها - مفردُها طهرٌ - : جعلَ القوافي كالنساءِ ، فإذا طهرَتِ المرأةُ ٱحتيجَ إليها ، وتُعتزَلُ في الحيضِ .

(٢) نُصَيْبٌ : شاعرٌ أُمويٌّ ، كانَ أَسودَ ، ومولىً لآلِ مروانَ . وكانَ لهُ بناتٌ يبخلُ بهنَّ على الموالي ، ولم تحفلْ بهنَّ العربُ لسوادِ أبيهنَّ .

(٣) مثل عربي ذكره الميداني في « مجمع الأمثال » (١/ ١٢٢) . وقصته: أنَّ الحارثَ بنَ سليلٍ الأَسَديَّ كانَ حليفاً لعلقمةَ بنِ خصْفةَ الطائيِّ ، فزارَهُ ، فنظرَ إلىٰ ابنتِهِ الزَّبَّاءِ ، وكانتْ مِنْ أَجملِ أَهلِ دهرِها ، فأُعجبَ بها ، فقالَ لَهُ : أَتيتُكَ خاطباً ، وقد يُنكحُ الخاطبُ ، ويُدركُ الطالبُ ، ويُمنحُ الراغبُ ، فقالَ لَهُ علقمةُ : أَنتَ كفءٌ كريمٌ ، يقبلُ منكَ الصفوُ ، ويؤخَذُ منكَ العفوُ ، فأَقِمْ ننظرْ في أَمرِكَ ، ثمَّ انكفأَ إلىٰ أُمِّها ، فقالَ : إنَّ الحارثَ بنَ سليلٍ سيِّدُ قومِهِ حسباً ومنصباً وبيتاً ، وقد خطبَ إلينا الزبَّاءَ ، فلا ينصرفنَّ إلاَّ بحاجتِهِ ، فقالتِ ٱمرأتُهُ لابنتِها : أَيُّ الرجالِ أَحبُّ إليكِ ، الكهلُ الجحجاحُ ، الواصلُ المنَّاحُ ؟ أَمِ الفتىٰ الوضَّاحُ ؟ فقالت : لا بل الفتىٰ الوضَّاحُ ، قالت : إنَّ الفتىٰ يغيِّرُكِ ، وإنَّ الشيخَ يميِّرُكِ ، وليسَ الكهلُ الفاضلُ، الكثيرُ النائلِ، كالحديثِ السنِّ ، الكثيرِ المنِّ ، قالت: يا أُمَّتاهُ :

إنَّ ٱلْفَتَاةَ تُحِبُّ ٱلْفَتَىٰ ... كَحُبِّ ٱلرِّعَاءِ أَنِيْقَ ٱلْكَلَا

قالت : أَيْ بُنَيَّةُ . إنَّ الفتىٰ شديدُ الحجاب ، كثيرُ العتاب ، قالت : إنَّ الشيخَ يُبلي شبابي ، ويدَنِّسُ ثيابي ، ويشمِّتُ بي أَترابي ، فلَمْ تزلْ بها أُمُّها حتَّىٰ غلبتْها علىٰ رأيِها ، فتزوَّجَها الحارثُ علىٰ مئةٍ وخمسينَ مِنَ الإبلِ ، وخادمٍ وأَلفِ درهمٍ ، فأبتنىٰ بها ، ثمَّ رحلَ بها إلىٰ قومِه ، فبينا هوَ ذاتَ يومٍ جالِسٌ بفناءِ قومِهِ ، وهيَ إلىٰ جانبِهِ . . إذ أَقبلَ إليهِ شبابٌ مِنْ بني أَسدٍ يعتلجونَ ، فتنفَّستِ الصعداءَ ، ثمَّ أَرخَتْ عينيها بالبكاءِ ، فقالَ لها : ما يبكيكِ ؟ قالت : =

مديح الشماخ لعبد الله بن جعفر

أَنَّ الشمَّاخَ ٱمتدحَ عبدَ اللهِ بنَ جعفرٍ بقولِهِ [في « ديوانه » ٤٦٤ـ٤٦٧ منَ الرَّجَز] :

إِنَّكَ يَا ٱبْنَ جَعْفَرٍ نِعْمَ ٱلْفَتَىٰ ... وَنِعْـمَ مَـأْوَىٰ طَـارِقٍ إِذَا أَتَـىٰ
وَجَارُ ضَيْفٍ طَرَقَ ٱلْحَيَّ سُرَىٰ ... صَادَفَ زَاداً وَحَدِيْثاً مَا ٱشْتَهَىٰ
إِنَّ ٱلْحَدِيْثَ طَرَفٌ مِنَ ٱلْقِرَىٰ

المبالغة في المديح ترفع الممدوح وتضع المادح

وَٱمتدحَ عُرَابةَ ٱلأَوْسيَّ إِزاءَ حُمُوْلَةٍ مِنَ ٱلتمرِ ، بما تحسدُهُ الثريَّا دُرَرَ لفظِهِ ، وجمالَ ديباجتِهِ ، كقولِهِ [في « الأغاني » ٩/ ٣٢٨٧ـ٣٢٨٨ منَ الوافر] :

رَأَيْـتُ عُـرَابَـةَ ٱلأَوْسِـيَّ يَسْمُـوْ ... إِلَىٰ ٱلْخَيْرَاتِ مُنْقَطِعَ ٱلْقَرِيْنِ
إِذَا مَـا رَايَـةٌ رُفِعَـتْ لِمَجْـدٍ ... تَلَقَّـاهَـا عُـرَابَـةُ بِـٱلْيَمِيْـنِ

وقولِهِ [منَ البسيط] :

مِنْ بَيْتِ مَـأْثَـرَةٍ عِزٌّ وَمَكْـرُمَـةٍ ... سَبَّاقُ غَايَاتِ مَجْدٍ وَٱبْنُ سَبَّاقِ
ضَخْـمُ ٱلـدَّسِيْعَـةِ مِتْـلَافٌ أَخُـوْ ثِقَـةٍ ... جَزْلُ ٱلْمَوَاهِبِ ذُوْ قِيْلٍ ومِصْدَاقِ[1]

فقد ٱرتفعَ عُرابةُ بذلكَ إِلىٰ ٱلذُّرىٰ ، وٱنحطَّ بهِ ٱلشمَّاخُ ـ كما ذكروهُ ـ إِلىٰ ٱلحضيضِ ، وسيعادُ هـٰذا في ٱلمجلسِ ٱلحادي عشرَ غفلةً عمَّا هنا .

صغر نفس المتنبي

وما رأَيْتُ الناظمَ أَقلَّ حياءً ، ولا أَصفقَ وجهاً[2] ، ولا أَصغرَ

= ما لي وللشُّيوخِ الناهضين كالفروخِ ؟ فقالَ لها : ثكلتكِ أُمُّكِ ، تجوعُ الحرَّةُ ولا تأكلُ بثديَيْها .

(١) الدسيعةُ : ٱلعطاءُ ٱلجزيلُ .

(٢) أَصفقُ وجهاً ، يقالُ : وجهٌ صفيقٌ بيِّنُ الصَّفاقةِ : وَقِحٌ .

نفساً في قولِهِ ـ مِمَّا يتعلَّقُ بالموضوعِ ـ [في «العُكْبَرِيِّ» ٤/ ١١ مِنَ الكاملِ] :

إِنْ كَانَ مِثْلُكَ كَانَ أَوْ هُوَ كَائِنٌ ... فَبَرِئْتُ حِينَئِذٍ مِنَ ٱلإِسْلامِ

لولا ٱعتذارُهُم عنهُ في ذلكَ بصباهُ ، كما سيأتِي في موضعِهِ بَسْطُ القولِ فيهِ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

التفرد بالكمال مقرون بالحرمان

ثُمَّ إنَّ التفرُّدَ بالكمالِ علىٰ عِزَّتِهِ مَقرونٌ في الأَغلبِ بالحِرمانِ ، وقَلَّ مَنْ تَقدَّمَ في أَمرٍ إلاَّ حُرِمَ ثمرتَهُ وفائدتَهُ ، والقولُ يطولُ في ذلكَ ، وما أَحسنَ قولَ الحمدونيِّ [مِنَ البسيطِ] :

إِنَّ ٱلْمُقَدَّمَ فِيْ حَذْقٍ بِصَنْعَتِهِ ... أَنَّىٰ تَوَجَّهَ فِيْهَا فَهُوَ مَحْرُوْمُ

وقولَ كُشَاجِمٍ [في «ديوانه» ٣٨٦ مِنَ الكاملِ] :

مَا كَانَ أَحْوَجَ ذَا ٱلْكَمَالِ إِلَىٰ ... عَيْبٍ يُوَقِّيْهِ مِنَ ٱلْعَيْنِ

ترقب زوال الشيء إذا ما قيل: تم

وحدَّثَ المعافىٰ بنُ زكريَّا : أَنَّهُ لمَّا بويعَ ابنُ المعتزِّ بالخلافةِ . . دخلُوا علىٰ شيخِنَا محمَّدِ بنِ جريرٍ الطبريِّ ، فقالَ : مَا الخبرُ؟ قيلَ : بُويعَ ٱبنُ المعتزِّ ، قالَ : فمَنْ ذُكِرَ للقضاءِ؟ قالوا : الحسنُ بنُ الحسنِ بنِ المثنىٰ ، أَو أَبو المثنىٰ ، قالَ : فمنْ رُشِّحَ للوزارةِ؟ قالوا : محمَّدُ بنُ داودَ ، فقالَ : هـٰذا الأَمرُ لا يتمُّ ؛ لأَنَّ كلَّ واحدٍ مِنْ هـٰؤلاءِ متقدِّمٌ في فضلِهِ ، والدنيا مُوَلِّيَةٌ ، فما أَراهُ إلاَّ عائداً إلىٰ الاضمحلالِ ، فكانَ كذلكَ .

اول من أتي من داء الكمال في الإسلام سيدنا علي وصور من ذلك

وغالبُ ظنِّيْ أَنَّ أَوَّلَ مِنْ أُتِيَ في الإسلامِ مِنْ داءِ الكمالِ هو أَميرُ المؤمنينَ عليُّ ٱبنُ أَبي طالبٍ ـ كَرَّمَ اللهُ وجهَهُ ـ فقد كانَ أَهلُ (البصرةِ) يُبغِضونَهُ وكثيرٌ مِنْ أَهلِ (الكوفةِ) وأَهلِ (المدينةِ) ، وأَمَّا أَهلُ (مكَّةَ) : فإِنَّهم كانوا يكرهونَهُ قاطبةً ، وكانَتْ قريشٌ بأَسرِها علىٰ خلافِهِ ، وكانَ جمهورُ الخَلْقِ مع بني أُميَّةَ عليهِ .

ورویٰ عبدُ الملكِ بنُ عميرٍ ، عَنْ عبدِ الرحمـٰنِ ٱبنِ أَبي بكرة قالَ [في « شرح نهج البلاغة » ٤/١٠٣] : سمعْتُ عليّاً ـ عليهِ السلامُ ـ يقولُ : ما لقيَ أَحدٌ مِنَ الناسِ ما لقيْتُ .

وروىٰ الشعبيُّ عنهُ ـ عليهِ السلامُ ـ أَنَّهُ يقولُ [في « شرحِ نهجِ البلاغةِ » ٤/١٠٤] : اللَّهُمَّ إِنِّيْ أستعدِيْكَ علىٰ قريشٍ ؛ فإِنَّهُم قطعوا رحمي ، وأَصغـوا إِنـائـيْ[1] ، وصغَّـروا عظيـمَ مَنـزِلتـي ، وأَجمعـوا علـىٰ منازعَتي .

ورَوىٰ أَبو عمرانَ النهديُّ قالَ : سمعتُ عليَّ بنَ الحسينِ يقولُ [كما في « شرح نهجِ البلاغةِ » ٤/١٠٤] : ما بـ(مكَّةَ) و(المدينةِ) عِشرونَ رجلاً يحبُّنا .

وللهِ درُّ ٱبنِ أَبي الحديدِ في قولهِ [كما في « شرح نهج البلاغة » ٤/١١٢ منَ الخفيف] :

طَأْمَنَتْ مَجْدَهُ قُرَيْشٌ فَأَعْطَتْـــهُ إِلَىٰ سِدْرَةِ ٱلسَّمَاءِ رُقِيًّا[2]
أَخْمَلَـتْ صِيْتَـهُ فَطَـارَ إِلَـىٰ أَنْ مَـلأَ ٱلأَرْضَ ضَجَّـةً وَدَوِيًّـا

وقالَ الآخرُ [منَ الطويل] :

لَقَـدْ كَتَمَـتْ آثَـارَ آلِ مُحَمَّـدٍ مُحِبُّوْهُمُ خَوْفاً وَأَعْدَاؤُهُمْ بُغْضَا
وَلـٰكِنْ فَشَتْ بَيْنَ ٱلْفَرِيْقَيْنِ نَبْذَةٌ بِهَا مَلأَ ٱللهُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلأَرْضَا

ومِنْ كلامِهِ عليهِ السلامُ [في « نهج البلاغة » ٣٦] ما معناهُ : لا تزالُ الرعيَّةُ تشكُو ظُلْمَ الملوكِ ، ولـٰكنَّني أَشتكي ٱلظلمَ مِنْ رَعيَّتي .

---

(١) أصغىٰ الإناء : أمالَهُ ليُفرِغَ ما فيهِ .
(٢) طَأمَنَت الأرضُ : ٱنخفضَتْ .

وقالَ لأَصحابِهِ [في «نهج البلاغة» ٣٦] : لقد ملأْتُم قلبي قَيحاً ، وشَحَنتُم صدري غيظاً ، وجرَّعتُموني نُغَبَ ٱلتَّهمامِ أَنفاساً[1] ، حتَّىٰ قالتْ قريشٌ : إنَّ ٱبنَ أَبي طالبٍ رجلٌ شجاعٌ ، ولـٰكنْ لا عِلْمَ لَهُ بالحربِ ـ للهِ أَبوهُم ـ وهل أَشدُّ لها مِراساً مِنِّي ؟! لقد دخلْتُ فيها دونَ العشرينَ ، وهاأَنا قد ذَرَفْتُ فيها علىٰ السِّتِّينَ ، ولـٰكنْ لا رأيَ لِمَنْ لا يُطاعُ .

بل إنَّ الأَمرَ أَعظمُ مِنْ ذلكَ ، فسيِّدُ أَهلِ الأَرضِ والسماءِ ، وأَفضلُ مَنْ يشربُ عذبَ الماءِ . . كانَ مُمتحَناً بالمنافقينَ بشهادةِ سورةِ ﴿ براءة ﴾ مِنْ فاتحتِها إلىٰ خاتمتِها ، بل لَمْ يسلَمْ معَ ذلكَ مِنَ ٱلتواءِ فضلاءِ الصحابةِ عليهِ .

صور من امتحان النبي ﷺ بالمنافقين

أَلا ترىٰ أَنَّهُم كرِهوا لقاءَ العدوِّ يومَ بدرٍ حتَّىٰ أُنزلَ فيهم : ﴿ يُجَـٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ [الأنفال : ٦] .

وقولُهُ تعالىٰ أَيضاً : ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴾ [الأنفال : ٧] .

وخالفوا أَمرَهُ يومَ أُحُدٍ ، وأَسلموهُ حتَّىٰ أَلقتْهُ فَرَسُهُ بينَ القتلىٰ ، وٱستصرخَ فلَمْ يُجبْهُ غيرُ مَنِ ٱشتدَّ بِهِ ٱختصاصُهُ .

وقالَ اللهُ جلَّ شأنُهُ فيهم : ﴿ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ ﴾ [آل عمران : ١٥٣] .

وعصَوْا أَمرَهُ في تبوكَ أَيضاً ، حتَّىٰ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ

---

(١) نُغَبَ : جرعات . التَّهمامُ : الهمُّ . أنفاساً : جرعةً بعدَ جرعةٍ .

أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْآخِرَةِ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التوبة : ٣٨ـ٣٩] .

فهٰذا عتابٌ للمؤمنينَ ، وشاهدٌ بأنَّهُ لَمْ ينجُ مِنْ خلافِهم عليهِ ، وقد أَشرْنَا في الفائدةِ الثامنةِ مِنْ « بلابلِ التغريدِ » إلىٰ تثاقلِهم ليلةَ الخندقِ عَنِ ٱستِكْنَاهِ خبرِ القومِ(١) ، وقد أَلَحَّ عليهم في ذلكَ ، وهوَ لا يُخالِفُ ما نقرِّرُهُ مِن ٱمتلاءِ صدورِهم بٱلإيمانِ ، وتقدُّمِهم بٱلنفوسِ المطمئنَّةِ إلىٰ شفراتِ السيوفِ ؛ لأَنَّهُ الأكثرُ مِنْ أَحوالِهم ، ولأنَّ الامتحانَ يعشقُ الكمالَ ، فٱقتضىٰ عَلِيُّ قدرِهِ ﷺ أَنْ تلتويَ عليهِ الأمورُ ، وتَعْصَوْصِبَ(٢) لَهُ الأَهوالُ ، وتتنكَّرَ لَهُ الأَيَّامُ ، ويجمحَ عليهِ الزمانُ ؛ ليجاوزَ مدىٰ أُولي العزمِ مِنَ ٱلرسلِ ، وتلكَ الغايةُ منوطةٌ بالمحنةِ ؛ ولهٰذا قالَ لَهُ جلَّ شأنُهُ : ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف : ٣٥] ، وكانَ يوعَكُ كما يوعَكُ الاثنانِ مِنْ عُرْضِ الناسِ(٣) ، وكانَ يقولُ : « أَشَدُّ ٱلنَّاسِ بَلاَءً ٱلأَنْبِيَاءُ ، ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ »(٤) .

---

(١) استكناهُ خبرِ القوم : استقصاؤُهُ .

(٢) يعصوصبُ ، يقالُ : أعصوصبَ اليومُ والشرُّ : ٱشتدَّ وتجمَّعَ .

(٣) أخرجه عن ابن مسعود البخاري (٥٦٤٨) في المرضىٰ ، ومسلم (٢٥٧١) في البر والصلة . ولفظه عنده : «أجل إني أوعك كما يوعك رجلان منكم» .
عُرْضُ الناسِ : عامتهم .

(٤) أخرجه عن سعد ابن أبي وقاص عن أبيه رضي الله عنه الحاكم في «المستدرك» (١/ ١٠٠).

وللهِ درُّ أَبي تمَّامٍ في قولِهِ [منَ البسيط] :

مَا زِلْتُ أَرمِيْ بِآمَالِيْ مَطَالِبَهَا لَمْ يُخْلِقِ ٱلْعِرضَ مِنِّيْ سُوْءُ مُطَّلَبِيْ
إِذَا قَصَدْتُ لِشَأْوٍ خِلْتُ أَنِّيَ قَدْ أَدْرَكْتُهُ أَدْرَكَتْنِيْ حِرْفَةُ ٱلأَدَبِ[1]

وأَخذَهُ عليُّ بنُ محمَّدِ بنِ بسَّامٍ ، فقالَ في رثاءِ ٱبنِ المعتزِّ : [في «ديوانه» ٢٧ منَ البسيط] :

للهِ دَرُّكَ مِنْ مَلْكٍ بِمَضْيَعَةٍ نَاهِيْكَ فِيْ ٱلْعَقْلِ وَٱلآدَابِ وَٱلْحَسَبِ[2]
مَا فِيْهِ لَوٌّ وَلاَ لَيْتٌ فَتَنْقِصَهُ وَإِنَّمَا أَدْرَكَتْهُ حِرْفَةُ ٱلأَدَبِ

وتلاعبَ بهِ الشعراءُ بعدَ ذلكَ ، ويتَّصلُ بالموضوعِ قولُ بعضِهِم [مِنَ ٱلكاملِ] :

عَابُوْا ٱلْجَهَالَةَ وَٱزْدَرَوْا بِحُقُوْقِهَا وَتَهَاوَنُوْا بِحَدِيْثِهَا فِيْ ٱلْمَجْلِسِ
وَهِيَ ٱلَّتِيْ يَنْقَادُ فِيْ يَدِهَا ٱلْغِنَىٰ وَتَجِيْئُهَا ٱلدُّنْيَا بِرَغْمِ ٱلْمَعْطِسِ

وقالَ أَبو العتاهيةِ [في «ديوانه» ٦٤٥ منَ الطويل] :

كَفَاكَ عَنِ ٱلدُّنْيَا ٱلذَّمِيْمَةِ مُخْبِراً غِنَىٰ بَاخِلِيْهَا وَٱفْتِقَارُ كِرَامِهَا
وَأَنَّ رِجَالَ ٱلنَّفْعِ تَحْتَ مَدَاسِهَا وَأَنَّ رِجَالَ ٱلضُّرِّ فَوْقَ سَنَامِهَا

وقالَ آخرُ [مِنَ ٱلسَّريعِ] :

مَنْ يَرْجُ بِٱلْفَضْلِ نَوَالاً يَمُتْ جُوْعاً وَلَوْ كَانَ بَدِيْعَ ٱلزَّمَانْ
وَمَنْ يَقُدْ أَوْ يَتَمَسْخَرْ يَعِشْ عَيْشاً رَخِيّاً فِيْ ظِلاَلِ ٱلأَمَانْ[3]

---

(١) حرفةُ الأَدبِ : الفقرُ .
(٢) مَلْكٍ كذا في المخطوطِ، وفي «الديوانِ» : (ميتٍ) .
(٣) يَقُدْ : يعملُ قَواداً .

ولابنِ نُباتةَ السعديِّ [من الكامل] :

مَا بَالُ طَعْمِ ٱلْعَيْشِ عِنْدَ مَعَاشِرٍ حُلْوٌ وَعِنْدَ مَعَاشِرٍ كَٱلْعَلْقَمِ
مَنْ لِيْ بِعَيْشِ ٱلأَغْبِيَاءِ فَإِنَّهُ لاَ عَيْشَ إِلاَّ عَيْشُ مَنْ لَمْ يَعْلَمِ

وقلتُ في « لُزُومِيَّاتي » [منَ الطويل] :

أُعَاتِبُ فِيْ ٱلتَّقْصِيْرِ نَفْسِيْ فَلاَ أَرَىٰ مَجَالَ عِتَابٍ مُقْتَضٍ لِلتَّنَدُّمِ
وَلَٰكِنْ شُفُوفِيْ خَانَ حَظِّيْ وَهٰكَذَا تَرَىٰ خَيْبَةَ ٱلآمَالِ رَهْنَ ٱلتَّقَدُّمِ[1]
أَتَيْنَا وَدَهْرُ ٱلسُّوْءِ يَمْشِيْ إِلَىٰ ٱلْوَرَىٰ وَمَبْنَىٰ ٱلْمَعَالِيْ آخِذٌ فِيْ ٱلتَّهَدُّمِ

الكمال مقرون بعلو الهمة ولكن الأيام لا تساعد

ومِنْ دواعي تعبِ أَهلِ الكمالِ . . أَنَّهُ مقرونٌ بعلوِّ الهمَّةِ وكِبَرِ النَّفْسِ ، والزمانُ معاندٌ والأَيَّامُ لا تساعدُ .

وَإِذَا كَانَتِ ٱلنُّفُوسُ كِبَاراً تَعِبَتْ فِيْ مُرَادِهَا ٱلأَجْسَامُ[2]

لأنَّها لا تقفُ عندَ غايةٍ ، ولا تفضي إِلىٰ نهايةٍ ، وقد قالَ اللهُ جلَّ شأْنُهُ لأَفضلِ الخلقِ عليهِ السلامُ : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ * وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ [الانشراح : ٧ـ٨] .

وقالَ أَبو تمَّامٍ [في « ديوانهِ » ٢/ ١٣١ منَ الكامل] :

خَدَمَ ٱلْعُلَىٰ فَخَدَمْنَهُ وَهْيَ ٱلَّتِيْ لاَ تَخْدُمُ ٱلأَقْوَامَ مَا لَمْ تُخْدَمِ
فَإِذَا ٱرْتَقَىٰ فِيْ قُلَّةٍ مِنْ سُؤْدَدٍ قَالَتْ لَهُ ٱلأُخْرَىٰ : بَلَغْتَ تَقَدَّمِ[3]

وقالَ الناظمُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٤/ ٧٢ منَ الوافر] :

وَلَوْ لَمْ يَعْلُ إِلاَّ ذُوْ مَحَلٍّ تَعَالَىٰ ٱلْجَيْشُ وَٱنْحَطَّ ٱلْقَتَامُ

---

(١) الشُّفوفُ : نحولُ ٱلجسمِ مِنَ ٱلهمِّ وٱلوَجْدِ .
(٢) البيت من الخفيف .
(٣) القُلَّةُ : رأسُ كلِّ شيءٍ .

وَلَـوْ لَـمْ يَـرْعَ إلاَّ مُسْتَحِـقٌّ   لِـرُتْبَتِـهِ أَسَـامَهُـمُ ٱلْمُسَـامُ[1]

وقالَ [في « العُكْبَرِيّ » ٣/ ٧٣ منَ المتقارب] :

وَلَـوْ بِتُّمَـا عِنْـدَ قَـدْرَيْكُمَـا   لَبِـتَّ وَأَعْـلاَكُمَـا ٱلأَسْفَـلُ[2]

وقالَ [في « العُكْبَرِيّ » ٤/ ١٠٨ منَ الطويل] :

وَمَا ٱلْجَمْعُ بَيْنَ ٱلْمَاءِ وَٱلنَّارِ فِيْ يَدِيْ   بِأَصْعَبَ مِنْ أَنْ أَجْمَعَ ٱلْجَدَّ وَٱلْفَهْمَا[3]

ومعيارُ العمومِ الاستثناءُ ، وقد قالَ لأَبي العشائرِ [في « العُكْبَرِيّ » ٢/ ٣٦٤ منَ الخفيف] :

لَيْـسَ إلاَّ أَبَـا ٱلْعَشَـائِـرِ خَلْـقٌ   سَـادَ هَـٰذَا ٱلأَنَـامَ بِـٱسْتِحْقَـاقِ

أَمَّا قولُهُ لسيفِ الدولةِ [في « العُكْبَرِيّ » ١/ ٢٧٢ منَ الطويل] :

وَلَمَّا رَأَيْتُ ٱلنَّاسَ دُوْنَ مَحَلِّهِ   تَيَقَّنْتُ أَنَّ ٱلدَّهْرَ لِلنَّاسِ نَاقِدُ

صفات بني حمدان

فَأَصابَ فيهِ مِنْ جهةٍ ، والعادةُ قد تنخرقُ ، وعينُ الدهرِ قد تنامُ ، والطبيعةُ لها فَلَتاتٌ ، وبنو حمدانَ ـ كما قالَ المحقِّقُ التفتازانيُّ[4] ـ ملوكٌ ، وجوهُهم للصباحةِ ، وأَلسنتُهم للفصاحةِ ، وأَيديهِم للسماحةِ .

---

(١) القتام : العجاج . سامتِ السائمةُ : إذا رَعتْ ، والمسامُ : الرعيَّةُ .

(٢) المعنىٰ : لو بِتُّما ـ النجم والممدوح ـ وموضعُ كلِّ واحدٍ منكما على حسبِ فضلِهِ ، ومكانُهُ حيثُ يستحقُّ بقدرِهِ . . لَبِتَّ في مواضعِ النجومِ وباتَتْ في موضعِكَ ، تعلوها أنتَ وتسفلُ منكَ؛ لشرفِ قدركَ علىٰ قدرِها .

(٣) الجَدُّ : الحظُّ والبَختُ . الفهمُ : معرفةُ العلومِ .

(٤) التفتازاني : هو مسعود بن عمر بن عبد الله ، سعد الدين ، من أئمة العربية والبيان والمنطق ، له مؤلفات ، توفي سنة : (٧٩٣ هـ) .

أوحد بني حمدان

وأخطأَ مِنَ ٱلأخرىٰ ؛ فإنَّ أَوْحدَ بني حمدانَ بلاغةً وبراعةً وشجاعةً . . إنَّما هو أَبو فراسٍ ، وقد أَدركَتْهُ حرفةُ الأَدبِ ، وأَصابَتْهُ عينُ الكمالِ ، فأَسرتْهُ الرومُ في بعضِ وقائِعِها ، فٱزدادَتْ شاعريَّتُهُ رِقَّةً ولطافةً ، كما سبقَ بعضُ قولِهِ في غيرِ هٰذا المجلسِ ، وهو القائلُ [في « ديوانه » ١٤٤ منَ الطويل] :

أُسِرْتُ وَمَا قَوْمِي بِعُزْلٍ لَدَىٰ ٱلْوَغَىٰ ... وَلاَ فَرَسِي مُهْرٌ وَلاَ رَبُّهُ غَمْرُ[1]

وَلَـٰكِنْ إِذَا حُمَّ ٱلْقَضَاءُ عَلَىٰ ٱمْرِىءٍ ... فَلَيْسَ لَـهُ بَـرٌّ يَقِيْـهِ وَلاَ بَحْـرُ

بدء الشعر بملك وختم بملك

وقالَ الصاحبُ بنُ عبَّادٍ [في « قرى الضيف » ١/٥٧] : بُدِىءَ الشعرُ بمَلِكٍ ، وخُتِمَ بمَلِكٍ ؛ يعني : ٱمرأَ القيسِ ، وأَبا فراسٍ .

ومن أكبرِ بيِّناتِهِ ٱعتراضُهُ علىٰ الناظمِ يومَ أَنشدَ قصيدتَهُ المُستهَلَّةَ بقولِهِ [في « العُكبريّ » ٣/٣٦٢ منَ البسيط] :

وَا حَـرَّ قَلْبَـاهُ مِمَّـنْ قَلْبُـهُ شَبِـمُ ... [وَمَنْ بِجِسْمِي وَحَالِي عِنْدَهُ سَقَمُ]

وملاحظتُهُ عليها ، وتنبيهُهُ علىٰ مواضعِ ٱلاختلاسِ فيها ، بِمَا لو روَّىٰ فيه ٱمرؤٌ . . لَمَا دُوفعَ في حدَّةِ الفهمِ ، وإصابةِ السهمِ ، وغزارةِ العلمِ ، ومعجزاتِ ٱلاطلاعِ ، كَما سنفيضُ فيهِ عندَما تنتهي إِليهِ النوبةُ ، إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

عود على شرح البيت من المطلع

وأَمَّا البيتُ الثاني : فـ (أَنْ) فيهِ مخففةٌ مِنَ ٱلثقيلةِ ، وشرطُ ٱسمِها أَنْ يكونَ ضميراً محذوفاً ، وربَّما ثبتَ كقولِهِ [منَ البسيط] :

فَلَوْ أَنْكِ فِيْ يَوْمِ ٱلرَّخَاءِ طَلَبْتِنِيْ ... طَلاَقَكِ لَمْ أَبْخَلْ وَأَنْتِ صَدِيْقُ

---

(١) الغمرُ : الذي لَمْ يجرِّبِ الأُمورَ .

وقولِ جنوبِ ترثِي أخاها عمراً ذا الكلبِ [منَ المتقارب] :

بِـأَنـكَ رَبِيْـعٌ وَغَيْـثٌ مَـرِيْـعٌ   وَأَنـكَ هُنَـاكَ تَكُـوْنُ ٱلثُّمَـالاَ[1]

وهوَ مختصٌّ بحالِ الضرورةِ علىٰ الأَصحِّ .

ومعناهُ[2] مِنْ قولِهِ تعالىٰ : ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم : ١٢] ، وقد تلاعبَ بهِ في « ديوانِهِ » ، فقالَ [في « العُكْبَريّ » ١/ ١٧٠ منَ البسيط] :

اقتباس البيت سيادة الصغير العمر عند المتنبي

لَيسَ ٱلْحَدَاثَةُ مِنْ حِلْمٍ بِمَانِعَةٍ   قَدْ يُوجَدُ ٱلْحِلْمُ فِيْ ٱلشُّبَّانِ وَٱلشِّيْبِ
تَرَعْرَعَ ٱلْمَلِكُ ٱلأُسْتَاذُ مُكْتَهِلاً   قَبْلَ ٱكْتِهَالٍ أَدِيباً قَبْلَ تَأْدِيبِ

وقالَ [في « العُكْبَريّ » ٤/ ١٠ منَ الكامل] :

صَغَّرْتَ كُلَّ كَبِيْرَةٍ وَكَبُرْتَ عَنْ   لَكَـأَنَّـهُ وَعَـدَدْتَ سِـنَّ غُـلاَمِ

وقالَ [في « العُكْبَريّ » ٣/ ٢٣٢ منَ الوافر] :

وَأَعْجَبُ مِنْكَ كَيْفَ قَدَرْتَ تَنْشَا   وَقَدْ أُعْطِيْتَ فِيْ ٱلْمَهْدِ ٱلْكَمَالاَ

وقالَ [في « العُكْبَريّ » ٣/ ٤٥ و٤٩ منَ الطويل] :

بِمَوْلُوْدِهِمْ صَمْتُ ٱللِّسَانِ كَغَيْرِهِ   وَلَكِنَّ فِيْ أَعْطَافِهِ مَنْطِقَ ٱلْفَضْلِ
وَقَدْ مَدَّتِ ٱلْخَيْلُ ٱلْعِتَاقُ عُيُوْنَهَا   إِلَىٰ وَقْتِ تَبْدِيْلِ ٱلرِّكَابِ مِنَ ٱلنَّعْلِ

وقالَ [في « العُكْبَريّ » ٢/ ٨١ منَ البسيط] :

نَفْسٌ تُصَغِّرُ نَفْسَ ٱلدَّهْرِ مِنْ كِبَرٍ   لَهَا نُهَىٰ كَهْلِهِ فِيْ سِنِّ أَمْرَدِهِ

---

(١) المريع : الخصيبُ الذي لا ينقطع. الثُّمالا : الماءُ القليلُ يبقىٰ في أسفلِ الحوضِ ، أَو في أَيِّ إناءٍ كانَ .
(٢) أي البيت الذي يتكلم عليه .

وقالَ [في « العُكْبَرِيّ » ٢/٨ منَ الطويل] :

أَرَىٰ ٱلْقَمَرَ ٱبْنَ ٱلشَّمْسِ قَدْ لَبِسَ ٱلْعُلاَ ... رُوَيْـدَكَ حَتَّىٰ يَلْبَسَ ٱلشَّعَرَ ٱلْخَدُّ
وَبَـاشَـرَ أَبْكَـارَ ٱلْمَكَـارِمِ أَمْـرَداً ... وَكَـانَ كَـذَا آبَـاؤُهُ وَهُـمُ مُـرْدُ

وقالَ [في « العُكْبَرِيّ » ١/ ٣٤٥ منَ المتقارب] :

سَعَـوْا لِلْمَعَـالِـيْ وَهُـمْ صِبْيَـةٌ ... وَسَادُوْا وَجَادُوْا وَهُمْ فِيْ ٱلْمُهُوْدِ

وقالَ [في « العُكْبَرِيّ » ٤/ ٦٤ منَ المنسرح] :

قَـوْمٌ بُلُـوْغُ ٱلْغُـلاَمِ عِنْـدَهُـمُ ... طَعْنُ نُحُوْرِ ٱلْكُمَـاةِ لاَ ٱلْحُلُـمُ

بلوغ الغلمان عند يحيى بن زيد

والأخيرُ مُنتزَعٌ مِنْ قولِ يحيىٰ بنِ زيدِ بنِ عليِّ بنِ الحُسينِ رضوانُ اللهِ عليهم [منَ الطويل] :

خَرَجْنَا نُقِيْمُ ٱلدِّيْنَ بَعْدَ ٱعْوِجَاجِهِ ... سَوِيّاً وَلَمْ نَخْرُجْ لِجَمْعِ ٱلدَّرَاهِمِ
إِذَا أَتْقَـنَ ٱلتَّنْـزِيْـلَ وَٱلْعِلْـمَ طِفْلُنَـا ... فَإِنَّ بُلُوْغَ ٱلطِّفْلِ ضَرْبُ ٱلْجَمَاجِمِ

هٰذا وٱللهِ ٱلشَّرفُ ٱلَّذي يطأُ بأَخمَصِهِ ٱلنُّجومَ ، ويغلبُ علىٰ ٱلنُّفوسِ عندَ ذِكْرِهِ ٱلوجومُ ، ويُحاطُ دينُ ٱللهِ منهُ بٱلرّجومِ ، ويَعْذُبُ لِمَنْ سمعَهُ علىٰ الموتِ ٱلهجومُ .

وما زالتِ ٱلهاشميَّةُ نيرانَ ٱلحتوفِ ، وأَربابَ ٱلأَقلامِ وٱلسُّيوفِ ، ومصابيحَ ٱلنورِ ، وهُداةَ ٱلعُوْرِ ، ولئن قلَّ في ٱلأَواخرِ ٱلباسُ . . فسأَذكرُ ما يناسبُ طهارتَهم مِنَ ٱلأَدناسِ .

تربية الأسياد أولادهم

كثيراً ما سمعتُ والدي يقولُ : كانَ لآلِ جديدٍ وآلِ بصريٍّ وآلِ علويٍّ ثلاثةُ ديارٍ ، عليها سورٌ بمدينة (تَرِيْمَ) ، يقالُ لها : (الحوطةُ) ، كانوا يحوطونَ أَولادَهم فيها بالنظرِ ، ويلاحظونَهم

بِالتَّربيةِ حتَّىٰ لا يبرحوها ، ولا يطرُّ شاربُ الغلامِ منهم إلاَّ وقد ورَىٰ زنادُهُ ، وتجوهرَ فؤادُهُ ، وشملتْهُ الأسرارُ ، وأشرقَتْ عليهِ الأنوارُ ، والتحقَ بالصّالحينَ الأخيارِ ، فلا يخافونَ عليهِ بَعدُ مِنْ مخالطةِ الأغيارِ .

أصحاب مشورة سيدنا عمر رضي الله عنه

وكانَ أصحابُ مشورةِ عمرَ شبَّاناً ، وكانَ يدني عبدَ اللهِ بنَ عبَّاسٍ ، ويدخلُهُ معَ الأشياخِ ، ولمَّا قالوا لَهُ : إنَّ لنا أبناءً مثلَهُ . . قالَ : إنَّهُ مِنْ حيثُ ترونَ .

ولا جرمَ ؛ فإنَّ الفاروقَ لمَّا قايسَ الناسَ بالفضيلةِ . . انبعثَتْ لها النفوسُ فارتفعَ الشأنُ ، وسَعِدَ الزمانُ .

تقديم الأسن عند الاستواء في الفضل

أمَّا قولُهُ ﷺ : « كبِّرْ كبِّرْ »[1] في قضيَّةِ حويصةَ وأخيهِ . . فإنَّما هوَ لاستوائِهم في الفضلِ ، وبمثلِهِ قالوا في قولِهِ ﷺ : « ثُمَّ لِيؤُمَّكُمْ أكبرُكُمْ »[2] : فإنَّهم استوَوا في الإقامةِ لتلقِّي العلمِ معَ انتفاءِ التفاوتِ في الأفهامِ ، فكانوا غيرَ متفاوتينَ فيما تلقَّوْهُ مِنَ الفقهِ ، وبقيَتِ الأرجحيَّةُ بالسنِّ ، وقد بحثَ المحبُّ الطبريُّ تقديمَ الأسنِّ فيما إذا أسلموا معاً ، واستووا فقهاً ؛ لعمومِ هـٰذا الحديثِ ، والأكثرُ علىٰ أنْ لا اعتبارَ للسنِّ في غيرِ الإسلامِ ، والظاهرُ أنَّ إسلامَهم معاً ، فلعلَّ في الأكبرِ فضيلةً زادَ بها عليهم ، فاستحقَّ التقديمَ ، أو لعلَّ المرادَ بالأكبرِ الأكبرُ منزلةً وقدراً ، فيُرادُ منهُ الأفقهُ حينئذٍ ، فيندفعُ مِنْ أصلِهِ الإشكالُ .

---

(١) أخرجه عن سهل بن أبي حثمة البخاري (٧١٩٢) في الأحكام ، ومسلم (١٦٦٩) في القسامة .

(٢) أخرجه عن مالك بن الحويرث رضي الله عنه البخاري (٦٠٠٨) في الأدب ، ومسلم (٦٧٤) في المساجد .

سرعة بديهة يحيى بن أكثم

ولمَّا وليَ يحيىٰ بنُ أكثمَ قضاءَ (البصرةِ) . . أرادوا العبثَ بهِ ، فسألوهُ عَنْ سِنِّهِ ، ولمَّا تجاوزِ العشرينَ ، فقالَ : أنا أكبرُ مِنْ عتَّابِ بنِ أَسِيدٍ[1] حينَ وجَّهَ بهِ رسولُ اللهِ ﷺ قاضياً علىٰ (مكَّةَ) يومَ الفتحِ ، وأنا أكبرُ مِنْ معاذِ بنِ جبلٍ[2] حينَ وجَّهَ بهِ النبيُّ ﷺ قاضياً علىٰ (اليمنِ) ، وأنا أكبرُ مِنْ كعبِ بنِ سورٍ[3] حينَ وجَّهَ بهِ ٱبنُ الخطَّابِ قاضياً عليكُم ، فأفحمهم ؛ إذْ جعلَ كلامَهُ ٱحتجاجاً وجواباً .

المرء بأصغريه

وقَدِمَ علىٰ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ وفدٌ ، فيهم حَدَثٌ ، رآهُ يشرئِبُّ للكلامِ ، فقالَ لهُ : كَبِّرْ كَبِّرْ ، فقالَ : لو كانَتْ بالسنِّ . . لكانَ في مجلسِكَ هـٰذا مَنْ هوَ أَولىٰ منكَ بالخلافةِ ، إنَّما المرءُ بأصغريهِ ، فقالَ لهُ : تكلَّمْ ، فأجادَ وشفىٰ ، وأفادَ وكفىٰ[4] .

سيادة أبي جهل

وسادَ أبو جهلِ ٱبنُ هشامٍ قبلَ أَنْ يَطُرَّ عِذارُهُ[5] ، وكانَتْ مشيخةُ قريشٍ تُدخِلُهُ معها دارَ الندوةِ ، ولا تقطعُ أمراً دونَهُ .

---

(١) عَتّاب بن أَسيد ٱبن أبي العيص بن أمية بن عبد شمس، أبو عبد الرحمن، والٍ صحابي قرشي أموي مكي ولد سنة : (١٣ ق. هـ) ومات سنة : (١٣ هـ).

(٢) معاذ : صحابي خزرجي، أبو عبد الرحمن، ولد سنة : (٢٠ ق. هـ) ومات سنة : (١٨ هـ) كان من أعلم الأمة بالحلال والحرام.

(٣) كعب بن سور بن بكر الأزدي، تابعيٌّ من الأعيان المقدمين في صدر الإسلام توفي سنة : (٣٦ هـ).

(٤) في « جمهرة خطب العرب » (٢/ ٤١٩). فقال عند ذلك أمير المؤمنين [من الطويل] :

تَعَلَّمْ فَلَيْسَ ٱلْمَرْءُ يُوْلَدُ عَالِماً ... وَلَيْسَ أَخُوْ عِلْمٍ كَمَنْ هُوَ جَاهِلُ
وَإِنَّ كَبِيْرَ ٱلْقَوْمِ لاَ عِلْمَ عِنْدَهُ ... صَغِيْرٌ إِذَا ٱلْتَفَّتْ عَلَيْهِ ٱلْمَحَافِلُ

(٥) العِذار : ما طلعَ مِنْ وَبرِ جانبِ لحيتِهِ .

وسادَ عمرو بنُ كلثومٍ ـ صاحبُ المعلَّقةِ ـ لخمسَ عشرةَ سنةً ، ثُمَّ لَمْ يمُتْ إلاَّ عن مئةٍ وخمسينَ ربيعاً، وهو القائلُ [في «ديوانه» ١٠٠ منَ الوافر]:

سيادة عمرو بن كلثوم

إِذَا بَلَـغَ ٱلْفِطَـامَ لَنَـا صَبِـيٌّ   تَخِـرُّ لَـهُ ٱلْجَبَابِـرُ سَاجِـدِيْنَـا

وقالَتِ ٱلخنساءُ [في « ديوانِها » ١٥ منَ المتقارب] :

سيادة أخ الخنساء

طَـوِيْـلُ ٱلنِّجَـادِ رَفِيْـعُ ٱلْعِمَـا   دِ سَـادَ عَشِيْـرَتَـهُ أَمْـرَدَا[١]

وقالَتْ أُختُ طرفةَ بنِ العبدِ في رثائِهِ [كما في « خزانةِ الأدبِ » ٢/ ٤٢٣ منَ الطويل] :

سيادة طرفة بن العبد

عَدَدْنَا لَهُ سِتّاً وَعِشْرِيْنَ حِجَةً   فَلَمَّا تَوَفَّاهَا ٱسْتَوَىٰ سَيِّداً ضَخْمَا

ويروىٰ : أَنَّ الحجَّاجَ ولَّىٰ محمَّدَ بنَ القاسمِ قتالَ الأكرادِ بـ(فارسَ) ، فأَبادَهم ، ثُمَّ ولاَّهُ (السِّنْدَ) و(الهندَ) ، فأُحمِدَ أثرُهُ ، وسِنُّهُ إِذْ ذاكَ سبعَ عشرةَ سنةً ، فقالَ فيهِ بعضُ الشعراءِ [زياد الأعجم كما في « المستطرف » ١/ ٤٩٧ منَ الكامل] :

محمد بن القاسم يبيد الأكراد وعمره سبع عشرة سنة

قُدْتَ ٱلْجُيُوْشَ لِسَبْعَ عَشْرَةَ حِجَّةً   يَا قُرْبَ ذَلِكَ سُؤْدُداً مِنْ مَوْلِدِ

وقالَ جريرُ لعُمرَ بنِ عبدِ العزيزِ [منَ الوافر] :

الشعراء والسيادة في الصغر

فَسُدْتَ ٱلنَّاسَ قَبْلَ سِنِيِّ عَشْرٍ   كَذَاكَ أَبُوْكَ قَبْلَ ٱلْعَشْرِ سَادَا

وقالَ الفرزدقُ يمدحُ يزيدَ بنَ المُهلَّبِ [في « ديوانِهِ » ١/ ٣٧٨ منَ الكامل] :

مَـا زَالَ مُـذْ عَقَـدَتْ يَـدَاهُ إِزَارَهُ   وَسَمَـا وَأَدْرَكَ خَمْسَـةَ ٱلأَشْبَـارِ
يُدْنِي كَتَائِبَ مِنْ كَتَائِبَ تَلْتَقِي   فِـيْ ظِـلِّ مُغْتَبَـطِ ٱلْغُبَـارِ مُثَـارِ

---

(١) النجادِ : حمائلُ السيفِ ، وطويلُ النجاد: كنايةٌ عن طولِ القامةِ . رفيع العماد ، يقال : رجلٌ معمدٌ ؛ أي : طويلٌ .

وَمِمَّا أَصابَ المَحزَّ ، وطَبَّقَ المِفْصَلِ ، قولُ الحزينِ الكنانيِّ في الإمامِ زيدِ بنِ عليٍّ[1] رضوانُ اللهِ عليهم [منَ الطويل] :

وَلَمَّا تَرَدَّىٰ بِٱلْحَمَائِلِ وَٱنْثَنَىٰ ... يَصُوْلُ بِأَطْرَافِ ٱلْقَنَا وٱلْقَنابِلِ
تَبَيَّنَــتِ ٱلأَعْــدَاءُ أَنَّ سِنَــانَــهُ ... يُطِيْلُ حَنِيْنَ ٱلأُمَّهَاتِ ٱلثَّوَاكِلِ
تَبَيَّــنَ فِيْـهِ مُلْيِـمُ ٱلْعِـزِّ وَٱلتُّقَـىٰ ... وَلِيْداً يُفَدَّىٰ بَيْنَ أَيْدِي ٱلْقَوَابِلِ

وقالَ العلويُّ صاحبُ الزنجِ [منَ البسيط] :

إِنِّيْ وَقَـوْمِيَ فِـيْ أَنْسَابِ قَـوْمِهِـمُ ... كَمَسْجِدِ ٱلْخَيْفِ فِيْ بَحْبُوْحَةِ ٱلْخَيْفِ
مَا عُلِّقَ ٱلسَّيْفُ مِنَّا بِٱبْنِ عَاشِرَةٍ ... إِلاَّ وَهِمَّتُهُ أَمْضَىٰ مِنَ ٱلسَّيْفِ

ومِنْ خالصِ الشعرِ ، ومختارِ الكلامِ ، قولُ مروانَ ٱبنِ أَبي حفصةَ[2] يمدحُ معنَ بنَ زائدةَ[3] [في « ديوانه » ٦٤ـ٦٥ منَ الطويل] :

نَجِيْـبُ مَنَـاجِيْـبٍ وَسَيِّـدُ سَـادَةٍ ... ذُرَىٰ ٱلْمَجْدِ مِنْ فَرْعَيْ نِزَارٍ تَفَرَّعَا
لَبَانَتْ خِصَالُ ٱلْخَيْرِ فِيْهِ وَأُكْمِلَتْ ... وَمَـا كَمَلَـتْ خَمْسـاً سِنُـوْهُ وَأَرْبَعَـا
لَقَدْ أَصْبَحَتْ فِيْ كُلِّ شَرْقٍ وَمَغْرِبٍ ... بِسَيْفِـكَ أَعْنَـاقُ ٱلْمُـرِيْبِيْـنَ خُضَّعَـا
وَطِئْتَ خُدُوْدَ ٱلْحَضْرَمِيِّيْنَ وَطْأَةً ... بِهَا مَا بَنَوْا مِنْ عِزَّةٍ قَدْ تَضَعْضَعَا
فَأَقْعَوْا عَلَىٰ ٱلأَسْتَاهِ إِقْعَاءَ مَعْشَرٍ ... يَرَوْنَ ٱتِّبَاعَ ٱلذُّلِّ أَوْلَىٰ وَأَنْفَعَا
فَلَوْ مُدَّتِ ٱلأَيْدِيْ إِلَىٰ ٱلْحَرْبِ كُلُّهَا ... لَكَفُّوْا وَمَا مَدُّوْا إِلَىٰ ٱلْحَرْبِ إِصْبَعَا

(١) زيد بن علي بن الحسين بن علي ٱبن أبي طالب، الإمام، أبو الحسين العلوي الهاشمي القرشي، ويقال له: زيد الشهيد، عدَّه الجاحظ من خطباء بني هاشم. توفي سنة: (١٢٢هـ). عن (٤٣) سنة.
(٢) هو مروان بن سليمان ٱبن أبي حفصة يزيد، شاعر عالي الطبقة توفي سنة: (١٨٢ هـ).
(٣) هو أشهر أجواد العرب وشجعانهم الفصحاء توفي سنة: (١٥١ هـ).

وما أحسنَ قولَ بعضِهم [منَ الوافر] :

إِذَا مَـا أَوَّلُ ٱلْخَطِّـيِّ أَخْطَـا   فَمَـا يُـرْجَـىٰ لآخِـرِهِ ٱنْتِصَـارُ
وَإِنْ جَازَ ٱلْفَتَىٰ عِشْرِينَ عَاماً   وَمَـا بَلَـغَ ٱلْمُـرَادَ فَـذَاكَ عَـارُ

ولٰكنَّ الإمامَ أَبا حنيفةَ أَمهلهُ إِلىٰ خمسةٍ وعشرينَ عاماً ، فمتىٰ بلغَها . . دُفعَ له مالُهُ ، وإِنْ لَمْ يستجمعْ رشدَهُ ؛ لليأسِ مِنْ صلاحِهِ ، ولأَنَّ السنَّ المذكورَ غايةُ ما ينتهي إِليهِ الاستواءُ .

وقالَ أَبو عبادةَ وقد أَوفىٰ علىٰ الإجادةِ [في « ديوانه » ٣/ ١٤١٤ـ١٤١٥ منَ الكامل] :

مُسْتَظْهِـرٌ بِـذَخِيْـرَةٍ مِـنْ رَأْيِـهِ   تُمْضِيْ ٱلأُمُوْرَ وَبَحْرُهَا لَمْ يُنْزَفِ
إِلاَّ يَكُـنْ كَهْـلَ ٱلسِّنِيْـنَ فَـإِنَّـهُ   كَهْلُ ٱلتَّجَارِبِ فِيْ ضَجَاجِ ٱلْمَوْقِفِ
تَبْـدُوْ مَـوَاقِـعُ رَأْيِـهِ وَكَـأَنَّهَـا   غُرَرُ ٱلسَّوَابِقِ مِنْ يَفَاعٍ مُشْرِفِ[1]
وَإِذَا خِطَابُ ٱلْقَوْمِ فِيْ ٱلْخَطْبِ ٱعْتَلَىٰ   فَصَلَ ٱلْقَضِيَّةَ فِـيْ ثَـلاَثَـةِ أَحْـرُفِ

وممَّا يعجبني مِنْ هٰذهِ القصيدةِ قولُهُ [في «ديوانه» ٣/ ١٤١٧ من الكامل] :

قَـاسَمْتَـهُ أَخْـلاَقَـهُ وَهْـيَ ٱلـرَّدَىٰ   لِلْمُعْتَدِيْ ، وَهِيَ ٱلنَّدَىٰ لِلْمُعْتَفِيْ
فَإِذَا جَرَىٰ مِنْ غَايَةٍ وَجَرَيْتَ مِنْ   أُخْرَىٰ ٱلتُقَىٰ شَأْوَاكُمَا فِيْ ٱلْمَنْصَفِ

وما زالَ الناسُ يُعجبونَ بقولِ ٱبنِ هانىء الأَندلسيِّ [منَ الكامل] :

أَبَنِيْ ٱلْعَوَالِيْ ٱلسَّمْهَرِيَّةِ وَٱلْمَوَا   ضِيْ ٱلْمَشْرَفِيَّةِ وَٱلْعَدِيْدِ ٱلأَكْثَرِ
مَنْ مِنْكُمُ ٱلمَلِكُ ٱلْمُطَاعُ كَأَنَّهُ   تَحْتَ ٱلسَّوَابِغِ تُبَّعٌ فِيْ حِمْيَرِ[2]

---

(١) اليفاعُ : ما ارتفعَ منَ الأرضِ .

(٢) السمهريةُ : الرماحُ الصلبةُ الشديدةُ . السوابغُ ، يقالُ : سبغَ الشيءُ : طالَ =

حتَّىٰ وجدْتُ بعضَ لفظِهِ مِنْ قولِ البُحتريِّ [في « ديوانهِ » ٢/ ١٠٢٩ من الكامل] :

وَتَنَاوَلَ ٱلضَّحَّاكَ مِنْ خَلْفِ ٱلْقَنَا وَٱلْمَشْرَفِيَّةِ وَٱلْعَدِيدِ ٱلأَكْثَرِ

وبَعضُ المعنىٰ مِنْ قولِهِ في القصيدةِ الَّتي نوَّهنا بها [في « ديوانهِ » ٣/ ١٤١٣ـ١٤١٤ منَ الكامل] :

يَهْدِيهِمُ ٱلأَسَدُ ٱلْمُطَاعُ كَأَنَّهُ عِنْدَ ٱجْتِمَاعِ ٱلْجَحْفَلِ ٱلْمُتَضَايِفِ
عَمْرُو ٱلْقَنَا فِيْ مَذْحِجٍ أَوْ حَاتِمٌ فِيْ طَيِّئٍ أَوْ عَامِرٌ فِيْ خِنْدِفِ

إلاَّ أنَّ ٱبن هانئٍ بتناسقِ قولِهِ ، وجزالةِ لفظِهِ ، وٱطِّرادِ سياقِهِ ، وحُسنِ ٱتِّباعهِ . . كانَ الأَحقَّ بهِ .

إلمام المتنبي بقول البحتري

وقد أَلمَّ الناظمُ بقولِ البُحتريِّ : (فَصَلَ ٱلْقَضِيَّةَ فِيْ ثَلاَثَةِ أَحْرُفِ) ، وذلكَ حيثُ يقولُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٢/ ٢٨٥ منَ الطويل] :

يَقُوْمُ مَقَامَ ٱلْجَيْشِ تَقْطِيْبُ وَجْهِهِ وَيَسْتَغْرِقُ ٱلأَلْفَاظَ مِنْ لَفْظِهِ حَرْفُ

وفي قولِهِ [في « العُكْبَرِيِّ » ٣/ ٣٩٧ منَ الطويل] :

حُرُوْفُ هِجَاءِ ٱلنَّاسِ فِيْهِ ثَلاَثَةٌ: جَوَادٌ وَرُمْحٌ ذَابِلٌ وَحُسَامُ

تألم المؤلف على ما آل إليه حال العلويين ونصحه لهم

وبمناسبةِ ما سبقَ عَنْ يحيىٰ بنِ زيدٍ ، وما قيلَ في أَبيهِ ، وما ذكرتُهُ عَنْ صاحبِ الزنجِ ، وما سقتُهُ في كرامةِ آبائِنا ، وكونِ الممدوحِ في القصيدةِ الَّتي بينَ أَيدينا علويَّ النسبِ . . أَنعي علىٰ العلويِّينَ ٱنقسامَهم وتخاذُلَهم وٱنحطاطَهم ، حتَّىٰ لقد نهبَ

= وٱتَّسعَ ، وسبغتِ الدروعُ : فهيَ السوابغُ .

الصَّيْعَرُ[1] اثنتينِ مِنَ الإماءِ مرَّةً ، إحداهما لعلويٍّ ، والأُخرىٰ لدلاَّلٍ .
فأمَّا الثاني : فلَمْ يَصِلْ إلىٰ (الريدةِ) لاستنقاذِها إلاَّ في أربعِ مئةٍ مِنْ أبناءِ جنسِهِ ، جاؤوا مدداً لهُ مِنْ نواحي (حضرموت) . وأمَّا العلويُّ : فلَمْ يلبِّهِ أحدٌ ، ولَمْ يَصِلْ إلاَّ وحدَهُ ، فما أحقَّهُ بأنْ يتمثَّلَ لهُم بما سيأتي قُبَيلَ المجلسِ السابعِ : وكَمْ لها مِنْ أخواتٍ تُعَدُّ بالمئاتِ ، لَمْ يَجُفَّ بعضُها بعدُ . ولولا ما في ذِكرِها مِنْ جَرحِ العواطفِ بلا كبيرِ فائدةٍ . . لسردْنا منها ، فإنَّا نَعُدُّ منها ولا نعدِّدُها [منَ البسيط] :

لَوْ كُنْتُ مِنْ مَازِنٍ لَمْ تَسْتَبِحْ إِبِلِيْ ... بَنُوْ اللَّقِيْطَةِ مِنْ ذُهْلِ ابْنِ شَيْبَانَا
لٰكِنَّ قَوْمِيْ وَإِنْ كَانُوْا ذَوِيْ عَدَدٍ ... لَيْسُوْا مِنَ الْخَيْرِ فِيْ شَيْءٍ وَإِنْ هَانَا

والعَجَبُ أنَّكَ لا ترىٰ أحداً مِنَ الناسِ يتكلَّمُ في الأخلاقِ ومدحِ الاجتماعِ مثلَهم ، ومعَ ذلكَ ـ ولا أُحاشي ـ تجدهُم مِنْ أكثرِ الخَلْقِ نفاقاً ، وأفسدِهم أخلاقاً ، وإنَّكَ لتجدُ الحاكمَ وَمَنْ دونَهُم يَفْضُلونَهُم في الهيئةِ الاجتماعيَّةِ بدرجاتٍ ، فما أقلَّ حياءَهُم ، وما أصفقَ وجوهَهُم ؛ إذْ يتبجَّحونَ بالانتسابِ إلىٰ ساداتِ الكونِ علىٰ بُعْدِ ما بينَهُم مِنَ الفرقِ والبَونِ ، وللهِ درُّ القائلِ [منَ البسيط] :

لَسْتُمْ بَنِيْهِمْ وَلَسْتُمْ مِنْ سُلاَلَتِهِمْ ... إِنْ لَمْ يَكُنْ أَمْرُكُمْ مِنْ أَمْرِهِمْ أَمَمَا

وما أحسنَ قولَ الناظمِ [في « العُكْبَرِيّ » ١/١٥٦ منَ الطويل] :

إِذَا عَلَوِيٌّ لَمْ يَكُنْ مِثْلَ طَاهِرٍ ... فَمَا هُوَ إِلاَّ حُجَّةٌ لِلنَّوَاصِبِ[2]

---

(١) الصيعرُ : قبيلة من قبائل (حضرموت) .
(٢) النواصب ـ جمع ناصبٍ ـ : وهم الخوارجُ الذين نصبوا العداوة للإمام عليِّ ابنِ أبي طالبٍ عليه السلام .

وهو مِنْ قولِ شاعرٍ قبلَهُ ، يقولُ لبعضِ العلويِّينَ [منَ الطويل] :

إِذَا ٱلْغُصْنُ لَمْ يُثْمِرْ وَإِنْ كَانَ شُعْبَةً ... مِنَ ٱلْمُثْمِرَاتِ ٱعْتَدَّهُ ٱلنَّاسُ فِي ٱلْحَطَبْ

متى يبلغ البنيان التمام؟!

ولمَّا ٱنحرفَتْ سيرةُ المُوسَوِيِّينَ بـ(بغدادَ) . . كتبَ لهُم أَحدُ محبِّيهم ـ بما قَوْمُنا بِهِ الآنَ أَحقُّ منهم ـ وهو هٰذا [منَ الطويل] :

يَعِزُّ عَلَىٰ أَسْلاَفِكُمْ يَا بَنِي ٱلْعُلاَ ... إِذَا نَالَ مِنْ أَعْرَاضِكُمْ شَتْمُ شَاتِمِ

بَنَوْا لَكُمُ مَجْدَ ٱلْحَيَاةِ فَمَا لَكُمْ ... أَسَأْتُمْ إِلَىٰ تِلْكَ ٱلْعِظَامِ ٱلرَّمَائِمِ

إِذَا ٱلْفُ بَانٍ خَلْفَهُمْ هَادِمٌ كَفَىٰ ... فَكَيْفَ بِبَانٍ خَلْفَهُ ٱلْفُ هَادِمِ

والمعنىٰ موجودٌ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٣٠] ، وقولُهُ : ﴿يسيراً﴾ ممَّا يحقُّ بهِ للأحزانِ أَنْ تُشملَ رياطُها(١) ، وللقلوبِ أَنْ يتقطَّعَ نياطُها(٢) ، فما لنبيٍّ معهُ إرادةٌ ، ولا بينَهُ وبينَ أحدٍ مِنْ خلقِهِ هوادةٌ ، فأَنَّىٰ ينجو المقصِّرُ ، أو يسعدُ الطالحُ ، وقد قالَ الله تعالىٰ لنوحٍ عليه السلام : ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ﴾ [هود : ٤٦] ، وما أَحسنَ ما قلتُ مِنْ قصيدٍ [منَ الطويل] :

إِذَا لَمْ يَسِرْ نَجْلُ ٱلنَّبِيِّ بِسَيْرِهِ ... فَلاَ بِدْعَ إِنْ قَالَ ٱلْعِدَا إِنَّهُ دَعِيْ

أَيُّ حقٍّ نصروهُ ؟! وأَيُّ باطلٍ أَنكروهُ ؟! وأَيُّ واحدٍ منهم تمعَّرَ وجهُهُ(٣) في ذاتِ اللهِ ؟! معَ عَرْضِ دعاويهم وطولِها ، وكثرةِ

---

(١) الرياط : الملاءةُ إذا كانتْ قطعةً واحدةً ، وهو تشبيهٌ للأحزانِ بما ذكرنا .

(٢) نياطُ القلب : عِرقٌ نيطَ به ٱلقلب إلىٰ ٱلوتين .

(٣) تمعُّرُ الوجهِ : تغيُّرُه وٱعتلاءُ الصُّفرةِ عليه من ٱلغيظ .

مواعظِهم وفضولِها ، بلْ أَيُّ رذيلةٍ بـ(حضرموتَ) و(جاوه)[1] لَمْ يقرعوا مروءتَها ، ولَمْ يصعَدوا ذِروتَها ؟!

قصيدة للمؤلف في العلويين

أَرُوْنِي ٱمْرَأً مِنْهُمْ تَمَعَّرَ عِنْدَمَا ... تَمَطَّىٰ ٱلْبَلاَ فِيْ قُطْرِنَا بِظَلاَمِهِ
وَقَامَ ٱحْتِسَاباً يَوْمَ حَلَّتْ بِعُقْرِنَا ... طَلاَئِعُ كُفْرٍ هَمُّهَا فِيْ ٱلْتِهَامِهِ
أَيُغْضِيْ عَلَىٰ هَـٰذَا ٱلْقَذَا جَفْنُ مُسْلِمٍ ... يُـؤَمِّـلُ بِـالإِسْـلاَمِ مَحْـوَ أَثَـامِـهِ ؟
وَيَرْضَىٰ بِتَحْرِيْفِ ٱلشَّرِيْعَةِ طَامِعٌ ... مِنَ ٱللهِ أَنْ يَحْظَىٰ بِحُسْنِ خِتَامِهِ
وَيُدْهِنُ فِيْ ذَاتِ ٱلإِلَـٰهِ وَلَوْ عَدَوْا ... عَلَىٰ شَاتِهِ لَمْ يَنْحَجِزْ عَنْ قِيَامِهِ
وَيَغْضَبُ فِيْ شَرْوَىٰ نَقِيْرٍ وَيُكْثِرُ ... ٱلضَّجَاجَ إِذَا مَا زَادَ مِلْحُ طَعَامِهِ
وَيَخْطِرُ مِثْلَ ٱلْفَحْلِ إِنْ قَصَّرَ ٱمْرُؤٌ ... يُـلاَقِيْـهِ فِـيْ تَقْبِيْلِـهِ وَٱحْتِـرَامِـهِ
إِذَا لَـمْ يَكُـنْ يَـرْجُـوْ وَإِلاَّ فَـإِنَّـهُ ... يُـلاَيِنُـهُ مِـنْ قَبْـلِ رَدِّ سَـلاَمِـهِ
فَهَيْهَاتَ مِمَّنْ كَانَ ذَا وَصْفَهُ ٱلتُّقَىٰ ... وَإِنْ زَادَ فِـيْ تَسْبِيْحِـهِ وَصِيَـامِـهِ
فَزِيُّ صَلاَحِ ٱلْقَوْمِ مَا رَيْتُ مِثْلَهُ ... مِنَ ٱلسُّحْبِ إِلاَّ خَالِيَاتِ جَهَامِهِ[2]

هل صحيح أن الإنسان الذي يبلغ التمام في أمر يُنفذ هذا الأمرَ من ذريته؟

ولا أَزالُ في وَجَلٍ مِنْ مقالةٍ طرقتْ سمعي في « شرحِ النهج » [١٢/٤٥] ، حاصلُها : أَنَّ سيِّدَنا عُمرَ بنَ الخطَّابِ ٱستفرغَ عدلَ ذُرِّيَّتِهِ ، فَلَمْ يتولَّ منهمْ عادلٌ إلاَّ نادراً بطريقةِ الشذوذِ ؛ لأنَّ الأمرَ في أَسلافِنا علىٰ مقرُبةٍ مِمَّا ذُكِرَ عَنِ ٱبْنِ الخطَّابِ في بلوغِ الغاياتِ مِنَ ٱلفضائلِ ، فنخافُ أَن يكونَ السابقونَ إِلىٰ عهدِ المُقدَّمِ[3] ٱستفرغوا

---

(١) جاوه : وتعني (إندونيسية) .

(٢) والأبيات من نظم المؤلِّفَ ـ رحمهُ اللهُ ـ في « ديوانهِ » (٣٠٢ـ٣٠٣) منَ الطويل .
الجَهَامُ : السحابُ الَّذي لا ماءَ فيهِ ، وقيل : الَّذي قد هَراقَ ماءَهُ معَ الريحِ .

(٣) أي : إلى عهدِ الإمامِ شيخِ الشيوخِ الفقيه المُقَدَّمِ : محمَّدِ بنِ عليٍّ الشريف =

ما لِمَنْ بعدَهم مِنَ ٱلجهادِ والكفاحِ ، وملاعبةِ الأَسنَّةِ والصِّفاحِ ، وأَنْ يكونَ الفقيهُ ومَنْ بعدَهُ ٱستفرغوا ما لأَهلِ عصرِنا مِنْ خيرٍ وصلاحٍ ، وفوزٍ ونجاحٍ ، وتقوىً وعبادةٍ ، وورعٍ وزهادةٍ ، ورُبَّما شهدَ الزمانُ ، ودلَّلَ العِيانُ .

وَكَمْ سُقْتُ فِيْ آثارِهِمْ مِنْ نَصِيْحَةٍ وَقَدْ يَسْتَفِيْدُ ٱلظِّنَّةَ ٱلْمُتَنَصِّحُ[1]

الكمال بين الناقصين ذنب

ولٰكنَّهم قد وصلوا ـ مِنْ سوءِ الحالةِ ـ إِلىٰ حَدِّ أَنَّهم يعدُّونَ للإِنسانِ ذنباً كمالَهُ .

قصيدة أخرى للمؤلف في نعي أسلافه وحث إخوانه

ولا بأسَ أَن نختمَ ٱلمجلسَ ـ علىٰ طولِهِ ـ بذروٍ مِنَ ٱلقصيدةِ ٱلَّتي ختمْتُ بها كتابي « صوبَ ٱلرُّكامِ » ؛ لأَنَّ فيهِ مناسبةً للمقامِ [في « ديوان المؤلف » ١٩٧ منَ الطويل] :

وَقَدْ أَلْجَمَ ٱلإِذْهَانُ آلَ مُحَمَّدٍ فَمَا رَيْتُ مَنْ للهِ يَرْضَىٰ وَيَغْضَبُ
كَأَنْ لَمْ يَكُوْنُوْا مِنْ عَلِيٍّ وَلَمْ يَمُتْ لَهُمْ فِيْ قِرَاعِ ٱلْجَوْرِ جَدٌّ وَلاَ أَبُ
وَيَا لَيْتَهُمْ كَانُوْا كَفَافاً وَلاَ جَنَىٰ عَلَىٰ ٱلَّذِيْنِ مِنْهُمْ كَاشِحُونَ وَأَجْلَبُوْا
وَلَوْلاَ ٱفْتِرَاقٌ بَيْنَهُمْ عَمَّ شَرُّهُ لأَوْشَكَ صَدْعُ ٱلْقُطْرِ بِٱلْجَوْرِ يُشْعَبُ
أَلَحُّوْا وَلَجُّوْا فِيْ بِعَادٍ وَبِغْضَةٍ فَقَدْ نَشَّبُوْا فِيْ حَبْلِ غَيٍّ وَأَنْشَبُوْا[2]
وَفِيْ شِعْرِ حَدَّادِ ٱلْقُلُوْبِ نَظِيْرُ مَا ذَكَرْتُ فَمَاذَا يُنْكِرُ ٱلْمُتَحَزِّبُ ؟[3]
وَإِنْ خَاضَ فِيْ ٱلإِصْلاَحِ بَعْضٌ فَإِنَّهَا أَمَانِيُّ آرَاءٍ بِهِمْ تَتَشَعَّبُ

= الحسيني التريمي المتوفَىٰ سنة : (٦٥٣ هـ) بـ(تريم) رحمه الله تعالىٰ .

(١) البيت من الطويل ، الظِّنَّةُ : التهمة .

(٢) نَشَّبُوا وأَنشبوا : تعلقوا بحبل الضلال .

(٣) حداد القلوب : هو الإمام عبد الله الحداد المتوفى سنة (١١٣٢ هـ) رحمه الله تعالى .

يُرِيدُوْنَهُ مِنْ غَيْرِ أَبْوَابِهِ وَهَلْ مَعَ ٱلتَّرْكِ لِلأَسْبَابِ يُرْجَىٰ ٱلْمُسَبَّبُ ؟
يَقُوْلُوْنَ مَا لاَ يَفْعَلُوْنَ وَإِنْ تَشِمْ وَمِيْضَ وُعُوْدٍ مِنْهُمُ فَهِيَ خُلَّبُ(١)
سِرَاعٌ إِلَىٰ مَا فِيْهِ ضَرٌّ بِقَدْرِ مَا يَفِرُّوْنَ عَمَّا فِيْهِ نَفْعٌ مُرَتَّبُ
فَهُمْ فِيْ ٱضْطِرَابٍ مِنْ عُبَابٍ مَذَاقُهُ أُجَاجٌ وَلٰكِنْ لِلسَّفَاهِيْنَ يَعْذُبُ(٢)
لِسُوْقِ ٱلْمَلاَهِيْ وَٱلسَّفَاسِفِ بَيْنَهُمْ رَوَاجٌ وَلٰكِنْ لَيْسَ لِلْحَقِّ مَشْرَبُ
وَلَمَّا رَأَوْنِيْ رَافِعَ ٱلصَّوْتِ بِٱلدُّعَا إِلَيْهِ تَحَامَوْنِيْ كَأَنِّيَ أَجْرَبُ
يُقِرُّوْنَ بِٱلإِجْمَاعِ لِيْ بِتَفَرُّدِيْ وَمَا لِيَ فِيْهِمْ قَطُّ سَهْلٌ وَمَرْحَبُ
جَزَاءُ قِيَامِيْ بِٱلنَّصِيْحَةِ أَنَّنِيْ إِذَا شِدْتُ بُنْيَاناً مِنَ ٱلْمَجْدِ خَرَّبُوْا
يُرِيْدُوْنَ أَنْ يُطْفُوْا بِضِغْنِ نُفُوْسِهِمْ سِرَاجَ هُدىً يُزْكِيْهِ عِلْمٌ فَخُيِّبُوْا
وَيَهْوَوْنَ مَوْتِيْ وَهْوَ مَوْتٌ لِعِزِّهِمْ فَلَيْسَ لَهُمْ إِلاَّيَ فِيْ ٱللَّيْلِ كَوْكَبُ
يَقُوْلُوْنَ لِيْ : وَارِبْ فَتَأْبَى أُبُوَّتِيْ وَأَصْلِيْ وَطَبْعِيْ ، وَٱلطَّبِيْعَةُ أَغْلَبُ(٣)
وَعِرْضٌ كَعَيْنِ ٱلدِّيْكِ مَا فِيْهِ نُكْتَةٌ وَسَلْ هَلْ لِطَعْنٍ صَادِقٍ فِيَّ مَذْهَبُ ؟
عَفَافٌ بِهِ فِيْ ٱلنَّاسِ أَعْطُسُ شَامِخاً كَأَنِّيْ عَلَىٰ حُسْنِ ٱعْتِدَالٍ مُشَذَّبُ(٤)
عَلَىٰ حِيْنَ لاَ عِرْضٌ بِلاَ مَثْنَوِيَّةٍ لأَعْدَائِنَا إِلاَّ بِعَارٍ مُخَضَّبُ(٥)
وَغَايَتُهُمْ أَنْ يَفْتَرُوْا وَمَتَىٰ ٱفْتَرَوْا أَقُوْمُ وَلاَ أَنْسَىٰ ٱلتَّحَدِّيْ وَأَخْطُبُ(٦)

---

(١) تَشِمْ : تنظر ، من شام البرقَ إذا نظر إليه . خُلَّبُ: كاذب ، ومنه قولهم: برق خُلَّب.

(٢) العبابُ : معظمُ السيلِ أو موجُهُ .

(٣) في الأصل: أمومتي، وهو تصحيف. وَارِبْ: خادعْ .

(٤) مُشَذَّبُ : مُهذَّب مُصلَّح .

(٥) بلاَ مَثْنَوِيَّةٍ : بلا استثناء .

(٦) في المخطوط و«الديوان»: أنسىٰ، ولعله قال: أخشىٰ . ولقد تداخل البيت على السيد هنا عمّا في «الديوان» فأخذ صدراً من بيتٍ وعجزاً من البيت الذي =

وَذَلِكَ تَارِيخِي نَقِيٌّ وَحُجَّتِي ... يَخِرُّ صَرِيعاً دُونَهَا ٱلْمُتَعَصِّبُ
وَمَنْ يَكُ فِي شَكٍّ فَهَا أَنَا ذَا وَمَا ... أَخَافُ وَلِي مِنْ نَاصِعِ ٱلْحَقِّ مَرْكَبُ
إِذَا لَمْ أُجِبْ عَنْ كُلِّ قَوْلٍ بِقَاطِعٍ ... فَلاَ عُذْنَ بِي ٱلأَمْثَالُ فِي ٱلْفَهْمِ تُضْرَبُ

ومنها :

بَعُدْتُ بِفَضْلِي عَنْهُمُ قَدْرَ مَا دَنَا ... رِفَاقُ ٱلْخَنَا وَٱلشَّكْلُ لِلشَّكْلِ يَجْذِبُ
وَمَا زَالَ لِي بِٱللهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ ... عَلَى هَامَةِ ٱلشِّعْرَى خِبَاءٌ مُطَنَّبُ(١)
علاءٌ بِلاَ جُنْدٍ وَلاَ رِيحِ دَوْلَةٍ ... عَلَى قُلَلِ ٱلشُّمِّ ٱلذُّرَى يَتَوَثَّبُ
سَأَمْضِي بَرَاحاً لاَ ضَرَاءَ إِلَى ٱلْعُلَى ... وَفِي نَصْرِ دِينِ ٱللهِ لاَ أَتَهَيَّبُ(٢)
وَلِي قَلَمٌ كَٱلْمَشْرَفِيِّ وَمِقْوَلٌ ... يُذِيبُ ٱلصَّفَا آنَاءَ أُمْلِي وَأَكْتُبُ

وٱللهُ أعلمُ

* * *

= يليه، وهي في «الديوان» :

وَغَايَتُهُمْ أَنْ يَكْذِبُوا وَمَتَى ٱفْتَرَوْا ... أَقُولُ تَعَالَوْا قَابِلُونِي فَيَهْرُبُوا
يَعِيبُونَنِي غَيْباً وَفِي كُلِّ مَشْهَدٍ ... أَقُومُ وَلاَ أَنْسَى ٱلتَّحَدِّي وَأَخْطُبُ

(١) الشِّعْرَى : كوكبٌ نيرٌ يَطْلُعُ عند شدةِ ٱلحرِّ . خباءٌ مطنبٌ : بناءٌ من وبرٍ مشدودٌ بالحبالِ .

(٢) البراح : الجهرُ . الضرّاءُ : الاستخفاءُ .

المجلس الرابع

[قالَ أَبو الطيِّبِ المتنبِّي في « العُكْبَرِيّ » ٣/ ١٦٠ منَ الطويل] :

مُحِبِّيْ قِيَامِيْ مَا لِذَالِكُمُ ٱلنَّصْلِ بَرِيًّا مِنَ ٱلْجَرْحَىٰ سَلِيْماً مِنَ ٱلْقَتْلِ

نكوص أصحاب المتنبي عنه وتكليفهم إياه شيئاً ليس من شيمته

إمَّا أَنْ يكونَ معناهُ : تُحبُّونَ قيامي علىٰ أَنْ أَبقىٰ مكتوفاً ، لا يجرحُ نَصلي ، ولا يقتلُ ، وهوَ غيرُ شيمتِهِ التَّي يتحدَّثُ عنها في مثلِ قولِهِ [في « العُكْبَرِيّ » ٤/١٤٨ مِنَ الوافرِ] :

وَمَـا فِـيْ طِبِّـهِ أَنِّـيْ جَـوَادٌ أَضَرَّ بِجِسْمِهِ طُوْلُ ٱلْجَمَامِ[1]

وأَلَمَّ بهِ المعرِّيُ في قولِهِ [في « ديوانهِ » ٢٣٣ منَ الوافرِ] :

إِذَا مَا ٱلنَّارُ لَمْ تُطْعَمْ ضِرَاماً فَـأَوْشِـكْ أَنْ تَمُـرَّ بِهَـا رَمَـادَا

وإمَّا أَنْ يكونَ معناهُ : كيفَ تحبُّونَ نُهوضي بٱلأمرِ ، وقيامي بٱلثورةِ ، والحالُ أَنَّ سيوفَكُم التَّي تعدُّونَها لنُصرتي لَمْ تتعوَّدْ علىٰ الجرحِ والقتلِ .

تألم الإمام من نكوص الأصحاب

وبهِ تذكَّرتُ تأَلُّمَ أَميرِ المؤمنينَ مِنْ نُكوصِ أَصحابِهِ عَنِ ٱلحربِ ، حتَّىٰ قالَ [في «نهجِ البلاغةِ» ٣٤] : ليتَ معاويةَ صارَفني بِكُم صرفَ الدينارِ بٱلدراهمِ ، فأَعطيتهُ عِشرينَ ، وأَخذْتُ منهُ واحداً . . وقالَ :

---

(١) الجَمَامُ : أنْ يُتركَ الفرسُ فلا يُركب .

يا أَشباهَ الرجالِ ، ولا رجالَ ، حلومُ الأَطفالِ ، وعقولُ ربَّاتِ الحِجالِ ، أَكُلَّما قلتُ لكُم : آنفروا لقتالِ عدوِّكُم . . قلْتُم : أَمهِلْنا حتَّىٰ تنسلخَ عنَّا حَمارَّةُ القيظِ ، وإنِ آستنفرتُكم في الشتاءِ . . قُلتُم : أَمهِلْنا حتَّىٰ تذهبَ عنَّا صَبارَّةُ القرِّ[1] ، أَكُلُّ هـٰذا فراراً مِنَ آلحرِّ والقرِّ ؟! لأَنتُم ـ واللهِ ـ مِنَ آلسيفِ أَفرُّ .

وقالَ مرَّةً أُخرىٰ [في « نهج البلاغة » ٣٣] : ليتَ لي بكُم أَلفَ رأَسٍ مِنْ بني فراسِ بنِ غَنَمِ .

هُنَالِكَ لَوْ دَعَيْتَ أَتَاكَ مِنْهُمْ　　فَوَارِسُ مِثْلُ أَرْمِيَةِ آلْحَمِيْمِ[2]

وقالَ أَيضاً [في « نهج البلاغة » ٦٥] : آلذَّليلُ مَنْ نصرتُموهُ ، والقليلُ مَنْ كثَّرتُموهُ ، مَنْ رمىٰ بكُم . . فقد رمىٰ بأَفوَقِ ناصلٍ[3] ، إِنَّكم ـ واللهِ ـ لكثيرٌ في آلباحاتِ ، قليلٌ تحتَ آلرّاياتِ .

فكلُّ هـٰذا نوردُهُ بآلمعنىٰ ؛ لبُعدِ العهدِ ، ولعلوِّ منالِ لهجةِ الإِمامِ ، وفصاحةِ أُسلوبهِ . . يندفعُ الملامُ .

ويشبهُ بعضُهُ قولَ عُوَيْفِ القوافيِّ [مِنَ الطويلِ] :

وَمَا أُمُّكُمْ تَحْتَ آلْخَوَافِقِ وَآلْقَنَا　　بِثَكْلَىٰ ، وَلاَ زَهْرَاءَ مِنْ نِسْوَةٍ زُهْرِ
أَلَسْتُمْ أَقَلَّ آلنَّاسِ عِنْدَ لِوَائِهِمْ　　وَأَكْثَرَهُمْ عِنْدَ آلذَّبِيْحَةِ وَآلْقِدْرِ ؟

البطء عن الضيف والسرعة إلى الطعام تستوجب الهجاء

ومثلهُ في عكسِ قولهِ ـ عليهِ السلامُ ـ للأَنصارِ : « إِنَّكُمْ لتكْثُرُوْنَ عِنْدَ آلْجزَعِ ، وَتَقِلُّوْنَ عِنْدَ آلطَّمَعِ »[4] . . قولُ الآخرِ [مِنَ الطويلِ] :

---

(١) صَبارَّةُ القرِّ : شدَّةُ البردِ .
(٢) البيت من الوافر ، الأرميةُ : السحاب الشديد الوقع . الحميم : مطر القيظ .
(٣) أَفوقِ ناصلٍ : الفَوَقُ : ميلٌ أَو آنكسارٌ في النصلِ ، وهوَ السهمُ .
(٤) له شهرة ، ولم أره عن النبي ﷺ الآن .

صِغَارٌ مَقَارِيهِمْ عِظَامٌ جُعُورُهُمْ ... بِطَاءٌ عَنِ الدَّاعِي إِذَا لَمْ يَكُنْ أَكْلا[1]

وقولُ الحماسيِّ [في «شرحِ حماسة أَبي تمَّامٍ» ٢/١٠٥٧ مِنَ الطويلِ] : كثرة كغثاء السيل

وَكَاثِرْ بسَعْدٍ إِنَّ سَعْداً كَثِيرَةٌ ... وَلاَ تَرْجُ مِنْ سَعْدٍ وَفَاءً وَلاَ نَصْرَا

يَرُوعُكَ مِنْ سَعْدِ بْنِ عَمْرٍو جُسُومُهَا ... وَتَزْهَدُ فِيهَا حِينَ تَقْتُلُهَا خُبْرَا[2]

وقولُ قُرادِ بنِ حَنَشٍ [في «شرحِ حماسةِ أَبي تمَّامٍ» ٢/ ١٠٣٥ـ١٠٣٦ مِنَ الطويلِ] : البرق الخلبي

وَأَنْتُمْ سَمَاءٌ يُعْجِبُ النَّاسَ نَوْؤُهَا ... وَأَكْذَبُ شَيْءٍ بَرْقُهَا وَرُعُودُهَا[3]

فَوَيْلُ امِّهَا خَيْلاً بَهَاءً وَشَارَةً ... إِذَا لاَقَتِ الأَعْدَاءَ لَوْلاَ صُدُودُهَا[4]

وذكرتُ هنا ما لا يليقُ بالأدبِ ذكرُهُ معَ كلامِ الإمامِ في كتابٍ فضلاً عَنْ مجلسٍ واحدٍ لولا سعةُ العُذرِ؛ بأَنَّ مجالِسَنا كالكشكولِ[5].

وقد جاءَ عَنِ السَّلفِ الطَّيِّبِ التَّرخيصُ في مثلِ ذلكَ ، وهوَ ما وقعَ مِنْ أَبي العتاهيةِ معَ عبدِ اللهِ بنِ معنِ بنِ زائدةَ ، وقولُهُ لهُ [في «ديوانِهِ» مِنَ البسيطِ] : أبو العتاهية يهجو عبد الله بن معن بن زائدة

لَمْ تَنْدَ كَفَّاكَ مِنْ بَذْلِ النَّوَالِ كَمَا ... لَمْ يَنْدَ سَيْفُكَ مُذْ قُلِّدْتَهُ بِدَمِ

---

(١) مقاريهم ـ جمعُ مقراةٍ ـ: وهيَ القصعةُ الَّتي يُقرىٰ للضيفِ فيها . جُعُورُهُم ـ جمع جاعرة ـ: وهو حلقة الدبر ، وقصد بذلك كِبَرَهَا عندهم من كثرةِ أكلِهم.

(٢) الخُبْرُ : العلمُ بالشيءِ .

(٣) نوؤُها: ضوؤها. وقيل عن النوء : إنه سقوط نجم في المغرب وطلوع رقيبه من ساعته في المشرق ، وذلك في كل ثلاثة عشر يوماً.

(٤) المعنى: أنَّهم في الهيئة والبهاءِ والمنظرِ فرسانٌ، إلاَّ أنَّهُ لاَ خيرَ فيهم عندَ ملاقاةِ الأعداءِ.

(٥) الكشكول: وعاء المتسول يجمع فيه رزقه، واسم كتاب لبهاء الدين العاملي. وأصل الكلمة آرامية.

وقولُهُ [في « ديوانهِ » ٦٠٨ مِنَ الهزجِ] :

فَصُــغْ مَــا كُنْــتَ حَلَّيْــتَ ... بِــهِ سَيْفَــكَ خِلْخَــالاَ
فَمَــا تَصْنَــعُ بِــٱلسَّيْــفِ ... إِذَا لَــمْ تَــكُ قَتَّــالاَ

عبد الله يأمر غلمانه بارتكاب الفاحشة من أبي العتاهية

وما زالَ يهجوهُ بمثلِ ذلكَ ، وبما هوَ أَمضُّ منهُ . . حتَّىٰ ٱحتالَ عليهِ ، وأَظهرَ لهُ المصافاةَ ، ودعاهُ ، فأَمرَ غِلمانَهُ أَنْ يرتكبوا منهُ الفاحشةَ بمرآهُ ، وتصالحا بعقبِ ذلكَ[1] .

السيوف الممدوحة

وفي عكسِ المعنىٰ يقولُ السَّمَوْأَلُ [في « ديوانهِ » ٤٩ـ٥٠ مِنَ الطويلِ] :

وَأَسْيَافُنَا فِيْ كُلِّ شَرْقٍ وَمَغْرِبٍ ... بِهَا مِنْ قِتَالِ ٱلدَّارِعِيْنَ فُلُوْلُ
مُعَــوَّدَةٌ أَنْ لاَ تُسَــلَّ نِصَــالُهَــا ... فَتُغْمَــدَ حَتَّــىٰ يُسْتَبَــاحَ قَتِيْــلُ

هل عيب السيوف الفلول؟

والأَوَّلُ : شبيهٌ بقولِ النابغةِ الذبيانيِّ [في « ديوانهِ » ٦٠ مِنَ الطويلِ] :

وَلاَ عَيْبَ فِيْهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوْفَهُمْ ... بِهِنَّ فُلُوْلٌ مِنْ قِرَاعِ ٱلْكَتَائِبِ

معرفة عروة بن الزبير سيف أخيه

ويروىٰ [كما في « وفيات الأعيان » ٣/٢٥٧] : أَنَّ عروةَ بنَ الزبيرِ قَدِمَ علىٰ عبدِ المَلِكِ بنِ مروانَ دُبُرَ مقتلِ عبدِ اللهِ بنِ الزبيرِ ، فطلبَ سيفَ أَخيهِ ، فعرضَ عليهِ عبدُ الملِكِ سيوفاً كثيرةً فيها سيفُ عبدِ اللهِ ، فأَخذَ واحداً منها ، فقالَ لهُ عبدُ الملكِ : بِمَ عرفتَهُ؟ قالَ : بقولِ النابغةِ ، وأَنشدَ البيتَ .

لا ينبغي لنبي لبس لأمة أن ينزعها حتى يقاتِل

وأَمَّا الثاني : فشبيهٌ بما صنعَهُ رسولُ اللهِ ﷺ يومَ أُحدٍ ، وذلكَ أَنَّهُ كانَ مِنْ رأيِهِ أَنْ لا يخرجَ عَنِ (ٱلمدينةِ) في لقاءِ قريشٍ ، ثمَّ لَمْ يزلْ بهِ بعضُ أَصحابهِ حتَّىٰ لَبِسَ لأْمَتَهُ[2] ، ولَمَّا ظنُّوا أَنَّهم ٱستكرهوهُ . .

---

(١) ذكر القصة في « الأغاني » (٤/٢٦) .
(٢) لأْمَتُهُ : دِرعُهُ ، وقيلَ : سلاحُهُ .

سُقِطَ في أيديهم ، فقالوا لهُ ، فقالَ [ﷺ] : « لاَ ينبَغِي لِنَبِيٍّ لَبِسَ لأْمَتَهُ أَنْ يَنْزِعَهَا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمِهِ »[1] .

وقالَ الفرزدقُ [في « ديوانِهِ » ١/ ١٣٩ منَ الطويل] : الشعراء وتلبية المنادي

بِأَيْدِي رِجَالٍ لَمْ يُشِيمُوا سُيُوفَهُمْ وَلَمْ يُكْثِرُوا ٱلْقَتْلَىٰ بِهَا حِينَ سُلَّتِ[2]

وقالَ بشَّارٌ [في « ديوانِهِ » ٤/ ١٦٣ منَ الطويل] :

إِذَا مَا غَضِبْنَا غَضْبَةً مُضَرِيَّةً هَتَكْنَا حِجَابَ ٱلشَّمْسِ أَو قَطَرَتْ دِمَا

وقال البُحتريُّ [منَ الوافر] :

فَتىً هَزَّ ٱلْقَنَا فَحَوَىٰ سَنَاءً بِهَا لاَ بِٱلأَحَاظِي وَٱلْجُدُوْدِ

وقالَ يزيدُ المهلَّبيُّ [منَ الطويل] :

سَعَيْتُمْ فَأَدْرَكْتُمْ بِصَالِحِ سَعْيِكُمْ وَأَدْرَكَ قَوْمٌ غَيْرُكُمْ بِٱلْمَقَادِرِ

وقالَ الناظمُ [في « العُكبَريّ » ٤/ ٢٩١ منَ الطويل] :

وَمَا كُنْتَ مِمَّنْ أَدْرَكَ ٱلْمُلْكَ بِٱلْمُنَىٰ وَلَٰكِنْ بِأَيَّامٍ أَشَبْنَ ٱلنَّوَاصِيَا

وقالَ [في « العُكبَريّ » ١/ ٧١ منَ المنسرح] :

أَحْسَنُ مَا يُخْضَبُ ٱلْحَدِيْدُ بِهِ وَخَاضِبِيْهِ ٱلنَّجِيْعُ وٱلْغَضَبُ[3]

يزيد بن المهلب والإمارة

وسلَّمَتْ إحدىٰ حظايا يزيدِ بنِ المهلَّبِ بالإمارةِ عليهِ ، فقالَ متمثِّلاً بقولِ بشرِ بنِ قَطَنَةَ الأسديِّ [منَ الطويل] :

---

(١) أخرجه عن جابر ابن الجارود في « المنتقىٰ » (٢٦٦) بلفظ : « حَتَّىٰ يُقَاتِلَ » . وأورده الهيثمي في « مجمع الزوائد » (٦/ ١٠٧)، وقال: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح .

(٢) لم يشيموا : لم يغمدوا .

(٣) النَّجيعُ : الدَّمُ .

رُوَيْدَكِ حَتَّىٰ تَنْظُرِي عَمَّ تَنْجَلِي غَمَامَةُ هَـٰذَا ٱلْعَارِضِ ٱلْمُتَأَلِّقِ[1]

مكان الأمور الجسيمة

وقالَ العتَّابيُّ [في « الأغاني » ١٣/ ١٣٧ منَ الطويل] :

فَإِنَّ جَسِيمَاتِ ٱلْأُمُورِ مَشُوبَةٌ بِمُسْتَوْدَعَاتٍ فِيْ بُطُوْنِ ٱلأَسَاوِدِ

لا بد دون الشهد من إبر النحل

وقالَ الناظمُ [في « العُكْبَرِيّ » ٣/ ٢٩٠ منَ الطويل] :

ذَرِيْنِيْ أَنَلْ مَا لاَ يُنَالُ مِنَ ٱلْعُلاَ فَصَعْبُ ٱلْعُلاَ فِيْ ٱلصَّعْبِ وَٱلسَّهْلُ فِيْ ٱلسَّهْلِ

تُرِيْدِيْنَ لُقْيَانَ ٱلْمَعَالِيْ رَخِيْصَةً وَلاَبُدَّ دُوْنَ ٱلشَّهْدِ مِنْ إِبَرِ ٱلنَّحْلِ

طعم الموت لا يتغير

وقالَ [في « العُكْبَرِيّ » ٤/ ١١٩ـ١٢٠ منَ الوافر] :

إِذَا غَـامَـرْتَ فِـيْ شَـرَفٍ مَـرُوْمٍ فَـلاَ تَقْنَـعْ بِمَـا دُوْنَ ٱلنُّجُـوْمِ

فَطَعْـمُ ٱلْمَـوْتِ فِـيْ أَمْـرٍ حَقِيْـرٍ كَطَعْمِ ٱلْمَوْتِ فِيْ أَمْرٍ عَظِيْمِ

وَكُلُّ شَجَاعَةٍ فِيْ ٱلْمَرْءِ تُغْنِيْ وَلاَ مِثْلُ ٱلشَّجَاعَةِ فِيْ ٱلْحَكِيْمِ

يَـرَىٰ ٱلْجُبَنَـاءُ أَنَّ ٱلْجُبْـنَ حَـزْمٌ وَتِلْـكَ خَـدِيْعَـةُ ٱلطَّبْـعِ ٱللَّئِيْـمِ

وقالَ [في « العُكْبَرِيّ » ٢/ ١١٤ منَ الطويل] :

إِذَا لَمْ تَجِدْ مَا يَبْتُرُ ٱلْفَقْرَ قَاعِداً فَقُمْ وَٱطْلُبِ ٱلشَّيْءَ ٱلَّذِي يَبْتُرُ ٱلْعُمْرَا

وقالَ [في « العُكْبَرِيّ » ١/ ٢٧٠ منَ الطويل] :

أَهُـمُّ بِشَـيْءٍ وَٱللَّيَـالِـيْ كَـأَنَّهَـا تُطَـارِدُنِيْ عَـنْ كَـوْنِـهِ وَأُطَـارِدُ

وَحِيْداً مِنَ ٱلْخُلاَّنِ فِيْ كُلِّ بَلْدَةٍ إِذَا عَظُمَ ٱلْمَطْلُوْبُ قَلَّ ٱلْمُسَاعِدُ

ولا يُحصىٰ كثرةً ما لهُ في إثارةِ العزائمِ ، وتنبيهِ الحِفَاظِ ، وإذكاءِ الغَيْرةِ ، وإحماءِ المعاطسِ .

---

(١) الخبر مفصلاً في « وفيات الأعيان » (٦/ ٣٠٣) .

ولمّا خرجَ زيدُ بنُ عليٍّ . . حذَّرهُ بعضُ أَبناءِ عمِّه ، وقالَ لهُ : إِنَّ أَهلَ (العراقِ) خَذلوا آباءَكَ ، فهُمْ خاذِلوكَ كما خذلوهُم ، فتأَهَّبْ للموتِ أَو دَع ، فقالَ متمثّلاً [الأبيات لعنترة كما في « الأغاني » ٨/٢٤٨ منَ الكامل] : (شجاعة زيد بن علي)

بَكَرَتْ تُخَوِّفُنِيْ ٱلْحُتُوْفَ كَأَنَّنِيْ أَصْبَحْتُ عَنْ عَرَضِ ٱلْحُتُوْفِ بِمَعْزِلِ
فَأَجَبْتُهَا : إِنَّ ٱلْمَنِيَّةَ مَنْهَلٌ لاَ بُدَّ أَنْ أُسْقَىٰ بِكَأْسِ ٱلْمَنْهَلِ
فَاقْنِيْ حَيَاءَكِ لاَ أَبَا لَكِ وَٱعْلَمِيْ أَنِّيْ ٱمْرُؤٌ سَأَمُوْتُ إِنْ لَمْ أُقْتَلِ

ولمَّا خرجَ داودُ بنُ عليِّ بنِ عبدِ اللهِ وٱبنهُ موسىٰ . . عذلَهُم بعضُ أَصحابهم ، وقالَ لهم : ما تفعلونَ بشيخِ العربِ يزيدَ بنِ عمرَ بنِ هُبيرةَ في فرسانهِ بـ(العراقِ)؟ فقالَ أَبو العبَّاسِ السفَّاحُ ـ وكانَ حاضراً ـ : يا عمُّ ، مَنْ أَحبَّ الحياةَ ذَلَّ ، ثُمَّ تمثلَ بقولِ الأَعشىٰ [في « ديوانهِ » ٣١٧ منَ الطويل] : (شجاعة داوود بن علي وابنه موسى)

فَمَا مِيْتَةٌ إِنْ مِتُّهَا غَيْرَ عَاجِزٍ بِعَارٍ إِذَا ما غَالَتِ ٱلنَّفْسَ غُوْلُهَا[١]

فقالَ داودُ لابنهِ موسىٰ : صدقَ ٱبنُ عمِّكَ ، فلننهضْ معهُ ؛ فإِمَّا أَنْ نفوزَ ، وإِمَّا أَنْ نموتَ كراماً .

ويروىٰ [كما في « وفيات الأعيان » ٣/٧٣] : أَنَّ عبدَ اللهِ بنَ الزبيرِ دخلَ علىٰ أُمِّهِ ، وقد أَضرَّتْ[٢] ، فسلَّمَ ، ودنا ، فقبَّلَ يدَها ، قالتْ : هـٰذا وداعٌ فلا يبعدُ ، قال : إِنِّي لأَرىٰ هـٰذا اليومَ آخرَ أَيامي في الدنيا ، وإِذا قُتِلتُ . . فٱعلمي أَنِّي لحمٌ ودمٌ ، لا يضرُّني ما عساهُمْ (عبد الله بن الزبير وأمه)

---

(١) غولُها ـ بالرفعِ : ما يغتالها .
(٢) أَضَرَّتْ : أصبحت عمياء.

بي صانعونَ ، قالتْ : صدقتَ يا بنيَّ ، فأقمْ علىٰ بصيرتِكَ ، وٱمضِ أَمَماً في شأنكَ ، وتنمَّرْ لعدوِّكَ ، ولا تمكِّنِ ٱبنَ أَبي عقيلٍ منكَ ، ثُمَّ ٱستأذنَتهُ لتودِّعَهُ ، فدنا منها ، فقبَّلَتْهُ ، وعانقَتْهُ ، فوجدَتْ مسَّ الدرعِ ، فقالتْ : ما هـٰذا صنيعُ مَنْ يريدُ الشهادةَ ، فقالَ : إِنَّما لبستُهُ لأَشُدَّ منكِ ، قالت : لا يشدُّ منِّي إلاَّ الثباتُ علىٰ الحقِّ ، فودَّعَها ، وخرجَ يحملُ علىٰ صفوفِ الشامِيِّينَ فيفرِّقُها ، وأَرسلتْ إِليهِ إِحدىٰ أَزواجِهِ ـ وقد رأَتْ تفرُّقَ الناسِ عنهُ ـ أَأَخرجُ فأُقاتلُ معك ؟ فقالَ : لا ، وأَنشدَ [منَ الخفيف] :

كُتِبَ ٱلْقَتْلُ وَٱلْقِتَالُ عَلَيْنَا ... وَعَلَىٰ ٱلْغَانِيَاتِ جَرُّ ٱلذُّيُوْلِ

فلمَّا كانَ الليلُ . . قامَ يصلِّي إِلىٰ قريبِ السَّحَرِ ، ثُمَّ ٱحتبىٰ[1] بحمائلِ سيفهِ ، وأَغفىٰ قليلاً ، ثُمَّ : قامَ فتوضَّأَ ، وصلّىٰ ، وقرأَ : ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم : ١] ، ثُمَّ قالَ بعدَ ٱنقضاءِ صلاتهِ : مَنْ كانَ عنِّي سائلاً . . فإِنِّي في الرعيلِ الأَوَّلِ ، ثُمَّ أَنشدَ [في « شرحِ حماسةِ أَبي تمَّامٍ » ١/٣٤١ منَ الطويل] :

وَلَسْتُ بِمُبْتَاعِ ٱلْحَيَاةِ بِسُبَّةٍ ... وَلاَ مُرْتَقٍ مِنْ خَشْيَةِ ٱلْمَوْتِ سُلَّمَا

ثُمَّ حَملَ حتَّىٰ بلغَ (الحُجُونَ) ، فرُميَ في وجههِ ، فلمَّا وجدَ سخونةَ الدمِ . . قال [في « شرح حماسةِ أَبي تمَّامٍ » ١/٣١٦ منَ الطويل] :

وَلَسْنَا عَلَىٰ ٱلأَعْقَابِ تَدْمَىٰ كُلُوْمُنَا ... وَلَـٰكِنْ عَلَىٰ أَقْدَامِنَا تَقْطُرُ ٱلدِّمَا

---

(١) ٱحتبىٰ : جلسَ علىٰ أَليتيهِ وضمَّ فخذيهِ وساقيه إلىٰ بطنهِ بذراعيهِ ليستندَ ، وٱحتبىٰ بالثوبِ : أَدارهُ علىٰ ساقيهِ وظهرِهِ وهو جالسٌ على نحوِ ما سبقَ ليستندَ ، وكذلكَ الاحتباءُ بالسيفِ .

ثُمَّ حَملَ علىٰ أَهلِ (الشام) ، فغاصَ فيهم ، فاْعتوروهُ بسيوفِهم حتَّىٰ سقطَ ، وجاءَ الحجَّاجُ فوقفَ عليهِ ، وهو مَيْتٌ ، ومعهُ طارقُ بنُ عمرٍو ، فقالَ : ما ولدتِ النساءُ أَذكرَ مِنْ هٰذا! وكانَ قد انفضَّ مِنْ حولهِ عامَّةُ أَصحابهِ ، حتَّىٰ بعضُ أَولادهِ خرجوا إِلىٰ الحجَّاجِ في الأَمانِ ، منهم : حمزةُ وخُبَيْبٌ ، وعزمَ اللهُ لهُ بالثباتِ كما شجعتهُ عليهِ أُمُّه في كلامها السابقِ بعضهُ . وإِنَّها لأُمورٌ تقفُ لها الشعورُ ، وتذرفُ لها العيونُ ، وتمتلىءُ بها القلوبُ .

المفضل الضبي وإبراهيم بن عبد الله بن الحسن

وروىٰ أَبو الفرجِ الأَصبهانيُّ [في « الأغاني » ١٩/ ٢٠٤] عَنِ المُفَضَّلِ بنِ أَحمدَ الضَّبِّيِّ قالَ : خرجَ إِبراهيمُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ الحسنِ ، فلمّا كانَ بـ (المِرْبَدِ) . . استسقىٰ ماءً ، فأُتيَ بهِ ، فشرِبَ ، ثُمَّ تمثَّلَ بأَبياتٍ منها [في «ديوان ضرار بن الخطاب» ٧٥ـ٧٦ من المنسرح] :

إِنِّـيْ لأَنْمِـيْ إِذَا انْتَمَيْـتُ إِلَـىٰ ... عِـزٍّ عَـزِيْـزٍ وَمَعْشَـرٍ صُـدُقِ[١]
بِيْـضٍ سِبَـاطٍ كَـأَنَّ أَعْيُنَهُـمْ ... تُكْحَلُ يَوْمَ الْهِيَاجِ بِالْعَلَقِ[٢]

فقلتُ : لِمَنْ هٰذهِ؟ فقالَ : يقولها ضرارُ بنُ الخطَّابِ الفِهريُّ يومَ عَبرَ الخندقَ علىٰ رسولِ اللهِ ﷺ ، وتمثَّلَ بها عليُّ بنُ أَبي طالبٍ يومَ صفِّينَ ، والحسينُ يومَ الطَّفِّ ، وزيدُ بنُ عليٍّ يومَ السَّبخةِ ، ويحيىٰ بنُ زيدٍ يومَ الجوزجانِ ، فتطيَّرْتُ مِنْ تمثُّلهِ بأَبياتٍ لَمْ ينشدها أَحدٌ إِلاَّ قُتِلَ ، ثُمَّ سرنا إِلىٰ باخمرىٰ ، فأَتاهُ نعيُ أَخيهِ محمَّدٍ ، فتغيَّرَ لونُهُ ، وجَرَضَ بريقِهِ[٣] ، ثُمَّ أَجهشَ باكياً ، وقالَ : اللَّهمَّ إِنْ كنتَ

---

(١) أَنمي : أَنتمي وأَنتسبُ .
(٢) العلقُ : الدمُ الغليظُ ، وصفَهم بحمرةِ الأعينِ ؛ لشدَّةِ الغضبِ في الحربِ .
(٣) جَرَضَ بريقِهِ : ابتَلعَ ريقَهُ على همٍّ وحزنٍ بالجهدِ .

تعلَمُ أَنَّ محمَّداً خرجَ يطلُبُ مرضاتِكَ ، ويؤثرُ أَنْ تكونَ كلمتُكَ العليا . . فاْغفرْ لهُ ، واْرحمهُ ، واْرضَ عنهُ ، ثُمَّ تمثَّلَ [منَ البسيط] :

ٱللهُ يَعْلَـمُ أَنِّـي لَـوْ خَشِيتُهُـمُ ... لآنَسَ ٱلْقَلْبُ مِنْ خَوْفٍ لَهُمْ فَزَعَا
لَمْ يَقْتُلُوكَ وَلَمْ أُسْلِمْ أُخَيَّ لَهُمْ ... حَتَّىٰ نَعِيشَ جَمِيعاً أَوْ نَمُوتَ مَعَا

قالَ المُفضَّلُ : فجعلتُ أُعزِّيهِ ، وأُعاتبهِ علىٰ ما أَظهرَ مِنْ جزعهِ . فقالَ : إِنِّي ـ واللهِ في هٰذا ـ لَكَما قالَ دريدٌ [في «ديوانه» ٦٣ـ٦٥ منَ الطويل] :

يَقُـولُ أَلاَ تَبْكِـي أَخَـاكَ وَقَـدْ أَرَىٰ ... مَكَانَ ٱلْبُكَا لَكِنْ بُنِيتُ عَلَىٰ ٱلصَّبْرِ
لِمَقْتَـلِ عَبْـدِ ٱللهِ وَٱلْهَـالِـكِ ٱلَّـذِيْ ... عَلَىٰ ٱلشَّرَفِ ٱلأَعْلَىٰ قَتِيلِ أَبِيْ بَكْرِ
فَـإِمَّـا تَـرَيْنَـا لاَ تَـزَالُ دِمَـاؤُنَـا ... لَدَىٰ وَاتِرٍ يَسْعَىٰ بِهَا آخِرَ ٱلدَّهْرِ
فَإِنَّا لَلَحْمُ ٱلسَّيْفِ غَيْرَ نَكِيرَةٍ ... وَنَلْحَمُهُ طَوْراً وَلَيْسَ بِذِيْ نُكْرِ
يُغَـارُ عَلَيْنَـا وَاتِـرِيْـنَ فَيُشْتَفَـىٰ ... بِنَا إِنْ أُصِبْنَا أَو نُغِيرُ عَلَىٰ وِتْرِ(١)
بِذَاكَ قَسَمْنَا ٱلدَّهْرَ شَطْرَيْنِ بَيْنَنَا ... فَمَا يَنْقَضِيْ إِلاَّ وَنَحْنُ عَلَىٰ شَطْرِ

قالَ المُفَضَّلُ : ثُمَّ ظهرت لنا جيوشُ أَبي جعفرٍ مثلَ الجرادِ ، فأَنشدَ إِبراهيمُ(٢) متمثِّلاً [في «الأغاني» ١٩/ ٢٠٤ منَ الطويل] :

إِنْ يَقْتُلُونِيْ لاَ تُصِبْ أَرْمَاحُهُمْ ... ثَأْرِيْ وَيَسْعَىٰ ٱلْقَوْمُ سَعْياً جَاهِدَا
نُبِّئْتُ أَنَّ بَنِيْ جُذَيْمَةَ أَجْمَعَتْ ... أَمْـراً تُـدَبِّـرُهُ لِتَقْتُـلَ خَـالِـدَا
أَرْمِيْ ٱلطَّرِيْقَ وَإِنْ رُصِدْتُ بِضِيقَةٍ ... وَأُنَازِلُ ٱلْبَطَلَ ٱلْكَمِيَّ ٱلْحَارِدَا(٣)

---

(١) الوِتْرُ : الثأر .
(٢) هو إِبراهيمُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ حسنٍ العلويُّ . « السير » (٦/ ٢١٨) .
(٣) الكميُّ : الشجاعُ المقدامُ الجريءُ كانَ عليهِ سلاحٌ أَو لمْ يكنْ . الحارد : الغضبان .

فقلتُ لهُ : لِمَنْ هٰذا يا ٱبنَ رسولِ اللهِ ؟ قالَ : يقولهُ خالدُ بنُ جعفرِ بنِ كلابٍ يومَ (شِعْبِ جَبَلَةَ) ، ثُمَّ ٱنغمسَ في الحربِ ، فقلتُ لهُ : أتباشرُ القتالَ بنفسكَ ، وإنَّما العسكرُ منوطٌ بكَ؟! فتمثَّلَ بأَبياتٍ لعويفِ القوافيِّ ، والتحمتِ الحربُ ، فقالَ : ٱحكني بشيءٍ يا مفضلُ ، فذكرتُ أبياتاً لعويفٍ لمّا كانَ هو ـ عليهِ السلامُ ـ قد ذكرهُ ، فأَنشدتُهُ [مِنَ الطويلِ] :

أَبَىٰ كُـلُّ حُـرٍّ أَنْ يَبِيتَ بِـوِتْـرِهِ ... وَيُمْنَـعَ مِنْـهُ ٱلنَّـوْمُ إِذْ أَنْـتَ نَـائِـمُ
أَقُـوْلُ لِفِتْيَـانٍ كِـرَامٍ تَـرَوَّحُـوْا ... عَلَىٰ ٱلْجُرْدِ فِيْ أَفْوَاهِهِنَّ ٱلشَّكَائِمُ[1]
قِفُوْا وَقْفَةً مَنْ يَحْيَ لاَ يَخْزَ بَعْدَهَا ... مَـنْ يُخْتَـرَمْ لاَ تَتْبَعْـهُ ٱللَّـوَائِـمُ
وَهَلْ أَنْتَ إِنْ بَاعَدْتَ نَفْسَكَ عَنْهُمُ ... لِتَسْلَـمَ فِيْمَـا بَعْـدَ ذَلِـكَ سَـالِـمُ ؟

فقالَ : أَعِدْها عليَّ ، فأَعدتُها ، فتمطَّىٰ في ركابيهِ ، فقَطَعهما وحملَ ، فغابَ في القومِ يفرِّقهم ذاتَ اليمينِ وذاتَ الشمالِ ، حتَّىٰ أَتاهُ سهمٌ عائرٌ[2] فقتلهُ رضوانُ اللهِ عليهِ[3] .

أبو تمام والشجاعة

وما أَحسنَ قولَ أَبي تمَّامٍ [في « ديوانهِ » ٢/٣٠٣ـ٣٠٤ مِنَ الطويلِ] :

وَقَدْ كَانَ فَوْتُ ٱلْمَوْتِ سَهْلاً فَرَدَّهُ ... إِلَيْهِ ٱلْحِفَاظُ ٱلْمُرُّ وَٱلْخُلُقُ ٱلْوَعْرُ
وَنَفْـسٌ تَعَـافُ ٱلضَّيْـمَ حَتَّـىٰ كَـأَنَّـهُ ... هُوَ ٱلْكُفْرُ يَوْمَ ٱلرَّوْعِ أَو دُوْنَهُ ٱلْكُفْرُ
فَأَثْبَتَ فِيْ مُسْتَنْقَعِ ٱلْمَوْتِ رِجْلَهُ ... وَقَالَ لَهَا مِنْ تَحْتِ أَخْمَصِكِ ٱلْحَشْرُ

(١) الجردُ ـ جمع أجرد ـ : الحصان . الشكائمُ : ما يَلجم فمَ الفرسِ منَ الحديدِ .
(٢) سهمٌ عائرٌ : الطائشُ الذي لا يعرفُ راميهِ .
(٣) جاء في «الأغاني» (١٩/ ٢٠٥).

فتىً مَاتَ بَيْنَ ٱلطَّعْنِ وَٱلضَّرْبِ مِيتَةً تَقُومُ مَقَامَ ٱلنَّصْرِ إِنْ فَاتَهُ ٱلنَّصْرُ
تَرَدَّىٰ ثِيَابَ ٱلْمَوْتِ حُمْراً فَمَا دَجَىٰ لَهَا ٱللَّيْلُ إِلاَّ وَهْيَ مِنْ سُنْدُسٍ خُضْرُ

وقالَ [في « ديوانِه » ١/ ٤٠٤ مِنَ الوافرِ] :

فَتَىٰ ٱلنَّكَبَاتِ مَنْ يَأْوِيْ إِذَا مَا يَطُفْـنَ بِـهِ إِلَـىٰ خُلُـقٍ وَسَـاعِ
يُثِيْـرُ عَجَـاجَـةً فِـيْ كُـلِّ فَـجٍّ يَهِيْمُ بِهَا عَدِيُّ بْنُ ٱلرِّقَاعِ(١)
يَخُوْضُ مَعَ ٱلسِّبَاعِ ٱلْمَاءَ حَتَّىٰ لَتَحْسَبُـهُ ٱلسِّبَـاعُ مِـنَ ٱلسِّبَـاعِ
يُلَبِّيْ ٱلْحَزْمَ إِنْ حَاوَلْتَ يَوْماً بِـأَنْ يَسْطِيْـعَ غَيْـرَ ٱلْمُسْتَطَـاعِ
فَلَمْ يَرْكَبْ كَنَاجِيَةِ ٱلْمَهَارِيْ وَلَمْ تَرْكَبْ هُمُوْمَكَ كَٱلزَّمَاعِ(٢)

وقالَ [في « ديوانِه » ١/ ٣٩٣ـ٣٩٤ مِنَ الخفيفِ] :

إِنَّ خَيْراً مِمَّا رَأَيْتُ مِنَ ٱلصَّفْـ ـحِ عَنِ ٱلنَّائِبَاتِ وَٱلإِغْمَاضِ
عَـزْمَـةٌ تَقْتَـدِيْ بِعَـزْمَـةِ قَيْـسِ بْـ ـنِ زُهَيْرٍ وَٱلْحَارِثِ بْنِ مُضَاضِ(٣)
غَـرَضَـيْ نَكْبَتَيْـنِ مَـا فَتَـلاَ رَأْ ياً فَخَافَا عَلَيْهِ نَكْثَ ٱنْتِقَاضِ
مَـنْ أَبَـنَّ ٱلْبُيُـوْتَ أَصْبَـحَ فِـيْ ثَـوْ بٍ مِنَ ٱلْعَيْشِ لَيْسَ بِٱلْفَضْفَاضِ(٤)
وَٱلْفَتَـىٰ مَـنْ تَعَـرَّفَتْـهُ ٱللَّيَـالِـيْ وَٱلْفَيَافِيْ كَٱلْحَيَّةِ ٱلنَّضْنَاضِ(٥)

---

(١) ذكرَ الاسمَ لمناسبتِهِ للقافيةِ، ولا علاقةَ لهُ بالموضوعِ .

(٢) ناجيةُ المهاري : الناقةُ الكريمةُ . الزَّماعُ : العزمُ علىٰ الرحيلِ ؛ أي : لم تُضعِ الرحلُ علىٰ شيءٍ يضاهي الناقة الكريمةَ ، ولَم تركبْ همومُكَ علىٰ دابةٍ مثلُ عزمِكَ علىٰ الرحيلِ .

(٣) العزمُ : الصبر على الشدائدِ . وعزمةٌ : خبرُ (إنَّ) في البيتِ السابقِ . وقيسُ بنُ زهير العبسي مشهورٌ ، حاربَ ذِبيانَ وانتقلَ في البلادِ كثيراً ، والحارثُ بنُ مضَاضٍ ينتسبُ في جُرْهُمَ، كانَ رئيساً في (مكةَ) أيامَ كانَ قومهُ فيها.

(٤) أبنَّ : أقَامَ .

(٥) الحيةُ النضناضُ : التي لا تثبتُ في مكانها لِشرَّتها ونشاطِها .

كُلَّ يَوْمٍ لَهُ بِصَرْفِ ٱللَّيَالِيْ   فَتْكَةٌ مِثْلُ فَتْكَةِ ٱلْبَرَّاضِ[1]

تسهيل الصعب بم يكون؟

وقالَ أبو عبادةَ [البُحتريُّ في « ديوانه » ١/ ٦٣٣-٦٣٤ مِنَ الخفيف] :

يَا نَدِيمَيَّ بِٱلسَّوَاجِيرِ مِنْ شَمْـ   ـسِ بْنِ عَمْرٍو وَبُحْتَرِ بْنِ عَتُوْدِ[2]
أُطْلُبَا ثَالِثاً سِوَايَ فَإِنِّيْ   رَابِعُ ٱلْعِيْسِ وَٱلدُّجَىٰ وَٱلْبِيْدِ
لَسْتُ بِٱلْعَاجِزِ ٱلضَّعِيْفِ وَلاَ ٱلْقَا   ئِلِ يَوْماً : إِنَّ ٱلْغِنَىٰ بِٱلْجُدُوْدِ[3]
وَإِذَا ٱسْتُصْعِبَتْ مَقَادَةُ أَمْرٍ   سَهَّلَتْهُ أَيْدِي ٱلْمَهَارَىٰ ٱلْقُوْدِ[4]

المتنبي والشجاعة

وما أحسنَ قولَ الناظمِ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ١٤٨-١٤٩ مِنَ الطويلِ] :

أُطَاعِنُ خَيْلاً مِنْ فَوَارِسِهَا ٱلدَّهْرُ   وَحِيْداً، وَمَا قَوْلِيْ كَذَا وَمَعِيْ ٱلصَّبْرُ ؟!
وَأَشْجَعُ مِنِّيْ كُلَّ يَوْمٍ سَلاَمَتِيْ   وَمَا ثَبَتَتْ إِلاَّ وَفِيْ نَفْسِهَا أَمْرُ
تَمَرَّسْتُ بِٱلأَيَّامِ حَتَّىٰ تَرَكْتُهَا   تَقُوْلُ: أَمَاتَ ٱلْمَوْتُ أَمْ ذُعِرَ ٱلذُّعْرُ[5] ؟
وَأَقْدَمْتُ إِقْدَامَ ٱلأَتِيِّ كَأَنَّ لِيْ   سِوَىٰ مُهْجَتِيْ أَوْ كَانَ لِيْ عِنْدَهَا وِتْرُ[6]
ذَرِ ٱلنَّفْسَ تَأْخُذْ حَظَّهَا قَبْلَ بَيْنِهَا   فَمُفْتَرِقٌ جَارَانِ دَارُهُمَا ٱلْعُمْرُ

---

(١) البرَّاضُ بن قيس الكناني توفي نحو (٣٥ ق.هـ) ، قتلَ عروةَ الرجال ، فاتك جاهلي ، يضرب بفتكهِ المثل ، كان فجَّر حربَ الفجار التي وقعت بينَ قيسٍ وكنانةَ .
(٢) السواجرُ : نهرٌ مشهورٌ مِنْ عملِ (منبجٍ) بـ(سوريا) .
(٣) الجدودُ : الحظوظُ .
(٤) المهارىٰ ـ جمعُ مهريَّةٍ ـ : وهي الناقةُ التي تسبق الخيل ، نسبةً إلىٰ بني مهرة بنِ حيدانَ ؛ وهم حيٌّ مِنَ العربِ ٱشتهروا بإبلهم . القودُ ـ جمعُ قوداءَ ـ : وهي الطويلةُ الأعناقِ .
(٥) في «العكبري» : (بِٱلآفَاتِ) بدل (بِٱلأَيَّامِ).
(٦) الأَتِيُّ : السيل المندفع .

وَلاَ تَحسَبَنَّ ٱلْمَجْدَ زِقّاً وَقَيْنَةً　　فَمَا ٱلْمَجْدُ إِلاَّ ٱلسَّيْفُ وَٱلْفَتْكَةُ ٱلْبِكْرُ
وَتَضْرِيبُ هَامَاتِ ٱلْمُلُوكِ وَأَنْ تُرَىٰ　　لَكَ ٱلْهَبَوَاتُ ٱلسُّودُ وَٱلْعَسْكَرُ ٱلْمَجْرُ(١)
وَتَرْكُكَ فِي ٱلدُّنْيَا دَوِيّاً كَأَنَّمَا　　تَدَاوَلَ سَمْعَ ٱلْمَرْءِ أَنْمُلُهُ ٱلْعَشْرُ

ابن المقرب والشجاعة

وفي « ديوانِ ٱبنِ المقربِ » الغثُّ والسمينُ ؛ فمِنْ سمينهِ الَّذي يذكي الحميَّةَ ، ويهيجُ الغَيْرَةَ ، ويكادُ يقذفُ بالمَوْتُورِ مِنْ سرجهِ إِلىٰ ساحةِ الوغىٰ . . قولُهُ [منَ الوافر] :

تُخَوِّفُنِي ٱبْنَةُ ٱلْعَبْدِيِّ فَتْكِي　　وَإِقْحَامِي ٱلْمَهَالِكَ وَٱفْتِرَاعِي
وَتَعْذِلُنِي عَلَىٰ إِنْفَاقِ مَالِي　　وَتَزْعُمُ أَنَّهُ لِلْفَقْرِ دَاعِي
فَقُلْتُ لَهَا وَقَدْ أَرْبَتْ وَزَادَتْ　　رُوَيْدَكِ لاَ شُفِيتِ فَلَنْ تُطَاعِي
أَأَخْشَىٰ ٱلْفَقْرَ وَٱلدُّنْيَا مَتَاعٌ　　وَرَبِّي بِٱلْكِرَامِ أَبَرُّ رَاعِي
وَلَمْ يَحْفَظْ مُضَاعَ ٱلْمَجْدِ شَيْءٌ　　مِنَ ٱلأَشْيَاءِ كَٱلْمَالِ ٱلْمُضَاعِ
ذَرِينِي وَٱلْمُلُوكَ بِكُلِّ أَرْضٍ　　أُكَايِلُهَا ٱلرَّدَىٰ صَاعاً بِصَاعِ
فَمَا أَيْمَانُهُمْ تَعْلُو شِمَالِي　　وَلاَ أَبْوَاعُهُمْ تَعْلُو ذِرَاعِي(٢)
سَأَطْلُبُ حَقَّ آبَائِي وَحَقِّي　　وَلَوْ مِنْ بَيْنِ أَنْيَابِ ٱلأَفَاعِي

سرقة الشعراء من بعضهم

وقولُهُ : (وَلَمْ يَحْفَظْ مُضَاعَ ٱلْمَجْدِ شَيْءٌ . . . إلخ) مأخوذٌ برُمَّتهِ مِنْ أَبي تمَّامٍ ، وقد أَخذهُ الناظمُ بمعناهُ ، فقالَ [في « العُكْبَريّ » ٣/ ١٨٥ من الطويل] :

إِلَىٰ رَبِّ مَالٍ كُلَّمَا شَتَّ شَمْلُهُ　　تَجَمَّعَ فِي تَشْتِيتِهِ لِلْعُلاَ شَمْلُ

---

(١) الهبواتُ : الغبارُ الكثيفُ . المَجْرُ ، يُقالُ : جيشٌ مَجْرٌ ، كثيرٌ جداً .
(٢) أبواعٌ - جمع باعٍ وبوعٍ : وهو وحدةُ قياسٍ مقدارُها ما بينَ الكفينِ حالَ بسطِهِمَا ، وتعادل : (٢) متراً . والذراعُ : وحدةُ قياسٍ مقدارُهَا ما بينَ طرفِ المرفقِ إلى طرفِ الإصبعِ الوسطىٰ . والبوع أيضاً عظم يلي إبهام الرجل .

وقالَ [في « العُكْبَرِيّ » ٢/ ٢٦٤ منَ الكامل] :

أَبَداً يُصَدِّعُ شَعْبَ وَفْرٍ وَافِرٍ ... وَيَلُمُّ شَعْبَ مَكَارِمٍ مُتَصَدِّعَا(١)

إلاَّ أنَّهُ أرادَ أنْ يمدحَ فذمَّ ؛ وذلكَ لاقتضاءِ كلامِهِ تصدُّعَ مكارمِ ممدوحِهِ .

وقولُ أَبي تمَّامٍ السابقُ : (يَخُوْضُ مَعَ ٱلسِّبَاعِ ٱلْمَاءَ حَتَّىٰ . . . إلخ) مأخوذٌ مِنْ قولِ عبدِ اللهِ بنِ ثعلبةَ الأَزديِّ [من مجزوء الكامل] :

تَـرِدُ ٱلسِّبَـاعُ مَعِـي فَتَحْـ ... ـسَبُنِـي ٱلسِّبَـاعُ مِـنَ ٱلسِّبَـاعِ

اجمل ما قيل في التحريض على الإباء

والأَشعارُ في التحريضِ علىٰ الإباءِ والأَنَفِ مِنِ ٱحتمالِ الضيمِ أكثرُ مِنْ أنْ تُذكَرَ ، ويأتي في هٰذهِ المجموعةِ الكثيرُ الطيِّبُ منها بحسَبِ المناسباتِ ، ومِنْ أَحسنِها ، أو أَحسنُها علىٰ الإطلاقِ عندي . . قولُ بعضِ الخوارجِ [في « شعرِ الخوارجِ » ١١٧ـ١١٨ منَ الطويل] :

وَمَنْ يَخْشَ أَظْفَارَ ٱلْمَنَايَا فَإِنَّنَا ... لَبِسْنَا لَهُنَّ ٱلسَّابِغَاتِ مِنَ ٱلصَّبْرِ

وَإِنَّ كَرِيهَ ٱلْمَوْتِ عَذْبٌ مَذَاقُهُ ... إِذَا مَا مَزَجْنَاهُ بِطِيْبٍ مِنَ ٱلذِّكْرِ

* * *

(١) الشَّعبُ : مصدر شَعَبْتُ الشيءَ إذا لأَمْتُه . الوفرُ : الغنىٰ . والمعنى: يفرق المال ويجمع المكارم .

[قالَ أَبو الطيِّبِ المتنبِّي - في « العُكْبَرِيِّ » ٣/ ١٦٠ منَ الطويل]:

وَخُضْرَةُ ثَوْبِ ٱلْعَيْشِ فِيْ ٱلْخُضْرَةِ ٱلَّتِيْ ... تُرِيْكَ ٱحْمِرَارَ ٱلْمَوْتِ فِيْ مَدْرَجِ ٱلنَّمْلِ

تشبيه المتنبي السيف

شبَّهَ صفيحةَ السيفِ بمدرجِ النمل ؛ لِمَا فيهِ مِنْ آثارِ الفِرِنْدِ[1] ، وقالَ : إنَّ خفضَ العيشِ وطيبَهُ لا يكونُ إلاَّ في ٱستعمالِ السيفِ الَّذي يميلُ صفاؤهُ إِلىٰ الخُضرةِ ؛ لأَنَّهُ أَفضلُ السيوفِ ، وفي المعنىٰ قولهُ ﷺ : « وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِيْ »[2] .

أفضل المكاسب المغانم

وصرَّحَ الفقهاءُ : بأَنْ أَفضلَ المكاسبِ المغانمُ ، فما جاءَ بها الناظمُ مِنْ كيسهِ ، ولا استنزلَها مِنْ سمائهِ ، ولا يُحصىٰ مَنِ ٱفتخرَ مِنَ ٱلعربِ بصُفُورةِ اليدِ مِنَ ٱلمالِ مَعَ ٱلاحتفاظِ بالسلاحِ .

تمادح الشعراء بصفورة اليد إلا من عدة القتال

قالَ أَبو الأَبيضِ العَنْسيُّ [في « ديوان الحماسة » ١/ ١٧٩ منَ الطويل] :

وَمَا لِيَ مَالٌ غَيْرَ دِرْعٍ وَمِغْفَرٍ ... وَأَبْيَضَ مِنْ مَاءِ ٱلْحَدِيْدِ صَقِيْلِ
وَأَسْمَرَ خَطِّيِّ ٱلْقَنَاةِ مُثَقَّفٍ ... وَأَجْرَدَ عُرْيَانِ ٱلسَّرَاةِ طَوِيْلِ[3]

(١) الفِرِنْدُ : ما يُرىٰ في السيفِ مِنْ تموُّجاتِ الضوءِ . ومدرجُ النملِ: طريقةُ الذي يمشي فيهِ.

(٢) طرف الحديث أورده الهيثمي في « مجمع الزوائد » (٥/ ٢٦٧) وقال: رواه الطبراني ، وفيه عبد الرحمن بن ثابت ، وثقه ابن المديني وأبو حاتم وغيرهما ، وضعفه أحمد وغيره ، وبقية رجاله ثقات .

(٣) الأسمرُ المثقَّفُ : الرمُح المسوَّىٰ . السراةُ مِن كلِّ شيءٍ: أعلاهُ ، وسراةُ الفرسِ أعلىٰ مَتنهِ .

وقالَ حاتِمٌ [في « ديوانه » ٤٧ منَ الطويل] :

مَتَىٰ مَا يَجِيءْ يَوْماً إِلَىٰ ٱلْمَالِ وَارِثِي ... يَجِدْ جَمْعَ كَفٍّ غَيْرَ مَلأَىٰ وَلاَ صِفْرِ

يَجِدْ فَرَساً مِثْلَ ٱلْعَنَانِ وَصَارِماً ... حُسَاماً إِذَا مَا هُزَّ لَمْ يَرْضَ بِٱلْهَبْرِ(١)

وَأَسْمَرَ خَطِّيّاً كَأَنَّ كُعُوبَهُ ... نَوَىٰ ٱلْقَسْبِ قَدْ أَرْبَىٰ ذِرَاعاً عَلَىٰ ٱلْعَشْرِ(٢)

هـٰذا ما يقولُ أخو طيٍّ ، أمَّا صاحبنا : فقد شاءَ مِنْ ولعهِ بالغلوِّ أَنْ يزيدَ عليهِ ، فقالَ [في « العُكبَريّ » ٤/ ٢٩٢ منَ الطويل] :

وَأَسْمَرَ ذِي عِشْرِينَ تَرْضَاهُ وَارِداً ... وَيَرْضَاكَ فِي إِيرَادِهِ ٱلْخَيْلَ سَاقِيَا

وقالَ المجنُّ بنُ جُوَينٍ يمدحُ عمرَو بنَ معديكربَ الزُّبيديَّ حينما أَطلقَهُ مِنَ ٱلأَسرِ [منَ الطويل] :

فَتىً جُلُّ مَا يَحْوِيهِ زَغْفٌ مَفَاضَةٌ ... وَطَرْفٌ جَوَادٌ وَٱلرُّدَيْنِيَّةُ ٱلسُّمْرُ(٣)

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ عَنَمَةَ الضبيُّ [مِنَ البسيطِ] :

وَقَدْ أَرُوحُ أَمَامَ ٱلْحَيِّ يَقْذِفُنِي ... صَافِي ٱلأَدِيمِ كُمَيْتُ ٱللَّوْنِ مَكْسُوبُ

مُجَنَّبٌ مِثْلُ شَاطِي ٱلرَّمْلِ مُحْتَقَرٌ ... بِٱلْعَفْرَتَيْنِ عَلَىٰ أُوْلاَهُ مَصْبُوبُ

فَذَاكَ ذُخْرِي إِذَا مَا خَيْلُهُمْ رَكَضَتْ ... إِلَىٰ ٱلْمَنُونِ هَفَا لِلرَّوْعِ سَرْحُوبُ(٤)

---

(١) الهبرُ : قِطَعُ اللحمِ .

(٢) القَسبُ : نوعٌ مِنَ التمورِ .

(٣) زَغفٌ مَفَاضَةٌ : درعٌ واسعةٌ . الرُّدَينيَّةُ : الرماحُ ، وسميتْ بذلكَ؛ نسبةً إلى امرأةٍ كانتْ تسوي الرماحَ .

(٤) السرحوبُ : الطويلُ الحسنُ الجسمِ ، وفرسٌ سرحوبٌ : طويلةٌ على وجهِ الأرضِ .

وقالَ عمرُو بنُ براقِ الهمدانيُّ [في «الأغاني» ٢١/ ١٧٥ـ١٧٦ مِنَ الطويلِ] :

وكيفَ يَنامُ ٱللَّيْلَ مَنْ جُلُّ مَالِهِ ... حُسَامٌ كَلَوْنِ ٱلْمِلْحِ أَبْيَضُ صَارِمُ
كَذَبْتُمْ وَبَيْتِ ٱللهِ لاَ تَأْخُذُونَهَا ... مُرَاغَمَةً مَا دَامَ لِلسَّيْفِ قَائِمُ
وَمَنْ يَطْلُبِ ٱلْمَالَ ٱلْمُمَنَّعَ بِٱلْقَنَا ... يَعِشْ مَاجِداً[1] أَوْ تَخْتَرِمْهُ ٱلْخَوَارِمُ

الحجر الذي لا يعجبك يشجُّك

وذكرَ الزبيرُ بنُ بكَّارٍ : أَنَّ نُهَيْكَ بنَ أَساقِ الحارثيَّ ٱفتقرَ ، فقدمَ علىٰ مصعبِ بنِ الزبيرِ ، حينَ بلغهُ أَنَّ أَهلَ (الراذانِ) قد خلعوهُ ، فندبَ الناسَ مراراً ، فلم ينتدبْ لَهُ إِلاَّ نهيكُ ، قامَ محتزماً بحبلٍ ، وعلىٰ رأسهِ سَمَلُ[2] عمامةٍ مُتنكِّباً قوساً عربيَّةً ، فقالَ : أَنا لهُم ، قالَ : ومَنْ أَنتَ؟ فٱنتسبَ لهُ ، فقالَ : ٱجلسْ ، وكأَنَّهُ ٱزدراهُ ، ثُمَّ أَعادَ القولَ فلمْ يقُمْ غيرُهُ ، فعلَ ذلكَ مراراً ، فقالَ لهُ مصعبٌ : ما عندكَ؟ قالَ : عزمٌ إِذا أَبصرتُ ، ومشاورةٌ إِذا شككتُ ، قالَ : أَنتَ لها ، وعقدَ لهُ عليها ، وقالَ لهُ : إِنْ أَظفرَكَ اللهُ بها . . أَطعمتُكها سنةً ، فخرجَ وظفِرَ ، وبعثَ إِلىٰ أُمِّهِ إِبلاً مُحمَّلَةً ، وكتبَ إِليها يقول [مِنَ الطويلِ] :

أَأُمَّ نُهَيْكٍ إِرْفَعِي ٱلظَّنَّ صَاعِداً ... وَلاَ تيْأَسِي أَنْ يُثْرِيَ ٱلدَّهْرَ آيِسُ
سَأَكْسِبُ مَالاً أَوْ تَبِيتِنَّ لَيْلَةً ... بِصَدْرِكِ مِنْ هَمٍّ عَلَيَّ وَسَاوِسُ
وَقَدْ عَلِمَتْ خَيْلٌ بِرَاذَانَ أَنَّنِي ... شَدَدْتُ وَلَمْ يَبْقَ مِنَ ٱلْقَوْمِ فَارِسُ
وَمَنْ يَطْلُبِ ٱلْمَالَ ٱلْمُمَنَّعَ بِٱلْقَنَا ... يَعِشْ مُثْرِياً أَوْ يُودَ فِيمَا يُمَارِسُ[3]

---

(١) في «الأغاني» : يعش ذا غنىً .
(٢) السَّمَلُ : الخلَقُ مِنَ الثِّيابِ .
(٣) الأبيات في «الأغاني» (٢٤/ ١٤) لعبد الله ٱبن أبي معقلٍ في غير هذا الموضوع .

وقالَ غُلامٌ مِنْ قيسٍ [مِنْ مجزوءِ الرمَلِ] : الغلام القيسي

اِقْـذِفِ ٱلسَّـرْجَ عَلَـىٰ ٱلْمُهْـ ـرِ وَقَـرِّطْـهُ ٱللِّجَـامَـا
ثُـمَّ صُـبَّ ٱلـدِّرْعَ فِـيْ رَأْ سِـيْ وَنَـاوِلْنِـيْ ٱلْحُسَـامَـا
فَمَتَـىٰ أَطْلُـبُ إِنْ لَـمْ أَطْلُـبِ ٱلـرِّزْقَ غُـلاَمَـا
سَـأَجُـوبُ الأَرْضَ أَبْغِيْـ ـهِ حَـلاَلاً أَوْ حَـرَامَـا
فَلَعَـلَّ ٱلظَّعْـنَ يَنْفِـيْ ٱلْـ ـفَقْرَ أَوْ يُـدْنِـيْ ٱلْحِمَـامَـا

وقالَ أَيُّوبُ بنُ خولةَ يرثي هدبةَ اليَشكُريَّ ، وهو مِنَ ٱلخوارجِ في أَيَّامِ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ [في « شعرِ الخوارجِ » ٧١ مِنَ الطويلِ] : رثاء هدبة اليشكري

فَيَا هُدْبَ لِلْهَيْجَا وَيَا هُدْبَ لِلْفِدَا وَيَا هُدْبَ لِلْخَصْمِ ٱلأَلَدِّ تُحَارِبُهْ
تَزَوَّدْتَ مِـنْ دُنْيَـاكَ دِرْعـاً وَمِغْفَـراً وَعَضْباً حُساماً لَمْ تَخُنْكَ مَضَارِبُهْ
وَأَجْـرَدَ مَحْبُـوْكِ ٱلسَّـرَاةِ كَـأَنَّـهُ إِذَا ٱنْقَضَّ وَافِي ٱلرِّيْشِ حُمْشٌ مَخَالِبُهْ(١)

وقالَ القُطاميُّ [في « ديوانِهِ » ٧٦ مِنَ الوافرِ] : القطامي والبداوة

فَمَـنْ تَكُـنِ ٱلْحَضَـارَةُ أَعْجَبَتْـهُ فَـأَيَّ رِجَـالِ بَـادِيَـةٍ تَـرَانَـا ؟
وَمَنْ رَبَطَ ٱلْجِحَاشَ فَإِنَّ فِيْنَا قَنـاً صُلْبـاً وَأَفْـرَاسـاً حِسَـانَـا

وقالتْ ليلىٰ بنتُ طريفٍ ترثي أَخاها الوليدَ [في « وفياتِ الأَعيانِ » ٦/ ٣٢ مِنَ الطويلِ] : رثاء الوليد بن طريف

فَتىً لاَ يُحِبُّ ٱلزَّادَ إِلاَّ مِنَ ٱلتُّقَىٰ وَلاَ ٱلْمَـالَ إِلاَّ مِـنْ قَنـاً وَسُيُـوْفِ
وَلاَ ٱلذُّخْرَ إِلاَّ كُلَّ جَرْدَاءَ صِلْدِمٍ مُعَـاوِدَةٍ لِلْكَـرِّ بَيْـنَ صُفُـوْفِ(٢)

---

(١) وافي الريشِ : الجارح الذي كثر ريشه وتم . حُمْشٌ : شديدةٌ .
(٢) جرداء : قصيرةُ ٱلشَّعرِ ، وهوَ من علاماتِ ٱلعِتاقِ والكرامِ في الخيلِ . الصِّلْدِمُ : الشديدُ الحافرِ .

المعري والمال المكتسب في الحروب

وقد أغارَ علىٰ أوَّلِهمَا المعرِّيُّ في قولهِ [في «سقطِ الزندِ» ١٢٥ مِنَ الوافرِ] :

رَأَيْتُكَ سَاخِطاً مَا جَاءَ عَفْواً وَلَوْ جَادَتْكَ بِٱلذَّهَبِ ٱلْعِهَادُ(١)
فَمَا تَعْتَدُّ مَالاً غَيْرَ مَالٍ حَبَاكَ بِهِ طِعَانٌ أَوْ جِلَادُ(٢)

فقراء بني النطّاح

وقالَ بكرُ بنُ النَّطَّاحِ [مِنَ الطويلِ] :

وَمَنْ يَفْتَقِرْ مِنَّا يَعِشْ بِحُسَامِهِ وَمَنْ يَفْتَقِرْ مِنْ سَائِرِ ٱلنَّاسِ يَسْأَلِ

صورة رائعة من شجاعة بكر بن النطاح

فيُروىٰ [كما في «الأغاني» ١١٦/١٩] : أَنَّهُ وفدَ علىٰ أبي دُلَفٍ العِجْليِّ ، فقالَ لهُ : أَراكَ تتظاهَرُ بٱلشجاعةِ في أشعارِكَ ، وما رأيتُ لها أثراً في أفعالكِ ، فقالَ : وما عسىٰ أَنْ يكونَ مِنْ شيخٍ راجلٍ أعزلَ ، فقلَّدَهُ سيفاً ، وأعطاهُ فرساً ، فخرجَ لوجههِ ، وجمعَ مِنَ ٱلذُّوْبَانِ(٣) والصعالكِ ما أَلَّفَ بهِ جماعةً ، ثُمَّ عرضَ لقافلةٍ مِنْ قوافلِ ٱلأميرِ فٱستاقَها ، وقتلَ مَنْ فيها ، وأَغذَّ السيرَ حتَّىٰ سبقَ الطلبَ ، فقالَ أبو دلفٍ : أنا الَّذي هيجتُهُ ، ثُمَّ ٱستدعاهُ ، وسوَّغهُ ما أخذَ .

رواية أخرى للقصة

ويُروىٰ : أَنَّ القصَّةَ إِنَّما كانتْ معَ بعضِ بني بكرٍ لا معهُ ، وأَنَّ أَبا دُلفٍ قالَ لهُ : أَتستميحُ وأَبوكَ القائلُ(٤) ؟! فقالَ لهُ : لقد أَودعتَها

(١) العِهَادُ : المطرُ .
(٢) الطعانُ والجلادُ : القتالُ والثباتُ في مقارعةِ الأعداءِ .
(٣) الذوبان : اللصوصُ ؛ وسموا بذلكَ لأنهمْ كالذئبانِ ، وأصلهُ بالهمزِ لكنهُ خففَ فانقلبت واواً .
(٤) أي : أحد أولاد بكر بن النطاح ، وقد قال أبوه : ومن يفتقر منا . . .

أُذُناً واعيةً ، ثُمَّ فعلَ فِعلتهُ الَّتي فعلَ ، وهو مِنَ ٱلظالمينَ ، واللهُ أَعلمُ أَيَّ ذلكَ كانَ ، فالرواياتُ تختلفُ .

مديح بشار

وقالَ بشَّارٌ يمدحُ [في « ديوانِهِ » ٤/ ١٠٥ مِنَ الطويلِ] :

إِذَا خَزَنَ ٱلْمَالَ ٱلْبَخِيْلُ فَإِنَّمَا ... خَـزَائِنُـهُ خَطِّيَّـةٌ وَدُرُوْعُ(١)
وَبِيْضٌ بِهَا مِسْكٌ لِمَسِّ أَكُفِّهِمْ ... عَلَىٰ أَنَّهَا رِيْحُ ٱلدِّمَاءِ تَضُوْعُ(٢)

اقتداء ابن المعتز به

وهو معنىً جليلٌ حسدَهُ عليهِ ٱبنُ المعتزِّ ، فأَحسنَ ٱتِّباعَهُ حيثُ يقولُ [في « ديوانِهِ » ١/ ١٠٥ مِنَ الطويلِ] :

مُلُوْكٌ إِذَا خَاضُوْا ٱلْوَغَىٰ فَسُيُوْفُهُمْ ... مَقَـابِضُهَـا مِسْـكٌ وَسَـائِـرُهَـا دَمُ

إجادة المديح عند المعري

عَلَىٰ أَنَّهُ قد يؤخذُ علىٰ بشَّارٍ أَنَّ الرائحةَ المسكيَّةَ لا تكونُ إِلاَّ لدماءِ الشهداءِ، فكيفَ يُثنِيْ علىٰ ممدوحهِ بحربهم؟ وإِنَّما أَصابَ كبدَ المعنىٰ الأَعمىٰ الثاني في قولهِ [أَي المعرِّيِّ في « سقطِ الزندِ » ١٦١ مِنَ البسيطِ] :

كَأَنَّمَا ٱلضَّرْبُ يَفْرِيْ مِنْ كُلُوْمِهِمُ ... أَكْبَادَ سِرْبٍ رَعَيْنَ ٱلنَّوْرَ فِي ٱلْكُنُسِ(٣)
سَالَتْ تَضَوَّعُ حَتَّىٰ ظَنَّ جَارِحُهُمْ ... قَسِيْمَةَ ٱلْمِسْكِ جُرْحَ ٱلْفَارِسِ ٱلنَّدُسِ(٤)

الرثاء والمديح عند الشعراء

وقالَ مروانُ ٱبنُ أَبي حفصةَ يرثي مَعْناً فيما نحنُ بسبيلهِ [في «ديوانهِ» ٨٠ مِنَ الوافرِ] :

وَلَـمْ يَـكُ كَنْـزُهُ ذَهَبـاً وَلَـٰكِـنْ ... حَدِيْدَ ٱلْهِنْدِ وَٱلْحَلَقَ ٱلْمُذَالاَ(٥)

---

(١) خَطيةٌ : رماحٌ منسوبةٌ إِلىٰ بلدةِ (خَطٌّ) ، وهو موضعٌ بـ(اليمامةِ) .
(٢) تضوعُ : تنتشرُ وتفوحُ .
(٣) النَّوْرُ : الزهرُ . الكُنُسُ ـ جمعُ كناسٍ ـ : وهو مأوىٰ الظبي .
(٤) النَّدْسُ : الحاذقُ بالطعنِ .
(٥) الحَلَقُ المُذَالُ : الدرعُ المصنوعُ صناعةً جيدةً محكمةً .

وقالَ البُحتريُّ [في «ديوانهِ» ٢/ ٨٨٠ مِنَ الطويلِ] :

قَلِيـلُ فُضُـوْلِ ٱلـزَّادِ إلاَّ صَـوَاهِـلاً ... ظَهَارِيَّ طَعْنٍ أَوْ حَدِيْداً يُظَاهِرُهْ(١)

وقالَ الناظمُ [في «العُكْبَرِيِّ» ٢/ ٢٧٠-٢٧١ مِنَ الكاملِ] :

كُنَّـا نَظُـنُّ دِيَـارَهُ مَمْلُـوْءَةً ... ذَهَبـاً فَمَـاتَ وَكُـلُّ دَارٍ بَلْقَـعُ

وَإِذَا ٱلْمَكَارِمُ وَٱلصَّوَارِمُ وَٱلْقَنَا ... وَبَنَاتُ أَعْوَجَ كُلُّ شَيْءٍ يَجْمَعُ(٢)

وقالَ أَبو المنيعِ قرواشٌ معتمدُ الدولةِ [في «وفياتِ الأَعيانِ» ٥/ ٢٦٤ مِنَ الكاملِ] :

مَنْ كَانَ يَحْمَدُ أَو يَذُمُّ مُوَرَّثاً ... لِلْمَـالِ مِـنْ آبَـائِـهِ وَجُـدُوْدِهِ

فَـأَنَـا ٱمْـرُؤٌ للهِ أَشْكُـرُ وَحْـدَهُ ... شُكْـراً كَثِيْـراً جَـالِبـاً لِمَـزِيْـدِهِ

لِـيْ أَشْقَـرٌ مِـلْءُ ٱلْعِنَـانِ مُغَـاوِرٌ ... يُعْطِيْكَ مَا يُرْضِيْكَ مِنْ مَجْهُوْدِهِ

وَمُهَنَّـدٌ عَضْـبٌ إِذَا جَـرَّدْتُـهُ ... خِلْتَ ٱلْبُرُوْقَ تَمُوْجُ فِيْ تَجْرِيْدِهِ

وَمُثَقَّـفٌ لَـدْنُ ٱلسِّنَـانِ كَـأَنَّمَـا ... أُمُّ ٱلْمَنَايَا رُكِّبَتْ فِيْ عُوْدِهِ(٣)

فَبِـذَا حَـوَيْـتُ ٱلْمَـالَ إِلاَّ أَنَّنِـيْ ... سَلَّطْتُ جُوْدَ يَدِيْ عَلَىٰ تَبْدِيْدِهِ

الاعتداد بالسلاح ووصفه عند الشعراء

وَأَمَّا الاعتدادُ بالسلاحِ والكُراعِ ومجردُ وصفهِ : فأَكثرُ وأَكثرُ ، قالَ الشدَّاخُ [مِنَ الطويل] :

أَبَيْنَا فَلاَ نُعْطِيْ مَلِيْكاً ظُلاَمَةً ... وَلاَ سُوْقَةً إِلاَّ ٱلْوَشِيْجَ ٱلْمُقَوَّمَا

وَإِلاَّ حُسَاماً يُبْهِرُ ٱلعَيْنَ لَمْحُهُ ... كَصَاعِقَةٍ فِيْ عَارِضٍ قَدْ تَبَسَّمَا

---

(١) الظهاريُّ ـ جمعُ ظِهري ـ: وهو البعيرُ القويُّ الظهرِ ، المُعَدُّ لوقتِ الحاجةِ .

(٢) راجع معنى الخيلِ الأعوجيةِ آخرَ هذا المجلسِ .

(٣) اللَّدْنُ : اللينُ مِنْ كلِّ شيءٍ، من عودٍ أو حبل أو رمحٍ .

وقالَ مالكُ بنُ حزيمٍ ٱلْهَمدانيُّ [منَ الطويل] :

وَكُنْتُ إِذَا قَـوْمٌ غَـزَوْنِـي غَـزَوْتُهُـمْ فَهَلْ أَنَا فِيْ ذَا يَا آلَ هَمْدَانَ ظَالِمُ ؟
مَتَىٰ تَجْمَعُ ٱلْقَلْبَ ٱلذَّكِيَّ وَصَارِماً وَأَنْفـاً حَمِيّـاً تَجْتَنِبْـكَ ٱلْمَظَـالِـمُ

وقالَ يحيىٰ بنُ منصورٍ الحنفيُّ [منَ الطويل] :

وَلَمَّـا نَـأَتْ عَنَّـا ٱلْعَشِيْـرَةُ كُلُّهَـا أَنَخْنَا مُخَالِفَنَا ٱلسُّيُوْفَ عَلَىٰ ٱلدَّهْرِ
فَمَـا أَسْلَمَتْنَـا عِنْـدَ يَـوْمِ كَـرِيْهَـةٍ وَلاَ نَحْنُ أَغْضَيْنَا ٱلْجُفُوْنَ عَلَىٰ وَتْرِ

وقالَ عمرُو بنُ معديكربَ الزبيديُّ لسعدِ ٱبنِ أَبي وقاصٍ [في « ديوانِه » ١٣٨ منَ الطويل] :

أَيُوْعِدُنِيْ سَعْدٌ وَفِيْ ٱلْكَفِّ صَارِمٌ سَيَمْنَـعُ مِنِّـيْ أَنْ أَذِلَّ وَأَخْضَعَـا
فَـوَٱللهِ لَـوْلاَ ٱللهُ لاَ شَـيْءَ غَيْـرُهُ لَجَلَّلْتُهُ ٱلصَّمْصَامَ أَوْ يَتَقَطَّعَا(١)

وقالَ دريدُ بنُ الصِّمَّةِ الجشميُّ [في « ديوانِه » ٦٠ منَ الوافر] :

أَعَـاذِلُ إِنَّمَـا أَفْنَـىٰ شَبَـابِـيْ رُكُوْبِيْ فِيْ ٱلصَّبَاحِ إِلَىٰ ٱلْمُنَادِيْ
مَعَ ٱلْفِتْيَانِ حَتَّىٰ سَلَّ جِسْمِيْ وَأَقْـرَحَ عَـاتِقِـيْ حَمْـلُ ٱلنِّجَـادِ
أَعَـاذِلُ إِنَّـهُ مَـالٌ طَـرِيْـفٌ أَحَـبُّ إِلَـيَّ مِـنْ مَـالٍ تِـلاَدِ
أَعَاذِلُ عُـدَّتِـيْ بِزِّيْ وَسَرْجِـيْ وَكُـلُّ مَقَلَّـصٍ سَلِـسِ ٱلْقِيَـادِ
وَيَبْقَىٰ بَعْدَ حِلْمِ ٱلْقَوْمِ حِلْمِيْ وَيَفْنَـىٰ قَبْـلَ زَادِ ٱلْقَـوْمِ زَادِيْ

وقال ٱمرؤُ القيسِ يصفُ رُمحاً ، وهوَ مِنْ أَبلغِ الكلامِ ، ويستشهدُ بهِ أَهلُ البيانِ علىٰ تفصيلِ التشبيهِ [في « ديوانِه » ٢١٧ منَ الطويل] :

حَمَلْـتُ رُدَيْنِيّـاً كَـأَنَّ سِنَـانَـهُ سَنَـا لَهَـبٍ لَـمْ يَتَّصِـلْ بِـدُخَـانِ

---

(١) جَلَّلْتُهُ الصمصامَ : علوتُهُ بسيفي . الصمصامُ : السيفُ الصارمُ .

وقالَ أَبو الهولِ الحميريُّ يصفُ سيفاً [منَ الخفيف] :

مَا يُبَالِيْ إِذَا ٱلضَّرِيْبَةُ حَانَتْ   أَشِمَــالٌ سَطَــتْ بِــهِ أَمْ يَمِيْــنُ
وَكَـأَنَّ ٱلْفِـرِنْـدَ وَٱلـرَّوْنَـقَ ٱلْجَا   رِيْ عَلَــىٰ صَفْحَتَيْـهِ مَـاءٌ مَعِيْـنُ
نِعْمَ مِخْرَاقُ ذِيْ ٱلْحَفِيْظَةِ فِيْ ٱلْهَيْـ   ـجَـاءِ يَسْطُـوْ بِـهِ وَنِعْـمَ ٱلْمُعِيْـنُ

وقالَ ابنُ المعتزِّ [في « ديوانه » ٢/ ٦٣ منَ الطويل] :

وَلِيْ صَارِمٌ فِيْهِ ٱلْمَنَايَا كَوَامِنٌ   فَمَـا يُنْتَضَـىٰ إِلاَّ لِسَفْـكِ دِمَـاءِ
تَرَىٰ فَوْقَ مَتْنَيْهِ ٱلْفِرِنْدَ كَأَنَّهُ   بَقِيَّــةُ غَيْــمٍ رَقَّ دُوْنَ سَمَــاءِ

وقالَ أَبو تمَّامٍ يصفُ رِماحاً [في « ديوانه » ١/ ٤٢٠ منَ البسيط] :

مُثَقَّفَــاتٍ سَلَبْــنَ ٱلــرُّوْمَ زُرْقَتَهَــا   وَٱلْعُرْبَ أُدْمَتَهَا وَٱلْعَاشِقَ ٱلْقَضَفَا(١)

وقالَ مزرِّدٌ [منَ الطويل] :

وَمُطَّـرِدٍ لَـدْنِ ٱلْكُعُـوبِ كَـأَنَّمَـا   تَغَشَّاهُ مِنْبَاعٌ مِنَ ٱلزَّيْتِ سَائِلُ(٢)
أَصَـمَّ إِذَا مَـا هُـزَّ مَـارَتْ سَرَاتُـهُ   كَمَا مَارَ ثُعْبَانُ ٱلرِّمَالِ ٱلْمُوَائِلُ(٣)
لَـهُ رَائِـدٌ مَـاضِ ٱلْفِـرَارِ كَـأَنَّـهُ   هِلاَلٌ بَدَا فِيْ ظُلْمَةِ ٱللَّيْلِ نَاحِلُ

وقالَ البُحتريُّ يصفُ سيفاً [في « ديوانه » ٣/ ١٧٤٧ـ١٧٤٨ منَ الكامل] :

مَاضٍ وَإِنْ لَمْ تُمْضِهِ يَدُ فَارِسٍ   بَطَلٍ وَمَصْقُوْلٌ وَإِنْ لَمْ يُصْقَلِ

---

(١) المثقفاتُ : الرماح المقوماتُ ، ثمَّ وصفهنَّ بقوله : سلبْنَ زرقَةَ عيونِ الروم لأستنهنَّ الزرقِ ، وسُمرةَ العربِ لأعوادِهنَّ ، وأَخذْنَ مِنَ العاشقِ قضافتَهُ : أَي لطافتَهُ .

(٢) المُطَّرِدُ : الفرسُ . لَدْنُ الكعوبِ : ليِّن المفاصلِ ، شبَّهُ بالرمح ليِّنِ العُقَدِ .

(٣) مارَ : تحرَّكَ وتدافعَ . السَّراةُ من الفرسِ: أَعلىٰ ظهرِهِ . الموائِلُ : الذاهبُ إلى ملجئِهِ .

يَغْشَىٰ ٱلْوَغَىٰ فَٱلتُّرْسُ لَيْسَ بِجُنَّةٍ مِنْ حَدِّهِ وَٱلدِّرْعُ لَيْسَ بِمَعْقِلِ
مُصْغٍ إِلَىٰ حُكْمِ ٱلرَّدَىٰ فَإِذَا مَضَىٰ لَمْ يَلْتَفِتْ وَإِذَا قَضَىٰ لَمْ يَعْدِلِ
مُتَـوَقِّـدٌ يَفْـرِي بِـأَوَّلِ ضَـرْبَـةٍ مَا أَدْرَكَتْ وَلَوَ آنَّهَا فِيْ يَذْبُلِ(١)
وَإِذَا أَصَابَ فَكُلُّ شَيْءٍ مَقْتَلٌ وَإِذَا أُصِيْبَ فَمَا لَهُ مِنْ مَقْتَلِ

وقولُهُ: (ماضٍ وَإِنْ لَم تُمْضِهِ... إلىٰ آخره) غلوٌّ لا يقبلُ، وقد أَلَمَّ بهِ المعرّيُّ فأحسنهُ بالمقاربةِ إذ قالَ [في «سقطِ الزندِ» ١٠٠ منَ الوافر]:

تَكَـادُ قِسِيُّـهُ مِـنْ غَيْـرِ رَامٍ تُمَكِّـنُ فِـيْ قُلُـوْبِهِـمُ ٱلنِّبَـالاَ
تَكَـادُ سُيُـوْفُـهُ مِـنْ غَيْـرِ سَـلٍّ تُجِـدُّ إِلَـىٰ رِقَـابِهِـمُ ٱنْسِـلاَلاَ

وقالَ ٱبنُ هانىءٍ الأندلسيُّ، وفيه مناسبةٌ لما سبقَ مِنْ خُضرةِ السيفِ [في «ديوانه» ١٦١ منَ الكامل]:

فُتِقَتْ لَكُمْ رِيْحُ ٱلْجِلاَدِ بِعَنْبَرٍ وَأَمَدَّكُمْ فَلَقُ ٱلصَّبَاحِ ٱلْمُسْفِرِ(٢)
وَجَنَيْتُـمُ ثَمَـرَ ٱلْـوَقَـائِـعِ يَـانِعـاً بِٱلنَّصْرِ مِنْ وَرَقِ ٱلْحَدِيْدِ ٱلأَخْضَرِ(٣)

وقولُهُ: (فُتِقَتْ لَكُمْ... إلىٰ آخرهِ) يقربُ مِنْ قولِ الناظمِ [في «العُكْبَرِيّ» ٤/٢٢٨ منَ البسيط]:

كَأَنَّهُمْ يَرِدُوْنَ ٱلْمَوْتَ مِنْ ظَمَإٍ أَوْ يَنْشَقُوْنَ مِنَ ٱلْخَطِّيِّ رَيْحَانَا

وقالَ الشريفُ الرضيُّ [في «ديوانه» ١/ ٣٨٠ منَ الكامل]:

وَٱسْتَنْزَلُـوْا أَرْزَاقَهُـمْ بِسُيُوْفِهِـمْ فَغَنَـوْا بِغَيْـرِ مَـذَلَّـةٍ وَصَغَـارِ

---

(١) يذبل: اسم جبل في (نجد).
(٢) فُتِقَ المسكُ: استُخرجَتْ رائحتُهُ. الجلادُ: الحربُ.
(٣) ورقُ الحديدِ: السيوفُ.

نَزَلُوا بِقَارِعَةٍ تَشَابَهَ عِنْدَهَا ذُلُّ ٱلْعَبِيدِ وَعِزَّةُ ٱلْأَحْرَارِ

الاعتداد بالسلاح عند المتنبي معنىً متكرر

والبيتُ الَّذي نتكلَّمُ فيهِ مكرَّرُ المعنىٰ في « ديوانهِ » ، منه قولُهُ [في « العُكْبَرِيّ » ٢/ ٢٢٢ منَ البسيط] :

أَأَطْرَحُ ٱلْمَجْدَ عَنْ كِتْفِي وَأَطْلُبُهُ وَأَتْرُكُ ٱلْغَيْثَ فِي غِمْدِي وَأَنْتَجِعُ[1]

وَٱلْمَشْرَفِيَّةُ - مَا زَالَتْ مُشَرَّفَةً - دَوَاءُ كُلِّ كَرِيمٍ أَوْ هِيَ ٱلْوَجَعُ

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيّ » ٤/ ١٦٠ منَ البسيط] :

مَنِ اقْتَضَىٰ بِسِوَىٰ ٱلْهِنْدِيِّ حَاجَتَهُ أَجَابَ كُلَّ سُؤَالٍ عَنْ هَلٍ بِلَمِ[2]

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيّ » ١/ ١٧٣ منَ البسيط] :

وَجَدْتُ أَنْفَعَ مَالٍ كُنْتُ أَذْخَرُهُ مَا فِي ٱلسَّوَابِقِ مِنْ جَرْيٍ وَتَقْرِيبِ

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيّ » ٣/ ٧٨ منَ البسيط] :

لاَ أَكْسِبُ ٱلذِّكْرَ إِلاَّ مِنْ مَضَارِبِهِ أَوْ مِنْ سِنَانٍ أَصَمِّ ٱلْكَعْبِ مُعْتَدِلِ

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيّ » ٤/ ١٠٨ منَ الطويل] :

وَلَٰكِنَّنِي مُسْتَنْصِرٌ بِذُبَابِهِ وَمُرْتَكِبٌ فِي كُلِّ حَالٍ بِهِ ٱلْغَشْمَا[3]

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيّ » ٢/ ٣٧٣ منَ المنسرح] :

كُنْ لُجَّةً أَيُّهَا ٱلسَّمَاحُ فَقَدْ آمَنَهُ سَيْفُهُ مِنَ ٱلْغَرَقِ

---

(١) الانتجاعُ في الأصلِ : طلبُ الكلأ ، ثمَّ صارَ كلُّ طلبٍ ٱنتجاعاً .
(٢) المعنى كما قاله الواحدي : من طلب حاجته بغير السيف . . أجاب سائله عن قوله : هل أدركت حاجتك ؟ بقوله : لم أدرك .
(٣) ذبابُ السيفِ : طرفُهُ . الغشمُ : الظلمُ .

وقالَ [في « العُكبَريّ » ٤/ ٢٢ منَ البسيط] :

هِنْدِيَّةٌ إِنْ تُصَغِّرْ مَعْشَراً . . صَغُرُوْا بِحَدِّهَا أَوْ تُعَظِّمُ مَعْشَراً . . عَظُمُوْا

وقالَ [في « العُكبَريّ » ٤/ ٢٥ منَ البسيط] :

مُقَلَّداً فَوْقَ شُكْرِ ٱللهِ ذَا شُطَبٍ لاَ تُسْتَدَامُ بِأَمْضَىٰ مِنْهُمَا ٱلنِّعَمُ

تشبيه جوهر السيف بمدرج النمل عند الشعراء

وَأَمَّا تشبيهُ جَوْهرِ السيفِ بمدرج النملِ : فإنَّهُ شائعٌ في أَشعارِهِمْ ، منهُ قولُ أَوسِ بنِ حجرٍ [في « ديوانه » ٨٥ منَ الطويل] :

كَأَنَّ مَدَبَّ ٱلنَّمْلِ يَتَّبِعُ ٱلرُّبَىٰ وَمَدْرجَ ذَرٍّ خِلْنَ بَرْداً فَأَسْهَلاَ
عَلَىٰ صَفْحَتَيْـهِ بَعْـدَ حِيْـنِ جِـلاَئِـهِ كَفَىٰ بِالَّذِيْ أُبْلِيْ وَأَنْعتُ مُنْصُلاَ[1]

وقولُ ٱبنِ دريدٍ [منَ الرَّجَز] :

وَصَـاحِبَـايَ صَـارِمٌ فِـيْ مَتْنِـهِ مِثْلُ مَدَبِّ ٱلنَّمْلِ يَعْلُوْ فِيْ ٱلرُّبَى

وقالَ أَبو العلاءِ المعرِّيُّ يصفُ سيفاً [في « سقطِ الزندِ » ١٥٣ منَ الطويل] :

كَأَنَّ ٱلْمَنَايَا جَيْشُ ذَرٍّ عَرَمْرَمٌ تَخِذْنَ إِلَىٰ ٱلأَرْوَاحِ فِيْهِ مَسَارَا

وقالَ أَيضاً [في « سقطِ الزندِ » ١٠٥ منَ الوافر] :

سَلِيْـلُ ٱلنَّـارِ دَقَّ وَرَقَّ حَتَّـىٰ كَـأَنَّ أَبَـاهُ أَوْرَثَـهُ ٱلسُّـلاَلاَ[2]
مُحَلًّـىٰ ٱلبُـرْدِ تَحْسَبُـهُ تَـرَدَّىٰ نُجُـوْمَ ٱللَّيْـلِ وَٱنْتَعَـلَ ٱلْهِـلاَلاَ

---

(١) فأَسهلَ : أَتىٰ السهلَ ، أَي: أَنَّ النملَ تركَ أَعلىٰ الوادي وأَتىٰ السهلَ لشدَّةِ البردِ . الجلاءُ : الصقلُ . المُنْصُلُ : السيفُ .

(٢) سليلُ النار : السيفُ الذي رقَّ من النارِ . السُّلالُ : داءُ السلِّ .

مُقِيمُ ٱلنَّصْلِ فِيْ طَرَفَيْ نَقِيْضٍ   يَكُـوْنُ تَبَايُـنٌ مِنْـهُ ٱشْتِكَـالاً(١)
تَبَيَّـنُ فَـوْقَـهُ ضَحْضَـاحَ مَـاءٍ   وَتُبْصِـرُ فِيْـهِ لِلنَّـارِ ٱشْتِعَـالاً
غَـرَارَاهُ لِسَـانَـا مَشْـرَفِـيٍّ   يَقُوْلُ غَرَائِبَ ٱلْمَوْتِ ٱرْتِجَالاً
إِذَا بَصَـرَ ٱلأَمِيْـرُ وَقَـدْ نَضَـاهُ   بِأَعْلَىٰ ٱلْجَوِّ ظَنَّ عَلَيْهِ آلاً(٢)
وَدَبَّـتْ فَـوْقَـهُ حُمْـرُ ٱلْمَنَـايَـا   وَلَـٰكِـنْ بَعْـدَمَـا مُسِخَـتْ نِمَـالاً

وهـٰذا موضعُ الشاهدِ ، وقد نظرَ فيهِ إلىٰ البيتِ الذي نتكلَّمُ فيهِ ، وقالَ [في « سقطِ الزندِ » ١١٠ منَ البسيط] :

مَا كُنْتُ أَحْسَبُ جَفْناً قَبْلَ مَسْكَنِهِ   فِيْ ٱلْجَفْنِ يُطْوَىٰ عَلَىٰ نَارٍ وَلاَ نَهَرِ(٣)
وَلاَ ظَنَنْتُ صِغَـارَ ٱلنَّمْـلِ يُمْكِنُهَـا   مَشْيٌ عَلَىٰ ٱللُّجِّ أَوْ سَعْيٌ عَلَىٰ ٱلسُّعُرِ(٤)

تسمية السيف بالهندي أو المشرفي

ومتىٰ سُوِّيَ السيفُ بـ (الهندِ) . . فهو مُهَنَّدٌ وهنديٌّ وهندوانيٌّ ، وإذا عُملَ بـ (المشارفِ) ، وهي قرىً مِنْ أَرضِ العربِ تدنو مِنَ ٱلريفِ . . فهوَ مَشْرَفيٌّ .

* * *

(١) طرفي نقيضٍ : الماءُ والنارُ .
(٢) آلاً : بَرْقاً .
(٣) الجفنُ : غمدُ السيفِ .
(٤) صغارُ النملِ : كنايةٌ عن تموجات الضوء على صفحة السيف . اللُّجُّ : الماءُ . السُّعُر : النار المشتعلة .

[قالَ أَبو الطيِّبِ المتنبِّي في « العُكْبَرِيِّ » ٣/ ١٦١ منَ الطويل] :

أَمِطْ عَنْكَ تَشْبِيْهِيْ بِمَا وَكَأَنَّهُ ... فَمَا أَحَدٌ فَوْقِيْ وَلاَ أَحَدٌ مِثْلِيْ

الفخر والاعتداد بالنفس عند المتنبي

يقولُ : لا تُشبِّهْني بأَحدٍ ، ولا تقلْ كَأَنَّهُ فلانٌ ، أَو ما أَشبهَهُ بفلانٍ ، وهي حماقةٌ فاحشةٌ ، وغرورٌ مستهجَنٌ ، ومثلُهُ قولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٤/ ١٠٧ منَ الطويل] :

تَغَرَّبَ لاَ مُسْتَعْظِماً غَيْرَ نَفْسِهِ ... وَلاَ قَابِلاً إِلاَّ لِخَالِقِهِ حُكْمَا

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ٣٢٣ منَ الخفيف] :

إِنْ أَكُنْ مُعْجَباً فَعُجْبُ عَجِيْبٍ ... لَمْ يَجِدْ فَوْقَ نَفْسِهِ مِنْ مَزِيْدِ

تعاظم أبي جهل

ويشبهُ بعضَهُ قولَ أَبي جهلٍ أبنِ هشامٍ : وهل فوقَ رجلٍ قتلتموهُ[1] .

مقالة كتبها المؤلف يوم تأمير شوقي

وذكرتُ بهذا مقالةً كتبتُها يومَ تَعالمَ الناسُ بتأميرِ شوقي غِبَّ فَشَلِ مُؤْتمرِ الخلافةِ ، وذكرتُ أَنَّ الميزانَ العادلَ في أستحقاقهِ التأميرَ عدمُه . . هو ما سيقولُهُ في ذلكَ الحفلِ ؛ لأَنَّهُ سيَتنأَنَّقُ لهُ بطبيعةِ الحالِ ، فلَمْ تأَتِ الأَهرامُ[2] إلاَّ بقصيدةٍ تُستهلُّ بقولهِ [في « ديوانهِ » ١/ ٥٨٥ منَ الخفيف] :

مَرْحَباً بِالرَّبِيْعِ فِيْ رَيْعَانِهْ ... وَبِأَنْوَارِهِ وَطِيْبِ زَمَانِهْ

---

(١) قالها أبو جهلٍ أثناءَ مصرعهِ في بدرٍ عندما سأَلَهُ ابنا عفراءَ : آأنتَ أبو جهلٍ ؟ فقالها ليدلَّ على أنهُ لا رجلَ فوقَهُ .

(٢) الأهرامُ : صحيفةٌ مصريةٌ مشهورةٌ .

أَحصينا عليها ببادىءِ النظرِ جملةَ ملاحظاتٍ لا يتَّسعُ لها الموضوعُ ، منها : عدمُ التناسبِ ، ومِنْها : أَنَّهُ شبَّهَ الربيعَ يمشي في السهلِ بالأَميرِ في البستانِ .

فإِنِّي بعدَ أَنْ طَرَدْتُ نظري في مسارحِ التشبيهِ . . لَمْ يظهرْ لي غيرَ أَنَّهُ أَرادَ تشبيهَ الربيعِ بما لا غايةَ بعدَهُ ، فلَمْ يجدْ أَكبرَ مِنْ نفسهِ يتمشَّىٰ في بستانهِ ، فكأَنَّهُ شبَّهَ الربيعَ بنفسهِ ، وهو حينئذٍ مِنْ قولِ الناظمِ السابقِ لَمْ يجدْ فوقَ نفسهِ مِنْ مَزيدٍ .

وبعثَ بتلكَ ٱلمقالةِ أَحدُ رفاقِنا لبعضِ ٱلصُّحفِ ، فضاقتْ عنها .

الفخر متكرر عند المتنبي

وطالما تكرَّرَ معنىٰ البيتِ الَّذي بين أَيدينا في «ديوانِ الناظمِ» منهُ قولُهُ يفتخرُ [في « العُكبَريّ » ٢/ ١٤٣ منَ الطويل] :

وَنَفْسٍ لاَ تُجِيبُ إِلَىٰ خَسِيسٍ وَعَيْـنٍ لاَ تُـدَارُ عَلَـىٰ نَظِيْـرِ

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٤/ ١٠ منَ الكامل] :

صَغَّرْتَ كُلَّ كَبِيْرَةٍ وَكَبُرْتَ عَنْ لَكَـأَنَّـهُ وَعَـدَدْتَ سِـنَّ غُـلاَمِ[١]

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٤/ ٨٤ منَ الطويل] :

يَجِلُّ عَنِ ٱلتَّشْبِيْهِ لاَ ٱلْكَفُّ لُجَّةٌ وَلاَ هُوَ ضِرْغَامٌ، وَلاَ ٱلرَّأْيُ مِخْذَمُ[٢]

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٤/ ١١٦ منَ الطويل] :

وَلَوْلاَ ٱحْتِقَارُ ٱلأُسْدِ شَبَّهْتُهَا بِهِمْ وَلَـٰكِنَّهَـا مَعْـدُوْدَةٌ فِـيْ ٱلْبَهَـائِـمِ

---

(١) عَدَدْتَ سِنَّ غلام : قصد أَنَّه لا زال في سنِّ الشباب .

(٢) المخذمُ : السيفُ القاطعُ . والمعنى : أنه أعظم من أن يشبه كفُّهُ بالبحر ، ونفسه بالأسد ، ورأيه بالسيف القاطع ؛ لأن ذلك كلَّه دونه .

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيّ » ٣/ ٢٢٦] منَ الوافر :

بِـلاَ مِثْـلٍ وَإِنْ أَبْصَـرْتَ فِيْـهِ لِكُـلِّ مُغَيَّـبٍ حَسَـنٍ مِثَـالاَ

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيّ » ٢/ ١٢٧ منَ الطويل] :

بِمَنْ أَضْرِبُ ٱلأَمْثَالَ أَمْ مَنْ أَقِيْسُهُ إِلَيْكَ وَأَهْلُ ٱلدَّهْرِ دُوْنَكَ وَٱلدَّهْرُ ؟

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيّ » ٢/ ٣٧٩ منَ البسيط] :

فَكُنْ كَمَا أَنْتَ يَا مَنْ لاَ شَبِيْهَ لَهُ أَوْ كَيْفَ شِئْتَ فَمَا خَلْقٌ يُدَانِيْكَا

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيّ » ٣/ ١٣٣ منَ الخفيف] :

فَـإِذَا مَـا ٱشْتَهَـىٰ حَيَـاتَـكَ دَاعٍ قَالَ لاَ زُلْتَ أَوْ تَرَىٰ لَكَ مِثْلاَ

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيّ » ٣/ ٢٧٩ منَ البسيط] :

كَفَـاتِـكٍ وَدُخُـوْلُ ٱلْكَـافِ مَنْقَصَـةٌ كَٱلشَّمْسِ قُلْتُ : وَمَا لِلشَّمْسِ أَمْثَالُ

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيّ » ٣/ ٢٢٠ منَ المنسرح] :

مِثْلُـكَ يَـا بَـدْرُ لاَ يَكُـوْنُ وَلاَ تَصْلُـحُ إِلاَّ لِمِثْلِـكَ ٱلـدُّوَلُ

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيّ » ١/ ٢١٧ منَ السريع] :

وَلَـمْ أَقُـلْ مِثْلُـكَ أَعْنِـيْ بِـهِ سِـوَاكَ يَـا فَـرْداً بِـلاَ مُشْبِـهِ

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيّ » ٢/ ١٧٧ منَ الخفيف] :

وَتَمَنَّيْـتُ مِثْلَـهُ فَكَـأَنِّـي طَالِبٌ لاِبْنِ صَالِحٍ مَنْ يُوَازِي

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيّ » ٣/ ٢٢٩ منَ الوافر] :

جَـوَابُ مُسَـائِلِـيْ أَلَـهُ نَظِيْـرٌ وَلاَ لَكَ فِيْ سُؤَالِكَ لاَ ، أَلاَ لاَ[1]

---

(١) المعنىٰ : إذا سألني سائلٌ ، فقالَ : هلْ له نظير ؟ فجوابه لا ، ولا لك نظير في=

الفخر عند الشعراء

وأصلُ البيتِ الذي نحنُ بسبيلهِ مِنْ قولِ الأوَّلِ [منَ الطويل] :

تَعَالَيْنَ عَنْ وَصْفٍ فَلَسْتُ بِذَاكِرٍ ... (كَأَنَّ) لَدَىٰ تَشْبِيهِهَا وَ(كَأَنَّمَا)

وَمِنْ قولِ أَبي نُوَاسٍ [في « ديوانهِ » منَ الطويل] :

خُلِقْتَ بَدِيعاً لاَ يُقَالُ كَأَنَّهُ ... تَعَالَىٰ وَلاَ يَسْمَعْ بِمِثْلِكَ سَامِعُ

وقالَ البُحتريُّ [في « ديوانهِ » ٣/ ١٦٥٩ منَ الكامل] :

لاَ تَطْلُبَنَّ لَهُ ٱلشَّبِيهَ فَإِنَّهُ ... قَمَرُ ٱلتَّأَمُّلِ مُزْنَةُ ٱلتَّأْمِيلِ(١)

تكذيب المؤلف لهذه الأشعار

وجلُّها دعاوي مَكْذُوبةٌ ، ومبالغاتٌ مردودةٌ ، فإِنَّ ٱلَّذي في ٱلسَّماءِ عرشُهُ ، وفي الأَرضِ بطشُهُ . . يُقَرِّبُ المنالَ ، ويضربُ لنفسهِ الأَمثالَ ، وما أَحسنَ قولَ حبيبٍ [في « ديوانه » ١/ ٣٦٩ منَ الكامل] :

لاَ تُنْكِرُوْا ضَرْبِي لَهُ مَنْ دُوْنَهُ ... مَثَلاً شَرُوْداً فِي ٱلنَّدَىٰ وَٱلْبَاسِ

فَٱللهُ قَدْ ضَرَبَ ٱلأَقَلَّ لِنُوْرِهِ ... مَثَلاً مِنَ ٱلْمِشْكَاةِ وَٱلنِّبْرَاسِ(٢)

تفسير : ﴿الله نور السمٰوات والأرض﴾ عند الجاحظ

ومِنْ محاسنِ الجاحظِ قولُهُ في هٰذهِ الآيةِ : أَنَّها مَثَلٌ ضربَهُ اللهُ جَلَّ شأنُهُ لنبيِّهِ ﷺ ، فإِنَّ تقاسيمَ وجههِ ، وأَساريرَ جبينهِ . . تَنطِقُ بنبوَّتهِ ، وتشهدُ بصدقِ رسالتهِ ، فما أَصدقَ فيهِ قولَ عبدِ اللهِ بنِ رواحةَ [في « ديوانه » ٩٥ منَ البسيط] :

لَوْ لَمْ تَكُنْ فِيهِ آيَاتٌ مُبَيِّنَةٌ ... لَكَانَ مَنْظَرُهُ يُنْبِيكَ بِالْخَبَرِ

= سؤالِكَ عَن هذا ؛ لأَنَّ أحداً لا يجهلُ هذا غيركَ ، فأنتَ في جهلكَ بلا نظيرٍ ، وكرَّرَ النفيَ بقولِهِ : (ألا ، لا) إشارةً إلىٰ أَنَّ جهلَ هذا السائلِ يوجبُ إعادةَ الجوابِ عليهِ .

(١) المُزْنَةُ : السحابةُ البيضاءُ .

(٢) والمَثَلُ قوله تعالىٰ : ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ﴾ [النور : ٣٥] .

تفسير: ﴿ليس كمثله شيء﴾

أَمَّا قولُهُ تعالىٰ :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١] :

فإمَّا : أَنْ يُجعلَ (المِثْلُ) فيهِ بمعنىٰ ٱلنَّفسِ وٱلذَّاتِ وهو شائعٌ في لسانِ العربِ . قالَ أَوسُ بنُ حجرٍ [من مُخلَّع البسيط] :

لَيْـسَ كَمِثْـلِ ٱلْفَتَـىٰ زُهَيْـرٍ خَلْـقٌ يُـوَازِيْـهِ فِـيْ ٱلْفَضَـائِـلْ

ومنهُ ما سبقَ مِنْ قولِ الناظمِ : (وَلَمْ أَقُلْ مِثْلُكَ أَعْنِي بِهِ سِوَاكَ . . . إلى آخرِهِ) .

فليس كمثلِهِ شيءٌ . . نظيرُ (ليسَ كذاتِهِ شيءٌ) إلاَّ أَنَّها لا توجدُ في الثاني مبالغةُ النفي الموجودةُ في الأوَّلِ ؛ لِمَا فيهِ مِنَ ٱلكنايةِ الَّتي لا يُجهَلُ مكانُها في حُسْنِ الكلامِ ، وكثيراً ما تقولُ العربُ : (مِثْلُكَ لا يَبخَلُ) ؛ لتمكينِ ٱنتفاءِ البُخلِ عنهُ مِنْ نفسِ السامعِ ، فإِنَّ تلكَ الجملةَ تفيدُ ما لا يفيدُهُ قولُهم : (أَنتَ لا تبخَلُ) .

وإمَّا : أَنْ يُجعلَ (المِثْلُ) بمعنىٰ الصفةِ إشارةً إلىٰ أَنَّهُ وإنْ وُصِفَ جلَّ شأنُهُ ، وتقدَّستْ أَسماؤهُ بما يوصفُ بهِ البشرُ مِنْ نحوِ : السمعِ والبصرِ والعلمِ والإرادةِ وما أَشبهَ ذلكَ . . فليستْ صفاتُهُ عزَّ وجلَّ كمثلِ صفاتِ المخلوقينَ إلاَّ في مجرَّدِ الأَسماءِ ، وإلاَّ . . فٱلبَوْنُ بعيدٌ ، والفرقُ عظيمٌ .

وَلِلْبَـازِيْ وَلِلـزُّنْبُـوْرِ أَيْضـاً لَـدَىٰ ٱلطَّيَـرَانِ أَجْنِحَـةٌ وَخَفْـقُ
وَلَـٰكِـنْ بَيْـنَ مَـا يَصْطَـادُ بَـازٍ وَمَا يَصْطَادُهُ ٱلزُّنْبُوْرُ فَرْقُ[1]

وإمَّا : أَنْ يُجعلَ (المِثْلُ) بمعنى الذاتِ والصفةِ ، فيكونُ ٱستعمالُهُ فيهما مِنْ بابِ ٱستعمالِ المشتركِ في معنييهِ إنْ قلنا إنَّ المِثْلَ

---

(١) البيتان من الوافر .

حقيقةٌ في كلٍّ مِنَ ٱلذاتِ والصفةِ ، أَو مِنِ ٱستعمالهِ في حقيقتهِ ومجازهِ إِنْ قلنا إِنهُ حقيقةٌ في أَحدِهما مَجازٌ في الآخرِ ، فينتجُ حينئذٍ أَنَّهُ لا يماثلهُ شيءٌ مطلقاً لا في الذاتِ ولا في الصفاتِ ولا في الأفعالِ .

أَمَّا القولُ بزيادةِ الكافِ لتأكيدِ التشبيهِ في نفي المثليةِ كَما في قولِ الشاعرِ [منَ الرجَز] :

بِٱلأَمْسِ كَانُوا فِيْ رَخَاءٍ مَأْمُوْلْ   فَأَصْبَحَتْ مِثْلَ كَعَصْفٍ مَأْكُوْلْ

فإِنَّه داخلٌ في الاحتمالِ الأَوَّلِ .

تفسير الغزالي لـ: إن الله خلق آدم على صورته

وقالَ الغزاليُّ في معنىٰ « إِنَّ ٱللهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَىٰ صُوْرَتِهِ »[1] :

---

(١) أخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه البخاري (٢٥٥٩) مقتصراً على الشطر الأول في الاستئذان ، وأحمد (٢/ ٢٤٤)، ومسلم (٢٦١٢) (١١٥) في البر والصلة ، ولفظ مسلم: «إذا قاتل أحدكم أخاه فليجتنب الوجه ، فإن الله خلق آدم على صورته».

وأورد شطر الحديث الآخر الغزالي في «الإحياء» (٢/ ١٦٦) فقال: وهجرَ المحاسبي أبا ثور في تأويل هذا الحديث، وهذا أمر يختلف باختلاف النية، وتختلف النية باختلاف الحال. . . إلخ، وفي (٤/ ٢٣) قال: وهو من المثال الذي لا يعقله إلا العالمون. . . تعالى الله علواً كبيراً ، ثم قال عن الحديث : فإنه لا يفهم من الصورة إلا اللون والشكل والهيئة ، فيثبت لله تعالى مثل ذلك ، تعالى الله عن قوله علواً كبيراً، ومن هنا زلّ من زلّ في صفات إلهية. . . .

قال القرطبي في «المفهم» (٦/ ٥٩٧ـ٥٩٨) في تفسير الحديث: أي على صورة وجه المضروب، فكأنَّ اللاطم في وجه أحد ولد آدم لطم وجه أبيه آدم. وعلى هذا فيحرم لطم الوجه من المسلم والكافر. . .

وإنما مقصود الحديث : إكرام وجه المؤمن لحرمته، لأنا نقول مسلم. . . .
وهذا الذي ذكرناه هو ظاهر الحديث، ولا يكون في الحديث إشكال يوهم في حقِّ الله تعالى تشبيهاً، وإنما أشكل ذلك على من أعاد الضمير في صورته =

المرادُ بالصورةِ المعنويَّةُ ، كَما يُقالُ : صورةُ المسألةِ كذا ، وآدمُ بهٰذا الاعتبارِ علىٰ صورةِ ربِّهِ في الذاتِ والأَفعالِ والصفاتِ :

أَمّا في الذاتِ : فلأَنَّ الروحَ ليستْ بجسمٍ ، ولا عَرَضٍ ، ولا جوهرٍ متحيِّزٍ ، ولا تحُلُّ المكانَ والجهةَ ، ولا هي متَّصلةٌ بالْبَدَنِ والعالمِ ، ولا منفصلةٌ عنهما ، وكذلكَ ذاتُ الباري عزَّ وجلَّ[١] .

= على الله تعالى، وذلك ينبغي ألا يصار إليه شرعاً ولا عقلاً، أما العقل فيحيل الصورة الجسمية على الله تعالى، وأما الشرع فلم ينصَّ على ذلك نصّاً قاطعاً، ومحال أن يكون ذلك، فإن النصَّ القاطع صادق، والصادق لا يقول المحال فيتعيَّن عود الضمير على المضروب لأنه هو الذي سبق الكلام لبيان حكمه.

وقد أعادت المشبِّهَةُ هذا الضمير على الله تعالى، فالتزموا القول بالتجسيم، وذلك نتيجة العقل السقيم والجهل الصميم، وقد بينا جهلهم وحققنا كفرهم فيما تقدم، ولو سلمنا أن الضمير عائد على الله تعالى.. فللتأويل وجه صحيح، وهو أن الصورة قد تطلق بمعنى الصفة كما يقال: صورة المسألة كذا أي صفتها .... إلخ.

وقال الإمام النواوي في «المنهاج» في شرح الحديث: هذا تصريح بالنهي عن ضرب الوجه؛ لأنه لطيف يجمع المحاسن، وأعضاؤه نفيسة لطيفة وأكثر الإدراك بها... وهو من أحاديث الصفات، وأن من العلماء من يمسك عن تأويلها ويقول: نؤمن بأنها حقٌّ، وأن ظاهرها غير مراد ولها معنى يليق بها، وهو مذهب جمهور السلف، وهو أحوط وأسلم، ..... إلى أن قال: واختلف العلماء في تأويله، فقالت طائفة: الضمير في صورتِهِ عائد على الأخ المضروب، وهذا ظاهر رواية مسلم، وقالت طائفة: يعود إلى آدم وفيه ضعف، وقالت طائفة يعود إلى الله تعالى، ويكون المراد إضافة تشريف واختصاص كقوله: ﴿ناقة الله﴾ [الشمس: ١٣] وكما يقال عن الكعبة بيت الله ونظائره، والله أعلم.

(١) تعالى عن مشابهته للحوادث من مخلوقاته علواً كبيراً؛ لأن كلَّ ما خطر ببالك فهو هالك والله بخلاف ذلك وكما يُعلم أنه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

وأَمَّا الصفاتُ : فلأنَّهُ حيٌّ عالِمٌ ، قادرٌ مريدٌ ، سميعٌ بصيرٌ متكلِّمٌ ، واللهُ تعالىٰ كذلكَ .

وأَمَّا في الأَفعالِ : فإِنَّ الإنسانَ إِذا أَرادَ الكتابةَ في غرضٍ . . فأَوَّلُ فعلِهِ إِرادةٌ يظهَرُ أَثرُها في القلبِ ، ثُمَّ يصعدُ إِلىٰ الدماغِ ، ثُمَّ إِلىٰ الأَعصابِ ، ثُمَّ إِلىٰ الأَصابعِ ، وبها يتحرَّكُ القلمُ بِما ٱرتسمَ في خِزَانةِ الخيالِ . فالقلبُ كالعرشِ ، والدماغُ كالكرسي ، والحواسُّ كالملائكةِ ، والأَعصابُ كٱلسماواتِ ، والقدرةُ في الأَصابعِ كٱلطبيعةِ المركوزةِ في الأَجسامِ ، والقرطاسُ والقلمُ والمِدادُ كالعناصرِ ، ومرآةُ التخيُّلِ كٱللوحِ المحفوظِ .

ومِنْ هٰذهِ الموازنةِ تَعرِفُ أَنَّ اللهَ خلقَ آدمَ علىٰ صورتهِ ، ولولا المضاهاةُ المذكورةُ لَمْ يقدِرِ ٱلإنسانُ علىٰ الترقِّي مِنْ معرفةِ نفسهِ إِلىٰ معرفةِ ربِّهِ ، كَما قالَ عليهِ السلامُ : « مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ . . فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ »[1] كذا رأيتهُ في سياقٍ لهُ ، ومثلُهُ في ذهني عَنْ « مفاتيحِ ٱلغيبِ » للإمام الرازي ، وقد قَفَّ شَعَري[2] ، وضاقَ صدري منهُ باديءَ الأَمرِ إِلاَّ أَنَّهُ يهونُ الخطبُ بما قرَّرناهُ في الاحتمالِ الثاني ، وٱستشهدنا عليهِ بما بينَ البازي والزنبورِ مِنَ ٱلفرقِ الكبيرِ[3] ،

---

(١) أورده السخاوي في « المقاصد الحسنة » (١١٤٩) فقال : قال أبو المظفر السمعاني في الكلام على التحسين والتقبيح العقلي : من القواطع أنه لم يعرف مرفوعاً، وإنما يحكى عن يحيى بن معاذ الرازي يعني من قوله، وكذا قال النواوي : إنه ليس بثابت، وقيل في تأويله : من عرف نفسه بالحدوث . . عرف ربه بالقدم ، ومن عرف نفسه بالفناء . . عرف ربه بالبقاء .

(٢) قفَّ الشَّعرُ : قامَ منَ الفزعِ .

(٣) بل لا يتصور التشابه بين الخالق والمخلوق، ولا بين القديم والحادث.

والعهدةُ عليهم ، ولولا جلالةُ مقاديرهم .. لَمَا تجاسرتُ علىٰ حكايتهِ عنهم ، وأَولىٰ ما يكونُ بٱلقَبولِ في الموضوعِ الَّذي نتحدَّثُ فيهِ قولُ شاعرِ (المعرَّةِ) [منَ الوافر] :

ضَرِيبُكَ فِي بَنِي ٱلدُّنْيَا كَثِيرٌ وَعَـزَّ ٱللهُ رَبُّـكَ مِـنْ ضَـرِيـبِ
وَمَـا ٱلْعُلَمَـاءُ وَٱلْجُهَـلاَءُ إِلاَّ قَرِيبٌ مِنْ قَرِيبٍ مِنْ قَرِيبِ

* * *

[قالَ أَبو الطيِّب المتنبِّي في « العُكْبَرِيِّ » ٣/ ١٦٢ منَ الطويل] :

وَذَرْنِـيْ وَإِيَّـاهُ وَطِـرْفِـيْ وَذَابِلِـيْ	نَكُنْ وَاحِداً نَلْقَ ٱلْوَرَىٰ وَٱنْظُرَنْ فِعْلِيْ

ادعاء المتنبي الشجاعة

الطِّرْفُ : الفرسُ الكريمُ ، والذَّابِلُ : ما لانَ وٱهتزَّ مِنَ ٱلرماحِ ، يقولُ : دعني وهـٰذا السيفَ وفرسي ورمحي نجتمعُ ، فنكونَ واحداً في رأيِ العينِ . يلقىٰ الورىٰ : أَي يحاربُهم ثُمَّ ٱنظر إِلىٰ ما أَفعلُهُ فيهم .

من أين أخذ المتنبي بيته

قالَ ٱبنُ جِنِّيٍّ وقد لاذَ في هـٰذا البيتِ بقولِ ذِي الرُّمَّةِ [في « ديوانه » ٢/١١٠٨ـ١١٠٩ منَ الطويل] :

وَلَيْـلٍ كَجِلْبَـابِ ٱلْعَـرُوْسِ ٱدَّرَعْتُـهُ بِأَرْبَعَةٍ وَٱلشَّخْصُ فِيْ ٱلْعَيْنِ وَاحِدُ
أَحَـمُّ غُـدَافِـيٌّ وَأَبْيَـضُ صَـارِمٌ وَأَعْيَسُ مَهْرِيٌّ وَأَرْوَعُ مَاجِدُ(١)

أَقولُ : ومثلهُ قولُ السلاميِّ [في « خزانة الأدب » ٢/ ٢٩٥ منَ الطويل] :

فَكُنْتُ وَعَزْمِيْ فِيْ ٱلظَّلاَمِ وَصَارِمِيْ ثَـلاَثَـةَ أَشْبَـاحٍ كَمَـا ٱجْتَمَـعَ ٱلنَّسْـرُ

شجاعة الإمام

وقولهُ : (يلقَىٰ الوَرىٰ) ناظرٌ إِلىٰ قولِ أَميرِ المؤمنينَ [في « نهج البلاغة » ٣٥٩] : (واللهِ لو تظاهرَتِ ٱلعَربُ بأَسرِها علىٰ قتالي.. لما وَلَّيْتُ عنها ، وأَنا مِنْ رسولِ الله كالصِّنْوِ مِنَ ٱلصِّنْوِ ، والذِّراعِ مِنَ العَضُدِ) .

---

(١) الأحمُّ الغدافيُّ : الفرسُ الشديدُ السوادِ . أَروعُ ماجدٌ : فارسٌ شجاعٌ من خيرة الناس .

والناظم كثيراً ما يَرعىٰ غيرَ ماشيَتِهِ ، ويَحطِبُ في حبلِ غيرِهِ ، وقلتُ في عكسِ قولِ ذي الرُّمَّةِ من قصيدةٍ أَصِفُ بها فرسِي [منَ الطويل] :

تعليق المؤلف على المتنبي

إِذَا ٱعْتَرَضَتْ بِيْ قَالَ قَوْمٌ ثَلاَثَةٌ وَمَا ثَمَّ غَيْرِي لَـٰكِنِ ٱلذَّيْلُ وَٱلرَّاسُ

وتَجدُ أَنْ لا مخالفةَ عندَ إِمعانِ النَّظَرِ ؛ لأَنِّي أَصفُ فَرَسِي مُعْتَرِضَةً ، وهو يصفُ بعيرَهُ مقبلاً أَو مدبراً ، وقد قالَ في نظيرِهِ الناظمُ [في « العُكْبَرِيّ » ٣/ ٢١٤ منَ المنسرح] :

الفارس والفرس والسلاح قطعة واحدة عند الشعراء

إِنْ أَدْبَـرَتْ قُلْـتُ: لاَ تَلِيْـلَ لَهَـا أَوْ أَقْبَلَتْ قُلْتُ: مَا لَهَا كَفَلُ(١)

ومِمَّا جاءَ في وصفِ الخيلِ قولُ ٱمرئِ القَيْسِ [في « ديوانه » ١٥٣ـ١٥٥ منَ الطويل] :

وَقَدْ أَغْتَدِيْ وَٱلطَّيْرُ فِيْ وُكُنَاتِهَا بِمُنْجَرِدٍ قَيْدِ ٱلأَوَابِدِ هَيْكَلِ(٢)
مِكَـرٍّ مِفَـرٍّ مُقْبِـلٍ مُـدْبِـرٍ مَعـاً كَجُلْمُوْدِ صَخْرٍ حَطَّهُ ٱلسَّيْلُ مِنْ عَلِ(٣)
لَـهُ أَيْطَـلاَ ظَبْـيٍ وَسَـاقَـا نَعَـامَـةٍ وَإِرْخَاءُ سِرْحَانٍ وَتَقْرِيْبُ تَتْفُلِ(٤)

---

(١) التليلُ : العنقُ . الكَفَلُ : الردفُ ، كما مرَّ سابقاً .

(٢) وكناتُها : أَوكارُها . المنجردُ : الفرسُ القصيرُ الشعرِ . الأوابدُ : الوحوشُ . وقَيْدُها : إِمساكُها بقوةٍ ، فكأَنَّها لَمْ تبرحْ مكانَها . الهيكلُ : الفرسُ الطويلُ المتينُ الخلقِ .

(٣) الجلمودُ : الصخر الأَصمُّ . مِنْ عَلِ : مِنْ مكانٍ عالٍ .

(٤) أَيطلا ظَبْيٍ : خاصرتا ظَبْيٍ ؛ لضمورِهما . وساقا نعامةٍ : شبَّهَ ساقيهِ بساقي النعامةِ ؛ لصلابتِهما وقصرِهما . وإِرخاءُ سِرْحانَ : سرعةُ ذئبٍ في لينٍ . وتقريبُ تتفلٍ : وجري تتفل ؛ وهو ولدُ الذئبِ .

أول من جعل الحصان قيداً للأوابد

وكادَ الإجماعُ ينعقدُ علىٰ أَنَّهُ السابقُ إِلىٰ جعلهِ الحصانَ قيداً للأَوابدِ ، وعندي أنّه مخالفٌ لقولِهم : إِنَّ (زَادَ الرَّكبِ) فرسٌ معروفٌ منَ الخيلِ التي وصَفَها اللهُ بـ: ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ﴾ [صٓ : ٣١] ، سُمِّيَ بذلكَ ؛ لأَنَّه كانَ يلحقُ الصيدَ ، فكانَ الوفدُ إِذا نزلوا . . ركبَهُ أَحدُهم ، فصادَ لهم ما يكفيهم ، وهو مِنْ سليمانَ عليهِ السلامُ ، أَعطاهُ للأَزْدِ[1] لمَّا وفدوا عليهِ ، فكيفَ يكونُ ٱمرؤُ القيسِ السابقَ إليهِ معَ هٰذا ؟! ولٰكنَّهُ تنوَّعَ فيهِ وأفرغهُ في عِدَّةِ قوالبَ ، منها قولُهُ [في « ديوانه » ٥٣ منَ الطويل] :

إِذَا مَـا رَكِبْنَـا قَـالَ وُلْـدَانُ أَهْلِنَـا ... تَعَالَوْا إِلَيْنَا يَأْتِنَا ٱلصَّيْدُ نَحْطِبِ[2]

الشعــراء وجعلهــم الحصان قيداً للوحوش

وقالَ عمارةُ بنُ عقيلٍ [في « خزانة الأدب » ١/١٥٨ منَ الخفيف] :

وَأَرَىٰ ٱلْوَحْشَ فِيْ يَمِيْنِيْ إِذَا مَا ... كَـانَ يَـوْمَـاً عِنَـانُـهُ بِشِمَـالِـيْ

وقالَ ٱبنُ مقبلٍ [منَ البسيط] :

لاَ يَنْفَعُ ٱلْوَحْشَ مِنْهُ أَنْ تَحَذَّرَهُ ... كَـأَنَّـهُ مُعْلَـقٌ مِنْهَـا بِخُطَّـافِ[3]

وقالَ الناظمُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٣/ ٢٩٤ منَ الطويل] :

وَخَيْلٍ إِذَا مَرَّتْ بِمَرْجٍ وَرَوْضَةٍ ... أَبَتْ رَعْيَهَا إِلاَّ وَمِرْجَلُنَا يَغْلِيْ[4]

---

(١) الأزدُ : قبيلةٌ مِنَ (اليمن) .

(٢) نَحطِبُ : نجمعُ الحطبَ؛ للشواءِ والطبخِ .

(٣) الخُطَّافُ ـ بضمِ الخاءِ ـ: هو الحديدةُ المعوجَّةُ .

(٤) في «العكبري» : (بِوَحْشٍ) بدل (بِمَرْجٍ). المرجلُ : القِدْرُ ؛ أَي : وخيلُنا الكريمةُ تأبىٰ أَنْ ترتعَ في الرياضِ والكلأ إذا رأَت الوحوشَ، حتىٰ تجعلَ قدورَنا تغلي ، ونأكلَ مِنْ لحمِها .

وقالَ [في «العُكْبَرِيّ» ٤/١٧٩ منَ الكامل] :

مُتَفَيِّئِينَ ظِلَالَ كُلِّ مُطَهَّمٍ   أَجَلِ الظَّلِيمِ وَرِبْقَةِ السِّرْحَانِ(١)

وقالَ البُحتريُّ ـ وكانَ وَصَّافاً للخيلِ ـ [في «ديوانه» ٣/ ٢٠٢٧ـ٢٠٢٨ منَ الوافر] :   وصف البحتري للخيل

أَرَاجِعَتِي يَدَاكَ بِأَعْوَجِيٍّ   كَقِدْحِ النَّبْعِ فِي الرِّيشِ اللُّؤَامِ؟(٢)

بِأَدْهَمَ كَالظَّلَامِ أَغَرَّ يَجْلُو   بِغُرَّتِهِ دَيَاجِيرَ الظَّلَامِ

تَرَىٰ أَحْجَالَهُ يَصْعَدْنَ فِيهِ   صُعُودَ الْبَرْقِ فِي جَوْنِ الْغَمَامِ(٣)

وقالَ [في «ديوانه» ٣/ ١٩٨٥ـ١٩٨٨ منَ الكامل] :

أَمَّا الْجَوَادُ فَقَدْ بَلَوْنَا يَوْمَهُ   وَكَفَىٰ بِيَوْمٍ مُخْبِراً عَنْ عَامِهِ

جَارَىٰ الْجِيَادَ فَطَارَ عَنْ أَوْهَامِهَا   سَبْقاً وَكَادَ يَطِيرُ عَنْ أَوْهَامِهِ

جَذْلَانَ تَلْطِمُهُ جَوَانِبُ غُرَّةٍ   جَاءَتْ مَجِيءَ الْبَدْرِ عِنْدَ تَمَامِهِ(٤)

وَاسْوَدَّ ثُمَّ صَفَتْ لِعَيْنَيْ نَاظِرٍ   جَنَبَاتُهُ فَأَضَاءَ فِي إِظْلَامِهِ

مَالَتْ جَوَانِبُ عُرْفِهِ وَكَأَنَّهَا   عَذَبَاتُ أَثْلٍ مَالَ تَحْتَ حَمَامِهِ(٥)

---

(١) في «العكبري»: (يَتَقَلَّبُونَ) بدل (مُتَفَيِّئِينَ). المُطَهَّمُ : الفرسُ التامُّ ، كُلُّ شيءٍ منهُ على حدتِهِ . والظليمُ : ذكرُ النعامِ . والرِّبْقَةُ : ما يكونُ في رقبةِ الشاةِ ، تحبسُها مِنَ التصرفِ . السرحانُ : الذئبُ .

(٢) القدحُ : السهمُ قبلَ أنْ ينصلَ ويراشَ . النَّبْعُ : شجرٌ تتخذُ منهُ السهامُ والقسيُّ . اللُّؤام ، يقالُ : سهمٌ لأمٌ ؛ أي عليهِ ريشٌ .

(٣) الأحجالُ : بياضٌ في قوائمِ الفرسِ . الجَوْنُ : الأسودُ .

(٤) جذلان : فرحان .

(٥) العَذَبَةُ : طرفُ الشيءِ . الأَثْلُ : شجرٌ كثيرُ الأغصانِ .

وكَـأَنَّ فَـارِسَـهُ وَرَاءَ قَـذَالِـهِ ... رِدْفٌ فَلَسْتَ تَرَاهُ مِنْ قُدَّامِهِ[1]
لانَـتْ مَعَـاطِفُـهُ فتَحْسَـبُ أَنَّـهُ ... لِلْخَيْـزُرَانِ مُنَـاسِـبٌ بِعِظَـامِـهِ
فِيْ شُعْلَةٍ كَالشَّيْبِ لاحَ بِمَفْرِقَيْ ... غَـزِلٍ لَهَـا عَـنْ شَيْبِـهِ بِغَـرَامِـهِ
وَكَـأَنَّ صَهْلَتَـهُ إِذَا ٱسْتَعْلَىٰ بِهَـا ... رَعْدٌ تَقَعْقَعَ فِيْ ٱزْدِحَامِ غَمَامِهِ
مِثْلُ ٱلْغُرَابِ مَشَىٰ يُبَارِيْ صَحْبَهُ ... بِسَـوَادِ صِبْغَتِـهِ وَحُسْـنِ قَـوَامِـهِ

وقالَ [في « ديوانه » ٣/ ١٧٤٠ـ١٧٤٤ منَ الكامل] :

وأَغَرَّ فِيْ ٱلزَّمَنِ ٱلْبَهِيْمِ مُحَجَّلٍ ... قَدْ رُحْتُ مِنْهُ عَلَىٰ أَغَرَّ مُحَجَّلِ
كَـٱلْهَيْكَـلِ ٱلْمَبْنِـيِّ إِلاَّ أَنَّـهُ ... فِيْ ٱلْحُسْنِ جَاءَ كَصُوْرَةٍ فِيْ هَيْكَلِ
ذَنَبٌ كَمَا سُحِبَ ٱلرِّدَاءُ يَذُبُّ عَنْ ... عُـرْفٍ ، وَعُـرْفٌ كَـٱلْقِنَـاعِ ٱلْمُسْبَلِ
جَذْلانَ يَنْفُضُ عُذْرَةً فِيْ غُرَّةٍ ... يَقَقٍ تَسِيْلُ حُجُوْلُهَا فِيْ جَنْدَلِ[2]
تَتَـوَهَّـمُ ٱلْجَـوْزَاءَ فِـيْ أَرْسَـاغِـهِ ... وَٱلْبَـدْرَ غُـرَّةَ وَجْهِـهِ ٱلْمُتَهَلِّـلِ
فَكَـأَنَّمَـا نَفَضَـتْ عَلَيْـهِ صِبْغَهَـا ... صَهْبَـاءُ لِلْبَـرَدَانِ أَوْ قُطْـرَبُّـلِ[3]
وَتَخَالُهُ كُسِيَ ٱلْخُدُوْدَ نَوَاعِماً ... مَهْمَا تُوَاصِلْهَا بِلَحْظٍ تَخْجَلِ
وَتَرَاهُ يَسْطَعُ فِيْ ٱلْغُبَارِ لَهِيْبُهُ ... لَوْناً وَشَدّاً كَـٱلْحَرِيْقِ ٱلْمُشْعَلِ
هَزِجُ ٱلصَّهِيْلِ كَأَنَّ فِيْ نَغَمَاتِهِ ... نَبَرَاتِ مَعْبَدَ فِيْ ٱلثَّقِيْلِ ٱلأَوَّلِ[4]

---

(١) قَذالُ الفرس : مَعْقِدُ سَيْرَيْ اللجام، خلفَ الناصيةِ .
(٢) العُذْرَةُ : الشعْرُ علىٰ كاهلِ الفرسِ . اليقَقُ : شدَّةُ البياضِ . جندلٌ : مكان في مجرى النهر يشتد فيه التيار .
(٣) قُطْرَبُّلٌ: اسم قرية بين (بغداد) و(عكبرىٰ) ينسب إليها الخمر، وما زالت متنزهاً للبطالين وحانة للخمارين ، وقد أكثر الشعراء من ذكرها. البردان : اسم بلدٍ قريبةٍ من (عكبرىٰ) و(قطربل) و(بغداد) .
(٤) مَعبَد: رجلٌ من أئمةِ الغناءِ. الثقيل الأول: ضرب من ضروب الإيقاع يبحث في علم الموسيقىٰ .

مَلَكَ ٱلْعُيُوْنَ إِذَا بَدَا أَعْطَيْنَهُ   نَظَرَ ٱلْمُحِبِّ إِلَىٰ ٱلْحَبِيْبِ ٱلْمُقْبِلِ

وصف أبي تمام للخيل

وقالَ حبيبٌ [في « ديوانه » ١/ ٣٨٠ منَ السريع] :

إِنْ زَارَ مَيْدَاناً سَبَىٰ أَهْلَهُ   أَوْ نَادِياً قَامَ إِلَيْهِ ٱلْجُلُوْسْ
تَرَىٰ رِزَانَ ٱلْقَوْمِ قَدْ أَسْمَحَتْ   عُيُوْنُهُمْ فِيْ حُسْنِهِ وَهْيَ شُوْسْ[١]
كَأَنَّمَا لاَحَ لَهُمْ بَارِقٌ   فِيْ ٱلْمَحْلِ أَوْ زُفَّتْ إِلَيْهِمْ عَرُوْسْ
عَوَّذَهُ ٱلْحَاسِدُ ظَنّاً بِهِ   وَرَفْرَفَتْ خَوْفاً عَلَيْهِ ٱلنُّفُوْسْ

وصف ابن المعتز للخيل

وقالَ ٱبنُ المعتزِّ [في « ديوانه » ١/ ٥١ منَ الكامل] :

وَلَقَدْ يَشُقُّ بِيَ ٱلْكَتِيْبَةَ قَارِحٌ   حَتَّىٰ أُخَضِّبَ بِٱلدِّمَاءِ سِلاَحِيْ
ذُوْ غُرَّةٍ فِيْ دُهْمَةٍ فَكَأَنَّهُ   لَيْلٌ تَبَرْقَعَ وَجْهُهُ بِصَبَاحِ

وصف المتنبي للخيل

وقالَ الناظمُ [في « العُكْبَرِيّ » ١/ ١٧٩ـ١٨٠ منَ الطويل] :

وَعَيْنِيْ إِلَىٰ أُذْنَيْ أَغَرَّ كَأَنَّهُ   مِنَ ٱللَّيْلِ بَاقٍ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَوْكَبُ
لَهُ فَضْلَةٌ عَنْ جِسْمِهِ فِيْ إِهَابِهِ   تَجِيْءُ عَلَىٰ صَدْرٍ رَحِيْبٍ وَتَذْهَبُ
شَقَقْتُ بِهِ ٱلظَّلْمَاءَ أُدْنِيْ عِنَانَهُ   فَيَطْغَىٰ وَأُرْخِيْهِ مِرَاراً فَيَلْعَبُ
وَأَصْرَعُ أَيَّ ٱلْوَحْشِ قَفَّيْتُهُ بِهِ   وَأَنْزِلُ عَنْهُ مِثْلَهُ حِيْنَ أَرْكَبُ
وَمَا ٱلْخَيْلُ إِلاَّ كَٱلصَّدِيْقِ قَلِيْلَةٌ   وَإِنْ كَثُرَتْ فِيْ عَيْنِ مَنْ لاَ يُجَرِّبُ

وقولُهُ : (وأَصْرَعُ أَيَّ ٱلْوَحْشِ . . . إلىٰ آخرهِ) مِنْ قولِ ٱمرىءِ القيسِ [في « ديوانهِ » ١٥٦ منَ الطويل] :

فَعَادَىٰ عِدَاءً بَيْنَ ثَوْرٍ وَنَعْجَةٍ   وَعَادَ فَلَمْ يَنْضَحْ بِمَاءٍ فَيُغْسَلِ

---

(١) أَسمحتْ : ذلَّت وٱنقادَت . الأَشوسُ : الذي ينظر بطرفِ عينهِ تكبُّراً .

قضاء زوجة امرىء القيس لعلقمة

وحديثُ أمرىءِ القيسِ ، وما قضتْ عليهِ فيهِ زوجُهُ لِعَلْقَمَةَ الفَحْلِ مشهورٌ[(١)] .

وصف المعري للخيل

وقالَ المعرّيُّ [في « سقطِ الزند » ٢٣٠ منَ الطويل] :

وَقَدْ أَغْتَدِيْ وَٱللَّيْلُ يَبْكِيْ تَأَسُّفاً ... عَلَىٰ نَفْسِهِ وَٱلنَّجْمُ فِيْ ٱلْغَرْبِ مَائِلُ
بِـرِيْـحٍ أُعِيْـرَتْ حَـافِـراً مِـنْ زُمُـرُّدٍ ... لَهَا ٱلتِّبْرُ جِسْمٌ وَٱللُّجَيْنُ خَلاَخِلُ[(٢)]
كَـأَنَّ الصَّبَـا أَلْقَـتْ إِلَـيَّ عِنَـانَهَـا ... تَخُـبُّ بِسَـرْجِـيْ تَـارَةً وَتُنَـاقِـلُ[(٣)]
إِذَا ٱشْتَاقَتِ ٱلْخَيْلُ ٱلْمَنَاهِلَ أَعْرَضَتْ ... عَنِ ٱلْمَاءِ فَٱشْتَاقَتْ إِلَيْهَا المَنَاهِلُ

الشعراء والخيل

وَيُعْجِبُنِي قولُ بعضِهِم [منَ الكامل] :

فَكَـأَنَّمَـا لَطَـمَ الصَّبَـاحُ جَبِيْنَـهُ ... فَٱغْتَاظَ مِنْهُ فَدَاسَ فِيْ أَحْشَائِهِ

وقالَ مُهَذّبُ الدِّينِ [منَ البسيط] :

سُوْدٌ حَوَافِرُهَا بِيْضٌ جَحَافِلُهَا ... صِبْغٌ تَوَلَّدَ بَيْنَ ٱلصُّبْحِ وَٱلْغَسَقِ
مِنْ طُوْلِ مَا وَطِئَتْ ظَهْرَ ٱلدُّجَىٰ خَبَباً ... وَطُوْلِ مَا كَرَعَتْ مِنْ مَنْهَلِ ٱلْفَلَقِ[(٤)]

وهاهنا وقفةٌ؛ فَإِنَّ أمرأَ القيسِ يقولُ عَنْ فرسِهِ [في معلقته منَ الطويل] :

كُمَيْتٍ إِذَا ٱسْتَدْبَرْتَهُ سَدَّ فَرْجَهُ ... بِضَافٍ فُوَيْقَ ٱلأَرْضِ لَيْسَ بِأَعْزَلِ

---

(١) وقصَّةُ علقمةَ: أنَّهُ خلفَ علىٰ امرأَةِ امرىءِ القيسِ لمَّا حكمت له علىٰ امرىءِ القيسِ بأنَّهُ أشعرُ منهُ في صفةِ فرسِهِ، فطلَّقها امرؤُ القيسِ، فخالفهُ عليها، وما زالتِ العربُ تسميهِ بالفحلِ لذلكَ . « الأغاني » (٢٠٦/١٠) .

(٢) الحافرُ مِنْ زُمُرُّد : أَيْ حافرٌ أخضرُ صلبٌ ، التبرُ : الذهبُ . اللجينُ : الفضَّةُ .

(٣) تَخُبُّ : مِنَ الخببِ؛ وهو مِنْ ضروبِ السيرِ. التَّقَالُ: مِنَ المناقلةِ؛ وهي المشي الليِّنُ الرقيقُ.

(٤) الفلقُ : الصبحُ .

ويقولُ [في «ديوانه» منَ المتقارب] :

لَهَا ذَنَبٌ مِثْلُ ذَيْلِ ٱلْعَرُوْسِ تَسُدُّ بِهِ فَرْجَهَا مِنْ دُبُرْ

والطِّرِمَّاحُ يقولُ في صفةِ فرسٍ لهُ ذَيَّالٍ[1] [كما في « ديوانهِ » ٥٣٣ منَ الوافر] :

فَسَدَّ بِمَضْرَحِيِّ ٱللَّوْنِ جَثْلٍ خَوَايَةَ فَرْجِ مِقْلاَتٍ دَهِيْنِ[2]

وكُلُّهُ مشكلٌ ؛ لأَنَّ المحمودَ في الخيلِ إنَّما هو أن تَشُوْلَ بأَذنابِها ، وتُبالغَ في رفعِ رُؤُوسِها ، حتَّىٰ تُظَنَّ ثلاثةً إذا ٱعترضتْ بالراكبِ ، كما سبقَ في قولي عنْ فرسِي ، وكما قالَ بشَّارٌ [في « ديوانه » ٤/ ٢٤ منَ الكامل] : المحمود من الخيل

وَٱلْخَيْلُ شَائِلَةٌ تَشُقُّ غُبَابَهَا مِثْلَ ٱلْعَقَارِبِ رَفَّعَتْ أَذْنَابَهَا

وكمَا قالَ الناظمُ في غارتهِ عليهِ [في « العُكْبَرِيِّ » ٣/ ٩٩ منَ الطويل] :

شَوَائِلَ تَشْوَالَ ٱلْعَقَارِبِ بِٱلْقَنَا لَهَا مَرَحٌ مِنْ تَحْتِهِمْ وَصَهِيْلُ

وقد سبقتِ العربُ إلىٰ ذلكَ ، فقالَ أَحدُ بَني تَيْمِ اللهِ بنِ ثعلبةَ [في «ديوان الحماسة» ١/ ٣٥ منَ الكامل] :

وَلَقَدْ رَأَيْتُ ٱلْخَيْلَ شُلْنَ عَلَيْكُمُ شَوْلَ ٱلْمَخَاضِ أَبَتْ عَلَىٰ ٱلْمُتَغَبِّرِ[3]

---

(١) ذَيَّالٌ : هو الفرسُ الطويلُ الجسم الطويلُ الذيلِ . فإن كانَ قصيرَ الجسمِ طويلَ الذيلِ قيلَ لهُ : ذائلٌ ، أو ذَيَّالُ الذنبِ، فيذكرونَ الذنبَ .

(٢) مضرحيُّ اللونِ : الأبيضُ مِن كلِّ شيءٍ . الجثلُ : الكثيرُ الشعرِ، الطويلُ الملتفُّ . الخوايةُ : الفرجةُ بين فخذي الناقةِ التي يسدُّها ذنبُها . المِقْلاتُ : الناقةُ التي تلدُ واحداً ثُمَّ لا تحملُ ؛ وذلكَ أَقوىٰ لها . الدهينُ : الناقةُ القليلةُ اللبنِ ؛ وهو أَقوىٰ لها أيضاً .

(٣) شُلنَ عليكُم : مِن شالَ الفرسُ بذنبهِ يشولُ شولاً ؛ أَي : رفعَهُ عندَ الجري . =

وقالَ غَنِيُّ بنُ مالكٍ [منَ الوافر] :

دَفَعْنَـا ٱلْخَيْـلَ شَـائِلَـةً عَلَيْهِـمُ   وَقُلْنَـا بِـٱلضُّحَـىٰ فَيْحَـىٰ فَيَـاحِ[1]

وقالَ الحطيئةُ [في « ديوانه » ١٥٣ منَ الطويل] :

عَوَاسِرَ بَيْنَ ٱلطَّلْحِ يَرْجُمْنَ بِٱلْقَنَا   خُرُوْجَ ٱلظِّبَاءِ مِنْ حِرَاجِ قِطَانِ

إذِ العواسيرُ هِيَ ٱلَّتي ترفعُ أذنابَها لقوَّتِها ، شَبَّهَ الخيلَ بالظباءِ الخوارجِ مِنَ ٱلحِراجِ ، جمعُ حَرَجَة ؛ وهي ما التفَّ منَ الشجرِ ، وقِطَان : موضعٌ معروفٌ ، إلاَّ أَنْ يقالَ : إنَّ الأَوَّلينَ أَرادوا وصفَها قائمةً في مرابِطِها ، فقد يكونُ علىٰ شيءٍ فيهِ مِنَ ٱلبعدِ ، ثُمَّ إنَّ قولَ التَّيْمي : (شَوْلَ المخاضِ) ، وقولَ بشار ، والناظمِ : مثلَ العقاربِ . . لا يخلو مِنَ ٱلملاحظةِ ؛ لأَنَّ المحمودَ في الخيلِ إنَّما هوَ أَنْ ترفعَ أَذنابهَا ثم تَرُدَّها إلىٰ الوَراءِ ، كهيئةِ الرسوم الواقعةِ بالدنانيرِ[2] الإنكليزيةِ ، لا أَنْ تبالغَ في رفعِها إلىٰ ما ذكرهُ أُولئكَ ، غيرَ أَنَّهُ يمكنُ أَنْ يَرِدَ إليهِ ما سبقَ عنِ ٱلطِّرِمَّاحِ ، وعنِ ٱمرىءِ القيسِ ، ولا سيَّما ما كانَ في بيتهِ الثاني ؛ إذ لا يبعدُ أَنْ يكونَ المرادُ : أَنَّها تشولُ بِهَا ، ثُمَّ تردُّها حتَّىٰ تَسُدَّ به فروجَها ، فيجتمعُ حينئذٍ المدحُ بالطولِ والشولانِ .

= المخاضُ : النوقُ الحواملُ . الغبرُ : البقيَّةُ مِنَ اللبنِ في الضَّرعِ . والمعنىٰ : لقد رأيتُكُم منهزمينَ والخيلُ تعدو عليكُم رافعةً أذنابَها رفعَ النوقِ الحواملِ لها إذا طُلِبَ حلبُ غبرِ لبنِها .

(١) فيحىٰ فياحِ : ٱنتشري وٱتَّسعي أَيَّتُهَا الغارةُ .

(٢) المراد الليرة الذهبية الإنكليزية المعروفة الآن .

أمّا قولُ البُحتريِّ السابقُ [في « ديوانهِ » ٣/ ١٧٤٢ منَ الكامل] : توجيه قولٍ للبحتري

ذَنَبٌ كَمَا سُحِبَ ٱلرِّدَاءُ يَذُبُّ عَنْ عُرْفٍ وَعُرْفٌ كَٱلْقِنَاعِ ٱلْمُسْبَلِ

فلاَ شكَّ أَنَّهُ يصفُهُ قائماً ، وإلاَّ . . كانَ فيهِ عَيْبُ الإِرْخَاءِ وعَيْبُ التَّحْرِيكِ ؛ فإِنَّهُ لا يُحْمَدُ من الخيلِ ، وإِنَّما يُحْمَدُ من الإبلِ ، كما قال أَبو نُوَاسٍ [في « ديوانه » ٢٩٧ منَ الكامل] :

تَثْنِيْ عَلَىٰ ٱلحَاذَيْنِ ذَا خُصَلٍ تَعْمَالُـهُ الشَّـذْرَانُ وَٱلْخَطْـرُ[1]
أَمَّـا إِذَا رَفَعَتْـهُ شَـامِـذَةً فَتَقُـوْلُ : رَنَّـقَ فَـوْقَهَـا نَسْـرُ[2]
أَمَّـا إِذَا وَضَعَتْـهُ خَـافِضَـةً فَتَقُـولُ : أُرْخِـيَ دُوْنَهَـا سَتْـرُ

والكلامُ في الخيلِ يطولُ ، وسنسيرُ عليهِ في الفُصُولِ ، كُلَّما سَنَحتْ فرصةٌ . . نذكرُ منهُ حِصَّةً ، وهي ممّا أُفردَتْ بالتآليفِ العديدةِ ، ومِنْ أَشهرِها (الأَعوجيّةُ) منسوبة لفحلٍ كريمٍ كان لكندةَ ، ثُمَّ أخذَتْهُ سُليمٌ ، ثُمَّ صارَ لبني عامرٍ ، ثُمَّ لبني هلالٍ ، رُكِبَ رطباً ، فأعوجتْ أَرساغُهُ ، قيلَ لصاحبهِ : ما رأيتَ مِنْ شدةِ عَدْوِهِ ؟ قال : عطشتُ في الفلاةِ ، ولا أَعرفُ منهلاً ، فما كانَ بأَسرعَ مِنْ سربِ قطَا واردٍ ، فأَجريتُهُ في إِثرهِ ، فوافينا الماءَ معاً ، وكنتُ أَغضُّ مِنْ عِنانهِ .

هل معقول أن سرعة الخيل الأعوجية تعادل سرعة القطا؟

---

(١) الحاذانِ ـ مثنّىٰ الحاذي ـ: وهوَ ظاهرُ الفخذِ . ذا خصلٍ : يريدُ بهِ ذنبَ الناقةِ . التَّعمالُ : الاضطرابُ . الشذَرانُ : جمعُ الناقةِ قُطرَيها وَرَفْعُها ذَنَبَها . الخَطْرُ : أَنْ تضربَ الناقةُ بذيلها يميناً ويساراً .
(٢) الشامذةُ : الناقةُ التي تشيلُ ذنبهَا نشاطاً .

وفيهِ مبالغاتٌ ؛ لأنَّ القطا مِنْ أشدِّ الطيرِ طيراناً ، وإذا أرادَ الماءَ . اشتدَّ ، ومَا كفاهُ ذلكَ حتَّىٰ قالَ : أغضُّ مِنْ لجامهِ .

أول من ركب الخيل

وأَوَّلُ مَنْ ركبَ الخيلَ : إسماعيلُ ـ عليهِ السلامُ ـ وكانتْ قبلَ ذلكَ وحشيَّةً ، كما سيأتي بيانهُ في غيرِ هٰذا المجلسِ .

واللهُ أعلمُ

* * *

المجلس الخامس

[قالَ أَبو الطيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَريّ » ٤/ ٢٩ مِنَ الكامل] :

غُصْـنٌ عَلَـىٰ نقَـوَا فَـلاَةٍ نَـابِـتٌ　　شَمْسُ ٱلنَّهَارِ تُقِلُّ لَيْلاً مُظْلِمَا

وصف المتنبي لحبيبته

يصفُ حبيبتَهُ فيقولُ : هي (غصنٌ) يعني : قامتَها . (نابتٌ) علىٰ كثيبَيْ رملٍ ـ يعني : رِدفَيها . ووجهُهَا شمسٌ تحملُ ليلاً مُظلِماً ـ يعني : فرعَها . و(نَقَوَا) ـ تثنيةُ نَقاً ـ وهوَ : ٱلكثيبُ مِنَ الرَّمْلِ . و(الفَلاَةُ) : ٱلمَفازةُ ، وتشبيهُ ٱلكَفَلِ بالنَّقا شائعٌ ذائعٌ مرميٌّ في مدارجِ الطُّرقِ ، غيرَ أَنَّ التَّثنيةَ قد تُخرِجُهُ عَنِ ٱلابتذَالِ ، وٱلمَرأَةُ لها مأكَمتانِ ، فشبَّهَ كلَّ واحدةٍ بنَقاً مِنَ الرَّملِ نابتٌ عليهِما غصنُ ٱلقامةِ ، وذِكرُ ٱلفلاةِ مِنَ ٱلفضولِ ؛ إِذ لاَ معنىٰ لَهُ غيرَ ٱلاسترفادِ ، ما لَمْ تكُنِ ٱلمراةُ أَعرابيَّةً ، فيكونُ مِنْ بيانِ ٱلواقعِ . وقولهُ : (نابتٌ) مِنَ ٱلحشوِ أَيضاً ؛ إِذْ لا يزيدُ شيئاً علىٰ قولِهِ : (غُصْنٌ عَلَىٰ نَقَوَا) ، وتشبيهُ ٱلمآكمِ بكُثبانِ الرَّملِ علىٰ ما ذكرنا مِنَ ٱلشُّيوعِ .

تشبيه المآكم بكثبان الرمل عند الشعراء

ومِمّا جاءَ مُحكماً فيهِ قولُ أَبي تمَّامٍ [في « ديوانهِ » ١/ ١٠٣ مِنَ ٱلبسيطِ] :

كَمْ أَحْرَزَتْ قُضُبُ ٱلْهِنْدِيِّ ـ مُصْلَتَةً　　تَهْتَزُّ ـ مِنْ قُضُبٍ تَهْتَزُّ مِنْ كُثُبِ[1]

---

(١) القُضُبُ ـ مفردها قضيبٌ ـ : وهوَ السيفُ اللطيفُ القطَّاعُ . مُصْلَتَةً : مسلولةً ؛ =

وقولُ ٱلبُحتريِّ [في «ديوانه» ٣/ ١٩٥٤ مِنَ الكاملِ] :

أَيـنَ ٱلغَـزَالُ ٱلْمُسْتَعِيـرُ مِـنَ ٱلنَّقَـا كَفَلاً، وَمِنْ نَوْرِ ٱلأَقَاحِيْ مَبْسِمَا[1] ؟

ومرَّ كَثيرٌ ممَّا يتَّصلُ بهِ في ٱلمجلسِ ٱلثَّاني عندَ قولهِ [في «العُكبرَيّ» ١/ ٢٩٧] : (بَانُوْا بِخُرْعُوْبَةٍ لَهَا كَفَلٌ . . .)، ولـٰكنَّ ٱلإجادةَ كلَّ ٱلإجادةِ ما فعلَ ذو الرُّمَّةِ مِنْ عكسهِ ٱلتَّشبيهَ في قولهِ [في «ديوانه» ٢/ ١١٣١ مِنَ الطَّويلِ] :

وَرَمْـلٍ كَـأَوْرَاكِ ٱلْعَـذَارَىٰ قَطَعْتُـهُ وَقَدْ جَلَّلَتْهُ ٱلْمُظْلِمَاتُ ٱلْحَنَادِسُ[2]

كثرة استعمال التشبيه تبليه إلا إن خرج عن بابه مع تظريف

وكذلكَ تشبيهُ ٱلوجهِ بٱلشَّمسِ وٱلبدرِ ، وٱلفرعِ بٱللَّيلِ[3] ، فإنَّهُ ممَّا أذالَهُ ٱلابتذالُ ، فلَمْ يعُدْ يَحسُنُ إلاَّ معَ تظريفٍ يُغرِّبُهُ فيخرِجُهُ عَنِ ٱلامتهانِ ؛ كقولِ طَرَفَةَ [في «ديوانه» ١١ مِنَ الطَّويلِ] :

وَوَجْهٍ كَأَنَّ ٱلشَّمْسَ حَلَّتْ رِدَاءَهَا عَلَيْـهِ نَقِيُّ ٱللَّـوْنِ لَـمْ يَتَخَـدَّدِ[4]

وقولِ قيسٍ [مِنَ ٱلكاملِ] :

لَوْ أَنَّ لَيْلَىٰ حَاكَمَتْ شَمْسَ ٱلضُّحَىٰ فِيْ ٱلْحُسْنِ عِنْدَ مُوَفَّقٍ . . لَقَضَىٰ لَهَا

وقولِ ٱلبُحتريِّ [في «ديوانه» ٤/ ٢٤١٠ مِنَ ٱلبسيطِ] :

فِيْ طَلْعَةِ ٱلشَّمْسِ شَيْءٌ مِنْ مَلاَحَتِهَا وَلِلْقَضِيْـبِ نَصِيْـبٌ مِـنْ تَثَنِّيْهَـا

= والمعنى : أنَّ تلكَ السيوفَ الهنديَّةَ إذا ٱهتزَّتْ . . سَبَتِ ٱلذراريَ ، وأَحرزتِ النساءَ اللاَّتي تهتزُّ كالقُضبانِ في كُثبانِ الرملِ .

(١) النقا : الرمل . والأقاحي ـ جمع أُقحوانٍ ـ : وهوَ نبتٌ طيِّبُ الريحِ ، حواليهِ ورق أبيضُ ، ووسطهُ أصفرُ ، وهوَ البابونج .

(٢) الحنادسُ : ثلاثُ ليالٍ مِنَ الشهرِ لظُلْمَتهنَّ .

(٣) الفرعُ : الشَّعرُ .

(٤) الوجهُ المتخدِّدُ : المتجعِّدُ .

وقولِ ٱلآخَرِ [مِنَ الطَّويلِ] :

تَــرَاءَىٰ وَمِــرْآةُ ٱلسَّمَــاءِ صَقِيْلَــةٌ   فَأَثَّرَ فِيْهَا وَجْهُهُ صُوْرَةَ ٱلْبَدْرِ

وقولِ بعضِ قدماءِ ٱلمولَّدينَ[1] [مِنَ ٱلبسيطِ] :

قَدْ قُلْتُ لِلْبَدْرِ وَٱسْتَعْبَرْتُ حِيْنَ بَدَا   مَا فِيْكَ يَا بَدْرُ لِيْ مِنْ وَجْهِهَا خَلَفُ
تُبْدِيْ لَنَا كُلَّمَا شِئْنَا مَحَاسِنَهَا   وَأَنْتَ تَنْقُصُ أَحْيَاناً وَتَنْخَسِفُ

وقولِ حبيبٍ [في « ديوانهِ » مِنَ الطَّويلِ] :

فَرُدَّتْ عَلَيْنَا ٱلشَّمْسُ وَٱللَّيْلُ مُظْلِمٌ   بِشَمْسٍ لَهُمْ مِنْ جَانِبِ ٱلْخِدْرِ تَطْلُعُ
فَــوَٱللهِ مَــا أَدْرِيْ أَأَحْــلَامُ نَــائِــمٍ   أَلَمَّتْ بِنَا، أَمْ كَانَ فِيْ ٱلرَّكْبِ يُوْشَعُ[2]

وَإِلىٰ مِثلِهِ يُشيرُ أبو ٱلعلاءِ في قولِهِ [مِنَ ٱلوافِرِ] :

وَيُــوْشَــعُ رَدَّ يَــوْمــاً بَعْــضَ يَــوْمٍ   وَأَنْتَ مَتَىٰ سَفَرْتَ رَدَدْتَ يُوْحَا[3]

وما أَحْسَنَ قولَهُ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَقَدْ حَلَفَتْ أَنْ تَسْأَلَ ٱلشَّمْسَ حَاجَةً   وَإِنْ سَــأَلَتْــكَ ٱلْيُسْــرَ بَــرَّتْ يَمِيْنُهَــا

---

(١) المولَّدينَ : المُحْدَثينَ ، والمولَّدُ لغة : المُحْدَثُ مِنْ كُلِّ شيءٍ ، وٱصطلاحاً : هوَ العربيُّ غيرُ المحضِ ، وُلِدَ عندَ العربِ ، ونشأَ معَ أولادِهِم ، وتأدَّبَ بآدابِهِم ، فهوَ مولَّدٌ وليسَ بعربيٍّ صريحٍ .

(٢) والمعنى : شبَّهَ سفورَ محبوبتِهِ ليلاً كأنَّها شمسُ النهارِ عادت ليلاً ، ثمَّ يستغربُ ويشكِّكُ فيما رأى فيظنُّهُ تارةً حُلْماً وتارةً يظنُّ أنَّ يوشعَ بنَ نونٍ معَ الركبِ ، حيثُ إنَّ يوشعَ ٱستوقفَ الشمسَ عندما كانَ يقاتِلَ الجبَّارينَ يومَ الجُمُعةِ ، فلمَّا أدبرتِ الشمسُ . . خافَ أَنْ تغيبَ قبلَ أَنْ يفرغَ مِنَ القتالِ ويدخُلَ السبتُ ، فلا يحلُّ لهُ القتالُ ، فدعا اللهَ فردَّ لهُ الشمسَ حتَّى فَرَغَ مِنْ قتالِهِم .

(٣) سفرت : برزتَ مِنْ غيرِ حجابٍ . يوحا : ٱسمٌ مِن أسماءِ الشمسِ .

وقولهُ [في « سقط الزَّند » ١٦١ مِنَ ٱلبسيطِ] :

أَرَىٰ جَبِيْنَكَ هَـٰذِيْ ٱلشَّمْسُ خَالِقُهَا   وَقَـدْ أَنَـارَتْ بِنُـوْرٍ عَنْـهُ مُنْعَكِـسِ

وقولَ بَديعِ الزَّمانِ [في « ديوانهِ » ٣٤ مِنَ ٱلبسيطِ] :

يَكَادُ يَحْكِيْكَ صَوْبُ ٱلْغَيْثِ مُنْسَكِباً   لَوْ كَانَ طَلْقَ ٱلْمُحَيَّا يُمْطِرُ ٱلذَّهَبَا
وَٱلدَّهْرُ لَوْ لَمْ يَخُنْ وَٱلشَّمْسُ لَوْ نَطَقَتْ   وَٱللَّيْثُ لَوْ لَمْ يُصَدْ وَٱلْبَحْرُ لَوْ عَذُبَا

وقولَ ٱبنِ ٱلمعتزِّ [في « ديوانهِ » ٢/١٥١ مِنَ الطَّويلِ] :

سَقَتْنِيَ فِيْ لَيْلٍ شَبِيْهٍ بِشَعْرِهَا   شَبِيْهَـةَ خَـدَّيْهَـا بِغَيْـرِ رَقِيْـبِ
فَأَمْسَيْتُ فِيْ لَيْلَيْنِ فِيْ ٱلشَّعْرِ وَٱلدُّجَىٰ   وَشَمْسَيْـنِ مِـنْ خَمْـرٍ وَخَـدِّ حَبِيْـبِ

الرشيد وعلي بن الخليل

ويروىٰ [كما في « الأغاني » ١٤/ ١٧٤] : أَنَّ شَيْخاً حسَنَ ٱلهيئةِ قامَ في مجلسِ الرَّشيدِ للمظالمِ برُقعةٍ ، فأَمرَ بأَخذِها ، فقالَ الشَّيخُ : إنْ رأىٰ أَميرُ ٱلمؤمنينَ أَنْ يأذَنَ لي بقراءتِها ؛ فإنِّي أَعرَفُ بخطِّي ، قال : ٱقرأْ ، فأَنشدهُ قصيدةً [مِنَ الكاملِ] منها :

لَمَّـا رَأَتْـكَ ٱلشَّمْـسُ طَـالِعَـةً   سَجَدَتْ لِوَجْهِكَ طَلْعَةُ ٱلشَّمْسِ
خَيْـرُ ٱلْبَـرِيَّـةِ أَنْـتَ كُلُّهِـمُ   فِيْ يَوْمِكَ ٱلْغَادِيْ وَفِيْ أَمْسِ
للهِ يَـا هَـارُوْنُ مِـنْ مَلِـكٍ   عَـفُّ ٱلسَّرِيْرَةِ طَاهِرِ ٱلنَّفْسِ

حتَّىٰ أَتىٰ علىٰ آخِرها . قالَ الرَّشيدُ : مَنِ الشَّيخُ؟ قالَ : عليُّ بنُ ٱلخليلِ ، الَّذي يُقَالُ إِنَّهُ زِنْدِيقٌ ، قال : أَنتَ آمِنٌ ، وأَمرَ لهُ بخمسِ مئةِ أَلفِ دِرهمٍ[١] .

(١) وجاء في « الأغاني » : أَنَّهُ أَعطاهُ خمسةَ آلافِ درهمٍ .

المتنبي وإغرابه في التشبيه

وما أكثرَ في « ديوانِ النّاظمِ » مِنِ ٱستعارةِ الشّمسِ بتنكيتٍ[1] تارةً ، وبدونهِ أُخرىٰ .

مِنْ ذلكَ قولُهُ [في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ١٢٣ مِنَ الطَّويلِ] :

رَأَتْ وَجْهَ مَنْ أَهْوَىٰ بِلَيْلٍ عَوَاذِلِي فَقُلْنَ : نَرَىٰ شَمْساً وَمَا طَلَعَ ٱلْفَجْرُ

وقولُهُ [في « العُكبَرِيِّ » ١/ ٣١ مِنَ ٱلكامِلِ] :

لَمْ تَلْقَ هَـٰذَا ٱلْوَجْهَ شَمْسُ نَهَارِنَا إِلاَّ بِـوَجْـهٍ لَيْـسَ فِيْـهِ حَيَـاءُ

وقولُهُ [في « العُكبَرِيِّ » ١/ ١٣٠ مِنَ ٱلكامِلِ] :

كَٱلشَّمْسِ فِيْ كَبِدِ ٱلسَّمَاءِ وَضَوْؤُهَا يَغْشَـىٰ ٱلْبِلاَدَ مَشَـارِقـاً وَمَغَـارِبَـا

وقولُهُ [في « العُكبَرِيِّ » ٤/ ٨٢ مِنَ الطَّويلِ] :

بِفَـرْعٍ يُـرِيْـكَ ٱللَّيْـلَ وَٱلصُّبْـحُ نَيِّـرٌ وَوَجْهٍ يُعِيْدُ ٱلصُّبْحَ وَٱللَّيْلُ مُظْلِمُ[2]

وقولُهُ [في « العُكبَرِيِّ » ١/ ١١٣ مِنَ ٱلبسيطِ] :

بَيَاضُ وَجْهٍ يُرِيْكَ ٱلشَّمْسَ حَالِكَةً وَدُرُّ لَفْظٍ يُرِيْكَ ٱلدُّرَّ مَخْشَلَبَا[3]

وقولُهُ [في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ٨١ مِنَ ٱلبسيطِ] :

شَمْسٌ إِذَا ٱلشَّمْسُ لاَقَتْهُ عَلَىٰ فَرَسٍ تَـرَدَّدَ ٱلنُّـوْرُ فِيْهَـا مِـنْ تَـرَدُّدِهِ

---

(١) النكتةُ : المسألةُ العلميّةُ الدقيقةُ ، يتوصَّلُ إليها بدقَّةٍ وإنعامِ فكرٍ .

(٢) الباءُ في قولِهِ : (بِفَرْعٍ) متعلّقةٌ بمحذوفٍ تقديرهُ : تُقْبِلُ .

والمعنى : قد جُمِعَتْ فيها الأضدادُ ، فهيَ تجمعُ بينَ الليلِ والنهارِ ، تُريكَ النهارَ ليلاً بشَعرها ، والليل نهاراً بوجهها .

(٣) المَخْشَلَبُ والمَشْخَلَبُ : لُغتانِ ، وليستا عربيّتينِ ، وإنَّما هُما لُغتانِ للنَّبَطِ ، وهوَ : خَرزٌ مِنْ حجارةِ البحرِ ، وليسَ بدُرٍّ .

وقولُهُ [في «العُكبَريّ» ٢/٩٩ مِنَ البسيطِ] :

تَكَسَّبُ ٱلشَّمْسُ مِنْكَ ٱلنُّوْرَ طَالِعَةً   كَمَا تَكَسَّبَ مِنْهَا نُوْرَهُ ٱلْقَمَرُ

وقولُهُ [في «العُكبَريّ» ٢/١١٠ مِنَ الوافِرِ] :

كَأَنَّ شُعَاعَ عَيْنِ ٱلشَّمْسِ فِيْهِ   فَفِيْ أَبْصَارِنَا عَنْهُ ٱنْكِسَارُ

وقولُهُ [في «العُكبَريّ» ٤/٤ مِنَ الطَّويلِ] :

فَلاَ زَالَتِ ٱلشَّمْسُ ٱلَّتِيْ فِيْ سَمَائِهِ   مُطَالِعَةَ ٱلشَّمْسِ ٱلَّتِيْ فِيْ لِثَامِهِ
وَلاَ زَالَ تَجْتَازُ ٱلْبُدُوْرُ بِوَجْهِهِ   تَعَجَّبُ مِنْ نُقْصَانِهَا وَتَمَامِهِ

وصف السيدة فاطمة الزهراء

وأفضلُ ما فِي ٱلموضوعِ : ما أخرجهُ ٱلحاكمُ [في «ٱلمستدركِ» ٣/١٧٦] عَنْ أنسِ بنِ مالكٍ قالَ : سألتُ أُمّي عَنْ فاطمةَ بنتِ رسولِ اللهِ ﷺ ، فقالَتْ : كانَتْ كٱلقمرِ ليلةَ ٱلبدرِ ، أَوِ الشَّمسِ إذا خرجَتْ مِنَ السَّحابِ ؛ بيضاءَ مشرَّبةً حُمرةً ، لها شعرٌ أسودُ ، مِنْ أَشدِّ النَّاسِ شبهاً برسولِ الله ﷺ ، هيَ ـ واللهِ ـ كما قالَ الشَّاعرُ [مِنَ الكاملِ] :

بَيْضَاءُ تَسْحَبُ مِنْ قِيَامٍ شَعْرَهَا   وَتَغِيْبُ فِيْهِ وَهْوَ جَثْلٌ أَسْحَمُ[1]
فَكَأَنَّهَا فِيْهِ نَهَارٌ مُشْرِقٌ   وَكَأَنَّهُ لَيْلٌ عَلَيْهَا مُظْلِمُ

وصف سيد الأنام ﷺ

وقالَ كعبُ بنُ زهيرٍ يمدحُ سيِّدَ ٱلمرسلينَ ﷺ [مِنَ البسيطِ] :

تَجْرِيْ بِهِ ٱلنَّاقَةُ ٱلأَدْمَاءُ مُعْتَجِراً   بِٱلْبُرْدِ كَٱلْبَدْرِ جَلَّىٰ لَيْلَةَ ٱلظُّلَمِ[2]

وهوَ تشبيهٌ بليغٌ معَ وجودِ ٱلأداةِ ، وعدمِ ٱلإغرابِ ، وقلَّةِ النُّكاتِ ، وما وقعَ مِنَ ٱلقبولِ بما هوَ عليهِ إلاَّ مِنْ حيثُ إنَّهُ صادفَ

(١) الجثْلُ : الكثيرُ الملتفُّ . أَسحمُ : أَسودُ .
(٢) الأَدماءُ : السوداءُ .

محلَّهُ ، وكانَ قبلَ ٱبتذالِ ٱلمعنىٰ إلىٰ جَزالةِ تركيبٍ ، وفَخامةِ لفظٍ ، وتَناسُقِ سَبْكٍ ، واتِّفاقِ جِناسٍ ، وسلاسةِ تعبيرٍ ، ولا كذلكَ بيتُ النَّاظمِ الَّذي نتكلَّمُ فيهِ ؛ لخلوِّهِ مِنَ ٱلإغرابِ الَّذي لا يزالُ يتصيَّدُهُ ، وبيتُ كعبٍ هٰذا أحدُ بيتينِ أجمعَ أهلُ ٱلعلمِ بالصِّناعةِ علىٰ تقديمِهما ، وقد شطَّرتُهما بما ٱمتزجَ بهما ٱمتزاجَ ٱلماءِ بالرَّاحِ ، وٱختلطَ بهما ٱختلاطَ الأجسامِ بالأرواحِ ، فقلتُ [مِنَ ٱلبسيطِ] :

تشطير المؤلف لقصيدة كعب بن زهير

تَجْرِيْ بِهِ ٱلنَّاقَةُ ٱلأَدْمَاءُ مُعْتَجِراً ... فِيْ ٱلغَزْوِ مَخْضُوْبَةً أَخْفَافُهَا بِدَمِ

وَٱلْيَوْمُ بِٱلنَّقْعِ لَيْلٌ وَهْوَ مُتَّشِحٌ ... بِٱلْبُرْدِ كَٱلْبَدْرِ جَلَّىٰ لَيْلَةَ ٱلظُّلَمِ

وَفِـيْ عِطَـافَيْـهِ أَوْ أَثْنَـاءِ رِيْطَتِـهِ ... جَلاَلَةُ ٱلْوَحْيِ فِيْ مُسْتَحْسَنِ ٱلشِّيَمِ(١)

وَبَيْـنَ جَنْبَيْـهِ قَلْـبٌ مِـلْءُ حَبَّتِـهِ ... مَا يَعْلَمُ ٱللهُ مِنْ دِيْنٍ وَمِنْ كَرَمِ

وقد أَلمَّ النَّاظمُ بالأخيرِ في قولِهِ [في « العُكبَريّ » ١/ ٣٤٠ مِنَ ٱلكاملِ] :

التوغل والاستغراق في المديح عند المتنبي

يَفْنَىٰ ٱلْكَلاَمُ وَلاَ يُحِيْطُ بِوَصْفِكُمْ ... أَيُحِيْطُ مَا يَفْنَىٰ بِمَا لاَ يَنْفَدُ ؟!

وقولِهِ [في « العُكبَريّ » ١/ ٣٥٢ مِنَ ٱلبسيطِ] :

لَمْ أُجْرِ غَايَةَ فِكْرِيْ مِنْكَ فِيْ صِفَةٍ ... إلاَّ وَجَـدْتُ مَـدَاهَـا غَـايَـةَ ٱلأَبَـدِ

وقولِهِ [في « العُكبَريّ » ١/ ٣٣٣ مِنَ ٱلكاملِ] :

وَتَحَيَّـرَتْ فِيْـهِ ٱلصِّفَـاتُ لأَنَّهَـا ... أَلِفَـتْ طَـرَائِقَـهُ عَلَيْهَـا تَبْعُـدُ

وقولِهِ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٢٨٧ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا حَارَتِ ٱلأَفْهَامُ فِي عُظْمِ شَأْنِهِ ... بِأَكْثَرَ مِمَّا حَارَ فِيْ حُسْنِهِ ٱلطَّرْفُ

---

(١) الرِّيطةُ : المَلاءةُ إذا كانتْ قطعةً واحدةً ولم تكن لِفقَين .

وقولِهِ ـ وقد أساءَ ٱلأدبَ ـ [في « العُكبَريّ » ٤/ ٢٠١ مِنَ ٱلكاملِ] :

تَتَقَاصَرُ ٱلأَفْهَامُ عَنْ إِدْرَاكِهِ مِثْلُ ٱلَّذِي ٱلأَفْلَاكُ فِيْهِ وَٱلدُّنَا[1]

التوغل والاستغراق في المديح عند الشعراء

وقالَ بعضُهم [مِنَ ٱلوافرِ] :

مُرَامٌ شَطَّ مَرْمَىٰ ٱلْوَصْفِ فِيْهِ فَدُوْنَ مَدَاهُ بِيْدٌ لاَ تَبِيْدُ[2]

وقالَ ٱبنُ هانىءٍ [في « ديوانهِ » ٩١ مِنَ ٱلبسيطِ] :

أَتْبَعْتُهُ فِكْرَتِيْ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَتْ غَايَاتِهَا بَيْنَ تَصْوِيْبٍ وَتَصْعِيْدِ

أَبْصَرْتُ مَوْضِعَ بُرْهَانٍ يَلُوْحُ وَمَا أَبْصَرْتُ مَوْضِعَ تَكْيِيْفٍ وَتَحْدِيْدِ

وما أليقَ هـٰذا بٱلجنابِ ٱلأقدسِ ، غيرَ أَنَّ هـٰؤلاءِ لاَ يوزَعونَ[3] عَنِ ٱلغُلُوِّ في ٱلمخلوقينَ .

وقالَ ٱلعجَّاجُ فيما يُشبِهُ قولَ كعبٍ [في « ديوانهِ » ٣٩٧ مِنَ ٱلرَّجَزِ] :

يَحْمِلْنَ كُلَّ سُؤْدَدٍ وَفَخْرِ يَحْمِلْنَ مَا نَدْرِيْ وَمَا لاَ نَدْرِيْ

قالَ ٱلأصمعيُّ ـ وأَصلُهُ قولُ ٱلحارثِ بنِ حِلِّزَةَ ـ [مِنَ ٱلخفيفِ] :

وَفَعَلْنَا كَمَا عَلِمَ ٱللهُ وَمَا إِنْ لِلْخَائِنِيْنَ دَمَاءُ[4]

وقالتِ ٱلخنساءُ [في « ديوانِها » ٢٩ مِنَ ٱلطَّويلِ] :

أَلاَ ثَكِلَتْ أُمُّ ٱلَّذِيْنَ مَضَوْا بِهِ إِلَىٰ ٱلْقَبْرِ مَاذَا يَحْمِلُوْنَ إِلَىٰ ٱلْقَبْرِ ؟!

---

(١) مِثْلُ : الروايةُ الصحيحةُ بالرفعِ ، ويكونُ على تقديرِ : هوَ مِثْلُ ؛ يعني : أَنَّ الأفهامَ تتقاصرُ عن هـٰذا الممدوحِ في معرفةِ حقيقتِهِ ، فهو مثلُ علمِ اللهِ تعالىٰ .

(٢) مُرامٌ : مقصودٌ .

(٣) لا يوزَعونَ : لا يرتدعونَ .

(٤) الدَّمَاءُ : بقيَّةُ الروحِ في المذبوحِ ، أَو قوَّةُ قلبِهِ . =

وفي ٱلذِّكرِ ٱلحكيمِ منهُ ٱلكثيرُ الطَّيِّبُ ، كقولهِ جلَّ ٱسمهُ : ﴿ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ [طه : ٧٨] ، وقولهِ : ﴿ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴾ [النجم : ١٦] ، وقولهِ : ﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الشعراء : ١٩] .

المؤلف ومفاضلته بين بيتٍ للبوصيري وبيت لابن الفارض في أحد المجالس

وٱتَّفقَ أنْ حضرنَا مجلساً جَرَىٰ فيهِ ذكرُ قولِ ٱلبوصيريِّ [في « بردتهِ » ١٦ مِنَ ٱلبسيطِ] :

فَمَبْلَـغُ ٱلْعِلْـمِ فِيْـهِ أَنَّـهُ بَشَـرٌ ... وَأَنَّـهُ خَيْـرُ خَلْـقِ ٱللهِ كُلِّهِـمِ

فقلتُ : ما زالتِ ٱلأُدباءُ تفاضِلُ بينهُ وبينَ قولِ ٱبنِ ٱلفارضِ [في « ديوانهِ » ١٥٤ منَ ٱلكاملِ] :

وَعَلَـىٰ تَفَنُّـنِ وَاصِفِيْـهِ بِـوَصْفِـهِ ... يَفْنَىٰ ٱلزَّمَانُ وَفِيْهِ مَا لَمْ يُوْصَفِ

ومنهمْ منْ يرجِّحُ ٱلأَوَّلَ ؛ لاقتضائهِ أَنَّ ٱلعلمَ لاَ يصلُ كُنْهَ صِفتهِ عليهِ ٱلسَّلامُ ؛ إِذْ صارَ كأنَّهُ ٱستجمعَ فضيلةَ كلِّ فاضلٍ ، وزادَ .

وٱلحالُ : أَنَّ ذِكْرَ فضلِ سائرِ ٱلفضلاءِ بلهَ الزِّيادةِ عليهِ لاَ يُحصىٰ في أَزمنةٍ ، فضلاً عَنِ ٱلزَّمانِ ٱلواحدِ ، فٱلأمرُ أكثرُ مِنْ قولِ ٱلنَّاظمِ [في « العُكبَريِّ » ٢/٢٦٧ مِنَ ٱلكاملِ] :

لَوْ نِيطَتِ ٱلدُّنْيَا بِأُخْرَىٰ مِثْلِهَا ... لَعَمَمْنَهَا وَخَشِيْنَ أَنْ لاَ تَقْنَعَا[1]

إتمامه ﷺ بيتاً لابن الفارض في المنام

ويحكونَ فيه مناماً ، حاصلُهُ : أَنَّ ٱلبوصيريَّ وقف بعدَ ٱلشَّطر ٱلأَوَّلِ مِنَ ٱلبيتِ ، ولمْ يدرِ ما يقولُ ، فرأىٰ ٱلنَّبي ﷺ يُتِمُّهُ لهُ كما هوَ ، ولـٰكنَّ بيتَ ٱبنِ ٱلفارضِ أَفخمُ ، وأَملأُ للفمِ ، وأَرَقُّ دِيباجةً ،

---

(١) لَعَمَمْنَها : أَيْ هِمَّتُكَ وعزمُكَ وسعةُ صدركَ .

وأَلطفُ حاشيةً ، وأَجملُ سَبْكاً ، ولاَسِيَّما مِنْ شطرِ بيتِ ٱلبوصيريِّ ٱلأَخيرِ ، علىٰ أَنَّ (أَل) في ٱلمفردِ مِنْ صيغ ٱلعمومِ ، فيساوي بيتَ ٱلبوصيريِّ حينئذٍ في ٱلمعنىٰ ، ويبقىٰ لهُ ٱلتَّفرُّدُ بفصاحةِ ٱلأَلفاظِ ، وهيَ ٱلَّتي لاَ تتفاوتُ ٱلدَّرجاتُ وتتمايزُ ٱلمقاديرُ إِلاَّ بهَا .

المعاني موجودة حتى عند العامة ولكن الفضل في نظمها

أَمَّا ٱلمعانِي : فقد تجدُ في كلامِ ٱلعامَّةِ ما لا تجدُ مثلَهُ منها في أَشعارِ ٱلفحولِ ؛ ولهـٰذا قالَ أَبو تمَّامٍ : لمّا نظمتُ قصيدتِي ٱلمستهلَّةَ بقولِي [في « ديوانه » ١/١٤٨ ـ ١٤٩ مِنَ الطَّويلِ] : (عَلَىٰ مِثْلِهَا مِنْ أَرْبُعٍ وَمَلاعِبِ) ، ووصلتُ إِلىٰ قولي منها :

يَـرَىٰ أَقْبَـحَ ٱلأَشْيَـاءِ أَوْبَـةَ آمِـلٍ كَسَتْهُ يَدُ ٱلْمَأْمُوْلِ حُلَّةَ خَائِبِ

(وَأَحْسَنُ مِنْ نَوْرٍ يُفَتِّحُهُ ٱلصَّبَا) . . تبلَّدْتُ ولمْ أَقدرْ علىٰ شيءٍ ، حتَّىٰ قامَ سائلٌ بٱلبابِ يقول : مِنْ بياضِ عطاياكُم في سوادِ مطالبِنَا ، فأَتممتُ ٱلبيت هـٰكذا : (بَيَاضُ ٱلْعَطَايَا فِيْ سَوَادِ ٱلْمَطَالِبِ) .

علىٰ أَنَّ ٱلشَّيخَ ٱبنَ ٱلفارضِ لمّا فُتِحَ عليهِ بٱلبيتِ ٱلمذكورِ . . رقصَ طويلاً ، وتواجدَ وجداً عظيماً ، وتحدَّرَ منهُ عرقٌ كثيرٌ ، حتَّىٰ سالَ تحتَ قدميهِ ، وخرَّ إِلىٰ ٱلأَرضِ ، وٱضطربَ كما يضطربُ ٱلعصفورُ ، قالَ ولدهُ : ثمَّ سكنَ حالُهُ ، وسجدَ للهِ تعالىٰ ، وقالَ : فُتِحَ عليَّ بمعنىً لَمْ يفتحْ عليَّ بمثلهِ ، وأَنشدَ ٱلبيتَ . . . هـٰذا ما قلتهُ بمعناهُ إِنْ تعذَّرَ لفظهُ .

اعتراض بعض الحاضرين على المؤلف ورد المؤلف عليه

وفي ٱلمجلسِ بعضُ مَنْ يدَّعِي ٱلعلمَ فأَعادَ بعضَ كلامِي عَنْ بيتِ ٱلبوصيريِّ بعبارةٍ عاميَّةٍ مُبتَذَلَةٍ ، وقضىٰ لهُ ، وقالَ : كيفَ لا يكونُ أَبلغَ مِنْ بيتِ ٱبنِ ٱلفارضِ ، وقد أَملاهُ عليهِ سيِّدُ ٱلبشرِ؟! قلتُ لهُ : ذلكَ أَدنىٰ لتفضيلِ بيتِ ٱبنِ ٱلفارضِ عليهِ ؛ فاللهُ جلَّ ثناؤهُ يقولُ :

﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴾ [يس : ٦٩] .

ومِنْ هُنا نجدُ في ٱلقسمِ الثَّاني الَّذي ذكرَ أَنَّهُ أَملاهُ عليه السَّلامُ ضعفاً يزيدُنا إِيماناً وطمأْنينةً بصدقِ رسالتهِ ، وحقيقةِ وحيهِ ، فٱنقطعَ الرَّجلُ عَنِ ٱلحجَّةِ غيرَ أَنَّهُ لجَّ في ٱلمكابرةِ ، وأَبىٰ لهُ أَصحابهُ إِلاَّ ٱلغَلَبَ ، وإِلىٰ النَّاظرينَ ٱلحُكمَ فيما شجرَ ، ويرحمُ اللهُ مَنْ نظرَ بعينِ ٱلمَعْدَلَةِ ، وتكلَّمَ بلسانِ ٱلإنصافِ .

ثمَّ ذكرتُ : أَنَّ ٱلأَخطلَ كما في « معاهدِ ٱلتنصيصِ » يقولُ [منَ الطَّويلِ] :

رَأَيْنَـا بيَـاضـاً فِـي سَـوَادٍ كَـأَنَّـهُ ... بيَاضُ ٱلْعَطَايَا فِي سَوَادِ ٱلْمَطَالِبِ

فغلبَ علىٰ ٱلظَّنِّ أَنَّ ٱلطَّائيَّ[1] إِنَّما ٱنتحلَ حديثَ ٱلسَّائلِ ليواريَ مِنْ سوأَتِهِ ، ويُعَفِّيَ علىٰ سرقتِهِ .

واللهُ أَعلمُ

* * *

(١) هو الشاعرُ ٱلمعروفُ ، أبو تمام ، حبيبُ بنُ أَوسٍ ٱلطَّائيُّ .

[قالَ أَبو الطَّيبِ المتنبي في « ٱلعُكبَريِّ » ٤/ ٢٩ مِنَ ٱلكاملِ] :

لَمْ تَجْمَعِ ٱلأَضْدَادَ فِيْ مُتَشَابِهٍ	إِلاَّ لِتَجْعَلَنِـيْ لِغُـرْمِـيَ مَغْنَمَـا

تشبيه المتنبي ما يلزم من العشق بالدَّين

يقولُ : إِنَّ مَا لزمهُ مِنْ عشقِ ٱلحبيبةِ بمثابةِ الدَّينِ الثَّابتِ ، وهيَ لم تجمعِ ٱلأَوصافَ الضِّدِّيةَ في شخصِها ٱلمتمثِّلِ حُسْناً إِلاَّ لتجعلنِي غنيمةً للمغرمِ الَّذي لزمنِي مِنْ هواها .

شرح البيت

قالَ الشَّارحُ : أَي لتستعبدَنِي وترتهنَ قلبي ، وأَقولُ : إِنَّ ٱلأَولىٰ : لتقتُلَني إِذا غلقَ رهنُ قلبي بما فيهِ ؛ لأَنَّهُ ٱلأَقربُ ٱلمتبادرُ مِنْ لفظِ ٱلبيتِ .

و(أَلْ) في ٱلأَضدادِ للعهدِ ٱلمذكورِ في ٱلبيتِ قبلهُ مِنَ ٱلهَيَفِ في ٱلقدِّ ، والضَّخامةِ في ٱلكفلِ ، والضِّياءِ في ٱلوجهِ ، والظَّلامِ في ٱلفرعِ .

معنى التشابه

والتَّشابهُ ؛ وهو : التَّساوي ، وقد يرادُ بِهِ ٱلمؤدِّي للالتباسِ ، ومنهُ قولهُ تعالىٰ : ﴿تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ [البقرة : ١١٨] ، وقولهُ جلَّ ذكرهُ عن بني إِسرائيلَ : ﴿إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا﴾ [البقرة : ٧٠] وقولهُ تقدَّستْ أَسماؤهُ : ﴿مُشۡتَبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۗ﴾ [الأنعام : ٩٩] ، ويدخلُ في التَّشابهِ التَّشبيهُ ٱلمعكوسُ ، وهو : أَنْ يُشبَّهَ كلٌّ مِنَ الشَّيئينِ بالآخرِ ، كقولِ الصَّاحبِ [في « ديوانهِ » ١٧٦ مِنَ ٱلكاملِ] :

رَقَّ ٱلـزُّجَـاجُ وَرَاقَـتِ ٱلْخَمْـرُ	فَتَشَـابَهَـا وَتَشَـاكَـلَ ٱلأَمْـرُ
فَكَـأَنَّمَـا خَمْـرٌ وَلاَ قَـدَحٌ	وَكَـأَنَّمَـا قَـدَحٌ وَلاَ خَمْـرُ

تناسب الأعضاء إلى بعضها هو معيار الحسن

والمرادُ منَ التَّشابهِ هنا ـ كما أسلفنا الإشارةَ إليهِ ـ : التَّساوي في الحُسنِ والجمالِ والتَّناسبُ فيهِ ؛ إذْ لكلِّ عضوٍ مِنَ الأعضاءِ جمالٌ يخصُّهُ حَسْبما هو مشروحٌ في مواضعهِ ، ولٰكنها لاَ تغلو قيمةُ ذلكَ الجمالِ في العضوِ إلاَّ إذا ناسبتْهُ الأعضاءُ بأَسرِها ، وذلكَ هو الجمالُ المتناصفُ الممدوحُ ، بخلافِ المتفاوتِ ، فإنَّهُ مذمومٌ ؛ ولذا قالَ جلَّ شأَنهُ :

﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك : ٣] .

ذكرني فوها حماري أهلي

ولقد ذُكِرَ عن بعضِ العربِ[١] : أَنَّهُ خرجَ يمتارُ[٢] لأَهلهِ علىٰ حمارينِ ، فرأَىٰ امرأةً مبرقعةً استهوتهُ بعينيها النَّجلاوينِ ، فتدلَّهُ ، وولَّهَهُ حسنُها ، حتَّىٰ انفلتَ عليهِ الحمارانِ مِنْ حيثُ لاَ يشعرُ ، فلمَّا سفرَتْ عن وجهها . . رآهَا فوهاءَ لاَ يتناسبُ سحرُ عينيها بسَعةِ فمِها ، فأَفاقَ مِنْ غشيتهِ وانتبهَ مِنْ حيرتهِ ، وقالَ : ذكَّرني فُوها . . حمارَيْ أَهلي ، وقالَ [منَ الكاملِ] :

لَيْتَ ٱلنِّقَابَ عَلَىٰ ٱلنِّسَاءِ مُحَرَّمٌ   كَـيْ لاَ تَغُـرَّ قَبِيْحَـةٌ إِنْسَـانَـا

ولو كانتْ تلكَ السَّعةُ في غيرِ ذَلكَ الوجهِ المفرطِ الجمالِ . . لاحتُملتْ ، ولمْ تَشِنْهُ إِلى تلكَ الغايةِ .

سعة الفم ممدوحة في الرجال لا النساء

وقد أَشكلَ علىٰ بعضهم معابةُ سعةِ الفمِ ، معَ ما جاءَ في وصفهِ ﷺ بأَنَّهُ كانَ واسعَ الفمِ ، يفتتحُ الكلامَ ويختتمهُ بأشداقهِ ، والجواب : أَنَّ سعتَهُ مِنَ الرِّجالِ ممدوحةٌ ؛ لدلالتها علىٰ اللَّسَنِ

---

(١) الخبر في « مجمع الأمثال » (١/ ٢٧٥) .

(٢) يمتار : يشتري الطعام .

وجهارةِ الصَّوتِ ، بخلافِها في النِّساءِ ، فإنَّها مذمومةٌ ؛ لأنَّهَا تدُلُّ علىٰ سعةٍ أُخرىٰ لا تُحمدُ[1] .

الجمال يكون بسواد أربعة

ثمَّ إنَّ جمالَ ٱلمرأَةِ بسوادِ أَربعةٍ ، هي : شعرُ الرَّأسِ ، والحاجبينِ ، والأشفارِ ، والحَدَقتينِ .

وبياض أربعة

وبياضِ أَربعةٍ ، هيَ : اللَّونُ ، وبياضُ ٱلعينينِ ، والثَّغْرِ ، والظُّفُرِ .

وحمرة أربعة

وحُمرةِ أَربعةٍ ، هيَ : الوجنتانِ ، والشَّفتانِ ، واللِّثَةُ ، واللِّسانُ .

وكبر أربعة

وكِبَرِ أَربعةٍ ، هيَ : الثَّديانِ ، والركبتانِ ، والعجيزةُ ، والرَّكَبُ .

وصغر أربعة

وصِغَرِ أَربعةٍ ، هيَ : الأُذُنانِ ، واليدانِ ، والرِّجْلانِ ، والفمُ .

وسعة أربعة

وسعةِ أَربعةٍ ، هيَ : الجبينُ ، والعينانِ ، والسُّرَّةُ ، وأُصولُ الثَّديينِ .

وضيق أربعة

وضيقِ أَربعةٍ ، وهيَ : المِنخرانِ ، والأُذُنانِ ، والخَصرُ ، والفرجُ .

ولكلٍّ واحِدٍ ما يخصُّهُ مِنْ كلامِ ٱلعربِ ، ولا بدَّ مِنَ ٱلإلمامِ بهِ مجموعاً في غيرِ هٰذا ٱلمجلسِ .

المراد من حمرة الشفة

وليسَ ٱلمرادُ بحُمرةِ الشَّفَةِ حقيقةَ ٱلحمرةِ ، إنَّما ٱلمرادُ : السُّمرةُ ؛ لأنَّها ٱلمحمودةُ في الشِّفاهِ ، ويقالُ لها : اللَّعَسُ ، كما في قولِ النَّاظمِ [في « العُكبَريّ » ٢/١٨٧ مِنَ ٱلبسيطِ] :

---

(١) كبذاءة الألفاظ واستطالتها .

صَـرِيْـعَ مُقْلَتِهَـا سَـأَلَ دِمْنَتِهَـا ... قَتِيْلَ تَكْسِيْرِ ذَاكَ ٱلْجَفْنِ وَٱللَّعَسِ[1]

وقالَ أُحيحةُ بنُ ٱلجلاَّحِ [مِنَ ٱلوافرِ] :

وَلاَعَبَنِي عَلَىٰ ٱلأَنْمَاطِ لُعْسٌ ... عَلَىٰ أَفْوَاهِهِنَّ ٱلزَّنْجَبِيْلُ[2]

وقالَ ذو الرُّمَّةِ [في « ديوانهِ » ١/ ٣٢ مِنَ ٱلبسيطِ] :

لَمْيَاءُ فِيْ شَفَتَيْهَا حُـوَّةٌ لَعَـسٌ ... وَفِيْ ٱللِّثَاتِ وَفِيْ أَنْيَابِهَا شَنَبُ[3]

واللَّمىٰ والحُوَّةُ واللَّعَسُ شيءٌ واحدٌ ، وهو : الحمرةُ في الشفةِ .

الملاحة والخلاف فيها

وقالَ بعضُهم : إنَّ تساوي الأعضاءِ وتشابهَها في ٱلجمالِ هو ٱلمَلاحةُ .

وقالَ آخرونَ : إنَّما ٱلمَلاحةُ أثرُ ذَلكَ التَّناسبِ لاَ نفسُهُ ، فهيَ فيهِ : إمَّا حقيقةٌ ، وإمَّا مجازٌ .

ويتحصَّلُ منه : أَنَّ كلَّ مليحٍ جميلٌ ، ولا عكسَ .

الفرق بين المليح والجميل والخلاف فيه

وقيلَ : إنَّ الجميلَ الذي يأخذُ ببصركَ علىٰ البعدِ ، والمليحَ : الذي يأخذُ بقلبكَ علىٰ القربِ .

وقيلَ : إنَّ الجميلةَ التي تعجبكَ بعيدةً ، فإذا دنتْ . . لمْ تكن عندَ ذاكَ ، والمليحةَ : التي تأخذُ بمجامعِ القلوبِ علىٰ الحالينِ ، وفي القربِ أكثرُ .

---

(١) الدِمنةُ : آثار الديار .
(٢) الأنماط ـ جمع نَمط ـ : وهو ضربٌ مِنَ البُسُطِ ، لهُ خملٌ رقيقٌ .
(٣) الشَّنبُ : هو بردٌ وعذوبةٌ في الأسنانِ ، وقيل : تحديدُ الأنيابِ ودقَّتُها ، والأوَّلُ أجودُ .

مواضع الحُسن

وقال قومٌ : ٱلحسنُ في ٱلوجهِ صَباحةٌ ، وفي ٱلبشرةِ وَضاءَةٌ ، وفي ٱلأنفِ جمالٌ ، وفي ٱلعينينِ حلاوةٌ ، وفي ٱلفمِ مَلاحةٌ ، وفي اللِّسانِ ظَرَفٌ ، وفي ٱلقدِّ رَشاقةٌ ، وفي الشَّمائلِ لباقةٌ .

وقد يتوسَّعونَ في إطلاقِ بعضِها علىٰ بعضٍ .

الجمال عند العرب

وقال آخرون : ٱلجمالُ عندَ ٱلعربِ في ٱعتدالِ ٱلقامةِ ، وطولِ ٱلجيدِ ، وبروزِ النَّهدِ ، وذبولِ ٱلعيونِ السُّودِ ، وٱحمرارِ ٱلخدودِ ، وٱبيضاضِ الصُّدورِ ، وثِقَلِ الرَّوادفِ ، ونحولِ ٱلخصورِ .

الحُسن عند علي بن عبيد

وقالَ عليُّ بنُ عبيدٍ الرَّيحانيُّ : ٱلحُسنُ تناسبُ الصُّورةِ ، وزينتُهُ ٱعتدالُ ٱلحركةِ ، ثُمَّ ما لا يُحسِنُ اللِّسانُ التَّرجمةَ عنهُ مِن خفَّةِ الرُّوحِ وٱلقَبولِ ، وبمقدارِ هٰذا يتمكَّنُ مِنَ ٱلقلوبِ ، ويستحكمُ سلطانُ ٱلهوىٰ علىٰ ٱلعقولِ ، وأَحسنُهُ ما لَمْ يُجلَبْ بتزيينٍ وتضييقٍ ، وتحليةٍ وتزويقٍ ؛ ولهٰذا قالَ الناظمُ [في « العُكبَريِّ » ١/ ١٦٨ مِنَ ٱلبسيطِ] :

الحسن عند المتنبي

حُسْنُ ٱلْحَضَارَةِ مَجْلُوْبٌ بِتَطْرِيَةٍ وَفِيْ ٱلْبَدَاوَةِ حُسْنٌ غَيْرُ مَجْلُوْبِ

وقالَ [في « العُكبَريِّ » ١/ ١١١ مِنَ ٱلبسيط] :

هَـامَ ٱلْفُـؤَادُ بِـأَعْـرَابِيَّـةٍ سَكَنَـتْ بَيْتاً مِنَ ٱلْقَلْبِ لَمْ تَمْدُدْ لَهُ طُنُبَا(١)

وقالَ [في « العُكبَريِّ » ١/ ٣٢٩ مِنَ ٱلكاملِ] :

عَـدَوِيَّـةٌ بَـدَوِيَّـةٌ مِـنْ دُوْنِهَـا سَلْبُ ٱلنُّفُوْسِ وَنَارُ حَرْبٍ تُوْقَدُ

وقالَ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٣٠٠ـ٣٠١ مِنَ ٱلكاملِ] :

ٱلْحُسْـنُ يَـرْحَـلُ كُلَّمَـا رَحَلُـوْا مَعَهُـمْ وَيَنْـزِلُ حَيْثُمَـا نَـزَلُـوْا

(١) الطنبُ : الحبلُ الذي تشدُّ بهِ الخيمةُ .

فِـيْ مُقْلَتَـيْ رَشَـأٍ تُـدِيْـرُهُـمَـا بَـدَوِيَّـةٌ فُتِنَـتْ بِهَـا ٱلْحُلَـلُ[1]

أروع وصف لامرأة هو ما تصف به عصام امرأة من كندة للحارث بن عمرو

ولمَّا أَرسلَ ٱلحارثُ بنُ عَمرٍو ـ مَلِكُ (كِندةَ) ـ ٱمرأَةً مِنْ قومِهِ ؛ لِتَخبُرَ لَهُ جمالَ ٱبنةِ عوفِ بنِ محلِّمٍ الشَّيبانيِّ ولَبَاقتَها.. رجعَتْ إِليهِ ، فقالَ : ما وراءَكِ يا عصامُ ؟ ـ فذهَبتْ مثلاً ـ فقالَتْ : صرَّحَ المَخْضُ عَنِ الزُّبدِ ، رأَيتُ جبهةً كالمِرآةِ ٱلمصقولةِ ، يزيِّنُها شَعْرٌ حالكٌ ، إِنْ أَرسلتَهُ.. خِلْتَهُ السلاسلَ ، وإِنْ مَشَطَتْهُ.. قلتَ : العناقيدُ جَلاَّها الوابلُ[2] ، وحاجبينِ كأَنَّما خُطَّا بالقلمِ الأَسودِ ، تَقَوَّسَا علىٰ مثلِ عيونِ الظبيةِ ، بينَهُما أَنفٌ في حدِّ السيفِ ، حُفَّتْ بهِ وجْناتٌ كالأُرجوانِ[3] ، في وجهٍ كالبدرِ ، شُقَّ فيهِ فمٌ كالخاتَمِ ، لذيذُ المبسمِ ، فيهِ ٱلثَّنايا الغرُّ ، يزيِّنُها الأَشْرُ[4] ، تَقَلَّبَ فيهِ لسانٌ ذو فصاحةٍ وبيانٍ ، بعقلٍ وافرٍ ، وجوابٍ حاضرٍ ، تلتقي فيهِ شفتانِ حمراوانِ ، تتحلَّبانِ ريقاً كالشَّهدِ ، في جيدٍ كإِبريقِ ٱلفضَّةِ ، رُكِّبَتْ فوقَ صدرٍ كأَنَّهُ تمثالُ دميةٍ ، وعضُدَينِ مدمَّجينِ ، يتَّصلُ بهما ذراعانِ ، ليسَ فيهما عظمٌ يُمَسُّ ، ولا عِرْقٌ يُجَسُّ ، رُكِّبَتْ فيهما كفَّانِ ، دقيقٌ قَصَبُهُما ، لَيِّنٌ عَصَبُهُما ، تكادُ تُعقَدُ منهُما ٱلأَناملُ ، في ذلكَ الصَّدرِ ثديانِ كالرُّمَّانتينِ يخرقانِ عليها ثيابَها ، تحتَ ذلكَ بطنٌ طُوِيَ طيَّ ٱلقباطِي ٱلمدمَّجةِ[5] ، يتكسَّرُ عُكَناً[6] كالقراطيسِ

---

(١) الرشأُ : ولدُ الظبيةِ الصغيرُ . الحُلَلُ ـ جمعُ حُلَّةٍ ـ : وهيَ القومُ المجتمونَ في بيوتٍ مجتمعةٍ للنزولِ .

(٢) جلاَّها ٱلوابلُ : بلَّلها ٱلمطرُ .

(٣) الأُرجوانُ : شجرٌ له زهرٌ شديد الحمرة ، حسنُ المنظرِ ، ليست له رائحةٌ .

(٤) الأَشْرُ : هوَ تحزيزُ الأَسنانِ .

(٥) القباطي المدمجة : ثيابٌ من كتّانٍ منسوبةٍ إلى القبط .

(٦) العُكَنُ : ما ٱنطوىٰ وتثنّىٰ مِنْ لَحمِ البطنِ سِمناً .

المدرجةِ ، تحيطُ بها سرَّةٌ كالمُدْهُنِ[1] المجلوِّ ، خلفَ ذلكَ ظهرٌ فيهِ مثلُ الجدولِ ، ينتهي إلىٰ خصرٍ لولا رحمةُ اللهِ . . لانبَتَرَ ، لها كَفَلٌ يُقعِدُها إذا نهضَتْ ، ويُنهضُها إذا قعدَتْ ، كأنَّهُ دِعْصُ الرَّملِ[2] لَبَّدَهُ سَقيطُ الطلِّ[3] ، يَحمِلُهُ فَخِذانِ كأنَّما قُلِبا علىٰ نَضِيدِ جُمانٍ[4] ، تحتَها ساقانِ خَدْلَتانِ[5] ، يحمِلْنَ قدمينِ كحذوِ اللِّسانِ ، فتباركَ اللهُ معَ صغرِهما كيفَ يطيقانِ حملَ ما فوقَهما[6] .

---

(١) المُدْهُنُ : آلةُ الدُّهنِ .

(٢) دِعصُ الرَّملِ : كثيبه المجتمع .

(٣) لبَّدهُ سقيطُ الطَّلِّ : لزَّق بعضه ببعضٍ هطولُ المطرِ .

(٤) نضيدُ الجمانِ : اللؤلؤُ في سلكِهِ .

(٥) خَدلَتانِ : ممتلئتان .

(٦) وعلىٰ عادةِ كتبِ الأدبِ التي تُعنى بالاستطرادِ والانتقالِ من زهرةٍ إلىٰ زهرةٍ ، نُتِمُّ القِصَّةَ للفائدةِ التي وردَت فيها ، وتمامُها :

أنَّ الملكَ أرسلَ إلىٰ أبيها فخطبَها ، فزوَّجه إيَّاها ، وبعثَ بصداقِها فجُهِّزَتْ ، فلمَّا أرادوا أن يحملوها إلىٰ زوجِها . . قالَتْ لها أُمُّها :

(أيْ بُنيَةُ : إنَّ الوصيَّةَ لو تُرِكَت لفضلِ أدبٍ . . تُرِكَتْ لذلكَ مِنْكِ ، ولـٰكنَّها تذكرةٌ للغافلِ ، ومعونةٌ للعاقلِ ، ولو أنَّ امرأةً استغنتْ عَنِ الزوجِ لغِنَىٰ أبويها وشدَّةِ حاجتِهما إليها . . كنتِ أغنىٰ الناسِ عنهُ ، ولـٰكنَّ النساءَ للرجالِ خُلِقنَ ، ولهُنَّ خلقَ الرجالُ .

أيْ بنيَّةُ : إنَّكِ فارقْتِ الحُجْرَ الذي منهُ خرجتِ ، وخلَّفتِ العشَّ الذي فيهِ دَرَجْتِ ، إلىٰ وَكرٍ لَم تعرفيهِ ، وقرينٍ لَم تألفيهِ ، فأصبحَ بمِلْكِهِ عليك رقيباً ومليكاً ، فكوني لهُ أَمَةً . . يَكُنْ لكِ عَبداً .

يا بنيَّةُ : احملي عنِّي عشرةَ خصالٍ تَكُنْ لكِ ذُخراً وَذِكراً :

الصحبةُ بالقناعةِ ، والمعاشَرَةُ بحسنِ السمعِ والطاعةِ ، والتعَهُّدُ لموقعِ عينِهِ ، والتفقُّدُ لموضعِ أنفهِ ، فلا تقعُ عينُهُ منكِ علىٰ قَبيحٍ ، ولاَ يشمُّ منكِ إلاَّ أطيبَ ريحٍ ـ والكحلُ أحسنُ الحسنِ ، والماءُ أطيبُ الطيبِ المفقودِ ـ والتعهُّدُ=

عـزَّة الميـلاء تخطـب وتصف

وحكىٰ أَبو الفرجِ الأَصفهانيُّ [كما في «الأغاني» ١١/١٨٢] : أَنَّ مُصْعَبَ بنَ الزُّبيرِ لمَّا عزمَ علىٰ زواجِ عائشةَ بنتِ طلحةَ . . جاءَ هوَ وعبدُ اللهِ بنُ عبدِ الرحمـٰنِ ٱبنِ أَبي بكرٍ الصدِّيقِ ، وسعيدُ بنُ العاصِ إلىٰ عزَّةَ الميلاءِ ـ وكانتْ مِنْ أَظرفِ الناسِ وأَعلمِهم بأُمورِ النِّساءِ ، وكانَتْ تأْلفُها ٱلأَشرافُ ـ فقالوا لها : إنَّا خَطبْنا فٱنظري لنا ، فقالَتْ لمصعبٍ : يا ٱبنَ أَبي عبدِ اللهِ ومَنْ خطبْتَ ؟ قالَ : عائشةَ بنتَ طلحةَ ، قالتْ : فأَنتَ يا ٱبنَ أُحيحةَ ؟ قالَ : عائشةَ بنتَ عثمانَ ، قالَتْ : فأَنْتَ يا ٱبنَ الصدِّيقِ ؟ قالَ : أُمَّ الهيثمِ بنتَ زكريَّا بنِ طلحةَ ، فقالَتْ : يا جاريةُ ، هاتي مِنْقَلَيَّ ـ تعني : خُفَّيها ـ فلبستْهُما ، وخرجَتْ ، ومعها خادمٌ لها ، فبدأَتْ بعائشةَ بنتِ

= لوقتِ طعامِهِ ، والهدوُّ عنهُ عندَ منامِهِ ؛ فإنَّ حرارةَ الجوعِ مَلْهَبَةٌ ، وتَنغيصَ النومِ مَبْغَضَةٌ ، والاحتفاظُ ببيتِهِ ومالِهِ ، والإرعاءُ علىٰ نفسِهِ وحشَمِهِ وعيالِهِ ، فإنَّ الاحتفاظَ بالمالِ حسنُ التقديرِ ، والإرعاءَ علىٰ العيالِ والحشَمِ جميلُ حسنِ التدبيرِ ، ولاَ تُفشِيْ لهُ سرّاً ، ولاَ تعصي لهُ أَمراً ؛ فإنَّكِ إنْ أَفشيتِ سرَّهُ . . لَم تأْمني غدرَهُ ، وإنْ عصيتِ أَمرهُ . . أَوغرتِ صدرَهُ .

ثمَّ ٱتَّقي معَ ذلكَ الفرحَ إنْ كانَ تَرِحاً ، والاكتئابَ عندَهُ إنْ كانَ فَرِحاً ؛ فإنَّ الخصلةَ الأُولىٰ مِنَ التقصيرِ ، والثانيةَ مِنَ التكديرِ ، وكوني أَشدَّ ما تكونينَ لَهُ إعظاماً . . يَكُنْ أَشدَّ ما يكونُ لكِ إكراماً ، وأَشدَّ ما تكونينَ لهُ موافقَةً . . يَكُنْ أَطْولَ ما تكونينَ لَهُ مرافقَةً ، وأَعلمي أَنَّكِ لا تصلينَ إلىٰ ما تحبِّينَ حتَّىٰ تُؤْثِري رضاهُ علىٰ رضاكِ ، وهواهُ علىٰ هواكِ فيما أَحببتِ وكَرهتِ ، واللهُ يخيرُ لكِ) .

فحُمِلتْ إليهِ ، فسُلِّمَتْ إليهِ ، فَعَظُمَ موقعُها منهُ ، ووَلَدَتْ لهُ الملوكَ السبعةَ الذينَ ملَكوا بعدَهُ (اليمنَ) .

والقصةُ فِي « جمهرةِ خطبِ العربِ » (١/١٤٢) و« مجمعِ الأَمثالِ » (٢/٢٦٣) .

طلحةَ ، فقالَتْ : فديتُكِ ، كنّا في مأدُبةٍ - أَو مأتمٍ - لقريشٍ ، فتذاكروا جَمالَ النساءِ ، فذكرتُكِ فلَمْ أَدرِ كيفَ أَصفُكِ ، فديتُكِ ، فأَلقي ثيابَكِ ، ففعلَتْ ، وأَقبلَتْ وأَدبرَتْ ، فٱرتجَّ منها كلُّ شيءٍ ، فقالَتْ لها عزَّةُ : خذي ثوبَكِ ، فقالَتْ : قد قضيْتِ حاجتَكِ ، وبقيَتْ حاجتي ، قالَتْ عزَّةُ : وما هي فديتُكِ ؟ قالَتْ : تغنِّيني صوتاً ، فٱندفعت تغنِّي لَحْنَها لجميلِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ معمَرٍ العذريِّ [في « ديوانه » ١٧١-١٧٢ من الطويل] :

خَلِيْلَيَّ عُوْجَا بِٱلْمَحَلَّةِ مِنْ جُمْلِ ... وَأَتْرَابِهَا بَيْنَ ٱلأُصَيْفِرِ وَٱلْحَبْلِ(١)
نَقِفْ بِمَغَانٍ قَدْ مَحَا رَسْمَهَا ٱلْبِلَىٰ ... تَعَاقَبُهَا ٱلأَيَّامُ بِٱلرِّيْحِ وَٱلْوَبْلِ
فَلَوْ دَرَجَ ٱلنَّمْلُ ٱلصِّغَارُ بِجِلْدِهَا ... لأَنْدَبَ أَعْلَىٰ جِلْدِهَا مَدْرَجُ ٱلنَّمْلِ(٢)
وَأَحْسَنُ خَلْقِ ٱللهِ جِيْداً وَمُقْلَةً ... تُشَبَّهُ فِيْ ٱلنِّسْوَانِ بِٱلشَّادِنِ ٱلطِّفْلِ(٣)

فقبَّلَتْ عائشةُ ما بينَ عينيها ، ودعَتْ لها بأَثوابٍ وطرائفَ مِنَ ٱلفضَّةِ ، فدفعتْهُ إِلىٰ مولاتِها ، وأَتَتِ ٱلنسوةَ علىٰ مثلِ ذلكَ تقولُ لَهنَّ ، ثُمَّ عادَتْ إِلىٰ القومِ ، فقالوا : ما صنعْتِ ؟ فقالَتْ : يا ٱبنَ أَبي عبدِ اللهِ ، أَمَّا عائشةُ - فلا واللهِ - ما رأَيْتُ مثلَها مُقبِلةً ، ولا مُدْبرةً ، محطوطةَ المتنينِ ، عظيمةَ العجيزةِ ، ممتلئةَ الترائبِ ، نقيَّةَ الثغرِ وصفحةِ الوجهِ ، فرعاءَ الشعَرِ ، ممتلئةَ الصدرِ ، خميصةَ البطنِ ، ذاتَ عُكَنٍ ، ضخمةَ السرَّةِ ، مسرولةَ الساقِ ، يرتجُّ ما بينَ أَعلاها إِلىٰ قدميها ، وفيها عيبانِ ، يواري أَحدَهُما الخمارُ ، ويسترُ

(١) الأُصيفرُ - لعلَّهُ تصغيرُ أَصفرِ - : وهوَ موضعٌ . الحبلُ : الرملُ المستطيلُ .
(٢) أَندبَ : تركَ ندوباً ، أَي آثارَ جراحٍ .
(٣) الشادنُ : ولدُ الظبيةِ . الطِّفلُ : الناعمُ .

ثانيهِما الخفُّ ؛ كبرُ الأُذنِ والقدمِ ، وكانَتْ عائشةُ بنتُ طلحةَ كذلكَ .

وأمَّا أَنتَ يا ٱبنَ أُحيحةَ : فإنِّي ـ واللهِ ـ ما رأَيْتُ مثلَ خَلْقِ عائشةَ بنتِ عثمانَ لامرأةٍ قطُّ، ليسَ فيها عيبٌ ، ولكأنَّما أُفرغَتْ إفراغاً ، إلاَّ أنَّ في الوجهِ ردَّةً[1] ، وإنْ ٱستشرْتَني . . أَشرْتُ عليكَ ، قالَ : هاتِ ، قالَتْ : عليكَ بوجهٍ تستأنسُ بهِ .

وأمَّا أَنتَ يا ٱبنَ الصدِّيقِ ـ فواللهِ ـ ما رأيتُ مثلَ أُمِّ الهيثمِ ، كأنَّها خُوْطُ بانةٍ[2] تتثنَّىٰ ، أَو كأَنَّها خَشْفٌ[3] ينسابُ علىٰ الرملِ ، لو شئتَ أَنْ تَعقِدَ أَطرافَها . . لفعلتَ ، ولٰكنَّها شَخْتةُ[4] الصدرِ ، وأَنتَ عريضُ الصدرِ ، فإذا كانَ كذلكَ . . كانَ قبيحاً ، لا ـ واللهِ ـ حتَّىٰ يملأَ كلُّ شيءٍ مثلَهُ ، قالَ : فوصلَها الرجالُ والنساءُ ، وتزوجُوهنَّ .

تشكك المؤلف في القصة

وأَقولُ : إنَّ عندي في القصَّةِ نظراً ؛ لأَنَّ أَبا الفرجِ نفسَهُ روىٰ [في « الأغاني » ١١/١٨٦] : أَنَّ عائشةَ بنتَ طلحةَ لمْ تتزوَّجْ مصعباً إلاَّ بعدَ عبدِ ٱللهِ بنِ عبدِ ٱلرحمـٰنِ ٱبنِ أَبي بكرٍ ، وأَنَّهُ[5] ماتَ وهيَ عندَهُ ، اللَّهمَّ إلاَّ أَنْ يكونَ مصعبٌ خطبَها قبلَ ذلكَ فتزوَّجت بعبدِ اللهِ وتركتْهُ .

---

(١) وجهٌ رديدٌ : فيه قبحٌ .
(٢) خوطُ بانةٍ : الخوطُ هو الغصن الناعم ، والبان : شجر معروف ، واحدهُ بانةٌ ، وٱمرأةٌ خُوطُ بانيَّةٌ : مشبهةٌ بالخوط .
(٣) الخَشْفُ : الظبيُ ساعةَ ولادتهِ .
(٤) الشَّختةُ : نحيفةُ الجسمِ ، دقيقتُهُ .
(٥) أَي : عبدُ اللهِ .

وكيفما كانَ . . فٱلقصَّةُ لا تلتئمُ ، وٱلاستطرادُ لا يَحتاجُ إلىٰ إمعانِ النظرِ ، ومعاودةِ البحثِ .

وٱلبيتُ الذي نتكلَّمُ فيهِ لا يبعدُ عَنْ قولِ ٱمرىءِ القيسِ [في « ديوانه » ١٤٨ مِنَ الطَّويلِ] :

فَمَـا ذَرَفَـتْ عَيْنَـاكِ إلاَّ لِتَضْـرِبِـيْ بِسَهْمَيْكِ فِيْ أَعْشَارِ قَلْبٍ مُقَتَّلِ[1]

* * *

(١) أَعشارُ القلبِ : أَجزاؤهُ .

[قالَ أبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَرِيِّ » ٤/ ٢٩ من الكامل] :

كَصِفَاتِ مَوْلَانَا أَبِي ٱلْفَضْلِ ٱلَّتِي بَهَرَتْ فَأَنْطَقَ وَاصِفِيْهِ وَأَفْحَمَا[1]

جمع الأضداد في الصفات يستهوي المتنبي

(بَهَرَ) : غلبَ ، ومنه : الشمسُ تبهَرُ النجومَ ، يقولُ : إنَّ حبيبتَهُ ٱستبَتْهُ بما جمعَتْ مِنْ تناسُبِ الأضدادِ في جَمالها ، وكذلكَ مولاهُ أبو ٱلفضلِ ٱستهواهُ بما جَمَعَ منها في الشَّرفِ ؛ فقد كانَ حُلْواً للأولياءِ، مُرّاً للأعداءِ، هَشّاً للضُّيوفِ، عَبُوساً إذا ٱشتجرَتِ السُّيوفُ[2]، وممَّا يُشبِهُ ذلكَ ما ذَكَرَهُ في مثلِ قولِهِ [في « العُكبَرِيِّ » ٤/ ٧٨ مِنَ ٱلوافرِ] :

نُصَـرِّعُهُـمْ بِـأَعْيُنِنَـا حَيَـاءً وَتَنْبُوْ عَنْ وُجُوْهِهِمُ ٱلسِّهَامُ[3]

وقولِهِ [في « العُكبَرِيِّ » ٤/ ١١٦ مِنَ الطَّويلِ] :

حَيِيُّوْنَ إلاَّ أَنَّهُـمْ فِـيْ نِـزَالِهِـمْ أَقَلُّ حَيَاءً مِنْ شِفَارِ ٱلصَّوَارِمِ

وقولِهِ [في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ١٨٩ مِنَ ٱلبسيطِ] :

دَانٍ بَعِيْـدٍ مُحِـبٌّ مُبْغِضٍ بَهِجٍ أَغَـرَّ حُلْـوٍ مُمِـرٌّ لَيِّـنٍ شَـرِسِ

وقولِهِ [في « العُكبَرِيِّ » ٣/ ٢٠١ مِنَ ٱلخفيفِ] :

أَنْتَ طَوْراً أَمَرُّ مِنْ نَاقِعِ ٱلسُّـ ـمِّ وَطَوْراً أَحْلَىٰ مِنَ ٱلسَّلْسَالِ[4]

---

(١) في « العكبري » : (أَوْحَدِنَا) بدل (مَوْلاَنَا) .

(٢) اشتجرتِ السيوفُ : تداخلت وقتَ الطِّعانِ .

(٣) نُصرِّعُهم : يريدُ : صرعناهُم ؛ أي : قَدرنا عليهم . تنبو : ترتفعُ ولا تصيب .

(٤) السَّلسَالُ : الماءُ العذبُ الذي يتسلسلُ في الحلقِ .

وقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ١/ ١١٥ مِنَ ٱلبسيطِ] :

تَحْلُـوْ مَـذَاقَتُـهُ حَتَّـىٰ إِذَا غَضِبَـا ... حَالَتْ فَلَوْ قَطَرَتْ فِيْ ٱلْبَحْرِ مَا شُرِبَا(١)

وقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ١/ ١٤٢ مِنَ ٱلوافرِ] :

قَسَـا فَـٱلأُسْـدُ تَفْـزَعُ مِـنْ قُـوَاهُ ... وَرَقَّ فَنَحْـنُ نَخْشَـىٰ أَنْ يَـذُوْبَـا

وقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٤/ ٥٥ مِنَ الطَّويلِ] :

لَـهُ رَحْمَـةٌ تُحْـيِ ٱلْعِظَـامَ وَغَضْبَـةٌ ... بِهَا فَضْلَةٌ لِلْجُرْمِ عَنْ صَاحِبِ ٱلْجُرْمِ

وقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ١/ ٢٥ مِنَ ٱلكاملِ] :

مُتَفَرِّقُ ٱلطَّعْمَيْنِ مُجْتَمِعُ ٱلْقُوَىٰ ... فَكَـأَنَّـهُ ٱلسَّـرَّاءُ وَٱلضَّـرَّاءُ

الشعراء وجمع الأضداد

فالمعنىٰ متكرِّرٌ عندهُ ، وهو عندَ غيرِهِ أكثرُ ، قالَ لبيدٌ [في « ديوانِهِ » ١٩٧ مِنَ الرَّمَلِ] :

مُمْقِـرٌ مُـرٌّ عَلَـىٰ أَعْـدَائِـهِ ... وَعَلَىٰ ٱلأَدْنَيْنَ حُلْوٌ كَٱلْعَسَلْ(٢)

وقالَ النابغةُ الجعديُّ [في « ديوانِهِ » ١٨٨ مِنَ الطَّويلِ] :

فَتـىً تَـمَّ فِيْـهِ مَـا يَسُـرُّ صَـدِيْقَـهُ ... عَلَىٰ أَنَّ فِيْهِ مَا يَسُوْءُ ٱلأَعَادِيَا

وقالَ المرارُ الفقعسيُّ [مِنَ الطَّويلِ] :

فَإِنِّي إِذَا ٱحْلَوْلَيْتُ حُلْوٌ مَذَاقَتِيْ ... وَمُرٌّ إِذَا مَا رَامَ ذُوْ إِحْنَةٍ هَضْمِيْ(٣)

---

(١) البحرُ : المكانُ الواسع ، ومنه سمي البحر بحراً ، وأراد بالبحر هنا العذبَ منه ؛ لقوله تعالى : ﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴾ [الرحمـٰن : ١٩] ؛ يريد الملح والعذب ، وأهل (مصر) يسمون النيل بحراً .

(٢) أمقرَ الشيءُ فهو مُمْقِرٌ إذا كانَ مُرّاً ؛ أي : شديدٌ على أعدائِهِ ، رحيمٌ عطوفٌ على أقاربِهِ .

(٣) أَحِنَ عليه : حقد عليه .

وقالَ قيسُ بنُ ٱلخطيمِ [في « ديوانهِ » ١٠٨ مِنَ الطَّويلِ] :

أُمِرُّ عَلَىٰ ٱلْبَاغِي وَيَغْلُظُ جَانِبِيْ ... وَذُوْ ٱلْقَصْدِ أَحْلَوْلِيْ لَهُ وَأَلِيْنُ[1]

وفي سيرةِ ٱبنِ الخطَّابِ ـ رضوانُ اللهِ عليهِ ـ أَنَّهُ كانَ يقولُ : لانَ قلبي حتَّىٰ هو أَلينُ مِنَ الزُّبْدِ ، وخَشُنَ حتَّىٰ لَهُوَ أَشدُّ مِنَ ٱلحجارةِ .

وقالَ أَبو تمَّامٍ [في « ديوانهِ » ١/ ٢١٢ مِنَ ٱلخفيفِ] :

قَدْ بَثَثْتُمْ غَرْسَ ٱلْمَوَدَّةِ وَٱلشَّحْـ ... ـنَاءِ فِيْ قَلْبِ كُلِّ قَارٍ وَبَادِيْ[2]

أَبْغَضُوْا عِزَّكُمْ وَوَدُّوْا نَدَاكُمْ ... فَقِرَاكُمْ مِنْ بِغْضَةٍ وَوِدَادِ

لاَ عَدِمْتُمْ غَرِيْبَ مَجْدٍ رَبَقْتُمْ ... فِيْ عُرَاهُ نَوَافِرَ ٱلأَضْدَادِ[3]

وقالَ أَبو نُوَاسٍ [مِنَ ٱلكاملِ] :

حَذَرَ ٱمْرِىءٍ نُصِرَتْ يَدَاهُ عَلَىٰ ٱلْعِدَا ... كَٱلدَّهْرِ فِيهِ شَرَاسَةٌ وَلَيَانُ

أبو تمام يتكلف تأليف بيت من الشعر

فذكرَ بعضُهُم : أَنَّهُ ٱستأذنَ علىٰ أَبي تمَّامٍ ، وكانَ لا يستترُ عنهُ ، فأَلفاهُ في بيتٍ مُصهرَجٍ[4] ، يتقلَّبُ شمالاً ويميناً في الماءِ ، فقالَ لهُ : بلغَ بكَ ٱلحرُّ مبلغاً شديداً ؟ قالَ : لا ، ولٰكنْ غيرُهُ ، ومكثَ ساعةً كذلكَ ، ثُمَّ قامَ كأَنَّما أُطلقَ مِنْ عِقالٍ ، فقالَ : الآنَ بلغتُ ما أَردْتُ ، وكتبَ شيئاً ، ثُمَّ قالَ : تدري ما كنتُ فيهِ مُذِ الآنَ ؟ قلتُ : لا ، قالَ قولَ أَبي نُوَاسٍ : (كالدَّهْرِ فِيْهِ شَرَاسَةٌ وَلَيَانُ) ، فقد أَردتُ

---

(١) أُمِرُّ : أَصير مُرّاً .

(٢) القاري : النازلُ القرىٰ . البادي : النازلُ الباديةَ .

(٣) ربقتُم : شَددتُم .

(٤) الصَّهريجُ : حوضٌ يجتمعُ فيهِ الماءُ .

معناهُ ، فشَمُسَ عليَّ[1] ، فلَمْ أَزلْ علىٰ تلكَ الحالِ حتَّىٰ أَمكنني اللهُ منهُ ، فقلْتُ [مِنَ البسيطِ] :

شَرَسْتَ بَلْ لِنْتَ بَلْ قَانَيْتَ ذَاكَ بِذَا ... فَأَنْتَ لاَ شَكَّ فِيْكَ ٱلسَّهْلُ وَٱلْجَبَلُ

استهزاء المؤلف به

ولعمري إِنَّهُ لبيتٌ ساقطٌ ، ينادي علىٰ نفسهِ بالخذلانِ ، لو تجسَّمَ . . لكانَ مِعوَلاً لتكسيرِ الحجارةِ ، وهٰذا هو الشعرُ المتكلَّفُ الباردُ .

عودة إلى جمع الأضداد عند الشعراء

وقالَ سَلْمٌ الخاسرُ ـ كما رأَيْتُهُ في « المحاسن والمساوىء » للبيهقي معزوّاً إِليهِ [مِنَ الكاملِ] ـ :

شُدَّتْ مَنَاكِبُ مُلْكِهِمْ بِخَلِيْفَةٍ ... كَالدَّهْرِ يَخْلِطُ لِيْنَهُ بِشِمَاسِ

وسيعادُ هٰذا البيتُ أَوائِلَ المجلسِ الرابعَ عشرَ .

وقالَ أَبو الشِّيصِ الخزاعيُّ [في « ديوانهِ » ١٠٤ مِنَ الطَّويلِ] :

وَكَالسَّيْفِ إِنْ لاَيَنْتَهُ لاَنَ مَتْنُهُ ... وَحَدَّاهُ إِنْ خَاشَنْتَهُ خَشِنَانِ

وقالَ أَبو عُبادةَ [في « ديوانهِ » ٣/ ١٨٣٧ مِنَ الكاملِ] :

أَحْكَمْتَ مَا دبَّرْتَ بِٱلتَّقْرِيْبِ وَٱلْـ ... ـتَّبْعِيْدِ وَٱلتَّصْعِيْبِ وَٱلتَّسْهِيْلِ
لَوْلاَ ٱلتَّبَايُنُ فِيْ ٱلطَّبَائِعِ لَمْ يَقُمْ ... بُنْيَانُ هٰذَا ٱلْعَالَمِ ٱلْمَجْبُولِ
قَوْلٌ يُتَرْجِمُهُ ٱلْفَعَالُ وَإِنَّمَا ... يُتَفَهَّمُ ٱلتَّنْزِيلُ بِٱلتَّأْوِيلِ[2]
مَاذَا نَقُوْلُ وَقَدْ جَمَعْتَ شَتَائِتاً ... وَأَتَيْتَنَا بِٱلْعَدْلِ وَٱلتَّعْدِيْلِ ؟

---

(١) شمُسَ عليَّ : أستغلق ، وتأبَّىٰ .
(٢) الفَعالُ : قالَ اللَّيثُ : الفَعالُ أسمٌ للفِعلِ الحَسَنِ . التنزيلُ : يقصدُ بهِ كتابَ اللهِ عزَّ وجلَّ .

وقالَ الشريفُ الرضيُّ : ما زلتُ أَستخرجُ العجبَ مِنَ ٱلإخوانِ بكلامِ الإمامِ في ٱلزهدِ ؛ لأَنَّ مَنْ سَمِعَهُ لا يظنُّهُ إِلاَّ كلامَ منقطعٍ في سفحِ جبلٍ ، أو قابعٍ في كِسْرِ بيتٍ ، ولا يحسبُ أَنَّهُ كلامُ مَن ينغمسُ في ٱلحروبِ ، وينثني وسيفُهُ يسيلُ دماً ، ويقطرُ مُهَجاً ، أَو ما يُشْبِهُ هٰذا ، وكنتُ معجباً بهِ إِلىٰ حدِّ ٱلافتتانِ . . حتَّىٰ تبيَّنتُ سَبْقَ ٱلذِّكرِ ٱلحكيمِ إِلىٰ هٰذا ٱلمعنىٰ ٱلشريفِ في كُثُرٍ مِنَ ٱلآياتِ منها قولهُ جلَّ ذكرهُ : ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [المائدة : ٥٤] ، وقولهُ : ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴾ [الفتح : ٢٩] ، وكَمْ فيهِ مِنْ آياتِ الزهدِ التي تسيلُ رِقَّةً حتَّىٰ لتكادُ تذوبُ لها الحجارةُ ، ومن آياتِ الحربِ التي تأخذُ بأنوفِ الجُبَنَاءِ إِلىٰ عنانِ السَّمَاءِ .

وصف الشريف الرضي للإمام

إعجاب المؤلف به

ويعجبني قولُ عكرشةَ بنِ أَربدَ في ولدهِ [مِنَ الطَّويلِ] :

مديح أب لابنه

رَأَيْتُ رِيَاطاً حِينَ تَمَّ شَبَابُهُ ... وَوَلَّىٰ شَبَابِيْ لَيسَ فِيْ بِرِّهِ عَتْبُ
إِذَا كَانَ أَوْلاَدُ ٱلرِّجَالِ حَرَارَةً ... فَأَنْتَ ٱلزُّلاَلُ ٱلْحُلْوُ وَٱلْبَارِدُ ٱلْعَذْبُ
لَنَا جَانِبٌ مِنْهُ دَمِيثٌ وَجَانِبٌ ... شَدِيْدٌ عَلَىٰ ٱلأَعْدَاءِ مُمْتَنِعٌ صَعْبُ(١)
وَتَأْخُذُهُ عِنْدَ ٱلْمَكَارِمِ نَشْوَةٌ ... كَمَا ٱهْتَزَّ تَحْتَ ٱلْبَارِحِ ٱلْغُصْنُ ٱلرَّطْبُ(٢)

وفي عكسِ هٰذا المعنىٰ يقولُ الحصينُ بنُ المنذرِ ـ أَحدُ بني عمرِو بنِ شيبانَ الذهليِّ وكانَ صاحبَ الرايةِ معَ عليٍّ بـ(صفِّينَ) ـ في ولدهِ غَيَّاظاً [مِنَ الطَّويلِ] :

هجاء أب لابنه

---

(١) دميثٌ ، يقالُ : دَمِثَ دَمَثاً ، فهوَ دَمِثٌ ودَمِيْثٌ ، لاَنَ وسَهُلَ .
(٢) البارحُ ـ جمعُهُ بوارحُ ـ : وهيَ الرياحُ الشدائدُ التي تَحملُ الترابَ في شدَّةِ الهبواتِ ، وقيلَ : هيَ الريحُ الحارَّةُ في الصيفِ .

نَسِيٌّ لِمَا أَوْلَيْتُ مِنْ صَالِحٍ مَضَىٰ   وَأَنْـتَ لِتَـأْدِيْـبِ عَلَـيَّ حَفِيْـظُ
تَلِيْنُ لأَهْلِ ٱلْغِلِّ وَٱلْغَمْزُ مِنْهُمْ   وَأَنْتَ عَلَىٰ أَهْلِ ٱلصَّفَاءِ غَلِيْظُ
وَسُمِّيْتَ غَيَّاظاً وَلَسْتَ بِغَائِظٍ   عَـدُوّاً وَلَـٰكِـنْ لِلصَّـدِيْـقِ تَغِيْـظُ
فَلاَ حَفِظَ ٱلرَّحْمَـٰنُ رُوْحَكَ حَيَّةً   وَلاَ وَهْيَ فِيْ ٱلأَرْوَاحِ حِيْنَ تَغِيْظُ
عَـدُوُّكَ مَسْـرُوْرٌ وَذُوْ ٱلْـوِدِّ بِـٱلَّـذِيْ   يُرَىٰ مِنْكَ مِنْ غَيْظٍ عَلَيْكَ كَظِيْظُ[1]

أنت ومالك لأبيك

وأخرجَ ٱلبيهقيُّ في « **الدَّلائلِ** » ، والطَّبرانيُّ في « **ٱلأوسطِ** » [٦/ ٣٤٠] و« **الصَّغيرِ** » [٩٤٨] بسندٍ فيهِ مَنْ لا يُعرفُ عن جابرٍ ، قالَ : جاءَ رجلٌ إِلىٰ ٱلنبيِّ ﷺ ، فقالَ : يا رسولَ ٱللهِ ، إِنَّ أَبي أَخذَ مالي ، فقالَ لهُ : اِذهبْ فَأْتني بأَبيكَ ، فنزلَ جبريلُ ، فقالَ إِنَّ ٱللهَ عزَّ وجلَّ يقرئُكَ ٱلسلامَ ، ويقولُ : إِذَا جاءَكَ ٱلشيخُ . . فسلْهُ عمَّا قالهُ في نفسهِ ، ولم تسمعهُ أُذُناهُ ، فلمَّا جاءَ . . قالَ لهُ ٱلنبيُّ ﷺ : « **مَا بَالُ ٱبْنِكَ يَشْكُوْكَ ، تَأْخُذُ مَالَهُ** » ؟ قالَ : سلْهُ هَلْ أَنفقتُهُ إِلاَّ علىٰ عمَّاتهِ وخالاتهِ ، أَو علىٰ نفسي ؟ فقالَ : « **أَخبِرْنِيْ عَنْ شَيْءٍ قُلْتَهُ فِيْ نَفْسِكَ وَمَا سَمِعَتْهُ أُذُنَاكَ ؟** » فقالَ الشَّيخُ : واللهِ ما يزالُ اللهُ يزيدُنَا بكَ يقيناً ، لقد قلْتُ في نفسي شيئاً ما سمعَتْهُ أُذُنَيَّ ، فقالَ : « **مَا هُوَ** » ؟ فقالَ : قلتُ [مِنَ الطَّويلِ] :

غَذَوْتُكَ مَوْلُوْداً وَمُنْتُكَ يَافِعاً   تَعَلُّ بِمَا أَجْنِيْ عَلَيْكَ وَتَنْهَلُ[2]
إِذَا لَيْلَةٌ ضَافَتْكَ بِٱلسُّقْمِ لَمْ أَبِتْ   لِسُقْمِـكَ إِلاَّ سَـاهِـراً أَتَمَلْمَـلُ
كَأَنِّيْ أَنَا ٱلْمَطْرُوْقُ دُوْنَكَ بِٱلَّذِيْ   طُرِقْتَ بِهِ دُوْنِيْ فَعَيْنَايَ تَهْمُلُ

---

(١) الكظيظُ : الممتلىءُ غيظاً .
(٢) مُنتكَ : كفيتُكَ مُؤنتك وحَاجتكَ .

تَخَافُ ٱلرَّدَىٰ نَفْسِيْ عَلَيْكَ وَإِنَّهَا ... لَتَعْلَمُ أَنَّ ٱلْمَوْتَ شَيْءٌ مُؤَجَّلُ
فَلَمَّا بَلَغْتَ ٱلسِّنَّ وَٱلْغَايَةَ ٱلَّتِيْ ... إِلَيْهَا مَدَىٰ مَا كُنْتُ فِيْهَا أُؤَمِّلُ
جَعَلْتَ جَزَائِيْ غِلْظَةً وَفَظَاظَةً ... كَأَنَّكَ أَنْتَ ٱلْمُنْعِمُ ٱلْمُتَفَضِّلُ
فَلَيْتَكَ إِذْ لَمْ تَرْعَ حَقَّ أُبُوَّتِيْ ... فَعَلْتَ كَمَا ٱلْجَارُ ٱلْمُجَاوِرُ يَفْعَلُ
تَـرَاهُ مُعِـدّاً لِلْخِـلَافِ كَـأَنَّـهُ ... بِرَدٍّ عَلَىٰ أَهْلِ ٱلصَّوَابِ مُوَكَّلُ

قالَ : فحينئذٍ أخذَ النبيُّ ﷺ بتلابيبِ ٱبنه ، وقالَ : « أَنْتَ وَمَالُكَ لأَبِيْكَ »[1] . وهـٰذا الحديثُ موجودٌ في سورةِ الإسراءِ مِنَ « ٱلكشَّافِ » ، وبلفظٍ يقربُ منهُ ، والقصَّةُ باطلةٌ مِنْ حيثُ الروايةُ كما علمتَ ؛ ولِمَا جاءَ أَنَّ الشعرَ لأُميَّةَ ٱبنِ أَبي الصَّلتِ . بطلان قصة الحديث

ومن حيثُ ٱلطبيعةُ ؛ إِذْ يستحيلُ أَنْ يقولَ ٱلشاعرُ شيئاً فيصبرَ عَنْ أَنْ يتغنىٰ بهِ ذاتَ ٱلمرَّاتِ .

أَمَّا قولُ ٱلرجلِ لغيرهِ : (يا مولايَ) . . ففيهِ للفقهاءِ كلامٌ : هل يجوز قول الرجل لغيره: يا مولاي؟

قالَ أَبو جعفرٍ ٱلنحَّاسُ : لا نعلمُ خلافاً بينَ العلماءِ أَنَّهُ لا ينبغي أَنْ يُقالَ لأَحدٍ مِنَ ٱلمخلوقينَ (مولاي) .

وقالَ ٱبنُ حجرٍ : مَرَّ جوازُ إِطلاقِ (مولاي) .

ولا مخالفةَ بينَهُ وبينَ هـٰذا ، فإِنَّ النَّحَّاسَ تكلَّمَ في ٱلمولىٰ بالألفِ واللَّامِ . ولذا قالَ ٱلنَّحَّاسُ : يُقالُ : سيِّدٌ لغيرِ ٱلفاسقِ ، القول في التسييد

---

(١) بل أخرج الحديث فقط عن عائشة ابن حبان في « الإحسان » (٤٢٦٢) بإسناد صحيح ، وكذا عن جابر أخرجه ابن ماجه (٢٢٩١) في التجارات ، والطحاوي في « معاني الآثار » (٤/ ١٥٨) في القضاء . قال عنه البوصيري : هذا إسناد صحيح .

ولا يقالُ : ٱلسَّيِّدُ ، لغيرِ ٱللهِ تعالىٰ . وٱلأَظهرُ : أَنَّهُ لا بأْسَ بإِطلاقِ ٱلمولىٰ وٱلسَّيِّدِ بٱلألفِ وٱللاَّمِ بشرطِهِ ٱلسَّابقِ . ٱنتهىٰ كلامُهُ .

وما أَشارَ إِلىٰ مرورِهِ : هوَ ما ساقَهُ عَنِ ٱلنواويِّ [في « الأذكار » ص ٥٧٣] ـ في ٱلجمعِ بينَ ٱلأَحاديثِ ٱلواردةِ في ٱلتَّسييدِ وما صحَّ مِنْ قولِهِ ﷺ : « لا تَقُولُوا لِلْمُنَافِقِ سَيِّدٌ ؛ فإِنَّهُ إِنْ يَكُنْ سَيِّداً . . فَقَدْ أَسْخَطْتُمْ رَبَّكُمْ عَزَّ وجَلَّ »[1] ـ مِنْ قولِهِ : لا بأْسَ بإِطلاقِ (فلانٌ سيِّدٌ ، ويا سيِّدِي ونحو ذلكَ) إِذَا كانَ ٱلمَسَوَّدُ فاضلاً خيِّراً لعلمٍ أَو صلاحٍ أَو غيرِهِما ، وإِنْ كانَ نحوُ فاسقٍ أَو متَّهمٍ في دِينهِ . . كُرِهَ أَنْ يُقالَ لَهُ سيِّدٌ[2] . ٱنتهىٰ .

ولا شكَّ أَنَّ سيِّدِي أَو ٱلسيِّدَ أَشدُّ كراهةً ، وممَّا عمَّ ٱلابتلاءُ بهِ أَنَّ ٱلجُهَّالَ وأَهلَ ٱلمَلَقِ لا يتورعونَ أَنْ يُطلقوا ٱلأَوصافَ ٱلإِلـٰهيَّةَ علىٰ مَنْ يدَّعونَ له ٱلولايةَ أَو يُعظِّمونَ مِنْ أَبناءِ ٱلدُّنيا .

شهامة شاعر

ويعجبني قولُ عليِّ بنِ محمَّدٍ ٱلكوفيِّ مِنْ قصيدةٍ [مِنَ الطَّويلِ] :

كَأَنَّ نَذِيرَ ٱلشَّمْسِ يَحْكِيْ بِبِشْرِهِ ... عَلِـيَّ بْـنَ دَاوُدٍ أَخِـيْ وَنَسِيْبِـيْ
وَلَوْلاَ ٱتِّقَائِيْ عَتْبَهُ قُلْتُ سَيِّدِيْ ... وَلَـٰكِنْ يَرَاهَا مِنْ أَجَلِّ ذُنُوْبِيْ

---

(١) أخرجه عن بريدة أبو داوود (٤٩٧٧) ، والنسائي في « الكبرى » (٦/ ٧٠) بنحوه ، والبخاري في « الأدب المفرد » (١/ ٢٦٧) بنحوه .

(٢) وعقَّب بقوله : وقد روينا عن الإمام أبي سليمان الخطابي في « معالم السنن » في الجمع بينهما نحو ذلك .

ثم أورد أيضاً خبر أبي هريرة عند البخاري (٢٥٥٢) ، ومسلم (٢٢٤٩) عن النبي ﷺ قال : « لا يقل أحدكم : أطعم ربك ، وضيء ربك ، اسق ربك ، وليقل : سيدي ومولاي ، ولا يقل أحدكم : عبدي أمتي ، وليقل : فتاي وفتاتي وغلامي » .

نَسِيْبُ إِخَاءٍ وَهْوَ غَيْرُ مُنَاسِبٍ قَرِيْبُ صَفَاءٍ وَهْوَ غَيْرُ قَرِيْبِ

خضوع البعض لممدوحيه

ومما يُلاحظُ علىٰ شيخِنَا ٱبنِ شهابٍ خضوعُهُ في بعضِ القولِ لممدوحِيْهِ ؛ فقد قالَ من قصيدةٍ هي في الاعتبارِ الأَوَّلِ مِنَ ٱلفصاحةِ وٱلبلاغةِ وجمالِ الدِّيباجةِ ورقَّةِ الانسجامِ ، للأَميرِ أَحمدَ فضلٍ ٱلعبدليِّ [مِنَ الطَّويلِ] :

فَيَا أَيُّهَا ٱلْمَوْلَىٰ وَمَا غَيْرُكَ ٱمْرُؤٌ نُسَمِّيْهِ مِنْ بَعْدِ ٱلْوَصِيِّ بِمَوْلاَنَا[1]

ثُمَّ لَمْ يقفْ عندَ ذلكَ ، بل حَنِثَ في قولِهِ ، وخاطبَ بعدَ ذلك غيرَهُ بمثلِهِ .

ولو أَنِّي أَخذتُ بيتَ شيخِنا لمخاطبةِ الحضرةِ المتوكِّليَّةِ . . لكُنتُ أَحقَّ بهِ ؛ لأَنَّني لَمْ أَسمح بذلكَ لأَحدٍ مِمَّنْ عاصرتُهُ سواهُ وسوىٰ سيِّدي الأُستاذِ الأَبرِّ عيدروسِ بنِ عُمرَ المتوفَّىٰ مِنْ نحوِ سبعٍ وثلاثينَ عاماً ، ويأَتي ما لهُ تعلُّقٌ بهـٰذا قُبيلَ المجلسِ الحادي عشرَ .

الممادح التي توجد في الممدوح هي التي تنظم نفسها شعراً عند المتنبي

وأَمَّا قولُهُ : (فَأَنْطَقَ وَاصِفِيْهِ) . . فإِنَّهُ متكرِّرٌ عندهُ ، منهُ قولُهُ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٨١ مِنَ ٱلبسيطِ] :

وَقَدْ وَجَدْتَ مَكَانَ ٱلْقَوْلِ ذَا سَعَةٍ فَإِنْ وَجَدْتَ لِسَاناً قَائِلاً فَقُلِ

وقولُهُ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ١٤٦ مِنَ ٱلخفيفِ] :

إِنَّمَا أَحْفَظُ ٱلْمَدِيْحَ بِعَيْنِي لاَ بِقَلْبِي لِمَا أَرَىٰ فِي ٱلأَمِيْرِ
مِنْ خِصَالٍ إِذَا نَظَرْتُ إِلَيْهَا نَظَمَتْ لِي غَرَائِبَ ٱلْمَنْثُوْرِ

(١) الوَصيُّ : لعلّ المراد سَيِّدُنا الإمامُ الهمامُ ، عليُّ ٱبنُ أبي طالبٍ عليه السلام .

وقولُهُ [في « العُكبَرِيّ » ٤/٦٨ مِنَ المنسرحِ] :

أَبَا ٱلْحُسَيْنِ ٱسْتَمِعْ فَمَدْحُكُمُ   فِي ٱلذِّهْنِ قَبْلَ ٱلْكَلَامِ يَنْتَظِمُ(١)

وقولُهُ [في « العُكبَرِيّ » ١/١٨١ مِنَ الطَّويلِ] :

وَأَخْلَاقُ كَافُوْرٍ إِذَا شِئْتُ مَدْحَهُ   وَإِنْ لَمْ أَشَأْ تُمْلَىٰ عَلَيَّ وَأَكْتُبُ

وقولُهُ [في « العُكبَرِيّ » ٢/١٥٨ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا أَنَا وَحْدِيْ قُلْتُ ذَا ٱلشِّعْرَ كُلَّهُ   وَلَكِنْ لِشِعْرِيْ فِيْكَ مِنْ نَفْسِهِ شِعْرُ

وقولُهُ [في « العُكبَرِيّ » ٣/٣٩١ مِنَ الطَّويلِ] :

لَكَ ٱلْحَمْدُ فِيْ ٱلدُّرِّ ٱلَّذِيْ لِيَ لَفْظُهُ   فَـإِنَّـكَ مُعْطِيْـهِ وَإِنِّـيَ نَـاظِـمُ

وقولُهُ [في « العُكبَرِيّ » ٢/ ٥٥ مِنَ الخَفيفِ] :

غَمَـرَتْنِـيْ فَـوَائِـدٌ شَـاءَ فِيْهَـا   أَنْ يَكُـوْنَ ٱلْكَـلَامُ مِمَّـا أَفَـادَهْ

وقولُهُ [في « العُكبَرِيّ » ٤/ ٢٧٥ مِنَ المنسرحِ] :

تَقُـوْدُ مُسْتَحْسَـنَ ٱلْكَـلَامِ لَنَـا   كَمَـا تَقُـوْدُ ٱلسَّحَـابَ عُظْمَـاهَـا

وكذلك عند الشعراء

وقالَ أَبو تمَّامٍ [في « ديوانهِ » ٧ مِنَ البسيطِ] :

تَغَايَرَ ٱلشِّعْرُ فِيْهِ إِذْ أَرِقْتُ لَهُ   حَتَّـىٰ تَكَـادَ قَـوَافِيْـهِ سَتَقْتَتِـلُ

وقالَ ٱبنُ الرُّوميِّ [في « ديوانهِ » ٦/ ٢٢٩٣ مِنَ الوافرِ] :

وَدُوْنَـكَ مِـنْ أَقَـاوِيْلِـيْ مَدِيْحاً   غَـدَا لَـكَ دُرُّهُ وَلِـيَ ٱلنِّظَـامُ

وقالَ [مِنَ الكاملِ] :

خُذْ مِنْ فَوَائِدِكَ ٱلَّتِيْ أَعْطَيْتَنِيْ   فَـالـدُّرُّ دُرُّكَ وَٱلنِّظَـامُ نِظَـامِـيْ

---

(١) في « العكبري » : (ٱلْفِعْلِ) بدل (ٱلذِّهْنِ) .

وقالَ [في « ديوانهِ » ٢/ ٦٠٢ مِنَ الطَّويلِ] :

كَرُمْتُمْ فَجَاشَ ٱلْمُفْحَمُونَ بِمَدْحِكُمْ ... إِذَا رَجَزُوا فِيكُمْ أَبَيْتُمْ فَقَصَّدُوا[1]
كَمَا أَزْهَرَتْ جَنَّاتُ عَدْنٍ وَأَثْمَرَتْ ... فَأَضْحَتْ وَعُجْمُ ٱلطَّيْرِ فِيهَا تُغَرِّدُ

وقالَ أحمدُ ٱبنُ أَبي طاهرٍ [مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا نَحْنُ حُكْنَا ٱلشِّعْرَ فِيكَ تَسَهَّلَتْ ... عَلَيْنَا مَعَانِيهِ وَذَلَّتْ صِعَابُهَا

وقالَ أحمدُ بنُ إسماعيلَ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَإِنِّي وَإِنْ أَحْسَنْتُ فِي ٱلْقَوْلِ مَرَّةً ... فَمِنْكَ وَمِنْ إِحْسَانِكَ ٱمْتَارَهَا لَفْظِي[2]

وقالَ آخرُ [مِنَ الخفيفِ] :

مَا لَقِينَا مِنْ جُودِ فَضْلِ بْنِ يَحْيَىٰ ... تَرَكَ ٱلنَّاسَ كُلَّهُمْ شُعَرَاءَ

وأَصلُ المعنىٰ قولُ عمرِو بنِ معديكربَ [في « ديوانهِ » ٧٣ مِنَ الطَّويلِ] :

فَلَوْ أَنَّ قَوْمِي أَنْطَقَتْنِي رِمَاحُهُمْ ... نَطَقْتُ وَلَٰكِنَّ ٱلرِّمَاحَ أَجَرَّتِ

وقالَ ٱبنُ ٱلفارضِ [في « ديوانهِ » ١٤٢ مِنَ الطَّويلِ] :

مَحَاسِنُ تَهْدِي ٱلْمَادِحِينَ لِوَصْفِهَا ... فَيَحْسُنُ فِيهَا مِنْهُمُ ٱلنَّثْرُ وَٱلنَّظْمُ

وقالَ أَيضاً [في « ديوانهِ » ١٢٦ مِنَ الكاملِ] :

تَفْدِيهِ مُهْجَتِيَ ٱلَّتِي تَلِفَتْ وَلاَ ... مَنٌّ عَلَيْهِ لأَنَّهَا مِنْ مَالِهِ

وهو مِنْ قولِ النَّاظمِ [مِنَ الكاملِ] :

كَٱلْبَحْرِ يُمْطِرُهُ ٱلسَّحَابُ وَمَا لَهُ ... مَنٌّ عَلَيْهِ لأَنَّهَا مِنْ مَائِهِ

---

(١) المفحَمُ : العييُّ الذي لا يقولُ الشِّعرَ .
(٢) ٱمْتَارَهَا : ٱجتلبها .

وقالَ ٱبنُ طَباطَبا [مِنَ ٱلكاملِ] :

لاَ تُنْكِـرَنْ إِهْـدَاءَنَـا لَـكَ مَنْطِقـاً   مِنْكَ ٱسْتَفَدْنَا حُسْنَهُ وَنِظَامَهُ

وهوَ من بابِ شبيهِ بقولِ ٱلحَسَنِ بنِ محمَّدِ ٱبنِ عليِّ ابنِ أَبي الضَّوءِ ٱلعلويِّ ٱلحُسينيِّ ، نقيبِ مشهدِ بابِ ٱلتِّينِ ، ٱلمتوفَّىٰ بـ(بغـدادَ) سنةَ : (٥٣٧ هـ) ، أَو شـاعـرٍ آخرَ مِـنْ معـاصـري ٱلبُحتريِّ ، يقالُ لهُ : أَبو ٱلعبَّاسِ ٱلخَثعميُّ علىٰ ٱختلافٍ في ٱلروايةِ [مِنَ ٱلخفيفِ] :

اِذْهَبَا بِيْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمَا عَقْـ   ـرٌ إِلىٰ جَنْبِ قَبْرِهِ فَٱعْقِرَانِيْ[1]
وَٱنْضحَا مِنْ دَمِيْ عَلَيْهِ فَقَدْ كَا   نَ دَمِـيْ مِـنْ نَـدَاهُ لَـوْ تَعْلَمَـانِ

وهُما أَصلُ معنىٰ قولِ الزَّمخشريِّ في رثاءِ شيخهِ أَبي مُضَرَ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَقَـائِلَـةٍ مَـا هَـٰـذِهِ ٱلـدُّرَرُ ٱلَّتِـيْ   تُسَاقِطُهَا عَيْنَاكَ سِمْطَيْنِ سِمْطَيْنِ[2]
فَقُلْتُ لَهَا ٱلدُّرُّ ٱلَّذِيْ كَانَ قَدْ حَشَا   أَبُوْ مُضَرٍ أُذْنِيْ تَسَاقَطَ مِنْ عَيْنِيْ

وقالَ ٱلقاضي ٱلأَرَّجانيُّ ـ وأَبدعَ وأَلطفَ ما شاءَ ـ [في « ديوانهِ » ٢/ ٤٠ مِنَ ٱلكاملِ] :

لَمْ يُبْكِنِيْ إِلاَّ حَدِيْثُ فِرَاقِكُمْ   لَمَّـا أَسَـرَّ بِـهِ إِلَـيَّ مُـوَدِّعِـيْ
هُـوَ ذَلِـكَ ٱلـدُّرُّ ٱلَّـذِيْ أَوْدَعْتُـمُ   فِيْ مَسْمَعِيْ أَلْقَيْتُهُ مِنْ مَدْمَعِيْ

---

(١) الجملُ العَقيرُ : المنحورُ .
(٢) السِّمطُ : هوَ الخيطُ ما دامَ اللؤلؤُ فيهِ منظوماً ، فإذا كانَ فارغاً . . سُمِّيَ سِلكاً ، شبَّهَ الشاعرُ دموعَهُ التي تُذْرَفُ من عينيه متواصلةً . . باللؤلؤ المنظوم المتواصل .

وقالَ ٱلمعرِّيُّ [في «سقطِ الزندِ» ١٩٨ مِنَ ٱلطَّويلِ] :

وَأَلْقَيْـنَ لِـيْ دُرّاً فَلَمَّـا عَـدَدْتُـهُ غِنىً مَسَخَتْهُ شِقْوَةُ ٱلْحَظِّ أَدْمُعِي(١)

وقالَ بعضُهُم [مِنَ الطَّويلِ] :

تعَلَّمْـتُ مِمَّـا قُلْتُـهُ وَفعَلْتُـهُ فَأَهْدَيْتُ حُلْواً مِنْ جَنَايَ لِفَارِسِ

وقالَ آخرُ [مِنَ البسيطِ] :

إِنْ رَاقَ مَعْنىً فَمِنْ جَدْوَاهُ مُعْتَصَرُ أَوْ رَقَّ لَفْظاً فَمِنْ عَلْيَاهُ مُهْتَصَرُ(٢)

تعجز لغة الكلام عن التعبيـر فـي كثيـر مـن الأحيان

وأَمَّا قولُهُ : (وَأَفْحَمَا) . . فمِنْ قولِ أَشجعَ [في «ديوانِهِ» ٢٤٨ مِنَ ٱلوافرِ] :

مَـدَحْنَـاهُـمْ فَلَمْ نُـدْرِكْ بِمَـدْحٍ مَـآثِـرَهُـمْ وَلَـمْ نَتْـرُكْ مَقَـالاَ

وقولِهِ [في «ديوانِهِ» ١٨٨ مِنَ الطَّويلِ] :

جَهِـدْتُ فَلَـمْ أَبْلُـغْ مَـدَاكَ بِمِـدْحَـةٍ وَلَيْسَ عَلَىٰ مَنْ كَانَ مُجْتَهِداً عَتْبُ

وقدِ ٱختلسَهُ ٱلماكيُّ فقالَ [مِنَ الطَّويلِ] :

جَهِـدْتُ وَلَـمْ أَبْلُـغْ مَـدَاكَ بِمِـدْحَـةٍ وَلَيْسَ مَعَ ٱلتَّقْصِيْرِ عِنْدِيْ سِوَىٰ ٱلْعُذْرِ

وقالَ ٱبنُ ٱلحجَّاجِ [مِنَ الطَّويلِ] :

هُوَ ٱلْبَحْرُ إِنْ حَدَّثْتُ عَنْ مُعْجِزَاتِهِ ضَعُفْتُ عَنِ ٱسْتِغْرَاقِ تِلْكَ ٱلْعَجَائِبِ
وَإِنْ رَامَ شِعْـرِيْ أَنْ يُحِيْـطَ بِـوَصْفِـهِ أَحَاطَ بِشِعْرِيْ ٱلْعَجْزُ مِنْ كُلِّ جَانِبِ

---

(١) يقول : إنَّ تلكَ الخيالاتِ لما طرقتهُ في النومِ . . أعطينَهُ عقوداً أو درّاً ، فأنتبهَ مِن نومِهِ فرِحاً ، لكنَّهُ لم يرَ شيئاً ، فنافت دموعُهُ حسرةً علىٰ ما فاتَهُ ، وأوَّلَ الدُّرَّ بالدمعِ ٱلذي تناثرَ مِن عينيهِ عندَ البكاءِ .

(٢) الهَصْرُ : الجذبُ والإمالةُ ، تقولُ : هَصَرْتُ الغصنَ إذا أملتُهُ إليك .

إفحام أبي نواس للشعراء والخطباء

وفي يومِ إملاكِ[1] الرِّضا بٱبنةِ ٱلمأمونِ قامَتِ الشُّعراءُ وٱلخطباءُ ، وأَبو نُوَاسٍ ساكتٌ ، فعُوتِبَ ، فألقىٰ ٱلأبياتَ ٱلآتيةَ ـ ٱلتي كانَتْ بمثابةِ عصا موسىٰ عليهِ السَّلامُ ، تلقَّفَتْ ما كانوا يصنعونَ ـ وهيَ [مِنَ ٱلخفيفِ] :

قِيْلَ لِيْ : أَنْتَ أَفْصَحُ ٱلنَّاسِ طُرّاً ... فِيْ ٱلْمَعَانِيْ وَفِيْ ٱلْكَلاَمِ ٱلنَّبِيْهِ
لَكَ مِنْ جَيِّدِ ٱلْقَرِيْضِ مَدِيْحٌ ... يَنْثُرُ ٱلدُّرَّ مِنْ يَدَيْ مُجْتَنِيْهِ
فَلِمَاذَا لَمْ تَمْتَدِحْ نَجْلَ مُوْسَىٰ ... وَٱلصِّفَاتِ ٱلَّتِيْ تَحَكَّمْنَ فِيْهِ
قُلْتُ : لاَ أَسْتَطِيْعُ مَدْحَ إِمَامٍ ... كَانَ جِبْرِيْلُ خَادِماً لأَبِيْهِ

شدة القرب حجاب

وقد نظرَ ٱلناظمُ إِلىٰ قولِ ٱلأعرابيِّ [مِنَ ٱلوافرِ] :

تَكَاثَرَتِ ٱلظِّبَاءُ عَلَىٰ خِدَاشٍ ... فَمَا يَدْرِيْ خِدَاشٌ مَا يَصِيْدُ

ومِنْ شدَّةِ ٱلظُّهورِ ٱلخفاءُ ، ومنهُ أَحجمَ فحولُ ٱلشُّعراءِ عَنْ مدحهِ ﷺ ؛ لأنَّهُ لا يُستطاعُ ؛ إِذ هوَ فوقَ كلِّ كلامٍ ، ومِنْ وراءِ كلِّ عبارةٍ ، وكلُّ مدحٍ فيهِ تقصيرٌ .

ارتفاع بعض الممدوحين فوق مرتبة المديح

وما أَحسنَ ما يُروىٰ للناظمِ في غيرِ « ٱلدِّيوانِ » حينما عُوتبَ علىٰ تركِ ٱمتداحِ أَهلِ البيتِ وهو قولُهُ [مِنَ ٱلكاملِ] :

وَتَرَكْتُ مَدْحِيْ لِلْوَصِيِّ تَعَمُّداً ... إِذْ كَانَ نُوْراً مُسْتَطِيْلاً شَامِلاَ
وَإِذَا ٱسْتَطَالَ ٱلشَّيْءُ قَامَ بِنَفْسِهِ ... وَصِفَاتُ ضَوْءِ ٱلشَّمْسِ تَذْهَبُ بَاطِلاَ

وقالَ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٢٣٢ مِنَ ٱلبسيطِ] :

مَنْ كَانَ فَوْقَ مَحَلِّ ٱلشَّمْسِ مَوْضِعُهُ ... فَلَيْسَ يَرْفَعُهُ شَيْءٌ وَلاَ يَضَعُ

---

(١) الإملاكُ : التزويج .

وقالَ [في « العُكبَريّ » ٣/ ٢٥٩ مِنَ الكامِلِ] :

وَلَقَدْ عَلَوْتَ فَمَا تُبَالِيْ بَعْدَ مَا عَرَفُوْا أَيَحْمَدُ أَمْ يَذُمُّ القَائِلُ

أُثْنِي عَلَيْكَ وَلَوْ تَشَاءُ.. لَقُلْتَ لِيْ: قَصَّـرْتَ فَـالإِمْسَـاكُ عَنِّـيَ نَـائِـلُ

وقالَ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٣٧٩ مِنَ البسيطِ] :

وَعُظْمُ قَدْرِكَ فِيْ الآفَاقِ أَوْهَمَنِيْ أَنِّـيْ بِقِلَّـةِ مَـا أَثْنَيْـتُ أَهْجُـوْكَـا

وقالَ [في « العُكبَريّ » ١/ ١٩٤ مِنَ الطَّويلِ] :

تَجَاوَزَ قَدْرَ المَدْحِ حَتَّىٰ كَأَنَّهُ بِـأَبْلَـغِ مَـا يُثْنَـىٰ عَلَيْـهِ يُعَـابُ

وهو مِنْ قولِ البُحتريِّ [في « ديوانِه » ١٥ مِنَ الخفيفِ] :

جَلَّ عَنْ مَذْهَبِ المَدِيْحِ فَقَدْ كَا نَ يَكُـوْنُ المَـدِيْـحُ فِيْـهِ هِجَـاءَ

وللهِ درُّ البوصيريِّ في قولِهِ [مِنَ البسيطِ] :

مَـاذَا عَسَـىٰ الشُّعَـرَاءُ اليَـوْمَ قَـائِلَـةً مِنْ بَعْدِ مَا مَدَحَتْ (حامِيمُ تَنْزِيْلُ)

* * *

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَريّ » ٤/ ٣٢ مِنَ ٱلكاملِ] :

كَبُـرَ ٱلْعِيَـانُ عَلَـيَّ حَتَّـىٰ إِنَّـهُ	صَارَ ٱلْعِيَانُ مِنَ ٱلْيَقِيْنِ تَوَهُّمَا

عندما يرى الإنسان شيئاً يكذب عينيه والمتنبي أول من أوضح هذا المعنى

يقولُ : إِنَّ شأْنَ ٱلممدوحِ عظيمٌ ، لَم يستقلَّ علىٰ عقلهِ ثبوتُهُ ؛ لاستعظامهِ إِيَّاهُ ، فكَبُرَ عليهِ حتَّىٰ تشكَّكَ فيهِ مِنْ كِبَرِهِ معَ ٱلمشاهدةِ ، وهوَ معنىً شريفٌ ، يجدُهُ مِنْ نفسهِ كلُّ مَنْ فوجِىءَ بنعمةٍ عُظمىٰ ، أَو مصيبةٍ كُبرىٰ ، وينحلُّ بهِ إِشكالُ ما يوهِمُ تشكُّكَ ٱلنَّبيِّ ﷺ فيما فاجأَهُ مِنْ أَمرِ ٱلوحي لأَوَّلِ وهلةٍ ، كما قرَّرناهُ ، وأَكثرنا مِنْ مثلهِ في كتابنا « بلابلِ ٱلتغريدِ » ، وهوَ وإِنْ كانَ مغروزاً في ٱلنفوسِ ، متداولاً بينَ ٱلشُّعراءِ ، جارياً في ٱلخِطابِ ما بينَ ٱلطَّبقاتِ . . فللناظمِ علىٰ ٱلإِطلاقِ فضيلةُ ٱلتَّوضيحِ ؛ إِذ جلاَّهُ في أَجملِ صورةٍ ، وأَفرَغهُ في أَبدعِ قالَبٍ ، وأَكثرَ منهُ ، ولٰكنْ لا في مثلِ تنقيحهِ مِنْ هـٰذا ٱلبيتِ ، **فقالَ** [في « العُكبَريّ » ١/ ٣٦٦ مِنَ ٱلمتقاربِ] :

أَحُلْمـاً نَـرَىٰ أَمْ زَمَـانـاً جَـدِيْـدَا	أَمِ ٱلْخَلْقُ فِيْ شَخْصِ حَيٍّ أُعِيْدَا

وقالَ [في « العُكبَريّ » ٣/ ٣٤٩ مِنَ ٱلكاملِ] :

وَمِنَ ٱحْتِقَارِكَ كُلَّ مَا تَحْبُوْ بِهِ	فِيْمَـا أُلاَحِظُـهُ بِعَيْنَـيْ نَـائِـمِ[١]

(١) المعنىٰ : أَنتَ عظيمُ القدرِ ، تحتقرُ الأَشياءَ العظيمةَ ، فإِذا رأَيتُ كثرة مواهبك التي تحتقرُها . . ظننتُ أَنّي في نومٍ ؛ لأن العادة لَم تجرِ بذلك في اليقظةِ .

قول الشعراء في هذا المعنى

وقالَ أَبو نُوَاسٍ [في « ديوانهِ » ٤٩٢ مِنَ الطَّويلِ] :

أَلاَ لاَ أَرَىٰ مِثْلِيْ ٱمْتَرَىٰ ٱلْيَوْمَ فِيْ رَسْمِ ... تَغَصُّ بِهِ عَيْنِيْ وَيَلْفِظُهُ وَهْمِيْ[1]

وقالَ أَبو عُبادةَ [في « ديوانهِ » ١٥٣٠-١٥٣١ مِنَ الطَّويلِ] :

وَزَوْرٍ أَتَـانِـيْ طَـارِقـاً فَحَسِبْتُـهُ ... خَيَالاً أَتَىٰ مِنْ آخِرِ ٱللَّيْلِ يَطْرُقُ

أُقَسِّمُ فِيْهِ ٱلظَّنَّ طَوْراً مُكَذِّبَاً ... بِـهِ أَنَّـهُ حَـقٌّ وَطَـوْراً أُصَـدِّقُ

أَخَافُ وَأَرْجُوْ بُطْلَ ظَنِّيْ وَصِدْقَهُ ... فَلِلّٰهِ شَكِّيْ حِيْنَ أَرْجُوْ وَأَفْرَقُ[2]

وَقَدْ ضَمَّنَا وَشْكُ ٱلتَّلاَقِيْ وَلَفَّنَا ... عِنَـاقٌ عَلَـىٰ أَعْنَـاقِنَـا ثَـمَّ ضَيِّـقُ

فَلَمْ تَرَ إِلاَّ مُخْبِراً عَنْ صَبَابَةٍ ... بِشَكْـوَىٰ وَإِلاَّ عَبْـرَةً تَتَـرَقْـرَقُ

فَأَحْسِنْ بِنَا وَٱلدَّمْعُ بِٱلدَّمْعِ وَاشِجٌ ... تَمَـازُجُـهُ وَٱلْخَـدُّ بِـٱلْخَـدِّ مُلْصَـقُ

وقالَ [مِنَ ٱلمنسرحِ] :

فَرِحْتُ حَتَّىٰ ٱسْتَخَفَّنِيْ فَرَحِيْ ... فَشِبْتُ عَيْـنَ ٱلْيَقِيْـنِ بِـٱلْـوَهَـمِ

أَمْسَـحُ عَيْنِـيْ مُسْتَثْبِتـاً نَظَـرِيْ ... أَخَـالُنِـيْ حَـالِمـاً وَلَـمْ أَنَـمِ

وقالَ [في « ديوانهِ » ١٠٥٢ مِنَ الطَّويلِ] :

حَبِيْبٌ سَرَىٰ فِيْ خُفْيَةٍ وَعَلَىٰ ذُعْرِ ... يَجُوْبُ ٱلدُّجَىٰ حَتَّىٰ ٱلتَقَيْنَا عَلَىٰ قَدْرِ

تَشَكَّكْـتُ فِيْـهِ مِـنْ سُـرُوْرٍ وَخِلْتُـهُ ... خَيَالاً أَتَىٰ فِيْ ٱلنَّوْمِ مِنْ طَيْفِهِ يَسْرِيْ

وقالَ ٱلعلاَّمةُ ٱبنُ ٱلمقَّري [مِنَ ٱلكاملِ] :

أَعْطَـىٰ فَظَـنَّ ٱلْـوَافِـدُوْنَ بِـأَنَّهَـا ... رُؤْيَـا فَظَلُّـوْا يَمْسَحُـوْنَ ٱلأَعْيُنَـا

وَيَقُوْلُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : أَنْتُمُ ... يَقْظَـىٰ ، وَهَـٰذَا كُلُّـهُ هِبَـةٌ لَنَـا

---

(١) امترى : شكَّ .

(٢) أَفرقُ : أَجزعُ ويشتدُّ خوفي .

ويقربُ منهُ ـ وليسَ بهِ ـ قولُ أبي تمَّامٍ [مِنَ الطَّويلِ] :

تُجَاوِزُ غَايَاتِ ٱلْعُقُولِ رَغَائِبٌ　　تَكَادُ بِهَا لَوْلاَ ٱلْعِيَانُ تُصَدَّقُ

وقولُ ٱلبُحتريِّ [في « ديوانهِ » ٢/١٣١٦ مِنَ الكاملِ] :

وَحَدِيثُ مَجْدٍ عَنْكَ أَطْرَبَ حُسْنُهُ　　حَتَّىٰ ظَنَنَّا أَنَّهُ مَوْضُوعُ

وقولُ ٱلنَّاظمِ[١] [مِنَ الكاملِ] :

لَمَّا كَرُمْتَ أَتَيْتُ فِيكَ بِمَنْطِقٍ　　صِدْقٍ فَلَمْ أَكْذِبْ وَلَمْ أَتَحَوَّبِ
وَلَوِ ٱمْتَدَحْتُ سِوَاكَ كُنْتُ مَتَىٰ يَضِقْ　　عَنِّي لَهُ صِدْقُ ٱلْمَقَالَةِ أَكْذِبِ

وقولُهُ [في « العُكبَريِّ » ١/١٢٦ مِنَ الكاملِ] :

كَرَماً فَلَوْ حَدَّثْتَهُ عَنْ نَفْسِهِ　　بِعَظِيمِ مَا صَنَعَتْ لَظَنَّكَ كَاذِبَا

وقولُ البديعِ [الهمذاني في « ديوانهِ » ١٢٠ مِنَ الطَّويلِ] :

مَحَاسِنُ يُبْدِيهَا ٱلْعِيَانُ كَمَا تَرَىٰ　　وَإِنْ نَحْنُ حَدَّثْنَا بِهَا دَفَعَ ٱلْعَقْلُ

وهو مِنْ قصيدةٍ خالصةٍ يهيِّجُ أَشجاني منها قولُهُ عن أَبيهِ :

إِذَا وَرَدَ ٱلرُّكْبَانُ وَافَىٰ رِكَابَهُمْ　　بِفَوَّارَتَيْ دَمْعٍ هُمَا ٱلسَّجْلُ وَٱلنَّجْلُ[٢]
يُسَائِلُهُمْ أَيْنَ ٱبْنُهُ، أَيْنَ دَارُهُ،　　إِلاَمَ ٱنْتَهَىٰ، لِمْ لَمْ يَعُدْ، هَلْ لَهُ شُغْلُ؟!

الحديث عن كتاب الشكوك

وهوَ لاَ يشبهُ شيئاً مِنْ مذاهبِ اللاَّأَدريَّةِ[٣] ٱلمنادي بإِنكارِ حقائقِ ٱلأَشياءِ، ٱلذي وضعَ فيهِ صالحُ بنُ عبدِ ٱلقدوسِ كتابَ «ٱلشُّكوكِ»،

---

(١) بل هو من قول أبي تمام في « ديوانه » .
(٢) السَّجْلُ : الدَّلْوُ العظيمُ . النَّجْلُ : الماءُ السائِلُ .
(٣) وهم : طائفةٌ مِنَ الفلاسفةِ يتردَّدونَ بينَ إثباتِ حقائِقِ الأشياءِ وإنكارِها ، وهم : فريقٌ مِنَ السفسطائيِّينَ ، ولهُم اسمٌ آخرُ : (الشكَّاكونَ) .

ثُمَّ ماتَ عليهِ ولدٌ ، فحزنَ عليهِ حزناً شديداً ، وقالَ لأَبي ٱلهذيلِ ٱلعلاّفِ : إِنَّهُ لَمْ يشتدَّ وجدي عليهِ إلاَّ لأَنَّني أَقرأْتُهُ كتابَ « ٱلشُّكوكِ » فأَتقنهُ ، قالَ لهُ : وما كتابُ « ٱلشُّكوكِ » ؟ قالَ : مَنْ قرأَهُ . . يشكُّ في الموجودِ حتَّىٰ كأَنَّهُ معدومٌ ، وفي ٱلمعدومِ حتَّىٰ كأَنَّهُ موجودٌ ، قالَ لهُ : ٱلخطبُ هيِّنٌ إِذَنْ ، فشُكَّ في ولدِكَ أَنَّهُ لَم يمتْ ، فٱنقطعَ .

ما يجده المؤمن من الوسوسة في صدره ليس من هذا القبيل

وما يجدهُ أَهلُ ٱلإِيمانِ مِنْ ٱلوسوسةِ معَ ٱلتَّصميمِ وصحَّةِ عقودِ ٱلقلوبِ لونٌ آخرُ ـ أَيضاً ـ منهُ : ما جاءَ في « مصابيحِ ٱلبغويِّ » عَنْ جابرٍ قالَ : جاءَ ناسٌ مِنْ أَصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ إِلىٰ النبيِّ ، فسأَلوهُ : إِنَّا نَجدُ في أَنفسِنا ما يَتعاظَمُ أَحَدُنَا أَنْ يَتَكَلَّمَ بهِ ، قالَ : « أَوَ قَدْ وَجَدْتُمُوْهُ ؟ » ، قالُوا : نعمْ ، قالَ : « ذَاكَ صَرِيْحُ ٱلإِيْمَانِ »[1] .

إِذْ ٱلأَكثرُ علىٰ أَنَّ المدحَ إِنَّما جاءَ مِنْ جهةِ تعاظُمِهم لهُ ، لا مِنْ حيثُ وجودُهُ .

والله أعلمُ

* * *

(١) أخرجه عن جابر مسلم (١٨٨) في الإيمان ، وأبو داوود (٤٤٤٧) .

المجلس السادس

[قال أبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكْبَرِيِّ » ٤/ ٣٣ مِنَ الطَّويلِ] :

إِلَىٰ أَيِّ حِيْنٍ أَنْتَ فِيْ زِيِّ مُحْرِمِ؟	وَحَتَّىٰ مَتَىٰ فِيْ شِقْوَةٍ وَإِلَىٰ كَمِ ؟

يقولُ : إِلىٰ متىٰ وأَنتَ صِفرٌ مِنَ ٱلمالِ ، في زِيِّ ٱلمُحرِمِ ٱلمتجرِّدِ عَنِ اللِّباسِ ؟ وحتَّىٰ متىٰ هـٰذا الشَّقاءُ بٱلفقرِ ؟ وإِلىٰ أَيِّ أَمدٍ مِنَ الزَّمانِ ينجلي ٱلبؤسُ ويبتسمُ الدَّهرُ ٱلعبوسُ ؟ متى يبتسم الدهر؟

ويمكنُ أَنْ يكونَ ٱلمرادُ : إِلىٰ متىٰ وأَنتَ مثلُ ٱلمُحرِمِ لا تقتلُ ولا تصيدُ ؟

وهـٰذا أَحلىٰ موقعاً .

وكانَ ﷺ يستعيذُ مِنَ ٱلفقرِ ، ويقولُ : « **كَادَ ٱلْفَقْرُ أَنْ يَكُوْنَ كُفْراً** »(١) . الكفر قرين الفقر

---

(١) أخرجه عن أنس القضاعي في « مسند الشهاب » (١/ ٣٤٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٥٣ و١٠٩) ، والعقيلي في « الضعفاء » (٤/ ٢٠٦) ، وابن الجوزي في « العلل المتناهية » (٢/ ٣٢٠) ، وأورد العجلوني في «كشف الخفاء» (١٩١٩) ، وزاد في نسبته إلى أحمد بن منيع ، وابن السكن في =

استعاذته ﷺ من الدَّين والفقر

ومِنْ دعائِهِ بٱلليلِ ـ كما عندَ « مسلمٍ » [(٢٧١٣) في الذكر والدعاء] وغيرِهِ ـ : « ٱللَّهُمَّ رَبَّ ٱلسَّمَاوَاتِ وَ[ربَّ] ٱلأَرْضِ ، وَرَبَّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيْمِ ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ ، مُنَزِّلَ ٱلتَّوْرَاةِ وَٱلإِنْجِيْلِ وَٱلْقُرْآنِ ، فَالِقَ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ، أَعُوْذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ ذِيْ شَرٍّ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ ، أَنْتَ ٱلأَوَّلُ فَلَيْسَ أَحَدٌ قَبْلَكَ ، وَأَنْتَ ٱلآخِرُ فَلَيْسَ أَحَدٌ بَعْدَكَ ، وَأَنْتَ ٱلظَّاهِرُ فَلَيْسَ أَحَدٌ فَوْقَكَ ، وَأَنْتَ ٱلْبَاطِنُ فَلَيْسَ أَحَدٌ دُوْنَكَ ، ٱقْضِ عَنَّا ٱلدَّيْنَ ، وأَغْنِنَا مِنَ ٱلفَقْرِ »(١) .

أصول النعم

وقالوا : أُصولُ النِّعمِ أَربعةٌ : الإِيمانُ ، وٱلأَمانُ ، وٱلغنىٰ ، وٱلعافيةُ .

في أيدينا لا في قلوبنا

وقالَ سفيانُ : كانَ مِنْ دعائِهم : ٱللَّهمَّ زهِّدنا في الدُّنيا ، ووسِّعها علينا ، ولا تَذْدْها عنّا ، وتُرَغِّبْنا فيها .

ارحموا ثلاثة

ويُروىٰ عنهُ ﷺ : أَنَّهُ كانَ يقولُ : « ٱرْحَمُوْا ثَلاَثَةً : عَزِيْزَ قَوْمٍ ذَلَّ ، وَغَنِيَّ قَوْمٍ ٱفتَقَرَ ، وَعَالِماً بَيْنَ جُهَّالٍ »(٢) .

= « مصنفه » والبيهقي في « الشعب » وابن عدي في « الكامل » وقال : في سنده يزيد الرقاشي ضعيف .

(١) وأخرجه من حديث أبي هريرة أيضاً أبو داوود (٥٠٥١) ، والترمذي (٣٤٠٠) ، والنسائي في « عمل اليوم والليلة » (٧٩٠) ، وابن ماجه (٢٨٧٣) . وفي بعض رواياته : شيء بدل أحد ، وبدل عنّا : عني ، وبدل أغننا : أغنني .

(٢) أخرجه عن ابن مسعود القضاعي في « مسند الشهاب » (١/٤٢٧) بألفاظ متقاربة .

وقيلَ : جَهْدُ ٱلبلاءِ أَنْ تزولَ النِّعمةُ ، وتبقىٰ ٱلعالةُ ، ثُمَّ لا تَعْدَمُ صديقاً مُؤَنِّباً ، وعدوّاً شامتاً . جهد البلاء

وكانَ يُقالُ : ٱلفقرُ مَجْمَعُ ٱلعيوبِ . الفقر مجمع العيوب

قالَ حسَّانٌ [في « ديوانهِ » ٤٠ مِنَ ٱلخفيفِ] :

رُبَّ حِلْمٍ أَضَاعَهُ عَدَمُ ٱلْمَا لِ ، وَجَهْلٍ غَطَّىٰ عَلَيْهِ ٱلنَّعِيْمُ

وقالَ عروةُ [في « ديوانهِ » ٩١ مِنَ ٱلوافرِ] :

ذَرِيْنِيْ لِلْغِنَىٰ أَسْعَىٰ فَإِنِّيْ رَأَيْتُ ٱلنَّاسَ شَرُّهُمُ ٱلْفَقِيْرُ

وقالَ جريرٌ [في « ديوانهِ » ٢٦ مِنَ ٱلطَّويلِ] :

تَرَادَفَهُمْ فَقْرٌ قَدِيْمٌ وَذِلَّةٌ وَشَرُّ ٱلرَّدِيْفَاتِ ٱلْمَذَلَّةُ وَٱلْفَقْرُ

وما مِنْ خَصلةٍ تكونُ للغنيِّ مدحاً . . إلاَّ كانَتْ للفقيرِ ذمّاً ، فإِنْ كانَ حليماً . . قيلَ : بليدٌ ، أَو شجاعاً . . قيلَ : أَهوجُ ، أَو لَسِناً . . قيلَ : مِهْذَارٌ ، وما أَشبهَ ذلِكَ . الصفة الواحدة للغني مدح وللفقير ذم

وقيلَ لبعضِ أَهلِ ٱلحِجا : كَمْ لكَ مِنْ صديقٍ ؟ قالَ : لا أَدري ؛ لأَنَّ الدُّنيا مقبلةٌ ، وٱلأَموالَ عندي موجودةٌ ، وإِنَّما يُعرفُ ذلكَ لو وَلَّتْ . أَلَمْ تسمعْ قولَ طريحٍ ؟! [مِنَ ٱلكاملِ] : كم لك من الأصدقاء؟

وَٱلنَّاسُ أَعْدَاءٌ لِكُلِّ مُدَقَّعٍ صِفْرِ ٱلْيَدَيْنِ وَإِخْوَةٌ لِلْمُكْثِرِ

ولَمَّا ٱستوزرَ عليُّ بنُ عيسىٰ ، ورأَىٰ ٱجتماعَ النَّاسِ حولَهُ . . تمثَّلَ بقولِ أَبي ٱلعتاهيةِ [في « ديوانه » ٢٢ مِنَ ٱلبسيطِ] : الناس مع صاحب الدنيا

مَا ٱلنَّاسُ إِلاَّ مَعَ ٱلدُّنْيَا وَصَاحِبِهَا فَكَيْفَمَا ٱنْقَلَبَتْ يَوْماً بِهِ ٱنْقَلَبُوْا

يُعظِّمُوْنَ أَخَا ٱلدُّنْيَا فَإِنْ وَثَبَتْ يَوْماً عَلَيْهِ بِمَا لاَ يَشْتَهِيْ وَثَبُوْا

وقديماً قيلَ : إِذَا أَيسرْتَ . . فكلُّ رحلٍ رحلُكَ ، وَإِذَا أَعسرْتَ . . أنكركَ حتَّىٰ أَهلُكَ .

ما أكثر الإخوان حين تعدهم

وكانَ في ٱلجاهليَّةِ رجلٌ حسنُ ٱلحالِ ، يختلفُ إِليهِ إخوانُهُ وبنو عمِّهِ ، فيعطيهِم ، ويواسيهِم ، ثُمَّ ٱختلَّ أَمرُهُ ، فجفَوهُ ، فعادَ إِلىٰ منزلِهِ كئيباً ، فقالَتْ لَهُ ٱمرأَتُهُ : ما شأْنُكَ ؟ فقالَ : دعيني عنكِ ، وأَنشأ يقولُ [الأبيات في « ٱلمستطرفِ » ٢/٩٦ مِنَ الطَّويلِ] :

دَعِيْ عَنْكِ عَذْلِيْ مَا مِنَ ٱلْعَذْلِ أَعْجَبُ وَلاَ بُدَّ حَالٌ بَعْدَ حَالٍ تَقَلَّبُ
وَكَانَ بَنُوْ عَمِّيْ يَقُوْلُوْنَ : مَرْحَباً فَلَمَّا رَأَوْنِي مُقْتِراً مَاتَ مَرْحَبُ
كَأَنَّ مُقِلاً حِيْنَ يَغْدُوْ لِحَاجَةٍ إِلَىٰ كُلِّ مَنْ يَلْقَىٰ مِنَ ٱلنَّاسِ مُذْنِبُ

هيبة ذي المال

ومرَّ رجلٌ مِنَ ٱلأَغنياءِ برجلٍ مِنْ أَهلِ ٱلعلمِ ، فتحرَّكَ لهُ ، وأَكرمهُ ، فقيلَ لهُ : هَلْ كانَتْ لكَ إِليهِ حاجةٌ ؟ قالَ : لا ، ولٰكنَّ ذَا المالِ مَهِيْبٌ ، وقد قيلَ فيهِ [مِنَ الطَّويلِ] :

أَرَىٰ كُلَّ ذِيْ مَالٍ يُجَلُّ لِمَالِهِ وَمَنْ لَيْسَ ذَا مَالٍ يُهَانُ وَيُحْقَرُ
وَيَخْذُلُهُ ٱلإِخْوَانُ ، إِنْ زَارَهُمْ جَفَوْا وَلَمْ يَسْأَلُوْا إِنْ غَابَ بَلْ هُوَ يُهْجَرُ
سَأَقْنَعُ بِٱلْمَالِ ٱلْقَلِيْلِ تَكَرُّماً لأَغْنَىٰ بِهِ عَمَّا لَدَيْهِمْ وَأَصْبِرُ

خسة العالم الذي يتواضع لغني

وهٰذا ٱلعالِمُ لا شكَّ أَنَّهُ مِنْ صغارِ ٱلنُّفوسِ ، وزُمناءِ ٱلمروءَةِ[1] ، وضعفاءِ ٱلدِّينِ ، وإِلاَّ . . فقد كانَ ٱلأَغنياءُ يتمنَّوْنَ أَنْ لو كانوا فقراءَ

---

(١) زمناءُ المروءَةِ : أصابَ مروءَتَهمُ المرضُ .

في مجلسِ سفيانَ الثَّوريِّ ؛ لِمَا يرونَ مِنْ إيثارِهِ إيَّاهم ، وذلكَ هديُ رسولِ ٱللهِ ﷺ ، لا يُنزلُ النَّاسَ إلاَّ عندَ مواضعِهم في ٱلفضلِ وٱلدِّينِ ، وحديثُ عمرَ معَ صفوانَ بنِ أُميَّةَ وسهيلِ بنِ عمرٍو ، وتأخيرُهُ مجالسَهُم لرفعِ ٱلمهاجرينَ ٱلأَوَّلينَ عليهم . . معروفٌ .

الإمام يحب المساكين

وفي وصفِ ٱلإمامِ عليٍّ ـ كرَّمَ ٱللهُ وجههُ ـ أَنَّهُ يحبُّ ٱلمساكينَ ، ويُقدِّمُ أَهلَ ٱلدِّينِ .

إكرام العلماء عند أهل (اليمن)

وما زالَ ٱلحالُ في بلادِنا ـ حرسها ٱللهُ ـ علىٰ ما كانَ عليهِ ٱلسَّلفُ ٱلصَّالحُ مِنْ إيثارِ أَهلِ ٱلدِّينِ ، حَتَّىٰ لقد أَخبرني ٱلثِّقةُ عمَّنْ حضرَ ٱجتماعَ ٱلأعيانِ بمحضرِ ٱلإمامِ حسنِ بنِ صالحٍ ٱلبحرِ للمُشاورةِ في غرضٍ مِنَ ٱلأغراضِ : أَنَّ ٱلسَّيِّدَ ٱلجليلَ أَحمدَ ٱلجنيدَ ـ وكانَ بصيراً[1] ـ سبقَ إلىٰ مجلسٍ يقربُ مِنَ الصَّدرِ ، فأَقامَهُ الشَّهمُ ٱلهمامُ السَّيِّدُ حسينُ بنُ سهلٍ ، وقالَ لهُ : إنَّما الصَّدرُ للصدورِ مِنْ أَهلِ ٱلعلمِ ، وأَمَّا مجلسي وإيَّاكَ ومَنْ لفَّنا مِنْ أَهلِ الثَّروةِ فإنَّما يكونُ في ٱلأُخرياتِ ، نعمْ واللهِ ما زالَ عندنا ٱلأَمرُ كذلِكَ حَتَّىٰ هدمَ شرفَ ٱلدِّينِ بُناتُهُ ، وأَضاعَهُ حُماتُهُ ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلاَّ بٱللهِ .

الكلام في الغنى والفقر

وٱلكلامُ في ٱلغنىٰ وٱلفقرِ معروفٌ ، وٱلمفاضَلةُ بينَ ٱلفقيرِ ٱلصَّابرِ ، وٱلغنيِّ ٱلشَّاكرِ طويلةُ ٱلذَّيلِ ، وعامَّةُ ٱلصُّوفيَّةِ علىٰ تفضيلِ ٱلأَوَّلِ ، وآياتُ ٱلقرآنِ أَكثرُ دلالةً عليهِ ، ولو لم يكنْ مِنها إلاَّ قولُهُ تقدَّستْ أَسماؤُهُ : ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ

---

(١) قصد أنه أعمىٰ ، وهو من قبيل تسمية الشيء بضده تفاؤلاً .

بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣٣-٣٥].

وصف الإمام للنبي ﷺ

وممّا ينسبُ لأميرِ ٱلمؤمنينَ ـ كرَّمَ ٱللهُ وجهَهُ ـ في وصفهِ ﷺ قولهُ [في «نهج البلاغة» ١٨٧]: وقد زُويَتْ[١] عنهُ أطرافُها[٢] ـ ووُطِّئَتْ لغيرِهِ مِنَ ٱلجبابرةِ أكنافُها[٣] ـ فلينظرْ ناظرٌ بعقلِهِ، هل أكرمَ ٱللهُ محمَّداً بذلكَ أو أهانَهُ؟ فإنْ قالَ: أهانَهُ.. فقد جاءَ بٱلإفكِ ٱلعظيمِ، وإنْ قالَ: أكرمَهُ.. فليعلمْ أنَّ ٱللهَ أهانَ غيرَهُ ممَّنْ بسطَ ٱلدنيا لهُ.

تواضعه ﷺ

وقالَ ﷺ لعُمرَ حينَ لَمْ يملِكْ عينَهُ، وقد رأىٰ أثرَ ٱلحصيرِ في جَنبِهِ، ولَمْ يرَ ما يردُّ ٱلطَّرفَ في بيتهِ غيرَ القَرَظِ[٤] وٱلأُهُبِ، وذكرَ حالَ كسرىٰ وقيصرَ: «أَمَا تَرْضَىٰ أَنْ تَكُوْنَ لَهُمُ ٱلدُّنْيَا وَلَنَا ٱلآخِرَةُ؟!»[٥].

تفضيل أهل الحديث الغنى على الفقر

وقالَ أهلُ ٱلحديثِ: بتفضيلِ الثاني[٦]؛ لأنَّهُ الآخِرُ مِنْ أحوالِهِ ﷺ، ولِمَا سبقَ مِنِ ٱستعاذتِهِ مِنَ ٱلفقرِ، وقرنِهِ إيَّاهُ بالكفرِ، ولا يُشكِلُ هٰذا بموتِهِ ودرعُهُ مرهونةٌ؛ فإنَّ ٱلبلادَ قد ٱفتُتِحَتْ،

---

(١) زُويتْ: نُحِّيت، وبُوعِدَت.
(٢) شيءٌ طريفٌ: طيِّبٌ، والمعنىٰ: أنَّ اللهَ سبحانَهُ وتعالىٰ أبعدَ نبيَّهُ ﷺ عَن طيِّباتِ الدنيا؛ ليدَّخِرَها لهُ في الآخرةِ.
(٣) أكنافُها: نَواحيها وجوانِبُها.
(٤) القَرَظُ: ورق شجر يدبغ به الأُهُب وهي الجلود.
(٥) أخرجه عن ابن عبَّاسٍ رضي اللهُ عنهما البخاري (٤٩١٣) في التفسير، وأحمد في «مسنده» (٣/١٣٩).
(٦) أي: الغَنِيِّ.

وأغنى ٱلأرضِ ـ وهي (ٱليمنُ) ـ تجبىٰ إليهِ ، إلاَّ أنَّ دأبَهُ ٱلإيثارُ ، فلا بأسَ أن يحصلَ ذلكَ معَ ٱتِّصافهِ بالغنىٰ بلا تغايرٍ .

من خصائص النبي ﷺ

ومِنْ خصائصِهِ : أنَّهُ لا يبيتُ عندَهُ درهمٌ ، إلاَّ درهمٌ يرصدُهُ لِدَينٍ ، وفي « الصحيحِ » [البخاري ١٢٢١] : أنَّهُ ٱنصرفَ وقد أُقيمتِ ٱلصلاةُ ؛ لتذكُّرِهِ تِبْرَاً في بيتهِ ، ولم يعُد حتَّىٰ تبرَّأَ منهُ إلىٰ مَنْ يستحقُّهُ ، فهو ٱلأحقُّ بقولِ جوبةَ بنِ ٱلنضرِ [مِنَ ٱلبسيطِ] :

إنَّا إذَا ٱجْتَمَعْتَ يَوْماً دَرَاهِمُنَا ظَلَّتْ إِلَىٰ طُرُقِ ٱلْمَعْرُوْفِ تَسْتَبِقُ
لاَ يَأْلَفُ ٱلدِّرْهَمُ ٱلْمَضْرُوْبُ صُرَّتَنَا لَكِـنْ يَمُـرُّ عَلَيْهَـا وَهْـوَ مُنْطَلِـقُ

وإلاَّ . . فأيُّ غنيٍّ يقدرُ أنْ يقولَ مثلَهُ ؟ : « مَنْ مَاتَ وَتَرَكَ مَالاً . . فَلِوَرَثَتِهِ ، وَمَنْ مَاتَ وَتَرَكَ دَيْناً أَوْ ضَيَاعاً . . فَعَلَيْنَا »(١) .

أفضل الأحوال الكفاف

والكلامُ في ذلكَ يستدعي طولاً ، ومعَ ٱختلافِهِم فيما ذُكِرَ ، فقد ٱتَّفقوا علىٰ تفضيلِ ٱلكفافِ ، ولهـٰذا سألَهُ رسولُ ٱللهِ ﷺ لأهلِ بيتهِ ، فقالَ : « ٱللَّهُمَّ ٱجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوْتاً »(٢) .

استشكال حديث: «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً»

وفيهِ إشكالٌ ؛ لأنَّ ٱلمُشاهَدَ مِنْ آلِ ٱلبيتِ أنَّهُم كسائرِ ٱلنَّاسِ ، فيهمُ ٱلغنيُّ وٱلفقيرُ وٱلمسكينُ وٱلمتوسِّطُ ٱلحالِ ، حتَّىٰ لقد ذهبَ بها ٱلقطبُ ٱلحدَّادُ ـ معَ جلالةِ قدرِهِ ، وغزارةِ علمِهِ ، وبُعدِ نظرِهِ ـ عريضةً ، فتشكَّكَ في نسبِ مَنْ يُثري مِنْ أَهلِ ٱلبيتِ ، ويلزمُهُ نظيرُهُ

---

(١) أخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه مسلم (١٦١٩) في الفرائض بألفاظ متقاربة . الضياعُ : كلُّ من تلزمه نفقتهم ويضيعون بضياعه وفقده .

(٢) أخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه مسلم (١٧٤٧) في الزكاة .

فيمَن يُعْدِمُ ، وأحسنُ ٱلأجوبةِ أَنْ يُقالَ : إِنَّ ٱلمرادَ مِنْ أَهلِ ٱلبيتِ في ٱلحديثِ : إِنَّما همُ ٱلموجودونَ إِذْ ذاكَ ، لا سائرُهُم في كلِّ زمانٍ .

وإِلاَّ جاءَ ما قالهُ الحدَّادُ ، أَو تبيَّنَ عدمُ قَبولِ ٱلدُّعاءِ ، ويدخلُ في ٱلموضوعِ كلُّ ما جاءَ في ذمِّ الدُّنيا ومدحِها ، وفي ذلِكَ إِشكالٌ عظيمٌ، يأتي حَلُّهُ في ٱلمجلسِ الثَّالثَ عشرَ بِمَا يشفي ويكفي ، إِنْ شاءَ ٱللهُ تعالىٰ.

خير الغنى

وقالَ أَوسُ بنُ حارثةَ : خيرُ ٱلْغنىٰ ٱلقُنُوعُ ، وَشرُّ ٱلفقرِ ٱلخضُوعُ

الشعراء والغنى والفقر

وقالَ سالمُ بنُ وابصةَ [مِنَ الطَّويلِ] :

غِنَىٰ ٱلنَّفْسِ مَا يَكْفِيْكَ مِنْ سَدِّ حَاجَةٍ فَإِنْ زَادَ شَيْئاً عَادَ ذَاكَ ٱلْغِنَىٰ فَقْرَا

وقالَ ٱلأَضبطُ بنُ قُرَيْعٍ [مِنَ المنسرحِ] :

اِرْضَ مِنَ ٱلدَّهْرِ مَا أَتَاكَ بِهِ مَنْ قَرَّ عَيْناً بِعَيْشِهِ نَفَعَهْ

وقالَ ٱلجُرهميُّ [مِنَ ٱلبسيطِ] :

ٱلْعَيْشُ لاَ عَيْشَ إِلاَّ مَا قَنِعْتَ بِهِ قَدْ يَكْثُرُ ٱلْمَالُ وَٱلإِنْسَانُ مُفْتَقِرُ

وأَلَمَّ بهِ النَّاظمُ في قولِهِ [في « العُكبَريّ » ٢/ ١٥٠ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَنْ أَنْفَقَ ٱلسَّاعَاتِ فِيْ جَمْعِ مَالِهِ مَخَافَةَ فَقْرٍ فَٱلَّذِيْ فَعَلَ ٱلْفَقْرُ

وأَنشدَ ٱلأَصمعيُّ [مِنَ ٱلبسيطِ] :

فَٱلْهَمُّ فَضْلٌ وَطُوْلُ ٱلْعَيْشِ مُنْقَطِعُ وَٱلرِّزْقُ آتٍ وَفَضْلُ ٱللهِ مُنْتَظَرُ

ومِمَّا يُروىٰ للشافعيِّ [مِنَ ٱلبسيطِ] :

لَكِسْرَةٌ مِنْ جَرِيْشِ ٱلْخُبْزِ تُشْبِعُنِيْ وَنَهْلَةٌ مِنْ زُلاَلِ ٱلْمَاءِ تُرْوِيْنِيْ

وَقِطْعَةٌ مِنْ غَلِيظِ ٱلْقُطْنِ تَسْتُرُنِي ... حَيّاً وَإِنْ مِتُّ تَكْفِينِي لِتَكْفِينِي[1]

ويُروىٰ لهُ [مِنَ الخفيفِ] :

أَمْطِرِيْ لُؤْلُؤاً جِبَالَ سَرَنْدِيـ ... ـبَ وَفِيْضِيْ جِبَالَ تَكْرُوْرَ تِبْرَا

أَنَا إِنْ عِشْتُ لَسْتُ أَعْدَمُ قُوْتاً ... وَإِذَا مِتُّ لَسْتُ أَعْدَمُ قَبْرَا

وكانَ القاضي يحيىٰ بنُ أَكثمَ كثيراً ما ينشدُ [مِنَ البسيطِ] :

حَتَّىٰ مَتَىٰ أَنَا فِيْ حَطٍّ وتَرْحَالِ ... وَطُوْلِ سَعْيٍ وَإِدْبَارٍ وَإِقْبَالِ

وَلَوْ قَعَدْتُ أَتَانِيْ ٱلرِّزْقُ فِيْ دَعَةٍ ... إِنَّ ٱلْقُنُوْعَ ٱلْغِنَىٰ لاَ كَثْرَةُ ٱلْمَالِ

وكانَ بعضُ أَصحابهِ ينالُ مِنْ فضلِ معروفِهِ ، غيرَ أَنَّهُ يلقىٰ عَنَتاً في ٱلوصولِ إليهِ ، وذُلاً في ٱلوقوفِ ببابهِ ، فأَخذَهُ ٱلأَنَفُ مِنْ ذلكَ ، وٱنجمعَ في بيتِهِ ، فعاتبَتْهُ ٱمرأَتُهُ ، فقالَ [مِنَ الطّويلِ] :

تُكَلِّفُنِـيْ إِذْلاَلَ نَفْسِـيْ لِعِـزِّهَـا ... وَهَانَ عَلَيْهَا أَنْ أُهَانَ لِتُكْرَمَا

تَقُوْلُ: سَلِ ٱلْمَعْرُوْفَ يَحْيَىٰ بْنَ أَكْثَمٍ ... فَقُلْتُ : سَلِيْهِ رَبَّ يَحْيَىٰ بْنِ أَكْثَمَا

وقالَ بعضُهُم [مِنَ السَّريعِ] :

مَـنْ كَـانَ ذَا مَـالٍ كَثِيْـرٍ وَلَـمْ ... يَقْنَـعْ فَـذَاكَ ٱلْمُـوْسِرُ ٱلْمُعْسِرُ

ٱلْفَقْرُ فِيْ ٱلنَّفْسِ وَفِيْهَا ٱلْغِنَىٰ ... وَفِيْ غِنَىٰ ٱلنَّفْسِ ٱلْغِنَىٰ ٱلأَكْبَرُ

القناعة هي الحياة الطيبة

ويُروىٰ عَنِ ٱلحسنِ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل : ٩٧] : إِنَّها ٱلقناعةُ .

---

(١) أي : للوقتِ الذي أَلبَسُ فيهِ الكَفَنَ .

كيف تصبح ملكاً؟

وقيلَ لمحمَّدِ بنِ واسعٍ : أَوصني ، فقالَ : كُنْ ملكاً في ٱلدُّنيا وفي ٱلآخرةِ ، فقيلَ لهُ : وكيفَ ؟ قالَ : ٱزهدْ في ٱلدُّنيا ، وٱقنعْ .

أخذَ بعضَهُ ٱلطُّغرائيُّ فقالَ [مِنَ ٱلبسيطِ] :

مُلْكُ ٱلْقَنَاعَةِ لاَ يُخْشَىٰ عَلَيْهِ وَلاَ ... يُحْتَاجُ فِيْهِ إِلَىٰ الأَنْصَارِ وَٱلْخَوَلِ

القليل الكافي خير من الكثير الملهي

وصحَّ مِنْ حديثِ أَبي ٱلدَّرداءِ مرفوعاً : « مَا طَلَعَتْ شَمْسٌ إِلاَّ بُعِثَ بِجَنْبَتَيْهَا مَلَكَانِ يُنَادِيَانِ : يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ، هَلُمُّوْا إِلَىٰ رَبِّكُمْ ، فَإِنَّ مَا قَلَّ وَكَفَىٰ ، خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ وَأَلْهَىٰ »[1] .

الغنى غنى القلب

وصحَّ مِنْ حديثِ أَبي ذَرٍّ يرفعهُ : « إِنَّمَا ٱلْغِنَىٰ غِنَىٰ ٱلْقَلْبِ ، وَٱلْفقْرُ فقْرُ ٱلْقَلْبِ »[2] .

عودة إلى الشعراء

وقالَ أَبو فراسٍ ٱلحمدانيُّ [في « ديوانهِ » ٢٤٨ مِنَ ٱلهزَجِ] :

غِنَىٰ ٱلنَّفْسِ لِمَنْ يَعْقِـ ... ـلُ خَيْرٌ مِنْ غِنَىٰ ٱلْمَالِ
وَفَضْلُ ٱلنَّاسِ فِيْ ٱلأَنْفُـ ... ـسِ لَيْسَ ٱلْفَضْلُ فِيْ ٱلْمَالِ

---

(١) أخرجه عن أبي الدرداء أحمد في « مسنده » (٥/ ١٩٧) ، والحاكم في « المستدرك » (٣٦٦٢) .

وتمام الحديث : « ولا آبت شمس قط إلا بعث بجنبتيها ملكان يناديان ، يسمعان أهل الأرض إلا الثقلين : اللهم .. أعط منفقاً خلفاً ، وأعط ممسكاً مالاً تلفاً » .

(٢) أخرجه عن أبي ذر الحاكم في « المستدرك » (٤/ ٣٦٣) ، وابن حبان في « الإحسان » مطولاً (٦٨٥) بإسناد صحيح .

وقالَ نابغةُ ذبيانَ [في « ديوانهِ » ٢٣٢ مِنَ الوافرِ] :

وَلَسْتُ بِخَابِىءٍ لِغَدٍ طَعَاماً　　حَذَارَ غَدٍ لِكُلِّ غَدٍ طَعَامُ

وقالَ قيسُ بنُ ٱلْخَطيمِ [في « ديوانهِ » ١٠١ مِنَ الوافرِ] :

غَنَاءُ ٱلنَّفْسِ مَا عَمِرَتْ غَنَاءُ　　وَفَقْرُ ٱلنَّفْسِ مَا عَمِرَتْ شَقَاءُ

وجهة نظر الخليل الفراهيدي إلى الغنى والفقر

وقالَ ٱلنَّضرُ بنُ شميلٍ : أَقامَ ٱلخليلُ في خُصٍّ مِنْ أَخصاصِ (ٱلبصرةِ) ، لا يقدرُ علىٰ فَلْسٍ ، وأَصحابُهُ يكسبونَ بعلمِهِ ٱلأَموالَ ، ولقد سمعتُهُ يقولُ : إِنِّي لأُغلقُ عليَّ بابي ، فما يجاوزُهُ همِّيْ ، وكتبَ إِليهِ سليمانُ بنُ حبيبِ بنِ ٱلمهلَّبِ ، وهو والي (ٱلأَهوازِ) و(فارسَ) ، يستدعيهِ ، فكتبَ ٱلخليلُ في جوابِهِ [مِنَ البسيطِ] :

أَبْلِغْ سُلَيْمَانَ أَنِّيْ عَنْهُ فِيْ سَعَةٍ　　وَفِيْ غِنىً غَيْرَ أَنِّيْ لَسْتُ ذَا مَالِ
شُحّاً بِنَفْسِيَ أَنِّيْ لاَ أَرَىٰ أَحَداً　　يَمُوْتُ هُزْلاً وَلاَ يَبْقَىٰ عَلَىٰ حَالِ
وَٱلرِّزْقُ عَنْ قَدَرٍ لاَ ٱلضَّعْفُ يُنْقِصُهُ　　وَلاَ يَزِيْدُكَ فِيْهِ حَوْلُ مُحْتَالِ
وَٱلْفَقْرُ فِيْ ٱلنَّفْسِ لاَ فِيْ ٱلْمَالِ تَعْرِفُهُ　　وَمِثْلُ ذَاكَ ٱلْغِنَىٰ فِيْ ٱلنَّفْسِ لاَ ٱلْمَالِ

خير الرزق ما كان مياومة

وَأَغارَ ٱلبُحتريُّ علىٰ بيتِ النابغةِ السَّابقِ فقالَ [مِنَ الوافرِ] :

إِذَا مَا كَانَ عِنْدِيْ قُوْتُ يَوْمٍ　　طَرَحْتُ ٱلْهَمَّ عَنِّيْ يَا سَعِيْدُ
وَلَمْ تَخْطُرْ هُمُوْمُ غَدٍ بِبَالِيْ　　لأَنَّ غَداً لَهُ رِزْقٌ جَدِيْدُ

وقالَ آخرُ [مِنَ البسيطِ] :

مَنْ كَانَ لَمْ يُعْطَ عِلْماً فِيْ بَقَاءِ غَدٍ　　مَاذَا تَفَكُّرُهُ فِيْ رِزْقِ بَعْدَ غَدِ

وقالَ غيرُهُ [مِنَ ٱلبسيطِ] :

لَأَصْبِرَنَّ عَلَىٰ عُسْرِيْ وَمَيْسَرَتِيْ يَوْماً بِيَوْمٍ كَمَا تَجْبِيْ ٱلْعَصَافِيرُ[1]

الطمع هو الفقر والقناعة هي الغنى

وصحَّ أَنَّهُ عليهِ ٱلسَّلامُ قالَ : « عَلَيْكَ بِٱلإِيَاسِ مِمَّا فِيْ أَيْدِيْ ٱلنَّاسِ ، وإِيَّاكَ وَٱلطَّمَعَ ؛ فَإِنَّهُ ٱلْفَقْرُ ٱلْحَاضِرُ ، وَصَلِّ صَلاَتَكَ وَأَنْتَ مُوَدِّعٌ ، وَإِيَّاكَ وَمَا تَعْتَذِرُ مِنْهُ »[2] .

وقالَ أَبو العتاهيةِ [في « ديوانهِ » ١٤١ مِنَ ٱلوافرِ] :

أَطَعْتُ مَطَامِعِيْ فَٱسْتَعْبَدَتْنِيْ وَلَوْ أَنِّيْ قَنِعْتُ لَكُنْتُ حُرَّا

وقد سبقَ في غيرِ هـٰذا ٱلمجلسِ تعريضُ أَبي فراسٍ بالنَّاظمِ في قولِهِ [مِنَ ٱلبسيطِ] :

لَيْسَ ٱلتَّعَلُّلُ بِٱلآمَالِ مِنْ أَرَبِيْ وَلاَ ٱلْقَنَاعَةُ بِٱلإِقْلاَلِ مِنْ شِيَمِيْ

وقالَ ٱلمعريُّ [في « ديوانهِ » ١٢٣ مِنَ ٱلوافرِ] :

أَٱلْخُمُلُ وَٱلنَّبَاهَةُ فِيَّ لَفْظٌ وَأَقْتُرُ وَٱلْقَنَاعَةُ لِيْ عَتَادُ

وقالَ [في « ديوانهِ » ٢٢٥ مِنَ ٱلطَّويلِ] :

وَإِنِّيْ لَمُثْرٍ يَا ٱبْنَ آخِرِ لَيْلَةٍ وَإِنْ قَلَّ مَالٌ فَٱلْقُنُوعُ ثَرَاءُ[3]

---

(١) لما أخرجه عن الخليفة الراشدي عمرَ رضي الله عنه ابنُ حبان في « الإحسان » (٧٣٠) بإسناد جيد وغيره ، قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لو أنكم توكَّلون على اللهِ حقَّ توكُّلِهِ ؛ لرزقَكُم كما يَرزُقُ الطيرَ تغدو خماصاً وتروح بطاناً » . خماصاً : جياعاً . وتروح بطاناً : ترجع شباعاً ممتلئة البطون .

(٢) أخرجه عن سعد ابن أبي وقاص مالكٌ رضي الله عنه الحاكم في « المستدرك » (٤/ ٣٦٢) ، وفي الباب :

عن جابر رضي الله عنه رواه بنحوه الطبراني في « الأوسط » (٧/ ٣٧٠) .

(٣) ابنُ آخرِ ليلةٍ : هوَ الذي حملَت بهِ أمُّه في آخرِ ليلةٍ مِن طُهرِها ، وفي اعتقادِ =

وقالَ [في «ديوانهِ» ١٩٠ مِنَ الطَّويلِ] :

وَإِنَّ ٱلْغِنَىٰ وَٱلْفَقْرَ فِيْ مَذْهَبِ ٱلنُّهَىٰ   لَسِيَّانِ بَلْ أَعْفَىٰ مِنَ ٱلثَّرْوَةِ ٱلْعُدْمُ
فَمَا نِلْتُ مَالاً قَطُّ إِلاَّ وَمَالَ بِيْ   وَلاَ دِرْهَماً إِلاَّ وَدَرَّ بِيَ ٱلْهَمُّ

وقالَ [في «ديوانهِ» ٢١١ مِنَ ٱلبسيطِ] :

وَٱلْمَوْتُ أَحْسَنُ بِٱلنَّفْسِ ٱلَّتِيْ أَلِفَتْ   عِزَّ ٱلْقَنَاعَةِ مِنْ أَنْ تَسْأَلَ ٱلْقُوْتَا

وقالَ [في «ديوانهِ» ٢٥٢ مِنَ ٱلوافرِ] :

وَمَا يَنْفَكُّ ذُو مَالٍ عَتِيْدٍ   فَتىً جَعَلَ ٱلْقُنُوعَ لَهُ عَتَادَا

وقالَ [في «ديوانهِ» ٢٦٩ مِنَ الطَّويلِ] :

سَيَطْلُبُنِيْ رِزْقِيْ ٱلَّذِيْ لَوْ طَلَبْتُهُ   لَمَا زَادَ وَٱلدُّنْيَا حُظُوْظٌ وَإِقْبَالُ

وهو مِنْ قولِ عروةَ بنِ أُذَيْنَةَ [مِنَ ٱلبسيطِ] :

لَقَدْ عَلِمْتُ وَمَا الإِسْرَافُ مِنْ خُلُقِيْ

وقالَ ٱلمعريُّ أيضاً [مِنَ الطَّويلِ] :

وهَلْ يَدْخَرُ ٱلضِّرْغَامُ قُوْتاً لِيَوْمِهِ   إِذَا ٱدَّخَرَ ٱلنَّمْلُ ٱلطَّعَامَ لِعَامِهِ

وفي هـٰذا يطولُ ٱلكلامُ، وقد وفَّيْناهُ حقَّهُ مِنَ التَّفصيلِ في كتابِنا «بلابل التغريدِ».

علم ابن ميادة أن عنده ناقة حلوباً فاستغنى عن الملوك

وأزمعَ ٱبنُ ميَّادةَ ٱلوفادةَ علىٰ ٱلمنصورِ ؛ ليمدحَهُ بقصيدتِهِ ٱلتي يقولُ فيها [في «شعرهِ» ١٠ مِنَ ٱلكاملِ] :

قَوْمٌ إِذَا جُلِبَ ٱلثَّنَاءُ إِلَيْهِمُ   بِيْعَ ٱلثَّنَاءُ هُنَاكَ بِٱلأَرْبَاحِ

= العربِ أنَّ الولدَ الذي حُملَ بهِ علىٰ هـٰذا النَّحوِ ولدٌ ذميمٌ .

فأَراحَ عليهِ خادمُهُ بلَبَنِ لَقْحَةٍ له(١) ، فشربَ حتَّىٰ رُئِيَ الرِّيُّ يخرجُ مِنْ أَظفارِهِ ، وصارَتْ بطنُهُ مثلَ ٱلقدحِ ، فقالَ : أَيوجدُ معنا هـٰذا كلَّ يومٍ ؟ قالَ لَهُ : نعمْ ، فثنَىٰ عزمَهُ ، وحلَّ رحلَهُ .

البخيل يبخل بالمال فابخل بماء وجهك

ويعجبني قولُ مهيارٍ [في « ديوانهِ » ٣/١٣٨ مِنَ ٱلكاملِ] :

يُلْحِيْ عَلَىٰ ٱلْبُخْلِ ٱلشَّحِيْحُ بِمَالِهِ ... أَفَلاَ تَكُوْنُ بِمَاءِ وَجْهِكَ أَبْخَلاَ ؟!
أَكْرِمْ يَدَيْكَ عَنِ ٱلسُّؤَالِ فَإِنَّمَا ... قَدْرُ ٱلْحَيَاةِ أَقَلُّ مِنْ أَنْ تُسْأَلاَ
وَلَقَدْ أَضُمُّ إِلَيَّ فَضْلَ قَنَاعَتِيْ ... وَأَبِيْتُ مُشْتَمِلاً بِهَا مُتَزَمِّلاَ
وَأَرِيْ ٱلْعَدُوَّ عَلَىٰ ٱلْخَصَاصَةِ حَالَةً ... تَصِفُ ٱلْغِنَىٰ فَيَخَالُنِيْ مُتَمَوِّلاَ
وَإِذَا ٱمْرُؤٌ أَفْنَىٰ ٱللَّيَالِيَ حَسْرَةً ... وَأَمَانِياً . . أَفْنَيْتُهُنَّ تَوَكُّلاَ

الإخلاص في التوكل

غيرَ أَنَّ ٱلقولَ ٱلجامعَ قولُهُ ﷺ : « لَوْ تَوكَّلْتُمْ عَلَىٰ ٱللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ . . لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ ٱلطَّيْرَ ، تَغْدُوْ خِمَاصاً(٢) وَتَرُوْحُ بِطَاناً »(٣) ، فَلَمْ يُثْنِ علىٰ ٱلقعودِ ولزومِ ٱلبيوتِ ، وإِنَّما أَشارَ بٱلعملِ ، ونهىٰ عَنِ ٱلالْتِفاتِ إِليهِ ، وحثَّ علىٰ ٱلأَسبابِ ، وأَمرَ بٱلاعتمادِ علىٰ مسبِّبِها .

صدق رسول الله ﷺ إن من الشعر لحكمة

ويعجبُني ما ذكرَ ٱبنُ ٱلسُّبكيِّ [في « طبقاته » ٤/ ٢٣١] عَنِ ٱلإِصطَخريِّ : أَنَّ أَبا إِسحاقَ ٱلشِّيرازيَّ أَنشدَهُ ، ولـم يُسمِّ قائلاً ، وهو [مِنَ ٱلطَّويلِ] :

صَبَرْتُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلأَذَىٰ خَوْفَ كُلِّهِ ... وَأَلْزَمْتُ نَفْسِيْ صَبْرَهَا فَٱسْتَقَرَّتِ

---

(١) اللقحةُ : الناقةُ الحلوبُ الغزيرةُ اللبنِ .
(٢) تغدو خِماصاً : تخرجُ في الصباح ضامرةَ البطونِ .
(٣) أخرجه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه الحاكم في « المستدرك » (٤/ ٣٥٤) ، وسلف في التعليق .

وَجَرَّعْتُهَا ٱلْمَكْرُوهَ حَتَّىٰ تَدَرَّبَتْ ... وَلَوْ حُمِّلَتْهُ جُمْلَةً لاشْمَأَزَّتِ
فَيَا رُبَّ عِزٍّ جَرَّ لِلنَّفْسِ ذِلَّةً ... وَيَا رُبَّ نَفْسٍ بِٱلتَّذَلُّلِ عَزَّتِ
وَمَا ٱلْعِزُّ إِلاَّ خِيفَةَ ٱللهِ وَحْدَهُ ... فَمَنْ خَافَ مِنْهُ خَافَهُ مَا أَقَلَّتِ
سَأَصْدُقُ نَفْسِيْ إِنَّ فِيْ ٱلصِّدْقِ حِكْمَةً ... وَأَرْضَىٰ بِدُنْيَايَ وَإِنْ هِيَ قَلَّتِ
وَأَهْجُرُ أَبْوَابَ ٱلْمُلُوكِ فَإِنَّنِيْ ... أَرَىٰ ٱلْحِرْصَ جَلاَّباً لِكُلِّ مَذَلَّةِ
إِذَا مَا مَدَدْتُ ٱلْكَفَّ أَلْتَمِسُ ٱلْغِنَىٰ ... إِلَىٰ غَيْرِ مَنْ قَالَ ٱسْأَلُوْنِيْ فَشَلَّتِ
إِذَا طَرَقَتْنِيْ ٱلنَّائِبَاتُ بِنَكْبَةٍ ... تَذَكَّرْتُ مَا عُوْفِيْتُ مِنْهُ فَقَلَّتِ
وَمَا نَكْبَةٌ إِلاَّ وَللهِ مِنَّةٌ ... إِذَا قَابَلَتْهَا أَدْبَرَتْ وَٱضْمَحَلَّتِ
تَبَارَكَ رَزَّاقُ ٱلْبَرِيَّةِ كُلِّهَا ... عَلَىٰ مَا أَرَادَ لاَ عَلَىٰ مَا ٱسْتَحَقَّتِ
فَكَمْ عَاقِلٍ لاَ يَسْتَبِيْتُ وَجَاهِلٍ ... تَرَقَّتْ بِهِ أَحْوَالُهُ وَتَعَلَّتِ[1]
وَكَمْ مِنْ جَلِيْلٍ لاَ يُرَامُ حِجَابُهُ ... بِدَارِ غُرُوْرٍ أَدْبَرَتْ وَتَوَلَّتِ
تَشُوْبُ ٱلْقَذَىٰ بِٱلصَّفْوِ وَٱلصَّفْوَ بِٱلْقَذَىٰ ... وَلَوْ أَحْسَنَتْ فِيْ كُلِّ مَالٍ لَمُلَّتِ

* * *

---

(١) لا يستبيتُ : أي ليس له بِيْتُ ليلة ، والبِيتُ : القوتُ .

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبي في « العُكْبَرِيِّ » ٤/ ٣٤ مِنَ الطَّويلِ] :

وَإِلاَّ تَمُتْ تَحْتَ ٱلسُّيُوفِ مُكَرَّماً ... تَمُتْ وَتُقَاسِيْ ٱلذُّلَّ غَيْرَ مُكَرَّمِ

حث المتنبي على الإقدام

يحثُّ علىٰ ٱلإقدامِ ؛ لطلبِ ٱلعزِّ ، ويقولُ : إِنَّ ٱلموتَ لا بدَّ منهُ ، فإِمَّا : تحتَ بارقةِ ٱلسُّيوفِ علىٰ ٱلشَّرفِ ، وإِمَّا : حتفَ ٱلأَنفِ علىٰ ٱلذُّلِ وٱلمهانةِ .

الشعراء تشجع الجبان وتحث على الإقدام

وما زالتِ ٱلشُّعراءُ تشجِّعُ ٱلجبانَ بمثلِ هـٰذا ، وأَحسنُ ٱلخَلْقِ قولاً فيهِ ٱلخوارجُ .

قالَ قَطَرِيُّ بنُ ٱلفجاءَةِ [كما في « حياتِهِ وشعرِهِ » ٦٨ مِنَ ٱلوافرِ] :

أَقُوْلُ لَهَا وَقَدْ طَارَتْ شُعَاعاً ... مِنَ ٱلأَبْطَالِ وَيْحَكِ لاَ تُرَاعِيْ[1]
فَـإِنَّـكِ لَـوْ سَـأَلْـتِ بَقَـاءَ يَـوْمٍ ... عَلَىٰ ٱلأَجَلِ ٱلَّذِيْ لَكِ لَمْ تُطَاعِيْ
فَصَبْراً فِيْ مَجَالِ ٱلْمَوْتِ صَبْراً ... فَمَـا نَيْـلُ ٱلْخُلُـوْدِ بِمُسْتَطَـاعِ
سَبِيْلُ ٱلْمَوْتِ غَايَـةُ كُـلِّ حَـيٍّ ... وَدَاعِيْـــهِ لأَهْـــلِ ٱلأَرْضِ دَاعِ
وَمَـا لِلْمَـرْءِ خَيْـرٌ فِـيْ حَيَـاةٍ ... إِذَا مَـا عُـدَّ مِـنْ سَقَـطِ ٱلْمَتَـاعِ

وقالَ [في « ديوانِهِ » ٦٩ـ٧٠ مِنَ ٱلكاملِ] :

لاَ يَـرْكَنَـنْ أَحَـدٌ إِلَـىٰ ٱلإِحْجَـامِ ... يَوْمَ ٱلْوَغَىٰ مُتَخَوِّفاً لِحِمَامِ[2]

---

(١) طارَتْ شُعاعاً : تفرَّقَت وٱنتشَرت مِن الخوفِ .
(٢) يَركَنْ : يميلُ . الإِحجامُ : النكوصُ والرجوعُ .

فَلَقَـدْ أُرَانِـيَ لِلـرِّمَـاحِ دَرِيَّـةً ... مِنْ عَنْ يَمِينِي مَرَّةً وَأَمَامِي[1]
حَتَّىٰ خَضَبْتُ بِمَا تَحَدَّرَ مِنْ دَمِي ... سَرْجِي وَسَائِرَ شِكَّتِي وَلِجَامِي[2]
وَرَجَعْتُ مَوْفُورَ ٱلْكَرَامَةِ فَائِزاً ... جَذَعَ ٱلْبَصِيرَةِ قَارِحَ ٱلأَقْدَامِ[3]

لي عندك يد يا أمير المؤمنين

وقدمَ أحدُ ٱلعربِ علىٰ معاويةَ في يومِ حفلِهِ ، فقالَ : لي عندكَ يدٌ يا أَميرَ ٱلمؤمنينَ ، قالَ : وما هي ، قالَ : أَمَا تذكر بـ(صفِّينَ) يومَ ٱنتفخ سحْرُكَ[4] ، وٱحولَّتْ عيناكَ ، ووضعْتَ رجلَكَ في الرِّكابِ ؛ لتفرَّ ، وقد لاحَ الظَّفَرُ لأهلِ (ٱلعراقِ) ، فأَخذْتُ بيدِكَ ، وقلْتُ لكَ : إِنَّ ٱلعربَ أَعطتْكَ قيادَها ، وقلَّدتْكَ أزمَّتَها ، وأَعطتْكَ مِنْ أَنفُسِها شهرينِ ، فأَعطِها مِنْ نفسِكَ ساعةً ، ووٱللهِ لو كانَتْ هندُ بنتُ عتبةَ مكانَكَ . . ما فرَّتْ ، ولاختارَتْ أَنْ تموتَ كريمةً ، فقلْتَ لِيْ : ٱخفضْ صوتَكَ لاَ أُمَّ لكَ ، فتماسكْتَ ، وتراجعَتْ إِليكَ نفسُكَ ، وتمثَّلْتَ بشعرٍ أَحفظُ منهُ [مِنَ ٱلوافرِ] :

وَقَوْلِي كُلَّمَا جَأَشَتْ وَجَاشَتْ ... مَكَانَكِ تُحْمَدِي أَوْ تَسْتَرِيحِي[5]

فقالَ معاويةُ : صدقْتَ ، ولوَدِدْتُ أَنَّكَ ٱلآنَ خفضْتَ مِنْ صوتِكَ ، يا غلامُ ، أَعطِهِ خمسينَ أَلفَ درهمٍ ، ولو كنْتَ أَحسنْتَ ٱلأَدبَ . . لَكُنَّا أَحسنَّا في الزِّيادةِ . وٱلروايةُ بالمعنىٰ ، واللَّفظُ يزيدُ وينقصُ[6] .

---

(١) الدَّرِيَّةُ : العلامةُ التي توضعُ للرماةِ ؛ ليتدربوا على الرمايةِ ، وتسمّى أيضاً : دريئةً .
(٢) شِكَّتِي : سلاحي . في الديوان : أَكْتَافَ سَرْجِيْ أَوْعَنَانَ لِجَامِيْ .
(٣) الجَذَعُ : القويُّ ٱلفتيُّ . قارحُ الأَقدامِ : مجروحها .
(٤) انتفخَ سَحْرُكَ : تعبير استخدمته العربُ لمن ملأ الخوف جوفه .
(٥) جَأَشَتْ نفسهُ : ارتفعتْ من حزنٍ أو فزعٍ . جَاشتْ نفسهُ : هَمَّتْ بالفرارِ .
(٦) في الطريقةِ التي روىٰ بها المؤلِّفُ رحمهُ اللهُ القصةَ غضٌّ مِن مقامِ سيِّدِنا معاويةَ =

ثلاثة من الفرسان جزعوا ثم صبروا

وقالَ عبدُ الملكِ بنُ مروانَ : جزِعَ ثلاثةٌ مِنْ فرسانِ ٱلعربِ ثُمَّ صبرُوا ، وهم :

عمرُو بنُ معدِيكَرِبَ في قولِهِ [مِنَ الطَّويلِ] :

فَجَاشَتْ إِلَيَّ ٱلنَّفْسُ أَوَّلَ مَرَّةٍ   فَرُدَّتْ عَلَىٰ مَكْرُوْهِهَا فَٱسْتَقَرَّتِ

وَٱبنُ الأَطنابةِ في قولِهِ [مِنَ ٱلوافرِ] :

وَقَوْلِي كُلَّمَا جَاشَتْ . . . . [البيت السابق] .

وعنترُ في قولِهِ [في « ديوانه » ٢٩ مِنَ ٱلكاملِ] :

إِذْ يَتَّقُوْنَ بِيَ ٱلأَسِنَّةَ لَمْ أَخِمْ   عَنْهَا وَلَـٰكِنِّي تَضَايَقَ مُقْدِمِي[1]

= رضيَ اللهُ عنهُ وعَن كافَّةِ الصحابةِ أجمعينَ .

بلِ القصَّةُ كما جاءتْ في « المزهر » (٢/ ٢٦٦) ، و« المستظرف » (١/ ١٣٩) من كتبِ الأدبِ علىٰ النحو التالي :

قالَ ثعلبٌ في « أماليهِ » : أخبرَنا عبدُ ٱللهِ بنُ شبيبٍ قالَ : حدثني ثابتُ بنُ عبدِ الرحمنِ قالَ : كتبَ معاويةُ ٱبنُ أبي سفيانَ إلىٰ زيادٍ : إذَا جاءَكَ كتابي . . فأوفدْ إليَّ ٱبنكَ عبيدَ اللهِ ، فأوفدهُ عليهِ ، فَما سألَهُ عَن شيءٍ إلاَّ أنفذَهُ لهُ ، حتىٰ سألَهُ عنِ الشعرِ فلَم يعرفْ منهُ شيئاً ، قالَ : فما منعكَ مِن روايتهِ ؟ قالَ : كرهتُ أَن أجمعَ كَلامَ اللهِ وكلامَ الشيطانِ في صدري ، فكتبَ إلىٰ أبيهِ : باركَ اللهُ لكَ في ٱبنكَ ، فأَروِهِ الشعرَ فقدْ وجدتُهُ كاملاً ، وإنِّي سمعتُ عمرَ بنَ الخطَّابِ رضيَ اللهُ عنهُ يقولُ : أرووا الشعرَ ؛ فإنَّهُ يدلُّ علىٰ محاسنِ الأخلاقِ ، ويقي مساويها ، وتعلَّموا الأنسابَ ، فربَّ رحمٍ مجهولةٍ قد وصفتْ بعريانِ النسبِ ، وتعلَّموا مِنَ النجومِ ما يدلُّكُم علىٰ سُبُلِكُمْ فِي البرِّ والبحرِ .

ولقدْ هممتُ بالهربِ يومَ صفِّينَ فما ثبَّتني إلاَّ قولُ ٱبنِ الأطنابةِ :

وَقَوْلِيْ كُلَّمَا جَأَشَتْ وَجَاشَتْ   مَكَانَكِ تُحْمَدِيْ أَوْ تَسْتَرِيْحِيْ

(١) الخَيْمُ : الجبنُ .

وأمّا ثلاثةٌ . . فلَمْ يجزعُوا أَصلاً ، وهم : وثلاثة لم يجزعوا أصلاً

قيسُ بنُ ٱلخطيمِ في قولِهِ [في « ديوانه » ١٠ مِنَ الطَّويلِ] :

وَإِنِّيَ فِيْ ٱلْحَرْبِ ٱلضَّرُوْسِ مُوَكَّلٌ بِإِقْدَامِ نَفْسٍ مَا أُرِيْدُ بَقَاءَهَا

وعامرُ بنُ ٱلطُّفَيلِ في قولِهِ [في « حياتِهِ وشعرِهِ » ٩٩ مِنَ الطَّويلِ] :

أَقُوْلُ لِنَفْسٍ مَا أُرِيْدُ بَقَاءَهَا ... أَقِلِّيْ ٱحْتِرَاساً إِنَّنِيْ غَيْرُ مُدْبِرِ

وٱلعبَّاسُ بنُ مِرداسٍ في قولِهِ [مِنَ الوافرِ] :

أَشُدُّ عَلَىٰ ٱلْكَتِيْبَةِ لاَ أُبَالِيْ ... أَحَتْفِيْ كَانَ فِيْهَا أَمْ سِوَاهَا

وممّا يُروىٰ للأعورِ السلميِّ ، قالهُ في (صفِّينَ) [مِنَ الطَّويلِ] : الرجال لا تفر من القتال

إِذَا مَا فَرَرْنَا كَانَ شَرُّ فِرَارِنَا ... صُدُوْدَ خُدُودٍ وَٱلْتِوَاءَ مَنَاكِبِ

نُشِيْحُ قَلِيْلاً وَٱلْقَنَا مُتَشَاجِرٌ ... وَلاَ تَبْرَحُ ٱلأَقْدَامُ عِنْدَ ٱلتَّضَارُبِ(١)

وقد سبقَ في غيرِ هـٰذا ٱلمجلسِ قولُ أَبي تمَّامٍ [في « ديوانهِ » ٢/٣٠٣ مِنَ الطَّويلِ] :

وَقَدْ كَانَ فَوْتُ ٱلْمَوْتِ سَهْلاً فَرَدَّهُ ... إِلَيْهِ ٱلْحِفَاظُ ٱلْمُرُّ وَٱلْخُلُقُ ٱلْوَعْرُ(٢)

وهو مِنْ قولِ ٱلأعرابيَّةِ [مِنَ الطَّويل] :

أَبَوْا أَنْ يَفِرُّوْا وَٱلْقَنَا فِيْ نُحُوْرِهِمْ ... وَلَمْ يَبْتَغُوْا مِنْ خَشْيَةِ ٱلْمَوْتِ سُلَّمَا

وَلَوْ أَنَّهُمْ فَرُّوْا لَكَانُوْا أَعِزَّةً ... وَلَـٰكِنْ رَأَوْا صَبْراً عَلَىٰ ٱلْمَوْتِ أَكْرَمَا

---

(١) أشاحَ بوجههِ : أماله .

(٢) الحِفاظُ المرُّ : الذَّبُّ الشديدُ عنِ المحارمِ . الخُلُقُ الوَعْرُ : الشدَّةُ عندَ المنازعَةِ .

مكتوب على ذي الفقار

ويُروىٰ بضعفٍ : أَنَّهُ كانَ مكتوبٌ علىٰ ذي ٱلفقارِ[1] هـٰذا ٱلبيتُ [مِنَ ٱلبَسيطِ] :

فِيْ ٱلْجُبْنِ عَارٌ وَفِيْ ٱلإِقْدَامِ مَكْرُمَةٌ ... وَٱلْمَرْءُ بِٱلْجُبْنِ لاَ يَنْجُوْ مِنَ ٱلْقَدَرِ

قصة الحصين بن الحمام وبني جوشن

وقالَ ٱلحصينُ بنُ ٱلحُمامِ [مِنَ الطَّويلِ] :

تَأَخَّرْتُ أَسْتَبْقِيْ ٱلْحَيَاةَ فَلَمْ أَجِدْ ... لِنَفْسِـيْ حَيَـاةً مِثْـلَ أَنْ أَتَقَـدَّمَـا

وسببُهُ : أَنَّ بني جوشنَ ـ مِنْ غطفانَ ـ قتلتْ جاراً لبني سهمٍ ، رهطِ ٱلحصينِ وعقيلِ بنِ علقمةَ ، وكانَ عقيلٌ غائباً ، فبعثَ بأَبياتٍ يحرِّضُ أَماثِلَ[2] بني سهمٍ علىٰ غسلِ ٱلعارِ بِٱلدمِ ، فقالَ ٱلحصينُ : إِيايَّ عَنَىٰ ، وبي نَوَّهَ ، وٱمتشقَ ٱلحُسامَ ، وأَبلىٰ أَحسنَ ٱلبلاءِ ، وقالَ ٱلبيتَ السَّابقَ ، مِنْ قصيدةٍ سبقَ بعضُ أَبياتِها في خلالِ ٱلمجالسِ ، ومنها [في « شرحِ الحماسةِ » ١/٣١٦ـ ٣٤٠ـ ٣٤١ مِنَ الطَّويلِ] :

فَلَسْنَا عَلَىٰ ٱلأَعْقَابِ تَدْمَىٰ كُلُوْمُنَا ... وَلَـٰكِنْ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا تَقطُرُ ٱلدِّمَا
نُفَلِّـقُ هَـامَـاً مِـنْ كِـرَامٍ أَعِـزَّةٍ ... عَلَيْنَا وَهُمْ كَانُوا أَعَقَّ وَأَظْلَمَا
وَلَمَّا رَأَيْنَا ٱلصَّبْرَ قَدْ حِيْلَ دُوْنَهُ ... وَقَدْ كَانَ يَوْماً ذَا كَوَاكِبَ مُظْلِمَا
صَبَرْنَا وَكَانَ ٱلصَّبْرُ مِنَّا سَجِيَّةً ... بِأَسْيَافِنَا يَقْطَعْنَ كَفّاً وَمِعْصَمَا
وَلَمَّـا رَأَيْـتُ ٱلْـوُدَّ لَيْـسَ بِنَـافِعِـيْ ... عَمَدْتُ إِلَىٰ ٱلأَمْرِ ٱلَّذِيْ كَانَ أَحْزَمَا
فَلَسْـتُ بِمُبْتَـاعِ ٱلْحَيَـاةِ بِسُبَّـةٍ ... وَلاَ مُرْتَقٍ مِنْ خَشْيَةِ ٱلْمَوْتِ سُلَّمَا

---

(١) ذو الفَقَار : ٱسمُ سيفٍ للنَّبيِّ ﷺ ، وسمِّي بذلك لأنه كان لظهره مثل فقار الظهر .
(٢) الأماثل : الأخيار .

وقيلَ للمهلَّبِ ٱبنِ أَبي صفرةَ : إِنَّكَ لتُلقي نفسَكَ في ٱلمهالكِ ، فقالَ : إِنْ لَمْ آتِ ٱلموتَ مسترسلاً . . أَتاني مستعجلاً ، إِنِّي لستُ آتي ٱلموتَ مِنْ حُبِّهِ ، ولٰكنِّي آتيهِ مِنْ بُغْضِهِ ، ثُمَّ تمثَّلَ بقولِ ٱلحصينِ :

الموت آت على كل حال

تَأَخَّرْتُ أَسْتَبْقِي ٱلْحَيَاةَ . . . البيتُ

وما زالتِ ٱلعربُ تَمادَحُ بٱلقتلِ ، وتتهاجىٰ بٱلموتِ علىٰ ٱلفراشِ ، فتقولُ : فلانٌ ماتَ عَبْطَةً[1] ، وماتَ حتفَ أنفهِ .

المدح بالقتل

وقالَ ٱلسمَوْأَلُ [في « ديوانه » ٤٦ ـ ٤٧ مِنَ الطَّويلِ] :

لا يموت السيد في فراشه

وَمَا مَاتَ مِنَّا سَيِّدٌ فِيْ فِرَاشِهِ   وَلاَ طُلَّ مِنَّا حَيْثُ كَانَ قَتِيْلُ[2]
تَسِيْلُ عَلَىٰ حَدِّ ٱلظُّبَاتِ نُفُوْسُنَا   وَلَيْسَتْ عَلَىٰ غَيْرِ ٱلظُّبَاتِ تَسِيْلُ[3]

وقد أَنِفَ عامرُ بنُ الطُّفيلِ أَنْ يموتَ علىٰ فراشهِ، فركبَ ظهرَ دابتهِ.

وتوجَّعَ خالدُ بنُ ٱلوليدِ مِنْ موتهِ علىٰ ٱلفراشِ ، وما مِنْ موضعِ أَربعةِ أَصابعَ مِنْ بدنِهِ إِلاَّ فيهِ طعنةٌ برمحٍ ، أَو ضربةٌ بسيفٍ ، وقالَ : ويلٌ للجبناءِ!

وذكرَ ٱلأَصفهانيُّ [كما في « ٱلأغاني » ١٩/١٤٠] : أَنَّهُ لَمَّا جاءَ نعيُ ٱلمُصعبِ بنِ الزُّبيرِ إِلىٰ (مكَّةَ) . . أَضربَ عبدُ اللهِ أَيَّاماً عَنِ ٱلكلامِ ، حَتَّىٰ تُحُدِّثَ بهِ في الطُّرقاتِ ، فصعدَ ٱلمنبرَ ، وجلسَ مليّاً

نعي المصعب بن الزبير إلى أخيه عبد الله

---

(١) العَبْطَةُ : الصحيحُ الشابُّ .
(٢) المعنى : لم يمت منا سيِّد دون أن يُأْخَذَ بثأرِهِ . وطُلَّ دمُ فلانٍ : هدرَ وَلَمْ يُثأَرْ لهُ .
(٣) الظُّباتُ ـ جمعُ ظُبَةٍ ـ : وهيَ السُّيوفُ .

لا يتكلَّمُ ، والكآبةُ عليهِ باديةٌ ، والعرقُ يترشَّحُ مِنْ جبينِهِ ، فقالَ واحدٌ لآخرَ : مَا لَهُ لا يتكلَّمُ ، وهو واللهِ الخطيبُ المِصْقَعُ[١] .

قالَ الآخرُ : أَراهُ يريدُ أَنْ يذكرَ سيِّدَ العربِ المُصعَبَ ، فهو يتصعَّدُ بهِ[٢] ، حتَّىٰ قالَ :

الحمدُ للهِ ، الَّذي لهُ الخلقُ والأمرُ ، ملِكِ الدُّنيا والآخرةِ ، يُعِزُّ مَنْ يشاءُ ، ويُذِلُّ مَنْ يشاءُ ، أَلا وإِنَّهُ لا يَذلُّ مَنْ كانَ الحقُّ معهُ وإِنْ كانَ ضعيفاً مفرداً ، ولا يَعزُّ مَنْ كانَ علىٰ الباطلِ وإِنِ استظهرَ عُدَّةً وعدداً ، أَلا وإِنَّهُ أَتانا خبرٌ مِنَ (العراقِ) فساءَنا وسرَّنا . أَتانا أَنَّ مصعباً قُتل ، فأَمَّا الَّذي أَحزننا . . فإِنَّ لفراقِ الحميمِ لذعةً ولوعةً ، يجدُها حميمُهُ عندَ المصيبةِ ، ثمَّ يرعوي أُولو الرَّأْيِ إِلىٰ الصَّبرِ ، وأَمَّا الَّذي سرَّنا منهُ . . فإِنَّ قتلَهُ كانَ لهُ شهادةً ، وإِنَّ اللهَ جاعلٌ لنا ولهُ في ذلكَ الخيرةَ ، أَلا وإِنَّ أَهلَ (العراقِ) أَهلُ الغدرِ والشِّقاقِ ، باعوهُ بأَقلِّ الأَثمانِ وأَخسرِها ، وأَسلموهُ إِسلامَ النَّعَمِ المُخْطَمةِ[٣] ، حتَّىٰ قُتلَ ، ولئنْ قُتلَ . . فقد قُتلَ أَبوهُ وعمُّهُ وأَخوهُ ، وكانوا الخيارَ الصَّالحينَ ، وإِنَّا واللهِ مَا نموتُ حتفَ آنافِنا ، ولـٰكِنْ قعصاً[٤] بالرِّماحِ ، وضرباً بالسُّيُوْفِ ، لا كَما تموتُ بنو مروانَ ، واللهِ ما قُتلَ منهم رجلٌ في جاهليَّةٍ ولا إِسلامٍ ، وإِنَّما الدُّنيا عاريةٌ مِنَ المَلِكِ الجبَّارِ الَّذي لا يزولُ سلطانُهُ ، ولا يَبيدُ ملكُهُ ، فإِنْ تُقبلِ الدُّنيا

---

(١) المِصْقعُ : البليغُ .

(٢) يتصعَّدُ بِهِ ـ أي ذِكْرَ مصعب ـ : يتعب تعباً شديداً .

(٣) المُخطمةُ : التي وضع في أنفها الزمام أو المُلجمةُ .

(٤) قَعصاً : طعناً ، ووردت في المخطوط : قصعاً ، وهو تصحيف .

عليَّ . . لا آخذُهَا أَخذَ ٱللَّئيمِ ٱلبَطِرِ ، وإِنْ تدبرْ عنِّي . . لا أَبكِيْ عليها بكاءَ ٱلخَرِفِ ٱلمهترِ[1] ، ثُمَّ نزلَ .

وقدْ قالَ ٱبنُ دريدٍ : أَعرقُ النَّاسِ في ٱلقتلِ آلُ ٱلزُّبَيْرِ ، فقد قُتلَ عمارةُ بنُ حمزةَ وأَبوهُ بـ(قُديدٍ) ، وقُتلَ عبدُ ٱللهِ بـ(مكَّةَ) ، وقُتلَ مصعبُ وٱبنُهُ بـ(ٱلعراقِ) ، وقُتلَ ٱلزُّبيرُ بـ(وادي ٱلسِّباعِ) ، وقُتلَ ٱلعوَّامُ في يومِ ٱلفِجَارِ ، وقُتلَ خويلدُ بنُ أَسَدٍ في حربِ خزاعةَ ، عدا مَنْ قُتلَ مِنْ أَبنائِهم وأَحفادِهم ، وكانَ قتلُ عمرِو بنِ الزُّبيرِ علىٰ يدِ أخيهِ عبدِ ٱللهِ ، كانوا يضربونَهُ ، وٱلقيحُ ينضحُ مِنْ ظهرِهِ وأَكتافِهِ ، ثُمَّ أَرسلُوا عليهِ ٱلجُعْلانَ[2] ، فأَكلَ منهُ ، وهو مقيَّدٌ مغلولٌ ، يستغيثُ فلا يغاثُ ، حَتَّىٰ ماتَ علىٰ تلكَ ٱلحالةِ .

آل الزبير أعرق الناس في القتل

فبِحَقٍّ ما يقولُ عبدُ اللهِ ، وما يقولُ فيهم ٱلشَّاعرُ ، ونصُّهُ [مِنَ ٱلمتقاربِ] :

وَآلُ ٱلـــزُّبَيْــرِ بَنُــوْ حُــرَّةٍ ... مَرَوْا بِٱلسُّيُوْفِ صُدُوْراً حِنَاقَا[3]

يَمُــوْتُــوْنَ وَٱلقَتْــلُ داءٌ لَهُــمْ ... يُغِيْثُوْنَ يَــوْمَ ٱلسِّبَــاقِ ٱلسِّبَــاقَــا

إِذَا فَــرَجَ ٱلقَتْــلُ مِــنْ عِيْصِهِــمْ ... أَبَىٰ ذَلِكَ ٱلعِيْصُ إِلاَّ ٱتِّفَاقَا[4]

فما كانَ أَحقَّهم بقولِ السَّموأَلِ [في « ديوانهِ » ٤٦ مِنَ الطَّويلِ] :

يُقَرِّبُ حُبُّ ٱلمَوْتِ آجالَنَا لَنَا ... وَتَكْــرَهُــهُ آجَــالُهُــمْ فَتَطُــوْلُ

---

(١) ٱلمهترُ : ٱلمخطىءُ في كلامِهِ .

(٢) الجُعَل : دابَّةٌ سوْداءُ مِن دوابِّ الأَرضِ .

(٣) مَرَوا بالسيوف : زينوا .

(٤) عِيصُ الرجُلِ : منبتُ أَصلِهِ ، والمعنى : كلَّما حاولَ القتلُ تشتيتَ شملهم . . ٱلتأموا .

وللهِ درُّ أَبيْ تمَّامٍ في قولِهِ [كما في « ديوانهِ » ٢/٣٠٧ مِنَ البسيطِ] :

فِيْمَ ٱلشَّمَاتَةُ إِعْلاَنَاً بِأُسْدِ وَغَىٰ   أَفْنَاهُمُ ٱلصَّبْرُ إِذْ أَبْقَاكُمُ ٱلْجَزَعُ

قول ماوية لزيد الخيل عندما أراد خطبتها

ولمّا ٱنتَدَبَ لِخِطبةِ ماويةَ ، حاتمٌ ، وأَوسُ بنُ حارثةَ بنِ لامٍ ، وزيدُ ٱلخيلِ . . قالَتْ لزيدٍ : أَمَّا أَنتَ يا زيدُ ، فقد وترتَ ٱلعربَ بأَسرِها ، وبقاؤكَ مع ٱلحُرَّةِ قليلٌ[1] ، فيا بردَ ذلكَ ٱلكلام على قلبهِ ، وما أَرفعَهُ لرأَسِهِ ، وأَشمخَهُ لأَنفهِ ، وإِنْ كانَ فيهِ ردُّهُ ، وفي ٱلقصَّةِ طولٌ ، ولولا خشيةُ الإملالِ . . كنتُ أَمْلَلْتُهَا بحذافيرِها ؛ فإِنَّها مِنْ طرائِفِ الأَخبارِ ، وهي موجودةٌ في « أَمالي الزجَّاجي » [ص/١٠٦-١٠٩] .

قصيدة للطرماح يتمنى فيها أن يموت أفضل ميتة

وقالَ ٱلطِّرِمَّاحُ [في « ديوانهِ » ٣٣٣-٣٣٥ مِنَ الطَّويلِ] :

وَإِنِّـيْ لَقَيَّـادٌ جَـوَادِيْ فَقَـاذِفٌ   بِهِ وَبِنَفْسِيَ ٱلْيَوْمَ إِحْدَىٰ ٱلْمَتَالِفِ

لأَكْسَبَ مَالاً أَوْ أَؤُوْبَ إِلَىٰ غِنىً   مِنَ ٱللهِ يَكْفِيْنِيْ ٱمْتِنَانَ ٱلْخَلاَئِفِ

فَيَا رَبِّ إِنْ حَانَتْ وَفَاتِيْ فَلاَ تَكُنْ   عَلَىٰ شَرْجَعٍ يُكْسَىٰ بِخُضْرِ ٱلْمَطَارِفِ[2]

وَلَـٰكِـنَّ قَبْـرِيْ بَطْـنُ دَوٍّ مَقِيْلُـهُ   بِجَوِّ سَمَاءٍ فِيْ نُسُوْرٍ عَوَائِفِ[3]

---

(١) وتمام قولها : وأما أنت يا أوس فرجلٌ ذو ضرائرَ ، والصبر عليهن شديد ، وأمّا أنت يا حاتم فمرضيُّ الخلائق ، محمود الشيَم ، كريم النفس وقد زوجتك نفسي .

(٢) الشَّرْجَعُ : السريرُ يحملُ عليهِ الميْتُ ، وهوَ النعشُ . المطارِفُ ـ جمعُ مُطْرَفٍ ـ : وهو ثوبٌ مربَّعٌ مِن خزٍّ .

(٣) الدوُّ : الفلاة الواسعة . النسورُ العوائفُ : التي تدورُ حول الشيءِ تريدُ الوقوعَ عليهِ .

وأُمْسِيْ شَهِيْداً ثَاوِياً فِيْ عِصَابَةٍ ... يُصَابُوْنَ فِيْ فَجٍّ مِنَ الأَرْضِ خَائِفِ[1]
فَـوَارِسُ أَشْتَـاتٌ يُـؤَلِّـفُ بَيْنَهُـمْ ... هُدَىٰ ٱللهِ نَزَّالُوْنَ عِنْدَ ٱلْمَوَاقِفِ

لم يتحقق حلمه ومات على عكس ما أراد

قالَ ٱبنُ شُبرمَةَ : بينا أنا في بعضِ شوارعِ (ٱلكوفةِ) . . إذا جنازةٌ عليها مُطْرَفُ خزٍّ أخضرُ ، فسألتُ عن صاحبِها ، فقيلَ : ٱلطِّرِمَّاحُ ، فعلمتُ أَنَّ ٱللهَ تعالىٰ لَمْ يستجبْ لَهُ .

الشعراء والشجاعة

وقالَتْ أُمُّ معدانَ ٱلأَعرابيَّةُ عَنْ بَنِيْهَا [مِنَ ٱلبسيطِ] :

كَـانَـتْ لَهُـمْ هِمَـمٌ فَـرَّقْـنَ بَيْنَهُـمْ ... إِذَا ٱلْقَعَادِيْدُ عَنْ أَمْثَالِهَا قَعَدُوْا[2]
فِعْلُ ٱلْجَمِيْلِ وَتَفْرِيْجُ ٱلْجَلِيْلِ وَإِسْـ ... ـدَاءُ ٱلْجَزِيْلِ ٱلَّذِيْ لَمْ يُسْدِهِ أَحَدُ

وقالَ عنترُ [في « ديوانهِ » ١١٤ مِنَ الطَّويلِ] :

فَيَا رَبِّ لاَ تَجْعَلْ حَيَاتِيْ دَنِيَّةً ... وَلاَ مِيْتَتِيْ يَا رَبِّ بَيْنَ ٱلنَّوَائِحِ
وَلَـٰكِنْ صَرِيْعاً بَيْنَ أَرْمَاحِ فِتْيَةٍ ... طِوَالِ ٱلْقَنَا مِنْ فَوْقِ أَجْرَدَ سَابِحِ

وقد سبقَ قولُ أَبي تمَّام في غيرِ هـٰذا ٱلمجلسِ (فَتىً مَاتَ بَيْنَ ٱلضَّرْبِ وَٱلطَّعْنِ . . .) إلىٰ آخرِ ٱلأَبياتِ .

وقالَ [في « ديوانهِ » ٢٤٤ مِنَ ٱلبسيطِ] :

قَلُّـوْا وَلَـٰكِنَّهُـمْ طَـابُـوْا فَـأَنْجَـدَهُـمْ ... جَيْشٌ مِنَ ٱلصَّبْرِ لاَ يُحْصَىٰ لَهُ عَدَدُ
إِذَا رَأَوْا لِلْمَنَايَا عَارِضاً لَبِسُوْا ... مِنَ ٱلْيَقِيْنِ دُرُوْعاً مَا لَهَا زَرَدُ[3]
نَأَوْا عَنِ ٱلْمُصْرِخِ ٱلأَدْنَىٰ فَلَيْسَ لَهُمْ ... إِلاَّ ٱلسُّيُوْفَ عَلَىٰ أَعْدَائِهِمْ مَدَدُ[4]

---

(١) طريقٌ خائِفٌ : أي مخيفٌ يخيفُ الناسَ .
(٢) القُعَاديدُ مِن الرجالِ : الجُبناءُ القاعِدونَ عَن الحربِ والمكارمِ .
(٣) العارضُ : ما ٱعترضَ في الأُفُقِ فسدَّهُ . الزَّرَدُ : حَلَقُ المغفرِ والدرعِ .
(٤) المُصْرِخُ : المغيثُ .

وقالَ أبو عبادةَ [في « ديوانِه » ٣/ ١٩٤١ـ١٩٤٤ مِنَ الطَّويلِ] :

أَبَا غَانِمٍ أَرْدَىٰ بَنِيْكَ ٱعْتِقَادُهُمْ ... بِأَنَّ ٱلرَّدَىٰ فِيْ ٱلْحَرْبِ أَكْبَرُ مَغْنَمِ
مَضَوْا يَسْتَلِذُّوْنَ ٱلْمَنَايَا حَفِيظَةً ... وَحِفظاً لِذَاكَ ٱلسُّؤْدُدِ ٱلْمُتَقَدِّمِ
وَمَا طَعَنُوْا إِلاَّ بِرُمْحٍ مُوَصَّلٍ ... وَلاَ ضَرَبُوْا إِلاَّ بِسَيْفٍ مُثَلَّمِ
دَعَتْهُمْ أَفَانِيْنُ ٱلرَّدَىٰ فَتَتَابَعُوْا ... تَتَابُعَ مُنْبَتِّ ٱلْفَرِيْدِ ٱلْمُنَظَّمِ(١)
سَلاَمٌ عَلَىٰ تِلْكَ ٱلْخَلاَئِقِ إِنَّهَا ... مُنَزَّهَةٌ مِنْ كُلِّ عَارٍ وَمَأْثَمِ
مَسَاعٍ عِظَامٌ لَيسَ يَبْلَىٰ جَدِيْدُهَا ... وَإِنْ بَلِيَتْ مِنْهَا رَمَائِمُ أَعْظُمِ
أَحَبَّ بَنُوْكَ ٱلْمَكْرُمَاتِ فَفَرَّقَتْ ... جَمَاعَتَهُمْ فِيْ كُلِّ دَهْيَاءَ صَيْلَمِ(٢)
تَدَانَتْ مَنَايَاهُمْ بِهِمْ وَتَبَاعَدَتْ ... مَضَاجِعُهُمْ عَنْ تُرْبِكَ ٱلْمُتَنَسَّمِ
فَكُلٌّ لَهُ قَبْرٌ غَرِيْبٌ بِبَلْدَةٍ ... فَمِنْ مُنْجِدٍ نَائِيْ ٱلضَّرِيْحِ وَمُتْهِمِ(٣)
قُبُوْرٌ بِأَطْرَافِ ٱلْبِلاَدِ كَأَنَّمَا ... مَوَاقِعُهَا مِنْهَا مَوَاقِعُ أَنْجُمِ

وقالَ بعض شعراءِ ٱلحماسةِ [في « شرحِ الحماسةِ » ١٢/ ١١٣ـ١١٥ مِنَ الطَّويلِ] :

سَأَغْسِلُ عَنِّيْ ٱلْعَارَ بِٱلسَّيْفِ جَالِباً ... عَلَيَّ قَضَاءُ ٱللهِ مَا كَانَ جَالِبَا
وَأَذْهَلُ عَنْ دَارِيْ وَأَجْعَلُ هَدْمَهَا ... لِعِرْضِيَ مِنْ بَاقِيْ ٱلْمَذَلَّةِ حَاجِبَا
وَيَصْغُرُ فِيْ عَيْنِيْ تِلاَدِيْ إِذَا ٱنْثَنَتْ ... يَمِيْنِيْ بِإِدْرَاكِ ٱلَّذِيْ كُنْتُ طَالِبَا(٤)

---

(١) الفريدُ : اللؤلؤُ المنظومُ . المنبتُّ : الذي ٱنقطعَ . والمعنىٰ : أنَّهم يتتابعونَ كما هوَ حالُ العقدِ إذَا ٱنقطعَ ، وهوَ كنايةٌ عَنْ شدَّةِ سرعتِهِم إلىٰ ما رَمَوا إليهِ .

(٢) الدهياءُ : ما يصيبُ الإنسان مِن نوائبِ الدهرِ . الصَّيلَمُ : الأمرُ الشديدُ .

(٣) المنجِدُ : الذي قبرهُ بـ(نجدٍ) . مُتْهِمٌ : من قبرهُ بـ(تهامَةَ) .

(٤) التِّلادُ : المالُ القديمُ .

فَإِنْ تَهْدِمُوْا بِٱلغَدْرِ دَارِيْ فَإِنَّهَا تُرَاثُ كَرِيْمٍ لاَ يُبَالِيْ ٱلْعَوَاقِبَا
أَخِيْ عَزَمَاتٍ لاَ يُطِيْعُ عَلَىٰ ٱلَّذِيْ يَهُمُّ بِهِ مِنْ هَايِلِ ٱلأَمْرِ عَاتِبَا
إِذَا هَمَّ أَلْقَىٰ بَيْنَ عَيْنَيْهِ عَزْمَهُ وَنَكَّبَ عَنْ ذِكْرِ ٱلْعَوَاقِبِ جَانِبَا
إِذَا هَمَّ لَمْ تُرْدَعْ عَزِيْمَةُ هَمِّهِ وَلَمْ يَأْتِ مَا يَأْتِيْ مِنَ ٱلأَمْرِ هَائِبَا
وَلَمْ يَسْتَشِرْ فِيْ شَأْنِهِ غَيْرَ نَفْسِهِ وَلَمْ يَرْضَ إِلاَّ قَائِمَ ٱلسَّيْفِ صَاحِبَا

وقالَ ٱبنُ هانىءٍ ٱلأَندلسيُّ [في « ديوانهِ » ١٤٤ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَمْ أَجِدِ ٱلإِنْسَانَ إِلاَّ ٱبْنَ سَعْيِهِ فَمَنْ كَانَ أَسْعَىٰ كَانَ بِٱلْمَجْدِ أَجْدَرَا
وَبِٱلْهِمَّةِ ٱلْعَلْيَاءِ تَرْقَىٰ إِلَىٰ ٱلْعُلاَ فَمَنْ كَانَ أَعْلَىٰ هِمَّةً كَانَ أَظْهَرَا
وَلَمْ يَتَأَخَّرْ مَنْ أَرَادَ تَقَدُّماً وَلَمْ يَتَقَدَّمْ مَنْ أَرَادَ تَأَخُّرَا

وقالَ أَبو نصرٍ ٱبنُ نُبَاتةَ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَنْ لَمْ يَمُتْ بِٱلسَّيْفِ مَاتَ بِغَيْرِهِ تَعَدَّدَتِ ٱلأَسْبَابُ وَٱلْمَوْتُ وَاحِدُ

وقالَ أَبو فراسٍ [في « ديوانه » ٢٩٢ مِنَ ٱلوافرِ] :

مَتَىٰ مَا يَدْنُ مِنْ أَجَلِيْ كِتَابِيْ أَمُتْ بَيْنَ ٱلأَسِنَّةِ وَٱلأَعِنَّهْ

وقالَ الموسويُّ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَيَسْتَقْبِحُوْنَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْمَوْتُ رَاحَةٌ وَأَتْعَبُ مَيْتٍ مَنْ يَمُوْتُ بِدَاءِ

وقالَ بكرُ بنُ عبدِ ٱلعزيزِ [مِنَ الخفيفِ] :

إِنَّ مَوْتَ ٱلْفِرَاشِ ذُلٌّ وَعَارٌ وَهْوَ تَحْتَ ٱلسُّيُوْفِ فَضْلٌ شَرِيْفُ

الشهداء أحياء وهنا ذكرتُ قولَهُ جلَّ ذكرُهُ : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران : ١٦٩] .

أمنية الشهيد

وقولهُ ﷺ : « لَوَدِدْتُ أَنِّي أُقْتَلُ فِيْ سَبِيْلِ ٱللهِ ، ثُمَّ أُحْيَا ، ثُمَّ أُقْتَلُ ، ثُمَّ أُحْيَا ، ثُمَّ أُقْتَلُ »(١) .

شجاعة الإمام

وقولَ ٱبنِ أَبي طالبٍ ـ كرَّمَ ٱللهُ وجهَهُ [في « نهج ٱلبلاغةِ » ١٤٢]ـ : (وٱللهِ لأَلفُ ضربةٍ بٱلسَّيفِ أَهونُ عليَّ مِنْ ميتةٍ علىٰ ٱلفراشِ) .

تقديم النبي ﷺ آل بيته في القتال عند إحجام الشجعان

وقولهُ ـ رضوانُ ٱللهِ عليهِ ـ [في « نهج البلاغةِ » ٣١٤] : (وكانَ ﷺ إذا ٱشتدَّ ٱلبأسُ ، وأَحجمَ ٱلنَّاسُ . . قدَّمَ أَهلَ بيتهِ ، فوقىٰ بهِمْ أَصحابَهُ حرَّ ٱلأَسنةِ وٱلسُّيوفِ ، فقُتلَ عُبيدةُ [بنُ الحارثِ] يومَ بدرٍ ، وقُتلَ حمزةُ يومَ أُحُدٍ ، وقُتلَ جعفرٌ يومَ مؤتةَ ، وأَرادَ مَنْ لو شئتُ . . ذكرتُ ٱسمَهُ مثلَ ٱلَّذي أَرادوا مِنَ ٱلشَّهادةِ ، غيرَ أَنَّ مناياهُم عُجِّلَتْ ، ومنيَّتَهُ أُجِّلَتْ) .

وٱلمرادُ بٱلنَّاسِ في قولهِ عليهِ ٱلسَّلامُ : (وَأَحْجَمَ ٱلنَّاسُ) هم مراجيحُ ٱلأَبطالِ ، ولهاميمُ ٱلرِّجالِ ، فأَهلُ ٱلبيتِ حينئذٍ كما قالَ أَبو تمَّامٍ [مِنَ الطَّويلِ] :

فَتىً كُلَّمَا ٱرْتَادَ ٱلشُّجَاعُ مِنَ ٱلرَّدَىٰ مَفَرّاً غَدَاةَ ٱلْمَأْزِقِ ٱرْتَادَ مَصْرَعَا

وفيهم أَقولُ [كما في « ديوان المؤلف » ٨٨ مِنَ الطَّويلِ] :

مَسَاعِيْرُ لاَ يَقْضُوْنَ حَتْفَ أُنُوفِهِمْ وَلَـٰكِنْ كِرَاماً فِيْ مَجَالِ ٱلْوَغَىٰ جُزْزَا

بكاء زين العابدين

ويُروىٰ : أَنَّ زينَ ٱلعابدينَ ٱلسَّجَّادَ كانَ لا ترقأُ لهُ دمعةٌ(٢) ، فقيلَ لهُ في ذلكَ ، فقالَ : كيفَ ؟! وقد رأَيتُ ثمانيةَ عشرَ مِنْ آبائي

(١) أخرجه عن أبي هريرة رضي اللهُ عنهُ البخاري (٣٦) في الإيمان ، ومسلم (١٨٧٦) في الإمارة .

(٢) لا ترقأ : لا تهدأ .

وإخواني يُنحرونَ كَما تُنحرُ ٱلإبلُ في غداةٍ واحدةٍ ، وهو هاضمٌ لنفسهِ في مقالتهِ ، وإلاَّ . . فٱلمعروفُ مِنْ حالِهِ في كثرةِ بكائِهِ ٱلخشيةُ مِنَ ٱلْباري عزَّ وجلَّ ؛ ولهٰذا كانَ يصفرُّ كلَّما دخلَ في الصَّلاةِ ، ويُغشىٰ عليهِ عندما يشرعُ في التَّلبيةِ ، ومعَ ذلكَ فٱلبكاءُ علىٰ نجومِ ٱلأرضِ داخلٌ في ٱلبكاءِ مِنْ خشيتِهِ تعالىٰ ؛ لأنَّ مصائبَهُم ثلومُ الإسلامِ [مِنَ الطَّويلِ] :

عَلَىٰ مِثْلِهِمْ فَلْتَلْطُمِ ٱلْعَيْنُ خَدَّهَا بِسَبْعٍ مِنَ ٱلْحُمْرِ ٱلْقَوَانِي عَلَىٰ سَبْعِ

وقد رخَّصَ النَّبيُّ ﷺ فيما كانَ مِنْ دمعِ ٱلعينِ ، وحزنِ ٱلقلبِ(١) ، والسَّجَّادُ لا محالةَ واقفٌ عندَ ما رسمَ لَهُ جَدُّهُ مِنْ ذلكَ ؛ لأنَّهُ مِنَ ٱلقومِ ٱلذينَ يقولُ فيهم ٱبنُ أوسٍ [مِنَ الطَّويلِ] :

فَلَمَّا دُعُوْا لِلْمَوْتِ لَمْ تَبْكِ مِنْهُمْ عَلَىٰ حَادِثِ ٱلدَّهْرِ ٱلْعُيُوْنُ ٱلدَّوَامِعُ

ربما يكون البكاء دواء عند الشعراء

وقد قالَ ٱلملكُ ٱلضِّلِّيلُ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَإِنَّ شِفَائِيَ عَبْرَةٌ لَوْ سَفَحْتُهَا وَهَلْ عِنْدَ رَسْمٍ دَارِسٍ مِنْ مُعَوَّلِ ؟

وقالَتِ ٱلخنساءُ [مِنْ مَجزوءِ الكاملِ] :

إِنَّ ٱلْبُكَاءَ هُوَ ٱلشِّفَا ءُ مِنَ ٱلْجَوَىٰ بَيْنَ ٱلْجَوَانِحْ

---

(١) وذلكَ في الحديثِ الذي رواهُ عن أنسٍ رضيَ اللهُ عنهُ البخاريُّ (١٣٠٣) في الجنائزِ ، قالَ : دخلْنا معَ رسولِ اللهِ ﷺ علىٰ أبي سيفٍ القيْنِ ، وكانَ ظئْراً لإبراهيمَ عليهِ السلامُ ، فأخذَ رسولُ اللهِ ﷺ إبراهيمَ فقبَّلَهُ وشمَّهُ ، ثمَّ دخلْنا عليهِ بعدَ ذلكَ ، وإبراهيمُ يجودُ بنفسِه ، فجعلَتْ عينا رسولِ اللهِ ﷺ تذرفانِ ، فقالَ لَهُ عبدُ الرحمٰنِ بنُ عوفٍ رضيَ اللهُ عنهُ : وأنتَ يا رسولَ اللهِ ؟ فقالَ : « يا ابنَ عوفٍ ، إنَّها رحمةٌ » . ثمَّ أتبعَها بأُخرىٰ ، فقالَ ﷺ : « إنَّ العينَ تدمعُ ، والقلبَ يحزنُ ، ولاَ نقولُ إلاَّ ما يَرْضَىٰ ربُّنا ، وإنَّا بفراقِكَ ـ يا إبراهيمُ ـ لمحزونونَ » .

وقالَ ذُو الرُّمَّةِ [في « ديوانهِ » ٢/ ٣٣٣ مِنَ الطَّويلِ] :

لَعَلَّ ٱنْحِدَارَ ٱلدَّمْعِ يُعْقِبُ رَاحَةً   مِنَ ٱلْوَجْدِ أَوْ يَشْفِي نَجِيَّ ٱلْبَلاَبِلِ

وقالَ أَبو عُبادةَ [مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَنْضَحْ جَوَاكَ بِعَبْرَةٍ   غَلاَ فِي ٱلتَّمَادِي أَوْ قَضَىٰ فِي ٱلتَّسَعُّرِ

وقالَ [مِنَ الوافرِ] :

تَعُوْدُ عَوَائِدُ ٱلدَّمْعِ ٱلْمُرَاقِ   عَلَىٰ مَا فِي ٱلْقُلُوْبِ مِنِ ٱحْتِرَاقِ

وقالَ [في « ديوانهِ » ٣/ ١٧٦٣ مِنَ الخفيفِ] :

عَلَّ مَاءَ ٱلدُّمُوْعِ يُخْمِدُ نَاراً   مِنْ جَوَىٰ ٱلْقَلْبِ أَوْ يَبُلُّ غَلِيْلاَ

وقالَ [في « ديوانهِ » ١/ ١٩٠ مِنَ الطَّويلِ] :

فَإِنْ أَبْكِ لاَ أَشْفِ ٱلْغَلِيْلَ وَإِنْ أَدَعْ   أَدَعْ حُرْقَةً فِي ٱلصَّدْرِ ذَاتَ تَلَهُّبِ

وبعضُ ما يناسبُ هـٰذا معَ ٱلإحالةِ علىٰ ما هنا ، أَوائلَ ٱلمجلسِ ٱلثَّاني ، ثُمَّ إِنَّها تداخلتْ علينا ٱلشَّواهدُ في ٱلموضوعِ ، وكلَّما خرجنا عن مبحثٍ . . رجعنا إِليهِ بحكمِ تداعي ٱلأَفكارِ ، ولا معابةَ مَعَ ٱتحادِ ٱلجنسِ في ٱضطرابِ ٱلفروعِ ؛ إِذْ كلُّها تدنِدنُ حولَ ٱلأَنفةِ وٱلإِباءِ ، وٱلابتعادِ عَنْ مواقعِ ٱلذلِّ ، ومرامي ٱلهوانِ ، وجُلُّ « ديوانِ ٱلنَّاظمِ » مِنْ هـٰذا ٱلقبيلِ منهُ قولُهُ [في « العُكبَريِّ » ١/ ٢٦١ مِن المنسرحِ] :

الأنفة والإباء عند المتنبي

يَأْنَفُ مِنْ مِيْتَةِ ٱلْفِرَاشِ وَقَدْ   حَلَّ بِهِ أَصْدَقُ ٱلْمَوَاعِيْدِ
وَمِثْلُهُ أَنْكَرَ ٱلْمَمَاتَ عَلَىٰ   غَيْرِ سُرُوْجِ ٱلسَّوَابِحِ ٱلْقُوْدِ[1]

---

(١) السَّوابحُ ـ جمعُ سابحٍ ـ : وهوَ الشديدُ الجري ، كأَنَّهُ يسبحُ في جريهِ . القُوْدُ : الطوالُ مِن الخيلِ ، وفرسٌ أَقودُ ؛ أَي : طويلُ الظهرِ والعنُقِ .

وقولُهُ [في «العُكبَريّ» ٤/ ٢٤١ مِنَ ٱلخفيفِ] :

وَلَـوْ أَنَّ ٱلْحَيَـاةَ تَبقَـىٰ لِحَـيٍّ لَعَـدَدْنَـا أَضَلَّنَـا ٱلشُّجْعَـانَـا
وَإِذَا لَـمْ يَكُـنْ مِـنَ ٱلْمَـوْتِ بُـدٌّ فَمِـنَ ٱلْعَجْـزِ أَنْ تَكُـوْنَ جَبَـانَـا

وقولُهُ [في «العُكبَريّ» ٤/ ٢٤٣ مِنَ الطَّويلِ] :

فَنَـالَ حَيَـاةً يَشْتَهِيْهَـا عَـدُوُّهُ وَمَوْتاً يُشَهِّي ٱلْمَوْتَ كُلَّ جَبَانِ

وقولُهُ [في «العُكبَريّ» ٤/ ٢١٣ مِنَ ٱلبسيطِ] :

كَمْ مَخْلَصٍ وَعُلاً فِيْ خَوْضِ مَهْلَكَةٍ وَقَتْلَـةٍ قُـرِنَـتْ بِـالـذَّمِّ فِـي ٱلْجُبُـنِ

وقولُهُ [في «العُكبَريّ» ٤/ ١١٩ـ١٢٠ مِنَ ٱلوافرِ] :

فَطَعْمُ ٱلْمَوْتِ فِيْ أَمْرٍ صَغِيْرٍ كَطَعْمِ ٱلْمَوْتِ فِي أَمْرٍ عَظِيْمِ
يَـرَىٰ ٱلْجُبَنَـاءُ أَنَّ ٱلْعَجْـزَ عَقْـلٌ وَتِلْـكَ خَـدِيْعَـةُ ٱلطَّبْـعِ ٱللَّئِيْـمِ

وقولُهُ [في «العُكبَريّ» ١/ ٢٧١ مِنَ الطَّويلِ] :

وَأُوْرِدُ نَفْسِيْ وَٱلْمُهَنَّدُ فِيْ يَدِيْ مَوَارِدَ لاَ يُصْدِرْنَ مَنْ لاَ يُجَالِدُ

وقولُهُ [في «العُكبَريّ» ١/ ٣٢١ـ٣٢٢ مِنَ ٱلخفيفِ] :

عِشْ عَزِيْزاً أَوْ مُتْ وَأَنْتَ كَرِيْمٌ بَيْنَ طَعْنِ ٱلْقَنَا وَخَفْقِ ٱلْبُنُوْدِ
أُطْلُبِ ٱلْعِزَّ فِي لَظَىً وَدَعِ ٱلذُّلْـ لَ وَلَوْ كَانَ فِي جِنَانِ ٱلْخُلُوْدِ

والأَخيرُ مِنْ قولِ عنترةَ [في «ديوانه» ١٩٨ مِنَ ٱلكاملِ] :

مَـاءُ ٱلْحَيَـاةِ بِـذِلَّـةٍ كَجَهَنَّـمٍ وَجَهَنَّـمٌ بِـالْعِـزِّ أَطْيَـبُ مَنْـزِلِ

لا عز في طريق النار ولا ذل في طريق الجنة

وهو مِنْ فاحشِ ٱلغلطِ ، لولا جهلُ ٱلأَوَّلِ ، وجاهليَّةُ ٱلثَّاني ؛ إِذْ لا ذُلَّ في طريقِ ٱلجنَّةِ ، ولا عِزَّ في طريقِ النَّارِ ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون : ٨] ، وما هـٰذا إِلاَّ مِنِ ٱمتحانِ ٱلإِسلامِ بمن

لا يفهمُ أَسرارَهُ ، وإلاَّ فهو دينُ ٱلعزِّ وٱلشَّرفِ ، ودينُ ٱلمجدِ وٱلأَنَفِ ، لقد حَظرَ علىٰ ٱلإنسانِ أَنْ يذلَّ نفسَهُ ، وجعلَهُ حرّاً في سائرِ أَطوارِهِ ، معَ ٱلاعترافِ بٱلعبوديَّةِ لخالقهِ بأَداءِ ٱلفرضِ ، ومعَ ٱلتَّلزُّمِ بقانونهِ ٱلمُفْضِي إلى سعادةِ ٱلدَّارينِ ، وعمارةِ ٱلأَرضِ ، وسيأَتي ما يتعلَّقُ بهِ في محلِّهِ مِنَ ٱلكلامِ علىٰ ٱلبيتِ ٱلمذكورِ .

* * *

[قالَ أَبو ٱلطَّيِّبِ ٱلمتنبِّي في « العُكبَريِّ » ٤/ ٣٤ مِنَ الطَّويلِ] :

فَثِــبْ وَاثِقــاً بِــاللهِ وِثْبَــةَ مَــاجِـدٍ	يَرَىٰ ٱلْمَوْتَ فِي ٱلْهَيْجَا جَنَىٰ ٱلنَّحْلِ فِي ٱلْفَمِ

تحريض المتنبي على القتال

يقولُ لصاحبهِ أَو لنفسهِ علىٰ سبيلِ ٱلتَّجريدِ : قمْ مبادراً للحربِ مبادرةَ كريمٍ شريفٍ ، يجدُ في طعمِ ٱلموتِ حلاوةَ ٱلعسلِ ، وكثيراً ما يدَّعي ٱلنَّاظمُ ذلكَ لنفسهِ ، ولعسكرهِ ٱلخيالي ، كما في قولهِ [في « العُكبَريِّ » ١/ ٣٧٤ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا شِئْتُ حَفَّتْ بِيْ عَلَىٰ كُلِّ سَابِحٍ	رِجَالٌ كَأَنَّ ٱلْمَوْتَ فِيْ فَمِهَا شَهْدُ

شجاعة الإمام عليه السلام

وهـٰذهِ الدَّعوىٰ الضَّخمةِ لا نعرفُ صِدقَها إلاَّ لعليِّ ٱبنِ أَبي طالبٍ ـ كرَّمَ ٱللهُ وجهَهُ ـ إِذْ قامَ بوردهِ مِنَ الصَّلاةِ (ليلةَ ٱلهريرِ)[1] ، وٱلسِّهامُ كٱلمطرِ حفافيةٌ[2] ، حتَّىٰ عذلَهُ في ذلكَ أَحدُ ٱلحَسَنينِ ، فقالَ لهُ : لا يبالي أَبوكَ وقعَ علىٰ ٱلموتِ ، أَوْ وقعَ ٱلموتُ عليهِ ، فهوَ الَّذي لهُ في قتلهِ أَرَبٌ ، وهوَ الَّذي يرىٰ قتالَهُ أَفضلَ ٱلقُربِ ، وهوَ ٱلأَولىٰ بقولِ ٱلحماسيِّ [حارثةَ بن بدرٍ الغدانيِّ في « شرحِ ٱلحماسةِ » ١/ ٤٢٢ مِنَ الطَّويلِ] :

وَإِنَّا لَتَسْتَحْلِيْ ٱلْمَنَايَا نُفُوْسُنَا	وَنَتْرُكُ أُخْرَىٰ مُرَّةً مَا نَذُوْقُهَا

---

(١) ليلةُ الهريرِ : أسمُ واقعةٍ حدثت بين سيدنا علي ومعاوية بظاهر (الكوفة) وسميت بالهرير ؛ لأنهم لما عجزوا عن القتال صار بعضهم يهرُّ على بعض .

(٢) حفافيةٌ : محيطةٌ مِن كلِّ جانبٍ .

وقولِ الآخرِ [مِنَ الوافرِ] :

رَخِيْصٌ عِنْدَهُ مُهَجُ ٱلْعَوَالِيْ كَأَنَّ ٱلْمَوْتَ فِيْ فَكَّيْهِ شَهْدُ

وقولِ المزينيِّ [من الوافر] :

دَعَوْتُ بَنِيْ قُحَافَةَ فَٱسْتَجَابُوْا فَقُلْتُ : رِدُوْا فَقَدْ طَابَ ٱلْوُرُوْدُ

وقولِ أَبي تمَّامٍ [في « ديوانهِ » ٢/٩ مِنَ ٱلبسيطِ] :

يَسْتَعْذِبُوْنَ مَنَايَاهُمْ كَأَنَّهُمُ لاَ يَخْرُجُوْنَ مِنَ ٱلدُّنْيَا إِذَا قُتِلُوْا

تمييزه بين العسل الطائفي وغيره في أحلك الظروف

بلْ هوَ أكبرُ مِن ذلكَ وأَجلُّ ، ولقدِ ٱستسقىٰ ليلتَذِ ، فأَتاهُ بعضُ ٱلهاشميِّينَ بماءٍ فيهِ عَسَلٌ ، فقالَ لهُ : عسلُكَ هـٰذا طائفيٌّ ، فقالَ : يا عمُّ ، في مثلِ هـٰذا ٱلموقفِ الَّذي شخصَتْ فيهِ ٱلأَبصارُ ، وذُهلَتِ ٱلعقولُ ، وطاشَتِ ٱلأحلامُ ، وبلغَتِ ٱلقلوبُ ٱلحناجرَ ، تُفرِّقُ بينَ ٱلعسلِ ٱلطائفيِّ ممزوجاً ، وبينَ غيرِهِ ؟! فقالَ لهُ : يا ٱبنَ أَخي ، لَمْ يملأْ صدرَ عمِّكَ هَوْلٌ قطُّ ، فمَا كانَ أَحقَّهُ بقولِ ٱلأَعرابيِّ [مِنَ ٱلبسيطِ] :

لاَ يَمْلأُ ٱلْهَوْلُ صَدْرِيْ قَبْلَ مَوْقِعِهِ وَلاَ أَضِيْقُ بِهِ ذَرْعاً إِذَا وَقَعَا

وقولِ مهيارٍ [مِنَ ٱلكاملِ] :

جَبَلُ ٱلْعُلاَ سَعْيُ ٱلْهُمُوْمِ فُؤَادُهُ وَتُنَاطُ مِنْهُ بِقَارِحٍ مُتَعَوِّدِ

معرفة أبي العلاء ماء وطنه وقد مزج بماء الفرات وهو بالعراق

ونظيرُهَا ما حُكِيَ : أَنَّ أَبا ٱلعلاءِ لمَّا وَرَدَ (ٱلعراقَ) . . تشوَّقَ إِلىٰ وطنهِ ، فقالَ مِنْ أَثناءِ قصيدةٍ [كما في « ديوانهِ » ٢٨٥ مِنَ الطَّويلِ] :

فَيَا بَرْقُ لَيْسَ ٱلْكَرْخُ دَارِيْ وَإِنَّمَا رَمَانِيْ إِلَيْهِ ٱلدَّهْرُ مُنْذُ لَيَالِيْ
فَهَلْ فِيْكَ مِنْ مَاءِ ٱلْمَعَرَّةِ قَطْرَةٌ تَبُلُّ بِهَا ظَمْآنَ لَيْسَ بِسَالِيْ

فيقالُ : إِنَّ ٱلأَميرَ ٱستدعىٰ ماءً علىٰ خيلِ ٱلبريدِ مِنْ مَعَرَّةِ

النُّعمانِ ، وقدَّمهُ لهُ ممزوجاً بماءِ ٱلفراتِ ، فقالَ : هٰذا ماؤُهَا ، فأَينَ هواؤُها ؟ ولٰكنْ هيهاتَ هيهاتَ! فهٰذا يقولُهَا فِي رخاءِ ٱلبالِ ، وسَعَـةِ ٱلحـالِ ، وٱلإمـامُ يقـولُهَـا ، وقـدْ تقلَّصَـتِ ٱلخُصـىٰ[١] ، وتقاصرَتِ ٱلخُطَىٰ ، وشتَّانَ ما بينَ ٱلمقامينِ ، وبصدقٍ يقولُ : واللهِ لابْنُ أَبي طالبٍ آنسُ بٱلموتِ مِنَ الطِّفلِ بثديِ أُمِّهِ .

الإمام آنس بالموت من الطفل بثدي أمه وتفصيل هذا الكلام

وهٰذا أَبلغُ ممَّا يشبِّهُ ٱلناظمُ وغيرُهُ ٱلموتَ بٱلعسلِ ، وأَصدقُ من وجوهٍ :

أَحدُهَا : مطابقتُهُ للواقعِ وتظاهرُ ٱلبيِّناتِ بهِ .

ثانيها : أَنَّ اللَّبنَ أَفضلُ مِنَ ٱلعسلِ ، كما صرَّحَ بهِ فقهاؤُنا ، ولهٰذا كانَ ﷺ يحمدُ ٱللهَ كلَّما تناولَ شيئاً ، ويسأَلُهُ خيراً منهُ إلاَّ اللَّبنَ ، فإِنَّهُ يحمدُ ٱللهَ عليهِ ، ويستزيدُهُ منهُ[٢] .

ثالثُها : أَنَّ ٱلتذاذَ ٱلطِّفلِ بٱللَّبنِ أَكثرُ مِنْ غيرِهِ ، بل لا لذَّةَ لهُ سواهُ ، ولا صلاحَ لهُ بغيرِهِ .

رابعُها : أَنَّ ثديَ ٱلأُمِّ آنسُ لطفلِها مِنْ سائرِ ٱلثُّدَىٰ وٱلأَلبانِ .

خامسُها : ٱلإشارةُ إِلىٰ ما جاءَ في « ٱلصحيح » : « مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ ٱللهِ . أَحَبَّ ٱللهُ لقاءَهُ »[٣] ؛ ولذا قالَ آخرَهُ سيِّدُ ٱلمرسلينَ :

---

(١) تقلصّت الخُصىٰ : تشمَّرت إلى أعلىٰ من شدَّةِ الهول والفزعِ .

(٢) كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند أبي داوود (٣٧٣٠) ، والترمذي (٣٤٥٥) وحسنه وقال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أكل أحدكم طعاماً . . فليقل : اللهم بارك لنا فيه وأطعمنا خيراً منه ، ومن سقاه الله تعالى لبناً . . فليقل : اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه ، فإنه ليس شيء يجزىء من الطعام والشراب غير اللبن » .

(٣) أخرجه عن عبادة رضي الله عنه البخاري (٦٥٠٧) في الرقاق ، وفيه قول =

« ٱلرَّفِيْقَ ٱلأَعْلَىٰ »[1] ، ففي ٱلكلامِ مِنَ ٱلبدائعِ ما لا تتَّسِعُ لها ٱلمداركُ ، ولا تستقرُّ لها ٱلعقولُ .

ولا غرابةَ في صدورِها عن بابِ مدينةِ علمٍ[2] مَنْ لا ينطقُ عَنِ ٱلهوىٰ .

هٰذا وٱللهِ ٱلكلامُ ٱلذي تزلُّ ٱلعُصْمُ عَنْ صفاتِهِ ، وتختلجُ ٱلفصحاءُ عَنْ مرَقاتِهِ ، فلو أَنَّ قلباً تقطَّعَ ، أَو حجراً تصدَّعَ لعذوبةِ هٰذا ٱلكلامِ وحلاوتهِ وجزالتهِ وطلاوتهِ . . لكانَ محقوقاً بذلكَ ، فيا سبحانَ ٱلمانحِ ! .

استعذاب الموت في طلب العز عند الشعراء

وممّا يتّصلُ بما ٱلكلامُ فيهِ مِنِ ٱستعذابِ ٱلموتِ في طلبِ ٱلعزِّ . . قولُ عليِّ بنِ محمدٍ الصُّليحيِّ ٱلقائمِ بـ(اليمنِ) [مِنَ ٱلكاملِ] :

وَأَلَــذُّ مِــنْ قَــرْعِ ٱلْمَثَـانِـيْ عِنْـدَهُ ... فِيْ ٱلْحَرْبِ أَلْجِمْ يَا غُلَامُ وَأَسْرِجِ

= عائشة ، ومسلم (٢٦٨٣) في الذكر والدعاء . وفي الباب :

عن عائشة عند مسلم (٢٦٨٤) ، والترمذي (١٠٦٧) ، والنسائي (٤/ ١٠) وابن ماجه (٤٢٦٤) .

وكذا عن أبي موسى وأبي هريرة في صحيحيهما .

(١) أخرجه عن عائشة رضي الله عنها البخاري (٦٥٠٩) في الرقاق و(٣٦٦٩) ، ومسلم (٢٤٤٤) في فضائل الصحابة .

(٢) كما جاء في حديث علي رضي الله عنه عند الترمذي (٣٧٢٥) قال : « أنا دار الحكمة وعلي بابها » لكن قال الترمذي : حديث غريب منكر ، روى بعضهم هذا الحديث عن شريك ولم يذكروا فيه عن الصنابحي ، ولا نعرف هذا الحديث عن أحد من الثقات غير شريك . وفي الباب : عن ابن عباس رضي الله عنهما كما في « نفع القوت » : « أنا مدينة العلم وعلي بابها ، فمن أراد العلم فليأته من بابه » قال في « الاستيعاب » ت (١٨٥٥) : روي ، وصححه الحاكم وهو عند الطبراني .

خَيلٌ بِأَقْصَىٰ حَضْرَمَوْتَ مَغَارُهَا ... وَصَهِيْلُهَا بَيْنَ الْفُرَاتِ وَمَنْبِجِ

وقولُ ٱلعلويِّ صاحبِ الزّنجِ [مِنَ ٱلكاملِ] :

وَإِذَا تُنَازِعُنِي أَقُوْلُ لَهَا قِرِي ... مَوْتُ الْمُلُوْكِ عَلَىٰ صُعُودِ الْمِنبَرِ
مَا قَدْ قُضِيْ سَيَكُوْنُ فَٱصْطَبِرِيْ لَهُ ... وَلَكِ الأَمَانُ مِنَ الَّذِيْ لَمْ يُقْدَرِ

شدة ثبات جاش عبد الله بن الزبير

وسُئِلَ ابنُ أَبي مُليكةَ عن عبدِ ٱللهِ بنِ ٱلزبيرِ ، فقالَ : ما رأَيتُ أَثبتَ مِنْ نفسِهِ ؛ مرَّ حجرُ ٱلمنجنيقِ بينَ جنبِهِ وصدرِهِ ، وهو قائمٌ يصلِّي ، فما ٱضطربَ لَهُ ، ولا خشعَ بصرُهُ ، ولا قطعَ قراءتَهُ ، ولا ركعَ دونَ الرُّكوعِ ، فكأَنَّما عناهُ أَبو تمَّامٍ بقولِهِ [في « ديوانه » ٢/ ١٢٢ مِنَ الطَّويلِ] :

يَرَىٰ الْعَلْقَمَ الْمَأْدُوْمَ بِالْعِزِّ أَرْيَةً ... يَمَانِيَّةً وَالأَرْيَ بِالذُّلِّ عَلْقَمَا[1]

تشبيه الموت بالعسل اليماني

وفي هٰذا ٱلبيتِ مضربُ ٱلمثلِ بٱلعسلِ ٱليمانيِّ ، ولاَ شكَّ أَنَّ أَفضلَهُ عسلُ (حضرموتَ) ، فلهُ أَكبرُ شرفِ ٱلبيتِ ، وهو شبيهٌ بما سبقَ عن بعضِ ٱلخوارجِ قبيلَ قولِ الناظمِ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ١٦٠ مِنَ الطَّويلِ] :

وَخُضْرَةُ ثَوْبِ الْعَيْشِ فِيْ الْخُضْرَةِ الَّتِيْ ... تُرِيْكَ احْمِرَارَ الْمَوْتِ فِيْ مَدْرَجِ النَّمْلِ

الأحق بهذه الأشعار هو ابن الزبير

ولابنُ الزُّبيرِ أَحقُّ مِنِ ٱبنِ أَبي عُيينةَ بقولِهِ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَإِنِّي مِنْ قَوْمٍ كَأَنَّ نُفُوْسَهُمْ ... بِهَا أَنَفٌ أَنْ تَسْكُنَ اللَّحْمَ وَالدَّمَا

وقولِ أَبي تمَّامٍ أَيضاً [في « ديوانِهِ » ٢/ ٢٣٣ مِنَ ٱلبسيطِ] :

وَحَنَّ لِلْمَوْتِ حَتَّىٰ ظَنَّ مُبْصِرُهُ ... بِأَنَّهُ حَنَّ مُشْتَاقاً إِلَىٰ وَطَنِ
لَوْ لَمْ يَمُتْ تَحْتَ أَسْيَافِ الْعِدَا كَرَماً ... لَمَاتَ إِذْ لَمْ يَمُتْ مِنْ شِدَّةِ الْحَزَنِ

---

(١) الأَرْيُ : العَسَلُ .

وقولِهِ [في «ديوانه» ٢/١٦٩ مِنَ الكاملِ] :

لِحِيَـاضِهَـا مُتَـوَرِّدٌ وَلِخَبْطِهَـا   مُتَعَـوِّدٌ وَبِـدَرِّهَـا مَلْبُـوْنُ

الجمال لا ينافي الشجاعة

ولله درُّ القائلِ [مِنَ الكاملِ] :

عُقْبَانُ رَوْعٍ وَالسُّرُوْجُ وُكُوْرُهَا   وَلُيُوْثُ حَرْبٍ وَالْقَنَا آجَامُ[1]

وَبُدُوْرُ تِمٍّ ، وَالشَّوَائِكُ فِيْ الْوَغَىٰ   هَـالاَتُهَـا وَالسَّـابِـرِيُّ غَمَـامُ[2]

جَادُوْا بِمَمْنُوْعِ التِّلاَدِ وَجَوَّدُوْا   ضَرْباً تُحَذُّ بِهِ الطُّلاَ وَالْهَامُ[3]

وَتَجَاوَرَتْ أَسْيَافُهُمْ وَجِيَادُهُمْ   فَالأَرْضُ تُمْطَرُ وَالسَّمَاءُ تُغَامُ

يستمهل السجان كي يتم لعبة الشطرنج

ومازالتِ العربُ تسيرُ إلىٰ الموتِ بالخطىٰ الواسعةِ ، وتتلقَّاهُ بالصُّدورِ الرَّحبةِ ، أَوَ ما رأيتَ هُدبةَ بنَ الخشرمِ لَمْ ينزعجْ لمّا دُعِيَ للقتلِ! ؟ ولـٰكنَّهُ استمهلَ السَّجَّانَ ريثَما يُتِمُّ لعبتَهُ بالشَّطرنجِ ، فهوَ واللهِ صادقٌ إنْ أرادَ نفسَهُ في قولِهِ [في «شعره» ١٠٩ مِنَ الطَّويلِ] :

أَخُوْ الْحَرْبِ مَنْ لا يَجْتَوِيْهَا إِذَا اجْتَوَتْ   وَلاَ يُظْهِرُ الشَّكْوَىٰ وَإِنْ كَانَ مُوْجَعَا

وسنستوفي حديثَهُ في مجلسٍ آخرَ .

شجاعة أبي نعامة

وصدقَ أيضاً أخو الشُّراةِ أبو نعامةَ في قولِهِ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَوْ قَرَّبَ الْمَوْتَ الْقِرَاعُ لَقَدْ أَنَىٰ   لِمَوْتِيَ أَنْ يَدْنُوْ لِطُوْلِ قِرَاعِيَا

أُغَـادِيْ قِتَـالَ الْمُعْلَمِيْـنَ كَـأَنَّنِـيْ   عَلَىٰ الْعَسَلِ الْمَاذِيِّ أُصْبِحُ غَادِيَا[4]

---

(١) الآجامُ : الشجرُ الكثيرُ الملتفُ ، وهو كنايةٌ عن كثرةِ الرماحِ .
(٢) السابري : الدرع .
(٣) الطُّلا : الأعناق .
(٤) الماذي : الأبيض الرقيق .

وأَمرَ مصعبُ بنُ الزُّبيرِ رجلاً مِن بني أَسدٍ بقتلِ مُرَّةَ بنِ مَحْكانَ ، فتقدَّمَ بجأْشٍ رابطٍ ، وأَنشأَ يقولُ [مِنَ الطَّويلِ] :

شجاعة ابن محكان

بَنِـيْ أَسَـدٍ إِنْ تَقْتُلُـوْنِـيْ تُحَـارِبُـوْا ... تَمِيْماً إِذَا ٱلْحَرْبُ ٱلْعَوَانُ ٱشْمَعَلَّتِ[1]

وَلَسْتُ وَإِنْ كَانَتْ إِلَيَّ حَبِيْبَةً ... بِبَاكٍ عَلَىٰ ٱلدُّنْيَا إِذَا مَا تَوَلَّتِ

ولو رَوَّىٰ في هٰذا الشِّعرِ صاحبُ دَعَةٍ . . لَمَا نَقَّحَهُ هٰذا التَّنقيحَ وأَبدعَهُ .

ولمّا أُسِرَ عبدُ بنُ يغوثَ ، وشدُّوا لسانَهُ مخافةَ ٱلهجاءِ . . ٱلتمسَ منهُم أَنْ يُطلِقوهُ ؛ لينوحَ علىٰ نفسِهِ ، وعاهدَهُم أَنْ لا يهجوَهُم ، فأَطلقوا لسانَهُ[2] ، فقالَ [مِنَ الطَّويلِ] :

عبد بن يغوث ينوح على نفسه قبل قتله بقصيدة شعرية رائعة

أَلاَ لاَ تَلُوْمَانِيْ كَفَىٰ ٱللَّوْمَ مَا بِيَا ... فَمَا لَكُمَا فِيْ ٱللَّوْمِ خَيْرٌ وَلاَ لِيَا

أَيَا رَاكِباً إِمَّا عَرَضْتَ فَبَلِّغَنْ ... نَدَامَايَ مِنْ نَجْرَانَ أَنْ لاَ تَلاَقِيَا

جَزَىٰ ٱللهُ قَوْمِيْ بِٱلْكُلاَبِ مَلاَمَةً ... صَرِيْحَهُمُ وَٱلآخَرِيْنَ ٱلْمَوَالِيَا

أَبَا كُرَبٍ وَٱلأَيْهَمِيْـنِ كِـلاَهُـمَـا ... وَقَيْساً بِأَعلَىٰ حَضْرَمَوْتَ ٱلْيَمَانِيَا

أَقُوْلُ وَقَدْ شَدُّوْا لِسَانِيْ بِنِسْعَةٍ ... أَمَعْشَرَ تَيْمٍ أَطْلِقُوْا مِنْ لِسَانِيَا[3]

فَإِنْ تَقْتُلُوْنِيْ تَقْتُلُوْنِيْ بِخَيْرِكُمْ ... وَإِنْ تُطْلِقُوْنِيْ تَحْرُبُوْنِي بِمَالِيَا[4]

وَتَضْحَكُ مِنِّيْ شَيْخَةٌ عَبْشَمِيَّةٌ ... كَأَنْ لَمْ تَرَىٰ قَبْلِيْ أَسِيْرَاً يَمَانِيَا[5]

---

(١) العوانُ اشمعلَّتِ : الحرب اتسعت وتكررت معاركها .
(٢) انظر الأبيات والقصة في « الأغاني » (١٦/ ٣٦١-٣٦٢) .
(٣) النِّسعُ : حبلٌ مضفورٌ يُجعلُ زماماً للبعيرِ وغيرِهِ .
(٤) تحرُبوني : تسلِبوني جميعَ ما أَملكُ .
(٥) عبشميَّةٌ : أي من بني عبد شمس .

وَقَدْ عَلِمَتْ عِرْسِيْ مُلَيْكَةُ أَنَّنِيْ أَنَا ٱللَّيْثُ مَعْدُوّاً عَلَيْهِ وَعَادِيَا
وَكُنْتُ إِذَا مَا ٱلْخَيْلُ سَمَّمَهَا ٱلْقَنَا لَبِيْقاً بِتَعْرِيْفِ ٱلْقَنَاةِ بَنَانِيَا
وَعَادِيَةٍ سَوْمَ ٱلْجِرَامِ وَزَعْتُهَا بِكَفِّيْ وَقَدْ أَنْحَوْا إِلَيَّ ٱلْعَوَالِيَا[1]
كَأَنِّيَ لَمْ أَرْكَبْ جَوَاداً وَلَمْ أَقُلْ لِخَيْلِي : كُرِّيْ مَرَّةً عَنْ رِجَالِيَا
وَلَمْ أَسْبَأِ ٱلزِّقَّ ٱلرَّوِيَّ وَلَمْ أَقُلْ لأَيْسَارِ صِدْقٍ: أَعْظِمُوْا ضَوْءَ نَارِيَا[2]

وعرضَ عليهِم ألفَ ناقةٍ في فدائِهِ ، فلمْ يقبلُوا ، وإنَّها لعِزَّةٌ باهرةٌ وشهامةٌ ظاهرةٌ .

شجاعة طرفة بن العبد

أَمَّا طرفةُ بنُ ٱلعبدِ . . فلم يَتَجَلَّجْ[3] عندَ ٱلقتلِ ، غيرَ أَنَّهُ خضعَ في بعضِ ٱلقولِ ؛ إذْ أنشدَ حينئذٍ [في « ديوانه » ١٧٢-١٧٣ مِنَ الطَّويلِ] :

أَبَا مُنْذِرٍ كَانَتْ غُرُوْراً صَحِيْفَتِيْ وَلَمْ أُعْطِكُمْ فِيْ ٱلطَّوْعِ مَالِيْ وَلاَ عِرْضِيْ
أَبَا مُنْذِرٍ أَفْنَيْتَ فَاسْتَبْقِ بَعْضَنَا حَنَانَيْكَ بَعْضُ ٱلشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضِ

عبيد بن الأبرص يخاف الموت

وَأَمَّا عُبيدُ بنُ ٱلأَبرصِ . . فتلعثمَتْ لسانُهُ خوفَ ٱلقتلِ ، ولمَّا قالَ لهُ النُّعمانُ يومَ بُؤْسِهِ: أَنشدني . . قالَ: حالَ ٱلجَريضُ دونَ ٱلقريضِ[4] .

---

(١) العاديَةُ : الخيلُ تَعدو . السَّومُ : سرعةُ المَرِّ مع قصدِ الصوبِ ، وسَوْمُ الرياحِ : مُرُّها . الجِرْمُ : ألواحُ الجسدِ وجثمانُهُ . وَزَعتُها : فرَّقتُها .
(٢) سَبأَ الخمر : إذا حملَها مِن بلدٍ إلىٰ بلدٍ واشتراها ليشربَها . الزِّقُّ : هوَ وعاءٌ من جلد تنقلُ فيهِ الخمرُ .
(٣) الجلجُ : القلقُ والاضطرابُ .
(٤) الجريض : الغصةُ بالريقِ مِنْ هَمٍّ أو نحوِهِ . القريضُ : الشِّعرُ ، وَهُو مثلٌ عربيٌّ ، أصلُهُ : أَنَّ رجلاً كانَ لهُ ابنٌ نبغَ في الشِّعرِ ، فنهاهُ أبوهُ عنْ ذلكَ ، فَجَاشَ بِهِ صدرُهُ ومَرِضَ حتى أشرفَ علىٰ الهلاكِ ، فَأَذِنَ لهُ أبوهُ في قولِ الشِّعرِ فقالَ هذَا القولَ .

تميم بن جميل يتكلم خطبة حال قتله يعجز عنها من هو في الدَّعة

ومِنْ خيرِ مَا في ٱلموضوعِ : حديثُ تميمِ بنِ جميلٍ[1] ، فقد جاشَ خاطرُهُ حينَ قدَّمهُ ٱلمعتصمُ للقتلِ بأَبياتٍ ، لو رَوَّىٰ شاعرٌ في مثلِها حولاً . . لَما بلغَ أَصغرَ آنيتِهِ ، وهٰذا ما بٱلذهن منها [مِنَ الطَّويلِ] :

---

(١) كانَ تميمُ بنُ جميلٍ السدوسيُّ قد خرجَ بشاطىءِ الفراتِ وٱجتمعَ إليهِ الكثيرُ مِنَ الأَعرابِ فَعَظُمَ أَمرُهُ ، وبَعُدَ ذِكرُهُ ، فكتبَ ٱلمعتصمُ إِلىٰ مالكِ بنِ طوقٍ في النهوضِ إِليهِ ، فبدَّدَ جمعَهُ وظَفِرَ بهِ ، فحمله موثقاً إلى المعتصم ، قال أحمدُ ٱبنُ أبي داوود : ما رأينا رجلاً عاين الموت فما هالهُ ، ولا أَذْهَلَهُ عمَّا كان يجبُ عليهِ أَن يفعلَهُ إِلاَّ تميمُ بنُ جميلٍ ، فإِنَّهُ أَوفىٰ بهِ الرسولُ بابَ أَميرِ المؤمنينَ المعتصمِ في يومِ الموكبِ حينَ يجلسُ للعامَّةِ ، ودخلَ عليهِ ، فلمَّا مَثُلَ بينَ يديهِ . . دَعا بالنطعِ والسيفِ فأُحضِرا ، فجعلَ تميمُ بنُ جميلٍ ينظرُ إِليهما ولا يقولُ شيئاً ، وجعلَ المعتصمُ يُصعِّدُ النظرَ فيهِ ، ويصوِّبُهُ ، وكانَ جسيماً وسيماً ، ورأَىٰ أَن يستنطقَهُ لينظرَ أَينَ جنانُهُ ولسانُهُ مِن منظرِهِ ، فقالَ : يا تميمُ ، إِنْ كانَ لكَ عذرٌ . . فأْتِ بهِ ، أَو حجَّةٌ . . فأَدْلِ بها ، فقالَ : أَمَّا إِذ قد أَذِنَ لي أَميرُ المؤمنينَ : فإِنِّي أَقولُ : الحمدُ للهِ الذي أَحسنَ كلَّ شيءٍ خلَقَهُ ، وبدأَ خلقَ الإِنسانِ مِن طينٍ ، ثمَّ جعلَ نسلَهُ مِن سلالةٍ مِن ماءٍ مهينٍ ، جبرَ بكَ صدعَ الأُمَّةِ ، ولَمَّ بكَ شَعَثَ المسلمينَ ، وأَوضحَ بكَ سُبُلَ الحقِّ ، وأَخمدَ بكَ شهابَ الباطلِ ، يا أَميرَ المؤمنينَ ، إِنَّ الذنوبَ تُخرِسُ الأَلسنةَ الفصيحةَ ، وتُعْيِي ٱلأَفئدةَ الصحيحةَ ، ولقد عظمتِ الجريرةُ ، وٱنقطعتِ الحجَّةُ ، وكَبُرَ الذنبُ ، وساءَ الظنُّ ، ولم يبقَ إِلاَّ عفوُكَ أَوِ ٱنتقامُكَ ، وأَرجو أَن يكونَ أَقربُهما منِّي وأَسرعُهما إِليَّ أَولاَهُما بامتنانكَ ، وأَشبَهَهُما بخلافتِكَ ثمَّ أَنشأَ يقولُ :

(أَرَىٰ ٱلْمَوْتَ) . . . . الأبيات .

فتبسَّمَ المعتصمُ ، وقالَ : كادَ واللهِ ـ يا تميمُ ـ أَن يسبقَ السيفُ العذلَ ، ٱذهب فقد غفرتُ لكَ الصبوةَ ، ووهبتُكَ للصِّبْيَةِ ، ثمَّ أمرَ بفكِّ قيودِهِ ، وخلَعَ عليهِ ، وعقدَ لهُ بشاطىءِ (الفراتِ) . « جمهرة خطب العرب » (٣/ ١٤٥) .

أَرَىٰ ٱلْمَوْتَ بَيْنَ ٱلسَّيْفِ وَٱلنِّطْعِ كَامِناً يُلاَحِظُنِي مِنْ حَيْثُ مَا أَتَلَفَّتُ[1]
وَأَيُّ ٱمْرِىءٍ يُدْلِي بِعُذْرٍ وَحُجَّةٍ وَسَيْفُ ٱلْمَنَايَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ مُصْلَتُ
يَعِزُّ عَلَىٰ ٱلأَوْسِ بْنِ تَغْلِبَ مَوْقِفٌ يُسَلُّ عَلَيَّ ٱلسَّيْفُ فِيهِ فَأَسْكُتُ
وَمَا جَزَعِي مِنْ أَنْ أَمُوتَ وَإِنَّنِي لأَعْلَمُ أَنَّ ٱلْمَوْتَ شَيْءٌ مُوَقَّتُ
وَلَـٰكِنَّ خَلْفِي صِبْيَةً قَدْ تَرَكْتُهُمْ وَأَكْبَادُهُمْ مِنْ حَسْرَةٍ تَتَفَتَّتُ
فَإِنْ عِشْتُ عَاشُوْا خَافِضِيْنَ بِغِبْطَةٍ أَذُوْدُ ٱلرَّدَىٰ عَنْهُمْ وَإِنْ مِتُّ مُوِّتُوا[2]
وَكَمْ قَائِلٍ : لاَ يُبْعِدُ ٱللهُ دَارَهُ وَآخَرَ جَذْلاَنٌ يُسَرُّ وَيَشْمَتُ

علي بن الجهم يصلب وهو حي عرياناً

وقالَ عليُّ بنُ ٱلجهمِ ، وقد صلبوهُ وهوَ حيٌّ عُرياناً [في « ديوانهِ » ١٧١-١٧٢ مِنَ ٱلكاملِ] :

لَمْ يَنْصِبُوْا بِٱلشَّاذِيَاخِ عَشِيَّةَ ٱلْـ إِثْنَيْنِ مَغْلُوْلاً وَلاَ مَجْهُوْلاَ[3]
نَصَبُوْا بِحَمْدِ ٱللهِ مِلْءَ عُيُوْنِهِمْ حُسْناً وَمِلْءَ صُدُوْرِهِمْ تَبْجِيْلاَ
مَا ضَرَّهُ أَنْ بُزَّ عَنْهُ لِبَاسُهُ فَٱلسَّيْفُ أَهْوَلُ مَا يُرَىٰ مَسْلُوْلاَ

نجدة القرآن وشهامته

ومِنْ مفاخرِ ٱلعربِ إجابةُ ٱلصَّوتِ ، وإغاثةُ ٱلصَّريخِ ، وٱلاستهانةُ بٱلموتِ في سبيلِ ذلك ، حتَّىٰ لقد قامَ أحدُ عظماءِ ٱلأدبِ ٱلمصريِّينَ بمنىٰ عامَ حَجَجْنا ، فقالَ :

إنَّني تأمَّلتُ القرآنَ . . فوجدْتُ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات : ٩] ، ما يشبهُ قانونَ جمعيَّةِ ٱلأُمَمِ ،

---

(١) النِّطْعُ : بساط من الجلدِ يقتل عليه المحكوم بالقتل .
(٢) خافضين : من الخفض ، وهو الدَّعَةُ .
(٣) الشَّاذياخُ : ضاحيةٌ مِن ضواحي (نيسابورَ) .

فلمَّا انتهى إليَّ القولُ . . تعرَّضْتُ لمقالِهِ ، مِنْ إعجابي بموضوعِهِ ، وقلْتُ : أمَّا نجدةُ ٱلقرآنِ وشهامتهُ ، وتمكينُهُ للسلامِ بٱلعدلِ ، وٱلانتصافِ مِنْ وراءِ كلِّ قياسٍ . . لا يوزنُ بهِ ٱليومَ شيءٌ مِنْ أحوالِ ٱلناسِ ، لكنْ بينَ أيدينا مثالٌ مِنْ أعمالِ أهلِ ٱلجاهليَّةِ ٱلجهلاءِ ، يزيدُ علىٰ ما في قانونِ تلكَ ٱلجمعيَّةِ ، مِنْ وجوهِ ذلكَ ، ٱلمثالُ هو حلفُ الفضولِ ، الذي يقولُ عنه ﷺ : « **لَقَدْ شَهِدْتُ حِلْفاً في دَارِ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ جدعَانَ ، مَا أُحِبُّ أَنَّ لِيْ بِهِ حُمْرَ ٱلنَّعَمِ ، وَلَوْ دُعِيْتُ بِهِ فِيْ ٱلإِسْلامِ . . لأَجَبْتُ** »[1] .

وجوه فضل حلف الفضول

وأمَّا وجوهُ فضلِهِ :

فمنها : أَنَّ قانونَ تلكَ ٱلجمعيَّةِ لا يتعهَّدُ بنصرِ مَنْ لم ينضمَّ إليها ، وإنَّما هو مقصورٌ علىٰ أهلِها فقط ـ فيما إخالُ ـ بخلافِ حلفِ ٱلفضولِ ، فقدِ ٱقتطعَ علىٰ نفسِهِ نصرةَ ٱلمظلومِ ، أيّاً كانَ ، مِنْ غيرِ شرطٍ ولا قيدٍ .

السرعة في إجابة المنادي دون أي سؤال

ومنها : أَنَّ نصرَ جمعيَّةِ ٱلأُممِ ضمارٌ[2] ووعدٌ ، ونصرَ هٰذا خلاصٌ ونقدٌ ، وما بينَ ٱلمظلومِ وبينَهُ إلاَّ أَنْ ينادِيَ يا آلَ حِلفِ ٱلفضولِ ، فتتبادرهُ ٱلسيوفُ ، ثُمَّ لا تنحجزُ عنهُ حتَّىٰ تستخرجَ لهُ حقَّهُ ممَّنْ كانَ ، وللهِ درُّ بَشامةَ بنِ حَزَنٍ إذْ يقولُ [في « الكاملِ » ١/١٤٦ مِنَ ٱلبسيطِ] :

إنَّـا لَمِـنْ مَعْشَـرٍ أَفْنَـىٰ أَوَائِلَهُـمْ قِيْلُ ٱلْكُمَاةِ أَلاَ أَيْنَ ٱلْمُحَامُوْنَا

---

(١) أخرجه البيهقي في « السنن الكبرى » (٦/ ٣٦٧) عن طلحة بن عبيد الله ، ومحمد بن إسحاق الفاكهي في « أخبار مكة » (٥/ ١٩١) بنحوه .

(٢) الضِّمارُ : ما لا يُرجى من الدَّينِ والوعدِ ، وكلُّ ما لا تكونُ منهُ علىٰ ثقةٍ .

لَوْ كَانَ فِيْ الأَلْفِ مِنَّا وَاحِدٌ وَدَعَوْا: مَنْ فَارِسٌ ؟ خَالَهُمْ إِيَّاهُ يَعْنُوْنَا
وَلاَ تَرَاهُمْ وَإِنْ جَلَّتْ مُصِيْبَتُهُمْ مَعَ الْبُكَاةِ عَلَىٰ مَنْ مَاتَ يَبْكُوْنَا

وقالَ طرفَةُ [في « ديوانهِ » ٢٧ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا الْقَوْمُ قَالُوْا: مَنْ فَتىً؟ خِلْتُ أَنَّنِيْ عُنِيْتُ فَلَمْ أَكْسَلْ وَلَمْ أَتَبَلَّدِ

وقالَ بعضُ العربِ [مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا مَا دُعُوْا لَمْ يَسْأَلُوْا مَنْ دَعَاهُمُ لأَيَّةِ حَرْبٍ أَمْ بِأَيِّ مَكَانِ

وقالَ سلاَمةُ بنُ جندَلٍ [في « ديوانهِ » ١٢٥ مِنَ البسيطِ] :

إِنَّا إِذَا مَا أَتَانَا صَارِخٌ فَزِعٌ كَانَ الصُّرَاخُ لَهُ قَرْعَ الظَّنَابِيْبِ(١)

وقالَ الحُطيئَةُ [مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا مَا دُعُوْا لَمْ يَسْأَلُوْا مَنْ دَعَاهُمُ وَلَمْ يُمْسِكُوْا فَوْقَ الْقُلُوْبِ الْخَوَافِقِ
أَحَلُّوْا حِيَاضَ الْمَوْتِ فَوْقَ جِبَاهِهِمْ مَكَانَ النَّوَاصِيْ مِنْ وُجُوْهِ السَّوَابِقِ

وقالَ الكلحبةُ [في « المفضَّليّاتِ » ١/ ١٤٤ مِنَ الطَّويلِ] :

وَقُلْتُ لِكَأْسٍ : أَلْجِمِيْهَا فَإِنَّمَا نَزَلْنَا الْكَثِيْبَ مِنْ زَرُوْدَ لِنَفْزَعَا(٢)

وقالَ الرَّاعي [مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا مَا فَزِعْنَا أَوْ دُعِيْنَا لِنَجْدَةٍ لَبِسْنَا عَلَيْهِنَّ الْحَدِيْدَ الْمُسَرَّدَا(٣)

---

(١) الظُّنبوبُ : حرفُ الساقِ اليابسِ ، وعَنىٰ بذلكَ سرعةَ الإجابةِ ، وجعلَ قرعَ السوطِ علىٰ ساقِ الخفِّ ، في زجرِ الفرسِ ، قرعاً للظُّنْبُوبِ .

(٢) كأسٍ : اسمُ ابنتِهِ . زَرُوْدَ : اسمُ مكانٍ . الكثيبُ : الرمل المجتمعُ . نَفزَعُ : نغيثُ .

(٣) السَّرْدُ : اسمٌ جامعٌ للدروعِ وغيرِها مِن سائرِ الحِلَقِ .

وقال قُرَيْطٌ [في « شرحِ الحماسةِ » ١٢/٣٥٨ مِنَ البسيطِ] :

لاَ يَسْأَلُوْنَ أَخَاهُمْ حِيْنَ يَنْدُبُهُمْ فِيْ النَّائِبَاتِ عَلَىٰ مَا قَالَ بُرْهَانَا
قَوْمٌ إِذَا الشَّرُّ أَبْدَىٰ نَاجِذَيْهِ لَهُمْ طَارُوْا إِلَيْهِ زَرَافَاتٍ وَوُحْدَانَا

وقالَ الحماسيُّ [سعد بن مالك بن ثعلبة في « شرحِ الحماسةِ » ١/١٩٩ مِنَ الطَّويلِ] :

دَعَـوْتُ بَنِـيْ قَيْـسٍ إِلَيَّ فَشَمَّـرَتْ خَنَاذِيْذُ مِنْ سَعْدٍ طِوَالُ السَّوَاعِدِ[1]
إِذَا مَا قُلُوْبُ الْقَوْمِ طَارَتْ مَخَافَةً مِنَ الْمَوْتِ أَرْسَوْا بِالنُّفُوْسِ النَّوَاجِدِ[2]

ويعجبني قولُ أَبي حوية ، وهوَ ابنُ عمِّ الأَميرِ قرواشِ بنِ المقلَّدِ ـ صاحبِ (الموصلِ) ـ [مِنَ الكاملِ] :

قَوْمٌ إِذَا الْتُحَمَ الْعَجَاجُ رَأَيْتَهُمْ أُسُداً وَخِلْتَ وُجُوْهَهُمْ أَقْمَارَا
لاَ يَبْخَلُوْنَ بِرِفْدِهِمْ عَنْ سَائِلٍ عَـدَلَ الـزَّمَـانُ عَلَيْهِـمُ أَوْ جَـارَا
وَإِذَا الصَّـرِيْـخُ دَعَـاهُـمُ لِمُلِمَّـةٍ بَذَلُوْا النُّفُوْسَ وَأَرْخَصُوْا الأَعْمَارَا
وَإِذَا زِنَادُ الْحَرْبِ أُخْمِدَ نَارُهَا قَـدَحُـوْا بِـأَطْـرَافِ الأَسِنَّـةِ نَـارَا

سرعة النبي ﷺ إلى إجابة الصوت

تلكَ هي شمائلُ العربِ ، الَّتي كانَ بعضُهَا يأكلُ الميْتاتِ ، ويدفنُ البناتِ علىٰ قيد الحياةِ ، ثُمَّ جاءَ الإِسلامُ بإِتمامِ مكارمِ الأَخلاقِ[3] ، وكانَ صاحبُ شريعةِ الإِسلامِ ﷺ أَسرعَ النَّاسِ إِلىٰ الصَّوتِ ، حَتَّىٰ لقد كانَ فَزَعٌ بـ(المدينةِ) ، فركبَ علىٰ فرسٍ عُرْيٍ

---

(١) الخِنْذِيذُ : هوَ الشجاعُ الذي لا يُهتدىٰ لقتالِهِ .
(٢) النواجد : الشجعان .
(٣) لما ورد عن أبي هريرة عند أحمد والحاكم والبيهقي قوله ﷺ : « إنما بثعت لأتمم مكارم الأخلاق » .

لأَبي طلحةَ ، وسبقَ النَّاسَ إلىٰ الصَّريخِ ، وقالَ : « إنْ وَجَدْنَاهُ ـ يعني : الفرسَ ـ لَبَحْرَاً »(١) .

السبب في شجاعة الصحابة رضوان الله عليهم أنها جبلَّة ودين وملَّة

وَمَا بالكَ بقومٍ علمتَ مِنْ أَنَفِهِم وحميَّتِهِم وحفاظِهِم ما علمْتَ ، وأكرمَهُم ٱللهُ بٱلإسلامِ ، حتَّىٰ خالطَ قلوبَهم ، وٱمتزجَ بلحومِهِم ودمائِهم ، ثُمَّ أنزلَ ٱللهُ عليهم أمثالَ قولِهِ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ [الصف : ١٠ـ١٣] ، وقولِهِ : ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة : ٤١] ، وقولِهِ : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة : ١١١] .

فإنَّهم بعدَ أَنْ كانَتْ حميَّتُهُم جبِلَّةً صارَتْ ديناً وملَّةً ، فلا جرمَ علىٰ قلَّةِ ٱلعَدَدِ ، وضعفِ ٱلعُدَدِ ، ٱنكفؤُوا علىٰ عروشِ الملوكِ ، وأبلَوا ما يشهدُ بهِ التَّاريخُ في ٱلقادسيَّةِ وٱليرموكِ ، وللهِ درُّ ٱلقائلِ فيهم [مِنَ الرمَلِ] :

قِفْ عَلَىٰ ٱلْيَرْمُوْكِ وَٱخْضَعْ جَاثِياً وَتَيَمَّمْ مِنْ صَعِيْدِ ٱلْقَادِسِيَّهْ

---

(١) أخرجه عن أنس رضي الله عنه البخاري (٢٦٢٧) في الهبة، ومسلم (٢٣٠٧) في الفضائل.

تُـــرْبَـــةٌ طَيِّبَـــةٌ طَـــاهِـــرَةٌ   وَقُبُـوْرٌ مِـنْ حَيَـا ٱلنَّقْـعِ نَـدِيَّـهْ
يَـا قُبُـوْراً مُحِيَـتْ وَٱنْـدَرَسَـتْ   أَنْتِ نِبْرَاسُ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْوَطَنِيَّهْ
هَاهُنَا مَثْوىٰ ٱلصَّنَادِيْدِ ٱلأُلَىٰ   دَوَّخُوْا ٱلْكُفْرَ بِبِيْضٍ ٱلْمَشْرَفِيَّهْ
دَوَّخُـوْا ٱلـرُّوْمَ وَثَلُّـوْا عَـرْشَهَـا   وَطَوَوْا حُمْرَ ٱلْبُنُوْدِ ٱلْفَارِسِيَّهْ

فحدِّثْ ولا حرجَ عنهم ، فإنَّ لهم في إرخاصِ النُّفوسِ ، وٱستعذابِ ٱلبؤسِ ، وإغاثةِ الصَّريخِ ، ونصرِ ٱلمظلومِ ، وكسبِ ٱلمعدومِ . . ما صغَّرَ كلَّ عظيمٍ ، وحَثَا في وجهِ كلِّ مُقْرِمٍ[1] ، وغبَّرَ في قبلةِ كلِّ شجاعٍ ، ولقد أَلقىٰ بعضُهم تمراتٍ في يدِهِ ٱستعجالاً للشهادةِ[2] .

وقالَ آخرُ : إنِّي لأَشمُّ رائحةَ ٱلجنَّةِ مِنْ جهةِ أُحدٍ ، في كثيرٍ مِنْ تلكَ الأَمثالِ .

الصحابة الكرام أحق بجميع الأشعار المادحة والثناء البالغ

فما أَحقَّهم بقولِ أَبي تمَّامٍ [في « ديوانهِ » ٧٨ مِنَ ٱلكاملِ] :

مُتَرَسِّلِيْنَ إِلَىٰ ٱلْحُتُوْفِ كَأَنَّمَا   بَيْـنَ ٱلْحُتُـوْفِ وَبَيْنَهُـمْ أَرْحَـامُ

---

(١) المُقْرِمُ : السيِّدُ العظيم ، المقدَّمُ في المعرفَةِ وتجارِبِ الأمورِ .
(٢) وذلكَ في الحديث الذي أَخرجهُ مسلمٌ (١٩٠١) في الإمارةِ ، عَن أَنسِ بنِ مالكٍ رَضيَ اللهُ عنهُ قالَ : قالَ رسولُ الله ﷺ يومَ بدرٍ : « قوموا إلى جنَّةٍ عرضُها السماواتُ والأرضُ ، قالَ : يقولُ عميرُ بنُ الحُمَامِ الأنصاريُّ : يا رسولَ الله ، جنَّةٌ عرضُها السماواتُ والأَرضُ ؟ قالَ : نعَمْ ، قالَ : بَخٍ بَخٍ ، قالَ رسولُ اللهِ ﷺ : مَا يحمِلُكَ علىٰ قولِ بَخٍ بَخٍ ؟ قالَ : لا واللهِ يا رسولَ اللهِ إلاَّ رجاءَةَ أَن أكونَ مِن أَهلِها ، قالَ : فإنَّكَ مِن أَهلِها ، فأَخرجَ تمراتٍ مِن قرنِهِ فجعلَ يأْكلُ منهنَّ ، ثُمَّ قالَ : لئِن حييتُ حتَّىٰ آكلَ تمراتي هذهِ إنَّها لحياةٌ طويلةٌ ، قالَ فرمىٰ بما كانَ معهُ مِنَ ٱلتمرِ ، ثمَّ قاتلَ حتَّىٰ قُتِلَ » .

وقولِ ٱلبُحتريِّ [مِنَ ٱلكاملِ] :

مُتَرَسِّلِيْنَ إِلَىٰ ٱلْحُتُوفِ كَأَنَّهَا وَفْرٌ بِأَرْضِ عَدُوِّهِمْ يُتَنَهَّبُ[1]

وقولِهِ أيضاً [في « ديوانه » ١/١٧٨ مِنَ الطَّويلِ] :

تَسَرَّعَ حَتَّىٰ قَالَ مَنْ شَهِدَ ٱلْوَغَىٰ لِقَاءُ أَعَادٍ ، أَمْ لِقَاءُ حَبَائِبِ ؟!

وقولِ بعضِهِم [مِنَ ٱلكاملِ] :

قَوْمٌ شَرَابُ سُيُوْفِهِمْ وَرِمَاحِهِمْ فِـيْ كُـلِّ مُعْتَـرَكٍ دَمُ ٱلأَشْـرَافِ
يَتَحَنَّنُـوْنَ إِلَـىٰ لِقَـاءِ عَـدُوِّهِـمْ كَتَحَنُّـــنِ ٱلأُلاَّفِ لِـــلأُلاَّفِ
وَيُبَاشِرُونَ ظُبَا ٱلسُّيُوْفِ بِأَنْفُسٍ أَمضَىٰ وَأَقْطَعُ مِنْ ظُبَا ٱلأَسْيَافِ

وقولِ النَّاظمِ [في « العُكبَريِّ » ٢/١٤٨ مِنَ الطَّويلِ] :

وَأَقْـدَمْـتُ إِقْـدَامَ ٱلأَتِـيِّ كَـأَنَّ لِـيْ سِوَىٰ مُهْجَتِيْ أَوْ كَانَ لِيْ عِنْدَهَا وِتْرُ[2]

وقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ١/١٢١ مِنَ ٱلبسيطِ] :

بِكُلِّ أَشْعَثَ يَلْقَىٰ ٱلْمَوْتَ مُبْتَسِماً حَتَّـىٰ كَـأَنَّ لَـهُ فِـيْ قَتْلِـهِ أَرَبَـا

وقولِ أَبي فراسٍ [في « ديوانه » ٣٩ مِنَ الطَّويلِ] :

صَبُوْرٌ وَلَوْ لَمْ تَبْقَ مِنِّيْ بَقِيَّةٌ قَؤُوْلٌ وَلَوْ أَنَّ ٱلسُّيُوْفَ جَوَابُ
وَقُوْرٌ وَأَحْدَاثُ ٱللَّيَالِيْ تَنُوْشُنِيْ وَلِلْمَوْتِ حَوْلِيْ جَيْئَةٌ وَذَهَابُ

أجمع الآيات في النجدة

ومِنْ أَجمعِ ٱلآياتِ في ٱلنجدةِ والوفا . . قولُهُ تعالىٰ : ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ [الأنفال : ٧٢] ، فلقد صحَّ أن ٱليمانَ وٱبنَهُ حذيفةَ لمَّا قاما في الصَّفِّ

---

(١) الوَفْرُ : الكثير الواسع من المال والمتاع .
(٢) الأَتِيُّ : السيلُ الذي لا يُرَدُّ . الوِترُ : الثأرُ .

يومَ بدرٍ . . قالا لرسولِ ٱللهِ ﷺ : إِنَّ بعضَهم أَخذَ علينا ٱلعهدَ بعدما مَنَّ علينا أَنْ لا نشهرَ السِّلاحَ عليهِ ، فعسىٰ أَنْ لا يكونَ في حربِهم علينا حرجٌ ، فأَخذَ بأَيديهما ، وقالَ لهما : « فُوَا لَهُمْ . . »[1] .

فأَيُّ وفاءٍ بربِّكَ يشبهُ هـٰذا ٱلوفاءَ معَ ٱلحاجةِ ؟! وأَيُّ صدقٍ كمثلِ هـٰذا ٱلصِّدقِ ؟! وقد ٱرتفعتِ ٱلعجاجةُ .

تمهيد المؤلف العذر لنفسه في هذا الاستطراد

وقد كانَ بعضُ هـٰذا ٱلمقالِ أَولىٰ بالتَّأْخيرِ إِلىٰ عندِ مثلِ قولِ ٱلنَّاظمِ [في « العُكبَريِّ » ٤/١٧٣ مِنَ الرَّجزِ] :

إِنْ تَـدْعُ يَـا سَيْـفُ لِتَسْتَعِيْنَـهُ ... يُجِبْـكَ قَبْـلَ أَنْ تُتِـمَّ سِيْنَـهُ

أَو قولِهِ [في « العُكبَريِّ » ١/١٠٢ مِنَ ٱلمتقاربِ] :

سَبقْـتَ إِلَيْهِـمْ مَنَـايَـاهُـمُ ... وَمَنْفَعَـةُ ٱلْغَـوْثِ قَبْـلَ ٱلْعَطَـبْ

أَو قولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٢/٢٩٩ـ٣٠٠ مِنَ ٱلوافرِ] :

وَإِنْ نَقَـعَ ٱلصَّـرِيْـخُ إِلَىٰ مَكَـانٍ ... نَصَبْـنَ لَـهُ مُـؤَلَّلَـةً دِقَـاقَـا[2]

فَكَـانَ ٱلطَّعْـنُ بَيْنَهُمَـا جَـوَابـاً ... وَكَـانَ ٱللَّبْـثُ بَيْنَهُمَـا فُـوَاقَـا[3]

غيرَ أَنَّ ٱلحديثَ شُجونٌ ، وٱلاستطرادَ جُموحٌ ، وٱلفائدةَ صيدٌ ، وٱلحزمَ في ٱستعجالِ ٱلقيدِ ، وإِذْ ذكرنَا بعضَ ما يهزُّ الرُّؤوسَ ، ويحمي ٱلأُنوفَ مِنْ كلامِ النَّاسِ في ٱلموضوعِ ، وٱعترَفنا بٱلعجزِ عمَّا

---

(١) أخرجه عن حذيفة الطبراني في « الكبير » (٣/١٦٥) ، والسيوطي في « الجامع الصغير » وتمامه : « ونستعين الله عليهم » ونسبه لأحمد .

(٢) النَّقعُ : رفعُ الصوتِ وبُعدهُ . الصريخُ : المستغيثُ . المؤلَّلَةُ : المحدَّدَةُ . الدِّقاقُ : الرقاقُ ، وهي صفةٌ للآذانِ ، وآذانُ الخيلِ توصفُ بالدقَّةِ .

(٣) الفُواقُ : قدرُ ما بينَ الحلبتَينِ ، ويضربُ مثلاً للسرعةِ .

للصحابةِ رضوانُ ٱللهِ عنهمْ فيهِ ؛ لأنَّهُ ٱلفضاءُ ٱلواسعُ ، الَّذي لا تأتي علىٰ أطرافهِ النُّسورُ . فلنتبرَّكْ بذكرِ شيءٍ ممَّا قالَهُ السَّادةُ الصُّوفيَّةُ في ٱستعذابِ التَّعذيبِ ، وٱختيارِ ٱلموتِ في مرضاتِ ٱلحبيبِ ، ولَئِنْ ٱختلفتِ ٱلألوانُ . . فٱلجامعُ قولُ مسلمِ بنِ ٱلوليدِ [مِنَ ٱلبسيطِ] :

يَجُوْدُ بِٱلنَّفْسِ إِذْ ضَنَّ ٱلْجَوَادُ بِهَا   وَٱلْجُوْدُ بِٱلنَّفْسِ أَقْصَىٰ غَايَةِ ٱلْجُوْدِ

كل شيء من الحبيب حبيب

قالَ أبو حامدٍ ٱلغزاليُّ كما ذكرهُ ٱبنُ السُّبكيِّ في « طبقاتهِ » [٢/ ٢٢٢ مِنَ ٱلمديدِ] :

سَقَمِيْ فِيْ ٱلْحُبِّ عَافِيَتِيْ   وَوُجُوْدِيْ فِيْ ٱلْهَوَىٰ عَدَمِيْ
وَعَذَابٌ تَرْتَضُوْنَ بِهِ   فِيْ فَمِيْ أَحْلَىٰ مِنَ ٱلنِّعَمِ
مَا لِضُرٍّ فِيْ مَحَبَّتِكُمْ   عِنْدَنَا وَٱللهِ مِنْ أَلَمِ

سلطان العاشقين يستعذب العذاب

وقالَ ٱبنُ ٱلفارضِ [في « ديوانهِ » ٢٦ مِنَ ٱلكاملِ] :

إِنْ كَانَ فِيْ تَلَفِيْ رِضَاكَ صَبَابَةً   وَلَكَ ٱلْبَقَاءُ وَجَدْتُ فِيْهِ لَذَاذَا

وقالَ [في « ديوانهِ » ١٥١ مِنَ ٱلكاملِ] :

مَا لِيْ سِوَىٰ رُوْحِيْ وَبَاذِلُ نَفْسِهِ   فِيْ حُبِّ مَنْ يَهْوَاهُ لَيْسَ بِمُسْرِفِ
فَلَئِنْ رَضِيْتَ بِهَا فَقَدْ أَسْعَفْتَنِيْ   يَا خَيْبَةَ ٱلْمَسْعَىٰ إِذَا لَمْ تُسْعِفِ

وقالَ [في « ديوانهِ » ١٥٢ مِنَ ٱلكاملِ] :

لَوْ أَنَّ رُوْحِيْ فِي يَدِيْ وَوَهَبْتُهَا   لِمُبَشِّرِيْ بِقُدُوْمِكُمْ لَمْ أُنْصِفِ

وقالَ [في « ديوانهِ » ١٥٦ مِنَ ٱلخفيفِ] :

وَتَلَافِيْ إِنْ كَانَ فِيْهِ ٱئْتِلَافِيْ   بِكَ ، عَجِّلْ بِهِ جُعِلْتُ فِدَاكَا

وقالَ [في «ديوانهِ» ١٤٥ مِنَ ٱلبسيطِ] :

مَنْ لِيْ بِإِتْلاَفِ رُوْحِيْ فِيْ هَوَىٰ رَشَإٍ حُلْوِ ٱلشَّمَائِلِ بِٱلأَرْوَاحِ مُمْتَزِجِ[1]

وقالَ [في «ديوانهِ» ١٤٤ مِنَ ٱلبسيطِ] :

مَا بَيْنَ مُعْتَرَكِ ٱلأَحْدَاقِ وَٱلْمُهَجِ أَنَـا ٱلْقَتِيْـلُ بِـلاَ إِثْـمٍ وَلاَ حَـرَجِ
وَدَّعْتُ قَبْلَ ٱلْهَوَىٰ رُوْحِيْ لِمَا نَظَرَتْ عَيْنَايَ مِنْ حُسْنِ ذَاكَ ٱلْمَنْظَرِ ٱلْبَهِجِ

وقالَ [في «ديوانهِ» ١٢٩ مِنَ ٱلبسيطِ] :

وَهَـٰذِهِ سُنَّةُ ٱلْعُشَّاقِ مَا عَلِقُوْا بِشَادِنٍ فَخَلاَ عُضْوٌ مِنَ ٱلأَلَمِ

وقالَ [في «ديوانهِ» ١٣٤ـ١٣٧ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَـٰكِنْ لَدَيَّ ٱلْمَوْتُ فِيْهِ صَبَابَةٌ حَيَاةٌ لِمَنْ أَهْوَىٰ عَلَيَّ بِهَا ٱلْفَضْلُ
فَإِنْ شِئْتَ أَنْ تَحْيَا سَعِيْداً فَمُتْ بِهِ شَهِيْـداً وَإِلاَّ فَـٱلْغَـرَامُ لَـهُ أَهْـلُ
فَمَنْ لَمْ يَمُتْ فِيْ حُبِّهِ لَمْ يَعِشْ بِهِ وَدُوْنَ ٱجْتِنَاءِ ٱلنَّحْلِ مَا جَنَتِ ٱلنَّحْلُ[2]
وَقُـلْ لِقَتِيْـلِ ٱلْحُبِّ : وَفَّيْـتَ حَقَّـهُ وَلِلْمُدَّعِي هَيْهَاتَ مَا ٱلْكَحَلُ ٱلْكُحْلُ[3]
فَمَنْ لَمْ يَجُدْ فِيْ حُبِّ نُعْمٍ بِنَفْسِهِ وَلَوْ جَادَ بِٱلدُّنْيَا إِلَيْهِ ٱنْتَهَىٰ ٱلْبُخْلُ[4]

وقالَ [في «ديوانهِ» ٥٠ـ٥١ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا حَلَّ بِيْ مِنْ مِحْنَةٍ فَهْوَ مِنْحَةٌ وَقَدْ سَلِمَتْ مِنْ حَلِّ عَقْدٍ عَزِيْمَتِيْ
فَكُلُّ أَذىً فِي ٱلْحُبِّ مِنْكِ إِذَا بَدَا جَعَلْتُ لَهُ شُكْرِيْ مَكَانَ شَكِيَّتِيْ

---

(١) الرَّشأُ : ولدُ الغزالِ .
(٢) ماجنَت : أي ما ارتكبت من جنايةٍ ، وهي لَسعُها لمن يجني عسلَها .
(٣) الكَحَلُ : سواد طرف أجفان العين خلقةً .
(٤) نُعمٌ : اسمُ المحبوبةِ .

نَعَـمْ وَتَبَـارِيـحُ ٱلصَّبَـابَـةِ إِنْ عَـدَتْ عَلَيَّ مِنَ ٱلنَّعْمَاءِ فِيْ ٱلْحُبِّ عُدَّتِي(١)
وَمِنْكِ شَقَائِيْ بَلْ بَلاَئِيَ مِنَّةٌ وَفِيْكِ لِبَاسُ ٱلْبُؤْسِ أَسْبَغُ نِعْمَةِ
فَحَلَّيْتِ لِيْ ٱلْبَلْوَىٰ وَخَلَّيْتِ بَيْنَهَا بَيْنِيْ فَكَانَتْ مِنْكِ أَجْمَلَ زِيْنَةِ

وقالَ [في « ديوانه » ٥٤ـ٥٧ مِنَ الطَّويلِ] :

فَقَالَتْ: هَوَىٰ غَيْرِيْ قَصَدْتَ وَدُوْنَهُ ٱقْـ ـتَصَدْتَ عَمِياً عَنْ سَوَاءِ مَحَجَّتِي(٢)
وَنَهْجُ سَبِيْلِيْ وَاضِحٌ لِمَنِ ٱهْتَدَىٰ وَلَـٰكِنَّهَا ٱلأَهْوَاءُ عَمَّتْ فَأَعْمَتِ
حَلِيْفُ غَرَامٍ أَنْتَ لَـٰكِنْ بِنَفْسِهِ وَإِبْقَاكَ وَصْفاً مِنْكَ بَعْضُ أَدِلَّتِيْ
فَلَمْ تَهْوَنِيْ مَا لَمْ تَكُنْ فِيَّ فَانِياً وَلَمْ تَفْنَ مَا لَمْ تُجْتَلَىٰ فِيْكَ صُوْرَتِيْ
فَدَعْ عَنْكَ دَعْوَىٰ ٱلْحُبِّ وَٱدْعُ لِغَيْرِهِ فُؤَادَكَ وَٱدْفَعْ عَنْكَ غَيَّكَ بِٱلَّتِي(٣)
وَجَانِبْ جَنَابَ ٱلْوَصْلِ هَيْهَاتَ لَمْ يَكُنْ وَهَا أَنْتَ حَيٌّ إِنْ تَكُنْ صَادِقاً مُتِ
فَقُلْتُ لَهَا : رُوْحِيْ لَدَيْكِ وَقَبْضُهَا إِلَيْكِ وَمَـنْ لِـيْ أَنْ تَكُـوْنَ بِقَبْضَتِيْ
وَمَا أَنَا بِٱلشَّانِيْ ٱلْوَفَاةَ عَلَىٰ ٱلْهَوَىٰ وَشَأْنِيْ ٱلْوَفَا تَأْبَىٰ سِوَاهُ سَجِيَّتِي(٤)
وَمَاذَا عَسَىٰ عَنِّيْ يُقَالُ سِوَىٰ قَضَىٰ فُلاَنٌ هَوىً مَنْ لِيْ بِذَا وَهْوَ بُغْيَتِيْ
أَجَلْ أَجَلِيْ أَرْضَىٰ ٱنْقِضَاهُ صَبَابَةً وَلاَ وَصْلَ إِنْ صَحَّتْ لِحُبِّكِ نِسْبَتِيْ
وَإِنْ لَـمْ أَفُـزْ حَقّـاً إِلَيْـكِ بِنِسْبَـةٍ لِعِـزَّتِهَـا حَسْبِـيْ ٱفْتِخَـاراً بِتُهْمَتِـيْ
وَدُوْنَ ٱتِّهَامِيْ إِنْ قَضَيْتُ أَسىً فَمَا أَسَـأْتُ بِنَفْـسٍ بِـٱلشَّهَـادَةِ قَـرَّتِ(٥)

---

(١) التباريحُ : الشدةُ .
(٢) المَحَجَّةُ : الطريق المستقيمة التي لا عِوَجَ فيها .
(٣) في الكلام اكتفاء إذ المقصود ظاهرٌ ؛ أي : بالتي هي أحسن .
(٤) الشاني : المبغض . شأني : عادتي .
(٥) أسىً : حزناً .

وَلِيْ مِنكِ كَافٍ إِنْ هَدَرْتِ دَمِيْ، وَلَمْ أُعَـدَّ شَهِيـداً ، عِلْـمُ دَاعِـيْ مَنِيَّتِـيْ
وَلَمْ تَسْوَ رُوْحِيْ فِيْ وِصَالِكِ بَذْلَهَا لَـدَيَّ لِبَـوْنٍ بَيْـنَ صَـوْنٍ وَبِـذْلَـةِ[1]
فَإِنْ صَحَّ هَـٰذَا ٱلْفَأْلُ مِنكِ رَفَعْتِنِيْ وَأَعْلَيْتِ مِقْدَارِيْ وَأَغْلَيْتِ قِيْمَتِيْ
فَهَا أَنَا مُسْتَدْعٍ قَضَاكِ وَمَا بِهِ رِضَاكِ وَلاَ أَخْتَارُ تَأْخِيْرَ مُدَّتِيْ

وفي عكسِ ما سبقَ مِنْ إجابةِ الصَّوتِ يقولُ قُرَيطٌ [في «شرحِ الحماسةِ» ١/١٥٧ـ١٥٩ مِنَ ٱلبسيطِ] :

ذم وهجاء من يبطىء في إجابة الصوت

لَوْ كُنْتُ مِنْ مَازِنٍ لَمْ تَسْتَبِحْ إِبِلِيْ بَنُوْ ٱللَّقِيْطَةِ مِنْ ذُهْلِ بْنِ شَيْبَانَا[2]
لَـٰكِنَّ قَوْمِيْ وَإِنْ كَانُوْا ذَوِيْ عَدَدٍ لَيْسُوْا مِنَ ٱلشَّرِّ فِيْ شَيْءٍ وَإِنْ هَانَا

وقالَ أبو عمرِو بنِ ٱلعلاءِ [مِنَ الطَّويلِ] :

دَعَا قَوْمَهُ حَوْلِيْ فَجَاؤُوْا لِنَصْرِهِ وَنَادَيْتُ قَوْمِيْ بِٱلْمُسَنَّاةِ غُيَّبَا[3]
وَرُبَّ بَقِيْـعٍ لَـوْ هَتَفْـتُ بِخَـوِّهِ أَتَانِيْ كَرِيْمٌ يَنْفُضُ ٱلرَّأْسَ مُغْضَبَا[4]

وقالَ أبو عليٍّ الضَّريرُ [مِنَ ٱلبسيطِ] :

كَـأَنَّنِـيْ يَـوْمَ أَدْعُـوْهَـا لِنَـائِبَـةٍ أَدْعُوْ لَهَا مِنْ بُطُوْنِ ٱلأَرْضِ أَمْوَاتَا

---

(١) تسوَ : من قولنا : هذا المتاعُ يسوىٰ ديناراً مثلاً . البَونُ : البعدُ . البِذلَةُ : مِن الابتذالِ وٱلامتهانِ .
(٢) بنو مازن : حيٌّ من تميمٍ ، وهو مازنُ بنُ مالكِ بنِ عمرِو بنِ تميمٍ ، وهم أشرافُ ولدِ عمرِو بنِ تميمٍ ، فلذلك تمنَّىٰ الشاعرُ أن يكون منهم . وذُهلُ بنُ شيبانَ : حيٌّ من بكرِ بن وائلٍ ، وكانتِ الحربُ بين تميمٍ وبكرٍ . واللقيطةُ : المنبوذَةُ الملقوطةُ ، وجعلَها كذلكَ مبالغةً في الهجوِ .
(٣) المُسَنَّاةُ : بلدةٌ .
(٤) بخوِّهِ : بفضائه .

وقد سبقَ أَوَّلَ ٱلمجلسِ ٱلرَّابعِ قولُ ٱلحماسيِّ [في « شرحِ الحماسةِ » ٢/١٠٥٧ مِنَ الطَّويلِ] :

وَكَـاثِـرْ بِسَعْـدٍ إِنَّ سَعْـداً كَثِيْـرَةٌ وَلاَ تَرْجُ مِنْ سَعْدٍ وَفَاءً وَلاَ نَصْرَا(١)

معَ جملةٍ مِن أَمثالِهِ .

ولمّا سُئِلَ خالدُ بنُ صفوانَ عن حالِ ٱبنيهِ . أَنشدَ [مِنَ الطَّويلِ] :

أَبُوْ مَالِكٍ جَارٌ لَهُمْ وَٱبْنُ مَرْثَدٍ فَيَـا لَـكَ جَـارَيْ ذِلَّـةٍ وَصَغَـارِ

وقالَ إبراهيمُ بنُ ٱلعبَّاسِ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَإِنِّـي إِذَا أَدْعُـوْكَ عِنْـدَ مُلِمَّـةٍ كَدَاعِيَةٍ بَيْنَ ٱلْقُبُوْرِ نَصِيْرُهَا(٢)

وقالَ ريقانُ [مِنَ الطَّويلِ] :

فَمَا دَارُ عَمِّيْ لِيْ بِدَارِ خَفَارَةٍ وَلاَ عَهْدُ عَمِّيْ لِيْ بِعَهْدِ جِوَارِ(٣)

وقالَ ٱلحُطيئةُ [مِنَ البسيطِ] :

لَمَّا بَدَا لِيَ مِنْكُمْ ذَاتُ أَنْفُسِكُمْ وَلَمْ يَكُنْ لِجِرَاحِيْ فِيْكُمُ آسِيْ(٤)
أَزْمَعْتُ يَأْساً مُبِيْناً عَنْ جِوَارِكُمُ وَلَنْ تَرَىٰ طَارِداً لِلْحُرِّ كَٱلْيَاسِ

---

(١) المكاثرَةُ : المباهاةُ بالكثرَةِ ، أَي : عددُهم كثيرٌ ، وغِناهُم قليلٌ ، وهم : سعدُ بنُ زيدِ مناةَ بنِ تميمٍ ، وهم أكثرُ تميمٍ وأَعزُّها .

(٢) وذلك كقول الشاعر :

لقـد أسمعـت لـو ناديـت حيّـاً ولكـن لا حيـاة لمـن تنـادي

(٣) الخفارَةُ : الأمانُ .

(٤) الآسي : هوَ المداوي والمعالجُ . قال المتنبي يصف الأسد :

يطـأ الثـرى متـرفقـاً مـن تيهـهِ فكـأنـه آسٍ يجـسُّ عليـلاً

وقالَ النَّاظمُ [في « العُكبَريّ » ٤/٢٣٦ مِنَ البسيطِ] :

رَأَيْتُكُمْ لاَ يَصُونُ الْعِرْضَ جارُكُمُ وَلاَ يَـدِرُّ عَلَـىٰ مَـرْعَـاكُـمُ اللَّبَـنُ
جَـزَاءُ كُـلِّ قَـرِيْـبٍ مِنكُـمُ مَلَـلٌ وَحَظُّ كُلِّ مُحِبٍّ مِنكُمُ ضَغَنُ(١)

السبب في حرب البسوس

ولمَّا طَعنَ كليبُ وائلٍ ناقةَ الجرميّ الَّذي كانَ في جوارِ البسوسِ خالةِ جسَّاسٍ . . قالَتْ [مِنَ الطَّويلِ] :

لَعَمْرِيَ لَوْ أَصْبَحْتُ فِيْ دَارِ مُنْقِذٍ لَمَا ضِيْمَ سَعْدٌ وَهُوَ جَارٌ لأَبْيَاتِي
وَلَـٰكِنَّنِـيْ أَصْبَحْـتُ فِـيْ دَارِ غُـرْبَـةٍ مَتَىٰ يَعْدُ فِيهَا الذِّئْبُ يَعْدُ عَلَىٰ شَاتِي
فَيَا سَعْدُ لاَ تُغْرَرْ بِنَفْسِكَ وَارْتَحِلْ فَإِنَّكَ فِيْ قَوْمٍ عَنِ الْجَارِ أَمْوَاتِ

ذم القرآن الكريم للمنافقين

فحميَ عندَ ذلكَ أَنفُ جسَّاسٍ ، ولَمْ يَزلْ يترصَّدُ غُرَّةَ كُليبٍ . . حتَّىٰ قتلَهُ ، ودامتِ الحربُ أَربعينَ سنةً ، وكانَ ذلكَ قبلَ مبعثِ النَّبيِّ ﷺ بستِّينَ سنةً ، واللهُ جلَّ شأنهُ يقولُ : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ [الحشر : ١١ـ١٢] .

أصعب السهام التي تأتيك من أخيك وأشد الآلام النزيف الداخلي

وفي لونٍ آخرَ مِن هـٰذا البزِّ(٢) يقولُ ابنُ الرُّوميِّ [في « ديوانهِ » ٥/١٩١١ مِنَ الطَّويلِ] :

تَخِذْتُكُمُ دِرْعاً حَصِيْناً لِتَدْفَعُوْا نِبَالَ الْعِدَا عَنِّيْ فَكُنْتُمْ نِصَالَهَا
وَقَدْ كُنْتُ أَرْجُوْ مِنْكُمُ خَيْرَ نَاصِرٍ عَلَىٰ حِيْنِ خِذْلاَنِ الْيَمِيْنِ شِمَالَهَا

---

(١) الضِّغْنُ : الحِقدُ .
(٢) البزُّ : السَّلبُ .

فَإِنْ كُنْتُمْ لاَ تَحْفَظُوْنَ مَوَدَّتِيْ ... ذِمَاماً فَكُوْنُواْ لاَ عَلَيْهَا وَلاَ لَهَا[1]
قِفُوْا وِقْفَةَ ٱلْمَعْذُوْرِ عَنِّيْ بِمَعْزِلٍ ... وَخَلُّوْا نِبَالِيْ لِلْعِدَا وَنِبَالِهَا

وقالَ آخرُ [مِنَ الكاملِ] :

أَعْدَدْتُكُمْ لِدِفَاعِ كُلِّ مُلِمَّةٍ ... عَوْناً فَكُنْتُمْ عَوْنَ كُلِّ مُلِمَّةِ
وَتَخِذْتُكُمْ لِيْ جُنَّةً فَكَأَنَّمَا ... نَظَرَ ٱلْعَدُوُّ مَقَاتِلِيْ مِنْ جُنَّتِيْ[2]
فَلأَنْفُضَنَّ يَدَيَّ يَأْساً مِنْكُمُ ... نَفْضَ ٱلأَنَامِلَ مِنْ تُرَابِ ٱلْمَيِّتِ

وقالَ ٱبنُ ٱلرُّوميِّ أيضاً [مِنَ الخفيفِ] :

خِلْتُكُمْ عُدَّةً لِصَرْفِ زَمَانِيْ ... فَإِذَا أَنْتُمُ صُرُوْفُ زَمَانِيْ[3]

وقالَ آخرُ [مِنَ الرَّمَلِ] :

رُبَّ مَنْ تَرْجُوْ بِهِ دَفْعَ ٱلأَذَىٰ ... سَوْفَ يَأْتِيْكَ ٱلأَذَىٰ مِنْ قِبَلِهْ

وقالَ غيرُهُ [مِنَ الخفيفِ] :

كُنْتُ مِنْ كُرْبَتِيْ أَفِرُّ إِلَيْهِمْ ... فَهُمُ كُرْبَتِيْ فَأَيْنَ ٱلْفِرَارُ

الجدار القصير تقفز عليه الكلاب

وقدمَتْ (مكَّةَ) ٱمرأةٌ وضيئةٌ ، فٱستهامَ بها ٱبنُ أَبي ربيعةَ ، وأَخذَ يتعرَّضُ لها ، ويؤذيها في المطافِ ، فقالَتْ لبعضِ رجالِها :

---

(١) الذِّمامُ : كلُّ حرمةٍ تلزمكَ إذا ضيَّعتها المذمَّةُ .
(٢) جُنَّةٌ : أي ساتِراً .
(٣) صَرْفُ الزمانِ : نوائبُهُ . وقال أحدهم نحوه :

وإخـــوانٍ حسبتهـــم دروعـــاً ... فكـانـوهـا ولكـن للأعـادي
وخلتهـم سهـامـاً صـائبـات ... فكـانـوهـا ولكـن فـي فـؤادي
وقـالـوا قـد صفـت منـا قلـوب ... فقلـت نعـم ولكـن مـن ودادي

طُفْ معي ، فلمَّا رآهُ معها . . أنزجرَ . فقالَتْ [مِنَ البسيطِ] :

تَعْدُوْ ٱلذِّئَابُ عَلَىٰ مَنْ لاَ كِلاَبَ لَهُ وَتَتَّقِيْ صَوْلَةَ ٱلْمُسْتَأْسِدِ ٱلْحَامِيْ

واحسرتا على من ليس له أحد

وللهِ درُّ ٱلقائِلِ [مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا ٱلْمَرْءُ لَمْ يَغْضَبْ لَهُ حِيْنَ يَغْضَبُ فَوَارِسُ إِنْ قِيْلَ: ٱرْكَبُوْا ٱلْمَوْتَ يَرْكَبُوْا

وَلَـمْ يَحْبُـهُ بِـٱلنَّصْـرِ قَـوْمٌ أَعِـزَّةٌ مَقَاحِيْمُ فِيْ ٱلأَمْرِ ٱلَّذِيْ يُتَهَيَّبُ

تَهَضَّمَهُ أَدْنَىٰ ٱلْعَدُوِّ وَلَمْ يَزَلْ وَإِنْ كَانَ عَضْباً بِٱلظَّلاَمَةِ يُضْرَبُ[1]

ثاني اثنين في التنور

وقيلَ للجاحظِ : لِمَ خذلْتَ ٱبنَ ٱلزيّاتِ ، وهربْتَ منهُ لمّا أَصابتْهُ ٱلمِحنةُ ؟ فقالَ : خشيتُ أَن يُقالَ : ثانيَ ٱثنينِ إِذْ هما في ٱلتَّنُّورِ ، وكانَتْ عقوبةُ ٱبنِ ٱلزيّاتِ أَن عُذِّبَ في ٱلتَّنُّورِ ٱلذي كانَ يُعَذِّبُ بهِ مَنْ شَاءَ أَنْ يَنْتَقِمَ منهُ ، ولحديثِ ٱمرىءِ ٱلقيسِ معَ جارهِ السَّابقِ في غيرِ هـٰذا ٱلمجلسِ ٱتصالٌ بٱلموضوعِ .

واللهُ أعلمُ

* * *

---

(١) الأعضَبُ من الرجالِ : الذي لا ناصرَ لهُ ، والعضْبُ : السيفُ القاطعُ .

المحتوى

المحتوى

أَبْلَىٰ ٱلْهَوَىٰ أَسَفاً يَوْمَ ٱلنَّوَىٰ بَدَنِيْ ... وَفَرَّقَ ٱلْهَجْرُ بَيْنَ ٱلْجَفْنِ وَٱلْوَسَنِ

المجلس الثاني

أَهْـلاً بِـدَارِ سَبَـاكَ أَغْيَـدُهَـا	أَبْعَـدَ مَـا بَـانَ عَنْـكَ خُـرَّدُهَـا

المجلس الثالث

لَـــهُ أَيَـــادٍ عَلَـــيَّ سَـــابِقَـــةٌ   أُعَـــدُّ مِنْهَـــا وَلاَ أُعَـــدِّدُهَـــا

يُعْطِـيْ فَـلاَ مَطْلُـهُ يُكَـدِّرُهَـا بِهَـا وَلاَ مَنُّـهُ يُنَكِّـدُهَـا

أَصْبَحَ حُسَّادُهُ وَأَنْفُسُهُمْ يُحْدِرُهَا خَوْفُهُ وَيُصْعِدُهَا

قَدْ أَجْمَعَتْ هَـٰذِهِ ٱلْخَلِيقَةُ لِيْ   أَنَّـكَ يَـا ٱبْـنَ ٱلنَّبِـيِّ أَوْحَـدُهَـا
وَأَنَّـكَ بِـٱلأَمْـسِ كُنْـتَ مُحْتَلِمـاً   شَيْـخَ مَعَـدٍّ وَأَنْـتَ أَمْـرَدُهَـا

المجلس الرابع

مُحِبِّيْ قِيَامِيْ مَا لِذَالِكُمُ ٱلنَّصْلِ	بَرِيّاً مِنَ ٱلْجَرْحَىٰ سَلِيْماً مِنَ ٱلْقَتْلِ

وَخُضْرَةُ ثَوْبِ الْعَيْشِ فِيْ الْخُضْرَةِ الَّتِيْ تُرِيْكَ احْمِرَارَ الْمَوْتِ فِيْ مَدْرَجِ النَّمْلِ

أَمِطْ عَنْكَ تَشْبِيهِيْ بِمَا وَكَأَنَّهُ ... فَمَا أَحَدٌ فَوْقِيْ وَلاَ أَحَدٌ مِثْلِيْ

وَذَرْنِـيْ وَإِيَّـاهُ وَطِـرْفِـيْ وَذَابِلِـيْ   نَكُنْ وَاحِداً نَلْقَ الْوَرَىٰ وَانْظُرَنْ فِعْلِيْ

المجلس الخامس

غُصْـنٌ عَلَـىٰ نَقَـوَا فَـلاَةٍ نَـابِـتٌ   شَمْـسُ النَّهَـارِ تُقِـلُّ لَيْـلاً مُظْلِمَـا

كَبُـرَ ٱلْعِيَـانُ عَلَـيَّ حَتَّـىٰ إِنَّـهُ ... صَارَ ٱلْعِيَانُ مِنَ ٱلْيَقِيْنِ تَوَهُّمَا

المجلس السادس

إِلَىٰ أَيِّ حِيْنٍ أَنْتَ فِيْ زِيِّ مُحْرِمٍ؟ ... وَحَتَّىٰ مَتَىٰ فِيْ شِقْوَةٍ وَإِلَىٰ كَمِ ؟

وَإِلاَّ تَمُتْ تَحتَ ٱلسُّيُوْفِ مُكَرَّماً تَمُتْ وَتُقَاسِي ٱلذُّلَّ غَيْرَ مُكَرَّمِ

فَثِبْ وَاثِقاً بِاللهِ وِثْبَةَ مَاجِدٍ	يَرَىٰ ٱلْمَوْتَ فِي ٱلْهَيْجَا جَنَىٰ ٱلنَّحْلِ فِي ٱلْفَمِ

* * *

العود الهندي

عن أمالي في ديوان الكندي

مجالس أدبية في ديوان المتنبي

تأليف علامة حضرموت ومفتيها
السيد عبد الرحمن بن عبيد الله السقاف
رحمه الله تعالى

الجزء الثاني



دار المنهاج

العود الهندي

عن أمالي في ديوان الكندي

مجالس أدبية في ديوان المتنبي

تأليف
علامة حضرموت ومفتيها
السيد عبد الرحمن بن عبيد الله السقاف
رحمه الله تعالى

عُني به
محمد مصطفى الخطيب

بمساهمة
اللجنة العلمية بمركز دار المنهاج للدراسات والنشر

المجلد الثاني

دار المنهاج

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الثانية
١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

دار المنهاج للنشر والتوزيع
جدة - هاتف رئيسي ٦٣٢٦٦٦٦ - فاكس ٦٣٢٠٣٩٢
الإدارة ٦٣١١٧١٠ - المكتبة ٦٣٢٢٤٧١
www.alminhaj.com
E-mail: info@alminhaj.com
ISBN: 978 - 9953 - 498 - 48 - 5

المجلسُ السابعُ

[قال أبو الطيِّب المتنبي في « العُكبَريِّ » ٣/ ١٦٢ مِنَ ٱلبسيطِ] :

أَحْيَا! وَأَيْسَرُ مَا قَاسَيْتُ مَا قَتَلاَ ... وَٱلْبَيْنُ جَارَ عَلَىٰ ضَعْفِيْ وَمَا عَدَلاَ

العجب من الحياة مع توفر أسباب عدمها وشرح البيت

يتعجَّبُ مِن نفسهِ ؛ إذ بقيَ علىٰ قيدِ ٱلحياةِ ، وأَيسرُ ما يلاقيهِ قاتلٌ ، وإذا كانَ أَيسرهُ قاتلاً . . فما بالُكَ بأَعسرِهِ ، ثُمَّ ذكَرَ أَنَّ ٱلبينَ جارَ علىٰ ضعفهِ وما عَدَلَ .

ومِنَ ٱلمعلومِ أَنَّ مَنْ جارَ . . لَمْ يَعدِلْ ، غيرَ أَنَّهُ يريدُ التَّأْكيدَ ، ويدَّعي أَنَّهُ جارَ عليهِ في سائِرِ أَحوالهِ ، ولَمْ يُنصِفْهُ وقتاً ما ، فيمكِنُ أَنْ يَدخُلَ إِذاً تحتَ قولِهِ جلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ﴾ [النحل : ٢١] ؛ إِذْ مِنَ ٱلبَدَهيِّ أَنَّ ٱلميْتَ غيرُ حيٍّ ، ولٰكنَّ ٱلمعنىٰ : أَمواتٌ لا حياةَ لَهُم أَبداً .

وإِسنادُ ٱلجَورِ إِلىٰ ٱلبَينِ يحتمِلُ أَنْ يكونَ حقيقةً ، ويحتمِلُ أَنْ يكونَ مجازاً عقلياً بأعتبارِ جانيهِ .

الفراق مر المذاق

وكيفما كانَ ٱلأَمرُ . . فٱلفِراقُ مُرُّ ٱلمَذاقِ .

وللهِ درُّ ٱلقائِلِ [من الكامل] :

يَوْمُ ٱلْفِرَاقِ مِنَ ٱلْقِيَامَةِ أَطْوَلُ ... وَٱلْمَوْتُ مِنْ أَلَمِ ٱلتَّفَرُّقِ أَجْمَلُ

قَالُوْا ٱلرَّحِيْلُ، فَقُلْتُ: لَسْتُ بِرَاحِلٍ   لَكِـنَّ مُهْجَتِـيَ ٱلَّتِـيْ تَتَـرَحَّـلُ

الشاب العاشق

وقد سبقَ في ٱلمجلسِ ٱلأَوَّلِ عَنْ أَبي عُثمانَ ٱلجاحظِ حديثُ الشَّابِّ ٱلَّذي ٱقترحَ علىٰ يزيدَ بنِ عبدِ ٱلمَلِكِ أَنْ يسمَعَ غناءَ جاريتِهِ نُعمىٰ . ومِنْ تتمَّتِهِ : أَنَّ ذلكَ الشَّابَّ كانَ مِنْ أَوفرِ النَّاسِ حظّاً في ٱلمالِ وٱلجمالِ ، وأَنَّهُ ٱشترىٰ تلكَ ٱلجاريةَ مِنْ (بغدادَ) بمئةِ أَلفٍ ، وأَنَّ ٱلحجَّاجَ ٱغتصبها منهُ ؛ لِيَختصَّ بها ، ولمَّا ٱستجهرَهُ[1] جمالُها . . ٱستيقنَ أَنْ سيرتفعُ أَمرُها للخليفةِ ، فوجَّهَ بها إِليهِ مِنْ ليلَتهِ ، فتولَّهَ الشَّابُّ ، وٱنكفأَ إِلىٰ (الشَّامِ) ، وبقيَ بها مُنَكَّدَ ٱلعيشِ ، مُفرَّقَ ٱلبالِ ، مَذهوبَ ٱلعقلِ ، يمشي بينَ النَّاسِ في ٱلأَسواقِ مُتمثِّلاً بقولِ عبدِ ٱللهِ بنِ عجلانَ ـ ٱلآتي ذِكْرُهُ ـ وهوَ [في « الأَغاني » ٢٢/ ٢٣٧ مِنَ الطَّويلِ] :

غَداً يَكْثُرُ ٱلْبَاكُوْنَ مِنَّا وَمِنْكُمُ   وَتَزْدَادُ دَارِيْ عَنْ دِيَارِكُمُ بُعْدَا

إِلىٰ أَنْ سَوَّلَتْ لَهُ نفسُهُ ما سبقَ ٱقتصاصُهُ .

العشق عذاب

وكَمْ نَفْسٍ مِنْ حَرِّهِ مذابةٌ ؟ ومُهَجاتٍ حرَّىٰ[2] تُقاسي عذابَهُ ؟

قصيدة للمؤلف في الموضوع

وما أَحسنَ ما قُلتُ مِنْ مرثيَةٍ لبعضِ ٱلهَلْكىٰ في تلكَ السَّبيلِ[3] [في « ديوانِ ٱلمؤلِّفِ » ٥٣٤ مِنَ الطَّويلِ] :

ضَعِيْـفٌ تَـوَلاَّهُ ٱلْغَـرَامُ بِمِثْلِـهِ   فَأَشْوَاهُ مِنْ فَرْطِ ٱلْجَفَا بِٱلضَّنَا ٱلْحُبُّ[4]
وَمَاتَ ذَلِيْلاً فِيْ ٱلطَّرِيْقِ وَهٰكَذَا   يَمُوْتُ ٱلشَّجِيُّ ٱلْقَلْبِ وَٱلْوَالِهُ ٱلصَّبُّ

---

(١) استجهرَهُ : كشفَهُ وفضحَهُ .
(٢) حرَّىٰ : عطشىٰ .
(٣) الأبيات قالها على سبيل المداعبة عندما رأى كلباً ميتاً على قارعة الطريق .
(٤) أَشواهُ : أَحرقَهُ وأَهلكَهُ .

وَكَمْ مِنْ قَتِيلٍ نَحْوَهُ فِي سَبِيلِهِ ... ذَوَىٰ تَحتَ تَأْثِيرِ ٱلنَّوَىٰ غُصْنُهُ ٱلرَّطْبُ[1]
مَسَاكِيْنُ أَهْلُ ٱلْعِشْقِ مَاذَا تَجَرَّعُوا ... مِنَ ٱلْعِشْقِ ؟ لَٰكِنْ مُرُّهُ عِنْدَهُمْ عَذْبُ

ولقد سأَلَ عبدُ ٱلمَلِكِ بنُ مروانَ يوماً كُثَيِّراً عَنْ حالِ جميلٍ وبثينةَ، فقالَ : يا أَميرَ ٱلمؤمنينَ . . سايرتُهُ يوماً إِليها حتَّىٰ قرُبنا منهُم ، فأَقبلَتْ معَ نسوةٍ ، فلمَّا رأَينَهُ . . ولَّيْنَ ، ووقفا يتحادَثانِ مِنْ أَوَّلِ اللَّيلِ حتَّىٰ طَلَعَ ٱلفجرُ ، ولمَّا أَزمعَ الرَّحيلَ . . ٱستَدْنَتْهُ ، وسارَّتْهُ ، فخرَّ مغشيّاً عليهِ ، ولمَّا أَفاقَ . . أَنشدَ [في « ديوانه » ١٥٦ مِنَ الطَّويلِ] : جميل وبثينة

فَمَا مَاءُ مُزْنٍ فِي جِبَالٍ مُنِيفَةٍ ... وَلاَ مَا أَكَنَّتْ فِيْ مَعَادِنِهَا ٱلنَّحْلُ[2]
بِأَشْهَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ٱلَّذِيْ قُلْتِ بَعْدَمَا ... تَمَكَّنَ مِنْ حَيْزُوْمِ نَاقَتِيَ ٱلرَّحْلُ[3]

ودخلَ مُصعبُ بنُ الزُّبيرِ يوماً علىٰ عائِشةَ بنتِ طلحةَ وهيَ تمتشطُ وتتمثَّلُ بقولِ جميلٍ [في « ديوانهِ » ٧٠ مِنَ ٱلبسيطِ] : مصعب بن الزبير يقلد جميلاً

مَا أَنسَ ، لاَ أَنسَ مِنْهَا نَظْرَةً عَرَضَتْ ... بِـٱلْحِجْـرِ يَـوْمَ جَلَتْهَـا أُمُّ مَنْظُـوْرِ

وكانتَ أُمُّ منظورٍ هٰذهِ موجودةً في سلطانهِ ، فٱستحضرَها ، وٱستخبرَها عَنْ شأنِ ٱلبيتِ ، فقالَتْ :

كنتُ ماشطةَ بُثينةَ ، فزيَّنْتُها يوماً ، وجميلٌ مُقبلٌ علىٰ بعيرٍ لَهُ ، مُؤارٌّ عليهِ[4] ، فرآها بمؤَخَّرِ عينهِ ، فأَنشدَ ٱلبيتَ ، فأَمرَها مُصعبٌ أَنْ

---

(١) ذوىٰ : ذَبُلَ .
(٢) الجبلُ ٱلمُنيفُ : هوَ ٱلجبلُ ٱلعالي ٱلمُشرفُ . المعادِنُ : ٱلخلايا .
(٣) الحيزومُ : الصَّدرُ . الرَّحْلُ : مركبٌ للبعيرِ والنَّاقةِ ، وٱلمُرادُ بقولهِ : (تمكَّنَ مِنْ حَيْزُوْمِ نَاقَتِيَ ٱلرَّحْلُ) . . وقتُ السَّفرِ .
(٤) مُآرٌ : ٱفتخرَ .

تصنعَ بعائشةَ ما فعلتْهُ ببُثينةَ ، وصنعَ هوَ مثلَ ما صنعَ جميلٌ .

جميل يبكي من حب قاتلته

وفي وجههِ ذلكَ يقولُ جميلٌ [في « ديوانه » ١٧٥ـ١٧٨ مِنَ الطَّويلِ] :

لَقَدْ فَرِحَ ٱلْوَاشُوْنَ أَنْ صَرَمَتْ حَبْلِيْ   بُثَيْنَةُ، أَوْ أَبْدَتْ لَنَا جَانِبَ ٱلْبُخْلِ[1]
يَقُوْلُوْنَ : مَهْلاً يَا جَمِيْلُ وَإِنَّنِيْ   لأُقْسِمُ مَا لِيْ عَنْ بُثَيْنَةَ مِنْ مَهْلِ
إِذَا مَا تَنَاشَدْنَا ٱلَّذِيْ كَانَ بَيْنَنَا   جَرَىٰ ٱلدَّمْعُ مِنْ عَيْنَيْ بُثَيْنَةَ بِٱلْكُحْلِ
كِلاَنَا بَكَىٰ ، أَوْ كَادَ يَبْكِيْ صَبَابَةً   إِلَىٰ إِلْفِهِ فَٱسْتَعْجَلَتْ عَبْرَةً قَبْلِيْ
فَيَا وَيْحَ نَفْسِيْ حَسْبُ نَفْسِيَ ٱلَّذِيْ بِهَا   وَيَا وَيْحَ أَهْلِيْ مَا أُصِيْبَ بِهِ أَهْلِيْ
أَبِيْتُ مَعَ ٱلْهُلاَّكِ ضَيْفاً لأَهْلِهَا   وَأَهْلِيْ قَرِيْبٌ مُوْسِعُوْنَ أُوْلُوْ فَضْلِ[2]
خَلِيْلَيَّ فِيْمَا عِشْتُمَا هَلْ رَأَيْتُمَا   قَتِيْلاً بَكَىٰ مِنْ حُبِّ قَاتِلِهِ قَبْلِيْ[3]

عفَّةُ جميل وقصة موته وموت بثينة

وعنِ ٱلعبَّاسِ بنِ سهلِ السَّاعديِّ [كما في « مصارعِ العشَّاقِ » ١/ ٣١١] قالَ : قالَ لي رجلٌ : هل لكَ في عيادةِ جميلٍ ؛ فإنَّهُ مريضٌ ؟ فدخَلْنا عليهِ ، فإذا هوَ يجودُ بنفسهِ ، فنظرَ إليَّ ، وقالَ : ما تقولُ في رجلٍ لَمْ يَزْنِ ، ولَمْ يشرَبْ خمراً ، ولَمْ يسفِكْ دماً ، يشهدُ أَنْ لا إِلـٰهَ إلاَّ ٱللهُ ، وأَنَّ محمَّداً رسولُ ٱللهِ ، منذُ خمسينَ سنةً ؟ فقلْتُ : مَن هـٰذا ؟ فإنِّي لا أَراهُ إلاَّ ناجياً . قالَ : أنا ، قلْتُ : وكيفَ! وأَنتَ تُشبِّبُ[4] ببُثينةَ طيلةَ هـٰذهِ ٱلمدَّةِ ؟! قالَ : أَنا في آخرِ يومٍ مِنَ ٱلدُّنيا ، لا نالتني شفاعةُ محمَّدٍ . إنْ كنتُ وضعتُ يدي عليها لريبةٍ ، وأَكثرُ

(١) صَرَمَت : قطعَت . حَبلي : ٱلمودَّةُ والصلَةُ .
(٢) الهُلاَّكُ : الفقراءُ والصَّعاليكُ الَّذينَ ينزلونَ بالنَّاسِ طلباً لمعروفِهم مِنْ سوءِ ٱلحالِ .
(٣) القصَّةُ في « الأَغاني » (٨/ ١١٩) .
(٤) شَبَّبَ بالمرأةِ : تغزَّلَ بها ووصفَ حُسْنَها .

ما يكونُ منِّي أَنْ أُسنِدَ يدَها إلىٰ قلبي ، أَستريحُ بها ساعةً ، ثُمَّ أُغمي عليهِ ، ثُمَّ قالَ : مَنْ ينعاني إلىٰ بثينةَ ، ولهُ هٰذهِ ٱلحُلَّةُ ؟ فراحَ رجلٌ حتَّىٰ جاءَ ٱلحيَّ ، فأَنشدَ ما أَمرَهُ جميلٌ ، وهوَ [في « ديوانهِ » ١١٩ مِنَ ٱلكاملِ] :

بَكَـرَ ٱلنَّعِـيُّ وَمَـا كَنَـىٰ بِجَمِيْـلِ وَثَوَىٰ بِمِصْرَ ثَوَاءَ غَيْرِ قُفُوْلِ(١)
قُوْمِيْ بُثَيْنَةُ فَانْدُبِيْ وَتَهَتَّكِيْ وَٱبْكِيْ خَلِيْلَكِ دُوْنَ كُلِّ خَلِيْلِ

فما كانَ بأَسرعَ مِنْ خروجِ بُثينةَ مكشوفةً ، تقولُ [في « مَصارعِ ٱلعشَّاقِ » ٢/ ٥٩ مِنَ الطَّويلِ] :

وَإِنَّ سُلُـوِّيْ عَـنْ جَمِيْـلٍ لَسَـاعَـةٌ مِنَ ٱلدَّهْرِ لاَ حَانَتْ وَلاَ حَانَ حِيْنُهَا
سَوَاءٌ عَلَيْنَا يَا جَمِيْلُ بْنَ مَعْمَرٍ إِذَا مِـتَّ بَـأْسَـاءُ ٱلْحَيَـاةِ وَلِيْنُهَـا

ثُمَّ قالَتْ للنَّاعي : يا هٰذا ، إِنْ كنتَ صادِقاً . . فقد قتلتَني ، وإِنْ كنتَ كاذباً . . فقد فضحتَني ، فقالَ لها : وٱللهِ إِنِّي لَصادقٌ ، وأَطلَعَها علىٰ ٱلحُلَّةِ ، وكانتْ رأَتْها معَ جميلٍ ، فصرخَتْ ، وصكَّتْ وجهَها ، وأَقبلَ معها النِّساءُ يبكينَ ، حتَّىٰ خرَّتْ مغشيّاً عليها ، وما زالَتْ تردِّدُ قولَها : (وَإِنَّ سُلُوِّيْ . . .) ٱلبيتينِ ، حتَّىٰ ماتَتْ . لَمْ يُسمَعْ منها سواهُما .

الخلاف في اسم المجنون

وأَمَّا ٱلمجنونُ : فقد ٱختُلِفَ في ٱسمهِ ونسبهِ .

قصة حبه لليلى

والصحيحُ : أَنَّهُ عامرُ بنُ مُلَوَّحِ بنِ مُزاحمٍ ، أَحدُ بني عامرٍ .

وكانَ إلىٰ أَبيهِ أَحبَّ بنيهِ ، ولَمْ يزلْ في نعمةٍ وثروةٍ ، ونشأَ معَ ليلىٰ ، فتداخلَتْ بينَهُما ٱلمحبَّةُ مِنَ ٱلحَداثةِ ، كما قالَ [مِنَ الطَّويلِ] :

---

(١) **مَا كَنَىٰ** : ما سَتَرَ ولا تكلمَ بصورةِ الكنايةِ . **غير قفولٍ** : غير رجوع .

تَعَلَّقْتُ لَيْلَىٰ وَهِيَ غِرٌّ صَغِيْرَةٌ ... وَلَمْ يَبْدُ لِلأَتْرَابِ مِنْ ثَدْيِهَا حَجْمُ
صَغِيْرَيْنِ نَرْعَىٰ ٱلْبَهْمَ يَا لَيْتَ أَنَّنَا ... إِلَىٰ ٱلآنَ لَمْ نَكْبَرْ وَلَمْ تَكْبَرِ ٱلْبَهْمُ

ولَمْ يزَلْ يحادِثُها . . حتَّىٰ ٱشتهرَ بحبِّها ، فحجبُوها عنهُ ، ومنعوهُ منها ، فخطبَها ، ودفعَ لهُ أَبوهُ خمسينَ بعيراً وراعيها في مهرِها ، فأَبىٰ أَبوها ؛ لأَنفَةِ العربِ مِن تزويجِ مَنِ ٱشتَهرَ الخاطبُ بهواها ؛ لئلاَّ يصدقَ الظنُّ ، ويقولَ الناسُ : إِنَّما أَرادَ سترَ مَا أَخذَ مِن عُذْرَتِها . ولمّا يئِسَ منها . . قلقَ قلقاً ذهبَ بعقلِهِ ، فهامَ علىٰ وجههِ ، وجزعَتْ هي لذلكَ جَزعاً أَدَّىٰ إِلىٰ سُقمِها ، فحجَّ بِها أَهلُها ، وزوَّجوها من ثقفيٍّ خطبَها هناكَ ، بعدَ أَنْ تكاثرَ عليها الخُطَّابُ ، وردُّوهم . ولمّا ٱتصلَ بهِ الخبرُ . . قالَ [في « ديوانهِ » ٢٢٧ مِنَ الطَّويلِ] : سبب جنونه

أَلاَ إِنَّ لَيْلَىٰ ٱلْعَامِرِيَّةَ أَصْبَحَتْ ... تَقَطَّعُ إِلاَّ مِنْ ثَقِيْفٍ حِبَالُهَا
هُمُ حَبَسُوْهَا مَحْبَسَ ٱلْبُدْنِ وَٱبْتَغَىٰ ... بِهَا ٱلْمَالَ أَقْوَامٌ أَلاَ قَلَّ مَالُهَا
خَلِيْلَيَّ هَلْ مِنْ حِيْلَةٍ تَعْلَمَانِهَا ... فَيُدْنِيْ بِهَا تَكْلِيْمَ لَيْلَىٰ ٱحْتِيَالُهَا
فَإِنْ أَنْتُمَا لَمْ تَعْلَمَاهَا فَلَمْ أَكُنْ ... بِأَوَّلِ بَاغٍ حَاجَةً لاَ يَنَالُهَا
كَأَنَّ مَعَ ٱلرَّكْبِ ٱلَّذِيْنَ ٱغْتَدَوْا بِهَا ... غَمَامَةَ صَيْفٍ زَعْزَعَتْهَا شَمَالُهَا
إِذَا ٱلْتَفَتَتْ مِنْ خَلْفِهَا وَهِيَ تَعْتَلِيْ ... عَلَىٰ ٱلْعِيْسِ جَلَّىٰ عَبْرَةَ ٱلْعَيْنِ حَالُهَا[1]

لحوقه بالوحوش ولمَّا ٱشتدَ هيمانهُ بها . . أَشارَ قومُهُ علىٰ أَبيهِ أَنْ يذهبَ بهِ (مكَّةَ) ؛ علَّ اللهَ يخففُ عنهُ بعضَ ما بهِ ، فذهبوا بهِ ، وجرَتْ لَهُ في حجِّهِ غرائبُ ، ثُمَّ ٱنفلَتَ عليهم ، وٱلتحقَ بالوحوشِ ، وأَنِسَتْ بهِ

---

(١) القصة في « الأغاني » (٢/ ٤٤) .

لمَّا طالَتْ شعورُهُ وأَظافرُهُ ، فكانَ يردُ معها الماءَ ، ويأكلُ الشجرَ ، ويكثرُ مِنْ ذكرِ جبلٍ ، كانَ يرعىٰ بهِ الغنمَ هو وليلىٰ ، يقالُ لهُ : (التوبادُ) ، فتارةً يشرفُ علىٰ (الشام) ، ويرىٰ ناساً لا يعرفُهُم ، فيقولُ لهم : أَينَ (التوبادُ) ؟ فيقولونَ لهُ : وأَينكَ منهُ ؟ ويدلُّونهُ عليهِ بالنجومِ ، فيشرفُ علىٰ (اليمنِ) ، ويقعُ لهُ معَ أَهلهِ مثلُ ما وقعَ لهُ بـ(الشامِ) ، إلىٰ أَنْ لاحَ لهُ (التوبادُ) ، فعرفَهُ ، فقالَ [في « ديوانهِ » ٢٧٥ مِنَ الطَّويلِ] :

وَأَجْهَشْتُ لِلتَّوْبَادِ حِيْنَ رَأَيْتُهُ ... وَكَبَّـرَ لِلـرَّحْمَـٰنِ حِيْـنَ رَآنِـيْ
وَأَذْرَيْتُ دَمْعَ ٱلْعَينِ لَمَّا عَرَفْتُهُ ... وَنَادَىٰ بِأَعْلَىٰ صَوْتِهِ فَدَعَانِيْ
فَقُلْتُ لَهُ قَدْ كَانَ حَوْلَكَ جِيْرَةٌ ... وَعَهْدِيْ بِذَاكَ ٱلصَّرْمِ مُنْذُ زَمَانِ
وَقُلْـتُ لَـهُ أَيْـنَ ٱلَّـذِيْـنَ عَهِـدْتُهُـمْ ... بِقُرْبِكَ فِيْ خَفْضٍ وَطِيْبِ أَمَانِ ؟!
فَقَالَ: مَضَوْا وَٱسْتَوْدَعُوْنِيْ دِيَارَهُمْ ... وَمَنْ ذَا ٱلَّذِيْ يَبْقَىٰ عَلَىٰ ٱلْحَدَثَانِ(١)
وَإِنِّيْ لأَبْكِيْ ٱلْيَوْمَ مِنْ حَذَرِيْ غَداً ... فِـرَاقَـكِ وَٱلْحَيَّـانِ مُـؤْتَلِفَـانِ(٢)

استئنـاس المجنـون بواحد يروي أشعاره

ولـمْ يزلْ كذلِكَ حالُ عامرٍ معَ الوحشِ ، لا يألفُ أَحداً مِنَ ٱلنَّاسِ ، كما قالَ ٱبنُ الفارضِ [في « ديوانهِ » ٤٠ مِنَ الطَّويلِ] :

وَأَبْعَـدَنِـيْ عَـنْ أَرْبُعِـيْ بُعْـدُ أَرْبَـعِ ... شَبَابِيْ وَعَقْلِيْ وَٱرْتِيَاحِيْ وَصِحَّتِيْ(٣)
فَلِيْ بَعْدَ أَوْطَانِيْ سُكُوْنٌ إِلَىٰ ٱلْفَلاَ ... وَبِٱلْوَحْشِ أُنْسِيْ إِذْ مِنَ ٱلإِنْسِ وَحْشَتِيْ ـ

إلاَّ واحداً ، تألَّفهُ [أَي : المجنون] لنقلِ أَخبارِهِ وأَشعارِهِ ،

---

(١) الحَدَثانِ : الليلُ والنهارُ .
(٢) القصة في « الأغاني » (٢/ ٤٩) .
(٣) أربُعي ـ جمع رَبعٍ ـ : المنزِلُ .

فيُروىٰ : أَنَّهُ قالَ لهُ يوماً : يرحمُ ٱللهُ قيساً [ابن ذريح] في قولِهِ [في « ديوانه » ١٠٥ مِنَ الطَّويلِ] :

تَبِيْتُ وَتُضْحِيْ كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ عَلَىٰ مَنْهَجٍ تَبْكِيْ عَلَيْهِ ٱلْقَبَائِلُ
قَتِيْـلٌ لِلُبْنَـىٰ صَـدَّعَ ٱلْحُـبُّ قَلْبَـهُ وَفِيْ ٱلْحُبِّ شُغْلٌ لِلْمُحِبِّيْنَ شَاغِلُ

فقالَ أَنا أَشعرُ منهُ في قولي [مِنَ الطَّويلِ] :

سَلَبْتِ عِظَامِيْ لَحْمَهَا فَتَرَكْتِهَا مُعَرَّقَةً تَضْحَىٰ إِلَيْهِ وَتَصْحَرُ[1]
وَأَخْلَيْتِهَـا مِـنْ مُخِّهَـا فَكَـأَنَّهَـا قَوَارِيْرُ فِيْ أَجْوَافِهَا ٱلرِّيْحُ تَصْفِرُ
إِذَا سَمِعَتْ ذِكْرَ ٱلْفِرَاقِ تَقَطَّعَتْ عَـلاَئِقُهَـا مِمَّـا تَخَـافُ وَتَحْـذَرُ
خُذِيْ بِيَدِيْ ثُمَّ ٱنْهَضِيْ بِيْ تَبَيَّنِيْ بِـيَ ٱلضُّـرَّ إِلاَّ أَنَّنِـيْ أَتَسَتَّـرُ

وَأَنَّهُ حرَّكهُ يوماً بذكرِ شيءٍ مِن شِعرِ قيسٍ ، فقالَ لهُ : أَنا أَشعرُ منهُ في قولي [كما في « المستطرف » ٢/٨٦ مِنَ الطَّويلِ] :

فَمَا وَجْدُ مَغْلُوْبٍ بِصَنْعَاءَ مُوْثَقٍ بِسَاقَيْهِ مِنْ ثِقْلِ ٱلْحَدِيْدِ كُبُوْلُ
قَلِيْـلُ ٱلْمَـوَالِـيْ مُسْتَهَـامٌ مُـرَوَّعٌ لَهُ بَعْدَ نَوْمَاتِ ٱلْعِشَاءِ عَوِيْلُ
يَقُوْلُ لَهُ ٱلْحَدَّادُ : أَنْتَ مُعَذَّبٌ غَـدَاةَ غَـدٍ أَو مُسْلَـمٌ فَقَتِيْـلُ
بِأَعْظَمَ مِنِّيْ لَوْعَةً يَوْمَ رَاعَنِيْ فِـرَاقُ حَبِيْـبٍ مَـا إِلَيْـهِ سَبِيْـلُ

موت المجنون

وَأَنَّهُ قالَ لَمْ أَزَلْ أُعاودُهُ إِلىٰ أَن وجدتُهُ يوماً ميْتاً بينَ الأَحجارِ .

ابن عجلان في نهر غسان واستباء هند عقله ولبه

وأَمّا عبدُ اللهِ بنُ عجلانَ . . فإِنَّهُ مِنْ قضاعةَ ، وقد عَلِقَ بهندِ ابْنةِ كعبِ بنِ عمرِو بنِ ليثٍ النهديِّ ؛ وذلكَ أَنَّهُ خرجَ يوماً إِلىٰ شِعْبٍ مِنْ شعابِ (نجدٍ) ، ينشدُ ضالَّةً لهُ ، فشارفَ ماءً ، يُقالُ لهُ : (نهر

---

(١) المعروقُ : هو عظمٌ أُكِلَ اللحم الذي عليهِ .

غسَّانَ) ، تقصدُهُ بناتُ العربِ ، وتغتسلُ فيهِ ، فرآهنَّ مِنْ ربوةٍ تشرفُ عليهِ مِنْ بعيدٍ ، فمكثَ ينظرُ إليهنَّ مستخفياً حتَّىٰ صدرنَ ، وبقيَتْ هندٌ تُمشِّطُ شعرَها ، وترسلُهُ علىٰ بدنِها ، وكانَ طويلاً جَثْلاً[1] ، وهو يتأمَّلُ شفوفَ بياضِ جسمِها مِنْ خلالِ سوادِ شعرِها ، ولمّا نهضَ ليركبَ راحلتَهُ . . عَجَزَ ، وأُقعدَ ساعةً ، وكانَ مِنَ الأَيْدِ[2] بحيثُ يَصُفُّ أَربعَ رواحلَ ، يثبُ الثلاثَ ، ويركبُ الرابعةَ ، فقالَ [مِنَ الطَّويلِ] :

لَقَدْ كُنْتُ ذَا بَأْسٍ شَدِيْدٍ وَهِمَّةٍ ... إِذَا شِئْتُ لَمْساً لِلثُرَيَّا لَمَسْتُهَا
أَتَتْنِيْ سِهَامٌ مِنْ لِحَاظٍ فَأَرْشَقَتْ ... بِقَلْبِيْ وَلَوْ أَسْطِيْعُ رَدّاً رَدَدْتُهَا[3]

ثُمَّ قال : هٰذا واللهِ الضالَّةُ التي لا ترَدُّ ، ثُمَّ عادَ ، وقد تمكَّنَ الهوىٰ منهُ ، فأَخبرَ صديقاً لَهُ ، فقالَ : ٱكتمْ وٱخطُبْهَا إِلىٰ أَبيها ، فإِنَّهُ مُزوِّجُكَ ، ما لَمْ يشتهر حبُّكَ لها ، وإِلاَّ حُرِمْتَها ، ففعلَ وتزوَّجَها ، وأَقامَتْ عندَهُ ثماني سنينَ ، لا يزدادُ فيها إِلاَّ غراماً وكَلَفاً[4] ، غيرَ أَنَّها لَمْ تحمِلْ ، وكانَ أَبوهُ مثرياً ، فأَقسمَ عليه ليتزوَّجَنَّ أُخرىٰ للولدِ ، فأَبَتْ مِنَ ٱلضَّرَّةِ ، فَأَلَحَّ عليهِ في طلاقِها ، فلَمْ يفعلْ ، حتَّىٰ سكرَ ، فأَرسلَ إِليهِ يدعوهُ ، فمنعَتهُ هندٌ ، وقالَتْ : واللهِ لا يدعوْكَ لخيرٍ ، وما أَراهُ إِلاَّ عرفَ سكرَكَ ، فدعاكَ للطلاقِ ، فأَبىٰ إِلاَّ ٱلخروجَ ، فجاذبَتْهُ ، ويدُها مخلَّقةٌ[5] بالزَّعفرانِ ، فأَثَّرَتْ في ثوبِهِ ،

---

(١) الجَثْلُ : هوَ الضخمُ الغليظُ .
(٢) الأَيْدُ : القوَّةُ .
(٣) الرَّشقُ : الرميُ .
(٤) كَلِفَ بالشيء : أُولعَ به .
(٥) مخلَّقةٌ : مطيَّبةٌ .

ولمّا جلسَ مع أَبيهِ ، وعندَهُ أَكابرُ ٱلعربِ . . أَخذوا يعنِّفونَهُ ، ويتناوشونَهُ باللَّومِ مِنْ كلِّ مكانٍ ، حَتَّىٰ ٱستحيا فطلَّقها ، فٱحتجبَتْ منهُ فوَجِدَ وَجْداً شديداً كادَ يقضي منهُ ، وعندما أَرادتْ أَنْ تتحمَّلَ عنهُم قالَ [كما في « الأغاني » ٢٢/ ٢٤٣ مِنَ الطَّويلِ] :

خَلِيْلَيَّ زُوْرَا قَبْلَ شَحْطِ ٱلنَّوَىٰ هِنْداً وَلاَ تَأْمَنَا مِنْ دَارِ ذِيْ لَطَفٍ بُعْدَا[1]
وَلاَ تَعْجَلاَ لَمْ يَدْرِ صَاحِبُ حَاجَةٍ أَغَيّاً يُلاقِيْ فِيْ ٱلتَّعَجُّلِ أَمْ رُشْدَا
وَمُــرَّا عَلَيْهَــا بَــارَكَ ٱللهُ فِيْكُمَــا وَإِنْ لَمْ تَكُنْ هِنْدٌ لِوَجْهَيْكُمَا قَصْدَا
وَقُوْلاَ لَهَا لَيْسَ ٱلضَّلاَلُ أَجَازَنَا وَلَـٰكِنَّنَا جُـزْنَا لِنَلْقَـاكُـمُ عَمْـدَا
غَدَاً يَكْثُرُ ٱلْبَاكُوْنَ مِنَّا وَمِنْكُمُ وَتَزْدَادُ دَارِيْ عَنْ دِيَارِكُمُ بُعْدَا

موته وموت هند متعانقين

ثُمَّ إِنَّ هنداً تزوَّجتْ في بني نُميرٍ ، وعبدُ اللهِ ينمو شوقُهُ ، ويتضاعفُ وجدُهُ ، وكانَتْ بينهم ثاراتٌ ودماءٌ ، فحذَّرَهُ أَبوهُ مِنَ ٱلخروجِ إِليهِم ، فخرجَ سِرّاً ، حَتَّىٰ أَتاها ، وهي جالسةٌ علىٰ حوضٍ ، وزوجُها يسقي إِبلاً لهُ ، فلمّا تعارفا . . شَدَّ كُلٌّ منهما علىٰ صاحبِهِ ، وٱعتنقا ، وسقطا إِلىٰ الأَرضِ ، فجاءَ زوجُها ، فوجدَهُما مَيْتينِ .

عشقه يضرب به الأمثال

وكانَ موتُهُ قبلَ عامِ ٱلفيلِ بأَربعةِ أَعوامٍ ، وهوَ ممَّنْ تُضرَبُ بهمُ ٱلأَمثالُ في ٱلهوىٰ ؛ ولهـٰذا يقولُ قيسُ بنُ ذُريحٍ [في « ديوانهِ » ١٢٢ مِنَ الطَّويلِ] :

فَمَا وَجِدَتْ وَجْدِيْ بِهَا أُمُّ وَاحِدٍ وَلاَ وَجدَ ٱلنَّهْدِيُّ وَجْدِيْ عَلَىٰ هِنْدِ
وَلاَ وَجدَ ٱلْعُذْرِيُّ عُرْوَةُ فِيْ ٱلْهَوَىٰ كَوَجْدِيْ وَلاَ مَنْ كَانَ قَبْلِيْ وَلاَ بَعْدِيْ

---

(١) الشَّحْطُ : البعدُ .

وقالَ أَبو عُيينةَ [مِنَ الطَّويلِ] :

فَمَا وَجدَ ٱلنَّهْدِيُّ إِذْ مَاتَ حَسْرَةً عَشِيَّةَ بَانَتْ مِنْ حَبَائِلِهِ هِنْدُ
وَلاَ عُرْوَةُ ٱلْعُذْرِيُّ إِذْ طَالَ وَجْدُهُ بِعَفْرَاءَ حَتَّىٰ شَفَّ مُهْجَتَهُ ٱلْوَجْدُ
كَوَجْدِيْ غَدَاةَ ٱلْبَيْنِ عِنْدَ ٱلْتِفَاتِهَا وَقَدْ طَارَ عَنْهَا بَيْنَ أَتْرَابِهَا ٱلْبُرْدُ[1]

وقالَ آخرُ [مِنَ الوافرِ] :

وَقَبْلِـيْ مَـاتَ مِـنْ وَجْـدٍ بِهِنْـدٍ أَخُـوْ نَهْـدٍ وَصَـاحِبُـهُ جَمِيْـلُ
وَعُـرْوَةُ وَٱلْمُـرقَّشُ هَـامَ دَهْـراً بِـأَسْمَـاءٍ فَلَـمْ يُغْـنِ ٱلْعَـوِيْـلُ

فأَمَّا النهديُّ . . فقد ٱقتصصْنَا حديثَهُ .

وأَمَّا عروةُ بنُ حِزامٍ . . فإِنَّهُ عذريٌّ ، توفِّيَ أَبوهُ ، ولهُ مِنَ ٱلعمرِ أَربعُ سنينَ ، وكَفَلَهُ أَبو عفراءَ ، فنشأا معاً ، فلمَّا ٱستوىٰ . . خطبها إِلىٰ عمِّهِ ، فوعدَهُ ، ثُمَّ أَخرجهُ إِلىٰ (الشامِ) في عيرٍ لَهُ ، وجاءَ ٱبنُ أَخٍ لَهُ ـ يقالُ لهُ : أُثاثةُ بنُ سعيدِ بنِ مالكٍ ـ يريدُ الحجَّ ، فرأَىٰ عفراءَ ، فأَصابَتْ حبَّةَ قلبهِ ، فخطبَها مِنْ عمِّهِ ، فزَوَّجَهُ إِيَّاهَا ، ولمّا ٱحتمَلَها . . أَقبلَ عروةُ ، فعرفَها مِنْ بعيدٍ ، فقالَ [في « ديوانهِ » ٢٤ـ٢٥ مِنَ الطَّويلِ] : عروة بن حزام وعفراء

بِنَا مِنْ جَوَىٰ ٱلأَحْزَانِ وَٱلْبُعْدِ لَوْعَةٌ تَكَادُ لَهَا نَفْسُ ٱلْجَلِيْدِ تَذُوْبُ[2]
عَشِيَّـةَ لاَ عَفْـرَاءُ مِنْـكَ بَعِيْـدَةٌ فَتَسْلُوْ وَلاَ عَفْرَاءُ مِنْكَ قَرِيْبُ

وَبِإِثرِ ذلكَ ٱشتدَّ قلقُهُ ، وكثُر تعبُهُ ، وزادَ ضناهُ ، وجفاهُ نومُهُ ،

---

(١) البُردُ : كساءٌ أَسودُ تلبسهُ نساءُ العربِ .
(٢) الجَوىٰ : داءٌ في الصدرِ من شدَّة العشقِ .

وٱمتنعَ عليهِ طعامُهُ ، ومرَّ بهِ ٱبنُ أبي عتيقٍ ، وهو نِضوٌ[1] ، تلاطفهُ أُمُّهُ ، فسأَلهَا عَنْ شأنِهِ ، فأخبرتْهُ ، فقالَ : ٱرفعي عنهُ الغطاءَ ، فإذا بهِ مثلُ الخيالِ ، فرَقَّ عليهِ ، وٱستنشدَهُ ، فأنشدَهُ بعضَ أبياتِهِ النونيّةِ ، التي يصرِّحُ فيها بأنَّ عمَّهُ ٱشتطَّ عليهِ في المهرِ ، وذلكَ حيثُ يقولُ [في « ديوانه » ٤٤ مِنَ الطَّويل] :

يُكَلِّفُنِـيْ عَمِّـيْ ثَمَـانِيْـنَ نَـاقَـةً ... وَمَالِيَ وَٱلرَّحْمَـٰنِ غَيْرُ ثَمَانِ

موت عروة وعفراء

ولمّا أَيسَ مِنَ ٱلشفاءِ . . حُمِلَ إِلىٰ (البلقاءِ) ، حيثُ يَشَمُّ رائِحةَ عفراءَ ، ويسارِقُهَا النظرَ في مظانِّ ورودِها ، ولم يزَلْ هناكَ حتَّىٰ عرفهُ رجلٌ مِنْ عذرَةَ ، فجاءَ إِلىٰ زوجِ عفراءَ ، وقالَ لَهُ : متىٰ قدمَ عليكُم هـٰذا الكلبُ الذي فضحَكُم بنسيبهِ[2] فيكم ، قالَ : ومَنْ تعني ؟ قالَ : عروةُ بنُ حزامٍ ، قالَ : واللهِ لأَنتَ أَحقُّ بما قلْتَ فيهِ ، وأَسرعَ في طلبهِ حتَّىٰ لقيَهُ ، وأَقسمَ عليهِ بالمحرَّجاتِ أَلاَّ ينزلَ إِلاَّ عندَهُ ، فأَجابَهُ ، وأَضمرَ في نفسهِ أَنْ يركبَ الليلَ ، فمضىٰ ، وٱشتدَّ بهِ الأَلمُ ، وماتَ بـ(وادي القُرىٰ) ، ولمّا ٱتَّصلَ موتُهُ بعفراءَ . . ٱستأذنَتْ زوجَها في ندبهِ والخروجِ إِلىٰ قبرهِ ، فأَذنَ لها ، وعندما وصلَتْ إِليهِ تمرَّغتْ عليهِ ، وقالَتْ [مِنَ الطَّويل] :

أَلاَ أَيُّهَا ٱلرَّكْبُ ٱلْمُخِبُّوْنَ وَيْحَكُمْ ... بِحَـقٍّ نَعَيْتُـمْ عُـرْوَةَ بْـنَ حِـزَامِ[3]
فَإِنْ كانَ حَقّاً مَا تَقُوْلُوْنَ فَٱعْلَمُوْا ... بِأَنْ قَدْ نَعَيْتُمْ بَدْرَ كُلِّ ظَلاَمِ
فَـلاَ لَقِـيَ ٱلْفِتْيَـانُ بَعْـدَكَ رَاحَـةً ... وَلاَ رَجَعُـوْا مِـنْ غَيْبَـةٍ بِسَـلاَمِ

---

(١) نِضوٌ : هزيلٌ مريضٌ .
(٢) نسيبُ الشِّعرِ : رقيقهُ المتغزلُ بهِ في النِّساءِ .
(٣) المخبُّونَ : المضطربونَ ، وهذا نتيجة الخَبَب ، وهو ضرب من العَدْو .

وَلاَ وَضَعَتْ أُنْثَىٰ تَمَاماً بِمِثْلِهِ   وَلاَ ٱنْفَرَجَتْ مِنْ بَعْدِهِ بِغُلاَمِ

الشجرتان المتعانقتان

وما فرغَتْ مِنْ شِعرِها إلاَّ وأَلقَتْ بنفسِها علىٰ القبرِ ، فحرَّكَها أَصحابُها ، فإذا هي ميْتةٌ ، فدفنُوها إلىٰ جانبهِ ، فنبتَ مِنَ القبرِ شجرتانِ ، ٱلتفَّتا لَمّا صارتَا علىٰ حدِّ القامةِ بهيئَةِ المتعانقينِ[١] .

رواية للأصفهاني عن عروة

وأَخرجَ أَبو الفرجِ [في « الأغاني » ٢٤/١٣٧] مِنْ طريقِ ٱلكلبيِّ عَنْ أَبي صالحٍ قالَ :

كنتُ معَ ٱبنِ عبَّاسٍ بـ(عرفةَ) ، فحُمِلَ إليهِ فتىً لَمْ يبقَ إلاَّ خيالُهُ ، فقالُوا : ٱدعُ لَهُ ، قالَ : ومَا بِهِ ؟ قالوا : الهوىٰ ، ثُمَّ خفقَ في أَيديهم ، فما رأَيتُ ٱبنَ عبَّاسٍ في عشيَّتِهِ يسأَلُ اللهَ إلاَّ العافيةَ ممَّا ٱبتُلِيَ بهِ الفتىٰ ، وسأَلْتُ عنهُ ، فقالوا : عروةُ بنُ حزامٍ ، وهـٰذهِ الروايةُ تناقِضُ التي قبلَها ، والأُولىٰ أَثبتُ ، وأَذكرُ في النَّاسِ .

المرقش والخلاف في اسمه وشجاعته

وأَمَّا المرقَّشَ : فالمرادُ بهِ الأَكبرُ ، وٱسمهُ عمرٌو ، وقيلَ : عوفُ بنُ سعدِ بنِ مالكٍ ، ينتهي نسبُهُ لبكرِ بنِ وائلٍ ، وإنَّما سمِّيَ المرقَّشَ ؛ لقولِهِ [كما في « البيان والتَّبيينِ » ١/١٩٦ من الكامل] :

ٱلـدَّارُ وَحْـشٌ وَٱلـرُّسُـوْمُ كَمَـا   رَقَّشَ فِيْ ظَهْرِ ٱلأَدِيْمِ قَلَمْ[٢]

أَو لأَنَّهُ قَتلَ نَمِراً وَأَسَداً وَمرَّ بالحيِّ مُلْتحِفاً جِلْدَيْهما فسمَّوْهُ .

عشقه لأسماء بنت عوف

ولهُ ذكرٌ في حربِ وائلٍ ومكانٌ فيها ، وبأسٌ وشجاعةٌ ونجدةٌ ، وكانَ مِنْ خبرهِ [كما في « مصارع العشاق » ١/٢٢٧] : أَنَّهُ عشقَ ٱبنةَ عمِّهِ أَسماءَ بنتَ عوفٍ ، فخطبَها ، فقالَ : لا أُزوِّجُكَ حَتَّىٰ تُعرفَ

---

(١) القصَّةُ بنحوها في « مَصارِعِ ٱلعُشَّاقِ » (١/٣١٧) .
(٢) الرَّقْشُ : الكتابةُ والتنقيطُ .

تزويج والدها إياها لرجل من مراد وهُيام المرقش بها وموته من ذلك

بالبأسِ ، وأَعطاهُ المواثيقَ ، فٱنطلقَ المرقَّشُ إِلىٰ بعضِ الملوكِ ، وأَقامَ عندَهُ زماناً يمدحُهُ ، فأَكرمَ مثواهُ ، وأَجازَهُ ، وأَصابَ عوفاً مَحْلٌ وجَهدٌ ، فأَتاهُ رجلٌ مِنْ مرادٍ ، فزوَّجَهُ أَسماءَ علىٰ مئةٍ مِنَ ٱلإِبلِ ، ثُمَّ تنحَّىٰ عَنْ بني سعدِ بنِ مالكٍ ، وأَخذَ ٱمرأَتَهُ معهُ ، وجاءَ المرقَّشُ ، وٱتَّفقَ أَهلُهُ علىٰ أَن لا يخبروهُ بزواجِها ، وأَجمعوا علىٰ أَن يقولُوا لَهُ : ماتَتْ ، وبقيَ الأَمرُ علىٰ ذلكَ مدَّةً ، وأَثَرُ الضَّنىٰ يظهرُ عليهِ ، حتَّىٰ ٱستيقنَ دُخلةَ[1] الأَمرِ مِنْ بعضِ الصبيانِ ، فدعىٰ بوليدةٍ لَهُ وزوجٍ لَها مِنْ بني عقيلٍ ، وٱحتملُوا معاً إِلىٰ (اليمنِ) ، وٱشتدَّ بهِ المرضُ في الطريقِ ، فأَنزلُوْهُ بكهفٍ يقربُ مِنْ أَرضِ مرادٍ ، ثُمَّ ٱنصرفا عنهُ ، وقالا : ماتَ ، ولَمْ يزلْ بذلكَ الكهفِ ، حَتَّىٰ أَقبلَ عليهِ راعي غنمٍ ، فسأَلَهُ عَنْ شَأنِهِ ، فقالَ : أَنا مِنْ مرادٍ ، وأَنت راعيْ مَنْ ؟ قالَ : راعي فلانٍ ـ لزوجِ أَسماءَ ـ قالَ : هَل تستطيعُ أَنْ تكلِّمَ ٱمرأَةَ صاحبِكَ ؟ قالَ : لا ، ولا أَدنو منها ، غيرَ أَنَّ جاريتَها تأتيني كلَّ ليلةٍ فأَحلبُ لها ما تشاءُ ، فقالَ لهُ : خُذْ خاتمي هـٰذا ، فإِذا حلَبْتَ . . فٱجعلْهُ في اللَّبنِ ، فإِنَّها ستعرفُهُ ، وستصيبُ بهِ خيراً لَمْ يصبْهُ راعٍ قطُّ ، ففعلَ ، وٱنطلقَتِ الجاريةُ باللَّبنِ ، وتركتْهُ بينَ يدي أَسماءَ ، فلمَّا سكنَتِ ٱلرغوةُ . . أَخذَتْهُ ، فشربَتْهُ ، وكذلكَ كانَتْ تصنعُ ، فقرَعَ الخاتَمُ ثنيتَها ، فأَخذَتْه ، وعرفَتْهُ ، فسأَلَتْ عنهُ الجاريةَ ، فقالَتْ : لا علمَ لي بهِ ، فٱستدعَتْ زوجَها ؛ ليستفْهمَ العبدَ عَنِ ٱلخاتمِ ، فأَخبرَهُمْ بِمَنْ دفعَهُ لَهُ ، وأَنَّهُ في الكهفِ بآخرِ

---

(١) الدُّخلَةُ : باطن الأمرِ .

رمقٍ ، فركبَتْ معَ زوجِها في الخيلِ ، حتَّىٰ طرقاهُ ، وٱحتملاهُ إلىٰ الحيِّ ، وماتَ عندَهُم في أرضِ مرادٍ .

هناك مرقش آخر هو عم طرفة بن العبد

ولهمُ مرقَّشٌ آخرُ : هو ٱبنُ أخي الأوَّلِ ، وهو عَمُّ طَرفَةَ بنِ العبدِ ، وهو مِنْ عشَّاقِ العربِ أيضاً ، كانَ يهوىٰ فاطمةَ بنتَ المنذرِ الملكِ ، وكانَ يُشبِّبُ بِها ، وكانَتْ لَهُ في حربِ وائلٍ مواقفُ لا تقلُّ عن مواقفِ عمِّهِ[1] .

إحالة الحديث عن ابن ذريح إلى مكان آخر

وأَمّا قيسُ بنُ ذُريحٍ . . فسنتركُ حديثَهُ إلىٰ الكلامِ علىٰ قولِ الناظمِ [في « العُكبَريّ » ٣/ ١٦٥ مِنَ البسيطِ] :

عَلَّ ٱلأَمِيْرَ يَرَىٰ ذُلِّيْ فَيَشْفَعَ لِيْ ... إِلَىٰ ٱلَّتِي تَرَكَتْنِي فِيْ ٱلْهَوَىٰ مَثَلاَ

بقاء المحبين عجيب

فإنَّ لهُ بهِ ٱتِّصالاً قويّاً ، وما ذكرناهُ هنا كافٍ لمناسبةِ تعجُّبهِ مِنَ ٱلعيشِ معَ كثرةِ ما يجورُ البينُ ، ويقتلُ الهوىٰ ، وما أحسنَ قولَ عروةَ [في « ديوانهِ » ٢٦ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا عَجَبِيْ مَوْتُ ٱلْمُحِبِّيْنَ فِيْ ٱلْهَوَىٰ ... وَلَـٰكِـنْ بَقَـاءُ ٱلْعَـاشِقِيْـنَ عَجِيْـبُ

وقولَ قَيسِ بنِ ذريحٍ أَو ٱبنِ الدُّمَيْنَةِ علىٰ ٱختلافِ الرِّوايةِ [في « ديوان قيس بن ذريح » ٤٣ مِنَ الطَّويلِ] :

وَفِيْ عُرْوَةَ ٱلْعُذْرِيِّ إِنْ مُتُّ أُسْوَةٌ ... وَعَبْدِ بْنِ عَجْلاَنَ ٱلَّذِيْ قَتَلَتْ هِنْدُ
فَبِيْ مِثْلُ مَا قَدْ نَابَهُمْ غَيْرَ أَنَّنِيْ ... إِلَـىٰ أَجَـلٍ لَـمْ يَـأْتِنِـيْ وَقْتُـهُ بَعْـدُ
وَفَيْـضُ دُمُـوْعِ ٱلْعَيْـنِ بِـٱللَّيْـلِ كُلَّمَـا ... بَدَا عَلَمٌ مِنْ أَرْضِكُمْ لَمْ يَكُنْ يَبْدُوْ

* * *

---

(١) كما في « الأغاني » (٦/ ١٣٦) .

[قالَ أَبو الطَّيبِ المتنبِّي في « العُكبَريِّ » ٣/ ١٦٣ مِنَ ٱلبسيطِ] :

وَٱلْوَجْدُ يَقْوَىٰ كَمَا تَقْوَىٰ ٱلنَّوَىٰ أَبَداً   وَٱلصَّبْرُ يَنْحَلُ فِيْ جِسْمِي كَمَا نَحِلاَ

من دلائل صدق الهوى

ذوبان الجسم في الحب

يقولُ : إنَّ الوجدَ يقوىٰ ، والنوىٰ يزيدُ ، والصبرَ يذهبُ ، والجسمَ ينحلُ ، وهـٰذا دليلُ صحَّةِ الهوىٰ وصدقِ الحبِّ .

قالَ المجنونُ [في « ديوانهِ » ٩٧ـ٩٨ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَمْ يَبْقَ إِلاَّ ٱلْجِلْدُ وٱلْعَظْمُ عَارِياً   وَلاَ عَظْمَ لِيْ إِنْ دَامَ مَا بِيْ وَلاَ جِلْدُ
أُقَلَّـبُ بِـٱلأَيْـدِيْ وَقَـوْمِـيْ تَعُـوْلُنِـيْ   يُفَدُّوْنَنِيْ لَوْ يَسْتَطِيْعُوْنَ أَنْ يَفْدُوْا[1]

أيزيد أم ينقص الحب؟

وقالَ [في « مَصارعِ ٱلعشَّاقِ » ٢/ ٩١ مِنَ ٱلوافرِ] :

ذَكَـرْتُ عَشِيَّـةَ ٱلصَّـدَفَيْـنِ لَيْلَـىٰ   وَكُلَّ ٱلدَّهْرِ ذِكْرَاهَا جَدِيْدُ[2]
عَلَـيَّ أَلِيَّـةٌ إِنْ كُنْـتُ أَدْرِيْ   أَيَنْقُـصُ حُـبُّ لَيْلَـىٰ أَمْ يَـزِيْـدُ

وقالَ قيسُ بنُ ذريحٍ [في « ديوانهِ » ٦٦ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلِلْحُـبِّ آيَـاتٌ تَبَيَّـنُ لِلْفَتَـىٰ   شُحُوْبٌ وَتُبْرَىٰ مِنْ يَدَيْهِ ٱلأَشَاجِعُ[3]

وقالَ جميلٌ [في « ديوانهِ » ٦٣ـ٦٤ من الطويلِ] :

عَلِقْتُ ٱلْهَوَىٰ مِنْهَا وَلِيْداً وَلَمْ يَزَلْ   إِلَـىٰ ٱلْيَـوْمِ يَنْمُـوْ حُبُّهَـا وَيَـزِيْـدُ
وَأَفْنَيْتُ عُمْرِيْ فِيْ ٱنْتِظَارِ نَوَالِهَا   وَأَفْنَتْ بِذَاكَ ٱلدَّهْرَ وَهْوَ جَدِيْدُ

---

(١) **الإعالةُ** : المساعدة .
(٢) **الصدفانِ** : جبلانِ متلاقيانِ ، بيننا وبين يأجوجَ ومأجوجَ .
(٣) **الأَشاجعُ** : هيَ أُصولُ الأَصابعِ التي تتَّصِلُ بعصَبِ ظاهرِ الكَفِّ .

وقالَ هو أَو قيسٌ [كما في « ديوان قيس بنِ ذريحٍ » ١٢٣ مِنَ الطَّويلِ] : الحب النامي

تعلَّقَ رُوْحِي رُوْحَها قبْلَ خلقِنَا ... وَمِنْ بَعْدِ مَا كُنَّا نِطَافاً وَفِيْ ٱلْمَهْدِ
فَزادَ كَما زِدْنَا وَأَصْبَحَ نَامِياً ... وَلَيْسَ إِذَا مِتْنَا بِمُنْفَصِمِ ٱلْعَقْدِ
وَلٰكِنَّهُ بَاقٍ عَلَىٰ كُلِّ حَادِثٍ ... وَإِنَّا لَنَرْجُوْ ٱلْوَصْلَ فِيْ ظُلْمَةِ ٱللَّحْدِ

وقالَ كثيِّرٌ [في « ديوانهِ » ١٠٢ مِنَ الطَّويلِ] :

فَلاَ يَحْسَبِ ٱلْوَاشُوْنَ أَنَّ صَبَابَتِيْ ... بِعَزَّةَ كَانَتْ غَمْرَةً فَتَجَلَّتِ[1]

وقالَ ذو الرُّمَّةِ [في « ديوانهِ » ٢/ ١١٩٥ مِنَ الطَّويلِ] :

تَصَرَّفُ أَهْوَاءُ ٱلْقُلُوْبِ وَلاَ أَرَىٰ ... نَصِيْبَكِ مِنْ قَلْبِيْ لِغَيْرِكِ يُمْنَحُ
فَبَعْضُ ٱلْهَوَىٰ بِٱلْهَجْرِ يُمْحَىٰ فَيَنْمَحِيْ ... وَحُبُّكِ عِنْدِيْ يَسْتَجِدُّ وَيَرْجَحُ

وقالَ المجنونُ أَو غيرُهُ [في « ديوانهِ » ٢٤٨ مِنَ الطَّويلِ] :

أَجِدَّكَ لاَ تُنْسِيْكَ لَيْلَىٰ مُلِمَّةٌ ... تُلِمُّ وَلاَ يُنْسِيْكَ عَهْداً تَقَادُمُهْ[2]

أَمَّا قولُ زهيرِ بنِ جَنَابٍ [مِنَ الوافرِ] : الحب الصادق لا يبلى مدى الدهر

إِذَا مَا شِئْتَ أَنْ تَنْسَىٰ حَبِيْباً ... فَأَكْثِرْ دُوْنَهُ عَدَدَ ٱللَّيَالِيْ
فَمَا سَلَّىٰ حَبِيْباً مِثْلُ نَأْيٍ ... وَلاَ أَبْلَىٰ جَدِيْداً كَٱبْتِذَالِ

.. فقد ردَّهُ عليهِ جميلُ بنُ معمرٍ في قولِهِ [في « ديوانهِ » ٢٩٣ مِنَ الطَّويلِ] :

لَحَا ٱللهُ أَقْوَاماً يَقُوْلُوْنَ: إِنَّنَا ... وَجَدْنَا طِوَالَ ٱلنَّأْيِ لِلْحُبِّ شَافِيَا

---

(١) الغَمْرةُ : الشِّدَّة .
(٢) أَجِدَّكَ : منصوبٌ على المصدريةِ ، وهي كلمةٌ تستعملُ في معنىٰ : أَجِدٌّ منكَ ؟ وتأتي بمعنىٰ : مالكَ ؟ .

وهـٰذا البيتُ موجودٌ أيضاً في قصيدةِ ٱلمجنونِ ٱلمشهورةِ ، وبعدَهُ [في « ديوانهِ » ٢٩٣ مِنَ الطَّويلِ] :

وَعَهْدِيْ بِلَيْلَىٰ وَهِيَ ذَاتُ مُؤَشَّرٍ ... تَرُدُّ عَلَيْنَا بِٱلْعَشِيِّ ٱلْمَوَاشِيَا[(١)]
فَشَبَّ بَنُوْ لَيْلَىٰ وَشَبَّ بَنُوْ ٱبْنِهَا ... وَأَعلاَقُ لَيْلَى فِيْ فُؤَادِيْ كَمَا هِيَا[(٢)]

القلب العاشق لا يعرف الملل

وقالَ ٱبنُ زيدونَ [في « ديوانهِ » ٥ـ٦ مِنَ ٱلبسيطِ] :

لاَ تَحْسَبُوْا نَأْيَكُمْ عَنَّا يُغَيِّرُنَا ... إِنْ طَالَمَا غَيَّرَ ٱلنَّأْيُ ٱلْمُحِبِّينَا
وَٱللهِ مَا طَلَبَتْ أَهْوَاؤُنَا بَدَلاً ... مِنْكُمْ وَلاَ ٱنْصَرَفَتْ عَنْكُمْ أَمَانِيْنَا

وقد نظرَ فيهِ إِلىٰ قولِ الحارثِ بنِ كِلدَةَ يعاتبُ أَصحابَهُ [مِنَ ٱلوافرِ] :

كَتَبْتُ إِلَيْهِمُ كُتُباً مِرَاراً ... فَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيَّ لَهَا جَوَابُ
فَمَا أَدْرِيْ أَغَيَّرَهُمْ تَنَاءٍ ... وَطُوْلُ ٱلْعَهْدِ أَمْ مَالاً أَصَابُوْا
فَمَنْ يَكُ لاَ يَدُوْمُ لَهُ وِصَالٌ ... وَفِيْهِ حِيْنَ يَغْتَرِبُ ٱنْقِلاَبُ
فَعَهْدِيْ دَائِمٌ لَهُمُ وَوُدِّيْ ... عَلَىٰ حَالٍ إِذَا شَهِدُوْا وَغَابُوْا

وقالَ حسَّانُ بنُ إِسحاقَ[(٣)] ـ وهو مولىٰ بني مرَّةَ بنِ عوفٍ ـ [مِنَ الطَّويلِ] :

بِقَلْبِيْ بَلاَءٌ لَسْتُ أُحْسِنُ وَصْفَهُ ... عَلَىٰ أَنَّهُ مَا كَانَ فَهُوَ شَدِيْدُ
تَمُرُّ بِهِ ٱلأَيَّامُ تَسْحَبُ ذَيْلَهَا ... فَتَبْلَىٰ بِهِ ٱلأَيَّامُ وَهُوَ جَدِيْدُ

---

(١) اَلمُؤَشَّر : اَلمُرَقَّق . وفي الديوان : (ذات مؤصدٍ) ، وهو : القميص الصغير الذي يلبس تحت الثوب . والمعنى : أنها صغيرة .
(٢) أَعلاقُ ـ جمعُ عِلْقٍ ـ : وهو ما تعلَّقَ به القلبُ .
(٣) بل هي لأبي يعقوب الخزيمي كما في « البيان والتبيين » (١/١٢٦) .

قصائد للمؤلف في رثاء ولده

وينخرطُ في ٱلسلكِ قولي مِنْ رِثاءِ ولدي بَصريٍّ ، في اللاّميّةِ [كما في « ديوانِ ٱلمؤلِّفِ » ق ٩٦ مِنَ ٱلوافرِ] :

وَعِنْدَ ٱلصَّدْمَةِ ٱلأُوْلَىٰ تَرَانِيْ ... صَبَرْتُ وَبَعْدَهَا قَلَّ ٱحْتِيَالِيْ
فَكَذَّبْتُ ٱلَّذِيْ قَدْ قَالَ قَبْلِيْ ... وَقَرَّبَ لِيْ ٱلْبَعِيْدَ مِنَ ٱلْمُحَالِ
(إِذَا مَا شِئْتَ أَنْ تَنْسَىٰ حَبِيْباً ... فَأَكْثِرْ دُوْنَهُ عَدَّ ٱللَّيَالِيْ)

وقلتُ في الرائيَّةِ [كما في « ديوانِ المؤلِّفِ » ق ٩٥ مِنَ الطَّويلِ] :

وَحَدُّ لَبِيْدٍ فِيْ ٱلْبُكَاءِ لِمِثْلِهِ ... مِنَ ٱلشَّيْبِ أَمَّا ذَا.. فَمُبْكِيْ إِلَىٰ ٱلْحَشْرِ
وَلِيْ نَوْعُ سَلْوَىٰ بِٱعْتِقَادِيْ نَجَاتَهُ ... وَمَا أَنَا رَاجٍ فِيْ ٱحْتِسَابِيْ مِنَ ٱلذُّخْرِ
وَمَا شَابَ عِلْمِيْ مِنْ شُكُوْكٍ بِمَوْتِهِ ... فَمَا زَالَ مَلآنَاً بِتَمْثِيْلِهِ سِرِّيْ
ثَوَىٰ ذِكْرُهُ فِيْ خَاطِرِيْ وَخَيَالُهُ ... بِعَيْنِيْ وَمِنْ رَيَّاهُ فِيْ ٱلأَنْفِ كَٱلْعِطْرِ

وقلتُ مِنَ ٱللزوميَّةِ [مِنَ الطَّويلِ] :

لِحَوْلَيْنِ مَرَّا مِنْ فِرَاقِكَ يَا بَصْرِيْ ... تَجَدَّدَ قَرْحٌ مَسَّنَا مِنْكَ فِيْ ٱلْعَصْرِ
فَبِتْنَا وَمَا زِلْنَا إِلَىٰ ٱلْيَوْمِ فِيْ أَسَىً ... وَلَمْ تُمْسِ إِلاَّ - وَٱلنَّبِيِّيْنَ - فِيْ قَصْرِ

وقلْتُ في ٱلداليَّةِ [كما في « ديوانِ ٱلمؤلِّفِ » ق ١٠٠-١١٠ مِنَ الطَّويلِ] :

شُجُوْنٌ عَلَىٰ ٱلأَحْشَاءِ ذَاكَ وَقُوْدُهَا ... وَإِنْ قُدِّمَتْ أَسْبَابُهَا وَعُهُوْدُهَا
تَمُرُّ ٱللَّيَالِيْ وَهِيَ تَزْدَادُ جِدَّةً ... كَأَنْ لَمْ يَكُنْ إِلاَّ قَرِيْباً وُجُوْدُهَا
تَكَادُ حَصَاةُ ٱلْقَلْبِ تَنْشَقُّ لَوْعَةً ... لِلاَعِجِ أَحْزَانٍ طَوِيْلٍ خُلُوْدُهَا[1]
كَأَنَّ فَضَاءَ ٱللهِ فِيْ ثَقْبِ إِبْرَةٍ ... عَلَيَّ فَأَنْفَاسِيْ شَدِيْدٌ صُعُوْدُهَا
كَأَنَّ خَرِيْقَ ٱلرِّيْحِ يَهْفُوْ بِمُهْجَتِيْ ... لِتِذْكَارِ بَصْرِيْ مِنْ هُمُوْمٍ تَعُوْدُهَا

(١) اللاعج : الهمُّ المحرقُ مِنِ الحبِّ .

مُصَابٌ لَهُ دَمْعِي عَزَاءٌ وَمَحْجِرِيْ قَرِيْحٌ وَأَشْجَانِي تَوَالَىٰ وُفُوْدُهَا[1]
فَيَا طَلْعَةً كَانَ ٱلْوَثِيْرُ فِرَاشَهَا تَوَسَّدَتِ ٱلصَّخْرَ ٱلأَصَمَّ خُدُوْدُهَا[2]

وقلتُ في خطابِ جيرانهِ ـ وهم أجدادُهُ لأُمِّهِ ـ مِنَ ٱلميميَّةِ [في «ديوانِ ٱلمؤلِّفِ» ق ١٠٣ مِنَ ٱلوافرِ] :

فَهَلْ كَانَتْ وَدِيْعَتُنَا لَدَيْكُمْ مُكَرَّمَةً بِرَعْيٍ وَٱحْتِرَامِ
فَبَيْنَ جَوَانِحِي مِنْهَا لَهِيْبٌ وَمِنْ جَفْنَيَّ صَوْبُ ٱلدَّمْعِ هَامِيْ
كَأَنَّ حَشَاءَنَا فِيْهِنَّ سُمٌّ يُقَطِّعُهُنَّ أَوْ وَخْزُ ٱلسِّهَامِ
أَرَدْنَا مِنْ خَوَاطِرِنَا سُلُوَّاً فَقُلْنَ لَنَا : ٱلسُّلُوُّ مِنَ ٱلْحَرَامِ
وَإِنْ غَيَّىٰ لَهُ حَوْلاً لَبِيْدٌ فَرَأْيُ أَخِيْ هُذَيْلٍ لِلْقِيَامِ

أَردْتُ قولَ لبيدٍ [مِنَ الطَّويلِ] :

إِلَىٰ ٱلْحَوْلِ ثُمَّ ٱسْمُ ٱلسَّلَامِ عَلَيْكُمَا وَمَنْ يَبْكِ حَوْلاً كَامِلاً فَقَدِ ٱعْتَذَرْ

وقولَ أَبي صخرٍ ٱلهذليِّ [في «ديوانِ ٱلحماسةِ» ٢/ ٦٦ مِنَ الطَّويلِ] :

وَيَا حُبَّهَا زِدْنِي جَوَىً كُلَّ لَيْلَةٍ وَيَا سَلْوَةَ ٱلأَيَّامِ مَوْعِدُكِ ٱلْحَشْرُ[3]

وإِنِّي لأُكاثِرُ التهاميَّ بما قلْتُهُ في رثاءِ وَلَدي بَصريٍّ ؛ لأَنَّهُ كانَ عَنْ ذوقٍ سليمٍ ، ولذْعٍ في الصميمِ ، ولا يظهرُ صدقُ قولي إِلاَّ لِمَنْ بِرُمَّتِها رآها ، إِذِ ٱلقَدْرُ الذي كانَ محلَّ الشاهدِ هنا ليسَ مِنْ ذُراها ، وإِنِّي لَكَما قالَ أَبو تمَّامٍ [في «ديوانهِ» ٢/ ١٧١ مِنَ ٱلكاملِ] :

وَيُسِيْءُ بِٱلإِحْسَانِ ظَنّاً لاَ كَمَنْ هُوَ بِٱبْنِهِ وَبِشِعْرِهِ مَفْتُوْنُ

---

(١) المَحْجِرُ : العينُ .
(٢) الفراشُ الوثيرُ : المحشوُّ المريحُ .
(٣) الجوىٰ : الحرقةُ ، وشدَّةُ الوجدِ .

غيرَ أَنَّ الحقَّ لا يتلثَّمُ ، والصدقَ مَنْ قالَهُ لا يتأثَّمُ .

بيت من الشعر يخرج الأحوص من السجن

وقالَ الزُّهريُّ : دعاني يزيدُ بنُ عبدِ ٱلمَلِكِ ، وقد غنَّتْهُ حَبابةُ بهٰذا [في « ديوانِ الأحوصِ » ٢/ ٢٤٩ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا رُمْتَ عَنْهَا سَلْوَةً قَالَ شَافِعٌ   مِنَ ٱلْحُبِّ مِيعَادُ ٱلسُّلُوِّ ٱلْمَقَابِرُ
سَيَبْقَىٰ لَهَا فِيْ مُضْمَرِ ٱلْقَلْبِ وَٱلْحَشَا   سَرِيْرَةُ وُدٍّ يَوْمَ تُبْلَىٰ ٱلسَّرَائِرُ

وقالَ : لِمَن هٰذا ؟ فقلْتُ : للأَحوصِ ، وهو في سجنِكُم ، فأَمرَ بإِطلاقِهِ ، وأَنْ تُدفعَ لَهُ أَربعُ مئةِ دينارٍ ، ثُمَّ ٱستقدمَهُ ، وأَحسنَ جائزتَهُ . وإِنَّهُ لأَهلٌ لِما صنعَ بهِ في هٰذهِ الرِّقَّةِ والإِحسانِ .

ومن العجيب أن البيت نفسه يكون سبباً في حرمانه العفو

وَمِنَ ٱلعجبِ! أَنَّ هٰذا البيتَ كانَ سببَ حِرمانِهِ العفوَ مِنْ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ؛ وذلكَ أَنَّهُ كانَ يشبِّبُ بنساءَ ذواتِ أَخطارٍ مِنَ المدينةِ ، فرُفعَ أَمرُهُ إِلىٰ سليمانَ بنِ عبدِ الملكِ ، فنفاهُ إِلىٰ (دَهْلَكَ) ، فأَقامَ بها سلطانَهُ ، ولمّا وَلِي عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ . كتبَ إِليهِ يستعطفُهُ ، ويقولُ لَهُ [كما في « الأحوص ـ حياته وشعره » ١٨٤ مِنَ الطَّويلِ] :

وَكَيْفَ تَرَىٰ لِلْعَيْشِ طِيْبَاً وَلَذَّةً   وَخَالُكَ أَمْسَىٰ مُوْثَقاً فِيْ ٱلْحَبَائِلِ

وكلَّمَهُ فيهِ رجالٌ مِنَ ٱلأَنصارِ ، فقالَ لهم : مَنِ ٱلقائلُ : (سَيَبْقَىٰ لَهَا فِيْ مُضْمَرِ ٱلْقَلْبِ وَٱلْحَشَا) . . . البيتَ ؟ قالوا : هوَ ، قالَ : إِنَّهُ عنها يومئذٍ لمشغولٌ ، واللهِ لا أَرُدُّهُ ما كانَ لي سلطانٌ[1] .

تعليق المؤلف على القصة

والذي فعلَهُ يزيدُ أَدنىٰ إِلىٰ الصوابِ ، وأَشبهُ بسيرةِ رسولِ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ، فقد تمنَّىٰ أَنْ لو كانَ النضرُ حيّاً . . فوهبَهُ

---

(١) القصة في « طبقات فحول الشعراء » (٢/ ٦٥٧) ، و« الأغاني » (٤/ ٢٤٤) .

لقُتَيلَةَ ؛ لمَّا ٱهتزَّ مِنْ شعرِها المعروفِ(١) ، معَ أَنَّ قتلَهُ لَمْ يكنْ إلاَّ عَدْلاً ، ولـٰكنَّهُ أَرادَ لو لَم يسبقِ ٱلسيفُ العَذَلَ(٢) أَنْ يغمرَهُ فضلاً .

متى يجوز العفو عن التعزير؟

وقالَ فقهاؤُنَا : بجوازِ العفوِ عَنِ ٱلتعزيرِ إذا عفا صاحبُهُ ، أَو كانَ لحقِّ اللهِ تعالىٰ ؛ علىٰ أَنَّ الأَحوصَ قد تُجُوِّزَ بهِ حدُّ العقوبةِ ، فما سبيلُهُ إلاَّ أَنْ يتمثَّلَ لابنِ عبدِ العزيزِ بقولِ أَبي عُبادةَ [مِنَ ٱلبسيطِ] :

إِذَا مَحَاسِنِيَ ٱللاَّتِي أَدُلُّ بِهَا   صَارَتْ ذُنُوباً فَقُلْ لِيْ كَيْفَ أَعْتَذِرُ

شكوى الفراق وحفظ العهد

وممَّا يُعجبني في شكوىٰ الفراقِ ، وحفظِ العهدِ ، قولُ جميلِ بنِ معمرٍ [في « ديوانهِ » ١٥٢ـ١٥٣ مِنَ ٱلخفيفِ] :

---

(١) والنضرُ هوَ ٱبنُ ٱلحارثِ ، وكانَ مِنْ أَكثرِ ٱلمؤذينَ لرسولِ ٱللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ وقتلَهُ رسولُ ٱللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ، بعدَ أَسرِهِ في غزوةِ بدرٍ .
وأَمَّا ٱلأَشعارُ ٱلَّتي قالتها قُتيلةُ فهيَ [من الكامل] :

يَـا رَاكِبـاً إِنَّ ٱلأُثَيْـلَ مَظِنَّـةٌ   مِنْ صُبْحِ خَامِسَةٍ وَأَنْتَ مُوَفَّقُ
أَبْلِـغْ بِهَـا مَيْتـاً بِـأَنَّ تَحِيَّـةً   مَا إِنْ تَزَالُ بِهَا ٱلنَّجَائِبُ تَخْفِقُ
مِنِّـيْ إِلَيْـكَ وَعَبْـرَةً مَسْفُـوحَـةً   جَادَتْ بِوَاكِفِهَا وَأُخْرَىٰ تَخْنُقُ
هَـلْ يَسْمَعَنِّـي ٱلنَّضْـرُ إِنْ نَـادَيْتُـهُ   أَمْ كَيْـفَ يَسْمَـعُ مَيِّـتٌ لاَ يَنْطِـقُ
أَمُحَمَّـدٌ يَـا خَيْـرَ ضِـنْءِ كَـرِيمَـةٍ   فِيْ قَوْمِهَا وَٱلْفَحْلُ فَحْلٌ مُعْرِقُ
مَـا كَـانَ ضَـرَّكَ لَـوْ مَنَنْـتَ وَرُبَّمَـا   مَنَّ ٱلْفَتَىٰ وَهْوَ ٱلْمَغِيْظُ ٱلْمُحْنَقُ
أَوْ كُنْـتَ قَـابِـلَ فِـدْيَـةٍ فَلْيُنْفِقَـنْ   بِـأَعَـزِّ مَـا يَغْلُـوْ بِـهِ مَـا يُنْفِـقُ
فَـالنَّضْـرُ أَقْـرَبُ مَـنْ أَسَـرْتَ قَـرَابَـةً   وَأَحَقُّهُـمْ إِنْ كَـانَ عِتْـقٌ يُعْتَـقُ
ظَلَّـتْ سُيُـوْفُ بَنِـيْ أَبِيْـهِ تَنُـوْشُـهُ   للهِ أَرْحَـامٌ هُنَـاكَ تُشَقَّـقُ
صَبْـراً يُقَـادُ إِلَـىٰ ٱلْمَنِيَّـةِ مُتْعَبـاً   رَسْفَ ٱلْمُقَيَّدِ وَهْوَ عَانٍ مُوْثَقُ

(٢) العَذَلُ : هو قَبول اللوم والاعتذار ، وقولُه : سبقَ السيفُ العَذَلَ ، مَثلٌ يُضرب لما قد فات ، وأصل ذلك : أن الحارث بنَ ظالمٍ ضربَ رجلاً فقتلَهُ ، فأُخبرَ بعذرِهِ فقال : سبقَ السيفُ العذَلَ .

مَنَعَ ٱلنَّوْمَ شِدَّةُ ٱلاشْتِيَاقِ وَٱدِّكَارُ ٱلْحَبِيْبِ يَوْمَ ٱلْفِرَاقِ
لَيْتَ شِعْرِيْ إِذا بُثَيْنَةُ بَانَتْ هَلْ لَنَا بَعْدَ بَيْنِهَا مِنْ تلاَقِي
وَلَقَدْ قُلْتُ يَوْمَ نَادَىٰ ٱلْمُنَادِيْ مُسْتَحِثّاً بِرِحْلَةٍ وَٱنْطِلاَقِ
لَيْتَ لِيْ ٱلْيَوْمَ يَا بُثَيْنَةُ مِنكُمْ مَجْلِساً لِلْوَدَاعِ قَبْلَ ٱلْفِرَاقِ
حَيْثُ مَا كُنْتُمُ وَكُنْتُ فَإِنِّيْ غَيْرُ نَاسٍ لِلْعَهْدِ وَٱلْمِيثَاقِ

البين يفتت الأكباد

وإذا كانَ ٱلبينُ بمجرَّدِهِ يُذيبُ الجمادَ ، ويفتِّتُ الأكبادَ . . فما بالُكَ بالبَينِ الذي لا يرجعُ صداهُ ، ولا ينتهي مداهُ ؛ ولهٰذا **قالَ الناظمُ** [في « العُكبَريّ » ٣/ ٧٥ مِنَ ٱلبسيطِ] :

فَمَا صَبَابَةُ مُشْتَاقٍ عَلَىٰ أَمَلٍ مِنَ ٱللِّقَاءِ كَمُشْتَاقٍ بِلاَ أَمَلِ

كثير وقبر عزة

وقالَ كُثيِّرٌ ، وهوَ واقفٌ علىٰ قبرِ عزَّةَ [في « ديوانه » ٤٦٤ مِنَ الطَّويلِ] :

وَقَفْتُ عَلَىٰ قَبْرٍ لِعَزَّةَ نَاقَتِيْ وَفِيْ ٱلْبُرْدِ رَشَّاشٌ مِنَ ٱلدَّمْعِ يُسْفَحُ
فَيَا عَزُّ أَنْتِ ٱلْبَدْرُ قَدْ حَالَ دُوْنَهُ ٱلْـ ـتُّرَابُ وَوَارَاهُ ٱلصَّفِيْحُ ٱلْمُضَرَّحُ
وَقَدْ كُنْتُ أَبْكِيْ مِنْ فِرَاقِكِ حَيَّةً وَأَنْتِ لَعَمْرِيْ ٱلْيَوْمَ أَنْأَىٰ وَأَنْزَحُ
فَلاَ زَالَ رَمْسٌ ضَمَّ عَزَّةَ سَائِلاً بِهِ نِعْمَةٌ مِنْ رَحْمَةِ ٱللهِ تُسْفَحُ(١)

القلب الخافق

وقالَ قيسُ [بنُ ذريح في « ديوانهِ » ٦٤ـ٦٥ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَوْلاَ رَجَاءُ ٱلْقَلْبِ أَنْ تَعْطِفَ ٱلنَّوَىٰ لَمَا حَمَلَتْهُ بَيْنَهُنَّ ٱلأَضَالِعُ
لَهُ وَجَبَاتٌ إِثْرَ لُبْنَىٰ كَأَنَّهَا شَقَائِقُ بَرْقٍ فِيْ سَحَابٍ لَوَامِعُ(٢)

---

(١) الرمس : القبرُ .
(٢) وجبَ القلبُ : اضطربَ .

لا ينفع الوطن بلا سكن

وقالَ الشريفُ أَبو جعفرٍ ، مسعودُ بنُ عبدِ العزيزِ بنِ المحسنِ بنِ الحسنِ البياضيُّ في مجرَّدِ الرثاءِ [مِنَ البسيطِ] :

خَلِّ ٱلْوُقُوْفَ عَلَىٰ ٱلأَطْلاَلِ وَٱلدِّمَنِ فَلَيْسَ يَنْفَعُ مَسْكُوْنٌ بِلاَ سَكَنِ
أَمَا تَرَانِيَ لاَ أُثْنِيْ عَلَىٰ طَلَلٍ بَعْدَ ٱلْفِرَاقِ وَلاَ آوِيْ إِلَىٰ وَطَنِ
وَكَيْفَ يَأْنَسُ قَلْبِيْ بِٱلدِّيَارِ وَقَدْ أَصَابَ فِيْهَا ٱلرَّدَىٰ مَنْ كَانَ يُؤْنِسُنِيْ
إِنَّ ٱلَّذِيْنَ أَذَاقُوْنِيْ فِرَاقَهُمُ أَفْنَيْتُ بَعْدَهُمُ دَمْعِيْ مِنَ ٱلْحَزَنِ
للهِ مَنْ لَعِبَتْ أَيْدِيْ ٱلْمَنُوْنِ بِهِ ضَنَّاً بِمَا فِيْهِ أَنْ يَبْقَىٰ عَلَىٰ ٱلزَّمَنِ
جَعَلْتُ رُوْحِيْ لَهُ مِنْ رُوْحِهِ عِوَضَاً مُقِيْمَةً مَعَهُ فِيْ ذَلِكَ ٱلْكَفَنِ
فَصَارَ كَٱلْحَيِّ إِذْ رُوْحِيْ تُحِيْطُ بِهِ وَصِرْتُ كَٱلْمَيْتِ إِذْ لاَ رُوْحَ فِيْ بَدَنِيْ

يقولُها في جاريةٍ لبنتِ فخرِ الدولةِ هامَ بها ، حتَّىٰ شاعَ أَمرُهُ ، فمرضَتْ . . فمرضَ ، ولمَّا ماتَتْ . . لَمْ يعِشْ بعدَها إِلاَّ أَيَّاماً يسيرةً .

خمرة العاشق ريق الحبيب

وأَوردَ ٱبنُ خَلِّكانَ [في « وفياتِ الأعيانِ » ٥/١٩٨] لَهُ قصيدةً لا بأسَ بإِيرادِ شيءٍ منها ؛ لأَنَّها لا تخرجُ عن موضوعِ البحثِ في الجُملةِ ؛ إِذْ هيَ في شكوىٰ الفراقِ ، قالَ [مِنَ الكاملِ] :

إِنْ غَاضَ دَمْعُكَ وَٱلرِّكَابُ تُسَاقُ مَعْ مَا بِقَلْبِكَ : فَهُوَ مِنْك نِفَاقُ
لاَ يَبْعُدَنْ زَمَنٌ مَضَتْ أَيَّامُهُ وَعَلَىٰ مُتُوْنِ غُصُوْنِهِ أَوْرَاقُ
أَيَّامَ نَرْجِسُنَا ٱلْعُيُوْنُ وَوَرْدُنَا خَمْرُ ٱلْخُدُوْدِ وَخَمْرُنَا ٱلأَرْيَاقُ
وَلَنَا بِزَوْرَاءِ ٱلْعِرَاقِ مَوَاسِمٌ كَانَتْ تُقَامُ لِطِيْبِهَا ٱلأَسْوَاقُ
فَلَئِنْ بَكَتْ عَيْنِيْ دَمَاً شَوْقَاً إِلَىٰ ذَاكَ ٱلزَّمَانِ فَمِثْلُهُ يُشْتَاقُ
أَيْنَ ٱلْمَصَابِيْحُ ٱلأُلَىٰ لَوْلاَهُمُ مَا كَانَ طَعْمُ هَوَىٰ ٱلْجَمَالِ يُذَاقُ
شَنُّوْا ٱلإِغَارَةَ فِيْ ٱلْقُلُوْبِ بِأَعْيُنٍ لاَ يُرْتَجَىٰ لأَسِيْرِهَا إِطْلاَقُ

وَٱسْتَعْذَبُوْا مَاءَ ٱلْعُيُوْنِ فَعَذَّبُوْا ٱلْـ ـعُشَّـاقَ حَتَّـىٰ دَرَّتِ ٱلآمَـاقُ
وَنَمَىٰ ٱلْحَدِيْثُ بِأَنَّهُمْ نَذَرُوْا دَمِيْ أَوَلِيْ دَمٌ يَوْمَ ٱلْفِرَاقِ يُرَاقُ ؟!

ومِنَ ٱلقِحَّةِ(١) ما رُوِيَ عَنِ الحسنِ البصريِّ : أَنَّ مِنَ ٱلأَدبِ أَلاَّ يُعَزَّىٰ الرجلُ في زوجتِهِ . وما رُوِيَ : أَنَّ عبدَ اللهِ بنَ زيادٍ سأَلَ أَبا بكرَةَ عَنْ موتِ الأَهلِ ، فقالَ : موتُ الأَبِ قاصمةُ الظهرِ ، وموتُ الولدِ صدعٌ في الفؤادِ ، وموتُ الأَخِ قَصُّ الجناحِ ، وموتُ الزوجةِ حزنُ ساعةٍ . . فإِنَّه أَنكرُ وأَقبحُ ممَّا سبقَ مِنْ قولِ زهيرِ بنِ جناب ، ومخالفٌ معَ ذلكَ لفحوىٰ قولِهِ جلَّ ذكرُهُ : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم : ٢١] ؛ إِذْ كيفَ السُّلوانُ يكونُ لمنْ ذهبَ معَ إِلفِهِ السكونُ ؟

شدة وفاء النبي ﷺ للسيدة خديجة

ولقد كانَ حزنُهُ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ علىٰ خديجةَ شديداً ، بآيةِ أَنَّهُ سمَّىٰ عامَ موتِها عامَ ٱلحزنِ ، وكانَتْ لا تخرجُ عَنْ لسانِهِ مدَّةَ حياتِهِ ، حتَّىٰ غارَتْ عائِشةُ مِنْ ذلكَ ، فقالَتْ يوماً : ما تَذْكُرُ مِنْ عجوزٍ حمراءِ الشدقينِ ، قد هلكَتْ في غابرِ الدهرِ ، وأَبدلَكَ اللهُ خيراً منها ، قالَ : « **ما أَبدَلنِيَ اللهُ خَيْراً مِنْهَا ، لَقَدْ آمَنَتْ بِيَ إِذْ كَفَرَ بِيَ ٱلنَّاسُ ، وصدَّقتْنِيْ حِيْنَ كَذَّبنِيَ ٱلنَّاسُ ، وأَشْرَكَتْنِيْ فِيْ مَالِهَا حِيْنَ حَرَمَنِيَ ٱلنَّاسُ ، وَرَزَقَنِيَ اللهُ مِنْهَا ٱلْوَلَدَ ، وَحَرَمَنِي وَلَدَ غَيْرِهَا** »(٢) .

---

(١) القِحَّةُ : العيبُ الشديدُ ، أَوِ الوقاحَةُ ، وتعييب المؤلف هنا علىٰ من ينسب هذا الكلام إلىٰ هـٰذا الإمام العظيم . وكذلك على من يروي القول الآتي والله أعلم .

(٢) أخرجه عن عائشة رضي الله عنها الإمام أحمد في « مسنده » (٢٤٨٦٤) والطبراني في « الكبير » (٢٣/ ٢٢) و(٢١) و(١٤) و(٢٣) ، وبنحوه عند البخاري (٣٨٢١) تعليقاً ، ومسلم (٢٤٣٧) في فضائل الصحابة . =

وإنْ كانَ ليذبحُ الشاةَ فيبعثُ بها في خلائِلِهَا ، وتدخلُ عليهِ العجوزُ الشوهاءُ فينعمُ الإقبالَ عليها ، والتفتُّحَ لها ، ويسألُها عَنْ كلِّ كبيرٍ وصغيرٍ مِنْ شأنِهَا ، ويقولُ : « **إنَّها كَانَتْ تَأْتِينَا فِيْ أَيَّامِ خَدِيْجَةَ ، وإنَّ حُسْنَ ٱلْعَهْدِ مِنَ ٱلإِيْمَانِ** »[1] .

وكانَتْ لَهُ عيبةَ نُصْحٍ[2] ، ووزيرة صدقٍ ، وكانَ لا يسمعُ ما يَسوؤُهُ . . إلاَّ فرَّجَ اللهُ بها عنهُ ، فتثبِّتُهُ وتصدِّقُهُ ، وتخفِّفُ عنهُ ، وتهوِّنُ عليهِ ما يَلقىٰ مِنْ قومِهِ ، وتشجِّعُهُ علىٰ المضيِّ في سبيلِ ما هوَ بصددِهِ .

عَلَىٰ أَنَّنَا لاَ نَدَّعِيْ أَنَّ جِنْسَهَا   سَوَاءٌ فَفَرْقٌ بَيْنَهُنَّ بَعِيْدُ
فَمِنْهُنَّ جَنَّاتٌ تَفِيءُ بِظِلِّهَا   وَمِنْهُنَّ نِيْرَانٌ لَهُنَّ وَقِيْدُ[3]

رثاء المؤلف لزوجته الأولى

وما أحسنَ ما قلتُ مِنْ قصيدةٍ رثَيتُ بها أَوَّلَ زوجٍ لي ماتَتْ [مِنَ الكاملِ] :

فَقْدُ ٱلأَلِيْفِ هُوَ ٱلْغَرَامُ وَإِنَّمَا   يَدْرِيْ بِهِ أَهْلُ ٱلْوَفَا أَمْثَالِيْ

وذلكَ أنَّهُ لا يتأثَّرُ بالفراقِ إلاَّ أهلُ النفوسِ الكريمةِ ، أَلَا ترىٰ أنَّكَ لو ربطتَ حماراً بجانبِ فرسٍ ، ثُمَّ فرَّقتَ بينهُمَا فإنَّ الحمارَ لا يتأثَّرُ ولٰكنَّ ٱلفرسَ تكثُرُ الحنينَ .

ألأم بيت قالته العرب

وقد قالوا : إنَّ أَلأَمَ بيتٍ قالتهُ العربُ . . قولُ إبراهيمَ بنِ العبَّاسِ

= حمراء الشدقين : أي سقطت أسنانها لكبر سنها حتى ظهرت الحمرة في شدقها .

(1) أخرجه عن عائشة رضي الله عنها الحاكم في «مستدركه» (١/ ٦٢) والبيهقي في « شعب الإيمان » (٩١٢٢) .

(2) العَيبةُ : أصحابُ السرِّ .

(3) البيتان من الطويل .

الصوليِّ ، أو مسلمِ بنِ الوليدِ ، علىٰ ٱختلافٍ في الروايةِ [الأبيات في « ديوان الحماسة » ١/ ٩٨ مِنَ ٱلبسيطِ] :

لاَ يَمْنَعَنَّكَ خَفْضَ ٱلْعَيْشِ فِيْ دَعَةٍ   نُـزُوْعُ نفـسٍ إِلَـىٰ أَهْـلٍ وَأَوْطَـانِ
تَلْقَىٰ بِكُلِّ بِلاَدٍ إِنْ أَقَمْتَ بِهَا   أَهْـلاً بِـأَهْـلٍ وَجِيْـرَانـاً بِجِيْـرَانِ

ولَئِنْ ٱقتفاهُ الناظمُ في مثلِ قولِهِ [في « العُكبُريّ » ٢/ ٣٢٠ مِنَ الطَّويلِ] : اقتداء المتنبي به

وَمَـا بَلَـدُ ٱلإِنْسَـانِ غَيْـرُ ٱلْمُـوَافِـقِ   [وَلاَ أَهْلُهُ ٱلأَدْنَوْنَ غَيْرُ ٱلأَصَادِقِ]

وقولِهِ [في « العُكبَريّ » ٣/ ٢١٢ مِنَ ٱلمنسرحِ] :

فِي سَعَةِ ٱلْخَافِقَيْنِ مُضْطَرَبٌ   وَفِـيْ بِـلاَدٍ مِـنْ أُخْتِهَـا بَـدَلُ

وقولِهِ [في « العُكبَريّ » ١/ ١٩١ مِنَ الطَّويلِ] :

غَنِيٌّ عَنِ ٱلأَوْطَانِ لاَ يَسْتَفِزُّنِيْ   إِلَـىٰ بَلَـدٍ سَـافَـرْتُ عَنْـهُ إِيَـابُ

.. فقد كَفَّرَ عن كلِّ سيِّئَةٍ زلفَها في هـٰذا السبيلِ ببيتِهِ الَّذِي هوَ كٱلغُرَّةِ الشادِخَةِ مِنَ ٱلكَمْتِ[١] ، أَوِ القرحةِ[٢] الواضحةِ مِنَ ٱلدُّهْمِ[٣] ، أَلا وهوَ قولُهُ [في « العُكبَريّ » ٤/ ٢٨٤ مِنَ الطَّويلِ] : تكفيره عن نفسه

خُلِقْتُ أَلُوْفاً لَوْ رُدِدْتُ إِلَىٰ ٱلصِّبَا   لَفَارَقْتُ شَيْبِيْ مُوْجَعَ ٱلْقَلْبِ بَاكِيَا[٤]

---

(١) الغرةُ الشادخةُ : البيضاءُ الواسعةُ . الكَمْتُ : الفرسُ الذي لونهُ بينَ الأحمرِ والأسودِ .
(٢) الأقرحُ : الذي في جبهتِهِ بياضٌ بقدرِ الدرهمِ فما دونهُ .
(٣) الأدهمُ : الأسودُ .
(٤) قال الواحديُّ في شرح « ديوان المتنبي » : هذا البيتُ رأسٌ في صحَّةِ الألف ، وذلكَ أنَّ كلَّ واحد يتمنَّى مفارقَةَ الشيبِ . أمّا هو فيقول : لو فارقت شيبي إلىٰ الصِّبا .. لبكيتُ عليهِ ؛ لإلفي إيَّاهُ إذْ خُلقْتُ أَلوفاً .

الحكمة عند أمية بن أبي الصلت

وقالَ أُميَّةُ بنُ عبدِ العزيزِ ٱبنِ أَبي الصَّلْتِ الدانيُّ الأَندلسيُّ [مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا كَانَ أَصْلِيْ مِنْ تُرَابٍ فَكُلُّهَا بِلاَدِيْ وَكُلُّ ٱلْعَالَمِيْنَ أَقَارِبِيْ
وَلاَ بُدَّ لِيْ أَنْ أَسْأَلَ ٱلْعِيْسَ حَاجَةً تَشُقُّ عَلَىٰ شُمِّ ٱلذُّرَىٰ وَٱلْغَوَارِبِ(١)

فَأَصابَ في الثاني ، وأَخطأَ في ٱلأَوَّلِ .

من لزوميات المؤلف

ومِنْ لُزومِيَّاتي [كما في « ديوانِ ٱلمؤلِّفِ » ق ٤٥ـ٤٦ مِنَ ٱلبسيطِ] :

مَا إِنْ تَذَكَّرْتُ مِنْ دَهْرِيْ ٱلَّذِيْ ٱنْصَرَمَا إِلاَّ وَأَذْكَىٰ بِأَحْشَائِيْ ٱلْجَوَىٰ ضَرَمَا
وَلَوْ مَضَىٰ رَغَدٌ فِيْ ٱلْعَيْشِ أَنْدُبُهُ أَوْ لَوْ عَلِمْتُ ٱلَّذِي أَرْثِيْ فَلاَ جَرَمَا
لَـٰكِنَّنِيْ لَمْ أَزَلْ مُذْ كُنْتُ فِيْ مِحَنٍ قَبْلَ ٱلْكُهُوْلَةِ سَاقَتْ لِلْقُوَىٰ ٱلْهَرَمَا
فَكَّرْتُ فِيْ مُقْتَضَىٰ هَـٰذَا ٱلْحَنِيْنِ فَلَمْ أَعْرِفْهُ لاَهُمَّ إِلاَّ ٱلإِلْفَ وَٱلْكَرَمَا(٢)
إِنَّ ٱلْكَرِيْمَ حَنُونٌ كَيْفَ كَانَ كَمَا أَنَّ ٱللَّئِيْمَ إِذَا ٱسْتَغْنَىٰ ٱمْتَلَىٰ وَرَمَا
وَرُبَّمَا ٱسْتَشْعَرَتْ نَفْسُ ٱللَّبِيْبِ عَلَىٰ غِلْظِ ٱلْحِجَابِ بِأَنْ قَدْ فَارَقَتْ حُرُمَا
جَـاءَتْ مِـنَ ٱلْمَـلأِ ٱلأَعْلَـىٰ مُـدَبَّـرَةً لِلْجِسْمِ وَٱلْعُوْدُ مَضْمُوْنٌ إِذَا ٱنْخَرَمَا

ولا أَضجرُ بما لِيَ في هـٰذا الموضوعِ مِنَ الأَشعارِ ، فإِنَّها كثيرةٌ جدّاً .

دموع الأسف في ديوان السيد الحداد

وما أَرَقَّ نسيمَ مولانا عبدِ اللهِ بنِ علويٍّ الحَدّادِ ؛ فإِنَّ « ديوانَهُ » ممتلِىءٌ بدموعِ الأَسفِ علىٰ فراقِ الأَحبابِ ، حَتَّىٰ لقد كانَ جَدِّي المحسنُ يسمِّيهِ : النائحةَ الثكلىٰ ، ومِنْ ذلكَ قولُهُ فِي رثاءِ زوجِهِ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَلاَ تَنْسَ مَا بَيْنَ ٱلْقُبُورِ بِزِنْبِلٍ لِقَبْرٍ بِقَلْبِيْ ذِكْرُهُ قَطُّ لاَ يُنْسَىٰ
تَضَمَّـنَ إِلْفَـاً صَـالِحَـاً وَمُبَـارَكَـاً فَأَكْرِمْ بِهِ قَبْرَاً وَأَكْرِمْ بِهِ رَمْسَا

(١) الغواربُ ـ جمع غارب ـ : وهو الأعلىٰ من كلِّ شيءٍ .
(٢) لاهُمَّ : لغة في (اللَّهمَّ) المراد بها الاستثناء .

دَفَنْتُ بِهِ مَنْ فِيْهِ رُوْحِيْ وَرَاحَتِيْ ... فَعَادَ أَغَضُّ ٱلْعَيْشِ مِنْ بَعْدِهِ يَبْسَا
فَيَا رَحْمَةَ ٱلرَّحْمَـٰنِ زُوْرِيْهِ وَٱعْكُفِيْ ... عَلَىٰ قَبْرِهِ حَتَّىٰ تَطِيْبِيْ لَهُ نَفْسَا
وَقُوْلِيْ لَهُ : إِنَّا عَلَىٰ ٱلْعَهْدِ وَٱلْوَفَا ... وَإِنَّ ٱلْفَنَا قَدْ عَمَّمَ ٱلْجِنَّ وَٱلإِنْسَا

قصائد للمؤلف في رثاء ولده بصري والبكاء عليه

ولاَ أَلُومُ سليمانَ بنَ عبدِ الملكِ ، إذْ لاذَ بالدموعِ حينَ كادَ ينفطرُ قلبُهُ علىٰ ولدِهِ أَيُّوبَ ، فقد ذُقْتُ مثلَهُ علىٰ ولدي بصريٍّ ، وأكثرتُ فيهِ مِنَ ٱلمراثِي ، كَمَا عُلِمَ ممَّا مرَّ ، وقلْتُ [كما في « ديوان المؤلف » ق ٩٦ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا زَالَ حَرْبٌ بَيْنَ صَبْرِيْ وَرَحْمَتِيْ ... وَإِنِّيْ لَرَاجٍ فِيْهِمَا كَامِلَ ٱلأَجْرِ
وَقَدْ أَنْكَرُوْا فِعْلَ ٱلْفُضَيْلِ وَمَشْيَهُ ... لِدَفْنِ ٱبْنِهِ فِيْ حِبْرَةٍ ضَاحِكَ ٱلثَّغْرِ(١)
وَخَيْرُ ٱلْوَرَىٰ فِيْ غَيْرِ مَا مَوْقِفٍ ذَرَىٰ ... وَبَلَّ ٱلثَّرَىٰ دَمْعاً يَفُوقُ عَلَىٰ ٱلدُّرِّ
لَهُ وَلأُمِّ ٱلْمُؤْمِنِيْنَ وَصِهْرِهِ ... وَسِبْطَيْهِ وَٱلزَّهْرَا صَلاَةٌ بِلاَ حَصْرِ

ولا أَزالُ أَتمثَّلُ بقولِ ديكِ الجنِّ [في « ديوانهِ » ٩٣ منَ الكاملِ] :

لَوْ كَانَ يَدْرِيْ ٱلْمَيْتُ مَاذَا بَعْدَهُ ... بِٱلْحَيِّ مِنْهُ بَكَىٰ لَهُ فِيْ قَبْرِهِ
غُصَصٌ تَكَادُ تَفِيْضُ مِنْهَا نَفْسُهُ ... وَيَكَادُ يَخْرُجُ قَلْبُهُ مِنْ صَدْرِهِ

وقولِ العُذريِّ [عروةَ بنِ حزامٍ في « ديوانهِ » ٣٩ مِنَ الطَّويلِ] :

كَأَنَّ قَطَاةً عُلِّقَتْ بِجَنَاحِهَا ... عَلَىٰ كَبِدِيْ مِنْ شِدَّةِ ٱلْخَفَقَانِ

---

(١) الفُضَيلُ : هو الفضيلُ بن عياض ، والأمر الذي أنكروه عليه هو ما رواه القشيري في « الرسالة » (١/ ٨٥) قال :

قال أبو علي الرازي : صحبت الفضيل ثلاثين سنة ، ما رأيته ضاحكاً ، ولا مبتسماً . . إلا يوم مات ابنه علي ، فقلت له في ذلك !! فقال : إن الله أحبَّ أمراً فأحببت ذلك الأمر .

الحِبَرَةُ : ثوبٌ يصنعُ في (اليمنِ) .

وقولِ الآخرِ [مِنَ المنسرحِ] :

كَــأَنَّ قَلْبِــي إِذَا تَــذَكَّــرَهُ فَـرِيسَـةٌ بَيْـنَ سَـاعِـدَيْ أَسَـدِ

وإِنِّي وإِنْ كُنتُ قليلَ الزِّيارةِ لهُ كَما قُلْتُ مِنَ اللاَّمِيَّةِ [كما في « ديوان المؤلف » ق ٩٨ مِنَ الوافرِ] :

بِــوُدِّيْ أَنْ أَزُوْرَكَ كُــلَّ يَــوْمٍ فَقَـلَّ عَلَـىٰ زِيَـارَتِـكَ ٱحْتِمَـالِـيْ

إِذَا عَـايَنْـتُ قَبْـرَكَ كَـادَ قَلْبِـيْ يَطِيْـرُ فَـأَنْثَنِـيْ لاَ عَـنْ مَـلاَلِ

فكلَّما رأَيتُهُ تمثَّلَ لي قولُ المعَريِّ [في « سقط الزند » ٦٥ مِنَ الطَّويلِ] :

فَوَاْ قَبْرُ! وَاهِ مِنْ تُرَابِكَ لَيِّنَاً عَلَيْهِ وَآهِ مِنْ جَنَادِلِكَ ٱلْخُشْنِ(١)

لأَطْبَقْتَ إِطْبَاقَ ٱلْمَحَارَةِ جَفْنَهَا بِلُؤْلُؤَةِ ٱلْمَجْدِ ٱلْجَدِيْرَةِ بِٱلْخَزْنِ

وقولُ الآخَرِ [مقاتل بن عطية كما في « المستطرف » ٢/ ٥٩٢ مِنَ البسيطِ] :

كَانَ ٱلْوَزِيْرُ نِظَامُ ٱلْمُلْكِ جَوْهَرَةً مَكْنُونَةً صَاغَهَا ٱلْبَارِيْ مِنَ ٱلشَّرَفِ

عَزَّتْ فَلَمْ تُدْرِكِ ٱلأَيَّامُ قِيْمَتَهَا فَرَدَّهَا غَيْرَةً مِنْهُ إِلَىٰ ٱلصَّدَفِ

وشيءٌ مِنْ هٰذا لا يخالفُ قولَ معنِ بنِ أَوسٍ يَمدحُ ٱبنَ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهُما [في « شعرِه وحياتِهِ » ١٦٧ مِنَ الطَّويلِ] :

وإِنَّـكَ فَـرْعٌ مِنْ قُـرَيشٍ وَإِنَّـمَـا تَمُجُّ ٱلنَّدَا مِنْهَا ٱلْبُحُوْرُ ٱلْفَوَارِعُ

ثَوَوْا قَادَةً لِلنَّاسِ بَطْحَاءُ مَكَّةٍ لَهُمْ وَسِقَايَاتُ ٱلْحَجِيْجِ ٱلدَّوَافِعُ

وَلَمَّا دُعُوْا لِلْمَوْتِ لَمْ تَبْكِ مِنْهُمُ عَلَىٰ حَادِثِ ٱلدَّهْرِ ٱلْعُيُوْنُ ٱلدَّوَامِعُ

---

(١) الجنادِلُ : الحِجارَةُ .

ولا ما سبقَ في المَجلسِ الثالثِ مِنْ قَولِ أَبي ٱلهيْذام [مِنَ الطَّويلِ] :

وَإنَّـا أُنَـاسٌ مَـا تَفِيْـضُ عُيُـوْنُنَـا عَلَىٰ هَالِكٍ مِنَّا وَإِنْ قَصَمَ ٱلظَّهْرَا

ولا ما مرَّ أَواخرَ المجلسِ السادسِ مِنْ قَولِ بَشَامةَ بنِ حَزنٍ [مِنَ ٱلبسيطِ] :

وَلاَ تَرَاهُمْ وَإِنْ جَلَّتْ مُصِيبَتُهُمْ مَعَ ٱلْبُكَاةِ عَلَىٰ مَنْ مَاتَ يَبْكُوْنَا

وقولِ الأَميرِ تميمِ بنِ المُعِزِّ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَبِيْ كُلُّ مَا يُبْكِي ٱلْعُيُونَ أَقَلُّهُ وَإِنْ كُنْـتُ مِنْـهُ دَائِمَـاً أَتَبَسَّـمُ

وإِنَّما هوَ مِنْ قَبيلِ التداوي بإرسالِ الدموعِ في الخَلا ، حَسَبَما قرَّرْناهُ ، وذَكرنا الشواهدَ عليهِ في المجلسِ السادسِ .

التداوي بإرسال الدموع

وما زالتِ ٱلأَشرافُ تنفثُ بما لا بأسَ فيهِ خشيةَ أَنْ تتفطَّرَ القلوبُ ، وتتقطَّعَ الأَكبادُ ، ولـٰكنَّها تحرِصُ جهدَها علىٰ أَنْ لا يشعرَ الناسُ بذلكَ ؛ ولهـٰذا يقولُ ٱمرؤُ القيسِ [في « ديوانهِ » ٧٣ مِنَ الطَّويلِ] :

ظَلِلْتُ رِدَائِيْ فَوْقَ رَأْسِي حَاسِرَاً أَعُدُّ ٱلْحَصَىٰ مَا تَنْقَضِيْ عَبَرَاتِيْ

وَقالَ أَبُو فرَاسٍ [في « ديوانهِ » ١٤٢ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا ٱللَّيْلُ أَضْوَانِي بَسَطْتُ يَدَ ٱلْهَوَىٰ وَأَذْلَلْتُ دَمْعَاً مِنْ خَلاَئِقِهِ ٱلْكِبْرُ(١)

الحرص على التكتم بالبكاء

وممَّا يؤكِّدُ حِرصَهُم علىٰ التجلُّدِ والتكتُّمِ بالبكاءِ متىٰ ٱضطُرُّوا إِليهِ . . قولُ المجنونِ [في « ديوانهِ » ٢٩٦ مِنَ الطَّويلِ] :

وَأَبْكَيْتُمَانِيْ بَيْنَ صَحْبِيْ وَلَمْ أَكُنْ أُبَالِيْ دُمُوْعَ ٱلْعَيْنِ لَوْ كُنْتُ خَالِيَا

---

(١) أضواني : أتاني .

فإنَّهُ معَ مضربِ المثلِ بهِ في ٱلوجدِ والهُيَامِ لا يزالُ يُؤْثِرُ التستُّرَ ، ويتكلَّفُ التجلُّدَ .

وخيرٌ مِنْ ذلكَ كلِّهِ . . ما ٱقتصَّهُ اللهُ جلَّ ذِكرهُ علينا مِنْ حالِ سيِّدِ المفجوعينَ في قولِهِ : ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [يوسف : ٨٤] فقد أَبتْ لهُ الشهامةُ أَنْ يظهَرَ أمامَ ولدِهِ بمظهَرِ ٱلحزنِ حتَّىٰ فارقَهُم وتولَّىٰ عنهُم .

الفناء عن الناس عند السادة الصوفية

أَمَّا ما يؤْثَرُ عنِ السَّادَةِ الصوفيَّةِ مِنَ ٱلفَناءِ في المحبَّةِ عنِ النَّاسِ . . فإنَّهُ لونٌ آخرُ ، ومنهُ قولُ سلطانِ ٱلعاشقينَ [في « ديوانهِ » ٤٦ مِنَ الطَّويلِ] :

فَأَبْثَثْتُهَا مَا بِيْ وَلَمْ يَكُ حَاضِرِيْ ... رَقِيْبٌ بَقَا حَاظٍ بِخَلْوَةِ جَلْوَةِ[1]

الفرزدق يرثي ولده وأم ولده

وأَمَّا قولُ ٱلفرزدقِ [في « ديوانهِ » ٢/ ٨٩٤ مِنَ الطَّويلِ] :

وَجَفْنِ سِلاَحٍ قَدْ رُزِئْتُ فَلَمْ أَنُحْ ... عَلَيْهِ وَلَمْ أَبْعَثْ لَدَيْهِ ٱلْبَوَاكِيَا
وَفِيْ جَوْفِهِ مِنْ دَارِمٍ ذُوْ حَفِيْظَةٍ ... لَوَ ٱنَّ ٱلْمَنَايَا أَمْهَلَتْهُ لَيَالِيَا[2]

---

(١) حاظٍ : ٱسمُ فاعلٍ مِن حَظِيَ . الجلوةُ : مِن جلوةِ العروسِ ، وهيَ : عرضُها على زوجِها مجلوَّةً .

(٢) دارمٌ : هو ابن مالك بن حنظلة أبو حي من تميم وهو جد الفرزدق .

وكانَ مِنْ قصَّةِ الأَبياتِ أَنَّ الفرزدَقَ لقيَ جاريةً لبني نهشلٍ فجعلَ ينظرُ إليها نظراً شديداً ، فقالت لَهُ : مالَكَ تنظرُ فواللهِ لو كانَ لي ٱلفُ حِرٍ ـ فرجٍ ـ ما طمعتَ في واحدٍ مِنْها ، قالَ : ولِمَ يالخناءُ ؟! قالتْ : لأنَّكَ قبيحُ المنظرِ ، سيِّءُ المخبرِ فيما أَرىٰ ، قالَ : أَما واللهِ لو جرَّبتِني لَعفا خبري عن منظري ـ قالَ : ثمَّ كشفَ لها عن ذَكَرٍ مثلِ ذراعِ البَكرِ ـ فتضبَّعت لَهُ عن مثلِ سنامِ البَكرِ ، فعالجَها ، فقالت : أَنكاحٌ بنسيئةٍ ؟! هـٰذا شرُّ القضيةِ ، قالَ : ويحكِ! ما معي إلا جبَّتي ، أفتسلُبينني إيَّاها ؟! ثمَّ تسنَّمَها ، فقالَ في ذلك أبياتاً ، =

.. فلاَ يخلو مِنَ ٱلقسوةِ ؛ إِذْ لَمْ يذكُرِ ٱلحُزنَ ولا دمعَ ٱلعينِ جملةً ، وإِنْ لَمْ يُصرِّح بٱنتفائِهِما ولٰكنَّ الشِّعرَ نظيرُ ٱلخلوةِ يباحُ فيهِ ما يباحُ فيها ، كما قلتُ [في « ديوان المؤلف » ٦٩ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا فِيْ ٱقْتِصَاصِيْ وَاقِعَ ٱلْحَالِ وَصْمَةٌ ... لَدَىٰ عَارِفِيْ سِرِّ ٱلإِحَالَةِ فِيْ ٱلشِّعْرِ

القلب هو قبر الحبيب

ومِنْ أَرَقِّ ٱلرِّثاءِ وأَبعثِهِ للأَشجانِ ، قولُ محمَّدِ بنِ عبد ٱلملكِ بنِ الزَّيَّاتِ في أُمِّ ولدهِ [في « الأغاني » ٥٨/٢٣ مِنَ الطَّويلِ] :

يَقُوْلُ لِيَ ٱلْخُلاَّنُ: لَوْ زُرْتَ قَبْرَهَا ... فَقُلْتُ : وَهَلْ غَيْرُ ٱلْفُؤَادِ لَهَا قَبْرُ ؟!

البكاء هو الدواء

وقولُهُ [مِنَ الطَّويلِ] :

فَلاَ تُلْحِيَانِيْ إِنْ بَكَيْتُ فَإِنَّمَا ... أُدَاوِيْ بِهَذَا ٱلدَّمْعِ مَا تَرَيَانِيْ
وَإِنَّ مَكَاناً فِيْ ٱلثَّرَىٰ خُطَّ لَحْدُهُ ... لَقَدْ كَانَ مِنْ قَلْبِيْ بِكُلِّ مَكَانِيْ
وَهَبْنِيْ عَزَمْتُ ٱلصَّبْرَ عَنْهَا لأَنَّنِيْ ... جَلِيْدٌ فَمَنْ بِٱلصَّبْرِ لابْنِ ثَمَانِ ؟
ضَعِيْفُ ٱلْقُوَىٰ لاَ يَعْرِفُ ٱلأَجْرَ حُسْبَةً ... وَلاَ يَأْتَسِيْ بِٱلنَّاسِ فِيْ ٱلْحَدَثَانِ
أَيَا مَنْ أُمَنِّيْهِ ٱلْمُنَىٰ وَأَعُدُّهُ ... لِعَثْرَةِ أَيَّامِيْ وَحَرْبِ زَمَانِيْ
وَيَا مَنْ إِذَا مَا جِئْتُ أَكْرَمَ مَجْلِسِيْ ... وَإِنْ غِبْتُ عَنْهُ حَاطَنِيْ وَرَعَانِيْ

الفوادح تجفف الدموع

وقَالَ عِزُّ الملكِ الأَميرُ المختارُ المسبِّحي يرثِيْ أُمَّ ولدِهِ [مِنَ الطَّويلِ] :

أَلا فِي سَبِيْلِ اللهِ قَلْبٌ تَقَطَّعَا ... وَفَادِحَةٍ لَمْ تُبْقِ لِلعَيْنِ مَدْمَعَا
أَصَبْراً وَقَدْ حَلَّ ٱلثَّرَىٰ مَنْ أَوَدُّهُ؟ ... فَلِلَّـهِ هَمٌّ مَا أَشَدَّ وَأَوْجَعَا

= وحملَتْ مِنْهُ ، ثمَّ ماتتْ ، فبكاها وبكى ولدَهُ مِنْها بالأبياتِ الَّتي تقدمت أعلاه : (وجفن سلاحٍ . . . . إلخ) انظر « الأغاني » (١٠/ ٣٢٠) .

فَيَالَيْتَنِي قُدِّمْتُ لِلْمَوتِ قَبْلَهَا ... وَإِلاَّ فَلَيْتَ ٱلْمَوْتَ أَذْهَبَنَا مَعَا

وٱلأخيرُ شبيهٌ بقولِ التِّهاميِّ [في « ديوانهِ » ٤٧٩ مِنَ الطَّويلِ] :

فَوَاللهِ لَوْ أَسْطِيْعُ قَاسَمْتُهُ ٱلرَّدَىٰ ... فَمُتْنَا جَمِيْعَاً أَوْ لَقَاسَمَنِيْ عُمْرِيْ

وما أدري أيُّهما أخذَ عَنِ الآخرِ ؛ فإنَّهما مُتعاصِرانِ .

حياة عزيزة وموت مشرف

ويعجبني قولُ بعضِهِمْ وقد رواهُ أبو عليٍّ ٱلقاليُّ عَنِ ٱبنِ دُرَيدٍ عَنْ أَبي حاتمٍ السِّجستانيِّ [في « أماليهِ » مِنَ الطَّويلِ] :

أَلاَ فِـيْ سَبِيْـلِ اللهِ مَـاذَا تَضَمَّنَـتْ ... بُطُونُ ٱلثَّرىٰ وٱسْتُودِعَ ٱلْبَلَدُ ٱلْقَفْرُ

بُدُوْرٌ إِذَا ٱلدُّنْيَا دَجَتْ أَشْرَقَتْ بِهِمْ ... وَإِنْ أَجْدَبَتْ يَوْمَاً فَأَيْدِيْهِمُ ٱلْقَطْرُ

حَيَاتُهُمُ كَانَتْ لأَعْدَائِهِمْ عَمَىً ... وَمَوْتُهُمُ لِلْفَاخِرِيْنَ بِهِمْ فَخْرُ

أَقَامُوْا بِظَهْرِ الأَرْضِ فَٱخْضَرَّ سَهْلُهَا ... وَصَارُوْا بِبَطْنِ ٱلأَرْضِ فَٱسْتَوْحَشَ ٱلظَّهْرُ

قصيدتان لتهييج العواطف

وممَّا يحرِّكُ البلابِلَ ، ويهيِّجُ العواطِفَ ، ويثيرُ الأَشْجَانَ ، ويبعثُ الأَحزانَ قصيدةُ ٱبنِ زريقٍ الكاتبِ ، ونونيَّةُ ٱبنِ زيدونَ ، وهما مشهورتانِ .

ابن زيدون يصبّر أمه

ويُشجينِيْ مَا وَقَعَ لابنِ زيدونَ معَ أُمِّهِ ، وقد زَارَتْهُ في سجنهِ ، وهوَ قولُهُ [في « ديوانهِ » ١١٣ مِنَ الطَّويلِ] :

أَمَقْتُـولَـةَ ٱلْعَيْنَيْـنِ مَـا لَـكِ وَالِهـاً ... أَلَمْ تُرِكِ ٱلأَيَّامُ حُرّاً قَضَىٰ قَبْلِيْ(١)

أَقِلِّـيْ بُكَـاءً لَسْـتِ أَوَّلَ حُـرَّةٍ ... طَوَتْ بِالأَسَىٰ كَشْحاً عَلَىٰ مَضَضِ ٱلثُّكْلِ(٢)

وَفِيْ أُمِّ مُوْسَىٰ عِبْرَةٌ إِذْ رَمَتْ بِهِ ... إِلَىٰ ٱلْيَمِّ فِيْ ٱلتَّابُوْتِ فَٱعْتَبِرِيْ وَٱسْلِيْ

---

(١) والهاً : الشديدةُ الحزنِ على فقدِ وَلدِها .

(٢) طوىٰ كشحهُ : أضمرَ وسترَ ما في قلبهِ .

وَللهِ فِيْنَا عِلْمُ غَيْبٍ وَحَسْبُنَا بِهِ عِنْدَ جَوْرِ ٱلدَّهْرِ مِنْ حَكَمٍ عَدْلِ

وما أيتُ ما قيلَ في رثاءِ العلاَّمةِ الجليلِ محمَّدٍ عبدُه ، ولمْ يبقَ لشيءٍ منهُ علىٰ كثرتِهِ طنينٌ بأُذُنِي سِوَىٰ مرثيَّةِ حافظٍ ، ومَطلع قصيدةٍ لغيرِهِ ، لا أَزالُ آمرُ بعضَ الحُدَاةِ بتكريرِهِ ، حَتَّىٰ نستفرغَ الدمعَ ، وهوَ [مِنَ ٱلكاملِ] : إشارة إلى مراثي الشيخ محمد عبده

لِمْ لاَ تُجِيْبُ وَقَدْ دَعَوتُ مِرَاراً يَكْفِيْ سُكُوْتُكَ أَرْبَعِيْنَ نَهَارَا

وكثيراً ما يتندَّىٰ خَدِّي مِن قولِ حافظٍ [مِنَ الطَّويلِ] :

دَعَانِي رِفَاقِيْ وَٱلْقَوَافِيْ مَرِيْضَةٌ وَقَدْ عَقَدَتْ هُوجُ ٱلْخُطُوْبِ لِسَانِيْ الخطوب تعقد الألسنة
مَلِلْتُ وُقُوْفِيْ بَيْنَكُمْ مُتَمَلْمِلاً عَلَىٰ رَاحِلٍ فَارَقْتُهُ فَشَجَانِيْ
أَفِيْ كُلِّ يَوْمٍ يَقْطَعُ ٱلْحُزْنُ قِطْعَةً مِنَ ٱلْقَلْبِ إِنِّيْ قَدْ فَقَدْتُ جَنَانِيْ
تَفَرَّقَ أَصْحَابِيْ وَأَهْلِيْ وَأَخَّرَتْ يَدُ ٱلْمَوْتِ وَقْتِيْ فَٱنْتَظَرْتُ زَمَانِيْ
فَمَالِيْ صَدِيْقٌ إِنْ عَثَرْتُ أَقَالَنِيْ وَلاَ لِيْ حَبِيْبٌ إِنْ قَضَيْتُ بَكَانِيْ

والأَخيرُ يُشبهُ قولَ عمرِو بنِ معدِيكربَ الزُّبَيْدِيِّ [في « ديوانِهِ » ٨٢ مِنْ مجزوءِ ٱلكاملِ] : الوحدة صعبة

ذَهَبَ ٱلَّذِيْنَ أُحِبُّهُمْ وَبَقِيْتُ مِثْلَ ٱلسَّيْفِ فَرْدَا

وعلىٰ ذِكرِ حافظٍ . . تذكَّرتُ أَنِّي قلتُ مرَّةً لِشيخِنا أَبي بكرٍ ٱبنِ شهابٍ ـ رحمةُ اللهِ عليهِ ـ : أَلَسْتَ أَشْعَرَ منهُ ؟ قالَ : لولا قولُهُ [في « ديوانِهِ » ٢/ ١٦١ مِنَ ٱلبسيطِ] : المفاضلة بين الشيخ أبي بكر ابن شهاب وحافظ إبراهيم

إِنِّيْ أَرَىٰ وَفُؤَادِيْ لَيْسَ يَكْذِبُنِيْ رُوْحاً يَحُفُّ بِهَا ٱلإِجْلاَلُ وَٱلْعِظَمُ
أَرَىٰ جَلالاً أَرَىٰ نُوْراً أَرَىٰ مَلَكاً أَرَىٰ مُحَيّاً يُحَيِّيْنَا وَيَبْتَسِمُ
اللهُ أَكْبَرُ هَـٰذَا ٱلْوَجْهُ نَعْرِفُهُ هَـٰذَا فَتَى ٱلنِّيْلِ هَـٰذَا ٱلْمُفْرَدُ ٱلْعَلَمُ

وقولُهُ [في « ديوانه » ١/ ٢٦٩ مِنَ ٱلبسيطِ] :

كَمْ غَادَةٍ فِيْ ظَلاَمِ ٱللَّيْلِ بَاكِيَةٍ   عَلَىٰ أَلِيفٍ لَهَا يَهْوِيْ بِهِ ٱلطَّلَبُ
لَوْلاَ طِلاَبُ ٱلْعُلاَ لَمْ يَبْتَغُوْا بَدَلاً   مِنْ طِيْبِ رَيَّاكِ لَـٰكِنَّ ٱلْعُلاَ تَعَبُ

استهزاء المؤلف ببعض الثقلاء

ثُمَّ ذَكرتُ هـٰذا بعدَ أُمَّةٍ مِنَ ٱلزَّمانِ لجماعةٍ مِنَ ٱلإِخْوانِ ، وفي المجلسِ ثقيلٌ ٱعترضَ فَضْلَ القِطعةِ الأَخيرةِ ، وزعمَ أَنَّها كلامٌ عاديٌّ لا تُوضعُ اليدُ عليهِ ، ولا تُعقدُ الخناصِرُ لهُ .

فقلتُ للحاضرينَ ـ وإِلىٰ غيرهِ يُساقُ الحديثُ ـ : أَرأَيتمْ لو أَنَّ رَجُلاً مَجْدُوراً قبيحَ المنظرةِ ، أُخيفشَ[١] ، كثيفَ اللِّحيةِ ـ وهيَ صفةُ المعترضِ ـ وجدْتُموهُ يَبكي ـ ولَو علىٰ ضَوءِ ٱلنَّهارِ ـ ويتأَلَّمُ ، ويشتكِي ويتظَلَّمُ ، أَلا تترطَّبُ لهُ خدودُكمْ ، وتهتزُّ عواطِفُكم وتُشفِقُ قلوبُكم ؟!

قالوا : بلىٰ .

قلتُ : فمَا بالُكُم لو أَنَّها غادةٌ بَضَّةٌ ، كأَنَّما صِيغَتْ مِنْ فِضَّةٍ ، تغبِطُها ٱلْحُورُ ، ويحسِدُها ٱلنُّورُ ، وقد شاهدْتُموها باكيةً بعبرةٍ مسفوحَةٍ ، وكبِدٍ مقروحَةٍ ، وحشَىً رَجَّافٍ ، وقلبٍ وَجَّافٍ ، أَلاَ يكونُ أَبْعَثَ لخشوعِكُم ، وأَذْرَفَ لدموعِكُم ؟

قالُوا : بلَىٰ .

قلتُ : هـٰذا معَ عدمِ العلمِ بالسبَبِ ، فأَمَّا إِذا علمْتُم بأَنَّ ما عندَها مِنَ ٱلاحتِراقِ . . نشأَ عنِ ٱلافْتِرَاقِ ، وأَنَّهُ هو الَّذي أَقضَّ

---

(١) الأَخفشُ : هوَ الذي يبصرُ بالليل دونَ النَّهارِ ، أَو هوَ فسادٌ في الجفون بلا وجعٍ .

مهـدَهـا ، وبلـغَ جُهـدَهـا ، وأذاقَهـا الصَّـابَ[1] ، وجـرَّعَهـا الأوصابَ[2] ، ما مبلغُ حنانِكُم يكونُ ؟! فأنَّىٰ تؤفكونَ ؟

فأكثَروا مِنَ الاسترجاعِ ، وظهرتْ عليهمُ الأوْجَاعُ .

قلتُ : وأيضاً ، فإنَّها تقاسي الآلامَ في جُنحِ الظَّلامِ ، بلا جليسٍ يَبُلُّ لوعةً ، ولا أنيسٍ يَسُلُّ روعةً ، وأعظمُ مِنْ ذلكَ كلِّهِ اعتلاجُ جوفِها بينَ رجائِها وخوفِها ، فالأملُ يَنشُرُ ، واليأسُ يطوي ، إذِ الطلبُ لا يزالُ بصاحبِها يهوي ، لَمْ يَقِرَّ لَهُ قرارٌ بعدُ ، ولم تدرِ ماذا يتلقَّاهُ ، نحسٌ أو سعدٌ ، فكأنَّما ذلِكَ القلبُ الحائرُ معلَّقٌ في جناحِ طائرٍ .

فقالوا : رويدَكَ ، فإنَّ الحزنَ تأثُّلٌ ، والخيالَ تمثُّلٌ ، وشملتْهمُ الهِزَّةُ[3] ، وأخذَتْ صاحبنا العزَّةُ .

فقلت لهُم : هـٰذا كلُّهُ في بيتِ حافظٍ ، ما لهُ مِنْ لافظٍ .

ثُمَّ إنَّ علىٰ البيتِ سِمَةً ممَّا ذكرناهُ في غيرِ هـٰذا المجلسِ لأبي عُبادةَ وهوَ قولُهُ [في « ديوانِهِ » ٣/ ١٩٤١ مِنَ الطَّويلِ] :

تَدَانَتْ مَنَايَاهُمْ بِهِمْ وَتَبَاعَدَتْ ... مَضَاجِعُهُمْ عَنْ تُرْبِكَ الْمُتَنَسَّمِ

وذكرتُ بهِ بيتاً آخرَ لأبي عُبادةَ لا يُناسِبُ الموضوعَ كثيراً ، وَلـٰكنَّهُ معدودٌ مِنْ محاسِنِ البُحتريِّ ، وهوَ قولُهُ [مِنَ البسيطِ] : من محاسن البحتري

قَلْـبٌ يُطِـلُّ عَلَـىٰ أَفْكَـارِهِ وَيَـدٌ ... تُمْضِي الأُمُوْرَ وَنَفْسٌ لَهْوُهَا التَّعَبُ[4]

---

(١) الصابُ : عصارةُ شجرٍ مرٍّ ، إذا أصابتِ العينَ أتلفتها .

(٢) الوصب : الوجعُ والمرضُ .

(٣) الهِزة ـ بالكسر ـ: النشاط والارتياح .

(٤) عَدُّوا هذا البيت من محاسن البُحتري ؛ لأن قوله : (قلب يطل علىٰ أفكاره . . .) من الكلمات الجوامع ، ومراده بذلك : أن قلبه لا تملؤه الأفكار =

الناس في الفراق: والحاصلُ ممَّا مرَّ في شأْنِ الفراقِ : أَنَّ الناسَ علىٰ قسمينِ :

١ـ قسم ينسى مع الزمن منهُم : مَنْ ينسىٰ حبيبَهُ لمرورِ ٱلأَيَّامِ .

٢ـ قسم لا ينسى ومنهُم : مَنْ لا ينساهُ إِلىٰ يومِ ٱلقيامِ .

٣ـ قسم متردد ويبقىٰ قسمٌ ثالثٌ علىٰ شكٍّ مِنْ أَمرِهِم ، منهُم ٱبنُ ميَّادَة في قولِهِ [في « ديوانهِ » ٧٢ـ٧٣ مِنَ الطَّويلِ] :

وَأُشْفِقُ مِنْ وَشْكِ ٱلْفِرَاقِ وَإِنَّنِي أَظُـنُّ لَمَحْمُـولٌ عَلَيْـهِ فَـرَاكِبُـهْ
فَوَٱللهِ مَا أَدْرِي أَيَغْلِبُنِي ٱلْهَوَىٰ إِذَا جَدَّ جِدُّ ٱلْبَيْنِ أَمْ أَنَا غَالِبُهْ

وكُثيِّرٌ في قولِهِ [في « ديوانهِ » ٤٠٥ مِنَ الطَّويلِ] :

فَوَٱللهِ مَا يَدْرِي كَرِيمٌ مُمَاطَلٌ أَيَنْسَاكِ إِذْ بَاعَدْتِ أَمْ يَتَصَدَّعُ

وأَخذهُ ٱبنُ أبي أُميَّةَ فزادهُ إِحساناً ، إِذ يقولُ [مِنَ الطَّويلِ] :

فَدَيْتُكَ لَمْ تَشْبَعْ وَلَمْ تَرْوَ مِنْ هَجْرِي أَيُسْتَحْسَنُ ٱلْهِجْرَانُ أَكْثَرَ مِنْ شَهْرِ
أَرَانِي سَأَسْلُوْ عَنْكَ إِنْ دَامَ مَا أَرَىٰ بِـلاَ ثِقَـةٍ لَكِـنْ أَظُـنُّ وَلاَ أَدْرِي

لا يحل هجر فوق ثلاث وقولُهُ : (مِنْ شَهْرِ) ممَّا تفرَّدَ بهِ ، وما حملهُ علىٰ ذلكَ إِلاَّ مجيئُهُ في طريقِ ٱلقافيةِ ، وإِلاَّ فقدِ ٱقتصرتِ ٱلسُّنَّةُ[1] علىٰ ثلاثٍ إِذا

= ولا تحيط به ، وإنما هو عال عليها . يصف بذلك عدم احتفاله بالقوادح ، وقلة مبالاته بالخطوب التي تحدث أفكاراً تستغرق القلوب . « المثل السائر » (٦٦/١) .

(١) وذلك كما في الحديث الذي رواه عن أبي أيوب رضي الله عنه البخاري (٦٠٧٧) في (الأدب) ، ومسلم (٢٥٦٠) في (البر والصلة) ، عن رسول الله صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ أنه قال : « لا يحلُّ لرجلٍ أَنْ يهجرَ أخاه فوق ثلاث ليالٍ ، يلتقيان فيعرض هذا ، ويعرض هذا وخيرهما الذي يبدأ صاحبه=

كانَ لغيرِ سببٍ ، وإلاَّ فإلىٰ ما شاءَ اللهُ ، وعليهِ تُحمَلُ مُهاجرةُ السلفِ الطيِّبِ ، علىٰ أَنَّ الهيتميَّ يقولُ في « تحفتهِ » قالَ بعضُ شُرَّاحِ « البخاريِّ » : وإنَّمَا يَحرُمُ هجرٌ أكثرَ مِنَ الثلاثِ . . إنْ واجهَهُ ولم يكلِّمْهُ ـ حَتَّىٰ بالسلامِ ـ أمَّا لو لم يواجِهْهُ . . فلا حُرمةَ ، وإنْ مكثَ سنينَ ، وهوَ ظاهرٌ اهـ .

وفيهِ سَعَةٌ كبرىٰ لِمَا يقعُ بينَ السلفِ الصالحِ رضوانُ اللهِ عليهِمْ .

وما أَشبهَ هـٰذا الشاعرَ في قولِهِ : (أَكْثَرَ مِنْ شَهْرِ) بذلكَ الخطيبِ الذي قالَ : إنَّ اللهَ خلقَ السمَاواتِ والأَرضَ في ستَّةِ أَشهرٍ ، فقالوا لهُ : إنَّها ستَّةُ أَيَّامٍ ، فقالَ : أَمَا واللهِ لقد قلتُها وأَنا أَتقالُّها ، ففرَّجتُم عنِّي .

شعراء من القسم الثاني ٦٠ ومِمَّا يتعلَّقُ بالقسمِ الثاني مِنَ ٱلنَّاسِ قولُ ٱبنِ مُطيرٍ [في « ديوانهِ » مِنَ الطَّويلِ] :

قَضَىٰ ٱللهُ يَا أَسْمَاءُ أَنْ لَسْتُ بَارِحاً أُحِبُّكِ حَتَّىٰ يُغْمِضَ ٱلْعَيْنَ مُغْمِضُ

وقولُ بشَّارٍ [في « ديوانهِ » ٤/ ١٢٠ مِنَ الطَّويلِ] :

وَكَيْفَ تناسِيْ مَنْ كَأَنَّ حَدِيْثَهُ بِأُذْنِيْ وَإِنْ غُيِّبْتُ قُرْطٌ مُعَلَّقُ ؟

= بالسلام » ، وفي الباب :

عن أنس عند البخاري (٦٠٧٦) ، ومسلم (٢٥٥٩) وفيه : « لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام » .

قال الشاعر [من الكامل] :

يا هاجري فوق الثلاث بلا سبب خالفت قول نبينا أزكىٰ العرب
هجر الفتىٰ فوق الثلاث محرم ما لم يكن فيه لمولانا سبب

وقالَ الأعمىٰ الثاني [في « سقطِ الزندِ » ١٥٩ مِنَ ٱلبسيطِ] :

لاَ أَنْسَيَنَّـكِ إِنْ طَـالَ ٱلـزَّمَـانُ بِنَـا   وَكَمْ حَبِيْبٍ تَمَادَىٰ عَهْدُهُ فَنُسِي(١)

وقالَ ٱبنُ حَيُّوسٍ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَحَسَّنْتُمَـا لِـيْ سَلْـوَةً وَتَنَـاسِيـاً   وَلَمْ تَذْكُرَا كَيْفَ ٱلسَّبِيْلُ إِلَيْهِمَا

وقالَ المعريُّ أَيضاً [في « سقطِ الزندِ » ٢١٤ـ٢١٥ مِنَ الطويلِ] :

وَلِيْ حَاجَةٌ عِنْدَ ٱلْعِرَاقِ وَأَهْلِهِ   فَإِنْ تَقْضِيَاهَا فَٱلْجَزَاءُ هُوَ ٱلشَّرْطُ

سَـلاَ عُلَمَـاءَ ٱلْجَـانِبَيْـنِ وَفِتْيَـةً   أَبَنُّوْهُمَا حَتَّىٰ مَفَارِقُهُمْ شُمْطُ(٢)

أَعِنْـدَهُـمُ عِلْـمُ ٱلسُّلُـوِّ لِسَـائِلٍ   بِهِ ٱلرَّكْبُ لَمْ يَعْرِفْ أَمَاكِنَهُ قَطُّ

* * *

---

(١) في المخطوط : تمادى عهدي .

(٢) شرح لصاحبيهِ حاجتَهُ وهيَ : أَن يسأَلا علماءَ (بغدادَ) هل يعلمونَ لهُ دواءً مِن الشوقِ الذي غلبَ عليهِ ، والذي لم يهتدِ إليهِ . والجانبانِ : جانبا (بغدادَ) . وأَبَنُّوهُما : مِن أَبنَ بالمكانِ : أَي أَقامَ بهِ . والشَّمَطُ : بياض الشَّعر في السواد .

[قالَ أَبو الطَّيبِ ٱلمتنبي في « العُكبَريِّ » ٣/ ١٦٣ مِنَ ٱلبسيطِ] :

لَوْلاَ مُفَارَقَةُ ٱلأَحْبَابِ مَا وَجَدَتْ	لَهَا ٱلْمَنَايَا إِلَىٰ أَرْوَاحِنَا سُبُلاَ

شرح بيت الناظم والأقوال فيه

قيلَ : إنَّ المرادَ بـ (اللُّهَا) جمعُ (لهاةٍ) ، وقيلَ : هو جارٌّ ومجرورٌ متعلِّقٌ بـ (وَجَدَتْ) ولا حشو في ذلكَ ؛ لأَنَّكَ تقولُ : ما وجدتُ سبيلاً إِلىٰ كذا ، وتقولُ : ما وجدتُ لي سبيلاً إِلىٰ كذا ، كلاهُما جارٍ في ٱستعمالِ الفصحاءِ وأَهلِ النيِّقَةِ[1] في الكلامِ ، غيرَ أَنَّ ٱبنَ هشامٍ يقولُ [في « المغني » ١/ ٢٨٤] : إِنَّ فيهِ تعدِّيَ فعلِ الظاهرِ إِلىٰ ضميرِهِ المتَّصلِ ؛ كقولكَ : (ضربَهُ زيدٌ) وذلكَ ممتنعٌ ، فينبغي أَنْ يُقدَّرَ صفةً في الأَصلِ لـ (سُبُلاً) ، فلمَّا قُدِّمَ عليهِ صارَ حالاً منهُ ، كما أَنَّ قولَهُ : (إِلَىٰ أَرْوَاحِنَا) كذلكَ ؛ إِذِ ٱلْمَعنىٰ سُبُلاً مسلوكةً إِلىٰ أَرواحِنا . انتهىٰ .

وأَقولُ : لا مانعَ من تعلُّقِها بـ (المنايا) ، لإِشارَتِها إِلىٰ معنىٰ الفعلِ وتقدُّمِها رُتبةً ويسقطُ ذلكَ التكلُّفُ .

الفراق هو الطريق إلى الموت والدليل عليه

والبيتُ مِنْ خالصِ الشِّعرِ ومختارِ الكلامِ ، وإِنْ كانَ مأْخوذاً مِنْ قولِ أَبي تمَّامٍ [في « ديوانه » ٢/ ٣١ مِنَ ٱلكاملِ] :

لَوْ جَاءَ مُرْتَادُ ٱلْمَنِيَّةِ لَمْ يَجِدْ	إِلاَّ ٱلْفِرَاقَ عَلَىٰ ٱلنُّفُوسِ دَلِيْلاَ[2]

---

(١) أهلُ النيقةِ : هُم المبالغونَ في تجويدِ الكلامِ .

(٢) مرتادُ المنيّةِ : طالبُ الموتِ .

وقد أخذهُ أبو تمّامٍ من قولِ قيسِ بنِ الملوّحِ [مِنَ الطَّويلِ] :

لَعَمْرُكَ لَوْلاَ ٱلْبَيْنُ مَا مَاتَ عَاشِقٌ ... وَلَوْلاَ ٱلْهَوَىٰ مَا نَاحَ بِٱللَّيْلِ آلِفُ

وقالَ قيسُ بنُ ذُرَيحٍ [في « ديوانهِ » ١٤٨ مِنَ الطَّويلِ] :

وَإِنِّيْ لَمُفْنٍ دَمْعَ عَيْنَيَّ بِٱلْبُكَا ... حِذَارَ الَّذِي قَدْ كَانَ أَوْ هُوَ كَائِنُ

وَقَالُوْا غَداً أَوْ بَعْدَ ذَاكَ بِلَيْلَةٍ ... فِرَاقُ حَبِيْبٍ لَمْ يَبِنْ وَهْوَ بَائِنُ

وَمَا كُنْتُ أَخْشَىٰ أَنْ تَكُوْنَ مَنِيَّتِيْ ... بِكَفَّيْكَ إِلاَّ أَنَّ مَا حَانَ حَائِنُ

وقالَ أبو عُبادةَ [في « ديوانهِ » ٤/ ٢٠٨١ مِنَ الكاملِ] :

هَلْ رَكْبُ مَكَّةَ حَامِلُوْنَ تَحِيَّةً ... تُهْدَىٰ إِلَيْهَا مِنْ مُعَنًّىً مُغْرَمِ

إِنْ لَمْ يُبَلِّغْكِ ٱلْحَجِيْجُ فَلاَ رَمَوْا ... فِيْ ٱلْجَمْرَتَيْنِ وَلاَ سُقُوْا مِنْ زَمْزَمِ

وَمُنُوْا بِرَائِعَةِ ٱلْفِرَاقِ فَإِنَّهُ ... سِلْمُ ٱلسُّهَادِ وَحَرْبُ نَوْمِ ٱلنُّوَّمِ

فالفِراقُ بريدُ الحِمامِ ، وفاتحةُ الأَسقامِ ، وحسبُكَ ما ٱتَّفقَ ليعقوبَ عليهِ السلامُ .

ما هي صورة الفراق لو تجسَّم؟!

وقالَ ٱبنُ خَلِّكانَ [في « وفيات الأعيان » ٤/ ٣٧٥] : كانَ الشهرستانيُّ يَروي بسندهِ المتَّصلِ إلىٰ النَّظَّامِ البلخيِّ ـ العالمِ المشهورِ وٱسمهُ إبراهيمُ بنُ سيَّارٍ [ت : ٢٣١ هـ] ـ أَنَّهُ كانَ يقولُ : لو كانَ للفراقِ صورةٌ . . لارتاعتْ لها القلوبُ ، وٱنهدت منها الجبالُ ، ولَجَمْرُ الغَضىٰ أَقلُّ توهُّجاً مِنْ حملِهِ ، ولو عذَّبَ اللهُ أَهلَ النارِ بالفراقِ . . لاستراحوا إلىٰ ما قبلَهُ مِنَ ٱلعذابِ .

قصة الصمة بن عبد الله وصاحبته ريا

وكلُّ ما أَسلفناهُ مِن مصارعِ العشّاقِ ، وشُهداءِ الأَشواقِ ، في شرحِ البيتينِ قبلَهُ . . يدخلُ في الكلامِ علىٰ هـٰذا ، ونزيدُ عليهِ :

حديثَ الصمَّةِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ رَقَّاشٍ التغلبيِّ وصاحبتِهِ رَيَّا بنتِ مسعودِ بنِ رَقَّاشٍ ، وقد مرَّ ذروٌ[1] منهُ في المجلسينِ الأَوَّلِ والثاني ، وتمامهُ [كما في « الأغاني » ٦/١١] : أَنَّهُ لمَّا ذهبَ إِلىٰ العراقِ بعدَ لجاجِ عمِّهِ وأَبيهِ في البعيرِ ، وقولُ رَيَّا : ما رأَيتُ رجلاً أَضاعهُ أَبوهُ وعمُّهُ ببعيرٍ إِلاَّ الصمَّةَ . . أَضرَّ بهِ النوىٰ ، وأَضناهُ الجوىٰ ، وكانَ شهماً أَديباً شجاعاً عارفاً بأَيَّامِ العربِ ، ويُذكرُ أَنَّهُ أَدركَ أَوائِلَ الإِسلامِ ، فمنعتهُ الشهامةُ أَنْ يرجعَ إِلىٰ أَهلهِ بغيرِ طلبٍ منهم ، ولم يزَلْ حتَّىٰ أَضناهُ السُّقْمُ ، وأَعيتهُ الحيلةُ ، وقدمَ أَحدُ مَذْحِجَ علىٰ مسعودٍ ، فخطبَ ريَّا بثلاثِ مئَةِ ناقةٍ برُعاتِها ، فزوَّجَهُ بها فحملَهَا إِلىٰ مذحجٍ ، فبلغَ الصمَّةَ الخبرُ فأَشتملَ عليهِ الفراشَ ، وقالَ قصيدتَهُ التي سبقَ شيءٌ منها ، ومنها [في « ديوانهِ » ٨٧ وما بعدُ مِنَ الطَّويلِ] :

حَنَنْتَ إِلَىٰ رَيَّا وَنَفْسُكَ بَاعَدَتْ ... مَزَارَكَ مِنْ رَيَّا وَشَعْبَاكُمَا مَعَا
كَأَنَّكَ لَمْ تَسْمَعْ وَدَاعَ مُفَارِقٍ ... وَلَمْ تَرَ شَعْبَيْ صَاحِبَيْنِ تَقَطَّعَا
بَكَتْ عَيْنُكَ ٱلْيُمْنَىٰ ولَمَّا زَجَرْتَهَا ... عَنِ ٱلْغَيِّ بَعْدَ ٱلرُّشْدِ أَسْبَلَتَا مَعَا[2]
وَلَمَّا رَأَيْتُ ٱلْبِشْرَ أَعْرَضَ دُونَنَا ... وَجَالَتْ بَنَاتُ ٱلشَّوْقِ تَحْتِيَ نُزَّعَا[3]
تَلَفَّتُّ نَحْوَ ٱلْحَيِّ حَتَّىٰ وَجَدْتُنِيْ ... وَجِعْتُ مِنَ ٱلإِصْغَاءِ لِيْتاً وأَخْدَعَا[4]
وَأَذْكُرَ أَيَّامَ ٱلْحِمَىٰ ثُمَّ أَنْثَنِيْ ... عَلَىٰ كَبِدِيْ مِنْ خَشْيَةٍ أَنْ تَصَدَّعَا

---

(١) ذروٌ : قليل .
(٢) أَسبَلتا : أَنهمرَ الدمعُ مِنهما بغزارَةٍ .
(٣) البشرُ : جبلٌ في أطرافِ (نجدٍ) من جهةِ (الشامِ) .
(٤) اللِّيتُ : صفحةُ العنقِ . الأَخدعانِ : عِرقانِ في جانبَي العنقِ .

أَمَـا وَجَـلاَلِ ٱللهِ لَـوْ تَـذْكُـرِينَنِـيْ كَذِكْرَاكِ مَا نَهْنَهْتُ لِلْعَيْنِ مَدْمَعَا[1]
فَقَالَتْ : بَلَىٰ وَٱللهِ ذِكْراً لَوَ اَنَّهُ تَضَمَّنَهُ صُمُّ ٱلصَّفَا لَتَصَدَّعَا[2]

وقالَ [في « ديوانهِ » ١٣٩ مِنَ الطَّويلِ] :

أَرَىٰ ٱلدَّهْرَ بِٱلتَّفْرِيقِ وَٱلْبَيْنِ مُوْلَعَا وَلِلْجَمْـعِ مَـا بَيْـنَ ٱلْمُحِبِّيْـنَ آبِيَـا
فَـأُفٍّ عَلَيْـهِ مِـنْ زَمَـانٍ كَـأَنَّنِـيْ خُلِقْـتُ وَإِيَّـاهُ نُطِيْـلُ ٱلتَّعَـادِيَـا

موته وموتها من العشق

ولمْ يزل يشتدُّ بهِ البأسُ ، ويتجاذبهُ اليأسُ . . إلىٰ أَن سمعَ ٱمرأةً تنادي بنتاً لها وتقولُ : يا ريَّا . . فخرَّ مغشياً عليهِ ، ثُمَّ أَفاقَ وقالَ [في « ديوانهِ » ٨٢ مِنَ الطَّويلِ] :

تَعَـزَّ بِصَبْـرٍ لاَ وَرَبِّـكَ لاَ تَـرَىٰ بُيُوْتَ ٱلْحِمَىٰ إِحْدَىٰ ٱللَّيَالِيْ ٱلْغَوَابِرِ
كَـأَنَّ فُـؤَادِيْ مِـنْ تَـذَكُّـرِهِ ٱلْحِمَـىٰ وَأَهْلَ ٱلْحِمَىٰ يَهْفُوْ بِهِ رِيْشُ طَائِرِ[3]

ولمْ يزلْ يردِّدُهَا . . حتَّىٰ فاضَتْ نفسُهُ[4] .

ولمَّا ٱتَّصلَ نعيهُ بريَّا . . داخلَهَا مِنَ ٱلْوَجْدِ ما منعهَا عنِ ٱلطعَامِ والشَّرابِ ، وجعلَتْ تبكي حتَّىٰ ماتَتْ .

وقولُهُ : (تَلَفَّتُّ نَحْوَ ٱلْحَيِّ) شبيهٌ بقولِ الآخرِ [مِنَ الطَّويلِ] :

لَحَظْنَـاهُـمُ حَتَّـىٰ كَـأَنَّ عُيُـوْنَنَـا بِهَا لَقْوَةٌ مِنْ شِدَّةِ ٱللَّحَظَانِ[5]

---

(١) النهنهةُ : الكفُّ .
(٢) الصُّمُّ : الحجرُ الصلبُ . الصفا : العريضُ الأَملسُ من الحجارةِ .
(٣) هَفَا الطَّائِرُ بجناحِهِ : أي خفقَ وطارَ .
(٤) انظر « الأغاني » (٨/٦) .
(٥) اللَّقوةُ : داءٌ يصابُ بِهِ الشدقُ فيعوجُّ .

مشابهته للمجنون

وما سمعَهُ من دعاءِ المرأَةِ بنتها شبيةٌ بما نذكرهُ أَوائِلَ المجلسِ السادسَ عشرَ من قولِ ٱلمجنونِ [في « ديوانهِ » ١٦٣ مِنَ الطَّويلِ] :

وَدَاعٍ دَعَا إِذْ نَحْنُ بِٱلْخَيْفِ مِنْ مِنَىٰ ... فَهَيَّجَ أَشْوَاقَ ٱلْفُؤَادِ وَمَا يَدْرِيْ
دَعَا بِٱسْمِ لَيْلَىٰ غَيْرَهَا فَكَأَنَّمَا ... أَطَارَ بِلَيْلَىٰ طَائِراً كَانَ فِيْ صَدْرِيْ

وفـاة العبـاس بـن الأحنف عشقاً

وقالَ أَبو بكرٍ الصوليُّ [كما في « وفيات الأعيان » ٣/٢٦] : قالَ أَبو زكريا البصريُّ : حدَّثني رجلٌ من قريشٍ قالَ : خرجتُ حاجّاً معَ رِفقةٍ لي ، فمِلنا عنِ ٱلطَّريقِ لنصَلِّيَ ، فجاءَ غلامٌ يقولُ : هل فيكم أَحدٌ من أَهلِ البصرةِ ؟ قلنَا كلُّنا مِنْ أَهلِها ، فقالَ : إِنَّ مولايَ يدعوكُم فقمنَا إِليهِ ، فإذا مريضٌ بآخرِ رمقٍ ، منعَنا ضعفُهُ أَنْ نسأَلَهُ عنِ ٱسمِهِ ، فلمَّا أَحسَّ بنا . . رفعَ طرفَهُ وما كادَ ، وأَنشَا يقولُ [في « ديوانِ العبَّاسِ بنِ الأحنفِ » ٢٨٧ مِنَ ٱلمديدِ] :

يَا بَعِيْدَ ٱلدَّارِ عَنْ وَطَنِهْ ... مُفْرَداً يَبْكِيْ عَلَىٰ شَجَنِهْ
كُلَّمَا جَدَّ ٱلرَّحِيْلُ بِهِ ... زَادَتِ ٱلأَسْقَامُ فِيْ بَدَنِهْ

ثُمَّ أُغميَ عليهِ طَويلاً ونحنُ حولَهُ ، إِذ أَقبلَ طائرٌ ، فوقعَ علىٰ شجرةٍ كانَ تحتَها ، وجعلَ يغرِّدُ ، ففتحَ عينيهِ ، وجعلَ يستمعُ تغريدَ الطائرِ ، ثُمَّ أَنشأَ يقولُ [في « ديوانهِ » ٢٧٨ مِنَ ٱلمديدِ] :

وَلَقَدْ زَادَ ٱلْفُؤَادَ شَجَا ... طَائِرٌ يَبْكِيْ عَلَىٰ فَنَنِهْ[1]
شَفَّهُ مَا شَفَّنِيْ فَبَكَا ... كُلُّنَا يَبْكِيْ عَلَىٰ سَكَنِهْ

ثُمَّ تنَفَّسَ نفَساً عالياً فاضتْ معهُ روحهُ ، فجهَّزناهُ ثُمَّ سأَلنا عنهُ

---

(١) الفننُ : غصنُ الشجرةِ المستقيمِ .

الغلامَ، فقالَ: إِنَّهُ العباسُ بنُ الأَحنفِ، وكانتْ وفاتُهُ سنةَ: (١٩٣ هـ).

رواية أخرىٰ في تاريخ وفاته

وهـٰذا يعارضُ ما يروىٰ [في «خزانة الأدب» ١/٤٢٥] من موتِهِ وموتِ الكسائيِّ وهُشَيْمَةَ الخمَّارَةِ في يومٍ واحدٍ، وأَنَّ الرشيدَ أمرَ المأمونَ أَنْ يُصَلِّيَ عليهِم، وأَنَّهُ قدَّم العبَّاسَ لقولِهِ [في «ديوانه» ٨١ مِنَ ٱلكاملِ]:

وَسَعَوْا إِلَيَّ بِهَا وَقَالُوْا إِنَّهَا ... لَهِيَ ٱلَّتِيْ تَشْقَىٰ بِهَا وَتُكَابِدُ
فَجَحَدْتُهُمْ لِيَكُوْنَ غَيْرَكِ ظَنُّهُمْ ... إِنِّيْ لَيُعْجِبُنِيْ ٱلْمُحِبُّ ٱلْجَاحِدُ

الدنوُّ يفضح الأحباب

وهوَ مثلُ قولِهِ أَيضاً [في «ديوانه» ٧٤ مِنَ ٱلكاملِ]:

ٱللهُ يَعْلَمُ مَا أَرَدْتُ بِهَجْرِكُمْ ... إِلاَّ مُصَانَعَةَ ٱلْعَدُوِّ ٱلْكَاشِحِ
وَعَلِمْتُ أَنَّ تَبَاعُدِيْ وَتَسَتُّرِيْ ... أَدْنَىٰ لِوَصْلِكِ مِنْ دُنُوٍّ فَاضِحِ

وقولِهِ [في «ديوانه» ٩٩ مِنَ ٱلمتقاربِ]:

سَأَهْجُرُ إِلْفِيْ وَهِجْرَانُهُ ... إِذَا مَا ٱلْتَقَيْنَا صُدُوْدُ ٱلْخُدُوْدِ
كِلاَنَا مُحِبٌّ وَلَـٰكِنَّنَا ... نُدَافِعُ عَنْ حُبِّنَا بِٱلصُّدُوْدِ

وقولِهِ [في «ديوانه» ١٩٥ مِنَ الطَّويلِ]:

كَذَبْتُ عَلَىٰ نَفْسِيْ فَحَدَّثْتُ أَنَّنِيْ ... سَلَوْتُ لِكَيْلاَ يُنْكِرُوْا حِيْنَ أَصْدُقُ
وَمَا عَنْ قِلَىً مِنِّيْ وَلاَ عَنْ مَلاَلَةٍ ... وَلَـٰكِنَّنِيْ أُبْقِيْ عَلَيْكِ وَأُشْفِقُ
عَطَفْتُ عَلَىٰ أَسْرَارِكُمْ فَكَسَوْتُهَا ... قَمِيْصاً مِنَ ٱلْكِتْمَانِ لاَ يَتَخَرَّقُ

كتمان الحب مخافة الواشين

وهوَ معنىً متداولٌ بينَ الشُّعراءِ، منهُ قولُ جميلٍ [في «ديوانه» ٩٠ مِنَ الطَّويلِ]:

وَطَرْفَكَ إِمَّا جِئْتَنَا فَٱحْبِسَنَّهُ ... فَزَيْغُ ٱلْهَوَىٰ بَادٍ لِمَنْ يَتَبَصَّرُ
وَأَعْرِضْ إِذَا لاَقَيْتَ عَيْناً نَخَافُهَا ... وَظَاهِرْ بِبُغْضٍ إِنَّ ذَلِكَ أَسْتَرُ

فَقُلْتُ لَهَا: يَا بُثْنُ أَوْصَيْتِ حَافِظاً ... وَكُـلُّ ٱمْـرِىءٍ لَـمْ يَـرْعَـهُ اللهُ مُعْـوِرُ
سَأَمْنَحُ طَرْفِيْ حِيْنَ أَلْقَاكِ غَيْرَكُمْ ... لِكَيْمَا يَرَوْا أَنَّ ٱلْهَوَىٰ حَيْثُ أَنْظُرُ

وقالَ [في « ديوانِهِ » ٦٤ مِنَ الطَّويلِ] :

وَيَحْسَبُ نِسْوَانٌ مِنَ ٱلْحَيِّ أَنَّنِيْ ... إِذَا جِئْـتُ إِيَّـاهُـنَّ كُنْـتُ أُرِيْـدُ
فَأَقْسِمُ طَرْفِيْ بَيْنَهُنَّ فَيَسْتَوِيْ ... وَفِيْ ٱلصَّدْرِ بَوْنٌ بَيْنَهُنَّ بَعِيْدُ

وقالَ مجنونُ عامرٍ [مِنَ الوافرِ] :

كِـلاَنَـا مُظْهِـرٌ لِلنَّـاسِ بُغْضـاً ... وَكُـلٌّ عِنْـدَ صَـاحِبِـهِ مَكِيْـنُ
وَأَسْرَارُ ٱلْمَلاَحِظِ لَيْسَ تَخْفَىٰ ... وَقَدْ تُغْرِيْ بِذِيْ ٱللَّحْظِ ٱلْعُيُوْنُ

وقالَ هوَ ، أو غيرُهُ [في « ديوانِ المجنونِ » ٥٥ مِنَ الطَّويلِ] :

أَلاَ أَيُّهَا ٱلْبَيْتُ ٱلَّذِيْ لاَ أَزُوْرُهُ ... وَإِنْ حَلَّـهُ شَخْـصٌ إِلَـيَّ حَبِيْـبُ
هَجَرْتُكَ إِشْفَاقاً وَزُرْتُكَ خَائِفاً ... وَفِيْكَ عَلَيَّ ٱلدَّهْرَ مِنْكَ رَقِيْبُ

وقالَ [في « ديوانِهِ » ٥٩ مِنَ الطَّويلِ] :

وَأَحْبِسُ عَنْكِ ٱلنَّفْسَ وَٱلنَّفْسُ صَبَّةٌ ... بِذِكْرَاكِ وَٱلْمَمْشَىٰ إِلَيْكِ قَرِيْبُ
مَخَافَةَ أَنْ يَسْعَىٰ ٱلْوُشَاةُ بِظِنَّةٍ ... وَأَحْرُسُكُمْ أَنْ يَسْتَرِيْبَ مُرِيْبُ

وقالَ بعضُهم في قصَّةٍ ذكرَها أبو العبَّاسِ المبرِّدُ [مِنَ البسيطِ] :

غُضِّيْ جُفُوْنَكِ عَنِّيْ وَٱنْظُرِيْ أَمَمَا ... فَـإِنَّمَـا ٱفْتُضِـحَ ٱلْعُشَّـاقُ بِـٱلْمُقَـلِ

وقالَ ٱبنُ مُطيرٍ [في « ديوانِهِ » ٤٢ مِنَ الطَّويلِ] :

سَلاَمٌ عَلَىٰ ٱلْبَيْتِ ٱلَّذِي لاَ نَزُوْرُهُ ... مِنَ ٱلْخَوْفِ إِلاَّ بِٱلْعُيُوْنِ ٱللَّوَامِحِ
وَلَـوْلاَ حِـذَارُ ٱلْكَـاشِحِيْـنَ لَقَـادَنِـيْ ... إِلَيْهِ ٱلْهَوَىٰ قَوْدَ ٱلْجَنِيْبِ ٱلْمُسَامِحِ(١)

---

(١) الكاشحُ : العدوُّ المبغضُ . الجنيبُ : الطائعُ المنقادُ .

وقالَ [في « ديوانهِ » ٥١ مِنَ الطَّويلِ] :

أَتَهْجُرُ بَيْتاً بِالْحِجَازِ تَكَنَّفَتْ جَوَانِبَهُ ٱلأَعْدَاءُ أَمْ أَنْتَ زَائِرُهْ(١)
فَإِنْ آتِهِ لَمْ أَنْجُ إِلاَّ بِظِنَّةٍ وَإِنْ يَأْتِهِ غَيْرِيْ تُنَطْ بِيْ جَرَائِرُهْ

وقالَ الأَبيوَرْدِيُّ [في « ديوانهِ » ٢/ ١٩٣ مِنَ الطَّويلِ] :

وَهَيْفَاءَ لاَ أُصْغِيْ إِلَىٰ مَنْ يَلُوْمُنِي إِلَيْهَا وَيُغْرِيْنِيْ بِهَا أَنْ أَعِيْبَهَا
أَمِيْلُ بِإِحْدَىٰ مُقْلَتَيَّ إِذَا بَدَتْ إِلَيْهَا وَبِالأُخْرَىٰ أُرَاعِي رَقِيْبَهَا
وَقَدْ غَفَلَ ٱلْوَاشِيْ وَلَمْ يَدْرِ أَنَّنِيْ أَخَذْتُ لِعَيْنِيْ مِنْ سُلَيْمَىٰ نَصِيْبَهَا

وممَّا يُعْزىٰ إِلىٰ سيفِ الدَّولةِ قولُهُ [مِنَ الخفيفِ] :

رَاقَبَتْنِيْ فِيْكَ ٱلْعُيُوْنُ فَأَشْفَقْـ ـتُ وَلَمْ أَخلُ قَطُّ مِنْ إِشْفَاقِ
وَرَأَيْتُ ٱلْعَدُوَّ يَحْسُدُنِيْ فِيْـ ـكِ مُجِدّاً يَا أَنْفَسَ ٱلأَعْلاَقِ
فَتَمَنَّيْتُ أَنْ أَكُوْنَ بَعِيْداً وَالَّذي بَيْنَنَا مِنَ ٱلْوِدِّ بَاقِيْ
رُبَّ هَجْرٍ يَكُونُ مِنْ خَوْفِ هَجْرٍ وَفِرَاقٍ يَكُوْنُ خَوْفَ فِرَاقِ

قالَ ٱبنُ خَلِّكانَ [في « وفياتِ الأعيانِ » ٣/ ٤٠٢] : والأَبياتُ بعينِها في ديوانِ عبدِ ٱلمحسنِ الصّوريِّ .

نفي الشيء بإيجابه

فإنْ قيلَ : إنَّ جحودَ العبَّاسِ لا لإيهامِ الرقيبِ التنصُّلَ مِنَ ٱلهوىٰ ، ولٰكِنْ لإحالةِ الشقاءِ علىٰ ما سواهُ ، فبينَ كلامهِ وبينَ ما سردتُهُ مِنَ ٱلشواهدِ بونٌ كبيرٌ . . قلتُ : لا يقولُ ذلكَ إلاَّ مَنْ لم يعرفْ أنَّهُ قريبٌ مِنْ نفيِ الشيءِ بإيجابهِ ، وإلاَّ . . فجُحودُ المُسَبَّبِ جحودٌ للسَّبَبِ ، فلا تباينَ .

(١) تكنَّفت : أحاطت .

ووقفَ بعضُهم علىٰ أعرابيٍّ ينشدُ [مِنْ مجزوءِ ٱلوافرِ] : سؤال عن الأحباب

أَبِــنْ لِــيْ أَيُّهَــا ٱلطَّلَــلُ عَــنِ ٱلأَحْبَــابِ مَــا فَعَلُــوْا
تُــرَىٰ سَــارُوْا ؟ تُــرَىٰ نَــزَلُــوا ؟ بِــأَرْضِ ٱلشَّــامِ أَمْ رَحَلُــوْا ؟

فقالَ لهُ : بلْ ماتُوا ، فأخذَ الأعرابيُّ يردِّدُ قولَهُ : بلْ ماتُوا حتَّىٰ فاضَ .

الضيف مبلغ الرسائل وموت العشاق

ومِنْ أغربِ ما في ٱلموضوعِ ، ما أخرجهُ الحافظُ مغلطايُ في « الواضحِ »[1] عنِ الأصمعيِّ وقد قالَ لهُ الرشيدُ : حدِّثني بأعجبِ ما رأيتَ ، قالَ أخبرني السُّميدَعُ بنُ عمرٍو الكلابيُّ ـ وقد جاوزَ المئةَ ـ قالَ : كنتُ كثيرَ الأسفارِ فمررتُ في قصدي إلىٰ (اليمامةِ) ، وقد قَرُبَ اللَّيلُ ببيتٍ ، فأردتُ المبيتَ عندهُ ، فقالتِ ٱمْرأَةٌ عندهُ : أضيفٌ أنتَ ؟ قلتُ : نعم ، فقالتْ : علىٰ الرَّحبِ والسَّعةِ ، وعيَّنَتْ لي مكاناً أجلسُ فيهِ ريثَمَا يأتيْ صاحبُ المنزلِ ، وحملتْ لي معَ جاريَتها تمراً وثريداً ، وقالتْ : تعلَّل بهـٰذا ، فقلتُ : في دونِهِ الكفايةُ ، فأكلتُ ، وتوسَّدتُ ذراعَ ناقتي ، وأخذتْني عيني ، فلم أُفقْ إلاَّ وشابٌّ علىٰ أحسنِ ما يكونُ ، معهُ عبيدٌ أقبلوا بحطبٍ ونارٍ ، فأضرموها ، وجاؤُوا بكبشٍ فذُبحَ وكُشطَ وطبَخوا وثَرَدوا ، وقُدِّمَ إلينا . . فأكلنا ، ولمَّا أشرفَ الصبحُ . . فعلَ كما فعلَ في الليلِ ، وقالَ : أَقِمْ عندنا اليومَ ، فقلتُ : سمعاً وطاعةً ، وركبَ هوَ لبعضِ شأنهِ وبقيتُ ، فدعَتني ربَّةُ المنزلِ وأرختْ جانبَ السترِ ، وقالَتْ : أينَ تريدُ ؟ قلتُ : (اليمامةَ) ، قالتْ : فٱحفظْ عنِّي هـٰذهِ الرسالةَ

---

(١) وتمام اسمه : « الواضحُ المُبينُ فيمن استشَهدَ من المحِبِّين » ومغلطاي هو ابن قَلِيج المصري الحنفي الحافظ المؤرخ ت سنة : (٧٦٢ هـ) .

وأَعِـدْ عليَّ جـوابَهـا ، قلـتُ : ومـا هـيَ ؟ قـالَـتْ : إذا جئتَ (الحضرمَةَ). . فتغنَّ بهـٰذهِ ٱلأَبياتِ [مِنَ الخفيفِ] :

أَعَلَىٰ ٱلْعَهْدِ مَالِكُ بْنُ سِنَانٍ ... أَمْ سَقَاهُ أَفَاوِقَ ٱلْغَدْرِ سَاقِي[1]
إِنْ يَكُنْ خَانَ أَوْ تَسَلَّىٰ فَإِنِّي ... لَعَلَىٰ ٱلْعَهْدِ لَمْ أَخُنْ مِيثَاقِي
مَا أَلَمَّ ٱلرُّقَادُ مُذْ بِنْتَ إِلاَّ ... بِجُفُوْنٍ قَرِيحَةِ ٱلآمَاقِ
فَعَلَيْكَ ٱلسَّلاَمُ مَا ٱبْتَسَمَ ٱلنَّوْ ... رُ وَمَا أَبَّ فِي ٱلثَّرَىٰ عِرْقُ سَاقِ[2]

فلمَّا خرجتُ في اليومِ الثاني. . سارَ في توديعي صاحبُ المنزلِ ، وقالَ : يا ٱبنَ عمّي ، هل أَنتَ مبلِّغٌ رسالتي وعائِدٌ بجوابِها إذا ٱنصرَفْتَ ؟ فقلتُ : نعم ، ونعمَتْ عينٍ ، قالَ : قِفْ بقَرَّانِ بني سُحيمٍ ، ثُمَّ تغنَّ بقولي [مِنَ الطَّويلِ] :

أَيَا سَرْحَتَيْ قَرَّانَ بِٱللهِ خَبِّرَا ... عَنِ ٱلنَّاقَةِ ٱلْعَيْسَاءِ كَيْفَ نِزَاعُهَا ؟
فَلَوْ أَنَّ فِيْهَا مَطْمَعاً لِمُتَيَّمٍ ... نَأَتْ دَارُهَا عَنْهُ وَخِيْفَ ٱمْتِنَاعُهَا
لَهَانَ عَلَيْهِ جَوْبُ كُلِّ تَنُوفَةٍ ... يُخَافُ عَلَيْهَا جَوْرُهَا وَضَيَاعُهَا[3]
تَغَرَّبْتُ عَنْ نَفْسِيْ وَأَيْقَنْتُ أَنَّهَا ... تُرِيْدُ وَدَاعاً يَوْمَ جَدَّ وَدَاعُهَا

فلمَّا وصلتُ (اليمامةَ). . وقفتُ حيثُ وصفَ ، ورفعتُ عَقِيْرَتِي[4] بأبياتِه. . فما كانَ بأَسرعَ مِنْ جاريةٍ حاسرةٍ ، كأَنَّها مُهرةٌ عربيَّةٌ تقولُ [مِنَ الطَّويلِ] :

تَحَمَّلْ رَعَاكَ اللهُ مِنِّيْ تَحِيَّةً ... إِلَيْهِ جَدِيْدٌ كُلَّ يومٍ سَمَاعُهَا

---

(١) الأَفاوِقُ : ما ٱجتمعَ من السحابِ من ماءٍ ، فهوَ يمطِرُ ساعةً بعدَ ساعةٍ .
(٢) الأَبُّ : ما أنبتتِ الأرضُ .
(٣) التنوفَةُ : الفلاة التي لا ماءَ فيها ولا أَنيسَ .
(٤) العقيرَةُ : صوتُ المغنّي والباكي والقارىء .

وَخَبِّرْ عَنِ ٱلْعَيْسَاءِ أَنْ قَدْ تَوَخَّمَتْ ... عَلَيْهَا مَرَاعِيهَا وَطَالَ نِزَاعُهَا
لَقَدْ قَطَّعَ ٱلْبَيْنُ ٱلْمُشَتِّتُ أُلْفَةً ... عَزِيزٌ عَلَيْنَا أَنْ يُحَمَّ ٱنْقِطَاعُهَا(١)

ثُمَّ شَهَقَت شهقةً ، كانتْ فيها نفسُها ، ولمَّا جئتُ (الحضرمةَ) . . تغنيتُ بأَبياتِ المرأَةِ ، فإذا فتىً كنصلِ السيفِ يجاوِبني بقولهِ [مِنَ الخفيفِ] :

لَمْ يَحُلْ عَنْ وَفَائِهِ ٱبْنُ سِنَانِ ... لاَ وَلاَ زَالَ وَجْدُهُ بِٱلْفِرَاقِ
إِنَّ بَيْنَ ٱلْحَشَا لَهِيبَ ٱشْتِيَاقِ ... لَيْسَ يُطْفِيْ جَوَاهُ إِلاَّ ٱلتَّلاقِيْ
إِنَّمَا أَبْقَتِ ٱلْهُمُومُ خَيَالاً ... بَالِيَاً مُمْسِكَاً بِبَاقِيْ رِمَاقِيْ

ثُمَّ تنفَّسَ نفَساً عالياً ، ٱقتضبَ حيازيمَهُ(٢) ، فكانَ آخرَ أَنفاسِهِ ، فلمَّا رجعتُ إِلىٰ الحيِّ . . أَخبرتُ المرأَةَ بجوابِ صاحبِها ، فلم أَستَتِمَّ الكلامَ إِلاَّ وهيَ هامدةٌ ، فٱرتفعتِ ٱلأَصواتُ ، وأَقبلَ صاحبُها ٱلشَّابُّ ، فقالَ لي : ما شأْنُها ؟ فبقرتُ لهُ الحديثَ علىٰ وجههِ ، ثُمَّ أَنشدتهُ جوابَ أَبياتهِ ، فقالَ : هٰأَنذا ميْتٌ ، ثُمَّ ٱضْطَجَعَ فكأَنَّمَا كانتْ نفسهُ في يدهِ .

ويُشْبِهُ هٰذهِ القصَّةَ ، ما ذكرهُ العتبيُّ قالَ : تذاكرنا الهوىٰ يوماً ، وعندنا شيخٌ ساكتٌ ، فقلنا لهُ : أَلا تحدِّثُنا بما عندكَ في هٰذا ، قالَ : جلَسنا يوماً للشربِ ، ومعنا قينةٌ ، فغنَّتْ [مِنَ مجزوءِ ٱلمتقاربِ] :

يجود بنفسه وكأنها في يده

عَلاَمَةُ ذُلِّ ٱلْهَوَىٰ ... عَلَىٰ ٱلْعَاشِقِيْنَ ٱلْبُكَا
وَلاَ سِيَّمَا عَاشِقٌ ... ذَا لَمْ يَجِدْ مُشْتَكَىٰ

---

(١) حُمَّ الأَمرُ : قُضِيَ .
(٢) الحيزومُ : ما ٱكتنفَ الحلقومَ من جانبِ الصدرِ .

فقالَ شابٌّ في المجلسِ : أَحسنتِ واللهِ ، أَفتأْذنينَ لي أَنْ أَموتَ ؟ فقالَتْ : مُتْ راشداً إِنْ كنتَ صادقاً ، وكانَ يهوىٰ ٱلقَينةَ ، فٱضطَجَعَ فإِذا هوَ ميْتٌ ، فتنغَّصَ المجلسُ علينا ، ثُمَّ دخلتُ إِلىٰ أَهلي ، فأَخبرتُهم بٱلقصَّةِ ، وكانَتْ لنا ٱبنَةٌ تهوىٰ ذلكَ الشابَّ ـ ونحنُ لا ندري ـ فلمَّا سَمِعَتِ ٱلخَبَرَ . . قامَتْ إِلىٰ خلوةٍ لَها ، وأَبطَأَتْ عنَّا ، فإِذا هيَ مَيْتَةٌ علىٰ الهيئةِ الَّتي ماتَ عليها الشابُّ ، ولمَّا خرجنا بجنازتِها وخرجَ أَهلُ الشابِّ بجنازتهِ . . إِذا جنازةٌ ثالثةٌ للقينَةِ الَّتي كانت تغنِّينا ، وذلكَ أَنَّها كانتْ تهوىٰ ٱبنتَنا ، فلمَّا ٱتَّصلَ بها نعيُها . . سقطتْ مَيْتَةً .

هٰذا والشوطُ بَطينٌ ، والبابُ واسعٌ ، وقد أُفردَ بٱلمؤَلَّفاتِ ، ونحنُ ذاكرونَ في هٰذهِ المجالسِ إِنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ ما تيسَّرَ بحسبِ المناسَباتِ .

المتنبي يتكلم في الفراق

وقد قالَ الناظمُ فيما يشبهُ البيتَ الذي نحنُ بطريقِهِ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٢٦٤ـ٢٦٥ مِنَ ٱلمنسرحِ] :

لاَ تَحسَبُوا رَبْعَكُمْ وَلاَ طَلَلَهْ ... أَوَّلَ حَيٍّ فِرَاقُكُمْ قَتَلَهْ

قَدْ تَلِفَتْ قَبْلَهُ ٱلنُّفُوسُ بِكُمْ ... وَأَكْثَرَتْ فِيْ هَوَاكُمُ ٱلعَذَلَهْ

كل البلاء من الفراق

فالفراقُ ـ كما قلنا ـ مرُّ المذاقِ ، لاَ كَبِدَ إِلاَّ بهِ تَفتَّت ، ولا عظيمةَ إِلاَّ منهُ تأَتَّتْ ، ويا لهُ ، كمْ في المحبينَ مِنْ حيفٍ ، وجورٍ أَشوىٰ من وقعِ السيفِ ، لا يُحصىٰ مَنِ ٱشْتَملَ عليهِ الترابُ مِنْ قتلاهُ ، ولا يخلصُ مَنِ ٱعتصمَ بالأَجلِ من سوءِ بلاهُ . [مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا كُلُّ نِيْرَانِ ٱلْجَوَىٰ تُحْرِقُ ٱلْحَشَا ... وَلاَ كُلُّ أَدْوَاءِ ٱلصَّبَابَةِ يَقْتُلُ

وأنفعُ ما يَبُلُّ بهِ المرءُ غليلَ الجوىٰ ، ويتعلَّلُ بهِ المنكوبُ إذا أَضرَّ بهِ ٱلنَّوىٰ . . تحقُّقُ أَنَّ الحياةَ ليسَ لَها بقَاءٌ ، وأَنَّ ٱلافترِاقَ ليسَ إلاَّ إِلىٰ ٱلْمُلْتَقَىٰ ، وقد قالَ الأوَّلُ [مِنَ الطَّويلِ] : وصفة لشفاء العشاق

وَهَوَّنَ بَعْضَ ٱلْوَجْدِ عَنِّيَ أَنَّنِيْ أُجَاوِرُهُ فِيْ دَارِهِ ٱلْيَوْمَ أَوْ غَدَا

وقالَ ٱبنُ زريقٍ [مِنَ ٱلبسيطِ] :

وَإِنْ تَنَـلْ أَحَـداً مِنَّـا مَنِيَّتُـهُ لاَ بُدَّ فِيْ غَدِهِ ٱلثَّانِيْ سَيَتْبَعُهُ

وقلتُ [كما في « ديوانِ ٱلمؤلِّفِ » ق ٦٩ـ٧٠ مِنَ ٱلوافرِ] :

وَلَـوْلاَ أَنَّ هَـٰذَا ٱلْيَـوْمَ صَعْـبٌ تَحُفُّ بِهِ ٱلْمَخَاوِفُ وَٱلصِّعَابُ
لَكَـانَ أَجَـلَّ مَـرْغُـوْبٍ لَـدَيْنَـا فَـوَاشَـوْقَـاهُ لِـلأَحْبَـابِ غَـابُـوْا

وقلتُ [كما في « ديوان المؤلفِ » ق ٣٢ من ٱلوافرِ] :

وَلَـوْلاَ نَـوْعُ سَلْـوَىٰ بِـٱلتَّمَنِّـيْ لأَهْلَكَ كُلَّ مَنْ عَشِقَ ٱلنُّزُوْحُ
وَلَـٰكِنْ فِيْ ٱلتَّعَلُّلِ بَعْضُ طِبٍّ وَإِنْ زَمَّتْ عَلَىٰ ٱلْخَلَلِ ٱلْقُرُوْحُ

وقلتُ [كما في « ديوان المؤلفِ » ق ٣٢ من الطَّويلِ] :

إِذَا كُنْتُ أَلْقَىٰ مَنْ أُحِبُّ هُنَالِكَا فَلَيْتُ أَنْ لاَ أَبْكِيَ ٱلدَّهْرَ هَالِكَا
وَلَـٰكِنَّنِيْ لاَ عِلْمَ لِيْ بِٱلَّذِيْ لَهُ ٱلْـ ـمَآبُ مِنَ ٱلدَّارَيْنِ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَا
سَلَكْنَـا وَلَـمْ نَـأْخُـذْ دَلِيْـلاً مُضِيْعَـةً فَكَيْفَ ٱلنَّجَا وَٱللَّيْلُ قَدْ كَانَ حَالِكَا ؟
لَقَدْ فَازَ مَنْ كَانَتْ لَهُ مِنْ يَقِيْنِهِ مَطَايَا تَعَوَّدْنَ ٱلسُّرَىٰ وَٱلْمَسَالِكَا
تَلَوَّتْ عَلَيْنَا ٱلْحَالُ وَٱعْصَوْصَبَ ٱلْبَلاَ فَحُـلَّ بِفَضْـلٍ مِنْـكَ عَنَّـا ٱلشَّبَـائِكَـا
وَفَـرِّجْ عَلَيْنَـا وَٱكْفِنَـا كُـلَّ مِحْنَـةٍ وَهَبْنَا ٱلرِّضَىٰ وَٱلْطُفْ بِنَا فِيْ قَضَائِكَا

ويُروىٰ : أَنَّ يوسفَ عليهِ السلامُ ، عاتَبَ أَباهُ علىٰ فَرْطِ ما ٱنقادَ

لهُ منَ الأحزانِ ، وقالَ لهُ : أَما علمتَ أَنَّ الموقفَ يجمعُنا ؟ قالَ لهُ : بلىٰ ، ولـٰكنْ خَشيتُ أن تموتَ علىٰ غيرِ دينِ آبائِكَ ، فيُذهَبَ بكَ إلىٰ غيرِ طريقِهم . نسأَلُ اللهَ الثباتَ عندَ نزولِ المماتِ .

العاشق المعتكف على القبر

ومما يتَّصلُ بهـٰذا ٱلمعنىٰ وسابقِهِ . . ما رُويَ [كما في « مصارعِ ٱلعشّاقِ » ١/٢٦ بتصرُّفٍ] عنِ ٱبنِ دريدٍ عنْ بعضِهم ـ [عبيدِ النِّعاليِّ غلامِ أَبي الهُذيلِ] ـ قالَ : ٱشتدَّت بيَ الهاجرةُ ، فملتُ إلىٰ ظِلٍّ أتفيَّأُ بهِ ، فسمعتُ صوتاً أَطربَني ، فطرقتُ البابَ أَستسقِي ، فأُذِنَ لي ، فإذا شابٌ علىٰ أَحسنِ صورةٍ ، ما خلا أَنَّ العلَّةَ لم تبقِ إلا رسمَهُ ، فأَمر جاريتَه فسقَتْني ، ثُمَّ أَدخلني إلىٰ منزلٍ مؤثَّثٍ بأَفخرِ الرياشِ ، وأَقبلَ يضـاحِكُني حَتَّىٰ حضـرَ الطعـامُ ، فـأَكـلَ معي متغصِّصـاً مُختنِقـاً بالعَبَراتِ ، ثُمَّ قامَ بي إلىٰ بيتٍ لطيفٍ فيهِ قبرٌ ، فشربَ وسقاني ثُمَّ أَنشدَ [مِنَ ٱلكاملِ] :

أَطَـأُ ٱلتُّـرَابَ وَأَنْـتِ رَهْـنُ حُفَيْـرَةٍ هَالَتْ يَدَايَ عَلَىٰ صَدَاكِ تُرَابَهَا[1] ؟!
إِنِّيْ لأَغْدَرُ مَنْ مَشَىٰ إِنْ لَمْ أَطَأْ بِجُفُوْنِ عَيْنِيْ مَا حَيِيْتُ جِنَابَهَا

ثُمَّ أَكبَّ علىٰ ٱلقبرِ مغشَّياً عليهِ ، فجاءَتِ ٱلجاريَةُ تَرشُّ عليهِ الماءَ . . حَتَّىٰ أَفاقَ ، فشربَ وسقَانِيْ ، وأَنشدَ [مِنَ ٱلكاملِ] :

ٱلْيَوْمَ ثَابَ لِيَ ٱلسُّرُوْرُ لأَنَّنِيْ أَيْقَنْتُ أَنِّيْ عَاجِلاً بِكِ لاَحِقُ
فَغَداً أُقَاسِمُكِ ٱلبِلاَ وَيَسُوقُنِيْ طَوْعَاً إِلَيْكِ مِنَ ٱلْمَنِيَّةِ سَائِقُ

ثُمَّ قالَ لي : قد وجبَ عليكَ حقِّي ، فأَحضُرْ غداً جنازَتي ،

---

(١) هالَ الترابُ : صبَّهُ . صداكِ : جثّتكِ .

فدعوتُ لهُ بطولِ البقاءِ ، فقالَ : عققتَني إنْ لم تقلْ لي [مِنَ ٱلكاملِ] :

جَاوِرْ خَلِيْلَكَ مُسْعَداً فِيْ رَمْسِهِ   كَيْمَا يَنالَكَ فِيْ ٱلْبِلَىٰ مَا نَالَهُ

فٱنصرفتُ عنهُ ولم أعرفِ ٱلنَّومَ حَتَّىٰ أَصبحتُ ، فأَتيتُ ذلكَ المنزلَ ، فإذا هُوَ مَيْتٌ ، فشهدتُ دفنَهُ بجانبِ ذلِكَ القبرِ ، ثُمَّ سَأَلتُ عن خبرِهِ ؟ فقالوا : إنَّه كانَ يهوَىٰ ٱبنةَ عمِّهِ ، فدفعهُ أَبوها ، ولمَّا ماتَ . . تزوَّجها ولم تقم معهُ إلاَّ ثلاثَ ليالٍ ، ثُمَّ حُمَّتْ وماتَتْ ، وأَقامَ بعدَها كما رأَيتَ ، إلىٰ أَنْ ماتَ بعدَها بثلاثةَ عشرَ يوماً .

ثُمَّ ذكرتُ أَنَّ عُروةَ بنَ حزَامٍ يقولُ في نونيَّتِهِ المشهورةِ [في « ديوانهِ » ٤١ مِنَ الطَّويلِ] :

وَإِنِّيْ لأَهْوَىٰ ٱلْحَشْرَ إِذْ قِيْلَ إِنَّنِيْ   وَعَفْـرَاءَ يَـومَ ٱلْحَشْـرِ مُلْتَقِيَـانِ

ويأْتي ما لهُ ٱتصالٌ بهـٰذا أَوائِلَ ٱلمجلسِ الثالثَ عشرَ .

* * *

[قالَ أَبو الطَّيبِ المتنبي في « العُكبَريِّ » ٣/ ١٦٣ مِنَ البسيطِ] :

بِمَا بِجَفْنَيْكِ مِنْ سِحْرٍ صِلِيْ دَنِفاً   يَهْوَىٰ ٱلْحَيَاةَ، وَأَمَّا إِنْ صَدَدْتِ فَلاَ

الحيـاة مـن أجـل الأحباب

يُقسمُ عليها بسِحرِ أَجفانِها . . إلاَّ ما وصلَتْ مريضاً قد أُدنفَ ، يهوىٰ الحياةَ إِن وصَلَتهُ ، وأَمَّا إِنْ صَدَّتْ عنهُ . . فلا يهوىٰ الحياةَ ، بلْ يُفضِّلُ عليها المماتَ ، وهُوَ قريبٌ مِنْ قولِهِ [في « العُكبَريّ » ٣/ ٣٤٦ مِنَ ٱلخفيفِ] :

كُلُّ عَيْشٍ مَا لَـمْ تُطِبْهُ حِمَـامٌ   كُلُّ شَمْسٍ مَا لَمْ تَكُنْهَا ظَلاَمُ

والأَصلُ قولُ الحُطَيئةِ في مديحِ علقمةَ بنِ عُلاثَةَ [مِنَ الطَّويلِ] :

فَإِنْ تَحْيَ لاَ أَمْلَلْ حَيَاتِيْ وَإِنْ تَمُتْ   فَمَا فِيْ حَيَاةٍ بَعْدَ مَوْتِكَ طَائِلُ[1]

---

(١) وكانَ مِن قصَّةِ البيتِ الذي نحنُ بسبيلهِ : أَنَّ سيِّدَنا عمرَ بنَ الخطَّابِ ـ رضيَ اللهُ عنهُ ـ لمَّا أَطلقَ الحطيئةَ مِن حبسهِ . . قالَ لهُ : يا أَميرَ المؤمنينَ . . اكتبْ لي كتاباً إلىٰ علقمةَ بنِ علاثةَ لأَقصدهُ بهِ ؛ فقدْ منعتَني التكسُّبَ بِشِعري ، فقالَ : لا أَفعلُ . فقيلَ لهُ : يا أَميرَ المؤمنينَ . . وما عليكَ مِن ذلكَ ؟ إِنَّ علقمةَ ليسَ بعاملِكَ فتخشىٰ أَن تأثَمَ ، وإنَّما هوَ رجلٌ مِنَ المسلمينَ تشفعُ لهُ إليهِ ، فكتبَ لهُ بما أَرادَ ، فمضىٰ الحطيئةُ بالكتابِ ، فصادفَ علقمةَ قد ماتَ ، والناسُ منصرفونَ عَن قبرِهِ ، فوقفَ عليهِ ، ثمَّ أَنشدَ قولَهُ :

لَعَمْرِي لَنِعْمَ ٱلْمَرْءُ مِنْ آلِ جَعْفَرٍ   بِحَوْرَانَ أَمْسَىٰ أَعْقَلَتْهُ ٱلْحَبَائِلُ
فَإِنْ تَحْيَ لاَ أَمْلَلْ حَيَاتِيْ وَإِنْ تَمُتْ   فَمَا فِيْ حَيَاةٍ بَعْدَ مَوْتِكَ طَائِلُ
وَمَـا كَـانَ بَيْنِي لَـوْ لَقِيتُـكَ سَـالِمـاً   وَبَيْـنَ ٱلْغِنَـىٰ إِلاَّ لَيَـالٍ قَـلاَئِـلُ

فقالَ لهُ ابنهُ : يا حطيئةُ . . كم ظننتَ أَنَّ علقمةَ يعطيكَ ؟ قالَ : مئةَ ناقةٍ ، =

وقالَ دِعبِلٌ [في « ديوانهِ » ٢١٧ مِنَ السَّريعِ] :

مَـا أَطْيَـبَ ٱلْعَيْـشَ فَـأَمَّـا عَلَـىٰ   أَنْ لاَ أَرَىٰ وَجْهَـكِ يَـوْماً فَـلاَ

وقالَ بعضُ الأَقدمينَ [معقل بن عيسى كما في «الأغاني» ١٠/ ١٠٤ مِنَ الطَّويلِ] :

لَعَمْرِيْ لَئِـنْ قَـرَّتْ بِقُـرْبِـكِ أَعْيُـنٌ   لَقَدْ سَخِنَتْ بِالْبُعْدِ عَنْكِ عُيُوْنُ(١)

فَسِرْ أَوْ أَقِمْ وَقْفٌ عَلَيْكَ مَوَدَّتِيْ   مَكَانُكَ مِنْ قَلْبِيْ عَلَيْكَ مَصُوْنُ

فَمَا أَوحَشَ ٱلدُّنْيَا إِذَا كُنْتَ نَازِحاً   وَمَا أَحْسَنَ ٱلدُّنْيَا بِحَيْثُ تَكُوْنُ

ولم ينسَ حظَّهُ ٱلقطبُ الحدَّادُ مِنْ هـٰذا المعنىٰ ، بل أكثرَ منهُ في « ديوانهِ » ، منه قولهُ [في « ديوانه » ٤٧٦ مِنَ الطَّويلِ] :

وأَحْسَنُ عَيْشٍ لَيْسَ فِيْهِ وُجُوْدُكُمْ   وَإِنْ كَانَ مُلْكَ ٱلأَرْضِ فَهُوَ ذَمِيْمُ

وقولُهُ [في « ديوانه » ٥٢٨ مِنَ الكاملِ] :

وأَرَىٰ ٱلحَيَاةَ إِذَا خَلَتْ عَنْ وَصْلِكُمْ   أَنَّ ٱلْمَمَـاتَ أَسَـرُّ مِنْهَـا وَٱلْفَنَـا

وقالَ إبراهيمُ بنُ العبَّاسِ الصوليُّ ـ في صَبيٍّ ماتَ عليهِ ، وبعضُهم يرويها لأحدِ الصحابةِ ، وأنَّهُ قالها بعقبِ موتهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ، والأوَّلُ أثبتُ ـ : [في « وفيات الأعيان » ٦/ ٣٣٩ مِنْ مجزوءِ ٱلكاملِ] : من شاء بعدك فليمت

كُنْـتَ ٱلسَّـوَادَ لِنَـاظِـرِيْ   فَعَمِـيْ عَلَيْـكَ ٱلنَّـاظِـرُ

مَـنْ شَـاءَ بَعْـدَكَ فَلْيَمُـتْ   فَعَلَيْـكَ كُنْـتُ أُحَـاذِرُ

= قالَ : فلكَ مئةُ ناقةٍ ، يتبعُها مئةٌ مِن أولادِها . انظر « الأغاني » (١٦/ ٣١٨) .

(١) سُخونةُ العينِ : بكاؤها . قرَّت العين : هدأت واستقرت .

ووجهُ ٱتِّصالِ هـٰذا بذاكَ . . بغضُ الحياةِ في بيت الناظمِ ، وعدمُ المبالاةِ بالمصائِبِ في هـٰذا .

حكمة من أعرابية

ولقد ماتَ ٱبنٌ لأَعرابيَّةٍ فجزعتْ عليهِ ، ثُمَّ قالتْ : لقد سلأَّني عنهُ أَنِّي أَمِنتُ مَسَّ ٱلمَصائِبِ من بعدِهِ .

ذهب الغالي . . لا أسف على الرخيص

وقالَ أَبو نُوَاسٍ يرثي ٱلأَمينَ [في « وفياتِ الأعيانِ » ٦/٣٣٩ مِنَ الطَّويلِ] :

وَكُنْتُ عَلَيْهِ أَحْذَرُ ٱلْمَوْتَ وَحْدَهُ ... فَلَمْ يَبْقَ لِيْ شَيْءٌ عَلَيْهِ أُحَاذِرُ

وقالَ [أَبو موسىٰ] التيميُّ في يزيدَ بنِ مَزْيَدٍ الشيبانيِّ [في « الأغاني » ٢٠/٥٧ مِنَ الوافرِ] :

فَـإِنْ يَهْلِـكْ يَـزِيْـدُ فَكُـلُّ حَـيٍّ ... فَـرِيْـسٌ لِلْمَنِيَّـةِ أَوْ طَـرِيْـدُ

لَقَــدْ عَـزَّىٰ رَبِيْعَـةَ أَنَّ يَـوْمـاً ... عَلَيْهَـا مِثْـلَ يَـوْمِـكَ لاَ يَعُـوْدُ

وقالَ فيهِ أَيضاً [كما في « ديوانِ الحماسةِ » ١/٣٧٦ مِنَ الطَّويلِ] :

أَلاَ فَلْيَمُتْ مَنْ شَاءَ بَعْدَكَ إِنَّمَا ... عَلَيْكَ مِنَ ٱلأَيَّامِ كَانَ حِذَارِيَا

وقالَ مُتَمِّمُ بنُ نُوَيرةَ في أَخيهِ مالكٍ [في «وفياتِ الأعيانِ» ٦/١٩ مِنَ الطَّويلِ] :

أَقُولُ لِهِنْدٍ حِيْنَ لَمْ أَرْضَ خُلْقَهَا ... أَهَـٰذَا دَلاَلُ ٱلْعِشْقِ أَمْ أَنْتِ فَارِكُ(١)

أَمِ ٱلصَّرْمَ تَهْوَيْنَ فَكُلُّ مُفَارِقٍ ... عَلَيَّ يَسِيْرٌ بَعْدَ مَا مَاتَ مَالِكُ

وقالَ مطيعُ بنُ إِياسٍ يرثي يحيىٰ بنَ زيادٍ الحارثيَّ [كما في « تاريخِ بغدادَ » ١٤/١٠٦ مِنَ السَّريعِ] :

أَقُـوْلُ لِلْمَـوْتِ حِيْـنَ نَـازَلَـهُ ... وَٱلْمَوْتُ مِقْدَامَةٌ عَلَىٰ ٱلْبُهُمِ(٢)

---

(١) المرأَةُ الفاركُ : المبغضةُ لزوجها .

(٢) البُهَمُ : هم الشجعان الذين لا يُهتدىٰ لقتالهم .

اذْهَبْ بِمَنْ شِئْتَ إِذْ ذَهَبْتَ بِهِ ... مَا بَعْدَ يَحْيَىٰ فِيْ ٱلرُّزْءِ مِنْ أَلَمِ(١)

وقالَ ٱبن المُقفَّع [في « ديوانِ الحماسةِ » ١/ ٣٥٧ مِنَ الطَّويلِ] :

رُزِئْنَا أَبَا عَمْرٍو وَلاَ حَيَّ مِثْلُهُ ... فَلِلّٰهِ دَرُّ ٱلْحَادِثَاتِ بِمَنْ تَقَعْ

فَإِنْ تَكُ قَدْ فَارَقْتَنَا وَتَرَكْتَنَا ... عَلَىٰ خَلَّةٍ مَا فِيْ ٱنْسِدَادٍ لَهَا طَمَعْ(٢)

لَقَدْ جَرَّ نَفْعاً فَقْدُنَا لَكَ أَنَّنَا ... أَمِنَّا عَلَىٰ كُلِّ ٱلرَّزَايَا مِنَ ٱلْجَزَعْ

وقالَ إِسحاقُ بنُ خَلَفٍ يرثي بِنتاً لَهُ ـ ولٰكنَّهُ تصرَّفَ في ٱلمعنىٰ ـ [مِنَ ٱلبسيطِ] :

قَدْ كُنْتُ أَخْشَىٰ عَلَيْهَا أَنْ تُقَدِّمَنِيْ ... إِلَىٰ ٱلحِمَامِ فَيُبْدِيْ وَجْهَهَا ٱلْعَدَمُ

فَٱلآنَ نِمْتُ فَلاَ هَمٌّ يُؤَرِّقُنِيْ ... تَهْدَا ٱلْعُيُوْنُ إِذَا مَا أَوْدَتِ ٱلْحُرَمُ(٣)

وقالَ آخرُ [عقيلُ بن عُلَّفَةَ في « ديوان الحماسةِ » ١/ ٤١٠ مِنَ الطَّويل] :

لِتَغْدُ ٱلْمَنَايَا حَيْثُ شَاءَتْ فَإِنَّهَا ... مُحَلَّلَةٌ بَعْدَ ٱلْفَتَىٰ ٱبْنِ عَقِيْلِ(٤)

فَتَىً كَانَ مَوْلاَهُ يَحُلُّ بِنَجْوَةٍ ... فَحَلَّ ٱلْمَوَالِيْ بَعْدَهُ بِمَسِيْلِ(٥)

ولاَ يخرجُ عنهُ قولُ جميلٍ [مِنَ الطَّويلِ] :

فَيَا رَبِّ إِنْ تَهْلِكْ بُثَيْنَةُ لاَ أَعِشْ ... فُوَاقاً وَلا أَفْرَحْ بِمَالِيْ وَلاَ أَهْلِيْ(٦)

---

(١) الرزءُ : المصيبة العظيمة .
(٢) الخَلَّةُ : الحاجةُ والفقرُ .
(٣) أَودت : هلكت . الحُرَمُ : نساءُ الرجلِ وأهلُ بيتهِ .
(٤) لِتغدُ : لِتصبْ . محلَّلةٌ : مطلقةٌ . والمعنىٰ : لم تبق صعوبةٌ للمنايا بعدَ الفتىٰ ٱبنِ عقيلٍ ، فلتذهبْ إلىٰ مَن شاءَتْ .
(٥) النَّجوَةُ : ما علا من الأرضِ . المسيلُ : ما ٱنخفضَ منها . والمعنىٰ : لَم يبقَ لأحدٍ مِن أقاربهِ عزٌّ بعدَهُ ، فتحولوا من العزِّ إلىٰ الذلِّ .
(٦) الفَوَاقُ : هو المدَّةُ بين الحلبَتَينِ ، والمراد الكناية عن قِصَرِ عمرِهِ .

وقد وطِيءَ علىٰ هـٰذهِ ٱلأعقابِ حافظٌ في قولِهِ [في « ديوانه » ٢/ ١٤٤ مِنَ الطَّويلِ] :

لَقَدْ كُنْتُ أَخشَىٰ عَادِيَ ٱلْمَوْتِ قَبْلَهُ ... فَأَصْبَحْتُ أَخْشَىٰ أَنْ تَطُولَ حَيَاتِي

المؤلف يتكلم عن إحساس النفس بالفراق

ثُمَّ كلُّ نَفْسٍ تُحِسُّ بألمِ الفراقِ ؛ لانفصالها عَنْ عالمِ القدسِ ، لهـٰذا لا تزالُ تحنُّ وتئِنُّ ، شعرَتْ بذٰلكَ السببِ أَم لم تشعرْ ، والأغلبُ عدمُ الشعورِ ، لانحجابها بالمادَّةِ ، فلا يخطُرُ لها أَنَّ شوقَها إِليهِ ، بل تظنُّهُ إِلىٰ غيرِهِ ، إِلاَّ أَنَّها كلَّما كَلِفَت[1] بشيءٍ . . لم تَنْطَفِ حرارتُها بإِدراكهِ ، بل تبقىٰ تلكَ اللَّوعةُ التي لا بدَّ وأَنْ تظهرَ مهما خفيَتْ ، ولا سيَّما عندَ تناشدِ الآثارِ ، وذكرِ الدِّيارِ ، والتغنِّي بما في شَكوىٰ الفراقِ مِنَ ٱلأشعارِ ، فدلَّ بقاؤُها علىٰ أَنَّ المطلوبَ غيرُ ذلكَ الذي حصلَ ، وإِلىٰ هـٰذا الإِشارةُ بقولِ القطبِ الحدَّادِ [مِنَ الوافرِ] :

مُحِبٌّ لَيسَ يَدرِيْ مَنْ يُحِبُّ ... وَلاَ مَـاذَا يُحِـبُّ أَيُسْتَتَـبُّ
إِذَا سَجَعَتْ حَمَامَاتُ ٱلعَلاَلِيْ ... عَلَـىٰ أَغْصَـانِهِـنَّ تَـرَاهُ يَصْبُـوْ
وَإِنْ مَـرَّتْ أَحَـادِيـثُ ٱلغَـوَانِـيْ ... بِـهِ يَبْكِـيْ بَـلاَ دَمْـعٍ يُغَـبُّ

ولا يزالُ أَهلُ الهممِ العاليةِ يتدرَّجونَ في معارجِ الشوقِ . . حتَّىٰ يحلِّقَ بهم إِلىٰ فوقُ ، فهُم في سلوكِهِم كما قالَ حبيبٌ [في « ديوانِهِ » ٢/ ١٣١ مِنَ الكاملِ] :

فَـإِذَا ٱرْتَقَـىٰ فِـي قُلَّـةٍ مِـنْ سُـؤْدَدٍ ... قَالَتْ لَهُ ٱلأُخْرَىٰ : بَلَغْتَ تَقَدَّمِ[2]

---

(١) الكَلَفُ : هو حبُّ الشيءِ وشدَّة تعلُّقِ القلبِ بهِ .
(٢) القُلَّةُ : رأسُ كلِّ شيءٍ .

وما أَحسنَ قولَ لسانِ الدينِ بنِ ٱلخطيبِ [مِنَ الطَّويلِ] :

جَزَىٰ اللهُ عَنِّيْ زَاجِرَ ٱلشَّيْبِ خَيْرَ مَا ... جَزَىٰ نَاصِحاً فَازَتْ يَدَاهُ بِخَيْرِهِ
سَلَكْتُ طَرِيْقَ ٱلْحُبِّ حَتَّىٰ إِذَا ٱنْتَهَىٰ ... تَعَوَّضْتُ حُبَّ اللهِ عَنْ حُبِّ غَيْرِهِ

وطَالما قرَّرنا هـٰذا المعنىٰ نظماً ونثراً في غيرِ موضعٍ ، ومنهُ قولُنا [كما في « ديوانِ المؤلِّفِ » ٤٨ مِنَ الطَّويلِ] :

يَقُوْلُوْنَ: مَا مِنْ عَاشِقٍ قَطَّعَ ٱلنَّوَىٰ ... حَشَـاهُ وَأَضْنَـاهُ ٱلْجَـوَىٰ وَكَـوَاهُ
وأَضْـرَمَ فِيْـهِ ٱلـوَجْـدُ إِلاَّ وَتَنْطَفِـيْ ... ـ إِذَا دَامَ طِيْبُ ٱلْوَصْلِ ـ نَارُ هَوَاهُ
وَلَٰكِنَّ فِي ٱلإِنْسَانِ سِرّاً تَفَسَّخَتْ ... قَـوَائِمُـهُ مِـنْ حَمْلِـهِ وَقُـوَاهُ
إِذَا مَـا تَنُـوْشِـدْنَ ٱلْمَـآثِـرَ هَـزَّهُ ... لِمَوْطِنِهِ ٱلأَعْلَىٰ ٱلْقَدِيْمِ جَوَاهُ
فَمَا مِنْ جَمَالٍ حَادِثٍ هَامَ وَامِقٌ ... بِـرُؤْيَـاهُ إِلاَّ وَٱلْمُـرَادُ سِـوَاهُ[1]

غيرَ أَنَّ كلامنا في الموضوعِ خالٍ عنِ الذَّوقِ ، وأَحمدهُ تعالى إِذ أَوجدَ لي إِليهِ نوعاً منَ ٱلشَّوقِ .

أَمَّا القطبُ الحدَّادُ وأمثالهُ . . فإِنَّما يعبِّرونَ بأَلسنتهم عمَّا يجدونَهُ من بواطنِهم ، وعمَّا سارُوا عليه بكشفِهم وإِلهامهم ، إِذِ ٱلظَّنُّ بمثلهِ أَنَّهُ لم يَقرأْ عنه شيئاً ، وإِنَّما مشىٰ عليهِ بحالهِ .

لا قيمة للحياة إلا باجتماع الأحباب

ومِن هـٰذا القبيلِ ما سبقَ في غيرِ هـٰذا المجلسِ عَنِ ٱبنِ أَبي طالبٍ وأُنسهِ بالموتِ ، وقولِهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : ـ وقد خيَّرهُ مَلَكُ الموتِ ـ « اللَّهُمَّ ٱلرَّفِيْقَ ٱلأَعْلَىٰ »[2] ، وما قَصَّ اللهُ علينا مِن خبرِ

---

(١) الوامِقُ : المحبُّ .

(٢) أخرجه عن عائشة رضي الله عنها البخاري (٤٤٦٣) في كتاب المغازي ، ولمسلم (٢١٩١) نحوه في السلام .

يوسفَ الصدِّيقِ ؛ فإنَّهُ لمَّا انقطعتْ بهِ الأمانيُّ . . لم يرغبْ إلاَّ في كمالِ الأُنسِ بانفصالِ النَّفسِ عَن عالمِ الحسِّ ، والتحاقها بعالمِ القُدسِ فقالَ ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [يوسف : ١٠١] .

ولمَّا تَذاكَروا الموتَ علىٰ عهدهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ . . قالَ أَحدُ أَصحابِهِ ـ وظنِّي أَنَّهُ أَبو الدرداءِ ـ : (حبيبٌ جَاءَ علىٰ فاقةٍ)[١] .

وقالَها أَحدُ أَصحابِ القطبِ الحَدادِ ، فانتهرَه وقالَ : لاَ يقولُها إلاَّ من صدَّق دعواهُ بعملٍ يشبهُ عملَ أَبي الدرداءِ .

وقد كانَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ مزهوّاً قبلَ الخلافةِ ثُمَّ اخشوشَنَ ، ولمَّا قيلَ لهُ في ذلِكَ . . قالَ : إنَّ لي نفساً ذوَّاقةً توَّاقةً ، كلَّما حصلَتْ علىٰ شيءٍ . . طمعَتْ فيما وراءَهُ ، ولم يبقَ لي طمعٌ في غيرِ الجنَّةِ[٢] .

ولاَ شوقَ إلاَّ فيما يقرِّبُ منها ، فالدنيا قبيحةٌ ، وكفَاها الموتُ فضيحة ، وهيَ دارُ ترحٍ لا دارُ فرحٍ ـ لولا أَنَّها طريقٌ إلىٰ الأُنسِ الدائمِ والسعدِ المقيمِ ـ وما يجدُ طالبُ ذلِكَ معَ إفراغِ الجهدِ وصدقِ القصدِ مِنْ وَعْثاءِ الطريقِ . . هوَ أقلُّ ممَّا يجدهُ المسافرُ في طلبِ الفوزِ المحققِ والنجاحِ المضمونِ ، وإنَّ لهُ في خلالِ ذلكَ من مسامراتِ

(١) أورده الهندي في « كنز العمال » عن حذيفة (٣٦٩٧٤) ونسبه إلى ابن أبي شيبة .

(٢) الخبر في « وفيات الأعيان » (٢/ ٣٠١) ، و« المدهش » (٢٢٨) .

الأَمانيِّ ، ومناغاتِ الآمالِ ما ينسيهِ كلَّ أَلمٍ ، ويهوِّنُ عليهِ كلَّ تعبٍ ، بلْ ما يَجدُ معهُ ، التعبَ لذَّةً ، والمشقَّةَ نعمةً ، وتحمُّلَ المكروهِ ليسَ بضائرٍ ما كانَ واسطةً إِلىٰ محمودٍ .

وفيما نقرِّرُه من أَحوالِ المحبينَ ـ ولا سيما ما نسوقُهُ مِن كلامِ سلطانِ العاشقينَ ـ شاهدٌ عدلٌ علىٰ ذلِكَ ؛ إِذِ ٱلمحبوبُ خيرٌ منَ ٱلحياةِ ، والمكروهُ بالطبيعةِ شرٌّ مِنَ ٱلموتِ .

أَمَّا الأُنسُ بالفاني . . فلَولا حكمةُ اللهِ التي تَسْتَنْزِلُ عَنْ قضايَا العقولِ لِما أَرَادَ مِنْ عمارةِ ٱلدنيا . . لَمَا عُدَّ إِلاَّ مِن صريحِ ٱلجنونِ ، لاَ سيَّما وقد قالَ الناظمُ [في « العُكبَريّ » ٣/ ٢٢٤ مِنَ ٱلوافرِ] :

أَشَـدُّ ٱلغَـمِّ عِنْـدِيْ فِـي سُـرُوْرٍ تيَقَّـنَ عَنْـهُ صَـاحِبُـهُ ٱنْتِقَـالاَ

لا يستأنس العاقل بالفاني

نظرَ بعضُهم إِلىٰ بُنيٍّ لهُ صغيرٍ . . أَعجبهُ حسنهُ ، وشدهَهُ جمالُهُ ، وراقَهُ بِلَهوِهِ وخفَّةِ روحِهِ ، فقالَ : لَولا الموتُ . . لعلَّقتُ قلبي بكَ .

وٱلتفتَ ٱبنُ مطيعٍ إِلىٰ دارِهِ ، فأَعجبهُ حسنُها ، فبكىٰ ثُمَّ قالَ : لَولا أَنِّي أَتمثَّلُ خروجَ جنازَتي عنها . . لكنتُ بها مسروراً ، ولولا ما أَصيرُ إِليهِ مِنْ ضيقِ القبرِ . . لَقَرَّتْ بها عيني ، ثُمَّ ٱرتفعَ نحيبُهُ .

وقالَ أَميرُ المؤمنينَ : وما أَصنعُ بفدكٍ ، وغيرِ فدَكٍ[1] ؟ والنفسُ

---

(١) فَدَك : قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان ، أفاءها الله على رسوله صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ سنة سبع صلحاً ، وذلك لما نزل صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ خيبر وفتح حصونها ولم يبق إلا قسم منها ، وعندما اشتد بهم الحصار . . راسلوا رسول الله صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ يسألونه أن يُنزلهم على الجلاء ففعل ، فبلغ ذلك أهل فدك فراسلوا رسول الله صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ أن يصالحهم على النصف من ثمارهم وأموالهم فأجابهم إلى ذلك ، فكانت خالصة لرسول الله صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ وفيها عين فوّارة ونخيل كثيرة ، وهي التي =

مظانُّها في غدٍ جَدَثٌ[1] تنقطعُ في ظلمتهِ آثارُها ، وتغيبُ أَخبارُها ، وحفرةٌ لو زيدَ في فُسحَتِها ، وأَوسعتْ يَدَا حافِرِها . . لأَضْغَطَها الحجَرُ والمدَرُ ، وسدَّ فُرَجَهَا الترابُ المتراكمُ[2] .

هُوَ ٱلْمَوْتُ لاَ مَنْجَىٰ مِنَ ٱلْمَوْتِ لِلْفَتَىٰ … وَمَا هُوَ بَعْدَ ٱلْمَوْتِ أَدْهَىٰ وَأَصْعَبُ[3]

غيرُه [مِنَ الطَّويلِ] :

فَهُـنَّ ٱلْمَنَـايَـا أَيَّ وَادٍ سَلَكْتُـهُ … عَلَيْهَا طَرِيْقِيْ أَوْ عَلَيَّ طَرِيْقُهَا

لا يستأنس من هو على خطر الفراق

ولَئِنْ خرجَ بنا الاستطرادُ عنْ موضوعِ البيتِ فالمناسبةُ بحالِها ؛ إِذْ حاصلُهُ أَن لا قيمةَ للحياةِ إِلاَّ بٱجتماعِ شَملِ الأَحبابِ ، وأَنَّىٰ يكونُ الأُنسُ بِٱجتماعِ الشملِ المهدَّدِ في كلِّ طَرفةِ عينٍ بِٱلافتراقِ ؟!

إذن : فلا أُنسَ إِلاَّ فيما أَشرنَا إِليهِ ، ممَّا يشبهُ ما جاءَ بمناسبةِ علاجِ ثوبانَ[4] مِمَّا خالطهُ مِنْ فراقهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ . . أَلا

= قالت فاطمة رضي الله عنها : إن رسول الله صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ نحلنيها فقال أبو بكر : أريد لذلك شهوداً ، ولها قصة ، ثم أدى اجتهاد عمر رضي الله عنه بعد الفتوح أن يردها إلى ورثة رسول الله صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ، فكان علي والعباس رضي الله عنهما يتنازعان فيها . . . انظر القصة مطولة في « معجم البلدان » (٤/٢٣٨ ـ ٢٤٠) .

(١) الجدث : القبرُ .

(٢) « شرح نهج البلاغة » (١٦/٢٠٨) .

(٣) البيت من الطويل .

(٤) كانَ سيِّدُنا ثوبانُ رضيَ اللهُ عنهُ شديدَ الحبِّ لرسولِ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ، قليلَ الصبرِ عنهُ ، فأَتاهُ ذاتَ يومٍ وقد تغيَّرَ لونُهُ ، ونَحُلَ جسمُهُ ، يعرَفُ في وجهِهِ الحُزْنُ ، فقالَ لَهُ رسولُ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « يا ثوبانُ . . لونُكَ »! فقالَ : يا رسولَ اللهِ . . ما بي ضُرٌّ ، إلا أَنِّي إذا لَمْ أَركَ ٱشتقْتُ إِليكَ ، وٱستوحشتُ وحشةً شديدةً حتَّىٰ أَلقاكَ ، ثمَّ ذكرتُ الآخرةَ ، وأَخافُ أَلاَّ أَراكَ =

وهوَ قولهُ تقدَّستْ أسماؤهُ ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء : ٦٩] .

[قال الإمام الحداد في « ديوانه » ٣٦٥ مِنَ ٱلكاملِ] :

يَا رَبِّ وَٱجْمَعْنَا وَأَحْبَاباً لَنَا فِيْ دَارِكَ ٱلْفِرْدَوْسِ أَطْيَبِ مَوْضِعِ

* * *

= هناكَ ؛ لأنِّي عرفتُ أنَّكَ تُرفَعُ معَ النبيِّينَ ، وأنِّي إنْ دخلتُ الجنَّةَ . . كنتُ في منزلةٍ هيَ أدنىٰ مِنْ منزلتِكَ ، وإنْ لَمْ أدخلْ . . فذلكَ حينٌ لا أراكَ أبداً ، فأنزلَ الله تعالىٰ : ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء : ٦٩] . القرطبي (٥/ ٢٧١) .

[قالَ أَبو الطَّيبِ ٱلمتنبي في « العُكبَريِّ » ٣/ ١٦٤ مِنَ ٱلبسيطِ] :

إلاَّ يَشِبْ فَلَقَدْ شَابَتْ لَهُ كَبِدٌ شَيْباً إذَا خَضَّبَتْهُ سَلْوَةٌ نَصَلا[١]

حرقة الكبد وحرارة الفؤاد سبيل الهرم

يقولُ : إِنْ لم يشِبْ ذلكَ المدنفُ . . فقد شابَتْ كبدهُ ، فإِنْ آنسَ ساعةً سلْوّاً . . يخضِبُ شيبَ كبدهِ نصلُ ذلِكَ الخضابِ ، لأَنَّ السُّلوانَ سرعانَ ما يزولُ وقلَّما يلبَثُ ، وهوَ من قولِ أَبي تمَّامٍ [في « ديوانهِ » ١/ ٢٠٨ مِنَ ٱلخفيفِ] :

شَابَ رَأْسِي وَمَا رَأَيْتُ مَشِيْبَ ٱلـ ـرَّأْسِ إِلاَّ مِنْ فَضْلِ شَيْبِ ٱلْفُؤَادِ

فنقلَ الناظِمُ شيبَ ٱلفُؤَادِ إِلىٰ ٱلكبدِ ، قالَ الشارحُ : وهُوَ قبيحٌ ، وعندِي أَنْ لا قبحَ في تلكَ ٱلاستعارةِ ؛ لأَنَّ لكلٍّ مِنَ ٱلقلبِ والكبدِ ٱتصالاً بالشيبِ مِنْ حيثُ تعلُّقه بالدم ، فللكبدِ طبخُهُ ، وللقلبِ تفريقُه علىٰ العروقِ ، فمتَىٰ قصَّرَ أَحدُهما في وظيفتهِ . . لحقَ بالإِنسانِ الضعفُ ، وتبعَ ذلكَ الهرمُ والشيبُ لا محالةَ ، فأَحدُهما مِنَ ٱلآخَرِ كالصِّنوِ[٢] مِنَ ٱلصنوِ يَقتسمانِ العملَ ، ويشتركانِ في ٱلنَّتيجةِ ، وما أَكثرَ ما تسمعُ حرقةَ الكبدِ بدلاً من حرارةِ الفؤَادِ ، وكلُّ ذلِكَ إِلىٰ الهمِّ طريقٌ ، وهُوَ إِلىٰ الهرمِ سبيلٌ ، وقد قالَ الناظمُ [في « العُكبَريِّ » ٤/ ١٢٤ مِنَ ٱلكاملِ] :

وَٱلْهَمُّ يَخْتَرِمُ ٱلْجَسِيْمَ نَحَافَةً وَيُشِيْبُ نَاصِيَةَ ٱلصَّبِيِّ وَيُهْرِمُ

(١) السلوَةُ : ذهابُ المحبَّةِ . النَّصلُ : ذهابُ الخِضابِ .

(٢) الصِّنْوُ : الشبيهُ ، أَوِ الأَخُ الشقيقُ .

الشعراء والشيب وأسبابه عندهم

وأكثرُ ما يقعُ أثرُ الهمِّ علىٰ ذَيْنِكَ العضوينِ ، والشيبُ في الأغلبِ إنَّما هُوَ أثرُ ٱلانفعالِ الواقعِ علىٰ أحدِهما ، ومنهُ يتبيَّنُ أنْ لاَ قبحَ في ٱستعارةِ الناظمِ ، وللهِ دَرُّ التهاميِّ في قوله [في « ديوانه » ٤٧١ مِنَ ٱلكاملِ] :

وَتَلَهُّبُ ٱلأَحْشَاءِ شَيَّبَ مَفرِقِيْ   هَـٰذَا ٱلشُّعَاعُ شُوَاظُ تِلْكَ ٱلنَّارِ[1]

وكثيراً ما يدَّعي العشَّاقُ علىٰ المعشوقينَ أنَّهم أشابُوهم ، ثُمَّ نفروا عنهم من أجلِ الشيبِ .

قالَ أبو عُبادةَ [في « ديوانه » ١/ ٨٤ مِنَ ٱلخفيفِ] :

عَيَّرَتْنِي ٱلمَشِيبَ وَهْيَ بَدَتْهُ   فِيْ عِذَارِيْ بِٱلصَّدِّ وَٱلِٱجْتِنَابِ

وقالَ [في « ديوانه » ١/ ١٢٩ مِنَ الطَّويلِ] :

وَحَمَّلْتِنِي ذَنْبَ ٱلْمَشِيبِ وَإِنَّهُ   لَذَنْبُكِ إِنْ أَنْصَفْتِ فِيْ ٱلْحُكْمِ لاَ ذَنْبِيْ

وقالَ كشاجمُ [في « ديوانه » ٤٥ مِنَ ٱلكاملِ] :

أَوَ تُنْكِرِيْنَ ٱلشَّيْبَ أَنْتِ جَلَبْتِهِ   بِجِنَايَةٍ وَقَطِيْعَةٍ وَعِتَابِ
لَوْ لَمْ تَرُوْعِيْ بِٱلغُرُوْرِ وَبِٱلنَّوَىٰ   طَوْراً لَطَالَ تَمتُّعِيْ بِشَبَابِيْ

مسألة الدور عند الشعراء

وقالَ بعضُهم ـ وكأنَّهُ مِنَ ٱلفقهاءِ ، ويشبهُ أنْ يكونَ ٱبن سريجٍ[2] ، فإنَّهُ صاحبُ مسألةِ الدورِ في الطلاقِ ـ [مِنْ مجزوءِ الرَّجَزِ] :

مَسْأَلَةُ ٱلدَّوْرِ أَتَتْ   بَيْنِيْ وَبَيْنَ مَنْ أُحِبّ[3]

---

(١) الشواظُ : اللهبُ الذي لا دخانَ فيهِ .
(٢) ابن سريج : هو أحمد بن عمر أبو العباس ، أخذ عن الأنماطي صاحب المزني ، ونَشَرَ مذهب الشافعي في (بغداد) ، وهو الفقيه القاضي ، توفي سنة : (٣٠٦ هـ) ، وله مصنفات كثيرة قيمة .
(٣) الدور : هو توقف الشيء على ما يتوقف عليه ، وله أنواع : فمنه الدور =

لَـوْلاَ مَشِيبِـي مَـا جَفَـا لَــوْلاَ جَفَـاهُ لَـمْ أَشِـبْ

ولاَ يبعدُ عنهُ قولُ الناظمِ [في « العُكبَريّ » ١/ ٣٢٨ مِنَ الكاملِ] :

قَالَتْ وَقَدْ رَأَتِ اصْفِرَارِيَ: مَنْ بِهِ؟ وَتَنَهَّـدَتْ فَـأَجَبْتُهَـا : الْمُتَنَهِّـدُ

وقولُ أَبي فراسٍ [في « ديوانهِ » مِنَ الطَّويلِ] :

فَقَالَتْ: لَقَدْ أَزْرَىٰ بِكَ الدَّهْرُ بَعْدَنَا فَقُلْتُ: مَعَاذَ اللهِ بَلْ أَنْتِ لاَ الدَّهْرُ

وقالَ محمَّدُ بنُ يحيىٰ بنِ حزمٍ [في « نفح الطيب » ٣/ ٤٥٣ مِنَ الطَّويلِ] :

أَتَجْزَعُ مِنْ دَمْعِي وَأَنْتَ أَسَلْتَهُ وَمِنْ نَارِ أَحْشَائِي وَمِنْكَ لَهِيبُهَا

وقولُ مالكِ بنِ أَسماءَ بنِ خارجةَ [في « البيان والتبيين » ١/ ٤٧٤ مِنَ البسيطِ] :

عَيَّـرْتِنِـي خَلَقـاً أَبْلَيْـتِ جِـدَّتَـهُ وَهَلْ رَأَيْتِ جَدِيْداً لَمْ يَعُدْ خَلَقَا[1] ؟

استعجال الشيب من حرقة الهوى

وأَمَّا دعوىٰ استعجالِ الشيبِ من حرِّ الهوىٰ . . فلن يُحصى كثرةً في أَقوالِ الشعراءِ قديماً وحديثاً ، ومنهُ قولُ الناظمِ [في « العُكبَريّ » ٤/ ٣٦ مِنَ البسيطِ] :

بِحُبِّ قَاتِلَتِي وَالشَّيْبِ تَغْذِيَتِي هَوَايَ طِفْلاً وَشَيْبِي بَالِغَ الْحُلُمِ

وقولُ القيروانيِّ [مِنَ الكاملِ] :

وَلَـرُبَّ بَـاكِيَـةٍ رَأَتْ فِـيْ لِمَّتِـيْ وَخزَ الْمَشِيْبِ تَأَلَّقَتْ ضَحِكَاتُهُ

= المصرح ، والدور المضمر . صرح في البيت : أنَّ سبب شيبه جفاء محبوبه ، ولو لم يكن جافاه لم يشب .

(١) الخَلَقُ : القديمُ البالي .

قَالَتْ : أَغُصْناً قَدْ عَلاَهُ فَلاَ أَرَىٰ   زَهْرَ ٱلرِّيَاضِ وَنَوَّرَتْ وَرَفَاتُهُ(١)
فَأَجَبْتُهَا فَارَغْتُ فِيْ جَنْبِ ٱلْهَوَىٰ   صَرْفَ ٱلزَّمَانِ وَهَـٰذِهِ نَكَبَاتُهُ

وللشُّعراءِ في البكاءِ علىٰ الشَّبابِ الكلامُ الطَّويلُ العريضُ ، وسنذكرُ ما يليقُ فيما يناسبُ مِنَ ٱلمجالسِ ، كما سنذكرُ عندَ الفرصةِ ما يقلِّلُهُ النّاسُ مِنْ أَوقاتِ الصَّفَاءِ ، وما ٱختلفَ فيهِ أَهلُ الأَدبِ مِنَ ٱلمطالبةِ وعدمِها ، بمالَهم عندَ المحبوبينَ مِنَ ٱلدخولِ ، الذي من أَرقِّ ما فيهِ قولُ المجنونِ [في « ديوانهِ » ٢٢٦ مِنَ الطَّويلِ] :

المطالب العاشق والعافي المشفق

أَقُــولُ لإِلْــفٍ ذَاتَ يَــوْمٍ لَقِيْتُــهُ   بِمَكَّةَ وَٱلأَنْضَاءُ مُلْقَىً رِحَالُهَا(٢)
بِـرَبِّـكَ خَبِّـرْنِـيْ أَلَـمْ تَـأْثَـمِ ٱلَّتِـيْ   أَضَرَّ بِجِسْمِي مِنْ زَمَانٍ خَيَالُهَا ؟!
فَقَالَ : بَلَىٰ واللهِ سَوْفَ يَمَسُّهَا   عَذَابٌ وَبَلْوَىٰ فِيْ ٱلْحَيَاةِ تَنَالُهَا
عَفَـا اللهُ عَنْهَـا ذَنْبَهَـا وَأَقَـالَهَـا   وَإِنْ كَانَ فِيْ ٱلدُّنْيَا قَلِيْلاً نَوَالُهَا

وقولُهُ [في « ديوانهِ » ٦٨ مِنَ الطَّويلِ] :

حَلاَلٌ لِلَيْلَىٰ شَتْمُنَا وَٱنْتِقَاصُنَا   هَنِيْئَاً وَمَغْفُوراً لِلَيْلَـىٰ ذُنُـوبُهَـا

وقولُ كثيِّرٍ [في « ديوانهِ » ١٠٠ مِنَ الطَّويلِ] :

هَنِيئـاً مَـرِيْئـاً غَيْـرَ دَاءٍ مُخَـامِـرٍ   لِعَزَّةَ مِنْ أَعْرَاضِنَا مَا ٱسْتَحَلَّتِ(٣)

* * *

(١) وَرَفَ النباتُ : إذا رأَى الناظرُ لخضرَتِه بهجةً مِن ريِّهِ ونعمتهِ .
(٢) الأنضاءُ ـ جمع نِضوٍ ـ : وهو البعيرُ المهزولُ .
(٣) مخامرٌ : مخالِطٌ .

[قالَ أَبو الطَّيبِ المتنبي [في « العُكْبَرِيِّ » ٣/ ١٦٤ مِنَ البسيطِ] :

يُجَنُّ شَوْقاً فَلَوْلاَ أَنَّ رَائِحَةً   تَزُوْرُهُ فِيْ رِيَاحِ ٱلشَّرْقِ مَا عَقَلاَ

رائحة الأحباب تطفىء نار العذاب

يُروىٰ (يَحِنُّ) بالحاءِ المهملةِ ، و(يُجَنُّ) بالمعجمةِ من أَسفلَ ، والمعنىٰ : أَنَّ هـٰذا الدنفَ يطولُ حنينُهُ ، أَو يعتادُه جنونُه ، ولولا أَنَّهُ يجدُ رائحةً شرقيَّةً مِنْ قِبلِ أَحبابهِ . . لَما عادَ إِليهِ عقلُهُ ، وَلـٰكنَّهُ إِذَا وجدَ ريحَ الشرقِ تهبُّ مِن جهةِ أَحبابهِ . . كانَ لهُ فيها نوعٌ مِنَ ٱلوِصالِ فخفَّ جنونُهُ ، وضَرْبُ البيتِ[١] يؤكِّدُ روايةَ الجيمِ ، وقد نظرَ فيهِ إِلىٰ قولِ ٱبنِ الدُّمينةِ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَأَسْتَنْشِقُ ٱلنَّسْمَاءَ مِنْ نَحْوِ أَرْضِكُمْ   كَـأَنِّـيْ مَـرِيْـضٌ وَٱلنَّسِيْـمُ طَبِيْـبُ

وقولِ ٱلمجنونِ [في « ديوانهِ » ٩٧ مِنَ الطَّويلِ] :

لَقَـدْ عَـارَضَتْنَـا رِيْـحُ لَيْلَـىٰ بِهَبَّـةٍ   عَلَىٰ كَبِدِيْ مِنْ طِيْبِ أَرْوَاحِهَا بَرْدُ
فَمَا زِلْتُ مَغْشِيّاً عَلَيَّ وَقَد مَضَتْ   أَنَاةٌ وَمَا عِنْدِيْ جَوَابٌ وَلاَ رَدُّ[٢]

وقولُهُ أَو قيسٍ [بن ذريح][٣] [مِنَ الطَّويلِ] :

تَمُرُّ ٱلصَّبَا صَفْحاً بِسَاكِنِ ذِيْ ٱلغَضَا   وَيَصْدَعُ قَلْبِيْ أَنْ يَهُبَّ هُبُوبُهَا[٤]
إِذَا هَبَّتِ ٱلرِّيْحُ ٱلشَّمَالُ فَإِنَّهَا   جَوَابِيْ بِمَا يُهْدِيْ إِلَيَّ جَنُوبُهَا

---

(١) ضربُ البيتِ : آخرُ كلمةٍ في العَجُزِ ، وآخرُ كلمةٍ في الصدرِ تُسمَّى عَروضاً .
(٢) أناةٌ : مَدَّةٌ .
(٣) الأبيات للمجنون في «ديوانه» ٦٩ ، وليست لقيس بن ذريح .
(٤) الصبا : الريحُ التي تهبُّ من مطلعِ الشمسِ إذا استوى الليلُ والنهارُ .

قَـرِيْبَـةُ عَهْـدٍ بِـالْحَبِيْـبِ وَإِنَّمَـا ... هَوَىٰ كُلِّ نفسٍ حَيْثُ حَلَّ حَبِيْبُهَا

وقولُ ذِي الرُّمَّةِ [في « ديوانه » ٢/ ٦٩٤ـ٦٩٥ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا هَبَّتِ الأَرْيَاحُ مِنْ نَحْوِ جَانِبٍ ... بِهِ أَهْلُ مَيٍّ . . هَاجَ قَلْبِيْ هُبُوبُهَا

هَوَىً تَذْرِفُ اَلْعَيْنَانِ مِنْهُ وَإِنَّمَا ... هَوَىٰ كُلِّ نفسٍ حَيْثُ حَلَّ حَبِيْبُها

وقولُ اَلمجنونِ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَلاَ هَبَّتِ اَلرِّيْحُ اَلْجَنُوبُ لأَرْضِهَا ... مِـنَ اَللَّيْـلِ إِلاَّ بِـتُّ لِلـرِّيْـحِ جَـانِيـا

وقولُهُ [في « الأغاني » ٥/ ٢٤٣ مِنَ الطَّويلِ] :

أَيَـا جبَلَـيْ نَعْمَـانَ بِـاللهِ خَلِّيَـا ... نَسِيْمَ اَلصَّبَا . . يَخْلُصْ إِلَيَّ نَسِيْمُهَا

فَـإِنَّ اَلصَّبَـا رِيْـحٌ إِذَا مَـا تَنَسَّمَـتْ ... عَلَىٰ نَفْسِ مَحْزُوْنٍ تَجَلَّتْ هُمُوْمُهَا

وفي هـٰذا لطيفتانِ :

حاصلُ الأُولىٰ : أَنَّ المجنونَ خرجَ في أَصحابهِ ليمتَارُوا من وادي القُرىٰ ، فمرُّوا بجبَلَي نَعمانَ ، فقالوا لهُ : هـٰذانِ جَبَلا نعمانَ ، وقد كانَت لَيلىٰ تنزِلُهما ، قالَ : فأَيُّ ريحٍ تجرِي من نحوِ أَرضِها إِلىٰ هـٰذا المكانِ ؟ قالوا : الصَّبَا ، قالَ : واللهِ لا أَبرحُ حتَّىٰ تهبَّ ، فأَقامَ في ناحيةٍ ، وذَهبَ أَصحابُهُ فأمْتَاروا لَهُم ولهُ ، ثُمَّ رَجعوا إِليهِ ، فحبَسَهم بعدَ رجوعِهم ثلاثةَ أَيَّامٍ ، حتَّىٰ هبَّت ، فرحلَ مَعهُم وقالَ البيتينِ ، وبعدَهُما [من الطَّويلِ] :

المجنـون يخـرج فـي طلب الميرة

وَيَا رِيْحُ مُرِّيْ بِاَلدِّيَارِ فَخَبِّرِيْ ... أَبَاقِيَةٌ أَمْ قَدْ تَعَفَّتْ رُسُوْمُهَا ؟

أَلاَ إِنَّ أَدْوَائِـيْ بِلَيْلَـىٰ قَـدِيْمَـةٌ ... وَأَقْتَـلُ أَدْوَاءِ اَلـرِّجَـالِ قَـدِيْمُهَـا

ابن الجوزي الواعظ وزوجته نسيم

وأمّا الثانيةُ : فهيَ أنَّ ٱبنَ الجوزيِّ[1] الواعظَ الشهيرَ ، كانتْ لهُ ٱمرأةٌ يقالُ لها (نسيمُ) فحصلَ منها حالٌ أمَضَّهُ ، فطلَّقها ، ثم تبعتْها نَفسهُ ، وكانت تحضرُ مجلسَ وعظهِ ، فرآها من بينِ ٱمرأتينِ كبيرتينِ ، فجعل يتخلَّلُ بكلامِهِ ، ويهدرُ في مقالهِ ، ويخِبُّ[2] في مجالهِ ، حتَّىٰ ٱنتهىٰ إلىٰ موضوعٍ يحسنُ أنْ يتمثَّلَ عندهُ بهما ، فأنشدَهما ـ وهُوَ إيَّاها يعني وبها ينوه ـ فعرفتِ ٱلإشارَةَ ، وٱنسلَّتْ مِنْ بينِ الناسِ .

الشعراء ورياح الأحباب

ويدخلُ في المعنىٰ قولُ الصمَّةِ بنِ عبيدِ اللهِ [في « ديوانهِ » ٣١ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا مَا أَتَتْنَا ٱلرِّيحُ مِنْ نَحْوِ أَرْضِكُمْ أَتَتْنَا بِرَيَّاكُمْ فَطَابَ هُبُوبُهَا[3]

وقالَ غيرُهُ [مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا هَبَّ عُلْوِيُّ ٱلرِّيَاحِ وَجَدْتُنِي كَأَنِّي لِعُلْوِيِّ ٱلرِّيَاحِ نَسِيبُ

وقالَ كلابُ بنُ عقبةَ [مِنَ الطَّويلِ] :

بِنَفْسِيْ وَأَهلِيْ مَنْ تَجَنَّبْتُ دَارَهُ وَمَن لاَ أَرَىٰ لِيْ مِنْ زِيَارَتِهِ بُدَّا
وَمَنْ رَدَّنِيْ إِذْ جِئْتُ زَائِرَ بَيْتِهِ وَلَو زَارَ بَيْتِيْ مَا أُهِيْنَ وَلاَ رُدَّا
وَمَنْ لاَ تَهُبُّ ٱلرِّيحُ مِنْ نَحْوِ أَرْضِهِ فَتَبْلُغُنِـيْ إِلاَّ وَجَـدْتُ لَهَـا بَـرْدَا

(١) هو عبد الرحمن بن علي ، أبو الفرج ، جمال الدين ، الحافظ ، صاحب المؤلفات الكثيرة النافعة في الفقه والتفسير والحديث والأخبار والوعظ والتاريخ والطب ، توفي سنة : (٥٩٧ هـ) .
(٢) يخِبُّ : يضطرِبُ .
(٣) ريَّا كُلِّ شيءٍ : طيبُ رائحتهِ .

وقالَ عليُّ بنُ علقمةَ ، أَو مجنونُ عامرٍ [في « ديوانِهِ » ١١٩ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا ٱلرِّيحُ مِنْ نَحْوِ ٱلْحَبِيبِ تَنَسَّمَتْ   وَجَدْتُ لِمَسْرَاهَا عَلَىٰ كَبِدِيْ بَرْدَا
عَلَىٰ كَبِدٍ قَدْ كَادَ يُبْدِيْ بِهَا ٱلْجَوَىٰ   نُدُوْبَاً وَبَعْضُ ٱلْقَوْمِ يَحْسِبُنِيْ جَلْدَا

وقالَ عبيدُ اللهِ بنُ قيسِ الرقيَّاتِ [في « ديوانِهِ » ١٨٢ مِنَ المنسرحِ] :

هَبَّتْ رِيَاحٌ مِنْ جَانِبِ ٱلسَّنَدِ   فَقُلْتُ : يَا بَرْدَهَا عَلَىٰ كَبِدِيْ[١]
جَاءَتْ بِرَيَّا ٱلْحَبِيْبِ تَحْمِلُهَا   مِنْ بَلَدٍ نَازِحٍ إِلَىٰ بَلَدِ

وقالَ أُسَيدُ بنُ الحارثِ [مِنَ الطَّويلِ] :

حَسِبْتُ ٱلْغَضَا يَشْفِيْ هُيَامِيْ فَلَمْ أَجِدْ   شَمِيْمَ ٱلْغَضَا يَشْفِيْ غَلِيْلَ فُؤَادِيَا[٢]
بَلَىٰ لَوْ أَتَيْتُ ٱلرِّيْحَ تَدْرُجُ مَوْهِنَاً   بِرِيْحِ ٱلْخُزَامَىٰ كَانَ أَشْفَىٰ لِمَا بِيَا[٣]

---

(١) السَّنَدُ : ما قابلكَ مِنَ الجبلِ .

(٢) الغضا : شجرٌ صلب ينبتُ في الصحراءِ ، وحطبه مِن أَجودِ الوقودِ عندَ العربِ .
الهُيامُ : أَشدُّ العطشِ . شميمُ الغضا : شديد اجتذاب رائحة تلك الأشجار .
الغليلُ : حرارةُ العطشِ .

(٣) تَدرُجُ : تمرُّ مرّاً ليسَ بالقويِّ ولا الضَّعيفِ . مَوْهِناً : الوقتُ المتأَخِّرُ مِنَ اللَّيلِ . الخُزامىٰ : شجرٌ طَيِّبُ الريحِ .
والمعنىٰ : يقولُ الشَّاعِرُ مغالِطاً نفسَهُ في البيتِ الأَوَّلِ : ظننتُ أَنَّ شمِّي للرِّياحِ القادمةِ مِنْ عندِ المحبوبةِ تشفي ما بيَ مِنَ الحُبِّ والوَجدِ ، فإذا بتلكَ الرِّياحِ لَمْ تشفِ ولَمْ تُداوِ مَا بقلبي ، ثمَّ يقولُ في البيتِ الآخرِ : بلىٰ ، إنَّ الشِّفاءَ حاصلٌ مِنْ تلكَ الرِّياحِ ، فيقولُ لنفسِهِ : لو أَتتْ تلكَ الرِّياحُ الَّتي تَهُبُّ هُبوباً ضعيفاً في نصفِ اللَّيلِ وَشممتُ تلكَ الرِّياحَ العطِرةَ الَّتي تَهُبُّ مِنْ أَنفاسِ الحبيبةِ . لكانَ الشِّفاءُ حاصلاً ، والدَّواءُ موجوداً بإذنِ اللهِ . واللهُ أَعلمُ .

وقالَ غيرُهُ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَإِنِّي لأَسْتَشْفِي بِكُلِّ غَمَامَةٍ ... يَهُبُّ بِهَا مِنْ نَحْوِ أَرْضِكُمُ رِيحُ

وقالَ آخرُ [مِنَ الطَّويلِ] :

أَلاَ يَا نَسِيمَ ٱلصُّبْحِ مَا لَكَ كُلَّمَا ... تَقَرَّبْتَ مِنَّا فَاحَ نَشْرُكَ طِيبَا ؟
كَأَنَّ سُلَيْمَىٰ نَبَّهَتْ بِسِقَامِنَا ... فَأَعْطَتْكَ رَيَّاهَا فَجِئْتَ طَبِيبَا

وقالَ أَبو عُبادةَ [مِنَ الطَّويلِ] :

يُذَكِّرُنَا رَيَّا ٱلأَحِبَّةِ كُلَّمَا ... تَنَفَّسَ فِي جُنْحٍ مِنَ ٱللَّيْلِ بَارِدِ

وقالَ غيرُهُ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَمُغْتَرِبٍ بِٱلْمَرْجِ يَبْكِي لِشَجْوِهِ ... وَقَدْ غَابَ عَنْهُ ٱلْمُسْعِدُونَ عَلَىٰ ٱلْحُبِّ
إِذَا مَا أَتَاهُ ٱلرَّكْبُ مِنْ نَحْوِ أَرْضِهِ ... تَنَفَّسَ يَسْتَشْفِي بِرَائِحَةِ ٱلرَّكْبِ

وقد قالَ ٱمرؤُ القيسِ قبلَ ذلكَ [في « معلقته » مِنَ الطَّويلِ] :

نَسِيمُ الصَّبَا جَاءَتْ بِرَيَّا ٱلْقَرَنْفُلِ

القول الحق هو قوله تعالىٰ

وخيرٌ من الجميعِ قولُهُ جلَّ ذِكرُهُ : ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٩٤ـ٩٦] .

وجاءَ في بعضِ طرقِ حديثِ إبراهيمَ ٱلطويلِ : أَنَّ إِسماعيلَ لما عادَ منْ قنصهِ . . ٱشتمَّ رائحةَ أَبيهِ .

أمية بن الأشكر يطالب الفاروق برد ولده كلاب

وكانَ أُميةُ بنُ الأَشكرِ من فضلاءِ الصحابةِ ومِن خيارِ المسلمينَ ، وكانَ لهُ ولدٌ مِن أَبطالِ العربِ يُدعىٰ كِلاباً ، فسيَّرهُ عمرُ إِلىٰ

(الشام) ، وكانَ برّاً بوالدِهِ ، وكانَ أبوهُ قد عميَ وَعَيِيَ ، فأشتدَّ عليهِ بُعْدُهُ ، وأخذَ يطالبُ عمرَ بردِّه ، فلم يجبهُ ؛ لِما كانَ مِنْ غناءِ[1] كلابٍ في فتوحِ (الشامِ) ، فما كانَ منهُ إلا أنِ أستقبلَهُ في المسجدِ بأبياتٍ يتشوَّقُ بها إلىٰ ولدِهِ ، ويخرجُ فيها إلىٰ عُمرَ يُعاتبهُ وهيَ [مِنَ الوافرِ] :

أَمَا وأَبِيْكَ مَا بَالَيْتُ وَجْدِيْ ... وَلاَ شَغَفِيْ عَلَيْكَ وَلاَ ٱحْتِرَاقِيْ
وَإِبْقَائِيْ عَلَيْكَ إِذَا شَتَوْنَا ... وَضَمَّكَ تَحْتَ صَدْرِيْ وَٱعْتِنَاقِيْ
فَلَوْ فَلَقَ ٱلْفُؤَادَ شَدِيْدُ وَجْدٍ ... لَهَمَّ سَوَادُ قَلْبِيْ بِٱنْفِلاَقِ
سَأَسْتَعْدِيْ عَلَىٰ ٱلْفَارُوْقِ رَبّاً ... لَهُ دَفْعُ ٱلْحَجِيْجِ إِلَىٰ بِسَاقِ[2]
وَأَدْعُو ٱللهَ مُجْتَهِداً عَلَيْهِ ... بِبَطْنِ ٱلأَخْشَبَيْنِ إِلَىٰ دُفَاقِ[3]
إِنِ ٱلْفَارُوْقُ لَمْ يَرْدُدْ كِلاَبَا ... عَلَىٰ شَيْخَيْنِ هَامُهُمَا زَوَاقِيْ[4]

أمية يشم رائحة ولده

فأستكانَ لها عمرُ ، ودمعَتْ عيناهُ ، وأستقدمَ كِلاباً علىٰ البريدِ ، ولمَّا حضرَ . . خبَأَهُ ، وأستدعىٰ أباهُ ـ وكانَ أمَرَهُ أنْ يحلبَ ناقةً فحلبَها ـ وقدَّم إليهِ اللَّبَنَ عمرُ ، فقالَ : إني لأجدُ منهُ ريحَ كلابٍ ، وأختنقتهُ العبرةُ ، فقلنَ لهُ نسوةٌ كنَّ هناكَ : لقد كبرتَ ، وخرفتَ ، وذهبَ عقلكَ ، كلابٌ بظهرِ (الشامِ) وتزعمُ أنَّكَ تجدُ ريحَه ، فقالَ : واللهِ إنِّي لأجدُ ريحهُ مِن هـٰذا اللبنِ ، وإنْ لم تردَّهُ عليَّ يا عمرُ . . لأُجاثينَّكَ بينَ يدي اللهِ ، وأعادَ الأبياتَ السابقةَ ، فأشارَ

---

(١) الغناءُ : النفع .
(٢) البِسَاقُ : جبلٌ بـ(عرفات) .
(٣) دُفاقٌ : موضعٌ قربَ (مكَّةَ) .
(٤) هامُهُما : رأساهما . زَواقي : مِن قولِهم : أزقيتُ هامةَ فلانٍ إذا قتلتُهُ .

ٱبنُ الخطَّابِ بعدَ ذلكَ على كِلابٍ أَن يخرجَ فخرجَ ، وحصلَ بينهُ وبينَ أبيهِ ما يُبكي الطيرَ ، ويذيبُ الحجارةَ(١) .

حسان بن ثابت يشتم رائحة آل جفنة وقصة جبلة بن الأيهم

وقد جاءَ [في « الأغاني » ١٥/١٦٣] : أَنَّ حسَّانَ بنَ ثابتٍ ٱشتمَّ رائحةَ آلِ جفنةَ لمَّا جاءَ إِلىٰ عمرَ ـ وعندهُ رسولُ الرومِ ـ وكانَ لاَقىٰ جَبلَةَ بنَ الأَيهمِ هناكَ ، وتحمَّلَ عنهُ هديَّةً لحسَّانَ ، فأَنشأَ يقولُ [في « ديوانهِ » ١/٤٣٩ مِنَ ٱلكاملِ] :

إِنَّ ٱبْـنَ جَفْنَـةَ مِـنْ بَقِيَّـةِ مَعْشَـرٍ لَـمْ يَغْـذُهُـمْ آبَـاؤُهُـمْ بِـٱللُّـؤْمِ
لَمْ يَنْسَنِيْ بِٱلشَّامِ إِذْ هُوَ رَبُّهَا كَـلاَّ وَلاَ مُتَنَصِّـراً بِـٱلـرُّوْمِ

في خبرٍ طويلٍ وحكايةٍ مشهورةٍ ، أَنكرَ بعضَها ٱبنُ الشجريِّ ، وذكرَها المؤرِّخونَ(٢) .

---

(١) انظر القصة في « الإصابة » (١/١٣٧) .

(٢) وكانَ مِن قصةِ الأَبياتِ : أَنَّ جبلةَ بنَ الأَيهمِ كانَ مَلِكاً عَلىٰ غسَّانَ ، فقدمَ في جماعةٍ مِن أَصحابهِ علىٰ سيِّدنا عمرَ بنِ الخطَّابِ مسلمينَ ، فتلقَّاهُ المسلمونَ ، ودخلَ في زيٍّ حسنٍ ، وبينَ يديهِ جنائِبُ مُقَادَةٌ ، وعلىٰ أَصحابهِ الديباجُ ، حتَّىٰ تطاوَلَتِ النساءُ مِن خدورهِنَّ لرؤيتِهِ ، وأَكرمَ سيِّدُنا عمرُ بنُ الخطَّابِ وِفَادَتَهُ ، وأَحسنَ نزلَهُ ، وأَقلَّه بأَرفعِ رُتَبِ المهاجرينَ .

ثمَّ خرجَ سيِّدُنا عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ للحجِّ ، فحجَّ معهُ جبلةُ ، فبينَما جَبَلَةُ يطوفُ بالبيتِ . . إذ وَطِىءَ رجلٌ مِن فزارة فَضْلَ إزارِهِ ، فسقط الإزار ، وبانت عورته ، فلطمَهُ جَبَلَةُ فَهَشَّمَ أَنْفَهُ ، فأَقبلَ الفزاريُّ إلى سيدِنا عمرَ ، وشكاهُ ، فأَحضرَهُ سيِّدُنا عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ ، وقالَ لهُ : افتدِ نفسَكَ ، وإِلاَّ أَمرتُهُ بلطمِكَ ، فقالَ جَبَلَةُ : كنتُ أَظُنُّ أَنِّي بالإسلام أَعزُّ منِّي في الجاهليَّةِ ، فقالَ سيِّدُنا عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : دَع عنكَ هَذا ، فقالَ جَبَلَةُ : إِنِّي أَتنصَّرُ ، فقالَ سيِّدُنا عمرُ : إن تنصَّرْتَ . . ضربتُ عُنُقَكَ ، فقالَ لهُ : أَنظرني ليلَتي هذِه ، فأَنْظَرَهُ ، فلمَّا جاءَ الليلُ . . سارَ جَبَلَةُ بخيلِهِ وَرَجْلِهِ إِلىٰ (الشام) ، ثمَّ منها إِلىٰ (القسطنطينيَّةِ) ، وتبعهُ خمسُ مئةِ رجلٍ من قومه ، فتنصَّروا عَن آخرِهِم ، =

. . . .

= وفرحَ هرقلُ بهِ ، وأكرمَهُ ، ثمَّ ندمَ جَبَلَةُ علىٰ فعلتِهِ تلكَ ، وقالَ [من الطويل] :

تَنَصَّرَتِ ٱلأَشْرَافُ مِنْ عَارِ لَطْمَةٍ وَمَا كَانَ فِيْهَا لَوْ صَبَرْتُ لَهَا ضَرَرْ
تَكَنَّفَنِيْ فِيْهَا لَجَاجٌ وَنَخْوَةٌ وَبِعْتُ لَهَا ٱلْعَيْنَ ٱلصَّحِيْحَةَ بِٱلْعَوَرْ
فَيَا لَيْتَ أُمِّيْ لَمْ تَلِدْنِيْ وَلَيْتَنِيْ رَجَعْتُ إِلَىٰ ٱلْقَوْلِ ٱلَّذِيْ قَالَ لِيْ عُمَرْ
وَيَا لَيْتَنِيْ أَرْعَىٰ ٱلْمَخَاضَ بِقَفْرَةٍ وَكُنْتُ أَسِيْراً فِيْ رَبِيْعَةَ أَوْ مُضَرْ
وَيَا لَيْتَ لِيْ بِٱلشَّامِ أَدْنَىٰ مَعِيْشَةٍ أُجَالِسُ قَوْمِيْ ذَاهِبَ ٱلسَّمْعِ وَٱلْبَصَرْ
أَدِيْنُ بِمَا دَانُوْا بِهِ مِنْ شَرِيْعَةٍ وَقَدْ يُحْبَسُ ٱلْعَيْرُ ٱلدَّجُوْنُ عَلَىٰ ٱلدَّبَرْ

ثُمَّ بدا لسيِّدنا عمرَ بنِ الخطَّابِ ـ رضيَ اللهُ عنهُ ـ أن يكتبَ إلىٰ هرقلَ يدعوهُ إلىٰ اللهِ ـ جلَّ وعزَّ ـ وإلىٰ الإسلامِ ، ووجَّه إليهِ رجلاً مِن أصحابهِ ـ وهوَ جثامَةُ بنُ ساحقٍ الكنانيُّ ـ فلمَّا انتهىٰ إليهِ الرجلُ بكتابِ سيِّدنا عمرَ . . أجابَ إلىٰ كُلِّ شيءٍ سوىٰ الإسلامِ ، فلمَّا أَرادَ الرسولُ الانصرافَ . . قالَ لهُ هرقلُ : هلْ رأيتَ ابنَ عمِّكَ هذا الذي جاءَنا راغباً في دِيننا ؟

قالَ : لا ، قال : فالْقَهُ .

قالَ الرجلُ فتوجَّهتُ إليهِ ، فلمَّا انتهيتُ إلىٰ بابهِ . . رأَيتُ مِنَ البهجةِ والحسنِ والسرورِ ما لم أَرَ ببابِ هرقلَ مثلَهُ ، فلمَّا أُدْخِلْتُ عليهِ . . إذا هوَ في بهوٍ عظيمٍ ، وفيهِ مِنَ التصاويرِ مَا لا أُحْسِنُ وصفَهُ ، وإذا هوَ جالسٌ علىٰ سريرٍ مِن قواريرَ ، قوائمُهُ أربعَةُ أُسْدٍ مِن ذهبٍ . . . فلمَّا سلَّمتُ . . ردَّ السلامَ ، ورحَّبَ بي ، وألطفني ، ولامني علىٰ تركِ النزولِ عندهُ ، ثمَّ أقعدني علىٰ شيءٍ لَمْ أثبتْهُ ، فإذا هوَ كرسيٌّ مِن ذهبٍ ، فانحدرتُ عنهُ ، فقالَ : ما لكَ ؟ فقلتُ : إنَّ رسولَ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ نهىٰ عَن هذا . فقالَ جَبَلَةُ أيضاً : مثلَ قَولي فِي النبيِّ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ حينَ ذكرتُهُ ، وصلَّىٰ عليهِ .

ثمَّ قالَ : يا هذا . . إنَّكَ إذا طَهَّرتَ قلبكَ . . لَم يضرَّكَ ما لبستَهُ ولا ما جلستَ عليهِ ، ثمَّ سألَني عَنِ الناسِ ، وألحفَ في السؤالِ عَن عمرَ ـ رضيَ اللهُ عنهُ ـ ثمَّ جعلَ يفكِّرُ ، حتَّىٰ رأيتُ الحزنَ في وجهِهِ ، فقلتُ : ما يمنعكَ مِنَ الرجوعِ إلىٰ قومِكَ والإسلامِ ؟ فقالَ : أبعدَ الذي قد كانَ ؟ قلتُ : قدِ ارتدَّ الأشعثُ بنُ قيسٍ ، ومنعهمُ الزكاةُ ، وضربهم بالسيفِ ، ثمَّ رجعَ إلىٰ

. . . .

= الإسلامِ ، فتحدَّثنا مليّاً ، ثمَّ أومأَ إلىٰ غلامٍ لهُ ، فولَّىٰ يحضرُ ، فما كانَ إلاَّ هنيهةً . . حتَّىٰ أقبلتِ الأخونَةُ ، يحملُها الرجالُ ، فوُضِعتْ ، وجيءَ بخوانٍ مِن ذهبٍ فوضعَ أمامي ، فاستعفيتُ منهُ ، فوضعَ أمامي خوانُ خلنجٍ ، وجاماتُ قواريرَ ، وأُديرتِ الخمرُ ، فاستعفيتُ مِنها ، فلمَّا فَرغنا . . دَعا بكأسٍ مِن ذهبٍ ، فشربَ بهِ خمساً عدداً .

ثمَّ أومأَ إلىٰ غلامٍ ، فولَّىٰ يَحضرُ ، فما شعرتُ إلاَّ بعشرِ جوارٍ يتكسَّرنَ فِي الحُليِّ ، فقعدَ خمسٌ عَن يمينهِ ، وخمسٌ عَن شمالِهِ ، ثمَّ سمعتُ وَسوسةً مِن ورائي . . فإذا أنا بعشرٍ أفضلَ مِن الأُوَلِ ، عليهِنَّ الوشيُ والحُلِيُّ ، فقعدَ خمسٌ عن يمينهِ ، وخمسٌ عن شمالِهِ ، وأقبلتْ جاريةٌ علىٰ رأسِها طائرٌ أبيضُ كأنَّهُ لؤلؤةٌ ، وفي يدِها اليمنىٰ جامٌ فيهِ مِسْكٌ وعَنْبَرٌ . قد خُلِطا ، وأُنعِمَ سحقُهما ، وفي اليسرىٰ جامٌ ، وفيهِ ماءُ وردٍ ، فألقتِ الطائرَ في ماءِ الوردِ ، فتمعَّكَ بينَ جناحيهِ وظهرِهِ وبطنِهِ ، ثمَّ أخرجتهُ ، فألقَتْهُ في جامِ المسكِ والعنبرِ ، فتمعَّكَ فيها حتَّىٰ لَمْ يَدَعْ فيها شيئاً ، ثمَّ نفَّرتْهُ ، فسقطَ علىٰ تاجِ جَبَلَةَ ، ثُمَّ رَفرَفَ ونفضَ ريشَهُ ، فما بقيَ عليهِ شيءٌ إلاَّ سقطَ علىٰ رأسِ جَبَلَةَ ، ثمَّ قالَ للجواري : أَطربنَنِيْ ، فاندفعنَ يغنِّينَ بأبياتٍ ، فقالَ لي : هذا شعرُ حسَّانَ بنِ ثابتٍ ، شاعرِ رسولِ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ .

فقلتُ : أما إنَّه مضرورُ ٱلبصرِ ، كبيرُ السنِّ .

قالَ : يا جاريةُ هاتي ، فأتَتْهُ بخمسِ مئةِ دينارٍ ، وخَمْسةِ أثوابٍ مِن الديباجِ ، فقالَ ادفعْ هذا إلىٰ حسَّانَ ، وأقرئْهُ مِنِّي السلامَ ، ثمَّ سلمتُ عليهِ ، وٱنصرفتُ ، فلمَّا قدمتُ علىٰ عمرَ بنِ الخطَّابِ ـ رضيَ اللهُ عنهُ ـ سألَني عَن هرقلَ وَجَبَلَةَ ، فَقصَصْتُ عليهِ القصَّةَ مِن أوَّلِها إلىٰ آخرِها ، فقالَ : أَوَرأيتَ جَبَلَةَ يشربُ الخمرَ ؟ قلتُ : نَعَم .

قالَ : أبعدَهُ اللهُ ، تعجَّلَ فانيةً ٱشتراها بباقيةٍ ، فما ربِحتْ تجارتُهُ ، فهل سرَّحَ معكَ شيئاً ؟ قلتُ : سرَّحَ إلىٰ حسَّانَ خمسَ مئةِ دينارٍ ، وخمسةَ أثوابِ ديباجٍ .

فقالَ : هاتِها . وبعثَ إلىٰ حسَّانَ ، فأقبلَ يقودُهُ قائدُهُ ، حتَّىٰ دَنا فسلَّمَ ،

وأشارَ إليهَا المعريُّ في قولِهِ [في «سقطِ الزندِ» ١٢٤ مِنَ الوافرِ] :

بَنُـوْ أَمْـلاكِ جَفْنَـةَ قَـرَّبَتْهُـمْ ... إِلَىٰ ٱلرُّوْمِ ٱللَّجَاجَةُ وَٱلْعِنَادُ(١)

أَرَادَتْ أَنْ تُقِيْـدَهُـمُ قُـرَيْـشٌ ... وَكَـانُـوْا لاَ يُنَـالُ لَهُـمْ قِيَـادُ(٢)

وعرفَ قيسُ بنُ ذريحٍ قبرَ لُبنىٰ ، وكانُوا عمُّوهُ عليهِ كما في روايةٍ ، فما زالَ يتشمَّمُ ٱلقبورَ حتَّىٰ ٱهتدىٰ إِليهِ فقالَ [مِنَ الطَّويلِ] : القبر يدل على المقبور

أَرَادُوا لِيُخْفُوْا قَبْرَهَا عَنْ مُحِبِّهَا ... وَلَـٰكِنَّ طِيْبَ ٱلْقَبْرِ دَلَّ عَلَىٰ ٱلْقَبْرِ

وعرفَ بعضهمُ قبرَ ٱبنِ الفارضِ بطيبهِ ، وآثارِ الذلِّ الغراميِّ عليهِ ، فقالَ [مِنَ الطَّويلِ] : قبور العاشقين

مَسَاكِيْنُ أَهْلُ ٱلْعِشْقِ حَتَّىٰ قُبُوْرُهُمْ ... عَلَيْهَا تُرَابُ ٱلذُّلِّ بَيْنَ ٱلْمَقَابِرِ(٣)

= وقالَ : يا أميرَ المؤمنينَ إنِّي لأجدُ أرواحَ آلِ جفنةَ ، فقالَ سيِّدُنا عمرُ : قد نزعَ اللهُ تباركَ وتعالىٰ لكَ منهُ علىٰ رغمِ أنفهِ ، وأتاكَ بمعونةٍ .

فانصرفَ وهو يقولُ :

إِنَّ ٱبْـنَ جَفْنَـةَ مِـنْ بَقِيَّـةِ مَعْشَـرٍ ... لَـمْ يَغْـذُهُـمْ آبَـاؤُهُـمْ بِـٱللُّـوْمِ

.... الأبياتِ .

والقصَّةُ في «الأغاني» (١٥/ ١٦٣) و«الاستقصا لأخبار دُوَلِ المغرب الأقصىٰ» (١/ ٨٤) و«البداية والنهاية» (٨/ ٦٦) .

(١) اللجاجةُ : التمادي في العنادِ .

(٢) تُقِيدهُم : تقتصُّ منهُم .

(٣) جاءَ في «مصارعِ العشَّاقِ» (١/ ١٣٠) :

وجدتُ في مجموعٍ سمَّاهُ جامعهُ «زهرُ الربيعِ» قالَ : أنشدتُ عبدَ اللهِ بنَ المعتزِّ :

مَسَاكِيْنُ أَهْلُ ٱلْعِشْقِ حَتَّىٰ قُبُوْرُهُمْ ... عَلَيْهَا تُرَابُ ٱلذُّلِّ بَيْنَ ٱلْمَقَابِرِ

فقالَ لي : لعنَ اللهُ صاحبَ هذا الشِّعرِ ، لاَ واللهِ ما أَذَلَّ اللهُ ترابَ قبرِ عاشقٍ=

كل ما يتصل بالحبيب حبيب

وممَّا يتَّصلُ بمعنىٰ البيتِ الذي نتكلَّم عليهِ . . قولُ قيسِ بنِ ذريحٍ أَوِ ٱلمجنونِ ، فقد عُزيَ إلىٰ كلٍّ منهما ، أَو هِيَ أَبياتٌ لَهُما ، تداخلَت في بعضِها فكانَتْ من أَرقِّ النسيبِ ، وَهِيَ [في « ديوانِ المجنونِ » ٥٢ـ٥٣ مِنَ الطَّويلِ] :

جَرىٰ ٱلسَّيْلُ فَٱسْتَبْكَانِيَ ٱلسَّيْلُ إِذْ جَرىٰ وَفَاضَتْ لَهُ مِنْ مُقْلَتَيَّ غُرُوْبُ[١]
وَمَا ذَاكَ إِلاَّ حِيْنَ أَيْقَنْتُ أَنَّهُ يَكُوْنُ بِوَادٍ أَنْتِ مِنْهُ قَرِيْبُ
يَكُوْنُ أُجَاجاً دُوْنَكُمْ فَإِذَا ٱنْتَهىٰ إِلَيْكُمْ تَلَقَّىٰ طِيْبَكُمْ فَيَطِيْبُ
فَيَا سَاكِنِيْ أَكْنَافِ نَخْلَةَ كُلُّكُمْ إِلَىٰ ٱلْقَلْبِ مِنْ أَجْلِ ٱلْحَبِيْبِ حَبِيْبُ
أَظَلُّ غَرِيْبَ ٱلدَّارِ فِيْ أَرْضِ عَامِرٍ إِلَىٰ كُلِّ مَهْجُوْرٍ هُنَاكَ غَرِيْبُ

ويشبِهُهَا قولُ الناظمِ [في « العُكبَريّ » ٣/٩٦ـ٩٧ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا كَانَ شَمُّ ٱلرِّيْحِ أَدْنَىٰ إِلَيْكُمُ فَلاَ بَرِحَتْنِيْ رَوْضَةٌ وَقَبُوْلُ
وَمَا شَرَقِيْ بِٱلْمَاءِ إِلاَّ تَذَكُّراً لِمَاءٍ بِهِ أَهْلُ ٱلْحَبِيْبِ نُزُوْلُ[٢]

الخلاف في مسألة القناعة في الحب

وكأنِّي بِمَن ينكرُ تباينَ ما سقْنَا مِنَ ٱلشواهدِ لذكرِ الروائحِ والنسائمِ مِنْ حيثُ إِنَّ بعضَهم يتعلَّلُ بها ويتسلَّى ، ويحصلُ لداءِ

= قطُّ ، بَل أَجلَّهُ وشرَّفهُ ونضَّرهُ وحسَّنَهُ .

قالَ ٱبنُ المعتزِّ : وَلي في هذا المعنىٰ أَملحُ مِن قولِ هذا البارد وأَنشدني لنفسهِ :

مَرَرْتُ بِقَبْرٍ مُشْرِقٍ وَسْطَ رَوْضَةٍ عَلَيْهِ مِنَ ٱلأَنْوَارِ مِثْلُ ٱلشَّقَائِقِ
فَقُلْتُ: لِمَنْ هَذَا؟ فَقَالَ لِيَ ٱلثَّرىٰ تَرَحَّمْ عَلَيْهِ إِنَّهُ قَبْرُ عَاشِقِ

(١) الغُروبُ ـ جمعُ غربٍ ـ : وهوَ الدلوُ العظيمةُ .
(٢) الشَّرَقُ : الاختناق بالماءِ أَو الريقِ أو النَّفَسِ .

غرامِهِ بعضُ الشفا ، وتزيدُ آخرينَ وجداً وغراماً وتَبَلاً[1] واَضطراماً ، ونقولُ لاَ مُشَاحَّةَ ما دامَتْ نوعاً مِنَ ٱلوصالِ المختَلَفِ فيهِ أَيضاً ؛ إِذْ لا يقتنعُ بعضُهم حَتَّىٰ تمتزجَ الأَرواحُ ـ كما سيأْتِي في غيرِ هٰذا الموضعِ ـ ويقتنعُ بعضُهم بأَدنىٰ شيءٍ ، كما سبقَ في المجلسِ الثاني حيثُ ذكرْنا قولَ اَبنِ الدُّمينةِ [مِنَ الطَّويلِ] :

رَضِيتُ بِسَعْيِ ٱلْوَهْمِ بَيْنِيْ وَبَيْنَهَا ... وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيْ ٱلْوَصْلِ مِنْهُ نَصِيبُ

وقولُ كُثيِّرٍ [في « وفيات الأعيان » ١/ ٣٦٨ مِنَ الطَّويلِ] :

وَإِنِّيْ لأَرْضَىٰ مِنْكِ يَا عَزُّ بِالَّذِيْ ... لَوَ اَبْصَرَهُ ٱلْوَاشِيْ لَقَرَّتْ بَلاَبِلُهْ

. . . الأَبيات .

وقولُ جحدرٍ [في « البداية والنهاية » ٩/ ١٢٥ مِنَ الوافرِ] :

أَلَيْـسَ ٱللَّيْـلُ يَجْمَـعُ أُمَّ عَمْـرٍو ... وَإِيَّـانَـا فَـذَاكَ بِنَـا تَـدَانِـيْ

والذي بعدهُ .

وقالَ قيسُ بنُ ذريحٍ فيما يشبهُ قولَ جحدرٍ [في « ديوانهِ » ٦٠-٦١ مِنَ الطَّويلِ] :

أَلَيسَتْ لُبَيْنَىٰ تَحتَ سَقْفٍ يُكِنُّهَا ... وَإِيَّايَ ؟ هَـٰذَا إِنْ نَأَتْ لِيَ نَافِعُ[2]

وَيَلْبَسُنَـا ٱللَّيْـلُ ٱلْبَهِيْـمُ إِذَا دَجَـا ... وَنُبْصِرُ ضَوْءَ ٱلصُّبْحِ وَٱلْفَجْرُ سَاطِعُ

تَطَا تَحتَ رِجْلَيْهَا بِسَاطاً وَبَعْضَهُ ... أَطَاْهُ بِرِجْلِيْ لَيْسَ يَطْوِيْهِ مَانِعُ[3]

---

(١) تَبَلَ ٱلحبُّ الإنسانَ : أَسقمهُ وأَفسدَهُ وذهبَ بعقلِهِ .

(٢) الكِنُّ : وقاءُ كلِّ شيءٍ وسترهُ .

(٣) تطا : أي تطأُ ، وهذا ما يُسمَّىٰ تسهيل الفعل المهموز .

وقالَ [في « ديوانهِ » ١٤٣ مِنَ ٱلكاملِ] :

وَيَقَــرُّ عَيْنِــيَ وَهْــيَ نَــازِحَــةٌ ... مَــا لاَ يَقَــرُّ بِعَيْــنِ ذِيْ ٱلْحُلُــمِ
أَنِّـــيْ أَرَىٰ وَأَظُنُّهَـــا سَتَــرَىٰ ... وَضَــحَ ٱلنَّهَــارِ وَعَــالِـيَ ٱلنُّجُـمِ

ذكـر زيـارة الطيـف والمام الشعراء به

وكثيرٌ مَن يتمتعُ بالخيالِ ، ويتعلَّلُ بالآمالِ ، وأَوَّلُ مَن ذكرَ زيارةَ الطيفِ ـ فيما يُروى ـ جرانُ العودِ في قولِهِ [في « ديوانهِ » ٥٥ مِنَ ٱلبسيطِ] :

سَقْياً لِـزَوْرِكَ مِـنْ زُوْرٍ أَتَـاكَ بِـهِ ... حَدِيْثُ نَفْسِكَ عَنْهُ وَهْوَ مَشْغُولُ(١)

ثُمَّ ٱقتفاهُ العبَّاسُ بنُ الأَحنفِ ، وتلقَّاهُ أَبو تمَّامٍ ، وأَكْثَرَ التصرُّفَ فيهِ أَبو عُبادةَ ، ومِن أَحسنِ ما لَهُ فيهِ قولُهُ [في «ديوانه» ٣/ ١٥٠٤ مِنَ الطَّويلِ] :

فَكَمْ غُلَّةٍ لِلشَّوْقِ أَطْفَأْتُ حَرَّهَا ... بِطَيْفٍ مَتَىٰ مَا يَطْرُقِ ٱللَّيْلُ يَطْرُقِ

وقولُهُ [في « ديوانهِ » ٢/ ١٠٠٤ مِنَ الطَّويلِ] :

وَكَمْ فِيْ ٱلدُّجَا مِنْ فَرْحَةٍ بِلِقَائِهَا ... وَمِنْ تَرْحَةٍ بِٱلْبَيْنِ مِنْهَا لَدَىٰ ٱلْفَجْرِ
إِذَا ٱللَّيْلُ أَعْطَانَا مِنَ ٱلْوَصْلِ بُلْغَةً ... ثَنَتْنَا تَبَاشِيْرُ ٱلنَّهَارِ إِلَىٰ ٱلْهَجْرِ
وَلَمْ أَنْسَ إِسْعَافَ ٱلْكَرَىٰ بِدُنُوِّهَا ... وَزَوْرَتَهَا بَعْدَ ٱلْهُدُوِّ وَمَا تَدْرِيْ(٢)
وَأَخْذِيْ بِعِطْفَيْهَا وَقَدْ مَالَ رِدْفُهَا ... بِطَيِّعَةِ ٱلْعِطْفَيْنِ مَهْضُوْمَةِ ٱلْخَصْرِ(٣)
عِنَاقٌ يُرَوِّيْ غُلَّتِيْ وَهْوَ بَاطِلٌ ... وَلَوْ أَنَّهُ حَقٌّ شَفَىٰ لَوْعَةَ ٱلصَّدْرِ

وقولُهُ [في « ديوانهِ » ٣/ ١٤٧٥ مِنَ ٱلكاملِ] :

وَلَرُبَّمَا كَانَ ٱلْكَرَىٰ سَبَبَاً لَنَا ... بَعْدَ ٱلْفِرَاقِ إِلَىٰ ٱللِّقَاءِ فَنَلْتَقِيْ

---

(١) الزَّورُ : الزائرُ . والزُّورُ : الكذبُ .
(٢) الكرى : النومُ .
(٣) عطفيها : جانبيها .

مُتَذَاكِرَانِ عَلَىٰ ٱلْبِعَادِ فَمَا يَنِيْ ... يُهْدِيْ ٱلْغَرَامَ مُغَرِّبٌ لِمُشَرِّقِ(1)

وقولُهُ [في «ديوانه» ٣/ ١٢٣٧ مِنَ الطَّويلِ] :

فَـلاَ وَصْـلَ إِلاَّ أَنْ يَطِيْـفَ خَيَـالُهَـا ... بِنَا تَحتَ جُؤْشُوْشٍ مِنَ ٱللَّيْلِ أَسْفَعِ(2)

أَلَمَّتْ بِنَا بَعْدَ ٱلْهُدُوِّ وَسَامَحَتْ ... بِوَصْلٍ مَتَىٰ نَطْلُبْهُ فِيْ ٱلْجِدِّ تَمْنَعِ

وقولُهُ [في «ديوانه» ٣/ ١٩٨٤ مِنَ ٱلكاملِ] :

أَهْـلاً بِـزَائِـرِهِ ٱلْمُلِـمِّ لَـوَ انَّـهُ ... عَرَفَ ٱلَّذِيْ يَعْتَادُ مِنْ إِلْمَامِهِ(3)

جَذْلاَنَ يَسْمَحُ فِيْ ٱلْكَرَىٰ بِعِنَاقِهِ ... وَيَضِنُّ فِيْ غَيْرِ ٱلْكَرَىٰ بِسَلاَمِهِ

وقولُهُ [في «ديوانه» ٣/ ١٦٠٧ـ١٦٠٨ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَيْلَةَ هَوَّمْنَا عَلَىٰ ٱلْعِيسِ أَرْسَلَتْ ... بِطَيْفِ خَيَالٍ يُشْبِهُ ٱلْحَقَّ بَاطِلُهْ

فَلَوْلاَ بَيَاضُ ٱلصُّبْحِ طَالَ تَشَبُّثِيْ ... بِعِطْفَيْ غَزَالٍ بِتُّ وَهْنَاً أُغَازِلُهْ(4)

وَكَمْ مِنْ يَدٍ لِلَّيْلِ عِنْدِيْ حَمِيْدَةٍ ... وَلِلصُّبْحِ مِنْ خَطْبٍ تُذَمُّ غَوَائِلُهْ(5)

وقدْ أغارَ الناظمُ علىٰ الأخيرِ في قولِهِ [في «العكبري» ١/ ١٦١ مِنَ ٱلبسيطِ] :

أَزُوْرُهُـمْ وَسَـوَادُ ٱللَّيْـلِ يَشْفَـعُ لِـيْ ... [وَأَنْثَنِيْ وَبَيَاضُ ٱلصُّبْحِ يُغْرِيْ بِيْ]

وقولِهِ [في «العُكبَريّ» ١/ ١٧٨ مِنَ الطَّويلِ] :

وَكَمْ لِظَلاَمِ ٱللَّيْلِ عِنْدِيَ مِنْ يَدٍ ... تُحَدِّثُ أَنَّ ٱلْمَانَوِيَّةَ تَكْذِبُ(6)

---

(١) يني : يتوانىٰ . المغرِّبُ : الذي يسكنُ في الغربِ . والمشرِّقُ : الذي يسكنُ في الشرقِ .

(٢) الجُؤْشُوْشُ : الصدرُ . أَسفَعُ : السُّفعة ، السوادُ المشرَّب بالحمرة .

(٣) يعتاد : ينتابُ . إلمامُ الطيفِ : زيارتُهُ .

(٤) الوهن : حين إدبارِ الليلِ .

(٥) غوائلُهُ : عواقبُهُ .

(٦) المانويَّةُ : قومٌ يُنْسبون إلىٰ (ماني) ، وهوَ رجلٌ يقولُ : الخيرُ مِن النهارِ ، والشرُّ مِنَ=

وقالَ الحُطيئةُ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَفِـيْ كُـلِّ مُمْسَـىٰ لَيْلَـةٍ وَمُعَـرَّسٍ ... خَيَالٌ يُوَافِيْ الرَّكْبَ مِنْ أُمِّ مَعْبَدِ(١)

وقالَ قيسُ بنُ ذريحٍ [في « ديوانِهِ » ١٥٠ مِنَ الطَّويلِ] :

وَإِنِّي لأَهْوَىٰ النَّوْمَ مِنْ غَيْرِ نَعْسَةٍ ... لَعَـلَّ لِقَـاءً فِـيْ الْمَنَـامِ يَكُـوْنُ

تُخَبِّـرُنِـيْ الأَحْـلاَمُ أَنِّـيْ أَرَاكُـمُ ... فَيَـا لَيْـتَ أَحْـلاَمَ الْمَنَـامِ يَقِيْـنُ

وقالَ المجنونُ [في « ديوانِهِ » ٢٩٩ـ٣٠١ مِنَ الطَّويلِ] :

وَإِنِّيْ لأَسْتَغْشِيْ وَمَا بِيَ نَعْسَةٌ ... لَعَلَّ خَيَالاً مِنْكِ يَلْقَىٰ خَيَالِيَا(٢)

وَأَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الْبُيُوْتِ لَعَلَّنِيْ ... أُحَدِّثُ عَنْكِ النَّفْسَ بِالسِّرِّ خَالِيَا

وقالَ عمرُو بنُ قميئةَ [في « الأغاني » ١٨/ ١٤١ مِنَ المتقاربِ] :

نَـأَتْـكَ أُمَـامَـةُ إِلاَّ سُـؤَالاَ ... وَإِلاَّ خَيَـالاً يُـوَافِـيْ خَيَـالاَ

يُـوَافِـيْ مَـعَ اللَّيْـلِ مِيْعَـادُهَـا ... وَيَـأْبَـىٰ مَـعَ الصُّبْـحِ إِلاَّ زَيَـالاَ

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ الزبيرِ الأسديُّ [مِنَ الكاملِ] :

سَقْياً لِطَيْفِكِ مِنْ خَيَالٍ طَارِقٍ ... وَلَّىٰ وَحُسْنُ حَدِيْثِهِ لَمْ يُسْأَمِ

أَنَّـىٰ اهْتَـدَيْـتِ وَأَنْـتِ غَيْـرُ خَبِيْـرَةٍ ... لِمَبِيْـتِ شُعْـثٍ كَـالأَسِنَّـةِ سُهَّـمِ(٣)

= الليلِ ، وانتحلَ هٰذا المذهبَ ، فردَّ عليهِ المتنبي بقولِهِ هذا ، وقالَ : ليسَ الأمرُ كما يقولُ هؤلاءِ ؛ لأنَّهُ كم هناكَ مِن نِعمةٍ لليلِ عندي ، فتبيَّنَ كذبُ هؤلاءِ الذينَ ينسبونَ الشرَّ إلىٰ الظلمةِ والليلِ .

(١) المعرَّسُ : آخرُ الليلِ .

(٢) غِشَاءُ كلِّ شيْءٍ : غطاؤُهُ .

(٣) الأشعثُ : المغبرُّ الرأسِ . الأسنَّةُ : الرماحُ . سُهَّمٌ : ضامرٌ ، متغيِّرُ اللونِ ، ذابلُ الشفتينِ ، عابسٌ مِن شدَّةِ الهمِّ .

وقالَ النظّارُ الفقعسيُّ [في « الأغاني » ١٩/ ٢٤٤ مِنَ ٱلكاملِ] :

أَنَّىٰ ٱهْتَـدَت لِمُنَـاخِنَـا جُمْـلُ وَمِـنَ ٱلْكَـرَىٰ لِعُيُـونِنَـا كُحْـلُ
طَـرَقَـتْ أَخَـا سَفَـرٍ وَنَـاجِيَـةً خَـرْقَـاءَ يُعْـرِقُ نَيَّهَـا ٱلـرَّحْـلُ[١]
فِـيْ مَهْمَـهٍ هَجَـعَ ٱلـدَّلِيْـلُ بِـهِ وَتَعَلَّلَـتْ بِصَـرِيْفِهَـا ٱلبُـزْلُ[٢]

وقالَ قيسُ بنُ الأَسلتِ أَو قيسُ بنُ الخطيمِ [بل لقيسِ بنِ الخَطيمِ كما في « ديوانِه » ١٦٠ مِنَ ٱلكاملِ] :

مَـا تَمْنَعِـيْ يَقْظَـىٰ فَقَـدْ تُـؤْتِيْنَـهُ فِـيْ ٱلنَّوْمِ غَيْرَ مُصَرَّدٍ مَحْسُوْبِ[٣]

وقدِ ٱختُلِفَ في جرانِ العودِ الذي قيلَ : إنهُ أَوَّلُ من وصفَ الطيفَ ، فقيلَ : إِنَّهُ جاهليٌّ ، ولا إِشكالَ حينئذٍ ، وقيلَ : إِنَّهُ إِسلاميٌّ وبهِ وجهٌ مِنَ ٱلنظرِ ، لما مرَّ بكَ من شعرِ الجاهليِّينَ فيهِ ، وقيلَ : إِنَّهما ٱثنانِ . الخلاف في اسم أول من وصف الطيف

وكثيرٌ مِن أَهلِ الأَدبِ من يخافُ أَنْ يحميَ معشوقَهُ المنامَ ، كما يأْتي في شرحِ قولِهِ [في « العُكبَريّ » ١/٣١٩ مِنَ ٱلخفيفِ] : ليس الغنم بالغرم

أَيَّ يَـوْمٍ سَـرَرْتَنِـيْ بِـوِصَـالٍ لَـمْ تَـرُعْنِـيْ ثَـلاَثَـةً بِصُـدُوْدِ

---

(١) الخرقاءُ : هيَ الدابَّةُ التي في أُذُنها ثُقبٌ . يُعرِقُ : مِنَ التعرُّقِ . نيَّها : شحمَها .
(٢) تعلَّلَت : أَي شربَتْ المرةَ بعدَ الأُخرىٰ . الصريفُ : الحليبُ حينَ يحلبُ . البُزْلُ : أَي النوقُ .
(٣) مُصَرَّدٌ : مقلَّلٌ . محسوبٌ : قال الشريف المرتضىٰ : تحتمل في البيت معنيين : أحدهما : من الحساب وهو العدُّ ؛ لأن الشيء القليل يوصف بأنَّهُ معدود ومحسوب ، والثاني : أن يكون « محسوب » من الحُسبانِ وهو أنه غير متوقَّع .

التناوم من أجل رؤيا خيال الحبيب

ومنهم : مَن يتطلَّبُ الإغفاءَ لِكَي يصطادَ بهِ الخيالَ ، كما سيأْتِيْ مِن قولِ مِهْيَارٍ [في « ديوانهِ » ٣/ ٣٢٨ مِنَ الرَّمَلِ] :

وَٱبْعَثُوا أَشْبَاحَكُمْ لِيْ فِيْ ٱلْكَرَىٰ   إِنْ أَذِنْتُمْ لِجُفُوْنِيْ أَنْ تَنَامَا

وقولِ سلطانِ العاشقينَ [في « ديوانهِ » ١٥٧ مِنَ ٱلخفيفِ] :

أَوْ مُرِ ٱلْغُمْضَ أَنْ يَمُرَّ بِجَفْنِيْ   فكَأَنِّيْ بِهِ مُطِيْعَاً عَطَاكَا

زيادة النار حطباً

أَمَّا قولُ نديمِ المتوكِّلِ عليِّ بنِ النجمِ [في « وفيات الأعيان » ٣/ ٣٧٤ مِنَ ٱلمديدِ] :

زَارَنِيْ طَيْفُ ٱلْحَبِيْبِ فَمَا   زَادَ أَنْ أَغْرَىٰ بِيَ ٱلأَرَقَا

فليسَ بأَغربَ مِمَّا يأْتِيْ عَن أَهلِ المحبةِ الصادقةِ أَوائِلَ المجلسِ السادسَ عشرَ .

* * *

[قالَ أَبو الطَّيبِ ٱلمتنبي في « ٱلعُكبَرِيِّ » ٣/ ١٦٥ مِنَ ٱلبسيطِ] :

عَلَّ ٱلأَمِيرَ يرَىٰ ضَعْفِي فَيَشْفَعَ لِيْ إِلَىٰ ٱلَّتِيْ تَرَكَتْنِيْ فِيْ ٱلْهَوَىٰ مَثَلاَ

الـذل فـي الهـوىٰ والشفاعة فيه

يقولُ : علَّ الأَميرَ الممدوحَ يطَّلِعُ علىٰ ذُلِّي وضَعفي في ٱلهوىٰ ، فيشفعَ لي إِلىٰ التي تركتْني مضربَ المثلِ في الغرامِ ، لتواصِلَني بشفاعتِهِ ، وهُوَ من قولِ أَبي نُوَاسٍ [في « ديوانهِ » ٥٨٥ مِنَ الطَّويلِ] :

سَأَشْكُوْ إِلَىٰ ٱلْفَضْلِ بْنِ يَحْيَىٰ بْنِ خَالِدٍ هَـوَاهَـا لَعَـلَّ ٱلْفَضْـلَ يَجْمَـعُ بَيْنَنَـا

وقـولُ أَبي نُـوَاسٍ أَحسـنُ ؛ لأَنَّ الجمـعَ قـد يكـونُ بـأَن يعطيـهِ ما يتوصَّلُ بهِ إِلىٰ المحبوبةِ ، وأَمَّا الشفاعةُ فباللسانِ وذلِكَ نوعٌ مِنَ ٱلقيادةِ ، كذا قالَ الشارحُ .

تعصـب الفضـل بـن يحيى على أبي نواس

ولم يكنِ ٱلسببُ في الزرايةِ علىٰ هـٰذا إِلاَّ أَنَّ الفضلَ بنَ يحيىٰ كانَ متعصِّباً علىٰ أَبي نُوَاسٍ ، يفضِّل عليهِ مسلمَ بنَ الوليدِ ، حتَّىٰ لقد ٱستؤذِنَ لهُ يوماً فأَعظمهُ ، وأَكرمهُ ، وٱستنشدهُ ، وخلعَ عليهِ ، وأَجازهُ ، فما ٱنصرفَ حتَّىٰ جاءَ أَبو نُوَاسٍ ، فٱمتنعَ مِنَ الإِذنِ لهُ ، حتَّىٰ سأَله بعضُ مَن حضرَ أنْ يأْذَنَ لَهُ ، ففعلَ على تَكرُّهٍ منهُ ، فلمَّا دخلَ . . سلَّم ، قالَ الراوي : فما علمتُ أَنَّهُ ردَّ عليهِ ولاَ أَمرهُ بالجلوسِ ، ولاَ رفعَ إِليهِ رأْسهُ ، فلمَّا طالَ عليهِ الوقوفُ . . قالَ معيَ أَبياتٌ أَفَأُنْشِدُها ؟ قالَ : نَعَم ، فقالَ [في « ديوانه » ٥٨٤ مِنَ الطَّويلِ] :

طَرَحْتُمْ عَلَىٰ ٱلتَّرْحَالِ أَمْراً فَغَمَّنَا وَلَوْ قَدْ فَعَلْتُمْ صَبَّحَ ٱلْمَوْتُ بَعْضَنَا

حتَّىٰ بلغَ قولَهُ : (سأَشْكُوْ إِلَىٰ ٱلْفَضْلِ بْنِ يَحْيَىٰ بْنِ خَالِدٍ) . .

البيتَ ، فقطَّبَ وجهُ ٱلفضلِ ، وقالَ لأَبي نُوَاسٍ : أَمسِكْ ، عليكَ لعنةُ ٱللهِ ، وأَمرَ بإخراجِهِ محروماً ، وٱلتفتَ ٱلفضلُ إِلىٰ أَنسِ ٱبنِ أَبي شيخٍ وقالَ : ما رأيتُ مثلَ هـٰذا الرَّجلِ ، ولا أَقلَّ تمييزاً في كلامِهِ ، قالَ أَنسٌ : إِنَّ ٱسمَهُ كبيرٌ ، فقالَ : عندَ مَنْ ؟ ويلكَ ! ليسَ إِلاَّ عندَ مَنْ يُشاكِلُهُ مِنَ ٱلسُّقَّاطِ ، قالَ أَنسٌ: وأَينَ هوَ مِنْ مُسلمٍ ، فقالَ ٱلفضلُ : وٱللهِ لأَحجبنَّكَ ثلاثاً ، ولا كلَّمتُكَ سبعاً ؛ إِذ كانَ هـٰذا مبلغَ علمكَ ، ونهايةَ تمييزكَ ، وٱللهِ إِنَّ مُسلماً ليفضُلُ عندي الطَّبقةَ ٱلمتقدِّمةَ .

ليست الشفاعة من باب القيادة

وٱلحقُّ : أَن لا غضاضةَ في شيءٍ ممَّا فعلَهُ ٱلمتنبِّي وأَبو نُوَاسٍ ؛ إِذ للسَّلفِ مِنْ مثلِهِ ٱلكثيرُ الطَّيِّبُ .

شفاعته ﷺ لمغيث عند بريرة

وهـٰذا رسولُ ٱللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ يشفَعُ لمغيثٍ عندَ بريرةَ أَن تستديمَ نكاحَه بعد أن عَتَقَت ، فلَم تقبلْ[1] ، فهلْ مِن غضاضةٍ في رجوعِ مغيثٍ إِلىٰ رسولِ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ وتشفُّعِهِ بهِ إِلىٰ بريرةَ ؟ لا وٱللهِ .

ابن أبي عتيق يسعى في طلاق لبنى لتعود إلى قيس

وهـٰذا ٱبنُ أَبي عَتيقٍ يَسعىٰ في طلاقِ لُبنىٰ مِنْ زوجِها ؛ لِترجعَ إِلىٰ قيسٍ ، وفيهِ يقولُ [في « ديوانهِ » ٨٥ مِنَ ٱلوافرِ] :

جَزَىٰ ٱلرَّحمَـٰنُ أَفضَلَ مَا يُجَازِيْ   عَلَىٰ ٱلإِحْسَانِ خَيْراً مِنْ صَدِيْقِ

---

(١) وذلك لما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند البخاري (٥٢٨٣) في الطلاق أَنَّ زوجَ بريرةَ كانَ عبداً ، يقالُ لهُ : مغيثٌ ، كأَنِّي أَنظرُ إِليهِ يطوفُ خلفَهَا يبكي ، ودموعُهُ تسيلُ علىٰ لحيتهِ ، فقالَ النبيُّ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ لعبَّاسٍ : « يَا عَبَّاسُ أَلاَ تَعْجَبُ مِنْ حُبِّ مُغِيْثٍ بَرِيْرَةَ ، وَمِنْ بُغْضِ بَرِيْرَةَ مُغِيْثاً ؟ » فقالَ النبيُّ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ « لَوْ رَاجَعْتِهِ » قالَتْ : يا رسولَ اللهِ . . أَتأمرُني ؟ قالَ : « إِنَّمَا أَنَا شَافِعٌ » ، قالت : لا حاجةَ لِي فيهِ .

فَقَدْ جَرَّبْتُ إِخْوَانِيْ جَمِيْعاً ... فَمَا أَلْفَيْتُ كَابْنِ أَبِيْ عَتِيْقِ
سَعَىٰ فِيْ جَمْعِ شَمْلِيْ بَعْدَ صَدْعٍ ... وَرَأْيٍ حِدْتُ فِيْهِ عَنِ ٱلطَّرِيْقِ[1]
وَأَطْفَأَ لَوْعَةً كَانَتْ بِقَلْبِيْ ... أَغَصَّتْنِيْ حَرَارَتُهَا بِرِيْقِيْ[2]

قصة ابن ذريح ولبنىٰ

وقيسٌ هٰذا : هوَ ٱبنُ ذُريحٍ مِنْ بني عُذرةَ ، وكانَ رضيعَ ٱلحُسينِ بنِ عليٍّ ـ رضيَ ٱللهُ عنهُما ـ أَرضعَتْهُما أُمُّ قيسٍ ، وكانَ خرجَ لبعضِ حاجتهِ ، فمرَّ بخيامِ بني كعبِ بنِ خزاعةَ ، والحيُّ خُلوفٌ[3] ، فوقفَ يَستسقي ببابِ خيمةٍ ، فخرجَتْ إِليهِ لُبنىٰ بنتُ ٱلحُبابِ ٱلكعبيَّةُ ، وكانتِ ٱمرأةً مديدةَ ٱلقامةِ ، شهلاءَ[4] ، حلوةَ ٱلمَنظرةِ وٱلكلامِ ، فوقعَتْ في نفسِهِ ، وعرضَتْ عليهِ ٱلقِرىٰ ، فنزلَ وأَكرمَهُ أَبوها ، ثُمَّ ٱنصرفَ وفي قلبه حرٌّ لا يُطْفَىٰ ، فجعلَ ينطقُ بالشعرِ فيهَا ، حَتَّىٰ شاعَ ورواهُ الناسُ ، ثُمَّ أَتاها يوماً آخرَ وقدِ ٱشتدَّ وجدهُ بها فسلَّم ، فظهرتْ لهُ وردَّتْ سلامَهُ ، فشَكا إِليها ما يجدُ من حبِّها ، فبَكَت وشَكَت إِليهِ مثلَ ذلكَ ، وعرفَ كلٌّ منهُما ما لصاحبِهِ عندَ الآخرِ .

وٱنصرفَ إِلىٰ أَبيهِ وسأَلهُ أَنْ يخطِبَها لهُ ، فأَبىٰ عليهِ ، وقالَ لَه : بناتُ عمِّكَ أَحقُّ بكَ ، وكانَ موسراً كثيرَ المالِ ، فكرهَ أَنْ يخرجَ ٱبنهُ إِلىٰ الغريبةِ ، فشكا إِلىٰ أُمِّهِ ما لقيَ من والدهِ ، وٱستعانَ بِهَا علىٰ أَبيهِ ، فلَمْ يجدْ عندَها الذي يحبُّ ، فأَتَىٰ الحسينَ بنَ عليٍّ

---

(١) صَدْعٌ : تفرُّقٌ .
(٢) ٱنظر « خزانةَ الأَدبِ » (١/ ٣٣٢) .
(٣) أي : والحيُّ خالٍ مِنَ النَّاسِ ، قد ذهبوا يَستقونَ ، وخلَّفوا أَثقالَهُم ، ويُقالُ : هُم خُلوفٌ ، أَي : غُيَّبٌ .
(٤) الشَّهلاءُ : هيَ ٱلمرأَةُ ٱلَّتي في عينها زُرقَةٌ .

ـ رَضِيَ اللهُ عَنهُما ـ وشكَا إِليهِ ما بهِ ، وما ردَّ عليهِ أَبوهُ ، فقالَ : أَنا أَكفيكَ ، ومشىٰ معهُ إِلىٰ وَالدِ لُبنى ، فلمَّا بصُرَ بهِ . . أَعظمهُ ، ووثبَ إِليهِ ، وقالَ : يا ٱبنَ رسولِ اللهِ ما جاءَ بكَ ؟ أَلاَ بعثتَ إِليَّ فآتيكَ ، قالَ : إِنَّ الذي جئتُ فيهِ يوجِبُ قصدَكَ ، جِئتُكَ أَخطبُ ٱبنتكَ لبنىٰ لقيسِ بنِ ذريحٍ ، فقالَ : يا ٱبنَ رسولِ اللهِ ، ما كنَّا لنعصيَ لكَ أَمراً ، وما بنا رغبةٌ عَنِ ٱلفتىٰ ، وأَحبُّ الأَمرِ إِلينا أَنْ يُشْرِكَ أَبوهُ في الخطبةِ ؛ لِئَلاَّ يكونَ عاراً وسُبَّةً علينَا ، فأَتىٰ الحسينُ ذُريحاً وهُوَ في قومهِ ، فقاموا إِليهِ إِعظاماً لهُ ، فقالَ لِذريحٍ : أَقسمتُ عليكَ إِلاَّ خطبتَ لُبنىٰ علىٰ قيسٍ ، قالَ : السمعُ والطاعةُ لأَمركَ ، فخرجَ معهُ في وجوهِ قومهِ حتَّىٰ أَتوا حيَّ لبنىٰ ، فخطبَها ذريحٌ علىٰ ٱبنهِ إِلىٰ أَبيهَا ، وبَنَى علَيها ، وأَقامَ معَها مدَّةً ، فمرضَ ، فقالَتْ أُمُّهُ لأَبيهِ : لقد خشيتُ أَنْ يموتَ قيسٌ ولا يتركَ خَلفاً ، وقد حُرِمَ الولدَ من هـٰذي المرأَةِ ، وأَنتَ ذو مالٍ فيصيرَ مالكَ إِلىٰ الكلالةِ ، فزوِّجه بغيرِها ، علَّ اللهَ أَن يرزقَه الولدَ ، وأَلحَّتْ عليهِ في ذلكَ ، فعرضَ عليهِ ذلكَ ذريحٌ ، فقالَ : لستُ متزوِّجاً بغيرِها أَبداً ، قالَ : فَتَسرَّ بالإِمَاءِ ، قالَ : وَلاَ أَسوؤُهَا بِشيءٍ أَبداً ، قالَ : فإِني أُقسمُ عليكَ إِلاَّ ما طلَّقْتَها ، فأَبىٰ ، وقالَ : الموتُ أَسهلُ عندي مِن فراقِها ، قالَ : لاَ أَرضىٰ أَوْ تطلِّقَها ، وحلفَ أَنَّهُ لاَ يكنُّه سقفٌ أَبداً أو يطلِّقَ قيسٌ لبنى ، فكانَ يقفُ في حرِّ الشمسِ ، فيجيءُ قيسٌ إِلىٰ جانبِهِ يظلُّهُ بردائِهِ ، ويَصْلَىٰ هُوَ بحرِّها حَتَّىٰ يفيءَ الفيءُ فينصرفَ عنهُ إِلىٰ لُبنى ، ويعانقُها ويَبكِي وتَبكي معهُ ، وتقولُ لهُ : لاَ تطعْ أَباكَ ؛ فتهلكَ وتهلكَني معكَ ، فقالَ : ما كنتُ لأُطيعَ فيكِ أَحداً أَبداً ، فيقالُ : إِنَّهُ مكثَ سنةً كذلكَ ؛ ثُمَّ طلَّقها ، فلمَّا بانتْ منهُ . . ٱستطيرَ عقلُهُ ،

وذهبَ لبُّهُ ، وخالَطَهُ مِثلُ ٱلجنونِ ، وقالَ في ذلِكَ أَشعاراً كثيرةً ، منها قولُهُ [في « ديوانهِ » ٢٧ مِنَ الطَّويلِ] :

وَكُـلُّ مُصِيبَـاتِ ٱلـزَّمَـانِ وَجَـدْتُهَـا   سِوَىٰ فُرْقَةِ ٱلأَحْبَابِ هَيِّنَةَ ٱلْخَطْبِ(١)

وقولُهُ [في « ديوانهِ » ٨٣ـ٨٤ من الطَّويلِ] :

وَدِدْتُ ـ وَبَيْتِ ٱللهِ ـ أَنِّيْ عَصَيْتُهُمْ   وَحُمِّلْتُ فِيْ رِضْوَانِهَا كُلَّ مُوْبِقِ
كَأَنِّيْ أَرَىٰ ٱلنَّاسَ ٱلْمُحِبِّيْنَ بَعْدَهَا   عُصَـارَةَ مَـاءِ ٱلْحَنْظَـلِ ٱلْمُتَفَلِّـقِ(٢)
فَتُنْكِرُ عَيْنِيْ بَعْدَهَا كُلَّ مَنْظَرٍ   وَيَكْرَهُ سَمْعِيْ بَعْدَهَا كُلَّ مَنْطِقِ

وقولُهُ لمَّا تحمَّلتْ [في « ديوانهِ » ٧٩ـ٨٠ مِنَ ٱلبسيطِ] :

قَدْ كُنْتُ أَحْلِفُ جُهْدِيْ لاَ أُفَارِقُهَا   أُفٍّ لِكَثْـرَةِ زَيْـفِ ٱلْقَـوْلِ وَٱلْحَلِـفِ
هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ قَدْ أَمْسَتْ مُجَاوِرَةً   أَهْلَ ٱلْعَقِيْقِ وَأَمْسَيْنَا عَلَىٰ سَرِفِ(٣)
حَـيٌّ يَمَـانُـوْنَ وَٱلْبَطْحَـاءُ مَنْـزِلُنَـا   هَـٰذَا لَعَمْـرُكَ شَمْـلٌ غَيْـرُ مُـؤْتَلِـفِ

وَعن عمروِ بنِ دينارٍ قالَ [في « الأغاني » ٩/ ٢١٥] : قالَ الحسنُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لذُرِيحٍ : أَحَلَّ لكَ أَنْ تفرِّقَ بينَ قيسٍ ولبنىٰ ، وقد قالَ عمرُ بنُ الخطَّابِ : ما أُبالي أَفرَّقتُ بينَ الرجلِ وٱمرأَتِه ، أَم مشيتُ إِليهما بالسيفِ !

---

(١) أنظر « الأغاني » (٩/ ٢١٢ـ٢١٤) .

(٢) الفَلْقةُ : شجرةٌ مرَّةٌ بـ(الحجاز) و(تهامةَ) ، والحبشةُ تسُمُّ بها السلاحَ فيقتلُ من أَصابهُ .

(٣) سَـرِفٌ : اسـم مـوضـعٍ يبعـدُ ستَّـةَ أميـالٍ عـن (مكَّـةَ) . والعقيـقُ : وادٍ بـ(اليمامة) . ومكان آخر بجوار (المدينة المنورة) .

لا عيب في الحبيب في نظر العاشق

ويروىٰ [في «الأغاني» ٩/٢٢٦] : أَنَّ أُمَّهُ أو الطبيبَ أَرسَلوا لهُ من يعيبُ لبنىٰ ، وقالوا : لاَ ينفعُهُ إِلاَّ ذكرُ مساوئها ، فقالَ [في «ديوانهِ» ٥٢ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا عِبْتُهَا شَبَّهْتُهَا ٱلْبَدْرَ طَالِعَا وَحَسْبُكَ مِنْ عَيْبٍ لَهَا شَبَهُ ٱلْبَدْرِ
لَقَدْ فُضِّلَتْ لُبْنَىٰ عَلَىٰ ٱلنَّاسِ مِثْلَمَا عَلَىٰ ٱلْفِ شَهْرٍ فُضِّلَتْ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ

زواج لبنىٰ

ثُمَّ إِنَّ لُبنىٰ تزوَّجَتْ بـ(المدينةِ) ، فقصدَها قيسٌ ومعهُ إِبلٌ ، باعَ ناقةً منها لرجلٍ لا يعرفهُ ، فقالَ لهُ : وافني بالثمنِ غداً إِلىٰ دارِ كثيرِ بنِ الصَّلتِ ، فجاءَ وطرقَ البابَ ، فأَدخلهُ وقد صنعَ له طعاماً ، وقام لبعضِ شأنهِ ، فقالتِ ٱلمرأَةُ لخادِمتها : سليهِ ما لوجهِهِ متغيِّراً شاحباً ؟

حال من فارق الأحباب

فتنفَّسَ الصُّعَداءَ ، وقالَ : هـٰكذا حالُ من فارق الأَحبَّةَ ، فقالَت : ٱستخبريهِ عن أَمرهِ ؟ فشرعَ يحكي لها ، فرفعتِ الحجابَ ، وقالتْ : حَسبكَ ، قد عرفناكَ ، فبهتَ ساعةً لا ينطقُ ، ثُمَّ خرجَ علىٰ وجههِ ، فٱعترضهُ ٱلرجلُ ، فلم يكلِّمهُ ، فعرفَ أَنَّه قيسٌ[(١)] .

شفاعة ابن أبي عتيق لقيس

ولمَّا ٱشتدَّ بهِ الأَمرُ . قصدَ ٱبنَ أَبي عتيقٍ في ذلكَ ، وَكانَ من أَكثرِ أَهلِ زمانهِ مروءَةً ، فجاءَ ٱبنُ أَبي عتيقٍ إِلىٰ الحسَنَيْنِ وقالَ لَهما : لي إِليكُما حاجةٌ ، قالاَ : ما هِيَ ؟ قالَ تسعداني علىٰ فلانٍ ـ لزوج لُبنىٰ ـ في حاجةٍ لي عندهُ ، فمَضَوا إِليهِ ، وكلَّموه ، فقالَ : سَلوا ما شِئتُم ، قالَ ٱبنُ أَبي عتيقٍ : ما كانَ بِلا ٱستثناءِ ، قالَ : نعم ، قالَ : نُريدُ أَن تطلِّق لبنىٰ ولكَ ما شئْتَ عندِي ، قالَ :

---

(١) انظر «الأغاني» (٩/٢٣٧) .

أُشهدُكم أَنها طالقٌ ثلاثاً ، فاْستحيَوا منهُ ، وعوَّضَهُ الحسنُ مئةَ أَلفِ درهمٍ ، وقالَ : لو علمتُ الحاجةَ ما جئتُ ، واْنتقلَتْ لُبنىٰ إِلىٰ العِدَّةِ ، ثم اْختلفَ الرواةُ :

الأقوال في عودة لبنىٰ لقيس

فمِن قائلٍ : أَنَّها أَكملت عدَّتها وأَنَّ قيساً تزوَّجَها وأَقامَتْ معهُ إِلىٰ الموتِ .

ومِنْ قائلٍ : أَنَّها ماتَتْ في العِدَّةِ ، وأَنَّهُ أَكبَّ علىٰ قبرها يبكي حَتَّىٰ أُغميَ عليهِ ، فرفعهُ أَهلهُ وهُوَ لا يعقلُ ، فلم يزلْ عليلاً لاَ يفيقُ ولا يجيبُ مكلِّماً حَتَّىٰ ماتَ بعدَ ثلاثٍ .

ومِنْ قائلٍ : أَنَّهم أَخفَوا عنهُ قبرَها فعرفهُ برائِحتهِ ، كما سبقَ ذكرُ ذلكَ(١) .

المعروف من ابن أبي عتيق الظرف

فإِنْ قيلَ : قد صحَّ أَنَّ اْبنَ أَبي عتيقٍ قالَ لقيسٍ [كما في « المثل السائر » ٢/٢٥٩] : كفَّ عنْ بعضِ شكركَ لي علىٰ هـٰذا الصنيعِ ؛ لئَلاَّ يظنَّ مَنْ سمعَهُ أَنِّيْ قوَّادٌ(٢) . وهـٰذا ينافي ما سبقَ منكَ في تبريرِ الناظمِ وأَبي نُوَاسٍ ، ودفعِ المعرَّةِ عمَّا زعمَ بعضهُمْ لصوقَها بهِ من كلامِهِم . . فالجوابُ ما عرفَ من حالِ اْبنِ أَبي عتيقٍ وظرفهِ ونادرَته ولينِ جانبهِ ودماثةِ أَخلاقهِ ، فأَخرجها مخرجَ التندُّرِ والتمليحِ ، لا يريدُ بها حقيقةً ، ولا يخشى منها لوماً ، علىٰ أَنَّهُ يحتملُ أَنْ يريدَ منها هضمَ اْلنفسِ ، وتلطيفَ الصنيعةِ ، فإِنَّها صالحةٌ لِذلكَ ، والصنيعةُ عظيمةٌ ، وهُوَ من ساداتِ التواضعِ ، وإِلاَّ فقد فعلَ ما هُوَ أَدنىٰ إِلىٰ اللَّومِ مِنْ ذلك ، ولم يبالِ :

---

(١) انظر « الأغاني » (٩/ ٢٥٢ـ٢٥٤) .

(٢) القوَّادُ : سمْسَارُ النساءِ .

فإنَّه لمَّا سمعَ قولَ ٱبنِ أَبي ربيعةَ [في « ديوانه » ١/١٠٦ مِنَ الخفيفِ] : — من رسولي إلى الثريا؟

مَـنْ رَسُـوْلِـيْ إِلَـىٰ ٱلثُّـرَيَّـا فَـإِنِّـيْ ضِقْتُ ذَرْعَاً بِهَجْرِهَا، وَٱلْكِتَابِ[١]

. . قالَ إِيَّايَ عَنىٰ ، وبِيْ نوَّهَ ، وما حلاوةُ الحياةِ إِذا تكدَّرَ ما بينَ الثريَّا وَعمرَ ؟ وَشَخَصَ مِنْ فورِهِ إِلىٰ (مكَّةَ) و(الطائفِ) ، وأَصلحَ بينهُما ، ولم يخلطْ عملَه ذلكَ بنسكٍ قطُّ[٢] .

طلحة الطلحات

ويذكرُ [كما في « النهاية » ٣/١٣١] : أَنَّ طلحةَ الطَّلَحَاتِ إِنَّما أُطلقَ عليهِ ذلِكَ اللقبُ ؛ لأَنَّهُ جمعَ بينَ مئَةِ عربيٍّ ومئةِ عربيَّةٍ بأَكملِ ٱلجهازِ وٱلصَّدَاقِ ، ووُلدَ لكلِّ ولَدٌ سمَّاهُ طلحةَ .

أمنية الفاروق

ويرویٰ [كما في « مصارع العشاق » ١/ ٣٢٠] : أَنَّ عمرَ بنَ الخطَّابِ قالَ : لو أَدركتُ عروةَ وعفراءَ . . لَجمعْتُ بينَهما .

وبعضُ ما ذكرَ في هٰذهِ الأَخبارِ لا يساعدُ عليهِ التاريخُ ، والعهدةُ علىٰ الرواةِ ، ولاَ حاجةَ إِلىٰ البحثِ ؛ لانتخالِ الصحةِ ؛ لأَنَّها غيرُ مقصودَةٍ بالذَّاتِ .

الحسين يتزوج امرأة ليعيدها إلى زوجها

وقد فعلَ الحسينُ بنُ عليٍّ عليهما السلامُ ما لا يخرجُ عَنْ هٰذا الموضوعِ؛ إِذْ تزوَّج علىٰ زينبَ[٣] ـ أَرادَ زينبَ بنتَ إِسحاقَ، مطلَّقةَ عبدِ اللهِ بنِ سلامٍ ـ وقالَ : ما أَردتُ إِلاَّ أَنْ أُحَلِّلها له ، كما في روايةٍ عنهُ بذلكَ .

ثواب من جمع بين اثنين

وفي الحديثِ « مَنْ جَمَعَ بَيْنَ ٱثْنَيْنِ . . كُنْتُ أَنَا وَإِيَّاهُ فِيْ ٱلْجَنَّةِ كَهَاتَيْنِ ، وأَشَارَ إِلىٰ أُصْبُعَيْهِ ٱلْوُسْطَىٰ وَٱلسَّبَّابَةِ »[٤] .

---

(١) أي : أُقسِمُ بالكتابِ .

(٢) في « الأغاني » (١/ ٢٢٣) .

(٣) في بعض المصادر «أرينب».

(٤) لم نقف له على أصل فيما بين أيدينا من مصادر .

وقد أخذتْ بهٰذا زبيدةُ ٱبنةُ جعفرٍ زوجِ الرشيدِ في حديثِها المشهورِ ، وهُوَ : أنَّها رأت علىٰ حائطٍ في طريقِ (مكَّة) هٰذينِ البيتينِ [مِنَ الطويلِ] :

شفاعة زبيدة زوجة الرشيد لعاشقين في حجها وافتخارها بذلك

أَمَا فِيْ عِبَادِ اللهِ أَوْ فِيْ إِمَائِهِ كَرِيمٌ يُجَلِّيْ ٱلْهَمَّ عَنْ ذَاهِبِ ٱلْعَقْلِ
لَهُ مُقْلَةٌ ، أَمَّا ٱلْمَآقِيْ فَقَرْحَةٌ وَأَمَّا ٱلْحَشَا فَٱلنَّارُ فِيْ طَيِّهَا تَغْلِيْ

فنذرتْ أَنْ تَجِدَّ في طلبِ قائِلهما ؛ حتَّىٰ تسرِّيَ عنهُ فإِنَّها لَبِـ(المزدلفةِ) إِذ سمعتْ مَن ينشدُهما ، فٱستدعتْ بهِ ، فزعمَ أَنَّ لهُ بنتَ عمٍّ يهواها ، وقد حلفَ أَهلهُ علىٰ أَنْ لاَ يزوِّجُوهُ مِنها ، فوجَّهَت إِليهم ، وأَرغَبَتْهم بالمالِ ، حَتَّىٰ أَطلبوه ، وإِذا المرأَةُ أَعشقُ مِنَ ٱلرَّجلِ لهِ ، فكانتْ زبيدةُ تعدُّ ذلكَ مِنْ أَعظَمِ حسناتِها ، وتقولُ : ما سررتُ بشيءٍ من نفسي في حَجِّي ، سروري بِٱلْجَمْعِ بينَ الفتىٰ والفتاةِ .

وبعدَ هَـٰذَا تذكَّرتُ أَنَّ السيوطيَّ أَخرجَ في « جامعِهِ » مرفوعاً : « إِنَّ مِنْ أَفْضَلِ ٱلشَّفَاعَاتِ . . أَنْ تَشْفَعَ بَيْنَ ٱثْنَيْنِ فِيْ نِكَاحٍ ، حَتَّىٰ تَجْمَعَ بَيْنَهُمَا »[1] .

من أفضل الشفاعات

ثُمَّ للقرائنِ الحاليَّةِ حكمُها في تخصيصِ ٱلأَحكامِ ، كما هُوَ مقرَّرٌ في مواضعِهِ مِنَ ٱلأُصولِ والبيانِ ، ولَولا ٱعتبارُ ذلكَ . . لفسدَ الكلامُ ، وشملَ الملامُ ، فلا أُشنوعةَ فيما قالهُ الناظمُ ، ولاَ فيما قالهُ أَبُو نُوَاسٍ ، معَ بياضِ أَعراضِ الممدوحينَ ، أَمَّا لو كانَ أَحدُهم مَغْموصاً عليهِ ، أو متَّهماً بشيءٍ مِنَ ٱلقَاذوراتِ . . فإِنَّهُ يلحقُ القائِلَ

لكل مقام مقال

(١) أخرجه أبو بكر ابن أبي عاصم في « الآحاد والمثاني » (٥/ ٩٦) .

في ذلكَ مِنَ ٱلعيبِ ما لصقَ بأَبي النجمِ في قولِهِ لهشامٍ [في «خزانة الأدب» ١/٢١ مِنَ الرَّجزِ] :

صَفْرَاءُ قَدْ كَادَتْ وَلَمَّا تَفْعَلِ كَأَنَّهَا فِيْ ٱلأُفْقِ عَيْنُ ٱلأَحْوَلِ

فلمْ ينلهُ الملامُ إِلاَّ من سوءِ تحفُّظِهِ في مخاطبةِ الأَحولِ ، بما يقتضي ٱلتعريضَ بهِ ، فٱستحقَّ الحرمانَ من هٰذهِ الجهةِ ، لا من جهةِ قوَّة التشبيهِ وغرابتهِ ، فإِنَّهُ بديعٌ .

الخطأ في التقدير قد لا يحرم الثواب

ويروىٰ : أَنَّ بعضَ الشعراءِ تقدَّمَ إِلىٰ زبيدةَ زوجِ الرشيدِ فقالَ [مِن مجزوءِ الكاملِ] :

أَزُبَيْـــدَةُ ٱبْنَـــةَ جَعْفَـــرٍ طُـوبَـىٰ لِـزَائِـرِكِ ٱلْمُثَـابْ
تُعْطِيْـــنَ مِـــنْ رِجْلَيْـــكِ مَـــا تُعْطِـيْ ٱلأَكُـفُّ مِـنَ ٱلـرِّغَـابْ

فتبادرهُ العبيدُ ليوقعوا بهِ ، فقالتْ زبيدةُ : كفُّوا عنهُ ، فلمْ يردْ إِلاَّ خيراً ، وإِنَّما سمعَ قولَهم : قفاكَ أحسنُ من وجهِ غيرِكَ ، وَشِمالكَ أندىٰ منْ يمينِ سِواكَ .

فقدَّر أَنَّ هٰذا مثلُه ، فأَعطُوهُ ما أَمِل ، وعرِّفوهُ ما جهلَ ، وما قالتْ ذاكَ ؛ إِلاَّ لبراءَةِ ذيلِها مِنَ ٱلتُّهَمِ ، ولو علِقتْ بها ريبةٌ . . لما تأَخَّرتْ عن إِراقةِ دمِهِ .

امسُكَ أيمنُ من يومِه

وأَصلهُ : من قولِ النابغةِ للنعمانِ بنِ المنذرِ : أَيفاخرُك ذرٌّ فائشٌ ـ وأَنتَ سائسُ العَربِ ، وعروةُ الحسبِ والأدبِ ؟ لأَمْسُكَ أَيمنُ من يومِهِ ، وعبدُكَ أكرمُ من قومِهِ ، وقفاكَ أَحسنُ من وجهِهِ ، ويسارُكَ أَندىٰ من يمينِهِ ، وظنُّك أَصدقُ من يقينِهِ ، ووعدكَ أَثلجُ من رِفدِهِ ، وخالُكَ أَشرفُ من جدِّهِ ، ونفسكَ أَمنعُ مِنْ جندِهِ ، ويومكَ أَزهرُ من دهرِهِ ، وفِتْرُكَ أَبسطُ من شبرِهِ .

وقولِ حسَّانَ لعمرِو بنِ ٱلحارثِ بنِ أَبي شمرٍ الغسَّانيِّ [في « جمهرة خطب العرب » ١/ ٣٢] : أَيفاخركَ ٱبنُ المنذرِ اللَّخميُّ ، وقفاكَ خيرٌ من وجههِ ، وشمالُكَ خيرٌ من يمينهِ ، وأُمُّكَ خيرٌ من أَبيهِ ، ولطمتكَ خيرٌ من كلامِهِ ؟ في خطبةٍ طويلةٍ قالَ في آخرِها [في « الأغاني » ١٥/ ١٥٨ مِنَ ٱلمتقاربِ] :

قفاك خير من وجهه

قَـذَالُـكَ أَحْسَـنُ مِـنْ وَجْهِـهِ ... وَأُمُّـكَ خَيْـرٌ مِـنَ ٱلْمُنْـذِرِ[1]
وَيُسْـرَىٰ يَـدَيْـكَ إِذَا أَعْسَـرَتْ ... كَيُمْنَـىٰ يَـدَيْـهِ فَـلاَ تَمْتَـرِيْ

وقالَ أَبو نُوَاسٍ [مِنَ ٱلخفيفِ] :

الشعراء وهذا المعنى

بِـأَبِيْ أَنْـتَ مِـنْ غَـزَالٍ غَـرِيْـرِ ... بَذَّ حُسْنَ ٱلْوُجُوْهِ حُسْنُ قَفَاكَا[2]

ولا شكَّ أَنَّ فيهِ ضميراً مستتراً ، يُعرَفُ مِمَّا ٱشتهرَ بهِ أَبو نُوَاسٍ .

وقال الناظمُ [في « العُكبَريِّ » ٤/ ١٥٣ـ١٥٤ مِنَ ٱلمتقاربِ] :

فَـأَجْـوَدُ مِـنْ جُـوْدِهِـمْ بُخْلُـهُ ... وَأَحْمَـدُ مِـنْ حَمْـدِهِـمْ ذَمُّـهُ
وَأَشْـرَفُ مِـنْ عَيْشِهِـمْ مَـوْتُـهُ ... وَأَنْفَـعُ مِـنْ وُجْـدِهُـمْ عُـدْمُـهُ

وها هنا فائدةٌ : وهيَ أَنَّ ٱبنَ الأَثيرِ ٱنتقدَ قولَ أَبي نُوَاسٍ [في « ديوانهِ » ٥٢٢ مِنَ ٱلكاملِ] :

ابن الأثير ينتقد أبا نواس

أَصْبَحْتَ يَا ٱبْنَ زُبَيْدَةَ ٱبْنَةِ جَعْفَرٍ ... أَمَـلاً لِعَقْـدِ حِبَـالِـهِ ٱسْتِحْكَـامُ

وقولُهُ [مِنَ ٱلوافرِ] :

وَلَيْـسَ كَجَـدَّتَيْـهِ أُمُّ مُـوْسَـىٰ ... إِذَا نُسِبَـتْ وَلاَ كَـٱلْخَيْـزُرَانِ

---

(١) القَذَالُ : جِماعُ مؤخّرِ الرَّأْسِ .
(٢) بَذَّ : فاقَ .

ذكر الأم في الشعر القبيح

وقالَ : إِنَّ ذكرَ الأُمِّ هنا قبيحٌ ، وما أَوقعهُ في تلكَ العثرةِ إلاَّ قولُ جريرٍ [مِنَ ٱلوافرِ] :

وَتَبْنِي ٱلْمَجْدَ يَا عُمَرَ ٱبْنَ لَيْلَىٰ   وَتَكْفِي ٱلْمُمْحِلَ ٱلسَّنَةَ ٱلْجَمَادَا

وأَمَّا قولُهُ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « بَشِّرْ قَاتِلَ ٱبْنِ صَفِيَّةَ بِٱلنَّارِ »(١) . . فإِنَّما نسبهُ إِليها رفعاً بقدرهِ في قربِ نسبهِ .

رد المؤلف على ابن الأثير وميزان المسألة عنده

وأَقولُ : إِنَّ الأَمرَ ٱختلطَ عليهِ ، وكثيراً ما كانَ يخلطُ الحابلَ بالنابلِ ، ولو تدبَّرَ . . لعرفَ أَنَّ المدارَ علىٰ براءَةِ العرضِ ، وشرَفِ الحسَبِ ، فمَتَىٰ كانتْ شريفةً عفيفةً . . لم يقبحْ ذكرُها ، وقد قالَ هارونُ عليهِ السلامُ : ﴿ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ ﴾ [طه : ٩٤] .

وكثيراً ما ينسُبُه مُدَّاحُهُ ـ عليهِ الصلاة والسلامُ ـ إِلىٰ آمنةَ ، مع أَنَّها ليسَت كعبدِ اللهِ في الشرفِ ، ولٰكنَّ الميزانَ ما ذكرنا ، ثُمَّ لم يكتفِ مُدَّاحهُ بنَسْبهِ إِلىٰ ٱمرأَةٍ واحدةٍ حَتَّىٰ نسبوهُ إِلىٰ عدَّةِ نساءٍ ، فقالوا : يا ٱبنَ العواتِكِ ، وما زالَ آلُ إِلياسَ فاخرينَ بالانتسابِ إِلىٰ خندفَ ، وأَولادُ فاطمةَ بهِ إِليها ، وكذلكَ الأَنصارُ بهِ إِلىٰ قَيْلَةَ ، وقال سَلْمٌ الخاسرُ يمدحُ الأَمينَ في حفلِ الرشيدِ [مِنَ ٱلكاملِ] :

قَدْ بَايَعَ ٱلثَّقَلَانِ مَهْدِيَّ ٱلْهُدَىٰ   لِمُحَمَّدِ ٱبْنِ زُبَيْدَةَ ٱبْنَةِ جَعْفَرِ

---

(١) أخرجه من قول علي المرتضى أحمد في « المسند » (٦٨١) بإسناد حسن ، وابن سعد (٣/ ١٠٥) ، وابن أبي شيبة (١٢/ ٩٣) وابن أبي عاصم في « السنة » (١٣٨٨) . وأورده ابن عبد البر في « التمهيد » (١٨/ ٣١) . وابن صفية : هو الزبير بن العوام ابن عمته ﷺ .
وفي الباب : نحوه عن عبد الله بن عمرو عند ابن عساكر في « التاريخ » كما في « كنز العمال » (٣٣٥٥٧) بلفظ : « قاتل ابن سمية في النار » .

وَلَّيْتَـهُ عَهْـدَ ٱلأَنَـامِ وَأَمْـرَهُـمْ فَدَمَغْتَ بِٱلْمَعْرُوْفِ رَأْسَ ٱلْمُنْكَرِ

فٱستحقَّ بذلكَ مئةَ ألفِ درهمٍ .

وقالَ أشجع يمدح الأمينَ أيضاً [في « ديوانه » ١٩٦ مِنَ ٱلكاملِ] :

مَلِـكٌ أَبُـوْهُ وَأُمُّـهُ مِـنْ نَبْعَـةٍ فِيْهَـا سِـرَاجُ ٱلأُمَّـةِ ٱلْـوَهَّـاجُ

شَرِبَتْ بِمَكَّةَ فِيْ رُبَىٰ بَطْحَائِهَا مَـاءَ ٱلنُّبُـوَّةِ لَيْـسَ فِيْـهِ مِـزَاجُ

فٱستحقَّ مثلَ سَلْمٍ .

فلا معابةَ في ذكرِ الأُمِّ علىٰ ما شرطناهُ مِنَ ٱلطهارةِ(١) ، إنما يكرهُ

---

(١) ليسَ الأمرُ كما ذكرَ الشيخُ المؤلِّفُ ـ رحمهُ اللهُ تعالىٰ ـ بلِ الأمرُ كما قاله الشيخُ ابنُ الأثيرِ ـ رحمهُ اللهُ ـ ويؤيِّدُ ذلكَ ما قالهُ أبو الفتحِ الموصليُّ في كتابهِ « المثلُ السائرُ » :

وممَّا أُخِذَ علىٰ أبي نواسٍ قولهُ :

أَصْبَحْتَ يَا ٱبْنَ زُبَيْدَةَ ٱبْنَةِ جَعْفَرٍ أَمَـلاً لعَقْـدِ حِبَـالِـهِ ٱسْتِحْكَـامُ

فإنَّ ذكرَ ٱسمِ أُمِّ الخليفةِ في مثلِ هذا الموضعِ قبيحٌ ، وهذا لغوٌ مِنَ الحديثِ لا فائدةَ فيهِ ، فإنَّ شرفَ الأنسابِ إنَّما هوَ إلىٰ الرجالِ لا إلىٰ النساءِ . ويا ليتَ شعري ، أما سمعَ أبو نواسٍ قولَ قتيلةَ بنتِ النضرِ في النبيِّ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ :

أَمُحَمَّـدٌ وَلأَنْـتَ نَجْـلُ كَـرِيْمَـةٍ مِنْ قَوْمِهَا وَٱلْفَحْلُ فَحْلٌ مُعْرِقُ

فإنَّها ذكرتِ الأُمَّ بغيرِ ٱسمِ الأُمِّ وأبرزتْ هذا الكرمَ في هذا اللباسِ الأنيقِ .

وكذلكَ فليكنِ المادحُ إذا مدحَ وأبو نواسٍ معَ لطافةِ طبعهِ وذكائهِ وما كانَ يوصفُ بهِ منَ الفطنةِ ـ قد ذهبَ عليهِ مثلُ هذا الموضعِ معَ ظهورهِ ـ .

وليسَ لقائلٍ أن يعترضَ علىٰ ما ذكرتُهُ بقولِهِ تعالىٰ : حكايةً عَن موسىٰ وأخيهِ هارونَ عليهما السلامُ : ﴿ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ ﴾ [طه : ٩٤] فإنَّ الفرقَ بينَ الموضعينِ ظاهرٌ ؛ لأنَّ المنكرَ علىٰ أبي نواسٍ إنَّما هوَ التلفُّظُ =

أَنْ ينسبَ إِلىٰ أُمِّه مَنْ كانَ علىٰ مثلِ حالِ زيادٍ(١) .

حتَّىٰ لقد أَرادتْ عائِشةُ ـ حبيبةُ رسولِ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ

= باسمِ الأُمِّ وهيَ زبيدةُ ، وكذلكَ اْسمِ الجدَّةِ وهيَ الخيزرانُ ، وليسَ كذلكَ ما وردَ في الآيةِ .

فإن قيلَ : قد ورد في القرآنِ الكريمِ ما يسوِّغُ لأَبي نواسٍ مقالتَهُ ، وهوَ قولهُ تعالىٰ ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة : ١١٠] فناداهُ باْسمِ أُمِّهِ . . قلتُ : الجوابُ عَن ذلكَ مِن وجهينِ :

أَحدِهِما : أَنَّ سيِّدَنَا عيسىٰ عليهِ السلامُ لم يكنْ لهُ أَبٌ ، فنوديَ باْسمِ أُمِّهِ ضرورةً ؛ إِذْ لو كانَ لهُ أَبٌ . . لنوديَ باْسمِ أَبيهِ .

الوجهُ الآخرُ : أَنَّ هذا النداءَ مِنَ الأَعلىٰ إِلىٰ الأَدنىٰ ؛ إِذِ اللهُ سبحانَهُ وتعالىٰ هوَ الربُّ ، وعيسىٰ عليهِ السلامُ عبدُهُ ، وهذا لا يكونُ تفريطاً ؛ لأَنَّهُ لم يعبِّر عنهُ بما هوَ دونَ منزلتِهِ .

ثمَّ أَلا ترىٰ أَنَّ العربَ كان يعيِّرُ بعضُها بعضاً بنسبةِ الإنسانِ إِلىٰ أُمِّهِ دونَ أَبيهِ ، أَلا ترىٰ أَنَّ عمرَ بنَ الخطَّابِ رضيَ اللهُ عنهُ كانَ يقالُ لهُ : اْبنُ حَنْتَمَةَ ، وإِنَّما كانَ يقولُ ذلكَ مَن يَغُضُّ مِنْهُ .

وأَمَّا قولُ النبيِّ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ للزبيرِ اْبن صفيَّةَ : « بَشِّرْ قَاتِلَ ٱبْنِ صَفِيَّةَ بِالنَّارِ » . فَإِنَّ صفيَّةَ كانت عمَّةَ النبيِّ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ، وإِنَّما نسبَهُ إِليها رفعاً لقدرهِ في قربِ نسبهِ منهُ ، وأَنَّهُ اْبنُ عمَّتِهِ ، وليسَ هذا كالأَوَّلِ في الغَضِّ مِن سيِّدِنا عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ في نَسَبِهِ إِلىٰ أُمِّهِ .

وأَمَّا في نسبتِهم النبيَّ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ إِلىٰ أُمِّه أَو عمَّاتِهِ فللبيانِ ليسَ غيرُ . ويؤيدُ ذلكَ استشكالُ المؤلفِ بعدَ سطورٍ على الفرزدق . والله أعلم .

(١) زياد : يعرف بـ : ابن أبيه أمير من الدهاة والقادة الفاتحين من أهل (الطائف) والدته سمية جارية الحارث بن كلدة ، واختلفوا في أبيه ، فقيل : عبيد الثقفي ، وقيل : أبو سفيان ، وأدرك النبيَّ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ولم يره ، توفي سنة : (٥٣ هـ) .

وسلَّمَ ورضيَ عنها ـ أَنْ تكتبَ إِليهِ في غرضٍ عَنَّ لها ، فلم تدرِ ما تقولُ ، وتحيَّرَتْ في ذلكَ زماناً ، حَتَّىٰ ٱنحطَّ رَأْيُهَا علىٰ أَنْ تقولَ [في « الكامل » ٣/ ٣٠٢] : مِنْ أُمِّ المؤمنينَ إِلىٰ ٱبنِها زيادٍ ، فلمَّا وردهُ ٱلكتابُ . . قالَ : لقد لاقَتْ أُمُّ المؤمنينَ عناءً مِن هـٰذا العنوانِ .

وأَنا في إِشكالٍ بعدُ مِنْ إِضرابِ الفرزدقِ عن رثاءِ زوجِهِ ، حَتَّىٰ ٱضطرُّوا لِرَائيَّةِ جرير في ٱمرأَتِهِ ، وهِيَ المستهلَّةُ بقولِهِ [في « ديوانه » ٢/ ٨٦٢ مِنَ ٱلكاملِ] :

لَوْلاَ ٱلْحَيَاءُ لَهَاجَنِي ٱسْتِعْبَارُ وَلَـزُرْتُ قَبْـرَكِ وَٱلْحَبِيـبُ يُـزَارُ

ثُمَّ إِنْ علَّلتَهُ بالتجلُّدِ وإظهارِ الشدَّةِ . . فإِنَّما يكونُ عذراً عمَّا لا يحسنُ ، كالجزعِ في ٱلمَلأ ، بخلافِ الشِّعرِ الذي يجوزُ ويحسنُ فيهِ ما لا يجوزُ ولا يحسنُ في غيرِهِ ـ حسبَما قرَّرناهُ أَوائِلَ المجلسِ ـ وإِنْ علَّلناهُ بالقسوةِ كَمَا أَسلَفنا القولَ فيهِ ثَمَّ عندَ إِيرادِ قولِهِ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَجَفْنِ سِلاَحٍ قَدْ رُزِئْتُ فَلَمْ أَنُحْ عَلَيْهِ وَلَمْ أَبْعَثْ لَدَيْهِ ٱلْبَوَاكِيَا

. . فكثيراً ما يختلفُ حالُ الأَزواجِ ، بقرينةِ أَنَّهُ بعثَ هُنا البواكيَ ، ولا يصحُّ أَنْ نعلِّلَهُ بالغَيْرةِ علىٰ ٱسمِهَا لمناقضَتهِ بمثلِ قولِهِ [مِنَ الوافرِ] :

نَـدِمْـتُ نَـدَامَـةَ ٱلْكُسَعِـيِّ لَمَّـا غَـدَتْ مِنِّـي مَطَلَّقَـةً نُـوَارُ
وَكَانَتْ جَنَّتِي فَخَرَجْتُ مِنْهَا كَـآدَمَ حِيـنَ أَخْـرَجَـهُ ٱلضِّـرَارُ

معَ أَنَّ الحنينَ في إِثرِ المطلَّقةِ أَلْوَمُ ، وأَدلُّ منهُ علىٰ الضعفِ في إِثرِ القاضيَةِ .

وهلْ مِن مانعٍ أَنْ نعلِّلَ سكوتَه بفرطِ الوجدِ ؟ فكثيراً ما يتصعَّدُ معهُ الكلامُ ، وقد قالَ الناظمُ [في « العُكبريِّ » ٤/ ١٩٥ مِنَ الكاملِ] :

ٱلْحُبُّ مَا مَنَعَ ٱلْكَلَامَ ٱلأَلْسُنَا

وقالَ ذو الرُّمَّةِ [مِنَ الكاملِ] :

عَشِيَّةَ مَا لِيْ حِيْلَةٌ غَيْرَ أَنَّنِيْ ... بِلَقْطِ ٱلْحَصَىٰ وَٱلْغَطِّ فِيْ ٱلتُّرْبِ مُوْلَعُ

ومنهُ البيتُ الآتي أوائِلَ المجلسِ السادسَ عشرَ ، عندَ قولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٢٣٨ مِنَ الطَّويلِ] :

تَذَلَّلْ لِمَنْ تَهْوَىٰ عَلَىٰ ٱلْقُرْبِ وَٱلنَّوَىٰ ... فَمَا عَاشِقٌ مَنْ لاَ يَذِلُّ وَيَخْضَعُ

الحزن يخرس الألسنة

ولكَمْ أَخرسَ ٱلحُزنُ مِنْ مَقاولَ ، منهمُ ٱبنُ الزُّبيرِ يومَ نعىٰ إلىٰ النَّاسِ ٱلمُصعبَ .

الثناء على جرير

أمَّا ٱبنُ ٱلمَراغةِ[1] : فقد أخذَ بأطرافِ ٱلكمالِ في قولِهِ : (لَوْلاَ ٱلْحَيَاءُ . .) ؛ إذْ لَمْ يمنعهُ ٱلحياءُ عَنْ مُجرَّدِ إرسالِ الدُّموعِ ، وإنَّما منعَهُ عَنِ ٱلاختناقِ بٱلعَبَراتِ .

وٱلكلامُ في ٱلموضوعِ يطولُ ، فإلىٰ آونةٍ أُخرىٰ .

المراد من هذا البحث نفي مذمة الشفاعة عند العاشقين

وبعدُ : فإنِّي لاَ أُريدُ بشيءٍ مِمَّا أطلتُ فيهِ الثَّناءَ علىٰ بيتِ النَّاظمِ الَّذي بينَ أيدينا ، فإنَّني أعترفُ بأنَّهُ كلاحِقِهِ مِنْ أتفهِ الشِّعرِ وأرذلِهِ ، ولـٰكنَّني أُحاولُ دفعَ ما زعموهُ مِنْ مذمَّةِ الشَّفاعةِ في مِثْلِهِ ، لأنَّهُ باللازمِ غضٌّ مِنْ هديِ سيِّدِ ٱلمُرسلينَ ، وأقدسِ الطَّاهرينَ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ ،

(١) ٱبنُ المَراغةِ : جريرٌ الشَّاعرُ ، والمراغةُ : لقبٌ لقَّبَ ٱلفرزدقُ بهِ أُمَّ جريرٍ ؛ لأنَّها وُلِدَتْ في مَراغة ، والمراغةُ هيَ المكانُ الَّذي تتمرَّغُ ـ ترعىٰ ـ فيه الإبلُ .

السجال بين ابن حجر والإمام العيني

ولا تَعلُّ[1] مِنْ ذلكَ تحمىٰ ٱلأُنوفُ ، وترعُفُ ٱلأقلامُ والسُّيوفُ .

وقد أفتىٰ شيخُ ٱلإسلام ٱلحافِظُ ٱبنُ حَجَرٍ ٱلعسقلانيُّ بتعيُّنِ مُؤاخذةِ ٱلإمامِ ٱلعَينيِّ مؤاخذةً عظيمةً لِمَا هوَ أدنىٰ بكثيرٍ منهُ .

ولا بأسَ بٱقتصاصِهِ ، وهوَ : أنَّ ٱلمَلِكَ ٱلمؤيَّدَ بنىٰ جامعاً بـ(مصرَ) ، وأعلىٰ منارَتَهُ ، فسقطَتْ ، فقالَ ٱلحافِظُ مُعرِّضاً بٱلعَينيِّ : لِما بينَهُ وبينَهُ ممَّا يكونُ بينَ ٱلمُتعاصِرينَ [مِنَ الطَّويلِ] :

لِجَامِعِ مَوْلاَنَا ٱلْمُؤَيَّدِ رَوْنَقٌ   مَنَارَتُهُ تَزْهُوْ مِنَ ٱللُّطْفِ وَٱلزَّيْنِ
تَقُوْلُ وَقَدْ مَالَتْ عَلَيْنَا: تَعَجَّبُوْا   فَلَيْسَ عَلَىٰ حُسْنِيْ أَضَرُّ مِنَ ٱلْعَيْنِ

قالَ ٱبنُ حجَّةَ : ولَمْ يكُنِ ٱلعَينيُّ يُحسِنُ النَّظمَ ، فدفعَ للنواجيِّ دراهمَ ، فنظَمَ لَهُ هٰذين ٱلبيتينِ [مِنَ البسيطِ] :

مَنَارَةٌ كَعَرُوْسِ ٱلْحُسْنِ إِذْ جُلِيَتْ   وَهَدْمُهَا بِقَضَاءِ ٱللهِ وَٱلْقَدَرِ
قَالُوْا: أُصِيبَتْ بِعَيْنٍ، قُلْتُ : ذَا خَطَأٌ   مَا آفَةُ ٱلْهَدْمِ إِلاَّ خِسَّةُ ٱلْحَجَرِ

فتقدَّمَ ٱلحافِظُ بفتواهُ ، وقالَ : إنَّهُ أنكرَ ما أثبتهُ رسولُ ٱللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ بقولِهِ : « إِنَّ ٱلْعَيْنَ حَقٌّ »[2] .

والحالُ أنَّ ٱلعَينيَّ لَمْ يُرِدْ إنكارَ أحقيَّةِ ٱلعينِ ، وإنَّما أنكرَ خصوصَ ٱنهدامِ ٱلمَنارةِ بها ، ولا حرجَ في ذلكَ .

ليس الإفراط من الدين

وأكبرُ مِنْ ذلكَ ما ٱدَّعاهُ أبو بكرٍ ٱبنُ ٱلعربيِّ مِنْ إفتائِهِ بقتلِ رجلٍ

---

(١) تعلُّ : تبقىٰ وتظلُّ .

(٢) القصةُ بنحوها في « شذرات الذهب » (٤/١٤٥) ، والحديثُ أخرجَهُ عن أبي هريرة رضي الله عنه ٱلبخاريُّ (٥٧٤٠) في الطب .

كَرِهَ الأَحمرَ ، وقالَ : لأَنَّهُ كَرِهَ لبسةً لبسَها رسولُ ٱللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ[1] ، وذُكِرَ أَنَّهُ قُتِلَ بفتواهُ ، مع أَنَّ في ٱلمسأَلةِ تفصيلاً ، ولا يُحصىٰ كثرةُ مَنْ قالَ بكراهةِ ٱلأَحمرِ ٱلبحتِ ، وحَمَلوا حمرَةَ حُلَّتهِ ـ عليهِ السَّلامُ ـ علىٰ التَّخطيطِ .

نعوذُ بٱللهِ مِنَ ٱلإِفراطِ وٱلتَّفريطِ .

إلمـــام المتنبـــي بالموضوع

والحاصِلُ : أَنْ لا ٱعتراضَ مِنْ حيثُ المعنىٰ علىٰ النَّاظمِ ، ولئِنْ أَغَثَّ وأَخلَّ بٱلبلاغةِ في هٰذا البيتِ . . فقد أَجادَ في بعضِ المعنىٰ ؛ إِذ يقولُ [في « العُكبَريّ » ٣/ ١٨٣ مِنَ الطَّويلِ] :

أُحِبُّ ٱلَّتِيْ فِيْ ٱلْبَدْرِ مِنْهَا مَشَابِهٌ ... وَأَشْكُوْ إِلَىٰ مَنْ لاَ يُصَابُ لَهُ شَكْلُ[2]

وهٰذا هُوَ الَّذي يشبهُ بيتَ أَبي نُوَاسٍ السَّابقَ ، وكانَ مِن واجبِ الشَّارحِ التَّنبيهُ عليهِ ، ففاته .

من غرائب المتنبي

ومِن غرائِبِ الناظمِ في تناقضهِ ، أَنَّهُ بينَا هُوَ يطلبُ الشَّفاعةَ إِلىٰ المحبوبِ . . إِذِ ٱنقلبَ عليهِ الموضوعُ ، فصارَ شافعاً ، ونَصَّبَ ممدوحَهُ للريبةِ ، وسلكَ مسلكَ القيادةِ في قولِهِ [في « العُكبَريّ » ٣/ ٣٠٢ـ٣٠٣ مِنَ الكاملِ] :

لَــوْ أَنَّ فَنَّــاخُسْــرَ صَبَّحَكُــمْ ... وَبَرَزْتِ وَحْدَكِ عَاقَهُ ٱلْغَزَلُ[3]

---

(١) لحديث البراء بن عازب عند البخاري (٥٠٩١) في اللباس ، قال : (ما رأيت أحداً من الناس أحسن في حلة حمراء من رسول الله صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ) والترمذي في « الشمائل » (٦٥) ، والنسائي (٥٠٦٠) في الزينة .

(٢) الشَّكْلُ : الشبيهُ والنظيرُ .

(٣) فَنَّاخُسْرَ : من أَسماءِ الديلمِ ، وهوَ ٱسمُ عضُدِ الدولةِ .

وَتَفَـرَّقَـتْ عَنْـهُ كَتَـائِبُـهُ ... إِنَّ ٱلْمِـلاَحَ خَـوَادِعٌ قُتُـلُ[1]

مَـا كُنْـتِ فَـاعِلَـةً وَضَيْفُكُـمُ ... مَلِكُ ٱلْمُلُوْكِ وَشَأْنُكِ ٱلْبَخَلُ

أَفَتَمْنَعِيْــنَ قِـرَىً فَتَفْتَضِحِــيْ ... أَمْ تَبْــذُلِيْــنَ لَـهُ ٱلَّـذِي يَسَـلُ

بَـلْ لاَ يَحُـلُّ بِحَيْـثُ حَـلَّ بِـهِ ... بُخْــلٌ وَلاَ جَــوْرٌ وَلاَ وَجَـلُ

فهوَ إِذاً علىٰ عكسِ قولِ المجنونِ [في « ديوانهِ » ١٩٢ مِنَ الطَّويلِ] :

مَضَىٰ زَمَنٌ وَٱلنَّاسُ يَسْتَشْفِعُوْنَ بِيْ ... فَهَلْ لِيْ إِلَىٰ لَيْلَىٰ ٱلْغَدَاةَ شَفِيْعُ ؟

* * *

(١) في « العكبري » : (عَنْكُمْ) بدل (عَنْهُ) .

[قالَ أَبو الطَّيبِ المتنبي في « العُكبَرِيِّ » ٣/ ١٦٦ مِنَ البسيطِ] :

أَيْقَنْتُ أَنَّ سَعِيْداً طَالِبٌ بِدَمِيْ	لَمَّا بَصُرْتُ بِهِ بِالرُّمْحِ مُعْتَقِلا[١]

إن سفكت الحبيبة دم العاشق أُخِذ له بثأره

نقلَ الشارحُ عنِ ٱلواحديِّ أَنَّهُ مِنْ قولِ المؤَمَّلِ [في « الأغاني » ٢٢/ ٢٥٤ مِنَ ٱلبسيطِ] :

لَمَّا رَمَتْ مُهْجَتِيْ قَالَتْ لِجَارَتِهَا ... إِنِّيْ قَتَلْتُ قَتِيْلاً مَا لَهُ خَطَرُ[٢]
قَتَلْتُ شَاعِرَ هَـٰذَا ٱلْحَيِّ مِنْ مُضَرٍ ... وَٱللهِ وَٱللهِ مَا تَرْضَىٰ بِذَا مُضَرُ

أَقولُ : وشتَّانَ ما بينَهما ، فإِنَّهما وإِنْ ٱتفقا في جنسِ ٱلمعنىٰ . . فقدِ ٱختلفا في نوعِهِ ، ومِن هنا جاءَ تفاوتُ ٱلقيمةِ ؛ إِذِ ٱلمؤَمَّلُ يدَّعي أَنَّها قالَتْ ذلكَ ، وهُوَ جميلٌ ، والناظمُ يقولُ ذلكَ من قِبلِ نفسِهِ ، وهِيَ حطَّةٌ وقلَّةُ أَدبٍ ، غيرَ أَنَّها لاَ تنكرُ معَ مثلِ قولِهِ [في « العُكبَرِيِّ » ١/ ٣٤١ مِنَ ٱلمتقاربِ] :

أَيَـا خَـدَّدَ ٱللهُ وَرْدَ ٱلْخُـدُوْدِ ... وَقَدَّ قُدُوْدَ ٱلْحِسَانِ ٱلْقُدُوْدِ[٣]

وقد أَنكروا علىٰ الفرزدقِ قولَهُ [في « ديوانِهِ » ٢/ ٧٧٨ مِنَ ٱلكاملِ] :

يَا أُخْتَ نَاجِيَةَ بْنِ سَامَةَ إِنَّنِيْ ... أَخْشَىٰ عَلَيْكِ بَنِيَّ إِنْ طَلَبُوْا دَمِيْ

---

(١) الاعتقالُ : هوَ أَن يحملَ الرجلُ رمحهُ بينَ ساقهِ وركابهِ .
(٢) الخطرُ : الدِّيةُ والعِوَض .
(٣) خدَّدَ : شقَّقَ . قدَّ : قطع . القدودُ ـ جمعُ قدٍّ ـ : وهوَ القامةُ . والمعنىٰ : أَنَّهُ دعا علىٰ وردِ الخدودِ أَن يشقِّقَهُ اللهُ ويزيلَ حسنَهُ ، وأَن يقطَعَ قدودَ الحسانِ ، وهوَ دعاءٌ علىٰ التعجُّبِ والاستحسانِ ، كقولِ جميلٍ الآتي :

رَمَىٰ اللهُ فِيْ عَيْنَيْ بُثَيْنَةَ بِالْقَذَىٰ ... وَفِيْ الْغُرِّ مِنْ أَنْيَابِهَا بِالْقَوَادِحِ

وقولَ الآخرِ [مِنَ الطَّويلِ] :

خَلِيْلَيَّ إِنْ حَانَتْ وَفَاتِيَ فَاطْلُبَا دَمِيْ مِنْ سُلَيْمَىٰ وَٱطْلُبَا بِجَمِيْلِ

وقولَ قيسِ بنِ ذريحٍ [في « ديوانهِ » ٤٦ مِنَ الطَّويلِ] :

خُذُوْا بِدَمِيْ إِنْ مِتُّ كُلَّ خَرِيْدَةٍ مَرِيْضَةِ جَفْنِ ٱلْعَيْنِ وَٱلطَّرْفُ فَاتِرُ(١)

وقولَ جميلٍ [في « ديوانهِ » ٥٣ مِنَ الطَّويلِ] :

رَمَىٰ اللهُ فِيْ عَيْنَيْ بُثَيْنَةَ بِٱلقَذَىٰ وَفِيْ ٱلغُرِّ مِنْ أَنْيَابِهَا بِٱلْقَوَادِحِ(٢)

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ جندبٍ : خرجتُ مرةً فرأَيتُ جماعةً بينهم فتاةٌ ، كأَنَّها منحوتةٌ من فضَّةٍ ، فتمثلتُ بقولِ قيسِ بنِ ذُريحٍ : (خُذوا بِدَمِيْ إن مِتُّ) . . . البيتِ ، فقالتِ ٱلمرأَةُ يا ٱبنَ جندبٍ : إِنَّ قَتِيلَنا لاَ يُودىٰ ، وأَميرَنا لا يُفدىٰ . قتيلنا لا يودىٰ

وقالَ ٱبنُ عبَّاسٍ : (قتيلُ ٱلهوىٰ هَدَرٌ ، لاَ عقلَ ولاَ قَوَدَ)(٣) . قتيل الهوىٰ هَدَر

قال أبو حيَّةَ النُّميريُّ [في « ديوانهِ » ٨٦ـ٨٩ مِنَ الطَّويلِ] : ما هي دية قتيل العشق عند الشعراء؟!

رَمَيْنَ فَأَقْصَدْنَ ٱلْقُلُوْبَ وَمَا نَرَىٰ دَماً مَائِراً إِلاَّ جَوَىً فِيْ ٱلْحَيَازِمِ(٤)

وَلَٰكِـنْ لَعَمْـرُ ٱللهِ مَـا طَـلَّ مُسْلِمـاً كَغُرِّ ٱلثَّنَايَا وَاضِحَاتِ ٱلْمَلاَغِمِ(٥)

---

(١) الخريدَةُ : البكرُ الحييَّةُ ، الطويلَةُ السكوتِ . والطرفُ الفاترُ : الذي ليسَ بحادِّ النظرِ .

(٢) الغُرُّ : البيضُ . الأنيابُ : الأسنانُ . القوادحُ : السوادُ الذي يظهرُ في الأَسنانِ أَو آفاتُ الأَسنانِ .

(٣) لم أقف عليه . هدَرٌ : مباحٌ . العقلُ : الديةُ . القودُ : القصاصُ .

(٤) المائرُ : السائلُ .

(٥) الملاغِمُ من كُلِّ شيءٍ : الأَنفُ والفمُ والأَشداقُ .

وَإِنَّ دَمـاً لَـو تَعْلَمِيْـنَ جَنَيْتِـهِ عَلَىٰ ٱلْحُرِّ جَانِي مِثْلِهِ غَيْرُ سَالِمِ

وقالَ جميلٌ [في « ديوانهِ » ٦٢ـ٦٧ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا قُلْتُ : مَا بِيْ يَا بُثَيْنَةُ قَاتِلِيْ مِنَ ٱلْحُبِّ قَالَتْ : ثَابِتٌ وَيَزِيْدُ

وَإِنْ قُلْتُ : رُدِّيْ بَعْضَ عَقْلِيْ أَعِشْ بِهِ مَعَ ٱلنَّاسِ قَـالَـتْ : ذَاكَ مِنْكَ بَعِيْدُ

جَزَتْكِ ٱلْجَوَازِيْ يَا بُثَيْنُ سَلاَمَةً إِذَا مَـا خَلِيْـلٌ بَـانَ وَهْـوَ حَمِيْـدُ

يَقُوْلُوْنَ : جَاهِدْ يَا جَمِيْلُ بِغَزْوَةٍ وَأَيَّ جِهَـادٍ غَيْـرَهُـنَّ أُرِيْـدُ

لِكُـلِّ حَـدِيْـثٍ بَيْنَهُـنَّ بَشَـاشَـةٌ وَكُـلُّ قَتِيْـلٍ بَيْنَهُـنَّ شَهِيْـدُ

ولقد أَحسنَ مسلمُ بنُ ٱلوليدِ في قولِهِ [في « مصارع العشاق » ١/٣٧ مِنَ الطَّويلِ] :

أَدِيْرَا عَلَيَّ ٱلْكَأْسَ لاَ تَشْرَبَا قَبْلِيْ وَلاَ تَطْلُبَا مِنْ عِنْدِ قَاتِلَتِيْ ذَحْلِيْ(١)

إِذَا مَـا عَلَـتْ مِنَّـا ذُؤَابَـةَ وَاحِـدٍ تَمَشَّتْ بِهِ مَشْيَ ٱلْمُقَيَّدِ فِيْ ٱلْوَحْلِ(٢)

وقالَ الحسينُ بنُ الضحاكِ [مِنَ الوافرِ] :

غَـزالٌ مَـا ٱجْتَـلاَهُ ٱلطَّـرْفُ إِلاَّ تَحَيَّـرَ فِـيْ مَـلاحَـةِ وَجْنَتَيْـهِ

خُذُوْا بِدَمِيْ مَحَاسِنَهُ وَخُصُّوْا مُقَبَّلَـــهُ وَبَـــرْدَ ثَنِيَّتَيْـــهِ(٣)

عذاب الحب للعشاق عذب

وممَّا يشبهُ هـٰذا النوعَ ـ وليسَ بهِ ـ قولُ أَحمدَ بنِ يوسفَ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَفِيْ ٱلْمَوْتِ لِيْ مِنْ لَوْعَةِ ٱلْحُبِّ رَاحَةٌ وَلَـٰكِنَّنِـيْ أَخْشَـىٰ نَـدَامَتَهَـا بَعْـدِيْ

---

(١) الذَّحلُ : الثأرُ .

(٢) الذُّؤابةُ من كلِّ شيءٍ : أَعلاهُ .

(٣) الثنايا : الأسنان .

وقالَ المجنونُ [في «ديوانهِ» ٤٧ مِنَ الطَّويلِ] :

يَقُولُوْنَ: لَيْلَىٰ عَذَّبَتْكَ بِحُبِّهَا ... أَلاَ حَبَّذَا ذَاكَ ٱلْحَبِيْبُ ٱلْمُعَذِّبُ

وقالَ [في «ديوانهِ» ١١٦ مِنَ الطَّويلِ] :

تَشَكَّىٰ ٱلْمُحِبُّوْنَ ٱلْغَرَامَ وَلَيْتَنِيْ ... تَحَمَّلْتُ مَا أَلْقَاهُ مِنْ بَيْنِهِمْ وَحْدِيْ

فَكَانَتْ لِنفسِيْ لَذَّةُ ٱلْحُبِّ كُلُّهَا ... فَلَمْ يَلْقَهَا قَبْلِيْ مُحِبٌّ وَلاَ بَعْدِيْ

وقالَ إبراهيمُ بنُ العبَّاسِ [مِنَ الوافرِ] :

بِنَفْسِيْ مَنْ إِسَاءَتُهُ ٱعْتِمَادُ ... وَمَنْ إِحْسَانُهُ مِنْ غَيْرِ عَمْدِ

وَمَنْ أَصْفَيْتُهُ فِيْ ٱلْوُدِّ جُهْدِيْ ... فَعَارَضَ فِيْ ٱلْجَفَاءِ بِمِثْلِ جُهْدِيْ

وقالَ أبو العتاهيَةِ [في «ديوانهِ» ٤٩٩ مِنَ البسيطِ] :

وَلِيْ فُؤَادٌ إِذَا طَالَ ٱلْعَذَابُ بِهِ ... هَامَ ٱشْتِيَاقاً إِلَىٰ لُقْيَا مُعَذِّبِهِ

وقالَ ٱبنُ وَكيعٍ [مِنَ المُجْتَثِّ] :

إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ مَا بِيْ ... وَأَنْتَ بِيْ لاَ تُبَالِيْ

فَصَارَ قَلْبُكَ قَلْبِيْ ... وَصِرْتَ فِيْ مِثْلِ حَالِيْ

بَلْ عِشْتَ فِيْ طِيْبِ عَيْشٍ ... تَفْدِيْكَ نَفْسِيْ وَمَالِيْ

دَعَوْتُ إِذْ ضَاقَ صَدْرِيْ ... عَلَيْكَ ثُمَّ بَدَا لِيْ

وقالَ آخرُ [مِنْ مجزوءِ الرَّمَلِ] :

أَيُّهَا ٱلْمُعْرِضُ صَفْحاً ... عَنْ خِطَابِيْ وَجَوَابِيْ

لاَ أَرَانِيْ ٱللهُ مَوْتِيْ ... أَوْ يُرِيْنِيْ بِكَ مَا بِيْ

رَبِّ فَٱجْعَلْهُ دُعَاءً ... خَائِباً غَيْرَ مُجَابِ

رَقَّ قَلْبِيْ أَنْ يَرَىٰ قَلْـ ... ـبَكَ فِيْ مِثْلِ عَذَابِيْ

وقال الناظمُ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٣ مِنَ الطَّويلِ] :

سُهادٌ أَتَانَا مِنكَ فِي العَيْنِ عِنْدَنَا رُقَادٌ ، وَقُلاَّمٌ رَعَىٰ سِرْبُكُمْ نَدُّ[1]

وقال [في « العُكبَريّ » ٢/ ٢٨٤ مِنَ الطَّويلِ] :

ضَنىً فِيْ الْهَوَىٰ كَالسُّمِّ فِي الشَّهْدِ كَامِناً لَذِذْتُ بِهِ جَهْلاً وَفِيْ لَذَّتِيْ حَتْفُ

وقالَ [في « العُكبَريّ » ١/ ٦ مِنَ الكاملِ] :

وَالْعِشْقُ كَالْمَعْشُوقِ يَعْذُبُ قُرْبُهُ لِلْمُبْتَلَىٰ وَيَنَالُ مِنْ حَوْبَائِهِ[2]

وقالَ ابنُ الفارضِ [في « ديوانِهِ » ١٤٤ مِنَ البسيطِ] :

مَا بَيْنَ مُعْتَرَكِ الأَحْدَاقِ وَالْمُهَجِ أَنَـا الْقَتِيْـلُ بِـلاَ إِثْـمٍ وَلاَ حَـرَجِ

أقسام الناس في الثأر

وحاصلُ ما سقناهُ منَ الأشعارِ ، أَنَّ الناسَ أقسامٌ :

١ـ قسم يطلبون

منهُم : من ضلَّ وغوىٰ ، وطلبَ الثأرَ في الهوىٰ ، وفي مقدِّمتِهم النَّاظمُ وشاعرُ (المعرَّةِ) في قولِهِ [في « سقطِ الزند » ٢٥٦ـ٢٥٧ مِنَ الطَّويلِ] :

أَسَرْتِ أَخَانَا بِالْخِدَاعِ وَإِنَّهُ يُعَدُّ إِذَا اشْتَدَّ الْوَغَىٰ بِقَبِيْلِ
فَإِنْ تُطْلِقِيْهِ تَمْلِكِيْ شُكْرَ قَوْمِهِ وَإِنْ تَقْتُلِيْهِ تُؤْخَذِيْ بِقَتِيْلِ

٢ـ قسم رضي بالمقام الذي هو فيه

ومِنهُم : مَن عرفَ رقَّهُ ، ووفَّىٰ الأدَبَ حقَّهُ ، واعترفَ أَنَّ جنايتَهُ جُبَارٌ[3] ، ورضيَ لدمِهِ بالإهدارِ ، لأَنَّهُ بالحقيقةِ إِنَّما جنىٰ علىٰ نفسِهِ بطرفِهِ ، وقطعَ مارنَ أنفهِ بكفِّهِ .

---

(١) القُلاَّمُ : نبتٌ خبيثُ الرائحةِ . النَّدُّ : عودٌ طيِّبُ الرائحة يُتَبَخَّرُ بهِ . والمعنىٰ : السهادُ إذا كان لأجلِكم . . رقادٌ عندنا ، والقُلاّمُ على خُبث ريحِهِ إذا رعتْه إبلُكم . . صار كالندِّ عندنا ، وروايةُ « الديوانِ » (ورد) .

(٢) الحوباءُ : النفسُ .

(٣) جُبارٌ : هَدَرٌ ، ومنه حديث : « جرح العجماء جبار » . العجماء : الدابة .

وللهِ درُّ الناظمِ في قولِهِ [« العُكبَرِيّ » ٣/ ٢٥٠ مِنَ الكاملِ] : القتيل القاتل!!

وأَنَـا ٱلَّـذِيْ ٱجْتَلَبَ ٱلْمَنِيَّةَ طَرْفُهُ   فَمَنِ ٱلْمُطَالِبُ وَٱلْقَتِيْلُ ٱلْقَاتِلُ ؟!

ومنهُم : مَن جاشَتْ نفسهُ فأَنَّت، ثُمَّ رجعت إِلىٰ معروفِها فاطمأَنَّتْ . ٣ـ قسم يطالب ثم يعفو

ومنهُم : مَنِ ٱستعذَبَ العذابَ ، وتحمَّلَ الكَلَفَ حَتَّىٰ أنذاب ، ٤ـ قسم يستعذب العذاب
وهـٰؤلاءِ هُمُ ٱلْجَمَّاءُ الغفيرُ[(١)] كما سبقَ ، ويأْتي منهُ الطيِّبُ الكثيرُ .

أَمَّا سلطانُ العاشقينَ : فتارةً يستعذبُ غيرَ البعدِ ، كما في قولِهِ [في « ديوانهِ » ١٤٥ مِنَ البسيطِ] : أحوال سلطان العاشقين

عَذِّبْ بِمَا شِئْتَ غَيْرَ ٱلْبُعْدِ عَنْكَ تَرَىٰ   أَوْفَىٰ مُحِبٍّ بِمَا يُرْضِيْكَ مُبْتَهِجِ

وأُخرىٰ يستلينُ ما سوىٰ القِلىٰ والبغضِ ، فيقولُ [في « ديوانهِ » ١٣٥ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا ٱلصَّدُّ إِلاَّ ٱلْوُدُّ مَا لَمْ يَكُنْ قِلىً   وَأَصْعَبُ شَيءٍ غَيْرُ إِعْرَاضِكُمْ سَهْلُ

وقد تتلاشىٰ الأَغراضُ ، فيسهلُ عندَهُ حَتَّىٰ الإِعراضُ ، كما في قولِهِ [في « ديوانهِ » ٧٩ مِنَ الطَّويلِ] :

فَكُلُّ الَّذِي تَرْضَاهُ وَٱلْمَوتُ دُونَهُ   بِهِ أَنَا رَاضٍ وَٱلصَّبَابَةُ أَرْضَتِ

وممَّا يتَّصلُ بحديثِ البيتِ ما ذكرهُ ٱبنُ خَلِّكَان [في « وفيات الأعيان » ١/ ٣١٦ـ٣١٧] : أَنَّ أَحـدَ تـلاميـذِ ذي النـونِ المصـريِّ[(٢)] جـاءَ إِلـىٰ (بغدادَ) ، وحضرَ بها سماعاً طابَ فيهِ القومُ ، فدارَ ذلكَ التلميذُ ، ذو النون المصري يقدم العراق ليأخذ بثأر أحد تلاميذه

---

(١) الجماء الغفير : مجتمعين كثيرين .

(٢) واسمه : ثوبان بن إبراهيم الإخميمي أبو الفياض ، أحد الزهاد والعباد المشهورين بـ(مصر) توفي سنة : (٢٤٥ هـ) . ويقال : إن قبره في باب الصغير بـ(دمشق) .

ثُمَّ صرخَ صرخةً فاضتْ فيها نفسُهُ ، فأرتفعَ للشيخِ خبرُهُ ، فقدِمَ (العراقَ) في أَصحابِهِ وأستدعىٰ ذٰلِكَ الحادِي ، وأستفسرَهُ عنِ ٱلقصَّةِ فساقَها ، فلم يزدْ علىٰ التبريكِ ، ثُمَّ شرعَ هُوَ وأَصحابُهُ في السماعِ ، ولمَّا رقَّ وراقَ ، وهاجَتِ ٱلأشواقُ.. صاحَ الشيخُ في وجهِ الحادِي الأَوَّلِ فوقعَ ميْتاً ، فقالَ : قد أَخذنا ثأْرَ صاحِبِنَا ، وتجهَّزَ مِنْ فورِهِ للرجوعِ .

وقد سبقَ في المجلسِ الأَوَّلِ حديثُ ٱلمرأَةِ معَ الأَكوعِ ، والشوطُ بطينٌ ، وللهِ في خلقهِ شؤونٌ ، وكم في الإنسانِ منَ العجائِبِ ، ولو أَنَّ الناظمَ ومَن علىٰ شاكلتِهِ ٱنبرَوا للثَّأْرِ بالوجدِ المُثارِ.. لأَمِنوا العِثَارَ ، لأَنَّها طريقٌ مسلوكٌ ، لا هوادةَ فيهِ للسُّوقَةِ ولا الملوكِ . الحب طريق مسلوك

ويعجبني قولُ ديكِ الجنِّ بعدَ أَنْ فعلَ فعلتَهُ التي فعلَ ـ وهُوَ مِنَ ٱلكافرينَ ـ [في « ديوانه » ١٨٨ مِنَ ٱلبسيطِ] : المالك الظالم

كَيْفَ ٱلدُّعَاءُ عَلَىٰ مَنْ جَارَ أَوْ ظَلَمَا ... وَمَالِكِيْ ظَالِمٌ فِيْ كُلِّ مَا حَكَمَا

لاَ آخَذَ ٱللهُ مَنْ أَهْوَىٰ بِجَفْوَتِهِ ... عَنِّيْ وَلاَ ٱقْتَصَّ لِيْ منْهُ وَلاَ أَثِمَا

وقولُ المازنيِّ [في « النجوم الزاهرة » ٣/١٢٩ مِنَ البسيطِ] : الحسنات يذهبن السيئات

كَأَنَّما ٱلشَّمْسُ مِنْ أَعْطَافِهِ لَمَعَتْ ... حُسْناً أَوِ ٱلبَدْرُ مِنْ أَزْرَارِهِ طَلَعَا

مُسْتَقْبَلٌ بِٱلَّذِيْ يَهْوَىٰ وإِنْ كَثُرَتْ ... مِنْهُ ٱلذُّنُوبُ وَمَعْذُوْرٌ بِمَا صَنَعَا

فِيْ وَجْهِهِ شَافِعٌ يَمْحُو إِسَاءَتَهُ ... مِنَ ٱلقُلُوْبِ وَجِيْهٌ حَيْثُمَا شَفَعَا

* * *

[قالَ أبو الطَّيبِ المتنبي في « العُكبَرِيِّ » ٣/ ١٦٦ مِنَ ٱلبسيطِ] :

قَيْـلٌ بِمَنْبِـجَ مَثْـوَاهُ ، وَنَـائِلُـهُ فِي ٱلأُفْقِ يَسْأَلُ عَمَّنْ غَيْرَهُ سَأَلاَ

الجود يسأل عن طلابه ممن يطلبون من غير صاحبه

يقولُ : إِنَّهُ مقيمٌ بـ (منبجَ) مِن أَرضِ (الشامِ) ، ونائِلُهُ يطوفُ في الآفاقِ ، يسألُ عَنِ ٱلعُفاةِ[1] الذينَ يسأَلونَ غيرَهُ .

والقصدُ أَنَّهُ ٱشتهرَ بالجودِ حَتَّىٰ صرفَ العافينَ عن سائِرِ الناسِ إِليهِ ، و(القَيلُ) ـ بلغةِ حِميرٍ ـ : المَلِكُ العظيمُ ، كذا قالهُ الشارحُ ، وأَشكلَ عليَّ قولهُ : (العظيمِ) علىٰ حينِ لم يحضرْنا شيءٌ من معاجمِ اللُّغةِ . ومنشأُ الإِشكالِ من حُجْرِ بنِ وائلٍ الحضرميِّ ، فقدْ كانَ قَيْلاً مِن أَقيالِ (اليمنِ) .

بيان كذب المتنبي في هذا البيت

وجرىٰ لهُ مع ذلِكَ ما لا يليقُ بأَدنىٰ رياسةٍ ـ فَضلاً عَنِ ٱلعَظَمةِ ـ وذلِكَ أَنَّهُ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ أَمرَ معاويةَ أَنْ ينطلقَ بهِ إِلىٰ رجُلٍ مِنَ ٱلأَنصارِ ينزلُهُ عليهِ ، قالَ : فٱنطلقتُ معهُ ، وهُوَ علىٰ ناقتِهِ ، وأَنا أَمشي في يومٍ صائِفٍ ، فقلتُ : ٱحمِلْني ، قالَ : لستَ مِن أَردافِ الملوكِ ، قلتُ : أَنا ٱبنُ أَبي سفيانَ ، قالَ : قد سمعتُ رسولَ اللهِ يقولُ ذلكَ ، قلتُ : فأَلقِ إِليَّ نعلَكَ ، قالَ : لا تُقِلُّهُما قَدَماك ، ولٰكنْ ٱمشِ في ظلِّ ناقَتي ، وكفاكَ شرفاً بذلِكَ ، ثُمَّ لم يوزعْ أَنْ قَدِمَ عَلَىٰ معاويةَ في سلطانِهِ . . فأَكرمَ وفادَتَهُ ، وقضىٰ حوائِجَهُ[2] .

---

(١) العُفاة ـ جمع عافٍ ـ : وهو طالب المعروف .

(٢) أنظر القصَّة بنحوها في « سير أَعلام النُّبلاء » (٢/ ٥٧٤) ، والصَّحابيُّ هوَ : وائلُ بنُ حُجْرٍ وليسَ حُجْرُ بنُ وائلٍ .

وبَعيدٌ ما يروىٰ مِن تنزُّهِهِ عن قَبولِ جائِزتِهِ ، ثُمَّ إِنَّهُ كانَ من أَصحابِ عليٍّ ففارقَهُ ورضيَ بعدُ أن يكونَ شرطيّاً لزيادٍ ، فقد بعثَهُ بحجر بنِ عديٍّ ورفاقِهِ إِلىٰ معاويةَ في أَحدَ عشرَ راكِباً ، فمِنْ أَينَ تأتي العظمةُ لمن هـٰذا وصفُهُ ؟

متى يقال: (ملك) ومتى يقال: (سلطان)؟

وقد يستنتجُ منهُ متأَهِّلُ الحضارمةِ في الأَلقابِ وإِطلاقِ الإِمارةِ ، أو ما هوَ أَكبرُ منها علىٰ مَن لا يستحقُّ مِمَّنْ لا طَوْلَ لهُ ولا حولَ .

وقد قالَ ابنُ السبكيِّ في ترجمةِ السلطانِ محمودِ بنِ سُبكتكينَ [كما في «الطبقات» ٣١٤/٥] : ولا أَستطيعُ أَن أُسمِّيَ نورَ الدينِ الشهيدَ سلطاناً ؛ لأَنَّهُ لم يسمَّ بذلِك ، وسببُه أَنَّ مصطلحَ الدول أَنَّ السلطانَ مَنْ ملكَ إِقليمينِ فصاعداً ، فإِن كانَ لا يملكُ إِلاَّ إِقليماً واحداً . . سميَ بالملكِ ، وإِنِ اقتصرَ علىٰ مدينةٍ واحدةٍ . . لم يسمَّ بالملكِ ولا بالسلطانِ بل بأَميرِ البلدِ وصاحبِها ، ومِنْ ثَمَّ تعرفُ خطأَ كُتَّابِ زمانِنا حيثُ يسمُّونَ صاحبَ (حماة) سلطاناً ، ولا ينبغي أن يسمَّىٰ سلطاناً ولا ملكاً ؛ لأَنَّ حكمهُ لا يعدوها . انتهىٰ .

المتنبي وسريان جود الممدوح إلى محتاجه

والمعنىٰ متكرِّرٌ عندَ الناظمِ فمنهُ قولهُ [في «العُكبَريّ» ٧/٢ مِنَ الطَّويلِ] :

وَأَنْفُسُهُـمْ مَبْـذُولَـةٌ لِـوُفُـوْدِهِـمْ   وَأَمْوَالُهُمْ فِيْ دَارِ مَنْ لَمْ يَفِدْ وَفْدُ(١)

وقولُهُ [في «العُكبَريّ» ١١٦/٤ مِنَ الطَّويلِ] :

سَرَىٰ ٱلنَّوْمُ عَنِّي فِيْ سَرَايَ إِلَىٰ ٱلَّذِيْ   مَـوَاهِبُـهُ تَسْـرِيْ إِلَـىٰ كُـلِّ نَـائِـمِ

---

(١) الوفودُ ـ جمع وفدٍ ـ : وهم الذين يقدمونَ على الملوكِ .

وقولُهُ [في «العُكبَريّ» ٣/ ١٢٠ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَنْ فَرَّ مِنْ إِحْسَانِهِ حَسَداً لَهُ   تَلَقَّاهُ مِنْهُ حَيْثُمَا سَارَ نَائِلُ

وأَصلُهُ مِن قولِ أَبي جويريةَ العبديِّ [مِنَ الطَّويلِ] : أصل بيت المتنبي

وَيُدْلِجُ فِيْ حَاجَاتِ مَنْ هُوَ نَائِمُ   وَيُوْرِي كَرِيْمَاتِ ٱلنَّدَىٰ حِيْنَ يَقْدَحُ

وقد تمثَّل بهِ أبو تمَّامٍ لبعضِ الأُمراءِ فاستجادَهُ ـ كما سنقتصُّ خبرَهُ في غيرِ هٰذا المجلسِ ـ ولمَّا رآهُ ٱستحسنهُ أَكثرَ منهُ فقالَ [في «ديوانهِ» ٨٤ مِنَ الطَّويلِ] : سريان الجود والشعراء

فَأَضْحَتْ عَطَايَاهُ نَوَازِعَ شُرَّدَا   تُسَائِلُ فِيْ ٱلآفَاقِ عَنْ كُلِّ سَائِلِ[1]

وقالَ [مِنَ ٱلكاملِ] :

وَفَدَتْ إِلَىٰ ٱلأَقْطَارِ مِنْ مَعْرُوفِهِ   نِعَمٌ تُسَائِلُ عَنْ ذَوِيْ ٱلإِقْتَارِ

وقالَ [مِنَ الطَّويلِ] :

فَإِنْ لَمْ يَفِدْ يَوْماً إِلَيْهِنَّ طَالِبٌ   وَفَدْنَ إِلَىٰ كُلِّ ٱمْرِىءٍ غَيْرِ طَالِبِ

وقالَ أَبو العتاهيةِ [في «ديوانهِ» ٦٤٨ مِنَ المتقاربِ] :

وَإِنْ نَحْنُ لَمْ نَبْغِ مَعْرُوْفَهُ   فَمَعْرُوفُهُ أَبَداً يَبْتَغِيْنَا

وقالَ أَميرُ المؤمنينَ كرَّمَ اللهُ وجههُ [في «شرح النهج» ١٩/ ٩٩] : يا كُميلُ مُر أَهلكَ بالمكارمِ ، ويفِدوا في قضاءِ حاجَةِ من هوَ نائمٌ ، فوالذي وسعَ سمعُهُ الأَصواتَ ، ما مِن أَحدٍ يودعُ قلباً سروراً . . إلاَّ وخلقَ اللهُ مِنْ ذلكَ السرورِ لُطفاً ، حتَّىٰ إذا نزلَتْ بالمحسنِ نازلةٌ ، أو جاءَتْهُ جائحةٌ . . كانَ ذلكَ السرورُ أَسرعَ إِليها مِنَ ٱلماءِ إِلىٰ الإمام الهمام والجود الساري

(١) نوازعُ : من نَزعَ إِليهِ إذا ٱشتاقَ لهُ .

ٱنحدارِهِ ، حتَّىٰ يطرُدَها كما تُطْرَدُ الغريبةُ مِنَ الإبلِ عَنِ الحوضِ . أَو ما هَـٰذا معناهُ .

عودة إلى الشعراء

وقالَ مروانُ ٱبنُ أَبي حفصةَ يمدحُ عبدَ اللهِ بنَ طاهرٍ ، وقد وافاهُ نائِلُهُ علىٰ البعدِ [في « ديوانه » ١١٨ مِنَ الطَّويلِ] :

لَعَمْرِيْ لَنِعْمَ ٱلْغَيْثُ غَيْثٌ أَصَابَنَا ... بِبَغْدَادَ مِنْ أَرْضِ ٱلْجَزِيْرَةِ وَابِلُهْ

فَكُنَّا كَحَيٍّ صَبَّحَ ٱلْغَيْثُ أَهْلَهُ ... وَلَمْ تَرْتَحِلْ أَظْعَانُهُ وَرَوَاحِلُهْ(١)

وقالَ أَبو عبادةَ [مِنَ الطَّويلِ] :

جَـزَىٰ اللهُ خَيْـراً وَٱلْجَـزَاءُ بِكَفِّـهِ ... بَنِيْ ٱلسِّمْطِ أَخْدَانَ ٱلسَّمَاحَةِ وَٱلْمَجْدِ

هُـمُ وَصَلُـوْنِـي وَٱلْمَهَـامِـهُ بَيْنَنَـا ... كَمَا ٱرْفَضَّ غَيْثٌ مِنْ تِهَامَةَ فِيْ نَجْدِ

وفيْ ٱلتلميحِ إِلىٰ هـٰذا يقولُ المعَريُّ [في « سقطِ الزندِ » ٢١٨ مِنَ الطَّويلِ] :

شَكَـرْتُهُـمُ شُكْـرَ ٱلْـوَلِيْـدِ بِفَـارِسٍ ... رِجَالاً بِحِمْصٍ كَانَ جَدُّهُمُ ٱلسِّمْطُ(٢)

وقالَ ٱبنُ الروميِّ [مِنَ الكاملِ] :

يَسْرِيْ ٱلسَّحَابُ إِلَىٰ ٱلْبَعِيْدِ بِغَيْثِهِ ... فَيَظَـلُّ مِنْـهُ وَادِعَـاً وَيُجَـادُ(٣)

وَلأَنْتَ أَوْلَىٰ أَنْ تَجُوْدَ لِمُجْدِبٍ ... عَفْـوَاً وَلَـمْ تُشْـدَدْ لَـهُ أَقْتَـادُ(٤)

---

(١) الأظعانُ والرواحلُ : المطايا .

(٢) شكرُ الوليدِ : أَرادَ بالوليدِ البُحتريَّ . السمطُ : جماعةٌ مِن آلِ حمصَ كانَ البُحتريُّ يمتدحُهم ويشكرُ نعمَهُم .

(٣) وادعاً : ساكناً . يُجادُ : منَ الجودِ .

(٤) عفواً : ابتداءً مِن غيرِ طلبٍ . الأَقتادُ : خشباتُ الرحلِ ، والمعنىٰ : أَنَّكَ كريمٌ تعطي الإنسانَ مِن قبلِ أَن يأتيَ إليك ويطلب منكَ .

ولا يبعدُ عنهُ قولُ الناظِمِ [في « العُكبَريّ » ١/ ١٣٠ مِنَ الكاملِ] :

كَٱلشَّمسِ فِيْ كَبِدِ ٱلسَّمَاءِ وَضَوْؤُهَا ... يَغْشَىٰ ٱلْبِلَادَ مَشَارِقاً وَمَغَارِبَا
كَٱلْبَحْرِ يَلْفِظُ لِلْقَرِيْبِ جَوَاهِراً ... جُوْداً وَيَبْعَثُ لِلْبَعِيْدِ سَحَائِبَا

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٣/ ٢٩٤ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَيسَ ٱلَّذِيْ يَتَّبَّعُ ٱلْوَبْلَ دَائِماً ... كَمَنْ جَاءَهُ فِي دَارِهِ رَائِدُ ٱلْوَبْلِ[1]

وما أَحسَنَ قولَهُ [في « العُكبَريّ » ١/ ١٣٢ مِنَ الكاملِ] :

وَعَطَاءُ مَالٍ لَوْ عَدَاهُ طَالِبٌ ... أَنْفَقْتَهُ فِي أَنْ تُلَاقِيَ طَالِبَا

وقالَ بعضُ شُعراءِ « اليتيمَةِ » [كما نقله في « وفيات الأعيان » ٥/ ٤١٨ مِنَ المنسرحِ] :

وَلِيْ صَدِيْقٌ مَا مَسَّنِيْ عُدْمٌ ... مُذْ وَقَعَتْ عَيْنُهُ عَلَىٰ عُدُمِيْ
أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ وَمَا يُكَلِّفُنِيْ ... تَقْبِيْلَ كَفٍّ لَهُ وَلَا قَدَمِ
قَامَ بِأَمْرِيْ لَمَّا قَعَدْتُ بِهِ ... وَنِمْتُ عَنْ حَاجَتِيْ وَلَمْ يَنَمِ

وهو ناظرٌ إلىٰ البيتِ الذي أَنفذَهُ سيفُ الدولةِ للناظمِ ليُجيزَهُ ، وكانَ مِنْ شعرِ الصوليِّ إبراهيمَ شَكَرَ بهِ عمرو بنَ سعدةَ عَن صنيعةٍ أَسداها إِليه ، وهوَ [في « ديوان الحماسة » ٢/ ٢٦٦ مِنَ الطَّويلِ] : المسارعة في قضاء الحاجة

رَأَىٰ خَلَّتِيْ مِنْ حَيْثُ يَخْفَىٰ مَكَانُهَا ... فَكَانَتْ قَذَىٰ عَيْنَيْهِ حَتَّىٰ تَجَلَّتِ[2]

---

(١) الرائدُ : الذي ترسلهُ القومُ فيطلبُ لهمُ الكلأَ .
(٢) الخَلَّةُ : الحاجةُ والفقرُ . فكانت قذىٰ عينيهِ : أي لَم يصبرْ عنها كما لا يصبرُ الرَّجلُ علىٰ قذىٰ عينيهِ .

تقسيم المعطين في العطاء

والناسُ علىٰ مراتبَ :

١ـ قسم سبق ذكرهم

فمنهُم : مَنْ سبقَ وصفُهم .

٢ـ قسم يكتفون بالسلام عن السؤال

ومنهم : مَن يستغني عَنِ السؤالِ بالسلامِ .

قالَ أُميّةُ [في « ديوانِه » ٣٣٣ـ٣٣٤ مِنَ الوافرِ] :

أَأَذْكُرُ حَاجَتِيْ أَمْ قَدْ كَفَانِيْ حَيَاؤُكَ إِنَّ شِيْمَتَكَ ٱلْحَيَاءُ

إِذَا أَثْنَىٰ عَلَيْكَ ٱلْمَرْءُ يَوْماً كَفَاهُ مِنْ تَعَرُّضِهِ ٱلثَّنَاءُ

وقالَ ٱبنُ الروميِّ [في « ديوانه » ٢/٥٣٩ مِنَ الكاملِ] :

يَامَنْ إِذَا ٱلتَّعْرِيْضُ صَافَحَ نَفْسَهُ أَغْنَىٰ ٱلْعُفَاةَ بِهِ عَنِ ٱلتَّصْرِيْحِ

وقالَ آخرُ [في « روضة العقلاء » ١/ ٢٥١ مِنَ الكاملِ] :

وَإِذَا طَلَبْتَ إِلَىٰ كَرِيْمٍ حَاجَةً فَلِقَاؤُهُ يَكْفِيْكَ وَٱلتَّسْلِيْمُ

وَإِذَا رَآكَ مُسَلِّماً عَرَفَ ٱلَّذِيْ حَمَّلْتَهُ وَكَأَنَّهُ مَلْزُوْمُ

وقالَ الرياشِيُّ [مِنَ الوافرِ] :

وَحَسْبُكَ مِنْ تَقَاضِيْ ٱلْمَرْءِ يَوْماً لِحَاجَتِكَ ، ٱلزِّيَارَةُ وَٱلحَدِيْثُ

وقالَ الناظمُ [في « العُكبَريّ » ١/ ١٩٨ مِنَ الطَّويلِ] :

أُخِفُّ سَلاَمِيْ حُبَّ مَا خَفَّ عِنْدَكُمْ وَأَسْكُتُ كَيْمَا لاَ يَكُوْنَ جَوَابُ

وفِيْ ٱلنَّفْسِ حَاجَاتٌ وَفِيْكَ فَطَانَةٌ سُكُوْتِيْ بَيَانٌ عِنْدَهَا وخِطَابُ

٣ـ قسم يحتاج إلى إعادة السؤال

ومنَ الناسِ : مَنْ يحتاجُ إِلىٰ إِعادةِ السؤَالِ ، قالَ أَبو تمَّامٍ [في « ديوانه » ١/ ١٢٢ مِنَ الخفيفِ] :

لَوْ رَأَيْنَا ٱلتَّأْكِيْدَ خُطَّةَ عَجْزٍ مَا شَفَعْنَا ٱلأَذَانَ بِالتَّثْوِيْبِ(١)

---

(١) التثويبُ : الدعاءُ الثاني ، إذ أَنَّ المؤذِّن بعد أن يفرغَ منَ الأذانِ ينادي : الصلاةَ=

وقالَ بشَّارٌ [في « ديوانه » ٤/٢٢٨ مِنَ الطَّويلِ] :

هَـزَزْتُـكَ لاَ أَنِّـي وَجَـدْتُـكَ نَـاسِيَـا لأَمْرِيْ وَلاَ أَنِّيْ أَرَدْتُ ٱلتَّقَاضِيَا[1]

وَلَـكِنْ رَأَيْتُ ٱلسَّيْفَ مِنْ بَعْدِ سَلِّهِ إِلَىٰ ٱلْهَزِّ مُحْتَاجاً وَإِنْ كَانَ مَاضِيَا

٤ـ وشرهم من لا يستفتح إلا بالإلحاح

وشرُّهم مَن لا يستَفتِحُ إلاَّ بالإِلْحاحِ ؛ ولهـٰذا قالَ أَشجعُ [في « ديوانهِ » ١٩٧ مِنْ مجزوءِ الرَّمَلِ] :

لَيْــسَ لِلْحَــاجَــاتِ إِلاَّ مَــنْ لَــهُ وَجْــهٌ وَقَــاحُ

وقالَ أَبو تمَّامٍ [في « ديوانهِ » ٢/٣٤١ مِنَ الوافرِ] :

وَخُذْهُمْ بِٱلرُّقَىٰ إِنَّ ٱلْمَهَارِيْ يُهَيِّجُهَا عَلَىٰ ٱلسَّيْرِ ٱلْحُدَاءُ[2]

ما يلحق بالقسم الثاني

ويلتحقُ بالقسمِ الثاني قولُ ٱبنِ الروميِّ [مِنَ ٱلوافرِ] :

نُـذَكِّـرُ بِـٱلـرِّقَـاعِ إِذَا نَسِيْنَـا وَنَـذْكُـرُ حِيْـنَ تَمْطُلُنَـا ٱلْكِـرَامُ

فَـإِنَّ ٱلأُمَّ لَـمْ تُـرْضِـعْ صَبِيَّـاً مَعَ ٱلإِشْفَاقِ لَوْ سَكَتَ ٱلْغُلاَمُ

وقولُ الناظمُ :(يَسْأَلُ عَمَّنْ غَيْرَهُ سَأَلاَ) يشبهُ في الجوهرِ ـ وإِنْ خالفَ العَرَضَ ـ قولَ الأَعشىٰ [في « ديوانهِ » ٣٠٣ مِنَ ٱلبسيطِ] :

ومن البلية أن تحب ومن تحب يحب غيرك

عُلِّقْتُهَا عَرَضَاً وَعُلِّقَتْ رَجُلاً غَيْرِيْ وَعُلِّقَ أُخْرَىٰ ذَلِكَ ٱلرَّجُلُ

= رحمكم اللهُ ، وينادي : الصَّلاةُ خيرٌ مِنَ النَّومِ .

(١) التقاضي : طلبُ قضاءِ الدينِ .

(٢) الرُّقىٰ : جمع رُقْيَة ـ وهيَ العُوذةُ ، والمقصودُ : أَتلُ عليهم مِنْ أشعارِكَ الَّتي تعملُ فيهم عملَ التَّعاويذِ والسِّحرِ ؛ حيثُ إِنَّ كلامَكَ عليهم يؤثِّرُ فيهم ما لا تؤثِّرُهُ تلكَ الرُّقىٰ ، ثُمَّ يأْتي بدليلٍ حِسِّيٍّ مشاهَدٍ ، وهوَ : أَنَّ الإبلَ إذا سمعَتِ الأشعارَ . . طَرِبَتْ وأَسرعَتْ في مشيِها .

. المهاريُّ : الإبلُ المنسوبةُ إلى مهرةَ بنِ حيدانَ .

وما أنشدَهُ الأصمعيُّ لِبعضِ العربِ [في « معجم البلدان » ٥/ ٢٢٩ مِنَ ٱلكاملِ] :

قَتَلَتْكَ أُخْتُ بَنِي لُؤَيٍّ إِذْ رَمَتْ   وَأَصَابَ نَبْلُكَ إِذْ رَمَيْتَ سِوَاهَا
وَأَعَارَهَا ٱلْحَدَثَانِ مِنْكَ مَوَدَّةً   وَأَعَـارَ غَيْـرَكَ وُدَّهَـا وَهَـوَاهَـا

وخيرٌ مِنَ الجميعِ قولُ الآخَرِ [في « البداية والنهاية » ٨/ ٣١٩ مِنَ الطَّويلِ] :

جُنِنَّا بِلَيْلَىٰ وَهِيَ جُنَّتْ بِغَيْرِنَا   وَأُخْرَىٰ بِنَا مَجْنُونَةٌ لاَ نُرِيْدُهَا

فالعافي في بيتِ الناظمِ سَأَلَ غيرَ الممدوحِ ، ولم يأْتِهِ النائِلُ إلاَّ مِن جهتهِ ، وحاصلُ الأُخرَياتِ : أَنَّه عشقَ ٱمرأَةً ، فعشقَت غيرَهُ ، وزِدْنَ عليهِ بأَنَّ أُخرىٰ عشقَته فلم يلتفتْ إِليها ، فالجامعُ بينها ظاهرٌ وإِنِ ٱختلفَ الوجهُ .

السعي في حاجات النيام والشعراء

وعلىٰ ذكرِ السعي في حاجةِ النيامِ . . ذكرتُ قولَ بعضِ الشعراءِ [مِنَ ٱلكاملِ] :

وَيَظَـلُّ يَحْفَظُنَـا وَنَحْـنُ بِغَفْلَـةٍ   وَيَبِيْـتُ يَكْلَـؤُنَـا وَنَحْـنُ نِيَـامُ

وكذبَ واللهِ ، إِنَّما ذلكَ الملكُ الجبَّارُ ﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ [الأنبياء : ٤٢] .

وقالَ البُحتريُّ [في « ديوانهِ » ٤/ ٢٢٥٣ مِنَ ٱلكاملِ] :

لَمْ تَكْرَ عَنْ قَاصِيْ ٱلرَّعِيَّةِ عَيْنُهُ   فَتَنَامَ عَنْ وِتْرِ ٱلْقَرِيْبِ ٱلدَّانِي[1]

وقالَ [في « ديوانهِ » ٣/ ١٩٧١ مِنَ ٱلبسيطِ] :

طَرْفٌ مُطِلٌّ عَلَىٰ ٱلآفَاقِ يَكْلَؤُهَا   بِنَاظِرٍ لَمْ يَنَمْ عَنْهَا وَلَمْ يُنِمِ

(١) الوِترُ : الثأرُ والظلمُ فيهِ .

وقالَ [في « ديوانهِ » ١/٥٤٦ مِنَ الكاملِ] :

يَسْتَقْصِرُ ٱللَّيْلَ ٱلتَّمَامَ إِذَا ٱنْتَحَىٰ ... بِـٱلْخَيْـلِ نَـاحِيَـةَ ٱلعَـدُوِّ ٱلأَبْعَـدِ
لاَ نَاهِلُ ٱلأَجْفَانِ إِنْ كَانَ ٱلكَرَىٰ ... خِمْسَاً لِصَادِيَةِ ٱلعُيُوْنِ ٱلوُرَّدِ(١)

وقالَ [مِنَ البسيطِ] :

مَا غَابَ عَنْ عَيْنِهِ فَٱلقَلْبُ يَكْلَؤُهُ ... وَإِنْ تَنَمْ عَيْنُهُ فَٱلقَلْبُ يَقْظَانُ

وكذَبَ أبو عُبادةَ ؛ إنَّما ذاكَ رسولُ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ؛ (تنامُ عينهُ ، ولا ينامُ قلبُهُ)(٢) .

وقالَ مروانُ ابنُ أبي حفصةَ [في « ديوانهِ » ٣٨ مِنَ الطَّويلِ] :

يَكُـوْنُ غِـرَاراً نَـوْمُـهُ مِـنْ حِـذَارِهِ ... عَلَىٰ بَيْضَةِ ٱلإِسْلاَمِ وَٱلْخَلْقُ رَاقِدُ(٣)

وهوَ مِن كلمةٍ لهُ مختارةٍ ، يقولُ فيها للمهديِّ [في « ديوانهِ » ٣٧ مِنَ الطَّويلِ] :

إِلَيْـكَ أَمِيْـرَ ٱلْمُـؤْمِنِيْـنَ تَجَـاذَبَـتْ ... بِنَا ٱلْبِيْدَ خُوْصٌ كَٱلقِسِيِّ شَوَارِدُ(٤)

---

(١) ناهلٌ : شاربٌ . الكرىٰ : النومُ . خِمْساً : مِن إظماءِ الإبلِ ، وهوَ أن ترعىٰ ثلاثةَ أيّامٍ ، وترِدَ الرابعَ علىٰ الماءِ . الصادي : الشديدُ العطشِ .

وفي البيتِ : مجازٌ شبَّهَ الشاعرُ فيهِ النومَ بالماءِ ، والاستسلامَ لهُ بعدَ التعبِ بالإخماسِ الذي هوَ للإبلِ . وشدَّةَ حصولِ النُّعَسِ والحاجةَ إلىٰ النومِ بذلكَ الإنسانِ الشديدِ العطشِ الذي اشتدَّتْ حرارتُهُ عندَهُ حتَّىٰ ألهبت صدرَهُ .

والمعنىٰ : أنَّ ممدوحَهُ هٰذا إنسانٌ عظيمٌ ، يقومُ الليلَ عندما يكونُ غيرُهُ مستسلماً استسلاماً شديداً للنومِ . واللهُ أعلم .

(٢) أخرجه عن عائشة البخاري (١١٤٧) في التهجد ، ومسلم (٧٣٨) (١٢٥) في صلاة المسافرين ولفظه : « يا عائشة إن عَيْنَيَّ تنامان ولا ينام قلبي » .

(٣) الغِرارُ : النومُ القليلُ .

(٤) تجاذبَتْ : أسرعت واندفعت . الخوصُ : النوقُ الضامرَةُ . الشواردُ ـ جمعُ =

إِلىٰ مَلِكٍ تَنْدَىٰ إِذا يَبِسَ ٱلثَّرَىٰ ... بِنَائِلِ كَفَّيْهِ ٱلأَكُفُّ ٱلجَوَامِدُ
أَيَادِيْ بَنِي ٱلْعَبَّاسِ بِيْضٌ سَوَابِغٌ ... عَلَىٰ كُلِّ قَوْمٍ بَادِيَاتٌ عَوَائِدُ
وَهُمْ يَعْدِلُوْنَ ٱلسَّمْكَ مِنْ قُبَّةِ ٱلْهُدَىٰ ... كَمَا تَعْدِلُ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ ٱلْقَوَاعِدُ(١)
سَوَاعِدُ عِزِّ ٱلْمُسْلِمِيْنَ وَإِنَّمَا ... تَنُوْءُ بِصَوْلاتِ ٱلأَكُفِّ ٱلسَّوَاعِدُ
يَكُوْنُ غِرَاراً نَومُهُ مِنْ حِذَارِهِ ... عَلَىٰ بَيْضَةِ ٱلإِسْلاَمِ وَٱلْخَلْقُ رَاقِدُ
كَأَنَّ أَمِيْرَ ٱلْمُؤْمِنِيْنَ مُحَمَّدَا ... لِرَأْفَتِهِ بِٱلنَّاسِ لِلنَّاسِ وَالِدُ

المتنبي والإسراع في حاجات النيام

وتلاعبَ بالمعنىٰ الناظمُ فقالَ [في « العُكبريّ » ٤/ ٢٦ مِنَ ٱلبسيطِ] :

نَفَتْ رُقَادَ عَلِيٍّ عَنْ مَحَاجِرِهِ ... نَفْسٌ يُفَرِّجُ نَفْساً غَيْرَهَا ٱلْحُلُمُ

وقالَ [في « العُكبريّ » ٤/ ٢١٥ مِنَ ٱلبسيطِ] :

غَضُّ ٱلشَّبَابِ بَعِيْدٌ فَجْرُ لَيْلَتِهِ ... مُجَانِبُ ٱلْعَيْنِ لِلْفَحْشَاءِ وَٱلْوَسَنِ

وقالَ [في « العُكبريّ » ١/ ٢٢١ مِنَ الطَّويلِ] :

لَنَا مَلِكٌ لاَ يَطْعَمُ ٱلنَّوْمَ ، هَمُّهُ ... مَمَاتٌ لِحَيٍّ أَوْ حَيَاةٌ لِمَيِّتِ

وقالَ [في « العُكبريّ » ٢/ ١٢٦ مِنَ الطَّويلِ] :

كَثِيْرُ سُهَادِ ٱلْعَيْنِ مِنْ غَيْرِ عِلَّةٍ ... يُؤَرِّقُهُ فِيْمَا يُشَرِّفُهُ ٱلذِّكْرُ(٢)

وقالَ [في « العُكبريّ » ٢/ ٢٨٥ مِنَ الطَّويلِ] :

قَلِيْلُ ٱلْكَرَىٰ لَوْ كَانَتِ ٱلْبِيْضُ وَٱلْقَنَا ... كَآرَائِهِ مَا أَغْنَتِ ٱلْبِيْضُ وَٱلزَّغْفُ(٣)

= شرودٍ ـ : وهي الناقةُ النافرةُ المستعصيةُ الذاهبةُ على وجهها .

(١) السَّمْكُ : السقفُ .

(٢) السهادُ : هوَ السهرُ ، ولكن لا يستعملُ إلا في الساهرِ في الشِّدَّةِ .

(٣) الزغفُ : الدروعُ اللينةُ .

وقالَ [في «العُكبريّ» ١/ ١٠٤ مِنَ المتقارب] :

وَأَنْتَ مَعَ اللهِ فِي جَانِبٍ   قَلِيلُ الرُّقَادِ كَثِيرُ التَّعَبْ

مدح العرب للساري في حاجات النيام

وما زالتِ العربُ تَمادحُ بذلكَ ، فمنهُ قولُ بعضِهِم [مِنَ الطَّويلِ] :

كَمِيْشُ إِزَارٍ يَجْعَلُ اللَّيْلَ إِثْمِداً   وَيَغْدُوْ عَلَيْنَا مُشْرِقاً غَيْرَ وَاجِمِ

وقالَ تأبَّطَ شرّاً [في «ديوانِهِ» ٢٩٢ مِنَ الطَّويلِ] :

قَلِيلُ غِرَارِ العَيْنِ أَكْبَرُ هَمِّهِ   دَمُ الثَّأْرِ أَوْ يَلْقَىٰ كَمِيّاً مُدَجَّجَا

وقالَ أبو كَبيرٍ يمدحُهُ [كما في «ديوان الهُذليِّينَ» ٢/ ٩٢ مِنَ الكاملِ] :

فَأَتَتْ بِهِ حُوْشَ الفُؤَادِ مُبَطَّناً   سُهُداً إِذَا مَا نَامَ لَيْلُ الهَوْجَلِ(١)

سيدنا الفاروق والعجوز

ويُروىٰ : أَنَّ عجوزاً أَضلَّت ناقةً علىٰ عهدِ ابنِ الخطَّابِ ، فجاءَتْ تسأَلُهُ عنها ؟ فقالَ : وهل كنتُ عندَها ؟ قالَت : ما ظننتُ أَنَّ شاةً تضيعُ علىٰ جانبِ الفراتِ إلاَّ أَنتَ عنها مسؤولٌ ؟ ولِمَ تكونُ أَميرَ المؤمنينَ إِذَنْ ؟

إسراؤه في الرعية

فساقَتْ حفاظَهُ ؛ لِمَا بهِ الحرصُ عليهِ مِن حياطةِ المسلمينَ ، وتفقُّدِ أَحوالهم ، فكانَ علمُهُ بِمَن نأىٰ مِنْ رعيَّتِهِ وأُمرائِهِ . كعلمِهِ بِمَن باتَ معهُ علىٰ فراشٍ واحدٍ . وكانتِ الأَخبارُ ترِدُهُ في كلِّ مَمسىً ومَصْبَحٍ . وتَسَمَّتَهُ(٢) معاويةُ في ذلكَ فانتظمَ أَمرُهُ .

مِنَ المقتدين به

أنا أَعرَفُ بك منك!

وجَرىٰ في آثارِهم زيادُ ابنُ سميَّةَ(٣) ، فبثَّ الأَرصادَ والعُيونَ في

---

(١) حوشُ الفؤادِ : ذكيُّ الفؤادِ . المبطَّنُ : الخميصُ البطنِ . السُّهُدُ : السَّهرُ . الهوجلُ : الثقيلُ الكسلانُ .

(٢) تسمَّتَهُ : سارَ على سَمْتِهِ وطريقهِ .

(٣) هو زيادُ ابنُ أَبيه .

كلِّ ناحيةٍ ، وٱستطلعَ أحوالَ الناسِ وٱستظهرَ أخبارَهم. . حتَّىٰ إنَّ رجلاً ٱستعرَفَ إليهِ وقالَ لَه : أنا فلانُ بنُ فلانٍ فتبسَّمَ ، وقالَ تتعرَّفُ إليَّ وأنا أعْرَف بكَ مِنْك ، واللهِ إنِّي لأَعرِف أباكَ وجدَّك ، وأُمَّك وجدَّتَك ، وأَهلَ بيتك ، وهـٰذا البردَ الذي عليكَ ، وهُو لفلانٍ. . فبهتَ الرجلُ حتَّىٰ كادَ أَنْ يُغْشىٰ عليهِ[1] .

وهِيَ سياسةُ أَزدَشِير[2] بنِ بَابكَ مِن ملوكِ الأَعاجمِ ، وأَخذَ بها جماعةٌ مِنَ الأُمراءِ فكانوا من أَحوالِ الناسِ علىٰ بصيرةٍ .

متى تكون سياسة بث الأرصاد والعيون ناجحة؟

وإنَّما تكونُ وسيلةً للنجاحِ عندَ كرمِ الطباعِ وغلبةِ الصدقِ ، وإلاَّ فقد تَدَسَّسَ منها في الأَخطاءِ الفاحشةِ جملةٌ مِنَ الْمُلوكِ ، منهُم : السلطانُ عبدُ الحميدِ ؛ إذ سلكَها معَ ٱنتشارِ اللؤمِ ، وغلبةِ الكذبِ ، وفيوضِ الغشِّ ، فكانتِ الجواسيسُ تبيعُ الضمائِرَ ، وتفسدُ ما بينَهُ وبينَ رجالاتِ الأعمالِ ، حتَّىٰ آلَ الأمرُ إلىٰ ما لم تحمدْ عقباهُ ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلاَّ باللهِ .

المهلب ابن أبي صفرة والحجاج

ولَمَّا قدمَ الْمُهلَّبُ ٱبنُ أَبي صُفْرَةَ بعدَ فراغهِ مِنَ الأَزارقةِ علىٰ الحَجَّاجِ . أكرمهُ وأظهر برَّه ، وأَجلسهُ إلىٰ جانبهِ ، وقالَ : يا أَهلَ (العراقِ) ، لقد طوَّقكم المُهلَّبُ مِنَ الفَضلِ ما جعلَكم بهِ عبيدَ قنٍّ لهُ ، أَنتَم واللهِ كما قالَ لقيطٌ [في « ديوانه » ٨٥ـ٨٦ مِنَ البسيطِ] :

فَقَلِّـــدُوٓا أَمْــــرَكُـــمْ للهِ دَرُّكُـــمُ   رَحْبَ ٱلذِّرَاعِ بِأَمْرِ ٱلحَرْبِ مُطَّلِعَا

---

(١) في « المستطرف » (٢/٢٠٨) .

(٢) أزدشيرُ : ٱسمٌ أطلقهُ العربُ علىٰ ملوكِ الفرسِ مِنَ الأسرةِ الساسانيَّةِ . والمقصودُ بها هنا : واحدٌ منهم .

لاَ يَطْعَـمُ ٱلنَّـوْمَ إلاَّ رَيْـثَ يَبْعَثُـهُ   هَمٌّ يَكَادُ حَشَاهُ يَقْضِبُ ٱلضِّلَعَا[1]
لاَ مُتْرَفاً إِنْ رَخَاءُ ٱلْعَيْشِ سَاعَدَهُ   وَلاَ إِذَا عَضَّ مَكْرُوْهٌ بِهِ خَشَعَا
مَا زَالَ يَحْلُبُ هَـٰذَاٱلدَّهْرَ أَشْطُرَهُ   يَكُـوْنُ مُتَّبِعـاً طَـوْراً وَمُتَّبَعَـا[2]
حَتَّىٰ ٱسْتَمَرَّتْ عَلَىٰ شَزْرٍ مَرِيْرَتُهُ   مُسْتَحْكِمَ ٱلرَّأْيِ لاَ قَحْماً وَلاَ ضَرَعَا[3]

وجاءَ جماعةٌ إِلىٰ حسَّانَ فقالوا مَنِ الفتىٰ ؟ فقالَ [مِنَ الكاملِ] : من هو الفتىٰ؟

إِنَّ ٱلْفَتَىٰ لَفَتَىٰ ٱلْهَوَاجِرِ وَٱلسُّرَىٰ   وَفَتَىٰ ٱلطِّعَانِ وَمِدْرَهُ ٱلْحَدَثَانِ[4]
ذَاكَ ٱلْفَتَىٰ إِنْ كَانَ كَهْلاً أَوْ فَتَىٰ   لَيْـسَ ٱلْفَتَـىٰ بِمُنَعَّـمِ ٱلشُّبَّـانِ

ومِن خيرِ ما في الموضوعِ قولُ الناظمِ [في « العكبَريّ » ٣/٣٦٩ مِنَ البسيطِ] : المتنبي الشجاع

ٱلْخَيْـلُ وَٱللَّيْـلُ وَٱلْبَيْـدَاءُ تَعْـرِفُنِـيْ   وَٱلسَّيْفُ وَٱلرُّمْحُ وَٱلْقِرْطَاسُ وَٱلْقَلَمُ[5]

وفي عكسِ ذلكَ يقولُ بعض المتأَخِّرينَ [مِنَ الطَّويلِ] : مدح الكرام وذم اللئام

إِذَا مَا قَطَعْتُمْ لَيْلَكُمْ بِمُدَامِكُمْ   وَأَفْنَيْتُـمُ أَيَّـامَكُـمْ بِمَنَـامِ
فَمَنْ [ذَا] ٱلَّذِي يَرْجُوْكُمُ فِيْ مُلِمَّةٍ   وَمَـنْ ذَا ٱلَّـذِيْ يَغْشَـاكُـمُ بِسَلاَمِ

---

(١) الريثُ : المقدارُ .
(٢) حَلَبَ فلانٌ الدهرَ أشطرَهُ : مرَّت عليهِ ضروبٌ من خيرهِ وشرِّهِ حتى صار ذا خِبْرَةٍ ومعرفة .
(٣) الشزرُ : فتلُ الحبلِ مما يلي اليسارَ ، وهو أشدُّ لفتلهِ . مريرته : طاقةُ الحَبْل . القحمُ : الشيخ النكِدُ الكبيرُ . الضَّرَعُ : الغمرُ الضعيفُ منَ الرجالِ . والقصة بنحوها عند ابن الأثير في « الكامل » (٤/ ١٨٣) .
(٤) المِدْرَهُ : السَّيدُ الشَّريفُ ، والمقدَّمُ في اللسانِ واليدِ عند الخصومةِ والقتالِ .
(٥) في « العكبري » : (وَٱلضَّرْبُ وَٱلطَّعْنُ) بدل (وَٱلسَّيْفُ وَٱلرُّمْحُ) .

رَضِيتُمْ مِنَ ٱلدُّنْيَا بِأَيْسَرِ بُلْغَةٍ ... بِشُرْبِ مُدَامٍ أَوْ بِلَثْمِ غُلاَمِ
وَلَمْ تَعْلَمُوْا أَنَّ ٱللِّسَانَ مُوَكَّلٌ ... بِمَدْحِ كِرَامٍ أَوْ بِذَمِّ لِئَامِ
وِلَـٰكِنَّ رَأْسَ ٱلشَّرِّ تَلْبِيْسُ قَادَةٍ ... يَغُرُّوْنَكُمْ زُوْراً بِبَيْعِ ذِمَامِ

العيش والموت السّواء

وقالَ آخرُ [مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا كُنْتَ لاَ تُرْجَىٰ لِدَفْعِ مُلِمَّةٍ ... وَلَم يَكُ فِيْ ٱلْمَعْرُوْفِ عِنْدَكَ مَطْمَعُ
وَلاَ أَنْتَ مِمَّنْ يُسْتَعَانُ بِجَاهِهِ ... وَلاَ أَنْتَ يَوْمَ ٱلْحَشْرِ مِمَّنْ يُشَفَّعُ
فَعَيْشُكَ فِيْ ٱلدُّنْيَا وَمَوْتُكَ وَاحِدٌ ... وَعُوْدُ خِلاَلٍ مِنْ وِصَالِكَ أَنْفَعُ(١)

وتعرَّضَتْ للمنصورِ ٱمرأَةٌ فلم يعطِها شيئاً ، فقالَتْ [مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا لَم يَكُنْ فِيْكُنَّ ظِلٌّ وَلاَ جَنَىٰ ... فَأَبْعَدَكُنَّ ٱللهُ مِنْ شَجَرَاتِ

* * *

(١) عُودُ الخِلال : هوَ العودُ الذي يُتَخلَّلُ بهِ ؛ أَي : يزيلُ الإنسانُ بهِ ما علقَ مِنَ الطعامِ بينَ الأَسنانِ . والمقصودُ بهِ هنا : الشيءُ التافهُ الذي لا قيمةَ لهُ .

المجلس الثامن

[قالَ أَبو الطَّيبِ ٱلمتنبي في « ٱلعُكبَريِّ » ٣/ ١٦٧ مِنَ ٱلبسيطِ] :

يَلُوحُ بَدْرُ ٱلدُّجىٰ فِيْ صَحْنِ غُرَّتِهِ	وَيَحْمِلُ ٱلْمَوْتَ فِيْ ٱلْهَيْجَاءِ إِنْ حَمَلا(١)

المـمـدوح الجميـل الشجاع

يقولُ : إِنَّ وجهَهُ مشرقٌ كبدرِ الدُّجىٰ ، وإِذا حملَ علىٰ أَعدائِهِ . . حملَ إِليهمُ الموتَ الزُّؤَامَ(٢) ، ولفظةُ (الدُّجىٰ) ليسَت مِنَ ٱلحشوِ المردودِ ، وإِن كانَ ٱلقمرُ لا يُسمَّىٰ بدراً إِلاَّ في الدُّجىٰ ؛ لأَنَّ المرادَ منها التأكيدُ .

ثمَّ إِنَّهُ لا مناسبةَ بينَ ٱلإضاءَةِ والشَّجاعةِ إِلاَّ بتأويلِ أَنَّ ٱلحربَ كانَ ليلاً ، وادَّعىٰ إِشراق وجهِ الممدوحِ ، أَو أَنَّ اليومَ أَظلمَ مِنَ ٱرتفاعِ الغبارِ فٱستضاءَ الناسُ بمحيَّاهُ ، ويحتملُ أَن يكونَ لبيانِ الواقعِ ، فلا تثريبَ .

كثرة التشبيه بالشمس والقمر

وقد أَشرنا في أَولِ المجلسِ الخامسِ لكثرةِ ما يشبِّهُ النَّاسُ الوجوهَ

---

(١) الغرَّةُ : هيَ غرَّةُ الوجهِ ، وأَصلها البياضُ الذي يكونُ في وجهِ الفرسِ .

(٢) هـٰذا هوَ المعنىٰ الَّذي رآهُ ٱلمؤلِّفُ ـ رحمَهُ ٱللهُ ـ وهوَ لا يكونُ إِلاَّ بنصبِ كلمةِ (الموتَ) ، أَمَّا ٱلعُكبَريُّ : فيقولُ عندَ شرحِ البيتِ : « وإِذا لقيَ ٱلأَعداءَ . . فإِنَّ ٱلموتَ يحملُ معهُ ، ويصولُ عليهِم فيقتلُهُم ، فٱلموتُ مِن أَعوانِهِ » وهـٰذا يكونُ برفعِ (الموتُ) .

بالأقمارِ والشموسِ ، بتفاوتٍ بينَ مقاديرِ الكلامِ ، فمِن قويٍّ ورثٍّ ، وسمينٍ وغثٍّ ، وقالَ بعضُ كِنْدَةَ يمدحُ عمرَو بنَ هندٍ [مِنَ الطَّويلِ] :

هُوَ ٱلشَّمْسُ لاَحَتْ يَوْمَ سَعْدٍ فَأَفْضَلَتْ   عَلَىٰ كُلِّ ضَوْءٍ وَٱلْمُلُوْكُ كَوَاكِبُ

فأخذَهُ النابغةُ وقالَ [في « ديوانِهِ » ٧٨ مِنَ الطَّويلِ] :

بِأَنَّكَ شَمْسٌ وَٱلْمُلُوْكُ كَوَاكِبٌ   إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوْكَبُ

وقَالوا : إنَّ فيهِ ٱعتذاراً عن رجوعهِ إلىٰ غيرهِ أيَّامَ هجرهِ ، وهوَ معَ حسنِهِ أخفىٰ مِنْ دبيبِ النملِ[1] .

وقالَ مهلهلُ بنُ ربيعةَ عَنْ أَخيهِ كليبٍ [مِنَ السَّريعِ] :

تَنْفَـرِجُ ٱلظَّلْمَـاءُ عَـنْ وَجْهِـهِ   كَٱللَّيْلِ وَلَّىٰ عَنْ صَدِيْعٍ أَنِيْقِ

وقالَ بعضُ ٱلعربِ [مِنَ البسيطِ] :

لَوْ عَارَضَ ٱلشَّمْسَ أَلْفَىٰ ٱلشَّمْسَ مُظْلِمَةً   أَوْ زَاحَمَ ٱلصُّمَّ أَلْجَأَهَا إِلَىٰ ٱلْمَيْلِ

وقالَ حاتمٌ الطَّائيُّ يصفُ زوجتَهُ ماويَّةَ [في « ديوانِهِ » ٨١ مِنَ الطَّويلِ] :

يُضِيْءُ لَهَا ٱلْبَيْتُ ٱلظَّلِيْلُ خِصَاصَهُ   إِذَا هِيَ يَوْماً حَاوَلَتْ أَنْ تَبَسَّمَا[2]

وقالَ أبو جويريةَ ٱلعبديُّ [مِنَ الطَّويلِ] :

إِذا ٱعْتَمَّ بِٱلْبُرْدِ ٱلْيَمَانِيِّ خِلْتَهُ   هِلاَلاً بَدَا مِنْ جَانِبِ ٱلأُفْقِ يُلْمَحُ

---

(١) اقتبس المؤلف رحمه الله هذا من حديث ورد في « الإحياء » (١/١٢٨) في الإيمان والإسلام : « الشرك أخفى في أمتي من دبيب النمل على الصفا » قال العراقي : رواه أبو يعلى وابن عدي وابن حبان في « الضعفاء » من حديث أبي بكر ، ولأحمد والطبراني نحوه عن أبي موسى .

(٢) الخِصاصُ : الفُرَجُ في البناءِ وغيرِهِ .

أَمَّا قولُ الآخرِ [وهو الفرزدق في « الأغاني » ١٠/ ٣٢٣ مِنَ ٱلوافرِ] :

تَرَىٰ ٱلْغُرَّ ٱلْجَحَاجِحَ مِنْ قُرَيْشٍ إِذَا مَا ٱلأَمْرُ فِيْ ٱلْحَدَثَانِ عَالاَ[1]
قِيَاماً يَنْظُرُوْنَ إِلَىٰ سَعِيْدٍ كَأَنَّهُمُ يَرَوْنَ بِهِ هِلاَلاَ

.. فقد جمعَ فيهِ إلىٰ ٱلوسامةِ ٱهتمامَ النَّاسِ بالنَّظرِ إليهِ ؛ لتعويلِهم عليهِ ، وٱعتدادِهم بهِ في ٱلمهمَّاتِ ، فهوَ قريبٌ مِنْ قولِ ٱلبُحتريِّ [في « ديوانه » ٢/ ١٠٧٢ مِنَ ٱلكامِلِ] : الافتتان في المديح

وَٱفْتَنَّ فِيْكَ ٱلنَّاظِرُوْنَ فَإِصْبَعٌ يُوْمِيْ إِلَيْكَ بِهَا وَعَيْنٌ تَنْظُرُ

وقولِ النَّاظمِ [في « ٱلعُكبَريِّ » ٢/ ٥ مِنَ الطَّويلِ] :

بِمَنْ تَشْخَصُ ٱلأَبْصَارُ يَوْمَ رُكُوْبِهِ وَيُخْرَقُ مِنْ زَحْمٍ عَلَىٰ ٱلرَّجُلِ ٱلْبُرْدُ
وَتُلْقِيْ وَمَا تَدْرِيْ ٱلأَكُفُّ سِلاَحَهَا لِكَثْرَةِ إِيْمَاءٍ إِلَيْهِ إِذَا يَبْدُوْ

ومِنْ أَحسنِ ما جاءَ في إِضاءَةِ ٱلوجوهِ . . قولُ أَبي الطَّمحانِ ٱلقينيِّ [مِنَ الطَّويلِ] : إضاءة الوجوه والشعراء

أَضَاءَتْ لَهُمْ أَحْسَابُهُم وَوُجُوهُهُمْ دُجَىٰ ٱللَّيْلِ حَتَّىٰ نَظَّمَ ٱلْجَزْعَ ثَاقِبُهْ[2]

وقد أَلمَّ بهِ النَّاظمُ إذ يقولُ [في « ٱلعكبَريِّ » ٤/ ٦٦ مِنَ المنسرحِ] :

تُشْرِقُ أَعْرَاضُهُمْ وَأَوْجُهُهُمْ كَأَنَّهَا فِيْ نُفُوْسِهِمْ شِيَمُ[3]

---

(١) الجَحاجِحُ : الأَسيادُ ، جمع جَحجاحٍ . عالَ : شقَّ على الرجالِ إتيانُهُ .
(٢) الجَزْع : ضرب من العقيق .
(٣) عِرضُ الرجُلِ : هو موضعُ الذمِّ والمدحِ منهُ .

وقالَ ٱبنُ أَبي السِّمطِ [مِنَ الطَّويلِ] :

فَتىً لاَ يُبَالِيْ ٱلْمُدْلِجُوْنَ بِنُوْرِهِ إِلَىٰ بَابِهِ أَنْ لاَ تُضِيْءَ ٱلْكَوَاكِبُ[1]

وقالَ ٱلقاسمُ بنُ حنبلٍ [في « ديوان ٱلحماسة » ٢/ ٣٠٤ مِنَ ٱلوافرِ] :

مِنَ ٱلْبِيضِ ٱلْوُجُوْهِ بَنِيْ سِنَانٍ لَوَ ٱنَّكَ تَسْتَضِيْءُ بِهِمْ أَضَاؤُوْا

وقالَ ٱلحُطيئةُ [في « الأغاني » ٢/ ١٥١ مِنَ ٱلبسيطِ] :

نَمْشِيْ عَلَىٰ ضَوْءِ أَحْسَابٍ أَضَأْنَ لَنَا مَا ضَوَّأَتْ لَيْلَةُ ٱلْقَمْرَاءِ لِلسَّارِيْ

وقالَ غيرُهُ [مِنَ الطَّويلِ] :

سَرَيْنَا وَنَجْمٌ قَدْ أَضَاءَ فَمُذْ بَدَا مُحَيَّاكَ أَخْفَىٰ ضَوْؤُهُ كُلَّ شَارِقِ[2]

وقالَ أَشْجَعُ [في « ديوانهِ » ٢٦٢ مِنْ مجزوءِ ٱلكاملِ] :

مَلِكٌ بِحُسْنِ جَبِيْنِهِ نَسْرِيْ وَبَحْرُ ٱللَّيْلِ طَامِيْ[3]

وقالَ مسلمٌ [في « وفيات الأعيان » ٦/ ٢٢٦ مِنَ الطَّويلِ] :

أَجِدَّكِ هَلْ تَدْرِيْنَ إِنْ بِتُّ لَيْلَةً كَأَنَّ دُجَاهَا مِنْ قُرُوْنِكِ يُنْشَرُ
صَبَرْتُ لَهَا حَتَّىٰ تَجَلَّتْ بِغُرَّةٍ كَغُرَّةِ يَحْيَىٰ حِيْنَ يُذْكَرُ جَعْفَرُ

وقالَ ٱلعُقَيليُّ [في « البيان والتبيين » ١/ ٥٠٧ مِنَ الطَّويلِ] :

وُجُوْهٌ لَوَ ٱنَّ ٱلْمُدْلِجِيْنَ ٱعْتَشَوْا بِهَا صَدَعْنَ ٱلدُّجَىٰ حَتَّىٰ تَرَىٰ ٱللَّيْلَ يَنْجَلِيْ[4]

---

(١) المدلج : الذي يسيرُ مِنَ الليلِ .
(٢) المحيا : الوجهُ .
(٣) بحرٌ طامٍ : أي ممتلئٌ .
(٤) أعتشوا : ساروا وقتَ العشاءِ .

وقالَ أَبو تمَّامٍ [في « ديوانهِ » ١/ ١٢٦ مِنَ الطَّويلِ] :

وُجُوْهٌ لَوَ انَّ الأَرْضَ فِيْهَا كَوَاكِبٌ تَـوَقَّدُ لِلسَّـارِيْ لَكَـانُـوْا كَـوَاكِبَا

وقالَ أَبو عُبادةَ [في « ديوانه » ٢/ ٧٢٢ مِنَ الكاملِ] :

نَجْلُـوْ بِغُـرَّتِـهِ الـدُّجَـىٰ فَكَـأَنَّنَـا نَسْرِيْ بِبَدْرٍ فِيْ اللَّيَالِيْ السُّوَّدِ

وقالَ [في « ديوانهِ » ٣/ ١٥٩٨ مِنَ الكاملِ] :

وَرَأَوْكَ وَضَّاحَ الْجَبِيْنِ كَمَا يُرَىٰ قَمَرُ السَّمَاءِ السَّعْدُ لَيْلَةَ يَكْمُلُ

وقالَ [في « ديوانهِ » ٣/ ١٧٥٠ مِنَ الكاملِ] :

اَلْيَوْمَ أُطْلِعَ لِلْخِلاَفَةِ سَعْدُهَا وَأَضَـاءَ فِيْهَـا بَـدْرُهَـا الْمُتَهَلِّـلُ

وقالَ [في « ديوانهِ » ٣/ ١٦٣٠ مِنَ الطَّويلِ] :

فَأَسْفَرَ وَجْهُ الشَّرْقِ حَتَّىٰ كَأَنَّمَا تَبَلَّجَ فِيْهِ الْبَدْرُ بَعْدَ أُفُوْلِهِ(١)

وقالَ [في « ديوانهِ » ٢/ ٨٤٥ مِنَ الطَّويلِ] :

بِوَجْهٍ هُوَ الْبَدْرُ الْمُنِيْرُ نَفَى الدُّجَىٰ سَنَاهُ وَأَخْلاَقٍ هِيَ الأَنْجُمُ الزُّهْرُ
أَضَاءَ لَنَا أُفْقَ الْبِلاَدِ وَكَشَّفَتْ مَشَـاهِـدُهُ مَـا لاَ يُكَشِّفُـهُ الْفَجْـرُ

وقالَ [في « ديوانهِ » ٣/ ١٩٢٩ مِنَ الوافرِ] :

يُضَـاهِـيْ جُـوْدُهُ جُـوْدَ الثُّـرَيَّـا وَيَحْكِـيْ وَجْهُـهُ بَـدْرَ التَّمَـامِ

وقالَ العرجيُّ يتغزَّلُ [مِنَ البسيطِ] : أجمل ما في الموضوع

مَحْجُوْبَةٌ سَمِعَتْ صَوْتِيْ فَأَرَّقَهَا مِنْ أَوَّلِ اللَّيْلِ حَتَّىٰ بَلَّهَا السَّحَرُ

---

(١) أسفرَ : أضاءَ . بلجَ الصبحُ : أَضاءَ .

تُذْنِي عَلَىٰ جِيْدِهَا ثِنْيَيْ مُعَصْفَرَةٍ ... وَلِلْحُلِيِّ عَلَىٰ لَبَّاتِهَا خَصَرُ[1]

فِيْ لَيْلَةِ ٱلنِّصْفِ لاَ يَدْرِيْ مُضَاجِعُهَا ... أَوَجْهُهَا عِنْدَهُ أَبْهَىٰ أَمِ ٱلقَمَرُ

وقالَ عمروُ بنُ شَأْسٍ ـ ولَهُ صحبةٌ ـ [في « ديوانه » ١٠٧ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذا نَحْنُ أَدْلَجْنا وَأَنْتِ أَمَامَنَا ... كَفَىٰ لِمَطَايَانَا بِوَجْهِكِ هَادِيَا

وقالَ النَّاظمُ [في « ٱلعُكبَرِيِّ » ٢/ ٣٤٤ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَيْلٍ دَجُوْجِيٍّ كَأَنَّا جَلَتْ لَنَا ... مُحَيَّاكَ فِيْهِ فَٱهْتَدَيْنَا ٱلسَّمَالِقُ[2]

إشراقة وجهه الشريف ﷺ

وقد جاءَ في نعتهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم [كما في « الجامع » لمَعْمَر بن راشد ١/ ٢٥٩] : (أَنَّ ضوءَه يتلألأُ في الجُدُرَاتِ إذا مشىٰ بينَها في ٱلظلامِ)[3] فأَغارَ عليهِ صاحبُنا ، وكانَ كما قلتُ ـ غيرَ مرَّةٍ ـ : لا يدعُ شاذَّةً ولا فاذَّةً إلاَّ نظمَها في أَسلاكِ شِعرهِ ، وذلكَ حيثُ يقولُ [في « العكبَريِّ » ٢/ ٨١ مِنَ ٱلبسيطِ] :

شَمْسٌ إِذَا ٱلشَّمْسُ لاَقَتْهُ عَلَىٰ فَرَسٍ ... تَـرَدَّدَ ٱلنُّـوْرُ فِيْهَـا مِـنْ تَـرَدُّدِهِ

وقبْلَ هـٰذا في ديوانِهِ بيتٌ ٱضطَرَبَ الشارحُ في تفسيرِهِ ، وتخبَّطَ في معناهُ ، ونصُّهُ [في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ٨٠ مِنَ ٱلبسيطِ] :

ذَمَّ ٱلـزَّمَـانُ إِلَيْـهِ مِـنْ أَحِبَّتِـهِ ... مَا ذَمَّ مِنْ بَدْرِهِ فِيْ حَمْدِ أَحْمَدِهِ

---

(١) اللبَّةُ : المنحرُ . الخَصَرُ : البَرْدُ .

(٢) دجوجيٌّ : مظلمٌ . جَلَتْ : كشفت وأظهرت . المحيًّا : الوجهُ . السَّمالِقُ ـ جمعُ سَمْلَقٍ ـ : وهيَ الأرض البعيدةُ ، وهوَ مرفوعٌ علىٰ الفاعليَّةِ لـ : (جلت) .

(٣) والمعنى : أنَّ نور وجهه الشَّريف صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ـ يشرق إشراقاً يصل إلى الجدران المقابلة له كما يكون ذلك من الشمس والقمر .

والذي أَراهُ : أَنَّ المعنىٰ ظاهرٌ ، وإِنَّما ضربَ الشارحُ عريضةً في تأويلهِ ، وحاصلُ ما فهمتُه منهُ : أَنَّ الضميرَ في (إِليهِ) وفي (أَحبَّتهِ) عائِدٌ إِلىٰ الشخصِ الذي جرَّدهُ من نفسهِ ، فكأَنَّه يقولُ : وجوهُ أَحبَّتي أَقمارٌ ، ولـٰكنَّ الزمانَ ذَمَّ إِليَّ من أَنوارِها بالنسبةِ إِلىٰ نورِ (أَحمدَ) ٱلممدوحِ وثنائهِ ، كما أَنَّ الزمانَ ذمَّ أَيضاً مِنَ ٱلقمرِ الطَّالعِ بالنِّسبةِ لإِشراقِ (أَحمدَ) ٱلممدوحِ وحمدِهِ . واللهُ أَعلمُ .

وصف أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لرسول الله ﷺ

ويُروىٰ عن عائشةَ رضي الله عنها [كما في « الاستيعاب » ١/ ٣٤١] : أَنَّها وصفَتْ رسولَ الله صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ فقالَتْ : كانَ واللهِ كما قالَ شاعرُهُ حسَّانُ [في « ديوانهِ » ١/ ٤٦٥ مِنَ الطَّويلِ] :

مَتَىٰ يَبْدُ فِيْ ٱلدَّاجِيْ ٱلْبَهِيْمِ جَبِيْنُهُ يَلُحْ مِثْلَ مِصْبَاحِ ٱلدُّجَىٰ ٱلْمُتَوَقِّدِ
فَمَنْ كَانَ أَو مَنْ قَدْ يَكُوْنُ كَأَحْمَدٍ نِظَـامٌ لِحَـقٍّ أَوْ نَكَـالٌ لِمُلْحِـدِ ؟!

ويُحكىٰ أَنَّها قالَتْ : أَدخلتُ الخيطَ في الإِبرةِ علىٰ ضوءِ جبينهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ، وأَنَّها تمثَّلَت عندَ ذلكَ بقولِ أَبي كبيرٍ [في « ديوان الهُذَليِّين » ٢/ ٩٤ مِنَ ٱلكاملِ] :

وَإِذَا نَظَـرْتَ إِلـىٰ أَسِـرَّةِ وَجْهِـهِ لَمَعَتْ كَبَرْقِ ٱلْعَارِضِ ٱلْمُتَهَلِّلِ(١)

(١) أسرَّتُهُ : طرائقهُ . العارضُ : هو الذي يجيءُ معارضاً في السماءِ . المتهلِّلُ : الممطِرُ . والحديثُ أخرجهُ عن عائشةَ رضي الله عنها البيهقيُّ في « الكبرىٰ » (٧/ ٤٢٢) بغير هذهِ الصيغةِ ولفظهُ عندهُ :

قالت : كنتُ قاعدةً أَغزلُ ، والنبيُّ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ يخصِفُ نعلَهُ ، فجعلَ جبينُهُ يعرَقُ ، وجعلَ عرقُهُ يتولَّدُ نوراً . . فبُهِتُّ ، فنظرَ إِليَّ رسول الله صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ، فقالَ : « مَا لَكِ يَا عَائِشَةُ بُهِتِّ ؟! » قلتُ : جعلَ جبينُكَ يعرقُ ، وجعلَ العرقُ يتولَّدُ نوراً ، ولو رآكَ أَبو كبيرٍ =

تابط شراً وزوج أمه

وهوَ مِن قصيدةٍ لأَبي كبيرِ الهُذَليِّ ، وكانَ مِن حديثِها [في «ديوان الحماسة» ١/٢٠] : أَنَّه كانَ ناكِحاً أُمَّ تأبَّطَ شرّاً ، فلمَّا بلغَ مبلغَ الرجالِ . . ساءَهُ دخولُه علىٰ أُمِّهِ ، فقالَ لَها : إِنِّي لأَعرفُ الشرَّ في عينِ الغلامِ مِنْ دخولي عليكِ ، فقالَتْ : عرِّضهُ للقتلِ حتَّىٰ نستريحَ ، فغَزا بهِ ، ولمَّا قاربَ حيَّ عدوِّهِ . . أَمرهُ أَنْ يقتبسَ منهم ناراً ، وتأبَّطَ شرّاً لا يدري أَنَّ لَهم وِتراً عندَ أَبيهِ يطلبونَه بثأرِه ، فلمَّا رأَوهُ . . ٱستَلُّوا لقتلِهِ ، فسبقَهم وأَردىٰ منهم ٱثنينِ ، وعادَ إِلىٰ أَبي كبيرٍ رابطَ الجأشِ هادِىءَ البالِ كأَنَّما صادَ عصفوراً ، وأَخبرهُ الخبرَ ، فاشتدَّ خوفُ أَبي كبيرٍ ، فتملَّقه ومدَحهُ بقصيدةٍ سائرةٍ ـ منْها هـٰذا البيتُ ـ وفارقَ أُمَّهُ خوفاً مِنْ شرِّهِ .

ابن الزبير يطلق أمه من زوجها

وبهِ ذكرتُ ما رُويَ [كما في «البداية والنهاية» ٨/٣٤٦] : أَنَّ عبدَ اللهِ بنَ الزبيرِ طلَعَ علىٰ أَبيهِ وفي يدهِ ٱلحسامُ صلْتاً ، وقالَ لهُ : مِثلِي لا توطَأُ أُمُّهُ ، فطلِّقْها ، وإِلاَّ فهوَ علىٰ رأْسِكَ ، فما كانَ مِنَ الزُّبيرِ غيرُ ٱلامتثالِ .

مكاتبة عمرو بن مسعدة لأحد الملوك وقد تزوجت أمه

وذكرَ غيرُ واحدٍ [كما في «وفيات الأعيان» ٣/٤٧٦] : أَنَّ بعضَ الرؤَساءِ تزوَّجَتْ أُمُّهُ ، ومِن عاداتِهم التراسلُ فيما يشبهُ ذلكَ مِنَ الحوادثِ ،

= الهُذَليُّ . . لعلمَ أَنَّكَ أَحقُّ بشعرهِ . قالَ : «وَمَا يَقُولُ أَبُو كَبِيرٍ ؟» قالت : قلت : يقولُ :

وَمُبَـرَّأً مِـنْ كُـلِّ غُبَّـرِ حَيْضَـةٍ ... وَفَسَـادِ مُـرْضِعَـةٍ وَدَاءِ مُغْيِـلِ
فَـإِذَا نَظَـرْتَ إِلَـىٰ أَسِـرَّةِ وَجْهِـهِ ... بَرَقَتْ كَبَرْقِ ٱلعَارِضِ ٱلمُتَهَلِّلِ

قالت : فقامَ إِليَّ النبيُّ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ، وقبَّلَ بينَ عينيَّ ، وقالَ : «جَزَاكِ اللهُ يَا عَائِشَةُ عَنِّيْ خَيْرَاً ، مَا سُرِرْتِ مِنِّيْ كَسُرُوْرِي مِنْكِ» .

فحارَتِ المُلوكُ فيما تكتبُ إليهِ ، وتصعَّدَها الكلامُ ، حتَّىٰ فرَّجَ عنهم عمرُو بنُ مسعدةَ ـ كاتبُ المأمونِ ، أَو أَبو الفضلِ ٱبنُ العميدِ ـ وكتبَ ما معناهُ :

الحمدُ للهِ أَنقذَ مِنَ الحَيرةِ ، وجدَعَ بالدِّينِ أَنفَ الغَيرةِ ، ومنعَ من عضلِ الأُمهاتِ(١) ، كما منعَ من وَأْدِ البناتِ ؛ ٱستنزالاً للنفوسِ ٱلأَبيَّةِ عن حميَّةِ الجاهليَّةِ ، ثمَّ ٱسترسلَ فيما يليقُ بٱلمقامِ ، وٱقتفىٰ ٱلكُتَّابُ أَثرَهُ ، ووطِئوا عقبَه [من الكامل] :

وَٱلـذِّيـبُ يَغسِـلُ فِـيْ طَـرِيـقِ ٱلضَّيْغَـمِ

الإمام زين العابدين ونور وجهه

ورأَيتُ في مطالَعتي مِن زمانٍ بعيدٍ ، أَنَّ بعضَهم جاءَ في الحرمِ عشاءً إلىٰ مقربةٍ مِن سيِّدِنا عليِّ بنِ الحسينِ ، وأَخذَ يتأَمَّلُ في شيءٍ معهُ ، فسُئِلَ عَن شأْنِهِ ؟ فذكرَ أَنَّ عندَه كتاباً ٱستغلقَت عليهِ قراءَتُه في ضوءِ السراجِ ، فجاءَ يقرؤُه علىٰ غرَّةِ زينِ العابدينَ ـ الذي ٱجتمعَ في أَساريرِهِ الجمالُ الفارسيُّ ، والشهامةُ الهاشميَّةُ ، والوقارُ الإِلـٰهيُّ ، وٱلأَشعَّةُ النَّبويَّةُ ، ولا أَذكرُ ٱسمَ الكتابِ الذي بقيَ بذِهْني منهُ هـٰذا ، ولا غروَ ؛ فقد تواترَ [كما في « الأغاني » ١٠/ ٣٨٠] : أَنَّه لمَّا حجَّ . .

هشام بن عبد الملك والإمام زين العابدين في الطواف

ٱستجْهَرَ الناسَ بجمالِهِ حتَّىٰ أَفرجوا لَهُ عَنِ الحجرِ ، عندَما عجزَ عَنِ الوصولِ إِليهِ هشامُ بنُ عبدِ الملكِ ـ وهُوَ وليُّ العهدِ يومَئِذٍ ـ فقالَ الناسُ : مَن هـٰذا ؟ فقالَ هشامٌ : لا أَعرفُهُ ، فقالَ الفرزدقُ : ولـٰكنِّي أَعرفهُ ، فقالوا : مَنْ هُوَ يَا أَبا فراسٍ ؟ فقالَ [في « ديوانه » ١٧٨ـ١٧٩ مِنَ ٱلبسيطِ] :

---

(١) عضلُ الأُمَّهات : منعُها منَ الزواجِ .

هَـٰذَا ٱبْـنُ خَيْـرِ عِبَـادِ ٱللهِ كُلِّهِـمُ   هَـٰذَا ٱلتَّقِيُّ ٱلنَّقِيُّ ٱلطَّاهِرُ ٱلْعَلَمُ[(١)]
هَـٰذَا ٱلَّذِي تَعرِفُ ٱلْبَطْحَاءُ وَطْأَتَهُ   وَٱلْبَيْتُ يَعْرِفُهُ وَٱلْحِلُّ وَٱلْحَرَمُ[(٢)]
وَلَيْسَ قَوْلُكَ : مَنْ هَـٰذَا؟ . . بِضَائِرِهِ   ٱلْعُرْبُ تَعْرِفُ مَنْ أَنْكَرْتَ وَٱلْعَجَمُ
إِذَا رَأَتْهُ قُرَيْشٌ . . قَالَ قَائِلُهَا   إِلَىٰ مَكَارِمِ هَـٰذَا يَنْتَهِي ٱلْكَرَمُ
يُغْضِي حَيَاءً وَيُغْضَىٰ مِنْ مَهَابَتِهِ   فَمَـا يُكَلَّـمُ إِلاَّ حِيْـنَ يَبْتَسِـمُ[(٣)]

في قصَّةٍ معروفةٍ لا حاجةَ بنا إلىٰ سردِها ـ معَ شُهرتِها ـ وهيَ مِن أكبرِ الأدلَّةِ علىٰ شهامةِ الفرزدقِ ، وقوَّةِ نفسهِ ، وصحَّةِ دينِهِ ، وقد تداخَلَتْ في القصيدةِ أبياتٌ يرويها بعضُهُم للحزينِ الكنانيِّ ، ويرويها آخرونَ للحزينِ الليثيِّ .

هل إثبات العقل للجماد ومعرفته للممدوح جائز؟!

وقولُه : وَٱلْبَيْتُ يَعْرِفُهُ ، وقولُه [في « ديوانه » ١٧٩ مِنَ ٱلبسيطِ] :

يَكَـادُ يُمْسِكُـهُ عِـرْفَـانَ راحَتِـهِ   رُكْنُ ٱلْحَطِيْمِ إِذَا مَا جَاءَ يَسْتَلِمُ

يشبهُ قولَ عُروةَ بنِ أُذَيْنَةَ [في « ديوانِهِ » ٨٣ مِنَ ٱلكاملِ] :

وَلَهُـنَّ بِـٱلْبَيْـتِ ٱلْعَتِيْـقِ لُبَـانَـةٌ   وَٱلْبَيْتُ يَعْرِفُهُنَّ لَوْ يَتَكَلَّمُ[(٤)]
لَـوْ كَـانَ حَيَّـا قَبْلَهُـنَّ ظَعَـائِنـاً   حَيَّ ٱلْحَطِيْمُ وُجُوهَهُنَّ وَزَمْزَمُ[(٥)]

اشتياق البقاع إلى أحبابها

ثمَّ تلاعبَ بهِ المتأخِّرونَ ، فقالَ أبو تمَّامٍ [في « ديوانِهِ » ٢/ ١٧٩ مِنَ ٱلخفيفِ] :

لَـوْ سَعَـتْ بُقْعَـةٌ لإِعْظَـامِ حَيٍّ   لَسَعَىٰ نَحْوَهَا ٱلْمَكَانُ ٱلْجَدِيْبُ

---

(١) **العَلَمُ** : سيِّدُ القومِ .
(٢) **البطحاءُ** : مسيل واسع فيه دقاق الحصى ، ويطلق على الأرض المحيطة بـ (مكَّة) .
(٣) **يغضي** : يخفضُ بصرَهُ من الحياءِ .
(٤) **اللُّبانةُ** : الحاجة التي يهمُّ الشخصَ قضاؤها .
(٥) **الظعائنُ** : النساءُ في الهوادجِ . **الحطيم** : حجر إسماعيل .

وقالَ البُحتريُّ [في « ديوانه » ٢/ ١٠٧٣ مِنَ ٱلكاملِ] :

فَلَوَ انَّ مُشْتَاقاً تَكَلَّفَ فَوْقَ مَا فِيْ وُسْعِهِ لَمَشَىٰ إِلَيْكَ ٱلْمِنْبَرُ

وٱفْتَنَّ فيهِ الناظمُ فقالَ [في « العُكبَريِّ » ٤/ ٢٠٣ مِنَ ٱلكاملِ] : افتنان المتنبي في الموضوع

لَوْ تَعْقِلُ ٱلشَّجَرُ ٱلَّتِيْ قَابَلْتِهَا مَدَّتْ مُحَيِّيَةً إِلَيْكِ ٱلأَغْصُنَا

وقالَ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٣٨٤ مِنَ ٱلخفيفِ] :

وَإِذَا لَمْ تَسِرْ إِلَىٰ ٱلدَّارِ فِيْ وَقْـ ـتِكَ ذَا.. خِفْتُ أَنْ تَسِيْرَ إِلَيْكَا

وقالَ [في « العُكبَريِّ » ٤/ ٢٢٢ مِنَ ٱلبسيطِ] :

يَضُمُّهُ ٱلْمِسْكُ ضَمَّ ٱلْمُسْتَهَامِ بِهِ حَتَّىٰ يَصِيْرَ عَلَىٰ ٱلأَعْكَانِ أَعْكَانَا[1]

وقالَ [في « العُكبَريِّ » ١/ ٢٣٤ مِنَ ٱلكاملِ] :

أَعْجَبْتَهَا شَرَفاً فَطَالَ وُقُوفُهَا لِتَأَمُّلِ ٱلأَعْضَاءِ لاَ لأَذَاتِهَا[2]

وقالَ [في « العُكبَريِّ » ١/ ١٤٦ مِنَ ٱلبسيطِ] :

فَلِمْ يَهَابُكَ مَا لاَ حِسَّ يَرْدَعُهُ ؟ إِنِّيْ لأُبْصِرُ مِنْ شَأْنَيْهِمَا عَجَبَا!

وقالَ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٧ مِنَ ٱلوافرِ] :

فَلَوْ قَدَرَ ٱلسِّنَانُ عَلَىٰ لِسَانٍ لَقَالَ لَكَ ٱلسِّنَانُ كَمَا أَقُوْلُ

وقالَ [في « العُكبَريِّ » ٤/ ٩٨ مِنَ ٱلخفيفِ] :

طَالَ غِشْيَانُكَ ٱلْمَكَارِهَ حَتَّىٰ قَالَ فِيْكَ ٱلَّذِيْ أَقُوْلُ ٱلْحُسَامُ

---

(١) الأعكانُ ـ جمع عكنة ـ : وهو ما يتكسَّرُ أسفل البطنِ من الشحمِ .

(٢) الضميرُ في (أعجبتها) عائدٌ على (الحُمَّىٰ) في البيت قبلهُ .

من أكبر مفاخر قريش.. معرفة البطاح

ومعرفةُ ٱلبطاحِ مِنْ أكبرِ مفاخرِ قريشٍ ؛ لأنَّه لا يتديَّرها إذ ذاكَ إلاَّ صَميمُها ، وأمَّا لهازِمُها . . فبالظَّواهرِ .

وما أحسنَ ما قالَ بعضُ ٱلعلويِّينَ [مِنَ الكاملِ] :

وَحَلَلْتُ مُعْتَلِجَ ٱلْبِطَاحِ إِذَا غَدَا   غَيْرِيْ وَرَاحَ عَلَىٰ مُتُوْنِ ظَوَاهِرِ[1]
كَجِبَالِهَا شَرَفِيْ ، وَمِثْلُ سُهُوْلِهَا   خُلُقِيْ ، وَمِثْلُ ظِبَائِهِنَّ مَجَاوِرِيْ

وقالَ ٱلكُمَيْتُ يمدحُ هشامَ بنَ عبدَ ٱلملكِ [في « ديوانهِ » ١/ ١٧٣ مِنَ ٱلخفيفِ] :

لَـمْ تَجهَّـمْ لَـهُ ٱلْبِطَـاحُ وَلٰكِـنْ   وَجَـدَتْهَـا لَـهُ مَعَـانـاً وَدُوْرَا[2]

وقالَ لهُ أيضاً [في « ديوانهِ » ١/ ١٨٩ مِنْ مجزوءِ ٱلكاملِ] :

وَحَلَلْـتَ مُعْتَلِـجَ ٱلْبِطَـاحِ   وَحَـلَّ غَيْـرُكَ بِـٱلظَّـوَاهِـرْ

ولم ينسَ حظَّهُ ٱلقطبُ ٱلحدَّادُ بل أخذَ بمجامعِ ٱلفخرِ في قولهِ [مخمَّساً في « ديوانه » ٥١٣ مِنَ ٱلمديدِ] :

نَعْـرِفُ ٱلْبَطْحَـا وَتَعْـرِفُنَـا   وَٱلصَّفَـا وَٱلْبَيْـتُ يَـأْلَفُنَـا
وَلَنَـا ٱلْمَعْـلا وَخَيْـفُ مِنَـىٰ   فَـٱعْلَمَـنْ مَـا قُلْـتُ وَٱسْتَكِـنِ

ويعجبني قولُ بعضِهم في مراعاةِ ٱلنَّظيرِ يمدحُ أهلَ ٱلبيتِ [في « خزانةِ ٱلأدبِ » ١/ ٢٩٤ مِنَ ٱلكاملِ] :

أَنْتُمْ بَنُو طٰهَ وَنُوْنٍ وَٱلضُّحَىٰ   وَبَنُوْ تَبَارَكَ وَٱلْكِتَابِ ٱلْمُحْكَمِ

---

(١) الأرضُ المعتلجةُ : هي التي ٱستأسدَ نباتُها وٱلتفَّ وكثُرَ . ومعْتَلجُ البطاحِ : بطنُ (مكَّةَ) .

(٢) تَجهَّمُ : تنكرُ . المَعانُ : المحلُّ .

وَبَنُوْ ٱلأَبَاطِحِ وَٱلْمَشَاعِرِ وَٱلصَّفَا ... وَٱلرُّكْنِ وَٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيْقِ وَزَمْزَمِ

علي الرضا ودخوله خراسان

وعلىٰ ذكرِ ٱلوضاءَةِ . . نلمُّ بحديثِ عليٍّ الرِّضَا ، فقد دخلَ (خراسانَ) وعليهِ غشاءٌ . . فتلقَّاهُ الناسُ ، وفي مقدِّمتِهِم الحافظانِ أَبو زرعَةَ ومحمدُ بنُ أَسلمَ الطُّوسيُّ ، فتوسَّلا إِليهِ أَنْ يكشفَ لَهُم عَن وَجههِ ، وأَنْ يَرويَ حديثاً عَنْ آبائِهِ ، فَحَسَرَ اللثامَ عَن وجهٍ كالبدرِ ٱنكشف عنهُ الغمامُ ، فمن صارخٍ وباكٍ وممرِّغٍ خدَّهُ بالأَرضِ ، وآخذٍ من ترابِ حافرِ بغلَتِهِ ، وقالَ : حدَّثني أَبي ، موسىٰ الكاظِمُ ، عن أَبيهِ جعفرٍ الصَّادقِ ، عن أَبيهِ محمدٍ ٱلباقرِ ، عنْ أَبيهِ عليٍّ زينِ ٱلعابدينَ ، عن أَبيهِ ـ شهيدِ كَربلاءَ ـ حسينِ بنِ عليٍّ وٱبنِ فاطمةَ ، عَن أَبيهِ عليٍّ ٱبنِ أَبي طالبٍ ، عَن رسولِ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم ، عَنْ جبرائِيلَ ، عَنْ رَبِّ العزَّةِ ، قالَ : « **لا إِلـٰهَ إلا اللهُ حِصْني ، فَمَنْ دَخَلَ حِصْني . . أَمِنَ مِنْ عَذَابي** »[1] فٱبتدرَتْهُ الأَقلامُ ـ وكانتْ أَكْثَرَ مِنِ ٱثْنَيْ عشـرَ أَلفاً ـ وصـاروا يكتبـونَ ذلـكَ ٱلإِسنـادَ للمـرضـىٰ ، فيعاجِلُهم اللهُ بالشِّفاءِ ، وكيفَ لا ؟! وهُم كما قيلَ [مِنَ السَّريعِ] :

سَبْعَـةُ آبَـاءٍ هُـمُ مَـنْ هُـمُ ... أَفْضَلُ مَنْ يَشْرَبُ صَوْبَ ٱلْغَمَامِ

ابن معايا يمدح الخليفة الأندلسي

ولقد أَذكرَني توسُّلُ ٱلحافظَينِ إِلىٰ الرِّضا بأَنْ يُسَرِّيَ عَنْ وَجْهِهِ اللِّثـامَ . . بقـولِ ٱبـنِ مَعـايـا يمـدحُ إِدريـسَ بـنَ حمُّـودٍ ٱلخليفـةَ بـ(ٱلأَندلسِ) [كما في « نَفْحِ الطِّيبِ » ١/ ٢١٤ مِنَ الرَّمَلِ] :

---

(١) حديث قدسي أورده عن ابن عساكر من حديث علي في « كنز العمال » (١٥٨) و(١٧٦٩) ، وابن النجار (٢٣٥) . وفي الباب نحوه عن أنس عند ابن النجار من حديث أنس كما في « كنز العمال » (١٦٨) و(٢٣٥) .

أَنْظِرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ ... إِنَّهُ مِنْ نُورِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينْ[1]

خرق الخليفة للأستار وبروزه للشاعر

وكانَ مِنْ وَرَاءِ سبعةِ أَستارٍ حالَ الإنشادِ ، فلمَّا بلغَ هٰذا البيتَ : أَمرَ برفعِها حتَّىٰ نظرَ إليهِ ، وكانتِ ٱلعادَةُ عندَ خلفاءِ (ٱلمغربِ) أَنْ لا يسمَعوا ٱلإنشادَ إلاَّ مِن وراءِ ٱلحِجَابِ .

ورود كلمة (أَذِين) في اللغة

ورأَيتُ بعضَهم ينتقدُ لفظةَ (الأَذِينِ) مِنْ قولِهِ في هٰذهِ القصيدةِ [كما في « نَفحِ الطِّيبِ » ١/ ٢١٤ مِنَ الرملِ] :

وَٱسْقِنِيهَا قَبْلَ تَكْبِيرِ ٱلأَذِينْ

وقالَ : إنَّها لا توجدُ في كتبِ ٱللُّغةِ ولا في أَشعارِ ٱلعربِ ، ولا يحضُرُنا شيءٌ منهَا الآنَ ، ولا أَراهُ إلاَّ وَهماً في ٱنتقادِهِ ؛ فقدِ ٱستعمَلَها المولَّدونَ بكثرةٍ ، ومنهُم أَبو العلاءِ المعريُّ في قولِهِ [في «سقط الزند» ٢٧٥ مِنَ ٱلوافرِ] :

فَلَيْتَ أَذِينَ يَوْمِ ٱلْحَشْرِ نَادَىٰ ... فَأَجْهَشَتِ ٱلرِّمَامُ إِلَىٰ ٱلرِّمَامِ[2]

تلثُّم الجميل يدرأ من إتلاف المهج

وأَمَّا تلثُّمُ ٱلرِّضا . . فذكرتُ عندَه قولَ الناظمِ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٣٤٩ مِنَ الطَّويلِ] :

خَفِ ٱللهَ وَٱسْتُرْ ذَا ٱلْجَمَالَ بِبُرْقُعٍ ... فَإِنْ لُحْتَ ذَابَتْ فِيْ ٱلْخُدُوْرِ ٱلْعَوَاتِقُ[3]

---

(١) في البيت اقتباس جميل من « كتاب الله تعالى » من سورة الحديد الآية : (١٣) . القبس : النار أو الشعلة منها .

(٢) أجهشَ : خاف أو هرب . الرِّمامُ : البالي .

(٣) البرقعُ : نقابٌ للعربِ ، يغطَّى به الوجه والجبين ، ولا يكونُ فيهِ إلاّ ثقبانِ للعينين تنظرانِ منهما . والعواتقُ : الجواري اللاتي قاربنَ الحلمَ . والخدورُ ـ جمع خِدرٍ ـ : وهوَ الكِنُّ ، والبيتُ الذي يسترُ فيه العواتقُ .

وإنَّه وَاللهِ لأكبرُ مِنْ ذلكَ ، وما كانَ أحقَّه بأَنْ يُقالَ فيهِ [مِنَ الطَّويلِ] :

خَفِ ٱللهَ وَٱسْتُرْ ذَا ٱلْجَمَالَ بِبُرْقُعٍ فَإِنْ لُحْتَ ذَابَتْ فِي ٱلصُّدُوْرِ ٱلْخَوَافِقُ
جَلاَلٌ إِلَىٰ فَرْطِ ٱلْجَمَالِ عَلَيْهِمَا مِنَ ٱللهِ نُوْرٌ فِي ٱلدُّجُنَّةِ شَارِقُ(١)

وما أَحسنَ قولَ بعضِهم [كما في « البيان والتبيين » ١/ ٤٣٨ مِنَ ٱلوافرِ] :

إِذَا لَبِسُوْا عِمَائِمَهُمْ طَوَوْهَا عَلَىٰ كَرَمٍ وَإِنْ سَفَرُوْا أَنَارُوْا

ثمَّ يَحتمِلُ أَنَّ في ٱلبيتِ إِشارةً إِلىٰ أَنَّ ٱلممدوحَ لا يَشينُهُ ٱلعبوسُ . إِذا شبَّتِ ٱلحربُ الضَّروسُ ، وهُوَ مِثْلُ قولِهِ [في « العُكبَريّ » ٣/ ٣٨٧ مِنَ الطَّويلِ] : الابتسام في ساحات القتال والشعراء

تَمُرُّ بِكَ ٱلأَبْطَالُ كَلْمَىٰ هَزِيْمَةً وَوَجْهُكَ وَضَّاحٌ وَثَغْرُكَ بَاسِمُ(٢)

وقولِهِ [في « العُكبَريّ » ٤/ ٢٨١ مِنَ ٱلمنسرحِ] :

مُبْتَسِمٌ وَٱلْوُجُوْهُ عَابِسَةٌ سِلْمُ ٱلْعِدَا عِنْدَهُ كَهَيْجَاهَا

وقولِهِ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٢٩٩ مِنَ ٱلوافرِ] :

فَلاَ تَسْتَنْكِرَنَّ لَهُ ٱبْتِسَاماً إِذَا فَهَقَ ٱلْمَكَرُّ دَماً وَضَاقَا(٣)

وقولِ ٱلأَعشىٰ [مِنَ ٱلبسيطِ] :

كَأَنَّهُ ـ بَعْدَ صِدْقِ ٱلْقَوْمِ أَنْفُسَهُمْ بِٱلْيَأْسِ ـ تَلْمَعُ مِنْ قُدَّامِهِ ٱلْبَشَرُ(٤)

---

(١) الدُّجُنَّةُ : الظلمةُ . الشارقُ : القمرُ .
(٢) كلمىٰ : جرحىٰ . هزيمةٌ : مهزومةٌ .
(٣) فَهَقَ : ٱمتلأَ . المَكَرُّ : مجالُ الضربِ وساحةُ القتالِ .
(٤) لمعانُ الجسدِ : بريق لونهِ . البَشَرُ : ظاهر الجلد .

وقولِ المعكبَرِ الضبيِّ [في « ديوانِ الحماسةِ » ٢/ ١٩٣ مِنَ الطَّويلِ] :

كَـأَنَّ دنَـانِيْـراً عَلَـىٰ قَسَمَـاتِهِـمْ   وَإِنْ كَانَ قَدْ شَفَّ ٱلْوُجُوْهَ لِقَاءُ(١)

وقولِ دريدِ بنِ الصِّمَّةِ يمدحُ ربيعةَ بنَ مكدمٍ ، وكان أَرْدىٰ عليهِ ثلاثةَ فوارسَ يومَ الظَّعينةِ [في « ديوانهِ » ٩٥ مِنَ الكاملِ] :

أَرْدَىٰ فَوَارِسَ لَمْ يَكُوْنُوْا نُهْزَةً   ثُـمَّ ٱسْتَمَـرَّ كَـأَنَّـهُ لَـمْ يَفْعَـلِ(٢)
مُتَهَلِّـلاً تَبْـدُوْ أَسِـرَّةُ وَجْهِـهِ   مِثْلَ ٱلْحُسَامِ جَلَتْهُ كَفُّ ٱلصَّيْقَلِ(٣)

وقولِ ٱلفرزدقِ في رثاءِ وكيعِ ٱبنِ أَبي ٱلأَسودِ ٱلغدانيِّ [في «ديوانهِ» ١/ ٤٠٩ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا ٱلْتَقَتِ ٱلأَبْطَالُ أَبْصَرْتَ وَجْهَهُ   مُضِيْئاً وَأَعْنَـاقُ ٱلْكُمَـاةِ خُضُـوْعُ

وقولِ مروانَ ٱبنِ أَبي حفصةَ يمدحُ مَعْناً [في « ديوانهِ » ١٠٦ مِنَ ٱلكاملِ] :

يُمْضِـيْ أَسِنَّتَـهُ وَيُسْفِـرُ وَجْهُـهُ   فِـي ٱلـرَّوْعِ عِنْـدَ تَغَيُّـرِ ٱلأَلْـوَانِ
جَلَبَ ٱلْجِيَادَ مِنَ ٱلْعِرَاقِ عَوَابِساً   قُبَّ ٱلْبُطُوْنِ يُقَدْنَ بِٱلأَرْسَانِ(٤)
حَتَّىٰ أَغَرْنَ بِحَضْرَمَوْتَ شَوَازِباً   مُقْـوَرَّةً كَكَـوَاسِـرِ ٱلْعُقْبَـانِ(٥)

---

(١) القَسماتُ : مجاري الدموعِ . شفَّ : أَهزَلَ مِن شدَّةِ الهمِّ .
(٢) النُّهزَةُ : الشيءُ المعرَّضُ لكَ كالغنيمةِ .
(٣) الصَّيقَلُ : شحَّاذُ السيوفِ وجلاَّؤُها الذي يزيلُ عَنها الصَّدأَ .
(٤) العوابسُ : الشديدةُ الجادَّةُ . قُبُّ البطونِ : ضوامرُها .
(٥) الشوازبُ ـ جمعُ شازبٍ ـ : وهوَ الضامرُ . المُقْوَرَّةُ : الضامرةُ . الكاسرُ من العقبانِ : هيَ التي تكسرُ جناحيها وتضمُّها إذا أَرادتِ السقوطَ ، وهي من أَقوى العقبان .

وقولِ مسلمٍ [في « الأغاني » ١٢/١١٨ مِنَ ٱلبسيطِ] :

يَفْتَرُّ عِنْدَ ٱفْتِرَارِ ٱلْحَرْبِ مُبْتَسِماً إِذَا تَغَيَّرَ وَجْهُ ٱلْفَارِسِ ٱلْبَطَلِ(١)

وقولِ أَبي عُبادةَ [في « ديوانهِ » ٣/١٤٩٢ مِنَ الطَّويلِ] :

ضَحُوْكٌ إِلَىٰ ٱلأَبْطَالِ وَهْوَ يَرُوْعُهُمْ وَلِلسَّيْفِ حَدٌّ حِيْنَ يَسْطُوْ وَرَوْنَقُ

وفي عكسِ ذلكَ يقولُ عنترةُ [في « ديوانهِ » ١٥٢ مِنَ ٱلبسيطِ] :

لاَ أَبْعَدَ ٱللهُ عَنْ عَيْنَيْ غَطَارِفَةً إِنْساً إِذَا نَزَلُوْا جِنّاً إِذَا رَكِبُوْا(٢)

ويقولُ ٱبنُ مَيَّادةَ [في « ديوانهِ » ٦٠ مِنَ ٱلبسيطِ] :

ٱلطَّيِّبُـوْنَ إِذَا طَـابَـتْ نُفُـوْسُهُـمُ شُوْسُ ٱلحَوَاجِبِ وَٱلأَبْصَارِ إِنْ غَضِبُوْا(٣)

ويقولُ الفرزدقُ [في « طَبقات فحولِ الشُّعراءِ » ٢/٣٦٣ مِنَ ٱلكاملِ] :

أَحْـلاَمُنَـا تَـزِنُ ٱلْجِبَـالَ رَكَـانَـةً وَتَخَالُنَا جِنّاً إِذَا مَا نَغْضَبُ(٤)

ويقولُ نصيبٌ [مِنَ ٱلكاملِ] :

يَحْيَـوْنَ بَسَّـامِيْـنَ طَـوْراً وَتَـارَةً يَحْيَوْنَ عَبَّاسِيْنَ شُوْسَ ٱلْحَوَاجِبِ

ويقولُ بكرُ بنُ النطَّاحِ [مِنَ ٱلخفيفِ] :

يَتَلَقَّـىٰ ٱلنَّـدَىٰ بِـوَجْـهٍ حَيِـيٍّ وَصُـدُوْرَ ٱلْقَنَـا بِـوَجْـهٍ وَقَـاحِ

---

(١) فترَ : سكنَ بعد حِدَّةٍ ، ولانَ بعدَ شدَّةٍ .

(٢) الغطارفةُ ـ جمع غطريفٍ ـ : وهو السيِّدُ الشريفُ السخيُّ .

(٣) الشَّوَسُ : النظرُ بمؤخَّرَةِ العينِ تكبُّراً وتغيُّظاً .

(٤) الأحلامُ : العقولُ . الرَّكَانَةُ : الثِّقَلُ . والمعنىٰ : نحنُ قومٌ عقلاءُ ، تُماثِلُ عقولُنا الجبالَ في ثباتِها ، فلا يستفزُّنا الغضبُ ، وإذا جهِلَ وسَفِهَ علينا أَحدٌ . . أَريناهُ مِنَ الجهلِ ما يُضعِفُ قوَّتهُ ، ويُخرسُ لسانَهُ .

المتنبي وعدم المبالاة بملاقاة الأعداء

وقد أَغارَ عليهِ صاحبُنا ؛ لأَنَّه يتلقَّفُ[1] كلَّ ما صنَعوا . . فقالَ [في « العُكبَريِّ » ٤/٧٨ مِنَ الوافرِ] :

نُصَـرِّعُهُـمْ بِـأَعْيُنِنَـا حَيَـاءً ... وَتَنْبُـو عَـنْ وُجُـوهِهِـمُ ٱلسِّهَـامُ

وقالَ [في « العُكبَريِّ » ٤/١١٦ مِنَ الطَّويلِ] :

حَيِيُّـونَ إِلاَّ أَنَّهُـمْ فِـيْ نِـزَالِهِـمْ ... أَقَلُّ حَيَاءً مِنْ شِفَارِ ٱلصَّوَارِمِ[2]

وقالَ [في « العُكبَريِّ » ٢/٦٢ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَيْسَ حَيَاءُ ٱلْوَجْهِ لِلذِّئْبِ شِيْمَةً ... وَلَـٰكِنَّهُ مِنْ شِيْمَةِ ٱلأَسَدِ ٱلْوَرْدِ

وهوَ مِن قولِ أَبي تَمَّامٍ [بل البحتري في « ديوانه » مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا ٱلْكَلْبُ مَحْمُوْماً وَإِنْ طَالَ عُمْرُهُ ... وَلَـٰكِنَّمَا ٱلْحُمَّىٰ عَلَىٰ ٱلأَسَدِ ٱلْوَرْدِ

غيرَ أَنَّه حرَّفَ الكَلِمَ عَن مَواضِعِهِ ؛ لِيَستُرَ ٱختلاسَهُ عَنِ العيونِ .

حياء وشجاعة النبي ﷺ

(وقد كانَ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلِهِ وسلَّم أَشدَّ حياءً مِنَ العَذْراءِ في خدرِها)[3] ، وهوَ أَشجعُ الناسِ بِالاتِّفاقِ .

الشجاعة والحياء

وقد قالتْ لَيلىٰ الأَخْيَلِيَّةُ [في « ديوانها » ٨٠ مِنَ الطَّويلِ] :

فَتىً كَانَ أَحْيَىٰ مِنْ فَتَاةٍ حَيِيَّةٍ ... وَأَجْرَأَ مِنْ لَيْثٍ بِخِفَّانَ خَادِرِ[4]

ولَئِن لم يكُن في الأَمثلةِ الأَخيرةِ تصريحٌ بالتَّبَسُّمِ في حالِ القتالِ

---

(١) لقف : تناول بسرعة أو ابتلع .

(٢) الشفارُ : جمع شفرةٍ . الصوارمُ ـ جمعُ صارمٍ ـ : وهوَ السَّيفُ القاطعُ .

(٣) أخرجه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه البخاري (٣٥٦٢) في المناقب ، ومسلم (٢٣٢٠) في الفضائل .

(٤) الخِفَّانُ : مأسدةٌ قربَ الكوفةِ . الخادِرُ : المقيمُ في عَرِينِهِ .

الذي نتكلَّمُ فيهِ . . فإنَّه موجودٌ فيها باللازِمِ ؛ إذِ الحياءُ مِن لازمهِ الابتسامُ ، والأَسَدُ من طبيعتهِ الاقتِحامُ ، فلم نخرجْ عَن موضعِ الكلامِ .

ومِمَّا يتردَّدُ بينَ القسمينِ ـ معَ القربِ من الثاني ـ قولُ عنترةَ [في «ديوانهِ» ٦٤ مِنَ ٱلكاملِ] : احذر من تبسم الليث

لَمَّا رَآنِيْ قَدْ نَزَلْتُ أُرِيْدُهُ   أَبْدَىٰ نَوَاجِذَهُ لِغَيْرِ تَبَسُّمِ

وتَسوَّرَ[1] عليهِ أَبو تَمَّامٍ فقالَ [في «ديوانهِ» ٢/ ٨٥ مِنَ ٱلبسيطِ] :

قَدْ قَلَّصَتْ شَفَتَاهُ مِنْ حَفِيْظَتِهِ   فَخِيْلَ مِنْ شِدَّةِ ٱلتَّعْبِيْسِ مُبْتَسِمَا[2]

وأَجادَ ـ واللهِ ـ الناظمُ في قولهِ [في «العُكبَرِيّ» ٣/ ٣٦٨ مِنَ ٱلبسيطِ] :

إِذَا رَأَيْتَ نُيُوْبَ ٱللَّيْثِ بَارِزَةً   فَلاَ تَظُنَّنَّ أَنَّ ٱللَّيْثَ يَبْتَسِمُ

* * *

(١) تسوَّرَ : تسلَّقَ جداره .
(٢) الحفيظةُ : الغضبُ .

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ ٱلمتنبي في « ٱلعُكبَرِيّ » ٣/ ١٧٠ مِنَ ٱلبسيطِ]

كَمْ مَهْمَهٍ قُذُفٍ قَلْبُ ٱلدَّلِيْلِ بِهِ ... قَلْبُ ٱلْمُحِبِّ، قَضَانِيْ بَعْدَ مَا مَطَلا

شجاعة المتنبي وثبات جاشه

(المَهْمَهُ) الفلاةُ الواسعةُ و(القُذُفُ) البعيدةُ ؛ كأَنَّها تتقاذفُ بمن يسلُكُها ، يقولُ : كم من فلاةٍ بعيدةٍ يَدُلُّني فيها رجلٌ خائِفٌ قلبُهُ كقلبِ المحبِّ في الاضطرابِ.. قطعتُها بعدَ طولِ السيرِ فيها ، وهـٰذا هُوَ المرادُ من قولِهِ : (قَضَانِيْ بَعْدَ مَا مَطَلاَ) وهي ٱستعارةٌ مليحةٌ ؛ لأَنَّ المَهْمَهَ بطولِهِ.. كالغريمِ المماطلِ بالقضاءِ .

وفي البيتِ نكتةٌ لا أَظنُّ أَحداً تعرَّضَ لَها ، وهيَ : أَنَّه كثيراً ما يمتدحُ بالجرأَةِ وقوَّةِ القلبِ ، والاستغناءُ بذلكَ عَنِ الأَدِلَّةِ ، وهُوَ محلٌّ ذلكَ غيرُ مُنازَعٍ ؛ ولهـٰذا أَبىٰ أَنْ يسيرَ في خفارةِ[1] غيرِ سيفِهِ ، ولم يأْخذْهُ في ذلكَ لومٌ ولا تفنيدٌ ، وقالَ : أَنا والجرازُ[2] في عنقي لا أَخافُ إِلاَّ اللهَ ، فهوَ ثابتُ الجأْشِ في تلكَ المهامِهِ ، وإِنَّما وَصَفَ الدليلَ بالضعفِ والجبنِ ، وٱضطرابِ القلبِ ، وإِذا كانَ الدليلُ بهـٰذهِ المثابةِ.. فكأَنَّه لا شيءَ ، فلم تنخرقْ عادتُهُ ، ولم تنخرمْ شهامتُهُ ، ولم يخالف قولَه [في « العُكبَرِيّ » ٤/ ١٤٢ـ١٤٤ مِنَ ٱلوافرِ] :

مَلُـوْمُكُمَـا يَجِـلُّ عَـنِ ٱلْمَـلاَمِ ... وَوَقْـعُ فِعَـالِـهِ فَـوْقَ ٱلْكَـلاَمِ
ذَرَانِـيْ وَٱلْفَـلاَةَ بِـلاَ دَلِيْـلٍ ... وَوَجْهِـيْ وَٱلْهَجِيْـرَ بِـلاَ لِثَـامِ

---

(١) الخِفارةُ : العهدُ والذمَّةُ أو الجِوارُ .
(٢) الجُرازُ : السيفُ القاطعُ .

فَـإِنِّـي أَسْتَـرِيْـحُ بِـذَا وَهَـٰـذَا	وَأَتْعَـبُ بِـالإِنَـاخَـةِ وَالْمُقَـامِ
فَقَـدْ أَرِدُ الْمِيَـاهَ بِغَيْـرِ هَـادٍ	سِوَىٰ عَدِّيْ لَهَا بَرْقَ الْغَمَامِ[1]
يُـذِمُّ لِمُهْجَتِـيْ رَبِّـيْ وَسَيْفِـيْ	إِذَا احْتَاجَ الْوَحِيدُ إِلَىٰ الذِّمَامِ[2]

* * *

(١) قال ابن السكِّيتِ : إذا عدَّتِ العربُ للسحابِ مِئَةَ برقةٍ .. لم تشكَّ بأنَّها ماطرةٌ قد سقت ، فتتبعُها على الثقةِ بالمطرِ .

(٢) يُذِمُّ : أي يعطيني الذمامَ ، وهوَ العهد والخِفَارَةُ .

[قالَ أَبو الطَّيب ٱلمتنبي في « ٱلعُكبَريِّ » ٣/ ١٧٠ مِنَ ٱلبسيطِ]

عَقَدْتُ بِٱلنَّجْمِ طَرْفِيْ فِيْ مَفاوِزِهِ وَحُرَّ وَجْهِيْ بِحَرِّ ٱلشَّمْسِ إِذْ أَفَلاَ

لماذا سميت الصحراء مفازة؟

(المَفاوِزُ) الفلواتُ المهلكةُ ، وسمَّوها كذلكَ تفاؤُلاً ، مِن مجازِ الضدِّ ، كما قالوا : للأعمىٰ (البصيرِ) ، و(الطرفُ) العينُ ، و(حُرُّ الوجهِ) أَشرفُ مكانٍ منهُ ، و(أَفلَ) غابَ .

من الممادح كثرة ركوب الليل، واجتياز الصحراء، وحرق الوجه من حر الشمس

يقولُ : إِنَّه يسيرُ لَيلاً ونهاراً ، ففيْ الليلِ يعقدُ طرفَهُ بالنجمِ ، وإِذا جاءَ النهارُ . . نصَّبَ وجهَهُ للشمسِ ، يهْتَدي نهاراً كما يهْتَدي بالنجومِ ليلاً ، وما زالتِ الْعَرَبُ تَمدحُ بركوبِ الليلِ وكثرةِ الأَسفارِ ، قالَ الأَعشىٰ في رثاءِ الْمُنْتَشِرِ [مِنَ ٱلبسيطِ] :

مُهَفْهَفٌ أَهْضَمُ ٱلْكَشْحَيْنِ مُنْخَرِقٌ عَنْهُ ٱلْقَمِيْصُ ، لِسَيْرِ ٱللَّيْلِ مُحْتَقِرُ(١)

وما أَثنىٰ عليهِ بٱنخراقِ القميصِ . . إِلاَّ لطولِ أَسفارِهِ حتَّىٰ تشقَّقَتْ ثيابُهُ .

وقالَ ذو الرُّمَّةِ يصفُ مسافِراً أَغفىٰ إِغفاءَةً ثمَّ ٱنتبهَ سريعاً [في « ديوانِهِ » ٣/ ١٦٩١ـ١٦٩٢ مِنَ الطَّويلِ] :

طَوَىٰ طَيَّةً فَوْقَ ٱلْكَرَىٰ جَفْنَ عَيْنِهِ عَلَىٰ رَهَبَاتٍ مِنْ جَنَانِ ٱلْمَحَاذِرِ
قَلِيْلاً كَتَحْلِيْلِ ٱلأَلَىٰ ثُمَّ قَلَّصَتْ بِهِ شِيْمَةٌ رَوْعَاءُ تقْلِيْصَ طَائِرِ(٢)

---

(١) المهفهَفُ : الدقيقُ الخصرِ . الأَهضمُ الكشحينِ : لطيفُهُما .
(٢) الأَلى ـ جمع أَليَّةٍ ـ : وهي اليمينُ . قلَّصت بهِ شيمةٌ : أَي أَشخصتهُ طبيعةٌ روعاءُ عنِ المقامِ . روعاءُ : أَي رائعةٌ .

وقالَ مضرِّسُ بنُ رِبعيٍّ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَيَوْمٍ مِنَ ٱلشِّعْرَىٰ كَأَنَّ ظِبَاءَهُ ... كَوَاعِبُ مَقْصُورٌ عَلَيْهَا سُتُوْرُهَا[1]
تَدَلَّتْ عَلَيْهَا ٱلشَّمْسُ حَتَّىٰ كَأَنَّهَا ... مِنَ ٱلْحَرِّ يَرْمِي بِٱلسَّكِينَةِ نُوْرُهَا
نَصَبْتُ لَهُ وَجْهِي وَكُلِّفْتُ حَمْيَهُ ... أَفَانِيْنَ حُرْجُوْجٍ بَطِيْءٌ فُتُوْرُهَا[2]
وَلَيْلٍ يَقُوْلُ ٱلْقَوْمُ مِنْ ظُلُمَاتِهِ ... سَوَاءٌ بَصِيْرَاتُ ٱلْعُيُوْنِ وَعُوْرُهَا
كَأَنَّ لَنَا مِنْهُ بُيُوْتاً حَصِيْنَةً ... مُسُوْحٌ أَعَالِيْهَا وَسَاجٌ كُسُوْرُهَا[3]
تَجَاوَزْتُهُ فِي لَيْلَةٍ مُدْلَهِمَّةٍ ... يُنَادِيْ صَدَاهَا نَاقَتِيْ يَسْتَجِيْرُهَا

وقالَ [مِنَ الوافرِ] :

وَفِتْيَانٍ بَنَيْتُ لَهَا خِبَاءً ... عَلَىٰ قَوْسَيْنِ خَفَّاقاً مَرُوْحَا
كَأَنَّا رَابِطُوْنَ بِهِ فُلُوّاً ... شَدِيْدَ ٱلنَّزْوِ قَمَّاصاً رَمُوْحَا[4]
نُقَوِّمُهُ وَتَهْتِكُهُ عَلَيْنَا ... سُهُوْمٌ تَسْفَعُ ٱلْوَجْهَ ٱلْوَضُوْحَا[5]

وقالتْ جنوبُ ٱبنةُ العجلانِ ؛ ترثي أخاها عَمْراً ذا الْكَلْبِ [في «خزانة الأدب» ٢/ ٣٠٣ مِنَ المتقاربِ] :

وَخَرْقٍ تَجَاوَزْتَ مَجْهُوْلَةٍ ... بِوَجْنَاءَ حَرْفٍ تَشَكَّىٰ ٱلْكَلَالَا[6]
فَكُنْتَ ٱلنَّهَارَ بِهِ شَمْسَهُ ... وَكُنْتَ دُجَىٰ ٱللَّيْلِ فِيْهِ ٱلْهِلَالَا

---

(١) الأبيات للأعشى في «ديوانه» (١٧٠/ ١٧١). الشِّعرىٰ : كوكبٌ نيِّرٌ يطلعُ في شدَّةِ الحرِّ .
(٢) الحُرجُوجُ : الريحُ الباردةُ .
(٣) السَّاج : ضرب عظيم من الشجر. الكسر : جانب البيت.
(٤) الفُلوُّ : المهرُ . الرمَّاحُ : الذي يضربُ الحصى برجلِهِ .
(٥) تسفَعُ : تلفحُ وتغيِّرُ لون بشرته .
(٦) الخَرقُ : الأرض القفراء الواسعة . الوجناءُ : الضخمة . الحَرْفُ من الإبل : النجيبةُ الماضيةُ التي أمضتها الأسفارُ . الكَلالُ : الإعياءُ .

وَخَيْـلٍ سَمَـتْ لـكَ فُـرْسَـانُهَـا ... فَـوَلَّـوْا وَلَـمْ يَسْتَقِلُّـوْا قِبَـالاَ
وَكُـلُّ قَبِيْـلٍ وَإِنْ لَـمْ تَكُـنْ ... أَرَدْتَهُـمُ مِنْـكَ بَـاتُـوْا وِجَـالاَ(١)

وقالَ بعضُ العربِ [مِنَ البسيطِ] :

وَسَمْحَةِ ٱلْمَشْيِ شِمْلاَلٍ، قَطَعْتُ بِهَا ... أَرْضاً يَحَارُ بِهَا ٱلْهَادُوْنَ دَيْمُوْمَا
مَهَـامِهـاً وَحُـزُوْنـاً لاَ أَنِيْـسَ بِهَـا ... إِلاَّ ٱلصَّوَائِحَ وَٱلأَصْدَاءَ وَٱلْبُوْمَا(٢)

وقالَ الفرزدقُ [في « ديوانهِ » ٢/ ٢٩١ـ٢٩٢ مِنَ الوافرِ] :

وَغَيَّـرَ لَـوْنَ رَاحِلَتِـيْ وَلَـوْنِـيْ ... تَـرَدِّيَّ ٱلْهَـوَاجِـرَ وَٱعْتِمَـامِـيْ
أَقُوْلُ لَهَا إِذَا ضَجَّتْ وَعَضَّتْ ... بِمَوْرِكَةِ ٱلْوِرَاكِ مَعَ ٱلزِّمَامِ(٣)
عَـلاَمَ تَلَفَّتِيْـنَ وَأَنْـتِ تَحْتِـيْ ؟ ... وَخَيْـرُ ٱلنَّـاسِ كُلِّهِـمُ أَمَـامِـيْ

وقالَ [في « ديوانهِ » ١/ ٢١٣ مِنَ البسيطِ] :

مُسْتَقْبِلِيْـنَ رِيَـاحَ ٱلشَّـامِ تَضْـرِبُنَـا ... بِحَاصِبٍ كَنَدِيْفِ ٱلْقُطْنِ مَنْثُوْرِ(٤)
عَلَـىٰ عَمَـائِمِنَـا تُلْقَـىٰ وَأَرْحُلِنَـا ... عَلَىٰ زَوَاحِفَ نُزْجِيْهَا مَحَاسِيْرِ(٥)

وقالَ [في « ديوانهِ » ٢/ ٢٦ـ٢٧ مِنَ الطَّويلِ] :

بَدَأْنَا بِهَا مِنْ سِيْفِ رَمْلِ كُهَيْلَةٍ ... وَفِيْهَا نَشَاطٌ مِنْ مِرَاحٍ وَعَجْرَفُ(٦)

---

(١) الوَجَلُ : الخوفُ .
(٢) الحزون : التلالُ المرتفعةُ .
(٣) المَورِكَةُ : المرفقةُ التي تكونُ عندَ قادمَةِ الرحلِ ، يضعُ الراكبُ رجلَهُ عليها ؛ ليستريحَ من وضعِ رِجلهِ في الركابِ . والوِراكُ : ثوبٌ يُزيَّنُ بهِ المَورِكُ .
(٤) الحاصبُ : الريحُ الشديدةُ تحملُ الحصباءَ .
(٥) الزواحفُ : النياقُ المعييَّةُ . نُزجيها : نسوقُها . محاسيرُ ـ جمعُ محسورٍ ـ : وهوَ الكليلُ .
(٦) السِّيفُ : الساحلُ . كُهَيلةُ : موضعٌ . مِراحٌ وعجرَفٌ : الأشر والاختيال .

فَمَا بلَغَتْ حَتَّىٰ تقَارَبَ خطْوُهَا وَبادَتْ ذُرَاهَا وَٱلْمَنَاسِمُ رُعَّفُ[1]
وَحَتَّىٰ قَتلْنَا ٱلْجَهْلَ عَنْهَا وَغُوْدِرَتْ إِذَا مَا أُنِيْخَتْ وَٱلْمَدَامِعُ ذُرَّفُ
وَحَتىٰ مَشَىٰ ٱلْحَادِيْ ٱلْبَطِيْءُ يَسُوْقُهَا لَهَا بَخَصٌ دَامٍ وَدَأْيٌ مُجَلَّفُ[2]
وَحَتَّىٰ بَعَثْنَاهَا وَمَا فِيْ يَدٍ لَهَا إِذَا حُلَّ عَنْهَا رُمَّةٌ وَهْيَ رُسَّفُ[3]

من قصيدةٍ طويلةٍ أَغارَ علىٰ كثيرٍ مِن مَعانيها مروانُ بنُ أَبي حفصةَ إِذْ يقولُ [في « ديوانه » ١٦ـ١٧ مِنَ الطَّويلِ] :

إِلَىٰ وَاحِدِ ٱلدُّنْيَا تَخطَّتْ رِكَابُنَا تنَائِفَ فِيْمَا بَيْنَهَا ٱلرِّيْحُ تَلْغَبُ[4]
كَأَنَّ دَلِيْلَ ٱلْقَوْمِ بيْنَ سُهُوْبِهَا طَرِيْدُ دَمٍ مِنْ خَشْيَةِ ٱلْمَوْتِ يَهْرُبُ
بَدَأْنَا عَلَيْهَا وَهْيَ ذَاتُ عَجَارِفٍ تَقَاذَفُ كِبْراً فِيْ ٱلْبُرَىٰ حِيْنَ تُجْذَبُ[5]
فَمَا بَلَغَتْ صَنْعَاءَ حَتَّىٰ تَبَدَّلَتْ حُلُوْماً وَقَدْ كَانَتْ مِنَ ٱلجَهْلِ تَشْغَبُ
إِلَىٰ بَابِ مَعْنٍ يَنْتَهِيْ كُلُّ رَاغِبٍ يُرَجِّيْ ٱلنَّدَىٰ أَوْ خَائِفٍ يَتَرَقَّبُ
جَرَىٰ سَابِقاً مَعْنُ بْنُ زَائِدَةَ ٱلَّذِيْ بِهِ يَفْخَرُ ٱلْحَيَّانِ بَكْرٌ وَتَغْلِبُ
مُحَالِفُ صَوْلاتٍ تُمِيْتُ وَنَائِلٍ يَرِيْشُ فَمَا يَنْفَكُّ يُرْجَىٰ وَيُرْهَبُ[6]

وإِنَّما ٱستوفيتُها لعذوبتِها وإِنْ خرجَ بعضُها عنِ الموضوعِ ،

---

(١) ذُراها : أَعالي أَسنمَتِها . المناسمُ ـ جمعُ منسِمٍ ـ : وهوَ خفُّ البعيرِ . رُعَّفٌ : ترعفُ دماً .
(٢) البَخَصُ : لحمُ الخفِّ . الدأْيُ : فقارُ الظهرِ . مُجلَّفٌ : مُقشَّرٌ .
(٣) الرُّمةُ : القطعةُ من الحَبْلِ . رُسَّفٌ : مشيةُ المقيَّدِ .
(٤) تَلْغَبُ : تتعبُ .
(٥) العجارفُ ـ جمعُ عجرَفةٍ ـ : وهي السرعةُ في المشيِ . البُرى ـ جمعُ بَرَّيَةٍ ـ : وهيَ الصحراءُ .
(٦) رَاشَ : أَعطى .

وقولُه : ـ (كَأَنَّ دَلِيْلَ ٱلْقَوْمِ) إِلىٰ آخرِ البيتِ ـ يناسبُ بيتَ الناظمِ الذي قبلَ هٰذا .

وقالَ لبيدٌ [في « ديوانهِ » ٧٦ مِنَ الوافرِ] :

عُـذَافِـرَةٌ تَقَمَّـصُ بِـالـرُّدَافِـيْ   تَخَوَّنَهَا نُزُوْلِيْ وَٱرْتِحَالِيْ(١)

وقالَ المؤَمَّلُ بنُ أُمَيْلٍ [في « البيان والتبيين » ١/ ٤٣٢ مِنَ الكاملِ] :

كَانَتْ تُقَيَّدُ حِيْنَ تَنْزِلُ مَنْزِلاً   فَٱلْيَوْمَ صَارَ لَهَا ٱلكَلاَلُ قُيُوْدَا

وَٱلْقَوْمُ كَالْعِيْدَانِ يَفْضُلُ بَعْضُهُمْ   بَعْضاً كَذَاكَ يَفُوْقُ عُوْدٌ عُوْدَا

وقالَ الأَخطلُ [في « ديوانهِ » ٢٦٧ مِنَ الطَّويلِ] :

فَمَا زَالَ عَنْهَا ٱلسَّيْرُ حَتَّىٰ تَوَاضَعَتْ   عَـرَائِكُهَـا مِمَّـا تَحُـلُّ وَتُـرْحَـلُ(٢)

وقالَ جريرٌ [في « ديوانه » مِنَ الطَّويلِ] :

ظَلَلْنَـا بِمُسْتَـنِّ ٱلْحَـرُوْرِ كَـأَنَّنَـا   لَدَىٰ فَرَسٍ مُسْتَقْبِلِ ٱلرِّيْحِ صَائِمِ(٣)

أَغَـرُّ مِـنَ البُلْـقِ ٱلْعِتَـاقِ يَشُفُّـهُ   أَذَىٰ ٱلْبَقِّ إِلاَّ مَا ٱحْتَمَىٰ بِٱلْقَوَائِمِ(٤)

وَظَلَّـتْ قَـرَاقِيْرُ ٱلْفَلاَةِ مُنَاخَـةً   بِأَكْوَارِهَا مَعْكُوْسَةً بِٱلْخَزَائِمِ

أَنَخْـنَ لِتَغْـوِيْـرٍ وَقَـدْ وَقَـدَ ٱلْحَصَـىٰ   وَذَابَ لُعَابُ ٱلشَّمْسِ فَوْقَ ٱلْجَمَاجِمِ

---

(١) **العُذافِرَةُ** : الضخمةُ القويَّةُ . **تَقَمَّصُ** : تنزو بهِ . **الرُّدافي** : راكبها الذي يرتدفُ خلفَ الراكبِ ، وإنَّما ذلكَ مِن نشاطها ومَرَحِها . **تخوَّنَها** : تنقَّصَها وذهبَ بلحمِها .

(٢) **عرائِكُها ـ جمعُ عريكةٍ ـ** : وهوَ السنامُ .

(٣) **مستنُّ الحرورِ** : مشتدُّ حرِّها . **صائمٌ** : أي قائمٌ على قوائمهِ الأربعِ من غير أن يطعَمَ شيئاً .

(٤) **البَلَقُ** : السوادُ في البياضِ .

وقالَ الطَّائِيُّ [أبو تمام في « ديوانهِ » مِنَ الكاملِ] :

سَفَعَ ٱلدُّؤُوْبُ وُجُوْهَهُمْ فَكَأَنَّهُمْ وَأَبُـوْهُـمُ سَـامٌ أَبُـوْهُـمْ حَـامُ[1]

وقالَ [في « ديوانه » مِنَ الكاملِ] :

مَا ٱبْيَضَّ وَجْهُ ٱلْمَرْءِ فِيْ طَلَبِ ٱلْعُلاَ حَتَّـىٰ يُسَـوِّدَ وَجْهَـهُ فِـيْ ٱلْبِيْـدِ

وقالَ [في « ديوانه » مِنَ الطَّويلِ] :

سَلِيْ هَلْ عَمَرْتُ ٱلْقَفْرَ وَهْوَ سَبَاسِبٌ وَغَادَرْتُ رَبْعِيْ مِنْ رِكَابِيْ سَبَاسِبَا[2]
وَغَرَّبْتُ حَتَّىٰ لَمْ أَجِدْ ذِكْرَ مَشْرِقٍ وَشَرَّقْتُ حَتَّىٰ قَدْ نَسِيْتُ ٱلْمَغَارِبَا

فأَغارَ عليهِ الناظمُ في قولِهِ [في « العُكبَريِّ » ١/١٨٧ مِنَ الطَّويلِ] :

فَشَرَّقَ حَتَّىٰ لَيْسَ لِلشَّرْقِ مَشْرِقٌ وَغَرَّبَ حَتَّىٰ لَيْسَ لِلْغَرْبِ مَغْرِبُ

وقالَ الأَخطلُ يمدحُ بِشْرَ بنَ مروانَ [في « ديوانهِ » ٢٢٣ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمُسْتَقْبِلٍ لَفْحَ ٱلْحَرُوْرِ بِحَاجَةٍ إِلَيْكُمْ أَبَا مَرْوَانَ شُدَّتْ رَوَاحِلُهْ

الشجاع لا يثني عزمه عن الخروج النساء الجميلات

وقالَ الحُطَيئَةُ فيما لا يخرجُ عنهُ يمدحُ سعيدَ بنَ العاصِ [في « ديوانه » ٨٣ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذا هَمَّ بِٱلأَعْدَاءِ لَمْ يُثْنِ عَزْمَهُ كَعَابٌ عَلَيْهَا لُؤْلُؤٌ وَشُنُوْفُ[3]

---

(١) سفعت الشمسُ وجهَهُ : لفحتْهُ لفحاً شديداً وَغيَّرتْ لونَ بشرتِهِ وسوَّدتهُ الدؤوبُ : المبالغةُ في السيرِ . سامٌ وحامٌ : ابنا سيِّدِنا نوح عليه السلام ، اللذانِ تفرَّعَ مِن نسلِهما البشرُ ، فتفرَّعَ مِنَ حامِ العرقُ الأَسودُ ، ومِن سامِ العرقُ الأَبيضُ .

(٢) السَّبسَبُ : القفرُ والمفازةُ .

(٣) الكَعَاب ـ جمع كاعبٍ ـ : وهيَ التي بدا نهدُها . الشنوف ـ جمع شَنْفٍ ـ : وهو القُرْطُ .

حَصَانٌ لَهَا فِيْ ٱلْبَيْتِ زِيٌّ وَبَهْجَةٌ وَمَشْيٌ كَمَا تَمْشِيْ ٱلْقَطَاةُ قُطُوْفُ[1]

وَلَوْ شَاءَ وَارَىٰ ٱلشَّمْسَ مِنْ دُوْنِ وَجْهِهِ حِجَـابٌ وَمَطْـوِيُّ ٱلسَّـرَاةِ مَنِيْـفُ[2]

مناشدة عاتكة بنت يزيد لعبد الملك بن مروان فـي عـدم الخـروج لمصعب بن الزبير

ولمَّا ٱعتزمَ عبدُ الملكِ بنُ مروانَ لقتالِ مصعبِ بنِ الزبيرِ.. ناشدتْهُ عاتِكَةُ بنتُ يزيدَ بنِ معاويةَ ـ وكانَتْ زوجَه ـ أَنْ لا يخرجَ بنفسِهِ، وأَمسَكَتْ بثوبِهِ فلمْ يُجِبْ، فبكَتْ عندَ ذلكَ، وبكَتْ حشَمُها وخدمُها لبكائِها، فقالَ: قاتلَ اللهُ ٱبنَ أَبي جمعةَ، فلكأَنَّما نظرَ إِلينا في قولِهِ [مِنَ الطَّويلِ]:

إِذا مَا أَرَادَ ٱلْغَزْوَ لَمْ تَثْنِ هَمَّهُ حَصَانٌ عَلَيْهَا عِقْدُ دُرٍّ يَزِيْنُهَا[3]

نَهَتْهُ فَلَمَّا لَمْ تَرَ ٱلنَّهْيَ عَاقَهُ بَكَتْ فَبَكَىٰ مِمَّا شَجَاهَا قَطِيْنُهَا

غيرَ أَنَّه يؤخذُ عليهِ ما أُخذَ علىٰ قيسِ بنِ الخَطيمِ في قولِهِ [في «ديوانهِ» ٧٠ مِنَ الطَّويلِ]:

وَجِيْدٍ كَجِيْدِ ٱلرِّئْمِ صَافٍ يَزِيْنُهُ تَوَقُّدُ يَاقُوْتٍ وَفَضْلُ زُمُرُّدِ[4]

كَأَنَّ ٱلثُّرَيَّا فَوْقَ ثُغْرَةِ نَحْرِهَا تَـوَقَّـدُ فِـيْ ٱلظَّلْمَـاءِ أَيَّ تَـوَقُّـدِ

مَن يُزَيِّنُ مَن؟!

وإِنَّما الأَليقُ بالمقامِ ما كانَ من نوعِ ما تمثَّلَ بِهِ خالدُ بنُ عبدِ اللهِ العنبريُّ لعمرَ بنِ عبدِ العزيزِ لمَّا وَلِيَ الخلافةَ، وهوَ قولُ الشاعرِ [في «البيان والتبيين» ١/ ١١٢ مِنَ ٱلخفيفِ]:

وَإِذَا ٱلـدُّرُّ زَانَ حُسْـنَ وُجُـوْهٍ كَانَ لِلْدُّرِّ حُسْنُ وَجْهِكَ زِيْنَا

---

(١) الحصانُ: الشريفةُ العفيفةُ. القُطوفُ: البُطء في المشي.
(٢) مطويُّ السَّراةِ: مدمَّجُ الأَعلىٰ.
(٣) القصة في «طبقات فحول الشعراء» (٢/ ٥٤٣).
(٤) الرئْمُ: ظبيٌ خالصُ البياضِ.

وقد يُتأَوَّلُ لهما بأَنَّ الحليَّ كما يزدانُ بالجمالِ ، كذلكَ يزينهُ ، وقد قالَ ٱبنُ الروميِّ [في « ديوانهِ » ٢/ ٧٨٢ مِنَ الخفيفِ] :

أَنْتِ زِنْتِ ٱلْقَلَائِدَ ٱلزُّهْرَ قِدْمًا ضِعْفَ مَا زَانَتِ ٱلْقَلَائِدُ جِيْدَكْ

وبهِ ينتفي المقالُ ، وينحلُّ الإشكالُ .

الرباب بنت مصعب بن الزبير تفضح اللؤلؤ بجمالها

ويُذكرُ [في « المنتظم »(حتى سنة ٢٥٧) ٧/ ١٧٦] : أَنَّ سكينةَ ٱبنةَ الحسينِ كانتْ لَها ٱبنةٌ مِنْ مصعبِ بنِ الزبير ، قد سمَّتْها علىٰ ٱسمِ أُمِّها بالرَّبابِ ، وكانَتْ تلبسُها اللؤلُؤَ وتقولُ : إِنَّما أُلبسُها إِيَّاهُ لتفضَحَه بجمالِهَا .

من الثناء بالضرب في الأرض: إيلاف قريش

ويدخلُ في الثناءِ بالضربِ في الأَرضِ إِيلافُ قريشٍ ، فقد أَهلكَ اللهُ أَصحابَ الفيلِ ؛ لينتظمَ لقريشٍ إِيلافُهم رحلةَ الشتاءِ والصيفِ ، وليزيدَ ٱحترامُهم وتهيُّبُهم في نفوسِ العرب ، فيمتارونَ في رِحْلَتيهِم آمنينَ مطمئِنِّينَ ، بينَما غيرُهم يُتخَطَّفونَ ، ويُغارُ عَليهم وهم آمنون ، ولا سيَّما بعدَ مَهلِكِ أَصحابِ الفيلِ ، وفي هٰذهِ السورةِ مِنَ الشَّرفِ لآلِ عبدِ مَنَافٍ ما ينحدرُ عنهُ السيلُ ، ولا يرتقي إِليهِ الطيرُ ؛ وذلكَ أَنَّهم هُمُ الذين أَخذوا العَصْمَ مِنَ الملوكِ لِتَسهيلِ السبيلِ ، فالإِيلافُ إِيلافُهم علىٰ الخصوصِ ، لا إِيلافُ قريشٍ إِلاَّ بطريقِ التبعيَّةِ ، ولكنَّ اللهَ جلَّ شأنُهُ شرَّفَ قدرَهم فجعلَهُم الكلَّ ، وسائِرُ قريشٍ ضمائِمُ إِليهم ، علىٰ حدِّ قولِهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « ٱلحَجُّ عَرَفَةُ »(١) .

---

(١) أخرجه عن عبد الرحمن بن يعمر الديلي أبو داوود (١٩٤٩) ، والترمذي (٨٨٩) ، والنسائي (٣٠٤٤) ، وابن ماجه (٣٠١٥) ، والحاكم في « المستدرك » (١/ ٦٣٥) ، وابن خزيمة في « صحيحه » (٤/ ٢٥٧) ، =

وبيتُ الناظمِ الذي نخوضُ فيهِ ناظرٌ إلىٰ قولِ حُميدٍ [مِنَ البسيطِ] :

تَيْهَاءُ لا يَتَخَطَّاهَا ٱلدَّلِيْلُ بِهَا ... إلاَّ وَنَـاظِـرُهُ بِـٱلنَّجْـمِ مَعْقُـوْدُ

المتنبي وكثرة مدحه في الضرب في الأرض

وما أكثرَ ما يذكرُ الناظمُ الرحلةَ والتجوُّلَ في البلادِ ، ويمدحُ بهِ ، فلا نقدرُ أَنْ نحصيَ ما له في ذلكَ ، ولٰكنْ نذكرُ بعضَهُ ، فمنهُ قولُهُ يمدحُ سيفَ الدولةِ [في « العُكبَريّ » ٣/ ٣٤٤ مِنَ الخفيفِ] :

كُـلَّ يَـوْمٍ لَـكَ ٱحْتِمَـالٌ جَـدِيْـدٌ ... وَمَسِيْـرٌ لِلْمَجْـدِ فِيْـهِ مُقَـامُ

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٤/ ١٠٧ مِنَ الطَّويلِ] :

يَقُوْلُوْنَ لِيْ: مَا أَنْتَ؟ فِيْ كُلِّ بَلْدَةٍ ... وَمَا تَبْتَغِيْ؟ مَا أَبْتَغِيْ جَلَّ أَنْ يُسْمَىٰ

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٤/ ١٩٧ مِنَ الكاملِ] :

وَقَطَعْتُ فِيْ ٱلدُّنْيَا ٱلْفَلاَ وَرَكَائِبِيْ ... فِيْهَا وَوَقْتَيَّ ٱلضُّحَىٰ وَٱلْمَوْهِنَا(1)

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٢/ ١٤٢ مِنَ الوافرِ] :

أُعَرِّضُ لِلرِّمَاحِ ٱلصُّمِّ نَحْرِيْ ... وَأَنْصِـبُ حُـرَّ وَجْهِـيْ لِلْهَجِيْـرِ
وَأَسْرِيْ فِيْ ظَلاَمِ ٱللَّيْلِ وَحْدِيْ ... كَـأَنِّـيْ مِنْـهُ فِـيْ قَمَـرٍ مُنِيْـرِ

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٣/ ١٥١ مِنَ الخفيفِ] :

صَحِبَتْنِـيْ عَلَـىٰ ٱلْفَـلاَةِ فَتَـاةٌ ... عَادَةُ ٱللَّوْنِ عِنْدَهَا ٱلتَّبْدِيْلُ(2)

= والبيهقي (٥/ ١٥٢) بألفاظ متقاربة قال النواوي في « المجموع » (٨/ ٩٩) : صحيح .

(١) الموهِنُ : آخرُ الليلِ .

(٢) الفتاةُ : الشمسُ ، وجعلَها فتاة ؛ لأنَّ الزمانَ لا يؤثِّرُ فيها .

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٣٢٦ مِنَ الطَّويلِ] :

تَـوَهَّـمَـهُ ٱلأَعْـدَاءُ سَـوْرَةَ مُتْـرَفٍ تُذَكِّرُهُ ٱلْبَيْدَاءُ ظِلَّ ٱلسُّرَادِقِ(١)

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ١/ ١٥١ مِنَ الطَّويلِ] :

بِـأَيِّ بِـلاَدٍ لَـمْ أَجُـرَّ ذَوَائِبِـيْ وَأَيُّ مَكَـانٍ لَـمْ تَطَـأْهُ رَكَـائِبِـيْ
إِلَيَّ لَعَمْرِيْ قَصْدُ كُلِّ عَجِيْبَةٍ كَأَنِّيْ عَجِيْبٌ فِيْ عُيُوْنِ ٱلْعَجَائِبِ

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ١/ ١٩٢ و ٢٠٠ مِنَ الطَّويلِ] :

وَغَيْـرُ فُـؤَادِيْ لِلْغَـوَانِـيْ رَمِيَّـةٌ وَغَيْرُ بَنَانِيْ لِلزُّجَاجِ رِكَابُ(٢)
وَمَا كُنْتُ لَوْلاَ أَنْتِ إِلاَّ مُهَاجِراً لَـهُ كُـلَّ يَـوْمٍ بَلْـدَةٌ وَصِحَـابُ

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٢٣ مِنَ الطَّويلِ] :

يُكَلِّفُنِيْ ٱلتَّهْجِيْرَ فِيْ كُلِّ مَهْمَهٍ عَلِيْقِيْ مَرَاعِيْهِ وَزَادِيَ رُبْدُهُ(٣)

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٤/ ٥١ـ٥٢ مِنَ الطَّويلِ] :

بَرَانِيْ ٱلسُّرَىٰ بَرْيَ ٱلْمُدَىٰ فَرَدَدْنَنِيْ أَخَفَّ عَلَىٰ ٱلْمَرْكُوْبِ مِنْ نَفَسِيْ جِرْمِيْ(٤)
وَأَبْصَـرَ مِـنْ زَرْقَـاءِ جَـوٍّ لأَنَّنِـيْ إِذَا نَظَرَتْ عَيْنَايَ شَاءَهُمَا عِلْمِيْ(٥)

---

(١) السَّورةُ : الوثبةُ . المترفُ : المتنعِّمُ . السرادقُ : ما يكونُ حولَ الفسطاطِ .

(٢) رميَّةٌ : هي الطريدَةُ التي تُرمىٰ . والمعنىٰ : أني لستُ غزلاً زِيْراً ، ولا أُحبُّ الخمرَ . فبَناني لا يركبُها الزجاجُ ؛ لأنّي لا أحملُ كأسَ الخمرِ بيدي .

(٣) الربْدُ : النعامُ التي خالط سوادَها بياضٌ . والمعنىٰ : أنَّ قلبي يكلِّفُني السيرَ في كلِّ هاجرةٍ ، وفي كلِّ فلاةٍ بعيدةٍ ، لا لفرسي عَليقٌ إلاَّ نبتُها ولا زادَ لي إلاَّ النعامُ أَصيدُها فآكلُها .

(٤) المُدى ـ جمع مديةٍ ـ : وهيَ السكينُ . جِرْمي : جسمي .

(٥) جوّ : قصبةُ اليمامةِ . زرقاءُ : آسمُ آمرأةٍ من أهلِ جوٍّ ، حديدَةُ البصرِ ، كانت تدركُ ببصرِها الشيءَ البعيدَ ، فضربت العربُ بها المثلَ .

كَأَنِّي دَحَوْتُ ٱلأَرْضَ مِنْ خُبْرَةٍ بِهَا   كَأَنِّي بَنَىٰ ٱلإِسْكَنْدَرُ ٱلسَّدَّ مِنْ عَزْمِيْ[1]

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٤/ ١٣٤ مِنَ الطَّويلِ] :

سَجِيَّـةُ نَفْـسٍ لاَ تَـزَالُ مُلِيْحَـةً   عَنِ ٱلضَّيْمِ مَرْمِيّاً بِهَا كُلُّ مَخْرِمِ[2]

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٣/ ٣٦٩ و ٣٧٢ مِنَ البسيطِ] :

صَحِبْتُ فِيْ ٱلْفَلَوَاتِ ٱلْوَحْشَ مُنْفَرِداً   حَتَّىٰ تَعَجَّبَ مِنِّيْ ٱلْقُوْرُ وَٱلأَكَمُ[3]
فَـٱلْخَيْـلُ وَٱللَّيْـلُ وَٱلْبَيْـدَاءُ تَعْـرِفُنِـيْ   وَٱلسَّيْفُ وَٱلرُّمْحُ وَٱلْقِرْطَاسُ وَٱلْقَلَمُ
أَرَىٰ ٱلنَّوَىٰ يَقْتَضِيْنِيْ كُلَّ مَرْحَلَةٍ   لاَ تَسْتَقِلُّ بِهَا ٱلْوَخَّادَةُ ٱلرُّسُمُ[4]

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٣/ ٢٢٤ـ٢٢٥ مِنَ الوافرِ] :

أَلِفْتُ تَرَحُّلِيْ وَجَعَلْتُ أَرْضِيْ   قُتُـوْدِيْ وَٱلْغُـرَيْـرِيَّ ٱلْجِـلاَلاَ[5]
فَلاَ حَاوَلْتُ فِيْ أَرْضٍ مُقَاماً   وَلاَ أَزْمَعْـتُ عَـنْ أَرْضٍ زَوَالاَ
عَلَـىٰ قَلَـقٍ كَـأَنَّ ٱلـرِّيْـحَ تَحْتِـيْ   أُوَجِّهُهَـا جَنُـوْبـاً أَوْ شَمَـالاَ

وقولُهُ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَلِـيْ كَبِـدٌ مِـنْ رأْيِ حِمَّتِهَـا ٱلنَّـوَىٰ   فَتُرْكِبُنِيْ مِنْ عَزْمِهَا ٱلْمَرْكَبَ ٱلْوَعْرَا

---

(١) دَحوتُ : بسطتُ . الإسكندرُ : هو ذو القرنينِ .
(٢) المَليحَةُ : المشفقةُ من أن تُضامَ ، والتي أصابها الخوفُ . المَخرِمُ : الطريق في الجبلِ .
(٣) القورُ ـ جمعُ قارَةٍ ـ : وهيَ الأكمَةُ .
(٤) النوى : البعدُ . الوخدُ والرَّسمُ : ضربانِ من السيرِ .
(٥) قُتودي ـ جمع قَتَدٍ ـ : وهو خشبُ الرحلِ . والغريريُّ : فحلٌ كانَ في الجاهليَّةِ تنسبُ إليهِ كرامُ الإبلِ . والجِلالُ : ما يوضعُ علىٰ الدابَّةِ . والمعنىٰ : أنا كثيرُ الأسفارِ ، ومِن شدَّةِ ما أُسافرُ فكأنَّ الأرضَ بالنسبةِ لي خشباتُ الرَّحلِ ، وكأنَّ فرسي غطاءُ ذٰلكَ الرحلِ . والله أعلم .

أَخُـو هِمَـمٍ رَحَّـالَـةٌ لاَ تَـزَالُ بِـيْ نَوَىٰ تَقْطَعُ ٱلْبَيْدَاءَ أَوْ أَقْطَعُ ٱلْعُمْرَا
وَمَنْ كَانَ عَزْمِيْ بَيْنَ جَنْبَيْهِ حَثَّهُ وَخُيِّلَ طُوْلُ الأَرْضِ فِيْ عَيْنِهِ شِبْرَا

وقولُهُ [في « العُكبَريِّ » ٤/ ١٥٥ـ١٥٦ مِنَ البسيطِ] :

حَتَّامَ نَحْنُ نُسَارِيْ ٱلنَّجْمَ فِيْ ٱلظُّلَمِ وَمَـا سُـرَاهُ عَلَـىٰ خُـفٍّ وَلاَ قَـدَمِ
تُسَوِّدُ ٱلشَّمْسُ مِنَّا بِيْضَ أَوْجُهِنَا وَلاَ تُسَوِّدُ بِيْضَ ٱلْعُذْرِ وَٱللِّمَمِ(١)
طَرَدْتُ مِنْ مِصْرَ أَيْدِيْهَا بِأَرْجُلِهَا حَتَّىٰ مَرَقْنَ بِنَا مِنْ جَوْشَ وَٱلْعَلَمِ(٢)
تُبْـرِيْ لَهُـنَّ نَعَـامُ ٱلـدَّوِّ مُسْـرَجَـةً يُعارِضُ ٱلْجُدُلَ ٱلْمُرْخَاةَ بِٱللُّجُمِ(٣)

المفاضلة بين بيت للمتنبي وبيت للطغرائي

وقد سُئِلتُ مرَّةً عَنِ البيتِ الأخيرِ ، وعَنْ قولِ الطغرائِيِّ [وهو من قصيدته المعروفة بلامية العجم ، في « وفيات الأعيان » ٢/ ١٨٧ مِنَ البسيطِ] :

فَأَدْرأْ بِهَا فِيْ نُحُوْرِ ٱلْبِيْدِ جَافِلَةً مُعَارِضَاتٍ مَثَانِيْ ٱللُّجْمِ بِٱلْجُدُلِ

وقيلَ لي : أَيُّهما أَفضلُ ؟ فقلتُ : شَبَّه الناظمُ خيلَه بنعامِ الدَّوِّ ، وزعمَ أَنَّها أنبرَت تعارضُ أَزِمَّةَ الإِبلِ بأَعِنَّتِها ، و(الجُدُلُ) في البيتينِ جمعُ (جَدِيلٍ) وهو الزِّمامُ .

والطغرائيُّ جعلَ الإِبلَ معارضةً وجرَّدَ من نفسِهِ شخصاً قالَ لَه : ٱدْرأْ بها ـ يعني العيسَ المعلومةَ مِنَ المقامِ ، بقطعِ النظرِ عمَّا قبلَ

(١) العُذْرُ ـ جمع عذارٍ ـ والأصلُ عُذُرٌ وسكَّن الذالَ ضرورةً . واللمَمُ ـ جمع لِمَّةٍ ـ : وهيَ الشَّعرُ الذي يلمُّ بالمنكبِ .
(٢) جوشُ والعلَمُ : موضعانِ ، وهما جبلانِ . ومرقنَ : شبَّهها بالسهم ؛ لسرعةِ سيرها فاستعارَ لها المروقَ .
(٣) تُبْرِي : تعارضُ . الدَّوُّ : الفلاةُ المستويَةُ . وأراد بنعامِ الدوِّ الخيلَ ، شبَّهها بالنعامِ لسرعتها وطولِ أَعناقِها .

البيتِ فإنِّي لا أذكرُهُ[1] ـ وهيَ جافلةٌ في نحورِ البيدِ ، ودَعْها تعارضُ بأَزِمَّتِها مَثانِيَ لُجُمِ الخيلِ فَهما سواءٌ في أَصلِ المعنىٰ .

وكلٌّ مِنَ الخيلِ والإبلِ يصلُحُ لأَن يكونَ الأَصلَ في وصفِ السيرِ بالسرعةِ والجدِّ ؛ لأَنَّ الخيلَ معروفةٌ بشدَّةِ عَدوها ، والإبلَ معروفةٌ بأَنَّها أَصبرُ مِنها علىٰ قطعِ المسافاتِ البعيدةِ ، فكلَّما أَردتُ أَنْ أَخُصَّ كلامَ أَحدِهِما بنوعٍ مِنَ القلبِ ، والخروجِ عَنْ مقتضىٰ الظاهرِ . . رَدَّني الآخَرُ إِليهِ ، غيرَ أَنَّ في بيتِ الناظمِ علىٰ التشبيهِ البليغِ للخيلِ بالنعامِ ثلاثةُ أَشياءَ :

أَحدُها : أَنَّ المباراةَ والمعارضَةَ شيءٌ واحدٌ .

ثانيها : أَنَّ لفظةَ (المرخاةِ) لا تَخلو عَنِ الرخاوةِ .

ثالثها : أَنَّ البيتَ متعلِّقٌ بما قبلَه غيرُ مستقلٍّ بنفسِهِ ، ولفظةُ (لَهُنَّ) فيه لا تُعرفُ مِنَ المَقامِ ، فلَيستْ مثلَ لفظةِ (بِها) في بيتِ الطُّغرائيِّ ، كما قرَّرناه .

ويمتازُ بيتُ الطُّغرائيِّ بأُمورٍ :

أَحدُها : قيامُه بذاتِه .

ثانيها : التجريدُ وهُوَ حَسَنٌ .

---

(١) والأبياتُ التي قبله ، كما في « وفياتِ الأعيانِ » (٢/ ١٨٧) :

حُبُّ ٱلسَّلاَمَةِ يَثْنِي هَمَّ صَاحِبِهِ ... عَنِ ٱلْمَعَالِي وَيُغْرِي ٱلْمَرْءَ بِٱلْكَسَلِ
فَإِنْ جَنَحْتَ إِلَيْهِ فَٱتَّخِذْ نَفَقاً ... فِي ٱلأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي ٱلْجَوِّ وَٱعْتَزِلِ
وَدَعْ غِمَارَ ٱلْعُلاَ لِلْمُقْدِمِينَ عَلَىٰ ... رُكُوبِهَا وَٱقْتَنِعْ مِنْهُنَّ بِٱلْبَلَلِ
رِضَىٰ ٱلذَّلِيلِ بِخَفْضِ ٱلْعَيْشِ مَسْكَنَةٌ ... وَٱلْعِزُّ تَحْتَ رَسِيمِ ٱلأَيْنُقِ ٱلذُّلُلِ

وإنما ذكرناها لعذوبتها والفائدة التي فيها .

ثالثُها : (نُحورُ البيدِ) فإنَّه بديع .

رابعُها : (المثاني) فإنَّها من فرائِدِ الأَلفاظِ .

خامِسُها : ما يحتملُ مِنَ الاستعارةِ البليغةِ في لفظةِ (أدْرَأ) ؛ إذ لا مانعَ أَنْ يستعارَ فيها مَسيلُ الأَرضِ البعيدةِ للعيسِ المتراميةِ في المرامي السحيقةِ ، وعلىٰ كُلِّ حالٍ . . فكِلا البيتينِ تركيبُهُ جَزْلٌ ، ومعناهُ ضخمٌ ، غيرَ أَنَّ بيتَ الطُّغرائيِّ أَبلغُ وأَفْخَمُ وأَملأُ للفمِ ، وللناظمِ فضيلةُ السبق ، واللهُ أَعلمُ .

وأَمَّا قولُهُ : (تُسَوِّدُ الشمسُ منَّا بيضَ أَوجُهِنا . . . إلىٰ آخرِهِ) فقدْ عَكَسَ فيهِ بعضَ قولِ أَبي عبادةَ [في « ديوانه » ٣/ ١٧٥٩ مِنَ البسيطِ] :

رَدَّ ٱلْهَجِيْرُ لِحَاهُمْ بَعْدَ شُعْلَتِهَا سُوْداً فَعَادُوْا شَبَاباً بَعْدَ مَا ٱكْتَهَلُوْا

أفضل مراكب العرب الإبل وسبب ذلك

وعلىٰ ذكرِ الإبلِ نقولُ : إنَّها أَفضلُ مراكبِ العرب ، وإنَّما ٱختاروها لِكثرتِها ، وصبرِها علىٰ التعبِ والعطشِ ، ومنهُ قولُهُ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم « مَعَهَا سِقَاؤُهَا »[١] ، ولِهدايتِها إلىٰ الطريقِ ، ولأَن عُنُقَها سُلَّمٌ إليها ، ولِكمالِ ٱنقيادِها ، وحسنِ تسخيرِها ، حتَّىٰ إنَّ الصبيَّ الصغيرَ يأْخذُ بزمامِها ، فيذهبُ بِها حيثُ شاءَ فتتبعُهُ ، قالَ الحطيئةُ [في « ديوانه » ٦٠ مِنَ الطَّويلِ] :

وَتَشْرَبُ بِٱلْقَعْبِ ٱلصَّغِيْرِ وإنْ تُقَدْ بِمِشْفَرِهَا يَوْماً إِلىٰ ٱلرَّحْلِ تَنْقَدِ[٢]

وصف ابنة الخُس للإبل

قالتِ ٱبنةُ الخُسِّ [في « المستطرف » ٢/ ٢١٤] : ما خلقَ اللهُ خيراً مِنَ

---

(١) أخرجه عن زيد بن خالد الجهني البخاري (٩١) في العلم ، ومسلم (١٧٢٢) ، وأبو داوود (١٧٠٤) في اللقطة .

(٢) القَعْبُ : القدَح . المشفرُ : شفةُ البعير الغليظة .

الإبـلِ ، إنْ حملَـتْ أثقلَـتْ ، وإنْ سـارَتْ أبعـدَتْ ، وإنْ حُلِبَـتْ أَروَتْ ، وإنْ نُحِرَتْ أَشْبَعَتْ .

من عجائب الإبل

ومِنْ عجائِبِها : التأثُّرُ بالحُدَاءِ ، إلىٰ حدٍّ أنَّها تُهلِكُ نفسَها بطيِّ المهَامِهِ الشاسعَةِ ، في المدَّةِ القريبةِ ، بالأحمالِ الثقيلَةِ .

عجيبـة أخـرى فـي هدايتها الطريق

ومِنْ هدايتِها : ما حكاهُ الإمامُ الرازيُّ قالَ [في « تفسيره » ٣١/١٥٧] :

كنتُ معَ جماعةٍ فضلَلْنَا الطريقَ ، فقدَّموا جملاً وتبعوهُ ، فكانَ ذلكَ الجملُ ينعطفُ مِنْ تلٍّ إلىٰ تلٍّ ، ومِنْ جانبٍ إلىٰ جانبٍ ، حتَّىٰ وصلَ بنا إلىٰ الطريقِ بعدَ زمانٍ طويلٍ ، وقد كِدْنا نَهلكُ لولاهُ ، فتعجَّبنا مِن قوَّةِ تخيُّلِهِ وٱنحفاظِ الطريقِ لهُ مِنْ مَرَّةٍ ، بما فيها مِنَ المعاطفِ .

ذكرها في القرآن الكريم وعند العرب

ومِنْ أَوبارِها تُتَّخَذُ الأَكسيةُ الفاخرةُ ، وحسبُكَ ما أَشارَ إليهِ اللهُ مِنْ عجائِبِها في مثلِ قولِهِ : ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۞ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۞ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۞ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ [الغاشية : ١٧ـ٢٠] ولولا كثرةُ عجائِبِها . لَمَا قرنَها اللهُ جلَّ شأنُهُ بهٰذهِ المخلوقاتِ العظيمةِ ، فوَجهُ التناسبِ بينَ هٰذهِ المعْطوفاتِ . . كثرةُ الآياتِ ، إلىٰ ما للعَربِ بها مِن دوامِ الملابساتِ ؛ إذِ العربيُّ لا يزالُ في سَفرٍ ، أَوِ ٱنتجاعِ مطرٍ ، وحينَئِذٍ لا يَرىٰ إلاَّ جَملَهُ ، والسماءَ مِنْ فوقِهِ ، والأَرضَ مِن تحتِهِ ، والجبالَ حوالَيْهِ ، وفي كلٍّ مِنْهَا الآياتُ الواضحةُ ، والبراهينُ الراجحَةُ ، وكَم للعربِ فيها من أَشعارٍ .

وحسبُكَ أَنَّ كعبَ بنَ زهيرٍ ٱستغْرَقَ طائفةً من قصيدَتِهِ ـ التي أدركَ بها خيرَ الدارينِ ـ في وَصفِ ناقتِهِ ، فلا أَحبَّ إليهم مِنْها ، ولذا كانَتْ أَذْكَرَ مِنَ الخيلِ في أَخبارِهِم ـ معَ كثرةِ الخيلِ لَديهِم أَيضاً ، وٱعتنائِهِم

بها ومعرفَتِهم بأحوالِهَا ـ وقد أُفردَ جميعُ ذلكَ بالتأليفِ ، وسبقَ في غيرِ هٰذا المجلسِ تناقضُ الناظمِ ، وٱدَّعاؤُهُ الفروسيَّةَ بكثرةٍ ، وٱعترافُهُ بالرجلةِ ذات المرَّاتِ ، وبالبيتِ الذي نتكلَّمُ فيهِ ذكرتُ قولَ البوصيريِّ [مِنَ الخفيفِ] :

يَتَّقِي حَرُّ وَجْهِيَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْبَرْ ... دَ وَقَدْ عَزَّ مِنْ لَظَىٰ الِاتِّقَاءُ

تعرض النبي ﷺ للشمس يوم عرفة

وأَنَّهُ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : تعرَّضَ للشمسِ بـ(عرفةَ) ، عامَ حجةِ الوداعِ ، ولم يثبُت أَنَّه ٱستظلَّ بِها معَ شدَّةِ الحرِّ ، وطولِ الوقْتِ .

وقد حجَّ بعضُهم فأَرادَ أَنْ يتعرَّضَ للشمسِ ـ علىٰ ضعفِهِ وكِبَرِ سِنِّهِ ـ فقالَ لهُ أَصحابُهُ : لو أَخذتَ بالتَّوسِعَةِ . . فقالَ [مِنَ الطَّويلِ] :

ضَحَيْتُ لَهُ كَيْ أَسْتَظِلَّ بِظِلِّهِ ... إِذَا الظِّلُّ أَضْحَىٰ فِيْ ٱلقِيَامَةِ قَالِصَا[1]

فَوَا أَسَفَا إِنْ كَانَ سَعْيُكَ بَاطِلاً ... وَوَاحَسْرَتَا إِنْ كَانَ حَجُّكَ نَاقِصَا

* * *

(١) ضحىٰ : خرجَ للشمسِ وبرزَ لها . قلَصَ الظِّلُّ : ٱنقبضَ ونقصَ .

[قالَ أَبو الطَّيب المتنبي في « العُكبريّ » ٣/ ١٧١ مِنَ البسيطِ] :

أَنْكَحْتُ صُمَّ حَصَاهَا خُفَّ يَعْمَلَةٍ   تَغَشْمَرَتْ بِيْ إِلَيْكَ ٱلسَّهْلَ وَٱلْجَبَلاَ

شرح المطلع

(أَنْكَحْتُ) كنايةٌ عَن شدَّةِ الإيطاءِ كما تنكحُ المرأَةُ . (الصُّمُّ) الصِّلاَبُ مِنْ كلِّ شيءٍ ، والضميرُ في (حَصَاهَا) عائدٌ إِلىٰ المفازةِ . (تَغَشْمَرَتْ) تعسَّفَتْ ، يقولُ : أَوْطَأْتُ خُفَّ يَعْمُلَتِي ـ أَيْ : ناقَتي القويَّةِ ـ حَصا تلكَ المفازةِ ، وتقحَّمَتْ بي ناقَتي إِليكَ الحَزنَ والسهْلَ .

من عادة العرب ذكر ما يلاقون في أسفارهم لممدوحيهم

ومِنْ عادةِ العربِ أَنْ يَذْكروا في أَشعارِهم ما يلاقونَ من وعثاءِ السفرِ ، ونَكَدِ الطريقِ ، ليجبَ حقُّهُم علىٰ الممدوحينَ وتعظمَ منَّتُهم عليهِم ، فقد أَخرجَ ٱبنُ سعدٍ [في « طبقاته » ١/ ٣٥٠] : عَنْ هشامِ بنِ محمَّدٍ عَن عمروِ بنِ مهاجرِ الكنديِّ قالَ : قدمَ من (حضرموتَ) علىٰ النبيِّ ـ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ـ كُلَيْبُ بنُ أَسَدٍ فقالَ حينَ لاقاهُ [مِنَ البسيطِ] :

مِنْ وَشْزِ بَرَهُوْتَ تَهْوِيْ بِيْ عُذَافِرَةٌ   إِلَيْكَ يَا خَيْرَ مَنْ يَحْفَىٰ وَيَنْتَعِلُ(١)
شَهْرَيْنِ أَعْمَلْتُهَا نَصّاً عَلَىٰ وَجَلٍ   أَرْجُوْ بِذَاكَ ثَوَابَ ٱللهِ يَا رَجُلُ

وَقَالَ مروانُ ٱبنُ أَبي حفصةَ للمهديِّ [في « ديوانه » ٩٤ مِنَ الطَّويلِ] :

قَصَرْنَا إِلَيْكَ ٱلنِّصْفَ مِنْ صَلَوَاتِنَا   مَسِيْرَةَ شَهْرٍ بَعْدَ شَهْرٍ نُوَاصِلُهْ

(١) الوَشْزُ : ما علا وٱرتفعَ مِنَ الأَرضِ . برهوتُ : ٱسمُ بئرٍ في (حضرموتَ) . العذافِرةُ : الناقةُ العظيمةُ الشديدةُ ، الوثيقةُ الخطوِ .

ولا يُحصىٰ كَثرةً ما في كلامِهم مِن مثلِهِ ، فهوَ أَظهرُ مِن أَنْ يُستظهَرَ عليهِ بالشواهدِ والأَمثالِ ؛ لأَنَّهُ كلَّه من هـٰذا القبيلِ .

وقالَ ٱبنُ خلِّكَانَ [في « وفيات الأعيان » ٥/ ١٠٥ـ١٠٦] : وَرَدَ ٱبنُ نباتَةَ السعديُّ علىٰ ٱبنِ العميدِ في (الريِّ) ، فمدحَهُ بقصيدةٍ يقولُ فيها [مِن مجزوءِ ٱلكاملِ] :

ورود ابن نباتة على ابن العميد

بَـــرَحُ ٱشْتِيَـــاقِــيْ وَٱدِّكَـــارِ ... وَلَهِيْـــبُ أَنْفَـــاسٍ حِــرَارِ
وَمَـــدَامِـــعٌ عَبَـــرَاتُهَـــا ... تَــرْفَــضُّ عَــنْ نَــومٍ مُطَـارِ[١]
للهِ قَلْبِـــيْ مَـــا يُجِـــنُّ ... مِــنَ ٱلْهُمُــوْمِ وَمَـا يُــوَارِيْ
لَقَـــدِ ٱنْقَضَـــىٰ سُكْـــرُ ٱلشَّبَـــا ... بِ وَمَا ٱنْقَضَىٰ وَصَبُ ٱلْخُمَارِ[٢]
وَكَبِـرْتُ عَــنْ وَصْـلِ ٱلصِّغَـارِ ... وَمَــا سَلَــوْتُ عَــنِ ٱلصِّغَــارِ
سَقْيًـــا لتَغْلِيْسِـــيْ إِلَـــىٰ ... بَـابِ ٱلــرُّصَـافَـةِ وَٱبْتِكَـارِيْ
أَيَّـــامَ أَخْطِـــرُ فِـــيْ ٱلصِّبَـــا ... نَشْــوَانَ مَسْحُــوبَ ٱلإِزَارِ
حَجِّـــيْ إِلَـــىٰ حَجَـــرِ ٱلصَّـــرَا ... ةِ وَفِـيْ حَـدَائِقِهَـا ٱعْتِمَـارِيْ[٣]
وَمَـــوَاطِـــنُ اللَّـــذَّاتِ أَوْ ... طَـانِـــيْ وَدَارُ ٱللَّهْــوِ دَارِيْ

مِنْهَا :

وَإِذا ٱسْتَهَـــلَّ ٱبْـــنُ ٱلْعَمِيْــ ... ـدِ تَضَـاءَلَـتْ دِيَـمُ ٱلْقِطَـارِ[٤]

---

(١) ٱرفضَّ الدمعُ : سالَ وتتابعَ سيلانُهُ . مُطارٌ : منفيٌّ .

(٢) الوصبُ : الوجعُ والمرضُ . الخُمار : ألم الخمر وصداعها وأذاها .

(٣) الصَّراةُ : نهرٌ بـ(العراقِ) .

(٤) استهلَّ : تبيَّنَ . دِيَمٌ ـ جمعُ ديمةٍ ـ : وهيَ المطرُ الذي ليسَ فيهِ رعدٌ ولا برقٌ ، وأقلُّهُ ثُلُثُ النهارِ ، أو ثُلُثُ الليلِ . القِطارُ : المطرُ .

خَـــرِقٌ صَفَـــتْ أَخْـــلاَقُـــهُ   صَفْـوَ ٱلسَّبِيْـكِ مِـنَ ٱلنُّضَـارِ[1]
وَكَـــأَنَّ نَشْـــرَ حَـــدِيْثِـــهِ   نَشْـرَ ٱلْخُـزَامَـىٰ وَٱلْعَـرَارِ[2]

تأخر الصلة عن ابن نباتة وتبيينه لوجوب حقه على ابن العميد والسجال بينهما

فتأَخَّرتْ صلَتهُ عنهُ ، فشفعَ القصيدةَ بأُخرىٰ ، وأَتبعَها برقعَةٍ ، فلَم يزدهُ ٱبنُ العميدِ إلاَّ إهمالاً وٱطِّراحاً ، فتوسَّلَ إِلىٰ أَنْ دَخلَ عليهِ في مجلسٍ حفلَ بأَربابِ الدَّولةِ ، وأَعيانِ الديوانِ ، فوقفَ وقالَ :

إِنِّي لزمتكَ لُزومَ الظلِّ ، وذللتُ لكَ ذُلَّ النعلِ ، وأَكلتُ النوىٰ المحرَّقَ ؛ ٱنتظاراً لصلتكَ ، وما بي مِنَ الحرمانِ ، ولٰكنْ شماتَة الأَعداءِ ، وهم قومٌ نَصَحوني فأَغْشَشْتُهم ، وصَدَقوني فٱتَّهمتُهُم ، فبأَيِّ وجهٍ أَلقاهُم ؟ ولم أَحصلْ مِن مديحٍ ، بعدَ مديحٍ ، ونثرٍ بعدَ نظمٍ إلاَّ علىٰ الندَمِ المؤلمِ ، والبأْسِ المسقمِ !!

فحارَ رُشْدُ ٱبنِ العميدِ ، ولم يدرِ ما يقولُ ، ثمَّ رفعَ رأْسَهُ وقالَ : إِنَّ الوقتَ يضيقُ عنكَ في الاستزادةِ ، وعَني في الإِطالةِ المعذرةُ ، وإِذا تواهَبْنا ما دَفَعَنا إِليهِ . ٱستأْنفنا ما نتحامدُ عليهِ .

فقالَ ٱبنُ نباتَةَ : هٰذهِ نفثةُ مصدورٍ مِن زمانٍ ، وفضلةُ لسانٍ خَرِسَ منذُ دهرٍ ، والمطلُ لُؤْمٌ .

فٱستشاطَ ٱبنُ العميدِ وقالَ : واللهِ ما أَستوجبُ هٰذا العتبَ من أَحدٍ ، ولستَ وليَّ نِعمتي فأَحْتَمِلَك ، ولا صَنيعتي فأُغْفيَ عَنك ، وبعضُ ما قرَّرْتَه في مَسامِعي ينغِّصُ مرَّةَ الحليمِ ، ويبدِّدُ صبرَ الوقورِ ، هٰذا : وما ٱستقدَمتُك بكتابٍ ، ولا ٱستدعيتُك برسولٍ ، ولا سأَلتُكَ مدحي ، ولا كلَّفتكَ تقريظي .

---

(١) السبيكُ بمعنىٰ المسبوكِ ، وهوَ المصبوبُ مِنَ الذهبِ . النُّضارُ : الذهبُ .
(٢) الخُزامىٰ والعَرارُ : نبتانِ طَيِّبا الرَّائِحةِ .

فقالَ ٱبنُ نباتَةَ : صدقتَ ، ولٰكنَّكَ جلستَ في صدرِ ديوانِكَ بأُبَّهتكَ ، وقلتَ : لا ينازِعُني خَلْقٌ في السياسَةِ ، ولا يخاطِبُني أَحدٌ إلاَّ بالرئاسةِ ، فإنِّي زَعيمُ الحضرةِ ، وكاتبُ رُكْنِ الدولةِ ، فكأَنَّكَ دعوتَني بلسانِ الحالِ ، فثارَ ٱبنُ العميدِ مغضَباً ، وتقوَّضَ المجلسُ ، وماجَ الناسُ .

وخرجَ ٱبنُ نباتَةَ يقولُ : واللهِ لَسَفُّ الترابِ ، والمشيُ علىٰ الجمرِ ، أَهونُ مِن هٰذا ، فلعنَ اللهُ الأدبَ ، إذا كانَ بائِعُهُ مَهيناً ، ومُشْتَرِيهِ مُمَاكِساً ، ولَمَّا سَكَنَ غَيظُ ٱبنِ العميدِ ، وثابَ إليهِ حِلْمُهُ . . ٱلتَمَسَهُ مِنَ الغدِ ليكرِمَه ، فكأَنَّما غاصَ بينَ سمعِ الأَرضِ وبَصرِها ، فكانَتْ حَسْرةً في قلبِ ٱبنِ العميدِ ، حتَّىٰ ماتَ .

قالَ ٱبنُ خَلِّكَانَ [في « وفيات الأعيان » ٥/١٠٧] : ثمَّ وجدتُ صورةَ المجلسِ لغيرِ ٱبنِ نباتَةَ ، وكشفتُ « ديوانَهُ » فما وجدْتُ القصيدةَ ، وإنَّما وجدتُها بعدُ في كتابٍ لأَبي حيَّانَ التوحيديِّ معزوَّةً لأَبي محمَّدٍ عبدِ الرزاقِ بنِ الحسنِ ، المعروفِ بٱبنِ السبابِ البغداديِّ اللغويِّ المنطقيِّ الشاعرِ ، ووجدتُ هٰذهِ المخاطبةَ لشاعرٍ من أَهلِ الكرخِ يعرفُ بمَمْوِيه ، وإلىٰ هُنا ٱنتهىٰ كلامُ ٱبنِ خَلِّكانَ بنوعٍ مِنَ الاخْتصارِ .

قدوم بشار على خالد بن برمك

وبمناسبةِ قولِ ٱبنِ العميدِ : ما ٱستقدمتُكَ بكتابٍ . . . إلخ ذكرتُ [ما رُوي في « الأغاني » ٣/١٩٩] : أَنَّ بشَّارَ بنَ بُرْدٍ قدمَ علىٰ خالدِ بنِ برمكَ بفارسَ ، فأَنشدهُ قولَهُ [في « ديوانه » ٤٧ـ٤٩ مِنَ الطَّويلِ] :

أَخالِدُ لَم أَهْبِطْ عَلَيْكَ بِذِمَّةٍ سِوَىٰ أَنَّنِيْ عَافٍ وأَنْتَ جَوَادُ[1]

---

(١) العافي : طالبُ المعروفِ والرزقِ .

أَخَالِدُ إِنَّ ٱلأَجْرَ وَٱلْحَمْدَ حَاجَتِيْ ... فَـأَيُّهُمَـا تَـأْتِـيْ فَـأَنْـتَ عِمَـادُ

فَإِنْ تُعْطِنِيْ أُفْرِغْ عَلَيْكَ مَدَائِحِيْ ... وَإِنْ تَأْبَ لَمْ تُضْرَبْ عَلَيَّ سِدَادُ[1]

رِكَابِيْ عَلَىٰ حَرْفٍ وَقَلْبِيْ مُشَيَّعٌ ... وَمَالِيْ بِأَرْضِ ٱلْبَاخِلِيْنَ بِلاَدُ[2]

إِذا أَنْكَـرَتْنِـيْ بَلْـدَةٌ أَوْ نَكِـرْتُهَـا ... خَرَجْتُ مَعَ ٱلْبَازِيْ عَلَيَّ سَوَادُ[3]

إكرام خالد لبشار

فدعا خالدٌ بأَربعةِ آلافٍ ، في أَربعةِ أَكياسٍ : ووضعَ واحداً عَنْ يمينِهِ ، وآخرَ عن شمالِهِ ، والثالثَ بينَ يديهِ ، والرابعَ مِن خلفِهِ ، وقالَ : هلِ ٱستقلَّ العمادُ يا أَبا معاذٍ ؟ قالَ : إِي واللهِ .

ابن زريق البغدادي يقصد بعض الملوك طالباً معروفه

وذَكرَ غيرُ واحدٍ [منهم ابن السبكي في « طبقاته » ١/ ٣١١] : أَنَّ ٱبنَ زُرَيقٍ البغداديَّ الكاتبَ أَقشع[4] بهِ وطنهُ ، وحدَّثتهُ نفسهُ ، وناجتهُ آمالهُ ، فٱنتجع[5] بعضَ الملوكِ في أَرضٍ نائيةٍ ، ولمَّا وردهُ . . ٱمتدحهُ بقصيدةٍ ، فأَعطاهُ شيئاً يسيراً ؛ ليتعلَّلَ بهِ ريثما يتفرَّغُ لإِكرامهِ ومكافأَتِهِ ، فظنَّهُ آخر سهامِ الكنانةِ ، فٱنكسرتْ نفسهُ وقالَ :

خيبة أمله وموته كمداً

تكبَّدْتُ المشاقَّ ، وقطعتُ الصعابَ ، وخضتُ البحارَ ، وترامتْ بيَ القفارُ إِلىٰ هـٰذا الأَميرِ ، ثمَّ لم يعطِني إِلاَّ هـٰذا النزر الحقيرَ ، ولزمتهُ العلَّةُ حتَّىٰ ماتَ ، فٱنتبهُ الأَميرُ لشأْنِهِ ، وٱستدعاهُ فوجَدوا بابَ بيتِهِ مغلقاً مِنْ داخلٍ ، فٱقتحموهُ . . فأَلفوهُ ميْتاً وتحتَ

---

(١) السدادُ : ما يُسدُّ به فمُ القارورة .

(٢) الحرفُ : الناقة الضامرةُ . مشيَّعٌ : شجاعٌ .

(٣) البازي : الصقرُ ، وهو أبكرُ الطيورِ خروجاً . السوادُ : المقصود به سوادُ الليلِ .

(٤) القشعُ : يبوسُ الجلدِ ، والمرادُ بهِ الفاقةُ التي أَصابتهُ في وطنهِ .

(٥) ٱنتجعَ : أَتى إِنساناً يطلبُ معروفَهُ .

رأسِهِ القصيدةُ المستهلَّةُ بقولِهِ [مِنَ البسيطِ] :

لاَ تعْـذُلِيْـهِ فَـإِنَّ ٱلْعَـذْلَ يُـوْلِعُـهُ   قَدْ قُلْتِ حَقّاً وَلَـٰكِنْ لَيْسَ يَسْمَعُهُ

فتحرَّكَ لها الأَميرُ ، وٱهتزَّ ، وفاضتْ عَبرتُهُ ، وقالَ : وددتُ أَنْ لو كانَ حيّاً . . فأُشاطِرَهُ مُلكي ، ثمَّ طالعَ أَهلَهُ بحالِهِ ، وبعثَ لَهم بأَربعةِ آلافِ دينارٍ[1] .

سكينة بنت الحسين
تفاضل بين الشعراء

وقَدمَ الفرزدقُ علىٰ سُكَينةَ بنتِ الحسينِ رضوانُ اللهِ عليهِم ، فقالتْ لهُ [كما في « المنتظم (حتى سنة ٢٥٧) » ٧/١٧٦] : مَن أَشعرُ الناسِ ؟ قالَ : أَنا ، قالت : كذبتَ ، أَشعرُ مِنكَ الذي يقولُ [جرير في « ديوانه » مِنَ الوافرِ] :

بِنَفْسِـيْ مَـنْ تَجَنُّبُـهُ عَـزِيْـزٌ   عَلَـيَّ وَمَـنْ زِيَـارَتُـهُ لِمَـامُ[2]
وَمَـنْ أَمْسَـىٰ وَأَصْبَـحَ لاَ أَرَاهُ   وَيَطْـرُقُنِـيْ إِذَا هَجَـعَ ٱلنِّيَـامُ

ثمَّ عادَ مِن الغدِ ، فقالتْ : مَن أَشعرُ الناس ؟ قالَ : أَنا ، قالتْ : كذبتَ ، أَشعرُ منكَ الذي يقولُ [الأحوص في « وفيات الأعيان » ٢/٢٩٧ مِنَ الكاملِ] :

يَـا دَارَ عَـاتِكَـةَ ٱلَّتِـي أَتعَـزَّلُ   حَذَرَ ٱلْعِدَا وَبِهِ ٱلْفُؤَادُ مُوَكَّلُ

فقالَ : يا ٱبنةَ رسولِ اللهِ . . إِنَّ لي حقّاً بإِقبالي عليكِ مِن (مكَّةَ) ، فلمْ تسمعي شِعْري ، ولمْ تزيدِيني علىٰ التكذيبِ ، معَ أَنّي لأَخافُ لما أَصابني أَن أَموتَ ، فإِذا مِتُّ . . فَحاجتي إِليكِ . .

---

(١) ولكن في « الطبقات » خمسة آلاف .

(٢) لِمامٌ : أي في الأحايينِ .

تُكَفِّنِيني في هـٰذهِ الثيابِ ـ وأَشارَ إِلىٰ جاريةٍ لَها[1] ـ فقالت : هيَ لكَ ، وضمَّتْ إِليها كسوةً وجائِزةً .

وموضعُ الشاهدِ مِنْ هـٰذا . . قولُهُ : إِنَّ لي حقّاً عليكِ إِلىٰ آخرهِ ، وصدقَ في ذلكَ ، فإِنَّ مَن علَّقَ رجَاءَهُ بإِنسانٍ ، وقطعَ إِليهِ السهوبَ ، واجتازَ المهالِكَ يختبطُ الدُّجىٰ ، ويعتلجُ صدرَهُ اليأسُ والرجاءُ . . لجديرٌ أن تعجَّلَ أَوبتُهُ ، وتُجْزَلَ مثوبتُهُ .

قبول النبي ﷺ الشعر والأئمة الأعلام

ومِنْ هديهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم : قَبولُ الشِّعرِ ، وإِجزالُ الثوابِ عليهِ ، وحديثُهُ معَ كعبٍ مشهورٌ ، فلقد حقنَ دمهُ ، وكساهُ بردتَهُ ، وأَكرمَهُ ـ كما في روايةٍ ـ بمئةٍ مِن الإِبلِ ، واقتفاهُ الخلفاءُ ، والأُمراءُ ، وآلُ البيتِ ، وغيرهُم مِنَ الناسِ .

الفاروق يمنع الحطيئة من قول الشعر

غيرَ أَنَّ ابنَ الخطَّابِ منعَ الهجاءَ ، فاضطرَّ الحُطيئةُ أَنْ يقولَ [مِنَ الكاملِ] :

يَا أَيُّهَا ٱلْمَلِكُ ٱلَّذِيْ أَمْسَتْ لَهُ ... بُصْرَىٰ وَغَزَّةُ سَهْلُهَا وَٱلأَجْرَعُ[2]
وَمَلِيْكُهَا فَجُبَاتُهَا عَنْ أَمْرِهِ ... تُعْطِيْ ٱلنَّوَالَ لِمَنْ تَشَاءُ وَتَمْنَعُ
أَشْكُوْ إِلَيْكَ بَلِيَّتِيْ مِنْ صِبْيَةٍ ... لاَ يَشْبَعُوْنَ وَأُمُّهُمْ لاَ تَشْبَعُ
وَبُعِثْتَ لِلْشُّعَرَاءِ مَبْعَثَ دَاحِسٍ ... أَوْ كَٱلْبَسُوْسِ بِرَدْعِهَا تَتَكَوَّعُ[3]
وَمَنَعْتَنِيْ شَتْمَ ٱلْبَخِيْلِ فَلَمْ يَخَفْ ... ضُرِّيْ وَأَصْبَحَ آمِناً لاَ يَفْزَعُ

(١) أَرادَ منها أَنْ تضعَهُ في أَعطافِ هذهِ الجاريةِ ، وَأَنْ تُدخِلَهُ فِي حِرِهَا ، كما يوضعُ الميْتُ في القبرِ .
(٢) الأرضُ الجَرَعةُ : هيَ الأرضُ الطيبةُ المنبتِ لا وعوثةَ فيها .
(٣) الردعُ : تلطيخُ الدمِ . تتكوَّعُ : تمشي على كوعها من شدَّةِ الحرِّ وهي مشيَةُ الكلبِ ، والكوعُ طرَفُ الزندِ ممَّا يلي الرسغَ .

عمر بن عبد العزيز والأحوص

ولمَّا توقَّفَ ٱبنُ عبدِ العزيزِ عَن إعطاءِ الشعراءِ.. ذكَرهُ الأَحوصُ ، وأشارَ إلىٰ ما سبقَ من روايةِ أنَّهُ عليهِ السلامُ أَعطىٰ كَعباً مئةَ ناقةٍ ، بقولِهِ [في « المنتظم » ٧/٤١ مِنَ الطَّويلِ] :

وَقَبْلَكَ مَا أَعْطَىٰ هُنَيْدَةَ جُلَّةً ... عَلَىٰ ٱلشِّعْرِ كَعْباً مِنْ سَدِيْسٍ وَبَازِلِ[1]

رَسُوْلُ ٱلإِلَـٰهِ ٱلْمُسْتَضَاءُ بِنُوْرِهِ ... عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بِٱلضُّحَىٰ وَٱلأَصَائِلِ

وهـٰذِهِ قد تغايرُ ما سبقَ مِن ثَواءِ الأَحوصِ بالسجنِ طيلةَ خلافةِ ٱبنِ عبدِ العزيزِ .

سبب اتصال مروان بن أبي حفصة بالعباسيين

وسببُ ٱتصالِ مروانَ ٱبنِ أَبي حفصةَ بخلفاءِ بني العباسِ.. أَنَّ المنصورَ سمعَ شعراً لهُ في بعضِ الرؤَساءِ يذكرُ فيهِ وراثةَ بني العباسِ ، فٱستحضرهُ ، فوافاهُ في علَّةِ الموتِ ، فقالَ لهُ الربيعُ : ٱلحَقْ بالمهديِّ ، فقدمَ عليهِ ، وقد مدحهُ بأَربعِ قصائدَ : مطلعُ الأُولىٰ [في « ديوانهِ » ٩٤ مِنَ الطَّويلِ] :

صَحَا بَعْدَ جُهْدٍ فَٱسْتَرَاحَتْ عَوَاذِلُهْ ... وَأَقْصَرَ عَنْهُ حِيْنَ أَقْصَرَ بَاطِلُهْ

والثانيةِ [في « ديوانهِ » ١٠٤ مِنَ الكاملِ] :

طَافَ ٱلْخَيَالُ فَحَيِّهِ بِسَلَامِ ... أَنَّىٰ أَلَمَّ وَلَيْسَ حِيْنَ لِمَامِ[2]

والثالثةِ [في « ديوانهِ » ٧٠ مِنَ الكاملِ] :

اِغْصِ ٱلْهَوَىٰ وَتَعَزَّ عَنْ سُعْدَاكَا ... فَلَمِثْلُ حِلْمِكَ عَنْ هَوَاكَ نَهَاكَا

---

(١) السديسُ مِنَ الإبلِ : ما دخلَ في الثامنةِ ، والبازلُ : ما دخلَ في التاسعةِ وبعدَها .
(٢) طافَ : زارَ .

والرابعةِ [في « ديوانهِ » ٣٩ مِنَ الطَّويلِ] :

مَرَىٰ ٱلْعَيْنَ شَوْقٌ حَالَ دُوْنَ ٱلتَّجَلُّدِ فَفَاضَتْ بِأَسْرَابٍ مِنَ ٱلدَّمْعِ حُشَّدِ(١)

فأَعطاهُ ثلاثينَ أَلفَ درهمٍ ، فٱنصرفَ إِلىٰ (اليمامةِ) ، ثمَّ عادَ بعدَ مدَّةٍ وٱتصلَ بيعقوبَ بنِ داوودَ ، فٱتفقَ أَنْ غضِبَ المهديُّ علىٰ يعقوبَ ، وٱعتقلَهُ ، فتوسَّلَ مروانُ بالحسنِ الحاجبِ ، فتحمَّلَ عنه قصيدتينِ ، في إِحداهُما ٱستعطافٌ للمهديِّ ، وفي الأُخرىٰ هجاءٌ ليعقوبَ ، ووضعَهما في يدِ المهديِّ ، فٱستَحسَنَهما وضربَ لهُ موعداً يومَ الخميسِ ، فجاءَ . . فإِذا وجوهُ بني العبَّاسِ يدخلونَ ، فلما تتامَّ المجلسُ . . دُعيَ ، فدخلَ فسلَّمَ ، فردَّ السلامَ ، وقالَ : إِنَّما حبسكَ عن الدخولِ ٱنقطاعكَ إِلىٰ الفاسقِ ٱبنِ داوودَ ، فٱفتتحَ النشيدَ بما قالَ في يعقوبَ : ثمَّ أَنشدهُ قولَهُ فيهِ [مِنَ الكاملِ] :

طَـرَقَتْـكَ زَائِـرَةً فَحَـيِّ خَيَـالَهَـا

فٱهتزَّ المهديُّ ، وتحرَّكَ ، وقالَ : جزاكَ اللهُ خيراً ، فقالَ مروانُ : ٱشهَدوا ، هـٰذا واللهِ الشرفُ ، يقول لي أَمير المؤمنينَ : جزاكَ اللهُ خيراً ، ثمَّ أَنشدَهُ قصيدتَه التي يقولُ في أَوَّلها [مِنَ الطَّويلِ] :

أَعَـادَكَ مِـنْ ذِكْـرِ ٱلأَحِبَّـةِ عَـائِـدُ

وقد سبقَتْ طائِفةٌ مِنها في غيرِ هـٰذا المجلسِ ، وهي من مختارِ الكلامِ ، فلمَّا ٱنتهىٰ إِلىٰ قولِهِ مِنها [مِنَ الطَّويلِ] :

كَـأَنَّ أَمِيْـرَ ٱلْمُـؤْمِنِيْـنَ مُحَمَّـداً لِـرَأْفَتِـهِ بِـٱلنَّـاسِ لِلنَّـاسِ وَالِـدُ

---

(١) مرىٰ : ٱستدرَّ . حُشَّدٌ : غزيرةٌ .

عَلَىٰ أَنَّ مَنْ قَدْ خَالَفَ ٱلْحَقَّ مِنْهُمُ   سَقَتْهُ بِهِ ٱلْمَوْتَ ٱلْحُتُوْفُ ٱلرَّوَاصِدُ
يَزِيْنُ بَنِيْ سَاقِيْ ٱلْحَجِيْجِ خَلِيْفَةٌ   عَلَىٰ وَجْهِهِ نُوْرٌ مِن ٱلْحَقِّ شَاهِدُ

.. أشارَ عليهِ فأَمسكَ ، فقالَ المهديُّ : يا بَني العبَّاسِ ، هٰذا شاعركُم المنقطعُ إِليكُم ، المعاديْ فيكُم ، ففرضَ لهُ أَهلُ بيتِهِ أَربعينَ أَلفَ درهمٍ في كلِّ سنةٍ ، سِوىٰ صِلاتهِ هُوَ وبرِّهِ .

امتداح المؤمل للمهدي وإجازة المهدي له

وأَقولُ : إنَّ اللهَ غارَ لمروانَ ٱبنِ أَبي حفصةَ في وفاةِ المنصورِ قبلَ ٱجتماعهِ بهِ ، وإلاَّ .. لَحرمَهُ أَوْ قلَّلَ عطاءَهُ ، فكانتْ سُنَّةً مِن بعدِهِ .

فقد شخصَ المؤمَّلُ [كما في « الأغاني » ٢٢/٢٤٨] : إلىٰ المهديِّ بـ(الريِّ) فٱمتدحهُ ، فأَمرَ لهُ بعشرينَ ٱلفِ درهمٍ فرُفعَ الخبرُ إلى المنصور فاستقدمه فقالَ : أَتيتَ غلاماً غرّاً فخدعتَهُ ، فقالَ المؤمَّلُ : بل غلاماً كريماً ، مدحتهُ فأكرَمني ، فقالَ : ما قلتَ فيهِ ؟ فأَنشدهُ [مِنَ الوافرِ] :

هُــوَ ٱلْمَهْــدِيُّ إِلاَّ أَنَّ فِيْـــهِ   مَشَـابِـهَ صُـوْرَةِ ٱلْقَمَـرِ ٱلْمُنِيْـرِ
تَشَـابَـهَ ذَا وذَا فَهُمَـا إِذَا مَـا   أَنَـارَا يُشْكِـلاَنِ عَلَـىٰ ٱلْبَصِيْـرِ
فَهَـٰذَا فِيْ ٱلظَّلاَمِ سِـرَاجُ لَيْلٍ   وَهَـٰـذَا بِـٱلنَّهَـارِ سِـرَاجُ نُـوْرِ
وَلَـٰكِنْ فَضَّلَ ٱلرَّحْمَـٰنُ هَـٰذَا   عَلَـىٰ ذَا بِـٱلْمَنَـابِـرِ وَٱلسَّرِيْـرِ
لَقَدْ مَلَكَ ٱلْمُلُوْكَ أَبُوْكَ حَتَّىٰ   تَـرَاهُـمْ بَيْـنَ كَـابٍ أَوْ أَسِيْـرِ(١)
وَجِئْـتَ وَرَاءَهُ تَجْـرِيْ حَثِيْثـاً   لِغَـايَـاتِ ٱلْكَمَـالِ بِـلاَ فُتُـوْرِ
فَقَـالَ ٱلنَّـاسُ : مَـا هَـٰذَانِ إِلاَّ   بِمَنْـزِلَـةِ ٱلْخَلِيْـقِ مِـنَ ٱلْجَـدِيْـرِ
وإِنْ بَلَـغَ ٱلصَّغِيْـرُ مَـدَىٰ كَبِيْـرٍ   فَقَدْ خُلِقَ ٱلصَّغِيْرُ مِنَ ٱلْكَبِيْرِ

(١) الكابي : من الكبوةِ وهيَ العثرَةُ ، ورجلٌ كابي اللونِ : عليهِ غبرةٌ ، وفرسٌ كابي : الذي إذا أَعيا قامَ فلم يتحرَّكْ من الإعياءِ .

استكثار المنصور للإجازة وتنقيصه منها

فقالَ المنصورُ : ما أَحسنَ ما قلتَ! إلاَّ أنَّه لا يساوي ما أَخذتَ ، فخُذ منهُ يا ربيعُ ستَّةَ عشرَ أَلفاً ، وسوِّغهُ الباقي ، فلمَّا ماتَ المنصورُ وٱستخلفَ المهديُّ . . رفعَ المؤمَّل قصَّتَهُ إِلىٰ والي المظالمِ ، فعرضَها علىٰ المهديِّ ، فضحكَ حتَّىٰ ٱستلقىٰ ، وقالَ : هـٰذهِ مظلمتهُ ؟! ردُّوا عليهِ مالَه ، وزيدوهُ عشرينَ أَلفاً .

وقدْ عرفتَ مِن فريضةِ المهديِّ لمروانَ ورسمِهِ بردِّ ما رزأَهُ أَبوهُ علىٰ المؤمَّلِ . . أنَّهم يرونَ ذلكَ حقّاً لازماً ، ودَيناً ثابتاً .

الجود يعدي

ويروىٰ [في « ديوان الحماسة » ٢/٢٨٨] : أَنَّ ٱبنَ الخيَّاطِ دخلَ علىٰ المهديِّ فمدحَه ، فأَمرَ لهُ بخمسينَ أَلفِ درهمٍ ، فلمَّا قبضَها . . فرَّقها علىٰ الناسِ ، وأَنشأَ يقولُ [مِنَ الطَّويلِ] :

لَمَسْتُ بِكَفِّيْ كَفَّهُ أَبْتَغِي ٱلْغِنَىٰ ... وَلَمْ أَدْرِ أَنَّ ٱلْجُودَ مِنْ كَفِّهِ يُعْدِيْ
فَلاَ أَنَا مِنْهُ مَا أَفَادَ أُولُوا ٱلْغِنَىٰ ... أَفَدْتُ وَأَعْدَانِيْ فَفَرَّقْتُ مَا عِنْدِيْ(١)

فأَغارَ عليهِ البُحتريُّ إلاَّ أنَّه أَحسنَ الاتباعَ ، وذلكَ حيثُ يقولُ [في « ديوانِهِ » ٤/٢٢٢٧ مِنَ الكاملِ] :

مَلأَتْ يَدَاهُ يَدِيْ وشَرَّدَ جُوْدُهُ ... بُخْلِيْ فَأَفْقَرَنِيْ كَمَا أَغْنَانِيْ

وكذلك الحلم

وقد سبقهُ أَبو تمَّامٍ إِلىٰ أَخذِهِ ، غيرَ أَنَّه غيَّرَ الموضوعَ ، وذلكَ حيثُ يقولُ [في « ديوانهِ » ١/٢٩١ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَوْ لَمْ يَزَعْنِيْ عَنْكَ غَيْرُكَ وَازِعٌ ... لأَعْدَيْتَنِيْ بِالْحِلْمِ إِنَّ ٱلْعُلاَ تُعْدِيْ(٢)

---

(١) أفادَ : ٱستفاد .
(٢) يزعني : يكفني .

وأَصلُ المعنىٰ قولُهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : «اَلْمَرْءُ مِنْ جَلِيْسِهِ»[1] . أصل المعنى

وقد يدخلُ فيهِ قولُ الناظمِ [في « العُكبَريِّ » ١/ ١٨٢ مِنَ الطَّويلِ] :

إذا لَـمْ تُنِـطْ بِـيْ ضَيْعَـةً أَوْ وِلاَيَـةً   فَجُوْدُكَ يَكْسُوْنِيْ وَعَذْوَاكَ تَسْلِبُ[2]

إِنْ كانتِ الروايةُ (وَعَذْوَاكَ) كما ذكرتُ ، أَو ما يشبِهُها وإِلاَّ خرجَ عنهُ .

ويروىٰ : أنَّه دخلَ علىٰ المهديِّ بـ(المدينةِ) أَربعةٌ ، وهُم : المغيرةُ بنُ عبدِ الرحمـٰنِ المخزوميُّ ، وٱبنُ أُختِ الأَحوصِ ، وأَبو السائِبِ ، وٱبنُ لُؤلُؤٍ الرَّطبُ ، وكلهم أَنشدهُ شعراً ـ لا أَذكرُ منهُ شيئاً ـ فأَجازَ الثلاثةَ الأُولَ : بعشرةِ آلافِ دينارٍ ووعدَ الرابعَ ، فسايرهُ . . حتَّىٰ مرَّا بدارٍ ، فقالَ : لِمَنْ هـٰذهِ الدارُ ؟ قالَ : للأَحوصِ الذي يقولُ [في « ديوانهِ » ١٥٢ مِنَ الكاملِ] : فطانة شاعر مع المهدي

يَـا دَارَ عَـاتِكَـةَ الَّتِـيْ أَتَعَـزَّلُ   حَذَرَ الْعِدَا وَبِهِ الْفُؤَادُ مُوَكَّلُ
وَأَرَاكَ تَفْعَلُ مَا تَقُوْلُ وَبَعْضُهُمْ   مَذِقُ اللِّسَانِ يَقُوْلُ مَا لاَ يَفْعَلُ

فقالَ لهَ : لا جَرَمَ ، لأُعجلنَّ جائِزتَكَ ، فقدْ أَبلغتَ ، ودفع لهُ عشرةَ آلافِ دينارٍ ، وأَمرَ الربيعَ أَن يدفعَ له مثلَها ، فقبضَها في يومٍ واحدٍ .

---

(١) لم نجده بهذا اللفظ وهو بمعنى ما أخرجه عن أبي هريرةَ الهنديُّ في « كنز العمال » (٢٤٧٣٣) ونسبه لمالك وأحمد وابن أبي الدنيا في كتاب « الإخوان » والحاكم : « المرء على دين خليله . . . » ونحو قول طرفة بن العبد :

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه   فكل قرين بالمقارن يقتدي

(٢) في « العكبري » : (وَشُغْلُكَ) بدل (وَعَذْوَاكَ) .

الأثبت أن القصة لأبي بكر الهذلي مع المنصور

والأثبتُ أنَّ الذي تمثَّلَ بهٰذا البيتِ.. إنَّما هو أبو بكرٍ الهذليُّ للمنصورِ، وكانَ أَمرَ الربيعَ أَنْ يوجِّهَ إِليهِ بجاريةٍ لَها أدبٌ وظرفٌ وهيئةٌ ومعرفةٌ، تسلِّيهِ عَنِ ٱمرأَةٍ لهُ ماتَتْ، وكانتْ أُمَّ ولدهِ والقيِّمةَ علىٰ أَمرهِ، فوجِدَ عَليها، ولمَّا تأَخَّرتْ وحَجَّ معهُ.. تَمَثَّلَ بهِ، فقالَ المنصورُ: وفي الدنيا من يعدُ ولا ينجزُ، ويقولُ ولا يفعلُ، قال: نعم، قالَ أميرُ المؤمنين للربيع: أعطه ما وعدناه، وضاعف له ما وعدته بهِ.

وقدِ ٱختلفتِ الرواياتُ في حديثِ هٰذا البيتِ ٱختلافاً كثيراً، ورويَ علىٰ أَلوانٍ شتَّىٰ، ولا مانعَ من تعدُّدِ الوقائعِ.

جود معن بن زائدة

وذكرَ الخطيبُ في «تاريخهِ» [١٣/٢٣٦]: عن حاجبِ معنِ بنِ زائِدةَ قالَ: بينَما أَنا علىٰ رأسِهِ.. إذا هُوَ براكبٍ يوضعُ، فقالَ معنٌ: ما أَحسبُ الرجلَ يريدُ غيري، فلا تحجبوهُ، فلمَّا مَثُلَ بينَ يديهِ.. أَنشدَ [مِنَ المنسرحِ]:

أَصْلحَكَ ٱللهُ قَلَّ مَا بِيَدِيْ ... فَمَا أُطِيْقُ ٱلْعِيَالَ إِذْ كَثُرُوا
أَلَحَّ دَهْرٌ رَمَىٰ بِكَلْكَلِهِ ... فَأَرسَلُونِيْ إِلَيْكَ وَٱنْتَظَرُوْا[١]

فقالَ معنٌ ـ وأَخذتْهُ الأَريحيَّةُ ـ: أَما واللهِ لأَعجلنَّ أَوبتَكَ، ثمَّ قالَ: يا غلامُ، ناقتي الفلانيَّةُ وأَلفُ دينارٍ، فدفعَها إِليهِ وهوَ لا يعرفُهُ.

لا نعلم مركوباً غير هذا

وقدمَ عليهِ مرَّةً أَعرابيٌّ، فقالَ له [في «قرى الضيف» ٣/٢٢٨]: قصدتُكَ مِن بعيدٍ، فأحملني أَيُّها الأَميرُ، فأَمرَ لَه بناقةٍ وفرسٍ وبغلٍ

---

(١) كَلْكَلَ: ذهبَ وتركَ أَهلهُ بمضيعةٍ.

وحمارٍ وجاريةٍ ، وقالَ : لو علمتُ مركوباً غيرَها . . لَحملتُكَ عَليهِ .

كذلك لا نعلم لباساً غير هذا

ونظيرُها [في « قرى الضيف » ٣/٢٢٨] : أَنَّ الزعفرانيَّ ٱستكْسىٰ الصاحبَ بنَ عبَّادٍ بقولِهِ [مِنَ المتقارب] :

أَيَا مَـنْ عَطَـايَـاهُ تُهْـدِيْ ٱلْغِنَـىٰ   إِلَـىٰ رَاحَتَـيْ مَـنْ نَـأَىٰ أَوْ دَنَـا
كَسَـوْتَ ٱلْمُقِيْمِيْـنَ وَٱلـزَّائِـرِيْـنَ   بِمَـا لَـمْ يُخَـلْ مِثْلُـهُ مُمْكِنَـا
وَحَـاشِيَـةُ ٱلـدَّارِ يَمْشُـوْنَ فِـيْ   ضُـرُوْبٍ مِـنَ ٱلْخَـزِّ إِلاَّ أَنَـا

فأَمرَ لهُ مِن الخزِّ بجبَّةٍ ودُرَّاعةٍ[1] وقميصٍ وسراويلَ وعمامةٍ ومنديلٍ ومِطْرَفٍ[2] ورداءٍ وجوربٍ ، وقالَ : لو علمتُ لباساً آخرَ يتخذُ مِنَ الخزِّ . . لأَعطيتُكَهُ .

احطط رحالك وقوِّ آمالك

ودخلَ رجلٌ علىٰ معاويةَ ، فقالَ لَه : هَزَزْتُ ذَوائِبَ الرحالِ إليكَ ؛ إذ لا معوَّلَ إلاَّ عليكَ ، أَمتطي إليكَ الليلَ والنهارَ ، وأَسِمُ في طريقي إليكَ المجاهِلَ بالآثارِ ، يَقودُني نحوَكَ رجاءٌ ، ويسوقُني إليكَ بَلاءٌ ، والنفسُ مستعجلةٌ ، والاجتهادُ عاذِرٌ إذ بلغتُكَ ، فقالَ لَه معاويةُ : ٱحطُطْ رِحَالَكَ ، وقَوِّ آمالَكَ ، وكُن علىٰ ثقةٍ مِنَ الإِنصافِ والإِسعافِ .

الحذاقة في كلام بني تيم

وقدِمَ وفدُ بني تَيْمٍ علىٰ عبدِ الملكِ ، وفيهم عمروُ بنُ عتبةَ ، فقالَ : يا أَميرَ المؤمنينَ ، نحنُ من تعرفُ ، وحقُّنا لا ينكرُ ، جئناكَ من بعيدٍ ، نمتُّ إليكَ بالقريبِ ، وما تُعطينا من خيرٍ . . فنحنُ أَهلُه ،

---

(١) دُرَّاعةٌ : جبَّةٌ مشقوقةٌ من قدامٍ .
(٢) المِطرفُ : ثوبٌ مربَّعٌ من خزٍّ له علمانِ في طرفيهِ .

وما ترىٰ من جميلٍ . . فأَنتَ أَصلُهُ ، فضحكَ عبدُ الملكِ وقالَ : يا أَهلَ الشامِ ، هٰؤلاءِ قومي ، وهٰذا كلامُهم .

رجل يقصد أبان بن الوليد

ودخلَ رجلٌ علىٰ أَبَانَ بنِ الوليدِ فقالَ : أَصلحَ اللهُ الأَميرَ ، أَحفيتُ إِليكَ الرِّكابَ ، وقطعتُ العُقابَ[1] ، وأَخلقتُ الثيابَ ، فقالَ أَبَانُ : ما دعاكَ إِلىٰ ذلكَ ؟ أَقرابةٌ ، أَمْ جِوَارٌ ، أَمْ عشرةٌ متقدِّمةٌ ، أَم وُصلةٌ متأَكِّدَةٌ ؟ فقالَ : لَم يكُن شيءٌ من ذلكَ ، ولٰكِنِّي سمعتُ الناسَ ينشدونَ لكَ بيتاً ، قالَ : ما هُوَ ؟ قالَ : قولك [مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا شِيْمَ لِيْ بَرْقٌ وَإِنْ كَانَ نَازِحاً ... فَيُخْلِفُ إِذْ بَعْضُ ٱلْبَوَارِقِ خُلَّبُ

العَود أحمد

هٰذا يشبه ما سبقَ مِن حديثِ ٱبنِ العميدِ معَ صاحبِهِ وما بعدَهُ ، وقريبٌ منهُ ما ذكرهُ ٱبنُ خَلِّكَانَ [في « وفيات الأعيان » ٦/ ٢٨٥] : أَنَّ رجلاً قدمَ علىٰ مخلدِ بنِ يزيدَ بنِ المهلَّبِ فقالَ لَه : أَلم تَكُن أَتيتَنا فأَجَزْناكَ ؟ فقالَ : بلىٰ ، قالَ : فما الذي ردَّكَ إِلينا ؟ قالَ قول الكميتِ فيكَ [في « ديوانه » ١/ ١٤١ من الوافر] :

فـأَعْطَـىٰ ثُـمَّ أَعْطَـىٰ ثُـمَّ عُـدْنَـا ... فَـأَعْطَـىٰ ثُـمَّ عُـدْتُ لَـهُ فَعَـادَا
مِـرَاراً مَـا أَعُـوْدُ إِلَيْـهِ إِلاَّ ... تَبَسَّمَ ضَاحِكاً وَثَنَىٰ ٱلْوِسَادَا

فأَضعف للرجلِ ما كانَ أَعطاهُ .

ابن نباتة يضمن لأحد الشعراء لأنه غشه بقول له في فخر الدولة

وٱمتدحَ فخرَ الملكِ بنَ عضدِ الدولةِ بنِ بويهِ أَحدُ الشعراءِ ، فلم يُرضِهِ ، فعمدَ إِلىٰ عبدِ العزيزِ بنِ نباتةَ وقالَ لهُ : أَنتَ الذي

---

(١) العُقابُ : المرقىٰ في عُرض الجبلِ .

غَشَشْتَنِي بقولِكَ فيهِ [مِنَ الوافرِ] :

لِكُلِّ فَتَىً قَرِيْنٌ حِيْنَ يَسْمُوْ وَفَخْرُ ٱلْمُلْكِ لَيْسَ لَهُ قَرِيْنُ
أَنِخْ بِجَنَابِهِ وَٱحْكُمْ عَلَيْهِ بِمَا أَمَّلْتَهُ وَأَنَا ٱلضَّمِيْنُ

فأرضاهُ ٱبنُ نباتةَ مِن عندِهِ ، ثمَّ ٱنتهىٰ الخبرُ إلىٰ فخرِ الملكِ . . فسيَّرَ لابنِ نباتةَ العطايا الطائِلةَ ، وأَوَّلُ بيتَيهِ مسروقٌ مِنْ قولِ الشمَّاخِ السائرِ في عرابةَ[1] .

يا يزيد بن مزيد

ومِنْ هٰذا النوعِ ، ما ذكرهُ ٱبنُ خَلِّكَانَ [في « وفيات الأعيان » ٦/٣٣٧] : أيضاً عَن بعضِهم قالَ : كنتُ بالليلِ معَ يزيدَ بنِ مزيَدٍ ، فإذا صائحٌ يهتفُ بٱسمهِ ، فقالَ : عليَّ بهِ ، فلمَّا مثلَ بينَ يديهِ . . قالَ : ما حملكَ علىٰ ما فعلتَ ؟ قالَ : نقعتُ[2] دابَّتي ، ونفِدَتْ نفقتي ، وسمعتُ قولَ الشاعرِ [مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا قِيْلَ مَنْ لِلْمَجْدِ وَٱلْجُوْدِ وَٱلنَّدَىٰ فَنَادِ بِصَوْتٍ يَا يَزِيْدُ بْنَ مَزْيَدِ

فهشَّ لكلامهِ فأجزلَ عطيَّتَهُ .

الثقة بالعطاء من الممدوح عند الشعراء

وقالَ ذُو الرُّمَّةِ يمدحُ بلالَ بنَ أَبي بردةَ [في « ديوانه » ٣/ ١٥٣٤ مِنَ الوافرِ] :

سَمِعْتُ ٱلنَّاسَ يَنْتَجِعُوْنَ غَيْثاً فَقُلْتُ لَصَيْدَحَ ٱنْتَجِعِي بِلاَلاَ[3]

وقالَ أَبو نُوَاسٍ [في « ديوانه » ٢٩٨ مِنَ الطَّويلِ] :

تَقُوْلُ ٱلَّتِيْ مِنْ بَيْتِهَا خَفَّ مَحْمَلِيْ عَزِيْزٌ عَلَيْنَا أَنْ نَرَاكَ تَسِيْرُ

---

(١) « وفيات الأعيان » (٥/ ١٢٤).
(٢) نقعت : نحرت . والنقيعةُ من الإبلِ : ما يصنع منهُ الطعامُ للقادمِ من السفَرِ .
(٣) انتجعنا فلاناً : إذا أتيناهُ نطلبُ معروفَهُ . الصيدحُ : اسم ناقته؛ سميت بذلك لشدة صوتها .

أَمَـا دُوْنَ مِصْـرٍ لِلْغِنَـىٰ مُتَطَلَّـبٌ بَلَـىٰ إِنَّ أَسْبَـابَ ٱلْغِنَـىٰ لَكَثِيْـرُ
دَعِيْنِي أُكَثِّرْ حَاسِدِيْكِ بِرِحْلَةٍ إِلَىٰ بَلَدٍ فِيْهِ ٱلْخَصِيْبُ أَمِيْرُ[1]

وقالَ المازنيُّ [في « وفيات الأعيان » ١/ ٢٨٥] : أَشخصَني الواثقُ ، فلمَّا دخلتُ عليهِ سألَني عنِ ٱسمي ، فأَخبرتُهُ ، فقالَ : هلْ لكَ من ولدٍ ؟ قلتُ : نَعم ، بُنَيَّةٌ ، قالَ : فما قالَتْ لكَ حينَ فارقْتَها ؟ قلتُ : أَنشدَتني قولَ الأَعشىٰ [في « ديوانهِ » ٤١٠ مِنَ المتقاربِ] :

فَيَـا أَبَتَـا لاَ تَـرِمْ عِنْـدَنَـا فَـإِنَّـا بِخَيْـرٍ إِذَا لَـمْ تَـرِمْ[2]
أَرَانَـا إِذَا أَضْمَـرَتْـكَ ٱلْبِـلاَدُ نُجْفَـىٰ وَيُقْطَـعُ مِنَّـا ٱلـرَّحِـمْ[3]

قالَ : فبِمَ أَجبتَها ؟ قلتُ : بقولِ جريرٍ [مِنَ الوافرِ] :

ثِقِـيْ بِـٱللهِ لَيْـسَ لَـهُ شَـرِيْـكٌ وَمِنْ عِنْدِ ٱلْخَلِيْفَةِ بِٱلنَّجَاحِ[4]

ويعجبني قولُ الناظمِ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٢٩٧ـ٢٩٨ مِنَ الوافرِ] :

تَـرَكْنَـا مِـنْ وَرَاءِ ٱلْعِيْـسِ نَجْـداً وَنَكَّبْنَـا ٱلسَّمَـاوَةَ وَٱلْعِـرَاقَـا[5]
فَمَـا زَالَـتْ تَـرَىٰ وَٱللَّيْـلُ دَاجٍ لِسَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْمَلِكِ ٱئْتِلاَقَا[6]
وَلَـوْ سِـرْنَـا إِلَيْـهِ فِـيْ طَـرِيْـقٍ مِنَ ٱلنِّيْرَانِ لَمْ نَخَفِ ٱحْتِرَاقَا

---

(١) الخصيبُ : ٱسمُ الممدوحِ .
(٢) رِمتَ : برحت وزلتَ ، وأكثرُ ما يستعمل في النفي .
(٣) أضمرتهُ البلادُ : غيَّبتهُ إما بموتٍ وإما بسفرٍ .
(٤) فقالَ لهُ الواثقُ : علىٰ النجاحِ ، وأَمرَ لهُ بأَلفِ دينارٍ ، وردَّهُ إلىٰ أَهلهِ مكرَّماً .
(٥) العيسُ : الإبلُ البيضاءُ . السماوَةُ : فلاةٌ بين (الشام) و(العراقِ) .
(٦) الداجي : المظلمُ . الائتلاقُ : البريقُ واللمعانُ .

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٢/ ١٦٤ و١٦٩ و١٧٠ مِنَ الكاملِ] :

أُمِّي أَبَا ٱلْفَضْلِ ٱلْمُبِرَّ أَلِيَّتِي ... لأُيَمِّمَنَّ أَجَلَّ بَحْرٍ جَوْهَرَا(١)

أَرَأَيْتَ هِمَّةَ نَاقَتِي فِي نَاقَةٍ ... نَقَلَتْ يَداً سُرُحاً وَخُفّاً مُجْمَرَا(٢)

تَرَكَتْ دُخَانَ ٱلرِّمْثِ فِي أَوْطَانِهَا ... طَلَباً لِقَوْمٍ يُوقِدُونَ ٱلْعَنْبَرَا(٣)

وَتَكَرَّمَتْ رُكُبَاتُهَا عَنْ مَبْرَكٍ ... تَقَعَانِ فِيهِ وَلَيْسَ مِسْكاً أَذْفَرَا(٤)

فَأَتَتْكَ دَامِيَةَ ٱلأَظَلِّ كَأَنَّمَا ... حُذِيَتْ قَوَائِمُهَا ٱلْعَقِيقَ ٱلأَحْمَرَا(٥)

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ١/ ٣٣٦ مِنَ الكاملِ] :

كُنْ حَيْثُ شِئْتَ تَسِرْ إِلَيْكَ رِكَابُنَا ... فَٱلأَرْضُ وَاحِدَةٌ وَأَنْتَ ٱلأَوْحَدُ

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٤/ ٥٧ مِنَ الطَّويلِ] :

وَثِقْنَا بِأَنْ تُعْطِي فَلَوْ لَمْ تَجُدْ لَنَا ... لَخِلْنَاكَ قَدْ أَعْطَيْتَ مِنْ قُوَّةِ ٱلْوَهْمِ(٦)

ويروى [كما في « المستطرف » ١٠٨] : أنَّها أصابتِ الناسَ مجاعةٌ في أيَّامِ هشامِ بنِ عبدِ الملكِ ، فوفدتْ عليهِ أحياءُ العربِ مِن كلِّ ناحيةٍ ، فدخلَ عليهِ وجوهُهُم ، وفيهم درواسُ بنُ حبيبٍ الفجليُّ ، فكأنَّه المجاعة في عهد هشام بن عبد الملك

---

(١) أُمِّي : أقصدي . والمعنى : يقول : لما حلفتُ أني أقصِدُ أجلَّ بحرٍ . . برَّت يميني بقصدِهِ ؛ لأنَّهُ أجلُّ مَن يُقصدُ .

(٢) السرُحُ : السهلةُ السيرِ . الخفُّ المجمرُ : الشديدُ الصلبُ .

(٣) الرمثُ : نبتٌ يوقدُ به ، وهوَ مِن مراعي الإبلِ ، وهو من الحمضِ .

(٤) رُكباتُها : جمع ركبة . الأذفرُ : الشديدُ الرائحةِ .

(٥) الأَظلُّ : باطنُ الخفِّ الذي يلي الأرضَ . حُذيَت : جعل لها حذاءً ، وهوَ النعلُ .

(٦) الوهمُ : الظنُّ .

ٱزدراهُ ؛ لِشَمْلَتِهِ وسملِ عباءَتِهِ[1] ، فٱستنكفَ مِن دخولِهِ عليهِ ، وأَحسَّ بذلكَ درواسٌ ، فقالَ : إنَّ دُخولي عليكَ شرَّفَ من قَدري ، ولم يَضَعْ من شأْنِكَ ، وقدْ رأَيتُ الناسَ دَخَلوا لأَمرٍ فسكَتوا عنهُ ، فإِنْ أَذِنْتَ . . تكلَّمتُ قالَ : هاتِ ما عندَكَ ، فما أَرىٰ لَهم غيركَ .

فطانة درواس بن حبيب في الطلب

قالَ : يا أَميرَ المؤمنينَ ، تتابعتْ علىٰ الناسِ سنونَ ، أَمَّا الأُولىٰ : فأَذابتِ الشحمَ ، وأَمَّا الثانيةُ : فأَكلتِ اللَّحمَ ، وأَمَّا الثالثةُ : فأَنقتِ المخَّ ومصَّتِ العظمَ ، وفي أَيديكُم ـ وللهِ الحمدُ ـ فضولُ الأَموالِ ، فإِنْ تَكنْ للهِ . . فأَعطِفوا بها علىٰ عبادِهِ ، وإِن كانَتْ لَهم . . فعلامَ تحبسونَها عَنهُم بعدَ الحاجةِ ؟ وإِنْ كانَتْ لَكم . . فتصدَّقوا بِها علَيهِم ؛ فإِنَّ اللهَ يَجزيْ المتصَدِّقينَ .

عطاء هشام

فقالَ هشامٌ : للهِ أَبوكَ ما تركتَ لَنا في واحدةٍ من الثلاثِ ، وأَمرَ بمئةِ أَلفِ [دينارٍ] ، فقسمتْ في الناسِ ، وأَمرَ لدرواسٍ بمئةِ أَلفِ [درهمٍ] ، فأَبىٰ إِلاَّ أَن يكونَ مثلَ الناسِ وردَّها ، فأَعادها إِليهِ ، فقسمَ تسعينَ أَلفاً في تسعةٍ مِن أَحياءِ العربِ ، وٱحتبَس لنفسهِ مِنْها عشرةَ آلافٍ فقط ، فبلغَ ذلكَ هشاماً ، فقالَ : للهِ درُّهُ ، إِنَّ صنيعَ مثلهِ ليبعثُ علىٰ الاصطناعِ .

رحم الله من تصدق

ونظيرُها في بديعِ التقسيمِ . . ما رويَ [في « المثل السائر » ٢/٢٨٩] عَن أَعرابيٍّ وقفَ علىٰ حلقةِ الحسنِ البصريِّ فقالَ : رحمَ اللهُ من تصدَّقَ من فضلٍ ، أَو واسىٰ مِن كفافٍ ، أَو آثرَ مِن قُوتٍ ، فقالَ الحسنُ : لم يتركِ البدويُّ أَحداً إِلاَّ وقد سأَله ، وأَوجبَ عليهِ .

---

(١) الشَّمْلَةُ : كساءٌ من صوف يُتَلَفَّفُ به . سملَ الثوبُ : إذا صارَ خَلَقاً بالياً .

ما الذي يناله ابن آدم من الدنيا

وخيرٌ مِنْ ذلكَ كلِّهِ في البابِ . . قولُهُ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم **« وهَلْ لَكَ يَا ٱبْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلاَّ مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ ، أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَبْقَيْتَ »**[1] .

وبعدُ : فقدِ ٱسترسلَ ٱلكلامُ ؛ إِذ ٱلقيْنا حبلَه علىٰ غاربِهِ ـ حَسَبَما يليقُ بالأَمالي ـ ومعَ ذلكَ فلَم يخرجْ عَنِ العطاءِ والاستِعطاءِ ، والرِّفْدِ والاسترفادِ ، والوِفادَةِ والانتجاعِ .

العرب تصف أحوالها ولكنها تميل إلى المبالغة

والعربُ ـ كما قرَّرنا ـ تصفُ شُؤُونَها ، وتشْرحُ خبرَها ، وتقتصُّ وقائِعَ أَحوالها ، غيرَ أَنَّها قد تميلُ إِلىٰ المبالغَةِ أَحياناً بما ٱقتضتْهُ ضمائِرُها مِنَ البلاغةِ ، وساقَتها إِليهِ غرائِزُها مِنَ البيانِ ، وكذلكَ الناظمُ فيما يصفُ من ٱقتحامِ العِقَابِ الكأْداءِ وٱفتراعِ الْجبالِ الشَّمَّاءِ ، والسهوبِ الفيحاءِ [كما في « العُكبَريِّ » ١/١٨ مِنَ ٱلكاملِ] :

وَعُقَـابُ لُبْنَـانٍ وَكَيْـفَ بِقَطْعِهَـا ... وَهُوَ ٱلشِّتَاءُ ، وَصَيْفُهُنَّ شِتَاءُ

. . فإِنَّهُ في ذلكَ بارٌّ راشدٌ ، إِنَّما ٱلعجبُ مِمَّن يذكرُ ٱلعيسَ وٱلمهاريَ ، وٱلبيدَ والصَّحاريَ ولَعلَّه لَمْ يركَبِ ٱلجَمَلَ ، ولَمْ يعرِفِ ٱلفلاةَ ، فذلكَ عنوانُ ٱلعجزِ ، وبرهانُ الضَّعفِ ، ودليلُ التَّبلُّدِ ، وشهيدُ التَّكلُّفِ .

تلميذ المؤلف يهديه قصيدة فيردها عليه

ومنهُ قولُ بعضِ الدَّرَسَةِ ـ مِنْ قصيدةٍ تقدَّمَ بها إِليَّ علىٰ قُربِ ٱلجوارِ ، وتلاصُقِ الدِّيارِ ؛ إِذ لَمْ يكُن بيني وبينَهُ إِلاَّ رَميةٌ بحجَرٍ وهوَ [مِنَ ٱلكاملِ] ـ :

---

(١) أخرجه عن أبي مطرف مسلم (٢٩٥٨) في الزهد والرقائق ، والترمذي (٢٣٤٢) ، والنسائي (٦/٢٣٨) ، وأحمد (٤/ ٢٤) .

وَلَقَدْ أُرَحِّلُ فِيْ ظَلَامِ ٱللَّيْلِ أَنْـ ـضَاءَ ٱلْمُطِيِّ بِهَا أَجُوْبُ ٱلسَّبْسَبَا[1]
فَيَقُوْلُ أَصْحَابِيْ وَقَدْ مَلُّوْا ٱلسُّرَىٰ: مَـاذَا تَـؤُمُّ أَمَشْـرِقـاً أَمْ مَغْـرِبـا ؟
فَأَقُوْلُ : كَلاَّ ، إِنَّما أَزْجَيْتُهَا كَيْمَـا تُبَلِّغَنَـا ٱلْفِنَـاءَ ٱلأَرْحَبَا[2]

فما أَبغضَهُ وما أَثقلَهُ ، ولا سيَّما في قولِهِ : (أَمَشرقاً) أَمْ (مَغربا) ؛ إِذْ لا يمكنُ أَنْ تخفىٰ علىٰ أَصحابِهِ ٱلجهةُ بعدَ الشُّروع في السَّيرِ ، فَضْلاً عَنِ ٱلإِمعانِ فيهِ ، حتَّىٰ ولو كانوا في بَلادةِ ٱلحميرِ[3] .

وما أَراهُ إِلاَّ سمعَ بقولِ مُسلمِ بنِ ٱلوليدِ الَّذي سَرَقَهُ أَبو تمَّامٍ[4] . . فأَحبَّ أَنْ يكونَ لَهُ مثلُهُ وهوَ قولُهُ [كما في «وفيات الأعيان» ٣/ ٨٤ من البسيط] :

أَمَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ تَبْغِيْ أَنْ تَؤُمَّ بِنَا؟ فَقُلْتُ: كَلاَّ، وَلَـٰكِنْ مَطْلِعَ ٱلْجُوْدِ

---

(١) السبسبُ : المفازةُ والأَرضُ المستويَةُ .

(٢) أزجيتها : سقتُها .

(٣) رحمَ اللهُ الشيخَ المؤلِّفَ ؛ فقد قسا علىٰ تلميذِهِ ، والأَمرُ أَبسطُ مِن ذلكَ بكثيرٍ ؛ إِذ أَرادَ التلميذُ ما يحصلُ معَ أَيِّ رجلٍ مِنَّا عندَما يريدُ الذهابَ إِلىٰ إِنسانٍ عظيمٍ أَو محبوبٍ كبيرٍ ، فيعمىٰ قلبُهُ ، ولا يدري مِن أَينَ يذهبُ ، فهوَ يصفُ حالَهُ هذهِ إِذ أَرادَ الذهابَ إِليهِ وهوَ محبوبٌ لهُ فٱرتبكَ الطالبُ ، ولَمْ يعدْ يدرِ مِن أَينَ يذهبُ ، فضجَّ رفاقُهُ وقالوا لهُ ـ حينما لَمْ يكُن عندَهُم مِنَ الحبِّ للشيخِ ما عندَهُ ـ : لقدْ أَضجرتَنا وأَتعبتَنا فاخترْ طريقاً نذهبُ بِها ، وٱعتمدْ علىٰ رأيٍ ، وكفاكَ ٱرتباكاً . فيقولُ لهم ـ مبرِّراً لنفسِهِ ـ : لا تلوموني ؛ لأَنَّ القصدَ الذي أَقصدُهُ عظيمٌ ، والبحرَ الذي أَتيَمَّمُهُ كبيرٌ ، إِنَّهُ الشيخُ عبدُ الرحمنِ ، إِنه الشيخ عبد الرحمن .

(٤) وهوَ حَسَبَما قالَ ٱبنُ خَلِّكانَ في « وفيات الأَعيانِ » (٣/ ٨٤) :

يَقُوْلُ صَحْبِيْ وَقَدْ جَدُّوْا عَلَىٰ عَجَلٍ وَٱلْخَيْلُ تَسْتَنُّ بِالرُّكْبَانِ فِيْ ٱللُّجُمِ
أَمَطْلَعَ ٱلشَّمْسِ تَبْغِيْ أَنْ تَؤُمَّ بِنَا؟ فَقُلْتُ : كَلاَّ ، وَلَكِنْ مَطْلِعَ ٱلْكَرَمِ

غيرَ أَنَّا نبسُطُ لَهُ مِنَ ٱلعُذرِ ما بَسَطَتْهُ زُبيدةُ ، بما سقناهُ عنها في شرحِ قولِ النَّاظمِ [في « العُكبَريّ » ٣/ ١٦٥ مِنَ البسيطِ] :

عَلَّ ٱلأَمِيْرَ يَرَىٰ ذُلِّيْ فَيَشْفَعَ لِيْ إِلَىٰ ٱلَّتِيْ تَرَكَتْنِيْ فِيْ ٱلْهَوَىٰ مَثَلاَ

فليَسَعْ صاحبَنا ما وسِعَ صاحبَها .

وإِذ ذكَرنا بعضَ مَنْ نجحَ طَلَبُهُ ، وأَثمرَ تعبُهُ ، وأُكرِمَتْ وِفادتُهُ ، وأُجزلَتْ رِفادتُهُ . . فلا بأْسَ أَنْ نذكُرَ شيئاً ممَّا يتعلَّقَ بنقيضِهِ ، علاوَةً علىٰ ما سبقَ مِنَ ٱلإِشارةِ إِلىٰ بعضِهِ في صنيعِ ٱلمنصورِ معَ ٱلمؤمِّلِ . بعض قصص الخائبين

ثمَّ نحنُ بٱلخيارِ ، إِنِ ٱتسَعَ ٱلوقتُ . . توسَّعْنا ببعضِ أَخبارِ ٱلبخلاءِ ونوادِرِهم ، وإِلاَّ . . أَخَّرناها لموضعِ آخرَ . فنقولُ :

كتبَ بعضُهم إِلىٰ صاحبٍ لَهُ يستشيرهُ في ٱلقدومِ علىٰ ذِي ثروةٍ ، فكتبَ إِليهِ في ٱلجوابِ : لا تفعَلْ ، فإِنَّ حُسْنَ الظَّنِّ بهِ لا يقعُ إِلاَّ بخذلانِ ٱللهِ ، والطَّمعَ فيهِ لا يخطرُ إِلاَّ بسوءِ التوكُّلِ علىٰ اللهِ ، والرجاءَ لما في يدِهِ لا ينبغي إِلاَّ بعدَ اليأْسِ مِن رحمةِ اللهِ ، فإِنَّه يرىٰ أَنَّ التقتيرَ هو التبذيرُ ، وأَنَّ الاقتصادَ هُوَ السرفُ ، وأَنَّ بني إِسرائيلَ لم يستبدِلوا البصلَ بالسلْوىٰ إِلاَّ لفضلِ أَحلامِهم ، ويرىٰ أَنَّ الصنيعةَ مرفوعةٌ ، والصلةَ موضوعةٌ ، والسخاءَ مِن همزاتِ الشياطينِ ، وأَنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ لا يغفرُ أَنْ يؤثِرَ المرءُ علىٰ نفسهِ ، ويغفرُ ما دونَ ذلكَ لمنْ يشاءُ ، وكأَنَّهُ لم يسمعْ بالمعروفِ إِلاَّ في الذينَ قطعَ اللهُ أَدبارَهم ، ونهىٰ عنِ ٱتباعِ آثارِهم ، فهوَ يَرجو الثوابَ في الإِقتارِ ، ويَخشىٰ العقابَ في إِقالةِ العثارِ ، فأَقِم رحمكَ اللهُ بمكانِكَ ، وٱصبرْ علىٰ عسرِكَ ، علَّ اللهَ أَن يبدِلَنا وإِيَّاكَ خيراً منهُ ، وأَقربَ رُحْماً ! ! ! . حسن الظن بهذا لا يقع إلا بخذلان الله ، والطمع فيه بسوء التوكل على الله

يحب أن يحمد بما لم يفعل

وفي قريبٍ منهُ ـ وما أَلْيَقَهُ بمن أَحبَّ أَنْ يُحمدَ بما لَم يَفعلْ من أَهلِ زمانِنَا ـ يقولُ بعضُهم [مِنَ البسيط] :

إِنِّيْ لأَعْجَبُ مِنْ قَوْلٍ غُرِرْتُ بِهِ   حُلْوٍ يَلَذُّ إِلَيْهِ ٱلسَّمْعُ وَٱلْبَصَرُ
لَوْ تَسْمَعُ ٱلْعُصْمُ فِيْ صُمِّ ٱلْجِبَالِ بِهِ   ظَلَّتْ مِنَ ٱلرَّاسِيَاتِ ٱلْعُصْمُ تَنْحَدِرُ
كَٱلْخَمْرِ وَٱلشَّهْدِ يَجْرِيْ فَوْقَ ظَاهِرِهِ   وَمَـا لِبَـاطِنِـهِ طَعْـمٌ وَلاَ خَبَـرُ
وَكَٱلسَّرَابِ شَبِيْهَاً بِٱلْغَدِيْرِ وَإِنْ   تَأْتِيْ ٱلسَّرَابَ فَلاَ عَيْنٌ وَلاَ أَثَرُ

أعطوه بدرة يدخلها

وقدمَ علىٰ خالدِ بنِ عبدِ اللهِ القسريِّ أعرابيٌّ ، فألحفَ وأبرمَ ، فقالَ خالدٌ : أَعطُوهُ بَدْرَةً[١] يُدخِلُها في حِرِ[٢] أُمِّهِ ، فقالَ الأعرابيُّ : وأُخرىٰ لاستِها يا سيِّدي ، لا تبقىٰ فارغةً ، فضحكَ ، وقالَ : وأُخرىٰ لاستِها .

لقد أسمعت لو ناديت حياً

وٱجتمعَ بشَّارٌ ويحيىٰ بنُ زيادٍ وحمَّادُ عجردٍ علىٰ الطعامِ ، فوقفَ سائِلٌ بالبابِ ، وقالَ : يا مسلمينَ ، فقالَ يحيىٰ : ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون : ١٠١] فقالَ : ٱرحموني ، فقالَ حمَّادٌ : قد رحمناكَ ، فقالَ : ٱسمعوا قَولي : قالَ بشَّارٌ [مِنَ الوافرِ] :

لَقَـدْ أَسْمَعْـتَ لَـوْ نَـادَيْـتَ حَيّـاً   وَلَـٰكِـنْ لاَ حَيَـاةَ لِمَـنْ تُنَـادِيْ

أفلاطون والرجل البخيل

وكتبَ أفلاطونُ إلىٰ رجلٍ في رجلٍ ليواسيَهُ بشيءٍ ، فٱعتلَّ ولم يعطِهِ شيئاً ، فكتبَ إليهِ ثانيةً يقولُ لهُ : إِنْ كنتَ أَردتَ أَن تعطيَهُ فلم تقدرْ . . فمعذورٌ ، وإِن كنتَ قدرتَ فلمْ تفعلْ . . فسيأتيكَ يومٌ تريدُ فيهِ فلا تقدرُ .

---

(١) البدرةُ : عشرةُ آلافِ درهمٍ .
(٢) حِرُ المرأةِ : فرجُها .

وقدمَ علىٰ عبدِ اللهِ بنِ الزبيرِ جماعةٌ ـ فيهم معنُ بنُ أَوسٍ ـ فلم يُحسِنْ قِراهُم فقالَ معنٌ [مِنَ الطَّويلِ] :

نَـزَلْنَـا بِمُسْتَـنِّ ٱلـرِّيَـاحِ غُـدَيَّـةً ... إلىٰ أَنْ تَعَالَىٰ ٱلْيَوْمُ فِيْ شَرِّ مَحْضَرِ

لَدَىٰ ٱبْنِ ٱلزُّبَيْرِ جَالِسِيْنَ بِمَنْزِلٍ ... مِنَ ٱلْخَيْرِ وَٱلإِحْسَانِ وَٱلْبِرِّ مُقْفِرِ

رَمَانَـا أَبُـوْ بَكْـرٍ وَقَـدْ طَـالَ مُكْثُنَـا ... بِتَيْسٍ مِنَ ٱلشَّاءِ ٱلْحِجَازِيِّ أَعْفَرِ[1]

فَقَالَ : ٱطْعَمُوْا مِنْهُ وَنَحْنُ ثَلاَثَةٌ ... وَسِتُّوْنَ إِنْسَاناً فَيَا لَوْمَ مُخْبِرِ[2]

فَقُلْنَـا : ٱبْتَعِـدْ عَنَّـا فَـإِنَّ أَمَـامَنَـا ... جِفَانُ ٱبْنِ عَبَّاسِ ٱلْعُلاَ وَٱبْنِ جَعْفَرِ

وَكُـنْ آمِنـاً وَٱرْفُـقْ بِتَيْسِـكَ إِنَّـهُ ... لَهُ أَعْنُزٌ يَنْزُوْ عَلَيْهَا وَأَيْسِرِ[3]

ارفق يا حبيبي بتيسك

وقدمَ عليهِ آخرُ فلم يُرضِهِ ، فقالَ : لعنَ اللهُ ناقةً حملَتْني إليكَ ، قالَ ٱبنُ الزبيرِ : إنَّ ، وَرَاكِبَها[4] . و(إنَّ) هٰذهِ بمعنىٰ نَعَم .

لعن الله ناقة حملتني إليك

وقد قالَ بعضُهم : بمثلهِ في قولهِ تعالىٰ : ﴿إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾ [طه : ٦٣] .

وأُعجِبَ بهِ إِسحاقُ ، كما قاله صاحبُ « الكشافِ » .

(فَساحرانِ) خبرُ مبتدإٍ محذوفٍ ، و(اللامُ) داخلةٌ علىٰ الجملةِ ، تقديرُهُ : (لَهُمَا ساحرانِ) وفيهِ تكلُّفٌ لا يخفىٰ ، وقعوا فيهِ إذ بعُدوا باللامِ فقدَّروا لَها مبتدأً محذوفاً ، والأَولىٰ أَن يبقىٰ (ساحرانِ) علىٰ أَصلِ ما كانَ عليهِ من الخبريَّةِ ، وإِنَّما دخلتْ عليهِ

---

(١) الأعفرُ : الذي يشبه لونه لون التراب .

(٢) في « الأغاني » : ثلاثة وسبعون .

(٣) « الأغاني » (١٢/ ٧٤) .

(٤) « مجمع الأمثال » (١/ ١١٣) .

اللامُ لِشَبَهِ إِنْ التي قبلَ المبتدإِ بالمؤكِّدَةِ ، وهو ظاهرٌ ، ونظائرُهُ موجودةٌ .

اضربوا أهل الصفة

وكانَ زيادُ بنُ عبدِ اللهِ الحارثيُّ والياً علىٰ (المدينةِ) ـ وفيهِ بخلٌ ـ فأُهديَ لهُ طعامٌ وكانَ قد تغدَّىٰ ، فغضبَ ، وقالَ : علامَ يبعثُ أَحدُهم الشيءَ في غيرِ وقتِهِ ؟ ودعا لَهُ أَهلَ الصُّفَّةِ ، فلمَّا حضَروا . . كشفَ عن سلالِ الطعامِ . . فإِذا فيها ما لا يظُنُّه مِن أَخبصَةٍ وحلوٍ وفراخٍ وجداءٍ ، فقالَ : ٱرفعوها ، وٱضربوا كلَّ واحدٍ من أَهلِ الصفَّةِ عشرةَ أَسواطٍ ، فإِنَّه بلغَني أَنَّهم يَفسُونَ في مسجدِ رسولِ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ .

بخلاء العرب أربعة:

وكانَ يقالُ [كما في « الأغاني » ٢/ ١٥٥] : بخلاءُ العربِ أَربعةٌ : الحطيئةُ ، وحميدٌ الأَرقطُ ، وخالدُ بنُ صفوانَ ، وأَبو الأَسودِ الدُّؤَليُّ .

١ـ الحطيئة

أَمَّا الحُطيئةُ : فقد مرَّ بهِ بعضُهم فقالَ لهُ [كما في « الأغاني » ٢/ ١٦٣] : السلامُ عليكُم ، قالَ : قلتَ ما لا يُنكَر ، فقالَ : إِنِّي خرجْتُ مِن أَهْلي بغيرِ زادٍ ، قالَ : لَم أَضمنْ لأَهلِكِ قراكَ ، فقالَ : أَفتأْذَنُ لي أَنْ أَستظلَّ بفَيءِ بيتكِ ؟ قالَ : فيءُ الجبلِ أَوسعُ ، قالَ : أَنا ٱبنُ ٱلحمامةِ ، قالَ : ٱنصرِفْ وكُن أَيَّ طائرٍ تريدُ ، وٱعترضَه رجلٌ وهُوَ يرعىٰ غَنمهُ وبيدِهِ عَصا فرفعَها ، فقالَ الرجلُ : إِنَّما أَنا ضيفٌ ، قالَ : لِلضِّيفانِ أَعدَدْتُها .

٢ـ حميد الأرقط

وأَمَّا حميدٌ الأَرقطُ : فكانَ [كما في « المستطرف » ١/ ٣٧٧] هجَّاءً للضيفانِ ، وكانَ لا يُقيلُهم(١) إِلاَّ حيثُ لَم يَجِدْ بُدّاً مِنهم ، وهُوَ القائِلُ [مِنَ ٱلبسيطِ] :

---

(١) **لا يُقِيْلُهم** : لا يسقيهمُ اللبن في منتصفِ النهارِ .

لاَ مَرْحَباً بِوُجُوهِ ٱلْقَوْمِ إِذْ نَزَلُوْا كَأَنَّهُمْ إِذْ أَنَاخُوْهَا ٱلشَّيَاطِيْنُ
فَأَصْبَحُوْا وَٱلنَّوَىٰ عَالِيْ مُعَرَّسِهِمْ وَلَيْسَ كُلَّ ٱلنَّوَىٰ تُلْقِيْ ٱلْمَسَاكِيْنُ

٣ـ خالد بن صفوان

وأَمَّا **خالدُ بنُ صفوانَ** : فكانَ إذا أَخذَ جائزتَهُ . . قالَ للدرهَمِ : بأَبي أَنتَ وأُمِّي ، كم أَرضٍ قطعتَ ، وكيسٍ خرقْتَ ، وخاملٍ رفعْتَ ، ورفيعٍ أخملْتَ ، لكَ عندي أَنْ تعرىٰ ولاَ تَضحىٰ ، لأُطِيلَنَّ حَبْسَكَ ، وَأُدِيمَنَّ لُبْثَكَ .

٤ـ أبو الأسود الدؤلي

وأَمَّا **أَبو الأَسودِ الدُّؤليُّ** : فقدْ بلغَ بهِ الشحُّ أَنَّ أَعرابياً وقفَ عليهِ وهو يأكلُ ، فلم يَعْرِضْ عليهِ الأَكلَ ، فقالَ الأَعرابيُّ : أَما إِنِّي مررتُ بأَهلكَ ، قالَ : كانَ ذاكَ طريقَكَ ، قالَ : وهُم صالحونَ ، قالَ : كذلكَ تركتُهُم ، قالَ : وأمرأَتُكَ حبلىٰ ، قالَ : كذلكَ عَهْدي بِها ، قالَ : ولَدَت ، قالَ : ما كانَ لَها بدٌّ مِنْ الوِلادةِ ، قالَ : غلامينِ ، قالَ : كذلكَ كانَتْ أُمُّها ، قالَ : ماتَ أَحدُهما ، قالَ : ما كانَتْ تقوىٰ علىٰ إِرضاعِ ٱثنينِ ، قالَ : ثُمَّ ماتَ الآخرُ ، قالَ : ما كان ليبقىٰ بعد أَخيهِ ، قالَ : ثُمَّ ماتَتْ الأُمُّ ، قالَ : حُزناً علىٰ وَلدَيها ، وواللهِ لا ذُقْتَ مِن طَعَامي شيئاً ! !

هل لك علم بكلبنا نفاع؟!

ونظيرُها : أَنَّ الحجَّاجَ بعثَ بأَحدِ رجالِهِ إِلىٰ أَرضٍ بعيدةٍ ليعملَ فيها ، فجاءَهُ إِنسانٌ من بلادِهِ بعدَ مدَّةٍ طويلةٍ ، ٱنقطعَتْ فيها عنهُ أَخبارُ أَهلِهِ ، فسأَلَهُ عنهُم ، وقالَ : هَلْ لكَ عِلْمٌ بِكَلْبِنا (نَفَّاعٌ) ؟ قالَ : قد ملأَ الْحيَّ نباحاً ، قالَ : وما فعلَ ولَدي عميرٌ ؟ قالَ : قد ملأَ الْحَيَّ أَولاداً ، قالَ : فأُمُّ عميرٍ ؟ قالَ : لا تدخلُ مِنَ الباب إِلاَّ منحرفةً ، قالَ : وجَمَلُنا (زريقٌ) قالَ : ما أَعظمَ سَنامهُ ، وأَكثرَ منفعتهُ ، قالَ : وما حالُ الدارِ ؟ قالَ : عامرةٌ بأَهلِها ، ثمَّ قامَ عنهُ

وأَكلَ ، ولم يَدْعُهُ ، ولما فرغَ من أَكلِهِ . . أَقبلَ عليهِ ، وقالَ : أَعدْ عليَّ خبرَكَ يا مباركَ الناصيةِ ، وقد مرَّ كلبٌ ، فقالَ : أَين كلبُنا (نفَّاعٌ) مِن هٰذا ؟ قالَ : وأَينَكَ من (نفاع) ؟ قالَ : أَلم تقُل لي : إِنَّه ملأَ الحيَّ نباحاً ؟ فقالَ : كلاَّ ، ولٰكنَّه قد ماتَ ، قالَ : وما سببُ موتهِ ؟ قالَ : ٱختنقَ بعظمٍ من عظامِ زريقٍ ، قالَ : وماتَ زريقٌ ؟! قالَ : نَعَم ؛ مِنْ كثرةِ ما يحملونَ عليهِ الماءَ إِلىٰ قبرِ أُمِّ عميرٍ ، قالَ : وماتَتْ أُمُّ عميرٍ ؟! قالَ : نَعَم ؛ حزناً علىٰ ولدِها عميرٍ ، قالَ : وماتَ عميرٌ ؟! قالَ : نعم ؛ سقطت عليهِ الدارُ .

العجب من بخل ابي الأسود

وإِنِّي لأَتعجَّبُ كثيراً مما يصفون بهِ أَبا الأَسودِ مِن البخلِ ، مع طولِ صحبتِهِ لأَميرِ المؤمنينَ ، والمرءُ مِن جليسِهِ ، وذاكَ مَن لا تزنُ عندهُ الدنيا ورقةً خضراءَ في فمِ جرادةٍ تقضمُها ، وهُوَ الذي يقولُ فيهِ معاويةُ : أَما واللهِ لو كانَ لهُ بيتٌ مِن تبنٍ وبيتٌ مِن ذهبٍ . . لنفدَ بيت ذهبِهِ قبلَ أَن ينفدَ بيتُ تِبْنِهِ ، غيرَ أَنَّ الطبيعةَ أَغلبُ ، والأَحوالَ تختلفُ ، والعادَةَ تنخرقُ ، والمسبَّبَاتِ كثيراً ما تتخلفُ ، فضلاً عن هٰذا .

ولقدْ أَرادَ بعضُهم أَن يتصدَّقَ ، فغلَبَهُ طبعُهُ ، فلم يقدرْ ، مَعَ حَزْوَةٍ[1] علىٰ نفسِهِ .

مثل البخيل والمنفق من الحديث النبوي

وفي « الصحيحِ » : « **مَثَلُ ٱلْبَخِيْلِ وَٱلْمُنْفِقِ كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُبَّتَانِ مِنْ حَدِيْدٍ مِنْ ثُدُيِّهِمَا إِلَىٰ تَرَاقِيْهِمَا ، فَأَمَّا ٱلْمُنْفِقُ : فَلاَ يُنْفِقُ إِلاَّ سَبَقَتْ عَلَىٰ جِلْدِهِ ، حَتَّىٰ تُخْفِيَ بَنَانَهُ وَتَعفُوَ أَثَرَهُ ، وَأَمَّا ٱلْبَخِيْلُ : فَلاَ**

(١) الحَزْوةُ : حرقةٌ في الحلقِ والصدرِ والرأسِ مِنَ الوجعِ والغيظِ .

يُرِيْدُ أَنْ يُنْفِقَ شَيْئاً إلاَّ لَزِقَتْ كُلُّ حَلقَةٍ مَكَانَهَا ، فَهُوَ يُوْسِعُهَا فَلاَ تَتَّسِعُ »[1] .

مثل المنفق
وللهِ دَرُّ ٱبنِ الروميِّ إذ يقولُ في معنىٰ الشقِّ الأَوَّلِ [في « ديوانهِ » ٣٩٣/١ مِنَ الطَّويلِ] :

سَجَايَا إِذَا هَمَّتْ بِخَيْرٍ تَسَرَّعَتْ إِلَيْـهِ وَإِنْ هَمَّـتْ بِشَـرٍّ تَنَـاءَتِ

مثل البخيل
وفي معنىٰ الشقِّ الثاني يقولُ الآخرُ [مِنَ الطَّويلِ] :

يُعَـالِـجُ نَفْسـاً بَيْـنَ جَنْبَيْـهِ كَـزَّةً إِذَا هَمَّ بِٱلْمَعْرُوْفِ قَالَتْ لَهُ مَهْلاً[2]

وقالَ بعضُ العربِ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَدُوْنَ ٱلنَّـدَىٰ فِـيْ كُـلِّ قَلْـبٍ ثَنِيَّـةٌ لَهَا مَصْعَدٌ حَزْنٌ وَمُنْحَدَرٌ سَهْلُ[3]

وجوب إكرام الوافد
وَمِمَّا يَتعلَّقُ بوجوبِ إكرامِ الوافدِ ، ولزومِ حقِّهِ علىٰ من قصدَهُ . . ما بلغنا أَنَّ بعضَ طلبةِ الحديثِ سافر إلىٰ بلدٍ بعيدٍ للسماع عنْ بعضِ المشايخِ ، فلمَّا قدمَ عليهِ . . تشاغلَ عنهُ بإلقاءِ الخبزِ لكلبٍ كان عندَهُ ، فوقعَ في نفسِهِ ، فلمَّا فرغَ من إطعام الكلبِ ، أَقبلَ عليهِ وقالَ لهُ : ما منَعَني أن ألتفتَ إليكَ قبلُ ، إلاَّ أَنَّ هـٰذا الكلبَ علَّقَ أَملَه بي ، فكرهتُ أَن أَقطعَهُ ، وروىٰ لهُ بسندهِ حديثَ : « مَنْ قَطَعَ رجَاءَ مَنِ ٱرْتَجَاهُ . . قَطَعَ ٱللهُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ رَجَاءَهُ »[4] .

---

(١) أخرجهُ عن أبي هريرة رضيَ اللهُ عنهُ بنحوهِ البخاريُّ (٥٧٩٧) في اللباس ، ومسلمٌ (١٠٢١) في الزكاةِ .
(٢) كزَّةٌ : صلبةٌ .
(٣) الثنيَّةُ : العَقَبَةُ .
(٤) ذكره الإمامُ العجلونيُّ في « كشفِ الخفاءِ » (٢٥٧٣) وقالَ : عزاهُ بعضُهم =

جوده ﷺ

والله أعلمُ بحالِ هـٰذا الحديثِ ، ولـٰكنَّهُ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم يكرمُ الوفودَ ، ويقولُ : « أَجِيزُوْا ٱلْوَفْدَ بِمِثْلِ مَا كُنْتُ أُجِيزُهُ »(١) .

تأثير الأخفاف والحوافر فـي الحصـى عنـد الشعراء

أَمَّا ما يذكرُهُ الشعراءُ من تأثيرِ الأَخفافِ والحوافرِ بالحصىٰ . . فإِنَّه لاَ يُحصىٰ كثرةً ، ومنهُ قولُ ٱمرىءِ ٱلقيسِ [في « ديوانهِ » ٨٨ مِنَ الطَّويلِ] :

كَأَنَّ ٱلْحَصَىٰ مِنْ خَلْفِهَا وَأَمَامِهَا ... إِذَا نَجلَتْهُ رِجْلُهَا خَذْفُ أَعْسَرَا(٢)
كَأَنَّ صَلِيْلَ ٱلْمَرْوِ حِيْنَ تُشِذُّهُ ... صَلِيْلُ زُيُوْفٍ يُنْتَقَدْنَ بِعَبْقَرَا(٣)

وقولُ عنترةَ [في « ديوانهِ » ٥٩ مِنَ ٱلكاملِ] :

خَطَّـارَةٌ غِـبَّ ٱلسُّـرَىٰ زَيَّـافَـةٌ ... تَطِسُ ٱلإِكَامَ بِذَاتِ خُفٍّ مِيْثَمِ(٤)

وقولُ الحُطيئَةِ [في « ديوانهِ » ٦٠ مِنَ الطَّويلِ] :

وَتَرْمِي يَدَاهَا بِٱلْحَصَىٰ خَلْفَ رِجْلِهَا ... وَتَرْمِي بِهِ ٱلرِّجْلاَنِ دَابِرَةَ ٱلْيَدِ(٥)

= للإمامِ أحمدَ عن أبي هريرةَ مرفوعاً ، لكن قالَ السخاويُّ : هوَ مختلقٌ علىٰ الإمامِ أحمدَ .

(١) أورده المباركفوري في « تحفة الأحوذي » (٦/٢٥٨) .

(٢) نَجلَتْهُ : رمَتهُ بمناسِمِها . الخَذفُ : الرمي . الأَعسرُ : الذي يعملُ بيدهِ اليسرى .

(٣) صليلُ المروِ : صوتُ الحجارةِ . تُشِذُّهُ : تطيِّرُهُ . الزيوفُ : الدراهمُ الزائفةُ التي لا فضَّةَ فيها . عبقرُ : وادٍ زعموا أَنَّهُ كثيرُ الجنِّ ، وإليه تنسبُ نفائسُ الأَشياءِ وبدائعُ الفكرِ ، فيقالُ : هـٰذا بساطٌ عبقريٌّ ، وهذا رأيٌ عبقريٌّ .

(٤) خطارةٌ : تخطِرُ بذنبها وتحرِّكُهُ وترفُصُهُ . زيَّافةٌ : سريعةٌ . الوَطْسُ : الضربُ الشديدُ . ميثَمٌ : عدَّاءٌ .

(٥) دابرُ اليدِ : موضعُ الحافرِ منَ اليدِ .

وقولُ شريحِ بنِ الحارثِ يمدحُ حبيبَ بنَ مسلمةَ الفهريَّ صاحبَ رسولِ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم ورضيَ اللهُ عنهُ [مِنَ الطَّويلِ] :

أَلاَ كُلُّ مَنْ يُدْعَىٰ حَبِيباً وَلَوْ بَدَتْ مُرُوءَتُهُ يَفْدِيْ حَبِيْبَ بَنِيْ فِهْرِ
هُمَامٌ يَقُوْدُ ٱلْخَيْلَ حَتَّىٰ كَأَنَّمَا يَطَأْنَ بِرَضْرَاضِ ٱلْحَصَىٰ حَاجِمَ ٱلْجَمْرِ (١)

وقولُ أَبي حَزْرَةَ [مِنَ ٱلكاملِ] :

يَدَعُ ٱلرَّضِيْمَ إِذَا جَرَىٰ فِلَقاً بِتَوَائِمٍ كَمَوَاسِمٍ سُمُرِ (٢)

وقولُ طفيلٍ ٱلغنويِّ [في « ديوانهِ » ٣٦ مِنَ الطَّويلِ] :

وَهَصْنَ ٱلْحَصَىٰ حَتَّىٰ كَأَنَّ رُضَاضَهُ ذُرَىٰ بَرَدٍ مِنْ وَابِلٍ مُتَحَلِّبِ (٣)

وقولُ ٱلفرزدقِ [في « ديوانهِ » ٢/ ٥٧٠ مِنَ ٱلبسيطِ] :

تَنْفِي يَدَاهَا ٱلْحَصَىٰ فِيْ كُلِّ هَاجِرَةٍ نَفْيَ ٱلدَّرَاهِيمِ تَنْقَادُ ٱلصَّيَارِيْفِ

وقولُ أَبي الطَّمحانِ [مِنَ الطَّويلِ] :

تَرُضُّ حَصَىٰ مَعْزَاءَ جَوْشٍ وَأَكْمَةٍ بِأَخْفَافِها رَضَّ ٱلنَّوَىٰ بِٱلْمَرَاضِحِ (٤)

وقولُ أَبي الشِّيصِ [في « ديوانهِ » ٧٣ مِنَ ٱلكامِلِ] :

وَعِصَابَةٍ صَرَفَتْ إِلَيْكَ وُجُوْهَهَا نَكَبَاتُ دَهْرٍ لِلْعُلاَ عَضَّاضِ
شَدُّوْا بِأَعْوَادِ ٱلرِّحَالِ مَطِيَّهُمْ مِنْ كُلِّ أَهْوَجَ لِلْحَصَىٰ رَضَّاضِ

---

(١) الرَّضراضُ : الحصىٰ الصغيرُ .

(٢) الرضيمُ : الصخورُ العِظامُ . السمُرُ : شجرُ الطلحِ .

(٣) الوهصُ : شدَّةُ الوطءِ . رضاضُهُ : ما ٱنكسرَ منهُ . ذُرىٰ بَرَدٍ : أعاليهِ .

(٤) المراضحُ ـ جمع مِرضاحٍ ـ : وهوَ الحجرُ الذي يُرضَحُ ـ أي يكسرُ ـ به النوىٰ . معزاءُ : أرضٌ معزاء ؛ أي : شديدةٌ صلبةٌ .

يَـزمِيْـنَ بِـالْمَـرْوِ الطَّـرِيْـقَ وَتَـارَةً   يَخْذِفْنَ وَجْهَ الأَرْضِ بِالرَّضْرَاضِ

وقولُ ٱبنِ دريدٍ [مِنَ الرَّجزِ] :

يَرُضُّ بِٱلْبِيْدِ ٱلْحَصَا فَإِنْ رَقَىٰ   إِلَىٰ ٱلرُّبَىٰ أَوْرَىٰ بِهَا نَارَ ٱلْحِبَا

وقولُ ٱبنِ ٱلمعتزِّ [مِنَ الكامِلِ] :

وَكَأَنَّمَا نَقَشَتْ حَوَافِرُ طِرْفِهِ   لِلنَّاظِرِيْنَ أَهِلَّةً فِيْ ٱلْجَلْمَدِ(١)

وقولُ أَبي تمَّامٍ [في « ديوانِهِ » ٢/ ٢٦٧ مِنَ ٱلبسيطِ] :

فَلَـوْ تَـرَاهُ مُشِيْحـاً وَٱلْحَصَـىٰ فِلَـقٌ   تَحْتَ ٱلسَّنَابِكِ مِنْ مَثْنَىٰ وَوُحْدَانِ(٢)

تأثيرها عند المتنبي

وقد تكرَّرَ ٱلمعنىٰ وما يقاربهُ في « ديوانِ النَّاظمِ » ، فمنهُ قولُهُ [في « ٱلعُكبَرِيِّ » ١/ ٢٦٦ مِنَ المنسرحِ] :

أَوَّلَ حَـرْفٍ مِـنِ ٱسْمِـهِ كَتَبَـتْ   سَنَابِكُ ٱلْخَيْلِ فِيْ ٱلْجَلاَمِيْدِ(٣)

وقولُهُ [في « ٱلعُكبَرِيِّ » ٣/ ١٧٦ مِنَ ٱلطَّويلِ] :

إِذَا ٱللَّيْـلُ وَارَانَـا أَرَتْنَـا خِفَـافُهَـا   بِقَدْحِ ٱلْحَصَىٰ مَا لاَ تُرِيْنَا ٱلْمَشَاعِلُ

وقولُهُ [في « ٱلعُكبَرِيِّ » ٣/ ١٧ مِنَ ٱلوافِرِ] :

مَشَـىٰ ٱلأُمَـرَاءُ حَـوْلَيْهَـا حُفَـاةً   كَأَنَّ ٱلْمَرْوَ مِنْ زِفِّ ٱلرِّئَالِ(٤)

---

(١) الطِّرْفُ : بكسر الطاء : الكريمُ مِنَ الخيلِ . الجَلْمَدُ : الصخرُ .

(٢) السنابك ـ مفردُهُ سنبكٌ ـ : طرفُ الحافرِ . المشيحُ : أشاحَ بوجههِ أعرضَ متكرِّهاً .

(٣) الجلاميدُ : الصخورُ والحِجارُ .

(٤) المروُ : حجارةٌ برَّاقةٌ ، يكونُ فيها النارُ . الزِّفُّ : صغار الريشِ . الرئالُ ـ جمعُ رَألٍ ـ : وهوَ ولدُ النعامِ .

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٤/ ٢٨٥ مِنَ الطَّويلِ] :

تَمَاشَىٰ بِأَيْدٍ كُلَّمَا وَافَتِ ٱلصَّفَا ... نَقَشْنَ بِهِ صَدْرَ ٱلْبُزَاةِ حَوَافِيَا(١)

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٣/ ٢٢٩ مِنَ الوافرِ] :

إِذَا وَطِئَتْ بِأَيْدِيهَا صُخُوراً ... يَفِئْنَ لِوَطْءِ أَرْجُلِهَا رِمَالاَ(٢)

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٢٥٩ مِنَ الكاملِ] :

أَرَكَائِبَ ٱلأَحْبَابِ إِنَّ ٱلأَدْمُعَا ... تَطِسُ ٱلْخُدُودَ كَمَا تَطِسْنَ ٱلْيَرْمَعَا(٣)

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٣٢٥ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَلْمُومَةٌ سَيْفِيَّةٌ رَبَعِيَّةٌ ... يَصِيحُ ٱلْحَصَىٰ فِيهَا صِيَاحَ ٱللَّقَالِقِ(٤)

القول في تأثير أقدامه ﷺ في الصخر

وإذا ٱنتهىٰ ٱلكلامُ إلىٰ هنا في ٱلموضوعِ . . فقدْ يُسأَلُ عمَّا يأتي ذِكرُهُ في ٱلمدائحِ ٱلنَّبويَّةِ بكثرةٍ ، مِنْ لينِ ٱلصَّخرِ لأَقدامِهِ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ، وتأثيرِها فيهِ إذا مشىٰ عليهِ ، وأرجو أَنْ لا يُعَدَّ مِنْ سوءِ ٱلأَدبِ علىٰ حضرتِهِ ٱلشَّريفةِ ومقامِهِ ٱلكريمِ . . قرنُهُ إلىٰ ما سبقَ ، لاختلافِ ٱلأَلوانِ وٱلجهاتِ ، ولأَنَّ ٱلقصدَ ٱلفائدةُ لَيسَ غيرُ ، فنقولُ في ٱلجوابِ عنهُ : ما قالهُ ٱلسُّيوطيُّ : مِنْ أَنَّهُ لَمْ يقفْ لَهُ علىٰ أَصلٍ ولا سَنَدٍ، ولا رأَىٰ مَنْ خرَّجَهُ في شيءٍ مِنْ كتبِ ٱلحديثِ .

---

(١) الصفا : الصخرُ . البُزاةُ : جمعُ بازٍ . حوافياً : جمعُ حافٍ .

(٢) يَفِئْنَ : يعدنَ .

(٣) تطِسُ : تدقُّ . اليرمَعُ : حجارةٌ بيضٌ صغارٌ رِخوةٌ .

(٤) الملمومةُ : الكتيبةُ المجتمعةُ . سيفيَّةٌ : منسوبة إلى سيف الدولة . ربَعيَّةٌ : منسوبةٌ إلىٰ ربيعةَ ، وهيَ قبيلةُ سيفِ الدولةِ . اللقالقُ ـ جمع لقلقٍ ـ : وهو طائرٌ كبيرٌ ، يسكنُ العمرانَ في أَرضِ (العراقِ) .

أثر قدمَي إبراهيم عليه الصلاة والسلام في الحجر

وأَمَّا أَثَرُ قَدَمَي إِبْراهيمَ [عليه الصلاة والسلام] في ٱلحَجَرِ الَّذي كانَ يبني عليهِ ٱلبيتَ ، وأَنَّه ٱلمَقامُ : فقدْ وردَ ذلكَ ، أَخرجهُ ٱلأَزرقيُّ في « تاريخِ مكَّةَ » مِنْ طريقِ أَبي سعيدٍ ٱلخُدريِّ ، عَنْ عبدِ ٱللهِ بنِ سلامٍ ـ رضيَ ٱللهُ عنهُما ـ موقوفاً عليهِ بسندٍ صحيحٍ .

وأَخرجَهُ عبدُ بنُ حُميدٍ في « تفسيرِهِ » عَنْ قَتادةَ . وأَخرجهُ أَيضاً عَنْ عِكرمةَ ، وقد أَفضْتُ ٱلقولَ فيما يتعلَّقُ بهِ في « حاشِيَتي علىٰ الشمائِلِ » ، وبما أَنَّ ما بقيَ مِنْ أَوراقِها عَنِ ٱلأَرَضَةِ[1] . . مُبَعْثراً ، فٱستئنافُ النَّظرِ فيها يُكلِّفُ تعَباً ، ويستغرِقُ وقتاً ، وفيما ذكرناهُ ٱلكفايةُ .

* * *

(١) الأَرَضَةُ : نوعٌ مِنَ الدُّودِ الصغارِ تأْكلُ الأَشياءَ .

[قالَ أَبو الطَّيِّب المتنبِّي في « العُكبَريِّ » ٣/ ١٦٨ مِنَ ٱلبسيطِ] :

وَضَاقَتِ ٱلأَرْضُ حَتَّىٰ إِنَّ هَارِبَهُمْ	إِذَا رَأَىٰ غَيْـرَ شَـيْءٍ ظَنَّـهُ رَجُـلاَ

أَكثرُ الناسِ علىٰ ٱستهجانِ هـٰذا البيتِ ، وما يكثرونَ بهِ في ٱنتقادِهِ ليسَ عندي بالمقبولِ ، ووجهُ الأَخذِ عليهِ أَنَّ غيرَ الشيءِ معدومٌ ، والمعدومُ ليسَ بشيءٍ ، وهُوَ أَخذٌ يسيرٌ ، يمكنُ دفعهُ : الدفاع عن المتنبي

أَولاً : بأَنَّ طائفةً من المعتزلَةِ والفلاسفةِ . . ذهبوا إِلىٰ أَنَّ المعدومَ شيءٌ بمعنىٰ أَنَّهُ حقيقةٌ متقرِّرَةٌ في الخارجِ بحجتينِ : بقولِهِ جلَّ شأنُهُ : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [النحل : ٤٠] ، وَبِأَنَّ المعدومَ معلومٌ متميِّزٌ ، وكلُّ متميزٍ ثابتٌ ، فالمعدومُ ثابتٌ .

وثانياً : بأَنَّ المرادَ مِن الرؤيةِ التوهُّمُ ، فكثيراً ما تتراءَىٰ للخائِفِ وغيرِهِ أَشباحٌ من غيرِ حقيقةٍ ، وذلكَ الذي يريده أَبو الطيِّبِ ، وقد أَلمَّ فيهِ بقولِ جريرٍ [مِنَ الكاملِ] :

مَا زَالَ يَحْسَبُ كُلَّ شَيْءٍ بَعْدَهُمْ	خَيْـلاً تَكُـرُّ عَلَيْهِـمُ وَرِجَـالاَ

وهوَ مِن قولِهِ تعالىٰ : ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾ [المنافقون : ٤] كذا قلتُهُ ـ واللهِ ـ من أَوَّلِ وهلةٍ عندَ ٱقتراءِ البيتِ ، ثمَّ رأَيْتُ الشارحَ ذكرَ مثلَهُ عَنِ الأَخطلِ ، فَسَرَّني مِنْ نَفْسي ، وقد تكرَّرَ ما يشبهُهُ في « ديوانِهِ » منهُ قولُه [في « العُكبَريِّ » ١/ ٣٤٤ مِنَ المتقاربِ] : الخوف يقطع الجوف

يَرَوْنَ مِنَ ٱلذُّعْرِ صَوْتَ ٱلرِّيَاحْ	صَهِيـلَ ٱلْجِيَـادِ وَخَفْـقَ ٱلْبُنُـوْدْ

وقالَ أَبو تمَّامٍ [في « ديوانهِ » ٢/ ٤١٩ مِنَ البسيطِ] :

حَيْرَانَ يَحْسَبُ سَجْفَ ٱلنَّقْعِ مِنْ دَهَشٍ طَوْداً يُحَاذِرُ أَنْ يَنْقَضَّ أَوْ جُرُفَا[1]

وقالَ يصفُ جباناً [في « ديوانهِ » ١/ ١٠٢ مِنَ البسيطِ] :

مُـوَكَّـلٌ بِيَفَـاعِ ٱلأَرْضِ يَشْـرُفُهَـا مِنْ خِفَّةِ ٱلخَوْفِ لاَ مِنْ خِفَّةِ ٱلطَّرَبِ[2]

وقالَ الآخَرُ [مِنَ الطَّويلِ] :

لَقَدْ خِفْتُ حَتَّىٰ لَوْ تَمُرُّ حَمَامَةٌ لَقُلْتُ : عَدُوٌّ أَوْ طَلِيْعَةُ مَعْشَرِ

وقالَ لَبيدٌ [في « ديوانه » مِنَ الطَّويلِ] :

كَـأَنَّ بِـلاَدَ ٱللهِ وَهْـيَ عَـرِيْضَـةٌ عَلَىٰ ٱلْخَائِفِ ٱلْمَطْلُوْبِ كِفَّةُ حَابِلِ[3]

قصة المنزوف ضرطاً

وكانَ مِن حديثِ المنزوفِ ضرطاً [كما في « مجمع الأمثال » ١/ ١٨٠] : أَنَّ ٱمرأَةً مِنَ العربِ تزوَّجَتْ برجلٍ ينامُ إِلىٰ الضُّحىٰ ، فكانت تأْتيهِ معَ صواحبَ لهُ بصبوحِهِ[4] فتقولُ لهُ : قُم فٱصطَبِحْ ، فيقولُ : لو لعاديَةٍ تنبِّهيني ، فنبَّهَتْهُ مرَّةً وقالَتْ لَهُ : هٰذهِ نَواصي الخيلِ ، فجعلَ يقولُ : (الخيلُ الخيلُ) ويَضرِطُ حتَّىٰ ماتَ فَرَقاً ، فضربَ بهِ المثلُ .

رواية أخرى للقصة

وقيلَ [كما في « مجمع الأمثال » ١/ ١٨٠] : إِنَّما هيَ دخْتَنوس بِنْتُ لقيط بنِ زرارَةَ كانَتْ تحتَ عمرِو بنِ عمرٍو وهُوَ شيخٌ أَبرصُ ، نامَ

---

(١) سجفُ النقعِ : سترُ الغبارِ . الطودُ : الجبلُ . الدَّهَشُ : الخوفُ . الجُرُفُ : ما تجرفهُ السيولُ وتأْكلُهُ مِنَ الأَرضِ .

(٢) اليفاعُ : ما ٱرتفعَ من الأَرضِ . يشرفهُ : يعلوهُ .

(٣) الكِفَّةُ : حبالةُ الصائِدِ . الحابلُ : الذي يصيدُ بالحبال .

(٤) الصَّبوحُ : اللبنُ الذي يُحلبُ بالغداةِ .

يوماً في حجرِها ، فجخفَ[1] ، وسالَ لعابُهُ ، فرفعَ رأسَهُ وهيَ تُؤَفِّفُ ، فقالَ : تحبينَ أَنْ أطلقَكِ ؟ قالَتْ : نعم ، فنكحها رجلٌ جسيمٌ جميلٌ ، وأسمه عميرُ بنُ عمارةَ بنِ معبدِ بنِ زرارةَ ، وبعقبِ ذلكَ أغارَتْ بكرٌ على بني دارمٍ ، وكانَ زوجُها نائماً فنبهتهُ تظنُّ بهِ خيراً ، فلمْ يزلْ يحبقُ[2] حتَّى ماتَ خوفاً ، وأُخِذَتْ دختنوس فركبَ في أثرِها عمرُو بنُ عمرٍو ولحقَ بالقومِ ، وأثخنَ فيهم ، قتلَ أربعةً أو ثلاثةً ، واستَرجَعَها مِنهُم ، وقالَ لَها :

أَيَّ خَلِيْلَيْـكِ وَجَـدْتِ خَيْـراً ... أَأَلْعَظِيْـمُ فَيْشَـةً[3] وَأَيْـراً

أَمِ ٱلَّـذِيْ يَـأْتِـيْ ٱلْعَـدُوَّ سَيْـراً ؟!!

القتال في النوم

وقالَ الحجَّاجُ لحميدِ الأرقطِ ـ وقد أنشدَ قصيدةً يصفُ فيها الحربَ ـ : يا حميدُ ، هل قاتلتَ قطُّ ؟ قالَ : نعم ، مرَّةً في النومِ ، قالَ : وكيفَ كانَتْ وَقعَتُكَ ؟ قالَ : انتبهتُ وأنا منهزمٌ .

أسرع من الغزال في الفرار

وقالَ بعضُهم [مِنَ الوافرِ] :

وَفِيْ ٱلْهَيجَاءِ مَا جَرَّبْتُ نَفْسِيْ ... وَلَـٰكِنْ فِيْ ٱلْهَزِيْمَةِ كَٱلْغَزَالِ

وكفىٰ بذلكَ تجربةً ، إذ كيفَ يصبرُ للهيجاءِ مَن كانَ بتلكَ المثابةِ من فراغِ الجوفِ .

العطب مقرون بالشجاعة

وقالَ أبو الغمرِ [مِنَ البسيطِ] :

بَاتَتْ تُشَجِّعُنِيْ عِرْسِيْ وَقَدْ عَلِمَتْ ... أَنَّ ٱلشَّجَاعَةَ مَقْرُوْنٌ بِهَا ٱلْعَطَبُ

لِلْحَرْبِ قَوْمٌ أَضَلَّ ٱللهُ سَعْيَهُمُ ... إِذَا دَعَتْهُم إِلَىٰ مَكْرُوْهِهَا وَثَبُوْا

وَلَسْتُ مِنْهُـمْ وَلاَ أَهْـوَىٰ فِعَـالَهُـمُ ... لاَ ٱلْجِدُّ يُعْجِبُنِيْ مِنْهُمْ وَلاَ ٱللَّعِبُ

---

(١) الجخيفُ : صوتٌ يخرجُ من الجوفِ ، أشدُّ منَ الغطيطِ .

(٢) حَبقَ : أخرجَ ريحَ الحدَث مع صوتٍ .

(٣) الفَيشَةُ : رأسُ الذكرِ .

قتلة واحدة خير

وأُتِيَ الحجَّاجُ برجلٍ من أَصحاب ٱبنِ الأشعثِ فقالَ لهُ : أَسأَلُكَ أَن تقتُلَنِي وتخلِّصَني ، فقالَ لَهُ الحجَّاجُ : لِمَ ؟ فقالَ : إنِّي أَرَىٰ كلَّ ليلةٍ في المنامِ أنَّك تقتلُني ، وقَتلةٌ واحدةٌ خيرٌ ، فضحِكَ وخلَّىٰ لَهُ سبيلَهُ .

الغضب في الحياة خير من الرضا في الممات

وقيلَ لأَسلمَ بنِ زرعةَ : إنِ ٱنهزمتَ من أَصحاب مِرداسٍ . . غَضِبَ عليكَ عبيدُ اللهِ بنُ زيادٍ ، قالَ : لأَن يغضبَ عليَّ وأَنا حيٌّ ، خيرٌ من أَنْ يرضىٰ عَنِّي وأَنا ميتٌ .

ليس لي غير رأسي

قالَ بعضُهُم [كما في « ديوان الحماسة » ٢/ ٣٩٤ مِنَ الوافرِ] :

يَقُـوْلُ لِـيَ ٱلأَمِيْـرُ بِغَيْـرِ نُصْـحٍ   تَقَدَّمْ حِيْنَ جَدَّ بِنَا ٱلمِرَاسُ[1]
وَمَـا لِـيْ إِنْ أَطَعْتُـكَ مِـنْ حَيَـاةٍ   وَمَا لِيْ بَعْدَ هَـٰذا ٱلرَّأْسِ رَاسُ

روح بن عدي يأمر أبا دلامة للخروج في القتال

وآلىٰ المنصورُ ليُخرجنَّ أَبا دُلامةَ للحربِ ، وأَلحقهُ بروْحِ بنِ عديِّ بنِ حاتمٍ المهلبيِّ لقتالِ الشُّراةِ[2] ، فلمَّا ٱلتقىٰ الجمعانِ . .

---

(١) المِراسُ : الشِّدَّةُ في القتالِ .

(٢) الشُّراةُ : ويقالُ الشُّرىٰ ٱسمٌ ٱتَّصلَ بالخوارجِ عَبرَ مراحِلِ التاريخِ ، وهوَ عندَهم لقبُ جماعةٍ تتألَّفُ مِن أَربَعينَ رَجلاً أَو أَكثرَ تكونُ إلىٰ جانبِ الأَئِمَّةِ ؛ مهمَّتُها باديءَ الأمرِ ٱمتحانُ الأَئِمَّةِ بما يستدِلُّونَ بهِ علىٰ سرائِرِهم وخفاياهم ، فيُرَجِّحونَ للإمامةِ مَنْ هوَ أَهلٌ لَها ، وبعدَ البَيعةِ يفرضونَ علىٰ الإمامِ رقابتَهم ، ويُسْدُون له النصيحةَ ، ويُشيرونَ عليهِ باتخاذِ ما يرونَهُ مناسباً مِنَ القَراراتِ ، فَهُم أَهلُ حَلٍّ وعقدٍ . وهم أيضاً أصحابُ شورىٰ .

وٱشتقَّ ٱسمهم مِن قولهِ تعالىٰ : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة : ٢٠٧] باعتبارِهم ٱشترَوا الآخرةَ بالدنيا ، وعاهدوا اللهَ علىٰ الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عنِ المنكرِ ، دونَ مبالاةٍ ولا خوفٍ مِنَ الموتِ ، ولو أَدَّىٰ ذلكَ إلىٰ القتلِ ، وعلىٰ أقوالِهم وأفعالِهم يكونُ مدارُ أقوالِ الناسِ بالأَئِمَّةِ .

خرجَ واحدٌ من صفِّ الشُّراةِ يطلبُ ٱلبِرازَ ، فقالَ لهُ رَوحٌ [كما في «وفيات الأعيان» ٢/ ٣٢٣] : ٱخرجْ إليهِ ، فقالَ [مِنَ البسيطِ] :

إِنِّـيْ أَعُـوْذُ بِـرَوْحٍ أَنْ يُقَـدِّمَنِـيْ ... إِلَىٰ ٱلْقِتَالِ فَتَخْزَىٰ بِيْ بَنُوْ أَسَدِ
إِنَّ ٱلْبِـرَازَ إِلـىٰ ٱلأَقْـرَانِ أَعْلَمُـهُ ... مِمَّا يُفَرِّقُ بَيْنَ ٱلرُّوْحِ وَٱلْجَسَدِ
إِنَّ ٱلْمُهَلَّبَ حُبَّ ٱلْمَوْتِ أَوْرَثَكُمْ ... وَمَا وَرِثْتُ ٱخْتِيَارَ ٱلْمَوْتِ عَنْ أَحَدِ
لَوْ أَنَّ لِيْ مُهْجَةً أُخْرَىٰ لَجُدْتُ بِهَا ... لَٰكِنَّهَـا خُلِقَـتْ فَـرْداً فَلَـمْ أَجِـدِ

فضحكَ وأعفاهُ . وفي القصَّةِ طولٌ ونادرةٌ مشهورةٌ[1] .

---

(١) والقصَّةُ كما ذكرهَا ٱبنُ خَلِّكَانَ (٢/ ٣٢٣) :

أَنَّ روحَ بنَ حاتمٍ كانَ والياً علىٰ (البصرةِ) . . فخرجَ إلىٰ حربِ الجيوشِ الخراسانيّةِ ، ومعَهُ أبو دُلامةَ ، فخرجَ مِن منتصفِ العدوِّ مبارزٌ ، فخرجَ إليهِ جماعةٌ فقتلَهم ، فتقدَّمَ روحٌ إلىٰ أبي دُلامةَ بمبارزَتِهِ ، فٱمتنعَ ، فألزمَهُ ، فاستعفاهُ ، فلَم يُعفِهِ ، فأنشدَ أبو دُلامةَ الأبياتَ : إِنِّيْ أَعُوْذُ بِرَوْحٍ . . .

فأَقسمَ عليهِ ليخرجَنَّ ، وقالَ : لماذا تأخذُ رزقَ السلطانِ ؟ قالَ : لأُقاتِلَ عنهُ .

قالَ : فما لكَ لا تبرزُ إلىٰ عدوِّ اللهِ ؟ فقالَ : أيُّها الأميرُ ، إِنْ خرجتُ إليهِ . . لحقتُ بمن مضىٰ ، وما الشرطُ أَنْ أُقتَلَ عَنِ السلطانِ ، بَل أُقاتِلَ عنهُ ، فحلفَ رَوْحٌ لتخرجنَّ إليهِ فتقتلَهُ ، أَو تأسرَهُ ، أَو تُقْتَلَ دونَ ذلكَ .

فلَمَّا رأَىٰ أبو دُلامةَ الجِدَّ مِنهُ . . قالَ :

أيُّها الأميرُ ، تعلَمُ أَنَّ هذا هوَ أَوَّلُ يوم مِنْ أَيّامِ الآخرةِ ، ولا بدَّ فيهِ مِنَ الزوَّادَةِ ، فأَمَر لهُ بذلكَ ، فأَخذَ رَغيفاً مطويًّا علىٰ دجاجةٍ ولحمٍ ، وشيئاً مِنَ الشرابِ وشهرَ سيفاً ، وحَمَلَ ، وكانَ تحتهُ فرسٌ جوادٌ ، فأَقبلَ يجولُ ، ويلعبُ بالرُّمحِ ، وكانَ مليحاً في الميدانِ ، والفارسُ يلاحظُهُ ، ويطلبُ منهُ غِرَّةً ؛ حتَّىٰ إذا وجدَها . . حملَ عليهِ ، والغبارُ كالليلِ .

فـأَغمـدَ أَبـو دُلامـةَ سيفَـهُ ، وقـالَ للرجـلِ : لا تعجـل ، وٱسمـعْ مِنِّـي =

. . . .

= ـ عافاكَ اللهُ ـ كلماتٍ أُلقيهنَّ إليكَ ؛ فإنَّما أتيتُكَ في مهمٍّ ، فوقفَ قبالَهُ ، وقالَ : ما المهمُّ ؟ قالَ : أتعرفني ؟ قالَ : لا . قالَ : أنا أبو دُلامةَ . قالَ : قد سمعتُ بكَ ـ حيَّاكَ اللهُ ـ فكيفَ برزتَ إليَّ ، وطمعتَ فِيَّ ، بَعدَ مَن قتلتُ مِن أصحابكَ ؟ قالَ : ما خرجتُ لأقتلَكَ ، ولا لأقاتلَكَ ، ولكني رأيتُ لبَاقتَكَ ، وشهامتَكَ ، فاشتهيتُ أن تكونَ لي صديقاً ، وإنِّي لأدلُّكَ على ما هوَ أحسنُ مِن قتالِنَا . قالَ : قُل على بركةِ اللهِ تعالى .

قالَ : أراكَ قد تعبتَ ، وأنتَ بغيرِ شكٍّ سغبانُ ـ جائعٌ ـ ظمآنُ ، قالَ : كذلكَ هوَ . قالَ : فما علينا مِن (خراسانَ) و(العراقِ) ، إنَّ معيَ خُبزاً ولَحماً وشراباً كما يتمنَّى المتمنِّيْ ، وهذا غديرُ ماءٍ نميرٍ بالقربِ مِنَّا ، فهلمَّ بِنا إليهِ نصطبحُ ، وأترَنَّمُ لكَ بشيءٍ مِن حداءِ الأعرابِ .

فقالَ : هذا غايةُ أملي . فقالَ : ها أنا أستطردُ لكَ فاتبعني حتَّى نخرجَ مِن حلقِ الطعانِ ، ففعلا ، ورَوْحٌ يتطلَّبُ أبا دُلامةَ فلا يجدهُ ، والخراسانيَّةُ تطلُبُ فارسَها فلا تجدهُ .

فلمَّا طابتْ نفسُ الخراسانيِّ . . قالَ لهُ أبو دُلامةَ : إنَّ رَوحاً ـ كما علمتَ ـ مِن أبناءِ الكرامِ ، وحسبكَ بابن المهلَّبِ جَواداً ، وإنَّهُ يبذلُ لكَ خلعةً فاخرةً ، وفرساً جَواداً ، ومَركباً ، وسيفاً محلًّى ، ورُمْحاً طويلاً ، وجاريةً بربريَّةً ، وينزلكَ في أكثرِ العطاءِ ، وهذا خاتمهُ معي بذلكَ لكَ ، قالَ : ويحكَ ، ما أصنعُ بأهلي وعيالي ؟ قالَ : استخرِ اللهَ ، وسِرْ معي ، ودَعْ أهلكَ ، فالكلُّ يُخلَفُ عليكَ . فقالَ : سِر بنا على بركةِ اللهِ .

فسارا . . حتَّى قدِما مِن وراءِ العسكَرِ ، فهجما على روحٍ ، فقالَ : يا أبا دُلامَةَ . . أينَ كنتَ ؟

قالَ : في حاجتِكَ ، أمَّا قتلُ الرجلِ : فما أطقتُهُ ، وأمَّا سفكُ دمي : فما طِبْتُ بهِ نفساً ، وأمَّا الرجوعُ خائِباً : فلَم أُقدِمْ عليهِ ، وقد تلطَّفْتُ ، وأتيتُكَ بهِ أسيرَ كرمِكَ ، وقد بذلتُ لهُ عنكَ كيتَ وكيتَ .

فقالَ : ممضيٌّ إذا وُثِّقَ لي ، قالَ : بماذا ؟ قالَ : بنقلِ أهلهِ .

قالَ الرجلُ : أهلي على بعدٍ ، ولا يمكنُني نقلُهم الآنَ ، ولكنِ امدُدْ يدكَ =

وقالَ زفرُ بنُ الحارثِ [مِنَ الطَّويلِ] :

إياك أن تفرِّط بالغالي

أَلاَ لاَ تَلُومَانِي عَلَىٰ ٱلْجُبْنِ إِنَّنِي أَخَافُ عَلَىٰ فَخَّارَتِي أَنْ تَحَطَّمَا
وَلَوْ أَنَّنِي أَبْتَاعُ فِيْ ٱلسُّوْقِ مِثْلَهَا إِذا شِئْتُ مَا بَالَيْتُ أَنْ أَتَقَدَّمَا

وقالَ معاويةُ يوماً : لقد علمَ الناسُ أَنَّ الخيلَ لا تجري بمِثْلي ، فكيفَ قالَ النجاشيُّ [مِنَ الطَّويلِ] :

ليس الإقدام شجاعة في كل حين

وَنَجَّىٰ ٱبْنَ حَرْبٍ سَابِحٌ ذُو عُلاَلَةٍ أَجَشُّ هَزِيمٌ وَٱلرِّمَاحُ دَوَانِي[1]

فقالَ لهُ ٱبنُ العاصِ : أَعياني ، شجاعٌ أَنتَ أَم جَبَانٌ ؟ فقالَ [مِنَ الطَّويلِ] :

شُجَاعٌ إِذا مَا أَمْكَنَتْنِي فُرْصَةٌ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ لِيْ فُرْصَةٌ فَجَبَانُ

من بلاغة العرب تحسينهم كل شيء حتى الفرار

ومِن بلاغةِ العربِ : أَنْ حَسَّنوا كلَّ شيءٍ ، حتَّىٰ الفرارَ ، ومهَّدوا عنهُ الاعتذارَ ، وفي « بلابلِ التغريدِ » جملةٌ صالحةٌ منهُ ، ٱستطردْنا بها في حديثِ بدءِ الوحيِ ، بمناسبةِ سؤَالِ ٱلحارثِ بنِ هشامٍ عن كيفيَّتِهِ .

= أُصافحكَ ، وأَحلفُ لكَ متبرِّعاً بطلاقِ الزوجةِ . . أَنّي لا أَخونُكَ ، فإن لَم أَفِ إذا حلفتُ بطلاقِها . . لَم ينفعكَ نقلُها ، قالَ : صدقتَ ، فحلفَ لهُ ، وعاهَدهُ ، ووفَّىٰ لهُ بما ضمنَهُ أَبو دُلامَةَ ، وزادَ عليهِ ، وٱنقلبَ معهُمُ الخراسانيُّ يقاتِلُ الخراسانيَّةَ ، ويُنكي فيهِم أَشدَّ نكايةٍ ، وكانَ أَكبرَ أَسبابِ ظَفَرِ رَوْحٍ . والله أعلم .

(١) السابحُ : الفرسُ الشديدُ العَدوِ . العُلالَةُ : بقيَّةُ سيرِ الفرسِ ، وهيَ أَشدُّ ما يكونُ مِن عَدْوِهِ . الأجشُّ : الغليظُ الصَّهيلِ ، وهوَ مِمَّا يُحمدُ في الخيلِ . الهَزيمُ : الشديدُ الصَّوتِ .

وقالَ نعيمٌ التميميُّ [مِنَ الطَّويلِ] :

فـإنْ يَـكُ عَـاراً يَـوْمَ فَلْـجٍ أَتَيْتُـهُ فِرَارِيْ فَذَاكَ ٱلْجَيْشُ قَدْ فَرَّ أَجْمَعُ[١]

وقالَ ثعلبةُ الباهليُّ [مِنَ الطَّويلِ] :

فَلاَ تَعْذُلاَنِيْ فِيْ ٱلْفِرَارِ فَإِنَّمَا فَرَرْتُ لِمَا قَدْ فَرَّ قَبْلِيَ عَامِرُ
فَإِنْ لَمْ أُعَوِّدْ نَفْسِيَ ٱلْكَرَّ بَعْدَهَا فَلاَ وَأَلَتْ نَفْسٌ عَلَيْهَا أُحَاذِرُ[٢]

صور عن الذين فروا

وقولُهُ : (قد فرَّ قَبلي) يعني بهِ : عامرَ بنَ الطفيلِ ، فقد فرَّ عن أَخيهِ يومَ الرقمِ .

كما هربَ عُيينةُ والسيوفُ تنوشُ أَباهُ يومَ السَّنابِرِ .

وتولَّىٰ بسطامُ بنُ قيسٍ عن قومِهِ وقد أَثخنتْهُم الحربُ يومَ العَطالىٰ .

ولم ينجُ عتيبةُ بنُ الحارثِ بنِ شهابٍ يومَ ثَبْرَةَ إِلاَّ بجُرَيعَةِ الذَّقَنِ ، وكانَ قد هربَ عن ٱبنِهِ حزرةَ ـ وهوَ بِكْرُهُ ـ فقتلتهُ بنو تغلبَ .

وما من شجاعٍ إِلاَّ ذُكِرَتْ لهُ فرَّةٌ ، وأُحصيَتْ عليهِ هفوةٌ ، لا أَستَثْني أَحداً بعدَ رسولِ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ . إِلاَّ عليَّ ٱبنَ أَبي طالبٍ رضوانُ اللهِ عليهِ .

عوانة بن زيد يراود جارية عن نفسها، ولكنها تربطه بوتر قوسه

وخرجَ عوانةُ بنُ زيدٍ يوماً يتصيَّدُ علىٰ فرسِهِ ، فعرضَتْ لَهُ جاريةٌ تحملُ وَطْباً[٣] من لَبَنٍ ، فهَمَّ بِها ، ودَنا منْها ، وقالَ : تُمَكِّني طائعةً أَو مُكرهةً ، قالَتْ : لا يكونُ شيءٌ مِن ذلكَ ، فلمَّا رأَتْ منهُ الجِدَّ . .

---

(١) فلجٌ : اسم موضع بـ(اليمنِ) من مساكن عاد .
(٢) وأَلَتْ : لجأَتْ وطلبتِ النجاةَ .
(٣) الوطْبُ : سقاءُ اللبنِ ، وهو جلد الجَذَعِ فما فوقَه .

أَخذَتْ ساعدَيهِ تعصرُهُما ، لا يدفعُ عن نفسِهِ ، حتَّىٰ تركتْهُ لا يستَطيعُ أَنْ يحرِّكَهُما ، ثمَّ كتَّفَتْهُ بوترِ قوسِهِ ، وشدَّتْ حَبْلَ الفرسِ في جيدِهِ ، وأَقبلَتْ بهِ تقودُهُ ، حتَّىٰ شارفَ الحيَّ ، فبَصُر بجندبِ بنِ العنبرِ ـ وهوَ لهُ منافسٌ ـ فناداهُ : أَيُّها المرءُ . . أُنصر أَخاكَ ظالماً أَو مظلوماً ، فأَطلقَهُ معَها ، وقالَ لها : ٱذهبي لِطيَّتِكِ[1] ، في حديثٍ طويلٍ ٱستوفاهُ الميدانيُّ [في « مجمع الأمثال » ٢/ ٣٣٤] في الكلامِ علىٰ قولِهِ (أُنصُرْ أَخَاكَ) إلىٰ آخرِهِ .

حنين امرأة إلى زوجها الأول ورجولته

ويُذكرُ : أَنَّ بعضَ العربِ تزوَّجَ ٱمرأَةً ، فبَيْنا هوَ مَعَها في ذلكَ العَمَلِ مِنْ بَطْنِ وادٍ ، إِذْ عَنَّ لَهم فأْرٌ أَزعجَهُ ، وٱندهشَ لَهُ ، ثمَّ قامَ يطاردُهُ حتَّىٰ أَعياهُ ، ولَم يقدِرْ عليهِ ، ثمَّ عادَ إِلىٰ المرأَةِ فلم ينتفع بنفسِهِ ، فتأَوَّهَتْ حتَّىٰ كادتْ تنقدُّ أَضلاعُها ، كما عَناها ذو الرُّمَّةِ بقولِهِ [في « ديوانه » ١/ ٣٨١ مِنَ البسيطِ] :

يَعْتَادُنِي زَفَرَاتٌ حِيْنَ أَذْكُرُهَا   تَكَـادُ تَنْقَـدُّ مِنْهُـنَّ ٱلْحَيَـازِيـمُ

فسأَلَها عَنْ ذلكَ فلم تخبرهُ ، حتَّىٰ أَلَحَّ عليها ، فقالَتْ : كُنتُ معَ زَوجي الأَوَّلِ علىٰ مثلِ ما كنتُ معكَ عليهِ قبلُ ، إِذ طلعَ أَسدٌ ، فنهضَ لَهُ وقدَّهُ نصفينِ ، ثمَّ عادَ لعمَلِهِ ، وأَتَمَّ وطرَهُ ، كأَنْ لم يزعجْهُ شيءٌ .

ماءٌ ولا كصداء، ومرعى ولا كالسعدان

ويُروىٰ [بنحوه في « فصل المقال في شرح كتاب الأمثال » ١/ ٢٠١] : أَنَّ أَعرابيَّةً نزلَتْ معَ زوجِها في ظلِّ سرحةٍ من بطنِ وادٍ ، فتأَوَّهت ، فقالَ : مَهيم[2] ؟ قالَتْ : كنتُ مع سابقِكَ هُنا ، فإِذا ليثٌ يزْأَرُ قد كشَّرَ عَن

---

(١) الطيَّةُ : الوطنُ والمنزلُ .

(٢) مَهْيَمْ : كلمةٌ تُقالُ في الاستفهامِ ، وتعني : ما حالُكَ وما شأنُكَ .

أَنيابِهِ ، فما زالَ يصاوِلُهُ حتَّىٰ أَرداهُ ، ثمَّ عادَ وشمَّني شمَّةً ، وضمَّني ضمَّةً ، فيا لَيتني كُنْتُ مِتُّ ثَمَّ ، فما كادَتْ تُتِمُّ كلامَها . . حتَّىٰ أَقبلَ الأَسدُ ، فنهضَ لَه ، وصنعَ بِهِ مثلَ ما صنعَ الأَوَّلُ ، علىٰ حدِّ قولِ أَبي عبادةَ [في « ديوانِهِ » ١/ ٢١٠ مِنَ الطَّويلِ] :

حَمَلْتَ عَلَيْهِ ٱلسَّيْفَ لاَ عَزْمُكَ ٱنْثَنَىٰ ... وَلاَ يَـدُكَ ٱرْتَـدَّتْ وَلاَ حَـدُّهُ نَبَـا

ثمَّ عادَ وشمَّها وضمَّها ، وقالَ لَها : أَينَ هـٰذهِ مِن تلكَ ؟ فقالَت : ماءٌ ولا كَصدَّاء[1] ، ومَرعىً وَلا كالسَّعدانِ[2] ، فطلَّقَها .

* * *

(١) صدَّاءُ : اسم بئرٍ من أَعذبِ الآبارِ ، وقولها هذا أضحى مثلاً للإنسانِ الذي يُحمَدُ أمرُهُ أَوَّلاً ثُمَّ تنطفىءُ بعدَ ذلكَ شموعُهُ . ذكره الميداني في « الأمثال » (٣٨٤٢) .

(٢) السعدانُ : نبتٌ من أَفضلِ مراعي الإبلِ ، وهو مثل أيضاً عن العبدري في « تمثال الأمثال » (٢/ ٥٥٩) ، و« المستقصىٰ » (١٢٥٩) . وفي مضربه أقوال وجمع بينهما أبو علي البصير حيث مدح عُبيد الله بن يحيى بن خاقان وآله [من المجتث] :

يـا وزراء السلطـان ... أنتـم آل خـاقـانْ
كبعـض مـا قـد روينـا ... فـي سـالـف الأزمـانْ
مـاءٌ ولا كَصُـدَّىٰ ... مَـرعـىً ولا كـالسَّعـدانْ

المجلس التاسع

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَرِيِّ » ١/ ٣١٣ مِنَ الخفيف] :

كَمْ قَتِيلٍ - كَمَا قُتِلْتُ - شَهِيْدِ ... بِبَيَاضِ ٱلطُّلَىٰ وَحُمْرِ ٱلْخُدُوْدِ

يقولُ : كمْ قتيلٍ مِثْلي ببياضِ الأَعناقِ وتورُّدِ الخدودِ . . كانَ قتلهُ شهادةً ، و(الطُّلىٰ) : الأَعناقُ ، قالَ الواحديُّ : وجَعْلُ قتيلِ العشقِ شهيداً . . من قولِهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم : « مَنْ عَشِقَ ، وَعَفَّ ، وَكَتَمَ . . كَانَ شَهِيْداً » ، وقد سبقَ - في المجلسِ الثاني - بعضُ ما يتعلَّقُ بهٰذا الحديثِ في شرحِ قولِ الناظمِ [في « العُكبَرِيِّ » ١/ ٢٩٨ مِنَ المنسرحِ] : الميت عشقاً شهيد

يَـا عَـاذِلَ ٱلْعَـاشِقِيْـنَ دَعْ فِئَـةً ... أَضَلَّهَـا ٱللهُ كَيْـفَ تُـرْشِـدُهَـا

ونزيدُ هُنا ، أَنَّ الحافظَ علاءَ الدينِ أَبا عبدِ اللهِ مغلطايَ قالَ : هٰذا حديثٌ إِسنادُهُ صحيحٌ ، وإِنْ كانَ جماعةٌ مِنَ العلماءِ أَعلُّوهُ بما ليسَ بِعلَّةٍ يُرَدُّ بِها .

وقدِ ٱختلفَ كلامُ الفقهاءِ في شهيدِ العشقِ : الاختلاف في قتيل العشق عند الفقهاء

فمِنهُم : من أَطلقَ الشهادةَ عليهِ مِنْ غيرِ قيدٍ .

ومِنهُـم : مَـن ٱشْتـرطَ مـا فـي الحـديـث ، ومـا دامَ مستنـدَهُـم

الحديثُ : فالمطلقُ منهُم محمولٌ علىٰ المقيَّدِ ، وعبارةُ « التحفةِ » : وميتٌ عشقاً لِمَنْ يَحلُّ نكاحُها ، بشرطِ العِفَّةِ والكتْمِ ، كَما في الخبرِ ، ولا يبعُدُ في عاشقِ غيرها ٱضطِراراً أَنَّهُ شهيدٌ أَيضاً ، بل وٱختياراً أَيضاً إِذا عفَّ وكَتَمَ . ٱنتهىٰ .

لا ينافي الكتم ما ينفث به الشاعر من شكوى الصدود

ثمَّ إِنَّهُ لا يُنافي الكتْمَ ما ينفثُ بِهِ الشاعِرُ مِنْ شَكوىٰ الصُّدودِ وما أَشبهَهُ ، ولا سيَّما إِذا خرجَ الأَمرُ عنِ ٱختيارِهِ ، ما لمْ يعيِّنْ ، قالَ في « التحفةِ » : ما لم يعرِّضْ بِٱمرأَةٍ معيَّنَةٍ ، بأَنْ يذكرَ صِفاتِها من نحوِ طولٍ وحُسْنٍ وَصُدغٍ[1] . . فيحرُمُ ؛ لِما فيهِ مِن الإِيذاءِ ، وهَتْكِ السترِ ، إِذا وصفَ الأَعضاءَ الباطنةَ . وَمحلُّهُ في غيرِ حليلتِهِ ، أَمَّا هِيَ : فإِنْ ذكرَ مِنها ما حقُّهُ الإِخفاءُ . . حرُم كما في « شرح مسلم » ، لٰكنْ جزَما بكراهتِهِ ، وإِلاَّ . . فلا ؛ فقد شبَّب كعبٌ بزوجِهِ ، ولَم ينكِرْ عليهِ رسولُ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم[2] .

ويقعُ لبعضِ فَسقَةِ الشعراءِ نصبُ قرائِنَ تدلُّ علىٰ التعيينِ ، وهٰذا لا شكَّ أَنَّهُ معيَّنٌ . ٱنتهىٰ ما أَردْتُ مِنْ الكلامِ بٱختصارٍ ، وفيهِ شبهُ تناقضٍ ، إِذ أَوَّلهُ قاضٍ بحرمةِ التشبيبِ بالمعيَّنَةِ مطلقاً ، سواءٌ وصفَ الأَعضاءَ الباطنةَ أَم ٱقتصرَ علىٰ الظاهرَةِ ، من نحوِ ما مثَّلَ بهِ مِنَ الطولِ والحسنِ والصُّدغِ ، وقولُهُ بعدَ ذلكَ : إِذا وصف الأَعضاءَ الباطنةَ . . قد يخصِّصُ الحرمةَ بحالَتِئذٍ . إِلاَّ أَنْ يُقالَ : إِنَّ تحريمَ

---

(١) الصُّدغُ : هوَ الشَّعرُ المتدلِّي علىٰ ما بينَ العينِ والأُذُنِ .
(٢) وذلكَ في قصيدتهِ المشهورةِ :

بَانَتْ سُعَادُ فَقَلْبِي ٱلْيَوْمَ مَتْبُولُ ... مُتَيَّمٌ إِثْرَهَا لَمْ يُفْدَ مَكْبُولُ
وَمَا سُعَادُ غَدَاةَ ٱلْبَيْنِ إِذْ رَحَلُوا ... إِلاَّ أَغَنُّ غَضِيضُ ٱلطَّرْفِ مَكْحُولُ

التشبيبِ بالمعيَّنَةِ إِنْ كانَ بالأَوصافِ الظاهرةِ . . فَلِعِلَّةِ الإيذاءِ فقط ، وإِنْ كانَ بالأَوصافِ الباطنةِ . . فلعلَّةِ الإيذاءِ وهَتكِ السترِ .

القتلى الشهداء عند الشعراء

وقد قالَ أَبو الوليدِ الباجيُّ [كما في «تلخيص الحبير» ٢ / ١٤٢ مِنَ الوافرِ] :

إِذَا مَاتَ ٱلْمُحِبُّ جَوًى وَعِشْقًا فَتِلْكَ شَهَادَةٌ يَا صَاحِ حَقَّا
رَوَاهُ لَنَا ثِقَاتٌ عَنْ ثِقَاتٍ إِلَىٰ ٱلْحَبْرِ ٱبْنِ عَبَّاسٍ تَرَقَّىٰ

وقالَ الحسنُ بنُ هانىءٍ [أبو نواس مِنْ مجزوءِ الرَّمَلِ] :

وَلَقَدْ كُنَّا رَوَيْنَا عَنْ سَعِيدٍ عَنْ قَتَادَهْ
عَنْ سَعِيدِ بْنِ ٱلْمُسَيِّبْ أَنَّ سَعْدَ بْنَ عُبَادَهْ
قَالَ مَنْ مَاتَ مُحِبّاً كَانَ مِنْ أَهْلِ ٱلشَّهَادَهْ

ويعجبني قولُ بعضِهم [مِنْ مجزوءِ الكاملِ] :

لاَمُوا عَلَيْكَ وَمَا دَرَوْا أَنَّ ٱلْهَوَىٰ سَبَبُ ٱلسَّعَادَهْ
إِنْ كَانَ وَصْلٌ فَٱلْمُنَىٰ أَوْ كَانَ هَجْرٌ فَٱلشَّهَادَهْ

أصل بيت المتنبي من قول جميل

وبيتُ الناظمِ مأْخوذٌ مِن قولِ جميلٍ [في « ديوانهِ » ٦٤ مِنَ الطَّويلِ] :

لِكُلِّ حَدِيثٍ بَيْنَهُنَّ بَشَاشَةٌ وَكُلُّ قَتِيلٍ بَيْنَهُنَّ شَهِيدُ

وهُوَ البيتُ الذي فضَّلَتْهُ بهِ سُكَينةُ بنتُ الحسينِ علىٰ أَقرانِهِ ، في الحكايةِ المشهورةِ(١) .

---

(١) والقصَّةُ كما في « الأغاني » (١٦/ ١٧٠) :

أَنَّهُ اجتمعَ في ضيافةِ سُكينَةَ بنتِ الحسينِ ـ رضي اللهُ عنهُ ـ : جريرٌ والفرزدق وكثيِّرٌ وجميلٌ ونصيبٌ ، فَمَكثوا أَيَّاماً ، ثمَّ أَذِنت لهم . . فدَخلوا عليها ، فقعدت حيثُ تراهُم ولا يرونَها ، وتسمعُ كلامَهم ، ثمَّ أَخرجَت وصيفةً لها وضيئَةً ، وقد رَوتِ الأَشعارَ والأَحاديثَ ، فقالت : أَيُّكُمُ الفرزدقُ ؟

. . . .

= فقالَ : ها أنذا .

قالت : أنتَ القائلُ :

هُمَا دَلَّتَانِي مِنْ ثَمَانِينَ قَامَةً ... كَمَا انْحَطَّ بَازٌ أَقْتَمُ الرِّيشِ كَاسِرُهْ

فَلَمَّا اسْتَوَتْ رِجْلَايَ بِالأَرْضِ قَالَتَا: ... أَحَيٌّ يُرَجَّى أَمْ قَتِيلٌ نُحَاذِرُهْ ؟!

فَقُلْتُ: ارْفَعُوا الأَمْرَاسَ لاَ يَشْعُرُوا بِنَا ... وَأَقْبَلْتُ فِي أَعْجَازِ لَيْلٍ أُبَادِرُهْ

أُبَادِرُ بَوَّابَيْنِ قَدْ وُكِّلاَ بِنَا ... وَأَحْمَرَ مِنْ سَاجٍ تَبِصُّ مَسَامِرُهْ

قالَ : نَعم . قالَت : فَما دعاكَ إلىٰ إفشاءِ سرِّها وسرِّكَ ، هلاَّ سترتَها وسترتَ نفسَكَ ؟! خُذْ هذهِ الألفَ والحق بأهلِكَ .

ثمَّ دخلَت علىٰ مولاتِها . . وخرجَت ، فقالَت : أيُّكم جريرٌ ؟

فقالَ : ها أنذا .

قالَت أنتَ القائلُ :

طَرَقَتْكَ صَائِدَةُ الْقُلُوبِ وَلَيْسَ ذَا ... حِينَ الزِّيَارَةِ فَارْجِعِي بِسَلاَمِ

تُجْرِي السِّوَاكَ عَلَىٰ أَغَرَّ كَأَنَّهُ ... بَرَدٌ تَحَدَّرَ مِنْ مُتُونِ غَمَامِ

لَوْ كَانَ عَهْدُكِ كَالَّذِي حَدَّثْتِنَا ... لَوَصَلْتِ ذَاكَ فَكَانَ غَيْرَ رِمَامِ

إِنِّي أُوَاصِلُ مَنْ أَرَدْتِ وِصَالَهُ ... بِحِبَالِ لاَ صَلِفٍ وَلاَ لَوَّامِ

قالَ : نَعم . قالت : أَفَلا أَخذْتَ بيدِها ، وقلتَ لَها ما يُقالُ لمثلِها ، أَنتَ عَفيفٌ ، وفيكَ ضَعفٌ ، خُذْ هذِه الألفَ ، والحقْ بأَهلِكَ .

ثمَّ دخلَت علىٰ مولاتِها . . وخرجَت ، وقالَت : أيُّكُم كُثَيِّرٌ ؟

فقالَ : هَا أَنذا .

فقالَت : أَنتَ القائلُ :

وَأَعْجَبَنِي يَا عَزُّ مِنْكِ خَلاَئِقٌ ... كِرَامٌ إِذَا عُدَّ الْخَلاَئِقُ أَرْبَعُ

دُنُوُّكِ حَتَّىٰ يَطْمَعَ الطَّالِبُ الصِّبَا ... وَدَفْعُكِ أَسْبَابَ الْهَوَىٰ حِينَ يَطْمَعُ

وَقَطْعُكِ أَسْبَابَ الْكَرِيمِ وَوَصْلُكِ الْـ ... ـلَّئِيمَ وَخَلاَّتُ الْمَكَارِمِ تَرْفَعُ

فَوَاللهِ مَا يَدْرِي كَرِيمٌ مُمَاطَلٌ ... أَيَنْسَاكِ إِذْ بَاعَدْتِ أَوْ يَتَضَرَّعُ

وقد تكرَّرَ معناهُ في « ديوانِ » الناظم ، منهُ قولُهُ [في « العُكبَريّ » ١/ ٣٤٢ مِنَ المتقاربِ] :

وَكَمْ لِلْهَوَىٰ مِنْ فَتَىً مُدْنَفٍ   وَكَمْ لِلنَّوَىٰ مِنْ قَتِيْلٍ شَهِيْدِ[1]

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ١/ ٦ مِنَ الكاملِ] :

إِنَّ ٱلْقَتِيْلَ مُضَرَّجاً بِدُمُوْعِهِ   مِثْلُ ٱلْقَتِيْلِ مُضَرَّجاً بِدِمَائِهِ

= قالَ : نَعم . قالَت : مَلَحتَ ، وَشَكَّلْتَ ، خُذْ هذِهِ الثلاثةَ آلافِ ، والْحقْ بأهلِكَ .

ثمَّ دخلَت إلىٰ مولاتِها . . وخرجَت ، فقالَت : أيُّكُمْ نصيبٌ ؟

قالَ : هَا أَنذا .

قالَت : أَنتَ القائِلُ :

وَلَولاَ أَنْ يُقَالَ صِبَا نُصَيْبٍ   لَقُلْتُ بِنَفْسِيَ ٱلنَّشَأُ ٱلصِّغَارُ
بِنَفْسِيْ كُلُّ مَهْضُومٍ حَشَاهَا   إِذَا ظُلِمَتْ فَلَيْسَ لَهَا ٱنْتِصَارُ

قالَ : نَعم . قالَت : رَبَّيْتَنا صِغاراً ، وَمَدَحْتَنا كِبَاراً ، خُذْ هذِهِ الأربعةَ آلافِ ، والْحقْ بأهلِكَ .

ثمَّ دخلتَ علىٰ مَوْلاتِها . . وخرجَت فقالَت :

يا جميلُ . . مولاتي تقرِئُكَ السَّلامَ وتقولُ لكَ : واللهِ ما زلتُ مشتاقَةً لرُؤْيتِكَ . . منذُ سمعتُ قولَكَ :

أَلاَ لَيْتَ شِعْرِيْ هَلْ أَبِيْتَنَّ لَيْلَةً   بِوَادِيْ ٱلْقُرَىٰ إِنِّيْ إِذاً لَسَعِيْدُ
لِكُلِّ حَدِيْثٍ بَيْنَهُنَّ بَشَاشَةٌ   وَكُلُّ قَتِيْلٍ عِنْدَهُنَّ شَهِيْدُ

جَعَلْتَ حديثَنا بشاشةً ، وقتلانا شهداءَ ، خُذْ هذِهِ الأربعةَ آلافِ دينارٍ ، والْحقْ بأهلِكَ .

(١) المدنفُ : الذي لازمهُ المرضُ .

الكلام على ديوان ابن الفارض

أَمَّا « ديوانُ ٱبنِ الفارضِ » : فَمِنْ فاتحتِهِ إِلىٰ خاتِمَتِهِ يدورُ علىٰ هـٰذا المِحْوَرِ ، ويُدَنْدِنُ حَولَ هـٰذا المقصودِ .

من فوائد الحب

وأَدنىٰ ما يكونُ مِن فوائِدِ الحُبِّ : أَنَهُ يُلَطِّفُ ويُنَظِّفُ ويُظَرِّفُ ، ومتىٰ رَقَّتْ طبيعةُ الإِنسانِ . . ٱستعدَّ لقَبولِ المواعظِ الحسَنةِ ، ومتىٰ قبِلَها . . تدَرَّجَ في معارِجِ السعادةِ إِلىٰ أَنْ ينتهيَ إِلىٰ الغايَةِ التي لا أَمَدَ وراءَها . . وهِيَ : محبَّةُ اللهِ عزَّ وجلَّ ، كَما أَشرْنا إِلىٰ ذلكَ في غيرِ موضعٍ .

العشق محمود

فالعشقُ بأَنواعِهِ محمودُ العاقبةِ ، ما لم يقترِنْ بمحظورٍ شرعيٍّ .

درء المفاسد مقدم على جلب المصالح

علىٰ أَنَّ بعضَ الفقهاءِ أَفتىٰ بأَنَّه يجوزُ للعاشِقِ أَنْ يَنالَ ما دونَ الفرجِ إِذا تعيَّنَ طريقاً لِشفائِهِ ؛ فقد سُئِلَ الرمليُّ عمَّنْ عشِقَ أَجنبيَّةً ، لَو لَم يقبِّلْها . . أَدَّىٰ إِلىٰ هلاكِهِ ، فهلْ يجوزُ لهُ تقبيلُهَا ؟ ويجبُ عَلَيها تمكينُهُ ؟ وهلِ الأَمردُ كذلكَ ؟

فأَجابَ بأَنَّه : يجوزُ تقبيلُها ، بَلْ يجبُ عليهِ حيثُ قَدَرَ ؛ إِبقاءً لمهجَتِهِ ، كما يجبُ علىٰ مَنْ غصَّ بلقمةٍ ، إِساغَتُها بالخمرِ إِذا لَم يجِدْ غيرَها ، وكما يجبُ علىٰ مَنِ ٱنتهىٰ بهِ العطشُ إِلىٰ الهلاكِ . . شربُها حيثُ لم يجدْ غيرَها ، وكَما يجبُ علىٰ المضْطَرِّ أَكلُ الميتَةِ .

وقد قالَ ٱبنُ عبدِ السلامِ : أَجمعوا علىٰ دَفعِ أَعظمِ المفسدَتَينِ بٱرتكابِ أَدوَنِهما ، ويجبُ عَلَيها تمكينُهُ ، وحكمُ الأَمردِ كذلكَ ، ٱنتهىٰ كلامُهُ بٱختصارٍ .

وهُوَ ظاهرٌ إِلاَّ في وجوبِ ٱلمساعدَةِ علىٰ ٱلمعشوقِ ، فإِنَّه محلُّ نظرٍ ؛ لِما في ٱلأَمرِ مِنَ ٱلخَطَرِ ، وٱلرُّخْصَةُ بٱليقينِ منوطَةٌ ، وبٱلشَّهادةِ من ٱلأَطبَّاءِ مشروطَةٌ ، وإِلاَّ في تقييدِهِ . . ٱلإِباحةَ بخشيةِ

الهلاكِ ، ولعلَّهُ بالنسبةِ لِما هو أكبرُ من ٱلقبلةِ مما دونَ ٱلفرجِ ، وإلاَّ . . فإنَّه ليسَ بأكبرَ من نظرِ ٱلطَّبيبِ إِلىٰ بدنِ ٱلمريضةِ وجَسِّهِ .

وقد قالَ ٱبنُ حجرٍ في « تحفتِهِ » : يعتبرُ في الوجهِ والكفِّ أدنىٰ حاجةٍ ، وفيما عداها مبيحُ تيممٍ ، إلاَّ الفرجَ وقريبَهُ . . فيعتبرُ زيادةً علىٰ ذلكَ ، وهيَ أَنْ تشتَدَّ الضرورةُ ، حتَّىٰ لا يعدَّ الكشفُ لذلكَ هتكاً للمروءَةِ . ٱنتهىٰ .

وذكرَ ٱبنُ خلِّكَانَ أَو غيرُهُ[1] : أَنَّ سائِلاً سأَلَ عطاءَ ٱبنَ أَبي رباحٍ عن مثلِه ، فأَجابَ بنحوِهِ ، فقالَ الشاعرُ [مِنَ الطَّويلِ] : سلوا المفتي المكي

سَلُوْا ٱلْمُفْتِيَ ٱلْمَكِّيَّ هَلْ فِيْ تَزَاوُرٍ وَضَمَّـةِ مُشْتَـاقِ ٱلْفُـؤَادِ جُنَـاحُ ؟
فَقَالَ : مَعَاذَ ٱللهِ أَنْ يُذْهِبَ ٱلتُّقَىٰ تَـلاَصُـقُ أَكْبَـادٍ بِهِـنَّ جِـرَاحُ

وقالَ إِسحاقُ بنُ معاذٍ المعريُّ [في « روضة المحبين » ١٠٩ مِنَ الطَّويلِ] : إحياء عبد من الناس واجب

سأَلْتُ إِمَامَ ٱلنَّاسِ نَجْلَ ٱبْنِ حَنْبَلٍ عَنِ ٱلضَّمِّ وَٱلتَّقْبِيْلِ هَلْ فِيْهِ مِنْ بَاسِ
فَقَالَ : إِذا جَلَّ ٱلْعَزَاءُ فَوَاجِبٌ لأَنَّكَ قَدْ أَحْيَيْتَ عَبْداً مِنَ ٱلنَّاسِ

وذكرَ الحاكمُ في « مناقبِ الشافعيِّ » ، عَنْ محمَّدِ بنِ الجهمِ ، أَنَّه قالَ : سمعتُ الربيعَ يقولُ : حضرتُ الشافعيَّ بـ(مكَّةَ) ، وقد دُفعَ إِليهِ رُقعةٌ فيها [مِنَ الطَّويلِ] : هل في وصلهن حرام

أَقُوْلُ لِمُفْتِيْ خَيْفِ مَكَّـةَ وَٱلصَّفَـا لَكَ ٱلْخَيْرُ هَلْ فِيْ وَصْلِهِنَّ حَرَامُ ؟
وَهَلْ فِيْ صَمُوْتِ ٱلْحَجْلِ مَهْضُوْمَةِ ٱلْحَشَا عِـذَابِ ٱلثَّنَـايَـا إِنْ لَثَمْـتُ حَـرَامُ[2] ؟

---

(١) ذكر ذلك ٱبن قيِّم الجوزية في كتابه « روضة المحبين » (١٠٧) ، ولم نجدها عند ابن خلِّكانَ .

(٢) الحَجْل : الخلخال . صَموتُ الحَجْلِ : لا يسمعُ لخلخالِها صوتٌ لامتلاءِ ساقِها .

فوقَّعَ عليها [مِنَ الطَّويلِ] :

فَقَالَ لِيَ ٱلْمُفْتِيْ وَفَاضَتْ دُمُوْعُهُ عَلَىٰ ٱلْخَدِّ مِنْ عَيْنَيْهِ وَهْيَ تُؤَامُ[1]
أَلاَ لَيْتَنِـي قَبَّلْـتُ تِلْـكَ عَشِيَّـةً بِبَطْنِ مِنًـىً وَٱلْمُحْـرِمُـوْنَ قِيَـامُ

سؤال ابن نباتة لأبي الفتح السبكي

وفي « طبقاتِ ٱبنِ السبكيِّ » [٩/١٨٦] : أَنَّ ٱبنَ نباتةَ سأَلَ أَبا الفتحِ السبكيَّ عمَّا يشبهُهُ ، فأَجابهُ بقريبٍ مِمَّا رويَ عمَّن سبقَ[2] .

---

(١) تُؤَامٌ : متشابكةٌ .

(٢) كتبَ ٱبنُ نباتةَ إلىٰ الشيخِ أَبي الفتحِ ـ رحمهُ اللهُ ـ ٱستفتاءً صورتُهُ :

يَـا إِمَـامَـاً قَـالَ ٱلْمُقَلِّـدُ وَٱلْعـا لِـمُ فِيْـهِ بِـوَاجِـبِ ٱلتَّفْضِيْـلِ
مَا عَلَىٰ عَاشِقٍ يَقُوْلُ عَلَىٰ حُكْـ ـمِ ٱلتَّـدَاوِيْ بِـٱلضَّـمِّ وَٱلتَّقْبِيْـلِ
وَافِـرِ الـدِّيْـنِ مَـعْ بَسِيْـطِ ٱقْتِـدَارٍ حَـذِرٍ مِـنْ عِقَـابِ يَـوْمٍ طَـوِيْـلِ
لا كَمَـنْ يَنْتَحِـي بِمَعْشُـوقِـهِ ٱلنَّحْـ ـوَ فَمِـنْ فَـاعِـلٍ وَمِـنْ مَفْعُـوْلِ

فَأَجابَهُ :

يَـا مَلِيَّـاً بِكُـلِّ فَضْـلٍ جَـزِيْـلٍ وَعَلِيّـاً بِكُـلِّ وَصْـفٍ جَمِيْـلِ
وَجَمَـالاً تَجَمَّـلَ ٱلْعِلْـمُ مِنْـهُ بِصِفَـاتٍ زَيْـنٍ بِمَجْـدٍ أَثِيْـلِ
جَـاءَنِـيْ درُّكَ ٱلَّـذِيْ قَلَّـدَ ٱلنَّحْـ ـرَ بِعِقْـدٍ مُنَضَّـدِ ٱلتَّكْلِيْـلِ
فَتَعَجَّبْـتُ ثُـمَّ قُلْـتُ : وَمَـنْ يَقْـ ـذِفُ بِـالـدُّرِّ غَيْـرَ بَحْـرٍ أَصِيْـلِ
جَـاءَ فِـيْ صورَةِ ٱلسُّؤَالِ فَقُلْ فِيْ سَـائِـلٍ فَضْلُـهُ عَلَـىٰ ٱلْمَسْـؤُوْلِ
فَتَنَسَّمْـتُ مِنْـهُ رِيْـحَ شِمَـالٍ وَتَـرَشَّفْـتُ مِنْـهُ طَعْـمَ ٱلشَّمُـوْلِ
وَأَتَـانِـيْ وَقَـدْ فَـرَغْـتُ عَـنِ ٱلآ دَابِ وَٱلْحُـبِّ مِـنْ زَمَـانٍ طَـوِيْـلِ
فَتَـوَقَّفْـتُ عَـنْ جَـوَابٍ وَلَكِـنْ أَمْـرُ مَـوْلاَيَ وَاجِـبٌ بِـالـدَّلِيْـلِ
وَجَوَابُ ٱلْهَوَىٰ ٱلتَّسَامُحُ فِيْ ٱلأَمْـ ـرِ فَقُـلْ إِنْ أَحَبْـتَ بِـالتَّسْهِيْـلِ
إِنَّ مَـنْ يَـدَّعِـيْ ٱلْغَـرَامَ بِظَبْـيٍ صَـادَ أَهْـلَ ٱلْهَـوَىٰ بِطَـرْفٍ كَحِيْـلِ
قَـدْ أَسَـالَ الـدُّمُـوْعَ مِنْـهُ عِـذَارٌ سَـائِـلٌ فِـيْ رِيَـاضِ خَـدٍّ أَسِيْـلِ=

وقالَ الجاحظُ : بلغَني أَنَّ عاشقاً ماتَ عشقاً بالهندِ ، فلمْ يكنْ مِنَ المَلكِ إلاَّ أَنْ بعثَ إِلىٰ المعشوقِ . . فقتلَهُ .

فيمَ بقاء المعشوق بعد العاشق

وكانَ ٱبنُ الخطَّابِ ليلةً يعسُّ بـ(المدينةِ) [كما في « مصارع العشاق » ٢/٢٦٦] . . فسمعَ ٱمرأَةً ـ هِيَ الفارعةُ أُمُّ الحجَّاجِ ، وكانتْ إِذْ ذاكَ تحتَ المغيرةِ بنِ شعبةَ ـ تُغَنِّي وتقولُ [مِنَ ٱلبسيطِ] :

هل من سبيل إلى خمر؟ والفاروق ونصر بن الحجاج

هَلْ مِنْ سَبِيْلٍ إِلىٰ خَمْرٍ فَأَشْرَبَهَا أَمْ هَلْ سَبِيْلٌ إِلىٰ نَصْرِ بْنِ حَجَّاجِ ؟

فقالَ : أَمَّا وعمرُ حيٌّ . . فَلا ، فلمَّا أَصبحَ . . بعثَ إِلىٰ نصرِ بنِ حجَّاجٍ ، فإِذا رَجلٌ جميلٌ ، فحَلَقَ رأْسَهُ ، فظهرَ لهُ وجهٌ كأَنَّهُ فلقةُ قمرٍ .

وللهِ درُّ القائلِ [مِنَ ٱلخفيفِ] :

حَلَقُـوْا رَأْسَـهُ لِيَكْسُـوهُ قُبْحَـا خِيفَـةً مِنْهُـمُ عَلَيْـهِ وَشُحَّـا
كَانَ مِنْ قَبْلِ ذَاكَ لَيْلاً وَصُبْحَا فَمَحَـوْا لَيْلَـهُ وَأَبْقَـوهُ صُبْحَـا

فقالَ عمرُ لهُ : ٱخرجْ ، لا تُساكِنِّي بـ(المدينةِ) ، فخرجَ إِلىٰ (البصرَةِ) .

= كَـامِـلٌ قَـدُّهُ بِشَعْـرٍ مَـدِيْـدٍ وَافِـرٌ رِدْفُـهُ بِخَصْـرٍ نَحِيْـلِ
لَجَـدِيْـرٌ بِكُـلِّ عُـذْرٍ بَسِيْـطٍ فِـيْ ٱلتَّـدَاوِيْ بِـٱلضَّـمِّ وَٱلتَّقْبِيْـلِ
مَـالِنَـارِ ٱلْهَـوَىٰ . . سِـوَىٰ بَـرْدِ رِيْقٍ مِـنْ لَمَـاهُ فِيْـهِ شِفَـاءُ ٱلْغَلِيْـلِ
وَلِقَلْـبٍ يَعْتَـادُهُ خَفَقَـانٌ غَيْـرُ ضَـمٍّ بِـهِ دَوَاءُ ٱلْعَلِيْـلِ
غَصَّـةُ ٱلْحُـبِّ لا تُقَـاسُ بِشَـيْءٍ فَلْيُـزِلْهَـا مِـنْ رِيْقِـهِ بِشُمُـوْلِ
ذَا جَـوَابُ ٱلْغَـرَامِ حَقّـاً وَعِنْـدِيْ مَـا لَـهُ غَيْـرُ صَبْـرِهِ مِـنْ دَلِيْـلِ

تعلق امرأة مجاشع بن مسعود بنصر بن الحجاج وتعلقه بها

وكانَ يدخُلُ علىٰ مجاشع بنِ مسعودٍ [كما في « مصارع العشاق » ٢٧٩/١] ، وكانَتْ لهُ ٱمرأَةٌ جميلةٌ ، فأَعجبَهَا نصرٌ ، وأَحبَّتْهُ وأَحبَّها ، فبينَما هُم جالسونَ . . كتبَ نصرٌ في الأَرضِ ، فقالتِ المرأَةُ : وأَنا ، فعلمَ مُجاشعٌ أَنَّها جوابُ كلام ، وكانَ لا يكتبُ ، فكفأَ علَيها إِناءً ، ودَعا كاتباً ، فإِذا هُوَ : إِنِّي لأُحبُّكِ حبّاً ؛ لو كانَ فوقَك . . لأَظلَّكِ ، ولَو كانَ تحتَكِ . . لأَقلَّكِ ، وبلغَ نصراً ما فعلَ مجاشعٌ ، فٱستحيَىٰ ، ولزمَ البيتَ ، وٱعتلَّ ، وضنيَ جسمُهُ حتَّىٰ صارَ كالفرخِ ، فقالَ مجاشعٌ لامرأَتِهِ : اذهبي إِليهِ ، فأَسنديهِ إِلىٰ صدرِكِ ، وأَطعميهِ الطعامَ بيدِكِ ، فأَبَتْ ، فعزمَ عليها ، فأَتَتْهُ ، وأَسندتْهُ إِلىٰ صدرِها ، وأَطعمتْهُ بيدِها ، فدبَّ البُرءُ فيهِ من وقتِهِ ، حتَّىٰ قالَ بعضُ مَنْ حضرَ : قاتلَ اللهُ الأَعشىٰ إِذْ يقولُ [في « ديوانه » ١٥٢ مِنَ السَّريع] :

لَوْ أَسْنَدَتْ مَيْتاً إِلىٰ صَدْرِهَا عَاشَ وَلَمْ يُنْقَلْ إِلَىٰ قَابِرِ

ثمَّ ٱختلفتِ الروايةُ ، فقيلَ : إِنَّهُ تماثلَ وخرجَ مِنَ (البصرةِ) ، وقيلَ : إِنَّهُ عاودهُ المرضُ بعدَ ٱنصرافِها ، ولمْ يزلْ لِما بهِ حتَّىٰ ماتَ ، وفي الخبرِ طولٌ ، وموضعُ الشاهدِ منهُ : هُوَ أَنَّه يباحُ مثلُ ما فعلَهُ [مُجاشعُ] بنُ مسعودٍ عندَ الضرورةِ ، إِذا تعيَّنَ طريقاً للدواءِ ، كما مرَّ .

بعض أهل الأدب والإمام مالك

وجاءَ بعضُ أَهلِ الأَدبِ إِلىٰ إِمامِ دارِ الهجرةِ ، فقالَ لهُ : ٱجعلني في حلٍّ مِنْ أَبياتٍ قلتُها وذكرتُكَ فيها ، فتغيَّرَ وجهُ الإِمامِ وظنَّ أَنَّه هجاهُ ، وأَحلَّهُ معَ ذلكَ ، ثمَّ ٱستنشدَهُ الأَبياتَ ، فإِذا هيَ تشبهُ ما سبقَ عنِ الشافعيِّ لفظاً ومعنىً ، فسُرِّيَ عنه[1] .

(١) الرجلُ الذي أَتىٰ الإِمامَ مالكاً ـ رحمهُ اللهُ تعالىٰ ـ هوَ : ٱبنُ سرحونَ السُّلَميُّ ، والأَبياتُ هيَ : =

حكم الإحلال من الغيبة قبل العلم بتفصيلها

وفي الإحلالِ مِن الغِيبَةِ ، قبلَ العلمِ بتفصيلِها . . خلافٌ ، وعبارةُ « التُّحْفَةِ » : ولا أثَرَ لتحليلِ وارثٍ ، ولا معَ جهلِ المُغْتَابِ بما تحلَّلَ منهُ ، كما في « الأذكارِ » . انتهىٰ .

ثمَّ رأيتُ ابنَ السبكيِّ ـ بعدَ أنِ استوفىٰ القصةَ وذكرَ الأبياتَ في الكلامِ علىٰ ابنِ الفِركاحِ[1] ـ يقولُ [كما في « الطَّبقات » ٩/٣٢٧] : وفي هـٰذا مِنْ مالكٍ دليلٌ علىٰ جوازِ الإبراءِ عَنِ الكلامِ في العرضِ ، وإنْ كانَ مجهولاً ، وأنَّه كانَ يرىٰ التحليلَ مِن هـٰذا أَولىٰ مِن عدمِهِ .

ونقلَ أبو الوليدِ ابنُ رُشدٍ[2] أنَّ مذهبَ الشافعيِّ . . أنَّ تركَ التحليلِ مِنَ الظلاماتِ والتبعاتِ أَولىٰ ؛ لأنَّ صاحبَها يستوفيها يومَ القيامةِ بحسناتِ من هيَ عندَهُ ، وبوضعِ سيِّئاتِهِ علىٰ مَن هيَ عندَهُ ، كما شهدَ بهِ الحديثُ ، وهوَ لا يدري هلْ يكونُ أجرهُ علىٰ التحليلِ موازياً ما لَهُ مِنَ الحسناتِ في الظلاماتِ ، أَو يزيدُ أَو ينقصُ ، وهُوَ محتاجٌ إلىٰ زيادةِ حسناتِهِ ونقصانِ سيِّئاتِهِ ؟

قالَ : ومذهبُ غيرِهِ : أنَّ التحليلَ أفضلُ مطلقاً ، قالَ : ومذهبُ مالكٍ التفرقةُ بينَ الظلاماتِ فلا يُحلِّلُ منها ، والتبعاتِ فيحلِّلُ مِنْها ؛ عقوبةً لفاعلِ الظلاماتِ ، وهُوَ تفصيلٌ عجيبٌ . انتهىٰ .

= سَلُوا مَالِكَ ٱلْمُفْتِيْ عَنِ ٱللَّهْوِ وَٱلصِّبَا ... وَحُبِّ ٱلْحِسَانِ ٱلْمُعْجَبَاتِ ٱلْفَوَارِكِ
يُنَبِّئْكُـمُ أَنِّـيْ مُصِيْـبٌ وَإِنَّمَـا ... أُسَلِّيْ هُمُـومَ ٱلنَّفْسِ عَنِّيْ بِـذَلِـكِ
فَهَلْ فِيْ مُحِبٍّ يَكْتُمُ ٱلْحُبَّ وَٱلْهَوَىٰ ... أَثَـامٌ وَهَـلْ فِـيْ ضَمَّـةِ ٱلْمُتَهَـالِـكِ

(١) ابن الفركاح : هو عبد الرحمن بن إبراهيم ، مؤرخ من علماء الشافعية ، توفي سنة : (٦٩٠ هـ) .

(٢) ابن رشد : هو محمد بن أحمد ، قاضي الجماعة بـ (قرطبة) ، من أعيان المالكية ، الحافظ الناقد ، توفي سنة : (٥٢٠ هـ) .

وفي أَواخِرِ الغِيبَةِ مِن كتابِ آفاتِ اللسانِ من « الإِحياءِ » [٣/ ١٥٠] و« شرحِهِ ».. ما يتعلَّقُ بذلكَ ، فليرْجِعْ إِليهِ مَن لمْ يكتفِ بهٰذا .

الفضيل بن عياض يتمنى الدعاء للعشاق

وكانَ الفضيلُ بنُ عياضٍ يقولُ : لَو أَنَّ لي دعوةً مجابةً.. لدعوتُ اللهَ أَنْ يغفرَ للعشَّاقِ ؛ لأَنَّ حركاتِهم اضطراريَّةٌ لا اختياريةٌ .

الدعاء للعشاق أفضل من عمرة

ورُئِيَ أَبو السائبِ المخزوميُّ متعلِّقاً بأَستارِ الكعبةِ ، وهُوَ يقولُ [كما في « روضة المحبين » ١٣٤] : اللّٰهم ، ارحمِ العاشقينَ ، وقوِّ قلوبَهم ، وعطِّفْ عَلَيهم قلوبَ المعشوقينَ ، فقيلَ لَهُ في ذلكَ : فقالَ : واللهِ لَلدُّعاءُ لَهم.. أَفضلُ مِنْ عُمرةٍ مِنَ (الجعرانَةِ)(١) ، ثمَّ أَنشدَ [من الكامل] :

يَا هَجْرُ كُفَّ عَنِ الْهَوَىٰ وَدَعِ الْهَوَىٰ ... لِلْعَاشِقِيْنَ يَطِيْبُ يَا هَجْرُ
مَاذَا تُرِيْدُ مِنَ الَّذِيْنَ جُفُوْنُهُمْ ... قَرْحَىٰ وَحَشْوُ قُلُوْبِهِمْ جَمْرُ ؟
مُتَذَلِّلِيْنَ مِنَ الْهَوَىٰ أَلْوَانُهُمْ ... مِمَّا تَجِنُّ قُلُوْبُهُمْ صُفْرُ
وَسَوَابِقُ الْعَبَرَاتِ فَوْقَ خُدُوْدِهِمْ ... دُرَرٌ تَفِيْضُ كَأَنَّهَا قَطْرُ

تفسير: لا تحملنا ما لا طاقة لنا به

وقالَ بعضُهم [كما في « روضة المحبين » ١٣٥] : في تفسيرِ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ﴾ [البقرة : ٢٨٦] : إِنَّه العشق .

تفسير: خلق الإنسان ضعيفاً

وقالَ عُبيدُ بنُ طاووسٍ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء : ٢٨] : يَعني : أَنَّهُ لا يصبرُ أَنْ ينظرَ إِلىٰ النساءِ .

حكم النظر إلى الأجنبيات

وفي مجرَّدِ النظرِ.. كلامٌ يطولُ ، وفَّيناهُ حقَّهُ مِنَ التحقيقِ في كتابِنا « بلابلُ التغريدِ » حينَما تكلَّمنا علىٰ ما جرىٰ للفضلِ بنِ العباسِ

---

(١) الجعرانة : موضعٌ بينَ (مكَّةَ) و(الطائفِ) علىٰ سبعةِ أَميالٍ مِن (مكَّةَ) .

مع الخثعميةِ ، وهو رديفُ رسولِ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم[1] .

ومنهُ قولُ الإمامِ الرافعيِّ : النظرُ إلىٰ وجهِ الأجنبيَّةِ وكفَّيها حرامٌ معَ خوفِ الفتنةِ ، وإلاَّ . . فوجهانِ :

[الأوَّلُ] : قالَ أكثر الأصحابِ ـ لا سيَّما المتقدِّمون ـ : يحلُّ ؛ لقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ [النور : ٣١] وهوَ مُفَسَّرٌ بالوجْهِ والكفَّينِ ، لـٰكنْ يكرهُ ، قالهُ الشيخُ أبو حامدٍ .

والثاني : يحرمُ ، قالهُ الإصطخريُّ وأبو عليٍّ الطبريُّ ، واختارَهُ الشيخُ أبو محمَّدٍ ، وبهِ قطعَ صاحبُ « المهذَّبِ » .

ويُروىٰ : أنَّ معاويةَ ابنَ أبي سفيانَ اشترىٰ جاريةً مِنَ (البحرينِ) ، فأُعجبَ بِها إعجاباً شديداً ، ثمَّ سمعَها يوماً تقولُ [مِنَ الطَّويلِ] : الجمع بين العاشقين

وَفَارَقْتُهُ كَالْغُصْنِ يَهْتَزُّ فِيْ الثَّرَىٰ طَرِيْراً وَسِيْمَاً بَعْدَ مَا طَرَّ شَارِبُهُ[2]

فسألَها مَنْ هوَ ؟ فقالتْ : ابنُ عمٍّ لي ، فردَّها إليهِ ، وفي قلبهِ منها حرُّ النارِ .

---

(١) أخرجه عن جابرِ بن عبدِ اللهِ أحمدُ في « المسند » (٣/ ٢١٧) ، والبخاري (١٥٥٧) ، ومسلم (١٢١٨) ، والنسائي (٥/ ٢٠٢) وفيه : (وأردف الفضل بن عباس ، وكان رجلاً حسن الشعر أبيض وسيماً ، فلما دفع رسول الله صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ مرت به ظُعُنٌ يجرين ، فطفق الفضل ينظر إليهن . . .) .

وعند الترمذي (٨٨٥) عن علي قال صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « رأيت شاباً وشابة فلم آمن الشيطان عليهما » .

(٢) الطريرُ : ذو الهيئَةِ الحسنةِ .

وما أَحسنَ قولَ بعضِهم ـ [البُحتريُّ في « ديوانه » ٣/ ١٧٦٢ مِنَ الخفيفِ] وسيعادُ عندَ ذكرِ الآثارِ من المجلسِ الحادي عشرَ ؛ لأنَّه بها أنسبُ ـ وهُوَ :

قِفْ مَشُوْقَاً أَوْ مُسْعِداً أَوْ حَزِيْنَاً   أَوْ مُعِيْنَاً أَوْ عَاذِرَاً أَوْ عَذُوْلا[1]

ويروىٰ : أَن زبيدةَ ٱستمعتْ في حجِّها لِصَبٍّ يترنَّمُ بأَبياتٍ ، فجمعتْ بينَهُ وبينَ عشيقَتِهِ ، وٱعتدَّتْ ذلكَ من أَفضلِ أَعمالِها ، كما سبقَ ذلكَ في المجلسِ السابعِ .

العفة تنجي

أَمَّا ما يتعلَّقُ بالعفافِ : فمِنْ خيرِ ما فيهِ حديثُ الشيخينِ ، في الثلاثةِ الذينَ ٱنطبقَ عليهم الغارُ[2] .

---

(١) المُسعِدُ : المعينُ ، وقيلَ : المعينُ علىٰ البكاءِ .

(٢) أخرجه عَنِ ٱبنِ عُمَرَ رضيَ ٱللهُ عنهما البخاريُّ (٢٢٧٢) و(٣٤٦٥) ، ومسلم (٢٧٤٣) وهو أَنَّ رسولَ ٱللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ قالَ :

« بيْنَمَا ثَلاَثَةُ نَفَرٍ مِمَّنَ كَانَ قَبْلَكُمْ يَمْشُوْنَ ، إِذْ أَصَابَهُمْ مَطَرٌ ، فَأَوَوْا إِلَىٰ غَارٍ ، فَٱنْطَبَقَ عَلَيْهِمْ ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : إِنَّهُ وَٱللهِ ـ يَا هَؤُلاَءِ ـ لاَ يُنْجِيْكُمْ إِلاَّ ٱلصِّدْقُ ، فَلْيَدْعُ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بِمَا يَعْلَمُ أَنَّهُ قَدْ صَدَقَ فِيْهِ .

فَقَالَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ : ٱللَّهُمَّ . . إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ كَانَ لِيْ أَجِيْرٌ عَمِلَ لِيْ عَلَىٰ فَرَقٍ مِنْ أَرُزٍّ ، فَذَهَبَ وَتَرَكَهُ ، وَإِنِّيْ عَمَدْتُ إِلىٰ ذَلِكَ ٱلْفَرَقِ . . فَزَرَعْتُهُ ، فَصَارَ مِنْ أَمْرِهِ أَنِّيْ ٱشْتَرَيْتُ مِنْهُ بَقَراً ، وَأَنَّهُ أَتَانِيْ يَطْلُبُ أَجْرَهُ ، فَقُلْتُ : ٱعْمِدْ إِلَىٰ تِلْكَ ٱلْبَقَرِ فَسُقْهَا ، فَقَالَ لي : إِنَّمَا لِيْ عِنْدَكَ فَرَقٌ مِنْ أَرُزٍّ ، فَقُلْتُ لَهُ : ٱعْمِدْ إِلىٰ تِلْكَ ٱلْبَقَرِ فَإِنَّهَا مِنْ ذَلِكَ ٱلْفَرَقِ ، فَسَاقَهَا ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّيْ فَعَلْتُ ذَلِكَ مِنْ خَشْيَتِكَ . . فَفَرِّجْ عَنَّا ، فَٱنْسَاحَتْ عَنْهُمُ ٱلصَّخْرَةُ .

فَقَالَ ٱلآخَرُ : اللَّهُمَّ . . إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ كَانَ لِيْ أَبَوَانِ شَيْخَانِ كَبِيْرَانِ ، فَكُنْتُ آتِيْهِمَا كُلَّ لَيْلَةٍ بِلَبَنِ غَنَمٍ لِيْ ، فَأَبْطَأْتُ عَلَيْهِمَا لَيْلَةً ، فَجِئْتُ وَقَدْ رَقَدَا ، وَأَهْلِيْ وَعِيَالِي يَتَضَاغَوْنَ مِنَ ٱلْجُوْعِ ، فَكُنْتُ لاَ أَسْقِيْهِمْ حَتَّىٰ يَشْرَبَ أَبَوَايَ ، =

بشر الأسدي وهند الجهنية وموتهما

وحديثُ بِشْرِ الأَسديِّ وهندِ الجهنيَّةَ ، وكانَتْ بـ(المدينةِ) علىٰ ممرِّ بِشرٍ إِلىٰ رسولِ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم ، فعَلِقَتْهُ وتعرَّضَت لهُ ، فلمْ يُجبْها إِلىٰ ما تريدُ ، ولمَّا رأَىٰ إِلحاحَها . . تركَ تلكَ الطريقَ وعادَ يأْتي إِلىٰ رسولِ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم من غيرِهِ ، فاْشتملَ علَيها الفراشُ ، وهمَّ زوجُها أَن يتطبَّبَ لها ، فقالتْ لهُ : لا تفعلْ ، وأَنا أَعرَفُ بعلَّتي ، واْحتالتْ علىٰ زوجِها حتَّىٰ اْنتقلَ بِها إِلىٰ موضعٍ يشرفُ علىٰ الطريقِ التي يمرُّ فِيها بِشْرٌ ، فكانَتْ تنظرُ إِليهِ كلَّما اْجتازَ ، فتماثَلَتْ ، ثمَّ أَفضَتْ بشأْنِها إِلىٰ عجوزٍ ، فوعدَتْها أَن تجمعَها بهِ ، ثمَّ تعرَّضَتْ لهُ وقالَتْ : إِنَّ مَعي كتاباً أُريدُ أَنْ تقرأَهُ لي ، فقرأَهُ لَها ، وهنْدٌ تسمعُ كلامَهُ ، ثمَّ ما زالَتِ العجوزُ تتحيَّنُ الفرصَ . . حتَّىٰ خرجَ زوجُ المرأَةِ لبعضِ شأْنِهِ ، فاْحتالَتْ علىٰ بِشْرٍ حتَّىٰ جاءَتْ بهِ إِلىٰ عندِ الجهنيَّةِ ، وأَغلقتْ عليهِمُ البابَ ، فجاءَ زوجُ المرأَةِ وطلَّقَها بمجردِ ما رأَىٰ الواقعَ ، ثمَّ رُفعَ الرجلُ إِلىٰ رسولِ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم وقالَ لَهُ : سلهُ لِمَ دخلَ داري بلا اْستئذانٍ . ؟ فقالَ بشرٌ : والذي بعثَكَ بالحقِّ ، ما كفرتُ منذُ

= فَكَرِهْتُ أَنْ أُوقِظَهُمَا ، وَكَرِهْتُ أَنْ أَدَعَهُمَا فَيَسْتَكِنَّا لِشَرْبَتِهِمَا ، فَلَمْ أَزَلْ أَنْتَظِرُ حَتَّىٰ طَلَعَ ٱلْفَجْرُ ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ مِنْ خَشْيَتِكَ . . فَفَرِّجْ عَنَّا ، فَٱنسَاحَتِ ٱلصَّخْرَةُ ، حَتَّىٰ نَظَرُوا إِلَى ٱلسَّمَاءِ .

فَقَالَ ٱلآخَرُ : ٱللَّهُمَّ . . إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ كَانَتْ لِيَ ٱبْنَةُ عَمٍّ مِنْ أَحَبِّ ٱلنَّاسِ إِلَيَّ ، وَأَنِّي رَاوَدْتُهَا عَنْ نَفْسِهَا ، فَأَبَتْ إِلاَّ أَنْ آتِيَهَا بِمِئَةِ دِينَارٍ ، فَطَلَبْتُهَا حَتَّىٰ قَدَرْتُ ، فَأَتَيْتُهَا بِهَا ، فَدَفَعْتُهَا إِلَيْهَا ، فَأَمْكَنَتْنِي مِنْ نَفْسِهَا ، فَلَمَّا قَعَدْتُ بَيْنَ رِجْلَيْهَا . . قَالَتْ : ٱتَّقِ ٱللهَ ، وَلاَ تَفُضَّ ٱلْخَاتَمَ إِلاَّ بِحَقِّهِ ، فَقُمْتُ ، وَتَرَكْتُ ٱلْمِئَةَ دِينَارٍ ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ مِنْ خَشْيَتِكَ . . فَفَرِّجْ عَنَّا .

فَفَرَّجَ ٱللهُ عَنْهُمْ ، فَخَرَجُوا » .

أَسلمتُ ، وَلا زنيتُ مذ عرفتُكَ ، ولٰكنَّ الحالَ كَذا ، وبقَرَ له الحديث . . فأَدَّبَ العجوزَ ، وقالَ لَها : أَنتِ أَصلُ البليَّةِ ، وٱنصَرَفوا ، ولم يلبثْ بِشرٌ أَن ٱبْتُليَ بمحبَّةِ هِندٍ ، وراسلها فٱمتنعَتْ ، فلمْ يزلْ حتَّىٰ ماتَ ، فجاءَتْ لتَشهَدَ جنازتَهُ ، وعندما رأَتْها . . سقطَتْ مَيْتَةً ، ودُفِنا معاً ، فجاءَتِ العجوزُ إِلىٰ رسولِ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم تعتذرُ إِليه ، وتُخلِصُ في التوبةِ ، هٰذا حاصلُ الخبرِ وفيهِ طولٌ ، وهُوَ مشهورٌ ، ذكرهُ غيرُ واحدٍ ، ولا مخالفةَ في أَخذِ هٰذا بالعزيمةِ لشيءٍ ممَّا سبقَ .

في النساء صباحة وفي الفتيان عفة

وقالَ سعيدُ بنُ عقبةَ لأَعرابيٍّ [كما في « مصارع العشاق » ٢/١٨٦] : مَنْ أَنتَ ؟ قالَ : من قومٍ إِذا عشِقُوا . . ماتُوا ، قالَ : عذريٌّ وربِّ الكعبةِ ، قالَ : ولِمَ ؟ قالَ : لأَنَّ في نسائِنا صباحةً ، وفي فتيانِنَا عفَّةً .

مرضى ليس لهم داء إلا الحب

وقالَ رجلٌ لعروةَ بنِ حزامٍ : أَصحيحٌ ما يُقالُ : إِنَّكم أَرقُّ الناسِ قلوباً ؟ قالَ : نعم ، ولقد تركْتُ في الحيِّ ثلاثينَ شاباً خامَرَهُ الموتُ ، وما لَهم داءٌ غيرُ الحبِّ .

لو رأيتم النواظر الدعج

وقالَ رجلٌ مِن فزارةَ لرجلٍ من عذرةَ [كما في « مصارع العشاق » ١/٢٠٤] : إِنَّكم تعدُّونَ الموتَ بالحبِّ مزيَّةً وفضيلةً ، وإِنَّما هُوَ ضعفٌ وخورٌ في طباعِكُم ، فقالَ لَه : أَمَا واللهِ لَو رأَيتمُ النواظرَ الدُّعْجَ(١) ، فوقَها الحواجبُ الزجُّ ، تحتَها المباسِمُ الفلُجُ ، والشفاهُ السُّمْرُ . . لاتَّخذْتُموها اللاَّتَ والعزَّىٰ ، ثمَّ أَنشدَ [مِنَ الطَّويلِ] :

---

(١) النواظرُ : العيونُ . الدَّعجُ : سوادُ العينينِ مع سعتهما .

تَتَبَّعْتُ مَرْمَىٰ ٱلْوَحْشِ حَتَّىٰ رَمَيْنَنِي مِنَ ٱلنَّبْلِ لاَ بِٱلطَّائِشَاتِ ٱلْخَوَاطِفِ[1]
ضَعَائِفُ يَقْتُلْنَ ٱلرِّجَالَ بِلاَدَمٍ فَيَا عَجَباً لِلْقَاتِلاَتِ ٱلضَّعَائِفِ

وعشقَ الرشيدُ جاريةً ، فلمَّا رَاودَها عن نفسِها . . قالتْ لهُ : إنَّ أباكَ قد ألمَّ بي ، فكفَّ عَنْها حتَّىٰ كادَتْ تتلفُ نفسُهُ ، فقالَ [في « ديوانهِ » ٣٠ مِنَ الوافرِ] : عفة الرشيد

أَرَىٰ مَـاءً وَبِـيْ عَطَـشٌ شَـدِيْـدٌ وَلَٰـكِـنْ لاَ سَبِيْـلَ إِلَـىٰ ٱلْـوُرُوْدِ

فقالَ لهُ بعضُ القضاةِ : أَوَ كُلَّما قالتْ جاريةٌ شيئاً صدَّقتَها ؟!

قالَ بعضُهم : فتعجَّبْ مِن ورعِ الجاريةِ ، وعفَّةِ الرَّشيدِ ، وسوءِ نيَّةِ القاضي ، وسقوطِ نفسِهِ .

وما زالتِ العربُ تفتخرُ بالعفافِ ، ومن أَحسنِ ما فيهِ **قولُ الناظمِ** [في « العُكبَرِيِّ » ٣/ ٢٩٨ مِنَ الطَّويلِ] : المتنبي والعفاف

عَفِيْفٌ تَرُوْقُ ٱلشَّمْسَ صُوْرَةُ وَجْهِهِ فَلَوْ نَزَلَتْ يَوْماً لَحَادَ إِلَىٰ ٱلظِّلِّ[2]

وقولُهُ [في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ٣٠٦ مِنَ الطَّويلِ] :

ومَا كُلُّ مَنْ يَهْوَىٰ يَعِفُّ إِذَا خَلاَ عَفَافِيْ وَيُرْضِيْ ٱلْحِبَّ وَٱلْخَيْلُ تَلْتَقِيْ[3]

---

(١) **السهمُ الطائِشُ** : الذي يَحيدُ عَنِ الهدفِ . **الخواطِفُ** : السهامُ التي تقعُ علىٰ الأرضِ .
(٢) **تروقُ** : تعجبُ .
(٣) **يقولُ** : ليسَ كلُّ عاشقٍ شجاعاً مثلي ، يعني : **أنَّهُ** يَشْجُعُ في الوغى ، ويعفُّ عندَ الهوىٰ .
والمرأة العربية تحب من صاحبها أن يكون شجاعاً عند الحرب .

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ١/ ٢٦٨ مِنَ الطَّويلِ] :

يَـرُدُّ يَـداً عَـنْ ثَـوْبِهَـا وَهْـوَ قَـادِرٌ وَيعْصِيْ ٱلْهَوَىٰ فِيْ طَيْفِهَا وَهْوَ رَاقِدُ

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ١/ ٢٢٧ـ٢٢٦ مِنَ الكاملِ] :

وَتَـرَىٰ ٱلْفُتُـوَّةَ وَٱلْمُـرُوَّةَ وَٱلأُبُـ ـوَّةَ فِـيَّ كُـلُّ مَلِيْحَـةٍ ضَـرَّاتِهَـا

إِنِّيْ عَلَىٰ شَغَفِيْ بِمَا فِيْ خُمْرِهَا لأَعِفُّ عَمَّا فِيْ سَرَابِيْلاَتِهَا[1]

ومرَّ بعضُ ما يشبهُ ذلكَ في أَوائِلِ المجلسِ الثاني .

المـرأة المتعـرضـة لطاووس

وتعرَّضَتْ لطاووسٍ ٱمرأَةٌ ، فواعدَها المسجدَ ، فلمَّا حضرتْ إِليهِ والرحبةُ ملآنةٌ . . قالَ : هاهنا ، قالَتْ : أَلا ترىٰ الناسَ ؟ قالَ : إِنَّ مولاهُم يَرانا حيثُما كنَّا ، فٱقشعرَّتِ المرأَةُ ، وتابَتْ وٱنزجَرَتْ .

لا يرانا إلا الكواكب

وقالَ أَعرابيٌّ : خرجتُ في لَيلةٍ حالكَةٍ ، فإذا بجاريةٍ كأَنَّها عَلَمٌ . . فراودْتُها ، فقالَتْ : أَما لَكَ زاجرٌ مِن عقلٍ إِنْ لَم يكُنْ لكَ ناهٍ مِن دينٍ ؟ فقلتُ : إِنَّه لا يَرانا إِلاَّ الكواكبُ ، قالَتْ : وأَينَكَ عَنْ مُكَوْكِبِهَا ؟!

يجب أن تكون عالماً بالمساحة

وٱجتمعَ بعضُ الأَعرابِ بٱمرأَةٍ ، فلمَّا قعدَ مِنها مقعدَ الرجلِ مِنَ المرأَةِ . . ذكرَ الآخرةَ فٱستعصمَ وقامَ عَنها ، وقالَ : إِنَّ مَن باعَ جَنَّةً عـرضُهـا السمـاواتُ والأَرضُ بمقـدارِ أَربعـةِ أَصـابـعَ لقليـلُ العلـمِ بالمِساحةِ .

---

(١) خُمرِها ـ جمعُ خمارٍ ـ : وهوَ ما تغطي به المرأة رأسَها . . . والسرابيلاتُ ـ جمع السربال ـ : وهو القميص ، والمعنىٰ : أني مع حُبِّي لوجوهِهِنَّ أَعِفُّ عن أبدانِهِنَّ .

تساوي النساء في البضاعة

وانقطعَ بعضُ أولادِ الملوكِ عن أصحابِهِ ، ودخَلَ منزلَ امرأةٍ أعجبتْهُ فراودَها ، فقالَتْ : حتَّىٰ تتغدَّىٰ ، وقدَّمَتْ لَهُ خُوانا[1] عليهِ عشرونَ سُكُرُّجة[2] كلُّها بطعْمٍ واحدٍ ، ففطِنَ إلىٰ أنَّها تشيرُ إلىٰ تساوي النساءِ ، وأنَّ الذي معَها مثلُ الذي معَ زوجَتِهِ فانكفَّ عَنْها .

وفي « الصحيح » : ما معناهُ : « أيُّما رَجُلٍ أعجبتْهُ امرأةٌ . . فَلْيَذْهَبْ إلَىٰ امْرَأَتِهِ ؛ فَإِنَّ مَعَها مِثْلَ الَّذِي مَعَها »[3] .

الخلوة والعفة

وقالَ بعضُهم [مِنَ الطَّويلِ] :

خَلَوْتُ بِهَا لَيْلاً وَلَمْ أَقْضِ حَاجَةً ... وَلَسْتُ عَلَىٰ ذَاكَ الْعَفَافِ بِنَادِمِ

وسمعتِ امرأةٌ رَجُلاً ينشدُ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَكَـمْ لَيْلَـةٍ قَـدْ بِتُّهَـا غَيْـرَ آثِـمٍ ... بِمَهْضُومَةِ الْكَشْحَيْنِ رَيَّانَةِ الْقَلْبِ

فقالَتْ لهُ : أخزاكَ اللهُ ، ألا أكرمْتَ مَثْواها ، وجبرْتَ خاطِرَها ، لَمَا وقعْتَ فيهِ مِنَ الإثمِ . . شَرٌّ مِمَّا تركتَهُ .

هذا مهري فاخطبني

وافتتنَتِ امرأةٌ مِنَ العربِ بفتىً ، فدَعاها يوماً . . فأجابَتْهُ ، فغنَّىٰ مغنٍّ عندَهما بهٰذا [مِنَ الوافرِ] :

---

(1) الخُوانُ : ما يُؤكلُ عليهِ .
(2) السُّكُرُّجة : إناءٌ صغير يؤكل فيه الشيءُ القليلُ من الأُدُم .
(3) أخرجهُ عن جابرٍ رضيَ اللهُ عنهُ ابنُ حِبَّانَ في « الإحسان » (٥٥٧٢) ولفظه :
أنَّ رسولَ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ رأىٰ امرأةً ، فدخلَ علىٰ زينبَ ، فقضىٰ حاجتَهُ ، وقالَ : « إنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا أَقْبَلَتْ . . أَقْبَلَتْ فِي صُورَةِ شَيْطَانٍ ، فَإِذَا رَأَىٰ أَحَدُكُمُ امْرَأَةً أَعْجَبَتْهُ . . فَلْيَأْتِ أَهْلَهُ ؛ فَإِنَّ مَعَهَا مِثْلَ الَّذِي مَعَهَا » . بإسناد صحيح ، وبنحوه عند مسلم (١٤٠٣) ، وأبي داوود (٢١٥١) ، والترمذي (١١٥٨) .

مِنَ ٱلْخَفِرَاتِ لَمْ تَفْضَحْ أَخَاهَا وَلَمْ تَرْفَعْ لِوَالِدِهَا شَنَارَا[1]

فقالَتْ : معاذَ اللهِ أَنْ أَتدنَّسَ بِما يجلُبُ المذمَّةَ بعْدَ هٰذا ، ثمَّ بعثَتْ للفتىٰ بأَلفِ دينارٍ ، وقالَتْ : هٰذا مَهري ، فإِنْ أَرَدْتَني . . فاْخطُبني مِن أَهْلي .

شهادة عمر ابن أبي ربيعة على نفسه عند وفاته

ولمَّا ٱشتدَّ المرضُ بعمرَ ٱبنِ أَبي ربيعةَ . . بكىٰ أَخوهُ ، فرفعَ إِليهِ طرفَهُ ، وقالَ : لعلَّكَ تُشْفِقُ عليَّ ممَّا تظنُّ ؛ بسبَبِ ما تَسمعُ مِن شِعْري ، قالَ : نعم ، قالَ : ما أَملكُ عُتُقٌ إِنْ كنتُ وطئْتُ ٱمرأَةً حراماً قطُّ ، فقالَ : الحمدُ للهِ ، لَقَدْ هوَّنْتَ عليَّ الأَمرَ .

العفة في العشق

وقالَ أَبو زيدٍ : كانَ الرجلُ إِذا عشقَ ٱمرأَةً ، فراسلَها سَنَةً . . رضيَ بأَنْ تمضغَ عِلكاً فتبعثَهُ إِليهِ .

الأحوص يشبب بأم جعفر وهو لا يعرفها

ولمَّا أَكثرَ الأَحوصُ التشبيبَ بأُمِّ جعفرٍ الخطميَّةِ . . ٱنتقبَتْ وجاءَتْهُ ، وهُوَ في نَادي قومِهِ ، فقالَتِ : ٱدفعْ ثَمنَ الأَغنامِ التي ٱبتعتَ مِنِّي ، قالَ : ما ٱبتعتُ منكِ شيئاً ، فقالَتْ لقومِهِ : قولُوا لَهُ : لا يجحدُ الحقَّ ، فقالوا لَهُ : إِنْ كانَ حقّاً ما تقولُ . . فلا ينبغي الجحودُ ، قالَ : واللهِ ما عرفْتُها قطُّ ، فٱرتفعَ الشِّجارُ ، وٱشتدَّ الخصامُ ، وكشفَتْ عَن وجهِهَا ، وقالَتْ : لعلَّهُ لَم يَستَثْبِتْنِي ، فلينعمِ النظرَ ، فقالَ : واللهِ ما عرفْتُها ولا رأَيتُها منذُ خَلَقَني اللهُ تعالىٰ ، فقالَتْ : ما بالُكَ تشبِّبُ بي وتفضحُني ؟! فخجلَ وٱنزجرَ ، وكذَّبتْهُ عشيرتُهُ .

وقد ذكرنا في « بلابلِ التغريدِ » جملةً صالحةً مِن أَشعارِ العربِ

---

(١) الشنارُ : الفضيحةُ والعارُ .

في العفافِ ، لا بَأسَ إنْ أَعَدْنا مِنها ما يقتضيهِ الاستطرادُ في مجلسٍ آخرَ .

يعجبني قولُ الرضيِّ [في « ديوانه » ٢/ ٦٥٠ مِنَ ٱلبسيطِ] :

دُوْنَ ٱلْقِبَابِ عَفَافٌ مِنْ خَلاَئِقِهَا ... وَٱلصَّوْنُ يَحْفَظُ مَا لاَ تَحْفَظُ ٱلْخِيَمُ

العاشقون في الطواف والعاشق المأجور

وسمعَ بعضُ ٱلنُّسَّاكِ ٱمرأَةً في المطافِ تقولُ لأُختِها [كما في « مصارع العشاق » (٢/ ٢١٧) مِنَ ٱلبسيطِ] :

لاَ يَقْبَلُ ٱللهُ مِنْ مَعْشُوْقَةٍ عَمَلاً ... يَوْماً وَعَاشِقُهَا غَضْبَانُ مَهْجُورُ

فقالَتِ الأُخرىٰ [مِنَ البسيطِ] :

وَلَيْسَ يَأْجُرُهَا فِيْ قَتْلِ عَاشِقِهَا ... لَـٰكِنَّ عَاشِقَهَا فِيْ ذَاكَ مَأْجُورُ

فقالَ لهنَّ : في مثلِ هـٰذا الموطنِ تقلنَ هـٰذا ؟ فقالَتْ لهُ إحداهُنَّ : إليكَ عنَّا ، فإنَّه الحبُّ ، قالَ : وما هُوَ ؟ قالتْ ـ كما سبقَ في المجلسِ الأوَّلِ ـ : جلَّ عَنْ أَنْ يخفىٰ ، وخفِيَ عن أَنْ يُرىٰ ، فهوَ كامنٌ في الأَحشاءِ كمونَ النارِ في الزنادِ ، إنْ قدحْتَهُ وَرىٰ ، وإنْ تركتَهُ تواریٰ ، ثمَّ أَنشدَتْ قولَ جريرٍ ـ السابقَ معَ ما يناسبُهُ أَوائِلَ المجلسِ الثاني ـ وهُوَ [في « ديوانِ بشَّارٍ » ٤/ ١٩٢ مِنَ الكاملِ] :

حُوْرٌ حَرَائِرُ مَا هَمَمْنَ بِرِيْبَةٍ ... كَظِبَـاءِ مَكَّـةَ صَيْـدُهُـنَّ حَـرامُ
يُحْسَبْنَ مِنْ لِيْنِ ٱلْحَدِيْثِ زَوَانِياً ... وَيَصُدُّهُنَّ عَنِ ٱلْخَنَا ٱلإِسْلاَمُ

اللهم لا تعذب هذه الوجوه المليحة بالنار

ويروىٰ [بنحوه في « بغية الطلب في تاريخ حلب » ٩/ ٤١٣٣] : أَنَّ ٱبنَ أَبي حازمٍ سمعَ ٱمرأَتينِ ترفثانِ في المطافِ ، وكانتَا علىٰ غايةٍ مِنَ الجمالِ ، ولمَّا عاتبَهُما . . قالَتْ لَهُ إحداهُنَّ : دَعْنا عنكَ ، فإنَّا مِمَّن قيلَ فيهنَّ [مِنَ الطَّويلِ] :

أَمَاطَتْ رِداءَ ٱلْخَزِّ عَنْ حُرِّ وَجْهِهَا ... وَأَلْقَتْ عَلَىٰ ٱلْمَتْنَيْنِ بُرْداً مُهَلْهَلا[1]
هُنَ ٱللاَّءِ لَمْ يَحْجُجْنَ يَبْغِيْنَ قُرْبَةً ... وَلَـٰكِنْ لِيَقْتُلْنَ ٱلْبَرِيْءَ ٱلْمُغَفَّلاَ

فلمْ يكنْ منهُ إلاَّ أَنْ رفعَ يديهِ إِلىٰ السماءِ ، وقالَ : اللَّهمَّ لا تعذبْ هـٰذهِ الوجوهَ المليحةَ بالنارِ ، فٱنتهىٰ الخبرُ إِلىٰ الشعبيِّ ، فقالَ : ما أَرقَّ نسيمَ أَهلِ الحجازِ ، أَما لَو كانَ أَحدُنا مكانَهُ . . قالَ لهُنَّ : ٱخزينَ يا عدوَّاتِ أَنفسِهِنَّ ، عليكُنَّ كَذا وكَذا .

* * *

(١) ثوبٌ مهلهلٌ : سخيفُ النسجِ .

[قالَ أَبو الطَّيِّب المتنبِّي في « العُكبَريِّ » ١/ ٣١٥ مِنَ الخفيفِ] :

يَتَـرَشَّفْـنَ مِـنْ فَمِـيْ رَشَفَـاتٍ هُـنَّ فِيْـهِ أَحْلَـىٰ مِـنَ ٱلتَّـوْحِيْـدِ

الأقوال والتأويلات في شرح المطلع

قالَ بعضُهم : (التوحيدُ) نوعٌ منَ التمرِ ، وهُوَ المرادُ ، وهـٰذا كلامٌ باردٌ ، لا يقولُهُ إِلاَّ ثقيلٌ ، ولا يقبلُهُ إِلاَّ أَثقلُ منهُ ، وقيلَ : إِنَّ المرادَ مِنَ التوحيدِ الإفرادُ ، ومعناهُ أَنَّ الرشَفَاتِ المتعدِّداتِ . . أَحلىٰ من الواحدةِ ، وهـٰذا أَبردُ وأَثقلُ وأَقبحُ ، والصحيحُ : أَنَّ المرادَ بالتوحيدِ كلمتُهُ ، فإنْ قالوا هـٰذا إِفراطٌ . . قُلنا : لا ـ وإن كانَ المتنبِّي لا يبالي بالإفراطِ ـ ولـٰكنَّ هـٰذا ليسَ منهُ ، والجوابُ مِن وجوهٍ :

أَحـدُهـا : أَنَّ أَفعـلَ التفضيـلِ هُنـا للمقـاربـةِ فـي التشبيـهِ ، لا للتفضيلِ ، وهُوَ ما ذكرهُ الشارحُ .

ثـانيهـا : أَنَّـه أَخبـرَ بحـالِـهِ ، وأَنَّ الشهـواتِ عنـدَهُ أَحلـىٰ مِـنَ العباداتِ ، وهيَ حالُ الجمَّاءِ الغفيرِ مِنَ الناسِ ، ولَولاهُ لَمَا شُرِعَ التثويبُ في أَذانِ الصبْحِ ، وهوَ أَمرٌ طبيعيٌّ ، لا يؤَاخذُ بهِ المكلَّفُ . ومتىٰ جعلَ المتنبِّي كلمةَ التوحيدِ مضربَ المثلِ في الحلاوةِ ؟! إِلاَّ أَنَّ الرشَفاتِ عندَهُ أَحلىٰ مِنْها ، فخلاه ذَمٌّ ؛ وإِنَّ ذلكَ لَكَثيرٌ منهُ .

وقد قالَ السبكيُّ : ليسَ مِنَ التنقيصِ قولُ مَنْ سُئِلَ عَن شيءٍ ، لَو جاءَني جبريلُ أَو النبيُّ . . ما فعلتُهُ ؛ لأَنَّ هـٰذهِ العبارةَ تدلُّ علىٰ تعظيمِهِ عندَهُ .

وما أرىٰ الناظمَ يريدُ هـٰذا المعنىٰ ؛ لأنَّه لا يناسبُ حالَهُ ، وإنَّما أَرادَ أَنَّ الرشَفَاتِ عندَهُ . . أَحلىٰ من كلمةِ التوحيدِ عندَ العارفينَ ، ومعَ ذلكَ فأَيُّ واعظٍ لا يقولُ : ما لِلشهواتِ أَحبُّ إِليكُمْ مِنَ الصلواتِ ؟ وقد شملتكُمُ القساوةُ حتَّىٰ صارَ ٱللهوُ عندكُم أَلَذَّ مِنَ التلاوةِ ، واللهُ جلَّ شأنُهُ يقولُ : ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ ﴾ [البقرة : ٤٥] :

ولَو كانَ الناظمُ مِمَّن يجدُ للتوحيدِ أَدنىٰ حلاوةٍ . . لنفعَهُ ذلكَ ، فقد أَخرجَ أَحمدُ [في « مسنده » ٢/٤٤٧] : بسندٍ جيِّدٍ عَن أَبي هُريرةَ ، أَنَّ رجلاً قالَ للنبيِّ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : إِنَّ فلاناً يُصلِّي ، فإِذا كانَ من آخرِ الليلِ . . سرقَ ، فقالَ لَه صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « أَمَا إِنَّهُ سَيَنْهَاهُ ما تقولُ » أَو ما هـٰذا معناهُ .

ليس التسبيح مشابهاً لحالك

وذكرتُ بهِ ما رويَ : أَنَّ عبدَ اللهِ بنَ جعفرٍ ، مرَّ بٱمرأَةٍ مُزَيَّنَةٍ مطيَّبَةٍ ، جالسةٍ علىٰ بابِ دارِها ، تسبِّحُ اللهَ وتذكرُهُ ، فقالَ لَها : ما التسبيحُ بمُشابِهٍ لِحَالِكِ ، فأَنشدَتْ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَللهِ عِنْـدِيْ جَـانِـبٌ لاَ أُضِيْعُـهُ   وَلِلَّهْـوِ مِنِّـيْ وَٱلْبَطَـالَـةِ جَـانِـبُ

لا يجوز الاستهتار بالدين

وإِنَّما يَنْصَبُّ ٱللَّومُ مِنْ كُلِّ ناحيَةٍ . . علىٰ مِثلِ قولِ أَبي عبادةَ [في « ديوانه » ٤/ ٢٢٥٠ مِنَ البسيطِ] :

إِنِّـي أَعُـدُّكُـمُ رَهْطِـيْ وأَجْعَلُكُـمْ   أَحَقَّ بِٱلصَّوْنِ مِنْ عِرْضِيْ وَمِنْ دِيْنِيْ

العفو عن حديث النفس

فإِنَّ ما يجدُهُ الإِنسانُ مِنْ نفسِهِ ، مِنِ ٱستمراءِ الشهواتِ أَكثرُ مِنَ العباداتِ . . فغيرُ ملومٍ فيهِ متىٰ جاهدَ نفسَهُ ، وٱحترمَ دينَهُ .

صور من تناقض المتنبي

ثمَّ إِنَّ الناظمَ كثيرُ التناقضِ ـ كما قرَّرْناهُ غيرَ مرَّةٍ ـ ومِن تناقضِهِ قولُهُ هُنا : (يَتَرَشَّفْنَ) وفحواهُ : أَنَّهُ لا يترشَّفُ هُوَ مِنهُنَّ ؛ لِتعاظُمِهِ

في نفسِهِ ، وأنَّه معشوقٌ لا عاشِقٌ ، ومطلوبٌ لاَ طالبٌ ، وما هِيَ سبيلُ الكرامِ ، ولا سجيَّةُ أُولي الأَذواقِ السليمَةِ ، كما سنفيضُ فيهِ عندَ شرحِ قولِهِ [في « العُكبَرِيّ » ٢/٢٣٨ مِنَ الطَّويلِ] :

تَذَلَّلْ لِمَنْ تَهْوَىٰ عَلَىٰ ٱلْقُرْبِ وَٱلنَّوَىٰ   فَمَا عَاشِقٌ مَنْ لاَ يَذِلُّ وَيَخْضَعُ(١)

ويزعمُ مرَّةً أُخرىٰ ، أنَّه لا يُمَكِّنُهُنَّ مِن رَشْفِ ثَغرِهِ ، كَما في قولِهِ [في « العُكبَرِيّ » ٢/٣٠٦ مِنَ الطَّويلِ] :

وأَشْنَبَ مَعْسُوْلِ ٱلثَّنِيَّاتِ وَاضِحٍ   حَمَيْتُ فَمِي عَنْهُ فَقَبَّلَ مَفْرَقِي(٢)

وفي مواضِعَ يَظهرُ بألوانٍ أُخرىٰ ، فيقولُ [في « العُكبَرِيّ » ٤/٧ مِنَ الكاملِ] :

وَلَطَالَمَا أَفْنَيْتُ رِيْقَ كَعَابِهَا   فِيْهَا ، وأَفْنَتْ بِالْعِتَابِ كَلاَمِيْ(٣)

ويقولُ [في « العُكبَرِيّ » ٤/ ٢٧٠-٢٧٢ مِنَ المنسرحِ] :

وَقَبَّلَتْ نَاظِرِيْ تُغَالِطُنِيْ   وَإِنَّمَا قَبَّلَتْ بِهِ فَاهَا(٤)

حَيْثُ ٱلتَقَىٰ خَدُّهَا وَتُفَّاحُ لُبْـ   ـنَانَ وَثَغْرِيْ عَلَىٰ حُمَيَّاهَا(٥)

---

(١) في « العكبري » : (تَذَلَّلْ لَهَا وَٱخْضَعْ) بدل (تَذَلَّلْ لِمَنْ تَهْوَىٰ) .

(٢) الأشنبُ : الثغرُ البرّاقُ . المعسولُ : الذي كأنَّ فيهِ عسلاً .

(٣) الكَعابُ : الكاعبُ ، وهيَ الجاريةُ التي كعَبَ نهدُها . والهاء في قوله : كعابها : عائدة إلى الدِّمَنِ في البيت الذي قبله .

(٤) الناظرُ : موضعُ البصرِ من العينِ ، كالمرآةِ إذا قابلهُ شيءٌ أدّىٰ صورتَهُ ؛ أي : أوهمتني أنها قبّلت عيني ، وإنما قبّلت فاها الذي رأته في ناظري . ويؤيّدهُ قولهُ في البيت الذي قبل هذا البيت من قصيدته :

تُبْصِرُ فِيْ نَاظِرِيْ مُحَيَّاهَا

(٥) لُبنانُ : جبلٌ معروف في (الشام) ، من جبالِ (بعلبكَّ) ، وهو كثير الجنانِ =

ويقولُ [في « العُكبَريّ » ٤/٣٧ مِنَ البسيطِ] :

قَبَّلْتُهَا وَدُمُوْعِي مَزْجُ أَدْمُعِهَا وَقَبَّلَتْنِي عَلَىٰ خَوْفٍ فَماً لِفَمِ

لايكون التعارض إلا باتحاد الزمان والمكان

وقد سبقَ في غيرِ هٰذا المجلسِ ما يعرفُ منهُ أَنَّ التعارضَ لا يتحقَّقُ إلاَّ بٱتحادِ الزمانِ والمكانِ ؛ لأَنَّ الأَوقاتَ تختلفُ ، والأَحوالَ تضطَرِبُ ، وظروفَ الوقائعِ تتلوَّنُ ، غيرَ أَنَّ الإِفراطَ والتفريطَ اللَّذينِ لا يزالُ الناظمُ يَتَكَسَّعُ(١) بينَهُما ، مِمَّا لا سبيلَ إِلىٰ الاعتذارِ عنهُ ، وإِنْ شئتَ . . فقارِنْ بينَ تعاظُمِهِ وترفُّعِهِ عن مغازلةِ العقائِلِ في كثيرٍ مِن أَشعارِهِ ، وبينَ قولِهِ [في « العُكبَريّ » ٤/٨ مِنَ الكاملِ] :

لَيْتَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلنَّوَىٰ جَعَلَ ٱلْحَصَىٰ لِخِفَافِهِنَّ مَفَاصِلِي وَعِظَامِي

ثمَّ ٱنظرْ إِلىٰ تفديتهِ المطايا بالغَواني في قولِهِ [في « العُكبَريّ » ٢/٣٦ مِنَ المتقاربِ] :

أَلاَ كُلُّ مَاشِيَةِ ٱلْخَيْزَلَىٰ فِدَا كُلِّ مَاشِيَةِ ٱلْهَيْدَبَىٰ(٢)

تجدِ ٱلشأْوَ بعيداً ، والفرقَ كبيراً ، والجمعَ مُحالاً ، والتأْليفَ مُتعذراً ، ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : ٨٢] .

= والمياهِ . الحميَّا : الخمرُ .

(١) يتكَسَّعُ : يذهب في ضلالِهِ .

(٢) الخيزلىٰ : مشيةٌ فيها استرخاءٌ ، من مشيةِ النساءِ . الهيدبىٰ : مشيةٌ فيها سرعةٌ ، من مشيِ الإبلِ ، والمعنى : فدت كلُّ ٱمرأَةٍ تمشي الخيزلىٰ كلَّ ناقةٍ تمشيْ الهيدبىٰ ، يريدُ أَنَّهُ ليسَ من أَهلِ الغزلِ . ولا يميلُ إلى النساءِ ، وإنَّما هوَ من أَهلِ السفرِ يحبُّ مشيَ الجمالِ .

الإنكار على جميل

وقد أنكروا علىٰ جميلٍ قولَهُ [في « ديوانهِ » ٢١٠ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَسْتُ وَإِنْ عَزَّتْ عَلَيَّ بِقَائِلٍ ... لَهَا بَعْدَ صَرْمٍ : يَا بُثَيْنُ صِلِينِي(١)

أنحىٰ ٱبنُ أَبي عتيقٍ علىٰ عمرَ ٱبنِ أَبي ربيعةَ في قولِهِ [في «ديوانهِ» ١٥١ مِنَ الرَّمَلِ] :

بَيْنَمَـا يَنعَتْنَنِـي أَبْصَـرْنَنِـي ... مِثْلَ قَيْدِ الْمِيلِ يَعْدُوْ بِيَ ٱلأَغَرّ(٢)

قَالَتِ ٱلْكُبْرَىٰ: أَتَعرِفْنَ ٱلْفَتَىٰ؟ ... قَالَتِ ٱلْوُسْطَىٰ: نَعَمْ هَـٰذَا عُمَرْ

قَالَتِ ٱلصُّغْرَىٰ وَقَدْ تَيَّمْتُهَا: ... قَدْ عَرَفْنَاهُ وَهلْ يَخْفَىٰ ٱلْقَمَرْ

تذلل لمن تهوى

وقالَ لهُ : إِنَّما نسبتَ بنفسِكَ ، وكانَ نولَكَ أَنْ تقولَ : قلنَ لي : ضعْ خدَّكَ بالأَرضِ ، فوضعتُهُ ، فوطِئْنَ عليهِ .

ويأْتِي في غيرِ هـٰذا المجلسِ ، ما كانَ مِن ٱبنِ المعتزِّ ، ثمَّ مِن سلطانِ العاشقينَ في ترسُّمِ ما ذكرهُ ٱبنُ أَبي عتيقٍ .

القاتلة المتجبرة

وما أَرَقَّ نسيمَ أَبي فراسٍ في مراجعتِهِ التي يقولُ فيها [في « ديوانهِ » ١٤٣ مِنَ الطَّويلِ] :

تُسَائِلُنِيْ مَن أَنتَ ؟ وَهِيَ عَلِيْمَةٌ ... وَهلْ بِفَتىً مِثْلِيْ عَلَىٰ حَالِهِ نُكْرُ ؟!

فَقُلْتُ: كَمَا شَاءَتْ وَشَاءَ لَهَا ٱلْهَوَىٰ ... قَتِيْلُكِ، قَالَتْ : أَيُّهُمْ ؟ فَهُمُ كُثْرُ

فَقُلْتُ لَهَا : لَوْ شِئْتِ لَمْ تَتَعَنَّتِي ... وَلَمْ تَسْأَلِيْ عَنِّيْ وَعِنْدَكِ بِيْ خُبْرُ

انتقاد كثير على عمر ابن أبي ربيعة

وٱنتقدَ كُثيرٌ علىٰ عمرَ ٱبنِ أَبي ربيعةَ ـ أَيضاً ـ قولَهُ [في « ديوانهِ » ١٤٥ مِنَ ٱلمنسرحِ] :

قَـالَـتْ لَهَـا أُخْتُهَـا تُعَـاتِبُهَـا : ... لاَ تُفْسِـدِنَّ ٱلطَّـوَافَ فِـيْ عُمَـرِ

---

(١) الصرمُ : الهجرُ والقطيعةُ .

(٢) الأَغرُّ : أراد به فرسهُ الذي في جبهتهِ بياضٌ .

قُومِي تَصَدَّيْ لَهُ لأُبْصِرَهُ ثُمَّ ٱغْمِزِيهِ يَا أُخْتُ فِيْ خَفَرِ(١)
قَالَتْ لَهَا : قَدْ غَمَزْتُهُ فَأَبَىٰ ثُمَّ ٱسْبَطَرَّتْ تَشْتَدُّ فِيْ أَثَرِيْ(٢)

وقالَ لهُ : أَهٰكذا يقالُ للمرأةِ ؟ إنَّما توصفُ بأَنَّها مطلوبةٌ متمنعةٌ . كما هيَ عادةُ العربِ ؛ نتيجةَ غيرتِهِم عليهِنَّ .

وممَّا يُعَابُ مِن هٰذا القبيلِ عليهِ ـ أيضاً ـ قولُهُ [في « ديوانهِ » ٤٨٨ مِنَ الكاملِ] :

فَتَنَاوَلَتْ رَأْسِيْ لِتَعْلَمَ مَسَّهُ بِمُخَضَّبِ ٱلأَطْرَافِ غَيْرِ مُشَنَّجِ(٣)

المرأة الأديبة عاشقة عمر ابن أبي ربيعة التي ترسل جاريتها في طلبه

وهٰذا مِنْ قطعةٍ لهُ فيها قصَّةٌ عجيبةٌ ، حاصلُها كمَا أَخرجَها الأَصفهانيُّ بسندِهِ [في « الأغاني » ١/١٩٧] : أَنَّ ٱبنَ أَبي ربيعةَ كانَ جالساً ليلةً بمنىً في مضربِهِ ، وحولَهُ غلمانُهُ ، إِذْ أَقبلتْ ٱمرأَةٌ برزةٌ(٤) ، عليها أَثرُ النعمةِ ، فسلَّمَتْ ، وقالَتْ : أَينَ عمرُ ؟ قالَ : ها أَنا هُوَ ، قالَتْ : هَل لَكَ في محادَثةِ أَحسنِ النساءِ وجهاً ، وأَتمِّهِنَّ خَلقاً ، وأَكمَلِهِنَّ أَدباً ، قالَ : ما أَحبَّ ذلكَ إليَّ ، قالَتْ : علىٰ شرطٍ ، قالَ : ٱشترِطي ما شئْتِ ، قالَتْ : تُمَكِّنُنِي مِن عينيْكَ حتَّىٰ أَشدَّهُما ، وأَقودُكَ ، حتَّىٰ إذا وصلْتَ الموضعَ الذي أَعني . حللْتُ الشدَّ ، ثُمَّ أَفعلُ بكَ ذلكَ عندَ عودكَ ، قالَ : شأنُكِ ، ففعلَتْ ، قالَ : فلمَّا ٱنتهيتُ إِلىٰ المضربِ الذي أَرادت ، وحصَّلَتْني في

---

(١) الخفرُ : شدَّةُ الحياءِ .
(٢) ٱسبطرَّت : أَسرعت .
(٣) المخضَّبُ : المصبوغ بالحنّاء . الأَطرافُ : رؤوسُ الأصابعِ . المشنَّجُ : المتجَعّدُ .
(٤) برزَةٌ : بارزةُ المحاسنِ ، تبرزُ للقومِ يجلسونَ إليها ويتحدَّثونَ وهي عفيفةٌ .

داخِلِهِ. . كشفَتْ عَنْ وَجْهِي ، فإذا بامرأةٍ علىٰ كرسيٍّ ، لم أرَ مثلَها جَمالاً وكَمالاً ، فسلَّمتُ وجلَسْتُ ، فقالتْ : أَنتَ عُمَرُ ابنُ أبي ربيعة ، قلتُ : نعم ، قالَتْ : أَنتَ فاضحُ الحرائِرِ . قلتُ : وما ذاكَ جعلَني اللهُ فداكِ ؟ قالَتْ : أَلستَ القائِلَ [في « ديوانه » ٤٨٨ مِن الكامِلِ] :

قَالَت: وَعَيْشِ أَبِيْ وَعِدَّةِ إِخْوَتِيْ ... لأُنَبِّهَنَّ ٱلْحَيَّ إِنْ لَمْ تَخْرُجِ
فَخَرَجْتُ خَوْفَ يَمِيْنِهَا فَتَبَسَّمَتْ ... فَعَلِمْتُ أَنَّ يَمِيْنَهَا لَمْ تَحْرَجِ
فَتَنَاوَلَتْ رَأْسِيْ لِتَعْلَمَ مَسَّهُ ... بِمُخَضَّبِ ٱلأَطْرَافِ غَيْرِ مُشَنَّجِ
فَلَثَمْتُ فَاهَا آخِذاً بِقُرُوْنِهَا ... شُرْبَ ٱلنَّزِيفِ بِبَرْدِ مَاءِ ٱلْحَشْرَجِ

قمْ فاخرجْ ، ثمَّ قامَتْ ، وجاءَتِ المرأةُ ، فشدَّت عَيني ، وأَخرجتْني ، حتَّىٰ انتهتْ بي إلىٰ مَضْرِبي ، وانصرفتْ ، فحلَلْتُ عَيني ، وقد دَخلَني مِن الحزنِ والكآبَةِ ما بهِ اللهُ أَعلمُ منِّي ، وبتُّ لَيلَتي ، فلمَّا كانَتْ الليلةُ الثانيةُ. . إذا أنا بِها ، فقالتْ : هَلْ لَكَ في العودِ علىٰ مِثْلِ ذلكَ الحالِ ؟ فقلتُ : نعم ، ففعلَتْ مَعي كما فعلَتْ في الليلةِ الماضيَةِ ، وإذا بتلكَ الفتاةِ علىٰ كرسيٍّ ، فقالَتْ : إِيْهاً يا كاشفَ الأَستار ، ومبيحَ الأَسرارِ ، أَلستَ القائِلَ [في « ديوانه » ٤٩٠ مِنَ الطَّويلِ] :

وناهِدَةِ ٱلثَّدْيَيْنِ قُلْتُ لَهَا: ٱتَّكِيْ ... عَلَىٰ ٱلرَّمْلِ مِنْ جَبَّانَةٍ لَمْ تَوَسَّدِ
فَقَالَتْ: عَلَىٰ ٱسْمِ ٱللهِ أَمْرُكَ طَاعَةٌ ... وَإِنْ كُنْتُ قَدْ كُلِّفْتُ مَا لَمْ أُعَوَّدِ
فَلَمَّا دَنَا ٱلإِصْبَاحُ قَالَتْ: فَضَحْتَنِيْ ... فَقُمْ غَيْرَ مَطْرُوْدٍ وَإِنْ شِئْتَ فَٱزْدَدِ

قُمْ فاخرجْ عنِّي ، فخرجْتُ ، ثمَّ رُدِدْتُ ، فقالَتْ : لَولا وشكُ الرحيلِ ، وخوفُ الفوتِ ، وحبِّي لِمُناجاتِكَ ، والاستكثارُ مِن محادثَتِكَ. . لأَقصيتُكَ ، هاتِ الآنَ حدِّثني وأَنشدْني ، فكلَّمتُ آدَبَ

الناسِ وأَعلَمَهم بكلِّ شيءٍ ، ثمَّ نهضتُ ، فإذا بتورٍ[1] فيهِ خلوقٌ[2] ، فأَدخلتُ يدي فيهِ ، ثُمَّ خبأْتُها في رِدْني ، ثُمَّ جاءَتِ العجوزُ ، فشدَّتْ عَينيَّ ، ونهضَتْ بي تقودُني ، حتَّىٰ إذا صرتُ علىٰ بابِ المضربِ . . أَخرجتُ يَدي ، فضربْتُ بِها عليهِ من خارجٍ ، ثمَّ دعوتُ غِلْماني ، وقلتُ لَهم : أَيُّكم يَقفُني علىٰ بابِ مَضربٍ عليهِ خلوقٌ كأَنَّهُ أَثرُ كفٍّ . . فَهُوَ حرٌّ ، ولهُ خمسُ مئةِ درهمٍ فلم أَلبثْ حتَّىٰ جاء بعضُهم ، فقالَ : قُمْ ، فنهضْتُ فإذا أَثرُ يَدي في مضربِ فاطمةَ بنتِ عبدِ الملكِ تتأَهَّبُ للرحيلِ ، ولمَّا نفرتْ . . نفرتُ معَها ، ولمَّا عرفَتْ مَكاني . . أَرسلَتْ تناشدُني الرَّحِمَ أَنْ لا أَتبعَها ، وقالَتْ : لا تفضَحْني وتشيطَ بدمِكَ ، فأَبيتُ أَوْ تُوجِّهَ إِليَّ بقميصِها الذي يَلي جلدَها فوجهَّتْ بهِ ، فزادَني ذلكَ شغفاً وهُياماً ، ولم أَزلْ أَتبعُها . . حتَّىٰ إذا صاروا علىٰ أَميالٍ مِن (دمشقَ) . . آنصرفتُ ، وقلتُ في ذلكَ [في « ديوانهِ » ١٥٣ مِنَ الكاملِ] :

ضَاقَ ٱلْغَدَاةَ بِحَاجَتِيْ صَدْرِيْ ... وَيَئِسْتُ بَعْدَ تَقَارُبِ ٱلأَمْرِ
وَذَكَرْتُ فَاطِمَةَ ٱلَّتِيْ عُلِّقْتُهَا ... عَرَضاً فَيَا لَحَوَادِثِ ٱلدَّهْرِ
فَكَأَنَّ فَاهَا بَعْدَ مَا رَقَدَتْ ... تَجْرِيْ عَلَيْهِ سُلافَةُ ٱلْخَمْرِ[3]
لَمَّا رَأَيْتُ مُطِيَّهَا حِزَقاً ... خَفَقَ ٱلْفُؤَادُ وَكُنْتُ ذَا صَبْرِ[4]
فَتَبَادَرَتْ عَيْنَايَ بَعْدَهُمُ ... وَٱنْهَلَّ مَدْمَعُهَا عَلَىٰ ٱلصَّدْرِ

---

(١) التَّورُ : الإناءُ الذي يشربُ بهِ .
(٢) الخلوقُ : ضربٌ من الطيب ، تغلبُ عليهِ الحمرةُ والصفرةُ .
(٣) سُلافةُ الخمرِ : أَفضلها وأَحسنُها يتحلَّبُ من غيرِ عصرٍ .
(٤) الحَزِقُ : شدَّةُ الربطِ .

وَلَقَدْ عَصَيْتُ أُوْلِيْ قَرَابَتِهَا طُرّاً وَأَهْلَ ٱلْوِدِّ وَٱلصِّهْرِ
حَتَّىٰ إِذَا قَالُوْا وَمَا كَذَبُوْا أَجُنِنْتَ أَمْ بِكَ نَفْثَةُ ٱلسِّحْرِ

وتروىٰ علىٰ غيرِ هٰذا النحوِ ، وأبعدُ شيءٍ مِن هٰذهِ الروايةِ . . اتِّباعُهُ لهم إلىٰ أميالٍ مِن (دمشقَ) .

ثمَّ إنَّ قولَ الناظمِ : (هُنَّ فِيْهِ أَحْلَىٰ . . . إلىٰ آخرهِ) ـ والحالُ أنَّ الضميرَ في فيهِ عائدٌ إلىٰ فيهِ ـ لا يخلو مِنَ الإشكالِ ؛ إذ كيفَ يذوقُ الحلاوةَ إذَن ، وهُنَّ المترشفاتُ دونَهُ ، والجوابُ عَن ذٰلكَ مِن وجهينِ : إشكال وحله في بيت المطلع

الأوَّلُ : أنَّه كانَ يجدُ لترشُّفِهنَّ من فيهِ برداً علىٰ كبدهِ ، وسروراً علىٰ صدرهِ ، وحلاوةً علىٰ لسانهِ ، فهوَ من جنسِ قولِ الوأواءِ الدمشقيِّ [في « ديوانه » ٢٦٦ـ٢٦٧ مِنَ البسيطِ] :

قَالَتْ لِطَيْفِ خَيَالٍ زَارَنِيْ وَمَضَىٰ بِٱللهِ صِفْهُ وَلاَ تَنْقُصْ وَلاَ تَزِدِ
فَقَالَ: خَلَّفْتُهُ لَوْ مَاتَ مِنْ ظَمَأٍ وَقُلْتِ: قِفْ عَنْ وُرُوْدِ ٱلْمَاءِ لَمْ يَرِدِ
قَالَتْ : صَدَقْتَ ٱلْوَفَا بِٱلْعَهْدِ شِيْمَتُهُ يَا بَرْدَ ذاكَ ٱلَّذِيْ قَالَتْ عَلَىٰ كَبِدِيْ

والثاني : يحتملُ أنْ يكونَ أرادَ يترشَّفنَ مِن فَمي ، وأترشَّفُ مِن أفواهِهنَّ رَشَفاتٍ ، هُنَّ أحلىٰ في فَمي مِن التوحيدِ ، ويندفعُ حينئذٍ بعضُ ما دَلَّلْنا بهِ علىٰ تعاظمهِ ، قبلَ نفيهِ إيجازَ الاختزالِ ، وهُوَ نوعٌ قريبٌ مِن الاحتباكِ والاكتفاءِ ، وليسَ بواحدٍ منهُما ؛ لأنَّ الاحتباكَ هُو : أنْ تُذكَرَ جملتانِ في كلٍّ منهُما متقابلانِ ، فيحذفُ مِن كلِّ واحدٍ منهُما ضدُّ ما يذكرُ في الأُخرىٰ ، ومثَّلُوا لهُ بقولهِ تعالىٰ : ﴿ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ ﴾ [آل عمران : ١٣] وتقديرُهُ : فئةٌ مؤمنةٌ

تقاتِلُ في سبيلِ اللهِ ، وأُخرىٰ كافرةٌ تقاتلُ في سبيلِ الشيطانِ ، ولا تضادَّ هُنا في بيتِ الناظمِ . . حتَّىٰ ينطبقَ عليهِ ما ذكروهُ في حدِّ الاحتباكِ المذكورِ ، غيرَ أَنَّ التغايرَ وهُوَ أَخوهُ غذَتْهُ أُمُّهُ بِلِبانِهِ . . موجودٌ في البيتِ ، وأَمَّا قربهُ مِن الاكتفاءِ : فواضحٌ أيضاً ؛ لأَنَّه ذكرَ ترشُّفَهُنَّ من ريقِهِ ، وسكتَ عَنِ التعريفِ بمقدارِ ٱلْتِذاذِهِنَّ بهِ ، إمَّا لأَنَّهُ لا يعلمُ ما عندهُنَّ لهُ ، وإمَّا ٱكتفاءً بما يعرفُ من قولِهِ : (هُنَّ فِيْهِ أَحْلَىٰ مِنَ ٱلتَّوحِيْدِ) ؛ لأَنَّ عندهُنَّ لهُ مثلَ الذي عندَهُ لَهنَّ ، كما قالَ ٱبنُ أَبي ربيعةَ [في « ديوانهِ » ١٣٤ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَمَّـا تَـلاَقَيْنَـا وَجَـدْتُ ٱلَّـذِيْ بِهَـا ... كَمِثْلِ ٱلَّذِيْ بِيْ حَذْوُكَ ٱلنَّعْلَ بِٱلنَّعْلِ

وحذفَ ذِكْرَ ترشُّفِهِ من أَفواهِهِنَّ ، ٱكتفاءً بما نصبهُ علامةً عليهِ مِن مبلغِ لذَّتهِ عندَهُ ، ومثَّلوا للاكتفاءِ بقولهِ جلَّ ذكرهُ : ﴿ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ﴾ [النحل : ٨١] :

وقولِ أَبي ذُؤَيبٍ [في « ديوانهِ » ٣٠ مِنَ الطَّويلِ] :

عَصَيْتُ إِلَيْهَا ٱلنَّاسَ إِنِّيْ لأَمْرِهَا ... مُطِيْعٌ وَمَا أَدْرِيْ أَرُشْدٌ طِلاَبُهَا

استعذاب ريق المحبوب عند الشعراء

أَمَّا ٱستعذابُ ريقِ المحبوبِ : فما أَكثرَهُ فِي أَشعارِهم ، قالَ ٱمرؤُ القيسِ [في « ديوانهِ » ٩٦ مِنَ المتقاربِ] :

كَـأَنَّ ٱلْمُـدَامَ وَصَـوْبَ ٱلْغَمَـامِ ... وَنَشْرَ ٱلْخُزامَىٰ وَرِيْحَ ٱلْعَطِرْ[1]
يَعَـلُّ بِـهِ بَـرْدُ أَنْيَـابِهَـا ... إِذا غَـرَّدَ ٱلطَّـائِرُ ٱلْمُسْتَحِـرْ[2]

---

(١) المُدامُ : الخمرُ . صوبُ الغمامِ : ماءُ السحابِ . الخُزامىٰ : نباتٌ طيبُ الرائحةِ . نشرُ الخُزامىٰ : ما يصدرُ من طيبِ رائحتِهِ .
(٢) الطائرُ المستحرُ : الذي يغرِّدُ وقتَ السحرِ .

ويعزىٰ إليهِ ـ واللهُ أعلمُ بصحّةِ ذلكَ ـ أنّه قالَ [مِنَ المتقاربِ] :

وَثَغْـرٍ لَهَـا طَيِّـبٍ وَاضِـحٍ لَـذِيْـذِ ٱلْمُقَبَّـلِ وَٱلْمُبْتَسَـمْ
وَمَـا ذُقْتُـهُ غَيْـرَ ظَنِّـيْ بِـهِ وَبِٱلظَّنِّ يُقْضَىٰ عَلَىٰ مَا ٱكْتَتَمْ

وقالَ النابغةُ [الذُّبيانيُّ في « ديوانهِ » ٣٧ مِنَ الكاملِ] :

زَعَـمَ ٱلْهُمَـامُ وَلَـمْ أَذُقْـهُ بِـأَنَّـهُ عَذْبٌ مُقَبَّلُهَا شَهِيُّ ٱلْمَوْرِدِ(١)

وقالَ أيضاً [في « ديوانهِ » ٢٣٥ مِنَ البسيطِ] :

كَـأَنَّ مَشْمُـوْلَـةً صِـرْفـاً بِـرِيْقَتِهَـا مِنْ بَعْدِ رَقْدَتِهَا أَوْ شَهْدَ مُشْتَارِ(٢)

وقالَ عنترةُ [في « ديوانهِ » ٥٥ مِنَ الكاملِ] :

إِذْ تَسْتَبِيْكَ بِذِيْ غُرُوْبٍ وَاضِحٍ عَذْبٍ مُقَبَّلُهُ لَذِيْذُ ٱلْمَطْعَمِ(٣)
وَكَـأَنَّ فَـارَةَ تَـاجِـرٍ بِقَسِيْمَـةٍ سَبَقَتْ عَوَارِضَهَا إِلَيْكَ مِنَ ٱلْفَمِ(٤)

وقالَ عُبيدُ بنُ الأبرصِ [في « ديوانهِ » ٣٤ مِنَ البسيطِ] :

كَـأَنَّ رِيقَتَهَـا بَعْـدَ ٱلْكَـرَىٰ ٱغْتُبِقَـتْ مِنْ مَاءِ أَدْكَنَ فِيْ ٱلْحَانُوْتِ فَضَّاحِ
أَوْ مِنْ مُشَعْشَعَةٍ كَٱلْمِسْكِ نَشْرَتُهَا أَوْ مِـنْ أَنَـابِيْـبِ رُمَّـانٍ وَتُفَّـاحِ

---

(١) الهُمامُ: الملك وهو السيِّدُ، وإنما سمِّيَ بذلك؛ لأنَّهُ إذا همَّ بأمرٍ أمضاهُ، ويقالُ : لبعدِ همَّتهِ.
(٢) المشمولَةُ : الخمرُ الباردَةُ .
(٣) تستبيك : تذهبُ بعقلكَ . ثغرٌ ذو غروبٍ : ذو أسنان واضحةٍ بيضاءَ .
(٤) الفارةُ : أرادَ بها فارةَ المسكِ ، وهيَ ما تفورُ منهُ رائحةُ المسك . التاجرُ : العطّارُ .

وقالَ كُثَيِّرٌ [في « ديوانهِ » ٢٩٠ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا قَرْقَفٌ مِنْ أَذْرِعَاتٍ كَأَنَّهَا إِذا سُكِبَتْ مِنْ دَنِّهَا مَاءُ مَفْصِلِ[١]
يُصَبُّ عَلَىٰ نَاجُوْدِهَا مَاءُ بَارِقٍ وَعَاهُ صَفَاً فِيْ رَأْسِ عَنْقَاءَ عَيْطَلِ[٢]
بِأَطْيَبَ مِنْ فِيْهَا لِمَنْ ذَاقَ طَعْمَهُ وَقَدْ لاَحَ ضَوْءُ ٱلنَّجْمِ أَوْ كَادَ يَنْجَلِي

إلاَّ أَنَّ المؤاخذةَ ظاهرةٌ عليهِ في قولهِ : (لِمَنْ ذَاقَ طَعْمَهُ) مَا لَم يَعْنِ صاحبَها[٣] فقطْ ، كما سبقَ عَنِ النابغةِ .

المجنون وزوج ليلى

ومن أخبارِ المجنونِ : أنَّه مرَّ بزوجِ ليلىٰ في حيٍّ بني عامرٍ عندَ صاحبٍ لهُ يصطَلِيْ ، فقامَ علىٰ رأسِهِ ، وقالَ [في « ديوانهِ » ٢٨٦ مِنَ الوافرِ] :

بِرَبِّكَ هَلْ ضَمَمْتَ إِلَيْكَ لَيْلَىٰ قُبَيْلَ ٱلصُّبْحِ أَوْ قَبَّلْتَ فَاهَا
وَهلْ زُفَّتْ عَلَيْكَ قُرُوْنُ لَيْلَىٰ زَفِيْفَ ٱلأُقْحُوَانَةِ فِيْ نَدَاهَا[٤]

فقالَ [كما في « ديوان المجنون » ٢٨٦] : أَمَّا إِذ حلَّفتَني . . فنعم ، فصاحَ المجنونُ ، وأَمسكَ الجمرَ بِكلتا يديهِ ، ثمَّ سقطَ مغشيّاً عليهِ .

---

(١) قرقفٌ : الخمرُ . أذرعاتُ : بلدٌ بديارِ الشامِ ، يضربُ المثلُ بجودةِ خمرِها . مفصلُ : الشقُّ بين صخرتينِ من الجبل ، وماءُ المفاصلِ يكونُ في غايةِ الصفاءِ . وفي المخطوط : سُلِبَتْ .
(٢) الناجودُ : زقُّ الخمرِ . العنقاء : الهضبةُ المرتفعةُ الطويلةُ . العيطلُ : الطويلةُ السامقةُ .
(٣) صاحبها : أي زوجَها ، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾ [عبس : ٣٤ـ٣٦] .
(٤) الزفيفُ : تحريك الريحِ .

وقالَ سليكُ بنُ سُلَكَةَ [في « ديوانه » ٦٩ مِنَ الطَّويلِ] :

تَبَسَّمُ عَنْ أَلْمَىٰ اللِّثَاتِ مُفَلَّجٍ خَلِيْقِ الثَّنَايَا بِالْعُذُوْبَةِ وَالْبَرْدِ[١]
وَمَـا ذُقْتُـهُ إِلاَّ بِعَيْنِـيْ تَفَـرُّسـاً كَمَا شِيْمَ مَاءٌ فِيْ السَّحَابَةِ مِنْ بُعْدِ

وقالَ نصيبٌ ، أَو قيسُ بنُ الملوَّحِ [في « ديوانِ قيسٍ » ٢٠٣ مِنَ الطَّويلِ] :

كَأَنَّ عَلَىٰ أَنْيَابِهَا الْخَمْرَ شَجَّهَا بِمَاءِ النَّدَىٰ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ غَابِقُ
وَمَـا ذُقْتُـهُ إِلاَّ بِعَيْنِـيْ تَفَـرُّسـاً كَمَا شِيْمَ فِيْ أَعَلَىٰ السَّحَابَةِ بَارِقُ

وقالَ النميريُّ [في « ديوانه » ٥٠ مِنَ البسيطِ] :

كَـأَنَّ رِيْقَتَهَـا وَاللَّيْـلُ مُعْتَكِـرٌ بَعْدَ الرُّقَادِ وَقَدْ مَالَتْ بِهَا الْوُسُدُ
صَهْبَـاءُ صَـافِيَةٌ أَغْلَـىٰ التِّجَـارُ بِهَـا مِنْ خَمْرِ عَانَةَ يَطْفُوْ فَوْقَهَا الزَّبَدُ[٢]

وقالَ سُحيمٌ [في « ديوانه » ٤٠ مِنَ الطَّويلِ] :

كَأَنَّ عَلَىٰ أَنْيَابِهَا بَعْدَ هَجْعَةٍ مِنَ اللَّيْلِ نَامَتْهَا سُلاَفاً مُبَرَّداً

وقالَ أَبو صعترةَ البولانيُّ [مِنَ الطَّويلِ] :

فَمَا نُطْفَةٌ مِنْ حَبِّ مُزْنٍ تَقَاذَفَتْ بِهِ جَنْبَتَا الْجُوْدِيِّ وَاللَّيْلُ دَامِسُ
فَلَمَّـا أَقَـرَّتْـهُ اللِّصَـابُ تنَفَّسَـتْ شِمَالٌ بِأَعلَىٰ مَائِهِ فَهْوَ قَارِسُ[٣]
بِأَطْيَبَ مِنْ فِيْهَا ومَا ذُقْتُ طَعْمَهُ وَلَـكِنَّنِي فِيْمَا تَرَىٰ الْعيْنُ فَارِسُ

---

(١) **اللَّمَىٰ** : سُمرةٌ في الشفة تُستحسنُ عند العربِ . **مُفَلَّجٌ** : مُنفرِجُ ما بينَ الأسنانِ . **الخَليقُ** من الأسنانِ : الأَمْلَسُ .

(٢) **الصهباءُ** : الخمرُ ، وسميت بذلك للونها ، **والصُّهبة** : الصفرةُ . **عانةٌ** : بلدٌ مشهورةٌ بين (الرقةِ) و(هيت) ، وتنسبُ العربُ إليهِ الخمرَ .

(٣) **اللصابُ** : الشِّعبُ الصغيرُ في الجبلِ . أَضيقُ من اللِّهبِ وأَوسعُ من الشِّعبِ .

وقالَ بشّارٌ [مِنَ البسيطِ] :

يَا أَطْيَبَ ٱلنَّاسِ رِيقاً غَيْرَ مُخْتَبَرٍ   إِلاَّ شَهَادَةُ أَطْرَافِ ٱلْمَسَاوِيكِ

وقالَ ٱبنُ الروميُّ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَقَبَّلْتُ أَفْوَاهاً عِذَاباً كَأَنَّهَا   يَنَابِيعُ خَمْرٍ حُصِّبَتْ لُؤْلُؤَ ٱلْبَحْرِ

وقالَ [في « ديوانهِ » ٣/٩٠٧ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا سِرُّ عِيْدَانِ ٱلأَرَاكِ بِرِيقِهَا   تَنَاوُحُهَا فِيْ أَيْكِهَا تَتَهَصَّرُ[(١)]
لَئِنْ عَدِمَتْ سُقْيَا ٱلثَّرَىٰ إِنَّ رِيقَهَا   لأَعْذَبُ مِنْ هَاتِيْكَ سُقْيَاً وَأَخْصَرُ
وَمَا ذُقْتُهُ إِلاَّ بِشَيْمِ ٱبْتِسَامِهَا   وَكَمْ مَخْبَرٍ يُبْدِيهِ لِلْعَيْنِ مَنْظَرُ[(٢)]
بَدَا لِيْ وَمِيْضٌ شَاهِدٌ أَنَّ صَوْبَهُ   غَرِيْضٌ وَمَا عِنْدِيْ سِوَىٰ ذَاكَ مُخْبِرُ[(٣)]

وقالَ المتوكِّلُ الليثيُّ [في « ديوانهِ » ٢٧٠ـ٢٧١ مِنَ الكاملِ] :

كَأَنَّ مُدَامَةَ صَهْبَاءَ صِرْفاً   تُصَفَّقُ بَيْنَ رَاوُوقٍ وَدَنٍّ[(٤)]
تَعَلُّ بِهَا ثَنَايَا أُمِّ سَلْمَىٰ   فِرَاسَةُ مُقْلَتِيْ وَصَحِيْحُ ظَنِّيْ

وقالَ الناظمُ [في « العُكبَريّ » ٣/٣٠١ مِنَ الكاملِ] :

مَا أَسْأَرَتْ فِيْ ٱلْقَعْبِ مِنْ لَبَنٍ   تَرَكَتْهُ وَهُوَ ٱلشَّهْدُ وَٱلْعَسَلُ[(٥)]

هٰذا بعضُ ما قيلَ في ٱستعذابِ الرِّيقِ ، وقدِ ٱمتزجَ علينا فيهِ

---

(١) الهصرُ : التكسُّرُ .
(٢) المخبَرُ : خلافُ المنظرِ .
(٣) الغريضُ : ماءُ المطرِ .
(٤) الرَّاوُوْقُ : المصفاةُ .
(٥) أسأرَت : أبقتْ ، والسؤر : ما يتركهُ الشاربُ لغيرهِ .

الكلامُ ، بينَ مَن تحدَّثَ عنْ ذوقٍ ، وبينَ مَن تحدَّثَ عَن شَيْمٍ صادقٍ ، ولا حرجَ ؛ إذِ الظنُّ المؤكَّدُ . . لَهُ حكمُ اليقينِ ، حتَّىٰ في الأحكامِ الشرعيَّةِ ، أَمَّا ما جاءَ في الشواهدِ مِن طيبِ النكهةِ . . فإنَّما هُوَ ضَميمةٌ إليهِ ؛ لأَنَّ لَها بخصوصها ، وللطيبِ بعمومِهِ مواضعَ غيرُ هُنا ، ولنذكُر بعضَ ما قالَ فقهاؤُنا فيما يتَّصِلُ بالبحثِ : فنقولُ :

أقوال الفقهاء في الريق وحكمه

صرَّحوا بحرمةِ تناولِ البصاقِ[1] ، قالَ ٱبنُ حجرٍ في الأَطعمةِ : وهُوَ مَا يرمىٰ مِنَ الفمِ ، بخلافِ الريقِ ، وهُو : ما فيهِ ، فَلا يحرمُ ؛ لأَنَّه غيرَ مستقذَرٍ ما دامَ فيهِ ، ومِن ثَمَّ : (كانَ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم يمصُّ لسانَ عائِشةَ)[2] .

وصحَّ في الحديثِ : « هَلاَّ بِكْراً تُلاَعِبُهَا وَتُلاَعِبُكَ ، مَالَكَ وَلُعَابُهَا »[3] ـ بضمِّ اللامِ ـ فالإغراءُ علىٰ ريقِها صريحٌ في حلِّ تناوُلِهِ ، ٱنتهىٰ .

وقالَ في الصِّيامِ : ولا يفطرُ ببلعِ ريقِهِ مِن معدنهِ ، فلوِ ٱبتلعَ ريقَ غيرِهِ . . أَفطرَ جَزماً ، وما جاءَ : (أَنَّه صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم كانَ يمصُّ لِسانَ عائِشةَ وهُوَ صائِمٌ) واقِعةُ حالٍ فعليَّةٌ محتمِلَةٌ أَنَّه يمصُّه ثمَّ

---

(١) كالنخامة لقذارتها ؛ لأن المحرمات من المطعومات ، يتناولها أحد أمور : إما لضررها ، أو قذارتها ، أو حرمتها ، أو نجاستها .

(٢) أورده عن عائشةَ رضي الله عنها الهنديُّ في « كنز العمال » (١٨٣٤٨) وعزاه إلى الترقفي في « جزئه » .

(٣) طرف حديث أخرجه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما سعيد بن منصور (٥١٠) ، والبخاري (٥٠٨٠) في النكاح ، ومسلم (١٤٦٦) م (٥٧) في الرضاع ، وأبو داوود (٢٠٤٨) ، والترمذي (١١٠٠) ، والنسائي (٣٢١٩) ، وابن ماجه (١٨٦٠) في النكاح .

يمجُّهُ ، أو يمصُّهُ ولا ريقَ فيهِ ، ٱنتهىٰ .

ومنهَ تعرفُ قبحَ ما يتعاطاهُ المترسمونَ منَ النفثِ بالريقِ في الماءِ ؛ ليتبرَّكَ بهِ الناسُ ، وحقَّ ما صرَّحوا بهِ مِن حرمةِ إعادةِ ماءِ المضمضَةِ إلىٰ الخوابي ؛ لأنَّه يقذِّرُها .

لا تعذليني يا أخيّة

وعذلَتْ[1] عائِشةُ أخاً لَها في ٱشتغالِهِ بإحدىٰ حَظَاياهُ[2] عَن باقي أَزواجهِ ، فقالَ لَها : لا تعذُليني يا أُخيَّةُ ، فواللهِ لكأنَّما أَترشَّفُ برُضابِها[3] حبَّ الرمَّانِ .

رقية النبي ﷺ

ولا ننسىٰ ما جاءَ في « الصحيحينِ » : أنَّه صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ كانَ يقولُ في الرقيةِ : « بِسْمِ اللهِ تُربَةُ أَرْضِنَا ، بِرِيْقَةِ بَعْضِنَا ، يُشْفَىٰ سَقِيْمُنَا ، بِإِذْنِ رَبِّنَا »[4] ومعناهُ : أنَّه يأخذُ من ريقِ نفسِهِ علىٰ إصبعِهِ السبَّابَةِ ، ثمَّ يضعُها بالترابِ ، فيعلقُ بِها منهُ ما يعلقُ ، ثمَّ يمسحُ بهِ علىٰ موضعِ الوجعِ مِن المريضِ ، وقدِ ٱختلفَ في قولِهِ : (تربةُ أَرضِنا) هلِ المرادُ أَرضُ (المدينةِ) خاصةً ، أَو سائِرُ الأَرضِ ؟ والأَكثرُ علىٰ الثاني ، وفيهِ كلامٌ طويلٌ لا يليقُ بالموضوعِ ٱستقصاؤُهُ .

---

(١) عذل : لام وعتب .

(٢) إحدى حظاياهُ : أي إحدى نسائِهِ التي تحظى بمنزلةٍ أَسمىٰ مِن غيرها عند زوجها .

(٣) الرُّضابُ : الريقُ المرشوفُ . قال ابن الفارض :

عليكَ بِها صِرْفاً وإنْ شِئْتَ مَزْجَها فعَدْلُكَ عَنْ ظَلْمِ الحبيب هو الظُّلْمُ

والظَّلْم : الريق .

(٤) أخرجه عن عائشة رضي الله عنها البخاري (٥٧٤٥) في الطب ، ومسلم (٢١٩٤) في السلام ، وأبو داوود (٣٨٩٥) وغيرهم .

وفيهما أيضاً عَن عائِشةَ رضيَ اللهُ عنها : أَنَّ النبيَّ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : (كَانَ يَنْفُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ فِيْ ٱلْمَرَضِ ٱلَّذِيْ مَاتَ فِيْهِ بِٱلْمُعَوِّذَاتِ ، فَلَمَّا ثَقُلَ . . كُنْتُ أَنْفُثُ عَنْهُ بِهِنَّ ، وَأَمْسَحُ بِيَدِ نَفْسِهِ ؛ لِبَرَكَتِهَا)[1] .

كيفية النفث الوارد في الحديث

قالَ معمرٌ : فسألتُ الزهريَّ ، كيفَ ينفثُ ؟ قالَ : كانَ ينفثُ علىٰ يديهِ ، ثمَّ يمسحُ بِهما وجهَهُ .

وفي « الصحيح » عَن عائشَةَ قالَتْ : (كانَ رسولُ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ إِذ أوىٰ إلىٰ فراشِهِ نفثَ في كفَّيهِ بـ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ وبالمعوِّذتينِ جميعاً ، ثمَّ يمسحُ بِهما وجهَهُ ، وما بلغَتْ يداهُ مِن جسدهِ ، قالَتْ : فلمَّا ٱشتكىٰ . . كانَ يأمُرُني أَنْ أَفعلَ ذلكَ بهِ)[2] .

ما هو النفث المراد بالحديث؟

وقدِ ٱختلفوا في النفثِ ، فقالَ بعضُهُم : إِنَّه لا ريقَ فيهِ البتةَ ، وصوَّبَ الحافظُ ٱبنُ حَجَرٍ ، أَنَّ فيهِ ريقاً خفيفاً .

الحكمة الطبيَّة من النفث والريق

وقالَ البيضاويُّ كَما نقلهُ عنهُ في « الفتح » [١٠/٢٠٨] : قد شهدَتِ المباحِثُ الطبيَّةُ علىٰ أَنَّ للريقِ مدخَلاً في النضْجِ ، وتعديلِ المِزاجِ[3] ، وترابُ الوطنِ لَه تأثيرٌ في حفظِ المزاجِ ، ودفعِ الضَررِ ،

---

(١) أخرجه عن عائشة رضي الله عنها البخاري (٥٠١٦) في فضائل القرآن و(٥٧٣٥) في الطب ، ومسلم (٢١٩٢) (٥١) في السلام .

(٢) أخرجه عائشة رضي الله عنها البخاري (٥٠١٧) في فضائل القرآن و(٥٧٤٨) في الطب ، ومسلم (٢١٩٢) في السلام .

(٣) ولا سيما تراب (المدينة المنورة) لما جاء في فضل تربتها ، فمن ذلك ما رواه أبو نعيم في « الطب » عن ثابت بن قيس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « غبار المدينة شفاء من الجذام » كما في=

فقد ذَكَروا أَنَّهُ يَنْبَغي للمسافرِ أَنْ يستصحبَ ترابَ أَرضِهِ إِنْ عَجزَ عَنِ ٱستصحاب مائِهَا ، إِذا وَرَدَ المياهَ المختلفةَ . . جَعلَ منْهُ شيئاً في سقائِهِ ؛ لِيَأْمَنَ مِن المضرَّةِ ، ثمَّ إِنَّ الرقىٰ والعزائمِ لَها آثارٌ عجيبةٌ ، تتقاعَدُ العقولُ عن الوصولِ إِلىٰ كنهِهَا ، ٱنتهىٰ .

وَمَتَىٰ صَحَّ فِيْ ٱلْحَدِيْثِ بِأَنَّ ٱلـ ـرِّيْـقَ لِلْمُـذْنِفِيْـنَ فِيْـهِ دَوَاءُ
فَرِضَابُ ٱلْحَبِيْبِ أَوْلَىٰ بِصَبٍّ تَتَـرَامَـىٰ بِقَلْبِـهِ ٱلأَهْـوَاءُ[1]

* * *

= « كنز العمال » (٣٤٨٢٨) وفي الباب : عن أبي بكر ومحمد بن سالم مرسلاً عند ابن السني ، وأبو نعيم في « الطب » معاً كما في « كنز العمال » (٣٤٨٢٩) بلفظ : « غبار المدينة يبرىء الجذام » .

وعن الزبير بن بكار في « أخبار المدينة » عن إبراهيم بلاغاً كما في « كنز العمال » (٣٤٨٣٠) بلفظ : « غبار المدينة يطفىء الجذام » .

(١) البيتان من الخفيف .

[قالَ أَبو الطَّيبِ المتنبِّي في « العُكبَريِّ »١/ ٣١٧ مِنَ الخفيفِ] :

هَـٰذِهِ مُهْجَتِـيْ لَـدَيْـكِ لِحَيْنِـيْ	فَانْقُصِيْ مِنْ عَذَابِهَا أَوْ فَزِيْدِيْ

شرح المطلع

(المُهْجَةُ) : دمُ القلبِ ، ويرادُ بِها الروحُ ، و(الْحَيْنُ) : الموتُ ، يقولُ : هـٰذِهِ روحِي بينَ يديكِ لِهلاكي ، فأنقصي إِنْ شئْتِ مِن عذابِها ، وَزيدي فيهِ . . إِنْ شئْتِ .

ملاحظات على البيت

وفيهِ أَشياءُ :

مِنْها : أَنَّ البيتَ بدونِ لفظَةِ (لِحَيْنِيْ) أَجْمَلُ مِنْه معَ وجودِها ؛ إِذ لا فائدةَ مِنْها ، فهيَ بالحشوِ أَشبهُ ، ما لم يدَّعِ مُدَّعٍ أَنَّ المعنىٰ : هـٰذه مهجتي لَدَيكِ لهلاكي بالعشقِ ، وفيهِ ما فيهِ .

ومِنْها : أَنَّ الأَنسبَ بقولِهِ : (هـٰذِهِ مهجَتي لَديكِ) أَنْ يقولَ : فتقبَّليها بسلامٍ ، أَو ردِّيها بلا ملامٍ .

الاستسلام للحبيب الأعظم

وما أَجملَ قولَهُ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ في دعائِهِ عندَ المنامِ : « اللَّهُمَّ إِنْ أَمسَكْتَ نَفْسِيْ . . فَارْحَمْهَا ، وإِنْ أَرْسَلْتَهَا . . فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِيْنَ »(١) .

الاستسلام للمحبوب سجية الكرام

وما زالَ الاستسلامُ لِلمحبوبِ سجيَّةَ الكرامِ ، ويدخلُ فيهِ كُلُّ ما سبقَ في الكلامِ علىٰ قولِهِ [في « العُكبَرِيِّ » ١/ ٢٩٨ مِنَ المنسرحِ] :

يَـا عَـاذِلَ الْعَـاشِقِيْـنَ دَعْ فِئَـةً	أَضَلَّهَـا اللهُ كَيْـفَ تُـرْشِـدُهَـا

(١) أخرجه عن أبي هريرةَ رضي الله عنه البخاريُّ (٦٣٢٠) في الدعوات ، ومسلم (٢٧١٤) .

وما ٱستطرَدنا إليهِ قبيلَ المجلسِ السابعِ ، وفي شرحِ قولِهِ [في «العُكبَريِّ» ٣/ ١٦٤ مِنَ البسيطِ] :

إلاَّ يَشِبُّ فَقَدْ شَابَتْ لَهُ كَبِدٌ   شَيْباً إِذَا خَضَّبَتْهُ سَلْوَةٌ نَصَلاَ[1]

إعجاب المؤلف بأبيات لأبي النواس

ويعجبُني قولُ أَبي نُوَاسٍ [في «ديوانهِ» ١٤٠ مِنَ البسيطِ] :

ظَبْـيٌ كَـأَنَّ ٱلثُّـرَيَّـا دُوْنَ مَفْـرِقِـهِ   وَٱلْمُشْتَرِيْ وَضِيَاءَ ٱلشَّمْسِ وَٱلسُّرُجَا

مُحَكَّمُ ٱلطَّرْفِ يُدْمِيْ لَحْظُ نَاظِرِهِ   إِذَا ٱنْتَضَاهُ لِفَتْكٍ قَالَ : لاَ حَرَجَا

لاَ فَرَّجَ ٱللهُ عَنِّيْ إِنْ مَدَدْتُ يَدِيْ   إِلَيْـهِ أَسْـأَلُـهُ مِـنْ حُبِّـهِ فَـرَجَـا

وموضعُ الإعجابِ : الأَخيرُ علىٰ ما فيهِ من مخالفَةِ الهدي النبويِّ ، كما سيأْتي ، وكَما في قولِهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم : «لاَ تَتَمَنَّوْا لِقاءَ ٱلْعَدُوِّ ، وَسَلُوْا ٱللهَ ٱلْعَافِيَةَ»[2] .

أَمَّا الأَوَّلُ . . ففيهِ ما فيهِ ، ولَو لَم يَكنْ إلاَّ ذكرهُ السرجَ بعدَ ضياءِ الشمسِ .

أعاصير الحب وبراكينه وامتحاناته

وقالَ بعضُهُم [مِنَ الطَّويلِ] :

تَمَنَّتْ سُلَيْمَىٰ أَنْ أَمُوْتَ صَبَابَةً   وَأَهْوَنُ شَيْءٍ عِنْدَنَا مَا تَمَنَّتِ

وقالَ جميلٌ [في «ديوانهِ» ١٠٣ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَـوْ سَـأَلَـتْ مِنِّـيْ حَيَـاتِـيْ بَـذَلْتُهَـا   وَجُدْتُ بِهَا إِنْ كَانَ ذَلِكَ مِنْ أَمْرِيْ

---

(١) النصولُ : ذهابُ الخضابِ .

(٢) أخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه البخاري (٢٩٦٦) في الجهاد ، ومسلم (١٧٤٢) .

وقالَتْ بثينةُ [كما في «مصارع العشاق» ٢/ ٥٩ مِنَ الطَّويلِ] :

سَوَاءٌ عَلَيْنَا يَا جَمِيْلُ بْنُ مَعْمَرٍ إذا مِتَّ بَأْسَاءُ ٱلْحَيَاةِ وَلِيْنُهَا

وقالَ العبَّاسُ بنُ الأَحنفِ [مِنَ الطَّويلِ] :

نُسِبْتُ إِلىٰ ذَنْبٍ وَلَمْ أَكُ مُذْنِباً وَحَمَّلْتِنِي فِيْ ٱلْحُبِّ مَا لاَ أُطِيْقُهُ
وَمَا طَلَبِيْ لِلْوَصْلِ حِرْصاً عَلَىٰ ٱلْبَقَا وَلَـٰكِنَّهُ أَجْرٌ إِلَيْكِ أَسُوْقُهُ

وقالَتْ عُليَّةُ بنتُ المهديِّ [في «ديوانها» ٧٢-٧٣ مِنَ الرملِ] :

جُبِلَ ٱلْحُبُّ عَلَىٰ ٱلْجَوْرِ فَلَوْ أُنْصِفَ ٱلْمَحْبُوْبُ فِيْهِ لَسَمُجْ[1]
لَيْسَ يُسْتَحْسَنُ فِيْ شَرْعِ ٱلْهَوَىٰ عَاشِقٌ يُحْسِنُ تَأْلِيْفَ ٱلْحُجَجْ

وقالَتْ هِيَ أَيضاً ، أَوِ العبَّاسُ بنُ الأَحنفِ ، فقد ٱختلفَتِ الروايةُ [كما في «ديوانِ» العبَّاسِ بنِ الأحنفِ ٦٢-٦٣ مِنَ الطَّويلِ] :

وَأَحسَنُ أَيَّامِ ٱلْهَوَىٰ يَوْمُكَ ٱلَّذِيْ تُرَوَّعُ بِٱلْهِجْرَانِ فِيْهِ وَبِٱلْعَتْبِ
إذا لَمْ يَكُنْ فِيْ ٱلْحُبِّ سُخْطٌ وَلاَ رِضَا فَأَيْنَ حَلاَوَاتُ ٱلرَّسَائِلِ وَٱلْكُتْبِ ؟

وقالَ جميلٌ [في «ديوانِهِ» ١١٩ مِنَ البسيطِ] :

لاَ خَيْرَ فِيْ ٱلْحُبِّ وَقْفاً لاَ تُحَرِّكُهُ عَوَارِضُ ٱلْيَأْسِ أَوْ يَرْتَاحُهُ ٱلطَّمَعُ
لَوْ كَانَ لِيْ صَبْرُهَا أَوْ عِنْدَهَا جَزَعِيْ لَكُنْتُ أَمْلِكُ مَا آتِيَ وَمَا أَدَعُ

وقالَ آخرُ [مِنَ الخفيفِ] :

رَاحَتِيْ فِيْ مَقَالَةِ ٱلْعُذَّالِ وَشِفَائِيْ فِيْ قَوْلِهِمْ : لاَ يُبَالِيْ
لاَ يَطِيْبُ ٱلْهَوَىٰ وَلاَ يَحْسُنُ ٱلْحُـ ـبُّ لِصَبٍّ إِلاَّ بِخَمْسِ خِصَالِ

---

(١) سَمُجَ : قَبُحَ .

بِسَمَاعِ ٱلأَذَىٰ وَعَـذْلِ نَصِيـحِ ... وَعِتَـابٍ وَكَـاشِـحٍ وَمِطَـالِ[1]

وقالَ ٱبنُ النبيهِ [في « ديوانه » ١٤٩ مِنَ الكامل] :

مَنْ لَمْ يَذُقْ ظُلْمَ ٱلْحَبِيْبِ كَظَلْمِهِ ... حُلْواً . فَقَدْ جَهِلَ ٱلْمَحَبَّةَ وَٱدَّعَىٰ[2]

وقالَ الناظمُ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٧٢ مِنَ المنسرحِ] :

زِيْدِيْ أَذَىٰ مُهْجَتِيْ أَزِدْكِ هَوىً ... فَأَجْهَلُ ٱلنَّاسِ عَاشِقٌ حَاقِدْ

وقالَ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٣٠٤ مِنَ الطَّويلِ] :

وأَحْلَىٰ ٱلْهَوَىٰ مَا شَكَّ فِيْ ٱلْوَصْلِ رَبُّهُ ... وَفِيْ ٱلْهَجْرِ فَهْوَ ٱلدَّهْرَ يَخْشَىٰ وَيَتَّقِيْ[3]

وقالَ غيرُهُ [مِنَ الكاملِ] :

شَرْطُ ٱلْمَحَبَّةِ عِنْدَ أَرْبَابِ ٱلْهَوَىٰ ... أَنَّ ٱلْمَلِيْحَ عَلَىٰ ٱلتَّجَنِّيْ يُعْشَقُ

وقالَ ٱبنُ الفارضِ [في « ديوانه » ١٥٦ مِنَ الخفيفِ] :

وَبِمَا شِئْتَ فِيْ هَوَاكَ ٱخْتَبِرْنِيْ ... فَٱخْتِيَارِيْ مَا كَانَ فِيْهِ رِضَاكَا

وقالَ [في « ديوانه » ١٤٧ مِنَ الطَّويلِ] :

وإِنْ هُدِّدُوا بِٱلْهَجْرِ مَاتُوا مَخَافَةً ... وَإِنْ أُوْعِدُوْا بِٱلْقَتْلِ حَنُّوْا إِلَىٰ ٱلْقَتْلِ

وقالَ [في « ديوانِهِ » ٥٧ مِنَ الطَّويلِ] :

فَهَا أَنَا مُسْتَدْعٍ قَضَاكَ وَمَا بِهِ ... رِضَاكَ وَلاَ أَخْتَارُ تأْخِيْرَ مُدَّتِيْ

---

(١) الكاشحُ : الذي يضمِرُ لكَ الأذىٰ . المِطالُ : التسويفُ والمدافعةُ بالعِدَةِ .

(٢) الظَّلْمُ : الريقُ .

(٣) في « العكبري » : (يَرْجُوْ) بدل (يَخْشَىٰ) .

وقالَ بعضُ الأعراب [مِنَ الطَّويلِ] :

شَكَوْتُ فَقَالَتْ: كُلُّ هَـٰذَا تَبَرُّماً بِحُبِّيَ.. أَرَاحَ ٱللهُ قَلْبَكَ مِنْ حُبِّيْ
وَلَمَّا كَتَمْتُ ٱلْحُبَّ قَالَتْ: لَشَدَّ مَا صَبَرْتَ وَمَا هَـٰذَا بِفِعْلِ شَجٍ صَبِّ
وَأَدْنُـوْا فَتُقْصِيْنِـيْ فَـأَبْعُـدُ طَـالِبـاً رِضَـاهَـا فَتَعْتَـدُّ ٱلتَّبَاعُـدَ مِـنْ ذَنْبِـيْ
فَشَكْوَايَ تُؤْذِيْهَا وَصَبْرِيْ يَسُوْؤُهَا وَتَغْضَبُ مِنْ بُعْدِيْ وَتَنْفِرُ مِنْ قُرْبِيْ

وقالَ ٱبنُ الدُّمَينةِ [في « ديوانه » ١٣ـ١٥ـ١٦ـ١٧ مِنَ الطَّويلِ] :

قِفِيْ قَبْلَ وَشْكِ ٱلْبَيْنِ يَا ٱبْنَةَ مَالِكِ وَلاَ تَحْـرِمِيْنَـا نَظْـرَةً مِـنْ جَمَـالِـكِ
قِفِيْ يَـا أُمَيْـمَ ٱلْقَلْـبِ نَقْـضِ لُبَـانَـةً وَنَشْكُوْا ٱلْهَوَىٰ ثُمَّ ٱفْعَلِيْ مَا بَدَا لَكِ
تَعَالَلْتِ كَيْ أَشْجَىٰ وَمَا بِكِ عِلَّةٌ تُـرِيْـدِيْـنَ قَتْلِـيْ قَـدْ ظَفِـرْتِ بِـذَلِـكِ
وَقَـوْلُـكِ لِلْعُـوَّادِ : كَيْـفَ تَـرَوْنَـهُ ؟ فَقَالُوْا : قَتِيْلاً قُلْتِ : أَيْسَرُ هَالِكِ
لَئِـنْ سَـاءَنِـيْ أَنْ نِلْتِنِـيْ بِمَسَـاءَةٍ فَقَـدْ سَـرَّنِـيْ أَنِّـيْ خَطَـرْتُ بِبَـالِـكِ
لِيَهْنِكِ إِمْسَاكِيْ بِكَفِّيْ عَلَىٰ ٱلْحَشَا وَرَقْـرَاقُ دَمْعِـيْ رَهْبَـةً مِـنْ مِطَـالِـكِ
فَلَوْ قُلْتِ : طَأْ فِيْ ٱلنَّارِ أَعْلَمُ أَنَّهُ رِضاً لَكِ أَوْ مُدْنٍ لَنَا مِنْ وِصَالِكِ
لَقَـدَّمْـتُ رِجْلِـيْ نَحْـوَهَـا فَـوَطِئْتُهَـا هُدَىً مِنْكِ لِيْ أَو ضَلَّةً مِنْ ضَلاَلِكِ
أَبِيْنِيْ أَفِيْ يُمْنَىٰ يَدَيْكِ جَعَلْتِنِيْ فَأَفْرَحَ أَمْ صَيَّرْتِنِيْ فِيْ شِمَالِكِ

وقالَ بكرُ بنُ النطَّاحِ [مِنَ الطَّويلِ] :

عَرَضْتُ عَلَيْهَا مَا أَرَادَتْ مِنَ ٱلْمُنَىٰ لِتَرْضَىٰ، فَقَالَتْ: قُمْ فَجِئْنِيْ بِكَوْكَبِ
فَقُلْتُ لَهَا : مَاذَا ٱلتَّعَنُّتُ كُلُّهُ ؟ فَلاَ تَذْهَبِيْ يَا هِنْدُ بِيْ كُلَّ مَذْهَبِ

وقالَ العبَّاسُ بنُ الأَحنفِ [في « ديوانه » ٢٤٣ مِنَ الطَّويلِ] :

تَحَمَّلْ عَظِيْمَ ٱلذَّنْبِ مِمَّنْ تُحِبُّهُ وَإِنْ كُنْتَ مَظْلُوْماً فَقُلْ : أَنَا ظَالِمُ

فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَحْمِلِ ٱلذَّنْبَ فِيْ ٱلْهَوَىٰ يُفَارِقْكَ مَنْ تَهْوَىٰ وَأَنْفُكَ رَاغِمُ

وقالَ المجنونُ [في « ديوانهِ » ٤٧ مِنَ الطَّويلِ] :

يَقُوْلُوْنَ: لَيْلَىٰ عَذَّبَتْكَ بِحُبِّهَا أَلاَ حَبَّذَا ذَاكَ ٱلْحَبِيْبُ ٱلْمُعَذِّبُ

وممَّا ينسبُ إِلىٰ أَبي فراسٍ [في « ديوانهِ » ٤٧ مِنَ الطَّويلِ] :

أَسَاءَ فَزَادَتْهُ ٱلإِسَاءَةُ حُظْوَةً حَبِيْبٌ عَلَىٰ مَا كَانَ مِنْهُ حَبِيْبُ
يَعُدُّ لِيَ ٱلْوَاشُوْنَ فِيْهِ ذُنُوْبَهُ وَمِنْ أَيْنَ لِلْوَجْهِ ٱلْمَلِيْحِ ذُنُوْبُ ؟!

وقالَ الطُّغرَّائِيُّ [في « ديوانهِ » ٣٠٥ مِنَ البسيطِ] :

لاَ أَكْرَهُ ٱلطَّعْنَةَ ٱلنَّجْلاَءَ قَدْ شُفِعَتْ بِرَشْقَةٍ مِنْ نِبَالِ ٱلأَعْيُنِ ٱلنُّجُلِ

وصدقَ في ذلكَ ؛ إِذ برهنَ بفعالِهِ علىٰ صحَّةِ ما ٱدَّعىٰ في مقالِهِ .

الطغرائي يهوى غلاماً فيقتله ذلك الغلام

وذلكَ : أَنَّهُ أَحبَّ مملوكاً لِمُؤَيَّدِ الدينِ ، كانَ يهواهُ أَيضاً ، فحينَ بلغَهُ . . نقمَ علىٰ الطُّغرَّائيِّ ، فأَرادَ قتلَهُ ، وتحيَّنَ لهُ الفرصَ ، وتطلَّب لهُ العثراتِ ؛ كراهيةَ أَنْ يشتهرَ خبرُ الغلامِ ، فلم يجدْ حيلةً في غيرِ ٱتِّهامِهِ بالإِلحادِ ، فشدَّهُ إِلىٰ شجرَةٍ ، وأَمرَ بتفويقِ السهامِ إِليهِ ، وكان الغلامُ مِمَّنْ حضَرَ فيهِم ، فقالَ [في « ديوانهِ » ٢٤٩ـ٢٥٠ مِنَ الكاملِ] :

وَلَقَدْ أَقُوْلُ لِمَنْ يُسَدِّدُ سَهْمَهُ نَحْوِيْ وَأَطْرَافُ ٱلْمَنِيَّةِ شُرَّعُ
وَٱلْمَوْتُ فِيْ لَحَظَاتِ أَحْوَرَ طَرْفُهُ دُوْنِيْ وَقَلْبِيْ دُوْنَهُ يَتَقَطَّعُ
بِٱللهِ فَتِّشْ فِيْ فُؤَادِيْ هَلْ يُرَىٰ فِيْهِ لِغَيْرِ هَوَىٰ ٱلأَحِبَّةِ مَوْضِعُ ؟
أَهْوِنْ بِهِ لَوْ لَمْ يَكُنْ فِيْ طَيِّهِ عَهْدُ ٱلْحَبِيْبِ وَسِرُّهُ ٱلْمُسْتَوْدَعُ

وفيهِ يقولُ قبلَ ذلكَ [في « ديوانهِ » ١٤١ مِنَ الكاملِ] :

إنِّي لأذْكُرُكُمْ وَقَدْ بَلَغَ ٱلظَّمَا مِنِّيْ فَأَشْرَقُ بِٱلزُّلَالِ ٱلْبَارِدِ[1]
وأَقُولُ : لَيْتَ أَحِبَّتِيْ عَايَنْتُهُمْ قَبْلَ ٱلْمَمَاتِ وَلَوْ بِيَوْمٍ وَاحِدِ

وقد أَلَمَّ في الأوَّلِ ، بما مضىٰ في غيرِ هٰذا المجلس مِنْ قولِ الناظمِ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٩٧ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا شَرَقِيْ بِٱلْمَاءِ إِلاَّ تَذَكُّراً لِمَـاءٍ بِـهِ أَهْـلُ ٱلْحَبِيْـبِ نُـزُوْلُ

وقالَ آخَرُ [مِنَ البسيطِ] :

لَقَدْ صَبَرْتُ عَلَىٰ ٱلْمَكْرُوْهِ أَسْمَعُهُ مِنْ مَعْشَرٍ فِيْكَ لَوْلاَ أَنْتَ مَا نَطَقُوْا
وَفِيْكَ دَارَيْتُ قَوْماً لاَ خَلاَقَ لَهُمْ لَوْلاَكَ مَا كُنْتُ أَدْرِيْ أَنَّهُمْ خُلِقُوْا

الصدق في الرضا عند الصوفية

وللسَّادَةِ الصوفيَّةِ الكثيرُ الطَّيِّبُ مِن مثلِ ذلكَ ، حتَّىٰ لقد زعمَ بعضُهم ـ كما ذكرهُ القشيريُّ في « الرسالةِ » [١٥٢] ـ : أَنْ بلغَ بهِ صدقُ الرِّضا ، إلىٰ حدٍّ أنَّه ٱستوىٰ لديهِ الأمرُ بدخولِ الجنَّةِ والنارِ ؛ لأنَّ كلَّ ما يفعلُ المحبوبُ محبوبٌ .

وقدِ ٱستعظَمَها بعضُهم ، فقالَ ٱبنُ تيميَّةَ : وهلْ قالَ ذاكَ وهُوَ يساقُ إلىٰ جهنَّمَ ؟! كلاَّ ، وإنَّما هِيَ عزيمةٌ قَوِيَتْ في حالةٍ شريفةٍ ، سرعانَ ما تنفسخُ في حالِ الضيقِ .

فليتـك تحلـو والحيـاة مريرة

وقالَ أَبو فراسٍ [في « ديوانهِ » ٤١ مِنَ الطَّويلِ] :

فلَيْتَـكَ تَحْلُـوْ وَٱلْحَيَـاةُ مَـرِيْـرَةٌ وَلَيْتَكَ تَرْضَىٰ وَٱلأَنَامُ غِضَابُ
وَلَيْتَ ٱلَّذِيْ بَيْنِيْ وَبَيْنَكَ عَامِرٌ وَبَيْنِيْ وَبَيْنَ ٱلْعَالَمِيْنَ خَرَابُ

---

(١) الشَّرَقُ : الاختناقُ بالماءِ أو الريقِ أو بالنفسِ .

ولقد أوفىٰ علىٰ الإجادةِ ، غيرَ أنّه أساءَ الأدبَ ؛ إذ لا يليقُ هٰذا إلاَّ بخطابِ الباري عزَّ وجلَّ ، ومِن ثمَّ ٱستعملَها في مناجاتِهِ جلَّةٌ من العلماءِ ، منهُم سلطان الدينِ ٱبنُ عبدِ السلامِ . . لمّا ٱشتدَّ الأَمرُ بينَهُ وبينَ الجراكِسَةِ[1] .

ودخلْتُ مرَّةً علىٰ شيخِنا أَبي بكرِ بنِ شهابٍ في منزلِهِ الخاصِّ بهِ ، فإذا هُوَ يناجِي ربَّهُ بهٰذينِ البيتينِ ، وكانَ ذلكَ بعدَ صلاةِ المغربِ .

وبعضُهُم يزيدُ فيها بيتاً لَيسَ مِنْها ، وإنَّما هُوَ للنَّاظمِ فيما أَعرفُ ، وهُوَ هٰذا [في « العُكبَرِيّ » ١/ ٢٠٠ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا نِلْتُ مِنْكَ ٱلْوُدَّ فَٱلْمَالُ هَيِّنٌ ... وَكُلُّ ٱلَّذِيْ فَوْقَ ٱلتُّرَابِ تُرَابُ

ثمَّ إنَّ هٰذا البيتَ . . لا يشبهُ بظاهرِهِ ما عُرِفَ مِن جَشَعِ النَّاظمِ ، وشدَّةِ حرصِهِ ، وهوَ ٱلقائِلُ في ٱلقصيدةِ الَّتي بينَ أَيدينا [في « العُكبَرِيّ » ١/ ٣٢٠ مِنَ ٱلخفيفِ] :

أَيْنَ فَضْلِيْ إِذَا قَنِعْتُ مِن ٱلدَّهْـ ... ـرِ بِعَيْـشٍ مُعَجَّـلِ ٱلتَّنْكِيْـدِ
ضَاقَ صَدْرِيْ وَطَالَ فِي طَلَبِ ٱلرِّزْ ... قِ قِيَـامِـيْ وَقَـلَّ عَنْـهُ قُعُـوْدِيْ
أَبَـدَاً أَقْطَـعُ ٱلْبِـلاَدَ وَنَجْمِـيْ ... فِيْ نُحُوْسٍ وَهِمَّتِيْ فِيْ سُعُوْدِ
فَلَعَلِّـيْ مُـؤَمِّـلٌ بَعْـضَ مَـا أَبْـ ... ـلُغُ بِٱللُّطْفِ مِنْ عَزِيْزٍ حَمِيْدِ

---

(١) الجراكِسةُ : اسمٌ أطلقَه العربُ على سكانِ إقليمِ القوقازِ المعروفينَ باسمِ : ديغة ، وهم من البطونِ التركيةِ وكان لطبيعةِ البلادِ القوقازيةِ أثر كبير في تاريخهم السياسي والاجتماعي ، بدأ دخولهم في الإسلامِ في عهد سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه . وفي بعض المصادر : شراكس .

وذكرَ القرطبيُّ [في « تفسيره » ٩/١٦١] : أَنَّ يوسُفَ عليهِ السلامُ لمَّا قالَ : ﴿ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ﴾ [يوسف : ٣٣] أَوحىٰ اللهُ إليهِ : يا يوسفُ أَنتَ جنيتَ علىٰ نفسِكَ ، ولَو قلتَ : ربِّ العافيةُ أَحبُّ إِليَّ . . لَعوفيتَ ؛ ولذلكَ رَدَّ رسولُ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم علىٰ مَن كانَ يسأَلُ الصَّبر ، فقد أَخرجَ التِّرمذيُّ [في « سننِهِ » (٣٥٢٤)] : عن معاذِ بنِ جبلٍ عنهُ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم ، أَنَّه سمعَ رجلاً يقولُ : اللَّهمَّ ، إِنِّي أَسأَلُكَ الصَّبْرَ ، فَقَالَ لَهُ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم : « سَأَلْتَ ٱللهَ تَعَالىٰ ٱلْبَلاَءَ ، فَسَلْهُ ٱلْعَافِيَةَ » .

طلب سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام السجن

وأَخرجَ ٱلحاكمُ وصحَّحَه [كما في « المستدرك » ٢/٦٤١] : وأَقرَّهُ الذهبيُّ « أَنَّ أَيُّوْبَ قالَ : يا ربِّ ، إِنَّ الخيرَ كلَّهُ قد ذهبَ بهِ آبائِي الذينَ كانوا من قَبْلِي ، فأَعْطِنِي مِثْلَ ما أَعطيتَهُم ، وٱفعل بي مثلَ ما فعلتَ بهِم ، فأَوحىٰ اللهُ إِليهِ : إِنَّ آباءَكَ ٱبتُلوا ببلايا لَم تُبتَلَ بِها أَنتَ ، ٱبتُلِيَ إِبراهيمُ بذبحِ ٱبنِهِ ، وٱبتُلِيَ إِسحاقُ بذهابِ بصرِهِ ، وٱبتُلِيَ يعقوبُ بحزنِهِ علىٰ يوسفَ ، وإِنَّكَ لم تُبْتَلَ بِشَيءٍ من ذلكَ ، قالَ : يا ربِّ ٱبتَلِني بمثلِ ما ٱبتليتَهم بهِ ، وأَعطني مثلَ ما أَعطيتَهم ، قالَ : فأَوحىٰ اللهُ إِليهِ ، إِنَّكَ مبتلىً ، فٱحترسْ . . . » وذكرَ حديثاً طويلاً .

طلب سيدنا أيوب عليه الصلاة والسلام للبلاء

وفي آخَرَ : أَنَّ مدَّةَ ٱبتلائِهِ كانَتْ خمسةَ عشرَ سنةً ، أَوْ ثمانيةَ عشرَ سنةً .

مدة ابتلائه

وأَخرجَ الحاكمُ ـ أَيضاً ـ وصحَّحَهُ [كما في « المستدرك » ٢/٦٢٨] ، ولم يوافقْهُ الذهبيُّ علىٰ تصحيحِهِ ، قصَّةً طويلةً : يذكرُ فيها أَنَّ ٱمرأَةَ فرعونَ لمَّا قالَتْ لَهُ : عَسىٰ أَنْ ينفعَنا ، قالَ لَها : عَسىٰ أَنْ يَنفعَكِ

حوار بين فرعون وامرأته

أَنتِ ، فأَمَّا أَنَا . . فلا أُريدُ نفعَهُ ، قالَ وهْبٌ : قالَ ٱبنُ عبَّاسٍ : لو أَنَّ عدوَّ اللهِ قالَ في موسىٰ : كما قالَتِ ٱمرأَتُه : عسىٰ أَنْ ينفعَنا . . لنفعَهُ اللهُ بهِ ، ولٰكنَّهُ أَبىٰ ؛ للشقاءِ الذي كتبَ اللهُ عليهِ .

دعاء سيدنا أبي بن كعب على نفسه

وصَحَّ أَنَّ أُبَيَّ بنَ كعبٍ دَعا علىٰ نفسِهِ أَنْ لا يفارِقَهُ الوعَكُ ، حتَّىٰ يموتَ ، بعدَ أَنْ لا يشغَلَهُ عَن حجٍّ ، ولا جهادٍ في سبيلِ اللهِ ، ولا صلاةٍ مكتوبةٍ في جماعَةٍ ، فما مسَّ رجلٌ جلدَهُ بعدَها . . إلا وَجدَ حرَّهُ ، حتَّىٰ ماتَ ، وذلكَ لمَّا سمعَ مِن رسولِ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « **إنَّ الأَمْرَاضَ كفَّارَاتٌ ، وإنْ قَلَّتْ ، شَوْكَةٌ فَمَا فَوْقَهَا** »(١) .

هدي النبي محمد ﷺ

ولٰكنَّ هديَهُ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ . . غيرُ ذلكَ ، فقدْ صحَّ عنهُ : « **لاَ تَمَنَّوْا لِقَاءَ ٱلْعَدُوِّ ، وَسَلُوْا ٱللهَ ٱلْعَافِيَةَ** »(٢) . وصحَّ أَنَّهُ قالَ لعمِّهِ : « **أَكْثِرِ ٱلدُّعَاءَ بِٱلْعَافِيَةِ** »(٣) .

وإنَّ أَبا بكرٍ أَرادَ أَنْ يخطُبَ . . فخنقَتْهُ العبرَةُ ، ثمَّ قالَ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ، علىٰ هٰذا المنبرِ يقولُ عامَ

---

(١) أخرجه عن أبي سعيدٍ رضي الله عنه النسائيُّ في « الكبرى » (٧٤٨٩) في الطب ، والحاكم في « المستدرك » (٣٠٨/٤) وصححه ، وابن حبان في « الإحسان » (٢٩٢٨) بإسناد صحيح بلفظ : أن رجلاً من المسلمين قال : يا رسول الله ، أرأيت هذه الأمراض التي تصيبنا ماذا لنا منها ؟ فقال : « كفارات » ، فقال : أي رسول الله . . وإن قلَّت ؟ قال : « وإن شوكة فما فوقها » قال ابن حبان : والذي دعا على نفسه هو أُبَي بنُ كعب .

(٢) مرَّ تخريجه .

(٣) أي العباس ، أخرجه بنحوه الترمذي (٣٥٠٩) ، والحاكم في « المستدرك » (٧١١/١) ، قال الترمذي : حسن صحيح .

أَوَّلَ : « سَلُوْا ٱللهَ ٱلعفوَ وٱلعَافِيَةَ ، وٱليَقِيْنَ فِيْ ٱلأُوْلَىٰ وَٱلآخِرَةِ ، فإِنَّهُ مَا أُوْتِيَ ٱلعَبْدُ بَعْدَ ٱلْيَقِيْنِ خَيْرَاً مِنَ ٱلْعَافِيَةِ »(١) .

حسن العشرة مع الأهل من هدي النبي ﷺ وشدة احتماله لأزواجه

ويتَّصلُ بموضوعِ البيتِ الذي نحنُ بطريقهِ حسنُ العشرةِ معَ الأَهلِ ، وقد قالَ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « خَيْرُكُم خَيْرُكُمْ لأَهلِهِ وأَنَا خَيْرُكُم لأَهْلِيْ »(٢) .

وفي « الصحيحِ » : فواللهِ إِنَّ أَزاوجَ النبيِّ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ . ليراجعنَهُ ، وإِنَّ إِحداهُنَّ لتهجُرُهُ اليومَ إِلىٰ الليلِ(٣) ، وهٰذا كافٍ في ٱحتمالِهِ عليهِ السلامُ لتجنِّيْ أَزواجِهِ ، وهو ما نتحدَّثُ فيهِ .

ومنهُ : أَنَّه صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ خرجَ ذاتَ ليلةٍ من عندِ ميمونَةَ ، فأَغلقَتْ دونَهُ البابَ ، فجاءَ يستفتحُ فأَبَتْ أَنْ تفتحَ لهُ ، حتَّىٰ أَقسمَ عَليها ، فقالَتْ : لِمَ تذهَبُ إِلىٰ بعضِ أَزواجِكَ في لَيلَتي ؟ فقالَ : « مَا فَعَلْتُ ، وَلَـٰكِنِّيْ وَجَدْتُ حُقْناً مِنْ بَوْلٍ »(٤) .

ومنهُ : أَنَّه لمَّا نزلَتْ براءَةُ عائِشَةَ . . قالَتْ لَها أُمُّها : قومي إِليهِ ، قالَتْ : واللهِ لا أَقومُ إِليهِ ، وَلا أَحمدُ إِلاَّ اللهَ(٥) .

---

(١) أخرجه أبو عبد الله المقدسي في « الأحاديث المختارة » (١/ ١٥٧) .

(٢) أخرجه عن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما ابنُ حبان في « الإحسان » (٤١٨٦) بإسناد صحيح .

(٣) أخرجه عن ابن عباسٍ البخاري (٥١٩١) ، ومسلم (١٤٧٩) (٣٤) في الطلاق ، والترمذي (٣٣١٥) ، والنسائي (٤/ ١٣٧) .

(٤) أخرجه الحاكم في « المستدرك » (٤/ ٣٤) .

(٥) أخرجه عن عائشة رضي الله عنها البخاري (٢٦٦١) من حديث الإفك في الشهادات وغيره .

ومنهُ : ما ذكرَ غيرُ واحدٍ ، أَنَّه لما أُتِيَ بالجونيَّةِ[1] . . دخلَتْ عَليها عائِشَةُ وحفصَةُ أَوَّلَ ما قدمَتْ ، فمشطَتَاها وخَضبَتَاها ، وقالَتْ لَها إِحداهُما : إِنَّ النبيَّ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ يعجبُهُ من المرأَةِ إِذا دخلَ عَليها أَنْ تقولَ : أَعوذُ باللهِ مِنكَ ، وذُكرَ ذلكَ لِرسولِ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : فتحمَّلَهُ ولَم يَزِدْ علىٰ قولِهِ : « **إِنَّهُنَّ صَوَاحِبُ يُوسُفَ ، وَكَيْدُهُنَّ** »[2] .

وإِلاَّ . . فَما أَعظمَها من جنايةٍ ، لَو لَم تُحِطْ بِها العنايةُ ، قد حَرمْنَ رسولَ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ زوجَهُ ، وأَعدنَهُ علىٰ أَدراجِهِ ، وكانَ جاءَ ماشياً علىٰ قدميهِ ، فأَحبطْنَ مسعاهُ ، وأَكبرُ مِن ذلكَ الكذبُ عليهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ وحِرمانُ الجونيَّةِ مِن سعادةِ الدنيا والآخرةِ في قربِهِ ، والاتِّصالِ بهِ ، فأَيُّ قلبٍ يَتحمَّل هٰذهِ المشقَّاتِ العُظمَىٰ ؟ لَولا أَخذُهُ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ بمجامعِ الفضائِلِ ، وحلولُ الصدِّيقَةِ رضوانُ اللهِ عَليها بالمحلِّ الأَقصىٰ من محبَّتِهِ ، فالأَمرُ كما قيلَ [مِنَ ٱلوافرِ] :

وَيَقْبُحُ مِنْ سِوَاكَ ٱلْفِعْلُ عِنْدِيْ   فَتَفْعَلُـهُ فَيَحْسُـنُ مِنْـكَ ذَاكَـا

تمنع ودلال عائشة بنت طلحة على ابن الزبير

وبلغَ من تمنُّعِ عائِشةَ بنتِ طلحةَ علىٰ مصعبِ بنِ الزبيرِ . . أَنَّه وجدَها نائِمةً ضحوةً ، فأَنبهَها بعقدٍ رَماها بهِ مِنَ اللُّؤْلُؤِ ، ٱشتراهُ

---

(1) واسمها : أميمة بنت النعمان بن شراحيل ، وقيل : فاطمة بنت الضحاك كما في « المعارف » لابن قتيبة (ص/ ١٤٠) وغيره .

(2) طرف حديث ورد عنه صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ عند وفاته كما في البخاري (٣٣٨٤) في الأنبياء ، والترمذي (٣٦٧٣) في المناقب ، وابن ماجه (١٢٣٢) في إقامة الصلاة .

بعشرينَ أَلفِ دينارٍ ، فقالَتْ لهُ : لَقد كانَتْ نومَتي أَحبَّ إِليَّ مِن هٰذا .

وقالَ بعضُهم [مِنَ الطَّويلِ] : المعلم الجاهل

وعَلَّمْتَنِـيْ كَيْـفَ ٱلْهَـوَىٰ وَجَهِلْتَـهُ وَعَلَّمَكُمْ صَبْرِيْ عَلَىٰ ظُلْمِكُمْ ظُلْمِيْ
وأَعْلَـمُ مَـا لِـيْ عِنْـدَكُـمْ فَيَـرُدُّنِـيْ هَوَايَ إلىٰ جَهْلِيْ فَأَرْجِعَ عَنْ عِلْمِيْ

وهو معنىً عجيبٌ ، وأُسلوبٌ مليحٌ غريبٌ .

وقالَ العبَّاسُ بنُ الأَحنفِ [مِنَ البسيطِ] :

كَمْ قَدْ تَجرَّعْتُ مِنْ غَيْظٍ وَمِنْ حَنَقٍ إذا تَجَـدَّدَ حُـزْنٌ هَـوَّنَ ٱلْمَـاضِـيْ
وَكَمْ سَخِطْتُ وَمَا بَالَيْتُمُ سَخَطِيْ حَتَّىٰ رَجَعْتُ بِقَلْبٍ سَاخِطٍ رَاضِيْ

* * *

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَرِيِّ » ١/ ٣١٨ مِنَ الخفيفِ] :

كُلُّ شَيْءٍ مِنَ ٱلدِّمَاءِ حَرَامٌ	شُـرْبُـهُ مَـا خَـلاَ دَمَ ٱلْعُنْقُـوْدِ

شرح المطلع

المرادُ مِنْ (دَمِ الْعُنْقُوْدِ) : الخمرُ ، وحقيقتُها : المسكرُ مِن عصيرِ العنبِ ، وإِن لَم يقذفْ بالزَّبَدِ .

ملاحظات على المطلع

وفي البيتِ أَشياءُ :

١ـ حكم الخمر

أَحدُها : إِنَّ الخمرَ حرامٌ بالإِجماعِ ، إِلاَّ أَنْ يرادَ بِها المطبوخَ ، فقد رويَ عن ٱبنِ الخطَّابِ أَنَّه كتبَ إِلىٰ عبدِ اللهِ بنِ يزيدَ الحطميِّ :

أَمَّا بعدُ : فٱطبُخُوا شرابَكم حتَّىٰ يذهبَ مِنْهُ نصيبُ الشيطانِ .

ورويَ : أَنَّ عمرَ بنَ عبدِ العزيزِ ، كتبَ لبعضِ عمَّالِهِ : أَنْ لا تشرَبوا الطلاءَ حتَّىٰ يذهبَ ثلثاهُ ، ويبقىٰ ثلثُهُ ، وكُلُّ مسكرٍ حرامٌ .

وقدْ علمتَ أَنَّ ما لا يُسْكرُ من ماءِ العناقيدِ لطبخٍ أَو غيرِهِ ، لا يسمَّىٰ خمراً ؛ إِذ لا ينطبقُ عليهِ الحدُّ السابقُ ، وفي « الصحيحينِ » : « كُلُّ شَرَابٍ أَسْكَرَ . . فَهُوَ حَرَامٌ »(١) . وصحَّ خبرُ « أَنْهَاكُمْ عَنْ قَلِيْلِ مَا أَسْكَرَ كَثِيْرُهُ »(٢) ، وخبرُ : « ما أَسْكَرَ كَثِيْرُهُ . .

---

(١) أخرجه عن عائشة رضي الله عنها البخاري (٥٥٨٥) ، ومسلم (٢٠٠١) في الأشربة .

(٢) أخرجه أبو عبد الله المقدسي في « الأحاديث المختارة » (٣/ ١٨٣) ، ونحوه عن عائشة : « ما أسكر منه الفَرَق فملء الكف منه حرام » رواه أحمد (٦/ ٧٢) ، وأبو داوود (٣٦٨٧) ، والترمذي (١٨٦٧) وحسنه .

قَلِيلُهُ حَرَامٌ »[1] ، لـٰكنْ لا يكفرُ مستحلُّ المسكرِ مِن عصيرِ غيرِ العنبِ ؛ للخلافِ فيهِ ، أَيْ : مِن حيثُ الجنسُ ؛ لحلِّ قليلهِ علىٰ قولِ جماعةٍ .

أَمَّا المسكرُ بالفعلِ : فإِنَّه حرامٌ إِجماعاً ، كما حكَاهُ الحنفيَّةُ فضلاً عن غيرِهِم ، وهـٰذا كلُّه بمعناهُ مِن « التحفَةِ » للهيتميِّ .

ولقد ظرفَ أَبو نُوَاسٍ أَوِ ٱبنُ الروميِّ ـ قاتلَهُ اللهُ ـ في قولِهِ [من الطويل] : حكم الخمر عند أبي نواس

أَحَـلَّ ٱلْعِـرَاقِـيُّ ٱلنَّبِيْـذَ وَشُـرْبَـهُ وَقَالَ : ٱلْحَرَامَانِ ٱلْمُدَامَةُ وَٱلسُّكْرُ
وَقَالَ ٱلْحِجَازِيُّ: ٱلشَّرَابَانِ وَاحِدٌ فَحَلَّتْ لَنَا بَيْنَ ٱخْتِلَافِهِمَا ٱلْخَمْرُ
سَآخُذُ مِنْ قَوْلَيْهِمَا طَرَفَيْهِمَا وَأَشْرَبُهَا حِلاًّ وَلِلْوَازِرِ ٱلوِزْرُ

أَرادَ : أَنَّه سيأْخُذُ مِنْ قولِ أَبي حنيفةَ ، قولَهُ : النبيذُ حلالٌ ، ويتركُ قولَهُ : إِنَّ الخمرَ والسُّكرَ حرامٌ ، ويأْخُذُ من قولِ الشافعيِّ : النبيذُ والخمرُ سواءٌ ، ويتركُ قولَهُ في الحرمةِ ، وكذبَ في قولِهِ [مِنَ البسيطِ] :

مَن ذَا يُحَرِّمُ مَاءَ ٱلْمُزْنِ خَالَطَهُ فِيْ بَطْنِ خَابِيَةٍ مَاءُ ٱلْعَنَاقِيْدِ
إِنِّي لأَكْرَهُ تَشْدِيْدَ ٱلرُّوَاةِ لَنَا فِيْهَا، وَيُعْجِبُنِيْ قَوْلُ ٱبْنِ مَسْعُوْدِ

وجاوزَ الغايةَ في التهتُّكِ وخلعِ العذارِ حيثُ يقول [أبو نواس في « ديوانه » مِنَ الطَّويلِ] :

---

(١) أخرجه عن جابر رضي الله عنه أبو داوود (٣٦٨١) ، والترمذي (١٨٦٦) وحسنه ، وابن ماجه (٣٣٩٣) ، وابن حبان في « الإحسان » (٥٣٨٢) ، والحاكم في « المستدرك » (٣/ ٤١٣ و٤٦٦) .

أَلاَ فَاسْقِنِي خَمْراً وَقُلْ لِيْ: هِيَ ٱلْخَمْرُ ... وَلاَ تَسْقِنِـي سِـرّاً إِذَا أَمْكَـنَ ٱلْجَهْـرُ

وقالَ بعضُهم في معناهُ : إِنَّ الغرضَ مِن قولِهِ : (وَقُلْ لِيْ : هِيَ ٱلْخَمْرُ) ٱلتذاذ سمعِهِ بذكرِها .

وقالَ آخرونَ : إِنَّهُ تأويلٌ باردٌ ثقيلٌ ، وإِنَّما عمدَ إِلىٰ المجاهرَةِ والاستعلانِ وقلَّةِ الحياءِ ، حتَّىٰ لَقد عابَ المَأمونُ وهوَ علىٰ المنبرِ علىٰ أَخيهِ ، وقالَ : إِنَّهُ صحبَ مُدْمِناً سكِّيراً ، بلغَ من ٱستهتارِهِ أَنْ يقولَ : وذكرَ البيتَ .

وعندي : إِنَّه أَرادَ ـ معَ قصدِهِ الاستعلانَ ـ أَنْ يكونَ الحديثُ كلُّهُ في الخمرِ ، كما يفسِّرُهُ قولُهُ مِنَ الأُخرىٰ [في « ديوانه » ٣٣٨ مِنَ الكاملِ] :

وَإِذَا جَلَسْتَ إِلَىٰ ٱلْمُدَامِ وَشُرْبِهَا ... فَٱجْعَلْ حَدِيْثَكَ كُلَّهُ فِيْ ٱلْكَاسِ

وكان عبدُ الملكِ بنُ عميرٍ يحدِّثُ : أَنَّ عيينةَ بنَ حصنٍ الفزاريَّ قدمَ (الكوفةَ) ، فأَقامَ بِها أَيَّاماً ، ثمَّ قالَ لغلامِهِ : أَسرجْ لي ، فقدَّمَ لهُ فرساً ، فقالَ : ويحكَ ، أَعَلِمْتَني ركِبتُ أُنثىٰ في الجاهلِيَّةِ ، فأَركبُها في الإِسلامِ ؟ فأَسرجَ لَه حصاناً أَقبلَ عليهِ إِلىٰ محلَّةِ بني زبيدٍ ، فسأَلَ عن مكانِ عمرِو بنِ معدِ يكربَ ، فأُرشدَ إِليهِ ، فوقفَ ببابِهِ ونادىٰ : أَيْ أَبا ثورٍ ، ٱخرجْ إِلينا ، فخرجَ مُؤْتزراً ، كأَنَّما كُسِرَ ثمَّ جُبِرَ ، وقالَ : أَنعِم صباحاً أَبا مالكٍ ، قالَ عيينةُ : أَوَ ليسَ اللهُ قد أَبدَلَنا بهـٰذا ، قالَ : دَعْنا ممَّا لا نعرفُ ، ٱنزلْ ، فإِنَّ عندِي كبشاً ساحّاً(١) ، فنزلَ ، فعمدَ إِلىٰ الكبشِ فذبحَهُ ، ثمَّ كشطَ جلدَهُ عنهُ عيينة بن حصن وعمرو بن معد يكرب ومنادمتهما

(١) ساحٌّ : نادرٌ ، سمينٌ .

وعضَّاهُ[1] ، وألقاهُ في قدرِ جماعٍ ، وطبخَهُ ، حتَّىٰ إذا أدركَ . . جاءَ بجفنَةٍ عظيمَةٍ ، فثرد فيها ، ثمَّ ألقىٰ عَلَيها القدرَ بما فيهِ ، وقَعَدا فأكلاهُ ، ثمَّ قالَ لَه : أيُّ الشرابِ أحبُّ إليكَ ، اللَّبنُ أم ما كنَّا نتنادمُ عليهِ في الجاهليَّةِ ؟

قالَ : أوَ ليسَ قد حرَّمَها اللهُ عزَّ وجلَّ علَينا في الإسلامِ . ؟ قالَ : أنتَ أكبرُ سنّاً أم أنا ؟ قالَ : أنتَ ، قالَ : فأنتَ أقدمُ إسلاماً أم أنا ؟ قالَ : أنتَ ، قالَ : فإنِّي قد قرأتُ ما بينَ دفَّتي المصحفِ ، فواللهِ ما وجدْتُ لَها تحريماً ، إلاَّ أنَّهُ قالَ : ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ [المائدة : ٩١] قُلنا : لا ، فسكتَ عنَّا وسكتْنا عنهُ .

فجاء بها ، وجَلسا يتنادمانِ ويشربانِ[2] ، ويذكرانِ أيَّامَ الجاهليَّةِ ، حتَّىٰ أمسَيَا ، فلما أرادَ عُيينةُ الانصراف . . قالَ عمرٌو : لَئِن انصرفَ أبو مالكٍ بغيرِ حباءٍ[3] . . إنَّها لوصمةٌ عليَّ ، فأمرَ بناقةٍ له أرحبيَّةٍ[4] ، كأنَّها جبيرةُ لُجينٍ ، فحملَهُ عَلَيها ، ثمَّ قالَ : يا غلامُ ، هاتِ المزوَدَ ، فإذا فيهِ أربعةُ آلافِ دِرْهمٍ ، فوضعَها بينَ يديهِ ، فقالَ : أمَّا المالُ فواللهِ لا قبلتُهُ ، قالَ : إنَّه لَمِنْ حِبَاءِ عمرَ بنِ الخطَّاب ، فلم يقبلْهُ ، وانصرفَ وهُوَ يقولُ [مِنَ الطَّويلِ] :

جُزِيتَ أبَا ثَوْرٍ جَزَاءَ كَرَامَةٍ فَنِعْمَ ٱلْفَتَىٰ ٱلْمُزْدَارُ وَٱلْمُتَضَيَّفُ

(١) عضَّاهُ : فرَّقهُ .
(٢) القصة غير ثابتة ، والمؤلف نفسه في آخرها تشكك في صحتها .
(٣) الحباءُ : العطاءُ .
(٤) أرحبيَّةٌ : منسوبةٌ إلى أرحبَ ، وهوَ اسمُ قبيلةٍ تنسبُ إليها النجائبُ الأرحبيَّاتُ .

قَرَيْتَ فَأَجْزَلْتَ ٱلْقِرَىٰ وَأَفَدْتَنَا خَبِيئَةَ عِلْمٍ لَمْ تَكُنْ قَطُّ تُعْرَفُ
وَقُلْتَ : حَلاَلاً أَنْ نُدِيرَ مُدَامَةً كَلَوْنِ ٱنْبِعَاقِ ٱلْبَرْقِ وَٱللَّيْلُ مُسْدِفُ
وَقَدَّمْتَ فِيهَا حُجَّةً عَرَبِيَّةً تَرُدُّ إِلَىٰ ٱلإِنْصَافِ مَنْ كَانَ يُنْصِفُ
وَأَنْتَ لَنَا وَٱللهِ ذِي ٱلْعَرْشِ قُدْوَةٌ إِذَا صَدَّنَا عَنْ شُرْبِهَا ٱلْمُتَكَلِّفُ
تَقُوْلُ : أَبُوْ ثَوْرٍ أَحَلَّ حَرَامَهَا وَقَوْلُ أَبِي ثَوْرٍ أَسَدُّ وَأَعْرَفُ

تعليق المؤلف على الخبر

وفي هٰذا الخبرِ غضٌّ مِن إيمانِ عمرِو بنِ معدِ يكربَ ، ولا سيَّما في إنكارِهِ تحيّةَ الإسلامِ ، واللهُ أعلمُ بالحقيقةِ .

نقل السيوطي عن عثمان بن مظعون وعمرو بن معد يكرب

وقالَ السيوطيُّ في « الإتقانِ » [٨٨/١] : وحكيَ عن عثمانَ بنِ مظعونٍ وعمرِو بنِ معدِيكربَ أنَّهُما كانا يقولانِ : الخمرُ مباحةٌ ، ويحتجَّانِ بقولِهِ تعالَىٰ : ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ ﴾ الآية [المائدة : ٩٣] ، ولو عَلِما سببَ نُزولِها . . لَم يقولاَ ذلكَ ، وهُوَ : أَنَّ ناساً لمَّا حُرِّمَتِ الخمْرُ . . قالوا : كيفَ بِمن قتلَ في سبيلِ اللهِ ، وكانوا يشربونَ الخمرَ وهيَ رجسٌ ؟! فنزلَتْ . أخرجَهُ أحمدُ [٤٤١/٤] والنسائيُّ [في «الكبرىٰ» (١١١٥١) عن ابن عباس رضي الله عنهما بإسناد حسن] وغيرُهما . اهـ كلامه .

تعليق المؤلف على السيوطي

وأخطأَ في ذلكَ أبو بكر [السيوطي] ؛ إذ إنَّ الذي مرَّ عن عمرِو بن معد يكرب إنما يدلُّ علىٰ ٱحتجاجِهِ بغيرِ هٰذهِ الآية .

والأشبهُ أنْ يكونَ الثاني قُدامةُ بنُ مظعونٍ لا عثمانَ بنَ مظعونٍ كما يعرفُ مِمَّا يأتي ، وأيضاً فإنَّ عثمانَ بنَ مظعونٍ توفِّيَ قبلَ تحريمِ الخمرِ ؛ لأنَّهُ ماتَ بعقبِ واقعةِ بدرٍ بأشهرٍ ، وهِيَ كانَتْ فِي السنةِ الثانيةِ للهجرَةِ ، ولم تحرَّمْ الخمْرُ إلاَّ فِي شهرِ ربيعِ الأوَّلِ من السنةِ

الرابعةِ للهجرَةِ ، وأولُ ما نزلَ فيها بـ(مكةَ) : ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل : ٦٧] .

مراحل تحريم الخمر

فكانَتِ ٱلصَّحابةُ تشربُها وهِيَ حلٌّ لَهم ، ثمَّ نزلَ فيها بـ(ٱلمدينةِ) قولُه تعالىٰ : ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة : ٢١٩] فتركَها قَومٌ للإِثمِ ، وشربهَا آخرونَ للمنافِعِ . . إلىٰ أَنْ صنعَ عبدُ الرَّحمـٰنِ بنُ عوفٍ طعاماً ، ودَعا ناساً مِن أَصحابِ رسولِ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ، وأَتاهم بخمْرٍ فَسَكِروا ، وحضَرَتِ ٱلصَّلاةُ ، فقدَّمُوا واحداً ليصليَ بِهم ، فقرأَ : قلْ يا أَيُّها ٱلكافرونَ أَعبدُ ما تعبدونَ ، بحذفِ (لا) فأَنزلَ اللهُ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء : ٤٣] فقالَ ٱبنُ الخطَّابِ : إِنَّ اللهَ جلَّ شأْنُهُ . . تقارَبَ في ٱلنَّهيِ عَنِ ٱلخمرِ ، وما أَراهُ إِلاَّ سيُحرِّمُها ، ثمَّ نزلَتْ آيةُ ٱلتَّحريمِ ٱلبتِّ ، بٱلتّاريخِ ٱلسّابقِ ، وهِيَ قولُهُ عزَّ وجلَّ : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة : ٩١] .

رواية أخرى في نزول آية تحريم الخمر

ويُروىٰ : أَنَّ هـٰذهِ الآيَةَ نزلَت في شأْنِ حمزةَ بنِ عبدِ ٱلمطَّلبِ[1] ، وكانَ من خبرِهِ ، ما ٱستوفاهُ الشيخانِ في

---

(١) قال في « الفتح » (٨/ ٢٧٩) : والوقت الذي وقع فيه ذلك زعم الواحدي : أنه عقب قول حمزة رضي الله عنه : إنما أنتم عبيد لأبي ، وحديث جابر يرد عليه ، والذي يظهر أن تحريمها كان عام الفتح سنة ثمان . .

« الصَّحيحَين » ، وقد علمتَ ما قالهُ أبو ثورٍ في قولِهِ تعالَىٰ : ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ [المائدة : ٩١] .

سؤال عن الخمر وحكمها والإجابة على ذلك من القرآن والحديث

ويُذكَرُ : أنَّ حامِدَ بنَ ٱلعبَّاسِ سأَلَ عليَّ بنَ عيسىٰ بمشهدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ عن دواءِ ٱلخُمارِ ؟ فأَعرضَ عنهُ ، وقالَ : ما لي ولهٰذهِ ٱلمسأَلةِ ، فخجلَ حامدٌ ، والتفتَ إلىٰ قاضي ٱلقضاةِ أَبي عمرٍو ٱلمالكيِّ ، وأَعادَ عليهِ ٱلسُّؤَالَ ، فتنحنحَ ليصلحَ مِن صوتِهِ وقالَ :

أَمَّا مِن كتابِ ٱللهِ: فقولهُ جلَّ ذِكرُهُ: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ ﴾ [الحشر: ٧].

وأَمَّا مِنَ ٱلسُّنَّةِ : فقولهُ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « ٱسْتَعِيْنُوا عَلَىٰ كُلِّ صَنْعَةٍ بِصَالِحِيْ أَهْلِهَا »[1] ، والمشهورُ بهٰذا في ٱلجاهليَّةِ ٱلأَعشىٰ وهُوَ ٱلقائِلُ [كما في « ديوانه » ٣٤ مِنَ ٱلمتقارب] :

وَكَأْسٍ شَرِبْتُ عَلَىٰ لَذَّةٍ وَأُخْرَىٰ تَدَاوَيْتُ مِنْهَا بِهَا

وفي ٱلإسلامِ أَبو نُوَاسٍ ، وهوَ ٱلَّذي يقولُ [في « ديوانه » ٢٧ مِنَ البسيطِ] :

دَعْ عَنْكَ لَوْمِيْ فَإِنَّ ٱللَّوْمَ إِغْرَاءُ وَدَاوِنِيْ بِٱلَّتِيْ كَانَتْ هِيَ ٱلدَّاءُ

فأَسفرَ وجهُ حامدٍ ، وقالَ لعليِّ بنِ عيسىٰ : ما ضرَّكَ أَن تجيبَ ببعضِ ما أَجابَ بهِ قاضي ٱلقضاةِ ، وقدِ ٱستظهرَ في ٱلجوابِ بكتابِ ٱللهِ وسُنَّةِ رسولِهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ؟ فكانَ خجلُ

---

(١) لم أقف عليه، وأورده العجلوني في « كشف الخفاء » (٣٤٠) ونقل عن الأصل للسخاوي ، قد يستأنس له بقوله صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « ما كان من أمر دنياكم فإليكم » .

عليٍّ بنِ عيسىٰ وٱنكسارُهُ مِن هـٰذا ٱلكلامِ . . أكثرَ مِن خجلِ حامدٍ حينَ ٱبتدأَهُ بٱلسُّؤَالِ ، كَذا رُوِيَتِ ٱلقصَّةُ عن غيرِ واحدٍ .

لا ينبغي الانكسار في الحق

وما كانَ لعليِّ بنِ عيسىٰ أَنْ ينكسِرَ لَو تعمَّدَ الحقَّ ، وٱستظْهَرَ بالصدْقِ ، إِنَّما المؤاخذةُ علىٰ أَبي عمرٍو في تنفُّقِهِ بالباطِلِ ، والتيسيرِ في معاقَرَةِ العُقَارِ ، ولعلَّهُ إِنَّما أَخرجَ ذلكَ الكلامَ مخرجَ التظرُّفِ والتندُّرِ ، وإِلاَّ . . كانَ من المخطئينَ ، ومقامُ أَبي عمرٍو أَجلُّ مِن ذلكَ ، والشيطانُ يَجْري مِنِ ٱبنِ آدمَ مجرىٰ الدمِ ، وحبُّ الزلفىٰ لدىٰ الكبراءِ داءٌ عُضَالٌ .

وحامدُ بنُ العباسِ هـٰذا ، هُوَ وزيرُ المقتدرِ ، وهُوَ الذي أَراقَ دمَ الحلاَّجِ بفتوىٰ القاضي أَبي عمرٍو المذكورِ سنةَ : (٣٠٩ هـ) .

غناء تصغي له الوحوش

وببيتِ الأَعشىٰ السابقِ ، وهُوَ : (وَكَأْسٍ شَرِبتُ عَلَىٰ لَذَّةٍ) إلخ . . ذكرتُ ما رواهُ غيرُ واحدٍ : من أَنَّ الأَمينَ كانَ لا يشربُ وهُوَ مخمورٌ ، حتَّىٰ غَنَّاهُ إبراهيمُ بنُ المهديِّ بهـٰذا ، فشربَ ، وإِبراهيمُ يغنِّي ، حتَّىٰ أَصغتْ إِليهِ الوحشُ ومدَّتْ أَعناقَها ، ولَم تزلْ تَدْنُو منهُ حتَّىٰ وضعَتْ رُؤُوسَها علىٰ الدكَّانِ الذي كانوا عليهِ ، والأَمينُ يتعجَّبُ مِن ذلكَ .

كيفية تداوي شارب الخمر

وغابَ عَنِ القاضي أَبي عمرٍو أَنَّ المجنونَ يقولُ فيما بينَ الأَعشىٰ وأَبي نُوَاسٍ [في « ديوانهِ » ١٦٠ مِنَ الطَّويلِ] :

تَدَاوَيْتُ مِنْ لَيْلَىٰ بِلَيْلَىٰ مِنَ ٱلْهوَىٰ كَمَا يَتَدَاوَىٰ شَارِبُ ٱلْخَمْرِ بِٱلْخَمْرِ

قياس في الخمر

وفي نظيرِ ما سبقَ مِن قياسِ ٱبنِ الروميِّ ، أَو أَبي نُوَاسٍ ، يقولُ بعضُهُم : إِنَّ أَهلَ الحرمينِ حرَّمُوا النبيذَ وأَحلُّوا الغناءَ ، وأَهلَ

(العراقِ) حرَّموا الغناءَ وأَباحُوا النبيذَ ، فأَوجَدونا السبيلَ إِلىٰ الرخصَةِ فيهِمَا عندَ ٱختلافِهما إِلىٰ أَنْ يقعَ ٱلاتِّفاقُ ، وقالَ في ذلكَ بعضُ ٱلشُّعراءِ [مِنَ الخفيفِ] :

رَأْيُهُ فِيْ ٱلسَّمَاعِ رَأْيُ حِجَازِيٍّ وَفِيْ ٱلشُّرْبِ رَأْيُ أَهْلِ ٱلْعِرَاقِ

وقالَ ٱبنُ الروميِّ [مِنَ الخفيفِ] :

أَنَا أَهْوَىٰ ذَاتَ ٱلْخِمَارِ عَلَىٰ الجَيْـ ـبِ وَذَاتَ ٱلْوِشَاحِ وَٱلدُّمْلُجَيْنِ(١)
وَأَرَىٰ فِـيْ ٱلنَّبِيْـذِ رَأْيَ صَـوَابٍ لِشُيُـوخِ ٱلْعِـرَاقِ بِـٱلْكُـوفَتَيْـنِ
وَإِذا مَا ٱلْغِنَاءُ خَاضَ ذَوُوْ ٱلأَلْـ ـبَابِ فِيْهِ ٱعْتَصَمْتُ بِٱلْحَرَمَيْنِ
كُلَّمَـا جَـاءَتِ ٱلـرَّخَـائِصُ فِيْـهِ كَـانَ أَخْـذِيْ لَـهُ بِكِلْتَـا ٱلْيَـدَيْـنِ

الإمام النعمان يقطع كلام ابن أبي ليلى

وقالَ ٱبنُ أَبي ليلىٰ لأَبي حنيفةَ : أَيحلُّ النبيذُ ، وشراؤُهُ ، وبيعُهُ ؟ قالَ : نعم ، قالَ : أَفيسرُّكَ أَنَّ أُمَّكَ نبَّاذةٌ ؟ فقالَ أَبو حنيفةَ : أَيَحِلُّ الغناءُ وسماعُهُ ، قالَ : نعم ، قالَ : أَفيَسُرُّكَ أَنَّ أُمَّكَ مغنِّيَةٌ ؟

جواب لإياس بن معاوية عن الخمر

وقيلَ لإِياسِ بنِ معاويةَ : ما تقولُ في التمرِ والعنبِ والماءِ ، حلالٌ هِيَ ، أَم حَرامٌ ؟ فقالَ : حلالٌ ، فقيلَ لَهُ : ولِمَ يُحَرَّمُ الخمرُ ، وإِنَّما هُوَ مِن ذلكَ ؟ فقالَ : أَرأَيتَ لَو أَصابكَ ماءٌ أَو ترابٌ أَو تِبنٌ أَكانَ يوجعُكَ ؟ قالَ : لاَ ، قالَ : فَلو جمعَ ذلكَ كلَّهُ وجعلَ لَبِنةً ، ثُمَّ سقطَ علىٰ رأْسِكَ ، أَما كانَ يوجعُكَ ؟

---

(١) الجيبُ : جيبُ القميصِ ، ومنهُ قولهُ تعالى : ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور : ٣١] . الوِشاحُ : من حُليِّ المرأةِ ، من جوهرٍ ولؤلؤٍ منظومانِ ، مخالفٌ بينهما ، معطوفٌ أحدهما على الآخرِ . الدملُجُ : المعضدُ من الحليِّ .

ويروىٰ [بنحوه في « سير أعلام النبلاء » ١/١٦١] : أَنَّ قدامةَ بنَ مظعونٍ سكرَ ، وكانَ عامِلَ عمرَ علىٰ (البحرينِ) ، فقالَ لَهُ : إِنِّي جالدُكَ ، فقالَ : كيفَ تجلدُني ، وبيني وبينكَ كتابُ اللهِ تعالىٰ ؟ قالَ : وأَيَّهُ تريدُ ؟ قالَ : إنَّه يقولُ : ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ [المائدة : ٩٣] وقد شهدْتُ معَ رسولِ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم بدراً وأُحداً والخندقَ والمشاهدَ ، فأَكثِر بذلكَ عملاً صالِحاً ، فقالَ عمرُ : أَلا تردُّونَ عليهِ قولَهُ ؟ فقالَ ٱبنُ عبَّاسٍ : إنَّ هٰؤلاءِ الآياتِ أُنزلْنَ عذراً للماضينَ قبلَ تحريمِ الخمرِ ، وحجَّةً علىٰ الباقينَ ، فعُذرُ الماضينَ أَنَّهم لَقُوا اللهَ قبلَ أَنْ تحرَّمَ ، وحجَّةٌ علىٰ الباقينَ ؛ لأَنَّه تعالىٰ يقولُ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ . . ﴾ [المائدة : ٩٠] ثمَّ ٱقترأَ الآيةَ إِلىٰ آخرِها ، وقالَ : إِنْ كانَ مِن الذينَ آمَنوا وعمِلوا الصالحاتِ ، ثمَّ ٱتقَوا وآمَنوا ، ثمَّ ٱتقوا وأَحسَنوا . . فإِنَّ اللهَ قد نهىٰ أَنْ تُشْرَبَ الْخَمْرُ ، فقالَ عمرُ : صدقتَ .

من الذين شربوا الخمر قدامة بن مظعون واستدلاله على ذلك ورد ابن عباس عليه

والثاني : مِن الأَشياءِ التي ذكرناها في البيتِ ، تسويرُهُ القضيَّةَ في حرمةِ الدماءِ بـ(كلٌّ) ، والحالُ أَنَّ اللهَ قد أَحلَّ لنا دَمَيْنِ ، هُما : الكبدُ والطحالُ ، بنصِّ الحديثِ[1] ، إلاَّ أَنْ يُجَابَ بأَنَّ كلامهُ مفروضٌ في الدَّمِ المسفوحِ .

٢ـ وجود بعض الدماء الحلال

---

(١) أخرجه عن ابن عمر رضي الله عنهما عبد بن حميد (٨٢٠) ، وابن ماجه (٣٢١٨) و(٣٣١٤) ، والبيهقي في « السنن الكبرى » (١/ ٢٥٤) والدراقطني (٤/ ٢٧٢) .

٣ـ أيهما أشد حرمة الخمر أم الدم؟

والثالثُ : أَنَّ حرمَةَ الخمرِ أَشدُّ مِن حرمةِ الدَّمِ ؛ ولهذا فُرِضَ فيها الحدُّ ولَم يفرض فيهِ ، وقد حدَّ ٱبنُ الخطَّابِ قدامَةَ بنَ مظعونٍ [كما في « السِّيَرِ » ١/١٦١] ، وكانَ تحتَهُ صفيَّةُ بنتُ الخطَّابِ أُختُ عمرَ ، وكانَ خالَ حفصةَ وعبدِ اللهِ بنِ عمرَ ، وهوَ ممَّن شهدَ بدراً .

النعيمان من الذين شربوها

وفي « الصحيحِ » : (أَنَّ النعيمانَ كانَ من أصحابِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ وقد شهدَ بدراً ، وكانَ يشربُ الخمرَ ، فيؤْتىٰ بهِ فيضربُ بالنِّعالِ والجريدِ ، ولمَّا قالَ بعضُ أَصحابهِ عليه السلامُ : لعنَهُ اللهُ ، ما أَكثرَ ما يؤْتىٰ بهِ . . نهاهُ عَنْ ذلكَ)[١] .

ومنهم: أبو محجن الثقفي

وكانَ أَبو مِحْجَنٍ الثقفيُّ شرِّيباً[٢] ، حدَّهُ عمرُ بنُ الخطَّابِ فيها مِراراً ، وحدَّهُ سعدُ ٱبنُ أَبي وقَّاصٍ فيها غيرَ مرَّةٍ ، وكانَ يومَ القادسيَّةِ في سجنِ سعدٍ ، فأَطلَقَتْهُ ٱمرأَةُ سعدٍ وكانَتْ لَه فاركاً[٣] ، وأَعطتْهُ فرسَهُ ، فأَبلىٰ بلاءً حسناً ، ظهرَتْ فيهِ علىٰ يدِهِ آثارُ الفتوحِ ، ولَهُ في حديثِهِ أَشعارٌ ، نترُكُها صيانةً لمنصبِ سعدٍ ، فقد أَقذَعَ لَهُ في بعضِها .

توبته عن شربها

ويرویٰ [كما في « الإصابة » ٤/١٧٤] : أَنَّ ٱبنَ الخطَّابِ رفعَ الحدَّ عنهُ بعدَ ذلكَ ، فحلفَ أَنْ لا يشربَها بعدُ ، وقالَ [في « ديوانهِ » ٤١ـ٤٢ مِنَ البسيطِ] :

---

(١) أخرجه عن عقبة بن الحارث رضي الله عنه البخاري (٢٣١٦) في الوكالة . بلفظ : (جيء بالنعيمان شارباً ، فأمر رسول الله صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ من كان في البيت أن يضربوه ، قال : فكنت أنا فيمن ضربه ، فضربناه بالنعال والجريد) وينظر طرفاه : (٦٧٧٤) و(٦٧٧٥) .

(٢) كما في « الإصابة » (٤/١٧٣) .

(٣) المرأَةُ الفاركُ : المبغضةُ لزوجها .

إنْ كَانَتِ ٱلْخَمْرُ قَدْ عَزَّتْ وَقَدْ مُنِعَتْ   وَحَالَ مِنْ دُوْنِهَا ٱلإِسْلاَمُ وَٱلْحَرَجُ
فَقَدْ أُبَاكِرُهَا صَهْبَاءَ صَافِيَةً   طَوْراً فَأَشْرَبُهَا صِرْفاً وَأَمْتَزِجُ
وَقَدْ تَقُوْمُ عَلَىٰ رَأْسِي مُغَنِّيَةٌ   فِيْهَا إِذَا رَفَعَتْ مِنْ صَوْتِهَا غَنَجُ
تَخْفِضُ ٱلصَّوْتَ أَحْيَاناً وَتَرْفَعُهُ   كَمَا يَطِنُّ ذُبَابُ ٱلرَّوْضَةِ ٱلْهَزِجُ(١)

إذا مت فادفنوني إلى جنب كرمة

وأَنشدَ رجلٌ بحضرةِ عبدِ اللهِ بنِ مسلمِ بنِ قتيبةَ قولَ أَبي محجنٍ [في « ديوانه » ٢٣ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا مِتُّ فَادْفِنِّي إِلَىٰ جَنْبِ كَرْمَةٍ   تُرَوِّيْ عِظَامِيْ فِيْ ٱلتُّرَابِ عُرُوْقُهَا
وَلاَ تَدْفِنُوْنِيْ فِيْ ٱلْفَلاَةِ فَإِنَّنِيْ   أَخَافُ إِذَا مَا مِتُّ أَنْ لاَ أَذُوْقَهَا

فقالَ : حدَّثني مَن رأَىٰ قبرهُ بـ(أَرمينيَّة) بينَ شجراتِ كرمٍ يخرجُ إِليهِ الفتيانُ ، ويشربونَ عندَهُ ، ويتناشدونَ الأَشعارَ ، ويَروونَ شِعْرَهُ ، وإِذا جاءَتْ كَأْسُهُ . . صَبُّوها عليهِ ، وهٰذا لا يناقضُ ما سلفَ من توبتهِ ؛ لاحتمالِ أَنَّه قالَ هٰذينِ البيتينِ قبلَها .

وقد ٱستطردنا لتمهيدِ عذرِ التائبينَ عَنِ ٱلطِّلا ، في الحنينِ إِلىٰ أَيَّامِها ، بما فيهِ مقْنعٌ في الفائدةِ (٢٤) مِن « بلابلِ التغريدِ » .

ومن الذين حُدُّوا فيها الوليد بن عقبة

وممَّن حُدَّ فِيها [كما في « الأغاني » ٥/ ١٣٤] : الوليدُ بنُ عقبةَ ٱبنِ أَبي مُعَيطٍ ، وكانَ أَخا عثمانَ بنِ عفَّانَ لأُمِّهِ ، شهدَ عليهِ أَهلُ (الكوفةِ) أَنّه صلَّىٰ بهمُ الصبحَ ثلاثَ ركعاتٍ(٢) ، وهُوَ سكرانُ ، ثُمَّ ٱلتفت إِليهِم ، وقالَ : إِنْ شئتُم . . زِدْتُكم ، فجلدَهُ عبدُ اللهِ بنُ جعفرٍ بينَ يَدي عثمانَ وعليٌّ حاضرٌ ، وفيه يقولُ الحُطيئةُ [مِنَ الطَّويلِ] :

---

(١) الهَزِجُ : صوتُ الرعد ، وضرب من الأغاني ، وفيه ترنُّمٌ .
(٢) في « الأغاني » أربع ركعات .

شَهِدَ ٱلْحُطَيْئَةُ يَوْمَ يَلْقَىٰ رَبَّهُ أَنَّ ٱلْوَلِيْدَ أَحَقُّ بِٱلْعُذْرِ
نَادَىٰ وَقَدْ تَمَّتْ صَلاَتُهُمُ لِيَزِيْدَهُمْ خَيْراً وَلاَ يَدْرِي
كَبَحُوْا عِنَانَكَ إِذْ جَرَيْتَ وَلَوْ تَرَكُوْا عِنَانَكَ لَمْ تَزَلْ تَجْرِي

وكادَ عثمانُ أَن يدرأَ الحدَّ عن أَخيهِ ، ولٰكنَّ عائشةَ نادَتْ والناسُ مجتمعونَ لصلاةِ العصرِ : أَلا إِنَّ عثمانَ عطَّلَ الحدودَ ، وتهدَّدَ الشهودَ ، فلم يسعْهُ بعدَ ذلكَ . . إِلاَّ أَنِ ٱستقدَمَهُ ، ثُمَّ أَقامَ عليهِ الحدَّ ـ كما مرَّ .

ومنهم : عبيد الله بن عمر بن الخطاب

ومن المحدودينَ فِيها ـ أَيضاً ـ : عبيدُ اللهِ بنُ عمرَ بنِ الخطَّابِ ، شربَ بـ(مِصرَ) ، فحدَّهُ عمرُو بنُ العاصِ سرّاً ، فٱستقدمَهُ عمرُ علىٰ قَتَبٍ[1] ، وأَقامَ عليهِ الحدَّ ثانياً علانيةً .

ومنهم : عبد الرحمن بن عمر بن الخطاب

ومِنهم : عبدُ الرحمٰنِ بنُ عمرَ بنِ الخطَّابِ ويُعرفُ بأَبي شحمةَ ، حدَّهُ أَبوهُ في الخمرِ وفي الزِّنا . . حتَّىٰ ماتَ ، كَما رواهُ الطبرانيُّ .

ومنهم : عاصم بن عمر بن الخطاب

ومِنهم [كما في « العقد الفريد » ٦/٣٤٩] : عاصمُ بنُ عمرَ بنِ الخطَّابِ ، وحدَّهُ بعضُ ولاةِ (المدينةِ) .

ومنهم : العباس بن عبد الله بن عباس

ومِنْهم : العبَّاسُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهُم ، وكانَ مِمَّنِ ٱشتهرَ بالشَّرابِ ، وحُدَّ فيهِ ، وكانَ ينادِمُ الأَخطلَ ، وفيهِ يقولُ [في « ديوانه » ٣٢٨ مِنَ الكاملِ] :

لِبَّاسُ أَرْدِيَةِ ٱلْمُلُوْكِ يَرُوْقُهُ مِنْ كُلِّ مُرتَقَبٍ عُيُوْنُ ٱلرَّبْرَبِ[2]

---

(١) القتَبُ : الربطُ والشدُّ .
(٢) الربرَبُ : النساءُ .

ومنهم: عبد الله بن عروة بن الزبير

وِمنْهم : عبدُ اللهِ بنُ عروةَ بنِ الزبيرِ ، وحدَّهُ هشامُ بنُ إسماعيلَ المخزوميُّ .

وممن كان يشربها: يزيد بن معاوية

وِممَّن كانَ يَشربُها : يزيدُ بنُ معاويةَ ، فعابَهُ المِسْوَرُ بنُ مخرمَةَ ، فأمرَ بضربِهِ حدَّها ، فقالَ مِسْورٌ [مِنَ الطَّويلِ] :

أَيَشْرَبُهَا صِرْفاً بِطِيْنِ دِنَانِهَا ... أَبُوْ خَالِدٍ وَٱلْحَدَّ يُضْرَبُ مِسْوَرُ

تهديد الحسن بن زيد لابن هرمة إن شرب الخمر

ولمَّا وليَ الحسنُ بنُ زيدٍ (المدينةَ) . . قالَ لابنِ هرمَةَ : لستُ كَمن باعَ دينَهُ رَجاءَ مدحِكَ ، أَو خوفاً مِن ذمِّكَ ، فقد رزَقَني اللهُ بولادَةِ نبيِّهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ المَمادحَ ، وجَنَّبَني المَقابِحَ ، وإِنَّ مِن حَقِّهِ عليَّ أَن لاَ أُغضِيَ علىٰ تقصيرٍ في حقِّ اللهِ ، وأَنا أُقسِمُ : لَئِن أُتِيتُ بِكَ سكراناً . . لأَضربَنَّ : للسُّكرِ ، ولأَزيدنَّكَ لموضِعِ حرمتِكَ بي ، فليكُن تركُكَ إِيَّاها للهِ تعالىٰ . . تُعَنْ عليهِ ، وَلا تدعْها للنَّاسِ . . فتُوكَلَ إِلَيهِم ، فقالَ ٱبنُ هَرِمةَ [في « ديوانهِ » ١٥١ـ١٥٢ مِنَ الوافرِ] :

نَهَانِيْ ٱبْنُ ٱلرَّسُولِ عَنِ ٱلْمُدَامِ ... وَأَدَّبَنِــيْ بِـآدَابِ ٱلْكِـرَامِ
وَقَالَ لِيَ ٱصْطَبِرْ عَنْهَا وَدَعْهَا ... لِخَـوْفِ ٱللهِ لاَ خَـوْفِ ٱلأَنَـامِ
وَكَيْـفَ تَصَبُّـرِيْ عَنْهَـا وَحُبِّـيْ ... لَهَا حُبٌّ تَمَكَّنَ فِيْ عِظَامِيْ ؟!

قدوم ابن هرمة على المهدي

فضاقَ ذرعُهُ ، وشخَصَ إِلىٰ المهديِّ ، وٱمتدحَهُ بشعرِهِ الذي يقولُ فيهِ [في « ديوانه » ١٦٧ـ١٦٩ مِنَ الطَّويلِ] :

لَه لَحَظَاتٌ فِيْ حَفَافَيْ سَرِيْرِهِ ... يُقَلِّبُهَـا فِيْهَـا عِقَـابٌ وَنَـائِـلُ[1]
لَهُمْ طِيْنَةٌ بَيْضَاءُ مِنْ آلِ هاشِمٍ ... إِذَا ٱسْوَدَّ مِنْ لُؤْمِ ٱلتُّرَابِ ٱلْقَبَائِلُ

---

(١) حَفافُ الشيءِ : جانبُهُ .

إِذَا مَا أَتَىٰ شَيْئاً مَضَىٰ كَالَّذِي أَتَىٰ وَإِنْ قالَ : إِنِّيْ فَاعِلٌ فَهُوَ فَاعِلُ

طلبه من المهدي أن يكتب له كتاباً إلى الحسن أن لا يقيم الحد عليه وحيلة المهدي في ذلك

فَٱهتزَّ المهديُّ لِشعرِهِ ، وقالَ [في « الأغاني » ٤/٣٦٩] : سلْ حاجتَكَ ، قالَ : تأمُرُ لي بكتابٍ إِلىٰ عاملِ (المدينةِ) أَنْ لا يحدَّني علىٰ شرابٍ ، فقالَ لهُ : ويلَكَ ، كيفَ نأمرُ بذلكَ ؟! ثمَّ قالَ لوزرائِهِ : ما عندَكم مِن التلطُّفِ في حاجةِ ٱبنِ هرمةَ ؟ قالوا : إِنَّه يطلبُ ما لا سبيلَ إِليهِ مِن تعطيلِ الحدودِ ، قالَ المهديُّ : إِنَّ عِنْدي حيلةً إِذا أَعيتْكُم حيلتُهُ . . ٱكتبُوا إِلىٰ عاملِ (المدينةِ) ، مَنْ أَتاكَ بٱبنِ هرمَةَ سكرانَ . . فٱضرِبِ ٱبنَ هرمةَ ثمانينَ ، وٱضربِ الذي يأْتيكَ بهِ مئةً ، فكانَ ٱبنُ هرمَةَ بعدَ ذلكَ يمشي في أَزِقَّةِ (المدينةِ) ، ويقولُ : مَن يشتري مئةً بثمانينَ .

غيرَ أَنَّه لا يليقُ الإِغضاءُ عليهِ بالحَسنِ إِنِ ٱستمرَّ في ولايتِهِ ، معَ ما سبقَ من تصلُّبِهِ في دينِ اللهِ ، فما عَدا مِمَّا بَدا .

عتاب لزياد في حارثة بن بدر الغداني

وكانَ حارثةُ بنُ بدرٍ الغدانيُّ مِن المشهورينَ بالشرابِ ، وكان غالباً علىٰ زيادٍ ، فعوتِبَ فيهِ ، فقالَ : كيفَ لي بٱطِّراحِ رجُلٍ يسايرُني مُذ دخلتُ (العراقَ) ، ولم تصطكَّ رِكَابُهُ بِركابي ، وَلا تَقَدَّمَني . . فنظرتُ إِلىٰ قفاهُ ، ولا تأَخَّرَ عَني . . فلويتُ عُنُقي لهُ ، ولا أَخذَ عليَّ الشمسَ في الشتاءِ ، ولا الظلَّ في الصيفِ ، ولا سأَلْتُهُ عن علمٍ إِلاَّ ظننتُهُ لا يحسنُ غيرَهُ ؟

جفاء ابن زياد لحارثة وطلبه منه ترك الخمر

فلمَّا ماتَ زيادٌ . . جفاهُ ٱبنهُ عبيدُ اللهِ ، فقالَ لهُ : ما هٰذا الجفاءُ أَيُّها الأَميرُ ، وقد عرفتَ مَكاني من أَبي المغيرَةِ ؟ فقالَ : أَمَّا أَبي . . فقد برعَ بروعاً لم يلحقْهُ معهُ عيبٌ ، وأَمَّا أَنا . . فحَدَثٌ ، ولا آمنُ أَنْ أُتَّهَمَ بمُجالَسَتك ، فٱتركِ الخمرةَ ، وكُنْ أَوَّلَ داخلٍ وآخرَ خارجٍ .

فقالَ : أَفأَتْرُكُها لَكَ ، ولَم أَترُكْها لِمَن يملِكُ ضَرِّي ونَفْعي ؟ قالَ : فاَختَر ما شئتَ من أَعمالي ، قالَ : فإِنِّي أَختارُ (سُرَّقَ)[1] ، فقد وُصِفَت لي بِها الكرومُ ، فولاَّهُ إِيَّاها ، فودَّعَهُ إِيَاسُ بنُ إِياسٍ بأَبياتِهِ المشهورةِ ٱلَّتي يقولُ لهُ فيها [مِنَ الطَّويلِ] :

الصدق في الترك أن يكون لله

أَحَارِ بْنَ بَدْرٍ قَدْ وَلِيتَ وِلاَيَةً ... فَكُنْ جُرَذاً فِيهَا تَخُونُ وَتَسْرِقُ
وَلاَ تَحْقِرَنْ يَا حَارِ شَيْئاً تَخُونُهُ ... فَحَظُّكَ مِنْ مُلْكِ ٱلْعِرَاقَيْنِ سُرَّقُ
وَبَاهِ تَمِيماً بِالْغِنَىٰ إِنَّ لِلْغِنَىٰ ... لِسَاناً بِهِ ٱلْمَرْءُ ٱلْهَيُوْبَةَ يَنْطِقُ
فَإِنَّ جَمِيعَ ٱلنَّاسِ إِمَّا مُكَذِّبٌ ... يَقُوْلُ بِمَا يهْوَىٰ وَإِمَّا مُصَدِّقُ
يَقُولُونَ أَقْوَالاً وَلاَ يَفْهَمُونَهَا ... وَلَوْ قِيْلَ: هَاتُوْا حَقِّقُوْا لَمْ يُحَقِّقُوْا

فقالَ لهُ : لا بَعُدَ عنكَ الرُّشْدُ . وقيلَ : إِنَّه إِنَّما ٱستقبَلَه بِها في محلِّ عملِهِ ، وقيلَ : إِنَّ الأَبياتَ لأَبي الأَسودِ الدؤَليِّ يخاطِبُهُ بها[2] .

ومِن شعرِ حارثةَ وقد عذلَهُ مخارِقُ ٱبنُ صخرٍ قولُهُ [في « الأغاني » ٨/ ٤٣٠ مِنَ الطَّويلِ] :

غَدَا نَاصِحاً لَمْ يَأْلُ جُهْداً مُخَارِقٌ ... يَلُوْمُ عَلَىٰ شُرْبِ ٱلسُّلاَفِ ٱلْمُعَتَّقِ
فَقُلْتُ : أَبَا صَخْرٍ دَعِ ٱلنَّاسَ يَجْهَلُوْا ... وَدُوْنَكَهَا صَهْبَاءَ ذَاتَ تَأَلُّقِ
تَرَاهَا إِذَا مَا ٱلْمَاءُ خَالَطَ جِسْمَهَا ... تَخَايَلُ فِيْ كَفِّ ٱلْوَصِيْفِ ٱلْمُمَنْطَقِ
لَهَا أَرَجٌ كَالْمِسْكِ يُذْهِبُ رِيْحُهَا ... عَمَايَةَ حَاسِيْهَا بِحُسْنِ تَرَفُّقِ

---

(١) سُرَّقُ : نهرٌ من كوَرِ الأهواز .
(٢) في « ديوانه » (١٧٧) . والقصة في « معجم البلدان » (٣/ ٢١٤) .

وَكَمْ لائِمٍ فِيهَا بَصِيرٍ بِفَضْلِهَا رَمَتْـهُ بِسَهْـمٍ صَـائِـبٍ مُتَـزَلِّـقِ
يَعِيبُ عَلَيَّ ٱلشُّرْبَ وَٱلشُّرْبُ هَمُّهُ لِيُحْسَـبَ ذَا رَأْيٍ أَصِيـلٍ مُـوَفَّـقِ

وقولُهُ [في « الأغاني » ٨/ ٤٢٣ مِنَ الطَّويلِ] :

يَعِيبُ عَلَيَّ ٱلرَّاحَ مَنْ لَوْ يَذُوقُهَا لَجُنَّ بِهَا حَتَّىٰ يُغَيَّبَ فِيْ ٱلْقَبْرِ
فَدَعْهَا أَوِ ٱمْدَحْهَا فَإِنَّا نُحِبُّهَا صَرَاحاً كَمَا أَغْرَاكَ رَبُّكَ بِٱلْهَجْرِ
عَلامَ تَذُمُّ ٱلرَّاحَ وَٱلرَّاحُ كَٱسْمِهَا تُرِيْحُ ٱلْفَتَىٰ مِنْ هَمِّهِ آخِرَ ٱلدَّهْرِ
فَلُمْنِيْ فَإِنَّ ٱللَّوْمَ فِيْهَا يَزِيْدُنِيْ غَرَاماً بِهَا إِنَّ ٱلْمَلاَمَةَ قَدْ تُغْرِيْ
وَبِـٱللهِ أُولِـيْ صَـادِقَـاً لَـوْ شَـرِبْتَهَـا لأَقْصَرْتَ عَنْ عَذْلِيْ وَمِلْتَ إِلَىٰ عُذْرِيْ
وَإِنْ شِئْـتَ جَـرِّبْهَـا وَذُقْهَـا عَتِيقَـةً لَهَا أَرَجٌ كَٱلْمِسكِ مَحْمُوْدَةَ ٱلْخُبْرِ
فَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَخْلَعْ عِذَارَكَ فَٱلْحَنِيْ وَقُلْ لِيْ لَحَاكَ ٱللهُ مِنْ عَاجِزٍ غُمْرِ[1]
وَقَبْلَكَ مَا قَدْ لاَمَنِيْ فِيْ ٱصْطِبَاحِهَا وَفِيْ شُرْبِهَا بَدْرٌ فَأَعْرَضْتُ عَن بَدْرِ

وهُنا فوائدُ :

قوة الإيمان حتى عند الفساق

الأُولىٰ : تعرفُ ما عليهِ القومُ حتَّىٰ فُسَّاقُهُم مِن قوَّةِ الإيمانِ ، والبُعدِ عَنِ التصنُّعِ والرِّياءِ والملقِ ، وحسبكَ دليلاً عليهِ . . ما سبق مِن قولِ حارثةَ بنِ بدرٍ : لو شئتُ أَن أَتركَها . . لتَركتُها لمالكِ ضَرِّي ونَفْعي ، ومِن قولِ أَبي نُوَاسٍ [في « ديوانه » ٣٣٨ مِنَ الكاملِ] :

وَإِذَا جَلَستَ إِلَىٰ ٱلْمُدَامِ وَشُرْبِهَا فَٱجْعَلْ حَدِيْثَكَ كُلَّهُ فِيْ ٱلْكَاسِ
وَإِذَا نَزَعْتَ عَنِ ٱلْغِوَايَةِ فَلْيَكُنْ للهِ ذَاكَ ٱلنَّـــزْعُ لاَ لِلنَّـــاسِ

---

(١) فَٱلحني : لُمني . لحاكَ اللهُ : قبَّحكَ اللهُ .

وأدلُّ مِن ذلكَ علىٰ قوّةِ دينِهِ قولُهُ [في « ديوانه » ٥٢١ مِنَ الكاملِ] :

وَلَقَدْ نَهَزْتُ مَعَ ٱلْغُوَاةِ بِدَلْوِهِمْ   وَأَسَمْتُ سَرْحَ ٱللَّهْوِ حَيْثُ أَسَامُوا[١]

وَبَلَغْتُ مَا بَلَغَ ٱمْرُؤٌ بِشَبَابِهِ   فَإِذَا عُصَارَةُ كُلِّ ذَاكَ أَثَامُ[٢]

الثانيةُ : كنتُ أتوهَّمُ أَنَّ أَبا نُوَاسٍ هُوَ السابقُ إِلىٰ قولِهِ [في « ديوانه » ٢٧ مِنَ البسيطِ] :

دع عنك لومي

دَعْ عَنْكَ لَوْمِي فَإِنَّ ٱللَّوْمَ إِغْرَاءُ   وَدَاوِنِي بِٱلَّتِي كَانَتْ هِيَ ٱلدَّاءُ

.. حتّىٰ سمعتُ ما سبقَ مِن قولِ حارثةَ : (فَلُمْنِي فَإِنَّ ٱللَّوْمَ فِيهَا يَزِيدُنِي) . . . إلىٰ آخرِهِ .

رد المؤلف على من يطنب في وصف أبيات لابن الرومي

الثالثةُ : مَا زالوا يتواصفونَ مَعَ الإطنابِ قولَ ٱبنَ الروميِّ [في « ديوانه » ٢/ ٥٥٣ مِنَ الكاملِ] :

تَـاللهِ مَـا أَدْرِي بِـأَيَّـةِ عِلَّـةٍ   يَدْعُونَ هَـٰذَا ٱلرَّاحَ بِٱسْمِ ٱلرَّاحِ

أَلِرِيحِهَا وَلِرَوْحِهَا تَحْتَ ٱلْحَشَا   أَمْ لِارْتِيَـاحِ نَـدِيمِهَـا ٱلْمُـرْتَـاحِ

وإذا عادَ الإنسانُ إِلىٰ نفسِهِ ، وأنعمَ النظر . . وجَدَ فيها مِنَ الغثاثةِ ما لا تساوي معَهُ حبلاً مِن شَعْرٍ ، وَلا سيَّما مَا كانَ مِن قافيةِ البيتِ الثاني ، وأينَها مِن قولِ حارثةَ السابقِ : ؟ (عَلَامَ تَذُمُّ ٱلرَّاحَ وَٱلرَّاحُ كَٱسْمِهَا) . . . البيتُ ؟

أجمل ما قيل في رقة الخمر ورقة كؤوسها

الرابعةُ : لَم يعجبني شَيءٌ في وصفِ رِقّتِها ورقَّةِ كُؤُوسِهَا . . مثلُ قولِ البُحتريِّ [في « ديوانه » ١/ ٧ مِنَ الكاملِ] :

يُخْفِي ٱلزُّجَاجَةَ لَوْنُهَا فَكَأَنَّهَا   فِي ٱلْكَأْسِ قَائِمَةٌ بِغَيْرِ إِنَاءِ

---

(١) نهزت بدلوهم : ضربتُ بها لتمتلئَ . السرحُ : المالُ السائِمُ .

(٢) الأثامُ : الإثمُ والخطيئةُ .

وقولِ الناجمِ [مِنَ البسيطِ] :

وَقَهْوَةٍ كَشُعَاعِ ٱلشَّمْسِ صَافِيَةٍ   مِثْلَ ٱلسَّرَابِ تُرَىٰ مِنْ رِقَّةٍ شَبَحَا
إِذَا تَعَاطَيْتَهَا لَمْ تَدْرِ مِنْ لُطُفٍ   رَاحاً بِلاَ قَدَحٍ أُعْطِيْتَ أَمْ قَدَحَا

وقولِ الصاحبِ [في « ديوانهِ » ٧٦ مِنَ الكاملِ] :

رَقَّ ٱلزُّجَاجُ وَرَقَّتِ ٱلْخَمْرُ   وَتَشَابَهَا فَتَشَاكَلَ ٱلأَمْرُ
فَكَأَنَّمَا خَمْرٌ وَلاَ قَدَحٌ   وَكَأَنَّمَا قَدَحٌ وَلاَ خَمْرُ

وقولِ ٱبنِ الفَارضِ [في « ديوانهِ » ١٤٢ مِنَ الطَّويلِ] :

يقُوْلُوْنَ لِيْ: صِفْهَا فَأَنتَ بِوَصْفِهَا   خَبِيْرٌ أَجَلْ عِنْدِيْ بِأَوْصَافِهَا عِلْمُ
صَفَاءٌ وَلاَ مَاءٌ وَلُطْفٌ وَلاَ هَوَىٰ   وَنُوْرٌ وَلاَ نَارٌ وَرُوْحٌ وَلاَ جِسْمُ

ولع يزيد بن عبد الملك بقينتيه وتخلفه عن الجمعة بسبب حبهما

ولمَّا ٱستهتَرَ يزيدُ بنُ عبدِ الملكِ بقَيْنتيهِ[1] ، وتخلَّفَ عن الجمعةِ . . عذَلهُ أخوهُ مسلمةُ فٱرعوىٰ ، فبعثَتْ سلاَّمَةُ إلىٰ الأَحوصِ ليضعَ شعراً تغنِّي فيهِ ، فقالَ [الأَحوصُ في « ديوانهِ » ٥٣ـ٥٤ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا ٱلْعَيْشُ إِلاَّ مَا تَلَذُّ وَتَشْتَهِيْ   وَإِنْ لاَمَ فِيْهِ ذُوْ إِخَاءٍ وَفَنَّدَا
بَكَيْتُ ٱلصِّبَا جُهْدِيْ فَمَنْ شَاءَ لاَمَنِيْ   وَمَنْ شَاءَ آسَىٰ فِيْ ٱلْبُكَاءِ وَأَسعَدَا
وَإِنِّـيْ لأَهْـوَاهَـا وَأَهْـوَىٰ لِقَـاءَهَـا   كَمَا يشْتَهِيْ ٱلصَّادِيْ ٱلشَّرَابَ ٱلْمُبَرَّدَا
عَلاَمَةُ حُبٌّ لَجَّ فِيْ سَنَنِ ٱلصِّبَا   فَأَبْلَىٰ وَمَا يَزْدَادُ إِلاَّ تَجَدُّدَا

فلمَّا غنَّتْهُ بهِ . . طربَ ، وفحصَ برِجْلِهِ الأَرضَ ، وقالَ : صدقْتِ ، صدقْتِ ، فقبَّحَ اللهُ مسلمةَ وما جاء بهِ ، وعادَ إلىٰ غيِّهِ[2] .

(١) وهما : حبابة وسلاَّمَةُ .
(٢) « الأغاني » (١٥/ ١٢٩ـ١٣٢) .

وأَنكرَ ٱبنُ خلدونَ [كما في « مقدمته » ١٧] : ما ينسبُ إِلىٰ الرشيدِ مِن مُعَاقَرَةِ العُقَارِ(١) .

إنكار ابن خلدون ما ينسب إلى الرشيد من معاقرة العقار

وأَمَّا المأمونُ . . فإِنَّه مِنَ المشهورينَ بِها ، ولهُ فِيها أَخبارٌ .

المأمون من المشهورين بها وأخباره فيها

مِن ذلكَ : أَنَّهُ أَشارَ إِلىٰ رَجُلٍ بِٱلكأْسِ ، فقالَ ٱلرَّجلُ : يَا أَميرَ المؤمنينَ ، لم أَشربْها ناشِئاً ، فلاَ تسقِنيها شيخاً ، فردَّهُ إِلىٰ عمرِو بنِ مسعدةَ ، وقالَ : لقد آليتُ في جوفِ الكعبةِ أَن لا أَشربَها ، ففكَّرَ المأْمونُ طويلاً ثمَّ قالَ [كما في « ديوانِ أبي نواسٍ » ١٨٢ مِنَ الكاملِ] :

رُدَّا عَلَـيَّ ٱلكَـأْسَ إِنَّكُمَـا ... لاَ تَعْلَمَـانِ ٱلكَأْسُ مَا تُجْـدِيْ
لَوْ ذُقْتُمَا مَا ذُقْتُ مَا مُزِجَتْ ... إِلاَّ بِـدَمْعِكُمَـا مِـنَ ٱلْـوَجْـدِ
مَا مِثْـلُ نَعْمَـاهَـا إِذَا ٱشْتَمَلَتْ ... إِلاَّ ٱشْتِمَـالَ فَـمٍ عَلَـىٰ خَـدِّ
خَـوَّفْتُمَـانِـيْ ٱللهَ رَبَّكُمَـا ... وَكَخِيْفَتَيْـهِ رَجَـاؤُهُ عِنْـدِيْ
إِنْ كُنْتُمَـا لاَ تَشْـرَبَـانِ مَعِـيْ ... خَوْفَ ٱلْعِقَابِ شَرِبْتُهَا وَحْدِيْ

ومِنْها : أَنَّه شرِبَ ومعَهُ القاضي يحيىٰ بنُ أَكثَمَ وعبدُ اللهِ بنُ طاهرٍ ، فتواطَؤُوا علىٰ القاضي . . حتَّىٰ أَسكروهُ ، وعندَهُم رِزَمٌ مِن الورْدِ والريحَانِ دَفنُوهُ فيها ، وعملَ المأمونُ بيتَينِ ، ودَعا قَيْنَةً تُغَنِّي بِهِما علىٰ رأْسِ يحيىٰ وهُمَا [مِنَ ٱلبسيطِ] :

دَعَـوْتُـهُ وَهْـوَ حَـيٌّ لاَ حَيَاةَ بِـهِ ... مُكَفَّناً فِيْ ثِيَابٍ مِنْ رَيَاحِيْنِ
فَقُلْتُ: قُمْ، قَالَ: رِجْلِيْ لاَ تُطَاوِعُنِيْ ... فَقُلْتُ: خُذْ، قَالَ : كَفِّيْ لاَ تُوَاتِيْنِيْ

---

(١) العُقَارُ : الخمرُ ، وسُمِّيت بذلكَ لأَنَّها عقرتِ العقلَ ، والمعاقَرَةُ : إدمانُ الشربِ من الخمرِ .

فأنتبهَ يحيىٰ لصوتِها ولرنَّةِ العودِ ، وقالَ [مِنَ البسيطِ] :

يَـا سَيِّـدِيْ وَإِمَـامَ ٱلنَّـاسِ كُلِّهِـمِ ... قَدْ جَارَ فِيْ حُكْمِهِ مَنْ كَانَ يَسْقِيْنِيْ
لَقَدْ غَفَلْتُ عَنِ ٱلسَّاقِيْ فَصَيَّرَنِيْ ... كَمَا تَرَانِيْ سَلِيْبَ ٱلْعَقْلِ وَٱلدِّيْنِ
فَٱنْظُرْ لِنَفْسِكَ قَاضٍ إِنَّنِيْ رَجُلٌ ... اَلرَّاحُ تَقْتُلُنِيْ وَٱلرَّوحُ يُحْيِيْنِيْ

والسياقُ يقتضي : أَنَّ يحيىٰ لا يَتناولُ إلاَّ القدْرُ الذي لا يسكرُ ، وهُوَ موضِعُ الخِلافِ ، وإنَّما غَفَلَ تلكَ المرَّةِ . . حتَّىٰ وقعَ فيما وقعَ فيهِ ، فلاَ يَحُطُّ مِن قَدْرِهِ علىٰ جلالتِهِ .

الخلاف في يحيى بن أكثم

وقدِ ٱختُلِفَ فيهِ[1] ، فأَخرجَ لَهُ الترمذيُّ والبخاريُّ ـ في غيرِ « الصحيحِ » ـ وذُكِرَ لأَحمدَ ما يرميهِ بهِ الناسُ ، فقالَ [كما في « الأعلام » ١٣٨/٨] : سبحانَ اللهِ ، مَنْ يَقولُ هـٰذا ؟ وأَنكرَهُ إنكاراً شديداً ، وذكرَ : أَنَّهُ كانَ يُحسَدُ حَسداً شديداً ، وذُكِرَ عندَ القاضي إسماعيلَ بنِ إسحاقَ فَعظَّمَهُ ، وقالَ : كانَ لهُ يومٌ في الإسلامِ لم يَكُنْ لأَحدٍ مثلُهُ ، وذكرَ هـٰذا اليومَ ، وهُوَ الذي عارضَ المأمونَ فيهِ ؛ إذ نادىٰ بتحليلِ المِتعةِ ، وما زالَ بهِ حتَّىٰ أَقنعَهُ بحرمتِها ، فذكرَ رجلٌ ما يقالُ فيهِ ، فقالَ إسماعيلُ : معاذَ اللهِ أَنْ تَزولَ عدالَتُهُ بتكْذيبِ باغٍ وحاسدٍ .

قول يحيى عن نفسه

وكانَ يحيىٰ يقولُ : كنتُ قاضياً وأَميراً ووَزيراً ، وما ولجَ سَمْعي أَحلىٰ مِن قولِ المستمليِّ : رضيَ اللهُ عنك .

(١) أي : في يحيى بن أكثم القاضي ، فقيه صدوق إلا أنه رمي بسرقة الحديث ، ولم يقع ذلك له ، وإنما كان يرى الرواية بالإجازة والوجادة ، مات سنة : (٢٤٣ هـ) وله ثلاث وثمانون سنة ، ولم يذكر في « التقريب » روايته عند البخاري .

وحرَّمَ الخمرَ علىٰ نفسِهِ كثيرٌ مِن أَهلِ الجاهليَّةِ ؛ محافظةً علىٰ شرفِ العقلِ : تحريم بعض أهل الجاهلية الخمر على أنفسهم

مِنهم : عبدُ المطلِّبِ بنُ هاشمٍ ، وعبدُ اللهِ بنُ جدعانَ ، وقيسُ بنُ عاصمٍ ، وعامرُ بنُ الظِّربِ العدوانيُّ ، وورقةُ بنُ نوفلَ ، والوليدُ بنُ المغيرةَ ، وصفوانُ بنُ أُميَّةَ بنِ محرثٍ الكنانيُّ ، وعفيفُ بنُ معدِ يكربَ الكِنْديُّ ، والأَسلومُ بنُ نامي الهمذانيُّ ، ومقيسُ بنُ عديٍّ السهْمِيُّ ، وخلقٌ سواهُم .

وحضرَ نصيبٌ عندَ عبدِ الملكِ بنِ مروانَ . . فدعاهُ إِلىٰ الشرابِ فقالَ : إِنِّي لَم أَصِلْ إِليكَ بِنَفْسي وَلا بحسنِ صورَتي ، وإِنَّما قَرُبْتُ مِنكَ بِعَقْلِي ، فإِنْ رأَىٰ أَميرُ المؤمنينَ أَنْ لا يحولَ بيني وبينَهُ . . فَعَلَ . التقرب إلى السلطان بالعقل

وقالَ الوليدُ لِلْحجَّاجِ : هَلْ لَكَ في الشرابِ ؟ قالَ : يا أَميرَ المؤمنين ، ليسَ بحرامٍ ما أَحلَلْتَهُ ، ولٰكنِّي أَمنعُ أَهلَ عَمَلي مِنْهُ ، وأَخافُ أَن أُخالِفَ قولَ العبدِ الصالحِ : ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ [هود : ٨٨] فأَعفاهُ . الوليد و الحجاج

ومَرَّتْ أَعرابيَّةٌ بقومٍ يشربونَ نبيذاً ، فسقَوها ، فلمَّا شرِبَتْ أَقداحاً أَخذَتْهَا هزَّةٌ . . فقالَتْ : أَيشرَبُ نساؤُكم هٰذا ؟ قالوا : نَعم ، قالَتْ : إِذاً يزنِينَ ، فوَاللهِ ما يَدري أَحدُكم مَنْ أَبوهُ . أيشرب نساؤكم هذا؟!!

أَمَّا الناظمُ . . فقدِ اْعترفَ علىٰ نفسِهِ بشربِها فِي عدَّةِ مواضعَ مِن « ديوانِهِ » ، ولا مؤاخذَةَ عليهِ بِما جرىٰ فيهِ علىٰ طريقِ الشعراءِ مِن مدحِها ، كَما في البيتِ الذي بينَ أَيدينا ، وإِنَّما نُؤَاخذُهُ بما قالَهُ مِن صريحِ الإِقرارِ ، كقولِهِ [في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ٣٥١ مِنَ الوافرِ] : اعتراف المتنبي على نفسه بشربها

سَقَانِيَ ٱلْخَمْرَ قَوْلُكَ لِيْ بِحَقِّيْ وَوُدٌّ لَـمْ تَشُبْـهُ لِـيْ بِمَـذْقِ[1]

وقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٣٥٠ مِنَ المتقاربِ] :

وَقَـدْ مُـتُّ أَمْـسِ بِهَـا مَـوْتَـةً ومَـا يَشْتَهِيْ ٱلْمَـوْتَ مَـنْ ذَاقَـهُ

وقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٤/ ٤٦ ـ ٤٧ مِنَ الكاملِ] :

وَأَخٍ لنَـا بَعَـثَ ٱلطَّـلاَقَ أَلِيَّـةً لأُعَلِّلَـنَّ بِهَـٰـذِهِ ٱلْخُـرْطُـوْمِ[2]

فَجَعَلْـتُ رَدِّيْ عِـرْسَـهُ كَفَّـارَةً عَنْ شُرْبِهَا وَشَرِبْتُ غَيْرَ أَثِيْمِ

وقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٤/ ١١٨ مِنَ الكاملِ] :

وَإِذا طَلَبْتُ رِضَىٰ ٱلأَمِيْرِ بِشُرْبِهَا وَأَخَذْتُهَا فَلَقَدْ تركْتُ ٱلأَحْرَمَا

وقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ١٢ مِن مخلَّعِ البسيطِ] :

مَـالَ عَلَـيَّ ٱلشَّـرَابُ جِـدّاً وَأَنْـتَ بِـٱلْمَكْـرُمَـاتِ أَهْـدَىٰ

وقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ١٤٥ مِنَ الطَّويلِ] :

شَرِبْتُ عَلَىٰ ٱسْتِحْسَانِ ضَوْءِ جَبِيْنِهِ وَزَهْـرٍ تَـرَىٰ لِلْمَـاءِ فِيْـهِ خَـرِيْـرَا

وكثيراً ما ترَّفَ بِشُربِها مَمْدوحيهِ ، مِن ذلكَ **قولُهُ** عن سيفِ الدولةِ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ١٨٥ مِنَ الوافرِ] :

أَلاَ أَذِّنْ فَمَـا أَذْكَـرْتَ نَـاسِـيْ وَلاَ لَيَّنْـتَ قَلْبَـاً وَهْـوَ قَـاسِـيْ

وَلاَ شُغِلَ ٱلأَمِيْرُ عَنِ ٱلْمَعَالِيْ ولاَ عَـنْ ذِكْـرِ خَـالِقِـهِ بِكَـاسِ

---

(١) **بمذق** : أي بود غير خالص ، وأصل المذق : المزج .

(٢) **الخرطومُ** : من أسماءِ الخمرِ . **الأليَّةُ** : القَسَمُ . **العللُ** : السقيُ مرَّةً بعدَ أُخرىٰ .

وقولُهُ ـ أَيضاً عنهُ ـ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٣٠١ مِنَ الوافرِ] :

تَعَجَّبَتِ ٱلْمُدَامُ وَقَدْ حَسَاهَا ... فَلَمْ يَسْكَرْ وَجَادَ فَمَا أَفَاقَا

وقولُهُ لبدرِ بنِ عمَّارٍ [في « العُكبَريّ » ٢/ ١٤٠ مِنَ الكاملِ] :

فَخَرَ ٱلزُّجَاجُ بِأَنْ شَرِبْتَ بِهِ ... وَزَرَتْ عَلَىٰ مَنْ عَافَهَا ٱلْخَمْرُ

وقولُهُ عَن عضدِ الدولَةِ [في « العُكبَريّ » ٤/ ٢٧٦ مِنَ المنسرحِ] :

لاَ تَجِدُ ٱلْخَمْرُ فِيْ مَكَارِمِهِ ... إِذا ٱنْتَشَىٰ خَلَّةً تَلاَفَاهَا

أبو نواس والخمر

أَمَّا قولُ أَبي نُواسٍ [في « ديوانهِ » ٢٩٧ مِنَ الكاملِ] :

فِيْ مَجْلِسٍ ضَحِكَ ٱلسُّرُورُ بِهِ ... عَنْ نَاجِذَيْهِ وَحَلَّتِ ٱلْخَمْرُ

.. فيمكنُ أَن يكونَ جرىٰ فيهِ علىٰ خُبثِ مذهَبِهِ مِنِ ٱنتهاكِ الحرمَةِ ، وقلَّةِ المبالاةِ ، كما في قولِهِ [مِنَ البسيطِ] :

لاَ تَسْقِنِيْ ٱلدَّهْرَ أَمَّا كُنْتِ لِي سَكَناً ... إِلاَّ ٱلَّتِيْ نَصَّ بِٱلتَّحْرِيْمِ جِبْرِيْلُ

إِنْ كَانَ حَرَّمَهَا ٱلْفُرْقَانُ بَعْدُ فَقَدْ ... أَحَلَّهَا قَبْلُ تَوْرَاةٌ وَإِنْجِيْلُ

تحريم العرب الخمر على أنفسها حتى تأخذ بثأرها

ويُمكنُ أَنْ يكونَ جَرىٰ فيهِ علىٰ سُنَّةِ العربِ مِن تحريمِ الخمرِ علىٰ أَنفسِها إِذا وَتِرت حتَّىٰ تأْخذَ بثأْرِها ، قالَ شاعرُهم [مِنَ الكاملِ] :

ٱلْيَوْمَ حَلَّ لِيَ ٱلشَّرَابُ وَمَا ... كَانَ ٱلشَّرَابُ يَحِلُّ لِيْ قَبْلُ

وقالَ قيسُ بنُ الخطيمِ [في « ديوانه » ٤٤ـ٤٦ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمِنَّا ٱلَّذِيْ آلَىٰ ثَلاَثِيْنَ حِجَّةً ... عَنِ ٱلْخَمْرِ حَتَّىٰ زَارَكُمْ بِٱلْكَتَائِبِ

وَلَمَّا هَبَطْنَا ٱلسَّهْلَ قَالَ أَمِيْرُنَا ... حَرَامٌ عَلَيْنَا ٱلْخَمْرُ مَا لَمْ نُضَارِبِ

وقالَ البُحْتريُّ [في « ديوانهِ » ٢/١٠٤٨ مِنَ الطَّويلِ] :

حَـرامٌ عَلَـيَّ ٱلـرَّاحُ بَعْـدَكَ أَوْ أَرَىٰ دَماً بِدَمٍ يَجْرِيْ عَلَىٰ ٱلأَرْضِ مَائِرُهْ[1]

تحريم إدارة القهوة على نحو ما تدار الخمر

وأَفتىٰ ٱبنُ حجرِ الهيتميُّ : تَبعاً لجماعَةٍ مِن علماءِ (اليمنِ) ، بحرمَةِ إِدارَةِ القهوةِ علىٰ نحوِ ما تدارُ الخمرُ بينَ الشَّرَبَةِ .

غيرَ أَنَّهُ قالَ بعدُ : لَم يتحرَّرْ عندَنا في تلكَ العادَةِ المخصوصةِ بِهِم ما يقتَضي التشابُهَ بينَها وبينَ ما يفعَلُهُ الناسُ في القهوَةِ ، ويأْتي بعضُ ما يتعلَّقُ بالشاي في شرحِ قولِهِ [في « العُكبَريّ » ٢/١٨٦ مِنَ البسيطِ] :

وَلاَ وَقَفْـتُ بِجِسْـمٍ مُسْـيَ ثَـالِثَـةٍ ذِيْ أَرْسُمٍ دُرُسٍ فِيْ ٱلأَرْبَعِ ٱلدُّرُسِ[2]

* * *

---

(١) مَارَ : جرىٰ .

(٢) المسيُ : هوَ المساءُ . الرسْمُ : الأثرُ . الدرُسُ : جمعُ دارسٍ .

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَريِّ » ١/ ٣١٨ مِنَ الخفيفِ] :

شَيْبُ رَأْسِيْ وَذِلَّتِي وَنُحُوْلِي	وَدُمُوْعِي عَلَىٰ هَوَاكَ شُهُوْدِيْ ؟!

شهود الحب كُثُر

هُوَ مِن قولِ أَبي عُبادةَ [في « ديوانِهِ » ٤/ ٢٢٥٢ مِنَ الكاملِ] :

أَوَمَا كَفَاكَ بِدَمْعِ عَيْنِيْ شَاهِداً بِصَبَابَتِيْ ومُخَبِّراً عَنْ شَانِيْ ؟!

وقولِهِ [في « ديوانِهِ » ٣/ ١٥٠٤ مِنَ الطَّويلِ] :

وَأَبْثَثْتُهَا شَكْوَىٰ أَبَانَتْ عَنِ الْجَوَىٰ وَدَمْعاً مَتَىٰ يَشْهَدْ بِبَتٍّ يُصَدَّقِ

وقولِهِ [في « ديوانِهِ » ١/ ٧٢ مِنَ الكاملِ] :

سَأُعِدُّ مَا أَلْقَىٰ فَإِنْ كَذَّبْتِنِيْ فَسَلِيْ الدُّمُوْعَ فَإِنَّهَا لاَ تَكْذِبُ

وقالَ أَبو تمَّامٍ [مِن مخلَّعِ البسيطِ] :

أَلَيْسَ دَمْعِيْ وَفَرْطُ شَوْقِيْ وَطُوْلُ سُقْمِيْ شُهُوْدَ حُبِّيْ ؟

هل تقبل شهادة الدموع؟

ثمَّ كيفَ تُقبَلُ شهادَةُ الدمعِ معَ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴾ [يوسف : ١٦] ؟!

وأَخرجَ ابنُ المنذرِ عنِ الشعبيِّ قالَ : جاءَتِ امرأَةٌ إِلىٰ شُرَيحٍ تخاصِمُ في شيءٍ ، فجعَلَت تبْكِي ، فقَالوا : يَا أَبا أُميَّةَ ، أَما تَراها تبكي ؟ قالَ : قَد جاءَ إِخوَةُ يوسفَ أَباهُم عشاءً يبكونَ .

وقالَ الأَعمشُ : لا يصدَّقُ باكٍ بعدَ إِخوانِ يوسفَ .

وقد يجابُ بأَنَّ بُكاءَهُم كانَ ليلاً مِن غيرِ دمعٍ ، ولَو جاؤُوا

بالعَشيِّ . . لافتُضِحوا ، وإنَّما ٱعتمدوا الليلَ لِيُمَوِّهوا علىٰ أبيهِم بِتِلكَ الحيلَةِ التي لم تنطلِ عليهِ ، ولم يصدِّقْهُم فيها .

وقد قالَ الناظمُ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٣٩٤ مِنَ الوافرِ] :

إِذَا ٱشْتَبَكَتْ دُمُوْعٌ فِيْ خُدُوْدٍ تَبَيَّـنَ مَـنْ بَكَـىٰ مِمَّـنْ تَبَـاكَـىٰ

غيرَ أنَّهُ يأْتي إِشكالٌ آخرُ بِما جاءَ في الأثَرِ ـ أَوِ الخَبَرِ ـ مِن أنَّهُ : « إذا تَمَّ فُجُوْرُ ٱلْمَرْءِ . . بَدَرَتْ دمْعَتُهُ »[١] .

التعنت في الحب

وقد قالَ سِبطُ ٱبنِ التعاويذيِّ يمدَحُ الوزير عونَ الدينِ يحيىٰ بنَ هبيرةَ [في « ديوانه » ٣٤٤ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا قُلْتُ : قَدْ أَنْحَلْتِ جِسْمِيْ صَبَابَةً تَقُـوْلُ: وَهَـلْ حُـبٌّ بِغَيـرِ نُحُـوْلِ

وَإِنْ قُلْتُ: دَمْعِي بِٱلأَسَىٰ فِيْكَ شاهِدٌ تَقُـوْلُ: شُهُـوْدُ ٱلـدَّمْعِ غَيْرُ عُـدُوْلِ

ارحم شبابك من عدو . . ترحم

وقالَ الناظمُ [في « العُكبَريِّ » ٤/ ١٢٥ مِنَ الكاملِ] :

لاَ يَخْـدَعَنَّـكَ مِـنْ عَـدُوٍّ دَمْعُـهُ وَٱرْحَمْ شَبَابَكَ مِنْ عَدُوٍّ تُرْحَمِ

تعليق المؤلف على الحديث

ويُجابُ أَوَّلاً : بِأَنْ لاَ أَصْلَ لِلخَبَرِ ، كَما في « فتاوىٰ الجمالِ الرمْلِيِّ » .

تعليقه على المتنبي

وثانياً : بِأَنَّ الناظمَ لَمْ يكتفِ بالدمعِ وحدَهُ حتَّىٰ ضمَّهُ إِلىٰ الذِّلَّةِ والنحولِ ، وفي ٱجتماعِها ما يكفِي لِلْحُجَّةِ ، وقد قالوا : لا يُحتَجُّ بِمَراسيلِ كبارِ التابعينَ . . حتَّىٰ تنعَضِدَ بضعيفٍ ، أو قياسٍ ، أو

---

(١) أورده في « كنز العمال » (٨٤٧) عن عقبة بن عامر بلفظ : « إذا تم فجور العبد . . ملك عينيه ، فبكىٰ منهما متىٰ شاء » . وعزاه لابن عدي في « الكامل » .

عملٍ ، أَوْ مرسَلٍ ، فيكونُ المجموعُ حُجَّةً عندَ الشافعيِّ ، لا مجرَّدُ المرسَلِ ، وَلا العاضِدِ ، وهٰذا نظيرُهُ .

ومِنْ لَطيفِ شعرِ أَبي الشِّيصِ الخزاعيِّ [في « ديوانهِ » ٢٤ـ٢٥ مِنَ دموع الحب الوافر] :

وَقَـائِلَـةٍ وَقَـدْ بَصُـرَتْ بِـدَمْـعٍ ... عَلَىٰ ٱلْخَدَّيْنِ مُنْحَدِرٍ سَكُوْبِ
أَتَكْذِبُ فِيْ ٱلْبُكَاءِ وَأَنْتَ خِلْوٌ؟! ... قَدِيماً مَا جَسَرْتَ عَلَىٰ ٱلذُّنُوْبِ
قَمِيْصُكَ وَٱلدُّمُوْعُ تَجُوْلُ فِيْهِ ... وَقَلْبُكَ لَيْسَ بِٱلْقَلْبِ ٱلْكَئِيْبِ
نَظِيْرُ قَمِيْصِ يُوْسُفَ حِيْنَ جَاؤُوْا ... عَلَـىٰ لَبَّـاتِـهِ بِـدَمٍ كَـذُوْبِ[1]
فَقُلْتُ لَهَا : فِدَاكِ أَبِيْ وَأُمِّيْ ... رَجَمْتِ بِسُوْءِ ظَنِّكِ فِيْ ٱلْغُيُوْبِ
أَمَـا وَٱللهِ لَـوْ فَتَّشْـتِ قَلْبِـيْ ... لَسَـرَّكِ بِـالْعَـوِيْـلِ وَبِـٱلنَّحِيْـبِ
دُمُـوْعُ ٱلْعَـاشِقِيْـنَ إِذَا تَـلاَقَـوْا ... بِظَهْـرِ ٱلْغَيْـبِ أَلْسِنَـةُ ٱلْقُلُـوْبِ

وقالَ جميلُ بنُ مَعْمَرٍ [في « ديوانه » ٦٢ مِنَ الطَّويلِ] :

خَلِيْلَيَّ مَا أُخْفِيْ مِنَ ٱلْوَجْدِ بَاطِنٌ ... وَدَمْعِيْ بِمَا قُلْتُ ٱلْغَدَاةَ شَهِيْدُ

وقالَ قيسُ ٱبنُ ٱلملوَّحِ [في « ديوانهِ » ٧٩ـ٨٠ مِنَ الطَّويلِ] :

وَشاهِدُ وَجْدِيْ دَمْعُ عَيْنِيْ وَحُبُّهَا ... بَرَىٰ ٱللَّحْمَ عَنْ أَحْنَاءِ عَظْمِيْ وَمَنْكِبِيْ[2]
أَلاَ إِنَّمَـا غَـادَرْتِ يَـا أُمَّ مَـالِـكٍ ... صَدَىً أَيْنَمَا تَذْهَبْ بِهِ ٱلرِّيْحُ يَذْهَبِ

وقالَ [في « ديوانهِ » ٢٩٤ مِنَ الطَّويلِ] :

فَإِنَّ ٱلَّذِيْ أَمَّلْتُ مِنْ أُمِّ مَالِكٍ ... أَشَابَ قَذَالِيْ وَٱسْتَهَامَ فُؤَادِيَا[3]

---

(١) اللَّبَّةُ : موضعُ المَنْحَرِ .
(٢) أَحناءُ الجسمِ : أَطرافُهُ ونواحيهِ .
(٣) القذالُ : جماعُ مؤخَّرِ الرأسِ .

وقالَ [في «ديوانه» ٢٩٨ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا مَا شَكَوْتُ ٱلْحُبَّ قَالَتْ: كَذَبْتَنِيْ فَمَا لِيْ أَرَىٰ ٱلأَعْضَاءَ مِنْكَ كَوَاسِيَا
فَلاَ حُبَّ حَتَّىٰ يَلْصَقَ ٱلْجِلْدُ بِٱلْحَشَا وَتَخْرَسَ حَتَّىٰ لاَ تُجِيْبَ ٱلْمُنَادِيَا

وقالَ ديكُ الجنِّ [في «ديوانه» ١٨٣ مِنَ الطَّويلِ] :

زَعَمْتُمْ بِأَنِّيْ قَدْ سَلَوْتُ وِصَالَكُمْ فَلِمْ ذَرَفَتْ عَيْنِيْ؟ وَلِمْ شَابَ مَفْرِقِيْ؟

وقالَ [في «ديوانه» ٧٩٣ مِنَ الكاملِ] :

سِمَةُ ٱلصَّبَابَةِ زَفْرَةٌ أَوْ عَبْرَةٌ مُتَكَفِّلٌ بِهِمَا حَشاً وَشُؤُوْنُ[1]

وقالَ خالدٌ ٱلكاتبُ [مِنَ البسيطِ] :

مَا زِلْتُ أُنْكِرُ مَا أَلْقَىٰ وَأَجْحَدُهُ فَٱسْتَشْهَدَ ٱلْعَاذِلُوْنَ ٱلدَّمْعَ وَٱلنَّفَسَا

وقالَ آخرُ [مِنَ الكاملِ] :

لِيْ فِيْ مَحَبَّتِهِ شُهُوْدٌ أَرْبَعُ وَشُهُوْدُ كُلِّ قَضِيَّةٍ إِثْنَانِ
خَفَقَانُ قَلْبٍ وَٱضْطِرَابُ جَوَارِحٍ وَنُحُوْلُ جِسْمٍ وَٱعْتِقَالُ لِسَانِ

وقالَ ٱبنُ جابرٍ [مِنَ الطَّويلِ] :

أَرَادَتْ عَلَىٰ دَعْوَىٰ ٱلْمَحَبَّةِ شَاهِداً فَقُلْتُ لَهَا: هَـٰذِيْ دُمُوْعِيَ فَٱسْأَلِيْ

وقالَ كُثيِّرٌ [في «ديوانه» ٤٣٧ مِنَ الطَّويلِ] :

أَقُوْلُ لِدَمْعِ ٱلْعَيْنِ أَمْعِنْ لأَنَّهُ بِمَا لاَ يَرَىٰ مِنْ غَائِبِ ٱلْحُزْنِ يَشْهَدُ

وقالَ غيرُهُ [مِنَ الكاملِ] :

خَبَرِيْ خُذُوْهُ عَنِ ٱلضَّنَا وَعَنِ ٱلأَسَىٰ لَيْسَ ٱللِّسَانُ وَإِنْ تَلِفْتُ بِمُخْبِرِ

---

(١) الشؤونُ : مجرىٰ الدمع .

قلة الدمع.. من شدة الوله وجور الصبابة

وجاءَ : أَنَّ قِلَّةَ الدمعِ قد تكونُ من شدَّةِ الوَلَهِ وجَورِ الصبابةِ ، ولا يبعدُ أَن يكونَ منهُ قولُ عائِشةَ [كما في حديث الإفك عند « البخاري » ٢٦٦١] : فقَلَصَ دمْعي حتَّىٰ ما أُحِسُّ منهُ قطرةً .

ومنهُ ما يعزىٰ إِلىٰ يزيدَ [في « ديوانهِ » ٥٧ مِنَ البسيطِ] :

لا تَرْحَلَنَّ فَمَا أَبْقَيْتَ مِنْ جَلَدِيْ ... مَا أَسْتَطِيْعُ بِهِ تَوْدِيْعَ مُرْتَحِلِ
وَلاَ مِنَ ٱلنَّوْمِ مَا أَلْقَىٰ ٱلْخَيَالَ بِهِ ... وَلاَ مِنَ ٱلدَّمعِ مَا أَبْكِيْ عَلَىٰ ٱلطَّلَلِ

وقولُ بعضِهِم [في « ديوانِ أَبي حيَّةَ النميريِّ » ١٤٧ مِنَ الطَّويلِ] :

فَلاَ مُقْلَتِيْ مِنْ غَابِرِ ٱلْمَاءِ تَنْجَلِيْ ... وَلاَ دَمْعَتِيْ مِنْ مَكْمَدِ ٱلْوَجْدِ تَقْطُرُ

وهٰذا البيتُ ، ثالثُ بيتينِ لأَبي حيَّةَ النميريِّ مِن خالصِ القولِ ، وهما [في « ديوانهِ » ١٤٧ مِنَ الطَّويلِ] :

نَظَرْت كَأَنِّيْ مِنْ وَرَاءِ زُجَاجَةٍ ... إِلَىٰ ٱلدَّارِ مِنْ فَرْطِ ٱلصَّبَابَةِ أَنْظُرُ
بِعَيْنَيْنِ طَوْراً يَغْرَقَانِ مِنَ ٱلْبُكَا ... فَأَعْشَىٰ وَطَوْراً يُحْسَرَانِ فَأُبْصِرُ

وهو مثلُ قولِ ذي الرُّمَّةِ [في « ديوانهِ » ١/ ٤٦٠ مِنَ الطَّويلِ] :

وَإِنْسَانُ عَيْنِيْ يَحْسِرُ ٱلْمَاءَ تَارَةً ... فَيَبْدُوْ وَأَحْيَاناً يَجُمُّ فَيَغْرَقُ(١)

وقالَ العبَّاسُ بنُ الأَحنفِ [في « ديوانهِ » ١١٦ مِنَ الكاملِ] :

نَزَفَ ٱلْبُكَاءُ دُمُوْعَ عَيْنِكَ فَٱسْتَعِرْ ... عَيْنَاً لِغَيْـرِكَ دمْعُهَـا مِـدْرَارُ

وقالَ الأَبلَهُ [مِنَ الكاملِ] :

قَـدْ كُنْـتُ ذَا دَمْـعٍ وَذَا جَلَـدٍ ... فَبَقِيْـتُ لاَ جَلَـداً وَلاَ دَمْعَـا

---

(١) يجمُّ : يكثرُ ويجتمعُ .

وقالَ ٱبنُ الفارِضِ [مِنَ الرَّمَلِ] :

ذَابَتِ ٱلرُّوْحُ ٱشْتِياقاً فَهِيَ بَعْـ ـدَ نَفَادِ ٱلدَّمعِ أَجْرَىٰ عَبْرَتَيْ
فَهَبُـوْ عَيْنَـيَّ مَـا أَجْـدَىٰ ٱلْبُكَـا عَيْـنَ مَـاءٍ فهِـيَ إِحْـدَىٰ مُنْيَتَـيْ

وقالَ بعضُهُم [مِنَ الطَّويلِ] :

الإشارات والكناية في الحب

وَقَـائِلَـةٍ : مَـا بَـالُ دَمْعِـكَ أَخْضَـراً فَقُلْتُ لَهَا : هَلْ تَفْهَمِيْنَ إِشَارَتِيْ ؟
أَلَمْ تَعْلَمِيْ أَنَّ ٱلدُّمُوْعَ تَجَفَّفَتْ فَأَجْرَيْتُهَا يَا مُنْيَتِيْ مِنْ مَرَارَتِيْ

وَلا يخفىٰ ما في هـٰذينِ مِنَ ٱلانحطاطِ ، ولـٰكنْ قد يقبلُ قولُ الآخَرِ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَقَائِلَةٍ : مَا بَالُ دَمْعِكَ أَسْوَداً وَقَدْ كَانَ مُحْمَرّاً وَأَنْتَ نَحِيْلُ ؟
فَقُلْتُ لَهَا : إِنَّ ٱلدُّمُوْعَ تَصَرَّمَتْ وَهَـٰذَا سَوَادُ ٱلْعَيْنِ فَهُوَ يَسِيْلُ

أجمل ما قيل في الدموع

وأَمَّا ٱلَّذي تُعقَدُ الخَناصِرُ عَلَيهِ . . فإنَّما هُوَ قولُهُ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَقَـائِلَـةٍ : مـا بَـالُ دَمْعِـكَ أَبْيَضـاً؟ فَقُلتُ لَهَا : يَا عُلْوُ هَـٰذَا ٱلَّذِيْ بَقِيْ
أَلَـمْ تَعْلَمِـيْ أَنَّ ٱلْبُكَـا طَـالَ عُمْـرُهُ فَشَابَتْ دُمُوْعِيْ مِثْلَ مَا شَابَ مَفْرِقِيْ
وَعَمَّا قَلِيْلٍ لاَ دُمُوْعِيْ وَلاَ دَمِيْ تَرَيْنَ وَلَـٰكِنْ لَوْعَتِيْ وَتَحَرُّقِيْ

وقولُ ٱبنِ الخيَّاطِ [في « ديوانهِ » ٤٤ مِنَ الطَّويلِ] :

وَكُنْتُ إِذا مَا ٱشْتَقْتُ عَوَّلْتُ فِيْ ٱلْبُكَا عَلَـىٰ لُجَّـةٍ إِنسَـانُ عَيْنِـيْ غَـرِيْقُهَـا
فَلَمْ يَبْقَ مِنْ ذَا ٱلدَّمعِ إِلاَّ نَشِيْجُهُ وَمِنْ كَبِدِ ٱلْمُشْتَاقِ إِلاَّ خُفُوْقُهَا
فَيَا لَيْتَنِي أَبْقَىٰ لِيَ ٱلدَّهْرُ عَبْرَةً فَأَقْضِيْ بِهَا حَقَّ ٱلنَّوَىٰ وأُرِيْقُهَا

وقالَ ٱبنُ ٱللَّبَّانَةِ [في « نفح الطيب » ٤/٢٥٨ مِنَ الطَّويلِ] :

بَكَيْتُكِ حَتَّىٰ لَمْ يُخَلِّ لِيَ ٱلأَسَىٰ دُمُوْعاً بِهَا أَبْكِي عَلَيْكِ وَلاَ دَمَا

ومِن محاسِنِ ٱلباروديِّ [في « ديوانه » ٤٩ مِنَ الوافرِ] :

فَزِعْتُ إِلىٰ ٱلدُّمُوْعِ فَلَمْ تُجِبْنِيْ ... وَفَقْدُ ٱلدَّمْعِ عِنْدَ ٱلْحُزْنِ دَاءُ
وَمَا قَصَّرْتُ فِي جَزَعٍ ولٰكِنْ ... إِذا غَلَبَ ٱلأَسَىٰ ذَهَبَ ٱلْبُكَاءُ

ويأتي عند ذكرِ بكاءِ الحمامِ بعضُ ما يتَّصِلُ بهِ .

وقالَ الناظمُ [في « العُكبَريِّ » ١/ ٥٤ مِنَ الطَّويلِ] :

وَرُبَّ كَئِيْبٍ لَيسَ تَنْدَىٰ جُفُوْنُهُ ... وَرُبَّ كَثِيْرِ ٱلدَّمْعِ غَيْرُ كَئِيْبِ

وقالَ القطبُ الحدَّادُ [في «ديوانه» (١٥٦) مِنَ الطَّويلِ] :

أجود بدمعي والدموع على الخد

أَجُوْدُ بِدَمْعِي وَٱلدُّمُوعُ عَلَىٰ ٱلْخَدِّ ... شُهُوْدٌ عَلَىٰ ٱلأَشْوَاقِ وَٱلْحُزْنِ وَٱلْوَجْدِ
أُحِسُّ بِقَلْبِـيْ حَسْـرَةً وَكَـآبَـةً ... لِمَا نَالَنِيْ مِنْ وَحْشَةِ ٱلْبَيْنِ وَٱلصَّدِّ
إِذَا رُمْتُ مِنْ نَجْدٍ دُنُوّاً تَزَاحَمَتْ ... عَلَيَّ أُمُوْرٌ تَقْتَضِيْ ٱلْبُعْدَ عَنْ نَجْدِ
وَعَنْ جِيْرَةِ ٱلْحَيِّ ٱلأُولَىٰ حَلَّ حُبُّهُمْ ... فُؤَادِيْ فَأَلْهَانِيْ عَنِ ٱلْقَبْلِ وَٱلْبَعْدِ
مَحَبَّتُهُـمْ دِيْنِـيْ وَفَـرْضِـيْ وَسُنَّتِـيْ ... وَعُرْوَتِيَ ٱلْوُثْقَىٰ وَأَفْضَلُ مَا عِنْدِيْ
وَمَهْمَا سَرَتْ لِيْ نَسْمَةٌ مِنْ رُبُوعِهِمْ ... يُخَالِطُهَا عَرْفُ ٱلْبَشَامَاتِ وَٱلرَّنْدِ[1]
وَرِيْحُ ٱلْخُزَامَىٰ وَٱلأَرَاكِ يُهِيْجُ لِيْ ... شُجُـوْنِـيَ حَتَّـىٰ لاَ أُعِيْـدُ وَلاَ أُبْـدِيْ
فَمَا حِيْلَتِيْ وَٱلْعُمْرُ وَلَّىٰ وَلَمْ أَنَلْ ... لِقَاهُمْ وَمَا لِلْعُمْرِ إِنْ فَاتَ مِنْ رَدِّ
وَإِنِّـيْ مُقِيْـمٌ فِـيْ مَـوَاطِـنِ غُـرْبَـةٍ ... عَلَىٰ كَثْرَةِ ٱلأُلاَّفِ فِيْ جَانِبٍ وَحْدِيْ
قَـرِيْـبٌ بَعِيْـدٌ بَـائِـنٌ غَيْـرُ بَـائِـنٍ ... وَحِيْدٌ فَرِيْدٌ فِيْ طَرِيْقِيْ وَفِيْ قَصْدِيْ
أُمُوْرٌ وَأَحْوَالٌ تَعِنُّ وَلَمْ أَجِدْ ... عَلَيْهَا مُعِيْناً وَهْيَ تَقْعُدُ بِٱلْفَرْدِ

---

(١) البشاماتُ : شجرٌ عَطِرُ الرائحةِ ، وَرَقُهُ يسوِّدُ الشَّعرَ ، ويُستاكُ بقضُبهِ . الرَّنْدُ : عودٌ لطيفٌ ، طيِّبُ الرائحةِ .

وهٰذهِ الأبياتُ وإن لَم تتَّصِلْ كُلُّها بِالموضوعِ.. فإنَّ رقَّتَها وانسجامَهَا، ووخزها للأكبادِ، وتحريكَها للأشجانِ، وصدورَها عَن قلبٍ وامِقٍ، وحبٍّ صادِقٍ، كلُّ ذلكَ.. هزَّ البنانَ، وأطلقَ العنانَ، ويعجبني فيما يتَّصِلُ بِالموضوعِ قولُه ـ أيضاً ـ [في «ديوانه» (٣٩٩) مِنَ الطَّويلِ]:

سَأَبْكِي عَلَيْهِمْ مَا حَيِيْتُ بِعَبْرَةٍ لَهَا مَدْمَعٌ فِيْ الْخَدِّ تَشْهَدُ بِالثُّكْلِ

وقد سبقَ قبيلَ شرحِ قولِهِ: (فَثِبْ وَاثِقاً بِاللهِ وَثْبَةَ مَاجِدِ).

وفي شرحِ قولِهِ [في «العُكبَريّ» ٣/١٦٣ من البسيط]:

وَالْوَجْدُ يَقْوَىٰ كَمَا يَقْوَىٰ النَّوَىٰ أَبَداً وَالصَّبْرُ يَنْحَلُ فِيْ جِسْمِيْ كَمَا نَحِلاَ

البكاء من خشية الله مطلوب

.. بعضُ ما يتعلَّقُ بالبُكاءِ، وهو مِن خشيةِ اللهِ مطلوبٌ، وما لا يتجاوزُ الدمعَ غيرُ محظورٍ مطلقاً، ولٰكنْ قالَ ابنُ الفارضِ [مِنَ الطَّويلِ]:

وَيَحْسُنُ إِظْهَارُ التَّجَلُّدِ لِلْعِدَا وَيَقْبُحُ غَيْرُ الْعَجْزِ عِنْدَ الأَحِبَّةِ

وقالَ الناظمُ [في «العُكبَريّ» ٢/٢٦٨-٢٦٩ مِنَ الكاملِ]:

اَلْحُزْنُ يُقْلِقُ وَالتَّجَمُّلُ يَرْدَعُ وَالدَّمْعُ بَيْنَهُمَا عَصِيٌّ طَيِّعُ
إِنِّيْ لأَجْبُنُ مِنْ فِرَاقِ أَحِبَّتِيْ وَتُحِسُّ نَفْسِيْ بِالْحِمَامِ فَأَشْجُعُ
وَيَزِيْدُنِيْ غَضَبُ الأَعَادِيْ قَسْوَةً وَيُلِمُّ بِيْ عَتْبُ الصَّدِيْقِ فَأَجْزَعُ

وقالَ أبو تمَّامٍ [في «ديوانِهِ» ١/٢٩٠ مِنَ الطَّويلِ]:

جَلِيْدٌ عَلَىٰ عَتْبِ الْخُطُوْبِ إذا عَرَتْ وَلَسْتُ عَلَىٰ عَتْبِ الأَخِلاَّءِ بِالْجَلْدِ

ثمَّ إنَّ في البيتِ الذي نتكلَّمُ عليهِ . . إشارةً إلىٰ أنَّ الذي شَيَّبهُ هُو الهوىٰ ، ومثلُهُ لاَ يُحصىٰ كثرةً في أشعارِ الناسِ . أسباب الشيب كثيرة

أَمَّا سيِّدُ البشَرِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ . . فقد قالَ : « **شَيَّبَتْنِي هُوْدٌ وَأَخَوَاتُهَا** »(١) .

وأمَّا عبدُ الملكِ بنُ مروانَ فقالَ [في « الكامل » ٢٣٩/٤] : شيَّبَني ٱرْتقاءُ المنابرِ ، وٱتِّقاءُ ٱللَّحْنِ .

وأمَّا البُحتريُّ : فقد أَهانَ نفسَهُ ؛ إذِ ٱعترفَ بأَنَّ شيبَهُ مِن كثرةِ السؤَالِ في قولِهِ [في « ديوانه » ٢٠٩٤/٤ مِنَ الطَّويلِ] :

وَشَيَّبَنِـي أَنْ لاَ أَزَالُ مُجَـدِّداً ... سَـرَابِيْـلَ تَسْـآلٍ كَثِيْـرَ ٱلْمَغَـارِمِ

وكلٌّ ذلكَ داخلٌ تحتَ قولِ الناظمِ [في « العُكبَريّ » ١٢٤/٤ مِنَ الكاملِ] :

وَٱلْهَمُّ يَخْتَرِمُ ٱلْجَسِيْمَ نَحَافَةً ... وَيُشِيْبُ نَاصِيَةَ ٱلصَّبِيِّ وَيُهْرِمُ

وزعمَ بعضُ الأقدمينَ : أَنَّ الذي شيَّبَهُ ٱلطِّيْبُ فقالَ :

إِنَّمَـــا شَيَّبَنِـــيْ ٱلطِّيْـ ... ـــبُ وَأَنْفَـاسُ ٱلْغَـوَانِـيْ
وَٱهْتِمَـامِــيْ بِنَــزِيْـلٍ ... أَوْ بِضَيْـــفٍ أَوْ بِعَـــانِ(٢)
قَصُـرَتْ عَــنْ جَـانِـبِ ٱلْحَـ ... ـــقِّ لَـــهُ مِنِّـيْ ٱلْيَـدَانِ

---

(١) أخرجه عن عقبة بن عامر الطبراني في « المعجم الكبير » (١٤٨/٦) ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما رواه الترمذي (٣٢٩٣) في التفسير ، وقال : غريب . وأورده العجلوني في « كشف الخفاء » (١٥٧٢) وسرد أقوال أهل العلم فيه .

(٢) العاني : الأسيرُ .

وقالَ الآخرُ [مِنَ الطَّويلِ] :

جَلاَ ٱلأَذْفَرُ ٱلأَحْوَىٰ مِنَ ٱلطِّيْبِ فَرْقَهُ وَطِيْبِ ٱلدِّهَانِ رَأْسَهُ فَهْوَ أَنْزَعُ[1]

أكثـر العـرب علـى أن الشيب من الوقائع

وأَكثرُ العَربِ . . تزعُمُ الشيبَ مِنَ الأَهوالِ والوقائعِ ، وقالَ شاعرُهُم [كما في « شذرات الذهب » ١/١١٨ مِنَ الطَّويلِ] :

فَمَا شَابَ رَأْسِيْ مِنْ سِنِيْنَ تَتَابَعَتْ عَلَـيَّ وَلَـٰكِـنْ شَيَّبَتْنِـيْ ٱلْـوَقَـائِـعُ

وقالَ الرضيُّ [في « ديوانه » ٩٨٢ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا شِبْتُ مِنْ طُوْلِ ٱلسِّنِيْنِ وَإِنَّمَا غُبَارُ حُرُوْبِ ٱلدَّهْرِ غَطَّىٰ سَوَادِيَا

وقد قالَ عزَّ ٱسمُهُ : ﴿ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا * ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ﴾ [المزمّل : ١٧ـ١٨] . ولِلشَّيبِ وما يتعلَّقُ بهِ غيرُ هـٰذا المكانِ .

* * *

(١) الأذفَرُ : النتنُ الرائِحةِ . الأحوى : الأسود . النزعَةُ : الموضعُ من رأسِ الأنزعِ ، وهما نزعتان ترتفعان في جانبي الناصية .

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَرِيِّ » ١/ ٣١٩ مِنَ الخفيفِ] :

أَيَّ يَـوْمٍ سَـرَرْتَنِـيْ بِـوِصَـالٍ	لَمْ تَرُعْنِيْ ثَلاَثَةً بِصُدُوْدِ ؟!

مسكين المتنبي يبتغي الربح من الحبيب!! إن هذا لشيء عجاب

يقولُ : لَم تسُرَّني بالوصالِ يوماً ، إلاَّ رُعْتَني بالصدودِ ثلاثاً . فـ (أَيَّ) : ٱستفهاميَّةٌ ، يرادُ مِنها النفيُ ، وهـٰذا طمعٌ شديدٌ مِنَ الناظمِ ، وإلاَّ . . فالعشَّاقُ ـ كَما سبقَ في عدَّةِ مواضعَ ، مِنها المجلسُ الثاني ، ومِنْها ما قُبيلَ الكلامِ علىٰ قولِهِ : (عَلَّ ٱلْأَمِيْرَ يَرَىٰ ضَعْفِيْ فَيَشْفَعَ لِيْ . . إلخ) ـ كانوا يَقْتَنِعونَ باليَسيرِ مِن أَنواعِ الوِصَالِ .

لم تكن راحة القلب يـومـاً بـدون القنـاعـة باليسير من المحبوب والشعراء تشهد بذلك

قالَ قيسٌ [في « ديوانه » ٩٨ مِنَ الطَّويلِ] :

عِدِيْنِيْ ـ بِنفسِيْ أَنْتِ ـ وَعْداً فَرُبَّمَا	جَلاَ كُرْبَةَ ٱلْمَحْزُوْنِ عَنْ قَلْبِهِ ٱلْوَعْدُ

وقالَ ٱبنُ الفارضِ [في « ديوانِهِ » ١٣٨ مِنَ الطَّويلِ] :

عِـدِيْنِـي بِـوَصْـلٍ وَٱمْطُلِـيْ بِنَجَـازِهِ	فَعِنْدِيْ إِذَا صَحَّ ٱلْهَوَىٰ حَسُنَ ٱلْمَطْلُ

وقالَ قيسٌ [في « ديوانه » ١٠٢ـ١٠٣ مِنَ الطَّويلِ] :

وَإِنْ تَكُ لُبْنَىٰ قَدْ أَتَىٰ دُوْنَ قُرْبِهَا	حِجَـابٌ مَنِيْـعٌ مَـا إِلَيْـهِ سَبِيْـلُ
فَـإِنَّ نَسِيْـمَ ٱلْجَـوِّ يَجْمَـعُ بَيْنَنَـا	وَنُبْصِرُ قَرْنَ ٱلشَّمْسِ حِيْنَ تَزُوْلُ
وَأَرْوَاحُنَا بِٱللَّيْلِ فِيْ ٱلنَّوْمِ تَلْتَقِيْ	وَنَعْلَـمُ أَنَّـا بِـٱلنَّهَـارِ نَقِيْـلُ
وَتَجْمَعُنَا ٱلْأَرْضُ ٱلْقَرَارُ وَفَوْقَنَا	سَمَاءٌ نَرَىٰ فِيْهَا ٱلنُّجُوْمَ تَجُوْلُ
إِلَىٰ أَنْ يَعُوْدَ ٱلدَّهْرُ سِلْماً وَتَنْقَضِيْ	تِـرَاتٌ يَـرَاهَـا عِنْـدَنَـا وَذُحُـوْلُ[1]

(١) الذحُولُ : الثأرُ والعداوةُ والحقدُ .

وقالَ [في « ديوانه » ١٩٤ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا طَلَعَتْ شَمْسُ ٱلنَّهَارِ فَسَلِّمِيْ فَإِنِّيْ يُسَلِّيْنِيْ عَلَيْكِ طُلُوْعُهَا

أَلا وإنَّ ٱجتماعَ الأَبصارِ علىٰ رؤيَةٍ نحوِ الهلالِ.. لنوعٌ مِنَ الوِصالِ ، غيرَ أنَّه لا يتيسَّر لِكلِّ مُفارِقٍ معَ بُعدِ الشقَّةِ ، وتفارُطِ البعدِ ؛ إذ لا يحصُلُ كلُّهُ لِمَن كانَ مثلاً بـ(جاوا)[١] وأهلُهُ بـ(حضرموت) ، غيرَ أنَّهم شركاءُ بعدُ في التمنِّي ، الذي يعوِّلُ بعضُهُم عليهِ في بَلِّ غُلَّةِ الجَوىٰ ، وتَسكينِ حرِّ النوىٰ .

قالَ أبو حيَّةَ النميريُّ [في « ديوانه » ١٥٨ مِنَ الطَّويلِ] :

وَدَاوَيْتُ جُرْحَ ٱلْقَلْبِ مِنهُنَّ بِٱلْمُنَىٰ وَبِٱللَّحظِ - لَوْ يَبْذُلْنَهُ - ٱلْمُتَسَرِّقِ

وقالَ ٱبنُ سارةَ [مِنَ الطَّويلِ] :

أَمَانِيَّ مِنْ لَيْلَىٰ حِسَانٌ كَأَنَّمَا سَقَتْنِي بِهَا لَيْلَىٰ عَلَىٰ ظَمَأٍ بَرْدَا
مُنىً إِنْ تَكُنْ حَقّاً تَكُنْ أَحْسَنَ ٱلْمُنَىٰ وَإِلاَّ فَقَدْ عِشْنَا بِهَا زَمَناً رَغْدَا

وقالَ غيرُهُ [وهوَ البستيُّ كما في « النجوم الزاهرة » ٤/ ٢٢٩ مِنَ الوافرِ] :

وَأَعْلَمُ أَنَّ وَصْلَكِ لاَ يُرَجَّىٰ وَلَكِنْ لاَ أَقَلَّ مِنَ ٱلتَّمَنِّيْ

وقالَ مِهيارٌ [في « ديوانه » ٤/ ١٨٤ مِنَ الطَّويلِ] :

وَهَبْكُمْ مَنَعْتُمْ أَنْ أَرَاهَا بِنَاظِرِيْ فَهَلْ تَمْنَعُوْنَ ٱلْقَلْبَ أَنْ يَتَمَنَّاهَا ؟!

وهُو قريبٌ مِمَّا أملاهُ أبو بكرٍ الأنباريُّ عَن بعضِ العربِ [وهوَ توبة ٱلخفاجيُّ مِنَ الطَّويلِ] :

فَهلاَّ مَنَعْتُمْ إِذْ مَنَعْتُمْ كلاَمَهَا خَيَالاً يُوَافِيْنِيْ عَلَىٰ ٱلنَّأْيِ هَادِيَا

---

(١) جاوا : من بلاد (أندونيسيا) .

سَقَىٰ ٱللهُ أَطْلاَلاً بِأَكْثِبَةِ ٱلْحِمَىٰ ... وَإِنْ كُنَّ قَدْ أَبْدَيْنَ لِلنَّاسِ مَا بِيَا[1]
مَنَازِلُ لَوْ مَرَّتْ بِهِنَّ جَنَازَتِي ... لَقَالَ ٱلصَّدَىٰ يَا صَاحِبَيَّ ٱنْزِلاَ بِيَا

وغنَّتْ إِحدىٰ حَظَايا محمَّدِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ طاهرٍ بما يلي [في «الأغاني» ٢٣/ ١٩٤ مِنَ الخفيفِ] :

حَجَبُوهَا عَنِ ٱلرِّيَاحِ لأَنِّيْ ... قُلْتُ : يَا رِيحُ بَلِّغِيهَا ٱلسَّلاَمَا
لَوْ رَضُوْا بِٱلْحِجَابِ هَانَ وَلَكِنْ ... مَنَعُوْهَا يَوْمَ ٱلرِّيَاحِ ٱلْكَلاَمَا
فَتَنَفَّسْتُ ثُمَّ قُلْتُ لِطَيْفِيْ : ... وَيْكَ إِنْ زُرْتَ طَيْفَهَا إِلْمَامَا
حَيِّهَا بِٱلسَّلاَمِ سِرّاً وَإِلاَّ ... مَنَعُوْهَا لِشِقْوَتِيْ أَنْ تَنَامَا

وقالَ ٱبن قاضي (مَيلَةَ) مِن قصيدَةٍ لَهُ شائقة ـ أَوردَها ٱبنُ خلِّكانَ[2] في ترجمةِ يَحيىٰ بنِ أَكْثَمَ ـ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَآيَسَنِيْ مِنْ وَصْلِهِ أَنَّ دُوْنَهُ ... مَتَالِفَ تَسْرِيْ ٱلرِّيْحُ فِيْهَا فَتَتْلَفُ
وَغَيْرَانُ يَجْفُوْ ٱلنَّوْمَ كَيْ لاَ يَرَىٰ لَنَا ... إِذَا نَامَ شَمْلاً فِيْ ٱلْكَرَىٰ يَتَأَلَّفُ

والأَوَّلُ مِن قولِ مروانَ ٱبنِ أَبي حفصةَ السابقِ في شرحِ قولِهِ [في «العكبَريِّ» ٣/ ١٧٠ مِنَ البسيطِ] :

عَقَدْتُ بِٱلنَّجْمِ طَرْفِيْ فِيْ مَفَاوِزِهِ ... وَحُرَّ وَجْهِيْ بِحَرِّ ٱلشَّمْسِ إِذْ أَفَلاَ

مِن المجلسِ الثامن ، وهُوَ قولُهُ [مِنَ الطَّويلِ] :

إِلَىٰ وَاحِدِ ٱلدُّنْيَا تَخَطَّتْ رِكَابُنَا ... تَنَائِفَ فِيْمَا بَيْنَهَا ٱلرِّيْحُ تَلْغَبُ

---

(١) الأَكْثِبَةُ : جمع كثيب ؛ وهو : ما اجتمع مِنَ الرَّملِ .
(٢) في «وفياتِ الأعيانِ» ٦/ ١٥٩ .

وقالَ ٱبنُ زيدونَ [مِنَ الكاملِ] :

يُدْنِي مَزَارَكِ حِيْنَ شَطَّ بِهِ ٱلنَّوَىٰ ... أَمَـلٌ أَكَـادُ بِـهِ أُقَبِّـلُ فَـاكِ

وقالَ ٱبنُ الفارضِ [في « ديوانه » ١٤٩ مِنَ الكاملِ] :

يُـدْنِـي ٱلْحَبِيْـبَ وَإِنْ تَنَـاءَتْ دَارُهُ ... طَيْفُ ٱلمَلَامِ لِطَرْفِ سَمْعِيَ ٱلسَّاهِرِ

وقالَ الناظمُ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٣ مِنَ الطَّويلِ] :

مُمَثَّلَـةٌ حَتَّـىٰ كَـأَنْ لَـمْ تُفَـارِقِـيْ ... وَحَتَّىٰ كَأَنَّ ٱلْيَأْسَ مِنْ وَصْلِكِ ٱلْوَعْدُ

وَحَتَّىٰ تَكَادِيْ تَمْسَحِيْنَ مَدَامِعِيْ ... وَيَعْبَقُ فِيْ ثَوْبَيَّ مِنْ رِيْحِكِ النَّدُّ

هـٰذا بعضُ ما يقالُ في تمنِّي الوصَالِ ، وأمَّا مطلَقُ التمنِّي ، وما قيلَ فيهِ مدحاً وذمّاً : فله مكانٌ آخرُ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

ويُعجِبُني قولُ بعضِ المغاربةِ [وهو الحافظ أبو الربيع ابن سالم كما في « نفح الطيب » ٤/ ٣٣٢ مِنَ الطَّويلِ] :

الرضا والسخط والكلام علىٰ ذلك

إِذَا بَرِمَتْ نَفْسِيْ بِحَالٍ أَحَلْتُهَا ... عَلَىٰ أَمَلٍ نَاءٍ فَقَرَّتْ بِهِ ٱلنَّفْسُ

وَإِنْ أَوْحَشَتْنِيْ مِـنْ أَمَـانِيَّ جَفْـوَةٌ ... فَلِيْ فِيْ ٱلرِّضَا بِٱللهِ وَٱلْقَدَرِ ٱلأُنْسُ

وصدقَ واللهِ ، فالمتسخِّطُ ضيِّقُ العطَنِ(١) ، جويُّ(٢) الوطَنِ ، كثيرُ الهمومِ ، مَنْزورُ السرورِ ، لا يلَذُّ لَهُ النومُ ، وَلا يصفو لهُ اليومُ [قال الناظم في « العُكبَري » ٢/ ٣٦٠ مِنَ البسيطِ] :

كَرِيْشَةٍ بِمَهَبِّ ٱلرِّيْحِ سَاقِطَةٍ ... لاَ تَسْتَقِرُّ عَلَىٰ حَالٍ مِنَ ٱلْقَلَقِ

---

(١) العطَنُ : مبركُ الإبلِ ، وهوَ كنايةٌ عن ضيقِ الأَرضِ على ٱتساعها في عيني المتسخِّطِ .

(٢) الجويُّ : ضيِّقُ الصدرِ .

بخلافِ الراضي . . فإنَّه رَابطُ الجأشِ ، ذاهبُ الإيحاشِ ، رَخيُّ البالِ ، سعيدُ الحالِ ، جَمُّ الانشراحِ ، كثيرُ الارتياحِ .

وللهِ دَرُّ ٱلقطبِ ٱلحدَّادِ في قولِهِ [في « ديوانه » ٥٠٣ مِنَ الطَّويلِ] :

وَإِنْ تَرْضَ بِٱلْمَقْسُوْمِ عِشْتَ مُنَعَّمَا وَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرْضَىٰ بِهِ عِشْتَ فِيْ حَزَنْ

وقولِهِ [في « ديوانه » ٤٨٩] :

أَنتَ وَالْخَلائِقْ كُلُّهُمْ عَبِيْدْ وَالإِلَـٰهُ فِيْنَا يَفعَلْ مَا يُرِيْدْ
فِكْرُكْ وَٱخْتِيَارُكْ وَيْحَكْ ما يُفِيْدْ اَلْقَضَا تَقَدَّمْ فَاغْنَمِ السُّكُوْنْ
لا يَكْثُرُ هَمُّكْ مـا قُدِّرْ يَكُوْنْ
اَلَّذِيْ لِغَيْرِكْ لاَ يَصِلْ إِلَيْكْ وَالَّذِيْ قُسِمْ لَكْ حَاصِلٌ لَدَيْكْ
فَاشْتَغِلْ بِرَبِّكْ وَالَّذِيْ عَلَيْكْ فِيْ فَرْضِ ٱلْحَقِيْقَهْ وَٱلشَّرْعِ ٱلْمَصُوْنْ
لاَ يَكْثُرُ هَمُّكْ مَا قُدِّرْ يَكُوْنْ

التوكل والتواكل والفرق بينهما

ومِن قولِهِ : (فاشتغِلْ بربِّكَ والذي عليكَ) . . تعرِفُ أَنَّهُ لا يصحُّ التوكُّلُ إلاَّ بعزمٍ صحيحٍ ، ورأيٍ رَجيحٍ ، وسَعيٍ نَجيحٍ ، وَحَزمٍ وَثيقٍ ، وَتَدبيرٍ دَقيقٍ ، فقد جاءَ رجلٌ إِلىٰ رسولِ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم وقالَ لهُ : أَعقِلُ ناقتي ، أَمْ أَتوكَّلُ ؟ قالَ : « ٱعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ »[1] .

ومرَّ الشعبيُّ برجُلٍ في إِبلٍ لهُ فَشَا فيها الجَربُ ، فقالَ لَهُ : أَمَا

(١) أخرجه عن أنس بن مالك رضي الله عنه الترمذي (٢٥١٩) وقال : هذا حديث غريب وآخر كتابه « العلل » الملحق بالسنن . وعن عمرو بن أمية الضمري عند ابن حبان في « الإحسان » (٧٣١) بإسناد حسن .

تُدَاوي إِبِلَكَ ؟ قالَ : إِنَّ مَعَنا عجوزاً نَتَّكِلُ علىٰ دعائِها ، قالَ : ٱجعل معَ دُعائِها شيئاً مِنَ القطرانِ .

وما أَحسنَ قولَ أَبي عُبادةَ يمدحُ [في « ديوانهِ » ١٩٨/١ مِنَ الطَّويلِ] :

فَتىً لَمْ يُضَيِّعْ وَقْتَ حَزْمٍ وَلَمْ يَبِتْ ... يُـلاَحِـظُ أَعْجَـازَ ٱلأُمُـوْرِ تَعَقُّبَـا

وقالَ غيرُهُ [مِنَ البسيطِ] :

وَٱلْمَرْءَ تَلْقاهُ مِضْيَاعاً لِفُرْصَتِهِ ... حَتَّىٰ إِذَا فَاتَ أَمْرٌ عَاتَبَ ٱلْقَدَرَا

وقالَ [أَبو] عبيدةَ [ٱبنُ ٱلجرَّاحِ] لعمرَ ـ رضي الله عنهما ـ لمَّا كرِهَ طاعونَ (ٱلشّامِ) [كما في « تاريخ الطبري » ٤٨٦/٢] : أَتفِرُّ مِن قَدَرِ اللهِ ؟ قالَ : نعم ، إِلىٰ قَدَرِ اللهِ ، فقالَ لَهُ : أَينفعُ الحذرُ مِن القَدَرِ ؟ فقالَ : لَسنا هناكَ ، ولـٰكنَّ اللهَ لا يأْمرُ بما لا ينفعُ ، ولا ينهىٰ عمَّا لا يضُرُّ ، وقد قالَ : ﴿ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة : ١٩٥] ، وقالَ : ﴿ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ﴾ [النساء : ٧١] .

وليسَ هـٰذا موضعَ البحثِ حتَّىٰ نفيضَ فيهِ ، ولَنا إِليهِ عودةٌ عندَ إِفضاءِ النوبةِ ، نتناوَلُهُ فيها مِن أَطرافِهِ إِنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

ويُعجِبني قولُ عمرَ بنِ ذرٍّ ـ [بَعدَ] منصرفِهِ مِن دفنِ ٱبنِهِ ذرٍّ ـ : ما بنا بعدَكَ من خصاصةٍ ، ولا إِلىٰ أَحدٍ معَ اللهِ حاجةٌ ، ومَن توكَّلَ علىٰ اللهِ . . كفاهُ ، ومَنِ ٱتَّكلَ علىٰ غيرِهِ . . وَكَلَهُ إِليهِ .

وفي حِفْظي عَن « مفاتيحِ الغيبِ » للرّازيِّ أَنَّهُ يقولُ ـ ما معناهُ ـ : ٱعلم أَنَّني وَقد نيَّفْتُ الآنَ علىٰ ٱلخمسينَ ، جرَّبْتُ نَفسي ، فما مِن أَمرٍ ٱعتمدْتُ فيهِ علىٰ ٱللهِ وحدَهُ . . إِلاَّ ٱنفتحَتْ أَبوابُهُ ، وتيسَّرَتْ أَسبابُهُ ، وما مِن أَمرٍ ٱلتفَتُّ فيهِ إِلىٰ غيرِ ٱللهِ . . إِلاَّ ٱلتوَتْ أُمورُهُ ، وٱعصَوْصَبَتْ أَحوالُهُ .

ومِن خيرِ ما جاءَ في ٱلرِّضا : ما ذكرَهُ ٱلإمامُ ٱلغزاليُّ ـ أَو غيرُهُ[1] ـ عَنِ ٱمرأَةٍ حسَّانَةٍ رُئِيَتْ تطوفُ ، وتكادُ يقطرُ مِن وجنتَيْهَا ماءُ ٱلنِّعمةِ وٱلشَّبابِ ، فقيلَ لَها : ما هـٰذهِ النَّضارةُ ؟ قالَتْ : ما سَمَّنَنِي إلاَّ حبُّهُ عزَّ وجلَّ ، والرِّضا بقضائِهِ ، وإلاَّ . . فلو علِمتُم حَدِيثي ؟! قالوا : ما هُوَ ؟ قالَتْ : كنتُ وصاحِبِيْ في يومِ عيدٍ علىٰ ذبحِ شاةٍ ، فبَيْنَا نَحنُ في فرَحِنا . . إذ خرجَ ٱبْنانا يَلْعَبانِ ، فقالَ أَحدُهما للآخرِ : أَتحبُّ أَن أُريكَ كيفَ ذبحَ أَبي الشاةَ قالَ : نعم ، فذبحَهُ ، ولمَّا رآهُ يتشحَّطُ في دمِهِ[2] . . هربَ فأكلَهُ الذئبُ ، وكانَ زَوجي ذهَبَ في أَثرِهِ ليردَّهُ ، فماتَ من العَطشِ ، وعلمَتْ بذلكَ ٱبنةٌ لَنا عندَ زوجِها . . فأَلقَتْ نفسَها من رأْسِ الدارِ ، ومَا أَمسَيْتُ إلاَّ وقد خَرِبَ بَيتي ، وهَلَكَ زَوجي ، وٱصطَلَيتُ بنارِ الثَّكلِ ، ولـٰكنَّني صبرْتُ علىٰ بلائِهِ ، ورضيتُ بقَضائِهِ .

قصة للغزالي في الرضا

وقالَ الجنيدُ : أَصَّلْتُ في نفسي أَنْ لا أَنتظِرَ مِن الأَيَّامِ غيرَ المكارِهِ ، فَإِنْ جاءَتْ . . كنتُ وطَّنْتُ عليها نَفسي ، وإِن جاءَ غيرُها . . عددْتُهُ مِن الأَرباحِ والصُّدَفِ .

حكمة للجنيد في الرضا

وهوَ مثلُ قولِ أَبي ذؤيبٍ [في « جمهرة خطب العرب » ٣/٣٥٦ مِنَ الطَّويلِ] :

الشعر والرضا

وَلاَ خَيْرَ فِيْمَنْ لاَ يُوَطِّنُ نَفْسَهُ   عَلَىٰ نائِبَاتِ ٱلدَّهْرِ حِيْنَ تَنُوْبُ

وقولِ كثيِّرٍ [في « ديوانِهِ » ٩٧ مِنَ الطَّويلِ] :

فَقُلْتُ لَهَا : يَا عَزُّ كُلُّ مُصِيْبَةٍ   إِذا وُطِّنَتْ يَوْماً لَهَا ٱلنَّفْسُ ذَلَّتِ

---

(١) بل الغزالي بنحوها كما في «الإحياء» (٤/ ٤٨٩) .

(٢) يتشحَّطُ : يضطرِبُ .

وقالَ ٱبنُ الروميِّ [في « ديوانهِ » ٦/ ٢٢٥٤ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا أَحْدَثَ ٱلْعَصْرانِ شَيْئاً نَكِرْتُهُ هُمَا ٱلسَّالِبَانِ ٱلْوَاهِبَانِ هُمَا هُمَا

وقالَ ٱبنُ الراونديِّ [مِنَ الكاملِ] :

مِحَنُ ٱلزَّمَانِ كَثِيْرَةٌ مَا تَنْقَضِيْ وَسُــرُورُهُ يَــأْتِيْـكَ كَــالأَعْيَــادِ

وقالَ أَبو العتاهِيَةِ [في « البيان والتبيين » ١/ ٤٩٠ مِنَ الكاملِ] :

تَـأْتِـيْ ٱلْمَكَـارِهُ حِيْـنَ تَـأْتِـيْ جُمْلَـةً وَأَرَىٰ ٱلسُّرُورَ يَجِيْءُ فِيْ ٱلْفَلَتَاتِ

وقال ٱلبُحتريُّ [في « ديوانه » ٢/ ١٣٢٥ مِنَ البسيطِ] :

تنكَّرَ ٱلْعَيْشُ حَتَّىٰ صَارَ أَكْدَرُهُ يَأْتِي نِظَاماً وَيَأْتِيْ صَفْوُهُ لُمَعَا[1]

وَآنَسَتْ مِنْ خُطُوْبِ ٱلدَّهْرِ كَثْرَتُهَا فَلَيْسَ يُرْتَاعُ مِنْ خَطْبٍ إِذا طَلَعَا

صُعُوْبَةُ ٱلرُّزْءِ تُلْغَىٰ فِيْ تَوَقُّعِهِ مُسْتَقْبَلاً وَٱنْقِضَاءُ ٱلرُّزْءِ أَنْ يَقَعَا

وقالَ [في « ديوانه » ٢/ ١٢٧٠ مِنَ الطَّويلِ] :

أَجِدَّكَ مَا ٱلْمَكْرُوْهُ إِلاَّ ٱرْتِقَابُهُ وَأَبرَحُ مِمَّا حَلَّ مَا يُتَوَقَّعُ[2]

وقالَ [في « ديوانه » ٢/ ٩٦٥ مِنَ الطَّويلِ] :

أُسىً كَثُرَتْ حَتَّىٰ ٱطْمَأَنَّ لَهَا ٱلْجَوَىٰ وَأَرْزَاءُ فَجْعٍ قَدْحُهَا فِيْ ٱلضَّمَائِرِ

وقالَ ٱلخُزَيميُّ [في « ديوانه » ٤١ مِنَ الطَّويلِ] :

لَقَدْ وَقَرَتْنِيْ ٱلْحَادِثَاتُ فَمَا أُرَىٰ لِنَـازِلَـةٍ مِـنْ رَيْبِهَـا أَتَـوَجَّـعُ[3]

---

(١) اللُّمعُ : يأتي خلسةً ، أو كوميضِ البرقِ .

(٢) أَبرحُ : أفعل تفضيلٍ من البرحاءِ ، وهي شدَّةُ الأذى والمشقَّةُ .

(٣) وقَرتنيْ : جعلتني وقوراً لا أَضجُّ ولا أَتضجَّرُ .

وقالَ آخرُ [مِنَ الخفيفِ] :

أَيُّ شَيْءٍ يَكُونُ أَعْجَبَ أَمْراً | إِنْ تفكَّرْتَ مِنْ صُرُوْفِ ٱلزَّمَانِ ؟
عَارِضَاتُ ٱلسُّرُوْرِ تُوْزَنُ فِيْهِ | وَٱلْبَلاَيَا تُكَالُ بِٱلْقُفْزَانِ

أبو العتاهية في السجن ويروىٰ [كما في « الأغاني » ٤/٩٦] : أَنَّ أَبا ٱلعتاهيةِ لمَّا حُبسَ علىٰ تركِ ٱلشِّعْرِ . . سمعَ إِنساناً في ٱلسِّجنِ ينشدُ [كما في « ديوانِ أَبي العتاهيةِ » ١٧٥ مِنَ الطَّويلِ] :

تَعَوَّدْتُ مَسَّ ٱلضُّرِ حَتَّىٰ أَلِفْتُهُ | وَأَسْلَمَنِيْ حُسْنُ ٱلْعَزَاءِ إِلىٰ ٱلصَّبْرِ
وَصَيَّرَنِي يَأْسِيْ مِنَ ٱلنَّاسِ رَاجِياً | لِحُسْنِ صَنِيْعِ ٱللهِ مِنْ حَيْثُ لاَ أَدْرِيْ

فقالَ لَهُ : أَعِدها أَعزَّكَ اللهُ ، فقالَ لَهُ : ويلكَ ما أَسوأَ أَدبَكَ ، وأَقلَّ عقلَكَ ، دَخلْتَ عليَّ فمَا سلَّمتَ تسليمَ المسلمِ علىٰ المسلمِ ، ولا سأَلتَ مسأَلةَ الحرِّ للحرِّ ، ولا توجَّعتَ توجُّعَ المبتلىٰ للمبتَلَىٰ ، حتَّىٰ إِذا سمعتَ بيتينِ مِن الشعرِ ـ الذي لا فضلَ لكَ غيرُهُ ـ لم تصبرْ عنِ ٱستعادَتِهما ، ولم تقدِّم عذراً فيما فعلْتَ ، فقالَ : يَا أَخي ، إِني دُهشتُ لِهـٰذا الحالِ ، فٱعذِرْني متفضِّلاً مُمتناً ، فقالَ : أَنا أَولَىٰ مِنكَ بالحَيرَةِ والدهشَةِ ؛ لأَنَّكَ حُبِستَ علىٰ الشعرِ ، وإِذا قلتَهُ . . أَمنتَ ، أَمَّا أَنا . . فمأْخوذٌ بأَن أَدلَّ علىٰ ٱبنِ رسولِ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ليُقتَلَ أَو أَقتلَ دونَهُ ، وواللهِ لا أَدلُّ عليهِ ، فقالَ لهُ أَبو العتاهيةِ : لأَنتَ أَولىٰ ، ولو علمتُ أَنَّ هـٰذهِ حالُكَ . . ما سأَلْتُكَ ، فقالَ : لا نبخَلُ عليكَ إِذن ، فأَعادَهُنَّ عليهِ حتَّىٰ حفظَهُما ، ثمَّ سأَلَهُ عنِ ٱسمِهِ فقالَ : أَنا خاص داعيةِ عيسىٰ بنِ زيدٍ ، وٱبنِهِ أَحمدَ ، ولم نلبَثْ أَنْ سَمِعْنا صوتَ السجنِ يفتَحُ ، فقامَ ، وتوضَّأَ ، ولبسَ أَحسنَ

ثيابِهِ ، ودخلَ الحرسُ . . فأَخرجونا جميعاً ، وقدَّمَ قبلي إِلىٰ الرشيدِ ، فسأَلَهُ عن أَحمدَ بنِ عيسىٰ ، فقالَ : لا تسأَلني عنهُ ، وٱفعلْ ما بَدا لَكَ ، فوَاللهِ لَو كانَ تحتَ ثَوبي ما كشفتُ عنهُ ، فأَمرَ بهِ . . فضربَتْ عنقُهُ ، ثمَّ قالَ لأَبي العتاهِيَةِ : أَظُنُّكَ ٱرتعتَ يا إِسماعيلُ ، فقالَ : مِن دونِ ما رأَيتُهُ تسيلُ النفوسُ ، فقالَ : ردُّوهُ إِلىٰ محبَسِهِ ، فٱنتحلَ البيتينِ وزادَ فيهما [في « ديوانِهِ » ١٧٥ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذا أَنَا لَمْ أَقْبَلْ مِنَ ٱلدَّهْرِ كُلَّ مَا ... تَكَرَّهْتُ مِنْهُ طَالَ عَتْبِي عَلَىٰ ٱلدَّهْرِ

كم صفا من أيام المأمون؟!

وحسبكَ أَنَّ المأْمونَ العباسيَّ ـ علىٰ ٱتساعِ ملكِهِ ـ لم يَصفُ لهُ عيشُهُ إِلاَّ أَيّاماً معدودَةً ، قَضاها في فمِ الصلحِ حينمَا أَعرسَ فيها بـ (بورانَ) .

توجيه السؤال إلى عبد الرحمن الناصر

وإِنَّ عبدَ الرحمـٰنِ الناصرَ كتبَ في وصيَّتِهِ : حكمتُ (الأَندلسَ) خمسينَ سنةً ، لم أَتنسَّمْ فيها روحَ الحياةِ ، وأَتذوَّقْ طعمَ العيشِ . . إِلاَّ في أَربعةَ عَشَرَ يوماً فقطْ ، مِنها يومُ ٱستِرجاعي (سَمُّورةَ) ؛ بِما حَفِظْتُ علىٰ المسيحيَّةِ البائِسَةِ رَضيعَها ، بعدَ أَنْ نفضَتْ يدَها منهُ ، فكادَتْ تَقْضي مِن فرْطِ السرورِ والفَرحِ بهِ .

المتنبي القنوع الراضي!!

والمعنىٰ متكرِّرٌ عندَ الناظمِ منهُ **قولُهُ** [في « العُكبَريّ » ٣/ ٢٥٤ مِنَ الكاملِ] :

جَمَحَ ٱلزَّمَانُ فَمَا لَذِيْذٌ خَالِصٌ ... مِمَّا يَشُوْبُ وَلاَ سُرُوْرٌ كَامِلُ

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٤/ ١٠٤ مِنَ الطَّويلِ] :

عَرَفْتُ ٱللَّيَالِيْ قَبْلَ مَا صَنَعَتْ بِنَا ... فَلَمَّا دَهَتْنِيْ لَمْ تَزِدْنِيْ بِهَا عِلْمَا

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٣/ ٣٣٢ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا ٱسْتَغْرَبَتْ عَيْنِيْ فِرَاقاً رَأَيْتُهُ ... وَلاَ عَلَّمَتْنِي غَيْرَ مَا ٱلْقَلْبُ عَالِمُهْ

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٤/ ٢١٢ مِنَ البسيطِ] :

قَدْ هَوَّنَ ٱلصَّبْرُ عِنْدِيْ كُلَّ نَائِبَةٍ ... وَهَوَّنَ ٱلْعَزْمُ حَدَّ ٱلْمَرْكَبِ ٱلْخَشِنِ

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٣/ ٩ مِنَ الوافرِ] :

رَمَانِيْ ٱلدَّهْرُ بِٱلأَرْزَاءِ حَتَّىٰ ... فُؤَادِيْ فِيْ غِشَاءٍ مِنْ نِبَالِ(١)

فَصِرْتُ إِذَا أَصَابَتْنِيْ سِهَامٌ ... تَكَسَّرَتِ ٱلنِّصَالُ عَلَىٰ ٱلنِّصَالِ(٢)

قالَ ٱبنُ خَلِّكَانَ [في « وفيات الأعيان » ٥/ ٣٠٤] : وممَّا أنشدَهُ ٱبنُ المنجِّمِ لِمُؤَرِّجِ السدوسيِّ قولُهُ [مِنَ البسيطِ] : عـودة إلـى الشعـراء والرضا والتسليم

رُوِّعْتُ بِٱلْبَيْنِ حَتَّىٰ مَا أُرَاعُ لَهُ ... وَبِٱلْمَصَائِبِ مِنْ أَهْلِيْ وَجِيْرَانِيْ

لَمْ يَتْرُكِ ٱلدَّهْرُ لِيْ عِلْقاً أَضِنُّ بِهِ ... إِلاَّ ٱصْطَفَاهُ بِنَأْيٍ أَوْ بِهِجْرَانِ(٣)

قالَ ٱبنُ المنجِّمِ : وهٰذا من أَملحِ ما قيلَ في معناهُما ، ومثلُهما قولُ بعضِ المحدَثينَ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَفَارَقْتُ حَتَّىٰ مَا أُرَاعُ مِنَ ٱلنَّوَىٰ ... وإِنْ غَابَ جِيْرَانٌ عَلَيَّ كِرَامُ

فَقَدْ جَعَلَتْ نَفْسِيْ عَلَىٰ ٱلنَّأْيِ تَنْطَوِيْ ... وَعَيْنِيْ عَلَىٰ فَقْدِ ٱلصَّدِيْقِ تَنَامُ

ومِن هُنا ، أَخذَ ٱبنُ التعاويذيِّ قولَهُ [في « ديوانِهِ » ٧٩ مِنَ الطَّويلِ] :

وَهَا أَنَا قَلْبِيْ لاَ يُرَاعُ لِغَائِبٍ ... فَيَأْسَىٰ وَلاَ يُلْهِيْهِ حَظٌّ فَيَفْرَحُ

---

(١) الأرزاءُ : المصيبات . الغشاءُ : ما يغطِّي الشيءَ ويشملهُ .

(٢) النصال ـ جمع نصلٍ ـ : وهوَ الحديدةُ التي في السهمِ .

(٣) العِلقُ : النفيسُ من كلِّ شيءٍ .

توجع ابن التعاويذي على ذهاب بصره

وهُو مِن قصيدَةٍ طويلَةٍ ، يتوجَّعُ فيها لِذهابِ بصرِهِ ، فَمِنها يشيرُ إلىٰ زوجتِهِ [في « ديوانه » ٧٩ـ٨٠ مِنَ الطَّويلِ] :

وَبَاكِيَةٍ لَمْ تَشْكُ فَقْداً وَلاَ رَمَىٰ بِجِيْرَتِهَا ٱلأَذْنَيْنَ بَيْنٌ مُطَوِّحُ[1]
رَمَتْهَا يدُ ٱلأَيَّامِ فِيْ لَيْثِ غَابِهَا بِفَادِحِ خَطْبٍ وَٱلْحَوَادِثُ تَفْدَحُ
رَأَتْ جَلَلاً لاَ ٱلصَّبْرُ يَجْمُلُ بِٱلْفَتَىٰ عَلَىٰ مِثْلِهِ يَوْماً وَلاَ ٱلْحُزْنُ يَقْبُحُ
فَلاَ غَرْوَ أَنْ تَبْكِيْ ٱلدِّمَاءَ لِكَاسِبٍ لَهَا كَانَ يَسْعَىٰ فِيْ ٱلْبِلاَدِ وَيَكْدَحُ
عَـزِيـزٌ عَلَيْهَـا أَنْ تَـرَانِـيَ جَـاثِمـاً وَمَا لِيَ فِيْ ٱلأَرْضِ ٱلْبَسِيْطَةِ مَسْرَحُ
وأَنْ لاَ أَقُوْدَ ٱلْعِيْسَ تَنْفَحُ فِيْ ٱلْبُرَىٰ وَجُرْدَ ٱلْمَذَاكِيْ فِيْ ٱلأَعِنَّةِ تَمْرَحُ[2]
أَظَـلُّ حَبِيْسَـاً فِـيْ قَـرَارَةِ مَنْـزِلٍ رَهِيْنَ أَسىً أُمْسِيْ عَلَيْهِ وَأُصْبِحُ
مَقَـامِـيَ مِنْـهُ مُظْلِـمُ ٱلْجَـوِّ قَـاتِـمٌ وَمَسْعَايَ ضَنْكٌ وَهْوَ صَمْحَانُ أَفْيَحُ[3]
أُقَـادُ بِـهِ قَـوْدَ ٱلْجَنِيْبَـةِ مُسْمِحـاً وَمَا كُنْتُ لَوْلاَ غَدْرَةُ ٱلدَّهْرِ أُسْمِحُ[4]
كَـأَنِّـيَ مَيْـتٌ لاَ ضَـرِيْـحَ لِجَنْبِـهِ وَمَا كُلُّ مَيْتٍ ـ لاَ أَبَا لَكَ ـ يُضْرَحُ
وَهَا أَنَا قَلْبِيْ لاَ يُرَاعُ لِفَائِتٍ فَيَأْسَىٰ وَلاَ يُلْهِيْهِ حَظٌّ فَيَفْرَحُ
فَلِلَّـهِ نَصْـلٌ فُـلَّ مِنِّـيْ غِـرَارُهُ وَعُوْدُ شَبَابٍ عَادَ وَهْوَ مُصَوِّحُ[5]
وَسَقْيـاً لأَيَّـامٍ رَكِبْـتُ بِهَـا ٱلْهَـوَىٰ جَمُوْحاً وَمِثْلِيْ فِيْ هَوَىٰ ٱلْغِيْدِ يَجْمَحُ

---

(١) مطوِّحٌ : مهلِكٌ .
(٢) الجُردُ : جمع أجرد؛ وهو: الفرس القصير الشعر . المذاكي مِنَ الخيلِ : التي أتىٰ عليها بعدَ قروحِها سنةٌ أو سنتانِ .
(٣) صمحانٌ : واسعٌ غليظٌ . الأفيَحُ : كلُّ موضعٍ واسعٍ .
(٤) الجنيبُ : الغريبُ . مسمِحاً : موافقاً .
(٥) المصوِّحُ : اليابسُ المتشقِّقُ .

وماضِيْ صِباً قَضَّيْتُ مِنْهُ لُبَانَتِيْ خِلاَساً وَعَيْنُ ٱلدَّهْرِ زَرْقَاءُ تَلْمَحُ[1]
لَيَالِيَ لِيْ عِنْدَ ٱلْغَوَانِيْ مَكَانَةٌ وَأَلْحَاظُهَا تَرْنُوْ إِلَيَّ وَتَطْمَحُ
وَلَيْلَىٰ بِهَا أَضْعَافُ مَا بِيْ مِنَ ٱلْهَوَىٰ أُعَرِّضُ بِـٱلشَّكْوَىٰ لَهَا فَتُصَرِّحُ[2]

ولا لومَ في الإطالةِ بهٰذهِ القطعةِ مِنْها ؛ فإِنَّ عذوبتَهَا ، وحسنَ انسجامِها ، وبديعَ اتساقِها ، وأَخذَها بمجامعِ القلوبِ.. تمهِّدُ العذْرَ في ذلكَ .

رد قول المتنبي بقوله

ومَعَ ما أَطَلْنا فيهِ الجولَ ، واخترْنا لَهُ مِن أَفانينِ القولِ ، كيفَ يَليقُ بالناظمِ أَنْ لا يقنَعَ بِالوِصالِ في كلِّ أَربعةِ أَيَّام يوماً ؟ وهُوَ من أَكبَرِ الشعرَاءِ بَلوىٰ ، وأَكثرِهِم مِن زَمانِهِ شَكوىٰ ، أَوَ لَيْسَ القائِلَ [في « العُكبَريّ » ١/ ١٨٠-١٨١ مِنَ الطَّويلِ] ؟! :

لَحَا ٱللهُ ذِيْ ٱلدُّنْيَا مُنَاخاً لِرَاكِبٍ فَكُلُّ بَعِيْدِ ٱلْهَمِّ فِيْهَا مُعَذَّبُ
أَلاَ لَيْتَ شِعْرِيْ هَلْ أَقُوْلُ قَصِيْدَةً وَلاَ أَشْتَكِيْ فِيْهَا وَلاَ أَتَعَتَّبُ
وَبِيْ مَا يَذُوْدُ ٱلشِّعْرَ عَنِّيْ أَقَلُّهُ وَلٰكِنَّ قَلْبِيْ يَا ٱبْنَةَ ٱلْقَوْمِ قُلَّبُ

أَوَلَيْسَ يقولُ [في « العُكبَريّ » ٢/ ١٩ مِنَ الطَّويلِ] ؟! :

أَوَدُّ مِـنَ ٱلأَيَّـامِ مَـا لاَتَـوَدُّهُ وَأَشْكُو إِلَيْهَا بَيْنَنَا وَهْيَ جُنْدُهُ
يُبَـاعِـدْنَ حِبّـاً يَجْتَمِعْـنَ وَوَصْلُـهُ فَكَيْفَ بِحِبٍّ يَجْتَمِعْنَ وَصَدُّهُ[3] ؟!

(١) لُبَانَتي : حاجتي . وخصَّ العينَ الزرقاءَ بالذّكرِ ؛ لأَنَّ زرقةَ العينِ ممَّا يتشاءَمُ منهُ العربُ .
(٢) إلى هنا من « وفيات الأعيان » (٥/ ٣٠٥) .
(٣) وصلُه وصدُّه : اسمان معطوفان على الضمير من (يجتمعن) على رأي الكوفيين ، وهو عند البصريين ممتنع إلا إذا ذكر ضمير الرفع ظاهراً . قال ابن مالك :

أَبَىٰ خُلُقُ ٱلدُّنْيَا حَبِيباً تُدِيمُهُ   فَمَا طَلَبِي مِنْهَا حَبِيباً تَرُدُّهُ ؟!

أَمَا واللهِ : لَقد ٱشتطَّ في الرغبَةِ ، وأَبعَدَ في النجْعَةِ ، وإِلاَّ . . فما دونَ ذلكَ يعدُّ مِن حسنِ الحَظِّ ، وتبسُّمِ الدهْرِ الفَظِّ .

التماس العذر للمتنبي

إِلاَّ أَنْ يقالَ : إِنَّهُ لم يطلبِ المطلَبَ الجَسِيمَ إِلاَّ وقتَما كانَتِ الأَيَّامُ سِلماً لهُ ، لم تسقِهِ بعدُ أُجاجَها ، ولا أَرتْهُ ٱعوجاجَها ، علىٰ أَنِّي ما أَظنُّ الدهرَ سالَمَهُ وقتاً ، ولا أَراهُ إِلاَّ مقتاً ، والرجْعُ في ذلكَ إِلىٰ تاريخِ حياتِهِ ، والإِنسانُ ـ كَما ذَكرنا غيرَ مرَّةٍ ـ كثيرُ التقلُّبِ ، ولقد أَلطفَ التهاميُّ في سؤَالِهِ ، مَعَ نظرِهِ إِلىٰ بيتِ الناظمِ ، فقالَ وأَجادَ [في « ديوانهِ » ١٦٥ مِنَ الخفيفِ] :

لا تَقُولِـيْ لِقَـاؤُنَـا بَعْـدَ عَشْـرٍ   لَسْتُ مِمَّن يَعِيْشُ بَعْدَكِ عَشْرَا

الذكاء منه في بيته

ثمَّ في بيتِ الناظمِ سرٌّ ، يظهَرُ مِنْهُ أَنَّ مَحبوبَهُ علىٰ جانِبٍ مِن العِلمِ بالسنَّةِ ، والعمَلِ بها ، فمتىٰ وصلَهُ قبلَ ٱنتهاءِ اليومِ الثالثِ . . خرجَ عمَّا جاءَ في الوعيدِ علىٰ الهجرةِ فوقَ الثلاثِ ، ولقد ظرُفَ بعضُهُم في قولِهِ [مِنَ السريعِ] :

يَـا سَيِّـدِيْ عِنْـدَكَ لِـيْ مَظْلَمَـهْ   فَٱسْتَفْتِ فِيْهَا ٱبْنَ أَبِيْ خَيْثَمَهْ
فَـإِنَّـهُ يَـرْوِيْـهِ عَـنْ جَـدِّهِ   وَجَـدُّهُ يَـرْوِيْـهِ عَـنْ عِكْـرِمَـهْ
عَنِ ٱبْنِ عَبَّاسٍ عَنِ ٱلْمُصْطَفَىٰ   نَبِيِّنَـا ٱلْمَبْعُـوْثِ بِـٱلمَـرْحَمَـهْ
إِنَّ ٱنْقِطَـاعَ ٱلْخِـلِّ عَـنْ خِلِّـهِ   فَـوْقَ ثَـلاَثٍ رَبُّنَـا حَـرَّمَـهْ

= وإن علـى ضميـر رفـع متصـل   عطفت فافصل بالضمير المنفصل
قال تعالىٰ : ﴿ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾ .

وَأَنْـتَ مُـذْ شَهْـرٍ لَنَـا هَـاجِـرٌ   أَمَـا تَخَـافُ ٱللهَ فِينَـا فَمَـهْ

ومرَّ قُبيلَ قولِهِ [في « العُكبَريّ » ٣/ ١٦٣ مِنَ البسيطِ] :

لَوْلاَ مُفَارَقَةُ ٱلأَحْبَابِ مَا وَجَدَتْ   لَهَا ٱلْمَنَايَا إِلىٰ أَرْوَاحِنَا سُبُلاَ

ما لَهُ بهِ تعلُّقٌ .

* * *

المجلس العاشر

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَرِيِّ » ١/ ٣١٩ مِنَ الخفيفِ] :

مَا مُقَامِي بِأَرْضِ نَخْلَةَ إِلاَّ	كَمُقَامِ ٱلْمَسِيحِ بَيْنَ ٱلْيَهُوْدِ

هل تنبَّأَ أبو الطيب حقيقة؟

يقولُ : إِنَّ أهلَ (نَخْلَةَ) ـ وهيَ قريَةٌ بقربِ (بعلبَكَّ) ـ أَعداءٌ لي ، كعداوَةِ اليَهودِ للمَسيحِ ، قالَ الواحديُّ : وبهَـٰذَا مَعَ تَشْبيهِهِ نفسَهُ بصالِحٍ ـ عليهِ السلامُ ـ لُقِّبَ المتنبِّي .

وليسَ بِصَحيحٍ . . ولَـٰكِنَّهُ تنبَّأَ حقيقَةً في باديةِ (السماوَةِ) . . حَتَّىٰ حُبِسَ ، ثُمَّ أُطلِقَ بعدَ الاستِتابَةِ .

الكلام داء الحسد

ومـا ذكـرَهُ لَيـسَ بغـريـبٍ ؛ إِذْ لا يَخْلـو عَظيـمٌ عَـن ٱلحَسَـدِ والامتِحانِ ، فإِنْ خَلا عَنْ ذلِكَ . . فليسَ بعظيمٍ ، إِلاَّ علىٰ سبيلِ الفلَتاتِ والشذوذِ ، وأَصلُهُ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا ﴾ [الأنعام : ١١٢] .

وللهِ دَرُّ أَبي تمَّامٍ في قولِهِ [في « ديوانِهِ » ١/ ٢٢٣ مِنَ الكاملِ] :

وَإِذَا أَرَادَ ٱللهُ نَشْـــرَ فَضِيلَـــةٍ	خَفِيَتْ أَتَاحَ لَهَا لِسَانَ حَسُوْدِ
لَوْلاَ ٱشْتِعَالُ ٱلنَّارِ فِيْمَا جَاوَرَتْ	مَا كَانَ يُعْرَفُ طِيْبُ نَفْحِ ٱلْعُوْدِ

وقالَ الغزاليُّ في بعضِ كتبهِ : إِنِّي لأَستحقِرُ مَن لم يُتَّهَمْ بالكفرِ ، وأَستصغِرُ مَن لَم يُلْمَزْ بِٱلفُسوقِ ، أَو ما يشبهُ هَـٰذَا القولَ .

وقالَ المنصورُ لِمعنِ بنِ زائِدةَ [في « وفيات الأعيان » ٥/ ٢٤٧] : ما أَكثرَ وقوعَ الناسِ فيكَ وفي قومِكَ ، فأَنشدَ [مِنَ البسيطِ] :

إِنَّ ٱلْعَـرَانِيْـنَ تَلْقَـاهَـا مُحَسَّـدَةً وَلَنْ تَرَىٰ لِلِئَامِ ٱلنَّاسِ حُسَّادَا[1]

وقالَ قيسٌ [في « ديوانهِ » ١١٧ مِنَ الكاملِ] :

مَوْسُوْمَةٌ بِٱلْحُسْنِ ذَاتُ حَوَاسِدٍ إِنَّ ٱلْجَمَـالَ مَظِنَّـةٌ لِلْحُسَّـدِ

وقالت أُمُّ رومانَ[2] لِعائِشَةَ ـ كما في « الصحيحِ » ـ : هوِّني عليكِ يا بنيَّةُ ، فَقَلَّما كانَتِ ٱمرأَةٌ وضيئَةٌ قطُّ عندَ رجلٍ ولَها ضرائِرُ . . إِلاَّ أَكثرْنَ عَلَيها[3] .

وٱنتهىٰ إِلىٰ أَبي حنيفةَ أَنَّ ٱبنَ شُبرُمَةَ وٱبنَ أَبي لَيلىٰ ينالانِ منهُ ، فأَنشَدَ [كما في « طبقات الحنفية » ١/ ٤٩٨ مِنَ البسيطِ] :

إِنْ يَحْسُدُوْنِيْ فَإِنِّيْ غَيْرُ لاَئِمِهِمْ قَبْلِيْ مِنَ ٱلنَّاسِ أَهْلُ ٱلْفَضْلِ قَدْ حُسِدُوْا
فَدَامَ لِيْ وَلَهُمْ مَا بِيْ وَمَا بِهِمُ وَمَـاتَ أَكْثَـرُنَـا غَيْظـاً بِمَـا يَجِـدُ

وقالَ غيرُهُ [محمد بن الحسن في « طبقات الحنفية » ١/ ٤٩٨ مِنَ البسيطِ] :

مُحَسَّـدُوْنَ وَشَـرُّ ٱلنَّـاسِ مَنْـزِلَـةً مَنْ عَاشَ يَوماً سَلِيْماً غَيْرَ مَحْسُوْدِ

وقالَ أَبو عُبادَةَ [في « ديوانهِ » ١/ ٦٢٥ مِنَ الطويلِ] :

وَلَنْ تَسْتَبِيْنَ ٱلدَّهْرَ مَوْضِعَ نِعْمَةٍ إِذَا أَنْتَ لَمْ تُدْلَلْ عَلَيْهَا بِحَاسِدِ

---

(١) العَرانينُ : سادةُ الناسِ وأَشرافُهُم ، والعرنين : الأنف .
(٢) أم رُومانَ : زوجةُ سيِّدِنا أَبي بكرٍ الصديقِ ، وأُمُّ السيدةِ عائشةَ رضيَ اللهُ عنهُم .
(٣) أخرجه البخاري (٤١٤١) من حديث الإفك في المغازي .

وقالَ [في « ديوانهِ » ١/ ٥٥٧ مِنَ البسيطِ] :

أَنْ تُوجَدَ ٱلدَّهْرَ إِلاَّ عِنْدَ مَحْسُوْدِ   مُحَسَّدٌ، وَكَأَنَّ ٱلْمَكْرُمَاتِ أَبَتْ

وقالَ [في « ديوانهِ » ١/ ٤٩٦ مِنَ البسيطِ] :

وَلَيْسَ تَفْتَرِقُ ٱلنَّعْمَاءُ وَٱلْحَسَدُ   مُحَسَّـدٌ بِخِـلاَلٍ فِيْـهِ فَـاضِلَـةٍ

وقالَ [في « ديوانه » ١/ ٦٠٠ مِنَ الخفيفِ] :

ـاسِ أَبْلَىٰ بِذِيْ عُلاً مِنْ حَسُودِهْ   حَسَدٌ فِيْ ٱلْعُلَىٰ وَمَا فِيْ جَمِيْعِ ٱلنَّـ

وقالَ [في « ديوانهِ » ١/ ٦١١ مِنَ البسيطِ] :

مَشْهُـوْرَةً تَـدَعُ الآبَـاءَ حُسَّـادَا!   [وَكَمْ] أَنَافَتْ مِنَ ٱلأَبْنَاءِ مَكْرُمَةً

وقالَ [في « ديوانهِ » ٣/ ١٧٦٦ مِنَ الخفيفِ] :

ـلُ لَـدَيْـهِ بِـٱلْحَاسِـدِيْـنَ دَلِيْـلاَ   وَكَفَانِيْ عَلَىٰ ٱلَّذِيْ يُوْجَدُ ٱلْفَضْـ

الأئمـة والعلمـاء والافتراء عليهم

وما أُتِيَ ٱلْخليفَةُ الرابعُ وأَهلُ بيتهِ . . إلاَّ مِنْ هَـٰذَا البابِ .

ولا يخفىٰ ما قاساهُ أَبو حنيفةَ .

وما كانَ مِنِ ٱختفاءِ الإِمامِ مالكٍ في بيتهِ رُبُعَ قرنٍ .

وما جرىٰ علىٰ أَبي عبدِ اللهِ ٱبنِ حنبلٍ مِنَ ٱلضَّرْبِ والحبْسِ والإِهَانَةِ .

وما عاناهُ البخاريُّ حَتَّىٰ ضاقَتْ بهِ الأَرضُ فَدَعَا بالموتِ .

ونُفِيَ أَبو يزيدَ البسطاميُّ سبعَ مرَّاتٍ بِوِشَايَاتِ علماءِ السوءِ .

وشيَّعوا ذَا النونِ المصريَّ مقيَّداً مغلولاً مِن (مصرَ) إِلىٰ (بغدادَ) ، وسارَ معهُ جماعَةٌ مِن المصريينَ يشهدونَ بالزندَقةِ عليهِ .

وكانَ آخرُ سهمٍ في كنائِنِ الحسَّادِ لِسُحْنونَ أَنِ ٱسْتَأْجَروا بغيّاً تدَّعي عليهِ أَنَّهُ يَأْتيها هوَ وأَصحابُهُ ، حَتَّىٰ ٱضطُرَّ إِلىٰ الانجماع في بيتهِ .

وكفَّروا سهْلاً التُّستَريَّ ، ونسبُوهُ إِلىٰ القبائِحِ حَتَّىٰ طَرَدوهُ مِن بلادِهِ .

ورَموا أَبا سَعيدٍ الخرَّازَ بِٱلدَّواهي .

وشَهِدوا علىٰ الجُنيدِ بالإِلحادِ ذاتَ المرَّاتِ .

ولـم ينـجُ الشبلـيُّ مِـن ٱلتَّكفيـرِ إِلاَّ بعـدَ أَن أَدخلَـهُ أَصحـابُـهُ البيمارستانَ[١] مدَّةً ، ريثَما ٱنكفَّ عنهُ الناسُ ، وحرَّشوا سلطانَ (مِصرَ) علىٰ أَبي بكرٍ النابلسيِّ . . حَتَّىٰ أَمرَ بسلخِ جلدِهِ حيّاً ، فصارَ يقرأُ القرآنَ بتدبُّرٍ وخشوعٍ ، وَهُم يسلخونَهُ ، حَتَّىٰ كادَتْ تَقَطَّعُ القُلوبُ مِن مَرآهُ علىٰ تلكَ الحالِ .

وأَخرَجوا أَبا مَدينَ مِن (بجاية) بتهمَةِ الزَّندقَةِ .

وشَهِدوا بها علىٰ أَبي الحسنِ الشاذِليِّ ، حَتَّىٰ نُفيَ من (مِصرَ) .

وأَخرَجوا واحدَ عصرِهِ وسيِّدَ وقتِهِ ، أَبا عثمانَ المغربيَّ مِن (مكَّةَ) ، وضربوهُ ضرباً مبرِّحاً ، وطَافوا بهِ علىٰ جملٍ ، فأَقامَ بـ(بغدادَ) إِلىٰ أَنْ ماتَ .

---

(١) البيمارستان : لفظٌ فارسيٌّ مركَّبٌ مِن : (بيمار) ومعناها مريضٌ ، و(أستان) بمعنىٰ محلٌ . وتعني هذهِ الكلمةُ : المكانَ المعدَّ لمعالجةِ المرضىٰ ، وأَوَّلُ مَنْ أَقامَ البيمارستانَ مِنَ الخلفاءِ : الوليدُ بنُ عبدِ الملكِ ، وجاءَ ذكرُها في بعضِ المصادرِ بلفظِ (مارستان) .

وهيَّجوا السلطانَ علىٰ عزِّ الدينِ بنِ عبدِ السَّلامِ ، وعَقَدوا مجلِساً لرميهِ بالكفرِ ؛ مِن أَجلِ كلمَةٍ قالَها في عقيدَتِهِ .

وكتَبوا [كما في « وفيات الأعيان » ٣/ ٢٩٤] محضراً بـ(مِصْرَ) علىٰ أَبي الحسنِ الآمديِّ ، ينسبونَهُ إِلىٰ التعطيلِ وفسادِ العقيدَةِ ، وَوَضَعُوا عليهِ خُطوطَهم ، حَتَّىٰ انتهىٰ إِلىٰ رَجلٍ منهُم فيهِ عقلٌ ودينٌ ، فكتَبَ [مِنَ الكامل] :

حَسَدُوا ٱلْفَتَىٰ إِذْ لَمْ يَنَالُوا سَعْيَهُ   فَـٱلْقَـوْمُ أَعْـدَاءٌ لَـهُ وَخُصُـوْمُ

كتبهُ فلانُ بنُ فلانٍ .

ورَمَوا عبدَ الوهَّابِ السبكيَّ بالكفرِ ، وشربِ الخمرِ ، والفواحِشِ ، ولبْسِ الزنَّارِ بالليلِ ، وجاؤُوا بهِ مقيَّداً مغلولاً مِن (ٱلشَّامِ) إِلىٰ (مصرَ) ، حَتَّىٰ خرجَ جمالُ الدينِ الإِسنويُّ يتلقَّاهُ في الطريقِ ، ولولاهُ لأُريقَ دمُهُ .

والبابُ واسعٌ ، والشوطُ بطينٌ[1] .

أول ذنب عُصِيَ به الله تعالى هو الحسد

ومِنَ الناسِ مَن يعدُّ الحَسَدَ أَولَ ذنبٍ عُصِيَ بهِ الباري عزَّ وجلَّ ؛ لأَنَّ إِبليسَ لَم يمتَنِعْ عَنِ السجودِ لآدمَ . . إِلاَّ مِن أَجلِ ما اشتملَ عليهِ منهُ لهُ .

الجدار المنخفض تقفز عليه الكلاب

ثُمَّ لم يكنْ ما كانَ مِنِ ٱبنِ آدَمَ إِلىٰ أَخيهِ . . إِلاَّ عن نتيجتِهِ ، وسوءِ مغبَّتِهِ ، وللهِ في خلقهِ شؤونٌ ، فإِنَّ مدنيَّةَ الإِنسانِ بطبعِهِ . . تقتضي التآلفَ والتراحُمَ ؛ إِذ لا يستَتِبُّ للإِنسانِ أَمرُهُ إِلاَّ ببقاءِ نوعِهِ ، ولا يمكنُ لهُ قضاءُ رغباتِهِ إِلاَّ بمساعدَتِهم ، فكانَ من حقِّهِ أَن يحبَّهم

---

(١) البطينُ : الملآن .

ويَألَفَهم ؛ لِمَا لَهُ مِنَ المصلحَةِ في بقائِهِم ، فلنْ يحبَّ نفسَهُ إلاَّ بحبِّهم ؛ لأنَّ صلاحَهُ في صلاحِهِم ، غيرَ أنَّ حُبَّ الذاتِ قد يزيدُ فيخرجُ عَن حدِّهِ ، وكلُّ ما خرجَ عَن حدِّهِ . . رجَعَ إلىٰ ضدِّهِ ، فسادَ التخاصُمُ عَن منبتِ التراحُمِ ، ووقَعَ التناهُبُ في موضِعِ التواهُبِ ، ومنهُ تتبُّعُ الملوكِ عثراتِ رجالاتِهِم ، وٱبتغاؤُهُم الغوائِلَ لِعظماءِ أَتباعِهِم ؛ لأنَّ أُولئِكَ الفحولَ لا بُدَّ وَأَنْ يُذْلوا بِعَظائِمِ أَعمالِهِم ، ويعصمَهُم الشرفُ والأَنَفُ عن المَلَقِ والخُضوعِ ، وتأبىٰ نفوسُ المستبدِّينَ أَن ترىٰ لأحدٍ فضلاً ، وإنَّما تميلُ بطبيعتِها للمتصاغِرينَ المطبوعينَ علىٰ الخيانَةِ ، الذينَ لا ينفعونَ عندَ ٱرتباكِ الأحوالِ ، وٱضطرابِ الأهوالِ ؛ ولِهَـٰذا يسرعُ تقوُّضُ ممالِكِهم في الأَوساطِ الحرَّةِ ، وإنَّما تطولُ في الأُمَمِ الميتَةِ التي أَلِفَتِ الذلَّ وأَخذَتْ عليهِ ، ورَئِمَتِ الْهَوَانَ[1] وٱستنامَتْ إليهِ ، فـهـؤلاءِ الساقطونَ نعمةٌ علىٰ المستبدِّينَ مِن ملوكِ الجَورِ ، ولقمةٌ سائغةٌ لكلِّ آكلٍ .

الـذي ألـف الـذل والهوان مذموم

ولـٰكنَّهُم مذمومونَ في عينِ الشرعِ والعقلِ .

ذمه في الشرع

أَمَّا الشرعُ : فالباري جلَّ شأنُهُ يقولُ : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشورى : ٣٩] .

ويقولُ أَيضاً : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ۚ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾[النساء: ٩٧] .

ذمه في العقل وعزة الشعراء

وأَمَّا العقلُ : فقد قالَ المتلمِّسُ [في « ديوانه » ١٤٠ مِنَ الطَّويلِ] :

---

(١) رَئِمَ الهوانَ : أَلفَهُ وأحبَّه ولزِمهُ .

وَكُنَّا إِذَا ٱلْجَبَّارُ صَعَّرَ خَدَّهُ　　أَقَمْنَا لَهُ مِنْ خَدِّهِ مَا تَصَعَّرَا(١)

وقالَ الفرزدَقُ [في «ديوانهِ» ١/ ٢٤٠ مِنَ الطَّويلِ] :

وَكُنَّا إِذَا ٱلْجَبَّارُ صَعَّرَ خَدَّهُ　　ضَرَبْنَاهُ حَتَّىٰ تَسْتَقِيمَ ٱلأَخَادِعُ(٢)

وقالَ بشَّارٌ [في «ديوانهِ» ١/ ٣١٧ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا ٱلْمَلِكُ ٱلْجَبَّارُ صَعَّرَ خَدَّهُ　　مَشَيْنَا إِلَيْهِ بِٱلسُّيُوفِ نُخَاطِبُهْ

وقالَ ٱبنُ ظَبيانَ [في «الكامل» ٤/ ١٠٧ مِنَ الطويلِ] :

نُعَاطِيْ ٱلْمُلُوْكَ ٱلْحَقَّ مَا قَسَطُوْا لَنَا　　وَلَيْسَ عَلَيْنَا قَتْلُهُمْ بِمُحَرَّمِ

وقالَ نهارُ بنُ توسعةَ [في «الكامل» ٤/ ٣٠٣ مِنَ الوافرِ] :

إذا لَمْ يُعْطِنَا نِصْفاً أَمِيرٌ　　مَشَيْنَا نَحْوَهُ مَشْيَ ٱلأُسُوْدِ(٣)

وقالَ الشدَّاخُ [مِنَ الطَّويلِ] :

أَبَيْنَا فَلاَ نُعْطِيْ مَلِيْكاً ظُلاَمَةً　　وَلاَ سُوْقَةً إِلاَّ ٱلْوَشِيْجَ ٱلْمُقَوَّمَا(٤)

وَإِلاَّ حُسَاماً يَبْهَرُ ٱلْعَيْنَ لَمْحُهُ　　كَصَاعِقَةٍ مِنْ عَارِضٍ قَدْ تَبَسَّمَا

وقالَ آخرُ [عبيدُ بنُ الأبرصِ في «ديوانهِ» ٨٦ مِنَ البسيطِ] :

إِذَا تَخَمَّطَ جَبَّارٌ ثَنَوْهُ إِلَىٰ　　مَا يَشْتَهُوْنَ وَلاَ يُثْنَوْنَ إِنْ خَمِطُوْا(٥)

---

(١) صعَّرَ خدَّهُ : أَمالهُ عَن وجهةِ الناسِ ، ونظرَ إليهم تهاوناً بهم وٱستكباراً .

(٢) الأخادعُ ، هُما الأخدعانِ : عرقانِ في صفحةِ العنقِ .

(٣) النَّصْفُ : شقُّ الشيءِ ، أي تعطي من نفسكَ ما يستحقُّ من الحقِّ كما تأخذُهُ .

(٤) الوشيجُ : شجرُ الرِّماحِ .

(٥) خمطَ الرجلُ : غضبَ وتكبَّرَ وثارَ .

وقالَ الضبيُّ ـ أَبو الشعْرِ ـ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَكُنَّا إِذَا ٱلْجَبَّارُ بِالْجَيْشِ ضَافَنَا ... جَعَلْنَا ٱلْقَنَا وَٱلْمُرْهَفَاتِ لَهُ نُزْلاَ

وأَخرجَ مسلمٌ [في « صحيحه » ٢٨٩٨] : عن المستورد القرشيِّ أَنَّهُ قالَ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ يقولُ : « تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ والرومُ أَكثرُ الناسِ » . فقالَ لهُ عمرو بنُ العاصِ : أَبصِرْ ما تقولُ ، قالَ : أَقولُ ما سمعتُهُ مِن رسولِ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ، قالَ : لئِنْ قلْتَ ذلِكَ .. إنَّ فيهم لَخصالاً أَربعاً : إِنَّهُم لأَحلَمُ الناسِ عندَ فتنةٍ ، وأَسرعُهُم إِفاقةً بعدَ مصيبةٍ ، وأَوشكُهُم كَرَّةً بعدَ فَرَّةٍ ، وخيرُهم لمسكينٍ ويتيمٍ وَضَعيفٍ ، وخامسةٌ حسنةٌ جميلةٌ ، وأَمنعُهم مِن ظلمِ الملوكِ . وهَـٰذَا هُو موضعُ الشاهدِ .

لا يجلس تحت المحمِل إلا الجَمَل ولا يرضى بالدون إلا الدون

وقالَ بعضُ العرَبِ [مِنَ السريعِ] :

يُعْطِي زِمَامَ ٱلطَّوْعِ إِخْوَانَهُ ... وَيَلْتَوِي بِٱلْمَلِكِ ٱلْقَادِرِ

وقالَ بشَّارٌ [في « ديوانه » ٤/ ١٧٣ مِنَ الطَّويلِ] :

وَحَارِبْ إِذَا لَمْ تُعْطَ إِلاَّ ظُلاَمَةً ... شَبَا ٱلْحَرْبِ خَيْرٌ مِنْ قَبُولِ ٱلْمَظَالِمِ(١)

وقالَ الناظِمُ [في « العُكبَريّ » ٤/ ٩٢-٩٤ مِنَ الخفيفِ] :

لاَ ٱفْتِخَارٌ إِلاَّ لِمَنْ لاَ يُضَامُ ... مُدْرِكٌ أَوْ مُحَارِبٌ لاَ يَنَامُ

وَٱحْتِمَالُ ٱلأَذَىٰ وَرُؤْيَةُ جَانِيـ ... ـهِ غِذَاءٌ تَضْوَىٰ بِهِ ٱلأَجْسَامُ(٢)

---

(١) شبا ـ جمعُ شباةٍ ـ : وهيَ طرفُ السيفِ .

(٢) تضوىٰ : تهزلُ .

ذَلَّ مَـنْ يَغْبِـطُ ٱلـذَّلِيـلَ بِعَيْـشٍ   رُبَّ عَيْشٍ أَخَفُّ مِنْهُ ٱلْحِمَامُ[1]

مَـنْ يَهُـنْ يَسْهُـلِ ٱلْهَـوَانُ عَلَيْـهِ   مَـا لِجُـرْحٍ بِمَيِّـتٍ إِيـلَامُ

وقالَ [في « العُكبَريِّ » ٤/ ٢١٣ مِنَ البسيطِ] :

لاَ يُعْجِبَـنَّ مَضِيمـاً حُسْـنُ بِـزَّتِـهِ   وَهَلْ تَرُوقُ دَفِيناً جَوْدَةُ ٱلْكَفَنِ[2] ؟!

والكلامُ فيهِ يَطولُ ، فلنقِفْ بهِ عندَ حدِّهِ .

ضياع العالم بين الجاهلين

ولنعُدْ علىٰ البَدْءِ ، فنقولُ : ما أَشدَّ ضياعَ العالِمِ بينَ الجُهَّالِ ، حتَّىٰ قالَ بعضُهم في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ [النمل : ٢١] : لأَحبسنَّه معَ غيرِ جنْسِهِ ، والفاضلُ بينَ الحسَّادِ والمستبدِّينَ . . أَضيعُ مِنَ العالِمِ بينَ الجهَّالِ بكثيرٍ ، فَلا حرجَ علىٰ أَبي الطيِّبِ ؛ إذا تألَّم من أَهلِ زمانهِ إلىٰ هـٰذا الحدِّ ، ثُمَّ إنَّكَ لا تجدُ أَذِيَّةَ الأَحرارِ في الأَكثرِ الأَغلَبِ . . إلاَّ مِن أُولي قرابَتِهم ، وعبيدِ نعمتِهم ، وللهِ درُّ النَّاظِمِ في قولِهِ [في « العُكبَريِّ » ١/ ١٨٥ مِنَ الطَّويلِ] :

وَأَظْلَمُ أَهْلِ ٱلظُّلْمِ مَنْ بَاتَ حَاسِداً   لِمَـنْ بَـاتَ فِـيْ نَعْمَـائِـهِ يَتَقَلَّـبُ

أصل العداوة اصطناع المعروف إلى غير أهله

ويُؤَيِّدُهُ ما يُروىٰ عن سفيانَ مِنْ قولِهِ : ما وجدْنا أَصلَ كلِّ عداوَةٍ . . إلاَّ فِي ٱصطِناعِ المعروفِ إلىٰ اللئَامِ ، ومرَّ بعضُ ما يتَّصِلُ بهـٰذَا البحثِ أَواخِرَ المجلسِ الثاني ، وسيعادُ ذَرْوٌ منهُ أَواخرَ المجلسِ السادسَ عشرَ .

---

(١) الغبطةُ : تمني أن يكونَ لك مثلُ الخيرِ الذي عندَ الغيرِ من غيرِ أَن تتمنَّىٰ زواله عنه ، والمعنىٰ : أنه يتمنىٰ مثل حاله . الحِمامُ : الموت .

(٢) المضيمُ : المظلوم . البِزَّةُ : اللباسُ الحسنُ .

الحكم الشرعي في التشبيه الذي في بيت المطلع

والحاصلُ : أَنْ لا أُشنوعَةَ علىٰ الناظِمِ في تشبيهِهِ مُقامَهُ ـ بأَرضِ قومِهِ علىٰ الهضيمة والاضطهادِ ـ بمُقامِ المسيحِ بينَ اليهودِ ، ومُقامِ صالحٍ في ثمودَ ؛ لأَنَّ المشبَّهَ لا يكونُ مثلَ المشبَّهِ بهِ من سائِرِ جهاتِهِ ، وقدْ قالَ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ لعائشَةَ : « **كُنْتُ لَكِ كأَبِي زَرْعٍ لأُمِّ زَرْعٍ** »[1] مَعَ أَنَّهُ لَم يُحمد بينَ الأَخيرَينِ المآلُ .

وجزمَ ٱبنُ حجرٍ الهيتميُّ : بأَنَّهُ لا يكفُرُ معلِّمُ صبيانٍ قال : اليهودُ خيرٌ مِن المسلمينَ بكثيرٍ ؛ لأَنَّهم يَقْضونَ حقوقَ معلِّمي صِبْيانِهم ، إلاَّ إِنْ أَرادَ الخيريَّةَ المطلقَةَ ، وٱستقرَبَ عدمَ الكفرِ في حالَةِ الإِطلاقِ .

وذكرَ في « **تحفته** » : أَنَّ الكتابيَّةَ أَولىٰ بالتزوُّجِ مِن ٱلْمسلِمَةِ التي لا تصلِّي .

وثبتَ [كما في « البداية والنهاية » ٧/١٥٣] : أَنَّ عثمانَ [بن عفان رضي الله عنه] تزوَّجَ [نائلة] بنتَ الفرافصَةِ الكلبيَّةَ ـ وهيَ علىٰ نصرانيَّتِها ـ ثُمَّ أَسلمَتْ وحسنَ إِسلامُها ، وكانَ مِن وفائِها لَهُ ما يحفَظُهُ التاريخُ .

قالَ ٱبنُ جريرٍ [في « تفسيره » ٢/٣٧٨] : وأَمَّا القولُ الذي رُويَ عَن شهرِ بنِ حَوشَبٍ ، عَنِ ٱبنِ عبَّاسٍ ، عنْ عمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُم : مِن تفريقِهِ بينَ طلحةَ وٱمرأَتِهِ اليهوديَّةِ ، وبينَ حذيفةَ بنِ اليمانِ وٱمرأَتِهِ النصرانيَّةِ . . فقولٌ لا معنىٰ لَهُ ؛ لخلافِهِ ما أَجمعَتْ علىٰ تحليلِهِ الأُمَّةُ

(١) أخرجه عن عائشة رضي الله عنها البخاري (٥١٨٩) في النكاح ، ومسلم (٢٤٤٨) في فضائل الصحابة .

بكتابِ اللهِ تعالىٰ ، وحديثِ رسولِهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ، وقد رُويَ عَن عمرَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ مِن ٱلقولِ بخلاَفِهِ ما هُوَ أَصحُّ منْهُ إسناداً .

ويأتي أَواخِرَ المجلسِ الثالثَ عشرَ ما يصحُّ أَنْ يُتمثَّل بهِ هُنا ؛ لِما فيهِ مِن ٱختيارِ الوحشِ علىٰ البَشَرِ ، فمِنْ أَيْنَ يَنفذُ الانتقادُ علىٰ الناظِمِ بعدَ ما ثبَتَ بلسانِ الفقَهاءِ تفضيلُ بعضِ الكتابيَّاتِ علىٰ بعضِ المسلماتِ ؟ فَلا يتسرَّع بمعاتبتهِ في ذلِكَ . . إلا مَن لا حجَّةَ لَهُ ، ولا رويّة عندَهُ .

ثُمَّ ألاَ ترىٰ أَنَّ القاضي عبدَ الوهَّابِ المالكيَّ : لَمَّا نَبَا بهِ (العراقُ) ، وجفتْهُ (بغدادُ) ، وضاقَتْ حالُهُ فيهِ ، وبَكَأَتْ[1] عليهِ مَجاري ٱلرِّزقِ بهِ . . قالَ [في « وفيات الأعيان » ٣/ ٢٢١ مِنَ البسيطِ] :

بَغْـدَادُ دَارٌ لأَهْـلِ ٱلْمَـالِ طَيِّبَـةٌ وَلِلْمَفَالِيْسِ دَارُ ٱلضَّنْكِ وَٱلضِّيْقِ
ظَلِلْتُ حَيْرَانَ أَمْشِيْ فِيْ أَزِقَّتِهَا كَأَنَّنِيْ مُصْحَفٌ فِيْ بَيْتِ زِنْدِيْقِ

فتشبيهُهُ إيَّاها بدارِ الزنديقِ ، معَ مَن فيها مِن ٱلعلَماءِ والأَولياءِ والصالحينَ . . لاَ يخرجُ عمَّا قالَهُ الناظمُ .

ويروىٰ : أَنَّ القاضِيَ المذكورَ ٱجتازَ في وجهِهِ ذلِكَ إِلىٰ (مصرَ) بـ(معرَّةِ النعمانِ) ، فقالَ فيهِ صديقُهُ أَبو العلاءِ [في « سقطِ الزندِ » ٢٩١ـ٢٩٢ مِنَ البسيطِ] :

وَٱلْمَالِكِيُّ ٱبْنُ نَصْرٍ زَارَ فِيْ سَفَرٍ بِلاَدَنَا فَحَمِدْنَا ٱلنَّأْيَ وَٱلسَّفَرَا
إِذَا تَفَقَّـهَ أَحْيَـا مَـالِكـاً جَـدَلاً وَيَنْشُرُ ٱلْمَلِكَ ٱلضِّلِّيْلَ إِنْ شَعَرَا[2]

---

(١) بكأَت : ضاقت وقلَّتْ .

(٢) مالكاً : أي مالكَ بنَ أنسٍ إمام دارِ الهجرةِ صاحب المذهب المشهور الملكُ =

وذكرهُ أيضاً في غيرِ هَـٰذَا الموضعِ مِن « ديوانِهِ » . ويُذكَرُ أنَّهُ لمَّا وردَ (مصرَ) . . أنثالَتْ[1] عليهِ البرَكاتُ ، ودرّتْ لَهُ الخيراتُ ، ولَـٰكِنْ لَم يلبثْ أنْ عاجَلَتْهُ المنيَّةُ ، مِنْ أَكْلَةٍ أكلَها .

وَهُوَ صَاحِبُ الجوابِ عَن سؤَالِ صاحبِهِ المعريِّ ، ونصُّ السؤَالِ [مِنَ البسيطِ] :

يَدٌ بِخَمْسِ مِئِينٍ عَسْجَدٍ وُدِيَتْ ... مَا بَالُهَا قُطِعَتْ فِيْ رُبْعِ دِيْنَارِ[2]

ونصُّ الجوابِ [مِنَ البسيطِ] :

عِـزُّ ٱلأَمَـانَـةِ أَغْـلاَهَـا، وَأَرْخَصَهَـا ... ذُلُّ ٱلْخِيَانَةِ، فَٱفْهَمْ حِكْمَةَ ٱلْبَارِيْ[3]

* * *

= الضِّلِّيلُ : امرؤُ القيسِ .

(١) أنثالت : أنصبَّت .

(٢) العسجدُ : الذهبُ . ومعنى السؤال : لو أنَّ إنساناً قطعَ يدَ إنسانٍ . . كان عليه نصف الديةِ ، فيكونُ ثمنُ اليدِ خمس مئةِ دينارٍ . ولو أنَّ إنساناً سرقَ ربع دينارٍ لآخرَ ـ وهو نصاب السرقة ـ قُطعت يدُهُ ، فيكونُ الثمنُ لليدِ ربع دينارٍ ؟ ويعادل قيمة (١) غراماً ذهباً خالصاً .

(٣) وحاصل الجواب: أن اليد حينما كانت عزيزة أمينة . . كانت صيانتها واجبة حتماً . . لأن الاعتداء عليها جريمةٌ فظيعة نكراء بخلاف ما إذا كانت خائنة بتعديها بالسرقة ـ والعياذ بالله ـ فإنها حينئذ تكون ذليلة مهانة لا قيمة لها . . ولذا جاء الشرع الحكيم بوجوب الاقتصاص بقطعها في ربع دينار فصاعداً . .

وقد لخَّص بعض الفضلاء ذلك بقوله :

لمّا كانت أمينةً كانت ثمينةً ؛ فلمّا خانَتْ هَانَتْ .

وفي البيت المذكور ردٌّ قويٌّ متين جداً . . فللّه درُّ هذا الإمام الذَّكيِّ والفقيه الأوحد الألمعي رحمه الله وأكرم مثواه . . وفي البيت كذلك إشارةٌ إلىٰ ما تواردت الشرائع جميعها علىٰ وجوب حفظه . . وهي الضروريات الخمس ومنها المال والنفس . . والله أعلم .

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ٣١٩ من الخفيف] :

مَفْرَشِيْ صَهْوَةُ ٱلْحِصَانِ وَلٰكِـــنَّ قَمِيْصِيْ مَسْرُوْدَةٌ مِنْ حَدِيْدِ

حكم المدح بما يشبه الذم عند المؤلف

يقولُ : موضعُ فِرَاشي ظهرُ الحصانِ ، و(**الصَّهْوَةُ**) : مقعدُ الفارسِ مِن ظهْرِ الفَرَسِ ، و(**المَسْرودَةُ**) : الدِّرعُ ، والاستدراكُ لا يَخلو مِن ٱلبُرودَةِ ؛ لأَنَّهُ لا يَخلو مكانُهُ إِلاَّ إِذا كانَ ظاهِرُهُ عدمَ التناسُبِ بِما قبلَهُ ، وركوبُ الحِصانِ يناسِبُ لُبسَ الدِّرعِ ، فٱنتفىٰ عنْهُ البديعُ بٱنتفاءِ ما يشبِهُ مِنهُ الذمَّ ، وبعضُهم لا يشترطُ ذلِكَ ، مستدلاًّ بقولِهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ : « **أَنا أَفْصَحُ ٱلْعَرَبِ ، بَيْدَ أَنِّيْ مِنْ قُرَيْشٍ** »(١) .

والصحيحُ [كما في « مغني اللَّبيب » ١/ ١٥٥] : أَنَّ (بيدَ) هُنا . . ليستْ بمعنىٰ (غيرَ) ، وإِنَّما هيَ بمعنىٰ مِنْ أَجلٍ ، فلا شاهِدَ لذلكَ البعضِ فيهِ ، فٱلمقبولُ في ٱلموضوعِ ـ كما سيأْتي توضيحُهُ في ٱلمجلسِ السَّادسَ عَشَرَ ـ إِنَّما هوَ ما كانَ مِنْ جنسِ قولِ النَّابغَةِ [الذُّبياني في « ديوانه » مِنَ الطَّويلِ] :

وَلاَ عَيْبَ فِيْهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوْفَهُمْ بِهِنَّ فُلُوْلٌ مِنْ قِرَاعِ ٱلْكَتَائِبِ

---

(١) قال العجلوني في « كشف الخفاء » (٦٠٩) : أورده أصحاب الغرائب ، ولا يعلم من أخرجه ولا إسناده ، وإن ذكره المحلي في شرح « جمع الجوامع » والآخذون منه .

وقولِ ٱبنِ الروميِّ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَلاَ عَيْبَ فِيْنَا غَيْرَ أَنَّ سَمَاحَنَا ... أَضَرَّ بِنَا وَٱلْبَأْسُ مِنْ كُلِّ جَانِبِ
فَأَفْنَىٰ ٱلرَّدَىٰ أَرْوَاحَنَا غَيْرَ ظَالِمٍ ... وَأَفْنَىٰ ٱلنَّدَىٰ أَمْوَالَنَا غَيْرَ عَائِبِ
أَبُوْنَا أَبٌ لَوْ كَانَ لِلنَّاسِ كُلِّهِمْ ... أَبٌ مِثْلُـهُ أَغْنَـاهُـمُ بِـٱلْمَنَـاقِـبِ

وقولِ الآخرِ [في « خزانة الأدب » ٢/ ٣٩٩ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلاَ عَيْبَ فِيْهِمْ غَيْرَ أَنَّ ضُيُوْفَهُمْ ... تُعَابُ بِنِسْيَانِ ٱلأَحِبَّةِ وَٱلْوَطَنْ

وقولِ بعضِهِم فيما يُشبِهُ ٱلمدحَ مِنْ تأكيدِ الذَّمِّ ، وقد ألطفَ فيهِ وهوَ [مِنَ الطَّويلِ] :

هُـوَ ٱلْكَلْـبُ إِلاَّ أَنَّ فِيْـهِ مَـلاَلَـةً ... وَسُوْءَ مُرَاعَاةٍ وَمَا ذَاكَ فِيْ ٱلْكَلْبِ

أصل بيت المتنبي

وبيتُ النَّاظمِ ناظرٌ إلىٰ قولِ عنترة [في « ديوانهِ » ٥٨ مِنَ الكاملِ] :

تُمْسِيْ وَتُصْبِحُ فَوْقَ ظَهْرِ حَشِيَّةٍ ... وَأَبِيْتُ فَوْقَ سَرَاةِ أَدْهَمَ مُلْجَمِ(١)
وَحَشِيَّتِيْ سَرْجٌ عَلَىٰ عَبْلِ ٱلشَّوَىٰ ... نَهْـدٌ مَـرَاكِلُـهُ نَبِيْـلُ ٱلْمِحْـزَمِ(٢)

الخيل والمديح فيها

وقد ذكرنا في غيرِ هـٰذا ٱلمجلسِ كثرةَ ما يفتخِرُ النَّاظِمُ بٱلفروسيَّةِ وٱلخَيلِ ؛ لِمَا لَهَا مِن ٱلهَيبةِ ، وما فيها مِنَ ٱلجمالِ ، وهيَ أفضلُ ذواتِ ٱلأربَعِ صورةً ، وأشبهُهَا بالإنسانِ في كرمِ الطبعِ ، وعلوِّ النفسِ .

---

(١) الحشيَّةُ : الفراشُ . سَراةُ كُلِّ شيءٍ : أعلاهُ .

(٢) عبل الشوىٰ : غليظ القَوامِ والعِظامِ ، ملتفُّ العصبِ . الشوى : القوائم . النهدُ : النافرُ الضخمُ . المراكلُ ، جمع مركلٍ وهوَ : حيثُ تبلغُ رِجلُ الرجلِ من الدابة . المِحزمُ : موضعُ الحزامِ .

وقد أثنىٰ ٱللهُ عليها في ٱلقرآنِ فقالَ : ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ﴾ [الأنفال : ٦٠] .

قيلَ : عَنىٰ بهِ الشَّياطينَ ، وأنَّها لا تدخُلُ بيتاً فيهِ فرسٌ ، كما لا تدخلُ الملائِكةُ بيتاً فيهِ كلْبٌ .

وأقسمَ اللهُ بخيلِ الغُزاةِ فقالَ : ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا * فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا * فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا﴾ [العاديات : ١-٣] . وكَفاها بذلِكَ شرفاً .

ونسيتُ ـ وما أنساني إلاَّ الشيطانُ ـ أَن أذكُرَ قولَهُ عزَّ ٱسمُهُ : ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا﴾ [العاديات : ٢] عندما تكلَّمْتُ علىٰ قولِهِ [في « العُكبَريّ » ١٧١/٣ مِنَ البسيطِ] :

أَنْكَحْتُ صُمَّ حَصَاهَا خُفَّ يَعْمَلَةٍ   تَغَشْمَرَتْ بِيْ إِلَيْكَ ٱلسَّهْلَ وَٱلْجَبَلاَ

فإنَّهُ أَشرفُ مِنْ كلِّ معنىً سُقناهُ هُناكَ .

وصحَّ قولُهُ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « ٱلْخَيْلُ مَعْقُوْدٌ بِنَواصِيْهَا ٱلْخَيْرُ ـ الأَجْرُ وَٱلمَغْنَمُ ـ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ »(١) .

وها هنا دقيقةٌ ، وهيَ أنَّهُ عليهِ السلامُ : قد أنبأَ عَن ٱختراعِ ٱلطَّيَّاراتِ وٱلسَّيَّاراتِ ، بما أَخرجَهُ عنهُ مسلمُ بنُ ٱلحجَّاجِ في « صحيحهِ » [(١٥٥) (٢٤٣)] : مِن طَوافِ المَسيحِ فِي الأَرضِ ، معَ

(١) أخرجه عن عروة البارقي رضي الله عنه البخاري (٣١١٩) في الخمس . قال الخطابي : فيه إشارة إلى أن المال الذي يكتسب باتخاذ الخيل من خير وجوه الأموال وأطيبها . وقال عياض : في الحديث مع وجيز لفظه من البلاغة والعذوبة ما لا مزيد عليه في الحسن ، مع الجناس السهل بين الخيل والخير .

استغنائِهِ عَن القِلاصِ[1] ، ولكنَّهُ أشارَ بالحديثِ السابِقِ إِلىٰ أَنْ لا غِنىٰ عَن الخيلِ ما اختلفَ المَلَوَانِ[2] ، وذلكَ مِمَّا يزيدُ الإيمانَ ، لأَنَّهُ المؤَكَّدُ بالحِسِّ والعِيانِ .

ومن فضيلةِ الخيلِ . . أَنَّهُ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ أَسْهَمَ لَها سهمينِ ، ولَم يجعلْ للمُسلِمِ إلاَّ سَهماً واحِداً[3] .

ويروىٰ : أَنَّهُ ـ صلواتُ اللهِ عليهِ وعلىٰ آلهِ ـ أَمْرَغَ[4] فرساً لَهُ ، ثُمَّ جعلَ يمسحُهُ بردائِهِ ، فقيلَ لَهُ في ذلِكَ . . فقالَ : « بِتُّ ٱلْبَارِحَةَ وَجِبْرِيْلُ يُعَاتِبُنِيْ فِيْ سِيَاسَةِ ٱلْخَيْلِ »[5] .

وصحَّ عنهُ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ أَنَّهُ قالَ : « مَنِ ٱحْتَبَسَ فَرَساً فِيْ سَبِيْلِ ٱللهِ إِيْمَاناً بِٱللهِ ، وَتَصْدِيْقاً بِمَوْعُوْدِ ٱللهِ . . كَانَ شِبَعُهُ وَرِيُّهُ وَرَوْثُهُ وَبَوْلُهُ حَسَناتٍ فِيْ مِيْزَانِهِ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ »[6] .

---

(1) ولفظه عند مسلم : « ولتتركن القِلاصُ فلا يُسعى عليها . . » من حديث أبي هريرة رضي الله عنه . والقلاص ـ جمع قلوص ـ : وهي من الإبل كالفتاة من النساء .

(2) الملَوانِ : الليلُ والنهارُ .

(3) أخرج عن ابن عمر رضي الله عنهما البخاري (٢٨٦٣) ، ومسلم (١٧٦٢) في الجهاد : (أن رسول الله صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ قسم في النَّفل للفرس سهمين ولصاحبه سهماً) . النَّفَل : الغنيمة .

(4) أَمرَغَ : قلَّبَهُ في التُّرابِ .

(5) الخبر لم نقف عليه ، والسياسة : القيام على الشيء بما يصلحهُ .

(6) أخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه الحاكم في « المستدرك » (٢/١٠١) ، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٠/١٦) في السبق ، وبنحوه عند البخاري (٢٣٧١) في المساقاة ، ومسلم (٩٨٧) في الزكاة، وطرفه : « الخيل ثلاثة : هي لرجل . . » .

وصحَّ عنهُ أنَّهُ قالَ : « مَا مِنْ فَرَسٍ عَربيٍّ ، إلاَّ يُؤْذَنُ لَهُ كُلَّ يوم بدَعْوَتَيْنِ ، يقولُ : اللَّهُمَّ ، كَمَا خَوَّلْتَنِيْ مَنْ خَوَّلْتَنِيْ ، فَٱجْعَلْنِيْ مِنْ أَحَبِّ مَالِهِ وَأَهْلِهِ إليْهِ »[1] .

وكانَتِ ٱلعَرَبُ لا تُهنِّىءُ إلاَّ بالولدِ ، فيقولونَ : ليَهْنِكَ الفَارِسُ .

وبالشاعِرِ : يقولونَ : ليَهْنِكَ مَن يذُبُّ عَن عرضِكَ .

وبٱلمُهرِ : يقولونَ : ليَهْنِكَ ما تدرِكُ بهِ الثأْرَ .

ولهم في تربيتِها ومزيدِ الاعتناءِ بها في الجاهليَّةِ والإسلامِ ما تنطقُ بهِ صوادِقُ الأَشعارِ .

الشعراء ومديح الخيل

قالَ طفيلٌ الغنويُّ [في « ديوانهِ » ٤٩ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلِلْخَيْلِ أَيَّامٌ فَمَنْ يَصْطَبِرْ لَهَا وَيَعْرِفْ لَهَا أَيَّامَهَا ٱلْخَيْرَ يُعْقَبِ

وقالَ رجلٌ مِن قريشٍ [مِنَ الخفيفِ] :

أَتَّقِيْ دُوْنَهُ ٱلْمَنَايَا بِنَفْسِيْ وَهُوَ يَغْشَىٰ بِنَا صُدُوْرَ ٱلْعَوَالِيْ
فَإِذَا مِتُّ كَانَ ذَاكَ تُرَاثِيْ وَسِخَالاً مَحْمُودَةً مِنْ سِخَالِيْ

وقالَ بعضُ بني عامرٍ [مِنَ الطَّويلِ] :

بَنِيْ عَامِرٍ ، إِنَّ ٱلْخُيُوْلَ وِقَايَةٌ لأَنْفُسِكُمْ وَٱلْمَوْتُ وَقْتٌ مُؤَجَّلُ
أَهِيْنُوا لَهَا مَا تُكْرِمُوْنَ وَبَاشِرُوْا صِيَانَتَهَا فَٱلصَّوْنُ لِلْخَيْلِ أَجْمَلُ
مَتَىٰ تُكْرِمُوْهَا يُكْرِمِ ٱلْمَرْءُ نَفْسَهُ وَكُلُّ ٱمْرِىءٍ مِنْ قَوْمِهِ حَيْثُ يَنْزِلُ

---

(١) أخرجه عن أبي ذر رضي الله عنه الحاكم في « المستدرك » (٢/ ١٠١) ، والبيهقي في « السنن الكبرى » (٦/ ٣٣٠) .

وقالَ لبيدٌ [في «ديوانه» ٣٥١ مِنَ الوافرِ] :

مَعَاقِلُنَا ٱلَّتِي نَأْوِي إِلَيْهَا ... بَنَاتُ ٱلأَعْوَجِيَّةِ وَالسُّيُوفُ(١)

وقالَ ٱبنُ عبَّاسٍ مُنْشِئاً أَوْ مُتَمَثِّلاً [كما في «المستطرف» ٢/ ٢٤٠ مِنَ الوافرِ]:

أَحِبُّوا ٱلْخَيْلَ وَٱصْطَبِرُوا عَلَيْهَا ... فَإِنَّ ٱلْعِزَّ فِيهَا وَٱلْجَمَالاَ

إِذَا مَا ٱلْخَيْلُ ضَيَّعَهَا أُنَاسٌ ... حَفِظْنَاهَا فَأَشْرَكَتِ ٱلْعِيَالاَ

وقالَ أعشىٰ بكرِ بنِ وائلٍ ـ يصفُ حسنَ اعتنائِهِ بفرسِهِ ـ [مِنَ الخفيفِ]:

وَقِيَامِي عَلَيْهِ غَيْرُ مُضِيعٍ ... دَائِماً بِٱلْغُدُوِّ وَٱلآصَالِ

ومِمَّا قالَهُ كعبٌ يومَ الخندقِ [مِنَ الوافرِ] :

خُيُولٌ لاَ تُضَاعُ إِذَا أُضِيعَتْ ... خُيُوْلُ ٱلنَّاسِ فِيْ ٱلسَّنَةِ ٱلْجَمَادِ

يُنَازِعْنَ ٱلأَعِنَّةَ مُصْغِيَاتٍ ... إِذَا نَادَىٰ إِلَىٰ ٱلْفَزَعِ ٱلْمُنَادِيْ

وقالَ حسَّانُ يذكُرُ الحارثَ بنَ هشامٍ ، وفرارَهُ عَن أخيهِ فِيْ يومِ بدرٍ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَرَاكَضَنَا تَحْتَ ٱلْعَجَاجَةِ حَارِثٌ ... عَلَىٰ ظَهْرِ جَرْدَاءٍ كَبَاسِقَةِ ٱلنَّخْلِ

يُقَلِّبُهَا طَوْراً وَطَوْراً يَحُثُّهَا ... وَيَعْدِلُهَا بِٱلنَّاسِ وَٱلْمَالِ وَٱلأَهْلِ

ولم ينسَ حظَّهُ الناظمُ مِن مثلِ هٰذا المعنىٰ ، فقالَ [في «العُكبَريِّ» ٣/ ٢٩٤ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَوْ لَمْ تَسِرْ سِرْنَا إِلَيْكَ بِأَنْفُسٍ ... غَرَائِبَ يُؤْثِرْنَ ٱلْجِيَادَ عَلَىٰ ٱلأَهْلِ(٢)

---

(١) الخيلُ الأعوجيَّةُ : منسوبةٌ إلى فرسٍ كانَ في الجاهليَّةِ .

(٢) غرائبُ: جمع غريبةٍ ؛ وهيَ : الغريبةُ منَ الناسِ بما حازت منَ الأخلاقِ التي لاتوجدُ في سواها .

وقالَ القحيفُ العجليُّ ـ أو رجلٌ مِن بني تميمٍ ـ وقد سأَلهُ فرسَهُ بعضُ الملوكِ [كما في « ديوان الحماسة » ١/ ٦٧ مِنَ الوافرِ] :

أَبَيْتَ ٱللَّعْـنَ إِنَّ سَكَـابِ عِلْـقٌ نَفِيْـسٌ لاَ يُعَـارُ وَلاَ يُبَـاعُ[١]
مُفَـدَّاةٌ مُكَـرَّمَـةٌ عَلَيْنَـا تُجَـاعُ لَهَـا ٱلْعِيَـالُ وَلاَ تُجَـاعُ
سَلِيْلَـةُ سَـابِقَيْـنِ تَنَـاجَـلاَهَـا إِذَا نُسِبَـا يَضُمُّهُمَـا ٱلْكُـرَاعُ[٢]
فَلاَ تَطْمَعْ ـ أَبَيْتَ ٱللَّعْنَ ـ فِيْهَا وَمَنْعُكَهَـا بِشَـيْءٍ مُسْتَطَـاعُ

وقالَ شاعرُ المعرَّةِ [في « سقطِ الزندِ » ٢٣٧ مِنَ الوافرِ] :

وَيَغْبِـقُ أَهْلَـهُ لَبَـنَ ٱلصَّفَـايَـا وَيَمْنَحُ قُوْتَ مُهْجَتِهِ ٱلْجَوَادَا[٣]

وقالَ أَيضاً [في « سقطِ الزندِ » ١٥٢ مِنَ الطَّويلِ] :

غَـذَاهُـنَّ مُحْمَـرَّ ٱلنَّجِيْـعِ قَـوَارِحـاً كَمَا كُنَّ يُغْذَيْنَ ٱلضَّرِيْبَ مِهَارَا[٤]

وقال [في « سقطِ الزندِ » ١٢٠ مِنَ الوافرِ] :

ذَكِـيُّ ٱلْقَلْـبِ يَخْضِبُهَـا نَجِيْعَـاً بِمَا جَعَلَ ٱلْحَرِيْرَ لَهَا جِلاَلاَ

---

(١) أبيتَ اللعنَ : تحيَّةٌ كانت تقالُ للملوكِ في الجاهليَّةِ . سَكابِ : أسمُ فرسهِ . العلقُ : الشيءُ النفيسُ . يقولُ : إنَّ فرسي متاعٌ نفيسٌ لا يعرَّضُ للبيعِ ولا يبذلُ للإعارةِ .

(٢) السليلُ : الولدُ . الكراعُ : هوَ في الأصلِ أنفٌ يتقدَّمُ في الجبلِ ، فسمِّيَ بهِ هذا الفحلُ لعظمِهِ .

(٣) الغَبوقُ : الشرابُ بالعشيِّ . الصفايا ـ جمع صفيَّةٍ ـ : وهيَ الناقةُ الغزيرةُ اللبنِ . والمعنىٰ : يؤثرُ فرسَهُ علىٰ نفسِهِ بالقوتِ .

(٤) النجيعِ : دم الجوف . القوارحُ : المنتهيةُ أَسنانُها . الضَّريبُ : اللبنُ الذي يُخلطُ حلوهُ بحامضهِ . يقولُ : إنَّما غذاها بالضريبِ بسببِ قلَّةِ اللبنِ .

وقالَ [في «سقطِ الزندِ» ١٢٠ مِنَ الوافرِ] :

وَأَعْظَمُ حَادِثٍ فَرَسٌ كَرِيمٌ　　يَكُونُ مَلِيكُهُ رَجُلاً شَحِيْحَا

وهي أشرفُ المراكِبِ .

وأخرجَ النَّسَائِيُّ [في «سننه» ٦/٢١٤] مِن حديثِ سلمةَ بنِ نُفيلٍ السَّكُونيِّ : (أَنَّ النبيَّ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ نَهَىٰ عَن إِذَالَةِ الخيلِ) ؛ وهوَ امتهانُها في الحَملِ عَليها .

وقالَ بعضُهُم [مِنَ الخفيفِ] :

أَطْيَبُ الطَّيِّبَاتِ قَتْلُ الأَعَادِيْ　　وَرُكُوْبٌ عَلَىٰ ظُهُورِ الْجِيَادِ
وَرَسُولٌ يَأْتِيْ بِوَعْدِ حَبِيْبٍ　　وَحَبِيْبٌ يَأْتِيْ بِلاَ مِيْعَادِ

وقالَ ابنُ عقبةَ [مِنَ الكاملِ] :

وَقَسَمْتُ حَالاَتِيْ ثَلاَثاً مِثْلَمَا　　قَدْ كَانَ قَسَّمَهَا أَبِيْ الشَّهْمُ السَّرِيْ
كَرَمٌ تَدِيْنُ لَهُ الأَنَامُ وَحَالَةٌ　　ظَهْرُ الْحِصَانِ وَحَالَةٌ لِلْمِنْبَرِ
وَتَخِذْتُ أَصْحَاباً إِذا نَادَمْتُهُمْ　　لَمْ أَخْشَ مِنْهُمْ مَنْ يَنُمُّ وَيَفْتَرِيْ
عِلْمِيْ وَحِلْمِيْ وَالْحِصَانُ وَصَارِمِيْ　　وَنَدَىٰ يَمِيْنِيْ وَالْعَفَافُ وَدَفْتَرِيْ

وقالَ الناظِمُ [في «العُكبَرِيِّ» ٤/ ١٧٥ مِنَ الكاملِ] :

تَخِذُوْا الْمَجَالِسَ فِيْ الْبُيُوتِ وَعِنْدَهُ　　أَنَّ السُّرُوْجَ مَوَاضِعُ الْفِتْيَانِ

وقالَ [في «العُكبَرِيِّ» ١/ ٢٣٠ مِنَ الكاملِ] :

فَكَأَنَّهَا نُتِجَتْ قِيَاماً تَحْتَهُمْ　　وَكَأَنَّهُمْ وُلِدُوْا عَلَىٰ صَهَوَاتِهَا

وَقالَ [في «العُكبَرِيِّ» ١/ ١٩٣ مِنَ الطَّويلِ] :

أَعَزُّ عَزِيْزٍ فِي الدُّنَىٰ سَرْجُ سَابِحٍ　　وَخَيْرُ جَلِيْسٍ فِي الزَّمَانِ كِتَابُ

وَلا يبعُدُ عنهُ قولُهُ [في « العُكبَريّ » ٤/١٧٩ مِنَ الكاملِ] :

مُتَفَيِّئِينَ ظِلالَ كُلِّ مُطَهَّمٍ ... أَجَلِ الظَّلِيمِ وَرِبقَةِ السِّرْحَانِ[1]

وَرَأَيتُ بعضَ أَهلِ (اليمنِ) يقولُ [مِنَ الطَّويلِ] :

رَكِبْنَا الْمَطَايَا وَالْجِيَادَ فَلَمْ نَجِدْ ... أَلَذَّ وَأَشْهَىٰ مِنْ رُكُوبِ الْمَوَاتِرِ[2]

وفيهِ أَشياءُ :

أَحدُها : أَنَّهُ بيتٌ قَديمٌ يعزىٰ للجِنِّ بلفظِهِ ، إلاَّ المواتِرُ ، فَفي بيتِ الجِنِّ مكانَها الأَرانِبُ ، وهُو مشكلٌ بأَنَّ الجنَّ تجتَنِبُها من أَجلِ الحيضِ ، ولهَـٰذَا كانَتْ العربُ تعلِّقُ كعبَها فِي رِجلِ الطفْلِ ، كالمَعاذَةِ ، ثم رأَيتُه في « شرحِ القاموسِ » ـ رواهُ عَن ثعلبٍ ـ بإبدالِ الأَرانِبِ بالثعالِبِ ، وهُوَ ظاهرٌ إِذَن .

ثانيها : أَنَّ مراجيحَ الأَبطالِ والعجائزِ سواءٌ في ركوبِ المواترِ ، ولا كذلِكَ في عتاقِ الخيلِ ، وقد قالَ الناظِمُ [في « العُكبَريّ » ٣/٣٧٣ مِنَ البسيطِ] :

وَشَرُّ مَا قَنَصَتْهُ رَاحَتِي قَنَصٌ ... شُهْبُ الْبُزَاةِ سَوَاءٌ فِيْهِ وَالرَّخَمُ[3]

وقد يجابُ عنهُ : بأَنَّ اليمانيَّ قالَ : أَلذَّ وأَشهىٰ ، وهَـٰذَا قد

---

(١) المطهَّمُ : الفرسُ التام ، كلُّ شيءٍ منه على حدتهِ ، فهوَ بارعُ الجمالِ . الظليمُ : ذكرُ النعامِ . السرحانُ : الذئبُ . الرِّبقةُ : ما يكونُ في رقبةِ الشاةِ تحبسُها من التصرُّفِ .

(٢) المَواتِرُ : كلمةٌ عاميَّةٌ يمنيَّةٌ ؛ المقصودُ بها السياراتُ .

(٣) البازي : من الفصيلة الصقرية وهو من طيور (مصر) النادرة . الرخمُ : طائرٌ أبقعُ ، يشبهُ النسرَ في الخلقةِ ، وهو طائر دنيء .

يكونُ ، وإنَّما يأتي الانتقادُ لو قالَ : أَعزَّ وأَعلىٰ .

ثالثُهَا : أَنَّ هَـٰذِهِ الملاحظةَ مِن جنسِ ملاحظتِنا علىٰ الإمامِ العينيِّ قولَهُ ـ في حديثِ : « فَضْلُ عَائِشَةَ عَلَىٰ ٱلنِّسَاءِ كَفَضْلِ ٱلثَّرِيْدِ عَلَىٰ سَائِرِ ٱلطَّعَامِ »[1] ، ما معناهُ ـ : إنَّ هـٰذا بالنسبةِ لذلكَ العهدِ ، أَمَّا الآنَ . . فقدْ أَحدَثُوا من الأَخبصَةِ ، والحلويَّاتِ ، والمطاعِمِ ، ما قد يُستَقَلُّ معَها الثريدُ . وقُلنا : داخلتْهُ عجمَةٌ ـ رحمةُ اللهِ عليهِ ـ وإلاَّ فالبُرُّ أَفضلُ الطعامِ ، واللَّحمُ أَفضلُ الإِدامِ ، لا يزالانِ كذلكَ إلىٰ يومِ القِيامِ ، وَما الثريدُ غيرُ البُرِّ مأدوماً بِاللحْمِ ؟! قالَ الشاعِرُ [في « تحفة الأحوذي » ١٠/ ٢٦١ مِنَ الوافر] :

إِذَا مَـا ٱلْبُـرُّ تَـأْدِمُـهُ بِلَحْـمٍ فَـذَاكَ أَمَـانَـةُ ٱللهِ ٱلثَّـرِيْـدُ

وكانَ البُرُّ يلبك لبابه بالشُّهاد[2] في عَهدِهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ . . فلَم يفضِّلْهُ علىٰ الثريدِ ، فلا فضْلَ في المَوَاتِرِ علىٰ عَنَاجِيْجِ الخَيلِ[3] . . إلاَّ عندَ مَن أَعشىٰ التمدُّنُ الممقوتُ بصرَهُ ، وغطَّىٰ علىٰ بصيرتِهِ ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلاَّ باللهِ .

قول الجاحظ في الكتاب

وعلىٰ ذكرِ مجالسةِ الكِتابِ في بعضِ ما جاءَ عَن ٱلناظِمِ . . ذكرْتُ قولَ الجاحِظِ : ما أَعلمُ جاراً أَبَرَّ ، ولا خليطاً أَنصفَ ، ولا رفيقاً أَطوعَ ، ولا معلِّماً أَخضعَ ، ولا صاحِباً أَظهَرَ كفايةً ، وأَقلَّ جنايَةً ،

---

(١) أخرجه عن أنس رضي الله عنه البخاري (٥٤١٨) في الأطعمة ، ومسلم (٢٤٤٦) في فضائل عائشة . وفي الباب : عن أبي موسى رضي الله عنه أخرجه أحمد (٤/ ٣٩٤) ، والبخاري (٣٤١١) ، ومسلم (٢٤٣١) ، والنسائي (٧/ ٦٨) .

(٢) الشُّهاد : العسلُ ما دامَ لَم يُعصَر مِن شمعِهِ .

(٣) عناجيجُ الخيلِ : جيادُها .

ولا أَقلَّ إبراماً ، ولا أنزرَ إملالاً ، ولا أنزهَ عَن رِيبَةٍ ، ولا أبعدَ عَن غِيبَةٍ ، ولا أكثرَ تصرُّفاً ، ولا أقلَّ تكلُّفاً ، ولا أتركَ للشَّغبِ ، ولا أزهَدَ في الجدالِ ، ولا أحسنَ مواتاةً ، ولا أعجَلَ مكافأةً ، ولا أحضَرَ معونةً ، ولا أيسرَ مُؤنةً . . . مِن كِتابٍ .

قول المؤلف في الكتاب

وصدقَ واللهِ فيما قالَ ، فلقد جرَّبتُهُ في نَفْسي ، ووجدْتُ مِن الأُنسِ بِهِ تعلَّةً عَن الذاهِبِ ، وسلوةً من الغائبِ ، وزهداً في الخائنِ ، وعزاءً عَن الحائنِ ، وقلتُ من قصيدةٍ [في « ديوان المؤلف » ٣٨٨ مِنَ البسيطِ] :

لِيْ غُنْيَةٌ بِمُنَاجَاةِ ٱلدَّفَاتِرِ عَنْ ... مَنْ لاَ يُنَاسِبُنِيْ مِنْ جُمْلَةِ ٱلنَّاسِ
قَدْ قُلْتُ نَاساً وَلَـٰكِنْ رُبَّمَا مُسِخُوْا ... فِيْ عَيْنِ كُلِّ بَصِيْرٍ جِيْلَ نَسْنَاسِ

وقالَ غيرِيْ [مِنَ الكاملِ] :

نِعْمَ ٱلْمُحَدِّثُ وَٱلْجَلِيْسُ كِتَابُ ... تَلْهُوْ بِهِ إِنْ خَانَكَ ٱلأَصْحَابُ
لاَ مُفْشِيَاً سِرّاً إِذَا ٱسْتَوْدَعْتَهُ ... وَتُفَادُ مِنْهُ حِكْمَةٌ وَصَوَابُ

وقالَ الجرجانيُّ [مِنَ الخفيفِ] :

لَمْ أَجِدْ لَذَّةَ ٱلسَّلاَمَةِ حَتَّىٰ ... صِرْتُ لِلْبَيْتِ وَٱلْكِتَابِ جَلِيْسَا

وقد سبقَ بعضُ ما يتعلَّقُ بالخيلِ في المجلسِ الرابعِ ، عندَ الكلامِ علىٰ قولِهِ [في « العُكبَريّ » ٣/ ١٦٢ مِنَ الطَّويلِ] :

وَذَرْنِيْ وَإِيَّاهُ وَطِرْفِيْ وَذَابِلِيْ ... نَكُنْ وَاحِداً يَلْقَىٰ ٱلْوَرَىٰ وَٱنْظُرَنْ فِعْلِيْ[1]

---

(١) الطِّرفُ : الفرسُ الكريمُ ، وجمعهُ ، طروفٌ . الذابلُ : ما اهتزَّ ولانَ من الرماحِ .

ويأتي ـ بحسَبِ كلِّ فرصَةٍ ـ ما يليقُ بِها مِن أَحوالِها إِنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

ولِتَقِيِّ الدينِ السبكيِّ جوابٌ عَن زَمانِ خلقِها ، وما يتعلَّقُ بهِ ، أَضربْتُ عنهُ ؛ لأَنَّ صدري لَم ينشرِحْ لما ذكرَ في أَدِلَّتِهِ ، وهُوَ موجودٌ برمَّتِهِ في « حياةِ الحيوانِ » [١/ ٢٨٠ـ٢٨٦] للدميريِّ .

* * *

[قالَ أبو الطَّيبِ المتنبِّي في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ٣٢١ مِنَ الخفيفِ] :

عِشْ عَزِيْزاً أَوْ مُتْ وَأَنْتَ كَرِيْمٌ   بَيْنَ طَعْنِ ٱلْقَنَا وَخَفْقِ ٱلْبُنُوْدِ

الحياة السعيدة أو الموت العزيز

(البنود) : الأعلامُ الكبيرَةُ ، والباقي معروفٌ ، والمعنىٰ متداوَلٌ بينَ الشعَراءِ ، جاهليَّةً وإسلاماً ، فمِنْهُ قولُ الحُصينِ بنِ حُمامٍ المُريِّ ، وقد سبقَ في غيرِ هَـٰذَا المجلسِ [كما في « الأغاني » ١٤/ ١١ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَسْتُ بِمُبْتَاعِ ٱلْحَيَاةِ بِذِلَّةٍ   وَلاَ مُرْتَقٍ مِنْ خَشْيَةِ ٱلْمَوْتِ سُلَّمَا

وقالَ ٱبنُ ميَّادَةَ [في « ديوانِهِ » ٢١٣ مِنَ الطَّويلِ] :

فَلَلْمَوْتُ خَيْرٌ مِنْ حَيَاةٍ ذَمِيْمَةٍ   وَلَلْبُخْلُ خَيْرٌ مِنْ عَنَاءٍ مُطَوَّلِ

وقالَ سليمانُ بنُ قتةَ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَإِنَّ الأُلَىٰ بِٱلطَّفِّ مِنْ آلِ هَاشِمٍ   تَآسَّوْا فَسَنُّوْا لِلْكِرَامِ ٱلتَّآسِّيَا[1]

وقد تمثَّلَ بهِ مصعبُ بنُ الزبيرِ يومَ زاحفَهُ عبدُ الملكِ بنُ مروانَ[2] ، وكانَ من حديثِهِ [كما في « الكامل » ٤/ ١٠٧ بنحوه] : أَنَّهُ لمَّا خذَلَهُ أَصحابُهُ ، وتقاعَدَ عنهُ عسكرُهُ ، وخفَّ عنهُ رجالُهُ . أَرسلَ إليهِ عبدُ الملكِ أَخاهُ محمَّد بنَ مروانَ يعرضُ عليهِ الأَمانَ ، وولايةَ (العِراقَينِ) أَبداً ما دامَ حيّاً ، وأَلفَي أَلفِ درهمٍ صلَةً ، فأَبىٰ ،

---

(١) الطَّفُّ : موضع قرب (الكوفة) ، فيه قتل سيدنا الحسين رضي الله عنه .

(٢) في وقعة (دير الجاثليق) .

وقالَ : إنَّ مِثْلي لا ينصرفُ عن هَـٰذَا المكانِ إلاَّ غَالباً ، أو مقتولاً ، فشدَّ عليهِ أَهلُ الشامِ ، حَتَّىٰ طعنَهُ زائِدةُ بنُ قيسِ بنِ قدامةَ السعديُّ ، ونادىٰ يا لَثاراتِ المختارِ ، فنزلَ إِليهِ ٱبنُ ظبيانَ ، واحتزَّ رأْسَهُ ، وحملَهُ إِلىٰ عبدِ الملكِ ، فبكىٰ ، وقالَ : لقد كانَ أَحبَّ الناسِ إِليَّ ، وأَشدَّهُم مودَّةً لي ، وَلَـٰكِنَّ المُلْكَ عقيمٌ .

وقالَ عبدُ الملكِ مرَّةً لجلسائِهِ : مَن أَشجَعُ الناسِ ؟ فقالَ بعضُهم : قطريٌّ ، وقالَ بعضٌ : شبيبٌ ، وقالَ آخرُ : فلانٌ ، قالَ عبدُ الملكِ : بَلْ رجلٌ جَمَعَ بينَ سُكينَةَ بنتِ الحسينِ ، وعائِشَةَ بنتِ طلحَةَ ، وأَمَةِ الحميدِ بنتِ عبدِ اللهِ بنِ عامرِ بنِ كريزٍ ، وقِلابَةَ ٱبنةِ ريَّانَ بنِ أُنيفٍ الكلبيِّ ، وعُرِضَ عليهِ الأَمانُ ، وولايَةُ (ٱلعِرَاقَينِ) ما دامَ حيّاً ، وما في بيتِ المَالِ كلُّهُ فأَبىٰ ، ومشىٰ بسيفِهِ إِلىٰ الموتِ ، حَتَّىٰ قتِلَ ، ذاكَ مصعبُ بنُ الزبيرِ ، لا مَن قَطَعَ ٱلجسورَ مرَّةً إِلىٰ هُنا ، وأُخرىٰ إِلىٰ هُناكَ .

ولمَّا وُضعَ رأْسُهُ بينَ يديهِ . . أَنشدَ [كما في « تاريخ بغداد » ١٣/١٠٧ مِنَ الوافرِ] :

لَقَدْ أَرْدَىٰ ٱلْفَوَارِسُ يَوْمَ حِسْيٍ ... غُـلاَمـاً غَيْـرَ مَنَّـاعِ ٱلْمَتَـاعِ[١]
وَلاَ فَـرِحٍ بِخَيْـرٍ إِنْ أَتَـاهُ ... وَلاَ هَلِعٍ مِنَ ٱلْحَدَثَانِ لاَعِ[٢]
وَلاَ وَقَّـافَـةٍ وَٱلْخَيْـلُ تَـرْدِي ... وَلاَ خَـالٍ كَـأُنْبُـوبِ ٱلْيَـرَاعِ[٣]

---

(١) حِسْي : اسم موضع .
(٢) لاعِ : متوجِّعٌ .
(٣) الوقافة : المحجم عن القتال . واليراع ـ مفردها يراعة ـ : وهي القصبة التي يكتب بها قبل القلم .

وحسبُكَ بالهاشميِّينَ ذِكراً وشرفاً وفخراً . أَنَّ الأبطالَ تشجِّعُ بِهم نفوسَها ، وتتذَكَّرُ أَحوالَهم ؛ لتفرَّجَ بِهم بؤسَها ، وممَّا يستدرُّ إِعجابي ، ويمتلِىءُ بهِ إِهَابِيْ ، قولُ أَبي عُبادَةَ [في « ديوانهِ » ٣/ ١٩٥٢ مِنَ الطَّويلِ] :

بالهاشميين الأبطال تشجع أنفسها

وَمِنْ إِرْثِكُمْ أَعْطَتْ صَفِيَّةُ مُصْعَباً جَمِيْلَ ٱلأَسَىٰ لَمَّا ٱسْتُحِلَّتْ مَحَارِمُهْ
وَثُكْلُ ٱبْنِهِ مُوْفٍ عَلَىٰ ثُكْلِ نَفْسِهِ فَمَا كَانَ إِلاَّ صَبْرُهُ وَعَزَائِمُهْ
وَعُرْوَةُ إِذْ لاَ رِجْلُهُ ٱنصَرَفَتْ بِهِ وَقَدْ خَرِمَتْهُ فِي بَنِيْهِ خَوَارِمُهْ(١)
بَكَىٰ أَقْرَبُوْهُ شَجْوَهُ وَهْوَ ضَاحِكٌ يُعَزِّيْهِمُ حَتَّىٰ تَحَيَّرَ لاَئِمُهْ

وللهِ درُّهُ في قولِهِ [في « ديوانهِ » ٣/ ١٩٤٢ مِنَ الطَّويلِ] :

دَعَاهَا ٱلرَّدَىٰ بَعْدَ ٱلرَّدَىٰ فَتَتَابَعَتْ تَتَابُعَ مُنْبَتِّ ٱلْفَرِيْدِ ٱلْمُنَظَّمِ(٢)

وهو مثلُ قولِ كثيِّرِ ٱبنِ أَبي وداعَةَ [في « أخبار مكة » ٤/ ٦٠ مِنَ الخفيفِ] :

أَهْلُ بَيْتٍ تَتَابَعُوا لِلْمَنَايَا مَا عَلَىٰ ٱلْمَوْتِ بَعْدَهُمْ مِنْ عِتَابِ

وكانَ أَنسُ بنُ النضرِ مِمَّن وَفَّىٰ للهِ ، فـ[قد أخرج « البخاري » (٢٨٠٥) في (الجهاد) أنه] : ثبتَ في يومِ أُحدٍ حَتَّىٰ ٱستُشهِدَ ، وأَصابَهُ يومئِذٍ بضعٌ وستُّونَ ـ ما بينَ طعنَةٍ برمْحٍ وضربَةٍ بسيفٍ ـ ولم يعرفْهُ إِلاَّ أُختُهُ بِبنانِهِ .

صور من شجاعة الشجعان على مر الزمان

ويعجبُني قولُ بعضِهِم ـ وأَظنُّني قد سقتُهُ فيما سبقَ مِنَ ٱلْمَجالِسِ ـ [مِنَ الكاملِ] :

يَلْقَىٰ ٱلسُّيُوْفَ بِوَجْهِهِ وَبِنَحْرِهِ وَيُقِيْمُ هَامَتَهُ مَقَامَ ٱلْمِغْفَرِ

---

(١) خوارمه : خوارم الدهر مصائبه .
(٢) المنبتُّ : المقطوعُ . الفريدُ المنظَّمُ : العِقْدُ .

وَيَقُولُ لِلطِّرْفِ: ٱصْطَبِرْ لِشَبَا ٱلْقَنَا ... فَعَقَرْتَ رُكْنَ ٱلْمَجْدِ إِنْ لَمْ تُعْقَرِ
وَإِذَا تَأَمَّلَ شَخْصَ ضَيْفٍ مُقْبِلٍ ... مُتَسَرْبِلٍ أَثْوَابَ عَيْشٍ مُقْفِرِ
أَوْمَا إِلَىٰ ٱلْكَدْمَاءِ هَـٰذَا طَارِقٌ ... نَحَرَتْنِيَ ٱلأَعْدَاءُ إِنْ لَمْ أَنْحَرِ(١)

وذكرتُ بِهِ أَنَّ عتبةَ بنَ ربيعةَ ٱلتمسَ يومَ بدرٍ بيضَةً يدخلُها في رأسِهِ ، فلم يوجَدْ في الجَيشِ ـ معَ كثرتِهِ ـ بيضَةٌ تَسَعُ هامتَهُ مِن كِبَرِهَا ، فأَقامَ هامتَهُ مقامَ المِغْفَرِ ، واعتَجرَ(٢) ببردٍ لَهُ علىٰ رأْسِهِ ، وخرَجَ إِلىٰ ميدانِ المبارَزَةِ .

ويعجبُني قولُ ٱلشَّريفِ ٱلرَّضيِّ فيما يتعلَّقُ بمصعبِ بنِ ٱلزُّبيرِ [في « ديوانه » ٢/ ٨٥٧ مِنَ الطَّويلِ] :

وَقَدْ حَلَّقَتْ خَوْفَ ٱلْهَوَانِ بِمُصْعَبٍ ... قَـوَادِمُ آبَـاءٍ كِـرَامِ ٱلْمَقَـادِمِ(٣)
عَلَىٰ حِيْنَ أَعْطَوْهُ ٱلأَمَانَ فَعَافَهُ ... وَخُيِّرَ فَٱخْتَارَ ٱلرَّدَىٰ غَيْرَ نَادِمِ

وقالَ يزيدُ بنُ ٱلمهلَّبِ يذمُّ بعضَ ٱلهاربينَ : هَبُوهُ غُلبَ علىٰ ٱلمُلكِ ، فمَن غلبَهُ علىٰ ٱلموتِ ؟ فلمَّا كانَ يومُ ٱلعقر ، وٱمْترىٰ ٱلناسُ في قتلِهِ . . قالَ مسلمَةُ بنُ عبدِ ٱلملِكِ : ما كانَ وٱللهِ ليفرَّ يزيدُ ، فٱلتمَسوهُ في ٱلقَتْلىٰ ، وما كادوا يعرفُونَهُ إلاَّ بعدَ لأْيٍ مّا مِن كثْرَةِ ما أَصابَهُ .

ولمَّا قيلَ لهُ : هلاَّ تَبني لَكَ قصراً . . قالَ : هو مَبْنِيٌّ ، قَالوا : أَينَهُ ؟ قالَ : إمَّا دارُ ٱلإمارَةِ ، وإِمَّا ٱلسِّجْنُ ، وإِمَّا ٱلقبرُ .

---

(١) الكَدْماءُ : النعجةُ كثيرةُ اللحمِ .
(٢) اعتجرَ : لفَّ العمامةَ علىٰ رأْسهِ .
(٣) المقادم ـ جمعُ مَقْدَمٍ ـ : وهوَ مصدرُ (قَدِمَ) .

فأَخذَهُ أَبو فراسٍ ٱلحمدانيُّ في قولِهِ [في « ديوانهِ » ١٤٥ مِنَ الطَّويلِ] :

وَإِنَّـا أُنَـاسٌ لاَ تَـوَسُّـطَ عِنْـدَنَـا   لَنَا ٱلصَّدْرُ فِيْ كُلِّ ٱلأُمُوْرِ أَوِ ٱلْقَبْرُ

ويعجبُني فيهِ قولُ ٱلرَّضيِّ [في « ديوانهِ » ٢/ ٨٥٧ مِنَ الطَّويلِ] :

وَهَـٰذَا يَزِيْدُ بْنُ ٱلْمُهَلَّبِ نَافَرَتْ   بِهِ ٱلذُّلَّ أَعْرَاقُ ٱلْجُدُوْدِ ٱلأَكَارِمِ

فَقَـالَ وَقَـدْ عَـنَّ ٱلْفِـرَارُ أَوِ ٱلـرَّدَىٰ   لَحَا ٱللهُ أَخزَىٰ ذُكْرَةٍ فِيْ ٱلْمَوَاسِمِ

وَمَا غَمَرَاتُ ٱلْمَوْتِ إِلاَّ ٱنْغِمَاسَةٌ   وَلاَ ذِيْ ٱلْمَنَايَا غَيْرُ تَهْوِيْمِ نَائِمِ

رَأَىٰ أَنَّ ضَرْبَ ٱلسَّيْفِ أَهْوَنُ مَحْمَلاً   مِنَ ٱلْعَارِ يَبْقَىٰ وَسْمُهُ فِيْ ٱلْمَخَاطِمِ(١)

فَعَافَ ٱلدَّنَايَا وَٱمْتَطَىٰ ٱلْمَوْتَ شَامِخاً   بِمَـارِنِ عِـزٍّ لاَ يَـذِلُّ لِخَـاطِـمِ(٢)

وللهِ قولُ بعضِهم [مِنَ الطَّويلِ] :

وَلاَ بُدَّ أَنْ أَسْعَىٰ لأَشْرَفِ رُتْبَةٍ   وَأَمْنَعَ عَيْنَيْ عَنْ لَذِيْذِ مَنَامِيْ

وَأَقْتَحِمَ ٱلأَمْرَ ٱلْجَسِيْمَ بِحَيْثُ أَنْ   أَرَىٰ ٱلْمَوْتَ خَلْفِيْ تَارَةً وَأَمَامِيْ

فَإِمَّا مُقَاماً يَضْرِبُ ٱلْمَجْدُ وَسْطَهُ   سُـرَادِقَـهُ أَوْ بَـاكِيـاً لِحِمَـامِ

وَإِنْ أَنَا لَمْ أَبْلُغْ مَقَاماً أَرُوْمُهُ   فَكَمْ حَسَرَاتٍ فِيْ نُفُوْسِ كِرَامِ

وقولُ أَبي عُبادَةَ [في « ديوانهِ » ٢/ ٧٤٥ مِنَ الطَّويلِ] :

سَـأَحْمِـلُ نَفْسِـيْ عِنْـدَ كُـلِّ مُلِمَّـةٍ   عَلَىٰ مِثْلِ حَدِّ ٱلسَّيْفِ أَخْلَصَهُ ٱلْهِنْدُ

فَإِنْ عِشْتُ مَحْمُوداً فَمِثْلِيْ بَغَىٰ ٱلْغِنَىٰ   لِيَكْسِـبَ مَـالاً أَوْ يَنُثَّ لَـهُ حَمْـدُ(٣)

وَإِنْ مِتُّ لَمْ أَظْفَرْ فَلَيْسَ عَلَىٰ ٱمْرِىءٍ   غَـدَا طَـالِبـاً إِلاَّ تَقَصِّيْـهِ وَٱلْجُهْـدُ

---

(١) المَخاطِمُ : الأنوفُ .

(٢) المارِنُ : ما لانَ مِنَ الأنفِ . الخاطِمُ : القائِدُ .

(٣) النثُّ : نشرُ الحديثِ .

هدبة بن خشرم يستمهل السجان ليتم لعبته ثم يساق إلى القتل وسبب حبسه وقتله

وقد سبقَ في غيرِ هَـٰذَا المجلِسِ ذكرُ هدبةَ بنِ الخشرَمِ ، وأنَّهُ قالَ للسجَّانِ ـ لَمَّا جاءَ يؤذِنُهُ بعزمِهم علىٰ قتْلِهِ ـ : رويدَكَ حتَّىٰ أُتِمَّ لُعبَتي ، وكانَ يلعَبُ الشطرَنجَ ، فما ٱنزعَجَ ، ولاَ ٱندهَشَ ، ولاَ تغيَّرَ .

وكانَ من حديثِهِ : أنَّهُ قتلَ زيادَةَ بنَ زيدٍ العذريَّ ؛ لأنَّهُ شبَّبَ بأُختِهِ فاطمةَ ، وقالَ [مِنَ الرجزِ] :

عُوجِيْ عَلَيْنَا وَٱرْبَعِيْ يَا فَاطِمَا أَمَا تَرَيْنَ ٱلدَّمْعَ مِنِّيْ سَاجِمَا

فرُفِعَ إلىٰ سعيدِ بنِ العاصِ ، وكانَ أميرَ (المدينَةِ) ، وكانَ الذي رفعَهُ عبدُ الرحمٰنِ أخو زيادَةَ ، فكرِهَ الحُكمَ في القضيَّةِ سعيدٌ ، وأرسلَهُما إلىٰ معاويَةَ ، فلمَّا صارا بينَ يديهِ . . قالَ عبدُ الرحمٰنِ : يا أميرَ المؤمنينَ ، أشكو إليكَ مظْلَمَتي ، وقتلَ أخي ، فقالَ معاويَةُ : قلْ يا هدبَةُ ، قالَ : إنْ شئْتَ أنْ أقُصَّ علَيْكَ كلاماً ، أَو شعراً ؟ قالَ : لاَ ، بَلْ شِعراً ، فقالَ [في « ديوانه » ٩٥ـ٩٧ مِنَ الطَّويلِ] :

أَلاَ يَـا لَقَـوْمِـيْ لِلنَّـوَائِـبِ وَٱلـدَّهْـرِ وَلِلْمَرْءُ يُرْدِيْ نَفْسَهُ وَهْوَ لاَ يَدْرِيْ
وَلِلأَرْضِ كَمْ مِنْ صَالِحٍ قَدْ تَلاَءَمَتْ عَلَيْـهِ وَوَارَتْـهُ بِلَمَّـاعَـةٍ قَفْـرِ
فَـلا ذَا جَـلاَلٍ هِبْنَـهُ لِجَـلاَلِـهِ وَلاَ ذَا ضَيَاعٍ هُنَّ يَتْرُكْنَ لِلْفَقْرِ[1]

إلىٰ أنْ قالَ [في « ديوانه » ٩٧ـ٩٨ مِنَ الطَّويلِ] :

فَلَمَّـا رَأَيْـتُ أَنَّمَـا هِـيَ ضَـرْبَـةٌ مِنَ ٱلسَّيْفِ أَوْ إِغْضَاءُ عَيْنٍ عَلَىٰ وِتْرِ
عَمَـدْتُ لأَمْـرٍ لاَ يُعَيِّـرُ وَالِـدِيْ خِزَايَتُهُ حَيّاً وَلاَ وَهْوَ فِيْ ٱلْقَبْرِ

---

(١) الضياعُ : العيالُ ، وهو في الأصلِ : مصدرُ ضاعَ الشيءُ ، فسمَّاهم بهِ .

رُمِينَا فَرَامَيْنَا فَصَادَفَ سَهْمُنَا   مَنِيَّةَ نَفْسٍ فِيْ كِتَابٍ عَلَىٰ قَدْرِ
وَأَنْـتَ أَمِيْـرُ ٱلْمُـؤْمِنِيْـنَ فَمَـا لَنَـا   وَرَاءَكَ مِنْ مَعْدٍ وَلاَ عَنْكَ مِنْ قَصْرِ[1]
فَإِنْ تَكُ فِيْ أَمْوَالِنَا لَمْ تَضِقْ بِهَا   ذِرَاعاً وَإِنْ صَبْرٌ فَنَصْبِرُ لِلصَّبْرِ

فقالَ لهُ معاويَةُ : أَراكَ قد أَقرَرْتَ يا هدبَةُ ، فقالَ عبدُ الرحمـٰنِ : أَقدْني ، فكرِهَ ذلِكَ معاويَةُ ، وضنَّ بهدبَةَ عنِ القتلِ ، وقالَ : أَلِزيادَةَ وَلدٌ ؟ قالَ : نعم ، قالَ : أَصغيرٌ أَم كبيرٌ ؟ قالَ : بَل صغيرٌ ، قالَ : يحبسُ هدبَةُ إِلىٰ أَن يبلغَ ابنُ زيادَةَ ، فأَرسلَهُ إِلىٰ (المدينَةِ) . . فحُبسَ بِها سبعَ سنينَ ، فلمَّا بلغَ ابنُ زيادَةَ . . عُرِضَ عليهِ عشرُ دِياتٍ ، فكادَ أَنْ يرضىٰ ، فقالَتْ أُمُّهُ : أُعطِي اللهَ عهداً ، لئِنْ لم تقتلْهُ . . لأَتزوجنَّهُ ، فيكونُ قد قتلَ أَباكَ ، ونكحَ أُمَّكَ ، وكانَ مِمَّن عرضَ عليهِ الدياتِ : الحسينُ بنُ عليٍّ ، وعبدُ اللهِ بنُ جعفرٍ ، وعبَيدُ اللهِ بنُ العبَّاسِ ، وسعيدُ بنُ العاصِ ، ومروانُ بنُ الحكَمِ ، وغيرُهم ، ولمَّا ذُهِبَ بهِ إِلىٰ (الحرَّةِ) ليُقتلَ . . لقيَهُ عبدُ الرحمٰنِ بنُ حسَّانَ ، فقالَ لهُ : أَنشدْني ، فقالَ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَسْتُ بِمِفْرَاحٍ إِذا ٱلدَّهْرُ سَرَّنِيْ   وَلاَ جَازِعٍ مِنْ صَرْفِهِ ٱلْمُتَقَلِّبِ
وَلاَ أَتَمَنَّـىٰ ٱلشَّـرَّ وَٱلشَّـرُّ تَـارِكِـيْ   وَلَـٰكِنْ مَتَىٰ أُحْمَلْ عَلَىٰ ٱلشَّرِّ أَرْكَبِ

وقالَ [الأبياتُ لأَبي الطمحانِ القينيِّ كما في « ديوان الحماسة » ٢/ ٨٣ الطويل] :

أَلاَ عَلِّـلاَنِـيْ قَبْـلَ نَـوْحِ ٱلنَّـوَائِـحِ   وَقَبْلَ ٱرْتِقَاءِ ٱلنَّفْسِ فَوْقَ ٱلْجَوانِحِ
وَقَبْلَ غَدٍ يَا لَهْفَ نَفْسِيْ عَلَىٰ غَدٍ   إِذَا رَاحَ أَصْحَابِيْ وَلَسْتُ بِرَائِحِ

(١) من مَعْدٍ : من متجاوَزٍ إلىٰ غيرِك .

إِذَا رَاحَ أَصْحَابِيْ تَفِيْضُ عُيُوْنُهُمْ وَغُوْدِرْتُ فِيْ لَحْدٍ ثَقِيْلِ ٱلصَّفَائِحِ
يَقُولُونَ هَلْ أَصْلَحْتُمُ لأَخِيْكُمُ؟ وَمَا ٱلْقَبْرُ فِيْ ٱلأَرْضِ ٱلْفَضَاءِ بِصَالِحِ

ونظرَ إلىٰ ٱمرأتِهِ وهِيَ تبْكي . . فقالَ [مِنَ الطَّويلِ] :

أَقِلِّيْ عَلَيَّ ٱللَّوْمَ يَا أُمَّ بَوْزَعَا وَلاَ تَجْزَعِيْ مِمَّا أَصَابَ فَأَوْجَعَا
وَلاَ تَنْكِحِيْ إِنْ فَرَّقَ ٱلدَّهْرُ بَيْنَنَا أَغَمَّ ٱلْقَفَا وَٱلرَّأْسِ لَيْسَ بِأَنْزَعَا[1]

فسألَتِ القومَ أَنْ يمهلوهُ ، ثُمَّ أَتَتْ جزَّاراً ، فأَخذَتْ منهُ مُديَةً ، فجدعَتْ أَنفَها ، ثُمَّ أَتَتْهُ مجدوعَةَ الأنفِ ، وقالَتْ : أَهٰذَا فعلُ مَن لها حاجةٌ بالرِّجالِ ؟ قالَ : أَمَّا الآنَ . . فقد طابَ الموتُ ، وٱلتفتَ إلىٰ أبويهِ وهُما يبكيانِ ، فقالَ [مِنَ الرَّمَلِ] :

أَبْلِيَانِي ٱلْيَوْمَ صَبْراً مِنْكُمَا إِنَّ حُزْناً مِنْكُمَا ٱلْيَوْمَ لَشَرّ
مَا أَظُنُّ ٱلْمَوْتَ إِلاَّ هَيِّناً إِنَّ بَعْدَ ٱلْمَوْتِ دَارَ ٱلْمُسْتَقَرّ

ثُمَّ قالَ [مِنَ الطَّويلِ] :

أَذَا ٱلْعَرْشِ إِنِّي عَائِذٌ بِكَ مُؤْمِنٌ مُقِرٌّ بِزَلاَّتِيْ إِلَيْكَ فَقِيْرُ
وَإِنِّي وَإِنْ قَالُوا : أَمِيْرٌ مُسَلَّطٌ وَحَجَّابُ أَبْوَابٍ لَهُنَّ صَرِيْرُ[2]
لأَعْلَمُ أَنَّ ٱلأَمْرَ أَمْرُكَ إِنْ تُدِنْ فَعَدْلٌ وَإِنْ تَغْفِرْ فَأَنْتَ غَفُوْرُ

ثُمَّ ٱلتفتَ إلىٰ ٱبنِ زيادةَ وقالَ [مِنَ الطَّويلِ] :

فَإِنْ تَقْتُلُونِيْ فِيْ ٱلْحَدِيْدِ فَإِنَّنِيْ قَتَلْتُ أَبَاكُمْ مُطْلَقاً لَمْ يُقَيَّدِ

---

(١) أغمَّ ٱلقفَا ـ من الغمِّ ـ : وهو سيلانُ الشعرِ للجبهةِ . الأنزعُ : هوَ الذي ٱنحسَر شعره عَن جانبَيْ جبهتِهِ وموضعِهِ .
(٢) الصَّريرُ : صوتُ البابِ ، وهوَ كنايةٌ عنِ البخلِ ؛ لأنَّ البابَ الذي لا يُفتحُ إلاَّ بينَ الحينِ والآخرِ يكونُ لهُ هذا الصريرُ ، أمَّا الكريمُ . . فلا صوتَ لبابِهِ .

ثُمَّ ضُربَتْ عنقُهُ ، وكانَ أَرسَلَ إِلىٰ أُمِّ سلمَةَ - زوجِ النبيِّ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ - أَن تستغفِرَ لهُ ، فلمَّا قُتلَ . . ٱستغفرَتْ لهُ .

وكانَتْ دِرْعُ عليِّ ٱبنِ أَبي طالبٍ صدراً لاَ ظهْرَ لَها ، فقيلَ لَهُ : أَمَا تخافُ أَنْ تُؤتَىٰ مِنْ قِبَلِ ظهرِكَ ؟ قالَ : إِذا أَمكنْتُ عدوِّي مِن ظَهري . . فَلا أَبقَىٰ اللهُ عليَّ ، فهو الأَحقُّ ، بقولِ الحُصينِ بنِ الحُمامِ [في « ديوان الحماسة » ١/ ٦١ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَسْنَا عَلَىٰ ٱلأَعْقَابِ تَدْمَىٰ كُلُومُنَا   وَلَـٰكِنْ عَلَىٰ أَقْدَامِنَا تَقْطُرُ ٱلدِّمَا

وقالَ ٱلبُحتريُّ أَو ٱلببَّغا [الببغا في « قرى الضيف » ١/ ٣٢٧ مِنَ البسيطِ] :

يَلْقَىٰ ٱلرِّمَاحَ بِصَدْرٍ مِنْهُ لَيسَ لَهُ   ظَهْرٌ وَهَادِيْ جَوَادٍ مَا لَهُ كَفَلُ

وقالَ العلويُّ [مِنَ الطَّويلِ] :

مُحَرَّمَةٌ أَكْفَالُ خَيْلِيْ عَلَىٰ ٱلْقَنَا   وَتَنْدَقُّ مِنْهُ فِيْ ٱلصُّدُوْرِ صُدُوْرُهَا

وأَخذَهُ الناظمُ فقالَ [في « العُكبَريّ » ١/ ٢٧١ مِنَ الطَّويلِ] :

مُحَرَّمَةٌ أَكْفَالُ خَيْلِيْ عَلَىٰ ٱلْقَنَا   مُحَلَّلَـةٌ لَبَّـاتُهَـا وَٱلْقَـلاَئِـدُ

وقالَ [في « العُكبريّ » ١/ ١٥٣ مِنَ الطَّويلِ] :

رَمَـوْا بِنَـواصِيهَـا ٱلْقِسِـيَّ فَجِئْنَهَـا   دَوَامِيْ ٱلْهَوَادِيْ سَالِمَاتِ ٱلْجَوَانِبِ(١)

جحدر بن مالك وأسد الحجاج ورباطة جأشه

و[ذكر ابن كثير في « البداية والنهاية » ٩/ ١٢٥ أنه] : كانَ جَحدَرُ بنُ مالِكٍ فتَّاكاً شجاعاً ، فأَغارَ علىٰ أَهلِ (حجرٍ) وناحيتِها ، فبلغَ ذلِكَ الحجَّاجَ ، فكتبَ إِلىٰ عامِلِهِ باليمامَةِ يوبِّخُهُ بتلاعُبِ جحدرٍ عليهِ ،

---

(١) القسيُّ : جمع قوسٍ . الهواديُّ : الأعناقُ . النواصي - جمع ناصيةٍ - : وهو مقدَّم شعرِ الرأسِ ، ونواصي الناس : أشرافهم .

ويأمرُهُ بالاجتهادِ في طلبهِ ، فلمَّا وصَلَ إليهِ الكتابُ . . أرسلَ إلىٰ فتيَةٍ مِن بني يربوعٍ ، وجعلَ لَهم جُعْلاً عظيماً . . إنْ هُم قَدروا عليهِ ، فأرسلوا إليهِ يُظهرونَ أنَّهم خارجونَ لاحقونَ بهِ ، فاطمأنَّ إليهم ، وَوَثِقَ بِهم ، فلمَّا أصابوا منهُ غِرَّةً . . شدُّوه كِتافاً ، وقدِموا بهِ علىٰ العامِلِ ، فوجَّهَ بهِ معهم إلىٰ الحجَّاجِ ، فلمَّا أُدخِلَ عليهِ . . قالَ لهُ : مَن أنتَ ؟ قالَ : جَحدَرُ بنُ مالِكٍ ، قالَ : ما حملَكَ علىٰ ما كانَ منكَ ؟ قالَ : جفاءُ السُّلطانِ ، وجراَةُ الجَنانِ ، وكَلَبُ الزمانِ ، قالَ : وما بلغَ من جرأتِكَ ؟ قالَ : لو بَلاني الأَميرُ . . لَوَجدَني مِن صالِحي الأعْوانِ ، قالَ لَهُ : فإنَّا قاذفونَ بكَ في حائرٍ فيهِ أسَدٌ ضارٍ عاقِرٌ ، فإن هُوَ قتلَكَ . . فقد كفانا مَؤُنتَكَ ، وإنْ أنتَ قتلتَهُ . . خلَّينا سبيلَكَ ، قالَ : لقد عظُمَتِ المنَّةُ ، وقويتِ المحنةُ ، وأرسلَ وهُوَ في محنتِهِ إلىٰ (اليمَنِ) بقصيدتِهِ النونيَّةِ المشهورةِ ، التي يقولُ فيها ـ كما سبقَ ـ [مِنَ الوافرِ] :

أَلَيْسَ ٱللَّيْلُ يَجْمَعُ أُمَّ عَمْرٍو وَإِيَّانَا فَذَاكَ لَنَا تَدَانِي

ثُمَّ إنَّ الحجَّاجَ أجاعَ الأَسدَ أيّاماً ، وأرسلَ إلىٰ جَحدَرٍ ، فأُتِيَ بهِ مِن السجْنِ ، ويدُهُ اليمنىٰ مغلولَةٌ إلىٰ عنقِهِ ، وأُعطِيَ سيفاً ، وقُذِفَ بهِ إلىٰ حائرِ الأَسَدِ[1] ، والحجَّاجُ وجلساؤُهُ في منظرةٍ لَهم تشرفُ علَيهِ ، فلمَّا نظرَ جَحدَرٌ إلىٰ الأَسَدَ . . قالَ [مِنَ الرجَزِ] :

لَيْثٌ وَلَيْثٌ فِي مَجَالٍ ضَنْكِ كِلاَهُمَا ذُوْ شِدَّةٍ وَمَحْكِ[2]

---

(١) الحائرُ : الحوضُ الذي يُسيَّبُ إليهِ مسيلُ الماءِ .
(٢) المحكُ : التمادي في اللجاجةِ عند المساومةِ والغضبِ .

وَقُـوَّةٍ فِـيْ نَفْسِـهِ وَفَتْـكِ   إِنْ يَكْشِـفِ ٱللهُ قِنَـاعَ ٱلشَّـكِّ
فَهُـوَ أَحَـقُّ مَنْـزِلٍ بِتَـرْكِ

فلمَّا نَظَرَ إِليهِ الأَسدُ . . زأَرَ زأرَةً شديدةً ، وتمطَّىٰ ، وأقبلَ عليهِ حَتَّىٰ صارَ علىٰ قيدِ الرُّمحِ ، فوثَبَ وثبَةً هائِلَةً ، تلقَّاها جَحدَرٌ بالسيفِ ، فضربَهُ حَتَّىٰ خالَطَ ذُبابُ السيفِ[1] لَهَواتِهِ ، فخرَّ الأَسدُ كَأَنَّهُ فُسطَاطٌ تردَّىٰ بالريحِ ، وسقطَ جَحدَرٌ علىٰ قفاهُ من شدَّةِ وثبَةِ الأَسَدِ ، وثِقَلِ الكُبولِ ، فكبَّرَ الحجَّاجُ والناسُ أَجمعونَ ، وأَطلَقَ جحدَراً ، وأَحسنَ جائِزتَهُ ، وخلَّىٰ سبيلهُ .

وقيلَ : إِنَّهُ اصطفاهُ ، وجعلَهُ مِن سُمَّارِهِ ، ثُمَّ لم يلبثْ أَنْ ولاَّهُ (اليمامَةَ) .

ونظرَ بعضُهم إِلىٰ المهلَّبِ ابنِ أَبي صُفرةَ راكِباً في أَبنائِهِ ، وكلُّهم فارسٌ ، فقالَ : آنسَ اللهُ الإِسلامَ بتلاحقِكُم ، أَشهدُ باللهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ هٰؤُلاءِ أَسباطَ نُبُوَّةٍ . . فَإِنَّهُم أَسباطُ حربٍ ، وماتَ المهلَّبُ بعدَ تعرُّضِهِ للحتوفِ علىٰ فراشِهِ ، وكذلِكَ كانَتْ وفاةُ ابنِهِ المغيرةِ ، وهُوَ الذي يقولُ فيهِ زيادٌ الأَعجمُ [في « ديوانه » ٨٩ مِنَ الكاملِ] :

مَاتَ ٱلْمُغِيْرَةُ بَعْدَ طُوْلِ تَعَرُّضٍ   لِلْقَتْـلِ بَيْـنَ أَسِنَّـةٍ وَصَفَـائِـحِ

وأَمَّا يزيدُ . . فقد سبقَ أَنَّهُ قُتِلَ ، وكانَ قتلُهُ في جماعَةٍ مِن أَهلِهِ يومَ العَقرِ ؟ ولهٰذَا كانَ يقالُ [كما في « وفيات الأعيان » ٦/٣٠٨] : ضَحَّىٰ بَنو أُميَّةَ بالدِّينِ يومَ كَرْبَلاَءَ ، وبِالشجاعَةِ يومَ العَقْرِ ، وقُتِلَ تسعةٌ مِنهم في واقعَةِ قندابيل ، وقُتلَ باقيهِمْ صبراً بـ(الشامِ) ، وما أَحسنَ ما قالَهُ

---

(١) ذباب السيف : حدُّ طرفيه .

كعبٌ الأشقريُّ في المهلَّبِ وبنيهِ [كما في « الأغاني » ١٤/٢٧٨ مِنَ الوافرِ] :

بَـرَاكَ ٱللهُ حِيْـنَ بَـرَاكَ بَحْـراً   وَفَجَّـرَ مِنْـكَ أَنْهَـاراً غِـزَارَا
بَنُوكَ ٱلسَّابِقُونَ إِلَىٰ ٱلْمَعَالِيْ   إِذَا مَـا أَعْظَـمَ ٱلنَّـاسُ ٱلْخِطَـارَا
كَـأَنَّهُـمُ نُجُـومٌ حَـوْلَ بَـدْرٍ   تَكَمَّـلَ إِذْ تَكَمَّـلَ فَـاسْتَـدَارَا
مُلُـوكٌ يَنْـزِلُـونَ بِكُـلِّ ثَغْـرٍ   إِذَا مَا ٱلْهَامُ يَوْمَ ٱلرَّوْعِ طَارَا
رِزَانٌ فِيْ ٱلْخُطُوْبِ تَرَىٰ عَلَيْهِمْ   مِنَ ٱلشَّيْخِ ٱلشَّمَائِلَ وَٱلْوَقَارَا
نُجُـومٌ يُهْتَـدىٰ بِهِـمُ إِذَا مَـا   أَخُوْ ٱلْغَمَرَاتِ فِيْ ٱلظُّلُمَاتِ حَارَا

ونظرَ عبدُ اللهِ بنُ عليٍّ بنِ عبدِ اللهِ بنِ العبَّاسِ [كما في « الأغاني » ٤/٣٣٨] : إِلىٰ فتىً عليهِ أُبَّهَةُ الشرفِ ، يحاربُ مستقتلاً ، فناداهُ : يا فتىٰ ، لَكَ الأَمانُ ولَو كُنتَ مروانَ بنَ محمَّدٍ ، فقالَ : إِلاَّ أَكُنْهُ . . فلستُ بدونِهِ ، فقالَ لَهُ : لكَ الأَمانُ كائِناً مَن كُنتَ ، فأَطرقَ ثُمَّ أَنشدَ [مِنَ المتقاربِ] :

أَذُلُّ ٱلْحَيَـاةِ وَكُـرْهُ ٱلْمَمَـاتْ ؟!   وَكُـلاًّ أَرَاهُ طَعَـامـاً وَبِيْـلاَ(١)
وَإِنْ لَـمْ يَكُـنْ غَيْـرُ إِحْـدَاهُمَـا   فَسَيْراً إِلَىٰ ٱلْمَوْتِ سَيْراً جَمِيْلاَ

ثُمَّ لمْ يزَلْ يقاتِلُ حَتَّىٰ قتِلَ ، فإِذا هُوَ ٱبنُ مسلمَةَ بنِ عبدِ الملِكِ .

متى يكون الإقدام نافعاً؟

ثُمَّ إِنَّ الإِقدامَ ليسَ بمحمودٍ إِلاَّ حيثُ كانَ نافعاً ، وإِلاَّ كانَ مِن التهوُّرِ المذمومِ ، وقد سبقَ رأْيُ معاويَةَ حينَما سأَلَهُ ٱبنُ العاصِ عَن حالِهِ في قولِهِ [في « ديوانه » ١٣٧ مِنَ الطَّويلِ] :

شُجَاعٌ إِذَا مَا أَمْكَنَتْنِيَ فُرْصَةٌ   فَإِنْ لَمْ تَكُنْ لِيْ فُرْصَةٌ فَجَبَانُ

(١) وبيلٌ : ثقيلٌ وَخِمٌ .

وقالَ بعضُهم : جِسمُ الحربِ الشجاعَةُ ، وقلبُها التدْبيرُ ، ولسانُها المكيدَةُ ، وجناحُها الانقيادُ للقائِدِ ، ورائِدُها الرِّفقُ ، وسائِقُها النصرُ .

وقالَ الناظِمُ [في « العُكبَريِّ » ٤/ ١٧٤-١٧٥ مِنَ ٱلكاملِ] :

ٱلرَّأْيُ قَبْلَ شَجَاعَةِ ٱلشُّجْعَانِ هُوَ أَوَّلٌ وَهِيَ ٱلْمَحَلُّ ٱلثَّانِي
فَـإِذَا هُمَـا ٱجْتَمَعَـا لِنَفْـسٍ مَـرَّةً بَلَغَـتْ مِـنَ ٱلْعَلْيَـاءِ كُـلَّ مَكَـانِ
وَلَـرُبَّمَـا طَعَـنَ ٱلْفَتَـىٰ أَقْـرَانَـهُ بِـٱلـرَّأْيِ قَبْـلَ تَطَـاعُـنِ ٱلأَقْـرَانِ
لَوْلاَ ٱلْعُقُوْلُ لَكَانَ أَدْنَىٰ ضَيْغَمٍ أَدْنَىٰ إِلَىٰ شَرَفٍ مِنَ ٱلإِنْسَانِ[1]
وَلَمَا تَفَاضَلَتِ ٱلنُّفُوْسُ وَدَبَّرَتْ أَيْدِيْ ٱلْكُمَاةِ عَوَالِيَ ٱلْمُرَّانِ[2]

وقد مرَّ في المجلسِ السادسِ بعضُ ما يناسِبُ البيتَ الذي نتكلَّمُ فيهِ ، مِمَّا تتمادَحُ بهِ العرَبُ مِن ٱلْمَوتِ تحتَ بارقَةِ السيوفِ ، وذلِكَ في الكَلامِ علىٰ قولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٤/ ٣٤ مِنَ الطَّويلِ] :

وَإِنْ لاَ تَمُتْ تَحْتَ ٱلسُّيُوْفِ مُكَرَّماً تَمُـتْ وَتُقَـاسِـيْ ٱلـذُّلَّ غَيْـرَ مُكَـرَّمِ

* * *

(١) الضيغمُ : السبعُ .

(٢) المرَّان : القنا اللينة .

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَريِّ » ١/ ٣٢٢ مِنَ الخفيفِ] :

فَاطْلُبِ الْعِزَّ فِي لَظَىٰ وَدَعِ الذُّ لَّ وَلَو كَانَ فِي جِنَانِ الْخُلُودِ

شرح المطلع

(لَظَىٰ) : مِن أَسماءِ جهنَّمَ ، نسأَلُ اللهَ منها السلامَةَ ، والبيتُ من قولِ عنترةَ [في « ديوانِهِ » ١٧٨ مِنَ الكاملِ] :

مَاءُ الْحَيَاةِ بِذِلَّةٍ كَجَهَنَّمٍ وَجَهَنَّمٌ بِالْعِزِّ أَطْيَبُ مَنْزِلِ

لا يجوز تحقير ما عظَّم اللهُ

وفيهِ تَصغيرٌ لِمَا عظَّمَ اللهُ مِن أَمرِها ، فقد قالَ جلَّ شأْنُهُ : ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ [الفرقان : ٦٥] ، وقالَ : ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ [الأعراف : ٤١] .

ويُعجبُني قولُ ابنِ حجرٍ الهيتميِّ في « زواجرِهِ » : ولمَّا بَعُدَ عَن العِلمِ أَقوامٌ . . لاحَظوا أَعمالَهم ، واتفقَ لِبعضِهم مِن الأَلطافِ ما يشبهُ الكَراماتِ ، فانبَسَطوا في الدعاوىٰ ، وخالَفوا سيرةَ السلفِ في الابتعاد عَنها ، حَتَّىٰ نُقِلَ عَن بعضِهم أَنَّهُ قالَ : وَدِدتُ أَنَّ القيامَةَ قَدْ قامَتْ ؛ حَتَّىٰ أَنصِبَ خيمَتِي علىٰ جهنَّمَ ، فقالَ لَهُ رجلٌ : ولِمَ ذلِكَ ؟ قالَ : إِنِّي أَعلمُ أَنَّ جهنَّمَ إِذا رأَتني تخمُدُ ، فأَكونُ رحمةً للخلقِ ، وهَـٰذا من أَقبحِ الكلامِ وأَفحشِهِ ؛ لأَنَّهُ يتضمَّنُ تحقيرَ ما عظَّمَ اللهُ شأْنَهُ مِن أَمرِ النَّارِ ، فإِنَّهُ تعالىٰ بالَغَ في وصفِها فقالَ : ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ [البقرة : ٢٤] وقال : ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾ [الفرقان : ١٢] .

وفي الحَديثِ الصحيحِ عندَ مُسْلِمٍ [٢٨٤٣] وغيرِهِ [الترمذي (٢٥٨٩)

بلفظ : « جزءٌ واحدٌ »] : « نَارُكُمْ هَـٰذِهِ ٱلَّتِيْ تُوقِدُونَ ، جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءاً مِنْ جهَنَّمَ » قَالُوا : وَٱللهِ إِنْ كَانَتْ نَارُنَا لَكَافِيَةً يَا رَسُولَ اللهِ ، قالَ : « فإِنَّهَا فَضُلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةٍ وَسِتِّيْنَ جُزْءاً ، كُلُّهُنَّ مِثْلُ حَرِّهَا » .

وفي « الصحيح » [عند « مسلم » ٢٨٤٢] أيضاً : « يُؤْتَىٰ بِجَهَنَّمَ يومَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّوْنَهَا » .

ثُمَّ إِنَّ ما جاءَ عَنْ ٱلنَّاظِمِ ، وَعَن عنترةَ العبسيِّ في بيْتَيْهِما ـ كَما قد أَشَرْنا إِليهِ قُبَيلَ الكلامِ ـ عَلَىٰ قولِهِ [في « العُكبَرِيِّ » ٤/٣٤] :

فَثِبْ ـ وَاثِقاً بِاللهِ ـ وِثْبَةَ مَاجِدٍ يَرَىٰ ٱلْمَوْتَ فِيْ ٱلْهَيْجَا جَنَىٰ ٱلنَّحْلِ فِي ٱلْفَمِ

. . كلامُ مَن لَم يعرفْ مِنْ ٱلإِسلامِ سرَّهُ ، وإِلاَّ . . فإِنَّهُ لا عِزَّ إِلاَّ فيهِ ، ولاَ شرفَ إِلاَّ بِهِ ، فهوَ سنامُ ٱلْمَجْدِ ، ومعراجُ السعْدِ ، وقد قالَ عمرُ ـ رضي الله عنه ـ لِلْعَرَبِ : أَلم تكونوا أَذَلَّ الناسِ ، وأَحقرَ الناسِ ، وأَفقرَ الناسِ . . فأَعزَّكُم اللهُ ، ورفعَكُمْ ، وأَغناكُمْ بِٱلإِسلامِ ؟ فإِذا طلَبْتُم ذلِكَ بغيرِهِ . . ذَلَلْتُمْ ، وهُوَ مِن قولِهِ جلَّ ذكرُهُ : ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال : ٢٦] ، ومنهُ تَعرِفُ أَنَّ النَّاظِمَ لا يعشَقُ إِلاَّ مظاهِرَ الزِّينَةِ ٱلكاذِبَةِ ، ولا يرغَبُ إِلاَّ في عزِّ ٱلباطِلِ ٱلمموَّهِ .

نظيرَ ذلِكَ ٱلمغرورِ ٱلَّذي سمعَ واعظاً يقولُ : من تركَ الصلاةَ متعمِّداً . . كانَ في النَّارِ مع فِرْعونَ وهامانَ وأُبيِّ بنِ خلَفٍ ، فقالَ : ومَن لَنا بمجالَسَةِ هـٰؤُلاءِ ٱلملوكِ ، ومجاورَتِهِم في دارٍ واحدَةٍ . المجد المموَّه المزعوم

ويُحكىٰ [في « الأغاني » ١١/٢٦٧] : أَنَّ بعضَ ٱلمجوسِ أَعانَ ٱلأُقَيْشِرَ ـ

الشاعرَ ـ علىٰ مؤُنَةِ نِكاحِهِ ، فقالَ [في « ديوانه » ١١٦ـ١١٧ مِنَ ٱلمتقارب] :

كَفَانِيَ ٱلْمَجُوسِيُّ مَهرَ ٱلرَّبَابْ ... فِـداً لِلْمَجُـوسِـيِّ خَـالٌ وَعَـمّ
شَهِـدْتُ عَلَيْـكَ بِطِيْـبِ ٱلأُرُوْمْ ... وَأَنَّـكَ بَحْـرٌ جَـوَادٌ خِضَـمّ
وَأَنَّـكَ سَيِّـدُ أَهْـلِ ٱلْجَحِيْـمْ ... إِذَا مَـا تَـرَدَّيْـتَ فِيْمَـنْ ظَلَـمْ
تُجَـاوِرُ هَـامَـانَ فِـيْ قَعْـرِهَـا ... وَفِرْعَـوْنَ وَٱلْمُكْتَنَـىٰ بِـالْحَكَـمْ

فقـالَ لَـهُ : منعَـكَ قـومُـكَ ، وأَعطيتُـكَ ، ثُـمَّ تجعلُنـي فـي الجحيمِ ؟! قالَ لَهُ : أَمَا تَرضَىٰ أَنْ جعلتُكَ مِن أَصحابِ ٱلمُلوكِ والرؤَساءِ .

لم ولن ولا يكون العز إلا فــي الإســلام والشواهد على ذلك

فالعزُّ الذي يتوهَّمُهُ أَبو الطيِّبِ . . لَيسَ إِلاَّ مِن جنسِ ما دعا بهِ الأُقَيْشِرُ للمجوسيِّ ، ورَغِبَ فيهِ المائِقُ قبلَهُ ، وإِلاَّ فالعزُّ كلُّهُ ليسَ إِلاَّ فِي الإِسلامِ ، الذي رفَعَ السُّوقَةَ إِلىٰ المُلوكِ ، وقايَسَ الغنيَّ بالصعْلوكِ ، وأَجرىٰ كلَّ إِنسانٍ في حرِّيَّتِهِ مِلْءَ رسنِهِ ، لا يُشرَطُ عليه إِلاَّ تسمُّتُ الأَنظمَةِ العادلَةِ ، ومراعاةُ القوانينِ الصالحَةِ ، التي تسوِّغُ لأَدنىٰ الناسِ منزلَةً أَنْ يطلُبَ حقَّهُ من أَعظمِهم قدراً ، وإِنَّ في خبرِهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ معَ سوادِ بنِ غَزيَّةَ ـ يومَ بدرٍ[١] ـ ومعَ

(١) وكانَ مِن خَبرِ سيِّدِنا سَوَادِ بنِ غَزيَّةَ ـ رضيَ اللهُ عنهُ ـ كما رواهُ ٱبنُ هشام (٢/ ٦٢٦) : أَنَّ رسولَ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ عَدَّلَ صفوفَ أَصحابهِ يومَ بدرٍ ، وفي يدِهِ سهمٌ يُعدِّلُ بهِ القومَ ، فمرَّ بسوادِ بنِ غَزيَّةَ ـ وهوَ متقدِّمٌ مِنَ الصفِّ ـ فطعنَ في بطنهِ بالسهمِ ، وقالَ : « ٱسْتَوِ يَا سَوَادُ » ، فقالَ : يا رسولَ اللهِ ، أَوجعْتَني ، وقد بعثكَ اللهُ بالحقِّ والعدلِ . . فأَقدني ـ دَعني أَقتصُّ منكَ ـ فكشفَ رسولُ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ عَن بطنهِ ، وقالَ : « ٱسْتَقِدْ » ، قالَ : فاعتنقَهُ ، فقبَّلَ بطنَهُ ، فقالَ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ : « مَا

عُكَّاشَةَ بنِ مِحْصَنٍ قبيلَ موتِهِ . . لَمَا يَمْلأُ الأُنوفَ شَمَماً ، ويأْخُذُ بأَعنَّتِها إِلىٰ عنانِ السماءِ ؛ إِذ يجعلُ كلَّ إِنسانٍ ملكاً في نفسهِ ، لا سلطانَ فوقَهُ إِلاَّ للعدْلِ ـ يحرسُهُ حُماتُهُ من خدَّامِ الأُمَّةِ كما قرَّرْنا ـ وإِلاَّ للهِ الذي لا عزَّ إِلاَّ فِي الذُّلِّ له ، ولا غنىً إِلاَّ في الفقرِ إِليهِ .

وللهِ درُّ القائِلِ [مِنَ ٱلكاملِ] :

وَإِذَا ٱلرِّجَالُ تَذَلَّلَتْ بِرِقَابِهَا طَمَعاً إِلَيْكَ فَعِزُّهَا فِي ذُلِّهَا

ودَرُّ أَبِي عُبادَةَ ـ لو أَرادَ ربَّهُ ـ في قولِهِ [في «ديوانه» ٢/ ٨٤٧ من الطويل] :

وَيُعْجِبُنِيْ فَقْرِيْ إِلَيْكَ وَلَمْ يَكُنْ لِيُعْجِبَنِي لَوْلاَ مَحَبَّتُكَ ٱلْفَقْرُ

وقولُ تقيِّ الدينِ ٱبن تيميَّةَ [من البسيطِ] :

فَٱلْفَقْرُ لِيْ وَصْفُ ذَاتٍ لاَزِمٌ أَبَداً كَمَا ٱلْغِنَىٰ لَكَ وَصْفٌ لاَزِمٌ ذَاتِي

ويُروىٰ [كما في « نفحِ الطِّيبِ » ١/ ٢٤] : أَنَّ منذِرَ بنَ سعيدٍ البلوطيَّ ـ واعِظَ (الأَندلُسِ) ـ قامَ خطيباً في الناسِ يومَ الاستسقاءِ ، وقالَ : يا أَيُّها الناسُ ، وأَخذَ يكرِّرُها ، حَتَّىٰ ظَنَّ بعضُهم أَنَّهُ أُرتِجَ عليهِ ، وما هِيَ لَهُ بعادَةٍ ؛ إِذْ قلَّما قامَ إِلاَّ تفتَّحَ عَنْ ثجٍّ[1] بَحْرٍ زاخرٍ ، وفي الثالِثَةِ أَوْ ٱلرَّابعةِ قالَ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ * إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ [فاطر : ١٥ـ١٧] ، ثُمَّ ٱندفعَ في مضمارِهِ كالماءِ يجري في

= حَمَلَكَ عَلَىٰ هَـٰذَا يَا سَوَادُ ؟ » قالَ : يا رسولَ اللهِ ، حضرَ ما ترىٰ ، فأَردتُ أَن يكونَ آخرَ العهدِ بكَ . . أَنْ يمسَّ جلدي جلدُكَ ، فدعا رسولُ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ لهُ بخيرٍ ، وقالَهُ لهُ .

(١) الثَّجُّ : السيلانُ .

ٱنحدارِهِ ، فلا تسلْ عمَّا سالَ مِنَ ٱلْعَبَراتِ ، وٱرتفعَ مِنَ ٱلزَّفَراتِ ، وحريٌّ بذلِكَ ، والمُلكُ عظيمٌ ، والمالِكُ حكيمٌ ، والرجْعُ إليهِ لازِمٌ ، وهوَ بالخفيَّاتِ عالِمٌ .

وما أَحسنَ ما كانَ يَدْعو بهِ أَبو ٱلمظفَّرِ ٱلسَّمعانيُّ من قولِهِ : ٱللَّهُمَّ ٱجعل قلوبَنا خزائِنَ توحيدِكَ ، وأَلسنتَنا مفاتيحَ تمجيدِكَ ، وجوارِحَنا خدَمَ طاعتِكَ ، فإِنَّهُ لا عزَّ إلاَّ في الذُّلِّ لَكَ ، ولا غنىٰ إلاَّ في الفقرِ إليكَ ، ولا أَمْنَ إلاَّ في الخوفِ منكَ ، ولا قرارَ إلاَّ في القَلَقِ نحوَكَ ، ولا رُوحَ إلاَّ في النظَرِ إلىٰ وجهِكَ ، ولا راحَةَ إلاَّ في الرضا بِقَسْمِكَ ، ولا عيشَ إلاَّ في جوارِ المقرَّبينَ عندَكَ .

وبمناسبَةِ ما أَشرنا إليهِ من عزِّ التقوىٰ ، وٱرتفاعِ التمايُزِ بينَ الناسِ إلاَّ بهِ . . نذكرُ قولَ ٱبنِ الخطَّابِ لعاملِهِ بـ(مصرَ) : متىٰ ٱستعبدتُمُ ٱلنَّاسَ ، وقد ولدتْهُم أُمَّهاتُهم أَحراراً ؟

وحديثَهُ مع جبلَةَ بنِ الأَيهمِ : فقد عزمَ أَنْ يُقِيْدَ ٱلفَزاريَّ منهُ في لطمةٍ لطمهُ إيَّاها ، فقالَ : أَتُقِيْدُهُ مِنِّي ، وأَنا مَلِكٌ ، وهوَ سوقَةٌ ؟ قالَ : قد جمعَكَ وإيَّاهُ الإِسلامُ ، فَمَا تفضُلُهُ إلاَّ بالعافيَةِ[1] .

الرشيد بين يدي الفضيل بن عياض

ويعجبُني ما ذكرَه الطرطوشِيُّ وغيرُهُ ، عن الفضْلِ بنِ الربيعِ ، قالَ [كما في « حلية الأولياء » ١٠٦/٨] : حجَّ الرشيدُ ، فبينا أَنا نائِمٌ ذاتَ لَيلَةٍ . . سمعتُ قرعَ البابِ ، فقلتُ : مَن ؟ فقيلَ : أَجِبْ أَميرَ المؤمنينَ ، فخرجْتُ مسرعاً ، فوجدْتُ الرشيدَ ، فقلْتُ : لو أَرسلْتَ إليَّ ، قالَ : ويحَكَ ، قد حاكَ في نفسي ما لا يخرجُهُ إلاَّ عالِمٌ

(١) حديثُ سيِّدنا عمرَ بنِ الخطَّابِ رضيَ اللهُ عنهُ معَ جَبَلَةَ تقدَّمَ في غيرِ هذا المجلسِ .

فأنظرْهُ لي ، فقلتُ : ها هُنا سفيانُ بنُ عيينةَ ، قالَ : فأمضِ بنا إليهِ ، فأَتيناهُ . . فقرَعْنا عليهِ بابَهُ ، فقالَ : مَن هَـٰذَا ؟ قلتُ : أَجِبْ أَميرَ المؤمنينَ ، فخرجَ مسرعاً ، وقالَ : لو أَرسلتَ إليَّ . . أَتيتُكَ ، قالَ : جِدَّ لِمَا جئْنا لَهُ ، فحادَثَهُ ساعةً ، ثُمَّ قالَ لَهُ : أَعليكَ دينٌ ؟ قالَ : نعم ، قالَ : أقضِ دينَهُ يا فضلُ .

ثُمَّ أنصرَفْنا ، فقالَ الرشيدُ : ما أَغنىٰ عنِّي شيئاً صاحبُكَ ، فأنظُرْ لي غيرَهُ ، قلتُ : ها هنا عبدُ الرزَّاقِ واعظُ (العِراقِ) ، فقالَ : أمضِ بنا إليهِ ، فجرىٰ لَنا معَهُ مثلُ الأَوَّلِ .

فقالَ الرَّشيدُ : أنظُرْ ليْ غيرَهُ ، فقلتُ : ها هُنا فضيلُ بنُ عياضٍ ، قالَ : أمضِ بنا إليهِ ، فأَتيناهُ . . فإذا هُوَ قائمٌ يصلِّي ، يردِّدُ آيَةً مِن كتابِ اللهِ ، فقرعْتُ البابَ . . فقالَ : مَنْ هَـٰذَا ؟ فقلتُ : أَجِبْ أَميرَ المؤمنينَ ، فقالَ : ما لي ولأَميرِ المؤمنينَ ؟ فقلتُ : سبحانَ اللهِ! أَما تجبُ عليكَ طاعتُهُ ، فقالَ : أَوَ لَيسَ قد رويَ عَنْ النَّبيِّ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ أَنَّهُ قالَ : « لَيْسَ لِمؤْمِنٍ أَنْ يَذِلَّ نَفْسَهُ »(1) .

وفتحَ البابَ ، ثُمَّ ارتقىٰ مسرعاً إلىٰ أَعلىٰ الغرفَةِ ، وأَطفأَ السراجَ ، والتجأَ إلىٰ زاويةٍ مِن زوايا الغرفَةِ ، فجعلَنا نجولُ عليهِ بأَيدينا ، حَتَّىٰ سبقَتْ إليهِ كفُّ الرشيدِ ، فقالَ : أَوَّاهُ ما أَلْيَنَها مِن

(1) أخرجه عن حذيفة رضي الله عنه الترمذي (٢٢٥٥) بلفظ : « لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه ، قالوا : وكيف يذل نفسه ، قال : يتعرض من البلاء لما لا يطيق » وقال الترمذي : هذا حديث حسن ، وابن ماجه (٤٠١٦) في الفتن .

يدِ . . إنْ نَجَتْ مِن عذابِ اللهِ ، فقلْتُ في نَفْسي : ليكلِّمنَّهُ الليلَةَ بكلامٍ نقيٍّ ، مِن قلبٍ تقيٍّ ، فقالَ : جِدَّ لِمَا جئْنَاكَ لَهُ ، قالَ : وفيمَ جئتَ ؟ حمَلْتَ علىٰ نفسِكَ ، وجميعُ مَن معَكَ حَمَلوا عليكَ ، حَتَّىٰ لَو سأَلتَهم عندَ ٱنكشافِ الغِطاءِ أَنْ يَحمِلوا عَنْكَ شِقْصاً مِن ذَنبٍ . . ما فَعَلوا ، ولَكانَ أَشدُّهم حبّاً لَكَ . . أَشَدَّ هرَباً منكَ .

إنَّ عُمَرَ بنَ عبدِ العزيزِ ، لمَّا وَلِيَ الخلافَةَ . . دَعَا سالِمَ بنَ عبدِ اللهِ ، ومحمَّدَ بنَ كعبٍ القرظيَّ ، ورجاءَ بنَ حيوَةَ ، وقالَ لَهم : قد ٱبتليتُ بِهَـٰذَا البلاءِ ، فأَشيروا عليَّ ، فعدَّهُ بلاءً ، وعددْتَهُ أَنتَ وأَصحابُكَ نعمَةً .

فقالَ لَهُ سالمٌ : إنْ أَردْتَ النَّجاةَ مِن عذابِ اللهِ غداً . . فَصُمْ عَنْ ٱلدُّنيَا ، وليكُنْ إفطارُكَ علىٰ الموتِ .

وقالَ لَهُ محمَّدُ بنُ كعبٍ : إنْ أردْتَ النجاةَ . . فليكُنْ كبيرُ المسلمينَ لَكَ أباً ، وأَوسطُهم لكَ أخاً ، وأَصغرُهم لكَ ٱبناً ، فبِرَّ أَباكَ ، وٱرحَمْ أَخاكَ ، وَتَحَنَّنْ علىٰ ولدِكَ .

وقالَ لَهُ رجاءُ بنُ حيوَةَ : إنْ أَرَدْتَ النجاةَ غداً . . فأَحبَّ للمسلمينَ ما تحبُّ لنفسِكَ ، وٱكرَهْ لَهم ما تكرَهُ لنفسِكَ ، ثُمَّ متىٰ شئتَ فَمُتْ ، وإني لأَقولُ لَكَ هَـٰذَا ، وإني لأَخافُ عليكَ أَشدَّ الخوفِ ، يومَ تزِلُّ الأَقدامُ ، فهلْ معكَ مَن يأْمرُكَ بمثلِ هَـٰذَا ؟ فبكىٰ الرشيدُ بكاءً شديداً ، فقلْتُ لَهُ : ٱرفُقْ بأَميرِ المؤمنينَ .

فقالَ : يا ٱبنَ الربيعِ ، قتلتَهُ أَنتَ وأَصحابُكَ ، وأَرفُقُ بهِ أَنَا ، ثُمَّ أَفاقَ الرشيدُ ، فقالَ : زِدْني ، قالَ : بلغَني أَنَّ عاملاً لعمرَ بنِ عبدِ العزيزِ . . شكا إليهِ السهَرَ ، فكتَبَ إليهِ عمرُ يقولُ : ٱذكُر يا أَخي سَهَر

أَهلِ النارِ في النارِ ، وخلودَ الآبَادِ فيها ، فإِنَّ ذلِكَ يطرُدُ بِكَ إِلىٰ ربِّكَ نائِماً ويقظانَ ، وإِيَّاكَ أَنْ تزِلَّ قدمُكَ عَن هَـٰذَا السبيلِ ، فيكونَ آخرَ العهدِ بكَ ، ومنقطعَ الرَّجاءِ منكَ ، والسلامُ ، فلمَّا قرأَ كتابَهُ . . طَوىٰ إِليهِ البلادَ ، فقالَ لهُ عمرُ : ما أَقدمَكَ ؟ قالَ : خلعتَ قَلْبي بكتابِكَ ، لاَ وَلِيتُ لَكَ وِلايةً أَبداً ، حَتَّىٰ أَلقىٰ اللهَ .

فبكىٰ هارونُ ، ثُمَّ قالَ : زِدْني ، فقالَ : إِنَّ جدَّكَ العبَّاسَ جاءَ إِلىٰ رسولِ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ وقالَ : أَمِّرني علىٰ إِمارَةٍ ، فقالَ لهُ النبيُّ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « يَا عَمُّ ، نَفْسٌ تُنْجِيْهَا . . خَيْرٌ مِنْ إِمَارَةٍ لاَ تُحْصِيْهَا ، إِنَّ ٱلإِمارَةَ حَسْرَةٌ وَنَدَامَةٌ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ ، فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَنْ لاَ تَكُوْنَ أَمِيْرَاً . . فَٱفْعَلْ »[1] .

فبكىٰ هارونُ بكاءً شديداً ، ثُمَّ قالَ : زِدْني يرحَمُكَ اللهُ . فقالَ : يا حسنَ الوجْهِ ، أَنتَ الذي يسأَلُكَ اللهُ عَن هَـٰذَا الخَلْقِ ، فإِنْ ٱسْتَطَعتَ أَنْ تقيَ هَـٰذَا الوجْهَ مِنَ ٱلنَّارِ . . فٱفعَلْ . وإِيَّاكَ أَن تُصبِحَ أَو تُمْسيَ وفي قلبكَ غشٌّ لرعيَّتِكَ ، فقد قالَ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « مَنْ أَصْبَحَ لَهُمْ غَاشَّاً . . لَمْ يَرَحْ رَائِحَةَ ٱلْجَنَّةِ »[2] ، فبَكَىٰ هارونُ ،

---

(١) أخرجه عن العباس رضي الله عنه مختصراً البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١٠/ ٩٦) . وقال : هذا هو المحفوظ مرسل . وقيل : إنه عن ابن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال العباس : يا رسول الله ، ألا توليني؟ فذكره ، ثم ذكره موصولاً ، والأول أصح ، تفرد به هذا السلمي البصري . وقال العراقي في « تخريج الإحياء » (٢/ ٣٤٤) : رواه ابن أبي الدنيا هكذا معضلاً بغير إسناد .

(٢) أخرج نحوه عن معقل بن يسارٍ أحمدُ (٥/ ٢٧) ، والبخاري (٧١٥٠) في الأحكام ، ومسلم (١٤٢) (٢٢٩) في الإمارة (٥) باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر بلفظ : « ما من أمير يلي أمور المسلمين ، ثم لا يجهد لهم وينصح لهم . . إلا لم يدخل معهم الجنة » .

ثُمَّ قالَ : أَعليكَ دَينٌ ؟ قالَ : نعم ، لِرَبي يحاسبُني عليهِ فالويلُ لي إِن سأَلَني ، والويلُ لي إِنْ لَم يُلْهِمْني حُجَّتي ، فقالَ هارونُ : إِنَّما أَعْني دينَ العبادِ ، فقالَ : إِنَّ رَبِّي لم يأْمُرْني بِهَـٰذَا ، وإِنَّما أَمَرَني أَنْ أُصَدِّقَ وعدَهُ ، وأُطيعَ أَمرَهُ ، فقالَ جلَّ ٱسمُهُ : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۞ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [الذاريات : ٥٦ـ٥٨] ، فقالَ لهُ الرشيدُ : هَـٰذِهِ أَلفُ دينارٍ . . أَنفقْها علىٰ عيالِكَ ، وتقوَّ بها علىٰ عبادَةِ ربِّكَ ، فقالَ فضيلٌ : أَنا أَدلُّكَ علىٰ النجاةِ وتكافِئُني بِمِثْلِ هَـٰذَا ، ثُمَّ صمَتَ ، فلم يكلِّمْنا ، فخرجْنا من عندِهِ ، فقالَ الرشيدُ : إِنْ دَلَلْتَني علىٰ رجُلٍ . . فدُلَّني علىٰ مثلِ هَـٰذَا ؛ فإِنَّ هَـٰذَا سيِّدُ المؤمنينَ اليومَ .

ويرویٰ [في « الحلية » ٨/١٠٧] : أَنَّ ٱمرأَةً مِن نسائِهِ دخلَتْ عليهِ بعدَ خروجِهِم ، وقالَتْ لهُ : يا هَـٰذَا ، أَلا ترىٰ ما نحنُ فيهِ ، ثُمَّ تردُّ المالَ ، فقالَ لَها : إِنَّ مَثَلي ومَثَلَكم . . كمثَلِ قومٍ كانَ لهم بعيرٌ ، يأْكُلونَ مِن كسبِهِ ، فلمَّا كبِرَ . . نحروهُ ، مُوتوا جوعاً ولا تنحَرُوا فُضَيْلاً ، فلَمَّا سمعَ الرشيدُ مراجَعَتَها لَهُ . . طمعَ في قَبُولِهِ ، فجاءَ فجلسَ إِلىٰ جنبِهِ ، فلم يكلِّمهُ ، فبينَما نحنُ كذلِكَ . . إِذ جاءَتْ جاريَةٌ سوداءُ فقالَتْ : يا هَـٰذَا ، لقد آذيتَ الشيخَ منذُ أَتيتَهُ ، فٱنصرِفْ يرحمُكَ اللهُ ، فانصرَفْنا ، هَـٰذَا آخرُ القصَّةِ .

وكَمْ مِن شاهدٍ فيها لِمَا تقرَّرَ مِن عزِّ الإِسلامِ ، ومساواتِهِ ، معَ السلامَةِ مِن غِشِّ الأَحبارِ والرُّهْبانِ ، الذي ٱجتثَّهُ ٱللهُ مِن أَصلِهِ ، بمثْلِ قولِهِ جلَّ ذكرُهُ : ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة : ٣١] .

ومعلومٌ أنَّهم لمْ يعبدوهُم ، وَلَـٰكِنَّهُ يحذِّرُ مِن تقليدِهِم في كلِّ ما يَقولونَ ، ومِنَ ٱلْمُغالاةِ في ٱلاعتقادِ بِهِم ، ومِن تصديقِهِم فيما يدَّعونَ مِن غُفْرانِ الذنوبِ ، وتكفيرِ الخَطايا ، وما أَشبهَ ذَلِكَ ، مِن ٱلضَّلالاَتِ التي لا يزالُ يترسَّمُها مَن ٱتبعَ هَواهُ مِن أَهلِ ملَّتِنا ، تصديقاً لقولِهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ : « لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْراً بِشِبْرٍ ، وذِرَاعاً بِذِرَاعٍ ، حَتَّىٰ لَو دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوْهُ » ، فَقَالُوا : ٱلْيَهُودَ وٱلنَّصارىٰ ؟! قالَ : « فَمَنْ إِذَنْ »[1] .

ولا يتجافىٰ عن الموضوعِ الذي نتكلَّمُ فيهِ ، ما ذكرَهُ صاحِبُ « المستطرَفِ » [١/١٤٩] عن الأَصمعيِّ ، قالَ : بَينا أَنا أَطُوفُ لَيْلَةً بِٱلبيتِ . . إِذ رأَيتُ شابّاً متعلِّقاً بأَستارِهِ ، يقولُ [مِنَ البسيطِ] : الإمام زين العابدين في الطواف

يَا مَنْ يُجِيْبُ دُعَا ٱلْمُضْطَرِّ فِيْ ٱلظُّلَمِ   يَا كَاشِفَ ٱلضُّرِّ وَٱلْبَلْوىٰ مَعَ ٱلسَّقَمِ
قَدْ نَامَ وَفْدُكَ حَوْلَ ٱلْبَيْتِ وَٱنْتَبَهُوا   وَأَنْتَ يَا حَيُّ يَا قَيُّوْمُ لَمْ تَنَمِ
أَدْعُوْكَ رَبِّيْ حَزِيْناً خَائِفاً قَلِقَا   فَٱرْحَمْ بُكَائِيْ بِحَقِّ ٱلْبَيْتِ وَٱلْحَرَمِ
إِنْ كَانَ جُوْدُكَ لاَ يَرْجُوهُ ذُوْ سَفَهٍ   فَمَنْ يَجُوْدُ عَلَىٰ ٱلْعَاصِيْنَ بِٱلنِّعَمِ

ثُمَّ ٱرتفعَ نحيبُهُ ، وطافَ أُسبوعاً آخرَ ، ثُمَّ أَمسكَ بوصائِلِ البيتِ ، وتضرَّعَ بأَبياتٍ أُخرىٰ ـ لا أَذكرُها الآنَ[2] ـ ثُمَّ سقطَ مغشيّاً

---

(١) أخرجه عن أبي سعيد رضي الله عنه البخاريُّ (٣٤٥٦) في الأنبياء ، وفيه : « سَلَكُوا ، سَلَكْتموهُ » ، وفي مسلمٍ (٢٦٦٩) في العلم بلفظ : « في جحرِ ضبٍّ لاتَّبعتمُوهُم » .

(٢) والأبياتُ هيَ :
أَلاَ أَيُّهَا ٱلمَقْصُودُ فِيْ كُلِّ حَاجَةٍ   شَكَوْتُ إِلَيْكَ الضُّرَّ . . فَٱرْحَمْ شِكَايَتِيْ=

عليهِ إلىٰ الأرضِ ، فدنوتُ منهُ ، فإذا هُوَ زينُ العابدِينَ : عليُّ بنُ الحسينِ ، فوضعتُ رأسَهُ علىٰ حِجْري ، وبكيْتُ ، فقطَرَتْ مِنِّي دمعَةٌ علىٰ خدِّهِ ، ففتحَ عينَيهِ وقالَ : مَن هَـٰذَا الذي يتهجَّمُ عَلَينا ؟ قلتُ : عبيدُكَ الأصمعيُّ ، يا سيِّدي ما هذا البكاءُ والجزَعُ ، وأَنتَ من أَهلِ بيتِ النبوَّةِ ؟ أَليسَ اللهُ تعالىٰ يقولُ : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٣٣] ؟ فقالَ لي : هَيْهَاتَ هَيْهاتَ ، إنَّ اللهَ خلَقَ الجنَّةَ لِمَنْ أَطاعَهُ ، ولَو كانَ عبداً حبشيّاً ، وخلَقَ النارَ لِمَنْ عصاهُ ، ولَو كانَ حرّاً قرشياً ، أَليسَ اللهُ جلَّ شأْنُهُ يقولُ : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ [المؤمنون : ١٠١] ؟

كَذا فِي حِفْظي عَن « ٱلمستطرف » ، ولا يصِحُّ أَن يكونَ صاحِبَ القصَّةِ الأَصمعيُّ ؛ لتأَخُّرِ زمانِهِ ، فلعلَّهُ الفرزدقُ ، أَو غيرُهُ ، ثُمَّ إِنَّ في الشعرِ الذي روَاهُ ـ وبالأَخصِّ ما نسيتُهُ منهُ ـ ٱنحلالاً قَد يُشْتَمُّ مِنهُ الافتعالُ ، أَمَّا موضِعُ الشاهِدِ منهُ . . فشدَّةُ تواضُعِ زَينِ العابدينَ ، وخوفِهِ مِنْ اللهِ تعالىٰ ـ كما هو المَعروفُ من حالِهِ ـ معَ أَنَّهُ أَعَزُّ الناسِ نفساً ، وأَشمخُهُم أَنفاً ، وأَبعدُهُم همَّةً ، حَتَّىٰ لقد كانَ يخرُجُ أَيَّامَ الموسِمِ ، في جَمالِ شارَتِهِ ، وحسنِ هيأَتِهِ ، وفاخِرِ لباسِهِ . . فلا يزيدُ جموعَ الأَعيانِ علىٰ السلامِ ، ولقد قالَ لَهُ قائِلٌ : ما هَـٰذَا التيهُ

= أَلاَ يَا رَجَائِيْ أَنْتَ تَكْشِفُ كُرْبَتِيْ ... فَهَبْ لِي ذُنُوبِيْ كُلَّهَا وَاقْضِ حَاجَتِيْ
أَتَيْـتُ بِـأَعْمَـالٍ قِبَـاحٍ رَدِيئَـةٍ ... وَمَا فِيْ الْوَرَى عَبْدٌ جَنَى كَجِنَايَتِيْ
أَتُحْـرِقُنِـيْ بِـالنَّـارِ يَـا غَـايَـةَ الْمُنَـىٰ ... فَأَيْنَ رَجَائِي ؟ ثُمَّ أَيْنَ مَخَافَتِيْ ؟

يا ٱبن بنتِ رَسولِ اللهِ ؟ قالَ : ليسَ بتيهٍ ترىٰ ، وَلَـٰكِنَّها العزَّةُ التي يقولُ اللهُ : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون : ٨] .

ويروىٰ مثلُ هَـٰذَا عَن ٱلحسنِ ، كما سيأتي في ٱلمجلسِ ٱلسّادسَ عشرَ .

تواضع السلطان سليم العثماني

وبلغَني عَنِ ٱلسُّلطانِ سليمٍ ٱلعثمانيِّ ، ما ذكَّرَني بقولِ ٱلنّاظمِ [في « العُكبَريّ » ٤/ ١٧٩ مِنَ الكاملِ] :

مُتَصَعْلِكِيْنَ عَلَىٰ ضَخَامَةِ مُلْكِهِمْ　　مُتَـوَاضِعِيْـنَ عَلَـىٰ عُلُـوِّ ٱلشَّـانِ

إذ كتبَ ـ في محلِّهِ ٱلخاصِّ علىٰ قطعَةٍ مِنَ ٱلرُّخَامِ ـ هَـٰذَينِ ٱلبيتينِ [في « شذرات الذهب » ٤/ ١٤٤ مِنَ البسيطِ] :

ٱلْمُلْكُ للهِ مَنْ يَظْفَرْ بِنَيْلِ مُنىً　　يَرْدُدْهُ قَهْراً وَيَضْمَنْ بَعْدَهُ ٱلدَّرَكَا
لَوْ كَانَ لِيْ أَوْ لِغَيْرِيْ قِيْدُ أُنْمُلَةٍ　　فَوْقَ ٱلتُّرَابِ لَكَانَ ٱلأَمْرُ مُشْتَرَكَا

تواضع السلطان عبد الحميد

وأَخبرني ٱلسَّيِّدُ ٱلثِّقَةُ عبدُ اللهِ بنُ عبدِ ٱلرَّحمٰنِ بنِ طاهرٍ ، عَنْ ٱلسُّلطانِ عبدِ ٱلحميدِ ، أَنَّهُ قلَّما خرجَ في مواكبِهِ ٱلرَّسميَّةِ ٱلضَّخمَةِ ، ٱلَّتي يتنافَسُ ٱلنَّاسُ فيها علىٰ ٱستطلاعِ غرَّتِهِ ، ويسافرونَ لذلِكَ مِنَ ٱلْجِهاتِ ٱلبعيدَةِ ـ علىٰ حدِّ قولِ ٱلموميِّ ـ [مِنَ الوافرِ] :

وَكَـمْ عَيْـنٍ تُـؤَمِّـلُ أَنْ تَـرَانِـيْ　　وَتَفْقِـدُ بَعْـدَ رُؤْيَتِـيَ ٱلسَّـوَادَا

. . إلاَّ وقامَ في صدرِ عربتِهِ أَحدُ العلماءِ ، يُنادي بأَعلىٰ صوتِهِ ، مِن حينِ يركَبُ إلىٰ حينِ ينزِلُ : الملكُ للهِ الواحدِ القهَّارِ ، لاَ تتكَبَّر ، ومَن فوقَكَ أَكبَرُ . وهَـٰذَا ـ واللهِ في ذلِكَ الموقفِ الذي يملأُ العيونَ بجمَالِهِ ، ويملِكُ الأَفئدَةَ بجلالِهِ ـ لَمِمَّا تَتَنَدَّىٰ لَهُ الخدودُ ، وتتفطَّرُ منهُ القلوبُ .

ويعجبُني فيما يشبهُ بيتَ الناظمِ الذي نتكلَّمُ عليهِ ، قولُ أَبي عُبادَةَ [في « ديوانه » ٣/ ١٩٤٢ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَمَّا رَأَوْا بَعْضَ ٱلْحَيَاةِ مَذَلَّةً عَلَيْهِمْ وَعِزَّ ٱلْمَوْتِ غَيْرَ مُحَرَّمِ
أَبَوْا أَنْ يَذُوقُوا ٱلْعَيْشَ وَٱلذَّمُّ وَاقِعٌ عَلَيْـهِ وَمَـاتُـوا مِيْتَـةً لَـمْ تُـذَمَّـمِ

أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وشهاب بن جمرة!!

ولا بأْسَ علىٰ ذكرِ (لَظَىٰ) في البيتِ . . أَنْ نذكُرَ حديثَ ٱبنِ الخطَّابِ معَ الجهنيِّ ، وذلِكَ أَنَّهُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ [في « الإصابة » ٣/ ٣٨٨ بنحوها] : خرجَ إِلىٰ (حرَّةِ وَاقِمٍ) ، فلقيَ رجلاً من جهينةَ ، فقالَ لهُ : ما ٱسمكَ ؟ قالَ : شهابٌ ، قالَ : ٱبنُ مَن ؟ قالَ : جمرَةَ ، قالَ : ومِمَّن أَنتَ ؟ قالَ : مِنَ الحَرقَةِ ، قالَ : ثم مِمَّن ؟ قالَ : مِن بَني ضِرام ، قالَ وأَينَ منزلُكَ ؟ قالَ : بـ(حرَّةِ لَيلىٰ) ، قالَ : وأَينَ تريدُ ؟ قالَ : (ذَاتِ لَظَىٰ) ، فقالَ عمرُ : أَدرِكْ أَهلَكَ ، فما أَراكَ تدرِكُهم إِلاَّ وقَد ٱحترَقوا ، قالَ الراوي : فأَدْرَكَهم وقد أَحاطَتْ بِهِم النارُ .

التشاؤم بالاسم القبيح

ونظيرُها : أَنَّهُ لمَّا وقعَ الطاعونُ بـ(مصْرَ) في ولايةِ عبدِ العزيزِ بنِ مروانَ . . هرَب مِنها ، فنزلَ قريةً من الصعيدِ ، فقدمَ عليهِ رَسولٌ مِن أَخيهِ حينَ نزلَها ، فقالَ لهُ : ما ٱسمُكَ ؟ قالَ : طالِبُ بنُ مدرِكٍ ، فقالَ : أَوَّهْ ، ما أَراني راجعاً إِلىٰ (الفُسطَاطِ) ، وماتَ في تِلكَ القريَةِ .

ولمَّا خرَجَ صلاحُ الدينِ بنُ أَيُوبَ مِن (مصْرَ) . . سمعَ قوَّالاً ينشِدُ [في « كتاب الروضتين في أخبار الدولتين » ٣/ ١٠٤ مِنَ الوافرِ] :

تَمَتَّعْ مِنْ شَمِيْمِ عَرَارِ نَجْدٍ   فَمَا بَعْدَ ٱلْعَشِيَّةِ مِنْ عَرَارِ[1]

فتطيَّرَ مِن ذلِكَ ، وكانَ كَما تطيَّرَ ، فإِنَّهُ ٱشتغلَ بـ(الشام) ، وقتالِ الإفرنْجِ ، ولمْ يعدْ إلىٰ (مصرَ) حَتَّىٰ ماتَ بعدَ طولِ المدَّةِ . والحكاياتُ في مثلِهِ كثيرَةٌ .

التفاؤل بالاسم الحسن

وعكسُهُ : أَنَّ سعدَ ٱبنَ أَبي وقَّاصٍ وجَّهَ إِلىٰ ٱبنِ الخطَّابِ بِرَسُولٍ ، فقالَ لَهُ [كما في « المنتظم حتى سنة (٢٥٧ هـ) » ٤/ ٢٧٠] : ما ٱسمكَ ؟ قالَ : ظَفَرٌ ، قالَ : ٱبنُ مَن ؟ قالَ : ٱبنُ قَرِيبٍ ، فقالَ عُمرُ : ظَفَرٌ قريبٌ إن شاءَ اللهُ تعالىٰ .

ولمَّا هاجرَ النبيُّ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ وقارَبَ (المدينةَ) . . سمعَ منادياً يُنادي أَخاهُ ويقولُ : يا سالِمُ ، يا سالِمُ ، فقالَ لأَصحابِهِ : « سَلِمْنَا » ، فلمَّا دخلَها . . سمِعَ آخرَ يُنادي : يا غانِمُ ، قالَ : « غَنِمْنَا » ، فلمَّا نزلَ . . أُتيَ برُطَبٍ ، قالَ : « حَلاَ لَنَا ٱلْبَلَدُ »[2] .

وفي يومِ الحديبيَّةِ لمَّا أَقبلَ سهيلٌ . . قالَ : « سَهُلَ لَنا الأَمرُ »[3] .

---

(١) الشَّميم : مصدرُ (شمَّ) . والمعنى : تمتَّعْ مِن طيبِ رائِحةِ عرارِ (نجدٍ) ؛ فهذا أَوانُهُ ، وهوَ لا يوجدُ بعدَ العشيَّةِ .

(٢) لم نجده .

(٣) أخرجه عن المسور بن مخرمة رضي الله عنه البخاري (٢٧٣١) و(٢٧٣٢) في الشروط بلفظ : « سهل لكم من أمركم » ، وعند أحمد في « المسند » (٤/ ٣٣٠) بلفظ : « سهل من أمركم » .

وربَّما يَأْتي موضعٌ آخرُ يقتضي ٱستيفاءَ ما يُقالُ في الطِّيرَةِ والفألِ[1] ، أمَّا هـٰذا . . فلا أكثرَ لهُ مِمَّا ذُكرَ .

والله أعلمُ

* * *

(١) لِمَا أخرج عن أنس رضي الله عنه أحمد (٣/ ١٥٤) ، والبخاري (٥٧٥٦) في الطب ، ومسلم (٢٢٢٤) (١١٢) في السلام ، وأبو داوود (٣٩١٦) في الطب ، والترمذي (١٦١٥) في السِّيَر ، وابن ماجه (٣٥٣٧) في الطب أنه صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ قال : « لا عدوىٰ ولا طيرة وأحب الفأل » قيل : يا رسول الله ، وما الفأل ؟ قال : « الكلمة الطيبة » . وفي الباب : عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عند أبي داوود (٣٩١٠) في الطب ، والترمذي (١٦١٤) في السير وقال : حسن صحيح ، وغيره : « الطيرة شرك ـ وما منا ـ ولكن الله يذهبه بالتوكل » وهو معدود من الكبائر .

[قالَ أَبو الطَّيبِ المتنبِّي في « العُكبَرِيِّ » ١/ ٣٢٢ مِنَ الخفيفِ] :

لاَ بِقَوْمِيْ شَرُفْتُ بَلْ شَرُفُوْا بِيْ ... وَبِنَفْسِـيْ فَخَـرْتُ لاَ بِجُـدُوْدِيْ

فخر الإنسان بقومه، ولن يكون غير ذلك وإن أبى

لو ٱقتصرَ الناظمُ علىٰ هَـٰذَا البيتِ . . لكانَ أَلأَمَ الناسِ نسباً ، غيرَ أَنَّهُ شفعَهُ بقولِهِ [في « العُكبَرِيِّ » ١/ ٣٢٣] :

وَبِهِمْ فَخْرُ كُلِّ مَنْ نَطَقَ ٱلضَّا ... دَ وَعَوْذُ ٱلْجَانِيْ وَغَوْثُ ٱلطَّرِيْدِ

إِلا أَنَّ هَـٰذَا كانَ بارِداً ، فٱنحطَّ وخمَلَ ، حَتَّىٰ كأَنْ لم يكُنْ بخلافِ الأَوَّلِ ، فقد كانَ حُلْوَ اللفظِ ، مليحَ المعنىٰ في بابِهِ ، فسارَ وٱنتشرَ ، وهُوَ من قولِ الفرزدَقِ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَإِنَّ تَمِيْمـاً كُلَّهَـا غَيْـرَ سَعْـدِهَـا ... زَعَانِفُ لَوْلاَ عِزُّ سَعْدٍ لَذَلَّتِ

ومثلُهُ قولُ عليِّ بنِ جبلَةَ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا سَوَّدَتْ عِجْلاً مَآثِرُ غَيْرِهِمْ ... وَلَـٰكِنْ بِهِمْ سَادَتْ عَلَىٰ غَيْرِهِمْ عِجْلُ

وكثيراً ما يشفُّ كلامُ الناظِمِ عَنْ ٱنحطاطِ نَسَبِهِ وَزَمانَةِ حسَبِهِ ، كما في قولِهِ [في « العُكبَرِيِّ » ١/ ٦٠ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَسْتُ أُبَالِيْ بَعْدَ إِدْرَاكِيَ ٱلْعُلاَ ... أَكَانَ تُرَاثاً مَا تَنَاوَلْتُ أَمْ كَسْبَا

وقولِهِ [في « العُكبَرِيِّ » ٣/ ٢٦٧ مِنَ المنسرحِ] :

وَإِنَّمـا يَـذْكُـرُ ٱلْجُـدُوْدَ لَهُـمْ ... مَـنْ نَفَـرُوْهُ وَأَنْفَـدُوْا حِيلَـهْ[1]

---

(١) نافرني فنفرتُهُ : أَصلُ المنافرةِ أَنَّ الرجلينِ منَ العربِ كانا يحتكمانِ في الجاهليَّةِ =

تفضيل الفرع على الأصل عند المتنبي

وتراهُ مِن أَجْلِ ما يَجِدُ مِن ذلِكَ في نفسِهِ . . يفضِّلُ الفرعَ دائِماً علىٰ الأَصلِ ، لا في نفسِهِ فقط ، بلْ حَتَّىٰ في مَمْدوحيهِ ، أَلا تَراهُ يقولُ لسيفِ الدولَةِ [في « العُكبَرِيِّ » ٣/ ٢٠ مِنَ الوافرِ] :

وَإِنْ تَفُـقِ ٱلأَنَـامَ وَأَنْـتَ مِنْهُـمْ ... فَإِنَّ ٱلْمِسْكَ بَعْضُ دَمِ ٱلْغَزَالِ

ويقولُ لهُ ـ أيضاً ـ [في « العُكبريِّ » ٣/ ١١١ مِنَ الرَّجَزِ] :

[وَٱلْعَاذِلِيْنَ فِيْ ٱلنَّدَىٰ ٱلْعَوَاذِلاَ] ... قَـدْ فَضَلُـوْا بِفَضْلِـكَ ٱلْقَبَـائِـلاَ

ومن ذلِكَ قولُهُ [في « العُكبري » ٢/ ١٧٩ مِنَ الخفيف] :

نَفْسُهُ فَوْقَ كُلِّ أَصْلٍ شَرِيْفٍ ... وَلَوَ ٱنِّيْ لَهُ إِلَىٰ ٱلشَّمْسِ عَازِيْ

وقولُهُ [في « العُكبَرِيِّ » ٣/ ٣٧٨ مِنَ الخفيفِ] :

كُـلُّ آبَـائِـهِ كِـرَامُ بَنِـي ٱلـدُّنْـ ... ـيَـا وَلَـٰكِنَّـهُ كَـرِيْـمُ ٱلْكِـرَامِ

وقولُهُ [في « العُكبَرِيِّ » ١/ ٣٨٠ مِنَ الطَّويلِ] :

فَإِنْ يَكُ سَيَّارُ بْنُ مُكْرَمٍ ٱنْقَضَىٰ ... فَإِنَّكَ مَاءُ ٱلْوَرْدِ إِنْ ذَهَبَ ٱلْوَرْدُ

وقولُهُ [في « العُكبَرِيِّ » ١/ ٩١ مِنَ البسيطِ] :

وَإِنْ تَكُنْ تَغْلِبُ ٱلْغَلْبَاءُ عُنْصُرَهَا ... فَإِنَّ فِي ٱلْخَمْرِ مَعْنَىً لَيْسَ فِي ٱلْعِنَبِ

وقولُهُ [في « العُكبَرِيِّ » ٣/ ١٠٩ مِنَ الطَّويلِ] :

فَتِيْهاً وَفَخْراً تَغْلِبَ ٱبْنَةَ وَائِلٍ ... فَـأَنْـتِ لِخَيْـرِ ٱلْفَـاخِـرِيْـنَ قَبِيْـلُ

= إلىٰ من عرفَ بالرِّياسةِ والفضلِ والصدقِ ، فيقولانِ لهُ : أيُّ نفرينا أفضلُ ؟ فإذا فضَّل أحدهما على الآخرِ ، فالمغلوبُ منفورٌ ، والغالبُ نافرٌ . أنفدوا : أفنَوا .

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٤/ ٧٠ مِنَ الوافرِ] :

وَمَا أَنَا مِنْهُمْ بِالْعَيْشِ فِيهِمْ وَلَكِنْ مَعْدِنُ الذَّهَبِ الرَّغَامُ[1]

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٤/ ١٠٧ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَو لَمْ تَكُونِي بِنْتَ أَكْرَمِ وَالِدٍ لَكَانَ أَبَاكِ الضَّخْمَ كَوْنُكِ لِيْ أُمَّا

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٢٣١ مِنَ البسيطِ] :

تَمْشِيْ الْكِرَامُ عَلَىٰ آثَارِ غَيْرِهِمِ وَأَنْتَ تَخْلُقُ مَا تَأْتِيْ وَتَبْتَدِعُ

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ١/ ١٨٦ مِنَ الطَّويلِ] :

وَيُغْنِيكَ عَمَّا يَنْسُبُ النَّاسُ أَنَّهُ إِلَيْكَ تَنَاهَىٰ الْمَكْرُمَاتُ وَتُنْسَبُ

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٣/ ٣٩١ مِنَ الطَّويلِ] :

تَشَرَّفَ عَدْنَانٌ بِهِ لاَ رَبِيعَةٌ وَتَفْتَخِرُ الدُّنْيَا بِهِ لاَ الْعَوَاصِمُ

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٤/ ١٨٥ مِنَ الكاملِ] :

أَنْسَابُ فَخْرِهِمُ إِلَيْكَ وَإِنَّمَا أَنْسَابُ أَصْلِهِمُ إِلَىٰ عَدْنَانِ

وكذبَ واللهِ وافترىٰ ، إنَّما ذلكَ رسولُ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ، ولَكِنْ مَا أَحسنَ قولَ ابنِ الروميِّ [في « ديوانهِ » ٦/ ٢٤٢٥ مِنَ البسيطِ] :

قَالُوْا أَبُوْ الصَّقْرِ مِنْ شَيْبَانَ قُلْتُ لَهُمْ: كَلاَّ لَعَمْرِيْ وَلَكِنْ مِنْهُ شَيْبَانُ
كَمْ مِنْ أَبٍ قَدْ عَلاَ بِابْنٍ ذُرَىٰ شَرَفٍ كَمَا عَلا بِرَسُولِ اللهِ عَدْنَانُ

---

(١) الرَّغامُ : الترابُ .

لم تذق حلاوة الآباء

ويُذكَرُ : أَنَّ هاشمياً دخلَ علىٰ المنصورِ ، فسأَلَهُ عن أَبيهِ ، فقالَ : ماتَ رحمهُ اللهُ ، وتركَ كذا رحمَهُ اللهُ ، وفعلَ كذا رحمَهُ اللهُ ، وأَوصىٰ بكذا رحمَهُ اللهُ ، فقالَ لَهُ الربيعُ ـ وكانَ قائماً علىٰ رأسِ المنصورِ ـ : أَخِّرْ عَن أَميرِ المؤمنينَ ، فقد أَضجرْتَهُ بأَبيكَ ، قالَ لَهُ : لا لَومَ عَليكَ ، فإِنَّكَ لَم تَذُقْ حلاوَةَ الآباءِ ، وكانَ الربيعُ دَعِيّاً ، فاستلقىٰ المنصورُ من كثرَةِ الضحكِ .

مَن بيتُهُ من زجاج . . لا يرمي الناس بالحجار

ويروىٰ [بنحوه في « بغية الطلب في تاريخ حلب » ٦/ ٨٣٠] : أَنَّ قتيبةَ بنَ مسلمٍ الباهليَّ ، لمَّا فتحَ (سمرقنْدَ) . . أَفضىٰ إِلىٰ أَثاثٍ لم يعرفْ مثلُهُ ، فأَمرَ بدارٍ ففرشَتْ ، وفي صحنِها قدورٌ لا يرتقىٰ إِلَيها إِلاَّ بالسلالِمِ ، فأَقبلَ الحصينُ(١) بنُ المنذرِ بنِ الحارثِ بنِ وَعْلَةَ الرقاشيُّ ـ والناسُ علىٰ مراتِبِهم ـ وهو شيخٌ كبيرٌ ، فلمَّا رآهُ عبدُ اللهِ بنُ مسلمٍ ـ أَخو قتيبةَ ـ قالَ لقتيبةَ : أَتأْذَنُ لي في معاتبَتِهِ ؟

قالَ : إِنَّهُ خبيثٌ لا يُطاقُ ، فَأَبىٰ عبدُ اللهِ إِلاَّ أَنْ يَأْذَنَ لَهُ ، وكانَ عبدُ اللهِ قد تسوَّرَ حائِطاً إِلىٰ امرأَةٍ ، فقالَ للحُصَينِ : أَمِنَ البَابِ دَخلْتَ يا أَبَا سَاسَانَ ؟

قالَ : نعم ، أَسَنَّ عمُّكَ(٢) عَن تسُّورِ الحيطَانِ .

قالَ : أَرأَيْتَ هَـٰذِهِ القدورَ ؟

قالَ : هيَ أَعظمُ من أَنْ لا تُرىٰ .

---

(١) في « بغيةِ الطلبِ » : (الحُضَينُ) بدل (الحُصَينِ) .
(٢) أَسَنَّ : كَبِرَ وصَارَ مُسِناً .

قالَ : ما أَحسبُ بكرَ بنَ وائلٍ رأىٰ مثلَها ، قالَ : لاَ ولا عيلانُ ، ولَو رَآها . . لسمَّيَ شبعانَ ، فقالَ لَهُ : يا أَبا ساسانَ ، أَتعرِفُ الذي يقولُ [مِنَ الطَّويلِ] :

عَزَلْنَا وَأَمَّرْنَا وَبَكْرُ بْنُ وَائِلٍ تَجُرُّ خُصَاهَا تَبْتَغِي مَنْ تُحَالِفُ

قالَ : نعم ، أَعرفُهُ ، وأَعرفُ الذي يقولُ [مِنَ الوافرِ] :

وَخَيْبَةُ مَنْ يَخِيبُ عَلَىٰ غَنِيٍّ وَبَاهِلَةَ بْنِ يَعْصُرَ وَالرِّبَابِ

قالَ : أَفتعرفُ الذي يقولُ [مِنَ الطَّويلِ] :

كأَنَّ فِقَاحَ الأَزْدِ حَوْلَ ابْنِ مَسْمَعٍ وَقَدْ عَرِقَتْ أَفْوَاهُ بَكْرِ بْنِ وَائِلِ[1]

قالَ : أَعرفُهُ ، وأَعرفُ الذي يقولُ [مِنَ الكاملِ] :

قَوْمٌ قُتَيْبَةُ أُمُّهُمْ ، وَأَبُوهُمُ لَوْلاَ قُتَيْبَةُ أَصْبَحُوا فِي مَجْهَلِ

قالَ أَمَّا الشِّعْرُ فأَراكَ ترويهِ ، ولـٰكِنْ هَلْ تقرأُ شيئاً مِنَ القُرآنِ ؟ قالَ : الكثيرَ الطيِّبَ : ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان : ١] ، فغضِبَ عبدُ اللهِ بنُ مسلمٍ ، وقالَ : لقد بلغني أَنَّ امرأَةَ الحصينِ تزوَّجَت بهِ وهِيَ حبلَىٰ من غيرِهِ ، فلم يتحرَّكِ الشيخُ عَن هيئتِهِ ، وقالَ ـ علىٰ رسلِهِ ـ : وما يكونُ تلِدُ غلاماً علىٰ فِراشي ؟! فيقالُ : ابنُ الحصينِ ، كَما يقالُ : عبدُ اللهِ بنُ مسلمٍ ؟!! فأَقبلَ قتيبةُ علىٰ أَخيهِ وقالَ : لا يبعدُ اللهُ غيرَكَ ، ليتَكَ سكَتَّ ؛ إِذ لَمْ تقدِرْ .

أتكون باهلياً خليفة؟!

ويُذكرُ [كما في «سير أعلام النبلاء» ٤/ ٤١١] : أَنَّ قتيبةَ هـٰذا مازحَ أَعرابيّاً فقالَ : أَيسرُّكَ أَنْ تكونَ باهليّاً خليفةً ؟ قالَ : لا واللهِ ، ولو أَنَّ لي

---

(١) الفِقاحُ ـ جمعُ فَقْحَةَ ـ : وهيَ حَلقةُ الدُّبُرِ .

ما طلعَتْ عليهِ الشَّمْسُ ، قالَ : أَفَيَسُرُّكَ أَنْ تكونَ باهليّاً في الجنَّةِ ؟ فأَطْرَقَ ثُمَّ قالَ : نعم ، علىٰ شرْطِ أَنْ لا يعلَمَ أَهلُ الجنَّةِ أَنِّي باهليٌّ .

لا يعبأ الله بالباهلي أبداً!!!

ولمَّا حجَّ أَبو جَزْءٍ ـ وكانَ قومُهُ يعظِّمونَهُ ـ سأَلَهُ عن نسبِهِ بعضُ بني سعدٍ ؟ فذكَرَ أَنَّهُ باهليٌّ ، فاْقتحمَتْهُ عينُهُ[1] ، فقالَ لَهُ قائِلٌ : إِنَّهُ أَميرٌ ابْنُ أَميرِ ابْنُ أميرٍ . . حَتَّىٰ عدَّ خمسةً بأَسمائِهِم ، فقالَ السعديُّ : واللهِ لَو عددْتَ لَهُ مِن بيتِ النبوَّةِ أَضعافَ ما عددْتَ لَهُ في الإِمارَةِ ، ثمَّ كانَ باهليّاً . . ما كانَ الله ليعبأَ بِهِ .

ما كانت إهانة الله لك بجعلك باهلياً في الدنيا . . إلا ليعوضك يوم القيامة

ويُحكىٰ [كما في « سير أعلام النبلاء » ٤/٤١١] : أَنَّ أَعرابيّاً لَقِيَ شخصاً فسأَلَهُ مَنْ أَنتْ ؟ فقالَ : من باهلَةَ ، فرقَّ لَهُ ، فقالَ ذلِكَ الشخصُ : وأَزيدُكَ أَنِّي لَستُ من صميمِهِم ، ولٰكِنْ مِن مَواليهِم ، فأَقبلَ الأعرابيُّ يقبِّلُ يدَيهِ ورجليهِ ، فقالَ لَهُ : ولِمَ هٰذَا ؟ فقالَ : لأَنَّ اللهَ جلَّ شأْنُهُ ما اْبتلاكَ بهٰذِهِ المهانَةِ في الدنيا . . إلاَّ ليعوِّضَكَ في الآخرَةِ .

السبب في اتضاع باهلة

وما كانَ السبَبُ في اْتضاعِ غَنِيٍّ وباهلَةَ ـ علىٰ ما لَهما مِن الغَنَاءِ والشرَفِ ـ إِلاَّ شفوفَ أَخوَيهِما فزارةَ وذُبيانَ ، وتقدُّمُهُما عليهِما بالمآثِرِ ، فاْنحطّا بالنسبَةِ لذلِكَ ، كَما ذكرهُ اْبنُ خلِّكانَ [في « وفيات الأعيان » ٤/٩١] وغيرُهُ .

وفي المَثَلِ [كما في « مجمع الأمثال » ٢/٣٣١] : كُن عِصاميّاً ، ولا تَكُنْ عِظاميّاً .

---

(١) اْقتحمتهُ عينُهُ : اْزدرتْهُ .

ويحكىٰ [كما في « مجمع ٱلأمثالِ » ٢/ ٣٣١] : أَنَّ ٱلحجَّاجَ أَرادَ أَن يختبرَ رَجلاً . . فقالَ لَهُ : أَعصاميٌّ أَنتَ أَمْ عِظاميٌّ ؟ فقالَ : أَنا عصاميٌّ وعظاميٌّ ، فقضىٰ حوائِجَهُ ، ثمَّ ٱستنطقَهُ ، فوجدَهُ مِنْ أَجهلِ النَّاسِ ، فقالَ : لتَصْدُقَنِّي ، أَو لأَقتلنَّكَ ، كيفَ أَجبتَني بِما قلتَ لَمَّا سَأَلْتُكَ ؟ فإِنِّي لَم أَجِدْكَ حيثُ زعمْتَ ، قالَ : إِنِّي وٱللهِ لا أَعرفُ ٱلعصاميَّ ولا ٱلعظامِيَّ ما هوَ ، فخشيتُ أَن أَقولَ أَحدَهُما فيضُرَّني . . فقلْتُ : كِلَيهما ، وتوكَّلتُ علىٰ ٱللهِ ، فقالَ ٱلحجَّاجُ : أَلا إِنَّ ٱلمقاديرَ تجعَلُ ٱلعِيَّ خَطيباً .

اعصامي أم عظامي؟!

وكانَتِ ٱلْعَربُ تُسمِّي مَن كَرُمَ أَبواهُ : طَرفاً ، ومَنْ شَرُفَ أَبوهُ ولَم تكُنْ أُمُّهُ هُناكَ هَجيناً ، ومَنْ شَرُفَتْ أُمُّهُ ولَمْ يشرُفْ أَبوهُ مُذَرَّعاً ، وهُوَ والمقرِفُ شيءٌ واحدٌ .

وأَنشدَ ٱلأَزهريُّ في « التهذيبِ » [مِنَ الطَّويل] :

إِذَا بَــاهِلِــيٌّ عِنْــدَهُ حَنْظَلِيَّــةٌ لَهَــا وَلَــدٌ مِنْــهُ فَــذَاكَ ٱلْمُــذَرَّعُ

وقالَ ذو الرُّمَّةِ [في « ديوانهِ » ١/ ٢٩ مِنَ البسيطِ] :

تُـرِيـكَ سُنَّـةَ وَجْـهٍ غَيْـرَ مُقْـرِفَـةٍ مَلْسَاءَ لَيْسَ بِهَا خَالٌ وَلاَ نُدَبُ

وحيثُمَا قالوا عصاميٌّ . . فإِنَّما يريدونَ قولَ النابغَةِ [الذُّبيانيِّ] يمدحُ عصاماً حاجبَ النعمانِ [كما في « مجمع الأمثال » ٢/ ٣٣١ مِنَ الرَّجَزِ] :

من هو العصامي؟ ومن هو العظامي؟

نَفْسُ عِصَـامٍ سَـوَّدَتْ عِصَـامَـا وَعَلَّمَتْــهُ ٱلْكَــرَّ وَٱلإِقْــدَامَــا

وحيثُما قالوا عظاميٌّ . . فقد أَرادوا قولَ الآخرِ [كما في « فصل المقال في شرح كتاب الأمثال » ١/ ١٣٨ مِنَ الوافرِ] :

إِذَا مَا ٱلْحَيُّ عَاشَ بِعَظْمِ مَيْتٍ فَـذَاكَ ٱلْعَظْـمُ حَـيٌّ وَهْـوَ مَيْـتُ

الفخر بالنفس

وقالَ بعضُهم [كما في «المثل السائر» ١/ ١٠٠ مِنَ الطَّويلِ] :

لَعَمْرُكَ مَا ٱلإِنْسَانُ إِلاَّ ٱبْنُ يَوْمِهِ ... عَلَىٰ مَا تَجَلَّىٰ يَوْمُهُ لاَ ٱبْنُ أَمْسِهِ

وَمَا ٱلْفَخْرُ بِٱلْعَظْمِ ٱلرَّمِيْمِ وَإِنَّمَا ... فَخَارُ ٱلَّذِي يَبْغِي ٱلْفَخَارَ بِنَفْسِهِ

وقالَ أبو نعمانَ [كما في «المستطرف» ١/ ٨٠ منَ الكاملِ] :

لاَ تَنْظُرَنَّ إِلىٰ ٱمْرِىءٍ مَا أَصْلُهُ ... وَٱنظُرْ إِلىٰ أَفْعَالِهِ ثُمَّ ٱحْكُمِ

ويحسُنُ أن يستأنِسَ بقولِ الناظِمِ [كما في «العُكبَريِّ» ٣/ ٨١ مِنَ البسيطِ] :

خُذْ مَا تَرَاهُ وَدَعْ شَيْئاً سَمِعْتَ بِهِ ... فِي طَلْعَةِ ٱلشَّمْسِ مَا يُغْنِيْكَ عَنْ زُحَلِ

الفخر بالنفس والآباء

وممَّا ٱجتمَعَ فيهِ الطريفُ والتالِدُ ، وٱلتقىٰ عليهِ الولَدُ والوالِدُ . . قولُ أُميَّةَ [في «ديوانِهِ» ٥٠٥ مِنَ الوافرِ] :

وَرِثْنَا ٱلْمَجْدَ عَنْ كُبْرَىٰ نِزَارٍ ... وَأَوْرَثْنَـا مَـآثِـرَهُ بَنِيْنَـا

وقولُ عامرِ بنِ الطُّفَيلِ [في «ديوانِهِ» ١٣ مِنَ الطَّويلِ] :

وَإِنِّيْ وَإِنْ كُنْتُ ٱبْنَ سَيِّدِ عَامِرٍ ... وَفَارِسَهَا ٱلْمَشْهُوْرَ فِيْ كُلِّ مَرْكَبِ

فَمَا سَوَّدَتْنِيْ عَامِرٌ عَنْ وِرَاثَةٍ ... أَبَىٰ ٱللهُ أَنْ أَسْمُو بِأُمٍّ وَلاَ أَبِ

وَلَـٰكِنَّنِيْ أَحْمِيْ حِمَاهَا وَأَتَّقِيْ ... أَذَاهَا وَأَرْمِيْ مَنْ رَمَاهَا بِمَنْكَبِ

وقولُهُ ـ أَو هِيَ للمتوكِّلِ الليثيِّ ـ [في «ديوان الحماسة» ٢/ ٢٦٥ مِنَ الكاملِ] :

لَسْنَـا وَإِنْ أَحْسَـابُنَـا كَـرُمَـتْ ... يَـوْمـاً عَلَـىٰ ٱلأَحْسَـابِ نَتَّكِـلُ

نَبْنِـي كَمَـا كَـانَـتْ أَوَائِلُنَـا ... تَبْنِـي وَنَفْعَـلُ مِثْـلَ مَـا فَعَلُـوْا

ويقربُ منهُ قولُ زهيرٍ - وهُوَ ممَّا أجمعَ أهلُ العلمِ على تقديمِهِ - [في «ديوانه» ٤٢-٤٤ مِنَ الطَّويلِ] :

وَفِيْهِمْ مَقَامَاتٌ حِسَانٌ وُجُوهُهَا ... وَأَنْدِيَةٌ يَنْتَابُهَا ٱلْقَوْلُ وَٱلْفِعْلُ
إِذَا جِئْتَهُمْ أَلْفَيْتَ حَوْلَ بُيُوتِهِمْ ... مَجَالِسَ قَدْ يُشْفَىٰ بِأَحْلَامِهَا ٱلْجَهْلُ
عَلَىٰ مُكْثِرِيهِمْ حَقُّ مَنْ يَعْتَرِيهِمُ ... وَعِنْدَ ٱلْمُقِلِّيْنَ ٱلسَّمَاحَةُ وَٱلْبَذْلُ
وَمَا كَانَ مِنْ خَيْرٍ أَتَوْهُ فَإِنَّمَا ... تَوَارَثَهُ آبَاءُ آبَائِهِمْ قَبْلُ
وَهَلْ يُنْبِتُ ٱلْخَطِّيَّ إِلاَّ وَشِيجُهُ ؟ ... وَتُغْرَسُ إِلاَّ فِيْ مَنَابِتِهَا ٱلنَّخْلُ ؟[1]

وقولُهُ [في «ديوانه» ٢٢٨ مِنَ البسيطِ] :

لَوْ كَانَ يَقْعُدُ فَوْقَ ٱلشَّمْسِ مِنْ كَرَمٍ ... قَوْمٌ بِأَوَّلِهِمْ أَوْ مَجْدِهِمْ قَعَدُوْا
قَوْمٌ سِنَانٌ أَبُوْهُمْ حِيْنَ تَنْسُبُهُمْ ... طَابُوْا وَطَابَ مِنَ ٱلأَوْلَادِ مَا وَلَدُوْا
إِنْسٌ إِذَا أَمِنُوْا جِنٌّ إِذَا فَزِعُوْا ... مُرَزَّؤُوْنَ بَهَالِيْلٌ إِذَا جُهِدُوْا[2]

وبعدُ : فقولُهُ في القطعةِ الأُولىٰ : (وَعِنْدَ ٱلْمُقِلِّيْنَ ٱلسَّمَاحَةُ وَٱلْبَذْلُ) وقولُهُ في الثانيةِ : (بَهَالِيْلٌ إِذا جُهِدُوا) . . أَمدحُ ما يكونُ بالجودِ ، وأَبلغُ ما يمكِنُ من الثناءِ بالسخاءِ ؛ لأَنَّ معناهُ : أَنَّهم يبذلونَ ويجودونَ علىٰ الفاقَةِ والجهْدِ . الإعطاء عند القلة . . أمدح ما يكون بالجود

ومنهُ قولُ عقيلِ بنِ ٱلعَرَنْدَسِ يمدَحُ بني عمروٍ الغنويِّ [كما في «ديوان الحماسة» ٢/٢٦٩ مِنَ البسيطِ] :

---

(١) الخطيُّ : الرمحُ . الوشيجُ : القنا الملتفُّ في منبتهِ . يقولُ : لا تنبتُ القناةَ إلا القناةُ ، ولا تُغرسُ النخلُ إلا بحيثُ تنبتُ وتصلحُ ، وكذلكَ لا يولدُ الكرامُ إلا في موضعٍ كريمٍ .

(٢) البُهلولُ : العزيزُ الجامعُ لكلِّ خيرٍ .

إِنْ يُسْأَلُوا ٱلْخَيْرَ أَعْطَوْهُ وَإِنْ جُهِدُوْا فَٱلْجَهْدُ يُخْرِجُ مِنْهُمْ طِيْبَ أَخْبَارِ

وقولُ المقنَّعِ الكنديِّ [كما في « ديوان الحماسة » ٢/ ٣٤٣ مِنَ الكاملِ] :

لَيْسَ ٱلْعَطَاءُ مِنَ ٱلْفُضُولِ سَمَاحَةً حَتَّىٰ تَجُودَ وَمَا لَدَيْكَ قَلِيْلُ

وقالَ عمرُو بنُ الأَهتم[1] [كما في « لسان العرب » ٩/ ٢٥٣ مِنَ البسيطِ] :

إِنَّا بَنُوْ مِنْقَرٍ قَوْمٌ ذَوُوْ حَسَبٍ فِيْنَا سَرَاةُ بَنِيْ سَعْدٍ وَنَادِيْهَا[2]

جُرْثُومَةٌ أُنُفٌ يَعْتَفُّ مُقْتِرُهَا عَنِ ٱلْخَبِيْثِ وَيُعْطِيْ ٱلْخَيْرَ مُثْرِيْهَا[3]

وَٱلْبَذْلُ مِنْ مُعْدِمِيْهَا إِنْ أَلَمَّ بِهَا حَقٌّ وَلاَ يَشْتَكِيْهَا مَنْ يُنَادِيْهَا

وهُوَ دونَ الأَوَّلَينِ ؛ إِذْ تَجودُ فقراؤُهم بِلا شرطٍ ولا قيدٍ ، وهٰؤلاءِ إِنَّما يبذُلُ مُقْتِروهُم إِذَا وجبَتِ الحقوقُ ، فَهم أَقربُ إِلىٰ قولِ أَبي الجويريَةِ العنزيِّ [مِنَ الطَّويلِ] :

عَلَىٰ مُوْسِرِيْهِمْ حَقُّ مَنْ يَعْتَرِيْهِمُ وَعِنْدَ ٱلْمُقِلِّيْنَ ٱتِّسَاعُ ٱلْخَلاَئِقِ

فهُوَ داخِلٌ تَحتَ السَّعَةِ التي أَشارَ إِليها الناصِحُ الحكيمُ [صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ] في قولِهِ : « إِنَّكُمْ لَنْ تَسَعُوْا ٱلنَّاسَ بِأَرْزَاقِكُمْ ، ولٰكِنْ تَسَعُوْنَهُم بِأَخلاقِكُم »[4] . وخيرُ ما في الأَوَّلِ . . قولُهُ تقدَّسَتْ

---

(١) واسمه عمرو بن سنان ، توفي سنة : (٥٧ هـ) .

(٢) السَّراةُ : وسطُ الشيءِ وأَعلاهُ .

(٣) الجرثومةُ : الأَصلُ . أُنُفٌ : أَبِيُّونَ ، مِنَ الأَنَفَةِ .

(٤) أخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه الحاكم في « المستدرك » (١/ ١٢٤) وصححه بلفظ : « وَلْيَسَعْهُم مِنكُمْ بَسْطُ ٱلوَجْهِ ، وَحُسْنُ ٱلخُلُقِ » ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (٦٥٥٠) بلفظ : « وَلَكِنْ يَسَعُهُمْ مِنكُمْ بَسْطُ ٱلْوَجْهِ » . وزاد في عزوه العراقي في « تخريج الإحياء » (٢/ ١٧٨) و(٣/ ٤٩) إلى البزار =

أسماؤُهُ : ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر : ٩] .

الفخر بالآباء

ولنعُدْ إلىٰ حيثُ انحرفَ بنا الاستطرادُ ، فنقولُ : ذكرَ ابنُ خلِّكانَ [في « وفيات الأعيان » ٥/ ١٩١] عن شراحيلَ بنِ معنِ بنِ زائدَةَ ، أنَّهُ قالَ : إنِّي لأسيرُ تحتَ قبَّةِ يحيىٰ بنِ خالدٍ البرمكيِّ ، وعديلُهُ فيها القاضي أبو يوسُفَ . . إذْ عرضَ لهُ رَجُلٌ مِن بني أَسَدٍ في شارَةٍ حسنَةٍ ، وأنشدَهُ شعراً لم يرضَهُ ، ثُمَّ قالَ لهُ : يا أَخا بني أسدٍ ، إذا قلتَ الشعرَ . . فقُل مِثلَ هَـٰذَا ، وأنشدَ قولَ مروانَ بنِ أَبي حفصةَ [في « ديوانه » ٨٨ـ٨٩ مِنَ الطَّويلِ] :

بَنُو مَطَرٍ يَوْمَ ٱللِّقَاءِ كَأَنَّهُمْ ... أُسُودٌ لَهُمْ فِيْ بَطْنِ خُفَّانَ أَشْبُلُ
بَهَالِيْلُ فِيْ ٱلْإِسلاَمِ سَادُوْا وَلَمْ يَكُنْ ... كَأَوَّلِهِمْ فِـي ٱلْجَاهِلِيَّـةِ أَوَّلُ
هُمُ ٱلْقَوْمُ، إِنْ قَالُوْا أَصَابُوْا وَإِنْ دُعُوْا ... أَجَابُوْا وَإِنْ أَعْطَوْا أَطَابُوْا وَأَجْزَلُوْا
وَمَا يَسْتَطِيْعُ ٱلْفَاعِلُوْنَ فِعَالَهُمْ ... وَإِنْ أَحْسَنُوْا فِيْ ٱلنَّائِبَاتِ وَأَجْمَلُوْا

فاهتز القاضي ، وأعجبتْهُ الأبياتُ كثيراً ، وقالَ : مَن قائلُها يا أَبا الفضلِ ؟ قالَ : مروانُ بنُ أَبي حفصَةَ في والدِ هَـٰذَا الفتىٰ . قالَ شراحيلُ : فرمقَني أَبو يوسفَ بعينَيهِ ـ وأَنا علىٰ فرسٍ لي عتيقٍ ـ وقالَ لي : مَن أَنْتَ يا فتىٰ ـ حيَّاكَ اللهُ تعالىٰ وقرَّبَكَ ؟ ـ قلتُ : أَنا

= (١٩٧٧) و(١٩٧٨) ، وإلى الطبراني في « مكارم الأخلاق » ، وابن عدي في « الكامل » وضعفه ، والبيهقي في « الشعب » (٨٠٥٤) ، وعن أبي نعيم في « الحلية » (١٠/ ٢٥) ، وفي الباب : عن عائشة عند البيهقي في « الشعب » (٨٠٥٤) أيضاً .

شراحيلُ بنُ معنِ بنِ زائدَةَ الشيبانيُّ ، ثُمَّ قالَ شراحيلُ : وَاللهِ ما أَتَتْ عليَّ ساعَةٌ قطُّ . . كانَتْ أَقَرَّ لِعَيني مِن تلْكَ الساعَةِ ٱرتياحاً وسُروراً .

وقالَ ٱبنُ ميَّادَةَ [في « ديوانهِ » ٢٧٢ مِنَ الطَّويلِ] :

بَنُوْ ٱلصَّالِحِيْنَ ٱلصَّالِحُونَ وَمَنْ يَكُنْ   لآبَـاءِ سُـوْءٍ يَلْقَهُـمْ حَيْـثُ سَيَّـرَا
فَمَا ٱلْعُوْدُ إِلاَّ نَابِتٌ فِيْ أَرُوْمَةٍ   أَبَىٰ شَجَرُ ٱلْعِيْدَانِ أَنْ يَتَغَيَّرَا[١]

وقالَ الكُميتُ [في « ديوانهِ » ١/ ١٤٧ مِنَ البسيطِ] :

تَجْرِيْ أَصَاغِرُهُمْ مَجْرَىٰ أَكَابِرِهِمْ   وَفِيْ أَرُوْمَتِهِ مَا يَنْبُتُ ٱلشَّجَرُ

وقالَ أَبو تمَّامٍ [في « ديوانهِ » ٢/ ٨٣ مِنَ الوافرِ] :

فُـرُوْعٌ لاَ تَـرِفُّ عَلَيْـكَ إِلاَّ   شَهِدْتَ بِهَا عَلَىٰ طِيْبِ ٱلأُرُوْمِ
وَفِيْ ٱلشَّرَفِ ٱلْحَدِيْثِ دَلِيْلُ صِدْقٍ   لِمُخْتَبِـرٍ عَلَـىٰ ٱلشَّـرَفِ ٱلْقَـدِيْـمِ

وقالَ أَبو عُبادَةَ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا بِيَ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ فَإِنَّهَا   سَجِيَّةُ آبَائِـيْ وَفِعْـلُ جُـدُوْدِيْ
هُمُ ٱلْقَوْمُ فَرْعِيْ مِنْهُمْ مُتَفَرِّعٌ   وَعُوْدُهُمُ عِنْدَ ٱلْحَوَادِثِ عُوْدِيْ

وقالَ [في « ديوانهِ » ٣/ ٨٣٦ مِنَ الكاملِ] :

نَسَبٌ كَمَا ٱطَّرَدَتْ كُعُوْبُ مُثَقَّفٍ   لَدْنٍ يَزِيدُكَ بَسْطَةً فِيْ ٱلطُّوْلِ[٢]

وقالَ [في « ديوانهِ » ١/ ٢٤٧ـ٢٤٨ مِنَ الكاملِ] :

شَرَفٌ تَتَابَعَ كَابِراً عَنْ كَابِرٍ   كَـٱلـرُّمْـحِ أُنْبُـوْبـاً عَلَـىٰ أُنْبُـوْبِ

---

(١) العَيدانُ ـ جمع عيدانةٍ ـ : وهي أطولُ ما يكونُ من النخلِ ، ولا تكونُ عيدانةً حتى يسقطَ كَرَبُها كلُّهُ ويصيرُ جذعها أجردَ من أعلاهُ إلى أسفلهِ .
(٢) اللدْنُ : الليِّنُ .

وَأَرَىٰ ٱلنَّجَابَةَ لاَ يَكُوْنُ تَمامُهَا لِنَجِيْبِ قَوْمٍ لَيْسَ بِٱبْنِ نَجِيْبِ

وقالَ [في « ديوانِهِ » ١/ ٥١٠ مِنَ الخفيفِ] :

وَهُوَ ٱلْمَجْدُ لَيْسَ يَحْوِيْهِ مَنْ لَمْ يَتَقَـدَّمْ فِيْـهِ أَبُـوْهُ وَجَـدُّهْ

وقالَ [في « ديوانِهِ » ٤/ ٢٤٠٥ مِنَ الكاملِ] :

لاَ عُذْرَ لِلشَّجَرِ الَّذِيْ طَابَتْ لَهُ أَعْـرَاقُـهُ أَنْ لاَ يَطِيْـبَ جَنَـاهُ

وفي أَصدقِ الكلام : ﴿قَالُواْ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ۝٢٧ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم : ٢٧-٢٨] .

وقالَ الناظِمُ [في « العُكبَريّ » ١/ ١٥٢ مِنَ الطَّويلِ] :

فَتـىً عَلَّمَتْـهُ نَفْسُـهُ وَجُـدُوْدُهُ قِرَاعَ ٱلأَعَادِيْ وَٱبْتِذَالَ ٱلرَّغَائِبِ

وقالَ [في « العُكبَريّ » ٣/ ٢٩٩ مِنَ الطَّويلِ] :

فَلاَ قَطَعَ ٱلرَّحْمَـٰنُ أَصْلاً أَتَىٰ بِهِ فَإِنِّيْ رَأَيْتُ ٱلطَّيِّبَ ٱلطَّيِّبَ ٱلأَصْلِ

وقالَ [في « العُكبَريّ » ٤/ ١٣٢ مِنَ الكاملِ] :

أَفْعَـالُ مَـنْ تَلِـدُ ٱلْكِـرَامُ كَـرِيْمَـةٌ وَفِعَالُ مَنْ تَلِدُ ٱلأَعَاجِمُ أَعْجَمُ(١)

صلاح الآباء يسري إلى الأبناء

ولاَ شَكَّ أَنَّ لأَحوالِ الآباءِ علاقَةً قويَّةً بأَحوالِ الأَبناءِ ـ صلاحاً وفساداً ـ مِنْ ٱلأَبِ السابعِ فمنْ دونَهُ ، كما فصَّلْتُ ذلِكَ ودلَّلْتُ عليهِ بالشَّرْعِ وأَقوالِ أَهلِ الأَدبِ في رسالَةٍ لي في علْمِ الأَخلاقِ ، غيرَ أَنَّ ذلِكَ كثيراً ما يتخلَّفُ لأَسبابٍ عاديَّةٍ ، وأُمورٍ خارجيَّةٍ ، فكَمْ مِن جليلٍ ذهبَ أَبناؤُهُ في غيرِ طريقِهِ ، كما يحكىٰ عن بعضِ أَولادِ سيِّدي عبدِ القادرِ الجيلانيِّ .

---

(١) الأَعجمُ عندَ العربِ : هوَ اللئيمُ .

وخرجَ أَحدُ أَبناءِ إِمامِ دارِ الهجرَةِ ومعهُ الحَمامُ يلعبُ بِهِ ـ وقد طرَّ عِذارُهُ ـ فتغَامَزَ أَصحابُ الإمام. . ففطنَ لذلِكَ وقالَ [في « الديباجِ المذَهَّبِ » ١٨] : الأَدبُ أَدبُ اللهِ لا آدابُ الآباءِ والأُمَّهاتِ .

ويحكىٰ : أَنَّ ٱبنَ عرفَةَ حضَرَ عقدَ نكاحِ شيخِهِ ٱبنِ عبدِ السلامِ لولدِهِ ، وكُتِبَ خطُّ الصَّداقِ ، ووضَعَ أَهلُ المجلِسِ شهادَتَهُم فيهِ ، فلمَّا وصلَ إِلىٰ ٱبنِ عرفَةَ ليكتُبَ شهادَتَهُ . . وجَدَ فيهِ : تزوَّجَ العالِمُ الفاضِلُ ، فٱمتنعَ من كتابَةِ شهادَتِهِ ، وقالَ : لَم أَعرفْ لَهُ علماً حَتَّىٰ أَشهدَ بِهِ ، فقالَ لَهُ شيخُهُ : إِنَّكَ جاهِلٌ ، إِنَّما أَنتَ تشهدُ علىٰ النكاحِ لا العلمِ .

ويستنتَجُ منهُ : أَنَّ ٱبنَ الشيخِ لَم يكنْ عالِماً ، وهو موضعُ الشاهِدِ ، وأَنَّهم تسامَحوا بذكرِ العلْمِ في الوثيقَةِ معَ عدمِ وجودِهِ ، وأَنَّ الشيخَ أَغضبَهُ ٱنتزاعُ صفةِ العلمِ عَن ولدِهِ ، وإِلاَّ . . فما كانَ لَهُ أَنْ يخاطِبَ الإِمامَ ٱبنَ عرفَةَ بقولِهِ : يا جاهِلُ ، وإِنْ كانَ تلميذاً لَهُ .

أَمَّا حكمُ المسأَلَةِ : فقدْ قرَّرْناهُ في المسأَلَةِ (٩٤٠) من كتابِنَا « صَوب الركام » .

وعبارَةُ « الجَمْعِ » لابنِ السبكيِّ : وموردُ الصدْقِ والكذِبِ النسبةُ التي تضمَّنَها ؛ أَي : الخبرُ لَيسَ غيرُ ، كقائِمٍ في (زيدُ بنُ عمروٍ قائمٌ) لا بنوَّةُ زيدٍ ، ومِن ثَمَّ قالَ مالِكٌ وبعضُ أَصحابِنا : الشهادَةُ بتوكيلِ فلانِ بنِ فلانٍ فلاناً ، شهادةٌ بالوكالَةِ فقط ، والمذهَبِ بالنَّسَبِ ضِمناً ، والوكالَةِ أَصلاً . ٱنتَهت . وما ذكرهُ آخِراً هُو الذي لاحظَهُ ٱبنُ عرفَةَ ، وٱعتمدَهُ ٱبنُ حجرٍ في « تحفتِهِ » .

وقبل كل شيء السعادة الأزلية

وفي « تفسيرِ البَغَويِّ » [٢٢٩/٣] : أَنَّ السامريَّ ـ الذي عبدَ العجلَ ـ كانَ ٱسمُهُ موسىٰ ، وأَنَّهُ لمَّا ولدتْهُ أُمُّهُ في السنَةِ التي يقتَلُ فيها الأَبْنَاءُ . . وضعَتْهُ في كَهْفٍ مِن خَوفِها عليهِ ، فأَمرَ اللهُ عزَّ وجلَّ جِبْرائِيلَ بتَربيتِهِ ؛ لما سبقَ في الأَزَلِ لَهُ وبِهِ مِنَ ٱلْفِتْنَةِ ، ٱنتهىٰ بمعناهُ .

قد تخلف الوردة شوكاً

وفي ذٰلِكَ يقولُ بعضُهُم [مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا ٱلطِّفْلُ لَمْ يُكْتَبْ سَعِيْداً تَخَلَّفَتْ ظُنُـوْنُ مُـرَبِّيْـهِ وَخَـابَ ٱلْمُـؤَمِّـلُ
فَمُوْسَىٰ ٱلَّذِيْ رَبَّاهُ جِبْرِيْلُ كَافِرٌ وَمُوْسَىٰ ٱلَّذِيْ رَبَّاهُ فِرْعَوْنُ مُرْسَلُ

وقالَ حسَّانُ بنُ ثابِتٍ ـ في هِجاءِ أَبي سفيانَ بنِ الحارثِ ـ [مِنَ الطَّويلِ] :

أَبُـوْكَ أَبٌ حُـرٌّ وَأُمُّـكَ حُـرَّةٌ وَقَـدْ يَلِـدُ ٱلْحُـرَّانِ غَيْـرَ نَجِيْـبِ

وقالَ بعضُهُم يهجو شَقيقَهُ [كما في « الأغاني » ١٣/ ١١١ مِنَ الوافرِ] :

أَبُوْكَ أَبِيْ وَأَنْتَ أَخِيْ وَلٰكِنْ تَفَـاضَلَـتِ ٱلطَّبَـائِعُ وَٱلظُّـرُوْفُ
وَأُمُّـكَ حِيْـنَ تُنْسَـبُ أُمُّ صِـدْقٍ وَلٰـكِـنَّ ٱبْنَهَـا طَبِـعٌ سَخِيْـفُ(١)

وقالَ آخرُ [مِنَ البسيطِ] :

لَئِنْ فَخَـرْتَ بِـآبَـاءٍ لَهُـمْ نَسَـبٌ لَقَدْ صَدَقْتَ وَلٰكِنْ بِئْسَمَا وَلَدُوْا

وقالَ غيرُهُ [مِنَ الوافرِ] :

إِذَا ٱنْتَسَبُـوْا فَفَـرْعٌ مِـنْ قُـرَيْـشٍ وَلٰـكِـنَّ ٱلْفِعَـالَ فِعَـالُ عُكْـلِ

---

(١) الطَّبِعُ : الكَسِلُ .

وقالَ الحارثيُّ [مِنَ الطَّويلِ] :

شَرِيفٌ بِجدَّيْهِ وَضِيْعٌ بِنفْسِهِ   لَئِيْمٌ مُحَيَّاهُ كَرِيْمُ ٱلْمُرَكَّبِ[1]

وقالَ أَبو تَمَّام [في « ديوانه » ٢/ ٢٢٩ مِنَ البسيطِ] :

يَا أَكْرَمَ ٱلنَّاسِ آبَاءً وَمُفْتَخراً   وَأَلأَمَ ٱلنَّاسِ مَبْلُوّاً وَمُخْتَبَرا

ونظرَ خالدُ بنُ صفوانَ إِلىٰ لئِيم نفسٍ كريمِ ٱلأبوينِ . . فقالَ : سبحانَ مَن قالَ : يُخرِجُ ٱلخبيثَ من ٱلطَّيِّبِ ، ثُمَّ أَنشدَ لِحسَّانَ في أَبي سفيانَ ـ أيضاً ـ [مِنَ الطَّويلِ] :

فَلاَ يَعْجَبَنَّ ٱلنَّاسُ مِنْكَ وَمِنْهُمَا   فَمَا خَبَثٌ مِنْ فِضَّةٍ بِعَجِيْبِ

وقالَ ٱلنَّاظِمُ [في « العكبَريّ » ٤/ ١٤٤ مِنَ الوافرِ] :

أَرَىٰ ٱلأَجْدَادَ تَغْلِبُهَا كَثِيْراً   عَلَىٰ ٱلأَوْلاَدِ أَخْلاَقُ ٱللِّئَامِ

ويقالُ فيمنْ لَؤُمَ أَبواهُ [مِنَ الطَّويلِ] :

أَبٌ غَيْرُ مَحْمُودِ ٱلسَّجِيَّاتِ سَفْلَةٌ   وَوَالِدَةٌ فِيْهَا ٱلْحَدِيْثُ يَطُوْلُ

وسمعَ بعضُ ٱلصَّالحينَ ولدَهُ يفتخرُ ، فقالَ لَهُ : أَمَّا أُمُّكَ : فقد ٱشتريتُها بثلاثينَ درهماً ، وأَمَّا أَبوكَ : فلا أَكثرَ ٱللهُ مثلَهُ في ٱلمسلمينَ .

أبو دلامة وبنته

وقالَ أَبو دُلامَةَ ـ في بنتٍ لهُ بالَتْ عليهِ ـ [في « ديوانه » ٩٥ مِنَ الوافرِ] :

بَلَلْتِ عَلَيَّ ـ لاَ حُيِّيْتِ ـ ثَوْبِيْ   فَبَالَ عَلَيْكِ شَيْطَانٌ رَجِيْمُ

---

(١) المُحيَّا : الوجهُ . المُرَكَّبُ : الأصلُ ، تقولُ : فلانٌ كريم المُرَكَّبِ ؛ أي : كريمُ أَصلِ مَنصِبهِ في قومِهِ .

ثُمَّ قالَ للسَّيِّدِ ٱلحميريِّ : أَجزْ ، فقالَ من غيرِ تلبُّثٍ [كما في « ديوانِ أَبي دُلامةَ » ٩٥ مِنَ الوافرِ] :

صَدَقْتَ أَبَا دُلاَمَةَ لَمْ تَلِدْهَا ... مُطَهَّـرَةٌ وَلاَ فَحْـلٌ كَـرِيـمُ
وَلَٰكِـنْ قَـدْ حَـوَتْهَـا أُمُّ سُـوْءٍ ... إِلَـىٰ لَبَّـاتِهَـا وَأَبٌ لَئِيْـمُ

فقالَ أَبو دُلامَةَ : لَعنَةُ ٱللهِ عليكَ ، ما دعاكَ إِلىٰ هَـٰذَا كلِّهِ .

خسة الأم تودي بالأبناء إلى الحضيض

أَمَّا خِسَّةُ الأُمِّ . . فكثيراً ما تأْخذُ بأَبنائِها إِلىٰ الحضيضِ ، وإِنْ كرمَتِ ٱلآبَاءُ ، قالَ بعضُ العربِ [وهو رافعُ بنُ هُرَيمٍ في « لسان العرب » ٦/ ٢٠١ مِنَ الوافرِ] :

وَلَـوْ كُنْتُـمْ لِمُكْيِسَـةٍ لَكِسْتُـمْ ... وَكَيْسُ ٱلأُمِّ يَظْهَرُ فِيْ ٱلْبَنِيْنَا[1]

وقالَ آخرُ [وهو أَوسُ بن حجرٍ في « ديوانهِ » ٥٦ مِنَ الوافرِ] :

وَرِثْنَا ٱلْمَجْدَ عَنْ آبَاءِ صِدْقٍ ... أَسَأْنَـا فِـيْ دِيَـارِهِـمُ ٱلصَّنِيْعَـا
إِذَا ٱلْحَسَبُ ٱلصَّمِيْمُ تَـدَاوَلَتْـهُ ... بَنَاتُ ٱلسُّوْءِ أَوْشَكَ أَنْ يَضِيْعَا

وقالَ خفافُ بنُ ندبةَ [في « ديوانه » ١٠٨ مِنَ المتقاربِ] :

كِـلاَنَـا يُسَـوِّدُهُ قَـوْمُـهُ ... عَلَـىٰ ذَلِـكَ ٱلنَّسَـبِ ٱلْمُظْلِـمِ

يَعني : أَنَّهُ هُوَ والعبَّاسُ بنُ مرداسٍ يسوِّدُهما قومهُما ، مع أَنَّهما مِن جاريتَينِ .

وقالَ الأَعورُ الشنيُّ [كما في « لسان العرب » ١٠/ ٤٤٩ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا يَسْتَوِيْ ٱلْمَرْآنِ هَـٰذَا ٱبْنُ حُرَّةٍ ... وَهَـٰذَا هَجِيْـنٌ بَضْعَـةٌ مُتَشَـرَّكُ[2]

---

(١) مُكْيِسَةٌ : تلدُ الأكياسَ ، والأَكياسُ : همُ الأَذكياءُ المتوقِّدونَ .
(٢) البَضعَةُ : القطعةُ والجزءُ . مُتَشَرَّكُ : ٱشتركَ فيهِ كثيرونَ .

قَعَـدْنَ بِـهِ خَـالاَتُـهُ فَخَـذَلْنَـهُ   أَلاَ إِنَّ عِرْقَ ٱلسُّوْءِ لاَ بُدَّ يُدْرِكُ

وقالَ الحصينُ بنُ الحُمامِ [بل يزيد بن الحكم كما في «ديوان الحماسة» ١/ ٧٨ مِنَ الطَّويلِ]:

دَفَعْنَـاكُـمُ بِـالْحِلْـمِ حَتَّـىٰ بَطِـرْتُـمُ   وَبِالْكَفِّ حَتَّىٰ كَانَ دَفْعُ الأَصَابِعِ[(١)]

فَلَمَّـا رَأَيْنَـا جَهْلَكُـمْ غَيْـرَ مُنْتَـهٍ   وَمَا قَدْ مَضَىٰ مِنْ حِلْمِكُمْ غَيْرَ رَاجِعِ

.. مَسَسْنَا مِنَ ٱلآبَاءِ شَيْئاً وَكُلُّنَا   إِلَىٰ حَسَبٍ فِيْ قَوْمِهِ غَيْرُ وَاضِعِ

فَلَمَّـا بَلَغْنَـا ٱلأُمَّهَـاتِ وَجَـدْتُـمُ   بَنِيْ عَمِّكُمْ كَانُوا كِرَامَ ٱلْمَضَاجِعِ[(٢)]

اختيار الأم من الدين

فتخيُّرُ الأُمَّهاتِ مِن واجباتِ الشرْعِ ، وقد قالَ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « **تَخَيَّرُوا لِنُطَفِكُمْ ؛ فَإِنَّ الْعِرْقَ دَسَّاسٌ** »[(٣)] .

وقالَ الشاعرُ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَأَوَّلُ إِحْسَـانِـيْ إِلَيْكُـمْ تَخَيُّـرِيْ   لِمَاجِدَةِ ٱلأَعْرَاقِ بَادٍ عَفَافُهَا

وقالَ أبو عبيدَةَ العنبريُّ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَأَوَّلُ خُبْثِ ٱلْمَرْءِ خُبْثُ تُرَابِهِ   وَأَوَّلُ لُؤْمِ ٱلْقَوْمِ لُؤْمُ ٱلْحَلاَئِلِ

---

(١) البَطَرُ : قلَّةُ احتمال النعمة .

(٢) المضاجع : كناية عن الأزواج ، أي : نظرنا فإذا نحن وأنتم سواء في شرف الآباء ، ولكننا أكرم أمهات منكم .

(٣) هذا طرفٌ من حديثينِ : عن عائشة رضي الله عنها أخرجَ الشطرَ الأوَّل منه ابنُ ماجه (١٩٦٨) والحاكمُ في « المستدرك » (٢٦٨٧) ، بلفظِ : « تَخَيَّرُوْا لِنُطَفِكُمْ ، وَأَنْكِحُوْا الأَكْفَاءَ . . » .

وأخرجَ الشطرَ الثاني منه أبو عبد الله القُضاعي في « مسندِ الشهاب » (٦٣٨) بلفظ : « . . . وَانْظُرْ فِيْ أَيِّ نِصَابٍ تَضَعُ وَلَدَكَ ، فَإِنَّ الْعِرْقَ دَسَّاسٌ » .

وقالَ الزُّبيرُ بنُ العوَّامِ [متمثلاً بكلام سيدنا أبي بكر رضي الله عنه كما في «المنتظم حتى سنة : (٢٥٧ هـ) » ٤/٣٤٥] : مَن أرادَ أنْ يتزوَّجَ امرأةً .. فلينظُرْ إلىٰ أبيها وأخيها ، فإنَّها تجيءُ لهُ بمثلِ أحدِهما .

ويروىٰ [كما في « لسان العرب » ١/٩١] : أنَّ قيسَ بنَ عاصمٍ المنقريَّ ـ سيِّدَ أهلِ الوبَرِ ـ : قامَ يُرقِّصُ ولداً لهُ مِن نفُوسةَ ابنةِ زيدِ الفوارسِ . . فقالَ لهُ [مِنَ الرجزِ] :

أَشْبِهْ أَبَا أُمِّكَ أَوْ أَشْبِهْ حَمَلْ وَارْقَأْ إِلَىٰ الْخَيْرَاتِ زَنْأً فِي الْجَبَلْ[1]

فأخذتْهُ نفُوسةُ ، وقالَتْ [مِنَ الرجَزِ] :

أَشْبِهْ أَخِي أَوْ أَشْبِهَنْ أَبَاكَا أَمَّا أَبِي فَلَنْ تَنَالَ ذَاكَا
تَقْصِرُ أَنْ تَنَالَهُ يَدَاكَا

ومِن أمدحِ ما يكونُ بالخؤُولةِ . . قولُ أبي عُبادةَ [في « ديوانه » ١/٢١ مِنَ الكاملِ] :

وَخُؤُولَةٍ فِي هَاشِمٍ وَدَّ الْعِدَا أَنْ لَمْ تَكُنْ وَلَهُمْ بِهَا مَا شَاؤُوا
بَيْنَ الْعَوَاتِكِ وَالْفَوَاطِمِ مُنْتَمَىٰ تَزْكُوا بِهِ الأَخْوَالُ وَالآبَاءُ[2]

ويُذكرُ [كما في « البيان والتبيين » ١/١٠٨] : أنَّ أُختَ لقمانَ كانَتْ تحتَ رجُلٍ لا يُنجِبُ ، فالتمسَتْ مِن زوجِهِ أنْ تدعَ لَها فراشَ أخيها ليلةً ـ مِن حيثُ لاَ يشعُرُ ـ فاشتملَتْ منهُ علىٰ ولدٍ باسقةٍ ، يقولُ فيهِ أخت لقمان تأتي بولد منه

---

(١) الزنأُ : الصعودُ . ولكن هذا البيت متداخل من بيتين وهما :

أَشْبِهْ أَبَا أُمِّكَ أَوْ أَشْبِهْ حَمَلْ وَلاَ تَكُونَنَّ كَهِلَّوْفٍ وَكَلْ
يُصْبِحُ فِي مَضْجَعِهِ قَدِ انْجَدَلْ وَارْقَأْ إِلَىٰ الْخَيْرَاتِ زَنْأً فِي الْجَبَلْ

(٢) العواتكُ والفواطمُ : جدَّات النبي صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ .

النمرُ بنُ تولَبَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ [في «ديوانه» ١٠٦ـ١٠٧ مِنَ المتقارب] :

لُقَيْـمُ بْـنُ لُقْمَـانَ مِـنْ أُخْتِـهِ   وَكَـانَ ٱبْـنَ أُخْـتٍ لَـهُ وَٱبْنَمَـا
لَيَـالِـيَ حُمِّـقَ فَـٱسْتَحْصَنَـتْ   إِلَيْــهِ فَجَــامَعَهَــا مُظْلِمَــا
فَــأَحْبَلَهَــا رَجُــلٌ نَــابِــهٌ   فَجَــاءَتْ بِــهِ رَجُــلاً مُحْكَمَــا

و(حُمِّقَ) : مَبْنيٌّ لِلْمفعولِ مشدَّدٌ ، والمرادُ : لَيالي شَرِبَ الخمرَ ، وليسَ هَـٰذَا بلقمانَ الحكيمِ ، وإِنَّما هُوَ غيرُهُ علىٰ الأَشْهرِ .

حاتم الطائي يخطب امرأة فترده

ويروىٰ : أَنَّ حاتِماً الطائِيَّ خطَبَ هِندَ ٱبنَةَ عتبَةَ . . فرغبتْ عَنْهُ ، ولَمَّا عَذَلَها أَهلُها . . قالَتْ : إِنَّهُ لا ينجِبُ ، فتزوَّجَ أُخرىٰ وولدَتْ لَهُ غُلاماً ، حَتَّىٰ إِذا بلَغَ سِنَّ التمييزِ . . خرجَ بِهِ أَبوهُ يستعرِضُ ٱلنَّعَمَ ، فرأَىٰ عِجْلَةً صغيرةً أَعجبَتْهُ ، فقالَ : يا أَبتِ مِن أَيِّ الخَيلِ هَـٰذِهِ ؟ قالَ : صدقَتْ هِندٌ إِذْ زَعمَتْ أَنِّي لا أُنجبُ .

وقد أَنكرَ بعضُ المتحذلِقينَ هَـٰذَا مرَّة عَلَيَّ ، وقالَ : فيهِ حطٌّ مِن مقامِ عديِّ بنِ حاتِمٍ رِضْوانُ اللهِ عليهِ ، فقلْتُ لَهُ :

أَوَّلاً : إِنَّهُ لَم يتعيَّن في الروايَةِ ، وَإِنْ كانَ أَكثرَ الظنِّ أَنَّهُ المرادُ .

وأَمَّا ثانياً : فَإِنَّهُ غيرُ مدافِعٍ في شَرَفِ صحبتِهِ لرسولِ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ، وحسنِ وفائِهِ لعليٍّ رِضوانُ اللهِ عَلَيْهِم أَجمعينَ ، ومعَ ذلِكَ . . فقدْ دفعَهُ عنِ النَّجابَةِ مَنْ لا ينطِقُ عَنْ ٱلْهَوىٰ ، وقالَ لَهُ : « إِنَّكَ لَعَرِيْضُ ٱلْقَفَا »[1] .

وَأَمَّا شرفُ الأُمِّ : فقلَّمَا يفيدُ إِلاَّ بمساعَدَةٍ مِن جهَةِ الأَبِ .

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٤٥١٠) في التفسير ، عريضُ القفا : كثيرُ النومِ ، وذلكَ دليلُ الغباوَةِ .

قالَ غسانُ بنُ وَعْلَةَ [في « ديوان الحماسة » ١/ ٢٠١ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا كُنْتَ فِيْ سَعْدٍ وَأُمُّكَ مِنْهُمُ ... شَطِيْراً فَلا يَغْرُرْكَ خَالُكَ مِنْ سَعْدِ
وَإِنَّ ٱبْنَ أُخْتِ ٱلْقَوْمِ مُصْغىً إِنَاؤُهُ ... إِذَا لَمْ يُزَاحِمْ خَالُهُ بِأَبٍ جَلْدِ(١)

قد يستفرغ الآباء الشرف والمجد ولا يبقون لأعقابهم شيئاً

وكثيراً ما يستفرغُ الآباءُ فروعَ المجدِ والشرَفِ ، ولا يبقونَ لأَعقابِهم منهُ إلاَّ النزرَ الحقيرَ ، كما رأَيتُهُ في « شرحِ النهجِ » [١٢/ ٤٥] عَن حالِ سيِّدِنا عمرَ بنِ الخطَّابِ ، وقد ذُكِرَ لآبائِنا مِنَ ٱلعِلْمِ والعبادَةِ والورَعِ والزهادَةِ . . ما تكادُ تنخرِقُ بِهِ العادَةُ ، يشهَدُ ببعضِهِ النقلُ ، ويدلُّ لَهُ العِيانُ ، وإِنْ دَفَعَ العقلُ ، وقد حصلَ لأَعقابِهِم مِنَ ٱلانحِطَاطِ ما أَخشىٰ أَن يكونَ مصداقَ ما أُثِرَ عنِ ٱبنِ الخطَّابِ .

متى ينفع الحسب والنسب الابن

ثُمَّ إِنَّ شرَفَ الآباءِ لاَ ينتفِعُ بِهِ الأَبناءُ إلاَّ إِذا كانوا منهُ علىٰ طرَفٍ صالحٍ ، بشهادَةِ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ [الطور : ٢١] .

وقولِهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « تَجِدُوْنَ ٱلنَّاسَ مَعَادِنَ ، خِيَارُهُمْ فِيْ ٱلْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِيْ ٱلإِسْلاَمِ إِذَا فَقِهُوْا »(٢) .

وللهِ درُّ سيِّدِنا الحدَّادِ في قولِهِ [مِنَ المديدِ] :

لاَ وَلاَ تَقْنَعْ بِكَانَ أَبِيْ ... وَٱتَّبِعْ فِيْ ٱلْهَدْيِ خَيْرَ نَبِيْ

---

(١) أصغيتُ الإناءَ : إذا أملتُهُ ، وذلكَ كنايةٌ عَن نقصانِ ٱلحقِّ وضعفِ ٱلجانبِ إلاَّ إذا كانَ أَعمامُهُ أَقوىٰ مِن أَخوالِهِ .
(٢) أَخرجهُ البخاري (٣٤٩٣) في المناقب .

وقالَ عديُّ بنُ زيدٍ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَوَارِثِ مَجْدٍ لَمْ يَنَلْهُ وَمَاجِدٍ أَصَابَ بِمَجْدٍ طَارِفٍ غَيْرِ مُتْلَدِ
فَلا تَغْفِرَنْ عَنْ سَعْيِ مَنْ قَدْ وَرِثْتَهُ وَمَا اسْطَعْتَ مِنْ خَيْرٍ لِنَفْسِكَ فَازْدَدِ

وقالَ كشاجمُ [في « ديوانِه » ٢٨٥ مِنَ الكاملِ] :

وَإِذَا افْتَخَرْتَ بِأَعْظُمٍ مَقْبُورَةٍ فَالنَّاسُ بَيْنَ مُكَذِّبٍ وَمُصَدِّقِ
فَأَقِمْ لِنَفْسِكَ فِي انْتِسَابِكَ شَاهِداً بِحَدِيثِ مَجْدٍ لِلْقَدِيمِ مُحَقِّقِ

وقالَ آخرُ [الفرزدقُ في « ديوانِه » ٢/ ٣٥٠ مِنَ الكاملِ] :

زَانُوا قَدِيمَهُمُ بِحُسْنِ حَدِيثِهِمْ وَكَرِيمَ أَخْلاَقٍ بِحُسْنِ وُجُوهِ

وقالَ غيرُهُ [مِنَ الكاملِ] :

قَدْ زَيَّنُوا أَحْسَابَهُمْ بِسَمَاحِهِمْ لاَ خَيْرَ فِي حَسَبٍ بِغَيْرِ سَمَاحِ

وقالَ البُحتريُّ [في « ديوانِه » ١/ ٢٧٩ مِنَ المنسرحِ] :

وَلَسْتُ أَعْتَدُّ لِلْفَتَى حَسَباً حَتَّىٰ يُرَىٰ فِي فِعَالِهِ حَسَبُهْ

وقالَ ابنُ الروميِّ [في « ديوانِه » ١/ ١٥٠ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا الْحَسَبُ الْمَوْرُوثُ لاَ دَرَّ دَرُّهُ لَمُحْتَسَبٌ إِلاَّ بِآخَرَ مُكْتَسَبْ(١)
إِذَا الْغُصْنُ لَمْ يُثْمِرْ وَإِنْ كَانَ شُعْبَةً مِنَ الْمُثْمِرَاتِ اعْتَدَّهُ النَّاسُ فِي الْحَطَبْ

وقالَ الببَّغا [مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَبْنِ افْتِخَاراً لِنَفْسِهِ تَضَايَقَ عَنْهُ مَا بَنَتْهُ جُدُودُهُ
وَلاَ خَيْرَ فِيمَنْ لاَ يَكُونُ طَرِيقُهُ دَلِيلاً عَلَىٰ مَا شَادَ قِدْماً تَلِيدُهُ

---

(١) مُحتَسَبٌ : مِن العدِّ ؛ أي : محسوبٌ ومعدودٌ في مَفاخِرِكَ .

وقالَ آخرُ [كما في « سير أعلام النبلاء » ٤/ ٤١١ مِنَ المتقاربِ] :

وَمَا يَنْفَعُ ٱلأَصْلُ مِنْ هَاشِمٍ إِذَا كَانَتِ ٱلنَّفْسُ مِنْ بَاهِلَهْ

وقالَ الناظِمُ [في « العُكبَريّ » ١/ ١٥٦ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا عَلَوِيٌّ لَمْ يَكُنْ مِثْلَ طَاهِرٍ فَمَا هُوَ إِلاَّ حُجَّةٌ لِلنَّوَاصِبِ(١)

وقال الخزَيميُّ [في « ديوانه » ٥٠ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَحْمِ ٱلْقَدِيْمَ بِحَادِثٍ مِنَ ٱلْمَجْدِ لَمْ يَنْفَعْكَ مَا كَانَ مِنْ قَبْلُ

وما أَكثرَ ما يقولُ المهلَّبُ ٱبنُ أَبي صفرَةَ لبنيهِ : لا تتَّكِلوا علىٰ ما سبقَ من فِعْلي ، وٱفعَلوا ما يُنسَبُ إِليَّ ، ثُمَّ ينشدُ متمثِّلاً [البيت لقيس بن عاصم كما في « الأغاني » ١٤/ ٨٢ مِنَ الخفيفِ] :

إِنَّمَا ٱلْمَجْدُ مَا بَنَىٰ وَالِدُ ٱلصِّدْ قِ وَأَحْيَا فِعَالَهُ ٱلْمَوْلُوْدُ(٢)

---

(١) النواصبُ : الخوارجُ ، وسُمُّوا بذلك لنصبهمُ العداوة لعليٍّ رضي الله عنه .

(٢) هذا البيتَ قالهُ قيسُ بنُ عاصمٍ حين كان يُحتَضَرُ ، وهوَ مِن ضِمنِ وَصيَّةٍ لهُ وهيَ :

يا بَنيَّ إذا مِتُّ .. فَسَوِّدوا كبارَكُم ، ولا تَسُودوا صغارَكم ؛ فيُسَفِّهَ الناسُ كبارَكم ، وعليكم بإصلاحِ المالِ ؛ فإِنَّهُ مَنْبَهَةٌ للكريمِ ، وبهِ يُستغنىٰ عَنِ اللئيمِ ، وإذا مِتُّ .. فادفنوني في ثيابي التي كنتُ أُصلِّي فيها وأَصومُ ... ثُمَّ جمعَ ثمانينَ سَهماً وربطَها بوترٍ ، ثُمَّ قالَ : اكسِروها فلَمْ يستطيعوا ، ثُمَّ قالَ : فرِّقوا ، ففَرَّقوا ، فقالَ : اكسِروها سَهماً سَهماً فَكَسروها ، ثُمَّ قالَ : هَكذا أَنتم في ٱلاجتماعِ وفي ٱلفُرقَةِ ، ثُمَّ قالَ :

إِنَّمَا ٱلْمَجْدُ مَا بَنَىٰ وَالِدُ ٱلصِّدْ قِ وَأَحْيَا فِعَالَهُ ٱلْمَوْلُوْدُ
وَتَمَامُ ٱلْفَضْلِ ٱلشَّجَاعَةُ وَٱلْحِلْـ ـمُ إِذَا زَانَهُ عَفَافٌ وَجُوْدُ
وَعَلَيْكُمْ حِفْظُ ٱلأَصَاغِرِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْحِنْثَ ٱلأَصْغَرُ ٱلْمَجْهُوْدُ=

وسَمعَ ٱبنُ أَبي ربيعَةَ إِنساناً يقولُ [مِنَ المنسرحِ] :

كُنِ ٱبْنَ مَنْ شِئْتَ وَٱكْتَسِبْ أَدَباً ... يُغْنِيكَ مَحْمُوْدُهُ عَنِ ٱلنَّسَبِ

فقالَ لَهُ : ٱسكتْ ، لاَ فخرَ لَكَ في ذلِكَ ، ثُمَّ أَنشأَ يقولُ [مِنَ المنسرحِ] :

لاَ فَخْرَ إِلاَّ فَخَارُ مُنْتَخَبٍ ... يَسْمُو بِأُمٍّ كَرِيْمَةٍ وَأَبِ

وقالَ الشريفُ الرضيُّ [في « ديوانهِ » ١/ ١٦٥ مِنَ الطَّويلِ] :

فَخَرْتُ بِنَفْسِيْ لاَ بِقَوْمِيْ مُوَفِّراً ... عَلَىٰ نَاقِصِيْ قَوْمِيْ مَآثِرَ أُسْرَتِيْ

إِلاَّ أَنَّهُ واللهِ أَساءَ الأَدبَ ؛ إِذ ٱلانتسابُ إِلىٰ سادَةِ الكونِ لا يوازيهِ فخرٌ ، ولاَ يدانيهِ مجدٌ ، ولو أَنَّهُ ٱفترشَ الثريَّا ، وأَوطأَ قدمَهُ السَّماءَ .

وقالَ أَبو عُبادةَ [كما في « ديوانهِ » ١/ ٨ مِنَ الكاملِ] :

أَغْنَىٰ جَمَاعَةَ طَيِّءٍ عَمَّا ٱبْتَنَتْ ... آبَاؤُهَا ٱلْقُدَمَاءُ لِلأَبْنَاءِ

فَإِذَا هُمُ ٱفْتَخَرُوا بِهِ لَمْ يَبْجَحُوْا ... بِقَدِيْمِ مَا وَرِثُوْا مِنَ ٱلْعَلْيَاءِ(١)

وقالَ لبعضِ العلويَّةِ وقد أَكرمَهُ [كما في « ديوانهِ » ٣/ ١٩٦٣ مِنَ الكاملِ] :

لاَ تُوْجِبَنْ لِكَرِيْمِ أَصْلِكَ مِنَّةً ... لَوْ كُنْتَ مِنْ عُكْلٍ لَكُنْتَ كَرِيْمَا

= ثُمَّ ماتَ ، فقالَ عَبدةُ بْنُ الطيِّبِ يرثيهِ :

عَلَيْكَ سَلاَمُ ٱللهِ قَيْسَ بْنَ عَاصِمٍ ... وَرَحْمَتُهُ مَا شَاءَ أَنْ يَتَرَحَّمَا

تَحِيَّةَ مَنْ أَوْلَيْتَهُ مِنْكَ نِعْمَةً ... إِذَا زَارَ عَنْ شَحْطٍ بِلاَدَكَ سَلَّمَا

فَمَا كَانَ قَيْسٌ هُلْكُهُ هُلْكُ وَاحِدٍ ... وَلَكِنَّهُ بُنْيَانُ قَوْمٍ تَهَدَّمَا

(١) يبجحوا : يفخروا .

وقالَ دِعْبِلٌ [في « ديوانهِ » ٦٨ مِنَ البسيطِ] :

لَوْ لَمْ تَكُنْ لَكَ أَجْدَادٌ تَنُوْءُ بِهِمْ   إِلاَّ بِنَفْسِكَ نِلْتَ ٱلنَّجْمَ مِنْ كَثَبِ

وكانَ الأَحرىٰ بالرضيِّ أَن يقولَ ما قالَ أَبو المظفَّرِ الأَبْيَوَرْدِيُّ ، الفقيهُ الشافعيُّ ؛ لأَنَّهُ ٱلأَحقُّ بهِ ، وهوَ [في « طبقات ابن السبكي » ٦/٨٣ مِنَ الكاملِ] :

يَـا مَـنْ يُسَـاجِلُنِـيْ وَلَيْـسَ بِمُـدْرِكٍ   شَأْوِيْ وَأَيْنَ لَهُ جَلاَلَةُ مَنْصِبِيْ ؟!

لاَ تَتْعَبَـنَّ فَـدُوْنَ مَـا حَـاوَلْتَـهُ   خَـرْطُ ٱلْقَتَـادَةِ وَٱمْتِطَـاءُ ٱلْكَـوْكَـبِ

وَٱلْمَجْـدُ يَعْلَـمُ أَيُّنَـا خَيْـرٌ أَبـاً   فَٱسْأَلْهُ يَعْلَمُ أَيَّ ذِيْ حَسَبٍ أَبِيْ ؟

جَدِّيْ مُعَاوِيَةُ ٱلأَغَرُّ سَمَتْ بِهِ   جُرْثُومَةٌ مِنْ طِيْنِهَا خُلِقَ ٱلنَّبِيْ(١)

وَوَرِثْتُـهُ شَـرَفـاً رَفَعْـتُ مَنَـارَهُ   فَبَنُـوْا أُمَيَّـةَ يَفْخَـرُونَ بِـهِ وَبِـيْ

ويروىٰ : أَنَّ الحسينَ دخلَ علىٰ يزيدَ بنِ معاويَةَ ، فجعلَ يزيدُ يفتخرُ ويقولُ : نحنُ ونحنُ ، والحسينُ ساكتٌ ، حتَّىٰ أَذَّنَ المؤَذِّنُ ، فلمَّا قالَ : أَشهدُ أَنَّ محمداً رسولُ اللهِ . . قالَ لَهُ : أَبو مَن هٰذَا يا يزيدُ ؟ ولعلَّ الداخِلَ غيرُ الحسينِ مِن أَهلِ البيتِ ، أَو ٱلْمَدخولَ عليهِ معاويَةُ .

الفخار والمجد الذي لا يبيد

ومِنْ هٰذهِ القصَّةِ أَخذَ عليُّ بنُ محمَّدِ بنِ جعفرٍ قولَهُ [مِنَ الطَّويلِ] :

لَقَدْ فَاخَرَتْنَا مِنْ قُرَيْشٍ عِصَابَةٌ   بِمَـطِّ خُـدُوْدٍ وَٱمْتِـدَادِ أَصَـابِـعِ

فَلَمَّا تَنَازَعْنَا ٱلْفَخَارَ . . قَضَىٰ لَنَا   عَلَيْهِمْ بِمَا نَهْوَىٰ نِدَاءُ ٱلصَّوَامِعِ

---

(١) جرثومةُ الشيءِ : أَصلُهُ .

وهوَ القائِلُ ـ أيضاً ـ [مِنَ المتقارب] :

بَلَغْنَـا ٱلسَّمَـاءَ بِـأَنْسَـابِنَـا   وَلَـوْلاَ ٱلسَّمَـاءُ لَجُـزْنَـا ٱلسَّمَـا
يَطِيْـبُ ٱلثَّنَـاءُ لآبَـائِنَـا   وَذِكْـرُ عَلِـيٍّ يَـزِيْـنُ ٱلثَّنَـا

وقالَ ٱبنُ مَيَّادَةَ [في « ديوانهِ » ٢٠٦ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا حَـلَّ بَيْتِـيْ بَيْـنَ بَـدْرٍ وَمَـازِنٍ   وَمُرَّةَ نِلْتُ ٱلشَّمْسَ وَٱشْتَدَّ كَاهِلِيْ

وقالَ إسحاقُ الموصليُّ [في « صبح الأعشى » ١/ ٤٣٠ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا مُضَرُ ٱلْحَمْرَاءُ كَانَتْ أَرُوْمَتِيْ   وَقَامَ بِنَصْرِي خَازِمٌ وَٱبْنُ خَازِمِ
عَطَسْتُ بِأَنْفِيْ شَامِخاً وَتَنَاوَلَتْ   يَدَايَ ٱلثُّرَيَّا قَاعِداً غَيْرَ قَائِمِ

وقالَ زُهيرٌ [في « ديوانهِ » ٢٢٨ مِنَ البسيطِ] :

لَوْ كَانَ يَقْعُدُ فَوْقَ ٱلشَّمْسِ مِنْ كَرَمٍ   قَوْمٌ بِأَوَّلِهِمْ أَوْ مَجْدِهِمْ .. قَعَدُوْا

وقالَ النابغَةُ الجعديُّ [في « ديوانهِ » ٧١ مِنَ الطَّويلِ] :

بَلَغْنَا ٱلسَّمَاءَ مَجْدُنَا وَجُدُوْدُنَا   وَإِنَّا لَنَرْجُوْ فَوْقَ ذَلِكَ مَظْهَرَا(١)

---

(١) قال صاحبُ « العقدِ الفريدِ » (١/ ٢٥٦) :

وفدَ الشاعرُ علىٰ رسول الله صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ فأنشدَهُ البيتَ ، فقالَ له النبيُّ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « إِلَىٰ أَيْنَ يَا أَبَا لَيْلَىٰ ؟ » قال : إلىٰ الجنَّةِ . قال النبيُّ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « إِنْ شَاءَ اللهُ » . فلما ٱنتهىٰ إلى قولهِ من الطويل :

وَلاَ خَيْرَ فِيْ حِلْمٍ إِذَا لَمْ تَكُنْ لَهُ   بَـوَادِرُ تَحْمِـيْ صَفْـوَهُ أَنْ يُكَـدَّرا

.. قالَ له النبيُّ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « لاَ يَفْضُضِ ٱللهُ فَاكَ » فعاشَ مئةً وثلاثينَ سنةً لم تُفضَضْ له سنٌّ .

وقالَ الفرزدقُ [مِنَ الوافرِ] :

فَلَـوْ أَنَّ ٱلسَّمَـاءَ دَنَـتْ لِمَجْـدٍ وَمَكْـرُمَـةٍ دَنَـتْ لَهُـمُ ٱلسَّمَـاءُ

وقالَ تميمُ بنُ مقبلٍ [مِنَ الكاملِ] :

نَالُوْا ٱلسَّمَاءَ فَأَمْسَكُوْا بِعِنَانِهَا حَتَّىٰ إِذَا كَانُوْا هُنَاكَ ٱسْتَمْسَكُوْا

وقالَ ٱبنُ الروميِّ [في « ديوانهِ » ٦/ ٢٢٦٧ مِنَ الطَّويلِ] :

تَدَلَّوْا عَلَىٰ هَامِ ٱلْمَعَالِيْ إِذَا ٱرْتَقَىٰ إِلَيْهَـا أُنَـاسٌ غَيْـرُهُـمْ بِـٱلسَّلاَلِـمِ

فأَغارَ عليهِ صاحبُنَا فقالَ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٣١٠ مِنَ الكاملِ] :

فَـوْقَ ٱلسَّمَـاءِ وَفَـوْقَ مَـا طَلَبُـوْا فَـإِذَا أَرَادُوْا غَـايَـةً نَـزَلُـوْا

وقالَ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٢٢٨ مِنَ الوافرِ] :

وَقَـالُـوْا : هَـلْ يُبَلِّغُـكَ ٱلثُّـرَيَّـا ؟ فَقُلْتُ : نَعَمْ ، إِذَا شِئْتُ ٱسْتِفَالاَ !!

ومِن غلوِّهِ قولُهُ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٣٥ مِنَ البسيطِ] :

وَعَـزْمَـةٌ بَعَثَتْهَـا هِمَّـةٌ ، زُحَـلٌ مِنْ تَحْتِهَا بِمَكَانِ ٱلتُّرْبِ مِنْ زُحَلِ[1]

وسمعَ رسولُ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ رجلاً يُنشِدُ [كما في « خزانة الأدب » ١/ ٨٦ مِنَ البسيطِ] :

إِنِّي ٱمْرُؤٌ حِمْيَرِيٌّ حِيْنَ تَنْسِبُنِيْ لاَ مِنْ رَبِيْعَةَ آبَائِيْ وَلاَ مُضَرِ

.. فقالَ لَهُ رسولُ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « ذلِكَ أَلأَمُ لَكَ ، وأَبْعَدُ مِنَ اللهِ ورَسُولِهِ »[2] .

---

(١) زحل : ٱسم كوكبٍ ، وهو أحد كواكب المجموعةِ الشمسيَّةِ .

(٢) لم نعثر عليه .

ومِمَّا يروىٰ للعبَّاسِ بنِ عبدِ المطَّلِبِ [كما في « المستطرف » ١/ ٢٩٠ مِنَ الكامِلِ] :

إِنَّ ٱلْقَبَائِلَ مِنْ قُرَيْشٍ كُلَّهَا ... لَيَرَوْنَ أَنَّا هَامُ أَهْلِ ٱلأَبْطَحِ
وَتَرىٰ لَنَا فَضْلاً عَلَىٰ سَادَاتِهَا ... فَضْلَ ٱلْمَنَارِ عَلَىٰ ٱلطَّرِيْقِ ٱلأَوْضَحِ

لا يجوز الافتخار بأهل الشرك

ثُمَّ النهيُ عَنْ ٱلْفَخرِ بالأنسابِ إِنَّما ينحطُّ علىٰ مَنِ ٱفتخَرَ بأَهلِ الشركِ أَو الفسقِ ، أَو أَرادَ الباطلَ ، أَو أَفضىٰ إِلىٰ الغلوِّ ، وإِلاَّ . . لَما ٱعتُبِرَتِ الأَنسابُ في نحوِ الإِمامَةِ والكفاءَةِ .

ويروىٰ : أَنَّ العبَّاسَ مرَّ بنفرٍ من قريشٍ ، يقولونَ : إِنَّما مثَلُ محمَّدٍ في أَهلِهِ كمثَلِ نخلَةٍ نبتَتْ في كُناسَةٍ ، فبلَّغَهُ ذلكَ ، وأَحفظَهُ حَتَّىٰ قامَ خطيباً ، وقالَ : « أَيُّها ٱلنَّاسُ ، مَنْ أَنا ؟ » قالوا : أَنْتَ رَسُولُ اللهِ ، قَالَ : « فَأَنَا رَسُوْلُ اللهِ ، وَأَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ عَبْدِ ٱلْمُطَّلِبِ ، إِنَّ ٱللهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ خَلْقَهُ فَجَعَلَنِيْ مِنْ خَيْرِ خَلْقِهِ ، ثُمَّ جَعَلَ ٱلْخَلْقَ ٱلَّذِيْ أَنَا مِنْهُم فِرْقَتَيْنِ ، فَجَعَلَنِيْ مِنْ خَيْرِ ٱلْفِرْقَتَيْنِ ، ثُمَّ جَعَلَهُمْ شُعُوباً ، فَجَعَلَنِيْ مِنْ خَيْرِهِمْ شَعْباً ، ثُمَّ جَعَلَهُمْ بُيُوتاً ، فَجَعَلَنِيْ مِنْ خَيْرِهِمْ بَيْتاً ، فَأَنَا خَيْرُكُمْ بَيْتاً وَوَالِداً ، وَإِنِّيْ مُبَاهٍ ، قُمْ يَا عَبَّاسُ » فقامَ عَنْ يَمينِهِ ، ثُمَّ قالَ : « قُمْ يَا سَعْدُ » فَقامَ عَنْ يَسارِهِ ، ثُمَّ قالَ : « هَـٰذَا عَمِّيْ فَلْيُرِنِيْ ٱمْرُؤٌ عَماً مِثْلَهُ ، وَهَـٰذَا خَالِيْ فَلْيُرِنِيْ ٱمرؤٌ خَالاً مِثْلَهُ »(١) . أَوْ ما هَـٰذَا معناهُ .

(١) أورد نحوه عن ابن مسعود رضي الله عنه في كنز العمال (٣٧٣٢٣) عند ابن النجار وعن جابر رضي الله عنه (٣٣٣٣١) ، ونسبه للترمذي والحاكم ، وعن أنس رضي الله عنه (٣٧٠٨٤) عند الطبراني والحاكم ، وعن جابر رضي الله عنه (٣٧٠٨٥) عند الترمذي والطبراني والحاكم وأبي نعيم .

وقد ٱفتخَرَ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ يومَ تقاصرَتِ ٱلْخُطىٰ ، وتقلَّصَتِ الخُصىٰ في حنينٍ ، بقولِهِ : « أَنا النبيُّ لاَ كَذِبْ ، أَنا ٱبنُ عَبْدِ ٱلْمَطَّلِبْ »[1] .

وٱحتجَّ بِهِ الإمامُ الرازيُّ : علىٰ إيمانِ عبدِ المطلبِ ؛ لأنَّهُ عليهِ السلامُ لَم يكُن لينتسِبَ في موضِعِ الفخْرِ إلىٰ غيرِ مؤمِنٍ .

وقد أَخرجَ البيهقيُّ في « شُعَبِ الإيمانِ » [بنحوه (٥١٣٣) و(٥١٣٤)] : من حديث أُبيِّ بنِ كعبٍ ومعاذِ بنِ جبلٍ : أَنَّ رجلَين ٱنتَسَبا علىٰ عهدِ رسولِ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ، فقالَ أَحدُهما : أَنا فلانُ بنُ فلانٍ ، وقالَ الآخرُ : أَنا فلانُ بنُ فلانٍ ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « ٱنْتَسَبَ رَجُلاَنِ عَلَىٰ عَهْدِ مُوْسَىٰ ، فقالَ أَحَدُهُمَا : أَنَا فُلاَنُ بْنُ فُلاَنٍ إِلَىٰ تِسعَةٍ ، وقَالَ ٱلآخَرُ : أَنَا فُلاَنُ بْنُ فُلاَنٍ بْنِ الإِسْلاَمِ ، فَأَوْحَىٰ ٱللهُ إِلَىٰ مُوْسَىٰ : أَنْ قُلْ لِهَـٰذَيْنِ ٱلْمُنْتَسِبَيْنِ : أَمَّا أَنْتَ أَيُّهَا ٱلْمُنْتَسِبُ إِلَىٰ تِسعَةِ آبَاءٍ فِيْ ٱلنَّارِ . فَأَنْتَ عَاشِرُهُمْ فِيْ ٱلنَّارِ ، وَأَمَّا أَنْتَ أَيُّها ٱلْمُنْتَسِبُ إِلَىٰ ٱثْنَيْنِ . فَأَنْتَ ثَالِثُهُمَا فِيْ ٱلْجَنَّةِ »

وَأَخرجَ البيهقيُّ ـ أيضاً ـ [بنحوه في « الشعب » ٥١٣٢] عن أَبي ريحانَةَ ، عن النبيِّ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ قالَ : « مَنِ ٱنْتَسَبَ إِلَىٰ تِسعَةِ آبَاءٍ كُفَّارٍ يُرِيْدُ بِهِمْ عِزّاً وَشَرَفاً . . فَهُوَ عَاشِرُهُمْ فِيْ ٱلنَّارِ » .

وأَخرجَ ـ أَيضاً ـ [بنحوه في « الشعب » ٥١٢٩] عن ٱبنِ عبَّاسٍ : أَنَّ رسولَ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ قالَ : « لاَ تَفْتَخِرُوْا بِآبَائِكُمُ ٱلَّذِيْنَ

---

(١) أخرجهُ عن البراء البخاريُّ (٢٨٦٤) في (الجهاد) .

مَاتُوا فِيْ ٱلْجَاهِلِيَّةِ ، فَوَٱلَّذِيْ نَفْسِيْ بِيَدِهِ ، لَمَا يُدَهْدِهُ ٱلْجُعَلُ[1] بِأَنْفِهِ خَيْرٌ مِنْ آبَائِكُمُ ٱلَّذِيْنَ مَاتُوْا فِيْ ٱلْجَاهِلِيَّةِ » .

وأَخرجَ ـ أَيضاً ـ [بنحوه في « الشعب » ٥١٢٦] عن أَبي هريرةَ ، عنهُ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ قالَ : « إِنَّ اللهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِيَّةَ ٱلْجَاهِلِيَّةِ وَفَخْرَهَا بِٱلآبَاءِ ، لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ يَفْخَرُوْنَ بِرِجَالٍ إِنَّمَا هُمْ فَحْمٌ مِنْ فَحْمِ جَهَنَّمَ . . أَوْ لَيَكُوْنُنَّ أَهْوَنَ عَلَىٰ اللهِ مِنَ ٱلْجُعْلَانِ ٱلَّتِيْ تَدْفَعُ ٱلنَّتَنَ بِأَنْفِهَا » .

فما وردَ مِنَ ٱلنَّهْيِ عَن مطلَقِ ٱلافتخارِ محمولٌ علىٰ هَـٰذَا التقييدِ ، أَو على ما سبقَ مِنَ ٱلْغُلوِّ ، أَو إِرادةِ الباطِلِ ، ولَسنا بصدَدِ البحثِ عمَّا تقتضيهِ الأَحاديثُ المذكورةُ مِن عذابِ أَهلِ الفترةِ ؛ لأَنَّ لهُ موضعاً يخصُّهُ إِنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ ، نجمَعُ بهِ أَطرافَ الكَلامِ فيهِ ، ولا أُطيلُ بِما لي في مَعْتَبَةِ قومي علىٰ التخلُّفِ عَن آبائِهم ومبايَنَتِهِم في أَعمالِهم ، ولا بِما لِي مِنَ ٱلْفَخرِ بِنِسْبَتِي ٱلَّتي ينقطِعُ عَنها النظيرُ ، كَما قلْتُ لولَدي [في « ديوان المؤلف » ٢٨٤ مِنَ البسيطِ] :

وَأَنْتَ يَا ٱبْنِيْ لِجِذْمٍ طَابَ مَغْرِسُهُ ... يُسْقَىٰ بِمَاءٍ مِنَ ٱلْفُرْقَانِ دَفَّاقِ[2]
أَرُوْمَةٌ لَوْ تَجَلَّىٰ نُوْرُ عُنْصُرِهَا ... فِيْ جُنْحِ دَاجِيَةٍ هَمَّتْ بِإِشْرَاقِ
وَنِسْبَـةٌ كَـٱلنُّجُـوْمِ ٱلـزُّهْـرِ مُنْقَطِعٌ ... عَنْهَا ٱلنَّظِيْرُ ـ يَدُ ٱلْمَوْلَىٰ ـ بِإِطْلَاقِ[3]

---

(١) يدهدِهُ : يدحرجُ .
(٢) الجذمُ والأَرومةُ : الأَصلُ . دفَّاقٌ : عظيمُ الدفقِ والاندفاعِ لكثرتهِ .
(٣) يد المولى : أي هي يد المولى ونعمته علينا ، والجملة معترضة .

ويُعْجِبُني قولُ الناظِمِ [في « العُكبَريّ » ٣/ ١٢١ مِنَ الطَّويلِ] :

وَكُـلُّ أَنَـابِيْـبِ ٱلْقَنَـا مَـدَدٌ لَـهُ ... وَمَا يَنْكُتُ ٱلْفُرْسَانَ إِلاَّ ٱلْعَوَامِلُ(١)

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٣/ ٢٢٦ مِنَ الوافرِ] :

سِنَـانٌ فِـيْ قَنَـاةِ بَنِـيْ مَعَـدٍّ ... بَنِـيْ أَسَـدٍ إِذَا دَعَـوُا ٱلنِّـزَالاَ

وهُوَ مِن قولِ أَبي عُبادَةَ [في « ديوانهِ » ١/ ٥٤٨ مِنَ الكاملِ] :

كَٱلرُّمْحِ فِيْهِ بِضْعَ عَشْرَةَ فِقْرَةً ... مُنْقَـادَةً تَحْـتَ ٱلسِّنَـانِ ٱلأَصْيَـدِ

وقالَ الناميُّ [في « قرى الضيف » ١/ ٢٨٥ مِنَ الطَّويلِ] :

قَنَاةٌ مِنَ ٱلْعَلْيَاءِ أَنْتَ سِنَانُهَا ... وَتِلْـكَ أَنَـابِيْـبٌ إِلَيْـكَ وَأَكْعُـبُ

والمعنىٰ موجودٌ في قولِ بشارٍ [في « ديوانهِ » ٤/ ٢١٢ مِنَ الخفيفِ] :

خُلِقُـوا سَـادَةً فَكَـانُـوْا سَـوَاءً ... كَكُعُـوْبِ ٱلْقَنَـاةِ تَحْـتَ ٱلسِّنَـانِ

* * *

(١) النكتُ : الوخزُ . الأنابيبُ ـ جمعُ أنبوبٍ ـ : وهوَ العُقدةُ الناشزةُ في القنا . العواملُ ـ جمعُ عاملٍ ـ : وهو صدرُ الرمحِ ، وهوَ ما يلي السنانَ .

وأَهدىٰ إِليهِ بعضُهُم هديَّةً فيها صورةُ سَمَكٍ مِن لَوزٍ وسكَّرٍ في عسَلٍ ، **فقالَ** [في « العُكبَريِّ » ١/ ٣٢٥ مِنَ الكاملِ] :

أَقْصِـرْ فَلَسْـتَ بِـزَائِـدِيْ وُدًّا   بَلَـغَ ٱلْمَـدَىٰ وَتَجَـاوَزَ ٱلْحَـدَّا

شرح المطلع

(**أَقْصَرَ عَنِ ٱلشَّيْءِ**) : إِذا كفَّ عنهُ معَ القدرَةِ عليهِ ، وقَصُرَ عَنْهُ : إِذا عجزَ ، وقَصَّرَ فيهِ : إِذا لَم يبالِغْ .

يقولُ : إِنَّ التودُّدَ لاَ يزيدُ في ودِّي لَكَ ؛ لأَنَّهُ قد بلغَ الغايَةَ ، فهُوَ يصفُ ودَّ نفسِهِ للممدوحِ ، لا ودَّ الممدوحِ لَهُ ، وفي البيتِ أَشياءُ :

ما زاد على حده.. انقلب إلى ضده

أَحدُها : أَنَّ ما جاوزَ حدَّهُ ٱنقلَبَ إِلىٰ ضدِّهِ ؛ ولِهَـٰذَا جاءَ الأَمرُ بالاقتصادِ في المحبَّةِ ، ففي الخبَرِ : « **أَحْبِبْ حَبِيْبَكَ هَوْناً مَا ، فَعَسَىٰ أَنْ يَكُوْنَ بَغِيْضَكَ يَوْماً مَا ، وأَبْغِضْ بَغِيْضَكَ هَوْناً مَا ، فَعَسَىٰ أَنْ يَكُوْنَ حَبِيْبَكَ يَوْماً مَا** »[(١)] .

وقالَ أَرُسْطَاطَالِيْسُ : لاَ يَملأَنَّ قلبَكَ محبَّةُ شيءٍ ، ولاَ يستولِيَنَّ عليكَ بغضُهُ ، وٱجعلهُما قصداً ، فإِنَّ القلبَ كٱسمِهِ يتقلَّبُ . وفي النفسِ شيءٌ مِن صحَّةِ هَـٰذَا ؛ لأَنَّ النكتَةَ التي ذكرَها مِن تقلُّبِ القلبِ كَٱسمِهِ إِنَّما تتمُّ لَو كانَ القائِلُ يتكلَّم بالعربيَّةِ ، أَو كانَ ٱسمُهُ في لغتِهِ يدلُّ علَىٰ ما يدلُّ عليهِ بلسانِ العرَبِ ، فَلْيُتأَمَّلْ .

هل يقف الحب عند حد معين؟!

ثانيها : ٱختلَفَ أَهلُ الأَدبِ والمحبَّةِ في حدِّهَا ، أَيقِفُ عندَ غايةٍ ، أَم تجري إِلىٰ مَا لا نهايَةَ ؟

---

(١) أَخرجهُ عن أَبي هريرة رضي الله عنه الترمذيُّ (١٩٩٨) وقال : حديث غريب .

وبيتُ الناظِمِ مِنَ ٱلأَوَّلِ ، وهوَ من قولِ ذي الرُّمَّةِ [في « ديوانهِ » ٢/ ١٢٣٠ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا زَالَ يَغْلُوْ حُبُّ مَيَّةَ عِنْدَنَا   وَيَزْدَادُ حَتَّىٰ لَمْ نَجِدْ مَا يَزِيْدُهَا

وقد قالَ كُثَيِّرٌ [في « ديوانهِ » ٤٤١ مِنَ الكاملِ] :

ٱللهُ يَعْلَمُ لَوْ أَرَدْتُ زِيَادَةً   فِيْ حُبِّ عَزَّةَ مَا وَجَدْتُ مَزِيْدَا

وقالَ عمرُ ٱبنُ أَبي ربيعةَ [في « ديوانهِ » ٢/ ٢٧٩ مِنَ الرمَلِ] :

لَيْسَ حُبٌّ فَوْقَ مَا أَحْبَبْتُكُمْ   غَيْرَ أَنْ أَقْتُلَ نَفْسِيْ أَوْ أُجَنّ

وقالَ عبيدُ اللهِ بنُ عبدِ اللهِ بنِ عتبةَ [في « الأغاني » ٩/ ١٧٦ مِنَ الوافرِ] :

أَكَادُ إِذَا ذَكَرْتُ ٱلْعَهْدَ مِنْهَا   أَطِيْرُ لَوَ ٱنَّ إِنْسَاناً يَطِيْرُ
غَنِيُّ ٱلنَّفْسِ أَنْ أَزْدَادَ حُبّاً   وَلَـٰكِنِّيْ إِلَىٰ وَصْلٍ فَقِيْرُ

وقالَ أَبو العتاهيةِ [في « ديوانهِ » ٦٥٢ مِنَ البسيطِ] :

مَا فَوْقَ حُبِّكِ حُبّاً لَسْتُ أَعْلَمُهُ   فَلاَ يَضُرُّكِ أَنْ لاَ تَسْتَزِيْدِيْنِيْ

وقالَ الحيْصَ بيصَ [مِنَ الوافرِ] :

تَقَرْطَقْ أَوْ تَمَنْطَقْ أَوْ تَقَبَّا   فَلَنْ تَزْدَادَ عِنْدِيَ قَطُّ حُبَّا[١]
تَمَلَّكَ بَعْضُ حُبِّكَ كُلَّ قَلْبِيْ   فَإِن تُرِدِ ٱلزِّيَادَةَ هَاتِ قَلْبَا

وقالَ بالثاني آخرونَ : منهم جميلُ بنُ معمَرٍ في قولِهِ [في « ديوانهِ » ٦٤ مِنَ الطَّويلِ] :

عَلِقْتُ ٱلْهَوَىٰ مِنْهَا وَلِيْداً وَلَمْ يَزَلْ   إِلَىٰ ٱلْيَوْمِ يَنْمُو حُبُّهَا وَيَزِيْدُ

---

(١) تَقَرطَقْ : ٱلبس القُرْطَقَ ، وهو القباءُ . تمنطق : ضع النطاق على وسطك .

وقد مرَّ هـٰذا ـ معَ جملَةٍ مِنْ الشَّواهِدِ تصلُحُ لهُ ولسابقِهِ ـ في الكلامِ علىٰ **قولِهِ** [في « العكبري » ٣/ ١٦٣ مِنَ البسيطِ] :

وَٱلْوَجْدُ يَقْوَىٰ كَمَا يَقْوَىٰ ٱلنَّوَىٰ أَبَداً [وَٱلصَّبْرُ يَنْحَلُ فِيْ جِسْمِيْ كَمَا نَحِلاَ]

مِن ٱلْمجلِسِ السابعِ .

ويتعلَّقُ بهِ بعضُ ما يأْتي آخرَ الكلامِ علىٰ **قولِهِ** [في « العُكبريّ » ٢/ ٣٣٢ مِنَ الكاملِ] :

[أَرَقٌ عَلَـىٰ أَرَقٍ وَمِثْلِـيَ يَـأْرَقُ] وَجَـوىً يَـزِيْـدُ وَدَمْعَـةٌ تَتَـرَقْـرَقُ

مِنْ ٱلْمَجلسِ الثاني عشرَ .

والثاني هُوَ الأَنسبُ بما ذكرهُ الإمامُ الغزاليُّ وٱبنُ مسكويهِ عَنِ ٱلروحِ ، وقد سبقَ عن الأَوَّلِ ما يناسبُ ذٰلِكَ في المجلسِ الرابعِ ، وقالَ الثاني ـ ما معناهُ ـ : إِنَّنا نجدُ النفوسَ تقبلُ الصورَ المختلفةَ مِنْ ٱلْمحسوساتِ والمعقولاتِ علىٰ وجهِ التمامِ ، من غيرِ مفارقَةٍ ولا معاقبَةٍ ، ولا ٱنمحاءِ رسمٍ ، بلْ لا تزالُ تقبلُ الرسومَ بعدَ الرسومِ ، والصوَرَ بعدَ الصوَرِ ، بلْ تزدادُ قوَّةً علىٰ القَبولِ ، كلَّما ٱرتاضت بكثرَةِ المعلوماتِ ، ولهَـٰذِهِ العلَّةِ يزدادُ الإنسانُ فَهْماً كلَّما ٱزدادَ علماً ، فليسَتِ ٱلنَّفْسُ إِذاً جسماً ـ إِلىٰ آخرِ ما أَطالَ فيهِ ـ ولخَّصناهُ في « رسالةِ الأخلاقِ » ، ولا شَكَّ أَنَّ هَـٰذَا هو مذهبُ السادَةِ الصوفيَّةِ ، وما أَحسنَ ما قالَ بعضُهم [مِنَ الطَّويلِ] :

وَكُنْتُ أَرَىٰ أَنْ قَدْ تَنَاهَىٰ بِيَ ٱلْهَوَىٰ إِلَـىٰ غَـايَـةٍ مَـا فَـوْقَهَـا لِـيَ مَطْلَـبُ
فَلَمَّـا تَـلاَقَيْنَـا وَعَـايَنْـتُ حُسْنَهَـا تَبَيَّنْـتُ أَنِّـيْ إِنَّمَـا كُنْـتُ أَلْعَـبُ

فوائد الهدية تثبيت وتقوية المحبة

ثالثُها : أَنَّ في البيتِ ما لا غايَةَ بعدَهُ في المناسَبَةِ لجوابِ الهديَّةِ ؛ إِذ قد جاءَ في حديثِ عائِشَةَ : يا نساءَ المؤمنينَ ، تَهادوا وَلَو فِرْسِنَ شَاةٍ[1] ؛ فَإِنَّهُ يُنْبِتُ المودَّةَ ، ويُذهِبُ الضغائِنَ ، ذكرَهُ الحافِظُ في « الفتحِ » [باب الهبة : ٥/١٩٨] وغيرُهُ .

ووجهُهُ : أَنَّهُ لمَّا أَشارَ النبيُّ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ إِلىٰ أَنَّ الغرَضَ مِنْ ٱلْهَدِيَّةِ تثبيتُ المحبَّةِ في ٱلقلوبِ . . قالَ الناظِمُ : إِنَّ محبَّتي لَكَ لا تحتاجُ إِلىٰ تثبيتٍ ؛ لأَنَّها مِنْ ٱلْقُوَّةِ بحيثُ لم تَعُدْ تقبلُ الزيادَةَ بعدُ ، فلِلَّهِ درُّهُ ما أَدقَّ نظرَهُ ، وأَبعدَ غورَهُ ، إِنْ أرادَ هَـٰذَا .

وذكرَ غيرُ واحدٍ : أَنَّ المنصورَ قالَ يوماً للربيعِ بنِ يونسَ : سَلْ حاجتَكَ ، قالَ : حاجَتي أَنْ تُحِبَّ الفضلَ ٱبني ، فقالَ لهُ : ويحَكَ إِنَّ لِلْمَحَبَّةِ أَسباباً ، فقالَ لَهُ : قد أَمكنكَ اللهُ مِن إِيقاعِ سَبَبِها ، قالَ : وما ذاكَ ؟ قالَ : تُنعِمُ عليهِ ، فإِنَّكَ إِذا أَنعمتَ عليهِ . . أَحبَّكَ ، وإِذا أَحبَّكَ . . أَحْبَبْتَهُ .

* * *

---

(١) أخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه الهندي في « كنز العمال » (٢٤٨٩٠) ونسبه لأحمد والبخاري ومسلم بلفظ : « يا نساء المسلمات ، لا تحقرنَّ جارة لجارتها ولو فِرسِن شاةٍ » . الفِرسِنُ : العَظمُ القليلُ اللحمِ ، وهوَ خُفُّ الشاةِ .

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَرِيِّ » ١/ ٣٢٥ مِنَ الكاملِ] :

أَرْسَلْتَهَا مَمْلُوءَةً كَرَماً	فَرَدَدْتُهَا مَمْلُوءَةً حَمْدَا

أصل معنى بيت المطلع وشرحه

أَصلُ ٱلمعنىٰ : أَنَّ إِحدىٰ نساءِ ٱلأنصارِ بعثَتْ معَ ٱبنتِها طَبَقاً لِرسولِ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ مملوءاً مِنَ ٱلخضراتِ ، فردَّهُ مملوءاً حُليّاً(١) .

وكذلِكَ فعلَ اللَّيثُ بنُ سعدٍ [كما في « شذراتِ الذَّهبِ » ١/ ٢٨٥] : فقد أَهدىٰ إِليهِ إِمامُ دارِ ٱلهجرَةِ صِينيَّةً مملوءَةً تمراً ، فأَعادَها مملوءَةً ذهباً .

وقولُهُ : (فرَدَدْتُهَا مَمْلُوءَةً حَمْدَا) إِمَّا أَن يُريدَ ما كتبَهُ مِنَ ٱلأبياتِ ٱللَّواتي مِنها هٰذانِ ، وإِمَّا أَن يُريدَ ما يَظهرُ مِنْ أَثَرِها بينَ ٱلنَّاسِ ؛ لأَنَّها لا تخفىٰ صنيعتُهُ إِليهِ معَ نباهَتِهِ وبُعْدِ صِيتِهِ ، فَلا بُدَّ وأَنْ تسيرَ أَخبارُها ، ولا سيَّما إِذا تحدَّثَ بِها ، فيكونُ قد أَدمَجَ ٱلتَّمدُّحَ بِٱلنَّباهَةِ وٱنتشارِ ٱلذِّكْرِ في جَوابِ ٱلهديَّةِ ، وهوَ إِذاً قريبٌ مِنْ قولِهِ في ٱلأُخرىٰ [في « ٱلعُكبَرِيِّ » ٤/ ٢٦٤ مِنَ ٱلمنسرحِ] :

تُنْشِدُ أَثْوَابُنَا مَدَائِحَهُ	بِأَلْسُنٍ مَا لَهُنَّ أَفْوَاهُ

وقولِ نصيبٍ [في « ٱلبيانِ والتَّبيينِ » ١/ ٥٨ مِنَ الطَّويلِ] :

فَعَاجُوا فَأَثْنَوْا بِالَّذِيْ أَنْتَ أَهْلُهُ	وَلَوْ سَكَتُوْا أَثْنَتْ عَلَيْكَ ٱلْحَقَائِبُ

---

(١) لم نعرفه .

وقولِ ٱلأعشىٰ [في « ديوانهِ » ٢٥٠ مِنَ الطَّويلِ] :

وَإِنَّ عِتَاقَ ٱلْعِيْسِ سَوْفَ تَزُوْرُكُمْ ... ثَنَـاءٌ عَلَـىٰ أَعْجَـازِهِـنَّ مُعَلَّـقُ

لأنَّ ٱلمرادَ مِنَ الثَّناءِ ٱلمعلَّقِ علىٰ ٱلأعجازِ . . هوَ ٱلغِناءُ الَّذي يترنَّمُ بهِ ٱلرُّدَّافُ مِنْ أَشعارِ ٱلشُّكرِ وٱلثَّناءِ علىٰ ٱلمَزورِ ، علىٰ حدِّ قولِ ٱلرَّاعي [مِنَ الطَّويلِ] :

وَخَوْدٍ مِنَ اللائِيْ تَسَمَّعْنَ بِٱلضُّحَىٰ ... قَرِيْضَ ٱلرَّدَافِيْ بِٱلْغِنَاءِ ٱلْمُهَوَّدِ[1]

ولا يَبعدُ أَنْ يقومَ ما يتعالَمُ بهِ ٱلنَّاسُ ـ مِنْ خبرِ ٱلهديَّةِ لشيوعِها ـ مقامَ ما يُشاهَدُ مِنِ ٱمتلاءِ ٱلحقائبِ في بيتِ نصيبٍ ، فلا إِشكالَ ، وقدْ قالَ الشَّمَرْدَليُّ [مِنَ الطَّويلِ] :

أَيَادِيْكَ لاَ يَخْفَىٰ مَوَاقِعُ صَوْبِهَا ... فَتَعْفُوْ إِذَا مَا ضُيِّعَ ٱلْحَمْدُ وَٱلشُّكْرُ

وَهَلْ تَسْتَطِيْعُ ٱلأَرْضُ مِنْ بَعْدِ مَا ٱنْطَوَتْ ... عَلَـىٰ رَيِّهَـا إِنْكَـارَ مَـا فَعَـلَ ٱلْقَطْـرُ ؟

وقالَ الرَّضيُّ [في « ديوانهِ » ٢/٩٢٦ مِنَ ٱلكاملِ] :

وَلِسَـانُ نِعْمَتِـكَ ٱلَّتِـيْ قَلَّـدْتَنِـيْ ... بِٱلشُّكْرِ أَبْلَغُ مِنْ لِسَانِ بَيَانِيْ

فَإِذَا سَكَتُّ فَإِنَّ أَنْطَقَ مِنْ فَمِيْ ... عَنِّيْ يَدُ ٱلْمَعْرُوْفِ وَٱلإِحْسَانِ

وفي ٱلبيتِ رائحَةُ تعاظُمٍ وٱمتنانٍ علىٰ ٱلمُهدي ؛ إِذِ ٱلحمدُ أَفضلُ مِن تلكَ ٱلهديَّةِ ، بَلْ وممَّا هوَ أَكبرُ مِنها ؛ فقد قالَ ٱبنُ ٱلخطَّابِ لأَحدِ بني هَرِمِ بنِ سِنانَ [بنحوهِ في « مجمع الأمثالِ » ١/١٨٩] : ما فعلتُمْ بزُهيرٍ ؟ قالوا : حَمَّلْنا ، وكَسَونا ، وأَكْرَمْنا ، وأَفضَلنا ، فقالَ : لٰكنَّ ما كَساكُمْ بهِ زهيرٌ لا يفنىٰ ٱلدَّهرَ .

الثناء يبقى وتذهب الهدية

---

(١) الخودُ : الفتاة الحسنةُ الخَلقِ الناعمةُ .

وقالَ أَبو عُبادَةَ [في « ديوانهِ » ٣/ ١٥٤٤ مِنَ الكاملِ] :

حُفِظَ ٱلْقَرِيْضُ فَلَمْ يُضَيَّعْ حَقُّهُ أَبَـداً وأَنْـتَ لَـهُ مِـنَ ٱلْعُشَّـاقِ
هَـا إِنَّـهُ وَعَطَـاءَكَ ٱلْجَـمَّ ٱللُّهَـىٰ أَخَوانِ : ذَا فَانٍ ، وَهَـٰذَا بَاقِي[1]

وقالَ [في « ديوانهِ » ٢/ ١٠٦٩ مِنَ الطَّويلِ] :

وَأَلْطَفُ مِنْهُ فِيْ ٱلْفُؤَادِ مَحَلَّةً ثَنَـاءٌ تُبَقِّيْـهِ ٱلْقَصَـائِـدُ أَوْ شُكْـرُ

وقالَ [في « ديوانهِ » ١/ ٦٢٥ـ٦٢٦ مِنَ الطَّويلِ] :

وَكَائِنْ لَهُ فِيْ سَاحَتِيْ مِنْ صَنِيْعَةٍ قَطَعْتُ لَهَا عُقْلَ ٱلْقَوَافِيْ ٱلشَّوَارِدِ[2]
وَإِنِّيْ لَمَحْقُوْقٌ بِأَنْ لاَ يَطُوْلَنِيْ نَـدَاهُ إِذَا طَـاوَلْتُـهُ بِـٱلْقَصَـائِـدِ
يُحَكْنَ لَهُ حَوْكَ ٱلْبُرُوْدِ لِزِيْنَةٍ وَيُنْظَمْنَ عَنْ جَدْوَاهُ نَظْمَ ٱلْقَلاَئِدِ
وَحَسْبُ أَخِيْ ٱلنُّعْمَىٰ جَزَاءً إِذَا ٱمْتَطَىٰ سَوَائِرَ مِنْ شِعْرٍ عَلَىٰ ٱلدَّهْرِ خَالِدِ

وقالَ [في « ديوانهِ » ١/ ١٣٨ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَمْ يُبْقِ كَرُّ ٱلدَّهْرِ غَيْرَ عَلاَئِقٍ مِنَ ٱلْقَوْلِ تُرْضِيْ سَامِعِيْنَ وَتُغْضِبُ

ويروىٰ [كما في « المعجمِ الأوسطِ » للطَّبرانيِّ ٤/ ٥٠] : أَنَّهُ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ كثيراً ما يقولُ لعائِشَةَ ـ رضوانُ اللهِ عليها ـ : « كَيْفَ بَيْتُكِ ؟ » ، فتُنشِدُهُ [مِنَ الكاملِ] :

يَجْـزِيْـكَ أَوْ يُثْنِـيْ عَلَيْـكَ وَإِنَّ مَـنْ أَثْنَىٰ عَلَيْكَ بِمَا فَعَلْتَ كَمَنْ جَزَىٰ

فيصدِّقُها .

---

(١) اللُّهىٰ : العطايا .

(٢) العُقُلُ ـ جمع عِقالٍ ـ : وهو الحبلُ الذي يشدُّ بهِ البعيرُ في وسطِ ذراعهِ .

وقالَ محمودٌ ٱلورَّاقُ [مِنَ الطَّويلِ] :

فَمَا بَلَغَتْ أَيْدِي ٱلْمُنِيلِينَ بَسْطَةً ... مِنَ ٱلطَّوْلِ إلاَّ مِنَّةُ ٱلشُّكْرِ أَطْوَلُ
وَلاَ رَجَحَتْ فِي ٱلْوَزْنِ يَوْماً صَنِيعَةٌ ... عَلَىٰ ٱلْمَرْءِ إلاَّ مِنَّةُ ٱلشُّكْرِ أَثْقَلُ

وقالَ ٱبنُ الجزَّارِ السرقسطيُّ [كما في « نفح الطيب » ٣/٤٤٦ مِنَ الطَّويلِ] :

ثَنَاءُ ٱلْفَتَىٰ يَبْقَىٰ وَيَفْنَىٰ ثَرَاؤُهُ ... فَلا تَكْتَسِبْ بِٱلْمَالِ شَيْئاً سِوَىٰ ٱلذِّكْرِ
فَقَدْ أَبْلَتِ ٱلأَيَّامُ كَعْباً وَحَاتِماً ... وَذِكْرُهُمَا غَضٌّ جَدِيدٌ إِلَىٰ ٱلْحَشْرِ

كفران النعم يستوجب الوعيد

وما أكثرَ ما وردَ في كفرانِ النِّعمِ مِنَ ٱلوَعيدِ ، وقد قالَ جلَّ شأنُهُ : ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴾ [عبس : ١٧] ، وقالَ : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ : ١٣] ، وقالَ : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم : ٧] .

وفي ٱلفائدَةِ السَّابعَةِ مِن « بلابلِ التَّغريدِ » مبحثٌ جميلٌ ، ما أَظنُّني سُبِقْتُ إِليهِ .

لم يشكر الله.. من لم يشكر الناس

ويقالُ : « مَن لَم يَشكُرِ الناسَ . . لَمْ يَشْكُرِ ٱللهَ »(١) فأَخذَهُ البُحتريُّ وقالَ [في « ديوانه » ١/١٦٣ مِنَ الطَّويلِ] :

فَمَنْ لاَ يُؤَدِّيْ شُكْرَ نِعْمَةِ خِلِّهِ ... فَأَنَّىٰ يُؤَدِّيْ شُكْرَ نِعْمَةِ رَبِّهِ

وخطبَ نصرُ بنُ سيَّارٍ فقالَ [في « المستطرف » ١/٥٠٧] : قالَ رسولُ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « مَنْ أَنْعَمَ عَلَىٰ قَوْمٍ فَلَمْ

---

(١) أخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه الترمذي في « سننه » (١٩٥٥) ، وأحمد في « مسنده » (١٨٤٧٢) .

يَشْكُرُوهُ ، فَدَعَا عَلَيْهِمْ . . اَسْتُجِيْبَ لَهُ فِيْهِمْ »[1] . وَإِنِّي قَدْ أَحْسَنْتُ إِلَىٰ آلِ سَام ، فَلَمْ يَشْكُرُونِي ، فَأَذَاقَهُمْ ٱللهُ حَرَّ ٱلْحَدِيْدِ ، فَمَا دَارَ عَلَيْهِمُ ٱلْحَوْلُ حَتَّىٰ قُتِلُوا جميعاً .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ [الزمر : ٧] .

كفران النعم من اللؤم

وقالَ زهيرٌ [مِنَ الكاملِ] :

وَٱلْكُفْـــرُ مَخْبَثَـــةٌ لِنَفْـــسِ ٱلْمُنْعِـــمِ

وقالَ أبو تمَّامٍ [في « ديوانهِ » ٢/ ١١٥ مِنَ البسيطِ] :

لَئِنْ جَحَدْتُكَ مَا أَوْلَيْتَ مِنْ نِعَمٍ   إِنِّيْ لَفِيْ ٱللُّؤْمِ أَحْظَىٰ مِنْكَ فِيْ ٱلْكَرَمِ

شكران النعم من الكرم

وقالَ يزيدٌ المهلَّبيُّ [مِنَ البسيطِ] :

إِنْ يُعجِزِ ٱلدَّهْرُ كَفِّيْ عَنْ جَزَائِكُمُ   فَـإِنَّنِـيْ بِـٱلْهَـوَىٰ وَٱلشُّكْـرِ مُجْتَهِـدُ

أَخذهُ الناظمُ فقالَ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٢٧٦ مِنَ البسيطِ] :

لاَ خَيْـلَ عِنْـدَكَ تُهْـدِيْهَـا وَلاَ مَـالُ   فَلْيُسْعِدِ ٱلنُّطْقُ إِنْ لَمْ تُسْعِدِ ٱلْحَالُ

وقالَ البُحتريُّ [في « ديوانهِ » ٢/ ٩٢٧ مِنَ الطَّويلِ] :

فَإِنْ أَنَا لَمْ أَشْكُرْكَ نُعْمَاكَ جَاهِداً   فَلاَ نِلْتُ نُعْمَىٰ بَعْدَهَا تُوْجِبُ ٱلشُّكْرَا

---

(١) أخرجه عن ابن عباس رضي الله عنهما بنحوه أبو شجاع الديلمي في « الفردوس بمأثور الخطاب » (٣/ ٥٧١) ، وهو في « كنز العمال » (٦٤٤٩) ، (٦٤٧٥) ونسبه للعقيلي وابن لال والشيرازي في « الألقاب » بلفظ : « من أنعم على أخيه نعمة فلم يشكرها فدعا عليه . . استجيب له » . وفي الأول : « من أسدى » .

وقالَ بعضُهُم [كما في « المستطرف » ١/٥٠٦ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَوْ أَنَّ لِيْ فِيْ كُلِّ مَنْبتٍ شَعْرَةٍ لِسَاناً يُطِيْلُ ٱلشُّكْرَ كُنْتُ مُقَصِّرَا

وقالَ أبو الوفا [مِنَ الطَّويلِ] :

أَيَادِيَ لاَ أَسْطِيْعُ كُنْهَ صِفَاتِهَا وَلَوْ أَنَّ أَعْضَائِيْ جَمِيْعاً تَكَلَّمُ

وقالَ آخرُ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَأَسْكَتَنِيْ نُعْمَىٰ كَأَنِّيَ مُفْحَمٌ وَلَمْ أَرَ مِثْلِيْ مُفْحَماً وَهُوَ مُقْوِلُ[1]

وقالَ بعضُهُم [وهو ابن سُرَيج كما في « الأغاني » ١/٢٥٦ مِنَ الطَّويلِ] :

شَكَرْتُكَ إِنَّ ٱلشُّكْرَ دَيْنٌ عَلَىٰ ٱلْفَتَىٰ وَمَا كُلُّ مَنْ أَوْلَيْتَهُ نِعْمَةً يَقْضِيْ

وقالَ أبو نُوَاسٍ [في « ديوانه » ٣٩١ مِنَ الكاملِ] :

أَنْتَ ٱمْرُؤٌ جَلَّلْتَنِيْ نِعَماً أَوْهَتْ قُوَىٰ شُكْرِيْ فَقَدْ ضَعُفَا

لاَ تُسْدِيَنْ إِلَيَّ عَارِفَةً حَتَّىٰ أَقُوْمَ بِشُكْرِ مَا سَلَفَا

وقالَ أبو تمَّامٍ [في « ديوانه » ١/٤٣٥ مِنَ البسيطِ] :

كَمْ مِنْ يَدٍ لَكَ لَوْلاَ مَا أُخَفِّفُهَا بِهِ مِنَ ٱلشُّكْرِ لَمْ تُحْمَلْ وَلَمْ تُطَقِ

فَٱدْفَعْ بِرَبِّكَ عَنِّيْ ثِقْلَ فَادِحِهَا فَإِنَّنِيْ خَائِفٌ مِنْهَا عَلَىٰ عُنُقِيْ[2]

وقالَ أبو عُبادَةَ [في « ديوانه » ١/٢٠-٢١ مِنَ الكاملِ] :

أَخْجَلْتَنِيْ بِنَدَىٰ يَدَيْكَ فَسَوَّدَتْ مَا بَيْنَنَا تِلْكَ ٱلْيَدُ ٱلْبَيْضَاءُ

وقَطَعْتَنِيْ بِٱلْجُوْدِ حَتَّىٰ إِنَّنِيْ مُتَخَوِّفٌ أَنْ لاَ يَكُوْنَ لِقَاءُ

---

(١) المُفْحَمُ : الذي لا يستطيعُ قولَ الشعرِ .

(٢) أمرٌ فادحٌ : صعبٌ ثقيلٌ .

صِلَةٌ غَدَتْ فِيْ ٱلنَّاسِ وَهْيَ قَطِيْعَةٌ ... عَجَبٌ وَبِرٌّ عَادَ وَهْوَ جَفَاءُ

وقالَ [في « ديوانهِ » ١/ ١٢٠ـ١٢١ مِنَ البسيطِ] :

إِيهاً أَبَا ٱلْفَضْلِ شُكْرِيْ مِنكَ فِيْ نَصَبِ ... أَقْصِرْ فَمَا لِيَ فِيْ جَدْوَاكَ مِنْ أَرَبِ
لاَ أَقْبَلُ ٱلدَّهْرَ نَيْلاً لاَ يَقُوْمُ بِهِ ... شُكْرِيْ وَلَوْ كَانَ مُسْدِيهِ إِلَيَّ أَبِيْ
لأَشْكُرَنَّكَ إِنَّ ٱلشُّكْرَ نَائِلُهُ ... أَبْقَىٰ عَلَىٰ حَالِهِ مِنْ حَالَةِ ٱلنَّشَبِ

والأخيرُ يشبهُ ما سبقَ ممَّا سقناهُ لهُ .

وقالَ الناظِمُ [في « العُكبَرِيِّ » ٤/ ١٣٣ مِنَ الوافرِ] :

وَلَمْ نَمْلَلْ تَفَقُّدَكَ ٱلْمَوَالِيْ ... وَلَمْ نَذْمُمْ أَيَادِيْكِ ٱلْجِسَامَا
وَلَٰكِنَّ ٱلْغُيُوْثَ إِذَا تَوَالَتْ ... بِأَرْضِ مُسَافِرٍ كَرِهَ ٱلْغَمَامَا

وقالَ العثمانيُّ في الصاحبِ ٱبنِ عبَّادٍ [مِنَ المتقاربِ] :

وَفَدْنَا لِنَشْكُرَ كَافِيْ ٱلْكُفَاةِ ... وَنَسْأَلُهُ ٱلْكَفَّ عَنْ بِرِّنَا

فقالَ لهُ العلويُّ ـ وكان حاضراً ـ : قد كُفِيتَ المؤنَةَ ، فإنَّ الصاحِبَ صارَ لا يعطي شيئاً . وسيُعادُ الكلامُ في مثلِ هَٰذَا أَوائلَ المجلسِ الخامسَ عشرَ .

اشكر لمن أنعم عليك، وأنعم على من شكرك

ويُروىٰ عنهُ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ أَنَّهُ قالَ : « ٱشْكُرْ لِمَنْ أَنْعَمَ عَلَيْكَ ، وَأَنْعِمْ عَلَىٰ مَنْ شَكَرَكَ ، فَإِنَّهُ لاَ زَوالَ لِلنِّعْمَةِ إِذَا شُكِرَتْ ، ولاَ بَقَاءَ لَهَا إِذَا كُفِرَتْ »[1] .

---

(١) هذا ليس حديثاً ، بل هو حكمة كما في كتاب « الزهد » لابن أبي عاصم (٣٦٨) ، وبمعناه الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه : « من لم يشكر الناس لا يشكر الله » . أيضاً عن الأشعث وأسامة وابن مسعود .

وقالَ ٱبنُ سقلابٍ : رأَيتُ البُحترِيَّ فقلْتُ لهُ : ما الخبرُ ؟ فأَنشدَ بديهاً [مِنَ الوافرِ] :

يَـزِيْـدُ تَفضُّـلاً وَأَزِيْـدُ شُكْـراً ... فَـذَلِـكَ دَأْبُـهُ أَبَـداً وَدَأْبِـي

سيد الشاكرين ﷺ

وقامَ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ حَتَّىٰ تفطَّرَتْ قدماهُ ، فقيلَ لهُ في ذلِكَ ؟ فقالَ : « أفلاَ أَكُوْنُ عَبْداً شَكُوراً ؟ »[1] .

إذا صنعت معروفاً.. فليكن إلى مثل هؤلاء

و[روى الأبشيهي في « المستطرف » ٥٠٩/١ أنه] جاءَ رجلٌ من الأَنصارِ إِلىٰ ٱبنِ الخطَّابِ وقالَ [مِنَ البسيطِ] :

أُذْكُرْ صَنِيْعِيَ إِذْ فَاجَاكَ ذُوْ سَفَهٍ ... يَوْمَ ٱلسَّقِيْفَةِ وَٱلصِّدِّيْقُ مَشْغُوْلُ

فقالَ عمرُ بأَعلىٰ صوتِهِ : ٱدنُ منِّي ، فدَنا منهُ ، فأَخذَ بذراعِهِ حتَّىٰ ٱستشرفَهُ الناسُ ، وقالَ : أَلا إِنَّ هَـٰذا ردَّ عنِّي سفيهاً مِن قومِهِ يومَ السقيفةِ ، ثُمَّ حملَهُ علىٰ نجيبٍ ، وزادَ في عطائِهِ ، وولاَّهُ صَدَقاتِ قومِهِ ، وقالَ : ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ [الرحمن : ٦٠] .

وقالَ رجلٌ [كما في « المستطرف » ٥٠٩/١] لسعيدِ بنِ العاصِ وهوَ أَميرُ (الكوفَةِ) : لي عندَكَ يدٌ ، قالَ : وما هِيَ ؟ قالَ : كَبَتْ بِكَ فَرَسُكَ ، فتقدَّمَتُ إِليكَ قبلَ غلمانِكَ ، فأَخذْتُ بيدِكَ وأَعنتُكَ علىٰ الركوبِ ، قالَ : فأَينَ كنتَ حتَّىٰ الآنَ ؟ قالَ : حُجبتُ عَنْ ٱلوصولِ

= وفي كنز العمال : (٦٤١٣) بلفظ « أَشْكَرُ الناس لله أشكرهم للناس » عند أحمد والطبراني والبيهقي والضياء وغيرهم . كما في « كنز العمال » (٦٤٤٣) عند أحمد والترمذي .

(١) أخرجه البخاري (١١٣٠) في التهجد .

إليكَ ، قالَ : قد أَمرنا لَكَ : بِمئَتَي أَلفِ درهَمٍ ، وبما يملِكُهُ الحاجِبُ ، عقوبَةً لَهُ علىٰ حجبِكَ عنَّا .

وكانَ الحجَّاجُ مَنَّ علىٰ عمرانَ بنِ حطَّانَ ـ أَبعدَهُ اللهُ ـ فقالَ لَهُ قطريُّ بنُ الفجاءَةِ : عُدْ إِلىٰ قتالِ عدوِّ اللهِ ، فقالَ [مِنَ الكامِلِ] :

أَأُقَاتِلُ ٱلْحَجَّاجَ عَنْ سُلْطَانِهِ ... بِيَـدٍ تُقِـرُّ بِـأَنَّهَـا مَـوْلاَتُـهُ
مَـاذَا أَقُـوْلُ إِذا وَقَفْـتُ إِزَاءَهُ ... فِي ٱلصَّفِّ وَٱحْتَجَّتْ لَهُ فَعلاَتُهُ ؟
أَأَقُـوْلُ جَـارَ عَلَـيَّ لاَ إِنِّـيْ إِذاً ... لأَحَقُّ مَنْ جَارَتْ عَلَيْهُ وُلاَتُهُ
وَتَحَـدَّثَ ٱلأَقْـوَامُ أَنَّ صَنَـائِعـاً ... غُرِسَتْ لَدَيَّ فَحَنْظَلَتْ نَخلاَتُهُ[1]

ومرَّ أَبو دُلَفٍ ـ الشاعرُ ـ بقومٍ فقالَ بعضُهم : هَـٰذَا الذي يقولُ فيهِ الشاعِرُ [مِنَ المديدِ] :

إِنَّمَـا ٱلـدُّنْيَـا أَبُـوْ دُلَـفٍ ... بَيْـنَ بَـادِيْـهِ وَمُحْتَضَـرِهْ
فَـإِذَا وَلَّـىٰ أَبُـوْ دُلَـفٍ ... وَلَّـتِ ٱلـدُّنْيَـا عَلَـىٰ أَثَـرِهْ

فبكىٰ حتَّىٰ جرَتْ دموعُهُ ، فقالَ لَهُ بعضُ أَصحابِهِ : لِماذا ؟ قالَ [كما في « المنتظم » حتى سنة (٢٥٧ هـ) ١٠/٢٥٧] : لأَنِّي لَم أَقضِ حقَّ هَـٰذَا الشاعِرِ ، قالوا : أَوَلَمْ تعطِهِ مئَةَ أَلفِ درهمٍ ؟ قالَ : واللهِ ما في نَفسي إِلاَّ أَنَّها لَمْ تكُن مئَةَ أَلفِ دينارٍ .

المتنبي والشكر

وللناظِمِ في مطلَقِ الشُّكْرِ قولُهُ [في « العُكبريّ » ٢/١٢٦ مِنَ الطَّويلِ] :

لَـهُ مِنَـنٌ تُفْنِـي ٱلثَّنَـاءَ كَـأَنَّمَـا ... بِهِ أَقْسَمَتْ أَنْ لاَ يُؤَدَّىٰ لَهَا شُكْرُ

وقولُهُ [في « العُكبريّ » ١/٧٨ مِنَ الوافرِ] :

أُثِيْبُـكَ بِـالَّـذِيْ أَوْلَيْـتَ شُكْـراً ... وَأَيْنَ مِنَ ٱلَّذِيْ تُوْلِيْ ٱلثَّوَابُ؟!

---

(١) « المستطرف » (١/٥٠٩) .

وقولُهُ [في « العُكبَريِّ » ٢/٣٨٨ مِنَ الوافرِ] :

وَقَـدْ حَمَّلْتَنِـيْ شُكْـراً طَـوِيْـلاً   ثَقِيْـلاً لاَ أُطِيْـقُ بِـهِ حِـرَاكَـا

وقولُهُ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٨٥ مِنَ البسيطِ] :

يَا أَيُّهَا ٱلْمُحْسِنُ ٱلْمَشْكُوْرُ مِنْ جِهَتِيْ   وَٱلشُّكْرُ مِنْ قِبَلِ ٱلإِحْسَانِ لاَ قِبَلِيْ

ويعجبُني قولُ بعضِهِم [كما في « تاريخ بغداد » ١٣/ ٢٥٨ مِنَ الطَّويلِ] : الشعراء والشكر

سَأَشْكُرُ مَا عِشْتُ ٱلسَّدُوسِيَّ بِرَّهُ   وَأُوْصِيْ بِشُكْرٍ لِلسَّدُوْسِيِّ مِنْ بَعْدِيْ

وَأَطالَ بعضُهم في شكرِ الصاحِبِ بنِ عبَّادٍ ولَم تكُنْ لَهُ عليهِ إلاَّ منَّةٌ يسيرَةٌ ، فقالَ [مِنَ الكاملِ] :

وَإِذَا ٱلصَّدِيْقُ أَدَامَ شُكْرِيَ لِلَّتِيْ   لَـمْ آتِهَـا إِلاَّ عَلَـىٰ ٱلتَّقْـدِيْـرِ
أَيْقَنْـتُ أَنَّ ٱلْعُتْـبَ بَـاطِـنُ أَمْـرِهِ   فَسَكَتُّ مُحْتَشِماً عَلَىٰ ٱلتَّقْصِيْرِ

وقالَ دِعْبِلٌ [في « ديوانه » ١٨٤ مِنَ الكاملِ] :

لاَ يَقْبَلُوْنَ ٱلشُّكْرَ مَا لَمْ يُنْعِمُوْا   نِعَمـاً يَكُـوْنُ لَهَـا ٱلثَّنَـاءُ تَبِيْعَـا

وقالَ أَنوشُروانَ : مَنْ أَثْنَىٰ عليكَ بِما لَم تولهِ . . فغيرُ بعيدٍ أَنْ يذمَّكَ بما لم تفعَلْهُ .

وكما يجبُ شكرُ المنعِمِ . . فإِنَّهُ قدْ يباحُ ذَمُّ المقصِّرِ ؛ إِذ [روى القرطبي في « تفسيره » ٦/١ أنه] : جاءَ في تفسيرِ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ﴾ [النساء : ١٤٨] ، إِنَّها في الضيفِ ينزِلُ بالقومِ فلا يحسنونَ قِراهُ ، فيجوزُ لهُ أَن يأْخذَ مِن أَعراضِهم بِقَدْرِ ما قصَّروا فيهِ من حقِّهِ ، وقد سبقَ ـ في غيرِ هَـٰذَا المجلسِ ـ ذكرُ قولِ حاتِمٍ [مِنَ الكاملِ] : يباح ذم المقصر . . كما يجب شكر المنعم

وَٱعْلَمْ بِأَنَّ ٱلضَّيْفَ مُخْبِرُ أَهْلِهِ   بِمَبِيتِ لَيْلَتِهِ وَإِنْ لَمْ يُسْأَلِ

مع ما يناسبُهُ مِنَ ٱلْكَلامِ .

المتوكل يريد أن يختص أبا العيناء للمنادمة

واعتزَمَ المتوكِّلُ على اختصاصِ أبي العيناءِ للمنادمَةِ ، ثُمَّ قالَ لهُ : لَولا حِدَّةٌ في لسانِكَ ، فقالَ : إِنْ توهَّم الخليفَةُ أنِّي مثلُ العقرَبِ تلدَغُ النبيَّ والذميَّ . . فقدْ صانَ اللهُ عبدَهُ عن ذلِكَ ، وإنْ لامَ على ذمِّ المُسيءِ ، وَشَكَرَ المحسنَ ؛ فالباري جلَّ شأنُهُ يقولُ في المدحِ : ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص : ٤٤] . ويقولُ في الذمِّ : ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ * مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ [القلم : ١١-١٣] .

ثُمَّ أنشأَ يقولُ [مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا أَنَا لَمْ أَشْكُرْ عَلَىٰ ٱلْخَيْرِ أَهْلَهُ   وَلَمْ أَشْتُمِ ٱلْجِبْسَ ٱللَّئِيمَ ٱلْمُذَمَّمَا[1]
فَفِيمَ عَرَفْتُ ٱلْخَيْرَ وَٱلشَّرَّ بِٱسْمِهِ   وَشَقَّ لِيَ ٱللهُ ٱلْمَسَامِعَ وَٱلْفَمَا

مُدِحَ سعيد بن سلم ببيتين ولا أجمل منهما

ويروى عنْ سعيدِ بنِ سلمِ بنِ قتيبةَ بنِ مسلمٍ الباهليِّ قالَ : مدَحني رجلٌ مِنَ العربِ ببيتينِ لم أَسمعْ لَهما نظيراً في المدْحِ ، فقالَ [مِنَ الطَّويلِ] :

أَقُولُ لِسَارِي ٱللَّيْلِ: لاَ تَخْشَ ظُلْمَةً   سَعِيدُ بْنُ سَلْمٍ ضَوْءُ كُلِّ بِلاَدِ
لَنَا مُقْرَمٌ أَرْبَىٰ عَلَىٰ كُلِّ مُقْرَمٍ   جَوادٌ حَثَا فِيْ وَجْهِ كُلِّ جَوَادِ[2]

---

(١) الجِبْسُ : الجامدُ الثقيلُ الروحِ ، والفاسقُ ، والرديءُ ، والجبانُ واللئيمُ .
(٢) المُقْرَمُ : السيِّدُ الجوادُ المعظَّمُ ، يعني : أنَّهُ سبقَ في الجودِ ، والسابقُ يحثو الترابَ بحافرِ فَرَسِهِ في وجهِ المسبوقِ .

ثُمَّ هَجاني بعدَ ذلِكَ ببيتَينِ لم أرَ أَمَضَّ مِنْهُما ، فقالَ [مِنَ الطَّويلِ] :

ثم هجي ببيتين ولا أمضَّ منهما

لِكُـلِّ ثَنَـاءٍ مَـا عَلِمْـتَ كَـرَامَـةٌ ... وَلَيْـسَ لِمَـدْحِ ٱلْبَـاهِلِـيِّ ثَـوَابُ
مَدَحْتُ ٱبْنَ سَلْمٍ وَٱلْمَدِيْحُ مَهَزَّةٌ ... فَكَـانَ كَصَفْـوَانٍ عَلَيْـهِ تُـرَابُ

وٱمتدَحَ ٱبنُ الروميِّ بعضَ الكُتَّابِ فماطلَهُ بالجائزَةِ ، ثُمَّ ردَّ إليهِ مدحَهُ وقالَ : ٱمدَحْ بهِ مَنْ شِئْتَ غيري ، فقالَ [في « ديوانهِ » ٢/ ٦٠٣-٦٠٤ مِنَ الوافرِ] :

ابن الرومي يُمطَل بعد مديحه فما الرد؟!

رَدَدْتَ عَلَيَّ شِعْرِيْ بَعْدَ مَطْلٍ ... وَقَـدْ دَنَّسْـتَ مَلْبَسَـهُ ٱلْجَـدِيْـدَا
وَقُلْتَ : ٱمْدَحْ بِهِ مَنْ شِئْتَ غَيْرِيْ ... وَمَـنْ ذَا يَقْبَـلُ ٱلْمَـدْحَ ٱلـرَّدِيْـدَا
وَمَـا لِلْحَـيِّ فِـيْ أَكْفَـانِ مَيْـتٍ ... لَبُوْسٌ بَعْدَ مَا ٱمْتَلأَتْ صَدِيْدَا

وقالَ لآخرَ - وقدْ حرمَهُ - [كما في « ديوانهِ » ٤/ ١٦٢٩ مِنَ الكاملِ] :

رُدُّوا عَلَـيَّ صَحَـائِفَـاً سَـوَّدْتُهَـا ... فِيْكُـمْ بِـلاَ حَـقٍّ وَلاَ ٱسْتِحْقَـاقِ

وقالَ [في « ديوانهِ » ١/ ٢٤٤ مِنَ البسيطِ] :

إِنْ كُنْتَ مِنْ جَهْلِ حَقِّيْ غَيْرَ مُعْتَذِرٍ ... وَكُنْتَ مِنْ رَدِّ مَدْحِيْ غَيْرَ مُتَّئِبِ[1]
فَأَعْطِنِيْ ثَمَنَ ٱلطِّرْسِ ٱلَّذِي كُتِبَتْ ... فِيْـهِ ٱلْقَصِيْـدَةُ أَوْ كَفَّـارَةَ ٱلْكَـذِبِ[2]

ويُذكَرُ : أَنَّ الناظِمَ كانَ أَعدَّ قصيدَتَهُ - التي يقولُ في مطلَعِهَا [في « العُكبَريِّ » ٢/ ١٦٠ مِنَ الكاملِ] :

في هن بناتي أزوجهن من اريد

بَـادٍ هَـوَاكَ صَبَـرْتَ أَمْ لَـمْ تَصْبِـرَا ... وَبُكَاكَ إِنْ لَمْ يَجْرِ دَمْعُكَ أَوْ جَرَىٰ

---

(١) متَّئِبٌ : راجعٌ .

(٢) الطرسُ : الصحيفةُ .

لابنِ الفراتِ ، ثُمَّ لَمَّا لَم يُرضِهِ . . قلَبَها لابنِ العميدِ ، ولمَّا عوتِبَ في ذلِكَ . . قالَ : هُنَّ بناتي أُزَوِّجُهنَّ علىٰ من شئتُ .

صور من الهجاء لمن لم يشكر النعم

وكانَ عيسىٰ بنُ فرخانَ يتيهُ علىٰ أبي العيناءِ في أَيَّامِ وزارَتِهِ ، فلمَّا صُرِفَ عَنها . . لقي أبا العيناءِ في بعضِ السِّكَكِ ، فسَلَّمَ عليهِ سلاماً خفيفاً ، فقالَ لقائِدِهِ : مَنْ هَـٰذَا ؟ قالَ : أَبُو موسىٰ ، فدَنا منهُ حَتَّىٰ أَخذَ بعِنانِ بغلتِهِ ، وقالَ : لقد كنتُ أَقنَعُ بإِيمائِكَ دونَ بنانِكَ ، وبلحظِكَ دُونَ لفظِكَ ، فالحَمدُ للهِ علىٰ ما آلتْ إِليهِ حالُكَ ، فلئِنْ أَخطأَتْ فيكَ النعمةُ . . فلقد أَصابَتْ فيكَ النِّقمَةُ ، ولئِنْ كانَتِ الدُّنيا أَبدتْ صفحاتِها بالإِقبالِ عليكَ . . لقدْ أَظهرَتْ محاسِنَها بالإِدبارِ عنكَ ، وللهِ المنَّةُ إِذ أَغنانا عَنِ الكَذِبِ عليكَ ، ونزَّهَنا عَنْ قولِ الزُّورِ فيكَ ، وقد ـ واللهِ ـ أَسأْتَ حملَ النِّعمَةِ ، وما شكَرتَ حقَّ المنعِمِ ، ثُمَّ أَطلَقَ يدَهُ من عنَانِهِ ، ورجعَ إِلىٰ مكانِهِ ، فقيلَ لَهُ : يا أَبا عبدِ اللهِ ، لقد بالغتَ في السَّبِّ ، فَما كانَ الذَّنبُ ؟ قالَ : سأَلتُهُ حاجَةً أَقلَّ مِن قيمتِهِ . . فردَّني عَنها بقولٍ أَقبحَ مِن خِلْقَتِهِ .

ويروىٰ [بنحوه في « الأغاني » ١٦/ ٢٧٢] : أَنَّ ربيعةَ الرقيَّ امتدَحَ يزيدَ بنَ أُسيدٍ السلميَّ ، فقصَّرَ يزيدُ في حقِّهِ ، ثُمَّ امتدحَ يزيدَ بنَ حاتِمِ بنِ قبيصةَ المهلَّبِيَّ ، فلم يلتفتْ إِليهِ ، فقالَ [في « شعره » ٩٥ مِنَ الطَّويلِ] :

أَرَانِـي ـ وَلاَ كُفْـرَانَ للهِ ـ رَاجِعـاً ... بِخُفَّيْ حُنَيْنٍ مِنْ نَوَالِ ابْنِ حَاتِمِ (١)

---

(١) حُنينٌ : اسمُ رجلٍ . وهذا مَثَلٌ أَصلُهُ : كما ذكره الميداني في « مجمع الأمثال » (١/ ٢٥٧) : أَنَّ حنيناً كانَ مِن أهلِ (دَوْمةِ الكوفةِ) فَدَعاهُ قومٌ إِلىٰ الصحراءِ ليغنِّيَهم ، فمضىٰ مَعَهم ، فلمَّا سَكِرَ . . سلبوهُ ثيابَهُ ، وتركوهُ عُرياناً في خُفَّيهِ ، =

فعادَ فعطفَ عليهِ وأَرضاهُ ، وبالغَ في الإحسانِ إليهِ ، فقالَ يمدحُ يزيدَ بنَ حاتِمٍ ، ويَذُمُّ يَزِيدَ بنَ أُسيدٍ [في « شعره » ٩٧-٩٨ مِنَ الطَّويلِ] :

لَشَتَّانَ مَا بَيْنَ ٱلْيَزِيدَيْنِ فِيْ ٱلنَّدَىٰ ... يَزِيْدَ سُلَيْمٍ وَٱلأَغَرِّ ٱبْنِ حَاتِمِ

فَهَمُّ ٱلْفَتَىٰ ٱلأَزْدِيِّ تَفْرِيْقُ مَالِهِ ... وَهَمُّ ٱلْفَتَىٰ ٱلْقَيْسِيِّ جَمْعُ ٱلدَّرَاهِمِ

فَلا يَحْسَبِ ٱلتَّمْتَامُ أَنِّي هَجَوْتُهُ ... وَلَكِنَّنِيْ فَضَّلْتُ أَهْلَ ٱلْمَكَارِمِ(١)

ويزيدُ ٱبنُ حاتِمٍ هَـٰذَا هُوَ جَدُّ الوزيرِ أَبي محمدٍ المهلَّبيِّ المشهورِ .

وشبيهٌ بهَـٰذَا الحديثِ [كما في « شذرات الذهب » ٢/ ٣١٢] : أَنَّ ٱبنَ عِنَّينَ الدمشقِيَّ قَدِمَ (ٱلْيَمَنَ) عَلَىٰ الملكِ العزيزِ طغتكينَ بنِ أَيُّوبَ وٱمتدَحَهُ بغُرَرِ القصائِدِ ، فأَجزَلَ صلتَهُ ، وأَكسبَهُ أَموالاً طائِلَةً ، فلمَّا وصلَ الديارَ المصريَّةَ - وسلطانُها يومَئِذٍ ٱبنُ أَخيهِ العزيزُ عثمانُ بنُ صلاحِ الدينِ بنِ أَيُّوبَ - أَلزمَهُ أَربابُ دِيوانِ الزكاةِ بدفعِ صدقَةِ التجارَةِ عَنْها ، فقالَ [مِنَ البسيطِ] :

مَا كُلُّ مَنْ يَتَسَمَّىٰ بِٱلْعَزِيْزِ لَهَا ... أَهْلٌ ، وَلاَ كُلُّ بَرْقٍ سُحْبُهُ غَدِقَهْ(٢)

بَيْنَ ٱلْعَزِيْزَيْنِ بَوْنٌ فِيْ فِعَالِهِمِ ... هَـٰذَاكَ يُعْطِيْ ، وَهَـٰذَا يَأْخُذُ ٱلصَّدَقَهْ

وذكرَ غيرُ واحِدٍ [منهم الأصفهاني في « الأغاني » ١٦/ ٢٧٤] : أَنَّ ربيعةَ الرقيَّ - الآنِفَ الذِّكْرِ - ٱمتدحَ العبَّاسَ بنَ محمَّدِ بنِ عليِّ بنِ

= رجعَ إِلىٰ أَهلِهِ ، وأَبصروهُ بتلكَ الحالَةِ . . قالوا : جاءَ حنينٌ بخُفَّيهِ . فغدَتْ مثلاً لكُلِّ إنسانٍ خائِبٍ وخاسِرٍ .

(١) التمتامُ : إِشارةٌ إِلى تمتمةٍ كانت في لسانِ يزيدَ بن أُسيدٍ .

(٢) غَدِقَةٌ : مُمطِرَةٌ .

عبدِ اللهِ بنِ العبَّاسِ بقولِهِ [في « شعرِهِ » ٨٧ مِنَ الكاملِ] :

لَوْ قِيلَ لِلْعَبَّاسِ : يَا ٱبْنَ مُحَمَّدٍ ... قُلْ : لاَ وَأَنْتَ مُخَلَّدٌ مَا قَالَهَا
مَا إِنْ أَعُدُّ مِنَ ٱلْمَكَارِمِ خَصْلَةً ... إِلاَّ وَجَدْتُكَ عَمَّهَا أَوْ خَالَهَا
وَإِذَا ٱلْمُلُوكُ تَسَايَرَتْ فِيْ بَلْدَةٍ ... كَانُوا كَوَاكِبَهَا وَكُنْتَ هِلاَلَهَا
إِنَّ ٱلْمَكَارِمَ لَمْ تَزَلْ مَعْقُولَةً ... حَتَّىٰ حَلَلْتَ بِرَاحَتَيْكَ عِقَالَهَا

فلمْ يُرضِهِ ، فقالَ [في « شعرِهِ » ٦٧ مِنَ الوافرِ] :

هَزَزْتُكَ هِزَّةَ ٱلسَّيْفِ ٱلْمُحَلَّىٰ ... فَلَمَّا أَنْ ضَرَبْتُ بِكَ ٱنْثَنَيْتُ
فَهَبْهَا مِدْحَةً ذَهَبَتْ ضَيَاعاً ... كَذَبْتُ عَلَيْكَ فِيْهَا وَٱفْتَرَيْتُ
فَأَنْتَ ٱلْمَرْءُ لَيْسَ لَهُ وَفَاءٌ ... كَأَنِّيْ إِذْ مَدَحْتُكَ قَدْ زَنَيْتُ

فرفعَهُ إلىٰ الرشيدِ ـ وكانَ أثيراً[١] عندَهُ ، وقد همَّ أَنْ يخطُبَ إليهِ ٱبنتَهُ ـ فأَحضرَ ربيعةَ ، وقالَ : يا ماصَّ بَظْرِ أُمِّهِ ، تَهجو عَمِّي ؟ قالَ : لقد مدحتُهُ بشعرٍ ما قيلَ مثلُهُ في الخُلَفاءِ ، وأَنشدَهُ لَهُ ، فٱستجادَهُ ، وقالَ لِلْعَبَّاسِ : كَمْ أَثبتَهُ ؟ فواللهِ ما قيلَ في أَحدٍ مثلُهُ ، فسكَتَ العبَّاسُ وغصَّ بِرِيْقِهِ ، فقالَ ربيعةُ : أَثابَني عليهِ بدينارَينِ ، قالَ الرشيدُ : بِحَياتي لا تكذبُ ، فقالَ : وحياتِكَ لا أَكثَرَ مِنهُما ، فغضِبَ الرشيدُ أَشَدَّ الغضَبِ علىٰ العبَّاسِ ، وأَوجعَهُ تأنيباً ، ثُمَّ ٱشترىٰ عرضَهُ مِنْ ربيعةَ بثلاثينَ أَلفَ درهمٍ ، وخلعَهُ ، وحملَهُ على بغلَةٍ ، ورجَعَ عمَّا كانَ همَّ بهِ مِنَ ٱلْخِطْبَةِ إليهِ .

وفي العبَّاسِ هَـٰذَا يقولُ بشَّارٌ [في « ديوانِهِ » ٣/ ١٢٧ـ١٢٨ مِنَ البسيطِ] :

ظَلَّ ٱلْيَسَارُ عَلَىٰ ٱلْعَبَّاسِ مَمْدُوْدُ ... وَقَلْبُهُ أَبَداً بِٱلْبُخْلِ مَعْقُوْدُ

---

(١) الأثيرُ : التابعُ ، وفلانٌ أثيري : أي مِنْ خُلَصائي .

إِنَّ ٱلْكَرِيمَ لَيُخْفِي عَنكَ عُسْرَتَهُ   حَتَّىٰ تَرَاهُ غَنِيّاً وَهْوَ مَجْهُودُ
وَلِلْبَخِيلِ عَلَىٰ أَمْوَالِهِ عِلَلٌ   زُرْقُ ٱلْعُيُوْنِ عَلَيْهَا أَوْجُهٌ سُوْدُ[١]
إِذَا تَكَرَّمْتَ عَنْ بَذْلِ ٱلْقَلِيْلِ وَلَمْ   تَقْدِرْ عَلَىٰ سَعَةٍ لَمْ يَظْهَرِ ٱلْجُوْدُ
أَوْرِقْ بِخَيْرٍ تُرَجَّىٰ لِلنَّوَالِ فَمَا   تُرْجَىٰ ٱلثِّمَارُ إِذَا لَمْ يُوْرِقِ ٱلْعُوْدُ

وقد أَلَمَّ في الأَخيرِ بقولِهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « إِنَّ ٱللهَ يُحِبُّ أَنْ يرَىٰ أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَىٰ عَبْدِهِ »[٢] .

عبث ربيعة الرقي بالعباس بن محمد في حضرة الرشيد

وفي حِفْظي عَنْ بَعْضِ ٱلْكُتُبِ [كما في « الأغاني » ١٦/ ٢٧٤] : أَنَّ ربيعَةَ الرَّقِّيَّ مَا زالَ يعبثُ بالعبَّاسِ ـ ولم يكُن ذلِكَ إلاَّ عن رِضىٰ من الرشيدِ في باطنِ الأَمْرِ ، كَما هِيَ عادَةُ المُلوكِ ، وكما يُعرَفُ جليّاً مِنَ ٱلْقِصَّةِ الآتيةِ ، فلقد جاءَ العبَّاسُ بغاليَةٍ أَهْداها للرشيدِ[٣] ، وطفِقَ يُطْنِبُ في وصفِها ، فٱعترضَهُ ربيعَةُ وقالَ : تصِفُها بحضرَةِ أَميرِ المُؤْمِنينَ ، الذي تُجبىٰ لهُ نَفَائِسُ الدنيا مِن شرقِها إِلىٰ غربِها ، وما قَدْرُ غاليتِكَ هَـٰذِهِ عندَها ؟ ثُمَّ ٱلتفتَ إلىٰ الرَّشيدِ وقالَ : بحياتِكَ إلاَّ ما جَعَلْتَها لي بِنَصيبي مِنَ ٱلْعَطاءِ إلىٰ سَنةٍ ، فقالَ : خُذْها ، فدهَنَ إِبْطَيْهِ وَٱسْتَهُ ومَذاكيرَهُ ، ثُمَّ ٱسْتأذَنَ لغلامِهِ فدخَلَ ، فقالَ لَهُ : ٱذهَبْ إِلىٰ فلانَةَ ، وقُلْ لَها : ٱدْهَني بما بقِيَ في الحُقِّ ٱستَكِ وإِبْطَكِ وسائِرَ بدنِكِ ، فلآتِيَنَّكِ الساعَةَ ، فضحِكَ الرشيدُ حَتَّىٰ ٱستلقىٰ .

---

(١) خَصَّ العيونَ الزرقاءَ بالذِّكرِ هنا ؛ لأَنَّها ممَّا تكرهُهُ العربُ وتتشاءَمُ بهِ ، ولأَنَّ صاحبَها يكونُ مليئاً بالأَضغانِ .
(٢) أخرجه الحاكم في « المستدرك » (٤/ ١٥٠) .
(٣) الغاليةُ : وِعَاءٌ يوضعُ فيهِ الطِّيبُ ، وأَوَّلُ مَن سمَّاها بذلكَ سليمانُ بنُ عبدِ الملكِ .

وما كانَ ربيعَةُ ليفعَلَ هَـٰذَا . . إلاَّ عَن إشارَةٍ مِنَ ٱلرَّشِيدِ ، أو عنْ عِلمٍ بطبيعتِهِ ومواقعِ رضاهُ ، ولا يُنكرُ هَـٰذَا معَ ركانَةِ الرشيدِ ، فإنَّ طِباعَ الملوكِ أَشبَهُ بطباعِ الصبيانِ ، وكثيراً ما تركَبُ الصعْبَ والذَّلولَ في سبيلِ شهواتِ الانتقامِ ، وقد تعذَّرَ عليهِ ؛ لِمَكانِ قربِ العبَّاسِ منْهُ ، وٱحترامِهِ لهُ في الظاهِرِ ، إلاَّ مِنْ هَـٰذَا الطريقِ .

من أخبار العباس مع الرشيد

ومِنْ أَخبارِهِ مَعَ العبَّاسِ هَـٰذَا ـ ولا إخالُهُ إلاَّ قبلَ نفرَتِه عنْهُ ـ أَنَّهُ قالَ لَهُ [كما في «الأغاني» ١٨/٢٣٧] : لقد أَكثرَ الشعراءُ في الأَمينِ ، وأُحِبُّ أَنْ أَسمَعَ في المَأْمونِ ، فذكَرَ العبَّاسُ ذلكَ لأَشجَعَ ، فقالَ [في «شعرِه» ٢٣٨ مِنَ المديدِ] :

بَيْعَـــةُ ٱلْمَـــأْمُـــوْنِ آخِـــذَةٌ ... بِعِنَـــانِ ٱلْحَـــقِّ فِـــيْ أُفُقِـــهْ
لَـــنْ يَفُـــكَّ ٱلْمَـــرْءُ رِبْقَتَهَـــا ... أَوْ يَفُـــكَّ ٱلـــدِّيْـــنَ مِـــنْ عُنُقِـــهْ
وَلَـــهُ مِـــنْ وَجْـــهِ وَالِـــدِهِ ... صُـــوْرَةٌ تَمَّـــتْ وَمِـــنْ خُلُقِـــهْ

فَأتىٰ بها العبَّاسُ إلىٰ الرشيدِ ، فٱستحسنَهَا ، وقالَ : لِمَنْ ؟ قالَ : هِيَ لي ، قالَ : الآنَ سرَّتْني مِنْ جِهَتَينِ ؛ لإصابَتِها ما في نَفسي ، ولأَنَّها لكَ ، وأَعطَاهُ ثلاثينَ أَلفَ دينارٍ ، فٱحتقَبَها ولَمْ يُعْطِ أَشْجَعَ مِنْها إلاَّ خمسَةَ آلافٍ ، علىٰ أَنَّ الخَمسةَ كثيرٌ بالنسبَةِ إلىٰ ما سبقَ مِن لؤْمِهِ .

حبس أمير المؤمنين ابن الخطاب للحطيئة

و[روى الأصفهاني في «الأغاني» ٢/١٧٨ أنه] : لَمَّا أَكثَرَ الحُطَيئَةُ مِنَ ٱلْهِجَاءِ ، وٱستعدىٰ عليهِ الزِّبْرِقَانُ ابنَ الخطَّابِ رضي الله عنه . . حبَسَهُ ، فكتَبَ إليهِ مِنَ ٱلسِّجْنِ [في «ديوانه» ١٩١ مِنَ البسيطِ] :

مَاذَا تَقُوْلُ لأَفْرَاخٍ بِذِيْ مَرَخٍ ... حُمْرِ ٱلْحَوَاصِلِ لاَ مَاءٌ وَلاَ شَجَرُ

أَلْقَيْتَ كَاسِبَهُمْ فِيْ قَعْرِ مُظْلِمَةٍ   فَٱمْنُنْ عَلَيْهِمْ هَدَاكَ ٱللهُ يَا عُمَرُ

فأَطلقَهُ ، وشرطَ عليهِ أَنْ يكُفَّ لسانَهُ عَنِ ٱلنَّاسِ ، فتقدَّمَ إِلىٰ عمرَ بالأَبياتِ التي سبقَ بعضُها في غيرِ هَـٰذَا المجلسِ ومِنْهَا قولُهُ [في « ديوانهِ » ٢٧٧ مِنَ الكاملِ] :

أَشْكُوْ إِلَيْكَ بَلِيَّتِيْ مِنْ صِبْيَةٍ   لاَ يَشْبَعُوْنَ وَأُمُّهُمْ لاَ تَشْبَعُ
وَبُعِثْتَ لِلشُّعَرَاءِ مَبْعَثَ دَاحِسٍ   أَوْ كَٱلْبَسُوْسِ بِرُدْعِهَا تَتَكَوَّعُ

يقولُ لَهُ : لقد كُنتَ شُؤماً علىٰ الشعراءِ كشُؤْمِ داحسٍ علىٰ عبْسٍ وذبيانَ ، وكشؤْمِ البَسوسِ علىٰ بني وائِلٍ .

ذهاب الحطيئة إلى علقمة بن علاثة بعد خروجه من السجن وإذا به قد مات!!

وبِعَقِبِ مراجعاتٍ طويلَةٍ كتبَ لَهُ إِلىٰ علقمَةَ بنِ علاثَةَ ، فصادفَهُ قد ماتَ والناسُ منصرفونَ من قبرِهِ ، وٱبنُهُ حاضِرٌ ، فأَنشدَ قصيدَتَهُ اللاَّميَّةَ المشهورَةَ ، التي يقولُ فيها [في « ديوانهِ » ٣٥ـ٣٨ مِنَ الطَّويلِ] :

إِلَىٰ ٱلْقَائِلِ ٱلْفَعَّالِ عَلْقَمَةَ ٱلنَّدَىٰ   رَحلْتُ قَلُوْصِيْ تَجْتَوِيْهَا ٱلْمَنَاهِلُ
يَدَاهُ خَلِيْجُ ٱلْبَحْرِ إِحْدَاهُمَا دَماً   تَفِيْضُ وَأُخْرَىٰ بَحْرُ جُوْدٍ وَنَائِلُ
فَإِنْ تَحْيَ لاَ أَمْلُلْ حَيَاتِيْ وَإِنْ تَمُتْ   فَمَا فِيْ حَيَاةٍ بَعْدَ مَوْتِكَ طَائِلُ
وَمَا كَانَ بَيْنِيْ لَوْ لَقِيْتُكَ سَالِماً   وَبَيْنَ ٱلْغِنَىٰ إِلاَّ لَيَالٍ قَلاَئِلُ

فقالَ ٱبنهُ : كم تظنُّ أَبي يعطيكَ لو وجدْتَهُ حيّاً ؟ فقالَ : مئَةَ ناقَةٍ يتبعُها أَولادُها ، فقالَ لَهُ : هِيَ لَكَ[1] .

ويروىٰ : أَنَّ علقمَةَ كانَ أَوصىٰ لَهُ بمثْلِ نصيبِ أَحدِ أَولادهِ .

---

(١) « الأغاني » (١٦/٣١٨) ، وكنا قد ذكرنا هذه القصة في حاشية غير هذا المجلس برواية تقرب من هذه فليتنبه .

جود الأبناء

قالَ ٱبنُ خلِّكانَ [في « وفيات الأعيان » ٥/ ١٩١] : ومثْلُ قصَّةِ الحُطَيئَةِ معَ ٱبنِ علقَمَةَ ، أَنَّ ٱبْنَ مروانَ ٱبنِ أَبي حفصَةَ دخلَ علىٰ شراحيلَ بنِ معنِ بنِ زائدَةَ ، فقالَ لَهُ [مِنَ البسيطِ] :

أَيَا شُرَاحِيْلُ بِنْ مَعْنِ بْنِ زَائِدَةٍ ... يَا أَكْرَمَ ٱلنَّاسِ مِنْ عُجْمٍ وَمِنْ عَرَبِ
أَعْطَىٰ أَبُوْكَ أَبِيْ مَالاً فَعَاشَ بِهِ ... فَأَعْطِنِيْ مِثْلَ مَا أَعْطَىٰ أَبُوْكَ أَبِيْ
مَا حَلَّ قَطُّ أَبِيْ أَرْضاً أَبُوْكَ بِهَا ... إِلاَّ وَأَعْطَاهُ قِنْطَاراً مِنَ ٱلذَّهَبِ

فأَعطاهُ شراحيلُ بنُ معنٍ قنطاراً مِنَ ٱلذهَبِ .

هـذا الشبل مـن ذاك الأسد

وإِنِّي لأَتعجَّبُ مِنَ ٱلقاضي إِذْ نَسِيَ أَنْ يُشيرَ إِلىٰ قصَّةِ ٱبنِ حيُّوسٍ ـ مَعَ أَنِّي لَمْ أَعْرِفْها إِلاَّ مِنْهُ ـ وحاصِلُها [كما في « وفيات الأعيان » ٤/ ٤٣٩] : أَنَّ ٱبنَ حيُّوسٍ هـٰذَا ٱمتدَحَ الأَميرَ محمودَ بنَ نصرِ بنِ صالحِ بنِ مرداسٍ الكِلابيَّ صاحِبَ (حلبٍ) ، ثُمَّ ٱمتدَحَ ٱبنَهُ نصراً بعدَهُ بقصيدَةٍ يقولُ فيها [في « ديوانه » ١/ ٢٤٨ مِنَ الطَّويلِ] :

تَبَاعَدْتُ عَنْكُمْ حِرْفَةً لاَ زَهَادَةً ... وَجِئْتُ إِلَيْكُمْ حِيْنَ مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ
فَلاَقَيْتُ ظِلَّ ٱلأَمْنِ مَا عَنْهُ حَاجِزٌ ... يَصُدُّ وَبَابَ ٱلْعِزِّ مَا دُوْنَهُ سِتْرُ
وَطَالَ مُقَامِيْ فِيْ إِسَارِ جَمِيْلِكُمْ ... فَدَامَتْ مَعَالِيْكُمْ وَدَامَ لِيَ ٱلأَسْرُ
وَجَادَ ٱبْنُ نَصْرٍ لِيْ بِأَلْفٍ تَصَرَّمَتْ ... وَإِنِّـيْ عَلِيْـمٌ أَنْ سَيُخْلِفُهَـا نَصْـرُ

فقالَ : أَمَا واللهِ ، لَو قالَ : سيُضْعِفُها نَصْرُ . . لأَضْعَفْتُهَا لَهُ ، وأَعطاهُ أَلفَ دينارٍ في طبقٍ مِن فِضَّةٍ ، وكانَ ٱجتمعَ علىٰ بابِ نصرٍ جماعةٌ مِنَ ٱلشعَراءِ ، فتَأَخَّرَتْ جوائِزُهُم ، فٱتَّفقُوا علىٰ تقديمِ وَرَقَةٍ إِليهِ كَتَبوا فيها [مِنَ الطَّويلِ] :

عَلَىٰ بَابِكَ ٱلْمَحْرُوْسِ مِنَّا عِصَابَةٌ مَفَالِيْسُ فَٱنظُرْ فِيْ أُمُوْرِ ٱلْمَفَالِيْسِ
وَقَدْ قَنِعَتْ مِنكَ ٱلْجَمَاعَةُ كُلُّهَا بِعُشْرِ الَّذِي أَطْلَقْتَهُ لابْنِ حَيُّوْسِ
وَمَا بَيْنَنَا هَـٰذَا ٱلتَّفَاوُتُ كُلُّـهُ وَلَـٰكِنْ سَعِيْدٌ لاَ يُقَاسُ بِمَنْحُوْسِ

فلَمَّا وقفَ عليها الأَميرُ نَصْرٌ . . أَطلقَ لَهُم مِئَةَ دينارٍ ، وقالَ : واللهِ لَو قالوا : بمثْلِ الَّذي أَطلقْتَه لابْنِ حَيُّوسٍ . . لأَعطيتُهم مثلَهُ .

كرم سيف الدولة

أَمَّا سيفُ الدولةِ بنُ حمدانَ : فقد زادَ علىٰ ما صنعَ هـٰؤلاءِ إِذ [روى ابن خلكان في « وفيات الأعيان » ٣/ ٤٠٤ أنه] : دخلَ عليهِ القاضي أبو نَصرٍ محمَّدُ بنُ محمَّدٍ النيسابوريُّ فطرحَ مِن كُمِّهِ كِيساً فارغاً ، وأَنشدَ قصيدَةً يقولُ مِنْها [مِنَ الطَّويلِ] :

حِبَـاؤُكَ مُعْتَـادٌ وَأَمْـرُكَ نَـافِـذٌ وَعَبْدُكَ مُحْتَاجٌ إِلَىٰ أَلْفِ دِرْهَمِ

فضحكَ سيفُ الدولَةِ حَتَّىٰ ٱستغرَبَ[1] ، وأَمرَ لَه بأَلفِ دينارٍ[2] ، جُعِلَتْ في الكيسِ .

وإِقرارُ القاضي بالعبوديَّةِ لسيفِ الدولَةِ أَكبرُ ممَّا كانَ يتعاظَمُ أَبو حيَّانَ [كما في « طبقات ابن السبكي » ٥/ ٢٠٩] مِن قولِ إِمامِ الحرمَينِ في خُطْبَةِ بَعْضِ كُتُبِهِ يخاطِبُ نظامَ المُلْكِ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا أَنَا إِلاَّ دَوْحَةٌ قَدْ غَرَسْتَهَا وَسَقَّيْتَهَا حَتَّىٰ تَمَادَىٰ بِهَا ٱلْمَدَىٰ
فَلَمَّا ٱقْشَعَرَّ ٱلْعُوْدُ مِنْهَا وَصَوَّحَتْ أَتَتْكَ بِأَغْصَانٍ لَهَا تَطْلُبُ ٱلنَّدَىٰ[3]

---

(١) ٱستغربَ : سالَ دمعُهُ .
(٢) لكن في « وفيات الأعيان » : ألف درهم .
(٣) صوَّحَتْ : يبِسَتْ أَغصانُها .

وقد كانَ أَبو حيَّانَ يقولُ : كيفَ يرضىٰ الإمامُ أَنْ يخاطِبَ النظامَ بهـٰذَا الخطابِ ؟ ثُمَّ يذُمُّ الدنيا التي تحوِجُ مِثْلَ الإمامِ إِلىٰ ذلِكَ .

ومَرَّ ما يناسِبُ هَـٰذَا ـ مَعَ الإحالَةِ علَىٰ ما هُنَا ـ في المجلسِ الخامسِ في الكلامِ علَىٰ قولِ الناظِمِ [في « العُكبَرِيِّ » ٤/ ٢٩ مِنَ الطَّويلِ] :

كَصِفَاتِ مَوْلاَنَا أَبِيْ اَلفَضْلِ اَلَّتِيْ   بَهَرَتْ فَأَنْطَقَ وَاصِفِيْهِ وَأَفْحَمَا

* * *

المجلس الحادي عشر

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَرِيِّ » ٣/ ١٧٢ مِنَ المنسرحِ] :

تَمَثَّلُوْا حَاتِماً وَلَوْ عَقَلُوْا	لَكُنْتَ فِيْ ٱلْجُوْدِ غَايَةَ ٱلْمَثَلِ

شرح المطلع

يقولُ : إِنَّ النَّاسَ يضربونَ المثلَ في الجودِ بحاتِمٍ ، ولَو عقلوا . . لتمثَّلوا بكَ ؛ لأَنَّكَ أَكرمُ وأَجودُ منهُ ، أَو لأَنَّه غائِبٌ وأَنتَ حاضرٌ ، فيكونُ حينئِذٍ كقولِهِ [في « العُكبَرِيِّ » ٣/ ٨١ مِنَ البسيطِ] :

خُذْ مَا تَرَاهُ وَدَعْ شَيْئاً سَمِعْتَ بِهِ	فِيْ طَلْعَةِ ٱلشَّمْسِ مَا يُغْنِيْكَ عَنْ زُحَلِ

لو سبقت حاتماً بيوم لما ذكره الناس!!

ويروىٰ [في « المستطرف » ١/ ٣٥٠] : أَنَّ رجلاً مِن الأَنصارِ جاءَ إِلىٰ عبيدِ اللهِ بنِ عبَّاسٍ ـ رضيَ اللهُ عنهُما ـ فقالَ لهُ : يا ٱبنَ عمِّ الرسولِ ، وُلِدَ لي في هـٰذه الليلةِ مولودٌ ، سمَّيتُهُ بٱسمِكَ تيمُّناً بكَ ، وإِنَّ أُمَّهُ ماتَتْ ، فقالَ لَهُ : باركَ اللهُ لكَ في الهبةِ ، وآجرَكَ في المصيبةِ ، ثمَّ دَعا بوكيلِهِ وقالَ لَهُ : ٱنطلِقِ الساعةَ فٱشترِ للمولودِ جاريَةً تحضنُهُ ، وٱدفعْ لأَبيهِ مِئتَي دينارٍ ليُنفِقَها علىٰ تربيتِهِ ، وقالَ للأَنصاريِّ : عُدْ إِلينا بعد أَيَّامٍ ، فقد جِئتَنا وفي العيشِ يَبَسٌ ، وفي المالِ قلَّةٌ ، فقالَ الأَنصاريُّ : جُعِلْتُ فِداكَ ، أَما واللهِ لَو سبقْتَ حاتِماً بيومٍ . . لَمَا ذكرتهُ العربُ .

وكَم مِن كريمٍ ينحرُ البُدْنَ النضارَ[1] لِمَنِ ٱستجداهُ ، غير أَنَّ

(١) المعنىٰ : كَم مِن كريمٍ يُعطي ٱلخيرَ ٱلكثيرَ ، ويذبَحُ الشِّياهَ وٱلبُدنَ لِمَن يأْتيهِ =

الوُجدَ يُعدي علىٰ الجودِ ، وكانَ حاتِمٌ يُعطي المجهودَ ، وقد قالَ جلَّ شأنُهُ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ ﴾ [التوبة : ٧٩] . وفي الحديثِ : « دِرْهَمٌ سَبَقَ أَلْفَ دِرْهَمٍ »(١) .

وممَّا يروىٰ عن أَبي ذرٍّ مرفوعاً : « إِنَّ أَفْضَلَ ٱلصَّدَقَةِ جُهْدٌ مِنْ مُقِلٍّ ، يَمْشِيْ بِهِ إِلَىٰ فَقِيْرٍ »(٢) .

صُوَرٌ من أخبار الكرماء

ووقفَ أَعرابيٌّ علىٰ محمَّدِ بنِ معْمَرٍ ، وكانَ سخيّاً ، فسأَلَهُ ، فنزعَ لَهُ خاتَمَهُ ، وقالَ : لا تُخدَعْ عن فَصِّهِ ؛ فقد قامَ بمئَةِ دينارٍ ، فقلعَهُ وقالَ : دونكَهُ ، فإِن الفضَّةَ تَكفيني لحاجَتي ، فقالَ ٱبنُ مَعْمَرٍ : هٰذا أَكرمُ منِّي .

وسُئِلَ حاتِمٌ وقيلَ لَهُ : هلْ غلبَكَ أَحدٌ في الكرمِ ؟ قالَ : لا ، إِلاَّ غلامٌ يتيمٌ نزلْتُ بفنائِهِ ، فذبحَ لي رأْسَ غنَمٍ ، وكانَ لا يملِكُ إِلاَّ عَشَرَةً ، فلمَّا رآني ٱستطيَبْتُ دِماغَهُ . . ذَبَحَها بأَسْرِها ، وقدَّمَ إِليَّ أَدْمِغَتَها ، ولمَّا عاتَبْتُهُ . . قالَ : سبحانَ اللهِ! تستطيبُ شيئاً أَقدِرُ عليهِ فأَبخَلُ بهِ ، إِنَّ ذلكَ لسبَّةٌ . قيلَ لَهُ : فَما الذي عوَّضْتَهُ ؟ قالَ : ثلاث

= طالِباً ، ولَكنْ مَعَ هذا لا يسلَمُ لَهُ ٱلجود ؛ لأَنَّهُ ليسَ عينُ ٱلكرمِ أَنْ تدفعَ وأَنتَ غنيٌّ ، بلِ ٱلكرَمُ - كُلُّ ٱلكرَمِ - أَنْ تدفعَ وأَنتَ لا تملِكُ إِلاَّ ٱلنَّزْرَ ٱليَسيرَ ، ولأَنَّ ٱلسَّعَةَ وٱلخيرَ مِن شأْنِهِ أَنْ يجعَلَ - في بعضِ الأَحيانِ - مِنَ البخيلِ كَريماً .

(١) أخرج نحوه عن أبي هريرة رضي الله عنه النسائي (٥/٥٩) في الزكاة ، وابن خزيمة (٢٤٤٣) ، وابن حبان في « الإحسان » (٣٣٤٧) بلفظ : « سبق درهمٌ مئةَ ألفِ درهمٍ . . . » بإسناد صحيح من طريقين .

(٢) أخرجه بنحوه الإمام أحمد في « مسنده » (٥/١٧٨ و١٧٩) وفيه : « جهد من مقل أو سرٌّ إلى فقير » وإسنادهما ضعيف .

مئةِ ناقةٍ ، وخمسَ مئةِ رأسٍ مِنَ الغنَمِ ، فقيلَ لَهُ : أَنْتَ أَكرمُ منهُ إذاً ، قالَ : هيهاتَ! جادَ بكلِّ ما يملِكُ ، ولَم أَجُدْ إلاَّ بقليلٍ مِن كثيرٍ . غيرَ أَنَّه لا يُسَلَّمُ الكرَمُ لِلْغلامِ إلاَّ إنْ فعلَ ذلكَ معَ عدَمِ المعرفةِ بحاتِمٍ ، وإلاَّ كانَ فعلُهُ متاجرَةً .

وقالَ الناظِمُ [في «العُكبَريِّ» ٤/ ٢٨٤ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلِلنَّفْسِ أَخْلاَقٌ تَدُلُّ عَلَىٰ ٱلْفَتَىٰ   أَكَانَ سَخَاءً مَا أَتَىٰ أَمْ تَسَاخِيَا

ويُروىٰ [كما في «الأغاني» ٢/ ١٦٠] : **أَنَّ الحُطيئَةَ ٱنحدرَ علىٰ عتيبةَ بنِ** حبيبي!! فات الأوان النهَّاسِ العجليِّ ـ وكانَ مُثْرِياً من وجوهِ بكرِ بنِ وائلٍ ـ فدخلَ عليهِ الحُطيئَةُ في عباءَةٍ ، وقالَ : أَعطِني ، فٱعتذَرَ بكثرَةِ الحقوقِ ، ولَم يعرفْهُ ، ولَمَّا خرَجَ . . قالَ لَهُ بعضُ أَصحابِهِ : لقد عرَّضْتَنا للشرِّ بِجَفَائِكَ لِلْحُطَيئَةِ ، فقالَ : أَهُوَ هُوَ ؟ قالوا : نعَم ، فردَّهُ وٱعتذَرَ إليهِ ، وقالَ لهُ : ليسَ عِندَنا إلاَّ ما يسرُّكَ ، فأَنتَ أَشعرُ العرَبِ ، قالَ : كلاَّ ، ولـٰكِنَّ أَشعرَهم الذي يقولُ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَنْ يَجْعَلِ ٱلْمَعْرُوفَ مِنْ دُوْنِ عِرْضِهِ   يَفِـرْهُ وَمَـنْ لاَ يَتَّـقِ ٱلشَّتْـمَ يُشْتَـمِ

فقالَ عتيبةُ : أَمَا إنَّها لأَولُ أَفاعيكَ[1] ، ثمَّ أَكرمهُ ، وقالَ لهُ : ٱشترِ ما شِئْتَ وعليَّ ثمنُهُ ، وبعثَ معَهُ خادمَهُ ، فٱشترىٰ ما أَرادَ مِنَ السُّوقِ ثمَّ قالَ [مِنَ الطَّويلِ] :

سُئِلْتَ فَلَمْ تَبْخَلْ وَلَمْ تُعْطِ نَائِلاً   فَسِيَّانِ ، لاَ ذَمٌّ عَلَيْكَ وَلاَ حَمْدُ
وَأَنْتَ ٱمْرُؤٌ مَا ٱلْجُوْدُ مِنْكَ سَجِيَّةٌ   وَلَـٰكِنَّهُ يُعْدِي عَلَى ٱلنَّائِلِ ٱلْوُجْدُ

---

(١) أي : حيلك .

فأَخذَهُ أَبو بكرِ الخوارزمِيُّ وقالَ في الصاحب بنِ عبَّادٍ [في « ديوانِهِ » ٤٠٩ـ٤١٠ مِنَ البسيطِ] :

لاَ تَحْسَبَنَّ ٱبْنَ عَبَّادٍ وَإِنْ هَطَلَتْ كَفَّاهُ بِالْجُوْدِ سَحّاً يُشْبِهُ ٱلدِّيَمَا
فَـإِنَّهَـا خَطَـرَاتٌ مِـنْ وَسَـاوِسِـهِ يُعْطِيْ وَيَمْنَعُ لاَ بُخْلاً وَلاَ كَرَمَا

فأَمهلَهُ الصاحبُ حتَّىٰ مات . . فقالَ [في « ديوانِهِ » ٢٨٥ مِنَ الطَّويلِ] :

أَقُوْلُ لِرَكْبٍ مِنْ خُرَاسَانَ مُقْبِلٍ أَمَاتَ خَوَارِزْمِيُّكُمْ ؟ قِيْلَ لِيْ : نَعَمْ
فَقُلْتُ : ٱكْتُبُوْا بِالْجِصِّ مِنْ فَوْقِ قَبْرِهِ أَلاَ لَعَنَ ٱلرَّحْمٰنُ مَنْ يَكْفُرُ ٱلنِّعَمْ

وكانَ ٱبنُ العميدِ وَصلَ الناظمَ عِندَما وردَ عليهِ بثلاثةِ آلافِ دينارٍ ، وثلاثةِ أَفراسٍ مُسرَجَةٍ محلاَّةٍ ، وثيابٍ فاخرَةٍ ، ودَسَّ مَن يسأَلُهُ عَنْهُ وعَن سيفِ الدولةِ ، فقالَ : هٰذا أَجزَلُ عطاءً إِلاَّ أَنَّهُ متكلِّفٌ ، وسيفُ الدولةِ يُعْطِي طبعاً ، فٱحتقدَها عليهِ ، وسعىٰ في قتلِهِ .

وبعدَ هٰذا كلِّهِ فَلا إِسرافَ في مَضْرِبِ المثَلِ بجودِ حاتِمٍ .

بعض عجائب حاتم

وقد قيلَ لماويَّةَ [كما في « الأغاني » ١٧/ ٣٩٠] : حدِّثينا ببعضِ عجائِبِ حاتِمٍ ، فقالَتْ : أَعجبُ ما رأَيتُ منهُ أَنَّها أَصابَتِ النَّاسَ سَنَةٌ ، أَذهبَتِ ٱلخُفَّ وٱلحافِرَ ، وأَخذَني وإِيَّاهُ ٱلجوعُ ، وعَلَّلْنا ٱلعيالَ حتَّىٰ ناموا علىٰ ما بِهِم ، فَبَينا نحنُ كذلكَ . . إِذا بٱمرأَةٍ تقولُ : يا أَبا عديٍّ . . جِئتُكَ عَن صِبيَةٍ يَتَعاوَوْنَ مِثلَ ٱلكلابِ جوعاً ، فقالَ لَها : أَحضِريهِم ، فرفعْتُ إِليهِ رَأْسي ، وقلتُ لَهُ : مِن أَينَ لكَ إِشبَاعُهُم ، وما نامَ أَولادُكَ إِلاَّ بالتَّعليلِ ؟! فلمَّا جاءَتِ ٱلمرأَةُ بأَولادِها . . عَمَدَ إِلىٰ فرسِهِ فذَبَحها ، ثمَّ نبَّهَ أَولادَهُ ، وسارَ في ٱلحيِّ بيتاً بيتاً

يدعوهُم ، وتقنَّعَ بكسائِهِ ، وجلسَ ناحيةً ، فوٱللهِ ما أَصبحوا وعلىٰ ظَهْرِ ٱلأَرضِ غيرُ ٱلعِظامِ ، ولا وٱللهِ ما ذاقَ شيئاً مِنها ، وإِنَّهُ لأَشدُّهم جوعاً .

الشهامة والجود العربي

ونظيرُ هـٰذهِ ٱلقصَّةِ : ما أَخبرني بهِ السَّيِّدُ عبدُ ٱللهِ بنُ عبدِ الرَّحمـٰنِ بنِ طاهرٍ : أَنَّ إِسماعيلَ باشا ـ خَدِيْوِيَّ (مِصرَ) ـ سمعَ بفَرسٍ معَ بعضِ ٱلعَربِ بـ(نجدٍ) ، وكانَ محبّاً للخيلِ ، فأَرسلَ وفداً لِشرائِها بِما بلغَتْ ، فنزَلَ وفدُهُ علىٰ ضيافَةِ ٱلعربيِّ صاحبِ ٱلفرسِ ، ورأَوا مِنَ اللَّباقَةِ أَنْ لا يفاتِحوهُ بشأْنِها إِلاَّ بعدَ ٱلاستئناسِ ، فأَمهلوهُ حتَّىٰ اللَّيلِ ، فسأَلوهُ عنها ؟ وأَخبروهُ بأَنَّ مجيئَهُم مِن أَجلِها ، ومَنَّوهُ فيها ما شاءَ ، فقالَ لَهُم : إِنَّها غيرُ موجودَةٍ ، فقالوا : لقد سأَلْنا عنها بعضَ عبيدِكُمْ ساعَةَ ما وصلنا ، فأَرونا إِيَّاها ، فَلا تُخْفِها عنَّا ، وسَلْ ما تُريدُ ، فلمَّا أَلحُّوا عليهِ . . أَخبرَهُم بأَنَّهُ لَم يَجِدْ ما يذْبَحُهُ لَهُم غيرَها ، وأَنَّهُ ذبَحَها لَهُم ، فَدَفعوا لَهُ كميَّةً وافرَةً مِنَ الدَّنانيرِ ، وأَكبَروا صنيعَهُ وعروبيَّتَهُ ، ثمَّ عادوا أَدراجَهُم ، فصادَفوا ٱلخديويَّ قد خرجَ لاستقبالِهِم إِلىٰ (ٱلإسكندريَّةِ) ، مِن حرصِهِ علىٰ ٱلفرَسِ ، ولمَّا بقَروا لَهُ ٱلحديثَ . . ٱرتاحَ مِن جهَةٍ ، بقدرِ ما ٱستاءَ مِنَ ٱلأُخرىٰ ، وٱستقلَّ ما دَفَعوا لَهُ ، وأَضعَفَهُ لَهُ .

هل يذبح الحطيئة ابنه للضيفان؟!

وما رأَيتُ في ٱلجودِ أَحسنَ ممَّا نظمَهُ ٱلحُطيئَةُ في قولِهِ [كما في « ديوانهِ » ٢٧١ـ٢٧٢ مِنَ الطَّويلِ] :

وَطَاوِيْ ثَلاَثٍ عَاصِبِ ٱلْبَطْنِ مُرْمِلٍ ... بِبَيْدَاءَ لَمْ يَعْرِفْ بِهَا نَاظِرٌ رَسْمَا(١)

(١) الطاوي : الجائعُ . عاصبُ البطن : يشدُّ العصائبَ على بطنهِ تسكيناً للجوعِ . مرملٌ : الذي نفدَ زادهُ .

وَأَفْرَدَ فِيْ شِعْبٍ عَجُوزاً حِيَالَهَا ثَلاَثَةُ أَفْرَاخٍ تَخَالُهُمُ بُهْمَا[1]
حُفَاةً عُرَاةً مَا اغْتَذَوْا خُبْزَ مَلَّةٍ وَلاَ عَرَفُوْا لِلْبُرِّ مُذْ خُلِقُوْا طَعْمَا[2]
رَأَىٰ شَبَحاً وَسْطَ الظَّلاَمِ فَهَالَهُ فَلَمَّا بَدَا ضَيْفاً تَشَمَّرَ وَاهْتَمَّا
وَقَالَ : هَيَا رَبَّاهُ ضَيْفٌ وَلاَ قِرَىٰ بِحَقِّكَ لاَ تَحْرِمْهُ تَاللَّيْلَةَ اللَّحْمَا
فَقَالَ ابْنُهُ لَمَّا رَآهُ بِحَيْرَةٍ : أَيَا أَبَتِ اذْبَحْنِيْ وَيَسِّرْ لَهُمْ طُعْمَا
وَلاَ تَعْتَذِرْ بِالْعُدْمِ عَلَّ الَّذِيْ طَرَا يَظُنُّ لَنَا مَالاً فَيُوْسِعُنَا شَتْمَا[3]
فَرَوَّىٰ قَلِيْلاً ثُمَّ أَحْجَمَ بُرْهَةً وَإِنْ هُوَ لَمْ يَذْبَحْ فَتَاهُ فَقَدْ هَمَّا
فَبَيْنَا هُمَا عَنَّتْ عَلَىٰ الْبُعْدِ عَانَةٌ قَدِ انْتَظَمَتْ مِنْ خَلْفِ مِسْحَلِهَا نَظْمَا[4]
عِطَاشاً تُرِيْدُ الْمَاءَ فَانْسَابَ نَحْوَهَا عَلَىٰ أَنَّهُ مِنْهَا إِلَىٰ دَمِهَا أَظْمَا
فَلَبَّثَ حَتَّىٰ يَرْتَوِيْنَ عِطَاشُهَا وَفَوَّقَ فِيْهَا مِنْ كِنَانَتِهِ سَهْمَا[5]
فَخَرَّتْ نُحُوْصٌ ذَاتُ جُحْشٍ سَمِيْنَةٌ قَدِ اكْتَنَزَتْ لَحْماً وَقَدْ طَبَّقَتْ شَحْمَا[6]
فَيَا بِشْرَهُ إِذْ قَدْ جَرَىٰ نَحْوَ قَوْمِهِ وَيَا بِشْرَهُمْ لَمَّا رَأَوْا كَلْمَهَا يَدْمَىٰ
فَبَاتُوْا كِرَاماً قَدْ قَضَوْا حَقَّ ضَيْفِهِمْ وَمَا غَرِمُوْا غُرْماً وَقَدْ غَنِمُوْا غُنْمَا
وَبَاتَ أَبُوْهُمْ مِنْ بَشَاشَتِهِ أَباً لِضَيْفِهِمُ وَالأُمُّ مِنْ بِشْرِهَا أُمَّا

---

(١) البُهم ـ جمعُ بهمةٍ ـ : وهوَ ولدُ الضأنِ .
(٢) الملَّةُ : الرمادُ الحارُّ والجمرُ .
(٣) طرا : جاءَ طارئاً .
(٤) العانةُ : قطيعُ الأُتُنِ . المِسْحَلُ : حمارُ الوحشِ .
(٥) لبَّث : انتظر ، والرواية في « الديوان » : (فَأَمْهَلَهَا) بدل : (فَلَبَّثَ) .
(٦) النحوصُ : الأتانُ السمينةُ الفتيَّةُ . طبَّقت : امتلأتْ .

ويُحكىٰ [في «المستطرف» ١/٣٦٦] : أنَّهُ تمارىٰ ثلاثةُ نفرٍ في عبدِ ٱللهِ بنِ جعفرٍ ، وقيسِ بنِ سعدِ بنِ عُبادَةَ ، وعَرَابَةَ ٱلأَوسيِّ ، ثمَّ قَضَوا لعَرابَةَ بعدَ التَّجربةِ ؛ وذلكَ أنَّ صاحبَهُ وجدَهُ خرجَ مِن منزلِهِ يريدُ الصَّلاةَ ، ومعهُ عبدانِ ، فقالَ : ٱبنُ سبيلٍ منقطعٌ بهِ ، فصفَّقَ بيديهِ ، وقالَ : أَوَّاهُ أَوَّاهُ ، ما أَصبحَ ولا أَمسىٰ اللَّيلةَ عندَ عَرَابةَ شيءٌ ، ولَمْ تترُكْ لَهُ ٱلحقوقُ غيرَ هَـٰذينِ العبدَينِ ، فخذْهُما ، فقالَ الرَّجلُ : وٱللهِ ما كنتُ بالَّذي يقصُّكَ جناحَيكَ ، فقالَ : إنْ أَخذْتَهما . . وإلاَّ فهُما حُرَّانِ لوجْهِ ٱللهِ تعالىٰ ، فخُذ إن شئْتَ ، أو أَعتِقْ ، فأَخذَهُما ـ كما هوَ في حِفْظي مِن قديمٍ عَنْ «مجمَعِ الأحبابِ»[1] ـ والصَّحيحُ أنَّ عَرَابَةَ لا يُداني عبدَ ٱللهِ بنَ جعفرٍ ، ولا يَسعىٰ بقدمِهِ ، ولا يَمتحُ بغربهِ[2] ، :وما شهرَةُ إلاَّ قولُ الشَّمَّاخِ فيهِ [كما في «ديوانه» ٣٣٥ـ٣٣٦ مِنَ الوافرِ] :

ايهم اشد كرماً عبد الله بن جعفر، أم قيس بن سعد بن عبادة، أم عرابة الأوسي؟

رَأَيْتُ عَـرَابَـةَ ٱلأَوْسِـيَّ يَسْمُـوْ ... إِلَىٰ ٱلْخَيْرَاتِ مُنْقَطِعَ ٱلْقَرِيْنِ
إِذا مَـا رَايَـةٌ رُفِعَـتْ لِمَجْـدٍ ... تَلَقَّـاهَـا عَـرَابَـةُ بِـٱلْيَمِيْـنِ

وغايةُ ما أَثابهُ علىٰ ذلكَ وَسْقَ بعيرٍ تمراً ، في عامٍ شديدٍ ، فصارَ هـٰذا الشِّعرُ مثلاً سائِراً ، وأَثراً باقياً ، لا تبلىٰ جِدَّتُهُ ، ولا تتغيَّرُ

---

(١) «مجمع الأحباب وتذكرة أولي الألباب» للشريف السيد محمد بن الحسن الواسطي (٧٧٦هـ) : هو كتاب أختصر فيه مصنفه «حلية الأولياء» ، وسلك في إختصاره مسلكاً وسطاً ، مع زيادة تراجم أئمة من «صفوة الصفوة» ، وكذلك تراجم رجال زاهدين ، وكذلك أرَّخ وترجم للدولتين (النورية والصلاحية) . وهو من منشورات دار المنهاج .

(٢) يمتحُ بغربه : ينزع بدلوه الكبيرة ، وفي الحديث عن رؤياه ﷺ لعمر : «ثم استحالت في يده غَرباً ، فلم أرَ عبقرياً يَفْري فريَّه» .

محاسِنُهُ ، وقدَحَ في مروءَةِ ٱلشَّمَّاخِ ، وحطَّ في قدرِهِ ؛ لسقوطِ هِمَّتِهِ عن درجَةِ مثلِهِ ، وتبذُّلِهِ معَ صحبتِهِ لرسولِ ٱللهِ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ ، حتَّىٰ قالَ ٱبنُ دأبٍ [كما في « الأغاني » ٩/١٩٦] : عجباً للشَّمَّاخِ يمدحُ عَرَابةَ بهـٰذا الشِّعرِ ، وبقولِهِ في القصيدَةِ ٱلأُخرىٰ [كما في « ديوانه » ٢٥٦ـ٢٥٧ مِنَ البسيطِ] :

أَشْكُـوْ إِلَيْـكَ عَـرَابُ ٱلْيَـوْمَ خَلَّتَنَـا   يَا ذَا ٱلْعَلَاءِ وَيَا ذَا ٱلسُّؤْدَدِ ٱلْبَاقِي(1)
أَنْتَ ٱلأَمِيْرُ ٱلَّذِيْ تَحْنُوْ ٱلرُّؤُوْسُ لَهُ   قَمَـاقِـمُ ٱلْقَـوْمِ مِـنْ بَـرٍّ وَآفَـاقِ(2)
مِنْ بَيْتِ مَأْثَرَتَيْ عِزٍّ وَمَكْرُمَةٍ   سَبَّاقُ غَايَاتِ مَجْدٍ وَٱبْنُ سَبَّاقِ
ضَخْـمُ ٱلـدَّسِيْعَـةِ مِتْـلَافٌ أَخُـو ثِقَـةٍ   جَزْلُ ٱلْمَوَاهِبِ ذُوْ قِيْلٍ وَمِصْدَاقِ(3)

ويقولُ لعبدِ اللهِ بنِ جعفرٍ [في « الأغاني » ٩/١٩٦] :

إِنَّكَ يَا ٱبْنَ جَعْفَرٍ نِعْمَ ٱلْفَتَىٰ   وَنِعْـمَ مَـأْوَىٰ طَـارِقٍ إِذَا أَتَـىٰ
وَجَارُ ضَيْفٍ طَرَقَ ٱلْحَيَّ سُرَىٰ   صَادَفَ زَاداً وَحَدِيْثاً مَا ٱشْتَهَىٰ
إِنَّ ٱلْحَـدِيْـثَ طَـرَفٌ مِـنَ ٱلْقِـرَىٰ

لَعبدُ اللهِ بنُ جعفرٍ كانَ أَحقَّ بذلكَ الشعرِ الجزْلِ مِن عَرابَةَ ، ثمَّ ذكرتُ أَنْ قد أَسلفتُ بعضَ هـٰذا في المجلسِ الثالثِ عندَ الكلامِ علىٰ قولِهِ [« العُكبَريّ » ١/٣١٠ مِنَ المنسرحِ] :

قَدْ أَجْمَعَتْ هـٰذِهِ ٱلْخَلِيْقَةُ لِيْ   أَنَّـكَ يَـا ٱبْـنَ ٱلنَّبِـيِّ أَوْحَـدُهَـا

وأَنَّهُ سيُعادُ بعضُهُ قبيلَ الخاتِمَةِ ، فَلا مؤَاخَذَةَ .

---

(1) الخَلَّةُ : الحاجة والفقرُ .
(2) القماقمُ : هو السيِّدُ الكثير الخير الواسعُ الفضلِ .
(3) ضخمُ الدسيعةِ : أي عظيمُ العطيَّةِ . القِيلُ : الوعدُ بالخيرِ .

وقالَ ٱبنُ عبدِ البَرِّ في « الاستيعَابِ » [٢/٢٦٧] : يقولونَ : إِنَّ أَجوادَ العربِ في الإِسلامِ عَشَرَةٌ : أجواد العرب في الإسلام عشرة:

فأَجوادُ أَهلِ (الحجازِ) : عبدُ اللهِ بنُ جعفرٍ ، وعُبيدُ اللهِ بنُ عبَّاسٍ ، وسعيدُ بنُ العاصِ .

وأَجوادُ أَهْلِ (الكوفةِ) : عتَّابُ بنُ وَرْقاءَ الرياحيُّ ، وأَسماءُ بنُ خارجَةَ بنِ حصنٍ الفزاريُّ ، وعكرمَةُ بنُ ربعيٍّ الفيَّاضُ أَحدُ بني تيمِ اللهِ بنِ ثعلبَةَ .

وأَجوادُ أَهلِ (البَصرَةِ) : عمرُ بنُ عُبيدِ اللهِ بنِ معمَرٍ ، وطلحةُ بنُ عبدِ اللهِ ابنِ خلَفٍ الخزاعيُّ - المُلقَّبُ بِطَلْحةِ الطَلَحَاتِ - وعُبيدُ اللهِ ٱبنُ أَبي بكرَةَ .

وأَجوادُ أَهلِ (الشامِ) : خالدُ بنُ عُبيدِ اللهِ بنِ خالدِ بنِ أَسدِ ٱبنِ أَبي العاصِ بنِ أُميَّةَ بنِ عبدِ شمسٍ ، ولَيْسَ في هٰؤلاءِ كلِّهم أَجودُ مِن عبدِ اللهِ بنِ جعفرٍ ، ولَمْ يكنْ مسلمٌ يبلغُ مبلغَهُ فِي الجودِ . ٱنتهىٰ كلامُ « الاستيعابِ » بمعناهُ وأَكثرِ لفظِهِ . فترىٰ أَنَّهُ لَمْ يذكُرْ عَرابَةَ بجانبِهِ أَصلاً ، فضلاً عَن أَنْ يقايِسَهُ بِهِ ، أَوْ يفضِّلَهُ عليهِ .

ولَولا أَنَّني أَحفظُ القصَّةَ التي ذكرتُها قبلُ ، مِن سابقِ قراءَتي علىٰ والدِي يرحمُهُ اللهُ في « مجمعِ الأَحبابِ » . . لمَا ٱلتفتُّ إِليها ، وَلا أَلْقَيتُ بالاً لَها .

وقالَ أَبو العيناءِ [كما في « المستطرف » ١/ ٣٥٤] : تَذاكروا السخاءَ ، فٱتفقوا علىٰ آلِ المهلَّبِ في الدولَةِ المروانيَّةِ ، وعلىٰ البرامِكَةِ في الدولَةِ العبَّاسيَّةِ ، ثمَّ ٱتَّفقوا علىٰ أَنَّ أَحمدَ بنَ أَبي دُؤَادٍ أَسخىٰ مِنهم أَجمعيْنَ . لكل دولة كرماؤها

وفي الأَوَّلِينَ يقولُ الشاعِرُ [كما في «المثل السائر» ٢/١٦٦ مِنَ الطَّويلِ] :

نَـزَلْـتُ عَلَـىٰ آلِ ٱلْمُهَلَّـبِ شَـاتِيـاً غَرِيْباً عَنِ ٱلأَوْطَانِ فِيْ زَمَنِ ٱلْمَحْلِ
فَمَا زَالَ بِيْ إِكْرَامُهُمْ وَٱفْتِقَادُهُمْ وَإِنْعَامُهُمْ حَتَّىٰ حَسِبْتُهُمُ أَهْلِيْ

وفي يحيىٰ بنِ خالدٍ يقولُ ٱلشاعِرُ [كما في «المستطرف» ١/٣٥٤ مِنَ الطَّويلِ] :

سَأَلْتُ ٱلنَّدَىٰ هَلْ أَنْتَ حُرٌّ؟ فَقَالَ: لاَ وَلَـٰكِنَّنِـيْ عَبْـدٌ لِيَحْيَـىٰ بْـنِ خَـالِـدِ
فَقُلْتُ : شِرَاءً ؟ قَالَ : لاَ بَلْ وِرَاثَةً تَـوَارَثَنِـيْ مِـنْ وَالِـدٍ بَعْـدَ وَالِـدِ

وقالَ ٱبنُ مناذرٍ فيهِ وفي بنيهِ ـ وأَجادَ ولا سيَّما في الأَخيرِ ـ [كما في «الأغاني» ١٨/٢٠٨ مِنَ الطَّويلِ] :

أَتَانَا بَنُوْ ٱلأَمْلاَكِ مِنْ أَرْضِ بَرْمَكٍ فَيَا طِيْبَ أَخْبَارٍ وَيَا حُسْنَ مَنْظَرِ
لَهُمْ رِحْلَةٌ فِيْ كُلِّ عَامٍ إِلىٰ ٱلْعِدَا وَأُخْرَىٰ إِلىٰ ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيْقِ ٱلْمُعَطَّرِ
إِذا نَـزَلُـوا بَطْحَـاءَ مَكَّـةَ أَشْـرَقَـتْ بِيَحْيَىٰ وَبِٱلْفَضْلِ بْنِ يَحْيَىٰ وَجَعْفَرِ
فَتُظْلِمُ بَغْدَادٌ وَتَجْلُو لَنَا ٱلدُّجَىٰ بِمَكَّـةَ مَـا حَجُّـوْا ثَـلاَثَـةُ أَقْمُـرِ
فَمَـا خُلِقَـتْ إِلاَّ لِجُـوْدٍ أَكُفُّهُـمْ وَأَقْـدَامُهُـمْ إِلاَّ لأَعْـوَادِ مِنْبَـرِ

ولا يُحصىٰ ما تَجدُ للفريقينِ من أَنواعِ الثناءِ في هـٰذهِ المجموعةِ وفاءً بحقِّ الأَمانَةِ ، وٱعترافاً بالفضْلِ لأَهلِهِ ، وقالَ بعضُهم في ٱبنِ أَبي دُؤَادٍ [أبو تمَّامٍ في «ديوانهِ» مِنَ الطَّويلِ] :

لَقَدْ أَنسَتْ مَسَاوِىءَ كُلِّ دَهْرٍ مَحَاسِنُ أَحْمَدَ ٱبْنِ أَبِيْ دُؤَادِ

بمـاذا يكـون فخـر العرب؟

وصدقَ واللهِ لِسَانُ الدينِ ٱبنُ الخطيبِ في قولِهِ [في «نفح الطيب» ٦/٤٠٢] : لَم تفتخِرِ العَربُ قطُّ بذَهَبٍ يُجمَعُ ، ولا ذُخْرٍ يُرفَع ،

ولا قصرٍ يُبنىٰ ، ولا غَرْسٍ يُجنىٰ ، إِنَّما فخرُها . . عدوٌّ يُغلَبُ ، وثناءٌ يُجلَبُ ، وَجُزُرٌ تُنحَرُ ، وحَديثٌ يُذكَرُ ، وَجُودٌ في الفاقةِ ، وسماحٌ فوقَ الطاقَةِ ، ولَقد ذهبَ الذهَبُ ، وفَنيَ النَّشَبُ ، وتمزَّقَتِ الثِّيابُ ، وهَلَكَتِ الخيلُ العِرابُ ، وكلُّ الذي فوقَ الترابِ ، وبقيَتِ المَحاسِنُ تُروىٰ وتنقلُ ، والأَعراضُ تُجلىٰ وتُصقَلُ ، والأَخبارُ في مكارِمِهِم تطولُ .

صور رائعة من الجود الحضرمي

ومن أَجوادِ متأخري الحضارمَةِ سيِّدُنا الإمامُ حسنُ بنُ صالحٍ البحرُ ، بلغَ من سماحِهِ وإِيثارِهِ ، أَنَّهُ أَعدَّ ضيافَةً لجدي المحسنِ ليلةَ بنائِهِ ببنتِهِ ، ولَمَّا أَطلَّ مِنَ النَّافذَةِ . . رأَىٰ زُمَرَ المكدِّينَ محيطينَ بالدارِ ، فقالَ : ٱفتحوا لَهُم ، وقدِّموا لَهم الطعامَ ، فلم يسعهُم إِلاَّ ٱمتثالُ أَمرِهِ ، ولم يكنْ غيرَ بعيدٍ حتَّىٰ أَقبلَ جدِّي في موكبِهِ ، فٱستأنفوا لهم ضيافةً أُخرىٰ تليقُ بِحِشمتِهِم وكثرتِهم ، وكم لَهُ مِن مثلِ هـٰذا النوعِ .

وسارَ مرَّةً إِلىٰ (تريمَ) ، وٱتَّبعَهُ مَن عَلِمَ بهِ من محبِّيهِ ، وما أَصحابُهُ إِلاَّ أَتباعُ الأَنبياءِ ، مِن ضعفاءِ الخلقِ وفقرائِهِم ، فأَضافَهُ السيِّدُ حسينُ بنُ عبدِ الرحمـٰنِ بنِ سهلٍ غداءً ، وٱستدعىٰ سادةَ (تريمَ) وأَعيانَها لِحُضورِ مجلسِهِ ، فٱستأثَروا بالمنزلِ الذي كانَ فيهِ الحبيبُ حَسَنٌ ، ولم يتَّسعْ لأَحدٍ مِن أَتباعِهِ ؛ إِذْ لَم يكُن إِلاَّ علىٰ عمودَينِ ، وكانَ في بصرِهِ شيءٌ ، فكانَ كلَّ ساعَةٍ يضَعُ يديْهِ علىٰ حاجبَيهِ يتأَمَّلُ في وجوهِ الناسِ ، ليرىٰ أَحداً مِن أَصحابِهِ ، فشعرَ بذلكَ صاحبُ المنزلِ ـ وكانَ العَشاءُ عندَهُ أَيضاً ـ فلمَّا ٱنتهَوا مِنَ الغداءِ . . قالَ لِلْحبيبِ : أَرىٰ أَنْ تَقيلُوا في بيتِ السيِّدِ أَحمدَ الجنيدِ ،

ثمَّ ترجعوا مِنَ العشيِّ ، فقالَ لَهُ : نعم ، ثمَّ لَم يكنْ مِن صاحبِ المنزِلِ وهُوَ السيِّدُ حسينُ بنُ سهلٍ إِلاَّ أنِ ٱستدعىٰ العُمَّالَ ، ورفعَ حاجزاً كانَ بينَ المنزِلِ الذي تغدَّىٰ فيهِ الحبيبُ ومنزِلٍ آخرَ مثلِهِ في السعَةِ ، ولم يمسيا إِلاَّ وَهُما منزلٌ واحدٌ ، يسعُ ستَّةَ أَعمدَةٍ ، فتعشَّىٰ وهُوَ قريرُ العَينِ برؤيَةِ أَتباعِهِ المساكينِ ، مع حِظَةِ أَعيانِ (تريمَ) بمؤَاكلتِهِ ومجالَستِهِ ، فٱستحقَّ ذلكَ الصنيعُ إِعجابَ الخلقِ أَجمعينَ .

وقرأَ مرَّةً قولَهُ تعالىٰ : ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران : ٩٢] فقالَ : لا أُحِبُّ في الدنيا إِلاَّ وَلدي وحِصاني ، ولا سبيلَ إِلىٰ بيعِ الولدِ ، ولـٰكِنْ بِيعوا الحصانَ ، وتصدَّقَ بثمنِهِ في الحالِ .

وكانَ من عادتِهِ أَنْ لا يبيت عندَهُ دينارٌ ولا دِرهمٌ ، بلْ كلُّ ما كان يدخلُ عليهِ مِنَ الفُتوحِ علىٰ ٱتساعِ جاهِهِ ، ينفِقُهُ علىٰ أَهلِهِ ، وفي الأَكبادِ الجائِعَةِ ، والأَجسامِ العارِيَةِ ، وتحمُّلِ المغارِمِ ، وبذلِ المكارِمِ ، فهوَ الأَحقُّ بقولِ زِيادِ الأَعجمِ ـ أَو زينبَ بنتِ الطثريَّةِ ترثي بهِ أَخاها يزيدَ ـ أَو أَبي تمَّامٍ ، فقد وُجدَ في شعرِ كلٍّ منهُم ـ وهُوَ [في « ديوانِ أَبي تمَّامٍ » ٢/ ١٥ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَوْ لَمْ تَكُنْ فِيْ كَفِّهِ غَيْرُ رُوْحِهِ لَجَادَ بِهَا فَلْيَتَّقِ ٱللهَ سَائِلُهْ

وقد أَغارَ عليهِ صاحبُنا ؛ إِذ كانَ كَما قُلنا : يتلقَّفُ كلَّ ما صنعَ المُجيدونَ من أَهلِ الشعرِ ، ولـٰكنَّهُ لم يأتِ إِلاَّ ببيَتٍ ملزقٍ ، هُوَ قولُهُ [في « العُكبَريِّ » ١/ ٢٣٢ مِنَ الكاملِ] :

لاَ خَلْقَ أَكْرَمُ مِنْكَ إِلاَّ عَارِفٌ بِكَ رَاءَ نَفْسَكَ لَمْ يَقُلْ لَكَ هَاتِهَا

وقاربَ في قولِهِ [في العُكبَريّ ٢/ ٥٥ مِنَ الخفيفِ] :

مَا سَمِعْنَا بِمَنْ أَحَبَّ ٱلْعَطَايَا   فَٱشْتَهَىٰ أَنْ يَكُوْنَ فِيْهَا فُؤَادُهْ

وكانَ ـ أعني سيِّدَنا البحْرَ ـ صادِقَ التوكُّلِ علىٰ اللهِ والاعتمادِ عليهِ ، حتَّىٰ إنَّه بما في خزائِنِ ربِّهِ أَوثَقُ منهُ بِما في يدِهِ ، وكلَّما حزَبَهُ أمرٌ . . فَزِعَ إِلىٰ الصلاةِ ، مقتفياً هدْيَهُ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم في ذلكَ[1] ، حتَّىٰ إذا لَمْ يَجِدِ الضَّيفُ شيئاً عندَهُ . . ذهَبَ بعدَ تأهيلِهِ يصلي ، فيُفتَحُ لَهُ بوافِرِ الكرامَةِ .

ولقد أَرَادَ بعضُ السادَةِ آلِ الحبشيِّ ٱمتحانَهُ ، فقالوا لوكيلِهِ : متىٰ علمْتَ فراغَ جيبِهِ ، ونفادَ ما في بيتِهِ . . فأَخبرْنا ، فظَنَّ بهِم أَنَّهم لم يقولوا ذلكَ إلاَّ ليتشرَّفوا بإِعانَتِهِ علىٰ فِعْلِ المعروفِ ، فأَخبرَهُم ، فجاؤُوا بقضِّهِم وقضيضِهِم ، وخيلِهم ورَجِلِهم[2] ، عندَما وجبَتْ صلاةُ المغربِ ، ذلكَ الوقتُ الذي لاَ يتفرَّغُ فيهِ لغيرِ مولاهُ ، فقابَلَهُم بِما جُبِلَ عليهِ مِنَ البَشاشَةِ ، وبعقبِ الصلاةِ ٱستأْذَنَهُم وفزِعَ إِلىٰ وردِهِ ، يستفتِحُ به أبوابَ القِرىٰ مِن فائِضِ الجودِ ، فَما كانَ بأَسرعَ مِنْ أَنْ جَاءَ خادِمُهُ يقولُ لهُ : أَهدىٰ إِليكَ آلُ فلانٍ كبشاً ، فقالَ لَهُ : أَصلحوهُ ، ثمَّ جاءَهُ واحدٌ مِن جيرانِهِ وقالَ : إِنَّ عِندي آصُعاً مِنَ

---

(١) لما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند مسلم (٢٧٣٠) : أن النبي ﷺ كان إذا حزبه أمرٌ . . قال : « لا إله إلا الله رب العرش الكريم » . حزبه أمرٌ : نزل به أمر مهمٌّ أو أصابه غمٌّ .

وأورده عن حذيفة ، الهنديُّ في « كنز العمال » (٨٠٠١) بلفظه المراد وهو : (كان ﷺ إذا حزبه أمر . . صلَّىٰ) وعزاه إلىٰ أحمد وأبي داوود .

(٢) رَجِلهم : مشاتهم .

البُرِّ ، إنْ كانَتْ لَكَ في شرائِها حاجَةٌ . . وإلاَّ بعتُها لغيرِكَ ، فقالَ : وأيُّ الحاجةِ ؟! هاتِها ، وفرِّقوها علىٰ أبياتٍ من أَهلِ قريَتِنا يُوافونا بِها مخبوزَةً مَعَ العِشَاءِ ، وما كادَ يفرَغُ مِن حزبِهِ . . حتَّىٰ حلَّتِ العِشَاءُ ، فصلَّىٰ بهِم ، ثمَّ أخذَ في مُؤانَستِهِم إلىٰ أنْ حَضَر ذلكَ الطَّعامُ ، فتولَّىٰ بنفسِهِ قسمَةَ ٱللَّحمِ بينَهُم ـ كَما هِيَ العادةُ عِندَنا ـ فبارَكَ اللهُ فيهِ حتَّىٰ كفَاهُم أَجمعينَ .

وعُشَّاقُ ٱلخُرافاتِ يكذبونَ في روايَةِ هـٰذهِ ٱلقصَّةِ ، ويدَّعونَ أنَّهُ أَخرجَ الطعامَ بعْدَ صلاةِ العشاءِ مِن مَخْدَعِهِ ، وأنَّهُ جاءَ بهِ من مطبخِ الإمامِ الجيلانيِّ بـ(بغدادَ) ، والواقعُ إنَّما هُوَ ما ذكرناهُ ، وإذ قد ذكرنا ٱبنَ سَهلٍ فهُوَ مِن أَجوادِ الحضارِمَةِ المُتأخِّرينَ ـ أيضاً ـ والمجلسُ أَضيَقُ مَنْ أنْ يتَّسِعَ لذِكْرِ مكارِمِهِ ؛ فإنَّها البحْرُ الذي لا يدرَكُ مَقرُّهُ ، ولا يُبْلَغُ عَبْرُهُ .

ولَقد كانَ العلاَّمَةُ الجليلُ الوالدُ علويُّ بنُ عبدِ الرحمـٰنِ المشهورِ يخِفُّ طَرَباً كلَّما ذَكَرَهُ ، ويتفتَّحُ عَن ثَجِّ بَحْرٍ[1] مُضْطَرِبِ الأَمواجِ مِن أَخبارِ جودِهِ ، وإذ كانَتِ العِبَارَةُ أَضيَقَ مِنَ الإحاطةِ بهِ . . فلا بدَّ مِن واحِدَةٍ يُعرَفُ بِهَا جَنَىٰ تلكَ الشجرَةِ ، أخبرَنا شيخُنا أبو بكرِ ٱبنُ عبدِ الرحمٰنِ بنِ شهابِ الدينِ : أنَّ والدَهُ كانَ مديناً للسيِّدِ حسينٍ ، ثمَّ عزمَ علىٰ تزويجِ ٱبنتينِ لَهُ ، ولم يكُنْ عندَهُ شَيْءٌ ممَّا يجهِّزُهُما بهِ ، فٱضطرَّ مَعَ خجلِهِ مِنَ السيِّدِ حسينٍ أنْ يأتيَ إليهِ بنفائِسِ كتبِهِ ليرهَنَها ، أَو يبيعَها منه ، حتَّىٰ يَخْصِمَ الذي لَهُ ، ويستعينَ هُوَ بالفاضِلِ علىٰ أمرِ

(١) الثجُّ : علوُّ وسطِ البحرِ إذا تلاقَت أمواجهُ .

البنتينِ ، وما كادَ يصلُ عندَهُ حتَّىٰ تلقَّاهُ بالرحْبِ والسعَةِ ، فأَخبرهُ بحاجتِهِ ، فقالَ لَهُ : مقضيَّةٌ ، فَطِبْ نفساً ، وقَرَّ عيناً ، علىٰ شرطِ أَنْ نتَّخِذَ هـٰذا اليومَ عيداً ، وندعوَ مَنْ تأْنَسُ بِهِم مِمَّنْ تَعتادُ مطارَحَتَهم الأَشعارَ ، فأَجابَ إِلىٰ ذلكَ ، وقَضَوا سحابَةَ اليومِ في أَنعمِ بالٍ ، وأَسعدِ حالٍ ، ولمَّا عزَمَ علىٰ الانصرافِ.. قالَ لَهُ : أَمَّا كتبُكَ : فأَنتَ أَحوجُ إِليها منِّي ، وأَمَّا الذي عندَكَ : فقد أَبرأْتُكَ مِنْهُ ، وهـٰذِهِ مئةُ ريالٍ تبلَّغْ بِها لبعضِ ما تريدُ ، فأَثنىٰ عليهِ خيراً ، وٱنصرَفَ مجبورَ الْخاطِرِ ، يستحثُّ خُطا أَتانِهِ ليفضِيَ إِلىٰ أَهلِهِ بالبشارةِ ، وما كادَ يصِلُ دارَهُ إِلاَّ وزوجُهُ يضيءُ وجهُها مِن الفرْحِ ، ويتهلَّلُ جبينُها مِنَ السرورِ ، تفديه بالنفسِ والأَهلِ ، وتقولُ لَهُ : جزاكَ اللهُ خيراً علىٰ ما أَرسلتَ مِنَ الخيراتِ ، التي ما كنتُ أَظنُّ أَنْ يتيسَّرَ لكَ بعضُها ، فضلاً عَن كلِّها ، إِلاَّ بسفرَةٍ طويلةٍ إِلىٰ شيءٍ مِن أَقاصي البلادِ ، قالَ : وما الذي أَرسلْتُهُ ؟! قالتْ : كلَّ ما نحتاجُهُ في جهازِ البنتينِ من ذَهَبٍ وفضَّةٍ في أَحسنِ صياغَةٍ ، ومِنْ ثيابٍ حريريَّةٍ وقطنيَّةٍ في أَجملِ تطريزٍ وخياطَةٍ ، ومِنْ أَثاثٍ ورياشٍ أَكثَرَ مِنَ الحاجَةِ ، ومِنْ أَغنامٍ وطعامٍ فوقَ الكفَايَةِ ، حتَّىٰ ما لا بُدَّ مِنه مِنَ الخَزَفِ كُنْتَ قد تفطَّنْتَ لَهُ ، فٱندهشَ في عقلِهِ ، وٱضطرَبَ في أَمرِه ، وكادَ يشكُّ في نفسِهِ ، وجرىٰ علىٰ قلبِهِ كثيرٌ مِمَّا ذكرناهُ في شرحِ قولِهِ [في « العُكبَريّ » ٤/ ٣٢ مِنَ الكاملِ] :

كَبُـرَ ٱلْعِيَـانُ عَلَـيَّ حَتَّـىٰ إِنَّـهُ ... صَارَ ٱلْعِيَانُ مِنَ ٱلْيَقِيْنِ تَوَهُّمَا[1]

---

(١) في « العكبري » : (صَارَ ٱلْيَقِيْنُ مِنَ ٱلْعِيَانِ تَوَهُّماً) ولعلَّهُ الصوابُ .

ولا حاجةَ للتنبيهِ إلىٰ أنَّ السيِّدَ حُسيناً هُوَ الذي بعث بجميع ذلكَ إلىٰ بيتِ السيِّدِ عبدِ الرحمـٰنِ بدونِ علمِهِ ، وقالَ لأهلِهِ : إنَّهُ مُرْسَلٌ مِنَ السيِّدِ عبدِ الرحمٰنِ ، وإنَّما قُلنا : لا حاجةَ للتنبيهِ علىٰ ذلكَ ؛ لأنَّهُ معلومٌ مِنَ المَقامِ ، وللهِ دَرُّ الناظمِ في قولِهِ [في « العُكبَريّ » ٣/ ١٣٤ مِنَ الخفيفِ] :

ذِيْ ٱلْمَعَالِيْ فَلْيَعْلُوَنْ مَنْ تَعَالَىٰ   هٰـكَــذَا هٰـكَــذَا وَإِلاَّ فَــلاَلاَ

وقولِ الآخرِ [وهو أمية ابن أبي الصلت كما في « طبقات فحول الشعراء » ١/ ٢٦٢ مِنَ البسيطِ] :

هَـٰذِيْ ٱلْمَكَارِمُ لاَ قَعْبَانِ مِنْ لَبَنٍ   شِيْبَـا بِمَـاءٍ فَعَـادَا بَعْـدُ أَبْـوَالاَ
هَـٰذِيْ ٱلْمَكَارِمُ لاَ ثَوْبَانِ مِنْ عَدَنٍ   خِيْطَـا قَمِيْصـاً فَعَـادَا بَعْـدُ أَسمَـالاَ

ولكَمْ فِي الخَلَفِ مِنْ نُسخَةٍ لِلْسَلَفِ ، وفي الزوايا من خبَايا ، وفِي الخزائِنِ من ضنائِنَ ، غير أَنَّ الأَسفَ كلَّ الأَسفِ ، أَنَّ كلَّ من نَظَمَ أَو خطَبَ ، أَو تكلَّمَ أَو كتَبَ ، لم ينصحْ للحقيقةِ ، وإِنَّما يقولُ تنفُّقاً ، ويكتُبُ تملُّقاً ، يَبْتغي مرضاةَ الحسَّادِ بما يبيعُ مِن ذمَّةٍ ، ويُرضيْ عُبَّادَ الخرافاتِ بما يمكُثُ بهِ الفسادُ في الأُمَّةِ ، وما أَفحشَ ذَنْبَ مَن يتقاضىٰ نزراً حقيراً ، ثمَّ يترُكُ وراءَهُ وِزراً كبيراً ، وإِنَّما ٱنتشرَتِ الخرافاتُ ، وخفيَتِ الفضائِلُ ؛ لأَنَّهُ لا يُحسَدُ أَربابُ الأُولىٰ ، بلْ تتوفَّرُ الدواعي علىٰ التوسُّعِ بِها بينَ عشَّاقِ الأَغرابِ مِن صغارِ النُّهَىٰ وسُفَهاءِ الأَحلامِ ، بخلافِ المجدِ الحقِّ ، والفضْلِ الصحيحِ ؛ فإِنَّهُ يُقْذي العيونَ ، ويَحِزُّ في الأَكبادِ ، فتتوفَّرُ الدواعي لهضمِهِ ، ويستجيْشُ الحُسَّادُ لِكَتْمِهِ ، ولهـٰذا كانَتِ الفَضيلَةُ الصادقةُ

أَخفىٰ ما تكونُ عندَ الحضارمَةِ [في « ديوان المؤلف » ق ٨ مِنَ البسيطِ] :

وَلَيْتَ شِعْرِيَ أَقَوْمِيَ بِٱلْخُصُوصِ هَوَوْا إِلَىٰ ٱلْحَضِيْضِ كَذَا، أَمْ كُلُّهَا ٱلْعَرَبُ؟!

الشهامة أن تشهد لعدوك بما هو فيه

لقد زَمِنَتِ المروءَةُ ، وقلَّ الحياءُ ، وفاضَ الكذِبُ ، وغاضَ الصدْقُ ، وٱنقلَبَ المعروفُ منكراً ، والمنكرُ معروفاً ، وتوكَّنَتْ في هشيمِ الصدورِ غربانُ الإحسادِ ، بلا وازعٍ من الدينِ ، ولا رادعٍ مِنَ المروءَةِ ، ولا ننكرُ ما عليهِ العَربُ مِنَ التَّحاسُدِ ، لٰكنْ معَ شهامَةٍ وفَضْلٍ ، وإِنصافٍ وعدْلٍ ، أَعانَ علىٰ ظهورِ الحقائِقِ ناصعةً ، وٱتصالِ الأَخبارِ صافيَةً ، أَلا ترىٰ صدقَ أَبي سفيانَ في صفتِهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ مَعَ كونِهِ أَعدىٰ عدوِّهِ[1]؟!

---

(١) وذلكَ في الحديثِ الَّذي رواهُ ٱلبُخاريُّ (٢٩٤٠) و(٢٩٤١) عن عبدِ ٱللهِ بنِ عبَّاسٍ ـ رضيَ ٱللهُ عنهُما ـ أَنَّهُ أَخبرَهُ : (أَنَّ رسولَ ٱللهِ ﷺ كتبَ إِلىٰ قيصرٍ يدعوهُ إِلىٰ ٱلإِسلامِ ، وبعثَ بكتابهِ إِليهِ معَ دِحيَةَ الكلبيِّ ، وأَمرَهُ رسولُ ٱللهِ ﷺ أَنْ يدفَعَهُ إِلىٰ عَظيمِ (بُصرىٰ) ؛ لِيَدفَعَهُ إِلىٰ قيصرَ ، وكانَ قيصرُ لَمَّا كشفَ ٱللهُ عنهُ جنودَ فارسَ . . مَشىٰ مِن (حمصَ) إِلى (إِيلياءَ) شكراً لِمَا أَبلاهُ ٱللهُ ، فلَمَّا جاءَ قيصَرَ كتابُ رسولِ ٱللهِ ﷺ . . قالَ حينَ قرأَهُ : ٱلتَمسوا لي هاهنا أَحداً مِن قومِهِ ؛ لأَسأَلَهُم عَن رسولِ ٱللهِ ﷺ .

قالَ ٱبنُ عبَّاسٍ فأَخبرني أَبو سفيانَ : أَنَّهُ كانَ بـ(الشَّأْمِ) في رجالٍ مِن قريشٍ قدِموا تِجَاراً في المدَّةِ الَّتي كانَتْ بينَ رسولِ ٱللهِ ﷺ وبينَ كُفَّارِ قريشٍ ، قالَ أَبو سفيانَ : فوجَدَنا رَسولُ قيصرَ ببعضِ (الشَّأْمِ) ، فانطُلِقَ بي وبأَصحابي . . حتَّىٰ قدِمْنا (إِيلياءَ) ، فأُدخلنا عليهِ ، فإِذا هوَ جالسٌ في مجلسِ مُلكِهِ ، وعليهِ التَّاجُ ، وإِذا حولَهُ عُظماءُ الرُّومِ ، فقالَ لتَرجُمانِهِ : سَلهم أَيُّهم أَقربُ نَسباً إِلىٰ هذا الرَّجُلِ الَّذي يزعُمُ أَنَّهُ نبيٌّ . قال أَبو سُفيانَ : فقلتُ : أَنا أَقربُهم إِليهِ نَسباً .

قالَ : ما قرابةُ ما بينَكَ وبينَهُ ؟ فقلتُ : هوَ ٱبنُ عميٍّ ، وليسَ في الرَّكبِ يومئِذٍ أَحدٌ مِن بني عبدِ منافٍ غيري .

فقالَ قيصرُ : أَدنوهُ ، وأَمرَ بأَصحابي فجُعلوا خلفَ ظهري عندَ كتِفِي ، ثُمَّ=

. . . .

= قالَ لترجُمانِهِ : قُل لأصحابِهِ : إنِّي سائِلٌ هذا الرَّجُلَ عَنِ الَّذي يزعُمُ أَنَّهُ نبيٌّ ، فإنْ كَذَبَ . . فكذِّبوهُ .

قالَ أَبو سفيانَ : وآللهِ لولا ٱلحياءُ يومئذٍ مِن أَن يَأْثُرَ عَنِّي أَصحابي ٱلكذِبَ . . لكَذبتُهُ حينَ سألَني عنهُ ، ولكنِّي ٱستحييتُ أَن يأثُروا ٱلكذبَ عنِّي فصَدَقتُهُ .

ثُمَّ قالَ لتَرجُمانِهِ : قُل لهُ : كيفَ نسبُ هذا الرَّجُلِ فيكُم ؟ قلتُ : هوَ فينا ذو نسبٍ .

قالَ : فهَل قالَ هذا ٱلقولَ أَحدٌ منكُم قبلَهُ ؟ قلتُ : لا .

فقالَ : كنتمُ تَتَّهمونَهُ بٱلكذِبِ قبلَ أَن يقولَ ما قالَ ؟ قلتُ : لا .

قالَ : فهَل كانَ مِن آبائِهِ مِنْ مَلِكٍ ؟ قلتُ : لا .

قالَ : فأَشرافُ النَّاسِ يتَّبعونَهُ أَم ضعفاؤُهم ؟ قلتُ : بَل ضعفاؤُهم .

قالَ : فيزيدونَ أَو ينقصونَ ؟ قلتُ : بَل يزيدونَ .

قالَ : فهَل يرتَدُّ أَحدٌ سَخْطَةً لدينِهِ بعدَ أَن يدخُلَ فيهِ ؟ قلتُ : لا .

قالَ : فهَل يغدِرُ ؟ قلت : لا ، ونحن الآن منه في مدةٍ نخاف أن يغدِرَ . قالَ أَبو سفيانَ : ولم يمكنِّي كلمةٌ أُدخِلُ فيها شيئاً أَنتقِصُهُ بهِ ، لاَ أَخافُ أَن تؤثَرَ عَنِّي غيرُها .

قالَ : فهَل قاتلتُموهُ أَو قاتَلَكُم ؟ قلتُ : نَعم .

قالَ : فكيفَ كانَتْ حربُهُ وحربُكُم ؟ قلتُ : كانَت دِوَلاً وسِجالاً ، يُدالُ علينا ٱلمرَّةُ ، وندال عليهِ ٱلأُخرىٰ .

قالَ : فماذا يأْمُرُكُم به ؟ قالَ : يأمُرُنا أَن نعبدَ ٱللهَ وحدَهُ لا نشرِكَ بهِ شيئاً ، ويَنهانا عَمَّا كانَ يعبدُ آباؤُنا ، ويأْمُرُنا بالصَّلاةِ ، والصَّدقَةِ ، وٱلعَفَافِ ، وٱلوفاءِ بٱلعهدِ ، وأَداءِ ٱلأَمانَةِ .

فقالَ لترجُمانِهِ حينَ قلتُ ذلكَ لَهُ : قلْ لهُ : إنِّي سأَلتُكَ عَن نسبِهِ فيكُم ، فزعمتَ أَنَّهُ ذو نسبٍ ، وكذلكَ الرُّسُلُ تُبعَثُ في نَسبِ قومِها .

وسأَلتُكَ هَل قالَ أَحدٌ منكُم هذا ٱلقولَ قبلَهُ ، فزعمتَ أَن لاَ ، فقلتُ : لو=

. . . .

= كانَ أحدٌ منكُم قالَ هذا القولَ قبلَهُ . . قلتُ : رجُلٌ يأتَمُّ بقولٍ قد قيلَ قبلَهُ .

وسألتُكَ هَل كنتُم تتَّهمونَهُ بالكذِبِ قبلَ أن يقولَ ما قالَ ، فزعمتَ أن لا ، فعرفْتُ أنَّهُ لَم يكُن لِيَدَعَ الكذِبَ علىٰ النَّاسِ ، ويكذِبَ علىٰ اللهِ .

وسألتُكَ هَل كانَ من آبائِهِ مِنْ مَلِكٍ ، فزَعَمْتَ أن لا ، فقلتُ : لَو كانَ مِن آبائِهِ مَلِكٌ . . قلتُ : يطلُبُ مُلْكَ آبائِهِ .

وسألتُكَ أشرافُ النَّاسِ يتَّبعونَهُ أَم ضعفاؤُهم ، فزعمتَ أنَّ ضعفاءَهُمُ اتَّبعوهُ ، وهُم أتباعُ الرُّسُلِ .

وسألتُكَ هَل يزيدونَ أو ينقصونَ ، فزعمْتَ أنَّهم يزيدونَ ، وكذلكَ الإيمانُ حتَّىٰ يَتِمَّ .

وسألتُكَ هَل يرتَدُّ أحدٌ سخطةً لدينِهِ بعدَ أن يدخُلَ فيهِ ، فزعمْتَ أن لا ، فكذلكِ الإيمانُ حتَّىٰ تَخلِطَ بشاشتُهُ القلوبَ لا يسخَطُهُ أحدٌ .

وسألتُكَ هَل يغدِرُ ، فزعمْتَ أن لا ، وكذلكَ الرُّسُلُ لا يغدِرونَ .

وسألتُكَ هَل قاتلتُموهُ وقاتَلَكُم ، فزعمْتَ أن قَد فعلَ ، وأنَّ حربَهُ وحربَكُم تكونُ دِوَلاً ، ويُدالُ عليكُمُ المرَّةَ ، وتُدالونَ عليهِ الأُخرىٰ ، وكذلكَ الرُّسُلُ تُبتلىٰ ، وتكون لها العاقبة .

وسألتك بماذا يأمركم ، فزعمتَ أنَّهُ يأمرُكُم أنْ تَعبدوا اللهَ ولا تشركوا بهِ شيئاً ، وينهاكُم عَمَّا كانَ يعبُدُ آباؤُكُم ، ويأمُرُكُم بالصَّلاةِ ، والصِّدقِ ، والعفافِ ، والوفاءِ بالعهدِ ، وأداءِ الأمانَةِ ، قالَ : وهذهِ صِفَةُ النَّبيِّ .

قَد كنتُ أعلَمُ أنَّهُ خارجٌ ، ولكنْ لَمْ أعْلَمْ أنَّهُ مِنكم ، وإنْ يكُ ما قلْتَ حَقّاً . . فيُوشِكُ أن يملُكَ موضِعَ قدميَّ هاتينِ ، ولو أرجو أن أخلُصَ إليهِ . . لتجشَّمتُ لقاءَهُ ، ولو كنتُ عندَهُ . . لغسلْتُ قدمَيهِ .

قالَ أبو سفيانَ : ثُمَّ دعا بكتابِ رسولِ اللهِ ﷺ فقُرِىءَ ، فإذا فيهِ :

« بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيْمِ ، مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللهِ وَرَسُوْلِهِ . . . إِلَىٰ هِرَقْلَ عَظِيْمِ الرُّوْمِ ، سَلَامٌ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ، أَمَّا بَعْدُ :

فَإِنِّي أَدْعُوْكَ بِدِعَايَةِ الإِسْلَامِ ، أَسْلِمْ . . تَسْلَمْ ، وَأَسْلِمْ . . يُؤْتِكَ اللهُ أَجْرَكَ =

صور من ذلك

وجاءَ مِحفنُ ٱبنُ أَبي محفنٍ إلىٰ معاويَةَ ليتملَّقَهُ ، فقالَ لَهُ [في « شرح النهج » ١/٢٢] : مِن أَينَ أَقبلتَ ؟ قالَ : مِنْ عنْدِ أَجبنِ الناسِ ، وأَفْهَهِ الناسِ ، وأَبخَلِ الناسِ ، قالَ : مَن تَعني ؟ قالَ : عليَّ بنَ أَبي طالبٍ ، فقالَ لَهُ : ٱسكتْ ، فَضَّ اللهُ فاكَ ، أَمَّا قولُكَ : إِنَّه أَجبنُ الناسِ ، فواللهِ إِنَّا لنَعُدُّ مَنْ مَاتنَهُ ساعةً ثمَّ ٱنهزَمَ أَشجَعَ الناسِ ، وأَمَّا قولُكَ : إِنَّه أَفْهَهُ الناسِ ، فواللهِ ما سَنَّ الفصاحَةَ لقريشٍ بعدَ رسولِ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ غيرُهُ ، وأَمَّا قولُكَ : إِنَّهُ أَبخلُ الناسِ ، فواللهِ لو كانَ لَهُ بيتٌ مِن تِبْنٍ ، وبيتٌ مِن تِبْرٍ . . لَنفدَ بيتُ تبرِهِ قبلَ أَن ينفدَ بيتُ تبنِهِ .

ويروىٰ : أَنَّ النعمانَ بنَ المنذرِ سأَلَ حاتِماً عَن نفسِهِ وعَن الزبرقانِ بنِ بدرٍ فقالَ : أَمَا واللهِ إِنَّ آلَ حاتِمٍ لا يبلغونَ أَصغَرَ ولدِ الزبرقانِ ، ثمَّ سأَلَ الزبرقانَ عَن حاتِمٍ وعَنْ نفسِهِ ؟ فقالَ : أَمَا واللهِ لو كُنتُ ومالي وآلي لِحاتِمٍ . . لَغرِقْنا في غداةٍ واحدَةٍ في وجوهِ المعروفِ ، أَو ما يقربُ من هـٰذا السياقِ .

= مَرَّتَيْنِ ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ . . فَعَلَيْكَ إِثْمُ ٱلأَرِيسِيِّينَ و ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٦٤] » .

قالَ أَبو سُفيانَ : فلَمَّا أَن قضىٰ مقالَتَهُ . . عَلَتْ أَصواتُ الَّذينَ حولَهُ مِنْ عُظَماءِ الرُّومِ ، وكَثُرَ لَغَطُهم ، فلا أَدري ماذا قالوا ، وأُمِرَ بنا فأُخرِجْنَا ، فلَمَّا أَن خرجْتُ مَعَ أَصحابي ، وخَلَوتُ بِهم . . قلتُ لَهُم : لقَد أَمِرَ ـ [عَظُمَ] ـ أَمْرُ ٱبنِ أَبي كبشَةَ ، هذا مَلِكُ بَني ٱلأَصفرِ يخافُهُ .

قالَ أَبو سُفيانَ : وٱللهِ ما زلتُ ذَليلاً مُستيقناً بِأَنَّ أَمرَهُ سيظهَرُ . . حتَّىٰ أَدخَلَ ٱللهُ قلبيَ ٱلإسلامَ وَأَنا كَارِهٌ) .

وقد أَخذَهُ الكميتُ في قولِهِ لخالدِ بنِ عبدِ اللهِ القسريِّ [في «الأغاني» ١٧/٣٧ مِنَ المنسرحِ] :

لَـوْ أَنَّ كَعْبـاً وَحَـاتِمـاً نُشِـرَا ... كَانَا جَمِيْعاً مِنْ بَعْضِ مَا تَهَبُ

ثمَّ أَلَمَّ بهِ البحتريُّ في قولِهِ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَنْ لَوْ تُرَىٰ فِيْ مُلْكِهِ كُنْتَ نَائِلاً ... لأَوَّلِ عَـافٍ مِـنْ مُـرَجِّيْـهِ مُقْتِـرُ

وربَّما يكونُ موضِعَ الزبرقانِ أَوسُ بنُ حارِثَةَ بنِ لامٍ أَو غيرُهُ مِنَ العربِ.

ويشبهُ ذلكَ قولُ أَوسٍ المذكورِ ، وقدِ ٱنتدبَ هُوَ وحاتِمٌ وزيدُ الخيلِ لخطبَةِ ماويَّةَ ، حينَ ٱشتطَّتْ وٱشترطَتْ أَنْ لا تتزوَّجَ إِلاَّ كَريما ، وآلتْ علىٰ نفسِها أَنْ تجدَعَ أَنفَ مَنْ خطبَها غيرَ كريمٍ ، فتَحاماها الخُطَّابُ ، حتَّىٰ ٱنتدبَ لَها هـٰؤُلاءِ ، فقالَتْ لَهُم - في حديثٍ طويلٍ أَشرنا مرَّةً إِليهِ - : لِيَصِفْ كلُّ واحدٍ مِنكم نفسَهُ في شعرِهِ ، فكانَ في جملَةِ ما قالَهُ أَوسُ بنُ حارِثَةَ - وهُوَ موضِعُ الشاهِدِ - [مِنَ الطَّويلِ] :

فَـإِنْ تَنْكِحِيْ زَيْـداً فَفَـارِسُ قَـوْمِـهِ ... إِذا ٱلْحَرْبُ يَوْماً أَقْعَدَتْ كُلَّ قَائِمِ
وَإِنْ تَنْكِحِيْ مَاوِيَّةَ ٱلْخَيْرِ حَاتِماً ... فَمَا مِثْلُهُ فِيْنَا وَلاَ فِيْ ٱلأَعَاجِمِ
فَتىً لاَ يَزَالُ ٱلدَّهْرَ أَكْبَرَ هَمِّهِ ... فِكَـاكُ أَسِيْـرٍ أَوْ مَعُـوْنَـةُ غَـارِمِ
وَإِنْ تَنْكِحِيْنِيْ تَنْكِحِيْ غَيْرَ فَاجِرٍ ... وَلاَ نَهْنَهٍ عِنْدَ ٱلأُمُوْرِ ٱلْعَظَائِمِ

وذُكِرَ في مجلسِ رسولِ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ قولُ قَيسِ بنِ الخطيمِ [في «ديوانه» ٤٢ مِنَ الطَّويلِ] :

أُجَالِدُهُمْ يَوْمَ ٱلْحَدِيْقَةِ حَاسِراً ... كَأَنَّ يَدِيْ بِٱلسَّيْفِ مِخْرَاقُ لاَعِبِ[1]

---

(١) الحديقةُ : قريةٌ من أعراضِ (المدينةِ) في طريقِ (مكَّةَ) ، كانت بها وقعةٌ بين=

ولَم يكُنْ ثَمَّ غيرُ خزرجيٍّ ، وهُم أَلدُّ خصومِهِ ، فقالَ لَهم رسولُ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « أَكذلِكَ هُوَ ؟ » فقالَ ثابتُ بنُ قيسِ بنِ شمَّاسٍ : والذي بعثَكَ بالحقِّ يا رسولَ اللهِ ، لقد خرجَ إلينا سابعَ عُرسِهِ عليهِ غَلاَلَةٌ وملحفَةٌ مورَّسَةٌ ، فجالَدَنا حتَّىٰ قَتَلَ مِنَّا سبعةً ، أَو ما يقرُبُ مِن هـٰذا ، فٱرتاحَ رسولُ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ وتهلَّلَ وجهُهُ .

ومرَّ عليٌّ ـ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ ـ بطلحَةَ قتيلاً يومَ الجملِ ، فتمثَّلَ بقولِهِ [كما في « ديوانِ » النابغةِ الجعديِّ مِنَ الطَّويلِ] :

فَتىً كَانَ يُدْنِيهِ ٱلْغِنَىٰ مِنْ صَدِيقِهِ ... إذا مَا هُوَ ٱسْتَغْنَىٰ وَيُبْعِدُهُ ٱلْفَقْرُ

أَو سمعَ إِنساناً ينشدُ هـٰذا البيتَ ، فقالَ : ذاكَ طلحةُ بنُ عُبيدِ اللهِ[١] .

وقد سبقَ في غيرِ هـٰذا المجلسِ قولُ القطاميِّ [في « ديوانهِ » ٨٤ مِنَ البسيطِ] :

إِنِّيْ وَإِنْ كَانَ قَوْمِيْ لَيْسَ بَيْنَهُمُ ... وَبَيْنَ قَوْمِكَ إِلاَّ ضَرْبَةُ ٱلْهَادِيْ[٢]

مُثْنٍ عَلَيْكَ بِمَا ٱسْتَبْقَيتَ مَعْرِفَتِيْ ... وَقَدْ تَعَرَّضَ مِنِّيْ مَقْتَلٌ بَادِيْ

وقالَ عمرُو بنُ معدِ يكَرِبَ الزبيديُّ ، يصفُ بني سُلَيمٍ ، وكانَتْ بينَهُم إِحَنٌ[٣] في الجاهليَّةِ [في « أدب الكاتب » ١/ ٤٣٤] : للهِ بنو سُلَيمٍ

= الأَوسِ والخزرَجِ قبلَ الإسلامِ ، وإياها أراد قيسٌ في قوله . المخراقُ : ما تلعبُ به الصبيانُ من الخرقِ المفتولةِ .

(١) « الأغاني » (١٨/ ٣٣١) .

(٢) الهادي : العنقُ ؛ لأنها تتقدم على البدنِ ، وهادي السهمِ : نصلُهُ .

(٣) إحنٌ ـ جمع أَحنَةٍ ـ : وهيَ الحقدُ والغضبُ .

ما أَشدَّ لقاءَها ، وأَكرمَ عطاءَها ، وأَثبتَ بِناءَها ، لقد قاتَلْناكم يا بني سُلَيمٍ فَما أَجبَناكُمْ ، وهَاجَيْناكُمْ فَما أَفحمناكُمْ ، وٱستَرْفَدْناكُمْ فما أَبخلناكُمْ .

وقلَّ مَن رثىٰ عمرَو بنَ عبدِ ودٍّ إِلاَّ تعرَّضَ للثناءِ علىٰ قاتلِهِ ، الإمامِ الغالبِ عليِّ ٱبنِ أَبي طالِبٍ ـ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ ـ حتَّىٰ قالَت أُختُ عمرٍو [كما في « ثمار القلوب » (١/٤٩٦) من البسيط ، ولكن فيه أن القائل ابنته] :

لَوْ كَانَ قَاتِلُ عَمْرٍو غَيْرَ قَاتِلِهِ　　مَا زِلْتُ أَبْكِي عَلَيْهِ دَائِمَ ٱلأَبَدِ
لَـٰكِنَّ قَاتِلَهُ مَنْ لاَ يُعَابُ بِهِ　　مَنْ كَانَ يُدْعَىٰ أَبُوهُ بَيْضَةَ ٱلْبَلَدِ

وقد سبقَ ما قالَهُ عبدُ الملكِ بنُ مروانَ ، مِنْ بالغِ الثناءِ علىٰ المصعَبِ بنِ الزبيرِ ، وبينَهُما ما لا تبرُكُ عليهِ الإِبلُ من الأَشلاءِ الممزَّقَةِ ، والأَرحامِ المقطَّعَةِ .

ولقد كانَ الجوُّ أَشدَّ ظُلمَةً مِن ذلكَ بينَ يزيدَ بنِ المهلَّبِ ويزيدَ بنِ عبدِ الملِكِ ، ولمَّا حُمِلَ رأسُ الأَوَّلِ إِلىٰ الثاني . . نالَ منهُ بعضُ جلسائِهِ ، فقالَ لَهُ : مَهْ ، إِن يزيدَ طلَبَ جسيماً ، وركِبَ عظيماً ، وماتَ كريماً ، وصدَقَ ٱبنُ دُريدٍ في قولِهِ يعنيهِ [في « وفيات الأعيان » ٦/٣٠٥ مِنَ الرَّجَزِ] :

وَقَدْ سَمَا قَبْلِي يَزِيدُ طَالِباً　　شَأْوَ ٱلْعُلاَ فَمَا وَهَىٰ وَلاَ وَنَىٰ

ومرَّ مثلُهُ فيهِ عَنِ الشريفِ الرضيِّ أَوائِلَ المجلسِ قبلَ هـٰذا .

ولَمَّا وردَ كعبٌ الأَشقريُّ علىٰ الحجَّاجِ موفَداً من قِبَلِ المهلَّبِ ٱبنِ أَبي صفرَةَ ، وسأَلَهُ عَن قتالِ الخوارِجِ . . أَنشدَ قصيدتَهُ التي يقولُ فيها [مِنَ البسيطِ] :

كُنَّا نُهَوِّنُ قَبْلَ ٱلْيَوْمِ شَأْنَهُمُ　　حَتَّىٰ تَفَاقَمَ أَمْرٌ كَانَ يُحْتَقَرُ

لَمَّا وَهَنَّا وَقَدْ حَلُّوْا بِسَاحَتِنَا وَٱسْتُنْفِرَ ٱلنَّاسُ مَرَّاتٍ فَمَا نَفَرُوْا
نَادَىٰ ٱمْرُؤٌ لاَ يُمَارَىٰ فِيْ عَشِيْرَتِهِ فِيْهِ وَلَيْسَ بِهَا عَنْ مِثْلِهِ قِصَرُ
بَـاتَـتْ كَتَـائِبُنَـا تُـرْدَىٰ مُسَـوَّمَـةً حَوْلَ ٱلْمُهَلَّبِ حَتَّىٰ نَوَّرَ ٱلْقَمَرُ
هُنَاكَ وَلَّوْا خَزَايَا بَعْدَمَا هُزِمُوْا وَحَالَ دُونَهُمُ ٱلأَنْهَارُ وَٱلْجُدُرُ
تَأْبَىٰ عَلَيْنَا حَرَارَاتُ ٱلنُّفُوْسِ فَمَا نُبْقِيْ عَلَيْهِمْ وَلاَ يُبْقُوْنَ إِنْ قَدِرُوْا[1]

ويدخلُ فيهِ كلُّ ما يأتي في شرحِ قولِهِ [في « العُكبَرِيّ » ٢/٢٣٩ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلاَ ثَوْبَ مَجْدٍ غَيْرَ ثَوْبِ ٱبْنِ أَحْمَدٍ عَلَـىٰ أَحَـدٍ إِلاَّ بِلُـؤْمٍ مُـرَقَّـعُ

ويُذكَرُ : أَنَّ تيمورْلَنْكَ أَبصرَ السيِّدَ الجرجانيَّ علىٰ فرسٍ لهُ عتيقٍ ، يمرحُ خيلاءَ وكِبراً ، فقالَ للسعدِ : أَلا ترىٰ إِلىٰ ما عَليهِ السيِّدُ وحصانُهُ مِنَ الزهُوِّ ؟! فقالَ لَهُ : لا عجبَ ، حتَّىٰ لَو أَنَّهُ طارَ إِلىٰ السماءِ . . لكانَ محقوقاً لذلكَ الشرفِ ، ثمَّ دنا مِن السيِّدِ وقالَ لَهُ : أَلا ترىٰ إِلىٰ ما عليهِ السعدُ وبغلُهُ مِنَ الضَّعفِ والقطافِ[2] ؟ فقالَ السيدُ : وكيفَ لا ؟! وعليهِ جبلٌ مِن جبالِ العلمِ ، فحريٌّ أَنْ تتفسَّخَ ببغلِهِ القوائمُ ، وكأَنَّما أَخذَهُ مِن قولِ المعريِّ [في « سقطِ الزندِ » ٢١٤ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذا حَمَلَتْكَ ٱلْعِيْسُ أَوْدَىٰ بِأَيْدِهَا جَلاَلُكَ حَتَّىٰ مَا تَكَادُ بِهِ تَخْطُوْ[3]

هـٰذا علىٰ ما بينَ الرجلينِ مِنَ التَّباعُدِ ، ثمَّ لا ننكرُ أَنَّ ما يتكلَّمُ بهِ الأَعداءُ من الثناءِ علىٰ خصومِهِم بعدَ ٱنتصارِهِم عليهِمْ لا يصلُحُ أَنْ

---

(١) « الأغاني » (١٤/ ٢٧٦) .
(٢) القطاف : ضيق مشي الدابة .
(٣) أَودىٰ : هلكَ . الأَيْدُ : القوَّةُ . الجلالُ : العُظْمُ .

يكونَ شاهداً لِمَا نقرِّرُهُ مِن تناصُفِ العربِ في أقوالِهِم .

أَمَّا أَوَّلاً : فلأَنَّ مَن شفىٰ غيظَهُ مِن خصومِهِ ، وآستفرَغَ حزازةَ نفسِهِ بِما آنتقمَ مِنهُم ، لا يبقىٰ في صدرِهِ ما يمنعُهُ مِن ذكرِهِم بالخيرِ في الأَغلبِ ، إلاَّ عِندَ مَنِ آشتدَّ خبثُهُ ، ونغَلَ قلبُهُ .

وأَمَّا ثانياً : فلأَنَّ المرادَ مِن مثلِ ذلكَ إنَّما هُوَ التوصُّلُ إلىٰ تعظيمِ النفسِ ؛ لأَنَّ الانتصارَ علىٰ الحقيرِ لا يعدُّ شيئاً مذكوراً ، إنَّما يُمتدَحُ بالانتصارِ علىٰ العظيمِ ، كَما سيأْتي أثناءَ المجلسِ السادسَ عشرَ ، غيرَ أَنَّ شيئاً مِن ذلكَ لا يغيِّرُ في وَجْهِ ما ذكرناهُ ، إذ كثيرٌ منهُ كانَ مِن غيرِ آنتصارٍ ، وكانَ في أيَّامِ الحياةِ والمساماةِ ، وهُوَ بينَ العَربِ الطريقُ المَهْيَعُ[1] ، والغالِبُ المطَّرِدُ ، ثمَّ إنَّا لا نريدُ مِنَ الثَّناءِ إلاَّ ما يكونُ حَقّاً مطابقاً للواقعِ ، بِلا إفراطٍ ولا تفريطٍ ، وإلاَّ . . كانَ مِنَ المَذمومِ الممقوتِ ، الداخلِ تحتَ قولِ القائِلِ [مِنَ الكامل] :

ذَهَبَ ٱلَّذِيْنَ يُعَاشُ فِيْ أَكْنَافِهِمْ ... وَٱلْمُنْكِـرُوْنَ لِكُـلِّ أَمْـرٍ مُنْكَـرِ
وَبَقِيْتُ فِيْ خَلْفٍ يُزَكِّيْ بَعْضُهُمْ ... بَعْضاً لِيَدْفَعَ مُعْوِرٌ عَنْ مُعْوِرِ

وهـٰذا لونٌ آخرُ مِنَ الحَديثِ ، لاَ بُدَّ وأَنْ نوفِّيَهُ حقَّهُ في محلِّهِ ، إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

* * *

---

(١) المَهْيَعُ : الواسعُ الواضحُ .

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَرِيِّ » ٣/ ١٧٣ مِنَ المنسرحِ] :

هَـدِيَّـةٌ مَـا رأَيْـتُ مُهْـدِيَهَـا	إلاَّ رَأَيْـتُ ٱلْعِبَـادَ فِـيْ رَجُـلِ

هل يجمع رجل واحد جميع محاسن الناس؟!

(هَدِيَّةٌ) : خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ ، تقديرُهُ : هديَّتُكَ هديَّةٌ مَا رأَيتُ الَّذي أَهداها . . إلاَّ رأَيتُ الناسَ كلَّهم في شخصِهِ ؛ لأَنَّ فيهِ جميعَ ما في الناسِ مِن معاني الفضْلِ والسؤْدَدِ والكرَمِ ، لا يُقالُ : إنَّ في الناسِ الأَخِسَّاءُ ، فإذا رأَىٰ فيهِ ما فيهِم . . كانَ عينَ الذمِّ ؛ لأَنَّهُ لم يُرد بالعبادِ إلاَّ الكرامَ منهُم ، فَـ(أَل) فيهِ للعهدِ الذهنيِّ ، والمعنىٰ متكرِّرٌ في ديوانِهِ ، مِنهُ قولُهُ [في « العُكبَرِيِّ » ١/ ٣٦٦ مِنَ المتقاربِ] :

أَحُلْمـاً نَـرَىٰ أَمْ زَمَـانـاً جَـدِيْـدَا	أَمِ ٱلْخَلْقُ فِيْ شَخْصِ حِيٍّ أُعِيْدَا

وقولُهُ [في « العُكبَرِيِّ » ١/ ٣٤٠ مِنَ الكاملِ] :

أَنَّـىٰ يَكُـوْنُ أَبَـا ٱلْبَـرِيَّـةِ آدَمٌ	وَأَبُوْكَ ـ وَٱلثَّقَلاَنِ أَنْتَ ـ مُحَمَّدُ ؟!

ومعناهُ : كيفَ يكونُ آدمُ أَبا الورىٰ ، وأَبوكَ محمَّدٌ ، وأَنتَ الثقلانِ ، قد جمعَ اللهُ فيكَ ما فرَّقَهُ فيهِم من أَنواعِ الفضلِ والكمالِ ؟! وهُوَ من قصيدَةٍ لَهُ فائقةٍ[(١)] ، غيرَ أَنَّ هٰذا البيتَ مذمومٌ مِنها ، ومعيبٌ عندَ أَهلِ البيانِ بالتشويشِ[(٢)] .

---

(١) قصيدة مدح بها شجاع بن محمد الطائي المنبجي ومطلعها :

اليَـوْمَ عَهْـدُكُـمُ فـأَيْـنَ ٱلمَـوْعِـدُ	هَيْهَـاتَ لَيْـسَ لِيَـوْمِ عَهْـدِكُـمُ غَـدُ

وهي من أربعين بيتاً .

(٢) وذلك لأنه فصل في هذا البيت بين المبتدأ والخبر بجملة من مبتدأ وخبر وهذا تعسف .

ومِنَ المعنىٰ ـ أَيضاً ـ قولُهُ [في « العُكبَريّ » ٤/ ٢٠٥ مِنَ الكاملِ] :

إِنِّيْ أَرَاكَ مِنَ ٱلْمَكَارِمِ عَسْكَراً ... فِيْ عَسْكَرٍ وَمِنَ ٱلْمَعَالِيْ مَعْدِنَا

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٣/ ٦٤ مِنَ الكاملِ] :

اَلْجَيْشُ جَيْشُكَ غَيْرَ أَنَّكَ جَيْشُهُ ... فِـيْ قَلْبِـهِ وَيَمِيْنِـهِ وَشِمَـالِـهِ

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٢/ ١٩٩ مِنَ الكاملِ] :

لَمَّا سَمِعْتُ بِهِ سَمِعْتُ بِوَاحِدٍ ... وَرَأَيْتُـهُ فَـرَأَيْـتُ مِنْـهُ خَمِيْسَـا

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٣/ ١٠٤ مِنَ الطَّويلِ] :

فَلَمَّـا رَأَوْهُ وَحْـدَهُ قَبْـلَ جَيْشِـهِ ... دَرَوْا أَنَّ كُلَّ ٱلْعَالَمِيْنَ فُضُوْلُ

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٢/ ١٧١ مِنَ الكاملِ] :

نُسِقُوْا لَنَا نَسْقَ ٱلْحِسَابِ مُقَدَّماً ... وَأَتَىٰ فَذَلِكَ إِذْ أَتَيْتَ مُؤَخَّرَا(١)

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٤/ ٧٦ مِنَ الوافرِ] :

إِذَا عُـدَّ ٱلْكِـرَامُ فَتِلْـكَ عِجْـلٌ ... كَمَا ٱلأَنْوَاءُ حِيْنَ تُعَدُّ عَامُ(٢)

---

(١) **المعنىٰ** : قالَ الواحِديُّ : جُمِعَ لنا الفضلاءُ في الزمانِ ، ومَضوا متتابعينَ ، متقدمينَ عليكَ في الوجودِ ، فلما أتيت بعدهم . . كانَ فيكَ مِنَ الفضلِ ما كانَ فيهِم ، مثل الحساب يذكر تفاصيلَهُ أولاً ، ثم تجمع تلك التفاصيلُ ، فيُكتبُ في آخرِ الحسابِ ، كذلك أنت . . . جمع فيك ما تفرّق فيهم مِنَ الفضائلِ والعلمِ والحكمةِ .

(٢) **الأنواءُ** ـ جمعُ نَوْءٍ ـ : وهوَ سقوطُ نجمٍ مِن منازلِ القمرِ في المغربِ معَ الفجرِ ، وطلوعُ رقيبِهِ من المشرقِ يقابلهُ .

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ١/ ٨٧ مِنَ البسيطِ] :

غَدَرْتَ يَا مُوْتُ كَمْ أَفْنَيْتَ مِنْ عَدَدٍ بِمَنْ أَصَبْتَ وَكَمْ أَسْكَتَّ مِنْ لَجَبِ[1]

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ١/ ٣٥٠ مِنَ البسيطِ] :

لَمَّا وَزَنْتُ بِكَ ٱلدُّنْيَا وَزَنْتَ بِهَا وَبِٱلْوَرَىٰ قَلَّ عِنْدِيْ كَثْرَةُ ٱلْعَدَدِ[2]

وقد أَساءَ الأَدبَ في هٰذا ؛ لأَنَّهُ ٱنتزعَهُ ممَّا جرىٰ لَهُ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم ليلةَ الإسراءِ ، مِن أَنَّ الملائِكَةَ وزنتْهُ فرجَحَ بأَلفٍ من أُمَّتِهِ[3] .

ومِنَ المَعنىٰ ـ أَيضاً ـ قولُهُ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٣٥٠ مِنَ الطَّويلِ] :

لَكَ ٱلْخَيْرُ، غَيْرِيْ رَامَ مِنْ غَيْرِكَ ٱلْغِنَىٰ وَغَيْـرِيْ بِغَيْـرِ ٱلـلَّاذِقِيَّـةِ لَاحِـقُ

هِيَ ٱلْغَرَضُ ٱلأَقْصَىٰ ، وَرُؤْيَتُكَ ٱلْمُنَىٰ مَنْـزِلُـكَ ٱلـدُّنْيَـا، وَأَنْـتَ ٱلْخَـلَائِـقُ

---

(١) اللجَبُ : الصوتُ والجلبةُ ، وجيشٌ لجِبٌ : عرمرمٌ .

(٢) في « العكبري » : (رَجَحْتَ) بدل : (وَزَنْتَ) .

(٣) ليسَ ذلكَ في ٱلإسراءِ وٱلمعراجِ ، فقد روىٰ الدَّارِميُّ في « سُننهِ » (١٤) عنَ أَبي ذرٍّ ـ رَضيَ ٱللهُ عنهُ ـ قالَ : قُلتُ : يا رسولَ ٱللهِ . . كَيفَ عَلِمْتَ أَنَّكَ نَبِيٌّ حِينَ ٱسْتُنبِئْتَ ؟ فقالَ : « يَا أَبَا ذَرٍّ . . أَتَانِيْ مَلَكَانِ وَأَنَا بِبَعْضِ بَطْحَاءِ (مَكَّةَ) ، فَوَقَعَ أَحَدُهُمَا عَلَىٰ ٱلأَرْضِ ، وَكَانَ ٱلآخَرُ بَيْنَ ٱلسَّمَاءِ وَٱلأَرْضِ ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ : أَهُوَ هُوَ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : فَزِنْهُ بِرَجُلٍ ، فَوُزِنْتُ بِهِ فَوَزَنْتُهُ ، ثُمَّ قَالَ : زِنْهُ بِعَشَرَةٍ ، فَوُزِنْتُ بِهِمْ فَرَجَحْتُهُمْ ، ثُمَّ قَالَ : زِنْهُ بِمِئَةٍ ، فَوُزِنْتُ بِهِمْ فَرَجَحْتُهُمْ ، ثُمَّ قَالَ : زِنْهُ بِأَلْفٍ ، فَوُزِنْتُ بِهِمْ فَرَجَحْتُهُمْ ، كَأَنِّيْ أَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَنْتَثِرُوْنَ عَلَيَّ مِنْ خِفَّةِ ٱلْمِيْزَانِ ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ : لَوْ وَزَنْتَهُ بِأُمَّتِهِ لَرَجَحَهَا » .

وهٰذا عِندي أَبدعُها وأَفخَمها ، وأَملؤُها للفمِ ، ولقد أَخطأَ مَنْ فضَّلَ عليهِ قولَ السلاميِّ [كما في « قرى الضيف » ١/ ١٦٣ مِنَ الطَّويلِ] :

فَبَشَّرْتُ آمَالِي بِمَلْكٍ هُوَ ٱلْوَرَىٰ   وَدَارٍ هِيَ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمٍ هُوَ ٱلدَّهْرُ

ولئِن كانَ في بيتِ المتنبي ضميرٌ يتعلَّق بما قبلَهُ ، وهٰذا قائِمٌ بذاتِهِ ، وفيهِ زيادةُ وصفِ اليومِ ؛ فإنَّ فيهِ جزالةً وفخامةً ، وحلاوةً وطلاوةً ، لا يوازيها شيءٌ مِمَّا جاءَ في بيتِ السلاميِّ ، ولئِنْ كانَ السلاميُّ هُوَ السابقَ . . فأَصلُ المعنىٰ قولُ عبدَة يَرثي قيسَ بنَ عاصِمٍ المنقريَّ [كما في « المستطرف » ١/ ١٤٠ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا كَانَ قَيْسٌ هُلْكُهُ هُلْكُ وَاحِدٍ   وَلَـٰكِنَّـهُ بُنْيَـانُ قَـوْمٍ تَهَـدَّمَـا

وقولُ ٱبنِ المقفَّعِ [في « البيان والتبيين » ١/ ٣٨٧ مِنَ الوافرِ] :

أَتَقْتُلُنِـيْ فَتَقْتُـلَ بِـيْ كَـرِيْمـاً   يَمُـوْتُ بِمَـوْتِـهِ بَشَـرٌ كَثِيْـرُ

ويروىٰ [في « المثل السائر » ٢/ ٣٦٤] : أَنَّ أَبا تمَّام جاءَ إِلىٰ أَحمدَ ٱبنِ أَبي دؤَادٍ يعتذرُ إِليهِ ، ويقولُ لَهُ : أنتَ جميعُ النَّاسِ ، ولا طاقَةَ لي بغضبِ جميعِ النَّاسِ ، فقالَ لَهُ : ما أَحسنَ هٰذا المعنىٰ! فَمِنْ أَينَ أَخذْتَهُ ؟! قالَ مِن قولِ أَبي نُواسٍ [في « ديوانه » ٢٠٢ مِنَ السَّريعِ] :

لَيْـسَ عَلَـىٰ ٱللهِ بِمُسْتَنْكَـرٍ   أَنْ يَجْمَـعَ ٱلْعَـالَـمَ فِـيْ وَاحِـدِ

وقالَ ٱبنُ دُرَيدٍ [في « المستطرف » ١/ ٤٦٦ مِنَ الرَّجزِ] :

وَٱلنَّـاسُ أَلْـفٌ مِنْهُـمُ كَـوَاحِـدٍ   وَوَاحِـدٌ كَـٱلأَلْـفِ إِنْ أَمْرٌ عَـرَا

وقالَ ٱبنُ الروميِّ [مِنَ البسيطِ] :

فَـرْدٌ وَحِيْـدٌ يَـرَاهُ ٱلنَّـاسُ كُلُّهُـمُ   كَأَنَّهُ ٱلنَّاسُ طُرّاً وَهْوَ إِنسَانُ

وقالَ أَبو تمَّامٍ [في « ديوانهِ » ١/ ١٠٠ مِنَ البسيطِ] :

لَوْ لَمْ يَقُدْ جَحْفَلاً يَوْمَ ٱلْوَغَىٰ لَغَدَا مِنْ نَفْسِهِ وَحْدَهَا فِيْ جَحْفَلٍ لَجِبِ

وقالَ [في « البيان والتبيين » ١/ ٥١٢ مِنَ الطَّويلِ] :

لَعَمْرُكَ مَا كَانُوْا ثَلاَثَةَ إِخْوَةٍ وَلَـٰكِنَّهُـمْ كَـانُـوْا ثَـلاَثَ قَبَـائِـلِ

ونظرَ إِليهِ أَبو عبادةَ في قولِهِ [في « ديوانهِ » ٢/ ١٠٣٢ مِنَ الكاملِ] :

كَانُوْا ثَلاَثَةَ أَبْحُرٍ أَفْضَىٰ بِهَا رَيْبُ ٱلْمَنُوْنِ إِلَىٰ ثَلاَثَةِ أَقْبُرِ

وقالَ في أَصلِ المعنىٰ [في « ديوانهِ » ١/ ٦٢٥ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَـمْ أَرَ أَمْثَـالَ ٱلـرِّجَـالِ تَفَـاوَتَـتْ لَدَىٰ ٱلْمَجْدِ حَتَّىٰ عُدَّ أَلْفٌ بِوَاحِدِ

وقالَ قبلَ ذلكَ جَريرٌ [في « ديوانهِ » ٢/ ٦٤٩ مِنَ الوافرِ] :

إِذَا غَضِبَـتْ عَلَيْـكَ بَنُـوْ تَمِيْـمٍ رَأَيْـتَ النَّـاسَ كُلَّهُـمُ غِضَـابَـا

وأَخذ البوصيريُّ المعنىٰ لِمدحِهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم ، فكانَ أَحقَّ بهِ مِنَ الجميعِ ، وذلكَ حيثُ يقولُ [مِنَ البسيطِ] :

كَـأَنَّـهُ وَهُـوَ فَـرْدٌ مِـنْ جَـلاَلَتِـهِ فِيْ عَسْكَرٍ حِيْنَ تَلْقَاهُ وَفِيْ حَشَمِ

ومصداقُهُ ما يروىٰ عن قَيْلَةَ بنتِ مخرمَةَ : أَنَّها جاءَتْ تطلبُهُ ، فأَلفتْهُ في مسجدِهِ قد توسَّدَ ذراعَهُ ، وعليهِ الجلالُ الإِلـٰهيُّ ، والوقارُ السماويُّ ، والعظمَةُ الربانيَّةُ ، فأَكبرتْهُ ، وأَخذتْها رعدةٌ مِنَ الفَرَقِ ، فقالَ لَها ﷺ : « هوِّنِيْ عَلَيْكِ ٱلسَّكِيْنَةَ ، فَإِنِّيْ لَسْتُ بِمَلِكٍ وَلاَ جَبَّارٍ ، وَلَـٰكِنِّيْ ٱبْنُ ٱمْرَأَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ ، كَانَتْ تَأْكُلُ ٱلْقَدِيْدَ بِمَكَّةَ »[1] .

---

(١) أورده في « كنز العمال » (١٤٩٦٥) عن ابن مسعود رضي الله عنه ، ونسبه إلى ابن ماجه (٣٣١٢) قال في « الزوائد » : إسناده صحيح ورجاله ثقات . =

فما أَشرفَ هـٰذا التواضعَ الكريمَ علىٰ ذلكَ المقدارِ العظيمِ!

وللهِ درُّ الناظمِ في قولِهِ ـ الذي قدْ ذكرناهُ مرَّةً ـ [في «العُكبَريِّ» ٤/ ١٧٩ مِنَ الكاملِ]:

مُتَصَعْلِكِيْنَ عَلَىٰ ضَخَامَةِ مُلْكِهِمْ ... مُتَـوَاضِعِيْـنَ عَلَـىٰ عُلُـوِّ ٱلشَّـانِ

بل ما أَحلىٰ قولَ سبطِ ٱبنِ الفارضِ [في «ديوان ٱبنِ الفارضِ» ٢١٣ مِنَ الطَّويلِ]:

فَيَا رَبِّ بِٱلْخِلِّ ٱلْحَبِيْبِ مُحَمَّدٍ ... نَبِيِّـكَ وَهُـوَ ٱلسَّيِّـدُ ٱلْمُتَـوَاضِـعُ

أَنِلْنَا مَعَ ٱلأَحْبَابِ رُؤْيَتَكَ ٱلَّتِيْ ... إِلَيْهَـا قُلُـوْبُ ٱلأَوْلِيَـاءِ تُسَـارِعُ

فَبَابُكَ مَقْصُوْدٌ وَفَضْلُكَ زَائِدٌ ... وَجُوْدُكَ مَوْجُوْدٌ وَعَفْوُكَ وَاسِعُ

ومرِضَ أَبو الفرجِ الدارِمِيُّ صاحبُ «الاستذْكارِ» فزارَهُ أَبو حامدٍ الإسفرايينيُّ، فقالَ [في «طبقات ابن السبكي» ٤/ ٦٥ مِنَ السَّريعِ]:

مَرِضْتُ فَٱحْتَجْتُ إِلَىٰ عَائِدٍ ... فَعَـادَنِـيْ ٱلْعَـالَـمُ فِـيْ وَاحِـدِ

ذَاكَ ٱلإِمَـامُ ٱبْـنُ أَبِـيْ طَـاهِـرٍ ... أَحْمَـدُ ذُوْ ٱلْفَضْـلِ أَبُـوْ حَـامِـدِ

وأَبو حامدٍ هـٰذا: هُوَ ممدوحُ المعريِّ بقصيدَتِهِ التي مستهلُّها هـٰذا [في «سقطِ الزندِ» ١٦٥ مِنَ البسيطِ]:

لاَ وَضْـعَ لِلـرَّحْـلِ إِلاَّ بَعْـدَ إِيْضَـاعِ ... فَكَيْفَ شَاهَدْتَ إِمْضَائِيْ وَإِزْمَاعِيْ؟[1]

= بلفظ: «هون عليك فإني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد».

(١) لا وضعَ: كنايةٌ عنِ النزولِ. الإيضاعُ: وضع البعيرِ في السيرِ.

وكانوا يصلُّونَ الظهرَ بعدَ الجمعةَ في مسجدِ (المسيلَةِ) ، فقالَ لَهم بدويٌّ : لِماذا ؟ قالوا : لأَنَّ الجمعَةَ لا تصِحُّ إلاَّ بأَربعينَ ، والعدَدُ ناقصٌ عندَنا ؛ فلهٰذا نصلِّي الظهرَ ٱحتياطاً ، قالَ لَهم : أَوَليسَ الحبيبُ طاهرٌ[1] وحدَهُ يعدلُ بأَربعينَ ؟ ولا يبعدُ أَن يكونَ منهُ قولُهُ جلَّ ذكرُهُ : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ [النحل : ١٢٠] .

وقالَ الأَرَّجانيُّ [في « وفيات الأعيان » ٤/٤٠٧ مِنَ البسيطِ] :

لَوْ زُرْتَهُ لَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ فِيْ رَجُلٍ وَٱلدَّهْرَ فِيْ سَاعَةٍ، وَٱلأَرْضَ فِيْ دَارِ

* * *

---

(١) يعني الإمام المجاهد ، طاهر بن حسين بن طاهر العلوي الحسيني ، ولد سنة : (١١٨٤هـ) وتوفي سنة : (١٢٤١هـ) ، أحد الأئمة الأعيان ، صاحب الشخصية القوية ، الشجاع ، الغيور ، صاحب المؤلفات النافعة ، ومنها « إتحاف النبيل ببعض معان حديث جبريل » .

وقالَ يمدحُ عبيدَ اللهِ بنَ خراسانَ الطرابُلسيَّ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ١٨٥ مِنَ البسيطِ] :

أَظَبْيَةَ ٱلْوَحْشِ لَوْلاَ ظَبْيَةُ ٱلإِنْسِ   لَمَا غَدَوْتُ بِجِدٍّ فِيْ ٱلْهَوَىٰ تَعِسِ

شرح المطلع

(الإِنسُ) : جماعَةُ النَّاسِ ، و(ٱلجَدُّ) : الحظُّ وٱلبَخْتُ ، و(التَّعْسُ) : العثورُ ضدُّ ٱلانتعاشِ :

ومنهُ ٱلحديثُ : « تَعِسَ وَٱنْتَكَسَ وَإِذَا شِيْكَ فَلاَ ٱنْتَقَشَ »[١] .

وكانَتِ ٱلعربُ إِذا عثرَتْ . . دعتْ بالتعسِ لِمَنْ تكرَهُ .

ومِنه قولُ أُمِّ مِسطَحٍ في حديثِ الإفكِ الطويلِ : (تعسَ مِسطَحٌ)[٢] .

قد يألف الإنسان الوحوش ويخاف من الناس

والحاصِلُ : أَنَّهُ يخاطِبُ الظبيَةَ الوحشيَّةَ ، ولَم يخاطِبها إِلاَّ لإِلفِهِ إِيَّاها ، وسكونِها إِليهِ ؛ مِن كثرَةِ ما يسلُكُ مِنَ البوادي لتطلُّبِ الأُنسِ ، ومناجاةِ النفسِ ، علىٰ حدِّ قولِ المجنونِ [في « ديوانهِ » ٢٩٤ مِنَ الطَّويل] :

وأَخْـرُجُ مِـنْ بَيْـنِ ٱلْبُيُـوْتِ لَعَلَّنِـيْ   أُحَدِّثُ عَنْكِ ٱلنَّفْسَ فِيْ ٱلسِّرِّ خَالِيَا

---

(١) طرف حديث أخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه البخاري (٢٨٨٧) في الجهاد ، وابن ماجه (٤١٣٦) في الزهد وأوله : « تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة ، إن أعطي رضي ، وإن لم يعط سخط » .

(٢) أخرجه عن عائشة رضي الله عنها البخاري في حديث الإفك (٤٧٥٠) في التفسير .

وقولِ ذي الرُّمَّةِ [مِنَ الطَّويلِ] :

أَخُطُّ وأَمْحُو ٱلْخَطَّ ثُمَّ أُعِيْدُهُ بِكَفِّـي وَٱلْغِـزْلَانُ حَـوْلِـيَ رُتَّـعُ
عَشِيَّـةَ مَـا لِـيْ حِيْلَـةٌ غَيْـرَ أَنَّنِـيْ بِلَقْطِ ٱلْحَصَىٰ وَٱلْخَطُّ فِيْ ٱلأَرْضِ مُوْلَعُ

وقولِ الآخرِ [مِنَ الطَّويلِ] :

عَوَىٰ ٱلذِّئْبُ فَٱسْتَأْنَسْتُ بِٱلذِّئْبِ إِذْ عَوَىٰ وَصَـوَّتَ إِنْسَـانٌ فَكِـدْتُ أَطِيْـرُ

وقولِ سلطانِ العاشقينَ [في « ديوانهِ » ٤٠ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلِيْ بَعْدَ أَوْطَانِيْ سُكُوْنٌ إِلىٰ ٱلْفَلَاَ وَبِٱلْوَحْشِ أُنْسِيْ إِذْ مِنَ ٱلإِنْسِ وَحْشَتِيْ[1]

احببت من اجلكم من كان يشبهكم

يقولُ للظبيةِ : لَولا شبيهُتكِ مِنَ الإنسِ . . لَمَا غدوتُ تاعسَ الجَدِّ ، منكودَ الحظِّ ، مُبلبَلَ البالِ ، هائِماً علىٰ وَجهي مِنَ الهوىٰ ، ولَيسَ في البيتِ ما توضَعُ عليهِ اليدُ ، أَو ينشرحُ لَهُ الصدْرُ ، أَو ينفتِحُ لَهُ السمعُ ، بَلْ أَنكروا عليهِ قولَهُ : (تَعِسٍ) وقالوا : إِنَّما صوابُهُ تاعِسَ كما عبَّرنا ، والعرَبُ كثيراً ما تشبِّهُ الغِيدَ الحِسانَ برواتِعِ الغزلانِ ، والوجْهُ حُسْنُ الأَجيادِ[2] .

ويروىٰ [في « الأغاني » ٢/٧٥] : أَنَّ المجنونَ ٱشترىٰ ظبيَةً بناقَةٍ ، وأَخذَ يمسحُ عَنْها الترابَ ويقبِّلُها ، ويقولُ [في « ديوانهِ » ٢٠٦-٢٠٧ مِنَ الطَّويلِ] :

أَيَا شِبْهَ لَيْلَىٰ لاَ تُرَاعِيْ فَإِنَّنِيْ لَكِ ٱلْيَوْمَ مِنْ وَحْشِيَّةٍ لَصَدِيْقُ
فَعَيْنَاكِ عَيْنَاهَا وَجِيْدُكِ جِيْدُهَا وَلَـٰكِنَّ عَظْمَ ٱلسَّاقِ مِنْكِ دَقِيْقُ

---

(١) سكونٌ : ٱستئناس . أُنسي : نقيض وحشتي . الإنس : الناسُ .
(٢) الأجياد : الأعناق .

ومرَّ مرَّةً أُخرىٰ برجلينِ اصطادا ظَبْيَةً وربَطاها ، فعزَمَ عليهِما أَنْ يُطْلِقاها ، فأَبيا عليهِ ، فاشتَراها بكبشٍ مِن غنمِهِ ، وأَطلقَهَا ، وفي ذلكَ يقولُ [في « ديوانِه » ١١١ مِنَ الطَّويلِ] :

شَرَيْتُ بِكَبْشٍ شِبْهَ لَيْلَىٰ وَلَوْ أَبَوْا ... لأَعْطَيْتُ مَالِيْ مِنْ طَرِيْفٍ وَتَالِدِ

وَلَوْ كُنْتُمَا حُرَّيْنِ مَا بِعْتُمَا فَتىً ... شَبِيْهاً بِلَيْلَىٰ بَيْعَةَ ٱلْمُتَزَايِدِ

وأَعْتَقْتُمَاهَا رَغْبَةً فِيْ ثَوَابِهَا ... وَلَمْ تَرْغَبَا فِيْ نَاقِصٍ غَيْرِ زَائِدِ

وقيلَ : إِنَّ الرجلينِ أَخوهُ وابنُ عمِّه ، وإِنَّهُ أَنشدَهُما [في « ديوانِه » ٢٨٥ مِنَ البسيطِ] :

يَا صَاحِبَيَّ ٱللَّذَيْنِ ٱلْيَوْمَ قَدْ رَبَطَا ... شِبْهاً لِلَيْلَىٰ بِحَبْلٍ ثُمَّ غَلاَّهَا

إِنِّيْ أَرَىٰ ٱلْيَوْمَ فِيْ أَعْطَافِ شَاتِكُمَا ... مَشَابِهاً أَشْبَهَتْ لَيْلَىٰ فَحُلاَّهَا

ولَمَّا أَبَيا . . تهدَّدَهُما بالقتْلِ ، وكانَ أَجلدَ مِنهُما قبلَ أَنْ يشتَدَّ بِهِ الهوىٰ ، فأَطْلَقاها .

ويحكىٰ عَنِ الأَصمعيِّ : أَنَّهُ رأىٰ أَعرابيّاً صنعَ ما هُوَ أَكبرُ مِن ذلكَ ، وأَنشدَ ـ ومِنْ شعرِهِ تُعرَفُ قِصَّتُهُ ـ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَذَكَّرَنِيْ مَنْ لا أَبُوْحُ بِحُبِّهِ ... مَحَاجِرَ ظَبْيٍ فِيْ حُبَالَةِ قَانِصِ

فَقُلْتُ وَأَسْرَابُ ٱلدُّمُوعِ سَوَافِحٌ ... وَعَيْنِيْ إِلىٰ عَيْنَيْهِ نَظْرَةُ شَاخِصِ

أَلاَ أَيُّهَذَا ٱلْقَانِصُ ٱلظَّبْيِ خَلِّهِ ... فَإِنَّا فَدَيْنَاهُ بِسَبْعِ قَلاَئِصِ

خَفِ ٱللهَ لا تَخْبِسْهُ إِنَّ شَبِيْهَهُ ... حَبِيْبِيْ وَقَدْ أَرْعَدَتْ مِنْهُ فَرَائِصِيْ

أَو ما يقربُ مِن هـٰذا .

ومِن أَكاذيبِ أَبي حيَّةَ النميريِّ ـ وهُوَ مِمَّن يروي عَنِ الفرزدقِ ـ :

أَنَّهُ قالَ [كما في « البيان والتبيين » ١/ ٣٢٧] : رميتُ يوماً ظبيَةً ، فلَمَّا خرجَ السهْمُ . ذكرْتُ بالظبيَةِ حبيبةً لي ، فشدَدْتُ خَلْفَ السَّهمِ حتَّىٰ أَدركتُهُ قبلَ أَن يصيبَها ، وأَخذْتُ بقَذَذِهِ ، وما تركتُهُ يَمَسُّها .

ومَعَ خسَّةِ هـٰذهِ الأُكذوبةِ ، وسقوطِ قذرِها ، فقد نظرَ إِليها الناظمُ بعينِ الاستحسانِ ، وشنَّ الغارَةَ علَيها ، حتَّىٰ أَخذَها في قولِهِ [في « العُكبَريّ » ١/ ٣٧٨ مِنَ الطَّويلِ] :

يَكَادُ يُصِيبُ ٱلشَّيْءَ مِنْ قَبْلِ رَمْيِهِ وَيُمْكِنُهُ فِي سَهْمِهِ ٱلْمُرْسَلِ ٱلرَّدُّ

ولَيستْ هـٰذهِ بأَقبحَ مِن قولِهِ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٢٥٣ مِنَ الوافرِ] :

أُحِبُّكَ أَوْ يَقُولُوا : جَرَّ نَمْلٌ ثَبِيراً ، وَٱبْنُ إِبْرَاهِيمَ رَيْعَا[1]

فما أَخذَ هـٰذا المعنىٰ إلاَّ مِن أُكذوبةٍ كذبَها أَبو العنبسِ الصيمريُّ عَنْ لسانِ رجُلٍ مِنَ العرَبِ ، زعمَ أَنَّهُ قالَ : رأَيتُ رجلاً نامَ ، وفي يدِهِ غمْرٌ ، فَجَرَّهُ النملُ ثلاثَةَ فراسخَ ، فأُعجبَ بها أَبو الطيِّبِ ، ورأَىٰ أَن لا يُخلِّي ديوانَهُ عن مثلِها ، ولم يَكْفِهِ حتَّىٰ جعلَ موضِعَ الرجلِ جبلاً ، ولئِن أَشارَ إِلىٰ ٱستحالتِهِ . فقد أَعادَهُ في قصيدَةٍ أُخرىٰ يقولُ [في « العُكبريّ » ٣/ ٢٦٢ مِنَ الطَّويلِ] :

أَمَاتَكُمُ مِنْ قَبْلِ مَوْتِكُمُ ٱلْجَهْلُ وَجَرَّكُمُ مِنْ خِفَّةٍ بِكُمُ ٱلنَّمْلُ

فما كانَ أَثقلَ روحَهُ ، وأَقلَّ فتوحَهُ ، في أَمثالِ هـٰذا الكلام البارِدِ السخيفِ ، ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران : ٨] .

---

(١) الثبيرُ : جبلٌ معروفٌ بـ(الحجازِ) ، قيل فيه : أشرق ثبير كيما نغير .

وعلىٰ ذكرِ إرسالِ الظباءِ ، لا بدَّ مِن أَن نشيرَ إلىٰ ما قالَهُ فقهاؤُنا : مِن حرمَةِ إطلاقِ الصيدِ ؛ لأنَّهُ يشبهُ سوائِبَ الجاهليَّةِ ، قالَ ٱبنُ حجرٍ : نعم ، إنْ قالَ عندَ إرسالِها : أَبحتُهُ لِمَن يأْخذُهُ . . أُبيحَ لآخذِهِ أَكلُهُ فقط . اهـ .

وظاهرُهُ : أَنَّ ذلكَ القولَ لا يبيحُ الإرسالَ ، ونظرَ الرمليُّ في الجوازِ حينئِذٍ .

* * *

[قالَ أَبو الطَّيبِ المتنبِّي في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ١٨٦ مِنَ البسيطِ] :

وَلاَ سَقَيْتُ ٱلثَّرَىٰ وَٱلْمُزْنُ مُخْلِفُهُ   دَمْعاً يُنَشِّفُـهُ مِـنْ لَـوْعَـةٍ نَفَسِـيْ

شرح المطلع

يقول لِلظَّبيَةِ ـ أَيضاً ـ : لَولا شبيهَتُكِ . . لَمَا سقيتُ الثَّرىٰ عندَ أَخلافِ المُزنِ دمعاً ، تتبعُهُ حرارةُ الأنفاسِ فتنشِّفُهُ .

إطفاء الدمع بنار الفؤاد

وللهِ درُّ ٱبنِ الفارضِ في قولِهِ [في « ديوانهِ » ١٤٤ مِنَ البسيطِ] :

وَأَدْمُـعٌ هَمَلَـتْ لَـوْلاَ ٱلتَّنَفُّـسُ مِـنْ   نَارِ ٱلْهَوَىٰ لَمْ أَكَدْ أَنْجُوْ مِنَ ٱللُّجَجِ(١)

ففي البيتِ نوعٌ مِنَ الطِّباقِ في الجمعِ بينَ الماءِ والنارِ .

وقد قالَ ٱبنُ الروميِّ [مِنَ البسيطِ] :

لا تَعْجَبَا أَنَّ دَمْعاً فَاضَ مِنْ حُرَقٍ   مَـاءٌ أَفَـاضَتْـهُ نَـارٌ مِـنْ مَـرَاجِلِـهِ

وَمِمَّا جاءَ في ٱحتراقِ القلبِ ، وشدَّةِ النَّفَسِ ، قولُ أَبي الطَّمحَانِ [في « ديوان الحماسة » ٢/ ٨٤ مِنَ الطَّويلِ] :

هَـلِ ٱلْـوَجْـدُ إِلاَّ أَنَّ قَلْبِـيَ لَـوْ دَنَـا   مِنَ ٱلْجَمْرِ قِيْدَ ٱلرُّمْحِ لاحْتَرَقَ ٱلْجَمْرُ ؟

وقولُ ٱبنِ الأَحنفِ [في « ديوانه » ١٥٨ مِنَ البسيطِ] :

يَا قَابِسَ ٱلنَّارِ قَدْ أَعْيَتْ قَوَادِحُهُ   اِقْبِسْ إِذا شِئْتَ مِنْ قَلْبِيْ بِمِقْبَاسِ

وقالَ الناظمُ [في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ٣٣٣ مِنَ الكاملِ] :

جَرَّبْتُ مِنْ حَرِّ ٱلْهَوَىٰ مَا تَنْطَفِيْ   نَارُ ٱلْغَضَىٰ وتَكِلُّ عَمَّا تُحْرِقُ

---

(١) هملت : ٱنصبَّت . اللُّججُ ـ الواحدة لُجَّةٌ ـ : معظمُ الماءِ .

وقالَ الخابز أرزيُّ [مِنَ الطَّويلِ] :

بِقَلْبِيَ جَمْرٌ مِنْ هَوَاهُ فَإِنْ أَكُنْ ... شَكَوْتُ فَهَـٰذَا ٱلْوَجْدُ مِنْ ذَلِكَ ٱلْجَمْرِ

وقالَ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَحَقِّ ٱلْهَوَىٰ إِنِّي أُحِسُّ مِنَ ٱلْهَوَىٰ ... عَلَىٰ كَبِدِيْ جَمْراً وفِيْ أَعْظُمِي رَضَّا

وقالَ ذو الرُّمَّةِ ـ وهُوَ مما سبقَ لنا ذكرُهُ ـ [في « ديوانِهِ » ١/٣٨١ مِنَ البسيطِ] :

تَعْتَادُنِي زَفَرَاتٌ حِيْنَ أَذْكُرُهَا ... تَكَادُ تَنْقَدُّ مِنْهُنَّ ٱلْحَيَازِيْمُ

وقالَ مسلمُ بنُ الوليدِ [مِنَ الكاملِ] :

وَإِذَا بَعَثْتَ إِلَىٰ ٱلْهَوَىٰ بَعَثَ ٱلْهَوَىٰ ... نَفَساً يَكُوْنُ عَلَىٰ ٱلضَّمِيْرِ دَلِيْلاَ

وقالَ غيرُهُ [وهو الصِمَّةُ بن عبد اللهِ في « الأغاني » ٦/٦ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا زَفَرَاتُ ٱلْحُبِّ صَعَّدْنَ فِيْ ٱلْحَشَا ... وَرَدْنَ وَلَمْ يُوْجَدْ لَهُنَّ طَرِيْقُ

وقالَ أبو تمَّامٍ [في « ديوانِهِ » ١/٢١٩ مِنَ الكاملِ] :

أَجْدِرْ بِجَمْرَةِ لَوْعَةٍ إِطْفَاؤُهَا ... بِٱلدَّمْعِ أَنْ تَزْدَادَ طُوْلَ وُقُوْدِ

وهُوَ مخالِفٌ لبعضِ ما سبقَ ، أواخرَ المجلسِ السادسِ ، قبيلَ قولِ الناظمِ [في « العُكبَرِيِّ » ٤/ ٣٤ مِنَ الطَّويلِ] :

فَثِبْ وَاثِقاً بِٱللهِ وِثْبَةَ مَاجِدٍ ... يَرَىٰ ٱلْمَوْتَ فِيْ ٱلْهَيْجَا جَنَىٰ ٱلنَّحْلِ فِيْ ٱلْفَمِ

وقالَ بعضُهُم [مِنَ الكاملِ] :

فَبَدَتْ تُشِبُّ بِدَمْعِهَا نَارَ ٱلْهَوَىٰ ... مَنْ ذَا رَأَىٰ نَاراً تُشَبُّ بِمَاءِ

وقالَ الناظمُ [في « العُكبَريّ » ١/ ٣٥٠ مِنَ البسيطِ] :

وَكُلَّمَا فَاضَ دَمْعِيْ غَاضَ مُصْطَبَرِيْ كَأَنَّ مَا فَاضَ مِنْ جَفْنَيَّ مِنْ جَلَدِيْ

وقالَ [في « العُكبريّ » ٢/ ٢٧٤ مِنَ الكاملِ] :

وَإِذَا حَصَلْتَ مِنَ ٱلسِّلَاحِ عَلَىٰ ٱلْبُكَا فَحَشَاكَ رُعْتَ بِهِ وَقَلْبَكَ تُفْزِعُ

سكينة بنت الحسين تسأل عروة عن أذينة

ويحكىٰ [بنحوه في « المستطرف » ٢/ ٣٢١] : أَنَّ سُكينةَ ٱبنةَ الحسينِ وقفَتْ علىٰ عروةَ بنِ أُذينَةَ ، وكانَ ثقةً في الحديث ، أَخرجَ لَهُ مالكُ ٱبنُ أَنسٍ ، فقالَتْ لَهُ : أَنتَ الذي يقالُ فيكَ الرجلُ الصالحُ ، أَلستَ القائِلَ [في « ديوانهِ » ٢٩ مِنَ البسيطِ] :

إِذَا وَجَدْتُ أُوَارَ ٱلْحُبِّ فِيْ كَبِدِيْ ذَهَبْتُ نَحْوَ سِقَاءِ ٱلْمَاءِ أَبْتَرِدُ[1]

هَبْنِيْ بَرَدْتُ بِمَسِّ ٱلْمَاءِ ظَاهِرَهُ فَمَنْ لِنَارٍ عَلَىٰ ٱلْأَحْشَاءِ تَتَّقِدُ ؟!

قالَ لَها : بلىٰ ، فأَشارَتْ إِلىٰ جواريها ، وقالَتْ : هُنَّ حرائِرُ إِن خرجَ هٰذا مِن قلبٍ سليمٍ .

الرشيد وعقد الجارية

ويروىٰ [بنحوه في « المستطرف » ٢/ ٣٣١] : أَنَّ هاشمَ بنَ سليمانَ مولىٰ بني أُميَّةَ ، غنَّىٰ للرشيدِ مرَّةً بما سبقَ من قولِ جميلٍ [في « ديوانهِ » ١٧٦ـ١٧٧ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا مَا تَرَاجَعْنَا ٱلَّذِيْ كَانَ بَيْنَنَا جَرَىٰ ٱلدَّمْعُ مِنْ عَيْنَيْ بُثَيْنَةَ بِٱلْكُحْلِ

فَيَا وَيْحَ نَفْسِيْ حَسْبَ نَفْسِيَ ٱلَّذِيْ بِهَا وَيَا وَيْحَ عَقْلِيْ مَا أُصِيبُ بِهِ أَهْلِيْ

خَلِيْلَيَّ فِيْمَا عِشْتُمَا هَلْ رَأَيْتُمَا قَتِيْلاً بَكَىٰ مِنْ حُبِّ قَاتِلِهِ مِثْلِيْ ؟

---

(١) أُوارُ الحبِّ : حرارتُهُ .

فطربَ الرشيدُ ، وقلَّدَ هاشِماً عِقداً نفيساً ، فاْغرورَقَتْ عيناهُ بالدموعِ ، فقالَ لَهُ الرشيدُ : ما يبكيكَ ؟ فتلَجْلَجَ حتَّىٰ أَلَحَّ عليهِ ، فقالَ : إِنَّ لهٰذا العقدِ قصَّةً ، قالَ : ما هِيَ ؟ قالَ : أَحضَرَني الوليدُ يوماً ، غنَّتْهُ فيهِ إِحدىٰ حَظاياهُ فأَصلحْتُ غناءَها ، فدفعَتْ لي هٰذا العقْدَ ، وظَلْنا بِأَسعدِ يومٍ وأَهناهُ ، ولَمَّا قدموا السفينةَ في العشيِّ ليركبوا عَلَيها . . سقطتِ الجاريَةُ ، ولَمْ يَقدِروا عَلَيها ، فاْشتدَّ جزَعُ الوليدِ ، واْستردَّ العِقد مِنِّي ؛ ليتذكَّرَها بهِ ، ويشمَّها فيهِ ، ودفَعَ لي ثلاثينَ أَلفاً عوضاً عنهُ ، فقالَ لهُ الرشيدُ : لا تعجَبْ ؛ فإِنَّ اللهَ كَما ورَّثَنا مُلْكَهم ، وَرَّثَنا أَموالَهمِ ، فسبحانَ مَنْ لا يزولُ مُلكُهُ!

ويُذكرُ [بنحوه في « المستطرف » ٢/٣٣١] : أَنَّ إِسحاقَ الموصلِّيَّ غنَّىٰ الواثقَ بنَ المعتصِمِ بهٰذه الأَبياتِ [مِنَ البسيطِ] :

مَاكُنْتُ أَعلَمُ مَا فِيْ ٱلْبَيْنِ مِنْ شَجَنٍ ... حَتَّىٰ تنَادَوْا بِأَنْ قَدْ جِيْءَ بِٱلسُّفُنِ
قَـامَـتْ تُـوَدِّعُـنِـيْ وَٱلـدَّمْـعُ يَغْلِبُهَـا ... فَهَمْهَمَتْ بَعْضَ مَا قَالَتْ وَلَمْ تُبِنِ
مَالَتْ إِلَيَّ وَضَمَّتْنِي لِترَشُفَنِيْ ... كَمَا يَمِيْلُ نَسِيْمُ ٱلرِّيْحِ بِٱلْغُصُنِ
وَأَعْرَضَتْ ثُمَّ قَالَتْ وَهِيَ بَاكِيَةٌ ... يَا لَيْتَ مَعرِفَتِيْ إِيَّاكَ لَمْ تَكُنِ

فكادَ الواثقُ أَنْ يطيرَ مِنَ الطَّرَبِ والارتياحِ ، ثمَّ غنَّىٰ إِسحاقُ بالأَبياتِ الآتيةِ [مِنَ الطَّويلِ] :

قِفِـيْ وَدِّعِيْنَـا يَـا سُعَـادُ بِنَظْـرَةٍ ... فقَدْ حَانَ مِنَّا يَا سُعَادُ رَحِيْلُ — قفي ودعينا يا سعاد
فَيَا جَنَّةَ ٱلدُّنْيَا وَيَا غَايَةَ ٱلْمُنَىٰ ... وَيَا سُؤْلَ نَفْسِيْ هَل إِلَيْكِ سَبِيْلُ
وَكُنْتُ إِذَا مَا جِئْتُ جِئْتُ لِعِلَّةٍ ... فَأَفْنَيْتِ عِلاَّتِيْ فَكَيْفَ أَقُوْلُ ؟
فَمَا كُلُّ يَوْمٍ لِيْ بِأَرْضِكِ حَاجَةٌ ... وَلاَ كُلُّ يَوْمٍ لِيْ إِلَيْكِ وُصُوْلُ

فما تركَ الواثِقُ دمعَةً إلاَّ ذراها ، ولا عَبرَةً إلاَّ أجراها .

هل تعار العين للبكاء؟!

وربَّما تقِلُّ مناسَبَةُ البيتِ للحِكايتينِ ، غيرَ أنَّهُ يَكفي ٱجتماعُهما في إرسالِ العَبَراتِ التي من لازِمِها تصاعُدُ الزفرَاتِ ، ولله درُّ العبَّاسِ بنِ الأَحنفِ في قولِهِ [في « ديوانه » ١١٦ مِنَ الكاملِ] :

نَزَفَ ٱلْبُكَاءُ دُمُوْعَ عَيْنِكَ فَٱسْتَعِرْ عَيْنــاً لِغَيْــرِكَ دَمْعُهَــا مِــدْرَارُ
مَنْ ذَا يُعِيْرُكَ عَيْنَـهُ تَبْكِـيْ بِهَـا أَرَأَيْـتَ عَيْنـاً لِلْبُكَـاءِ تُعَـارُ ؟!

وقالَ الحسينُ بنُ مطيرٍ [في « ديوانه » ٨١ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلِيْ كَبِدٌ مَقْرُوْحَةٌ مَنْ يَبِيْعُنِيْ بِهَا كَبِداً لَيْسَتْ بِذَاتِ قُرُوْحِ
أَبَىْ ٱلنَّاسُ وَيْبَ ٱلنَّاسُ لاَ يَشْتَرُوْنَهَا وَمَنْ يَشْتَرِيْ ذَا عِلَّةٍ بِصَحِيْحِ[1] ؟

وقالَ آخرُ [مِنَ الطَّويلِ] :

فَهَلْ مِنْ مُعِيْرٍ طَرْفَ عَيْنٍ خَلِيَّةٍ فَإِنْسَانُ عِيْنِ ٱلْعَامِرِيِّ كَلِيْمُ ؟

* * *

(١) وَيْبَ : أي ويأْبَ .

[قالَ أَبو الطَّيبِ المتنبِّي في « العُكبَريِّ » ٢/ ١٨٦ مِنَ البسيطِ] :

وَلاَ وَقَفْتُ بِجِسْمٍ مُسْيَ ثَالِثَةٍ	ذِيْ أَرْسُمٍ دُرُسٍ فِيْ ٱلأَرْبُعِ ٱلدُّرُسِ

شرح المطلع (المُسْيُ) : المساءُ ، كالصبحِ والصباحِ ، و(الأَرْسُمُ) : جمعُ رَسمٍ ، وهوَ أَثرُ الديارِ ، و(الدُّرُسُ) : جمع دارسٍ ، وهُوَ الذي انمحىٰ ، يقولُ : لولا هـٰذهِ الظبيةُ . . لَما وقفتُ برسومِ دارِها مساءَ الليلةِ الثالثَةِ مِن ظَعنِها ؛ أَي : لَمَا وقفتُ بربْعِها مَعَ قربِ العهدِ بلقائِها ، وكانَ وقوفي علىٰ رسومِها بجسمٍ دارسٍ ناحلٍ ، قد أَبلاهُ الحزنُ ، وأَنحلَهُ حتَّىٰ عادَ مثلَ تلكَ الرسومِ ، إلاَّ أَنَّهُ قد يشكِلُ انمحاءُ الآثارِ مع قربِ الوقتِ ، فهلاَّ قالَ مثلَ ما قالَ النابغةُ [الذبيانيُّ في « ديوانهِ » ٤٣ مِنَ الطَّويلِ] :

تَـوَهَّمْـتُ آيَـاتٍ لَهَـا فَعَـرَفْتُهَـا	لِسِتَّـةِ أَعْـوَامٍ وَذَا ٱلْعَـامُ سَـابِعُ

أَو [مثلَ] ما قالَ زهيرٌ [في « ديوانهِ » ٩ـ١٠ مِنَ الطَّويلِ] :

وَدَارٌ لَهَـا بِـٱلـرَّقْمَتَيْـنِ كَـأَنَّهَـا	مَرَاجِعُ وَشْمٍ فِيْ نَوَاشِرِ مِعْصَمِ
وَقَفْتُ بِهَا مِنْ بَعْدِ عِشْرِيْنَ حِجَّةً	فَلأْياً عَرَفْتُ ٱلدَّارَ بَعْدَ تَوَهُّمِ

الاشتياق قبل الفراق أَمَّا فَرْطُ الاشتياقِ معَ قربِ مدَّةِ الفراقِ : فإِنَّهُ ليسَ بِبِدْعٍ ؛ إِذْ قالَ الأَعرابيُّ [في « جمهرة الأمثال » ٢/ ٣٦٤ مِنَ الطَّويلِ] :

أَشَوْقاً وَلَمَّا تَمْضِ لِيْ غَيْرُ لَيْلَةٍ	فَكَيْفَ إِذَا جَدَّ ٱلْمَطِيُّ بِنَا عَشْرَا ؟

وقالَ أَحدُ بني العنبرِ [مِنَ الطَّويلِ] :

أَهَـٰذَا وَلَمَّـا تَمْـضِ لِلبَيْـنِ لَيْلَـةٌ	فَكَيْفَ إِذَا مَرَّتْ عَلَيْكَ شُهُوْرُ؟

وفي عكسِهِ : يقولُ شاعرُ المعرَّةِ [في « نفح الطيب » ٦/ ٩٣ مِنَ البسيطِ] :

أَبَعْدَ حَوْلٍ تُنَاجِيْ ٱلشَّوْقَ نَاجِيَةٌ ... هَلاَّ وَنَحْنُ عَلَىٰ عَشْرٍ مِنَ ٱلْعَشْرِ؟

إِنَّما البِدْعُ ٱنمحاءُ الآثارِ بعقبِ وقْتِ الارتحالِ ، إلاَّ أَنْ يُقالَ : إِنَّ بيوتَهم كانَتْ مِن شَعْرٍ ، يُعَفِّي أَثرَها أَوَّلُ ريحٍ تَهُبُّ ، وكيفَما كانَ الأَمرُ. . فالأَولىٰ في المعنىٰ ما قالهُ الواحديُّ : إِنَّهُ وقفَ عَليها ثلاثةَ أَيَّامٍ يناجي الدِّيارَ ، ويتشَّممُ الآثارَ ، علىٰ حدِّ قولِ أَبي نواسٍ ، الذي بالَغَ الجاحِظُ في الثَّنَاءِ عليهِ [في « المثل السائر » ٢/ ١١٤ مِنَ الطَّويلِ] :

وَدَارِ نَدَامَىٰ عَطَّلُوْهَا وَأَدْلَجُوْا ... بِهَا أَثَرٌ مِنْهُمْ جَدِيْدٌ وَدَارِسُ(١)

مَسَاحِبُ مِنْ جَرِّ ٱلزِّقَاقِ عَلَىٰ ٱلثَّرَىٰ ... وَأَضْغَاثُ رَيْحَانٍ جَنِيٌّ وَيَابِسُ(٢)

وَقَفْنَا بِهَا يَوْماً وَيَوْماً وَثَالِثاً ... وَيَوْماً لَهُ يَوْمُ ٱلتَّرَحُّلِ خَامِسُ

تُدَارُ عَلَيْنَا ٱلرَّاحُ فِيْ عَسْجَدِيَّةٍ ... حَبَتْهَا بِأَنْوَاعِ ٱلتَّصَاوِيْرِ فَارِسُ(٣)

قَرَارَتُهَا كِسْرَىٰ وَفِيْ جَنَبَاتِهَا ... مَهاً تَدَّرِيها بِٱلْقِسِيِّ ٱلْفَوَارِسُ(٤)

فَلِلرَّاحِ مَا زُرَّتْ عَلَيْهِ جُيُوْبُهَا ... وَلِلْمَاءِ مَا دَارَتْ عَلَيْهِ ٱلْقَلاَنِسُ

وقدِ ٱختُلِفَ في مدَّةِ الإِقامةِ المرادَةِ مِنَ البيتِ الثالث ، فقيلَ : سبعةُ أَيَّامٍ ؛ لأَنَّ اليومَ الذي يكونُ لهُ يومَ الترحُّلِ خامساً هُوَ الرابعُ ، وقيلَ : خمسةٌ ، والمرادُ يومُ الترحُّلِ خامِسَ الأَيَّامِ ، وقد نُسِبَ إِلىٰ الرابعِ لالتصاقِهِ بهِ ، وسنتكلَّمُ علىٰ هـٰذهِ الأَبياتِ فيما بعدُ .

---

(١) أَدلجوا : ساروا من أَوَّلِ الليلِ .
(٢) الزقاقُ : أَوعيةُ الخمرِ. أضغاثُ ريحانٍ ـ جمعُ ضِغْثٍ ـ والضغثُ : القبضةُ منهُ.
(٣) عسجديَّةٌ : ذهبيَّةٌ .
(٤) تدَّرِيها : تختِلُها لتصطادَها مِن دونِ أَنْ تشعرَ .

التعلل بآثار الحبيب لإطفاء ما في القلب من اللهيب.. سنَّة العرب

أَمّا الآنَ : فسنبدأُ بِما يناسِبُ البيتَ مِنَ التَّعَلُّلِ بالآثارِ ، وزيارةِ الأَطلالِ ، فما زالَتْ تلكَ سنَّةُ العرَبِ ، والحكمَةُ فيها أَنَّهم معَ سلامَةِ الفطرَةِ ، ورقَّةِ الطبْعِ ، وغلبَةِ الحُبِّ ، وصدْقِ الهوىٰ ، وتمَكُّنِ الأُلفَةِ.. كانوا رحَّالَةً في الأَغلبِ ، ينتجعونَ كلَّ حينٍ غيثاً ، ويرتادونَ كلَّ وقتٍ شِعْباً ، فإِذا جاءَ أَحبابُهم وقد تحمَّلوا.. عَكَفوا علىٰ آثارِهِم ، وتعلَّلُوا بما يتنسَّمونَ مِن روائِحِهم في آثارِهِم ، ويَجِدونَ في ذلكَ نوعاً مِنَ الوِصالِ ، ولِهـٰذا أَكثروا في أَشعارِهِم مِن ذِكرِ الأَطلالِ والديارِ ، قالَ امرؤُ القيسِ [في « ديوانهِ » ١٤٣ مِنَ الطَّويلِ] :

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَىٰ حَبِيْبٍ وَمَنْزِلِ ... بِسِقْطِ ٱللِّوَىٰ بَيْنَ ٱلدَّخُوْلِ فَحَوْمَلِ (١)

وقالَ [في « ديوانهِ » ١٧٢ مِنَ السَّريعِ] :

صُـمَّ صَـدَاهَـا وَعَفَـا رَسْمُهَـا ... وَٱسْتَعْجَمَتْ مِنْ مَنْطِقِ ٱلسَّائِلِ

وقالَ حميدُ بنُ ثورٍ [في « ديوانهِ » ٧ مِنَ الطَّويلِ] :

سَلِ ٱلرَّبْعَ أَنَّىٰ يَمَّمَتْ أُمُّ سَالِمٍ ... وَهَلْ عَادَةٌ لِلرَّبْعِ أَنْ يَتَكَلَّمَا ؟!

وقالَ أَعشىٰ وائِلٍ [في « ديوانهِ » ٢٨٣ مِنَ الخفيفِ] :

مَـا بُكَـاءُ ٱلْكَبِيْـرِ بِـٱلأَطْـلاَلِ ... وَسُـؤَالِـيْ وَمَـا تُجِيْـبُ سُـؤَالِـيْ

وقالَ النابغَةُ [الذبيانيُّ في « ديوانهِ » ٢٣٣ مِنَ البسيطِ] :

وَٱسْتَعْجَمَتْ دَارُ نُعْمٍ مَا تُكَلِّمُنَا ... وَٱلـدَّارُ لَـوْ كَلَّمَتْنَـا ذَاتُ أَخْبَـارِ

وقالَ بعضُ العربِ [مِنَ الطَّويلِ] :

يَقَرُّ لِعَيْنِيْ أَنْ أَرَىٰ مِنْ مَكَانِهَا ... ذُرَىٰ عُقُدَاتِ ٱلأَبْرَقِ ٱلْمُتَقَاوِدِ

---

(١) سقطُ اللِّوى : اسمُ موضعٍ ، وكذلك الدخول وحومل .

وَأَنْ أَرِدَ ٱلْمَاءَ ٱلَّذِي شَرِبَتْ بِهِ   سُلَيْمَىٰ إِذا مَلَّ ٱلسُّرَىٰ كُلُّ وَاحِدِ
وَأُلْصِقَ أَحْشَائِي بِبَرْدِ تُرَابِهِ   وَإِنْ كَانَ مَمْزُوجاً بِسُمِّ ٱلأَسَاوِدِ

وقالَ الصِّمَّةُ بنُ عبدِ اللهِ القُشيريُّ [في « ديوانه » ٧٣ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَمَّا نَزَلْنَا شِيْحَةَ ٱلرَّمْلِ أَعْرَضَتْ   وَلاَحَتْ لَنَا حُزْوَىٰ وَأَعْلاَمُهَا ٱلْغُبْرُ
شَرِبْنَا بِمَاءِ ٱلشَّوْقِ حَتَّىٰ كَأَنَّمَا   سَرَتْ فَٱسْتَقَرَّتْ فِيْ مَفَاصِلِنَا ٱلْخَمْرُ
وَظَلَّ بِعَيْنَيْكَ ٱللَّجُوجَيْنِ وَاكِفٌ   مِنَ ٱلدَّمْعِ أَنْ لا يَنْطِقَ ٱلطَّلَلُ ٱلْقَفْرُ
عَلاَمَ تَقُوْلُ ٱلْهَجْرُ يَشْفِيْ مِنَ ٱلْجَوَىٰ؟!   أَلاَ لاَ وَلَٰكِنْ أَوَّلُ ٱلْكَمَدِ ٱلْهَجْرُ

وقالَ بعضُ أَهلِ الجاهليَّةِ [في « طبقات ابن السبكي » ٣/٣١٨ مِنَ الوافرِ] :

أَمُرُّ عَلَىٰ ٱلدِّيَارِ دِيَارِ لَيْلَىٰ   أُقَبِّلُ ذَا ٱلْجِدَارَ وَذَا ٱلْجِدَارَا
وَمَا حُبُّ ٱلدِّيَارِ شَغَفْنَ قَلْبِيْ   وَلَٰكِنْ حُبُّ مَنْ سَكَنَ ٱلدِّيَارَا

وقالَ أَبو حيَّةَ [في « ديوانه » ١٠٠ـ١٠١ مِنَ الطَّويلِ] :

أَلاَ حَيِّ مِنْ أَجْلِ ٱلْحَبِيْبِ ٱلْمَغَانِيَا   لَبِسْنَ ٱلْبِلَىٰ مِمَّا لَبِسْنَ ٱللَّيَالِيَا
إِذَا مَا تَقَاضَىٰ ٱلْمَرْءَ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ   تَقَاضَاهُ شَيْءٌ لاَ يَمَلُّ ٱلتَّقَاضِيَا

وقالَ آخرُ مِنَ العَرَبِ [في « ديوان الحماسة » ٢/١١٨ مِنَ الطَّويلِ] :

أَرَىٰ كُلَّ أَرْضٍ أَوْطَنَتْهَا وَإِنْ خَلَتْ   لَهَا حِجَجٌ يَنْدَىٰ بِمِسْكٍ تُرَابُهَا

وخيرُ ما في البابِ علىٰ الإطلاقِ قولُ كُثيِّرِ عزَّةَ [في « ديوانه » ٩٥ مِنَ الطَّويلِ] :

خَلِيْلَيَّ هَٰذَا رَبْعُ عَزَّةَ فَٱعْقِلاَ   قَلُوْصَيْكُمَا ثُمَّ ٱحْلُلاَ حَيْثُ حَلَّتِ
وَمُسَّا تُرَاباً طَالَمَا مَسَّ جِلْدَهَا   وَبِيْتَا وَظَلاَّ حَيْثُ بَاتَتْ وَظَلَّتِ
وَلاَ تَيْأَسَا أَنْ يَقْبَلَ ٱللهُ مِنْكُمَا   إِذَا أَنْتُمَا صَلَّيْتُمَا حَيْثُ صَلَّتِ

وما سبق أَوائِلَ المجلسِ التاسعِ من قولِ بعضِهِم [وهو البحتري كما في «المثل السائر» ٢/ ٢٩١ مِنَ الخفيفِ] :

قِفْ مَشُوْقاً أَوْ مُسْعِداً أَوْ حَزِيْناً ... أَوْ مُعِيْناً أَوْ عَاذِراً أَوْ عَذُوْلاَ

وقالَ العكوَّكُ [مِنَ البسيطِ] :

خَلَّفْتِنِيْ نِضْوَ أَحْزَانٍ أُعَالِجُهَا ... بِالْجَزْعِ أَنْدُبُ فِيْ أَنْضَاءِ أَطْلاَلِ

وقالَ ذو الرُّمَّةِ [في «ديوانه» ٣/ ١٤٥١-١٤٥٣ مِنَ الطَّويلِ] :

قِفِ الْعِيْسَ فِيْ أَطْلاَلِ مَيَّةَ وَاسْأَلِ ... رُسُوْماً كَأَخْلاَقِ الرِّدَاءِ الْمُسَلْسَلِ

وَمَا يَوْمُ حُزْوَىٰ إِنْ بَكَيْتُ صَبَابَةً ... لِعِرْفَانِ رَبْعٍ أَوْ لِعِرْفَانِ مَنْزِلِ(١)

بِأَوَّلِ مَا هَاجَتْ لَكَ الشَّوْقَ دِمْنَةٌ ... بِأَجْرَعَ مِقْفَارٍ مُرِبٍّ مُحَلَّلِ(٢)

وقالَ [في «ديوانه» ٣/ ١٧١١ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا اسْتَحْلَبَتْ عَيْنَيْكَ إِلاَّ مَحَلَّةٌ ... بِجُمْهُوْرِ حُزْوَىٰ أَوْ بِجَرْعَاءِ مَالِكِ

وقالَ [في «ديوانه» ٢/ ٨٢١ مِنَ الطَّويلِ] :

وَقَفْتُ عَلَىٰ رَبْعٍ لِمَيَّةَ نَاقَتِيْ ... فَمَا زِلْتُ أَبْكِيْ عِنْدَهُ وَأُخَاطِبُهْ

وَأَسْقِيْهِ حَتَّىٰ كَادَ مِمَّا أَبُثُّهُ ... تُكَلِّمُنِيْ أَحْجَارُهُ وَمَلاَعِبُهْ

ويروىٰ [في «الأغاني» ١/ ٦١] : أَنَّ الوليدَ استقدَمَ معبداً علىٰ البريد ، وأَمَرَهُ أن يغنِّيه بهٰذِهِ الأبياتِ [مِنَ الكاملِ] :

يَا رَبْعُ مَا لَكَ لاَ تُجِيْبُ مُتَيَّمَا ؟ ... قَدْ عَاجَ نَحْوَكَ زَائِراً وَمُسَلِّمَا

---

(١) حُزوى : موضعٌ بالباديةِ .

(٢) الدِّمنة : آثارُ الناسِ وأطلالُهم . الأَجرعُ : الكثيبُ الليِّنُ . المقفارُ : الخالي من الأمكنةِ . مُرِبٌّ محلَّلٌ : يرُبُّ الناسَ ويجمعُهم .

جَادَتْكَ كُلُّ سَحَابَةٍ هَطَّالَةٍ حَتَّىٰ تُرَىٰ عَنْ زَهْرَةٍ مُتَبَسِّمَا
لَوْ كُنْتَ تَدْرِي مَنْ دَعَاكَ أَجَبْتَهُ وَبَكَيْتَ مِنْ حُرَقٍ عَلَيْهِ إِذاً دَمَا

فغنَّاهُ ، ووصلَهُ بعشرةِ آلافِ دينارٍ[1] ، وردَّهُ إلىٰ (المدينةِ) من وقتِهِ .

وقالَ أبو تمَّامٍ [في « ديوانهِ » ١/ ٣٢١ مِنَ الكاملِ] :

لاَ أَنْتَ أَنْتَ وَلا ٱلدِّيَارُ دِيَارُ خَفَّ ٱلنَّوىٰ وَتَقَضَّتِ ٱلأَوْطَارُ

وقالَ [في « ديوانهِ » ٢/ ٢٧١ مِنَ الطَّويلِ] :

قِفُوا جَدِّدُوا مِنْ عَهْدِكُمْ بِٱلْمَعَاهِدِ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَسْمَعْ لِنِشْدَانِ نَاشِدِ[2]

وقالَ [في « ديوانهِ » ٢/ ٨١ مِنَ الوافرِ] :

أَظُنُّ ٱلدَّمْعَ فِيْ خَدِّيْ سَيَبْقَىٰ رُسُوْماً مِنْ بُكَائِيْ فِي ٱلرُّسُوْمِ

وقالَ البُحتريُّ [في « ديوانهِ » ٣/ ٢٠٠٩ مِنَ الطَّويلِ] :

أَعَنْ سَفَهٍ يَوْمَ ٱلأُبَيْرِقِ أَمْ حِلْمِ وُقُوْفٌ بِرَبْعٍ أَوْ بُكَاءٌ عَلَىٰ رَسْمِ[3] ؟

وقالَ [في « ديوانهِ » ١/ ٢٤٦ مِنَ الكاملِ] :

تَأْبَىٰ ٱلْمَنَازِلُ أَنْ تُجِيْبَ وَمِنْ جَوىً يَوْمَ ٱلْفِرَاقِ دَعَوْتُ غَيْرَ مُجِيْبِ

وقالَ [في « ديوانهِ » ٣/ ١٩٢٣-١٩٢٤ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا شِئْتُ أُجْرِيْ أَدْمُعِيْ مِنْ شُؤُوْنِهَا رُبُوْعٌ لَهَا بِٱلأَبْرَقَيْنِ وَأَرْسُمُ
وَقَفْتُ بِهَا وَٱلرَّكْبُ شَتَّىٰ سَبِيْلُهُمْ يُفِيْضُوْنَ ، مِنْهُمْ : عَاذِرُوْنَ وَلُوَّمُ

---

(١) ولكن في « الأغاني » (١/ ٦١) خمسة عشر ألفاً .
(٢) المعاهد : المنازلُ يُرجَعُ إليها بعدَ فراقِها .
(٣) الأبيرقُ : موضعٌ .

هِـيَ ٱلـدَّارُ إِلاَّ أَنَّهـا لاَ تَكَلَّـمُ عَفَا مَعْلَمٌ مِنْهَا وَأَقْفَرَ مَعْلَمُ[1]

تُقَيِّضُ لِيْ ـ مِنْ حَيْثُ لاَ أَعلَمُ ـ ٱلنَّوَىٰ وَيَسْرِيْ إِليَّ ٱلشَّوْقُ مِنْ حَيْثُ أَعْلَمُ

وقالَ أَبو هنَّانَ [في « خزانة الأدب » ٢/ ٣٩١ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَوْ لَمْ تُصَافِحْ رِجْلُهَا صَفْحَةَ الثَّرَىٰ لَمَـا كُنْـتُ أَدْرِيْ عِلَّـةً لِلتَّيَمُّـمِ

وقد أَغارَ علىٰ هـٰذا شيخُنا أَبو بكرِ ٱبنُ شهابٍ في رثائِهِ لسيِّدِنا الحسينِ .

وأَوَّلُ من بكىٰ علىٰ الآثارِ رجلٌ مِنَ العربِ ، يقالُ لَهُ : ٱبنُ حِذامٍ ، بشهادةِ قولِ ٱمرىءِ القيسِ [في « ديوانه » ٢٠٠ مِنَ الكاملِ] :

عُوْجَا عَلَىٰ ٱلطَّلَلِ ٱلْمُحِيْلِ لَعَلَّنَا نَبْكِيْ ٱلدِّيَارَ كَمَا بَكَىٰ ٱبْنُ حِذَامِ[2]

وقد تكرَّرَ في « ديوانِ الناظمِ » ذكرُها ، والبكاءُ عليها ، والاستشْفاءُ بِها ، والوقوفُ عندَها ، فقالَ [في « العُكبَرِيِّ » ٣/ ٣٢٨ مِنَ الطَّويلِ] :

بَلِيْتُ بِلَىٰ ٱلأَطْلاَلِ إِنْ لَمْ أَقِفْ بِهَا وُقُوْفَ شَحِيْحٍ ضَاعَ فِيْ ٱلتُّرْبِ خَاتَمُهْ

---

(١) المَعْلمُ : ما يُستدلُّ بِهِ على الطريقِ . عَفَا : ٱنمحىٰ وذهبَ . أَقْفَرَ : خلا .

(٢) قيل لأبي عبيدةَ : هل قالَ أحدٌ الشعرَ قبلَ ٱمرِىءِ القيسِ ؟ قال : نعم ، قدم علينا رجالٌ من باديةِ بني جعفرِ بنِ كلابٍ فكنَّا نأْتيهم فنكتبُ عنهم ، فقالوا : ممن ابن خدام ؟ قلنا : ما سمعنا به ! قالوا : بلى قد سمعنا به ورجونا أن يكونَ عندكم منهُ علمٌ ؛ لأنكم أهلُ أَمصارٍ ، ولقد بكىٰ في الرملِ قبل ٱمرىءِ القيسِ ، وقد ذكرهُ في شعرهِ حيث يقول : وأنشدوا بيتهُ . وابن حِذَامٍ وخِدامٍ وخَذَامٍ واحدٌ .

وقالَ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٣٧٧ مِنَ البسيطِ] :

بَكَيْتُ يَا رَبْعُ حَتَّىٰ كِدْتُ أَبْكِيكَا ... وَجُدْتُ بِيْ وَبِدَمْعِيْ فِيْ مَغَانِيْكَا[1]

فَعِمْ صَبَاحاً فَقَدْ هَيَّجْتَ لِيْ شَجَناً ... وَارْدُدْ تَحِيَّتَنَــا إِنَّــا مُحَيُّــوْكَــا

وقالَ [في « العُكبَريّ » ٣/ ١٩٢ مِنَ الخفيفِ] :

قِفْ عَلَىٰ ٱلدِّمْنَتَيْنِ بِٱلدَّوِّ مِنْ رَيَّـ ... ـا كَخَالٍ فِيْ وَجْنَةٍ جَنْبَ خَالِ[2]

بِطُلُــوْلٍ كَــأَنَّهُــنَّ نُجُــوْمٌ ... فِــيْ عِـرَاصٍ كَـأَنَّهُـنَّ لَيَـالِـيْ

وقالَ [في « العُكبَريّ » ٤/ ٦ ـ ٧ مِنَ الكاملِ] :

ذِكْــرُ ٱلصِّبَــا وَمَــرَابِــعُ ٱلآرَامِ ... جَلَبَتْ حِمَامِيْ قَبْلَ وَقْتِ حِمَامِيْ

دِمَنٌ تَكَاثَرَتِ ٱلْهُمُوْمُ عَلَيَّ فِيْ ... عَـرَصَـاتِهَـا كَتَكَـاثُـرِ ٱللُّـوَّامِ

وَكَأَنَّ كُلَّ سَحَابَةٍ وَكَفَتْ بِهَا ... تَبْكِيْ بِعَيْنَيْ عُرْوَةَ بْنِ حِزَامِ[3]

وقالَ [في « العُكبَريّ » ٣/ ٢٩٩ ـ ٣٠٠ مِنَ الكاملِ] :

أَثْلِــثْ فَــإِنَّــا أَيُّهَــا ٱلطَّلَــلُ ... نَبْكِـيْ وَتُـرْزِمُ تَحْتَنَـا الإِبِـلُ[4]

لَـوْ كُنْـتَ تَنْطِـقُ قُلْـتَ مُعْتَـذِراً ... بِـيْ غَيْـرُ مَا بِـكَ أَيُّهَا ٱلـرَّجُلُ

وقالَ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٢٥٠ مِنَ الوافرِ] :

أُسَــائِلُهَــا عَــنِ ٱلمُتَـدَيِّـرِيْهَــا ... فَمَـا تَـدْرِيْ وَلاَ تُـذْرِيْ دُمُـوْعَـا

---

(١) المغاني ـ جمعُ مغنىً ـ : وهوَ المنزلُ الذي كانَ بهِ أهلُهُ .

(٢) الدَّوُّ : الأرضُ الواسعةُ القفرةُ المستويةُ .

(٣) عروة بن حزام : هو صاحب عفراء ، وهو أحد العشاق المشهورين ؛ والمعنى : أن كثرة الأمطار التي أشبهت دموع هذا العاشق أذهبت آثار الديار .

(٤) الإرزامُ : حنينُ الإبلِ .

وقالَ [في « العُكبَريّ » ١/ ٢٦٩ مِنَ الطَّويلِ] :

مَـرَرْتُ عَلَـىٰ دَارِ ٱلْحَبِيْـبِ فَحَمْحَمَـتْ جَوَادِيْ وَهَلْ تُشْجِيْ ٱلْجِيَادَ ٱلْمَعَاهِدُ[1]؟

وقالَ [في « العُكبَريّ » ٤/ ١١١ مِنَ الطَّويلِ] :

وَدُسْنَـا بِـأَخْفَـافِ ٱلْمَطِـيِّ تُـرَابَهَـا فَمَا زِلْتُ أَسْتَشْفِيْ بِلَثْمِ ٱلْمَنَاسِمِ[2]

وهٰذا شبيهٌ بقولِهِ مِنَ الأُخرىٰ [في « العُكبَريّ » ٣/ ١٩٧ مِنَ الخفيفِ] :

فَخُذَا مَاءَ رِجْلِهِ وَٱنْضَحَا فِيْ ٱلْـ ـمُدْنِ تَـأْمَـنْ بَـوَائِـقَ ٱلـزِّلْـزَالِ
وَٱمْسَحَا ثَـوْبَـهُ ٱلْبَقِيْـرَ عَلَـىٰ دَا ئِكُمَـا تُشْفَيَـا مِـنَ ٱلأَعْـلاَلِ[3]

وقالَ [في « العُكبَريّ » ١/ ٥٦ ـ ٥٧ مِنَ الطَّويلِ] :

وَكَيْفَ عَرَفْنَا رَسْمَ مَنْ لَمْ يَدَعْ لَنَا فُؤَاداً لِعِرْفَانِ ٱلرُّسُوْمِ وَلا لُبَّا ؟
نَزَلْنَا عَنِ ٱلأَكْوَارِ نَمْشِيْ كَرَامَةً لِمَنْ بَانَ عَنْهُ أَنْ نُلِمَّ بِهِ رَكْبَا[4]
نَذُمُّ ٱلسَّحَابَ ٱلْغُرَّ فِي فِعْلِهَا بِهِ وَنُعْرِضُ عَنْهَا كُلَّمَا طَلَعَتْ عَتْبَا

وقولُهُ : (نَزَلْنَا عَنِ ٱلأَكْوَارِ . . . إلىٰ آخرِهِ) : مأخوذٌ مِن صنيعِ إمامِ دارِ الهجرَةِ ، فقد روِيَ أَنَّ الإمامَ الشافعيَّ كانَ عندَهُ ، فرأَىٰ علىٰ بابِهِ خيلاً وكراعاً أُهديَتْ لَهُ ، فجعلَ يحدُّ النظرَ إليها ، ويكثرُ التأمُّلَ ؛ استحساناً لَها ، واغتباطاً بِها ، ولَمَّا عرفَ الإمامُ مالكٌ امتدادَ عينِهِ إليها . . قالَ لَهُ : هِيَ كلُّها لكَ ، قالَ لَهُ : لَو أَبقيتَ

---

(١) الحَمحمةُ : دونَ الصهيلِ . الجوادُ : الفرسُ الذكرُ والأُنثى .
(٢) المَنسِمُ : الخُفُّ .
(٣) البقيرُ : ثوبٌ لا كُمَّ له ، وهو الذي يلبسُهُ الصبيانُ ، ويُلبَسُ للأمواتِ عندَ التكفينِ .
(٤) الأكوار ـ جمعُ كُورٍ ـ : وهو رحلُ الناقةِ .

لِنفسكَ مِنها دابَّةً ، قالَ : أَستَحْيي أَن أَطأَ تربةً سارَ فيها سيِّدُ البشَرِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ بحافِرِ دابَّةٍ[1] .

وتعلَّقَ بِهِ السريُّ الرفَّاء فأَحسنَ الاتِّباعَ ، وذلكَ حيثُ يقولُ [في « ديوانه » ٣٤٨ مِنَ ٱلكاملِ] :

حُيِّيْتَ مِنْ طَلَلٍ أَجابَ دُثُوْرُهُ   يَوْمَ ٱلْعَقِيْقِ سُؤَالَ دَمْعٍ سَائِلِ
نَخفَىٰ وَنَنْزِلُ وَهْوَ أَعْظَمُ حُرْمَةً   مِنْ أَنْ يُذَالَ بِرَاكِبٍ أَوْ نَاعِلِ

وللهِ درُّ شيخِنا ٱبنِ شهابٍ إِذْ يقولُ عَن مدينةِ (تريمَ) [مِنَ الطَّويلِ] :

إِذا نَحْنُ زُرْنَاهَا وَجَدْنَا تُرَابَهَا   يَفُـوْحُ لَنَـا عَـنْ عَنْبَـرٍ مُتَنَفِّـسِ
وَنَمْشِيْ حُفَاةً فِيْ ثَرَاهَا تَأَدُّباً   نَـرَىٰ أَنَّنَـا نَمْشِـيْ بِـوَادٍ مُقَـدَّسِ

ومرَّ بعضُ ما يتَّصِلُ بهِ أَواخِرَ المجلسِ الثاني في الكلامِ علىٰ قولِهِ [في « العُكبَريِّ » ١/٣٠١ مِنَ المنسرحِ] :

لاَ نَـاقَتِـيْ تَقْبَـلُ ٱلـرَّدِيْـفَ وَلاَ   بِٱلسَّوْطِ يَوْمَ ٱلرِّهَانِ أُجْهِدُهَا

وقالَ المعريُّ [في « سقطِ الزندِ » ٦٣ مِنَ الطَّويلِ] :

أَمُـرُّ بِـرَبْـعٍ كُنْـتَ فِيْـهِ كَـأَنَّمَـا   أَمُرُّ مِنَ ٱلإِكْرَامِ بِٱلْحِجْرِ وَٱلرُّكْنِ

وقالَ ٱلإِمامُ الشِّبْليُّ [في « نفحِ الطِّيبِ » ١/٤١ـ٤٢ مِنَ ٱلخفيفِ] :

قُلْتُ لِلْقَلْبِ مُذْ تَرَاءَىٰ لِعَيْنِيْ   رَسْـمُ آثَـارِهِـمْ فَهَـاجَ ٱشْتِيَـاقِـيْ
هَـٰـذِهِ دَارُهُـمْ وَأَنْـتَ مُحِـبٌّ   مَـا بَقَـاءُ ٱلـدُّمُـوْعِ فِـيْ ٱلآمَـاقِ
فَٱلْمَغَانِيْ لِلْصَبِّ فِيْهَا مَعَانِيْ   وَهْيَ تُدْعَىٰ مَصَارِعَ ٱلْعُشَّاقِ
حُلَّ عَقْدَ ٱلدُّمُوْعِ وَٱحْلُلْ رُبَاهَا   وَٱتْرُكِ ٱلصَّبْرَ وَٱقْضِ حَقَّ ٱلْفِرَاقِ

(١) وهكذا شأن الأئمة الفضلاء مع جلالة الرسول الأعظم صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم .

وقالَ بعضُ شعراءِ ٱلأَندلُسِ [وهو محمد بن سفر كما في « نفح الطيب » ٣/ ٢١١ مِنَ الطَّويلِ] :

وَجَاءَتْ كَمَا يَمْشِيْ سَنَا ٱلصُّبْحِ فِيْ ٱلدُّجَىٰ   وَطَوْراً كَمَا يَمْشِيْ ٱلنَّسِيْمُ عَلَىٰ ٱلنَّهْرِ
فَتَابَعْتُ بِٱلتَّقْبِيْلِ آثَارَ مَشْيِهَا   كَمَا يَتَقَصَّىٰ كَاتِبٌ أَحْرُفَ ٱلسَّطْرِ

وما أَحسنَ قولَ بعضِ المتأَخِّرينَ! [مِنَ الطَّويلِ] :

بَكَىٰ ٱلنَّاسُ أَطْلاَلَ ٱلدِّيَارِ وَلَيْتَنِيْ   وَجَدْتُ دِيَاراً لِلدُّمُوْعِ ٱلسَّوَاكِبِ

وهوَ مِن قولِ عبدِ المحسنِ الصوريِّ [مِنَ الطَّويلِ] :

رَهِيْنَةُ أَحْجَارٍ بِبَيْدَاءَ دَكْدَكٍ   تَوَلَّتْ فَحَلَّتْ عُرْوَةَ ٱلْمُتَهَتِّكِ[١]
وَقَدْ كُنْتُ أَبْكِيْ إِنْ تَشَكَّتْ وَإِنَّمَا   أَنَا ٱلْيَوْمَ أَبْكِيْ أَنَّهَا لَيْسَ تَشْتَكِيْ

وقد لاذَ فيهِ بقولِ الناظمِ [في « العُكبَرِيِّ » ١/ ١٤ مِنَ الكاملِ] :

وَشَكِيَّتِيْ فَقْدُ ٱلسَّقَامِ لأَنَّهُ   قَدْ كَانَ لَمَّا كَانَ لِيْ أَعْضَاءُ

شدة احترام السلطان عبد الحميد لآثار النبي ﷺ

ويُعجبُني ما أَخبرني بهِ السيِّدُ الثقةُ عبدُ اللهِ بنُ عبدِ الرحمـٰنِ بنِ طاهرٍ ، عَنِ السُّلطانِ عبدِ الحميدِ : أَنَّهُ كانَ عندَهُ فردُ نعلٍ مِن نِعالِهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ، فذُكِرَتْ لهُ أُختُها عندَ رجلٍ مِن أَهلِ (المغرِبِ) ، فَثامَنَهُ بِها حتَّىٰ ٱستقرَّ الثمنُ ، وتمَّ الكلامُ علىٰ ما يتمنَّاهُ البائعُ ، فأَرسَلَ لهُ عدَّةَ مراكِبَ ، ولمَّا جاءَ . . ٱستقبلَهُ في موكبِهِ الضخمِ الفخْمِ الشائِقِ ، حافيَ القدَمِ ، حاسِرَ الرأْسِ ، وقد فرشَ الطريقَ بالسجادِ ، فقيلَ لهُ : إِنَّكَ لم تتحقَّقْ صحَّةَ النسبةِ بعدُ ، فقالَ : قد قيلَ : إِنَّها نعلُ رسولِ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ،

---

(١) الدكدكُ : الرملُ المتلبِّدُ .

وحاشىٰ أَنْ أَستقبِلَ ما نُسِبَ إِليهِ إِلاَّ علىٰ أَبلغِ ما يكونُ من شاراتِ الإِجْلالِ والتعْظيمِ .

ثمَّ لا أَدري ، هَلْ كانَت حَذْوَ التي عندَهُ فتمَّ البيْعُ ، أَمْ لا .

وحسبُكَ أَنَّ جِلدَ المصحَفِ يحرمُ مسُّهُ مَعَ الحدَثِ ، ويبقىٰ لَهُ شرفُهُ حتَّىٰ بعدَ الانفصالِ ، علىٰ خلافٍ ليسَ هٰذا موضِعَ ذكرِهِ ، وقد وفَّينا مبحثَ الآثارِ والتبرُّكِ بِها حقَّهُ في كتابِنا : « **بَلاَبِلِ ٱلتَّغْرِيْدِ** » .

كيفية شرب الخمر وجلساتها

أَمَّا قولُ أَبي نواسٍ السابقُ : (قرارَتُها كِسْرَىٰ . . . إِلىٰ آخرِ البيتين) . . فمعناهُ : أَنَّ في قرارَةِ الكَأْسِ صورةَ كسرىٰ ، وأَنَّ في جوانِبِها صورَ بقرٍ وحشيَّةٍ مِن جِهَةٍ ، وصورَ فرسانٍ تصوِّبُ قِسيَّهَا إِلىٰ تلكَ البقرِ في الجهَةِ الأُخرىٰ ، وأَنَّ صرفَ الرَاحِ يبلغُ إِلىٰ جيوبِ الفرسانِ ، وأَنَّ الماءَ الذي يرادُ للمزجِ بمقدارِ ما يواري رؤُوسَهم ، وقد سبقَ إِلىٰ بعضِ ذلكَ الملِكُ الضِّلِّيلُ [امرؤُ القيسِ] في قولِهِ [في « ديوانه » مِنَ الطَّويلِ] :

فَلَمَّا ٱسْتَطَابُوْا صُبَّ فِيْ ٱلْكَأْسِ نِصْفُهُ   وَجَـاؤُوْا بِمَـاءٍ لاَ بِطَـرْقٍ وَلاَ كَـدْرِ

وَلَنا أَنْ نتساءَلَ : أَيُّ الشيخينِ أَكبرُ حالاً ، وأَبعدُ همَّةً ؟ أَأَبو مديَنَ في قولِهِ [مِنَ الطَّويلِ] :

أَدِرْهَا لَنَا صِرْفاً وَدَعْ مَزْجَهَا عَنَّا   فَإِنَّا أُنَاسٌ لاَ نَرَىٰ ٱلْمَزْجَ مُذْ كُنَّا

أَمْ سلطانُ العاشقينَ في قولِهِ [في « ديوانهِ » ١٤٣ مِنَ الطَّويلِ] :

أَدِرْهَا لَنَا صِرْفاً وَإِنْ شِئْتَ مَزْجَهَا   فَعَدْلُكَ عَنْ ظَلْمِ ٱلْحَبِيْبِ هُوَ ٱلظُّلْمُ(١)

---

(١) الظَّلْمُ : الريقُ .

فلِلاحْتِمالاتِ مَجَالٌ ، ولكلٍّ مقام رجالٌ ، فلنقِفْ عندَ الحدِّ ، ولْنَرْبَعْ علىٰ الضِّلَعِ ، ولْنَتَأخَّر حيثُ أَخَّرَنا القدَرُ ، أَمَّا الباري جلَّ شأْنُهُ : فقد أخبرَ بأَنَّ المقرَّبينَ يشربونَ سِلافَها صِرفاً ، وأَنَّ الأَبرارَ يتناولونَها مزيجَةً ، فقالَ تقدَّستْ أَسماؤُهُ :

﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾ الإنسان : ٥ـ٦].

وقالَ : ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ * عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ * تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ * يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ * خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ * وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾

[المطففين : ٢٢ـ٢٨] .

ومن المطرِبِ ـ فيما يتعلَّقُ بأَبياتِ أَبي نُواسٍ ـ قولُ بعضِ شعراءِ الأَندلُسِ [وهو غالب بن رباح كما في « نفح الطيب » ٣/ ٤٠٥ مِنَ الطَّويلِ] :

وَكَأْسٍ يُرَىٰ كِسْرَىٰ بِهَا فِيْ قَرارَةٍ   غَرِيْقاً وَلَـٰكِنْ فِيْ زُلَالٍ مِنَ ٱلْخَمْرِ
وَمَا صَوَّرَتْهُ ٱلْفُرْسُ عَنْ عَبَثٍ بِهَا   وَلَـٰكِنْ لِمَعْنَىً فِيْهِ أَخْفَىٰ مِنَ ٱلسِّحْرِ
أَرَادُوْا لَهُ مَا ٱعْتَادَهُ فِيْ حَيَاتِهِ   فَنُوْمِيْ إِلَيْهِ بِٱلسُّجُوْدِ وَلاَ نَدْرِيْ

وقالَ أَبو نواسٍ [في « ديوانهِ » ٥٢٤ مِنَ الطَّويلِ] :

بَنَيْنَا عَلَىٰ كِسْرَىٰ سَمَاءَ مُدَامَةٍ   مُكَلَّلَـةٍ حَـافَـاتُهَـا بِنُجُـوْمِ[1]
فَلَوْ رُدَّ فِيْ كِسْرَىٰ بْنِ سَاسَانَ رُوْحُهُ   إِذاً لاصْطَفَـانِـيْ دُوْنَ كُـلِّ نَـدِيْـمِ

---

(١) المرادُ بالنجومِ : الفقاقيعُ التي تعلو الكأْسَ .

وممَّا يُعزىٰ إليهِ [كما في « خزانة الأدب » ١/ ٣٩٢ مِنَ الطَّويلِ] :

وَحَمْرَاءَ قَبْلَ ٱلمَزْجِ صَفْرَاءَ بَعْدَهُ ... أَتَتْ بَيْنَ ثَوْبَيْ نَرْجِسٍ وَشَقَائِقِ
حَكَتْ وَجْنَةَ ٱلْمَعْشُوْقِ صِرْفاً فَسَلَّطُوْا ... عَلَيْهَا مِزَاجاً فَٱكْتَسَتْ لَوْنَ عَاشِقِ

والأَكثرُ يعزونَها إلىٰ ٱبنِ دريدٍ ، ولبعضِهم فيها منامٌ طويلٌ ، حاصلُهُ [بنحوه في « وفيات الأعيان » ٤/ ٣٢٧] : أَنَّ بعضَهم ٱنتقدَ فيهِ علىٰ قائِلِها التشويشِ[1] ؛ إذ قدَّمَ الحمرَةَ علىٰ الصفرَةِ أَوَّلاً ، ثمَّ قدَّمَ الصفرَةَ علىٰ الحمرَةِ في ذكرِ النرجِسِ قبلَ الشقائِقِ ، وأَنَّ قائِلَها قالَ للمعترِضِ : إلىٰ هٰذا الحدِّ تحاسِبُني يا بغيضُ ؟

وقالَ السريُّ الرَّفَّاءُ [في « ديوانه » ٣٣١ مِنَ الطَّويلِ] :

ومَـوْسُـوْمَـةٍ كَـاسَـاتُـهَـا بِفَـوَارِسٍ ... مِنَ ٱلْفُرْسِ تَطْفُوْ فِيْ ٱلْمُدَامِ وَتَغْرَقُ
أُقَبِّـلُ مِنْـهُ كُـلَّ شَـاكٍ سِـلاَحَـهُ ... وَفِـيْ يَـدِهِ سَهْـمٌ إِلَـيَّ مُفَـوَّقُ

وصف المؤلف لمجالس شرب الشاي

وقد سبقَ في المجلسِ التاسعِ بعضُ ما يتعلَّقُ بالرَّاحِ ، ولأَهلِ بلادِنا ولَعٌ شديدٌ بشربِ الشايِ ، وتأَنُّقٌ كثيرٌ في طبخِهِ وإِدارتِهِ ، وأَنا وإِنْ كنْتُ لا أُحبُّهُ . . فإِنَّني أُجاريهم في ٱستعمالِهِ ، وأَنبسطُ كثيراً بمجلسِهِ ، ولي فيهِ عدةُ مقاطيعَ ؛ إذ قلَّ ما يُقترَحُ عليَّ في وصفِهِ إلاَّ بادرْتُ بِمَا يفتحُ اللهُ بهِ ، فمِنْ ذلكَ قولي في صفةِ يومٍ غامَتْ شَمْسُهُ ، وذهَبَ نحسُهُ ، وطابَ لَنا علىٰ طبخِهِ أُنْسُهُ [في « ديوانِ المؤلف » ٣٦ مِنَ الطَّويلِ] :

---

(١) التَّشويشُ : ٱلتَّخليطُ ، لٰكنْ قالَ في « ٱلقاموس » : وٱلتَّشويشُ وٱلمشوَّشُ وٱلتشوُّشُ كلُّها لحنٌ ووهمٌ ، ٱلجوهريُّ : وٱلصَّوابُ ٱلتَّهويشُ. اهـ. ولذا قال في «المعجَم الوسيط» : ٱلتَّشويشُ : ٱلتَّخليطُ ، وقيلَ : ٱلتَّشويشُ مِنْ كلامِ المولَّدينَ .

وَيَوْمٍ كَإِبْهَامِ ٱلْحُبَارَىٰ مِنَ ٱلأُنْسِ　　قَضَيْتُ بِهِ فِي ٱلطِّيْبِ مَا تَشْتَهِي نَفْسِي[1]
عَلَىٰ قَهْوَةٍ تَنْفِي ٱلْهُمُوْمَ وَتَجْلِبُ ٱلسُّـ　　ـرُوْرَ وَلاَ تَجْنِي عَلَىٰ ٱلْعَقْلِ وَٱلْحِسِّ
لَهَا صِبْغَةٌ مِنْ عَنْدَمٍ قَبْلَ مَزْجِهَا　　بِمَاءٍ وَبَعْدَ ٱلْمَزْجِ صَفْرَاءُ كَٱلْوَرْسِ[2]
زُجَاجَاتُهَا كَٱلْمَاءِ صَفْواً وَرِقَّةً　　وَلُطْفاً أَتَتْ مِنْ صَنْعَةِ ٱلرُّوْمِ وَٱلْفُرْسِ
تَشُقُّ عَجَاجَ ٱلْمُوْجِعَاتِ بِأَدْهَمٍ　　وَوَرْدٍ يُطَارِدْنَ ٱلْكُرُوْبَ فَلاَ تُمْسِيْ
وَمِنْ لَبَنٍ حِيْناً يَكُوْنُ مِزَاجُهَا　　لَهُ رَغْوَةٌ مِثْلَ ٱلنَّدِيْفِ مِنَ ٱلْبُرْسِ[3]
عَلَىٰ ٱلْيُمْنِ وَٱلإِقْبَالِ فِيْ ظِلِّ رَوْضَةٍ　　وَعَيْنِيْ مِنَ ٱلنُّدْمَانِ فِيْهَا إِلَىٰ خَمْسِ
كِتَابٍ وَبُسْتَانٍ وَكَأْسٍ وَقَيْنَةٍ　　وَسَيِّدَةٍ مِن دُوْنِهَا طَلْعَةُ ٱلشَّمْسِ

ومنهُ في يومٍ قضيناه غِبَّ سماءٍ في روضَةٍ مِن النخْلِ دانيةِ الجَنَىٰ [في « ديوان المؤلف » ق ١٨٤ مِنَ ٱلخفيفِ] :

فِيْ مَرَاحِ ٱلصِّبَا وَمَرعَىٰ ٱلأَمَانِيْ　　وَٱبْتِسَامِ ٱلْهَوَىٰ وَطِيْبِ ٱلزَّمَانِ
هَاتِهَا تَطْرُدُ ٱلْهُمُومَ وَتَسْتَدْ　　عِيْ ٱلْمَسَرَّاتِ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ
فِيْ رِيَاضٍ مِنَ ٱلنَّخِيْلِ تَلاَقَىٰ ٱلْـ　　ـمَاءُ فِيْهَا مِنَ ٱلسَّمَا وَٱلسَّوَانِيْ[4]
بَاسِمَاتٍ ثُغُوْرُهَا تَتَبَارَىٰ　　فِيْ حَفِيْفٍ مُعَبِّرٍ عَنْ تَهَانِيْ
تَمْلأُ ٱلْعَيْنَ قُرَّةً بِٱجْتِلاَهَا　　فِيْ جَنَاهَا كَحَالِيَاتِ ٱلْغَوَانِيْ[5]

---

(١) إبهامُ الحبارىٰ : كنايةٌ عَن قِصَرِ الوقتِ .
(٢) العندمُ : الدمُ . الورسُ : نبتٌ أصفرُ يكونُ في (اليمنِ) ، تُتَّخذُ منه طلاء للوجهِ .
(٣) البُرسُ : القطنُ .
(٤) السواني : ـ جمع سانية ـ : وهي آلة تستعمل لرفع الماء من منخفض بواسطة دابة تديرها ، وهي موجودة إلى الآن بريف (مصر) .
(٥) الحالياتُ : لابساتُ الحُليِّ .

يُشبِهُ ٱلأَصفَرُ ٱلْمُنَاصِفُ مِنهَا   مَنظَرَ ٱلشَّاي فِيْ ٱنْتِصافِ ٱلدِّنَانِ
وَنُهُوْدُ ٱلدُّمَىٰ ٱلْمُذَنَّبُ يَحْكِيْـ   ـهَا فَكَمْ مِنْ تنَاسُبِ وَٱفْتِنَانِ
وَتَكَـادُ ٱلْقُلُـوْبُ تَنشَـقُّ مِمَّـا   فِـي تَـدَلِّيْ قِنْـوانِهَـا مِنْ حَنَـانِ
هَـٰكَـذَا ٱلأُمَّهَـاتُ يَفعَلْـنَ بِـالأَبْـ   ـنَاءِ فَٱلسِّرُّ غَيْرُ خَافِيْ ٱلْمَعَانِيْ
كُلَّمَـا حَـرَّكَ ٱلنَّسِيْـمُ غُصُـوْنـاً   زَادَ طِيْباً أَرِيْجُ تِلْكَ ٱلْمَغَانِيْ
وَإِذَا حَـاكَـتِ ٱلْمِيَـاهُ نَسِيْجـاً   يَتَـلاشَـىٰ ٱلتَّـأَنُّـقُ ٱلْخُسْـرُوَانِـيْ
طِبْنَ مَـرأىً وَمَسْمَعـاً وَمَـذَاقـاً   وَخَيَـالاً بِـذِكْـرَيَـاتِ حِسَـانِ
مَلْعَبُ ٱللَّهْوِ مَسْقَطُ ٱلرَّأسِ مجْنَىٰ   ثَمَـرَاتِ ٱلنُّهَـىٰ ٱلشَّهِـيِّ ٱلْمَجَـانِـيْ
مَهْبَطُ ٱلنُّوْرِ مَرْبَعُ ٱلْحُوْرِ مَأْوَىٰ ٱلسَّـ   ـعْـدِ مِـنْ هَـاشِـمٍ سِبَـاطِ ٱلبَنَـانِ
سَـادَةٌ يَمْـلأُ ٱلـزَّمَـانَ سَنَـاهُـمْ   بَهجَـةً مِـنْ فُـلاَنَـةٍ وَفُـلاَنِ
فَـٱسْقِنِيْهَـا بِغَيْـرِ إِثْـمٍ شَمُـوْلاً   تُطْلِقُ ٱلْعَقْلِ فِيْ رَقِيْقِ ٱلأَوَانِيْ
بَيْنَ سِحرٍ مِنَ ٱلْحَدِيْثِ حَلاَلٍ   وأغَـارِيْـدِ بُلْبُـلٍ وَأَغَـانِـيْ
صِـرْفَـةً أَوَّلاً وَلاَ بَـأْسَ بِـالْمَـزْ   جِ وَلاَ سِيَّمَـا لِتَعْجِيْـلِ ثـانِـيْ
هَـاتِهَـا مِـنْ شَقَـائِـقٍ ثُـمَّ إِنْ مَـا   لَتْ بِرَأْسِيْ فَمِنْ خُدُودِ ٱلقِيَانِ
إِنَّمَـا ٱلْعَيْـشُ رَوْضَـةٌ وَمُـدَامٌ   وَكَـلامٌ عَلَـىٰ بِسَـاطِ ٱلأَمَـانِ
وَشِـوَاءٌ بِجَنْبِـهِ رُطَـبٌ غَـ   ـضٌّ لَـذِيْـذٌ مُنَـوَّعُ ٱلأَلْـوَانِ
وَإِذَا زَادَ بَعْـدَ ذَلِـكَ شَيْئـاً   فَدَلاَلُ ٱلدُّمَىٰ وَشَجْوُ ٱلْمَثَانِيْ
فِيْ صُعُوْدٍ مِنَ ٱلسُّعُوْدِ ٱخْتَلَسْنَا   لَـذَّةَ ٱلْيَـوْمِ مِـنْ نَعِيْـمِ ٱلجِنَـانِ

ومنهُ أَيضاً في صفةِ يومٍ آخرَ [في «ديوان المؤلف» ق ٣٧ مِنَ البسيطِ] :

مَا كَادَ يَلْتَفُّ فِيْ ذَيْلِ ٱلدُّجَىٰ ٱلْقَبَسُ   إِلاَّ وَصَحْبِيْ إِلَىٰ حَيِّ ٱلدُّمَىٰ لَبِسُوْا
إِلَىٰ رِيَاضٍ قَدِ ٱلتَفَّتْ خَمَائِلُهَا   يَكَادُ فِيْهَا خَرِيْقُ ٱلرِّيْحِ يَحْتَبِسُ

يُسَافِرُ ٱلطَّرْفُ فِيْ أَقْطَارِهِنَّ عَلَىٰ ... تَأَشُّبٍ فَهُنَاكَ ٱلضَّوْءُ وَٱلْغَلَسُ[1]
شَجْرَاءُ رَقَّتْ حَوَاشِيهَا وَزَيَّنَهَا ... زَهْرُ ٱلرَّبِيْعِ وَعَذْبُ ٱلْمَاءِ يَنْبَجِسُ
فَلِلْجَدَاوِلِ فِيْ حَافَاتِهَا زَجَلٌ ... وَلِلْفَوَاخِتِ فِيْ أَفْنَانِهَا جَرَسُ[2]
يَبْكِيْ ٱلْحَمَامُ وَيَرْفَضُّ ٱلْغَمَامُ وَتُسْـ ... ـتَجْلَىٰ ٱلْمُدَامُ وَلاَ وَاشٍ وَلاَ حَرَسُ
عَلَىٰ ٱلأَغَانِيْ وَشَيْءٍ مِنْ خَصَائِصِهِ ... جَلْبُ ٱلسُّرُوْرِ وتَنْبِيْهِ ٱلْهَوَىٰ جَلَسُوْا
كَمَا يُذَابُ ٱلنُّضَارُ ٱلصِّرْفُ رَوْنَقُهُ ... وَلاَ صُـدَاعٌ وَلاَ إِثْـمٌ وَلاَ هَـوَسُ
يُذْكِيْ ٱلْجَوَىٰ بِلَهِيْبٍ فِيْ ٱلزُّجَاجِ لَهُ ... أَشِعَّـةٌ فِـيْ وُجُـوْهِ ٱلْقَـوْمِ تَنْعَكِـسُ
ظَلُّوْا عَلَيْهِ نَشَاوَىٰ وَٱلْكَوَاعِبُ يَسْـ ... ـحَبْنَ ٱلذُّيُوْلَ وَلَمْ يَعْلَقْ بِهِمْ دَنَسُ[3]
تَجْلَىٰ ٱلْكُؤُوْسُ وَتَهْتَزُّ ٱلنُّفُوْسُ وَإِنْ ... نَـالَ ٱلسُّـرُوْرُ وَقَـاراً بَيْنَهُـمْ حَمَسُـوْا
مَيْـلٌ إِلَـىٰ كُـلِّ لَهْـوٍ فِيْـهِ فَـائِـدَةٌ ... يَثْنِيْ ٱلْعِدَا وَبِهِمْ مِنْ حِلِّهِ خَرَسُ
فِيْ غَفْلَةٍ مِنْ زَمَانِ ٱلْمِحْنَةِ ٱخْتَلَسُوْا ... سَحَـابَـةَ ٱلْيَـوْمِ وَٱللَّـذَّاتُ تُخْتَلَـسُ
فِيْ مَرْبَعِ ٱلنُّوْرِ مَثْوَىٰ ٱلْحُوْرِ يَشْمَلُهُمْ ... مَعَ ٱلْجَمَالِ ٱلَّذِيْ يَسْبِيْ ٱلنُّهَىٰ ٱلْقُدُسُ

وإنَّما أَطلتُ ببعضِ ما لي في الموضوعِ ؛ لأنّي لم أرَ فيهِ ما توضَعُ عليهِ اليدُ سواهُ ، وما تركتُ منهُ أكثرُ وأكثرُ ، ولَولا خشيةُ الإملالِ والإثقالِ . لذكرتُ أُرجوزةً كانَ اقترحَها عليَّ والدي ـ رحمةُ اللهِ عليهِ ـ سنةَ : (١٣١٩ هـ) في صفةِ يومٍ طابَ لَهُ فيهِ الأُنسُ ؛ ليمتحنَ شاعريَّتي ، فكنتُ عندَ ظنِّهِ ، وقرَّةَ عينِهِ ، وإنَّما وددتُ ذكرَها ، وإن لم تكُن هناكَ ، بلْ كما شاءَتِ الحداثةُ والبَديهَةُ ؛ لِما تبعَثُ لي مِنَ

---

(١) التأشُّبُ : التجمُّعُ .
(٢) الفواختُ : نوعٌ من الحمام المطوَّق . الجرْس : صوت مناقير الطير ، وأجرس الطائر إذا سمع صوت جرسه مرة ، والجَرَس معروف ، والمراد أنغامه .
(٣) نشاوىٰ ـ جمعُ نشوانَ ـ : وهوَ السكرانُ .

ٱلذِّكرياتِ ؛ ولِما ٱستوجبتُ بِها من صالِحِ الدعواتِ ، التي أكبرُ ظَنّي بها أَن تكونَ قد لا مستْ سماءَ القَبولِ .

تفنن أهل اليمن في استعمال الشاي

وبعدُ : فقد أَفضىٰ بأَهلِ بلادِنا الافتنانُ في ٱستعمالِ الشايِ ، والتأَنُّقِ فيهِ ، إِلىٰ الاختلافِ في كيفيَّةِ صبِّهِ ، فٱختارَ بعضُهم أَن يكونَ إِلىٰ نصفِ الكأسِ ، وأَنْ يبقىٰ أَعلاهُ فارِغاً ، وفي ذلكَ يقولُ شاعرُهُم [مِنَ الخفيفِ] :

وَٱمْتِلاَءُ ٱلْكُؤُوسِ قَالُوا مَعِيْبٌ وَرَأَوْا أَنَّهُ علَىٰ ٱلنِّصْفِ زَاهِيْ

وبمجردِ ما سمعتُ هـٰذا البيتَ ، نقضْتُهُ علىٰ صاحبِهِ من طرفِ اللسانِ بقولي [مِنَ الخفيفِ] :

قَـالَ رَبُّ ٱلأَنَـامِ كَـأْسـاً دِهَـاقـاً وَهُوَ رَدٌّ لِقَوْلِ أَهْلِ ٱلْمَلاَهِيْ

ثمَّ رأَيتُ أَنَّ الشعراءَ ٱختلفوا مِن قبلِنا في نظيرِ ذلكَ ، فقالَ بعضُهم في موافقتي [مِنَ الكاملِ] :

وَكَأَنَّمَا ٱلأَقْدَاحُ مُتْرَعَةَ ٱلْحَشَا بَيْنَ ٱلشُّرُوْبِ كَوَاكِبُ ٱلْجَوْزَاءِ

وقالَ الآخَرُ في ما يشبِهُ قولَ الأَوَّلِ [وهو السري الرفاء في « قرى الضيف » ٢/ ١٩٩ مِنَ الطَّويلِ] :

يُعَاطِيْكَ كَأْساً غَيْرَ مَلأَىٰ كَأَنَّهَا إِذا مُزِجَتْ أَحْدَاقُ دِرْعٍ مُزَرَّدِ
كَـأَنَّ أَعَـالِيْهَـا بيَـاضُ سَـوَالِـفٍ يَلُوْحُ عَلَىٰ تَوْرِيْدِ خَدٍّ مُوَرَّدِ

غيرَ أَنَّ هـٰذا التشبيهَ ، لا ينطبقُ إِلاَّ علىٰ ٱمرأَةٍ قائمةٍ علىٰ رأْسِها ؛ لأَنَّ السوالِفَ التي هي صفحاتُ العُنقِ لا تكونُ فوقَ الخدودِ ، وإِنَّما تكونُ تحتَها ، وقد يمكنُ التمحُّلُ في التأْويلِ ، بأَنَّ المرادَ مجرَّدُ

التشبيهِ بالحمرَةِ والبياضِ ، ومَهْما يكنْ مِنَ الأَمرِ . . فقد ذكرتُ قولَ ناصحِ الدينِ الأَرَّجانيِّ [في « ديوانهِ » ٢/ ٣٧٧ مِنَ البسيطِ] :

هَـٰذَا ٱلزَّمَانُ عَلَىٰ مَا فِيْهِ مِنْ كَدَرٍ   حَكَـىٰ ٱنْقِـلاَبَ لَيَـالِيْـهِ بِـأَهْلِيْـهِ
غَدِيْرُ مَاءٍ تَرَاءَىٰ فِيْ أَسَافِلِهِ   خَيَالُ قَوْمٍ تَمَشَّوْا فِيْ نَوَاحِيْهِ
فَٱلرَّأْسُ يُنْظَرُ مَنْكُوْساً أَسَافِلُهُ   وَٱلرِّجْلُ يُنْظَرُ مَرْفُوْعاً أَعَالِيْهِ

وللإمامِ السيوطيِّ في إِعرابِ البيتِ الأَخيرِ كلامٌ طويلٌ .

* * *

ومنها في المديحِ : [قولُ أَبي الطَّيبِ المتنبِّي في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ١٨٩ مِن البسيطِ] :

مِنْ كُلِّ أَبْيَضَ وَضَّاحٍ عِمَامَتُهُ   كَأَنَّمَا ٱشْتَمَلَتْ نُوراً عَلَىٰ قَبَسِ

شرح المطلع (الأَبْيَضُ) : النقيُّ الوضِيءُ ، و(الوَضَّاحُ) : المشرقُ ، و(القبَسُ) : الشعلةُ من النارِ ، و(عِمَامَتُهُ) : مبتدأٌ ، خبرُهُ : الجملةُ بعدَهُ .

قالَ الشارحُ : والمعنىٰ أَنَّه يقولُ : كلُّ كريمٍ لنورِ وجهِهِ ، وإشراقِ جبينِهِ . كأَنَّ عمامتَهُ علىٰ شعلَةِ نارٍ ، فشبَّهَ وجهَهُ لنورِ جبينِهِ بالقبَسِ ، وهو منقولٌ مِن قولِ قيسِ الرقياتِ [في « ديوانه » ٤٤ مِنَ الخفيفِ] :

إِنَّمَا مُصْعَبٌ شِهَابٌ مِنَ ٱللّٰـ   ـه تَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ ٱلْعَتْمَاءُ

ٱنتهىٰ بٱختصارٍ .

وعندي : أَنَّه ناقصٌ ؛ لأَنَّ النورَ بناءً عليهِ يذهَبُ ضياعاً ، والذي أَراهُ أَنَّهُ شبَّهَ العمامَةَ بالنورِ لبياضِها ؛ ولِما ٱنعكسَ فيها من إِشراقِ الوجْهِ عَليها ، وشبَّهَ الوجْهَ بضياءِ النارِ لِلَمَعانِهِ وتبلُّجِهِ ، أَو أَنَّه شبَّهَ الجبينَ بالنورِ ، والخدَّ بالقبَسِ ، قريباً مِن قولِ ٱبنِ عَنْقاءَ [في « الإيضاح في علوم البلاغة » ١/ ٣٢٤ مِنَ الطَّويلِ] :

كَأَنَّ ٱلثُّرَيَّا عُلِّقَتْ فِي جَبِينِهِ   وَفِي خَدِّهِ ٱلشِّعْرَىٰ وَفِي نَحْرِهِ ٱلْقَمَرْ

أَمَّا قولُهُ : إِنَّه منقولٌ من قولِ قيسِ الرقيَّاتِ . . فلا ننكرُ ٱحتمالَ

نظرِهِ إليهِ ، غيرَ أَنَّ الأَكثَرَ بهِ شَبَهاً قولُ أَبي عُبادَةَ [في « ديوانه » مِنَ البسيطِ] :

إذا صَدَعْنَا ٱلدُّجَىٰ عَنَّا بِغُرَّتِهِ خِلْنَا بِهَا قَبَساً نَجْلُوْهُ أَوْ ضَرَمَا

وقد سبقَ كثيرٌ ممَّا يتعلَّقُ بمعنىٰ البيتِ عندَ الكلامِ علىٰ قولِهِ [في « العُكبَرِيِّ » ٣/ ١٦٧ مِنَ ٱلبسيطِ] :

يَلُوْحُ بَدْرُ ٱلدُّجَىٰ فِيْ صَحْنِ غُرَّتِهِ وَيَحْمِلُ ٱلْمَوْتَ فِيْ ٱلْهَيْجَاءِ إِنْ حَمَلاَ

ونزيدُ هُنا قولَ أَبي نُوَاسٍ [في « المستطرف » ٢/ ٤٢ مِنَ المتقاربِ] :

نَظَـرْتُ إِلَـىٰ وَجْهِـهِ مَـرَّةً فَـأَبْصَـرْتُ وَجْهِـيَ فِـيْ وَجْهِـهِ

وقولَ ٱبنِ الروميِّ [مِنَ ٱلبسيطِ] :

كَأَنَّهُ ٱلشَّمْسُ إِذْ وَافَىٰ ٱلْمُنِيْفَ بِهَا عَلَـىٰ ٱلْبَـرِيَّـةِ لا نَـارٌ عَلَـىٰ عَلَـمِ[(١)]

وللناظِمِ ما لا يُحصىٰ كثرةً في المعنىٰ ، منهُ قولُهُ [في « العُكبَرِيِّ » ٣/ ٣٩٨ مِنَ الطَّويلِ] :

فَلَيْسَ لِشَمْسٍ مُذْ أَنَرْتَ إِنَارَةٌ وَلَيْـسَ لِبَـدْرٍ مُـذْ تَمَمْـتَ تَمَـامُ

وقولُهُ [في « العُكبَرِيِّ » ٣/ ٢٩٨ مِنَ الطَّويلِ] :

عَفِيْفٌ تَرُوْقُ ٱلشَّمْسَ صُوْرَةُ وَجْهِهِ وَلَوْ نَزَلَتْ شَوْقاً لَحَادَ إِلَىٰ ٱلظِّلِّ

وفي صفتهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : (كَأَنَّ الشَّمْسَ تَجرِي في وَجْهِهِ)[(٢)] .

---

(١) المنيفُ والعَلَمُ : الجبلُ الطويلُ .

(٢) أخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه ابن سعد في « الطبقات » (١/ ٤١٥) ، وأحمد (٢/ ٣٨٠) ، والترمذي (٣٦٤٨) وفي « الشمائل » (١٢٤) ، وابن حبان في « الإحسان » (٦٣٠٩) بإسناد صحيح . =

يَقُولُ وَاصِفُهُ : (لَمْ أَرَ قَبْلَهُ وَلاَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ)[1] .

إشراق وجه مصعب بن الزبير

و[جاء في « المستطرف » (٢/ ٢٩) أنه] : كانَ مصعبُ بنُ الزبير مشهوراً بالجمالِ ، فبَيْنا هُوَ بفناءِ دارِهِ ليلَةً بالبصرَةِ . . إذ جاءَتْهُ ٱمرأَةٌ أَقامَتْ مَلِيّاً تنظرُ إليهِ ، فقالَ : ما شأنُكِ يرحمُكِ اللهُ ؟ قالَتْ : ٱنطفأَ مصباحُنا ، فجئتُ أَستصبِحُ علىٰ وجهِكَ . وهِيَ شبيهَةٌ بما سبقَ مِن قصَّةِ زَينِ العابدِينَ .

ويذكُرُ بعضُهم قريباً مِنها للمتوكِّلِ العباسيِّ[2] .

و[روى ابن قيم الجوزية في « روضة المحبين » ٢٠١ أنه] كانَ مصعبُ معَ فرطِ جمالِهِ يَحْسُدُ الناسَ علىٰ الجمالِ ، فَبَينا هُو يخطُبُ يوماً . . إذ دخَلَ ٱبنُ جودانَ مِن ناحيةِ الأَزدِ ـ وكانَ جميلاً ـ فأَعرضَ بوجهِهِ عَن تلكَ الجهَةِ ، فجاءَ ٱبنُ حُمْرانَ ـ وكانَ جميلاً أَيضاً ـ مِنَ النَّاحيَةِ التي أَقبلَ عَلَيها ، فرمىٰ ببصرِهِ إلىٰ مؤخَّرِ المسجِدِ ، فدخلَ الحسنُ البصريُّ ـ وكانَ من أَجملِ الناسِ ـ فنزلَ مصعبٌ عَنِ المنبرِ .

وكانَ لَهُ ٱبنٌ يدعىٰ : زَينُ المواكِبِ ، كانَ ٱبنُ أَبي ربيعةَ مفتوناً بالنظَرِ إلىٰ جمالِهِ[3] .

= وطرفه :(ما رأيت شيئاً أحسن من رسول الله ﷺ كأنما الشمس تجري . .) .

(١) وردت هذه الجملة في حديث علي رضي الله عنه عند الترمذي في « الشمائل » (٥) ، وفي « السنن » (٣٦٣٧) ، وأحمد (١/ ٩٦) ، وابن حبان في « الإحسان » (٦٣١١) بإسناد صحيح .

(٢) أيضاً في « المستطرف » (٢/ ٢٩) .

(٣) وكانَ مِن أَخبارِهِ معَهُ كَما في « الأغاني » (١/ ١٥٧) ما ذكرَهُ ٱبنُ الكلبيِّ : أَنَّ عمرَ ٱبنَ أَبي ربيعةَ كانَ يُسايرُ عروةَ بنَ الزُّبيرِ ويحادِثُهُ ، فقالَ لهُ : وأَينَ زينُ=

وكانتْ عائِشةُ بنتُ طلحةَ من أَجملِ أَهلِ زمانِها ، أَو أَجمَلَهم ، فقالَ لَها أَنسُ بنُ مالكٍ[1] [كما في « الأغاني » ١١/١٩٧] : واللهِ ما رأَيتُ أَحسنَ منْكِ ، إِلاَّ معاويَةَ علىٰ منبرِ رسولِ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم ، فقالَتْ : واللهِ لأَنا أَحسنُ مِنَ النَّارِ في عينِ المقرورِ ، في الليلَةِ البارِدَةِ .

إشراق وجه لبابة بنت عبيد الله

وكانتْ لُبابَةُ بنتُ عُبيدِ اللهِ بنِ العبَّاسِ عندَ الوليدِ بنِ عتبَةَ ٱبنِ أَبي سفيانَ ، فكانَتْ تقولُ : ما نظرْتُ وَجهي معَ وَجْهِ إِنسانٍ في مرآةٍ إِلاَّ رحمتُهُ ؛ لافتضاحِهِ بحسنِ وَجهي ، ما عَدا الوليدَ ، فكنتُ إِذا نظرتُ إِليهِ مَعَ وجهي . . تصاغرَتْ إِليَّ نفسي ؛ مِن فَرْطِ جمالِهِ[2] .

الأصمعي وصاحبة البرقع

وقالَ الأَصمعيُّ [في « روضة المحبين » ٢٠٣] : بَينا أَنا علىٰ بعضِ مياهِ العربِ . . إِذ سمعتُ الناسَ يقولونَ : جاءَتْ ، جاءَتْ ، فإِذا ٱمرأَةٌ لَم أَرَ مثلهَا في حسنِ الوَجهِ ، وتَمامِ الخَلْقِ ، فلَمَّا رأَتْ كثرةَ التشوُّقِ إِليها . . أَرسلَتْ برقُعَها ، فكأَنَّما هُوَ غمامَةٌ سترَتْ شمساً ، فقلْتُ :

= المواكبِ ـ يعني ابنَهُ محمَّدَ بنَ عروةَ وكانَ يُسمَّىٰ بذلكَ لجمالِهِ ـ فقالَ لهُ عروةُ : هوَ أَمامَكَ ، فركضَ يطلُبُهُ ، فقالَ لهُ عروةُ : يا أَبا الخطَّابِ . . أَوَلسنا أَكفاءَ كراماً لمحادثَتِكَ ومُسَايَرَتِكَ ؟ فقالَ : بلىٰ ، بأَبي أَنتَ وأُميِّ ، ولكنِّي مفتونٌ بهذا الجمالِ ، أَتبعهُ حيثُ كانَ ، ثُمَّ ٱلتفتَ إِليهِ وقالَ :

إِنِّـي ٱمْـرُؤٌ مُـوْلَـعٌ بِـالْحُسْـنِ أَتْبَعُـهُ ... لاَ حَـظَّ لِـيْ فِيْـهِ إِلاَّ لَـذَّةُ ٱلنَّظَـرِ

ثُمَّ مضىٰ حتَّىٰ لَحِقَهُ ، فسارَ معهُ ، وجعلَ عروةُ يضحكُ مِن كلامِهِ ؛ تعجُّباً منهُ .

(١) ولكن في « الأغاني » (١١/١٩٧) أَبو هريرة بدلاً من أَنسِ بنِ مالكٍ رضي اللهُ عنهما .

(٢) « المستطرف » (٢/٢٩) .

لَو متَّعتِينا بالنظَرِ إلىٰ وجهِكِ . . فقالَتْ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَإِنَّكَ إِنْ أَرْسَلْتَ طَرْفَكَ رَائِداً لِقَلْبِكَ يَوْماً أَتْعَبَتْكَ ٱلْمَنَاظِرُ
رَأَيْتَ ٱلَّذِيْ لاَ كُلَّهُ أَنْتَ قَادِرٌ عَلَيْهِ وَلاَ عَنْ بَعْضِهِ أَنْتَ صَابِرُ

فقالَ أعرابيٌّ : أَنا واللهِ مِمَّنْ قلَّ صبرُهُ ، وأَنشأَ يقولُ [مِنَ الطَّويلِ] :

أَوَحْشِيَّةَ ٱلْعَيْنَيْنِ أَيْنَ لَكِ ٱلأَهْلُ أَبِٱلْحَزْنِ حَلُّوا أَمْ مَحَلُّهُمُ ٱلسَّهْلُ ؟
وأَيَّةُ أَرْضٍ أَخْرَجَتْكِ ؟ فَإِنَّنِيْ أَرَاكِ مِنَ ٱلْفِرْدَوْسِ إِنْ فُتِّشَ ٱلأَصْلُ
فَفِيْ خَبِّرِيْنَا مَا طَعِمْتِ وَمَا ٱلَّذِيْ شَرِبْتِ وَمِنْ أَيْنَ ٱسْتَقَلَّ بِكِ ٱلرَّحْلُ
تَنَاهَيْتِ حُسْناً فِيْ ٱلنِّسَاءِ فَإِنْ يَكُنْ لِبَدْرِ ٱلدُّجَىٰ نَسْلٌ فَأَنْتِ لَهُ نَسْلُ

ويُعجِبُني قولُ الأعشىٰ ، وهُوَ الذي أَحلتُ عليهِ مرَّةً فيما سلفَ [في « ديوانه » ١٣٠ مِنَ الطَّويلِ] :

فَتىً لَوْ يُنَادِيْ ٱلشَّمْسَ أَلْقَتْ قِنَاعَهَا أَوِ ٱلْقَمَرَ ٱلسَّارِيْ لأَلْقَىٰ ٱلقَلاَئِدَا

ومعنىٰ (يُنَادِيْ) : يفاخِرُ، والمرادُ مِن (قِنَاعِ الشَّمْسِ) : حسنُها .

ومِن قطعةٍ لإبراهيمَ بنِ المهديِّ فِيها غناءٌ [مِنَ البسيطِ] :

نَوْرٌ تَوَلَّدَ مِنْ شَمْسٍ وَمِنْ قَمَرٍ حَتَّىٰ تَكَاسَلَ فِيْهِ ٱلرُّوْحُ وَٱلْبَدَنُ

وقالَ الكسائيُّ يمدحُ الأَمينَ والمأمونَ [كما في « المستطرف » ٢ / ٢٢ مِنَ الطَّويلِ] :

أَرَىٰ قَمَرَيْ أُفْقٍ وَفَرْعَيْ بَشَامَةٍ يَزِيْنُهُمَا عِرْقٌ كَرِيْمٌ وَمَحْتِدُ(١)
سَلِيْلَيْ أَمِيْرِ ٱلْمُؤْمِنِيْنَ وَحَائِزَيْ مَوَارِيْثَ مَا أَبْقَىٰ ٱلنَّبِيُّ مُحمَّدُ

---

(١) البَشامةُ : شجرٌ طيِّبُ الرائحةِ يُستاكُ بهِ . المحتِدُ : الخالصُ الأصل والأرومة من كُلِّ شيءٍ .

الحجر الذي لا يعجبك.. يشجُّك

وبهٰذين ، ذكرتُ أَنَّ بعضَ العربِ تقدَّمَ إلىٰ الرشيدِ بأَبياتٍ ٱستكثرَها عليهِ ؛ لرثاثةِ هيئتِهِ ، فقالَ لَهُ [في «تاريخ الطبري» ٥/٢٥] : إن كان الشعرُ لكَ كما تقولُ.. فقُلْ : في هٰذين ، فقالَ : يا أَميرَ المؤمنينَ ، وحشةُ الغربةِ ، وروعةُ المفاجأةِ ، وبهرُ الدرجةِ ، وجلالةُ المقام ، وصعوبةُ البديهةِ ، تحولُ بينَ المرءِ وبينَ لسانِهِ ، فليمهلْني أَميرُ المؤمنينَ ريثَما يعودُ النافرُ ، فقالَ لَهُ الرشيدُ : ما أَحسنَ جوابَكَ ! وقد جعلْنا فيه عذرَكَ ، فقالَ : يا أَميرَ المؤمنينَ ، لقد نَفَّسْتَ الخِناقَ ، وسهَّلْتَ مَيدانَ السباقِ ، وأَنشأَ يقولُ [مِنَ الطَّويلِ] :

بَنَيْتَ بِعَبْدِ ٱللهِ بَعْدَ مُحَمَّدٍ ذُرَىٰ قُبَّةِ ٱلإِسْلاَمِ فَٱخْضَرَّ عُوْدُهَا
هُمَا طُنُبَاهَا بَارَكَ ٱللهُ فِيهِمَا وَأَنْتَ أَمِيْرُ ٱلْمُؤْمِنِيْنَ عَمُوْدُهَا(١)

فقالَ لهُ الرشيدُ : وأَنتَ باركَ اللهُ فيكَ ، سَل حاجتَكَ ، ولتكُنْ علىٰ قدرِ إِحسانِكَ .

أيجوز للرجال ان يتزوجوا على النساء؟!

ولنعُدْ إِلىٰ ما يتعلَّقُ بحسنِ الصورةِ ، قالَ عبدُ اللهِ بنُ شوذَبٍ : دخلَتِ ٱمرأَةٌ جميلةٌ علىٰ الحَسَنِ البصريِّ ، فقالَتْ [في «روضة المحبين» ٢٠٣] : يا أَبا سعيدٍ ، أَيحلُّ لِلرِّجالِ أَنْ يتزوَّجوا علىٰ النساءِ ؟ قالَ : نَعم ، قالَت : وعلىٰ مِثْلي ؟ ثمَّ أَسفرَت عَن وجهٍ ٱستجْهَرَنا بجمالِهِ ، وقالَتْ : يا أَبا سعيدٍ ، لا تُفْتوا الرجالَ بهٰذا ، ثمَّ ولَّتْ ، فقالَ الحسنُ : ما علىٰ رجلٍ كانَتْ هٰذِهِ في زاويةِ بيتِهِ ما فاتَهُ مِنَ الدُّنيا .

---

(١) الطنَبُ : حبلُ الخباءِ والخيمة والفسطاط .

الصـــورة الحسنـــة والشعراء

ولله درُّ بعضِهم في قولِهِ [كما في « المستطرف » ٢/٢٩ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَوْ أَنَّهَا فِي عَهْدِ يُوْسُفَ قَطَّعَتْ قُلُـوْبَ رِجَـالٍ لاَ أَكُـفَّ نِسَـاءِ

وقالَ الآخرُ [في « روضة المحبين » ٢٠٤ مِنَ الطَّويلِ] :

أَنِيْرِيْ مَكَانَ ٱلْبَدْرِ إِنْ أَفَلَ ٱلْبَدْرُ وَقُوْمِيْ مَقَامَ ٱلشَّمْسِ مَا ٱسْتَأْخَرَ الْفَجْرُ

فَفِيْكِ مِنَ ٱلشَّمْسِ ٱلْمُنِيْرَةِ ضَوْؤُهَا ولَيْـسَ لَهَـا مِنْـكِ ٱلتَّبَسُّـمُ وَٱلثَّغْـرُ

وما أَحسنَ قولَ شوقيٍّ [في « ديوانِهِ » ٢/١٥٩ مِنَ البسيطِ] :

صُـوْنِـيْ جَمَـالَـكِ عَنَّـا إِنَّنَـا بَشَـرٌ مِنَ ٱلتُّرَابِ وَهَـٰذَا ٱلْحُسْنُ رُوْحَانِيْ

وهُوَ وإِنْ كانَ قد أَلَمَّ في بعضِهِ بقولِ الناظِمِ [في « العُكبَريّ » ٢/٣٤٩ مِنَ الطَّويلِ] :

خَفِ ٱللهَ وَٱسْتُرْ ذَا ٱلْجَمَالَ بِبُرْقُعٍ فَإِنْ لُحْتَ ذَابَتْ فِيْ ٱلْخُدُوْرِ ٱلْعَوَاتِقُ

وفي البعضِ الآخَرِ بقولِ خالدِ الكاتِبِ [مِنَ البسيطِ] :

لَوْ كَانَ مِنْ بَشَرٍ لَمْ يَفْتِنِ ٱلْبَشَرَا وَلَمْ يَفُقْ فِيْ ٱلضِّيَاءِ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَا

نُـوْرٌ تَجَسَّـمَ مُنْحَـلاً وَمُنْعَقِـداً سِلْكٌ تَضَمَّنَ فِيْ تَنْسِيْقِهِ دُرَرَا

.. فقد أَحسنَ متنهُ ، وأَجادَ سبكهُ ، وأَبدعَ معناهُ ، وأَحكَمَ لفظَهُ ، وٱستنزلَهُ مِن سماءِ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ [يوسف : ٣١] .

جمال الظاهر عنوان جمال الباطن

ثمَّ إِنَّ جمالَ الظاهرِ بالأَغلَبِ ، مقرونٌ بجمالِ الباطنِ ، وما بعثَ اللهُ مِن نبيٍّ إِلاَّ حسنَ الصورَةِ ؛ ولأَنَّ اللهَ تعالىٰ ـ بلطيفِ حكمتِهِ ، وبديعِ صنعتِهِ ـ لم يخلقِ الصُّورَةَ مختارَةَ الصفاتِ ، سليمَةً مِنَ الآفاتِ ، إِلاَّ عَن فضلِ الإبداعِ ، ولَنْ تكونَ علىٰ ذلكَ ، إِلاَّ إِذا

كانَتْ علىٰ ما يلائِمُ حسنَها ، من أَحاسنِ الطباعِ ، وقالَ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « اَطْلُبُوا الْخَيْرَ عِنْدَ صِبَاحِ الْوُجُوْهِ »[1] .

وكانَ عليهِ السلامُ : يَسْتَحِبُّ أَنْ يَكُوْنَ الرَّسُوْلُ ـ الَّذِيْ يُرْسَلُ إِلَيْهِ ـ حَسَنَ الْوَجْهِ ، حَسَنَ الاسْمِ ، كَمَا أَخرجهُ البزارُ وغيرُهُ[2] .

وكانَ يرشدُ مَن رأَىٰ جمالَ صورَتِهِ إِلىٰ إِصلاحِ باطِنِهِ ، فقد أَخرجَ الديلميُّ ، عَن جريرِ بنِ عبدِ اللهِ ـ الذي كانَ يسمِّيهِ ابْنُ الخطَّابِ [في « روضة المحبين » ١٩٩] : (يوسُفَ هٰذهِ الأُمَّةِ)[3] ـ أَنَّهُ قالَ : قالَ لي

---

(١) أورده السخاوي في « المقاصد الحسنة » (١٦١) بلفظ : « التمسوا الخير عند حسان الوجوه » ، وقال : رواه الطبراني من حديث يزيد بن خصيفة عن أبيه عن جده مرفوعاً ، وكذا عند أبي يعلىٰ وهو مشهور ، له طريق عن أنس وجابر وعائشة وابن عباس وابن عمر ويزيد القسملي وأبي بكرة وأبي هريرة ولفظ أكثرهم : « اطلبوا الخير. . . » وأطال فيه ، وكذا العجلوني في « كشف الخفاء » (٣٩٤) وقال الشاعر :

انت شرط النبي إذ قال يوماً فأبتغوا الخير في صباح الوجوه

كما جاء في رواية القضاعي في « مسنده » (١/ ٣٨٤) .

(٢) أخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (١/ ٨٥) بلفظ : « إِذَا بَعَثْتُمْ إِلَيَّ رَسُوْلاً . . فَاجْعَلُوْهُ حَسَنَ الْوَجْهِ حَسَنَ الاسْمِ » .

وأورده في « كنز العمال » عن أبي هريرة (١٤٧٧٥) ، والبزار والطبراني في « الأوسط » .

و(١٤٧٧٦) عن بريدة وعزاه إلى البزار ، وعن أبي هريرة (١٤٩٢٧) زاد نسبته إلى البزار والعقيلي والطبراني في « الأوسط » ، وعن ابن عباس (١٤٩٢٨) وعزاه إلى الديلمي وابن النجار . بألفاظ متقاربة .

(٣) أورد الخبر ابن الأثير في « أسد الغابة » (٧٣٠) ، وابن حجر في « الإصابة » (١١٣٦) .

رسولُ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « أَنْتَ ٱمْرُؤٌ قَدْ أَحْسَنَ ٱللهُ خَلْقَكَ ، فَأَحْسِنْ خُلُقَكَ »[1] .

وقالَ جلهمَةُ بنُ عرفطَةَ ـ وقد بَصُرَ بالنبيِّ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ في طفولِيَّتِهِ ، يَستسقي بِهِ أَبو طالِبٍ ـ : كأَنَّهُ قَمَرُ دِجنَّةٍ ، تَجَلَّتْ عَنْهُ سَحَابَةٌ قَتْماءُ .

الشعراء والجمال

وقالَ قيسُ بنُ الخطيمِ [في « ديوانِهِ » ١٧ مِنَ الكاملِ] :

فَرَأَيْتُ مِثْلَ ٱلشَّمْسِ عِنْدَ طُلُوْعِهَا ... فِيْ ٱلْحُسْنِ أَوْ كَدُنُوِّهَا لِغُرُوْبِ

وقالَ غيرُهُ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَقَدْ خَجِلَتْ شَمْسُ ٱلضُّحَىٰ مِنكَ غُدْوَةً ... فَكَادَتْ كَمَا جَاءَتْ إِلَىٰ ٱلشَّرْقِ تَرْجِعُ

وقالَ عليُّ بنُ الجَهْمِ [في « ديوانِهِ » ١٤٨ مِنَ الكاملِ] :

يَا بَدْرُ كَيْفَ صَنَعْتَ بِٱلْبَدْرِ ... وَفَضَحْتَهُ مِنْ حَيْثُ لا يَدْرِيْ ؟
ٱلدَّهْرُ أَنْتَ بِأَسْرِهِ قَمَرٌ ... وَلِذَاكَ لَيْلَتُهُ مِنَ ٱلشَّهْرِ

وقالَ بعضُهم [وهو جميل بثينة كما في « ديوان الحماسة » ٢/ ١٧٢] مِنَ الطَّويلِ :

لَهَا ٱلنَّظْرَةُ ٱلأُوْلَىٰ عَلَيْهِمْ وَبَسْطَةٌ ... وَإِنْ كَرَّتِ ٱلأَبْصَارُ كَانَتْ لَهَا ٱلْعُقْبَىٰ

وهُوَ مثلُ ما أَظنُّني قد ذكرتُهُ في غيرِ هٰذا المجلسِ ، من قولِ أَبي نُواسٍ [في « ديوانه » ٣٠٩ مِنَ الْهَزَجِ] :

يَزِيْدُكَ وَجْهُهُ حُسْناً ... إِذَا مَا زِدْتَهُ نَظَرَا

(١) لم أجده ، وأما جماله فيدل عليه ما سلف ، وورد نحوه : « اللهم . . أحسنت خَلقي فحسِّن خُلقي » رواه أحمد عن عائشة رضي الله عنها ، وابن حبان في « الإحسان » (٩٥٩) عن ابن مسعود رضي الله عنه بإسناد صحيح وينظر (١١/ ٣٣١٨٤) .

وقولِهِ [في « ديوانه » ٦٠٤ مِنَ الكاملِ] :

لِلْحُسْـنِ فِـيْ وَجَنَـاتِـهِ بِـدَعٌ … مَـا أَنْ يَمَـلَّ ٱلـدَّرْسَ قَـارِيْهَـا

وقولِ ٱبنِ المعتزِّ [من السريع] :

مَنْظَـرُهُ قَيْـدُ عُيُـوْنِ ٱلْـوَرَىٰ … فَلَيْـسَ خَلْـقٌ يَتَعَـدَّاهُ(١)

وقالَ أبو فراسٍ [مِنَ الكاملِ] :

فَـإِذَا بَـدَا ٱقْتَـادَتْ مَحَـاسِنُـهُ … قَسْـراً إِلَيْـهِ أَعِنَّـةَ ٱلْحَـدَقِ

وقالَ محمَّدُ بنُ وهيبٍ [في « الأغاني » ١٩/ ٩٢ مِنَ الكاملِ] :

مَـا لِمَـنْ تَمَّـتْ مَحَـاسِنُـهُ … أَنْ يُعَـادِيْ طَـرْفَ مَـنْ رَمَقَـا

لَـكَ أَنْ تُبْـدِيْ لَنَـا حَسَنـاً … وَلَنَـا أَنْ نُعْمِـلَ ٱلْحَـدَقَـا

وكانَ بعضُ الحكماءِ يقولُ [في « روضة المحبين » ٢٠٠] : يَنبَغي للعبدِ أَنْ ينظُرَ كلَّ يومٍ إِلىٰ المرآةِ ، فإِن رأَىٰ حُسْناً . . لَم يَشِنْهُ بفعلٍ قبيحٍ ، وإِنْ رأَىٰ قبيحاً . . لَم يجمَعْ بينَ قبيحَينِ .

وقالَ بعضُهُم [كما في « روضة المحبين » ١٩٩ مِنَ السَّريعِ] :

يَـا حَسَـنَ ٱلْـوَجْـهِ تَـوَقَّ ٱلْخَنَـا … لا تُبْـدِلَـنَّ ٱلـزَّيْـنَ بِـٱلشَّيْـنِ

وَيَـا قَبِيْـحَ ٱلْـوَجْـهِ كُـنْ مُحْسِنـاً … لا تَجْمَعَـنْ بَيْـنَ قَبِيْحَيْـنِ

وقامَ رجلٌ وسيمٌ ينظرُ وجهَهُ في المرآةِ ، فقالَ : اللَّهمَّ كما حسَّنْتَ خَلْقي ، فحَسِّنْ خُلُقي ، وقامَ في أَثرِهِ رجلٌ دميمٌ ، وكأَنَّهُ

---

(١) ومنها قوله :

قلبـيَ ميَّـالٌ إلـى ذا وذا … ليـس يـرىٰ شيئـاً فيـأباهُ

يهيـمُ بـالحسـنِ كمـا ينبغـي … ويـرحـمُ القبـحَ فيهـواهُ

كانَ غافلاً ، فأُسقِطَ في يدِهِ ؛ لأَنَّهُ إِنْ قالَ : مثلَ الأَوَّلِ . . تضاحَكوا عليهِ ، وإِن سكَتَ . . كانَ ٱعترافاً بالعِيِّ والنقيصَةِ ، فلَم يكُنْ مِنْهُ ، إلاَّ أَن تخلَّصَ مِن ذلكَ المأْزِقِ الحرِجِ بأَحسنِ ما يتخلَّصُ بهِ الأَريبُ[1] ، فقالَ [مِنَ الطَّويلِ] :

لئِنْ لَمْ تكُ ٱلْمَرْآةُ أَبْدَتْ وَسَامَةً فَقَدْ أَبْدَتِ ٱلْمَرْآةُ جَبْهَةَ ضَيْغَمِ

قد يتخلف جمال الباطن عن جمال الظاهر وبالعكس

وقد يتخلفُ جمالُ الباطِنِ عَنْ جمالِ الظاهِرِ ، وعكسُهُ ، فمِنَ الأَوَّلِ قولُ الناظِمِ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٢٢٢ مِنَ البسيطِ] :

لَيسَ ٱلجَمَالُ لِوَجْهٍ صَحَّ مَارِنُهُ أَنْفُ ٱلْعَزِيزِ بِقَطْعِ ٱلْعِزِّ يُجْتَدَعُ

وقولُهُ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٣٢٠ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا ٱلْحُسْنُ فِيْ وَجْهِ ٱلْفَتَىٰ شَرَفاً لَهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ فِيْ فِعْلِهِ وَٱلْخَلاَئِقِ

وقولُهُ [في « العُكبَريِّ » ١/ ٥١ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا كُلُّ وَجْهٍ أَبْيَضٍ بِمُبَارَكٍ وَلاَ كُلُّ جَفْنٍ ضَيِّقٍ بِنَجِيبِ

وقولُ غيرِهِ [كما في « قرى الضيف » ٢/ ٤٥٧ مِنَ الطَّويلِ] :

وَهَلْ يَنْفَعُ ٱلْفِتْيَانَ حُسْنُ وُجُوهِهِمْ إِذا كَانَتِ ٱلأَعْرَاضُ غَيْرَ حِسَانِ ؟

ومِنَ الثاني : أَنَّ الحجَّاجَ بعثَ برأْسِ ٱبنِ الأَشعَثِ ، معَ رجلٍ دميمٍ ، حامضِ الوجْهِ ، فٱستخفَّ بهِ عبدُ الملِكِ بادياً ، ولٰكنَّهُ لمَّا ٱستنطَقَهُ . . تنَقَّىٰ وكفَّىٰ ، وحدَّثَهُ عَنِ الواقعةِ كأَنَّهُ يَراها ، فأَنشدَ عبدُ الملِكِ متمثِّلاً [بشعرِ عمروِ بنِ شأسٍ في « ديوانه » ١٠٢ مِنَ الطَّويلِ] :

أَرَادَتْ عِرَاراً بِٱلْهَوَانِ وَمَنْ يُرِدْ عِرَاراً لعَمْرِيْ بِٱلْهَوَانِ فَقَدْ ظَلَمْ

---

(١) الأَريبُ : العاقِلُ .

فضحِكَ الرجلُ ، حتَّىٰ كادَ يَجِدُ منهُ عبدُ الملِكِ ، وقالَ لهُ : مِمَّ تضحَكُ ؟ قالَ : تعرِفُ عِراراً هـٰذا ؟ قالَ : لا ، وإنَّما بلغَني الشعرُ فتمثَّلْتُ بهِ ، قالَ : أَنا هُوَ ، وقائِلُهُ أَبي : عمروُ بنُ شأْسٍ ، وكانَتْ زوجُهُ تبغِضُني ، وجَهِدَ أَنْ يُصلِحَ بينَنا ، فلَم يقدِرْ ، فقالَ البيتَ ، وبعدَهُ [مِنَ الطَّويلِ] :

فَإِنْ كُنْتِ مِنِّيْ أَوْ تُرِيْدِيْنَ صُحْبَتِيْ ... فَكُوْنِيْ لَهُ كَٱلشَّمْسِ رَبَّتْ بِهِ ٱلأُدَمْ[1]
وَإِلاَّ فَسِيْـرِيْ سَيْـرَ رَاكِـبِ نَـاقَـةٍ ... تَيَمَّمَ غَيْثاً لَيْسَ فِيْ سَيْرِهِ أَمَمْ[2]
وَإِنَّ عِـرَاراً إِنْ يَكُـنْ غَيْـرَ وَاضِـحٍ ... فَإِنِّي أُحِبُّ ٱلْجُوْنَ ذَا ٱلْمَنْكِبِ ٱلْعَمَمْ[3]

وطلَّقها بعدَ ذلكَ ، وندمَ علىٰ فراقِها ، فأَخذَ عبدُ الملكِ ، يكرِّرُ البيتَ الأَخيرَ . وقالَ ٱبنِ خَلِّكانَ [في « وفيات الأعيان » ٤/٤١٨] : إِنَّهُ كانَ مرسلاً مِن قِبَلِ المهلَّبِ إِلىٰ عندِ الحجَّاجِ ، واللهُ أَعلمُ أَيُّ ذلكَ الأَصحُّ .

وذكرَ القاضي [في « وفيات الأعيان » ٤/٤١٧] : قصَّتينِ تشبِهُها ، لا حاجةَ بِنا إِليها .

الفرزدق وخفة دمه

وقالَ خالدُ بنُ صفوانَ للفرزدَقِ : ما أَنتَ بالذي أَكبرنَهُ لمَّا رأَينَهُ ، وقطَّعْنَ أَيدِيَهُنَّ[4] !! فقالَ الفرزدَقُ : وَلا أَنتَ بِالذي قالَتِ الفتاةُ لأَبيها :

﴿ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ﴾ [القصص : ٢٦] .

---

(١) الأُدَمُ ـ جمع أُدمةٍ ـ : وهيَ شربةٌ من سوادٍ في وجهِ الرجلِ .
(٢) الأَمَمُ : الاعوجاجُ .
(٣) الجون : الأَسوَدُ . العَمَمُ : التامُّ .
(٤) أخذاً من قوله تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ . . ﴾ [يوسف : ٣١] .

وكانَ الفرزدَقُ قبيحاً مِن آثارِ الجدريِّ بوجهِهِ ، حتَّىٰ لقد قالَ لَهُ بعضُهم [كما في « وفيات الأعيان » ٦/ ٩٩] : كأَنَّ وجهَكَ أَحراحٌ(١) مجتمعةٌ ، قالَ : تأَمَّلْ هَل تجدُ فيها حِرَّ أُمِّكَ .

وقالَ نضلَةُ السلميُّ [في « مجمع الأمثال » ١/ ٤١٤ مِنَ الوافرِ] :

رَأَوْهُ فَـازْدَرَوْهُ وَهْـوَ خَـرْقٌ … وَيَنْفَعُ أَهْلَهُ ٱلرَّجُلُ ٱلْقَبِيحُ(٢)
فَلَمْ يَخْشَوْا مَصَالَتَهُ عَلَيْهِمْ … وَتَحْتَ ٱلرَّغْوَةِ ٱللَّبَنُ ٱلصَّرِيحُ(٣)

ودخلَ بعضُهم علىٰ المأمونِ فأَكرمَهُ ، وأَخذَ يعمِّمُهُ بنفسِهِ ، وكانَتْ بقربِهِ جاريةٌ تتبسَّمُ ، وكانَ الرجلُ دَميماً ، فقالَ لَها المأمونُ [كما في « المستطرف » ١/ ٢٥٩] : مِمَّ تضحَكينَ ؟ قالَ الرجلُ : أَنا أُخبرُكَ يا أَميرَ المؤمنينَ ، تضحَكُ مِن دمامَتي ، وإِكرامِكَ .

ودخلَ بعضُهم في شَمْلَةٍ ، مَعَ قبحِ منظرَةٍ فيهِ ، علىٰ معاويَةَ ، فأَزدراهُ ، وأقتحمتهُ عينُهُ ، ففطِنَ الرجلُ ، وقالَ [بنحوه في « جمهرة خطب العرب » ٣/ ٢٥١] : إِنَّ الشملَةَ لا تكلِّمُكَ ، وإِنَّما يكلمُكَ مَنْ فيها ، والْمَرءُ بأَصغريْهِ ، فأستسناهُ عندَ ذلكَ ، ثمَّ أَحمدَ مخبرتَهُ . من أخبار الظرفاء والقبحاء

وقالَ ٱبنُ مكرَّمٍ لأَبي العيناءِ : يا قِرْدُ ، فقالَ أَبو العيناءِ : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ﴾ [يس : ٧٨] .

وقالَ حمَّادُ يهجو بشَّاراً [كما في « الأغاني » ١٤/ ٣٢١ مِنَ الهَزَجِ] :

شَبِيـهُ ٱلْـوَجْـهِ بِـٱلْقِـرْدِ … إِذَا مَـا عَمِـيَ ٱلْقِـرْدُ

---

(١) الأَحراحُ ـ جمع حِرحٍ ـ : وهوَ فَرجُ المرأَةِ .
(٢) الخرقُ : الدَّميمُ الأَسودُ .
(٣) المصالَةُ : ما سال من الأَقطِ إِذا طُبِخَ ثم عصرَ ، رديءُ الكيموسِ ، ضارٌّ بالمعدةِ وهو مَصلُ اللبن .

فبكىٰ ، وقالَ : ما كفاهُ أَن جعلَني قرداً ، حتَّىٰ أَعماهُ ، وَيْلي مِنهُ ، يراني فيشبِّهُني ، ولاَ أَرَاهُ ، فكيفَ أُشَبِّهُهُ ؟!

وكانَ الجاحِظُ أَقبحَ خلقِ اللهِ ، حتَّىٰ إِنَّ ٱمرأَةً قادتْهُ إِلىٰ رَسَّامٍ ، وقالَتْ لهُ [بنحوه في « نفح الطيب » ٤/٢٩٧] : مثلَ هـٰذا ، فقالَ للرسَّامِ : ماذا تَعني ؟ قالَ : لا تسأَلْ ، قالَ : لاَ بدَّ ، قالَ : إِنَّها طلبَتْ مِنِّي صورَةَ الشيطانِ ، فقلْتُ : لا أَقدِرُ حتَّىٰ أَرىٰ المثالَ ، فجاءَتْ بِكَ الآن ، وقالَتْ : ما سَمِعتَهُ .

وكانَ يقالُ : إِنَّهُ لم يوجَدْ للمُعَيديِّ نظيرٌ في القبحِ ، حتَّىٰ كانَ الجاحظُ ، ثمَّ لم يكنْ لهُ شبيهٌ ، حتَّىٰ جاءَ الحريريُّ ، فتناسىٰ الناسُ الماضِيَ مِن أَبي عثمانَ ، ولَهِجُوا بالحاضرِ مِن قبحِ الحريريِّ .

والناسُ كثيراً ما يتوسَّعونَ في خبثِ الحاضِرِ وقبحِهِ ، ويرمونَهُ بأَكثرَ ممَّا فيهِ ، بمقدارِ ما يضيِّقونَ مِن خيرِهِ ، ويقلِّلُونَهُ ، فهم إِزاءَ مساوىءِ معاصِريهم عاملونَ بقولِ الناظِمِ [في « العكبريِّ » ٣/٨١ مِنَ البسيط] :

خُذْ مَا تَرَاهُ وَدَعْ شَيْئاً سَمِعْتَ بِهِ ... [فِيْ طَلْعَةِ ٱلشَّمْسِ ما يُغْنِيْكَ عَنْ زُحَلِ]

وأَما إِزاءَ محاسِنِهم . . فآخذونَ بقولِ الحماسيِّ [قَعْنبِ بنِ امِّ صاحبٍ في « شرحِ حماسةِ أَبي تمَّامٍ » ٢/١٨٧ مِنَ البسيطِ] :

إِنْ سَمِعُوا رِيْبَةً طَارُوْا بِهَا فَرَحاً ... مِنِّيْ وَمَا سَمِعُوْا مِنْ صَالِحٍ دَفَنُوْا[١]

صُمٌّ إِذَا سَمِعُوْا خَيْراً ذُكِرْتُ بِهِ ... وَإِنْ ذُكِرْتُ بِسُوْءٍ عِنْدَهُمْ أَذِنُوْا[٢]

---

(١) طَارُوا بها : أي أَسْرَعوا إلى الناس يبعثُونها وينشُرونها .

(٢) أَذِنُوا : اسْتَمَعوا .

وقولِ غيرِهِ [مِنَ البسيطِ] :

مُسْتَنْجِدٌ بِجَمِيلِ ٱلصَّبْرِ مُكْتَئِبٌ ... عَلَىٰ بَنِي زَمَنٍ أَفْعَالُهُمْ عَجَبُ
إِنْ يَعْلَمُوا خَيْراً أَخْفَوْهُ وَإِنْ عَلِمُوا ... شَرّاً أَذَاعُوا وَإِنْ لَمْ يَعْلَمُوا كَذَبُوا

ومن محاسنِ الحريريِّ : أنَّ طالباً قدمَ عليهِ ، فأزدراهُ ، فعرفَ ما في نفسِهِ ، فأنشدَهُ [كما في « وفيات الأعيان » ٤/ ٦٦ مِنَ البسيطِ] :

مَا أَنْتَ أَوَّلَ سَارٍ غَرَّهُ قَمَرُ ... وَرَائِدٍ أَعْجَبَتْهُ خُضْرَةُ ٱلدِّمَنِ
فَٱخْتَرْ لِنَفْسِكَ غَيْرِي إِنَّنِي رَجُلٌ ... أَنَا ٱلْمُعَيْدِيُّ فَٱسْمَعْ بِي وَلاَ تَرَنِي[1]

فيروىٰ : أنَّ الطالبَ ٱرعوىٰ حينئذٍ ، وأنشدَ متمثِّلاً بقولِ محمَّدِ بنِ هانئٍ الأندلسيِّ ، علىٰ ما صوَّبَهُ ٱبنُ خلِّكانَ [في « ديوانِ ابنِ هانئٍ » ٣/ ٣٦١ـ٣٦٢ مِنَ البسيطِ] :

كَانَتْ مُسَاءَلَةُ ٱلرُّكْبَانِ تُخْبِرُنِي ... عَنْ جَعْفَرِ بْنِ فَلاَحٍ أَطْيَبَ ٱلْخَبَرِ
حَتَّىٰ ٱلْتَقَيْنَا فَلاَ وَٱللهِ مَا سَمِعَتْ ... أُذْنِي بِأَكْبَرَ مِمَّا قَدْ رَأَىٰ بَصَرِي

وعلىٰ ذكرِ هٰذين البيتين ، يُحكىٰ [كما في « وفيات الأعيان » ٦/ ٤٦] : أنَّ الزمخشريَّ لمَّا قدم (بغدادَ) للحجِّ . . مضىٰ لزيارتِهِ ٱبنُ الشجريِّ ، فتمثَّلَ لهُ بهٰذين البيتينِ ، وبقولِ الناظِمِ أيضاً [كما في « العُكبَريِّ » ٢/ ١٥٥ مِنَ الطَّويلِ] :

وَأَسْتَعْظِمُ ٱلأَخْبَارَ قَبْلَ لِقَائِهِ ... فَلَمَّا ٱلْتَقَيْنَا صَغَّرَ ٱلْخَبَرَ ٱلْخُبْرُ[2]

---

(١) أراد المثل العربي : تسمع بالمَعيديِّ خيرٌ من أن تراه .
(٢) أورد الأبيات ياقوت الحموي في « معجم الأدباء » (١٩/ ١٢٨) ، و« المستفاد من تاريخ بغداد » (ص٢٢٨) .

وتمثَّلَ الزمخشريُّ للشريفِ بقولِهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم لزيدِ الخيلِ : « **مَا وُصِفَ لِيْ أَحَدٌ فِيْ ٱلْجَاهِلِيَّةِ ، فَرَأَيْتُهُ فِيْ ٱلإِسْلاَمِ . . إِلاَّ رَأَيْتُهُ دُوْنَ مَا وُصِفَ لِيْ ، غَيْرَكَ** »[1] فتعجَّبَ النَّاسُ مِنَ الشَّريفِ يتمثَّلُ بالشِّعرِ ، ومِنَ الزَّمخشريِّ ـ وهُوَ أعجميٌّ ـ يستشهدُ بالحديثِ! .

وقد سبقَ أولَ المجلسِ الثالثِ ، ذكرُ بيتِ قيسِ الرقياتِ ، الذي ذِكرَهُ الشارحُ مَعَ ٱختصارِ قصَّةٍ فيهِ ، ولا بأسَ بالاستطرادِ هُنا لحديثِ قيسٍ :

فإنَّهُ لمَّا أُحيطَ بٱبنِ الزبيرِ . . دعاهُ وقالَ لَهُ [بنحوه في « الأغاني » ٨٧/٥] : خُذْ مِن هـٰذ المالِ ما أطقتَ ، وٱنجُ بنفسِكَ ، فقالَ : ما كُنْتُ لأَسأَلَ عنكَ الركبانَ أبداً ، وبقيَ يقاتِلُ مَعَ المصعبِ ، حتَّىٰ قُتِلَ ، فهربَ هُوَ إِلىٰ (الكوفةِ) ، ووقفَ علىٰ بابٍ عليهِ ٱمرأةٌ ، عرفَتْ أنَّهُ خائفٌ ، فقالَتْ لَهُ : ٱدخُلْ ، فأقام عندَها أربعةَ أشهرٍ ، في أرغدِ عيشٍ ، لا يتساءَلانِ ، وكانَ عبدُ الملكِ قد أهدرَ دمَهُ ، وجَعَلَ فيه ديَتَهُ ، وهيَ تسمعُ الجَعيلَةَ فيهِ ، كلَّ مَمسىً ومَصْبَحٍ ، فَلمَّا طالَ الثواءُ . . قالَ لَها : يا هـٰذهِ ، إِنِّي قد طربْتُ إِلىٰ أهلي ، قالَتْ : فلا تعجَلْ ، فَلَمَّا كانَ الليلُ . . قالَت لَهُ : إِذا شئْتَ . . فٱنزلْ ، فإِذا راحلتانِ ، إِحداهُما الزامِلَةُ ، وعلىٰ الأُخرىٰ الرَّحلُ ، ومعَهُما عبدانِ يدلأَنِهِ الطريقَ ، ويقومانِ بما عناهُ ، عندَ ذلكَ قالَ

---

(١) أورده ابن سعد في « الطبقات » (١/ ٣٢١) بلفظ : « ما ذكر لي رجل من العرب إلا رأيته دون ما ذكر لي إلا ما كان من زيد » ، وبلفظه ذكره الحافظ في « الإصابة » (١/ ٥٧٣) في ترجمة زيد الخيل (٢٩٤١) .

لَها : مَنْ أَنتِ ؟ فواللهِ ما رأَيْتُ أَكرمَ مِنكِ ، قالَتْ : أَولاَ تعرِفُني ؟ قالَ : لا واللهِ ، قالَتْ : أَنا التي قلْتَ فيها [في « ديوانِه » ٧٠ مِنَ المنسرحِ] :

عَـادَ لَـهُ مِـنْ كَثِيْـرَةِ ٱلطَّـرَبُ فَعَيْنُـهُ بِـٱلـدُّمُـوْعِ تَنْسَكِـبُ

وهيَ : أُمُّ عبدِ الصمدِ بنِ عليِّ بنِ عبدِ اللهِ بنِ العبَّاسِ ، ثمَّ مضىٰ ، وأَتىٰ أَهلَهُ طَروقاً بـ(المدينةِ) ، فبكَوا ، وقالوا : ما خرجَ الطَّلَبُ مِن عندِنا إلاَّ بالأَمسِ ، فأَنْجُ بنفسِكَ ، فنزلَ علىٰ عبدِ اللهِ بنِ جعفرٍ ، وقالَ لَهُ : جئتُكَ مستجيراً ، فركِبَ إِلىٰ عبدِ الملكِ بنِ مروانَ ، وقالَ : حاجَةً يا أَميرَ المؤمنينَ ، فقالَ : كلُّ حاجَةٍ لَكَ مقضيَّةٌ ، ما لم تكُن عبيدَ اللهِ بنَ قيسٍ ، قالَ : ما كُنْتُ أَراكَ تحجرُ عليَّ شيئاً ، قالَ : فكلُّ حاجَةٍ لَكَ مطلقَةٌ ، قالَ : هِي عبيدُ اللهِ بنُ قيسٍ ، تَهَبُ لي ذنوبَهُ ، ثمَّ غدا عليهِ ، فأَنشدَهُ القصيدةَ المستهلَّةَ بذلكَ البيتِ ، ومِن مديحِها [في « ديوانِه » ٧٣ مِنَ المنسرحِ] :

يَعْتَـدِلُ ٱلتَّـاجُ فَـوقَ مَفْـرِقِـهِ عَلَـىٰ جَبِيْـنٍ كَـأَنَّـهُ ٱلـذَّهَـبُ

فقالَ تمدحُني بما يُمدَحُ بهِ الأَعاجِمُ ، وتقولُ في مصعبٍ [مِنَ الخفيفِ] :

إِنَّمَـا مُصْعَـبٌ شِهَـابٌ مِـنَ ٱللّـٰ ـهِ تَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ ٱلظَّلْمَاءُ

ثمَّ أَمرَ بعِسَاسٍ مِن الخَلَنْجِ ، تُملأُ بأَلبانِ البُخْتِ ، يَحملُ العِسَّ جماعةٌ ، بِحِلَقٍ فيهِ ، فوضِعَتْ بينَ يدَيْ عبيدِ اللهِ ، وقالَ لَهُ عبدُ الملكِ : أَينَ هـٰذهِ من عساسِ المصعبِ ؟ التي تقولُ فيها [في « ديوانِه » ٢٢٩ مِنَ الخفيفِ] :

يَلْبِسُ ٱلْجَيْشَ بِـالْجُيُـوْشِ وَيَسْقِـيْ   لَبَنَ ٱلْبُخْتِ فِيْ عِسَاسِ ٱلْخَلَنْجِ[1]

قالَ : بونٌ يا أميرَ المؤمنينَ ، قالَ : ولِمَ ؟ قالَ : لَو طُرِحَتْ عِسَاسُكَ هٰذه كلُّها في عسٍّ مِن عِسَاسِ المصعبِ . . لتقلقَلَتْ فيهِ ، قالَ لَهُ عبدُ الملكِ : أَبيتَ إلاَّ كَرماً ، قاتَلَكَ اللهُ ، ٱخرجْ لا خيرَ لَكَ عندي أَبداً ، فخرَجَ مِنْ عندِهِ ، ولَحقَ بعبدِ اللهِ بنِ جعفرٍ ، فأَخبرَهُ ، فقالَ : عمِّرْ نفسَكَ ، فعمَّرَ نفسهُ أَربعينَ سنةً ، فأَعطاهُ ما يكفيهِ لتلكَ المدَّةِ ، فقالَ في ذلكَ [في « ديوانه » ١١٩ مِنَ الطَّويلِ] :

تَقَدَّتْ بِيَ ٱلشَّهْبَاءُ نَحْوَ ٱبْنِ جَعْفَرٍ   سَـوَاءٌ عَلَيْهَـا لَيْلُهَـا وَنَهَـارُهَـا[2]

وفي القصَّةِ أَشياءُ :

أَحدُها : ما سبقَ مِنَ التَّشبيبِ في القصيدةِ بأُمِّ عبدِ الصمدِ بنِ عليٍّ ، فإنَّهُ لا يتَّفِقُ مع تقدُّمِ قصَّتها معَهُ ، وتأَخُّرِ مدحِهِ بها لعبدِ ٱلملِكِ ، إلاَّ أَن يقالَ : لاَ مانِعَ مِن تَفَارُطِ المدحِ عنِ النسيبِ[3] .

ثانيها : أَنَّ الأَليقَ بالمعهودِ ، أَنْ لا يكونَ ٱمتداحُهُ لعبدِ الملِكِ إلاَّ بحضرَةِ عبدِ اللهِ بنِ جعفرٍ ؛ إذ كيفَ يتجشَّمُ السفرَ مِن أَجلِهِ إلىٰ (الشَّامِ) ، ثم يدعُهُ يدخلُ وحدَهُ علىٰ عبدِ الملِكِ ، بعدَ قَبولِ شفاعَتِهِ فيهِ ، وهُما حاضِرانِ بـ(دمشْقَ) معاً ؟ أَمَّا جرأَةُ ٱبنِ الرقياتِ علىٰ عبدِ الملِكِ : فلا تستنكَرُ ، مَعَ ما سبقَ من إيثارِهِ الموتَ في الوفاءِ للمصعَبِ ، علىٰ الاستئثارِ بالأَموالِ .

---

(١) الخَلنجُ : شجرٌ تُتخذُ من خشبهِ الأواني .

(٢) تقَدَّت : سارت سيراً ليسَ بعَجَلٍ ولا مبطىءٍ .

(٣) النسيبُ : رقيقُ الشعرِ في النِّساءِ .

وفي البيتِ الذي نتكلَّمُ عليهِ إشارَةٌ إلىٰ فضلِ العمائِمِ البيضِ ، يُؤخَذُ مِن استعارتِهِ لها النورَ كما قرَّرْناهُ ، وهُوَ ما عليهِ فقهاؤُنا ، قالَ ابنُ حجَرٍ في « تحفتِهِ » : والأفضلُ في لونِها البياضُ ، وصحَّةُ لُبْسِهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ لِعمامَةٍ سوداءَ ، ونزولُ أكثرِ الملائكَةِ يومَ بدرٍ بعمائِمَ صفرٍ ، وقائِعُ محتمِلَةٌ ، فَلا تنافي عمومَ الخبرِ الصحيحِ ، الآمرِ بِلُبْسِ البياضِ[1] ، وأنَّهُ خيرُ الألوانِ ، في الموتِ والحياةِ . كذا قالَ الشيخُ .

ولِباحِثٍ أَنْ يقلِبَ عليهِ الموضوعَ ، فيقولَ : إنَّ الأمرَ بلبسِ البياضِ عامٌّ ، ولبسُ العمامَةِ السوداءِ ، والعمائِمِ الصفرِ ، مخصِّصٌ لذلكَ العمومِ ، ويؤيِّدُهُ ما ذَكَرَهُ الشيخُ نفسُهُ في بابِ القضاءِ ، حيثُ قالَ : ويدخُلُ القاضي ، وعليهِ عمامَةٌ سوداءُ ، كما فعلَ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ، لَمَّا دخلَ (مكَّةَ) يومَ الفتحِ[2] .

---

(١) لحديث ابن عباس رضي الله عنهما : « البسوا البياض فإنها خير ثيابكم » ، أخرجه أبو داوود (٣٨٧٨) في الطب ، والترمذي (٩٩٤) وقال : حسن صحيح ، وابن ماجه (١٤٧٢) في الجنائز .

(٢) قال العلامة السيد محمد جعفر الكتاني في كتابه « الدِّعامة لمعرفة أحكام العِمامة » (ص/ ٨٦) : فصل : ولبس عليه الصلاة والسلام العمامة السوداء في عدة مواطن كما ورد التصريح بذلك في عدة أحاديث ، أخرج أحمد ومسلم والأربعة والترمذي في « الشمائل » وابن سعد وابن أبي شيبة ، والحارث ابن أبي أسامة وأبو القاسم البغوي وابن عدي وغيرهم عن جابر بن عبد الله الأنصاري ، وابن أبي شيبة عن ابن عمر وأبو بكر بن أبي الحارث عن أنس أن رسول الله ﷺ دخل مكة ، وفي رواية : دخل يوم فتح مكة وعليه عمامة سوداء .

ثمَّ العمامَةُ سنَّةٌ للصلاةِ ، وللتجمُّلِ خارجَها ، قالَ ٱبنُ حَجَرٍ : لِلأَحاديثِ الكثيرَةِ فيها ، وٱشتدادُ ضعفِ كثيرٍ مِنها يجبرُهُ كثرةُ الطُّرُقِ ، وتحصلُ السنَّةُ بكونِها علىٰ الرأسِ ، أَو نحوِ قلنسوَةٍ تحتَها ، وفي حديثٍ ما يدلُّ علىٰ أَفضليَّةِ كِبَرِهَا ، لـٰكنَّهُ لا يحتجُّ بهِ ، حتَّىٰ في فضائِلِ الأَعمالِ ؛ لشدَّةِ ضعفِهِ .

وينبغي ضبطُ طولِها وعَرضِها ، بِما يليقُ بلابِسِها عادَةً في زمانِهِ ومكانِهِ ، فإِنْ زادَ فيها علىٰ ذلكَ . . كُرِهَ ، ومِن هديِهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ أَنَّهُ كانَ يلبَسُها ، ويلبَسُ القلنسوَةَ تحتَها ، ويلبَسُ القلنسوَةَ بغيرِ عمامَةٍ ، ويلبسُ العمامَةَ بغيرِ قلنسوَةٍ ، ولم يتحرَّرْ شيءٌ في طولِ عمامَتِهِ وعرضِها ، فالحقُّ ما ذكرَهُ الشيْخُ مِنَ الرُّجوعِ إِلىٰ ما يليقُ بالزمانِ والمكانِ .

وهلْ تَكفي القلنسوَةُ عَنِ العمامَةِ في أَصلِ السُّنَّةِ ؟

الجوابُ ما ذكرهُ ٱبنُ حَجَرٍ ـ أَيضاً ـ مِن قولِهِ : ولا بَأْسَ بلبْسِ القلنسوَةِ اللأَطِئَةِ بالرأْسِ ، والمرتَفِعَةِ تحتَ العمامَةِ ، وبِلا عمامَةٍ ؛ لأَنَّ كلَّ ذلكَ جاءَ عنهُ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ ، وقد يتأَيَّدُ بهِ ما ٱعتادَهُ بعضُ أَهلِ النواحي ، مِن تركِ العمامَةِ ، وتميُّزِ علمائِهم بطيلسَانَ علىٰ قلنسوةٍ بيضاءَ لاصقَةٍ بالرأْسِ ، لـٰكِنْ بتسليمِ ذلكَ . . فإِنَّ الأَفضلَ لُبْسُ العمامَةِ بِعَذَبَتِها ، وما وقعَ لصاحِبِ « القاموسِ » ، مِن أَنَّهُ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ ، لَم يفارِقِ العَذَبَةَ . . مردودٌ ، والصوابُ : أَنَّهُ كانَ يتركُها أَحياناً . ٱنتهىٰ بٱختصارٍ ، ولفظُهُ من « التحفَةِ » ، ولـٰكنَّهُ يقولُ في « فتاويهِ » : حدُّ العمامَةِ ـ التي تحصلُ بِها الفضيلَةُ ، المشارُ إِليها بحديثِ : « صَلاَةٌ بِعِمَامَةٍ ، خَيْرٌ مِنْ

سَبْعِيْنَ صَلاَةٍ بِلاَ عِمَامَةٍ »[1] ـ العرفُ ، فما سمَّاهُ العرفُ عمامةً ، قلَّ أَو كثُرَ . . حصلَتْ بِهِ الفضيلَةُ ، وما لا . . فلا .

ونَحْوُ القلنسوَةِ لا يُحَصِّلُ فضيلَةَ العمامَةِ المذكورَةِ ؛ لأَنَّها لا تسمَّىٰ عمامَةً . انتهىٰ .

وفي « دَرِّ الغَمَامَةِ » لَهُ ، ما يوافِقُ ما سبَقَ عَنِ « التُّحْفَةِ » ، ونصُّهُ بعدَ نحوِ ما سبقَ عنها : (ويؤخَذُ مِن ذلكَ : أَنَّ لُبْسَ القلنسوَةِ البيضَاءِ يُغْني عَنِ العمامَةِ ، وبِهِ يتأَيَّدُ ما ٱعتادَهُ بعضُ مدنِ (اليمَنِ) من تركِ العمامَةِ مِن أَصلِها) . اهـ .

وكانَتِ الكُبَراءُ تمتازُ بعمائِمِها ، وما سمِّيَ الزِّبْرِقَانُ إِلاَّ لامتيازِهِ بصفرَةِ العمامَةِ .

وكانَ سعيدُ بنُ العاصِ ، المكتني بأَبي أُحيحَةَ ، إِذا ٱعتمَّ بـ(مكَّةَ) . . لم يعتمَّ أَحدٌ بلونِ عمامَتِهِ ؛ إِعظاماً لَهُ ، وفيهِ يقولُ أَبو قيسِ بنِ الأَسلَتِ [في « ديوانِهِ » ٨٨ـ٨٩ من الوافر] :

وَكَانَ أَبُوْ أُحَيحَةَ قَدْ عَلِمْتُمْ ... بِمَكَّةَ غَيْرَ مُهْتَضَمٍ ذَمِيْمِ
إِذَا شَدَّ ٱلْعِصَابَةَ ذَاتَ يَوْمٍ ... وَقَامَ إِلَىٰ ٱلْمَجَالِسِ وَٱلْخُصُوْمِ
فَقَدْ حَرُمَتْ عَلَىٰ مَنْ كَانَ يَمْشِيْ ... بِمَكَّةَ غَيْرَ مُدَّخَلٍ سَقِيْمِ[2]

وكانتِ الفرسانُ تتقنَّعُ ، ما عدا أَبي تميمِ بنِ طريفٍ ، فإِنَّهُ لا يبالي أَنْ يُعرَفَ .

---

(١) أخرج الحافظ في « لسان الميزان » (٣/ ٢٤٤) عن ابن عمر رضي الله عنهما : « صلاة بعِمامة تعدل خمساً وعشرين صلاة بلا عمامة . . » .

(٢) « البيان والتبيين » (١/ ٤٣٥) ، المدَّخَل : الدعيُّ الذي يدخلُ في القومِ .

وكانَ التقنُّعُ مِن شِيَمِ الأشرافِ ، يقصدونَ بذلكَ مبايَنَةَ العامَّةِ ، ويقولونَ : إِنَّ من وطئَتَهُ الأعينُ . . وطئَتهُ الأرجُلُ .

والأَصحُّ عندَنا : عدمُ ندبِ التحنيكِ في العمامَةِ .

وذُكِرَتِ العِمَامَةُ لأَبي الأَسودِ ، فقالَ [في « البيان والتبيين » ١/٤٣٦] : هِيَ جُنَّةٌ في الحربِ ، ومكنَةٌ في الحرِّ ، ومدفأَةٌ في القَرِّ ، ووقارٌ في النديِّ ، وزيادَةٌ في القامَةِ ، وتعظيمٌ للهامَةِ .

وكانَتْ عمائِمُ الأَكثرينَ من مشايِخنا ، إِلىٰ الكبَرِ أَقربُ مِنها إِلىٰ الصغَرِ ، ولا معابَةَ في شيءٍ مِن ذلكَ ؛ لأَنَّ العادَةَ قدِ اَضطربَتْ ، والأَحوالَ قدِ اَختلفَتْ ، فما بشيءٍ مِنَ الحالينِ إِزراءٌ ، ولا خروجَ عَنِ العادَةِ ، وإِنِّي واللهِ قلَّما أَذكُرُ غُرَرَهُم الباهرةَ ، وعمائِمَهُم الزاهِرَةَ . . إِلاَّ خطرَ بذِهْني ما هُمُ الأَحقُّ بهِ ، مِن قولِ الشاعرِ [في « المستطرف » ١/٤٩٦ مِنَ الوافرِ] :

إِذا لَبِسُوا عَمَـائِمَهُـمْ طَـوَوْهَـا ... عَلَـىٰ كَـرَمٍ وَإِنْ سَفَـرُوْا أَنَـارُوْا

أَمَّا اليومُ : فتكبيرُ العمامَةِ يكادُ يعدُّ مِنَ الإِزراءِ المكروهِ ، أَوِ المحرَّمِ ، علىٰ ما في ذلكَ مِنَ التفصيلِ المذكورِ في أَبوابِ الشهاداتِ مِنَ الفقهِ ، وما رأَتْ عَيني أَحسنَ لَفّاً لَها ، مِن أَهلِ (تريمِ) حرسَها اللهُ تعالىٰ .

وأَنكرَ بعضُهم لفظ (العِمَّةِ) بمعنىٰ العمامةِ ، وقالَ : إِنَّما هُوَ اَسمٌ للهيئَةِ فقط ، وإِنِّي لأَتعجَّبُ مِن ذلكَ ، معَ شهرَةِ اَستعمالِهِ بينَ العلماءِ ، ومِنْهم الجاحظُ ، والظَّنُّ بهِم أَنْ لا يتواتَروا علىٰ الغلَطِ ، بلْ كثيراً ما طرَقَ سَمْعي ، لفظ (العِمَّةِ) بمعنىٰ العِمامَةِ في شيءٍ مِن

أَشعارِ القدماءِ ، لا يحضُرُني مِنها الآنَ إلاَّ قولُ دريدٍ [في « ديوانهِ » ١١٠ مِنَ البسيطِ] :

عَارِيْ ٱلأَشَاجِعِ مَعْصُوْبٌ بِعِمَّتِهِ   أَمْرُ ٱلزَّعَامَةِ ، فِيْ عُرْنِيْنِهِ شَمَمُ

علىٰ أنِّي لستُ متأكِّداً من كونِهِ بهـٰذا اللفظِ ؛ لأنَّ الحفظَ يخونُ .

وقالَ الفرزدقُ يَهْجو [مِنَ الرَّجَزِ] :

قُبِّحَـتِ ٱلْعَيْنَـانِ تَحْـتَ ٱلْعِمَّـهْ

فقالَ المهجوُّ [مِنَ الرَّجَزِ] :

بَـلْ قُبِّـحَ ٱلْهَـاجِـيْ وَنَـاكَ أُمَّـهْ

* * *

[قالَ أَبو الطَّيبِ المتنبِّي في « العُكبَريِّ » ٢/ ١٩٠ مِنَ البسيطِ] :

أَكَارِمٌ حَسَدَ ٱلأَرْضَ ٱلسَّمَاءُ بِهِمْ وَقَصَّرَتْ كُلُّ مِصْرٍ عَن طَرَابُلُسِ

شرح المطلع

(أَكَارِمٌ) : جَمْعُ أَكْرمَ ، كأَفاضِل جمعُ الأَفضلِ ، يقولُ : بوجودِهِم في الأَرضِ حسدَتْها السماءُ ، ولَو أَنَّهُ قالَ : (حسدَتْ) بالتأْنيثِ ، و(قصرَ) بالتذكيرِ . . لكانَ أَولىٰ ؛ لأَنَّ التأْنيثَ في السماءِ أَكثرُ فيها مِنَ التَّذكيرِ ، وفي « شمسِ العلوم » للقاضي نشوانَ بن سعيدٍ : كلُّ مؤنَّثٍ بلا علامَةِ تأْنيثٍ ، يَجوزُ تذكيرُهُ ، كالسماءِ ، والأَرضِ ، والشمسِ ، والنارِ ، والقوسِ ، وهِيَ فائدَةٌ جليلةٌ . قالَ شارحُ « القاموسِ » : وردَّ عليهِ شيخُنا ، وقالَ : هٰذا كلامٌ غيرُ معوَّلٍ عليهِ ، عندَ أَربابِ التحقيقِ ، ولْيرجعِ النَّاظِرُ إِلىٰ مادَّةِ (سَمَا) مِنْهُ ؛ ليحيطَ بما فيهِ مِنَ البحثِ .

أيهما افضل الأرض أم السماء؟

وقدِ ٱختُلِفَ في المفاضلَةِ بينَ الأَرضِ والسماءِ ، ففضَّلَ الأُولىٰ قومٌ ؛ لأَنَّها مستقرُّ الأَنبياءِ ، ومدفنُهُم ، وفَضَّلَ الثانيةَ الأَكثرونَ ؛ لأَنَّهُ لم يُعْصَ اللهُ فيها ، ومعصيَةُ إِبليسَ نادرَةٌ ، أَو لم تكُنْ فيها ، معَ الاتفاقِ علىٰ أَفضليَّةِ البقعَةِ التي ضمَّتْ جسدَ نبيِّنا صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم ، بَلِ ٱدَّعىٰ ٱبنُ حجرٍ : الإِجماعَ علىٰ أَفضليَّتِها علىٰ العرشِ والكرسيِّ .

والحقُّ : أَنَّهُ قولٌ مولَّدٌ ، فَادِّعاءُ الإِجماعِ عليهِ ، مِن أَظهرِ الأَغلاطِ ، كما نبَّهَ عليهِ الكرديُّ ، وقرَّرتُهُ في كتابي : « الفَوائِدُ

الجَنيّةُ » ، وأُلْحِقَ بمدفَنِهِ عليهِ السلامُ سائِرُ مدافِنِ الأَنبياءِ صلواتُ اللهِ عَلَيهم أَجمعينَ ، كَمَا قرَّرَهُ بعضُهم ، وأَكثرُ العلماءِ يفضِّلُونَ (مكَّةَ) علىٰ (المدينةِ) ، خَلا تلكَ البقعةِ الشريفَةِ ، وخالفَهُم إِمامُ دارِ الهجرَةِ ، فجزمَ بتَفْضيلِ (المدينةِ)[1] . وبيتُ الناظِمِ ناظِرٌ إِلىٰ بعضِ ذلكَ ، وإِلىٰ قولِ زهيرٍ [مِنَ البسيطِ] :

تَنَافَسُ ٱلأَرْضُ مَوْتَاهُمْ إِذَا دُفِنُوْا   كَمَا تَنَافَسَ عِنْدَ ٱلْبَاعَةِ ٱلْوَرَقُ
كَأَنَّ آخِرَهُمْ فِيْ ٱلْجُوْدِ أَوَّلُهُمْ   إِنَّ ٱلشَّمَائِلَ فِيْ ٱلأَخْلَاقِ تَتَّفِقُ

تفاخر الأماكن والأعضاء على بعضها

وقد تكرَّرَ نظيرُهُ عندَ الناظمِ ، فمِنْهُ قولُهُ [في « العُكبَريّ » ٢/٢٠٦ مِنَ المتقاربِ] :

وَإِنَّ ٱلْفِئَامَ ٱلَّتِيْ حَوْلَهُ   لَتَحْسُدُ أَرْجُلَهَا ٱلأَرْؤُسُ[2]

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٤/٩٩ مِنَ الخفيفِ] :

خَيْرُ أَعْضَائِنَا ٱلرُّؤُوْسُ وَلَكِنْ   فَضَلَتْهَا بِقَصْدِكَ ٱلأَقْدَامُ

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٢/٤٨ مِنَ الخفيفِ] :

عَظَّمَتْهُ مَمَالِكُ ٱلْفُرْسِ حَتَّىٰ   كُلُّ أَيَّامِ عَامِهِ حُسَّادُهْ

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ١/ ٣٣٤ مِنَ الكاملِ] :

أَرْضٌ لَهَا شَرَفٌ سِوَاهَا مِثْلُهَا   لَوْ كَانَ مِثْلُكَ فِيْ سِوَاهَا يُوْجَدُ

---

(١) أي : مالكٌ مستدلاً بقوله ﷺ : « المدينة خير البقاع » و« المدينة خير من مكة » رواه عن رافع بن خديج الطبراني والدارقطني في « الأفراد » كما في « الجامع الصغير » (٩١٨٥) .
(٢) الفئامُ : الجماعاتُ .

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ١/ ٧٥ مِنَ الوافرِ] :

فَإنِّيَ قَدْ وَصَلْتُ إِلَىٰ مَكَانٍ عَلَيهِ تَحْسُدُ ٱلْحِدَقَ ٱلْقُلُوبُ

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ١/ ١١٥ مِنَ البسيطِ] :

وَتَغبطُ ٱلأَرْضُ مِنْهَا حَيْثُ حَلَّ بِهِ وَٱلْخيلُ تَحْسُدُ مِنْهَا أَيُّهَا رَكِبَا

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ١/ ١٤٦ مِنَ البسيطِ] :

ٱلْمَجْلِسَانِ عَلَىٰ ٱلتَّمْييزِ بَيْنَهُمَا مُقَابِلاَنِ ولَـٰكِنْ أَحْسَنَا ٱلأَدبَا
إِذَا صَعِدْتَ إِلَىٰ ذَا.. مَالَ ذَا رَهَباً وَإِنْ صَعِدْتَ إِلَىٰ ذا.. مَالَ ذَا رَغَبَا
فَلِمْ يَهَابُكَ مَا لاَ حِسَّ يَرْدَعُهُ ؟! إِنِّي لأُبْصِرُ مِنْ شَأْنَيْكُمَا عَجَبَا

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٣/ ٢٤٦ مِنَ الوافرِ] :

لَقَدْ ظَلَّتْ أَوَاخِرُهَا ٱلْعَوَالِيْ مَعَ ٱلأُوْلَىٰ بِجِسْمِكَ فِيْ قِتَالِ(١)

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٣٨٢ مِنَ الطَّويلِ] :

تَحَاسَدَتِ ٱلبُلْدَانُ حَتَّىٰ لَوَ ٱنَّهَا نُفُوسٌ لَسَارَ ٱلشَّرْقُ وَٱلْغَرْبُ نَحْوَكَا

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٤/ ٢٦٨ مِنَ البسيطِ] :

إِذَا حَلَلْتَ مَكَاناً بَعْدَ صَاحِبِهِ جَعَلْتَ فِيهِ عَلَىٰ مَا قَبْلَهُ تِيْهَا(٢)

ولا يبعُدُ عنهُ أيضاً قولُهُ [في « العُكبَريّ » ١/ ٢٨٦ مِنَ الطَّويلِ] :

هُوَ ٱلْحَظُّ حَتَّىٰ تَفْضُلَ ٱلعَيْنُ أُخْتَهَا وَحَتَّىٰ يَكُوْنَ ٱلْيَوْمُ لِلْيَوْمِ سَيِّدَا

---

(١) المعنىٰ : أقامت أعالي ثيابكَ التي تظهرُ للناسِ تَحسُدُ الأقربَ من جسدكَ وهيَ التي تباشرُ جسدكَ ، فبينهما قتالٌ لذلك .

(٢) التيهُ : التكبُّرُ والفخر .

وقالَ حبيبُ بنُ أَوسٍ [وهو ابو تمَّامٍ في « ديوانهِ » ٢/ ٩٩ مِنَ الكاملِ] :

وَإِذَا تَـأَمَّلْـتَ ٱلـدِّيَـارَ رَأَيْتَهَـا تُثْرِيْ كَمَا تُثْرِي ٱلرِّجَالُ وَتُعْدِمُ

وقالَ [في « ديوانهِ » ١/ ٣٦٢ مِنَ المنسرحِ] :

يَشْتَـاقُـهُ مِـنْ كَمَـالِـهِ غَـدُهُ وَيُكْثِـرُ ٱلْـوَجْـدَ نَحْـوَهُ ٱلأَمْـسُ

وقالَ ٱلبُحتريُّ لَمَّا جاءَ وفدُ الرومِ إِلىٰ عندِ المتوكِّلِ [في « ديوانهِ » ٣/ ١٥٩٨ مِنَ ٱلكاملِ] :

وَيَوَدُّ قَوْمُهُمُ ٱلأُلَىٰ بَعَثُوا بِهِمْ لَوْ ضَمَّهُمْ بِٱلأَمْسِ ذَاكَ ٱلْمَحْفَلُ
قَدْ نَافَسَ ٱلْغَيْبَ ٱلْحُضُوْرُ عَلَىٰ ٱلَّذِيْ شَهِدُوا ، وَقَدْ حَسَدَ ٱلرَّسُولَ ٱلْمُرْسِلُ

وقالَ ٱبنُ الروميِّ [مِنَ البسيطِ] :

تَنَافَسَ ٱلنَّاسُ فِيْ أَيَّامِ دَوْلَتِهِ فَمَـا يَبِيْعُـوْنَ سَـاعَـاتٍ بِـأَعْـوَامِ

وقالَ آخرُ [مِنَ الطَّويلِ] :

تَنَافَسَتِ ٱلأَيَّامُ فِيَّ وَلَمْ تَزَلْ عَلَىٰ حَسَدٍ مِنْ أَجْلِ ذَاكَ وَأَحْقَادِ

وقالَ المعريُّ [في « سقطِ الزندِ » ٢٢١ مِنَ الطَّويلِ] :

يُنَافِسُ يَوْمِيْ فِيَّ أَمْسِيْ تَشَرُّفاً وَتَحْسُدُ أَبْكَارِيْ عَلَيَّ ٱلأَصَائِلُ(١)

وقالَ ٱبنُ الفارضِ [في « ديوانهِ » ١٤٩ مِنَ الكاملِ] :

يَا سَائِراً بِٱلْقَلْبِ غَدْراً كَيْفَ لَمْ تُتْبِعْهُ مَا غَادَرْتَهُ مِنْ سَائِرِيْ ؟
بَعْضِيْ يَغَارُ عَلَيْكَ مِنْ بَعْضِيْ وَيَحْـ ـسُدُ بَاطِنِيْ إِذْ أَنْتَ فِيْهِ ظَاهِرِيْ

---

(١) الأصائل ـ جمع أصيلٍ ـ : وهوَ آخرُ النهارِ .

وقلتُ في رثاءِ العلاَّمَةِ الجليلِ ، السيِّدِ أحمدَ بنِ حسنِ العَطَّاسِ ، ما هوَ الغايَةُ في الموضوعِ ، وهُوَ [كما في « ديوان المؤلف » ق ٧٦ مِنَ الطَّويلِ] :

وَأُدرِجَ فِيْ ثَوْبٍ مِنَ ٱلْقُطْنِ أَضْمَرَتْ لَهُ حَسَداً فِيْ نَفْسِهَا ٱلْحُلَلُ ٱلْخُضْرُ

علىٰ أَنَّهُ فوقَ ذلكَ ، مثالٌ مِنْ أَمثلةِ ٱلاتِّساعِ ٱلبَديعيِّ ؛ إِذ يحتمِلُ أَنْ يُرادَ بـ (الحُلَلُ الخُضْرُ) الَّتي كانَ يلبَسُها في الدُّنيا ، أَوِ الَّذي تنتظرُهُ في ٱلجنَّةِ ، أَوِ ٱلقِسمانِ ؛ إِذ لا مانِعَ مِن حملِ ٱلمشترَكِ علىٰ معنيَيْهِ .

ذكاء الفضل بن الربيع وهو صغير

ويُحكىٰ : أَنَّ الرَّشيدَ قالَ للفضلِ بنِ الرَّبيعِ ـ وهوَ صغيرٌ ـ : دارُنا أَحسنُ أَمْ دارُكُم ؟ فقالَ لَهُ : إِذا كنتَ في دارِنا . . فدارُنا أَحسنُ ، وإِذا كنتَ في دارِكَ . . فهيَ أَحسنُ ، وكانَ في يدِهِ خاتَمٌ ، فقالَ لَهُ : أَرأَيتَ أَحسنَ مِن هـٰذا ؟ قالَ : الأُصبُعُ الَّذي هوَ فيهِ .

ويروىٰ نظيرُهُ للفتحِ بنِ خاقانَ .

وقالَ بعضُهُم [مِنَ الطَّويلِ] :

فَمَا أَحْسَنَ ٱلدُّنْيَا وَفِيْ ٱلدَّارِ خَالِدٌ وَأَقْبَحَهَا لَمَّا تَجَهَّزَ خَالِدُ

وقالَ العلويُّ [مِنَ الخفيفِ] :

إِنَّما ٱلدَّارُ بِٱلْحُلُوْلِ فَإِنْ هُمْ فَارَقُوْهَا فَحَيْثُ حَلُّوْا ٱلدِّيَارَا

وقالَ سليمانُ الحاربيُّ [مِنَ الطَّويلِ] :

إِذا لَمْ تَكُنْ لَيْلَىٰ بِنَجْدٍ تغَيَّرَتْ مَحَاسِنُ دُنْيَا أَهْلِ نَجْدٍ وَطِيْبُهَا

وأَلَمَّ صاحبُنا ببعضِ ذلكَ فقالَ [في « العُكبَريّ » ١/ ٣٤ مِنَ الخفيفِ] :

نَزَلَتْ إِذْ نَزَلْتَهَا ٱلدَّارُ فِيْ أَحْـ ـسَنَ مِنْهَا مِنَ ٱلسَّنَا وَٱلسَّنَاءِ[1]

* * *

(١) السنا : الضياءُ والنورُ . السناءُ : العلوُّ والرفعةُ .

المحتوى

المحتوى

المجلس السابع

أَحْيَا! وَأَيْسَرُ مَا قَاسَيْتُ مَا قَتَلاَ	وَٱلْبَيْنُ جَارَ عَلَىٰ ضَعْفِي وَمَا عَدَلاَ

وَٱلْوَجْدُ يَقْوَىٰ كَمَا تَقْوَىٰ ٱلنَّوَىٰ أَبَدَا	وَٱلصَّبْرُ يَنْحَلُ فِيْ جِسْمِيْ كَمَا نَحِلاَ

لَوْلاَ مُفَارَقَةُ ٱلأَحْبَابِ مَا وَجَدَتْ لَهَا ٱلْمَنَايَا إِلَىٰ أَرْوَاحِنَا سُبُلاَ

بِمَا بِجَفْنَيْكِ مِنْ سِحْرٍ صِلِي دَنِفًا   يَهْوَىٰ ٱلْحَيَاةَ ، وَأَمَّا إِنْ صَدَدْتِ فَلاَ

إِلاَّ يَشِبْ فَلَقَدْ شَابَتْ لَهُ كَبِدٌ   شَيْبـاً إِذَا خَضَّبَتْـهُ سَلْـوَةٌ نَصَـلاَ

يُجَـنُّ شَـوْقـاً فَلَـوْلاَ أَنَّ رَائِحَـةً   تَزُورُهُ فِي رِيَاحِ ٱلشَّرْقِ مَا عَقَلاَ

عَلَّ ٱلأَمِيرَ يَرَىٰ ضَعْفِيْ فَيَشْفَعَ لِيْ ... إِلَىٰ ٱلَّتِيْ تَرَكَتْنِيْ فِيْ ٱلْهَوَىٰ مَثَلاَ

أَيْقَنْتُ أَنَّ سَعِيْداً طَالِبٌ بِدَمِيْ   لَمَّا بَصُرْتُ بِهِ بِٱلرُّمْحِ مُعْتَقِلاَ

قَيْـلٌ بِمَنْبِـجَ مَثْـوَاهُ ، وَنَـائِلُـهُ   فِي ٱلأُفْقِ يَسْأَلُ عَمَّنْ غَيْرَهُ سَأَلاَ

المجلس الثامن

يَلُوحُ بَدْرُ ٱلدُّجَىٰ فِيْ صَحْنِ غُرَّتِهِ ۝ وَيَحْمِلُ ٱلْمَوْتَ فِيْ ٱلْهَيْجَاءِ إِنْ حَمَلاَ

أَنْكَحْتُ صُمَّ حَصَاهَا خُفَّ يَعْمَلَةٍ تَغَشْمَرَتْ بِيْ إِلَيْكَ ٱلسَّهْلَ وَٱلْجَبَلا

وَضَاقَتِ ٱلأَرْضُ حَتَّىٰ إِنَّ هَارِبَهُمْ　　إِذَا رَأَىٰ غَيْـرَ شَـيْءٍ ظَنَّـهُ رَجُـلاَ

المجلس التاسع

كَمْ قَتِيْلٍ - كَمَا قُتِلْتُ - شَهِيْدِ ... بِبَيَاضِ ٱلطُّلَىٰ وَحُمْرِ ٱلْخُدُوْدِ

يَتَـرَشَّفْـنَ مِـنْ فَمِـيْ رَشَفَـاتٍ   هُـنَّ فِيْـهِ أَحْلَـىٰ مِـنَ ٱلتَّـوْحِيْـدِ

هَـٰـذِهِ مُهْجَتِـيْ لَـدَيْـكِ لِحِيْنِـيْ   فَانْقُصِيْ مِنْ عَذَابِهَا أَوْ فَزِيْدِيْ

كُلُّ شَيْءٍ مِنَ ٱلدِّمَاءِ حَرَامٌ   شُرْبُهُ مَا خَلاَ دَمَ ٱلْعُنْقُودِ

شَيْبُ رَأْسِيْ وَذِلَّتِيْ وَنُحُوْلِيْ   ودُمُوْعِيْ عَلَىٰ هَوَاكَ شُهُوْدِيْ ؟!

المجلس العاشر

مَا مُقَامِيْ بِأَرْضِ نَخْلَةَ إِلاَّ كَمُقَامِ ٱلْمَسِيْحِ بَيْنَ ٱلْيَهُوْدِ

فَاطْلُبِ ٱلْعِزَّ فِي لَظَىٰ وَدَعِ ٱلذُّ ... لَّ وَلَـو كَـانَ فِـي جِنَـانِ ٱلْخُلُـوْدِ

لاَ بِقَوْمِيْ شَرُفْتُ بَلْ شَرُفُوْا بِيْ ... وَبِنَفْسِـيْ فَخَـرْتُ لاَ بِجُـدُوْدِيْ

المجلس الحادي عشر

تَمَثَّلُوا حَاتِماً وَلَوْ عَقَلُوا لَكُنْتُ فِيْ ٱلْجُوْدِ غَايَةَ ٱلْمَثَلِ

هَـدِيَّـةٌ مَـا رَأَيْـتُ مُهْـدِيَهَـا إِلاَّ رَأَيْـتُ ٱلْعِبَـادَ فِـيْ رَجُـلِ

أَظَبْيَةَ ٱلْوَحْشِ لَوْلاَ ظَبْيَةُ ٱلإِنْسِ لَمَا غَدَوْتُ بِجِدٍّ فِيْ ٱلْهَوَىٰ تَعِسِ

* * *

العود الهندي

عن أماليَّ في ديوان الكنديّ

مجالس أدبيّة في ديوان المتنبّي

تأليف علّامة حضرموت ومفتيها
السيّد عبد الرحمن بن عبيد الله السقّاف
رحمه الله تعالى

الجزء الثالث

دار المنهاج



العُودُ الهِنْدِيُّ

عَنْ أَمَالِيَّ في دِيوَانِ الكِنْدِيِّ

مجالس أدبية في ديوان المتنبي

تأليف
علامة حضرموت ومفتيها
السيد عبد الرحمن بن عبيد الله السقاف
رحمه الله تعالى

عُنِيَ بِهِ
محمد مصطفى الخطيب
بمساهمة
اللجنة العلمية بمركز دار المنهاج للدراسات والنشر

المجلد الثالث

دار المنهاج

بسم الله الرحمن الرحيم

الطّبعة الثّانية

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

دار المنهاج للنشر والتوزيع

جدة - هاتف رئيسي ٦٣٢٦٦٦٦ - فاكس ٦٣٢٠٣٩٢

الإدارة ٦٣١١٧١٠ - المكتبة ٦٣٢٢٤٧١

www.alminhaj.com

E-mail: info@alminhaj.com

ISBN: 978 - 9953 - 498 - 48 - 5

المجلس الثاني عشر

[قالَ أَبو الطَّيِّب المتنبِّي في « العُكبَريِّ » ٢/ ٣٣٢ مِنَ الكاملِ] :

أَرَقٌ عَلَىٰ أَرَقٍ وَمِثْلِيَ يَأْرَقُ وَجَوىً يَزِيْدُ وَعَبْرَةٌ تَتَرَقْرَقُ

شرح المطلع

(الأَرَقُ) : ٱمتناعُ النومِ ، و(الجَوَىٰ) : الحُزْنُ الذي يستبطنُ الإِنسانَ ، فيكونُ في حشاهُ ، و(العَبْرَةُ) : تردُّدُ الدمعِ في العينِ .

يقولُ : لي سُهادٌ بعدَ سهادٍ ، ومَن كانَ مِثلي . . فلاَ بدَّ لَهُ من السهادِ ، إِلاَّ أَنَّهُ قصَّرَ هنا ، بما يُفهِمُهُ سياقُ كلامِهِ مِنِ ٱنحصارِ سهادِهِ علىٰ الهوىٰ ، ولو أَنَّهُ جعلَهُ لَهُ ولِلْمجدِ . . لكانَ أَشرفَ وأَجملَ .

السهر والأرق من أجل الهوى ومن أجل المجد

وقد قالَ حافظٌ [مِنَ الطَّويلِ] :

لِحَاظُكَ وَٱلأَيَّامُ جَيْشٌ أُغَالِبُهْ فَهَـٰذِي مَوَاضِيهِ وَهَـٰذِيْ كَتَائِبُهْ
وَهَمَّيْنِ ضَاقَ ٱلْقَلْبُ وَٱلصَّدْرُ عَنْهُمَا غَـرَامٌ أُعَـانِيْـهِ وَعَيْـشٌ أُغَـالِبُـهْ

غيرَ أَنَّهُ لَو أَبدلَ لفظَةَ (العيشِ) ، بلفظَةِ الدهرِ . . لكانَ أَفخرَ وأَكبرَ ؛ لِما تجتلبُهُ الأُولىٰ مِنَ الضَّعةِ ، والمعنىٰ مأْخوذٌ مِن قولِ سهلِ بنِ هارونَ [مِنَ الطَّويلِ] :

تَقَاسَمَنِيْ هَمَّانِ قَدْ كَسَفَا بَالِيْ وَقَدْ تَرَكَا قَلْبِيْ مَحَلَّةَ بَلْبَالِ(١)

---

(١) **البلبالُ** : الهمُّ الذي يَعْتَلِجُ الصَّدرَ .

فِرَاقُ خَلِيْلٍ مِثْلُهُ يَبْعَثُ ٱلأَسَىٰ　　وَحَاجَةُ خِلٍّ لا يَقُوْمُ بِهَا مَالِيْ

ولي في مثلِهِ الكثيرُ الطيِّبُ ، غيرَ أَنّي لا أُثقلُ بِهِ .

منشأ الهموم وترادف الغموم من كبر الهمة

وقد تكرَّرَ في « ديوانِ الناظِمِ » ما يشيرُ إِلىٰ نشأَةِ الهمومِ ، وترادُفِ الغمومِ ، عَن كُبْرِ الهِمَّةِ ، وطموحِ النفسِ في طلبِ ٱلعُلا ، **كقولِهِ** [في « العُكبَريِّ » ١/ ١٨٠ مِنَ الطَّويلِ] :

لَحَا ٱللهُ ذِيْ ٱلدُّنْيَا مُنَاخاً لِرَاكِبٍ　　فَكُلُّ بَعِيْدِ ٱلْهِمِّ فِيْهَا مُعَذَّبُ(١)

وقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٣٤٥ مِنَ الخفيفِ] :

وَإِذَا كَـانَـتِ ٱلنُّفُـوْسُ كِبَـاراً　　تَعِبَـتْ فِـيْ مُـرَادِهَـا ٱلأَجْسَـامُ

وقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٢٢ مِنَ الطَّويلِ] :

وأَتْعَـبُ خَلْـقِ ٱللهِ مَـنْ زَادَ هَمُّـهُ　　وَقَصَّرَ عَمَّا تَشْتَهِيْ ٱلنَّفْسُ وُجْدُهُ(٢)

إِلاَّ أَنَّهُ خَضعَ في هٰذا لِبعضِ القولِ ؛ إِذ صرَّحَ بأَنَّهُ لم يتعبْ مِن كُبْرِ الهِمَّةِ إِلاَّ لقلَّةِ المالِ ، وقضيَّتُهُ أَنْ لا مطمحَ لَهُ وراءَ حصولِهِ ، فهوَ نقيضُ **قولِهِ** [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٣٠ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا رَغْبَتِيْ فِيْ عَسْجَدٍ أَسْتَفِيْدُهُ　　وَلَـٰكِنَّهَـا فِـيْ مَفْخَـرٍ أَسْتَجِـدُّهُ

وقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ١/ ٢٠٠ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذا نِلْتُ مِنْكَ ٱلْوُدَّ فَٱلْكُلُّ هَيِّنٌ　　وَكُلُّ ٱلَّذِيْ فَوْقَ ٱلتُّرَابِ تُرَابُ

وقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ١/ ١٧٤ مِنَ البسيطِ] :

تَهْوِيْ بِمُنْجَرِدٍ لَيْسَتْ مَذاهِبُهُ　　لِلُبْسِ ثَوْبٍ ومأْكُوْلٍ ومَشْرُوْبِ

---

(١) **لحا الله** : قَبَّحَ ولعنَ ، وأَصلُهُ من لَحوتُ العودَ إِذا قشَّرتَهُ .

(٢) **الوُجدُ** : السَّعةُ .

وما أكثرَ ما يتناقَضُ قولُهُ ، كما ذكرنا غيرَ مرَّةٍ ، وكلَّما ادَّعىٰ غيرَ ما في نفسِهِ . . ظهرَ علىٰ فلتاتِ لسانِهِ ، وقد صرَّحَ المخضُ[1] عنِ الزبدِ ، في مثلِ قولِهِ [في « العُكبَريّ » ١/ ١٨٢ مِنَ الطَّويلِ] :

إذا لَـمْ تَنُـطْ بِـيْ ضَيْعَـةً أَوْ وِلاَيَـةً   فَجُوْدُكَ يَكْسُوْنِيْ وَفَضْلُكَ يَسْلُبُ[2]

وقولِهِ [في « العُكبَريّ » ٢/ ١١٤ مِنَ الطَّويلِ] :

هُمَـا خَلَّتَـانِ : ثَـرْوَةٌ أَوْ مَنِيَّـةٌ   لَعَلَّكَ أَنْ تُبْقِيْ بِوَاحِدَةٍ ذِكْرَا[3]

وقولِهِ [في « العُكبَريّ » ١/ ٣٢٠ مِنَ الخفيفِ] :

ضَاقَ صَدْرِيْ وَطَالَ فِيْ طَلَبِ ٱلرِّزْ   قِ قِيَـامِـيْ وَقَـلَّ عَنْـهُ قُعُـوْدِيْ

فتجلَّىٰ في غيرِ شبهةٍ ، أنَّهُ لا يريدُ مِن الإمارةِ غيرَ المالِ ، وبهِ يتأكَّدُ ما أُثِر عنهُ مِن شدَّةِ الحرصِ ، إلىٰ حدٍّ أَنَّ بعضَ الأمراءِ أجازهُ بمالٍ كثيرٍ ، فنشبَ منهُ دانقٌ في الحصيرِ ، فما زالَ يعالِجُهُ ، ويتمثَّلُ بقولِ قيسِ بنِ الخطيمِ [في « ديوانه » ٣٥ مِنَ الطَّويلِ] :

اضحـــك علـــى الحريص!!

تَبَدَّتْ لَنَا كَٱلشَّمْسِ تَحتَ غَمَامَةٍ   بَدَا جَانِبٌ مِنْهَا وَضَنَّتْ بِجَانِبِ

ولم ينفكَّ حتَّىٰ دميَت أظافرُهُ .

ورأيتُ في بعضِ الكتبِ : أَنَّ كسرىٰ أكرمَ بعضَ رعيَّتِهِ بمالٍ

(١) المخضُ : تحريك اللبنِ في المِخضَّةِ . وهيَ وعاءٌ يوضعُ فيهِ اللبنُ ويحرَّكُ كي يستخرج زُبداً .

(٢) تنُط : تعلِّقَ . الضيعَةُ : البلدةُ أو القريةُ ، والمعنى : إذا لم تُقطعني ضيعةً . . فجودكَ يكسوني ، وشغلُكَ عني يُذهبُ ويَسلبُ عني تلك الكسوةَ .

(٣) المعنى : هما خصلتانِ : إمّا الغنىٰ أو الموتُ ، فانهض إمّا لتكسِبَ المالَ أو لتقتلَ الأعداء .

طائلٍ ، ولمَّا ٱحتملَهُ ، وما كادَ إِلاَّ بجهدٍ . . سقطَ منهُ درهَمٌ ، فتكلَّفَ أَخذَهُ مِنَ الأَرضِ بعناءٍ ومشقَّةٍ ، فعاتبَهُ الملكُ ، وقالَ لَهُ : أَلم يغنكَ الذي معكَ ؟ فهلاّ تركتَهُ ينتفعُ بهِ أَحدُ الخدَمِ ، وتسلمُ مِن تعبِ القُعودِ والقيامِ ، معَ الحِمْلِ الثقيلِ ؟ قالَ : يا مولايَ ، ما بي حرصٌ علىٰ شيءٍ مَعَ بقائِكَ ، ولٰكن لم تطبْ نفسي بٱمتهانِهِ علىٰ الأَرضِ ساعةً ما ، وعليهِ ٱسمُ الملكِ ، فٱستحسنَها وأَضعفَ الجائِزَةَ ، وأَمرَ من يحمِلُها مَعَهُ .

تعليل المتنبي لسبب مرضه

ويذكرُ عَنِ الناظمِ : أَنَّهُ كانَ يعلِّلُ حرصَهُ بقصَّةٍ ، حاصلها : أَنَّهُ وردَ (الكوفةَ) في صباهُ ، ومعَهُ خمسةُ دراهمَ في منديلٍ ، فرأَىٰ باكورةَ بِطِّيخٍ ينادىٰ عَليها ، فدفعَ فيها الخمسةَ الدراهمِ ، فلم يرضَها البائِعُ ، حتَّىٰ مرَّ أَحدُ الوجهاءِ ذاهباً إِلىٰ دارِهِ ، فوثَبَ إِليهِ صاحبُ البطيخِ ، وقالَ : يامولاي ، باكورةُ بطيخٍ ، أَحملهُ بإِجازتِكَ إِلىٰ دارِكَ ، قالَ : بِكَم ؟ قالَ : بخمسةِ دراهمَ ، فقالَ الوجيهُ : بل بثلاثةٍ ، فباعَ عليهِ ، وحملَها إِلىٰ دارِهِ ، ودَعا لهُ ، وٱنقلبَ مسروراً مِن نفسِهِ بما فعلَ ، قالَ المتنبي : فقلتُ لَهُ : يا هٰذا ، ما رأَيتُ أَحمقَ منكَ ، أَعطيتكَ فيهِ خمسةَ دراهمَ ، ثمَّ تبيعُهُ بثلاثةٍ ، وتحملُهُ فوقَ ذلكَ إِلىٰ منزلِ المشتري ، فقالَ : ٱسكتْ ، أَما تَدْري أَنَّهُ يملكُ مِئةَ أَلفِ دينارٍ ؟! فَلا أَزالُ علىٰ ما ترونَ مِن الحرصِ ، حتَّىٰ يسمعَ الناسُ بأَنَّ عِندي مئةَ أَلفٍ ، هٰذا ما يذكرونَ عنهُ ، وهُوَ لا يشرِّفُهُ ، ولا يبرِّرُ عملَهُ ، وإِنَّما يدلُّ علىٰ أَنَّهُ صاحبُ زهوٍ وبأْوٍ ، يحاولُ أَنْ يتحصَّلَ علىٰ المنزلَةِ الجوفاءِ مِن قلوبِ السقَّاطِ والغوغَاءِ ، وإِنَّما يظهرُ بُعدُ الهمَّةِ ، وشرفُ النفسِ ، مِن مثلِ قولِ ٱمرىءِ القيسِ [في « ديوانهِ » ١٦٧ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَـوْ أَنَّمَـا أَسْعَـىٰ لأَدْنَـىٰ مَعِيْشَـةٍ كَفَانِي ـ وَلَمْ أَطْلُبْ ـ قَلِيْلٌ مِنَ ٱلْمَالِ
وَلَـٰكِنَّمَـا أَسْعَـىٰ لِمَجْـدٍ مُـؤَثَّـلٍ وَقَدْ يُدْرِكُ ٱلْمَجْدَ ٱلْمُؤَثَّلَ أَمْثَالِي

وقولِ جُرثومَةَ بنِ مالكٍ [مِنَ الطَّويلِ] :

فَتىً إِنْ تَجِدْهُ مُعْوِزاً مِن تِلاَدِهِ فَلَيْسَ مِنَ ٱلرَّأْيِ ٱلأَصِيْلِ بِمُعْوِزِ

والناظمُ كثيراً ما يرعىٰ غيرَ ماشيتِهِ ، ويحطِبُ في حبلِ[1] غيرِهِ ، ويتظاهَرُ ببعدِ الهمَّةِ ، والاستهانةِ بالمالِ ، **فيقولُ** [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٢٧٨ مِنَ البسيطِ] :

وَمَا شَكَرْتُ لأَنَّ ٱلْمَالَ فَرَّحَنِيْ سِيَّانِ عِنْدِيَ إِكْثَارٌ وَإِقْلاَلُ[2]

لـٰكنَّ الطبعَ أَغلبُ ، والعادةَ أَملكُ ، **وهوَ القائلُ** [في « العُكبَريِّ » ٢/ ١٩ مِنَ الطَّويلِ] :

وَأَسْـرَعُ مَفْعُـوْلٍ فَعَلْـتَ تَغَيُّـراً تَكَلُّفُ شَيْءٍ فِيْ طِبَاعِكَ ضِدُّهُ

فهـوَ متكلِّـفٌ فـي دعـواهُ طلـبَ المجـدِ الصحيـحِ ، والشـرفِ الصريحِ ، صادقٌ إذا أَشارَ إلىٰ أَنَّ معقدَ العزِّ ، ومطمحَ المجدِ عندَهُ ، حيازةُ مئةِ أَلفٍ ، وتلكَ سبيلٌ لَيسَ فيها بأَوحدٍ ، كما بينَّاهُ في المجلسينِ السادسِ والثالثَ عشرَ ، ومنهُ **قولُهُ** [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٢٣ مِنَ الطَّويلِ] :

فَلاَ مَجْدَ فِيْ ٱلدُّنْيَا لِمَنْ قَلَّ مَالُهُ وَلاَ مَالَ فِيْ ٱلدُّنْيَا لِمَنْ قَلَّ مَجْدُهُ

---

(١) قال الخطابي : **الحبال** : هي ما دون الجبال في الارتفاع .
(٢) **السيانِ** : المثلانِ .

وقولُ هرمِ بنِ عميرٍ التغلبيِّ [في « البيان والتبيين » ١/ ٤٢ مِنَ البسيطِ] :

إِنِّيْ ٱمْرُؤٌ هَدَمَ ٱلإِقْتَارُ مَأْثَرَتِيْ   وَٱجْتَاحَ مَا بَنَّتِ ٱلأَيَّامُ مِنْ خَطَرِيْ
أَرُوْمَةٌ عَطَّلَتْنِي مِنْ مَكَارِمِهَا   كَٱلْقَوْسِ عَطَّلَهَا ٱلرَّامِيْ مِنَ ٱلْوَتَرِ

وقولُ الأَحنفِ [في « البيان والتبيين » ١/ ٣٥٧ مِنَ المتقاربِ] :

وَإِنَّ ٱلْمُرُوْءَةَ لاَ تُسْتَطَاعْ   لِمَنْ لَمْ يَكُنْ مَالُهُ فَاضِلاَ

وقولُ غيرِهِ [مِنَ الطَّويلِ] :

إِلَىٰ ٱللهِ أَشْكُوْ لاَ إِلَىٰ ٱلنَّاسِ أَنَّنِيْ   أَرَىٰ صَالِحَ ٱلأَخْلاَقِ لاَ أَسْتَطِيْعُهَا
أَرَىٰ خَلَّةً فِيْ إِخْوَةٍ وَقَرَابَةٍ   وَذِيْ رَحِمٍ مَا كُنْتُ مِمَّنْ يُضِيْعُهَا

وفي هٰذينِ شَبَهٌ من ناحيةٍ بما سبقَ عنْ سهلِ بنِ هارونَ[1] .

للأرق سبب آخر وهو: الخوف

ثمَّ إِنَّ الأَرقَ تارةً يكونُ عَن مجردِ الهوىٰ ، كما في البيتِ الذي نتكلَّمُ عليهِ ، وكما مرَّ الإِطنابُ فيهِ من المجلسِ الأَوَّلِ .

أو المجد

وإِمَّا أَن يكونَ من الخوفِ ، كما سبقَ في شرحِ قولِهِ [في « العُكبَرِيِّ » ١/ ٣٠٨ مِنَ المنسرحِ] :

أَصْبَحَ حُسَّادُهُ وَأَنْفُسُهُمْ   يُحْدِرُهَا خَوْفُهُ وَيُصْعِدُهَا

وإِمَّا أَنْ يكونَ في سبيلِ المجدِ ، كما ذكرنا بعضَهُ أَواخرَ المجلسِ السابعِ .

أو غير ذلك

وإِمَّا لغيرِ ذلكَ ، فالأَسبابُ كثيرةٌ ، ويدخلُ في القسمِ الأَوَّلِ قولُ ٱبنِ الأَحنفِ [في « ديوانهِ » ٢٨٣ مِنَ الطَّويلِ] :

---

(١) في بداية هذا المجلس .

قِفَا خَبِّرَانِيْ أَيُّهَا ٱلرَّجُلاَنِ عَنِ ٱلنَّوْمِ إِنَّ ٱلْهَجْرَ عَنْهُ نَهَانِيْ
وَكَيْفَ يَكُوْنُ ٱلنَّوْمُ، أَمْ كَيْفَ طَعْمُهُ؟ صِفَا ٱلنَّوْمَ لِيْ إِنْ كُنْتُمَا تَصِفَانِ
وَإِنِّيْ لَمُشْتَاقٌ إِلَىٰ ٱلنَّوْمِ فَٱعْلَمَا وَلاَ عَهْدَ لِيْ بِٱلنَّوْمِ مُنْذُ زَمَانِ

وقولُهُ [في « ديوانهِ » ١٣٣ مِنَ الخفيفِ] :

حَدِّثُوْنِيْ عَنِ ٱلنَّهَارِ حَدِيْثاً أَوْ صِفُوْهُ فَقَدْ نَسِيْتُ ٱلنَّهَارَا

وقيلَ لأُمِّ الهيثمِ ٱبنةِ الأَسودِ : ما حالُكِ ؟ فقالَتْ [مِنَ الوافرِ] :

تَجَافَىٰ مَضْجَعِيْ وَنَبَا رُقَادِيْ وَلَيْلِيْ مَا يَقَرُّ مِنَ ٱلسُّهَادِ
أُرَاقِبُ فِيْ ٱلسَّمَاءِ بَنَاتِ نَعْشٍ وَلَوْ أَسْطِيْعُ كُنْتُ لَهُنَّ حَادِيْ(١)

وقالَ ٱبنُ دريدٍ [في « ديوانهِ » ٧٤ مِن الطَّويلِ] :

لَقَدْ أَلِفَتْ دُهْمُ ٱلنُّجُوْمِ رِعَايَتِيْ فَإِنْ غِبْتُ عَنْهَا فَهْيَ عَنِّيْ تُسَائِلُ
يُقَابِلُ بِٱلتَّسْلِيْمِ مِنْهُنَّ طَالِعٌ وَيُوْمِىءُ بِٱلتَّوْدِيْعِ مِنْهُنَّ آفِلُ

ولي في ٱلموضوعِ ٱلجمِّ ٱلمباركُ ، الذي لا بأسَ أَنْ أذكرَ منهُ مطلعَ قصيدَةٍ نبويَّةٍ ، وهُوَ [في « ديوانِ المؤلِّفِ » ١٥٨ مِنَ الكاملِ] :

طَفِقَتْ تُعَيِّرُ أَدْهَمِيْ بِحِرَانِهِ وَهِيَ ٱلَّتِيْ أَمَرَتْ بِغَضِّ عِنَانِهِ(٢)
أَنَّىٰ يَشِيْبُ غُرَابُ لَيْلِ مُتَيَّمٍ ظَلَعَتْ جِيَادُ ٱلشُّهْبِ فِيْ مَيْدَانِهِ(٣)

---

(١) بناتُ نعشٍ : سبعةُ كواكبَ ، أَربعةٌ منها نعشٌ ، وثلاثٌ بناتٌ .
(٢) **الغضُّ** : التنقيصُ . **والعِنانُ** : حبلٌ يثبت في اللجامِ .
(٣) **المتيَّمُ** : من استعبدهُ الحبُّ . **ظلعَ** : عرجَ في مشيهِ . **الشهبُ** : النجومُ . **والمعنى** : لا أملَ في انقضاءِ الليلِ إذا كانت نجومهُ لا تتحرَّكُ إلا ببطءٍ كأنَّها لا تريدُ السيرَ ، أو كأنَّ جيادَها عرجت في الميدانِ فلا تستطيعُ السبقَ .

ويدخلُ في الثالثِ كلُّ ما جاءَ في فضيلَةِ قيامِ الليلِ ، ومنهُ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ [الذاريات : ١٧] .

وقولُهُ : ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ ﴾ [الإسراء : ٧٩] .

وقولُهُ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ * قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [المزمل : ١-٢] .

وقولُهُ : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ [السجدة : ١٦] .

وقولُ ٱبنِ رواحةَ [في « ديوانهِ » ٩٦ مِنَ الطَّويلِ] :

وَفِيْنَا رَسُوْلُ ٱللهِ يَتْلُو كِتَابَهُ ... إِذَا ٱنْشَقَّ مَعْرُوْفٌ مِنَ ٱلْفَجْرِ سَاطِعُ
يَبِيْتُ يُجَافِي جَنْبَهُ عَنْ فِرَاشِهِ ... إِذَا ٱسْتَثْقَلَتْ بِٱلْمُشْرِكِيْنَ ٱلْمَضَاجِعُ

وقالَ ٱبنُ المعتزِّ [في « ديوانهِ » ١/ ١٠٤ مِنَ الخفيفِ] :

أَنَا مَنْ تَعْلَمُوْنَ أَسْهَرُ لِلْمَجْـ ... ـدِ إِذَا غَطَّ فِيْ ٱلْفِرَاشِ ٱللَّئِيْمُ

وقالَ كُشاجمُ [في « ديوانهِ » ٤٨٦ مِنَ الهزَجِ] :

تَـرَكْـتُ ٱلنَّـوْمَ لِلنُّـوَّا ... مِ إِشْفَـاقـاً عَلَـىٰ عُمْـرِيْ

وقالَ غيرُهُ [ابن نباتة في « قرى الضيف » ٢/ ٤٥٨ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَنْ سَهِرَتْ فِيْ ٱلْمَكْرُمَاتِ جُفُوْنُهُ ... رَعَىٰ طَرْفُهُ فِيْ جَوْفِهَا أَنْجُمَ ٱلْعُلاَ

هجاء المتقاعسين عن المجد والسمو

ولا يتجافىٰ عنِ المبحَثِ الذي نخوضُ فيهِ ، قولُ أَبي دُلَفٍ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَيْسَ فَرَاغُ ٱلْقَلْبِ مَجداً وَرِفْعَةً ... وَلَـٰكِنَّ شُغْلَ ٱلْقَلْبِ لِلْمَرْءِ رَافِعُ
وَذُوْ ٱلْمَجْدِ مَحْمُوْلٌ عَلَىٰ كُلِّ آلَةٍ ... وَكُلُّ قَصِيرِ ٱلْهَمِّ فِيْ ٱلْحَيِّ وَادِعُ[1]

---

(١) وادعُ : لم يُكلِّف نفسَهُ أدنىٰ مشقَّةٍ .

وقولُ الصاحبِ [في « ديوانهِ » ٢٨٠ مِنَ المتقاربِ] :

وَقَائِلَةٍ : لِمْ عَرَتْكَ ٱلْهُمُوْمْ ... وَأَمْرُكَ مُمْتَثَلٌ فِيْ ٱلأُمَمْ ؟
فَقُلْتُ : ٱتْرُكِيْنِي عَلَىٰ حَالَتِيْ ... فَإِنَّ ٱلْهُمُوْمَ بِقَدْرِ ٱلْهِمَمْ

وقالَ آخرُ [مِنَ الكاملِ] :

لَيْسَ ٱلْمُرُوْءَةُ أَنْ تَبِيْتَ مُنَعَّماً ... وَتَظَلَّ مُعْتَكِفاً عَلَىٰ ٱلأَقْدَاحِ
مَا لِلرِّجَالِ وَلِلتَّنَعُّمِ إِنَّمَا ... خُلِقُوْا لِيَوْمِ كَرِيْهَةٍ وَكِفَاحِ

وسمعَ بعضُهم أعرابيَّةً ، تحثُّ ٱبنَها علىٰ الدعَةِ والإقامةِ ، فقالَ [مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا مَا ٱلْفَتَىٰ لَم يَبْغِ إِلاَّ لِبَاسَهُ ... وَمَطْعَمَهُ فَٱلْخَيْرُ مِنْهُ بَعِيْدُ

وقالَ حاتِمٌ [في « ديوانهِ » ٨٣ مِنَ الطَّويلِ] :

لَحَا ٱللهُ صُعْلُوْكاً مُنَاهُ وَهَمُّهُ ... مِنَ ٱلْعَيْشِ أَنْ يَلْقَىٰ لَبُوْساً وَمَطْعَمَا

ولمَّا قالَ الحطيئَة في الزبرقانِ بنِ بدرٍ [في « ديوانهِ » ٥٠ مِنَ البسيطِ] :

دَعِ ٱلْمَكَارِمَ لاَ تَرْحَلْ لِبُغْيَتِهَا ... وَٱقْعُدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ ٱلطَّاعِمُ ٱلْكَاسِيْ

.. شكاهُ إِلىٰ عمرَ بنِ الخطَّابِ ، فقالَ [في « الأغاني » ٢/١٧٨] : ما أَرىٰ بذلكَ بأْساً ، فقالَ : يا أَميرَ المؤمنينَ ، إِنَّهُ جحدَني ما ٱبتنيتُهُ من المفاخرِ ، فسأَلَ حسَّاناً ـ لا عن قلَّةِ معرفةٍ بمغزىٰ الكلامِ ، ولـٰكنَّهُ يحاوِلُ أَنْ يدرأَ العقابَ للشبهةِ ـ فقالَ لَهُ حسَّانُ : ما هجاهُ ، ولـٰكنَّهُ سلحَ عليه[1] ، فٱعتقلَهُ بعقِبِ ذلكَ ، كما هو مشهورٌ .

---

(١) سَلَح عليهِ : تنجَّى عليه وتغوَّطَ .

وقالَ أَبو تمَّامٍ في الهجاءِ [في « ديوانهِ » ٢/١٤٦ مِنَ الوافرِ] :

بَنُوْ ٱلْهِمَمِ ٱلْهَوامِدِ وَٱلنُّفُوسِ ٱلْـ ـخَـوامِـدِ وَٱلْمُـرُوَّاتِ ٱلنِّيَـامِ

وقالَ الناظِمُ [في « العُكبَرِيِّ » ٢/٢٣ مِنَ الطَّويلِ] :

وَفِيْ ٱلنَّاسِ مَنْ يَرْضَىٰ بِمَيْسُوْرِ عِيْشَةٍ وَمَـرْكُـوْبُـهُ رِجْـلاَهُ وَٱلثَّـوْبُ جِلْـدُهُ

وقالَ [في « العُكبَرِيِّ » ١/ ٣٥٥ مِنَ الوافرِ] :

إِلَىٰ كَمْ ذَا ٱلتَّخَلُّفُ وَٱلتَّوَانِيْ وَكَمْ هَـٰذَا ٱلتَّمَادِيْ فِيْ ٱلتَّمَادِيْ
وَشُغْلُ ٱلنَّفْسِ عَنْ طَلَبِ ٱلْمَعَالِيْ بِبَيْعِ ٱلشِّعْرِ فِيْ سُوْقِ ٱلْكَسَادِ(١)

وقالَ ٱبن حيُّوسٍ [في « ديوانهِ » ٣٥ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَسْتُ كَمَنْ أَخْنَىٰ عَلَيْهِ زَمَانُهُ فَظَـلَّ عَلَـىٰ أَحْـدَاثِـهِ يَتَعَتَّـبُ(٢)
تَلَذُّ لَهُ ٱلشَّكْوَىٰ وَإِنْ لَمْ يُفِدْ بِهَا صَلاَحاً كَمَا يَلْتَذُّ بِٱلْحَكِّ أَجْرَبُ
وَلٰكِنَّنِـيْ أَحْمِـيْ ذِمَـارِيْ بِعَـزْمَـةٍ تَنُوْبُ مَنَابَ ٱلسَّيْفِ وَٱلسَّيْفُ مِقْضَبُ(٣)

وقالَ عروةُ بنُ الوردِ [في « ديوانهِ » ٧٠ـ٧٣ مِنَ الطَّويلِ] :

لَحَـا ٱللهُ صُعْلُـوكـاً إِذا جَـنَّ لَيْلُـهُ مَشَىٰ عَارِيَ ٱلْمَتْنَيْنِ فِيْ كُلِّ مَجْزَرِ(٤)
يَعُدُّ ٱلْغِنَىٰ مِنْ نَفْسِهِ ، كُلَّ لَيْلَةٍ أَصَابَ قِرَاهَا مِنْ صَدِيْقٍ مُيَسَّرِ(٥)

---

(١) بيعُ الكسادِ : هوَ أَن يعرضَ البائِعُ السلعةَ لمشترٍ كارهٍ لها ، فلا يبذلُ فيها ثمنَ مثلِها .

(٢) أخنى عليه الزمان : إذا مالَ عليهِ وأَهلكهُ .

(٣) ذمارُ الرجلِ : كلُّ شيءٍ يلزمهُ الدفعُ عنهُ ، وإن ضيَّعهُ . . لزمهُ الذمُّ ؛ أي : اللومُ . مقضبٌ : قاطعٌ .

(٤) المجزرُ : الموضعُ الذي تجزرُ فيهِ الإبلُ ، فهو الدهرَ في موضعِ مأكلٍ .

(٥) الميسَّرُ : الذي أقبلَ خيرُ شائِه . والمعنى : إذا ملأَ بطنَهُ عدَّهُ غنىً ولم يبالِ =

يَنَامُ عِشَاءً ثُمَّ يُصْبِحُ نَاعِساً   يَحُتُّ ٱلْحَصَىٰ عَنْ جَنْبِهِ ٱلْمُتَعَفِّرِ
وَلٰكِنَّ صُعْلُوكاً صَفِيْحَةُ وَجْهِهِ   كَضَوْءِ شِهَابِ ٱلْقَابِسِ ٱلْمُتَنَوِّرِ[1]
مُطِلاً عَلَىٰ أَعْدَائِهِ يَزْجُرُوْنَهُ   بِسَاحَتِهِمْ زَجْرَ ٱلسَّنِيْحِ ٱلْمُشَهَّرِ[2]
وَإِنْ قَعَدُوْا لاَ يَأْمَنُوْنَ ٱقْتِرَابَهُ   تَشَوُّفَ أَهْلِ ٱلْغَائِبِ ٱلْمُتَنَظَّرِ
فَذَلِكَ إِنْ يَلْقَ ٱلْمَنِيَّةَ يَلْقَهَا   حَمِيْداً وَإِنْ يَسْتَغْنِ يَوْماً فَأَجْدِرِ

العاقل تعبان والجاهل مستريح

وما زالَتْ رجالاتُ العزِّ مقسَّمةَ الأفكارِ ، مبلبَلةَ الخواطرِ ، منغَّصةَ العيشِ ، مِن حيثُ ٱستراحَ صغارُ النفوسِ ، وتنسَّمَ العيشَ سفلَةُ الخلقِ ، وقد قلتُ مِن قصيدةٍ [في « ديوانِ المؤلف » ٣٢ مِنَ البسيطِ] :

وَهٰكَذَا كُلُّ صِنْدِيْدٍ تُعَاكِسُهُ   أَيَّامُهُ وَيَفُوْزُ ٱلْفَسْلُ بِٱلطِّيْبِ[3]
فَٱضْرِبْ بِطَرْفِكَ أَنَّىٰ شِئْتَ تَلْقَ أُوْلِيْ ٱلْـ   ـأَخْطَارِ فِيْ مِحَنٍ هُوْجٍ وَتَعْذِيْبِ
تَلْقَ ٱللِّئَامَ ٱللَّيَالِيْ وَهِيَ بَاسِمَةٌ   وَٱلأَكْرَمِيْنَ بِتَعْبِيْسٍ وَتَقْطِيْبِ
وَٱنْظُرْ إِلىٰ حَالِ خَيْرِ ٱلْمُرْسَلِيْنَ وَمَا   لاَقَاهُ فِيْ ٱللهِ مِنْ حَرْبٍ وَتَكْذِيْبِ
وَإِثْرَهُ بِنْتُهُ مَاتَتْ بِغُصَّتِهَا   سُحَّتْ عَلَيْهَا ٱلأَذَايَا بِٱلشَّآبِيْبِ[4]
وَٱلْمُرْتَضَىٰ بَعْدَهُ مَا زَالَ فِيْ مِحَنٍ   وَمُوْجِعَاتٍ وَأَيَّامٍ غَرَابِيْبِ[5]

= ما وراءَهُ من عيالهِ وقرابتهِ .

(١) وجهٌ مُصْفَحٌ : سهلٌ حسنٌ .
(٢) مُطِلاً : مشرفاً وعالياً . السَّنيحُ : طيرٌ كانَتْ تتشاءَمُ العربُ منهُ .
(٣) الفَسلُ : الرديءُ الرَّذلُ .
(٤) سحَّ الماءُ : ٱشتدَّ ٱنصبابُهُ . الشُّؤبوبُ : الدفعةُ القويةُ من المطرِ .
(٥) المرتضىٰ : سيدنا عليٌّ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ . الغرابيبُ ـ جمعُ غربيبٍ ـ : وهوَ شديدُ السوادِ .

أشد الناس بلاءً من هم؟

وقد سبقَ في غيرِ هٰذا المجلسِ كثيرٌ من أَنينِهِ ، كرَّمَ اللهُ وجهَهُ ، وعتبِهِ علىٰ زمانِهِ وأَهلِهِ ، وما كانَتِ الشَّهادَةُ التي فاز بها مِن يدِ أَشقىٰ الآخِرينَ . . إِلاَّ نعمةً لَهُ مِنَ اللهِ وكرامةً ، وخلاصاً مِن المحنةِ ، وعافيةً مِن البلاءِ ، فالزمانُ عادتُهُ ٱمتحانُ الأَحرارِ ؛ لِمَا في ذلكَ مِن صالحِهِم ، وعلوِّ درجَتِهِم ، ومِن ثَمَّ كانَ : « أَشدَّ الناسِ بلاءً الأَنبياءُ ، ثُمَّ الأَمثَلُ فالأَمثَلُ »[1] ، وللهِ درُّ البوصيريِّ في قولِهِ [في همزيته وفي « ديوانه » ٨ مِنَ الخفيفِ] :

لاَ تَخَلْ جَانِبَ ٱلنَّبِيِّ مُضَاماً حِيـنَ مَسَّتْـهُ مِنْهُـمُ ٱلأَهْـوَاءُ
كُـلُّ أَمْـرٍ نَـابَ ٱلنَّبِيِّيْـنَ فَـٱلشِّـ ـدَّةُ فِيْـهِ مَحْمُـوْدَةٌ وَٱلـرَّخَـاءُ
لَوْ يَمَسُّ ٱلنُّضَارَ هُوْنٌ مِنَ ٱلنَّا رِ لَمَا ٱخْتِيْرَ لِلنُّضَارِ ٱلصِّلاَءُ[2]

وقد : (كانَ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ يوعَكُ كما يوعَكُ الرجلانِ من سائِرِ الناسِ)[3] ، وفي « الصحيح » : « **إِنَّ ٱلْمُؤْمِنَ مِثْلُ ٱلْخَامَةِ مِنَ ٱلزَّرْعِ ، تُفِيئُهَا ٱلرِّيحُ يَمِيناً وَشِمَالاً ، وَإِنَّ ٱلْمُنَافِقَ مِثْلُ ٱلأَرْزَةِ ، لاَ يَضُرُّهَا شَيْءٌ حَتَّىٰ تَنْجَعِفَ مَرَّةً** »[4] .

---

(١) أخرج نحوه عن سعد رضي الله عنه الترمذي (٢٤٠٠) في الزهد ، وابن ماجه (٤٠٢٣) في الفتن وفيه : قلت : يا رسول الله ، أي الناس أشدُّ بلاء؟ قال : « الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل . . . » قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح . وفي الباب عن أبي هريرة وأخت حذيفة وفاطمة .

(٢) **الصِّلاءُ** : الوضعُ على النارِ . **النُّضارُ** : الخالصُ من جوهرِ التبرِ والخشبِ .

(٣) أخرجه عن ابن مسعود رضي الله عنه البخاري (٥٦٤٨) في المرضى ، ومسلم (٢٥٧١) في البر والصلة وفيه : « أجل ، إني أوعك كما يوعك رجلان منكم . . . » .

(٤) **تنجعِفُ** : تَنْقَلِعُ . وأخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه مسلم (٢٨٠٩) ، =

وجاءَ : أَنَّهُ خطبَ ٱمرأَةً مِن (حَضرموتَ) ، كانَت مشهورَةً بالجمالِ ، فقالَ لَهُ أَبوهَا : وأَزيدُكَ أَنَّها لم تتوجَّعْ في عمرِها أَبداً ، قالَ : « **لاَ حَاجَةَ لِيْ بِهَا** »[1] ، وأَرادَ عاملُ أَبي بكرٍ بـ(حضرموتَ) أَن يتزوَّجَها ، فنهاهُ عَن ذلكَ .

وأَخرجَ الحاكمُ [في « المستدرك » ١/٤٨٨] علىٰ شرطِ مسلمٍ ، وصحَّحَهُ ، ووافقَهُ الذهبيُّ ، عن أَبي هريرةَ : أَنَّهُ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ قالَ لأَعْرَابيٍّ : « **هَلْ أَخَذَتْكَ أُمُّ مِلْدَمٍ ؟** »[2] ، قالَ : مَا وَجَدْتُ حَرَّها قَطُّ ، قالَ : « **فَهَلْ أَخَذَكَ ٱلصُّدَاعُ ؟** » ، قالَ : مَا وَجَدْتُهُ قطُّ ، فَلَمَّا ولَّىٰ . . قالَ رسولُ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « **مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ ٱلنَّارِ . . فَلْيَنْظُرْ هَـٰذَا** » .

ومثلُهُ قولُهُ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « **لاَ يَزَالُ ٱلْبَلاَءُ بِٱلْمُؤْمِنِ ، فِيْ نَفسِهِ ، وَمَالِهِ ، وَوَلَدِهِ ، حَتَّىٰ يَلْقَىٰ ٱللهَ وَمَا عَلَيْهِ خَطِيْئَةٌ** »[3] .

= وعن كعب بن مالك (٢٨١٠) في صفات المنافقين بألفاظ متقاربة .

(١) وجاء في « السيرة » : أنَّ القائل له ذلك عائشة رضي الله عنها ويدل عليه : حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند ابن حبان في « الإحسان » (٢٩٠٧) : « من يرد الله به خيراً يُصب منه » بإسناد صحيح وقوله عنه عند البخاري (٥٦٤١) في (المرضىٰ) : « لا يصيب المرء المؤمن من نصب ولا هم ولا حزن ولا أذى حتى الشوكة يشاكها إلا كفَّر الله عنه بها خطاياه » .

(٢) أمُّ مِلدَمٍ : الحُمَّىٰ ، وهو أيضاً في « كنز العمال » (٦٧١٤) و(٨٦٤٢) عند ابن جرير من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) أخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه الحاكم في « المستدرك » (١/٤٩٧) ، وذكره في « كنز العمال » (٦٨٤٦) ، وزاد نسبته لأحمد وهناد وابن حبان والبيهقي .

وقالَ أَبو تمَّامٍ [في « ديوانهِ » ٢/ ١٤٧ مِنَ البسيطِ] :

فَإِنْ يَكُنْ وَصَبٌ قَاسَيْتُ سَوْرَتَهُ فَٱلْوِرْدُ حِلْفٌ لِلَيْثِ ٱلْغَابَةِ ٱلأَضِمِ[1]

وقالَ [البُحتريُّ في « ديوانه » مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا ٱلْكَلْبُ مَحْمُوْماً وَإِنْ طَالَ عُمْرُهُ وَلَـٰكِنَّمَا ٱلْحُمَّىٰ عَلَىٰ ٱلأَسَدِ ٱلْوَرْدِ

لمن يبتسم الزمان؟ إِنَّما يتبسَّمُ الزمانُ لصغارِ الهمَمِ ، وباعَةِ الذمَمِ ، وزمناءِ المروءَةِ ، وخُبثاءِ النفوسِ .

وللهِ درُّ بعضِهِم في قولِهِ [مِنَ السَّريعِ] :

مَنْ يَرْجُ بِٱلْفَضْلِ نَجَاحاً يَمُتْ جُوْعاً وَلَوْ كَانَ بَدِيْعَ ٱلزَّمَانْ[2]
وَمَـنْ يَقُـدْ أَوْ يَتَمَسْخَـرْ يَعِـشْ عَيْشاً رَخِيّاً فِيْ ظِلاَلِ ٱلأَمَانْ

وقالَ الناظمُ فيما يشبهُهُ مِن ناحيَةٍ ، وهوَ يتعلَّقُ بما سبقَ ، مِن ٱقترانِ التعبِ بعلوِّ الهمَّةِ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٢٦٩ مِنَ الكاملِ] :

تَصْفُوْ ٱلْحَيَاةُ لِجَاهِلٍ أَوْ غَافِلٍ عَمَّـا مَضَـىٰ مِنْهَـا وَمَـا يُتَـوَقَّـعُ
وَلِمَنْ يُغَالِطُ فِي ٱلْحَقَائِقِ نَفْسَهُ وَيَسُوْمُهَا طَلَبَ ٱلْمُحَالِ فَتَطْمَعُ

هـٰذا ، والمَيْدانُ واسعٌ ، والشوطُ بطينٌ ، ويكفي مِن العِقْدِ ما أَحاطَ بالجيدِ ، والمناسباتُ لأَمثالِهِ كثيرٌ ، فَلْنَدَعْ لكلِّ موضعٍ ما يناسبُهُ ، ممَّا يفتحُ اللهُ بهِ علَينا فيهِ .

زيادة الحب!! أَمَّا قولُهُ : (وَجَوىً يَزِيْدُ) . . فيَكادُ أَن يكونَ عكسَ قولِهِ الماضي [في « العُكبَريّ » ١/ ٣٢٥ مِنَ الكاملِ] :

---

(١) الوصبُ : المرض . سَورتُهُ : حِدَّتُهُ . الوِردُ : الحُمَّىٰ . الأَضِمُ : الغضبانُ .

(٢) بديع الزمان : هو أحمد بن الحسين الهمذاني ، أبو الفضل ، أحد الأئمة الكتَّاب ، وهو صاحب « المقامات » توفي سنة : (٣٩٨)هـ .

أَقْصِـرْ فَلَسْـتَ بِـزَائِـدِيْ وُدًّا   بَلَـغَ ٱلْمَـدَىٰ وَتَجَـاوَزَ ٱلْحَـدَّا

إِذِ الودُّ والجوىٰ مِن بابٍ واحدٍ يدخلانِ ، وإلىٰ متعلَّقٍ واحدٍ يرجعانِ ، ولٰكنَّهُ مثلُ **قولِهِ** [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٤ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَٰكِنَّ حُبّاً خَامَرَ ٱلْقَلْبَ فِيْ ٱلصِّبَا   يَـزِيْـدُ علَـىٰ مَـرِّ ٱلـزَّمَـانِ وَيَشْتَـدُّ

وقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٧٢ مِنَ المنسرحِ] :

زِيْدِيْ أَذَىٰ مُهْجَتِيْ أَزِدْكِ هَوىً   فَأَجْهَلُ ٱلنَّاسِ عَاشِقٌ حَاقِدْ

وقالَ في مدحِ أَبي العشائرِ وهُوَ ممَّا يقرُبُ مِمَّا نحنُ فيهِ [في « العُكبريِّ » ٤/ ٢٦٥ مِنَ المنسرحِ] :

إِنْ كَـانَ فِيْمَـا نَـرَاهُ مِـنْ كَـرَمٍ   فِيْـكَ مَـزِيْـدٌ فَـزَادَكَ ٱللهُ

وقولُهُ عن سيفِ الدولةِ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٣٤٨ مِنَ الخفيفِ] :

كُلَّمَـا قِيْـلَ قَـدْ تَنَـاهَـىٰ أَرَانَـا   كَـرَمـاً مَـا ٱهْتَـدَىٰ إِلَيْـهِ ٱلْكِـرَامُ

وهوَ مِن قولِ البُحتريِّ [في « ديوانه » ٢/ ٦٧٢ مِنَ الطَّويلِ] :

طَلُوْبٌ لأَقْصَىٰ غَايَةٍ بَعْدَ غَايَةٍ   إِذَا قِيْلَ يَوْماً قَدْ تَنَاهَىٰ تَزَيَّدَا

وقولِ أَبي تمَّامٍ [في « ديوانهِ » ٢/ ١٣١ مِنَ الكاملِ] :

خَدَمَ ٱلْعُلاَ فَخَدَمْنَهُ وَهِيَ ٱلَّتِيْ   لاَ تَخْدُمُ ٱلأَقْوَامَ مَا لَمْ تُخْدَمِ
فَـإِذَا ٱرْتَقَـىٰ فِـيْ قُلَّـةٍ مِـنْ سُـؤْدَدٍ   قَالَتْ لَهُ ٱلأُخْرَىٰ : بَلَغْتَ تَقَدَّمِ(١)

وهوَ من قولِهِ جلَّ ذكرُهُ : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۞ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴾ [الانشراح : ٧-٨] .

---

(١) **القُلَّةُ** : رأسُ كُلِّ شيءٍ . **السؤدَدُ** : المجدُ والسيادةُ .

حتى الجود يزداد

وأَفضلَ عبيدُ اللهِ بنُ عبَّاسٍ علىٰ بعضِ العربِ مِن حيثُ لا يعرفُهُ ، فقالَ لَهُ : إنْ لم تكنِ ٱبنَ العبَّاسِ . . فإنَّكَ خيرٌ منهُ ، وإن كنتَهُ . . فأَنتَ اليومَ خيرٌ منكَ أَمسِ .

وللهِ درُّ أَعشىٰ هَمْدانَ في قولِهِ لبعضِ بني أُميَّةَ [كما في « الأغاني » ١٨/ ١٤٠ مِنَ الوافر] :

وَجَدْتُكَ أَمْسِ خَيْرَ بَنِيْ مَعَدٍّ ... وَأَنْتَ ٱلْيَوْمَ خَيْرٌ مِنْكَ أَمْسِ
وَأَنْتَ غَداً تَزِيْدُ ٱلْخَيْرَ ضِعْفاً ... كَذَاكَ تَزِيْدُ سَادَةُ عَبْدِ شَمْسِ

غيرَ أَنَّ الناظِمَ عكس هٰذا المعنىٰ في قولِهِ البارِدِ [في « العُكبَرِيِّ » ١/ ٣٦٨ مِنَ المتقارب] :

وَيُقْدِمُ إِلاَّ عَلَىٰ أَنْ يَفِرّ ... وَيَقْدِرُ إِلاَّ عَلَىٰ أَنْ يَزِيْدَا

* * *

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَريِّ » ٢/ ٣٣٢ مِنَ الكاملِ] :

مَا لاَحَ بَرْقٌ أَوْ تَرَنَّمَ طَائِرٌ   إِلاَّ ٱنْثَنَيْتُ وَلِيْ فُؤَادٌ شَيِّقُ

(الشَّيِّقُ) : المشتاقُ ، يقولُ : إِنَّهُ يزيدُ شوقُهُ لِلَمَعَانِ البرْقِ ، وتغريدِ الطائرِ ، وتلكَ عادَةُ العربِ ، وقلَّما تقعُ عينُ الإِنسانِ علىٰ ما يعجبُهُ ، أَو علىٰ ما يشنؤُهُ . . إِلاَّ تذكَّرَ من يحبُّهُ ؛ ولهـٰذا كانَ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلـهِ وسلَّم يقـولُ : « **ٱللَّهُـمَّ لاَ عَيـشَ إِلاَّ عَيْشُ ٱلآخِرَةِ** »(١) كلَّمَا رأَىٰ ما يعجبُهُ ، أَو يسوؤُهُ ، **فقد قالَها** في أَسرِّ أَحوالِهِ يومَ عرفةَ ، في حَجَّةِ الوداعِ ، حينَما رأَىٰ كثرَةَ المسلمينَ ، وٱجتماعَهم علىٰ التوحيدِ ، **وقالَها** يومَ الخندَقِ ، وقد رأَىٰ شدَّةَ ما بِهم مِن الجَهْدِ والجوعِ .

تذكر الأحباب عند كل ما تقع عليه العين فيعجبها . . من عادة العرب

وللهِ درُّ القائلِ [أبو شغب السعدي في « البيان والتبيين » ١/ ٥٣٩ مِنَ الطَّويلِ] :

يُـذَكِّـرُنِيْهِـمْ كُـلُّ خَيْـرٍ رَأَيْتُـهُ   وَشَرٌّ فَمَا أَنْفَكُّ مِنْهُمْ عَلَىٰ ذُكْرِ

وأَحَبُّ ما يكونُ إِلىٰ العربِ الغيثُ ؛ فلهـٰذا يتذكرونَ بهِ الأَحبابَ ، ويحِنُّونَ عندَهُ إِلىٰ الأَوطانِ ، ويتمنَّونَهُ حتَّىٰ لِرَمَمِهِم وأَمواتِهِم ، وإِنْ كانَ لا يُسْمِنُهم ولا يُغْنيهم من جوعٍ ، غيرَ أَنَّهم يحبُّونَ لَهم ما يحبونَ لأَنفسِهم ، وذلكَ بِهِم منتهىٰ الأَماني ، وقد قالَ شاعرُهُم [في « ديوان الشريف الرضي » ١/ ٢٩١ مِنَ الوافرِ] :

أحب شيء للعرب الغيث . . فلذا يتذكرون به الأحباب

---

(١) أخرجه عن أنس بن مالك رضي الله عنه مسلم (١٨٠٥) ، وعن سهل بن سعد رضي الله عنه عند مسلم (١٨٠٤) في (الجهاد) .

وَمَـا ٱلسُّقْيَـا لِتَبْلُغَـهُ وَلَـٰكِـنْ   أُحِـسُّ لَهَـا بَـرَاداً فِـيْ فُـؤَادِيْ

فأَمَّا أَهلُ الحاضرةِ إِذا وَصفوا الرعودَ والبروقَ ، وذَكروا الأَغوارَ والنجودَ . . فإِنَّما هُوَ التكلُّفُ والاجتلابُ ، ولعلَّ أَحدَهم لا يحفَلُ بِالمَطرِ ، ولا يبالي بالغيثِ ، ولا يسأَلُ عَنِ الأَنواءِ ، ولا ينظرُ إِلىٰ السحابِ ، ولا يعرفُ ركوبَ الجملِ .

ومن عادتهم التذكر عند لمح البرق

ومِن أَحسنِ مافي التذكُّرِ بالبرقِ قولُ نصيبٍ [في « الأغاني » ١/٢٢٦ مِنَ الطَّويلِ] :

وَدِدْتُ ـ وَلَمْ أُخْلَقْ مِنَ ٱلطَّيْرِ ـ كُلَّمَا   بَـدَا بَـارِقٌ نَحْـوَ ٱلْحِجَـازِ أَطِيْـرُ

وقالَ أَحدُ بني كلابٍ [مِنَ الطَّويلِ] :

هَوَىٰ نَاقَتِيْ خَلْفِيْ وَقُدَّامِيَ ٱلْهَوَىٰ   فَـإِنِّـيْ وَإِيَّـاهَـا لَمُخْتَلِفَـانِ
هَوَايَ حِجَازِيٌّ وَتَثْنِيْ زِمَامَهَا   لِبَرْقٍ إِذَا أَدْجَىٰ ٱلظَّلَامُ يَمَانِيْ
تَحِـنُّ فَتُبْـدِيْ مَـا بِهَـا مِـنْ صَبَابَـةٍ   وَأُخْفِيْ ٱلَّذِيْ لَوْلاَ ٱلأَسَىٰ لَقَضَانِيْ

وقالَ أَعرابيٌّ آخرُ [مِنَ الطَّويلِ] :

رَمَىٰ قَلْبَهُ ٱلْبَرْقُ ٱلْيَمَانِيُّ رَمْيَةً   بِجَنْبِ ٱلْحِمَىٰ وَهْناً فَكَادَ يَهِيْمُ
فَهَلْ مِنْ مُعِيْرٍ طَرْفَ عَيْنٍ خَلِيَّةٍ ؟   فَإِنْسَانُ طَرْفِ ٱلْعَامِرِيِّ كَلِيْمُ

وقد سبقَ ذكرُ البيتِ الثاني منهُما ، في غيرِ هـٰذا المجلسِ .

وقالَ آخرُ [في « البيان والتبيين » ١/ ٣٧٥ مِنَ الطَّويلِ] :

سَرَىٰ ٱلْبَرْقُ مِنْ أَرْضِ ٱلْحِجَازِ فَشَاقَنِيْ   وَكُـلُّ حِجَـازِيٍّ لَـهُ ٱلْبَـرْقُ شَـائِـقُ
فَوَاكَبِدِيْ مِمَّا أُلاَقِيْ مِنَ ٱلْهَوَىٰ   إِذَا حَـنَّ إِلْـفٌ أَوْ تَـلأْلأَ بَـارِقُ

وقالَ الأحوصُ [في « ديوانهِ » ١٢٤ـ٢٧ مِنَ الطَّويلِ] :

أَقُولُ بِعَمَّانَ وَهَلْ طَرَبِيْ بِهِ إِلَىٰ أَهْلِ سَلْعٍ إِنْ تَشَوَّفْتُ نَافِعُ(١)
وَلِلْعَيْنِ أَسْرَابٌ تَفِيْضُ كَأَنَّمَا تُعَلُّ بِكُحْلِ ٱلصَّابِ مِنْهَا ٱلْمَدَامِعُ(٢)
أَصَاحِ أَلَمْ تُحْزِنْكَ رِيحٌ مَرِيْضَةٌ وَبَرْقٌ تِلالا بِٱلْعَقِيْقَيْنِ لامِعُ(٣)
فَإِنَّ ٱلْغَرِيْبَ ٱلدَّارِ مِمَّا يَشُوْقُهُ نَسِيْمُ ٱلرِّيَاحِ وَٱلْبُرُوقُ ٱللَّوَامِعُ
لَعَمْرُ ٱبْنَةِ ٱلزَّيْدِيِّ إِنَّ ٱدِّكَارَهَا عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ لِلْفُؤَادِ لَرَائِعُ
وَقَدْ كُنْتُ أَبْكِيْ ـ وَٱلنَّوَىٰ مُطْمَئِنَّةٌ بِنَا وَبِكُمْ ـ مِنْ عِلْمِ مَا ٱلْبَيْنُ صَانِعُ

وقالَ آخرُ [وهو مجنون ليلىٰ في « ديوانه » ٣٠٣ مِنَ الطَّويلِ] :

خَلِيْلَيَّ إِنِّيْ قدْ أَرِقْتُ وَنِمْتُمَا لِبَرْقٍ يَمَانٍ فَٱقْعُدَا عَلِّلاَنِيَا
خَلِيْلَيَّ لَوْ كُنْتُ ٱلصَّحِيْحَ وَكُنْتُمَا سَقِيْمَيْنِ لَمْ أَفْعَلْ كَفِعْلِكُمَا بِيَا

وقالَ يعلىٰ بنُ مسلمٍ الأزديُّ ، وقد طالَ مكثُهُ بـ(مكَّةَ) عندَ أَميرِها ، نافعِ بنِ علقمةَ الكنانيِّ [في « الأغاني » ٢٢/ ١٥٢ـ١٥٣ مِنَ الطَّويلِ] :

أَلاَ لَيْتَ حَاجَاتِيْ ٱللَّوَاتِيْ حَبَسْنَنِيْ لَدَىٰ نَافِعٍ قُضِّيْنَ مُنْذُ زَمَانِ
وَمَا بِيَ بُغْضٌ لِلأَمِيْرِ وَلاَ قِلىً وَلَـٰكِنَّ بَرْقاً بِٱلْحِجَازِ دَعَانِيْ

---

(١) طربي : ٱهتزازي شوقاً . سلعٌ : جبلٌ بـ(المدينةِ) . تشوَّفتُ : تطاولتُ ناظراً إلى البعيدِ . والمعنىٰ : أَسألُ نفسي وأنا في (عمَّانَ) هل ينفعني مدُّ نظري نحوَ جبلِ سلعٍ ، مهتزاً من الشوقِ إلى أهلهِ ؟! .

(٢) تُعَلُّ : يقدَّم لها الشرابُ ثانيةً . تنهلُ : يقدَّم لها للمرَّةِ الأولى . الصابُ : عصارةُ شجرٍ مرٍّ .

(٣) العقيقانِ : موضعانِ بـ(المدينةِ) ، العقيقُ الأكبرُ فيه بئرُ عروةَ ، والعقيقُ الأصغرُ فيه بئرُ رومَةَ التي ٱشتراها عثمانُ بنُ عفَّانَ رضي اللهُ عنهُ ، وأوقفها علىٰ المسلمين .

فَبِتُّ لَدَىٰ ٱلْبَيْتِ ٱلْحَرَامِ أَشِيمُهُ وَنِضْوَايَ مِنْ شَوْقٍ بِهَا أَرِقَانِ[1]
فَلَيْتَ لَنَا مِنْ مَاءِ حَمْنَانَ شَرْبَةً مُبَـرَّدَةً بَـاتَـتْ عَلَـىٰ طَهَيَـانِ[2]

وقالَ ٱبنُ دريدٍ [في « ديوانهِ » ٩٠ مِنَ الوافرِ] :

أَيَـا بَـرْقَ ٱلْعَقِيْـقِ أَقِـمْ فَمَـا لِـيْ سِوَاكَ عَلَىٰ ٱلصَّبَابَةِ مِنْ مُعِيْنِ
أَحِـنُّ إِلـىٰ ٱلْعَقِيْـقِ وَسَـاكِنِيْـهِ وَمَـا يَخْلُـوْ ٱلْمُتَيَّـمُ مِـنْ حَنِيْـنِ

وقالَ جريرٌ [في « ديوانهِ » ٢/ ٨١٣ مِنَ الوافرِ] :

وَهَـاجَ ٱلْبَـرْقُ لَيْلَـةَ أَذْرِعَـاتٍ هَـوىً مَـا تَسْتَطِيْـعُ لَـهُ طِـلاَبَـا

وقالَ أَبو عبادَةَ [في « ديوانهِ » ٢/ ٨٤٣ مِنَ الطَّويلِ] :

مَتَـىٰ لاَحَ بَـرْقٌ أَوْ بَـدَا طَلَـلٌ قَفْـرُ جَرَىٰ مُسْتَهِلٌّ لاَ بَكِيْءٌ وَلاَ نَزْرُ[3]

والمعنىٰ متكرِّرٌ عندَ الناظِمِ ، منهُ **قولُهُ** [في « العُكبريِّ » ٤/ ٢٢٢ مِنَ البسيطِ] :

تُهْدِيْ ٱلْبَوَارِقُ أَخْلاَفَ ٱلْمِيَاهِ لَكُمْ وَلِلْمُحِـبِّ مِـنَ ٱلتَّـذْكَـارِ نِيْـرَانَـا[4]

وقالَ المعرِّيُّ [في « سقطِ الزندِ » ٢٨٢ مِنَ الطَّويلِ] :

طَرِبْنَ لِضَوْءِ ٱلْبَارِقِ ٱلْمُتَعَالِيْ بِبَغْدَادَ وَهْناً مَا لَهُنَّ ومَالِيْ[5] ؟

---

(١) **أشيمهُ** : أنظرهُ ، وأصلُ الشَّيمِ : النظرُ إلى البرقِ . **النِّضوُ** : البعيرُ المهزولُ .
(٢) **الحَمنانُ** : عنبٌ طائفيٌّ صغيرُ الحبِّ وأرضٌ مَحْمَنَةٌ كثيرتُهُ . **الطهيانُ** : قُلَّةُ الجبلِ ، أي : رأسُه .
(٣) **المستهِلُّ** : الدمعُ الفياضُ . **البكيءُ** : القليلُ الماءِ .
(٤) **الأخلافُ** : الضروعُ ، وٱستعارَ لها أَخلافاً ؛ لأَنَّها تَغذي النباتَ كما تغذي الأُمُّ بالإرضاعِ ولدها .
(٥) **الوهنُ** : مقدارُ ثلثِ الليلِ الأَوَّلِ . **ما لهنَّ ومالي** : ٱستفهامٌ غرضهُ التوجُّعُ .

وقالَ [في « سقطِ الزندِ » ١٠٣ مِنَ الوافرِ] :

سَرَىٰ بَرْقُ ٱلْمَعَرَّةِ بَعْدَ وَهْنٍ   فَبَاتَ بِرَامَةٍ يَصِفُ ٱلْكَلاَلاَ[١]
شَجَا رَكْباً وَأَفْرَاساً وَإِبْلاً   وَزَادَ فَكَادَ أَنْ يَشْجُوْ ٱلرِّحَالاَ

وقالَ [في « سقطِ الزندِ » ١٠٦ مِنَ البسيطِ] :

يَا سَاهِرَ ٱلْبَرْقِ أَيْقِظْ رَاقِدَ ٱلسَّمُرِ   لَعَلَّ بِٱلْجِزْعِ أَعْوَاناً عَلَىٰ ٱلسَّهَرِ[٢]

البكاء لسجع الحمائم

وأَمَّا البكاءُ لسَجْعِ الحَمَامِ.. فلأنَّها كما قيلَ : تندبُ جدّاً لِمَا هلكَ في غابرِ الزمانِ ، قالَ النابغةُ [مِنَ الوافر] :

بُكَاءَ حَمَامَةٍ تَدْعُوْ هَدِيْلاً   مُفَجَّعَةٍ عَلَىٰ فَنَنٍ تُغَنِّيْ

وقالَ المعرِّيُّ [في « سقطِ الزندِ » ٥٢ مِنَ الخفيفِ] :

إِيْهِ للهِ دَرُّكُنَّ فَأَنْتُـ   ـنَّ ٱللَّوَاتِيْ تُحْسِنَّ عَهْدَ ٱلْوِدَادِ[٣]
مَا نَسِيْتُنَّ هَالِكاً فِيْ ٱلأَوَانِ ٱلْـ   ـخَالِ أَوْدَىٰ مِنْ قَبْلِ هُلْكِ إِيَادِ

ومنَ المعلومِ أَنَّ الشَّجا يبعثُ الشَّجا ، وأَنَّ كلَّ حزينٍ ينتسبُ إِلىٰ الحزينِ ، وقد قالَ متمِّمُ بنُ نويرةَ [في « ديوان الحماسة » ١/ ٣٣١ مِنَ الطَّويلِ] :

لَقَدْ لاَمَنِيْ عِنْدَ ٱلْقُبُوْرِ عَلَىٰ ٱلْبُكَا   رَفِيْقِيْ لِتَذْرَافِ ٱلدُّمُوْعِ ٱلسَّوَافِكِ

---

(١) المعرَّةُ : معرَّةُ النعمانِ وهيَ بلدةُ أبي العلاءِ . رامة : ٱسم موضعٍ . الكلالُ : التعبُ والضعفُ .

(٢) البرقُ الساهرُ : البرقُ الذي يُسْهَرُ عليهِ ، وهذا من بابِ المجازِ . السَّمُرُ : ضربٌ من الشجرِ . الجزعُ : موضعٌ .

(٣) إيهِ : ٱسمُ فعلٍ للاستزادةِ من حديثٍ أو فعلٍ . يقولُ : إن بناتِ الهديلِ ـ التي أشارَ إليه بقولِهِ : أنتنَّ ؛ أي : الحَمَام ـ معروفٌ بالوِدادِ ؛ لقولِ الرواةِ : بأَنَّ فرخَ حمامٍ هلكَ على عهدِ نوحٍ ، فالحمامُ تبكي عليه إلى اليومِ ، بل إلى يومِ القيامةِ .

وَقَالُوا : أَتبْكِيْ كُلَّ قَبْرٍ رَأَيْتَهُ لِقَبْرٍ ثَوَىٰ بَيْنَ ٱللِّوَىٰ وَٱلدَّكَادِكِ
فَقُلْتُ لَهُمْ : إِنَّ ٱلأَسَىٰ يَبْعَثُ ٱلأَسَىٰ دَعُـوْنِـيْ فَهَـٰذَا كُلُّـهُ قَبْـرُ مَـالِـكِ

وقالَ حميدُ بنُ ثورٍ [في « ديوانهِ » ٢٤ـ٢٧ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا هَاجَ هَـٰذَا ٱلشَّوْقَ إِلاَّ حَمَامَةٌ دَعَتْ سَاقَ حُرٍّ تَرْحَةً وتَنَدُّمَا[١]
بَكَتْ شَجْوَ ثَكْلَىٰ قَدْ أُصِيبَ حَمِيْمُهَا مَخَافَةَ بَيْنٍ يَتْرُكُ ٱلْحَبْلَ أَجْذَمَا[٢]
عَجِبْتُ لَهَا أَنَّىٰ يَكُوْنُ غِنَاؤُهَا فَصِيْحاً وَلَمْ تَثْغَرْ بِمَنْطِقِهَا فَمَا
وَلَمْ أَرَ مِثْلِيْ شَاقَهُ صَوْتُ مِثْلِهَا وَلاَ عَرَبِيّاً شَاقَهُ صَوْتُ أَعْجَمَا

وقالَ أَبو تمَّامٍ [في « ديوانهِ » ٤٦٣ مِنَ الوافرِ] :

وَلَـمْ أَفْهَـمْ مَعَـانِيْهَـا وَلَـٰكِـنْ شَجَتْ قَلْبِيْ فَلَمْ أَجْهَلْ شَجَاهَا
فَكُنْـتُ كَـأَنَّنِـيْ أَعْمَـىٰ مُعَنّـىً يُحِـبُّ ٱلغَـانِيَـاتِ وَلاَ يَـرَاهَـا

وقالَ غيرُهُ [في « المدهش » ٢٥٧ـ٢٥٨ مِنَ الرَّمَلِ] :

وَلَقَـدْ تَشْكُـوْ فَمَـا أَفْهَمُهَـا وَلَقَـدْ أَشْكُـوْ فَمَـا تَفْهَمُنِـيْ
غَيْـرَ أَنِّـي بِـٱلْجَـوَىٰ أَعْـرِفُهَـا وَهِيَ أَيْضاً بِٱلْجَوَىٰ تَعْرِفُنِيْ

وقالَ الشَّمَّاخُ يصفُ ناقتَهُ [في « ديوانهِ » ٢٥٦ مِنَ البسيطِ] :

تَخْدِيْ يَدَاهَا وَرِجْلاَهَا عَلَىٰ شَرَكٍ سَحَّ ٱلنَّجَاءِ بِهِ مِنْ بَارِقٍ بَاقِ[٣]
كَادَتْ تُسَاقِطُنِيْ وَٱلرَّحْلَ إِذْ نَطَقَتْ حَمَامَةٌ فَدَعَتْ سَاقاً عَلَىٰ سَاقِ[٤]

---

(١) ساق الحرّ : صوتُ الحمامةِ .
(٢) الأَجذَمُ : المقطوعُ .
(٣) تَخدي : تسرعُ . سحُّ النجاء : سريعةٌ كأنها تصبُّ الجريَ صباً ، على التشبيهِ بالمطرِ في شدَّته وسرعةِ ٱنصبابهِ .
(٤) الساقُ الأولىٰ : ذَكَرُ الحمامِ . الساقُ الثانية : ساقُ الشجرةِ .

ومكثَ عوفُ بنُ مُحَلِّمٍ ثلاثينَ سنَةً عندَ عبدِ اللهِ بنِ طاهرٍ ، لا يُؤْذَنُ لهُ في العودِ إِلىٰ أَهلِهِ ، فبينا هُوَ معَ عبدِ اللهِ . . إِذ سمعَ حمامَةً ، فقالَ [القصة بنحوها في « وفيات الأعيان » ٣/ ٨٦ مِنَ الطَّويلِ] :

وَأَرَّقَنِي بِٱلرَّيِّ صَوْتُ حَمَامَةٍ ... فَنُحْتُ وَذُوْ ٱلشَّوْقِ ٱلْقَدِيْمِ يَنُوْحُ
عَلَىٰ أَنَّهَا نَاحَتْ وَلَمْ تَذْرِ دَمْعَةً ... وَنُحْتُ وَأَسْرَابُ ٱلدُّمُوْعِ سُفُوْحُ
وَنَاحَتْ وَفَرْخَاهَا بِحَيْثُ تَرَاهُمَا ... وَمِنْ دُوْنِ أَفْرَاخِيْ مَهَامِهُ فِيْحُ

فرَقَّ لهُ عبدُ اللهِ ، وقالَ لهُ : واللهِ لا أَعملتَ خفّاً ، ولا حافراً ، إِلاَّ راجعاً إِلىٰ أَهلِكَ ، وزوَّدَهُ بثلاثينَ أَلفاً ، غيرَ أَنَّهُ ماتَ قبلَ أَنْ يصِلَ إِلىٰ منزِلِهِ .

وممَّا يروىٰ لعروةَ بنِ حزامٍ [في « ديوانهِ » ٣٣ مِنَ الوافرِ] :

أَحَقّـاً يَـا حَمَـامَـةَ بَطْـنِ وَجٍّ ... بِهَـٰذَا ٱلنَّـوْحِ أَنَّـكِ تَصْـدُقِيْنَـا
غَلَبْتُـكِ بِـٱلْبُكَـاءِ لأَنَّ لَيْلِـيْ ... أُوَاصِلُـــهُ وَأَنَّـــكِ تَهْجَعِيْنَـــا
وَإِنِّـيْ إِنْ بَكَيْـتُ بَكَيْـتُ حَقّـاً ... وَإِنَّـكِ فِـيْ بكَـائِـكِ تَكْـذِبِيْنَـا
فَلَسْتِ ـ وَإِنْ بَكَيْتِ ـ أَشَدَّ شَوْقاً ... وَلَـٰكِنِّـــيْ أُسِـــرُّ وَتُعْلِنِيْنَـــا
فَنُـوْحِـيْ يَـا حَمَـامَـةَ بَطْـنِ وَجٍّ ... فَقَـدْ هَيَّـجْـتِ مُشْتَـاقـاً حَـزِيْنَـا

وقالَ قيسُ بنُ الملوَّحِ [في « ديوانهِ » ٢٣٨ مِنَ الطَّويلِ] :

كَذَبْتُ ـ وَبَيْتِ ٱللهِ ـ لَوْ كُنْتُ صَادِقاً ... لَمَـا سَبَقَتْنِـيْ بِـٱلْبُكَـاءِ ٱلْحَمَـائِـمُ

وهوَ مِن قولِ الأَوَّلِ(١) [في « شرح مقامات الحريري » ١/ ٣٤ مِنَ الطَّويلِ] :

---

(١) قالَ الشريشيُّ في « شرحِ مقاماتِ الحريريِّ » (١/ ٣٤) : البيتانِ لعدَيِّ بنِ الرِّقاعِ ، انظر « الكامل » للمبرِّدِ (٣/ ١٢٥) . ولكنْ قالَ أَبو الحسنِ الأَخفشُ : الصحيحُ أَنَّ الشِّعرَ لنصيبٍ .

فَلَوْ قَبْلَ مَبْكَاهَا بَكَيْتُ صَبَابَةً   بِسُعْدَىٰ شَفَيْتُ ٱلنَّفْسَ قَبْلَ ٱلتَّنَدُّمِ
وَلَٰكِنْ بَكَتْ قَبْلِيْ فَهَيَّجَ لِيْ ٱلْبُكَا   بُكَاهَا فَقُلْتُ : ٱلْفَضْلُ لِلْمُتَقَدِّمِ

وقالَ ٱبنُ الدمينَةِ [في « ديوانه » ١٨ مِنَ الطَّويلِ] :

أَلاَ يَا حَمَامَاتِ ٱللِّوَىٰ عُدْنَ عَوْدَةً   فَإِنِّيْ إِلَىٰ أَصْوَاتِكُنَّ حَزِيْنُ
فَعُدْنَ فَلَمَّا عُدْنَ كِدْنَ يُمِتْنَنِيْ   وَكِدْتُ بِأَشْجَانِيْ لَهُنَّ أُبِيْنُ
فَلَمْ تَرَ عَيْنِيْ مِثْلَهُنَّ بَوَاكِياً   بَكَيْنَ وَلَمْ تَذْرِفْ لَهُنَّ عُيُوْنُ

وقالَ أَيضاً [في « ديوانهِ » ٢٨ـ٢٩ مِنَ الطَّويلِ] :

أَلاَ يَا صَبَا نَجْدٍ مَتَّىٰ هِجْتِ مِنْ نَجْدِ   لَقَدْ زَادَنِيْ مَسْرَاكِ وَجْداً عَلَىٰ وَجْدِ
أَإِنْ هَتَفَتْ وَرْقَاءُ فِيْ رَوْنَقِ ٱلضُّحَىٰ   عَلَىٰ فَنَنٍ غَضِّ ٱلنَّبَاتِ مِنَ ٱلرَّنْدِ[1]
بَكَيْتُ كَمَا يَبْكِيْ ٱلْوَلِيْدُ وَلَمْ أَكُنْ   جَلِيْداً وَأَبْدَيْتُ ٱلَّذِيْ لَمْ أَكُنْ أُبْدِيْ
وَقَدْ زَعَمُوْا أَنَّ ٱلْمُحِبَّ إِذَا دَنَا   يَمَلُّ وَأَنَّ ٱلنَّأْيَ يَشْفِيْ مِنَ ٱلْوَجْدِ
بِكُلٍّ تَدَاوَيْنَا فَلَمْ يُشْفَ مَا بِنَا   عَلَىٰ أَنَّ قُرْبَ ٱلدَّارِ خَيْرٌ مِنَ ٱلْبُعْدِ

ولهٰذهِ الأَبياتِ قصَّةٌ ، حاصلُها [كما في « الأغاني » ١٧/١٠٩] : أَنَّهُ كانَ بينَ إِسحاقَ الموصليِّ ، والعبَّاسِ بنِ الأَحنفِ ، وِدٌّ وإِخاءٌ ، فكلَّما سمعَ أَحدُهما بعجيبٍ . . أَتحفَ بهِ الآخَرَ ، فجاءَ العبَّاسُ يوماً ، وأَنشدَ الأَبياتَ هٰذهِ بينَ الناسِ ، ثمَّ ترنَّحَ ترنُّحَ النشوانِ ، وقالَ : أَنطَحُ العمودَ برأْسِي ، فقالوا لَهُ : ٱرفُقْ بنفسِكَ .

---

(١) الرندُ : نباتٌ طيبُ الرائحةِ من شجرِ الباديةِ .

صد الدلال من الكمال

وقد تعلَّقَ بأذيالِهِ في قولِهِ [من شعر العبَّاس بن الأحنف في «ديوانه» ٣٦ مِنَ الكاملِ]:

لَوْ كُنْتِ عَاتِبَةً لَسَكَّنَ خَاطِرِيْ   أَمَلِيْ رِضَاكِ وَزُرْتُ غَيْرَ مُرَاقِبِ

لَـكِنْ صَدَدْتِ فَلَمْ تَكُنْ لِيْ حِيْلَةٌ   صَدُّ ٱلْمَلُوْلِ خِلاَفُ صَدِّ ٱلْعَاتِبِ

وقالَ أبو تمَّامٍ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَخَلَّصَنِيْ مِنْ غَمْرَةِ ٱلْمَوْتِ أَنَّهُ   صُـدُوْدُ دَلاَلٍ لاَ صُـدُوْدَ مَـلاَلِ

مرض الحب لا دواء له

وقالَ بعضُ الأعرابِ ، فيما يشبهُ قولَ ٱبنِ الدمينةِ : (بِكُلٍّ تَداوَيْنا . .) إلىٰ آخرِ البيتِ [مِنَ الطَّويلِ] :

خَلِيْلَيَّ هَلْ يَشْفِيْ مِنَ ٱلشَّوْقِ وَٱلْجوىٰ   دُنُوٌّ مِنَ ٱلأَوْطَانِ ؟ لاَ بَلْ يَشُوْقُهَا

وَيَزْدَادُ فِيْ قُرْبٍ إِلَيْهَا صَبَابَةً   وَيَبْعُدُ مِنْ فَرْطِ ٱشْتِيَاقٍ طَرِيْقُهَا

العاشق تعبان على كل حال

وهوَ مثلُ قولِ الآخرِ [في « خزانة الأدب » ١/ ٥١ مِنَ الوافرِ] :

وَأَبْرَحُ مَا يكُوْنُ ٱلشَّوْقُ يَوْماً   إِذَا دَنَـتِ ٱلـدِّيَـارُ مِـنَ ٱلـدِّيَـارِ

ومنهُ : أَنَّهُ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم : « **كَانَ إِذَا أَبْصَرَ دَرَجَاتِ ٱلْمَدِيْنَةِ . . حَرَّكَ دَابَّتَهُ ؛ مِنْ حُبِّهَا** »(١) .

وقالَ كُثَيِّرٌ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَيْسَ عَلَىٰ شَحْطِ ٱلنَّوَىٰ أُكْثِرُ ٱلْبُكَا   لَقَـدْ كُنْـتُ أَبْكِـيْ وَٱلْمَـزَارُ قَـرِيْـبُ

وقالَ النظَّارُ الفقْعسيُّ [في « المستطرف » ٢/ ٣٩١ مِنَ الطَّويلِ] :

يَقُوْلُوْنَ : هَـٰذِيْ أُمُّ عَمْرٍو قَرِيْبَةٌ   دَنَتْ بِكَ أَرْضٌ نَحْوَهَا وَسَمَاءُ

أَلاَ إِنَّمَـا بُعْـدُ ٱلْحَبِيْـبِ وَقُـرْبُـهُ   إِذَا هُوَ لَمْ يُوْصَلْ إِلَيْهِ سَوَاءُ

---

(١) أخرجه عن أنس رضي الله عنه بنحوه البخاري (١٨٠٢) في (العمرة) .

وقالَ أَبو عبادةَ [في « ديوانهِ » ٢/ ٦٥٦ مِنَ ٱلمتقاربِ] :

لَعَمْـرِيْ لَقَـدْ كَـانَ هِجْـرَانُـهُ عَلَىٰ ٱلصَّـبِّ أَيْسَرَ مِـنْ فَقْـدِهِ
وَقَـدْ كُنْـتُ أَظْمَـا إِلَـىٰ وَصْلِـهِ فَقَـدْ صِـرْتُ أَظْمَـا إِلَـىٰ صَـدِّهِ

وقالَ [في « ديوانهِ » ٢/ ٧٢٥ مِنَ الوافرِ] :

وَهَجْرُ ٱلْقُرْبِ مِنْهَا كَانَ أَشْهَىٰ إِلَىٰ ٱلْمُشْتَاقِ مِنْ وَصْلِ ٱلبِعَادِ

وقالَ وأَجادَ [في « ديوانهِ » ٣/ ٢٠٤٣ مِنَ البسيطِ] :

مَتَىٰ جَرَىٰ ٱلدَّمْعُ عَنْ بَيْنٍ تَقَدَّمَهُ ٱلْـ ـهِجْرَانُ كَانَ خَلِيْقاً أَنْ يَكُوْنَ دَمَا

وقالَ ٱبنُ عنينٍ [في « نفح الطيب » ٢/ ٨٦٣ مِنَ الكاملِ] :

عِبْءُ ٱلصُّدُوْدِ أَخَفُّ مِنْ عِبْءِ ٱلنَّوَىٰ لَوْ كَانَ لِيْ فِيْ ٱلْحُبِّ أَنْ أَتَخَيَّرَا

وقالَ ٱبنُ الخيَّاطِ [في « ديوانهِ » ٢٥٥ مِنَ الكاملِ] :

يَا عَمْرُو أَيُّ خَطِيْرِ خَطْبٍ لَمْ يَكُنْ خَطْبُ ٱلْفِرَاقِ أَشَدَّ مِنْهُ وَأَوْبَقَا
كِلْنِيْ إِلَىٰ كَلَفِ ٱلصُّدُوْدِ فَرُبَّمَا كَانَ ٱلصُّدُوْدُ مِنَ ٱلنَّوَىٰ بِيْ أَرْفَقَا

وقالَ الناظمُ في عكسهِ [في « العُكبريِّ » ٤/ ٨١ مِنَ الطَّويلِ] :

نَرَىٰ عِظَماً بِٱلْبَيْنِ وَٱلصَّدُّ أَعْظَمُ [وَنَتَّهِمُ ٱلْوَاشِيْنَ وَٱلدَّمْعُ مِنْهُمُ]

وقالَ في قريبٍ مِن موافقتِهِ [في « العُكبَريِّ » ١/ ١٩٨ مِنَ الطَّويلِ] :

أَرَىٰ لِيْ بِقُرْبِيْ مِنْكَ عَيْناً قَرِيْرَةً وَإِنْ كَانَ قُرْباً بِٱلْبِعَادِ يُشَابُ
وَهَلْ نَافِعِيْ أَنْ تُرْفَعَ ٱلْحُجْبُ بَيْنَنَا وَدُوْنَ ٱلَّـذِيْ أَمَّلْـتُ مِنْـكَ حِجَـابُ

وقالَ [في « العُكبَريِّ » ١/ ٢٤٥ مِنَ الكاملِ] :

قَـرُبَ ٱلْمَـزَارُ وَلاَ مَـزَارَ وَإِنَّمَـا يَغْـدُوْ ٱلْجَنَـانُ فَنَلْتَقِـيْ وَيَـرُوْحُ

أَمَّا ٱبن الخيَّاطِ . . فإنَّه يقولُ [مِنَ الطَّويلِ] :

غَرَامٌ عَلَىٰ يَأْسِ ٱلْهَوَىٰ وَرَجَائِهِ وَحُبٌّ عَلَىٰ قُرْبِ ٱلْمَزَارِ وَبُعْدِهِ

وقالَ قيسٌ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَإِنَّ مُقِيمَـاتٍ بِمُنْعَـرَجِ ٱللِّـوَىٰ لأَقْرَبُ مِنْ لُبْنَىٰ وَهَاتِيْكَ دَارُهَا

ولنعدْ إلىٰ ما نحنُ بسبيلِهِ ، ممَّا يتعلَّقُ ببكاءِ الحَمامِ ، قالَ الصمَّةُ بنُ عبيدِ اللهِ القشيريُّ [في « ديوانه » ١١٥ مِنَ الطَّويلِ] : عودة إلى بكاء الحمائم

أَإِنْ سَجَعَتْ فِيْ بَطْنِ وَادٍ حَمَامَةٌ تُجَاوِبُ أُخْرَىٰ مَاءُ عَيْنَيْكَ دَافِقُ[١]

كَأَنَّكَ لَمْ تَسْمَعْ بُكَاءَ حَمَامَةٍ بِلَيْلٍ وَلَمْ يَحْزُنْكَ إِلْفٌ مُفَارِقُ

بَلَىٰ فَـأَفِـقْ مِـنْ ذِكْـرِ لَيْلَـىٰ فَـإِنَّمَـا أَخُوْ ٱلصَّبْرِ مَنْ كَفَّ ٱلْهَوَىٰ وَهْوَ تَائِقُ[٢]

وقالَ آخرُ [مِنَ الكاملِ] :

أَبَكَيْتَ مِنْ حُزْنٍ لِنَوْحِ حَمَائِمٍ دعَتِ ٱلْهَدِيْلَ وَظَلَّ غَيْرَ مُجِيْبِهَا

نُحْنَا وَنَاحَتْ غَيْرَ أَنَّ بُكَاءَنَا بِعُيُـوْنِنَـا وَبُكَـاءَهَـا بِقُلُـوْبِهَـا

وقالَ النظَّارُ الفقْعَسيُّ [مِنَ الطَّويلِ] :

أَلاَ يَا لَقَوْمِيْ بَرَّحَتْ بِيْ حَمَامَةٌ مُفَجَّعَةٌ قَدْ غَابَ عَنْهَا قَرِيْنُهَا

تُغَنِّيْ بِصَوْتٍ أَعْجَمِيٍّ فَهَيَّجَتْ شَـآبِيْـبَ عَيْـنٍ مُسْتَهِـلٍّ مَعِيْنُهَـا

وَجَدَّدَ قَرْحَ ٱلْقَلْبِ فِيهِ ٱنْدِمَالُهُ تَـرَنُّـمُ ٱلْحَـانٍ بِـهِ لاَ تَبِيْنُهَـا

---

(١) سجعُ الحمام : موالاةُ صوتِهِ على طريقٍ واحدٍ .

(٢) تائِقٌ : مشتاقٌ ، وتاقتِ النفسُ إلى الشيءِ : نزعَتْ وٱشتاقت .

وقالَ أَبو جعفرٍ المهلَّبيُّ [مِنَ الطَّويلِ] :

لَقَدْ هَيَّجَ ٱلشَّوْقَ ٱلْقَدِيمَ حَمَامَةٌ ... مُطَوَّقَةٌ وَرْقَاءُ بَانَ قَرِيْنُهَا[1]
تَغَنَّتْ بِصَوْتٍ أَعْجَمِيٍّ فَهَيَّجَتْ ... وَسَاوِسَ نَفْسٍ مَا تَقَضَّتْ شُجُوْنُهَا

وقالَ محمَّدُ بنُ جَهمٍ [مِنَ الكاملِ] :

أَبَكَيْتَ إِنْ غنَّتْ حَمَامَةُ أَيْكَةٍ ... وَرْقَاءُ تَهْتِفُ فِيْ ٱلْغُصُوْنِ وَتَسْجَعُ
مَأْلُوْفَةُ ٱلأَلْحَانِ مِطْرَابُ ٱلضُّحَىٰ ... تَبْكِيْ بِشَجْوٍ دَائِمٍ وَتَوَجَّعُ
مَا تَسْتَفِيْقُ مِنَ ٱلْبُكَاءِ وَنَوْحُهَا ... يَجْوِيْ ٱلْحَزِيْنَ وَعَيْنُهَا لاَ تَدْمَعُ
عَجَباً لِمَبْكَىٰ عَيْنِهَا وَجُمُوْدِهَا ... وَلِعَوْلَةٍ فِيْ قَلْبِهَا مَا تُقْلِعُ

وقالَ أَحدُ بني الصَّيداءِ [في « بغية الطلب في تاريخ حلب » ٢/٩٧٣ مِنَ الطَّويلِ] :

دَعَتْ فَوْقَ أَغْصَانٍ مِنَ ٱلأَيْكِ غَدْوَةً ... مُطَوَّقَةٌ وَرْقَاءُ فِيْ إِثْرِ آلِفِ
فَهَاجَتْ عَقَابِيْلَ ٱلْجَوَىٰ إِذْ تَرَنَّمَتْ ... وَشَبَّتْ ضِرَامَ ٱلشَّوْقِ بَيْنَ ٱلشَّرَاسِفِ[2]
بَكَتْ بِجُفُوْنٍ دَمْعُهَا غَيْرُ ذَارِفٍ ... فَأَغْرَتْ جُفُوْنِيْ بِٱلدُّمُوْعِ ٱلذَّوَارِفِ

وللأَبياتِ قصَّةٌ ، لا يتَّسعُ لها الوقتُ[3] .

---

(١) الوُرْقَةُ : سوادٌ في غبرةٍ كلونِ الرمادِ .

(٢) الشرسوفُ : غضروفٌ معلَّقٌ بكلِّ ضِلَعٍ ، مثلُ غضروفِ الكتفِ .

(٣) روىٰ الأَصمعيُّ عن مُتتجعِ بنِ نبهانَ الصيداويِّ قالَ : أَخبرني رجلٌ مِن بني الصَّيداءِ مِن أَهلِ الصَّريمِ قالَ : كنتُ أَهوىٰ جاريةً مِن باهلةَ ، وكانَ أَهلُها قد أَخافوني ، وأَخذوا عليَّ المسالِكَ ، فخرجتُ ذاتَ يومٍ ، فإذا حماماتٌ يسجعنَ علىٰ أَفنانِ أَيكاتٍ ، متناوحاتٍ في سرارةِ وادٍ ، فاستنفرني الشَّوقُ ، فركبتُ وأَنا أَقولُ : دَعَتْ فَوْقَ أَغْصَانٍ. . . . الأبيات ، لكنِّي سِرْتُ ، فآواني اللَّيلُ إِلىٰ =

وقالَ الطغرائيُّ [في « ديوانهِ » ٣٨٩ مِنَ البسيطِ] :

أَيْكِيَّةٌ صَدَحَتْ شَجْواً عَلَىٰ فَنَنٍ ... فَأَشْعَلَتْ مَا خَبَا مِنْ نَارِ أَشْجَانِي[1]
نَاحَتْ وَمَا فَقَدَتْ إِلْفاً وَلاَ فُجِعَتْ ... فَـذَكَّـرَتْنِـيَ أَوْطَـارِيْ وَأَوْطَـانِـيْ
طَلِيْقَـةٌ مِـنْ إِسَـارِ ٱلْهَـمِّ نَـاعِمَـةٌ ... أَضْحَتْ تُجَدِّدُ وَجْدَ ٱلْمُوْثَقِ ٱلْعَانِيْ
مَا فِيْ حَشَاهَا وَلاَ فِيْ جَفْنِهَا أَثَرٌ ... مِنْ نَارِ قَلْبِيْ وَلاَ مِنْ مَاءِ أَجْفَانِيْ

= حَيٌّ ، فلمَّا رنَقَتْ في عيني سِنَةٌ . . إذا بقائِلٍ يقولُ :

تَمَتَّـعْ مِـنْ شَمِيْـمِ عِـرَارِ نَجْـدٍ ... فَمَـا بَعْـدَ ٱلْعَشِيَّـةِ مِـنْ عِـرَارِ

فتشاءَمتُ منها ، ثُمَّ غلبتني عيناي ، فإذا آخرُ يقولُ :

لَـنْ يَلْبَـثَ ٱلْقُـرَنَـاءُ أَنْ يَتَفَـرَّقُـوْا ... لَيْـلٌ يَكُـرُّ عَلَيْهِـمُ وَنَهَـارُ

فقُمتُ، وَعبَرتُ، وركبْتُ متنكِّباً عَنِ الطَّريقِ، فإذا راعٍ معَ الشُّروقِ وقد سرحَ غنماً لهُ وهوَ يتمثَّلُ:

كَفَـىٰ بـِاللَّيَـالِـيْ ٱلْمُخْلِقَـاتِ لِجِدَّةٍ ... وَبِـٱلْمَـوْتِ قَطَّـاعـاً حِبَـالَ ٱلْقَـرَائِـنِ

فأظلَمَتْ عَلَيَّ - واللهِ - الأَرضُ ، فتأَمَّلتُهُ فعرفتُهُ ، قلتُ : فلانٌ ؟ قالَ : فلانٌ .

قلتُ : ما وراءَكَ ؟ قالَ : ماتَتْ - واللهِ - رملةُ ، فما تمالكتُ أن سقطْتُ عَن بعيري ، فما أَيقظني إلاَّ حرُّ الشَّمسِ ، فقمتُ وقد عَقَلَ الغُلامُ ناقتي ومضىٰ ، فركبتُ إلىٰ أَهلي وقلتُ :

يَا رَاعِيَ ٱلضَّأْنِ قَدْ أَبْقَيْتَ لِيْ كَمَداً ... يَبْقَـىٰ وَيُتْلِفُنِـيْ يَـا رَاعِـيَ ٱلضَّـانِ
نَعَيْتَ نَفْسِيْ إِلَىٰ جِسْمِيْ فَكَيْفَ إِذاً ... أَبْقَـىٰ وَنَفْسِـيَ فِـيْ أَثْنَـاءِ أَكْفَـانِ
لَوْ كُنْتَ تَعْلَمُ مَا أَسْأَرْتَ فِيْ كَبِدِيْ ... بَكَيْـتَ مِمَّـا تَـرَاهُ ٱلْيَـوْمَ أَبْكَـانِـيْ

(١) الأَيكَةُ: الشجرُ الكثير الملتفُّ. والأَيكِيَّةُ: التي مِن شأنها وعادتِها سُكْنى الأَيكِ، وهيَ الحمامةُ .

وهيَ بالمكانِ الأعلىٰ مِن إثارةِ الأشجانِ ، لولا التغايرُ بينَ قولِهِ : (شجواً) وقولِهِ : (طليقةٌ وما بعدَهُ) .

وممَّا ينسبُ لبدرِ الدينِ يوسُفَ بنِ لؤلؤٍ [مِنَ الكاملِ] :

أَحَمَامَةَ الْوَادِيْ بِشَرْقِيِّ الْحِمَىٰ   إِنْ كُنْتِ مُسْعِدَةَ الْحَزِيْنِ.. فَرَجِّعِي
فَلَقَدْ تَقَاسَمْنَا الْغَضَا فَغُصُوْنُهُ   فِيْ رَاحَتَيْكِ وَجَمْرُهُ فِيْ أَضْلُعِيْ

ولَهُ [في « خزانة الأدب » ٢/ ٨٨ مِنَ الكاملِ] :

وَتنبَّهَتْ ذَاتُ الْجَنَاحِ بِسَحْرَةٍ   بِالْوَادِيَيْنِ فَهَيَّجَتْ أَشْوَاقِيْ
وَرْقَاءُ قَدْ أَخَذَتْ فُنُوْنَ الْحُزْنِ عَنْ   يَعْقُوْبَ وَالأَلْحَانَ عَنْ إِسْحَاقِ
أَنَّىٰ تُبَارِيْنِي أَسىً وَصَبَابَةً   وَكَآبَةً وَجَوَىً وَفَيْضَ مَآقِيْ ؟!
وَأَنَا الَّذِيْ أُمْلِيْ الْهَوَىٰ مِنْ خَاطِرِيْ   وَهِيَ الَّتِيْ تُمْلِيْ مِنَ الأَوْرَاقِ

وكانَ ابنُ أبي طاهرٍ ، يستحسنُ هٰذِهِ الأبياتِ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَقَبْلِيَ أَبْكَىٰ كُلَّ مَنْ كَانَ ذَا هَوَىً   هُتُوْفُ الْبَوَاكِيْ وَالدِّيَارُ الْبَلاقِعُ
وَمَرَّ عَلَىٰ الأَطْلالِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ   نَوَائِحُ مَا تَخْضَلُّ مِنْهَا الْمَدَامِعُ(١)
مُزَبْرَجَةُ الأَعْنَاقِ نِمْرٌ بُطُوْنُهَا   مُخَطَّمَةٌ بِالدُّرِّ خُضْرٌ رَوَائِعُ(٢)
تَرَىٰ طِرَراً بَيْنَ الْخَوَافِيْ كَأَنَّهَا   حَوَاشِيْ بُرُوْدٍ أَحْكَمَتْهَا الْوَشَائِعُ(٣)
وَمِنْ قِطَعِ الْيَاقُوْتِ صِيغَتْ عُيُوْنُهَا   خَوَاضِبُ بِالْحِنَّاءِ مِنْهَا الأَصَابِعُ

---

(١) تخضلُّ : تبتلُّ . المدامعُ : العيونُ .
(٢) الزِّبْرِجُ : الزينةُ من وشيٍ أو جوهرٍ أو غيرِهِ . طائرٌ أنمرُ : منقطٌ بالأسود .
(٣) الوشائع ـ جمع وشيعةٍ ـ : وهي الطريقةُ في البُردِ .

وقالَ آخرُ [مِنَ البسيطِ] :

يَاوَيْحَ قُمْرِيَّةٍ غَنَّتْ لَنَا هَزَجاً مِمَّـا تُغَنِّـيْ بِنَظْـمٍ جِـدُّ مُتَّـزِنِ
قَـدْ كُنْـتِ وَاقِعَـةً دَهْـراً عَلَـىٰ فَنَـنٍ فَصِرْتِ فِيْ جَوْفِ مَنْحُوْتٍ مِنَ ٱلقِنَنِ[1]
فَخَبِّـرِيْنَـا وَمَـا ٱلْفَـاكِ مُخْبِـرَةً أَتَسْجَعِيْنَ لِلَهْوٍ مِنْكِ أَمْ شَجَنِ ؟
وَفِيْ فُؤَادِيْ هُمُوْمٌ لَسْتُ أُظْهِرُهَا خَوْفَ ٱلْوُشَاةِ وَإِشْفَاقاً مِنَ ٱلزَّمَنِ

وقالَ البُحتريُّ [في « ديوانِه » ٣/١٩٦٦ مِنَ الطَّويلِ] :

وَوُرْقٍ تَدَاعَىٰ بِٱلْبُكَاءِ فَهِجْنَ لِيْ كَمِيْنَ أَسىً بَيْنَ ٱلْحَشَا وَٱلْحَيَازِمِ
وَصَلْتُ بِـدَمْعِـيْ نَـوْحَهُـنَّ وَإِنَّمَـا بَكَيْتُ لِشَجْوِيْ لاَ لِشَجْوِ ٱلْحَمَائِمِ

وقالَ المعرِّيُّ [في « سقطِ الزندِ » ٢٦٧ مِنَ الطَّويلِ] :

وَغَنَّـتْ لَنَـا فِـيْ دَارِ سَـابُـوْرَ قَيْنَـةٌ مِنَ ٱلْوُرْقِ مِطْرَابُ الأَصَائِلِ مِيْهَالُ[2]
فَقُلْتُ : تَغَنَّيْ كَيْفَ شِئْتِ فَإِنَّمَا غِنَاؤُكِ عِنْدِيْ - يَاحَمَامَةُ - إِعْوَالُ[3]

وقالَ المنازيُّ - وأهلُ الأندلسِ يزعمونَ أنَّهما لحمدةَ الأندلسيَّةِ - [مِنَ الوافرِ] :

لَقَـدْ عَـرَضَ ٱلْحَمَـامُ لَنَـا بِسَلْـعٍ إِذا غَنَّـىٰ لَـهُ رَكْـبٌ ٱلاَحَـا
شَجَا قَلْبَ ٱلْخَلِيِّ فَقَالَ : غَنَّىٰ وَبَرَّحَ بِٱلشَّجِيِّ فَقَالَ : نَاحَا

---

(١) القِنَنُ - جمع قِنَّةٍ - : وهيَ قوَّةٌ من قوى حبلِ الليفِ .
(٢) دار سابور : دارُ العلمِ بـ(بغدادَ) . القينةُ : المغنيةُ . الوُرْقُ : الحمامُ . الميهالُ : من الوَهَلِ ، أي الفزعُ ، أوِ النازلةُ بينَ أهلها .
(٣) الإعوالُ : العويلُ وهوَ رفعُ الصوتِ بالبكاءِ . يقولُ : إن صوت هذهِ الحمامةِ عندي ليس غناءً يبعثُ على اللهوِ والطربِ ، وإنما هوَ عويلٌ يثيرُ الشجا والكربَ .

كل إناء بما فيه ينضح

ونَعم واللهِ ، فكلٌّ يقفُ عندَ حدِّهِ ، وينتهي لِمقدارِ مدِّهِ ، وكثيراً ما تشتبهُ النوائِحُ والأَغاني ، وتتَّفِقُ الصورُ لا المَعاني .

وللهِ درُّ الناظِمِ في قولِهِ [في « العُكبَريّ » ٤/ ٢٥٥ مِنَ الوافرِ] :

وَقَدْ يَتَقَارَبُ ٱلْوَصْفَانِ جِدّاً ... وَمَوْصُوفَاهُمَا مُتَبَاعِدَانِ

ويُطربني قولُ الآخرِ ، وقد تمثَّلتُ بهِ مرَّةً ، وعِندي صَديقي الجليلُ السيِّدُ شيخُ بنُ محمَّدٍ الحبشيُّ ، فصعقَ حتَّىٰ كادَ يُغشىٰ عليهِ ، وهُوَ [مِنَ الخفيفِ] :

يَنْدُبُوْنَ ٱللِّوَا وَأَنْدُبُ سَلْعاً ... كُلُّ عَيْنٍ تَبْكِيْ عَلَىٰ مَا شَجَاهَا

وحدَّثوا [في « بغية الطلب » ٧/ ٣٢١١] : أَنَّ خالدَ بنَ يزيدَ الكاتبَ ، كانَ يهوىٰ جاريةً لبعضِ أَعيانِ (بغدادَ) ، فلم يقدِرْ عَليها ، ثمَّ إِنَّ محمَّدَ بنَ عبدِ الملكِ ولاَّهُ عملاً بالثغورِ ، فشخصَ ، فسمعَ في طريقِهِ منشداً يقولُ [مِنَ البسيطِ] :

مَنْ كَانَ ذَا شَجَنٍ بِٱلشَّامِ يَطْلُبُهُ ... فَفِيْ سِوَىٰ ٱلشَّامِ أَضْحَىٰ ٱلأَهْلُ وَٱلشَّجَنُ

فبكىٰ حتَّىٰ سقطَ علىٰ وجهِهِ ، ثمَّ أَفاقَ ، ولم يفارقْهُ الوسواسُ حتَّىٰ ماتَ .

ولا غرابَةَ ؛ فإِنَّ مَن وَعىٰ سمعُهُ ، وكرُمَ طبعُهُ ، وعذُبَ مشربُهُ . . لا صادِحَةَ إِلاَّ تُطرِبُهُ .

ولقد أَسهبَ والدي ـ رحمَهُ اللهُ ـ في الموضوعِ بلسانِ القومِ ، وذكرَ حديثَ الثلاثةِ الذينَ سَمِعوا المناديَ علىٰ السَّعْتَرِ البرِّيِّ[1] ،

(١) الحاصل منها : أن كلَّ سامع يسرع فهمه إلى ما يشغل فكره ، فأحدهم سمعه =

وحديثَ سامعِ المنادي علىٰ الخيارِ عَشَرَةٌ بدرهَمٍ . . وماكانَ مِن تغيُّرِهِ وقولِهِ : إذا كانَ الخيارُ عشرةٌ بدِرهمٍ . . فما بالُ الأشرارِ ؟!

وذكرَ الأُستاذَ الأبرَّ سيِّدَنا الإمامَ عيدروسَ بنَ عمرَ : سَمعَ الناعورَةَ يوماً . . فاْهتاجَ واْشتاقَ ، وفاضَتْ حكمتُهُ ، وتفجَّرتْ ينابيعُ معانيهِ ، ودرَّتْ شآبيبُ معارفِهِ ، فقلْتُ لِوالدي : إنَّ عِندي في ذلكَ لحديثاً يناسِبُ بعضَ ما ذكرتُم قالَ : هاتِ ، قلتُ : ذكرَ بعضُ أَهلِ الأَدبِ ، أَنَّ أعرابيّاً نزلَ بالفتحِ بنِ خاقانَ ، وزيرِ المتوكِّلِ العبَّاسيِّ ، وباتَ في سطحٍ يشرفُ علىٰ بستانٍ لَهُ ، فلمَّا أَسحرَ ، وسمعَ أَصواتَ النواعيرِ . . حَنَّ وأَنَّ ، وجاشَتْ بلابِلُهُ ، وهاجَتْ خواطِرُهُ ، وقالَ [في « الأغاني » ٥/ ٣٨١ مِنَ الكاملِ] :

بَكَـرَتْ تَحِـنُّ وَمَـا بِهَـا وَجْـدِيْ ... وَأَحِـنُّ مِـنْ شَـوْقٍ إِلَـىٰ نَجْـدِ
وَدُمُـوْعُهَـا تَحْـيَ الـرِّيَـاضُ بِهَـا ... وَدُمُـوْعُ عَيْنِـيْ أَحْـرَقَـتْ خَـدِّيْ

فأَصابتْ مِن أَبي محزاً ، وصادَفَتْ لَهُ مهزّاً ، فاْهتاجَ حزناً ، وأَرسلَ دموعَهُ فُرادىٰ ومثنىً ، ووَدَّ أَن لَو كانَ الأُستاذُ حيّاً . . فأَتحفَهُ بالقصَّةِ والبيتينِ ، ودَعا لي حينئذٍ بِما أَرجو ذُخرَهُ وبركتَهُ .

وقالَ نصيبٌ أَو غيرُهُ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَقَدْ كِدْتُ يَوْمَ ٱلْحُزْنِ لَمَّا تَرَنَّمَتْ ... هَتُوْفُ ٱلضُّحَىٰ مَحْزُونَةً بِٱلتَّرَنُّمِ
أَمُـوْتُ لِمَبْكَـاهَـا أَسـىً إِنَّ لَـوْعَتِـيْ ... وَوَجْدِيْ بِسَعْدَىٰ شَجْوُهُ غَيْرُ مُنْجَمِ

= يبيع زعتر الطعام النبْت المعروف المفيد الشهي المضاد للجراثيم ، والثاني سمعه يقول : اسْعَ ترَ برِّي ، والثالث سمع : الساعة ترىٰ بري فانهض وبادر قبل فوات الأوان .

وللناس فيما يعشقون مذاهب ، وكلٌّ يغني علىٰ ليلاه ، وهكذا .

وقالَ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَيَوْمَ ٱللِّوَىٰ أَبْكَاكَ نَوْحُ حَمَامَةٍ هَتُوْفِ ٱلضُّحَىٰ بِٱلنَّوْحِ ظَلَّتْ تَفَجَّعُ
فَقُلْتُ : أَتَبْكِي ذَاتُ طَوْقٍ تَذَكَّرَتْ هَدِيْلاً وَقَدْ أَوْدَىٰ وَمَا كَانَ تُبَّعُ(١)
وَأَذْرِيْ وَلاَ أَبْكِيْ وَتَبْكِيْ وَمَا دَرَتْ بِعَـوْلَتِهَـا غَيْـرَ ٱلْبُكَـا كَيْـفَ تَصْنَـعُ
وَلَمْ تَرَ مَا تَبْكِيْ وَأَتْرُكُ مَا أَرَىٰ وَتَحْفَـظُ مَـا تَبْكِـيْ لَـهُ وَأُضَيِّـعُ

وقد سبقَ في غيرِ هـٰذا المجلسِ ، ما قالَهُ أبو فراسٍ في مناجاةِ الحمامةِ .

وقالَ ٱبنُ الفارضِ [في « ديوانهِ » ٣٩ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَوْلاَكَ مَاٱسْتَهْدَيْتُ بَرْقاً، وَلاَ شَجَتْ فُؤَادِيْ فَأَبْكَتْ إِذْ شَدَتْ وُرْقُ أَيْكَةٍ(٢)
فَـذَاكَ هُـدَىً أُهْـدِيْ إِلَـيَّ وَهَـٰذِهِ عَلَىٰ ٱلْعُوْدِ إِذْ غَنَّتْ عَنِ ٱلْعُوْدِ أَغْنَتِ(٣)

ولي في الموضوعِ الكثيرُ الطيِّبُ ، غيرَ أَنِّي لا أُمِلُّ بشيءٍ منهُ ، إلاَّ ما أُراني لَم أُسبَقْ إليهِ مِن قولي [مِنَ البسيطِ] :

جَفَّتْ دُمُوْعِيْ لِفَرْطِ ٱلْوَجْدِ وَٱلحُرَقِ وَبِتُّ أَرْعَىٰ نُجُوْمَ ٱللَّيْلِ مِنْ أَرَقِ
كَذَلِكَ ٱلْوُرْقُ لاَ تَذْرِيْ ٱلدُّمُوْعَ إِذَا نَاحَتْ بِأَكْبَادِهَا ٱلحَرَّىٰ عَلَىٰ ٱلْوَرَقِ

---

(١) تُبَّع : هو تبع بن حسان بن تبان ، ويقال : اسمه مرثد ، وهو تبع الأصغر آخر التبابعة من ملوك حمير في اليمن .
(٢) ٱستهداهُ : طلبَ منهُ أن يَهديَهُ . شجت : أَحزنت . شَدَت : غنَّت . الأيكةُ : الشجرة الملتفَّةُ .
(٣) فذاك : أي البرقُ . وهذه : أي الحمائِمُ . العودُ الأوَّلُ : الغصنُ . العودُ الثاني : آلة الطربِ .

العرب تحفظ المستجير ولو كان حيواناً

ويتَّصِلُ بالموضوعِ [أن أبا الفرج روى في «الأغاني» ١٥/ ٣٧٥] : أَنَّ زياداً الأَعجمَ ، قدمَ علىٰ المهلَّبِ ٱبنِ أَبي صفرَةَ ، فبينا هُوَ يشربُ يوماً معَ ٱبنِهِ حبيبٍ . . إِذِ ٱقترَبَتْ منهُما حمامَةٌ تغنِّي ، فقالَ زيادٌ [في «ديوانهِ» ١٢٠-١٢١ من الوافر] :

تَغَنَّيْ أَنْتِ فِيْ ذِمَمِيْ وَعَهْدِيْ ... وَذِمَّـةِ وَالِـدِيْ أَنْ لاَ تُطَـارِيْ

إِذَا غَنَّيْتِنِـيْ وَشَـرِبْـتُ كَـأْسـاً ... ذَكَـرْتُ أَحِبَّتِـيْ وَذَكَـرْتُ دَارِيْ

فَـإِمَّـا يَقْتُلُـوْكِ طَلَبْـتُ ثَـأْراً ... لَـهُ نَبَـأٌ لأَنَّـكِ فِـيْ جِـوَارِيْ

فما كانَ بأَسرعَ مِن أَن شَكَّ فُؤَادَها بالسهْمِ حبيبٌ ، فغضِبَ زيادٌ ، وذهبَ يشكو إِلىٰ المهلَّبِ ، فقالَ حبيبٌ : إِنَّما كنتُ مازحاً ، فقالَ لَهُ أَبوهُ : أَما علمْتَ أَنَّ جارَةَ أَبي أُمامَةَ لا تُرَوَّعُ ؟ وقضىٰ فِيها بأَلفِ دينارٍ ديَةَ المسلمِ ، فقبضَها زيادٌ ، وقالَ [في «ديوانهِ» ٦٧ مِنَ الطَّويل] :

فَلِلَّـهِ عَيْنـاً مَـنْ رَأَىٰ كَقَضِيَّـةٍ ... قَضَىٰ لِيْ بِهَا شَيْخُ الْعِرَاقِ ٱلْمُهَلَّبُ

رَمَـاهَـا حَبِيْـبُ بْـنُ ٱلْمُهَلَّـبِ رَمْيَـةً ... فَأَقْصَدَهَا وَٱلسَّهْمُ يُخْطِيْ وَيَغْرُبُ[1]

فَأَلْزَمَهُ عَقْلَ ٱلْقَتِيْلِ ٱبْنُ حُرَّةٍ ... وَقَالَ حَبِيْبٌ : إِنَّمَا كُنْتُ أَلْعَبُ

فَقَـالَ : زِيَـادٌ لاَ يُـرَوَّعُ جَـارُهُ ... وَجَارَةُ جَارِيْ مِثْلُ جَارِيْ وَأَقْرَبُ

من الأماكن التي تحن فيها العرب . . عند حنين الإبل

وكما تحنُّ العربُ لنوحِ الحمامِ ، وتبوحُ بِرَوْقِ الغمامِ . . كذلكَ عندَ حنينِ الإبلِ ، يضطرِمُ أُوارُها ، ويهتاجُ تذكارُها .

قالَتِ ٱمرأَةٌ مِن بني عقيلٍ ـ تزوَّجَتْ في بني كلابٍ [مِنَ الطَّويل] ـ :

خَلِيْلَيَّ قَدْ هَاجَتْ عَلَيَّ صَبَابَةً ... قَلُـوْصُ ٱلْعِبَـادِيِّيْـنَ لَيْلَـةَ حَنَّـتِ

(١) يغربُ السهمُ : يأْتي مِن حيثُ لا يدري ، وهوَ مِن قولِهم : سهمٌ غربٌ .

بَرَزْتُ لَهَا وَٱللَّيْلُ مُلْقٍ رُوَاقَهُ   فَجَاوَبْتُهَا حَتَّىٰ مَلَلْتُ وَمَلَّتِ

وتزوَّجَتْ أُخرىٰ ، فنقَلوها عَن أَهلِها علىٰ بَكرٍ[1] ، فجعلَتْ تَبكي علىٰ أُلاَّفها ، وَيَحِنُّ البَكرُ إِلىٰ عطنِهِ[2] ، فقالَتْ [في « معجم البلدان » ١/ ٦٣ مِنَ الطَّويلِ] :

أَلاَ أَيُّهَا ٱلْبَكْـرُ ٱلأَبَـانِـيُّ إِنَّنِـيْ   وَإِيَّـاكَ فِـيْ كَلْـبٍ لَمُغْـتَـرِبَـانِ
تَحِـنُّ وَأَبْكِـيْ إِنَّ ذَا لَبَلِيَّـةٌ   وَإِنَّا عَلَىٰ ٱلْبَلْوَىٰ لَمُصْطَحِبَانِ
وَإِنَّ زَمَاناً أَيُّهَا ٱلْبَكْرُ ضَمَّنِيْ   وَإِيَّـاكَ فِـيْ وَادٍ لَشَـرُّ زَمَـانِ

وقالَ آخرُ [في « وفيات الأعيان » ٦/ ٣٧٢ مِنَ الطَّويلِ] :

وَحَنَّتْ قَلُوْصِيْ آخِرَ ٱللَّيْلِ حَنَّةً   فَيَا رَوْعَةً مَا رَاعَ قَلْبِيْ حَنِيْنُهَا
تَحِنُّ إِلَىٰ أَهْلِ ٱلْحِجَازِ صَبَابَةً   وَقَدْ بِتُّ مِنْ أَهْلِ ٱلْحِجَازِ قَرِيْنُهَا

ويحكىٰ [بنحوها في « معجم البلدان » ١/ ١٣٥] : أَنَّ بعضَ أُمراءِ (المدينَةِ) ، ٱستدعىٰ أَعرابيّاً مِن أُولي ودِّهِ ؛ لِيكتبَ لَهُ في الديوانِ ما يكفيهِ عَن ٱنتجاعِ البوادي ، فتحمَّلَ بأَهلِهِ ومالِهِ ، حتَّىٰ إِذا كانَ علىٰ مَقْرُبَةٍ مِن (المدينَةِ) . . سقىٰ إِبلَهُ ، ولَمَّا ضُرِبَتْ بالعطَنِ . . ٱنفلَتَتْ واحدةٌ منهُنَّ ، وحنَّتْ إِلىٰ وطنِها ، فنفرَتِ البَواقي ، وأَمعنَتْ في آثارِها ، فٱهتاجَتِ ٱمرأَتُهُ ـ وكانتْ مِن غطَفانَ ـ وقالَتْ : أَتكونُ الإِبلُ أَعقلَ مِنَّا وأَرقَّ عواطِفَ ؟! واللهِ لا تبعثُكَ إِلىٰ (المدينةِ) ، وقالَتْ [مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا حَنَّتِ ٱلشَّقْرَاءُ هَاجَتْ لِيَ ٱلْهَوَىٰ   وَذَكَّـرَنِـيْ أَهْـلَ ٱلأَرَاكِ حَنِيْنُهَـا

---

(١) البَكرُ من الإِبلِ : ما لم يُنْزِل بعدُ .
(٢) العطنُ للإبلِ : كالوطنِ للناسِ .

ولا مؤاخذَةَ إن كانَتِ القصَّةُ بغيرِ هـٰذا اللونِ .

وقالَ المعريُّ يصفُ إبلَهُ [في « سقط الزند » ٢٨٤ مِنَ الطَّويلِ] :

تَلَوْنَ زَبُوْراً فِيْ ٱلْحَنِيْنِ مُنَزَّلاً عَلَيْهِنَّ فِيْهِ ٱلصَّبْرُ غَيْرُ حَلاَلِ
وَأَنْشَدْنَ مِنْ شِعْرِ ٱلْمَطَايَا قَصِيْدَةً وَأَوْدَعْنَهَا فِيْ ٱلشَّوْقِ كُلَّ مَقَالِ

وإنَّما كثُرَ حنينُ العربِ لشَيمِ البروقِ ، ولِبكاءِ الحمائِمِ ، وحنينِ الإبلِ؛ لكثرَةِ ما يمارسونَ مِن ذلكَ ، وإلاَّ . . فإنَّهم برِقَّةِ طباعهمْ لاَ يَنسونَ أَحبَابَهم ، وكثيراً ما يهتاجُ لَهمُ الجوىٰ لأدنىٰ حادثٍ ، ممَّا سوىٰ تلكَ :

قد يهيِّج شوقَ العربي غيرُ الذي ذكر

كهبوبِ الرياحِ : ومرَّ ذرْوٌ منهُ أثناءَ الكلامِ ، وقالَ عبدُ اللهِ بنُ أُميَّةَ [في « ديوان الحماسة » ٢/١١٩ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا هَبَّ عُلْوِيُّ ٱلرِّيَاحِ وَجَدْتُنِيْ كَـأَنِّـيْ لِعُلْـوِيِّ ٱلـرِّيَـاحِ نَسِيْـبُ

وكظهورِ النارِ : قالَ بعضُهُم [في « الأغاني » ١٥/١٢٧ مِنَ البسيطِ] :

يَا مُوْقِدَ ٱلنَّارِ أَوْقِدْهَا فَإِنَّ بِهَا سَناً يُهِيْجُ فُؤَادَ ٱلْعَاشِقِ ٱلسَّدِمِ(١)

وقالَ ٱبنُ الخطَّابِ لمتمِّمِ بنِ نويرَةَ [في « وفيات الأعيان » ٦/١٩] : ما بلغَ مِن حزنِكَ علىٰ أخيكَ ؟ قالَ : لقد مكثْتُ سنةً لا أنامُ بليلٍ حتَّىٰ أصبحَ ، ولا رأيتُ ناراً بليلٍ . . إلاَّ ظَنَنْتُ نفْسي تخرجُ ، أذكرُ بِها نارَ أخي لِلضِّيفانِ .

وكٱختلاجِ الرِّجْلِ أَوِ العينِ : قالَ ٱبنُ أَبي ربيعةَ [مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا مَذِلَتْ رِجْلِيْ دَعَوْتُكَ أَشْتَفِيْ بِذِكْرَاكَ مِنْ مَذْلٍ بِهَا فَيَهُوْنُ(٢)

---

(١) السدَمُ : الندمُ ، السادم : النادمُ .
(٢) مَذِلَتْ : لم تستقرَّ في مكانِها .

وقالَ العبَّاسُ بنُ الأَحنفِ [مِنَ البسيطِ] :

ظَلَّتْ تُبَشِّرُنِيْ عَيْنِيْ إِذِ ٱخْتَلَجَتْ ... بِأَنْ أَرَاكَ وَمَا زَالَتْ عَلَىٰ خَطَرِ
فَقُلْتُ لِلْعَيْنِ : إِمَّا كُنْتِ صَادِقَةً ... إِنِّيْ بِبُشْرَاكِ لِيْ مِنْ أَسْعَدِ ٱلْبَشَرِ
فَمَا جَزَاؤُكِ عِنْدِيْ لَسْتُ أَعْرِفُهُ ... بَلَىٰ جَزَاؤُكِ أَنْ تَخْلَيْنَ بِٱلنَّظَرِ
وَأَحْجُبُ ٱلْمُقْلَةَ ٱلأُخْرَىٰ وَأَمْنَعُهَا ... وَجْهَ ٱلْحَبِيْبِ كَمَا لَمْ تَأْتِ بِٱلْخَبَرِ

ومنهُ قولي مِن قصيدةٍ نبويَّةٍ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا لِيَ إِلاَّ حُبُّهُ مِنْ وَسِيْلَةٍ ... أُصَلِّيْ عَلَيْهِ كُلَّمَا ٱلْعَيْنُ تَخْلَجُ

* * *

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ٣٣٣ مِنَ الكاملِ] :

وَعَذَلْتُ أَهْلَ ٱلْعِشْقِ حَتَّىٰ ذُقْتُهُ ۞ فَعَجِبْتُ كَيْفَ يَمُوْتُ مَنْ لاَ يَعْشَقُ

كيف يكون الموت بلا عشق؟!

يُعظِّمُ أَمرَ العشقِ ، ويقولُ : كيفَ يكونُ الموتُ مِن غيرِ عشقٍ ؟ إذ لا ينبَغي أَن يموتَ مَن لَم يعشَقْ ؛ لأَنَّهُ لَم يُقاسِ ما يوجبُ ٱلموتَ مِن المشاقِّ ، وأَلمِ الفراقِ ، وإِنَّما يعالِجُ ذلكَ العاشِقُ ، فتسرعُ إِليهِ بالهلاكِ ، فهوَ قريبٌ من قولِهِ [في « العُكبَرِيِّ » ٣/ ١٦٣ مِنَ البسيطِ] :

لَوْلاَ مُفَارَقَةُ ٱلأَحْبَابِ مَا وَجَدَتْ ۞ لَهَا ٱلْمَنَايَا إِلىٰ أَرْوَاحِنَا سُبُلاَ

العشق من طبائع النفوس الكريمة

والعشقُ مِن طبائعِ النفوسِ ، لا يخْلو عَنها شيءٌ مِن المواليدِ الثلاثَةِ ، فضلاً عَن الإِنسانِ ، الذي هُوَ سرُّها ومتخيَّرُها ، غيرَ أَنَّهُ لا يُورىٰ فيهِ زندُهُ ، إِلاَّ عندَ كرمِ النحيزَةِ[1] ، وصفاءِ السريرَةِ ، ورقَّةِ الطبْعِ ، وسلامَةِ الخاطِرِ ؛ ولهـٰذا سُئِلَ أَحدُ بني عُذرَةَ ـ كما سلفَتِ الإِشارَةُ إِلىٰ مثلِهِ ـ عَن تبيُّغِ العشقِ بهِم[2] ؟ فقالَ [بنحوه في « مصارع العشاق » ٢/ ١٨٦] : إِنَّ لَنا أَخلاقاً شريفةً ، وأَنفساً عفيفةً .

وإِذا كانَ العشقُ يهذِّبُ الطباعَ ، ويشجِّعُ الجبانَ ، ويطلِقُ يدَ البخيلِ . . فأَحرىٰ أَنْ لا تكونَ نشأَتُهُ إِلاَّ عمَّا يناسِبُهُ مِن شرائِفِ تلكَ الطباعِ .

---

(١) النَّحيزَةُ : الأَصلُ والطبيعَةُ .

(٢) تبيَّغَ : اشتدَّ علىٰ الإنسانِ ولم يقدرْ دفعَهُ ، والمقصود هنا : الفتكُ .

وقد قالَ ٱبنُ أَبي مليكَةَ [في « الأغاني » ١/ ١٣٩ مِنَ الطَّويلِ] :

إذا أَنْتَ لَمْ تَعْشَقْ وَلَمْ تَعْرِفِ ٱلْهَوَىٰ فَكُنْ حَجَراً مِنْ يَابِسِ ٱلصَّخْرِ جَلْمَدَا

وقالَ ٱبنُ أَبي رزينٍ [في « الأغاني » ١٩/ ١٦٨ مِنَ الطَّويلِ] :

إذا أَنْتَ لَمْ تَعْشَقْ وَلَمْ تَتْبَعِ ٱلْهَوَىٰ فَكُنْ صَخْرَةً بِٱلْحِجْرِ مِنْ حَجَرٍ أَصَمّ

والثاني عينُ الأَوَّلِ في المعنىٰ ، وأَكثرِ اللفظِ ، وما أَدري أَيُّهما الأَوَّلَ ؟ ومازالتِ الخواطِرُ تتوارَدُ ، والشعراءُ تتناهَبُ ، والأُدباءُ تتخالَسُ ، والقضاءُ لِلسَّابقِ ، وهوَ ٱبنُ أَبي مليكَةَ فيما أَظُنُّ .

المحب يرى بعين غير عيون الناس

وبيتُ الناظِمِ ناظرٌ إِلىٰ قولِهِ في الأُخرىٰ [في « العُكبَرِيّ » ١/ ٦ مِنَ الكاملِ] :

لاَ تَعْذُلِ ٱلْمُشْتَاقَ فِيْ أَشْوَاقِهِ حَتَّىٰ تَكُوْنَ حَشَاكَ فِيْ أَحْشَائِهِ

وهُوَ قريبٌ من قولِ عزَّةَ : وقد قالَ لَها عبدُ الملِكِ بنُ مروانَ بعدَ ما خلا مِنهاالشبَابُ [كما في « المستطرف » ٢/ ٣٥٠] : أَنْتِ التي أَنفقَ فيكِ شعرَهُ وعمرَهُ كثيِّرٌ ؟! قالَتْ لَهُ : إِنَّهُ كانَ يَراني بعينينِ ليستَا في رأْسِكَ ، وصدقَ ٱبنُ أَبي ربيعةَ في قولِهِ :

حَسَـنٌ فِـيْ كُـلِّ عَيْـنٍ مَـنْ تَـوَدّْ

وأَخرجَ ٱبنُ عساكرَ وغيرُهُ : أَنَّ جميلاً قدِمَ (مصرَ) علىٰ عبدِ العزيزِ بنِ مروانَ يمدحُهُ ، فرآهُ رجلٌ ، فقالَ : ما رأَيتَ في بُثينَةَ حتَّىٰ تتيمتَ بِها ؟ فواللهِ لقدْ رأَيتُها ولو ذُبحَ بعرقوبِها طائِرٌ لانْذَبَحَ ، فقالَ لهُ جميلٌ : إِنَّك لم ترَها بِعَينيَّ ، ولو نظرتَ إِليها بعَينيَّ . . لأَحبَبْتَ أَنْ لا تلقىٰ الله َتعالىٰ إِلاَّ وأَنتَ زانٍ .

ثمَّ إِنَّهُ مرضَ ، فدخلَ عليهِ العبَّاسُ بنُ سهلٍ الساعديُّ ، فذكرَ لَهُ

[كما في « روضة المحبين » ٢٩٩] من عفَّةِ نفسهِ ما ٱقتصَصْناهُ في الكلامِ علىٰ قولِهِ [في « العُكبَرِيّ » ٣/ ١٦٢ مِنَ البسيطِ] :

أَحْيَا وَأَيْسَرُ مَا قَاسَيْتُ مَا قَتَلاَ وَٱلْبَيْنُ جَارَ عَلَىٰ ضَعْفِيْ وَمَا عَدَلاَ

ويشبهُ قولَ عزَّةَ وجميلٍ ، ما ذكرَهُ المبرِّدُ : أَنَّ يزيدَ ٱبنَ أَبي مسلمٍ ، وزيرَ الحجَّاجِ ـ وكانَ دميماً ـ دخلَ علىٰ سليمانَ بنِ عبدِ الملِكِ ، فقالَ لَهُ سليمانُ : قبَّحَ اللهُ رجلاً أَجرَّكَ رَسَنَهُ ، وأَشركَكَ في أَمانتِهِ ، فقالَ : لا تقُلْ هٰذا ، قالَ : ولِمَ ؟ قالَ : لأَنَّكَ رأَيتَني والأَمرُ عنِّي مدبرٌ ، وَلو رأَيتَني وهُوَ مقبِلٌ . . لاستحسَنْتَ منِّي ما ٱستقبحتَ ، وٱستعظمْتَ ما ٱستصغَرْتَ ، فقالَ لَهُ سليمانُ : ويحَكَ ، أَوَقَدِ ٱستقرَّ الحجَّاجُ في قعرِ جهنَّمَ ، أَم لا ؟ قالَ : لا تقلْ ذلكَ ؛ فإِنَّ الحجَّاجَ وطَّأَ لكمُ المنابِرَ ، وأَذلَّ لكمُ الجبابِرَةَ ، وإِنَّهُ يأتي يومَ القيامَةِ عَن يمينِ أَبيكَ ، ويسارِ أَخيكَ ، فحيثُما كانَا . . كانَ .

ولا يبعدُ عنهُ أَيضاً ما ذكرَ بعضُهم : أَنَّ رجلاً نشدَ طفلاً كالدينارِ[١] ، فقالَ لَهُ الناسُ : ما رأَيناهُ ، ثمَّ أَقبلَ بعدَ زمانٍ يحملُهُ ، ومرَّ علىٰ مَنْ نشدَهم ، فقالوا : ما هٰذا مِنكَ ؟ قالَ : ٱبني الذي كنتُ أَنشدُهُ ، فقالوا لَهُ : لَم نزلْ مُذِ اليومَ نراهُ جائِياً رائِحاً ، ولو قلتَ كالجُعَلِ[٢] . . لدَلَلْناكَ عليهِ مِن أَوَّلِ وهلَةٍ ، ولٰكنَّكَ لمَّا قلتَ كالدينارِ . . ذهبَ وَهْمُنا إِلىٰ أَنَّ المنشودَ سواهُ ، فقالَ لَهم : رأَيتموهُ بعينٍ ، ورأَيتُهُ أَنا بأُخرىٰ .

---

(١) طفلٌ كالدينار : أي وجههُ مشرقٌ متلأْلِىءٌ .
(٢) الجُعَلُ : دابّةٌ من هوامِّ الأرضِ .

ولقد أنصفَ كثيِّرٌ في قولِهِ [في « ديوانِهِ » ٤٤٢ مِنَ الكاملِ] :

لَوْ يَسْمَعُوْنَ كَمَا سَمِعْتُ كَلاَمَهَا   خَرُّوَا لِعَزَّةَ رُكَّعاً وَسُجُوْدَا

وقالَ عليُّ بنُ عبدِ اللهِ بنِ جعفرٍ [مِنَ المُجتثِّ] :

وَلاَئِمٍ لاَمَ فِيْهِ   يَبْغِي بِذَلِكَ شَيْنِي
فَقُلْتُ إِذْ صَدَّ عَنْهُ   هَلاَّ نَظَرْتَ بِعَيْنِي

ولنعدْ لذكرِ ما يناسِبُ البيتَ ، فمنْهُ قولُ البُحتريِّ [في « ديوانِهِ » ٣/١٦١٩ مِنَ الطَّويلِ] : إذا رأيت عاشقاً.. فارحمه

وَيَأْمُرُنِيْ بِٱلصَّبْرِ مَنْ لَيْسَ وَجْدُهُ   كَوَجْدِيْ وَلاَ إِعْلاَنُ حَالِيْ كَحَالِهِ

وقولُهُ [في « ديوانِهِ » ٣/ ١٥٠٥ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا شِئْتَ أَنْ لاَ تَعْذُلَ ٱلدَّهْرَ عَاشِقاً   عَلَىٰ كَمَدٍ مِنْ لَوْعَةِ ٱلْبَيْنِ فَاعْشَقِ

وقولُهُ [في « ديوانِهِ » ٣/ ١٥٣٠ مِنَ الطَّويلِ] :

بِوِدِّيَ لَوْ يَهْوَىٰ ٱلْعَذُوْلُ وَيَعْشَقُ   لِيَعْلَمَ أَسْبَابَ ٱلْهَوَىٰ كَيْفَ تَعْلَقُ

وقالَ البُرَعيُّ [مِنَ البسيطِ] :

عَذَلْتَهُ حِيْنَ لَمْ تَنْظُرْ بِنَاظِرِهِ   وَلاَ عَلِمْتَ ٱلَّذِيْ فِيْ ٱلْحُبِّ يَعْلَمُهُ

وأَصلُ المعنىٰ : أَنَّهُ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم مرَّ بامرأَةٍ تبكي علىٰ قبرٍ ، فقالَ : « ٱصْبِرِيْ وَٱحْتَسِبِيْ » ، فقالَتْ لَهُ : إِليكَ عنِّي ، فإِنَّكَ لم تصَب بمُصيبَتي ، فسارَ عَنها ، فقالَ لَها رجلٌ مرَّ بها بعدَهُ : ما قالَ لكِ رسولُ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم ؟ قالَتْ : أَوَذاكَ رسولُ اللهِ ؟ وأَخذَها المقيمُ المقعِدُ مِن ردِّها عليهِ ، وانطلقَتْ إِليهِ لتعتذِرَ ، قالَتْ : فلَم أَجد بوَّاباً ولاَ حَجَّاباً ، فقالَ لَها : « إِنَّمَا ٱلصَّبْرُ

عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَىٰ »[1] . وموضعُ المناسبةِ قولُها : إِنَّكَ لَم تُصَبْ بِمُصيبَتِي .

المتنبي يعترف على نفسه بالجمود

ثمَّ إنَّا نرىٰ الناظِمَ يعترفُ علىٰ نفسِهِ تارةً بالجمودِ فيقولُ [في « العُكبَرِيّ » ٢/ ٤٠ مِنَ البسيطِ] :

لَمْ يَتْرُكِ الدَّهْرُ مِنْ قَلْبِيْ وَلاَ كَبِدِيْ   شَيْئاً تُتَيِّمُهُ عَيْنٌ وَلاَ جِيْدُ
أَصَخْرَةٌ أَنَا ؟ مَالِيْ لاَ تُحَرِّكُنِيْ   هَـٰذِيْ الْمُدَامُ وَلاَ هَـٰذِيْ الأَغَارِيْدُ ؟

ويقولُ [في « العُكبَرِيّ » ٣/ ٢٩٠ مِنَ الطَّويلِ] :

عَدِمْتُ فُؤَاداً لَمْ تَبِتْ فِيْهِ فَضْلَةٌ   لِغَيْرِ الثَّنَايَا الغُرِّ وَالْحِدَقِ النُّجلِ[2]

ويقولُ [في « العُكبَرِيّ » ١/ ١٩٢-١٩٣ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلِلْخَوْدِ مِنِّيْ سَاعَةٌ ثُمَّ بَيْنَنَا   فَلاَةٌ إِلَىٰ غَيْرِ اللِّقَاءِ تُجَابُ[3]
وَمَا الْعِشْقُ إِلاَّ غِرَّةٌ وَطَمَاعَةٌ   يُعَرِّضُ قَلْبٌ نَفْسَهُ فَيُصَابُ
وَغَيْرُ فُؤَادِيْ لِلْغَوَانِيْ رَمِيَّةٌ   وَغَيْرُ بَنَانِيْ لِلزُّجَاجِ رِكَابُ[4]
تَرَكْنَا لأَطْرَافِ الْقَنَا كُلَّ شَهْوَةٍ   فَلَيْسَ لَنَا إِلاَّ بِهِنَّ لِعَابُ[5]

---

(١) أخرجه عن أنس بن مالك رضي الله عنه البخاري (١٢٨٣) في (الجنائز) .
(٢) الغُرُّ : البيضُ . النجلُ : الواسعةُ .
(٣) الخودُ : الجاريةُ الناعمةُ . الفلاةُ : الأرضُ المنقطةُ البعيدةُ عنِ الماءِ . تُجابُ : تُقطعُ .
(٤) الغواني ـ جمع غانيةٍ ـ : وهيَ التي استغنت بجمالها عن الحلي . رميّةٌ : طريدةٌ .
(٥) اللعابُ : من اللعبِ .

هذه هي الشجاعة يا أبا الطيب

وأَينَ هـٰذا مِن قولِ أَخي عبْسٍ [مِنَ الكاملِ] :

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكِ وَٱلرِّمَاحُ نَوَاهِلٌ مِنِّي وَبِيضُ ٱلْهِنْدِ تَقْطُرُ مِنْ دَمِي
فَـوَدِدْتُ تَقْبِيْـلَ ٱلسُّيُـوْفِ لأَنَّهَـا لَمَعَـتْ كَبَـارِقِ ثَغْـرِكِ ٱلْمُتَبَسِّـمِ

وقولِ الآخرِ [في « البيان والتبيين » ١/ ٥٨٨ مِنَ الطَّويلِ] :

أَسِجْناً وَقَيْداً وَٱشْتِيَاقاً وَغُرْبَةً وَنَـأْيَ حَبِيْـبٍ إِنَّ ذَا لَعَظِيْـمُ
وَإِنَّ ٱمْرَأً دَامَتْ مَوَاثِيْقُ عَهْدِهِ عَلَىٰ مِثْلِ مَا قَاسَيْتُهُ لَكَـرِيْـمُ

وقولِ بعضِ الصوفيَّةِ [مِنَ الكاملِ] :

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكِ ـ وَٱلَّذِيْ أَنَا عَبْدُهُ ـ وَٱلسَّيْفُ عِنْدَ ذُؤَابَتِيْ مَسْلُوْلُ

وقولِ الآخرِ [وهو صفيُّ الدين الحليُّ في « ديوانه » ٤٨٤ مِنَ الطَّويلِ] :

ذَكَرتُكِ وَٱلْخَطِّيُّ يَخْطُرُ بَيْنَنَا وَقَدْ نَهِلَتْ مِنِّيْ ٱلْمُثَقَّفَةُ ٱلسُّمْرُ
فَـوَٱللهِ مَـا أَدْرِيْ وَإِنِّـيْ لَصَـادِقٌ بِنَا فَتَكَتْ تِلْكَ ٱلرِّمَاحُ أَمِ ٱلسِّحْرُ

وقالَ الشريفُ البياضيُّ [مِنَ الكاملِ] :

وَلَقَد ذَكَرْتُكِ فِيْ ٱلسَّفِيْنَةِ وَٱلرَّدَىٰ مُتَـوَقَّـعٌ بِتَـلاَطُـمِ ٱلأَمْـوَاجِ
وَٱلْجَرُّ يَهْطُلُ وَٱلرِّيَاحُ عَوَاصِفٌ وَٱللَّيْلُ مُسْوَدُّ ٱلذَّوَائِبِ دَاجِيْ(١)
وَعَلَتْ لأَصْحَابِ ٱلسَّفِيْنَةِ ضَجَّةٌ وَأَنَـا وَذِكْـرُكِ فِـيْ أَلَـذِّ تَنَـاجِيْ

وقالَ غيرُهُ [مِنَ الكاملِ] :

وَلَقَـدْ ذَكَـرْتُـكِ وَٱلسُّيُـوْفُ لَـوَامِـعٌ وَٱلْمَوْتُ يُرْقِبُ تَحْتَ حِضْنِ ٱلْمُرْقَبِ
وَٱلْمَوْتُ يَلْمَعُ بِٱلنُّفُوْسِ وَخَاطِرِيْ يَلْهُـوْ بِطَيِّـبِ ذِكْـرِكِ ٱلْمُسْتَعْـذَبِ

---

(١) الجرُّ : السيل ، وهو هنا مجاز عن شدَّةِ المطرِ .

وقولُ الصفيِّ الحلِّيِّ [في « ديوانه » ٣٤٤ مِنَ الكاملِ] :

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكِ وَٱلْعَجَاجُ كَأَنَّهُ مَطْلُ ٱلْغَنِيِّ وَسُوْءُ عَيْشِ ٱلْمُعْسِرِ[(١)]
فَظَنَنْتُ أَنِّيْ فِيْ صَبَاحٍ مُسْفِرٍ بِضِيَاءِ وَجْهِكِ أَوْ مَسَاءٍ مُقْمِرِ
وَتَعَطَّرَتْ أَرْضُ ٱلْكِفَاحِ كَأَنَّمَا فُتِقَتْ لَنَا أَرْضُ ٱلْجِلَادِ بِعَنْبَرِ

ومرَّ ما يناسبُهُ عن الطغرائيِّ ، في شرحِ قولِهِ [في « العُكبَريِّ » ١/ ٣١٧ مِنَ الخفيفِ] :

هَـٰذِهِ مُهْجَتِـي لَـدَيْـكِ لِحَيْنِـي فَٱنْقُصِيْ مِنْ عَذَابِهَا أَوْ فَزِيْدِيْ[(٢)]

ويقولُ الناظمُ أيضاً فيما نحنُ فيهِ [في « العُكبَريِّ » ١/ ٣٧٥ مِنَ الطَّويلِ] : المتنبي صاحب أحوال متقلبة

بِقَلْبِيْ ـ وَإِنْ لَمْ أَرْوَ مِنْهَا ـ مَلَالَةٌ وَبِيْ عَنْ غَوَانِيْهَا وَإِنْ وَصَلَتْ صَدُّ

ويقولُ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٣٥٠ مِنَ الطَّويلِ] :

أَطَعْتُ ٱلْغَوَانِيْ قَبْلَ مَطْمَحِ نَاظِرِيْ إِلَىٰ مَنْظَرٍ يَصْغُرْنَ عَنْهُ وَيَعْظُمُ[(٣)]

وما ذلكَ المنظرُ الذي يطمَحُ إليهِ ناظرُهُ ، غيرَ المالِ ، الذي شُغِفَ بذكرِهِ ، وغطَّىٰ هواهُ علىٰ بصرِهِ ، وأطالَ قيامَهُ وسعيَهُ مِن أجلِهِ ، كما قالَ [في « العُكبَريِّ » ١/ ٣٢٠ مِنَ الخفيفِ] :

ضَاقَ صَدْرِيْ وَطَالَ فِيْ طَلَبِ ٱلرِّزْ قِ قِيَـامِـيْ وَقَـلَّ عَنْـهُ قُعُـوْدِيْ

وقالَ [في « العُكبَريِّ » ١/ ١٢٤ مِنَ الكاملِ] :

أَظْمَتْنِـيَ ٱلـدُّنْيَـا فَلَمَّـا جِئْتُهَـا مُسْتَسْقِياً مَطَرَتْ عَلَيَّ مَصَائِبَا

---

(١) العجاجُ : الغبارُ . والمرادُ : أرضُ المعركةِ .
(٢) الحَينُ : الهلاكُ والموت .
(٣) طمحَ : إذا أبعدَ النظر ببصرِهِ .

وقالَ [في «العُكبَريّ» ١/ ١٢٠ مِنَ البسيطِ] :

فَجِئْتُ نَحْوَكَ لاَ أَلْوِيْ عَلَىٰ أَحَدٍ أَحُـثُّ رَاحِلَتَـيَّ ٱلْفَقْـرَ وَٱلأَدَبَـا

وقالَ [في «العُكبَريّ» ٤/ ١١١ مِنَ الطَّويلِ] :

فَمَا لِيْ وَلِلدُّنْيَا طِلاَبِيْ نُجُوْمُهَا وَمَسْعَايَ مِنْهَا فِيْ شُدُوْقِ ٱلأَرَاقِمِ[1]

فأَينَ ذلكَ المنظرُ الذي عظَّمَ مِن شأنِهِ ، وقصَّرَ بمجامعِ أهواءِ القلوبِ من أَجلِهِ ، من قولِ لسانِ الدينِ ٱبنِ الخطيبِ [مِنَ الطَّويلِ] :

جَزَىٰ ٱللهُ عَنِّيْ زَاجِرَ ٱلشَّيْبِ خَيْرَ مَا جَزَىٰ نَاصِحاً فَازَتْ يَدَاهُ بِخَيْرِهِ
سَلَكْتُ طَرِيْقَ ٱلْحُبِّ حَتَّىٰ إِذَا ٱنْتَهَىٰ تَعَوَّضْتُ حُبَّ ٱللهِ عَنْ حُبِّ غَيْرِهِ

أَمَا لقد أَخطأَ الناظِمُ من جهاتٍ ، نعدُّ مِنها ولا نعدِّدُها :

مِنها : تشبيهُهُ نفسَهُ بالحَجَرِ ، كماسمعْتَ مِن بعضِ أَبياتِهِ التي سُقْناها ، بجامعِ البراءَةِ مِنَ العشقِ في زعمِهِ ، وذلكَ عينُ الغلَطِ ؛ لأَنَّ لسائِرِ المنطَرقاتِ أَحجاراً ، تجذبُها إِليها المشاكلَةُ بينَهما في بعضِ الأَجزاءِ ، وإِنَّما ٱشتَهر المغناطيسُ والحديدُ ؛ لأَنَّهُ في الحجَرِ كعروةَ بنِ حزامٍ في البشَرِ .

ومِنها : توهُّمُهُ براءَةَ قلبِهِ مِنَ العِشقِ ، وهُوَ غلطٌ أَيضاً ؛ إِذ لا يتصوَّرُ خُلوُّ قلبٍ أَبداً مِن الهوىٰ ، وإِنَّما ٱنصرَفَ هواهُ إِلىٰ ما لا طائِلَ تحتَهُ ، ولا خيرَ فيهِ ، وهوَ مجرَّدُ المالِ ، كما قرَّرْنا ، فهوَ إِذَنْ مِنَ العُشَّاقِ ، الذينَ أَكثرَ في مذمَّتِهم ، وبالغَ في نعيِ حالتِهم ، بمثلِ قولِهِ [في «العُكبَريّ» ٤/ ٢٣٤ مِنَ البسيطِ] :

---

(١) الأَراقمُ : نوعٌ من الحيَّاتِ .

مِمَّا أَضَرَّ بِأَهْلِ الْعِشْقِ أَنَّهُمُ هَوَوْا وَمَا عَرَفُوْا الدُّنْيَا وَلاَ فَطِنُوْا
تَفْنَىٰ عُيُوْنُهُمُ دَمْعاً وَأَنْفُسُهُمْ فِيْ إِثْرِ كُلِّ قَبِيْحٍ وَجْهُهُ حَسَنُ

بل لقد أقرَّ بأنَّ الشغفَ بالمالِ ارتفعَ بهِ عَن حدِّ العشقِ إلىٰ حدِّ الهَيَمانِ ، كما سبقَ في قولِهِ [في « العُكبريّ » ١/١٢٤] : أَظْمَتْنِي الدُّنْيَا . . . إلىٰ آخرِهِ .

وقد قالَ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « تَعِسَ عَبْدُ الدِّيْنَارِ ، تَعِسَ عَبْدُ الْخَمِيْصَةِ ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ ، وَإِذا شِيْكَ . . فَلاَ انْتَقَشَ »[١] .

فأخشىٰ أَنْ يكونَ شرُّ هٰذهِ الدعوةِ ممَّا أصابَ الناظِمَ ، أو ألمَّ بهِ ، نسألُ اللهَ العافيةَ والسلامَةَ .

وما أحسنَ قولَ يحيىٰ بنِ معاذٍ الرازيِّ : حبُّ الدينارِ رأسُ كلِّ خطيئةٍ ! ؛ فلقد جمعَ علماً كثيراً ، وأدباً غزيراً ، حتَّىٰ لقد قالَ بعضُ علماءِ (اليمَنِ) : أحسَسْتُ بمرضٍ مِن نَفسي ، فحرصْتُ علىٰ علاجِهِ ، وأيقنتُ أن لا يمكنَ ذلكَ إلاَّ بعدَ تشريحِهِ ، فلَم أزَلْ أُفَتِّشُ عَن أُصولِهِ ، حتَّىٰ وجدْتُها في كلمةِ يحيىٰ ، ثمَّ لَم أنفكَّ في البحثِ عَنِ الدَّواءِ ، حتَّىٰ وجدتُهُ في قولِهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « أَكْثِرُوْا مِنْ ذِكْرِ هَاذِمِ اللَّذَاتِ . . . »[٢] الحديثَ .

وبعدُ : فالناظِمُ يناقِضُ نفسَهُ ذاتَ المرَّاتِ ، فيما ادَّعاهُ آنفاً مِنَ

---

(١) سلف أنه أخرجه البخاري وابن ماجه .

(٢) أخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه الترمذي (٢٣٠٧) ، وابن ماجه (٤٢٥٨) في الزهد ، والنسائي في « الكبرى » (١/ ٦٠٠) ، وفي « المجتبى » (٤/ ٤) وابن حبان في « الإحسان » (٢٩٩٢) في الجنائز بإسناد حسن ، وله شواهد .

الجمودِ والتنصُّلِ مِنَ الهوىٰ ، **فيقولُ** [في « العُكبَريّ » ١/ ٤٨ مِنَ الطَّويلِ] :

وَإِنِّيْ لَمَمْنُوْعُ ٱلْمَقَاتِلِ فِيْ ٱلْوَغَىٰ ... وَإِنْ كُنْتُ مَبْذُوْلَ ٱلْمَقَاتِلِ فِيْ ٱلْحُبِّ

ويقولُ [في « العُكبَريّ » ٣/ ٣٢٧ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا أَنَا إِلاَّ عَاشِقٌ ، كُلُّ عَاشِقٍ ... أَعَـقُّ خَلِيْلَيْـهِ ٱلصَّفِيَّيْـنِ لاَئِمُـهْ

ويقولُ [في « العُكبَريّ » ٣/ ١٩٣ مِنَ الخفيفِ] :

لاَ تَلُمْنِـيْ فَـإِنَّنِـيْ أَعْشَـقُ ٱلْعُـ ... ـشَّاقِ فِيْهَـا يَـا أَعْـذَلَ ٱلْعُـذَّالِ

ويقولُ [في « العُكبَريّ » ٣/ ٢٣٤ مِنَ الكاملِ] :

حِدَقُ ٱلْحِسَانِ مِنَ ٱلْغَوَانِيْ هِجْنَ لِيْ ... يَـوْمَ ٱلْفِـرَاقِ صَبَـابَـةً وَغَلِيْـلاَ(١)

فيما لا يحصىٰ مِن تلكَ المُثُلِ في « ديوانِهِ » ، غيرَ أَنَّهُ يَظهَرُ عليهِ أَثرُ التكلُّفِ في هـٰذا ، بخلافِهِ فِي الأَوَّلِ ، مصداقُ ما قيلَ في ترجمتهِ : إِنَّهُ عِزْهَاةٌ(٢) .

ونراهُ طوراً يصفُ نفسَهُ بالقسوَةِ ؛ للإغراقِ في وصفِ الحبيبَةِ بالحسنِ ، وهوَ بينَ بينَ ، كما في **قولِهِ** [في « العُكبَريّ » ٢/ ٣٠٤ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا كُنْتُ مِمَّنْ يَدْخُلُ ٱلْعِشْقُ قَلْبَهُ ... وَلَـٰكِنَّ مَنْ يُبْصِرْ جُفُوْنَكِ يَعْشَقِ

وأَلَمَّ في هـٰذا بقولِ مسلمِ بنِ الوليدِ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَقَـدْ كَـانَ لاَ يَصْبُـوْ وَلَـٰكِـنَّ عَيْنَـهُ ... رَأَتْ مَنْظَراً يُضْنِيْ ٱلْقُلُوْبَ فِرَاقُهَا

---

(١) **الصبابةُ** : رقَّةُ الشوقِ . **الغليلُ والغُلَّةُ** : حرارة العطشِ . وفي المخطوط : وعويلا .

(٢) **العزهاةُ** : هوَ الرجُلُ الذي لا يكلِّم النساءَ ولا يريدُهُنَّ ولا يلهو .

وهاهنا بحثٌ ؛ إذ توهَّم بعضُ مَن لا رويَّةَ عندَهُ التنافرَ بينَ الشجاعةِ والمحبّةِ ، والحالُ أنَّ المحبّةَ ليسَتْ إلاَّ مِن أوثَقِ أسبابِ الشجاعَةِ ، ومازالَتِ الرُّؤَساءُ تطالِبُ أبناءَها بعشْقِ سروات البيوتِ[1] ؛ لأنَّهُ وسيلةُ الانتِباهِ مِنَ الخمولِ ، والارتِفاعِ عَنِ النزولِ ، كما في حديثِ ذي الرئاستَينِ[2] المشهورِ ، وغيرِهِ .

لا تنافر بين الشجاعة والمحبة

وقد سبقَ قولُ الأحوصِ أو غيرِهِ [مِنَ الكاملِ] :

اَلْحُبُّ شَجَّعَ قَلْبَ كُلِّ فَرُوْقَةٍ   وَالْحُبُّ حَمَّلَ عَاجِزاً فَأَطَاقَا

ويُروى : أنَّ توبةَ بنَ حُمَيِّرٍ مرَّ بجميلٍ ، فأنزلَهُ وأحسنَ خدمتَهُ ، وأسبغَ قِراهُ ، ثمَّ تداعَيا الصِّراعَ ، وكانا في موقفٍ تُشْرِفُ منهُ عَلَيهما بُثَينَةُ ، فما كانَ مِن جميلٍ ، إلاَّ أنْ صَرعَ توبَةَ علىٰ شدَّةِ أسرهِ ، ثمَّ نضلَهُ[3] ، ثمَّ قهرَهُ علىٰ ظهرِ الفرَسِ ، ولَم يكُنْ جميلٌ كُفُؤاً لتوبَةَ شجاعةً وشدَّةَ بأسٍ ، فقالَ لَهُ توبةُ : كأنَّكَ تحسبُ ذلكَ منكَ ، ولَم تدرِ أنَّهُ بريحِ تلكَ المشرفَةِ عَلَينا ، وأشارَ إلىٰ بُثَينَةَ ، ثمَّ دعاهُ إلىٰ وادٍ يخفىٰ عَنها ، وتصارَعا فيهِ ، فصرَعَهُ توبةُ مِراراً ، ولم يكُنْ شيئاً

الحب يصنع المعجزات ويقوي الجبان

---

(١) سَرَواتُ البيوتِ : اللاتي يسكُنَّ البيوتَ ولا يَخرُجنَ إلىٰ الطَّريقِ .

(٢) ذو الرياستين : هو محمد بن محمد بن محمد بن بنان ، أبو الفضل الأنباري المصري الفاضل الأثير الكاتب . ولد بالقاهرة سنة : (٥٠٧ هـ) . قدم بغداد رسولاً من صاحب اليمن سيف الإسلام طغتكين فحدث بالسيرة عن والده عن الحبال ، وبعد أن توجه إلى اليمن فوزر بها ، ثم إلى بغداد وترسل فعظم وبجل ، ثم صار إلى مصر وكان ضنك شديد بها ، وتوفي فيها سنة : (٥٩٦ هـ) .

(٣) نضلهُ : غلبهُ في رمي السهامِ .

عندَهُ ، ثمَّ مضىٰ ، وقالَ هُوَ ، أَو غيرُهُ [في « ديوان » المجنون ٢٣٠ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذا مَا ٱنْتُضِلْنَا فِيْ ٱلْخَلاَءِ نَضَلْتُهُ وَإِنْ يَرْمِ رَشْقاً عِنْدَهَا فَهُوَ نَاضِلِيْ

ولَولا الهوىٰ . . لَما جَادَتِ ٱلبِخَالُ بالأُلوفِ ، ولا تكرَّمَتِ الأَبطالُ بالنحورِ للسيوفِ ، ولـٰكنَّهم يقتحمونَ المهالِكَ ، وينغمسونَ في المعارِكِ ؛ لتُحمدَ شمائِلُهُم عندَ ربَّاتِ الحِجالِ ، وتتغنَّىٰ بأَماديحِهم أُولاتُ الغَنَجِ والدلالِ ، قالَ الأَحوصُ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَيَرْتَاحُ لِلْمَعْرُوْفِ فِيْ طَلَبِ ٱلْعُلاَ لِتُحْمَدَ يَوْماً عِنْدَ لَيْلَىٰ شَمَائِلُهْ

ثمَّ ٱنظرْ إِلىٰ نساءِ العربِ ، كيفَ تتدفَّقُ علىٰ المآزقِ ، وتترنَّمُ بأَهازيجِها في أَشدِّ المضائِقِ ، فتَسُنُّ الفاتِرَ[1] ، وتردُّ الشارِدَ ، وتهيِّجُ البطلَ المُشيحَ ، وتثيرُ الحفائِظَ ، وتغنِّيْ ما لا تغنِّيهِ الموسيقا الحربيَّةُ اليومَ .

وما ذُكرَ عَن بعضِ القرشيِّيْنَ مِن توهينِ أَمرِ العشقِ . . فإِنَّما يَعني بهِ ما ينتهي إِلىٰ الخبَلِ ، ويُفضي إِلىٰ الجنونِ ، وإِلاَّ . . فَهُم رؤُوسُ هـٰذا الشأْنِ ، وقد مرَّ ويأْتي في تضاعيفِ الكلامِ ما يدلُّ عليهِ .

أحوال سيد الوجود ﷺ مع النساء

وحسبُكَ بسيِّدِ أَهلِ السماءِ والأَرضِ ، والشافعِ والمشفَّعِ يومَ العَرْضِ ، وما ذاقَهُ مِنَ الحُزنِ علىٰ خديجَةَ حتَّىٰ قالَتْ عائشةُ : (ما غِرتُ علىٰ ٱمرأَةٍ قطُّ ما غرتُ علىٰ خديجةَ مِن كثرةِ ما يذكرُها)[2] .

---

(١) تَسُنُّ الفاتِرَ : تُقَوِّمُ وتشجِّعُ الذي ٱنهزمَ وَضَعُفَ .

(٢) أخرجه عن عائشة رضي الله عنها مسلم (٢٤٣٥) في الفضائل وفيه يقول أيضاً ﷺ : « إني قد رزقت حبها » .

وإنْ كانَ ليذبَحُ الشاةَ فيبعَثُ بِها في خَلاَئِلِها ، وتأتي العجوزُ فيتفتَّحُ لَها ، ويُنْعِمُ الإقبالَ عَليها ، ويسألُها عَن كلِّ شيءٍ مِن أَمرِها ، ويقولُ : « إِنَّهَا كَانَتْ تَأْتِينَا أَيَّامَ خدِيْجَةَ ؛ وَإِنَّ حُسْنَ ٱلْعَهْدِ مِنَ ٱلإِيْمَانِ »[١] .

وكانَ هديُهُ مَعَ أَزواجِهِ موافقتَهُ لِهواهُنَّ ما لم يكن إثماً ، وكانَ يتعمَّدُ موضعَ شربِ عائشةَ مِنَ الإناءِ[٢] ، ويحملُها لتنظُرَ إلىٰ اللُّعبِ[٣] ، ويُسابقُها ، ولمَّا سبقَها بالآخرَةِ . . قالَ لها : « هَـٰذِهِ بِتِلْكَ »[٤] ، مُذَكِّراً لَها بما سلَفَ مِن سبقِها لَهُ ، كيلا ينكسِرَ خاطِرُها ، وكانَ يدافِعُها لدىٰ البابِ ، وكانَ أَزواجُهُ يهجُرنَهُ إلىٰ الليلِ ، وقد ذكرنا في غيرِ هـٰذا المجلسِ صنيعَ حفصةَ وعائِشَةَ بالجونيَّةِ ، وتمثَّلْنا بقولِ الشاعرِ [مِنَ الوافرِ] :

وَيَقْبُحُ مِنْ سِوَاكَ ٱلْفِعْلُ عِنْدِي فَتَفْعَلُـهُ فَيَحْسُـنُ مِنْـكَ ذَاكَـا

وإنَّ عائشةَ رضي الله عنها كانَتْ تكتُبُ في إِمضائِها : من حبيبَةِ رسولِ اللهِ ، المبرَّأَةِ في كتابِ اللهِ ، عائِشَةَ بنتِ أَبي بكرٍ .

---

(١) أخرجه عن عائشة رضي الله عنها الحاكم في « المستدرك » (١/ ٦٢) ، وأورده الهندي في « كنز العمال » (٣٤٣٤٤) ونسبه إليه .

(٢) أخرجه عن عائشة المبرأة رضي الله عنها ابن ماجه (٦٤٣) في الطهارة وفيه : (فيضع فمه حيث كان فمي وأنا حائض) .

(٣) أخرجه عن عائشة رضي الله عنها البخاري (٥٢٣٦) في النكاح ، ومسلم (٨٩٢) ، والنسائي (٣/ ١٩٥) وغيرهم .

(٤) أورده عن عائشة رضي الله عنها في « كنز العمال » (٤٠٦١٤) ونسبه إلى أحمد وأبي داوود .

فيا لَه مِن إمضاءٍ تهتزُّ لَهُ النفوسُ ، وتقِفُّ[1] الشعورُ ، وتتندَّىٰ الخدودُ ، ويكادُ يذوبُ منهُ الجلمودُ .

الحب في ساحة الوغى

وقالَ خالدُ بنُ يزيدَ ـ وقد بنىٰ برملَةَ ٱبنةِ الزبيرِ ، والسيوفُ تسيلُ دماً ، والأَسِنَّةُ تقاطَر مُهَجاً [كما في « الأغاني » ١٧/ ٣٤٠ مِنَ الطَّويلِ] ـ :

أُحِبُّ بَنِيْ ٱلْعَوَّامِ طُرّاً لِحُبِّهَا ... وَمِنْ أَجْلِهَا أَحْبَبْتُ أَخْوالَهَا كَلْبَا

تَجُوْلُ خلاَخِيْلُ ٱلنِّسَاءِ وَلاَ أَرَىٰ ... لِرَمْلَةَ خَلْخَالاً يَجُوْلُ وَلاَ قُلْبَا

وقالَ عليُّ بنُ محمَّدٍ العلويُّ أَو غيرُهُ [مِنَ الخفيفِ] :

نَحْنُ قَوْمٌ تُذِيْبُنَاالأَعْيُنُ ٱلنُّجْـ ... ـلُ عَلَىٰ أَنَّنَا نُذِيبُ ٱلْحَدِيْدَا

وَتَـرَانَـا لَـدَىٰ ٱلْكَـرِيْهَـةِ أَحْـرَا ... راً وَفِيْ ٱلسِّلْمِ لِلْغَوَانِيْ عَبِيْدَا

وهوَ مثلُ قولِ العطويِّ [مِنْ مجزوءِ الوافرِ] :

أَخَـــافُ ٱلـــرِّيْـــمَ أَرْمُقُـــهُ ... وَأَضْـرِبُ هَـــامَـــةَ ٱلأَسَـــدِ

وَيَجْـــرَحُنِـــيْ بِمُقْلَتِـــهِ ... وَيَنْبُـوْ ٱلسَّيْـفُ عَـنْ جَسَـدِيْ

وقالَ محمَّدُ بنُ صالحِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ موسىٰ الجونِ العلويُّ ، وهُوَ في السجنِ [مِنَ الكاملِ] :

وَبَدَا لَهُ مِنْ بَعْدِ مَا ٱنْدَمَلَ ٱلْهَوَىٰ ... بَـرْقٌ تَـأَلَّـقَ مَـوْهِنـاً لَمَعَـانُـهُ

يَبْـدُوْ كَحَـاشِيَـةِ ٱلـرِّدَاءِ وَدُوْنَـهُ ... صَعْبُ ٱلذُّرَىٰ مُتَمَنِّعاً أَرْكَانُهُ

فَمَضَىٰ لِيَنْظُرَ أَيْنَ لاَحَ فَلَمْ يُطِقْ ... نَظَـراً إِلَيْـهِ وَصَـدَّهُ سَجَّـانُـهُ

فَٱلنَّارُ مَا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ ضُلُوْعُهُ ... وَٱلْمَاءُ مَا سَمَحَتْ بِهِ أَجْفَانُهُ

(١) يقفُّ : قام من الفزع .

حمدونية بنت عيسى تلجأ إلى محمد بن صالح العلوي

وكانَ مِن حديث الأبياتِ : أنَّهُ خرجَ علىٰ المتوكِّلِ وأخذَ قافلةَ الحجيجِ ، قالَ : فَبينا أصحابي يجمعونَ الأموالَ ، وأنا علىٰ كرسيٍّ . . إذا بأمرأةٍ رفعَتْ سِجَافَ هودَجٍ ، فأضاءَ مِنها المكانُ ، ولا إِضاءتُهُ بالشمسِ ، فقالَتْ : أينَ الشريفُ صاحبُ الكتيبةِ ؟ فإنَّ لي إليهِ حاجَةً ، قلْتُ : هُوَ يسمعُ كلامَكِ ، قالَتْ : أنا حمدونيَّةُ بنتُ عيسىٰ بنِ موسىٰ ، تعلَمُ مكانَنَا عندَ الخليفَةِ ، وأنا أسألُكَ أن تأخُذَ مِنِّي ثلاثينَ ألفَ دينارٍ ، معَ ما قد قبضتموهُ ، وأسألُكَ بفضلِكَ أن لا يكشِفَ لي أحدٌ سِتراً ، فناديْتُ أصحابي ، ولَمَّا أجتمَعوا . . قلْتُ : مَن أخذَ مِن هٰذِهِ القافلَةِ عِقالاً . . آذنتُهُ بحربٍ ، فرَدُّوا حتَّىٰ الأطعمَةَ ، وخفرتُهُم إلىٰ المأمَنِ ، فلمَّا ظفرَ بي المتوكِّلُ ، وحبَسَني بـ(سرَّ مَن رأىٰ) . . دخلَ عليَّ السجَّانُ يوماً ، فقالَ لي : إنَّ بالبابِ أمرأتينِ مِن أهلِكَ ، تريدانِ الدخولَ عليكَ ، وكانَ الخليفَةُ قَد منعَ مِنَ الدُّخولِ عليَّ ، ولٰكنَّهما أعطَتاهُ دُملُجاً مِنَ الذَّهَبِ ، فأدخلَهما ، فإذا أنا بِها معَ أمرأةٍ أُخرىٰ ، وجاريَةٍ تحملُ شيئاً ، فلمَّا بَصُرَتْ بي . . قالَتْ : إي واللهِ إنَّهُ لَهُو ، وبكَتْ لِمَا أنا فيهِ ، ثمَّ قبَّلَتْ قدَمي ، وقالَتْ : لَوِ أستطعْتُ لفديتُكَ بنَفْسي ، ولٰكنِّي لا أُقصِّرُ في خلاصِكَ ، ودونَكَ هٰذهِ النفقَةُ ، ورسولي يأتيكَ في كلِّ يومٍ بما تريدُ ، حتَّىٰ يفرِّج اللهُ عنكَ ، ودفعَتْ إليَّ خمسَ مِئَةِ دينارٍ ، وثياباً ، وطيباً ، وطعاماً ، وأنصرفَتْ ، وقد أضرمَت بقلبيَ ناراً ، أورثَتْها النظرَةُ الأُولىٰ ، فقلْتُ : الأبياتَ . . . أعني السابقَةَ ، ولَم يزلْ رسولُها يعاودُني بالإحسانِ ، وملاطَفَةِ السجَّانِ ، إلىٰ أنْ خرجْتُ ، وعظُمَ شأني عندَ الخليفَةِ ، فخطبتُها ، فأمتنَعَ أبوها ، فكانَ لي سجنُ هَواها أعظمَ مِنَ السِّجْنِ السابقِ ، فلمْ أرَ إلاَّ أنْ أتيتُ إبراهيمَ بنَ

المقتدرِ ، فأَخبرتُهُ بذلكَ ، وكانَ أَبوها صنيعتَهُ ، فركِبَ إِليهِ ، ولم يفارقْهُ حتَّىٰ عقدَ لي بِها ، ولابنِ صالحِ فيها عدَّةُ قصائِدَ ، وفي ٱبنِ المقتَدِرِ عدَّةُ مدائِحَ ، ولهـٰذهِ الأَبياتِ قصَّةٌ أُخرىٰ ، كَما لِبَيْتَيْ عليِّ بنِ محمَّدٍ حديثٌ ممتِعٌ ، غيرَ أَنَّا لا نُطيلُ بِهما ، وربَّما تأْتي لَهما فرصةٌ أُخرىٰ ، وما كانَ أَحقَّ ٱبنِ الجونِ بقولِ أَبي فراسٍ [في « ديوانهِ » ١٤٤ مِنَ الطَّويلِ] :

وَيَا رُبَّ دَارٍ لَمْ تُخِفْنِيْ مَنِيْعَةٍ ... طَلَعْتُ عَلَيْهَا بِٱلرَّدَىٰ أَنَا وَٱلْفَجْرُ
وَسَاحِبَةِ ٱلأَذْيَالِ نَحْوِيْ لَقِيْتُهَا ... فَلَمْ يَلْقَهَا جَافِيْ ٱلْجَنَابِ وَلاَ وَعْرُ
وَهَبْتُ لَهَا مَا حَازَهُ ٱلْجَيْشُ كُلَّهُ ... وَرُحْتُ وَلَمْ يُكْشَفْ لأَبْيَاتِهَا سِتْرُ

بل ما أَرىٰ الحمدانيَّ إِلاَّ ناظراً إِلىٰ هـٰذهِ القصَّةِ .

* * *

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ٣٣٣ مِنَ الكاملِ] :

وَعَذَرْتُهُمْ وَعَرَفْتُ ذَنْبِيَ أَنَّنِيْ عَيَّـرْتُهُـمْ فَلَقِيْتُ فِيْـهِ مَـا لَقُـوْا

يقولُ : إِنَّهُ عذرَ العُشَّاقَ لمَّا ذاقَ ما ذاقوهُ مِنَ الامْتِحانِ ، وجهدِ من عيّب.. ابتلي
البلاءِ ، وعرفَ أَنَّ ذنبَهُ الذي أَوقعَهُ في العشقِ هُوَ تعييرُهُ إِيَّاهُم ، فكانَ جزاءُ ذلكَ أَنِ ٱبتلاهُ اللهُ بِما ٱبتلاهُم ، وقد أَخرجَ الترمذيُّ وحسَّنَهُ : « لاَ تُظْهِرِ ٱلشَّمَاتَةَ بِأَخِيْكَ ، فَيَرْحَمُهُ ٱللهُ وَيَبْتَلِيْكَ »[1] .

وأَخرجَ السيوطيُّ في « جامعِهِ » مرفوعاً : « ٱلْبَلاَءُ مُوَكَّلٌ بِـالْمَنْطِـقِ »[2] ، « فَلَـوْ أَنَّ رَجُـلاً عَيَّـرَ رَجُـلاً بِـرَضَـاعِ كَلْبَـةٍ . . لَرَضَعَهَا »[3] .

ويؤثَرُ عَنِ ٱبنِ الخطَّابِ أَنَّهُ كانَ يقولُ : لَو عيَّرتُ ٱمرأَةً بالحَبَلِ . . لَخشيتُ أَنْ أَحبَلَ .

ويمكنُ أَنْ يدخلَ تحتَ قولِهِ جلَّ ذكرُهُ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ ﴾ [الحجرات : ١١] .

---

(١) أخرجه عن واثلة رضي الله عنه الترمذي (٢٥٠٨) وقال : حسن غريب .

(٢) أخرج عن حذيفة رضي الله عنه شطره القضاعي كما في « كنز العمال » (٧٨٤٥) ، وذكره العجلوني عن جماعة في « كشف الخفاء » (٩٢٦) مع جميع شواهده ، فأفاد وأجاد .

(٣) أخرجه عن ابن مسعود رضي الله عنه بتمامه الخطيب في « تاريخ بغداد » كما في « كنز العمال » (٧٨٦٧) .

وقولِهِ تقدَّسَتْ أسماؤُهُ : ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الأنعام : ١٠] .

وقولِهِ تباركَ ثناؤُهُ : ﴿ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ * عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ * هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ [المطففين : ٣٤ـ٣٦]

وقالَ ٱبنُ مَطيرٍ [في « ديوانه » ٥٣ مِنَ الطَّويلِ] :

أُحِبُّكَ حُبّاً لَنْ أُعَنِّفَ بَعْدَهُ مُحِبّاً وَلَـٰكِنِّي إِذَا لِيمَ عَاذِرُهْ

وقالَ عليُّ بنُ الجهمِ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَقَدْ كُنْتُ بِٱلْعُشَّاقِ أَهْزَأُ مَرَّةً فَهَا أَنَا لِلْعُشَّاقِ أَصْبَحْتُ بَاكِيَا

وقالَ أَبو الشيصِ [مِنَ الوافرِ] :

وَكُنْتُ إِذا رَأَيْتُ فَتىً يُبَكِّي عَلَىٰ شَجَنٍ هَزَأْتُ إِذا خَلَوْتُ
وَأَحسِبُنِي أَدَالَ ٱللهُ مِنِّي فَصِرْتُ إِذا بَصُرْتُ بِهِ بَكَيْتُ[1]

وقالَ الأَضبطُ بنُ قريعٍ [مِنَ الخفيفِ] :

لاَ تُهِينَ ٱلْفَقِيرَ عَلَّكَ أَنْ تَرْ كَعَ يَوْماً وَٱلدَّهْرُ قَدْ رَفَعَهْ

وقالَ عليُّ بنُ عبدِ اللهِ بنِ جعفرِ بنِ إبراهيمَ بنِ محمَّدِ بنِ عليِّ بنِ عبدِ اللهِ بنِ جعفرِ ٱبنِ أَبي طالبٍ ، رضوانُ اللهِ عليهِم [في « صبح الأعشىٰ » ٢/ ٣٣٠ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَمَّا بَدَا لِيْ أَنَّهَا لاَ تُحِبُّنِي وَأَنَّ هَوَاهَا لَيْسَ عَنِّيْ بِمُنْجَلِيْ
تَمَنَّيْتُ أَنْ تَهْوَىٰ سِوَايَ لَعَلَّهَا تَذُوقُ صَبَابَاتِ ٱلْهَوَىٰ فَتَرِقَّ لِيْ

---

(١) أدالَ : قَلَبَ عليَّ الزمانَ .

فَمَا كَانَ إِلاَّ عَنْ قَلِيْلٍ وَأُشْغِفَتْ بِحَبِّ غَزَالٍ أَدْعَجِ ٱلطَّرْفِ أَكْحَلِ
وَعَـذَّبَهَـا حَتَّـىٰ أَذَابَ فُـؤَادَهَـا وَجَرَّعَهَا مُرَّ ٱلْهَوَىٰ وَٱلتَّذَلُّلِ
فَقُلْتُ لَهَا : هَـٰذَا بِذَاكَ فَأَطْرَقَتْ حَيَاءً وَقَالَتْ: كُلُّ مَنْ عَايَبَ ٱبْتُلِيْ

وفي الأَبياتِ مِنَ التديُّثِ والسخافةِ ، وقلَّةِ الغَيرَةِ ، وهتكِ السترِ ، ما لا غايةَ بعدَهُ ، فهُوَ أَقبحُ مِن قولِ جميلٍ [في « البيان والتبيين » ١/ ٥٦٣ مِنَ الطَّويلِ] : يجب أن تكون غيوراً

أَهِيْمُ بِدَعْدٍ مَا حَيِيْتُ وَإِنْ أَمُتْ فَيَا لَيْتَ شِعْرِيْ مَنْ يَهِيْمُ بِهَا بَعْدِيْ

وقولِ الفرزدَقِ [في « ديوانهِ » ١/ ٢١١-٢١٢ مِنَ الطَّويلِ] :

هُمَـا دَلَّتَـانِـيْ مِـن ثَمَـانِيْـنَ قَـامَـةً كَمَا ٱنْقَضَّ بَازٍ أَكْتَمُ ٱلرِّيْشِ كَاسِرُهْ
فَلَمَّا ٱسْتَوَتْ رِجْلاَيَ فِيْ ٱلأَرْضِ قَالَتَا: أَحَـيٌّ فَيُـرْجَـىٰ أَمْ قَتِيْـلٌ نُحَـاذِرُهْ ؟
فَقُلْتُ: ٱرْفَعُوْا ٱلأَسْبَابَ لاَ يَشْعُرُوْا بِنَا وَأَسْـرَعْـتُ فِـيْ أَطْـرَافِ لَيْـلٍ أُبَـادِرُهْ
مَخَـافَـةَ بَـوَّابَيْـنِ أَنْ يَشْعُـرَا بِنَـا وَأَحْمَرَ مِنْ سَاجٍ تَصِرُّ مَسَامِرُهْ(١)

وقولِ عبدِ المحسنِ الصوريِّ [في « قرى الضيف » ١/ ٣٦٦ مِنَ الطَّويلِ] :

تَعَلَّقْتُهُ سَكْرَانَ مِنْ خَمْرَةِ ٱلصِّبَا بِهِ غَفْلَةٌ عَنْ لَوْعَتِيْ وَنَحِيْبِيْ
وَشَارَكَنِيْ فِيْ حُبِّهِ كُلُّ مَاجِدٍ يُشَارِكُنِيْ فِيْ مُهْجَتِيْ بِنَصِيْبِ
فَلاَ تُلْزِمُوْنِيْ غَيْرَةً مَا أَلِفْتُهَا فَـإِنَّ حَبِيْبِـيْ مَـنْ أَحَـبَّ حَبِيْبِـيْ

وقولِ الناظمِ [في « العُكبَريّ » ٤/ ٥٥ مِنَ الطَّويلِ] :

أَذَاقَ ٱلْغَـوَانِـيْ حُسْنُـهُ مَـا أَذَقْنَنِـيْ وَعَفَّ فَجَازَاهُنَّ عَنِّيْ عَلَىٰ ٱلصَّرْمِ(٢)

---

(١) أحمر من ساجٍ : أي بابٌ من خشبِ الساجِ .
(٢) الصَّرمُ : الانقطاعُ .

فإنَّهُ كالصريحِ ، في أَنَّ حبائِبَهُ لَولا عفافُ الممدوحِ . . لهتكْنَ الأَعراضَ ، وكأَنَّهُ ٱستحسَنَ كلامَ عليٍّ ، فأَحَبَّ أَن لا يخلُوَ ديوانُهُ عَن مثلِهِ ، وقد بالغَ ٱبنُ الجعبريِّ في الردِّ علىٰ عليِّ بنِ عبدِ اللهِ إِذ قالَ [في « المثل السائر » ٢/٣٥٩ مِنَ الخفيفِ] :

وَلَقَـدْ سَـرَّنِـيْ صُـدُوْدُكِ عَنِّـيْ فِيْ طِلاَبِيْكِ وَٱمْتِنَاعُكِ مِنِّيْ
حَـذِراً أَنْ أَكُـوْنَ مِفْتَـاحَ غَيْـرِيْ وَإِذَا مَـا خَلَـوْتِ كُنْـتِ ٱلتَّمَنِّـيْ

وقالَ ٱبنُ مطروحٍ [في « المستطرف » ٢/٤٠١ مِنَ الوافرِ] :

فلَوْ أَضْحَىٰ عَلَىٰ تَلَفِيْ مُصِرّاً لَقُلْـتُ : مُعَـذِّبِـيْ بِـٱللهِ زِدْنِـيْ
وَلاَ تَسْمَحْ بِوَصْلِكَ لِيْ فَإِنِّيْ أَغَارُ عَلَيْكَ مِنْكَ فَكَيْفَ مِنِّيْ ؟!

وهوَ مِن قولِ البُحتريِّ [مِنَ الكاملِ] :

إِنِّـيْ لأَحْسُـدُ نَـاظِـرَيَّ عَلَيْكَـا حَتَّـىٰ أَغُـضَّ إِذَا نَظَـرْتُ إِلَيْكَـا
وَأَرَاكَ تَخْطُرُ فِيْ شَمَائِلِكَ ٱلَّتِيْ هِيَ فِتْنَتِيْ فَأَغَارُ مِنْكَ عَلَيْكَا
وَلَوِ ٱسْتَطَعْتُ مَنَعْتُ لَفْظَكَ غَيْرَةً كَـيْ لاَ أَرَاهُ مُقَبِّـلاً شَفَتَيْكَـا
خَلُصَ ٱلْهَوَىٰ لَكَ وَٱصْطَفَتْكَ مَوَدَّتِيْ حَتَّـىٰ أَغَـارُ عَلَيْـكَ مِـنْ مَلَكَيْكَـا

وفيهِ غلوٌّ لا يقبل ، إِنَّما المقبولُ ما كانَ مِن مثلِ قولِ كُشاجمٍ [في « ديوانهِ » ٦٨ مِنَ الوافرِ] :

وَعَـذَّبَنِـيْ قَضِيْـبٌ فِـيْ كَثِيْـبٍ تَشَـارَكَ فِيْـهِ لِيْـنٌ وَٱنْـدِمَـاجُ
أَغَـارُ إِذَا دَنَـتْ مِـنْ فِيْـهِ كَـأْسٌ عَلَـىٰ دُرٍّ يُقَبِّلُـهُ زُجَـاجُ

وقدِ ٱستحسنهُ الناظمُ فنقلَهُ إِلىٰ غيرِ موضعِهِ ، ولم يقعْ إِلاَّ في سوءِ الأَدَبِ ، إِذ جاءَ في ممدوحِهِ بِما لا يحتمَلُ إِلاَّ في ربَّاتِ

الخدورِ ، حيثُ قالَ [في « العُكبَريّ » ٤/ ١٩٣ مِنَ الوافرِ] :

أَغَارُ مِنَ ٱلزُّجَاجَةِ حِيْنَ تَجْرِيْ عَلَىٰ شَفَةِ ٱلأَمِيْرِ أَبِيْ حُسَيْنِ

وما أَحسنَ قولَ كثيِّرٍ [في « ديوانهِ » ١٠١ـ١٠٢ مِنَ الطَّويلِ] :

أَسِيْئِيْ بِنَا أَوْ أَحْسِنِيْ لاَ مَلُوْمَةٌ لَـدَيْنَـا وَلاَ مَقْلِيَّـةٌ إِنْ تَقَلَّـتِ

وَإِنِّي وَإِنْ صَدَّتْ لَمُثْنٍ وَصَادِقٌ عَلَيْهَا بِمَا كَانَتْ إِلَيْنَا أَزَلَّتِ[١]

وَمَا أَنَا بِٱلدَّاعِيْ لِعَزَّةَ بِٱلْجَوَىٰ وَلاَ شَامِتٌ إِنْ نَعْلُ عَزَّةَ زَلَّتِ

وقولَ ديكِ الجنِّ ، وقد ذكرناهُ في غيرِ هـٰذا المجلسِ [في « ديوانه » ١٨٨ مِنَ البسيطِ] :

كَيْفَ ٱلدُّعَاءُ عَلَىٰ مَنْ جَارَ أَوْ ظَلَمَا وَمَالِكِيْ ظَالِمٌ فِيْ كُلِّ مَا حَكَمَا ؟

لاَ آخَـذَ ٱللهُ مَـنْ أَهْـوَىٰ بِجَفْـوَتِـهِ عَنِّيْ وَلاَ ٱقْتَصَّ لِيْ مِنْهُ وَلاَ ٱنْتَقَمَا

ذو النون المصري والفتيات الطائفات

ويروىٰ عَن ذي النونِ المصريِّ أنَّهُ قالَ : رأَيتُ فتاةً علىٰ غايةٍ مِنَ الجمالِ ، متعلِّقةً بأَستارِ البيتِ ، تقولُ[٢] :

أَمَـا لِفَتَـاةٍ بَـاعَـدَ ٱلْهَجْـرُ بَيْنَهَـا وَبَيْنَ ٱلَّذِيْ تَهْوَاهُ يَا رَبِّ مِنْ وَصْلِ

حَجَجْتُ وَلَمْ أَحْجُجْ لِسُوْءِ عَمِلْتُهُ وَلَـٰكِنْ لِتُعْدِيْنِيْ عَلَىٰ قَاطِعِ ٱلْحَبْلِ

ذَهَبْتُ بِعَقْلِـيْ فِـيْ هَـوَاهُ صَغِيْـرَةً فَرُدَّ بِطِيْبِ ٱلْوَصْلِ مَا ضَاعَ مِنْ عَقْلِيْ

وَإِلاَّ فَسَـاوِ ٱلْحُـبَّ بَيْنِـيْ وَبَيْنَـهُ فَإِنَّكَ يَا مَوْلاَيَ تُوْصَفُ بِٱلْعَدْلِ

قالَ : فصحتُ بِها ، فقالَتْ : إِليكَ عنِّي ، فلَو علمْتَ ما بي ، وَبينا أَنا أُراجِعُها الكلامَ ، وأَرميها بالملامِ . . إِذ جاءَتْ أُخرىٰ ،

---

(١) أَزَلَّت إِليهِ نعمةً : أَسدَتْها .

(٢) الأبيات من الطويل، وهي للمجنون في «ديوانه» (٢٣٢) .

وقالَتْ : لَشأْني أَغربُ ، وقولِي أَعجَبُ ، وأَنشأَتْ تقولُ [مِنَ الطَّويلِ] :

صَبرْتُ وَكَانَ ٱلصَّبْرُ خيْرَ مَغبَّةٍ   وهَلْ جَزَعٌ يُجْدِيْ عَلَيَّ فَأَجْزَعُ ؟

صَبرْتُ عَلَىٰ مَا لَوْ تُحَمَّلُ بَعْضُهُ   جِبَالُ شَرُوْرَىٰ أَوْشَكَتْ تَتَصَدَّعُ[1]

اعتراض المؤلف على نفسه

وبعدُ : فللأَديبِ أَن يعترضَ قولي : إِنَّ أَبياتَ عليٍّ بنِ عبدِ اللهِ ، أَقبحُ مِن أَبياتِ عبدِ المحسنِ الصوريِّ ، ولا سبيلَ غيرُ الاعترافِ ؛ لأَنَّ الأَوَّلَ لم يرضَ بالاشتراكِ إِلاَّ بعدَ يأْسِهِ ، ونفضِ يدِهِ مِن محبوبِهِ ، بخلافِ الثاني ، فهُوَ في التديُّثِ أَظهرُ ، وفي الخساسَةِ أَدخَلُ .

الغيرة والأنفة العربية

وللهِ درُّ أَبي ذُؤَيبٍ في قولِهِ [في « الأغاني » ٦/ ٢٨٨ مِنَ الطَّويلِ] :

تُـريْـدِيْـنَ كَيْمَـا تَجْمَعِيْنِـيْ وَخَـالِـداً   وَهَلْ يُجْمَعُ ٱلسَّيْفَانِ وَيْحَكِ فِيْ غِمْدِ ؟!

وقالَ ٱمرؤُ القيسِ [في « ديوانه » ١٦٩ مِنَ الكاملِ] :

إِنِّــيْ بِحَبْلِــكِ وَاصِــلٌ حَبْلِــيْ   وَبِـرِيْـشِ نَبْلِـكِ رَائِشٌ نَبْلِـيْ[2]

مَا لَمْ أَجِدْكِ عَلَىٰ هُدَىٰ أَثَرٍ   يَقْـرُوْ مِقَصَّـكِ قَـائِـفٌ قَبْلِـيْ[3]

---

(١) شَرُوْرَىٰ : واد بالشام ، محاط بسلسلة جبلية ، قال الشاعر :
سَقَوْنِيْ وَقَالُوْا لاَ تُغَنِّيْ وَلَوْ سَقَوْا   جِبَالَ شَرُوْرَىٰ مَا سُقِيْتُ لَغَنَّتِ
وقال ياقوت الحموي في «معجم البلدان» (٣/ ٣٣٩) : هو جبل مطل على تبوك في شرقيها .

(٢) ريشُ النبلِ : ما يوضعُ في جانبي السهمِ من الريشِ ، وهوَ هنا كنايةٌ عن مجاراتها فيما لا يمسُّ الكرامة .

(٣) يقروْ مقصَّكِ : يستقري أثركِ . قائفٌ : الذي يقصُّ الأثرَ ويتتبَّعُهُ . قبلي : أي أنَّه يريدها لنفسِه دون غيرِه ، وأنَّه يَرجو ألاَّ تكونَ قد نالَ حبَّها أحدٌ قبلهُ .

أبيات جميلة في الحب

وذَكَرْتُ هُنا أَبياتاً لِعُروَةَ بنِ أُذينَةَ ، لا تتَّصِلُ بالموضوعِ إلاَّ من حيثُ الاشتراكُ في الحبِّ الذي تمنَّتْهُ المرأَةُ في حديثِ ذِي النونِ ، ولا بأسَ بإيرادِها ؛ لرقَّتِها وعذوبتِها ، وهيَ [في «ديوانِهِ» ٧٠ مِنَ الكاملِ] :

إنَّ ٱلَّتِي زَعَمَتْ فُؤَادَكَ مَلَّهَا ... خُلِقَتْ هَوَاكَ كَمَا خُلِقْتَ هَوىً لَهَا
فَبِكَ ٱلَّذِي زَعَمَتْ بِهَا فَكِلاَكُمَا ... أَبْدَىٰ لِصَاحِبِهِ ٱلصَّبَابَةَ كُلَّهَا
حَتَّامَ تَكْتُمُ فِيْ ٱلْحَشَا مِنْ حُبِّهَا ... وَجْداً لَوَ ٱصْبَحَ فَوْقَهَا لأَظَلَّهَا
وَيَبِيتُ تَحتَ جَوَانِحِيْ حُبٌّ لَهَا ... لَوْ كَانَ فَوْقَ فِرَاشِهَا لأَقَلَّهَا(١)
وَإِذَا وَجَدْتُ لَهَا وَسَاوِسَ سَلْوَةٍ ... شَفَعَ ٱلضَّمِيْرُ إِلَىٰ ٱلْفُؤَادِ فَسَلَّهَا
بيْضَاءُ بَاكَرَهَا ٱلنَّعِيْمُ فَصَاغَهَا ... بِلَبَاقَةٍ فَأَدَقَّهَا وَأَجَلَّهَا
لَمَّا عَرَضْتُ مُسَلِّماً فِيْ حَاجَةٍ ... أَخْشَىٰ صُعُوْبَتَهَا وَأَرْجُوْ ذُلَّهَا
مَنَعَتْ تَحِيَّتَهَا فَقُلْتُ لِصَاحِبِيْ ... مَا كَانَ أَكْثَرَهَا لَنَا وَأَقَلَّهَا
فَدَنَا وَقَالَ : لَعَلَّهَا مَعْذُوْرَةٌ ... مِنْ بَعْضِ رِقْبَتِهَا فَقُلْتُ : لَعَلَّهَا(٢)

أبو السائب المخزومي يطلب العلم

وقد أَنشدها لعبيدِ اللهِ بنِ عروَةَ بنِ الزبيرِ في منزلِهِ بـ(العقيقِ) ، قالَ عروَةُ بنُ عبيدِ اللهِ [في «الأغاني» ١٨/٣٤٠] : جاءَني أَبو السائِبِ المخزوميُّ يوماً ، وقالَ : لي إليكَ حاجَةٌ ، قلتُ : ماهيَ ؟ قالَ : أَبياتُ ٱبنِ أُذينَةَ ، فأَمرتُ بطعامٍ فأُحضِرَ ، فقالَ : لاَ واللهِ حتَّىٰ أَرويَ الأَبياتَ ، فما زلْتُ أُردِّدُها عليهِ حتَّىٰ حفِظَها ، ثمَّ وثَبَ ، فقلْتُ لَهُ :

---

(١) **الجوانحُ** : أوائل الضلوع تحت الترائب ممّا يلي الصدرَ ، كالضلوع ممّا يلي الظهرَ سميت بذلك ؛ لجنوحها على القلب . **أقلَّها** : هزّها .

(٢) **الرِّقْبَةُ** : ٱلحذرُ والخوفُ .

كما أَنتَ حتَّىٰ تأْكُلَ ، قالَ : واللهِ لا أَخلِطُ بروايتِها شيئاً غيرَها ، وقالَ : هـٰذا واللهِ الودُّ الصادِقُ ، والعهدُ الدائِمُ ، لا ما كانَ مِنَ الهُذَلِيِّ في قولِهِ [مِنَ الكاملِ] :

إِنْ كَانَ أَهْلُكِ يَمْنَعُونَكِ رَغْبَةً عَنِّيْ فَأَهْلِيَ بِيْ أَضَنُّ وَأَرْغَبُ

إِنِّي لأَرجو مِنَ اللهِ أَن يغفِرَ لابنِ أُذينَةَ بتطلُّبِهِ لحبيبتِهِ المعاذيرَ ، ثمَّ انصرَفَ ولم يتناوَلْ شيئاً .

وحرصُ أَبي السائبِ عَليها إِلىٰ هـٰذا الحدِّ ، ممَّا يمهِّدُ العذرَ لَنا في سوقِها ، معَ ضَعفِ المناسَبَةِ ، ومرَّ أَوائِلَ المجلسِ التاسع ما يشبهُ قولَ ابنِ أُذينَةَ : (لأَظَلَّهَا) ، وقولَهُ : (لأَقَلَّهَا) ، فيما جرىٰ بينَ نصرِ بنِ حجَّاجٍ ، وزوجِ مجاشِعِ بنِ مسعودٍ .

وكانَ أَبو السائبِ هـٰذا من كبارِ الصالحينَ ، إِلاَّ أَنَّهُ كانَ فَكِهاً ، خفيفَ الظلِّ ، كما هوَ الأَغلبُ علىٰ أَهلِ الحجازِ ، ولَهُ ما لا يُحصىٰ مِنَ النَّوادِرِ .

فمِمَّا يتَّصِلُ مِنها ببعضِ ما تقدَّمَ أَنَّهُ كانَ يسايرُ الحسنَ بنَ زيدٍ أَميرَ (المدينَةِ) ، فمرَّ وإِيَّاهُ بنساءٍ ، فسلَّمَ عليهِنَّ أَبُو السائِبِ ، فنهاهُ الحَسَنُ ، فلَم ينتهِ ، فتمثَّلَ الأَميرُ لتغازُلِ أَبي السائبِ بقولِهِ [في « ديوانِ المجنون » ٢٧٠ مِنَ البسيطِ] :

أَرَىٰ الإِزَارَ عَلَىٰ لَيْلَىٰ فَأَحْسُدُهُ إِنَّ الإِزَارَ عَلَىٰ مَا ضَمَّ محْسُوْدُ

فقالَ لَهُ : لِمَنْ هـٰذا ، بأَبي أَنتَ وأُمِّي ؟ قالَ : يقولُهُ قيسٌ ، فتخلَّفَ عَن مسايرتِهِ ، ثمَّ عادَ وهُوَ حاسِرُ الرأْسِ ، فقالَ لَهُ : أَينَ عمامتُكَ ؟ قالَ : تصدَّقْتُ بِها علىٰ الشيطانِ الذي أَلقىٰ بهـٰذا البيتِ علىٰ لسانِهِ .

وقد أَغارَ منصورُ النميريُّ علىٰ البيتِ الأَخيرِ مِن أَبياتِ عروةَ بنِ أُذينَةَ ، فقالَ [في « ديوانِ صريعِ الغواني » ٣٤٠ مِنَ الطَّويلِ] :

لَعَـلَّ لَهَـا عُـذْراً وَأَنْـتَ تَلُـوْمُ ... وَرُبَّ ٱمْرِىءٍ قَدْ لاَمَ وَهُوَ مَلِيْمُ

* * *

تَيَمَّمْتُ لِهْباً أَبْتَغِي الْعِلْمَ عِنْدَهُمْ ... وَقَدْ رُدَّ عِلْمُ الْعَائِفِيْنَ إِلَىٰ لِهْبِ[1]
فَقُلْتُ لَهُمْ : مَاذَا تَرَوْا فِيْ سَوَانِحٍ ... وَصَوْتِ غُرَابٍ يَفْحَصُ الْوَجْهَ بِالتُّرْبِ؟[2]
فَقَالُوْا : جَرَىٰ الظَّبْيُ السَّنِيْحُ بِبَيْنِهَا ... وَنَادَىٰ غُرَابٌ بِالْفِرَاقِ وَبِالسَّلْبِ[3]
فَإِلاَّ تَكُنْ مَاتَتْ فَقَدْ حَالَ دُونَهَا ... خِبَاءُ خَلِيْلٍ بَاطِنٍ مِنْ بَنِي كَعْبِ[4]

فألفاها ـ كما قالوا ـ تزوَّجت بِٱبنِ عمٍّ لَها ، فأخذَهُ الهُلاَسُ ، فكُوِيَ مِن أَجلِها جَنْباهُ .

ليس كل غراب يُتَشاءم منه

وَخرجَ لِهبيٌّ في حاجتِهِ [كما في « صبح الأعشى » ١/٤٥٦] ومعَهُ سقاءٌ ، فلمَّا عطِشَ . . أَناخَ راحلَتَهُ ليشرَبَ ، فإذا غرابٌ ينعَبُ ، فأَثارَ راحلَتَهُ ومضىٰ ، فلمَّا جهدَهُ العطَشُ . . أَناخَ راحلَتَهُ ليشرَبَ ، فنعَبَ الغرابُ وتمرَّغَ في الترابِ ، فضربَ الرجُلُ سقاءَهُ بسيفِهِ ، فإذا فيهِ أَسودُ سالخٌ[5] ، فقتلَهُ ، ثمَّ سارَ فإذا غرابٌ واقعٌ علىٰ سدرَةٍ ، فصاحَ بهِ ، فوقَعَ علىٰ سلَّةٍ ، فصاحَ بهِ ، فوقعَ علىٰ صخرَةٍ ، فٱنتهىٰ إليها ، فأَثارَ كنزاً ، فاحتملَهُ إلىٰ أهلِهِ ، ولمَّا أخبرَ أَباهُ . . وجدَ عندَهُ مِنَ ٱلْعِلمِ مثلَ الذي عمِلَ بهِ .

ومنهُ تَعْرِفُ أَنَّ التشاؤُمَ بالغرابِ ليسَ علىٰ إطلاقِهِ ، بل فيهِ تفصيلٌ يطولُ بيانُهُ ، وأَظنُّ أَنْ قَدِ ٱستوفاهُ أَبو عثمانَ الجاحِظُ في كتابِهِ « الحيوانُ » ، وقد زَجَرْتُ ٱلْغِربانَ لِلتيامُنِ في عدَّةِ قصائِدَ ، فكانَ

---

(١) العائفُ : الذي يزجرُ الطيرَ ، فيتشاءَمُ إن طارت يساراً ، ويتفاءَل إن طارَت يميناً مِنَ اليُمنِ . بنو لهبٍ : هم قبيلةٌ مشهورةٌ بالعيافةِ والزجرِ .
(٢) فحصَ الترابَ : حفَرَهُ باحثاً فيهِ .
(٣) السوانحُ ـ جمعُ سانحٍ ـ : وهوَ الطيرُ الذي يمرُّ عن يسارِ المسافرِ .
(٤) الخليلُ الباطنُ : الصديقُ الخفيُّ .
(٥) أسود سالخ : اسم الأسود من الحيَّات .

المجلس الثالث عشر

[قالَ أبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَريِّ » ٢/ ٣٣٤ مِنَ الكاملِ] :

أَبَنِيْ أَبِيْنَا نَحْنُ أَهْلُ مَنَازِلٍ ... أَبَداً غُرَابُ ٱلْبَيْنِ فِيْهَا يَنْعِقُ
نَبْكِيْ عَلَىٰ ٱلدُّنْيَا وَمَا مِنْ مَعْشَرٍ ... جَمَعَتْهُمُ ٱلدُّنْيَا فَلَمْ يَتفرَّقُوْا

مسكين المتنبي لا يعرف السعادة!!

(أَبَنِيْ أَبِيْنَا) : نِداءٌ لجميعِ الناسِ ؛ لأنَّ أَباهُم آدمُ ، ويجوزُ أَنْ يريدَ بهِ قوماً مخصوصينَ ، يقولُ : نحنُ نازلونَ في ديارٍ يتفرَّقُ أهلُها بالموتِ ، وإنَّما ذكرَ الغرابَ كنايةً عنهُ ؛ لأَنَّ العربَ لا تتشاءَمُ بشيءٍ تشاؤُمَها بالغربانِ .

كثير عزة والغراب الناعق

حكيَ [في « الأغاني » ٩/ ٤٤] : أنَّ كُثيِّراً تعشَّقَ امرأةً مِن خزاعَةَ يقالُ لها : أُمُّ الحويرِثِ ، فشبَّبَ بِها ، فكرِهَتْ أَن يفضَحَها كَما فضَحَ عَزَّةَ ، فقالَتْ لَهُ : إِنَّكَ فقيرٌ ، فابتَغِ لكَ مالاً ، ثمَّ ارجعْ وَاخطُبني ، وأَعطتْهُ عهدَها أَن لا تتزوَّجَ حتَّىٰ يرجعَ ، فمدَحَ عبدَ الرحمٰنِ الأزديَّ ، وأصابَ منهُ ما يريدُ ، وبعقِبِ انصرافِهِ مِن عندِهِ سنَحَتْ لَهُ الظباءُ ، ورأَىٰ غراباً يفحَصُ الترابَ بوجهِهِ فتطيَّرَ مِن ذلكَ ، واستفتىٰ بعضَ اللِّهْبِيِّيْنَ فأَجابَهُ بما لا يسرُّهُ ، فقالَ [في « ديوانه » ٥٩-٦٠ مِنَ الطَّويلِ] :

الأمرُ كما تفاءَلْتُ مِنَ ٱلْخَيرِ ، ومرَّ بعضُ ما يتعلَّقُ بالفألِ في المجلسِ العاشِرِ .

العيب على المتنبي وقد عابوا علىٰ الناظِمِ ٱنتقالَهُ مِنَ ٱلغَزَلِ إلىٰ الوعظِ ، ثمَّ توثُّبَهُ مِنَ ٱلْوَعظِ إلىٰ المديحِ ، وقالوا : إنَّما يحسنُ مثلُهُ في الرَّثاءِ ، كَما ٱنتقَدوا علىٰ أَبي تمَّامٍ في قولِهِ [في « ديوانهِ » ١/ ١٣٤ مِنَ الخفيفِ] :

غَـرَّبَتْـهُ ٱلْعُـلاَ عَلَـىٰ كَثْـرَةِ ٱلأَهْـ ـلِ فَأَضْحَىٰ فِي ٱلأَقْرَبِيْنَ جَنِيْبَا[1]
فَلْيَطُلْ عُمْرُهُ فَلَوْ مَاتَ فِي طُوْ سٍ مُقِيْمَاً لَمَاتَ فِيْهَا غَـرِيْبَـا

وقالوا : لَم يوقِعْهُ في ذِكرِ الموتِ إلاَّ عثْرَةُ اللِّسانِ ، التي أَفضَتْ بهِ إلىٰ التنْكيدِ والتنْغيصِ .

الحلم على الجاهل وإنِّي لأَتعجَّبُ من حلمِ معاويَةَ وسعَةِ صدرِهِ ، وتَغابيهِ عَن سيِّئاتِ قاصديهِ ، فقد ذُكرَ أَنَّ الأَخطلَ قدِمَ عليهِ مادحاً ، فقالَ لَهُ : إنْ كنتَ شبَّهتَني بالحيَّةِ أَوِ ٱلأَسدِ . . فلا حاجةَ لي في ذلكَ ، وإنْ كُنتَ قلْتَ كما قالَتِ ٱلْخنساءُ [في « ديوانها » ١١٤ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا بَلَغَتْ كَفُّ ٱمْرِىءٍ مُتَنَاوَلاً مِنَ ٱلْمَجْدِ إلاَّ وَٱلَّذِيْ نِلْتَ أَطْوَلُ
وَلاَ بَلَغَ ٱلْمُهْدُوْنَ فِي ٱلْقَوْلِ مِدْحَةً وَإنْ صَدَقُوْا إلاَّ ٱلَّذِيْ فِيْكَ أَفْضَلُ

. . فهاتِ ، فقالَ : لَقَد قلتُ بيتينِ ها هُما ، بدونِ ما قالتْ ، قالَ : أَنشِدْ ، فقالَ [مِنَ الطَّويلِ] :

إذَا مِتَّ مَاتَ ٱلْعُرْفُ وَٱنْقَطَعَ ٱلنَّدَىٰ وَلَـمْ يَبْـقَ إلاَّ مِـنْ قَلِيْـلٍ مُصَـرَّدِ
وَرُدَّتْ أَكُـفُّ ٱلـرَّاغِبِيْـنَ وَأَمْسَكُـوْا عَنِ ٱلدِّيْنِ وَٱلدُّنْيَا بِخُلْفٍ مُجَرَّدِ

---

(١) الجنيبُ : الغريبُ ، يقولُ : جَعلَتِ المكارمُ والعُلاَ هذا الممدوحَ غريباً في الناسِ ، فلا يوجدُ له نظيرٌ فيهم .

فوصلَهُ وأَحسنَ إِليهِ ، معَ أَنَّهُ لم يتركْ شيئاً مِن القحَةِ والنَّغاصَةِ إلاَّ وأَخذَ بنواحيهِ ، فَهما شرٌّ مِمَّا سبقَ عن أَبي تمَّام ؛ لزيادَتِهما عليهِ بالإنذارِ ، بانقطاعِ الأثرِ ، فحقُّ صاحِبِهما أَنْ يُضرَبَ في القَذالِ[1] ، أو يسجنَ مَعَ الأَنذَالِ ، إلاَّ أَنَّهُ لا يُستنكَرُ مِن معاويَةَ ـ إنْ كانَ صاحِبَ القصَّةِ ـ مثلُ ذلكَ ، فقدْ كانَ مَضرِبَ المثَلِ فيهِ ، وإِنْ كانَ مروانَ . . فما غضَّ جفنَهُ عمَّا فيهِما مِنَ الخِذلانِ غيرُ تعصُّبِهِ للأَخطلِ ، فقد كانَ معروفاً بذلِكَ .

التشاؤم والطِّيَرة

وكانَ عبدُ اللهِ بنُ الحسنِ بنِ الحسنِ بنِ عليٍّ يسايرُ السفَّاحَ ، وبينا هُما ينظرانِ إِلىٰ بناءٍ فرغَ منْهُ السفَّاحُ . . قالَ لعبدِ اللهِ : هاتِ ما عندَكَ ، فقالَ [مِنَ الوافرِ] :

أَلَـمْ تَـرَ مَـالِكـاً لَمَّـا تَبَنَّـىٰ بِنَـاءً نَفْعُـهُ لِبَنِـي بَقِيْلَـهْ
بِـرُجْحَـانٍ يُعَمِّـرُ عُمْـرَ نُـوحٍ وأَمْـرُ ٱللهِ يَحْـدُثُ كُـلَّ لَيْلَـهْ

فأَبدىٰ السفَّاحُ نواجِذَهُ لغيرِ تبسُّمٍ ، فقالَ عبدُ اللهِ : عفواً يا أَميرَ المؤمنينَ ؛ فإنَّها غفلَةُ الشيوخِ ، وبوادِرُ الخواطِرِ ، قالَ : صدقْتَ ، فخُذ في غيرِهِ .

وأَنشدَ بعضُهم لأَبي مسلمٍ الخراسانيِّ ، في يومِ قتلِهِ [كما في « سير أعلام النبلاء » ٦/ ٧١ مِنَ الطَّويلِ] :

سَيأْتِيْكَ مَا أَفْنَىٰ ٱلْقُرُوْنَ ٱلَّتِيْ مَضَتْ وَمَا حَلَّ فِي أَكْنَافِ عَادٍ وَجُرْهُمِ
وَمَنْ كَانَ أَدْنَىٰ مِنْكَ عِزّاً وَمَفْخَراً وَأَنْهَضَ بِٱلْجَيْشِ ٱللُّهَامِ ٱلْعَرَمْرَمِ

فقالَ أَبو مُسلمٍ : هَـٰذَا معَ الأَمانِ الذي مَعي؟ فقالَ ذلكَ المنشدُ :

---

(١) القَذالُ : مُؤَخَّرُ الرأسِ .

كلُّ عبدٍ لي حرٌّ إن كانَ هـٰذا الشيءُ مِن أَمرِكَ ، وإنَّما هُوَ خاطرٌ جرىٰ علىٰ لساني ، فقالَ : بئْسَ واللهِ الخاطِرُ ، فما غابَتْ شمسُهُ حتَّىٰ تحكَّمَ في رأسِهِ الحُسامُ ، والأَشبَهُ أَنْ يكونَ صاحِبَ القصَّةِ هُوَ ٱبنُ هبيرَةَ ؛ إذ هُوَ الذي يحملُ الأمانَ الضخْمَ .

وكثيراً ما جرَتْ نظائِرُ هـٰذِهِ الأَقاصيصِ للنَّاسِ في الطِّيَرَةِ .

مِن ذلكَ حديثُ مروانَ بنِ محمَّدٍ الجعديِّ ، وحديثُ الأَمينِ مع قينتِهِ .

التذكير بالموت وقت اللذات

وقالَ بعضُ الملوكِ : ما لهـٰؤلاءِ الشعراءِ ـ قاتلَهَم اللهُ ـ ربَّما ذكَّرونا شيئاً نحنُ أَكثَرُ لَهُ ذكراً مِنهم ، فينغِّصونَ عَلينا ، وما يعني إلاَّ الموتَ .

وخرجَ النعمانُ بنُ المنذرِ مرَّةً يتنزَّهُ ومعَهُ عديُّ بنُ زيدٍ العبَّاديُّ ، فلمَّا ٱطمأنَّ بِهمُ ٱلمَجلسُ في ظلِّ شجرَةٍ . . قالَ عديٌّ [بنحوه في « بغية الطلب » ١٠/٤٥٠٣] : أَتدري ما تقولُ هـٰذِهِ الشجرَةُ؟ قالَ : لا ، قالَ : فإِنَّها تقولُ [مِنَ الرَّمَلِ] :

رُبَّ نَـاسٍ قَـدْ أَنَـاخُـوا قَبْلَنَـا ... يَشْرَبُوْنَ ٱلْخَمْرَ بِٱلْمَاءِ ٱلزُّلاَلْ
عَصَـفَ ٱلـدَّهْـرُ بِهِـمْ فَـٱنْقَلَبُـوْا ... وَكَذَاكَ ٱلدَّهْرُ حَالاً بَعْدَ حَالْ

فٱنقبضَ الملكُ ، وٱنكسفَ بالُهُ ، وتنغَّصَ عيشُهُ ، وعادَ من فورِهِ إلىٰ منزلِهِ .

وخرجَ مرَّةً أُخرىٰ للصيدِ ومعَهُ عديٌّ ، فمرُّوا بِآرَام ـ وهيَ ٱلقبورُ ـ فقالَ عديٌّ [بنحوه في « بغية الطلب » ١٠/٤٥٠٣] : أَبيتَ ٱللَّعنَ ، تدري ما تقولُ هـٰذِهِ الآرامُ؟ قالَ : لا ، قالَ : إنَّها تقولُ [مِنَ مجزوءِ الرَّمَلِ] :

أَيُّهَـا ٱلــرَّكْـبُ ٱلْمُخِبُّـو ... نَ عَلَـىٰ ٱلأَرْضِ تَمُـرُّوْنْ
فَكَمَـا كُنْتُـمْ فَكُنَّـا ... وَكَمَـا كُنَّـا تَكُـوْنُـوْنْ

قالَ : أَعِدْهُ ، فأَعادَهُ ، فٱنكسَرَ لَهُ ، وتركَ صيدَهُ .

وقد أَثنىٰ ٱبنُ جنيٍّ علىٰ الناظِمِ في هـٰذا الاقتضابِ ، وقالَ : إنَّهُ مِن حسنِ التصرُّفِ ، ولم يظْهَر لي وجهُ ذلكَ ، وكانَ عليهِ أَن يبيِّنَهُ ، إلاَّ أَن يقالَ في مناسبَةِ الوعظِ للغزَلِ : إنَّ الجمالَ زهرةُ ربيعٍ ، سرعانَ ما يلحقُها الذبولُ ، وفي مناسبَتِهِ لِلمديحِ : إنَّ الدنيا خَبَرٌ ، ولا يبقىٰ إلاَّ الأثَـرُ ، والعيشُ حقيـرٌ ، والعمـرُ قصيـرٌ ، ولـٰكـنَّ مَـن يـدَّخِـرُ المَكْرُماتِ . . يعيشُ بالذكرِ الجميلِ وإنْ فاتَ ، وهـٰذا ما لا أَظنُّهُ يخطرُ ببالِ الناظمِ ، حتَّىٰ يوجِّهَ بهِ لكلامِهِ ، ثمَّ إنَّ الدنيا قد دلَّتْ علىٰ عيبِها بنفسِها ، قالَ مسلمُ بنُ الوليدِ [صريعُ الغواني في « ديوانه » ١٢٢ مِنَ البسيطِ] :

دَلَّتْ عَلَىٰ عَيْبِهَا ٱلدُّنْيَا وَصَدَّقَهَا مَا ٱسْتَرْجَعَ ٱلدَّهْرُ مِمَّا كَانَ أَعْطَانِي

حقارة الدنيا والكلام على الموت وذكر قصص في ذلك

وقالَ ٱبنُ أَبي طالبٍ ـ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ ـ [في « نهج البلاغة » ٧٣] : ما أَصِفُ من دارٍ!! أَوَّلُها عناءٌ ، وآخرُها فناءٌ ، حلالُها حسابٌ ، وحرامُها عقابٌ ، من أَمِنَ فيها . . سَقِمَ ، ومَن مرضَ فيها . . ندِمَ ، ومن ٱستغنىٰ فيها . . فُتِنَ ، ومَنِ ٱفتقَرَ فيها . . حَزِنَ .

وقالَ بعضُهم : ٱنصرفْتُ مِن مجلسِ حمَّادِ الراويةِ(١) ، فقيلَ لي : ما حدَّثكُم؟ قلتُ : حدثَنا عَنِ ٱلنَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قالَ : « لَوْ لَمْ يَكْسَبِ ٱبْنُ آدَمَ إِلاَّ ٱلصِّحَّةَ وَٱلسَّلامَةَ . . لَكَفَىٰ بِهِمَا دَاءً »(٢) ، فقيلَ :

---

(١) حماد الراوية : هو حماد بن سابور بن مبارك الشيباني العلامة الإخباري ، المكين النديم للوليد بن عبد الملك مات في دولة المهدي سنة : (١٦٠)هـ وسمِّي الراوية لأنه قال للخليفة : إني لأروي لكل شاعر تعرفه أو لا تعرفه ، وأنشدك على كل حرف من حروف المعجم مئة قصيدة للجاهلية ، ثم سرد (٢٩٠٠) قصيدة فأعطاه مئة ألف درهم .

(٢) ذكره عن ابن عباس رضي الله عنهما المتقي الهندي في « كنز العمال » =

قاتلَ اللهُ حميداً حيثُ قالَ [في « ديوانهِ » ٧ مِنَ الطَّويلِ] :

أَرَىٰ بَصَرِي قَدْ رَابَنِي بَعْدَ صِحَّةٍ   وَحَسْبُكَ دَاءً أَنْ تَصِحَّ وَتَسْلَمَا

وقالَ [في « ديوانِ عمرو بنِ قَمئة » ٧٧ مِنَ الكاملِ] .

وَدَعَوْتُ رَبِّي بِٱلسَّلَامَةِ جَاهِداً   لِيُصِحَّنِي فَإِذَا ٱلسَّلَامَةُ دَاءُ

وقالَ [في « ديوانه » ١٣٤ مِنْ مجزوءِ الكاملِ] :

لَوْ لَمْ يُوَكَّلْ بِٱلْفَتَىٰ   إِلاَّ ٱلسَّلَامَةُ وَٱلنِّعَمْ
وَتَدَاوَلَاهُ لَأَوْشَكَا   أَنْ يُسْلِمَاهُ إِلَىٰ ٱلْهَرَمْ

ونظرَ أعرابيٌّ إلىٰ الهلالِ فقالَ : ما لي ولَهُ ؟ مُحِلُّ دَينٍ ، ومقرِّبُ حَينٍ(١) .

وقالَ عبدَةُ [مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا مَا سَلَخْتُ ٱلشَّهْرَ أَهْلَلْتُ مِثْلَهُ   كَفَىٰ قَاتِلاً سَلْخِي ٱلشُّهُورَ وَإِهْلَالِي

وقالَ أبو العتاهيةِ [في « ديوانهِ » ٦٢٨ مِنَ البسيطِ] :

تَظَلُّ تَفْرَحُ بِٱلأَيَّامِ تَقْطَعُهَا   وكُلُّ يَوْمٍ مَضَىٰ يُدْنِي مِنَ ٱلأَجَلِ

وقالَ الناظمُ [في « العُكبَريّ » ٣/ ١٣٠ـ١٣١ مِنَ الخفيفِ] :

أَبَداً تَسْتَرِدُّ مَا تَهَبُ ٱلدُّنْـ   ـيَا فَيَا لَيْتَ جُودَهَا كَانَ بُخْلاَ
وَهِيَ مَعْشُوقَةٌ عَلَىٰ ٱلْغَدْرِ لاَ تَحْـ   ـفَظُ عَهْداً وَلاَ تُتَمِّمُ وَصْلاَ
شِيَمُ ٱلْغَانِيَاتِ فِيهَا فَلاَ أَدْ   رِي لِذَا أَنَّثَ ٱسْمَهَا ٱلنَّاسُ أَمْ لاَ

= (٦٧٢٢) وعزاه إلى ابن عساكر ، ولفظه : « لو لم يكن لابن آدم إلا الصحة والسلامة لكفاه بهما داء قاتلاً » .

(١) الحَيْنُ : الهلاكُ والموتُ .

وقالَ [في « العُكبَريِّ » ١/ ٤٩ مِنَ الطَّويلِ] :

لَقَدْ فارَقَ ٱلنَّاسُ ٱلأَحِبَّةَ قَبْلَنَا ... وَأَعْيَىٰ دَوَاءُ ٱلمَوْتِ كُلَّ طَبِيْبِ

وقالَ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٨-٩-١٨ مِنَ الوافرِ] :

نُعِـدُّ ٱلمَشْـرَفِيَّـةَ وَٱلعَـوَالِـيْ ... وَتَقْتُلُنَـا ٱلمَنُـوْنُ بِـلاَ قِتَـالِ(١)

وَنَـرْتَبِـطُ ٱلسَّـوَابِـقَ مُقْـرَبَـاتٍ ... وَمَا يُنْجِيْنَ مِنْ خَبَبِ ٱللَّيَالِي(٢)

وَمَنْ لَمْ يَعْشَقِ ٱلدُّنْيَا قَدِيْماً ... وَلَـٰكِنْ لاَ سَبِيْلَ إِلىٰ ٱلوِصَالِ

نَصِيْبُكَ فِيْ حَيَاتِكَ مِنْ حَبِيْبٍ ... نَصِيْبُكَ فِيْ مَنَامِكَ مِنْ خَيَالِ

يُـدَفِّـنُ بَعْضُنَا بَعْضـاً وَتَمْشِـيْ ... أَوَاخِـرُنَـا عَلَـىٰ هَـامِ ٱلأَوَالِـيْ

وقد لاذَ في الأخيرِ بقولِ أَبي نُوَاسٍ [في « ديوانِهِ » ٤٢٥ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا ٱلنَّاسُ إِلاَّ هَالِكٌ وَٱبْنُ هَالِكٍ ... وَذُوْ نَسَبٍ فِيْ ٱلهَالِكِيْنَ عَرِيْقُ

وقولِهِ أَيضاً [مِنَ الوافرِ] :

أَلاَ يَا ٱبْنَ ٱلَّذِيْنَ فَنُوْا وَبَادُوْا ... أَمَـا وَٱللهِ مَـا بَـادُوْا لِتَبْقَـىٰ

وقولِ أَبي العتاهيَةِ [في « ديوانِهِ » ٦٠١ مِنْ مخلَّعِ البسيطِ] :

كَيْـفَ بَقَـاءُ ٱلفُـرُوْعِ يَـوْمـاً ... وَقَـدْ ذَرَتْ قَبْلَهَـا ٱلأُصُـوْلُ ؟!

وقد قالَ متمِّمُ بنُ نويرةَ [مِنَ الكاملِ] :

وَعَدَدْتُ آبَائِيْ إِلَىٰ عِرْقِ ٱلثَّرَىٰ ... فَدَعَوْتُهُمْ وَعَلِمْتُ أَنْ لَمْ يَسْمَعُوْا

وَلَقَدْ عَلِمْتُ وَلاَ مَحَالَةَ أَنَّنِيْ ... لِلْحَادِثَاتِ فَهَلْ تَرَانِيْ أَجْزَعُ ؟

---

(١) المشرفيَّةُ : السيوفُ . العوالي : الرماحُ .

(٢) المقرباتُ من الخيلِ : الكرامُ التي تربطُ لكرامتها على أصحابِها ، أو لفرط الحاجةِ إليها . الخَبَبُ : عَدْوٌ لا يستفرغُ الجهدَ .

وقد سبقَ إليهِ الإمامُ الغالِبُ في قولِهِ [في «شرح النهج» ٩/ ٩١] :

(وقد مضت أصول نحن فروعها وما بقاء ٱلفرعِ بعد ذهاب أصلِهِ)

وقد قالَ الأَوَّلُ [في «ديوانِ لبيدٍ» ٢٥٥ مِنَ الطَّويلِ] :

فَإِنْ أَنتَ لَمْ تَصْدُقْكَ نَفْسُكَ فَٱنتَسِبْ لَعَلَّكَ تَهْدِيكَ ٱلْقُرُوْنُ ٱلأَوَائِلُ
فَإِنْ لَمْ تَجِدْ مِنْ دُوْنِ عَدْنَانَ وَالِداً وَدُوْنِ مَعَدٍّ فَلْتَرُعْكَ ٱلْعَوَائِلُ

وقالَ أَبو عبادَةَ [في «ديوانِهِ» ٣/ ١٥٧٦ مِنَ الكاملِ] :

وَمَتَىٰ وَجَدْتَ ٱلنَّاسَ إِلاَّ تَارِكاً لِحَمِيْمِهِ فِيْ ٱلتُّرْبِ أَوْ مَتْرُوْكَا

وقالَ [في «ديوانه» ٣/ ١٨٦٠ مِنَ الطَّويلِ] :

يُسَارُ بِنَا قَصْدَ ٱلْمَنُوْنِ وَإِنَّنَا لَنُشْغَفُ أَحْيَاناً بِطَيِّ ٱلْمَرَاحِلِ
عِجَالاً مِنَ ٱلدُّنْيَا بِأَسْرَعِ سَيْرِنَا إِلَىٰ آجِلٍ مِنْهَا شَبِيْهٍ بِعَاجِلِ
أَوَاخِرُ مِنْ عَيْشٍ إِذَا مَا ٱمْتَحَنْتَهَا تَأَمَّلْتَ أَمْثَالاً لَهَا فِيْ ٱلأَوَائِلِ

وقالَ الأَصمعيُّ : قدِمَ علينا أعرابيٌّ ، فأقامَ عندَنا أَيَّاماً ، ثمَّ رجعَ إِلىٰ الباديَةِ ، فسأَلَ عَن إِخوانِهِ وأَترابِهِ ، فقيلَ لهُ : ماتوا ، فٱسترجَعَ وبكىٰ ، وأَنشأَ يقولُ [في «ديوان أبي العتاهيةِ» ٣٣ مِنَ الوافرِ] :

أَلاَ يَا مَوْتُ لَمْ أَرَ مِنْكَ بُدًّا أَبَيْتَ فَمَا تَحِيْدُ وَلاَ تُحَابِيْ
كَأَنَّكَ قَدْ هَجَمْتَ عَلَىٰ مَشِيْبِيْ كَمَا هَجَمَ ٱلْمَشِيْبُ عَلَىٰ شَبَابِيْ

وقالَ آخرُ [في «المدهش» ٤٨١ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا مَا ٱلْمَنَايَا أَخْطَأَتْكَ وَصَادَفَتْ حَبِيْبَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّهَا سَتَعُوْدُ

وقالَ لبيدٌ [في «ديوانِهِ» ٣٠٨ مِنَ الكاملِ] :

صَادَفْنَ مِنْهَا غِرَّةً فَأَصَبْنَهَا إِنَّ ٱلْمَنَايَا لاَ تَطِيْشُ سِهَامُهَا

ولمَّا دخلَ عليٌّ ٱبنُ أَبي طالِبٍ ـ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ ـ مدائِنَ كسرىٰ . . نظرَ إِلىٰ الإِيوانِ ، فأَنشدَهُ بعضُ مَن حضرَ قولَ الأَسودِ بنِ يعفرَ [في « الأغاني » ١٣/ ٢١ مِنَ الكاملِ] :

مَـاذَا أُؤَمِّـلُ بَعْـدَ آلِ مُحَـرِّقٍ ... تَـرَكُـوا مَنَـازِلَهُـمْ وَبَعْـدَ إِيَـادِ
أَهْلِ ٱلْخَوَرْنَقِ وَٱلسَّدِيرِ وَبَارِقٍ ... وَٱلْقَصْرِ ذِي ٱلشُّرُفَاتِ مِنْ سِنْدَادِ
جَرَتِ ٱلرِّيَاحُ عَلَىٰ مَحَلِّ دِيَارِهِمْ ... فَكَـأَنَّمَـا كَـانُـوا عَلَـىٰ مِيْعَـادِ
فَأَرَىٰ ٱلنَّعِيْمَ وَكُلَّ مَا يُلْهَىٰ بِهِ ... يَـوْمـاً يَصِيْـرُ إِلَـىٰ بِلَـىً وَنَفَـادِ

فقالَ عليٌّ [في « الأغاني » ١٣/٢١] : أبلغُ من ذلكَ قولُهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍۢ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ * كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴾ [الدخان : ٢٥ـ٢٩] .

وقالَ بعضُهم في رِثاءِ الزهراءِ بـ(الأَندلسِ) [في « نفح الطيب » ١/ ٥٢٧ مِنَ السَّريعِ] :

وَقَفْـتُ بِـالـزَّهْـرَاءِ مُسْتَعْبِـراً ... مُعْتَبِـراً أَنْـدُبُ أَشْتَـاتَـا
فَقُلْتُ : يَا زَهْرَا أَلاَ فَارْجِعِيْ ... قَالَتْ : وَهَلْ يَرْجِعُ مَنْ مَاتَا ؟!
فَلَـمْ أَزَلْ أَبْكِـيْ وَأَبْكِـيْ بِهَـا ... هَيْهَـاتَ يُغْنِـيْ ٱلـدَّمْـعُ هَيْهَـاتَـا
كَـأَنَّمَـا آثَـارُ مَـنْ قَـدْ مَضَـىٰ ... نَـوَائِـحٌ يَنْـدُبْـنَ أَمْـوَاتَـا

وقالَ الناظِمُ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٢٧٠ مِنَ الكاملِ] :

أَيْنَ ٱلَّذِيْ ٱلهَرَمَانِ مِنْ بُنْيَانِهِ ... مَا حَالُهُ مَا يَوْمُهُ مَا ٱلمَصْرَعُ[1]؟

---

(١) الهَرَمَانِ : بناء عظيم بأَرضِ (مصرَ) ، واختلف بهما اختلافاً كثيراً ، ٱرتفاعُ كلِّ واحدٍ منهما أربعُ مئةِ ذراعٍ ، وهما ثابتانِ ، ولا يُعرفُ الباني لهما ، وقال =

تَتَخَلَّفُ ٱلآثَارُ عَنْ أَصْحَابِهَا ... حِيناً وَيُدْرِكُهَا ٱلْفَنَاءُ فَتَتْبَعُ

وقالَ سلمَةُ بنُ زيدٍ الفهميُّ يصفُ حالَ قومِهِ [مِنَ الخفيفِ] :

دَرَجَ ٱللَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ عَلَىٰ فَهْـ ... ـمِ بْنِ عَمْرٍو فَأَصْبَحُوْا كَٱلرَّمِيْمِ
وَخَلَتْ دَارُهُمْ فَأَضْحَتْ يَبَاباً ... بَعْدَ عِزٍّ وَثَرْوَةٍ وَنَعِيْمِ
وَكَذَاكَ ٱلزَّمَانُ يَذْهَبُ بِٱلنَّا ... سِ وَتَبْقَىٰ دِيَارُهُمْ كَٱلرُّسُوْمِ

وقالَ آخرُ [وهو أبو العتاهيةِ في « ديوانهِ » ٢٩٧ مِنَ الوافرِ] :

هَبِ ٱلدُّنْيَا تُسَاقُ إِلَيْكَ عَفْواً ... أَلَيْسَ مَصِيْرُ ذَلِكَ لِلزَّوَالِ
فَمَا تَرْجُوْ بِشَيْءٍ لَيْسَ يَبْقَىٰ ... وَشِيْكاً مَا تُغَيِّرُهُ ٱللَّيَالِيْ

ولقد أَجادَ طرفَةُ بنُ العبدِ في قولِهِ [في « ديوانهِ » ٣٦ـ٣٧ـ١٥٠ـ١٥١ مِنَ الطَّويلِ] :

أَرَىٰ ٱلْعُمْرَ كَنْزاً نَاقِصاً كُلَّ لَيْلَةٍ ... وَمَا تَنْقُصُ ٱلأَيَّامُ وَٱلْعُمْرُ يَنْفَدِ
لَعَمْرُكَ إِنَّ ٱلْمَوْتَ مَا أَخْطَأَ ٱلْفَتَىٰ ... لَكَٱلطِّوَلِ ٱلْمُرْخَىٰ وَثِنْيَاهُ فِيْ ٱلْيَدِ(١)
إِذَا شَاءَ يَوْماً قَادَهُ بِزِمَامِهِ ... وَمَنْ كَانَ فِيْ حَبْلِ ٱلْمَنِيَّةِ يَنْقَدِ
أَرَىٰ ٱلْمَوْتَ لاَ يَرْعَىٰ عَلَىٰ ذِيْ جَلاَلَةٍ ... وَإِنْ كَانَ فِيْ ٱلدُّنْيَا عَزِيْزاً بِمَقْعَدِ
لَعَمْرُكَ مَا أَدْرِيْ وَإِنِّيْ لَوَاجِلٌ ... أَفِيْ ٱلْيَوْمِ إِقْدَامُ ٱلْمَنِيَّةِ أَوْ غَدِ
لَعَمْرُكَ مَا ٱلأَيَّامُ إِلاَّ مُعَارَةٌ ... فَمَا ٱسْطَعْتَ مِنْ مَعْرُوْفِهَا فَتَزَوَّدِ

وقالَ أعشىٰ وائلٍ [مِنَ الخفيفِ] :

ذَاكَ عَيْشٌ شَهِدْتُهُ ثُمَّ وَلَّىٰ ... كُلُّ عَيْشٍ مَصِيْرُهُ لِلزَّوَالِ

وخرَجَ الإِمامُ ـ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ ـ مرَّةً إِلىٰ الجبَّانَةِ ، ووقفَ علىٰ

= الواحديُّ : أَحدُهُما : قبرُ شدَّادِ بنِ عادٍ ، والآخرُ : قبرُ إرمَ ذاتِ العمادِ .

(١) الطولُ : الحبلُ . ثِنْياهُ : ما أنثنىٰ منهُ .

المقابرِ ، ثمَّ قالَ [في « المستطرف » ٢/٦١٠] : يا أَهلَ التُّربَةِ ، يا أَهلَ الكُربَةِ ، يا أَهلَ الغُربَةِ ، أَمَّا الأَزواجُ . . فقد نكَحَتْ ، وأَمَّا الأَموالُ . . فقد قُسِمَتْ ، وأَمَّا الدُّورُ . . فقدْ سُكِنَتْ ، هـٰذا خبرُ ما عندَنا ، فما خبرُ ما عندَكُمْ ؟ ثمَّ قالَ : أَمَا لَو أُذِنَ لَهم في المقالِ . . لَقالُوا : إن خيرَ الزادِ التقوىٰ .

ويروىٰ : أَنَّ المتوكِّلَ العبَّاسيَّ بلغَهُ عَنِ ٱلهَادي الدعاءُ إِلىٰ نفسِهِ ، وأَنَّهُ يكاتِبُ في ذلكَ ، فأَمرَ بكبْسِ دارِهِ وإِشخاصِهِ علىٰ حالِهِ ، فأَلفَوهُ يتهجَّدُ ، فجاؤوا بهِ ، وعرَّفوهُ براءَتَهُ ، فلاطفَهُ وقضىٰ حاجتَهُ ، والتمسَ منهُ أَن يرويَ لهُ شعراً ، فٱعتذرَ بقلَّةِ روايتِهِ فأَلَحَّ عليهِ ، فقالَ [الأبيات في «المستطرف» ٢/ ٦٠٥ مِنَ البسيطِ] :

بَاتُوا عَلَىٰ قُلَلِ ٱلأَجْبَالِ تَحرُسُهُمْ ... غُلْبُ ٱلرِّجَالِ فَمَا أَغْنَتْهُمُ ٱلقُلَلُ
وَٱسْتُنْزِلُوْا بَعْدَ عِزٍّ عَنْ مَعَاقِلِهِمْ ... وَٱسْتُوْدِعُوْا حُفَراً يَا بِئْسَ مَا نَزَلُوْا
نَادَاهُمُ صَارِخٌ مِنْ بَعْدِ مَا قُبِرُوْا : ... أَيْنَ ٱلأَسِرَّةُ وَٱلتِّيْجَانُ وَٱلْحُلَلُ ؟
أَيْنَ ٱلْوُجُوْهُ ٱلَّتِيْ كَانَتْ مُنَعَّمَةً ... مِنْ دُوْنِهَا تُضْرَبُ ٱلأَسْتَارُ وَٱلْكُلَلُ ؟
فَأَفْصَحَ ٱلْقَبْرُ بِٱلْمَعْنَىٰ وَقَالَ لَهُ : ... تِلْكَ ٱلْوُجُوْهُ عَلَيْهَا ٱلدُّوْدُ يَقْتَتِلُ
يَا طَالَمَا أَكَلُوا دَهْراً وَمَا شَرِبُوْا ... فَأَصْبَحُوْا بَعْدَ ذَاكَ ٱلأَكْلِ قَدْ أُكِلُوْا

وقالَ القطبُ الحدَّادُ [في « ديوانه » ٥٠٦ مِنَ البسيطِ] :

تِلْكَ ٱلْقُصُورُ وَتِلْكَ ٱلدُّوْرُ خَاوِيَةٌ ... يَصِيْحُ فِيْهَا غُرَابُ ٱلْبَيْنِ بِٱلْوَهَنِ
فَلَوْ مَرَرْتَ بِهَا وَٱلْبُوْمُ يَنْدُبُهَا ... فِيْ ظُلْمَةِ ٱللَّيْلِ لَمْ تَلْتَذَّ بِٱلْوَسَنِ

وقالَ مِن أُخرىٰ [في « ديوانه » ٤٤٦ مِنَ البسيطِ] :

يَا صَاحِبِيْ إِنَّ دَمْعِيْ ٱلْيَوْمَ يَنْهَمِلُ ... عَلَىٰ ٱلْخُدُوْدِ حَكَاهُ ٱلْعَارِضُ ٱلْهَطِلُ
وَفِيْ ٱلْفُؤَادِ وَفِيْ ٱلأَحْشَاءِ نَارُ أَسَىً ... إِذَا أَلَمَّ بِهَا ٱلتَّذْكَارُ تَشْتَعِلُ

عَلَىٰ ٱلأَحِبَّةِ وَٱلإِخْوَانِ إِذْ رَحَلُوْا ... إِلَىٰ ٱلْمَقَابِرِ وَٱلأَلْحَادِ وَٱنْتَقَلُوا
كُنَّا وَكَانُوْا وَكَانَ ٱلشَّمْلُ مُجْتَمِعاً ... وَٱلدَّارُ آهِلَةٌ وَٱلْحَبْلُ مُتَّصِلُ
حَدَا بِهِمْ هَادِمُ ٱللَّذَّاتِ فِيْ عَجَلٍ ... فَلَمْ يَرِيْمُوْا وَعَنْ أَحْبَابِهِمْ شُغِلُوْا
وَغَافِلٍ لَيْسَ بِٱلْمَغْفُوْلِ عَنْهُ وَإِنْ ... طَالَ ٱلْمَدَىٰ غَرَّهُ ٱلإِمْهَالُ وَٱلأَمَلُ
قُلْ لِلْحَزِيْنِ ٱلَّذِي يَبْكِيْ أَحِبَّتَهُ ... اِبْكِ لِنَفْسِكَ إِنَّ ٱلأَمْرَ مُقْتَبَلُ

وماتَ لبعضِ الخلفاءِ ولدٌ ، كانَ ألذَّ لهُ مِنَ ٱلمُنىٰ ، وأعجبَ إليهِ مِنَ ٱلعافيةِ ، وأعذبَ لديهِ مِن صوبِ الغمامِ ، فتنكَّرَ حالُهُ ، وٱمتنعَ عَنِ ٱلشَّرابِ والطعامِ ، حتَّىٰ دخلَ عليهِ بعضُهم ، فقالَ لهُ [بنحوها في « البيان والتبيين » ١/٦٠٥] : إنَّ ٱلقُرآنَ عليكم نزلَ ، فأنتمْ أعرفُ بتأويلِهِ ، وإنَّ النبيَّ مِنكم ٱبتُعِثَ ، فأنتم أعرفُ بسنَّتِهِ ، وإنَّا لا نُعلِّمُكَ شيئاً [نراكَ] جهلتَهُ ، وإنَّما نذكِّرُكَ بِما لعلَّ المصيبةَ أنستْكَ إيَّاهُ ، وهـٰذهِ الأبياتُ قالَها بعضُ مَن أصابَهُ مثلُ ما أصابَكَ ، وأنشدَ [مِنَ الطَّويلِ] :

هَلِ ٱلدَّهْرُ إِلاَّ لَيْلَةٌ وَنَهَارُهَا ... وَيَوْمٌ إِلَىٰ يَوْمٍ وَشَهْرٌ إِلَىٰ شَهْرِ
سَرَيْنَا وَأَدْلَجْنَا فَكَانَتْ رِكَابُنَا ... تَسِيْرُ بِنَا فِيْ غَيْرِ بَحْرٍ وَلاَ بَرِّ
مَنَايَا يُقَرِّبْنَ ٱلْبَعِيْدَ إِلَىٰ ٱلْبِلَىٰ ... وَيُدْنِيْنَ أَشْلاَءَ ٱلْكِرَامِ إِلَىٰ ٱلْقَبْرِ
وَيَتْرُكْنَ أَزْوَاجَ ٱلْغَيُوْرِ لِغَيْرِهِ ... وَيَقْسِمْنَ مَا بَقَّىٰ ٱلشَّحِيْحُ مِنَ ٱلْوَفْرِ (١)
لَعَمْرِيْ لَئِنْ أَتْبَعْتَ عَيْنَيْكَ مَا مَضَىٰ ... مَعَ ٱلدَّهْرِ أَوْ سَاقَ ٱلْحِمَامُ إِلَىٰ ٱلْقَبْرِ
لَتَسْتَنْفِدَنْ مَاءَ ٱلشُّؤُوْنِ بِأَسْرِهَا ... وَلَوْ كُنْتَ تُمْرِيْهِنَّ مِنْ ثَبَجِ ٱلْبَحْرِ
تَبَيَّنْ فَإِنْ كَانَ ٱلْبُكَا رَدَّ هَالِكاً ... عَلَىٰ أَحَدٍ فَٱجْهَدْ بُكَاكَ عَلَىٰ عَمْرِو
وَلاَ تَبْكِ مَيْتاً بَعْدَ مَيْتٍ أَجَنَّهُ ... عَلِيٌّ وَعَبَّاسٌ وَآلُ أَبِيْ بَكْرِ (٢)

---

(١) الوفر من المال والمتاع : الكثير الواسع .
(٢) الأبياتُ الأربعُ الأُوَلُ لأبي العتاهيَةِ في « ديوانهِ » (٥٥٢ـ٥٥٣) ، وكذا في =

وأظنُّ الأبياتَ تداخلَتْ علىٰ الزجَّاجِ ؛ فإنِّي أَحفظُها من « أَماليهِ » ، مَعَ أني رأَيتُها بعدَ ذلكَ متفرِّقةً لِغيرِ واحِدٍ ، ثمَّ قالَ لِلْخليفَةِ وهٰذا بيتٌ واحدٌ أُعزِّيكَ بهِ وهُوَ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَهَوَّنَ بَعْضَ ٱلْوَجْدِ عَنِّيَ أَنَّنِيْ ... أُجَاوِرُهُ فِي دَارِهِ ٱلْيَوْمَ أَوْ غَدَا[1]

وقد سبقَ لَنا في المجلسِ السابعِ أَنْ ذكَرنا هٰذا البيتَ ، معَ ما يناسبُهُ في الكلامِ علىٰ قولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ١٦٣ مِنَ البسيطِ] :

لَوْلاَ مُفَارَقَةُ ٱلأَحْبَابِ مَا وَجَدَتْ ... لَهَا ٱلْمَنَايَا إِلىٰ أَرْوَاحِنَا سُبُلاَ

ويروىٰ : أَنَّ الفضلَ بنَ سهلٍ أُصيبَ بِابنٍ يقالُ لَهُ العبَّاسُ ، فاْشتدَّ جزَعُهُ عليهِ ، فدخَلَ عليهِ إِبراهيمُ بنُ موسىٰ بنِ جعفرٍ العلويُّ يعزيِّهِ ، وأَنشدَهُ [مِنَ الكاملِ] :

اِصْبِرْ نَكُنْ بِكَ صَابِرِيْنَ فَإِنَّمَا ... صَبْرُ ٱلرَّعِيَّةِ بَعْدَ صَبْرِ ٱلرَّاسِ
خَيْرٌ مِنَ ٱلْعَبَّاسِ رَبُّكَ بَعْدَهُ ... وَٱللهُ خَيْرٌ مِنْكَ لِلْعَبَّاسِ

= « أمالي الزجاجي » (ص/ ١٠١) ، وآخرُ بيتين للحُطيئةِ في « ديوانهِ » (١٦٣) ، بل قال محقق « أمالي الزجاجي » (ص/ ٨-٩) عبد السلام هارون : هو عبد الله بن أراكة الثقفي وعزاه لـ : « أمالي المرتضى » و« حماسة » ابن الشجري ، وقال في « العقد » (٣/ ٣٠٦) لأراكة الثقفي ويبدو أنه الصواب .

وزادها بيتاً وهو ثالثها فصارت خمسة :

فقلت لعبد الله إذ حنَّ باكياً ... تعزَّ ، وماء العين منهمرٌ يجري

(١) جاء في « البيان والتبيين » (٤/ ٩٧) أن منشد الشعر يحيى بن منصور ، ولم يصرح بنسبته إليه .

وما أحسنَ ما قالهُ إبراهيمُ بنُ مهديٍّ ، وهوَ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَإِنِّيْ وَإِنْ قُدِّمْتِ قَبْلِي لَعَالِمٌ   بِأَنِّيْ وَإِنْ أَبْطَأْتُ عَنْكِ قَرِيبُ
وَإِنَّ صَبَاحاً نَلْتَقِيْ فِيْ مَسَائِهِ   صَبَاحٌ إِلَىٰ قَلْبِيْ ٱلْغَدَاةَ حَبِيبُ

وقالَ سلمةُ بنُ يزيدَ في رثائِهِ لمسلمَةَ بنِ مغراءَ ، وكانَ أخاً لهُ مِن أُمِّهِ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَكُنْتُ إِذَا يَنْأَىٰ بِهِ بَيْنُ لَيْلَةٍ   يَبِيتُ عَلَىٰ ٱلأَحْشَاءِ مِنْ بَيْنِهِ جَمْرُ
فَهَـٰذَا لِبَيْنٍ قَدْ عَلِمْنَا إِيَابَهُ   فَكَيْفَ لِبَيْنٍ كَانَ مَوْعِدَهُ ٱلْحَشْرُ ؟
وَهَوَّنَ وَجْدِيْ أَنَّنِيْ سَوْفَ أَغْتَدِيْ   عَلَىٰ إِثْرِهِ يَوْماً وَإِنْ نُفِّسَ ٱلْعُمْرُ

وممَّا جاءَ في مجرَّدِ التفجُّعِ ، المنادي بحقارَةِ الدنيا ، وسرعَةِ فراقِها ، ما حكاهُ الأصمعيُّ قالَ : رأيتُ ٱمرأَةً بالباديَةِ تطوفُ علىٰ راحلتِها بقبرٍ ، وهِيَ تبكي وتنشدُ [مِنَ الكاملِ] :

يَا قَبْرَ سَيِّدِنَا ٱلْمِجَنَّ سَمَاحَةً   صَلَّىٰ ٱلإِلَـٰهُ عَلَيْكَ يَا قَبْرُ
مَا ضَرَّ لَحْداً أَنْتَ سَاكِنُهُ   أَنْ لاَ يَمُرَّ بِأَرْضِهِ ٱلْقَطْرُ
فَلْيَنْبُعَنَّ سَمَاحُ جُودِكَ فِيْ ٱلثَّرَىٰ   وَلَيُورِقَنَّ بِقُرْبِكَ ٱلصَّخْرُ
وَإِذَا غَضِبْتَ تَصَدَّعَتْ فَرَقاً   مِنْكَ ٱلْجِبَالُ وَخَافَكَ ٱلذُّعْرُ[1]
وَإِذَا رَقَدْتَ فَأَنْتَ مُنْتَبِهٌ   وَإِذا ٱنْتَبَهْتَ فَوَجْهُكَ ٱلْبَدْرُ

قالَ : فأَعجبَني شِعرُها ، ودنوتُ لأسأَلَها ، فسقطَتْ مَيْتَةً ، وقد طرقَ سَمعي بعضُ هـٰذِهِ الأَبياتِ أَوْ كلُّها باللفظِ أو بالمعنىٰ ، في رثاءِ الإمامِ الغالبِ سيِّدِنا عليِّ ٱبنِ أَبي طالِبٍ .

---

(١) الذعرُ : الفزعُ .

ويروىٰ : عَنِ ٱلأصمعيِّ ـ أيضاً ـ أو عَن غيرِهِ : أَنَّ ٱمرأَةً وقفَتْ علىٰ قبرٍ ، فبكَتْ وأبكَتْ ، ثمَّ أنشأَتْ تقولُ [مِنَ الكاملِ] :

مَا حَالُ مَنْ سَكَنَ ٱلثَّرَىٰ مَا حَالُهُ ... مَا حَالُهُ ٱنْقَطَعَتْ هُنَاكَ حِبالُهُ ؟
أَمْسَىٰ وَلاَ رَوْحُ ٱلْحَيَاةِ يُصِيبُهُ ... يَوْماً وَلاَ لُطْفُ ٱلْحَبِيْبِ يَنَالُهُ
أَمْسَىٰ قَدِ ٱمْتَحَشَتْ مَحَاسِنُ وَجْهِهِ ... وَتَقَطَّعَتْ فِي لَحْدِهِ أَوْصَالُهُ
أَمْسَىٰ غَرِيْباً مُفْرَداً فِيْ حُفْرَةٍ ... وَتَشَتَّتَتْ بَعْدَ ٱلنِّظَامِ عِيَالُهُ
وَتَبَدَّلَتْ مِنْهُ ٱلْمَجَالِسُ غَيْرَهُ ... وَتَقَسَّمَتْ مِنْ بَعْدِهِ أَمْوَالُهُ

ويروىٰ : أَنَّ فاطمةَ بنتَ الحسنِ بنِ عليٍّ ، نظرَتْ إلىٰ جنازَةِ الحسنِ بنِ الحسينِ ، فأُغْشِيَ عَلَيها ، ولمَّا أَفاقَتْ . . قالَتْ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَكَانُوْا رَجَاءً ثُمَّ عَادُوْا رَزِيَّةً ... لَقَدْ عَظُمَتْ تِلْكَ ٱلرَّزَايَا وَجَلَّتِ[1]

---

(١) الرَّزايا : المصائِبُ . والمعنىٰ : أَنَّ بني هاشمٍ كانوا ملجأً للنَّاسِ في حوائِجِهم ، وغوثاً لهم في شدائِدِهم ، فلمَّا ٱستشهدوا . . صاروا مصيبةً عليهم ، فما أَشَدَّ تلكَ المصيبةَ وأَعظمَها .

وهذا البيتُ أَحدُ أَبياتٍ لسليمانَ بنِ قَتَّةَ قالَهُ في الحُسينِ ـ رَضيَ ٱللهُ عنهُ ـ وفي أَصحابِهِ حينَ ٱستُشهِدوا ، ومنَ ٱلأبياتِ كما في « ديوان الحماسة » (٣٩٩/١) :

مَرَرْتُ عَلَىٰ أَبْيَاتِ آلِ مُحَمَّدٍ ... فَلَمْ أَرَهَا أَمْثَالَهَا يَوْمَ حُلَّتِ
فَلاَ يُبْعِدِ ٱللهُ ٱلدِّيَارَ وَأَهْلَهَا ... وَإِنْ أَصْبَحَتْ مِنْهُمْ بِرَغْمِيْ تَخَلَّتِ
أَلاَ إِنَّ قَتْلَىٰ ٱلطَّفِّ مِنْ آلِ هَاشِمٍ ... أَذَلَّتْ رِقَابَ ٱلْمُسْلِمِيْنَ فَذَلَّتِ

ويروى البيت أيضاً بلفظ :

وَكَانُوْا غِيَاثاً ثُمَّ أَضْحَوْا رَزِيَّةً ... أَلاَ عَظُمَتْ تِلْكَ ٱلرَّزَايَا وَجَلَّتِ

ثمَّ ضربَتْ علىٰ قبرِهِ فسطاطاً ، أَقامَت فيهِ سنَةً ، ثمَّ ٱنصرفَتْ ، فيقالُ : إِنَّها سمعَتْ هاتفاً يقولُ : هل وَجدوا ما طَلَبوا؟ فقالَ لهُ آخرُ : بل أَيِسوا فٱنقلبُوا .

وحجَّتِ ٱمرأَةٌ مِنَ ٱلعَرَبِ ، معَها ٱبنٌ لَها أُصيبَتْ بهِ ، ولمَّا دفَنوهُ . . قامَتْ علىٰ قبرِهِ وهيَ موجَعةٌ تقولُ [في «جمهرة خطب العرب» ٣/٢٧٣] : يا بُنَيَّ ، واللهِ لقد غذوتُكَ رضيعاً ، وفقدتُكَ سريعاً ، وكأَنْ لم تكنْ بينَ الحالتينِ مدةٌ أَلتذُّ فيها بعيشِكَ ، وأَتمتَّعُ فيها بالنظرِ إِليكَ ، وما بقيَ من عمري أَذوبُ فيهِ كمداً عليكَ ، ثمَّ قالَتْ :

اللَّهُمَّ : منكَ العدلُ ، ومِن خلقكَ الجَورُ ، وهبتَهُ قُرَّةَ عينٍ لي ، فلم تمتِّعني بهِ كثيراً ، بل سلبتَنيهِ وشيكاً ، ثمَّ أَمرتَني بالصبرِ ، ووعدتَني عليهِ بالأجرِ ، فصدَّقْتُ وعدَكَ ، ورضيتُ قضاءَكَ ، فٱرحمِ ٱللهمَّ غربتَهُ ، وٱستُرْ عورتَهُ يومَ تنكشفُ العوراتُ ، وتظهرُ السَّوْءَاتُ ، ورحمَ اللهُ مَن ترحَّمَ علىٰ مَنِ ٱستودعتُهُ الردمَ ، ووسَّدْتُهُ الثرىٰ ، ثم قالَت :

أَيْ بُنَيَّ ، لقد تزودْتُ مِنَ ٱلدُّنيا لسفَري ، فليتَ شعريَ! ما زادُكَ لسفرِكَ ويومِ معادِكَ؟

اللَّهُمَّ : إني أَسأَلكَ الرضا عنهُ برضايَ عنْهُ ، ثمَّ قالَتِ :

ٱستودَعتُكَ اللهَ الذي ٱستودَعَنيكَ جنيناً في الأحشاءِ ، وأَذاقني عليكَ غصَّةَ الثكلىٰ ، وا ثُكلَ الأُمَّهاتِ ، وحرارةَ قلوبِهنَّ ، وأَطولَ سهرِهنَّ وكثرةَ عنائِهنَّ .

وذكرَ غيرُ واحدٍ : أَنَّهُ لمَّا هلكَ حنظلةُ بنُ نهدِ بنِ زيدٍ . . لم يدفَنْ ثلاثةَ أَيَّامٍ ، حتَّىٰ أَتاهُ مِن كلِّ حيٍّ وجوهُهُم ، فقامَتِ ٱلخُطباءُ بالتعزيَةِ ، وقيلَتْ فيهِ الأَشعارُ ، حتَّىٰ عُدَّ ذلكَ اليومُ من أَكبرِ مواسمِ

العرَبِ ، فلمَّا وُوْرِيَ في حفرتِهِ . . قامَ جديلَةُ بنُ أَسدِ بنِ ربيعَةَ فقالَ :

أَيُّها الناسُ ، هٰذا حنظلَةُ بنُ نهدٍ ، فَكَّاكُ الأَسيرِ ، وطارِدُ العسيرِ ، فهل منكُمُ ٱليَومَ مجازٍ بفعلِهِ ، أو حاملٌ عنهُ من ثقلِهِ ؟ كلاً ، وأَجل ، إنَّ معَ كلِّ جرعَةٍ لكم شَرَقاً ، وفي كلِّ أَكلَةٍ لَكم غُصصاً ، لا تنالونَ نعمةً إلاَّ بفراقِ أُخرىٰ ، ولا يَستقبلُ معمَّرٌ يوماً مِن عمرِهِ إلاَّ بهدْمِ آخرَ مِن أَجلِهِ ، ولا يجدُ زيادَةً في أكلِهِ إلاَّ بنفادِ ما قبلَهُ مِن رزقِهِ ، ولا يحيا لَهُ أَثَرٌ إلاَّ ماتَ أَثرٌ ، إنَّ في هٰذا لعبراً ومزدجراً لِمَن نظرَ ، لو أَصابَ أَحدٌ سُلَّماً إلىٰ البقاءِ ، ووجدَ سبيلاً عَن الفَنَاءِ . . لكانَ ٱبنَ داوودَ المقرونَ لهُ بالنبوَّةِ ، ملكَ الإِنسِ والجنِّ(١) ، ثمَّ ذكرَ شعراً طويلاً لا حاجَةَ بنا إليهِ .

وقامَ بعدَهُ ٱبنُ كُثيِّرِ بنِ عذرَةَ بنِ سعدِ بنِ تميمٍ فقالَ :

أَيُّها الناسُ ، هٰذا حنظلَةُ بنُ نهدٍ معدنُ الحُكماءِ ، وعزُّ الضعَفاءِ ، معطي ٱليانِعَ ، ومطعمُ الجائِعَ ، فهل منكُم لهُ مانعٌ ، أَو لِمَا حلَّ بهِ دافِعٌ؟!

أَيُّها الناسُ ، إنَّما البقاءُ بعدَ الفناءِ ، وقد خُلِقنا ولم نَكُ شيئاً ، وسنعودُ إلىٰ ذلكَ ، إنَّ العواريَ اليومَ ، والهباتِ غداً ، وَرِثنا مَن قَبلنا ، ولَنا وارثونَ ، ولاَ بُدَّ من رحيلٍ عَن محلٍّ نازلٍ ، وقد أَصبَحتُم في منزلٍ لا يستَتِبُّ فيهِ سرورٌ بيُسرٍ . . إلاَّ تبعَهُ حصيرٌ بعسرٍ ، ولا تطولُ فيهِ حياةٌ مَرجُوَّةٌ . . إلاَّ ٱخترمَها موتٌ مخيفٌ ، ولا يوثَقُ فيهِ بخلُقٍ باقٍ . . إلاَّ وسيتبعُهُ سابقٌ ماضٍ ، فأَنتم أَعوانٌ لِلْحتوفِ علىٰ

(١) أي : سليمان بن داوود عليهما السلام .

أَنفسِكم ، لَها بكلِّ سبسبٍ[1] مِنكم صريعٌ مجتزَرٌ ، معازِبٌ[2] منتظرٌ ، هـٰذهِ أَنفسكُم تسوقُكُم إِلىٰ العَناءِ ، فَلِمَ تطلبونَ البقاءَ؟ ٱطلبوا الخيرَ ومُوليَهُ ، وٱحذَروا الشَّرَّ ومُبديَهُ ، وٱعلموا أَنَّ خيراً مِنَ ٱلخيرِ معطيهِ ، وشرّاً مِنَ ٱلشرِّ فاعلُهُ ، ثم أَنشأَ يقولُ شعراً لا نُكثِرُ بهِ[3] .

وكتبَ القاضي الفاضلُ لأَحدِ أَبناءِ صلاحِ الدينِ الأَيوبيِّ ، حينَما ماتَ بطاقَةً يقولُ فيها [في «السير» ٢١/ ٢٩٠] : كتبتُ إِلىٰ مَولانا الظاهرِ ، أَحسنَ اللهُ عزاءَهُ ، وجبرَ مصابَهُ ، وجعلَ فيهِ الخَلَفَ في الساعَةِ التي زُلزِلَ المسلمونَ فيها زلزالاً شديداً ، وقد حَفَرتِ ٱلدموعُ المحاجِرَ ، وبلغَتِ ٱلقلوبُ الحناجِرَ ، وقد ودَّعْتُ أَباكَ ومَخدومِيَ وداعاً لا لقاءَ بعدَهُ ، وأَسلمتُهُ إِلىٰ اللهِ ، مغلوبَ الحيلَةِ ، ضعيفَ القوَّةِ ، راضياً عَنِ اللهِ تعالىٰ ، وبالبابِ من الجنودِ المجنَّدَةِ ، والأَسلحَةِ المغمَّدَةِ ، ما لا يدفَعُ بلاءَ ، ولا يرُدُّ قضاءً ، وتدْمَعُ العينُ ، ويخشعُ القلبُ ، ولا نقولُ إِلاَّ ما يُرضي الربَّ : وإِنَّا عليكَ يا يوسفُ لمحزونونَ ، وأَمَّا ما يحتاجُ إِليهِ من الوَصايا . . فقد شغلَني عنهُ المصابُ ، ولائِحُ الأَمرِ إِنَّهُ إِن وقَعَ ٱتفاقٌ . . فما عدمتُم إِلاَّ شخصَهُ الكريمَ ، وإِنْ كانَ غيرَ ذلكَ . . فالمصائِبُ المستقبلَةُ أَهونُها موتُهُ ، وهوَ الهَولُ العظيمُ .

---

(١) السبسبُ : المفازةُ .

(٢) المعازِبُ : البعيدُ .

(٣) ذكرَ الشيخُ أَبو نُعيم في «الحليةِ» (٤/ ٣١) وٱبنُ كثيرٍ في «البدايةِ والنهايَةِ» (٩/ ٢٨٢) : هذا الكلامَ الذي تقدَّمَ كُلُّهُ الذي عزاهُ الشيخُ لابنِ جديلةَ ، والذي عزاهُ إِلىٰ ٱبنِ كثيرٍ علىٰ أَنَّهُ موعظةٌ لوهبِ بنِ منبِّهٍ اهـ .

وبعضُ هٰذا ـ معَ ما سبقَ ـ ناظِرٌ إِلىٰ ما صنعَ عمرُو بنُ العاصِ ، فقد رويَ : أَنَّهُ لمَّا حضرَهُ الموتُ . . ٱستدعىٰ عساكرَهُ ، وأَمرَهم بأَنْ يستَلْئِمُوا ، وأَمرَ بالفرسانَ فرَكِبوا ، ولمَّا ٱجتمَعوا علىٰ بَكرَةِ أَبيهِم . . قالَ : لقد نزلَ بي مَن الأمرِ ما تَرونَ ، فهَل تملكونَ لي نفعاً ، أو تغنُونَ عنِّي دفعاً؟ وهوَ يعرفُ أَنَّهم لا يقدرونَ علىٰ شيءٍ ، ولٰكنَّهُ أَرادَ ٱستخراجَ العبرَةِ مِنْهم ، وأَنْ يريَهم حقارَةَ الدُّنيا ، وأَنَّ ما حُشِرَ لَهُ مِنْ جنودِ (مصرَ) الفيحاءِ لا يُغني فتيلاً ولا نقيراً مِن أَمرِ اللهِ ، فسبحانَ مَن لا يدومُ إِلاَّ ملكُهُ .

وأَلَمَّ بهِ الناظِمُ في قولِهِ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٢٧٣ ـ ٢٧٤ مِنَ الكاملِ] :

مَا زِلْتَ تَدْفَعُ كُلَّ أَمْرٍ فَادِحٍ ... حَتَّىٰ أَتَىٰ ٱلأَمْرُ ٱلَّذِيْ لاَ يُدْفَعُ
فَظَلِلْتَ تَنْظُرُ لاَ رِمَاحُكَ شُرَّعٌ ... فِيْمَا عَرَاكَ وَلاَ سُيُوْفُكَ قُطَّعُ
بِأَبِيْ ٱلْوَحِيْدُ وَجَيْشُهُ مُتَكَاثِرٌ ... يَبْكِيْ وَمِنْ شَرِّ ٱلسِّلاَحِ ٱلأَدْمُعُ

ومِن كلام قالَهُ الإِمامُ ، وهُوَ يجهِّزُ رسولَ اللهِ ﷺ [في « نهج البلاغة » ٢٧٢] : بأَبي أَنتَ وأُمِّي يا رَسولَ اللهِ ، لقدِ ٱنقطَعَ بموتِكَ ما لا ينقطِعُ بموتِ غيرِكَ من النُّبوَّةِ والأَنباءِ وأَخبارِ السماءِ ، وخُصِّصْتَ حتَّىٰ صِرْتَ مسلِّياً عمَّن سواكَ ، وعُمِّمْتَ حتَّىٰ صارَ الناسُ فيكَ سواءً ، ولولا أَنَّكَ أَمرتَ بالصبرِ ، ونهيتَ عَنِ ٱلجزَعِ . . لأَنفذْنا عليكَ ماءَ الشؤونِ ، ولكانَ الداءُ مماطلاً ، والكمدُ محالفاً ، وقلاَّ لكَ ، ولٰكنَّهُ ما لا يُملَكُ ردُّهُ ، ولا يُستَطاعُ دفعُهُ ، بأَبي أَنتَ وأُمي ، ٱذكرْنا عندَ ربِّكَ ، وٱجعَلْنا مِن بالِكَ .

ولَمَّا دُفِنَ ﷺ . . قامَ علىٰ قبرِهِ فقالَ [في « نهج البلاغة »] : إِنَّ الصبرَ لجميلٌ إِلاَّ عنكَ ، وإِنَّ الجزعَ لقبيحٌ إِلاَّ عليكَ ، وإِنَّ المُصابَ بكَ لجليلٌ ، وإِنَّهُ بعدَكَ لقليلٌ .

وإنَّهُ وايمُ اللهِ لَمِن أفصحِ الكلامِ ، أمَّا قولُهُ : إنَّ الصبرَ لجميلٌ إلاَّ عنكَ : فقد تلقَّفَهُ الشعراءُ مِنهُ ، قالَ أبو تمَّامٍ [في « ديوانِهِ » ٢/ ٣٣٩ مِنَ الطَّويلِ] :

وَقَدْ كَانَ يُدْعَىٰ لابِسُ ٱلصَّبْرِ حَازِماً   فَقَدْ صَارَ يُدْعَىٰ حَازِماً حِيْنَ يَجْزَعُ

وقالَ [في « ديوانِهِ » ٢/ ٣١ مِنَ الكاملِ] :

ٱلصَّبْـرُ أَجْمَـلُ غَيْـرَ أَنَّ تَلَـذُّذاً   فِيْ ٱلْحُبِّ أَوْلَىٰ أَنْ يَكُوْنَ جَمِيْلاَ

وقالَ الناظمُ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٢٣٣ مِنَ الكاملِ] :

أَجِدُ ٱلْجَفَاءَ عَلَىٰ سِوَاكِ مُرُوْءَةً   وَٱلصَّبْرَ إِلاَّ فِيْ نَوَاكِ جَمِيْلاَ(١)

وقالَ غيرُهُ [ـ وهو السري الرفاء ـ في « المستطرف » ٢/ ٣٩٨ مِنَ الكاملِ] :

وَٱلصَّبْرُ يُحْمَدُ فِيْ ٱلْمَوَاطِنِ كُلِّهَا   إِلاَّ عَلَيْـكَ فَـإِنَّـهُ مَـذْمُـوْمُ

وقالتِ الخنساءُ قبلَ ذلكَ [في « ديوانها » ١٢٥ مِنَ الوافرِ] :

أَلاَ يَـا صَخْـرُ إِنْ أَبْكَيْـتَ عَيْنِـيْ   فَقَـدْ أَضْحَكْتَنِـيْ دَهْـراً طَـوِيْـلاَ
بَكَيْتُـكَ فِـي نِسَـاءٍ مُعْـوِلاَتٍ   وَكُنْتُ أَحَقَّ مَنْ أَبْدَىٰ ٱلْعَوِيْلاَ
دَفَعْتُ بِكَ ٱلْجَلِيْلَ وَأَنْتَ حَيٌّ   فَمَنْ ذَا يَدْفَعُ ٱلْخَطْبَ ٱلْجَلِيْلاَ ؟
إِذَا قَبُـحَ ٱلْبُكَـاءُ عَلَـىٰ قَتِيْـلٍ   رَأَيْتُ بُكَاءَكَ ٱلْحَسَنَ ٱلْجَمِيْلاَ

وأمَّا قولُهُ(٢) : وإنَّهُ بعدَكَ لقليلٌ . . فقد سبقَ ما يناسبُهُ عندَ شرحِ قولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ١٦٣ من البسيط] :

بِمَا بِجَفْنَيْكِ مِنْ سِحْرٍ صِلِي دَنِفاً   يَهْوَىٰ ٱلْحَيَاةَ وَأَمَّا إِنْ صَدَدْتِ فَلاَ

---

(١) الجفاءُ : الامتناعُ . النوىٰ : البعدُ .
(٢) أي : الإمامِ في رثائِهِ ﷺ .

ومِن ذلكَ قولُ زيادٍ في رِثاءِ حبيبِ بنِ المهلَّبِ [مِنَ الطَّويلِ] :

سَأَبكِيكَ مَا فَاضَتْ دُمُوعِي فَإِنْ تَغِضْ   فَحَسْبُكَ مِنِّي مَا تَجُنُّ ٱلْجَوَانِحُ
كَأَنْ لَمْ يَمُتْ حَيٌّ سِوَاكَ وَلَمْ تَقُمْ   عَلَىٰ أَحَدٍ إِلاَّ عَلَيْكَ ٱلنَّوَائِحُ
لَئِنْ حَسُنَتْ فِيكَ ٱلْمَرَاثِيْ وَصَوْغُهَا   لَقَدْ حَسُنَتْ مِنْ قَبْلُ فِيكَ ٱلْمَدَائِحُ
فَمَا أَنَا مِنْ رُزْءٍ وَإِنْ جَلَّ جَازِعٌ   وَلاَ بِسُرُوْرٍ بَعْدَ مَوْتِكَ فَارِحُ[1]

وقولُهُ : (سأبكيكَ ما فاضَت دُموعي .. إلىٰ آخرِ البيتِ) مناسِبٌ لِما سبقَ عندَ شرحِ قولِهِ [في « العُكبَريّ » ١/٣١٨ مِنَ الخفيفِ] :

شَيْـبُ رَأْسِـيْ وَذِلَّتِـيْ وَنُحُـوْلِـيْ   وَدُمُـوْعِـيْ عَلَـىٰ هَـوَاكَ شُهُـوْدِيْ

وقامَ بعضُهُم عندَ قبرٍ ، فبكىٰ وٱستبكىٰ ، ثمَّ قالَ [مِنَ الطَّويلِ] :

لِمَنْ جَدَثٌ أَبْصَرْتُهُ فَشَجَانِيْ   وأَرْسَلَ فِيْ شَأْوِ ٱلْهُمُوْمِ عِنَانِيْ
وَقَفْتُ بِهِ حَيْرَانَ وَقْفَةَ هَائِمٍ   أُعَـالِـجُ قَلْبـاً دَائِـمَ ٱلْخَفَقَـانِ
وَمَا بِيَ مَنْ فِيْ ٱلْقَبْرِ لَكِنْ رَأَيْتُهُ   عَلَـىٰ كَمَـدٍ لاَ بُـدَّ فِيْـهِ أَرَانِـيْ

وقد لَهِجَ أبو الفضْلِ ٱبنُ العميدِ ، قبلَ نكبتِهِ التي قتلَ فيها ، بهٰذينِ البيتينِ [مِنَ الرَّمَلِ] :

سَكَـنَ ٱلـدُّنْيَـا أُنَـاسٌ قَبْلَنَـا   رَحَلُـوْا عَنْهَـا وَخَلَّـوْهَـا لَنَـا
وَنَـزَلْنَـاهَـا كَمَـا قَـدْ نَـزَلُـوْا   وَنُخَلِّيْهَـا لِقَـوْمٍ بَعْـدَنَـا

وهي شبيهَةٌ بما سبقَ أوائِلَ المجلسِ ، عَن عديِّ بنِ زيدٍ بلسانِ الآرامِ . ولي في الموضوعِ الكثيرُ الطيِّبُ ، منهُ قولي [في « ديوان المؤلف » ق ١١٦ مِنَ الطَّويلِ] :

لَقَدْ أَبْلَغَتْ دُنْيَاكُمُ فِيْ عِظَاتِهَا   إِلَيْكُـمْ فَهَـلاً يَسْتَجِيْـبُ سَمِيْـعُ

---

(١) الأبيات لأشجع السلمي في « ديوان الحماسة » (١/ ٣٥٥).

فَكَمْ قَلَبَتْ ظَهْرَ ٱلْمِجَنِّ لأُمَّةٍ ؟ وَيَا رُبَّ شَمْلٍ عَادَ وَهُوَ صَدِيعُ
وَسَبْعُ ٱلثُّرَيَّا آيِلاَتٌ إِلَىٰ ٱلنَّوَىٰ وَإِنْ طَالَتِ ٱلأَيَّامُ وَهِيَ جَمِيعُ

والكلامُ في ذمِّ الدنيا ، وسرعَةِ فنائِها ، وكثرَةِ عنائِها ، والتواءِ أمورِها ، وترادُفِ شرورِها ، ووشيكِ ٱنحلالِها ، وتقارُبِ زوالِها . . ما تئِطُّ منهُ بطونُ الأَسفار[1] ، ويتذكَّرُ لأَقلِّهِ أُولوا الأَبصارِ ، ومِن كونِهِ موضعَ ٱتفاقٍ بينَ الأُمَمِ . . لَم يكفِ ٱلاقتصارُ عليهِ في الخُطَبِ الجُمَعِيَّةِ ، كَما هُوَ مذكورٌ في المتونِ ، وربَّما يكونُ بعضُ ما سقناهُ في الكلامِ علىٰ بيتِ المَطْلعِ أَليَقَ بما يلي ، غيرَ أَنَّ الأَبياتَ آخذَةٌ برقابِ بعضِها بعضاً ، فلا بِدْعَ أَنْ كانَ الكلامُ عَليها مِن نوعٍ واحدٍ .

* * *

(١) الأَطيطُ : صوتُ الرِّحالِ إذا ثَقُلَ عليها الرُّكبانُ ، وهوَ هنا كنايةٌ عَن وفرة الكلام في ذم الدنيا في كتب الأقدمين .

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَريِّ » ٢/ ٣٣٤ مِنَ الكاملِ] :

أَيْنَ ٱلأَكَاسِرَةُ ٱلجَبَابِرَةُ ٱلأُلَىٰ	كَنَزُوْا ٱلْكُنُوْزَ فَمَا بَقِيْنَ وَلاَ بَقُوْا

سبحان الدائم الباقي

توضيحٌ لسابقِهِ وتفريعٌ عليهِ ، وفي وَهمي أَنْ قد أَشرتُ مرَّةً إلىٰ حديثِ ٱبنِ الخطَّابِ ، وما تمثَّلَ بهِ مِنَ الأَبياتِ ، ولا بأْسَ بإِعادَتِهِ ؛ إِذ لم أَكُنْ علىٰ يقينٍ مِن ذكرِهِ ، فضلاً عَنِ ٱستيفائِهِ ، وحاصلُهُ : أَنَّهُ حجَّ . . فلمَّا كانَ بـ(ضَجْنَانَ)[1] قالَ : لا إِلٰهَ إِلاَّ اللهُ العليُّ العظيمُ ، المعطي ما يشاءُ لِمَن يشاءُ ، لَقد كنتُ أَرعىٰ للخطَّابِ بهٰذا الوادي مع أُخيَّةٍ لي ، في مدارعِ الصوفِ ، وكانَ فظّاً ، يُتعِبُنا إِذا عمِلنا ، ويضربُنا إِذا قصَّرنا ، وقد أَمسيتُ اليومَ وما بَيني وبينَ اللهِ أَحدٌ ، ثمَّ أَنشدَ متمثِّلاً [الأبيات في « الأغاني » ٣/ ١٢١ وهي لورقة بن نوفل مِنَ البسيطِ] :

لاَ شَيْءَ مِمَّا تَرَىٰ تَبْقَىٰ بَشَاشَتُهُ	يَبْقَىٰ ٱلإِلٰهُ وَيُوْدَىٰ ٱلْمَالُ وَٱلْوَلَدُ
لَمْ تُغْنِ عَنْ هُرْمُزٍ يَوْماً خَزَائِنُهُ	وَٱلْخُلْدَ قَدْ حَاوَلَتْ عَادٌ فَمَا خَلَدُوْا
وَلاَ سُلَيْمَانَ إِذْ تَجْرِيْ ٱلرِّيَاحُ لَهُ	وَٱلإِنْسُ وَٱلْجِنُّ فِيْمَا بَيْنَهَا بَرَدُ[2]
أَيْنَ ٱلْمُلُوْكُ ٱلَّتِيْ كَانَتْ مَنَازِلُهَا	مِنْ كُلِّ أَوْبٍ إِلَيْهَا رَاكِبٌ يَفِدُ ؟
حَوْضٌ هُنَالِكَ مَوْرُوْدٌ بِلاَ كَذِبٍ	لاَ بُدَّ مِنْ وِرْدِهِ يَوْماً كَمَا وَرَدُوْا

يا ابن آدم . . إنك سائر إلى قبرك فتنبَّه

وقالَ ٱبنُ أَبي طالِبٍ [في « نهج البلاغة » ٢٦٦] : وٱعلَموا أَنَّكم علىٰ

---

(١) جبلٌ بناحيةِ (تهامةَ) .

(٢) البيت في « الأغاني » :

ولا سليمــان إذ دان الشعــوب لــه	والجنُّ والإنسُ تجري بينها البُرُدُ

سبيلِ مَن مضىٰ قبلَكم ، مِمَّن كانَ أطولَ أعماراً ، وأَعْمَرَ دياراً ، وأبعدَ آثاراً ، أَصبحَتْ أَصواتُهم هامدةً ، ورياحُهُم راكدَةً ، وديارُهم خاليَةً ، وأَجسامُهم باليَةً ، قَدِ ٱستبدَلوا القصورَ بالقبورِ ، والنمارِقَ بالصخورِ ، وكَأَنْ قَد صِرتُم إِلىٰ ما صاروا إِليهِ ، فٱرتهنكُم ذلكَ المضجَعُ ، وضمَّكُم ذلكَ المستودَعُ ، فكيفَ لَو تناهَتِ ٱلأمورُ ، وبُعثِرَتِ ٱلقبورُ ، ورُدُّوا إِلىٰ اللهِ مولاهم الحقِّ ، وضَلَّ عَنْهُم ما كانوا يفترونَ .

واللهُ جلَّ شأنُهُ يقولُ : ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾

[السجدة : ٢٦] .

ويقولُ : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ [مريم : ٩٨] .

ويقولُ : ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

[العنكبوت : ٤٠] .

ويقولُ : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴾ [الأنعام : ٦] .

ويقولُ : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾

[القصص : ٥٨] .

ويقولُ: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾[يس: ٣١] .

والآياتُ في الاعتبارِ بالقرونِ الماضيةِ أكثرُ مِن أَنْ تحصرَ .

وقالَ الشريفُ الرضيُّ [في « ديوانِهِ » ٢/ ٨٧٧-٨٨٠ مِنَ الخفيفِ] :

مَـا أَقَـلَّ ٱعتِبَـارَنَـا بِـٱلـزَّمَـانِ ... وَأَشَـدَّ ٱغْتِـرَارَنَـا بِـٱلأَمَـانِـيْ
وَقفَـاتٌ عَلَـىٰ غُـرُوْرٍ وَأَقْـدَا ... مٌ عَلَـىٰ مَزْلَـقٍ مِـنَ ٱلحَـدَثَـانِ
كُـلَّ يَـوْمٍ رَزِيَّـةٌ بِفُـلاَنٍ ... وَوُقُـوْعٌ مِـنَ ٱلـرَّدَىٰ بِفُـلاَنِ
قَدْ مَرَرْنَا عَلَىٰ ٱلدِّيَارِ خُشُوْعاً ... وَرَأَيْنَـا ٱلْبِنَـا فَـأَيْـنَ ٱلْبَـانِـيْ ؟
أَيْنَ رَبُّ ٱلسَّدِيْرِ فَٱلْحِيْرَةِ ٱلْبَيْـ ... ـضَاءِ أَمْ أَيْنَ صَاحِبُ ٱلإِيْوَانِ ؟!
وَٱلسُّيُوْفُ ٱلْحِدَادُ مِنْ آلِ بَدْرٍ ... وَٱلْقَنَا ٱلصُّمُّ مِنْ بَنِيْ ٱلرَّيَّانِ
وَٱلْمَوَاضِيْ مِنْ آلِ جَفْنَةَ أَرْسَىٰ ... طُنُباً مُلْكُهُمْ عَلَىٰ ٱلْجَوْلاَنِ(١)
تَتَـرَاءَاهُـمُ ٱلْـوُفُـوْدُ بَعِيْـداً ... ضَـارِبِيْـنَ ٱلصُّـدُوْرَ بِـٱلأَذْقَـانِ
فِيْ رِيَاضٍ مِنَ ٱلسَّمَاحِ غَوَانٍ ... وَجِبَـالٍ مِـنَ ٱلحُلُـوْمِ رِزَانِ
وَهُـمُ ٱلْمَـاءُ لَـذَّ لِلنَّـاهِلِ ٱلظَّمْـ ... ـآنِ بَـرْداً وَٱلنَّـارُ لِلْحَيْـرَانِ
مَا ثَنَتْ عَنهُمُ ٱلْمَنُوْنُ يَداً شَوْ ... كَـاءَ أَطْـرَافُهَـا مِـنَ ٱلْمُـرَّانِ(٢)
عَطَـفَ ٱلـدَّهْـرُ فَـرْعَهُـمْ فَـرَآهُ ... بَعْدَ بُعْدِ ٱلذُّرَىٰ قَرِيْبَ ٱلْمَجَانِيْ
وَثَنَتْهُـمْ بَعْـدَ ٱلْجِمَـاحِ ٱلْمَنَـايَـا ... فِـيْ عِنَـانِ ٱلتَّسْلِيْـمِ وَٱلإِذْعَـانِ
لَيْسَ يَبْقَىٰ عَلَىٰ ٱلزَّمَانِ جَرِيْءٌ ... فِـيْ إِبَـاءٍ أَوْ عَـاجِـزٌ فِـيْ هَـوَانِ

وقالَ [في « ديوانِهِ » ٢/ ٣٨١-٣٨٢ مِنَ الكاملِ] :

أَوَ مَـا رَأَيْـتَ وَقَـائِـعَ ٱلـدَّهْـرِ ... أَفَـلاَ تُسِـيْءُ ٱلظَّـنَّ بِـٱلْعُمْـرِ
بَيْنَـا ٱلْفَتَـىٰ كَـٱلطَّـوْدِ تَكْنُفُـهُ ... هَضَبَـاتُـهُ وَٱلْعَضْـبُ ذُوْ ٱلأَثْـرِ

---

(١) الطُّنبُ : حَبلُ الخباءِ . الجَوْلانُ : جبل بالشام معروف يقع جنوب غرب سورية .

(٢) المُرَّانُ : الرماحُ الصلبةُ .

يَـأْبَىٰ ٱلـدَّنِيَّـةَ فِـيْ عَشِيْـرَتِـهِ   وَيُجَاذِبُ ٱلأَيْدِي عَلَىٰ ٱلْفَخْرِ
زَلَّ ٱلـزَّمَـانُ بِـوَطْءِ أَخْمَصِـهِ   وَمَـواطِـىءُ ٱلأَقْـدَامِ لِلْعَثْـرِ
ثُـمَّ ٱنْثَنَـتْ كَـفُّ ٱلْمَنُـوْنِ بِـهِ   كَٱلضِّغْثِ بَيْنَ ٱلنَّابِ وَٱلظُّفْرِ (١)
جَمَـعَ ٱلْجُنُـوْدَ وَرَاءَهُ وَكَـأَنَّمَـا   لاَقَتْـهُ وَهْـوَ مُضَيَّـعُ ٱلظَّهْـرِ
وَبَنَىٰ ٱلْحُصُوْنَ تَمَنُّعَاً فَكَأَنَّمَا   أَمْسَـىٰ بِمَضْيَعَـةٍ وَلاَ يَـدْرِيْ

ويروىٰ عَن أَبي الدرداءِ [بنحوه في «حلية الأولياء» ١/٢١٣] : أَنَّهُ قامَ علىٰ درجِ المسجدِ ، فقالَ : يا أَهلَ (دمشقَ) ، أَلا تسمعونَ مِن أَخٍ ناصحٍ لكُم؟ إِنَّ مَن كانَ قبلَكم جَمَعوا كثيراً ، وبَنَو مشيداً ، وأَمَّلوا بعيداً ، فأَصبحَ جمعُهم بُوراً ، وبنيانُهم قبوراً ، وأَملُهم غروراً ، وملكُهم هباءً منثوراً ، هـٰذهِ عادٌ قد ملأَتِ ٱلبلادَ أَهلاً ومالاً ، وخيلاً ورِجالاً ، فمَن يشتري تركاتِهم اليومَ بدرهمينِ؟!

لا يدوم إلا الحيُّ القيوم

وكم رأَينا في تصاريفِ الأَيَّامِ مِن والٍ عَزلَتْ ، وعالٍ أَنزلَتْ ، وحكيمٍ زَلزلَتْ ، ولَو أَردنا أن نُفِيضَ فيمَن سقاهُمُ الدهرُ كأْسَهُ ، وجرَّعَهُم بأْسَهُ ، وضرَبَ عليهم جرانَهُ ، وأَنزلَ بِهم حدثانَهُ . . لأَحْوَجَ ما رأَيناهُ بعيونِنا ، وسمعناهُ من قريبِ زمانِنا ، إِلىٰ تأْليفٍ مخصوصٍ .

ومرَّ في أَواخرِ المجلسِ الثاني ما يتصِلُ بالموضوعِ ، مع الإِحالَةِ علىٰ ما هنا .

تقلُّب أحوال الدنيا في الناس

وقد فتحَ (الأَندلُسَ) موسىٰ بنُ نُصَيْرٍ ، فكانَتِ ٱلْغَنَائِمُ تُحمَلُ إِليهِ ، فيَرمي بالذهَبِ رميه الحجارَةَ ، ولا يلتقِطُ إِلاَّ ما كانَ مِن خالِصِ الجوهَرِ ، ثمَّ لَم تطلِ الأَيَّامُ . . حتَّىٰ ماتَ يسأَلُ النَّاسَ بمنىً ، علىٰ ما في بعضِ الرواياتِ .

---

(١) الضِّغثُ : قبضةُ حشيشٍ مختلطةُ الرطبِ باليابسِ .

ولمَّا زرتُ (قيدونَ) في سنةِ : (١٣٢٩هـ) دخلَ عليَّ جماعَةٌ مِن آلِ العموديِّ ، لا يقِلُّونَ عَن خمسينَ ، في غررٍ مليحَةٍ ، ووجوهٍ صبيحَةٍ ، وقاماتٍ مديدَةٍ ، وأجسامٍ شديدَةٍ ، وأفكارٍ بعيدَةٍ ، ولمَّا سألتُهم عَن حالِهم . . ذكروا ما كانَ لَهم من بسطَةٍ وصولَةِ الملكِ في سائرِ بلادِ (دوعَنَ) ، ثمَّ ما ضرَبَ علىٰ أيديهِمُ ٱلدَّهْرُ ، وٱستردَّتْ ما أعطتْهُم الأيَّامُ ، وما زالوا يشرحونَ لي الحالَ ، ويكثرونَ مِنَ ٱلتَّألُّمِ ، ويلتمسونَ مني الدعاءَ . . حتَّىٰ ٱغرورقَتْ عينيَّ ، وتندَّىٰ خدِّي ، ولمَّا رآني أحدُهم بتلكَ الرِّقَةِ . . قالَ : لا تحزَنْ ، فقد كنَّا واللهِ أهلاً لِمَا نزلَ بنا ، وما أصابَنا إنَّما هوَ بما كسبتْهُ أيدينا ، فقد ولاَّنا اللهُ ولايةً لم نُحسِنْ سياستَها ، بل أبدَلْنا العدلَ جوراً ، والحِلْمَ جهلاً ، ولم نشكرِ النعمةَ ، فسُلِبَتْ عنَّا .

وما أخذَها إلاَّ من قولِ يحيىٰ البرمكيِّ ، وقد سألَهُ الفضلُ في محبسِهِ عن أسبابِ نكبتِهم ، فإنَّهُ قالَ [بنحوه في « السير » ٩/٦١] : ليسَتْ إلاَّ دعوةَ مظلومٍ سرَتْ بليلٍ ونحنُ نائمونَ .

وقدِ ٱتفقَ أن تقوَّضَ علىٰ يدِ فحلِ (حضرموتَ) ـ السلطانِ عوضِ بنِ عمرَ القعيطي ـ عدَّةُ دولٍ في عهدٍ قريبٍ :

مِنها : دولَةُ آلِ العموديِّ المذكورينَ ، ودولَةُ آلِ بُرَيكٍ ، ودولَةُ النقيبِ الكساديِّ ، ودولَةُ آلِ عمرَ باعمرَ ، ودولَةُ العولقيِّ ، ودولَةُ بنِ مساعدٍ ، ودولَةُ منصورِ بنِ عمرَ الكثيريِّ ، وغيرُهم .

الدنيا دولاب يدور

وما أحسنَ قولَ بعضِهم وقد مرَّ بديارِ قومٍ كرامٍ ، كانوا . . فبانوا [كما في « المستطرف » ٢/٦٠٧ مِنَ البسيطِ] :

هَـٰذِيْ مَنَـازِلُ أَقْـوَامٍ عَهِـدْتُهُـمُ ... يُوْفُوْنَ بِٱلْعَهْدِ مُذْ كَانُوْا وَبِٱلذِّمَمِ
تَبْكِيْ عَلَيْهِمْ دِيَارٌ كَانَ يُطْرِبُهَا ... تَرَنُّمُ ٱلْمَجْدِ بَيْنَ ٱلْجُوْدِ وَٱلْكَرَمِ

وقالَ أَحدُ بني أُميَّةَ ، وهوَ الأَبيورديُّ [في «ديوانهِ» ٥٨٦ـ٥٨٧ مِنَ الطَّويلِ] :

مَلَكْنَا أَقَالِيمَ ٱلْبِلاَدِ فَأَذْعَنَتْ … لَنَا رَغْبَةً أَوْ رَهْبَةً عُظَمَاؤُهَا
فَلَمَّا ٱنْتَهَتْ أَيَّامُنَا عَلِقَتْ بِنَا … شَدَائِدُ أَيَّامٍ قَلِيلٌ رَخَاؤُهَا
وَكَانَ إِلَيْنَا فِيْ ٱلسُّرُوْرِ ٱبْتِسَامُهَا … فَصَارَ عَلَيْنَا فِيْ ٱلْهُمُوْمِ بُكَاؤُهَا
وَصِرْنَا نُلاَقِيْ ٱلنَّائِبَاتِ بِأَوْجُهٍ … رِقَاقِ ٱلْحَوَاشِيْ كَادَ يَقْطُرُ مَاؤُهَا
إِذَا مَا هَمَمْنَا أَنْ نَبُوْحَ بِمَا جَنَتْ … عَلَيْنَا ٱللَّيَالِيْ لَمْ يَدَعْنَا حَيَاؤُهَا

وأَشهدُ باللهِ إِنَّهُ لَمِن صريحِ القولِ ، ونادرِ الشعرِ ، ومنقَّحِ الكلامِ .

ويُحكىٰ : أَنَّهُ لمَّا فرغَ فخرُ الدولَةِ بنُ بُوَيْهِ مِنَ ٱلقلعَةِ التي ٱستحدثَها علىٰ جبلِ طبرَك . . نزلَ بها مرتاحاً ، فٱشتهىٰ طرائِحَ لحمِ البقَرِ ، فنُحِرَتْ واحدَةٌ مِنها بينَ يديهِ ، وطَفِقَ أَصحابُهُ يطبخونَ لَهُ مِن أَطائِبِها ، وهوَ ينالُ مِنها ، ويأْكُلُ مِن عناقيدِ الكرمِ ، ويشرَبُ مِنَ ٱلكؤُوسِ ، فلم يلبَثْ أَنْ لَوىٰ عليهِ جوفُهُ ، وٱتصلَ علىٰ الأَلَمِ صوتُهُ ، إِلىٰ أَن جثَمَ عليهِ موتُهُ ، فقالَ أَبو الفرجِ الساويُّ [في «قرى الضيف» ٣/٤٥٨ مِنَ الوافرِ] :

هِيَ ٱلدُّنْيَا تَقُوْلُ بِمِلْءِ فِيْهَا … حَذَارِ حَذَارِ مِنْ بَطْشِيْ وَفَتْكِيْ
وَلاَ يَغْرُرْكُمُ حُسْنُ ٱبْتِسَامِيْ … فَقَوْلِيْ مُضْحِكٌ ، وَٱلْفِعْلُ مُبْكِيْ
بِفَخْرِ ٱلدَّوْلَةِ ٱعْتَبِرُوْا فَإِنِّيْ … أَخَذْتُ ٱلْمُلْكَ مِنْهُ بِسَيْفِ هُلْكِ
فَأَمْسَىٰ بَعْدَ مَا قَرَعَ ٱلْبَرَايَا … أَسِيْرَ ٱلْقَبْرِ فِيْ ضِيْقٍ وَضَنْكِ
أُقَدِّرُ أَنَّهُ لَوْ عَادَ يَوْماً … إِلَىٰ ٱلدُّنْيَا تَسَرْبَلَ ثَوْبَ نُسْكِ
دَعِيْ يَا نَفْسُ فِكْرَكِ فِيْ مُلُوْكٍ … مَضَوْا وَعَلَىٰ ٱلَّذِيْ قَدَّمْتِ فَٱبْكِيْ

هِيَ ٱلدُّنْيَا كَمِثْلِ ٱلطِّفْلِ بَيْنَا ... يُقَهْقِهُ إِذْ بَكَىٰ مِنْ بَعْدِ ضِحْكِ
أَلاَ يَا قَوْمَنَا ٱنْتَبِهُوْا فَإِنَّا ... نُحَاسَبُ فِيْ ٱلْقِيَامَةِ دُوْنَ شَكِّ

أَلا أَينَ أَربابُ الحصونِ ، والمالِ المصونِ؟

أينَ مَن مَلؤُوا الخزائِنَ ، وشيَّدُوا المدائِنَ ، وراضوا الصِّعابَ ، وأَخضعوا الرقابَ؟

لَقد أَسرهُم هاذِمُ اللذَّاتِ ، ومفرِّقُ الجماعاتِ ، فأَيَّموا[1] النسوانَ ، وأَيتموا الولدانَ ، ودَخلوا في خبرِ كانَ [قيل مِنَ البسيطِ] :

أَمَا سَمِعْتَ بِأَمْلاَكٍ مَضَوْا أَمَماً ... شُمِّ ٱلأُنُوْفِ بِرَوْضِ ٱلْمُلْكِ قَدْ عَرَشُوْا
إِنْ دُوفِعُوْا دَفَعُوا أَوْ زُوْحِمُوْا زَحَمُوْا ... أَوْ غُولِبُوْا غَلَبُوْا أَوْ بُوْطِشُوْا بَطَشُوْا
جَاءَتْهُمُ وَجُنُوْدُ ٱللهِ غَالِبَةٌ ... كَتَائِبٌ لِلْمَنَايَا مَا بِهَا دَهَشُ

وما أَحسنَ قولَ كثيِّرٍ أَو غيرِهِ [كما في « البيان والتبيين » ١/ ٤٧٧ مِنَ الطَّويلِ] :

وَنُحْدِثُ رَوْعَاتٍ لَدَىٰ كُلِّ فَزْعَةٍ ... وَنُسْرِعُ نِسْيَاناً وَمَا جَاءَنَا أَمْنُ
كَأَنَّا ـ وَلاَ كُفْرَانَ للهِ رَبِّنَا ـ ... لَكَٱلْبُدْنِ ، لاَ تَدْرِيْ مَتَىٰ يَوْمُهَا ٱلْبُدْنُ

وقالَ أَبو عبادَةَ [في « ديوانه » ٣/ ١٥٧٤ مِنَ الكاملِ] :

نَلْقَىٰ ٱلْمَنُوْنَ حَقَائِقاً وَكَأَنَّنَا ... مِنْ غِرَّةٍ نَلْقَىٰ بِهِنَّ شُكُوْكَا[2]

وفي سياقٍ لِلسانِ الدينِ بنِ الخطيبِ ـ ما معناهُ إن أخطأْتُ لفظَهُ ـ [في « نفح الطيب » ٦/ ٣٢٤] : يا مشتغلاً بدارِهِ ، ورَمِّ جدارِهِ عَنْ إسراعِهِ إلىٰ النجاةِ وبِدارِهِ ، يا مَن أَنذَرَهُ شيبُ عذارِهِ ، وأَثقلَهُ حمْلُ أَوزارِهِ ،

---

(١) الأَيِّمُ مِنَ النساءِ : من لا زوجَ لها ، بكراً كانت أم ثيباً .
(٢) الغِرَّةُ : الغفلةُ .

يا مُعتَلِفاً ينتظِرُ هجومَ جزَّارِهِ ، يا مختلِساً يهابُ تفتيشَ ما تحتَ إزارِهِ ، كأنِّي بكَ قد أوثقَكَ الشدُّ ، وجزرَ منكَ المدُّ ، واليمينُ تنقبِضُ ، والأُخرىٰ تُمَدُّ ، واللسانُ يَقولُ : يا لَيتَنا نُرَدُّ .

وقالَ أَبو العاليَةِ [مِنَ الكاملِ] :

أَيْنَ ٱلأُولَىٰ كَنَزُوْا ٱلذَّخَائِرَ وَٱبْتَنَوْا   تِلْكَ ٱلْمَصَانِعَ وَٱلْقُصُوْرَ ٱلْعَالِيَهْ ؟
دَرَجُوْا فَأَصْبَحَتِ ٱلْمَنَازِلُ مِنْهُمُ   عُطْلاً وَأَصْبَحَتِ ٱلْمَسَاكِنُ خَالِيَهْ

وقالَ بعضُهُم [مِنَ الطَّويلِ] :

مَضَىٰ قَبْلَنَا قَوْمٌ رَجَوْا أَنْ يُقَوِّمُوْا   بِـلاَ تَعَـبٍ عَيْشـاً فَلَـمْ يَتَقَـوَّمَـا

وقالَ آخرُ [مِنَ السَّريعِ] :

عِشْ مُوْسِراً فِيْ ٱلنَّاسِ أَوْ مُعْسِراً   لاَ بُـدَّ فِـيْ ٱلـدُّنْيَـا مِـنَ ٱلْغَـمِّ
وَكُلَّمَـــا زَادَكَ مِـــنْ نِعْمَـــةٍ   زَادَ ٱلَّـــذِيْ زَادَكَ فِـــيْ ٱلْهَـــمِّ

وقالَ آخرُ [مِنَ السَّريعِ] :

أُفٍّ مِـنَ ٱلـدُّنْيَـا وَأَسْبَـابِهَـا   فَـــإِنَّهَـــا لِلْهَـــمِّ مَخْلُـــوْقَـــهْ
هُمُـوْمُهَـا مَـا تَنْقَضِـيْ سَـاعَـةً   عَـنْ مَلِـكٍ فِيْهَـا وَلا سُـوْقَـهْ

ويعجبُني في الموضوعِ رثاءُ أبي البقاءِ لـ(الأَندلُسِ) ، وٱبنُ اللَّبَّانَةِ لِبَني عبَّادٍ ، وأَصلُهُ شعرُ عديِّ بنِ زيدٍ العباديِّ ، الذي يقولُ فيهِ يونسُ بنُ حبيبٍ النحويُّ [في « طبقات فحول الشعراء » ١/١٤١] : لو تمنَّيتُ أَن أَقولَ الشعرَ . . لَما تمنَّيتُ أَنْ أَقولَ إلاَّ مثلَ قولِ عديِّ بنِ زيدٍ العباديِّ [مِنَ الخفيفِ] :

أَيُّهَـا ٱلشَّـامِـتُ ٱلْمُعَيِّرُ بِـٱلدَّهْـ   ـرِ أَأَنْـتَ ٱلْمُبَـرَّأُ ٱلْمَـوْفُـوْرُ ؟
أَمْ لَدَيْكَ ٱلْعَهْدُ ٱلْقَدِيْمُ مِنَ ٱلأَيَّـ   ـامِ بَـلْ أَنْـتَ جَـاهِـلٌ مَغْـرُوْرُ

مَنْ رَأَيْتَ ٱلْمَنُوْنَ جازَتْهُ أَمْ مَنْ ذَا عَلَيْهِ مِنَ أَنْ يُضَامَ خَفِيْرُ[1] ؟
أَيْنَ كِسْرَىٰ كِسْرَىٰ ٱلْمُلُوْكِ أَنُوْشَرْ وَانَ بَلْ أَيْنَ قَبْلَهُ سَابُوْرُ ؟
وَبَنُوْ ٱلأَصْفَرِ ٱلْكِرَامُ مُلُوْكُ ٱلـ ـرُّوْمِ لَمْ يَبْقَ مِنْهُمُ مَذْكُوْرُ
وَأَخُوْ ٱلْحَضْرِ إِذْ بَنَاهُ وَإِذْ دِجْـ ـلَةُ تُجْبَىٰ إِلَيْهِ وَٱلْخَابُوْرُ
شَادَهُ مَرْمَراً وَجَلَّلَهُ كِلْـ ـساً فَلِلطَّيْرِ فِيْ ذُرَاهُ وُكُوْرُ[2]
لَمْ يَهَبْهُ رَيْبُ ٱلزَّمَانِ فبَادَ ٱلْـ ـمُلْكُ عَنْهُ فَبَابُهُ مَهْجُوْرُ
وَتَذَكَّرْ رَبَّ ٱلْخَوَرْنَقِ إِذْ أَشْـ ـرَفَ يَوْماً وَلِلْهُدَىٰ تَذْكِيْرُ[3]
سَرَّهُ مُلْكُهُ وَكَثْرَةُ مَا يَمْـ ـلِكُ وَٱلْبَحْرُ مُعْرِضاً وَٱلسَّدِيْرُ[4]
فَٱرْعَوَىٰ قَلْبُهُ فَقَالَ وَمَا غِبْـ ـطَةُ حَيٍّ إِلَىٰ ٱلْمَمَاتِ يَصِيْرُ
ثُمَّ بَعْدَ ٱلْفَلاَحِ وَٱلْمُلْكِ وَٱلإِمَّـ ـةِ وَارَتْهُمُ هُنَاكَ ٱلْقُبُوْرُ[5]
ثُمَّ صَارُوا كَأَنَّهُمْ وَرَقٌ جَفـ ـفَ فَأَلْوَتْ بِهِ ٱلصَّبَا وَٱلدَّبُوْرُ[6]

وقالَ الشعبيُّ : ما أرىٰ لَنا ولِلدنيا مثلاً . . إلاَّ قولَ كثيِّرٍ [في «ديوانه» ٦٩ مِنَ الطَّويلِ] :

أَسِيئِيْ بِنَا أَوْ أَحْسِنِيْ لاَ مَلُوْمَةً لَدَيْنَا وَلاَ مَقْلِيَّةً إِنْ تَقَلَّتِ

---

(١) الخفيرُ : المجيرُ .
(٢) المرمَرُ : الرُّخامُ .
(٣) الخورنقُ : أسمُ قصرٍ في (العراقِ) ، فارسيٌّ مُعَرَّبٌ ، بناهُ النُّعمانُ الأكبرُ الذي يقالُ لهُ : الأعورُ ، وهوَ الذي لبسَ المسوحَ ، فساحَ في الأرضِ .
(٤) البحرُ : يراد به هنا الفراتُ . السَّديرُ : نهر بـ(الحيرةِ) .
(٥) الإِمَّةُ : الحالةُ .
(٦) ألوَتْ به : ذهبتْ بهِ . الصَّبا : ريحٌ ومهبُّها المستوي أن تهبَّ من مطلع الشمسِ إذا ٱستوىٰ الليلُ والنهارُ . الدَّبُورُ : هي الريحُ التي تقابلُ الصَّبا .

وقالَ أَبو العتاهيَةِ [في « ديوانه » ٣٧٣ مِنَ الخفيفِ] :

كُلُّنَا يُكْثِرُ ٱلْمَذَمَّةَ لِلدُّنْـ ... ـيَا وَكُلٌّ بِحُبِّهَا مَفْتُوْنُ

وقالَ أَبو نواسٍ [وهو لسليمان بن يزيد العدوي من قصيدة له شائعة ، كما في « روضة العقلاء » ٢٧٩ مِنَ الطَّويلِ] :

يَذُمُّوْنَ دُنْيَا لاَ يُرِيحُوْنَ دَرَّهَا ... وَلَمْ أَرَ كَالدُّنْيَا تُذَمُّ وَتُحْلَبُ

وقالَ سابقٌ البربريُّ [في « فصل المقال في شرح كتاب الأمثال » ١/ ٣٢٣ مِنَ البسيطِ] :

النَّفْسُ تَكْلَفُ بِٱلدُّنْيَا وَقَدْ عَلِمَتْ ... أَنَّ ٱلسَّلاَمَةَ مِنْهَا تَرْكُ مَا فِيْهَا[١]

وقد سبقَ في شرحِ البيتِ الذي قبلَ ما نحنُ فيهِ قولُ الناظِمِ [في « العُكبريّ » مِنَ الخفيفِ] :

وَهِيَ مَعْشُوْقَةٌ عَلَىٰ ٱلْغَدْرِ لاَ تَحْـ ... ـفَظُ عَهْداً وَلاَ تُتَمِّمُ وَصْلاَ

---

(١) وقبلَهُ :

أَمْوَالُنَا لِذَوِيْ ٱلْمِيْرَاثِ نَجْمَعُهَا ... وَدُوْرُنَا لِخَرَابِ ٱلدَّهْرِ نَبْنِيْهَا

وبعدَهُ :

فَلاَ ٱلإِقَامَةُ تُنْجِيْ ٱلنَّفْسَ مِنْ تَلَفٍ ... وَلاَ ٱلْفِرَارُ مِنَ ٱلأَحْدَاثِ يُنْجِيْهَا
وَكُلُّ نَفْسٍ لَهَا زَوْرٌ يُصَبِّحُهَا ... مِنَ ٱلْمَنِيَّةِ يَوْماً أَوْ يُمَسِّيْهَا

ومِمَّا يناسبُ الموضوعَ قولُ عمرانَ بنِ حِطَّانَ :

حَتَّىٰ مَتَىٰ تَسْقِيْ ٱلنُّفُوْسَ بِكَأْسِهَا ... رَيْبُ ٱلْمَنُوْنِ وَأَنْتَ لاَهٍ تَرْتَعُ
أَفَقَدْ رَضِيْتَ بِأَنْ تُعَلَّلَ بِٱلْمُنَىٰ ... وَإِلَىٰ ٱلْمَنِيَّةِ كُلَّ يَوْمٍ تُدْفَعُ
أَحْلاَمُ نَوْمٍ أَوْ كَظِلٍّ زَائِلٍ ... إِنَّ ٱللَّبِيْبَ بِمِثْلِهَا لاَ يُخْدَعُ
فَتَزَوَّدَنَّ لِيَوْمِ فَقْرِكَ دَائِباً ... وَٱجْمَعْ لِفَقْرِكَ لاَ لِغَيْرِكَ تَجْمَعُ

وقالَ [في « العُكْبَرِيِّ » ٣/ ٣٤ مِنَ المتقاربِ] :

تَفَانَىٰ ٱلرِّجَالُ عَلَىٰ حُبِّهَا   وَمَا يَحْصُلُوْنَ عَلَىٰ طَائِلِ

وقالَ [في « العُكْبَرِيِّ » ٣/ ٨ مِنَ الوافرِ] :

وَمَنْ لَمْ يَعْشَقِ ٱلدُّنْيَا قَدِيْماً ؟!   وَلَكِنْ لاَ سَبِيْلَ إِلَىٰ ٱلوِصَالِ

تجمع الدنيا بإرادتك وتتركها رغم أنفك

أَمَّا قولُ الناظِمِ : (كَنَزُوْا ٱلْكُنُوْزَ فَمَا بَقِيْنَ) . . فمعناهُ : أَنَّها لَم تبقَ لَهُم ، ولَم تنفعْهُم ، وإلاَّ . . فَلا يزالُ كثيرٌ من دفائِنِ السابقينَ مطموراً تحتَ الترابِ ، باقياً علىٰ حالِهِ حتَّىٰ اليومِ ، ولا سيَّما في البلادِ التي لم تطأْها أَقدامُ الأَجانبِ ، كالأَكثرِ من ذخائِرِ ملوكِ حِمْيَرَ في (مأرِبَ) و(الهجَرِ) و(شَبْوَةَ)[1] ؛ بدليلِ ما يظهَرُ من نماذِجِها كلَّما جرفَتِ السيولُ ، وقد قلتُ في سينيَّتي ، أُخاطِبُ الديارَ ، لَمَّا كثُرَ ما رأَيتُ مِنِ ٱختلافِ رواةِ الأَخبارِ [في « ديوانِ المؤلف » ٢٣٢ مِنَ الخفيفِ] :

حَدِّثِيْنَا عَنِ ٱلتَّبَابِعِ إِذْ كُنْـ   ـتِ عَلَىٰ عَهْدِهِمْ بِحُلَّةِ عُرْسِ[2]
وَلِمَنْ تُخَبِّئِنَّ مَا ٱدَّخَرُوْهُ   مِنْ كُنُوْزٍ مُغَطَّيَاتٍ بِكَبْسِ[3] ؟
وَصِفِيْ كِنْدَةَ ٱلْمُلُوْكَ فَيَا رُ   بَّ كَرِيْمٍ فِيْهِمُ وَيَا رُبَّ جِبْسِ[4]
قَادَةُ ٱلْحَرْبِ وَٱلْكَلاَمِ وَلَكِنْ   لاَ يُبَالُوْنَ فِيْ ٱلْمَلاَمِ بِغَمْسِ[5]

---

(١) (مأرِبُ) و(هَجَرُ) و(شبوَةُ) : أَسماءُ أَماكِنَ في (اليمنِ) .
(٢) التبابعُ : ملوك (اليمنِ) ـ واحدُهم تُبَّع ـ وسمُّوا كذلكَ ؛ لأنهم كان يتبعُ بعضهم بعضاً .
(٣) بكبسٍ : بترابٍ .
(٤) الجبسُ : اللئيمُ .
(٥) بغمسٍ : أي بغمسِ أنفسهم فيما يلامُ عليهِ .

مسالة أصولية حول الدنيا

وبعدُ : فها هنا مسأَلَةٌ مِن أُمَّهاتِ المسائِلِ ، لولا ضيقُ الوقتِ ، وضعفُ المناسبَةِ للأَبحاثِ الأُصوليَّةِ . . لكانَ الواجبُ أَن نتوسَّعَ فيها كثيراً ، ولكنَّا نطلِقُ مِنَ ٱلعَنانِ بقدرِ ما تحصُلُ بهِ الفائِدَةُ ، وينحلُّ منهُ الإِشكالُ الذي أَشرْنا إِليهِ أَوائِلَ المجلسِ السادسِ ، وذلكَ أَنَّهُ ما مِنْ نبيٍّ ، ولا حكيمٍ ، ولا شاعرٍ ، ولا خطيبٍ . . إِلاَّ ذَمَّ الدنْيا ، وٱشتكىٰ مِن توالي آفاتِها ، وترادُفِ حسراتِها ، وتتابُعِ مُوجِعاتِها ؛ إِذ لا لَذَّةَ فيها إِلاَّ مصحوبةٌ بأَلَمٍ ، ولا راحَةَ إِلاَّ ممزوجَةٌ بنكَدٍ ، لَمْ تَصْفُ لِشَقيٍّ ولا تقيٍّ ، ولا مأْمورٍ ولا أَميرٍ ، ولا غنيٍّ ولا فقيرٍ ، ومعَ هٰذا فدَهَمَاءُ النَّاسِ[1] مصفقونَ علىٰ حبِّها[2] ، والتكالُبِ عَليها ، ومِن ذلكَ نشأَ التخاصُمُ والتقاطُعُ ، فزادَ النكَدُ ، وكثُرَ التعبُ ، وتشوَّشَتِ ٱلْحَياةُ ، وتكدَّرَ العيشُ ، وتضاعفَتِ ٱلشُّرورُ والآلامُ ، والقليلُ مِنَ ٱلصُّوفيَّةِ والفلاسفَةِ ٱطَّرَحوها جملةً ، وأَعرَضوا عَنها رأْساً ، وليسَ هٰذا في شيءٍ مِنَ ٱلصَّوابِ ؛ إِذ لو تأَثَّرَهُمُ الناسُ . . لأَفضىٰ إِلىٰ الخرابِ ، وٱنتهىٰ إِلىٰ الانقراضِ ، ولٰكنَّ الذكرَ الذي لا يأْتيهِ الباطلُ مِن بينِ يديهِ ولا مِن خلفِهِ . . قامَ بحلِّ هٰذِهِ العقدَةِ ، وكشَفَ هٰذا الإِشكالَ ، فبيَّنَ في أَكثرِ الآياتِ مذامَّ الدنيا وحقارَتَها ، وقلَّةَ خطرِها ؛ كبحاً لِجماحِ الشهوَةِ المذمومِ ، وغضّاً لعنانِ الحِرْصِ ٱلْممقوتِ ، ونبَّهَ علىٰ أَن لا بُدَّ مِنها ، بَلْ أَلزمَ القيامَ بعمارتِها ، وأَوجَبَ مراعاةَ أَسبابِها في مثلِ قولِهِ : ﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾ [القصص : ٧٧] . والأَصلُ في الأَمرِ الجازِمِ الوجوبُ .

---

(١) دُهَمَاءُ الناسِ : الجماعةُ منهم .

(٢) مصفقونَ : مجتمعونَ .

وقولِهِ : ﴿ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ [الجمعة : ١٠] .

وإِنَّما أَطنبَ في الأَولِ ، وٱكتفىٰ بالإِيجازِ في الثاني ؛ وُكُولاً إِلىٰ الطبعِ ، وإِحالَةً علىٰ الداعيَةِ ، كما رتَّبَ الحدَّ علىٰ شربِ الخمرِ ، ولم يرتِّبْهُ علىٰ شربِ البولِ ، وهـٰذا كلُّهُ مِن بدائعِ القرآنِ ، الذي لا تفنىٰ عجائِبَهُ ، ولا تُطفَأُ مصابيحُهُ ، ولا يخمُدُ برهانُهُ ، ولا تهدَمُ أَركانُهُ ، وقد نصُّوا في المتونِ علىٰ أَنَّ الحِرَفَ والصنائِعَ ، وكلَّ ما يتمُّ بهِ المعاشُ . . معدودٌ من فروضِ الكفاياتِ ، والذي ٱعتمدَهُ ٱبنُ حجرٍ الهيتميُّ ، تبعاً لإِمامِ الحرمينِ ، تفضيلُ فرضِ الكفايَةِ علىٰ فرضِ العينِ ، إِلاَّ أَنَّ في « التحفَةِ » ما نصُّهُ : (تنبيهٌ : لا يحتاجُ في هـٰذِهِ ـ والضميرُ عائِدٌ إِلىٰ الحِرَفِ والصنائِعِ وما يتمُّ بهِ أَمرُ المعاشِ ـ لأَمْرِ الناسِ بِها ؛ لأَنَّ فِطَرَهُم مجبولَةٌ عَلَيها ، ولـٰكنْ لَو تمالَؤُوا علىٰ تركِ واحدَةٍ مِنها . . أَثِموا ، وقُوتِلُوا كَما هُوَ قياسُ بقيَّةِ فروضِ الكفايَةِ) . ٱنتهىٰ .

* * *

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ٣٣٥ مِنَ الكاملِ] :

مِنْ كُلِّ مَنْ ضَاقَ ٱلْفَضَاءُ بِجَيْشِهِ حَتَّىٰ قَضَىٰ ، فَحَوَاهُ لَحْدٌ ضَيِّقُ

شرح المطلع

معناهُ ظاهرٌ ، وهُوَ مِن قولِ أَشجَعَ [في « ديوانه » ١٩٩ مِنَ الطَّويلِ] :

وَأَصْبَحَ فِيْ لَحْدٍ مِنَ ٱلأَرْضِ ضَيِّقٍ وَكَانَتْ بِهِ حَيّاً تَضِيْقُ ٱلصَّحَاصِحُ(١)

وعمَّا قليلٍ يأْتي معَ ما يناسبُهُ في شرحِ قولِهِ [في « العُكبريِّ » ٢/ ٢٤٧ مِنَ الطَّويلِ] :

وأَنَّكَ فِيْ ثَوْبٍ وَصَدْرُكَ فِيْكُمَا [عَلَىٰ أَنَّهُ مِنْ سَاحَةِ ٱلأَرْضِ أَوْسَعُ]

ويتَّصِلُ بِهِ ما سبقَ أَوائِلَ المجلسِ عَنِ ٱبنِ العاصِ ، وعَنِ ٱلْقَاضي الفاضلِ ، وغيرُ ذلكَ .

وللقاضي أَبي يعلىٰ في رِثاءِ مخلِّصِ ٱلدَّولَةِ ما نصُّهُ [كما في « وفيات الأعيان » ٥/ ٢٧٢ مِنَ الطَّويلِ] :

قَضَىٰ ٱللهُ أَنْ يَرْدَىٰ ٱلأَمِيْرُ وَهَـٰذِهِ صَـوَافِنُـهُ مَـوْقُـوْرَةٌ وَصَـوَاهِلُـهْ
وَكُلُّ فتىً كَٱلْبَرْقِ إِبْرِيْقُ غِمْدِهِ إِذَا شَـامَـهُ أَوْ كَـٱلـذُّبَـالَـةِ ذَابِلُـهْ
فَلَيْتَ ظِبَاهُ صَلَّتِ ٱلْيَوْمَ خَلْفَهُ فَظَلَّتْ عَلَىٰ غَيْرِ ٱلصِّيَامِ صَوَاهِلُهْ

وهيَ من قصيدَةٍ شاعرَةٍ ، ٱستوفاها ٱبنُ خَلِّكانَ [في « وفيَّاتِ الأَعيانِ » ٥/ ٢٧٠ـ٢٧٢] في ترجمةِ مخلِّصِ الدولَةِ ، وٱسمهُ مقلَّدُ بنُ نصرِ بنِ منقذٍ .

---

(١) الصحاصِحُ : الأَراضي المستويةُ .

مَلَك الموت وسيدنا داود عليهما الصلاة والسلام

ويروىٰ [في « المستطرف » ٢/ ٥٧٤] : أَنَّ مَلَكَ ٱلْمَوتِ دخلَ عَلىٰ داوودَ ـ عليهِ السلامُ ـ فقالَ لهُ : مَن أَنتَ ؟ قالَ : أَنا الذي لا يهابُ الملوكَ ، ولا تَمنَعُ منهُ القصورُ ، ولا يقبَلُ الرِّشَا . قالَ : إِذَنْ أَنتَ ملكُ الموتِ ، ولـٰكنِّي لَم أَستعدَّ بعدُ ، فقالَ لهُ : يا داوودُ ، أَينَ جارُكَ فلانٌ ؟ أَينَ قريبُكَ فلانٌ ؟ قالَ : ماتا ، قالَ : أَما كانَ لكَ فيهِم عبرَةٌ ؟ ثمَّ قبضَهُ .

وفيهِ : أَنَّ الأَنبياءَ لاَ يُقبَضونَ مَا لَمْ يُخيَّروا ، ففيهِ إِشكالٌ ، وقد وضَّحنا ما كانَ من نوعِهِ في صكَّةِ موسىٰ عليهِ السلامُ لملَكِ الموتِ ، من كتابِنا « بَلابِلُ ٱلتَّغرِيْدِ » .

الملِكُ ومَلَك الموت

وذكرَ الغزاليُّ : أَنَّ بعضَ الملوكِ خرجَ علىٰ قومِهِ في زينتِهِ ، وركبَ معَهُ عساكرُهُ ، فنفَخَ الشيطانُ في أَنفِهِ ، حتَّىٰ كادَ أَن يطيرَ كِبراً وتعاظُماً ، وبينا هُوَ في موكِبِهِ . . إِذ أَخذَ بلجامِهِ رجلٌ عليهِ آثارُ الفقرِ والضعْفِ ، فٱستشاطَ غضباً ، وقالَ : خلِّ اللجامَ ، فقالَ لهُ : لا بدَّ من مسارَّتِكَ ، فانزعَجَ وٱنكَسَرَ ، ولَمَّا علمَ أَنَّهُ ملكُ الموتِ . . ٱستخذىٰ ، وخارَت قواهُ ، وٱستمهَلَهُ فلم يمهِلْهُ ، بل أَخذَهُ علىٰ هيئَتِهِ .

لا تدري أين تكون المنية

ويروىٰ [في « المستطرف » ٢/ ٥٧٤] : أَنَّهُ كانَ لحسَّانَ ٱبنٌ ، يطعمُهُ الزُّبْدَ بالعَسَلِ ، فشرَقَ وماتَ ، فقالَ [مِنَ البسيطِ] :

اِعْمَلْ وَأَنْتَ صَحِيْحٌ مُطْلَقٌ فَرِحٌ ... مَا دُمْتَ وَيْحَكَ يَا مَغْرُوْرُ فِيْ مَهَلِ

يَرْجُوْ ٱلْحَيَاةَ صَحِيْحٌ رُبَّمَا كَمَنَتْ ... لَهُ ٱلْمَنِيَّةُ بَيْنَ ٱلزُّبْدِ وَٱلْعَسَلِ

أبو دلف يتزود لموته

ويروىٰ [في « المستطرف » ٢/ ٥٧٣] : أَنَّ أَبا دلفٍ العجليَّ ـ الذي سبقَ ذكرُهُ غيرَ مرَّةٍ ـ قدمَ عليهِ في علَّتِهِ عشَرَةٌ مِن آلِ عليٍّ ، فحُجبوا مدَّةً ،

حتَّىٰ رأَىٰ رؤْيا فأَذِنَ لَهم ، فقالَ لَهُ أَحدُهم : نحنُ مِن أَهلِ بيتِ رسولِ اللهِ ، وقد حطَّمَتْنا المصائِبُ ، وأَجْحَفَتْ بِنا النوائِبُ ، فإِنْ رأَيتَ أن تجبُرَ كسيراً ، وتغنيَ فقيراً . . فٱفعَلْ ، فقالَ لخادِمِهِ : أَجلسني ، وأَقبلَ يلاطفُهم ، ويعتذِرُ إِليهم ، وقالَ : لِيَكتُبْ كلٌّ مِنكم بيدِهِ أَنَّهُ قبضَ مِنِّي أَلفَ دينارٍ ، ثمَّ أَعطاهُم ذلكَ ، وحمَّلَهم ، وكساهُم ، وزوَّدَهم ، ودفَعَ لكلٍّ واحدٍ أَلفَ درهم[1] ؛ حتَّىٰ يصِلوا بالدنانيرِ كاملةً إِلىٰ أهاليهم ، ثمَّ قالَ لخادِمِهِ : إِذا أَنا مِتُّ . . فٱجعَلْ هـٰذهِ الرقاعَ في كَفَني ؛ لأَلقىٰ بِها محمَّداً ﷺ .

ومعَ هـٰذا فقد رُؤِيَ في دارٍ ضيِّقَةٍ موحشَةٍ ، فقيلَ لَهُ : ما حالُكَ ؟ فأَنشدَ [الأبيات في « نفح الطيب » ٦/٣٢٦ مِنَ الوافر] :

وَلَـوْ أَنَّـا إِذَا مِتْنَـا تُـرِكْنَـا ... لَكَانَ ٱلْمَوْتُ رَاحَـةَ كُلِّ حَـيِّ
وَلَٰكِنَّـا إِذَا مِتْنَـا بُعِثْنَـا ... وَنُسْأَلُ بَعْـدَهَـا عَـنْ كُـلِّ شَـيِّ

ويذكرُ : أَنَّهُ قدمَ (الكوفَةَ) أَميرٌ ، لم يبقَ صغيرٌ ولا كبيرٌ إِلاَّ خرجَ لمقابلتِهِ ، ومشاهدَةِ موكبِهِ يومَ دخولِهِ ، فطُعِنَ بعدَ أَيَّامٍ ، ومعَ دفنِهِ أَقبلَ ثلاثةُ نفرٍ لا رابعَ لَهم ، يحملونَ جنازَةَ فقيرٍ ، دفَنوها علىٰ مقربَةٍ منهُ ، فما هِيَ إِلاَّ أَيامٌ قليلَةٌ . . حتَّىٰ لَم يعُد أَحدٌ يميِّزُ ما بينَ القبرينِ . تموت ولا ينفعك إلا عملك

وزهدَ بعضُ أَبناءِ الملوكِ فيما عليهِ والدُهُ ، ولزِمَ المقابِرَ ، فقيلَ لَهُ في ذلكَ ، فقالَ : إِنَّ لي زمناً أُريدُ أَن أُفرِّقَ بينَ عظامِ الفقراءِ والملوكِ فلم أَقدرْ .

---

(١) إضافةً إلىٰ الألف دينار .

وفي « النهجِ » [٣٥٨] : وما أَصنعُ بفَدَكَ[1] وغيرِ فَدَكَ ، والنفْسُ مظانُّها فِي غدٍ جَدَثٌ ، تنقطِعُ في ظلمتِهِ آثارُها ، وتغيبُ أَخبارُها ، وحفرةٌ لو زيدَ في فسحتِها ، وأَوسَعَتْ يَدَاْ حافِرها . . لأَضغَطَها الحجَرُ والمدَرُ ، وسدَّ فُرجَها الترابُ المتراكِمُ ، وإِنَّما هيَ نَفْسي أُروِّضُها بالتقوىٰ ؛ حتَّىٰ تأتيَ آمنةً يومَ الفَزعِ الأَكبرِ ، أو ما يقربُ مِن هٰذا .

* * *

(١) فَدَك : اسم مكان قريب من خيبر ، تركه ﷺ ولم يقسمه أبو بكر بين ورثته ، وأبلغهم قوله ﷺ : « لا نورث ما تركناه صدقة » و« نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة » رواه بألفاظ متعددة عدد من الصحابة . انظر البخاري (٤٠٣٣) و(٥٦٥٨) و(٦٧٢٨) و« الإحسـان » (٦٦٠٧) و(٦٦٠٨) و(٦٦٠٩) وإلىٰ (٦٦١٢) .

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ٣٣٥ مِنَ الكاملِ] :

خُرْسٌ إِذَا نُودُوْا كَأَنْ لَمْ يَعْلَمُوْا	أَنَّ الْكَلامَ لَهُمْ حَلالٌ مُطْلَقُ

الميت يسمع.. ولكنه لا يستطيع الكلام

معناهُ ظاهرٌ ، والغالبُ أَنَّ الأَخرسَ لا يكونُ إِلاَّ أَصمَّ ، ولـكنَّ الميْتَ بخلافِ ذلكَ ، ففي « الصحيحِ » : أَنَّهُ ﷺ قامَ علىٰ قتلىٰ قريشٍ في القليبِ يناديهِمْ بأسمائِهِم ، فقالَ لَهُ عمرُ : ما تخاطِبُ مِن أَقوامٍ قد جَيَّفُوا ، قَالَ : « والَّذِيْ بَعَثَنِيْ بِالْحَقِّ ، مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُوْلُ مِنْهُمْ ، وَلَـٰكِنَّهُمْ لاَ يَسْتَطِيْعُوْنَ الْجَوابَ »(١) .

وقالَ ٱبنُ عبدِ البرِّ : ثبتَ عَنِ ٱلنَّبيِّ ﷺ أَنَّهُ قالَ : « مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَمُرُّ عَلَىٰ قَبْرِ أَخِيْهِ ، كَانَ يَعْرِفُهُ فِيْ ٱلدُّنْيَا ، فَيُسَلِّمُ عَلَيْهِ . وَإِلاَّ رَدَّ ٱللهُ عَلَيهِ رُوْحَهُ حَتَّىٰ يَرُدَّ عَلَيْهِ ٱلسَّلاَمَ »(٢) .

وثبتَ عنهُ : أَنَّ الميْتَ يسمَعُ قرعَ نعالِ المشيعينَ إِذَا ٱنصرَفوا عنه(٣) .

---

(١) أخرجه عن أبي طلحة الأنصاري رضي الله عنه البخاري (٣٩٧٦) في المغازي ، ومسلم (٢٨٧٥) في الجنة . وعن أنس رضي الله عنه عند مسلم (٢٨٧٣) و(٢٨٧٤) .

(٢) أخرجه عن ابن عباس رضي الله عنهما في « التمهيد » ، والشوكاني في « نيل الأوطار » (٣/ ٢) ، ونحوه في « كنز العمال » عن أبي هريرة رضي الله عنه (٤٢٦٠١) و(٤٢٦٠٢) وعزاه إلى أبي الشيخ والديلمي وتمام والخطيب وابن عساكر وابن النجار .

(٣) وذلكَ في الحديثِ الذي أخرجه عن أنس رضي الله عنه البخاريُّ (١٢٧٣) في الجنائز، وبنحوه: مسلم (٢٨٧٠) في الجنة قال: «اَلْعَبْدُ إِذَا وُضِعَ فِيْ قَبْرِهِ=

وقالَ : « مَا مِنْ رَجُلٍ يَزُوْرُ قَبْرَ أَخِيْهِ ، وَيَجْلِسُ عِنْدَهُ .. إلاَّ ٱسْتَأْنَسَ بِهِ حَتَّىٰ يَقُوْمَ »[1] .

وفي المسأَلَةِ الأُولىٰ مِن كتابِ « الروح » للعلاَّمَةِ ٱبنِ القيِّمِ .. ما لا يُحصىٰ مِن ذلكَ ، وشيءٌ مِن ذلكَ لا يعارِضُ أمثالَ قولِهِ تعالَىٰ : ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ ﴾ [النمل : ٨٠] ؛ لأَنَّ المرادَ مِنَ ٱلآيَةِ أَنَّ أمواتَ القلوبِ لا يسمعونَ سماعَ الاهتداءِ ، ولا ينتفعونَ بالتذكيرِ .

وقد رويَ عَنِ ٱلنَّبيِّ ﷺ : أَنَّهُ لَمَّا دفنَ وَلَدَهُ إبراهيمَ .. وَقَفَ عَلَىٰ قَبْرِهِ وَقَالَ : « يَا بُنَيَّ ، ٱلْقَلْبُ يَحْزَنُ ، وَٱلْعَيْنُ تَدْمَعُ ، وَلاَ نَقُوْلُ مَا يُسْخِطُ ٱلرَّبَّ ، وَإِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُوْنَ ، يَا بُنَيَّ : قُلْ : اللهُ رَبِّيْ ، وَٱلإِسْلاَمُ دِيْنِيْ ، وَرَسُوْلُ ٱللهِ أَبِيْ »[2] ، فبكتِ ٱلصحابةُ ، وبكىٰ عمرُ بنُ الخطَّابِ بكاءً ٱرتفعَ لهُ صوتُهُ ، فٱلتفتَ إليهِ النبيُّ ﷺ فقالَ : « ما يبكيكَ يا عمرُ ؟ » فقالَ : يا رسولَ ٱللهِ ، هـٰذا ولدُكَ ، وما بلغَ الحُلُمَ ، ولا جرىٰ عليهِ القلَمُ ، فما حالُ من ماتَ وليسَ لَهُ ملقِّنٌ مثلَكَ يلقِّنُهُ التوحيدَ ؟ فنزلَ علىٰ إِثْرِ ذلكَ قولُهُ تعالَىٰ : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ ﴾ [إبراهيم : ٢٧] .

= وَتُوُلِّيَ وَذَهَبَ أَصْحَابُهُ ، حَتَّىٰ إِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ ... أَتَاهُ مَلَكَانِ فَأَقْعَدَاهُ ، فَيَقُوْلاَنِ لَهُ : مَا كُنْتَ تَقُوْلُ فِيْ هَذَا ٱلرَّجُلِ مُحَمَّدٍ ﷺ ؟ فَيَقُوْلُ : أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ ٱللهِ وَرَسُوْلُهُ ، فَيُقَالُ : ٱنْظُرْ إِلَىٰ مَقْعَدِكَ مِنَ ٱلنَّارِ أَبْدَلَكَ ٱللهُ بِهِ مَقْعَداً مِنَ ٱلْجَنَّةِ » .

(١) أورده عن عائشة رضي الله عنها العراقي في « تخريج أحاديث الإحياء » (٤/٤٧٥) : أخرجه ابن أبي الدنيا في « القبور » وقال : فيه عبد الله بن سمعان لم أقف على حاله .

(٢) أخرج عن أنس رضي الله عنه نحوه البخاري (١٣٠٣) .

وفيهِ دليلٌ علىٰ سؤَالِ الصبيانِ ، وهُوَ أحدُ قولينِ ، ٱختارَ النوويُّ في « الروضَةِ » و « شَرْحِ ٱلْمُهَذَّبِ » الثاني .

وعبارَةُ « التحفَةِ » لابنِ حجرٍ : ويستحبُّ تلقينُ بالغٍ عاقلٍ ، أَو مجنونٍ سبقَ لَهُ تكليفٌ ، ولَو شهيداً ، كَما ٱقتضاهُ إطلاقُهم بعدَ تمامِ الدفْنِ ؛ لخبرٍ فيهِ ، وضَعْفُهُ ٱعتُضِدَ بشواهِدَ علىٰ أنَّهُ مِنَ ٱلفضائِلِ(١) ، فٱندفَعَ قولُ ٱبنِ عبدِ السلامِ : إنَّهُ بدعَةٌ . ٱنتهىٰ .

قبر المعتمد بن عباد قبلة لبعض الشعراء

وذكرَ ٱبنُ خَلِّكانَ [« وفيَاتُ الأعيانِ » ٣٧/٥] وغيرُهُ : أَنَّهُ ٱجتمَعَ نفرٌ عندَ قبرِ المعتمدِ بنِ عبادٍ ، مِنَ ٱلشعراءِ الذينَ كانوا يقصدونَهُ بالمدائحِ ، فيجزِلُ لهمُ ٱلمَنائحَ ، فرثَوهُ بقصائِدَ أَنشدوها عندَ قبرِهِ ، من أَحسنِها قولُ بعضِهِم [وهو ابو بحرٍ عبدُ الصمد مِنَ الكاملِ] :

مَلِكَ ٱلْمُلُوْكِ أَسَامِعٌ فَأُنَادِيْ ... أَمْ قَدْ عَدَتْكَ عَنِ ٱلسَّمَاعِ عَوَادِيْ ؟
لَمَّا نُقِلْتَ عَنِ ٱلْقُصُوْرِ وَلَمْ تَكُنْ ... فِيْهَا كَمَا قَدْ كُنْتَ فِيْ ٱلأَعْيَادِ
أَقْبَلْتُ نَحْوَكَ فِيْ ٱلثَّرَىٰ لَكَ خَاضِعاً ... وَجَعَلْتُ قَبْرَكَ قِبْلَةَ ٱلإِنْشَادِ

ولمَّا فرغَ مِن إنشادِها . . قبَّلَ الثرىٰ ، ومرَّغَ جسمَهُ ، وعفَّرَ خدَّهُ ، وبكىٰ وأَبكىٰ مَن حضرَ ، والشاهدُ في قولِهِ : (أَسَامِعٌ فَأُنَادِيْ) .

---

(١) أخرجه عن أبي أمامة رضي الله عنه الطبراني في « الدعاء » (١٢١٤) وفي « الكبير » (٨/ ٢٩٨) وذكره الهيثمي في « مجمع الزوائد » (٣/ ٤٥) وقال : في إسناده جماعة لم أعرفهم ، وقال ابن القيم : لا يصح رفعه ، وقال النواوي في « الأذكار » (ص/ ٢٧٤) : ليس بالقائم إسناده ، ثم قال : ولكن اعتضد بشواهد وبعمل أهل الشام به قديماً .

وأمَّا قولُ الناظِمِ : (مُطْلَقُ) . . فقالَ قومٌ إِنَّهُ حشوٌ لاَ حاجَةَ إِليهِ إِلاَّ اجتلابُ القافيَةِ ، علىٰ أَنَّهُ يمكنُ أَن تتأَوَّلَ لَهُ بما ليسَ في حسابِهِ ، وذلكَ أَنَّ الكلامَ بعدَ الموتِ لو قدروا عليهِ . . لكانَ حلالاً مطلقاً ؛ لارتفاعِ التكليفِ ، فلا حرمَةَ فيهِ إِذَنْ قطُّ ، بخلافِهِ أَيَّامَ الحياةِ . . فإِنَّ منهُ الحلالَ ، ومنهُ الحرامَ ، وهـٰذا إِنَّما يتمُّ علىٰ القولِ بأَنْ لا تكليفَ في البرزَخِ ، وهو ما يشملُهُ إِطلاقُهم .

وزعمَ العلامَةُ ٱبنُ القيِّمِ أَنَّ البرزَخَ دارُ تكليفٍ ، وأَنَّهُ لا يترفعُ بالموتِ ، ولوِ ٱرتفعَ . . لم يكُن للسؤَالِ حاجَةٌ ، وقد يجابُ عنهُ : بأَنَّ حكمةَ السؤَالِ أَنْ يظهَرَ بعدَ الموتِ عنوانُ ما كانَ عليهِ الإنسانُ في أَيَّامِ الحياةِ ؛ لأَنَّ اللهَ جلَّ شأْنُهُ أَجرىٰ أَمرَ العبادِ علىٰ المتعارَفِ بينَهم في دارِ الدنيا ، وإِلاَّ . . فأَيُّ حاجَةٍ إِلىٰ المحاسَبَةِ والمراقَبَةِ ، ووزنِ الأَعمالِ والصحائِفِ ؟ معَ أَنَّهُ أَعلمُ بكلِّ شيْءٍ : ﴿ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ * هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران : ٥ـ٦] .

ويمكنُ الجوابُ ـ أَيضاً ـ عمَّا وردَ من عبادَةِ أَهلِ الجنَّةِ ، وصلاةِ الأَنبياءِ في قبورِهم ، وما أَشبَهَ ذلكَ . . بأَنَّهُ لا يلزمُ منهُ التكليفُ ؛ لظهورِ أَنَّهُ مجردُ تعبُّدٍ ، أَو خالصُ تلذُّذٍ ؛ بدليلِ ما أَخرجَهُ مسلمٌ [في (الجنة وصفة نعيمها) (٢٨٣٥)] : أَنَّهُم « يُلْهَمُونَ ٱلتَّسْبِيحَ وَٱلتَّحْمِيدَ كَمَا تُلْهَمُونَ ٱلنَّفَسَ » وقولِ الفقهاءِ : أَنَّ سجودَ نبيِّنا ﷺ يومَ القيامَةِ . . كانَ بطهارَةِ غسلِ الموتِ . . لا يلزمُهُ القولُ بالتكليفِ ؛ لأَنَّنا إِنَّما نمنَعُ منهُ ما يترتَّبُ عليهِ العقابُ .

والأَسلَمُ : تفويضُ العلمِ إِلىٰ اللهِ جلَّ شأْنُهُ ، ما لم يَرِدِ النصُّ الصريحُ ، وقدِ ٱستشكَلَ ٱبنُ الفاكهانيِّ المالكيُّ حديثَ الترمذيِّ :

« مَا مِنْ أَحَدٍ سَلَّمَ عَلَيَّ . . إِلاَّ رَدَّ ٱللهُ عَلَيَّ رُوْحِيْ حتَّىٰ أَرُدَّ عَلَيْهِ السَّلامَ »[1] ، معَ ٱستحالَةِ خلوِّ الوجودِ مِن مسلِّمٍ عليهِ في ليلٍ أَو نهارٍ ، وعدَمِ السَّآمَةِ معَ ديمومَةِ حياتِهِ . ثمَّ أَجابَ : بأَنَّ الروحَ مَجَازٌ عَنِ النطقِ ، وٱستبعَدَهُ الإمامُ السيوطيُّ ، وقالَ : إِنَّه مدفوعٌ بالنقلِ والعقْلِ .

أَمَّا النقلُ : فالأَخبارُ الواردَةُ عَن أَحوالِ الأَنبياءِ في البرزَخِ مصرِّحَةٌ بأَنَّهم ينطقونَ ، كيف شاؤوا ، بَل والشهداءُ وسائِرُ المؤْمنينَ كذلِكَ ، إِلاَّ مَن ماتَ مِن غيرِ وصيَّةٍ ، فقد أَخرجَ أَبو الشيخِ في كتابِ (الوصايا) : « مَنْ لَمْ يُوْصِ . . لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ فِيْ ٱلْكَلاَمِ مَعَ ٱلْمَوْتَىٰ » ، قِيلَ : يا رسولَ اللهِ ، وهَل تتكلَّمُ الموتىٰ ؟ قالَ : « نَعَمْ ، وَيَتَزَاوَرُوْنَ »[2] .

وأَمَّا العقلُ : فلأَنَّ ٱلحبسَ عَنِ ٱلنطقِ في بعضِ الأَوقاتِ نوعُ حصرٍ وتعذيبٍ ، ولهـٰذا عُذِّبَ بهِ تاركُ الوصيَّةِ ، والنبيُّ ﷺ مُنَزَّهٌ عن ذلكَ ، ولا يلحقُهُ حصرٌ بعدَ وفاتِهِ أَصلاً بوجهٍ مِنَ ٱلوجوهِ ، وأَجابَ عَنِ الحديثِ بأَجوبَةٍ كثيرَةٍ ، أَقواها عندَهُ : أَنَّ المعنىٰ ما مِنْ أَحدٍ سلَّم عليَّ . . إِلاَّ قد ردَّ اللهُ عليَّ روحي قبلَ ذلكَ فأَردَّ عليهِ ، وإِنَّما جاءَ الإِشكالُ من ظنِّ أَنَّ جملَةَ (رَدَّ ٱللهُ عَلَيَّ) بمعنىٰ الحالِ أَوِ الاستقبالِ ، وظنِّ أَنَّ (حتَّىٰ) تعلِيْلِيَّةٌ ، وليسَ كذلكَ ، وبهـٰذا يندفعُ

---

(1) بل أخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه أبو داوود (٢٠٤١) ، والبيهقي في « السنن الكبرى » (٥/ ٢٤٥) قال عنه النواوي في « المجموع » (٨/ ٢٠٠) : رواه أبو داوود بإسناد صحيح .

(2) أورده عن قيس بن وابصة رضي الله عنه الهندي في « كنز العمال » (٤٦٠٨٠) و(٤٦٠٨٦) وعزاه إلى أبي الشيخ في « الوصايا » .

مِن أَصلِهِ الإشكالُ ، ويتأكَّدُ هٰذا بورودِ الحديثِ عندَ البيهقيِّ في كتابِ « حياةِ الأَنبياءِ » [ص/١٣] بلفظِ : « إلاَّ وقد رَدَّ ٱللهُ عليَّ رُوْحِيْ »[1] فصرَّحَ فيهِ بلفظِ : « وَقَدْ » ، فحمدْتُ اللهَ كثيراً . ٱنتهىٰ كلامُهُ بلقطٍ وٱختصارٍ .

الموت... آه من الموت كم فعل الأعاجيب

وبعدُ : فطالَما أَخرسَتِ ٱلْمَنايا مِن فصيحِ لسانٍ ، وأَميرِ بيانٍ ، وغزيرِ بدائعَ ، وكثيرِ روائعَ [مِنَ البسيطِ] :

وَذِيْ بيَانٍ إِذَا مَا قَالَ أَوْ خَطَبَا ... يَأْتِي بِسِحْرٍ يَزِيْنُ ٱلْقَوْلَ وَٱلأَدَبَا
يَأْتِي بِسَهْلٍ مِنَ ٱلأَلْفَاظِ مُمْتَنِعٍ ... جَزْلٍ يُصِيبُ ٱلْمَعَانِيْ آيَةً عَجَبَا
رَمَتْهُ هَـٰذِيْ ٱلْمَنَايَا وَهْيَ صَائِبَةٌ ... سَهْماً فَمَا هُوَ إِلاَّ أَنْ رَمَتْ فَكَبَا

---

(١) قال محققه محمد بن محمد الخانجي البوسنوي : حديث أبي هريرة أخرجه أحمد وأبو داوود والمصنف في كتابه « شعب الإيمان » وكتابه « الدعوات الكبير » وفي الحديث إشكال : وهو أن ظاهرهُ مفارقة روح النبي ﷺ لبدنه الشريف في بعض الأوقات وهو مخالف للأحاديث الدالة على حياة الأنبياء ، وقد أجاب العلماء عن هذا بأجوبة كثيرة فأجاب السيوطي في كتابه « إنباه الأذكياء » بخمسة عشر جواباً يراجعها من شاء . ومال البيهقي إلى أن قوله ﷺ « ردَّ الله إليَّ روحي » جملة حالية يقدَّر فيها قد وقاعدة العربية : أن جملة الحال إذا وقعت فعلاً ماضياً قدرت فيها قد كقوله تعالىٰ : ﴿جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ﴾ أي : وقد حصرت ، ويبقى الإشكال في حتى لأن الظاهر أنها للتعليل ، فأجاب السيوطي أنها لمجرد العطف فصار تقدير الحديث : ما من أحد يسلم علي إلا قد ردَّ الله علي روحي قبل ذلك ، وأرد عليه ، وأجاب الشهاب الخفاجي بأن الأنبياء والشهداء أحياء ، وحياة الأنبياء أقوى ، وإذا لم يسلط عليهم الأرض فهم كالنائمين ، والنائم لا يسمع ولا ينطق حتى يتنبه ؛ لحديث : أنه ﷺ إذا صلى عليه يستيقظ من النوم ، فالمراد برد الروح الإرسال الذي في قوله تعالىٰ : ﴿وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ﴾ الآية ، لأن روحه ﷺ تقبض قبض الممات ثم تنفخ وتعاد كموت الدنيا وحياتها . اهـ .

فَأَخرَسَتْهُ فَمَا يُبْدِيْ بِضَاحِكَةٍ ... وَلاَ يَرُدُّ جَوَاباً هَانَ أَوْ صَعُبَا

فالموتُ أَمرٌ عظيمٌ ، وخَطبٌ جسيمٌ ، وشيءٌ مهولٌ ، لَولا كثرَةُ الأَعراضِ والذُّهولُ ، ولئِنْ سكَتَ الميْتُ بجوارِحِهِ . . فقد نطَقَ حالُهُ بعظيمِ جوائِحِهِ ، فقد جاءَ عَن أَميرِ المؤمنينَ أَنَّهُ قالَ بعدَ ما طُعنَ [كما في « نهج البلاغة » ١٦٨ـ١٦٩] : إِنَّمَا كنتُ لكُم جاراً ، جاورَكم بدَني أَيَّاماً ، وستُعقِبون منِّي جثَّةً خلاءَ ، ساكنةً بعدَ حراكٍ ، صامتَةً بعدَ نطوقٍ ، فليعِظْكُم هُدوِّي ، وسكونُ أَطرافي ، وخفوتُ إِطراقي ؛ فإِنَّهُ أَوعظُ للمعتبرينَ مِن المنطقِ البليغِ ، والقولِ المسموعِ ، وداعي لَكُم وداعُ أمرىءٍ مُرصَدٍ لِلتَّلاقي ، غداً ترونَ أَيَّامي ، ويَكشف لَكُم عن سرائِري ، وتعرفونِي إِذا خَلا مَكَاني ، وقامَ غيري مَقَامي .

وقالَ أَبو العتاهيَةِ ، فيما يناسِبُ شِقَّ كلامِ الإِمامِ الأَوَّلِ ، يرثي عليَّ بنَ ثابِتٍ [في « ديوانِهِ » ٤٤٢ مِنَ الوافرِ] :

بَكَيْتُكَ يَا أُخَيَّ بِدَمْعِ عَيْنِيْ ... فَلَمْ يُغْنِ ٱلْبُكَاءُ عَلَيْكَ شَيَّا
طَوَتْكَ خُطُوْبُ دَهْرِكَ بَعْدَ نَشْرٍ ... كَذَاكَ خُطُوْبُهُ نَشْراً وَطَيَّا
وَلَوْ نَشَرَتْ قُوَاكَ لِيَ ٱلْمَنَايَا ... شَكَوْتُ إِلَيْكَ مَا صَنَعَتْ إِلَيَّا
وَكَانَتْ فِيْ حَيَاتِكَ لِيْ عِظَاتٌ ... وَأَنْتَ ٱلْيَوْمَ أَوْعَظُ مِنْكَ حَيَّا

ولي في المعنىٰ [في « ديوان المؤلف » ١١٦ مِنَ الطَّويلِ] :

أَغَرَّكَ مِنْ هَـٰذِيْ ٱلْقُبُوْرِ صُمُوْتُهَا ... وَأَبْلَغُ وَعْظٍ لَوْ عَلِمْتَ سُكُوْتُهَا
تَقُوْتُكَ هَـٰذِيْ ٱلأَرْضُ مِنْ فَضْلِ قُوْتِهَا ... لأَنَّكَ مَهْمَا طَالَ عُمْرُكَ قُوْتُهَا

وتعلَّقَ بآخرِ كلامِ الإِمامِ ، أَبو تمَّامٍ في قولِهِ [في « ديوانِهِ » ٢/ ٢٨٤ مِنَ السَّريعِ] :

رَاحَتْ وُفُوْدُ ٱلأَرْضِ عَنْ قَبْرِهِ   فَـارِغَـةَ ٱلأَيْـدِيْ مِـلاَءَ ٱلْقُلُـوْبْ
قَـدْ عَلِمَـتْ مَـا رُزِئَـتْ إِنَّمَـا   يُعْرَفُ قَدْرُ ٱلشَّمْسِ بَعْدَ ٱلْغُرُوْبْ

والناظِمُ في قولِهِ [في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ٢٢ مِنَ الكاملِ] :

وَنَذُمُّهُمْ وَبِهِمْ عَرَفْنَا فَضْلَهُمْ   وَبِضِـدِّهَـا تَتَمَيَّـزُ ٱلأَشْيَـاءُ

وأَبو فراسٍ في قولِهِ [في « ديوانه » ١٤٥ مِنَ الطَّويلِ] :

سَيَفْقِدُنِيْ قَوْمِيْ إِذَا جَدَّ جِدُّهُمْ   وَفِيْ ٱللَّيْلَةِ ٱلظَّلْمَاءِ يُفْتَقَدُ ٱلْبَدْرُ

والمعريُّ في قولِهِ [في « سقطِ الزندِ » ٧١ مِنَ السَّريعِ] :

وَٱلشَّـيْءُ لاَ يُعْـرَفُ مِقْـدَارُهُ   إِلاَّ إِذَا قِيْـسَ إِلَـىٰ ضِـدِّهِ

ويعجبني في سكوتِ الأمواتِ ، وٱنقطاعِ أَخبارِهِم . . قولُ التهاميِّ [في « ديوانه » ٤٦٨ مِنَ الكاملِ] :

وَٱلشَّرْقُ نَحْوَ ٱلْغَرْبِ أَقْرَبُ شُقَّةً   مِنْ بَعْدِ هَـٰذِيْ ٱلْخَمْسَةِ ٱلأَشْبَارِ(١)

وقولُ المعريِّ [في « سقطِ الزندِ » ٦٠ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا غُيِّبَ ٱلْمَرْءُ ٱسْتَسَرَّ حَدِيْثُهُ   وَلَمْ تُخْبِرِ ٱلأَفْكَارُ عَنْهُ بِمَا يُغْنِيْ
تَضِلُّ ٱلْعُقُوْلُ ٱلْهِبْزِرِيَّاتُ رُشْدَهَا   وَلَمْ يَسْلَمِ ٱلرَّأْيُ ٱلسَّدِيْدُ مِنَ ٱلأَفْنِ(٢)

وهوَ ممَّا قد ذكرناهُ عَن قيسٍ ، أَو عَنِ المجنونِ ، في قولِهِ [مِنَ الطَّويلِ] :

دَنَـتْ بِـأُنَـاسٍ عَـنْ تَنَـاءٍ زِيَـارَةٌ   وَشَطَّ بِلَيْلَىٰ عَنْ دُنُوٍّ مَزَارُهَا

---

(١) الشُّقَّةُ ـ بالضمِّ والفتحِ ـ : الناحيةُ يقصدُها المسافرُ .
(٢) الهبزريَّاتُ : العقولُ القويَّةُ المحكمةُ ، جمعُ هبزريٍّ ، وهو : الرجلُ القويُّ . الأَفنُ : ضعفُ الرأْيِ ، والمأفونُ الذي لا عقلَ لهُ .

وَإِنَّ مُقِيمَـاتٍ بِمُنْقَطَـعِ ٱللِّـوَىٰ   لأَقْرَبُ مِنْ لَيْلَىٰ وَهَاتِيْكَ دَارُهَا

وقلتُ في بعضِ المراثيِّ [في « ديوان المؤلف » ق ٧٠ مِنَ الكاملِ] :

سَفَرٌ عَلَىٰ قُرْبِ ٱلْمَسَافَةِ مَا لَهُ   خَبَـرٌ وَلَٰكِـنَّ ٱلسُّكُـوْتَ كَـلاَمُ

ويؤثَرُ عِنِ ابنِ الخطَّابِ ـ أَو عَن عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ ـ كلامٌ طويلٌ عمَّا يقولهُ الميتُ بعدَ أَيَّامٍ مِن دفنِهِ ، يُطيشُ العقولَ ، ويزعِجُ القلوبَ .

وما أَحسنَ قولَ صلةَ بنِ أَشيَمَ لأَخيهِ وقد دفنَهُ [كما في « جمهرة خطب العرب » ٤٩٩/٢ مِنَ الطَّويل] :

فَإِنْ تَنْجُ مِنْهَا تَنْجُ مِنْ ذِي عَظِيْمَةٍ   وَإِلاَّ فَـإِنِّـي لاَ إِخَـالُـكَ نَـاجِيَـا

وقولَ الآخرِ [كما في « نفح الطيب » ٢٥٩/٤ مِنَ الرَّمَلِ] :

كَـمْ أُنَـاسٍ فِـيْ نَعِيْـمٍ عُمِّـرُوْا   فِيْ ذُرَىٰ مُلْـكٍ تَعَـالَـىٰ وَسَبَـقْ
سَكَـتَ ٱلـدَّهْـرُ زَمَـانـاً عَنْهُـمُ   ثُـمَّ أَبْكَـاهُـمْ دَمـاً حِيْـنَ نَطَـقْ

* * *

[قالَ أبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ٣٣٦ مِنَ الكاملِ] :

وَلَقَدْ بَكَيْتُ عَلَىٰ ٱلشَّبَابِ وَلِمَّتِيْ   مُسْـوَدَّةٌ وَلِمَـاءِ وَجْهِـيَ رَوْنَـقُ

شرح المطلع والكلام على المتنبي

يقولُ : إِنَّهُ يبكي علىٰ شبابِهِ في حينِ وجودِهِ ؛ خشيَةَ ما يتوقَّعُهُ مِن فراقِهِ ، وقد تكرَّرَ في « ديوانِهِ » الأَسفُ علىٰ الشباب ، معَ زعمِهِ أَنَّهُ كانَ يتمنَّاهُ ، بشهادَةِ قولِهِ [في « العُكبَرِيِّ » ١/ ١٨٨ـ١٩٠ مِنَ الطَّويلِ] :

مُنَىً كُنَّ لِيْ أَنَّ ٱلبَيَاضَ خِضَابُ   فَيَخْفَىٰ بِتَبْيِيضِ ٱلْقُرُوْنِ شَبَابُ
لَيَـالِـيَ عِنْـدَ ٱلبِيْـضِ فَـوْدَايَ فِتْنَـةٌ   وَفَخْرٌ وَذَاكَ ٱلْفَخْرُ عِنْدِيَ عَابُ(١)
فَكَيْفَ أَذُمُّ ٱلْيَوْمَ مَا كُنْتُ أَشْتَهِيْ   وَأَدْعُوْ بِمَا أَشْكُوْهُ حِيْنَ أُجَابُ ؟!
جَلاَ ٱللَّوْنُ عَنْ لَوْنٍ هَدَىٰ كُلَّ مَسْلَكٍ   كَمَا ٱنْجَابَ عَنْ لَوْنِ ٱلنَّهَارِ ضَبَابُ(٢)

غيرَ أَنَّهُ لا ينكرُ مع ما نقرِّرُهُ كلَّ حينٍ مِن تناقضِهِ ، وتقلُّبِ أَطوارِهِ ، فهُوَ تارَةً يغايِرُ الناسَ بمثْلِ ما سمعْتَ مِن هٰذهِ الأَبياتِ ، وأُخرىٰ يوافقُهم فيقولُ [في « العُكبَرِيِّ » ٤/ ٣٤ـ٣٥ مِنَ البسيطِ] :

ضَيْفٌ أَلَـمَّ بِـرَأْسِـيْ غَيْـرَ مُحْتَشِـمِ   [وَٱلسَّيْفُ أَحْسَنُ فِعْلاً مِنْهُ بِٱللِّمَمِ]
[إِبْعَدْ بَعِدْتَ بَيَاضاً لاَ بَيَاضَ لَهُ]   لأَنْتَ أَسْوَدُ فِيْ عَيْنِيْ مِنَ ٱلظُّلَمِ

ويقولُ [في « العُكبَرِيِّ » ٣/ ١٣٠ مِنَ الخفيفِ] :

آلَـةُ ٱلْعَيْـشِ صِحَّـةٌ وَشَبَـابُ   فَـإِذَا وَلَّيَـا عَـنِ ٱلْمَـرْءِ وَلَّـىٰ

---

(١) الفَودان : جانبا الرأسِ يميناً وشمالاً .
(٢) انجابَ : انكشفَ .

ويقولُ [في «العُكبَريّ» ٣/ ٧٧ مِنَ البسيطِ] :

وَقَدْ أَرَانِيْ شَبَابِيْ ٱلرُّوْحَ فِيْ بَدَنِيْ   وَقَدْ أَرَانِيْ مَشِيْبِيْ ٱلرُّوْحَ فِيْ بَدَلِيْ

ويقولُ [في «العُكبريّ» ١/ ١٧٠ مِنَ البسيطِ] :

لَيْتَ ٱلْحَوَادِثَ أَعْطَتْنِيْ ٱلَّذِيْ أَخَذَتْ   مِنِّيْ بِحِلْمِيْ ٱلَّذِيْ أَعْطَتْ وَتَجْرِبِيْ

ويقولُ [في «العُكبَريّ» ١/ ٣٥٦ مِنَ الوافرِ] :

مَتَىٰ لَحَظَتْ بَيَاضَ ٱلشَّيْبِ مِنِّيْ   فَقَدْ وَجَدَتْهُ مِنْهَا فِيْ ٱلسَّوَادِ

والأَخيرُ من قولِ أَبي دُلَفِ العجليِّ [في «الأغاني» ٨/ ٢٥٧ مِنَ البسيطِ] : الكلام على الشيب

فِيْ كُلِّ يَوْمٍ أَرَىٰ بَيْضَاءَ قَدْ طَلَعَتْ   كَـأَنَّمَـا طَلَعَـتْ فِـي نَـاظِـرِ ٱلْبَصَـرِ

ونظرَ إليهِ البُحتريُّ في قولِهِ [في «ديوانه» ٣/ ١٥٠٥ مِنَ الطَّويلِ] :

وَدِدْتُ بَيَاضَ ٱلسَّيْفِ يَوْمَ لَقِيْنَنِيْ   مَكَانَ بَيَاضِ ٱلشَّيْبِ لاَحَ بِمَفْرِقِيْ

وقالَ أَبو تمَّامٍ [مِنَ الخفيفِ] :

إِنَّ قُبْحَ ٱلْبَيَاضِ فِيْ شَعَرِ ٱلرَّأْ   سِ كَقُبْحِ ٱلْبَيَاضِ فِيْ ٱلأَحْدَاقِ

فأَخذَهُ التهاميُّ وقالَ [في «ديوانهِ» ١٧٨ مِنَ البسيطِ] :

سَوَادُ رَأْسِكَ عِنْدَ ٱلْهَائِمَاتِ بِهِ   مُعَـادِلٌ لِسَـوَادِ ٱلْقَلْـبِ وَٱلْبَصَـرِ

وقالَ أَيضاً [في «ديوانه» ٣٣٣ـ٣٣٤ مِنَ البسيطِ] :

عَبَسْنَ مِنْ شَعَرٍ فِيْ ٱلرَّأْسِ مُرْتَسِمٍ   لاَ يُنْفِرُ ٱلْبِيْضَ مِثْلُ ٱلْبِيْضِ فِيْ ٱللِّمَمِ[1]
ظَنَّتْ شَبِيْبَتَهُ تَبْقَىٰ وَمَا عَلِمَتْ   أَنَّ ٱلشَّبِيْبَةَ مَرْقَاةٌ إِلَىٰ ٱلْهَرَمِ[2]

---

(١) عبسنَ : انقبضت وجوههنَّ . اللِّممُ : ـ جمع لِمَّةٍ ـ : وهوَ الشعرُ المجاورُ شحمةَ الأُذنِ .

(٢) المرقاةُ : السُّلَّمُ .

وَكُلَّمَا ٱعْتَاضَ رَأْسِيْ غَيْرَ صِبْغَتِهِ   فَٱلشَّيْبُ فِيْ ٱلرَّأْسِ دُوْنَ ٱلشَّيْبِ فِيْ ٱلشِّيَمِ
مَا خَانَ عَزْمِيْ وَلاَ حَزْمِيْ وَلاَ خُلُقِيْ   وَلاَ وَفَائِيْ وَلاَ دِيْنِيْ وَلاَ كَرَمِيْ

والأخيرانِ ينظرانِ إلىٰ قولِ الناظِمِ [في « العُكبَريّ » ١/ ١٩٠ مِنَ الطَّويلِ] :

وَفِيْ ٱلجِسْمِ نَفْسٌ لاَ تَشِيْبُ بِشَيْبِهِ   وَلَوْ أَنَّ مَا فِيْ ٱلوَجْهِ مِنْهُ حِرَابُ
لَهَا ظُفُرٌ إِنْ كَلَّ ظُفْرٌ أُعِدُّهُ   وَنَابٌ إِذَا لَمْ يَبْقَ فِيْ ٱلفَمِ نَابُ
يُغَيِّرُ مِنِّيْ ٱلدَّهْرُ مَا شَاءَ غَيْرَهَا   وَأَبْلُغُ أَقْصَىٰ ٱلعُمْرِ وَهْيَ كَعَابُ[1]

والأصلُ قولُ غيلانَ بنِ سلمَةَ الثقفيِّ ـ رضيَ اللهُ عنهُ ـ [كما في « الأغاني » ٥/ ٤١٧ مِنَ الكاملِ] :

لَمْ يَنْتَقِصْ مِنِّيْ ٱلمَشِيْبُ قُلاَمَةً   ٱلآنَ حِيْنَ بَدَا ٱلَبُّ وَأَكْيَسُ
وَٱلشَّيْبُ إِنْ يَحْلُلْ فَإِنَّ وَرَاءَهُ   عُمُراً يَكُوْنُ خِلاَلَهُ مُتَنَفَّسُ

وقولُ الحارثِ بنِ السُّلَيكِ الأزديِّ [في « مجمع الأمثال » ١/ ١٢٣ مِنَ البسيطِ] :

وَعَيَّرَتْ أَنْ رَأَتْنِيْ لاَبِساً كِبَراً   وَغَايَةُ ٱلنَّفْسِ بَيْنَ ٱلمَوْتِ وَٱلكِبَرِ
فَإِنْ بَقِيْتِ رَأَيْتِ ٱلشَّيْبَ رَاغِمَةً   وَفِيْ ٱلتَّفَرُّقِ مَا يَقْضِيْ مِنَ ٱلغِيَرِ
وَإِنْ يَكُنْ قَدْ عَلاَ رَأْسِيْ وَغَيَّرَهُ   صَرْفُ ٱلزَّمَانِ وَتَغْيِيْرٌ مِنَ ٱلشَّعَرِ
فَقَدْ أَرُوْحُ لِلَذَّاتِ ٱلفَتَىٰ جَذِلاً   وَهِمَّتِيْ لَمْ تَشِبْ فَٱسْتَخْبِرِيْ أَثَرِيْ

ولهٰذهِ الأبياتِ حديثٌ ظريفٌ ، يغلبُ على ظنّي أنَّهُ في (ثكلتْكَ أُمُّكَ ، قد تجوعُ الحرَّةُ ولا تأكلُ بثدييْها)[2] مِنْ « أمثالِ الميدانيِّ » [١/ ١٢٣] .

---

(١) الكَعابُ ـ بالفتحِ ـ : الجاريةُ حينَ يبدو الثديُ لها للنهودِ .
(٢) القصةُ قد ذكرناها فيما مضىٰ تعليقاً .

قالَ ٱبنُ المعتزِّ [مِنْ مُخلَّعِ البسيطِ] :

قَـالَـتْ وَقَـدْ رَاعَهَـا مَشِيبِـي : كُنْـتَ ٱبْـنَ عَـمٍّ فَصِـرْتَ عَمَّـا
وَٱسْتَهْزَأَتْ بِيْ فَقُلْتُ أَيضاً : قَـدْ كُنْـتِ بِنْتـاً فَصِـرْتِ أُمَّـا
كُفِّـيْ وَلاَ تُكْثِـرِيْ مَـلاَمِـيْ وَلاَ تَـزِيْـدِيْ ٱلْعَلِيْـلَ سُقْمَـا
مَـنْ شَـابَ أَبْصَـرْنَـهُ ٱلْغَـوَانِـيْ بِعَيْـنِ مَـنْ قَـدْ عَمِـيْ وَصَمَّـا
لَوْ قِيلَ لِيْ : ٱخْتَرْ عَمىً وَشَيْباً أَيُّهُمَـا شِئْـتَ لَقُلْـتُ : أَعْمَـىٰ

نسأَلُ اللهَ العافيَةَ ؛ فلقدْ أَسرَفَ علىٰ نفسِهِ بما لَنْ يسلمَ مِن سوءِ مغبَّتِهِ ، كَما لَم ينجُ العبدُ الصالحُ عليهِ السلامُ من نتيجَةِ قولِهِ : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ﴾ [يوسف : ٣٣] .

وقد ذكرناهُ في غيرِ هـٰذا المجلسِ ، ولئِنْ سَلِم هـٰذا الشاعرُ . . فَلا لكرامَةٍ علىٰ اللهِ ؛ ولـٰكنَّهُ الاستدراجُ ، والتأجيلُ إِلىٰ اليوم الذي يشتَدُّ فيهِ الجَزاءُ علىٰ مَن أَساءَ الأدبَ ، وأَوَّلُ أَبياتِهِ ناظِرٌ إِلىٰ قولِ الأَخطلِ [في « ديوانه » ٣٨٦ مِنَ الكاملِ] :

وَإِذَا دَعَـوْنَـكَ عَمَّهُـنَّ فَـإِنَّـهُ نَسَـبٌ يَـزِيـدُكَ عِنْـدَهُـنَّ خَبَـالاَ
وَإِذَا دَعَـوْنَـكَ يَـا أُخَـيَّ فَـإِنَّـهُ أَدْنَـىٰ وَأَقْـرَبُ خُلَّـةً وَوِصَـالاَ

وهوَ مِن قولِ النمرِ بنِ تولَبٍ ـ رحمةُ اللهِ عليهِ ـ [في « ديوانه » ٨٨ مِنَ الطَّويلِ] :

دَعَانِيْ ٱلْغَوانِيْ عَمَّهُنَّ وَخِلْتُنِيْ لِيَ ٱسْمٌ فَمَا أُدْعَىٰ بِهِ وَهْوَ أَوَّلُ

وقالَ ٱبنُ زهرٍ الأَندلسيُّ [في « نفح الطيب » ٢/٧٢٩ مِنَ البسيطِ] :

كَانَتْ سُلَيْمَىٰ تُنَادِيْ يَا أُخَيَّ وَقَدْ أَضْحَتْ سُلَيْمَىٰ تُنَادِيْ ٱلْيَوْمَ يَا أَبَتَا

وقد غايرَتْ في ذلكَ أُمُّ الضحَّاكِ حيثُ تقولُ [مِنَ الطَّويلِ] :

فَيَا رَبِّ لاَ تَجْعَلْ حَيَاتِيْ وَبَهْجَتِيْ ... لِشَيْـخٍ يُعَنِّيْنِـيْ وَلاَ لِغُـلاَمِ

فَنُبِّئْـتُ أَنَّ ٱلشَّيْـخَ يَعْـذِلُ أَهْلَـهُ ... وَفِيْ شِرَّةٍ حَالُ ٱلْفَتَىٰ وَعُرَامِ(١)

وَلَـٰكِنْ صُمُلٌّ قَدْ عَلاَ ٱلشَّيْبُ رَأْسَهُ ... فَـرُوْجٍ لأَحْـرَاحِ ٱلنِّسَـاءِ هُمَـامِ(٢)

وجارَاها ، وأَحسنَ ما شاءَ أَبو الأَسودِ حيثُ يقولُ [في « ديوانِه » ١١٣ مِنَ الطَّويلِ] :

أَبَىٰ ٱلْقَلْبُ إِلاَّ أُمَّ عَمْرٍو وَحُبَّهَا ... عَجُوزاً وَمَنْ يَعْشَقْ عَجُوْزاً يُفَنَّدِ

كَبُرْدِ ٱلْيَمَانِيْ قَدْ تَقَادَمَ عَهْدُهُ ... وَرَقَّعْتَهُ مَا شِئْتَ فِيْ ٱلْعَيْنِ وَٱلْيَدِ

البكاء على الشباب

أَمَّا البكاءُ علىٰ الشبابِ . . فمِن أَحسنِ ما فيهِ قولُ منصورٍ النُّميريِّ [في « الأغاني » ١٣/ ١٦٣ مِنَ البسيطِ] :

مَا تَنْقَضِيْ حَسْرَةٌ مِنِّيْ وَلاَ جَزَعُ ... إِذَا ذَكَرْتُ شَبَاباً لَيْسَ يُرْتَجَعُ

بَـانَ ٱلشَّبَـابُ وَفَـاتَتْنِـيْ بِشِـرَّتِـهِ ... صُرُوْفُ دَهْرٍ وَأَيَّامٌ لَهَا خِدَعُ

مَا كِدْتُ أُوْفِيْ شَبَابِيْ كُنْهَ غُرَّتِهِ ... حَتَّىٰ ٱنْقَضَىٰ فَإِذَا ٱلدُّنْيَا لَهُ تَبَعُ

مَا كَانَ أَقْصَرَ أَيَّامِ ٱلشَّبَابِ وَمَا ... أَبْقَىٰ حَلاَوَةَ ذِكْرَاهُ ٱلَّتِيْ يَدَعُ

فلقد بكىٰ الرشيدُ مِن هـٰذهِ الأَبياتِ ، وقالَ [في « الأغاني » ١٣/ ١٦٣] : صدقْتَ يا نُميريُّ ، لا خيرَ في دنيا لا يُستَمتَعُ فيها بحلاوَةِ الشبابِ وأَيَّامِهِ .

---

(١) العُرامُ : الشديدُ القويُّ الشرسُ .

(٢) الصُّمُلُّ : الشديدُ الخُلُقِ العظيمُ . فروجٌ : صيغةُ مبالغةٍ مِن فارجٍ ، والمعنىٰ : أَنَّها تدعو اللهَ عز وجلَّ أَنْ يرزقَها زوجاً يكفيها مُؤْنَةَ النِّكاحِ ، ولا يُقَصِّرَ في حقِّها فيهِ . الأَحراحُ : الفُروجُ . الهُمامُ : المَلِكُ العظيمُ الهِمَّةِ والسيِّدُ الشجاعُ .

المعتصم يعجب بقصيدة للنميري

وهٰذا البيتُ مِن قصيدَةٍ لَهُ جزلَةٍ مختارَةٍ ، حتَّىٰ لَقَد ٱجتمَعَ الشعراءُ ببابِ المعتصِمِ ، فبعَثَ إليهِمْ [كما في « الأغاني » ١٩/٨١] : مَن كانَ مِنكُم يحسنُ أَن يقولَ مثلَ قولِ منصورٍ النُميريِّ في الرشيدِ [مِنَ البسيطِ] :

إِنَّ ٱلْمَكَارِمَ وَٱلْمَعْرُوفَ أَوْدِيَةٌ   أَحَلَّكَ ٱللهُ مِنْهَا حَيْثُ تَجْتَمِعُ
أَيُّ ٱمْرِىءٍ بَاتَ مِنْ هَارُوْنَ فِيْ سَخَطٍ؟   فَلَيْسَ بِـٱلصَّلَوَاتِ ٱلْخَمْسِ يَنْتَفِعُ
إِنْ أَخْلَفَ ٱلْغَيْثُ لَمْ تُخْلِفْ أَنَامِلُهُ   أَوْ ضَـاقَ أَمْـرٌ ذَكَـرْنَـاهُ فَيَتَّسِـعُ

.. فليدخُل ، فيقالُ [كما في « الأغاني » ١٩/٨١] : إِنَّ محمَّدَ بنَ وهيبٍ دخَلَ يومئِذٍ ، وأَنشدَ المعتصمَ قصيدتَهُ التي يقولُ فيها [مِنَ البسيطِ] :

ثَـلاثَـةٌ تُشْـرِقُ ٱلـدُّنْيَـا بِبَهْجَتِهِـمْ   شَمْسُ ٱلضُّحَىٰ وَأَبُوْ إِسْحَاقَ وَٱلْقَمَرُ

فٱهتزَّ لَها ، وأَحسنَ جائزَتَهُ . وما هُوَ بالحَكَمِ التُّرضىٰ حكومَتُهُ في المساواةِ بينَ القصيدتينِ ؛ فإِنَّ بينَهما بُعدَ المشرقينِ .

وقد أَغارَ الناظِمُ علىٰ قولِ منصورٍ : (فإِذا الدنيا لَهُ تبعٌ) فيما سبقَ من قولِهِ : (فإِذا وَلَّيا عَنِ ٱلْمَرءِ وَلَّىٰ) ، وأَغارَ أَيضاً علىٰ قولِهِ : (أَو ضاقَ أَمْرٌ ذَكَرْنَاهُ فَيَتَّسِعُ) حيثُ قالَ [في « العُكبَريّ » ٣/٣٠٣ مِنَ الكاملِ] :

مَلِـكٌ إِذَا مَـا ٱلـرُّمْـحُ أَدْرَكَـهُ   طَنَـبٌ ذَكَـرْنَـاهُ فَيَعْتَـدِلُ

ولاذَ بهِ المعريُّ في قولِهِ [في « سقطِ الزندِ » ١٢١ مِنَ الوافرِ] :

وَلَـوْ كَتَـبَ ٱسْمَـهُ مَلِـكٌ هَـزِيْـمٌ   عَلَـىٰ رَايَـاتِـهِ وَالَـىٰ ٱلْفُتُـوْحَـا

دواء عجيب لتسهيل الولادة.. اقرأه ولا تطبقه!!!

ولبيتِ النميريِّ قصَّةٌ ، حاصلُها [كما في «الأغاني» ١٣/١٦٧] : أَنَّهُ جاءَ إِلىٰ صديقٍ لَهُ وهوَ قلقُ الخاطِرِ ، منزعجُ ٱلفكرِ ، مُبَلْبَلُ البَالِ ، فسأَلَهُ صاحبُهُ عَنْ موجِبِ ذلكَ ، فقالَ لَهُ : تركْتُ زوجتي في المخاضِ ، وقد عسُرَ عَلَيها الولادُ ، وهيَ يَدي ورجلي ، ورُوحي ورَاحَتي ، قالَ لَهُ : أَلستَ القائِلَ : (أَوْ ضَاقَ أَمْرٌ ذَكَرْنَاهُ فَيَتَّسِعُ)؟ قالَ : بلىٰ ، قالَ : فٱذهبْ ، فٱكتبْ علىٰ فرجِها : هارونُ الرشيدُ ؛ حتَّىٰ يحصلَ الفرَجُ ، ويتَّسعَ المضيَّقُ ، فبلغَتِ ٱلرَّشيدَ ، وٱختلفَتِ الروايَةُ ، فمِن قائِلٍ : إِنَّهُ ٱستطرفَها ، ومِن قائِلٍ : إِنَّهُ عاقَبَ الرجلَ ، وقيلَ [في «الأغاني» ١٣/١٦٧] : إِنَّ الرجُلَ نمَّ علىٰ النميريِّ عندَ الرشيدِ بميلِهِ إِلىٰ العلويِّينَ ، وأَنَّهُ لا يريدُ بهارونَ إِلاَّ عليَّ ٱبنَ أَبي طالِبٍ ، مِن قولِهِ عليهِ السلامُ : « أَنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُوْنَ مِنْ مُوْسَىٰ »[١] ، وأَنشدَ لَهُ [مِنَ البسيطِ] :

آلُ ٱلرَّسُولِ خِيَارُ ٱلنَّاسِ كُلِّهِمِ ... وَخَيْـرُ آلِ رَسُـوْلِ ٱللهِ هَـارُوْنُ

وأَنَّ الرشيدَ أَرسلَ بعدَ ذلكَ إِلىٰ النميريِّ من يبعَجُ بطنَهُ ، فأَلفاهُ منصَرَفَ الناسِ مِن جنازَتِهِ ، وكانَ النميريُّ متمكِّناً عندَ الرشيدِ بنفاقِهِ ، الذي مِن أَظهرِ آياتِهِ قولُهُ [مِنَ الوافرِ] :

بَنِيْ حَسَنٍ وَقُلْ لِبَنِيْ حُسَيْنٍ ... عَلَيْكُـمْ بِـالسَّـوَاءِ مِـنَ ٱلأُمُـوْرِ
أَمِيطُوْا عَنكُـمُ كَـذِبَ ٱلأَمَـانِـيْ ... وَأَحْـلاَمـاً يَعُـدْنَ عِـدَاتِ زُوْرِ
إِنَّ ٱلنَّبِـيَّ أَبَـاً وَيَـأْبَـىٰ ... مِنَ ٱلأَحْزَابِ سَطْرٌ فِيْ سُطُوْرِ[٢]

---

(١) أخرجه عن سعد ٱبن أبي وقاص رضي الله عنه مسلم (٢٤٠٤) في (فضائل الصحابة) وفيه : « أما ترضىٰ أن تكون منِّي بمنزلة هارون من موسىٰ » .
(٢) البيتُ مكسورٌ عروضياً ولعل صوابَهُ :
وَلَـمْ يَكُـنِ ٱلنَّبِـيُّ أَبـاً ، وَيَـأْبَـىٰ ... مِـنَ ٱلأَحْـزَابِ سَطْـرٌ فِـيْ سُطُـوْرِ

يريدُ قولَهُ: ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، حتَّىٰ لَيُقالُ: إنَّ الرشيدَ حكمَهُ في بيتٍ بما أَرضىٰ لِهواهُ في هٰذا الشعْرِ.

المشيب والشباب والبكاء عليهما

ومِن بدائعِ الفرزدَقِ قولُهُ يبكي الشبابَ [في «ديوانِه» ١/ ٣٧٢ مِنَ الكاملِ]:

قَالَتْ: وَكَيْفَ يَمِيلُ مِثْلُكَ لِلصِّبَا وَعَلَيْكَ مِنْ سِمَةِ ٱلْحَلِيمِ وَقَارُ؟
وَٱلشَّيْبُ يَنْهَضُ فِي ٱلسَّوَادِ كَأَنَّهُ لَيْلٌ يَصِيحُ بِجَانِبَيْهِ نَهَارُ

وقالَ العربيُّ [أبو العتاهيةِ في «ديوانِه» ٣٢ مِنَ الوافرِ]:

أَلاَ لَيْتَ ٱلشَّبَابَ يَعُودُ يَوْماً فَأُخْبِرَهُ بِمَا فَعَلَ ٱلْمَشِيبُ

وقالَ دِعبلٌ [في «ديوانِه» ٢٠٣ مِنَ الكاملِ]

أَيْنَ ٱلشَّبَابُ؟ وَأَيَّةُ سَلَكَا؟ لاَ، أَيْنَ يُطْلَبُ؟ ضَلَّ، بَلْ هَلَكَا
لاَ تَعْجَبِي يَاسَلْمُ مِنْ رَجُلٍ ضَحِكَ ٱلْمَشِيبُ بِرَأْسِهِ فَبَكَىٰ

وقد أَخذ أَصلَ المعنىٰ مِن قولِ مسلمِ بنِ الوليدِ [صريعُ الغواني في «ديوانِه» ٣٠٦ مِنَ السَّريعِ]:

مُسْتَعْبِرٌ يَبْكِي عَلَىٰ دِمْنَةٍ وَرَأْسُهُ يَضْحَكُ فِيهِ ٱلْمَشِيبْ

أَو مِن قولِ ٱبنِ مطيرٍ [في «ديوانِه» ٢٧ مِنَ الخفيفِ]:

[كُلَّ يَوْمٍ بِأُقْحُوَانٍ جَدِيدٍ] تَضْحَكُ ٱلأَرْضُ مِنْ بُكَاءِ ٱلسَّمَاءِ

ومِن أَبكىٰ ما يكونُ علىٰ الشبابِ.. قولُ أَبي الغُصْنِ الأَسديِّ [مِنَ الوافرِ]:

أَتَأْمَلُ رَجْعَةَ ٱلدُّنْيَا سَفَاهاً وَقَدْ صَارَ ٱلشَّبَابُ إِلَىٰ ٱلذَّهَابِ
فَلَيْتَ ٱلْبَاكِيَاتِ بِكُلِّ أَرْضٍ جُمِعْنَ لَنَا فَنُحْنَ عَلَىٰ ٱلشَّبَابِ

وقالَ محمَّدُ بنُ أَبي حازمٍ [في « ديوانهِ » ٨٧ مِنَ البسيطِ] :

لاَ حِيْنَ صَبْرٍ فَخَلِّ ٱلدَّمْعَ يَنْهَمِلُ　　فَقْدُ ٱلشَّبَابِ بِيَوْمِ ٱلْمَرْءِ مُتَّصِلُ
لاَ تَكْذِبَنَّ فَمَا ٱلدُّنْيَا بِأَجْمَعِهَا　　مِنَ ٱلشَّبَابِ بِيَوْمٍ وَاحِدٍ بَدَلُ
كَفَاكَ بِٱلشَّيْبِ ذَنْباً عِنْدَ غَانِيَةٍ　　وَبِٱلشَّبَابِ شَفِيْعاً أَيُّهَا ٱلرَّجُلُ

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ الحسنِ بنِ الحسنِ السبطِ ـ رضوانُ اللهِ عليهم ـ [مِنَ الكاملِ] :

لَوْ أَنَّ أَسْرَابَ ٱلدُّمُوْعِ ثَنَتْ　　شَرْخَ ٱلشَّبَابِ عَلَىٰ ٱمْرِىءٍ قَبْلِي[1]
لَبَكَيْتُهُ دَهْرِيْ بِأَرْبَعَةٍ　　فَسَفَحْتُهَا سَجْلاً عَلَىٰ سَجْلِ

وقالَ ٱبنُ الروميِّ [في « ديوانهِ » ٦/ ٢٣٤٣ـ٢٣٤٤ مِنَ الكاملِ] :

لاَ تَلْحَ مَنْ يَبْكِي شَبِيْبَتَهُ　　إِلاَّ إِذَا لَمْ يَبْكِهَا بِدَمِ[2]
لَسْنَا نَرَاهَا حَقَّ رُؤْيَتِهَا　　إِلاَّ زَمَانَ ٱلشَّيْبِ وَٱلْهَرَمِ
وَلَرُبَّ شَيْءٍ لاَ يُبَيِّنُهُ　　وُجْدَانُهُ إِلاَّ مَعَ ٱلْعَدَمِ
كَٱلشَّمْسِ لاَ تَبْدُوْ فَضِيْلَتُهَا　　حَتَّىٰ تَغَشَّىٰ ٱلأَرْضُ بِٱلظُّلَمِ

وقالَ آخرُ [وهو أبو العتاهيةِ في « ديوانهِ » ٣٥٣ مِنَ الكاملِ] :

الشَّيْبُ إِحْدَىٰ ٱلْمِيتَتَيْنِ تَقَدَّمَتْ　　إِحْدَاهُمَا وَتَأَخَّرَتْ إِحْدَاهُمَا

وقالَ أَبو تمَّامٍ [في « ديوانهِ » ١/ ١٣٣ مِنَ الخفيفِ] :

لَوْ رَأَىٰ ٱللهُ أَنَّ فِيْ ٱلشَّيْبِ فَضْلاً　　جَاوَرَتْهُ ٱلأَبْرَارُ فِيْ ٱلْخُلْدِ شِيْبَا

---

(١) شرخُ الشباب : أوَّلُهُ وقوَّتُهُ ونضارتُهُ .
(٢) لاحَ : أشفق وبكىٰ .

وقالَ [في « ديوانهِ » ٢/ ١١٧ مِنَ الخفيفِ] :

شُعْلَةٌ فِيْ ٱلْمَفَارِقِ ٱسْتَوْدَعَتْنِيْ فِيْ صَمِيْمِ ٱلْفُؤَادِ ثُكْلاً صَمِيْمَا(١)
تَسْتَثِيْرُ ٱلْهُمُوْمَ مَا ٱكْتَنَّ مِنْهَا صُعُداً وَهِيَ تَسْتَثِيْرُ ٱلْهُمُوْمَا(٢)
دِقَّةٌ فِيْ ٱلْحَيَاةِ تُدْعَىٰ جَلاَلاً مِثْلَ مَا سُمِّيَ ٱللَّدِيْغُ سَلِيْمَا
حَلَّمَتْنِيْ زَعَمْتُمُ وَأَرَانِيْ قَبْلَ هَـٰذَا ٱلتَّحْلِيْمِ أُدْعَىٰ حَلِيْمَا(٣)

وقالَ [في « ديوانهِ » ١/ ٣٩٨ـ٣٩٩ مِنَ الطَّويلِ] :

غَدَا ٱلشَّيْبُ مُخْتَطّاً بِفَوْدَيَّ خِطَّةً سَبِيْلُ ٱلْفَتَىٰ فِيْهَا إِلَىٰ ٱلْمَوْتِ مَهْيَعُ(٤)
هُوَ ٱلزَّوْرُ يُجْفَىٰ، وَٱلْمُعَاشِرُ يُجْتَوَىٰ وَذُوْ ٱلإِلْفِ يُقْلَىٰ، وَٱلْجَدِيْدُ يُرَقَّعُ(٥)
لَهُ مَنْظَرٌ فِيْ ٱلْعَيْنِ أَبْيَضُ نَاصِعٌ وَلَـٰكِنَّهُ فِيْ ٱلْقَلْبِ أَسْوَدُ أَسْفَعُ(٦)
وَنَحْنُ نُزَجِّيْهِ عَلَىٰ ٱلْكُرْهِ وَٱلرِّضَا وَأَنْفُ ٱلْفَتَىٰ مِنْ وَجْهِهِ وَهْوَ أَجْدَعُ(٧)

وقالَ [في « ديوانهِ » ١/ ١١٥ـ١١٦ مِنَ البسيطِ] :

سِتٌّ وَعِشْرُوْنَ تَدْعُوْنِيْ فَأَتْبَعُهَا إِلَىٰ ٱلْمَشِيْبِ وَلَمْ تَظْلِمْ وَلَمْ تَحُبِ(٨)
يَوْمِيْ مِنَ ٱلدَّهْرِ مِثْلُ ٱلدَّهْرِ تَجْرِبَةً حَزْماً وَعَزْماً وَسَاعِيْ مِنْهُ كَٱلْحِقَبِ(٩)

---

(١) الصميمُ : الخالصُ .
(٢) تستثيرُ : تحرِّكُ ، والضميرُ يعودُ إلىٰ الثُّلّةِ منَ الشيبِ . اكتنَّ : استترَ . صُعُداً : ارتفاعاً .
(٣) حلَّمتني : صيَّرتني حليماً .
(٤) الفَودُ : جانبُ الرأسِ . الخطَّةُ : الطريقةُ . المَهْيَعُ : الطريقُ الواسعُ .
(٥) الزَّورُ : الزائرُ . يُجفى : يُهجرُ . يُجتوىٰ: يكرهُ . يُقلىٰ : يبغضُ .
(٦) أسفعُ : خالصُ السوادِ .
(٧) نزجِّيهِ : نسوقهُ . أَجدعُ : مقطوعٌ .
(٨) لم تحُبِ : لم تأثمْ .
(٩) الساعُ : مفردها الساعةُ . الحِقَبُ ـ مفرده حِقبةٌ ـ : وهي المدَّةُ الطويلةُ منَ =

وَأَصْغِرِيْ أَنَّ شَيْباً لاَحَ بِيْ حَدَثاً ... وَأَكْبِرِيْ أَنَّنِيْ فِيْ ٱلْمَهْدِ لَمْ أَشِبِ[1]
وَلاَ يُؤَرِّقْكِ إِيْمَاضُ ٱلْقَتِيْرِ بِهِ ... فَإِنَّ ذَاكَ ٱبْتِسَامُ ٱلرَّأْيِ وَٱلأَدَبِ[2]

وقالَ أبو عبادَةَ [في « ديوانهِ » ٢/١١٩٨ مِنَ الكاملِ] :

تَرَكَ ٱلسَّوَادَ لِلاَبِسِيْهِ وَبَيَّضَا ... وَنَضَا مِنَ ٱلسِّتِّيْنَ عَنْه مَا نَضَا[3]

وقالَ [في « ديوانهِ » ٢/١٢٠٧ـ١٢٠٩ مِنَ الخفيفِ] :

لاَبِسٌ مِنْ شَبِيْبَةٍ أَمْ نَاضِيْ ؟ ... وَمُلِيْحٌ مِنْ شَيْبَةٍ أَمْ رَاضِيْ[4] ؟
فَهَلِ ٱلْحَادِثَاتُ يَا ٱبْنَ عُوَيْفٍ ... تَارِكَاتِيْ وَلُبْسَ هَـٰذَا ٱلْبَيَاضِ ؟

وقالَ [في « ديوانهِ » ١/٥٥٦ مِنَ البسيطِ] :

وَجِدَّةُ ٱلشَّعَرَاتِ ٱلسُّوْدِ يُرْجِعُهَا ... بِيْضاً تَتَابُعُ مَرِّ ٱلْبِيْضِ وَٱلسُّوْدِ[5]
لَوْ كَانَ فِيْ ٱلْحِلْمِ مِنْ جَهْلٍ مَضَىٰ عِوَضٌ ... لَمْ أَذْمُمِ ٱلشَّيْبَ فِيْ قَوْلِيْ وَمَعْقُوْدِيْ

وقالَ [في « ديوانهِ » ١/٥٥٦ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا مَا لَقِيْنَاهُنَّ وَٱلشَّيْبُ شَفْعُنَا ... تَغَابَيْنَ أَوْ كَلَّمْنَنَا بِٱلسَّوَالِفِ[6]

وقالَ [في « ديوانه » ١/٩٩ مِنَ الوافرِ] :

أَقُوْلُ لِلِمَّتِيْ إِذْ أَسْرَعَتْ بِيْ ... إِلَىٰ ٱلشَّيْبِ : ٱخْسَرِيْ فِيْهِ وَخِيْبِيْ!

= الوقتِ ، ومنهُ قولهُ تعالىٰ ﴿ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴾ [عم : ٢٣] .
(١) أَصغِري وأَكبري : فِعْلا أمرٍ معناهما ليصغُر وليكبُر .
(٢) إيماضُ : لمعانُ . القتيرُ : الشيبُ .
(٣) نضا الثوبَ : نزعهُ وألقاهُ .
(٤) المُليحُ : المشفقُ الخائفُ الحذِرُ .
(٥) الجِدَّةُ : كونُ الشيءِ جديداً .
(٦) الشيبُ شفعنا : أي ثانينا . السوالفُ ـ جمع سالفةٍ ـ : وهيَ العنقِ . والمقصودُ : أنهنَّ يُعرضنَ عنهُ .

وقالَ [في « ديوانهِ » ٣/ ١٣٩٥ مِنَ الطّويلِ] :

ثَنَتْ طَرْفَهَا دُوْنَ ٱلْمَشِيْبِ، وَمَنْ يَشِبْ   فَكُـلُّ ٱلْغَـوَانِـيْ عَنْـهُ مُثْنِيَـةُ ٱلطَّـرْفِ

وقالَ [في « ديوانهِ » ١/ ٥٠٩ مِنَ ٱلخفيفِ] :

غَلَّسَ ٱلشَّيْـبُ أَوْ تَعَجَّـلَ وِرْدُهْ   وَٱسْتَعَارَ ٱلشَّبَابَ مَنْ لاَ يَرُدُّهْ[(١)]
لاَ تَلُمْنِيْ عَلَىٰ ٱلضَّنَا بَعْدَمَا صَـ   ـوَّحَ رَوْضُ ٱلصِّبَا وَأَنْهَجَ بُرْدُهْ[(٢)]

وقالَ [في « ديوانهِ » ١/ ١١٩ مِنَ البسيطِ] :

وَٱلشَّيْبُ مَهْرَبُ مَنْ جَارَىٰ مَنِيَّتَهُ   وَلاَ نَجَاءَ لَهُ مِنْ ذَلِكَ ٱلْهَرَبِ

وقالَ [في « ديوانهِ » ٢/ ٩٥٣ـ٩٥٤ مِنَ البسيطِ] :

فِيْ ٱلشَّيْبِ زَجْرٌ لَهُ لَوْ كَانَ يَنْزَجِرُ   وَبَـالِـغٌ مِنْـهُ لَـوْلاَ أَنَّـهُ حَجَـرُ
اِبْيَضَّ مَا ٱسْوَدَّ مِنْ فَوْدَيَّ وَٱرْتَجَعَتْ   جَلِيَّةُ ٱلصُّبْحِ مَا قَدْ أَغْفَلَ ٱلسَّحَرُ
وَلِلْفَتَىٰ مُهْلَـةٌ فِـيْ ٱلْحُـبِّ وَاسِعَـةٌ   مَا لَمْ يَمُتْ فِيْ نَوَاحِيْ رَأْسِهِ ٱلشَّعَرُ

وقالَ المعرِّيُّ [في « سقطِ الزندِ » ٢٤٦ مِنَ البسيطِ] :

وَقَدْ تَعَوَّضْتُ عَنْ كُلٍّ بِمُشْبِهِهِ   فَمَا وَجَدْتُ لأَيَّامِ ٱلصِّبَا عِوَضَا

وقالَ [البُحتريُّ في « ديوانهِ » ٣/ ١٤٨١ مِنَ الخفيفِ] :

هَاهُوَ ٱلشَّيْبُ لاَئِماً فَأَفِيْقِيْ!   وَٱتْـرُكِيْـهِ إِذْ كَـانَ غَيْـرَ مُفِيْـقِ

وقالَ [المعريُّ في « سقطِ الزندِ » ١١٢ مِنَ الوافرِ] :

وَعِيْشَتِـيَ ٱلشَّبَـابُ وَلَيْسَ مِنْهَـا   صِبَـايَ وَلاَ ذَوَائِبِـيَ ٱلْهِجَـانُ[(٣)]

---

(١) الغَلَسُ : ظلمةُ آخرِ الليلِ .
(٢) أنهجَ الثوبُ : بليَ .
(٣) الذوائبُ الهجانُ : البيضُ .

[وقيل مِنَ الوافر] :

وَكَالنَّارِ الْحَيَاةُ فَمِنْ دُخَانٍ   أَوَائِلُهَا وَآخِرُهَا رَمَادُ

وقالَ صردرٌ [مِنَ الكاملِ] :

لَمْ أَبْكِ أَنْ رَحَلَ الشَّبَابُ وَإِنَّمَا   أَبْكِي لأَنْ يَتَقَارَبَ الْمِيعَادُ
شَعْرُ الْفَتَىٰ أَوْرَاقُهُ فَإِذَا ذَوَىٰ   جَفَّتْ عَلَىٰ آثَارِهِ الأَعْوَادُ

الشيب قبل الأوان مؤلم

وفي بعضِ ما سبقَ ـ خصوصاً عَن أَبي تمَّامٍ ـ شكايَةٌ مِن نزولِ الشيبِ قبلَ أَوانِهِ ، وأَصلُهُ قولُ أَبي نواسٍ [في « ديوانِهِ » ٣٣٠ مِنَ الكاملِ] :

وَإِذَا عَدَدْتُ سِنِيَّ عُمْرِيَ لَمْ أَجِدْ   لِلشَّيْبِ عُذْراً فِي النُّزُوْلِ بِرَاسِيْ

وقالَ كُشاجمٌ [في « ديوانه » ٤٩٨ مِنَ الوافرِ] :

إِذَا فَكَّرْتُ فِيْ شَيْبِي وَسِنِّي   عَتَبْتُ عَلَيْهِ فِيْمَا نَالَ مِنِّي
كَأَنَّ الشَّيْبَ غَارَ عَلَىٰ الْغَوَانِيْ   فَعَرَّضَهُنَّ لِلإِعْرَاضِ عَنِّي

وقالَ الناظِمُ [في « العُكبَريِّ » ٤/١٢٣ ـ ١٢٤ مِنَ الكاملِ] :

لَوْ كَانَ يُمْكِنُنِيْ سَفَرْتُ عَنِ الصِّبَا   فَالشَّيْبُ مِنْ قَبْلِ الأَوَانِ تَلَثُّمُ(١)
وَلَقَدْ رَأَيْتُ الحَادِثَاتِ فَلاَ أَرَىٰ   شَيْباً يُمِيتُ وَلاَ سَوَاداً يَعْصِمُ

وقالَ آخرُ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَهَلْ أَنَا إِلاَّ ابْنُ الثَّلاَثِيْنَ لَمْ تَشِبْ   لِدَاتِيْ وَلَكِنَّ الْخُطُوْبَ تُضِيْمُ

وقالَ آخرُ [مِنَ الخفيفِ] :

قَدْ رَأَيْنَاهُ بِالْعَشِيِّ غُلاَماً   فَغَدَوْنَا نَعُدُّهُ فِيْ الْكُهُوْلِ

---

(١) سفرتُ : أظهرتُ وكشفتُ ، وسفرَ وجهُ زيدٍ : أشرقَ . التلثُّمُ : سترُ الوجهِ .

وقالَ الموسَويُّ [وهو الشريفُ الرضيُّ في « ديوانهِ » ٦٨٨ مِنَ السَّريعِ] :

عَجِّلْتَ يَا شَيْبُ عَلَىٰ مَفْرِقِيْ وَأَيُّ عُــذْرٍ لَـكَ أَنْ تَعْجَـلاَ
وَكَيْـفَ أَقْـدَمْـتَ عَلَـىٰ عَـارِضٍ مَا ٱسْتَغْرَقَ ٱلنَّبْتَ وَلاَ ٱسْتَكْمَلاَ ؟
يَـا زَائِـراً مَـا جَـاءَ حَتَّـىٰ مَضَـىٰ وعَـارِضاً مَا غَامَ حَتَّىٰ ٱنْجَلَىٰ
وَمَـا رَأَىٰ ٱلـرَّاؤُوْنَ مِـنْ قَبْلِهَـا زَرْعـاً ذَوَىٰ مِـنْ قَبْـلِ أَنْ يُبْقِـلاَ

وقالَ أَبو فراسٍ الحمدانيُّ [في « ديوانهِ » ١٥١ مِنَ الوافرِ] :

وَمَـا أَرْبَـتْ عَلَـىٰ ٱلْعِشْـرِيْـنَ سِنِّـيْ فَمَا عُذْرُ ٱلْمَشِيْبِ إِلَىٰ عِذَارِيْ ؟!

وقالَ ٱبنُ دريدٍ [في « ديوانهِ » ٤٥ مِنَ البسيطِ] :

ثَوبُ ٱلشَّبَابِ عَلَيَّ ٱلْيَوْمَ بَهْجَتُهُ وَسَوْفَ تَنْزِعُهُ عَنِّيْ يَدُ ٱلْكِبَرِ
أَنَا ٱبْنُ عِشْرِيْنَ مَا زَادَتْ وَلاَ نَقَصَتْ إِنَّ ٱبْنَ عِشْرِيْنَ مِنْ شَيْبٍ عَلَىٰ خَطَرِ

ما عذر المشيب في المجيء قبل أوانه؟

وقد سبقَ ـ ولا سيَّمَا فيما سقناهُ عَن أَبي عبادَةَ ـ عذرُ المشيبِ إذا جاءَ في وقتِهِ ، ومنهُ قولُ ٱبنِ الروميِّ [في « ديوانهِ » مِنَ الكاملِ] :

أَدْرَىٰ غُرَابَ ٱلشَّيْبِ فَوْقَ مَفَارِقِيْ رَكْضُ ٱلسِّنِيْنَ ٱلرَّاكِضَاتِ أَمَامِيْ

ولعلَّهُ أَرادَ الغرابَ الأَبقعَ ، أو مِن حيثُ إِنذارُهُ بالرحيلِ ، وإلاَّ . . فلونُهُ غيرُ مناسِبٍ للشيبِ ، وقولُهُ أَيضاً ، وهو ما يُعْجِبُنِي ؛ لموافقتِهِ لسنِّي [وهو في « ديوانهِ » ١/ ٣٦٠ـ٣٦١ مِنَ السَّريعِ] :

فَكَّرْتُ فِيْ خَمْسِيْنَ عَاماً مَضَتْ كَـانَـتْ أَمَـامِـيَ ثُـمَّ خَلَّفْتُهَـا
لَـوْ أَنَّ عُمْـرِيْ مِئَـةٌ هَـدَّنِـيْ تَـذَكُّـرِيْ أَنِّـيْ تَنَصَّفْتُهَـا

وقولُ أَبي عبادَةَ أَيضاً [في « ديوانهِ » ١/ ١٣٦ مِنَ الطَّويلِ] :

وَقَـدْ رَدَّتِ ٱلْخَمْسُـوْنَ رَدَّ صَـرِيْمَـةٍ إِلَىٰ ٱلشَّيْبِ ما وَلَّىٰ عَنِ ٱلشَّيْبِ يَهْرُبُ

وقولُهُ [مِنَ الكاملِ] :

إِنْ كَانَ قَدْ عَبَثَ ٱلْمَشِيبُ بِلِمَّتِي ... فَلَقَدْ أَخَذْتُ مِنَ ٱلشَّبَابِ نَصِيبِي

وقولُهُ [في « ديوانهِ » ١/ ١٥٠ مِنَ المتقاربِ] :

وَمَــنْ يَطَّلِــعْ شَــرَفَ ٱلأَرْبَعِيْـ ... ـنَ يُحَيِّ مِنَ ٱلشَّيْبِ زَوْراً غَرِيْباً

وقولُ آخرَ [وهو أبو الأسود الدؤلي في « الأغاني » ١٢/ ٣٧٣ مِنَ البسيطِ] :

أَفْنَىٰ ٱلشَّبَابَ ٱلَّذِيْ حَاوَلْتُ جِدَّتَهُ ... مَـرُّ ٱلْجَـدِيْـدَيْـنِ مِـنْ آتٍ وَمُنْطَلِـقِ

لَمْ يُبْقِيَا لِيَ مِنْ طُوْلِ ٱخْتِلاَفِهِمَا ... شَيْئاً أَخَافُ عَلَيْهِ لَذْعَةَ ٱلْحِدَقِ

وقالَ المعريُّ [في « سقطِ الزندِ » ٢٦١ مِنَ الكاملِ] :

وَلَقَدْ سَلَوْتُ عَنِ ٱلشَّبَابِ كَمَا سَلاَ ... غَيْـرِيْ وَلَـٰكِـنْ لِلْحَـزِيْـنِ تَـذَكُّـرُ

وكتبَ الحجَّاجُ إِلىٰ قتيبةَ بنِ مسلمٍ [في « الأغاني » ٢٠/ ٦٤] : من سار على الدرب . . وصل

أَمَّا بعدُ : فإِنِّي نظرتُ في سنِّي ، فإِذا أَنا قد بلَغْتُ الخمسينَ ، وأَنتَ نحوٌ منِّي في السنِّ ، وإِنَّ آمرأً قد سارَ خمسينَ حِجَّةً إِلىٰ منهَلٍ . . لقمينٌ أَنْ يَرِدَهُ .

فأَخذَهُ بعضُهم فقالَ [أبو العتاهيةِ في « ديوانهِ » ٢١ مِنَ الطَّويلِ] :

وَإِنَّ آمْرَأً قَدْ سَارَ خَمْسِيْنَ حِجَّةً ... إِلَـىٰ مَنْهَـلٍ مِـنْ وِرْدِهِ لَقَـرِيْـبُ

فَإِنْ كَانَتِ ٱلسِّتُّوْنَ سِنَّكَ لَمْ يَكُنْ ... لِـدَائِـكَ إِلاَّ أَنْ تَمُـوْتَ طَبِيْـبُ

وقالَ ٱبنُ المعتزِّ [مِنَ البسيطِ] :

إِحْدَىٰ وَخَمْسُوْنَ لَوْ مَرَّتْ عَلَىٰ حَجَرٍ ... لَكَانَ مِنْ حُكْمِهَا أَنْ يَفْلَقَ ٱلْحَجَرُ

أَمَّا المشيبُ : فإِنَّهُ مكروهٌ لقاؤُهُ ، محبوبٌ بقاؤُهُ ، وأَنشدَ ٱبنُ دريدٍ [في « ديوانهِ » ٢٩ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلِيْ صَاحِبٌ مَا كُنْتُ أَهْوَىٰ لِقَاءَهُ ... فَلَمَّا ٱلْتَقَيْنَا كَانَ أَكْرَمَ صَاحِبِ
عَزِيْزٌ عَلَيْنَا أَنْ يُفَارِقَ بَعْدَ مَا ... تَمَنَّيْتُ دَهْراً أَنْ يَكُوْنَ مُجَانِبِيْ

وقالَ مسلمُ بنُ الوليدِ [في « ذيلِ ديوانه » ٣١١] مِنَ البسيطِ :

ٱلشَّيْبُ كُرْهٌ وَكُرْهٌ أَنْ يُفَارِقَنِي ... فَٱعْجَبْ لِشَيْءٍ عَلَىٰ ٱلْبَغْضَاءِ مَوْدُوْدِ
يَمْضِيْ ٱلشَّبَابُ وَيَأْتِيْ بَعْدَهُ خَلَفٌ ... وَٱلشَّيْبُ يَذْهَبُ مَفْقُوْدٌ بِمَفْقُوْدِ

وقيلَ لأَبي العيناءِ : كيفَ أَنتَ؟ قالَ : في الداءِ الذي يتمنَّىٰ الناسُ بقاءَهُ .

وقيلَ لأعرابيٍّ ضعيفٍ مِنَ ٱلكِبَرِ : لقد أَذنَبَ إِليكَ الدهرُ ، فقالَ : أَطالَ اللهُ بقاءَ ذنبِهِ إِليَّ .

وقالَ البحتريُّ [في « ديوانه » ١/ ٩٩ مِنَ الوافرِ] :

يَعِيْبُ ٱلْغَانِيَاتُ عَلَيَّ شَيْبِيْ ... وَمَنْ لِيْ أَنْ أُمَتَّعَ بِٱلْمَعِيْبِ

أَمَّا كرهُ النساءِ للشيبِ : فلَم يخرجْ منهُنَّ إِلاَّ ما سبقَ عَن أُمِّ الضحَّاكِ ؛ ولهٰذا صانَ اللهُ نبيَّهُ ﷺ عَن كثرتِهِ ، وماتَ وما في لحيتِهِ ورأسِهِ منهُ عشرونَ شعرةً[1] ، علىٰ ٱختلافٍ في الرواياتِ ، قرَّرناهُ مَعَ ما يتعلَّقُ بهِ ، وما ٱختُلِفَ فيهِ مِن أَسبابِهِ في « حاشيتِنا علىٰ الشمائلِ » . بغض النساء الشيب

ويحكىٰ [في « المستطرف » ٢/ ٦٩] : أَنَّهُ مرَّ أَشمَطُ[2] بِٱمرأَةٍ بديعةِ

---

(١) أخرجه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما الترمذي في « الشمائل » (٤٠) ، وابن ماجه (٣٦٣٠) قال عنه في « الزوائد » : هذا إسناد صحيح ، رجاله ثقات . وفيه : (إنما كان شيب رسول الله ﷺ نحواً من عشرين شعرة بيضاء) .
(٢) الشَّمَطُ : بياضُ شعرِ الرأسِ وٱختلاطهُ بسوادهِ .

ٱلجمَالِ ، فقالَ : يا هـٰذهِ ، إِنْ كانَ لكِ زوجٌ . . فبارَكَ اللهُ لكِ فيهِ ، وإلاَّ . . فأخبرينا ، قالَتْ : كأنَّكَ تخطبُني ، قالَ : نعم ، قالَتْ : إِنَّ فِيَّ عيباً ما أَراكَ ترضاهُ ، قالَ : وما هوَ؟ قالَتْ : شَيبٌ غلبَ علىٰ سوادِ رأسي ، فثنىٰ عِنَانَ فرسِهِ ، فقالَتْ : علىٰ رِسلِكَ ، وكشفَتْ لَهُ عَنِ ٱلفاحِمِ الأَثيَثِ ، وقالَتْ لَهُ : أَشيباً ترىٰ؟ قالَ : لا واللهِ ، قالَت : وأَزيدُكَ علىٰ ذلكَ أَنِّي لَم أَبلُغِ ٱلعشرينَ ، ولـٰكن أَحببتُ إِعلامَكَ علىٰ أَنِّي أَكرهُ منكَ ما تكرهُ منِّي .

فتنوَّعَ الشعراءُ في معناهُ ، قالَ ٱبنُ الروميِّ [في « ديوانهِ » ٣/ ١٠٨٣ مِنَ الطَّويلِ] :

أَعِرْ طَرْفَكَ ٱلْمِرْآةَ وَٱنْظُرْ فَإِنْ نَبَا بِعَيْنِكَ عَنْهُ ٱلشَّيْبُ فَٱلْبِيْضُ أَعْذَرُ
إِذَا شَنِئَتْ عَيْنُ ٱلْفَتَىٰ عَيْبَ نَفْسِهِ فَعَيْـنُ سِـوَاهُ بِـٱلشَّنَـاءَةِ أَعْـذَرُ

وقالَ ٱبنُ المعتزِّ [في « ديوانهِ » ٢/ ٣٥٨ مِنَ الوافرِ] :

لَقَدْ أَبْغَضْتُ نَفْسِيْ فِيْ مَشِيْبِيْ فَكَيْفَ تُحِبُّنِيْ ٱلْبِيْضُ ٱلْكِعَابُ ؟

وقالَ الناظِمُ [مِنَ الوافرِ] :

أَرَىٰ شَيْبَ ٱلرِّجَالِ مِنَ ٱلْغَوَانِيْ بِمَـوْقِـعِ شَيْبِهِـنَّ مِـنَ ٱلـرِّجَـالِ

ومِنَ ٱلْمُغالطاتِ في الموضوعِ . . قولُ أَبي العلاءِ المعريِّ [في « سقطِ الزندِ » ٢٩٦ مِنَ الخفيفِ] :

خَبِّرِيْنِيْ مَاذَا كَرِهْتِ مِنَ ٱلشَّيْـ ـبِ فَلاَ عِلْمَ لِيْ بِذَنْبِ ٱلْمَشِيْبِ
أَضِيَـاءُ ٱلنَّهَـارِ أَمْ وَضَـحُ ٱللُّـؤْ لُـؤِ أَمْ كَـوْنُـهُ كَثَغْـرِ ٱلْحَبِيْـبِ
وَٱذْكُرِيْ لِيْ فَضْلَ ٱلشَّبَابِ وَمَا يَجْـ ـمَـعُ مِـنْ مَنْظَـرٍ يَـرُوْقُ وَطِيْـبِ
غَـدْرُهُ بِـٱلْخَلِيْـلِ أَمْ حُبُّـهُ لِلْـ ـغَـيِّ أَمْ أَنَّـهُ كَـدَهْـرِ ٱلأَرِيْـبِ

وقالَ آخرُ [في «المستطرف» ٢/ ٦٩ مِنَ البسيطِ] :

قَالَتْ: أَرَىٰ مِسْكَةَ ٱللَّيْلِ ٱلْبَهِيمِ وَفَتْ   كَافُورَةً أَخْلَقَتْهَا رَاحَةُ ٱلزَّمَنِ
فَقُلْتُ : طِيبٌ بِطِيبٍ وٱلتَّبَدُّلُ فِيْ   رَوَائِحِ ٱلطِّيبِ أَمْرٌ غَيْرُ مُمْتَهَنِ
قَالَتْ : صَدَقْتَ وَلَكِنْ لاَ سَوَاءَ فَإِ   نَّ ٱلْمِسْكَ لِلْعُرْسِ وَٱلْكَافُورَ لِلْكَفَنِ

وبهـٰذا ذكرتُ قولَ الآخرِ [في «المستطرف» ٢/ ٦٩ مِنَ البسيط] :

سَأَلْتُهَا قُبْلَةً يَوْماً وَقَدْ نَظَرَتْ   شَيْبِيْ وَقَدْ كُنْتُ ذَا مَالٍ وَذَا نِعَمِ
فَأَعْرَضَتْ وَتَوَلَّتْ وَهْيِ قَائِلَةٌ   لاَ وَالَّذِي أَوْجَدَ ٱلأَشْيَاءَ مِنْ عَدَمِ
مَا كَانَ لِيْ فِيْ بَيَاضِ ٱلشَّيْبِ مِنْ أَرَبٍ   أَفِيْ حَيَاتِيْ يَكُوْنُ ٱلْقُطْنُ حَشْوَ فَمِيْ

ومِنَ المغالطاتِ فيهِ، ما سبقَ عَن أَبي تمَّامٍ مِن قولِهِ [في «ديوانه» ١/ ١١٦ مِنَ البسيطِ]:

[وَلاَ يُؤَرِّقْكَ إِيْمَاضُ ٱلْقَتِيْرِ بِهِ]   فَإِنَّ ذَاكَ ٱبْتِسَامُ ٱلرَّأْيِ وَٱلأَدَبِ

وقد قالَ أَبو الحسنِ عليُّ بنُ طاهرِ بنِ منصورٍ [مِنَ الخفيفِ] :

أَعْرَضَتْ حِيْنَ أَبْصَرَتْ شَعَرَاتٍ   فِيْ عِذَارِيْ كَأَنَّهُنَّ ٱلثَّغَامُ(١)
قُلْتُ: هَـٰذَا تَبَسُّمُ ٱلدَّهْرِ، قَالَتْ:   قَدْ سَعَىٰ فِيْ صُدُوْدِكَ ٱلإِبْتِسَامُ

ويعجبني بمناسبةِ الشيبِ قولُ ٱبنِ الفارضِ [في «ديوانه» ٤٠ مِنَ الطَّويلِ]:

وَأَبْعَدَنِيْ عَنْ أَرْبُعِيْ بُعْدُ أَرْبَعٍ   شَبَابِيْ وَعَقْلِيْ وَٱرْتِيَاحِيْ وَصِحَّتِيْ
فَلِيْ بَعْدَ أَوْطَانِيْ سُكُوْنٌ إِلَىٰ ٱلْفَلاَ   وَبِٱلْوَحْشِ أُنْسِيْ إِذْ مِنَ ٱلإِنْسِ وَحْشَتِيْ
وَزَهَّدَ فِيْ وَصْلِيْ ٱلْغَوَانِيَ إِذْ بَدَا   تَبَلُّجُ صُبْحِ ٱلشَّيْبِ فِيْ جُنْحِ لِمَّتِيْ
فَرُحْنَ بِحُزْنٍ جَازِعَاتٍ بُعَيْدَ مَا   فَرِحْنَ بِحَزْنِ ٱلْجَزْعِ بِيْ لِشَبِيْبَتِيْ

(١) الثغامُ : نبتٌ على شكلِ الحليِّ ، يكونُ في الجبلِ أخضرَ ثم يبيضُّ إذا يبسَ .

وقد سبقَ ـ في غيرِ هٰذا المجلسِ ـ بعضُ هٰذهِ ، غيرَ أنَّ كلامَ الشيخِ لا يُملُّ ، وقولُهُ : (وَبِالْوَحْشِ أُنسِيْ) هوَ مِن قولِ تأبَّطَ شرّاً ، وقد مرَّ أيضاً [مِنَ الطَّويلِ] :

عَوَىٰ الذِّئْبُ فَاسْتَأْنَسْتُ بِالذِّئْبِ إِذْ عَوَىٰ ... وَصَوَّتَ إِنْسَانٌ فَكِدْتُ أَطِيرُ

وكانَ الربيعُ كثيراً ما ينشدُ [مِنَ الكاملِ] :

لَيْتَ الْكِلاَبَ لَنا كَانَتْ مُجَاوِرَةً ... وَإِنَّنَا لاَ نَرَىٰ مِمَّنْ نَرَىٰ أَحَدَا
إِنَّ الْكِلاَبَ لَتَهْدَا فِيْ مَرَابِضِهَا ... وَالنَّاسُ لَيْسَ بِهَادٍ شَرُّهُمْ أَبَدَا

[وقال آخر في « قِرى الضيف » ٤/ ٣٨٣ من البسيط] :

شَرُّ السِّبَاعِ الضَّوَارِيْ دُوْنَهُ وَزَرٌ ... وَالنَّاسُ أَشْرَارُهُمْ مَا دُوْنَهَا وَزَرُ
كَمْ مَعْشَرٍ سَلِمُوْا لَمْ يُؤْذِهِمْ سَبُعٌ ... وَمَا نَرَىٰ بَشَراً لَمْ يُؤْذِهِ بَشَرُ

قصائد للمؤلف في الموضوع

ولي فيما يتعلَّقُ بالمشيبِ ما لا ينحطُّ إِلىٰ التقصيرِ ، إِن لم يرتفعْ إِلىٰ الإِجادَةِ ، منهُ [في « ديوانِ المؤلف » ٣٥٣ـ٣٥٤ مِنَ الكاملِ] :

لاَ تُنْكِرِيْ أَنْ رَيْتِ فَوْدِيَ أَشْيَبَا ... أَوَلَيْسَ أَوْقَرَ فِيْ النُّفُوْسِ وَأَهْيَبَا
مَا شِبْتُ مِنْ كِبَرٍ وَلَـٰكِنْ هِمَّةٌ ... مِنْ شَأْنِ حَامِلِ مِثْلِهَا أَنْ يَتْعَبَا
وَسَلِيْ الزَّمَانَ يُفِدْكِ عَنْ صَبْرِيْ لَهُ ... وَسَتَعْذُرِيْنِيْ إِنْ سَأَلْتِ عَنِ النَّبَا
مَا زِلْتُ أَعْرِكُ أُذْنَهُ وَغَنِمْتُ إِذْ ... أَخَذَ الْغُرَابَ عَلَيَّ بَازٍ أَشْهَبَا
يَجْلُوْ دُجَىٰ شَعْرِيْ صَبَاحُ تَجَارِبِيْ ... وَكَذَاكَ ضَوْءُ الصُّبْحِ يَجْلُوْ الْغَيْهَبَا
مَا فَلَّ مِنْ عَزْمِيْ الْمَشِيْبُ وَلَمْ يَكُنْ ... لِيَزِيْدَنِيْ إِلاَّ مَضَاءً فِيْ إِبَا
فَلأُجْرِيَنَّ الْعَزْمَ مِلْءَ عِنَانِهِ ... حَتَّىٰ يُبَلِّغَنِيْ سُرَاهُ الْمَطْلَبَا
وَلأَنْفُضَنَّ الْعَجْزَ فِيْ نَصْرِ الْهُدَىٰ ... عَنِّيْ فَإِنَّ السَّيْلَ قَدْ بَلَغَ الزُّبَىٰ(١)

---

(١) هذا مثل أورده الميداني في «مجمع الأمثال» (٤٣٦) ويضرب لما جاوز الحدَّ .

ومن أُخرىٰ تقدمتُ بِها يومَ لاقيتُ الإمامَ[1] ـ حفظَهُ اللهُ تعالىٰ ـ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَكَابَدْتُ فِيْ سَيْرِيْ إِلَيْكَ مَصَاعِباً ... بِهَا قَبْلَ وَقْتِ ٱلشَّيْبِ مِنِّيْ وَهَىٰ ٱلْعَظْمُ
وَإِنْ قُمْتُ فِيْ وَجْهِ ٱلْوَذِيْلَةِ لاَحَ لِيْ ... بَيَاضٌ بِهِ ٱغْتَاصَتْ غَدَائِرِيَ ٱلسُّحْمُ[2]

ولمَّا بلغَتْ مطيَّتي ذروَةَ العقدِ الخامِسِ ، ورأَيتُ ما رأَيتُ من عوارضِ المشيبِ ، جاشَتِ ٱلجائِشَةُ ، فقلتُ في معارضَةِ الشريفِ الرضيِّ [في « ديوانِ المؤلف » ٢٠٧ـ٢١٢ مِنَ الطَّويلِ] :

عَذِيْرِيْ مِنَ ٱلْخَمْسِيْنَ حَلَّتْ بِعَقْوَتِيْ ... وَمِنْ مُوْجِعَاتِ ٱلدَّهْرِ تَنْقُضُ قُوَّتِيْ[3]
وَبِيْضٍ بِمَرْأَىٰ ٱلْعَيْنِ سُوْدٌ لَدَىٰ ٱلنُّهَىٰ ... تَحَكَّمْنَ فِيْ رَأْسِيْ وَوَجْهِيْ بِسَطْوَةِ
وَفَضْلِ أَدِيْـمٍ لاَحَ لِـيْ مِـنْ وَذِيْلَـةٍ ... ضُحىً فَٱسْتَحَالَتْ ظُلْمَةً مِنْهُ ضَحْوَتِيْ
فُضُوْلٌ بِلاَ فَضْلٍ وَنُوْرٌ بِلاَ بَهَا ... وَرَكْضٌ عَلَىٰ شَهْبَاءَ تَجْرِيْ لِهُوَّةِ
عَلَىٰ أَنَّنِيْ لَمْ أُعْطِ فَضْلَ مَقَادَتِيْ ... لِضَعْفٍ وَلَمْ تَقْصُرْ عَنِ ٱلْمَجْدِ خُطْوَتِيْ
فَلاَ يَشْمَتِ ٱلأَعْدَاءُ فَٱلْضَّرْعُ حَافِلٌ ... وَمَا فَاتَ مِمَّا فِيْ ٱلإِنَا غَيْرُ رِغْوَةِ
لَقَدْ طَارَ عَنْ فَوْدِيْ ٱلْغُرَابُ وَإِنَّمَا ٱلْـ ... ـعِرَابُ تَرَانِيْ وَاثِباً كُلَّ صَهْوَةِ[4]
فَمَا خَانَنِيْ صُنْعُ ٱلْمَشِيْبِ بِلِمَّتِيْ ... وَلاَ فَلَّ مِنْ عَزْمِيْ وَلاَ مِنْ فُتُوَّتِيْ

---

(١) لعله الإمام : يحيى حميد الدين إمام اليمن . . حيث كانت له صلة ومواصلة بالمؤلف .

(٢) الوَذيلَةُ : المرآةُ .

(٣) عذيري من الخمسينَ : هاتِ للخميسنَ سنةً عذراً فيما فعلَتْ بي . حلَّت بعَقوتي : نزلت بساحتي .

(٤) طارَ عن فَوديَّ الغرابُ : ذهبَ عن رأسي الشعرُ الأَسودُ . العِرابُ : الخيلُ التي ليسَ فيها عِرقٌ هجينٌ .

وَلاَ غَضَّ حَتَّىٰ مِنْ عِنَانِ صَبَابَتِيْ وَلاَ رَيَّثَ مَنْ بِيْضِ الدُّمَىٰ نَوْعَ جَفْوَةِ[1]
وَلاَ ذَلَّلَتْ هُوجُ الْخُطُوبِ مَطَامِحِيْ وَلاَ قَرَّعَتْ سُوْدُ الْمَصَائِبِ مَرْوَتِيْ[2]
حُسَامٌ يَمَانِيٌّ يَزِيْدُ مَضَاؤُهُ إِذَا رَقَّ جِسْماً عَادَ مَأْمُوْنَ نَبْوَةِ
قُيُوْنُ امْتِحَانٍ زِنَّ مَرْأَىٰ فِرِنْدِهِ وَأَعْدَدْنَهُ لِلْفَتْكِ فِيْ كُلِّ هَبْوَةِ[3]
تَقَلَّبْتُ فِيْ خِصْبِ الزَّمَانِ وَبُؤْسِهِ فَمَا عَلِقَتْ مِنِّيْ اللَّيَالِيْ بِهَفْوَةِ
قَرِيْبٌ لَدَىٰ السَّرَّاءِ لَيِّنُ جَانِبٍ وَفِيْ حَالَةِ الضَّرَّاءِ تَشْتَدُّ نَخْوَتِيْ
فَلَمْ يَنْتَقِصْنِيْ الْفَقْدُ حَبَّةَ خَرْدَلٍ وَلاَ زَادَ فِيَّ الْوَجْدُ آثَارَ نَشْوَةِ
وَرَاجَعْتُ أَعْمَالِيْ فَلَمْ أَرَ نُقْطَةً تَمَسُّ بِتَارِيْخِيْ النَّقِيِّ لِصَبْوَةِ
وَلَكِنَّهَا فَضْلٌ وَنُبْلٌ وَعِفَّةٌ صَعِدْتُ بِهَا فِيْ الْمَجْدِ أَمْنَعَ ذِرْوَةِ
وَقُوْرٌ إِذَا خَفَّ الْحَلِيْمُ وَرَابِطٌ لَدَىٰ الْهَوْلِ لاَ تَنْحَلُّ لِلْخَطْبِ حَبْوَتِيْ
وَإِنْ نَالَتِ الأَيَّامُ مِنِّيْ بِحَرْبِهَا أَذَاةً فَفِيْ خَيْرِ النَّبِيِّيْنَ أُسْوَتِيْ
وَفِيْمَا جَرَىٰ لِلْمُرْتَضَىٰ وَلِزَوْجِهِ وَأَوْلاَدِهِ فِيْ سَاعَةِ الْكَرْبِ سَلْوَتِيْ
فَلاَ تَضْحَكُ الأَيَّامُ إِلاَّ لِسَفْلَةٍ وَلاَ تَلْتَقِيْ الأَبْطَالَ إِلاَّ بِعُنْوَةِ
فَكَمْ كَابَدُوْا فِيْ الْحَقِّ مِنْ مِحْنَةٍ وَكَمْ لَقُوْا مِنْ بَلاَيَا كُلَّ مُمْسٍ وَغُدْوَةِ
وَلَوْلاَهُمُ لِلدِّيْنِ مَا قَامَ قَائِمٌ وَلاَ أَصْبَحَ الإِسْلاَمُ رَوْضاً بِرَبْوَةِ
وَلَكِنْ جِهَادٌ فِيْهِ تَسْتَبِقُ الطُّلاَ وَأَجْسَادُهَا بَعْدَ احْتِجَاجٍ وَدَعْوَةِ[4]

---

(١) الدُّمىٰ : يريدُ بها النساءَ .

(٢) هوجُ الخطوبُ : الأحداثُ الشديدةُ . مَروتي : صخرتي ، وأَصلُ المروِ الصخرُ الأملسُ .

(٣) قُيُونٌ ـ جمعُ قينٍ ـ : وهو الحدَّادُ . فِرِندُهُ : وشيُهُ . الهبوَةُ : الغبارُ ، يريدُ الحربَ .

(٤) الطُّلا : الأَعناقُ .

حُرُوْبٌ إِذَا عَضَّتْ رَحَاهَا ثِفَالُهَا ... فَمَا ثَمَّ إِلاَّ ٱلْهَامُ فِيْ كُلِّ لَهْوَةِ[1]
أَذَالُوْا لَهَا تَحْتَ ٱلْقَسَاطِلِ أَوْجُهاً ... تَشُقُّ ٱلدُّجَا ، فِيْهَا ضِيَاءُ ٱلنُّبُوَّةِ[2]
أُولَـئِـكَ آبَـائِـيْ وَعِـزِّيْ وَسُـؤْدُدِيْ ... وَفَخْرِيْ وَذُخْرِيْ وَٱعْتِصَامِيْ وَقُدْوَتِيْ
جَرَىٰ فِيْ عُرُوْقِيْ حُبُّهُمْ وَبِجَاهِهِمْ ... لِيَ ٱلأَمْنُ فِي ٱلدَّارَيْنِ مِنْ كُلِّ شَقْوَةِ
إِذَا زَارَنَـا مِنْهُـمْ خَيَـالٌ تَضَـوَّعَـتْ ... رُبَـانَـا بِـأَزْكَـىٰ مِـنْ أَرِيْـجِ ٱلأَلُـوَّةِ[3]
سَأَمْضِيْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ جُهْدَ طَاقَتِيْ ... وَإِنْ صَدَّنِيْ شَعْبِيْ وَقَوْمِيْ وَإِخْوَتِيْ
فَفِيْنَـا خُلُـوْفٌ مِـنْ بَنِيْهِـمْ تَنَكَّبُـوْا ... طَـرِيْقَتَهُـمْ ظُلْمـاً لِحَـقِّ ٱلأُبُـوَّةِ
مَذَامِيْمُ لاَ بَغْياً أَهَانُوْا ، وَلاَ هُدىً ... أَعَانُوْا ، وَلَكِنْ فِيْ رِضَا كُلِّ شَهْوَةِ
وَيَا لَيْتَهُمْ كَانُوَا كَفَافاً وَلاَ ٱعْتَدَوْا ... وَلاَ فَتَحُـوْا لِلشَّـرِّ أَشْـأَمَ كُـوَّةِ
مَنَاسِبُ عَنْ مَرْقَاتِهَا ٱلطَّعْنُ يَرْتَمِيْ ... وَلَـكِنَّمَـا ٱلأَعْمَـالُ ضِـدُّ ٱلْبُنُـوَّةِ[4]
يَعُدُّوْنَ إِعْلاَنِيْ ٱلصَّوَابَ جَرِيْمَةً ... وَيَفْرُوْنَنِيْ إِنْ كُنْتُ عَنْهُمْ بِنَجْوَةِ
تَغَـرَّبْـتُ عُقْـرَ ٱلـدَّارِ فِيْهِـمْ فَجُلُّهُـمْ ... يَقُوْلُوْنَ : تَعْساً لاَ لَعاً عِنْدَ كَبْوَتِيْ[5]
وَكَمْ قَتَلُوْا لِيْ فِيْ ٱلْغَوَارِبِ وَٱلذُّرَىٰ ... وَكَـمْ زَوَّجُـوْا مَيْنـاً لِكَيْـدِيْ بِـرِشْـوَةِ
فَلَمْ يَجِدُوْا بِٱلْعَجْمِ فِيْ ٱلْعُوْدِ مَغْمَزاً ... وَلاَ هِمَّتِيْ كَانَتْ عَلَيْهِمْ بِرَخْوَةِ[6]

---

(١) ثِفالُها ـ جمعُ ثِفالٍ ككتابٍ ـ : وهوَ جلدٌ يوضعُ تحت الرحىٰ يقمُّ عليهِ الدقيقُ ، وهو مثلٌ لشدَّةِ الحربِ ، وفي حديث عليٍّ رضي الله عنه : « وتدقُّهم الفتنُ دقَّ الرحى بثفالِها » ، أي : تدقُّهم دقَّ الرحىٰ للحبِّ إذا كانت مثقَّلةً ، ولا تثفلُ إلا عندَ الطحنِ . اللهوةُ : ما يُلقى في فمِ الرحى من الحبوبِ للطحنِ .
(٢) أذالوا : أَماتوا واسترخصوا في سبيلها . القساطلُ : غبارُ الحربِ .
(٣) تضوَّعت : فاحت . أَريجٌ : رائحة . الأَلُوَّةُ : العودُ الذي يتبخَّرُ بهِ .
(٤) المَناسبُ : أنسابهم شريفةٌ عاليةٌ ، ولكنَّ أعمالَهم سيِّئةٌ ضدٌّ ما ينتسبونَ إليهِ .
(٥) لا لعاً : لا أنتعاشَ لك من كبوتِكَ ، يقولُ العربُ في الدعاءِ عليهِ : تعساً لا لَعاً لهُ .
(٦) العَجمُ في العودِ : يقالُ : عجمَ العودَ ، إذا لاكهُ للاختبارِ .

وَكَمْ قَدْ تَحَدَّيْتُ ٱلْمُرَابِيْنَ فَٱنْثَنَوْا وَهَابُوْا كِفَاحِيْ فِيْ ٱلْجِدَالِ بِجَلْوَةِ
وَكَمْ بِدْعَةٍ أَحْيَوْا وَكَمْ سُنَّةٍ مَحَوْا فَقَدْ لَبِسُوْا ٱلإِسْلاَمَ مَقْلُوْبَ فَرْوَةِ
وَمَا لِيْ سِوَىٰ حُسْنِ ٱنْتِظَارِيْ عِنَايَةً مِنَ ٱللهِ لِيْ مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ وَقُوَّةِ
وَوَعْدٍ مِنَ ٱلْمَوْلَىٰ ٱلإِمَامِ بِنَجْدَةٍ غَدًا نَجْزُهَا مِنِّيْ عَلَىٰ قَابِ غَلْوَةِ(١)
وَبِٱلْخَمْسَةِ ٱلأَزْوَاجِ أَسْتَجْلِبُ ٱلْمُنَىٰ وَأَسْتَدْفِعُ ٱلْبَلْوَىٰ فَهُمْ خَيْرُ عُزْوَةِ

ولمَّا تقاطرتِ الفصولُ ، واتسقتِ المواضيعُ ، وأخذَ الكلامُ برقابِ بعضِهِ . لم يُمكِنَّا قطعهُ ، معَ رقَّةِ الانسجامِ ، وخفَّةِ النسيمِ ، وجمالِ الديباجَةِ ، وقلَّةِ الفضولِ ، وعدمِ الحشوِ ، وكنتُ أكرهُ أن أُثقلَ بمثلِها مِن شعري ، ثمَّ رأيتُ أنَّ المنصفَ لَن يزيدَ بِها إلاَّ ارتياحاً ، وأمَّا البغيضُ . . فكلُّ ما أقولُ ثقيلٌ عليهِ ، ولو من بعيدٍ ، فأجرَرْتُها رسنَ القلمِ ، لتزيدَ المقيتَ غيظاً ، وتفيضَ الإحسانَ فيضاً ، وممَّا لي أيضاً في الموضوعِ قولي [في « ديوانِ المؤلفِ » ٢٩٤ مِنَ البسيطِ] :

رُدُّوْا عَلَىٰ لِمَّتِيْ ٱلْحِبْرَ ٱلَّذِيْ نَصَلاَ حَتَّىٰ أُطَالِعَ مَا فِيْ عَهْدِهِ حَصَلاَ(٢)
فَإِنَّهَا ذِكْرَيَاتٌ كُلَّمَا ٱبْتَسَمَتْ لِلْقَلْبِ آنَسَ مِنْهَا نَشْوَةً فَسَلاَ
مَرْسُوْمَةٌ فِيْ ضَمِيْرِيْ وَهْيَ جَالِيَةٌ مِنَ ٱلْمَحَاسِنِ يَكْسُوْهَا ٱلْهَوَىٰ حُلَلاَ
مَرَّ ٱلزَّمَانُ بِهَا عَجْلَىٰ وَعَوَّضَنِيْ عَنْهَا حُلُوْماً فَلَمْ أَقْنَعْ بِهَا بَدَلاَ
كَأَنَّ قَادِمَتَيْ نَسْرٍ تَعَلَّقَتَا فِيْهَا فَوَلَّتْ سِرَاعاً بَيْنَ لاَ وَبَلَىٰ(٣)

---

(١) الغَلوةُ : قدرُ رميةِ السهمِ .
(٢) اللِّمَّةُ : الشَّعرُ المجاورُ شحمةَ الأذنِ . الحبرُ : المقصودُ به هنا سوادُ الشَّعرِ الذي ذهبَ وحلَّ مكانهُ الشيبُ .
(٣) قادِمَتَيْ نسرٍ : ريشاتٌ في مقدَّمِ جناحيهِ .

أَلْفَيْتُ كُلَّ مُصَابٍ جَلَّ مَوْقِعُهُ ... فِيْ جَنْبِ مَا فَاتَنِيْ مِنْ صَفْوِهَا جَلَلاَ
فِيْهَا أَرَىٰ الْبَالَ رِخْواً، وَالزَّمَانَ رِضاً ... وَالْعَيْشَ غَضّاً ، وَأَسْبَابَ الْمُنَىٰ ذُلُلاَ
وَالْجَوَّ طَلْقاً، وَشَمْلَ الأُنْسِ مُجْتَمِعاً ... وَالْحَظَّ يَبْسُطُ فِيْ إِقْبَالِهِ الأَمَلاَ

وهيَ مِن نوعِ السابقَةِ ، علىٰ أنَّهَا أشدُّ متناً ، وأكثرُ حسناً ، وأجملُ شارَةً ، وأحلىٰ إشارَةً .

من فوائد الشيب أنه يردع عن الغي

والكلامُ يطولُ في فوائِدِ الشيبِ ، ومنها : ردعُهُ عَنِ الْغَيِّ .

قالَ مسلمَةُ بنُ عبدِ الملكِ : ما وعظَني شِعْرٌ ما وعظَني قولُ عمرانَ بنِ حِطَّانَ [في « ديوانِ دريدِ بنِ الصمةِ » ٥٠ مِنَ الطَّويلِ] :

صَبَا مَا صَبَا حَتَّىٰ عَلاَ الشَّيْبُ رَأْسَهُ ... فَلَمَّا عَلاَهُ قَالَ لِلْبَاطِلِ : ٱبْعَدِ

وقالَ دِعْبِلٌ [في « ديوانهِ » ١٠٢ـ١٠٣ مِنَ الكاملِ] :

أَهْلاً وَسَهْلاً بِالْمَشِيْبِ فَإِنَّهُ ... سِمَةُ الْعَفِيْفِ وَحِلْيَةُ الْمُتَحَرِّجِ
ضَيْفٌ أَلَمَّ بِمَفْرِقِيْ فَقَرَيْتُهُ ... رَفْضَ الْغَوَايَةِ وَاقْتِصَادَ الْمَنْهَجِ

وقالَ الببغا [مِنَ البسيطِ] :

لاَ عُذْرَ بَعْدَ عِذَارٍ شَابَ أَكْثَرُهُ ... فَالشَّيْبُ أَوْعَظُ إِعْذَارٍ وَإِنْذَارِ

وقالَ ٱبنُ أبي طاهرٍ [مِنَ الطَّويلِ] :

رَكِبْتُ الصِّبَا حَتَّىٰ إِذَا مَا وَنَىٰ الصِّبَا ... نَزَلْتُ مِنَ التَّقْوَىٰ بِأَكْرَمِ مَنْزِلِ
وَدِيْنُ الْفَتَىٰ بَيْنَ التَّنَسُّكِ وَالنُّهَىٰ ... وَدُنْيَا الْفَتَىٰ بَيْنَ الصِّبَا وَالتَّغَزُّلِ

وما أحسنَ قولَ الإمامِ ٱبنِ دقيقِ العيدِ [في « شذرات الذهب » ٦/٣ مِنَ الطَّويلِ] :

تَمَنَّيْتُ أَنَّ الشَّيْبَ عَاجَلَ لِمَّتِيْ ... وَقَرَّبَ مِنِّيْ فِيْ صِبَايَ مَزَارَهُ
لآخُذَ مِنْ عَصْرِ الشَّبَابِ نَشَاطَهُ ... وَآخُذَ مِنْ عَصْرِ الْمَشِيْبِ وَقَارَهُ

ونظرَ إياسُ بنُ معاويَةَ إلىٰ شعرةٍ بيضاءَ لاحَتْ في لحيتِهِ.. فقالَ : واللهِ لا أراني سميراً بعدَها لحاجاتِ بني تميمٍ ، فلزمَ بيتَهُ ، ولَم يدخُلْ بعدَ ذلكَ علىٰ السلطانِ .

وكانَ الواحدُ مِنَ السلفِ الطيِّبِ إذا بلغَ الأربعينَ.. حمَلَ عَصا السفرِ ، وطوىٰ فراشَ النومِ ، وأقبلَ علىٰ عملِ الآخرَةِ ، ومَن لَم يردعْهُ الشيبُ عَنِ الغوايَةِ ، ولم يأخذْ بعَنَانِهِ إلىٰ طُرُقِ الهدايَةِ.. فقد تُوُدِّعَ مِنهُ ، ومِنْ هـٰؤلاءِ أبو نواسٍ ؛ بشهادَةِ قولِهِ [في « ديوانه » ٢٨٤ مِنَ الطَّويلِ] :

يَقُولُوْنَ فِيْ ٱلشَّيْبِ ٱلْوَقَارُ بِأَهْلِهِ وَشَيْبِيْ بِحَمْدِ ٱللهِ غَيْرُ وَقَارِ[١]

وفي « صحيحِ مسلمٍ » : « أَنَّ أَبْغَضَ الخلقِ إلَىٰ ٱللهِ.. شَيْخٌ زَانٍ »[٢] .

---

(١) قالوا : إنَّ الرشيدَ لمَّا سمعَ هـٰذهِ القصيدةَ.. أنكرَ هـٰذا البيتَ ، وقالَ للفضلِ : قل لهـٰذا الماجنِ : أتقولُ : إنَّ الشيبَ غيرُ وقارٍ وهـٰذا رسول الله ﷺ يقولُ : « لا يشيبُ المؤمنُ في الإسلامِ إلا كان ذلكَ حجاباً لهُ من النارِ ؟! » فلمَّا أُحضِرَ وسئِلَ.. قالَ : لا أُنكرُ الوقارَ في الشيبِ ، ولا ما جاءَ الخبرُ بهِ ، ولـٰكنِّي قلتُ : وشيبيْ أنا غيرُ وقارٍ ؛ لِما أجاوزُ به من تعجيلِ الذنوبِ وتأخيرِ التوبةِ ، والبيتُ الذي بعدهُ يشهدُ لي ، فلمَّا أُخبرَ الرشيدُ بقولهِ.. ضحكَ ، وقالَ : هوَ أعلمُ بسريرتهِ وقبحِ عملهِ .

والبيتُ الذي بعده :

إذَا كُنْتُ لاَ أَنْفَكُّ عَنْ طَاعَةِ ٱلْهَوَىٰ .. فَإِنَّ ٱلْهَوَىٰ يَرْمِيْ ٱلْفَتَىٰ ببَوَارِ

(٢) طرف حديث أخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه مسلم (١٠٧) في الإيمان وهو قوله : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم : شيخ زان ، وملك كذاب ، وعائل مستكبر » .

وقالَ بعضُ المتهوِّرينَ [مِنَ الطَّويلِ] :

لَعَمْرِيْ لَئِنْ حَلَّ ٱلْمَشِيْبُ بِلِمَّتِيْ لَقَدْ كَانَ مَا أَحْلَلْتُ بِالشَّيْبِ أَعْظَمَا
سَلِ ٱلشَّيْبَ عَنِّيْ هَلْ عَرَفْتُ وَقَارَهُ وَهَلْ عِفْتُ حَوْباً أَوْ تَجَنَّبْتُ مَأْثَمَا ؟

وقالَ آخرُ [مِنَ الكاملِ] :

إِنْ يَكْتَهِلْ مِنِّيْ ٱلْقَذَالُ فَإِنَّنِيْ فِـيْ ٱلْغَـانِيَـاتِ وَحُبِّهِـنَّ غُـلَامُ

ومِنهم من يرتدعُ نوعاً ، ومِنْ هـٰؤلاءِ بشَّارٌ في قولِهِ [في « ديوانه » ١٨٩ـ١٩٠ مِنَ الكاملِ] :

إِنَّ ٱلْمَشِيْبَ وَمَا تَرَىٰ بِمَفَارِقِيْ صَرَفَ ٱلْغَوَايَةَ فَٱنْصَرَفْتُ كَرِيْمَا
وَصَحَوْتُ إِلاَّ مِنْ لِقَاءِ مُحَدِّثٍ حَسَنِ ٱلْحَدِيْثِ يَزِيْدُنِيْ تَعْلِيْمَا

والبُحتريُّ في قولِهِ [في « ديوانه » ٢/ ١٠٧١ مِنَ الكاملِ] :

إِنِّيْ وَإِنْ جَانَبْتُ بَعْضَ بِطَالَتِيْ وَتَوَهَّمَ ٱلْوَاشُوْنَ أَنِّيَ مُقْصِرُ
لَيَشُوْقُنِيْ سِحْرُ ٱلْعُيُوْنِ ٱلْمُجْتَلَىٰ وَيَرُوْقُنِيْ وَرْدُ ٱلْخُدُوْدِ ٱلأَحْمَرُ

ولَولا ما عُرِفَ مِن حالِ بشَّارٍ ، وتهتُّكِهِ . . لَمَا كانت بيتاهُ إلاَّ دليلاً كافياً علىٰ صحَّةِ توبتِهِ ، وصدقِ أَوبتِهِ ، ولـٰكنَّا توسَّطْنا في الحكمِ عليهِ ؛ إِذ جعلناهُ مِنَ ٱلْمُذبذَبينَ .

ومعَ ما أكثرَ الناسُ مِنَ ٱلْبكاءِ علىٰ الشبابِ ، والتأسُّفِ علىٰ أيَّامِهِ ، حتَّىٰ قالَ بعضُهُم [في « قرى الضيف » ٤/ ٨٤ مِنَ الكاملِ] :

شَيْآنِ لَوْ بَكَتِ ٱلدِّمَاءَ عَلَيْهِمَا عَيْنَـاكَ حَتَّـىٰ يُـؤْذِنَـا بِـذَهَـابِ
لَمْ يَبْلُغَا ٱلْمِعْشَارَ مِنْ حَقَّيْهِمَا فَقْدُ ٱلشَّبَابِ وَفُرْقَةُ ٱلأَحْبَابِ

. . فإِنَّ مِن لُطفِ اللهِ بعبادِهِ أَنَّهم لا يُحِسُّونَ لَه ألماً ؛ لأَنَّهُ لا يجيءُ إِلاَّ تدريجاً ؛ ولهـٰذا قالوا [ومنهم الشعبيُّ في « المستطرف » من لطف الله بالعباد أنهم لا يحسون للشيب ألماً

٢/٦٩] : إنَّ الشيبَ علَّةٌ لا يعادُ مِنها ، ومصيبةٌ لا يعزَّى عَليها .

قالَ محمودٌ الورَّاقُ [في « البيان والتبيين » ١/ ٤٨٤ مِنَ المتقارب] :

أَلَيْـسَ عَجِيبـاً بِـأَنَّ ٱلْفَتَـىٰ يُصَابُ بِبَعْضِ ٱلَّذِيْ فِيْ يَدَيْهْ
فَمِـنْ بَيْـنِ بَـاكٍ لَـهُ مُـوجَـعٍ وَبَيْـنِ مُعَنَّـىً مُعَـزٍّ إِلَيْـهْ
وَيَسْلُبُـهُ ٱلـدَّهْـرُ سَلْخَ ٱلشَّبَـا بِ وَلَيْـسَ يُعَـزِّيْـهِ خَلْـقٌ عَلَيْـهْ

وقالَ محمَّدُ بنُ الحسنِ [مِنَ الطَّويلِ] :

أَرَىٰ ٱلشَّيْبَ مُذْ جَاوَزْتُ خَمْسِيْنَ حِجَّةً يَدِبُّ دَبِيْبَ ٱلصُّبْحِ فِيْ غَسَقِ ٱلظُّلَمْ
هُـوَ ٱلسُّقْـمُ إِلاَّ أَنَّـهُ غَيْـرُ مُؤْلِـمٍ وَلَمْ أَرَ مِثْلَ ٱلشَّيْبِ سُقْماً بِلاَ أَلَمْ

البكاء خوفاً من الشيء قبل وقوعه

أَمَّا بكاءُ الناظِمِ لشيبِهِ في أَيَّامِ شبابِهِ.. فعلىٰ حدِّ **قولِهِ** [في «العُكبَريّ» ٣/ ٢٢٤ مِنَ الوافرِ]:

أَشَـدُّ ٱلغَـمِّ عِنْـدِيْ فِـيْ سُـرُوْرٍ تَيَقَّـنَ عَنْـهُ صَـاحِبُـهُ ٱنْتِقَـالاَ

وقد تكرَّرَ في « ديوانِهِ » ، فمنْهُ **قولُهُ** [في « العُكبَريّ » ٢/ ١٦٢ مِنَ الكاملِ] :

قَدْ كُنْتُ أَحْذَرُ بَيْنَهُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَوْ كَانَ يَنْفَعُ حَائِناً أَنْ يَحْذَرَا

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٣٨٩ مِنَ الوافرِ] :

أَرَىٰ أَسَفِـيْ وَمَـا سِـرْنَـا بَعِيْـداً فَكَيْفَ إِذَا غَدَا ٱلسَّيْرُ ٱبْتِرَاكَا ؟

وقولُهُ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَنْ كَانَ فِيْ ٱلسَّرَّاءِ فِيْ حَالِ مُعْجَبٍ فَمَحْصُـوْلُـهُ مِنْهَـا عَلَـىٰ حَـالِ نَـادِمِ

وبعضُهُ مِن قولِ سُحيمٍ [في « ديوانِهِ » ٥٦ مِنَ الطَّويلِ] :

أَشَوْقاً وَلَمَّا يَمْضِ لِيْ غَيْرُ لَيْلَةٍ؟ فَكَيْفَ إِذَا جَدَّ ٱلْمَطِيُّ بِنَا عَشْرَا؟!

وقالَ أَشجعُ [في « ديوانهِ » ٢٢٦ مِنَ المتقاربِ] :

فَهَـا أَنْـتَ تَبْكِـيْ وَهُـمْ جِيْـرَةٌ فَكَيْـفَ تَكُـوْنُ إِذَا وَدَّعُـوْا ؟!

وقالَ آخرُ [مِنَ الطَّويلِ] :

لَقَدْ كُنْتُ أَبْكِيْ خِيْفَةً لِفِرَاقِهِ فَكَيْفَ إِذَا بَانَ ٱلْحَبِيْبُ وَوَدَّعَا

وقالَ قيسٌ [ابن ذريح في « الأغاني » ٩/ ٢٥٠ مِنَ الطَّويلِ] :

وَقَدْ كُنْتُ أَبْكِيْ وَٱلنَّوَىٰ لاَ أَظُنُّهُ بِنَا وَبِكُمْ لَمْ نَدْرِ مَا هُوَ صَانِعُ(١)

وقالَ أَبو المطاعِ ذو القرنينِ ٱبنُ حمدانَ [مِنَ الطَّويلِ] :

لَقَدْ كَانَ شَكِّيْ فِيْ ٱلْفِرَاقِ يَرُوْعُنِيْ فَكَيْفَ يَكُوْنُ ٱلْيَوْمَ وَهْوَ يَقِيْنُ ؟

وقالَ قيسٌ أَيضاً [المجنونُ في « ديوانهِ » ٢٧٥ مِنَ الطَّويلِ] :

وَإِنِّي لأَبْكِيْ ٱلْيَوْمَ مِنْ حَذَرِيْ غَداً فِـرَاقَـكِ وَٱلْحَيَّـانِ مُجْتَمِعَـانِ

وقالَ الأَحوصُ [في « ديوانهِ » ١٢٧ مِنَ الطَّويلِ] :

وَقَـدْ كُنْـتُ أَبْكِـيْ وَٱلنَّـوَىٰ مُطْمَئِنَّـةٌ بِنَا وَبِكُمْ؛ مِنْ خَوْفِ مَا ٱلْبَيْنُ صَانِعُ(٢)

وقالَ كُثَيِّرُ بنُ عبدِ الرحمـٰنِ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَيْسَ عَلَىٰ شَحْطِ ٱلنَّوَىٰ كَثْرُ ٱلْبُكَا لَقَـدْ كُنْـتُ أَبْكِـيْ وَٱلْمَـزَارُ قَـرِيْـبُ

وأَنشدَ ثعلبُ للعبَّاسِ بنِ الأَحنفِ [في « ديوانه » ٣٣ مِنَ المنسرحِ] :

قَـدْ كُنْـتُ أَبْكِـيْ وَأَنْـتِ رَاضِيَـةٌ حِذَارَ هَـٰذَا ٱلصُّدُوْدِ وَٱلْغَضَبِ

---

(١) النَّوىٰ : البُعدُ .

(٢) النَّوىٰ : الدارُ .

وقالَ الحماسيُّ [في « ديوان الحماسة » ٢/ ١٢٤ مِنَ الوافرِ] :

فَيَبْكِـيْ إِنْ نَـأَوْا شَـوْقـاً إِلَيْهِـمْ ... وَيَبْكِي إِنْ دَنَوْا خَوْفَ ٱلْفِرَاقِ

ولا يَبعدُ عمَّا نحنُ فيهِ قولُ عروةَ بنِ أُذينةَ [في « ديوانهِ » ١٣ مِنَ الطَّويلِ] :

كَأَنَّ خُزَامَىٰ طَلَّةٍ صَاغَهَا ٱلنَّدَىٰ ... وَفَأْرَةَ مِسْكٍ ضَمَّنَتْهَا ثِيَابُهَا(١)

إِذَا ٱقْتَرَبَتْ سَعْدَىٰ لَهِجْتَ بِحُبِّهَا ... وَإِنْ تَغْتَرِبْ يَوْماً يَرُعْكَ ٱغْتِرَابُهَا

وَكِدْتَ لِذِكْرَاهَا تَطِيْرُ صَبَابَةً ... وَغَالَبْتَ نَفْساً زَادَ شَوْقاً غِلاَبُهَا

فَفِيْ أَيِّ هَـٰذَا رَاحَةٌ لَكَ عِنْدَهَا؟! ... سَـوَاءٌ لَعَمْـرِيْ نَـأْيُهَـا وَٱقْتِـرَابُهَـا

وقد مرَّ بعضُ ما يشبِهُ هـٰذا في المجلسِ الثاني ، قبيلَ قولِ الناظِمِ [في « العُكبَرِيِّ » ١/ ٢٩٧ مِنَ المنسرحِ] :

بَـانُـوْا بِخُـرْعُـوْبَـةٍ لَهَـا كَفَـلٌ ... يَكَـادُ عِنْـدَ ٱلْقِيَـامِ يُقْعِـدُهَـا(٢)

وفي المجلسِ الثاني عشرَ في الكلامِ علىٰ قولِهِ [في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ٣٣٢ مِنَ الكاملِ] :

مَـا لاَحَ بَـرْقٌ أَوْ تَـرَنَّـمَ طَـائِـرٌ ... إِلاَّ ٱنْثَنَيْـتُ وَلِـيْ فُـؤَادٌ شَيِّـقُ

هـٰذا ، والشوطُ بطينٌ ، والدنيا تعبٌ ، والافتراقُ نكدٌ ، والعيشُ ضيِّقٌ ، والراحةُ مُحالٌ ، ولـٰكنْ ما أَحسنَ قولَ الطغرائيِّ [في « ديوانهِ » ٣٠٦ مِنَ البسيطِ] : لله در الأمل ما أعظمه

أُعَلِّـلُ ٱلنَّفْـسَ بِـالآمَـالِ أَرْقُبُهَـا ... مَا أَضْيَقَ ٱلْعَيْشَ لَوْلاَ فُسْحَةُ ٱلأَمَلِ

---

(١) الخُزامىٰ : نباتٌ طيِّبُ الرائحةِ ، من فصيلةِ الزنبقيَّاتِ . طلَّةٌ : المطرُ الخفيفُ الضعيفُ . فأرةُ المسكِ : وعاء المسكِ .

(٢) الخرعوبةُ : المرأةُ الشابةُ اللينةُ الطويلةُ الطريَّةُ ، وقالَ الجوهريُّ : الدقيقةُ العظامِ الناعمةُ . الكَفَلُ : الردفُ .

وكانَ ٱبنُ الخطَّابِ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ يستحسنُ قولَ عبدَةَ بنِ الطيِّبِ [في « ديوانهِ » ٧٥ مِنَ البسيطِ] :

وَٱلْمَرْءُ سَاعٍ لأَمْرٍ لَيسَ يُدْرِكُهُ وَٱلْعَيْشُ شُحٌّ وَإِشْفَاقٌ وَتَأْمِيلُ[1]

وقد مرَّ ـ في غيرِ هٰذا المجلسِ ـ بعضُ ما يتعلَّقُ بالأمانيِّ ، ونزيدُ هُنا أَنَّ العمادَ الكاتِبَ أغارَ علىٰ بيتِ الطغرائِيِّ فقالَ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا هَـٰذِهِ ٱلأَيَّامُ إِلاَّ صَحَائِفٌ نُؤَرِّخُ فِيْهَا ثُمَّ نُمْحَىٰ وَنُمْحَقُ
وَلَمْ أَرَ عَيْشاً مِثْلَ دَائِرَةِ ٱلْمُنَىٰ تُوَسِّعُهَا ٱلآمَالُ وَٱلْعَيْشُ ضَيِّقُ

وقالَ آخرُ [أبو الفتح البُستي كما في « النجوم الزاهرة » ٢٢٩/٤ مِنَ الوافرِ] :

أُعَلِّلُ بِـٱلْمُنَـىٰ قَلْبِـي لأَنِّـيْ أُفَـرِّجُ بِـٱلأَمَـانِـيْ ٱلْهَـمَّ عَنِّـيْ
وَأَعْلَـمُ أَنَّ وَصْلَـكِ لاَ يُـرَجَّـىٰ وَلَـٰكِـنْ لاَ أَقَـلَّ مِـنَ ٱلتَّمَنِّـيْ

وقالَ أَبو الحسينِ الجزَّارُ [مِنَ الخفيفِ] :

لَيْتَ شِعْرِيْ مَا ٱلْعُذْرُ لَوْلاَ قَضَاءُ ٱلـ ـلّٰـهِ فِي رِزْقِـهِ وَفِـيْ حِـرْمَـانِـيْ
وَلَقَدْ كِدْتُ أَنْ أَهِيْمَ بِحَمْلِ ٱلسَّـ ـهْـمِ لَـوْلاَ تَعَلُّلِـيْ بِـٱلأَمَـانِـيْ

وقالَ أَبو عبادَةَ [مِنَ الكاملِ] :

لَوْلاَ ٱلرَّجَاءُ لَمِتُّ مِنْ أَلَمِ ٱلنَّوَىٰ لَـٰكِـنَّ قَلْبِـيَ بِـٱلـرَّجَـاءِ مُـوَكَّـلُ

تأمل الدنيا ولا تركنن اليها

ومَنِ ٱعتقَدَ حالَ الدنيا ، وأَنَّها تغرُّ ثُمَّ تمرُّ . . يفرحُ بحُلوِها ، ولم يجزَعْ لمُرِّها ، قالَ أَبو عمرِو ابنِ العلاءِ [في « وفيات الأعيان » ٣١٨/٣] : كنتُ أَدورُ في ضيعَةٍ لي ، معَ شدَّةِ الحرِّ ، فسمعْتُ هاتفاً يقولُ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَإِنَّ ٱمْـرَأً دُنْيَـاهُ أَكْبَـرُ هَمِّـهِ لَمُسْتَمْسِـكٌ مِنْهَـا بِحَبْلِ غُـرُوْرِ

[فالتفتُّ فلَم أَرَ أَحداً فجعلتُهُ نقشَ خاتَمي] .

---

(١) «البيان والتبيين» (١/ ١٣٣) .

وقالَ الأَصمعيُّ : وجدْتُ لسعيدِ بن وهيبٍ بيتينِ كأنَّما أخذَهما من قولِهِ تعالىٰ : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾ [الأنعام : ٤٤] ، وهُما قولُهُ [بل الأبيات لأبي العتاهية في « ديوانهِ » ٥٣٦ مِنَ البسيطِ] :

أَحْسَنْتَ ظَنَّكَ بِٱلأَيَّامِ إِذْ حَسُنَتْ ... وَلَمْ تَخَفْ غِبَّ مَا يَأْتِيْ بِهِ ٱلْقَدَرُ
وَسَالَمَتْكَ ٱللَّيَالِيْ فَٱغْتَرَرْتَ بِهَا ... وَعِنْدَ صَفْوِ ٱللَّيَالِيْ يَحْصُلُ ٱلْكَدَرُ

وما أَحسنَ قولَ البُحتريِّ [بل القائل أبو علي المسبِّحي كما في « قرى الضيف » ٤/١٦٨ مِنَ الطَّويلِ] :

هَلِ ٱلدَّهْرُ إِلاَّ سَاعَةٌ ثُمَّ تَنْقَضِيْ ... بِمَا كَانَ فِيْهَا مِنْ بَلاَءٍ وَمِنْ خَفْضِ ؟!
فَهَوِّنْكَ لاَ تَحْفَلْ إِسَاءَةَ عَارِضٍ ... وَلاَ فَرْحَةً تَأْتِيْ فَكِلْتَاهُمَا تَمْضِيْ

وقالَ آخرُ [مِنَ الطَّويلِ] :

فَمَا ٱكْتَأَبَتْ نَفْسٌ فَدَامَ ٱكْتِئَابُهَا ... وَلاَ ٱبْتَهَجَتْ نَفْسٌ فَدَامَ ٱبْتِهَاجُهَا

وقالَ آخرُ [البُحتريُّ في « ديوانِهِ » ١/ ٥٤ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَنْ عَرَفَ ٱلأَيَّامَ لَمْ يَرَ خَفْضَهَا ... نَعِيْماً ، وَلَمْ يَعْدُدْ تَصَرُّفَهَا بَلْوَىٰ

وقال الرضيُّ أَوِ المرتضىٰ [المرتضىٰ في « ديوانهِ » ٣/ ٤٩٤ مِنَ البسيطِ] :

وَكَيْفَ آنَسُ بِٱلدُّنْيَا وَلَسْتُ أَرَىٰ ... إِلاَّ ٱمْرَأً قَدْ تَعَرَّىٰ مِنْ عَوَارِيْهَا ؟
نَصَبُوْا إِلَيْهَا بِآمَالٍ مُخَيَّبَةٍ ... كَأَنَّنَا مَا نَرَىٰ عُقْبَىٰ أَمَانِيْهَا
فِيْ وَحْشَةِ ٱلدَّارِ مِمَّنْ كَانَ يَسْكُنُهَا ... كُلُّ ٱعْتِبَارٍ لِمَنْ قَدْ ظَلَّ يَأْوِيْهَا
لاَ تَكْذِبَنَّ فَمَا قَلْبِيْ لَهَا وَطَنٌ ... وَقَدْ رَأَيْتُ طُلُوْلاً مِنْ مَغَانِيْهَا

وقالَ أَبو عبادةَ [في « ديوانهِ » ١/ ٢٣١-٢٣٢ مِنَ الطَّويلِ] :

مَتَىٰ تَسْتَزِدْ فَضْلاً مِنَ ٱلْعُمْرِ تَغْتَرِفْ ... بِسَجْلَيْكَ مِنْ شَهْدِ ٱلْخُطُوْبِ وَصَابِهَا(١)

---

(١) السجلُ : الدلوُ العظيمةُ . الشَّهدُ : العَسَلُ . الصابُ : العلقمُ .

تُشَذِّبُنَا ٱلدُّنْيَا بِأَخفَضِ سَعْيِهَا وَغَوْلُ ٱلأَفَاعِي لِمَّةٌ مِنْ لُعَابِهَا[1]
يُسَرُّ بِعُمْرَانِ ٱلدِّيَارِ مُضَلَّلٌ وَعُمْرَانُهَا مُسْتَأْنَفٌ مِنْ خَرَابِهَا
وَلَمْ أَرْتَضِ ٱلدُّنْيَا أَوَانَ مَجِيئِهَا فَكَيْفَ ٱرْتَضَائِيهَا أَوَانَ ذَهَابِهَا ؟!
أَقُوْلُ لِمَكْذُوْبٍ مِنَ ٱلدَّهْرِ زَاغَ عَنْ تَخَيُّرِ آرَاءِ ٱلْحِجَا وَٱنْتِخَابِهَا
سَيُرْدِيْكَ أَوْ يُثْوِيْكَ أَنَّكَ مُحْلِسٌ إِلَىٰ شُقَّةٍ يُبْكِيْكَ بُعْدُ مَآبِهَا[2]
وَهَلْ أَنْتَ فِيْ مَرْمُوْسَةٍ طَالَ أَخْذُهَا مِنَ ٱلنَّاسِ إِلاَّ حَفْنَةٌ مِنْ تُرَابِهَا[3]

ومنها والضميرُ فيهِ عائدٌ إلىٰ الحبيبةِ [البحتريُّ في « ديوانهِ » ١/ ٢٣١ مِنَ الطَّويلِ] :

يُفَاوِتُ مِنْ تَأْلِيْفِ شَعْبِيْ وَشَعْبِهَا تَنَاهِيْ شَبَابِيْ وَٱبْتِدَاءُ شَبَابِهَا[4]

ثُمَّ إِنَّ قولَهُ : (إِلاَّ حَفْنَةٌ مِنْ تُرَابِهَا) شبيهٌ بقولي مِن قطعةٍ مرَّ بعضُها [في « ديوان المؤلف » ق : ١١٧ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا ٱلنَّاسُ إِلاَّ ٱلطِّيْنُ وَٱلْعَكْسُ صَالِحٌ فَلِلَّـهِ ذَاتٌ عَدَّدَتْهَا نُعُوْتُهَا

ويشهدُ اللهُ والرقيبُ الأدنىٰ عليَّ ، أنِّي لَم أكن وقفتُ علىٰ ما قالَهُ البُحتريُّ إلاَّ بعدَ مدَّةٍ مِن إنشائِي لتلكَ القطعَةِ ، التي من جملتِها البيتُ ، وللهِ الحمدُ ؛ إذ دلتِ ٱلمواردَةُ علىٰ إصابةِ المرمىٰ ، وتطبيقِ المحزِّ ؛ فقد حكيَ [في « الإيضاح في علوم البلاغة » ١/ ٣٨٠] : أنَّ ٱبنَ ميَّادَةَ أَنشدَ لنفسِهِ [مِنَ الطَّويلِ] :

---

(١) شذَّبَ الشجرَ : أسقط ما عليهِ منَ الأغصانِ .
(٢) محلسٌ : متخذٌ حِلْساً ، وهوَ ما يوضعُ فوق الرحلِ ، والمعنىٰ : أنك متهيِّىءٌ للرحيلِ .
(٣) المرموسةُ : مشتقَّةٌ من رمسَ ، غطَّىٰ ودفنَ .
(٤) الشَّعبُ : ما تفرَّقَ من الشيءِ .

مُفِيْـدٌ وَمِتْـلاَفٌ إِذَا مَـا أَتَيْتُـهُ   تَهَلَّـلَ وَٱهْتَـزَّ ٱهْتِـزَازَ ٱلْمُهَنَّـدِ

فَقالوا لَهُ : أَينَ يُذْهَبُ بكَ ؟ هٰذا البيتُ موجودٌ في « ديوانِ الحُطيئَةِ »[٥١] ، فقالَ : الآنَ علمتُ أَنِّي شاعرٌ ؛ إِذ وافقتُهُ علىٰ قولِهِ ولَم أَسمعْهُ .

* * *

المجلس الرّابع عشر

[قالَ أَبو الطَّيِّب المتنبِّي في « العُكبَريِّ » ٢/ ٣٣٧ مِنَ الكاملِ] :

وَعَجِبْتُ مِنْ أَرْضٍ سَحَابُ أَكُفِّهِمْ ... مِنْ فَوْقِهَا وَصُخُوْرُهَا لاَ تُوْرِقُ

يقولُ : إِنَّهُ يتعجَّبُ مِنْ صخورِ أَرضِهم ، كَيْفَ لاَ تُورِقُ ، وقد شملَها جودُهُم ، وأَنعشَها وُجودُهُم ، وهوَ مِنْ قولِ ٱلعربيِّ [مِنَ ٱلبسيطِ] :

الجود الذي تورق منه الصخور

لَـوْ أَنَّ رَاحَتَـهُ مَـرَّتْ عَلَـىٰ حَجَـرٍ ... صَلْدٍ.. لأَوْرَقَ فِيْهَا ذَلِكَ ٱلْحَجَرُ

وقالَ أَبو صخرٍ ٱلهُذليُّ ، أَو قيسٌ ، علىٰ ٱختلافٍ في الرِّوايةِ [بل قيسٌ في « ديوانهِ » ١٣٠ مِنَ الطَّويلِ] :

تَكَـادُ يَـدِيْ تَنْـدَىٰ إِذَا مَـا لَمَسْتَهَـا ... وَتَنْبُتُ فِيْ أَطْرَافِهَا ٱلْوَرَقُ ٱلْخُضْرُ

وقالَ مسلمُ بنُ ٱلوليدِ [مِنَ ٱلكاملِ] :

لَـوْ أَنَّ كَفّـاً أَعْشَبَـتْ لِسَمَـاحَـةٍ ... لَبَـدَا بِـرَاحَتِـهِ ٱلنَّبَـاتُ ٱلأَخْضَـرُ

وقالَ أَبو الشَّمَقْمَقِ ـ وكانَ معَ طاهرِ بنِ ٱلحسينِ في حَرَّاقَةٍ بـ(دِجلةَ) ـ [في « ٱلبدايةِ والنِّهايةِ » ١٠/ ٣٦٠ مِنَ ٱلمتقاربِ] :

عَجِبْـتُ لِحَـرَّاقَـةِ ٱبْـنِ ٱلْحُسَيْـ ... ـنِ كَيْـفَ تَعُـوْمُ وَلاَ تَغْـرَقُ ؟

وَبَحْـرَانِ مِـنْ فَـوْقِهَـا وَاحِـدٌ ... وَآخَـرُ مِـنْ تَحْتِهَـا مُطْبِـقُ

وَأَعْجَبُ مِنْ ذَاكَ عِيدَانُهَا وَقَدْ مَسَّهَا كَيْفَ لاَ تُورِقُ ؟

وقالَ أَبو عُبادةَ [في «ديوانه» ٣/ ١٥٣١ مِنَ الطَّويلِ] ـ وأَظنُّني قد سقتُهُ في الكلامِ علىٰ قولِهِ : (يُعْطِي فَلاَ مَطْلُهُ يُكَدِّرُهَا . . . . .) ـ :

مَوَاهِبُ أَعْدَادُ ٱلأَمَانِي وَخَلْفَهَا عِدَاتٌ يَكَادُ ٱلْعُودُ مِنْهُنَّ يُورِقُ

وقالَ [في «ديوانهِ» ٣/ ١٣٧ من الطويل] :

لَهُ هِزَّةٌ مِنْ أَرْيَحِيَّةِ جُودِهِ تَكَادُ لَهَا ٱلأَرْضُ ٱلْجَدِيبَةُ تُعْشِبُ

ومرَّ أَيضاً عَنِ الأَصمعيِّ قولُ الأَعرابيَّةِ [مِنَ الكاملِ] :

فَلَيَنْبُعَنَّ سَمَاحُ جُودِكَ فِي ٱلثَّرَىٰ وَلَيُورِقَنَّ بِقُرْبِكَ ٱلصَّخْرُ

وقالَ بعضُهم يمدحُ أَبا دلفٍ العجليَّ [مِنَ البسيط] :

وَلَوْ يَجُوزُ لَقَالَ ٱلنَّاسُ كُلُّهُمُ لَوْلاَ أَبُو دُلَفٍ لَمْ يُورِقِ ٱلشَّجَرُ
قَرْمٌ إِذَا مَا حَوَىٰ فِي كَفِّهِ حَجَراً يَفِيضُ فِي كَفِّهِ مِنْ جُودِهِ ٱلْحَجَرُ

وقالَ شاعرُ (المعرَّة) [في «سقطِ الزندِ» ٢٦٠ مِنَ الكاملِ] :

مِنْ كُلِّ مَنْ لَوْلاَ تَسَعُّرُ بَأْسِهِ لاخْضَرَّ فِي يُمْنَىٰ يَدَيْهِ ٱلأَسْمَرُ(١)

وقد سبقَ ذكرُ البيتِ المختلَفِ في نسبتِهِ وهوَ [في «ديوان أبي تمّام» ٢/ ١٥ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَوْ لَمْ تَكُنْ فِي كَفِّهِ غَيْرُ رُوحِهِ لَجَادَ بِهَا فَلْيَتَّقِ ٱللهَ سَائِلُهْ

وقبلَهُ ـ وهوَ موضعُ الشاهِدِ ـ :

يَمُرُّ عَلَىٰ ٱلْوَادِي فَتَبْكِي رِمَالُهُ عَلَيْهِ وَبِٱلنَّادِي فَتَبْكِي أَرَامِلُهْ

---

(١) التسعُّرُ : الالتهابُ . الأَسمرُ : الرُّمحُ .

ولن تبكيَ الرمالُ . . إلاَّ وقدِ ٱستعيرَتْ لَها الحياةُ التي تنمو بجودِ الممدوحِ .

وقالَ ٱبنُ حيُّوسٍ يمدحُ الصاحبَ بنَ عبَّادٍ [في « وفيات الأعيان » ٤/٤٤١ مِنَ الطَّويلِ] :

مِنَ ٱلنَّفَرِ ٱلْعَالِيْنَ فِيْ ٱلسِّلْمِ وَٱلْوَغَىٰ وَأَهْـلِ ٱلْمَعَـالِـيْ وَٱلْعَـوَالِـيْ وَآلِهَـا
إِذَا نَزَلُوا ٱخْضَرَّ ٱلثَّرَىٰ مِنْ نُزُوْلِهِمْ وَإِنْ نَازَلُوا ٱحْمَرَّ ٱلْقَنَا مِنْ نِزَالِهَا

قالَ ٱبنُ خَلِّكانَ [في « وفياتِ الأعيانِ » ٤/٤٤١] : هٰذا واللهِ الشعرُ الخالصُ ، الذي لا يشوبُهُ شيءٌ مِنَ ٱلحشوِ .

وإنِّي لأتعجَّبُ مِنَ ٱلقاضي في مبالغتِهِ بمدحِ ذَينِ ٱلبيتينِ إلىٰ هٰذا ٱلحدِّ، مَعَ أنَّهُ النَّاقدُ ٱلبصيرُ ، غيرُ مدافَعٍ ، وٱلحالُ أنَّ عليهِما ملاحظتينِ :

الأُولىٰ : في قافيةِ ٱلبيتِ ٱلأوَّلِ ؛ فإنَّهُ لا داعيَ لَها بعدَ سبقِ ٱلأَهلِ غيرَ ٱلاجتلابِ .

والثانيةُ : في تأنيثِ الضَّميرِ مِن ضربِ ٱلبيتِ الثَّاني معَ تذكيرِهِ في عروضِهِ ، وكلُّ ذلكَ ممَّا يتنزَّهُ عنهُ أَهلُ ٱلإحسانِ .

وفي بعضِ ٱلأبياتِ الَّتي سُقناها غلوٌّ لا يُقبَلُ ، ولَو جرىٰ أَبو الطَّيِّبِ علىٰ عادتِهِ مِنَ ٱلإغراقِ . . لادَّعَىٰ إيراقَ الشَّجَرِ ، ومِنَ ٱلمقرَّرِ أنَّهُ لا يقبلُ مِنَ ٱلمبالغَةِ إلاَّ : مسألة بلاغية في الغلو

١ـ ما أَمكنَ وجودُهُ عقلاً وعادَةً، كقولِهِ ﷺ: «لَخَلُوْفُ فَمِ ٱلصَّائِمِ . . أَطْيَبُ عِنْدَ ٱللهِ مِنْ رِيْحِ ٱلْمِسْكِ »[1] ؛ فإنَّهُ ممكنٌ عادةً وعقلاً .

---

(١) أخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه البخاري (١٩٠٤) ، ومسلم (١١٥١) في الصوم .

وكقولِ ٱمْرِئِ القيسِ [في « ديوانهِ » ١٥٦ مِنَ الطَّويلِ] :

فَعَادَىٰ عِدَاءً بَيْنَ ثَوْرٍ وَنَعْجَةٍ ... دِرَاكاً وَلَمْ يَنْضَحْ بِمَاءٍ فَيُغْسَلِ(١)

وقولِ النَّاظِمِ [في « العُكبَريِّ » ١/ ١٨٠ مِنَ الطَّويلِ] :

وَأَصْرَعُ أَيَّ ٱلْوَحْشِ قَفَّيْتُهُ بِهِ ... وَأَنْزِلُ عَنْهُ مِثْلَهُ حِيْنَ أَرْكَبُ(٢)

وهوَ ما يسمُّونَهُ : (التَّبليغَ) .

٢ـ أَو ما أَمكنَ عقلاً لا عادةً ، ومثَّلوا لهُ بقولِ عَمرِو بنِ ٱلأَهتمِ [بل القائل عمير بن كريم التغلبي كما في « خزانة الأدب » ٢/ ٨ مِنَ الوافرِ] :

وَنُكْـرِمُ جَـارَنَـا مَـا دَامَ فِيْنَـا ... وَنُتْبِعُـهُ ٱلْكَـرَامَـةَ حَيْـثُ مَـالاَ

وفيهِ نظرٌ ؛ لإمكانِ أَنَّ ٱلمعنىٰ تزويدُهُ بما يكونُ معهُ في كلِّ جهةٍ ينتحي إِليها، وهـٰذا موجودٌ بكثرةٍ في أَحوالِ ٱلكِرامِ، وأَربابِ ٱلمروءاتِ، فلا يستحيلُ عادةً كما زَعموا ، وذلكَ ما يسمُّونَهُ : (ٱلإِغراقَ) .

٣ـ أَو ما لا يمكنُ عقلاً ولا عادةً ، كقولِ أَبي نُوَاسٍ [في « ديوانهِ » ٤١٣ مِنَ ٱلكاملِ] :

وَأَخَفْتَ أَهْلَ ٱلشِّرْكِ حَتَّىٰ إِنَّهُ ... لَتَخَافُكَ ٱلنُّطَفُ ٱلَّتِي لَمْ تُخْلَقِ

وكلُّ ما سبقَ في ٱلمجلسِ ٱلأَوَّلِ ، مِن مثلِ قولِ النَّاظِمِ [في « العُكبَريِّ » ٤/ ١٨٦ مِنَ ٱلبسيطِ] :

كَفَىٰ بِجِسْمِيْ نُحُوْلاً أَنَّنِيْ رَجُلٌ ... لَوْلاَ مُخَاطَبَتِيْ إِيَّاكَ لَمْ تَرَنِيْ

---

(١) عادىٰ : والىٰ الجريَ حتى جمعَ بين الثورِ والبقرِ ، على تباعدِ ما كان بينهما . دراكاً : سريعاً . لم ينضحْ : لم يعرقْ .

(٢) قفَّيتُهُ : تبعتُهُ .

وهوَ ما يسمُّونهُ : (ٱلغلوَّ) وهوَ مردودٌ ما لَمْ يقترِنْ بهِ ما يُخرِجُهُ عَنِ ٱلامتناعِ ، كقولِهِ جلَّ شأنُهُ في النُّورِ ٱلمبينِ ، وٱلحبْلِ ٱلمتينِ : ﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَـٰرَهُمْ ﴾ [البقرة : ٢٠] .

وقولِهِ : ﴿ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ﴾ [النور : ٤٠] .

وقولِهِ : ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴾ [مريم: ٩٠].

وقولِهِ : ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ [النور : ٣٥] .

وكَما يروىٰ عنهُ ﷺ : «كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ وَإِنْ كَانَ ٱلْمَاءَ ٱلْقَرَاحَ»(١) .

فإِسكارُ ٱلماءِ ٱلخالِصِ مستحيلٌ ، وإِنَّما كساهُ ٱلقَبولَ ٱقترانُهُ بِـ (إِنْ) الموجودَةِ ؛ لفرضِ ٱلمَحالِ وقوعَهُ .

ومثَّلوا لَهُ أَيضاً بقولِ ٱلمعرِّيِّ [في « سقطِ الزند » ١٠٣ مِنَ ٱلوافرِ] :

شَجَا رَكْباً وَأَفْرَاساً وَإِبْلاً   وَزَادَ فَكَادَ أَنْ يَشْجُوْ ٱلرِّحَالاَ

وقولِ حَمديسٍ [في « ديوانهِ » ٣٢٩ مِنَ ٱلكاملِ] :

وَيَكَادُ يَخْرُجُ سُرْعَةً عَنْ ظِلِّهِ   لَوْ كَانَ يَرْغَبُ فِيْ فِرَاقِ رَفِيْقِ

وعندي أَنَّهُ ليسَ مِنَ ٱلمقبولِ ، وإِنَّما ٱلمقبولُ ما قالهُ ٱلمعرِّيُّ في معناهُ ، وهوَ [في « سقطِ الزَّندِ » ١٠٠ مِنَ الوافرِ] :

وَلَمَّا لَمْ يُسَابِقْهُنَّ شَيْءٌ   مِنَ ٱلْحَيَوَانِ سَابَقْنَ ٱلظِّلاَلاَ

---

(١) القَراحُ : الخالصُ . والحديثُ أخرجهُ الديلمي في « الفردوس بمأثور الخطاب » (٣/ ٢٥٠) ، والجملة الأولىٰ منه ثابتة في «الصحيحين» وغيرهما عن أبي موسىٰ ، بل وثابتة عن جماعة من الصحابة عند غيرهما من أصحاب السنن والمسانيد . انظر صحيح الجامع الصغير رقم (٤٥٥٠) .

البخل الذي تجف منه البحار

وفي عكسِ ما يمدحُ بهِ النَّاظِمُ مِن سماحَةِ ٱلكفِّ . . يقولُ جريرٌ [الأبياتُ في « روضةِ العقلاء » (١/ ٢٤١) غير معزوةٍ لقائلٍ مِنَ البسيطِ] :

كَأَنَّمَا خُلِقَتْ كَفَّاهُ مِنْ حَجَرٍ   فَلَيْسَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَٱلنَّدَىٰ عَمَلُ
يَـرَىٰ تَيَمُّمَـهُ بِـٱلشَّـطِّ نَـافِلَـةً   مَخَافَةَ أَنْ يُرَىٰ فِيْ كَفِّهِ بَلَلُ

ويقولُ الأخطلُ [في « ديوانهِ » ٢٤٩ مِنَ الكاملِ] :

كَفُّ ٱلْيَدَيْنِ مِنَ ٱلْعَطِيَّةِ مُمْسِكٌ   مَـا إِنْ تَبِـضُّ صِفَـاتُـهُ بِبَـلاَلِ

وقالَ ٱبنُ عبدِ ربِّهِ [في « ديوانهِ » ١١٠ مِنَ ٱلبسيطِ] :

يَـرَاعَـةٌ غَـرَّنِـيْ مِنْهَـا وَمِيْـضُ سَنـاً   حَتَّىٰ مَدَدْتُ إِلَيْهِ ٱلْكَفَّ مُقْتَبِسَا[1]
فَصَادَفَتْ حَجَراً لَوْ كُنْتَ تَضْرِبُهُ   مِنْ لُؤْمِهِ بِعَصَا مُوْسَىٰ لَمَا ٱنْبَجَسَا!
كَأَنَّمَا صِيْغَ مِنْ لُؤْمٍ وَمِنْ كَذِبٍ   فَكَانَ ذَاكَ لَهُ رُوْحاً وَذَا نَفَسَا

عود على بدء في الكرم

وفيما يوافقُهُ يقولُ حجبَةُ بنُ ٱلمضربِ [مِنَ الطَّويلِ] :

أُنَاسٌ إِذَا مَا ٱلدَّهْرُ أَظْلَمَ وَجْهُهُ   فَأَيْدِيْهِمُ بِيْضٌ وَأَوْجُهُهُمْ غُرُّ
يَصُوْنُوْنَ أَحْسَاباً وَمَجْداً مُؤَثَّلاً   بِبَذْلِ أَكُفٍّ دُوْنَهَا ٱلْمُزْنُ وَٱلْبَحْرُ
فَلَوْ لاَمَسَ ٱلصَّخْرُ ٱلأَصَمُّ أَكُفَّهُمْ   أَفَاضَ يَنَابِيْعَ ٱلنَّدَىٰ ذَلِكَ ٱلصَّخْرُ

ويقولُ أبو تمَّامٍ [في « ديوانهِ » ٢/ ١٤ مِنَ الطَّويلِ] :

تَعَوَّدَ بَسْطَ ٱلْكَفِّ حَتَّىٰ لَوَ ٱنَّهُ   ثَنَاهَا لِقَبْضٍ لَمْ تُطِعْهُ أَنَامِلُهْ

ويقولُ ٱبنُ الرُّوميِّ [في « ديوانهِ » ٥/ ٢٠٩٨ مِنَ الطَّويلِ] :

مُقَبَّلُ ظَهْرِ ٱلْكَفِّ وَهَّابُ بَطْنِهَا   لَهُ رَاحَةٌ فِيْهَا ٱلْحَطِيْمُ وَزَمْزَمُ

---

(١) اليراعةُ : حشرةٌ صغيرةٌ يكون منها شبيهُ الضوءِ بالليلِ .

ولقد أَخطأَ ٱبنُ الرُّوميِّ ، إِذ توهَّمَ أَنَّ ٱلمقبَّلَ ٱلحطيمُ ، وإِنَّما يُقبَّلُ الرُّكنُ ٱلأَسودُ ، وليسَ بهِ .

ويقولُ النَّاظِمُ [في « العُكبَريّ » ١/ ٢٣١ مِنَ الكاملِ] :

عَجَباً لَهُ حِفظُ ٱلْعِنَانِ بِأَنْمُلٍ مَا حِفْظُهَا ٱلأَشْيَاءَ مِنْ عَادَاتِهَا

وفي ٱلعجُزِ ما لا يخفىٰ مِن سوءِ ٱلأَدَبِ .

* * *

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ ٱلمتنبِّي في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ٣٣٨ مِنَ الكاملِ] :

وَتَفُوْحُ مِنْ طِيْبِ ٱلثَّنَاءِ رَوَائِحٌ	لَهُـمُ بِكُـلِّ مَكَـانَـةٍ تُسْتَنْشَـقُ

شرح المطلع

يقولُ : إِنَّ الثَّناءَ عليهِم موجودٌ في كلِّ مكانٍ ، ومنهُ تفوحُ الرَّوائِحُ الطَّيِّبَةُ ، وللهِ درُّ ٱلقائِلِ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَيْسَ أَرِيْجُ ٱلْمِسْكِ مَا تَجِدُوْنَهُ وَلَـٰكِنَّـهُ ذَاكَ ٱلثَّنَـاءُ ٱلْمُخَلَّـفُ

الطيب الفائح من المحبوب لا يمكن أن يخفى

وهوَ معنىً شائِعٌ ذائِعٌ ، يتَّصِلُ بهِ كثيرٌ ممَّا سبقَ في شرحِ قولِهِ [في « العُكبَرِيِّ » ٣/ ١٦٤ مِنَ البسيطِ] :

يُجَـنُّ شَـوْقـاً فَلَـوْلاَ أَنَّ رَائِحَـةً تَزُوْرُهُ مِنْ رِيَاحِ ٱلشَّرْقِ مَا عَقَلاَ

وقد أَحلنا علىٰ ما هُنا قبيلَ قولِهِ [في « العُكبَرِيِّ » ١/ ٣١٧ مِنَ الخفيفِ] :

هَـٰذِهِ مُهْجَتِـيْ لَـدَيْـكِ لِحَيْنِـيْ فَٱنْقُصِيْ مِنْ عَذَابِهَا أَوْ فَزِيْدِيْ[1]

وقالَ ٱلمجنونُ ، أَو مسلمُ بنُ ٱلوليدِ [بل مسلمٌ في « ديوانهِ » ٣٢٠ مِنَ الطَّويلِ] :

أَرَادُوْا لِيُخْفُوْا قَبْرَهَا عَنْ مُحِبِّهَا وَلَـٰكِنَّ طِيْبَ ٱلْقَبْرِ دَلَّ عَلَىٰ ٱلْقَبْرِ

وقالَ ٱبنُ الروميِّ [في « ديوانهِ » ٤/ ١٧١٤ مِنَ السَّريعِ] :

إِنْ جَـاءَ مَـنْ يَبْغِـيْ لَنَـا مَنْـزِلاً قُـوْلُـوْا لَـهُ يَمْشِـيْ وَيَسْتَنْشِـقُ

(١) الحَينُ : الهلاكُ .

وقالَ [في « ديوانه » ٤/ ١٤٩٠ مِنَ الكاملِ] :

أَعْبَقْتَهُ مِنْ رِيحِ طِيبِكَ عَبْقَةً ... كَادَتْ تَكُوْنُ ثَنَاءَكَ الْمَسْمُوْعَا

وقالَ ابْنُ عِمارَةَ السُّلَمِيُّ [في « الأغاني » ١/ ٢٨٠ مِنَ الطَّويلِ] :

يَبِينُ ظَلَامُ اللَّيْلِ مِنْ حُسْنِ وَجْهِهَا ... وَتَهْدِيْ بِطِيْبِ الرِّيْحِ مَنْ جَاءَ مِنْ نَجْدِ

وقالَ أَبو عُبادَةَ [في « ديوانه » ٢/ ١٢٦٣ مِنَ الطَّويلِ] :

وَحَاوَلْنَ كِتْمَانَ التَّرَحُّلِ فِيْ الدُّجَىٰ ... فَنَمَّ بِهِنَّ الْمِسْكُ لَمَّا تَضَوَّعَا

وقالَ آخرُ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَأَخفَوْا عَلَىٰ تِلْكَ الْمَطَايَا مَسِيْرَهُمْ ... فَنَمَّ عَلَيْهِمْ فِيْ الظَّلَامِ التَّنَسُّمُ

وقالَ آخرُ [وهوَ عبدُ اللهِ بنُ محمدِ بنِ البوَّابِ كما في « الأغاني » ٢٣/ ٤٢ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَوْ أَنَّ رَكْباً يَمَّمُوْكَ لَقَادَهُمْ ... أَرِيْجُكَ حَتَّىٰ يَسْتَدِلَّ بِكَ الرَّكْبُ

وقالَ الطغرائِيُّ [في « ديوانه » ٣٠٤ مِنَ البسيطِ] :

فَسِرْ بِنَا فِيْ ذِمَامِ اللَّيْلِ مُعْتَسِفاً ... فَنَفْحَةُ الطِّيْبِ تَهْدِيْنَا إِلَىٰ الْحُلَلِ(١)

وقالَ بعضُهُم يمدحُ أَهلَ البيتِ [مِنَ الكاملِ] :

لَوْ كَانَ يُوْجَدُ رِيْحُ مَجْدٍ فَائِحاً ... لَوَجَدْتَهُ مِنْهُمْ عَلَىٰ أَمْيَالِ

نُوْرُ النُّبُوَّةِ وَالْمَكَارِمِ فِيْهِمُ ... مُتَوَقِّدٌ فِيْ الشِّيْبِ وَالأَطْفَالِ

---

(١) العسفُ : ركوبُ المفازةِ وقطعُها بغيرِ قصدٍ ولا هدايةٍ ولا توخّي طريقٍ مسلوكٍ .

وقد تمثَّلَ بهما مسلمُ بنُ بلالٍ لجعفرِ بنِ سليمانَ حينَما خطَبَ خُطبةً لم يعرفِ ٱلناسُ أَهيَ أَحسنُ أَم وجهُهُ ؟

والمعنىٰ متكرِّرٌ عندَ الناظِمِ ، منهُ قولُهُ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٢٩٧ مِنَ الوافرِ] :

أَدِلَّتُهَـا رِيَـاحُ ٱلْمِسْـكِ مِنْـهُ إِذَا فَتَحَـتْ مَنَاخِرَهَا ٱنْتِشَاقَا

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٣٩٣ مِنَ الوافرِ] :

وَذَاكَ ٱلنَّشْرُ عِرْضُكَ كَانَ مِسْكَا وَهَـٰذَا ٱلشِّعْرُ فِهْرِيْ وَٱلْمَدَاكَا[١]

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٤/ ٢٠٢ مِنَ الكاملِ] :

أَرِجَ ٱلطَّرِيْقُ فَمَا مَرَرْتَ بِمَوْضِعٍ إِلاَّ أَقَامَ بِهِ ٱلشَّذَا مُسْتَوْطِنَا[٢]

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ١/ ٤٥ مِنَ الوافرِ] :

تَنَفَّسُ وٱلْعَوَاصِمُ مِنْكَ عَشْرٌ فَنَعْرِفُ طِيْبَ ذَلِكَ فِيْ ٱلْهَوَاءِ

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٢٠ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا سَارَتِ ٱلأَحْدَاجُ فَوْقَ نَبَاتِهِ تَفَاوَحَ مِسْكُ ٱلْغَانِيَاتِ وَرَنْدُهُ[٣]

وقولُهُ : (أَقَامَ بِهِ ٱلشَّذَا مُسْتَوْطِنَا) مأخوذٌ ممَّا جاءَ في صفتِهِ ﷺ . . أَنَّهُ إِذا مرَّ في مكانٍ . . عُرِفَ مِن طيبِهِ مرورُهُ بهِ، وإِذا جلسَ بموضِعٍ . .

---

(١) النشرُ : الرائحةُ الطيبةُ . الفهرُ : الحجرُ الذي يسحقُ بهِ الطيبُ . المداكُ : الصلايةُ التي يداكُ عليها ، والدوكُ : الدقُّ والطحنُ .

(٢) أَرِجَ الطيبُ : فاحَ . الشذا : حدَّةُ الرائحةِ .

(٣) الأَحداجُ : مراكبُ النساءِ . تفاوَحَ : تفاعَلَ من فاحَ يفوحُ . الرندُ : نبتٌ طيِّبُ الرائحةِ .

بقيَ عَرفُهُ[1] فيهِ أيَّاماً بعدَهُ، وإذا صافحَهُ إنسانٌ ، أو وضعَ يدَهُ علىٰ رأسِ صبيٍّ . . عُرِفَ ذلكَ ؛ لطيبِ ريَّاهُ .

وإنَّما سُمِّيَتْ دارُهُ (طيبةَ) ؛ لكثرةِ ما يفوحُ بها من روائحِ الطيبِ .

أكذب الشعر

وقولُهُ : (تنفَّسُ وَالْعَوَاصِمُ مِنْكَ عَشْرٌ) . . . إلىٰ آخرِهِ ألَمَّ فيهِ بقولِ مهلهلٍ [في « الأغاني » ٥/٥٨ مِنَ الوافرِ] :

فَلَوْلاَ الرِّيحُ أُسْمِعَ مَنْ بِحِجْرٍ صَلِيلَ الْبِيضِ تُقْرَعُ بِالذُّكُورِ

فبينَ (حجرٍ) وبينَ موضعِ الواقعةِ عَشَرَةُ أيَّامٍ ، وأكثرُ ما يسمعُ الصوتُ في العادَةِ معَ سكونِ الهواءِ من مقدارِ ميلٍ ؛ ولهٰذا قالَ بعضُهم : إنَّ هٰذا أكذبُ بيتٍ قالتْهُ العربُ ، ومعَ ذلكَ فقد نظرَ إليهِ صاحبُنا بعينِ الاستحسانِ ؛ لأنَّهُ يتصيَّدُ الإغرابَ مِن حيثُما كانَ ، فنقلَ المسموعَ إلىٰ المشمومِ ، غيرَ أنَّ الحازميَّ ذكرَ عَنِ العبَّاسِ بنِ عبدِ المطَّلبِ [كما في « وفيات الأعيان » ٣/٢٧٧] : أنَّهُ كانَ يقفُ علىٰ (سَلْعٍ) ـ وهوَ جبلٌ عندَ (المدينةِ) ـ فينادي غلمانَهُ وهُم بالغابَةِ ، وذلكَ مِن آخرِ الليلِ ، وبينَ الغابَةِ و(سَلْعٍ) . . ثمانيةُ أميالٍ .

وذكرَ المبرِّدُ : أنَّ غارةً جاءَتْ وقتَ الصبحِ . . فصاحَ العبَّاسُ بأعلىٰ صوتِهِ : واصباحاهُ ، فلم تسمعْهُ حامِلٌ في الحيِّ إلاَّ وضعَتْ .

طيب الثناء تابع لطيب الذات

ولئِن قيلَ : إنَّ أكثرَ الشواهِدِ التي سقْنا ليسَتْ في طيبِ الثناءِ ، وإنَّما هيَ في طيبِ الذاتِ ، وبينهُما بَونٌ ، فالجوابُ : أن

---

(١) العَرفُ : الرائحةُ الطيبةُ . قال الشيخ عبد الله سراج الدين في كتاب « محمد رسول الله ﷺ » (ص/ ٣٠) : رواه أبو يعلى والبراز بإسناد صحيح .

لا مشاحَّةَ ؛ لأنَّ طيبَ الذاتِ متبوعٌ بطيبِ الثناءِ لا محالَةَ ، والجامعُ مجرَّدُ الطيبِ .

ويعجبُني قولُ ذي الرُّمَّةِ [في « ديوانهِ » ٢/ ١٠٤٥ مِنَ الطَّويلِ] :

يَطِيبُ تُرَابُ ٱلأَرْضِ إِنْ نَزَلُوْا بِهَا وَيَخْتَالُ أَنْ تَعْلُوْ عَلَيْهَا ٱلْمَنَابِرُ

وممَّا يتعلَّقُ بطيبِ الثناءِ قولُ أَبي تمَّامٍ [مِنَ الكاملِ] :

عَذُبَتْ مَمَادِحُهُ بِأَفْوَاهِ ٱلْوَرَىٰ فَثَنَاؤُهُ يَنْتَابُ كُلَّ مَكَانِ

بل ربَّما كانَ أَصلاً لبيتِ الناظِمِ الذي نتكلَّمُ فيهِ .

وقالَ الناظِمُ [في « العُكبَريّ » ٤/ ٨٦ مِنَ الطَّويلِ] :

أَلَذُّ مِنَ ٱلصَّهْبَاءِ بِٱلْمَاءِ ذِكْرُهُ وَأَحْسَنُ مِنْ يُسْرٍ تَلَقَّاهُ مُعْدِمُ[1]

وقد سبقَ ـ في غيرِ هٰذا المجلسِ ـ قولُ الحماسيِّ [خلف بن خليفة كما في « ديوان الحماسة » ٢/ ٣٦٢ مِنَ الطَّويلِ] :

عِذَابٌ عَلَىٰ ٱلأَكْبَادِ مَا لَمْ يَذُقْهُمُ عَدُوٌّ وَفِيْ ٱلأَفْوَاهِ أَسْمَاؤُهُمْ تَحْلُوْ

وقالَ آخرُ [وهو شرف الدين القيرواني كما في « خزانة الأدب » ٢/ ٣٨٨ مِنَ البسيطِ] :

جَاوِرْ عَلِيّاً وَلاَ تَحْفَلْ بِحَادِثَةٍ إِذَا ٱدَّرَعْتَ فَلاَ تَسْأَلْ عَنِ ٱلأَسَلِ
سَلْ عَنْهُ وَٱسْمَعْ بِهِ وَٱنْظُرْ إِلَيْهِ تَجِدْ مِلْءَ ٱلْمَسَامِعِ وَٱلأَفْوَاهِ وَٱلْمُقَلِ

وأَهدىٰ الصاحبُ بنُ عبَّادٍ قارورَةَ عطرٍ لبعضِ القضاةِ ، وكتبَ عليها [في « ديوانهِ » ٢٥٣ مِنَ الكاملِ] :

يَا أَيُّهَا ٱلْقَاضِيْ ٱلَّذِيْ نَفْسِيْ لَهُ مَعْ قُرْبِ عَهْدِ لِقَائِهِ أَشْتَاقُهُ
أُهْدِيْهِ عِطْراً مِثْلَ طِيْبِ ثَنَائِهِ فَكَأَنَّمَا أُهْدِيْ لَهُ أَخْلاَقَهُ

---

(١) الصهباء : من أَسماءِ الخمرِ .

وقالَ ٱبنُ هانىءٍ الأندلسيُّ [في « ديوانهِ » ٥١ مِنَ الكاملِ] :

قَدْ طَيَّبَ ٱلأَفْوَاهَ طِيبُ ثَنَائِهِ   مِنْ أَجْلِ ذَا تَجِدُ ٱلثُّغُوْرَ عِذَابَا

وقالَ يزيدُ بنُ الطَّثَرِيَّةِ [في « ديوانهِ » ٤٩ مِنَ الطَّويلِ] :

وَإِنِّي وَإِنْ أَحْمَوْا عَلَيَّ كَلاَمَهَا   وَحَالَتْ أَعَادٍ دُوْنَنَا وَحُرُوْبُ
لَمُثْنٍ عَلَىٰ لَيْلَىٰ ثَنَاءً تُزِيْنُهُ   قَوَافٍ بِأَفْوَاهِ ٱلرِّجَالِ يَطِيبُ

ولا شكَّ أَنَّ الذكرَ الجميلَ . . يهزُّ الرؤُوسَ ، ويخلبُ النفوسَ ؛ ولهٰذا سألَهُ الخليلُ عليهِ السلامُ ، فقالَ : ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ﴾ [الشعراء : ٨٤] ، وممَّا يتَّصلُ بذلكَ قولُ ذي الرُّمَّةِ [في « ديوانهِ » ٢/ ١٢١٥ مِنَ الطَّويلِ] :

الذكر الجميل والثناء الحسن . . جدير بأن يطلب من الله

إِذَا مَاتَ فَوْقَ ٱلرَّحْلِ أَحْيَيْتُ رُوْحَهُ   بِذِكْرَاكِ ، وَٱلْعِيسُ ٱلْمَرَاسِيْلُ جُنَّحُ

يقولُ : إِنَّ طِيبَ ذكرِهِ يوقظُ النائِمَ ، وينعِشُ الساكِنَ ، ويحرِّكُ الجامِدَ ، وهوَ من كلمةٍ لهُ جزلةٍ ، منقَّحةِ المعنىٰ واللفظِ ، يقولُ فيها [في « ديوانهِ » ٢/ ١١٩٢ـ١٢١٥ مِنَ الطَّويلِ] :

عَلَىٰ حِيْنَ رَاهَقْتُ ٱلثَّلاَثِيْنَ وَٱرْعَوَتْ   لِدَاتِي وَكَادَ ٱلْحِلْمُ بِٱلْجَهْلِ يَرْجَحُ
إِذَا خَطَرَتْ مِنْ حُبِّ مَيَّةَ خَطْرَةٌ   عَلَىٰ ٱلْقَلْبِ كَادَتْ فِي فُؤَادِيَ تَجْرَحُ
تَصَرَّفُ أَهْوَاءُ ٱلْقُلُوْبِ وَلاَ أَرَىٰ   نَصِيْبَكِ مِنْ قَلْبِيْ لِغَيْرِكِ يُمْنَحُ
إِذا غَيَّرَ ٱلنَّأْيُ ٱلْمُحِبِّيْنَ لَمْ يَكَدْ   رَسِيْسُ ٱلْهَوَىٰ مِنْ حُبِّ مَيَّةَ يَبْرَحُ
أَنِيْنٌ وَشَكْوَىٰ بِٱلنَّهَارِ طَوِيْلَةٌ   عَلَيَّ وَمَا يَأْتِي بِهِ ٱللَّيْلُ أَبْرَحُ
ذَكَرْتُكِ إِذْ مَرَّتْ بِنَا أُمُّ شَادِنٍ   أَمَامَ ٱلْمَطَايَا تَشْرَئِبُّ وَتَسْنَحُ(١)

(١) أمُّ شادنٍ : ظبيةٌ معها ولدُها حينَ شدنَ وقويَ ومشى . تشرئِبُّ : تشرفُ . تسنحُ : تعرضُ .

مِنْهَا :

هِجَانُ ٱلثَّنَايَا مُغْرِباً لَوْ تَبَسَّمَتْ لأَخْرَسَ عَنْهُ كَادَ بِٱلْقَوْلِ يُفْصِحُ
لَئِنْ كَانَتِ ٱلدُّنْيَا عَلَيَّ كَمَا أَرَىٰ تَبَارِيحَ مِنْ مَيٍّ فَلَلْمَوْتُ أَرْوَحُ[1]

هٰذا واللهِ الشعرُ الخالصُ ، والكلامُ المنقَّحُ ، والقولُ المختارُ ، وقد كانَتْ عندَنا نونيَّةُ ٱبنِ زيدونَ[2] في الاعتبارِ الأولِ . . حَتَّىٰ

---

(١) تباريحُ : عذابٌ ومشقَّةٌ .

(٢) قصيدة مشهورة للوزير أحمد بن زيدون ؛ كتب بها إلىٰ وَلاَّدةَ بنت المستكفي بالله في (قرطبة)، بعد مفارقته لها، ويأسه من لقائها، يتشوقها ويستديم عهدها ، ومنها هذه الأبيات :

أَضْحَىٰ ٱلتَّنَائِي بَدِيْلاً مِنْ تَدَانِيْنَا وَنَابَ عَنْ طِيْبِ لُقْيَانَا تَجَافِيْنَا
أَلاَ وَقَدْ حَانَ صبحُ ٱلْبَيْنِ صَبَّحَنَا حَيْنٌ فَقَامَ بِنَا لِلْحَيْنِ نَاعِيْنَا

ومنها :

أَنَّ ٱلزَّمَانَ ٱلَّذِيْ مَا زَالَ يُضْحِكُنَا أُنساً بِقُرْبِهِمُ قَدْ عَادَ يُبْكِيْنَا
غِيْظَ ٱلْعِدَا مِنْ تَسَاقِيْنَا ٱلْهَوَىٰ فَدَعَوْا بِأَنْ نَغَصَّ فَقَالَ ٱلدَّهْرُ آمِيْنَا
فَٱنْحَلَّ مَا كَانَ مَعْقُوْداً بِأَنْفُسِنَا وَٱنْبَتَّ مَا كَانَ مَوْصُوْلاً بِأَيْدِيْنَا
وَقَدْ نَكُوْنُ وَمَا يُخْشَىٰ تَفَرُّقُنَا فَٱلْيَوْمَ نَحْنُ وَمَا يُرْجَىٰ تَلاَقِيْنَا

ومنها :

بِنْتُمْ وَبِنَّا فَمَا ٱبْتَلَّتْ جَوَانِحُنَا شَوْقاً إِلَيْكُمْ وَلاَ جَفَّتْ مَآقِيْنَا
حَالَتْ لِبَيْنِكُمُ أَيَّامُنَا فَغَدَتْ سُوْداً وَكَانَتْ بِكُمْ بِيْضاً لَيَالِيْنَا
لاَ تَحْسَبُوْا نَأْيَكُمْ عَنَّا يُغَيِّرُنَا إِذْ طَالَمَا غَيَّرَ ٱلنَّأْيُ ٱلْمُحِبِّيْنَا
وَٱللهِ مَا طَلَبَتْ أَهْوَاؤُنَا بَدَلاً مِنْكُمْ وَلاَ ٱنْصَرَفَتْ عَنْكُمْ أَمَانِيْنَا

ومنها :

يَا جَنَّةَ ٱلْخُلْدِ أُبْدِلْنَا بِسِدْرَتِهَا وَٱلْكَوْثَرِ ٱلْعَذْبِ زَقُّوماً وَغِسْلِيْنَا=

وجدْناها عالةً علىٰ هَـٰذِهِ في كثيرٍ مِن مَعانيها المختارَةِ .

وهاهنا نكتَةٌ ، وهيَ : قيلَ : إنَّ نفيَ كادَ للإثباتِ مطلقاً : ماضياً كانَ : بشهادَةِ قولِهِ : ﴿ وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ [البقرة : ٧١] . وقد فعَلوا فذَبحوها .

مسألة نحوية حول (كاد):

أَو مضارِعاً : فقد رويَ عَن عنبسةَ أَنَّهُ قالَ [في « الأغاني » ١٨/٣٩] : قدمَ ذو الرُّمةِ الكوفةَ فاعترَضَ عليهِ ابنُ شبرمَةَ قولَهُ : (لَمْ يَكَدْ رَسِيْسُ الْهَوَىٰ) ، وقالَ : إنَّهُ يدلُّ علىٰ زوالِ رسيسِ الهوىٰ ، فلم ينفصل ذو الرُّمَّةِ بلِ اعترفَ بالغلَطِ ، وغيَّرَهُ بقولِهِ : (لَمْ أَجِدْ رَسِيْسَ الْهَوَىٰ) ، ولـٰكن قالَ عنبسةُ : حدَّثَتُ أَبي بذلكَ . . فقالَ أَخطأَ ابنُ شبرمَةَ في إنكارِهِ علىٰ ذي الرُّمَّةِ ، وأَخطأَ ذُو الرُّمةِ في اعترافِهِ وتغييرِهِ ، إنَّما هوَ كقولِهِ تعالىٰ : ﴿ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ﴾ [النور : ٤٠] ، والمعنىٰ : أَنَّهُ لم يرَها ؛ ولهـٰذا قالَ ابنُ الحاجبِ : إذا دخلَ النفيُ علىٰ كادَ . . كانَ كالنفيِ الداخِلِ علىٰ سائِرِ الأَفعالِ ، وفي البحثِ طولٌ يتعلَّقُ بهِ مِنَ الفقهِ قولُ ابنِ حجرٍ في « تحفتِهِ » :

قالَ البغويُّ : ولَو قالَ : ما كدتُ أَن أطلِّقَكِ . . كانَ إقراراً بالطلاقِ ، وسكتَ عليهِ ، وإنَّما يتأَتَّىٰ علىٰ ما سبقَ مِن القيلِ ، وقدِ اعتمَدَ الرمليُّ في « النهايَةِ » : أَنْ لاَ يكونَ إقراراً ؛ لأَنَّ كادَ كغيرِها ،

= كَأَنَّنَا لَمْ نَبِتْ وَالْوَصْلُ ثَالِثُنَا ... وَالسَّعْدُ قَدْ غَضَّ مِنْ أَجْفَانِ وَاشِيْنَا
إِنْ كَانَ قَدْ عَزَّ فِيْ الدُّنْيَا اللِّقَاءُ بِكُمْ ... فِيْ مَوْقِفِ الْحَشْرِ نَلْقَاكُمْ وَتَلْقَوْنَا
إِنَّا قَرَأْنَا الأَسَىٰ يَوْمَ النَّوَىٰ سُوَراً ... مَكْتُوبَةً وَأَخَذْنَا الصَّبْرَ تَلْقِيْنَا
عَلَيْكِ مِنَّا سَلاَمُ اللهِ مَا بَقِيَتْ ... صَبَابَةٌ مِنْكِ نُخْفِيْهَا فَتُخْفِيْنَا

وهوَ الجاري كما سبقَ عَنِ ٱبنِ الحاجِبِ ، وعليهِ الأكثرونَ في الاعتمادِ ، واللهُ أعلمُ .

ثناء المؤلف على المتنبي

وبما أنَّ العلمَ أمانةٌ ، والإنصافَ واجبٌ . . فَلا بُدَّ مِنَ ٱلاعترافِ للنَّاظِمِ بحسنِ الاتباعِ ، فيما تعلَّقَ بهِ مِن بيتِ ذي الرُّمَّةِ الأَوَّلِ ، وذلكَ حيثُ يقولُ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٣٤٥-٣٤٦-٣٤٩ مِنَ الطَّويلِ] :

شَدَوْا بِٱبْنِ إِسْحَاقَ ٱلْحُسَيْنِ فَصَافَحَتْ ذَفَـارِيَهَـا كِيـرَانُهَـا وَٱلنَّمَـارِقُ[1]
بِمَنْ تَقْشَعِرُّ ٱلأَرْضُ خَوْفاً إِذَا مَشَىٰ عَلَيْهَـا وَتَـرْتَـجُّ ٱلْجِبَـالُ ٱلشَّـوَاهِـقُ
فَتىً كَٱلسَّحَابِ ٱلْجَوْنِ يُخْشَىٰ وَيُتَّقَىٰ يُرَجَّىٰ ٱلْحَيَا مِنْهَا ، وَتُخْشَىٰ ٱلصَّوَاعِقُ
خَـفِ ٱللهَ وَٱسْتُـرْ ذَا ٱلْجَمَـالَ بِبُـرْقُـعٍ فَإِنْ لُحْتَ ذَابَتْ فِيْ ٱلْخُدُوْرِ ٱلْعَوَاتِقُ[2]

أَمَا إِنَّهُ لَشِعرٌ تقفُّ لَهُ الشعورُ ، وتنشرِحُ الصدورُ ، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النورُ : ٤٠] .

والأَولُ : هُوَ الذي تعلَّقَ فيهِ بأذيالِ ذي الرُّمَّةِ ، وقد أَجادَ ، ولئِنْ أَجادَ فيهِ . . فلقَد أَربىٰ علىٰ الإجادَةِ في نظيرِهِ ، إِذ يقولُ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ١٢٤ مِنَ الطَّويلِ] :

---

(١) شدَوا : غنَّوا . الذفرَىٰ : الموضعُ الذي يعرَقُ من البعير خلفَ الأذنينِ . النمارقُ - جمعُ نُمرُقةٍ - : وهيَ الوسادةُ تكونُ تحت الراكبِ ، والذي أرادهُ أبو الطيبِ هنا ، هيَ التي تكونُ قُدَّامَ الرحلِ ، يجعلُ الراكبُ عليها ساقهُ للاستراحةِ إذا أخرجَها منَ الغرزِ . وكيرانُها - جمعُ كورٍ - : وهوَ الرَّحلُ .

(٢) البرقعُ : نقابٌ للعربِ ، يغطَّى بهِ الجبينُ والوجهُ ، ولا يكونُ فيهِ إلا ثقبانِ للعينينِ تنظرانِ منهما . العواتقُ - جمعُ عاتقٍ - : وهيَ الجاريةُ المقاربةُ للاحتلامِ . الخدورُ - جمعُ خِدرٍ - : وهوَ الكِنُّ والبيتُ الذي يسترُ فيهِ العواتِقُ .

نَضَحْتُ بِذِكْرَاكُمْ حَرَارَةَ قَلْبِهَا فَسَارَتْ وَطُوْلُ ٱلأَرْضِ فِيْ عَيْنِهَا شِبْرُ(١)

هـٰذا ما لا يقدرُ أَحدٌ أَن يقولَ مِثلَهُ ، فهوَ مِن مواضعِ السجودِ في الشعْرِ ، وفي بعضِ معناهُ ولفظِهِ قولُهُ السابقُ في المجلسِ الثامنِ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَنْ كَانَ عَزْمِيْ بَيْنَ جَنْبَيْهِ حَثَّهُ وَخُيِّلَ طُوْلُ ٱلأَرْضِ فِيْ عَيْنِهِ شِبْرَا

والثاني : ناظرٌ إِلىٰ قولِ الكنديِّ يمدَحُ عمرَو بنَ هندٍ [مِنَ الطَّويلِ] :

تَكَادُ تَمِيْدُ ٱلأَرْضُ بِٱلنَّاسِ إِنْ رَأَوْا لِعَمْرِو بنِ هندٍ غَضْبَةً وَهُوَ عَاتِبُ

وأَمَّا الثالثُ : فما أَخذَهُ إِلاَّ مِن قولِهِ جلَّ ذكرُهُ : ﴿ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴾ [الرعد : ١٢] ، ولئِن سبقَهُ إِليهِ البُحتريُّ بقولِهِ [في « ديوانه » ٣/ ١٩٩٧ مِنَ الطَّويلِ] :

سَمَاحاً وَبَأْساً كَٱلصَّوَاعِقِ وَٱلْحَيَا إِذَا ٱجْتَمَعَا فِيْ ٱلْعَارِضِ ٱلْمُتَرَاكِمِ(٢)

.. فبينَ البيتينِ شأْوٌ بعيدٌ ، وفرقٌ كبيرٌ ، والذوقُ حاكِمٌ ، والصنعةُ شاهدٌ ، وقدِ ٱتفقَ لي أَن أَخذْتُ بنصيبي مِن هـٰذا المعنىٰ ، فقلْتُ مِن قصيدَةٍ [في « ديوانِ المؤلِّفِ » ٤٠١ مِنَ البسيطِ] :

قُدُوْمُكُمْ كَٱلْحَيَا لَـٰكِنْ صَوَاعِقُهُ عِنْدَ ٱلْعِدَا، وَٱلنَّدَىٰ يَغْشَىٰ ٱلْمَسَاكِيْنَا(٣)

---

(١) المعنىٰ : أُبَرِّدُ بذكراكُم ، وبشعري الذي فيكمُ . . حرارةَ قلبِ هذهِ الناقةِ ، فتسرعُ ويقربُ عنها البعدُ ؛ لنشاطِها بذكراكُم ومدحِكُمْ .

(٢) الحيا : المطرُ . العارضُ : السحابُ .

(٣) صواعقُهُ عند العدا تصيبهُم بمرماها .

وَلا أُنْكِرُ أَنَّ بيتَ المتنبي أَجزلُ وأَفخمُ ، غيرَ أَنَّ في هـٰذا توازي ٱلعِدا والندىٰ ، والإفصاحُ بغشيانِهِ المساكينَ ، وهُمُ ٱلَّذينَ يراقبونَ الأَنواءَ ، ويستمطرونَ الغمامَ ، بخلافِ غيرِهِم مِنَ المترفينَ ، وقد سبقَ بعضُ أَبياتِ ذي الرُّمَّةِ وأَبياتِ الناظِمِ في غيرِ هـٰذا المجلسِ ، فَلا مؤَاخذَةَ .

* * *

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَريِّ » ٢/ ٣٣٩ مِنَ الكاملِ] :

لَمْ يَخْلُقِ ٱلرَّحْمَـٰنُ مِثْلَ مُحَمَّدٍ أَبـداً وَظَنِّـي أَنَّـهُ لاَ يَخْلُـقُ

المديح والمغالاة فيه والقصص في ذلك

معناهُ ظاهرٌ : وفيهِ مِن الغلوِّ والمجازفَةِ ما لا غايَةَ وراءَهُ ، والأَمرُ في مثلِهِ إِلىٰ النيَّةِ ، فإِنْ أَرادَ حقيقةَ العمومِ ، والترجيحَ علىٰ حضراتِ الأَنبياءِ . . فقد وقَعَ في صريحِ الكفرِ ، وإِلاَّ . . فلا ، أَلا ترىٰ لقولِ بعضِهِم في مدحِ خالدِ بنِ عبدِ اللهِ القسريِّ [في « ديوان الحماسة » ١/ ٣٨٤ مِنَ الطَّويلِ] :

أَلاَ إِنَّ خَيْـرَ ٱلنَّـاسِ حَيّاً وَمَيِّتـاً أَسِيرُ ثَقِيفٍ عِنْدَهُمْ فِيْ ٱلسَّلاَسِلِ

. . فإِنَّهُ لا يقلُّ عَن بيتِ الناظِمِ في العمومِ ، ولم يكفِّروهُ معَ ذلكَ ، ولَم يقولوا : إِنَّهُ فضَّلَ ممدوحَهُ علىٰ سيِّدِ البشَرِ ﷺ ؛ لأَنَّ كلَّ مَن ذكرَ الناسَ لا يريدُهم بجملتِهِم ، وإِنَّما يريدُ قوماً مخصوصينَ بالعهدِ ، أَوِ القرينَةِ ، ومَعَ هَـٰذا . . فإِنَّها إِساءَةُ أَدبٍ ، ومجاوزَةُ حدٍّ ، وقلَّةُ مبالاةٍ ، وقِحَةُ وجهٍ .

ابو الأسد وموسى الهادي

وما أَحسنَ ما فعلَ موسىٰ الهادي معَ أَبي الأَسدِ وقد مدحَهُ بقولِهِ [كما في « تاريخ الخلفاء » ١/ ٢٨٢ مِنَ البسيطِ] :

يَا خَيْرَ مَنْ عَقَدَتْ كَفَّاهُ حُجْزَتَهُ وَخَيْرَ مَنْ قَلَّدَتْهُ أَمْرَهَا مُضَرُ

فإِنَّهُ قالَ لَهُ : إِلاَّ مَن ، يا بائِسُ ، فقالَ قبلَ أَن يبلعَ ريقَهُ [مِنَ البسيطِ] :

إِلاَّ ٱلنَّبِـيَّ رَسُـوْلَ ٱللهِ إِنَّ لَـهُ فَخراً وَأَنْتَ بِذَاكَ ٱلْفَخْرِ تَفْتَخِرُ

فعرفَ أَنَّهُ ٱرتجلَهُ ، وفتَّشَ صحيفتَهُ فلمْ يجدْهُ فيها ، فأَسنىٰ جائزَتَهُ ، وأَكرَمَ وِفادَتَهُ .

ودخلَ سَلْمٌ الخاسرُ علىٰ المهديِّ فقالَ [مِنَ الطَّويلِ] : سلم الخاسر والمهدي

أَلَيْسَ أَحَقَّ ٱلنَّاسِ أَنْ يُدْرِكَ ٱلْغِنَىٰ مُرَجِّي أَمِيْرِ ٱلْمُؤْمِنِيْنَ وَسَائِلُهْ
لَقَدْ بَسَطَ ٱلْمَهْدِيُّ عَدْلاً وَنَائِلاً كَأَنَّهُمَا عَدْلُ ٱلنَّبِيِّ وَنَائِلُهْ

فقالَ المهديُّ : أَمَّا ما ذكرتَ مِنَ الجودِ . . فواللهِ إِنَّ الدنيا لا تعدلُ عِنْدي هـٰذا الخاتَمَ ، وأَمَّا العدلُ . . فإِنَّهُ لا يقاسُ برسولِ اللهِ ﷺ أَحَدٌ ، وإِنِّي لأَتحرَّاهُ جهديَ ، ثُمَّ أَمرَ لَهُ بعشَرَةِ آلافِ دينارٍ ، وعشَرَةِ أَثوابٍ ، وقَدِمَ عليهِ في السنَةِ الثانيةِ فقالَ [مِنَ الكاملِ] :

إِنَّ ٱلْخِلاَفَةَ لَمْ تَكُنْ بِخِلاَفَةٍ حَتَّىٰ ٱسْتَقَرَّتْ فِيْ بَنِيْ ٱلْعَبَّاسِ
شُدَّتْ مَنَاكِبُ مُلْكِهِمْ بِخَلِيْفَةٍ كَالدَّهْرِ يُخْلَطُ لِيْنُهُ بِشِمَاسِ

فأَمرَ لَهُ بعشرينَ أَلفَ دينارٍ ، ولمَّا كانَ العامُ الثالِثُ . . قدمَ عليهِ وقالَ [مِنَ الكاملِ] :

أَفْنَىٰ سُؤَالَ ٱلسَّائِلِيْنَ بِجُوْدِهِ مَلِكٌ مَوَاهِبُهُ تَرُوْحُ وَتَغْتَدِيْ
هَـٰذَا ٱلْخَلِيْفَةُ جُوْدُهُ وَنَوَالُهُ نَفَدَ ٱلسُّؤَالُ وَجُوْدُهُ لَمْ يَنْفَدِ

فأَمرَ لهُ بثلاثينَ أَلفاً ، وثلاثينَ ثوباً .

وأَقولُ : إِنَّ المهديَّ أَنصفَ في ٱعترافِهِ بمرجوحيَّتِهِ في العدْلِ ، وأَخطأَ في مسأَلةِ الجودِ . ومَن ذا الذي يُباري البحرَ البارِدَ العذبَ ، أَمسىٰ زاخراً ؟! وهلْ يستطيعُ أَحدٌ في العالَمِ أَنْ يقولَ : « مَنْ تَرَكَ

مالاً . . فَلِوَرَثَتِهِ ، ومَنْ تركَ دَيْناً أو ضَيَاعاً . . فعَلَيْنا »[1] غيرُ سيِّدِ الأَنامِ ، وخيرُ مَن يشربُ صوبَ الغمامِ ؟ وكانَ الأَولىٰ بالمهديِّ . . أَن يؤدِّبَ سَلْماً علىٰ ما تهضَّمَ مِن محاسنِ الخلفاءِ الراشدينَ في القطعَةِ الثانيَةِ ، أَو ينبِّهَهُ ، أَو يستفصِلَهُ ، علىٰ الأَقلِّ .

أَمَّا الرشيدُ . . فقد سبقَ أَوائِلَ المجلسِ الخامسِ أَنَّهُ سكتَ علىٰ قولِ عليِّ بنِ الخليلِ [في « زهرة الآداب » ٢/ ٨٤١ مِنَ الكاملِ] :

خَيْـرُ ٱلْبَـرِيَّـةِ أَنْـتَ كُلِّهِـمِ   فِيْ يَوْمِكَ ٱلْغَادِيْ وَفِيْ أَمْسِ

وأَمَّا المأمونُ . . فلم يغضَبْ علىٰ ٱبنِ جبلَةَ لقولِهِ في أَبي دُلَفٍ [في « ديوانه » ٦٨ مِنَ المديدِ] :

كُلُّ مَنْ فِيْ ٱلأَرْضِ مِنْ عَرَبٍ   بَيْـنَ بَـادِيْـهِ إِلَـىٰ حَضَـرِهْ
مُسْتَعِيْـرٌ مِنْـكَ مَكْـرُمَـةً   يَكْتَسِيْهَـا يَـوْمَ مُفْتَخَـرِهْ

وإِنَّما حقدَ عليهِ بديعَ مدائِحِهِ ، كما سيأْتي أَوائِلَ المجلسِ السادسَ عشرَ ، وإِلاَّ . . فقدْ قالَ في الاعتذارِ عنهُ : أَنتمْ أَهلُ بيتٍ لا يقاسُ بِكُم ؛ لأَنَّ اللهَ ٱختصَّكُمْ علىٰ عبادِهِ ، وإِنَّما ذهبتُ إِلىٰ أَقرانِ القاسِمِ وَأَشكالِهِ مِنَ ٱلنَّاسِ[2] .

الفرزدق وعبد الملك ابن مروان وشهامة نفس الفرزدق

ويرویٰ [بنحوه في « الأغاني » ١٠/ ٣٥١] : أَنَّ عبدَ الملكِ بنَ مروانَ أَكرمَ الفرزدَقَ حتَّىٰ أَرضاهُ علىٰ مدحَةٍ مدحَهُ بِها ، ولمَّا ٱنصرَفَ

---

(١) أخرجه عن جابر مسلم (٨٦٧) في (الجمعة) . وعن أبي هريرة رضي الله عنه البخاري (٢٣٩٨) في الاستقراض ، ومسلم (١٦١٩) ، وأبو داوود (٢٩٥٥) .

(٢) بَلْ هذانِ البيتانِ هُما اللذانِ أَغضبا المأمونَ وأَحفظاهُ علىٰ عليِّ بنِ جَبَلَةَ حتَّىٰ سَلَّ لسانَهُ مِن قفاهُ . انظر « الأغاني » (٨/ ٢٦٣) .

الفرزدقُ . . أَخذَ يتغنَّىٰ ويقولُ [في « ديوانهِ » ٢١٤ مِنَ البسيطِ] :

لَمْ تَحْتَمِلْ نَاقَةٌ مِنْ مَعْشَرٍ رَجُلاً مِثْلِي، إِذَا ٱلرِّيحُ ٱلْقَتْنِي عَلَىٰ ٱلْكُوْرِ

وكانَ عليهِ عينٌ أَسرعَ بِها إِلىٰ عبدِ الملكِ ، فٱستردَّهُ وقالَ لَهُ : لئِن لَمْ تخرُج مِنها . . لآتينَّ عليكَ ، فأَنشدَ من فورهِ [في « ديوانهِ » ٢١٥ مِنَ البسيطِ] :

إِلاَّ قُـرَيْشـاً فَـإِنَّ ٱللهَ فَضَّلَهُـمْ مَـعَ ٱلنُّبُـوَّةِ بِـٱلإِسْـلاَمِ وَٱلنُّـوْرِ
تَرَىٰ وُجُوْهَ بَنِيْ مَرْوَانَ مُشْرِقَةً يَوْمَ ٱلنَّدَىٰ كَمَشْوُفَاتِ ٱلدَّنَانِيْرِ

فقالَ عبدُ الملكِ : أَولىٰ لَكَ .

والظاهرُ مِن حالِ عبدِ الملكِ أَنَّهُ لَم يكنْ في ذلكَ مدفوعاً مِن جهَةِ الدينِ ، وإِلاَّ . . فكيفَ يقنَعُ بمدحِ بني مروانَ ، مَعَ أَولويَّةِ بني هاشِمٍ بذلكَ النورِ والنبوَّةِ ؟

وكيفَ يقرُّ الحجَّاجَ ـ كما رويَ ـ علىٰ قولِهِ أَنَّ الخلفاءَ أَفضلُ مِنَ ٱلرُّسُلِ ؟!

و [روى الأصفهاني بنحوه في « الأغاني » ٨/٧١ أنه] : قدِمَ عليهِ جريرٌ ، وكانَ ساخطاً عليهِ ؛ لانقطاعِهِ إِلىٰ الحجَّاجِ ، حَتَّىٰ همَّ أَن يُركِبَ الأَخطلَ ـ وهوَ نصرانيٌّ ـ علىٰ ظهرِهِ[1] ، لَولا مراجعَةُ جلسائِهِ لَهُ في ذلكَ ، ولـٰكنَّهُ لمَّا ٱمتدحَهُ بقصيدتِهِ التي يقولُ فيها [في « ديوانهِ » ١/٨٩ مِنَ الوافرِ] :

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ ٱلْمَطَايَا وَأَنْدَىٰ ٱلْعَالَمِيْنَ بُطُوْنَ رَاحِ ؟

---

(١) أي : كادَ أَنْ يُركِبَ الأَخطلَ علىٰ ظهرِ جريرٍ .

. . تطلَّقَ لهُ ، ورضيَ عنهُ ، وأعطاهُ مئةً مِنَ الإبلِ ، وصحفةً مِنَ الفضَّةِ ـ أو مِنَ الذَّهبِ فكُلُّ ذلكَ رويَ ـ فتعيَّنَ أنَّ الذي دعاهُ إلىٰ الإنكارِ علىٰ الفرزدقِ . . إنَّما هوَ الموجدَةُ عليهِ ، لحاجَةٍ في نفسِهِ :

إمَّا لاستكثارِ ما أعطاهُ علىٰ حدِّ قولِ الناظِمِ [في « العُكبَريّ » ٤/٢٣٦ مِنَ البسيطِ] :

وَيَغْضَبُوْنَ عَلَىٰ مَنْ نَالَ رِفْدَهُمُ حَتَّىٰ يُكَدِّرَهُ ٱلتَّنْغِيْصُ وَالمِنَنُ[1]

وإمَّا لأنَّ الفرزدقَ كانَ شريفَ الهمَّةِ ، قويَّ النفْسِ ، والمستبدُّونَ لا يميلونَ إلاَّ إلىٰ المتصاغرينَ المتملِّقينَ الأخسَّاءِ ، كذلكَ الذي قالَ لهُ : جَبِّ[2] ، ليُركِبَ الأخطلَ علىٰ ظهرِهِ ، فجبَّىٰ ، وهوَ جريرٌ كما سبقَ ، بخلافِ الفرزدَقِ ، فقد بلغَ مِن تعاظمِهِ أنَّهُ لا ينشدُ قائماً ، وقد مرَّ قولُ خالدِ القسريِّ فيهِ [بل القائل ابن هبيرة كما في « طبقات فحول الشعراء » ٢/٣٤٦] : ما رأيتُ أشرفَ مِنَ الفرزدَقِ ، هَجاني ملكاً ، ومدحَني سوقةً .

ولمَّا قالَ لهُ سليمانُ بنُ عبدِ الملكِ [في « الأغاني » ١/٣٢٣] : أنشدني . . أنشدَهُ قولَهُ [في « ديوانه » ١/٢٩ مِنَ الطَّويلِ] :

وَرَكْبٍ كَأَنَّ ٱلرِّيْحَ تَطْلُبُ عِنْدَهُمْ لَهَا تِرَةً مِنْ جَذْبِهَا بِٱلْعَصَائِبِ[3]
سَرَوْا يَخْبِطُوْنَ ٱللَّيْلَ وَهْيَ تَلُفُّهُمْ إِلَىٰ شُعَبِ ٱلأَكْوَارِ مِنْ كُلِّ جَانِبِ[4]

---

(١) في « العكبري » البيت بلفظ المخاطب : (تَغْضَبُوْنَ) (رِفْدَكُمْ) .
(٢) الناقةُ الجبَّاءُ : هي التي لا سنامَ لها ، ومعنى جَبِّ هنا كأنه مأخوذ منها ؛ أي اقعد القرفصاء ، كالناقة التي لا سنامَ لها .
(٣) الترَةُ : الثأرُ . العصائبُ : العمائِمُ .
(٤) شعبُ الأكوارِ : نواحيها . والكور : رحلُ البعيرِ .

إِذَا أَبْصَرُوْا نَاراً يَقُوْلُوْنَ: لَيْتَهَا ـ وَقَدْ خَصِرَتْ أَيْدِيهِمُ ـ نَارُ غَالِبِ[1]

وكانَ يظنُّ أَنَّهُ ينشدُهُ مدحاً فيهِ ، فلمَّا لَم يَجِيءْ إلاَّ بذلكَ الفخرِ . . اسودَّ وجهُهُ ، ولجأَ إلىٰ شعرٍ قالَهُ نصيبٌ ، لا يوزَنُ بشيءٍ ممَّا قالَهُ الفرزدَقُ ، ولا توضَعُ اليدُ علىٰ شيءٍ منهُ ، عَدا قولَهُ [مِنَ الطَّويلِ] :

فَعَاجُوْا فَأَثْنَوْا بِالَّذِيْ أَنْتَ أَهْلُهُ وَلَوْ سَكَتُوْا أَثْنَتْ عَلَيْكَ الْحَقَائِبُ

وليسَ هٰذا ببدعٍ ، إذ كلُّ مَن كانَ كبيرَ القدْرِ ، جليلَ الخطَرِ . . تحومُ عليهِ غربانُ الأَحسادِ ، وتُفوِّقُ إليهِ نبلانُ الأَحقادِ ، كما سبقَ تقريرُهُ في موضعِهِ ، وكما قالَ عليُّ بنُ محمَّدٍ الأفوهُ [مِنَ البسيطِ] :

مُحَسَّدُوْنَ وَمَنْ يَعْلَقْ بِحَبْلِهِمِ مِنَ الْبَرِيَّةِ يُصْبِحْ وَهْوَ مَحْسُوْدُ

وما أَرىٰ حادثَةَ الخوارزميِّ معَ بديعِ الزمانِ إلاَّ مِن هٰذا النوعِ ، فقد كانَ الأوَّلُ فريدَ دهرِهِ ، منقطِعَ النظيرِ في عصرِهِ ، ولم يأْتِ البديعُ إلاَّ والخاصَّةُ كلُّهم أعداؤُهُ ، فصغَّروا مِن أَمرِهِ ما عظُمَ ، وكبَّروا مِن أَمرِ البديعِ ما صغُرَ ، حتَّىٰ كانَ ما كانَ ، ممَّا لم يأْتِ إلاَّ بروايةِ البديعِ وحدَهُ ، ولأَقلُّ مِنْ تلكَ التهمَةِ . . يعلَّلُ بل يردُّ الحديثُ .

وقدِ اتفقَ لي من هٰذا النوعِ أَنْ وردَ (حضرموتَ) رجلٌ مِن (اليمنِ) ، منذُ خمسةِ شهورٍ ، أَخذَ يتفنَّجُ ويتحدَّىٰ ، حتَّىٰ أكبرَهُ بعضُ الناسِ ، وفي الليلَةِ الأُولىٰ مِنْ محرَّم هٰذِهِ السنَةِ اجتمعْنا بهِ ، في لفيفٍ مِنْ أَهلِ الوجاهَةِ والأَدَبِ ، فاقترحوا علينا المباراةَ في

---

(١) خصرت : بردت . غالب : أي أبيه .

الشعْرِ ، معَ تعيينِ الموضوعِ والقافيَةِ والبحرِ ، فانتبذْتُ عنهُم قليلاً في المجلسِ ، ولَم تمضِ ساعَةٌ وربعٌ . . حَتَّىٰ جهَّزْتُ قصيدَةً لا تقلُّ عَن أَربعينَ بيتاً ، وجاءَ هُوَ في نفسِ المدَّةِ بنحوٍ مِن أَربعَةٍ وعشرينَ بيتاً ، لا ترتفِعُ إِلىٰ الإجادَةِ ، ولا تنحطُّ إِلىٰ التقصيرِ ، غيرَ أَنَّها انعقدَتْ بعدَ ذلكَ عدَّةُ مجالسَ ، يُقترَحُ علينا فيها النضالُ ، فنقولُ ويُفحَمُ ، كما سبقَ لنا ذكرُ ذلكَ في المجلسِ الثاني عندَ شرحِ قولِهِ [في « العُكبَريِّ » ١/٢٩٧ مِنَ المنسرحِ] :

بَـانُـوْا بِخُـرْعُـوْبَـةٍ لَهَـا كَفَـلٌ ... يَكَـادُ عِنْـدَ ٱلْقِيَـامِ يُقْعِـدُهَـا

ولَولا انفراجُ الأَمرِ عمَّا لا يقبلُ الأَوهامَ والشكوكَ . . لَمثَّلوا ما جرىٰ علىٰ الخوارزميِّ مِنَ البديعِ ، فما أَشدَّ حرصَهم علىٰ انهزامِنا وانتصارِهِ ، ولَو وَجدوا أَدنىٰ منفذٍ إِلىٰ التمويهِ والتشويهِ . . لَفَتلوا في كلِّ غاربٍ ، وذرَوهُ ؛ لغمطِ فضلِنا وترجيحِهِ ، غيرَ أَنَّهُ بفضلِهِ تعالىٰ أَبىٰ أَنْ يردَّهُم إِلاَّ بغيظِهِم ، هٰذا مَعَ أَنَّ الشعرَ لا يتيسَّرُ لي في كلِّ وقْتٍ ، بَل قَد يكونُ الشروعُ فيهِ أَحياناً أَصعبُ عليَّ مِن قلعِ الأَسنانِ ، وأَنا أُحيلُ كلَّ ما يحصلُ لي مِنَ الانتصارِ بالحجَّةِ علىٰ الخصومِ ـ معَ قلَّةِ البضاعَةِ ، وتوفُّرِ الدواعي لاضطهادي ـ علىٰ بركَةِ دُعاءِ المشايخِ ، الذي لا يُحجَبُ عَن سماءِ الإجابَةِ ، وذكرْتُ عندَ هٰذا قولَ الأَميرِ تميمِ بنِ المعزِّ [في « ديوانِهِ » ٢٠٤ مِنَ السَّريعِ] :

أَرَىٰ أُنَـاسـاً سَـاءَنِـيْ ظَنُّهُـمْ ... فِـيْ كُـلِّ مَـا قُلْـتُ مِـنَ ٱلشِّعْـرِ
فَنَـاظِرُوْنِـيْ فِيْـهِ أَوْ فَـاشْـرَحُـوْا ... شِعْـرِيَ إِنْ أَنْكَـرْتُـمُ أَمْـرِيْ
أَوْ لاَ ، فَقُوْلُوْا : حَسَدٌ قَاتِلٌ ... مُسْتَمْكِنٌ فِيْ ٱلْقَلْبِ وَٱلصَّدْرِ

وقولُهُ أيضاً [في « ديوانه » ١٨٧ مِنَ الخفيفِ] :

نَحْنُ أَهْلُ ٱلتُّقَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمُوَاسَا ... ةِ وَأَهْــلُ ٱلنَّــوَالِ وَٱلإِيثَــارِ
فَـدَعُـوْا خُطَّـةَ ٱلْعُـلاَ لِـذَوِيهَـا ... مِـنْ بَنِـيْ بَيْـتِ أَحْمَـدَ ٱلأَبْـرَارِ
أَوْ فَلُوْمُوْا ٱلإِلَـٰهَ فِيْ أَنْ بَرَانَا ... فَوْقَكُمْ وَٱغْضَبُوْا عَلَىٰ ٱلْمِقْدَارِ

هل يجوز التسمي بـ: ملك الملوك وما شابهه؟

هـٰذا : وقدِ ٱختلَفَ العلماءُ في التسمِّي بملكِ الملوكِ [في « طبقات ابن السبكي » ٥/ ٢٧١] :

فأجازَهُ كثيرٌ ، مِنهُم : القاضي أبو الطيِّبِ الطبريُّ .

ومنعَهُ آخرونَ ، مِنهم : الماورديُّ ، وهُوَ الذي ٱعتمدَهُ ٱبنُ حجرٍ في « تحفتِهِ » ؛ لأنَّهُ الأسعدُ بالدليلِ ؛ إذ جاءَ في « الصحيحِ » : « أَخْنَعُ الأَسْمَاءِ عِنْدَ ٱللهِ رَجُلٌ تَسَمَّىٰ بِمَلِكِ ٱلأَمْلاَكِ »(١) .

وأَولُ مَن تسمَّىٰ بذلكَ ـ فيما أظنُّ ـ عضدُ الدولةِ ، وكانَ صديقَ الماورديِّ ، فعزمَ اللهُ لَهُ بالثباتِ ، وجزَمَ بالحرمَةِ ، وأمَّا بقيَّةُ العلماءِ . . فَصانعوا ، وأَفتَوا بالجوازِ ، بناءً علىٰ ما سبقَ مِن التأويلِ بإرادَةِ التخصيصِ ، فلم يكُن مِنَ ٱلأميرِ إلاَّ أن زادَ في ٱحترامِ الماورديِّ ؛ لتصلُّبِهِ في الدينِ ، وقالَ: لو حابىٰ أحداً . . لَحاباني ، وأخذَ في ٱطِّراحِ المقاربينَ لَه ، وهانَ قدرُهُم عليهِ ، قالَ ٱبن السبكيُّ [في « طبقاته » ٥/ ٢٧٢] : ولم تطلْ مدَّةُ العضُدِ بعدَ ذلكَ .

والظنُّ بالعضُدِ أنَّهُ هوَ الذي ٱمتدحَهُ الناظِمُ بقصيدتِهِ التي يقولُ فيها [في « العُكبَريّ » ٤/ ٢٧٤ ـ ٢٧٥ مِنَ المنسرحِ] :

---

(١) أخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه البخاري (٦٢٠٥) ، ومسلم (٢١٤٣) في (الآداب) . أخنع : أوضع وأذل وأرذل .

وَقَدْ رَأَيْتُ ٱلْمُلُوكَ قَاطِبَةً　　وَسِرْتُ حَتَّىٰ رَأَيْتُ مَوْلاَهَا
وَمَنْ مَنَايَاهُمُ بِرَاحَتِهِ　　يَأْمُرُهَا فِيهِمُ وَيَنْهَاهَا
أَبَا شُجَاعٍ بِفَارِسٍ عَضُدَ ٱلدَّوْ　　لَةِ فَنَّاخُسْرَ وشَهَنْشَاهَا[1]

وله فيه القصيدةُ المستهلَّةُ بقولِهِ [في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ٣٨٥ مِنَ الوافرِ] :

فِدىً لَكَ مَنْ يُقَصِّرُ عَنْ مَدَاكَا　　فَلاَ مَلِكٌ إِذاً إِلاَّ فَدَاكَا

وممَّا ينسبُ لعضُدِ الدولَةِ ـ كما ذكرَهُ أَبو منصورٍ الثعالبيُّ ، وغيرُهُ ـ قولُهُ [في « قرى الضيف » ٢/ ٢٥٩ مِنَ الرَّمَلِ] :

لَيسَ شُرْبُ ٱلرَّاحِ إِلاَّ فِيْ ٱلْمَطَرْ　　وَغِنَاءٌ مِنْ جَوَارٍ فِيْ ٱلسَّحَرْ
غَانِيَاتٍ سَالِبَاتٍ لِلنُّهَىٰ　　نَاغِمَاتٍ فِيْ تَضَاعِيْفِ ٱلْوَتَرْ
مُبْرِزَاتِ ٱلْكَأْسِ مِنْ مَطْلَعِهَا　　سَاقِيَاتِ ٱلرَّاحِ مَنْ فَاقَ ٱلْبَشَرْ
عَضُدَ ٱلدَّوْلَةِ وَٱبْنَ رُكْنِهَا　　مَلِكَ ٱلأَمْلاَكِ غَلاَّبَ ٱلْقَدَرْ

نعوذُ باللهِ مِنَ ٱلتعرُّضِ لغضَبِ اللهِ ومقتِهِ ، ومنازعتِهِ في أَسمائِهِ وجبروتِهِ ، ثُمَّ أَشكلَ عليَّ الأَمرُ : بأَنَّ وفاةَ عضدِ الدولَةِ كانت سنةَ : (٣٧٢هـ) ، ووفادَةُ الناظِمِ عليهِ ، كانَتْ سنةَ : (٣٥٤هـ) ، وٱبنُ السبكيِّ يقولُ : إِنَّ أَولَ مَن تسمَّىٰ (بشهنشاه) مِن آلِ بُوَيْهٍ كانَ في سنَةِ : (٤٢٩هـ) ، وأَنَّىٰ تكونُ الأَوَّلِيَّةُ فِي الاسمِ وقد أَطلقَها المتنبي علىٰ العضُدِ قبلَ هـٰذا التاريخِ بزمانٍ ؟ فليُتأَمَّلْ .

---

(١) أبا شجاعٍ : بدلٌ من قولِهِ : مولاها . قال في « العُكبَري » : قالَ أَبو الفتحِ : هذا البيتُ علىٰ أَنَّهُ قصيرُ الوزنِ ، قد جمعَ فيهِ كنيةَ الممدوحِ ، وبلدَهُ ، وٱسمهُ ، ولغتَهُ ، وسمَّاهُ ملكَ الملوكِ ، وهوَ مِن أَحسنِ الجمعِ والمدحِ .
فَنَّاخُسْرُ : ٱسمٌ مِن أَسماءِ الأَسَدِ ، وهوَ ٱسمُ عَضُدِ الدَّولَةِ .

ويستحيلُ أَن يكونَ الماورديُّ هو صاحبُ عضدِ الدولَةِ ؛ إِذ كانَتْ وفاةُ الماورديِّ سنةَ : (٤٥٠هـ) عَن ستَّةٍ وثمانينَ عاماً ، فسنُّهُ يومَ وفاةِ العضدِ لا يتجاوزُ التسعَ .

ودونَ التسمي بملِكِ الأَملاكِ التسمِّي بحاكِم الحكَّام ؛ فإِنَّهُ فظيعٌ ، ولَـٰكِنَّهُ ليسَ بحرامٍ ؛ لأَنَّهُ ليسَ بصريحٍ بل محتمِلٌ ، أَمَّا قاضي القضاةِ . . فقد أَطبَقَ العلماءُ علىٰ ٱستعمالِهِ ، ثمَّ لا يبعدُ أَن يكونَ الناظِمُ أَرادَ التوريَةَ في البيتِ الذي نتكلَّمُ عليهِ بسيِّدِ البشَرِ ﷺ ، لا بممدوحِهِ محمَّدِ بنِ أَوسٍ ، وبذلكَ يكونُ مِنَ الصادقينَ [مِنَ الطَّويلِ] :

فَمَا حَمَلَتْ مِنْ نَاقَةٍ فَوْقَ كُوْرِهَا　　أَبَرَّ وَأَوْفَىٰ ذِمَّةً مِنْ مُحَمَّدِ[1]

وقد سبقَ عن منصورٍ النميريِّ نظيرُهُ في الكنايَةِ بهارونَ عن عليٍّ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ ، وقد مرَّ بعضُ ما يتَّصِلُ بهـٰذا الكلامِ في شرحِ قولِه : [في « العُكبريِّ » ٣/ ١٦١ مِنَ الطَّويلِ] :

[أَمِطْ عَنْكَ تَشْبِيْهِي بِمَا وَكَأَنَّهُ]　　فَمَا أَحَدٌ فَوْقِيْ وَلاَ أَحَدٌ مِثْلِيْ

الغلو في المديح

وقالَ أَبو العلاءِ المعريُّ [في « سقطِ الزندِ » ١٧٧ مِنَ الكاملِ] :

لَوْلاَ ٱنْقِطَاعُ ٱلْوَحْيِ بَعْدَ مُحَمَّدٍ　　قُلْنَا مُحَمَّدُ مِنْ أَبِيْهِ بَدِيْلُ
هُوَ مِثْلُهُ فِيْ ٱلْفَضْلِ إِلاَّ أَنَّهُ　　لَمْ يَأْتِهِ بِرِسَالَةٍ جِبْرِيْلُ

قالَ القاضي عياضٌ : فصدرُ البيتِ الثاني شديدٌ ؛ لتشبيهِ غيرِ النبيِّ بالنبيِّ ﷺ ، وأَمَّا العجُزُ . . فمحتمِلٌ لوجهينِ :

---

(١) قالَهُ ساريةُ الديليُّ في « المستطرف » ١/ ٤٩١ وهو الذي ناداهُ سيِّدُنا عمرُ رضي اللهُ عنهُ بقولِهِ : يا ساريةُ ، الجبلَ الجبلَ .

أَحدِهما : أَنَّ هـٰذه الفضيلَةَ نقصَتِ الممدوحَ .

والآخرِ : ٱستغناؤُهُ عَنها ، وهـٰذهِ أَشَدُّ . ٱنتهىٰ .

ولا شكَّ أَنَّ الاحتمالَ الثاني زيادَةٌ في الكفْرِ ، وهُوَ غيرُ مستنكَرٍ مِنَ ٱلمعريِّ معَ تهجُّمِهِ علىٰ الأَنبياءِ ، وقِلَّةِ ٱحترامِهِ لَهُم ، كما في قولِهِ [مِنَ الخفيفِ] :

كُنْتَ مُوْسَىٰ وَافَتْهُ بِنْتُ شُعَيْبٍ غَيْرَ أَنْ لَيْسَ فِيْكُمَا مِنْ فَقِيْرِ

فإِنَّ الاستدراكَ في الشطرِ الثاني لا يحتملُ غيرَ التحقيرِ والازدراءِ بالأَنبياءِ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليهِم أَجمعينَ .

وقالَ الناظِمُ في مديحِ طاهرِ بنِ الحسينِ العلويِّ [في « العُكبَريِّ » ١/ ١٥٤ـ١٥٨ مِنَ الطَّويلِ] :

وَأَبْهَـرُ آيَـاتِ ٱلتِّهَـامِـيِّ أَنَّـهُ أَبُوْكُمْ وَأَجْدَىٰ مَا لَكُمْ مِنْ مَنَاقِبِ(١)

هُوَ ٱبْنُ رَسُوْلِ ٱللهِ وَٱبْنُ وَصِيِّهِ وَشِبْهُهُمَا شَبَّهْتُ بَعْدَ ٱلتَّجَارِبِ

غيرَ أَنَّ البلاغَةَ شيءٌ ، والدِّينَ شيءٌ آخرُ ، وهـٰؤلاءِ الشعراءُ

---

(١) قال الواحدي في شرح ديوان المتنبي ص ٣٣١ : قال أبو الفضل العروضي فيما أملاه عليّ : هذا بيتٌ حسن المعنى مستقيم اللفظ حتى لو قلت : إنه أمدح بيت في شعره لم أبعد عن الصواب ولا ذنب له [أي المتنبي] إذا جهل الناس غرضه واشتبه عليهم ؛ أما معناه :

إن قريشاً وأعداء النبيِّ ﷺ كانوا يقولون : إن محمداً صنبورٌ ـ أي منفرد أبتر لا عقب له فإذا مات استرحنا منه فأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ﴾ أي العدد الكثير ولست بالأبتر الذي قالوا : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ﴾ ؛ فقال المتنبي : أنتم من معجزات النبي ﷺ وآيات لتصديقه وتحقيق قول الله تعالى . . وذلك أجدى ما لكم من مناقب .

ـ بالأَغلَبِ ـ لا وازعَ لَهم مِنَ ٱلدِّينِ ، بل يمرُّونَ مَعَ خواطِرِهِم ، وينفثونَ بكلِّ ما توحي لَهُم ضمائِرُهُم ، ومِن ثَمَّ ضعفَ شعرُ بعضِ الصحابَةِ ، بما عقدَ من أَلسنتِهم الحقُّ ، بقدرِ ماأَطلقَ من أَلسنَةِ مَن سواهُمُ ٱلباطِلُ ؛ ولهٰذا قالوا : أَظرفُ الناسِ الزنادقَةُ ؛ إِذ لا يتقيَّدونَ بشيءٍ مِن حرمَةِ الدينِ ، بل يضحَكونَ بما يحِلُّ وما لا يحِلُّ، وقد قيلَ [القائل أبو نواس كما في «مجمع الأمثال» (٦٢٧)]: تيهُ مُغَنٍّ، وظُرْفُ زِنْدِيْقٍ[(١)] .

ومِن محاسنِ الحجَّاجِ قولُهُ : ودِدْتُ لَو أَنِّي أَدركْتُ أَربعةً فقتَلْتُهم شرَّ القتلِ ، أَحدُهم عبيدُ اللهِ بنُ زيادِ بنِ ظبيانَ ، قالَ لَهُ ٱبنُ مسمعٍ : كثَّرَ اللهُ في العشيرَةِ مثلَكَ ، فقالَ : لقد سأَلْتَ ربَّكَ شططاً[(٢)] .

ثُمَّ إِنَّ بيتَ الناظِمِ الذي نتكلَّمُ فيهِ . . متداوَلُ المعنىٰ بينَ الشعراءِ ، قالَ أبو الشيصِ الخزاعيُّ [مِنَ الكاملِ] :

مَا كَانَ مِثْلَكَ فِيْ ٱلْوَرَىٰ فِيْمَنْ مَضَىٰ   أَحَـدٌ وَظَنِّـيْ أَنَّـهُ لاَ يُخْلَـقُ

وقالَ أَيضاً [مِنَ البسيطِ] :

لَوْ تَبْتَغِيْ مِثْلَهُمْ فِيْ ٱلنَّاسِ كُلِّهِمِ   طَلَبْتَ مَا لَيْسَ فِيْ ٱلدُّنْيَا بِمَوْجُوْدِ

وقالَ أَبو تمَّامٍ [في « ديوانهِ » ٢/ ٣١٤ مِنَ الكاملِ] :

هَيْهَاتَ أَنْ يَأْتِيْ ٱلزَّمَانُ بِمِثْلِهِ   إِنَّ ٱلـزَّمَـانَ بِمِثْلِـهِ لَبَخِيْـلُ

---

(١) وأراد بقوله : (ظرْف زنديق) : مطيعَ بن إياس ، ولقبه بشار بن برد ، وكان إذا وصف إنساناً بالظرف قال : أظرف من الزنديق ؛ لأن من تزندق كان له ظرف يباين به الناس .

(٢) «مجمع الأمثال» (٤٥٨٠) .

فأخذَهُ الناظِمُ وقالَ [في « العُكْبَريّ » ٣/ ٢٣٦ مِنَ الكاملِ] :

أَعْدَىٰ ٱلزَّمَانَ سَخَاؤُهُ فَسَخَا بِهِ   وَلَقَدْ يَكُوْنُ بِهِ ٱلزَّمَانُ بَخِيْلاَ

وفي هٰذا البيتِ دورٌ يفسدُهُ ، لأَنَّهُ كيفَ يعدي الزمانَ بسخائِهِ قبلَ وجودِهِ ؟ وكيفَ يجودُ بهِ الزمانُ قبلَ العدوىٰ ، وهوَ بخيلٌ ؟ إلاَّ أَن يجابَ : بأَنَّ العدوىٰ كانَت في الأَزَلِ ، وهوَ حينئذٍ شبيهٌ بما نقرِّرُهُ مِن أَنَّ خلقَ النفسِ الناطقةِ . . يكونُ قبلَ ٱستعدادِ النطفَةِ لقَبولِها بزمَانٍ بعيدٍ ، وهُوَ الحَقُّ ، خلافاً للغزاليِّ ، وٱبنِ سينا ، والحكيمِ السهرورديِّ المقتولِ .

وقالَ البُحتريُّ [مِنَ الكاملِ] :

وَلَئِـنْ طَلَبْـتُ شَبِيْهَـهُ إِنِّـيْ إِذَنْ   لَمُكَلِّفٌ طَلَبَ ٱلْمُحَالِ رِكَابِيَ

وقالَ [في « ديوانِهِ » ٣/ ١٦٥٩ مِنَ الكاملِ] :

لاَ تَطْلُبَـنَّ لَـهُ ٱلشَّبِيْـهَ فَـإِنَّـهُ   قَمَـرُ ٱلتَّـأَمُّـلِ مُـزْنَـةُ ٱلتَّـأْمِيْـلِ

وقالَ [في « ديوانِهِ » ٣/ ٢٠٤٤ مِنَ البسيطِ] :

إِلَىٰ مُقِلٍّ مِنَ ٱلأَكْفَاءِ لَوْ طَلَبُوْا   مَكَانَ مُشْبِهِهِ فِيْ ٱلأَرْضِ مَا عُلِمَا

وقالَ [في « ديوانِهِ » ٤/ ٢٤٠٦ مِنَ الكاملِ] :

فَتىً كَانَ يَأْبَىٰ قَدْرُهُ أَنْ يُرَىٰ لَهُ   نَظِيْـرٌ مُسَـاوٍ أَوْ شَبِيْـهٌ مُشَـاكِـلُ

وقالَ [في « ديوانِهِ » ٤/ ٢٤٠٦ مِنَ الكاملِ] :

مَا زَالَ مُنْقَطِعَ ٱلْقَرِيْنِ وَقَدْ أَرَىٰ   مَـنْ لاَ يَـزَالُ مُشَـاكِـلٌ يَلْقَـاهُ
لَيْسَ ٱلتَّفَرُّدُ بِٱلسِّيَادَةِ عِنْدَهُمْ   أَنْ يُـوْجَـدَ ٱلأَمْثَـالُ وَٱلأَشْبَـاهُ

وقالَ [في « ديوانه » ١/٢٤٨ـ٢٤٩ مِنَ الكاملِ] :

دَانٍ عَلَىٰ أَيْدِي ٱلْعُفَاةِ وَشَاسِعٌ عَنْ كُلِّ نِدٍّ فِي ٱلنَّدَىٰ وَضَرِيبِ[1]
كَٱلْبَدْرِ أَفْرَطَ فِي ٱلْعُلُوِّ وَضَوْؤُهُ لِلْعُصْبَةِ ٱلسَّارِينَ جِدُّ قَرِيبِ

وقالَ ٱبنُ الروميِّ [في « ديوانه » ٤/١٦٨٨ مِنَ المتقاربِ] :

فَهَلْ مِنْ سَبِيلٍ إِلَىٰ مِثْلِهِ ؟ أَبَىٰ ٱللهُ ذَاكَ عَلَىٰ مَنْ خَلَقْ

وقالَ [مِنَ السَّريعِ] :

لَيْسَ لَهُ عَيْبٌ سِوَىٰ أَنَّهُ لاَ تَقَعُ ٱلْعَيْنُ عَلَىٰ مِثْلِهِ

وما زالَ الناظِمُ يحومُ علىٰ هـٰذا المعنىٰ . . حتَّىٰ ٱنقضَّ عليهِ في قولِهِ [في « العُكبَريّ » ٣/١٨٩ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا عَزَّهُ فِيهَا مُرَادٌ أَرَادَهُ وَإِنْ عَزَّ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ مِثْلُ

وقالَ الحصنيُّ [مِنَ الخفيفِ] :

لَمْ يَكُنْ فِي خَلِيقَةِ ٱللهِ نِدٌّ لَكَ فِيمَا مَضَىٰ وَلَيْسَ يَكُونُ

وقالَ آخرُ ـ وغالِبُ ظَنِّيْ أَنَّهُ عُمَارَةُ اليمنِيُّ يمدَحُ شاوِراً ـ [ظنُّ الشيخ المؤلف صحيح كما في « السير » ١٥/٢١١ مِنَ الكاملِ] :

ضَجِرَ ٱلْحَدِيْدُ مِنَ ٱلْحَدِيْدِ وَشَاوِرٌ مِنْ نَصْرِ دِيْنِ مُحَمَّدٍ لَمْ يَضْجَرِ
حَلَفَ ٱلزَّمَانُ لَيَأْتِيَنَّ بِمِثْلِهِ حَنِثَتْ يَمِيْنُكَ يَا زَمَانُ فَكَفِّرِ

ويروىٰ [في « وفيات الأعيان » ٣/٢٨٩] : أَنَّهُ لمَّا ماتَ إِلْكِيا الهرَّاسيُّ . . حضرَهُ قاضي القضاةِ ٱبنُ الدامغانيِّ ، وأَبو طالِبٍ الزينبيُّ ، وقد

---

(١) العفاةُ : كلُّ طالبِ فضلٍ أَو رزقٍ . الشاسعُ : البعيدُ .

ٱنتهَت إليهما رئاسَةُ الحنفيَّةِ ، وكانَ بينَهُ وبينَهُما تنافسٌ وتنافرٌ في أيَّامِ الحياةِ ، فوقَفَ أَحدُهما [وهو الدامغاني] عندَ رأسِهِ ، وتمثَّلَ بقولِ الشاعِرِ [مِنَ الوافرِ] :

وَمَا تُغْنِي ٱلنَّوَادِبُ وَٱلْبَوَاكِي ... وَقَدْ أَصْبَحَتَ مِثْلَ حَدِيثِ أَمْسِ

فأَنشدَ الثاني متمثِّلاً بما يناسِبُ المقامَ ، وهوَ قولُ الآخرِ [مِنَ الكاملِ] :

عَقِمَ ٱلنِّسَاءُ فَلا يَلِدْنَ شَبِيهَهُ ... إِنَّ ٱلنِّسَاءَ بِمِثْلِهِ عُقُمُ

وأَكثرُ أُولئكَ الشعراءِ مُغالٍ فيما قالَ ، ومَن ذا الذي يوقِظُ مروءَتَهُ ، ويُنيمُ هواهُ ، ويزِنُ كلامَهُ ، وينظُرُ بعينِ الإنصافِ والمعدلَةِ فيما يقولُ ، ويترسَّمُ قانونَ المعريِّ في قولِهِ [في « سقطِ الزندِ » ١٥٧ مِنَ البسيطِ] :

وَرَتِّبِ ٱلنَّظْمَ تَرْتِيبَ ٱلْحُلِيِّ عَلَىٰ ٱلشَّـ ... ـخْصِ ٱلْجَلِيِّ بِلاَ مَيْنٍ وَلاَ خَرَقِ[(١)]
فَٱلْحِجْلُ لِلْرِجْلِ وَٱلتَّاجُ ٱلْمُنِيفُ لِمَا ... فَوْقَ ٱلْحِجَاجِ وَعِقْدُ ٱلدُّرِّ لِلْعُنُقِ[(٢)]

وما علمتُ أَحداً وضعَ هٰذا المعنىٰ في موضعِهِ سوىٰ ابنِ عبَّاسٍ ؛ إذ يقولُ [في « جمهرة خطب العرب » ١/٣٤٧] : عقمَتِ ٱلنساءُ أَن تأتيَ بمثلِ عليِّ بنِ أَبي طالِبٍ ؛ لِعَهدي بهِ في (صِفِّينَ) عليهِ عمامَةٌ بيضاءُ ، يقفُ علىٰ الناسِ شرذمَةً شرذمَةً حتَّىٰ ٱنتهىٰ إليَّ ، وأَنا في كنفٍ مِنَ ٱلنَّاسِ ، حولي غلمَةٌ مِن بني عبدِ المطَّلِبِ ، فقالَ :

---

(١) الجليُّ : العروس . يقولُ : إنَّ الشعرَ أَشبهُ بالحُليِّ ، وكلُّ نوعٍ منهُ يليقُ بعضوٍ من أعضاءِ البدنِ ، وكلُّ نوعٍ من الشعرِ يليقُ بواحدٍ من الممدوحينَ .

(٢) الحجلُ : هو الخَلخالُ .

يا معشَرَ المسلمينَ تجلببُوا السكينَةَ ، وكَمِّلوا ٱللَّأْمَةَ ، وأَقلِقوا السيوفَ ، وكافِحوا بالظُّبَا ، وصِلوا السيوفَ بالخُطَا ، فإِنَّكم بعينِ اللهِ ، ومعَ ٱبنِ عمِّ رسولِ اللهِ ﷺ . . وذكرَ خطبةً جزلةً طويلَةً .

وصل السيوف بالخطا عند العرب

وقولُهُ : صِلوا السيوفَ بالخُطىٰ موجودٌ بكثرَةٍ عندَ العرَبِ ، منهُ قولُ كعبِ بنِ مالِكٍ [في « ديوانهِ » ١٩٤ مِنَ الكاملِ] :

نَصِلُ ٱلسُّيُوْفَ إِذَا قَصُرْنَ بِخَطْوِنَا ... قُـدُمـاً وَنُلْحِقُهَـا إِذَا لَـمْ تَلْحَـقِ

وقولُ ودَّاكِ بنِ ثميلٍ [في « ديوان الحماسة » ١/ ٣٣ مِنَ الطَّويلِ] :

مَقَادِيْمُ وَصَّالُوْنَ فِيْ ٱلرَّوْعِ خَطْوَهُمْ ... بِكُـلِّ رَقِيْـقِ ٱلشَّفْـرَتَيْـنِ يَمَـانِـيْ
إِذَا ٱسْتُنْجِدُوْا لَمْ يَسْأَلُوْا مَنْ دَعَاهُمُ ... لأَيَّـةِ حَـرْبٍ أَمْ بِـأَيِّ مَكَـانِ

وقالَ آخرُ [وهو الأخنسُ بن شهابٍ كما في « المثل السائر » ٢/ ٣٦٢ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا قَصُرَتْ أَسْيَافُنَا كَانَ وَصْلُهَا ... خُطَانَا إِلَىٰ أَعْدَائِنَا فَنُضَارِبُ

وقالَ نابغةُ بني الحارثِ بنِ كعبٍ [مِنَ الكاملِ] :

إِنْ تَسْـأَلِـيْ عَنَّـا سُمَـيَّ فَـإِنَّـهُ ... يَسْمُوْ إِلَىٰ فَخمِ ٱلْعُلاَ نَارَانَا
وَتَبِيْـتُ جَـارَتُنَـا حَصَـانـاً عِفَّـةً ... تَـرضَـىٰ وَيَـأْخُـذُ حَقَّـهُ مَـوْلاَنَـا
وَنَقُوْمُ إِنْ طَرَقَ ٱلْمَنُوْنُ بِسَخرَةٍ ... لِوَصَاةِ وَالِدِنَا ٱلَّذِيْ أَوْصَانَا
أَنْ لاَ نَفِـرَّ عَـنِ ٱلْكَتِيْبَـةِ أَقْبَلَـتْ ... حَتَّـىٰ تَـدُوْرَ رَحَـاهُـمُ وَرَحَـانَـا
وَتَعِيْشُ فِيْ أَحْلاَمِنَا أَشْيَاعُنَا ... مُرْداً وَمَا وَصَلَ ٱلْوُجُوْهَ لِحَانَا
وَإِذَا ٱلسُّيُوْفُ قَصُرْنَ طَوَّلَهَا لَنَا ... حَتَّىٰ نَنَالَ مِنَ ٱلْكُمَاةِ خُطَانَا

وقالَ حميدُ بنُ ثورٍ [في « ديوانِهِ » ٨٨ـ٨٩ مِنَ الطَّويلِ] :

إِلَىٰ أَنْ نَزَلْنَا بِالْفَضَاءِ وَمَالَنَا ... بِهِ مَعْقِلٌ إِلاَّ الرِّمَاحُ الشَّوَاجِرُ[1]

وَوَصْلُ الْخُطَا بِالسَّيْفِ وَالسَّيْفِ بِالْخُطَا ... إِذَا ظُنَّ أَنَّ الْمَرْءَ ذَا السَّيْفِ قَاصِرُ

وقالَ أبو سعيدٍ المخزوميُّ [مِنَ الخفيفِ] :

وَإِذَا مَا الْحُسَامُ كَانَ قَصِيراً ... طَوَّلَتْهُ إِلَىٰ الْعَدُوِّ بَنَانِي

وقالَ السموءَلُ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَإِنْ قَصُرَتْ أَسْيَافُنَا كَانَ وَصْلُهَا ... خُطَانَا إِلَىٰ أَعْدَائِنَا فَتَطُولُ

وقالَ بشامَةُ بنُ حزنٍ [في « البيان والتبيين » ١/٤٠٣ مِنَ البسيطِ] :

إِذَا الْكُمَاةُ تَنَحَّوْا أَنْ يَنَالَهُمُ ... حَدُّ السُّيُوفِ وَصَلْنَاهَا بِأَيْدِينَا

وقالَ غيرُهُ [في « البيان والتبيين » ١/٤٠٤ مِنَ الطَّويلِ] :

وَصَلْنَا الرِّقَاقَ الْمُرْهَفَاتِ بِخَطْوِنَا ... عَلَىٰ الْهَوْلِ حَتَّىٰ أَمْكَنَتْنَا الْمَضَارِبُ

شر الشعراء من يناقض نفسه بنفسه

قُلنا : إنَّ في كثيرٍ ممَّا سبقَ غُلُوّاً ، وقد علمْتَ ممَّا مرَّ أَنَّ الغلوَّ لا يُقبَلُ ، وشرٌّ مِن الغلوِّ أَن يقعَ فيهِ الشاعِرُ وهوَ يعتقِدُ خلافَهُ ، وفي مقدمَةِ هـٰؤلاءِ . . الناظِمُ ؛ بشهادَةِ قولِهِ [في « العُكبَريّ » ٤/٢٩٥ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَوْلاَ فُضُولُ النَّاسِ جِئْتُكَ مَادِحاً ... بِمَا كُنْتُ فِيْ سِرِّيْ بِهِ لَكَ هَاجِيَا

وقولِهِ [في « العُكبَريّ » ٤/٢١٣ مِنَ البسيطِ] :

مَدَحْتُ قَوْماً وَإِنْ عِشْنَا نَظَمْتُ لَهُمْ ... قَصَائِداً مِنْ إِنَاثِ الْخَيْلِ وَالْحُصُنِ[2]

---

(١) المعقِلُ : الملجأُ . الرماحُ الشواجرُ : المختلفةُ المتداخِلةُ .

(٢) قالَ العُكبَريُّ : المعنىٰ : مدحتُ قوماً لَم يستحقُّوا المدحَ ؛ لبخلِهِم وجهلِهِم ، =

في كثيرٍ مِن تلكَ الأَمثالِ .

وقالَ من قبلِهِ الكميتُ [في « فصل المقال في شرح كتاب الأمثال » ١/ ١٩١ مِنَ الطَّويلِ] :

وَقَـرَّظْتُكُـمْ لَـوْ أَنَّ تَقْرِيـظَ مَـادِحٍ يُوَارِي عُوَاراً مِنْ أَدِيمِكُمُ ٱلنَّغْلِ(١)

وقالَ بشّارٌ [في « ديوانهِ » ٤/ ٢٣ مِنَ الكاملِ] :

إِنِّـيْ مَـدَحْتُـكِ كَـاذِبـاً فَـأَثَبْتِنِـيْ لَمَّا مَدَحْتُكِ مَا يُثَابُ ٱلْكَاذِبُ

وقالَ سَلْمٌ الخاسرُ [مِنَ الطَّويلِ] :

فَإِنْ تُعْطِنِيْ جِرْمٌ لأَنِّيْ ٱمْتَدَحْتُهَا فَمَا عَلِمَتْ جِرْمٌ لَهَا مَادِحاً قَبْلِيْ

وفي جِرمٍ ـ هـٰؤلاءِ ـ يقولُ الآخرُ [وهو زيادٌ الأعجم كما في « طبقات فحول الشعراء » ٢/ ٦٩٨ مِنَ البسيطِ] :

إِنِّـيْ لأُكْـرِمُ نَفْسِـيْ أَنْ أُكَلِّفَهَـا هِجَاءَ جِرْمٍ وَمَا يَهْجُوْهُمُ أَحَدُ
مَاذَا يَقُوْلُ لَهُمْ مَنْ كَانَ هَاجِيَهُمْ لاَ يَبْلُغُ ٱلنَّاسُ مَا فِيْهِمْ وَإِنْ جَهِدُوْا

وعكسَ المعنىٰ على سَلْمِ الخاسرِ أَبو تمّامٍ في قولِهِ [في « ديوانهِ » ١/ ٢٩١ مِنَ الطَّويلِ] :

كَرِيْمٌ مَتَىٰ أَمْدَحْهُ أَمْدَحْهُ وَٱلْوَرَىٰ مَعِـيْ وَإِذَا مَـا لُمْتُـهُ لُمْتُـهُ وَحْـدِيْ

وقالَ أَبو نُواسٍ [بنحوه في « المستطرف » ٢/ ٤] : ما رأَيتُ أَكرمَ مِن جعفرِ بنِ يحيىٰ ، لقد قلتُ فيهِ [في « ديوانهِ » ١٠٢ مِنَ الطَّويلِ] :

= ولكن إنْ عشتُ . . غزوتُهم بخيلِ إناثٍ وذكورٍ ، وجعلَ الخيلَ كالقصائدِ المؤلَّفةِ التي مدحَهُم بها .

(١) النَّغَلُ : فسادُ الجلدِ في دِباغهِ . وأديمكم النغلُ : جلدكم الفاسد .

وَلَسْتُ وَإِنْ أَطْنَبْتُ فِيْ مَدْحِ جَعْفَرٍ   بِـأَوَّلِ إِنْسَـانٍ خَـرَىٰ فِـيْ ثِيَـابِـهِ

فأَمر لي بعَشَرَةِ آلافِ درهَمٍ ، وقالَ : إِغسلْ بهٰذا الخَرَا مِن ثيابِكِ .

وَلَٰكِنَّ أَبا نواسٍ لَم يتحدَّثْ بهٰذا . . إِلاَّ بعدَ أَن مضىٰ علىٰ البرامكَةِ زمانٌ طويلٌ ، وإِلاَّ . . فقدْ كانَ جاحداً لفضلِهم .

وقد سبقَ معنُ بنُ زائدَةَ إِلىٰ مثلِ هٰذه الفضيلَةِ ، فقدِ ٱستُؤجِرَ أَعرابيٌّ علىٰ إِغضابِهِ ، فتلقَّاهُ بقصيدَةٍ أَقذَعَ له فيها ، حَتَّىٰ قالَ [مِنَ الوافرِ] :

أَتَـذْكُـرُ إِذْ قَمِيْصُـكَ جِلْـدُ شَـاةٍ   وَإِذْ نَعْلاَكَ مِنْ جِلْدِ ٱلْبَعِيْرِ(١)

فقالَ لَهُ : نعم ، أَذكرُ ذلكَ ولا أَنساهُ يا أَخا العربِ ، والحمدُ للهِ علىٰ ما تفضَّلَ وأَجملَ ، فقالَ لهُ [مِنَ الوافرِ] :

فَعَجِّـلْ يَـا ٱبْـنَ نَـاقِصَـةٍ بِمَـالٍ   فَإِنِّيْ قَدْ عَزَمْتُ عَلَىٰ ٱلْمَسِيْرِ

فلم يَثُرْ لَهُ غضَبٌ ، ولا تحرَّكَ لَهُ عرقٌ ، بل أَمرَ لَهُ بمالٍ ، فقالَ [مِنَ الوافرِ] :

قَلِيْـلٌ مَـا أَمَـرْتَ بِـهِ وَإِنِّـيْ   لأَطْمَعُ مِنْكَ فِيْ ٱلشَّيْءِ ٱلْكَثِيْرِ

فأَضعفَهُ لَهُ حَتَّىٰ أَرضاهُ ، فتخلَّصَ إِلىٰ مدحِهِ ، كذا رأَيتُ القصَّةَ مِن زمانٍ طويلٍ في « أعلامِ ٱلنَّاسِ » ، وما رأَيتُها في غيرِهِ ، واللهُ أَعلمُ بصحَّتِها(٢) .

---

(١) البيت في « جمهرة الأمثال » (٢/ ٣٩) بإبدال (جلد شاة) بـ : (جِلْدُ تَيسٍ) .

(٢) روىٰ القصة صاحبُ «المنتظم حتى سنة [٢٥٧ هـ]» (٦/ ٢٨٠) عَنِ الأَصمعيِّ =

وقالَ ٱبنُ الروميِّ فيما نحنُ بسبيلِهِ [في « ديوانه » ٤/ ١٤٢٢ مِنَ الوافرِ] :

أَتَيْتُكَ مَادِحاً فَهَجَوْتَ شِعْرِيْ فَكَـانَـتْ هَفْـوَةً مِنِّـيْ وَغَلْطَـهْ

وقالَ البُحتريُّ [في « ديوانه » ٣/ ١٨٦٥ مِنَ الطَّويلِ] :

هُمُ سَرَقُوْا طِرْفِيْ وَقَدْ جِئْتُ مَادِحاً لَهُمْ ، إِنَّ بَعْضَ ٱلْمَدْحِ إِثْمٌ وَبَاطِلُ(١)

ذو الوجهين لا يكون عند الله وجيهاً

ومِن هـٰذا البابِ [بنحوه في « المستطرف » ٢/ ١٨] : أَنَّ الأَحنفَ بنَ قيسٍ كانَ عندَ معاويَةَ بالموسمِ ، بعدَ عقدِهِ البيعَةَ ليزيدَ ، وقد نُصِبَ له قبَّةٌ ، وليزيدَ أُخرىٰ ، فكانَ الناسُ يسلِّمونَ عليهِ ، ويُثنُّونَ إِلىٰ يزيدَ ، فسلَّمَ عليهِ أَحدُ العربِ ثمَّ ذهبَ إِلىٰ يزيدَ ، ثمَّ رجَعَ إِلىٰ معاويَةَ ، وقالَ : أَشهدُ باللهِ أَنَّكَ لو لم تولِّ هـٰذا عهدَ المسلمينَ . . لكنتَ أضعتَهم ، فٱرتاحَ لَها معاويَةُ ، وقالَ للأَحنفِ : ما تقولُ يا أَبا بحرٍ ؟ قالَ : نخافُ اللهَ إِن كذَبنا ، ونخافُكُم إِن صدَقْنا ، قالَ : يَكْفينا منكَ السكوتُ ، ثُمَّ خرجَ الأَحنفُ ولاقىٰ الرجُلَ ، فقالَ لَه : أَرأَيتَ

= قِصَّةً تشبِهُها حيثُ قالَ : كانَ أَعرابيَّانِ متواخيينِ ، غيرَ أَنَّ أحدَهُما ٱستوطَنَ الرِّيفَ والآخرَ ٱختلَفَ إِلىٰ الحجَّاجِ فٱستعملَهُ علىٰ (أصفهانَ) ، فسمعَ بِهِ أَخوهُ الذي بالبادِيَةِ ، فضربَ إِليهِ ، فأَقامَ ببابِهِ حيناً لا يصلُ إِليهِ ، ثُمَّ أَذِنَ لهُ بالدُّخولِ ، وأَخذَهُ الحاجبُ ، فمشىٰ بهِ وهوَ يقولُ : سلامٌ علىٰ الأَميرِ ، فلَم يلتفِتْ إِلىٰ قولِهِ ، ثُمَّ قالَ :

فَلَسْـتُ مُسَلِّمـاً مَـا دُمْـتُ حَيّـاً عَلَـىٰ زَيْـدٍ بِتَسْلِيْـمِ ٱلأَمِيْـرِ

فقالَ زيدٌ : لا أُبالي . فقالَ الأَعرابيُّ :

أَتَـذْكُـرُ إِذْ لِحَـافُـكَ جِلْـدُ شَـاةٍ وَإِذْ نَعْـلاَكَ مِـنْ جِلْـدِ ٱلْبَعِيْـرِ

فقالَ : نَعم . فقالَ الأَعرابيُّ :

فَسُبْحَـانَ ٱلَّـذِيْ أَعْطَـاكَ مُلْكـاً وَعَلَّمَـكَ ٱلْجُلُـوْسَ عَلَـى السَّـرِيْـرِ

(١) الطِّرفُ : الكريمُ من الخيلِ .

ما قلتَهُ لمعاويةَ آنفاً أَعَن صحَّةِ اعتقادٍ ؟ قالَ : لا واللهِ ، ولٰكنهم أَخذوا أَموالَ اللهِ ، وجَعلوا علَيها أَقفالَ الحديدِ ، فلَسنا نَستخرِجُها مِنهم إلاَّ بمِثلِ ما سمعتَ مِنَ الكلامِ ، فقالَ لَهُ : وَلَٰكِنَّ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ : « **أَخلِقْ بِذِي الْوَجْهَيْنِ أَنْ لاَ يَكُوْنَ عِنْدَ اللهِ وَجِيْهاً** »[1] .

الدنيا مصالح!! رحم الله أباك كان وكان... ولم يكن

وكانَ العبَّاسُ بنُ سهلِ بنِ سعدٍ الأَنصاريُّ عاملَ ابنِ الزبيرِ علىٰ (المدينَةِ) ، ثمَّ وُلِّيَ عَلَيها عثمانُ بنُ حيَّانَ بنِ معبدٍ المريُّ ، وآلىٰ ليقتلَنَّ العبَّاسَ ، فتغيَّبَ حَتَّىٰ أَضرَّ بِهِ التغيُّبُ ، ورغِبَ إلىٰ أَصحابِ الأَميرِ أَن يشفَعوا لهُ ، فقالوا : لا نقدِرُ ؛ لأَنَّهُ لا يذكرُكَ إلاَّ تغيَّظَ حَتَّىٰ كادَ يتفسخُ جلدُهُ ، غيرَ أَنَّهُ يتبَسَّطُ ساعةَ الطعامِ ، ويرتاحُ عندَهُ للحديثِ ، قالَ العبَّاسُ : فتنكَّرْتُ ، وحضرْتُ علىٰ طعامِهِ ، وجيءَ بجفنَةٍ علَيها اللحمُ والثريدُ ، فقلْتُ :

واللهِ لكأَنِّي أَنظرُ إلىٰ جفنَةِ حيَّانَ بنَ معبدٍ يتكاوَسُ الناسُ علَيها ، وهوَ يطوفُ في أَرديَةِ الخزِّ ، يتفقَّدُ مصالحَهم ، حَتَّىٰ إنَّ الحَسَكَ ليتعلَّقُ بهِ فلا يُميطُهُ ؛ مِن شدَّةِ اهتمامِهِ بضيفِهِ ، ولا يَكِلُ ذلكَ إلىٰ حاشيتِهِ ، بَل يراقبُهُم بنفسِهِ ، ثمَّ يؤتىٰ بجفنَةٍ يحملُها أَربعةٌ ما يستقلُّونَ بحملِها إلاَّ بمشقَّةٍ وعناءٍ ، وهٰذا بعدَ ما يفرغُ الناسُ مِنَ الطعامِ ، يجلِسُ عليها هوَ والطارىءُ مِن أَشرافِ قومِهِ ، وما بأَكثرِهم

---

(١) أخرج عن أبي هريرة رضي الله عنه مسلم (٢٥٢٦) في الفضائل : « وتجدون من شرار الناس ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه » و(٢٦٠٤ م) وفيه : « إن شر الناس ذو الوجهين » . وفي الباب :
عن عمار عند الدارمي (٢٦٦٢) : « من كان ذا وجهين في الدنيا كان له يوم القيامة لسانان من نار » .

مِن حاجَةٍ إِلىٰ الأكلِ ، ولـٰكنْ يحبُّونَ الفخرَ بالدنوِّ مِن طعامِهِ ، ومشارَكَةِ يدِهِ .

قالَ : هيهِ ، أَنتَ رأيتَهُ كذلكَ ، قلتُ : إِي وربِّ الكعبَةِ ، قالَ : ومَن أَنتَ ؟ قلتُ : وَأنا آمِنٌ ، قالَ : نعم ، قلتُ : أَنا العبَّاسُ بنُ سهلِ بنِ سعدٍ ، قالَ : لا تثريبَ عليكَ ، وأَهلاً بكَ ، ولقد أَبطأْتَ علينا ، وإِنَّا إِلىٰ مثلِكَ لمحتاجونَ .

قالَ : فلقد رأَيتُني وما بـ(المدينَةِ) آثَرُ ولا أَوجَهُ عندَهُ منِّي .

قالوا لهُ : وأَنتَ رأَيتَ حيَّانَ كذلكَ ؟ قالَ : لا واللهِ ، لقد نزلْنا مرَّةً علىٰ بعضِ المياهِ ، فغشيَنا وعليهِ عباءَةٌ باليَةٌ ، فجعلْنا نذودُهُ عَن رحالنا ؛ مخافَةَ أَن يسرقَها ، وأَعطيناهُ تمراً أَكثرُهُ حشَفٌ ، ففرحَ بهِ ، وكانَ قد مسَّ عثمانَ هـٰذا ـ أَو والدَهُ حيانَ ـ أَسْرٌ ، ولهـٰذا ردَّهُ عقيلُ بنُ علفَةَ لمَّا خطَبَ إِليهِ ٱبنتَهُ ، وقالَ لهُ [في « الأغاني » ١٢/٢٩٨] : تريدُ ناقَتي ؟ فظنَّ عثمانُ أَنَّهُ لم يسمَعْ ، فرفعَ صوتَهُ وقالَ : زوِّجني بنتَكَ ، فقالَ : أَناقَتي أَصلحكَ اللهُ ؟ فجفاهُ ، وأَمرَ بإِخراجِهِ ، وكانَ ٱبنَ عمٍّ لهُ ، فقالَ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَكُنَّا بَنِيْ غَيْظٍ رِجَالاً فَأَصْبَحَتْ   بَنُوْ مَالِكٍ غَيْظاً وَصِرْنَا لِمَالِكِ
لَحَىٰ ٱللهُ دَهْراً ذَعْذَعَ ٱلْمَالَ كُلَّهُ   وَسَوَّدَ أَبْنَاءَ ٱلإِمَاءِ ٱلْعَوَارِكِ[1]

وهل أنا إلا مهرة عربية

وذاك شبيهٌ بما قالَتْهُ ٱبنَةُ النعمانِ بنِ بشيرٍ لزوجِها روحِ بنِ زنباعٍ [في « وفيات الأعيان » ٣/٩٥] ، وكانَ سيِّدَ (اليمنِ) وخطيبَهم ، وقائدَهم بـ(الشامِ) ، غيرَ أَنَّهُ قد مسَّهُ الأَسرُ يومَ الرجِّ ، فلم تزَل تعيِّرُهُ

(١) ذعذع : فرَّق وبدَّد .

بذلكَ ، حَتَّىٰ قالَتْ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَهَـلْ أَنَـا إِلاَّ مُهْـرَةٌ عَـرَبِيَّـةٌ سَلِيلَـةُ أَفْـرَاسٍ تَجَلَّلَهَـا بَغْـلُ
فَإِنْ نَتَجَتْ مُهراً كَرِيماً فَبِالْحَرَىٰ وَإِنْ يَكُ أَقْرَافٌ فَمَا أَنْجَبَ الْفَحْلُ

وبعضُهُم ينسبُ هٰذينِ البيتينِ لهندٍ زوجِ الحجَّاجِ ، وهو خطأٌ ، وإنَّما تمثَّلَت بهِما ؛ لمناسبتِهما لحالِها ، في حديثٍ لَها معَ الحجَّاجِ طريفٍ ، غيرَ أنَّا لا نطيلُ بهِ[1] .

---

(١) والقصَّةُ رواها الأبشيهيُّ في « المستطرف » (١/ ١٢٣) فقال :

إنَّ هنداً بنتَ النُّعمانِ كانت أَحسنَ أَهلِ زمانِها ، فوُصِفَ للحجَّاجِ حُسنُها ، فأَنفذَ إليها يخطِبُها ، وبذلَ لها مالاً جزيلاً ، وتزوَّجَ بها ، وشرطَ عليها الصَّداقَ مئتي أَلفِ درهمٍ ، ودخلَ بها ، ثُمَّ إنَّها انحدرت معهُ إلى بلدِ أَبيها (المعرَّةِ) ، وكانت هندٌ فصيحةً أَديبةً ، فأَقامَ بها الحجَّاجُ بـ(المعرَّةِ) مُدَّةً طويلَةً ، ثُمَّ إنَّ الحجَّاجَ رحلَ بها إلىٰ (العراقِ) فأَقامَتْ معهُ ما شاءَ اللهُ ، ثُمَّ دخلَ عليها في بعضِ الأَيَّامِ وهيَ تنظرُ في المرآةِ وتقولُ :

وَمَـا هِنْـدُ إِلاَّ مُهْـرَةٌ عَـرَبِيَّـةٌ سَلِيلَـةُ أَفْـرَاسٍ تَجَلَّلَهَـا بَغْـلُ
فَـإِنْ وَلَـدَتْ فَحْـلاً فَلِلَّـهِ دَرُّهَـا وَإِنْ وَلَـدَتْ بَغْـلاً فَجَـاءَ بِـهِ الْبَغْـلُ

فانصرفَ الحجَّاجُ راجعاً ، ولَم يدخلْ عليها ، ولَم تكن علمَتْ بهِ ، فأَرادَ الحجَّاجُ طلاقَها ، فأَنفذَ إليها عبدَ اللهِ بنَ طاهرٍ ، وأَنفذَ لها معَهُ مئتي أَلفِ درهمٍ ـ وهيَ التي كانت لها عليهِ ـ وقالَ : يا ابنَ طاهرٍ . . طلِّقها بكلمتينِ ، ولا تَزِدْ عليهِما ، فدخلَ عبدُ اللهِ بنُ طاهرٍ عليها وقالَ : يقولُ لكِ أَبو محمَّدٍ الحجَّاجُ : (كُنْتِ . . فبِنْتِ) ، وهذِه المئتا أَلفِ درهمٍ التي كانت لكِ عليهِ .

فقالَت : اعلم يا ابنَ طاهرٍ أَنَّا ـ واللهِ ـ كُنَّا فَمَا حَمِدْنَا ، وبِنَّا فما نَدِمْنا ، وهذِه الأَموالُ التي جئتَ بِها بشارةٌ لكَ بِخَلاصي من كلبِ بني ثقيفٍ .

ثُمَّ بعدَ ذلكَ بلغَ أَميرَ المؤمنينَ عبدَ الملكِ بنَ مروانَ خبرُها ، ووُصِفَ لهُ جمالُها ، فأَرسلَ إليها يخطِبُها ، فأَرسلت إليهِ كتاباً تقولُ فيهِ ـ بعدَ الثَّناءِ عليهِ ـ : اعلَم يا أَميرَ المؤمنينَ . . أَنَّ الإناءَ ولَغَ فيهِ الكلبُ . =

. . . .

= فلمَّا قرأَ عبدُ الملكِ الكتابَ . . ضحكَ مِن قولِها ، وكتبَ إليها يقولُ : إذا وَلَغَ الكلبُ في إناءِ أحدِكم فليغسلْهُ سبعاً ، إحداهُنَّ بالتُّرابِ ، فأغسلي الإناءَ . . يحِلَّ الاستعمالُ .

فلمَّا قرأَتْ كتابَ أَميرِ المؤمنينَ . . لَم يمكنْها المخالَفَةُ ، فكتَبَتْ إليهِ ـ بعدَ الثَّناءِ عليهِ ـ : يا أَميرَ المؤمنينَ . . واللهِ لا أُحِلُّ العقدَ إلاَّ بشرطٍ ، فإن قلتَ : ما هوَ الشرطُ ؟ . . قلتُ : أَن يقودَ الحجَّاجُ محملي مِنَ (المعرَّةِ) إلى بلدِكَ التي أنتَ فيها ، ويكونَ ماشياً حافياً بحليتِهِ التي كانَ فيها أوَّلاً .

فلمَّا قرأَ عبدُ الملكِ ذلكَ الكتابَ . . ضحكَ ضحكاً شديداً ، وأَنفذَ إلىٰ الحجَّاجِ ، وأَمَرَهُ بذلكَ ، فلمَّا قرأَ الحجَّاجُ رسالةَ أَميرِ المؤمنينَ . . أَجابَ وأمتثلَ الأمرَ ، ولَم يُخالِفْ ، وأَنفذَ إلىٰ هندٍ يأمرُها بالتجهُّزِ ، فتجهَّزَتْ ، وسارَ الحجَّاجُ في موكبِهِ ، حتَّىٰ وصلَ (المعرَّةَ) بلدَ هندٍ ، فركبَتْ هندٌ في محملِ الزِّفافِ ، وركبَ حولَها جواريها وخدمُها ، وأَخَذَ الحجَّاجُ بزمامِ البعيرِ يقودُهُ ، ويسيرُ بها ، فجعلَتْ هندٌ تتواغَدُ عليهِ ، وتضحَكُ مَعَ الهيفاءِ دايتِها ، ثُمَّ إنَّها قالَت للهيفاءِ : يا دايةُ . . أكشفي لي سجفَ المحملِ ، فكشفتْهُ ، فوقَعَ وجهُها في وجهِ الحجَّاجِ ، فضحكَت عليهِ ، فأنشأَ يقولُ :

فَإِنْ تَضْحَكِي مِنِّيْ فَيَا طُوْلَ لَيْلَةٍ ... تَـرَكْتُـكِ فِيْهَـا كَـالْقَبَـاءِ الْمُفَـرَّجِ

فأَجابتْهُ هندٌ تقولُ :

وَمَـا نُبَـالِـي إِذَا أَرْوَاحُنَـا سَلِمَـتْ ... بِمَـا فَقَـدْنَـاهُ مِـنْ مَـالٍ وَمِـنْ نَشَـبِ
فَـالْمَـالُ مُكْتَسَـبٌ وَالْعِـزُّ مُـرْتَجَـعٌ ... إِذَا النُّفُـوْسُ وَقَـاهَـا اللهُ مِـنْ عَطَـبِ

ولَم تزَلْ كذلِكَ تضحَكُ وتلعَبُ ، إلىٰ أَن قَرُبَتْ مِن بلدِ الخليفةِ ، فَرَمَتْ بدينارٍ علىٰ الأَرضِ ، ونادَتْ : يَا جَمَّالُ . . إنَّهُ قد سقطَ مِنَّا درهمٌ ، فارفعهُ إلينا ، فنظرَ الحجَّاجُ إلىٰ الأرضِ فلَم يجد إلاَّ ديناراً ، فقالَ : إنَّما هوَ دينارٌ ، فقالَتْ : بل هوَ دِرْهمٌ ، قالَ : بل دينارٌ ، فقالَتْ : الحمدُ للهِ ، سقطَ مِنَّا درهَمٌ ، فعوَّضَنَا اللهُ ديناراً ، فخجلَ الحجَّاجُ ، وسكتَ ، ولَم يَرُدَّ جواباً ، ثُمَّ دخلَ بها علىٰ عبدِ الملكِ بن مروانَ فتزوَّجَ بها ، وكانَ مِن أَمرِها ما كانَ . واللهُ أَعلَمُ .

جعل من الجبان بطلاً من أجل المصلحة

وقالَ الشعبيُّ : حضرْتُ مجلسَ زيادٍ ، فجاءَ رجلٌ وقالَ : إنَّ لِي حرمَةً أيُّها الأميرُ ، أفأَذكُرُها ؟ قالَ : نعم ، قالَ : رأَيتُكَ بالطائِفِ وأَنتَ غليمٌ ذو ذؤَابَةٍ ، وقد أَحاطَتْ بكَ جماعَةٌ مِنَ ٱلغِلمانِ ، وأَنتَ تركُضُ هٰذا ، وتنطَحُ هٰذا ، وتكدِمُ هٰذا ، وهُم يَنْثالونَ عليكَ مرَّةً ، وينِدونَ عنكَ أُخرىٰ ، وأَنتَ تَتبعُهم ، حتَّىٰ كاثروكَ ، فحجزْتُ بينَكَ وبينَهم ، وأَنتَ سليمٌ ، وكلُّهم جريحٌ ، قالَ : صدقْتَ ، أَنتَ ذلكَ الرجلُ ؟ قالَ : أَنا ذاكَ ، قالَ : حاجَتُكَ ؟ قالَ : الغنىٰ عَنِ ٱلطَّلَبِ ، فقالَ : يا غلامُ ، أَعطِهِ كلَّ صفراءَ وبيضاءَ عندَكَ ، فلم ينصرِفْ إِلاَّ بأَربعةٍ وخمسينَ أَلفَ درهَمٍ ، فقيلَ لهُ بعدَ ذلكَ : أَنتَ رأَيتَ زياداً وهوَ غلامٌ علىٰ تلكَ الحالِ ؟ قالَ : لا واللهِ ، ولٰكن رأَيتُهُ وقد ٱكتنفَهُ صبيَّانِ صغيرانِ ، كأَنَّهما من سِخالِ المعْزِ ، فلولا أَنِّي أَدركتُهُ . . لأَتَيا عليهِ .

بئس الرجال من يُشترى بالمال

ولمَّا ٱستلحَقَ معاويَةُ زياداً . . قالَ الجاحِظُ : مرَّ وهوَ والي (البصرَةِ) بأَبي العريانِ العدويِّ ، وكانَ شيخاً مكفوفاً ، ذا لسانٍ وعارضَةٍ شديدَةٍ ، فقالَ أَبو العريانِ : ما هٰذهِ الجَلَبَةُ ؟ قالوا : زيادُ ٱبنُ أَبي سفيانَ في موكبِهِ ، قالَ : واللهِ ما تركَ أَبو سفيانَ إِلاَّ يزيدَ ، ومعاويَةَ ، وعتبَةَ ، وعنبَسَةَ ، وحنظلَةَ ، ومحمَّداً ، فمِن أَينَ جاءَ زيادٌ ؟ فبلغَ الكلامُ زياداً ، وقالَ لهُ قائِلٌ : لو سددْتَ عنكَ فمَ هٰذا الكلْبِ ؟ فأَرسَلَ إِليهِ بمئَتَي دينارٍ . . فقالَ لَهُ رسولُ زيادٍ : إِنَّ الأَميرَ زياداً ٱبنَ عمِّكَ قد بعثَ إِليكَ بمئَتَي دينارٍ ؛ لتستعينَ بِها علىٰ نفقتِكَ ، قالَ : وصَلَتْهُ رحِمٌ ، أَي واللهِ ٱبنُ عمي حقاً ، ثمَّ مرَّ بهِ زيادٌ مِنَ ٱلغَدِ في موكبِهِ ، فوقَفَ عليهِ ، وسلَّمَ ، فبكىٰ أَبو العريانِ ، فقيلَ لَهُ : ما يبكيكَ ؟ قالَ : حنَّ في أُذني صوتُ أَبي سفيانَ من لسانِ

زيادٍ ؟ فبلغَ ذلكَ معاويَةَ ، فكتبَ إلىٰ أَبي العريانِ [في « ديوانه » ١٢٢ مِنَ البسيطِ] :

مَا أَلْبَثَتْكَ ٱلدَّنَانِيرُ ٱلَّتِي بُعِثَتْ   أَنْ لَوَّنَتْكَ أَبَا ٱلْعُرْيَانِ أَلْوَانَا
أَمْسَىٰ إِلَيْكَ زِيَادٌ فِي أَرُومَتِهِ   نُكْراً فَأَصْبَحَ مَا أَنْكَرْتَ عِرْفَانَا
للهِ دَرُّ زِيَادٍ لَوْ تَعَجَّلَهَا   كَانَتْ لَهُ دُوْنَ مَا يَخْشَاهُ قُرْبَانَا!

فلمَّا قُرِىءَ كتابُ معاويَةَ علىٰ أَبي العُريانِ . . قالَ : أكتب في جوابِهِ يا غلامُ [مِنَ البسيطِ] :

أَحْدِثْ لَنَا صِلَةً تُحْيِي ٱلنُّفُوسَ بِهَا   قَدْ كِدْتَ يَا ٱبْنَ أَبِي سُفْيَانَ تَنْسَانَا
أَمَّا زِيَادٌ فَقَدْ صَحَّتْ مَنَاسِبُهُ   عِنْدِي فَلا أَبْتَغِي فِي ٱلْحَقِّ بُهْتَانَا
مَنْ يُسْدِ خَيْراً يُصِبْهُ حِيْنَ يَفْعَلُهُ   أَوْ يُسْدِ شَرّاً يُصِبْهُ حَيْثُمَا كَانَا

يغيِّر رأيه في الرجل . . بمجرد هدية

ولمَّا وليَ الحسنُ بنُ عمارَةَ المظالِمَ . . قالَ الشعبيُّ : ظالمٌ ابنُ ظالِمٍ يتولَّىٰ المظالِمَ ، فاتصلَتْ بالحسَنِ ، وثقلَ عليهِ أَنْ يحطَّ مِنْ قدرِهِ عالِمُ المصرِ ، فأهدىٰ إليهِ رِزْمَةً مِنَ الثِّيابِ ، فيها صُرَّةٌ مِنَ الذَّهَبِ ، ودسَّ من يُجْري ذكرَهُ بمجلِسِهِ ، فقالَ : أَمَا واللهِ لَقد زانَ الوظيفَةَ ، ولم تزِنْهُ ، فقالوا لَهُ : بالأَمسِ تقولُ كَذا ، واليومَ هٰذا قولُكَ ؟! فقالَ : إنَّهُ أَهدىٰ إلينا ، وقد جُبلَتِ القلوبُ علىٰ حُبِّ مَن أَحسنَ إليها ، فقالوا : الهديَّةُ مشترَكَةٌ ، قالَ : ذاكَ حيثُ كانَتِ الهَدايا اللَّبَنُ والجبنُ والأَقِطُ . ذكرَها الغزاليُّ في « الإحياءِ » وغيرُهُ .

النفاق والمداهنة ليس أمراً حديثاً

وما زالتِ الدنيا مملوءَةً نِفاقاً ، إلاَّ أَنْ يخِفَّ وطأَةً بما يداخلُهُ مِنَ التَّظَرُّفِ ، كما في أَحاديثِ هٰؤلاءِ ، بخلافِ المتصنعينَ الذينَ يخادعونَ اللهَ وعبادَهُ ، بل يخادعونَ حَتَّىٰ أَنفسَهم ، وقد صانَ اللهُ

قريشاً فيما سلفَ عَنِ ٱلنفاقِ ، فَلا تجدُ عندَهم إلاَّ كفراً صريحاً ، أَو إيماناً صحيحاً ، أمَّا اليومَ . . فلا تجدُ الكذبَ والغدرَ ، وسوءَ المعاملَةِ ، وإظهارَ الصداقَةِ ، وإضمارَ العداوَةِ . . أكثرَ ما يكونُ إلاَّ عندَهم ، ومعاذَ اللهِ أَن أقولَ ما ليسَ لي بهِ علْمٌ ، فأَعُمَّ سائِرَهم في مشارِقِ الأَرضِ ومغارِبِها ، وإنَّما أَخُصُّ بحُكْمي من جرَّبتُهُ مِن أَهلِ بلادِنا ، ولا أَقولُ هٰذا إلاَّ مَعَ ٱحتراقِ الضميرِ ، وحسرَةِ القلبِ ، ولٰكنَّ الحقيقَةَ فوقَ كلِّ شيءٍ ، وَهَبْني وارِبْتُ ، فلن أَستفيدَ إلاَّ التكذيبَ بعدَ ٱنكشافِ الأَمرِ وٱتضاحِ الحالِ .

ومِنَ ٱلنوادِرِ عندَنا ، أَنَّهم وقتَما كانوا يعمِّرونَ الرباطَ بـ(تريمَ) ، كانَ السيِّدُ عبدُ القادرِ بنُ أَحمدَ الحدَّادُ مِن جملَةِ القائِمينَ فيهِ ، وكانَ السيِّدُ عليُّ بنُ حسنٍ الحدَّادُ ـ صاحبُ المقامِ لذلكَ العهدِ ـ مِنَ ٱلْمنكرينَ ، قالَ : لأَنَّهُ ليسَ مِن فعلِ السلفِ ، ولأَنَّهُ ممَّا لا تخلصُ النيَّةُ فيهِ لطلبِ العلمِ ، فوردَ السيِّدُ عبدُ اللهِ بنُ محسنِ بنِ جعفرٍ الحبشيُّ إلىٰ (تريمَ) ، وباتَ عندَ السيِّدِ عبد القادِرِ ، فقالَ لَهُ : لقد رأَيتُ الفقيهَ المقدَّمَ ، والسقَّافَ ، والمحضَارَ ، والعيدَروسَ ، كلُّ واحدٍ حاملٌ لَبِنَةً يضعُها علىٰ ركنٍ مِن أَركانِ الرباطِ ، ثمَّ عاجَ[1] إلىٰ عندِ السيِّدِ عليِّ بنِ حسنٍ ، وقالَ لَهُ : لَقد رأَيتُ البارحَةَ أَربعةً مِنَ ٱلشياطينِ ، كلُّ واحدٍ يبولُ إلىٰ زاويَةٍ من زوايا الرباطِ .

عودة إلى المديح ولنعد إلىٰ ما يتعلَّقُ بالبيتِ ، فنقولُ : لقد قصَّرَ حسَّانُ في

---

(١) عاجَ : عطفَ ومالَ إليهِ .

مدحِهِ ﷺ إذ يقولُ [في «ديوانهِ» ١/ ٤٤١ مِنَ الوافرِ] :

وَأَحْسَنَ مِنْكَ لَمْ تَرَ قَطُّ عَيْنِي ... وَأَجْمَلَ مِنْكَ لَمْ تَلِدِ ٱلنِّسَاءُ
خُلِقْتَ مُبَرَّأً مِنْ كُلِّ عَيْبٍ ... كَأَنَّكَ قَدْ خُلِقْتَ كَمَا تَشَاءُ

ولـٰكنَّهُ جهدُ المقلِّ ، إذ كلُّ مدحٍ تقصيرٌ فيهِ ، غيرَ أَنَّ ما لا يستطاعُ كلُّهُ . . لا يترَكُ كلُّهُ ، وما أَسوأَ أَدبَ أَبي تمَّامٍ في نقلِهِ معنىٰ البيتِ الأخيرِ إلىٰ مَن لا يستحِقُّ ، حيثُ قالَ [في «ديوانهِ» ١/ ٤٠٦ مِنَ الوافرِ] :

فَلَوْ صَوَّرْتَ نَفْسَكَ لَمْ تَزِدْهَا ... عَلَىٰ مَا فِيْكَ مِنْ كَرَمِ ٱلطِّبَاعِ

ولئِن وقعتُ في قريبٍ منهُ ، إذ رثيتُ ولَدي بصريَّ . . فعذريَ فيهِ أَنَّهُ مِن تلكَ النبعَةِ ؛ وَأَنَّهُ لم يبلغِ الحلُمَ ، مع شهادَةِ العيانِ والحسِّ بما قلْتُ فيهِ مِنَ ٱلطهارَةِ .

وقالَ بعضُهم : يمدحُ أَوسَ بنَ حارثَةَ بنَ لأْمٍ [في «ثمار القلوب» ١/ ١١٩ مِنَ الوافرِ] :

إِلَىٰ أَوْسِ بْنِ حَارِثَةَ بْنِ لأْمٍ ... لِيَقْضِيَ حَاجَتِيْ فِيْمَنْ قَضَاهَا
فَمَا وَطِئَ ٱلْحَصَىٰ مِثْلُ ٱبْنِ سَعْدَىٰ ... وَلاَ لَبِسَ ٱلنِّعَالَ وَلاَ ٱحْتَذَاهَا

وكانَ قد ظفرَ بهِ بعدَ هجاءٍ لهُ منهُ[1] ، فأَطلقَهُ بإشارةِ أُمِّهِ ؛ إذ قالَ

---

(١) كانَ أَوسُ بنُ حارثَةَ مِن أَجوادِ العربِ وكانَ يضاهي حاتِماً في الجودِ ، وكانَ مِن أَمرِهِ : أَنَّ النُّعمانَ بنَ المنذرِ دعا بحلَّةٍ نفيسةٍ وعندَهُ وفودُ العرَبِ مِن كُلِّ حيٍّ ، وفيهم أَوسٌ ، فقالَ لهم : احضروا غداً ؛ فإنِّي ملبسٌ هذهِ الحُلَّةَ أَكرمَكُم ، فحضرَ القومُ إلاَّ أَوساً ، فقيلَ لَهُ : لِمَ تتخلَّفُ ؟ فقالَ : إنْ كانَ المرادُ غيري . . فأَجملُ الأَشياءِ بي أَن لا أَكونَ حاضراً ، وإنْ كنتُ المرادَ فسأُطلَبُ ، فلمَّا جلسَ=

[كما في « المثل السائر » ٢/ ١١١ مِنَ الطَّويلِ] :

فَهَبْ لِيْ حَيَاتِيْ وَٱلْحَيَاةُ لِقَائِمٍ   يَسُرُّكَ فِيْهَا حِيْنَ مَا أَنْتَ وَاهِبُ
سَأَمْحُوْ بِمَدْحٍ فِيْكَ إِذْ أَنَا صَادِقٌ   كِتَابَ هِجَاءٍ سَارَ إِذْ أَنَا كَاذِبُ

وما أَدريْ بصاحبِ الشعرِ ، أَهوَ الحطيئةُ ، أَم بشرُ بنُ أَبي خازمٍ ؟ فقد جرىٰ لَهُ معَ كلٍّ نحوٌ ممَّا ذكرناهُ .

وقلَّما تقدَّمَ الناظِمُ لأَحدٍ بمدحَةٍ . . إلاَّ أَقطعَهُ جانبَ التفرُّدِ ، كما سبقَت الإِشارَةُ إِلىٰ بعضِ شعرِهِ في مثلِهِ عندَ الكلامِ علىٰ قولِهِ [في « العُكبَريّ » ١/ ٣١٠ مِنَ المنسرحِ] :

قَدْ أَجْمَعَتْ هَـٰذِهِ ٱلْخَلِيْقَةُ لِيْ   أَنَّـكَ يَـا ٱبْـنَ ٱلنَّبِـيِّ أَوْحَـدُهَـا

مِنَ ٱلمجلسِ الثالثِ ، وأَفظَعُ ما فيهِ قولُهُ [في « العُكبَريّ » ٤/ ١١ مِنَ الكاملِ] :

= النُّعمانُ ولم يرَ أَوساً . . قالَ اذهبوا إِلىٰ أَوسٍ فقولوا لهُ : احضر آمناً مِمَّا خفتَ ، فأُلبسَ الحُلَّةَ ، فحسدَهُ قومٌ مِن أَهلِهِ ، فقالوا للحطيئَةِ : اهجُهُ ولكَ ثلاثُ مئةِ ناقةٍ ، فقالَ : كيفَ أَهجو مَن لا أَرىٰ في بيتي أَثاثاً ولا رياشاً ولا مالاً إلاَّ مِن عندِهِ ، ثُمَّ قالَ :

كَيْـفَ ٱلْهِجَـاءُ وَمَـا تَنفَـكُّ صَـالِحَـةٌ   مِـنْ آلِ لأْمٍ بِظَهْـرِ ٱلْغَيْـبِ تَـأْتِيْنِـيْ

فقالَ لَهم بشرُ ابنُ أَبي خازمٍ : أَنا أَهجوهُ لكم ، وفعَلَ ، فأَخذَ الإِبلَ ، فأَغارَ أَوسٌ عليها ، واكتسحَها ، وطلَبَهُ ، فجعلَ لا يستجيرُ حيّاً مِن أَحياءِ العربِ إلاَّ قالوا لهُ : قَد أَجرناكَ مِنَ الجِنِّ والإِنسِ إلاَّ مِن أَوسٍ ، فكانَ في هجائِهِ إِيَّاهُ ذَكَرَ أُمَّهُ ، فلَم يلبَث إلاَّ يسيراً حتَّىٰ أُتِيَ بهِ أَسيراً ، فدخلَ أَوسٌ إِلىٰ أُمِّهِ ، واستشارَها في أَمرِهِ ، فقالَت : أَرىٰ أَن تَرُدَّ عليهِ مالَهُ ، وتعفوَ عنهُ ، وتحبوَهُ ، وأَفعلُ أَنا مثلَ ذلكَ ، فإِنَّهُ لا يغسلُ هجاءَهُ إلاَّ مديحُهُ ، فأَخبرَهُ بما قالَتْ ، فقالَ : لاَ جَرَمَ ، واللهِ لا مدحتُ أَحداً حتَّىٰ أَموتَ غيرَكَ ، فقالَ الأبياتَ (إِلَىٰ أَوْسِ بْنِ حَارِثَةَ بْنِ لأْمٍ . . .) . انظر « ثمار القلوب » (١/ ١١٩) .

إِنْ كَانَ مِثْلُكَ كَانَ أَوْ هُوَ كَائِنٌ فَبَـرِئْـتُ حِينَئِـذٍ مِـنَ ٱلإِسْـلاَمِ

وإنِّي لأَعجبُ مِن سكوتِ سيفِ الدولةِ علىٰ مثلِ هـٰذا ، ولـٰكِنْ قد عرَّفناكَ أَحوالَ الملوكِ .

موقف رجولي للمأمون

وقدِ ٱتفقَ للمأمونِ العبَّاسيِّ [كما في «الأغاني» ١١/٣٤١] أَنْ عزلَ قاضيَ (دمشقَ) [وهو عبد الله بن محمد الخلنجي] لمَّا غنَّاهُ علُّويَه بقولِهِ [أي الخلنجي مِنَ الطَّويلِ] :

بَرِئْتُ مِنَ ٱلإِسْلاَمِ إِنْ كَانَ ذَا الَّذِيْ أَتَاكَ بِهِ ٱلْوَاشُوْنَ عَنِّيْ كَمَا قَالُوْا

وَلَـٰكِنَّهُـمْ لَمَّـا رَأَوْكَ سَـرِيْعَـةً إِلَيَّ تَوَاصَوْا بِٱلنَّمِيْمَةِ وَٱحْتَالُوْا

فحلفَ القاضي أنَّهُ [قاله مذ كان حدثاً وأنه] منذُ ثلاثينَ[1] سنةً لم ينظِم إلاَّ في الزهدِ ، قالَ المأمونُ : مَهما يكُن مِنَ ٱلأَمْرِ . . فلن أَجعلَ علىٰ رقابِ المسلمينَ مَن يبدأُ في هزلِهِ بالبراءَةِ مِنَ ٱلإسلامِ .

ولعلَّهُ لم يثِقْ مِن حسنِ نيَّتِهِ ، وإلاَّ . . فالتوبةُ الصادقةُ تغسِلُ ما قبلَها ، ولا سيَّما بعدَ ٱنقضاءِ مدَّةِ الاستبراءِ ، أَو جرىٰ علىٰ عادَةِ الملوكِ مِنَ ٱلتَّجنِّيْ علىٰ عظماءِ الرجالِ ، وٱفتجارِ العيوب لَهم ، لتشفيَ ضَبابَ حقدِها عليهِم ، بما يقولونَ مِنَ ٱلحقِّ ، مِن حيثُ تظنُّ أَنَّ الناسَ لا يطَّلِعونَ علىٰ سوءِ نواياهم ، وخبثِ غوائِلِهم ، ولا يعدَمونَ مِن علماءِ السوءِ مَن يزيِّنُ لَهم ذلكَ ، ويساعدُهم عليهِ .

---

(١) في «الأغاني» : (منذ عشرين سنةً) .

وكانَ يقالُ [كما في « المستطرف » ١/ ٥٠ من قول الفضيل بن عياض] : شرٌّ شر العلماء.. علماء الملوك العلماءِ علماءُ الملوكِ .

وقلَّما ذهبَ عظيمٌ مع شفراتِ سيوفِهِم إلاَّ مظلوماً ، يجبُ أَن نتحرَّىٰ في كلام المؤرِّخينَ عنهُ ؛ لأَنَّهم لا يكتبونَ إلاَّ تحتَ الرَّغبَةِ والرَّهبةِ ، أَو مقلِّدونَ لِمَن يكتبُ تحتَ ذلكَ التأْثيرِ ، وهوَ ممَّا تُعلَّلُ بهِ رواياتُ الثقاتِ ، فضلاً عمَّن لَم يَرَحْ رائِحَةَ العَدالَةِ .

* * *

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَريِّ » ٢/ ٣٣٩ مِنَ الكاملِ] :

يَا ذَا ٱلَّذِيْ يَهَبُ ٱلْجَزِيْلَ وَعِنْدَهُ   أَنِّـيْ عَلَيْـهِ بِـأَخْـذِهِ أَتَصَـدَّقُ

شرح المطلع يقولُ : إِنَّ ممدوحَهُ يعطي العطاءَ الجزيلَ ، ويرىٰ المنَّةَ للآخِذِ ، وقالوا [في « العكبري » ٢/ ٣٣٩] : إِنَّ أَصلَهُ قولُ زهيرٍ [في « ديوانه » ٥٧ مِنَ الطَّويلِ] :

تَـرَاهُ إِذَا مَـا جِئْتَـهُ مُتَهَلِّـلاً   كَأَنَّكَ تُعْطِيْهِ الَّذِيْ أَنْتَ سَائِلُهْ

والفرقُ واضحٌ ، فبيتُ الناظِمِ أَبلغُ مدحاً ، وأَشرفُ معنىً ، وأَراهم يطنبونَ في الثناءِ علىٰ بيتِ زهيرٍ ، ويدَّعي بعضُهم أَنَّهُ أَمدحُ بيتٍ قالتهُ العربُ ، وعندي أَنَّهُ ليسَ هناكَ ؛ لأَنَّ الفرحَ بالأَخذِ ليسَ في شيءٍ مِنَ ٱلشرفِ ، ففي ذكرِهِ حطٌّ مِنَ ٱلمقامِ ، وتقصيرٌ بالممدوحِ ، فالبيتُ بالذمِّ أَشبهُ منهُ بالمدحِ ، ويقربُ منهُ قولُ الناظِمِ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٨١ مِنَ البسيطِ] :

تُمْسِيْ ٱلأَمَانِيُّ صَرْعَىٰ دُوْنَ مَبْلَغِهِ   فَمَا يَقُوْلُ لِشَيْءٍ : لَيْتَ ذٰلِكَ لِيْ

أَمَّا قولُ الناظِمِ : (وَعِنْدَهُ أَنِّيْ عَلَيْهِ بِأَخْذِهِ أَتَصَدَّقُ) . . فمِن أَبلغِ المدحِ ؛ إِذ يشهدُ بٱنطباعِ الممدوحِ علىٰ الجودِ ، فكأَنَّهُ لِمَا يجدُ مِن عظيمِ لذَّةِ الإحسانِ . . يرىٰ المنَّةَ للآخِذِ ؛ إِذ لَولاهُ لَمَا حصلَتْ لَهُ تلكَ اللَّذةُ ، وفي الموضوعِ أَبياتٌ لأَبي دُلَفٍ العجليِّ ، تأْتي إِن شاءَ اللهُ أَوَّلَ المجلسِ الخامِسَ عشرَ عندَ قولِ الناظِمِ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٣٣٩ مِنَ الكاملِ] :

أَمطِرْ عَلَيَّ سَحَابَ جُوْدِكَ ثَرَّةً   وَٱنْظُـرْ إِلَـيَّ بِـرَحْمَـةٍ لاَ أَغْـرَقُ

ومنهُ قولُهُ عن سيفِ الدولةِ [في « العُكبريّ » ١/ ٩٩ مِنَ المتقاربِ] :

[إِذَا حَـازَ مَـالاً فَقَـدْ حَـازَهُ]   فَتـىً لاَ يُسَـرُّ بِمَـا لاَ يَهَـبْ

ولو أَنَّ زهيراً قالَ عن ممدوحِهِ : إِنَّهُ يفرحُ بالبذْلِ ، كَما يفرحُ المحتاجُ بالأَخذِ . . لأَصابَ ، وقد قالَ أَبو تمَّامٍ [في « ديوانهِ » ١/ ٢٧٠ مِنَ الطَّويلِ] :

أَسَـائِـلَ نَصْـرٍ لاَ تَلُمْـهُ فَـإِنَّـهُ   أَحَنُّ إِلَىٰ ٱلإِرْفَادِ مِنْكَ إِلَىٰ ٱلرِّفْدِ[1]

وقالَ أَبو نوفلٍ عمرو بنُ محمَّدٍ الثقفيُّ [مِنَ الكاملِ] :

وَلَئِـنْ فَـرِحْـتَ بِمَـا يُنِيلُـكَ إِنَّـهُ   لَبِمَـا يُنِيلُـكَ مِـنْ نَـدَاهُ أَفْـرَحُ

مَا زَالَ يُعْطِيْ نَاطِقاً أَوْ صَامِتاً   حَتَّىٰ ظَنَنْـتُ أَبَـا عَقِيْـلٍ يَمْـزَحُ

وذُكِرَ [في « وفيات الأعيان » ٤/ ٣٤٩] : أَنَّ الواقديَّ المفسِّرَ كانَ لَهُ صديقانِ ، أَحدُهما هاشميٌّ ، فجاءَ عيدٌ ولَم يكنْ عندَهُ إِلاَّ خمسُ مئةِ درهمٍ ، فبينا هوَ يتآمَرُ وٱمرأَتُهُ فيما يأخذونَ بها للعيدِ . . جاءَهُ كتابٌ مِن صديقِهِ الهاشميِّ يستسلفُهُ ، ويخبرُهُ بحاجتِهِ ، فقالَ لامرأَتِهِ : إِنْ أَعطيناهُ إِيَّاها . . بقِينا بلا شيءٍ ، وإِن قسمْناها . . لم تنْفعنا ولم تنفعهُ ، قالَتْ : بَل أَعطِهِ إِيَّاها ، ويَكفينا التلذُّذُ بالإِيثارِ ، فدفعَها لخادِمِهِ ، وما كانَ بأَسرعَ مِن أَن رجعَتْ لَهُ الصرَّةُ بختمِها ، وذلكَ أَنَّهُ بعدَ ما بعثَ بها للهاشميِّ ، كتبَ لصديقِهِ الآخرِ يستميحُهُ ويستعينُهُ ، فكتبَ ذاكَ للهاشميِّ ، فبلغَت القصَّةُ إِلىٰ المأْمونِ ، فأَعظمَ

صور رائعة من الجود والإيثار على النفس

---

(١) الإرفادُ : الإعطاءُ . الرفدُ : العطاءُ .

مروءَتَهم ، وبعثَ إليهم بسبعَةِ آلافِ دينارٍ ، للمرأَةِ أَلفٌ ، ولكلٍّ أَلفانِ ، وعنديَ أَنَّهُ قصَّرَ في حقِّ المرأَةِ التي هيَ أَصلُ تلكَ الأُكرومَةِ ، وموضعُ المناسبَةِ في قولِها : تكفينا لذَّةُ الإِيثارِ .

وهـٰذهِ لا تبعدُ عمَّا يروىٰ عَن حذيفَةَ العدويِّ [في « المستطرف » ١/ ٣٤٣] : فإِنَّهُ ٱنطلقَ يومَ اليرموكِ يطلبُ ٱبنَ عمٍّ لَهُ في القتلىٰ ، ومعَهُ شيءٌ مِنَ ٱلماءِ ، وقالَ : إِن كانَ بهِ رَمَقٌ . . سقيتُهُ ، فأَدركَهُ بينَ الشهداءِ ، فلمَّا أَرادَ سقيَهُ . . إِذا برجلٍ يئِنُّ ، فأَشارَ إِليهِ ٱبنُ عمِّهِ أَن يؤثرَهُ بالماءِ ، فٱنطلقَ إِليهِ فإِذا هوَ الحارثُ بنُ هشامٍ ، فقالَ لَهُ : أَسقيكَ ، فأَشارَ عليهِ أَن يؤثرَ بهِ عكرمةَ بنَ أَبي جهلٍ وكانَ يتشحَّطُ في دمِهِ ، فجاءَ إِلىٰ عكرمةَ فوجدَهُ قد ماتَ ، فرجَعَ إِلىٰ الحارثِ بنِ هشامٍ فإِذا هوَ قد فاضَ ، وعادَ إِلىٰ ٱبنِ عمِّهِ فإِذا هُوَ باردٌ .

ومِن هـٰذا القبيلِ كانَتْ أُكرومَةُ كعبِ بنِ مامَةَ ، التي كتبَها لَهُ الشرفُ علىٰ جبهَةِ الزمانِ بحروفٍ مِنَ ٱلنورِ(١) .

وقالَ الأَصمعيُّ : قصدْتُ يوماً رجلاً كنتُ أَغشاهُ لكرمِهِ ، فأَلفيتُهُ قدِ ٱحتجبَ وٱنقطعَ ؛ لرقَّةِ حالِهِ ، ويبوسَةِ عيشِهِ ، فكتبتُ إِليهِ رقعةً أَقولُ فيها [مِنَ الوافرِ] :

إِذَا كَـانَ ٱلْكَـرِيْـمُ لَـهُ حِجَـابٌ ... فَمَا فَضْلُ ٱلْكَرِيْمِ عَلَىٰ ٱللَّئِيْمِ

فعادَ بها الحاجِبُ ، وقد وقَّعَ عليها [مِنَ الوافرِ] :

إِذَا كَـانَ ٱلْكَـرِيْـمُ قَلِيْـلَ مَـالٍ ... تَسَتَّـرَ بِـالْحِجَـابِ عَـنِ ٱلْغَـرِيْـمِ

---

(١) والمأثَرَةُ : هي أَنَّهُ كانَ يسيرُ في الصحراءِ معَ رفيقٍ لَهُ ، وكانَ معَهُ سقاءٌ فيهِ ماءٌ لا يفضُلُ عنهُ ، ولهُ رفيقٌ ، فسقاهُ ، وماتَ عطشاً . انظر « صبح الأعشى » (١/ ٣٩٠) .

ومعهُ صرَّةٌ فيها خمسُ مئةِ دينارٍ ، فقلتُ : واللهِ لأُتحفنَّ بهٰذا الحديثِ المأمونَ ، فما مرَّ بهِ مثلُهُ ، فلمَّا رآني . . قالَ : مِن أَينَ أَقبلتَ ؟ قلتُ : مِن عندِ أكرمِ الأحياءِ بعدَ أَميرِ المؤمنينَ ، وشرحتُ لهُ الحديثَ ، ولمَّا أَطلعتُهُ علىٰ الصرَّةِ . . ٱربدَّ وجهُهُ ، وقالَ : خاتَمُ بيتِ مالي ، ولا بدَّ لي مِنَ ٱلرجلِ الذي دفعَها إِليكَ ، فقلتُ : علىٰ شريطَةِ أَن لا يروَّعَ ، فلمَّا حضَرَ بينَ يديهِ . . عرفَهُ ، وقالَ لهُ : أَلستَ أَنتَ الذي تعرَّضتَ ليَ بالأمسِ ، وشكوتَ رقَّةَ حالِكَ ، فدفعتُ إِليكَ هٰذهِ الصرَّةَ لتُصلحَ بِها شأْنَكَ ، فقصدَكَ الأَصمعيُّ ببيتٍ مِنَ ٱلشِّعْرِ فدفعتَها إِليهِ ؟! فقالَ : والله يا أَميرَ المؤمنينَ ، ما كذبتُ فيما شكوتُهُ مِن رقَّةِ الحالِ ، وصعوبَةِ الزمانِ ، ولٰكنِ ٱستحيَيْتُ أَنْ أُعيدَ قاصِدي إِلاَّ بِما جُبلَ عليهِ طَبعي ، فقالَ لهُ المأمونُ : للهِ أَبوكَ ، ما ولدتِ العربُ مثلَكَ ، وأَمرَ لهُ بأَلفِ دينارٍ ، قالَ ٱلأصمعيُّ : فقلتُ لهُ : أَلحقْني بهِ يا أَميرَ المؤمنينَ ، فتبسَّمَ وأَمرَ بأَن يكمَّلَ لِيَ الأَلفُ ، ولعلَّ هٰذا الحديثَ كانَ قبلَ قصَّةِ الواقديِّ ، وإِلاَّ . . ضاعَ قولُ الأَصمعيِّ : فما مرَّ بهِ مثلُهُ .

حكم الفقهاء في الإيثار

وإِذ قدِ ٱنتهىٰ بِنا الكلامُ إِلىٰ هُنا . . فلنذكُرْ كلامَ الفقهاءِ في الإِيثارِ ، فإِنَّ لَهم عبارتينِ :

الأُولىٰ قولُهم : يجوزُ للمضطرِّ إِيثارُ مضطرٍّ آخرَ مسلمٍ .

والثانيةُ قولُهم : يحرمُ علىٰ عطشانَ إِيثارُ عطشانَ آخرَ .

قالَ ٱبنُ حجرٍ : والأُولىٰ محمولةٌ علىٰ مَن يصبر على الإضاقة . والثانية محمولة على من لا يصبرُ عليها ، وأَمَّا ما يحتاجُهُ الإنسانُ لنفقَةِ مَن تلزمُهُ نفقتُهُ ، أَو لدَينٍ لا يرجو لهُ وفاءً . . فإِنَّهُ لاَ يجوزُ

التصدُّقُ بهِ ، ولِمن خرجَ مِنَ ٱلسلفِ عَن جميعِ مالِهِ في سبيلِ اللهِ مَحامِلُ، لا حاجَةَ لأَنْ نطيلَ فيها، وأَحسنُها عنديَ الثقةُ بقربِ الخَلَفِ ، وقد وفَّيتُ البحثَ حقَّهُ في « حاشيتي على الشمائِلِ» حينَما تكلَّمتُ في الأَنصاريِّ الذي آثرَ ضيفَ رسولِ اللهِ علىٰ عيالِهِ(1) ، ونزلَ فيهِ : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر : ٩] .

الجود المطبوع في النفس

وممَّا يتعلَّقُ بالجودِ المطبوعِ قولُ الفقيهِ عُمارَةَ اليمنيِّ [مِنَ الطَّويلِ] :

لَـهُ رَاحَـةٌ يَنْهَـلُّ جُـوْداً بَنَـانُهَـا ... وَوَجْـهٌ إِذَا قَـابَلْتَـهُ يَتَهَلَّـلُ
يَرَىٰ ٱلْحَقَّ لِلضِّيفَانِ حَتَّىٰ كَأَنَّهُ ... عَلَيْهِمْ ـ وَحَاشَا قَدْرُهُ ـ يَتَطَفَّلُ

وقالَ عليُّ بنُ جبلَةَ [في « ديوانهِ » ٩٩ مِنَ الكاملِ] :

أَعْطَيْتَ حَتَّىٰ لَمْ تَدَعْ لَكَ سَائِلاً ... وَبَدَأْتَ إِذْ قَطَعَ ٱلْعُفَاةُ سُؤَالَهَا(2)

فسرقَهُ أَبو عُبادَةَ سرقَةً مكشوفَةً علىٰ ضوءِ الشمسِ . . حيثُ يقولُ [في « ديوانهِ » ١/ ١٥ مِنَ الخفيفِ] :

جَادَ حَتَّىٰ أَفْنَىٰ ٱلسُّؤَالَ وَلَمَّا ... بَـادَ مِنَّـا ٱلسُّؤَالُ أَعْطَـىٰ ٱبْتِدَاءَ

---

(1) أخرجه عن أبي هريرة البخاري (٣٧٩٨) في مناقب الأنصار . وأورد السيوطي في « أسباب النزول » (ص/ ٢٣٠) أنه أخرجه مسدد في « مسنده » وابن المنذر عن أبي المتوكل الناجي أن الذي أضاف هو ثابت بن قيس . وفي « الفتح » (٧/ ١١٩) عن ابن التين كذلك ، وابن بشكوال مرسلاً كما أنه ذكر أنه عبد الله بن رواحة من غير مستند ، وجزم الخطيب أنه أبو طلحة ، وليس هو لرواية مسلم له ولكنه قال : أظنه غير أبي طلحة زيد بن سهل ؛ لأنه كان من أكثر الصحابة مالاً ، والله أعلم .

(2) العُفاةُ : المحتاجونَ المُعوِزونَ .

ولقد أحسنَ ٱبن نباتَةَ السعديُّ في قولِهِ لسيفِ الدولَةِ [في «ديوانه» ٤١١ مِنَ البسيطِ] :

لَمْ يُبْقِ جُوْدُكَ لِيْ شَيْئاً أُؤَمِّلُهُ ... تَرَكْتَنِيْ أَصْحَبُ ٱلدُّنْيَا بِلاَ أَمَلِ

وقالَ ٱبنُ بابكَ في الصاحِبِ بنِ عبَّادٍ [مِنَ البسيطِ] :

فَحُسْنُ ظَنِّكَ بِيْ ٱسْتَوْفَىٰ مَدَىٰ أَمَلِيْ ... وَحُسْنُ رَأْيِكَ بِيْ لَمْ يُبْقِ لِيْ أَمَلاَ

وقالَ أبو تمَّامٍ [في « ديوانهِ » ١/ ٢٦٧ مِنَ الكاملِ] :

لَوْ يَعْلَمُ ٱلْعَافُوْنَ مَا لَكَ فِيْ ٱلنَّدَىٰ ... مِـنْ لَـذَّةٍ وَقَـرِيْحَـةٍ لَـمْ تُحْمَـدِ

وهوَ مِن قولِ بشَّارٍ [في « ديوانهِ » ١/ ١١١ مِنَ الخفيفِ] :

لَيْـسَ يُعْطِيْـكَ لِلـرَّجَـاءِ وَلِلْخَوْ ... فِ وَلَـٰكِـنْ يَلَـذُّ طَعْـمَ ٱلْعَطَـاءِ

وقالَ أَشجعُ السلميُّ يمدَحُ الفضلَ بنَ الربيعِ [في « ديوانهِ » ٢٠٢ مِنَ الكاملِ] :

أَوْصَلْتَنِيْ وَرَفَدْتَنِيْ وَكِلاَهُمَا ... شَرَفٌ فَقَأْتُ بِهِ عُيُوْنَ ٱلْحُسَّدِ

وَكَفَيْتَنِـيْ مِـنَ ٱلـرِّجَـالِ بِنَـائِـلٍ ... أَغْنَىٰ يَدِيْ عَنْ أَنْ تُمَدَّ إِلَىٰ يَدِ

نعمته قلادة في عنقي لا ينزعها إلا غاسلي.. رجل وفي

وبالبيتِ الأخيرِ ذكرتُ أَنَّ المنصورَ العبَّاسيَّ وجَّهَ إِلىٰ شيخٍ كانَ مِن بطانَةِ هشام بنِ عبدِ الملكِ ، فسألَهُ عَن تدبيرِهِ ؟ فوصَفَ حالَهُ ، وأَكثرَ مِنَ ٱلترحُّمِ عليهِ ، كلَّما جرىٰ ٱسمُهُ ، فقالَ لَهُ المنصورُ [في « المستطرف » ١/ ٤٣٩] : قُمْ عليكَ لعنةُ اللهِ ، تطأُ بِساطي وتترحَّمُ علىٰ عدوِّي ، قالَ الشيخُ : إِنَّ نعمتَهُ قلادَةٌ في عُنُقي ، لا ينزِعُها إِلاَّ غاسِلي ، فقالَ لهُ المنصورُ : ٱرجِعْ ، أَشهدُ أَنَّكَ لنهيضُ حرةٍ ، وغِراسُ شريفٍ ، عُدْ إِلىٰ حديثِكَ ، فعادَ إِلىٰ ما كانَ ٱستطعمَهُ مِن

سيرةِ هشامٍ ، حَتَّىٰ إِذا فرغَ . . دَعا لهُ بمالٍ ، فقالَ : واللهِ يا أَميرَ المؤمنينَ ما بي حاجَةٌ إِليهِ ، ولقد ماتَ عنِّي مَن كنتُ في ذكرِهِ ، وما أَحوجَني إِلىٰ أَحدٍ بعدَهُ ، ولَولا جلالَةُ أَميرِ المؤمنينَ . . ما لبستُ لأَحدٍ بعدَهُ نعمَةً ، فقد أَغنىٰ يدي عَن أَن تُمدَّ إِلىٰ يدٍ ، فقالَ المنصورُ : مُت إِذا شِئتَ ، فللَّهِ أَنتَ ، لَو لَمْ يَكُن لقومِكَ غيرُكَ . . لكنْتَ قد أَبقيتَ لَهم مجداً متلَّداً مخلَّداً .

المرثية التائية لابن الأنباري . . قمة في الوفاء

ويتَّصِلُ بهٰذِه الحكايَةِ ما ذكرَهُ ٱبنُ عساكرَ في « تاريخِ دمشقَ » [وابن عماد الحنبلي في « شذرات الذهب » ٢/ ٦٣ـ٦٤] : أَنَّ ٱبنَ الأَنبارِيِّ لَمَّا صنعَ المرثِيَّةَ التائِيَّةَ[1] في الوزيرِ ٱبنِ بقيَّةَ . . رماها بشوارعِ (بغدادَ) ،

---

(١) والقصيدة هي [من الوافر] :

عُلُـوٌّ فِـي الْحَيَـاةِ وَفِـي الْمَمَـاتِ ... لَحَـقٌّ تِلْـكَ إِحْـدَىٰ الْمُعْجِـزَاتِ
كَـأَنَّ النَّـاسَ حَـوْلَـكَ حِيْـنَ قَـامُوا ... وُفُـوْدُ نَـدَاكَ أَيَّـامَ الصِّـلاَتِ
كَـأَنَّـكَ قَـائِـمٌ فِيْهِـمْ خَطِيْبـاً ... وَكُلُّهُـمُ قِيَـامٌ لِلصَّـلاَةِ
مَـدَدْتَ يَـدَيْـكَ نَحْـوَهُـمُ احْتِفَـاءً ... كَمَـدِّهِمَـا إِلَيْهِـمْ بِـالْهِبَـاتِ
وَلَمَّـا ضَـاقَ بَطْـنُ الأَرْضِ عَـنْ أَنْ ... يَضُـمَّ عُـلاَكَ مِـنْ بَعْـدِ الْـوَفَـاةِ
أَصَـارُوْا الْجَـوَّ قَبْـرَكَ وَاسْتَعَـاضُـوا ... عَـنِ الأَكْفَـانِ ثَـوْبَ السَّـافِيَـاتِ
لِعُظْمِكَ فِي النُّفُوْسِ بَقِيْتَ تُرْعَىٰ ... بِحُـرَّاسٍ وَحُفَّـاظٍ ثِقَـاتِ
وَتُـوْقَـدُ حَـوْلَـكَ النِّيْـرَانُ لَيْـلاً ... كَـذَلِـكَ كُنْـتَ أَيَّـامَ الْحَيَـاةِ
رَكِبْـتَ مَطِيَّـةً مِـنْ قَبْـلُ زَيْـدٌ ... عَـلاَهَـا فِـي السِّنِيْـنِ الْمَاضِيَـاتِ
وَتِلْـكَ قَضِيَّـةٌ فِيْهَـا تَـأَسٍّ ... تُبَـاعِـدُ عَنْـكَ تَعْيِيْـرَ الْعُـدَاةِ
وَلَـمْ أَرَ قَبْـلَ جِذْعِـكَ قَـطُّ جِذْعـاً ... تَمَكَّـنَ مِـنْ عِنَـاقِ الْمَكْـرُمَـاتِ
أَسَـأْتَ إِلَـىٰ النَّـوَائِـبِ فَـاسْتَثَـارَتْ ... فَـأَنْـتَ قَتِيْـلُ ثَـأْرِ النَّـائِبَـاتِ
وَكُنْـتَ تُجِيْـرُ مِـنْ صَـرْفِ اللَّيَـالِي ... فَصَـارَ مُطَـالِبـاً لَـكَ بِـالتِّـرَاتِ
وَصَيَّـرَ دَهْـرُكَ الإِحْسَـانَ فِيْـهِ ... إِلَيْنَـا مِـنْ عَظِيْـمِ السَّيِّئَـاتِ
وَكُنْـتَ لِمَعْشَـرٍ سَعْـداً فَلَمَّـا ... مَضَيْـتَ تَفَـرَّقُـوا بِـالْمَنْحَسَـاتِ =

فتداولَتْها الأَيدي ، حَتَّىٰ وصلَتْ إِلىٰ عضُدِ الدولَةِ ، فلمَّا أُنشدَتْ بينَ يديهِ . . تمنَّىٰ أَن يكونَ هوَ المصلوبَ دونَهُ ، وقالَ : عليَّ بهـٰذا الرجُلِ ، فطلبوهُ سنةً كاملَةً ، حَتَّىٰ رسَمَ لَهُ الصاحِبُ بنُ عبَّادٍ بالأَمانَ ، فلمَّا سمعَ بذكرِ الأَمانِ . . قصدَ حضرَةَ الصاحِبِ ، فقالَ لَهُ : أَنتَ قائِلُ القصيدَةِ ؟ قالَ : نعم ، قالَ لهُ : أَنشِدْنيها مِن فيكَ ، فلمَّا بلغَ قولَهُ مِنها [مِنَ الوافرِ] :

ولم أَرَ قَبْلَ جِذْعِكَ قَطُّ جِذْعاً تَمَكَّـنَ مِـنْ عِنَـاقِ ٱلْمَكْـرُمَـاتِ

. . قامَ إِليهِ الصاحِبُ وعانقَهُ ، وقبَّلَ فاهُ ، وأَنفذَهُ إِلىٰ عضُدِ الدولَةِ ، فلمَّا مثلَ بينَ يديهِ . . قالَ لَهُ : ما الذي حملكَ علىٰ مرثيَّةِ عدوِّي ؟ فقالَ : حقوقٌ سلَفَتْ ، وأَيادٍ مضَتْ ، فجاشَ الحزنُ في قلبي ، فرثيتُهُ ، وٱستنشدَهُ فيهِ غيرَها فأَنشدَهُ ، فخلَعَ عليهِ ، وأَكرمَهُ ، ورضيَ عنهُ .

وقد سبقَ حديثُ ٱبنِ الرقيَّاتِ معَ المصعَبِ ، ويأْتي عمَّا قريبٍ ما لا يقلُّ عَن هـٰذا في أَخبارِ البرامِكَةِ ، وأَرىٰ كثيراً يُطنبونَ في بيتِ ٱبنِ الأَنباريِّ السابقِ ، ولو أَنَّ ٱبنَ بقيَّةَ كانَ أَوَّلَ مصلوبٍ في الإِسلامِ . . لاعترضَهُ ما صحَّ مِن ضمِّهِ ﷺ للجذعِ حينَ حنَّ

= غَلِيْـلٌ بَـاطِـنٌ لَـكَ فِـي فُـؤَادِي يُخَفِّـفُ بِـالـدُّمُـوْعِ الْجَـارِيَـاتِ
وَلَـوْ أَنِّـي قَـدَرْتُ عَلَـىٰ قِيَـامٍ بِفَـرْضِـكَ وَالْحُقُـوْقِ الْـوَاجِبَـاتِ
مَلأْتُ الأَرْضَ مِنْ نَظْمِ الْقَوَافِي وَنُحْتُ بِهَـا خِـلاَفَ النَّائِحَـاتِ
وَلَكِنِّـي أُصَبِّـرُ عَنْـكَ نَفْسِـي مَخَـافَـةَ أَنْ أُعَـدَّ مِـنَ الْجُنَـاةِ
وَمَـا لَـكَ تُـرْبَـةٌ فَـأَقُـوْلَ تُسْقَـىٰ لأَنَّـكَ نُصْبُ هَطْـلِ الْهَـاطِـلاَتِ
عَلَيْـكَ تَحِيَّـةُ الـرَّحْمَـنِ تَتْـرَىٰ بِـرَحْمَـاتٍ غَـوَادٍ رَائِحَـاتِ

لفراقِهِ[1] ، فذلكَ الجذْعُ بالحقيقَةِ هوَ الذي تمكَّنَ مِن عناقِ المكرُماتِ غيرَ مدافَعٍ ، فكيفَ ؟ وقد قالَ في نفسِ القصيدَةِ [مِنَ الوافرِ] :

رَكِبْتَ مَطِيَّةً مِنْ قَبْلُ زَيْدٌ ... عَلاَهَا فِيْ ٱلسِّنِيْنِ ٱلْمَاضِيَاتِ

أفترىٰ جِذْعَ زيدٍ لمَّا يتمكَّن مِن عناقِ المكرُماتِ ؟! كَلاَّ ، غيرَ أنَّهُ على الجَواد ، والبديعُ فيهِ لأبي تمَّامٍ [في « ديوانِهِ » ١/ ٣٤٠ مِنَ الكاملِ] :

رَمَقُوْا أَعَالِيَ جِذْعِهِ فَكَأَنَّمَا ... رَمَقُوْا ٱلْهِلاَلَ عَشِيَّةَ ٱلإِفْطَارِ

الحر لا يكذب ولو قُتِل

ولمَّا قُتلَ يزيدُ بنُ المهلَّبِ . . جمعَ الشعراءَ مسلمَةُ بنُ عبدِ الملكِ ؛ ليقولوا فيهِ ، فلَم يألوا أَنْ يذكروهُ بأقبحِ ما قَدَروا عليهِ ، ما خَلا رجلاً مِن (دارِم) ، فإنَّهُ قالَ : لا أذُمُّ مَن لا أملِكُ رَيعاً ولا أثاثاً إلاَّ مِنْهُ ، ولو قطَّعْتُموني إِرْباً فإرْباً ، ولقد رثيتُهُ بما يليقُ بهِ ، وأنشدَ أبياتاً جزلَةً ، أُعجِبَ بِها مسلمَةُ ، فأنعمَ عليهِ وقالَ : مَن أرادَ أن يصطنِعَ . . فليصطَنِعْ مِثلَ هـٰذا .

ويأتي ما يقربُ منهُ عَن عُمارَةَ اليمنيِّ قبيلَ شرحِ قولِ الناظِمِ [في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ٢٤٣ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا عَرَضَتْ حَاجٌ إِلَيْهِ فَنَفْسُهُ ... إِلىٰ نَفْسِهِ فِيْهَا شَفِيْعٌ مُشَفَّعُ

الذروة في الشجاعة والوفاء

ومِنَ الغايةِ في الوفاءِ ، والذُّروَةِ في الشجاعَةِ ، ما كانَ مِن أَخي مسلمِ بنِ الوليدِ في رثائِهِ لجعفرِ بنِ يحيىٰ ، وقولُهُ [في « الأغاني » ١٦/ ٢٦٥ مِنَ الوافرِ] :

---

(١) أورد حديث حنين الجذع العلامة جعفر الكتاني في « نظم المتناثر » عن نحو عشرين صحابياً . فهو من الأحاديث المتواترة .

أَمَـا وَٱللهِ لَـوْلاَ خَـوْفُ وَاشٍ　　وَعَيْـنٌ لِلْخَلِيفَـةِ لاَ تَنَـامُ
لَطُفْنَـا حَـوْلَ قَبْـرِكَ وَٱسْتَلَمْنَـا　　كَمَـا لِلنَّـاسِ بِـالْحَجَـرِ ٱسْتِـلاَمُ

السائل عن الإمام أحمد وقت محنته

وخيرٌ مِن هٰذا كلِّهِ : أَنَّ بقيَّ بنَ مَخْلَدٍ قدم في طلبِ الحديثِ مِنَ (ٱلأندلُسِ) إلىٰ (العراقِ) ، فوافقَ ٱلامتحانَ بأبي عبدِ اللهِ[1] ، وكانَ لا يذكرُهُ ذاكرٌ إلاَّ تناولتْهُ الأيدي، ونزلَ بهِ العقابُ ، فلم يكُن مِنْ بقيٍّ إلاَّ أَن وقفَ بحلقةِ يحيىٰ بنِ معينٍ ، وهوَ يكشِفُ الرجالَ ، يوثِّقُ هٰذا ، ويُوهِّنُ الآخرَ ، فقالَ لهُ : أَسأَلُكَ عَن أَحمدَ ابنِ حنبلٍ ؟ فأَرمَ القومُ ، وضربَ يَحيىٰ صدرَهُ بذَقَنِهِ ، يتروَّىٰ بينَ أَن يؤثِرَ الحياةَ الدنيا باتِّباعِ مرضاةِ السلطانِ ، وبينَ أَن يؤثِرَ الأُخرىٰ ويصبرَ علىٰ الأَذىٰ في جنبِ اللهِ ، فأَيَّدهُ اللهُ بعزمٍ مِن عندِهِ ، فرفعَ رأْسَهُ وقالَ لَهُ : ذاكَ سيِّدُ المسلمينَ ، وإِمامُ أَهلِ العلمِ اليومَ ، أو ما يقربُ مِن هٰذا ، رضوانُ اللهِ عليهم أَجمعينَ .

البحتري شديد الوفاء للمتوكل

وممَّا يكتبُ علىٰ جَرائدِ الوفا ، بمدادِ الشرَفِ ، ما كانَ مِنَ ٱلبُحتريِّ وكثرةِ رثائِهِ للمتوكِّلِ ، وقد قتلَهُ ٱبنُهُ المنتصرُ ، وقولُهُ [في « ديوانهِ » ٢/١٠٤٨ـ١٠٤٩ مِنَ الطَّويلِ] :

حَـرَامٌ عَلَـيَّ ٱلـرَّاحُ بَعْـدَكَ أَوْ أَرَىٰ　　دَماً بِدَمٍ يَجْرِيْ عَلَىٰ ٱلأَرْضِ مَائِرُهْ
وَهَلْ يُرْتَجَىٰ أَنْ يَطْلُبَ ٱلدَّمَ طَالِبٌ　　مَدَىٰ ٱلدَّهْرِ وَٱلْمَوْتُورُ بِٱلدَّمِ وَاتِرُهْ ؟![2]
فَلاَ مُلِّيَ ٱلْبَاقِيْ تُرَاثَ ٱلَّذِيْ مَضَىٰ　　وَلاَ حَمَلَتْ ذَاكَ ٱلدُّعَاءَ مَنَابِرُهْ[3]

---

(١) يعني : أحمد ابن حنبل رحمهُ اللهُ تعالىٰ .
(٢) الواترُ : الظالمُ ، الموتورُ : من قتلَ له قتيلٌ فلم يدركْ دمَهُ .
(٣) مُلِّيَ : مُتِّعَ .

أبلغ ما يكون من الجود أن تكون كلك من أيادي معطيك

ولنعد لِمَا كنَّا فيهِ ، فنقولُ : قالَ أبو تمَّام [مِنَ الخفيفِ] :

لَمْ يَدَعْنِيْ وَفِيْ يَمِيْنِيَ فَضْلٌ لِنَـدَىٰ غَيْـرِهِ وَلاَ فِـيْ شِمَـالِـيْ

وقالَ [في « ديوانهِ » ٢/ ٤٧ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا يَلْحَظُ ٱلْعَافِيْ جَدَاكَ مُؤَمِّلاً سِوَىٰ لَحْظَةٍ حَتَّىٰ يَؤُوْبَ مُؤَمَّلاَ[1] .

وقالَ [مِنَ الكاملِ] :

أَلْبَسْتَنِـيْ حُلَـلَ ٱلثَّنَـا فَلَبِسْتُهَـا وَجَعَلْـتَ آمَـالِـيْ لَهُـنَّ ذُيُـوْلاَ

وقالَ أَبو عُبادَةَ [في « ديوانهِ » ٢/ ٩٥٦ مِنَ البسيطِ] :

لاَ يُتْعِـبُ ٱلنَّـائِـلُ ٱلْمَبْـذُوْلُ هِمَّتَـهُ وَكَيْفَ يُتْعِبُ عَيْنَ ٱلنَّاظِرِ ٱلنَّظَرُ ؟!

وقالَ [في « ديوانهِ » ٢/ ١٢٠٣ مِنَ الطَّويلِ] :

ثَنَىٰ أَمَلِيْ فَٱحْتَازَهُ عَنْ مَعَاشِرٍ يَبِيْتُوْنَ وَٱلآمَالُ فِيْهِمْ مَطَامِعُ[2]

وقالَ الناظِمُ في معنىٰ ما سبقَ عَن بشّارٍ وعَن غيرِ بشَّارٍ [في « العُكبَريِّ » ٤/ ٢٧٩ مِنَ المنسرحِ] :

لَـوْ كَفَـرَ ٱلعَـالَمُـوْنَ نِعْمَتَـهُ لَمَـا عَـدَتْ نَفْسُـهُ سَجَـايَـاهَـا

وقالَ الخزاعيُّ [في « ديوانهِ » ٣٣٤ مِنَ الكاملِ] :

شَفَعَـتْ مَكَـارِمُهُـمْ لَهُـمْ فَكَفَتْهُـمُ جَهْدَ ٱلسُّؤَالِ وَلُطْفَ قَوْلِ ٱلْمَادِحِ

المديح لا يكون إلا عن رغبة

وفيهِ إِشارَةٌ إِلىٰ أَنَّ المديحَ لا يكونُ إِلاَّ عن رغبَةٍ ، ومنهُ قولُ أُميَّةَ [ابن أبي الصلت في « ديوان الحماسة » ٢/ ٣٧٣ مِنَ الوافرِ] :

إِذَا أَثْنَـىٰ عَلَيْـكَ ٱلْمَـرْءُ يَـوْمـاً كَفَـاهُ مِـنْ تَعَـرُّضِـهِ ٱلثَّنَـاءُ

---

(١) جداكَ : عطاكَ .

(٢) ٱحتازهُ : أدخلهُ في حوزتهِ .

وإذا كانَ كذلكَ.. فلَن تكونَ الإطالَةُ فيهِ إلاَّ لضعفِ أَريحيَّةِ الممدوحِ ، أمَّا الحرُّ.. فتكفيهِ الإشارَةُ ، وأمَّا الجوادُ.. فتحرِّكُهُ الغمزَةُ ، وقد سبقَ قولُ بعضِهم [في « روضة العقلاء » ٢٥١ مِنَ الكاملِ] : الحر تكفيه الإشارة

وَإِذَا طَلَبْتَ إِلَىٰ كَرِيمٍ حَاجَةً فَلِقَــاؤُهُ يَكْفِيْــكَ وَٱلتَّسْلِيْــمُ

ووضَّحَ المعنىٰ ٱبنُ الروميِّ في قولِهِ [في « ديوانه » ١/١١١ مِنَ الكاملِ] :

وَإِذَا ٱمْـرُؤٌ مَـدَحَ ٱمْـرَأً لِنَـوَالِـهِ وَأَطَـالَ فِيْـهِ فَقَـدْ أَرَادَ هِجَـاءَهُ

لَوْ لَمْ يُقَدِّرْ فِيْهِ بُعْدَ ٱلْمُسْتَقَىٰ عِنْدَ ٱلْوُرُوْدِ لَمَا أَطَالَ رِشَاءَهُ

وما زلتُ في إشكالٍ من حالِ أَغنيائِنا ؛ إذ تفيضُ أكفُّهم فيما لا ينفَعُ ، ويضنُّونَ بالتافِهِ اليسيرِ لدىٰ حسنِ الموقعِ ، حتَّىٰ ٱنحلَّ الإشكالُ بما سبقَ عَنِ ٱلخوارزميِّ في غيرِ هـٰذا المكانِ ، وجلُّهم لا يبذُلُ إلاَّ رغبةً ، أَو رهبةً ، أَوِ ٱستصلاحاً ، أَو إرضاءَ شهوَةٍ ، وذلكَ غيرُ مجزىءٍ حتَّىٰ في فريضَةِ الزكاةِ ـ علىٰ رأْيِ بعضِهم ـ وإنْ رجَّحَ ٱبنُ حجرٍ [في « تحفته »] الجوازَ متىٰ كانَ المدفوعُ إليهِ بصفَةِ ٱلاستحقاقِ ، وما أَحسنَ قولَ الناظِمِ [في « العُكبَريّ » ٤/٢٨٤ مِنَ الطَّويلِ] : متى ينفع الجود وأين محله؟

وَلِلنَّفْسِ أَخْلاَقٌ تَدُلُّ عَلَىٰ ٱلْفَتَىٰ أَكَانَ سَخَاءً مَا أَتَىٰ أَمْ تَسَاخِيَا

وقولَ الآخرِ [وهو ابن عبد ربه الأندلسيُّ في « قرى الضيف » ٢/٨٧ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا ٱلْجُوْدُ مَنْ يُعْطِيْ إِذَا مَا سَأَلْتَهُ وَلَـٰكِـنَّ مَـنْ يُعْطِـيْ بِغَيْـرِ سُـؤَالِ

وقولَ المقنعِ الكنديِّ [في « ديوان الحماسة » ٢/٣٤٣ مِنَ الكاملِ] :

لَيْسَ ٱلْعَطَاءُ مِنَ ٱلْفُضُوْلِ سَمَاحَةً حَتَّىٰ تَجُوْدَ وَمَا لَدَيْكَ قَلِيْلُ

وقولَ زهيرٍ [في «ديوانهِ» ٢٢٨ مِنَ البسيطِ] :

[إِنسٌ إِذَا أَمِنُوا ، جِنٌّ إِذَا فَزِعُوا] مُـرَزَّؤُونَ بَهَـالِيـلٌ إِذَا جَهِـدُوا

وقولَ بشامَةَ بنِ حزنٍ [مِنَ البسيطِ] :

فَرْضٌ عَلَىٰ مُكْثِرِينَا بَذْلُ نَيْلِهِمُ وَٱلْجُودُ وَٱلْبَذْلُ فِيْ طَبْعِ ٱلْمُقِلِّيْنَا

وقد سبقَ أكثرهُ في غيرِ هٰذا المجلسِ ، وكانَ السلفُ الطيِّبُ ـ رضوانُ اللهِ عليهِم ـ يحاملونَ ، ويستقونَ ، ويتصدَّقونَ ، وقد قيلَ [القائل محمد بن يسير كما في «الأغاني» ١٤/ ٣٥ مِنَ البسيطِ] :

جُهْدُ ٱلْمُقِلِّ إِذَا أَعْطَاكَ نَائِلُهُ وَمُكْثِرٌ مِنْ غِنىً سِيَّانِ فِيْ ٱلْجُوْدِ

الحلم على الجاهلين

وأكلَ بعضُ العربِ علىٰ مائدَةِ معاويَةَ ، ولمَّا أرادَ أن يبتلِعَ لقمةً . . قالَ لَهُ معاويَةُ [كما في «المستطرف» ١/ ٣٨٩] : علىٰ رسلِكَ، فإِنَّ فيها شعرةً، قالَ : أَوَتُراقبُني مراقبَةَ مَن يرىٰ الشعرَةَ في لقمَتي ؟! واللهِ لا آكلُ لَكَ زاداً بعدَها ما حَيِيْتُ .

وما كانَ معاويَةُ هناكَ ، ولا ينبغي لابنِ عبدِ منافٍ أن يشتمِلَ علىٰ شيءٍ مِنَ ٱللُّؤْمِ ، لٰكِنَّها حانَتِ ٱلْتِفَاتَةٌ ، فحمَلَها العربيُّ علىٰ أسوأ ما يُظَنُّ ، وذهَبَ بِها إِلىٰ قولِ قيسِ بنِ عاصمٍ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَلْمَوْتُ خَيْرٌ مِنْ زِيَارَةِ بَاخِلٍ يُلاَحِظُ أَطْرَافَ ٱلأَكِيْلِ عَلَىٰ عَمْدِ

ويحكىٰ [كما في «المستطرف» ١/ ٣٨٩] : أَنَّ الحسنَ بنَ عليٍّ كانَ علىٰ طعامِ معاويَةَ ، فقُدِّمَتْ دجاجَةٌ ، أَمعنَ الحسنُ في الأكلِ مِنها ، فقالَ لهُ معاويَةُ : هل بينَكَ وبينَها عداوَةٌ ؟ فقالَ الحسنُ : وهل بينك وبينها قرابَةٌ ؟ قالَ الجاحِظُ : وما أنكرَ معاويَةُ علىٰ الحسنِ إِلاَّ تقصيرَهُ في توقيرِ الخلافَةِ بإِظهارِ النَّهَمِ معَ المؤاكلَةِ ، وأَشارَ إِلىٰ مثلِ

ذلكَ صاحبُ « المستطرَفِ » وهوَ من أَفحشِ الغلطِ ، فما كانَ التصنُّعُ لهُم بعادَةٍ ، وسنَّةُ العرَبِ معروفَةٌ في ٱطِّراحِهِ ، وقد عرفَ الناسُ لمعاويَةَ ٱحتمالَهُ ما لا تبرُكُ الإبلُ عليهِ مِنَ ٱلْجفاءِ ؛ لِمَن لا يوزنُ بنعلِ الحسنِ ، فضلاً عنهُ .

إنَّما جنحَ إلىٰ المداعبَةِ ، وعمَدَ إلى المطايبَةِ ؛ ليتسحَّبَ الحسنَ علىٰ ملكِهِ ، ويتبسَّطَ علىٰ سلطانِهِ ، ويزولَ تحفُّظُهُ ، وتذهَبَ حشمتُهُ ، ويفضي بحوائِجِهِ ، وقد قالَ عليهِ السلامُ : « إنَّ لِلدَّاخِلِ حِشْمَةً ، فَٱبْسِطُوهُ بِأُنْسٍ »[1] .

فإن قيلَ : إنَّ معاويَةَ إنَّما يتعرَّضُ لجفاءِ مَن لا يُؤْبَهُ لهُ ؛ ليشتهرَ بالحلْمِ إذا سكتَ عَن جوابِهِ ، وعقابِهِ ، ولا يطيبُ نفساً بملاينَةِ أَمثالِ الحسنِ علىٰ الملأِ ؛ لأَنَّها تَسِمُهُ بالعجزِ ، وتدخلُ عليهِ الوهنَ ، والإنسانُ قد يحتملُ للحقيرِ والأَجنبيِّ ، ما لا يحتملُهُ للقريبِ والعظيمِ . . قلتُ : لا يُنكَرُ ٱندماجُ النفوسِ علىٰ مثلِهِ ، غيرَ أَنَّهُ لا يكونُ إلاَّ عندَ أَهلِ الأَخلاقِ المنحطَّةِ ، والطباعِ السافلَةِ ، أَمَّا قريشٌ . . فما زالَت حَتَّىٰ في جاهليَّتِها معروفَةً بحسنِ التناصُفِ ، وكثيراً ماترىٰ الواحدَ مِنهم يحترمُ الآخرَ ، ويقولُ : إنَّهُ سيِّدُ الوادي ، وإن كانَ في جوفِهِ ما يكادُ يقتلُهُ سِلاً مِنَ ٱلحسدِ لَهُ ، وهـٰذا مسكينٌ الدارميُّ ـ أَو أَبو الجهمِ العدويُّ ـ يقولُ في معاويَةَ نفسِهِ [كما في « البيان والتبيين » ١/ ٥٠٠ مِنَ الوافرِ] :

نُقَلِّبُـــهُ لِنَخْبُـــرَ حَـــالَتَيْـــهِ ... فَنَخْبُـــرُ مِنْهُمَـــا كَـــرَمـــاً وَلِيْنَـــا
نَمِيْـــلُ عَلَـــىٰ جَـــوَانِبِـــهِ كَـــأَنَّـــا ... نَمِيْـــلُ إِذَا نَمِيْـــلُ عَلَـــىٰ أَبِيْنَـــا

(١) لم أجده .

وأنا ذاكرٌ ما أَخرجَهُ المدائِنيُّ ، وغيرُهُ [كما في «جمهرة خطب العرب» ١٢٨/٢] : مِنْ قدومِ عبدِ اللهِ بنِ جعفرٍ عليهِ ، ومجلسُهُ غاصٌّ بأَصحابِهِ ، فنالَ ٱبنُ العاصِ مِن عليٍّ جهراً ، فحسرَ عبدُ اللهِ عن ذراعيهِ ، وقالَ لمعاويَةَ : حَتَّامَ نتجرَّعُ غيظَكَ ، ونصبرُ علىٰ مكروهِ قولِكَ ، وسَيِّىءِ أَدبِكَ ، وذميمِ أَخلاقِكَ ؟ أَما يزجرُكَ ذمامُ المجالَسَةِ عَنِ ٱلإقذاعِ لجليسكَ ، إِذ لم تكُن لَكَ حرمَةٌ تنهاكَ مِن دينِكَ ؟ أَما واللهِ ، لو عطفتْكَ أَواصرُ الأَرحامِ ، أَو حاميْتَ علىٰ سهمِكَ مِنَ ٱلإسلامِ . . لَما أَرعيتَ بني الإِماءِ ٱلمُتْكِ[1] أَعراضَ قومِكَ ، وما يجهلُ موضِعَ الصفوَةِ إِلاَّ أَهلُ الجفوَةِ ، فلا يدعونَّكَ استقامة خَطَئِكَ إِلىٰ التمادي في الغَيِّ ، فقد طالَ عَمَهُكَ عَنِ الرشْدِ ، وخبطُكَ في ظلمَةِ الجهلِ ، فإِن أَبيتَ إِلاَّ أَن تبقىٰ علىٰ سوءِ ٱختيارِكِ . . فٱعفِنا عَن سوءِ القالَةِ فينا إِذا ضمَّنا وإِيَّاكَ النديُّ ، وشأْنُكَ وما تريدُ إِذا خلوتَ بنفسكِ ، واللهُ حسيبُكَ ، فواللهِ لولا مالَنا عندَكَ . . ما جِئْناكَ ، فقالَ معاويَةُ : نغيِّرُ الخطأَ يا أَبا جعفرٍ ، وأُقسِمُ عليكَ لتجلسَنَّ ، لَعنَ اللهُ مَن أَخرجَ ضبَّ صدرِكَ مِنْ وجارِهِ ، محمولٌ لكَ ما قلتَ ، ولكَ عندنا ما أَمِلتَ ، وأُقسِمُ عليكَ لَمَا ذكرتَ حاجةً إِلاَّ قضيتُها لكَ ، كائِنَةً ما كانَت ، ولو ذهبَتْ بجميعِ ما أَملكُ ، فقالَ عبدُ اللهِ : أَمَّا في هٰذا المجلسِ . . فلا ، ثمَّ ٱنصرفَ ، فأَتبعهُ بصرَهُ ، وقالَ : لكأَنَّهُ رسولُ اللهِ في مشيِهِ ، وخَلْقِهِ ، وخُلُقِهِ ، وإِنَّهُ لَمِن مشكاتِهِ ، لوددْتُ أَنَّهُ أَخي بنفيسِ

---

(١) يقالُ في السبِّ : يا ٱبنَ المتكاءِ ؛ أي : عظيمةَ المتكِ وهوَ عرقُ البظرِ من المرأَةِ ، ومن الرجلِ العرقُ الذي في باطنِ الذكرِ عند أسفلِ حقوهِ .

ما أَملِكُ ، ثمَّ قالَ لابنِ العاصِ : ما مَنَعَهُ مِن خطابِكَ ؟ قالَ : ما تعرِفُ ، قالَ : لا واللهِ ، وَلَـٰكِنَّهُ ٱستحقرَكَ وٱزدراكَ .

هـٰذا ما بقيَ بحفظي منهُ ، ولا معابَةَ إن أَخطأْتُ اللفظَ ، معَ إِصابةِ الأَكثرِ مِنَ ٱلمعنىٰ .

التودد والتقرب من المساكين

أَمَّا رسولُ اللهِ ﷺ وقربُهُ مِنَ ٱلناسِ ، وتودُّدُهُ إِلىٰ المساكينِ ، فحدِّثْ عنهُ ولا حرجَ ، وهوَ القائِلُ ـ كما سبقَ في غيرِ هـٰذا المجلسِ ـ لِمَنْ هَابَتْهُ : « هَوِّنِيْ عَلَيْكِ ، فَإِنِّيْ لَسْتُ بِمَلِكٍ وَلاَ جَبَّارٍ ، وَإِنَّما أَنَا ٱبْنُ ٱمْرَأَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ ، كَانَتْ تَأْكُلُ ٱلْقَدِيْدَ بِمَكَّةَ »[1] .

وأَمَّا أَخوهُ وصهرُهُ ووصيُّهُ : فهوَ القائلُ مِن أثناءِ كلامٍ لهُ [في « نهجِ البلاغةِ »] : لا تكلِّموني بما تُكلَّم بهِ الجبابرَةُ ، ولا تتحفَّظوا منِّي بما يتحفَّظُ بهِ عندَ أَهلِ البادِرَةِ ، ولا تخالِطُوني بالمصانَعَةِ ، ولا تظُنُّوا بيَ ٱستثقالاً في حقٍّ قيلَ لي ، ولا ٱلتماسَ إِعظامٍ لِنفسي ، فَلا تكفُّوا عَن مقالَةٍ بحقٍّ ، أَو مشورَةٍ بعدْلٍ ، فإِنِّي لَستُ في نَفْسي بِفَوقِ أَنْ أُخطِىءَ ، ولا آمنُ ذلكَ مِنْ فِعلي ، إِلاَّ أَن يكفيَ اللهُ مِن نفسيَ ما هوَ أَملَكُ بهِ مِنِّي ، وإِنَّما أَنا وأَنْتُم عبيدٌ مملوكونَ لربٍّ لا ربَّ غيرُهُ .

وقالَ ٱبنُ أَبي الحديدِ في « شرحِهِ » : أحسنُ ما سمعتُهُ ـ في سلطانٍ لا تخافُ الرعيَّةُ بادرتَهُ، ولا يتلجلَجُ المتحاكونَ عندَهُ، معَ سطوتهِ وقوَّتِهِ؛ لإِيثارِهِ العدلَ ـ قولُ أَبي تمَّامٍ في محمَّدِ بنِ عبدِ الملِكِ [في «ديوانهِ» ١/ ١٦٣ مِنَ البسيطِ] :

وَزِيْرُ حَقٍّ وَوَالِيْ شُرْطَةٍ وَرَحَىٰ ... دِيْوَانِ مُلْكٍ وَشِيْعِيٌّ وَمُحْتَسِبُ

---

(١) سلف في مجلس سابق .

كَالأَرْحَبِيِّ ٱلْمُذَكَّيْ سَيْرُهُ ٱلْمَرَطَىٰ ... وَٱلْوَخْدُ وَٱلْمَلْعُ وَٱلتَّقْرِيْبُ وَٱلْخَبَبُ[1]

عَــوْدٌ تُسَــاجِلُــهُ أَيَّــامُــهُ فَبِهَــا ... مِنْ مَسِّهِ وَبِهِ مِنْ مَسِّهَا جُلَبُ[2]

ثَبْتُ ٱلْخِطَابِ إِذَا ٱصْطَكَّتْ بِمَظْلَمَةٍ ... فِيْ رَحْلِهِ ٱلْسُنُ ٱلأَقْوَامِ وَٱلرُّكَبُ

لاَ ٱلْمَنْطِقُ ٱللَّغْوُ يُذْكَرُ فِيْ مَقَاوِمِهِ ... يَوْماً وَلاَ حُجَّةُ ٱلْمَلْهُوْفِ تُسْتَلَبُ

كَــأَنَّمَــا هُــوَ فِــيْ نَــادِيْ قَبِيْلَتِــهِ ... لاَ ٱلْقَلْبُ يَهْفُوْ وَلاَ ٱلأَحْشَاءُ تَضْطَرِبُ

ويعجبُني فيما يتعلَّقُ بذلكَ : أَنَّ المأْمونَ ناظرَ محمَّدَ بنَ القاسِمِ النوشنجانيَّ في مسأَلَةٍ كلاميَّةٍ ، فجعلَ النوشنجانيُّ يخضَعُ في الكلامِ ، فقالَ لَهُ : يا محمَّدُ ، أَراكَ تنقادُ إِلىٰ ما أَقولُهُ قبلَ وجوبِ الحجَّةِ ، وقد ساءَني ذلكَ مِنكَ ، ولو شئْتُ أَن أُفسِّرَ الأُمورَ بعزَّةِ الخلافَةِ ، وهيبَةِ الرئاسَةِ . لصدقْتُ وإِنْ كنتُ كاذباً ، وعدَلْتُ وإِن كنتُ جائِراً وصوِّبْتُ وإِن كنتُ مخطِئاً ، ولَـٰكِنِّي لا أَقنعُ إِلاَّ بإِقامَةِ الحجَّةِ ، وإِزالَةِ الشبهَةِ ، وإِنَّ أَنقصَ الملوكِ عقلاً ، وأَسخفَهُم رأْياً ، مَن رضيَ بقولِهم : صدقَ الأَميرُ . ذكرهُ ابنُ أَبي الحديدِ أَيضاً في شرحِ ما سقناهُ آنفاً مِن كلامِ الإِمامِ [في « شرحِ نهجِ البلاغةِ »] .

ولنعُد مِنَ ٱلاستطرادِ إِلىٰ حيثُ خرجنا ، فنقولُ : قد سبقَ ذروٌ مِن حديثِ ٱبن الطيَّارِ أَوائِلَ المجلسِ الحادِي عشرَ في الكلامِ علىٰ قولِهِ [في « العُكبَرِيِّ » ٣/ ١٧٢ مِنَ المنسرحِ] :

---

(١) الأَرحبيُّ : النجيبُ من الإبلِ . المذكَّيْ : الذي تمَّتْ سنُّهُ وذكاؤُهُ . المرَطىٰ وما بعدهُ من الأَسماءِ : ضروبٌ من السيرِ . أَرادَ هنا أَنَّ ممدوحَهُ يجمعُ ضروبَ إصلاحِ الملكِ كما يجمعُ هذا الأرحبيُّ جميع ضروبِ السيرِ .

(٢) العَودُ : المسنُّ من الإِبلِ ، وأراد بهِ هنا الرجلَ المجرَّبَ . تُسَاجِلهُ : تناظرهُ . جُلَبُ ـ جمعُ جلبةٍ ـ : وهيَ الأثرُ في ظهرِ البعيرِ وغيرِهِ من مسِّ حملٍ ونحوِهِ .

تَمَثَّلُوا حَاتِماً وَلَوْ عَقَلُوا ... لَكُنْتَ فِيْ ٱلجُوْدِ غَايَةَ ٱلمَثَلِ

وفي غيرِهِ .

إذا أعطيت هذا الرجل.. فقد أعطيت جميع أهل المدينة

ونَزيدُ هُنا ما ذكرَهُ ٱبنُ أَبي الحديدِ [في « شرحِ نهجِ البلاغةِ »] وغيرُهُ ـ [في « المستطرف » ١/٣٤٨] : معَ تمهيدِ العذرِ للزيادَةِ والنقْصِ ببعدِ العهْدِ ـ أَنَّ عبدَ اللهِ بنَ جعفرٍ قدمَ علىٰ يزيدَ بنِ معاويَةَ ، فأَنزلَهُ بحيثُ كانَ ينزلُهُ أَبوهُ ، مِن عليِّ القدْرِ ، ورعايَةِ الجانبِ ، ولمَّا ٱعتزَمَ الانصرافَ . . قالَ لهُ : كَم كانَ يعطيكَ أَبي ؟ قالَ : كانَ يُعطيني أَلفَ أَلفٍ ـ رحمَهُ اللهُ ـ فقالَ يزيدُ : قَد زِدناكَ أَلفَ أَلفٍ أُخرىٰ لترحُّمِكَ عليهِ ، فقالَ عبدُ اللهِ : فداكَ أَبي وأُمِّي ، قالَ : وهٰذهِ لَها أَلفُ أَلفٍ ، فقالَ عبدُ اللهِ : واللهِ لا أُقولُها لأَحدٍ بعدَكَ ، قالَ يزيدُ : ولهٰذهِ أَيضاً أَلفُ أَلفٍ ، فقيلَ ليزيدَ : أَعطيتَ هٰذا القدرَ كلَّهُ لرجلٍ واحدٍ من بيتِ المالِ ، قالَ : واللهِ ما أَعطيتُهُ إِلاَّ لجميعِ أَهلِ (المدينَةِ) ، ووكَّلَ بهِ عيناً يطالِعُهُ بخبرِهِ ، فلم يزَل يفرِّقُها في أَنواعِ المعروفِ . . حَتَّىٰ ٱحتاجَ بعدَ شهرينِ إِلىٰ الاستدانَةِ ، فهوَ الأَحقُّ مِن عبدِ الواحدِ بنِ سليمانَ بقولِ القطاميِّ [في « ديوانهِ » ٢٩ مِنَ البسيطِ] :

أَهْلُ ٱلْمَدِيْنَةِ لاَ يَحْزُنْكَ حَالُهُمُ ... إِذَا تَخَطَّأَ عَبْدَ ٱلْوَاحِدِ ٱلأَجَلُ

العذل في الجود

وعُذِلَ عبدُ اللهِ علىٰ كثرةِ الإِنفاقِ فقالَ [في « المستطرف » ١/٣٤٨] : إِنَّهُ عزَّ وجلَّ عوَّدني أَن يتفضَّلَ عليَّ ، وعوَّدتهُ أَن أَتفضَّلَ علىٰ عبادِهِ ، فأَخافُ أَن أَقطعَ العادةَ ، فيقطَعَ [عنِّي] المادَّةَ .

جود المأمون

وذكرتُ بهٰذا أَنَّ الواقديَّ ـ السالفَ الذكرِ ـ كتبَ إِلىٰ المأْمونِ في دَينٍ ٱرتكبَهُ ، فكتبَ لهُ المأْمونُ [كما في « وفيات الأعيان » ٤/٣٤٩] : إِنَّ فيكَ لكرماً أَطلَقَ ما في يدِكَ ، وحياءً منعَكَ أَن تذكرَ كلَّ حاجتِكَ ،

غيرَ أنَّكَ حدَّثتني وأنتَ علىٰ قضاءِ الرشيدِ : أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ للزبيرِ : « يا زُبَيْرُ ، إِنَّ مَفَاتِيحَ ٱلرِّزْقِ فِيْ خِزَانَةٍ بِإِزَاءِ ٱلْعَرْشِ ، فَمَنْ كَثَّرَ . . كُثِّرَ لَهُ ، وَمَنْ قَلَّلَ . . قُلِّلَ لَهُ »[1] . قالَ الواقديُّ : فلأَنا بمراجعةِ المأمونِ الحديثَ لي أفرحُ منِّي بالصلةِ ، أَو ما يقربُ مِن هٰذا المعنىٰ .

جود الفرزدق

وبَينا طلحةُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ عوفٍ بالسوقِ . . وافقَ الفرزدقَ ، فقالَ لَهُ [في « المستطرف » ١/٣٥٩] : ٱختر عشراً مِنَ الإبلِ ، ففعلَ ، فقالَ لهُ الفرزدقُ : ضمَّ إليها مثلَها ، ففعلَ ، ولم يزَل يقولُ لهُ : ضمَّ إليها مثلَها . . حتَّىٰ صارَت مئةً ، فأَثنىٰ عليهِ بأَبياتٍ ، منها قولُهُ [مِنَ الكاملِ] :

إِنَّ ٱلنَّدَىٰ أَلْقَىٰ إِلَيْكَ رِحَالَهُ ... فَبِحَيْثُ بِتَّ مِنَ ٱلْمَنَازِلِ بَاتَا

فأَخذهُ أَبو الشيصِ الخزاعيُّ حيثُ يقولُ [في « أشعارِهِ » ٩٢ مِنَ الكاملِ] :

وَقَفَ ٱلْهَوَىٰ بِيْ حَيْثُ أَنْتَ فَلَيْسَ لِيْ ... مُتَأَخَّرٌ عَنْهُ وَلاَ مُتَقَدَّمُ

وتعدَّىٰ عليهِ أَبو نواسٍ مجاهرَةً فقالَ [في « ديوانِهِ » ٢٩٩ مِنَ الطَّويلِ] :

فَمَا جَازَهُ جُوْدٌ وَلاَ حَلَّ دُوْنَهُ ... وَلَـٰكِنْ يَسِيْرُ ٱلْجُوْدُ حَيْثُ يَسِيْرُ

ثُمَّ ٱعتورَتْهُ الأَيدي ومنهُ قولُ البُحتريِّ [في « ديوانِهِ » ١/٥٧٤ مِنَ البسيطِ] :

---

(١) أخرجه عن الزبير رضي الله عنه بنحوه الديلمي في « الفردوس بمأثور الخطاب » (٥/٤٠٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » كما في « كنز العمال » (٦٢٨) بلفظ : « يا زبير إن الرزق مفتوح من لدن العرش إلىٰ قرار بطن الأرض ، يرزق الله كل عبد علىٰ قدر همته ونهمته » .

تَحَيَّرَ ٱلْجُودُ وَٱلإِحْسَانُ بَيْنَهُمُ فَمَا يَجُوزُهُمُ جُودٌ إِلَىٰ أَحَدِ

وذكرتُ بعدَ هـٰذا عَن بعضِ الأَوائِلِ ما معناهُ ـ إِنْ أَخطأْتُ لفظَهُ ـ [قولَ البُحتريِّ في « ديوانِهِ » ٣/ ١٨٤٥ مِنَ الكاملِ] :

إِنَّ ٱلسَّمَـاحَ ٱلْعِـدَّ أَلْقَـىٰ رَحْلَـهُ فِي آلِ طَلْحَةَ ثُمَّ لَمْ يَتَحَوَّلِ(١)

ولا نُدحَةَ عَن ذكرِ مثالَينِ مِن جودِ البرامِكَةِ تتَّصِلُ بما ذكرناهُ سابقاً ولاحقاً :

صور من جود البرامكة

أَحدُهُما : أَنَّ محمَّدَ بنَ عبدِ اللهِ كانَ متَّصلاً بهِم ، ولهُ نعمَةٌ واسعةٌ ، وضِياعٌ كثيرَةٌ ، صودرَت فيما كانَ للبرامِكَةِ وأَتباعِهم ، فرفعَ فِيها قصَّةً إِلىٰ المأمونِ ، يمتُّ فيها بحرمَةٍ ، فدفعَها المأمونُ إِلىٰ أَحمدَ ٱبنِ أَبي خالدٍ ، وأَمرَهُ أَن يضمَّ الرجلَ إِلىٰ نفسِهِ ، ويحسنَ إِليهِ ، فصلحَتْ حالُهُ ، وتماسكَتْ أُمورُهُ ، وٱتخذَهُ ٱبنُ أَبي خالدٍ نديماً ، لا يصبِرُ عنهُ ، فٱنقطعَ يوماً لمولودٍ وُهِبَهُ ، ولم يأْتِ بعدَ ٱستدعائِهِ مراراً ، فغضبَ عليهِ ، وسجنَهُ ، وقيَّدَهُ ، وزعمَ للمأْمونِ أَنَّهُ كثيرُ المصارفِ والتيهِ والافتخارِ بالبرامكَةِ ، فأَمرَ بإِحضارِهِ علىٰ قيدِهِ ، وأَقبلَ عليهِ مسفِّهاً لرأْيِهِ ، وأَخذَ يطعَنُ علىٰ البرامكَةِ ، ويضعُ مِنهم ، ويطنبُ في ذلكَ .

فعارضَهُ وقالَ : كانوا شفاءَ دهرِهم ، وغياثَ عصرِهِم ، وإِنْ أَذِنَ لي أَميرُ المؤمنينَ . . حدَّثتُهُ عَن أَخبارِهم ، قالَ : هاتِ ، قالَ : محدِّثٌ ومقيَّدٌ ؟! فأَمرَ بإِطلاقِهِ ، فقالَ : ٱقترحَ الفضلُ عليَّ مرَّةً أَن

---

(١) البيتُ في « الديوان » :

أَوَمَـا رَأَيْـتَ ٱلْمَجْـدَ أَلْقَـىٰ رَحْلَـهُ . . . .

أَدعوَهُ وأَباهُ وأَخاهُ ، قلتُ : داري وحَالي يصغرُ عَن ذلكَ ، قالَ : لا حشمَةَ ولا كلفَةَ ، فأَقعِدْنا علىٰ أثاثِ بيتِكَ ، وأَطعِمنا مِن طبيخِ أَهلِكَ ، فلمَّا رأَيتُ إِلحاحَهُ . . ٱستمهلْتُهُ سنَةً ؛ لأَستعِدَّ ، فقالَ : وهَل مَعَنا أَمانٌ مِنَ ٱلموتِ إِلىٰ سنةٍ ، إِنَّكَ لَطويلُ الأَملِ ، فأَصلحَ بيننَا جعفرٌ علىٰ شهرينِ ، أَصلحتُ فيها داريَ ، وبذلْتُ ما بلغَتْ يديْ مِن تزيينِهِ ، وتأْثيثِهِ ، وترتيبِهِ ، وفعلتُ ما قدرتُ عليهِ مِنَ ٱلطعامِ ، وجاءَ هوَ وأَبوهُ وجعفرٌ وأَولادُهم وفتيانُهم ، فقالَ : إِنَّ أَوَّلَ ما أَبدأُ بهِ النظرُ إِلىٰ جليلِ نعمتِكَ وصغيرِها ، فدارَ علىٰ سائِرِ المنازِلِ ، وقالَ : مَن جيرانُكَ ؟ قلتُ : فلانٌ وفلانٌ ، وفي جانِبِ داري بالملاصقَةِ قصرٌ ضخْمٌ مَشِيْدٌ ، قالَ : لِمَن هٰذا ؟ قلتُ : لا أَعرفُهُ ، قالَ : ما كانَ ينبغي لأَحدٍ أَنْ يستطيلَ عليكَ ، فهلمَّ بنجَّارٍ يفتَحُ لَنا باباً إِلىٰ تلكَ الدارِ مِن ناحيتِكَ المتَّصلَةِ بهِ ، فناشدتُهُ أَن لا يفعلَ ، فصمَّمَ وفتحَ البابَ ، فإِذا برجُ إِصطبلِ دوابِّهِ خيرٌ مِن داري بسبعينَ مرَّةً ، وقالَ : هٰذا الدارُ بما فيهِ لكَ ، فكدْتُ أُجَنُّ مِن ذلكَ ، ولَم أَدرِ أَنا في يقظَةٍ أَو منامٍ ، ولمَّا سمعَ أَخوهُ وأَبوهُ بما جرىٰ . . رأَيتُ الانمغاضَ بادياً علىٰ وجهِ جعفرٍ ، وأَقبلَ علىٰ أَبيهِ يشكو من تفرُّدِ الفضلِ بهٰذهِ المكرُمَةِ ، فقالَ الفضلُ : يا أَخي ، بقيَ لكَ القطْبُ مِنها ، قالَ : وما هوَ ؟ قالَ : إِنَّهُ لا يتهيَّأُ ضبطُ هٰذهِ الدارِ بما فيها . . إِلاَّ بدخْلٍ جليلٍ ، قالَ : فرَّجْتَ عنِّي يا أَخي ، وكتبَ لي بصكاكِ عقارٍ ، صرتُ بهِ مِن أَيسرِ أَهلِ زَماني ، قالَ المأْمونُ : صدقَ واللهِ ، ذهبَ القومُ بالمكارِمِ ، وردَّ عليهِ ضياعَهُ ، وأَحسنَ معاملَتَهُ .

ثانيهما [روى الأبشيهي في « المستطرف » ١/٤٣٦] : حديثُ المغيرَةِ بنِ

المنذرِ فقد كانَ يُسحِرُ كلَّ ليلَةٍ إِلىٰ دورِ البرامِكةِ وآثارِهم ، ويندُبُهم بشعرٍ منهُ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَمَّا رَأَيْتُ ٱلسَّيْفَ جَلَّلَ جَعْفَراً وَنَادَىٰ مُنَادٍ لِلْخَلِيفَةِ : يَا يَحْيَىٰ
بَكَيْتُ عَلَىٰ ٱلدُّنْيَا وَزَادَ تَأَسُّفِي عَلَيْهِمْ، وَقُلْتُ: ٱلآنَ لاَ تَنْفَعُ ٱلدُّنْيَا

فرصدَهُ المأمونُ حتَّىٰ أَمسكَهُ ، ولمَّا مَثَلَ بينَ يدهِ متحنِّطاً متكفِّناً مستعدّاً للقتلِ . . أخذَ المأمونُ بتوبيخِهِ ، فقالَ : إِنَّ للقومِ عنديَ لأَياديَ لا تزالُ خضراءَ ، إِنْ شئتَ . . حدثتُكَ عنها ، قالَ : قُلْ ، فقالَ : أَنا مِن أَولادِ الملوكِ ، فزالَتْ نِعمَتي ، وبعتُ ما علىٰ رأسِي ، ورؤُوسِ أَولادِي وأَهلِي ، وما بقيَ لَنا شيءٌ يوهَبُ ولا يباعُ ، حَتَّىٰ دخلنا (بغدادَ) ، ونزلنا في بعضِ المساجِدِ ، فذهبتُ أَسأَلُ عَنِ ٱلبرامكَةِ ـ وتركتُهُم جياعاً ـ وأَخذتُ أَتصبَّبُ مِنَ ٱلعرقِ ؛ لأَنَّها لم تكنْ صناعَتي ، فإِذا جماعَةٌ جلوسٌ في مسجدٍ ، ينتظرونَ داعياً لحضورِ إِملاكٍ في دارِ يحيىٰ ، ولمَّا دَخَلوا . . دخلتُ معَهُم ، وما معيَ مِنَ ٱلرَّمَقِ إِلاَّ ما يحملُ رجليَّ مِن ٱلاستحياءِ ، وفَرَّقَ الخدَمُ صوانيَ الفضَّةِ ، في كلِّ صينيَّةٍ أَلفُ دينارٍ ، فلم أَجْسِرْ علىٰ أَخذِ التي هيَ ليْ . . حتَّىٰ غمزني الخادِمُ فأَخذتُها ، وقمْتُ أَتلفَّتُ مخافَةَ الردِّ ، فلحَظَني يحيىٰ ، وٱستدعاني ، وقالَ : ممَّ تتلفَّتُ ؟ فبدرتْني عيني ، ثمَّ شرحتُ لهُ قصَّتي ، فأَمرَ ولدَهُ موسىٰ بضمِّي إِليهِ ، وإِكرامي ، ولم يزَلْ يتبادَلُني القومُ عشَرَةَ أَيَّامٍ ، وأَنا لا أَدري بخبرِ عيالي وأَهلي ، غيرَ أَنِّي آمنُ مِن ضياعِهِم بعدَ أَن علمَ يحيىٰ بحالِهِم ، ولم أَدرِ أَينَ تركتُ الصينيَّةَ بما فيها ، ولمَّا كانَ اليومُ الحادي عشرَ . . قالوا لي : قُمْ إِلىٰ عيالِكَ ، فقلتُ في نفسي :

واويلاهُ ، وقد فقدتُ الصينيَّةَ بما فيها مِنَ الدنانيرِ ، فقمتُ إلىٰ دارٍ لَم أَرَ مثلَها أيَّامَ نعمَتي ، وإذا بِصِبْياني وأَهلي يتقلَّبونَ في الحريرِ والديباجِ ، وحمَلوا إليَّ مئةَ ألفِ درهمٍ ، وعَشَرَةَ آلافِ دينارٍ[1] ، ومنشوراً بضيعتينِ ، وتلكَ الصينيَّةِ بما فيها ، وأقمتُ غَذِيَّ نعمتِهم ثلاثَ عَشْرةَ سنةً ، فلمَّا جاءَتهم البليَّةُ . . أُخِذَتْ أَموالي فيما أُخذَ من أَموالِهم ، فقالَ المأمونُ : رُدُّوا عليهِ جميعَ ما أُخذَ مِنْهُ ، فَعَلاَ نحيبُهُ عندَ ذلكَ ، فقالَ المأمونُ : كيفَ تبكي وقد أَحسنَّا إليكَ ؟ قالَ : وهٰذا أَيضاً من صنيعِ البرامكَةِ ، فلَو لم آتِ آثارَهُم ، وأَندبَهم . . ما اتصلَ بكَ خبري .

قالَ إبراهيمُ بنُ ميمونٍ : فرأَيتُ المأمونَ تذرفُ عيناهُ ، ويقولُ : إنَّ هٰذا لَعَمري مِن صنيعِ البرامكَةِ ، فعليهم فابْكِ ، وإيَّاهُم فاشكر ، ولهم فأَوفِ ، ولإِحسانِهم فاذكُر ، وصدقَ واللهِ ، فهُمُ القومُ الذينَ يفيضُ جودُهُم ، ويهتزُّ عودُهُم ، وتتزيَّنُ المجالسُ بذكرِهِم ، وتتعطَّرُ الآنافُ بنشرِهِم .

لمَّا نزلَتِ المحنَةُ بابنِ الزيَّاتِ . . قالَ لَهُ خادِمُهُ : صرتَ إلىٰ ما صرْتَ إليهِ ، ومالَكَ حامِدٌ في الناسِ ؟! قالَ : وكَم للبرامِكَةِ مِن صنيعٍ ، فهَل نفعَهُم شيءٌ مِن ذلكَ ؟ قالَ لَهُ : نعم ، لو لَم يكُن منهُ إلا ذكرُكَ لَهم في هٰذهِ الساعَةِ ، قالَ : صدقْتَ .

وأَثنيتُ مرَّةً علىٰ الأَميرِ منصورِ بنِ عمرَ الكثيرِيِّ صاحبِ (شبامَ) ، وكانَ عرضَةَ ذلكَ ، فحولَةً وبطولةً ، وزعامةً وشهامةً ،

---

(١) في «المستطرف» : (ألف ألف درهم وعشرة آلاف دينار) .

وشدَّةَ بأسٍ في لينِ جانبٍ ، فقالَ لي أحدُ الرؤساءِ : إنَّ شجاعتَهُ أنتهَتْ بهِ إلىٰ القتلِ ، فقلتُ لَهُ : وَلَـٰكِنَّ مَن خلَّفَ ذلكَ الثناءَ العاطِرَ لم يمُت ، وأمَّا الموتُ . . فإنَّهُ لا بدَّ منهُ علىٰ كلِّ حالٍ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَنْ لَمْ يَمُتْ بِالسَّيْفِ مَاتَ بِغَيْرِهِ تَعَدَّدَتِ الأَسْبَابُ وَالْمَوْتُ وَاحِدُ

أمَّا اليومَ . . فقد ماتَ الجودُ ، وشملَ الجمودُ ، وإنَّكَ لترىٰ المتَّسِمَ بسَمتِهِ ، والمدّعيَ أنَّهُ مِن أُمَّتِهِ . . لجديرٌ بقولِ جريرٍ [في « ديوانِه » ٢/ ٥٢ مِنَ الكاملِ] :

وَالتَّغْلِبِيُّ إِذَا تَنَحْنَحَ لِلْقِرَىٰ حَكَّ ٱسْتَهُ وَتَمَثَّلَ الأَمْثَالاَ

والبيتُ الذي نتكلَّمُ عليهِ متكرِّرُ المعنىٰ في « ديوانِهِ » ، منهُ قولُهُ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٢٥٤ مِنَ الوافرِ] :

قَبُولُكَ مَنَّهُ مَنٌّ عَلَيْهِ وَإِلاَّ يَبْتَدِي يَرَهُ فَظِيعَا

وذكرتُ بشطرِهِ الأخيرِ [ما ذكره الأبشيهي في « المستطرف » (١/ ٣٤٦) وهو] : أنَّ بعضَهم شكا إلىٰ صديقٍ لَهُ ديناً ، فقضاهُ عنهُ ، ثمَّ عادَ باكياً ، فقالَت لَهُ امرأتُهُ : هلاَّ تعلَّلْتَ إذ علمت أنَّ الإجابةَ تشقُّ عليكَ ، قالَ لَها : ما بي ذلكَ ، وإنَّما أبكي ؛ لأنَّني لَم أتفقَّدْ حالَهُ قبلَ سُؤَالِهِ . والقصَّةُ في « الإحياءِ » للإمامِ الغزاليِّ ، وفي غيرِها من كتبِ الأخبارِ . يقضي دين صديقه ويبكي

وفي مثلِهِ يقولُ الناظِمُ [في « العُكبَرِيّ » ٣/ ١٩٦ مِنَ الخفيفِ] : التلذذ بالجود والإعطاء

وَالْجِرَاحَاتُ عِنْدَهُ نَغَمَاتٌ سَبَقَتْ قَبْلَ سَيْبِهِ بِسُؤَالِ(١)

---

(١) السيبُ : العطاءُ .

وهوَ ناظرٌ إلىٰ قولِ أَبي تمَّام [في « ديوانه » ١/ ٤٠٥ مِنَ الوافرِ] :

وَنَغْمَـةُ مُعْتَـفٍ يَـرْجُـوْهُ أَحْلَـىٰ ... عَلَىٰ أُذُنَيْهِ مِنْ نَغَمِ ٱلسَّمَاعِ[1]

وأخذهُ الناظِمُ غيرَ أَنَّهُ أَفرغَهُ في قالبٍ آخرَ ، فقالَ [في « العُكبَريِّ » ١/ ١٧٢ مِنَ البسيطِ] :

كَـأَنَّ كُـلَّ سُـؤَالٍ فِـيْ مَسَـامِعِـهِ ... قَمِيْصُ يُوسُفَ فِيْ أَجْفَانِ يَعْقُوْبِ

وقد أَلَمَّ بهِ البُحتريُّ مِن قبلِهِ ، فقالَ [في « ديوانه » ١/ ٦٢٩ مِنَ الكاملِ] :

نَشْـوَانُ يَطْـرَبُ لِلسُّـؤَالِ كَـأَنَّمَـا ... غَنَّاهُ (مَالِكُ طَيِّءٍ) أَوْ (مَعْبَدُ)[2]

وقالَ الجزَّارُ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَيَهْتَـزُّ لِلْجَـدْوَىٰ إِذَا [مَـا] مَـدَحْتَـهُ ... كَمَا ٱهْتَزَّ ـ حَاشَا وَصْفَهُ ـ شَارِبُ ٱلْخَمْرِ

وقد ذكرنا مرَّةً قولَ عكرشةَ بنِ أُريدٍ [في « قرى الضيف » ٢/ ٢٩٦ مِنَ الطَّويلِ] :

وَتَـأْخُـذُهُ عِنْـدَ ٱلْمَكَـارِمِ نَشْـوَةٌ ... كَمَا ٱهْتَزَّ تَحْتَ ٱلْبَارِحِ ٱلْغُصْنُ ٱلرَّطْبُ

وما أَحسنَ قولَ ٱبنِ الروميِّ [في « ديوانه » ٦/ ٢٤٣٩ مِنَ الكاملِ] :

ذَهَبَ ٱلَّذِيْنَ تَهُزُّهُمْ مُدَّاحُهُمْ ... هَـزَّ ٱلْكُمَـاةِ عَـوَالِـيَ ٱلْمُـرَّانِ

---

(١) المعتفي : السائِلُ .

(٢) مالك طيء : هو أبو الوليد مِالكُ بنُ أَبي السمحِ جابر بنِ ثعلبةَ الطائي ، كان من مغنِّي العصرين : الأمويِّ والعباسيِّ ، أخذ صناعةَ الغناءِ عن معبد توفي نحو سنة (١٤٠ هـ) .

معبد : هو معبدُ بنُ وهبٍ ، أصلُه مِن الموالي نشأَ في (المدينةِ) يرعىٰ الغنمَ لمواليهِ وربَّما ٱشتغلَ بالتجارةِ ولمَّا ظهرَ نبوغهُ في الغناءِ . أقبلَ عليهِ كبراءُ (المدينةِ) ؛ ثم رحلَ إلى (الشامِ) فاتصل بأمرائِها وعلا شأنُه .

كَانُوا إِذَا مُدِحُوا رَأَوْا مَا فِيهِمُ　　فَـالأَرْيَحِيَّـةُ مِنْهُـمُ بِمَكَـانِ

وكانَ لِلْحَضَارِمَةِ النصيبُ الأَوفىٰ مِنَ السماحِ ، ومِن متأَخِّريهم : البحرُ الطافحُ ، الإمامُ الهمامُ ، الحسنُ بنُ صالحٍ ، وخيرُ كلِّ فتىً وكهلٍ ، المنهلُ العذبُ ، الحسينُ بنُ سهلٍ ، وقد مرَّتْ نسمَةٌ مِن عرفِهم الشميمِ ، وقطرَةٌ مِن مكارمِ جودِهم الصميمِ ، ولا يخلو (اليمنُ) عَن كرامٍ ، تجدُ سعةً في مناقِبِهم الأَقلامُ ، مِنهم أَخي وصديقي محمَّدُ سيفُ الإسلامِ ، وهوَ القائِلُ لمَّا عذلوهُ في كثرةِ الإنفاقِ [مِنَ الطَّويلِ] :

من أجواد الحضارمة

يَقُوْلُوْنَ : إِنِّيْ مُسْرِفٌ إِذْ يَرَوْنَنِيْ　　أُطَوِّقُ أَعْنَاقَ الرِّجَالِ بِإِحْسَانِيْ
فَقُلْتُ لَهُمْ : مُوْتُوا لِئَاماً بِغَيْظِكُمْ　　فَإِنِّيْ شَرَيْتُ الْمَجْدَ بِالتَّافِهِ الدَّانِيْ
إِذَا جِئْتُمُ يَوْمَ الْحِسَابِ بِكَنْزِكُمْ　　أَجِيْءُ بِعَفْوٍ مِنْ إِلَـٰهِيْ وَغُفْرَانِ

ويُشبِهُها : أَنَّ الراضيَ العبَّاسِيَّ وَصلَ الشعراءَ بصلاتٍ جزلَةٍ ، لامَهُ فيها كثيرٌ مِنَ النَّاسِ ، ونسبوهُ إِلىٰ الإسرافِ ، فقالَ [في « البداية والنهاية » ١١/ ١٩٧ مِنَ الكاملِ] :

يلومون الراضي العباسي على الجود

لاَ تَعْذِلُوا كَرَمِي عَلَىٰ الإِسْرَافِ　　رِبْحُ الْمَحَامِدِ مَتْجَرُ الأَشْرَافِ
إِنِّيْ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِيْنَ أَكُفُّهُمْ　　مُعْتَـادَةُ الإِتْـلاَفِ وَالإِخْـلاَفِ

إِلاَّ أَنَّ هـٰذا قاصرُ النظرِ علىٰ ما في الدنيا ، وذاكَ طامحُهُ إِلىٰ ما في الآخرَةِ ، فهنيئاً لهُما ، كلُّ امرىءٍ يأخذُ زادَهُ : ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإسراء : ١٨ـ١٩] .

نِعْمَ المال الصالح.. للرجل الصالح

وسأَلَ سائِلٌ عَنِ ٱلفرقِ ما بينَ أَموالِ السابقينَ مِنَ الحضارِمةِ ، حيثُ أُقيمَت بِها الدولُ ، وبنيَتِ ٱلمساجِدُ ، وعمِّرتِ ٱلمدارسُ ، وأُصلحَتِ ٱلْمساقي ، وأُكرمتِ ٱلضُّيوفُ ، وتوزَّعَت في طرقِ المعروفِ ، وبينَ أَموالِ المتأخِّرينَ ، لم تظهَر إِلاَّ في إِثارَةِ الشرورِ ، وعمارَةِ ٱلقصورِ ، وتحليةِ ٱلنُّحورِ ، فأُجيبَ : بأَنَّ الثروَةَ السابقَةَ لم تكُن إِلاَّ في أَيدي أَهلِها ، وأَكثرُها هدايا مِن ملوكِ الهندِ لأَعاظِمِ الرجالِ ، بخلافِ أَموالِ المتأخِّرينَ ، وإِذا أَرادَ اللهُ بقومٍ خيراً.. جعلَ أَغنياءَهم خيارَهم ، والعكسُ بالعكسِ ، ولله درُّ الناظِمِ في قولِهِ [في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ٣٧٠ مِنَ الخفيفِ] :

وَٱلْغِنَىٰ فِيْ يَدِ ٱللَّئِيْمِ قَبِيْحٌ ... قَدْرَ قُبْحِ ٱلْكَرِيْمِ فِيْ ٱلإِمْلاَقِ

أَمَّا الموجودونَ.. فكَما وَصَفْناهُم قبلُ ، وكما قالَ جحظَةُ [في « ديوانِهِ » ٦٤ مِنَ الوافرِ] :

تَسَاوَىٰ ٱلنَّاسُ فِيْ فِعْلِ ٱلْمَسَاوِيْ ... فَمَا يَسْتَحْسِنُوْنَ سِوَىٰ ٱلْقَبِيْحِ
وَصَارَ ٱلْجُوْدُ عِنْدَهُمُ جُنُوْناً ... فَمَا يَسْتَعْقِلُوْنَ سِوَىٰ ٱلشَّحِيْحِ
وَكَانُوْا يَهْرُبُوْنَ مِنَ ٱلأَهَاجِيْ ... فَصَارُوْا يَهْرُبُوْنَ مِنَ ٱلْمَدِيْحِ

ومعلومٌ أَنَّ مَن يهربُ مِنَ ٱلمديحِ خشيةَ المكافأَةِ عليهِ.. خيرٌ أَلفَ مرَّةٍ ممَّن يتمنَّاهُ مجَّاناً ، ويطلبُهُ بِلا ثمنٍ ، وقالَ غيرُهُ ـ وأَحسنَ ما شاءَ ـ [مِنَ البسيطِ] :

كَانَ ٱلْكِرَامُ وَأَبْنَاءُ ٱلْكِرَامِ إِذَا ... تَسَامَعُوْا بِكَرِيْمٍ مَسَّهُ عَدَمُ
تَسَابَقُوْا فَيُوَاسِيْهِ أَخُوْ كَرَمٍ ... مِنْهُمْ وَيَرْجِعُ بَاقِيْهِمْ وَقَدْ نَدِمُوْا
وَٱلْيَوْمَ مَا بَيْنَهُمْ صَارَ ٱلنَّدَىٰ سَفَهاً ... فَيُنْكِرُوْنَ عَلَىٰ ٱلْمُعْطِيْ إِذَا عَلِمُوْا

وقالَ أَبو العتاهيَةِ [في « ديوانهِ » ٣١٣ مِنْ مجزوءِ الكاملِ] :

اِضْـرِبْ بِطَـرْفِـكَ حَيْـثُ شِئْـ ـتَ فَلَـنْ تَـرَىٰ إِلاَّ بَخِيْـلاَ

فقيلَ لهُ [كما في « الأغاني » ٨١/٤] : لقد بَخَّلْتَ الناسَ أَجمعينَ ، قالَ : كذِّبوني ولَو بواحدٍ .

وهٰذا جورٌ منهُ ، وقلَّةُ حياءٍ ، وإِلاَّ . . فَمِن أَينَ لهُ الأَموالُ الطائِلَةُ التي جمعَها ؟ وَلٰكِنَّهُ كانَ شحيحاً خبيثاً ، وكانَ يتخنَّثُ في أَوَّلِ أَمرِهِ ، ولِذا صنعَ معَهُ ابن معنٍ ما ذكرناهُ أَوَّلَ المجلسِ الرابعِ[1] ، وإِنَّما ينطبِقُ بيتُهُ علىٰ أَهلِ بلادِنا ، أَمَّا العصْرُ الذي تزيَّنَ بالبرامِكَةِ . . فلا يجوزُ أَنْ يقالَ فيهِ مِثْلُ هٰذا ، وَلٰكِنَّهُ مِن أَعدائِهِم ، وجاحدي فضائِلِهِم .

ويروىٰ : أَنَّ لهُ يداً في نكبَتِهِم ، قاتَلَهُ اللهُ ، وأَرضاهُمْ .

* * *

(١) وهو أنَّهُ أمرَ عبيدَهُ أنْ يلوطوا بهِ أمامَ عينيهِ .

المجلس الخامس عشر

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ٣٣٩ مِنَ الكاملِ] :

أَمْطِرْ عَلَيَّ سَحَابَ جُودِكَ ثَرَّةً	وَٱنْظُرْ إِلَيَّ بِرَحْمَةٍ لاَ أَغْرَقُ

متى ينفع الغيث؟!

يقولُ : أَمطِر سحابَ جودِكَ عليَّ مطراً غزيراً ، ثُمَّ ٱرفقْ بي ؛ لاَ أَغرقُ مِن كثرتِها ، وفيهِ تناقضٌ ؛ إِذ كيفَ يطلُبُ الغزيرَ ، ثُمَّ يسأَلُ السلامَةَ مِنَ ٱلغرَقِ ؟ ولَو أَنَّهُ لَم يطلبْ إِلاَّ القليلَ بادياً . . لَما ٱحتاجَ إِلىٰ الاحتراسِ ، فهوَ كطرفَةَ بنِ العبدِ في قولِهِ [في « ديوانهِ » ٩٧ مِنَ الكاملِ] :

فَسَقَىٰ دِيَارَكَ غَيْرَ مُفْسِدِهَا صَوْبُ ٱلرَّبِيعِ وَدِيمَةٌ تَهْمِيْ

إِذ لا تناسبَ بينَ قولِهِ : (غَيْرَ مُفْسِدِهَا) وقولِهِ : (تَهْمِيْ) ، وقد وقعَ جريرٌ في شرٍّ مِن ذلكَ ؛ إِذ فاتَهُ الاحتراسُ جملةً في قولِهِ [في « ديوانهِ » ٢/ ٩١١ مِنَ الكاملِ] :

فَسَقَاكِ حَيْثُ حَلَلْتِ غَيْرَ فَقِيْدَةٍ هَزِجُ ٱلرَّوَاحِ وَدِيْمَةٌ لاَ تُقْلِعُ[1]

(١) هزجُ الرواحِ : يريدُ غيماً برعدٍ فيكثرُ ماؤهُ . وفي المخطوط : (الرِّياح) بدل (الرواح) .

إذ لَو دامَ ما يتمنَّاهُ علىٰ أهرامِ مصرَ . . لَمَا صارَتْ إلاَّ أثراً بعدَ عَينٍ ، ومثلُهُ قولُ الناظِمِ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٨٦ مِنَ الكاملِ] :

وَإِذَا ٱرْتَحَلْتَ فَشَيَّعَتْكَ سَلاَمَةٌ حَيْثُ ٱتَّجَهْتَ وَدِيْمَةٌ مِدْرَارُ(١)

وقد علمَ أنَّ المسافِرَ لا يكرَهُ شيئاً كرهَهُ لِلْمطرِ ، وهوَ القائِلُ [في « العُكبَريِّ » ٤/ ١٣٣ مِنَ الوافرِ] :

وَلَـٰكِـنَّ ٱلْغُيُـوْثَ إِذَا تَـوَالَـتْ بِـأَرْضِ مُسَـافِـرٍ كَـرِهَ ٱلْغَمَـامَـا

وأقبحُ منهُ قولُ مهيارِ الديلميِّ ـ في مطلعِ قصيدَةٍ [في « ديوانهِ » ٤/ ١٨٣ مِنَ الطَّويلِ] :

سَقَـىٰ دَارَهَـا بِـالـرَّقْمَتَيْـنِ وَحَيَّـاهَـا مُلِثٌّ يُعِيْدُ ٱلتُّرْبَ فِيْ ٱلدَّارِ أَمْوَاهَا(٢)

أمَّا قولُ ذِي الرُّمَّةِ [في « ديوانهِ » ١/ ٥٥٩ مِنَ الطَّويلِ] :

أَلاَ يَا ٱسْلَمِيْ يَا دَارَ مَيَّ عَلىٰ ٱلْبِلَىٰ وَلاَ زَالَ مُنْهَـلاً بِجَـرْعَـائِـكِ ٱلْقَطْـرُ

. . فَلا يخرجُ عَن بيتِ طرفَةَ ، وبيتِ الناظِمِ الذي نتكلَّمُ فيهِ ، إلاَّ أَن يجابَ بأنَّهُ دَعا للدارِ بالسلامَةِ ، وللجرعاءِ حولَها لاَ لَهَا بتوالي الغيوثِ ، فيكونُ مِن قولِهِ عليهِ السلامُ : « **اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا وَلاَ عَلَيْنَا** »(٣) .

وسمعَ أعرابيٌّ خطيباً يقولُ : اللَّهُمَّ اسقِنا غيثاً مغيثاً ، مجلِّلاً ،

---

(١) الديمةُ : المطرُ الذي ليسَ فيهِ رعدٌ ولا برقٌ .

(٢) الملثُّ : المطرُ يدومُ أيّاماً ولم يقلع .

(٣) طرف حديث أخرجه عن أنس رضي الله عنه البخاري (١٠١٤) ، ومسلم (٨٩٧) ، وأبو داوود (١١٧٤) و(١١٧٥) ، والنسائي (١٥١٥) في الاستسقاء .

سحّاً ، طبقاً ، عامّاً ، دائماً[1] ، فقالَ لَهُ : رويدَكَ ؛ حتَّىٰ آويَ إِلىٰ جبلٍ يعصمُني مِنَ ٱلماءِ ، فإِنَّكَ لا تطلُبُ إِلاَّ طُوفانَ نوحٍ .

للجود.. حدود وكل ما زاد على حده.. انقلب إلى ضده على رأيٍ!!

وقالَ أَبو نواسٍ [في « ديوانهِ » ٣٩١ مِنَ الكاملِ] :

أَنْــتَ ٱمْــرُؤٌ جَلَّلْتَنِــيْ نِعَمــاً ... أَوْهَتْ قُوَىٰ شُكْرِيْ فَقَدْ ضَعُفَا

وقالَ دِعْبِلٌ [في « ديوانهِ » ٤٢٥ مِنَ الكاملِ] :

أَصْلَحْتَنِيْ بِٱلْبِرِّ بَلْ أَفْسَدْتَنِيْ ... وَتَرَكْتَنِيْ أَتَسَخَّطُ ٱلإِحْسَانَا[2]

ولمَّا ٱنتهىٰ مروانُ ٱبنُ أَبي الجنوبِ في مدحِهِ للمتوكِّلِ إِلىٰ قولِهِ [مِنَ الكاملِ] :

فَأَمْسِكْ نَدَىٰ كَفَّيْكَ عَنِّيْ وَلاَ تَزِدْ ... فَقَدْ خِفْتُ أَنْ أَطْغَىٰ وَأَنْ أَتَجَبَّرَا

.. قالَ [في « الأغاني » ٩٩/١٢] : لاَ واللهِ حتَّىٰ أُغرِقَكَ بجودي ، ولا تبرَحْ حتَّىٰ تسأَلَ حاجَةً ، فسأَلَهُ ضيعَةً ، فأَعطاهُ إِيَّاها .

وقالَ أَبو عُبادَةَ [في « ديوانهِ » ٢١/١ـ٢٢ مِنَ الكاملِ] :

أَخجلْتَنِيْ بِنَدَىٰ يَدَيْكَ فَسَوَّدَتْ ... مَــا بَيْنَنَــا تِلْــكَ ٱلْيَــدُ ٱلْبَيْضَــاءُ
صِلَةٌ غَدَتْ فِيْ ٱلنَّاسِ وَهْيَ قَطِيْعَةٌ ... عَجَــبٌ وَبِــرٌّ عَــادَ وَهْــوَ جَفَــاءُ

وكثيراً ما نقولُ : إِنَّ الناظِمَ لا يدَعُ شاذَّةً ولا فاذَّةً ، وممَّا يؤَكِّدُ ذلكَ أَنَّهُ أَغارَ علىٰ هـٰذا المعنىٰ ، فلم يحسنِ ٱلاتِّباعَ ، بل سقطَ علىٰ أُمِّ رأْسِهِ ، وذلكَ حيثُ يقولُ [في « العُكبَرِيِّ » ٢٩/١ مِنَ الكاملِ] :

---

(١) بعض حديث أخرجه عن ابن عمر رضي الله عنهما الشافعي في « الأم » (١/ ٢٢٢) وعنه البيهقي في « معرفة السنن » (٢٠١٥) و« السنن الكبرى » (٣/ ٣٥٥ و٣٥٦) في الصلاة .

(٢) أتسخَّطُ : أَستقِلُّ .

وَلَجُدْتَ حَتَّىٰ كِدْتَ تَبْخَلُ حَائِلاً لِلْمُنْتَهَىٰ ، وَمِنَ ٱلسُّرُوْرِ بُكَاءُ

إذ لا يُتَصوَّرُ أَن ينتهيَ ٱلجودُ إلىٰ ضدِّهِ مِنَ ٱلبخلِ إلاَّ بالمَعْسرَةِ ، ولا يمكنُ إرادَةُ ذلكَ ، إنَّما يُتصوَّرُ مثلُ ما أَجادَهُ المعريُّ في قولِهِ [في «سقطِ الزندِ» ١٠٦ مِنَ البسيطِ] :

لَوِ ٱخْتَصَرْتُمْ مِنَ ٱلإِحْسَانِ زُرْتُكُمُ وَٱلْعَذْبُ يُهْجَرُ لِلإِفْرَاطِ فِيْ ٱلْخَصَرِ (١)

من المبالغة في الإحسان قصة هرم بن سنان وزهير

ومِنَ المبالغَةِ في الإحسانِ ، ما كانَ مِن هَرِمِ بنِ سنانٍ إلىٰ زهيرٍ ، فلقد آلىٰ علىٰ نفسِهِ أَنْ لا يسلِّمَ عليهِ إلاَّ أَعطاهُ غرَّةً مِن مالِهِ ، فكانَ زهيرٌ بعدَ ذلكَ يمرُّ بالقومِ فيهِم هَرِمٌ ، فيقولُ [في « وفيات الأعيان » ٦/٢٦٤] : عِموا صباحاً خَلا هَرِماً ، وخيرَكُمْ تركْتُ .

أبو دلف وعلي بن جبلة

ويروىٰ [في « الأغاني » ٨/ ٢٦٥] : أَنَّ أَبا دُلَفٍ العجليَّ أَخجلَ عليَّ بنَ جبلَةَ بتوالي العَطايا ، وإفاضَةِ الندىٰ ، فٱنقطَعَ عنهُ ، فأَرسَلَ إليهِ يستزيرُهُ ، فكتبَ إليهِ [مِنَ الطَّويلِ] :

هَجَرْتُكَ لَمْ أَهْجُرْكَ مِنْ كُفْرِ نِعْمَةٍ وَهَلْ يُرْتَجَىٰ نَيْلُ ٱلزِّيَادَةِ بِٱلْكُفْرِ ؟
وَلٰكِنَّنِـي لَمَّـا أَتَيْتُـكَ زَائِـراً فَأَفْرَطْتَ فِيْ بِرِّيْ عَجَزْتُ عَنِ ٱلشُّكْرِ
فَـمِ ٱلآنَ لاَ آتِيْـكَ إِلاَّ مُسَلِّمـاً أَزُوْرُكَ فِيْ ٱلشَّهْرَيْنِ يَوْماً أَوِ ٱلشَّهْرِ
فَـإِنْ زِدْتَنِـيْ بِـرّاً تَـزَايَـدْتُ جَفْـوَةً وَلَمْ تَلْقَنِيْ طُوْلَ ٱلْحَيَاةِ إِلَىٰ ٱلْحَشْرِ

فأُعجبَ بِها أَبو دُلَفٍ ، وكانَ حاضرَ الجوابِ ، شديدَ العارضَةِ ، فأَجابَهُ مِن ساعتِهِ بقولِهِ [مِنَ الطَّويلِ] :

أَلاَ رُبَّ ضَيْفٍ طَارِقٍ قَدْ بَسَطْتُهُ وَآنَسْتُهُ قَبْلَ ٱلضِّيَافَةِ بِٱلْبِشْرِ

(١) العذبُ : الماءُ البارِدُ . الإفراطُ : الإسرافُ . الخَصَرُ : البرودةُ .

أَتَـانِـي يُـرَجِّيْنِـيْ فَمَـا حَـالَ دُوْنَـهُ ... وَدُوْنَ ٱلْقِرَىٰ وَٱلْعُرْفِ مِنْ نَائِلِيْ سَتْرِيْ

وَجَدْتُ لَهُ فَضْلاً عَلَيَّ بِقَصْدِهِ ... إِلَـيَّ وَبِـرّاً زَادَ فِيْـهِ عَلَـىٰ بِـرِّيْ

فَـزَوَّدْتُـهُ مَـا لاَ يَـدُوْمُ بَقَـاؤُهُ ... وَزَوَّدَنِيْ مَدْحاً يَدُوْمُ عَلَىٰ ٱلدَّهْرِ

هٰؤُلاءِ واللهِ طوالُ الباعِ ، وبمثلِ أَخبارِهم تشنَّفُ الأَسماعُ ، ولا غروَ ؛ فالمأمونُ معَ سعَةِ حلمِهِ قد ٱغتاظَ مِن أَماديحِ ٱبنِ جبلَةَ لأَبي دُلَفٍ [كما في « الأغاني » ٢٠/٢١] وما زالَ يتحيَّنُ لهُ الفرصَ ، حتَّىٰ ٱستلَّ لسانَهُ مِن قفاهُ ؛ حسداً علىٰ ما خلَّفَهُ لأَبي دلفٍ مِن صادِقِ المدْحِ الذي لا يَبْلَىٰ ، وقد سبقَ قبيلَ المجلسِ الحادي عشرَ ما يتَّصلُ بهٰذا الكلامِ .

ومِنَ ٱلمعلوم أَنَّ البسطَةَ محمودَةٌ في كلِّ حالٍ ، وقد قالَ جلَّ ذكرُهُ : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾ [الإسراء : ٢٩] ، وقالَ عزَّ ثناؤُهُ : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان : ٦٧] .

لا إسراف في الخير

وقالَ بعضُهم [في « خِزانة الأدب » ١/٣٥٥] : لا خيرَ في السرفِ ، فقالَ آخرُ : لا إِسرافَ في الخيرِ . وفي العكْسِ نظرٌ .

وقد سبقَ ـ في المجلسينِ السادسِ والثالثَ عشرَ ـ بعضُ ما جاءَ في المفاضلَةِ بينَ الفقرِ والغنىٰ ، مَعَ الاتفاقِ علىٰ مدحِ الكفافِ ، لأَنَّ اللهَ ـ جلَّ شأنُهُ ، كما في سورَةِ الفجرِ ـ سمَّىٰ كِلا الأَمرينِ بلاءً .

وتكلَّمَ الناسُ في مجلسِ عبدِ الملكِ بنِ مروانَ عَنِ ٱلأَنْعَمِ عيناً ، الأَرغدِ عيشاً ، فأَفاضوا في القولِ ، وذَهبوا المذاهبَ ، وسلَكوا الوِهادَ واليَفاعَ ، حتَّىٰ سَكَتوا ، فقالَ عبدُ الملِكِ : أَسعدُ الناسِ

حالاً ، وأَنعمُهُم بالاً ، مَن لهُ دارٌ تؤيهِ ، وزوجٌ ترضيهِ ، ومالٌ يكفيهِ ، ولا يأتينا ، ولا نأتيهِ .

وبعثَ زيادُ ٱبنُ سميّةَ ليلةً بـ(البصرةِ) ـ بعدَ هداءَةٍ مِنَ ٱلليلِ ـ إلىٰ جماعَةٍ مِن أَهلِ العلمِ ، فيهِم الأَحنفُ بنُ قيسٍ ، فقالَ : حدِّثوني عَن جهدِ العربِ ؛ حتَّىٰ أَشكُرَ اللهَ علىٰ ما أنعمَ ، فقد كانَ عندي جماعَةٌ مِنَ ٱلفرسِ يتواصفونَ ما كانَتِ ٱلأَكاسرَةُ فيهِ مِنَ ٱلنعيمِ ، حتَّىٰ كدْتُ أَستصْغِرُ ما مَنَّ اللهُ بهِ عَلَينا .

الجود العربي في سنة القحط

قالَ أَحدُهم : حدَّثَني ٱبنُ عمٍّ لي صدوقٌ ، قالَ : خرَجْتُ في عامٍ أَصابَ العربَ فيهِ قحطٌ شديدٌ ، حتَّىٰ أَكلوا العِظامَ ، فطفقْتُ ثلاثاً لا أَطعَمُ إلاَّ مِنْ جنسٍ ما يأْكُلُهُ بَعيري مِنْ حشراتِ الأَرضِ ، حتَّىٰ دفعْتُ إلىٰ حيٍّ ، فَقالوا : مَن ؟ قُلْتُ : ضيفٌ ، قالَتِ ٱمرأَةٌ مِنهم : واللهِ ما تركَ لَنا الدهرُ مِن قِرىً ، ولٰكنِ ٱذهَبْ إلىٰ تلكَ القبَّةِ ، فتيمَّمتُها ، فنادىٰ رَئيسُها غلامَهُ : هَل تجِدُ رِسْلاً[1] ؟ قالَ : لاَ ، إلاَّ قدرَ ما يمسكُ رمقَكَ في فلانَةٍ ـ لناقَةٍ سمَّاها ـ قالَ : هاتِهِ لضيفِنا ، فأَخذَ يحلُبُ ، قالَ ٱبنُ عمِّي : فواللهِ لقد سمعْتُ ٱلأَغاني ، وٱلمثاني ، وأَحاديثَ الأَحبابِ في التَّلاقي علىٰ طولِ البِعادِ ، فما كانَ شيءٌ أَلَذَّ في سَمعي . . مِن صوتِ الشَّخَبِ في تلكَ الليلَةِ ، فلمَّا هويتُ لأخذِ الصحفَةِ . . سقطَتْ مِن يدي ، وذهبَ ما فيها ، فواللهِ لقد ذُقْتُ فقدَ الأَهلِ ، ومرارَةَ الثُّكْلِ ، وخسارَةَ المالِ ، فلَم أَرَ مصيبَةً أَعظَمَ مِنِ ٱنكفاءِ تلكَ العلبَةِ علىٰ مثلِ حالَتي ، فلمَّا عرَفَ صاحبُ القبَّةِ جهدَ ما بي . . عمَدَ إلىٰ ناقَةٍ ، فكشَفَ عَن عرقوبِها ،

---

(١) الرِّسْلُ : اللبَنُ .

وقالَ : دونَكَ السَّنامُ ، فلمَّا ٱمتلأَتْ بَطني مِنَ ٱلشواءِ ، وشربْتُ عليهِ مِن ماءٍ في شنٍّ . . خررْتُ مغشياً عليَّ ، وما أيقظَني إلاَّ بردُ السحَرِ ، فقالَ زيادٌ : قطنيَ[1] ، فالحمدُ للهِ الذي مَنَّ عَلَينا بمحمدٍ ﷺ ، وهَدانا إِلىٰ الإِسلام ، فمَنْ صاحِبُ القبَّةِ ؟ قلتُ : عامرُ بنُ الطفيلِ ، فقالَ : كانَ واللهِ أَهلاً لَها أَبو عليٍّ ، فَلا أَشُكُّ أَنَّهُ ٱلأَحقُّ بقولِهِ [في « ديوانِ ذي الرُّمَّةِ » ١/١٥٦ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا ٱعْتَذَرَتْ بِٱلْمَحْلِ عَنْ ذِيْ ضُرُوْعِهَا   إِلَىٰ ٱلضَّيْفِ يَجْرَحْ فِيْ عَرَاقِيْبِهَا نَصْلِيْ[2]

من ليس له حظ . . لا يتعب ولا يشقى

وذكرتُ بها : أَنَّ يحيىٰ بنَ خالِدٍ البرمكيَّ ٱشتهىٰ اللَّحمَ في محبِسهِ ، فبعدَ جهدٍ قَدَرَ الفضلُ علىٰ أَنْ يشتريَ لَهُ بدرهَمٍ ، وطبخَهُ علىٰ ضوءِ السراجِ ، يمسكُهُ تارةً بيمينِهِ ، وبيسراهُ أُخرىٰ ، حتَّىٰ إِذا ٱنتهىٰ وتناولَهُ والدُهُ . . ٱنكفأَ عليهِ ، فكادَتْ تتبعُهُ نفسُهُ .

الا موت يباع فأشتريه

و[روى ابن خلكان في « وفيات الأعيان » ٢/١٢٤ أنه] كانَ الوزيرُ المهلَّبيُّ علىٰ غايَةٍ مِنَ الضيقِ ، حتَّىٰ كانَ في سفرٍ معَ صاحبٍ لَهُ[3] ، فٱشتهىٰ ٱللَّحمَ ، ولَم يَكُن معَهُ إِلاَّ درهَمٌ ، فٱشتروهُ ، وبعدَ أَن نضجَ . . ٱنكفأَ عليهِم ، فتبرَّمَ المهلَّبيُّ بالحياةِ ، وقالَ [مِنَ الوافرِ] :

أَلاَ مَـوْتٌ يُبَـاعُ فَـأَشْتَـرِيْـهِ   فَهَـٰذَا ٱلْعَيْشُ مَـالاَ خَيْـرَ فِيْـهِ
إِذَا أَبْصَـرْتُ قَبْـراً مِـن بَعِيْـدٍ   وَدِدْتُ لَـوَ ٱنَّنِـيْ فِيْمَـا يَلِيْـهِ
أَلاَ رَحِـمَ ٱلْمُهَيْمِـنُ رُوْحَ عَبْـدٍ   تَصَـدَّقَ بِـٱلْـوَفَـاةِ عَلَـىٰ أَخِيْـهِ

---

(١) قطني : أي حسبي .
(٢) أي : وإن تعتذر إبلي بالمحلِ فلم يكن في ضروعِها لبنٌ . . نحرتُها للضيفِ . عن ذي ضروعِها : أي اللبن . نَصْلِي : سيفي .
(٣) وهو أبو الحسين العسقلاني .

الدهر دولاب والحر لا ينسى الأصحاب

ثمَّ ٱفترقا ، وضربَ الدهرُ ضرباتِهِ ، وترقَّتْ حالُ المهلَّبيِّ إِلىٰ أَعظمِ درجةٍ مِنَ ٱلوزارةِ ، فرضيَ عَنِ ٱلأيَّامِ ، وقالَ [مِنَ الكاملِ] :

رَقَّ ٱلـزَّمَـانُ لِفَـاقَتِـي ۝ وَرَثَـىٰ لِطُـوْلِ تَحَـرُّقِـي
وَأَنَـالَنِـي مَـا أَشْتَهِـيْ ۝ وَأَقَـالَنِـيْ مَـا أَتَّقِـيْ
فَـلأَغْفِـرَنَّ لَـهُ ٱلْكَثِيْـ ۝ ـرَ مِـنَ ٱلـذُّنُـوْبِ ٱلسُّبَّـقِ
حَتَّـىٰ جِنَـايَتَـهُ لِمَـا ۝ فَعَـلَ ٱلْمَشِيْـبُ بِمَفْـرِقِـيْ

وبقيَ رفيقُهُ مِنَ الدهرِ في بؤسٍ ، وطالعٍ منحوسٍ ، وحالٍ موجِعٍ ، وفقرٍ مدقعٍ ، حتَّىٰ سمعَ بما ٱنتهىٰ إِليهِ صاحبُهُ ، فقصدَهُ وأَنهىٰ إِليهِ [مِنَ الوافرِ] :

أَلاَ قُـلْ لِلْـوَزِيْـرِ فَـدَتْـهُ نَفْسِـيْ ۝ مَقَـالَـةَ مُـذْكِـرٍ مَـا قَـدْ نَسِيْـهِ
أَتَـذْكُـرُ إِذْ تَقُـوْلُ لِضِيْـقِ عَيْـشٍ ۝ أَلاَ مَـوْتٌ يُبَـاعُ فَـأَشْتَـرِيْـهِ

فأَمرَ لهُ في عاجلِ الحالِ بسبعِ مئَةِ درهَمٍ ، وكتبَ في رقعتِهِ : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ ﴾ [البقرة : ٢٦١] ، ثمَّ دعاهُ ، وخلعَ عليهِ ، وقلَّدَهُ عملاً يرتزقُ منهُ .

ويشبهُ ذلكَ : أَنَّ بعضَ أُمراءِ (مصرَ) كانَ معَ تاجرٍ جلبَهُ إِليها ، فٱرتقتْ بهِ ٱلأحوالُ ، وٱنحطَّت بذلكَ التاجرِ ، حتَّىٰ ٱفتقرَ ، فكتبَ إِليهِ رقعَةً ، فيها [الأبيات في « الإيضاح في علوم البلاغة » ٣٨٥ مِنَ البسيطِ] :

كُنَّـا جَمِيْعَيْـنِ فِـيْ كَـدٍّ نُكَـابِـدُهُ ۝ وَٱلْقَلْبُ وَٱلطَّرْفُ مِنَّا فِيْ أَذىً وَقَذَىٰ
وَٱلآنَ أَقْبَلَتِ ٱلدُّنْيَا عَلَيْكَ بِمَا ۝ تَهْوَىٰ فَلاَ تَنْسَنِيْ إِنَّ ٱلْكِرَامَ إِذَا

وقولُهُ : (إِنَّ ٱلْكِرَامَ إِذَا) هوَ أَوَّلُ بيتٍ لأَبي تمَّامٍ ، أُولعَ الشعراءُ بتضمينِهِ ، وهوَ [في « ديوانِهِ » مِنَ البسيطِ] :

إِنَّ ٱلْكِـرَامَ إِذَا مَـا أَيْسَـرُوْا ذَكَـرُوْا ... مَنْ كَانَ يَأْلَفُهُمْ فِيْ ٱلْمَنْزِلِ ٱلْخَشِنِ

ثـم رأَيتـهُ معـزوّاً عنـدَ ٱبـنِ خَلِّكـانَ [في « وفيَـاتِ الأَعيـانِ » ١/٤٦] لإبراهيمَ بنِ العبَّاسِ الصوليِّ ، وقبلَهُ [مِنَ البسيطِ] :

أَوْلَـىٰ ٱلْبَـرِيَّـةِ طُـرّاً أَنْ تُـوَاسِيَـهُ ... عِنْدَ ٱلسُّرُوْرِ ٱلَّذِيْ وَاسَاكَ فِيْ ٱلْحَزَنِ

استطراد على المتنبي

ولو أَنَّ الناظِمَ كانَ مِن رجالِ التقوىٰ والصلاحِ . . لَمَا فسَّرنا قولَهُ : (لاَ أَغْرَقُ) إلاَّ بإيثارِ الكَفافِ ؛ لأَنَّ من تدسَّسَ في الشهواتِ وٱنغمَسَ في الشُّبهاتِ . . لَم يكَد يتخلَّصُ عَنِ ٱلآفاتِ ، ومعلومٌ أَنَّ رجالَ الأَعمالِ ، وكبارَ الآمالِ ، لا يكونُ قُصاراهُمُ[1] المالُ ، وقد عرفْتَ حالَ الناظِمِ ممَّا أَطنَبنا فيهِ غيرَ مرَّةٍ ، ويعجبُني قولُ لِسانِ الدينِ بن الخطيبِ [مِنَ الكاملِ] :

مَنْ مُبْلِغٌ قَوْمِيْ عَلَىٰ بُعْدِ ٱلْمَدَىٰ ... وَٱلْبَيْـنُ بَيْنَهُـمُ وَبَيْنِـيْ حَـالاَ
إِنِّيْ قَطَعْتُ ٱلْبَحْرَ لِلْبَحْرِ ٱلَّذِيْ ... أَغْنَـىٰ وَأَقْنَـىٰ وَٱجْتَبَـىٰ وَأَنَـالاَ
فَإِذَا نَفَضْتُ جَوَانِحِيْ عَنْ مَطْمَعٍ ... لَمْ أُلْفِ لِلطَّمَعِ ٱلْمُخِلِّ مَجَالاَ
إِلاَّ رِضَـا ٱللهِ ٱلَّـذِيْ هُـوَ غَـايَـةٌ ... لأُوْلِيْ ٱلنُّهَىٰ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ
وَزِيَـارَةَ ٱللَّحْـدِ ٱلَّـذِيْ أَنْـوَارُهُ ... أَبَـداً بِمِشْكَـاةِ ٱلْهُـدَىٰ تَتَـلاَلاَ

وهوَ مناسِبٌ لِمَا سبقَ في غيرِ هٰذا المجلسِ من تدرُّجِ الأَرواحِ العاليَةِ ، في معارجِ الشوقِ ، حتَّىٰ تصلَ إِلىٰ الغايَةِ ، وٱستأْنسنا لهُ

(١) قصاراهُم : غايتُهم وطلبتُهم .

بما كانَ من حالِ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ ، ودَلَلْنا عليهِ بقولِ أَفضلِ البشَرِ : « ٱللَّهُمَّ ٱلرَّفِيْقَ ٱلأَعْلَىٰ »(١) وقَرنّا إليهِ حالَ العبدِ الصالحِ في قولِهِ : ﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف : ١٠١] .

وللهِ دَرُّ لسانِ الدينِ بنِ الخطيبِ أَيضاً في قولِهِ [مِنَ الكاملِ] :

كَمْ مَرْكَبٍ أَنْضَيْتُ فِيْ طَلَبِ ٱلْهَوَىٰ ... وَظَلامِ مَسْعىً تِهْتُ فِيْهِ ضَلالاَ

وَقَفَتْ بِهِ قَدَمِيْ عَلَىٰ نَدَمِيْ أَسىً ... مَنْ رَامَ غَيْرَ ٱللهِ رَامَ مُحَالاَ

* * *

(١) مر الحديث وتخريجه في غير هذا المجلس .

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَريِّ » ٢/ ٣٤٠ مِنَ الكاملِ] :

كَذَبَ ٱبْنُ فَاعِلَةٍ يَقُولُ بِجَهْلِهِ	مَاتَ ٱلْكِرَامُ وَأَنْتَ حَيٌّ تُرْزَقُ

شرح المطلع وفيه مباحث

كنَّىٰ بالفاعِلَةِ عَنِ الزانيَةِ ، يقولُ : مَن قالَ : إِنَّ الكرامَ مَاتوا ، وأَنتَ حيٌّ . . فهوَ كاذِبٌ ، وأُمُّهُ زانيَةٌ ، ويروىٰ (تَرْزُقُ) بالبناءِ للفاعِلِ ، وفيهِ مباحِثُ :

المبحث الأول على المطلع: هل يصح القول بموت الكرام مع وجود بعضهم؟

الأَولُ : أَنَّهُ لا ٱعتراضَ علىٰ مَن يقولُ : ماتَ الكرامُ ، معَ وجودِ الأَفرادِ مِنهم ؛ لأَنَّ الحكمَ علىٰ الغالِبِ ، وإِلاَّ . . فالزمانُ لاَ يخلو ـ وإِن فسدَ ـ عَنِ ٱلخيرِ ، كما لا يسلَمُ ـ وإِن صلُحَ ـ عَنِ ٱلشَّرِّ ، ولَوِ ٱختلَّ ذلكَ . . لَفَسَدَ النظامُ ، وسقطَ الامتحانُ ، وخرجتِ ٱلدنْيا عَن طبيعتِها ، وصارَتْ إِمَّا خيراً محضاً كالجنَّةِ ، أَو شرّاً محضاً كالنارِ ، وما عمدَ أَبو الطيِّبِ إِلاَّ إِلىٰ ما ٱعتادَهُ مِنَ ٱلغلوِّ ، وإِلاَّ . . فالناسُ تشكو قلَّةَ الكرامِ مِن لدنْ آدمَ عليهِ السَّلامُ ، وكلٌّ يذمُّ زمانَهُ ؛ لأَنَّهُ لا يصفو إِلاَّ لسفلَةِ الناسِ ، ولئَامِ الخلْقِ ، فَهم الذينَ يستريحونَ ، مِن حيثُ يتعَبُ الكرامُ ، ولئِن قالَ أَبو نواسٍ ـ ما معناهُ إِنْ أَخطأْتُ لفظَهُ[١] ـ :

---

(١) البيتُ في « الديوانِ » مِن قصيدتِهِ التي مطلعُها [مِنَ البسيطِ] :

دَعْ عَنْكَ لَوْمِيْ فَإِنَّ ٱللَّوْمَ إِغْـرَاءُ	وَدَاوِنِيْ بِـالَّتِيْ كَـانَـتْ هِـيَ ٱلـدَّاءُ

والبيتُ هوَ :

دَارَتْ عَلَىٰ فِتْيَةٍ دَانَ ٱلـزَّمَـانُ لَهُـمْ	فَمَـا يُصِيبُهُـمُ إِلاَّ بِمَـا شَـاؤُوْا

صَفَتْ لَهُمُ ٱلأَيَّامُ مِنْ مُوْجِعَاتِهَا فَمَا تَتَلَقَّاهُمْ بِغَيْرِ ٱلَّذِيْ شَاؤُوْا

.. فإنَّما يصفُ سقَّاطاً مثلَهُ ، أَو هوَ مِنَ الشاذِّ الذي لا يعلَقُ عليهِ الحكْمُ ، وقد جاءَ في الحديثِ ما يقربُ مِن ذلكَ في صفاتِ الأبدالِ ، غيرَ أَنَّهُ لا يصحُّ ، ولا تنهضُ بهِ حجَّةٌ ، ولَو ذهبْنا معَ الناظِمِ إلى المشاحَّةِ.. لَرميناهُ بِحَجَرِهِ ؛ إِذ هوَ أَكثرُ الناسِ قولاً بموتِ الكرامِ ، وتغيُّرِ الأَيَّامِ ، أَليسَ هوَ القائِلَ [في « العُكبَريّ » ٤/٢٠٩ مِنَ البسيطِ] :

وَإِنَّمَا نَحْنُ فِيْ جِيْلٍ سَوَاسِيَةٍ شَرٌّ عَلَىٰ ٱلْحُرِّ مِنْ سُقْمٍ عَلَىٰ ٱلْبَدَنِ(١)

وقولُهُ : (سَوَاسِيَةٍ) أَي : متساوينَ في اللؤمِ والخسَّةِ ؛ إذ لا يقالُ : سواسيَةٌ في الخيرِ ، وقالَ بعضُهم : ما عنىٰ اللهُ إلاَّ أَهلَ زمانِنَا بقولِهِ : ﴿ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾ [الملك : ٣] . فإنَّهم سواسيَةٌ في الدناءَةِ والانحطاطِ .

وهوَ القائِلُ أَيضاً [في « العُكبريّ » ٤/ ٧٣ مِنَ الوافرِ] :

بِأَرْضٍ مَا ٱشْتَهَيْتُ رَأَيْتُ فِيْهَا فَلَيْسَ يَفُوْتُهَا إِلاَّ ٱلْكِرَامُ

وقالَ [في « العُكبري » ٤/ ١٥١ مِنَ الوافرِ] :

أَمَا فِيْ هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا كَرِيْمٌ تَزُوْلُ بِهِ عَنِ ٱلْقَلْبِ ٱلْغُمُوْمُ

---

(١) الجيلُ : الجماعةُ من الناس ، ومنه ما قرىء شذوذاً : « وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِيْلاً » بالياء ، واحد الأجيال كما في « الكشاف » (٣/ ٣٢٨) وهي قراءة علي رضي الله عنه ، وفيها تسع قراءات أخر كذلك كما في مختصر شواذ القرآن (ص/ ١٢٦) .

وقالَ [في « العُكبَريّ » ٤/ ٢٦ مِنَ البسيطِ] :

لاَ تَطْلُبَـنَّ كَـرِيمـاً بَعْـدَ رُؤْيَتِـهِ　　إِنَّ ٱلْكِرَامَ بِأَسْخَاهُمْ يَداً خُتِمُوْا

وقالَ [في « العُكبَريّ » ٤/ ٢٨١-٢٨٢ مِنَ الطَّويلِ] :

كَفَىٰ بِكَ دَاءً أَنْ تَرَىٰ ٱلْمَوْتَ شَافِياً　　وَحَسْبُ ٱلْمَنَـايَـا أَنْ يَكُـنَّ أَمَـانِيَـا

تَمَنَّيْتَهَـا لَمَّـا تَمَنَّيْـتَ أَنْ تَـرَىٰ　　صَدِيْقاً فَأَعْيَا، أَوْ عَدُوّاً مُدَاجِيَا(١)

وقالَ [في « العُكبَريّ » ٤/ ٩ مِنَ الكاملِ] :

وَتَعَـذُّرُ ٱلأَحْـرَارِ صَيَّـرَ ظَهْـرَهَـا　　إِلاَّ إِلَيْـكَ عَلَـيَّ فَـرْجَ حَـرَامِ(٢)

فبعضُ هـٰذا يقتضي أَنْ يكونَ كاذِباً ، وأُمُّهُ فاعلةٌ ، إلاَّ أَن يجابَ : بأَنَّ البيتَ الذي نتكلَّمُ فيهِ كانَ في صباهُ ، ولعلَّ الكرامَ إِذ ذاكَ كثيرٌ ، ثمَّ تفانَوا بعدَهُ ، كما جرىٰ علىٰ عهدِنا نظيرُهُ ، حسبَما يعرفُ مِن أَماديحِنا للأَشياخِ الكرامِ ، ثمَّ ٱسودَّ ظنُّنا ؛ إِذ أجلناهُ في هـٰذا السوادِ المظلمِ ، بعدَ ٱنتشارِ عقودِهم ، رضوانُ اللهِ تعالىٰ ورحماتُهُ عليهِم .

وما أَحسنَ قولَ المعريِّ [في « سقطِ الزندِ » ١٣٣ مِنَ الخفيفِ] :

كَـمْ أَرَدْنَـا ذَاكَ ٱلـزَّمَـانَ بِمَـدْحٍ　　فَشُغِلْنَـا بِـذَمِّ هَـٰـذا ٱلـزَّمَـانِ

المبحث الثاني على المطلع

الثاني : لا تغايرَ بينَ قولِ القطبِ الحدَّادِ [مِنَ الطَّويلِ] :

---

(١) أَعيا : صعبَ وعزَّ . المداجي : الساترُ للعداوةِ ، وهوَ من الدجىٰ ، وهيَ الظلمةُ .

(٢) أي : تعذُّر وجودِ الأحرارِ وقلَّتُهم صيَّرَ ظهرَ هذهِ الناقةِ عليَّ في ركوبِها إلى قصدِ سواكَ حراماً ، كركوبِ الفرجِ الحرامِ ، يريدُ الزنا .

مَضَىٰ ٱلصِّدْقُ وَأَهْلُ ٱلصِّدْقِ يَا سَعْدُ قَدْ مَضَوْا
فَـلاَ تَطْلُبَـنَّ ٱلصِّـدْقَ فِـيْ أَهْـلِ ذَا ٱلـزَّمَـنْ

وقولِ أَبي مدينَ [مِنَ البسيطِ] :

وَٱعْلَـمْ بِـأَنَّ طَـرِيْـقَ ٱلْقَـوْمِ دَارِسَـةٌ   وَحَالُ مَنْ يَدَّعِيْهَا ٱلْيَوْمَ كَيْفَ تَرَىٰ

وبينَ قولِ سيِّدِنا عبدِ الرحمـٰنِ بنِ عبدِ اللهِ بلفقيهِ [مِنَ الرَّجزِ] :

يَقُوْلُ قَوْمٌ عَنْ هُدَاهُمْ ضَلُّوْا   قَدْ عُدِمُوْا فِيْ عَصْرِنَا أَوْ قَلُّوْا
فَقُـلْ لَهُـمْ كَـلاَّ وَلَـٰكِـنْ جَلُّـوْا   عَـنْ أَنْ تَـرَاهُـمْ أَعْيُـنُ ٱلْجُهَّـالِ

لأَنَّ الأَوَّلَ هوَ الأَغلبُ الأَكثرُ الذي يناطُ بهِ الحكمُ ، وللهِ في حكمِ العمومِ خصوصٌ ، كَما أَجابَ بهِ بعضُ القضاةِ ، وقد قيلَ : جميعُ قضاةِ المسلمينَ لصوصٌ ، في شعرٍ ذكرَهُ ٱبنُ السبكيِّ في « طبقاتِهِ » [٣/١٤٣] ونسيتُهُ(١) .

وأَمَّا الثاني . . فإِنَّهُ نظرٌ خاصٌّ إِلىٰ المعنىٰ ، لا إِلىٰ الصورةِ ،

---

(١) قَدِمَ أَبو جعفرٍ البحّاثُ علىٰ الصَّاحبِ بنِ عبَّادٍ ، فارتضىٰ تصرُّفَهُ في العلمِ ، وتفنُّنَهُ في أَنواعِ الفضلِ ، وعرضَ عليهِ القضاءَ ، علىٰ شرطِ ٱنتحالِ مذهبِهِ ـ يعني الاعتزالَ ـ فامتنعَ وقالَ : لا أَبيعُ الدِّين بالدُّنيا ، فتمثَّلَ الصاحبُ بقولِ القائِلِ :

فَـلاَ تَجْعَلَنِّـيْ لِلْقَضَـاءِ فَـرِيْسَـةً   فَـإِنَّ قُضَـاةَ ٱلْعَـالَمِيْـنَ لُصُـوْصُ
مَجَـالِسُهُـمْ فِيْنَـا مَجَـالِسُ شُـرْطَـةٍ   وَأَيْدِيْهِمُ دُوْنَ ٱلشُّصُوْصِ شُصُوْصُ

فأَجازَهُ البحّاثُ بديهةً بقولِهِ :

سِـوَىٰ عُصْبَـةٍ مِنْهُـمْ تُخَـصُّ بِعِفَّـةٍ   وَللهِ فِـيْ حُكْـمِ ٱلْعُمُـوْمِ خُصُـوْصُ
خُصُـوْصُهُـمُ زَانَ ٱلْبِـلاَدَ وَإِنَّمَـا   يَـزِيْـنُ خَـوَاتِيْـمَ ٱلْمُلُـوْكِ فُصُـوْصُ

فأهلُ الحقِّ في الصورةِ قليلٌ ، لـٰكنَّهم في المعنىٰ كثيرٌ ، قالَ أَبو تمَّامٍ [في « ديوانهِ » ١/ ٣٣٠ مِنَ البسيطِ] :

إِنَّ ٱلْكِـرَامَ كَثِيـرٌ فِـيْ ٱلْبِـلَادِ وَإِنْ قَلُّوْا كَمَا غَيْرُهُمْ قُلٌّ وَإِنْ كَثُرُوْا[١]

فَلا تَخَالُفَ بينَ القولينِ ، هـٰذا مِن جهَةٍ ، والأُخرىٰ أَنَّ أَهلَ الجهلِ والفسادِ مُولَعونَ بإِنكارِ فضائِلِ العلماءِ والصلحاءِ ، وغمطِ فضائِلِهم ، وكتمِ مناقبِهم ، فهمُ الذينَ ٱعتمدَهم الثاني بتوبيخِهِ وتقريعِهِ ، بدليلِ ما وسمَهُم بهِ مِنَ ٱلجهالَةِ ، وهـٰؤلاءِ هُمُ الذينَ إِذا قالَ أَحدُهم : هَلكَ الناسُ . . فهوَ أَشدُّهم هلاكاً[٢] ، أَمَّا أَهلُ الفضلِ والعلمِ . . فلا معابَةَ عليهِم في تشكِّي الزمانِ ، وتنقُّصِ أَهلِهِ ؛ لأَنَّهم لا يقولونَ إِلاَّ الحقَّ في ذلكَ .

وأَيضاً : فالحكمُ بالشيءِ فرعُ تصوُّرِهِ ، ومِن أَينَ لِلْجاهلِ أَن يحكمَ علىٰ أَحدٍ بالفسادِ أَوِ الصلاحِ ، وهوَ لا يعرفُ حدَّهُ ، ولا ماهيَّتَهُ ؟! وقد صرَّحوا في بابِ التزكيَةِ مِنَ ٱلفقهِ ، وبابِ الجرحِ والتعديلِ مِنَ ٱلحديثِ ، أَنْ لا بدَّ للمزكِّي والجارحِ من معرفَةِ الأَسبابِ ، والخبرَةِ بها ، وإِلاَّ . . كانَ مِنَ ٱلتقوُّلِ علىٰ اللهِ ، والقولِ في دينِهِ بغيرِ علمٍ ، بخلافِ العالِمِ ، فإِنَّهُ لا يتكلَّمُ إِلاَّ عَن برهانٍ ، ولا ينطِقُ إِلاَّ عَن حجَّةٍ ، فٱعلَم هـٰذا كلَّهُ ، وَإِلاَّ . . ٱرتدَّ علىٰ العلماءِ

(١) أي : إنَّ الكرامَ وإن قلَّ عددُهم . . فإنَّ فعلَهم كبير كما أن غيرهُم منَ اللئامِ وإن كانوا كثيري العدد . . لا وجود لهم .

(٢) لما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه « إذا قال الرجل هلك الناس فهو أَهْلَكَهُم » . وعزاه في « الفتح الكبير » (١/ ١٣٣) إلى أحمد ومسلم وأبي داود .

ما مَلؤوا بهِ كتبَهُم مِنَ الحطِّ علىٰ أَبناءِ زمانِهِم ، والتشهيرِ بهِم ، وفي طليعتِهِم الإمامُ الغزاليُّ ؛ فإِنَّهُ مِن أَكثرِهم زرايةً علىٰ أَهلِ زمانِهِ .

المبحث الثالث على المطلع : المتنبي لا يزن كرم الناس ولؤمهم إلا بمعاملتهم له

والثالثُ : أَنَّ الناظِمَ لا يزنُ كرمَ الناسِ ولؤمَهُم إلاَّ بمعاملتِهِم لَهُ ، ولا يقايِسُ أَحوالَهم إِلاَّ بما يصنعونَ إِليهِ ، فمَن عرفَ لَه حقَّهُ . . فهوَ الكريمُ عندَهُ ، ومَن لا . . فَلا ، كَما قالَ [في « العُكبَريّ » ٣/٢٦٨ مِنَ المنسرحِ] :

أَنَـا الَّـذِيْ بَيَّـنَ ٱلإِلَـٰـهُ بِـهِ ٱلْـ   أَقْـدَارَ وَٱلْمَـرْءُ حَيْثُمَـا جَعَلَـهْ
جَـوْهَـرَةٌ يَفْـرَحُ ٱلْكِـرَامُ بِهَـا   وَغُصَّـــةٌ لاَ تُسِيْغُهَـا ٱلسَّفَلَـهْ

وقد أَخذهُ ولَم يحسنِ الاتباعَ مِن قولِ أَبي عُبادَةَ [في « ديوانهِ » ١/ ٦٢٥ مِنَ الطَّويلِ]:

وَإِنَّ مُقَامِيْ حَيْثُ خَيَّمْتُ مِحْنَةٌ   تَدُلُّ عَلَىٰ فَهْمِ ٱلْكِرَامِ ٱلأَجَاوِدِ

وصدقَ من جهةٍ ؛ فإِنَّ الفضلَ إِنَّما يعرفُهُ ذووهُ ، وقد قيلَ : إِنَّ الفاضلَ لا يَحْسُنُ حالُهُ إِلاَّ بينَ الفضلاءِ ، أَو أَشباهِ الفضلاءِ .

وقالَ أَبو هلالٍ العسكريُّ [في « ديوانهِ » ١٥٣ـ١٥٤ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا ضَاعَ مِثْلِيْ حَيْثُ حَلَّتْ رِكَابُهُ   بَلَىٰ حَيْثُ ضَاعَ ٱلْمَجْدُ مِثْلِيَ ضَائِعُ
وَمِثْلِـيَ مَخْضُـوْعٌ لَـهُ غَيْـرَ أَنَّـهُ   إِذَا كَانَ مَجْهُوْلَ ٱلْفَضَائِلِ خَاضِعُ
وَمِثْلِيَ مَتْبُوْعٌ عَلَىٰ كُلِّ حَالَةٍ   فَإِنْ يَنْقَلِبْ وَجْهُ ٱلزَّمَانِ فَتَابِعُ

ولَو أَنَّهُ كانَ كبيرَ النفسِ . . لكانَ لهُ مندوحَةٌ عمَّا ذكرهُ في البيتينِ الأَخيرينِ ، إِمَّا بالانجماعِ عَنِ الناسِ ، وإِمَّا بالارتحالِ عَنِ ٱلْمَقَرِّ ، واللهُ جلَّ شأْنُهُ يقولُ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ﴾ [النساء : ٩٧] .

وقدِ ٱختُلفَ في الغِنىٰ ، وخفَّةِ الروحِ ، أَيُّهما أَرفقُ بالإنسانِ . ؟ فقالَ قومٌ : بالأَوَّلِ ؛ لأَنَّ الغنيَّ محبوبٌ كيفَما كانَ ، وقالَ آخرونَ : بالثاني ؛ لأَنَّ الخفيفَ الظلِّ مسلَّطٌ ، بخلافِ الثقيلِ ، فإِنَّهُ مبغوضٌ حتَّىٰ عندَ أَهلِهِ ، فماذا يفيدُهُ الغِنىٰ ، معَ البغاضَةِ ؟

والحقُّ : أَنَّهُ لا بدَّ مِن التفصيلِ ، فإِنْ كانَ في وسَطٍ فاضلٍ . . فقد يصحُّ قولُ الآخرينَ ، وإِلاَّ . . فَلا معدِلَ عَنِ الأَوَّلِ ، وإِذا نحنُ أَمعنَّا النظرَ في حالِ الناظِمِ ، وٱستقرأْنا أَشعارَهُ . . لم ننكِر دعواهُ ، ولَم نقدِرْ علىٰ دفعِهِ عَنِ الكرَمِ ، أَوَلا ترىٰ إِلىٰ شدَّةِ إِبائِهِ ، وتعاظُمِهِ علىٰ الرؤَساءِ ، وترفُّعِهِ عَنِ الأَذنابِ والسقَّاطِ ، فهوَ القائِلُ لابنِ كنداجٍ ـ وقد أَهدىٰ إِليهِ هديَّةً هوَ إِليها محتاجٌ إِذ كانَ معتقَلاً بسجنِ (حمصَ) ـ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٢٨١ مِنَ المنسرحِ] :

غَيْـرَ ٱخْتِيَـارٍ قَبِلْـتُ بِـرَّكَ بِـيْ وَٱلْجُوْعُ يُرْضِيْ ٱلأُسُوْدَ بِٱلْجِيَفِ

فتراهُ معَ شدَّةِ الضيقِ ، وقلَّةِ الريقِ ، يتظاهَرُ بثباتِ الجأْشِ ، وذهابِ الإِيحاشِ ، لم يثنِ السجنُ مِن شأْوِهِ ، ولم يَغُضَّ الامتحانُ مِن بأْوِهِ ، ولَم يكَدْ يقبَلُ تلكَ الصلةَ إِلاَّ علىٰ التكرُّهِ والاشمئزازِ ، وليسَ بالقليلِ ما أَصابَهُ مِنَ ٱلوزيرِ المهلَّبيِّ ؛ فقد أَغرىٰ بهِ شعراءَ (العراقِ) يزدرونَهُ ، ويتهضَّمونَهُ ، ويمزِّقونَ عرضَهُ ، وحرَّشَ عليهِ مَن قدرَ مِنَ العلماءِ ـ كصاحبِ « الأغاني » ـ ينتقصونَهُ ، ويشهِّرونَ بهِ ، وليسَ بالهيِّنِ ما لاقاهُ مِنَ الصاحِبِ بنِ عبَّادٍ ؛ إِذ حَذا حذوَ سابقِهِ ، فأَغرىٰ بهِ كلَّ مَن قدرَ عليهِ مِن طلاَّبِ معروفِهِ ـ وهُم كثيرٌ ـ وأَلَّفَ كتاباً في الكشفِ عَن مَعايبِهِ ، معَ كثرَةِ ما يُغِيْرُ في العلانيَةِ علىٰ بدائِعِ معانيهِ ، وما ذلكَ إِلاَّ نتيجةَ ترفُّعِهِ عَن مدحِهِما ، وضَنِّهِ بكلامِهِ

عنهُما ، وشيءٌ مِن هٰذا لا يخالِفُ ما سبقَ لَنا ذكرهُ أَواخِرَ المجلسِ الثاني ، في الكلامِ علىٰ قولِهِ [في « العُكبَريِّ » ١/٣٠١ مِنَ المنسرحِ] :

لاَ نَـاقَتِـيْ تَقْبَـلُ ٱلـرَّدِيْـفَ وَلاَ   بِٱلسَّوْطِ يَوْمَ ٱلرِّهَانِ أُجْهِدُهَا[1]

علىٰ فرقِ ما بينَ حاليهِ في بدءِ أَمرِهِ ؛ إِذ يبيعُ المديحَ بالشيءِ التافهِ ، وبينَ آخرِ أَمرِهِ ؛ وقد أَنِفَ وٱمتلأَ شمماً وكرماً ، لا يقالُ إِنَّهُ يدورُ حيثُمَا دارَتِ الزجاجَةُ ، إِن أُعطِيَ . . رضيَ ، وإِن لَم يُعطَ . . سخطَ ؛ لأَنَّهُ لَو كانَ كذلكَ . . لَما توقَّفَ عَن هجاءِ سيفِ الدولَةِ بكلِّ ما تصِلُ إِليهِ بلاغَتُهُ ، فإِنْ قيلَ : إِنَّهُ إِنَّما أَمسكَ عنهُ ٱحتفاظاً بخطِّ الرجعَةِ . . قلنا : مَحالٌ ، ولا سيَّما عندَ سَوْرةِ الغضَبِ[2] ، وكِبْرِهِ في نفسهِ ، وتشبُّعِهِ بالآمالِ ، وإِنَّما يكونُ لَهُ وجهٌ مِنَ ٱلاحتمالِ لَو كانَ بعدَ فشلِهِ ، وخيبةِ رجائِهِ مِن كلِّ ناحيَةٍ ، علىٰ أَنَّهُ لا يصدُّهُ ذلكَ وهوَ القائِلُ [في « العُكبَريِّ » ٣/٢١٢ مِنَ المنسرحِ] :

فِيْ سَعَةِ ٱلْخَافِقَيْنِ مُضْطَرَبٌ   وَفِـيْ بِـلاَدٍ مِـنْ أُخْتِهَـا بَـدَلُ[3]

ويقولُ [في « العُكبَريِّ » ١/١٩١ مِنَ الطَّويلِ] :

غَنِيٌّ عَنِ ٱلأَوْطَانِ لاَ يَسْتَفِزُّنِيْ   إِلَىٰ بَلَدٍ سَافَرْتُ عَنْهُ إِيَابُ[4]

---

(١) الرديفُ : هو ما يرتدفُ خلفَ الراكبِ . الرهانُ : السباقُ . والناقةُ هنا : نعلُهُ .

(٢) سَورَةُ الغضبِ : شدَّتُهُ .

(٣) الخافقَان : الشرقُ والغربُ لأَنَّ الريحَ تخفقُ فيهما . المضطربُ : موضعُ الاضطرابِ ، وهوَ الذهابُ والمجيءُ .

(٤) يستفزُّني : يستخفُّني ويحرِّكني . الإيابُ : الرجوعُ .

وأنشدَ الأَصمعيُّ لبعضِ الأَعرابِ [دعبلٍ في « ديوانهِ » ١٩٥ مِنَ الكاملِ] :

أَحَسِبْتَ أَرْضَ ٱللهِ ضَيِّقَةً   عَنِّي وَأَرْضُ ٱللهِ لَمْ تَضِقِ

مَا أَطْوَلَ ٱلدُّنْيَا وَأَعْرَضَهَا   وَأَدَلَّنِي بِمَسَالِكِ ٱلطُّرُقِ

وكانَ منصورُ بنُ باذانَ ـ أَو بكرُ بنُ النطاحِ ـ أمتدحَ القاسمَ العجليَّ المعروفَ بأَبي دُلَفٍ ، فلم يحصلْ لَهُ منهُ ما في نفسِهِ ، فأنفصَلَ عنهُ وهوَ يقولُ [القائل منصور بن باذان كما في « وفيات الأعيان » ٤/٧٦ مِنَ الطَّويلِ] :

دَعِينِيَ أَجُوبُ ٱلأَرْضَ فِيْ فَلَوَاتِهَا   فَمَا ٱلْكَرَجُ ٱلدُّنْيَا وَلاَ ٱلنَّاسُ قَاسِمُ(١)

وقال السمعانيُّ [في كتاب « الذيل » كما في « وفيات الأعيان » ٤/٧٦] : أَنشدني القاضي عليُّ بنُ محمَّدٍ البلخيُّ ـ متمثِّلاً ـ للأَميرِ أَبي الحسنِ عليِّ بنِ المنتخبِ [مِنَ البسيطِ] :

فَإِنْ رَجَعْتُمْ إِلَىٰ ٱلإِحْسَانِ فَهُوَ لَكُمْ   عَبْدٌ كَمَا كَانَ مِطْوَاعٌ وَمِذْعَانُ

وَإِنْ أَبَيْتُمْ فَأَرْضُ ٱللهِ وَاسِعَةٌ   لاَ ٱلنَّاسُ أَنْتُمْ وَلاَ ٱلدُّنْيَا خُرَاسَانُ

ولَم نسمعِ الناظِمَ يتكلَّمُ في سيفِ الدولَةِ بهجاءٍ ممضٍ ، وكلامٍ جارحٍ قطُّ ، وغايةُ ما يكونُ منهُ التبرُّمُ بنفثاتٍ لا يصِلُ بها إِلىٰ التصريحِ ، ولا يخرُجُ فيها إِلىٰ الطعنِ القبيحِ ، كقولِهِ [في « العُكبَريّ » ٤/٢٣٦ مِنَ البسيطِ] :

رَأَيْتُكُمْ لاَ يَصُونُ ٱلْعِرْضَ جَارُكُمُ   وَلاَ يَدِرُّ عَلَىٰ مَرْعَاكُمُ ٱللَّبَنُ

جَزَاءُ كُلِّ قَرِيبٍ مِنْكُمُ مَلَلُ   وَحَظُّ كُلِّ مُحِبٍّ مِنْكُمُ ضَغَنُ

---

(١) الكرَجُ : بلدُ أَبي دلفٍ .

وَتَغْضَبُوْنَ عَلَىٰ مَنْ نَالَ رِفْدَكُمُ حَتَّىٰ يُعَاقِبَهُ ٱلتَّنْغِيْصُ وَٱلْمِنَنُ

وهوَ في ذلكَ غيرُ ملومٍ ، فما الذي نالَهُ في تلكَ الحضرَةِ بالقليلِ ، ومعَ ذلكَ . . فإنَّهُ يقولُ في نفسِ القصيدَةِ [في « العُكبَريِّ » ٤/ ٢٣٧ مِنَ البسيطِ] :

سَهِرْتُ بَعْدَ رَحِيْلِيْ وَحْشَةً لَكُمُ ثُمَّ ٱسْتَمَرَّ مَرِيْرِيْ وَٱرْعَوَىٰ ٱلْوَسَنُ(١)

ويقولُ لهُ أيضاً [في « العُكبَريِّ » ١/ ٢٩٣ مِنَ البسيطِ] :

فَارَقْتُكُمْ فَإِذَا مَا كَانَ عِنْدَكُمُ قَبْلَ ٱلْفِرَاقِ أَذىً بَعْدَ ٱلْفِرَاقِ يَدُ
إِذَا تَـذَكَّـرْتُ مَـا بَيْنِـيْ وَبَيْنَكُـمُ أَعَانَ قَلْبِيْ عَلَىٰ ٱلشَّوْقِ ٱلَّذِيْ أَجِدُ

فلم يزَلْ يعتلِجُ في صدرِهِ الأَمْرَانِ ، وإِنْ لَقِيَه مِنهُ الأَمرَّانِ .

وقالَ أبو الفتحِ ٱبنُ جنِّيٍّ : قرأتُ علىٰ المتنبي « ديوانَهُ » . . حتَّىٰ ٱنتهيتُ إلىٰ قولِهِ [في « العُكبَريِّ » ١/ ١٨١ مِنَ الطَّويلِ] :

أَلاَ لَيْتَ شِعْرِيْ هَلْ أَقُوْلُ قَصِيْدَةً فَـلاَ أَشْتَكِـيْ فِيْهَـا وَلاَ أَتَعَتَّـبُ
وَبِيْ مَا يَذُوْدُ ٱلشِّعْرَ عَنِّيْ أَقَلُّهُ وَلَـٰكِنَّ قَلْبِيْ يَا ٱبْنَةَ ٱلْقَوْمِ قُلَّبُ

قلتُ لهُ : يعزُّ عليَّ أن يكونَ هـٰذا الشعرُ في غيرِ سيفِ الدولَةِ ، فقالَ : أَلَم ترَني حذَّرتُه ، وأنذَرتُهُ ، في قولِي لَهُ [في « العُكبريِّ » ٣/ ١١٧ مِنَ الطَّويلِ] :

أَخَا ٱلْجُوْدِ أَعْطِ ٱلنَّاسَ مَا أَنْتَ مَالِكٌ وَلاَ تُعْطِيَـنَّ ٱلنَّـاسَ مَـا أَنَـا قَـائِـلُ

---

(١) ٱستمرَّ : ٱستقامَ . المريرُ : القوَّةُ من الحبلِ . ٱرعوىٰ : ٱنزجرَ . الوسنُ : النعاسُ .

فهوَ الذي فرَّطَ فيهِ بسوءِ تدبيرِهِ ، وقد سبقَ في المجلسِ السابعِ علىٰ قولِهِ : [في « العُكبريِّ » ٣/ ١٦٣ مِنَ البسيطِ] .

وَٱلْوَجْدُ يَقْوَىٰ كَمَا تَقْوَىٰ ٱلنَّوَىٰ أَبَدًا [وَٱلصَّبْرُ يَنْحَلُ فِيْ جِسْمِيْ كَمَا نَحِلا]

بيتٌ للأميرِ تميمِ بنِ المعزِّ ، يشبهُ قولَ الناظِمِ [في « العكبري » ١/ ١٨١ مِنَ الطَّويلِ] :

وَبِيْ مَا يَذُوْدُ ٱلشِّعْرَ عَنِّيْ أَقَلُّهُ [وَلَكِنَّ قَلْبِيْ يَا ٱبْنَةَ ٱلْقَوْمِ قُلَّبُ]

وقد أَدركَ الأَميرُ تميمٌ نحواً مِن ثمانيةَ عشرَ عاماً مِن عصرِ المتنبي ، فالأَقربُ أَنَّ الناظِمَ هوَ السابقُ إِلىٰ المعنىٰ .

وقد ذكرنا مرَّةً قضاءَ الناظِمِ لسيفِ الدولَةِ علىٰ ٱبنِ العميدِ بالانطباعِ علىٰ الكرَمِ .

ثُمَّ ما أَكثرَ ما يتأَلَّمُ مِن فراقِهِ ، فتراهُ يقولُ ـ ودمُ جرحِهِ يسيلُ ، لَمْ يجفَّ بعدُ ـ [في « العُكبَريِّ » ٤/ ١٣٤ مِنَ الطَّويلِ] :

فِرَاقٌ وَمَنْ فَارَقْتُ غَيْرُ مُذَمَّمِ وَأَمٌّ وَمَنْ يَمَّمْتُ خَيْرُ مُيَمَّمِ[1]

ويقولُ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَفَارَقْتُ خَيْرَ ٱلنَّاسِ قَاصِدَ شَرِّهِمْ وَأَكْرَمَهُمْ طُراً لأَنْذَلِهِمْ طُرَّا

ويلومُ قلبَهُ في الحنينِ إِليهِ ، فيقولُ [في « العُكبَريِّ » ٤/ ٢٨٣ مِنَ الطَّويلِ] :

حَبَبْتُكَ قَلْبِيْ ، قَبْلَ حُبِّكَ مَنْ نَأَىٰ وَقَدْ كَانَ غَدَّاراً فَكُنْ لِيَ وَافِيَا

---

(١) الأَمُّ : القصدُ .

وَأَعْلَمُ أَنَّ ٱلْبَيْنَ يُشْكِيكَ بَعْدَهُ فَلَسْتَ فُؤَادِيْ إِنْ رَأَيْتُكَ بَاكِيَا
فَإِنَّ دُمُوْعَ ٱلْعَيْنِ غُدْرٌ بِرَبِّهَا إِذَا كُنَّ إِثْرَ ٱلْغَادِرِيْنَ جَوَارِيَا

ويقولُ [في « العُكبَرِيّ » ١/١٧٨ مِنَ الطَّويلِ] :

عَشِيَّةَ أَحفَىٰ ٱلنَّاسِ بِيْ مَنْ جَفَوْتُهُ وَأَهْدَىٰ ٱلطَّرِيقَيْنِ ٱلَّتِيْ أَتَجَنَّبُ[1]

أَمَّا ذكرهُ الغدرَ ، وما أَشبهَ ذلكَ عَن سيفِ الدولَةِ . . فما هوَ إلاَّ لقوَّةِ نفسِهِ ، لا يرىٰ للملوكِ فمَن دونَهُم فضلاً عليهِ ، وإنَّما يخاطبُهُم مخاطبَةَ اللِّدَاتِ والأَقرانِ[2] ، في الكثيرِ الأَغلبِ ، ولا بدَّ مِن مثلِ ذلكَ للعتابِ ، فهوَ مضطَرٌّ إليهِ ، بدافعِ الشهامَةِ والمَوجدَةِ ، ومَن نظرَ إلىٰ قصيدتِهِ المستهلَّةِ بقولِهِ [في « العُكبَرِيّ » ٣/ ٣٦٢ مِنَ البسيطِ] :

وَا حَـرَّ قَلْبَـاهُ مِمَّـنْ قَلْبُـهُ شَبِـمُ وَمَنْ بِجِسْمِيْ وَحَالِيْ عِنْدَهُ سَقَمُ[3]

. . أَلفاها تتدفَّقُ بلاغةً ، وجزالةً ، وشهامةً ، وفخراً ، ونخوةً ، تُسجِّلُ لهُ في صفحاتِ التاريخِ ما لا تسجِّلُهُ كبارُ الفتوحِ لأَربابِ الدوَلِ ، فحصيلَةُ البحثِ : الاعترافُ لهُ بالكرمِ وحفظِ العهدِ ، وإنِّي لأَرجو أَن يغفرَ اللهُ لهُ كلَّ خطيئَةٍ زلفَها بقولِهِ [في « العُكبَرِيّ » ٤/ ٢٨٤ مِنَ الطَّويلِ] :

خُلِقْتُ أَلُوْفاً لَوْ رُدِدْتُ إِلَىٰ ٱلصِّبَا لَفَارَقْتُ شَيْبِيْ مُوْجَعَ ٱلْقَلْبِ بَاكِيَا

ولئِن قيلَ : إِنَّهُ لم يبقَ متعلِّقاً بمحاسنِ سيفِ الدولَةِ إلاَّ سياسةً في

---

(١) أحفىٰ : أَبلغُ الناسِ مسأَلةً عنِّي ، من الحفاوةِ وهي : المبالغةُ في السؤالِ عن الرجلِ والعنايةِ في أمرِهِ .
(٢) اللِّدَات : الأقران الذين ولدوا معه ، أو من هم في سنِّهِ .
(٣) الشبِمُ : البارِدُ ، والشبَمُ : البردُ .

حفظِ الهيبةِ والمروءَةِ ؛ لأَنَّهُ لا يأمَنُ السقوطَ مِن عينِ كافورَ إذا تعالَمَ الناسُ بِأَنَّهُ مطرودٌ . . فالجوابُ عنهُ أَنَّ ذلكَ لا يكونُ :

أَمَّا أَوّلاً : فلأَنَّهُ لَم يتكتَّم بشيءٍ ممَّا صارَ بينَهُ وبينَ سيفِ الدولَةِ .

وأَمَّا ثانياً : فلأَنَّهُ لم يخرجْ مطروداً ، وإِنَّما خرجَ مغاضباً ؛ لأَنَّهُ يرىٰ أَن قد قصَّروا في بعضِ حقِّهِ ، معَ حرصِهِم علىٰ بقائِهِ ، والاستئثارِ بهِ ، أَلا تسمعُ إلىٰ قولِهِ [في « العُكبَريّ » ٣/ ٣٧٢ مِنَ البسيطِ] :

لَئِنْ تَرَكْنَ ضُمَيْراً عَنْ مَيَامِنِنَا لَيَحْدُثَنَّ لِمَنْ وَدَّعْتُهُمْ نَدَمُ[١]

وأَمَّا ثالثاً : فلأَنَّ مثلَ ذلكَ لا يحصلُ إلاَّ في الأَوساطِ السافلَةِ ، والأُمَمِ المنحطَّةِ ، فهيَ التي تبني إهانَتَها أَو إكرامها علىٰ مجرَّدِ التقليدِ ، بخلافِ الحيَّةِ ، فإِنَّها لا تضعُ الرجالَ إلا بحيثُ وضعَهُم اللهُ مِن الفضيلَةِ ، بَل كلَّما استحكمتِ النفرَةُ بينَ فاضلٍ وأَحدِ الملوكِ . . اشتدَّ حرصُ الآخرينَ علىٰ الاستئثارِ بهِ ، أَمَّا سُقَّاطُ الحُسَّادِ . . فإِنَّهُ لا يُبالىٰ بهم ، وإِن توجَّهَت أَنظارُهم إلىٰ مثلِ ذلكَ بشاهِدِ قولِهِ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٩ مِنَ الطَّويلِ] :

فَلا زِلْتُ أَلْقَىٰ ٱلْحَاسِدِيْنَ بِمِثْلِهَا وَفِيْ يَدِهِمْ غَيْظٌ وَفِيْ يَدِيَ ٱلرِّفْدُ[٢]
وَعِنْـدِيْ قَبَـاطِـيُّ ٱلأَمِيْـرِ وَمَـالُـهُ وَعِنْدَهُمُ مِمَّا ظَفِرْتُ بِهِ ٱلْجَحْدُ[٣]

وأَمَّا رابعاً : فإِنَّهُ لو نظرَ إلىٰ شيءٍ مِن ذلكَ . . لَمَا تظاهَرَ بمعاداةِ

---

(١) ضُمَيرٌ : جبلٌ على يمينِ طالبِ (مصرَ) من (الشامِ) وهوَ قريبٌ من (دمشقَ) .
(٢) الرِّفدُ : العطاءُ .
(٣) القباطيُّ ـ جمعُ قبطيَّةٍ ـ : وهيَ ثيابٌ بيضٌ تُصنعُ في (مصرَ) .

الملوكِ ، ولَمَا حَشَا « ديوانَهُ » بهجاءِ كافورَ وغيرِهِ ، ولَمَا ٱستعلَنَ بهربِهِ مِن عندِهِ .

وأمَّا خامساً : فلأنَّهُ لا يرىٰ للملوكِ فضلاً عليهِ كَما قدَّمنا ، ومَا كانَ ينشدُهم إلاَّ قاعداً ، مثلَ الفرزدَقِ ، ولقد أُريدَ مرَّةً علىٰ الإنشادِ قائماً ، فقالَ : أَوَلَسْتُ القائِلَ [في « العُكبَري » ١/ ٢٨١ مِنَ الطَّويلِ] :

لِكُلِّ ٱمْرِىءٍ مِنْ دَهْرِهِ مَا تَعَوَّدَا [وَعَادَاتُ سَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ ٱلطَّعْنُ فِيْ ٱلْعِدَا]

وأمَّا سادساً : فلأنَّهُ لَم يتحفَّظْ بالمودَّةِ معَ الاستِيَاءِ . . إلاَّ لِمَن زادَ ٱختصاصُهُ بهِ ، كسيفِ الدولَةِ ، وأَبي العشائِرِ ، وإلاَّ . . فَما أَكثرَ تشكِّيهِ مِن هضائِمِ الملوكِ وجورِهِم .

المبحث الرابع على المطلع: أصل هذا المطلع من قصة جرت لأبي تمام

والرابعُ مِنَ المباحِثِ التي في البيتِ : أَنَّهُ نظرَ فيهِ إِلىٰ قصَّةٍ جَرَت لأَبي تمَّامٍ معَ أَميرٍ ، طفِقَ يتألَّم لِفَسادِ الزمانِ ، وقلَّةِ الكرامِ ، فقالَ لَهُ أَبو تمَّامٍ : لا ذَنْبَ لِلزَّمانِ معَ وجودِكَ ، ولا قلَّةَ في الكرامِ معَ جودِكَ ، وإِنَّكَ لَكَما قالَ أَبو جويريَةَ العبديُّ [مِنَ الطَّويلِ] :

طَوِيْلُ نِجَادِ ٱلسَّيْفِ حَتَّىٰ كأَنَّهُ بِـأَعْلَىٰ سَنَامَيْ فَالِجٍ يَتَطَوَّحُ
إِذَا ٱعْتَمَّ بِٱلبُرْدِ ٱلْيَمَانِيِّ خِلْتَهُ هِلالاً بَدَا مِنْ جَانِبِ ٱلأُفْقِ يُلْمَحُ
يَزِيْدُ عَلَىٰ فَضْلِ ٱلرِّجَالِ فَضِيْلَةً وَيَقْصُرُ عَنْهُ مَدْحُ مَنْ يَتَمَدَّحُ
وَيُدْلِجُ فِي حَاجَاتِ مَنْ هُوَ نَائِمٌ وَيُوْرِيْ كَرِيْمَاتِ ٱلنَّدَىٰ حِيْنَ يَقْدَحُ

فٱهتزَّ الأَميرُ ٱرتياحاً ، وٱمتلأَ أَنفُهُ أَريحيَّةً ، وصدرُهُ ٱنشراحاً ، وقالَ لأَبي تمَّامٍ : بورِكَ فيهِ شاعراً ، وراويةً ، فأَكثرَ أَبو تمَّامٍ بعدُ في « ديوانِهِ » مِنَ ٱلمعنىٰ ، فقالَ في أَحمدَ ٱبنِ أَبي دؤَادٍ [في « ديوانه » ١/ ٢١٤ مِنَ الوافرِ] :

لَقَدْ أَنْسَتْ مَسَاوِىءَ كُلِّ دَهْرٍ مَحَـاسِـنُ أَحْـمَـدَ بْـنِ أَبِـيْ دُؤَادِ

ومنهُ أخذَ الناظِمُ قولَهُ [في « العُكبريّ » ٢/١٥٩ مِنَ الطَّويلِ] :

أَزَالَتْ بِكَ ٱلأَيَّامُ عَتْبِيْ كَأَنَّمَا بَنُوْهَا لَهَا ذَنْبٌ وَأَنْتَ لَهَا عُذْرُ

وقد سبقَ بعضُ هٰذا ، معَ ما يناسبُهُ مِن كلامِ أَميرِ المؤمنينَ ـ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ ـ في أَواخرِ المجلسِ السابعِ .

المبحث الخامس على المطلع: ادعى بعضهم أن في البيت حشواً لا داعي لذكره

والخامسُ : قالَ بعضُهم : في قولهِ مِنَ القافيَةِ (تُرْزَقُ) إِنَّهُ مِنَ ٱلحشوِ القبيحِ ، الواقعِ مثلُهُ في قولِ بعضِهم [وهو أبو العيال الهذلي في « الأغاني » ٢٤/ ١٦٠ مِنَ مجزوء الوافرِ] :

[ذَكَـرْتُ أَخِـيْ] فَعَـاوَدَنِـيْ صُـدَاعُ ٱلـرَّأْسِ وَٱلْـوَصَـبُ

والحقُّ أَنَّهُ ليسَ كذلكَ ، وَلٰكِنَّهُ ناظرٌ إِلىٰ قولهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ ﴾ [النحل : ٢٦] ، وقولهِ : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾ [الأنعام : ٣٨] ، وقولهِ : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج : ٤٦] ، بَل ربَّما أَرادَ التلميحَ فيهِ إِلىٰ قولهِ جلَّ شأْنُهُ : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران : ١٦٩] .

وإِن كانَ الفرقُ ظاهراً ، بٱحتياجِ الحياةِ البرزخيَّةِ إِلىٰ التأْكيدِ بذكرِ الرزقِ ، ما لا تحتاجُهُ الحياةُ الدنيا .

وبِما جاءَ في الحشوِ . ذكرتُ أَنَّ بعضَهم أنشأَ قصيدَةً ، عَرَضَها علىٰ سبعينَ شاعراً ، كلُّهُم يُثني عَلَيها ، وبيتُ المطلعِ مِنها هٰذا [مِنَ الرَّجَزِ] :

دَعْهَا وَلاَ تَحْبِسْ زِمَامَ ٱلْمِقْوَدِ تَطْوِيْ بِأَيْدِيْهَا بِسَاطَ ٱلْفَدْفَدِ

ثُمَّ عرضَها بعدَ ذلكَ علىٰ مَن لا يؤبَهُ لَهُ ، فقالَ لَهُ : هـٰذا المطلعُ كاسفٌ ، قالَ : ولِمَ ؟ قالَ : أَرَأَيتَ لو ٱطَّلَعَ عليها الممدوحُ ، وبمجرَّدِ ما رأَىٰ ، أَو سمِعَ ، قولَكَ : دَعها.. رَماها ، وأَحالَ عليكَ في الذنْبِ ، وقالَ : إِنَّما أَخذنا بقولِكَ في تركِها .

وأَقولُ : إِنَّ فِيها نقداً آخرَ لَمْ يذكرهُ راوِي القصَّةِ ، وهوَ أَنْ لا حاجَةَ لذكرِ المقوَدِ معَ الزمامِ ؛ لأَنَّ الزمامَ لا يكونُ إِلاَّ فيهِ ، وليسَ المقامُ مقامَ إِطنابٍ ، أَو تقريرٍ ، حتَّىٰ يغتفر فيهِ أَو يقبَلَ .

* * *

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ٢٣٥ مِنَ الطَّويلِ] :

حُشَاشَةُ نَفْسٍ وَدَّعَتْ يَوْمَ وَدَّعُوْا	فَلَمْ أَدْرِ أَيَّ ٱلظَّاعِنَيْنِ أُشَيِّعُ

شرح المطلع يقولُ : لي بقيَّةُ نفسٍ فارقَتني يومَ ودَّعني الأَحبابُ ، فبقيتُ حائِراً ، لا أَدري ، أُودِّعُ الحشاشَةَ ، أَمْ أُودِّعُ الأَحبابَ؟ و(الظَّاعِنَيْنِ) يروىٰ بالتثنيَةِ ويروىٰ بالجمعِ ، وكِلاهما صالحٌ ، كما لا يخفىٰ ، وقالوا : إِنَّهُ مأخوذٌ مِن قولِ بشَّارٍ [في « ديوانهِ » ٤/١٠١ مِنَ الطَّويلِ] :

حَدَىٰ بَعْضُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَبَعْضُهُمْ   شِمَالاً وَقَلْبِي بَيْنَهُمْ مُتَوَزَّعُ

وشتَّانَ ما بينَهما ، فبيتُ بشَّارٍ متوقِّدُ الزُّجاجَةِ ، ناصعُ الديباجَةِ ، أَمَّا بيتُ الناظِمِ . . فيؤخذُ عليهِ فيهِ أَنَّ الحشاشَةَ ذهبَت معَ الأَحبابِ لجهةٍ واحدَةٍ ، فالتوديعُ لأَحدِهما توديعٌ للآخرِ ، فلا مجالَ للتَّردُّدِ ، ولا موضعَ للحيرَةِ ، فإِنْ قيلَ : إِنَّهُ تحيُّرٌ مِن حيثُ الكيفيَّةُ ، لا من حيثُ الأَينيَّةُ . . قلنا : فيهِ بعدٌ كثيرٌ ، ثُمَّ إِنَّهُ يتوجَّهُ إِليهِ ـ أَيضاً ـ ما ٱنتقدَتْهُ سيِّدَتُنا سكينَةُ علىٰ قولِهِ [في « ديوانِ جميلٍ » ١٧٦ مِنَ الطَّويلِ] :

فَلَوْ تَرَكَتْ عَقْلِيْ مَعِيْ مَا طَلَبْتُهَا   وَلَكِنْ طِلاَبِيْهَا لِمَا فَاتَ مِنْ عَقْلِيْ

ولو كانَ صادقَ المحبَّةِ ، صحيحَ الهوىٰ . . لَمَا قالَ إِلاَّ مثلَ قولِ العبَّاسِ بنِ الأَحنفِ [مِنَ الكاملِ] :

أَبْكِيْ وَقَدْ ذَهَبَ ٱلْفُؤَادُ وَإِنَّمَا   أَبْكِيْ لِفَقْدِكِ لاَ لِفَقْدِ ٱلذَّاهِبِ

فالتكلُّفُ إذن ظاهرٌ من كلامِهِ، والتشبُّعُ بما لَم يُعطَ مِنَ ٱلمحبّةِ معروفٌ مِن حالِهِ ، ومعَ ذلكَ . . فهوَ القائِلُ [في « العُكبَريّ » ٣/ ٣٢٧ مِنَ الطَّويلِ] :

وَقَـدْ يَتَـزَيَّـا بِـٱلْهَـوَىٰ غَيْـرُ أَهْلِـهِ   وَيَسْتَصْحِبُ ٱلإِنْسَانُ مَنْ لاَ يُلاَئِمُهْ[1]

وقالَ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٣٢١ مِنَ الطَّويلِ] :

وَجَائِزَةٌ دَعْوَىٰ ٱلْمَحَبَّةِ وَٱلْهَوَىٰ   وَإِنْ كَانَ لاَ يَخْفَىٰ كَلاَمُ ٱلْمُنَافِقِ

وقالَ [في « العُكبَريّ » ٣/ ٢٩٥ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا أَنَا مِمَّنْ يَدَّعِي ٱلْحُبَّ قَلْبُهُ   وَيَحْتَجُّ فِي تَرْكِ ٱلزِّيَارَةِ بِٱلشُّغْلِ

ولو أَحفيناهُ المسأَلةَ ، وناقشناهُ الحسابَ . . لأَلزمناهُ ما يَرجُمُ بهِ سواهُ ، بما يظهَرُ علىٰ شِعرِهِ مِن فلتاتِ لسانِهِ حسَبَما رأَيتَ .

القلب والروح مع الأحباب أينما ذهبوا وأينما ارتحلوا

والبيتُ الذي نتكلَّمُ فيهِ متكرِّرُ المعنىٰ في « ديوانِهِ » ، منهُ قولُهُ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٣٤١ مِنَ الطَّويلِ] :

هُوَ ٱلْبَيْنُ حَتَّىٰ مَا تَأَنَّىٰ ٱلْحَزَائِقُ   وَيَا قَلْبُ حَتَّىٰ أَنْتَ مِمَّنْ أُفَارِقُ[2] !!

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٦٩ مِنَ الطَّويلِ] :

فَجُدْ لِيْ بِقَلْبٍ إِنْ رَحَلْتُ فَإِنَّنِيْ   مُخَلِّفُ قَلْبِيْ عِنْدَ مَنْ فَضْلُهُ عِنْدِيْ

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ١/ ٣٦٥ مِنَ الوافرِ] :

وَإِنِّـيْ عَنْـكَ بَعْـدَ غَـدٍ لَغَـادٍ   وَقَلْبِيْ مِنْ فِنَائِكَ غَيْرُ غَادِيْ[3]

---

(١) تزيّا : تكلّفَ الزيَّ . يلائمه : يوافقه .

(٢) تأنّىٰ : تمهّلَ وترفّقَ . الحزائقُ : الجماعاتُ . والمعنىٰ : يقولُ مخاطباً قلبَهُ : كلُّ أحدٍ يفارقني حتّىٰ أنت ؛ لأنَّ الأحبّةَ فارقوني ، فذهبتَ معهم .

(٣) الفِناءُ : المنزلُ .

وقالَ ٱبنُ هانيءٍ الأَندلسيُّ [في « ديوانه » ١١٤ مِنَ الرَّمَلِ] :

اِمْسَحُوْا عَن نَاظِرِيْ كُحْلَ ٱلسُّهَادْ وَٱنْفُضُوْا عَنْ مَضْجَعِيْ شَوْكَ ٱلْقَتَادْ
أَوْ خُــذُوْا مِنِّــيَ مَــا أَبْقَيْتُــمُ لاَ أُرِيْدُ ٱلْجِسْمَ مَسْلُوْبَ ٱلْفُؤَادْ

وقالَ الباخرزيُّ [مِنَ الكاملِ] :

قَالَتْ ـ وَقَدْ فَتَّشْتُ عَنْهَا كُلَّ مَنْ لاَقَيْتُهُ مِنْ حَاضِرٍ أَوْ بَادِيْ ـ :
أَنَا فِيْ فُؤَادِكَ فَارْمِ لَحْظَكَ نَحْوَهُ تَرَنِيْ فَقُلْتُ لَهَا : وَأَيْنَ فُؤَادِيْ ؟

إلاَّ أَنَّ فيهِ مؤَاخذةً ؛ إذ كيفَ يراجِعُها وهوَ لا يعرفُ مكانَها؟ وكيفَ يخاطِبُها خطابَ الحاضِرِ ، وإنَّما هيَ في قلبِهِ الغائِبِ؟ ولٰكنَّ المطرِبَ قولُ الآخرِ [مِنَ الخفيفِ] :

يَا مُقِيْماً فِيْ خَاطِرِيْ وَجَنَانِيْ وَبَعِيْـداً عَـنْ نَـاظِـرِيْ وَعِيَـانِـيْ
أَنْتَ رُوْحِيْ إِنْ كُنْتُ لَسْتُ أَرَاهَا فَهِيَ أَدْنَىٰ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ دَانِيْ

وقالَ بعضُ المتأَخِّرينَ [مِنَ الكاملِ] :

لِيْ فِيْ ٱلْحِجَازِ وَدِيْعَةٌ خَلَّفْتُهَا أَوْدَعْتُهَـا يَـوْمَ ٱلْـوَدَاعِ مُـوَدِّعِـيْ
وَأَظُنُّهَـا ـ لاَ بَـلْ يَقِيْنِـيْ ـ أَنَّهَـا قَلْبِيْ فَإِنِّيْ لَمْ أَجِدْ قَلْبِيْ مَعِيْ

وتلاعبَ بهِ الشرفُ ابنُ الفارِضِ ، فقالَ [في « ديوانه » ٢٤ مِنَ الرَّمَلِ] :

كَانَ لِيْ قَلْبٌ بِجَرْعَاءِ ٱلْحِمَىٰ ضَاعَ مِنِّيْ ، هَلْ لَهُ رَدٌّ عَلَيْ(١)

وقالَ [في « ديوانه » ١٢٦ مِنَ الكاملِ] :

وَٱسْأَلْ غَزَالَ كِنَاسِهِ : هَلْ عِنْدَهُ عِلْمٌ بِقَلْبِيْ فِيْ هَوَاهُ وَحَالِهِ(٢)

---

(١) الجرعاءُ : الأَرضُ الطيبةُ .
(٢) الكِناسُ : بيتُ الغزالِ . والضمير فيه يعود إلى العقيق في البيت قبلهُ ، وهو : =

وقالَ [في « ديوانهِ » ١٤٩ مِنَ الكاملِ] :

يَا سَائِراً بِٱلْقَلْبِ غَدْراً كَيْفَ لَمْ ... تُتْبِعْهُ مَا غَادَرْتَهُ مِنْ سَائِرِيْ ؟

وقالَ [في « ديوانهِ » ٣٦ مِنَ الطَّويلِ] :

أَخَذْتُمْ فُؤَادِيْ وَهْوَ بَعْضِيْ فَمَا ٱلَّذِيْ ... يَضُرُّكُمْ أَنْ تُتْبِعُوْهُ بِجُمْلَتِيْ

وقالَ [في « ديوانهِ » ١٣٥ مِنَ الطَّويلِ] :

أَخَذْتُمْ فُؤَادِيْ وَهْوَ بَعْضِيْ فَمَا ٱلَّذِيْ ... يَضُرُّكُمُ لَو كَانَ عِنْدَكُمُ ٱلْكُلُّ

وقالَ الخابزارزيُّ [مِنَ الكاملِ] :

أَنَا غَائِبٌ وَٱلْقَلْبُ عِنْدَكَ حَاضِرٌ ... سَافَرْتُ عَنْكَ وَمَا ٱلْفُؤَادُ مُسَافِرُ

وقالَ آخرُ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَإِنْ يَرْتَحِلْ جِسْمِيْ مَعَ ٱلرَّكْبِ مُكْرَهاً ... يُقِمْ عِنْدَهُ قَلْبِيْ وَأَمْضِيْ بِلاَ قَلْبِ

وقالَ الروذباريُّ [مِنَ البسيطِ] :

وَلَوْ مَضَىٰ ٱلْكُلُّ مِنِّيْ لَمْ يَكُنْ عَجَباً ... وَإِنَّمَا عَجَبِيْ لِلْبَعْضِ حِيْنَ بَقِيْ
أَدْرِكْ بَقِيَّةَ نَفْسٍ فِيْكَ قَدْ تَلِفَتْ ... قَبْلَ ٱلْفِرَاقِ فَهَـٰذَا آخِرُ ٱلرَّمَقِ

وقالَ مِهْيارٌ [في « ديوانهِ » ٣/ ٣٢٨ مِنَ الرَّمَلِ] :

وَبِجَرْعَاءِ ٱلْحِمَىٰ قَلْبِيْ فَعُجْ ... بِٱلْحِمَىٰ وَٱقْرَأْ عَلَىٰ قَلْبِيْ ٱلسَّلاَمَا
وَتَرَجَّلْ فَتَحَدَّثْ عَجَباً : ... أَنَّ قَلْباً سَارَ عَنْ جِسْمٍ أَقَامَا[1] !!
قُلْ لِجِيْرَانِ ٱلْغَضَا : آهاً عَلَىٰ ... طِيْبِ عَيْشٍ بِٱلْغَضَا : لَوْ كَانَ دَامَا

= يَا صَاحِبِيْ هَذَا ٱلْعَقِيْقُ فَقِفْ بِهِ ... مُتَوَالِهاً إِنْ كُنْتَ لَسْتَ بِوَالِهِ

(١) الترجُّل : النزول عَنِ الفرسِ أَوِ الدَّابَّةِ ، والرَّاجلُ : خلافُ الفارسِ . =

حَمِّلُوا رِيحَ ٱلصَّبَا مِنْ نَشْرِكُمْ ... قَبْلَ أَنْ تَحْمِلَ شِيحاً وَخُزَامَا
وَٱبْعَثُوا أَشْبَاحَكُمْ لِيْ فِيْ ٱلْكَرَىٰ ... إِنْ أَذِنْتُمْ لِجُفُونِيْ أَنْ تَنَامَا

ويعجبُني قولُ أَبي عُبادَةَ [في « ديوانِهِ » ٢/ ٨٩٥ مِنَ الطَّويلِ] :

فَإِنْ بِنْتُ عَنْكُمْ مُصْبِحاً حَضَرَ ٱلْهَوَىٰ ... وَإِنْ غِبْتُ عَنْكُمْ سَائِراً شَهِدَ ٱلشِّعْرُ
سَأَشْكُرُ لاَ أَنِّيْ أُجَازِيْكَ نِعْمَةً ... بِأُخْرَىٰ ، وَلَٰكِنْ كَيْ يُقَالَ لَهُ شُكْرُ
وَأَذْكُرُ أَيَّامِيْ لَدَيْكَ وَحُسْنَهَا ... وَآخِرُ مَا يَبْقَىٰ مِنَ ٱلذَّاهِبِ ٱلذِّكْرُ

وقولُهُ [في « ديوانِهِ » ٤/ ٢٢٣٨ مِنَ الكاملِ] :

وَتَعَلَّمِيْ أَنَّ ٱعْتِلاَقِيْ حُبَّكُمْ ... ذُلِّيْ ، وَأَنَّ هَوَايَ فِيْكِ هَوَانِيْ
إِمَّا أَقَمْتُ فَإِنَّ لُبِّيَ ظَاعِنٌ ... أَوْ سِرْتُ مُنْطَلِقاً فَقَلْبِيَ عَانِيْ

وقالَ جميلُ بنُ معمرٍ [في « ديوانِهِ » ١١٨ مِنَ الطَّويلِ] :

لَئِنْ يَكُ جُثْمَانِيْ بِأَرْضٍ سِوَاكُمُ ... فَإِنَّ فُؤَادِيْ عِنْدَكِ ٱلدَّهْرَ أَجْمَعُ

وقالَ بعضُ العربِ [في « لسان العرب » ١/ ٥٠٢ مِنَ الطَّويلِ] :

وَسِرْتُ وَفِيْ نَجْرَانَ قَلْبِيْ مُخَلَّفٌ ... وَجِسْمِيْ بِبَغْدَادِ ٱلْعِرَاقِ مُشَاعِبُ(١)

وقالَ آخرُ [هو جعفرُ بن عُلْبَةَ الحارثي في « ديوان الحماسة » ١/ ١١ مِنَ الطَّويلِ] :

فُؤَادِيْ مَعَ ٱلرَّكْبِ ٱلْيَمَانِيْنَ مُصْعِدٌ ... جَنِيْبٌ وَجُثْمَانِيْ بِمَكَّةَ مُوثَقُ(٢)

---

(١) المشاعبُ : الذي يباعِدُ صاحبَهُ .

(٢) الركبُ : رُكبانُ الإبل خاصَّةً . المصعِدُ : المبعِدُ . جنيبٌ : مُستَتْبَعٌ . الجُثمانُ : البدنُ . الموثقُ : المقيَّدُ .

يقول : هوَ معَ رُكبانِ الإبلِ القاصدينَ نحوَ (اليمنِ) مقودٌ ، وبدنُه مقيَّدٌ مأسورٌ بـ(مكة) .

وقالَ عمرُ ٱبنُ أبي ربيعَةَ [في « ديوانهِ » ١/٢٣٧ مِنَ الخفيفِ] :

أَيُّهَا ٱلرَّائِحُ ٱلْمُجِدُّ ٱبْتِكَارَا ... قَدْ قَضَىٰ مِنْ تِهَامَةَ ٱلأَوْطَارَا[1]

مَنْ يَكُنْ قَلْبُهُ سَلِيماً مُقِيماً ... فَفُؤَادِي بِٱلْخَيْفِ أَضْحَىٰ مُعَارَا

وممَّا يروىٰ لصقرِ قريشٍ ـ وهوَ عبدُ الرحمٰنِ بنُ معاويَةَ بنِ هشامِ بنِ عبدِ الملكِ ـ [في « نفح الطيب » ٣/٤١ مِنَ الخفيفِ] :

أَيُّهَا ٱلرَّاكِبُ ٱلْمُيَمِّمُ أَرْضِي ... أَقْرِ مِنْ بَعْضِيَ ٱلسَّلاَمَ لِبَعْضِي

إِنَّ جِسْمِي كَمَا رَأَيْتَ بِأَرْضٍ ... وَفُؤَادِي وَمَالِكِيهِ بِأَرْضِ

وقالَ كثيِّرٌ [في « ديوان الحماسة » ٢/٩٦ مِنَ الطَّويلِ] :

وَأَنْتِ ٱلَّتِي حَبَّبْتِ شَغْباً إِلَىٰ بَدَا ... إِلَيَّ وَأَوْطَانِي بِأَرْضٍ سِوَاهُمَا[2]

حَلَلْتِ بِهَـٰذَا حَلَّةً ثُمَّ حَلَّةً ... بِهـٰذا ، فَطَابَ ٱلْوَادِيَانِ كِلاَهُمَا

إِذَا ذَرَفَتْ عَيْنَايَ أَعْتَلُّ بِٱلْقَذَىٰ ... وَعَزَّةُ لَوْ يَدْرِي ٱلطَّبِيبُ قَذَاهُمَا

والأخيرُ مِن قولِ الحطيئَةِ [في « ديوانهِ » ٩١ مِنَ الوافرِ] :

إِذَا مَا ٱلْعَيْنُ فَاضَ ٱلدَّمْعُ مِنْهَا ... أَقُولُ : بِهَا قَذىً وَهُوَ ٱلْبُكَاءُ

وقالَ الفرزدقُ [مِنَ الطَّويلِ] :

إِلَىٰ ٱللهِ أَشْكُو بِٱلْمَدِينَةِ حَاجَةً ... وَبِٱلشَّامِ أُخْرَىٰ كَيْفَ يَلْتَقِيَانِ ؟!

وقالَ [جريرٌ في « ديوانهِ » ٢/ ٨٥٠ مِنَ الطَّويلِ] :

أُحِبُّ ثَرَىٰ نَجْدٍ وَبِٱلْغَوْرِ حَاجَةٌ ... أَغَارَ ٱلْهَوَىٰ يَا عَبْدَ قَيْسٍ وَأَنْجَدَا

---

(١) الرائحُ : الذاهبُ ليلاً . المجدُّ ٱبتكاراً : المبالغُ في تبكيرهِ . الأوطارُ : الغاياتُ والمآربُ .

(٢) شغبٌ : منهلُ ماءٍ . بدا : موضعٌ .

وقالَ أَبو العتاهيَةِ [مِنَ الطَّويلِ] :

تَفَرَّقَ أَهْلانَا مُقِيماً وَظَاعِناً فَلِلَّهِ أَدْرَىٰ أَيَّ قَوْمَيَّ أَتْبَعُ
يُنَازِعُنِيْ شَوْقِيْ أَمَامِيْ وَحَاجَتِيْ وَرَائِيْ فَمَا أَدْرِيْ بِهَا كَيْفَ أَصْنَعُ

وقالَ آخرُ [وهو أبو تمَّامٍ في « ديوانِهِ » ٢/ ١٦١ مِنَ البسيطِ] :

فِيْ ٱلشَّامِ أَهْلِيْ، وَبَغْدَادُ ٱلْهَوَىٰ، وَأَنَا بِٱلرَّقْمَتَيْنِ ، وَبِٱلْفُسْطَاطِ إِخْوَانِيْ
وَمَا أَظُنُّ ٱلنَّوَىٰ تَرْضَىٰ بِمَا صَنَعَتْ حَتَّىٰ تُبَلِّغَنِيْ أَقْصَىٰ خُرَاسَانِ

وقالَ أَبو العبَّاسِ المبرِّدُ [في « مصارع العشاق » ١/ ٢٢] : اجتزتُ بديرِ هرقلَ ، فقلتُ لأَصحابي : اصعدوا بنا إِليهِ ، فرأَينا منظراً حسناً ، وإِذا كهلٌ مشدودٌ ، عليهِ آثارُ النعمَةِ ، قالَ : ما أَقدمَكُم هٰذا البلدَ ، الثقيلَ ماؤُهُ ، الغليظَ هواؤُهُ ، الجفاةَ أَهلُهُ ؟ قُلنا : طلبُ الحديثِ والأَدبِ ، قالَ حبَّذا تُنْشِدوني أَو أُنْشِدُكم ، فقلنا : بل أَنتَ ، فقالَ [مِنَ الكاملِ] :

ٱللهُ يَعْلَمُ أَنَّنِيْ كَمِدُ لاَ أَسْتَطِيْعُ أَبُثُّ مَا أَجِدُ
رُوْحَانِ لِيْ : رُوْحٌ تَضَمَّنَهَا بَلَدٌ وَأُخْرَىٰ حَازَهَا بَلَدُ
وَإِذَا ٱلْمُقِيْمَةُ لَيْسَ يَنْفَعُهَا صَبْرٌ وَلَيْسَ يَضُرُّهَا جَلَدُ
وَأَظُنُّ غَائِبَتِيْ كَشَاهِدَتِيْ بِمَكَانِهَا تَجِدُ ٱلَّذِيْ أَجِدُ

ثمَّ أُغميَ عليهِ ، فتركناهُ وانصرَفنا ، فأَفاقَ ، وقالَ : بأَبي ما أَسرعَ ذهابَكما ، أَعيراني سمعَكُما ، فعدنا إِليهِ فأَنشدَ [مِنَ البسيطِ] :

لَمَّا أَنَاخُوْا قُبَيْلَ ٱلصُّبْحِ عِيْسَهُمُ وَرَحَّلوْهَا وَسَارَتْ بِٱلْهَوَىٰ ٱلإِبِلُ
وَقَلَّبَتْ مِنْ خِلاَلِ ٱلسَّجْفِ نَاظِرَهَا تَرْنُوْ إِلَيَّ وَدَمْعُ ٱلْعَيْنِ مُنْهَمِلُ[1]

---

(١) السَّجْفُ : السِّترُ .

فَــوَدَّعَــتْ بِبَنَــانٍ عِقْــدُهَــا عَنَــمٌ .. نَادَيْتُ لاَ حَمَلَتْ رِجْلاَكَ يَا جَمَلُ[1]
وَيْلِي مِنَ ٱلْبَيْنِ مَاذَا حَلَّ بِيْ وَبِهَا يَا نَازِحَ ٱلدَّارِ حَلَّ ٱلْبَيْنُ وَٱرْتَحَلُوْا
فَلَيْتَ شِعْرِيْ وَطَالَ ٱلْعَهْدُ مَا فَعَلُوْا إِنِّيْ عَلَىٰ ٱلْعَهْدِ لَمْ أَنْقُضْ مَوَدَّتَهُمْ

فقالَ لهُ بغيضٌ مِنَّا : ماتوا ، فقالَ : وأنا أيضاً أموتُ ، فلم يزل يتجذَّبُ مِن قيدِهِ حتَّىٰ فارقَ الحياةَ :

والشعرُ الأوَّلُ لخالدِ الكاتِبِ ، ولا يمكنُ أن يكونَ صاحبَ القصَّةِ ؛ لأنَّ خالداً لَم يحبَسْ ، وإنَّما وسوسَ وهامَ علىٰ وجهِهِ ، وقالَ ابنُ دقيقِ العيدِ ، وأجادَ [في « نفح الطيب » ١/ ٦٨ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا كُنْتُ فِيْ نَجْدٍ وَطِيْبِ نَعِيْمِهَا تَذَكَّرْتُ أَهْلِيْ بِاللِّوَا وَمُحَجَّرِ
وَإِنْ كُنْتُ فِيْ أَهْلِيْ عَرَتْنِيْ صَبَابَةٌ إِلَىٰ سَاكِنِيْ نَجْدٍ وَعِيْلَ تَصَبُّرِيْ
فَمَـا زَالَ لِـيْ بَيْـنَ ٱلْفَـرِيْقَيْـنِ وَقْفَـةٌ فَمَنْ لِيْ بِنَجْدٍ بَيْنَ أَهْلِيْ وَمَعْشَرِيْ

وقالَ آخرُ [في « نفح الطيب » ١/ ٦٧ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلِيْ بِٱلْحِمَىٰ أَهْلٌ وَبِٱلْبَانِ جِيْرَةٌ وَفِيْ حَاجِرٍ خِلٌّ وَفِيْ ٱلْمُنْحَنَىٰ صَحْبُ
تَقَسَّـمَ ذَا ٱلْقَلْـبُ ٱلْمُتَيَّـمُ بَيْنَهُـمْ أُسَائِلُكُمْ بِٱللهِ هَلْ يُقْسَمُ ٱلْقَلْبُ ؟

وقالَ أبو محمَّدٍ عليُّ بنُ حزمٍ الظاهريُّ [في « شذرات الذهب » ٢/ ٣٠٠ مِنَ الوافرِ] :

لَئِنْ أَصْبَحْتُ مُرْتَحِلاً بِجِسْمِيْ فَـرُوْحِـيْ عِنْـدَكُـمْ أَبَـداً مُقِيْـمُ
وَلَـٰكِـنْ لِلْعِيَـانِ لَطِيْـفُ مَعْنـىً لَـهُ سَـأَلَ ٱلْمُعَـايَنَـةَ ٱلْكَلِيْـمُ[2]

---

(١) العَنَمُ : أرادَ بهِ البنانَ المخضوبَ ؛ لأنَّهُ يُشبَّهُ بالعنمِ وهوَ نبتٌ أحمرُ .
(٢) الكليم : هو سيدنا موسىٰ عليه وعلىٰ نبينا الصلاة والسلام ، وفي البيت إشارة إلىٰ قوله : ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِي . . . ﴾ [الأعراف : ١٤٣] .

وقالَ [في « وفيات الأعيان » ٣/ ٣٢٧ مِنَ الوافرِ] :

يَقُوْلُ أَخِيْ: شَجَاكَ رَحِيْلُ جِسْمٍ وَرُوْحُكَ مَا لَهُ عَنَّا رَحِيْلُ
فَقُلْتُ لَهُ : ٱلْمُعَايِنُ مُطْمَئِنٌّ لِذَا طَلَبَ ٱلْمُعَايَنَةَ ٱلْخَلِيْلُ(١)

وقالَ صدرُ الدينِ بنُ المرحلِ [في « طبقات ابن السبكي » ٩/ ٢٦٠ مِنَ الكاملِ] :

يَا رَبِّ فِيْ ٱلأَظْعَانِ سَارَ فُؤَادُهُ وَبِودِّهِ لَوْ كَانَ سَارَ جَمِيْعُهُ(٢)

وقالَ ٱبنُ خَلِّكَانَ [في « وفيَات الأَعيانِ » ٤/ ٢٧٥] : كانَ الشهرستانيُّ يَروي بإسنادِهِ المتَّصلِ للدريديِّ أَنَّهُ قالَ [مِنَ المنسرحِ] :

وَدَّعْتُهُ حِيْنَ لاَ تُوَدِّعُهُ رُوْحِيْ وَلَكِنَّهَا تَسِيْرُ مَعَهْ
ثُمَّ ٱفْتَرَقْنَا وَفِيْ ٱلْقُلُوْبِ لَنَا ضِيْقُ مَكَانٍ وَفِيْ ٱلدُّمُوْعِ سَعَهْ

---

(١) الخليل : هو سيدنا إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، وفي البيت إشارة إلى قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ . . .﴾ [البقرة : ٢٦٠] .

(٢) وهوَ مِن قصيدَةٍ لهُ شائقةٍ وهيَ :

يَا رَبِّ جَفْنِيْ قَدْ جَفَاهُ هُجُوْعُهُ وَٱلْوَجْدُ يَعْصِيْ مُهْجَتِيْ وَيُطِيْعُهُ
يَا رَبِّ قَلْبِيْ قَدْ تَصَدَّعَ بِالنَّوَىٰ فَإِلَىٰ مَتَىٰ هَذَا ٱلْبِعَادُ يَرُوْعُهُ ؟!
يَا رَبِّ بَدْرُ ٱلْحَيِّ غَابَ عَنِ ٱلْحِمَىٰ فَمَتَىٰ يَكُوْنُ عَلَىٰ ٱلْخِيَامِ طُلُوْعُهُ ؟!
يَا رَبِّ لاَ أَدَعُ ٱلْبُكَا فِيْ حُبِّهِمْ مِنْ بَعْدِهِمْ جُهْدُ ٱلْمُقِلِّ دُمُوْعُهُ
يَا رَبِّ هَبْ قَلْبَ ٱلْكَئِيْبِ تَجَلُّداً عَمَّنْ يُحِبُّ فَقَدْ دَنَا تَوْدِيْعُهُ
يَا رَبِّ هَذَا بَيْنُهُ وَبِعَادُهُ فَمَتَىٰ يَكُوْنُ إِيَابُهُ وَرُجُوْعُهُ ؟!

ويطربُني - فيما يقربُ مِنَ ٱلموضوعِ - قولُ الإمامِ الشبليِّ ، نَسأَلُ اللهَ أَن ينفعَنا بهِ [كما في « قرى الضيف » ٤/ ٢٤٠ مِنَ الكاملِ] :

مَضَتِ ٱلشَّبِيبَةُ وَٱلْحَبِيبَةُ فَٱنْبَرَىٰ ... دَمْعَانِ فِيْ ٱلأَجْفَانِ يَزْدَحِمَانِ
مَا أَنْصَفَتْنِيْ ٱلْحَادِثَاتُ رَمَيْنَنِيْ ... بِمُـوَدِّعَيْـنِ وَلَيْـسَ لِـيْ قَلْبَـانِ

* * *

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ٢٣٥ مِنَ الطَّويلِ] :

أَشَارُوْا بِتَسْلِيْمٍ فَجُدْنَا بِأَنْفُسٍ تَسِيْلُ مِنَ ٱلآمَاقِ وَٱلسُّمُ أَدْمُعُ

يقولُ : أَشاروا علينا بالسلامِ. . فجُدْنَا لَهم بالأَرواحِ تسيلُ مِنَ ٱلآماقِ ، يحسبُها الناسُ دموعاً ، و(السُّمُ) لغَةٌ في الاسمِ ، وٱستعمالُها ليسَ بِجَيِّدٍ ؛ لأَنَّها مهجورةٌ . شرح المطلع

والمعنىٰ متكرِّرٌ في شعرِهِ ، منهُ قولُهُ [في « العُكبَرِيِّ » ٢/٢٤٩ مِنَ الكاملِ] : الروح الراحلة وليس هم!! فينبغي التفريق

رَحَلَ ٱلْعَزَاءُ بِرِحْلَتِيْ فَكَأَنَّنِيْ أَتْبَعْتُــهُ ٱلأَنْفَــاسَ لِلتَّشْيِيْــعِ

وقولُهُ [في « العُكبَرِيِّ » ٤/٨ مِنَ الكاملِ] :

لَيْسَ ٱلْقِبَابُ عَلَىٰ ٱلرِّكَابِ وَإِنَّمَا هُنَّ ٱلْحَيَاةُ تَرَحَّلَتْ بِسَلامِ[1]
أَرْوَاحُنَا ٱنْهَمَلَتْ وَعِشْنَا بَعْدَهَا مِنْ بَعْدِ مَا قَطَرَتْ عَلَىٰ ٱلأَقْدَامِ

وقولُهُ [في « العُكبَرِيِّ » ٣/ ٢٢١ مِنَ الوافرِ] :

بِقَـائِـيْ شَـاءَ لَيْـسَ هُـمُ ٱرْتِحَـالاَ وَحُسْنَ ٱلصَّبْرِ زَمُّوْا لاَ ٱلْجِمَالاَ[2]

وقالَ غيرهُ [مِنَ الطَّويلِ] :

خَلِيْلَـيَّ مَـا دَمْعـاً بَكَيْـتُ وَإِنَّمَـا هِيَ ٱلرُّوْحُ مِنْ عَيْنِيْ تَسِيْلُ عَلَىٰ خَدِّيْ

---

(١) القِبابُ : الهوادجُ . الركابُ : الإبلُ .
(٢) زمُّوا الجمالَ : خطموها بالأزِمَّةِ ، وزمَّ : تقدَّمَ في السيرِ ، وأصلهُ من زمُّوها : إذا قادوها بالأزِمَّةِ للسيرِ .

وقالَ بشَّارٌ [في « ديوانهِ » ٤/ ٤٩ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَيْسَ ٱلَّذِيْ يَجْرِيْ مِنَ ٱلْعَيْنِ مَاؤُهَا وَلَـٰكِنَّهَـا رُوْحِـيْ تَـذُوْبُ فَتَقْطُـرُ

وقالَ ديكُ الجنِّ [في « ديوانهِ » ٢١١ مِنَ الخفيفِ] :

لَيْسَ ذَا ٱلدَّمْعُ دَمْعَ عَيْنِيْ وَلَـٰكِنْ هِـيَ نَفْسِـيْ تُـذِيْبُهَـا أَنْفَـاسِـيْ

وقالَ ٱبنُ دريدٍ [في « ديوانهِ » ٤٥ مِنَ الكاملِ] :

لاَ تَحْسَبُـوْا دَمْعِـيْ تَحَـدَّرَ إِنَّهَـا نَفْسِيْ جَرَتْ فِيْ دَمْعِيَ ٱلْمُتَحَدِّرِ

وقالَ [في « ديوانهِ » ٥٦ مِنَ الكاملِ] :

قَلْـبٌ تَقَطَّـعَ فَـٱسْتَحَـالَ نَجِيْعَـا فَجَرَىٰ وَصَارَ مَعَ ٱلدُّمُوْعِ دُمُوْعَا

وكلُّهُ مِنَ ٱلمبالغَةِ المقبولَةِ ؛ إذ يُتَصوَّرُ عقلاً وعادَةً ، ولئِن خرجَ عَنها . . فلَن يجاوزَ الإِغراقَ ، وهوَ مقبولٌ أَيضاً .

والافتراقُ لهُ ٱحتراقٌ ، يفضي بكثيرٍ مِنَ ٱلقلوبِ إلىٰ الانفطارِ والانشقاقِ ، قالَ النميريُّ [مِنَ الكاملِ] :

إِنَّ ٱلْمَنِيَّـةَ وَٱلْفِـرَاقَ لَـوَاحِـدٌ أَوْ تَـوْأَمَـانِ تَـرَاضَعَـا بِلَبَـانِ
فِيْ فُرْقَةِ ٱلأَحْبَابِ شُغْلٌ شَاغِلٌ وَٱلثُّكْلُ أَجْمَعَ فُرْقَةَ ٱلإِخْوَانِ

وقالَ آخرُ [في « المستطرف » ٢/ ٨٧ مِنَ الكاملِ] :

جَاءَ ٱلرَّحِيْلُ فَحِيْنَ جَدَّ تَرَحَّلَتْ مُهَجُ ٱلنُّفُوْسِ لَهُ عَنِ ٱلأَجْسَادِ
مَنْ لَمْ يَبِتْ وَٱلْبَيْنُ يَصْدَعُ قَلْبَهُ لَـمْ يَـدْرِ كَيْـفَ تَفَتُّـتُ ٱلأَكْبَـادِ

وقالَ ٱبنُ دراجٍ القسطليُّ [في « ديوانهِ » ٧٥ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا كَانَ هَـٰذَا ٱلْبَيْنُ بَيْنَ أَحِبَّةٍ وَلَـٰكِنْ قُلُوْبٌ فَارَقَتْهُنَّ أَبْدَانُ

وأنشدَ الماجِشونُ للمهديِّ [كما في « المستطرف » ٢/٨٦] : ما قالَهُ يومَ فارقَ أحبابَهُ حتَّىٰ أبكاهُ ، وهوَ [مِنَ البسيطِ] :

لِلّٰهِ بَـاكٍ عَلَـىٰ أَحْبَـابِـهِ جَـزَعـاً قَدْ كُنْتُ أَحْذَرُ هَـٰذَا قَبْلَ أَنْ يَقَعَا
مَا كَانَ وَٱللهِ شُؤْمُ ٱلدَّهْرِ يَتْرُكُنِيْ حَتَّىٰ يُجَرِّعَنِيْ مِنْ بَعْدِهِمْ جُرَعَا
إِنَّ ٱلزَّمَانَ رَأَىٰ إِلْفَ ٱلسُّرُوْرِ لَنَا فَدَبَّ بِٱلْبَيْنِ فِيْمَا بَيْنَنَا وَسَعَىٰ
فَلْيَصْنَعِ ٱلدَّهْرُ بِيْ مَا شَاءَ مُجْتَهِداً فَلاَ زِيَادَةَ شَيْءٍ بَعْدَ مَا صَنَعَا

وأَبكاهُ أيضاً آخرُ بما أنشدَهُ مِن قولِهِ [مِنَ الطَّويلِ] :

رَمَىٰ ٱلْحُبُّ مِنْ قَلْبِيْ ٱلسَّوَادَ فَأَوْجَعَا وَصَاحَ فَصِيْحٌ بِٱلرَّحِيْلِ فَأَسْمَعَا
وَغَرَّدَ حَادِيْ ٱلْبَيْنِ فَٱنْشَقَّتِ ٱلْعَصَا فَأَصْبَحْتُ مَسْلُوْبَ ٱلْفُؤَادِ مُفَجَّعَا
كَفَىٰ حَزَناً مِنْ حَادِثِ ٱلدَّهْرِ أَنَّنِيْ أَرَىٰ ٱلْبَيْنَ لاَ أَسْطِيْعُ لِلْبَيْنِ مَدْفَعَا
وَقَدْ كُنْتُ قَبْلَ ٱلْيَوْمِ بِٱلْيَوْمِ جَاهِلاً فَيَـا لَـكَ بَيْنـاً مَـا أَمَـرَّ وَأَوْجَعَـا

ومثلُ هـٰذا كثيرٌ في هـٰذهِ الأماليِّ ، فَلا نحيلُ علىٰ مجلسٍ بعينِهِ ؛ لأَنَّ في كثيرٍ مِنها ما يشبهُهُ ويتعلَّقُ بهِ ، ولا سيَّما الثاني .

* * *

[قالَ أبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ٢٣٥ مِنَ الطَّويلِ] :

حَشَايَ عَلَىٰ جَمْرٍ ذَكِيٍّ مِنَ ٱلْهَوَىٰ	وَعَيْنَايَ فِيْ رَوْضٍ مِنَ ٱلْحُسْنِ تَرْتَعُ

شرح المطلع

(الحَشَا) : ما داخلَ الجوفَ ، وأكثرُ ما يرادُ بهِ القلبُ .

القلب في النار والعيون في الجنان

يقولُ : قلبي من فراقِهِم يومَ الوداعِ علىٰ جمرٍ يتوقَّدُ ، وعينايَ ترتعانِ مِن وجهِ الحبيبِ في روضٍ مِنَ ٱلحسنِ ، وإنَّما قالَ : (ترتَعُ) ؛ لأنَّ العينينِ في حكمِ الواحدِ ، إذ هُما حاسَّةٌ واحدَةٌ ، وهوَ مِن قولِ أبي تمَّامٍ [في « ديوانهِ » ٢/ ٤٣٠ مِنَ الطَّويلِ] :

أَفِيْ ٱلْحَقِّ أَنْ يَضْحَىٰ بِقَلْبِيَ مَأْتَمٌ ... مِنَ ٱلشَّوْقِ وَٱلْبَلْوَىٰ وَعَيْنَايَ فِيْ عُرْسِ

وأبو تمَّامٍ أخذهُ عمَّن قبلَهُ ، فقد قالَ ٱبن الدمينَةِ [مِنَ الطَّويلِ] :

غَدَتْ مُقْلَتِيْ فِيْ جَنَّةٍ مِنْ جَمَالِهَا ... وَقَلْبِيْ غَدَا مِنْ هَجْرِهَا فِيْ جَهَنَّمِ

ونقلَهُ التهاميُّ إلىٰ ما ترىٰ ، فأحسنَ ، حيثُ قالَ [في « ديوانهِ » ٤٧٢ مِنَ الكاملِ] :

إِنِّيْ لأَرْحَمُ حَاسِدِيَّ لِحَرِّ مَا ... ضَمَّتْ صُدُوْرُهُمُ مِنَ ٱلأَوْغَارِ[1]
نَظَرُوْا صَنِيْعَ ٱللهِ بِيْ فَعُيُوْنُهُمْ ... فِيْ جَنَّةٍ وَقُلُوْبُهُمْ فِيْ نَارِ

وقالَ خالدٌ الكاتِبُ [مِنَ المجتثِّ] :

قَالُوْا نَرَاكَ سَقِيْماً ؟ ... فَقُلْتُ : مِنْ وَجْنَتَيْهِ
فِيْ ٱلنَّارِ قَلْبِيْ ، وَعَيْنِيْ ... فِيْ ٱلرَّوْضِ مِنْ مُقْلَتَيْهِ

---

(١) الأَوغارُ : الأحقادُ .

وهـٰذا أَشبهُ ببيتِ الناظِمِ ممَّا تقدَّمَ ، بل هوَ بعينِهِ ، لا ٱختلافَ إلاَّ في بعضِ الأَلفاظِ .

وقالَ الحسينُ بنُ الضحَّاكِ الخليعُ [مِنَ الطَّويلِ] :

لَقَدْ مَلأَتْ عَيْنِيْ بِغُرٍّ مَحَاسِنٍ   مَـلأْنَ فُـؤَادِيْ لَـوْعَـةً وَهُـمُـوْمَـا

وللناظِمِ فيما لا يخرجُ مِن معناهُ قولُهُ [في « العُكبَريِّ » ٤/ ٧٢ مِنَ الوافرِ] :

وَمَنْ خَبَرَ ٱلْغَوَانِيْ فَٱلْغَوَانِيْ   ضِيَـاءٌ فِـيْ بَـوَاطِنِـهِ ظَـلاَمُ

وهوَ ناظرٌ إلىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴾ [الحديد : ١٣] .

ولا يخرُجُ عنهُ قولُ شاعرِ المعرَّةِ [في « سقطِ الزندِ » ١١٨ مِنَ الخفيفِ] :

حَلَـبٌ لِلْـوَلِـيِّ جَنَّـةُ عَـدْنٍ   وَهْـيَ لِلْغَـادِرِيْـنَ نَـارُ ٱلْجَحِيْـمِ

وهوَ مِن قولِ صديقِهِ عبدِ الوهَّابِ المالكيِّ ، الذي سبقَ لَنا ذكرُهُ [في « وفيات الأعيان » ٣/ ٢٢١ مِنَ البسيطِ] :

بَغْـدَادُ دَارٌ لِأَهْـلِ ٱلْمَـالِ طَيِّبَـةٌ   وَلِلْمَفَالِيْسِ دَارُ ٱلضَّنْكِ وَٱلضِّيْقِ
ظَلَلْتُ حَيْرَانَ أَمْشِيْ فِيْ أَزِقَّتِهَا   كَأَنَّنِيْ مُصْحَفٌ فِيْ بَيْتِ زِنْدِيْقِ

* * *

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَرِيّ » ٢/ ٢٣٦ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَوْ حُمِّلَتْ صُمُّ الْجِبالِ الَّذِي بِنَا	غَداةَ افْتَرَقْنَا أَوْشَكَتْ تَتَصَدَّعُ

ألم البعاد يهد الجبال

وهوَ مِن قولِ البُحتريِّ [في « ديوانِهِ » ١/ ٢٥٧ مِنَ الوافرِ] :

وَلَـوْ أَنَّ الْجِبـالَ فَقَـدْنَ إِلْفـاً   لأَوْشَـكَ جَامِـدٌ مِنْهَـا يَـذُوبُ

وقولِهِ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَأَكْتُمُ مَا بِيْ مِنْ هَوَاكِ وَلَوْ يُرَىٰ   عَلَـىٰ جَبَـلٍ صَلْـدٍ إِذاً لَتَصَـدَّعَـا

وقد سبقَ ـ فيما رُويَ عَن ذي النونِ المصريِّ ـ قولُ المرأَةِ [مِنَ الطَّويلِ] :

صَبَرْتُ عَلَىٰ مَا لَوْ تُحَمَّلُ بَعْضَهُ   جِبالُ شَرُوْرَىٰ أَوْشَكَتْ تَتَصَدَّعُ

وقالَ ذُو الرُّمَّةِ [بل الصمة بن عبد الله في « الأغاني » ٦/ ١١ مِنَ الطَّويلِ] :

أَمَا وَجَلاَلِ اللهِ لَوْ تَذْكُرِيْنَنِيْ   كَذِكْرَاكِ مَا نَهْنَهْتُ لِلْعَيْنِ مَدْمَعَا
فَقَالَتْ : بَلَىٰ وَاللهِ ذِكْراً لَوَ انَّهُ   تَضَمَّنَـهُ صُـمُّ الصَّفَـا لَتَصَـدَّعَـا

وقالَ آخرُ [وهو مجنونُ ليلىٰ في « ديوانِهِ » ٥٤ مِنَ الطَّويلِ] :

فَلَوْ أَنَّ مَا بِيْ بِالْحَصَىٰ فَلَقَ الْحَصَا   وَبِـالـرِّيْـحِ لَـمْ يُسْمَعْ لَهُـنَّ هُبُـوْبُ

وكلُّهُ ناظِرٌ إِلىٰ قولِهِ تعالَىٰ ، تبارَكَ اسمُهُ : ﴿ تَكَادُ السَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴾ [مريم : ٩٠] ، وقولِهِ جلَّ ثناؤُهُ : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ﴾ [الحشر : ٢١] .

لوعة الفراق تذيب الآماق

وقالَ أَبو دهبلٍ الجمحيُّ ، يصفُ لوعَةَ ٱلفراقِ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَيَــوْمَ وَقَفْنَــا لِلْــوَدَاعِ وَكُلُّنَــا يَعُدُّ مُطِيْعَ ٱلشَّوْقِ مَنْ كَانَ أَحْزَمَا
فَصِرْتُ بِقَلْبٍ لاَ يُعَنَّفُ فِيْ ٱلْهَوَىٰ وَعَيْنٍ مَتَىٰ ٱسْتَمْطَرْتُهَا مَطَرَتْ دَمَا

وقالَ الأَميرُ تميمُ بنُ المعزِّ بنِ المنصورِ بنِ القائِمِ بنِ المهديِّ [في «ديوانهِ» ٤٦٢ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا أُمُّ خِشْفٍ طُوْلَ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ بِبَلْقَعَةٍ بَيْدَاءَ ظَمْآنَ صَادِيَا[(١)]
تَهِيْمُ وَلاَ تَدْرِيْ إِلَىٰ أَيْنَ تَنْتَهِيْ مُوَلَّهَةً حَيْرَىٰ تَجُوْبُ ٱلْفَيَافِيَا
أَضَرَّ بِهَا حَرُّ ٱلْهَجِيْرِ فَلَمْ تَجِدْ لِغُلَّتِهَا مِنْ بَارِدِ ٱلْمَاءِ شَافِيَا
إِذا بَعُدَتْ عَنْ خِشْفِهَا ٱنْعَطَفَتْ لَهُ فَأَلْفَتْهُ مَلْهُوْفَ ٱلْجَوَانِحِ طَاوِيَا
بِأَوْجَعَ مِنِّيْ يَوْمَ شَدُّوْا حُمُوْلَهُمْ وَنَادَىٰ مُنَادِيْ ٱلْبَيْنِ أَنْ لاَ تَلاَقِيَا

وبعضُ المعنىٰ مأخوذٌ مِن قولِ عمروِ بنِ كلثومٍ [في «ديوانهِ» ٨١ مِنَ الوافرِ] :

فَمَا وَجِدَتْ كَوَجْدِيْ أُمُّ سَقْبٍ أَضَلَّتْــهُ فَــرَجَّعَــتِ ٱلْحَنِيْنَــا[(٢)]
وَلاَ شَمْطَـاءُ لَـمْ يَتْـرُكْ شَقَـاهَـا لَهَــا مِــنْ تِسْعَــةٍ إِلاَّ جَنِيْنَــا[(٣)]

وفي المجلسِ الأَوَّلِ ما يشبهُهُ ، مِن كلامِ متمِّمِ بنِ نويرَةَ ، ومثلُهُ قولُ الأَبيورديِّ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا أُمُّ سَاجِيْ ٱلطَّرْفِ مَالَ بِهِ ٱلْكَرَىٰ عَلَىٰ عَذَبَاتِ ٱلْجِزْعِ تَحْسَبُهُ قَلْبَا

---

(١) الخشفُ : الظبيُ أوَّل مشيهِ .
(٢) السقبُ : ولدُ الناقةِ . الترجيعُ : ترديدُ الصوتِ .
(٣) الشمطاءُ : العجوزُ المسنَّةُ ، وهوَ أَشدُّ لحزنها . الجنينُ : الولدُ ما دامَ في بطنِ أُمِّهِ ، والميتُ ؛ لأنَّ القبرَ يجنُّهُ ؛ أي : يسترُه وهوَ المرادُ هنا .

تُرَاعِيْ بِإِحْدَىٰ مُقْلَتَيْهَا كِنَاسَهَا وَتَرْمِيْ بِأُخْرَىٰ نَحْوَهُ نَظَراً غَرْبَا
رَأَتْ مَرْتَعاً مِنْ جَانِبِ ٱلرَّمْلِ فَٱنْتَهَتْ إِلَيْهِ وَذُوْ ٱلأَطْمَاعِ لاَ يُحْمَدُ ٱلْعُقْبَىٰ
فَلَمَّـا قَضَـتْ مِنْـهُ ٱللُّبَـانَـةَ رَاجَعَـتْ خِبَاهَا فَأَلْفَتْ خِشْفَهَا قَدْ قَضَىٰ نَحْبَا
أُتِيْحَ لَهُ عَارِيْ ٱلسَّوَاعِدِ لَمْ يَزَلْ يَخُوْضُ إِلَىٰ أَوْطَارِهِ مَطْلَباً صَعْبَا
فَوَلَّتْ عَلَىٰ ذُعْرٍ وَبِٱلنَّفْسِ مَا بِهَا مِنَ ٱلْكَرْبِ لاَ لُقِّيْتِ فِيْ حَادِثٍ كَرْبَا
بِأَوْجَدَ مِنِّيْ يَوْمَ عَجَّتْ رِكَابُهَا لِبَيْنٍ فَلَمْ تَتْرُكْ لِذِيْ صَبْوَةٍ لُبَّا

وهيَ أبياتٌ رائعةٌ ، وإن أخطأَ المثلُ محلَّهُ مِنها ؛ إذ لم تزد علىٰ النجاةِ بنفسِها مِن عاري السواعِدِ ، ولَو أنَّها بقيَتْ رابضَةً . . لَبدأَ بِها ، ثمَّ ثنَّىٰ بِطِلاَهَا ، فالعاقِبَةُ عندَها محمودَةٌ ، لا مذمومَةٌ ، ولَو قدرَ لَه أن يتَسَنَّمَ الذروَةَ مِنَ ٱلروعَةِ . . لأشارَ إلىٰ أنَّهُ ٱفترسَ طِلاها بمرأىً مِنها ، فإنَّ ذلكَ أوجعُ وأفجعُ .

صلاح الدين يُعزّي في والده

وذكرتُ بهِ كتاباً سَيَّرَهُ صلاحُ الدينِ الأيوبيُّ ، تعزيَةً في والدِهِ لبعضِ قرابتهِ ، مِن إنشاءِ القاضي الفاضلِ[1] [في « الروضتين في أخبار الدولتين » ٢/٢٥٠] : لقـد عظمـتِ ٱللَّـوعَـةُ ، وٱشتـدَّتِ الـرّوعَـةُ ، وتضاعفَت لِغيبتِنا عنهُ ٱلحسرَةُ ، وٱستنجدْنا بالصبرِ فأبىٰ ، وأجابَتِ ٱلعبْرَةُ ، فيا لَهُ فقيداً فقَدْنا بِهِ العَزاءَ ، وهانَتْ بعدَهُ الأَرزاءُ :

وَتَخَطَّفَتْـهُ يَـدُ ٱلـرَّدَىٰ فِـيْ غَيْبَتِـيْ هَبْنِيْ حَضَرْتُ لَدَيْهِ ، مَاذَا أَصْنَعُ ؟

---

(١) قالَ القاضي ٱبنُ شدَّادٍ : لَمَّا عادَ صلاحُ الدِّينِ مِن بعضِ غزواتِهِ . . بلغَهُ ـ قبلَ وصولِهِ إلىٰ (مصرَ) ـ وفاةُ أبيهِ نجمِ الدِّينِ ، فشقَّ ذلكَ عليهِ ؛ حيثُ لَم يحضُرْ وفاتَهُ ، فبعثَ إلىٰ أقاربِهِ بالكتابِ المذكورِ أعلاهُ .

وقالَ أبو تمَّامٍ [في « ديوانهِ » ٢/ ٨٤ مِنَ البسيطِ] :

لَمَّا ٱسْتَحَرَّ ٱلْوَدَاعُ ٱلْمَحْضُ وَٱنْصَرَمَتْ   أَوَاخِرُ ٱلصَّبْرِ وَلَّىٰ كَاظِماً وَجِمَا(١)
رَأَيْتُ أَحْسَنَ مَرْئِيٍّ وَأَقْبَحَهُ   مُسْتَجْمِعَيْنِ لِيَ ٱلتَّوْدِيعَ وَٱلْعَنَمَا(٢)

وأهلُ المعاني ينتقدونَ عليهِ عطفَ العَنَمِ علىٰ التوديعِ ؛ إذ لا مناسبةَ بينَهُما ، كَما ينتقدونَ عليهِ مثلَ ذلكَ في قولِهِ [في « ديوانهِ » ٢/ ١٥٢ مِنَ الكاملِ] :

لاَ وَٱلَّذِي هُوَ عَالِمٌ أَنَّ ٱلنَّوَىٰ   مُرٌّ وَأَنَّ أَبَا ٱلْحُسَيْنِ كَرِيمُ

غيرَ أَنَّ التأويلَ للأَوَّلِ أقربُ منهُ للثاني .

وقالَ أبو تمَّامٍ أيضاً [في « ديوانهِ » ٢/ ٣١ مِنَ الكاملِ] :

قَالُوا ٱلرَّحِيلُ فَمَا شَكَكْتُ بِأَنَّها   نَفْسِي عَنِ ٱلدُّنْيَا تُرِيدُ رَحِيلاَ

وقالَ [في « ديوانهِ » ٢/ ٦ مِنَ البسيطِ] :

تَكَادُ تَنْتَقِلُ ٱلأَرْوَاحُ لَوْ تُرِكَتْ   مِنَ ٱلْجُسُومِ إِلَيْهَا حِيْنَ تَنْتَقِلُ

وقالَ [في « ديوانهِ » ٢/ ٤٢٨ مِنَ الخفيفِ] :

إِنَّ يَوْمَ ٱلْفِرَاقِ يَوْمٌ عَبُوسٌ   أَيُّ سَيْلٍ تَسِيلُ فِيهِ ٱلنُّفُوسُ

---

(١) اُستحرَّ : اُشتدَّ . المحضُ : الخالصُ . الكاظمُ : الكاتمُ الغيظِ . الوجِمُ : الساكتُ حزناً .

(٢) العَنَمُ : أرادَ بهِ البنانَ المخضوبَ ، لأنَّهُ يشبهُ بالعنمِ وهو نبتٌ أحمرُ .

أي : حينَ أزفَ الوداعُ ونفدَ الصبرُ فسكتَ العاشقُ حزناً . . حصلتُ على أقبحِ شيءٍ وهوَ التوديعُ ، وعلىٰ أجملِ شيءٍ وهوَ إشارةُ الأناملِ الحمرِ بالفراقِ .

وقد أخذَ البغداديُّ بأطرافِ المحاسنِ في قولِهِ [في « المستطرف » ٢/ ٨٩ مِنَ البسيطِ] :

قَـالَـتْ وَقَـدْ نَـالَهَـا لِلْبَيْـنِ أَوْجَعُـهُ ... وَٱلْبَيْنُ صَعْبٌ عَلَىٰ ٱلأَحْبَابِ مَوْقِعُهُ
اجْعَلْ يَدَيْكَ عَلَىٰ قَلْبِيْ فَقَدْ ضَعُفَتْ ... قُـوَاهُ عَـنْ حَمْـلِ مَـا فِيْـهِ وَأَضْلُعُـهُ
وَٱعْطِفْ عَلَيَّ ٱلْمَطَايَا سَاعَةً فَعَسَىٰ ... مَنْ شَتَّ شَمْلَ ٱلْهَوَىٰ بِٱلْبَيْنِ يَجْمَعُهُ
كَـأَنَّنِـي يَـوْمَ بِنَّـا حَسْـرَةً وَأَسـىً ... غَرِيْقُ بَحْرٍ يَرَىٰ ٱلشَّاطِيْ فَيُمْنَعُهُ

وقالَ آخرُ [وهو ابن البديري في « المستطرف » ٢/ ٨٩ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَمْ أَسْتَطِعْ يَوْمَ ٱلنَّوَىٰ رَدَّ عَبْرَةٍ ... وَقَلْبِيْ أَسىً مِنْ حَرِّهَا يَتَقَطَّعُ
فَقَالَ خَلِيْلِيْ إِذْ رَأَىٰ ٱلدَّمْعَ دَائِماً ... يَفِيْضُ دَماً مِنْ مُقْلَتِيْ لَيْسَ يُدْفَعُ
لَئِنْ كَانَ هَـٰذَا ٱلدَّمْعُ يَجْرِيْ صَبَابَةً ... عَلَـىٰ غَيْـرِ لَيْلَـىٰ فَهُـوَ دَمْـعٌ مُضَيَّعُ

الأذواق في الفراق

ثمَّ إنَّ الأذواقَ مختلفةٌ في شأنِ التوديعِ ، كما سبقتِ الإشارةُ إليهِ في المجلسِ الثاني .

القسم الأول يحبه لأنه يُخرِج مكنون الحب

فمِنهُم : مَن يؤثِرُهُ ؛ لِمَا فيهِ مِن قربِ البعيدِ ، وٱنكشافِ مكنونِ الحبِّ ، فقد كتبَ مصعبُ بنُ الزبيرِ مِن ميدانِ الحربِ [كما في « المنتظم حتى (٢٥٧ هـ) » ٦/ ١١٤] : لسُكَينةَ بنتِ الحسينِ ، بعدَ ليالٍ مِن فراقِها بهـٰذهِ الأبياتِ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَكَـانَ عَـزِيْـزاً أَنْ أَبِيْـتَ وَبَيْنَنَـا ... حِجَابٌ فَقَدْ أَصْبَحْتِ مِنِّيْ عَلَىٰ عَشْرِ
وَأَبْكَـاهُمَـا وَٱللهِ لِلْعَيْـنِ فَـٱعْلَمِـيْ ... إِذَا ٱزْدَدْتِ مِثْلَيْهَا فَصِرْتِ عَلَىٰ شَهْرِ
وَأَنْكَىٰ لِقَلْبِيْ مِنْهُمَا ٱلْيَوْمَ أَنَّنِي ... أَخَافُ بِأَنْ لاَ نَلْتَقِيْ آخِرَ ٱلدَّهْرِ

ثمَّ أَشخصَها إليهِ ، فشهدَت معهُ الحربَ ، ودخلَ عليها يومَ

قُتِلَ ، وقد نزعَ ثيابَهُ ، ثمَّ لبسَ غلالَةً ، وتوشَّحَ بثوبٍ وهوَ محتضِنٌ سيفَهُ ، فعلمَت أنَّهُ غيرُ راجعٍ ، فصاحَتْ : وا حزناهُ عليكَ يا مصعَبُ ، فالتفتَ إليها ، وقالَ : أَوَكُلُّ هٰذا لي في قلبِكِ؟ قالَت : وما أُخفي عنكَ أكثرُ ، قالَ : لَو كنتُ أعلَمُ أنَّ لي عندكِ هٰذا كلَّهُ . . لَكانَ لي ولَكِ شأنٌ ، ثمَّ خرجَ ولَم يرجِعْ ، وقد سبقَ خبرُهُ في غيرِ هٰذا المجلسِ .

وقال جريرٌ [في « ديوانهِ » ٢/ ٩٤٠ مِنَ الكامل] :

لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّ آخِرَ عَهْدِكُمْ ... بِٱلرَّقْمَتَيْنِ فَعَلْتُ مَا لَمْ أَفْعَلِ

فقيلَ لحفيدِهِ [كما في « المستطرف » ٢/ ٨٦] : ما كانَ جدُّكَ صانعاً لو علِمَ أنَّهُ آخرُ العهدِ؟ قالَ : كانَ يقلَعُ عينَهُ حتَّىٰ لا يرىٰ مظعنَ أحبابِهِ ، فهوَ حينئذٍ أليَقُ بحالِ مَن يكرَهُ الوداعَ ، لا بما نحنُ فيهِ مِمَّن يؤثرُهُ ، ومنهُ قولُ بعضِهِم [مِنَ السَّريع] :

وَسَهَّلَ ٱلتَّوْدِيعَ يَوْمَ ٱلنَّوَىٰ ... مَا كَانَ قَدْ وَعَّرَهُ ٱلْهَجْرُ

وقالَ [مِنَ الخفيفِ] :

لَيسَ عِندِيْ خَطْبُ ٱلنَّوَىٰ بِعَظِيْمِ ... فِيْهِ رَوْحٌ وَفِيْهِ كَشْفُ غُمُوْمِ
إِنَّ فِيْهِ ٱعْتِنَاقَةً لِوَدَاعٍ ... وَٱنْتِظَارَ ٱعْتِنَاقَةٍ لِقُدُوْمِ

وقولُ أبي عُبادَةَ المارُّ بعضُهُ آخرَ المجلسِ الخامسِ [في «ديوانه» ٣/ ١٥٣١ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَوْ عَرَفَ ٱلنَّاسُ ٱلتَّلَاقِيْ وَحُسْنَهُ ... لَحُبِّبَ مِنْ أَجْلِ ٱلتَّلَاقِيْ ٱلتَّفَرُّقُ
فَيَا حُسْنَهُ وَٱلدَّمْعُ بِٱلدمعِ وَاشِجٌ ... يُمَازِجُهُ وَٱلْخَدُّ بِٱلْخَدِّ مُلْصَقُ[1]

---

(١) واشجٌ : مشتبكٌ .

وَقَدْ ضَمَّنَا وَشْكُ ٱلتَّلاَقِي وَلَفَّنَا ... عِنَاقٌ عَلَىٰ أَعْنَاقِنَا ثَمَّ ضَيِّقُ
فَلَمْ تَرَ إِلاَّ مُخْبِراً عَنْ صَبَابَةٍ ... بِشَكْوَىٰ ، وَإِلاَّ عَبْرَةً تَتَرَقْرَقُ
وَمِنْ قُبَلٍ قَبْلَ ٱلتَّلاَقِي وَبَعْدَهُ ... نَكَادُ بِهَا مِنْ شِدَّةِ ٱللَّثْمِ نَشْرَقُ

وقد أرادَ ابنُ درَّاجٍ ـ شاعرُ الأندلسِ ـ أن يتعلَّقَ بهٰذه الأذيالِ في قولِهِ [في « ديوانه » ٩٠ مِنَ الكاملِ] :

قَالَتْ وَقَدْ مَزَجَ ٱلْفِرَاقُ مَدَامِعاً ... بِمَدَامِعٍ وَتَرَائِباً بِتَرَائِبِ
أَتَفَرُّقٌ حَتَّىٰ بِمَنْزِلِ غُرْبَةٍ ؟ ... كَمْ نَحْنُ لِلأَيَّامِ نُهْبَةُ نَاهِبِ!
وَلَئِنْ جَنَيْتُ عَلَيْكَ تَرْحَةَ رَاحِلٍ ... فَأَنَا ٱلزَّعِيمُ لَهَا بِفَرْحَةِ آيِبِ
هَلْ أَبْصَرَتْ عَيْنَاكَ بَدْراً طَالِعاً ... فِي ٱلأُفْقِ إِلاَّ مِنْ هِلاَلٍ عَازِبِ[1]

وأخرجَ ابنُ السبكيِّ [في « طبقاته » ٤/٢٣٣] : بسندِهِ إِلىٰ أبي إِسحاقَ الشيرازيِّ ، قالَ : أنشدَ المطرِّزُ لنفسِهِ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَمَّا وَقَفْنَا بِٱلصَّرَاةِ عَشِيَّةً ... حَيَارَىٰ لِتَوْدِيعٍ وَرَدِّ سَلاَمِ[2]
وَقَفْنَا عَلَىٰ رَغْمِ ٱلْحَسُودِ وَكُلُّنَا ... نَفُضُّ عَنِ ٱلأَشْوَاقِ كُلَّ خِتَامِ
وَسَوَّغَنِي عِنْدَ ٱلْوَدَاعِ عِنَاقَهُ ... وَلَمَّا رَأَىٰ وَجْدِي بِهِ وَغَرَامِي
. . تَلَثَّمَ مُرْتَاباً بِفَضْلِ رِدَائِهِ ... فَقُلْتُ : هِلاَلٌ بَعْدَ بَدْرِ تَمَامِ ؟!
وَقَبَّلْتُهُ فَوْقَ ٱللِّثَامِ فَقَالَ لِي : ... هِيَ ٱلْخَمْرُ إِلاَّ أَنَّهَا بِفِدَامِ[3]

---

(١) العازبُ : البعيدُ .
(٢) الصَّراةُ : نهرٌ يأخذ من الفراتِ ، فينسكبُ في دجلةَ ، بينه وبين (بغداد) مسيرة يوم .
(٣) الفِدامُ : شيءٌ تشدُّهُ الأعاجِمُ علىٰ أفواهِها عند السَّقيِ ، يكونُ كالمصفاةِ للشَّرابِ .

ومرضَ عبيدُ اللهِ بنُ عبدِ اللهِ بنِ طاهرِ بنِ الحسينِ ، فعادَهُ الأَميرُ ، فلمَّا انصرفَ . . كتبَ إليهِ [كما في « وفيات الأعيان » ٣/ ١٢٢] : ما أَعرفُ أَحداً جزىٰ العلَّةَ خيراً غيري ، فقد شكرْتُ نعمتَها ؛ إِذ أَفاضَت بي إِلىٰ رؤيتِكَ ، فأَنا كالأَعرابيِّ الذي جزىٰ البينَ خيراً حيثُ قالَ [مِنَ الطَّويلِ] :

جَزَىٰ ٱللهُ يَوْمَ ٱلْبَيْنِ خَيْراً فَإِنَّهُ ... أَرَانَا عَلَىٰ عِلاَّتِهِ أُمَّ ثَابِتِ

أَرَانَا رَبِيْبَاتِ ٱلْخُدُوْرِ وَلَمْ نَكُنْ ... نَرَاهُنَّ إِلاَّ بِٱنْتِعَاتِ ٱلنَّوَاعِتِ(١)

وقالَ الناظِمُ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٦٠ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَنْ لِيْ بِيَوْمٍ مِثْلِ يَوْمٍ كَرِهْتُهُ ... قَرُبْتُ بِهِ عِنْدَ ٱلْوَدَاعِ مِنَ ٱلْبُعْدِ

وقالَ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٢٤٨ـ٢٤٩ مِنَ الكاملِ] :

مَا زِلْتُ أَحْذَرُ مِنْ وَدَاعِكَ جَاهِداً ... حَتَّىٰ ٱغْتَدَىٰ أَسَفِيْ عَلَىٰ ٱلتَّوْدِيْعِ

رَحَلَ ٱلْعَزَاءُ بِرِحْلَتِيْ فَكَأَنَّمَا ... أَتْبَعْتُهُ ٱلأَنْفَاسَ لِلتَّشْيِيْعِ

أَوَ مَا رَأَيْتُمْ فِيْ ٱلصَّرَاةِ مُلُوْحَةً ... مِمَّا أُرَقْرِقُ فِيْ ٱلْفُرَاتِ دُمُوْعِي(٢)

والبيتُ الأَوسطُ قد سبقَ عمَّا قريبٍ ، وقالَ [في « العُكبَري » ١/ ٢٤٦ـ٢٤٧ مِنَ الكاملِ] :

وَجَلاَ ٱلْوَدَاعُ مِنَ ٱلْحَبِيْبِ مَحَاسِناً ... حُسْنُ ٱلْعَزَاءِ وَقَدْ جُلِيْنَ قَبِيْحُ

فَيَدٌ مُسَلِّمَةٌ وَطَرْفٌ شَاخِصٌ ... وَحَشىً تَذُوْبُ وَمَدْمَعٌ مَسْفُوْحُ

يَجِدُ ٱلْحَمَامُ وَلَوْ كَوَجْدِيْ لاَنْبَرَىٰ ... شَجَرُ ٱلأَرَاكِ مَعَ ٱلْحَمَامِ يَنُوْحُ

---

(١) أي : لم نكن نرى تلك الفتيات الجميلات إلا بوصف الواصفات .

(٢) رقرقَ الماءَ : صبَّهُ ، وكذا الدمعُ .

وقالَ بَشَّارٌ [مِنَ البسيطِ] :

إِنَّ ٱلْوَدَاعَ مِنَ ٱلأَحْبَابِ نَافِلَةٌ ... لِلظَّاعِنِيْنَ إِذَا مَا يَمَّمُوْا بَلَدَا
وَلَسْتُ أَدْرِيْ إِذَا شَطَّ ٱلْمَزَارُ بِهِمْ ... هَلْ تَجْمَعُ ٱلدَّارُ أَمْ لاَ نَلْتَقِيْ أَبَدَا ؟

وقالَ آخرُ [مِنَ الوافرِ] :

تَمَتَّعْ مِنْ حَبِيْبِكَ بِٱلْوَدَاعِ ... فَمَا بَعْدَ ٱلْفِرَاقِ مِنِ ٱجْتِمَاعِ
فَلَمْ أَرَ فِيْ ٱلَّذِيْ لاَقَيْتُ شَيْئاً ... أَمَرَّ مِنَ ٱلْفِرَاقِ بِلاَ وَدَاعِ

القسم الثاني يكرهه ويقول درء المفاسد مقدم على جلب المصالح

ومنهم مَنْ يكرهُهُ ؛ لِمَا يقدَحُ مِنَ ٱلزِّنادِ ، ويفتُّ مِنَ ٱلأَكْبادِ ، قالَ أَبو عُبادَةَ [في « ديوانِهِ » ٣/ ١٤٩٥-١٤٩٦ مِنْ مجزوءِ الكاملِ] :

لاَ تَعْذُلِيْنِيْ فِيْ مَسِيْـ ... ـرِيَ يَوْمَ سِرْتُ وَلَمْ أُلاَقِكْ
فَلَقَدْ خَشِيْتُ مَوَاقِفاً ... لِلْبَيْنِ تَسْفَحُ غَرْبَ مَاقِكْ(١)
وَذَكَرْتُ مَا يَجِدُ ٱلْمُوَدْ ... دِعُ عِنْدَ ضَمِّكِ وَٱعْتِنَاقِكْ
فَتَرَكْتُ ذَاكَ تَعَمُّداً ... وَخَرَجْتُ أَهْرُبُ مِنْ فِرَاقِكْ

وقالَ آخرُ [في « قرى الضيف » ٣/ ٣٤٤ مِن مجزوءِ الكاملِ] :

لاَ تَرْكَنَنَّ إِلَىٰ ٱلْوَدَاعْ ... وَإِنْ سَكَنْتَ إِلَىٰ ٱلْعِنَاقِ
فَٱلشَّمْسُ عِنْدَ غُرُوْبِهَا ... تَصْفَرُّ مِنْ خَوْفِ ٱلْفِرَاقِ

وهٰذا هوَ الأَحرىٰ بالقَبولِ ، والأَسعدُ بالدليلِ ؛ إِذ لهُ أَصلٌ يتمشَّىٰ عليهِ مِن قواعدِ العِلْمِ عندَنا ، وهوَ : أَنَّ دَرْءَ المفاسِدِ أَولىٰ مِن جلبِ المصالِحِ(٢) ، فتعيَّنَ دفعُ الأَرجحِ مِن مفاسدِ الاضطرابِ والاحتراقِ ، علىٰ ما لا يبلُّ لوعةً ، ولا يَشْفي غليلاً ، مِن آثارِ اللثمِ

---

(١) الغَرْبُ : الدمعُ . الماقُ : مجرىٰ الدمعِ من العينِ أَي من طرفِها مما يلي الأَنفَ .
(٢) هذه قاعدة فقهية مشهورة .

والعناقِ ، وهٰذا كلُّهُ عندَ الرِّضا ، أَمَّا مَن لَم يقرُب مِنَ ٱلبعدِ ، إلاَّ عِنْدَ الوداعِ . . فأَولىٰ بهِ أَن يحرصَ عليهِ ، ومنهُ يتبيَّنُ أَنَّ ما سقناهُ مِن كلامِ الشعراءِ لم يتواردْ أَكثرُهُ علىٰ نقطةٍ واحدَةٍ .

ومِمَّا جاءَ في مطلَقِ الوداعِ ، **قولُهُ ـ أَعني الناظِمَ ـ** [في « العُكبَرِيِّ » ٢/٣٠٧ـ٣٠٨ مِنَ الطَّويلِ] : ما جاء في الوداع

وَلَمْ أَرَ كَالأَلْحَاظِ يَوْمَ رَحِيْلِهِمْ بَعَثْنَ بِكُلِّ ٱلْقَتْلِ مِنْ كُلِّ مُشْفِقِ
أَدَرْنَ عُيُوْناً حَائِرَاتٍ كَأَنَّهَا مُرَكَّبَةٌ أَحْدَاقُهَا فَوْقَ زِئْبَقِ
عَشِيَّةَ يَعْدُوْنَا عَنِ ٱلنَّظَرِ ٱلْبُكَا وَعَنْ لَذَّةِ ٱلتَّوْدِيْعِ خَوْفُ ٱلتَّفَرُّقِ

وغالبُ ظني أَن قد ذكرتُ في غيرِ هٰذا المجلسِ ، أَنَّ الأَخيرَ مِن قولِ النميريِّ [كما في « ديوان الحماسة » ٢/ ١٤٢ مِنَ الطَّويلِ] :

نَظَرْتُ كَأَنِّيْ مِنْ وَرَاءِ زُجَاجَةٍ إِلَىٰ ٱلرَّبْعِ مِنْ فَرْطِ ٱلصَّبَابَةِ أَنْظُرُ

وقالَ الناظِمُ أَيضاً [في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ٢٩٥ مِنَ الوافرِ] :

نَظَرْتُ إِلَيْهِمُ وَٱلْعَيْنُ شَكْرَىٰ فَصَارَتْ كُلُّهَا لِلدَّمْعِ مَاقَا(١)
وَقَدْ أَخَذَ ٱلتَّمَامَ ٱلْبَدْرُ فِيْهِمْ وَأَعْطَانِيْ مِنَ ٱلسَّقَمِ ٱلْمُحَاقَا
وَبَيْنَ ٱلْفَرْعِ وَٱلْقَدَمَيْنِ نُوْرٌ يَقُوْدُ بِلاَ أَزِمَّتِهَا ٱلنِّيَاقَا

وقالَ [في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ٣٤٢ مِنَ الطَّويلِ] :

وَقَفْنَا وَمِمَّا زَادَ بَثّاً وُقُوْفُنَا فَرِيْقَيْ هَوىً : مِنَّا مَشُوْقٌ وَشَائِقُ
وَقَدْ صَارَتِ ٱلأَجْفَانُ قَرْحَىٰ مِنَ ٱلْبُكَا وَصَارَ بَهَاراً فِيْ ٱلْخُدُوْدِ ٱلشَّقَائِقُ(٢)

---

(١) العينُ الشكرىٰ : الممتلئةُ بالدمعِ .
(٢) البَهارُ : زهرٌ أَصفرُ . الشقائِقُ ـ جمعُ شقيقةٍ ـ : وهيَ زهرٌ أَحمرُ ينسبُ إلى النعمانِ .

وقالَ بعضُهم [مِنَ البسيطِ] :

غَـداً أُوَدِّعُ قَـوْمـاً أَوْدَعُـوْا كَبِـدِيْ ... نَاراً وَعَهْدِيْ بِهِمْ بَرْداً عَلَىٰ ٱلْكَبِدِ
أُبْـدِيْ ٱلتَّجَلُّـدَ أَحْيَـانـاً فَيَنْهَـزُنِـيْ ... رِيْـقٌ يَجِفُّ وَخَـدٌّ بِـالْـدُّمُـوْعِ نَـدِيْ
لاَ أَنْسَ يَوْمَ تَنَازَعْنَا حَدِيْثَ نَوىً ... وَقَوْلَهَا وَهْيَ تَبْكِيْ : خَانَنِيْ جَلَدِيْ
فَـدَمْعُهَـا بَـرَدٌ فَـوْقَ ٱلْعَقِيْـقِ جَـرَىٰ ... وَرِيْقُهَا ضَرَبٌ قَدْ شِيْبَ بِٱلْبَرَدِ[1]
كُنَّـا إِلَـىٰ ٱلْـوَصْلِ قَـدْ مِلْنَـا فَنَغَّصَـهُ ... هَـٰذَا ٱلرَّحِيْلُ ٱلَّذِيْ مَا دَارَ فِي خَلَدِيْ

وقالَ آخرُ [في « المستطرف » ٤٦/٢ مِنَ الكاملِ] :

لَمَّـا ٱلْتَقَيْنَـا لِلْـوَدَاعِ وَأَعْـرَبَـتْ ... عَبَـرَاتُنَـا عَنَّـا بِـدَمْـعٍ نَـاطِـقِ
فَـرَّقْـنَ بَيْـنَ مَحَـاجِـرٍ وَمَعَـاجِـرٍ ... وَجَمَعْنَ بَيْنَ بَنَفْسَجٍ وَشَقَائِقِ

وقالَ أبو بكرٍ الزبيديُّ الإشبيليُّ [في « نفح الطيب » ٧/٤ مِنْ مخلَّعِ البسيطِ] :

لَـمْ يَخْلُـقِ ٱللهُ مِـنْ عَـذَابٍ ... أَشَـدَّ مِـنْ وَقْفَـةِ ٱلْـوَدَاعِ
مَـا بَيْنَهَـا وَٱلْحِمَـامِ فَـرْقٌ ... لَـوْلاَ ٱلْمُنَـاحَـاةُ وَٱلنَّـوَاعِـيْ
إِنْ يَفْتَـرِقْ شَمْلُنَـا وَشِيْكـاً ... مِـنْ بَعْـدِ مَـا كَـانَ ذَا ٱجْتِمَـاعِ
فَكُـلُّ شَمْـلٍ إِلَـىٰ فِـرَاقٍ ... وَكُـلُّ شَعْـبٍ إِلَـىٰ ٱنْصِـدَاعِ

قصائد للمؤلف في الوداع

وَلي في الوداعِ ما تُشَنَّفُ بهِ الأَسماعُ ، منهُ قولي [مِنَ الكاملِ] :

وَدَّعْتُهُمْ وَكَتَمْتُهُمْ خَبَرَ ٱلنَّوَىٰ ... وَٱلْحَـالُ أَنِّـيْ بِـالتَّكَتُّـمِ وَاثِـقُ
لَـٰكِنْ ضَعُفْتُ عَنِ ٱلْهَوَىٰ فَتَبَادَرَتْ ... مِنْ مَحْجِرَيَّ عَلَىٰ ٱلْخُدُوْدِ سَوَابِقُ ؟
قَالُوْا : تُفَارِقُنَا وَأَنْتَ حَيَاتُنَا ... مَاذَا يَكُوْنُ ٱلْحَالُ حِيْنَ تُفَارِقُ

---

(١) الضَّرَبُ : العسل الأبيض .

فَعَيِيْتُ عَنْ رَدِّ ٱلْجَوَابِ لأَنَّهُ قَدْ كَادَ يَفْضَحُنِيْ نَشِيْجٌ خَانِقُ
وَأَرَابَهُمْ وَجَلِيْ وَلَـٰكِنَّنِيْ وَإِنْ خَارَتْ قُوَىٰ جَلَدِيْ بَقِيْتُ أُسَارِقُ
فَعَصَرْتُ عَيْنِيْ مُوْهِماً فِيْهَا قَذَىً وَأَرَيْتُهُمْ أَنِّيْ بِرِيْقِيْ شَارِقُ

وَقَولي [كما في « ديوانِ المؤلف » ق ٣٩ـ٤٠ مِنَ الطَّويلِ] :

قِفُوْا رَيْثَمَا تُرْوَىٰ ٱلْمَطَايَا عَلَىٰ مَهْلِ وَتَرْتَاحُ فِيْ الأَغْطَانِ مِنْ ذَلِكَ ٱلسَّهْلِ
وَمَا غَرَضِيْ نَفْعُ ٱلرِّكَابِ وَإِنَّمَا لأُطْفِىءَ مِنْ بَثِّيْ بِرَائِحَةِ ٱلأَهْلِ
فَلَمْ تُجْدِنِيْ نَفْعاً وَمَا بَرْدُ نَسْمَةٍ عَلَىٰ كَبِدٍ حَرَّىٰ مَرَاجِلُهَا تَغْلِيْ
وَأُمُّ رِئَالٍ سَبَّحَتْ بِدُمُوْعِهَا وَلاَ قَطْرَةٌ إِلاَّ تَصُوْبُ عَلَىٰ طِفْلِ[1]
وَلَمَّا رَأَوْ مَا قَدْ عَرَاهَا تَحَدَّرَتْ مَدَامِعُهُمْ مِنْ لَوْعَةِ ٱلْبَيْنِ كَٱلْوَبْلِ
وَلاَ دَمْعَةٌ إِلاَّ لَهَا بِفُؤَادِهَا عَلَىٰ مَا بِهَا وَخْزُ ٱلأَسِنَّةِ وَٱلنَّبْلِ
يُذِيْبُ ٱلْجَوَىٰ أَحْشَاءَهَا فَتَكَادُ مِنْ لَوَاعِجِهَا تَجْرِيْ عَلَىٰ ٱلدَّمْعِ فِيْ ٱلْكُحْلِ
وَمَا عِنْدَهَا مِنْ حَسْرَةٍ وَصَبَابَةٍ كَمِثْلِ ٱلَّذِيْ بِيْ حَذْوَكَ ٱلنَّعْلَ بِٱلنَّعْلِ
أُوَدِّعُهُمْ وَٱلْعَيْنُ شَكْرَىٰ وَرُبَّمَا تَنَدَّىٰ بَهَارُ ٱلْخَدِّ مِنِّيْ عَلَىٰ ٱلْبُخْلِ
عَدَانِيْ ٱلْبُكَا تِلْكَ ٱلْغَدَاةَ عَنِ ٱلْحَيَا وَكَانَ عَلَىٰ رَأْيِيْ حَرَاماً عَلَىٰ مِثْلِيْ
صَلِيْبُ حَصَاةٍ فِيْ ٱلْخُطُوْبِ وَإِنَّمَا رَأَيْتُ مَذَاقَ ٱلْبَيْنِ أَشْوَىٰ مِنَ ٱلْقَتْلِ
فَمَا أَنْسَ مِ ٱلأَشْيَاءِ لَمْ أَنْسَ سَاعَةً عَرَفْنَا ٱلْهَوَىٰ فِيْهَا عَلَىٰ غُصَّةِ ٱلثُّكْلِ
تَنَاسَبَتِ ٱلأَضْدَادُ حَتَّىٰ تَمَازَجَتْ مَرَارَةُ ذَاكَ ٱلثُّكْلِ فِيْ لَذَّةِ ٱلْوَصْلِ
تُرَاجِعُنِيْ عَذْبَ ٱلْكَلاَمِ بِلَهْجَةٍ يَمِيْلُ بِهَا فِيْهَا ٱلنَّشِيْجُ إِلَىٰ ٱلْمَطْلِ
لَهَا غَايَةٌ مِنِّيْ تُرِيْدُ بُلُوْغَهَا فَيَقْطَعُهَا عَنْهَا إِذَا شَرَعَتْ تُمْلِيْ

---

(١) رئال : جمع الرأل ، وهو فرخ النعام حتى يأتي عليه حول . **الطِّفل** : الرخص الناعم الرقيق ، وطَفَلَت الشمس : مالت للغروب .

وَمِنْ بَعْدِ جُهْدٍ غُيِّضَتْ عَبَرَاتُهَا ... وَمَا فَعَلَتْ إِلاَّ وَقَدْ سَلَبَتْ عَقْلِيْ
تَقُـوْلُ : وَفَـدَّتْنِـيْ أَتَتْـرُكُنَـا كَـذَا ... فُرَادَىٰ لَدَىٰ الأَعْدَاءِ فِيْ ٱلْبَلَدِ ٱلْمَحْلِ
فَقُلْتُ : ثِقِيْ بِٱللهِ فَهْوَ حَسِيْبُنَا ... وَحَافِظُنَا سُبْحَانَهُ ٱلْجَامِعُ ٱلشَّمْلِ
قَطَعْنَا مِنَ ٱلنَّاسِ ٱلرَّجَا فَتَأَكَّدَتْ ... رَوَابِطُنَا بِٱلْفَائِضِ ٱلْجُوْدِ وَٱلْفَضْلِ
وَلاَ شَـيْءَ كَـٱلإِيْمَـانِ بِـٱللهِ وَحْـدَهُ ... يُعَزِّيْ لَدَىٰ سُوْدِ ٱلنَّوَائِبِ بَلْ يُسْلِيْ

وهيَ طويلةٌ ، وكلُّها مِن هٰذا النوعِ ، وفي هٰذا القدرِ مِنها الكفايةُ .

* * *

[قالَ أَبو الطيِّب المتنبي في « العُكبَريّ » ٢/ ٢٣٧ مِنَ الطَّويلِ] :

أَتَتْ زَائِراً مَا خَامَرَ ٱلطِّيبُ ثَوْبَهَا وَكَالْمِسْكِ مِنْ أَرْدَانِهَا يَتَضَوَّعُ

رائحة الحبيب أجمل من الطيب ويشهد بذا البعيد والقريب

يصفُ خيالَها السَّاري إِليهِ ؛ بدليلِ ٱلبيتِ الَّذي لَمْ نذكرْهُ قبلَهُ ، ويقولُ : إِنَّهُ جاءَ ، فنمَّ بهِ ٱلعِطرُ ، وتأرَّجَ بهِ ٱلمكانُ ، معَ أَنَّها لَمْ تتعطَّر ، ولَو أَنَّهُ كانَ يصِفُ زيارتَها بنفسِها . . لصحَّ أَن يقولَ : ما خامرَ الطِّيبُ ثوبَها ، فأمَّا والحالُ أَنَّهُ لا يصِفُ إِلاَّ خيالَها ، فلا وجهَ لذكرِ الثَّوبِ ، لكنَّهُ ٱختلطَ عليهِ ٱلعملُ ، وٱستنوَقَ لديهِ ٱلجَمَلُ ، وٱمتزجَتِ ٱليقظَةُ بِالْمنامِ ، وٱشتبهَتِ ٱلحَقائِقُ بالأَحلامِ ، وأَصلُ ٱلمعنىٰ . . قولُ ٱمرىءِ القيسِ [في « المستطرف » ١/ ١٢٧ مِنَ الطَّويلِ] :

أَلَمْ تَرَيَانِيَ كُلَّمَا جِئْتُ زَائِراً وَجَدْتُ بِهَا طِيباً وَإِنْ لَمْ تَطَيَّبِ

وخرجَ كثيِّرٌ ـ عَلَيهِ مُطْرَفُ خزٍّ(١) ـ مِن عندِ عبدِ الملكِ ، فٱعترضَتْهُ عجوزٌ ، معَها نارٌ في روثَةٍ ، فتأَفَّفَ مِنها ، فقالَت لَهُ ألستَ القائِلَ [كما في « ديوانه » ١٤٧ مِنَ الطَّويلِ] :

فَمَا رَوْضَةٌ بِالْحَزْنِ دَبَّجَهَا ٱلْحَيَا يَمُجُّ ٱلنَّدَىٰ جَثْجَاثُهَا وَعَرَارُهَا(٢)
بِأَطْيَبَ مِنْ أَرْدَانِ عَزَّةَ مَوْهِناً إِذَا أُوقِدَتْ بِالْمَنْدَلِ ٱلرَّطْبِ نَارُهَا(٣)

---

(١) المُطْرفُ : رداءٌ من خزٍّ .
(٢) الحزنُ : الأَرضُ الغليظةُ . يمجُّ : يرمي . الجَثْجَاثُ : ريحانَةٌ طيبةُ الريحِ برِّيَّةٌ . العرارُ : البَهارُ البريُّ ، طيِّبُ الرائحةِ .
(٣) الأَردانُ : أَطرافُ الأَكمامِ ، كانت تضعُ العربُ فيها الدراهِمَ . مَوهناً : الطرفُ=

فقالَ لَها : نعم ، فقالَت : لو وضعت المندلَ علىٰ ميمونَةَ الزنجيَّةِ ، أَو هـٰذهِ الروثَةِ . . لظهرَ لَها عرفُ طِيبٍ ، هلاَّ قلتَ : كما قالَ أمرؤُ القيسِ : ـ تعني بيتَهُ السابقَ ـ فأنكسرَ ، وأَعطاها المُطْرَفَ[1] .

ويروىٰ [في « الأغاني » ١٥/ ٢٧٥] : أَنَّهُ أنصرفَ وهو يقولُ [مِنَ الكاملِ] :

اَلْحَـقُّ أَبْلَـجُ لاَ يَخِيْـلُ سَبِيْلُـهُ   وَٱلْحَقُّ يَعْرِفُهُ أُوْلُوْا ٱلأَحْلاَمِ

وقالَ بعضُ العقلاءِ في قولِهِ : (إِذَا أُوْقِدَتْ بِٱلْمَنْدَلِ ٱلرَّطْبِ) : إِنَّما هوَ مِن تمامِ وصفِ الروضَةِ ، وقد حصلَ بينَ القسمينِ التقديمُ والتأخيرُ ؛ لضيقِ الوزنِ ، وهوَ تأويلٌ بغيضٌ ، لا يقولُهُ ولا يقبلُهُ إِلاَّ مَن ختمَ اللهُ علىٰ بصرِهِ وبصيرتِهِ ، ولَئِنْ عيبَ عليهِ في هـٰذا . . فقدْ قالَ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَـا نُطْفَـةٌ كَـانَـتْ سُـلاَلَـةَ بَـارِقٍ   نَمَتْ عَنْ طَرِيْقِ ٱلنَّاسِ ثُمَّ ٱسْتَقَلَّتِ
بِأَطْيَبَ مِنْ أَنْيَابِ عَزَّةَ بَعْدَ مَا   حَدَا ٱللَّيْلُ أَعْقَابَ ٱلنُّجُوْمِ فَوَلَّتِ

الروائح المسكية تفضح صاحبها ولو تخبأ

ومعنىٰ البيتِ الذي نحنُ فيهِ متكرِّرٌ عندَ الناظِمِ ، منهُ قولُهُ [في « العُكبَرِيِّ » ١/ ١٣ مِنَ الكاملِ] :

قَلَقُ ٱلْمَلِيْحَةِ وَهْيَ مِسْكٌ هَتْكُهَا   وَمَسِيْرُهَا بِٱللَّيْلِ وَهْيَ ذُكَاءُ[2]

= الأخيرُ مِنَ الليلِ . المندَلُ : العودُ الطَّيِّبُ الرائِحَةِ .

والمعنىٰ : فما روضَةٌ بالأرضِ الغليظَةِ الصَّخريَّةِ ، طيِّبَةِ الزرعِ ، يفوحُ ندىٰ ريحانِها البَريِّ ، وطيبِ رائِحةِ بهارِها ، بأَطيبَ وأَزكى مِن رائِحةِ أَطرافِ أَكمامِ عَزَّةَ في آخرِ الليلِ وقد أَشعلَتْ نارَها بأَعوادِ المندَلِ الطَّيِّبِ الرائِحَةِ .

(١) «الأغاني» (١٥/ ٢٧٥) .

(٢) ذُكاءُ : أسمٌ من أسماءِ الشمسِ .

وقالَ النميريُّ [الماكيُّ في « ديوانه » ٥٨ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا مُزْنَةٌ جَاءَتْ فَأَسْبَلَ وَدْقُهَا عَلَىٰ رَوْضَةٍ رَيْحَانُهَا قَدْ تَخَضَّدَا
كَأَنَّ تِجَارَ ٱلْهِنْدِ حَلُّوْا رِحَالَهُمْ عَلَيْهَا طَرُوْقاً ثُمَّ حَلُّوْا بِهَا ٱلْغَدَا
بِأَطْيَبَ مِنْ ثَوْبَيْنِ تَأْوِيْ إِلَيْهِمَا سُعَادُ إِذَا نَجْمُ ٱلسِّمَاكَيْنِ غَرَّدَا[1]

وقالَ آخرُ [مِنَ الخفيفِ] :

دُرَّةٌ كَيْفَ مَا أُدِيْرَتْ أَضَاءَتْ وَمَشَمٌّ مِنْ حَيْثُ مَا شُمَّ فَاحَا

وقالَ بشَّارٌ [مِنَ المديدِ] :

وَتَــوَقَّ ٱلطِّيْــبَ لَيْلَتَنَــا إِنَّــهُ وَاشٍ إِذَا سَطَعَــا

وقالَ أَبو عُبادَةَ [في « ديوانه » ١/ ١٥٠ مِنَ المتقاربِ] :

وَكَــانَ ٱلْعَبِيْــرُ بِهَــا وَاشِيــاً وَجَــرْسُ ٱلْحُلِــيِّ عَلَيْهَــا رَقِيْبَــا

وقد سبقَ في المجلسِ الأَوَّلِ بعضُ قولِ عليِّ بنِ جبلَةَ [في « ديوانه » ٧٦ مِنَ الرَّمَلِ] :

بِــأَبِــيْ مَــنْ زَارَنِــيْ مُكْتَتِمــاً حَــذِراً مِــنْ كُــلِّ شَــيْءٍ فَــزِعَــا
طَــارِقٌ نَــمَّ عَلَيْــهِ نُــوْرُهُ كَيْفَ يُخْفِيْ ٱللَّيْلُ بَدْراً طَلَعَا ؟!
رَصَــدَ ٱلْخَلْــوَةَ حَتَّــىٰ أَمْكَنَــتْ وَرَعَــىٰ ٱلسَّــاهِــرَ حَتَّــىٰ هَجَعَــا
كَــابَــدَ ٱلأَهْــوَالَ فِــيْ زَوْرَتِــهِ ثُــمَّ مَــا سَلَّــمَ حَتَّــىٰ وَدَّعَــا

ولئِن لَم تتَّصِل هٰذهِ ببيتِ البحثِ . . فإِنَّها متَّصلةٌ ببيتهِ الَّذي سقناهُ شاهداً لَهُ ، وقد كانَ سالمُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ عمرَ بنِ ٱلخطَّابِ ـ

(١) السماكانِ : نجمانِ نيّرانِ . غرَّدَ النجمُ : إذا ٱرتفعَ .

رضيَ ٱللهُ عَنهم ـ يطربُ كثيراً كلَّما غنَّاهُ أَشعبُ بهٰذين [كما في « البداية والنهاية » ١٠/ ١١٢ مِنَ الطَّويلِ] :

أَلَمَّتْ بِنَا وَٱللَّيْلُ دَاجٍ كَأَنَّهُ ... جُنَاحُ غُرَابٍ عَنْهُ قَدْ نَفَضَ ٱلْقَطْرَا
فَقُلْتُ : أَعَطَّارٌ ثَوَىٰ فِيْ رِحَالِنَا ؟ ... وَمَا ٱحْتَمَلَتْ لَيْلَىٰ سِوَىٰ عَرْفِهَا عِطْرَا

وقالَت إِحدىٰ صواحبِ أُمِّ زرعٍ [كما في « البخاري » (٥١٨٩) مِنْ مجزوءِ الرَّجَزِ] :

اَلْمَسُّ مَسُّ أَرْنَبٍ ... وَٱلرِّيْحُ رِيْحُ زَرْنَبٍ

وقالَ أَبو المطاعِ ٱبنُ ناصرِ الدولَةِ [في « نفح الطيب » ٣/ ٤١٥ مِنَ البسيطِ] :

ثَلاَثَةٌ مَنَعَتْهَا مِنْ زِيَارَتِهَا ... وَقَدْ دَجَىٰ ٱللَّيْلُ خَوْفَ ٱلْكَاشِحِ ٱلْحَنِقِ
ضَوْءُ ٱلْجَبِيْنِ وَوَسْوَاسُ ٱلْحُلِيِّ وَمَا ... يَفُوحُ مِنْ عَرَقٍ كَٱلْعَنْبَرِ ٱلْعَبِقِ
هَبْهَا ٱلْجَبِيْنَ بِفَضْلِ ٱلْكُمِّ تَسْتُرُهُ ... وَٱلْحُلْيَ تَنْزِعُهُ مَا ٱلشَّأْنُ فِيْ ٱلْعَرَقِ ؟

وقلتُ ـ أَنا ـ في مطلعِ قصيدَةٍ نبويَّةٍ [كما في « ديوانِ المؤلف » ٦٩ مِنَ الكاملِ] :

زَارَتْ وَقَدْ جَنَحَ ٱلظَّلاَمُ بِلاَ حِذَا ... عُطْلاً مُنَقَّبَةً فَنَمَّ بِهَا ٱلشَّذَا(١)

فتراني ٱستوفيتُ ما في الثلاثَةِ الأَبياتِ ، وزدتُ عَلَيها ، في بيتٍ

---

(١) جَنَح الظلامُ : أقبل . بلا حذا : حافيةً حتى لا يفطنَ إليها أحد . العُطْل من النساء : الخالية من الحُلي ، إمَّا لأنها استغنت بجمالها عن الحُلي ، وإمَّا للخوف من أَنْ يُسمَعَ صوتُ الحُلي . منقبةٌ : ذاتُ نقاب . نمَّ : أعلنَ وباحَ . الشذا : ذكاءُ الرائحةِ الطيبةِ .

واحدٍ ، بلا إعناتِ فكرٍ ، ولا إرهاقِ رويَّةٍ ، معَ صعوبةِ القافيةِ ، ورقَّةِ الانسجامِ .

وقلتُ في مطلعِ قصيدةٍ إماميَّةٍ [كما في « ديوانِ المؤلف » ٤٩٣ مِنَ الطَّويلِ] :

تَرَكْنَ ٱلْحُلَىٰ وَٱجْتَزْنَ وَٱللَّيْلُ جَانِحُ   فَنَمَّتْ بِمَا تَحْتَ ٱلسُّتُورِ ٱلرَّوَائِحُ
نَوَاعِمُ لَوْلاَ ٱلْخُمْرُ لاَنْكَشَفَ ٱلدُّجَىٰ   مَـرَرْنَ حَـوَالَيْنَـا وَهُـنَّ سَـوَانِـحُ
سَلَبْنَ ٱلنُّهَىٰ لَمَّـا تَمَايَلْنَ وَٱنْثَنَىٰ   بِحَسْـرَتِـهِ مِنْهُـنَّ غَـادٍ وَرَائِـحُ
وَمَا صَانَنَا عَنْ سِحْرِهِنَّ سِوَىٰ هَوىً   بِـهِ مُلِئَـتْ مِـنْ قَبْلِهِـنَّ ٱلْجَـوَانِـحُ

طيب النكهة يدخل في الموضوع

وممَّا يتعلَّقُ بطيبِ النَّكهَةِ قولُ جريرٍ [في « ديوانهِ » ٩٩٠ مِنَ الكاملِ] :

تُجْرِي ٱلسِّوَاكَ عَلَىٰ أَغَرَّ كَأَنَّهُ   بَـرَدٌ تَحَـدَّرَ مِـنْ مُتُـوْنِ غَمَـامِ

وقولُ ٱبنِ الرُّوميِّ وقدِ ٱدَّعىٰ أَنَّ محبوبَهُ رَوْضُ ٱلحُسْنِ ، وهوَ منقطعُ النَّظيرِ [في « ديوانهِ » ٩٠٧ مِنَ الطَّويلِ] :

كَذٰلِكَ أَنْفَاسُ ٱلرِّيَاضِ بِسَحْرَةٍ   تَطِيْـبُ وَأَنْفَـاسُ ٱلْـوَرَىٰ تَتَغَيَّـرُ

وقالَ التِّهاميُّ [مِنَ البسيطِ] :

لَوْ لَمْ يَكُنْ أُقْحُوَاناً ثَغْرُ مَبْسَمِهَا   مَا كَانَ يَزْدَادُ طِيْباً سَاعَةَ ٱلسَّحَرِ

وقالَ ٱلمعريُّ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَقَدْ بَلَغَتْ سِنَّ ٱلْكِعَابِ وَقَابَلَتْ   بِنَكْهَةِ مَعْقُوْدِ ٱلسِّخَابَيْنِ مُرْضَعُ

من يدق الباب .. يسمع الجواب

ويذكرُ عَن بعضِ بني أُميَّةَ : أَنَّهُ عابَ علىٰ الحسنِ بنِ عليٍّ شيبَ شاربِهِ ، وقالَ إِنَّهُ دليلُ النَّزَقِ[1] ، فقالَ لهُ الحسنُ : كلاَّ ، ولٰكنِ النساءُ تتعلَّلُ بأَنفاسِنَا ، فيسرعُ إِلىٰ شوارِبِنا الشيبُ ،

---

(١) النَّزَقُ : الخفة والطيش .

وتنصرِفُ نساؤُكُم بأُنوفِها إِلىٰ أَصداغِكم ؛ لِبَخَرِكُم ، فيكونُ شيبُكم هناكَ .

عبد الملك بن مروان كان أبخر يسقط الذباب عن فمه

وكانَ عبدُ ٱلملكِ أَبخرَ ، يسقطُ الذبابُ عَن فمِهِ ؛ ولهٰذا يُسمَّىٰ [كما في « ثمار القلوب » ٧٥] : أَبَا الذِّبَّانِ .

وكانَت عندَهُ لبابَةُ بنتُ عبدِ ٱللهِ بنِ جعفرِ ٱبنِ أَبي طالِبٍ ، فأَكلَ مِن تفَّاحَةٍ ، ورمىٰ بِها إِليها ، فأَخرجَت مكانَ فيهِ بالسِّكِّينِ ، وأَكلَتِ ٱلباقِيَ ، فقالَ : ما شَأْنُكِ؟ قالَت : أَلقيتُ عَنها ٱلأَذىٰ ، فطلَّقَها ، وتزوَّجَت بعدَهُ بعليِّ بنِ عبدِ اللهِ بنِ العبَّاسِ ، وكانَ أَصلعَ ، فبعثَ عبدُ الملكِ ٱمرأَةً تكشِفُ رأْسَهُ بحضرتِها ، ففعلَت ، فعرفَت لبابَةُ ٱلْخَبْءَ ، فقالَت لِلْمرأَةِ : قولي لَهُ : أَصلعُ مِنْ بَني عمِّي . . خَيْرٌ مِن أَبْخَرَ مِن بَني أُمَيَّةَ ، فما زالَ يتطلَّبُ ٱلعثراتِ لعليٍّ حتَّىٰ جلدَهُ ، وطافَ بهِ علىٰ جَمَلٍ ، ورأْسُهُ مما يلي الذنَبَ .

البَخَر وما يتعلق به

وبينا عمرُ بنُ الخطَّابِ يعسُّ ليلةً . . إِذ سمعَ ٱمرأَةً تقولُ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَمِنْهُنَّ مَنْ تُسْقَىٰ بِعَذْبٍ مُبَرَّدٍ نُقَاخٍ فَتِلْكُمْ عِنْدَ ذَلِكَ قَرَّتِ[1]
وَمِنْهُنَّ مَنْ تُسْقَىٰ بِأَخْضَرَ آجِنٍ أُجَاجٍ فَلَوْلاَ خَشْيَةُ ٱللهِ فَرَّتِ

فٱستدعىٰ زوجَها ، فإِذا هوَ أَبخرُ ، فخلَعَها منهُ .

وقالَ ٱبنُ المعتزِّ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَإِنَّ ٱمْرَأً يَقْوَىٰ عَلَىٰ لَثْمِ ثَغْرِهِ عَلَىٰ ٱلضَّغْطِ وَٱلتَّعْذِيبِ فِيْ قَبْرِهِ يَقْوَىٰ

---

(١) النُّقاخُ : الماءُ الباردُ العذبُ الصافي الخالص ، الذي يَكادُ ينقخُ الفؤاد ويكسرُهُ ببرده .

وقالَت أُخرىٰ [كما في « ديوان الحماسة » ٢/ ٢٢٩ مِنَ الطَّويلِ] :

فَمَا جِيْفَةُ ٱلْخِنْزِيْرِ عِنْدَ ٱبْنِ مُقْرِبٍ   قَتَـادَةَ إِلاَّ رِيْـحُ مِسْـكٍ وَغَـالِيَـهْ

ليس كل ما يلمع ذهباً

وذكـرَ ٱبـنُ خَلِّكـانَ [فـي « وفيَـاتِ ٱلأعيـانِ » ٥/ ٣٨٠] : أَنَّـهُ كـانَ بـ(أَصبهانَ) رجلٌ حسنُ النعمَةِ ، واسعُ النفسِ ، كاملُ المروءَةِ ، يقـالُ لَـهُ : سِمـاكُ بـنُ النعمـانِ ، وكـانَ يهـوىٰ مغنِّيـةً مِـن أَهـلِ (أَصبهانَ) ، لَها قَدْرٌ ، تعرفُ بأُمِّ عمرٍو ، فلإفراطِ صبابَتِهِ بِها ، وحبِّهِ لَها . . وهبَها عدَّةً مِن ضِياعِهِ ، وكتَبَ علىٰ نفسِهِ كتباً بذلكَ ، حمَلَها إِليها علىٰ بغلٍ ، فشاعَ الخبرُ ، وتحدَّثَ بهِ الناسُ ، وكَبَّروا الخبرَ ، وكانَ بـ(أَصبهانَ) رجلٌ متجلِّفٌ بيِّنُ الركاكةِ ، يهوىٰ مغنِّيَةً أُخرىٰ ، فلمَّا ٱتَّصلَ بهِ ذلكَ . . ظنَّ بجهلِهِ وقلَّةِ عقلِهِ أَنَّ سماكاً إِنَّما أَهدىٰ لأُمِّ عمرٍو جلوداً بيضاءَ ، لا كتابَةَ فيها ، وأَنَّ هـٰذا مِنَ ٱلهدايا التي تستحسَنُ ويجلُّ موقعُها عندَ مَن تهدىٰ إِليهِ ، فٱبتاعَ جلوداً كثيرَةً ، وحملَها إِلىٰ عشيقتِهِ علىٰ بغلينِ ، فلمَّا وصلتْها ووقفَت علىٰ جليَّةِ الأَمرِ . . تغيَّظَتْ عليهِ ، وكتبَت إِليهِ رقعَةً تشتُمُهُ ، وتحلِفُ أَنَّها لا تكلِّمُهُ ، وسأَلت بعضَ الشعراءِ أَن يعمَلَ لَها أَبياتاً فِي المعنىٰ ، ففعلَ ، وهـٰذهِ هيَ الأَبياتُ [مِنْ مجزوءِ الكاملِ] :

لاَ عَـادَ طَـوْعُـكَ مَـنْ عَصَـاكَـا   وَحُـرِمْـتُ مِـنْ وَصْلِـيْ مُنَـاكَـا

فَلَقَــدْ فَضَحْــتَ ٱلْعَــاشِقِيْــنَ   بِقُبْـحِ مَـا فَعَلَـتْ يَـدَاكَـا

أَرَأَيْـتَ مَــنْ يُهْـدِيْ ٱلْجُلُـوْ   دَ إِلَــىٰ عَشِيْقَتِــهِ سِــوَاكَــا

وَأَظُــنُّ أَنَّــكَ رُمْــتَ أَنْ   تَحْكِـيْ بِفِعْلِـكَ ذَا سِمَـاكَـا

ذَاكَ ٱلَّــذِيْ أَهْــدَىٰ ٱلضِّيَـا   عَ لأُمِّ عَمْــرٍو وَٱلصِّكَــاكَــا

فَبَعَثْتَ مُنْتِنَةً كَأَنَّك قَدْ مَسَحْتَ بِهِنَّ فَاكَا
مَنْ لِي بِقُرْبِكَ يَا رَقِيعُ وَلَسْتُ أَهْوَىٰ أَنْ أَرَاكَا
لَٰكِنْ لَعَلِّي أَنْ أُقَطِّعَ مَا بَعَثْتَ عَلَىٰ قَفَاكَا

وأنشدَ الجوهريُّ لامرأةٍ مِنَ ٱلعرَبِ [مِنَ البسيطِ] :

إِنِّي بُلِيتُ بِعِذْيَوْطٍ لَهُ بَخَرٌ يَكَادُ يَقْتُلُ مَنْ نَاجَاهُ إِنْ كَشَرَا[1]

وقالَ آخرُ [كما في «لسان العرب» ٣/ ١٢٨ مِنَ البسيطِ] :

نَكِهْتُ مُجَالِداً فَشَمَمْتُ مِنْهُ كَرِيحِ ٱلْكَلْبِ مَاتَ قَرِيبَ عَهْدِ[2]
فَقُلْتُ لَهُ: مَتَىٰ ٱسْتَحْدَثْتَ هَٰذَا؟ فَقَالَ : أَصَابَنِي فِي جَوْفِ مَهْدِي

وقد مرَّ كثيرٌ ممَّا يتَّصِلُ بموضوعِ النكهَةِ والطيبِ ، عندَ الكلامِ علىٰ قولِهِ [في «العُكبَرِيِّ» ٣/ ١٦٤ مِنَ البسيطِ] :

يُجَنُّ شَوْقاً فَلَوْلاَ أَنَّ رَائِحَةً تَزُورُهُ مِنْ رِيَاحِ ٱلشَّرْقِ مَا عَقَلاَ

وقولِهِ [في «العُكبَرِيِّ» ٢/ ٣٣٨] :

وَتَفُوحُ مِنْ طِيبِ ٱلثَّنَاءِ رَوَائِحٌ لَهُمُ بِكُلِّ مَكَانَةٍ تُسْتَنْشَقُ

* * *

(١) العِذْيُوطُ : الذي إذا أتىٰ أهلَه أَبْدَىٰ ، أي : سَلَحَ أو أَكْسَلَ .
(٢) نكِهْتُه : أي تشَمَّمْتُ ريحه .

المجلس السادس عشر

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبّي في « العُكبَريِّ » ٢/ ٢٣٨ مِنَ الطَّويلِ] :

فَمَا جَلَسَتْ حَتَّىٰ ٱنْثَنَتْ تُوسِعُ ٱلْخُطَا كَفَاطِمَةٍ عَنْ دَرِّهَا قَبْلَ تُرْضِعُ

السرعة في التوديع

المعنىٰ ظاهرٌ(١) ، وقد سبقَ ما يتعلَّقُ بهِ في المجلسِ الأَوَّلِ ، عندَ قولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٢٧٩ مِنَ الخفيفِ] :

فَـٱفْتَـرَقْنَـا حَـوْلاً وَلَمَّـا ٱلْتَقَيْنَـا كَـانَ تَسْلِيمُـهُ عَلَـيَّ وَدَاعَـا

الطباع البشرية غربية

ونقولُ هُنا : إنَّ الزائرَ ربَّما يتعمَّدُ تركَ الإطالَةِ ؛ لإفضائِها إلىٰ الملالَةِ ، وقد قالَ الخوارزميُّ [في « ديوانه » ٣٨٢ مِنَ الوافرِ] :

وَمَا بِيْ فِيْكَ مِنْ زُهْدٍ وَلَـٰكِنْ أُخَفِّـفُ عَنْـكَ أَعْبَـاءَ ٱلْمَـلاَلِ

وقالَ ٱبنُ المقفَّعِ ـ ما معناهُ ـ : إذا أَقبلَ عليكَ إنسانٌ ، فسرَّكَ أَن لا يدبرَ عنكَ يوماً ما . . فَلا تُنعِمِ ٱلإقبالَ عليهِ ، والتفتُّحَ لَهُ ، فإنَّ ٱلناسَ قد ٱندَمجوا علىٰ طبائِعِ لُؤْمٍ ، يفرُّونَ عمَّن قَرُبَ مِنهم ، ويلصقونَ بِمن هَرَبَ عَنهم .

كثرة إلف الإنسان للشيء . . تذهب هيبته من قلبه

وكانَ ٱبنُ الخطَّابِ يضرِبُ الناسَ علىٰ الإقامَةِ بعدَ الحجِّ ، ويقولُ : أَخافُ أَن يأْنَسَ الناسُ بهـٰذا البيتِ ، فتسقطَ هيبتُهُ مِن قلوبِهِم .

---

(١) أي هي في سرعة توديعها . . كمن فطمت ولدها قبل أن ترضعه .

وما ٱتخذَتِ الملوكُ الحجَّابَ . . إلاَّ حفظاً للهيبَةِ ؛ فإِنَّ أَجْرأَ الناسِ علىٰ السباعِ الرعاةُ ؛ لِكثرَةِ ما يرونَها .

وكانَ ٱبنُ عمرَ يَطوي السهوبَ ، ويقطَعُ العُقابَ[1] إلىٰ (المدينَةِ) ثم ينيخُ راحلتَهُ نضواً ببابِ المسجدِ[2] ، ويحيِّيهِ ، ثمَّ يقومُ تجاهَ القبرِ الأعطرِ ، ويقولُ [بنحوه في « الطبقات الكبرى » ٤/١٥٦] : السلامُ عليكَ يا رسولَ اللهِ ، السلامُ عليكَ يا أَبا بكرٍ ، السلامُ عليكَ يا أَبَتِ ، ثمَّ ينصرفُ ، ويركَبُ مِن فورِهِ .

من نوادر الأعمش

ومرضَ الأعمشُ فجاءَهُ أَبو حنيفَةَ يعودُهُ ، ثمَّ قالَ لهُ : نخشىٰ أَن نكونَ ثقَّلْنا عليكَ ، قالَ لَهُ : واللهِ لأَنْتَ ثقيلٌ عليَّ وأَنتَ في دارِكَ ، وما بِأَحدِ الإمامَين بغضَةٌ ولا ثقلُ ظلٍّ ، ولَـٰكِنَّ الأَعمشَ ذهبَ إلىٰ التندُّرِ والتظرُّفِ ، والإشارَةِ إلىٰ تفرُّدِ أَبي حنيفَةَ بالفضْلِ تفرُّداً يثقلُ علىٰ أَقرانِهِ ـ وهوَ مِنهُم ـ ٱحتمالُهُ .

ويذكرُ : أَنَّهُ حلفَ بطلاقِ ٱمرأَتِهِ إِن أَخبرَتْهُ بنفادِ الدقيقِ ، أَو كتَبَتْ إليهِ ، أَو بعثَتِ ٱلخادِمَ يخبرُهُ ، فاستَفْتَتْ أَبا حنيفَةَ ؟ فقالَ لَها : إذا نامَ . . فاربطِي بذيلِهِ كيسَ الدقيقِ ؛ حتَّىٰ يعرفَ أَنَّهُ فرغَ ، مِن غيرِ أَن تطلقي ، ففعلَت ، فعرفَ أَنَّها مِن كيسِ أَبي حنيفَةَ ، فقالَ : قاتَلَهُ اللهُ ، لقد فضَحَنا حتَّىٰ عندَ أَزواجِنا .

من نوادر الشعبي

وقد ذكرنا في غيرِ هـٰذا المجلسِ عَنِ الشَّعبيِّ : أَنَّهُ مرَّ برجلٍ في إبلٍ لَهُ جَرباءَ ، فقالَ لَه : أَلا تعالِجُها ؟ قالَ : لاَ ، وإنَّما لَنا عجوزٌ نتَّكِلُ علىٰ دعائِها ، فقالَ : ٱجعلْ مَعَ دعائِها شيئاً مِنَ ٱلقَطِرانِ .

---

(١) العُقابُ : المرقى في عرضِ الجبلِ .
(٢) ناقةٌ نضوٌ : أرهقتها الأسفارُ ، وأذابَتْ لحمَها .

ومرَّ بقصَّارٍ يقولُ [في « المستطرف » ١/ ٢٢٣] : (فُتِنَ ٱلشَّعْبِيُّ لَمَّا)[1] ويقفُ ، فجاءَ إِليهِ ، وما زالَ يكرِّرُ عليهِ الأَبياتَ حتَّىٰ حفظَها .

ومِن نوادِرِهِ : أَنَّهُ مرضَ ، فأبرمَهُ العوَّادُ بالسؤَالِ عَن مرضِهِ وسبَبِهِ ، فلَم يكنْ منهُ إِلاَّ أَن كتَبَ رقعةً ، شرحَ فيها القصَّةَ ، وعلَّقَها فوقَ رأْسِهِ ، فإِذا سُئِلَ بعدَ ذلكَ . . قالَ للسائِلِ : ٱقرَأْ ما في الورَقَةِ .

زيارة المريض

ويروىٰ : أَنَّ سلمَةَ بنَ عاصمٍ دخلَ علىٰ الفرَّاءِ يعودُهُ ، فأَبرمَهُ ، وأَلحفَ في السؤَالِ ، فأَنشَدَ الفرَّاءُ [الأبيات في « المستطرف » ٢/ ٥٧١ مِنَ البسيطِ] :

حَقُّ ٱلْعِيَادَةِ يَوْمٌ بَيْنَ يَوْمَيْنِ ... وَخِلْسَةٌ مِثْلُ لَحْظِ ٱلطَّرْفِ بِٱلْعَيْنِ
لاَ تُبْرِمَنَّ مَرِيْضاً فِيْ مُسَاءَلَةٍ ... يَكفِيْكَ مِنْ ذَاكَ تَسْآلٌ بِحَرْفَيْنِ

الكُلفة تُذهب الألفة

ومِن أَمثالِهِ تعرفُ ٱطِّراحَ السلفِ للحشمَةِ ، وبراءَتَهم مِن التكلُّفِ والتنطُّعِ ، وسيرَهُم بسَوقِ الطبيعَةِ ، وإِنَّ أَحدَهم لخليقٌ بقولِ الناظمِ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٢٨٧ مِنَ الطَّويلِ] :

تفكُّرُهُ عِلْمٌ وَسِيْرَتُهُ هُدىً ... وَبَاطِنُهُ دِيْنٌ وَظَاهِرُهُ ظَرْفُ[2]

---

(١) تَقَدَّمَتِ امرأَةٌ جميلةٌ إِلىٰ الشَّعبيِّ ، فادَّعت عندَهُ ، فقضىٰ لَها ، فقالَ هُذيلٌ الأَشجعيُّ :

فُتِنَ ٱلشَّعْبِيُّ لَمَّا ... رَفَعَ ٱلطَّرْفَ إِلَيْهَا
فَتَنَتْهُ بِبَنَانٍ ... كَيْفَ رُؤْيَا مِعْصَمَيْهَا
وَمَشَتْ مَشْياً رُوَيْداً ... ثُمَّ هَزَّتْ مَنْكِبَيْهَا
فَقَضَىٰ جَوْراً عَلَىٰ ٱلْخَصْمِ وَلَمْ يَقْضِ عَلَيْهَا

فتناشدَها النَّاسُ ، وتداولوها ، حتَّىٰ بلغَتِ الشَّعبيَّ ، فَضُرِبَ الأَشجعيُّ ثلاثينَ سوطاً .

(٢) بفتح الظاء الكياسة قال في « تاج العروس » : وبعض المتشدقين يضمون الظاء =

وقولِهِ [في « العُكبَريّ » ٤/ ٧٥ مِنَ الوافرِ] :

يَـرُوْعُ رَكَـانَـةً وَيَـذُوْبُ ظَـرْفـاً فَمَا تَدْرِيْ: أَشَيْخٌ أَمْ غُلاَمُ[1] ؟

وترىٰ المترسمينَ مِن أَبناءِ زمانِنا يتوقَّرونَ في مجالِسِهم ، ويتنزَّهونَ عَن كثيرٍ ممَّا يفعلُهُ السلفُ الطَّيِّبُ ، وقلوبُهم أَفاحيصُ الأَحقادِ ، وأَوكانُ الأَحسادِ[2] .

وسُئِلَ النَخعيُّ [بنحوه في « المستطرف » ٢/ ٥٠٢] : أَكانَ أَصحابُ رسولِ اللهِ ﷺ يمزحونَ ؟ قالَ : نعم ، والإِيمانُ في قلوبِهِم مثلُ الجبالِ الرواسي ، وكانُوا يتمازحونَ[3] ، فإِذا خاضوا في الدِّينِ . . ٱنقلبَتْ حماليقُهُم .

وقالَ بعضُهم : لَنا في الدعابَةِ مذهَبٌ جميلٌ ، يخرجُ بِنا مِن العبوس ، ويلحِقُنا بأَحرارِ الناسِ ، الذينَ ٱرتفَقوا عَنْ لَبسةِ الرياءِ ، وأَنفوا مِنَ ٱلتشوُّفِ بالتصنُّعِ .

وللهِ درُّ الناظِمِ في قولِهِ [في « العُكبَريّ » ٣/ ٢٢٠ مِنَ المنسرحِ] :

أَفْضَلُ مَا يُطْلَبُ ٱلنَّجَاحُ بِهِ ٱلطَّبْـ ـعُ وَعِنْـدَ ٱلتَّعَمُّـقِ ٱلـزَّلَـلُ[4]

= فرقاً بينه وبين الظَّرف للوعاء ، وهو غلطٌ محضٌ لا قائل به .

(١) يروعُ : يفزعُ ، الركانةُ : الوقارُ .

(٢) المفحصُ : هو مجثمُ القطاةِ ؛ لأنَّها تفحصهُ . والوَكْنُ : عشُّ الطائرِ .

(٣) والمعروف : أنهم كانوا يتبادحون ؛ أي : يترامَون . والرواية عن بكر بن عبد الله : « يتمازحون ويتبادحون بالبطيخ فإذا جاءت الحقائق كانوا هم الرجال » اهـ « النهاية » ابن الأثير .

(٤) المعنىٰ : إذا فعلَ الإنسانُ الشيءَ بعادتهِ وجدَ النجاحَ فيهِ ، وإذا بالغَ وتعمَّقَ . . أخطأَ وزلَّ .

وقالَ محمَّدُ بنُ كناسَةَ [في « البيان والتبيين » ١/٥٤٦ مِنَ المنسرحِ] :

فِـيَّ ٱنْقِبَـاضٌ وَحِشْمَـةٌ فَـإِذَا ... لَقِيـتُ أَهْـلَ ٱلْـوَفَـاءِ وَٱلْكَـرَمِ
أَرْسَلْـتُ نَفْسِـيْ عَلَـىٰ سَجِيَّتِهَـا ... وَقُلْـتُ مَـا قُلْـتُ غَيْـرَ مُحْتَشِـمِ

وهما بيتانِ يغبطُهُ عليهِما إسحاقُ بنُ إبراهيمَ الموصليُّ ، والغبطَةُ مِن حيثُ المعنىٰ لا مِن حيثُ اللفظُ ؛ فإنَّهما ليسا منهُ في الذروَةِ .

ويتَّصلُ بالموضوعِ قولُهُ ﷺ : « زُرْ غِبّاً . . تَزْدَدْ حُبّاً »[1] .

زر غباً . . تزدد حباً

وقيلَ [في « مجمع الأمثال » ١/٣٢٢] : إنَّ أَوَّلَ مَن قالَهُ معاذُ بنُ صرمٍ الخزاعيُّ ، وكانَت أُمُّهُ مِن علكَّ ، وكانَ فارسَ خزاعَةَ ، وكانَ يكثرُ زيارَةَ أَخوالِهِ ، فٱستعارَ مِنهم فرساً سابقَ عليهِ جحيشَ بنَ سودَةَ علىٰ المخاطرَةِ ، فسبقَهُ وأَخذَ فرسَهُ ، ولمَّا أَخذَهُ . . أَرادَ أَن يزيدَ في إغاظَةِ جحيشٍ ـ وكانَ لَهُ عدوّاً ـ فنحرَهُ ، فقالَ لَه جحيشٌ : قتلْتَ ـ لاَ أُمَّ لَكَ ـ فَرساً خيراً مِنكَ ومِن أَبيكَ ، فقتلَهُ ، ولحقَ بأَخوالِهِ ، فركبَ في طلبِهِ أَخو جحيشٍ وٱبنُ عمِّهِ ، فقتلَهُما ، وقالَ [مِنَ الطَّويلِ] :

قَتَلْـتُ جُحَيْشـاً بَعْـدَ قَتْـلِ جَـوَادِهِ ... وَكُنْتُ قَدِيْماً فِيْ ٱلْحَوَادِثِ ذَا فَتْكِ
وَجُـدْتُ لِعَمْـرٍو بَعْـدَ بَـدْرٍ بِضَـرْبَـةٍ ... فَخَرَّا كَمَا خَرَّ ٱلْعَقِيْرُ مِنَ ٱلنُّسْكِ[2]

---

(١) أخرجه عن حبيب بن مسلمة الفهري الحاكمُ في « المستدرك » (٣/ ٣٩٠) وفي الباب :

عن أبي هريرة رضي الله عنه عند البزار والطبراني في « الأوسط » والبيهقي في « الشعب » ، وعن ابن عمرو عند الطبراني في « الكبير » و« الأوسط » وعن عائشة عند الخطيب في « التاريخ » .

(٢) العقيرُ : المعقورُ ، وهوَ المذبوحُ منَ النَّعَم التي تُهْدَىٰ في مناسكِ الحجِّ .

وأَقامَ في أَخوالِهِ زماناً ، ثمَّ ٱختصمَ معَ بعضِهم في صيدٍ ٱصطادوهُ ، فقالَ لهُ ٱبنُ خالهِ : لَو كانَ فيكَ خيرٌ . . لَمَا تركَكَ قومُكَ ، فقالَ معاذٌ : زُرْ غِبّاً . . تزدَدْ وِدّاً ، ثمَّ أَتىٰ قومَهُ ، فأَرادَ أَهلُ القتلىٰ أَن يأخذوا منهُ بثأرِهِم ، فقالَ لَهم قومُهم : لا تقتُلوا فارسَكُم وإِنْ ظَلَم ، فقبِلوا منهُ الدياتِ .

وقد قيلَ [في « مجمع الأمثال » ١/ ٢٢٣ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا شِئْتَ أَنْ تُقْلَىٰ فَزُرْ مُتَوَاتِراً وَإِنْ شِئْتَ أَنْ تَزْدَادَ حُبّاً فَزُرْ غِبَّا

وقالَ آخرُ [في « مجمع الأمثال » ١/ ٢٢٣ مِنَ الطَّويلِ] :

عَلَيْكَ بِإِغْبَابِ ٱلزِّيَارَةِ إِنَّهَا إِذَا كَثُرَتْ كَانَتْ إِلَىٰ ٱلْهَجْرِ مَسْلَكَا
أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْغَيْثَ يُسْأَمُ دَائِماً وَيُسْأَلُ بِالأَيْدِيْ إِذَا هُوَ أَمْسَكَا

وقالَ أَبو تمَّامٍ [في « ديوانه » ١/ ٢٤٨ مِنَ الطَّويلِ] :

وَطُوْلُ مُقَامِ ٱلْمَرْءِ فِيْ ٱلْحَيِّ مُخْلِقٌ لِدِيْبَاجَتَيْهِ فَٱغْتَرِبْ تَتَجَدَّدِ
فَإِنِّيْ رَأَيْتُ ٱلشَّمْسَ زِيْدَتْ مَحَبَّةً إِلَىٰ ٱلنَّاسِ أَنْ لَيْسَتْ عَلَيْهِمْ بِسَرْمَدِ

المحبون أقسام: ثمَّ المحبونَ علىٰ أَقسامٍ :

١ـ قسم ساقط: أَمَّا أَهلُ الدعاوي الساقطَةِ ، والأَغراضِ السافلَةِ ، والشهوات البهيميَّةِ : فلا يحصلُ منهمُ ٱلميلُ إِلاَّ قبلَ النيلِ ، ثمَّ يحدُثُ عندَهمُ ٱلْملَلُ لأَدنىٰ عارضٍ يخالِفُ الهوىٰ ، وقد قالَ أَسماءُ بنُ خارجَةَ الفزاريُّ ـ وتمثَّلَ بهِ القاضي شريحٌ ، وأَخطأَ مَن ينسبُهُما للشافعيِّ ـ [في « جمهرة خطب العرب » ٢/ ٥٠٧ مِنَ الطَّويلِ] :

خُذِيْ ٱلْعَفْوَ مِنِّيْ تَسْتَدِيْمِيْ مَوَدَّتِيْ وَلاَ تَنْطِقِيْ فِيْ سَوْرَتِيْ حِيْنَ أَغْضَبُ

فَإِنِّي رَأَيْتُ ٱلْحُبَّ فِي ٱلْقَلْبِ وَٱلأَذَىٰ إِذَا ٱجْتَمَعَا لاَ يَلْبَثُ ٱلْحُبُّ يَذْهَبُ

وأمَّا أهلُ السِّطَةِ في المحبّةِ[1] : فكما قالَ ابنُ المرحِّلِ الأندلسيُّ [مِنَ الرَّمَلِ] : ٢ـ قسم متوسط

لَوْ يَكُونُ ٱلْحُبُّ وَصْلاً كُلُّهُ لَمْ تَكُنْ غَايَتُهُ إِلاَّ ٱلْمَلَلْ

أَوْ يَكُونُ ٱلْحُبُّ هَجْراً كُلُّهُ لَمْ تَكُنْ غَايَتُهُ إِلاَّ ٱلْكَلَلْ

إِنَّمَا ٱلْوَصْلُ كَمِثْلِ ٱلْمَاءِ لاَ يُسْتَطَابُ ٱلْمَاءُ إِلاَّ بِٱلْعَلَلْ[2]

وأمَّا أهلُ المحبّةِ الصادقةِ : فإنَّهم كما قالَ الأحوصُ [مِنَ الطَّويلِ] : ٣ـ قسم صادق

إِذَا قُلْتُ : إِنِّي مُشْتَفٍ بِلِقَائِهَا فَمِمَّ ٱلتَّلاَقِي زَادَ مَا بَيْنَنَا وَجْدَا ؟!

وقالَ عروةُ بنُ أُذينَةَ [في « ديوانهِ » ١٢٣ مِنَ البسيطِ] : المحب دائماً جائع لا يشبع من محبوبه ولا من وصله

لاَ بُعْدُ سَعْدَىٰ مُرِيحِي مِنْ جَوَىٰ سَقَمٍ يَوْماً وَلاَ قُرْبُهَا إِنْ حُمَّ يَشْفِينِي[3]

ووضَّحَهُ ابنُ الرُّوميِّ في قولِهِ [في « ديوانهِ » ٦/ ٢٤٧٥ مِنَ الطَّويلِ] :

أُعَانِقُهُ وَٱلنَّفْسُ بَعْدُ مَشُوقَةٌ إِلَيْهِ وَهَلْ بَعْدَ ٱلْعِنَاقِ تَدَانِي ؟

وَأَلْثِمُ فَاهُ كَيْ تَزُولَ حَرَارَتِي فَيَشْتَدُّ مَا أَلْقَىٰ مِنَ ٱلْهَيَمَانِ

كَأَنَّ فُؤَادِي لَيْسَ يُشْفَىٰ غَلِيلُهُ سِوَىٰ أَنْ تَرَىٰ ٱلرُّوحَانِ يَمْتَزِجَانِ

وقالَ آخرُ [مِنَ البسيطِ] :

وَكِدْتُ وَهْوَ ضَجِيعِي أَنْ أَقُولَ لَهُ مِنْ شِدَّةِ ٱلْحُبِّ : قَدْ أَبْعَدْتَ فَٱقْتَرِبِ

---

(١) السِّطَةُ : التوسط .

(٢) العَلَلُ : محركة الشَّربة الثانية ، أو الشرب بعد الشرب تباعاً .

(٣) الجوىٰ : الحرقةُ وشدَّةُ الوجدِ من عشقٍ أو حزنٍ . حُمَّ : قربَ وحانَ .

وقالَ قاضي القضاةِ ابنُ جماعةٍ [في « طبقات ابن السبكي » ٩/١٤٢ مِنَ الوافرِ] :

أَحِـنُّ إِلَـىٰ زِيَـارَةِ حَـيِّ لَيْلَـىٰ   وَعَهْـدِي مِـنْ زِيَـارَتِهَا قَـرِيـبُ
وَكُنْتُ أَظُنُّ قُرْبَ ٱلْعَهْدِ يُطْفِي   لَهِيْـبَ ٱلشَّـوْقِ فَـٱزْدَادَ ٱللَّهِيْـبُ

ويقربُ مِن هٰذا قليلاً قولُ الناظِمِ [في « العُكبَريّ » ١/١٣٦ مِنَ الوافرِ] :

سَأَمْضِيْ وَٱلسَّلَامُ عَلَيْكَ مِنِّيْ   مَغِيْبِـيْ لَيْلَتِـيْ وَغَـداً إِيَـابِـيْ

وقالَ بشَّارٌ يصفُ شدَّةَ العناقِ [في « ديوانهِ » ٤/٧٨ مِنَ الطَّويلِ] :

خَلَوْتُ بِهَا لاَ يَخْلُصُ ٱلْمَاءُ بَيْنَنَا   إِلَىٰ ٱلصُّبْحِ دُوْنِيْ حَاجِبٌ وَسُتُوْرُ

فأخذهُ ابنُ الجهمِ فقالَ [في « ديوانهِ » ٩٥ مِنَ الطَّويلِ] :

أَلاَ رُبَّ لَيْـلٍ ضَمَّنَـا بَعْـدَ هَجْعَـةٍ   وَأَدْنَـىٰ فُـؤَاداً مِـن فُـؤَادٍ مُعَـذَّبِ
وَبِتْنَا جَمِيْعاً لَوْ تُرَاقُ زُجَاجَةٌ   مِنَ ٱلرَّاحِ فِيْمَا بَيْنَنَا لَمْ تَسَرَّبِ

وقالَ آخرُ [مِنَ البسيطِ] :

لاَ وَٱلْمَنَـازِلِ مِـنْ نَجْـدٍ وَلَيْلَتِنَـا   بِٱلْغَوْرِ إِذْ جَسَدَانَا بَيْنَنَا جَسَدُ
كَمْ رَامَ فِيْنَا ٱلْكَرَىٰ مِنْ لُطْفِ مَسْلَكِهِ   نَوْماً فَمَا ٱنْفَكَّ لاَ خَدٌّ وَلاَ عَضُدُ

لا توصِ حريصاً في تخفيف الزيارة

ويحكىٰ : أَنَّ يحيىٰ بنَ معاذٍ الرازيَّ كتبَ إِلىٰ أبي يزيدَ البسطاميِّ يقولُ لهُ : سكرتُ مِن كثرةِ ما شربتُ مِن كأسِ محبَّتِهِ ، فكتبَ إِليهِ أبو يزيدَ : قد شربَ غيرُكَ البحارَ مِنها ، فلَم يَرْوَ ، ولَم يزَل لسانُهُ مندلعاً ، يقولُ : هَل مِن مزيدٍ ؟

وأنشدوا [مِنَ الوافرِ] :

عَجِبْتُ لِمَنْ يَقُوْلُ : ذَكَرْتُ إِلْفِيْ   وَهَـلْ أَنْسَـىٰ فَـأَذْكُـرُ مَـا نَسِيْـتُ ؟

أَمُـوْتُ إِذَا ذَكَـرْتُـكِ ثُـمَّ أَحْيَـا فَكَمْ أَحْيَا عَلَيْكِ وَكَمْ أَمُوْتُ
شَرِبْتُ ٱلْحُبَّ كَأْساً بَعْدَ كَأْسٍ فَمَا نَفِـدَ ٱلشَّـرَابُ وَلاَ رَوِيْـتُ

وقولُهُ (أَمُوْتُ إِذَا ذَكَرْتُكِ . . . إلى آخر البيت) قد يشبِهُ قولَ ٱمرىءِ القيسِ [في « ديوانهِ » ١١٧ مِنَ الطَّويلِ] :

فَلَـوْ أَنَّهَـا نَفْسٌ تَمُـوْتُ سَـوِيَّـةً وَلَـٰكِنَّهَـا نَفْـسٌ تَسَـاقَـطُ أَنْفُسَـا

لـٰكنَّ الفرقَ كبيرٌ ، والبونَ بعيدٌ ، وقد علمَ كُلُّ أُناسٍ مشربَهم ، وما قرَّرناهُ مِنِ ٱنقسامِ الأَحبابِ إِلىٰ ثلاثَةِ أَقسامٍ هوَ ما جاءَ في قولِ بعضِهم [في « لسان العرب » ١٠/٣٤٧ مِنَ الطَّويلِ] :

ثَلاَثَةُ أَحْبَابٍ : فَحُبٌّ عَلاَقَةٍ وَحُبٌّ تِمِلاَّقٍ وَحُبٌّ هُوَ ٱلْقَتْلُ(١)

---

(١) التِّملاقُ : التودُّدُ .

ذكرَ الثعالبيُّ في « فقهِ اللغةِ » مراتبَ الحُبِّ فقالَ :

أَوَّلُ مراتِبِ الحُبِّ الهوىٰ .

ثُمَّ العَلاقَةُ وهوَ : الحبُّ الملازِمُ للقلبِ .

ثُمَّ الكَلَفُ وهوَ : شدَّةُ الحبِّ .

ثُمَّ العِشْقُ وهوَ : ٱسمٌ لِما فَضَلَ عَنِ المقدارِ الذي ٱسمهُ الحبُّ .

ثُمَّ الشَّغَفُ وهوَ : إِحراقُ الحبِّ القلبَ مَعَ لذَّةٍ يجدُها .

ثُمَّ الجوىٰ وهوَ : الهوىٰ الباطِنُ .

ثُمَّ التَّيْمُ وهوَ : أَن يستعبدَهُ الحبُّ ، ومنهُ : سُمِّيَ تَيمُ اللهِ ؛ أَي : عبدُ اللهِ ، ومنهُ : رَجلٌ متيَّمٌ .

ثُمَّ التَّبَلُ وهوَ : أَنْ يسقمَهُ الهوىٰ ، ومنهُ : رجلٌ متبولٌ .

ثُمَّ التدليهُ وهوَ : ذهابُ العقلِ مِنَ الهوىٰ ، ومنهُ : رجلٌ مدلَّهٌ .

ثُمَّ الهُيُومُ وهوَ : أَنْ يذهبَ علىٰ وجهِهِ لغلَبَةِ الهوىٰ عليهِ ، ومنهُ : رجلٌ هائِمٌ .

ويحكىٰ : أَنَّ شيخاً وقفَ ببابِ المهديِّ ، فقالَ لحاجبِهِ : ٱنظرْ مَن بِالبابِ ، وما حاجتُهُ ؟ قالَ : لا أَذكُرُ حاجَتي إلاَّ بينَ يدي أَميرِ المؤمنينَ ، فطالَعَهُ بقولِهِ ، فقالَ : أَدخِلْهُ ، ومُرهُ فليخفِّفْ ، فدخلَ ، وسلَّمَ ، ثمَّ قالَ [مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا شِئْتَ خَفَّفْنَا فَكُنَّا كَرِيشَةٍ مَتَىٰ تُلْقِهَا ٱلأَنْفَاسُ فِيْ ٱلْجَوِّ تَذْهَبُ
وَإِنْ شِئْتَ سَلَّمْنَا فَكُنَّا كَرَاكِبٍ مَتَىٰ يَقْضِ حَقّاً مِنْ سَلاَمِكَ يَعْزُبُ(١)
وَإِنْ شِئْتَ ثَقَّلْنَا فَكُنَّا كَصَخْرَةٍ مَتَىٰ تُلْقِهَا فِيْ حَوْمَةِ ٱلْبَحْرِ تَرْسُبُ

فضحكَ المهديُّ ، وقالَ لهُ : بَل تكرمُ وتقضىٰ حاجتُكَ ، ووصلَهُ بعشَرَةِ آلافِ درهَمٍ .

وقد أَلَمَّ بهِ الناظِمُ في قولِهِ [في « العُكبَريّ » ١/١٩٨ مِنَ الطَّويلِ] :

أُخِفُّ سَلاَمِيْ حُبَّ مَا خَفَّ عِنْدَكُمْ وَأَسْكُتُ كَيْمَا لاَ يَكُوْنَ جَوَابُ
وَفِيْ ٱلنَّفْسِ حَاجَاتٌ وَفِيْكَ فَطَانَةٌ سُكُوْتِيْ بَيَانٌ عِنْدَهَا وَخِطَابُ

أبو عبيدة النحوي والفضل بن الربيع

وقدمَ أَبو عبيدةَ النحويُّ علىٰ الفضلِ بنِ الربيعِ ، فقالَ لهُ [في « وفيات الأعيان » ٥/٢٤٠] : مَن أَشعرُ الناسِ ؟ قالَ : الراعي . قالَ : وكيفَ فضَّلْتَهُ علىٰ غيرِهِ ؟ قالَ : لأَنَّهُ وردَ علىٰ سعيدِ بنِ عبدِ الرحمٰنِ الأُمويِّ ، فوصلَهُ في يومِهِ ، وصرفَهُ فيهِ ، فقالَ يصفُ حالَهُ معَهُ [في « ديوانه » ٨١ مِنَ الوافرِ] :

وَأَنْضَاءٍ تَحِنُّ إِلَىٰ سَعِيْدٍ طَرُوقاً ثُمَّ عَجَّلْنَ ٱبْتِكَارَا
حَمِدْنَ مَنَاخَهُ وَأَصَبْنَ مِنْهُ عَطَاءً لاَ قَلِيْلَ وَلاَ ضِمَارَا(٢)

---

(١) يعزُبُ : يبعُدُ .
(٢) الضمارُ : ما يرجىٰ من الدينِ والوعدِ وكلُّ ما لا تكونُ منهُ علىٰ ثقةٍ .

فقالَ لهُ الفضلُ : ما أَحسنَ ما ٱقتضيتَنا ، ثمَّ ٱستخرَجَ لَهُ صلَةً مِنَ ٱلرشيدِ ، وشيئاً مِن مالِهِ ، وصرفَهُ مِن يومِهِ .

أهنأ البر عاجله

وهيَ شبيهَةٌ بِما فعلَ مروانُ بنُ أَبي حفصَةَ [في « وفيات الأعيان » ١٨٩/٥] فقد وردَ علىٰ المهديِّ بقصيدَةٍ يقولُ لهُ فيها ـ ما قد ذكرناهُ في غيرِ هـٰذا المجلسِ وهوَ ـ [في « ديوانه » ٩٤ مِنَ الطَّويل] :

إِلَيْكَ قَصَرْنَا ٱلنِّصْفَ مِنْ صَلَوَاتِنَا   مَسِيْرَةَ شَهْرٍ بَعْدَ شَهْرٍ نُوَاصِلُهْ
وَمَا نَحْنُ نَخْشَىٰ أَنْ يَخِيْبَ مَسِيْرُنَا   إِلَيْـكَ وَلَـٰكِـنْ أَهْنَـأُ ٱلْبِـرِّ عَـاجِلُـهْ

فضحكَ المهديُّ ، وأَمرَ لكلِّ بيتٍ بـأَلفِ درهَمٍ ، فبلَغت سبعينَ .

وقالَ أَبو عبادَةَ [مِنَ الكامل] :

عَجَّلْتَ رِفْدَهُمُ وَأَفْضَلُ نَائِلٍ   حَيٌّ ٱلْوُفُوْدُ بِهِ ٱلْهَنِيْءُ ٱلْمُعْجَلُ

عبد الله بن علي العولقي وأحد الشيوخ

وقدمَ أَحدُ مشايخِ القبائِلِ علىٰ الأَميرِ عبدِ اللهِ بنِ عليٍّ العَولَقيِّ في مجلسِ حفلِهِ ، فقالَ لهُ : ما شأْنُكَ ؟ قالَ : شيبَهْ ، قصدَ شيبَهْ ، بغىٰ شيبهْ ، قالَ لهُ : قد أَمرتُ لكَ بثلاثَةٍ ، أَحدُها : طلبُكَ ، والثاني : هديَّتُكَ ، والثالثُ : نفقةُ الطريقِ ، وصرَفَهُ مِن يومِهِ ، و(الشيبَةُ) في عرفِهم هوَ الأَلفُ .

لا تتدلل على أحبابك فتخسر يا ملك الزمان

ويروىٰ [بنحوه في « الأغاني » ٢٥٢/٥] : أَنَّ الرشيدَ غاضَبَ إِحدىٰ حظاياهُ ، وهيَ ماردةٌ ، وٱتسعَت شقَّةُ الخلافِ ، وأَعيَا التدارُكُ ، حتَّىٰ جاءَ يحيىٰ بنُ خالدٍ إِلىٰ العبَّاسِ بنِ الأَحنفِ ، وبقرَ لَهُ الحديثَ ، وقالَ لَهُ : إِنَّ الأَمرَ أَعياني مِنْ قِبَلِهما ، هـٰذا يعتزُّ بالمُلكِ ، وتلكَ تتشبَّثُ بدلالِ الجمالِ ، والرشيدُ أَولىٰ بأَنْ تستخفَّهُ

الصبابةُ ، فقلْ ما تسهِّلُ بهِ طريقَ الصلحِ ، فقالَ [في « ديوانهِ » ٢٨ مِنَ الكاملِ] :

صَدَّتْ مُغَاضِبَةً وَصَدَّ مُغَاضِباً فَكِلاَهُمَا مِمَّا تَجَنَّىٰ مُغْضَبُ
إِنَّ ٱلتَّجَنُّبَ إِنْ تَطَاوَلَ مِنْكُمَا دَبَّ ٱلسُّلُوُّ لَهُ فَعَزَّ ٱلْمَطْلَبُ
رَاجِعْ أَحِبَّتَكَ ٱلَّذِينَ هَجَرْتَهُمْ إِنَّ ٱلْمُتَيَّمَ قَلَّمَا يَتَجَنَّبُ

فَألقاها يحيىٰ إلىٰ الرشيدِ ، فقالَ : ما رأيتُ شعراً أشبهَ منهُ بحالِنا ، ولكأنِّي مقصودٌ بهِ ، قالَ يحيىٰ : نعم ، قالَها العبَّاسُ بنُ الأحنفِ : في شأنِكَ ، فقالَ الرشيدُ : هاتِ نَعلي يا غلامُ ، واستخفَّهُ الأمرُ أن يأمرَ بشيءٍ للعبَّاسِ ، ولمَّا دخلَ علىٰ ماردَةَ . . سألَتْهُ عَنْ سببِ رضاهُ ، فأخبرَها ، فقالَت : بِماذا كوفِىءَ العبَّاسُ ؟ قالَ : ما فعلْتُ شيئاً ، قالَتْ : واللهِ لا جلَسْتَ حتَّىٰ تعجِّلَ لَهُ جائزتَهُ ، فأمر لَهُ بمالٍ جزيلٍ ، تأثَّلَ بهِ عقاراً ، في حديثٍ طويلٍ ، وموضعُ الشاهِدِ مِنَ البيتِ الثاني ، معَ تعجيلِ الجائِزةِ .

لا تتشبث بالملك

وذكرتُ بهٰذا ما لا يتعلَّقُ بالموضوعِ ، ولٰكنْ لا بأسَ بذكرِهِ ؛ تمهيداً للبيتِ الآتي ، وهوَ أنَّ امرأةَ عبدِ الملكِ بنِ مروانَ غضبَتْ عليهِ ، فتبعتْها نفسُهُ ، ولَم ينتفِعْ بأمرِهِ ، وأعياهُ رِضاها ، وأخذتْهُ العزَّةُ أن يخضَعَ لَها ، فقالَ لَهُ أحدُ العرَبِ : أتأذَنُ لي أنْ أُكلِّمَها ؟ فقالَ : نعم ، فاستأذَنَ عليها وهوَ يبكي ، قالَت لَهُ : ما شأنُكَ ؟ قالَ : إنَّ لِيَ ابنينِ ، عَدا أحدُهما علىٰ الآخرِ فقتلَهُ ، فزعمَ الخليفةُ أنَّهُ قاتلٌ القاتِلَ ، فقلتُ : أنا وليُّ الدَّمِ ، وقد عفوتُ ، فلم يجبْ إلىٰ شيءٍ ممَّا قلتُ لَهُ ، وما بقيَتْ لِيَ حيلَةٌ سواكِ ، ثم أخذَ في النحيبِ حتَّىٰ رقَّت لَهُ ، وبكَت من بكائِهِ ، وقالَت : إنِّي لا أُكلِّمُهُ منذُ أيَّامٍ ،

فقالَ لَها : وَلَكِنَّها نفوسٌ ستُحْيِينها ، واللهُ يقولُ : ﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۚ ﴾ [المائدة : ٣٢] ، فتهيَّأَتْ ، ولَم يشعُرْ إلاَّ والخُصُّ يؤذِنُهُ بدخولِها ، فكانَ ما كانَ . ومنهُ تعرفُ حالةَ القومِ ، وتستطلِعُ عوائِدَهم ، وتستقرِىءُ طباعَهم .

* * *

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ٢٣٨ مِنَ الطَّويلِ] :

تَذَلَّلْ لِمَنْ تَهْوَىٰ عَلَىٰ ٱلْقُرْبِ وَٱلنَّوَىٰ ... فَمَا عَاشِقٌ مَنْ لاَ يَذِلُّ وَيَخْضَعُ

التذلل للحبيب هو العز والسعادة

سنَّةُ العشَّاقِ الخضوعُ ، وإرسالُ الدموعِ ؛ ولهٰذا قالَ النابغةُ الجَعْديُّ ـ أَو زفرُ بنُ الحارثِ ، علىٰ ٱختلافِ الروايَةِ ـ [النابغة الجعديُّ في « ديوانهِ » ٨٧ مِنَ الطَّويلِ] :

تَرَدَّيْتُ ثَوْبَ ٱلذُّلِّ يَوْمَ لَقِيْتُهَا ... وَكَـانَ رِدَائِـي نَخْـوَةً وَتَجَبُّـرَا

وقالَ أَبو نُوَاسٍ [في « ديوانهِ » ٥٨٠ مِنَ المديدِ] :

سُنَّـــةُ ٱلْعُشَّـــاقِ وَاحِـــدَةٌ ... فَــإِذَا أَحْبَبْــتَ فَــٱسْتَكِــنِ

وقالَ ٱبنُ الأَحنفِ [في « ديوانهِ » ٢٥١ مِنَ المنسرحِ] :

لاَ بُـدَّ لِلْعَـاشِـقِ مِـنْ وَقْفَـةٍ ... تَكُـوْنُ بَيْـنَ ٱلْـوَصْـلِ وَٱلصَّـرْمِ
حَتَّـىٰ إِذَا ٱلْهَـمُّ تَمَـادَىٰ بِـهِ ... رَاجَـعَ مَـنْ يَهْـوَىٰ عَلَـىٰ رُغْـمِ

وقالَ [في « ديوانهِ » ٢٤٣ مِنَ الطَّويلِ] :

تَحَمَّلْ عَظِيْمَ ٱلذَّنْبِ مِمَّنْ تُحِبُّهُ ... وَإِنْ كُنْتَ مَظْلُوْماً .. فَقُلْ: أَنَا ظَالِمُ!
فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَحْمِلِ ٱلذَّنْبَ فِيْ ٱلْهَوَىٰ ... يُفَارِقْكَ مَنْ تَهْوَىٰ وَأَنْفُكَ رَاغِمُ!

وقالَ عروةُ [بن حزام في « ديوانهِ » ٢٧ مِنَ الطَّويلِ] :

وَكَمْ مِنْ كَرِيْمٍ قَدْ أَضَرَّ بِهِ ٱلْهَوَىٰ ... فَعَـوَّدَهُ مَـا لَـمْ يَكُـنْ يَتَعَـوَّدُ

وقالَ مسعودُ بنُ الحسنِ البياضيُّ [مِنَ الطَّويلِ] :

أَلاَنَ ٱلْهَوَىٰ صَعْبِيْ وَذَلَّلَ جَانِبِيْ ... وَأَلْقَـىٰ إِلَـىٰ أَيْـدِيْكُمَـا بِعِنَـانِـيْ

وقد سبقَ مرَّةً قولُ ٱبنِ الدمينَةِ [في «ديوانه» ١٥ـ١٦ مِنَ الطَّويلِ] :

فَلَوْ قُلْتِ : طَأْ فِيْ ٱلنَّارِ أَعْلَمُ أَنَّهُ ... رِضاً لَكِ أَوْ مُدْنٍ لَنَا مِنْ وِصَالِكِ
لَقَدَّمْتُ رِجْلِيْ نَحْوَهَا وَوَطِئْتُهَا ... هُدىً مِنْكِ لِيْ أَوْ ضَلَّةً مِنْ ضَلاَلِكِ

وقالَ البحتريُّ [في «ديوانه» ٣/ ١٦٥٢ مِنَ الخفيفِ] :

وَتَذَلَّلْتُ خَاضِعاً لِمَلِيْكِيْ ... وَقَلِيْلٌ مِنْ عَاشِقٍ أَنْ يَذِلاَّ

وقالَ المرتضىٰ [في «ديوانه» ٣/ ٢١٧ مِنَ الطَّويلِ] :

وَكَمْ مِنْ جَلِيْدٍ لاَ يُخَامِرُهُ ٱلْهَوَىٰ ... شَنَنَّ عَلَيْهِ ٱلْوَجْدَ حَتَّىٰ تَتَيَّمَا
أَهَانَ لَهُنَّ ٱلنَّفْسَ وَهْيَ كَرِيْمَةٌ ... وَأَلْقَىٰ إِلَيْهِنَّ ٱلْحَدِيْثَ ٱلْمُكَتَّمَا

وقالَ أخوهُ الرضيُّ [في «ديوانه» ١/ ٤٩٧ مِنَ الكاملِ] :

لَوْ حَيْثُ يُسْتَمَعُ ٱلسِّرَارُ وَقَفْتُمَا ... لَعَجِبْتُمَا مِنْ عِزِّهِ وَخُضُوْعِيْ

وقالَ أبو فراسٍ الحمْدانيُّ [في «ديوانه» ١٤٣ مِنَ الطَّويلِ] :

فَإِنْ شِئْتُ أَنْ لاَ عِزَّ بَعْدِيْ لِعَاشِقٍ ... وَأَنَّ يَدِيْ مِمَّا عَلِقْتُ بِهِ صِفْرُ

وقالَ آخرُ [وهو أحمد بن محمد الطوسي كما في «وفيات الأعيان» ١/ ٩٨ مِنَ الطَّويلِ] :

وَهَانَ عَلَيَّ ٱللَّوْمُ فِيْ جَنْبِ حُبِّهَا ... وَقَوْلُ ٱلأَعَادِيْ : إِنَّهُ لَخَلِيْعُ
أَصَمُّ إِذَا نُوْدِيْتُ بِٱسْمِيْ وَإِنَّنِيْ ... إِذَا قِيْلَ لِيْ : يَا عَبْدَهَا لَسَمِيْعُ

وقالَ الوَأْواءُ الدمشقيُّ [في «ديوانه» ٢٦٦ـ٢٦٧ مِنَ البسيطِ] :

قَالَتْ لِطَيْفِ خَيَالٍ زَارَنِيْ وَمَضَىٰ: ... بِٱللهِ صِفْهُ وَلاَ تَنْقُصْ وَلاَ تَزِدِ
فَقَالَ: خَلَّفْتُهُ لَوْ مَاتَ مِنْ ظَمَأً ... وَقُلْتِ : قِفْ عَنْ وُرُوْدِ ٱلْمَاءِ لَمْ يَرِدِ
قَالَتْ: صَدَقْتَ ٱلْوَفَا فِيْ ٱلْحُبِّ شِيْمَتُهُ ... يَا بَرْدَ ذَاكَ ٱلَّذِيْ قَالَتْ عَلَىٰ كَبِدِيْ

وقد ذكرنا هٰذه الأبياتَ أو بعضَها في غيرِ هٰذا المكانِ .

قد ينصعق من يرى الحبيب

ومتىٰ وصلَ المحبُّ مِنَ الانقيادِ لأوامرِ المحبوبِ إلىٰ هٰذهِ الغايةِ . . ٱمتلأَتْ نفسُهُ بهيبتِهِ ، وأخذهُ البهتُ ، والروعةُ مِن مفاجأةِ طلعتِهِ ، ومنهُ قولُ بعضِهم [وهو أبو الفرج بن هند كما في « عيون الأنباء في طبقات الأطباء » ١/ ٤٣٢ مِنَ الطَّويلِ] :

تَمَنَّيْتُــهُ حَتَّــىٰ إذَا مَــا رَأَيْتُــهُ ... بُهِتُّ فَلَمْ أُعْمِلْ لِسَاناً وَلاَ طَرْفَا
وَأَطْـرَقْـتُ إِجْـلاَلاً لَــهُ وَمَهَـابَـةً ... وَحَاوَلْتُ أَنْ يَخْفَىٰ الَّذِي بِيْ فَلَمْ يَخْفَىٰ(١)

وهُما ناظرانِ إلىٰ قولِ المجنونِ [في « ديوانهِ » ٥٩ مِنَ الطَّويلِ] :

فَمَـا هُـوَ إلاَّ أَنْ أَرَاهَـا فُجَـاءَةً ... فَـأُبْهَـتُ حَتَّـىٰ مَـا أَكَـادُ أُجِيْـبُ
وَأُصْرَفُ عَنْ رَأْيِيْ الَّذِيْ كُنْتُ أَرْتَئِيْ ... وَأَنْسَىٰ الَّذِيْ أَعْدَدْتُ حِيْنَ تَغِيْبُ

وقولِهِ [في « ديوانِ جميلٍ » ٢٢٥ مِنَ الطَّويلِ] :

وَإِنِّــيْ لَيُنْسِيْنِــيْ لِقَــاؤُكِ كُلَّمَــا ... لَقِيْتُـكِ يَـوْمـاً أَنْ أَبُثَّـكِ مَـا بِيَـا

وقولِهِ [أي : المجنونِ في « ديوانهِ » ١٦٣ مِنَ الطَّويلِ] :

وَدَاعٍ دَعَا إِذْ نَحْنُ بِالْخَيْفِ مِنْ مِنىً ... فَهَيَّـجَ أَشْجَـانَ ٱلْفُـؤَادِ وَمَـا يَـدْرِيْ
دَعَـا بِـٱسْـمِ لَيْلَـىٰ غَيْـرَهَـا فَكَـأَنَّمَـا ... أَطَارَ بِلَيْلَىٰ طَائِراً كَانَ فِيْ صَدْرِيْ

وقولِ أبي صخرٍ الهذليِّ [في « ديوان الحماسة » ٢/ ٦٧ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَـا هُـوَ إلاَّ أَنْ أَرَاهَـا فُجَـاءَةً ... فَأُبْهَتُ لاَ عُرْفٌ لَدَيَّ وَلاَ نُكْرُ

---

(١) وبعد هذين البيتين :

وَقَـدْ كَـانَ فِـيْ قَلْبِـيْ دَفَـاتِـرُ عَتْبِـهِ ... فَلَمَّا ٱلْتَقَيْنَا مَا وَجَدْتُ وَلاَ حَرْفَا

وقالَ عُتَيٌّ بنُ مالكٍ العقيليُّ [في « لسان العرب » ١٤/ ٢٣٧ مِنَ الطَّويلِ] :

أَتَيتُ مَعَ ٱلْحُدَّاثِ لَيْلَىٰ فَلَمْ أَبِنْ ... فَأَخْلَيْتُ فَاسْتَعْجَمْتُ عِنْدَ خَلاَئِيَا

وقالَ يزيدُ بنُ الطثريَّةِ [في « ديوانهِ » ٩٤ مِنَ الطَّويلِ] :

بِنَفْسِيَ مَنْ لَوْ مَرَّ بَرْدُ بَنَانِهِ ... عَلَىٰ كَبِدِيْ كَانَتْ شِفَاءً أَنَامِلُهْ

وَمَنْ هَابَنِيْ فِيْ كُلِّ شَيْءٍ وَهِبْتُهُ ... فَلاَ هُوَ مُعْطِيْنِيْ وَلاَ أَنَا سَائِلُهْ

وقالَ ٱبنُ أَبي ربيعَةَ [بل المجنونُ في « ديوانهِ » ٧١ مِنَ الطَّويلِ] :

أَهَابُكِ إِجْلاَلاً وَمَا بِكِ قُدْرَةٌ ... عَلَيَّ وَلَـٰكِنْ مِلْءُ عَيْنٍ حَبِيْبُهَا

وقالَ بشَّارٌ [في « ديوانهِ » ٢/ ٣١٩ مِنَ البسيطِ] :

تُلْقَىٰ بِتَسْبِيْحَةٍ مِنْ حُسْنِ مَا خُلِقَتْ ... وَتَسْتَفِزُّ حَشَا ٱلرَّائِيْ بِإِرْعَادِ

وقالَ آخرُ [كما في « مصارع العشاق » ١/ ٢٩٢ مِنَ الطَّويلِ] :

فَمَا هِيَ إِلاَّ لَحْظَةٌ بِتَبَسُّمٍ ... وَتَصْطَكُّ رِجْلاَهُ وَيَسْقُطُ لِلْجَنْبِ

وفي هـٰذا قصَّةٌ لاَ بأسَ بذكرِها ؛ لِطلاوتِها ، وهيَ [كما في « وفيات الأعيان » ٤/ ٣١٧] : أَنَّ بعضَهم صنعَ وليمةً ، دَعا إِليها الأَعيانَ ، ثمَّ أَمرَ جاريتَهُ فغنَّتْ [مِنَ الطَّويلِ] : المبرد والجارية المغنية النحوية

وَقَالُوْا لَهَا : هَـٰذَا حَبِيْبُكِ مُعْرِضٌ ... فَقَالَتْ : أَلاَ إِعْرَاضُهُ أَيْسَرُ ٱلْخَطْبِ

فَمَا هِيَ إِلاَّ لَحْظَةٌ بِتَبَسُّمٍ ... وَتَصْطَكُّ رِجْلاَهُ وَيَسْقُطُ لِلْجَنْبِ

فٱهتزَّ القومُ ٱرتياحاً وطرباً ، ما خَلا أَبي العبَّاسِ المبرِّدِ ـ وكانَ حاضراً ـ فٱنكسرَ صاحبُ المنزلِ ، وقالَ لَهُ : أَوَلم يعجبْكَ الغناءُ ؟ قالَتِ ٱلجاريَةُ : بلىٰ ، وإِنَّما أَرادَ منِّي أَن أَقولَ هـٰكَذا :

﴿ وَقَالُوا لَهَا : هـٰذَا حَبِيْبُكِ مُعْرِضاً ﴾ ، ولم يدرِ أَنَّ ٱبنَ مسعودٍ قرأَ : ﴿ وَهَـٰذَا بَعْلِيْ شَيْخٌ ﴾ فطربَ حينئذٍ أَبو العبَّاسِ ، حتَّىٰ شقَّ ثوبَهُ .

ما السبب في اندهاش المحب عند رؤية المحبوب؟

وقد ٱختلفَ في سبيلِ ما يعرضُ للمحبِّ مِنَ ٱلْهَيْبَةِ ، وما يحدُثُ لَهُ عندَ المفاجأَةِ مِن الروعَةِ ؛ فقيل : لأَنَّ القلبَ ينفرجُ مِن الشوقِ إِلىٰ اللقاءِ ، فيهربُ الدمُ ، وقد يبرُدُ ويضطَرِبُ ، فتحدُثُ الرعدَةُ ، وربَّما كانَ الموتُ .

سلطان المحب على قلب المحبوب أقوى من سلطنة السلطان على الرعية

وقيلَ : إِنَّ لِلْمحبوبِ سلطاناً علىٰ قلوبِ المحبينَ ، أَعظَمَ مِن سلطنَةِ الملوكِ علىٰ الرعيَّةِ ، فإذا رأَوهُ ـ ولا سيَّما معَ المفاجأَةِ ـ ٱرتاعوا كَما يرتاعُ ناظِرُ الملكِ الكبيرِ ، ولله درُّ الذي يقولُ [مِنَ ٱلمُجتثِّ] :

ٱلْمُلْـــكُ للهِ وَحْـــدَهْ   وَلِلْخَلِيْفَـــةِ بَعْـــدَهْ
وَلِلْمُحِـــبِّ إِذَا مَـــا   حَبِيْبُـــهُ بَـــاتَ عِنْـــدَهْ

وقالَ سلطانُ العاشقينَ [في « ديوانِهِ » ١٦٥ مِنَ الطَّويلِ] :

وَبِتْنَا كَمَا شَاءَ ٱقْتِرَاحِيْ عَلَىٰ ٱلْهَوَىٰ   أَرَىٰ ٱلْمُلْكَ مُلْكِيْ وَٱلزَّمَانَ غُلاَمِيْ(١)

وقد سبقَ في غيرِ هـٰذا ٱلمجلسِ قولُ ٱلمهديِّ للخيزُرانِ [من الوافر] :

أَمَــا يَكْفِيْــكِ أَنَّــكِ تَمْلِكِيْنِــيْ   وَأَنَّ ٱلنَّـــاسَ كُلَّهُـــمُ عَبِيْـــدِيْ
وَأَنَّــكِ لَــوْ قَطَعْــتِ يَــدِيْ وَرِجْلِــيْ   لَقُلْتُ مِنَ ٱلرِّضَا : أَحْسَنْتِ زِيْدِيْ

---

(١) ٱقتراحي : مطلبي .

وقالَ المأمونُ [مِنَ الطَّويلِ] :

أَيَا رَبَّةَ ٱلْحُسْنِ ٱلَّتِيْ هَتَكَتْ نُسْكِيْ   عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ أَنْتِ لاَ بُدَّ لِيْ مِنْكِ
فَإِمَّا بِذُلٍّ وَهْوَ أَلْيَقُ بِٱلْهَوَىٰ   وَإِمَّا بِعِزٍّ وَهْوَ أَلْيَقُ بِٱلْمُلْكِ

وقولُ الرشيدِ [في « ديوانه » ٤٨ مِنَ الكاملِ] :

مَلَكَ ٱلثَّلاَثُ ٱلآنِسَاتُ عِنَانِيْ   وَحَلَلْنَ مِنْ قَلْبِيْ بِكُلِّ مَكَانِ
مَا لِيْ تُطَاوِعُنِيْ ٱلْبَرِيَّةُ كُلُّهَا   وَأُطِيْعُهُنَّ وَهُنَّ فِيْ عِصْيَانِيْ
مَا ذَاكَ إِلاَّ أَنَّ سُلْطَانَ ٱلْهَوَىٰ   - وَبِهِ قَوِيْنَ - أَشَدُّ مِنْ سُلْطَانِيْ

وللثلاثِ المشارِ إليهِنَّ في الأبياتِ حديثٌ طريفٌ ، لا يتَّسِعُ لإيرادِهِ الوقتُ .

وقالَ بعضُ ملوكِ المغربِ مِنْ بني مروانَ ، وما أدري أَهُوَ أخذَ عَنِ الرشيدِ أَمِ ٱلرشيدُ هوَ الذي أخذَ عنهُ [وهو المستعين بالله ، الذي أخذ عن الرشيد كما في « نفح الطيب » ٢/ ٢٢٧ مِنَ الكاملِ] :

وَتَمَلَّكَتْ نَفْسِيْ ثَلاَثٌ كَالدُّمَىٰ   زُهْرُ ٱلْوُجُوْهِ نَوَاعِمُ ٱلأَبْدَانِ
كَكَوَاكِبِ ٱلظَّلْمَاءِ لُحْنَ لِنَاظِرِيْ   مِنْ فَوْقِ أَغْصَانٍ عَلَىٰ ٱلْكُثْبَانِ
هَـٰذِيْ ٱلْهِلاَلُ وَتِلْكَ بِنْتُ ٱلْمُشْتَرِيْ   حُسْناً وَهَـٰذِيْ أُخْتُ غُصْنِ ٱلْبَانِ
حَاكَمْتُ فِيْهِنَّ ٱلْهَوَىٰ فَقَضَىٰ لَهَا   سُلْطَانُهَا ٱلسَّامِيْ عَلَىٰ سُلْطَانِيْ
مَا ضَرَّ أَنِّيْ عَبْدُهُنَّ صَبَابَةً   وَبَنُوْ ٱلزَّمَانِ وَهُنَّ مِنْ عُبْدَانِيْ
إِنْ لَمْ أُطِعْ فِيْهِنَّ سُلْطَانَ ٱلْهَوَىٰ   كَلَفاً بِهِنَّ فَلَسْتُ مِنْ مَرْوَانِ

وقالَ آخرُ [مِنَ الطَّويلِ] :

يَلَذُّ لَهُ ذُلُّ ٱلْهَوَىٰ وَخُضُوْعُهُ   وَلَوْلاَ ٱلْهَوَىٰ مَا لَذَّ لِلْعَاقِلِ ٱلذُّلُّ

وقالَ آخرُ [مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا كُنْتَ تَهْوَىٰ مَنْ تُحِبُّ وَلَمْ تَكُنْ ... ذَلِيْلاً لَهُ فَاقْرَ ٱلسَّلاَمَ عَلَىٰ ٱلْوَصْلِ

تَذَلَّلْ لِمَنْ تَهْوَىٰ لِتَكْسَبَ عِزَّةً ... فَكَمْ عِزَّةٍ قَدْ نَالَهَا ٱلْمَرْءُ بِٱلذُّلِّ

وفي « ديوانِ الشرفِ ٱبنِ الفارِضِ » ما لا يوجدُ مثلُهُ عندَ غيرِهِ ، منهُ [في « ديوانهِ » ١٥٣ مِنَ الكاملِ] :

مِنِّيْ لَهُ ذُلُّ ٱلْخُضُوْعِ وَمِنْهُ لِيْ ... عِزُّ ٱلْمَنُوْعِ وَقُوَّةُ ٱلْمُسْتَضْعِفِ(١)

لَوْ قَالَ: تِيهاً قِفْ عَلَىٰ جَمْرِ ٱلْغَضَىٰ ... لَـوَقَفْـتُ مُمْتَثِـلاً وَلَـمْ أَتَـوَقَّـفِ(٢)

أَوْ كَانَ مَنْ يَرْضَىٰ بِخَدِّيْ مَوْطِئاً ... لَوَضَعْتُهُ أَرْضاً وَلَمْ أَسْتَنْكِفِ(٣)

ثمَّ ما لَبِثَ أَنِ ٱمتثَلَ ما أَشارَ بهِ ٱبنُ أَبي عتيقٍ علىٰ ٱبنِ أَبي ربيعةَ كَما سلَفَ ، وكَما قد زعَمَ ٱبنُ المعتزِّ مِن قبلُ ، ففرَشَ خدَّهُ ، وقالَ [ابن الفارض في « ديوانه » ١٦٥ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَمَّـا تَـوَافَيْنَـا عِشَـاءً وَضَمَّنَـا ... سَـوَاءُ سَبِيْلَـيْ دَارِهَـا وَخِيَـامِيْ

وَمِلْنَا كَذَا عَنْ سَاحَةِ ٱلْحَيِّ حَيْثُ لاَ ... رَقِيْـــبَ وَلاَ وَاشٍ بِـــزُوْرِ كَـــلاَمِ

فَرَشْتُ لَهَا خَدِّيْ غِطَاءً عَلَىٰ ٱلثَّرَىٰ ... فَقَالَتْ : لَكَ ٱلْبُشْرَىٰ بِلَثْمِ لِثَامِيْ

وقالَ [في « ديوانه » ١٥٦ مِنَ الخفيفِ] :

وَكَفَـانِـيْ عِـزّاً بِحُبِّـكَ ذُلِّـيْ ... وَخُضُوْعِيْ وَلَسْتُ مِنْ أَكْفَاكَا

---

(١) المَنوعُ : الشَّديدُ المنعِ . المستضعِفُ : الذي يراني ضعيفاً أمامهُ .

(٢) تيهاً : دلالاً .

(٣) أستنكِفُ : أَستكبِرُ .

وقالَ [في « ديوانه » ١٧٣ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَمْ يَبْقَ مِنِّي مَا يُنَاجِي تَوَهُّمِيْ سِوَىٰ عِزِّ ذُلِّيْ فِيْ مَهَانَةِ إِجْلاَلِيْ

وقالَ [في « ديوانه » ١٣٦ـ١٣٧ مِنَ الطَّويلِ] :

وَقَالَ نِسَاءُ ٱلْحَيِّ عَنَّا بِذِكْرِ مَنْ جَفَانَا : وَبَعْدَ ٱلْعِزِّ لَذَّ لَهُ ٱلذُّلُّ
فَحَالِيْ وَإِنْ سَاءَتْ فَقَدْ حَسُنَتْ بِها وَمَا حَطَّ قَدْرِيْ فِيْ هَوَاهَا بِهِ أَعْلُوْ
وَلِـيْ هِمَّـةٌ تَعْلُـوْ إِذَا مَـا ذَكَـرْتُهَـا وَرُوْحٌ بِذِكْرَاهَا إِذَا رَخُصَتْ تَغْلُوْ

وقالَ [في « ديوانه » ٥٨ مِنَ الطَّويلِ] :

ذَلَلْتُ بِهَا فِيْ ٱلْحَيِّ حَتَّىٰ وَجَدْتُنِيْ وَأَدْنَىٰ مَنَالٍ عِنْدَهُمْ فَوْقَ هِمَّتِيْ
وَمِنْ دَرَجَاتِ ٱلْعِزِّ أَمْسَيْتُ مُخْلَداً إِلَىٰ دَرَكَاتِ ٱلذُّلِّ مِنْ بَعْدِ نَخْوَتِيْ
فَلاَ بَابَ لِيْ يُغْشَىٰ وَلاَ جَاهَ يُرْتَجَىٰ وَلاَ جَارَ لِـيْ يُحْمَىٰ لِفَقْدِ حَمِيَّـتِيْ

وقالَ [في « ديوانه » ٥٣ مِنَ الطَّويلِ] :

وَحُسْنٌ بِهِ تُسْبَىٰ ٱلنُّهَىٰ دَلَّنِيْ عَلَىٰ هَوىً حَسُنَتْ فِيْهِ لِعِزِّكِ ذِلَّتِيْ

وقالَ سبطُهُ [في « ديوان ابن الفارض » ٢٠٩ مِنَ الطَّويلِ] :

تَـوَاضَعْـتُ ذُلاًّ وَٱنْخِفَـاضـاً لِعِـزِّهَـا فَشَرَّفَ قَدْرِيْ فِيْ هَوَاهَا ٱلتَّوَاضُعُ
لَئِنْ صِرْتُ مَخْفُوْضَ ٱلْجَنَابِ فَحُبُّهَا لِقَـدْرِ مَقَـامِـيْ فِـيْ ٱلْمَحَبَّـةِ رَافِـعُ

وقالَ ٱبنُ الجعبريِّ : زرتُ معَ والِدي قبرَ ٱبنِ الفارِضِ ، فوجدنا عندَهُ تراباً كثيراً ، فصرخَ الشيخُ وقالَ [مِنَ الطَّويلِ] :

مَسَاكِيْنُ أَهْلُ ٱلْعِشْقِ حَتَّىٰ قُبُوْرُهُمْ عَلَيْهَـا تُـرَابُ ٱلـذُّلِّ بَيْـنَ ٱلْمَقَـابِـرِ

ثمَّ حملَ الشيخُ الترابَ في ثوبِهِ ، وحملناهُ معَهُ إِلىٰ أَن كَنَسْنا القبرَ وما حولَهُ .

حال النبي ﷺ وتواضعه مع أهله

وأكبرُ مِمَّا ذكرناهُ كلِّهُ. . حالُهُ ﷺ معَ أزواجِهِ ، فقد كانَ ـ كما ذكَرنا لوناً مِنهُ في المجلسِ الثاني عشرَ عندَ قولِهِ [في « العُكبريّ » ٢/ ٣٣٣ مِنَ الكاملِ] :

وَعَـذَلْـتُ أَهْـلَ ٱلْعِشْـقِ حَتَّـىٰ ذُقْتُـهُ   فَعَجِبْتُ كَيْفَ يَمُوْتُ مَنْ لاَ يَعْشَقُ ؟!

ـ حسنَ العشرَةِ لَهُنَّ ، وكُنَّ يهجرنَهُ إِلىٰ الليلِ ، وكانَ يقولُ : « خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لأَهْلِهِ ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لأَهْلِيْ »(١) .

وكانَ (إِذا صلَّىٰ العصرَ . . دارَ عليهِنَّ كلِّهِنَّ ، ودَنا مِنهُنَّ مِن غيرِ مسيسٍ ، وكانَ يسرِّبُ إِلىٰ عائِشَةَ بناتِ الأنصارِ يلعبنَ مَعَها ، ويمكِّنُها مِنَ ٱللَّعِبِ ، ويحمِلُها لتنظرَ إِلىٰ الحبشَةِ وهُم يلعبونَ في مسجدِهِ وهيَ متَّكِئَةٌ علىٰ منكبيهِ ، وكانَ إِذا هَوِيَتْ شيئاً لا محذورَ فيهِ . . تابعَها عليهِ ، وكانَ إِذا شربَتْ مِنَ ٱلإِناءِ . . أَخذَهُ فوضَعَ فمَهُ علىٰ موضِعِ فَمِها وشربَ ، وإِذا تعرَّقَت عَرْقاً ـ وهوَ العظمُ الذي عليهِ لحمٌ ـ أَخذَهُ وٱعتمَدَ موضِعَ فَمِها)(٢) .

ولَمَّا نزلَت براءَتُها . . قالَت لَها أُمُّها : قومي إِليهِ ، فقالَت : واللهِ لا أُقومُ إِليهِ ، ولا أَحمدُ إِلاَّ اللهَ ، وهيَ التي تواطَأَتْ معَ حفصَةَ علىٰ غِشِّ الجونيَّةِ حتَّىٰ فرَّقَتا بينَها وبينَ رسولِ اللهِ ﷺ ، كَما قد ذَكَرنا في غيرِ هـٰذا المجلسِ ، فلَم يُثَرِّبْ(٣) .

---

(١) أخرجه عن ابن عباس رضي الله عنهما ابن حبان في « الإحسان » (٤١٩٤) ، وهو في « كشف الأستار » (١٤٨٣) .

(٢) تقدَّمت هذهِ الأَحاديثُ معَ تخريجِها في غيرِ هذا المجلسِ .

(٣) التثريب : التعيير والاستقصاء في اللوم ، وثرَّب عليه : قبَّحَ عليه فعله .

ولله درُّ القائِلِ [مِنَ الوافرِ] :

وَيَقْبُحُ مِنْ سِوَاكَ ٱلْفِعْلُ عِنْدِي ... فَتَفْعَلُهُ فَيَحْسُنُ مِنْكَ ذَاكَا

وقالَ الناظِمُ [في « العُكبَريّ » ٤/ ٢٥٥ مِنَ الوافرِ] :

وَقَدْ يَتَقَارَبُ ٱلْوَصْفَانِ جِدّاً ... وَمَوْصُوفَاهُمَا مُتَبَاعِدَانِ

وقالَ [في « العُكبَريّ » ١/ ٦٥ مِنَ الطَّويلِ] :

وَيَخْتَلِفُ ٱلرِّزْقَانِ وَٱلْفِعْلُ وَاحِدٌ ... إِلَىٰ أَنْ يُرَىٰ إِحْسَانُ هَـٰذَا لِذَا ذَنْبَا

الحكمة في ميل الرجل للمرأة

وبعدُ : فمعاذَ اللهِ أَن يكونَ جميعُ ذلكَ إلا لحكمَةٍ عاليَةٍ ، لَم أَرَ مَن نبَّهَ عليها ، وكأنَّها ـ والعلمُ لَهُ جلَّ شأنُهُ ـ راجعَةٌ إِلىٰ صفَةِ العدلِ .

وتوضيحُها : أَنَّ الكونَ ـ كَما قُلنا غيرَ مرَّةٍ ـ لم يتَّسقْ نظامُهُ إلاَّ بناموسِ الجاذبيَّةِ ، وهوَ المحبَّةُ الصادقَةُ ليسَ غيرُ ، والإنسانُ سرُّ هـٰذا الكونِ ، فبالحريِّ أَن لا يستقيمَ شأنُهُ إلاَّ بِها ، فهيَ المقصودُ الأَكبرُ مِن الحياةِ الزوجيَّةِ ، بشهادَةِ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم : ٢١] ، فذلكَ السكونُ والرحمَةُ والمودَّةُ هيَ التي بِها تُطعَّمُ الحياةُ ، ويُستعجَلُ النعيمُ ، وتُتناسىٰ الآلامُ ؛ إِذ كلُّ لذَّةٍ في الدنيا دفعُ أَلَمٍ ، سوىٰ ما كانَ مِن أمثالِها ، فهيَ التي بها يسهُلُ ٱحتمالُ مشاقِّ الكونِ المظلمَةِ ، وقطعُ عقباتِهِ الكأْداءِ ، والصبرُ علىٰ موجعاتِهِ الكبرىٰ ، ويتبعُ ذلكَ ٱستبقاءُ النسلِ ؛ ضرورةَ بقاءِ العالَمِ إِلىٰ أَمدِهِ المحدودِ لَهُ .

فمِن أَلطافِهِ ـ جلَّ شأنُهُ ـ تركيبُ الشهوَةِ التي تستبي الغيورَ ،

وتستنزلُ الوقورَ ، ولا يخفىٰ ما في طريقِ إرضائِها الذي لا بدَّ منهُ مِن الذلِّ الفاحشِ ، الواقعِ علىٰ المرأةِ ، فعوِّضَت عنهُ برجحانِ الكفَّةِ لدىٰ ميزانِ الهوىٰ ، وإعلاءِ الدرجَةِ عندَ سلطانِ الحبِّ ، ورفعِ المنزلَةِ في دولَةِ الجمالِ ، فهوَ إذن سرٌّ لطيفٌ محسوسٌ مِن أسرارِ العدلِ الإلـٰهيِّ ، الذي قامَتِ ٱلأرضُ والسماءُ عليهِ .

ولئِن قيلَ : إنَّهُ لا يظهَرُ أثرهُ إلاَّ عندَ أهلِ الكرَمِ ، وقليلٌ ما هُم . . قُلنا : هُمُ ٱلمَقصودونَ وإن قَلُّوا ، ولا عبرَةَ بِمَن سِواهُم وإن جَلُّوا ؛ إذ هُم بالعجماواتِ أشبَهُ ، لا يعرفونَ العزَّ ولا الهونَ ، ولا العاليَ ولا الدونَ ، وقد أَسلفنا مرَّةً قولَ حبيبٍ [أبا تمّامٍ في « ديوانهِ » ١/ ٣٣٠ مِنَ البسيطِ] :

إِنَّ ٱلْكِـرَامَ كَثِيـرٌ فِـي ٱلْبِـلَادِ وَإِنْ ... قَلُّوا كَمَا غَيْرُهُمْ قُلٌّ وَإِنْ كَثُرُوا(١)

وقَد يُشبِهُهُ قولُ أَبي عُبادَةَ [في « ديوانهِ » ٢/ ٩٧٦ مِنَ الكاملِ] :

قَلَّ ٱلْكِرَامُ فَصَارَ يَكْثُرُ فَذُّهُمْ ... وَلَقَدْ يَقِلُّ ٱلشَّيْءُ حَتَّىٰ يَكْثُرَا(٢)

وقولُ الناظِمِ [« في العُكبَريِّ » ٢/ ١٥٥ مِنَ الطَّويلِ] :

فَجَاءَتْ بِهِ صَلْتَ ٱلْجَبِيْنِ مُعَظَّماً ... تَرَىٰ ٱلنَّاسَ قُلاًّ حَوْلَهُ وَهُمُ كُثْرُ(٣)

فيتلخَّصُ منهُ : أَنَّ المحبَّةَ سرُّ الأسرارِ ، وأَنَّ أَفضلَ مظاهِرِها الحياةُ الزوجيَّةُ ، وأَنَّ ما يلحَقُ المرأَةَ مِن المهانَةِ بالصورَةِ فيما يتولَّدُ

---

(١) قُلٌّ : قليلٌ . يعني : أن للكرامِ شأناً عظيماً يكثرُ بهمُ الخيرُ وإن قلَّ عددُهمْ ، كذلكَ غيرُ الكرامِ كثيرو العددِ قليلو الشأنِ .

(٢) الفذُّ : الفردُ .

(٣) الصلتُ : الجبينُ الواضحةُ .

من بعضِ دَواعي الحبِّ لبقاءِ التناسُلِ . . تُعوَّضُ عنهُ في شرعِ الهوىٰ ، بأَن تكونَ مالِكَةً لا مملوكَةً ، وحاكِمَةً لا محكومَةً ، وغالبةً لا مغلوبةً ، والكرامُ في ذلكَ مساقونَ بِسَوقِ الطبيعَةِ ، وموكولونَ فيهِ إلىٰ الداعيَةِ ، ومَن سواهُم وإن كانوا دَهماءَ الناسِ ، والسوادَ الأَعظمَ . . فإِنَّهم لا عبرَةَ بِهم ، وفي الأَحكامِ الشرعيَّةِ ما يكفي للتناصُفِ بينَهُم ، وتوفيةِ المرأَةِ ما آمتازَتْ بهِ مِن حقوقِ الخدمَةِ ، والمؤْنَةِ ، والنَّفقَةِ ، والكفالَةِ ، وغيرِ ذلكَ .

ثمَّ إِذَا كانَ هـٰذا الخضوعُ للجمالِ الحادِثِ . . فما بالُكَ بهِ لمظهَرِ كلِّ جمالٍ أَقدَسَ ، وكمالٍ أَنفسَ ، وكثيراً ما تكونُ المحبَّةُ البشريَّةُ وسيلةً للحبِّ الإلـٰهيِّ ، وللهِ درُّ لسانِ الدينِ بنِ الخطيبِ في قولِهِ ـ الذي قلَّما أَذكرُهُ إلاَّ وخنَقَني النشيجُ ، وتبادَرَتْ مِن محجِري القطراتُ ـ وهوَ [في « نفح الطيب » ٦/ ٢٨٢ مِنَ الطَّويلِ] :

جَزَىٰ ٱللهُ عَنِّيْ زَاجِرَ ٱلشَّيْبِ خَيْرَ مَا ... جزَىٰ نَاصِحاً فَازَتْ يَدَاهُ بِخَيْرِهِ
سَلَكْتُ طَرِيْقَ ٱلْحُبِّ حَتَّىٰ إِذَا ٱنْتَهَىٰ ... تَعَوَّضْتُ حُبَّ ٱللهِ عَنْ حُبِّ غَيْرِهِ

ومِن هُنا كانَ ﷺ سيِّدَ المتواضعينَ ، يعلِفُ بعيرَهُ ، ويقُمُّ بيتَهُ ، ويخصِفُ نعلَهُ[1] ، ويرقِّعُ ثوبَهُ ، ويحلِبُ شاتَهُ ، ويطحَنُ مَعَ خادِمِهِ ، ويأْكُلُ معَهُ ، ويحمِلُ بضاعتَهُ مِنَ ٱلسوقِ بيدِهِ ، ويصافِحُ الفقيرَ ، ويتركُ لَهُ يدَهُ حتَّىٰ يكونَ هوَ الذي يُلْقيها ، ولا يحتقِرُ ما دُعيَ إِليهِ ، ولَو إلىٰ حَشَفِ التمرِ . تواضعه ﷺ

(١) قال الحافظ العراقي : رواه أحمد في « المسند » من حديث عائشة . يخصف : يخرزه بيده ليصلحه .

وحالُهُ معروفٌ معَ أَهلِ الصُّفَّةِ ، وآخرُ ما نزلَ عليهِ في شأنِهم قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ ﴾ [الكهف : ٢٨] ، فكانَ بعدَ ذلكَ لا يقومُ عَنهم حتَّىٰ يَكونوا هُمُ ٱلْبادئِينَ بالقيامِ ، غيرَ أَنَّهم لَم يَكونوا بلداءَ ، ولا ثُقَلاءَ كأَهلِ زمانِنا ، ولكنَّهم كَما قالَ ٱبنُ أَبي ربيعَةَ [في « ديوانهِ » ١٦٣ مِنَ الطَّويلِ] :

فَلَمَّـا ٱقْتَصَـرْنَـا دُونَهُـنَّ حَـدِيثَنَـا وَهُنَّ خَبِيرَاتٌ بِحَاجَاتِ ذِيْ ٱلتَّبْلِ[1]
عَرَفْنَ ٱلَّذِيْ نَهْوَىٰ فَقُلْنَ: ٱئْذَنِيْ لَنَا نَطُفْ سَاعَةً بَيْنَ ٱلْبَسَاتِيْنِ وَٱلنَّخْلِ

فَكانوا إِذا عَرَفوا أَنَّهُ يريدُ القيامَ . . ٱنصرفوا عنهُ ، وقد جوَّدْتُ الكلامَ فيهِ بما أَظنُّني لَم أُسبق إِليهِ في « حاشيَتي علىٰ الشمائِلِ » فتواضُعُهُ عليهِ السلامُ أَثَرُ صدقِ محبَّتِهِ ، وٱتساعِ معرفتِهِ .

تواضع سيدنا سليمان عليه الصلاة والسلام

ولقد كانَ سليمانُ ـ على ٱتساعِ ملكِهِ ـ يتفقَّدُ ٱلْحِلَقَ في المسجدِ الأَقصىٰ ، ثمَّ لاَ يجلِسُ إِلاَّ معَ المساكينِ ، وكانَ لا يتغدَّىٰ حتَّىٰ يترحَّلَ النهارُ ؛ ليذوقَ طعمَ الجوعِ ؛ حتَّىٰ لا ينساهُم .

ومِن شريفِ تواضُعِهِ ما قصَّ اللهُ عَلَينا مِن خبرِهِ معَ الهدهُدِ ؛ إِذ قالَ لهُ ﴿ سَنَنظُرُ أَصَدَقۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾ [النمل : ٢٧] ، فإِنَّهُ كانَ يفتحُ القلوبَ الغلفَ ، والآذانَ الصمَّ ؛ إِذ لا تجدُ أَرَقَّ ولا أَبدعَ ولا أَبلغَ مِنَ ٱلإِفصاحِ بنسبةِ الصدقِ إِليهِ ، حتَّىٰ كأَنَّهُ الصادِقُ وحدَهُ في عسكرِهِ ، ولمَّا كانَ الكذبُ لم يجرِ فيهِ علىٰ مقتضىٰ السياقِ مِنَ

---

(١) المعنى : حينَ آنَسنَ منَّا تكتُّماً وقصراً للحديثِ . . شعرنَ بحاجةِ المحبينَ للخلوةِ ، وهنَّ بذلكَ عارفاتٌ خبيراتٌ .

ٱلْخطابِ ، بل التفتَ وقالَ ﴿ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [النمل : ٢٧] ولَم يقُل أَم كذبْتَ ؛ رفقاً بهِ ، وحُنُوّاً عليهِ ؛ كَي لا ينفطِرَ قلبُهُ ، وتنشَقَّ مرارَتُهُ مِن هولِ نسبةِ الكذِبِ إليهِ ، ولـٰكنَّهُ قالَ لَه ما معناهُ : إن صدقْتَ . . فهيَ فضيلَةٌ ، كأَنَّكَ المنفردُ بِها ، وإن كذبْتَ . . فكثيرٌ مثلُكَ ، وهـٰذا واللهِ ما يهزُّ النفوسَ ، ويقيمُ الشعورَ ، وينفُذُ في القلوبِ ، ويستهوي ٱلْخواطِرَ ، ويذيبُ الحجارَةَ ، وإِنَّهُ لَمِن المعجزِ الذي تزلُّ الفصحاءُ عَن مَرقاتِهِ ، ولا بِدَعْ ؛ فالالتفاتُ هوَ المقامُ الذي تتفاوَتُ بهِ الطبقاتُ ، وقد ذكَرنا منهُ في تفسيرِ الفاتحَةِ مِن كتابِنا « بلابِلُ التغريدِ » ما تنشرحُ بهِ صدورُ المؤمنينَ إن شاءَ اللهُ تعالىٰ .

ومِنَ ٱلجهلاءِ مَن يلتبسُ عليهِ العِزُّ بالكبْرِ ، والتَّواضعُ بالمَلَقِ ، فتجِدُ صاحبَ العزَّةِ يكلِّمُ الفقيرَ ، ويلاطِفُ الصغيرَ ، ويجالِسُ المساكينَ ، ويخضَعُ للحَقِّ ، ويستكينُ حتَّىٰ إذا جالسَ الأُمراءَ . . فهوَ أميرٌ ، وإذا حضرَ الكبراءُ . . فهوَ كبيرٌ . وقد قالَ ٱبنُ الخطَّاب : أُريدُ رجلاً إذا كانَ أَميرَ القومِ . . كانَ كبعضِهِم ، وإن لم يكُن أَميرَهم . . فكأَنَّهُ أَميرُهم .

ينبغي التفريق بين العز والكبر والتواضع والملق

وقالَ أَبو تمَّامٍ [في « ديوانهِ » ٢/١٠١ مِنَ الكاملِ] :

مُتَبَذِّلٌ فِي ٱلْقَوْمِ وَهْوَ مُبَجَّلٌ ... مُتَوَاضِعٌ فِي ٱلْحَيِّ وَهْوَ مُعَظَّمُ(١)

وقالَ الآخرُ [مِنَ الكاملِ] :

مُتَوَاضِعٌ وَٱلنُّبْلُ يَحْرُسُ قَدْرَهُ ... وَأَخُو ٱلتَّوَاضُعِ بِٱلنَّبَاهَةِ يَنْبُلُ

لا يتردَّدُ علىٰ الأَبوابِ ، ولا يُدهِنُ ، ولا يَهابُ ، ولا يَجري

(١) المتبَذِّلُ : تاركُ التصوُّنِ والاحتشامِ . مبجَّلٌ : معظَّمٌ .

خلفَ الآمالِ ، ولا يتبعُ مراضيَ أَهلِ المالِ ، وآيتُهُ أَنْ تجدَهُ مبغوضاً لدىٰ أَهلِ النخوَةِ والشرَفِ ، محبوباً عندَ أَهلِ الضعفِ والعقلِ .

الكلام على المتكبر

وأَمَّا صاحبُ الكِبْرِ : فتجدُهُ غامطاً للحقوقِ ، غارقاً في العقوقِ ، لا يقابِلُ الناسَ إِلاَّ بالأَنَفَةِ ، ولا يكلِّمهم إِلاَّ مِن أَطرافِ الشفَةِ ، لا يعرفُ لأَحدٍ قدرَهُ ، ولا يقبَلُ مِن مسيءٍ عذرَهُ ، لـٰكنَّهُ يتواضَعُ لِمَن فوقَهُ بمقدارِ ذلكَ ووزنِهِ ، فإِذا مَثُلَ أَمامَ الكُبَراءِ ، أَو حضرَ عندَ الأُمراءِ . . نزلَ عَن سماءِ تلكَ الرفعَةِ ، وٱنحدرَ عَن قلَّةِ تلكَ العظمَةِ ، وذلكَ دليلٌ علىٰ أَنَّهُ مِن ٱلأَمِ الناسِ نفساً ، وأَسقطِهِم همَّةً ، وأَزمَنِهِم ذمَّةً .

ومنِهم مَن يكونُ الكِبْرُ معجوناً في طينَتِهِ ، لا يظْهَرُ أَثرُهُ فيهِ إِلاَّ لِمَن ساعدَهُ الطمَعُ علىٰ الترفُّعِ عليهِ ، حتَّىٰ إِذا ما ضحِكَ لهُ الزمانُ . . ورىٰ ذلِكَ الزندُ ، وٱنفجرَ ذلكَ الجرحُ ، وقد قالَ سفيانُ ـ رحمهُ اللهُ ـ : إِنَّ اللِّئامَ إِذا تموَّلوا . . ٱستطالوا ، وإِذا ٱفتقروا . . تواضعوا ، والكرامَ إِذا تموَّلوا . . تواضَعوا ، وإِذا ٱفتقروا . . ٱستطالوا .

ومتىٰ رسخَ الكِبرُ في نفسِ الإِنسانِ . . ٱستخدَمَ مَن قدرَ عليهِ مِن الخلقِ في قضاءِ شهوتِهِ ، وتنفيذِ إِرادتِهِ ، ورأَىٰ أَنَّ الصوابَ ما تُمثِّلُ لهُ نفسُهُ ، وأَنَّ العقولَ لم ترجَّحْ إِلاَّ لِموافقَةِ مشربِهِ ، وهـٰذهِ حالُ سائِرِ المستبدِّينَ ، ومِن علامتِهم أَنْ تجدَ أَهلَ العلمِ أَبغضَ ما يكونُ إِليهم :

أسباب بغض المستبدين لأهل العلم

أَمَّا أَولاً : فلأَنَّ العلمَ يهدُّ مِن بنائِهم ، ويحطُّ مِن كبريائِهم ، ويغضُّ من عِنانِهم ، ويعرِّفُ بطُغيانِهم .

وأَمَّا ثانياً : فإِنَّهم يبغضونَهم بالطبعِ لذاتِهِ ؛ حيثُ إِنَّ لهُ سلطاناً

أقوىٰ مِن كلِّ سلطانٍ ، ولا بدَّ للمستبدِّ أن يستحقِرَ نفسَهُ ولَو في سرِّهِ كلَّما وقَعت عينُهُ علىٰ مَن هوَ أرفعُ سلطاناً منْهُ ، فتراهُ لا يحبُّ أن يرىٰ وجهَ عالِمٍ شريفٍ حرٍّ قطُّ ، بل يسعىٰ جهدَهُ في إسقاطِ قدرِهِ ، والتقوُّلِ عليهِ ، وإلصاقِ المعايبِ بهِ ، وابتغاءِ العثراتِ في طريقِهِ ، فإنِ اضطرَّ إلىٰ العلمِ أحياناً . . اختارَ المتصاغِرَ المتحذلق الدنيءَ :

لأنَّهُ أوَّلاً : يعرفُ نقصَهُ وانحطاطَهُ ، فلا يجدُ فيهِ مِن طلائعِ المجدِ ما ينغِّصُ عليهِ ، ولا ما يثيرُ حسدَهُ .

ولأنهُ ثانياً : يملأُ رضاهُ ، ويسارعُ في هواهُ ، بخلافِ الأوَّلِ .

ولأنَهُ ثالثاً : يتَّخِذُ منهُ مثالاً لتحقيرِ العلماءِ إذا تظاهرَ بعدمِ المبالاةِ بهِ ، وألحقَهُ بحاشيتِهِ ، وأدخلَهُ في غمرَةِ أتباعِهِ ، وأمثالُ هؤلاءِ المستبدِّينَ والمتكبِّرينَ واجبٌ علىٰ أهلِ الإيمانِ احتقارُهم وهجرُهم ، والتكبُّرُ عليهِم ؛ فقد سُئِلَ الحسنُ عَن التواضعِ[1]؟ فقالَ : هوَ التكبُّرُ علىٰ الأغنياءِ .

وقالَ يحيىٰ بنُ معاذٍ الرازيُّ : التكبُّرُ علىٰ مَن تكبَّرَ عليك بمالِهِ تواضُعٌ . ومصداقُهُ قولُهُ ﷺ : « مَنْ تَوَاضَعَ لِغَنِيٍّ . . ذَهَبَ ثُلُثَا دِينِهِ »[2] . الكلام في الكبر والعز

(١) في « صفة الصفوة » (٤/ ١٣٩) : ابن المبارك بدلُ (الحسن) .

(٢) أخرجهُ بنحوه عن وهب البيهقيُّ في « الشعب » (١٠٠٤٣) ، وأورد نحوه عن أبي هريرة رضي الله عنه الديلمي كما في « كنز العمال » (٦٢٨٩) بلفظ : « من تضرع لصاحب دنيا وضع بذلك نصف دينه » وعن أنس عند الديلمي كما في « الكنز » (٦٢٩٠) « من تضعضع لذي سلطان إرادة دنياه أعرض الله عنه بوجهه في الدنيا والآخرة » .

ولَمَّا سألَهُ مسيلمَةُ الكذَّابُ المُلكَ بعدَهُ . . قالَ لَهُ : « وَٱللهِ لَوْ سَأَلْتَنِي هَـٰذَا ٱلْعُوْدَ ـ لِعودٍ في يدِهِ ـ لَمْ أُعطِكَهُ »[1] .

ولَمَّا جاءَهُ نصارىٰ (نجرانَ) ، وعَلَيهم الحُلَلُ ، وأزرارُ الذهَبِ . . أَوقفَهم طائفةً مِن النهارِ في الشمسِ .

وأَنشدَ السرخسيُّ [في « نفح الطيب » ٣/ ١١٠ من البسيط] :

لَمْ أَلْقَ مُسْتَكْبِراً إِلاَّ تَحَوَّلَ لِيْ عِنْدَ ٱللِّقَاءِ لَهُ ٱلْكِبْرُ ٱلَّذِيْ فِيْهِ
وَلاَ حَلاَ لِيْ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَلَذَّتِهَا إِلاَّ مُقَابَلَتِي لِلتِّيْهِ بِٱلتِّيْهِ

وقالَ بعضُ عظماءِ الدنيا للحسنِ : ما أَعظمكَ في نفسكَ! فقالَ : لستُ بعظيمٍ في نفسي ، ولـٰكنِّي عزيزٌ . مِن قولِهِ جلَّ ذكرُهُ : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون : ٨]؟

ومرَّ في المجلسِ الحادي عشرَ ما يشبهُهُ عَن زينِ العابدينَ عليِّ بنِ الحسينِ .

وقالَ بعضُهُم [مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا أَنَا مَزْهُوٌّ وَلَـٰكِنَّنِي فَتىً أَبَتْ لِيَ نَفْسٌ عَزَّةٌ لَنْ أُزِيْلَهَا

وقالَ عديُّ بنُ أَرطاةَ ـ وهوَ علىٰ الإمارةِ ـ لوكيع بنِ أَبي الأسودِ : سَوِّ علَيَّ ثيابي ، قالَ : في خُفَّيْ ضِيقٌ ، فليَنْزِعْهُ الأَميرُ ؛ حتَّىٰ أَتفرَّغَ لِمُساواةِ ثيابِهِ عليهِ ، فقالَ عديٌّ : إِنَّ الجليسَ لَيَلي مِن جليسِهِ أَكثرَ ممَّا قلتُ لكَ ، قالَ : يا عديُّ إِذا عُزِلْتَ عَنَّا . . فَكَلِّفنا أَكثرَ مِن

---

(١) أَخرجه عن عُبَيدِ اللهِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ عُتبةَ البخاريُّ (٤٣٧٨) ، في (المغازي) بلفظِ : « لَوْ سَأَلْتَنِي هَذَا ٱلْقَضِيبَ مَا أَعْطَيْتُكَهُ » .

هٰذا ، وأمَّا وأنتَ ترىٰ لكَ علينا بسطَةً بالإمارَةِ . . فلا .

وأَتىٰ سليمانُ بنُ عبدِ الملكِ إلىٰ طاوُوسَ فلم يكلِّمْهُ ، فقيلَ لهُ في ذلكَ ، فقالَ : أَرَدْتُ أن يعلمَ أَنَّ في عبادِ اللهِ مَن يستصغِرُ ما يستعظِمُهُ مِن نفسِهِ .

وفي « الإِحياءِ » جملَةٌ صالِحَةٌ مِن هٰذا النوعِ .

وكانَ الأَغنياءُ ـ [كما في « الحلية » ٦/ ٣٦٥] ـ يتمنَّونَ أن لَو كانوا فقراءَ في مجلسِ سفيانَ الثوريِّ .

وكذلكَ كانوا في مجالسِ آبائِنا ومشايِخِنا ، فما بالعهدِ ، مِن قِدَمٍ ، ولَم يعظُمْ في بلادِنا الفرقُ ، ويتَّسعِ الخرقُ إلاَّ عمَّا قريبٍ ؛ إذ تصدَّىٰ للزعامَةِ مَن أَغنيهم بمثلِ قولي ـ من قصيدَةٍ كانَ إنشاؤُها في أَيَّامِ الحَداثَةِ ـ [في « ديوان المؤلف » ق ١٧٣ مِنَ الطَّويلِ] :

ما من يوم إلا والذي يليه شر منه

وَنَشْأَةُ هَـٰذَا ٱلشَّرِّ مِنْ صُنْعِ قَادَةٍ   إِلَيْهِـمْ أَكُـفُّ ٱلأَغْبِيَـاءِ تُشِيـرُ
لَقَدْ آثَرُوا ٱلدُّنْيَا فَكُلُّ أَخِيْ غِنىً   لَدَيْهِمْ وَلَوْ جَمَّ ٱلذُّنُوبِ أَثِيْرُ
فَأَصْبَحَ حَالُ ٱلْعِلْمِ مِنْ شُؤْمِ فِعْلِهِمْ   كَحَـالِ غَـرِيْـبٍ خَـانَ فِيْـهِ خَفِيْـرُ
نَكَرْتُ عَلَيْهِمْ فِعْلَهُمْ فَوَقَعْتُ فِيْ   مَعَـامِـعَ ، فِيْهِـنَّ ٱلْمَكَـرُّ عَسِيْـرُ

وما بنا أن نذكرَ تواضُعَ الصدرِ الأَولِ للحقِّ ؛ لأَنَّهُ البحرُ الذي لا يُدرَكُ قعرُهُ ، ولا يُبصَرُ عبرُهُ ، وقد رأَينا بعيونِ رؤوسِنا مِمَّن أَشرْنا إليهِم ما يُغني عَنِ ٱلْخَبَرِ [قال البديع الهمذاني في « قرى الضيف » ٤/ ٣٤٤ مِنَ الطَّويلِ] :

أَحَادِيْثُ يَرْوِيْهَا ٱلْعِيَانُ كَمَا تَرَىٰ   وَإِنْ نَحْنُ حَدَّثْنَا بِهَا دَفَعَ ٱلْعَقْلُ

وإلاَّ . . فلو لَم نرَ شيئاً مِن ذلكَ . . لاختلَطَ علَينا الأَمرُ ، وتشكَّكنا فيما يروىٰ مِن تلكَ الأَخلاقِ الفاضلَةِ عَنِ ٱلسلفِ الطيبِ ، ولـٰكنَّ العِيانَ قطعَ كلَّ شكٍّ ، وأَزالَ كلَّ تردُّدٍ ، فلَنا بحقٍّ أَن نتمثَّلَ وقتَما كُنَّا نشاهِدُ مشايخَنا بقولِ الناظِمِ [في « العُكبَريّ » ٤/ ٢٢٧ مِنَ البسيطِ] :

مَا شَيَّدَ ٱللهُ مِنْ مَجْدٍ لِسَالِفِهِمْ ... إِلاَّ وَنَحْنُ نَرَاهُ فِيْهِمُ ٱلآنَا

لا شيء ينفع سوى الانكسار بين يدي الله

وممَّا يروىٰ عَن أَبي يزيدَ البسطاميِّ أَنَّهُ قالَ : رأَيتُ كأَنَّ القيامَةَ قد قامَت ، وتجلَّىٰ الحَكَمُ العدْلُ لفَصلِ القضاءِ بينَ عبادِهِ ، وأَخذَ الملائِكَةُ يأتونَ الناسَ واحداً واحداً ، ينتفضونَ مِن الفرَقِ[1] ، حتَّىٰ حضرَتْ نوبَتي ، فَجِيْءَ بي ترعَدُ فرائِصي ، فقالَ لي الجبَّارُ : ماذا جئتَ بهِ؟ قلْتُ : الثقَةُ بكَ ، قالَ : وهل مِن شكٍّ حتَّىٰ تمُنَّ بالثقَةِ بي؟! قلْتُ : جئتُكَ بالزهْدِ ، قالَ : وهَل لِلدنيا مِن قدرٍ حتَّىٰ تمُنَّ بالزهدِ فيها؟! قلْتُ : ٱنقطعَتْ حجَّتي يا ربِّ ، فأَلهمْني رُشدي ، قالَ: قُلْ : جئتُ بالانكسارِ بينَ يديكَ ، أَو ما يقربُ مِن هـٰذا المعنىٰ .

ولئِن كانَت مناماً . . فمصداقُها قولُهُ عزَّ وجلَّ في الحديثِ القدسيِّ : « أَنا عِنْدَ ٱلْمُنْكَسِرَةِ قُلُوْبُهُمْ مِنْ أَجْلِيْ »[2] .

وفي « الصحيح » : « أَقْرَبُ مَا يَكُوْنُ ٱلْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ »[3] .

---

(١) الفرَقُ : الخوفُ .

(٢) ذكره المناوي في « فيض القدير » (١/ ٥١٩) ، والعجلوني في « كشف الخفاء » (٦١٤) عن القاري فقال : لا أصل له .

(٣) أخرجه عَن أَبي هُريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ مسلم (٤٨٢) في (الصلاة) .

وفي لزوميَّاتي [مِنَ الطَّويلِ] :

يَذِلُّ لِرَبَّاتِ ٱلْحِجَالِ أَخُوْ ٱلْهَوَىٰ   وَإِنْ كَانَتِ ٱلدُّنْيَا إِذَا سَارَ تَهْتَزُّ
وَمَا عَفَّرَ ٱلإِنْسَانُ فِيْ ٱلتُّرْبِ وَجْهَهُ   لِمَـوْلَاهُ إِلاَّ كَـانَ فِـي ذَلِـكَ ٱلْعِـزُّ

* * *

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَريِّ » ٢/ ٢٣٩ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلاَ ثَوْبَ مَجْدٍ غَيْرَ ثَوْبِ ٱبْنِ أَحْمَدٍ عَلَىٰ أَحَدٍ إِلاَّ بِلُؤْمٍ مُرَقَّعُ

شرح المطلع والعيوب التي فيه

يقولُ : إِنَّهُ لم يسلَمِ المجدُ لأحدٍ خالصاً غيرَ مشوبٍ بشيءٍ مِنَ ٱللُّؤمِ . . إلاَّ للممدوحِ ، وقدِ ٱنتقلَ من النسيبِ إلىٰ المديحِ مِن غيرِ مناسبةٍ ، وذلكَ ما يسمُّونَهُ : الوثبُ ، والقطْعُ ، والاقتضَابُ ، كلُّ ذلكَ يطلقونَهُ عليهِ ، وهوَ الأكثرُ في الجاهليَّةِ ، وٱشتهَرَ بهِ مِن المتأخِّرينَ البُحتريُّ ، وأَبو نُواسٍ ، حتَّىٰ قالَ بعضُهم [مِنْ مجزوءِ الكاملِ] :

وَثْباً كَوَثْبِ ٱلْبُحْتُرِيِّ مِنَ ٱلنَّسِيبِ إِلَىٰ ٱلْمَدِيحِ

المخالص الفائقة للمتنبي

وللناظِمِ مِن المخالِصِ الفائِقَةِ ما لا يستهانُ بقدرِهِ ، ولا يُجهَلُ مكانُهُ ، كقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ١/ ٢٧١ مِنَ الطَّويلِ] :

فَلاَ تَعْجَبَا إِنَّ ٱلسُّيُوفَ كَثِيرَةٌ وَلَكِنَّ سَيْفَ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْيَوْمَ وَاحِدُ

وقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ١٥٣ مِنَ الطَّويلِ] :

وَغَيْثٍ ظَنَنَّا تَحْتَهُ أَنَّ عَامِراً عَلاَ لَمْ يَمُتْ أَوْ فِيْ ٱلسَّحَابِ لَهُ قَبْرُ

وقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ١/ ٢٢٨ مِنَ الكاملِ] :

أَقْبَلْتُهَا غُرَرَ ٱلْجِيَادِ كَأَنَّمَا أَيْدِيْ بَنِيْ عِمْرَانَ فِيْ جَبَهَاتِهَا[1]

---

(١) المعنىٰ : جعلت قبلة خيلي المناقبَ والمحامدَ منكم ، كما لو كانت نعمكم علىٰ جبهاتها .

وقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٢/٣٠٨ مِنَ الطَّويلِ] :

نَـوَدِّعُهُـمْ وَٱلْبَيْـنُ فِيْنَـا كَـأَنَّـهُ   قَنَا ٱبْنِ أَبِيْ ٱلْهَيْجَاءِ فِيْ قَلْبِ فَيْلَقِ[١]

وقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٢/١٧٧ مِنَ الخفيفِ] :

وَتَمَنَّيْـتُ مِثْلَـهُ فَكَـأَنِّـي   طَالِبٌ لابنِ صَالِحٍ مَنْ يُوَازِيْ[٢]

أَمَّا قولُهُ [في « العُكبَريِّ » ٢/٢٥٣ مِنَ الوافرِ] :

أُحِبُّكَ أَوْ يَقُـوْلُـوْا : جَرَّ نَمْـلٌ   ثَبِيْـراً وَٱبْـنُ إِبْـرَاهِيْـمَ رَيْعَـا[٣]

.. فلا يستحسنُهُ إلاَّ مَن ختمَ اللهُ علىٰ بصيرتِهِ ، كما أَسلفناهُ ، وإِن خفيَ ذلكَ علىٰ الشارحِ ، والعلمُ شاهِدٌ ؛ إِذ لا مناسبَةَ في العطفِ بينَ الجملتَين ، ومثلُهُ مردودٌ عندَ أَهلِ المعاني .

الشعراء والمخالص

ومِن أَحسنِ المخالِصِ قولُ مسلمِ بنِ الوليدِ [في « ديوانهِ » ٣٤٠ مِنَ البسيطِ] :

أَمَطْلَعَ ٱلشَّمْسِ تَبْغِيْ أَنْ تَؤُمَّ بِنَا   فَقُلْتُ : كَلاَّ وَلَـكِنْ مَطْلَعَ ٱلْكَرَمِ

وقولُهُ [في « ديوانهِ » ٣١٦ مِنَ الطَّويلِ] :

أَجِدَّكِ هَلْ تَدْرِيْنَ يَا رُبَّ لَيْلَةٍ   كَأَنَّ دُجَاهَا مِنْ قُرُوْنِكِ يُنْشَرُ[٤]

لَهَـوْتُ بِهَـا حَتَّـىٰ تَجَلَّـتْ بِغُـرَّةٍ   كَغُرَّةِ يَحْيَىٰ حِيْنَ يُمْدَحُ جَعْفَرُ

---

(١) أبو الهيجاء : والدُ سيفِ الدولةِ . القنا : الرماحُ . الفيلقُ : الجيشُ .

(٢) يوازي : يعادلُ ويماثلُ . ٱبن صالحٍ : هو الممدوحُ . وهذا البيت من أَحسنِ المخالصِ التي للمتنبي وقد أَحسنَ فيهِ ، وله في المخالصِ اليدُ الطولىٰ .

(٣) الثبيرُ : جبلٌ عظيمٌ معروفٌ بالحجازِ ، وقد أَورده الشعراءُ كثيراً في أَشعارهم .

(٤) أَجِدَّكِ : كلمةٌ منصوبةٌ على المصدرية ، وهي كلمة تستعمل بمعنى قولك : أَجدٌّ منكَ . قرونُكِ : خِصَالُ شعرِكِ .

وقولُ أبي نُواسٍ [في « ديوانهِ » ٢٩٩ مِنَ الطَّويلِ] :

دَعِيْنِيْ أُكَثِّرْ حَاسِدِيْكِ بِرِحْلَةٍ إِلَىٰ بَلَدٍ فِيْهَا ٱلْخَصِيْبُ أَمِيْرُ

وقولُهُ [في « ديوانهِ » ٣٣٠ مِنَ الكاملِ] :

وَإِذَا أَرَدْتَ مَدِيْحَ قَوْمٍ لَمْ تَمِنْ فِيْ مَدْحِهِمْ فَٱمْدَحْ بَنِيْ ٱلْعَبَّاسِ[(١)]

وقولُ الفرزدقِ [في « خِزانة الأدب » ١/ ٣٣٠ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا آنَسُوْا نَاراً يَقُوْلُوْنَ : لَيْتَهَا وَقَدْ خَصِرَتْ أَيْدِيْهِمُ نَارُ غَالِبِ

وقولُ البُحتريِّ [في « ديوانهِ » ١/ ٦٢٤ مِنَ الطَّويلِ] :

رِيَاضٌ تَرَدَّتْ بِالنَّبَاتِ مَجُوْدَةً بِكُلِّ جَدِيْدِ ٱلْمَاءِ عَذْبِ ٱلْمَوَارِدِ[(٢)]
إِذَا رَاوَحَتْهَا مُزْنَةٌ بَكَّرَتْ لَهَا شَآبِيْبُ مُجْتَازٍ عَلَيْهَا وَقَاصِدِ[(٣)]
كَأَنَّ يَدَ ٱلْفَتْحِ بْنِ خَاقَانَ أَقْبَلَتْ عَلَيْهَا بِتِلْكَ ٱلسَّائِرَاتِ ٱلرَّوَاعِدِ

وقالَ البهاءُ زهيرٌ [في « ديوانهِ » ٢٢٢ مِنَ الكاملِ] :

أَهْوَىٰ ٱلتَّذَلُّلَ فِيْ ٱلْغَرَامِ وَإِنَّمَا يَأْبَىٰ صَلاَحُ ٱلدِّيْنِ أَنْ أَتَذَلَّلاَ
مَهَّدْتُ بِٱلْغَزَلِ ٱلرَّشِيْقِ لِمَدْحِهِ أَرَدْتُ قَبْلَ ٱلْفَرْضِ أَنْ أَتَنَفَّلاَ

بعض الشعراء يدعي النقص في الناس ليرفع ممدوحه

ثمَّ إنَّ دعوىٰ النقصِ في الخلقِ تمهيداً لتفضيلِ الممدوحِ عليهِم لا يخلو عنهُ شعرٌ قطُّ ، حتَّىٰ كادَ أَن يقعَ بهِ الشيخُ عبدُ الرحيمِ البرعيُّ في إساءَةِ الأَدبِ علىٰ الأَنبياءِ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليهِم أَجمعينَ ، ولا سيَّما في قصيدتِهِ التي ٱستهلَّها بقولِهِ [مِنَ الوافرِ] :

---

(١) لم تمن : لم تكذبْ .
(٢) مجودَةٌ : أَصابها الجَوْدُ ، وهوَ المطرُ الغزيرُ .
(٣) شآبيبُ ـ جمعُ شُؤبوبٍ ـ : وهوَ الدفعةُ من المطرِ .

سَمِعْتُ سُوَيْجِعَ ٱلأَثْلاَتِ غَنَّىٰ   عَلَىٰ مَطْلُوْلَةِ ٱلْعَذَبَاتِ رَنَّا(1)

أمَّا الغضُّ مِن قومٍ معيَّنينَ ، لتفضيلِ الممدوحِ عليهِم . . فليسَ بالحقيقةِ إلاَّ تقصيراً بهِ ؛ إذ لا كبيرَ فائِدَةٍ في الفضلِ علىٰ السُّقَّاطِ ، والارتفاعِ علىٰ السفلَةِ [قالَ الخليلُ بنُ أحمدَ القاضي السِّجزي في « قِرى الضَّيفِ » ٥/٢٩٩ مِنَ الطَّويلِ] :

أَلَـمْ تَـرَ أَنَّ ٱلسَّيْـفَ يَنْقُـصُ قَـدْرُهُ   إِذَا قِيْلَ: هَـٰذَا ٱلسَّيْفُ خَيْرٌ مِنَ ٱلْعَصَا

وقد وقعَ فيهِ البُحتريُّ إذ يقولُ [في « ديوانهِ » ١/ ٢٠٠ مِنَ الكاملِ] :

شَهِدْتُ لَقَدْ أَنْصَفْتَهُ حِيْنَ تَنْبَرِيْ   لَهُ مُصْلِتاً عَضْباً مِنَ ٱلْبِيْضِ مِقْضَبَا(2)
فَلَـمْ أَرَ ضِـرْغَـامَيْـنِ أَصْـدَقَ مِنْكُمَـا   عِرَاكاً إِذَا ٱلْهَيَّابَةُ ٱلنِّكْسُ كَذَّبَا!(3)

والحماسيُّ [إياس بن الأرت] في قولِهِ [في « ديوان الحماسة » ٢/ ٢٥١ مِنَ الطَّويلِ] :

وَإِنِّيْ لَمِمَّنْ أَبْسُطُ ٱلْكَفَّ بِٱلنَّدَىٰ   إِذَا شَنِجَتْ كَفُّ ٱلْبَخِيْلِ وَسَاعِدُهْ(4)

وإنَّما صادقُ المدحِ مثلُ قولِ مسلمِ بنِ الوليدِ [في « ديوانهِ » ١٦٤ مِنَ البسيطِ] :

أبلغ ما يكون المديح ان ترفع شأن عدو ممدوحك ثم تفضله عليه؛ لأنه لا فخر بالتقدم على رعاع الناس

يَجُوْدُ بِٱلنَّفْسِ إِذْ ضَنَّ ٱلْجَوَادُ بِهَا   وَٱلْجُوْدُ بِٱلنَّفْسِ أَقْصَىٰ غَايَةِ ٱلْجُوْدِ(5)

---

(١) الأثل : شجر من الطَّرْفاء واحدته أثْلَة ، والجمع أثلات . والتأثل : أصل مال .
(٢) العضبُ : السيفُ القاطعُ .
(٣) الضرغامُ : من أسماءِ الأسدِ . النِّكسُ : الرجلُ الضعيفُ والمقصرُ عن غايةِ النجدةِ .
(٤) شَنِجَتْ : يبِسَتْ .
(٥) هذا البيتُ مِن أروعِ ما قيلَ في الجودِ ، وقد عَكَسَهُ عليهِ بعضُهم بقولِهِ : =

وما سبقَ في المجلسِ السادسِ مِن قولِ أَبي تمَّامٍ وما يناسبُهُ [في «ديوانِه» ٢/ ٣١١ مِنَ الطَّويلِ] :

فَتىً كُلَّمَا ٱرْتَادَ ٱلشُّجَاعُ مِنَ ٱلرَّدَىٰ   مَفَرّاً غَدَاةَ ٱلْمَأْزِقِ ٱرْتَادَ مَصْرَعَا[1]

وقدِ ٱتُّفِقَ أَنَّ شاعرينِ تقدَّما في تهنِئةٍ بفتْحٍ ، فأَمَّا أَحدُهما : فعمدَ إِلىٰ تحقيرِ أَمرِ العدوِّ ، وتوهينِ شأنِهِ ، وأَمَّا الآخرُ : فعظَّمَ مِن قدرِهِ ، وكبَّرَ مِن أَمرِهِ ، فٱستحقَّ الجائِزَةَ الضخمَةَ ؛ إِذ ذهبَ بالممدوحِ إِلىٰ أَبعدِ شأْوٍ في المديحِ .

ووقعَ ليْ : أَنِ ٱعترضَ غبيٌّ علىٰ كلامٍ لي ، فنقَضْتُ قولَهُ في رسالَةٍ سمَّيْتُها «تأْديبَ المجتَري وتكذيبَ المفتَري» وٱنعقدَ مجلسٌ لذلكَ ، ولمَّا انقطعَ ، وأَعياهُ الانفصالُ . . قُلتُ في آخرِها : عندَ ذلكَ ٱنكشفَتِ العجاجَةُ ، ولا فخرَ ؛ فالرميَةُ دجاجَةٌ ، وأَعطاني الناظِمُ شاهداً ذكرتُهُ وهوَ [في «العُكبَريّ» ٣/ ٣٧٣ مِنَ البسيطِ] :

وَشَرُّ مَا قَنَصَتْهُ رَاحَتِيْ قَنَصٌ   شُهْبُ ٱلْبُزَاةِ سَوَاءٌ فِيْهِ وَٱلرَّخَمُ

وفيما يتَّصِلُ بما نحنُ فيهِ قولُ مهلهلِ ٱبنِ ربيعَةَ [في «ديوانِهِ» ٤٢ مِنَ الوافرِ] :

كَـأَنَّـا غَـدْوَةً وَبَنِـيْ أَبِيْنَـا   بِجَنْبِ عُنَيْزَةٍ رَحَيَا مُدِيْرِ[2]

= يَضِنُّ بِٱلنَّفْسِ إِذْ جَادَ ٱلْكَرِيْمُ بِهَا   وَٱلْجُوْدُ بِٱلنَّفْسِ أَقْصَىٰ غَايَةِ ٱلسَّرَفِ

(١) ٱرتادَ : طلبَ . المأزقُ : المضيقُ . المصرعُ : مكانُ الصرعِ ، الموتُ .
والمعنىٰ : أَنَّ هذا القائِدَ يُقدِمُ حين يعجزُ الشجعانُ ، وكلَّما ٱشتدَّ القتالُ ثبتَ في موقعِهِ ليكسبَ حسنَ الثناءِ .

(٢) عنيزةٌ : موضعٌ بعينِهِ ، به جرىٰ اليومُ الثالثُ بينَ تغلبَ وبكرٍ . رَحَيَا ـ مثنىٰ =

وقالَ عمرُو بنُ كلثومٍ [في « ديوانه » ٨٦ مِنَ الوافرِ] :

كَـأَنَّ ثِيَـابَنَـا مِنَّـا وَمِنْهُـمْ خُضِبْنَ بِـأُرْجُوَانٍ أَوْ طُلِينَـا[١]
كَـأَنَّ سُيُـوفَنَـا فِينَـا وَفِيهِـمْ مَخَـارِيـقٌ بِـأَيْـدِي لاَعِبِينَـا[٢]

وقالَ عمرُو بنُ العاصِ في صِفِّينَ [مِنَ الطَّويلِ] :

كَأَنَّ ٱلْتِمَاعَ ٱلْبِيْضِ فِينَا وَفِيهِمُ تَبَـوُّجُ بَـرْقٍ فِـيْ تِهَـامَـةَ ثَـاقِـبُ

وقالَ أيضاً فيها [مِنَ الطَّويلِ] :

أَجِئْتُـمْ إِلَيْنَـا تَسْفِكُـوْنَ دِمَـاءَنَـا وَمَا رُمْتُمُ وَعْرٌ مِنَ ٱلأَمْرِ أَعْسَرُ
لَعَمْرِيْ لِمَا فِيْهِ يَكُوْنُ ٱحْتِجَاجُنَا إِلَىٰ ٱللهِ أَدْهَىٰ لَوْ عَقَلْتُمْ وَأَنْكَرُ
تَعَـاوَرْتُـمُ ضَـرْبـاً بِكُـلِّ مُهَنَّـدٍ إِذَا شَـدَّ وَرْدَانٌ تَقَـدَّمَ قُنْبُـرُ
كَتَـائِبُكُـمْ طَـوْراً تَشُـدُّ وَتَـارَةً كَتَائِبُنَا فِيْهَا ٱلْقَنَا وَٱلسَّنَوَّرُ[٣]
إِذَا مَا ٱلْتَقَوْا يَوْماً تَدَارَكَ بَيْنَهُمْ طِعَانٌ وَمَوْتٌ فِيْ ٱلْمَعَارِكِ أَحْمَرُ

وقالَ العبَّاسُ بنُ مِرداسٍ [في « ديوانه » ٩٢-٩٣ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَمْ أَرَ مِثْلَ ٱلْحَيِّ حَيّاً مُصَبَّحاً وَلاَ مِثْلَنَا يَوْمَ ٱلْتَقَيْنَا فَوَارِسَا[٤]
أَكَـرَّ وَأَحْمَـىٰ لِلْحَقِيْقَـةِ مِنْهُـمُ وَأَضْرَبَ مِنَّا بِٱلسُّيُوْفِ ٱلْقَوَانِسَا[٥]

= رحىً ـ : وهيَ الأداةُ التي يطحنُ بها ، ذكرهما الشاعر ليدلَّ على توازنِ تغلبَ وبكرٍ في هذا اليوم ، أي : كانا سواءً .

(١) الأرجوانُ : صبغٌ أحمرُ اللونِ .

(٢) المخاريقُ ـ جمعُ مخراقٍ ـ : وهوَ ثوبٌ يُلفُّ ويَضرِبُ بهِ الصبيانُ بعضهم بعضاً .

(٣) السَّنَوَّرُ : بقيةُ السلاحِ ، وقيل : الدروعُ خاصَّةً .

(٤) المصبَّحُ : الذي يؤتىٰ صبحاً للغارةِ .

(٥) أَكَرُّ : أكثرُ كرّاً . الحقيقةُ : ما يحقُّ على المرءِ أن يحميَهُ . القوانسُ ـ جمعُ =

إِذَا مَـا شَـدَدْنَـا شَـدَّةً نَصَبُـوْا لَنَـا صُدُوْرَ ٱلْمُذَاكِي وَٱلرِّمَاحَ المدَاعِسَا[1]
إِذَا ٱلْخَيْلُ جَالَتْ عَنْ صَرِيْعٍ نُكِرُّهَا عَلَيْهِمْ فَمَا يَرْجِعْنَ إِلاَّ كَوَاسِحَا[2]

وقالَ عبدُ الشارِقِ بنُ عبدِ العزَّىٰ الجهنيُّ [في « ديوان الحماسة » ١/ ١٦٩ مِنَ الوافرِ] :

أَلاَ حَيِّيْـتِ عَنَّـا يَـا رُدَيْنَـا نُحَيِّيْهَـا وَإِنْ كَـرُمَـتْ عَلَيْنَـا
رُدَيْنَـةُ لَـوْ رَأَيْـتِ غَـدَاةَ جِئْنَـا عَلَىٰ أَحْقَادِنَا وَقَدِ ٱخْتَوَيْنَا[3]
فَـأَرْسَلْنَـا أَبَـا عَمْـرٍو رَبِيئًـا فَقَالَ : أَلاَ ٱنْعَمُوْا بِٱلْقَوْمِ عَيْنَا[4]
وَدَسُّـوْا فَـارِسـاً مِنْهُـمْ عِشَـاءً فَلَـمْ نَغْـدُرْ بِفَـارِسِهِـمْ لَـدَيْنَـا
فَجَـاؤُوْا عَـارِضـاً بَـرَداً وَجِئْنَـا كَمِثْلِ ٱلسَّيْفِ نَرْكَبُ وَازِعَيْنَا[5]

= قونسِ ـ : وهو أعلى بيضةِ الرأسِ .

(١) المذاكي ـ جمعُ مذكٍ ـ : وهوَ ما جاوزَ القَروحَ بسنةٍ ، وقد قرحَ الفرسُ إذا دخلَ في السادسةِ . المدعسُ من الرماحِ : الغليظ الشديدُ الذي لا ينثني ، ودعسهُ بالرمحِ طعنهُ .

يقولُ : إذا حملنا عليهم ثبتوا في وجوهنا ونصبوا صدورَ الخيلِ القرحِ والرماحَ المعدَّة لذلكَ .

(٢) يقولُ : إذا الخيلُ دارت عن مصروعٍ منَّا .. كررنا عليهم ؛ لنصرعَ مثلَ ما صرعوا منَّا ، وإن كرهت الخيلُ الكرَّ لشدَّةِ البأسِ فلم ترجع إلا كواسحَ .

(٣) وقدِ ٱختوَينا : أي لَم نطعَم شيئاً ، وكانوا يكرهونَ الطَّعامَ عندَ الحربِ ؛ مخافةَ أَن يُطعَنَ أَحدُهُم في بطنِهِ فَيخرُجَ منهُ الطَّعامُ ، فيكونُ ذلكَ عاراً .

وجوابُ (لو) محذوفٌ ؛ لأنَّ الأبياتَ مقصورةٌ علىٰ بيانِ القصَّةِ ، والتقديرُ : لو رأيتِ غداةَ جئْنا علىٰ أَحقادِنا ، لَم نطعَمْ شيئاً .. لرأيتِ أَمراً عظيماً .

(٤) الربيئة : العين الذي يطلع على أخبار العدو .

(٥) العارض : السحاب المعترض في الأفق . الوازع : الذي يرتب الجيش ويقدم ويؤخر ، ومعنى نركب وازعَينا : لا نَنقادُ لمن يريد ضبطنا من الجيشينِ .

تَنَـادَوْا يَـالَبُهْثَـةَ إِذْ رَأَوْنَـا ... فَقُلْنَا : صَوِّبِي رَمْياً جُهَيْنَا[1]
سَمِعْنَا دَعْوَةً عَنْ ظَهْرِ غَيْبٍ ... فَجُلْنَا جَوْلَةً ثُمَّ ٱرْعَوَيْنَا
فَلَمَّا أَنْ تَوَاقَفْنَا قَلِيلاً ... أَنَخْنَا لِلْكَلاَكِلِ وَٱرْتَمَيْنَا
فَلَمَّا لَمْ نَدَعْ قَوْساً وَسَهْماً ... مَشَيْنَا نَحْوَهُمْ وَمَشَوْا إِلَيْنَا
شَدَدْنَا شَدَّةً فَقَتَلْتُ مِنْهُمْ ... ثَلاَثَةَ فِتْيَةٍ وَقَتَلْتُ قَيْنَا
وَشَدُّوْا شَدَّةً أُخْرَىٰ فَجَرُّوْا ... بِأَرْجُلِ مِثْلِهِم وَرَمَوْا جُوَيْنَا
وَكَانَ أَخِي جُوَيْنٌ ذَا حِفَاظٍ ... وَكَانَ ٱلْقَتْلُ لِلْفِتْيَانِ زَيْنَا
فَآبُوْا بِالرِّمَاحِ مُكَسَّرَاتٍ ... وَأُبْنَا بِالسُّيُوْفِ قَدِ ٱنْحَنَيْنَا
وَبَاتُوْا بِٱلصَّعِيْدِ لَهُمْ أُحَاحٌ ... وَلَوْ خَفَّتْ لَنَا ٱلْكَلْمَىٰ سَرَيْنَا[2]

وقالَ بعضُ العربِ ينصِفُ خصومَهُ [في « ديوانِ العباسِ بن مرداسٍ » ١١٨ مِنَ الوافرِ] :

وَلَيْسَ ٱلْجُبْنُ عَادَتَهُمْ وَلَـٰكِنْ ... رَمَيْنَاهُمْ بِثَالِثَةِ ٱلأَثَافِي[3]

وقالَ النابغةُ الجعديُّ ، أَو زفرُ بنُ الحارثِ [في « ديوانِ النابغةِ » ٨٨ مِنَ الطَّويلِ] :

فَلَمَّا قَرَعْنَا ٱلنَّبْعَ بِٱلنَّبْعِ بَعْضَهُ ... بِبَعْضٍ أَبَتْ عِيْدَانُهُ أَنْ تَكَسَّرَا[4]
سَقَيْنَاهُمُ كَأْساً سَقَوْنَا بِمِثْلِهَا ... وَلَـٰكِنَّنَا كُنَّا عَلَىٰ ٱلْمَوْتِ أَصْبَرَا

(١) تنادوا يالبُهثة : أي دعوا بهثة ، وبُهْثَةُ وجُهينَةُ : بطنٌ مِنَ العربِ .
(٢) الأُحاحُ : العطش والغيظ ، وشدّة الغمِّ .
(٣) الأثافي : الأحجار الثلاثة التي توضع عليها القدر حتى يكون تحتها الموقد من حَطب ونحوه .
(٤) النبعُ : شجرٌ أخضرُ العودِ صلبُ الخشبِ ، إذا تقادمَ . . أحمرٌ لونُهُ ، يستخدم في صناعةِ القسيِّ والسهامِ ، والنبعُ كنايةٌ عن كرمِ الأَصلِ وشرفِ النسبِ .

وقالَ معاويةُ لدغفلٍ [في «جمهرة خطب العرب» ٢/ ٣٦٧] : أَخبِرني عَن قومِك بكرِ بنِ وائِلٍ ، قالَ : كانوا أَهلَ عزٍّ قاهرٍ ، وشرَفٍ ظاهِرٍ ، قالَ : فأَخبرني عَن إِخوانِهم تغلِبَ ، قالَ : كانوا أُسوداً تُرهَبُ ، وسماماً لا تقربُ ، قالَ : فكَم أُديلوا عليكُم؟ قالَ : أَربعينَ سنَةً ، لا ننتصِفُ مِنهم في موطنٍ نلقاهُم فيهِ.. حتَّىٰ كانَ يومَ تحلاقِ اللِّمَمِ ، وقد غضبَ الحارثُ بنُ عُبادٍ لقتلِ ٱبنهِ بِشِسْعِ نَعْلِ كُليبٍ ، فحميَ ، وقالَ [مِنَ الخفيفِ] :

قَـرِّبَـا مَـرْبَـطَ ٱلنَّعَـامَـةِ مِنِّـيْ ... لَحِقَـتْ حَـرْبُ وَائِـلٍ جَيَّـالِ
قَـرِّبَـا مَـرْبَـطَ ٱلنَّعَـامَـةِ مِنِّـيْ ... إِنَّ بَيْعَ ٱلْكِرَامِ بِٱلشِّسْعِ غَالِيْ
لَمْ أَكُنْ مِنْ جُنَاتِهَا عَلِمَ ٱللّـ ... ـهُ وَإِنِّيْ بِحَرِّهَا ٱلْيَوْمَ صَالِيْ

وقالَ أَبو عُبادَةَ [في «ديوانهِ» ١/ ٧٥ مِنَ الكاملِ] :

ضَرَبَ ٱلْجِبَالَ بِمِثْلِهَا مِنْ عَزْمِهِ ... غَضْبَانَ يَطْعَنُ فِيْ ٱلْحِمَامِ وَيَضْرِبُ

وقالَ [في «ديوانهِ» ١/ ٢٢١ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَمْ أَرَ كَٱلْمَلْعُوْنِ أَثْرَىٰ ذَخِيْرَةً ... وَأَبْقَىٰ دَماً وَٱلْحَادِثَاتُ تُجَانِبُهْ
إِذَا قُلْتُ : بِيْضُ ٱلْمَشْرِفِيَّةِ أَهْمَدَتْ ... حُشَاشَتَهُ.. كَرَّتْ تَثُوْبُ ثَوَائِبُهْ[1]
يَبُـثُّ ٱلْمَنَـايَـا وَٱلْمَنَـايَـا يَحُـزْنَـهُ ... وَيَكْمُنُ مِنْهُ ٱلْحَتْفُ وَٱلْحَتْفُ كَارِبُهْ
إِذَا ٱزْدَادَ شَغْبـاً كَـانَ وَالِـيْ قِـرَاعِـهِ ... مَلِيّاً لَهُ بِٱلْفَضْلِ حِيْنَ يُشَاغِبُهْ[2]

---

(١) أهمدت : سكنت . البيضُ : السيوفُ . المشرفيَّةُ : السيوفُ المنسوبةُ إلى قرى من أَرضِ العربِ تدنو منَ الريفِ اسمها مشارفُ الشامِ . تثوبُ : تعودُ . الثوائبُ : الريحُ الشديدةُ التي تكونُ في أَوَّلِ المطرِ .

(٢) الشغبُ : كثرةُ الجلبةِ المؤديةُ إلى الشرِّ . القِراعُ : التطاحنُ .

كَمَا ٱللَّيْلُ إِنْ تَزْدَدْ لِعَيْنَيْكَ ظُلْمَةً حَنَادِسُهُ تَزْدَادُ ضَوْءاً كَوَاكِبُهْ[1]

وقالَ مِن قصيدتِهِ التي يصفُ بِها ملاقاةَ الفتحِ بنِ خاقانَ للأسدِ [في « ديوانهِ » ١/ ٢٠١ مِنَ الطَّويلِ] :

هِزَبْرٌ مَشَىٰ يَبْغِي هِزَبْراً وَأَغْلَبٌ مِنَ ٱلْقَوْمِ يَغْشَىٰ بَاسِلَ ٱلْوَجْهِ أَغْلَبَا[2]
أَدَلَّ بِشَغْبٍ ثُمَّ هَالَتْهُ صَوْلَةٌ رَآكَ لَهَا أَمْضَىٰ جَنَاناً وَأَشْغَبَا[3]
فَأَحْجَمَ لَمَّا لَمْ يَجِدْ فِيْكَ مَطْمَعاً وَأَقْدَمَ لَمَّا لَمْ يَجِدْ عَنْكَ مَهْرَبَا
فَلَمْ يُغْنِهِ أَنْ كَرَّ نَحْوَكَ مُقْبِلاً وَلَمْ يُنْجِهِ أَنْ حَادَ عَنْكَ مُنَكِّبَا
حَمَلْتَ عَلَيْهِ ٱلسَّيْفَ لاَ عَزْمُكَ ٱنْثَنَىٰ وَلاَ يَدُكَ ٱرْتَدَّتْ وَلاَ حَدُّهُ نَبَا

والأخيرُ مِن عيونِ الشعرِ ، وفرائِدِهِ ، ومختارِهِ ، وخالصِهِ ، وإِن قالَ المرتضىٰ في « أماليهِ » : إِنَّهُ مِن شعرٍ لبعضِ الجاهليينَ ، ذكرهُ ونسيتُهُ .

وقالَ الناظِمُ [في « العُكبَريِّ » ١/ ١٨٥ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا عَدِمَ ٱللاَّقُوْكَ بَأْساً وَشِدَّةً وَلَـٰكِنَّ مَنْ لاَقَوْا أَشَدُّ وَأَنْجَبُ

وقالَ [في « العُكبَريِّ » ١/ ٨٣ـ٨٤ مِنَ الوافرِ] :

وَلَوْ غَيْرُ ٱلأَمِيْرِ غَزَا كِلاَباً ثَنَاهُ مِنْ شُمُوْسِهِمُ ضَبَابُ[4]

---

(١) الحنادسُ : الظلماتُ ، وتطلقُ أيضاً على ثلاثِ ليالٍ مظلمةٍ من آخرِ كلِّ شهرٍ .
(٢) الهزبرُ : من أسماءِ الأسدِ . الأغلبُ : الأسدُ الغليظُ الرقبةِ وهوَ من صفاتِ المدحِ .
(٣) أدلَّ : اجترأَ .
(٤) الضبابُ ـ جمعُ ضبابةٍ ـ : وهيَ سحابةٌ تغشىٰ الأرضَ كالدخانِ ، يقالُ منهُ : أضبَّ نهارُنا .

وَلاَقَىٰ دُوْنَ ثَايِهِمُ طِعَاناً   يُلاَقِيْ عِنْدَهُ ٱلذِّئْبَ ٱلْغُرَابُ[1]
وَخَيْلاً تَغْتَذِيْ رِيْحَ ٱلْمَوَامِيْ   وَيَكْفِيْهَا عَنِ ٱلْمَاءِ ٱلسَّرَابُ[2]
وَلَٰكِنْ رَبُّهُمْ أَسْرَىٰ إِلَيْهِمْ   فَمَا نَفَعَ ٱلْوُقُوْفُ وَلاَ ٱلذَّهَابُ[3]

وقالَ [في «العُكبَريّ» ٣/ ١٣٩ مِنَ الخفيفِ] :

وَهُمُ ٱلْبَحْرُ ذُوْ ٱلْغَوَارِبِ إِلاَّ   أَنَّهُ صَارَ عِنْدَ بَحْرِكَ آلاَ[4]

وقالَ [في «العُكبَريّ» ١/ ٣٦٢ مِنَ الوافرِ] :

لَقُوْكَ بِأَكْبُدِ ٱلإِبِلِ ٱلأَبَايَا   فَسُقْتَهُمُ وَحَدُّ ٱلسَّيْفِ حَادِ

وقالَ [في «العُكبَريّ» ٢/ ١٠٠ مِنَ الوافرِ] :

وَمَا ٱنْقَادَتْ لِغَيْرِكَ فِيْ زَمَانٍ   فَتَعْرِفَ مَا ٱلْمَقَادَةُ وَٱلصَّغَارُ

وقالَ [في «العُكبَريّ» ٣/ ١٣٥ مِنَ الخفيفِ] :

حَالُ أَعْدَائِنَا عَظِيْمٌ وَسَيْفُ ٱلدَّ   وْلَةِ ٱبْنُ ٱلسُّيُوْفِ أَعْظَمُ حَالاَ

وقالَ [في «العُكبَريّ» ٣/ ٧ مِنَ الوافرِ] :

يَحِيْدُ ٱلرُّمْحُ عَنْكَ وَفِيْهِ قَصْدٌ   وَيَقْصُرُ أَنْ يَنَالَ وَفِيْهِ طُوْلُ[5]

---

(١) **الثاي ـ جمعُ ثايةٍ ـ** : وهيَ الحجارةُ التي تجعلُ حولَ البيتِ ، يأوي إليها الراعي ليلاً ، وهيَ مباركُ الإبلِ ومرابضُ الغنمِ .
(٢) **الموامي ـ جمعُ موماةٍ ـ** : وهيَ المفازةُ .
(٣) **ربُّهم** : هوَ اللهُ تعالىٰ ، ولا يُقالُ لغيرِهِ إلاَّ بالإضافةِ . **أَسرَىٰ** : سارَ ليلاً .
والمعنىٰ : لَم تنفعْهُمُ الحربُ ؛ لأنَّهم أُدرِكوا ، ولا الوقوفُ لو وقفوا في ديارِهِم للدِّفاعِ والمحاماةِ ؛ لأنَّهم لَو وقفوا قُتِلوا .
(٤) **الغواربُ** : أعالي الموجِ . **الآلُ** : السرابُ .
(٥) **يحيدُ** : يرجعُ . **القصدُ** : الاستقامةُ ، يريدُ : أنَّ الرمحَ مستقيمٌ غيرُ معوجٍّ .

ولمَّا ٱنقرضَت دولَة بني رزيكٍ علىٰ يدِ أَبي شجاعٍ شاوِرِ بنِ مجيرٍ.. جلسَ ذاتَ يومٍ وحولَهُ جماعَةٌ مِن صنائعِ بني رُزِّيكٍ، فوقعوا فيهِم ؛ تملُّقاً لأَبي شجاعٍ ، ومقاربةً لَهُ ، فقالَ عمارةُ اليمنيُّ [مِنَ البسيطِ] :

زَالَتْ لَيَالِيْ بَنِيْ رُزِّيْكٍ وَٱنْصَرَمَتْ وَٱلْمَدْحُ وَٱلذَّمُّ فِيْهَا غَيْرُ مُنْصَرِمِ
كُنَّا نَظُنُّ وَبَعْضُ ٱلظَّنِّ مَأْثَمَةٌ بِأَنَّ ذَلِكَ جَمْعٌ غَيْرُ مُنْهَزِمِ
وَلَمْ يَكُوْنُوْا عَدُواً ذَلَّ جَانِبُهُ لَكِنَّهُمْ غَرِقُوْا فِي سَيْلِكَ ٱلْهَمِمِ
وَمَا قَصَدْتُ بِتَعْظِيْمِيْ عِدَاكَ سِوَىٰ تَعْظِيْمَ شَأْنِكَ فَٱعْذُرْنِيَ وَلاَ تَلُمِ
وَلَوْ شَكَرْتُ لَيَالِيْهِمْ مُحَافَظَةً لِعَهْدِهَا لَمْ يَكُنْ بِٱلْعَهْدِ مِنْ قِدَمِ
وَلَوْ فَتَحْتُ فَمِيْ يَوْماً بِذَمِّهِمُ لَمْ يَرْضَ فَضْلُكَ إِلاَّ أَنْ يَسُدَّ فَمِيْ

فشكرَهُ شاورٌ وأَولادُهُ علىٰ الوفاءِ ، وحفظِ العهدِ[1] .

وقد سبقَ نظائِرُهُ في الكلامِ علىٰ قولِهِ [في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ٣٣٩ مِنَ الكاملِ] :

يَا ذَا ٱلَّذِيْ يَهَبُ ٱلْجَزِيْلَ وَعِنْدَهُ أَنِّيْ عَلَيْهِ بِأَخْذِهِ أَتَصَدَّقُ

دعوى براءة الحبيب من العيب.. لا تليق إلا..

أَمَّا دعواهُ لممدوحِهِ براءَةَ الجيبِ مِنَ ٱلعيبِ.. فأَولىٰ الناسِ بذلكَ سيِّدُ الوجودِ ، وأَفضلُ مولودٍ ، فقد أَخذَ ٱبنُ الفارضِ في خلوتِهِ يردِّدُ قولَ الحريريِّ [في « وفيات الأعيان » ٣/ ٢٥٥ مِنْ مجزوءِ الرَّجَزِ] :

مَنْ ذَا ٱلَّذِيْ مَا سَاءَ قَطّ وَمَنْ لَهُ ٱلْحُسْنَىٰ فَقَطْ

حتَّىٰ سَمعَ هاتفاً يقولُ [مِنْ مجزوءِ الرَّجَزِ] :

مُحَمَّدُ ٱلْهَادِيْ ٱلَّذِيْ عَلَيْهِ جِبْرِيْلُ هَبَطْ

---

(١) «وفيات الأعيان» (٢/ ٤٤٢) .

الكلام حول عصمة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين

وللعلماءِ في عصمَةِ الأَنبياءِ كلامٌ ، حاصِلُهُ الذي ذهبَ إليهِ الأَشعريُّ : عصمتُهم مِنَ ٱلْكبائرِ وصغائرِ الخسَّةِ فقطْ .

وقالَتِ ٱلرافضَةُ ، وطائِفَةٌ مِن متأَخِّري الشافعيَّةِ : بعصمَتِهم مِن الكبائرِ والصغائرِ مطلقاً ، قبلَ النبوَّةِ وبعدَها ، وتلزمُ عليهِ إِشكالاتٌ طويلَةٌ ، يلزَمُ لَها تأويلُ طائفةٍ مِنَ ٱلقرآنِ .

لا تجد إنساناً كاملاً ولكن العبرة بالأغلب

وما أَحسنَ قولَ النابغَةِ [الذبياني في « ديوانه » ٧٨ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَسْتَ بِمُسْتَبْقٍ أَخاً لاَ تَلُمُّهُ ... عَلَىٰ شَعَثٍ ، أَيُّ ٱلرِّجَالِ ٱلْمُهَذَّبُ ؟

وقالَ بشَّارٌ [البيت غير منسوب في « قرى الضيف » ١/ ١٨١ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَنْ ذَا ٱلَّذِيْ تُرْضَىٰ سَجَايَاهُ كُلُّها ... كَفَىٰ ٱلْمَرْءَ نُبْلاً أَنْ تُعَدَّ مَعَايِبُهْ

وصدقَ فإِنَّما العبرَةُ بالأَكثرِ الغالبِ مِن أَحوالِ الإِنسانِ ، فمَن غلَبَ عليهِ الخيرُ والفضلُ . . عُدَّ مِن الأَخيارِ الفضلاءِ ، وتُنُوسِيَتْ مساويهِ في جَنْبِ محاسنِهِ ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [هود : ١١٤] .

وقد ذكَرنا في كتابِنا « بلابلُ التغريدِ » : حديثَ معاويَةَ معَ ٱبنِ جعفرٍ ، وزبدتهُ : أَنَّ إِحدىٰ أَزواجِهِ أَنبهتْهُ ليسمَعَ ما عندَ ٱبنِ جعفرٍ مِنَ ٱلأَغاني ؛ لتحُطَّ مِن قدرِهِ عندَهُ بذلكَ ، فلَمَّا كانَ مِن آخرِ الليلِ . . أَنبهَها ؛ لتسمَعَ ما كانَ مِن تهجُّدِ ٱبنِ جعفرٍ وتلاوتِهِ ، وقالَ : هـٰذا مكانَ ما أَسمَعْتيني .

وللهِ قولُ بعضِهِم [البيت في « نفح الطيب » ٦/ ٢٥ غير منسوب لقائل مِنَ الكاملِ] :

وَإِذَا ٱلْحَبِيْبُ أَتَىٰ بِذَنْبٍ وَاحِدٍ ... جَاءَتْ مَحَاسِنُهُ بِأَلْفِ شَفِيْعِ

وقولُ الناظِمِ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٢٩٢ مِنَ الطَّويلِ] :

فَإِنْ يَكُنِ ٱلْفِعْلُ ٱلَّذِي سَاءَ وَاحِداً فَأَفْعَالُهُ ٱللاَّئِي سَرَرْنَ أُلُوفُ

وكثيراً ما تمثَّلنا بهٰذينِ البيتينِ ، ولا ملامَةَ ؛ فالمناسباتُ كثيرةٌ .

وأَمَّا مَن غلبَت سيِّئاتُهُ ، وكثُرَتْ سقطاتُهُ ، ورجحَت تبعاتُهُ . . فَلا شكَّ أَنَّهُ مِن الساقطينَ ، وللهِ درُّ القائِلِ [مِنَ الكامل] :

وَلَئِـنْ تَسُـرُّكَ مِـنْ تَمِيْـمٍ خَلَّـةٌ فَلَمَـا يَسُـوْؤُكَ مِـنْ تَمِيْـمٍ أَكْثَـرُ

وما يقرِّرُهُ الفقهاءُ في بابِ الشهادَةِ مِن حدِّ العدالَةِ لا يخرجُ عمَّا ذكرناهُ ، وقد قالَ ﷺ : « وأَمَّا أَبُوْ جَهْمٍ : فَلاَ يَضَعُ عَصَاهُ عَنْ عَاتِقِهِ »(١) اعتباراً بالأكثرِ مِن غلبَةِ الأَسفارِ عليهِ ، وإلاَّ . . فهوَ يضعُها في كثيرٍ مِن أَحوالِهِ .

وتجدُ كثيراً مِمَّن يكتُبُ في التراجِمِ يجاوزُ الحدودَ ، ويتقوَّلُ علىٰ اللهِ ، ومثلُ أُولئِكَ لا يكونُ ما يكتبونَ إِلاَّ حجَّةً علىٰ سقوطِهِم ، واطِّراحِهِم ، واندفاعِ سائِرِ مرويَّاتِهِم عَنِ ٱلقَبولِ ، ومِن هُنا أَخطأَ كثيرٌ في تقديسِ السلَفِ الصالِحِ ، والذهابِ بِهِم إِلىٰ عصمَةِ الملائِكَةِ ، أَو إِلىٰ ما يقربُ مِنها ، ونشأَ عَن ذلكَ فسادٌ كبيرٌ في الدينِ ، يزولُ إِن شاءَ اللهُ بِما أَشبعنا القولَ في تحقيقِهِ مِن « بَلابلِ التغريدِ » .

* * *

(١) أخرجه عن فاطمة بنت قيس مسلم (١٤٨٠) في (الطلاق) ، وأحمد (٦/ ٤١٢) ، وأبو داوود (٢٢٨٥) وما بعده ، والترمذي (١١٨٠) ، والنسائي (٦/ ٧٤) في الطلاق .

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَريِّ » ٢/ ٢٤٣ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا عَرَضَتْ حَاجٌ إِلَيْهِ فَنَفْسُهُ إِلَىٰ نَفْسِهِ فِيْهَا شَفِيْعٌ مُشَفَّعُ

الجود ليس وراثة عن الجدود.. ولكنه حساسية في الجلود

معناهُ ظاهِرٌ ، وهوَ ممَّا تداولَهُ الشعراءُ طارفاً وتليداً ، قالَ الحطيئَةُ [في « ديوانهِ » ٣١٠ مِنَ الطَّويلِ] :

وَذَاكَ ٱمْرُؤٌ إِنْ تَأْتِهِ فِيْ نَفِيْسَةٍ إِلَىٰ مَالِهِ لاَ تَأْتِهِ بِشَفِيْعِ

وقالَ الفرزدقُ [مِنَ الطَّويلِ] :

لِكُلِّ ٱمْرِىءٍ نَفْسَانِ: نَفْسٌ كَرِيْمَةٌ وَأُخْرَىٰ يُعَاصِيْهَا ٱلْفَتَىٰ وَيُطِيْعُهَا
وَنَفْسُكَ مِنْ نَفْسَيْكَ تَشْفَعُ لِلنَّدَىٰ إِذَا قَلَّ مِنْ أَحْرَارِهِنَّ شَفِيْعُهَا

وقالَ أَبو العتاهيَةِ [مِنَ الطَّويلِ] :

أَيَا جُوْدَ مُوْسَىٰ نَادِ مُوْسَىٰ لِحَاجَتِيْ فَلَيْسَ إِلَىٰ مُوْسَىٰ سِوَاهُ شَفِيْعُ(١)

وقالَ ٱبنُ الروميِّ [في « ديوانهِ » ٤/ ١٤٦٨ مِنَ الطَّويلِ] :

أَبَا ٱلصَّقْرِ مَنْ يَشْفَعْ إِلَيْكَ بِشَافِعٍ فَمَا لِيْ سِوَىٰ شِعْرِيْ وَجُوْدِكَ شَافِعُ

وقالَ الخزيميُّ [في « ديوانهِ » ٢١ مِنَ الكاملِ] :

شَفَعَتْ مَكَارِمُهُمْ لَهُمْ فَكَفَتْهُمُ جُهْدَ ٱلسُّؤَالِ وَلُطْفَ قَوْلِ ٱلْمَادِحِ

---

(١) البيت غير منسوب في « المستطرف » (١/ ٣٥١) ، وهو على الشكلِ التالي :

أَيَا جُوْدَ مَعْنٍ نَادِ مَعْناً لِحَاجَتِيْ فَلَيْسَ إِلَىٰ مَعْنٍ سِوَاكَ شَفِيْعُ

وقالَ أَبو العبَّاسِ المبرِّدُ [في «المستطرف» ١/٢٨١] : أَتاني رجلٌ يستشفِعُ بي في حاجَةٍ ، وأَنشدني لنفسِهِ [مِنَ البسيطِ] :

إِنِّيْ قَصَدْتُكَ لاَ أُدْلِيْ بِمَعْرِفَةٍ وَلاَ بِقُرْبِيْ وَلَكِنْ قَدْ فَشَتْ نِعَمُكْ
فَبِتُّ حَيْرَانَ مَكْرُوْباً يُؤَرِّقُنِي ذُلُّ ٱلْغَرِيْبِ وَيُغْشِيْنِيْ ٱلْكَرَىٰ كَرَمُكْ
وَلَوْ هَمَمْتَ بِغَيْرِ ٱلْعُرْفِ مَا عَلِقَتْ بِهِ يَدَاكَ وَلاَ ٱنْقَادَتْ لَهُ شِيَمُكْ
مَا زِلْتُ أَنْكَبُ حَتَّىٰ زُلْزِلَتْ قَدَمِيْ فَٱحْتَلْ لِتَثْبِيْتِهَا لاَ زُلْزِلَتْ قَدَمُكْ

قالَ : فشفعْتُ لَهُ ، وقمتُ بأَمرِهِ ، حتَّىٰ بلغْتُ لهُ ما أَحبَّ .

وقالَ أَيضاً : قلتُ لعبدِ اللهِ بنِ يحيىٰ بنِ خاقانَ : أَنا أَشفَعُ إِليكَ ـ أَصلَحَكَ اللهُ ـ في أَمرِ فلانٍ ، فقالَ لي : قد سمعْتُ ، وأَطعْتُ ، وسأُعطيه كَذا ، فما كانَ مِن نقصٍ . . فعَلَيَّ ، وما كانَ مِن زيادَةٍ . . فلَهُ ، فقلْتُ لَهُ : أَنتَ ـ أَطالَ اللهُ بقاءَكَ ـ كَما قالَ زهيرٌ [في «ديوانهِ» ١٤٠ مِنَ الوافرِ] :

وَجَارٍ سَارَ مُعْتَمِداً عَلَيْنَا أَجَاءَتْهُ ٱلْمَخَافَةُ وَٱلرَّجَاءُ
ضَمِنَّا مَالَهُ فَغَدَا سَلِيْماً عَلَيْنَا نَقْصُهُ وَلَهُ ٱلنَّمَاءُ

الشفاعة في الحب

وقالَ المجنونُ [في «ديوانهِ» ١٩٢ مِنَ الطَّويلِ] :

مَضَىٰ زَمَنٌ وَٱلنَّاسُ يَسْتَشْفِعُوْنَ بِيْ فَهَلْ لِيْ إِلَىٰ لَيْلَىٰ ٱلْغَدَاةَ شَفِيْعُ ؟

وفي البيتِ رائحَةُ تديُّثٍ وقيادَةٍ ، لَولا ما يمهِّدُ لَهُ بهِ العذرُ مِن أَنَّهُ لا يرادُ ظاهرُهُ .

وقالَ الصوليُّ [بل المجنون في «ديوانه» ١٩٥ مِنَ الطَّويلِ] :

وَنُبِّئْتُ لَيْلَىٰ أَرْسَلَتْ بِشَفَاعَةٍ إِلَيَّ فَهَلاَّ نَفْسُ لَيْلَىٰ شَفِيْعُهَا

أَأَكْـرَمُ مِـنْ لَيْلَـىٰ عَلَـيَّ فَتَبْتَغِـيْ   بِهِ ٱلْجَاهَ أَمْ كُنْتُ ٱمْرَأً لاَ أُطِيْعُهَا

الشفاعة عند الناس من الجود

وقالَ بعضُهُم [وهو أبو بكر أبن هارون المهلبي في « خِزانة الأدب » ٢/ ٣٧٦] : كنَّا في حلقَةِ دعبلٍ الخزاعيِّ ، فذُكرَ أَبو تمَّامٍ ، فقالَ دعبلٌ : إِنَّهُ يتتبَّعُ معانِيَّ فيأخذُها ، فقالَ لهُ رجلٌ : هاتِ صورةَ ذلكَ ، قالَ : قلْتُ [في « ديوانهِ » ١٩٣ مِنَ الطَّويلِ] :

وَإِنَّ ٱمْـرَأً أَسْـدَىٰ إِلَـيَّ بِشَـافِـعٍ   إِلَيْهِ ، وَيَرْجُوْ ٱلشُّكْرَ مِنِّيْ لأَحْمَقُ

فأَخذَهُ وقالَ [في « ديوانهِ » ٢/ ٢٩ مِنَ الكاملِ] :

وَإِذَا ٱمْرُؤٌ أَسْدَىٰ إِلَيْكَ صَنِيْعَةً   مِـنْ جَـاهِـهِ فَكَـأَنَّهَـا مِـنْ مَـالِـهِ

فقالَ الرجلُ : لَقَد أَحسنَ أَبو تمَّامٍ ، فَإِن كانَ سبقَكَ . . فقد قصَّرتَ ، وإِن كنتَ سبقتَهُ . . فقد أَحسنَ الاتِّباعَ ، وصارَ أَحقَّ بالمعنىٰ مِنكَ ، فغضبَ دعبلٌ وقامَ .

ثمَّ إِنَّ ما قالَه أَبو تمَّامٍ عينُ الصوابِ ؛ لأَنَّهُ أَردَمَ بشكرِ الشافعِ ، ولم يبخَسِ ٱلمعطي حقَّهُ مِن الصنيعِ ، بخلافِ دعبلٍ ؛ فإِنَّهُ ٱهتَضَمَ حقَّ المشفوعِ إِليهِ جملَةً ، كما في قولِهِ [في « ديوانهِ » ١٩٣ مِنَ الطَّويلِ] :

شَفِيْعَكَ فَٱشْكُرْ فِيْ ٱلْحَوَائِجِ إِنَّهُ   يَصُوْنُكَ عَنْ مَكْرُوْهِهَا وَهُوَ يَخْلُقُ

بشهـادَةِ فعليَّـةِ الخبـرِ ، وتقـديـمِ المسنَـدِ إِليـهِ ، ومثـلُ ذلـكَ لا يجوزُ .

وهـٰذا رسولُ اللهِ ﷺ يقولُ : « ٱرْفَعُوا إِلَيَّ حَوَائِجَ ٱلنَّاسِ ، وَٱشْفَعُوا . . تُؤْجَرُوا ، وَيَقْضِيْ ٱللهُ عَلىٰ لِسَانِ نَبِيِّهِ مَا شَاءَ »[1] .

---

(١) أخرجه عن أبي موسى رضي الله عنه أحمد (٤/ ٤١٣) ، والبخاري (١٤٣٢) ، ومسلم (٢٦٢٧) ، وأبـو داوود (٥١٣١) ، والتـرمـذي =

وقد وقعَ البُحتريُّ في قريبٍ ممَّا وقعَ فيهِ دعبلٌ ، وذلكَ حيثُ يقولُ [في « ديوانهِ » ١/٣٨ مِنَ الكاملِ] :

وَعَطَـاءُ غَيْـرِكَ إِنْ بَـذَلْـ ـتَ عِنَايَةً فِيْـهِ عَطَـاؤُكْ

غيرَ أنَّهُ لَم يصرِّحْ بٱهتضامِ المشفوعِ إليهِ ، وإنَّما قد يؤخَذُ مِن فحوىٰ كلامِهِ ، معَ ٱحتمالِهِ لغيرِ ذلكَ ، فهوَ مثلُ قولِ الآخرِ [مِنَ الكاملِ] :

وَإِذَا ٱمْرُؤٌ أَسْدَىٰ إِلَيْكَ بِشَافِعٍ خَيْراً فَذَاكَ ٱلْخَيْرُ خَيْرُ ٱلشَّافِعِ

وقالَ عليُّ بنُ قريشٍ الجرجانيُّ [في « صبح الأعشى » ٩/١٧٠ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَعْطِفْكَ إِلاَّ شَفَاعَةٌ فَلا خَيْرَ فِيْ وِدٍّ يَكُوْنُ بِشَافِعِ

وما أَحسنَ في دفعِ المذمَّةِ عمَّن أَعطىٰ بالشفاعةِ من قولِ ٱبنِ الروميِّ [في « ديوانهِ » ٥/٢٠٦٨ مِنَ الخفيفِ] :

لَنْ يَعِيْبَ ٱلسَّحَابَ أَنْ تَتَوَلَّىٰ مِنْهُ أَيْدِيْ ٱلرِّيَاحِ حَلَّ ٱلْعَزَالِيْ

وقالَ البُحتريُّ [في « ديوانه » ٢/١٠٠٧] :

وَلِـيْ حَـاجَـةٌ لَـمْ آلُ فِيْهَـا وَسِيْلَـةً إِلَىٰ ٱلْقَمَرِ ٱلْوَضَّاحِ وَٱلسَّيِّدِ ٱلْغَمْرِ[1]
شَفَعْـتُ إِلَيْـهِ بِـالإِمَـامِ وَإِنَّمَـا تَشَفَّعْتُ بِٱلشَّمْسِ ٱنْتِصَاراً إِلَىٰ ٱلْبَدْرِ
فَلَـمْ أَرَ مَشْفُـوْعـاً إِلَيْـهِ وَشَـافِعـاً يُدَانِيْهِمَا فِيْ مُنْتَهَىٰ ٱلْجُوْدِ وَٱلْفَخْرِ
فَعَالُ كَرِيْمِ ٱلْفِعْلِ مُطَّلَبِ ٱلْجَدَا وَقَوْلُ مُطَاعِ ٱلْقَوْلِ مُتَّبَعُ ٱلأَمْرِ

= (٢٦٧٤) ، والنسائي (٥/٧٨) .
(١) الغمرُ : الكريمُ الواسعُ الخُلُقِ . لم آلُ : لم أُقصِّرْ ولم أُبطِئْ .

إذا تعذرت الأمور من أعاليها.. أتيناها من أسافلها

وكانَ لعبدِ اللهِ بنِ الزبيرِ حاجَةٌ إلىٰ معاويَةَ لَواهُ فيها ، فاستعانَ عليهِ ببعضِ نسائِهِ ، فقضىٰ حاجتَهُ ، فعُيِّرَ ٱبنُ الزبيرِ بذلكَ ، فقالَ : إذا تعذَّرَتِ ٱلأُمورُ مِن أَعاليها.. طَلَبْناها مِن أَسافِلِها ، فأَخذَهُ البُحتريُّ وقالَ [في « ديوانه » ٣/ ١٩٠٠ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا مَا أَعَالِيْ ٱلأَمْرِ لَمْ تُعْطِكَ ٱلْمُنَىٰ   فَلا بَأْسَ فِيْ ٱسْتِنْجَاحِهَا بِٱلأَسَافِلِ

ما يصلح الرجل بالنهار.. تفسده المرأة بالليل

وٱتَّفقَ لابنِ الزبيرِ بعدَ ذلكَ مثلُهُ[(١)] ، فقدِ ٱختصَمَ إليهِ الفرزدَقُ وعِرْسُهُ النَّوارُ ، ونزلَ الفرزدَقُ علىٰ ٱبنِهِ حمزةَ ، ونزلَتِ ٱلنوارُ علىٰ زوجِهِ ، فكانَ ما يصلِحُ حمزَةُ مِن أَمرِ الفرزدَقِ نهاراً ، تفسدُهُ المرأَةُ

---

(١) كانتْ زوجةُ الفرزدَقِ ٱبنةَ عَمِّهِ وهيَ النَّوار ، وكانَ قد خطبَها رجلٌ مِن قريشٍ ، فبعثَتْ إلىٰ الفرزدَقِ تسأَلُهُ أَن يكونَ وليَّها ؛ إذ كانَ ٱبنَ عَمِّها ، فقالَ : إنَّ بـ(الشَّامِ) مَن هوَ أَقربُ مِنِّي إليكِ ، وما أَنا آمَنُ أَن يقدِمَ قادمٌ مِنهمُ فينكرَ ذلكَ عليَّ ، فأَشهدي أَنَّكِ قد جعلْتِ أَمرَكِ إليَّ... ففعَلَتْ ، فخرجَ الشهودُ ، وقالَ لهُم : قد أَشهدَتُكُم أَنَّها جعلَتْ أَمرَها لي ، وأَنا أُشهِدُكُمْ أَنِّي قد تزوَّجْتُها علىٰ مِئَةِ ناقةٍ حمراءَ سودِ الحِدَقِ ، فغضبَتْ مِن ذلكَ ، وٱستعدَتْ عليهِ ، وخرجَتْ إلىٰ عبدِ اللهِ بنِ الزُّبَيرِ ـ وأَمرُ (الحجازِ) و(العراقِ) يومئِذٍ إليهِ ـ وخرجَ الفرزدقُ أَيضاً .

فأَمَّا النَّوارُ : فنزلَتْ علىٰ خولةَ بنتِ منظورِ بنِ زبانَ الفزاريِّ ، ٱمرأَةِ عبدِ اللهِ بن الزُّبيرِ ، فرقَّقَتْها ، وسأَلَتْها الشفاعةَ لها .

وأَمَّا الفرزدَقُ : فنزلَ علىٰ حمزةَ بنِ عبدِ اللهِ بنِ الزُّبيرِ ـ وهوَ ٱبنُ خولةَ المذكورَةِ ـ ومدَحَهُ فوعدَهُ الشفاعَةَ .

فتكلَّمَتْ خولةُ في النَّوارِ ، وتكلَّمَ حمزةُ في الفرزدَقِ ، فأَنجحَتْ خولةُ ، وأَمَرَ عبدُ اللهِ بنُ الزُّبيرِ أَن لا يقربَها حتَّىٰ يصيرا إلىٰ (البصرةِ) فيحتكما إلىٰ عاملِهِ عليها ، فخرجا ، وقالَ الفرزدقُ في ذلكَ :

أَمَّـا بَنُـوْهُ فَلَـمْ تُقْبَـلْ شَفَـاعَتُهُـمْ   . . . .

الأبيات . =

ليلاً ، حتَّىٰ أيقنَ الفرزدَقُ بالفشَلِ ، فقالَ [مِنَ البسيطِ] :

أَمَّا بَنُوهُ فَلَمْ تُقبَلْ شَفَاعَتُهُمْ   وَشُفِّعَتْ بِنْتُ مَنْظُورِ بنِ زَبَّانَا

لَيسَ ٱلشَّفِيعُ ٱلَّذِيْ يَأْتِيكَ مُتَّزِراً   مِثْلَ ٱلشَّفِيعِ ٱلَّذِيْ يَأْتِيكَ عُرْيَانَا

ولا حاجةَ لاستيفاءِ القصَّةِ ؛ لأَنَّها طويلَةٌ ، ولَها أذنابٌ .

وقالَ صائِنُ الدينِ الموصليُّ [في « وفيات الأعيان » ٥/٢٧٩ مِنَ الوافرِ] :

إِذَا ٱحْتَاجَ ٱلنَّوَالُ إِلَىٰ شَفِيعٍ   فَلاَ تَقْبَلْهُ تُضْحِ قَرِيرَ عَيْنِ

إِذَا عِيفَ ٱلسُّؤَالُ لِفَرْدِ مَنٍّ   فَأَوْلَىٰ أَنْ يُعَافَ لِمِنَّتَيْنِ

كتاب عروة بن الزبير في الشفاعة إلى الوليد بن عبد الملك

ومِن أبدعِ ما رأيتُ في الشفاعاتِ : ما كتبهُ عروةُ بنُ الزبيرِ إِلىٰ الوليدِ بنِ عبدِ الملكِ معَ كعبِ العبسيِّ ، يسكِّنُهُ مِن غضبةِ غضبَها عليهِ في جُرْمٍ كانَ مِنهُ .

ونصُّهُ : لَو لَم يكُن لِكعبٍ مِن قديمِ حرمتِهِ ما يغفِرُ لَهُ عظيمَ جريرَتِهِ . . لوجبَ أَن لا تحرِمَهُ التفيُّؤَ بظلِّ عفوِكَ ، الذي تأمَلُهُ القلوبُ ، ولا تعلَقُ بهِ الذنوبُ ، وقدِ ٱستشفَعَ بي إِليكَ ، فوثِقْتُ لَهُ منكَ بعفوٍ لا يخلُطُهُ سخَطٌ ، فحقِّقْ أَملَهُ فِيَّ ، وصدِّقْ ثِقَتي بكَ ، مغتنماً لِلشُّكرِ ، مبتدئاً بالنعمَةِ .

فكتبَ إِليهِ الوليدُ : قد شكرتُ رغبتَهُ إِليكَ وعفوتُ عنهُ ؛ لمعوَّلِهِ

= ثُمَّ إِنَّ الفرزدَقَ ٱتَّفقَ معها ، وبقيَ زماناً لا يولد لَه وَلَدٌ ، ثُمَّ وُلِدَ لهُ بعدَ ذلكَ عدَّةُ أولادٍ ، وهم : لَبطَةُ ، وسَبطَةُ ، وحَبطَةُ ، وركَضَةُ ، وزَمعَةُ ، وكُلُّهم مِنَ النَّوارِ ، وليسَ لواحدٍ مِن أَولادِهِ عَقِبٌ إِلاَّ مِنَ النِّساءِ .

انظر : « وفيات الأعيان » (٦/٩٩) .

عليكَ ، ولهُ عِندي الذي تحبُّ ، إن لم تقطَعْ كتبَكَ عَنِّي في أَمثالِهِ وفي سائِرِ أُمورِكَ .

المنصور يطلب من محمد بن جعفر أن يخفف من كتب شفاعاته

وذكرتُ بِها [ما روى الأبشيهي في « المستطرف » ١/ ٢٨٠] : أَنَّ المنصورَ كانَ معجباً بمحادَثَةِ محمَّدِ بنِ جعفرِ بنِ عبيدِ اللهِ بنِ العبَّاسِ ، وكانَ الناسُ يفزعونَ إِليهِ في الشفاعاتِ ، حتَّىٰ أثقلَ علىٰ المنصورِ ، فحبَسهُ مدَّةً ، ثمَّ ٱشتاقَ إِليهِ ، وقالَ للربيعِ : إِنَّهُ لا صبرَ لي عنهُ ، ولـٰكنِّي ٱستثقلْتُ شفاعاتِهِ ، فشرطَ عليهِ الربيعُ أَن لا يعودَ إِليها ، فمكثَ أَيّاماً لا يشفَعُ لأَحدٍ ، ثمَّ وقفَ لهُ قومٌ مِن قريشٍ وغيرِهم برقاعٍ مدخَلهُ عندَ المنصورِ ، فسأَلوهُ أَن يأخذَها مِنهم ، فقصَّ عليهِم خبرَهُ فضَرِعوا إِليهِ ، فقالَ : أَمَّا إذا أَبيتُم قَبولَ العذرِ . . فإِنِّي لا أَقبَضُها عنكُم ، ولـٰكِنِ ٱجعَلُوها في كمِّي ، فقذَفُوها في كمِّهِ ، ودخلَ علىٰ المنصورِ ، وهوَ في الخضراءِ المشرِفَةِ علىٰ (مدينَةِ السلامِ) وما حولَها مِنَ ٱلضياعِ ، فقالَ لهُ : أَما ترىٰ إِلىٰ حسنِها؟! قالَ : بلىٰ يا أَميرَ المؤمنينَ ، فبارَكَ اللهُ فيما آتاكَ ، وهنَّأَكَ بإِتمامِ نعمتِهِ عليكَ فيما أَعطاكَ ، فلَم تبنِ العربُ فِي الإِسلامِ ، ولا العجَمُ في سالِفِ الأَيّامِ ، مثلَ مدينَتِكَ هـٰذِهِ ، إِلاَّ أَنَّهُ يُسمِّجُها في نظري أَن لا ضيعَةَ لي فيها ، فضحِكَ ، وقالَ : نَزيدُها حسناً في عينَيك بثلاثِ ضياعٍ ، قد أَقْطَعْتُكَهَا ، فدعا لهُ ، وبَينا هوَ يكلِّمُهُ . . بدرَتِ ٱلرِّقاعُ من كُمِّهِ ، وانتثرَت علىٰ الأَرضِ ، فقالَ لهُ المنصورُ : ما هـٰذِهِ؟ فسكتَ ، فقالَ : بحقِّي إِلاَّ أخبرتَني ، فشرحَ لهُ الأَمرَ ، فضحكَ ، وقالَ : أَبيتَ يا ٱبنَ معلِّمِ الخيرِ إِلاَّ كرماً وجوداً ، ثمَّ أَخذَها ، وتصفَّحَ ما فيها ، ووقَّعَ عَليها كلِّها بِما طَلَبَ أَصحابُها .

ومنهُ تَعْرِفُ الفرقَ ما بينَ بني أُميَّةَ وبني العبَّاسِ ، فالأَولُ :

يستزيدُ عروةَ في الشفاعاتِ ، والثاني : يستقصِرُ ٱبنَ عمِّهِ عَنها ، إلا أَن يقالَ : إنَّ هـٰذا قد أَبرمَ وأَضجَرَ ، بخلافِ الأَوَّلِ .

جعفر بن يحيى يزوج بنت الرشيد من غير علمه . . فيجيزه

أَمَّا شفاعَةُ جعفرِ بنِ يحيىٰ إِلىٰ الرشيدِ في عبدِ الملكِ بنِ صالِحِ . . فشيءٌ يدفَعُهُ العقلُ ، لولا ما تواتَرَ مِنَ ٱلنقلِ[1] .

---

(١) القصَّةُ التي نوَّهَ الشيخُ إليها طويلَةٌ ، وهيَ باختصارٍ كما في « المستطرف » (٢/ ٣٣٢) : أَنَّ عبدَ الملكِ بنَ صالحٍ قَدِمَ علىٰ مجلسٍ فيهِ جعفرُ بنُ يحيىٰ ، فقالَ لهُ جعفرٌ : جُعِلْتُ فداءَكَ قد علوتَ علينا وتفضَّلتَ ، فهل مِن حاجةٍ تبلُغُها مقدرَتي ، وتحيط بها نعمَتي ، فأَقضيَها لكَ ؟

قالَ : بلىٰ ، إنَّ في قلبِ أَميرِ المؤمنينَ الرشيدِ بعضَ تغيُّرٍ عليَّ ، فتسأَلُهُ الرِّضا عَنِّي .

قالَ جعفرٌ : قَدْ رضيَ عنكَ أَميرُ المؤمنينَ .

قالَ : وعليَّ ، عَشَرَةُ آلافِ دينارٍ .

قالَ جعفرٌ : هيَ حاضِرَةٌ لكَ مِن مالي ، ولكَ مِن مالِ أَميرِ المؤمنينَ مثلُها .

قالَ : أُريدُ أَن أَشُدَّ ظهرَ ٱبني بمصاهرَةٍ مِنْ أَميرِ المؤمنينَ .

قالَ : قد زوَّجَهُ أَميرُ المؤمنينَ بابنتِهِ الغاليَةِ .

قالَ : وأُحِبُّ أَن تَخفِقَ الأَلويةُ علىٰ رأْسِهِ .

قالَ : وقد ولاَّهُ أَميرُ المؤمنينَ (مصرَ) .

فانصرفَ عبدُ الملكِ بنُ صالحٍ ، وكانَ مِمَّنْ حضرَ ذلكَ المجلسَ إبراهيمُ بنُ المهديِّ قالَ : فبقيتُ متعجِّباً مِن إِقدامِ جعفرٍ علىٰ ذلكَ مِن غيرِ ٱستئذانٍ ، وقلتُ في نفسي : عَسَىٰ أَن يجيبَهُ أَميرُ المؤمنينَ إِلىٰ ما سأَلَهُ مِنَ الولايةِ والمالِ والرِّضا . . إلاَّ المصاهَرَةَ ، قالَ : فلمَّا كانَ مِنَ الغدِ . . بكَّرتُ إِلىٰ بابِ الرشيدِ ؛ لأَنظرَ ما يكونُ مِن أَمرِهم ، فدخلَ جعفرٌ ، فلم يلبَثْ أَن دُعِيَ بأَبي يوسفَ القاضي ، ثُمَّ بإِبراهيمَ بنِ عبدِ الملكِ بن صالحٍ . . . فخرجَ إِبراهيمُ وقد عُقِدَ نكاحُهُ بالغاليةِ بنتِ الرَّشيدِ ، وعُقِدَ لهُ علىٰ (مصرَ) الراياتُ ، والأَلويةُ تخفِقُ علىٰ رأْسِهِ ، وخرجَ كُلُّ مَن كانَ معَهُ في القصرِ إِلىٰ بيتِ عبدِ الملكِ بنِ =

إذلال النفس في حاجات الناس هو العز في الدنيا والآخرة

وقيلَ لشُعبَةَ : أفنيتَ مالَكَ ، وأخلقْتَ جاهَكَ في حوائِجِ الناسِ ، فقالَ : أصونُهما ليومِ فَاقَتي .

وقالَ الخابزأرزيُّ [مِنَ الكامِلِ] :

خَرِقٌ يَجُوْدُ بِمَالِهِ وَبِجَاهِهِ   وَٱلْجُوْدُ كُلُّ ٱلْجُوْدِ بَذْلُ ٱلْجَاهِ

ويروىٰ : « إِنَّ ٱلعَبْدَ يُسْأَلُ عَنْ جَاهِهِ ، كَمَا يُسْأَلُ عَنْ عُمُرِهِ فَيَقُوْلُ اللهُ لَهُ : جَعَلْتُ لَكَ جَاهاً ، فَهَلْ نَصَرْتَ بِهِ مَظْلُوْماً ، أَوْ قَمَعْتَ بِهِ ظَالِماً ، أَوْ أَغَثْتَ بِهِ مَكْرُوْباً؟ »(١) واللهُ جلَّ شأْنُهُ يقولُ : ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ [النساء : ٨٥] .

اللهم . . لا تذل عزيزاً

ودخلَ ٱبنُ السَّمَّاكِ ـ الزاهدُ المشهورُ ـ علىٰ بعضِ الرؤَساءِ يشفعُ إليهِ في رجلٍ ، فقالَ لَهُ : أتيتُكَ في حاجَةٍ ، الطالِبُ والمطلوبُ فيها شريفانِ إن قضيتَ ، ذليلانِ إن لَم تقضِ ، فٱخترْ لنفسِكَ عزَّ البذْلِ علىٰ ذُلِّ المنعِ ، وٱختَرْ لي عزَّ النُّجحِ علىٰ ذُلِّ الردِّ ، فقضىٰ حاجتَهُ ، وشفَّعَهُ فيما أَرادَ .

الرجل يزوِّر كتاباً على لسان ابن الفرات فيصححه له ويمضيه عليه

وذكرَ ٱبنُ خلِّكانَ [في « وفيَات الأعيان » ٣/٤٢٨] : أَنَّ رجلاً ٱتصلَت عطلتُهُ ، فزوَّرَ كتابَ شفاعَةٍ مِن أَبي الحَسَنِ الفراتِ إلىٰ عاملِ (مصرَ) أبي زنبورِ الماردانيِّ ، فارتابَ في أَمرِهِ ، لخروجِ الخطَابِ

= صالح . انظر القصة بتمامها في « المستطرف » (٢/ ٣٣٢) .

(١) أخرجه بنحوه عن ابن عمر رضي الله عنه الطبراني في « الصغير » (١٨) ولفظه : « إذا كان يوم القيامة دعا الله عبداً من عبيده ، فيوقف بين يديه فيسأله عن جاهه كما يسأله عن ماله » .

عَنِ المعهودِ ، فعلَّلَهُ بعُلالَةٍ[1] ، وٱحتَبَسَهُ على ضياءِ وعدٍ ، ريثَما كتبَ إِلىٰ ٱبنِ الفراتِ ، وأَنفذَ إِليهِ بعينِ الكتابِ المزوَّرِ ، فشاورَ أَصحابَهُ ، فكانَ أَجملُهم محضراً مَن أَشارَ بكشفِ خبرِهِ ؛ ليفضيَ إِلىٰ حرمانِهِ ، فلم يكُن مِنِ ٱبنِ ٱلفراتِ إِلاَّ أَن أَخذَ القلَمَ ، وأَيَّدَ الكتابَ ، وأَكَّدَ الشفاعَةَ ، فبعدَ أُمَّةٍ مِن الزمانِ دخلَ علىٰ ٱبنِ الفراتِ رجلٌ ذو هيئَةٍ مقبولَةٍ ، وبزَّةٍ فاخرَةٍ ، وأَقبلَ يَدْعو ، ويَبْكي ، ويقبِّلُ الأَرضَ ، فقالَ لَهُ ٱبنُ الفراتِ : مَن أَنتَ باركَ اللهُ فيكَ؟ ـ وكانَتْ هـٰذِهِ كلمتَهُ ـ فقالَ : صاحِبُ الكتابِ المزوَّرِ إِلىٰ أَبي زنبورٍ ، الذي صحَّحَهُ كرَمُ الوزيرِ ، وشمَلَهُ حِلمُهُ ، فضحكَ ٱبنُ الفراتِ ، وقالَ : كَم وصلَ إِليكَ منهُ؟ فقالَ : وَصَلَ إِليَّ مِن مالِهِ وممَّا قَسَّطَهُ علىٰ عمَّالِهِ وأَصحابِهِ عشرونَ أَلفِ دينارٍ ، فقالَ لَهُ ٱبنُ الفراتِ : ولا تَغِبْ عَنَّا ، فإِنَّا نعرِّضُكَ لِما يزدادُ بِهِ صلاحُ حالِكَ ، ثمَّ ٱستخدَمَهُ ، وأَكسبَهُ مالاً جزيلاً .

ومثلُها ما ذكرهُ البيهقيُّ في « المحاسِنِ » مِنَ أَنَّ رجلاً ضاقَت بهِ الحالُ ، وتعذَّرتْ عليهِ المطالِبُ ، فٱفتعَلَ كتاباً مِن يحيىٰ بنِ خالدٍ البرمكيِّ ، وشخَصَ بهِ إِلىٰ (أَذرَبيجانَ) لعبدِ اللهِ بنِ مالِكٍ الخزاعيِّ ، ولَم يعلَم ما بينَ الأَميرينِ مِن فرطِ التعادي والتحاسُدِ ، فقالَ لَهُ عبدُ اللهِ : إِنَّ كتابَكَ هـٰذا مفتَعَلٌ ، سأُزيلُ علَّتَكَ ، وأَحبِسُكَ حتَّىٰ أَستَطلِعَ الأَمرَ ، وأَتعرَّفَ بخبرِ الكتابِ ، فبعثَ إِلىٰ وكيلِهِ بـ(العراقِ) ليستفهِمَ عَنِ ٱلقصَّةِ ، فجاءَ الوكيلُ إِلىٰ يحيىٰ ، وأَنهىٰ إِليهِ الخبرَ ، فكتبَ بخطِّهِ : فلانٌ مِن أَخصِّ مَن يَليني ، وأَوْجَبِهِم وكذلك يمضي يحيى البرمكي

---

(١) أَي : أَعطاهُ الشيءَ القليلَ الذي يتعلَّلُ بهِ .

حقّاً عَلَيَّ ، وقدْ أَخبرَني صاحبُكَ بِتَشَكُّكِكَ في أَمرِهِ ، فليُنزَلْ عنكَ الشَّكُّ فديتكَ ، وليعُدْ معجّلاً بِما يشبهُكَ ، فلمَّا خرجَ الوكيلُ . قالَ يحيىٰ لأَصحابِهِ : ما تقولونَ في رجلٍ ٱفتعَلَ عليَّ كتابَ شفاعَةٍ إِلىٰ عبدِ اللهِ بنِ مالِكٍ ، وصلَ بهِ إِلىٰ (أَذربيجانَ) ؟ فقالوا جميعاً : نرىٰ أَن تفضَحَهُ ، وتعلنَ أَمرَهُ ؛ ليرتدِعَ بهِ غيرُهُ ، فقالَ : قبَّحَ اللهُ هـٰذا مِن رأيٍ ، ما أَنذَلَهُ ، هـٰذا رجلٌ ضاقَ بِهِ الرزقُ ، فوثِقَ بي ، وشخَصَ إِلىٰ (أذربيجانَ) معَ بعدِ شقَّتِها ، وصعوبَةِ طريقِها ، أَفتشيرونَ عليَّ أَن أَقطَعَ أَملَهُ؟ وأُخيِّبَ رجاءَهُ؟ وقد عرفتُم قدرَ عبدِ اللهِ ومكانَتِهِ مِن قلبِ أَميرِ المؤمنينَ ، وما بيني وبينَهُ مِنَ ٱلْعداوَةِ التي سعىٰ في إِزالتِها هـٰذا الرجلُ ، أَفتريدونَ أَن أَرُدَّ الأَمرَ بيني وبينَهُ بعدَ هـٰذا التقارُبِ ، إِلىٰ ما كانَ عليهِ مِنَ ٱلبُعدِ؟ إِنَّهُ لنكَدُ الأَبدِ .

ثمَّ أَخبرَهُم بما كَتَبَ بهِ إِلىٰ عبدِ اللهِ ، فتعجَّبوا مِن كَرَمِهِ ، وسعَةِ ٱحتمالِهِ ، ولَمَّا وردَ الكتابُ بخطِّهِ علىٰ عبدِ اللهِ . ٱستحضَرَ الرجُلَ ، وقد سُقِطَ في يدِهِ ؛ لاعتراضِ سوءِ الظَنِّ بقلبِهِ ، فقالَ : قد وردَ عليَّ كتابُ أَخي بصحَّةِ أَمرِكَ ، وسأَلني تعجيلَ صرفِكَ ، ودعا لَهُ بمئتَي أَلفِ دِرهَمٍ ، وبما يليقُ بِها مِنَ ٱلدوابِّ والخُلَعِ والآلَةِ ، فلمَّا حضرَ بابَ يحيىٰ . أَدخلَ ذلكَ برمَّتِهِ إِليهِ ، فأَمرَ لهُ يحيىٰ بمثلِهِ ، وأَثبتَهُ في خاصَّتِهِ .

نمـاذج مـن كتـب الشفاعات

وكتبَ عبدُ الحميدِ بالوصايَةِ في رَجُلٍ إِلىٰ بعضِ الرؤساءِ [كما في « وفيات الأعيان » ٣/٢٢٩] : حقُّ مُوصِلِ هـٰذا عليكَ كَحقِّهِ علَيَّ ؛ إِذ رآكَ موضعاً لأَملِهِ ، كما رآني أَهلاً لحاجَتِهِ ، وقد أَنجزتُ حاجتَهُ ، فحقِّقْ أَمَلَهُ ، والسلامُ .

وكتبَ رجلٌ إلىٰ يحيىٰ بنِ خالدٍ رقعةً يقولُ لَهُ فيها [مِنَ الطَّويلِ] :

شَفِيعِيْ إِلَيْكَ ٱللهُ لاَ شَيْءَ غَيْرُهُ   وَلَيْسَ إِلَىٰ رَدِّ ٱلشَّفِيْعِ سَبِيْلُ

فأَمَرَهُ بلزومِ البيتِ ، وكانَ يعطيهِ عندَ الصباحِ كلَّ يومٍ أَلفَ درهمٍ ، فلمَّا ٱستوفىٰ ثلاثينَ أَلفاً . . ذهبَ الرجلُ ، فقالَ خالدٌ : أَمَا واللهِ لقد عزمْتُ علىٰ إجرائِها لَهُ إلىٰ آخرِ العمرِ[1] .

وقالَ رجلٌ لجعفرِ بنِ يحيىٰ : أَمُتُّ إِليكَ بذمامِ الأَملِ ، وحسنِ الظنِّ ، وقرابةِ العلمِ ، قالَ : إِنَّ ما ذكرْتَ ليوجِبُ الحقَّ ، ويعقِدُ الفرضَ ، ورَحِمُ ٱلْعِلمِ أَمَسُّ قرابةً ، وأَلطَفُ ضُؤْرَةً[2] .

وٱستأذنَ بعضُهم علىٰ الفضلِ بنِ يحيىٰ ، وزعمَ أَنَّ له مآتةً إلىٰ الأَميرِ ، ولمَّا سأَلَهُ عَن حاجتِهِ . . قالَ : قد أَعربَتْ عَنها رثَاثَةُ الهيئَةِ ، وضعفُ الطاقَةِ ، قالَ الفضلُ : فما الذي تمُتُّ بهِ؟ قالَ : ولادَةٌ تقربُ مِن ولادتِكَ ، وجوارٌ يدنو مِن جوارِكَ ، وٱسمٌ مشتقٌّ من ٱسمك ، قالَ : أَمَّا الجوارُ . . فقد يكونُ ، والأَسماءُ تتَّفِقُ ، فما علمُكَ بالولادَةِ؟ قالَ : أَخبرتني أُمِّي : بأَنَّها لَمَّا وضعَتني . . قالوا : ولدَ ليحيىٰ غلامٌ سمَّوْهُ الفضلَ ، فصغَّرَتني ؛ إِعظاماً لاسمِكَ ، وسمَّتْني فُضيلاً ، قالَ : كَم أَتىٰ عليكَ؟ قالَ : خمسٌ وثلاثونَ سنَةً ، قالَ : صدقْتَ ، وأَعطاهُ لِكُلِّ سنَةٍ أَلفاً[3] .

---

(١) «المستطرف» (١/ ٢٨١) .

(٢) الضُّؤْرَة : الرجل الصغير الشأن الحقير الذليل الفقير .

(٣) من الدراهم ، انظر : «وفيات الأعيان» (٤/ ٣٢) .

وقالَ بعضُهم يمدحُ مَعْناً [مِنَ الطَّويلِ] :

وَمِنْ هَوَاكَ شَفِيْعٌ لِيْ يُغَفِّلُنِيْ   وَإِنْ نَأَيْتُ وَإِنْ قَلَّتْ بِيَ ٱلذِّكَرُ

وقالَ مروانُ بنُ أَبي حفصةَ يمدحُ المهديَّ [في « ديوانِهِ » ٦٦ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا لِيْ إِلَىٰ ٱلْمَهْدِيِّ لَوْ كُنْتُ مُذْنِباً   سِوَىٰ حِلْمِهِ ٱلضَّافِيْ عَلَىٰ ٱلنَّاسِ شَافِعُ

وهوَ مِن قصيدَةٍ لهُ شاعرَةٍ يقولُ فيها [في « ديوانِهِ » ٦٦] :

وَلاَ هُوَ عِنْدَ ٱلسُّخْطِ مِنْهُ وَلاَ ٱلرِّضَا   بِغَيْرِ ٱلَّذِيْ يَرْضَىٰ بِهِ ٱللهُ قَانِعُ
تَغُضُّ لَهُ ٱلنَّاسُ ٱلْعُيُوْنَ وَطَرْفُهُ   عَلَىٰ غَيْرِهِ مِنْ خَشْيَةِ ٱللهِ خَاشِعُ

وقد أَغارَ علىٰ الثاني ٱبنُ أَيوبَ التميميُّ ، فقالَ يمدحُ الفضلَ بنَ سهلٍ [في « وفيات الأعيان » ٤/ ٤٣ مِنَ الطَّويلِ] :

تَرَىٰ عُظَمَاءَ ٱلنَّاسِ لِلْفَضْلِ خُشَّعاً   إِذَا مَا بَدَا وَٱلْفَضْلُ للهِ خَاشِعُ
تَوَاضَعَ لَمَّا زَادَهُ ٱللهُ رِفْعَةً   وَكُلُّ جَلِيْلٍ عِنْدَهُ مُتَوَاضِعُ

ومعنىٰ البيتِ المشروحِ متكرِّرٌ عندَ الناظِمِ منهُ قولُهُ [في « العُكبَرِيِّ » ٤/ ١٤٢ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمِثْلُكَ مَنْ كَانَ ٱلْوَسِيْطَ فُؤَادُهُ   فَكَلَّمَهُ عَنِّيْ وَلَمْ أَتَكَلَّمِ

وقالَ جحظَةُ [في « ديوانِهِ » ١٤٥ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَالِيَ حَقٌّ وَاجِبٌ غَيْرَ أَنَّنِيْ   إِلَيْكُمْ بِكِمْ فِيْ حَاجَتِيْ أَتَوَسَّلُ

وقالَ آخرُ [في « صبح الأعشىٰ » ٩/ ١٤٠ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَوْ أَنَّ لِيْ فِيْ حَاجَتِيْ أَلْفَ شَافِعٍ   لَمَا كَانَ فِيْهِمْ مِثْلُ جُوْدِكَ شَافِعُ

وقالَ أَبو الحسنِ السُّلاميُّ [مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا زُرْتَهُ لَمْ تَلْقَ مِنْ دُوْنِ بَابِهِ   حِجَاباً وَلَمْ تَدْخُلْ عَلَيْهِ بِشَافِعِ
كَمَاءِ ٱلْفُرَاتِ ٱلْجَمِّ أَعْرَضَ وِرْدُهُ   لِكُلِّ أُنَاسٍ فَهْوَ سَهْلُ ٱلشَّرَائِعِ
تَــرَاهُ إِذَا مَــا جِئْتَــهُ مُتَهَلِّــلاً   تَهَلُّلَ أَبْكَارِ ٱلْغُيُوْثِ ٱلْهَوَامِعِ

* * *

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبّي في « العُكبَريِّ » ٢/ ٢٤٥ مِنَ الطَّويلِ] :

فَصِيحٌ مَتَىٰ يَنْطِقْ تَجِدْ كُلَّ لَفْظَةٍ أُصُـولَ ٱلْبَـرَاعَـاتِ ٱلَّتِـيْ تَتفَـرَّعُ

مبحث بلاغي حول الفصاحة

يصفُ قلمَ ممدوحِهِ ، ويقولُ : إنَّ كلَّ لفظَةٍ مِن ألفاظِهِ أَصلٌ مِن أُصولِ البراعَةِ ، والبراعَةُ هِيَ كمالُ الفصاحَةِ .

وفصاحَةُ المفردِ : سلامَتُهُ مِنَ التنافُرِ ، والغرابَةِ ، والكراهَةِ ، والخروجِ عن القياسِ .

وفصاحَةُ المركَّبِ ـ بعدَ سلامَةِ مفردِهِ ممَّا ذُكِرَ ـ : أَنْ لا يكونَ مكرّراً ، ولا معقَّداً ، ولا متنافِراً ، ولا ضعيفَ التأْليفِ ، ولا متتابعَ الإضافاتِ ، كما هوَ مقرَّرٌ في علمِ المعاني .

الافتخار بالقلم وحسن البيان

وحسبُ القلمِ شرفاً أَنَّ اللهَ نوَّهَ بذكرِهِ ، وٱمتنَّ بتعليمِهِ في قولِهِ : ﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۞ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴾ [العلق : ٣ـ٤] ، وأَقسمَ بهِ فقالَ : ﴿ نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ [القلم : ١] ، وهـٰذا رسولُ اللهِ ﷺ ما رأيناهُ يفتخِرُ بعلمٍ قطُّ سوىٰ حسنِ البيانِ ، فقالَ : « أُوْتِيتُ جَوَامِعَ ٱلْكَلِمِ »[١] . وقالَ : « أَنَا أَفْصَحُ ٱلْعَرَبِ ، بَيْدَ أَنِّي مِنْ قريشٍ ، وٱسْتُرْضِعْتُ فِي بَنِيْ سَعْدٍ »[٢] .

(١) أخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه البخاري (٦٩٩٨) بلفظ : « بعثت بجوامع الكلم » ، ومسلم (٥٢٣) في المساجد ، والترمذي (١٥٥٣) ، والنسائي (٦/ ٣ـ٤) .

(٢) أورده في « كشف الخفاء » (٦٠٩) وقال عنه السيوطي في « اللآلىء » معناه صحيح ، ولكن لا أصل له ، وأطال فيه الكلام وأجاد .

وقد سبقَ في غيرِ هٰذا المجلسِ أنَّ (بيدَ) هُنا بمعنىٰ مِن أجلِ ؛ لأنَّ الاستدراكَ لا يحلو ما لم يشتَمِلْ علىٰ رونقٍ وحسنٍ ، ولأنَّ الأَصلَ في الاستثناءِ الاتصالُ ، فإذا لم يلِ أَداتَهُ إلاَّ صفَةُ مدحٍ . . تحوَّلَ إلىٰ الانقطاعِ ، فكأَنَّهُ لم يجِدْ صفَةً تناسِبُ الاستثناءَ ، فاضطَرَّ إلىٰ ما لا يناسِبُهُ ، واستشهادُ بعضِ أَهلِ المعاني لاستحسانِ ما كانَ مِن قَبيلِ ذلكَ بقولِ النابغَةِ الجعديِّ [في « ديوانهِ » ١٨٨ مِنَ الطَّويلِ] :

فَتىً كَمُلَتْ أَخلاَقُهُ غَيْرَ أَنَّهُ جَوَادٌ فَمَا يُبْقِيْ مِنَ ٱلْمَالِ بَاقِيَا

إنَّما يتمُّ لَو سكتَ علىٰ قولِهِ : (جوادٌ) أَمَّا وقد عقَّبَهُ بقولِهِ : (فَمَا يُبْقي مِنَ ٱلْمَالِ بَاقِيَا) . . فقد خرجَ الاستثناءُ فيهِ عَنِ الانقطاعِ ، وبقيَ علىٰ ما كانَ عليهِ مِنَ ٱلاتصالِ ؛ لأَنَّ إتلافَ المالِ بأَسرهِ في الجودِ ممَّا يحتملُ الذمَّ ، وهٰذا شيءٌ واضحٌ لا غبارَ عليهِ ، ففي تمسُّكِ الكثيرِ بهِ مِن العلماءِ موضعٌ فسيحٌ للعَجَبِ .

وقد قالَ كُشاجِمُ [في « ديوانهِ » ٢٤٦ مِن مجزوءِ الكامل] :

مَا فِيْهِمُ عَيْبٌ سِوَىٰ ٱلْـ إِفْرَاطِ فِيْ ٱلْجُوْدِ فَقَطْ

وقالَ أَبو هفَّانَ [مِنَ المنسرحِ] :

عَيْبُ بَنِيْ مَخْلَدٍ سَمَاحَتُهُمْ وَأَنَّهُمْ يُتْلِفُوْنَ مَا وَجَدُوْا

الشعراء وتقديم القلم على السيف

ومِمَّا أَجمعَ علىٰ تقديمِهِ أَهلُ العلمِ في مدحِ القَلَمِ قولُ أَبي تمَّامٍ [في « ديوانهِ » ٢/٥٧ مِنَ الطَّويلِ] :

لَكَ ٱلْقَلَمُ ٱلأَعْلَىٰ ٱلَّذِيْ بِشَبَاتِهِ تُصَابُ مِنَ ٱلأَمْرِ ٱلْكُلَىٰ وَٱلْمَفَاصِلُ[1]

---

(١) شباتُهُ : حدُّهُ ، أي رأسُ القلمِ ، شبَّهَ حدَّ قلمهِ بحدِّ السيفِ وجعلهُ يفتكُ بالأمرِ المعضلِ فيقتلهُ ويذلِّلُ صعابَهُ وينالُ منه ما لا ينالُ الحسامُ .

لَـهُ ٱلْخَلَـوَاتُ ٱلـلاَّءِ لَـوْلاَ نَجِيُّهَـا   لَمَا ٱحْتَفَلَتْ لِلْمُلْكِ تِلْكَ ٱلْمَحَافِلُ[1]
لُعَـابُ ٱلأَفَـاعِـيْ ٱلْقَـاتِـلاَتِ لُعَـابُـهُ   وَأَرْيُ ٱلْجَنَىٰ ٱشْتَارَتْهُ أَيْدٍ عَوَاسِلُ[2]
لَـهُ رِيْقَـةٌ طَـلٌّ وَلَٰكِـنَّ وَقْعَهَـا   بِآثَارِهِ فِيْ ٱلشَّرْقِ وَٱلْغَرْبِ وَابِلُ[3]
فَصِيْـحٌ إِذَا ٱسْتَنْطَقْتَـهُ وَهْـوَ رَاكِـبٌ   وَأَعْجَمُ إِنْ خَاطَبْتَهُ وَهْوَ رَاجِلُ[4]

وبيتُ الناظِمِ ناظرٌ إلىٰ القسيمِ الأولِ مِن الأخيرِ .

وقالَ ٱبنُ الروميِّ [في « ديوانهِ » ٢/ ٥٠٨ مِنَ البسيطِ] :

فِـيْ كَفِّـهِ قَلَـمٌ نَـاهِيْـكَ مِـنْ قَلَـمٍ   نُبْلاً ، وَنَاهِيْكَ مِنْ كَفٍّ بِهِ ٱتَّشَحَا
يَمْحُوْ وَيَكْتُبُ أَرْزَاقَ ٱلْعِبَادِ بِهِ   فَمَا ٱلْمَقَادِيْرُ إِلاَّ مَا مَحَا وَوَحَىٰ

وقالَ [في « ديوانهِ » ٦/ ٢٢٩٤ مِنَ البسيطِ] :

إِنْ يَخْدُمِ ٱلْقَلَمَ ٱلسَّيْفُ ٱلَّذِيْ خَضَعَتْ   لَهُ ٱلرِّقَابُ وَدَانَتْ خَوْفَهُ ٱلأُمَمُ
فَٱلْمَوْتُ ـ وَهْوَ ٱلَّذِيْ لاَ شَيْءَ يَعْدِلُهُ ـ   مَا زَالَ يَتْبَعُ مَا يَجْرِيْ بِهِ ٱلْقَلَمُ
فَقَدْ قَضَىٰ ٱللهُ لِلأَقْلاَمِ مُذْ بُرِيَتْ   أَنَّ ٱلسُّيُوْفَ لَهَا مذْ أُرْهِفَتْ خَدَمُ

---

(١) **نجيُّها** : حديثها السريُّ . **ٱحتفلت** : أَحسنت القيامَ بالأمورِ . **المحافلُ** : المجالسُ . **يقولُ** : لولا سرُّ هذهِ الأقلامِ لما ٱنتظمَ الملكُ .

(٢) **لعابُ الأفاعي** : سمها . **لعابُه** : ريقَهُ ؛ أي : مدادهُ . **الأَريُ** : العسلُ . **الجنىٰ** : كل ما يجتنىٰ ويقطف . **ٱشتارتهُ** : جنتهُ . **عواسلُ** : التي تجني العسلَ . **يقول** : إن مداد قلمهِ في تهديدِ الأعداءِ قاتلٌ كسمِّ الأفاعي ، وفي التلطُّفِ للإخوانِ كالعسلِ .

(٣) **الطلُّ** : الندىٰ أَو المطرُ الخفيفُ . **يقولُ** : إنَّ ما يجري من ريق هذا القلمِ على القرطاسِ تافهٌ يحكي الندى في قلَّتِهِ ولكنَّهُ يشبهُ المطرَ الغزيرَ بقوَّتِهِ إذا نظرتَ إلى خيرهِ ووقعِ آثارهِ في الشرقِ والغربِ .

(٤) **راكبٌ** : أي راكبٌ على أصابعِ الكاتبِ . **الأعجمُ** : ضدُّ الفصيحِ .

وقالَ [في « ديوانه » ١/ ١٧٣ـ١٧٤ مِنَ المتقاربِ] :

لَعَمْرُكَ مَا ٱلسَّيْفُ سَيْفُ ٱلْكَمِيِّ   بِـأَخْـوَفَ مِـنْ قَلَـمِ ٱلْكَـاتِـبِ
لَـهُ شَـاهِـدٌ إِنْ تَـأَمَّلْتَـهُ   ظَهَـرْتَ عَلَـىٰ سِرِّهِ ٱلْغَـائِـبِ
أَدَاةُ ٱلْمَنِيَّـةِ فِـي جَـانِبَيْـهِ   فَمِـنْ مِثْلِـهِ رَهْبَـةُ ٱلـرَّاهِـبِ
أَلَـمْ تَـرَ فِـيْ صَدْرِهِ كَـٱلسِّنَـانْ   وَفِيْ ٱلرِّدْفِ كَٱلْمُرْهَفِ ٱلْقَاضِبِ ؟

وقالَ [مِنَ البسيطِ] :

إِذَا جَرَىٰ ٱلأَرْقَشُ ٱلنَّضْنَاضُ فِيْ يَدِهِ   جَرَىٰ شُجَاعٌ يَمُجُّ ٱلسُّمَّ وَٱلْعَسَلاَ(١)
خَـطٌّ إِذَا قَـابَلَتْـهُ ٱلْعَيْـنُ قَـابَلَهَـا   رَوْضُ ٱلرَّبِيْعِ إِذَا مَا طَلَّ أَوْ وَبَلاَ

وقالَ ٱبنُ الدهَّانِ [في « ديوانهِ » ٥١ـ٥٢ مِنَ الكاملِ] :

تُرْدِيْ ٱلْكَتَائِبَ كُتْبُهُ فَإِذَا ٱنْبَرَتْ   لَمْ تَدْرِ أَنْفَذَ أَسْطُراً أَمْ عَسْكَرَا
لَمْ يَحْسُنِ ٱلأَتْرَابُ فَوْقَ سُطُوْرِهَا   إِلاَّ لأَنَّ ٱلْجَيْـشَ يَعْقِـدُ عِثْيَـرَا(٢)

والأوّلُ ناظِرٌ إِلىٰ قولِ أَبي تمَّامٍ [في « ديوانهِ » ٢/ ٤٨ مِنَ الطَّويلِ] :

فَمَـا إِنْ تُبَـالِـيْ إِذْ يُجَهِّـزُ رَأْيَـهُ   إِلَىٰ نَاكِثٍ أَنْ لاَ يُجَهِّزَ جَحْفَلاَ(٣)

والثاني من قولِ الطغرائيِّ [في « ديوانهِ » ٩٣ـ٩٤ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا مَا دَجَا لَيْلُ ٱلْعَجَاجَةِ لَمْ يَزَلْ   بِأَيْدِيْهِمُ جَمْرٌ إِلَىٰ ٱلْهِنْدِ مَنْسُوْبُ
عَلَيْهَا سُطُوْرُ ٱلضَّرْبِ يُعْجِمُهَا ٱلْقَنَا   صَحَائِفُ يَغْشَاهَا مِنَ ٱلنَّقْعِ تَتْرِيْبُ

---

(١) يقال حية نضناضةٌ : لا تستقر في مكان ، أو إذا نهشت قتلت من ساعتها ، أو التي أخرجت لسانها تنضنِضُهُ أي تحركه .
(٢) العِثْيَرُ : الغبارُ .
(٣) الناكثُ : ناقضُ العهدِ ، أَي إِنَّ رأيَ الخليفةِ يغني عن تجهيزِ الجيوشِ لحسنِ سياستهِ .

وقالَ آخرُ [الأبيات للبستي وهي في « طبقات ابن السبكي » ٨/ ٢٦٥ مِنَ البسيطِ] :

قَوْمٌ إِذَا أَخَذُوْا ٱلأَقْلاَمَ مِنْ قَصَبٍ ثُمَّ ٱسْتَمَدُّوْا بِهَا مَاءَ ٱلْمَنِيَّاتِ
نَالُوْا بِهَا مِنْ أَعَادِيْهِمْ وَإِنْ بَعُدُوْا مَا لَمْ يَنَالُوْا بِحَدِّ ٱلْمَشْرَفِيَّاتِ(١)

ورأَيتُ ٱبنَ السبكيِّ(٢) . عزا هـٰذين البيتين للناظِمِ ، وما رأيتُها في « ديوانِهِ » .

وقالَ المعريُّ [في « سقطِ الزندِ » ١٦٤ مِنَ الكاملِ] :

يَا مَنْ لَهُ قَلَمٌ حَكَىٰ فِيْ فِعْلِهِ أَيْمَ ٱلْغَضَىٰ لَوْلاَ سَوَادُ لُعَابِهِ(٣)
عُرِفَتْ جُدُوْدُكَ إِذْ نَطَقْتَ وَرُبَّمَا لَغَطَ ٱلْقَطَا فَأَبَانَ عَنْ أَنْسَابِهِ(٤)
وَهَزَزْتَ أَعْطَافَ ٱلْمُلُوْكِ بِمَنْطِقٍ رَدَّ ٱلْمُسِنَّ إِلَىٰ ٱقْتِبَالِ شَبَابِهِ

وقالَ البُستيُّ [في « قِرى الضيف » ٤/ ٣٥٤ مِنَ البسيطِ] :

إِنْ هَزَّ أَقْلاَمَهُ يَوْماً لِيُعْلِمَهَا أَنْسَاكَ كُلَّ كَمِيٍّ هَزَّ عَامِلَهُ
وَإِنْ أَقَرَّ عَلَىٰ رَقٍّ أَنَامِلَهُ أَقَرَّ بِٱلرِّقِّ كُتَّابُ ٱلأَنَامِ لَهُ

وقالَ المؤيَّدُ الأَلوسيُّ [في « وفيات الأعيان » ٥/ ٣٤٧ مِنَ الكاملِ] :

وَمُثَقَّفٍ يُغْنِيْ وَيُفْنِيْ دَائِماً فِيْ حَالَيِ ٱلْمِيْعَادِ وَٱلإِيْعَادِ
قَلَمٌ يَفُلُّ ٱلْجَيْشَ وَهْوَ عَرَمْرَمٌ وَٱلْبِيْضُ مَا سُلَّتْ مِنَ ٱلأَغْمَادِ
وَهَبَتْ لَهُ ٱلآجَامُ حِيْنَ نَشَا بِهَا كَرَمَ ٱلسُّيُوْلِ وَهَيْبَةَ ٱلآسَادِ

---

(١) وجاء أيضاً برواية : لا ينالُ .
(٢) الأبيات في نسختنا التي اعتمدناها في التحقيق (٨/ ٢٦٥) .
(٣) الأَيمُ : الحيَّةُ .
(٤) اللَّغَط : الصوت والجلبة ، وقيل : من كثر لغطه كثر غلطه .

وهو معنىً بديعٌ ، قالَ ٱبنُ خلِّكانَ [في « وفيَاتِ الأعيانِ » ٥/٣٤٧] : إِنَّهُ لم يُقَلْ أحسنُ منهُ في القلَمِ .

ومن الشعراء من يفضل السيف على القلم

وفي عكسِ ذلكَ مِن تفضيلِ السيفِ علىٰ القلمِ ، يقولُ أبو مسلمٍ متمثِّلاً وقد جاءَهُ كتابُ مروانَ بنِ محمَّدٍ [مِنَ الطَّويلِ] :

مَحَا ٱلسَّيْفُ أَسْطَارَ ٱلْبَلاَغَةِ وَٱنْتَحَىٰ   عَلَيْكَ لُيُوثُ ٱلْغَابِ مِنْ كُلِّ جَانِبِ

وقالَ البُحتريُّ [في « ديوانهِ » ٣/ ٢٠٤٤ مِنَ البسيطِ] :

تَعْنُـوْ لَـهُ وُزَرَاءُ ٱلْمُلْـكِ رَاغِبَـةً   وَعَادَةُ ٱلسَّيْفِ أَنْ يَسْتَخْدِمَ ٱلْقَلَمَا[1]

وقالَ [في « ديوانهِ » ١/ ٤٦٧ مِنَ الطَّويلِ] :

فَـلاَ غَـرَّنِيْ مِـنْ بَعْـدِهِ عِـزُّ كَـاتِـبٍ   إِذَا هُوَ لَمْ يَأْخُذْ بِحُجْزَةِ رَامِحِ[2]

وقالَ الناظِمُ [في « العُكبَرِيِّ » ٤/ ١٥٩ مِنَ البسيطِ] :

حَتَّىٰ رَجَعْتُ وَأَقْلاَمِي قَوَائِلُ لِيْ:   ٱلْمَجْدُ لِلسَّيْفِ لَيْسَ ٱلْمَجْدُ لِلْقَلَمِ

وقالَ [في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ٣٠٢ مِنَ الوافرِ] :

وَهَلْ تُغْنِيْ ٱلرَّسَائِلُ فِيْ عَدُوٍّ   إِذَا مَا لَـمْ يَكُـنَّ ظُباً رِقَـاقَـا ؟

وقالَ [في « العُكبَرِيِّ » ٣/ ٣٥٢ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلاَ كُتْـبَ إِلاَّ ٱلْمَشْـرَفِيَّـةُ عِنْـدَهُ   وَلاَ رُسُلٌ إِلاَّ ٱلْخَمِيسُ ٱلْعَرَمْرَمُ

وقالَ [في « العُكبَرِيِّ » ٣/ ٣٦ مِنَ البسيطِ] :

تَتْلُوْ أَسِنَّتُهُ ٱلْكُتْبَ ٱلَّتِيْ نَفَذَتْ   وَيَجْعَلُ ٱلْخَيْلَ أَبْدَالاً مِنَ ٱلرُّسُلِ

---

(١) تعنو : تخضعُ وتذلُّ ، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ [طه : ١١١] .

(٢) الحُجزةُ : معقدُ الإزارِ . الرامحُ : صاحبُ الرمحِ .

ويحكىٰ [في « وفيات الأعيان » ٧/٧] : أَنَّ ملكَ الإفرنْجِ كتبَ إلىٰ الأَميرِ يعقوبَ بنِ يوسفَ بنِ عبدِ المؤمنِ صاحبِ (المغربِ) يتهدَّدُهُ ، فكتبَ يعقوبُ إليهِ معَ رسولِهِ : ٱرجعْ إليهم فلنأتينَّهم بجنودٍ لا قِبَلَ لَهُمْ بها ، وَلَنُخرِجَنَّهُم مِنها أَذِلَّةً وهُم صاغرونَ ، ٱلْجوابُ مَا تَرىٰ لا ما تسمع ، ثم تجهز وعبر (الأندلس) ودخلَ بلادَ الإفرنجِ فأَثخنَ فيهِم ، حتَّىٰ كادَ يستأصِلَهم ، ولَم يسمَع أَهلُ (الأندلسِ) بكسرة فيهِم مثلِها ، وكانَ ذلكَ سنةَ (٥٩٥هـ)[١] .

وقالَ المعريُّ [في « سقطِ الزندِ » ١١٠ مِنَ البسيطِ] :

دَع ٱلْيَـرَاعَ لِقَـوْمٍ يَفْخَـرُوْنَ بِـهِ وَبِٱلطِّوَالِ ٱلرُّدَيْنِيَّاتِ فَٱفْتَخِرِ
فَهُنَّ أَقْلاَمُكَ ٱللَّاتِيْ إِذَا كَتَبَتْ سَطْراً أَتَتْ بِمِدَادٍ مِنْ دَمٍ هَدَرِ

وقالَ الناظِمُ فيما يشبهُ الطَرَفَ الأَوَّلَ [في « العُكبَرِيِّ » ٢/١٦٦ مِنَ الكاملِ] :

يَـا مَـنْ إِذَا وَرَدَ ٱلْبِـلاَدَ كِتَـابُـهُ قَبْلَ ٱلْجُيُوْشِ ثَنَىٰ ٱلْجُيُوْشَ تَحَيُّرَا

وقالَ [في « العُكبَرِيِّ » ٢/١٦٦ مِنَ الكاملِ] :

يَتَكَسَّبُ ٱلْقَصَبُ ٱلضَّعِيفُ بِخَطِّهِ شَرَفاً عَلَىٰ صُمِّ ٱلرِّمَاحِ وَمَفْخَرَا

وقالَ [في « العُكبَرِيِّ » ٣/٢٥٦ مِنَ الكاملِ] :

كَلِمَـاتُـهُ قُضُـبٌ وَهُـنَّ فَـوَاصِـلٌ كُلُّ ٱلضَّرَائِبِ تَحْتَهُنَّ مَفَاصِلُ

والمفاخرَةُ بينَ السيفِ والقلَمِ تطولُ، وقد أُلِّفَتْ لَها الرسائِلُ الضافيَةُ الذيولِ.

---

(١) ولكن في « وفيات الأعيان » (٧/٧) كان ذلك سنة : (٥٩٢هـ) .

الصواب التفصيل في المسألة فالسيف في محله أفضل من القلم وكذلك العكس

والصوابُ التفصيلُ : فعندَ القوَّةِ والنفوذِ.. فالسيوفُ هيَ الخدَمُ ، وأمَّا عندَ الضعفِ والعجزِ.. فلا خُفَّ لِلأقلامِ وَلا قَدَمَ ، وفي قريبٍ من ذلكَ يقولُ الناظِمِ [في « العُكبَريّ » ٤/ ٩٨ مِنَ الخفيفِ] :

وَكَفَتْكَ ٱلصَّفَائِحُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ قَدْ كَفَتْكَ ٱلصَّفَائِحَ ٱلأَقْلاَمُ(١)

وقالَ في المدحِ بالمفخَرَتَينِ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٣١٠ مِنَ الطَّويلِ] :

ضَـرُوْبٌ بِـأَطْـرَافِ ٱلسُّيُـوْفِ بَنَـانُـهُ لَعُوْبٌ بِأَطْرَافِ ٱلْكَلاَمِ ٱلْمُشَقَّقِ(٢)

وقالَ [في « العُكبَريّ » ٤/ ١١٢ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا صُلْتُ.. لَمْ أَتْرُكْ مَصَالاً لِصَائِلٍ وَإِنْ قُلْتُ.. لَمْ أَتْرُكْ مَقَالاً لِعَالِمِ

وقالَ [في « العُكبَريّ » ٣/ ٣٦٩ مِنَ البسيطِ] :

اَلْخَيْـلُ وَٱللَّيْـلُ وَٱلْبَيْـدَاءُ تَعْـرِفُنِـيْ وَٱلضَّرْبُ وَٱلطَّعْنُ وَٱلْقِرْطَاسُ وَٱلْقَلَمُ(٣)

وتعالموا بعدَ الحربِ العظمىٰ بحديثٍ أَعجبَني ، وإن لَم أَكُن علىٰ يقينٍ مِن صحَّتِهِ ، وهوَ : أَنَّ أَحدَ قوَّادِ الإنكليزِ زارَ بعضَ مدارسِ المستعمراتِ ، فألقىٰ الأَسئِلَةَ علىٰ التلاميذِ عَن شأنِ القلمِ والسيفِ ، فأَجابوهُ بِما هوَ معروفٌ ومشهورٌ .

فقالَ أَحدُهم: أَمَّا لَو سأَلني القائِدُ.. لسمعَ مِنِّي غيرَ ما قالوا، قالَ: وما هوَ؟

---

(١) الصفائِحُ : السيوفُ .
(٢) الكلامُ المشقَّقُ : العويصُ الغامضُ الذي شُقَّ بعضُهُ من بعضٍ .
(٣) القرطاسُ : الكتابُ فيهِ الكتابةُ . وقد ورد البيت بلفظ : والسيفُ والرمحُ وَالقِرْطَاسُ وَالقَلَمُ ، والله أعلم بالصواب .

قالَ : أَمَّا سعدُ زغلولٍ : فلَمَّا لَم يكُن عندَهُ غيرُ القلمِ . . شَرَّدْتُمُوهُ كلَّ مشرَّدٍ ، وطردْتُمُوهُ كلَّ مُطَرَّدٍ ، وأَمَّا مصطفىٰ كمالٌ : فإِنَّهُ لمَّا كانَ عندَهُ السيفُ . . عمدَ إِلىٰ المعاهدَةِ التي أَبرَمَتْها دولتُكُم معَ خمسٍ وعشرينَ دولةً سِواها ، فداسَها بنعالِهِ ، ولم ينتَطِحْ في ذلكَ عنزانِ ، فأَمرَ بإِخراجِهِ مِنَ ٱلمدرسَةِ ، وقالَ : إِنَّهُ مِسْعَرُ حربٍ .

وكلُّ ما سبقَ مِنَ ٱلْمفاضَلَةِ بينَ الأَداتينِ إِنَّما هوَ بالنسبَةِ لمجرَّدِ النفوذِ والتشرُّفِ ، فأَمَّا إِذا نظَرنا إِلىٰ ما يتبَعُ القلَمَ مِن موادِّ العِلمِ . . ٱنقطعَتِ ٱلنسبَةُ ، وٱتضحَ الفرقُ .

ويعجبُني قولُ التهاميِّ [في « قرى الضيف » ٥/٥٣ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَنْ فَاتَهُ نَيْلُ ٱلْعُلاَ بِعُلُوْمِهِ وَأَقْـلاَمِـهِ فَلْيَبْغِهَـا بِحُسَـامِـهِ
فَمَوْتُ ٱلْفَتَىٰ فِيْ ٱلْعِزِّ مِثْلُ حَيَاتِهِ وَعِيْشَتُهُ فِيْ ٱلذُّلِّ مِثْلُ حِمَامِهِ

الإنسان مخبوء خلف لسانه

وحدُّ البلاغَةِ كما قالَ الإمامُ الرازيُّ [في « المستطرف » ١/٩٥] : أَن يبلغَ الرجلُ كُنْهَ ما في خاطرِهِ بأَفصَحِ عبارَةٍ .

وقالَ يحيىٰ بنُ خالِدٍ [في « المستطرف » ١/٩٦] : ما رأَيتُ رجلاً إِلاَّ هِبتُهُ حتَّىٰ يتكلَّمَ ، فإِن كانَ فصيحاً . . عظُمَ في صدْري ، وإِلاَّ . . سقطَ مِن عَيني .

المديح بالبلاغة

ولا يزالُ الناظِمُ يمدَحُ بالبلاغَةِ ، ويُثني بالفصاحَةِ واللَّسَنِ ، كَما في قولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٤/١٠٠ مِنَ الخفيفِ] :

قُـلْ فَكَـمْ مِـنْ جَـوَاهِـرٍ بِنِظَـامٍ وَدُّهَـا أَنَّهَـا بِفِيْـكَ كَـلاَمُ

وقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٤/ ٢٢٧ـ٢٢٨ مِنَ البسيطِ] :

مَا شَيَّدَ ٱللهُ مِنْ مَجْدٍ لِسَالِفِهِمْ إِلاَّ وَنَحْنُ نَرَاهُ فِيْهِمُ ٱلآنَا

إِنْ كُوْتِبُوْا أَوْ لُقُوا أَوْ حُوْرِبُوْا وُجِدُوْا فِيْ ٱلْخَطِّ وَٱللَّفْظِ وَٱلْهَيْجَاءِ فُرْسَانَا(١)

كَأَنَّ أَلْسُنَهُمْ فِيْ ٱلنُّطْقِ قَدْ جُعِلَتْ عَلَىٰ رِمَاحِهِمُ فِيْ ٱلطَّعْنِ خُرْصَانَا(٢)

وقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٥٥ مِنَ الخفيفِ] :

خَلَقَ ٱللهُ أَفْصَحَ ٱلنَّاسِ طُرّاً فِيْ مَكَانٍ أَعْرَابُهُ أَكْرَادُهْ

وقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ١٢٣ مِنَ الخفيفِ] :

وَبِأَلْفَاظِكَ ٱقْتَدَىٰ فَإِذَا عَزْ زَاكَ قَالَ ٱلَّذِيْ لَهُ قُلْتَ قَبْلاَ

وقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٢٣٥ مِنَ الكاملِ] :

نَطِقٌ إِذَا حَطَّ ٱلْكَلامُ لِثَامَهُ أَعْطَىٰ بِمَنْطِقِهِ ٱلْقُلُوْبَ عُقُوْلاَ(٣)

وقولِهِ وقد أَساءَ فيهِ الأَدَبَ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٢٤٤ مِنَ الكاملِ] :

لَوْ كَانَ لَفْظُكَ فِيْهِمُ مَا أَنْزَلَ ٱلْـ ـقُرْآنَ وَٱلتَّوْرَاةَ وَٱلإِنْجِيْلاَ

---

(١) في البيتِ لفٌّ ونشرٌ مرتَّبٌ ؛ حيثُ ذَكَرَ أَفعالَ الشرطِ في الشطرِ الأَوَّلِ ثُمَّ جاءَ بأَجوبتِها مرتَّبَةً في الشطرِ الثاني فصارَ المعنىٰ :

إِنْ كوتِبوا.. وُجِدوا في الخطِّ فرساناً ، وإِنْ لُقُوا مُلاقاةَ المخاطَبَةِ والمكالَمَةِ.. وُجِدوا في اللفظِ فُرساناً ، وإِنْ حُوربوا.. وُجِدوا في الهيجاءِ فُرساناً أَيضاً .

(٢) الخرصانُ : الأَسنَّةُ .

(٣) النَّطِقُ : جَيِّدُ القولِ والنُّطقِ . اللثامُ : ما يجعلُ على الوجهِ من العمامةِ ، كانتِ العربُ تفعلهُ لأَجلِ حرِّ الشمسِ ، وإِذا أَرادوا أَن يتكلموا كشفوا اللثامَ .

وقولِهِ [في « العُكبَرِيّ » ١/ ٦٢ مِنَ الطَّويلِ] :

عَلِيْمٌ بِأَسْرَارِ ٱلدِّيَانَاتِ وَٱللُّغَىٰ   لَهُ خَطَرَاتٌ تَفْضَحُ ٱلنَّاسَ وَٱلْكُتُبَا

وقولِهِ [في « العُكبَرِيّ » ٢/ ١٨٠-١٨٣ مِنَ الخفيفِ] :

بَلَّغَتْهُ ٱلْبَلاَغَةُ ٱلْجُهْدَ بِٱلْعَفْـ   ـوِ وَنَالَ ٱلإِسْهَابَ بِٱلإِيْجَازِ
مَلِكٌ مُنْشِدُ ٱلْقَرِيْضِ لَدَيْهِ   يَضْنَعُ ٱلثَّوْبَ فِيْ يَدَيْ بَزَّازِ

وقولِهِ [في « العُكبَرِيّ » ١/ ١٨٢ مِنَ الطَّويلِ] :

فَتىً يَمْلأُ ٱلأَفْعَالَ رَأْياً وَحِكْمَةً   وَبَادِرَةً أَحْيَانَ يَرْضَىٰ وَيَغْضَبُ

وقولِهِ [في « العُكبَرِيّ » مِنَ الوافرِ] :

إِذَا مَا صَافَحَ ٱلأَبْصَارَ يَوْماً   تَبَسَّمَتِ ٱلضَّمَائِرُ وَٱلْقُلُوْبُ

وقولِهِ [في « العُكبَرِيّ » ٢/ ١٦٥ مِنَ الكاملِ] :

بِأَبِيْ وَأُمِّيْ نَاطِقٌ فِيْ لَفْظِهِ   ثَمَنٌ تُبَاعُ بِهِ ٱلْقُلُوْبُ وَتُشْتَرَىٰ

وما أكثرَ ما أَصابَ الناظِمُ الهدَفَ في إكبارِهِ الفصاحَةَ ؛ لأَنَّ حدَّ الإنسانِ ـ بعدَ الحيوانيَّةِ ـ الناطقيَّةُ ، وبمقدارِ ما تتفاوتُ الناسُ في الحدِّ . . تتفاوَتُ في المحدودِ .

وما أَحسنَ قولَ الخنساءِ [مِنَ الطَّويلِ] :

كَأَنَّ كَلاَمَ ٱلنَّاسِ جُمِّعَ حَوْلَهُ   فَأُطْلِقَ فِيْ إِحْسَانِهِ يَتَخَيَّرُ

وكانَ يقالُ في الصدرِ الأَوَّلِ : إِنَّ الفصاحَةَ ٱنتهَت إِلىٰ أَربعةٍ : عليٍّ ، وٱبنِ عبَّاسٍ ، وعائشَةَ ، ومعاويَةَ .

وقالَ بعضُ العلويِّينَ : سُئِلَ الشعبيُّ ـ وَأَنا حاضِر ـ عَن أَفصحِ الناسِ؟ فقالَ : معاويَةُ وٱبنُهُ ، وسعيدُ ٱبنُ العاصِ وٱبنُهُ ، فتغيَّرَ

وَجهي ، وقلْتُ لَهُ : أَينكَ مِنْ عليٍّ ؟ قالَ : إنَّ هـٰذا يسأَلُ عَن فصحاءِ البشَرِ ، ولَم يسأَلْ عَن فصحاءِ الملائِكَةِ .

وشبيهٌ بهـٰذا قولُ الواقديِّ : سُئِلَ المهلَّبُ عنِ الشجعانِ ؟ فقالَ : ابنُ الكلبيَّةِ ـ يعني مصعبَ بنَ الزبيرِ ـ وعمرُ بنُ عبيدِ اللهِ بنِ معمرٍ ، وعبادُ بنُ الحصينِ الحبطيُّ ، قيلَ لهُ : فأَينَ أَنتَ مِنْ عبدِ اللهِ بنِ الزبيرِ ، وعبدِ اللهِ بنِ حازمٍ ؟ فقالَ : إِنَّما كنَّا في ذكرِ الإنسِ ، ولم نكن في ذكرِ الجنِّ .

وقالَ الشعبيُّ : ما سمعتُ أَحداً يتكلَّمُ إلاَّ وَدِدْتُ أَنَّهُ سكتَ ، وإن أَحسنَ ، إلاَّ زياداً . . فإِنَّهُ لم يخرجْ قطُّ مِن حَسَنٍ إلاَّ إلىٰ أَحسنَ منهُ .

وجاءَ أَعرابيٌّ إلىٰ حلقةِ الحسنِ وسمعَهُ يتكلَّمُ ، فقالَ : هوَ فصيحٌ إذا لَفظَ ، نصيحٌ إذا وعظَ [مِنَ البسيطِ] :

مُلَقَّـنٌ مُلْهَـمٌ فِيمَـا يُحَـاوِلُـهُ ... جَـمٌّ خَـوَاطِـرُهُ جَـوَّابُ آفَـاقِ

وقالَ أَبو تمَّامٍ [في « ديوانِهِ » ٢/ ٧٣ مِنَ الوافرِ] :

مِـنَ ٱلسِّحْـرِ ٱلْحَـلاَلِ لِمُجْتَنِيـهِ ... وَلَـمْ أَرَ قَبْلَـهُ سِحْـراً حَـلاَلاَ

وهوَ مِن قولِهِ ﷺ : « إِنَّ مِنَ ٱلْبَيَانِ لَسِحْرًا »(١) .

وقالَ الرضيُّ [في « ديوانِهِ » ٤٨١ مِنَ الكاملِ] :

إِلاَّ تَكُنْ فِيْ ٱلْجَمْعِ أَمْضَىٰ طَعْنَةً ... فَلأَنْتَ أَمْضَىٰ خُطْبَةً فِيْ ٱلْمَجْمَعِ

---

(١) سلف وأخرجه عن ابن عمر رضي الله عنهما البخاري (٥١٤٦) في (النكاح) .

وإنّي لأُحِسُّ بِانكسارٍ عظيمٍ في نفسي كلَّما نظرتُ في كتبِ الجاحِظِ ، أَوِ ابنِ المقفَّعِ ، أَو رسائِلِ القدماءِ ومراجعاتِهم ، أَو ترسُّلِ لسانِ الدينِ بنِ الخطيبِ ، أَو عِباراتِ السعدِ ، أَوِ الغزاليِّ .

كَما لا أَخلو عَن شيءٍ مِنَ النخوَةِ وقتَما كنتُ أُدرِّسُ في « مفاتيحِ الغيب » للإمامِ الرازيِّ ؛ إِذ كنتُ أُعلِّقُ المعنىٰ بذِهني ثمَّ أُلقيهِ في عبارَةٍ ، يشهَدُ العارِفُ بمقاديرِ الكلامِ أَنَّها علىٰ البديهَةِ خيرٌ مِن عبارتِهِ التي يتروىٰ فيها ، فللّٰهِ الحمدُ والمنَّةُ ، ولأَبي ولسائِرِ مشايخي الرضوانُ والرحمَةُ .

* * *

[قالَ أبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَريِّ » ٢/ ٢٤٦ مِنَ الطَّويلِ] :

أَلاَ أَيُّهَا ٱلْقَيْلُ ٱلْمُقِيمُ بِمَنْبِجٍ وَهِمَّتُهُ فَوْقَ ٱلسِّمَاكَيْنِ تُوْضِعُ

شرح المطلع
(القَيلُ) في الأَصلِ : ملكُ حِمْيَرٍ ، وقد سبقَ في غيرِ هٰذا المجلسِ كلامٌ يتعلَّقُ بهِ . و(منبجٌ) : بلدٌ بـ(الشامِ) ، و(السماكانِ) : نجمانِ ، هُما : السماكُ الرامحُ ، والسماكُ الأعزلُ . و(الإِيضاعُ) : الإسراعُ .

المديح بكبر النفس وعلو الهمة
وما أكثرَ ما يثني الناظمُ علىٰ مَن يمدَحُ بكبرِ النفسِ ، وعلوِّ الهمَّةِ ؛ لِما يجدُ في صدرِهِ مِن ذلكَ ، فمنْهُ قولُهُ [مِنَ الطَّويلِ] :

لَـهُ هِمَـمٌ لاَ مُنْتَهَـىٰ لِكِبَـارِهَـا وَهِمَّتُهُ ٱلصُّغْرَىٰ أَجَلُّ مِنَ ٱلدَّهْرِ(١)

وقولُهُ [في « العُكبَريِّ » ١/ ١٧١ مِنَ البسيطِ] :

حَتَّىٰ أَصَابَ مِنَ ٱلدُّنْيَا نِهَايَتَهَا وَهَمُّهُ فِيْ ٱبْتِدَاءَاتٍ وَتَشْبِيْبِ(٢)

وقولُهُ [في « العُكبَريِّ » ١/ ٢٧٥ مِنَ الطَّويلِ] :

فَتىَ يَشْتَهِيْ طُوْلَ ٱلْبِلاَدِ وَوَقْتُهُ تَضِيْـقُ بِـهِ أَوْقَـاتُـهُ وَٱلْمَقَـاصِـدُ

وقولُهُ [في « العُكبَريِّ » ٤/ ٢٧٧ مِنَ المنسرحِ] :

تَجَمَّعَـتْ فِـيْ فُـؤَادِهِ هِمَـمٌ مِـلْءُ فُـؤَادِ ٱلـزَّمَـانِ إِحْـدَاهَـا

---

(١) البيت لبكر بن النَّطَّاح في « ديوانه » .

(٢) التشبيبُ : ذكرُ أيَّامِ الشبابِ واللهوِ والغزلِ ، وهوَ يكونُ في ابتداءِ قصائدِ الشعراءِ ، هذا هوَ الأَصلُ ، ثم سُمِّيَ ابتداءُ كلِّ أمرٍ تشبيباً ، وإن لم يكن فيه ذكرُ أيَّامِ الشبابِ .

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٣/ ٣٧٨ مِنَ الطَّويلِ] :

عَلَىٰ قَدْرِ أَهْلِ ٱلْعَزْمِ تَأْتِي ٱلْعَزَائِمُ   وَتَأْتِي عَلَىٰ قَدْرِ ٱلْكِرَامِ ٱلْمَكَارِمُ

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ١/ ١٨٢ مِنَ الطَّويلِ] :

وَهَبْتَ عَلَىٰ مِقْدَارِ كَفَّيْ زَمَانِنَا   وَنَفْسِي عَلَىٰ مِقْدَارِ كَفَّيْكَ تَطْلُبُ

وقالَ العطويُّ فيما يشبِهُ بيتَ القصيدِ مِن طرفٍ خفيٍّ [مِنَ المنسرحِ] :

إِنْ كُنْتُ أَصْبَحْتُ لاَبِساً خَلَقاً   فَهِمَّتِي فَوْقَ هَامَةِ ٱلْمَلِكِ

وقالَ التنوخيُّ [مِنَ الرَّجَزِ] :

وَأَنْفُسٍ مَسْكَنُهَا بَيْنَنَا   وَهَمُّهَا فَوْقَ ٱلسِّمَاكِ وَٱلسُّهَا

وقالَ النعيميُّ الفقيهُ [في « طبقات الشافعية » ٥/ ٢٣٨ مِنَ المتقاربِ] :

إِذَا أَعْطَشَتْكَ أَكُفُّ ٱللِّئَامِ   كَفَتْكَ ٱلْقَنَاعَةُ شِبْعاً وَرِيَّا
فَكُنْ رَجُلاً رِجْلُهُ فِي ٱلثَّرَىٰ   وَهَامَةُ هِمَّتِهِ فِي ٱلثُّرَيَّا

وقالَ بعضُ الصوفيَّةِ [مِنْ مُخَلَّعِ البسيطِ] :

يَا رُبَّ شَخْصٍ تَرَىٰ قَرِيباً   وَرُوحُهُ فِي ٱلْعُلاَ تَجُولُ

أقسام الصوفية عند انبعاق الأنوار

وما زالَ أُولئكَ الفريقُ ، وسالِكوا تلكَ الطريقِ ، متعلِّقوا الأَرواحِ بالجمالِ الأَقدَسِ ، والملأِ العليِّ الأنفَسِ ، إلاَّ أَنَّهم يتفاوتونَ عندَ ٱنبِعاقِ الأَنوارِ(١) ، وٱنكشافِ الأَسرارِ .

---

(١) الانبعاقُ : أن ينبعق عليك الشيء فجأة وأنت لا تشعر . وانبعق المزن : انبعج بالمطر وفي الكلام : اندفع .

فمِنهم : مَن يغترُّ بمجرَّدِ ما يشمُّ نفحَهُ ، ويَشيمُ لَمحَهُ ، ويسكَرُ مِن زَبِيبِهِ ، ويتوهَّمُ الخادِمَ حبيبَهُ ، فيسفلُ به الغرضُ ، وينتكِسُ عليهِ المرَضُ ، وينقلِبُ وَرَا ، ويفتَتِنُ بِما يرىٰ : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ [الأعراف : ١٧٥] .

ومنهُم : مَن تنكسرُ زجاجَتُهُ إذا انكشفَت عَجاجَتُهُ ، ويبوحُ بسرِّهِ ، ويضطربُ في أَمرِهِ ، ويعتريهِ خبلٌ ، وربَّما اختلَّ عليهِ العقلُ [مِنَ الطَّويلِ] :

سَقَوْنِيْ وَقَالُوْا : لاَ تُغَنِّ وَلَوْ سَقَوْا ... جِبَالَ حُنَيْنٍ مَا سَقَوْنِيْ لَغَنَّتِ

ومنهُم : مَن يأخذُهُ الهُيامُ ، ويغلبُهُ الاصطلامُ(١) ، فتراهُ حاضراً وهوَ غائبٌ ، وجامداً وهوَ ذائبٌ ، ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل : ٨٨] ، وهـٰذا سرٌّ غيرُ مطويٍّ ، ولهُ فيما يُتعارَفُ شاهدٌ مرويٌّ ، هوَ [فيما رواه الأصفهاني في « الأغاني » ٢/٦٥] أَنَّ المجنونَ جاءَهُ بعضُ قرابتِهِ يلومُهُ ، ويعذلُهُ ، ويستكفُّهُ ، ويسليهِ ، وهوَ مصغٍ لكلامِهِ ، غيرَ أَنَّهُ لم يردَّ عليهِ ، فقالَ لَهُ : ما عندَكَ؟ قالَ لَهُ : وما قلْتَ؟! فإِنِّي لَم أَفقهْ خطابَكَ ، وإِنِّي لمنهوبُ الفكرِ ، مذهوبُ العقلِ ، مُبَلْبَلُ البالِ ، وأَنشأَ يقولُ [في « ديوانهِ » ٢٣٤ مِنَ الكاملِ] :

وَأُدِيْمُ لَحْظَ مُحَدِّثِيْ حَتَّىٰ يَرَىٰ ... أَنْ قَدْ فَهِمْتُ وَعِنْدَكُمْ عَقْلِيْ
وشُغِلْتُ عَنْ فَهْمِ ٱلْحَدِيْثِ سِوَىٰ ... مَا كَانَ مِنْكِ فَإِنَّهُ شُغْلِيْ

وللهِ درُّ الذي يقولُ [في « المدهش » ٢٥٠ مِنَ البسيطِ] :

وَٱللهِ لَوْ حَلَفَ ٱلْعُشَّاقُ أَنَّهُمُ ... صَرْعَىٰ مِنَ ٱلْحُبِّ أَوْ مَوْتَىٰ لَمَا حَنِثُوْا

---

(١) الاصطلامُ : الاستئصالُ . ولعل المعنى المراد أنه غياب الحس والفكر . .

وما أَحسنَ قولَ رابعَةَ العدويَّةِ [في « ديوانها » ٧٨ـ٧٩ مِنَ الكاملِ] :

إِنِّـيْ جعَلْتُكَ فِـيْ ٱلْفُـؤَادِ مُحَـدِّثِـيْ   وَأَبَحْتُ جِسْمِيْ مَنْ أَرَادَ جُلُوْسِيْ
فَٱلْجِسْمُ مِنِّيْ لِلْجَلِيْسِ مُؤَانِسٌ   وَحَبِيْبُ قَلْبِيْ فِيْ ٱلْفُؤَادِ أَنِيْسِيْ

ومنهُم : ٱلزاكي نباتُهُ ، الراسخُ ثباتُهُ ، الكاملةُ صفاتُهُ ، أُولئكَ هُم حججُ اللهِ وبيِّناتُهُ : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ ﴾ [إبراهيم : ٢٧] .

* * *

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَريِّ » ٢/ ٢٤٧ مِنَ الطَّويلِ] :

أَلَيْسَ عَجِيْباً أَنَّ وَصْفَكَ مُعْجِزٌ   وَأَنَّ ظُنُوْنِي فِيْ مَعَالِيْكَ ظُلَّعُ

كل ما يقال وكل ما يكتب دون قدر الممدوح

هوَ شبيهٌ بقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٢٦٦ مِنَ الكاملِ] :

أَكَلَتْ مَفَاخِرُكَ ٱلْمَفَاخِرَ وَٱنْثَنَتْ   عَنْ شَأْوِهِنَّ مَطِيُّ وَصْفِيَ ظُلَّعَا(١)

وقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ١/ ٣٤٠ مِنَ الكاملِ] :

يَفْنَىٰ ٱلْكَلاَمُ وَلاَ يُحِيْطُ بِوَصْفِكُمْ   أَيُحِيْطُ مَا يَفْنَىٰ بِمَا لاَ يَنْفَدُ ؟!

وقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ١/ ١١٩ مِنَ البسيطِ] :

مَحَامِدٌ نَزَفَتْ شِعْرِيْ لِيَمْلأَهَا   فَآلَ مَا ٱمْتَلأَتْ مِنْهُ وَلاَ نَضَبَا(٢)

وقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٢٨٧ـ٢٨٩ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا حَارَتِ ٱلأَفْهَامُ فِيْ عُظْمِ شَأْنِهِ   بِأَكْثَرَ مِمَّا حَارَ فِيْ حُسْنِهِ ٱلطَّرْفُ
فَـوَاعَجَبـاً مِنِّـيْ أُحَـاوِلُ نَعْتَـهُ   وَقَدْ فَنِيَتْ فِيْهِ ٱلْقَرَاطِيْسُ وَٱلصُّحُفُ

وقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ١/ ١٩٤ مِنَ الطَّويلِ] :

تَجَاوَزَ قَدْرَ ٱلْمَدْحِ حَتَّىٰ كَأَنَّهُ   بِـأَبْلَـغِ مَـا يُثْنَـىٰ عَلَيْـهِ يُعَـابُ

والأخيرُ مِن قولِ البُحتريِّ ، وقد مرَّ في غيرِ هـٰذا المكانِ [في « ديوانهِ » ١/ ١٥ مِنَ الخفيفِ] :

---

(١) شأوهنَّ : سبقهنَّ . ظُلَّعُ ـ جمعُ ظالعٍ ـ : وهوَ الغامزُ من يدٍ أو رجلٍ ، أي : الأعرج .
(٢) آلَ : رجعَ .

جَلَّ عَنْ مَذْهَبِ ٱلْمَدِيْحِ فَقَدْ كَا   دَ يَكُـوْنُ ٱلْمَـدِيْـحُ فِيْـهِ هِجَـاءَ

وقالَ الناظِمُ أيضاً [في « العُكبَريّ » ٣/ ٨١ مِنَ البسيطِ] :

وَقَدْ وَجَدْتَ مَكَانَ ٱلْقَوْلِ ذَا سَعَةٍ   فَإِنْ وَجَدْتَ لِسَاناً قَائِلاً فَقُلِ

وقالَ أشجعُ [في « ديوانهِ » ٢٤٨ مِنَ الوافرِ] :

مَـدَحْنَـاهُـمْ فَلَـمْ نُـدْرِكْ بِمَـدْحٍ   مَـآثِـرَهُـمْ وَلَـمْ نَتْـرُكْ مَقَـالاَ

وقالَ ابنُ الحجَّاجِ [مِنَ الطَّويلِ] :

هُوَ ٱلْبَحْرُ إِنْ حَدَّثْتَ عَنْ مُعْجِزَاتِهِ   ضَعُفْتَ عَنِ ٱسْتِغْرَاقِ تِلْكَ ٱلْعَجَائِبِ
وَإِنْ رَامَ شِعْرِيَ أَنْ يُحِيْطَ بِوَصْفِهِ   أَحَاطَ بِشِعْرِيَ ٱلْعَجْزُ مِنْ كُلِّ جَانِبِ

وقالَ الماكيُّ [بل النامي في « قِرى الضيف » ١/ ٢٨٤ مِنَ الطَّويلِ] :

جَهِدْتُ وَلَـمْ أَبْلُـغْ مَـدَاكَ بِمِـدْحَـةٍ   وَلَيْسَ مَعَ ٱلتَّقْصِيْرِ عِنْدِيْ سِوَىٰ ٱلْعُذْرِ[1]

وقالَ الرشيدُ لبعضِ الشعراءِ : هَل أحدثْتَ فينا شيئاً؟ قالَ : يا أميرَ المؤمنينَ ، المديحُ كلُّهُ دونَ قدرِكَ ، والشعرُ فيكَ فوقَ قدري ، ولٰكنّي أستحسنُ قولَ العتَّابيِّ [مِنَ البسيطِ] :

مَاذَا عَسَىٰ مَادِحٌ يُثْنِيْ عَلَيْكَ وَقَدْ   نَادَاكَ فِيْ ٱلْوَحْيِ تَقْدِيْسٌ وَتَطْهِيْرُ
فُـتَّ ٱلْمَمَـادِحَ إِلاَّ أَنَّ ٱلسُّنَنَـا   مُسْتَنْطَقَاتٌ بِمَا تُخْفِيْ ٱلضَّمَايِيْرُ

وقد أخذهُ البوصيريُّ ، أو غيرهُ في مدحِ سيِّدِ الوجودِ فقالَ [مِنَ البسيطِ] :

مَاذَا عَسَىٰ ٱلشُّعَرَاءُ ٱلْيَوْمَ قَائِلَةً   مِنْ بَعْدِ مَا مَدَحَتْ حَـمُ تَنْزِيْلُ

---

(١) في « قرى الضيف » : (سوى جهدي) بدل : (سوى العُذر) .

وقالَ ٱبنُ هانىءٍ الأَندلسيُّ ـ وقد أَساءَ الأَدبَ علىٰ اللهِ ؛ إِذ قالَ هـٰذا في مخلوقٍ ـ [في « ديوانهِ » ٩١ مِنَ البسيطِ] :

أَتْبَعْتُـهُ فِكْـرِيْ حَتَّـىٰ إِذَا بَلَغَـتْ غَايَاتِهَا بَيْنَ تَصْوِيْبٍ وَتَصْعِيْدِ

أَبْصَرْتُ مَوْضِعَ بُرْهَانٍ يَلُوْحُ وَمَا أَبْصَرْتُ مَوْضِعَ تَكْيِيْفٍ وَتَحْدِيْدِ

وقالَ الشريفُ الرضيُّ فيما يمكنُ أَن يعدَّ مِن هـٰذا القبيلِ [في « ديوانهِ » ٧٩٥ مِنَ المنسرحِ] :

يَا مُخْرِسَ ٱلدَّهْرِ عَنْ مَقَالَتِهِ كُـلُّ زَمَـانٍ عَلَيْـكَ مُتَّهَـمُ

شَخْصُكَ فِيْ وَجْهِ كُلِّ دَاجِيَةٍ ضُحىً وَفِيْ كُلِّ مَجْهَلٍ عَلَمُ

وقد مرَّ بعضُ ما هُنا في الكلامِ علىٰ قولِهِ [في « العُكبريّ » ٤/٢٩ مِنَ الكاملِ] :

[كَصِفَاتِ مَوْلاَنَا أَبِيْ ٱلْفَضْلِ ٱلَّتِيْ بَهَـرَتْ] فَـأَنْطَـقَ وَاصِفِيْـهِ وَأَفْحَمَـا

مِن ٱلمجلسِ الخامِسِ .

* * *

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبّي في « العُكبَريِّ » ٢/ ٢٤٧ مِنَ الطَّويلِ] :

وَأَنَّكَ فِيْ ثَوْبٍ وَصَدْرُكَ فِيْكُمَا	عَلَىٰ أَنَّهُ مِنْ سَاحَةِ ٱلأَرْضِ أَوْسَعُ

شرح المطلع والانتقاد عليه

يقولُ : أَليسَ عجيباً أَنَّ صدرَكَ هوَ أَوسعُ مِنَ ٱلأَرضِ؟! قد ٱشتملَ عليهِ ثوبٌ ، وتأليفُ البيتِ فيهِ ضعفٌ ، وقولُهُ : (وصدرُكَ فيكما) مِن الكلامِ الغثِّ البارِدِ ، وهوَ مثلُ **قولِهِ** [في « العُكبَريِّ » ٢/ ١٢٠ مِنَ البسيطِ] :

تَضِيْقُ عَنْ جَيْشِهِ ٱلدُّنْيَا وَلَوْ رَحُبَتْ ... كَصَدْرِهِ لَمْ تَبِنْ فِيْهَا عَسَاكِرُهُ

وقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٦٦_٦٧ مِنَ المتقاربِ] :

أَيَقْدَحُ فِيْ ٱلْخَيْمَةِ ٱلْعُذَّلُ ... وَتَشْمَلُ مَنْ دَهْرَهَا يَشْمَلُ
تَضِيْقُ بِشَخْصِكَ أَرْجَاؤُهَا ... وَيَرْكُضُ فِيْ ٱلْوَاحِدِ ٱلْجَحْفَلُ

وقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ١٥٤ مِنَ الطَّويلِ] :

فَتىً لاَ يَضُمُّ ٱلْقَلْبُ هِمَّاتِ قَلْبِهِ ... وَلَوْ ضَمَّهَا قَلْبٌ لَمَا ضَمَّهُ صَدْرُ

وقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٧٩ مِنَ البسيطِ] :

ضَاقَ ٱلزَّمَانُ وَوَجْهُ ٱلأَرْضِ عَنْ مَلِكٍ ... مِلْءِ ٱلزَّمَانِ وَمِلْءِ ٱلسَّهْلِ وَٱلْجَبَلِ

وقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٤/ ١٥٤ مِنَ المتقاربِ] :

وَمَنْ ضَاقَتِ ٱلأَرْضُ عَنْ نَفْسِهِ ... حَرىً أَنْ يَضِيْقَ بِهَا جِسْمُهُ[1]

---

(١) حَرىً : خليقٌ وحقيقٌ .

وقولِهِ [في « العُكبَريّ » ٤/ ٢٧٧ـ٢٧٨ مِنَ المنسرحِ] :

تَجمَّعَتْ فِيْ فُؤَادِهِ هِمَمٌ   مِلْءُ فُؤَادِ الزَّمَانِ إِحْدَاهَا
فَإِنْ أَتَىٰ حَظُّهَا بِأَزْمِنَةٍ   أَوْسَعَ مِنْ ذَا الزَّمَانِ أَبْدَاهَا

وقولِهِ [في « العُكبريّ » ٢/ ٢٧٠ مِنَ الكاملِ] :

لَمْ يُرْضِ قَلْبَ أَبِيْ شُجَاعٍ مَبْلَغٌ   قَبْلَ الْمَمَاتِ وَلَمْ يَسَعْهُ مَوْضِعُ

تعظيم شان الممدوح وأن ما في صدره أكبر من الدنيا

وقالَ ابنُ مطيرٍ ، أَو مروانُ بنُ أَبي حفصَةَ ، في رثاءِ معنٍ [ابن مطيرٍ في « ديوانه » ٦٣ مِنَ الطَّويلِ] :

وَيَا قَبْرَ مَعْنٍ كَيْفَ وَارَيْتَ جُوْدَهُ   وَقَدْ كَانَ مِنْهُ الْبَرُّ وَالْبَحْرُ مُتْرَعَا[1] ؟
بَلَىٰ قَدْ وَسِعْتَ الْجُوْدَ وَالْجُوْدُ مَيِّتٌ   وَلَوْ كَانَ حَيّاً ضِقْتَ حَتَّىٰ تَصَدَّعَا

وقالَ أَشجعُ السلميُّ في رثاءِ عمرَ بنِ سعيدِ بنِ سلمِ بنِ قتيبةَ بنِ مسلمٍ [في « ديوان الحماسة » ١/ ٣٥٥ مِنَ الطَّويلِ] :

وَأَصْبَحَ فِيْ لَحْدٍ مِنَ الأَرْضِ ضَيِّقٍ   وَكَانَتْ بِهِ حَيّاً تَضِيْقُ الصَّحَاصِحُ[2]

في مرثيَّةٍ جزلَةٍ ، تعدُّ مِن محاسِنِ المراثي ، وهيَ في « ديوانِ الحماسَةِ » [١/ ٣٥٥] ، مرَّ بعضُها في غيرِ هٰذا المجلسِ ، وقد ذكرنَا البيتَ في شرحِ قولِهِ [في « العُكبريّ » ٢/ ٣٣٥ مِنَ الكاملِ] :

مِنْ كُلِّ مَنْ ضَاقَ الْفَضَاءُ بِجَيْشِهِ   حَتَّىٰ قَضَىٰ . . فَحَوَاهُ لَحْدٌ ضَيِّقُ

---

(١) مترعٌ : مملوءٌ .
(٢) الصحاصِحُ ـ جمعُ صحصحٍ ـ : وهوَ الأَرضُ الجرداءُ المستويةُ .

وقالَ آخرُ [وهو عبد الله بن أيوب التميمي في « ديوان الحماسة » ١/٣٩٦ مِنَ الكاملِ] :

عَجباً لأَرْبَعِ أَذْرُعٍ فِيْ خَمْسَةٍ ... فِيْ جَوْفِهِ جَبَلٌ أَشَمُّ كَبِيْرُ

وقالَ أَبو تمَّامٍ [في « ديوانهِ » ٢٤٣ مِنَ البسيطِ] :

وَرَحْبُ صَدْرٍ لَوَ انَّ الأَرْضَ وَاسِعَةٌ ... كَوُسْعِهِ لَمْ يَضِقْ عَنْ أَهْلِهِ بَلَدُ

وقالَ أَبو عُبادَةَ [في « ديوانهِ » ١/ ١٠٥ مِنَ الطَّويلِ] :

كَرِيْمٌ إِذَا ضَاقَ ٱلزَّمَانُ فَإِنَّهُ ... يَضِلُّ ٱلْفَضَاءُ ٱلرَّحْبُ فِيْ صَدْرِهِ ٱلرَّحْبِ

وقالَ [في « ديوانهِ » ٢/١٣١٩ـ١٣٢٠ مِنَ الطَّويلِ] :

فَلنْ تَكْبُرَ ٱلدُّنْيَا عَلَيْهِ بِأَسْرِهَا ... وَقَدْ وَسِعَتْهَا سَاحَةٌ مِنْ رِبَاعِهِ
تَضِيْعُ صُرُوْفُ ٱلدَّهْرِ فِيْ بُعْدِ هَمِّهِ ... وَتَتْوَىٰ ٱلرَّزَايَا فِيْ ٱتِّسَاعِ ذِرَاعِهِ[1]

وقالَ [في « ديوانهِ » ١/ ٧٤ مِنَ الكاملِ] :

يَحْمِلْنَ كُلَّ مُفَرَّقٍ فِيْ هِمَّةٍ ... فُضُلٍ يَضِيْقُ بِهَا ٱلْفَضَاءُ ٱلسَّبْسَبُ[2]

وقالَ السريُّ الرَّفاءُ يَرثي مصلوباً [في « ديوانهِ » ٣٥٦ مِنَ الطَّويلِ] :

يَعِزُّ عَلَىٰ ٱلْعَلْيَاءِ أَنْ حِيْلَ بَيْنَهُ ... وَبَيْنَ ظُبَا أَسْيَافِهِ وَٱلْعَوَامِلِ
وَلَيْسَ بِعَارٍ مَا عَرَاكَ وَإِنَّمَا ... حَمَاكَ ٱتِّسَاعُ ٱلصَّدْرِ ضِيْقَ ٱلْمَنَازِلِ
أَحَلَّكَ مِنْ أَعْلَىٰ ٱلْهَوَاءِ مَحَلَّةً ... نَأَتْ بِكَ عَنْ ضِيْقِ ٱلثَّرَىٰ وَٱلْجَنَادِلِ

---

(١) تتوىٰ : تهلكُ .

(٢) السبسبُ : المفازةُ . الفُضُلُ : الثوبُ الواحدُ يقسرُ عليه الرجلُ والمرأةُ وتبذلهُ للأعمالِ .

وقالَ [في « ديوانه » ٣١٤ مِنَ الكاملِ] :

رَحْبُ ٱلْمَنَازِلِ مَا أَقَامَ فَإِنْ سَرَىٰ فِيْ جَحْفَلٍ تَرَكَ ٱلْفَضَاءَ مَضِيْقَا

وقالَ أبو الحسنِ ابنُ الأنباريِّ في قصيدتِهِ ، التي أجادَ فيها ، وسبقَ لنَا ذكرُها [في « قِرى الضيف » ٤٣٩/٢ مِنَ الوافرِ] :

وَلَمَّا ضَاقَ بَطْنُ ٱلأَرْضِ عَنْ أَنْ تَضُمَّ عُلاَكَ مِنْ بَعْدِ ٱلْمَمَاتِ

أَصَارُوْا ٱلْجَوَّ قَبْرَكَ وَٱسْتَنَابُوْا عَنِ ٱلأَكْفَانِ ثَوْبَ ٱلسَّافِيَاتِ

سعة الصدر من آيات السؤدد

ولا يخفىٰ أنَّ سعةَ الصدرِ آيةُ السؤدَدِ ، وسُلَّمُ الشرفِ ، واللهُ جلَّ شأنُهُ يقولُ : ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام : ١٢٥] .

وانتهَت بموسىٰ عليه السلام الأمانيُّ عندَ قولِهِ : ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ۝ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ۝ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى﴾ [طه : ٢٥-٢٧] .

وما طلبَهُ موسىٰ أُعطيهِ نبيُّنا صلواتُ اللهِ عليهِم مِن غيرِ سُؤَالٍ ، فقد قالَ لَهُ ربُّهُ : ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح : ١] .

وجعلَهُ معَ ذلكَ أفصحَ الناسِ .

أمثلة من سعة صدر معاوية وحلمه

وذكرَ ابنُ أبي الحديدِ [في « شرح النهج »] أمثلَةً مِن سعَةِ صدرِ معاويَةَ :

أحدُها : أنَّهُ وفدَ عليهِ أهلُ الكوفَةِ حينَما خطبَ لابنهِ يزيدَ بولايَةِ العهْدِ مِن بعدِهِ ، وفي أهلِ (الكوفَةِ) هاني بنُ عروَةَ المراديُّ ، وكانَ سيِّداً شريفاً ، فقالَ ـ والناسُ حولَهُ في مسجِدِ (دمشقَ) ـ :

عجباً لمعاويَةَ يوطِّىءُ الأَمرَ لابْنِهِ ، وحالُهُ معلومٌ ، يريدُ أَن يَقسِرَنا عليهِ ، وما ذلكَ بكائِنٍ واللهِ .

فأَسرعَ بها غلامٌ مِن قريشٍ إِلىٰ معاويَةَ ، فقالَ : ٱرجعْ إِليهِ ، وٱنصحْهُ إِذا خفَّ عنهُ الناسُ ، وقُل ما شئْتَ ، فقالَ لَهُ : قد وصلَت كلمتُكَ إِلىٰ معاويَةَ ، ومالَكَ والمجاهَرَةُ بهـٰذا ، وأَنتَ في أَيديهم ، وهُم بنو أُميَّةَ لا يخافونَ إِلاًّ ، ولا يرقبونَ ذمَّةً ، وما دعاني لهـٰذا غيرُ النصحِ لكَ ، والإِشفاقِ عليكَ ، فقالَ هاني : يا ٱبنَ أَخي ، واللهِ ما خرجَ هـٰذا إِلاَّ مِن صدرِ معاويَةَ ، فقالَ الفتىٰ : وما أَنا ؟ ومعاويَةُ لا يعرفُني ولا أَعرفُهُ ، فقالَ لَهُ : وما عليكَ ، إِذا لقيتَهُ . . فقُل لَهُ : يقولُ لكَ هاني : واللهِ ما إِلىٰ ذلكَ مِن سبيلٍ ، فدخلَ الفتىٰ علىٰ معاويَةَ ، فأَخبرَهُ ، فقالَ : نستعينُ عليهِ بٱللهِ ، ثمَّ قالَ بعدَ أَيَّامٍ للوفدِ : ٱرفعوا حوائِجَكُم ـ وهاني فيهِم ـ فرفَعوا إِليهِ حوائِجَهم ، فقضاها ، ولمَّا رَفَعَ إِليهِ هاني حاجتَهُ . . رَماها إِليهِ ، وقالَ : كنتُ أَرىٰ لكَ شأْناً ، ثمَّ تسأَلُ هـٰذا النزرَ الحقيرَ ، فٱطلُب علىٰ قدرِ همَّتِكَ ، فزادَ في الرقعَةِ ما زادَ ، فرماها إِليهِ ثانيةً ، ولم يزَل يردُّها عليهِ ، ويستزيدُهُ ، حتَّىٰ ٱنقطعَتْ بهِ الأَماني ، وٱستعبَدهُ الإِحسانُ ، فقالَ : لا واللهِ ما بقيَ في نفسي إِلاَّ حاجةٌ واحدةٌ ، قالَ : ما هيَ؟ قالَ : أَن تولِّيَني الأَخذَ بالبيعَةِ ليزيدَ مِن أَهلِ (العراقِ) ، قالَ : دونَكَ ذلكَ . فأَحكَمَ أَمرَها ، وَوَثَّقَ عهدَها ، بمعونَةٍ مِنَ ٱلمغيرَةِ بنِ شعبَةَ ، وكانَ إِذ ذاكَ واليَ (العراقِ) .

والثاني : مرَّتْ قافلَةٌ مِنَ اليمَنِ لمعاويَةَ بـ(المدينَةِ) ، فوثَبَ عليها الحسينُ بنُ عليٍّ فأَخذَها ، وكتبَ إِلىٰ معاويَةَ :

أَمَّا بعدُ : فإِنَّ عيراً مرَّت بِنا مِن (اليمَنِ) ، تحمِلُ مالاً ، وحُلَلاً ، وعنبراً ، وإِنِّي ٱحتجْتُ إِليها ، فأَخذتُها ، والسلامُ .

فكتبَ إِليهِ معاويَةُ كتاباً يقولُ فيهِ : وٱيمُ اللهِ ، لَو تركتَ ذلكَ حتَّىٰ يصيرَ إِلينا ، ثمَّ طلبتَهُ . . لَم نمنعْهُ دونكَ ، وإِنِّي لأَرىٰ في رأسِكَ يا ٱبنَ أَخي نزوَةً ، وبودِّي أَن أَكونَ صاحبَها ؛ لأَغفرَها لكَ وكتبَ أَسفلَ الكتابِ [في « ديوانهِ » ١٠٠ مِنَ الرَّمَلِ] :

يَـا حُسَيْـنُ بْـنَ عَلـيٍّ لَيْـسَ مَـا ... جِئْتَ بِٱلسَّائِغِ يَوْماً فِيْ ٱلْعِلَلْ
أَخْـذُكَ ٱلْمَـالَ وَلَـمْ تُـؤْمَـرْ بِـهِ ... إِنَّ هَـٰـذَا مِـنْ حُسَيْـنٍ لَعَجَـلْ
قَدْ أَجَزْنَاهَا وَلَمْ نَغْضَبْ لَهَا ... وَٱحْتَمَلْنَا مِنْ حُسَيْنٍ مَا فَعَلْ

والثالِثُ : أَنَّهُ كانَ لهُ بستانٌ بـ(الطائِفِ) ، إِلىٰ جانبِهِ بستانٌ آخرُ لابنِ الزبيرِ ، فطفِقَ غلمانُهُ يعيثونَ في بستانِ ٱبنِ الزبيرِ ، فكتبَ إِليهِ يستكفُّهُم ، ويقولُ : إِن دفعتَهم عنِّي . . وإِلاَّ كانَ لي ولكَ شأْنٌ ، فاستشارَ أَصحابَهُ في الجوابِ ، فقالَ لَهُ أَحدُهم ـ وأَظنُّهُ ٱبنُهُ يزيدُ ـ : أَرىٰ أَنْ تبعثَ لَهُ بجيشٍ ، أَوَّلُهُ عندَهُ ، وآخرهُ عندكَ ، حتَّىٰ يعرفَ مكانَهُ ، فقالَ : أَوَخيرٌ مِن ذلكَ ، فكتبَ إِليهِ يعترِفُ بفضلِهِ ، وفضلِ أَبيهِ ، وسابقتِهِ ، وأَضافَ بستانَهُ وغلمانَهُ إِلىٰ بستانِ ٱبنِ الزبيرِ وغلمانِهِ .

لا يفيد الكرم والعفو إلا مع أهله

ثمَّ إِنَّهُ لا يفيدُ الكرَمُ والعفوُ إِلاَّ مَعَ أَهلِهِ ، مِمَّنْ يقودُهُم ٱلإِحسانُ بخُزامِهِ ، ويقتُلُهم العفوُ بحسامِهِ ، قالَ الناظِمُ [في « العُكبَريّ » ١/٢٨٨ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَـا قَتَـلَ ٱلأَحْـرَارَ كَـٱلْعَفْـوِ عَنْهُـمُ ... وَمَنْ لَكَ بِٱلْحُرِّ ٱلَّذِي يَحْفَظُ ٱلْيَدَا

وقالَ [في «العُكبَريّ» ٤/١٣٦ مِنَ الطَّويلِ] :

وَأَحْلُمُ عَنْ خِلِّيْ وَأَعْلَمُ أَنَّهُ ... مَتَىٰ أَجْزِهِ حِلْماً عَلَىٰ الْجَهْلِ يَنْدَمِ

كل نكبات التاريخ أصلها اصطناع المعروف إلى غير أهله

أَمَّا إذا كانَ معَ غيرِ أَهلِهِ . . فإنَّهُ لا يعودُ إلاَّ بسوءِ المغبَّةِ ، وقد فكَّرتُ مرَّةً في اصطناعِ المعروفِ إلىٰ اللئامِ ، فلم أَرَ نكبةً لها في التاريخِ ذكرٌ إلاَّ كانَ أَصلُها مِن هـٰذا القبيلِ ، حتَّىٰ لقد ذكرتُ في مقالٍ نافعٍ أكثرَ مِن أَربعينَ واقعةً ، كلُّها يصلُحُ شاهداً لِمَا أَقولُ ، مِنها : قولُهُ جلَّ شأْنُهُ : ﴿ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾ [القصص : ١٩] ؛ إذ لَم يَغشَّ علىٰ موسىٰ إلاَّ الإسرائيليُّ الذي نصرَهُ بالأمسِ ، وقد جرَّبتُ ذلكَ في نفسي ، وَقانا اللهُ شرَّ مَن أَحسنَّا إليهِ .

وصدَقَ سفيانُ [الثوريُّ] في قولِهِ [في «حلية الأولياء» ٦/٣٩٠] :

ما وَجدنا أَصلَ كُلِّ عداوَةٍ . . سِوَىٰ اصطِناعِ المَعروفِ إلىٰ غيرِ أَهلِهِ

وقد قالَ زهيرٌ [في «ديوانهِ» ٢٦ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَنْ يَفْعَلِ الْمَعْرُوْفَ فِيْ غَيْرِ أَهْلِهِ ... يَعُدْ حَمْدُهُ ذَمّاً عَلَيْهِ وَيَنْدَمِ

وقالَ بعضُ الأَعرابِ [في «مجمع الأمثال» ٢/١٤٤ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَنْ يَفْعَلِ الْمَعْرُوْفَ فِيْ غَيْرِ أَهْلِهِ ... يُجازَىٰ كَمَا جُوْزِيْ مُجِيْرُ أُمِّ عَامِرِ[1]

(١) مجيرُ أُمِّ عامرٍ : وهيَ الضَّبُعُ ، مثلٌ عربيٌّ قصَّتُهُ هي : طَرَدَ قومٌ ضَبُعاً حتَّىٰ أَلجؤوها إلىٰ خيمةِ أَعرابيٍّ ، فأَجارَها ، فقالوا لهُ صيدُنا وطريدتُنا ، فقالَ كلاَّ ، والذي نفسي بيدِهِ : لا تَصِلونَ إليها ما ثَبَتَ قائمُ سيفي بيدي ، فتركوهُ ، فقرَّبَ إليها لبناً ، فأَقبلَتْ تَلَغُ فيهِ . . حتَّىٰ شبِعَتْ ، وبينما هو نائمٌ في جوفِ بيتِهِ . . إذ وثبَتْ عليهِ ، فبقَرَتْ بطنَهُ ، وذهبَتْ ، فأَخذَ ابنُ عمٍّ لهُ قوسَهُ وكنانتَهُ ، فلَم يزل=

بَـرَاهَـا وَرَبَّـاهَـا فَلَمَّـا تَمَكَّنَـتْ فَـرَتْـهُ بِـأَنْيَـابٍ لَهَـا وَأَظَـافِـرِ

و[روى الميداني في « مجمع الأمثالِ » ٢٣٧١ أنه] ربَّىٰ أَحدُهم جروَ ذئبٍ يرضعُهُ مِن شاتِهِ ، فلمَّا قويَ . . ٱفترسَها ، فقالَ [مِنَ الوافرِ] :

بَقَرْتَ شُوَيْهَتِي وَفَجَعْتَ أَهْلِي فَمَـنْ أَنْبَـاكَ أَنَّ أَبَـاكَ ذِيْـبُ
إِذَا كَـانَ ٱلطِّبَـاعُ طِبَـاعَ سُـوْءٍ فَـلا لَبَـنٌ يُفِيْـدُ وَلاَ حَلِيْـبُ

وما أَحسنَ قولَ المهلَّبيِّ [مِنَ البسيطِ] :

لَمَّا ٱعْتَقَدْتُمْ أُنَاساً لاَ حُلُوْمَ لَهُمْ ضِعْتُـمْ وَضَيَّعْتُـمْ مَـنْ كَـانَ يَعْتَقِـدُ
وَلَوَ جَعَلْتُمْ عَلَىٰ ٱلأَحْرَارِ نِعْمَتَكُمْ حَمَتْكُمُ ٱلسَّادَةُ ٱلْمَذْكُوْرَةُ ٱلْحُشُدُ
قَوْمٌ هُمُ ٱلْجِذْمُ وَٱلأَنْسَابُ تَجْمَعُهُمْ وَٱلْمَجْدُ وَٱلدِّيْنُ وَٱلأَرْحَامُ وَٱلْبَلَدُ(١)
إِذَا قُـرَيْـشٌ أَرَادُوْا شَـدَّ مُلْكِهِـمُ بِغَيْـرِ قَحْطَـانَ لَـمْ يَبْـرَحْ بِـهِ أَوَدُ

وقالَ الناظِمُ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ١٨٧ـ١٨٨ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا قِيْلَ: رِفْقاً قَالَ: لِلْحِلْمِ مَوْضِعٌ وَحِلْمُ ٱلْفَتَىٰ فِيْ غَيْرِ مَوْضِعِهِ جَهْلُ
وَلَـوْلاَ تَـوَلِّـي نَفْسِـهِ حَمْـلَ حِلْمِـهِ عَنِ ٱلأَرْضِ لانْهَدَّتْ وَنَاءَ بِهَا ٱلْحِمْلُ

وقالَ [في « العُكبَريِّ » ٤/ ١١٢ مِنَ الطَّويلِ] :

مِنَ ٱلْحِلْمِ أَنْ تَسْتَعْمِلَ ٱلْجَهْلَ دُوْنَهُ إِذَا ٱتَّسَعَتْ بِٱلْحِلْمِ طُرْقُ ٱلْمَظَالِمِ

وقالَ سعدُ بنُ ناشبٍ [في « جمهرة الأمثال » ١/ ٢٧٣ مِنَ الطَّويلِ] :

وَفِيْ ٱللِّيْنِ ضَعْفٌ وَٱلشَّرَاسَةِ هَيْبَةٌ وَمَنْ لاَ يُهَبْ يُحْمَلْ عَلَىٰ مَرْكَبٍ وَعْرِ

= في طلبِها حتَّىٰ قتلَها ، وأنشأَ يقولُ :
ومن يصنعِ المعروف في غير أهله يـلاقِ الـذي لاقـى مجير أم عـامـر
في أربعة أبيات انظر في « المستقصى في أمثال العرب » (٢/ ٢٣٣) .

(١) الجِذم : بالكسر الأصل ، وبالفتح القطع .

وقالَ أَوسُ بنُ حبناءَ [كما في « البيان والتبيين » ١/ ٣٨٩ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا ٱلْمَـرْءُ أَوْلاَكَ ٱلْهَـوَانَ فَـأَوْلِـهِ　　هَوَاناً وَإِنْ كَانَتْ قَرِيباً أَوَاصِرُهْ[1]

وقدِ ٱرتاحَ النبيُّ ﷺ مِن قولِ النابغَةِ الجعديِّ [في « ديوانِهِ » ٨٥ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلاَ خَيْرَ فِيْ حِلْمٍ إِذَا لَمْ تَكُنْ لَهُ　　بَوَادِرُ تَحْمِيْ صَفْوَهُ أَنْ يُكَدَّرَا

وقالَ قيسُ بنُ زهيرٍ ـ [في « مجمع الأمثال » ٢/ ١١٦] يرثي حَمَلَ بنَ بدرٍ ، وهوَ ممَّا تمثَّلَ بهِ عبدُ اللهِ بنُ جعفرٍ [في « جمهرة خطب العرب » ٢/ ١٢٧ مِنَ الوافرِ] ـ :

أَظُـنُّ ٱلْحِلْـمَ دَلَّ عَلَـيَّ قَـوْمِـيْ　　وَقَدْ يُسْتَجْهَلُ ٱلرَّجُلُ ٱلْحَلِيْمُ

ومِن مراثي قيسٍ في حَمَلِ بنِ بدرٍ وأَخيهِ عيينَةَ ـ وكانَ هوَ الذي قتلَهما يومَ جفرِ الهباءَةِ ـ قولُهُ [في « ديوان الحماسة » ١/ ٦٤ مِنَ الوافرِ] :

شَفَيْتُ ٱلنَّفْسَ مِنْ حَمَلِ بْنِ بَدْرٍ　　وَسَيْفِيْ مِنْ عُيَيْنَةَ قَدْ شَفَانِيْ

وَإِنْ أَكُ قَدْ شَفَيْتُ غَلِيْلَ صَدْرِيْ　　فَلَـمْ أَقْطَـعْ بِهِـمْ إِلاَّ بَنَـانِـيْ

وقالَ الحصينُ بنُ الحمامِ في مثلِهِ [في « الأغاني » ١٣/ ١٦٢ مِنَ الطَّويلِ] :

نُفَلِّـقُ هَـامـاً مِـنْ رِجَـالٍ أَعِـزَّةٍ　　عَلَيْنَا وَهُمْ كَانُوْا أَعَقَّ وَأَظْلَمَا

وقالَ العديلُ بنُ الفُرْخِ [في « ديوان الحماسة » ١/ ٢٠٨ مِنَ الطَّويلِ] :

وَإِنِّي وَإِنْ عَادَيْتُهُمْ أَوْ جَفَوْتُهُمْ　　لَتَأْلَمُ مِمَّا عَلَّ أَكْبَادَهُمْ كَبْدِيْ

---

(١) وتتمة الأبيات :

فَـإِنْ أَنْـتَ لَـمْ تَقْـدِرْ عَلَـىٰ أَنْ تُهِيْنَـهُ　　فَذَرْهُ إِلَىٰ ٱلْيَوْمِ ٱلَّذِيْ أَنْتَ قَادِرُهْ

وَقَـارِبْ إِذَا لَـمْ تَكُـنْ لَـكَ قُـدْرَةٌ　　وَصَمِّـمْ إِذَا أَيْقَنْـتَ أَنَّـكَ عَـاقِـرُهْ

وقالَ منصور النميريُّ للرشيدِ ، حينَما شدَّ وطأتَهُ علىٰ العلويِّينَ [في « الأغاني » ١٣/ ١٦٢ مِنَ الوافرِ] :

وَإِنَّـكَ حِيْـنَ تُبْلِغُهُـمْ أَذَاهُـمْ وَإِنْ ظَلَمُـوْا لَمُحْتَـرِقُ ٱلضَّمِيْـرِ

من قطعةٍ سبقَ بعضُها أواخرَ المجلسِ الثالثَ عشرَ ، وغايةُ الغاياتِ في الموضوعِ . . قولُ أَبي عُبادَةَ [في «ديوانه» ٢/ ١٢٩٩ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا ٱحْتَرَبَتْ يَوْماً فَفَاضَتْ دِمَاؤُهَا تَذَكَّرَتِ ٱلْقُرْبَىٰ فَفَاضَتْ دُمُوْعُهَا

ولَم ينسَ حظَّهُ الناظِمُ منهُ ، فقالَ [في « العُكبَريّ » ١/ ٧٩ مِنَ الوافرِ] :

وَكَيْفَ يَتِمُّ بَأْسُكَ فِيْ أُنَاسٍ تُصِيْبُهُمْ فَيُؤْلِمُكَ ٱلْمُصَابُ ؟!

وقالَ [في « العُكبَريّ » ٢/ ١١١-١١٢ مِنَ الوافرِ] :

بَنُـوْ كَعْـبٍ وَمَـا أَثَّـرْتَ فِيْهِـمْ يَـدٌ لَـمْ يُـدْمِهَـا إِلاَّ ٱلسِّـوَارُ
بِهَـا مِـنْ قَطْعِـهِ أَلَـمٌ وَنَقْـصٌ وَفِيْهَـا مِـنْ جَـلاَلَتِـهِ ٱفْتِخَـارُ
لَهُـمْ حَـقٌّ بِشِـرْكِـكَ فِـيْ نِـزَارٍ وَأَدْنَىٰ ٱلشِّرْكِ فِيْ أَصْلٍ جِوَارُ
لَعَـلَّ بَنِيْهِـمُ لِبَنِيْـكَ جُنْـدٌ فَـأَوَّلُ قُـرَّحِ ٱلْخَيْـلِ ٱلْمِهَـارُ[1]
وَأَنْـتَ أَبَـرُّ مَـنْ لَـوْ عُـقَّ أَفْنَـىٰ وَأَعْفَـىٰ مَـنْ عُقُـوْبَتُـهُ ٱلْبَـوَارُ
وَأَقْـدَرُ مَـنْ يُهَيِّجُـهُ ٱنْتِصَـارٌ وَأَحْلَـمُ مَـنْ يُحَلِّمُـهُ ٱقْتِـدَارُ

وقد سبقَ أَواخرَ المجلسِ الثاني بعضُ ما يتعلَّقُ بالعفوِ ، وحكمةُ ٱنتقامِهِ ﷺ مِنَ ٱليهودِ ، ومَنِّهُ علىٰ قريشٍ .

* * *

(١) القُرَّحُ: الخيل إذا ٱستوت وصارَ لها خمسُ سنينَ. المِهارُ ـ جمعُ مهرٍ ـ: وهوَ الصغيرُ من الخيلِ.

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ٢٤٨ مِنَ الطَّويلِ] :

أَلاَ كُلُّ سَمْحٍ غَيْرَكَ ٱلْيَوْمَ بَاطِلٌ ... وَكُلُّ مَدِيْحٍ فِيْ سِوَاكَ مُضَيَّعُ

كل مديح في غير الممدوح.. ضياع

معناهُ مِن قولِ ٱبنِ الروميِّ [في « ديوانهِ » ٤/ ١٤٢٥ مِنَ الطَّويلِ] :

فَكُلُّ مَدِيْحٍ لَمْ يَكُنْ فِيْ ٱبْنِ صَاعِدٍ ... وَلاَ فِـيْ أَبِيْـهِ صَـاعِـدٍ فَهْـوَ هَـابِـطُ

مروان بن أبي حفصة وغضب المهدي عليه

ويروى [في « تاريخ بغداد » ١٣/ ١٤٤] : أَنَّ مروانَ ٱبنَ أَبي حفصَةَ دخلَ علىٰ المهديِّ بعدَ موتِ معنِ بنِ زائدَةَ في جماعَةٍ مِنَ ٱلشعراءِ ، فيهم سلْمٌ الخاسِرُ وغيرُهُ ، فأَنشدَهُ مديحاً فيهِ ، فقالَ : مَن هـٰذا؟ قالَ : شاعرُكَ مروانُ ٱبنُ أَبي حفصَةَ ، فقالَ لَهُ المهديُّ : أَوَلستَ القائِلَ؟

[في « ديوانهِ » ٨٣ مِنَ الوافرِ] :

أَقَمْنَـا بِـٱلْيَمَـامَـةِ إِذْ يَئِسْنَـا ... مُقَـامـاً لاَ نُـرِيْـدُ بِـهِ زِيَـالاَ

وَقُلْنَا : أَيْنَ نَرْحَلُ بَعْدَ مَعْنٍ ؟ ... وَقَدْ ذَهَبَ ٱلنَّوَالُ فَلاَ نَوَالاَ!

فكيفَ جِئْتَ تطلُبُ نوالَنا ، وقد ذهبَ النوالُ في زعمِكَ؟! لا شيءَ لكَ عندَنا ، جُرُّوا برجلِهِ ، فجرُّوا برجلِهِ حتَّىٰ أَخرجوهُ .

فلمَّا كانَ العامُ المقبلُ . . تلطَّفَ حتَّىٰ دخلَ معَ الشعراءِ ، وإِنَّما كانَتِ الشعراءُ تدخُلُ علىٰ الخلفاءِ في يومٍ واحدٍ مِن كلِّ عامٍ ، وأَنشدَهُ قصيدَتَهُ التي ٱستهلَّها بقولِهِ [مِنَ الكاملِ] :

(طَرَقَتْكَ زَائِرَةً فَحَيِّ خَيَالَهَا)

يقولُ فيها [في « ديوانهِ » ٩٧ـ٩٩ مِنَ الكاملِ] :

مَلِـكٌ تَفَـرَّعَ نَبْعُـهُ مِـنْ هَـاشِـمٍ ... مَدَّ ٱلإِلَـٰهُ عَلَىٰ ٱلأَنَامِ ظِلاَلَهَا

جَبَـلٌ لأُمَّتِـهِ تَلُـوذُ بِـرُكْنِـهِ رَادَىٰ جِبَالَ عِـدَاتِـهِ فَـأَزَالَهَـا
هَـلْ تَعْلَمُـوْنَ خَلِيْفَـةً مِـنْ قَبْلِـهِ أَجْرَىٰ لِغَايَتِهِ ٱلَّتِيْ أَجْرَىٰ لَهَا ؟
أَفَتَطْمِسُوْنَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ نُجُوْمَهَا بِأَكُفِّكُمْ أَمْ تَسْتُرُوْنَ هِلاَلَهَا ؟
أَمْ تَجْحَدُوْنَ مَقَالَةً مِنْ رَبِّكُمْ جِبْرِيْـلُ بَلَّغَهَـا ٱلنَّبِـيَّ فَقَـالَهَـا

رضاه عنه وجلوسه بين يديه ليسمع مديح نفسه

فأنصتَ لها المهديُّ ، ولَم يزلْ يزحَفُ شيئاً فشيئاً ، كلَّما سمعَ شيئاً مِنها . . حتَّىٰ صارَ علىٰ البساطِ ؛ إعجاباً بِها ، وٱرتياحاً مِنها ، ثمَّ قالَ لَهُ : كَم بيتٌ هيَ؟ قالَ : مئَةُ بيتٍ ، فأمرَ لَهُ بمئَةِ أَلفِ درهَمٍ ، **وهيَ أَوَّلُ مئَةِ أَلفٍ أُعطيَها شاعرٌ في خلافَةِ بَني العبَّاسِ** [كما في « تاريخ بغداد » ١٣/ ١٤٥] .

الخلفاء تطلب من مروان بن أبي حفصة سماع مرثيته لمعن

ويروىٰ : أَنَّ مروانَ ٱبنَ أَبي حفصَةَ دخلَ علىٰ جعفرٍ البرمكيِّ ، فقالَ لَهُ : أَنشدني مرثيَّتَكَ في معنٍ ، فأَنشدَهُ ، حتَّىٰ فرغَ مِنَ ٱلقصيدَةِ ، ودموعُ جعفرٍ تتحادَرُ علىٰ خدَّيهِ ، فلمَّا فرغَ . . قالَ لَهُ جعفرٌ : هَل أَثابكَ عَليها أَحدٌ مِن ولدِهِ؟ قالَ : لا ، قالَ لَهُ : فَلَو كانَ معنٌ حيّاً . . كَم كانَ يثيبُكَ علَيها؟ قالَ : أَربَعَ مِئَةِ دينارٍ ، قالَ لَهُ : قد أَضعفْناها لكَ عنهُ ، وزِدْناكَ مثلَ ذلكَ ، فٱقبضْ مِنَ ٱلخازِنِ أَلفاً وستَّ مِئَةِ دينارٍ قبلَ أَن تنصرِفَ إِلىٰ رَحلِكَ ، فٱمتدَحَ جعفراً بأَبياتٍ ، وتسَلَّمَ المالَ .

ويقالُ [في « الأغاني » ٢٠/٥٦] : إِنَّهُ دخلَ علىٰ الرشيدِ ـ أَيضاً ـ فٱستنشدَهُ المرثيَةَ المذكورَةَ ، وبينَ يدي الرشيدِ سُكُرُجَّةٌ ، فملأَها مِن دموعِهِ[1] ، وهيَ عرضَةُ ذلكَ ، ولَولا خشيَةُ الإملالِ . .

(١) قالَ في « الأغاني » ٢٠/٥٦ فلمَّا ٱنتهىٰ مِن إنشادِها . . بكىٰ هارونُ الرشيدُ ، ولو كانَ بينَ يديهِ سُكُرُجَّةٌ لملأَها مِن دموعِهِ .

لذكرْتُها ، ولكنَّها موجودةٌ في كتبِ التواريخِ ؛ لأنَّها ومرثيَّةَ الحسينِ بنِ مطيرٍ[1] أحسنُ ما قيلَ في رثاءِ معنٍ ، ولقلَّما ذكرتُ قصيدَةَ مروانَ السابقَةَ . . إلاَّ تمثَّلتُ بقولِ أَبي تمَّامٍ [مِنَ الطَّويلِ] :

فَإِنْ أَنَا لَمْ يَمْدَحْكَ عَنِّيَ صَاغِراً　　عَدُوُّكَ فَاعْلَمْ أَنَّنِيْ غَيْرُ شَاعِرِ

وقولِ أَبي عُبادَةَ [في « ديوانهِ » ١١٦٩ مِنَ الكاملِ] :

لَيُوَاصِلَنَّكَ رَكْبُ شِعْرِيَ دَائِماً　　يَـرْوِيْـهِ فِيْـكَ لِحُسْنِـهِ ٱلأَعْـدَاءُ

وقولِ الناظِمِ [في « العُكبَريِّ » ٤/ ٥٣ مِنَ الطَّويلِ] :

وَأَسْمَـعُ مِـنْ أَلْفَـاظِـهِ اللُّغَـةَ الَّتِـيْ　　يَلَذُّ بِهَا سَمْعِيْ وَإِنْ ضُمِّنَتْ شَتْمِيْ

وقولِ ابنِ نباتَةَ السعديِّ [في « المثل السائر » ٢/ ٣٢٩ مِنَ البسيطِ] :

خُذْهَا إِذَا أُنْشِدَتْ فِيْ الْحَيِّ مِنْ طَرَبٍ　　صُـدُوْرُهَـا عُـرِفَـتْ مِنْهَـا قَـوَافِيْهَـا
يَنْسَىٰ لَهَا الرَّاكِبُ الْعَجْلَانُ حَاجَتَهُ　　وَيُصْبِـحُ الْحَـاسِـدُ الظَّمْـآنُ يَـرْوِيْهَـا

فإِنِّي بِها جِدُّ معجَبٌ ، علىٰ مخالفتِها لمذهَبي ومشرَبي .

رثاء أبي دلامة لأبي العباس السفاح وغضب المنصور عليه ثم رضاه عنه

ولمَّا ماتَ أَبو العبَّاسِ السفَّاحُ . . دخَلَ أَبو دلامَةَ علىٰ المنصورِ ، والناسُ يعزُّونَهُ ، فأَنشدَهُ [في « ديوانهِ » ٦٨ مِنَ الكاملِ] :

أَمْسَيْتَ بِالأَنْبَارِ يَا ٱبْنَ مُحَمَّدٍ　　لَمْ تَسْتَطِعْ عَنْ غَيْرِهَا تَحْوِيْلاَ
فَلَتَبْكِيَـنَّ لَـكَ النِّسَـاءُ بِعَبْـرَةٍ　　وَلَتَبْكِيَنَّ لَـكَ الرِّجَـالُ عَـوِيْـلاَ
مَاتَ النَّدَىٰ إِذْ مِتَّ يَا ٱبْنَ مُحَمَّدٍ　　فَجَعَلْتَهُ لَكَ فِيْ التُّرَابِ عَدِيْلاَ
إِنِّيْ سَأَلْتُ النَّاسَ بَعْدَكَ كُلَّهُمْ　　فَوَجَدْتُ أَسْمَحَ مَنْ سَأَلْتُ بَخِيْلاَ

---

(١) التي يقول فيها :

فَيَا قَبْرَ مَعْنٍ كَيْفَ وَارَيْتَ جُوْدَهُ　　وَقَدْ كَانَ مِنْهُ الْبَرُّ وَالْبَحْرُ مُتْرَعَا

أَلشِقْوَتِيْ أُخِّرْتُ بَعْدَكَ لِلَّتِيْ	تَدَعُ ٱلْعَزِيْزَ مِنَ ٱلرِّجَالِ ذَلِيْلاَ
فَلأَحْلِفَنَّ يَمِيْنَ حَقٍّ بَرَّةٍ	تَٱللهِ مَا أُعْطِيْتُ بَعْدَكَ سُوْلاَ

فأبكىٰ الناسَ ، وأغضبَ المنصورَ ، حتّىٰ قالَ لَهُ : لئِن سمعتُكَ تنشدُها مرَّةً أُخرىٰ . . لأقطعَنَّ لسانَكَ ، فقالَ أبو دلامَةَ : إِنَّهُ كانَ لي مكرِماً ، وقد جاءَني مِنَ البدوِ كَما جاءَ اللهُ بإخوةِ يوسفَ إليهِ ، فقُل أَنتَ كَما قالَ يوسفُ : لا تثريبَ عليكَ ، فسرِّيَ عَنِ المنصورِ ، وقالَ : قد أَقَلْناكَ يا أَبا دلامَةَ ، فسلْ حاجتَكَ ، فقالَ : قد أمر لي أبو العبَّاسِ بعشرَةِ آلافِ درهمٍ ، وخمسينَ ثوباً ، وهوَ مريضٌ ، فلَم أَقبِضْها ، فقالَ المنصورُ : مَن يعلَمُ ذلكَ؟ فشهدَ لَهُ سليمانُ بنُ مجالدٍ ، وأَبو الجهمِ ، فقالَ المنصورُ : ٱدفعَها إِليهِ ، وسيِّرْهُ إِلىٰ هٰذا الطاغيَةِ ـ يعني عمَّهُ عبدَ اللهِ بنَ عليٍّ ، وكانَ قد أَظهرَ الخلافَ ، وخرجَ بناحيةِ (الشامِ) ـ فوثبَ أَبو دلامَةَ ، وقالَ : أُعيذُكَ باللهِ أَنْ أَخرجَ معَهُم ، فإِنِّي واللهِ لمشؤُومٌ ، فقالَ لَهُ المنصورُ : ٱمضِ فإِنَّ يُمْنَنَا يغلِبُ شؤمَكَ ، فقالَ : ما أُحِبُّ لكَ أَن تجرِّبَ منِّي ذلكَ علىٰ هٰذا العسكرِ ؛ فإِنِّي لا أَدري أَيُّهُما يغلِبُ ، يُمنُكَ أَو شُؤْمي ، غيرَ أَنِّي بنفسي أَدرىٰ وأَعرَفُ وأَطولُ تجربَةً ، فقالَ المنصورُ : دَعني مِن هٰذا ، فمالَكَ بدٌّ مِنَ ٱلخروجِ ، قالَ : فإِنِّي أَصدُقُكَ الآنَ ، شهدْتُ واللهِ تسعَةَ عشرَ عسكراً ، هُزِمَت كلُّها ، وكنتُ أَنا سببَ هزيمتِها ، فإِنْ شئتَ الآنَ علىٰ بصيرَةٍ أَن يكونَ عسكرُكَ تمامَ العشرينِ . . فٱفعَل ، فٱستفرعَ المنصورُ ضحكاً ، وأَذِنَ لَهُ أَن يتخلَّفَ .

الحر تكفيه الإشارة

وما زالَ الشِّعرُ وأَهلُهُ في الاعتبارِ الأَوَّلِ عندَ الأُمويِّينَ والعباسيِّينَ يتأثَّرونَ بأَقوالِهم ، ويقبلونَ شفاعاتِهم ، ويُغْضُونَ عَن هفواتِهم ،

ويتنافسونَ في ٱصطناعِهِم ، ويتحاسَدونَ علىٰ بناتِ أفكارِهِم ، وما ذلكَ إلاَّ لكرَمِ طباعِهِم ؛ فالكريمُ هوَ الذي يتأثَّرُ بالكلامِ ، ويهربُ مِن الملامِ ، وقد قالَ جلَّ شأنُهُ : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات : ٥٥] .

وذلكَ أنَّ المؤمنَ لا يكونُ إلاَّ كريماً ، والكريمُ ينفعِلُ بالكلامِ ، ولا سيَّما إذا كانَ بليغاً ، ولهٰذا ٱستحبُّوا البلاغَةَ في الخطابَةِ ، وحسبُكَ أنَّ كثيراً مِن ظَلَمَتِهِم وجبَّاريهِم يحقِنُ الدماءَ الغزيرَةَ لِكَلِمَةٍ تملأُ سمعَهُ مِنَ ٱلشاعِرِ ، فأمَّا الآنَ . . فقد ذهبَتْ العروبيَّةُ ، بلِ ٱنمسخَتِ ٱلإنسانيَّةُ ، قالَ ٱبنُ الروميِّ [في « ديوانهِ » ٢/٦٨٩ مِنَ الطَّويلِ] :

أَرَىٰ ٱلنَّاسَ مَخْسُوْفاً بِهِمْ غَيْرَ أَنَّهُمْ ... عَلَىٰ ٱلأَرْضِ لَمْ يُقْلَبْ عَلَيْهِمْ صَعِيْدُهَا

أمثلة على تأثير الشعر ونفوذه عند أصحاب النفوس الأبية

ومِنَ ٱلأَدلَّةِ علىٰ تأثيرِ الشِّعرِ ونفوذِهِ [كما في « الكامل في أسماء الرجال » ١/٤٣٠] : ما فعلَهُ الحارثُ ٱبنُ أَبي شمرٍ الغسانيُّ ، فلقَد أَسرَ شَاسَ بنَ عبدَةَ في تسعينَ مِن بني تميمٍ وغيرِهم مِنَ ٱلعَربِ ، فقدِمَ عليهِ علقمَةُ الفحلُ وٱستعطفَهُ بقصيدتِهِ لَهُ التي يقولُ منها [في « ديوانِهِ » ٣٩ـ٤٠ـ٤٨ مِنَ الطَّويلِ] :

إِلَىٰ ٱلْحَارِثِ ٱلوَهَّابِ أَعْمَلْتُ نَاقَتِيْ ... لِكَلْكَلِهَا وَٱلْقُصْرَيَيْنِ وَجِيْبُ[1]

هَدَانِيْ إِلَيْكَ ٱلْفَرْقَدَانِ وَلاَحِبٌ ... لَهُ فَوْقَ إِعْلاَمِ ٱلْمِتَانِ عُلُوْبُ[2]

---

(١) القصريانِ : ضلعانِ قصيران تليانِ الخاصرتينِ . الوجيبُ : الرعدةُ والاضطرابُ من شدَّةِ السيرِ .

(٢) هداني إليكَ الفرقدانِ : يعني أنهُ سرىٰ بالليلِ في سيرهِ إليهِ فاهتدىٰ بالنجومِ . اللاحبُ : الطريقُ الواضحُ . المتانُ ـ جمعُ متنٍ ـ : وهوَ المكانُ الصلبُ المستوي . العُلوبُ ـ جمعُ عَلبٍ ـ : وهوَ الأثرُ ، وإنما أرادَ أن يصفَ هذا=

فَـلاَ تَحْـرِمَنِّيْ نَـائِـلاً عَـنْ جِنَـابَـةٍ فَإِنِّي ٱمْرُؤٌ وَسْطَ ٱلْقِبَابِ غَرِيْبُ[1]
وَفِي كُلِّ حَيٍّ قَدْ خَبَطْتَ بِنِعْمَةٍ فَحُقَّ لِشَأْسٍ مِنْ نَدَاكَ ذَنُوْبُ[2]

فقالَ الحارثُ لَهُ : نعم ، ونعمةُ عينٍ ، وأَطلقَ لَهُ أَخاهُ شأساً ، وأَسرىٰ تميمٍ بأَسرِهِم ، ومَن سأَلَهُ فيهِم مِن غيرِهِم .

وشفعَ الفرزدَقُ إِلىٰ تميمِ بنِ مرٍّ[3] بقولِهِ [في « الأغاني » ١٠/٣٥٥ مِنَ الطَّويلِ] :

تَمِيْمُ بْنُ مُرٍّ لاَ تَكُوْنَنَّ حَاجَتِيْ بِظَهْـرٍ فَـلاَ يَعْـيَ عَلَـيَّ جَـوَابُهَـا
فَهَبْ لِيْ خُنَيْساً وَٱحْتَسِبْ فِيْهِ مِنَّةً لِعَبْـرَةِ أُمٍّ مَـا يَسُـوْغُ شَـرَابُهَـا
أَتَتْنِي فَعَاذَتْ يَا تَمِيْمُ بِغَالِبٍ وَبِٱلْحُفْرَةِ ٱلسَّافِي عَلَيْهَا تُرَابُهَا
وَقَـدْ عَلِـمَ ٱلأَقْـوَامُ أَنَّـكَ مَـاجِـدٌ وَلَيْثٌ إِذَا مَا ٱلْحَرْبُ شَبَّ شِهَابُهَا

= الطريقَ بأنه متصلٌ بالوعورِ والأماكنِ الغليظةِ ، وإنما تجشَّمَ ركوبَهُ إليهِ . لِما يرجو من معروفهِ وفضلهِ .

(١) الجنابَةُ : الغُربةُ .

(٢) قد خبطتَ بنعمةٍ : أي أنعمتَ وتفضَّلتَ . الذَّنوبُ : الدلوُ العظيمة ، وضربَها مثلاً للحظِّ والنصيبِ .

(٣) في « الأغاني » : تميم بن زيد ، وللأَبياتِ قصَّةٌ حاصلُها :

أَنَّ تميمَ بنَ زيدٍ غزا (الهندَ) في جيشٍ ، فجمَّرَهُم ، وفي جيشِهِ رجلٌ يقالُ لهُ : حُبَيْشٌ ، فلمَّا طالَتْ غيبَتُهُ علىٰ أُمِّهِ . ٱشتاقَتْهُ ، فسأَلَتْ عمَّن يُكَلِّمُ لها تميمَ بنَ زيدٍ أَن يُقْفِلَ ٱبنَها ، فقيلَ لها : عليكِ بالفرزدَقِ فٱستجيري بقبرِ أَبيهِ ـ وكانَ قبرُ أَبيهِ مَعَاذاً للنَّاسِ ـ فأَتَتْ قبرَ غالبٍ بكاظمَةٍ ، حتَّىٰ علمَ الفرزدقُ مكانَها .

ثُمَّ أَتتهُ وطلبَتْ إليهِ حاجتَها ؛ فكتبَ إلىٰ تميمِ بنِ زيدٍ هذهِ الأَبياتِ . وتمامُ القصَّةِ مذكورةٌ فوقَ .

فأَطلقَ لهُ مَن في الجيشِ مِن خنيسٍ وحبيشٍ ؛ لاشتباهِ الاسمِ عليهِ ، فأَخذَ بالاحتياطِ .

وشفعَ أَبو تمَّامٍ إِلىٰ المعتصِمِ في عقدِ البيعَةِ للواثِقِ بولايَةِ العهْدِ ، فأَطلبَهُ ، وذلكَ حيثُ يقولُ [في « ديوانهِ » ١/ ٣٤٤-٣٤٥ مِنَ الكاملِ] :

فَاشْدُدْ بِهَارُوْنَ الْخِلاَفَةَ إِنَّهُ سَكَنٌ لِوَحْشَتِهَا وَدَارُ قَرَارِ
بِفَتَىٰ بَنِيْ الْعَبَّاسِ وَالْقَمَرِ الَّذِيْ حَفَّتْهُ أَنْجُمُ يَعْرُبٍ وَنِزَارِ(١)
هُوَ نَوْءُ يُمْنٍ مِنْكُمُ وَسَعَادَةٍ وَسِرَاجُ لَيْلٍ عِنْدَكُمْ وَنَهَارِ(٢)
فَاقْمَعْ شَيَاطِيْنَ النِّفَاقِ بِمُهْتَدٍ تَرْضَىٰ الْبَرِيَّةُ هَدْيَهُ وَالْبَارِيْ(٣)
لِيَسِيْرَ فِيْ الآفَاقِ سِيْرَةَ رَأْفَةٍ وَيَسُوْسَهَا بِسَكِيْنَةٍ وَوَقَارِ

وتشفَّعَ بنو تغلبَ بأَبي تمَّامٍ إِلىٰ مالكِ بنِ طوقٍ ، وكانوا قد أَفسدوا ، وعاثُوا ، فتقدَّمَ بقصيدَةٍ يقولُ فيها [في « ديوانهِ » ١/ ١٠٦-١٠٧ مِنَ الكاملِ] :

وَرَأَيْتَ قَوْمَكَ وَالإِسَاءَةُ مِنْهُمُ جَرْحَىٰ بِظُفْرٍ لِلزَّمَانِ وَنَابِ

---

(١) يَعربٌ : أبو اليمانيةِ القحطانيَّةِ . نزارٌ : أبو النزاريَّةِ العدنانيَّةِ . والواثقُ قحطانيٌّ من جهةِ أخوالهِ ، ونزاريٌّ من جهةِ آبائِهِ ؛ لأن هاشمَ بن عبدِ منافٍ أبا العبَّاسيِّيْنَ الأعلى تزوَّجَ سلمىٰ بنتَ يزيدَ من بني النَّجار ، ثم من الخزرجِ قبيلةٌ يمانيةٌ كانت في يثربَ ، وهم والأوسُ أنصارُ النبيِّ ﷺ في الإسلامِ .

(٢) النوءُ : طلوعُ نجمٍ بعد غروبِ آخرَ . سراجُ الليلِ والنهارِ : القمرُ والشمسُ .

(٣) إقمعْ : اقهرْ . شياطينَ النفاقِ : لعلَّهُ أراد بهم الذين أظهروا الإسلامَ ثم ثاروا عليه ، أو لعلَّهُ يشيرُ إلى المكيدَةِ التي دبَّرها في أثناءِ الزحفِ على (عموريةَ) بعضُ القوَّادِ المسلمينَ لاغتيالِ المعتصمِ ومبايعةِ العبَّاسِ بن المأمونِ ، فأخفقَ تدبيرُهم ، وانتقمَ المعتصمُ منهم ، وحبسَ العبَّاس بن المأمونِ .

هُمْ صَيَّرُوْا تِلْكَ ٱلْبُرُوْقَ صَوَاعِقاً   فِيْهِمْ وَذَاكَ ٱلْعَفْوَ سَوْطَ عَذَابِ
فَأَقِلْ أُسَامَةَ جُرْمَهَا وَٱصْفَحْ لَهَا   عَنْهُ وَهَبْ مَا كَانَ لِلْوَهَّابِ
فَهُمُ بِعَيْنِ أُبَاغَ رَاشُوْا لِلْوَغَىٰ   سَهْمَيْكَ عِنْدَ ٱلْحَارِثِ ٱلْحَرَّابِ(١)
فَمَضَتْ كُهُوْلُهُمُ وَدَبَّرَ أَمْرَهُمْ   أَحْدَاثُهُمْ تَدْبِيْرَ غَيْرِ صَوَابِ
لاَ رِقَّةُ ٱلْحَضَرِ ٱللَّطِيْفِ غَذَتْهُمُ   وَتَبَاعَدُوْا عَنْ فِطْنَةِ ٱلأَعْرَابِ
فَإِذَا عَجَمْتَهُمُ وَجَدْتَ لَدَيْهِمُ   كَرَمَ ٱلنُّفُوْسِ وَقِلَّةَ ٱلآدَابِ(٢)
لَكَ فِيْ رَسُوْلِ ٱللهِ أَعْظَمُ أُسْوَةٍ   وَأَجَلُّهَا فِيْ سُنَّةٍ وَكِتَابِ
أَعْطَىٰ ٱلْمُؤَلَّفَةَ ٱلْقُلُوْبِ رِضَاهُمُ   كَرَمَاً وَرَدَّ أَخَايِذَ ٱلأَحْزَابِ(٣)

فوقعَت مِن مالكٍ أَحسنَ موقعٍ ، فأَجزلَ ثوابَهُ ، وقبِلَ شفاعتَهُ ، وردَّ القومَ إِلىٰ منازِلِهم ، بعدَ اليأْسِ المستحكِمِ ، والعداوَةِ الهائِلَةِ .

وقالَ أَبو عبادَةَ [في « ديوانه » ١/ ٣٦٥ مِنَ الكاملِ] :

إِنْ أَبْقَ أَوْ أَهْلِكْ فَقَدْ نِلْتُ ٱلَّتِيْ   مَلأَتْ صُدُوْرَ أَقَارِبِيْ وَعِدَائِيْ
وَغَدَوْتُ نَدْمَانَ ٱلْخَلاَئِفِ نَابِهاً   ذِكْرَىٰ وَنَاعِمَةً بِهِمْ نَشَوَاتِيْ

---

(١) عينُ أُباغٍ : وادٍ على طريقِ الشامِ إِلى الفراتِ . راشوا : أَلزقوا عليها الريشَ . وقولُهُ : راشوا سهميك : أَرادَ أَعانوكَ ؛ لأَنَّ السهمَ لا يُنتفَعُ بهِ حتى يُراشَ . الحارثُ الحرَّابُ : وصفٌ لكلِّ ملكٍ يقالُ لهُ الحارثُ ، وقد جاءَ الحارثُ بنُ أَبي شمرٍ الغسَّانيُّ إِلىٰ (عينِ أُباغٍ) لمحاربةِ النعمانِ بن المنذرِ الذي ناصرَهُ بنو تغلبَ فانتصرَ على الحارثِ وهزمَهُ .

(٢) عجمتَهُم : عركتَهم لتختبرَهُم .

(٣) المؤلَّفةُ القلوبِ : قومٌ دخلوا في الإِسلامِ رغبةً في الغنائِمِ والعطاءِ ، وكان منهم جماعةٌ من قريش ، وجماعةٌ من غيرهم . الأَخايذُ : ما يؤخذُ من العدوِّ في الحربِ . الأَحزابُ : كلُّ من تحزَّبَ على الإِسلامِ من مشركينَ ويهودَ .

وَشَفَعْتُ فِيْ الأَمْرِ ٱلْجَلِيْلِ إِلَيْهِمُ   بَعْدَ ٱلْجَلِيْلِ فَأَنْجَحُوْا طَلَبَاتِيْ
وَصَنَعْتُ فِيْ ٱلْعَرَبِ ٱلصَّنَائِعَ عِنْدَهُمْ   مِـنْ رِفْـدِ طُـلاَّبٍ وَفَـكِّ عُنَـاةِ

قل للمليحة في الخمار الأسود

والأمرُ في ذلكَ أكثرُ مِن أن يتناولَهُ الضبطُ ، أو يحصيَهُ القلَمُ ، ومِن الغايةِ فيهِ ما ذكرهُ ٱبنُ خَلِّكانَ [في « وفيات الأعيان » ٤/١٦١] وغيرُهُ : أَنَّ أَحدَ التجَّارِ قدمَ (المدينةَ) المشرَّفَةَ بحملٍ مِن الخُمُرِ السودِ ، فكسدَت ، فضاقَ صدرُهُ ، وأَتىٰ مسكينَ الدارميَّ ، فقصَّ عليهِ القصَّةَ ، فقالَ : كيفَ أَعملُ وأَنا قد تركتُ الشعرَ؟ ـ وكانَ تزهَّدَ ، وٱنقطعَ في المسجدِ الشريفِ ـ فقالَ التاجرُ : أَنا غريبٌ ، ومالي بضاعَةٌ سوىٰ هـٰذا الحِملِ ، وقد دلَّني الناسُ عليكَ ، وقالوا : ما يُنَفِّقُها لي غيرُكَ ، ولَم يزَل يتضرَّعُ إِليهِ.. حتَّىٰ خرجَ مِن المسجدِ ، وقالَ [مِنَ الكاملِ] :

قُلْ لِلْمَلِيْحَةِ فِي ٱلْخِمَارِ ٱلأَسْوَدِ   مَـاذَا أَرَدْتِ بِنَـاسِـكٍ مُتَعَبِّـدِ
قَـدْ كَـانَ شَمَّـرَ لِلصَّـلاَةِ ثِيَـابَـهُ   حَتَّىٰ قَعَدْتِ لَهُ بِبَابِ ٱلْمَسْجِدِ

فشاعَ بينَ الناسِ ، وتغالتِ النساءُ في الخُمُرِ السودِ ولم تبقَ بـ(المدينةِ) ظريفةٌ إلاَّ طلبَتْ خماراً أَسود ، فباعَها بأَضعافِ أثمانِها ، ورجعَ مسكينُ إِلىٰ ما كانَ ٱنقطعَ إِليهِ مِن التعبُّدِ .

المديح لا يليق إلا بك

والبيتُ الذي نتكلَّمُ فيهِ يشبهُ قولَ عليِّ بنِ عبدِ العزيزِ [مِنَ الكاملِ] :

وَأَرَىٰ ٱلْمَدِيْحَ إِذَا عَدَاكَ نَقِيْصَةً   فَـأَعَـافُـهُ وَلَـوَ ٱنَّـهُ فِـيْ حَـاتِـمِ
فَإِذَا ٱمْتَدَحْتُ سِوَاكَ قَالَ ٱلشِّعْرُ لِيْ   لَمْ تَرْعَ حَقِّيْ إِذْ أَبَحْتَ مَحَارِمِيْ

وقالَ الناظِمُ [في « العُكبَريِّ » ١/٢٥٥ مِنَ الكاملِ] :

إِنَّ ٱلْقَرِيْضَ شَجٍ بِعِطْفِيَ عَائِذٌ   أَنْ لاَ يَكُوْنَ سِوَاءَكَ ٱلْمَمْدُوْحُ

وقالَ [في « العُكبَرِيّ » ١/ ٣٦٥ مِنَ الوافرِ] :

وَظَنُّـونِـيْ مَـدَحْتُهُـمْ قَـدِيْمـاً   وَأَنْـتَ بِمَـا مَـدَحْتُهُـمْ مُـرَادِيْ

وقالَ [في « العُكبَرِيّ » ٢/ ٣٧٨ مِنَ البسيطِ] :

أَحْيَيْتَ لِلشُّعَرَاءِ الشِّعْرَ فَامْتَدَحُوْا   جَمِيْعَ مَنْ مَدَحُوْهُ بِالَّذِيْ فِيْكَا

وقالَ كثيِّرٌ [في « ديوانهِ » ٣٠٢ مِنَ الطَّويلِ] :

مَتَىٰ مَا أَقُلْ فِيْ آخِرِ الدَّهْرِ مِدْحَةً   فَمَا هِيَ إِلاَّ لابْنِ لَيْلَىٰ الْمُكَرَّمِ

وقالَ أَبو نُواسٍ [في « ديوانهِ » ٥٨١ مِنَ الطَّويلِ] :

وَإِنْ جَرَتِ الأَلْفَاظُ مِنَّا بِمِدْحَةٍ   لِغَيْرِكَ إِنْسَاناً فَأَنْتَ الَّذِيْ نَعْنِيْ

من كبائر الذنوب وضع المديح في غير محله

ثمَّ إنَّ وضعَ المدحِ في غيرِ محلِّهِ مِن كبائرِ الذنوبِ ، وقبائحِ العيوبِ ، جنايةٌ علىٰ العلمِ ، وإهانةٌ للأدبِ ، وانغماسٌ في المهانَةِ ، وتدسُّسٌ في النذالَةِ ، وتعلُّقٌ بالكذبِ ، وأَخذٌ بمجامعِ النفاقِ .

وقد قالَ زهيرٌ [مِنَ البسيطِ] :

وَإِنَّ أَصْـدَقَ بَيْـتٍ أَنْـتَ قَـائِلُـهُ   بَيْتٌ يُقَالَ إِذا أَنْشَدْتَهُ : صَدَقَا[1]

ومِن قضاءِ ابنِ الخطَّابِ في تفضيلِ زهيرٍ [في « طبقات فحول الشعراء » ١/٦٣] : أَنَّهُ لا يمدحُ أَحداً إِلاَّ بما فيهِ ، كما سبقَ في كثيرٍ مِمَّا يتعلَّقُ بهِ في المجلسِ الثالثِ ، عندَ قولِهِ [في « العُكبَرِيّ » ١/ ٣١٠ مِنَ المنسرحِ] :

قَدْ أَجْمَعَتْ هَـٰذِهِ الْخَلِيْقَةُ لِيْ   أَنَّـكَ يَـا ابْـنَ النَّبِـيِّ أَوْحَـدُهَـا

---

(١) نسبَ صاحبُ « العقدِ الفريد » (٥/٣٢٦) البيتَ لزهيرٍ ، وليسَ في « ديوانهِ » ، وإنَّما هوَ في « ديوانِ حسان بنِ ثابتٍ » (٤٣٠) .

وقد قالَ أبو تمَّامٍ [في « ديوانهِ » ٢/ ٢٦٢ مِنَ الكاملِ] :

عَيَّـاشُ إِنَّـكَ لَلَّئِيـمُ وَإِنَّنِـي   إِذْ صِرْتَ مَوْضِعَ مَطْلَبِي لَلَئِيمُ

وقالَ الناظِمُ [في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ١٤٩ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا ٱلْفَضْلُ لَمْ يَرْفَعْكَ عَنْ شُكْرِ نَاقِصٍ   عَلَىٰ هِبَةٍ فَٱلْفَضْلُ فِيْمَنْ لَهُ ٱلشُّكْرُ

ومعناهُ : إذا لم يرفعْكَ الأدبُ عَن شكرِ الناقصِ .. فذلكَ الناقصُ هوَ أفضلُ منكَ .

وللهِ دَرُّ أبي عُبادَةَ في قولِهِ [في « ديوانهِ » ١/ ٢٩ مِنَ الكاملِ] :

خَطَبَ ٱلْمَدِيحَ فَقُلْتُ: خَلِّ طَرِيقَهُ   لِيَجُوزَ عَنْكَ فَلَسْتَ مِنْ أَكْفَائِهِ

وقالَ غيرُهُ [مِنَ الطَّويلِ] :

مَدَحْتُهُمُ فَٱسْتُقْبِحَ ٱلْمَدْحُ فِيهِمُ   وَيَا رُبَّ جِيْدٍ لاَ يَلِيْقُ بِهِ ٱلْعِقْدُ

فعلىٰ الحرِّ أن يحترمَ نفسَهُ ، ويربأَ بها عَنِ الخسَّةِ ؛ فقد قالَ حاتِمٌ [في « شرحِ ديوانهِ » ٨١ مِنَ الطَّويلِ] :

وَنَفْسَكَ أَكْرِمْهَا فَإِنَّكَ إِنْ تَهُنْ   عَلَيْكَ فَلَنْ تَلْقَىٰ لَهَا ٱلدَّهْرَ مُكْرِمَا

وقالَ الحسينُ بنُ مطيرٍ [في « ديوانهِ » ٥٨ مِنَ الطَّويلِ] :

وَنَفْسَكَ أَكْرِمْ عَنْ أُمُوْرٍ كَثِيْرَةٍ   فَمَا لَكَ نَفْسٌ بَعْدَهَا تَسْتَعِيْرُهَا

وقالَ آخرُ [وهو منقر بن فروة المنقري في « البيان والتبيين » ١/ ٤٩٨ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا ٱلْمَرْءُ إِلاَّ حَيْثُ يَجْعَلُ نَفْسَهُ   فَفِي صَالِحِ ٱلأَخْلاَقِ نَفْسَكَ فَٱجْعَلِ

وقالَ الحماسيُّ [مِنَ الوافرِ] :

نُحِبُّ ٱلشَّيْءَ ثُمَّ نَصُدُّ عَنْهُ مَخَافَةَ أَنْ يَكُونَ بِهِ مَقَالُ
مَخَافَةَ أَنْ يُقَالَ لَنَا فَنَخْزَىٰ وَنَعْرِفُ مَا تُسَبُّ بِهِ ٱلرِّجَالُ

وقد ٱنحطَّ مقدارُ الشمَّاخِ ، وهوَ مِن أَصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ بقولِهِ لعرابَةَ [في « ديوانهِ » ٣٣٦ مِنَ الوافرِ] :

إِذَا مَا رَايَةٌ رُفِعَتْ لِمَجْدٍ تَلَقَّاهَا عَرَابَةُ بِٱلْيَمِيْنِ

وقولِهِ(١) [من الوافر] :

إِذَا مَا رَايَةٌ رُفِعَتْ لِمَجْدٍ وَقَصَّرَ مُبْتَغُوهَا عَنْ مَدَاهَا
وَضَاقَتْ أَذْرُعُ ٱلْمُثْرِينَ عَنْهَا سَمَا أَوْسٌ إِلَيْهَا فَٱحْتَوَاهَا

وقد مرَّ في المجلسينِ الثالثِ ، والحادي عشرَ شيٌ مِن حديثِ الشمَّاخِ .

الشعر عند العرب غالي القيمة لا يوضع إلا عند من يستحقه

ولقد كانَ الشعرُ غاليَ القيمَةِ عندَ العربِ ، لا تضعُهُ إلاَّ عندَ مَن يستحقُّهُ ، ولا تجودُ بالمدحِ منهُ إلاَّ عَن دافعٍ قويٍّ ، كأَنْ لا تجدَ ما يقومُ بالمكافأَةِ سواهُ علىٰ جلائِلِ الصنائِعِ ، فقد أَحسنَ المعلَّىٰ إِلىٰ ٱمرىءِ القيسِ حينَما أَجارَهُ مِنَ ٱلمنذرِ بنِ ماءِ السماءِ ؛ إِذ طلبَهُ ليثأَرَ منهُ بأَخويهِ الذَينِ قتلَهما بـ(ديرِ مَرينا) ، فلم يجدْ لمجازاتِهِ أَكبرَ مِن أَن يمدحَ رهطَهُ بقولِهِ [في « شرحِ ديوانهِ » ٢٠٤ مِنَ الوافرِ] :

أَقَرَّ حَشَا ٱمْرِىءِ ٱلْقَيْسِ بْنِ حِجْرٍ بَنُو تَيْمٍ مَصَابِيحُ ٱلظَّلَامِ

(١) البيت من شواهد « الإيضاح في علوم البلاغة » ١٩٩ لبشر بن حازم .

ومِن نفوذِ الشعرِ إلىٰ القلوبِ ، وسلطانِهِ علىٰ النفوسِ ، وسيرورتِهِ في البلادِ ، صارَ ذلكَ الوصفُ لقباً راسخاً لهم مِن ذلكَ اليومِ .

وقالَ أيضاً لسعدِ بنِ الضبابِ [في «شرحِ ديوانهِ» ١٠٩ مِنَ الوافرِ] :

سَأَجْزِيْكَ ٱلَّذِيْ دَافَعْتَ عَنِّيْ وَمَا يَجْزِيْكَ عَنِّيْ غَيْرُ شُكْرِيْ

فأفادَ أنَّ شكرَهُ النهايَةُ في المجازاةِ ، والغايةُ التي لا فوقَها للمكافأةِ ، وكثيراً ما نجدُ الشاعرَ يشتكي تقصيرَ ممدوحِهِ بهِ ، وفي طيِّ ذلكَ الاعترافُ بدناءَةِ الهمَّةِ ، وزمانَةِ المروءَةِ ، وإلاَّ . . فلو كانَ حرّاً . . لأكرمَ نفسَهُ وأدبَهُ عَنِ آمتداحِ مَن لا يعرفُ مقاديرَ الكلامِ . إذن ، فلمْ يفعلْ بهِ الممدوحُ إلاَّ ما هوَ أهلٌ لهُ مِنَ ٱلاحتقارِ ، والإطِّراحِ .

وصيـة الحطيئـة عنـد وفاته

وفي خبرِ الحطيئةِ المشهورِ : أنَّهُ قالَ وهوَ يجودُ بنفسِهِ(١) [كما في «الأغاني» ٢/١٨٩] : لا أجزَعُ علىٰ شيءٍ ، جَزَعي علىٰ جيِّدِ المديحِ يوضَعُ فيمَن ليسَ لهُ بأهلٍ .

---

(١) لمَّا حضرَتِ ٱلحطيئةَ الوفاةُ . . ٱجتمعَ إليهِ قومُهُ ، فقالوا : يا أبا مُلَيكَةَ أَوْصِ .

قالَ : ويلٌ للشِّعرِ مِنَ الرُّواةِ السُّوءِ . قالوا : أَوصِ يرحمُكَ اللهُ .

قالَ : مَنِ الذي يقولُ :

إِذَا أَنْبَضَ ٱلـرَّامُـوْنَ عَنْهَـا تَـرَنَّـمَـتْ تَـرَنُّـمَ ثَكْلَـىٰ أَوْجَعَتْهَـا ٱلْجَنَـائِزُ

قالوا : الشمَّاخُ . قالَ : أبلغوا غطفانَ أنَّهُ أشعر العربِ .

قالوا : ويحكَ أهذهِ وصيَّةٌ ؟!

قالَ : أبلغوا أهلَ ضابىءٍ أنَّهُ شاعرٌ حيثُ يقولُ :

لِكُـلِّ جَـدِيْـدٍ لَـذَّةٌ غَيْـرَ أَنَّنِـيْ وَجَدْتُ جَدِيْدَ ٱلْمَوْتِ غَيْرَ لَذِيْذِ =

وفي غيرِ موضعٍ مِن هـٰذهِ المجموعَةِ أَفضنا في مذمَّةِ الدناءَةِ ، ذم الكذب ومعابَةِ التصنُّعِ ، ومقتِ الرياءِ ، وتقبيحِ التلوُّنِ ، وقد قالَ جلَّ ثناؤُهُ : ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾

[الشعراء : ٢٢٤ـ٢٢٧] .

= قالوا : أتَّقِ اللهَ ، ودَعْ عنكَ هذا . قالَ :

اَلشِّعْـرُ صَعْـبٌ وَطَـوِيـلٌ سُلَّمُـهْ ... إِذَا ٱرْتَقَـىٰ فِيـهِ ٱلَّـذِي لاَ يَعْلَمُـهْ
زَلَّـتْ بِـهِ إِلَـىٰ ٱلْحَضِيـضِ قَـدَمُـهْ ... يُـرِيـدُ أَنْ يُعْـرِبَـهُ فَيُعْجِمُـهْ

قيلَ : يا أَبا مُليكَةَ . . أَلكَ حاجَةٌ ؟ قالَ : لا واللهِ ، ولكن أَجزعُ علىٰ المديحِ الجيِّدِ يُمدَحُ بِهِ منَ ليسَ لَهُ أَهلاً .

قالوا : فَمن أَشعرُ الناسِ ؟ فأَومأَ إِلى فيهِ ، وقالَ : هَذا الجُحَيْرُ إذا طَمِعَ .

قالوا : قُلْ : لا إلـٰهَ إلاَّ اللهُ . فقالَ :

قَـالَـتْ وَفِيْهَـا حِيْـدَةٌ وَذُعْـرُ ... عَـوذٌ بِـرَبِّـي مِنْكُـمْ وَحِجْـرُ

قيلَ لهُ : فما تقولُ في عبيدِكَ ؟ قالَ : هُم عبيدٌ قِنٌّ ما عاقَبَ الليلُ والنهارُ .

قيلَ : فأَوصِ للفقراءِ بشيءٍ . قالَ : أُوصيهم بالإلحافِ في المسأَلَةِ ؛ فإنَّها تجارَةٌ لا تبورُ ، وأَستُ المسؤولِ أَضيقُ .

وتعاقَبَ القولُ مع الحطيئة إلى أنْ قالوا : فهلَ لكَ شيءٌ تعهدُ فيهِ غيرَ هذا ؟ قالَ : تحملوني علىٰ أَتانٍ ، وتتركوني راكبها حتَّىٰ أَموتَ ؛ فإنَّ الكريمَ لا يموتُ علىٰ فراشِهِ ، والأَتانُ مركبٌ لم يَمُتْ عليهِ كريمٌ قطُّ .

فحملوهُ علىٰ أَتانٍ ، وجعلوا يذهبونَ بِهِ ويجيؤونَ . . حتَّىٰ ماتَ وهوَ يقولُ :

لاَ أَحَـدٌ أَلأَمَ مِـنْ حُطَيْئَـهْ ... هَجَـا بَنِيْـهِ وَهَجَـا ٱلْمُـرَيْئَـهْ
مِـنْ لُـؤْمِـهِ مَـاتَ عَلَـىٰ فُـرَيْئَـهْ

انظر « فصل المقال في شرح كتاب الأمثال » (١/٣٢٣) .

وقالَ بعضُ الشعراءِ [في « المستطرف » ٢/١٧ مِنَ البسيطِ] :

لاَ يَكْذِبُ ٱلْمَرْءُ إِلاَّ مِنْ مَهَانَتِهِ أَوْ عَادَةِ ٱلسُّوْءِ أَوْ مِنْ قِلَّةِ ٱلْوَرَعِ

ولمَّا ٱنتهىٰ قارىءُ « الديوانِ » علينا إِلىٰ هُنا . . أَخذَهُ الحرانُ[١] ، وٱشتغلَ بالقِرانِ[٢] ، وعسىٰ أَن يعودَ عسىٰ ، وقديماً قيلَ : ذُبِحَ العلمُ علىٰ أَفخاذِ النِّسا[٣] ، فساقَ اللهُ الخيرَ إِليهِ ، وبارِكْ لهُ ، وبارَكَ عليهِ ، وجمعَ لهُ التَّهاني ، وبلَّغَهُ غاياتِ الأَماني ، وإِيَّانَا ، وأَولادَنا ، آمينَ ، وصلَّىٰ اللهُ علىٰ سيدِنا محمَّدٍ وعلىٰ آلهِ وصحبِهِ وسلَّم .

* * *

(١) الحِران : يستعمل في الأصل للدواب إذا صعب انقيادها ، والمراد هنا : التقصير عن مسابقة غيره .

(٢) القرانُ : التزويج ، كان النبي ﷺ إذا أتى يومُ الجمعة . . قال للسيدة عائشة : « اليومَ يومُ تَبَعُّلٍ وقِرانٍ » أي : تزويج .

(٣) قال العجلوني في « كشف الخفاء » (١٣٣٢) ليس بحديث ، وفي معناه : ضاع العلم وهو من نحو كلام بشر الحافي .

خاتمة المجالس

مبحث هام حول الشعر والشعراء والكلام في نقد الشعر

كثيراً ما يجولُ البحثُ في المفاضلَةِ بينَ الشعرِ والشعراءِ ، فيذهبُ بي العجَبُ أقصاهُ مِن إدلاءِ كلٍّ بِرأْيِهِ ، ورجمِهِ بظنِّهِ ، وتعصُّبِهِ لهواهُ ، دونَ قَبَسٍ مِن هُدىً ، ولا بصيرَةٍ مِن علمٍ ، كأَنَّهم أولُ مَن يتكلَّمُ في الفنِّ ، وكأَنْ لم تؤلَّفْ فيهِ الكتبُ ، وتُقرَّرِ المباحِثُ ، ويَغترُّ بعضُهم بمَن يتلقَّىٰ علمَهُ عنِ الصحفِ ، ويستوردُهُ مِن أَطرافِ المجلاَّتِ ، ويجعلُ ذوقَهم ميزاناً ، وأَقوالَهم برهاناً ، والحالُ : أَنْ لا ٱجتهادَ معَ وجودِ النصِّ ، وقلَّما نجدُ بيتاً إلاَّ لنظرِ العلمِ فيهِ مجالٌ مِن سائرِ نواحيهِ ، فليزنْهُ بقواعدِ الفنِّ التي تطيشُها مثاقيلُ الذرِّ مَن يلمُّ بهِ ، وإلاَّ . . فليقفْ عندَ حدِّهِ ، وليربَعْ علىٰ ظِلَعهِ ، وليتأخَّرْ حيثُ أَخَّرهُ القدَرُ ، ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء : ٣٦] .

ومِن أَكبرِ المحنَةِ في هـٰذا العلمِ ٱدِّعاءُ الرقيعِ شأْنَ الرفيعِ ، وٱنتحالُ الضالِعِ شأْوَ الضليعِ ، وإلاَّ . . فما قرَّرَهُ علماءُ المعاني والبيانِ والبديعِ لا يصحُّ أَن يُرجعَ إلاَّ إليهِ ، وأَن لا يعوَّلَ إلاَّ عليهِ .

وكانَت هـٰذهِ العلومُ تسمَّىٰ صنعةَ الشعرِ ، وتسمَّىٰ نقدَ الشعرِ ، ونقدَ الكلامِ ، كلُّ ذلكَ يقالُ ، ثمَّ طرأَتْ لَها تلكَ الأَسماءُ ، كَما أَشارَ إليهِ ٱبنُ الأَنباريِّ ، والسكريُّ .

ثمَّ تمييزُ الكلامِ ، ووزنُهُ ، ومعرفَةُ سمينِهِ مِن غثِّهِ ، لا تكونُ إلاَّ بالتمرُّنِ علىٰ تلكَ القواعدِ ، وإدمانِ النظَرِ إليها ، حتَّىٰ إذا وُضِعَ للنقدِ . . عرضَهُ الباحِثُ علىٰ نواميسِها ، وما لا تصلُهُ يصارُ فيهِ إلىٰ الذوقِ .

وأَهلُ الذوقِ هُم أَهلُ الطباعِ السليمَةِ ، والأَفكارِ المستقيمَةِ ، والقرائحِ النقيَّةِ ، والأَفهامِ الذكيَّةِ ، ممَّن راضَ نفسَهُ علىٰ تلكَ العلومِ ، ومارسَ الخطابَةَ ، وداومَ الكتابَةَ ، وأَكثرَ السهَرَ ، وركبَ الضجَرَ ، وجَنىٰ علىٰ القلبِ والبصرِ ، في مزاولَةِ الكلامِ ، ومجاولَةِ الأَقلامِ ، ومحاورَةِ الأَعلامِ ، ومعالَجَةِ النثرِ والنظامِ ، فأولئكَ صيارفَتُهُ ونقَّادُهُ ، وأُمراؤُهُ وأَسيادُهُ ، فهوَ إذن مثلُ الجمالِ :

مِنهُ : ما له قانونٌ خاصٌّ تشملُهُ العبارَةُ ، ويأتي عليهِ الضبطُ .

ومنهُ : ما لا يُعرَفُ إلاَّ بالذوقِ كالملاحَةِ ، فقد تتقاربُ الجاريتانِ وصفاً وجمالاً ، ثمَّ تُقوَّمُ هـٰذهِ بأَلفٍ ، وتلكَ بأَلفينِ ، ولو سئِلَ الناقدُ البصيرُ عَن سببِ ذلكَ . . لم يقدِرْ علىٰ الإفصاحِ عنهُ ؛ لأَنَّ المعاني أَكثرُ مِنَ ٱلأَلفاظِ ، غيرَ أَنَّهُ لا يُقبلُ ذلكَ إلاَّ ممَّن أَحاطَ بسائرِ صفاتِ الجمالِ المحدودَةِ ، وتلكَ الملكَةُ التي تحصُلُ لِمن مارسَ الفنونَ شبيهةٌ بالاستحسانِ ، وهوَ ٱنقداحُ الدليلِ في نفسِ المجتهِدِ مِن دونِ أَن يجدَ عبارةً تستوفي كُنْهَ ما في خاطرِهِ منهُ .

ومعَ الاتفاقِ علىٰ أَنَّهُ لا يكونُ إلاَّ لمَن بلغَ درجَةَ الاجتهادِ ، فهم فيهِ علىٰ ٱختلافٍ ، تمنعُهُ الشافعيَّةُ ، وتقولُ بهِ الحنفيَّةُ .

وكيفَما كانَ الأمرُ ، فنقدُ الشعرِ درجَةٌ عاليَةٌ ، ومركبٌ ليسَ بالذلولِ ، ثمَّ نجدُ كلَّ غبيٍّ يضرِبُ فيهِ بسهمٍ ، ويتهجَّمُ عليهِ بِلا

فهم ، وذلكَ مِن غيرِ الحضارمَةِ أَعجبُ ، أَمَّا هُم. . فليسَ مِنهم بغريبٍ ؛ لأَنَّهُ ليسَ بأَكبرَ مِن تسوُّرِهِم علىٰ الطبِّ ؛ إِذ قلَّما يمرضُ بينَهم إِنسانٌ إِلاَّ وصفَ لَهُ كلُّ مَن يعودُهُ دواءً ، وكلَّفَهُ أَخذَهُ ، حتَّىٰ يقتلوهُ شاءَ أَم أَبىٰ .

وقَد سمعتُم ما قلناهُ في ردِّ كلامِ الغبيِّ الذي ٱستهانَ بقدرِ اللفظِ ، وزَعَمَ أَنْ لا معوَّلَ إِلاَّ علىٰ المعاني ، مِن أَنَّ الكلامَ مفروغٌ منهُ ، وأَنَّ أَوَّلَ مسأَلةٍ في الفنِّ هيَ أَنَّ الفصاحَةَ خاصَّةٌ بالأَلفاظِ ، وأَنَّ البلاغَةَ مطابَقَةُ الكلامِ لمقتضىٰ الحالِ معَ الفصاحَةِ ، هٰذهِ هيَ أَولُ قدمٍ يضعُها الطالبُ في طريقِ هٰذا العلمِ ، وكيفَ يخوضُ في غوامضِهِ مَن لَم يعرِفْ مبادئَهُ بعدُ؟! إِنَّ هٰذا لشيءٌ عجابٌ!

وجلُّ معوَّلِ أَهلِ هٰذا الشأْنِ علىٰ اللفظِ ، أَكثرَ منهُ علىٰ المعنىٰ ، أَلا ترىٰ أَنَّكَ تسمعُ مِن حينٍ إِلىٰ آخرَ قولَ العامَّةِ : فلانٌ وكيلُ آدمَ علىٰ عيالِهِ ، فلا تجدُ لَها روعَةً ، ولا تلقي لَها بالاً؟ ولمَّا قالَ عليُّ بنُ جبلَةَ [في « ديوانِهِ » ٩٢ مِنَ الوافرِ] :

تَكَفَّلَ سَاكِنَ ٱلدُّنْيَا حُمَيْدٌ   فَقَدْ أَضْحَتْ لَهُ ٱلدُّنْيَا عِيَالاَ
كَأَنَّ أَبَاهُ آدَمَ كَانَ أَوْصَىٰ   إِلَيْهِ أَنْ يَعُولَهُمُ فَعَالاَ

. . طنطَنَ لَهُ أَهلُ الأَدبِ ، وقالوا إِنَّهُ المعنىٰ الذي كانَتِ الشعراءُ تحومُ حولَهُ ، ولم تقدِرْ عليهِ ، علىٰ أَنَّ يزيدَ بنَ مفرِّغٍ قد قالَ قبلَهُ يمدَحُ مروانَ [في « ديوانهِ » ١٨٢ مِنَ الكاملِ] :

وَأَقَمْتُمُ سُوْقَ ٱلثَّنَاءِ وَلَمْ تَكُنْ   سُوْقُ ٱلثَّنَاءِ تُقَامُ فِيْ ٱلأَسْوَاقِ
فَكَأَنَّمَا جَعَلَ ٱلإِلَـٰهُ إِلَيْكُمُ   قَبْضَ ٱلنُّفُوسِ وَقِسْمَةَ ٱلأَرْزَاقِ

وقالَ بعضُ العربِ [في «ديوان الحماسة» ١/٨٨ مِنَ الطَّويلِ] :

كَأَنَّ أَبِيْ أَوْصَىٰ بِكُمْ أَنْ أَضُمَّكُمْ إِلَيَّ وَأُوْجِيْ عَنْكُمْ كُلَّ ظَالِمِ[1]

وما في شيءٍ مِن هٰذا زائدٌ علىٰ ما تقولُهُ العامَّةُ ، سوىٰ روعَةِ اللفظِ ، وحسنِ الشارَةِ ، وجمالِ الديباجَةِ ، وفصاحَةِ التركيبِ ، ولَئِنْ قيلَ : إنَّها لَم تتداولْهُ العامَّةُ إلاَّ بعدَ أَن حصَّلَهُ لهمُ ٱبنُ جبلَةَ ، وأَلقاهُ إِلىٰ الساحِلِ . . قُلنا مستحيلٌ ؛ لأَنَّهم لا يعرفونَ ٱبنَ جبلَةَ ، ولا من لقَّهُ ، ولا يسمعونَ مِمَّنْ يعرفُهم ، وإِنَّما أَلقتْهُ إِليهمُ الطبيعَةُ التي أَلقتهُ عليهِ .

وقد قالَ شاعرُ المعرَّةِ [مِنَ الوافرِ] :

ضَرِيْبُكَ فِيْ بَنِيْ ٱلدُّنْيَا كَثِيْرٌ وَعَـزَّ ٱللهُ رَبُّـكَ مِـنْ ضَـرِيْـبِ
وَمَـا ٱلْعُلَمَـاءُ وَٱلْجُهَـلاَءُ إِلاَّ قَرِيْبٌ مِنْ قَرِيْبٍ مِنْ قَرِيْبِ

ومعَ ذلكَ فهناكَ أَمثلَةٌ أُخرىٰ ، مِنها : أَنَّ قولَ شوقي [مِنَ الخفيفِ] :

نَظْـرَةٌ فَـٱبْتِسَـامَـةٌ فَسَـلاَمٌ فَكَـلاَمٌ فَمَـوْعِـدٌ فَلِقَـاءُ

معدودٌ مِن محاسنِهِ ، وما فيهِ زائِدٌ علىٰ ما فعلَهُ زنجيٌّ وُكِّلَ بحراسَةِ بستانٍ ، فسلَّمَ عليهِ إِنسانٌ ، فلَم يردَّ ، فشكاهُ إِلىٰ مولاهُ ، فعاتَبَهُ ، فقالَ لهُ : إِنَّ السلامَ يُفضي إِلىٰ الكلام ، والكلامَ يفضي إِلىٰ الملام ، والملامَ يُفضي إِلىٰ بطيخَةٍ ، فإِن شئْتَ أَن أُقسِّمَ لكَ بطاطيخَ بستانِكَ . . رَدَدْتُ علىٰ مَن سلَّمَ عليَّ ، وإِلاَّ . . فلا .

---

(١) أي أدفع وأنحّي .

وسَمِعْتُ مرَّةً عجوزاً تصفُ بضاضَةَ فتاةٍ[1] ، وتقولُ : لَو أَصابَتْها نارٌ. . لانطفأَتْ مِن ماءِ وجهِهَا . بينَما أَهلُ المغرِبِ يرقُصونَ طرباً ، ويحجلونَ عجباً ، مِن قولِ شاعرِهِم [ابن حمديس في « المثل السائر » ١/ ٣٢١ مِنَ الكاملِ] :

أَضْرَمْتِ قَلْبِيْ فَٱرْتَمَىٰ بِشَرَارَةٍ   وَقَعَتْ بِخَدِّكِ فَٱنْطَفَتْ مِنْ مَائِهِ

وهوَ معَ ذلكَ مِن قولِ أَبي عُبادَةَ [في « ديوانه » ١/ ٢٤ مِنَ الكاملِ] :

وَضِيَـاءُ وَجْـهٍ لَـوْ تَـأَمَّلَـهُ ٱمْـرُؤٌ   صَادِيْ ٱلْجَوَانِحِ لارْتَوَىٰ مِنْ مَائِهِ

فهلْ تجِدُ في شيءٍ مِنْهما زائداً علىٰ كلامِ العجوزِ؟ لَولا شدَّةُ المتنِ ، وقوَّةُ الأَسرِ ، وجمالُ التأليفِ ، وروعَةُ الترصيفِ ، والشواهدُ علىٰ مثلِهِ كثيرَةٌ .

وقد ذكرنا مرَّةً : أَنَّ أَبا تمَّام لم يأْخُذِ ٱلْقِسمَ الأَخيرَ مِن ثاني البيتينِ الآتيينِ ، علىٰ ما سبقَ فيهِ أَوائِلَ المجلِسِ الخامسِ . . إلاَّ عَن لسانِ سائِلٍ ، وهُما [في « ديوانه » ١/ ١٤٨ـ١٤٩ مِنَ الطَّويلِ] :

يَـرَىٰ أَقْبَـحَ ٱلأَشْيَـاءِ أَوْبَـةَ آمِـلٍ   كَسَتْهُ يَدُ ٱلْمَأْمُوْلِ حُلَّةَ خَائِبِ
وَأَحْسَـنُ مِـنْ نَـوْرٍ يُفَتِّحُـهُ ٱلصَّبَـا   بَيَاضُ ٱلْعَطَايَا فِيْ سَوَادِ ٱلْمَوَاهِبِ

وإِنْ تَعَجَّبْتَ . . فـٱعجَـبْ مِمَّـنْ سـوَّلَ لـهُ الهـوىٰ ، وٱستخفَّهُ الجهلُ ، وذهبَ بهِ التعصُّبُ الناشىءُ عَن مجرَّدِ التقليدِ إِلىٰ غايَةٍ مطوَّحَةٍ مِن الغرورِ ، بالقصيدَةِ المستهلَّةِ بهـٰذا [مِنَ مجزوءِ الرَّمَلِ] :

حَـفَّ كَـأْسَهَـا ٱلْحَبَـبُ   فَهْـيَ فِضَّـةٌ ذَهَـبُ

---

(١) أمرأةٌ بضَّةٌ : ناعمةٌ .

وقد قُلنا : إنَّهُ بيتٌ تافِهٌ ، طلعَتْ بهِ القصيدَةُ كاسفَةً ، وحسبُكَ مِنَ الانتقادِ عليهِ مخالفتُهُ للقواعِدِ العربيَّةِ ؛ إذ لا يجوزُ تركُ العطفِ في الخبرِ إذا تعدَّدَ صاحبُهُ ، ولو حُكْماً كقولِهِ تعالىٰ : ﴿ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ ﴾ [الحديد : ٢٠] ، بخلافِ ما تعدَّدَ لفظاً فقط ، بأَنْ كانَ لا يصحُّ الاقتصارُ علىٰ بعضِهِ ، فإنَّ العطفَ يمتنِعُ فيهِ ، كـ (الرمانُ حلوٌ حامِضٌ) وهـٰذا البيتُ إنَّما هوَ مِن الأوَّلِ .

ثمَّ إنَّهُ معنىً مرميٌّ في مدارجِ الطُّرقِ ، ممتَهَنٌ علىٰ أَلسنَةِ الشعراءِ إلىٰ حدِّ الابتذالِ ، وقلَّ مَن وصفَ الراحَ إلاَّ جاءَ في تشبيهِ الفقاقيعِ بما هوَ خيرٌ منهُ ، قالَ المتلمِّسُ [في « ديوانهِ » ٨٠ مِنَ الوافرِ] :

عُقَارٌ عُتِّقَتْ فِي ٱلدَّنِّ حَتَّىٰ ... كَأَنَّ حَبَابَهَا حَدَقُ ٱلْجَرَادِ(١)

وقالَ أَبو نُواسٍ [في « ديوانهِ » ٥٢٤ مِنَ الطَّويلِ] :

بَنَيْنَا عَلَىٰ كِسْرَىٰ سَمَاءَ مُدَامَةٍ ... مُكَلَّلَةً حَافَاتُهَا بِنُجُومِ(٢)

وقالَ [في « ديوانهِ » ٥٧ مِنَ البسيطِ] :

كَأَنَّ صُغْرَىٰ وَكُبْرَىٰ مِنْ فَوَاقِعِهَا ... حَصْبَاءُ دُرٌّ عَلَىٰ أَرْضٍ مِنَ ٱلذَّهَبِ

وقالَ أبنُ الروميِّ [في « ديوانهِ » ٤/ ١٦٥٥ مِنَ المنسرحِ] :

لَهَا صَرِيحٌ كَأَنَّهُ ذَهَبٌ ... وَرَغْوَةٌ كَٱللآلِي ٱلْفِلَقِ

---

(١) العُقارُ : الخمرُ .

(٢) مكللةٌ : محفوفةٌ ومحاطةٌ . النجومُ : المرادُ بها الحببُ ، أَي الفقاقيعُ التي تعلو الكأسَ .

وقالَ الأَوَّلُ [مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا سَحَّهَا ٱلسَّاقِيْ حَسِبْتَ حُبَابَهَا عُيُوْنَ ٱلدُّبَىٰ مِنْ تَحْتِ أَجْنِحَةِ ٱلنَّحلِ(١)

وقالَ ٱبنُ المعتزِّ [في « ديوانهِ » ٢/ ١٨٩ مِنَ الطَّويلِ] :

خَلِيْلَيَّ قَدْ طَابَ ٱلشَّرَابُ ٱلْمُبَرَّدُ وَقَدْ عُدْتُ بَعْدَ ٱلنُّسْكِ وَٱلْعَوْدُ أَحْمَدُ
فَهَاتِ عُقَاراً مِنْ قَمِيْصِ زُجَاجَةٍ كَيَاقُوْتَةٍ فِيْ دُرَّةٍ تَتَوَقَّدُ
يَصُوْغُ عَلَيْهَا ٱلْمَاءُ شُبَّاكَ فِضَّةٍ لَهُ حَلَقٌ بِيْضٌ تُحَلُّ وَتُعْقَدُ

وقالَ [في « ديوانهِ » ٢/ ١٨٧ مِنَ الطَّويلِ] :

وَنَارٍ قَدَحْنَاهَا سِرَاعاً بِسَخْرَةٍ مَتَىٰ مَا يُرَقْ مَاءٌ عَلَيْهَا تَوَقَّدِ
يَجُوْلُ حُبَابُ ٱلْمَاءِ فِيْ جَنَبَاتِهَا كَمَا جَالَ دَمْعٌ فَوْقَ خَدٍّ مُوَرَّدِ

وقالَ [آخرُ في « المستطرف » ٢/ ٤١٥ مِنَ البسيطِ] :

كَأَنَّ فِيْ كَأْسِهَا وَٱلْمَاءُ يَقْرَعُهَا أَكَارِعَ ٱلنَّمْلِ أَوْ نَقْشَ ٱلْخَوَاتِيْمِ

وقالَ ٱبنُ وَكيعٍ [في « المستطرف » ٢/ ٤١٠ مِنَ الطَّويلِ] :

وَحَمْرَاءَ مِنْ مَاءِ ٱلْكُرُوْمِ كَأَنَّهَا فِرَاقُ عَدُوٍّ أَوْ لِقَاءُ صَدِيْقِ
كَأَنَّ ٱلْحُبَابَ ٱلْمُسْتَدِيْرَ بِطَوْقِهَا كَوَاعِبُ دُرٍّ فِيْ سَمَاءِ عَقِيْقِ

وقالَ الآخرُ [مِنَ المديدِ] :

وَٱكْتَسَتْ مِنْ فِضَّةٍ دُرَرَا خِلْتَهَا مِنْ تَحْتِهَا ذَهَبَا
كَكُمَيْتِ ٱللَّوْنِ قَلَّدَهَا فَارِسٌ مِنْ لُؤْلُؤٍ حَبَبَا

---

(١) الدُّبىٰ : الجرادُ .

وقالَ أبو عُبادَةَ [في «ديوانه» ١/ ٧ مِنَ الكاملِ] :

وَفَوَاقِعٌ مِثْلُ ٱلدُّمُوْعِ تَرَدَّدَتْ فِيْ صَحْنِ خَدِّ ٱلْكَاعِبِ ٱلْحَسْنَاءِ

وإنَّهُ لَمِن أكبرِ العارِ أن يكونَ مثلُ هذا البيتِ حصيلَةَ ٱستقراءِ الأشعارِ الثمينَةِ ، والتشبيهاتِ السمينَةِ ، فما للجهلاءِ والتمييزِ بينَ طبقاتِ الشعراءِ ، وترتيبِ درجاتِهِم ، وتعريفِ طبقاتِهِم ، هيهاتَ . . لَقَد حَنَّ قَدَحٌ ، ليسَ مِنها .

وللهِ درُّ المعريِّ في قولِهِ [في «سقطِ الزندِ» ٢٢٥ مِنَ الطَويلِ] :

وَمُذْ قَالَ إِنَّ ٱبْنَ ٱللَّئِيْمَةِ شَاعِرٌ أُولُوْ ٱلْجَهْلِ مَاتَ ٱلشِّعْرُ وَٱلشُّعَرَاءُ

أَلَم يعرفوا أَنَّ الحكم بالشيءِ فرعُ تصوُّرِهِ؟ فهَل حقَّقوا تلكَ المعارفَ ، وتفيَّئُوا ظلالَها الوارفَ؟ أَم يَجرونَ كما يَجري في الديماسِ السيلُ ، ويَخبِطونَ كَما تخبِطُ العشواءُ بالليلِ ، وقد قالوا : إِنَّ الشعرَ كالبحرِ ، أَهونُ ما يكونُ على الجاهِلِ ، أَهولُ ما يكونُ على العالِمِ .

وقيلَ للمفضَّلِ الضبيِّ [في «صبح الأعشى» ٢/ ٣٤٥] : لِمَ لا تقولُ الشعرَ ، وأَنتَ أَعلَمُ الناسِ بهِ؟ قالَ : عِلمي بهِ هوَ الذي يمنعُني مِن قولِهِ .

ثمَّ إِنَّ لِكُلِّ لفظَةٍ خاصَّةً تُعرفُ بِها حسناً وقبحاً ، ثقلاً وقَبولاً ، ومَن ذا الذي لا يفرِّقُ بينَ الإسفنْطِ(١) والمُدامِ ، والخنشليلِ(٢)

(١) الإسفنط : المطيب من عصير العنب ، أو ضرب من الأشربة ، أو أعلى الخمر ؛ لأن الدنان تسفطتها أي تشربت أكثرها .

(٢) الخنشليل : الجيِّدُ الضربِ بالسيفِ .

والسيفِ؟ وما أَشبهَ ذلكَ ـ وكلُّهُ مِن الأَوَّليَّاتِ التي لَم يحوِجْ إِلىٰ التنبيهِ إِليها إلاَّ جَهلُ المتأَخِّرينَ المُرَكَّبُ .

ومرقاةُ البلاغَةِ التي تزِلُّ عَنها الفصحاءُ ، وَقَذَفاتُهُ التي تختلِجُ دونَها البلغاءُ هيَ وضعُ كلِّ كلمةٍ في الموضِعِ الذي يليقُ بِها ، حتَّىٰ تجيءَ خفيفَةً علىٰ اللسانِ ، مثالُهُ قولُهُ جلَّ شأنُهُ : ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ [الأعراف : ١٣٣] .

فَفي لفظتَي : (الضفادِع) و (القُمَّلِ) ما لا ينكَرُ مِن الاستثقالِ ، لٰكنَّهُما لَمَّا توسَّطَتا الأَلفاظَ السهلَةَ المقبولَةَ . . حَسُنَ موقعُهُما ، وأَشرقَ عليهِما ضوءُ الجمالِ ، وإِلاَّ . . فقد كَرهوا قولَ الفرزدَقِ [في « صبح الأعشى » ٢/ ٢٨٤ مِنَ الكاملِ] :

مِنْ عِزِّهِ ٱحْتَجَرَتْ كُلَيْبٌ عِنْدَهُ زُمَراً كَأَنَّهُمُ لَدَيْهِ ٱلْقُمَّلُ

والقرآنُ مِن فاتِحتِهِ إِلىٰ خاتمتِهِ مثالُ تَمَكُّنِ الأَلفاظِ مِن مواقِعِها ، لا يمكِنُ فيهِ تحويرٌ قطُّ ، ولا يحتاجُ إِلىٰ تمثيلٍ ، وهوَ كلُّهُ مِن هٰذا النَّمَطِ ، إِلاَّ أَنَّهُ قد يتجلَّىٰ أَثرُ ذلكَ في بعضِ نقطٍ ، وهوَ الأَمرُ يُتظنَّىٰ نيلُهُ ، فَلا يدرَكُ ذيلُهُ [مِنَ الطَّويلِ] :

تَرَاهُ عُيُوْنُ ٱلنَّاظِرِيْنَ إِذَا بَدَا قَرِيْباً ، وَلاَ يَسْطِيْعُهُ مَنْ يَرُوْقُهُ

وقالَ الناظِمُ [في « العُكبَريّ » ١/ ١١١ مِنَ البسيطِ] :

كَأَنَّهُ ٱلشَّمْسُ يُعْيِيْ كَفَّ قَابِضِهِ شُعَاعُهَا وَيَرَاهُ ٱلطَّرْفُ مُقْتَرِبَا

وممَّا يدلُّ لصحَّةِ ما نقولُ قولُهُ تعالىٰ : ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ * أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَحَدَآئِقَ غُلْبًا * وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا * مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [عبس : ٢٤ـ٣٢] .

وقولُهُ جلَّ ذكرُهُ : ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام : ٨٤ـ٨٦] .

فلَم يخرُجِ الأُسلوبُ فيها عَنِ التعلِّيْ والتدلِّي . . إلاَّ لينساقَ علىٰ أَعذَبِ ما يكونُ ، وأخفِّهِ علىٰ الأَلسنَةِ .

وقولُهُ تبارَكَ ٱسمُهُ : ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾ [النساء : ٢٣] ، فإنَّهُ لَم يلتفتْ عَنِ ٱلخطابِ في بناتِ الأَخِ والأُختِ ، ولَم يخالِف بينَ إسنادِ الرَّضاعِ للأُمَّهاتِ والأخواتِ . . إلاَّ لذٰلكَ ، واللهُ أَعلَمُ بحكمتِهِ ، إلاَّ أَنَّ هٰذا هوَ الذي ينقدِحُ بخاطِرِ هٰذا المتطفِّلِ .

ويتَّصِلُ بهٰذا . . ٱختيارُ الأَلفاظِ ، ووضْعُ كلِّ شيءٍ فيما لا يتجافىٰ عنهُ ، أَرأَيتَ لَو أَنَّ اللهَ جلَّ شأْنُهُ أَبدلَ العَسَلَ مِن قولِهِ : ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد : ١٥] بالشهْدِ لانتقصَتِ العذوبَةُ الحاصلَةُ مِن تحريكِ الوسَطِ في العَسلِ؟

وتدبَّرْ قولَهُ : ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف : ٤٠] .

وقولَهُ : ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ [يوسف : ٧٢] ، فإنَّ كُلاً مِنَ الجمَلِ في الأُولىٰ ، والبعيرِ في الثانيَةِ ، واقعٌ في موضعِهِ الذي يطلبُهُ ، ولا يصلُحُ علىٰ سواهُ ، وكم رأَيناهُ يتجاوزُ ما يستثقَلُ مِن

اللفظِ إلىٰ الكنايةِ عنهُ كقولِهِ : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق : ١٢] .

وما ذاكَ ـ والعلمُ لهُ جلَّ شأنُهُ ـ إلاَّ لكراهةِ ٱستعمالِ الأَرضِ مجموعَةً .

ولا يبعُدُ أَن يكونَ منهُ قولُهُ : ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾ [العنكبوت : ١٤] .

وقولُهُ : ﴿ وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ [الكهف : ٧٩] ، أَمَّا الأُولىٰ : فواضحٌ ، وأَمَّا الثانيَةُ : فلِمَا في همزَةِ القطعِ في لفظَةِ الأَمامِ لَو جعلَها مكانَها مِنَ ٱلاستثقالِ .

فأَفضلُ أَنواعِ الإعجازِ فيما أَرىٰ خفَّةُ الذكرِ الحكيمِ علىٰ أَسَلَةِ[1] اللِّسانِ ، بحيثُ يتمكَّنُ القارِىءُ أَن يتلوَ مِنهُ ما لا يمكنُهُ أَن يقرأَ مِن غيرِهِ في الزمَنِ الواحدِ ، بٱعتبارِ الحروفِ ، وهـٰذا أَمرٌ لَمْ أُجرِّبهُ ، ولَم أَرَ مَن نبَّهَ عليهِ ، غيرَ أَنِّي أَعتقدُهُ ٱعتقاداً جازِماً يسعُني أَنْ أَستشهِدَ عليهِ بقولِهِ جلَّ ذكرُهُ : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر : ١٧] ، ولئِنْ توهَّمَ متوهِّمٌ أَنَّهُ ليسَ إلاَّ نتيجةَ صقالِ الأَلسنِ ، وكثرَةِ التلاوَةِ . . فليجرِّبْ فيهِ وفيما يمرُّ فيهِ مِنْ غيرِهِ مرورَ السهمِ مِنَ ٱلمحفوظاتِ ، فسيصِحُّ لهُ إن شاءَ اللهُ ما نقولُ ، والكلامُ في أَمثالِهِ يطولُ ، وكلُّهُ مفروغٌ منهُ ، مقرَّرٌ في مواضعِهِ ، لم نَجِىءْ بشيءٍ منهُ ، غيرَ ما ذكرناهُ مِن عندِنا ، ولَم نخترعْهُ من قبلِ أَنفسِنا ، ولـٰكنَّهُ طريقٌ واضِحٌ ، ومهيعٌ واسعٌ ، لَم نحتَجْ للإشارَةِ إِليهِ إلاَّ

---

(١) أَسَلَةُ اللسان : طرفه .

للكَفِّ مِن جماحِ هؤلاءِ الذينَ يحسبونَ أنَّهم في العلالي ، ولَم يدخلوا بعدُ في الدهليزِ .

وأَقولُ لكَ واحدةً يصحُّ أَن تعملَ بِها في نفسِكَ دونَ أَن تقايسَ بِها سواكَ ، وهيَ : أنَّهُ إِذا هزَّ الكلامُ شعورَكَ ، ونفخَ دماغَكَ ، وهيَّجَ خواطرَكَ ، وحرَّكَ ساكنَكَ ، وأَظهرَ كامنَكَ ، ودخلْتَ لسماعِهِ بلونٍ ، وخرجْتَ بلونٍ آخرَ مِنَ ٱلانفعالِ منهُ ، والتأَثُّرِ بهِ . . فٱعرفْ أَنَّهُ كلامٌ جزلٌ ، وجِدٌّ ليسَ بالهزلِ ، ولا بأْسَ أَن تقتنِعَ بالطلِّ مِن هٰذا إِن أَعوزَكَ الوابلُ ، مِن غيرِ أَن تتخذَهُ حكماً ، أَو تقطَعَ بهِ جزماً ، فدونَ ذلكَ خرطُ القتادِ مِن سلامَةِ الفطرَةِ ، وثقوبِ الفهمِ ، وصفاءِ الطبعِ ، وأَصالَةِ السليقَةِ ، أَو ما ذكرنا مِنَ ٱستكمالِ الأَدواتِ بكثرَةِ المجالِ ، والأَخذِ عَنِ ٱلرجالِ ، وممارسَةِ الصناعَةِ ، ومحاورَةِ الجماعَةِ ، ثم لا بدَّ معَ تلكَ المتاعِبِ أَن يتاحَ لكَ رفيقٌ يقالُ لَهُ التوفيقُ ، وإِلاَّ . . ضللتَ عَن سواءِ الطريقِ ، كَما أَشارَ إِلىٰ مثلِهِ بديعُ الزمانِ [في « مقاماته »] في مقالٍ لَهُ أَغلىٰ مِن عقدِ الجمانِ .

* * *

تنبيهات

المعاني الظاهرة مشاع بين الناس ولا يقضى فيها لأحد بالسبق

أَحدُهَا : كثيراً ما نقولُ في هـٰذهِ المجالسِ : هـٰذا مأخوذٌ مِن هـٰذا، وهـٰذا ناظِرٌ إلىٰ هـٰذا ، وبعضُهُ لا يمكنُ إطلاقُ السرقَةِ عليهِ ؛ لأَنَّ المعانيَ الظاهرةَ تعتورها الأفهامُ ، وتتواردُ عَلَيها الخواطرُ ، فهيَ مشاعَةٌ بينَ الناسِ ، كالتشبيهِ بالبحرِ ، والقمرِ ، والأَسدِ ، وما في حكمِها ، مِن المختَرَعَةِ في البَدْءِ ، المنتشرَةِ فيما بعدُ ، كقولِ قيسِ بنِ الأَسلَتِ أَوِ ٱبنِ الخطيمِ [في « ديوانِ ابن الخطيمِ » ١٦ مِنَ الكاملِ] :

مَـا تَمْنَعِـيْ يَقْظَـىٰ فَقَـدْ تُـؤْتِيْنَـهُ   فِيْ ٱلنَّوْمِ غَيْرَ مُصَرَّدٍ مَحْسُوْبِ

وقولِ المعرِّيِّ [مِنَ الطَّويلِ] :

تُسِيْءُ بِنَا يَقْظَىٰ فَأَمَّا إِذَا سَرَتْ   رُقَـاداً فَـإِحْسَـانٌ إِلَيْنَـا وَإِجْمَـالُ

وقولِ مهيارٍ [في « ديوانه » ٤/ ١٨٤ مِنَ الطَّويلِ] :

وَهَبْكُمْ مَنَعْتُمْ أَنْ أَرَاهَا بِنَاظِرِيْ   فَهَلْ تَمْنَعُوْنَ ٱلْقَلْبَ أَنْ يَتَمَنَّاهَا

وقولِ عبدَةَ بنِ الطيِّبِ في رثاءِ قيسِ بنِ عاصمٍ [في « ديوانه » ١٠ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا كَانَ قَيْسٌ هُلْكُهُ هُلْكُ وَاحِدٍ   وَلَـٰكِنَّـهُ بُنْيَـانُ قَـوْمٍ تَهَـدَّمَـا

وقولِ ٱبنِ المقفَّعِ [في « ديوان الحماسة » ١/ ٣٥٧ مِنَ الطَّويلِ] :

فَقَدْ جَرَّ نَفعاً فَقْدُنَا لكَ أنَّنَا   أَمِنَّا علَىٰ كُلِّ ٱلرَّزَايَا مِنَ ٱلْجَزَعْ

وما جرىٰ هـٰذا المجرىٰ ممَّا تجاذبَتْهُ الأيدي ، وتعاورتْهُ الأفكارُ .

ثانيها : أشرنا غيرَ مرَّةٍ إِلىٰ أنَّ الناظِمَ لا يدَعُ لأحدٍ شاذَّةً ولا فاذَّةً إلاَّ ٱطَّرَدَها ، وكثيراً ما يَستَسْمِنُ الورمَ ، كما مثَّلنا بقولِهِ : [في « العُكبريّ » ١/ ٣٧٨ مِنَ الطَّويلِ]

المتنبي بحق.. يشبه عصا سيدنا موسى.. يلقف كل ما يأتي به الشعراء فيجيد أحياناً ويسيء أخرىٰ

[يَكَادُ يُصِيبُ ٱلشَّيْءَ مِنْ قَبْلِ رَمْيِهِ]   وَيُمْكِنُهُ فِيْ سَهْمِهِ ٱلْمُرْسَلِ ٱلرَّدُّ

ويَستحسنُ القبيحَ كما في قولِهِ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٢٥٣ مِنَ الوافرِ] :

أُحِبُّـكِ أَوْ يَقُـولُـوْا جَـرَّ نَمْـلٌ   ثَبِيْـراً وَٱبْـنُ إِبْـرَاهِيْـمَ رَيْعَـا

ولَم نجازفْ في شيءٍ مِن ذلكَ ، فكذلكَ كانَ الرجلُ ، غيرَ أنَّهُ ـ والحقُّ يقالُ ـ كثيراً ما يعمَدُ إِلىٰ ما رخصَ فيُغْلِيهِ ، وإِلىٰ ما ٱمتُهنَ فيُغْلِيهِ ، ويعيدُ لهُ جِدَّتَهُ ، وينشرُ لهُ رفاتَهُ ، ويبعثُهُ في خلقٍ جديدٍ ، أبهىٰ مِن سابقِهِ ، ألا ترىٰ إِلىٰ المعنىٰ الآتي؟ فأوَّلُ مَن وقعَ عليهِ فيما أظنُّ الأفوهُ الأوديُّ ، حيثُ قالَ [في « ديوانِهِ » ٧٧ مِنَ الرَّمَلِ] :

وَتَـرَىٰ ٱلطَّيْـرَ عَلَـىٰ آثَـارِنَـا   ثِقَـةً مِـنْ غَـزْوِنَـا أَنْ سَتُمَـارْ[1]

وقالَ نابغةُ ذبيانَ [في « ديوانِهِ » ٥٧ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا مَا غَزَا بِٱلْجَيْشِ حَلَّقَ فَوْقَهُ   عَصَائِبُ طَيْرٍ تَهْتَدِيْ بِعَصَائِبِ

---

(١) سَتُمارُ : أي ستأتيها الميرةُ وهوَ الغذاءُ والطعامُ .

جَـوَانِـحَ قَـدْ أَيْقَـنَّ أَنَّ قَبِيْلَـهُ ... إِذَا مَا ٱلْتَقَىٰ ٱلْجَمْعَانِ أَوَّلُ غَالِبِ[1]

وقالَ مسلمُ بنُ الوليدِ [في « ديوانهِ » ١٢ مِنَ البسيطِ] :

قَدْ عَوَّدَ ٱلطَّيْرَ عَادَاتٍ وَثِقْنَ بِهَا ... فَهُنَّ يَتْبَعْنَهُ فِيْ كُلِّ مُرْتَحَلِ

وقالَ أَبو نواسٍ [في « ديوانهِ » ٢٨٣ مِنَ المديدِ] :

تَتَـأَيَّـا ٱلطَّيْـرُ غَـزْوَتَـهُ ... ثِقَـةً بِـٱللَّحْـمِ مِـنْ جُـزُرِهْ

وقالَ أَبو تمَّامٍ [في « ديوانهِ » ٢/ ٤٠ مِنَ الطَّويلِ] :

وَقَدْ ظُلِّلَتْ عِقْبَانُ رَايَاتِهِ ضُحىً ... بِعِقْبَانِ طَيْرٍ بِـالـدِّمَاءِ نَـوَاهِـلِ

أَقَامَتْ مَعَ ٱلرَّايَاتِ حَتَّىٰ كَأَنَّهَا ... مِنَ ٱلْجَيْشِ إِلاَّ أَنَّهَا لَمْ تُقَاتِلِ

ولَم يبقَ مِن شاعرٍ إِلاَّ أَفرغَهُ في قالَبٍ ، وأَدرجَهُ في مثالٍ ، حتَّىٰ أَذالُوهُ ، فلمَّا انتهىٰ إِلىٰ صاحبِنا . . أَطلعَ يُوحَهُ[2] ، وردَّ روحَهُ ، وأَذكىٰ ريَّاهُ ، وأَظهرَ محيَّاهُ ، فقالَ [في « العُكبَريّ » ٣/ ٣٧٩ـ٣٨٠ مِنَ الطَّويلِ] :

يُفَـدِّيْ أَتَـمُّ ٱلطَّيْـرِ عُمْـراً سِـلاَحَـهُ ... نُسُوْرُ ٱلْمَلاَ أَحْدَاثُهَا وَٱلْقَشَاعِمُ[3]

وَمَا ضَرَّهَا خَلْقٌ بِغَيْرِ مَخَالِبٍ ... وَقَدْ خُلِقَتْ أَسْيَافُهُ وَٱلْقَوَائِمُ

---

(١) جوانحُ : مائِلةٌ في أَحدِ شقَّيها للوقوعِ ، ومنهُ قولهم : جنحَ الليلُ ، إِذا مالَ .

(٢) يوح : أسمٌ مِن أَسماءِ الشمسِ .

(٣) القشاعمُ : النسورُ الطويلاتُ العمرِ ، ومنهُ سمِّيت المنيَّةُ (أمُّ قشعم) لطولِ عمرِها . الملا : وجهُ الأرضِ . الأحداثُ : الشابَّةُ ، والمعنىٰ : يَفدي أَطولُ الطيرِ عُمْراً سلاحَ سيفِ الدولَةِ ، وإِنَّما يفديهِ لوجودِ الجُثَثِ في وقائِعِهِ ، والاستبشارِ بكثرةِ ملاحِمِه .

وقالَ [في « العُكبَريّ » ٣/٣٣٨ مِنَ الطَّويل] :

سَحَابٌ مِنَ ٱلْعِقْبَانِ يَزْحَفُ تَحْتَهَا سَحَابٌ إِذَا ٱسْتَسْقَتْ سَقَتْهَا صَوَارِمُهْ

وقالَ [في « العُكبَريّ » ٤/ ١١٣ـ١١٤ مِنَ الكامل] :

وَذِي لَجَبٍ لاَ ذُوْ ٱلْجَنَاحِ أَمَامَهُ بِنَاجٍ وَلاَ ٱلْوَحْشُ ٱلْمُثَارُ بِسَالِمِ

تَمُرُّ عَلَيْهِ ٱلشَّمْسُ وَهْيَ ضَعِيفَةٌ تُطَالِعُهُ مِنْ بَيْنِ رِيشِ ٱلْقَشَاعِمِ

إِذَا ضَوْءُهَا لاَقَىٰ مِنَ ٱلطَّيْرِ فُرْجَةً تَدَوَّرَ فَوْقَ ٱلْبَيْضِ مِثْلَ ٱلدَّرَاهِمِ

وما كانَ لأَبي الطيِّبِ أن يموتَ بحسرَةٍ علىٰ الإمارَةِ وقد فتحَ هٰذي القلاعَ ، ووُفِّقَ لِهٰذا الإبداعِ ، وإنِّي لكثيراً ما أَمرُّ بهٰذِهِ القصيدَةِ فيحدُثُ لي عندَ كلِّ مرَّةٍ مِن روعَةِ حسنِها ، ورونق جمالِها ، ما لَم أَجدْهُ مِن قبلُ ، فسبحانَ المانِحِ ، هٰذا واللهِ السحرُ الحلالُ ، والعذبُ الزلالُ ، والحديثُ الذي لا تزيدُهُ الإعادَةُ إلاَّ جِدَّةً ، ولا التكرارُ إلاَّ لذَّةً .

اعتذار المؤلف إلى المتنبي إن كان قسا عليه واعترافه بالفضل له وذكر أمثلة من بدائعه

ثالثُها : ربَّما أنتقدنا عليهِ بعضَ قولِهِ بحدَّةٍ ، وحكَمنا عليهِ أَحياناً بشدَّةٍ ، فَلا يذهبْ وهمُكَ أَنَّا نبخَسُهُ حقَّهُ ، ونهضِمُ عليهِ فضلَهُ ، وإِنَّما هيَ حالَةٌ مِنَ ٱلحالاتِ ، وجائِشَةٌ مِنَ ٱلْجَوائِشِ ، يضطرُّنَا إِليها غرورُهُ بنفسِهِ ، وإِعجابُهُ بشعرِهِ ، وإِعراضُهُ ـ كما يروىٰ [في « العُكبَريّ » ٣/ ٣٨١] ـ عَن كلِّ نقدٍ يورَدُ عليهِ ، إِلاَّ ما أَشارَ بهِ عليهِ سيفُ الدولَةِ مِن إبدالِ (الجيَفِ) بـ (الجثَثِ) مِن قولِهِ [في « العُكبَريّ » ٣/ ٣٨١ مِنَ الطَّويل] :

وَكَانَ بِهَا مِثْلُ ٱلْجُنُوْنِ فَأَصْبَحَتْ وَمِنْ جِيَفِ ٱلْقَتْلَىٰ عَلَيْهَا تَمَائِمُ

وقد جاءَ بأَشياءَ ظاهرةِ النكارَةِ والقبحِ، مثلِ قولِهِ [في «العُكبَرِيِّ» ٢/ ١٨٣ مِنَ الخفيفِ]:

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ تَجُوزُ إِلَيْهِمُ شُعَرَاءٌ كَأَنَّهَا ٱلْخَازِبَازِ[١]

وقولِهِ [في «العُكبَرِيِّ» ١/ ٣٤٠ مِنَ الكاملِ]:

أَنَّىٰ يَكُونُ أَبَا ٱلْبَرِيَّةِ آدَمٌ وَأَبُوكَ - وَٱلثَّقَلانِ أَنْتَ - مُحَمَّدُ!

وقولِهِ [في «العُكبَرِيِّ» ٤/ ٢٠٧ مِنَ الكاملِ]:

خَلَتِ ٱلْبِلاَدُ مِنَ ٱلْغَزَالَةِ لَيْلَهَا فَأَعَاضَهَاكَ ٱللهُ كَيْ لاَ تَحزَنَا[٢]

وقولِهِ [في «العُكبَرِيِّ» ٢/ ٣٢٥ مِنَ الطَّويلِ]:

وَمَلْمُومَةٌ سَيْفِيَّةٌ رَبَعِيَّةٌ يَصِيحُ ٱلْحَصَىٰ فِيْهَا صِيَاحَ ٱللَّقَالِقِ[٣]

وقولِهِ [في «العُكبَرِيِّ» ٤/ ٨٥ مِنَ الطَّويلِ]:

فَلا يُبْرَمُ ٱلأَمْرُ ٱلَّذِي هُوَ حَالِلٌ وَلاَ يُحْلَلُ ٱلأَمْرُ ٱلَّذِي هُوَ مُبْرِمُ

وقولِهِ [في «العُكبَرِيِّ» ٣/ ٢٥٨ مِنَ الكاملِ]:

جَخَفَتْ وَهُمْ لاَ يَجْخَفُوْنَ بِهَا بِهِمْ شِيَمٌ عَلَىٰ ٱلْحَسَبِ ٱلأَغَرِّ دَلاَئِلُ[٤]

---

(١) الخازباز: حكايةُ صوتِ الذبابِ.
(٢) الغزالةُ: الشمسُ.
(٣) الملمومةُ: الكتيبةُ المجتمعةُ. سيفيَّةٌ: منسوبةٌ إلى سيفِ الدولةِ. رَبَعِيَّةٌ: منسوبةٌ إلى ربيعةَ، وهيَ قبيلةُ سيفِ الدولةِ.
(٤) الجخفُ: الفخرُ. وفي البيتِ تقديمٌ وتأخيرٌ، إذِ الأصلُ: جَخَفَتْ بهم شِيَمٌ وفخرَتْ، وهُم لا يفخرونَ بِها. وهو من شواهد علم البلاغة.

وقولِهِ [في « العُكبَريّ » ٤/ ٢٢٤ مِنَ البسيطِ] :

لَوِ ٱسْتَطَعْتُ رَكِبْتُ ٱلنَّاسَ كُلَّهُمُ إِلَىٰ سَعِيْدِ بْنِ عَبْدِ ٱللهِ بُعْرَانَا(١)

فهٰذا ـ واللهِ ـ كَما قالَ هوَ نفسُهُ : القولُ الهُراء ، والشِّعْرُ الذي لا يتقدَّمُ إلاَّ إلىٰ الوراءِ ، ثم إنَّها قلَّما تتساوىٰ أغراضُهُ ، وتتقاطَرُ فصولُهُ ، ويطَّرِدُ نظامُهُ ، إلاَّ فيما كانَ مِن وصفِ الحروبِ ، وبعضِ قصائِدَ كالتي أَوَّلُها [في « العُكبَريّ » ١/ ٧٥ مِنَ الوافرِ] :

بِغَيْـرِكَ رَاعِيـاً عَبِـثَ ٱلـذِّئَـابُ وَغَيْرَكَ صَارِماً ثَلَمَ ٱلضِّرَابُ(٢)

والتي أَوَّلُها [في « العُكبَريّ » ٢/ ١٠٠ مِنَ الوافرِ] :

طِـوَالُ قَنـاً ، تُطَـاعِنُهَـا قِصَـارُ وَقَطْرُكَ فِيْ نَدىً وَوَغىً بِحَارُ

وإلاَّ . . فـإِنَّـهُ بـالأَغلبِ لا يكـونُ إلاَّ مشتَّـتَ السيـاقِ ، مبعثَرَ الكلامِ ، مفرَّقَ الأغراضِ ، قليلَ التشابُهِ ؛ ولِذا تجدُ في البيتِ لَهُ تتمثَّلُ بهِ وحدَهُ رواءً ورونقاً ، لا تجدُهُ فيهِ عندَما تنشدُهُ بينَ إخوانِهِ ، ولقلَّما سنحَ بذِهني أحدُ أبياتِهِ السائِرَةِ في مناسبَةٍ أصارَتْ إليهِ . . إلاَّ نزلَ الرجلُ بأقصىٰ منزلَةٍ مِنَ ٱلإعظامِ في نَفسي ، حتَّىٰ إذا حملَني الإكبارُ لَهُ علىٰ التزيُّدِ ، ورجعتُ إلىٰ « الديوانِ » . . ٱنحطَّ مِن عيني ـ بالأغلَبِ ـ ٱنحطاطاً يتبيَّنُ بهِ البونُ البعيدُ ، والفرقُ الكبيرُ ، ولا أَراكَ إلاَّ توافقُني علىٰ هٰذا ، فإنَّهُ ملموسٌ باليدِ ، وهوَ مِن أسرارِ قولِهِ جلَّ

---

(١) البُعرانُ : جمعُ بعيرٍ .

(٢) المعنى : إذا كنتَ الحافظَ للرعيَّةِ لم يقدر عليهم أحدٌ بضرٍّ ؛ لخوفهم منكَ ، وبغيرِكَ يعبثُ الذئابُ في حالِ رعيهِ وسياستهِ ، ويثلمُ الضرابُ غيرَك في حال قطعهِ ، وإذا كنتَ أنتَ الراعي لم يعبثِ الذئابُ بسوامِكَ ، وإذا كنتَ أنتَ الضاربَ لم يثلمكَ الضربُ .

ذكرُهُ : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : ٨٢] ، ثمَّ إن كانَ رَدِيئُهُ في الدرْكِ الأَسفلِ مِنَ ٱلاتضاعِ . . فإنَّ جيِّدَهُ في الأَوجِ الأَعلىٰ مِنَ ٱلارتفاعِ ، وهل يقدِرُ أَحدٌ أن يقولَ مثلَ قولِهِ [في « العُكبَريِّ » ١/ ٧٨ مِنَ الوافرِ] :

إِذَا مَـا سِـرْتَ فِـيْ آثَـارِ قَـوْمٍ   تَخَاذَلَتِ ٱلْجَمَاجِمُ وَٱلرِّقَابُ

وقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ١٠٤ مِنَ الوافرِ] :

مَضَوْا مُتَسَابِقِيْ ٱلأَعْضَاءِ فِيْهِ   لأَرْؤُسِهِـمْ بِـأَرْجُلِهِـمْ عِثَـارُ

وقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٤/ ٢٣ـ٢٤ مِنَ البسيطِ] :

صَدَمْتَهُمْ بِخَمِيسٍ أَنْتَ غُرَّتُهُ   وَسَمْهَـرِيَّتُهُ فِـيْ وَجْهِـهِ غَمَـمُ
فَكَانَ أَثْبَتَ مَا فِيهِمْ جُسُومُهُمُ   يَسْقُطْنَ حَوْلَكَ وَٱلأَرْوَاحُ تَنْهَزِمُ

وقد ذكرَ الشارحُ جملةً صالحةً مِن بدائعِ شعرِهِ الذي بذَّ بِهِ الشعراءَ ، وتركَ الطوائفَ مِن معاصريهِ ، ومَن بعدَهم ، ومَن قبلَهم منبوذينَ بالعراءِ ، وذلكَ عندَ شرحِ قولِهِ [في « العُكبَريِّ » ١/ ١٦١ مِنَ البسيطِ] :

أَزُوْرُهُمْ وَسَوادُ ٱللَّيْلِ يَشْفَعُ لِيْ   وَأَنْثَنِيْ وَبَيَاضُ ٱلصُّبْحِ يُغْرِيْ بِيْ

فتُغنينا الإحالةُ عَنِ ٱلإطالةِ[1] ، وظنِّي أَنَّ اللهَ لم يوفِّقْهُ لذلكَ الإبداعِ ، الذي شاءَ بِهِ الناسَ في الأُولىٰ . . إلاَّ وهوَ يريدُ أَن يتجاوزَ عَن سيِّئاتِهِ في الأُخرىٰ ، وهوَ عندَ ظنِّ عبدِهِ بهِ .

---

(١) وإتماماً للفائدة نذكرُ الأبياتَ التي أَشارَ إليها الشيخُ المؤلِّفُ ـ رحمه الله تعالىٰ ـ وهي قولُ الشارحِ :

. . . .

= قد أَجمعَ الحذَّاقُ بمعرفةِ الشِّعْرِ والنُّقَّادُ أَنَّ لأبي الطيبِ نوادرَ لم تأتِ في شعرِ غيرِه ، وهيَ مِمَّا تخرقُ العقولَ ، منها في كافور :

فَجَاءت بنَا إنسَانَ عينِ زَمانِهِ وَخَلَّتْ بيَاضاً خَلْفَها وَمَآقِيا

وما مُدِحَ أَسودُ بأَحسنَ من هذا .

ومنها :

فَذِيْ ٱلدَّارُ أَخْوَنُ مِنْ مُومِسٍ وَأَخْدَعُ مِنْ كِفَّةِ ٱلْحَابِلِ

ومنها :

إنَ كَانَ سَرَّكُمُ مَا قَالَ حَاسِدُنَا فَمَا لِجُرْحٍ إذَا أَرْضَاكُمُ أَلَمُ

ومنها :

أَرْجُو نَدَاكَ وَلاَ أَخْشَىٰ ٱلْمِطَالَ بِهِ يَا مَنْ إذَا وَهَبَ ٱلدُّنْيَا فَقَدْ بَخِلاَ

وهذا من أبلغ الوصف بالجود .

ومنها :

وَذَاكَ أَنَّ ٱلْفُحُولَ ٱلْبِيْضَ عَاجِزَةٌ عَنِ ٱلْجَمِيْلِ فَكَيْفَ ٱلْخِصْيَةُ ٱلسُّودُ

هذا أشد ما هُجِيَ به أسود .

ومنها :

إذاَ مَا سِرْتَ فِيْ آثَارِ قَوْمٍ تَخَاذَلَتِ ٱلْجَمَاجِمُ وٱلرِّقَابُ

قال ابن نباتة : نحسن أن نقول ، ولكن مثل هذا لا نقول .

ومنها :

إذَا غَزَتْهُ أَعَادِيْهِ بِمَسْأَلَةٍ فَقَدْ غَزَتْهُ بِجَيْشٍ غَيْرِ مَغْلُوْبِ

وبعده :

كَأَنَّ كُلَّ سُؤَالٍ فِيْ مَسَامِعِهِ قَمِيْصُ يُوْسُفَ فِيْ أَجْفَانِ يَعْقُوبِ

ومنها :

وَجُرْمٍ جَرَّهُ سُفَهَاءُ قَوْمٍ وَحَلَّ بِغَيْرِ جَارِمِهِ ٱلْعَذَابُ

. . . .

= ومنها :

وَمَا ٱلْحُسْنُ فِيْ وَجْهِ ٱلْفَتَىٰ شَرَفاً لَهُ ... إِذَا لَمْ يَكُنْ فِيْ فِعْلِهِ وَٱلْخَلَائِقِ

ومنها :

وَإِنَّ قَلِيلَ ٱلْحُبِّ بِٱلْعَقْلِ صَالِحٌ ... وَإِنَّ كَثِيرَ ٱلْحُبِّ بِٱلْجَهْلِ فَاسِدُ

ومنها :

إِذَا رَأَيْتَ نُيُوبَ ٱللَّيْثِ بَارِزَةً ... فَلاَ تَظُنَّنَّ أَنَّ ٱللَّيْثَ يَبْتَسِمُ

ومنها :

وَمَا ٱنْتِفَاعُ أَخِ ٱلدُّنْيَا بِنَاظِرِهِ ... إِذَا ٱسْتَوَتْ عِنْدَهُ ٱلأَنْوَارُ وَٱلظُّلَمُ

ومنها :

خُذْ مَا تَرَاهُ وَدَعْ شَيْئاً سَمِعْتَ بِهِ ... فِيْ طَلْعَةِ ٱلشَّمْسِ مَا يُغْنِيْكَ عَنْ زُحَلِ

ومنها :

لَعَلَّ عَتْبَكَ مَحْمُوْدٌ عَوَاقِبُهُ ... فَرُبَّمَا صَحَّتِ ٱلأَجْسَامُ بِٱلْعِلَلِ

ومنها :

آلَةُ ٱلْعَيْشِ صِحَّةٌ وَشَبَابُ ... فَإِذَا وَلَّيَا عَنِ ٱلْمَرْءِ وَلَّىٰ

وفيها :

أَبَداً تَسْتَرِدُّ مَا تَهَبُ ٱلدُّنْـ ... ـيَا فَيَا لَيْتَ جُوْدَهَا كَانَ بُخْلاَ

ومنها :

وَمَا ٱلدَّهْرُ أَهْلٌ أَنْ تُؤَمَّلَ عِنْدَهُ ... حَيَاةٌ وَأَنْ يُشْتَاقَ فِيْهِ إِلَىٰ ٱلنَّسْلِ

ومنها :

إِذَا مَا ٱلنَّاسُ جَرَّبَهُمْ لَبِيبٌ ... فَإِنِّيْ قَدْ أَكَلْتُهُمْ وَذَاقَا

ومنها :

أَبَىٰ خُلُقُ ٱلدُّنْيَا حَبِيْباً تُدِيْمُهُ ... فَمَا طَلَبِي مِنْهَا حَبِيْباً تَرُدُّهُ=

. . . .

= ومنها :

وَأَسْـرَعُ مَفْعُـولٍ فَعَلْـتَ تَغَيُّـراً تَكَلُّـفُ شَيْءٍ فِي طِبَاعِـكَ ضِدُّهُ

ومنها :

مَـا كُـلُّ مَـا يَتَمَنَّىٰ ٱلْمَرْءُ يُـدْرِكُـهُ تَجْرِي ٱلرِّيَاحُ بِمَا لاَ تَشْتَهِي ٱلسُّفُنُ

ومنها :

وَمُـرَادُ ٱلنُّفُـوسِ أَصْغَـرُ مِـنْ أَنْ نَتَعَـادَىٰ فِيْـهِ وَأَنْ نَتَفَـانَـىٰ

وفيها :

غَيْـرَ أَنَّ ٱلْفَتَـىٰ يُـلاَقِـي ٱلْمَنَـايَـا كَـالِحَـاتٍ وَلاَ يُـلاَقِـي ٱلْهَـوَانَـا

وفيها :

وَلَـوَ اَنَّ ٱلْحَيَـاةَ تَبْقَـىٰ لِحَـيٍّ لَعَـدَدْنَـا أَضَلَّنَـا ٱلشُّجْعَـانَـا

وفيها :

وَإِذَا لَـمْ يَكُـنْ مِـنَ ٱلْمَـوْتِ بُـدٌّ فَمِـنَ ٱلْعَـارِ أَنْ تَمُـوْتَ جَبَـانَـا

ومنها :

وَصِـرْتُ أَشُـكُّ فِيْمَـنْ أَصْطَفِيْـهِ لِعِلْمِـي أَنَّـهُ بَعْـضُ ٱلأَنَـامِ

وفيها :

وَآنَـفُ مِـنْ أَخِـي لأَبِـي وَأُمِّـي إِذَا مَـا لَـمْ أَجِـدْهُ مِـنَ ٱلْكِـرَامِ

وفيها :

وَلَـمْ أَرَ فِـي عُيُـوبِ ٱلنَّـاسِ شَيْئـاً كَنَقْـصِ ٱلْقَـادِرِيْـنَ عَلَـىٰ ٱلتَّمَـامِ

ومنها :

لَـوْلاَ ٱلْمَشَقَّـةُ سَـادَ ٱلنَّـاسُ كُلُّهُـمُ ٱلْجُـوْدُ يُفْقِـرُ وَٱلإِقْـدَامُ قَتَّـالُ

وفيها :

إِنَّـا لَفِـي زَمَـنٍ تَـرْكُ ٱلْقَبِيْـحِ بِـهِ مِـنْ أَكْثَـرِ ٱلنَّـاسِ إِحْسَـانٌ وَإِفْضَـالُ=

. . . .

= ومنها :

إِنِّـيْ لأَجْبُـنُ مِـنْ فِـرَاقِ أَحِبَّتِـيْ   وَتُحِسُّ نَفْسِيْ بِالْحِمَامِ فَأَشْجُعُ

إلى قوله :

تَصْفُـو الْحَيَـاةُ لِجَاهِـلٍ أَوْ غَـافِـلٍ   عَمَّـا مَضَـىٰ فِيْهَـا وَمَـا يُتَـوَقَّـعُ
وَلِمَـنْ يُغَـالِطُ فِـيْ الْحَقِيْقَـةِ نَفْسَـهُ   وَيَسُـوْمُهَـا طَلَـبَ الْمُحَـالِ فَتَطْمَـعُ

ومنها :

تَـوَهَّـمَ النَّـاسُ أَنَّ الْعَجْـزَ قَـرَّبَنَـا   وَفِيْ التَّقَرُّبِ مَا يَدْعُو إِلَىٰ التُّهَمِ

وفيها :

وَلَـمْ تَـزَلْ قِلَّـةُ الإِنْصَـافِ قَـاطِعَـةً   بَيْنَ الرِّجَالِ وَلَوْ كَانُوْا ذَوِيْ رَحِمِ

وفيها :

هَـوِّنْ عَلَـىٰ بَصَـرٍ مَـا شَـقَّ مَنْظَـرُهُ   فَـإِنَّمَـا يَقَظَـاتُ الْعَيْـنِ كَـالْحُلُـمِ

وفيها :

وَكُـنْ عَلَـىٰ حَـذَرٍ لِلنَّـاسِ تَسْتُـرُهُ   وَلاَ يَغُـرُّكَ مِنْهُـمْ ثَغْـرُ مُبْتَسِـمِ

وفيها :

غَـاضَ الْـوَفَـاءُ فَمَـا تَلْقَـاهُ فِـيْ عِـدَةٍ   وَأَعْوَزَ الصِّدْقُ فِيْ الإِخْبَارِ وَالْقَسَمِ

ومنها :

تُـرِيْـدِيْـنَ لُقْيَـانَ الْمَعَـالِـيْ رَخِيْصَـةً   وَلاَ بُدَّ دُوْنَ الشَّهْدِ مِنْ إِبَرِ النَّحْلِ

ومنها :

نَحْـنُ بَنُـوْ الْمَـوْتَـىٰ فَمَـا بَـالُنَـا   نَعَـافُ مَـا لاَ بُـدَّ مِـنْ شُـرْبِـهِ

إلى قوله :

يَمُـوْتُ رَاعِـيْ الضَّـأْنِ فـي جَهْلِـهِ   مَـوْتَـةَ جَـالِيْنُـوْسَ فِـيْ طِبِّـهِ =

. . . .

= ومنها :

وَإِنَّ ٱلْمَـاءَ يَخْـرُجُ مِـنْ جَمَـادٍ ... وَإِنَّ ٱلنَّـارَ تَخْـرُجُ مِـنْ زِنَـادِ

ومنها :

تَغَيَّـرَ حَـالِـيْ وَٱللَّيَـالِـيْ بِحَـالِهَـا ... وَشِبْتُ وَمَا شَابَ ٱلزَّمَانُ ٱلْغَرَانِقُ

ومنها :

فُـؤَادٌ مَـا تُسَلِّيْـهِ ٱلْمُـدَامُ ... وَعُمْـرٌ مِثْـلُ مَـا تَهَـبُ ٱللِّئَـامُ

وفيها :

وَدَهْـرٌ نَـاسُـهُ نَـاسٌ صِغَـارٌ ... وَإِنْ كَـانَـتْ لَهُمْ جُثَثٌ ضِخَـامُ

وفيها :

وَمَـا أَنَـا مِنْهُـمُ بِـٱلْعَيْـشِ فِيْهِـمْ ... وَلَكِـنْ مَعْـدِنُ ٱلـذَّهَـبِ ٱلـرَّغَـامُ

وفيها :

خَلِيْلُـكَ أَنْـتَ لاَ مَـنْ قُلْـتَ خِلِّـيْ ... وَإِنْ كَثُـرَ ٱلتَّجَمُّـلُ وَٱلْكَـلاَمُ

وفيها :

وَشِبْـهُ ٱلشَّـيْءِ مُنْجَـذِبٌ إِلَيْـهِ ... وَأَشْبَهُنَـا بِـدُنْيَـانَـا ٱلطَّغَـامُ

وفيها :

وَمَـنْ خَبَـرَ ٱلْغَـوَانِـيْ فَـٱلْغَـوَانِـيْ ... ضِيَـاءٌ فِـيْ بَـوَاطِنِـهِ ظَـلاَمُ

وفيها :

وَمَـا كُـلٌّ بِمَعْـذُورٍ بِبُخْـلٍ ... وَلاَ كُـلٌّ عَلَـىٰ بُخْـلٍ يُـلاَمُ

وفيها :

بِـأَرْضٍ مَـا ٱشْتَهَيْـتَ رَأَيْـتَ فِيْهَـا ... فَلَيْـسَ يَفُـوْتُهَـا إِلاَّ ٱلْكِـرَامُ

وفيها :

فَهَـلاَّ كَـانَ نَقْـصُ ٱلأَهْـلِ فِيْهَـا ... وَكَـانَ لأَهْلِهَـا مِنْهَـا ٱلتَّمَـامُ =

. . . .

= ومنها :

وَٱحْتِمَــالُ ٱلأَذَىٰ وَرُؤْيَــةُ جَــانِيْـ ـــهِ غِـذَاءٌ تَضْـوَىٰ بِـهِ ٱلأَجْسَـامُ

وفيها :

ذَلَّ مَــنْ يَغْبِــطُ ٱللَّئِيْــمَ بِعَيْــشٍ رُبَّ عَيْـشٍ أَخَـفُّ مِنْـهُ ٱلْحِمَـامُ

وفيها :

مَــنْ يَهُــنْ يَسْهُــلِ ٱلْهَــوَانُ عَلَيْــهِ مَــا لِجُـــرْحٍ بِمَيِّـــتٍ إِيْــلاَمُ

ومنها :

أَفَاضِلُ ٱلنَّاسِ أَغْرَاضٌ لِذَا ٱلزَّمَنِ يَخْلُوْ مِنَ ٱلْهَمِّ أَخْلاَهُمْ مِنَ ٱلْفِطَنِ

وفيها :

فَقْـرُ ٱلْجَهُـوْلِ بِـلاَ عَقْـلٍ إِلَىٰ أَدَبٍ فَقْـرُ ٱلْحِمَـارِ بِـلاَ رَأْسٍ إِلَىٰ رَسَـنِ

وفيها :

لاَ يُعْجِبَــنَّ مُضِيْمـاً حُسْــنُ بِـزَّتِـهِ وَهَـلْ يَـرُوْقُ دَفِيْنـاً جَـوْدَةُ ٱلْكَفَـنِ

ومنها :

عَرَفْتُ ٱللَّيَالِيْ قَبْلَ مَا صَنَعَتْ بِنا فَلَمَّا دَهَتْنِيْ لَـمْ تَـزِدْنِيْ بِهَا عِلْماً

وفيها :

وَإِنِّــيْ لَمِــنْ قَــوْمٍ كَــأَنَّ نُفُــوْسَنَـا بِهَا أَنَفٌ أَنْ تَسْكُنَ ٱللَّحْمَ وَٱلْعَظْمَا

وفيها :

فَـلاَ عَبَـرَتْ بِـيْ سَـاعَـةٌ لاَ تُعِـزُّنِيْ وَلاَ صَحِبَتْنِـيْ مُهْجَـةٌ تَقْبَـلُ ٱلظُّلْمَـا

ومنها :

وَأَنَـا ٱلَّـذِيْ ٱجْتَلَـبَ ٱلْمَنِيَّةَ طَـرْفُـهُ فَمَـنِ ٱلْمُطَـالَـبُ وَٱلْقَتِيْـلُ ٱلْقَـاتِـلُ

وفيها :

وَإِذَا أَتَتْـكَ مَـذَمَّتِـيْ مِـنْ نَـاقِـصٍ فَهِـيَ ٱلشَّهَـادَةُ لِـيْ بِـأَنِّـيْ كَـامِـلُ=

....

= ومنها :

وَلاَ تَحْسَبَـنَّ ٱلْمَجْـدَ زِقّـاً وَقَيْنَـةً   وَمَا ٱلْمَجْدُ إِلاَّ ٱلسَّيْفُ وَٱلْفَتْكَةُ ٱلْبِكْرُ

وفيها :

وَمَنْ يُنْفِقِ ٱلسَّاعَاتِ فِيْ جَمْعِ مَالِهِ   مَخَـافَـةَ فَقْـرٍ فَـالَّـذِيْ فَعَـلَ ٱلْفَقْـرُ

ومنها :

فَمَا فِيْ سَجَايَاكُمْ مُنَازَعَةُ ٱلْعُلاَ   وَلاَ فِيْ طِبَاعِ ٱلتُّرْبَةِ ٱلْمِسْكُ وَٱلنَّدُّ

ومنها :

إِذَا غَـامَـرْتَ فِـيْ شَـرَفٍ مَـرُوْمِ   فَـلاَ تَقْنَـعْ بِمَـا دُوْنَ ٱلنُّجُـوْمِ

وفيها :

فَطَعْـمُ ٱلْمَـوْتِ فِـيْ أَمْـرٍ حَقِيْـرٍ   كَطَعْـمِ ٱلْمَـوْتِ فِـيْ أَمْـرٍ عَظِيْـمِ

وفيها :

وَكَـمْ مِـنْ عَـائِـبٍ قَـوْلاً صَحِيْحـاً   وَآفَتُـهُ مِـنَ ٱلْفَهْـمِ ٱلسَّقِيْـمِ

ومنها :

وَٱلظُّلْمُ مِنْ شِيَمِ ٱلنُّفُوْسِ فَإِنْ تَجِدْ   ذَا عِفَّـةٍ فَلِعِلَّـةٍ لاَ يَظْلِـمُ

وفيها :

وَٱلـذُّلُّ يُظْهِـرُ فِـيْ ٱلـذَّلِيْـلِ مَـوَدَّةً   وَأَوَدُّ مِنْـهُ لِمَـنْ يَـوَدُّ ٱلأَرْقَـمُ

وفيها :

وَمِـنَ ٱلْبَلِيَّـةِ عَـذْلُ مِـنْ لاَ يَـرْعَـوِيْ   عَـنْ غَيِّـهِ وَخِطَـابُ مَـنْ لاَ يَفْهَـمُ

ومنها :

يُـدَفِّـنُ بَعْضُنَـا بَعْضـاً وَيَمْشِـيْ   أَوَاخِـرُنَـا عَلَـىٰ هَـامِ ٱلأَوَالِـيْ

ومنها :

وَمَا ٱلْمَوْتُ إِلاَّ سَارِقٌ دَقَّ شَخْصُهُ   يَصُوْلُ بِلاَ كَفٍّ وَيَسْعَىٰ بِلاَ رِجْلِ=

رابعُها : أنَّنا نجري في هٰذهِ المجموعَةِ ـ كَمَا كرَّرْنا القولَ ـ بسوقِ الخاطِرِ ، وسيرِ البديهَةِ ، ونتسقَّطُ تداعي الأفكارِ ، ونذكُرُ في كلِّ موضِعٍ ما تنتهي بِنا إليهِ الذاكرَةُ ، وقد اشتملَتْ مِن الأشعارِ علىٰ طرائِفَ ، ومِنَ النوادِرِ علىٰ ظَرائِفَ ، لَو وُفِّقَ أديبٌ لترتيبِها ،

العمل كان في الكتاب على مبدأ الانتقال من زهـرة إلى زهـرة دون تعمد ترتيب

= ومنها :

أَرَىٰ كُلَّنَـا يَبْغِـيْ ٱلْحَيَـاةَ لِنَفْسِـهِ حَرِيْصاً عَلَيْهَا مُسْتَهَاماً بِهَا صَبَّا

وفيها :

وَيَخْتَلِـفُ ٱلـرِّزْقَـانِ وَٱلْفِعْـلُ وَاحِـدٌ إِلَىٰ أَنْ يُرَىٰ إِحْسَانُ هَذَا لِذَا ذَنْبَا

ومنها :

رُبَّ أَمْـرٍ أَتَـاكَ لاَ تَحْمَـدُ ٱلْفَـ ـعَّـالَ فِيْـهِ وَتَحْمَـدُ ٱلأَفْعَـالاَ

وفيها :

وَإِذَا مَـا خَـلاَ ٱلْجَبَـانُ بِـأَرْضٍ طَلَـبَ ٱلطَّعْـنَ وَحْـدَهُ وَٱلنِّـزَالاَ

وفيها :

مَـنْ أَطَـاقَ ٱلْتِمَـاسَ شَـيْءٍ غِـلاَبـاً وَٱغْتِصَـابـاً لَـمْ يَلْتَمِسْـهُ سُـؤَالاَ

وفيها :

إِذَا أَنْـتَ أَكْـرَمْـتَ ٱلْكَـرِيْـمَ مَلَكْتَـهُ وَإِنْ أَنْـتَ أَكْـرَمْـتَ ٱللَّئِيْـمَ تَمَـرَّدَا

وفيها :

وَوَضْعُ ٱلنَّدَىٰ فِيْ مَوْضِعِ ٱلسَّيْفِ بِٱلْعُلاَ مُضِرٌّ كَوَضْعِ ٱلسَّيْفِ فِيْ مَوْضِعِ ٱلنَّدَىٰ

فهذا الذي لم يأت شاعر بمثله . وإنما ذكرناه مجملاً ليسهل أخذه وحفظه ، ولو تصفحت دواوين المجيدين المولدين والمحدثين . لم نجد لأحد منهم بعض هذا نادراً ، ولكن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، ويؤتي الحكمة من يشاء .

وإلحاقِ كلِّ فرعٍ بأَصلِهِ ، وكلِّ ضالٍّ بأَهلِهِ . . لجاءَ كتاباً موفورَ الفائِدَة ، مذكورَ العائِدَةِ ، معدومَ النظيرِ .

وكأَنِّي بلائِمٍ يلومُ علىٰ ما أَشرتُ إِليهِ مِن تشتيتِ المواضيعِ ، وتفريقِ الشواهِدِ ، وجوابُهُ ـ فوقَ ما عرفَ مِمَّا سَلَفَ ـ : ٱعتمادُ أَن ينالَ كلُّ مجلسٍ نصيبَهُ مِنَ ٱلجدِّ ، والهزلِ ، والوقْشِ ، والجزْلِ ؛ حتَّىٰ يقومَ بذاتِهِ ، ويستقلَّ بنفسِهِ ، ويُمتعَ علىٰ حدتِهِ ، وذلكَ مِن أَفضلِ فنونِ البلاغَةِ ، وهيَ طريقَةُ الذكرِ الحكيمِ ، إِذ ترىٰ آياتِ الطلاقِ والبيوعِ مقرونَةً بالوعظِ المبكي ، والوعدِ المِسكيِّ ، والوعيدِ المُنكي ، ولَوَ كانَت كما تقرؤُها في داووينِ الفقهِ . . لَما أَعوزَ الملحدَ لها جحوداً ، ولَما خضعَ لَها المَصاقعُ سجوداً .

ثمَّ إِنَّ أُمَّهاتِ كتبِ الأَدبِ ـ كـ« البيانِ والتبيينِ » للجاحظِ ـ لا تخلو عَنِ ٱلأَغلاطِ ، والتحريفِ ، والتكريرِ ، والتصريفِ ، فكثيراً ما أَرىٰ الأَبياتَ فيها مختلفَةَ العزوِ ، مَعَ تقاربِ المواضِعِ ، وذلكَ أَنصَعُ لوجهِ عذرِنا ، فيما يكونُ مِن مثلِهِ عندَنا أَنزرُ منهُ عندَهُم ، إِن شاءَ اللهُ تعالىٰ .

خواطر الانتهاء من الكتاب

خامسُها : لَمَّا أَلقيتُ القلمَ عِشاءَ مساءِ الليلَةِ ١٧ مِن جمادىٰ الأُولىٰ سنةَ : (١٣٥٢هـ) كَما هيَ العادَةُ ، تكونُ القراءَةُ والكلامُ عَلَيها بما يحضُرُ عشيَّةً ، ثمَّ أَخلو بنفسي ساعةً مِنَ ٱلمساءِ ، أُقيِّدُ فيها ما يكونُ ، وحينئِذٍ وقد قرأْتُ وِردي ، وأَخذْتُ مضجَعي ، ووقعَ نظَري علىٰ السماءِ ، وزينتِها بالنجومِ الزاهرَةِ ، وما فيها من الآياتِ الباهرَةِ . . ٱستغرقَ فِكري ، وٱستجمعَ ذِكري ، وٱنطلقَتْ لِساني ببيتٍ مرَّ ذكرُهُ في المجلسِ العاشرِ ، لتقيِّ الدينِ بنِ تَيميَّةَ ،

وهوَ قولُهُ [مِنَ البسيطِ] :

وَٱلْفَقْرُ لِيْ وَصْفُ ذَاتٍ لاَزِمٌ أَبَداً كَمَا ٱلْغِنَىٰ لَكَ وَصْفٌ لاَزِمٌ ذَاتِيْ

وأَحسستُ مِن الوقتِ بطيبٍ ، ومن الإلهامِ بخطيبٍ ، فاستكانَ القلبُ ، وٱنشرحَ الصدرُ ، وقفَّ الشَّعَرُ ، وٱهتزَّ البدَنُ ، وٱنبسطَتِ ٱلرُّوحُ ، وقرَّتِ ٱلعينُ ، وعظُمَتِ الأَريحةُ[1] ، وٱغتنمتُ الفرصَةَ بالمناجاةِ والدعاءِ ، وجاشَتْ في الخاطِرِ أَبياتٌ ضمَّنْتُها ذلكَ البيتَ ، توجَدُ في موضعِها مِنَ « الديوان » ، غيرَ أَنَّها حالةٌ جاءَت فمَرَّتْ ، وٱحلَولَت ساعةً ثمَّ أَمرَّت[2] ، واللهُ المحمودُ أَولاً وآخراً ، ونبيُّه المصلَّىٰ عليهِ وعلىٰ آلهِ وأَصحابِهِ ، والمسلَّمُ عليهِم سلاماً عاطراً .

* * *

(١) هكذا في الأصل ، ولعلها الرويحة وهي : وجدانك السرور الحادث من اليقين ، والله أعلم .

(٢) أمرَّت : صارت مُرَّةً .

المحتوى

المحتوى

المجلس الثاني عشر

أَرَقٌ عَلَىٰ أَرَقٍ وَمِثْلِيَ يَأْرَقُ	وَجَوَىً يَزِيدُ وَدَمْعَةٌ تَتَرَقْرَقُ

مَا لاَحَ بَرْقٌ أَوْ تَرَنَّمَ طَائِرٌ	إِلاَّ انْثَنَيْتُ وَلِيْ فُؤَادٌ شَيِّقُ

وَعَـذَرْتُهُـمْ وَعَـرَفْـتُ ذَنْبِـيَ أَنَّنِـيْ	عَيَّـرْتُهُـمْ فَلَقِيْـتُ فِيْـهِ مَـا لَقُـوْا

المجلس الثالث عشر

أَبَنِـيْ أَبِيْنَـا نَحْـنُ أَهْـلُ مَنَـازِلٍ	أَبَـداً غُـرَابُ ٱلْبَيْـنِ فِيْهَـا يَنْعِـقُ
نَبْكِيْ عَلَىٰ ٱلدُّنْيَا وَمَا مِنْ مَعْشَرٍ	جَمَعَتْهُـمُ ٱلـدُّنْيَـا فَلَـمْ يَتَفَـرَّقُـوْا

أَيْـنَ ٱلأَكَـاسِـرَةُ ٱلْجَبَـابِـرَةُ ٱلأُلَـىٰ	كَنَزُوْا ٱلْكُنُوْزَ فَمَا بَقِيْنَ وَلاَ بَقُوْا

المجلس الرابع عشر

وَعَجِبْتُ مِنْ أَرْضٍ سَحَابُ أَكُفِّهِمْ	مِنْ فَوْقِهَا وَصُخُوْرُهَا لاَ تُوْرِقُ

وَتَفُوْحُ مِنْ طِيْبِ ٱلثَّنَاءِ رَوَائِحٌ	لَهُـمُ بِكُـلِّ مَكَـانَـةٍ تُسْتَنْشَـقُ

لَمْ يَخْلُقِ ٱلرَّحْمَـٰنُ مِثْلَ مُحَمَّدٍ أَبَـداً وَظَنِّـي أَنَّـهُ لاَ يَخْلُـقُ

المجلس الخامس عشر

أَمْطِرْ عَلَيَّ سَحَابَ جُوْدِكَ ثَرَّةً وَٱنْظُـرْ إِلَـيَّ بِـرَحْمَـةٍ لاَ أَغْـرَقُ

كَذَبَ ٱبْنُ فَاعِلَةٍ يَقُوْلُ بِجَهْلِهِ مَـاتَ ٱلْكِـرَامُ وَأَنْـتَ حَـيٌّ تُـرْزَقُ

المجلس السادس عشر

تَذَلَّلْ لِمَنْ تَهْوَىٰ عَلَىٰ ٱلْقُرْبِ وَٱلنَّوَىٰ	فَمَا عَاشِقٌ مَنْ لاَ يَذِلُّ وَيَخْضَعُ

أَلاَ كُلُّ سَمْحٍ غَيْرَكَ ٱلْيَوْمَ بَاطِلٌ   وَكُلُّ مَدِيْحٍ فِيْ سِوَاكَ مُضَيَّعُ

* * *